إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت ٣١٨١٠

فهرست الجزء الأول

فهرست الجزء الثانى

فهرست الجزء الثالث

الصفحة

الصفحة

فهرست الجزء الرابع

فهرست الجزء الخامس

فهرست الجزء السادس

فهرست الجزء السابع

فهرست الجزء الثامن

فهرست الجزء التاسع

فهرست الجزء العاشر

الصفحة

الصفحة

فهرست الجزء الحادى عشر

فهرست الجزء الثانى عشر

فهرست الجزء الثالث عشر

صفحة

صفحة

فهرست الجزء الرابع عشر

فهرست الجزء الخامس عشر

فهرست الجزء السادس عشر

فهرست كتاب الاملاء

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الأول

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله أوّلاً ، حمداً كثيراً متواليًا ، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين . وأصلي وأسلم على رسله ثانياً، صلاة تستغرق مع سيد البشر سائرَ المرسلين . وأستخيره تعالي ثالثاً فيما انبعث له عزمى من تحرير كتاب فى إحياء علوم الدين . وأنتدب لقطع تعجبك رابعًا أيها العاذل المتغالي فى العذل من بين زمرة الجاحدين، المسرف فى التقريع والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين

فلقد حلّ عن لسانى عقدة الصمت ، وطوقنى عهدة الكلام وقلادة النطق، ما أنت مثابر عليه من العمي عن جلية الحق ، مع اللجاج فى نصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ، ومال ميلا يسيراً عن ملازمة الرسم ، إلي العمل بمقتضى العلم ، طمعاً فى نيل ما تعبده الله تعالي به من تزكية النفس وإصلاح القلب ، وتداركا لبعض مافرط من إضاعة العمر يأساً من تمام التلافى والجبر ، وانحيازاً عن غمار من قال فيهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملحدين عن دركها فرجعت بكلالها . أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ، وأعبده وأستعين به لعظام الأمور وعضالها . وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ، واقية من حلول الدركات وأهوالها . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أطلع به فجر الايمان من ظلمة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصقالها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها .

(وبعد) فلما وفق الله تعالى لاكمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين فى سنة إحدى وخمسين «*» تعذر الوقوف على بعض أحاديثه ، فأخرت تبييضه الى سنة ستين ، فظفرت بكثير مما عزب عنى علمه ، ثم شرعت فى تبييضه فى مصنف متوسط حجمه ، وأنا مع ذلك متباطئ فى إكماله غير متعرض لتركه وإهماله . إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه ، وتكرر السؤال من جماعة فى إكماله، فأجبت وبادرت إليه ، ولكنى اختصرته فى غاية الاختصار ، ليسهل تحصيله وحمله فى الأسفار . فاقتصرت فيه علي ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان

«*» أى بعد السبعمائة ، وكان رحمه الله إذ ذاك فى السابعة والعشرين من عمره . اهـ مصححه

صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه(١) : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ »

ولعمرى إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذى عم الجم الغفير ؛ بل شمل الجماهير ، من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر ، والجهل بأن الأمر إدّ ، والخطب جد ، والآخرة مقبلة، والدنيا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد ، والزاد طفيف والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد

فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ؛ وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفا ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً . ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام ؛ أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ؛ أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ؛ إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، مما سماه الله سبحانه فى كتابه فقهاً

صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه ، فان ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة ، بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة ، وأبين ما ليس له أصل فى كتب الأصول . والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول .

فان كان الحديث فى الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه اليه ، وإلا عزوته إلى من خرجه من بقية الستة ، وحيث كان فى أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح ، بأن يكون فى كتاب التزم مخرجه الصحة ، أو يكون أقرب إلى لفظه فى الاحياء . وحيث كرر المصنف ذكر الحديث فان كان فى باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة ، وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثا لغرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرره فى باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم ، وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه . وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه ، بل قد يكون بلفظه ، وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات . وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يغنى عنه غالباً ، وربما لم أذكره .

وسميته « المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار ، فى تخريج ما فى الاحياء من الأخبار » جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ، ووسيلة إلى النعيم المقيم .

أحاديث الخطبة

(١) حديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه : الطبرانى فى الصغير والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف

وحكمة، وعلما وضياء ونوراً، وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطويا؛ وصار نسياً منسياً

ولما كان هذا ثلما في الدين ملمًا، وخطباً مدلهما، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما، إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحا لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين

وقد أسسته على أربعة أرباع، وهى: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات. وصدّرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم، لأكشف أولاً عن العلم الذى تعبد الله على لسان رسوله صلي الله عليه وسلم الأعيان بطلبه، إذ قال رسول الله صلي الله عليه وسلم[1] «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» وأميز فيه العلم النافع من الضار، إذ قال صلى الله عليه وسلم: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ» وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب:

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرءان، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس؛ وكتاب آفات الشهوتين: شهوة البطن؛ وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد، والحسد

---

(١) حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم: ابن ماجه من حديث أنس وضعفه احمد والبيهقي وغيرهما

(٢) حديث نعوذ بالله من علم لا ينفع: ابن ماجه من حديث جابر باسناد حسن

وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر ، والعجب ، وكتاب ذم الغرور

وأما ربع المنجيات ، فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت

فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ، مايضطر العالم العامل اليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لايطلع عليه . وأكثر ذلك مما أهمل فى فن الفقهيات

وأما ربع العادات ، فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وهى مما لا يستغنى عنها متدين

وأما ربع المهلكات ، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرءان بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذى منه يتولد ، ثم الآفات التى عليها تترتب ، ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التى بها منها يتخلص . كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار

وأما ربع المنجيات ، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين ، التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التى منها تستفاد ، وعلامتها التى بها تتعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل

ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور : (الأول) حل ما عقدوه وكشف ما أجلوه . (الثانى) ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه (الثالث) إيجاز ما طولوه وضبط ماقرروه . (الرابع) حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه (الخامس) تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا ، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه ، أو لايغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب

أو لايسهو ولـكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف .فهذه خواص هذا الـكتاب، مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم

وإنما حملني علي تأسيس هذا الـكتاب على أربعة أرباع أمران:

(أحدهما وهو الباعث الأصلي) : أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضروري ؛ لأن العلم الذى يُتوجّه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة ، وعلم المكاشفة ، وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به . والمقصود من هذا الـكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب ، وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين، ومطمح نظر الصديقين ،وعلم المعاملة طريق اليه ؛ ولـكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والارشاد اليه. وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والايماء على سبيل التمثيل والاجمال ، علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال ، والعلماء ورثة الأنبياء ، فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والاقتداء

ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح ، وإلى علم باطن، أعنى العلم بأعمال القلوب . والجارى على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم . فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين : ظاهر ، وباطن ، والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموع أربعة أقسام ، ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام

(الباعث الثانى) : أنى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذى صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى ، المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلتـه فى المنافسات . وهو مرتب علي أربعة أرباع ، والمتزيى بزى المحبوب محبوب ، فلم أبعد أن يكون تصوير الـكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب . ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب ، فوضعه على هيئة تقويم النجوم ، موضوعا فى الجداول والرقوم ، وسماه تقويم الصحة ، ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذباً لهم إلى المطالعة ، والتلطف فى اجتذاب القلوب إلى العلم الذى يفيد حياة الأبد ،أهم من التلطف فى اجتذابها إلى الطب الذى لا يفيد إلا صحة الجسد

فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذى يعالج به الأجساد، وهي معرضة بالضرورة للفساد فى أقرب الآماد ؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد .

كتاب العلم

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

(الباب الأول) فى فضل العلم والتعليم والتعلم . (الباب الثانى) فى فرض العين وفرض الكفاية من العلوم ، وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين ، وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا (الباب الثالث) فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منها ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره (الباب الرابع) فى آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل . (الباب الخامس) فى آداب المعلم والمتعلم . (الباب السادس) في آفات العلم والعلماء ، والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة . (الباب السابع) في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار

الباب الأول

فى فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرءان قوله عز وجل: (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ) . فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنّى بالملائكة ، وثلّث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفا وفضلا ، وجلاء ونبلا . وقال الله تعالى (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) . قال ابن عباس رضى الله عنهما: «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام» . وقال عز وجل: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ). وقال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ) . وقال تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ) . وقال تعالى: (قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ) تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) بيّن أن عظم

قدر الآخرة يعلم بالعلم . وقال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) وقال تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ردّ حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم ، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله

وقيل فى قوله تعالى(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ) يعنى العلم (وَرِيشاً) يعنى اليقين (وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ) يعنى الحياء

وقال عزوجل: (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) . وقال تعالى:(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ) . وقال عزوجل: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ). وقال تعالى:(خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) . وإنما ذكر ذلك فى معرض الامتنان

(وأما الأخبار) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ ». وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » . ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « يَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وأيّ منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له ، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « إِنَّ الْحِكْمَةَ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَتَرْفَعُ الْمَمْلُوكَ حَتَّى يُدْرِكَ مَدَارِكَ الْمُلُوكِ » . وقد نبه بهذا على ثمرته فى الدنيا ، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى

وقال صلى الله عليه وسلم [(٥)] « خَصْلَتَانِ لَا يَكُونَانِ فِي مُنَافِقٍ : حُسْنُ سَمْتٍ ، وَفِقْهٌ فِي الدِّينِ » . ولا تشكنّ فى الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان، فانه ما أراد به الفقه الذى ظننته ،

﴿ كتاب العلم — الباب الأول ﴾

(١) حديث من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده : متفق عليه من حديث معاوية دون قوله ويلهمه رشده . وهذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير

(٢) حديث العلماء ورثة الأنبياء : أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبي الدرداء

(٣) حديث يستغفر للعالم مافى السموات وما فى الأرض : هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم

(٤) حديث الحكمة تزيد الشريف شرفا ـ الحديث: أبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى بيان العلم وعبد الغنى الأزدى فى آداب المحدث من حديث أنس باسناد ضعيف

(٥) حديث خصلتان لا تجتمعان فى منافق ـ الحديث: الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب

وسيأتي معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم[(١)] « أَفْضَلُ النَّاسِ الْمُؤْمِنُ الْعَالِمُ الَّذِي إِنِ احْتِيجَ إِلَيْهِ نَفَعَ ، وَإِنِ اسْتُغْنِيَ عَنْهُ أَغْنَىٰ نَفْسَهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[(٢)] « الْإِيمَانُ عُرْيَانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَىٰ وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ وَثَمَرَتُهُ الْعِلْمُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[(٣)] « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ ، أَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ فَدَلُّوا النَّاسَ عَلَىٰ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجِهَادِ فَجَاهَدُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[(٤)] « لَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ » . وقال عليه الصلاة والسلام[(٥)] « النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا » . وقال صلى الله عليه وسلم[(٦)] « يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ »

وقال صلى الله عليه وسلم[(٧)] « مَنْ حَفِظَ عَلَىٰ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنَ السُّنَّةِ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَهَا إِلَيْهِمْ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال صلى الله عليه وسلم[(٨)] « مَنْ حَمَلَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيهًا عَالِمًا » . وقال صلى الله عليه وسلم[(٩)] « مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مَا أَهَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . وقال صلى الله

---

(١) حديث أفضل الناس المؤمن العالم الحديث : البيهقي في شعب الايمان موقوفا على أبي الدرداء باسناد ضعيف ولم أره مرفوعا

(٢) حديث الايمان عريان ـ الحديث : الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء باسناد ضعيف

(٣) حديث أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ـ الحديث : أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٤) حديث لموت قبيلة أيسر من موت عالم ـ الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء: وأصل الحديث عند أبي الدرداء

(٥) حديث الناس معادن ـ الحديث :متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٦) حديث يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ـ ابن عبد البر: من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف

(٧) حديث من حفظ علي أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ـ ابن عبد البر : في العلم من حديث ابن عمر وضعفه

(٨) حديث من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيها عالما ـ ابن عبد البر: من حديث أنس وضعفه

(٩) حديث من تفقه في دين الله كفاه الله همه ـ الحديث : الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدي باسناد ضعيف

عليه وسلم(١) « أَوْحَى ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِنِّي عَلِيمٌ أُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ ». وقال صلى الله عليه وسلم(٢) «ٱلْعَالِمُ أَمِينُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ فِي ٱلْأَرْضِ »

وقال صلى الله عليه وسلم(٣) « صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحُوا صَلَحَ ٱلنَّاسُ ، وَإِذَا فَسَدُوا فَسَدَ ٱلنَّاسُ : ٱلْأُمَرَاءُ وَٱلْفُقَهَاءُ » . وقال عليه السلام(٤) « إِذَا أَتَى عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا يُقَرِّبُنِي إِلَى ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ ». وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة(٥) «فَضْلُ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي ». فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة ، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم، وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها، ولولاه لم تكن عبادة

وقال صلى الله عليه وسلم(٦) « فَضْلُ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِدِ كَفَضْلِ ٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ ٱلْكَوَاكِبِ » وقال صلى الله عليه وسلم(٧) « يَشْفَعُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ : ٱلْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ ٱلْعُلَمَاءُ ثُمَّ ٱلشُّهَدَاءُ » فأعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة . وقال صلى الله عليه وسلم(٨) « مَا عُبِدَ ٱللهُ تَعَالَى بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي ٱلدِّينِ ، وَلَفَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى ٱلشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ وَعِمَادُ هَذَا ٱلدِّينِ ٱلْفِقْهُ » . وقال صلى الله عليه

---

(١) حديث أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم: ذكره ابن عبد البر تعليقاً، ولم أظفر له باسناد

(٢) حديث العالم أمين الله في الأرض : ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف

(٣) حديث صنفان من امتي إذا اصلحوا اصلح الناس ـ الحديث: ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٤) حديث إذا أتي على يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الحديث : الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة باسناد ضعيف

(٥) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي : الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح

(٦) حديث فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب : أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم

(٧) حديث يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء : ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان باسناد ضعيف

(٨) حديث ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ـ الحديث: الطبراني في الأوسط وأبو بكر الآجري في كتاب فضل العلم وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف ، وعند الترمذي و ابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف . فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد

وسلم[١] «خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ ، وَخَيْرُ الْعِبَادَةِ الْفِقْهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « فَضْلُ الْمُؤْمِنِ الْعَالِمِ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَابِدِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةً ». وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « إِنَّكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ كَثِيرٍ فُقَهَاؤُهُ قَلِيلٍ قُرَّاؤُهُ وَخُطَبَاؤُهُ قَلِيلٍ سَائِلُوهُ كَثِيرٍ مُعْطُوهُ ، الْعَمَلُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعِلْمِ ، وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ مُعْطُوهُ كَثِيرٌ سَائِلُوهُ ، الْعِلْمُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ » . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْعَابِدِ مِائَةُ دَرَجَةٍ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حُضْرُ الْجَوَادِ الْمُضَمَّرِ سَبْعِينَ سَنَةً » . و « قيل يارسول الله[٥] أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ فقال: الْعِلْمُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فقيل: أَيُّ الْعِلْمِ تُرِيدُ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الْعِلْمُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فقيل له : نسأل عن العمل وتجيب عن العلم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ يَنْفَعُ مَعَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ ، وَإِنَّ كَثِيرَ الْعَمَلِ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ». وقال صلى الله عليه وسلم[٦] « يَبْعَثُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ الْعُلَمَاءَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ إِلَّا لِعِلْمِي بِكُمْ ، وَلَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ لِأُعَذِّبَكُمْ ، اذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » . نسأل الله حسن الخاتمة

(وأما الآثار) : فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكُمَيل : يا كميل: العلم خير من المال ، العلم يحرُسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تَنقُصه

---

(١) حديث خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه ـ ابن عبد البر : من حديث أنس بسند ضعيف ، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع باسناد جيد ، والشطر الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٢) حديث فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة : ابن عدى من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف ، ولأبي يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف

(٣) حديث إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه : الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه. وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف

(٤) حديث بين العالم والعابد مائة درجة : الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال: سبعون درجة ، بسند ضعيف . وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبي هريرة

(٥) حديث قيل له يارسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فقال العلم بالله ـ الحديث : ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ـ الحديث : الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف

النفقة والعلم يزكو بالانفاق . وقال عليّ أيضاً رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، واذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة لايسدها إلا خلف منه . وقال رضى الله تعالى عنه نظما:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدي لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم : الملوكُ حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه . وسئل ابن المبارك مَن الناسُ ؟ فقال: العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل فمن السِّفْلة ؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين . ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم . فالانسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظَمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنا منه ، ولا ليجامع فان أخس العصافير أقوي على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : ليت شعري أيّ شيء أدرك مَن فاته العلم ، وأيّ شيء فاته مَن أدرك العلم !

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أُوتِيَ القُرْءانَ فَرَأَى أَنَّ أَحَداً أُوتِيَ خَيْراً مِنْهُ فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللّهُ تَعالَى» . وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب يموت؟ قالوا بلى، قال : كذلك القلب إذا منع عنهُ الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق ، فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض، وموته لازم ،ولكنه لايشعر به ،إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح فى الحال وإن كان واقعا ، فاذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه ، وتحسر تحسراً عظيما ثم لاينفعه ، وذلك كإحساس الآمن من خوفه ، والمفيق من سكره ، بما أصابه من الجراحات فى حالة السكر أو الخوف ، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء ، فان الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا

وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه موتُ رواته، فوالذي نفسى بيده ليودّن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فان أحداً لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : تذاكُرُ العلم بعض ليلة أحب إلىّ من إحيائها . وكذلك عن أبى هريرة رضى الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن فى قوله تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) : إن الحسنة فى الدنيا هى العلم والعبادة ، وفى الآخرة هى الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أىّ الأشياء تقتنى؟ قال : الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعنى العلم ، وقيل أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجاما اتخذه الناس إماما ، ومن عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار

وقال الشافعى رحمة الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب اليه ولو فى شىء حقير فرح ، ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضى الله عنه : يأيها الناس عليكم بالعلم فان لله سبحانه رداء يحبه ؛ فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه؛ فان أذنب ذنبا استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أربابا ؛ وكل عز لم يوطَّد بعلم فإلى ذل مصيره . وقال سالم بن أبى الجعد : اشترانى مولاى بثلثمائة درهم وأعتقنى ، فقلت بأى شىء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم ، فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائراً فلم آذن له

وقال الزبير بن أبى بكر : كتب إلىّ أبى بالعراق : عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا؛ وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكي ذلك فى وصايا لقمان لابنه ؛ قال : يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ؛ فان الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهري رحمه الله : العلم ذكَر ولا يحبه إلا ذُكران الرجال

فضيلة التعلم

(أما الآيات) فقوله تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ). وقوله عز وجل: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(وأما الأخبار) فقوله صلى الله عليه وسلم[١]: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ». وقال صلى الله عليه وسلم[٢]: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ». وقال صلى الله عليه وسلم[٣] «لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ». وقال صلى الله عليه وسلم[٤] «بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». وقال صلى الله عليه وسلم[٥] «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ» وقال صلى الله عليه وسلم «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ*» وقال عليه الصلاة والسلام[٦]: «الْعِلْمُ خَزَائِنُ مَفَاتِيحُهَا السُّؤَالُ؛ أَلَا فَاسْأَلُوا فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ، وَالْعَالِمُ وَالْمُسْتَمِعُ، وَالْمُحِبُّ لَهُمْ». وقال صلى الله عليه وسلم[٧] «لَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى

---

(١) حديث من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ـ الحديث: مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع: أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال

(٣) حديث لأن تغدو فتتعلم بابا من الخير خير من أن تصلى مائة ركعة: ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذاك والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر

(٤) حديث باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا: ابن حبان في روضة العقلاء وابن عبد الله موقوفا على الحسن البصرى ولم أره مرفوعا إلا بلفظ خير له من مائة ركعة، رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر

(٥) حديث اطلبوا العلم ولو بالصين: ابن عدى والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس قال البيهقي متنه مشهور وأسانيده ضعيفة

(٦) حديث العلم خزائن مفاتيحها السؤال ـ الحديث: رواه أبو نعيم من حديث على مرفوعا باسناد ضعيف

(٧) حديث لاينبغى للجاهل أن يسكت على جهله: الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه فى التفسير وابن السنى وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف

(*) انظر تخريجه في صفحة ٣ ج ١

جَهْلِهِ وَلَا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ » . وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه[١] « حُضُورُ مَجْلِسِ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ ، وَعِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ ، وَشُهُودِ أَلْفِ جِنَازَةٍ » فقيل يارسول الله : ومن قراءة القرءان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وَهَلْ يَنْفَعُ الْقُرْءَانُ إِلَّا بِالْعِلْمِ ؟ » وقال عليه الصلاة والسلام[٢] : « مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ »

(وأما الآثار) فقال ابن عباس رضى الله عنهما: ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وكذلك قال ابن أبى مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس : إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها ؛ وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا ؛ وإذا أفتى فأكثر الناس علما . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ! وقال بعض الحكماء : إنى لا أرحم رجالا كرحمتى لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ؛ ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: لأن أتعلم مسألة أحب إلىّ من قيام ليلة . وقال أيضا : العالم والمتعلم شريكان فى الخير ؛ وسائر الناس همج لاخير فيهم . وقال أيضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ، ولا تكن الرابع فتهلك

وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو . وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهونُ من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعى رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة . وقال ابن عبد الحكم رحمه الله: كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر ، فجمعت الكتب لأصلى، فقال؛ ياهذا ماالذى قمت اليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : من رأى أن الغُدوّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله

فضيلة التعليم

(أما الآيات) فقوله عزوجل؛ (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) . والمراد هو التعليم والارشاد ، وقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ

---

(١) حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث: ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبى ذر

(٢) حديث من جاءه الموت وهو يطلب العلم الحديث : الدارمي وابن السنى فى رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، فقيل هو ابن على وقيل هو ابن يسار البصرى فيكون مرسلا

للنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) وهو إيجاب للتعلم . وقوله تعالى: (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالى في الشهادة : (وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا آتَى اللَّهُ عَالِمًا عِلْمًا إِلَّا وَأَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ الْمِيثَاقِ مَا أَخَذَ عَلَى النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ » . وقال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) . وقال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) . وقال تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(وأما الأخبار) فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن [٢] «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ تَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أُعْطِيَ ثَوَابَ سَبْعِينَ صِدِّيقًا » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم: « مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَابِدِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ الْعُلَمَاءُ : بِفَضْلِ عِلْمِنَا تَعَبَّدُوا وَجَاهَدُوا ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنْتُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَائِكَتِي، اشْفَعُوا تُشَفَّعُوا ، فَيَشْفَعُونَ ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم ، لا العلم اللازم الذى لا يتعدى

وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ وَلَكِنْ يَذْهَبُ بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ

---

(١) حديث ما آتى الله عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ـ الحديث : أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه وفى الخلعيات نحوه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث قل لمعاذ حين بعثه الى اليمن : لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم : أحمد من حديث معاذ ، وفى الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلى

(٣) حديث من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً: رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٤) حديث إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة ـ الحديث : أبو العباس الذهبي فى العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٥) حديث إن الله لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ إِلاَّ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً إِنْ سُئِلُوا أَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ ». وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « نِعْمَ الْعَطِيَّةُ وَنِعْمَ الْهَدِيَّةُ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَسْمَعُهَا فَتَطْوِي عَلَيْهَا ثُمَّ تَحْمِلُهَا إِلَى أَخٍ لَكَ مُسْلِمٍ تُعَلِّمُهُ إِيَّاهَا تَعْدِلُ عِبَادَةَ سَنَةٍ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَمَا وَالاهُ أَوْ مُعَلِّمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا »

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ فِي الْبَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَا أَفَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ فَائِدَةً أَفْضَلَ مِنْ حَدِيثٍ حَسَنٍ بَلَغَهُ فَبَلَّغَهُ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « كَلِمَةٌ مِنَ الْخَيْرِ يَسْمَعُهَا الْمُؤْمِنُ فَيُعَلِّمُهَا وَيَعْمَلُ بِهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ ». وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون اليه ، والثاني يعلمون الناس، فقال: « أَمَّا هَؤُلاَءِ فَيَسْأَلُونَ اللهَ تَعَالَى فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلاَءِ فَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا » ثم عدل اليهم وجلس معهم

---

(١) حديث من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار : أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حديث حسن

(٢) حديث نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها ـ الحديث : الطبراني من حديث ابن عباس نحوه باسناد ضعيف

(٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ـ الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حسن غريب

(٤) حديث إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير : الترمذي من حديث أبي أمامة وقال غريب وفي نسخة حسن صحيح

(٥) حديث ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن ـ الحديث : ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلا نحوه ، ولأبي نعيم من حديث عبدالله بن عمرو ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدي أو ترده عن ردى

(٦) حديث كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلا نحوه ، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف : كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة

(٧) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ـ الحديث : ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً » . فالأول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه ، والثانى ذكره مثلا للنافع ، والثالث للمحروم منهما .

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ » الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ : رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْخَيْرِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : عَلَى خُلَفَائِى رَحْمَةُ اللهِ ، قيل : وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ ؟ قال : الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِى وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللهِ »

(وأما الآثار) فقد قال عمر رضى الله عنه : من حدّث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : مُعلّم الناسِ الخيرَ يستغفر له كلُّ شىء حتى الحوتُ فى البحر . وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثورى رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان ، فقال : اكروا لى لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم ! وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به . وقال عطاء رضى الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيّب وهو يبكى فقلت : ما يبكيك ؟ قال : ليس أحد يسألنى عن شىء !

---

(١) حديث مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى موسى

(٢) حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث الدال على الخير كفاعله : الترمذى من حديث أنس وقال غريب ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى مسعود البدرى بلفظ من دل على خير فله مثل أجر فاعله

(٤) حديث لا حسد إلا فى اثنتين ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٥) حديث على خلفائى رحمة الله ـ الحديث : ابن عبدالبر فى العلم والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن فقيل هو ابن على وقيل ابن يسار البصرى فيكون مرسلا ولابن السنى وأبى نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث على نحوه

وقال بعضهم . العلماء سُرج الازمنة ، كل واحد مصباح زمانه يستضىء به أهل عصره. وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حدّ البهيمية الى حدّ الانسانية . وقال عِكْرِمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يُحسن حمله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم ؛ قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

وقيل : أول العلم الصمت ؛ ثم الاستماع ؛ ثم الحفظ ؛ ثم العمل ؛ ثم نشره . وقيل : علّم علمك من يجهل ، وتعلَّم ممن يعلم ما تجهل ؛ فانك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

وقال معاذ بن جبل فى التعليم والتعلم ورأيته أيضاً مرفوعا : (١) تعلَّموا العلم فان تعلُّمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدِّين ؛ والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الإخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تُقتَصُّ آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خُلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلَم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد ، وبه يوحد ، وبه يمجد ، وبه يتورّع ، وبه توصل الأرحام . وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يُلهَمُه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . نسأل الله تعالى حسن التوفيق

---

(١) حديث معاذ تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ـ الحديث بطوله : أبو الشيخ وابن حبان فى كتاب الثواب وابن عبد البر وقال ليس له اسناد قوى

فى الشواهد العقليه :

إعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم و نفاسته ، ومالم تفهَم الفضيلة فى نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال ، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداً حكيم أم لا وهو بعدُ لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها

والفضيلة مأخوذة من الفضل وهو الزيادة ، فاذا تشارك شيئان فى أمر واختص أحدهما بمزيد يقال: فَضَله وله الفضل عليه، مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء ، كما يقال الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه فى قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل ، لأن تلك زيادة فى الجسم ونقصان فى المعنى ، وليست من الكمال فى شيء ، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه . فاذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالاضافة إلي سائر الأوصاف، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الحيوانات ، بل شدة العَدْو فضيلة فى الفرس وليست فضيلة على الاطلاق ، والعلم فضيلة فى ذاته وعلى الاطلاق من غير إضافة ، فانه وصف كمال الله سبحانه ، وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد ، فهى فضيلة على الاطلاق من غير إضافة .

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم الى مايطلب لغيره، وإلى مايطلب لذاته ، وإلى مايطلب لغيره ولذاته جميعا . فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير، فانهما حجران لا منفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسّر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة . والذى يطلب لذاته فالسعادة فى الآخرة ، ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذى يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن ، فان سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ، ومطلوبة للمشي بها ، والتوصل الى المآرب والحاجات

وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلي العلم رأيته لذيذاً فى نفسه ، فيكون مطلوبا لذاته ، ووجدته وسيلة الى دار الآخرة وسعادتها ، وذريعة الى القرب من الله تعالى ، ولا يتوصل إليه إلا به . وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمي السعادة الأبدية ، وأفضل الأشياء ماهو وسيلة اليها ،

ولن يتوصل اليها إلا بالعلم والعمل ، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل . فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم ، فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته ، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين ، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى . هذا فى الآخرة

وأما فى الدنيا فالعز والوقار ، ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام فى الطباع ، حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة ، بل البهيمة بطبعها توقر الانسان لشعورها بتمييز الانسان بكمال مجاوز لدرجتها .

هذه فضيلة العلم مطلقاً . ثم تختلف العلوم كما سيأتى بيانه وتتفاوت لامحالة فضائلها بتفاوتها

وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فان العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل ، فكان تعليمه إفادة للأفضل . وبيانه : أن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة ، وهى الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا ، لا لمن يتخذها مستقراً ووطنا ، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين ، وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام :

(أحدها) أصول لا قوام للعالم دونها وهى أربعة : الزراعة وهى للمطعم ، والحياكة وهى للملبس ، والبناء وهو للمسكن ، والسياسة وهى للتأليف والاجتماع ، والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

(الثانى) ماهى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة ، فانها تخدم الزراعة ، وجملة من الصناعات باعداد آلاتها كالحلاجة والغزل ، فانها تخدم الحياكة بإعداد عملها

(الثالث) ماهى متممة للأصول ومزينة : كالطحن والخبز للزراعة ، وكالقصارة والخياطة للحياكة ، وذلك بالاضافة الى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالاضافة الى جملته، فانها ثلاثة أضرب أيضا: إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ، وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين

وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ،

ولذلك تستدعى هـذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات .
ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع .

والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى وهى العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام ، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً فى ظاهرهم وباطنهم . والثانيـة : الخلفـاء والملوك والسلاطين ، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ، ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ، ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالالزام والمنع والشرع . والرابعة : الوعاظ ، وحكمهم على بواطن العوام فقط . فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة : إفادة العلم ، وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة ، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة ، وهو المراد بالتعليم

وإنما قلنا إن هـذا أفضل من سائر الحرف والصناعات ، لأن شرف الصناعة يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات الى الغريزة التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإما بالنظر الى عموم النفع : كفضل الزراعة على الصياغة ؛ وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف: كفضل الصياغة على الدباغة ، إذ محل أحدهما الذهب ، ومحل الآخر جلد الميتة .

وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الانسان كما سيأتى بيانه ، إذ به تقبل أمانةُ الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه

وأما عموم النفع فلا يستراب فيه، فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة

وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنس الانس ، وأشرف جزء من جواهر الانسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عزّ وجل

فتعليم العلم من وجهٍ عبادةٌ لله تعالى، ومن وجه خلافة لله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله،

فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلمَ الذى هو أخص صفاته ، فهو كالخازن لأنفس خزائنه ، ثم هو مأذون له فى الإنفاق منه على كل محتاج اليه . فأى رتبة أجلّ من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه و بين خلقه فى تقريبهم إلى الله زلفى ، وسياقهم إلى جنة المأوى؟ جعلنا الله منهم بكرمه ! وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب الثانى

فى العلم المحمود و المذموم و أقسامهما و أحكامهما ، وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة

بيان العلم الذى هو فرض عين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ * »

واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم ، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزّل الوجوب على العلم الذى هو بصدده ، فقال : المتكلمون: هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيدُ ، ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته . وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحلّ ، وعَنَوْا به ما يحتاج إليه الآحاد ، دون الوقائع النادرة . وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم : فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ، ومقامه من الله عز وجل ، وقال بعضهم : هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييز لَمّة الملك من لمة الشيطان. وقال بعضهم : هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك ، وصرفوا اللفظ عن عمومه . وقال أبو طالب المكى : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الاسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم (١) « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا اللهُ » إلى آخر الحديث ، لأن الواجب هذه الخمس ، فيجب العلم بكيفية العمل فيها ، وبكيفية الوجوب .

---

(١) حديث بنى الاسلام على خمس: متفق عليه من حديث ابن عمر * راجع تخريجه فى ص ١٥

والذى ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره ، وهو : أن العلم كما قدمناه فى خطبة الكتاب ينقسم إلي علم معاملة وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة

والمعاملة التى كلف العبد العاقل البالغ العملَ بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك . فاذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا، فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما، وهو قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس يجب عليه أن يحصّل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل ، فاذا فعل ذلك فقد أدّى واجب الوقت ، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا فى الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله عز وجل غير عاص له

وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض ، وليس ذلك ضروريا فى حق كل شخص ، بل يتصوّر الانفكاك عنها ، وتلك العوارض إما أن تكون فى الفعل ، وإما فى الترك ، وإما فى الاعتقاد .

أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره الى وقت الظهر ، فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فان كان صحيحا وكان بحيث لو صبر الى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل فى الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه ، فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ، ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذى هو شرط العمل بعد وجوب العمل ، فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات .

فان عاش الى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم ، وهو يعلم أن وقته من الصبح الى

﴿ الباب الثاني ﴾

(١) حديث اكتفى رسول الله صلي الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل مشهور فى كتب السير والحديث ، فعندمسلم قصة ضمام بن ثعلبة

غروب الشمس ، وأن الواجب فيه النية والامساك عن الأكل والشرب والوقاع ، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين .

فان تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه ، لزمه تعلم مايجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه فى الحال ، إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الاسلام ، فان لم يملك الا الابل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الابل ، وكذلك فى سائر الأصناف .

فاذا دخل فى أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة الى علم الحج ، مع أن فعله على التراخى ، فلا يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغى لعلماء الاسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخى على كل من ملك الزاد والراحلة اذا كان هو مالكا ، حتى ربما يرى الحزم لنفسه فى المبادرة ، فعند ذلك اذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ، ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ؛ فانّ فعلَ ذلك نفل ، فعلمه أيضاً نفل ، فلا يكون تعلمه فرض عين . وفى تحريم السكوت على التنبيه على وجوب أصل الحج فى الحال نظر يليق بالفقه ، وهكذا التدريج فى علم سائر الأفعال التى هى فرض عين .

وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب مايتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص اذ لا يجب على الأبكم تعلم مايحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم مايحرم من النظر ، ولا على البدوى تعلم مايحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضا واجب بحسب مايقتضيه الحال ، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه ، وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه ، كما لو كان عند الاسلام لابسا للحرير أو جالسا فى الغصب أو ناظرا الى غير ذى محرم ، فيجب تعريفه بذلك ، وما ليس ملابسا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه ، حتى اذا كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر ، فان خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم مايتوصل به الى إزالة الشك ، فان لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم ، وأنه مرئي ، وأنه ليس محلا للحوادث ، الى غير ذلك مما يذكر فى المعتقدات ، فقد مات على الاسلام إجماعا . ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع ، وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد ،

فان كان فى بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع ، فينبغى أن يصان فى أول بلوغه عنها بتلقين الحق ، فانه لو ألقى اليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه ، وربما عسر ذلك ، كما أنه لو كان هـذا المسلم تاجرا وقد شاع فى البلد معاملة الربا ، وجب عليه تعلم الحذر من الربا . وهذا هو الحق في العلم الذى هو فرض عين . ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب ؛ فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين

وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولَمَّة الملك حق أيضا ، ولكن فى حق من يتصدى له ، فاذا كان الغالب أن الانسان لاينفك عن دواعى الشر والرياء والحسد، فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات مايرى نفسه محتاجا اليه ؛ وكيف لايجب عليه وقد قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (١) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » . ولا ينفك عنها بشر . وبقيـة ماسنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات ، وإزالتها فرض عين . ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ، ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها ، فان من لايعرف الشر يقع فيه ، والعلاج هو مقابلة السبب بضده ، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب ؟ وأكثر ماذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيـان ، وقد تركها النـاس كافة اشتغالا عما لايعنى .

ومما ينبغى أن يبادر فى إلقائه اليه اذا لم يكن قد انتقل عن ملة الي ملة أخرى : الإيمان بالجنة والنار ، والحشر والنشر ، حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تتمة كلمتى الشهادة ، فانه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا ينبغى أن يفهم الرسالة التى هو مبلغها ، وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما فله النار . فاذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو فى مجارى أحواله فى يومه وليلته لايخلو من وقائع فى عباداته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه ، فيلزمه السؤال عن كل مايقع له من النوادر ، ويلزمه المبادرة الى تعلم مايتوقع وقوعه على القرب غالبا . فاذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرّف بالألف واللام فى قوله صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »

---

(١) حديث ثلاث مهلكات شح مطاع ـ الحديث : البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف

علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لاغير . فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه ، والله أعلم

بيان العلم الذى هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لايتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلومُ بالاضافة الى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ، وأعنى بالشرعية مااستفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل اليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة . فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ماهو مذموم والي ماهو مباح . فالمحمود مايرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم الي ماهو فرض كفاية ، والى ماهو فضيلة وليس بفريضة

أما فرض الكفاية فهو كل علم لايستغني عنه فى قوام أمور الدنيا: كالطب، إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فانه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما . وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهلُ البلد ، واذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين ، فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فان أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات: كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة ، فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم ، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فان الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد الى استعماله ، وأعدّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

وأما مايعد فضيلة لافريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغني عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج اليه

وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات ، وعلم الشعبذة والتلبيسات

وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه

وأما العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان ، فهى محمودة كلها ، ولكن قد يلتبس بها ما يظن

أنها شرعية وتكون مذمومة ؛ فتنقسم الي المحمودة والمذمومة أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدّمات ومتممات ، وهى أربعة أضرب :

الضرب الأول : الأصول ـ وهى أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه السلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة . والاجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة ، فهو أصل فى الدرجة الثالثة ، وكذا الأثر ، فانه يدل على السنة ، لأن الصحابة رضى الله عنهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل ، وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه ، وربما لاتحيط العبارات بما أدرك بالقرائن ، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم ، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ، ولا يليق بيانه بهذا الفن

الضرب الثانى : الفروع ـ وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتي فهم من اللفظ الملفوظ به غيره ، كما فهم من قوله عليه السلام :(١) « لَا يَقْضِي الْقَاضِي وَهُوَ غَضْبَانُ » أنه لا يقضى إذا كان حاقنا أو جائعا أو متألما بمرض . وهذا على ضربين : أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه ، والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثانى ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة ، وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه ، وهو الذى يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعنى جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح فى عباداتها وعاداتها ، وهو الذى يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب

والضرب الثالث : المقدمات ـ وهي التى تجرى منه مجرى الآلات : كعلم اللغة والنحو ، فانهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية فى أنفسها ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع ، إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب ، وكل شريعة لاتظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة . ومن الآلات علم كتابة الخط ، إلا أن ذلك ليس ضروريا ، إذ كان رسول الله صلي الله عليه وسلم (١) أمّيًّا . ولو تصور

(١) حديث لايقضي القاضى وهو غضبان : متفق عليه من حديث أبى بكرة

(٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً أى لايحسن الكتابة : ابن مردويه فى التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا أنا محمد النبي الأمي وفيه ابن لهيعة ، ولابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى وصححه من حديث ابن مسعود قولوا اللهم صل على محمد النبي الأمي وللبخارى من حديث البراء : وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب

استقلال الحفظ بجميع مايسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم العجز فى الغالب ضروريا

الضرب الرابع : المتممات ـ وذلك فى علم القرءان ، فإنه ينقسم الى مايتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف ، والي مايتعلق بالمعنى كالتفسير فان اعتماده أيضا على النقل، إذ اللغة بمجردها لاتستقل به ، والى مايتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والنص والظاهر ، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ، ويتناول السنة أيضا .

وأما المتممات فى الآثار والأخبار ، فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم ، وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلمُ بالعدالة فى الرواة . والعلم بأحوالهم لتميز الضعيف عن القوى ، والعلم بأعمارهم لتميز المرسل عن المسند ، وكذلك مايتعلق به . فهذه هي العلوم الشرعية ، وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات .

فان قلت : لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا ، ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم ، وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها مايصلح للتزود ، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات ، فمسّت الحاجة إلى سلطان يسوسهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به . فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا . ولعمرى إنه متعلق أيضاً بالدين ، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان . فالدين أصل والسلطان حارس ، ومالا أصل له فمهدوم ، ومالا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان ، وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه

وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الأولى ، بل هو معين على مالا يتم الدين إلا به ، فكذلك معرفة طريق السياسة . فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس

من العرب فى الطريق ، ولكن الحج شىء وسلوك الطريق إلى الحج شىء ثان ، والقيام بالحراسة التى لايتم الحج إلابها شىء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شىء رابع . وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة . ويدل على ذلك ما روى مسنداً [1] «لا يُفْتِي النَّاسَ إِلاَّ ثَلاثَةٌ : أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُتَكَلِّفٌ» . فالأمير هو الامام وقد كانوا هم المفتين ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيرهما ، وهو الذى يتقلد تلك العهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحترزون عن الفتوى حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه ، وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفى بعض الروايات بدل المتكلف المرائى ، فان من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال .

فان قلت : هذا إن استقام لك فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام . فاعلم أن أقرب مايتكلم الفقيه فيه من الأعمال التى هى أعمال الآخرة ثلاثة : الاسلام ، والصلاة ، والزكاة ، والحلال والحرام . فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها ، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة . وإذا عرفت هذا فى هذه الثلاثة فهو فى غيرها أظهر .

أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد ، وفى شروطه ، وليس يلتفت فيه إلا الى اللسان ، وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال :[2] «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ» للذى قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الاسلام تحت ظلال السيوف ؛ مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ، ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف ، فان السيف ممتد إلى رقبته ، واليد ممتدة إلى ماله ، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادامت له رقبة ومال ، وذلك فى الدنيا ، ولذلك

(١) حديث لايفتى الناس إلا ثلاثة ـ الحديث : ابن ماجة من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ : لايقص على الناس ، وإسناده حسن

(٢) حديث هلا شققت عن قلبه : مسلم من حديث أسامة بن زيد

قال صلى الله عليه وسلم :[١] « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » جعل أثر ذلك في الدم والمال . وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال ، بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ؛ وليس ذلك من فن الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض فى الكلام والطب وكان خارجا عن فنه

وأما الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة اذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلا فى جميع صلاته من أولها الى آخرها ، مشغولا بالتفكر فى حساب معاملاته فى السوق إلا عند التكبير ، وهذه الصلاة لا تنفع فى الآخرة ، كما أن القول باللسان فى الاسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتي بالصحة ، أى أن مافعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير. فأما الخشوع وإحضار القلب الذى هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ، ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه

وأما الزكاة فالفقيه ينظر الى ما يقطع به مطالبة السلطان حتي اذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضى كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطا للزكاة ، فحكى ذلك لأبى حنيفة رحمه الله ، فقال : ذلك من فقهه ، وصدق فان ذلك من فقه الدنيا ؛ ولكن مضرته فى الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم الضار

وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب :

الأولى ـ الورع الذى يشترط فى عدالة الشهادة ، وهو الذى يخرج بتركه الانسانُ عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية ، وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر

الثانية ـ ورع الصالحين ، وهو التوقي من الشبهات التى يتقابل فيها الاحتمالات ، قال صلى الله عليه وسلم :[٢] « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » وقال صلى الله عليه وسلم :[٣] « الْإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ »

---

(١) حديث أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وعمر وابن عمر

(٢) حديث دع ما يريبك إلى ما لا يريبك : الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي

(٣) حديث الاثم حزاز القلوب : البيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن مسعود ورواه العدني فى مسنده موقوفا عليه

الثالثة ـ ورع المتقين ، وهو ترك الحلال المحض الذى يخاف منه أداؤه الى الحرام ؛ قال صلى الله عليه وسلم [١] « لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَالَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مِمَّا بِهِ بَأْسٌ » وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار الى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجات النشاط والبطر المؤدى الى مقارفة المحظورات

الرابعة ـ ورع الصديقين ، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفا من صرف ساعة من العمر الى مالا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل ؛ وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى إلى حرام

فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه، إلا الدرجة الأولى، وهو ورع الشهود والقضاة وما يقدح فى العدالة ، والقيام بذلك لا ينفي الاثم فى الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « لِوَابِصَةَ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ » . والفقيه لا يتكلم فى حزازات القلوب وكيفية العمل بها ، بل فيما يقدح فى العدالة فقط ، فاذاً جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التى بها صلاح طريق الآخرة ، فان تكلم فى شىء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل فى كلامه على سبيل التطفل ، كما قد يدخل في كلامه شىء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة فى النحو والشعر . وكان سفيان الثوري وهو إمام فى علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة . كيف وقد اتفقوا على أن الشرف فى العلم العمل به ، فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف؟ ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها الى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح فى الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال

فان قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد ، وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة اوجه : (أحدها) أنه علم شرعي

---

(١) حديث لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به ـ الحديث : الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى

(٢) حديث استفت قلبك وإن أفتوك : أحمد من حديث وابصة

إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فانه ليس من علم الشرع . و(الثانى) أنه لايستغني عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولاالمريض؛ وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون . و(الثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر فى أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية فى الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب. وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء فى المزاج والأخلاط ، وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فمهما أضيف الفقه إلي الطب ظهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة

فإن قلت : فصّل لى علم طريق الآخرة تفصيلا يشير الى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله ، فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة .

فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة . وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم : بدعة أو كبر . وقيل : من كان محباً للدنيا أو مصرًّا على هوى لم يتحقق به ؛ وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لايذوق منه شيئا ؛ وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته * فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين ؛ أعنى علم المكاشفة . فهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ؛ وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ؛ فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبى ، ومعنى الوحى ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى اليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب ، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمّة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط ، والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى :

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) ومعنى قوله تعالى : (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعني حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعني تفاوت درجات أهل الجنان حتى يري بعضهم البعض كما يري الكوكب الدرى فى جوف السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطَر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وبعضهم يدعي أمورا عظيمة فى المعرفة بالله عزّ وجل . وبعضهم يقول : حدّ معرفة الله عزّ وجل ما انتهى اليه اعتقاد جميع العوام ، وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم . فنعنى بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه . وهذا ممكن فى جوهر الانسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ، وإنما نعنى بعلم طريق الآخرة العلمَ بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هى الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات ، والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم فى جميع أحوالهم ، فبقدر ماينجلى من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ، ولا سبيل اليه إلا بالرياضة التى يأتى تفصيلها فى موضعها ، وبالعلم والتعليم . وهذه هى العلوم التى لا تسطر فى الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه ، على سبيل المذاكرة وبطريق الإسرار . وهذا هو العلم الخفي الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله :(1) « إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَايَعْلَمُهُ إِلاَّ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعَالَى ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يَجْهَلْهُ إِلاَّ أَهْلُ الاغْتِرَارِ بِاللهِ تَعَالَى ، فَلَا تَحْقِرُوا عَالِمًا آتَاهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمًا مِنْهُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحْقِرْهُ إِذْ آتَاهُ إِيَّاهُ »

---

(١) حديث من العلم كهيئة المكنون ــ الحديث : أبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين له فى التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

وأما القسم الثانى وهو علم المعاملة فهو علم أحوال القلب .

أما مايحمد منها فكالصبر والشكر ، والخوف والرجاء ، والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالى فى جميع الأحوال ، والاحسان وحسن الظن ، وحسن الخلق وحسن المعاشرة ، والصدق والاخلاص . فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التى بها تكتسب ، وثمرتها وعلاماتها ومعالجة ماضعف منها حتى يقوى ، وما زال حتى يعود ، من علم الآخرة

وأما مايذم فخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل والحقد ، والحسد والغش ، وطلب العلو وحب الثناء ، وحب طول البقاء فى الدنيا للتمتع ، والكبر والرياء ، والغضب والأنفة ، والعداوة والبغضاء ، والطمع والبخل ، والرغبة والبذخ ، والأشر والبطر ، وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء ، والفخر والخيلاء والتنافس ، والمباهاة ، والاستكبار عن الحق والخوض فيما لايعنى ، وحب كثرة الكلام ، والصلف والتزين للخلق ، والمداهنة والعجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضعف الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر ، والأمن من مكر الله سبحانه فى سلب ماأعطى ، والاتكال على الطاعة ، والمكر والخيانة والمخادعة ، وطول الأمل والقسوة والفظاظة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم ، والجفاء والطيش والعجلة ، وقلة الحياء وقلة الرحمة . فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ، ومنابت الأعمال المحظورة .

وأضدادها وهى الأخلاق المحمودة منبع الطاعات والقربات ؛ فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين فى فتوى علماء الآخرة . فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك فى الآخرة ؛ كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا. فنظر الفقهاء فى فروض العين، بالاضافة الى صلاح الدنيا ؛ وهذا بالاضافة الى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعانى حتى عن الاخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه، مع أنه فرض عينه الذي فى اهماله هلاكه فى الآخرة . ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك

مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها ، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا ، وفي حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ، ويلبّس على نفسه وعلى غيره في تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإهمال مالا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء ، هيهات هيهات ! قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء ، فالله تعالى المستعان ، واليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ، ويضحك الشيطان !

وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب ، كان الامام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله كيف يفعل كذا وكذا ؛ فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول : إن هذا وفق لما أغفلناه . وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيي بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه . وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) لما قيل له : كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب ولا سنة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: « سَلُوا الصَّالِحِينَ وَاجْعَلُوهُ شُورَى بَيْنَهُمْ ». ولذلك قيل: علماء الظاهر زينة الأرض والملك؛ وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت . وقال الجنيد رحمه الله: قال لي السري شيخي يوما : اذا قمت من عندي فمن تجالس ؟ قلت المحاسبي فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما

---

(١) حديث قيل له كيف نفعل اذا جاء أمر لم نجده في كتاب الله ولا سنة رسوله ـ الحديث : الطبراني من حديث ابن عباس فيه عبد الله بن كيسان ضعفه الجمهور

وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ، ولا جعلك صوفيا صاحب حديث .
أشار إلى أن من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه .

فان قلت : فلم لم تورد فى أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو محمودان ؟ فاعلم أن حاصل مايشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التى ينتفع بها فالقرءان والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفِرق لها، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها تُرَّهات وهذيانات تزدريها الطباع، وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شىء منه مألوفا فى العصر الأول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرءان والسنة ، ونبغت جماعة لفقوا لها شبها ورتبوا فيها كلاما مؤلفا ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه ، بل صار من فروض الكفايات ، وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حد محدود سنذكره فى الباب الذى يلى هذا ، إن شاء الله تعالى .

وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هى أربعة آجزاء :

(أحدها) الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق، ولا يُمنع عنهما إلا من يُخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة، فان أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما لا لعينهما، كما يصان الصبي عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع فى النهر ، وكما يصان حديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه، مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم .

(الثانى) المنطق، وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه، ووجه الحد وشروطه، وهما داخلان فى علم الكلام

و(الثالث) الإلهيات ، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وهو داخل فى الكلام أيضاً . والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة . وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين ، وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة

و(الرابع) الطبيعيات، وبعضها مخالف للشرع والدين الحق، فهو جهل وليس بعلم حتى يورَد

فى أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الأطباء ، إلا أن الطبيب ينظر فى بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون فى جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك . ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج اليه ، وأما علومهم فى الطبيعيات فلا حاجة اليها . فاذاً الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخييلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع ، كما حدثت حاجة الانسان إلى استئجار البذرقة فى طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ، ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ، فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر الى الزيادة على ماعهد فى عصر الصحابة رضى الله عنهم ..

فليعلم المتكلم حده من الدين ، وأن موقعه منه موقع الحارس فى طريق الحج ، فاذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم اذا تجرد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ، ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التى يشاركه فيها سائر العوام ، وهى من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا اليه فى علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه ومانعا عنه ، وإنما الوصول اليه بالمجاهدة التى جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

فان قلت : فقد رددت حدّ المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، كما أن حدّ البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب ، ورددت حدّ الفقيه إلى حفظ القانون الذى به يكف السلطان شرّ بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان رتبتان نازلتان بالاضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمّة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون ، وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالاضافة إلى علم الدين ؟

فاعلم أن من عرف الحقّ بالرجال ، حار فى متاهات الضلال ، فاعرف الحقّ تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين

الناسَ فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، فقـد أجمع الذين عرّضت بذكرهم على تقدمهم ، وأنهم لايدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ، ولم يكن تقدّمهم بالـكلام والفقه ، بل بعـلم الآخرة وسلوك طريقها . وما فَضَل أبو بكر[1] رضى الله عنه الناسَ بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ولـكن بشيء وقر فى صدره ، كما شهد له سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . فليكن حرصك فى طلب ذلك السرّ ، فهو الجوهر النفيس والدّر المكنون ، ودع عنك ماتطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الـكلام ، ولانصب نفسه للفتيا منهم أحد ، إلا بضعة عشر رجلا . ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذى تقلد أمور الناس وضعْها فى عنقه . إشارة الى أن الفتيا فى القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة . ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ؛ أفترى أنه أراد صنعة الـكلام والجدل ؟ فما بالك لاتحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره ؟ وهو الذى سد باب الـكلام والجدل ، وضرب ضبيعا بالدرّة لما أورد عليه سؤالا فى تعارض آيتين فى كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره .

وأما قولك : إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فاعلم أن ما يُنال به الفضل عند الله شيء ، وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر ، فلقد كان شهرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة ، وكان فضله بالسر الذى وقر فى قلبه . وكان شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة ، وكان فضله بالعـلم بالله الذى مات تسعة أعشـاره بموته ؛ وبقصده التقرّب إلى الله عز وجل فى ولايته ، وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن فى سره . فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب فى الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سرّ لايطلع عليه أحد . فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ،

---

(١) حديث مافضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ـ الحديث : الترمذى الحكيم فى النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزنى ولم أجده مرفوعا

وقد انقسموا : فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبه عن سنة نبيه ، ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى ، وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ، ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم ، فان كل علم عمل ، فانه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضياً عند الله سبحانه ومثابا ، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عزّ وجل بعلمه

وأقسام مايتقرب به الى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة، وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلا وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة ، فانّ صاحبه من العلماء والعمال جميعا . فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة فى حزب علماء الله ، أو عمال الله تعالى ، أو فى حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما ؛ فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل:

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به * فى طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ماتعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم ؛ وأنهم من أشدّ خصمائهم يوم القيامة ، فانهم ماقصدوا بالعلم إلاوجه الله تعالى؛ وقدشوهد من أحوالهم ماهو من علامات علماء الآخرة كما سيأتى بيانه فى باب علامات علماء الآخرة ، فانهم ما كانوا متجرّدين لعلم الفقه ، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ماصرف الصحابة عن التصنيف والتدريس فى الفقه مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى ، والصوارف والدواعى متيقنة ، ولا حاجة الى ذكرها

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الاسلام ماتعلم به أن ماذكرناه ليس طعنا فيهم ، بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم فى أعمالهم وسيرهم .

فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق، أعنى الذين كثر أتباعهم فى المذاهب ، خمسة : الشافعى ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبوحنيفة ، وسفيان الثورى رحمهم الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابدا ، وزاهدا ، وعالما بعلوم الآخرة ، وفقيها فى مصالح الخلق فى الدنيا، ومريدا بفقهه وجه الله تعالى . فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة ، وهى التشمير والمبالغة

فى تفاريع الفقه ، لأن الخصال الأربع لاتصلح إلا للآخرة ، وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قلّ صلاحها للدنيا، شمروا لها وادّعوا بها مشابهة أولئك الأئمة ، وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدّادين

فلنورد الآن من أحوالهم مايدل على هذه الخصال الأربع ، فان معرفتهم بالفقه ظاهرة :

أما الامام الشافعى رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا ماروى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً للعلم ، وثلثا للعبادة ، وثلثا للنوم . قال الربيع :كان الشافعى رحمه الله يختم القرءان فى رمضان ستين مرة كل ذلك فى الصلاة . وكان البويطى أحد أصحابه يختم القرءان فى رمضان فى كل يوم مرة . وقال الحسن الكرابيسى : بتّ مع الشافعى غير ليلة فكان يصلى نحوا من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية ، فاذا أكثر فمائة آية ، وكان لايمرّ بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ، ولا يمرّ بآية عذاب إلا تعوّذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين ؛ وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا . فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره فى أسرار القرءان وتدبره فيها . وقال الشافعى رحمه الله: ماشبعت منذ ست عشرة سنة ، لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسى القلب، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة . فانظر إلى حكمته فى ذكر آفات الشبع ، ثم فى جدّه فى العبادة إذ طرح الشبع لأجلها ، ورأس التعبد تقليل الطعام . وقال الشافعى رحمه الله : ماحلفت بالله تعالى لاصادقا ولا كاذبا قط . فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى ، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه

وسئل الشافعي رضى الله عنه عن مسألة فسكت ، فقيل له : ألا تجيب رحمك الله ! فقال : حتى أدرى الفضل فى سكوتى أوفى جوابى . فانظر فى مراقبته للسانه مع أنه أشدّ الأعضاء تسلطا على الفقهاء، وأعصاها عن الضبط والقهر . وبه يستبين أنه كان لايتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحي بن الوزير : خرج الشافعى رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتبعناه فاذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعى الينا وقال : نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فان المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شىء فى إنائه فيحرص أن يفرغه فى أوعيتكم ، ولو ردّت كلمة السفيه لسعد رادّها كما شقى بها قائلها . وقال الشافعى رضى الله عنه : كتب حكيم إلى حكيم : قد

أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم

وأما زهده رضى الله عنه فقد قال الشافعى رحمه الله : من ادّعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فى قلبه فقد كذب . وقال الحميدى : خرج الشافعى رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب له خباء فى موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه ، فما برح من موضعه ذلك حتى فرّقها كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامى مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان اليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوة الشافعى رحمه الله أشهر من أن تحكى ، ورأس الزهد السخاء ، لأن من أحبّ شيئا أمسكه ولم يفارقه ، فلا يفارق المال إلا من صغرت الدنيا فى عينه ، وهو معنى الزهد .

ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة ماروى أنه رَوى سفيان بن عيينة حديثا فى الرقائق فغشى على الشافعى ، فقيل له : قد مات ، فقال : إن مات فقد مات أفضل زمانه . وما رَوى عبد الله بن محمد البلوى قال : كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتذاكر العبّاد والزهاد ، فقال لى عمر : مارأيت أورع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا ، وكان الحارث تلميذا لصالح المرى فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية : (هَذَا يَوْمُ لَايَنْطِقُونَ ، وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فرأيت الشافعى رحمه الله وقد تغير لونه ، واقشعر جلده ، واضطرب اضطرابا شديدا ، وخرّ مغشيا عليه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين ، وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهى هب لى جودك وجَلّلنى بسترك ، واعف عن تقصيرى بكرم وجهك ! قال ثم مشى وانصرفنا ، فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مر بى رجل فقال لى : ياغلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة . فالتفتّ فاذا أنا برجل يتبعه جماعة فأسرعت فى وضوئى وجعلت أقفو أثره ، فالتفت إلىّ فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم تعلمنى مما علمك الله شيئا . فقال لي : اعلم أن من صدَق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد فى الدنيا قرّت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيدك ؟ قلت نعم . قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف وائتمر ، ونهى عن المنكر وانتهى ، وحافظ

على حدود الله تعالى . ألا أزيدك ؟ قلت : بلى . فقال : كن فى الدنيا زاهدا وفى الآخرة راغبا ، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين . ثم مضى ، فسألت من هذا ؟ فقالوا : هو الشافعى . فانظر إلى سقوطه مغشيا عليه ، ثم إلى وعظه ، كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ؛ ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل ، فانه (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ) . ولم يستفد الشافعى رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السَّلَم والاجارة وسائر كتب الفقه ؛ بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرءان والأخبار ؛ إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما .

وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه : روى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا اليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ، وفى أى ثواب ترغب ، ومن أى عقاب ترهب ، وأى عافية تشكر ، وأى بلاء تذكر ، فانك إذا تفكرت فى واحدة من هذه الخصال صغر فى عينك عملك . فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب . وقال الشافعى رضى الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سرّه . وقال : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فاذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عز وجل . وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا ، وكان يسأل الشافعى رضى الله عنه عن مسائل فى الورع ، والشافعى رحمه الله يُقبل عليه لورعه

وقال للشافعى يوما : أيها أفضل : الصبر ، أو المحنة ، أو التمكين ؟ فقال الشافعى رحمه الله : التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة ، فاذا امتحن صبر ، وإذا صبر مكن ، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن ابراهيم عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا ؟ والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل : (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ) وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكّن ، قال الله تعالى : (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ) الآية ، فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره فى أسرار القرآن ، واطلاعه على مقامات

السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة

وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالما ؟ قال : إذا تحقق في علم فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته ، فعند ذلك يكون عالما ، فانه قيل لجالينوس : إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة ، فقال : إنما المقصود منها واحد ، وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الإفراد قاتل . فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة .

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى ، فيدل عليه ماروى عنه انه قال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلى شيء منه . فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له ، وكيف كان منزه القلب عن الالتفات اليه ، بمجرد النية فيه لوجه الله تعالى ! وقال الشافعي رضي الله عنه : ماناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطىء . وقال : ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كلمت أحدا قط وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه . وقال : ماأوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته . فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة . فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضا ! ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : مارأيت ولا رأى الراءون مثل الشافعي رحمه الله تعالى .

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى . فانظر إلى إنصاف الداعي ، وإلى درجة المدعو له، وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء . ولكثرة دعائه له قال له ابنه : أى رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال احمد : يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس . فانظر هل لهذين من خلف ؟ وكان أحمد رحمه الله يقول : مامس أحد بيد محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة . وقال يحيى بن سعيد القطان: ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ، ووفقه للسداد فيه .

ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله ، فان ذلك خارج عن الحصر . وأكثرهذه المناقب نقلناه من الكتاب الذى صنفه الشيخ نصر بن ابراهيم المقدسى رحمه الله تعالى فى مناقب الشافعى رضى الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الامام مالك رضى الله عنه فإنه كان أيضاً متحليا بهذه الخصال الخمس، فإنه قيل له: ماتقول يامالك فى طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذى يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فالزمه . وكان رحمه الله تعالى فى تعظيم علم الدين مبالغا، حتى كان اذا أراد أن يحدّث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدّث . فقيل له في ذلك ، فقال : أحبّ أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية . وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوّة معرفته بجلال الله تعالى .

وأما إرادته وجهَ الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : « الجدال فى الدين ليس بشىء » . ويدل عليه قول الشافعى رحمه الله : إنى شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين منها : لاأدرى . ومن يرد غير وجه الله تعالي بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لايدرى . ولذلك قال الشافعي رضى الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، وما أحد أمنّ عليّ من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث فى طلاق المكره ثم دسّ عليه من يسأله، فروى على ملأ من الناس : « ليس على مستكره طلاق » فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقا فى حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف .

وأما زهده فى الدنيا فيدل عليه ماروى أن المهدى أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال لا ولكن أحدّثك : سمعت ربيعة بن أبى عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره . وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها دارا ، فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله : ينبغى أن تخرج معنا فانى عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضى الله عنه الناس على القرءان ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس اليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ » (١): وأما الخروج معك فلا سبيل اليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (٢) « الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » وقال عليه الصلاة والسلام: (٣) « الْمَدِينَةُ تَنْفِي خَبَثَهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها . يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إليّ ، فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهكذا كان زهد مالك في الدنيا . ولما حملت اليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا ، وليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه . ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا ماروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان و يقال مصر مارأيت أحسن منه، فقلت لمالك رحمه الله : ماأحسنه ! فقال: هو هدية مني اليك ياأباعبدالله ، فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها ، فقال إني أستحيي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة . فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة ، وإلى توقيره لتربة المدينة

ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا ماروى عنه أنه قال : دخلت على هرون الرشيد فقال لي : ياأبا عبدالله ينبغي أن تختلف الينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال فقلت: أعز الله مولانا الأمير: إن هذا العلم منكم خرج ،فان أنتم أعززتموه عزّ ، وإن أنتم أذللتموه ذلّ، والعلم يؤتى ولا يأتي . فقال صدقت ، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى لقد كان أيضا عابدا ، زاهدا ، عارفا بالله تعالى ، خائفا منه، مريدا وجه الله تعالى بعلمه

فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وروى أنه كان يحيي نصف الليل فمر يوما في طريق فأشار اليه إنسان وهو يمشي ، فقال لآخر : هذا هو الذي يحيي الليل

---

(١) حديث اختلاف أمتي رحمة : ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ اختلاف أصحابي لكم رحمة ، وإسناده ضعيف

(٢) حديث المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون : متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير

(٣) حديث المدينة تنفي خبثها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

كله ، فلم يزل بعدذلك يحيي الليل كله ؛ وقال أنا أستحى من الله سبحانه أن أوصف بما ليس فيّ من عبادته

وأما زهـده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : أرسلنى يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبى حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى . فضربه عشرين سوطا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب . قال الحكم بن هشام الثقفى : حدثت بالشام حديثاً فى أبى حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة ، وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذُكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففرّ منها ! وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبى حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم ، قال : فما رضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذى توقع أن يؤتي بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشي بثوبه فلم يتكلم ، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه ، فقال بعض من حضر : مايكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أى هذه عادته ، فقال ضعوا المال فى هذا الجراب فى زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته ؛ وقال لابنه : إذا مت ودفنتمونى فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له : خذ وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لا أصلح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقا فما أصلح لها ، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء .

وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عزّ وجل ، فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده فى الدنيا . وقد قال ابن جريج : قد بلغنى عن كوفيّكم هذا النعمان ابن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعى : كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر ، قليل المحادثة للناس . فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطنى ، والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتى الصمت والزهد فقد أوتى العلم كله . فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة

وأما الامام أحمد بن حنبل وسفيان الثورى رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقل مّن أتباع هؤلاء ، وسفيان أقلّ أتباعا من أحمد ، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر . وجميع هذا الكتاب

مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما ، فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن فى سير هؤلاء الأئمة الثلاثة . وتأمّل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال فى الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه ، من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان ، أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه ؟ وانظر إلى الذين ادّعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا فى دعواهم أم لا ؟

الباب الثالث

فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها . وفيه بيان الوجه الذى قد يكون به بعض العلوم مذموماً ، وبيان تبديل أسامى العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة ، وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها

بيان علة ذم العلم المذموم

لعلك تقول : العلم هو معرفة الشيء على ماهو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه علما مذموما ؟ فاعلم أن العلم لايذم لعينه وإنما يذم فى حق العباد لأحد أسباب ثلاثة :

الأول ـ أن يكون مؤدّيا إلى ضرر مّا إما لصاحبه أو لغيره كما يذم علم السحر والطلسمات ، وهو حقّ ، إذ شهد القرءان له ، وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين . وقد «سُحِر[1] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك ، وأُخرج السحرُ من تحت حَجَر في قعر بئر» وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية فى مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ، ويرصد

﴿ الباب الثالث ﴾

(١) حديث سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث عائشة

به وقت مخصوص من المطالع ، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك ، بحكم إجراء الله تعالى العادة ، أحوال غريبة فى الشخص المسحور . ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ، ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق ، والوسيلة إلى الشر شر ، فكان ذلك هو السبب فى كونه علما مذموما ، بل من اتبع وليا من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه فى موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه ، بل وجب الكذب فيه ، وذكر موضعه إرشاد وإفادةُ علم بالشيء على ماهو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر

الثانى ـ أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم ، فانه فى نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قسمان : قسم حسابى ، وقد نطق القرءان بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عزّ وجل: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) وقال عزّ وجل : (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) . والثانى الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب ، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ماسيحدث من المرض ، وهو معرفة لمجارى سنة الله تعالى وعادته فى خلقه ، ولكن قد ذمّه الشرع ، قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا » . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي ثَلاثًا : حَيْفُ الأَئِمَّةِ ، وَالإِيمَانُ بِالنُّجُومِ ، وَالتَّكْذِيبُ بِالْقَدَرِ » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا من النجوم ماتهتدون به فى البرّ والبحر ثم أمسكوا . وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه مضر بأكثر الخلق ، فانه إذا ألقى اليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع فى نفوسهم أن الكواكب هى المؤثرة ، وأنها الآلهة المدبرة ، لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها فى القلوب ، فيبقى القلب ملتفتا اليها ، ويرى الخير والشرّ محذورا أو مرجوّا من جهتها ، وينمحى ذكر الله سبحانه عن القلب . فان الضعيف يقصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى . ومثال نظر الضعيف الى

---

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا ـ الحديث : رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(٢) حديث أخاف على أمتى بعدى ثلاثا حيف الأئمة ـ الحديث : ابن عبد البر من حديث أبى محجن باسناد ضعيف

حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهى تنظر إلى سواد الخط يتجدد ،فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى فى نظرها إلى مشاهدة الأصابع ، ثم منها إلى اليد ، ثم منها إلى الارادة المحركة لليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد ، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة ، فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب . فهذا أحد أسباب النهى عن النجوم . و (ثانيها) أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك فى حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا ، فالحكم به حكم بجهل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم ، فلقد كان ذلك معجزة لأدريس عليه السلام فيما يحكى ، وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق ، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق، لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس فى قدرة البشر الاطلاع على حقائقها ،فان اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة ، وإن لم يقدر أخطأ ، ويكون ذلك كتخمين الانسان فى أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ومجرد الغيم ليس كافيا فى مجيء المطر ، وبقية الأسباب لا تدرى، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتمادا على ما ألفه من العادة فى الرياح ، ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها ، فتارة يصيب فى تخمينه وتارة يخطىء ، ولهذه العلة يمنع القوى عن النجوم أيضا . و (ثالثها) أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا يغنى، وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الانسان فى غير فائدة ، وذلك غاية الخسران ، فقد « مر [(١)] رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال : ماهذا ؟ فقالوا : رجل علامة، فقال بماذا ؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب ، فقال : عِلْمٌ لَايَنْفَعُ وَجَهْلٌ لَايَضُرُّ » . وقال صلى الله عليه وسلم[(١)] « إِنَّمَا الْعِلْمُ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ » . فاذاً الخوض فى النجوم وما يشبهه اقتحام خطر ، وخوض فى جهالة من غير فائدة ، فان ماقدر كائن والاحتراز منه غير ممكن ، بخلاف الطب فان الحاجة ماسة اليه ، وأكثر أدلته مما يطلع عليه ،

(١) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال ماهذا فقالوا رجل علامة ـ الحديث: ابن عبد البر من حديث أبى هريرة وضعفه وفى آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة » الى آخره ، وهذه القطعة عند أبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو ،

وبخلاف التعبير وإن كان تخمينا لأنه جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ولا خطر فيه

السبب الثالث ـ الخوض فى علم لايستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون اليها ولم يستقلوا بها ، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها ، وردهم إلى مانطق به الشرع ، ففى ذلك مقنع للموفق ، فكم من شخص خاض فى العلوم واستضرّ بها ، ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن فى الدين مما صار اليه . ولا ينكر كون العلم ضارا لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع ، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكي أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لاتلد فجس الطبيب نبضها وقال : لا حاجة لكِ إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوما وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها ؛ وأخرجت أموالها وفرقتها ؛ وأوصت ، وبقيت لاتأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة ؛ فلم تمت ، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له لم تمت ؛ فقال الطبيب : قد علمت ذلك فجامعْها الآن فانها تلد . فقال : كيف ذاك ؟ قال رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت أنها لاتهزل إلا بخوف الموت ؛ فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة . فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم . ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (١) « نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » . فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بحاثا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابة رضى الله عنهم ، واقتصر على اتباع السنة ، فالسلامة فى الاتباع ، والخطر فى البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك، ودليلك وبرهانك ، وزعمك أنى أبحث عن الأشياء لأعرفها على ماهى عليه ، فأى ضرر فى التفكر فى العلم، فان ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكم من شيء تطّلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك فى الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته

واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار فى المعالجات يستبعدها من لا يعرفها ، فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية ، فلا تتحكم على سنتهم بمعقولك

---

(١) حديث نعوذ بالله من علم لاينفع : ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن وهو عند ابن ماجه بلفظ تعوذوا . وقد تقدم .

فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض فى أصبعه فيقتضى عقله أن يطليه حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطلى الكف من الجانب الآخر من البدن ، فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن ، فهكذا الأمر فى طريق الآخرة ، وفى دقائق سنن الشرع وآدابه . وفى عقائده التى تعبّد الناس بها أسرار ولطائف ليست فى سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن فى خواص الأحجار أموراً عجائبَ غاب عن أهل الصنعة علمها ، حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذى به يجذب المغناطيس الحديد . فالعجائب والغرائب فى العقائد والأعمال وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله ، أكثر وأعظم مما فى الأدوية والعقاقير . وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل اليها فالعقول تقصر عن إدراك ماينفع فى حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة اليها ، وإنما كانت التجربة تتطرق اليها لو رجع الينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى ، وعن الأعمال المبعدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطمع فيه ، فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، ويفهمك موارد إشاراته ، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ، ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا ، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيًّا » ومعلوم أن العلم لا يكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل فى الإضرار . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم[2] « قَلِيلٌ مِنَ التَّوْفِيقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ » وقال عيسى عليه السلام : « ما أكثر الشجر وليس كلها بثمر ، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع !

بيان ما بدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ماأراده السلف الصالح والقرن الأوّل ، وهى خمسة

---

(١) حديث إن من العلم جهلا ـ الحديث : أبو داود من حديث بريدة وفى اسناده من يجهل

(٢) حديث قليل من التوفيق خير من كثير من العلم ـ لم أجد له أصلا وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء وقال : العقل ، بدل العلم ، ولم يخرجه ولده فى مسنده

ألفاظ : الفقه، و العلم،والتوحيد، والتذكير والحكمة، فهذهأسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين ، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم .

اللفظ الأول : الفقه ـ فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لابالنقل والتحويل ، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى ، والوقوف على دقائق عللها ، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه . ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب . ويدلك عليه قوله عز وجل : (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) . وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة ، فذلك لايحصل به إنذار ولاتخويف، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له .وقال تعالى : (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) وأراد به معانى الايمان دون الفتاوى . ولعمرى إن الفقه والفهم فى اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما يتكلم فى عادة الاستعمال به قديما وحديثا، قال تعالى: (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ) الآية ، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه . فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة عدم ماذكرناه من العلوم ، وقال صلى الله عليه وسلم[1] « عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ فُقَهَاءُ » للذين وفدوا عليه. وسئل سعد بن ابراهيم الزهرى رحمه الله: أىّ أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أتقاهم لله تعالى ، فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه ، والتقوى ثمرة العلم الباطنى دون الفتاوى والأقضية .وقال صلى الله عليه وسلم :[2] « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِالْفَقِيهِ كُلِّ الْفَقِيهِ ؟ قالوا بلى، قَالَ : مَنْ لم يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى مَاسِوَاهُ » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه

(١) حديث علماء حكماء فقهاء : أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث سويد بن الحارث باسناد ضعيف

(٢) حديث ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ـ الحديث : أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق وأبو بكر بن السنى وابن عبد البر من حديث على وقال ابن عبد البر أكثرهم يوقفونه عن على

وسلم :(١) (لَأَن أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ) قال فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد النميري وقال: لم تكن مجالسُ الذكر مثلَ مجالسكم هذه يَقُصُّ أحدُكم وعظَه على أصحابه ويسرُد الحديث سردا ، إنما كنا نقعدُ فنذكر الايمانَ ، ونتدبرَّ القرءان ونتفقه في الدين ، ونعدّ نعم الله علينا تفقها ، فسمى تدبر القرءان وعد النعم تفقها. قال صلى الله عليه وسلم :(٢) « لَا يَفْقَهُ الْعَبْدُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَحَتَّى يَرَى لِلْقُرْءَانِ وُجُوهًا كَثِيرَةً » وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله (ثُمَّ يُقْبِلَ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا) وقد سأل فَرْقَدُ السَّنجي الحسن عن الشيء فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك ، فقال الحسن رحمه الله: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ فريقد، وهل رأيت فقيها بعينك ! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة ، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم ، ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى . ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع ، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والاعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدوا على ذلك معينا من الطبع ، فان علم الباطن غامض، والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع .

اللفظ الثاني : العلم — وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، حتى إنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله : لقد مات تسعة أعشار العلم ، فعرّفه بالألف واللام ، ثم فسره بالعلم بالله سبحانه وتعالى . وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها ، فيقال : هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل في العلم . ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم . وهذا أيضا تصرف بالتخصيص ، ولكن ماورد

---

(١) حديث أنس لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس الحديث: أبوداود باسناد حسن
(٤) حديث لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ـ الحديث : ابن عبد البر من حديث شداد ابن أوس وقل لا يصح مرفوعا

من فضائل العلم والعلماء أكثره فى العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته . وقد صار الآن مطلقا على من لا يحيط من علوم الشرع بشىء سوى رسوم جدلية فى مسائل خلافية ، فيعد بذلك من فحول العلماء ، مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم .

اللفظ الثالث : التوحيد — وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والاحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات ، وتأليف الالزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وسمى المتكلمون ، العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ماهو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شىء فى العصر الأول ، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة ، فأما مايشتمل عليه القرءان من الأدلة الظاهرة التى تسبق الأذهان إلى قبولها فى أول السماع ، فلقد كان ذلك معلوما للكل . وكان العلم بالقرءان هو العلم كله ؛ وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله . فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتى بيانه فى كتاب التوكل . ومن ثمراته أيضا ترك شكاية الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى . وكانت إحدى ثمراته قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما قيل له فى مرضه : أنطلب لك طبيبا ؟ فقال : الطبيب أمرضنى . وقال آخر لما مرض فقيل له : ماذا قال لك الطبيب فى مرضك ؟ فقال : قال لى : إنى فعال لما أريد . وسيأتى في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك .

والتوحيد: جوهر نفيس ، وله قشران : أحدهما أبعد عن اللب من الآخر ، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر ، وأهملوا اللب بالكلية . فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك : لا إله إلا الله . وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذى صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره . والقشر الثانى : أن لا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده ، وكذلك التصديق به ، وهو توحيد عوام الخلق . والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث وهو اللباب : أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبده

عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال الله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ)وقال صلى الله عليه وسلم : « أَبْغَضُ إِلَٰهٍ عُبِدَ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى هُوَ الْهَوَى [1] » . وعلى التحقيق : من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه ، فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهواء . ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات اليهم ، فان من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره ! فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام ، وهو مقام الصديقين . فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه ، وكيف اتخذوا هذا معتصما فى التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى ؟ وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول : وجهتُ وَجهىَ للذى فطر السموات والأرضَ حنيفا ، وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وَجْه قلبه متوجها إلى الله تعالى على الخصوص ،فانه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجّهه إلا إلى الكعبة ، وما صرفه إلا عن سائر الجهات ؛ والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه اليها متوجها اليه، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار؛ وإن أراد به وجه القلب ، وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق فى قوله، وقلبهُ متردّد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية ، ومتصرف فى طلب الحيل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالكلية اليها ، فمتى وجّه وجهه للذى فطر السموات والأرض ؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالموحد هو الذى لا يرى إلا الواحد ، ولا يوجه وجهه إلا اليه ، وهو امتثال قوله تعالى : (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) وليس المراد به القول باللسان فانما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى ، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه

اللفظ الرابع : الذكر والتذكير ـ فقد قال الله تعالى: (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) . وقد ورد فى الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم [2] «إِذَا مَرَرْتُمْ

(١) حديث أبغض إله عبد عند الله فى الارض هو الهوى: الطبرانى من حديث أبى أمامه باسناد ضعيف
(٢) حديث اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ـ الحديث : الترمذى من حديث أنس وحسنه

بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قيل: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ مَجَالِسُ الذِّكْرِ » وفى الحديث[١] « إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِى الدُّنْيَا سِوَى مَلَائِكَةِ الْخَلْقِ إِذَا رَأَوْا مَجَالِسَ الذِّكْرِ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَلَا هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ فَيَأْتُونَهُمْ وَيَحُفُّونَ بِهِمْ وَيَسْتَمِعُونَ ، أَلَا فَاذْكُرُوا اللّٰهَ وَذَكِّرُوا أَنْفُسَكُمْ » فنقل ذلك إلى ماترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان ، يواظبون عليه ، وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهى بدعة ؛ وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القُصّاص ، وقالوا :[٢] لم يكن ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى زمن أبى بكر ولا عمر رضى الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص.

وروى أن ابن عمر رضى الله عنهما خرج من المسجد فقال : ما أخرجني إلا القاصُّ ولولاه لما خرجت . وقال ضمرة : قلت لسفيان الثورى : نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال : وَلُّوا البدعَ ظُهوركم . وقال ابن عون : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خبر ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا ، فقال : وُفّق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه ، فقال القاص : ياشيخ ألا تستحي ! فقال : لم ؟ أنا فى سنة وأنت فى كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك ! وقال أحمد : أكثر الناس كذبا القُصّاص والسُّؤّال .

وأخرج علىّ رضى الله عنه القصاصَ من مسجد جامع البصرة فلما سمع كلام الحسن البصرى لم يخرجه ، إذ كان يتكلم فى علم الآخرة ، والتفكير بالموت ، والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ، ويذكّر بآلاء الله ونعمائه ، وتقصير العبد فى شكره ، ويعرّف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها ، وخطر الآخرة وأهوالها . فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذى روى الحث عليه فى حديث أبى ذر رضى الله عنه حيث قال :[٣] « حُضُورُ مَجْلِسِ ذِكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ عِيَادَةِ

---

(١) حديث إن لله ملائكة سياحين فى الهواء سوى ملائكة الخلق ــ الحديث: متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله فى الهواء ، وللترمذى سياحين فى الارض ، وقال مسلم سيارة

(٢) حديث لم تكن القصص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابن ماجه من حديث عمر باسناد حسن

(٣) حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة: تقدم فى الباب الاول

أَلْفِ مَرِيضٍ ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ شُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ . فقيل : يَا رَسُولَ اللهِ : وَمِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْءَانِ ؟ قال : وهل تَنْفَعُ قِرَاءَةُ الْقُرْءَانِ إِلاَّ بِالْعِلْمِ ؟ »وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفّر سبعين مجلساً من مجالس اللهو . فقد اتخذ المذخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم ، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التي تتطرق اليها الاختلافات والزيادة والنقص ، وتخرج عن القصص الواردة فى القرءان وتزيد عليها ، فان من القصص ماينفع سماعه، ومنها مايضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب ، والنافع بالضار ، فمن هذا نهى عنه . ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق !

فان كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم، وكان القاص صادقا صحيح الرواية ، فلست أرى به بأسا . فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطى عليها ، فان العامى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ويمهد لنفسه عذراً فيه ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا بصدد المعاصى ، فلاغرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لايدرى . فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة ، وإلى ما يشتمل عليه القرءان ، ويصح فى الكتب الصحيحة من الأخبار

ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزغات الشيطان ، فان فى الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع فى الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع ؟ قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع : هذا الذى يبغّضك إلىّ ، لا قضيت حاجتك أبدا حتى تتوب ! وقد كان جاءه فى حاجة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن رواحة فى سجع من ثلاث كلمات[1]: « إِيَّاكَ وَالسَّجْعَ يَاابْنَ رَوَاحَةَ »

---

(١) حديث اياك والسجع يا ابن رواحة لم أجده هكذا ولأحمد وأبى يعلى وابن السنى وأبى نعيم فى كتاب الرياضة من حديث عائشة باسناد صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لايسجعون ، ولابن حبان: واجتنب السجع ، وفى البخارى نحوه من قول ابن عباس

فكان السجع المحذور المتكلف مازاد على كلمتين ، ولذلك لما قال الرجل فى دية الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم (١) « أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الْأَعْرَابِ ! »

وأما الأشعار فتكثيرها فى المواعظ مذموم ، قال الله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) وقال تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) وأكثر مااعتاده الوعاظ من الأشعار مايتعلق بالتواصف بالعشق وجمال المعشوق ، وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لايحوى إلا أجلاف العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ماهو مستكن فيها ، فتشتعل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون ، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغى أن يستعمل من الشعر إلا مافيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (٢) « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فان أولئك لايضر معهم الشعر الذى يشير ظاهره إلى الخلق ، فان المستمع ينزل كل مايسمعه على مايستولى على قلبه كما سيأتى تحقيق ذلك فى كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فان كثروا لم يتكلم ، وما تم أهل مجلسه قط عشرين . وحضر جماعة باب دار ابن سالم فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ماهؤلاء أصحابى إنما هم أصحاب المجلس إن أصحابى هم الخواص .

وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

أحدهما ـ الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وبما حكى عن أبى

---

(١) حديث أسجع كسجع الأعراب : مسلم من حديث المغيرة

(٢) حديث إن من الشعر لحكمة : البخارى من حديث أبي بن كعب

يزيد البسطامي أنه قال : سبحاني سبحاني ؛ وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام ؛ حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فان هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس . وهذا الحديث لايلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق. فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله ، فلا يصح عنه مايحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، فانه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

الصنف الثاني من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « مَاحَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَايَفْقَهُونَهُ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ » . وقال صلى الله عليه وسلم[2] « كَلِّمُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا مَايُنْكِرُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟» وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فان كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى عليه السلام لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها

(١) حديث ماحدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم : العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس باسناد ضعيف ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود

(٢) حديث كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ماينكرون ـ الحديث : البخاري موقوفا على علي ورفعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم

فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء . وفى لفظ آخر : من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن للحكمة حقا ، وإن لها أهلا ، فأعط كل ذى حق حقه .

وأما الطامات، فيدخلها ماذكرناه فى الشطح ، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة: كدأب الباطنية فى التأويلات، فهذا أيضا حرام وضرره عظيم ، فان الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو اليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه و سلم ، فان مايسبق منه إلى الفهم لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى ؛ وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم ، كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى المصنف فى الرد على الباطنية

ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى : (اُذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) : إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون، وهو الطاغى على كل إنسان، وفى قوله تعالى : (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) أى كل مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل ؛ فينبغى أن يلقيه ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم :[1] « تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً » أراد به الاستغفار فى الأسحار . وأمثال ذلك، حتى يحرفون القرءان من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء . وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا ، كتنزيل فرعون على القلب ، فان فرعون شخص محسوس تواتر الينا النقل بوجوده ودعوة موسى له ، وكأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل الى ألفاظه . وكذا حمل السحور على الاستغفار ، فانه كان

(١) حديث تسحروا فان فى السحور بركة : متفق عليه من حديث أنس

صلى الله عليه وسلم: (١) « يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ، وَيَقُولُ: تَسَحَّرُوا » (٢) وَ« هَلُمُّوا إِلَى الْغَذَاءِ الْمُبَارَكِ » . فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الاحساس . فكل ذلك حرام وضلالة ، وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شىء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْءَانَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرءان اليه ، ويحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية .

ولا ينبغى أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرءان بالاستنباط والفكر ، فان من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ، ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فانها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه (٤) « اَللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق الى الخالق ، يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع : كمن يضع فى كل مسألة يراها حقاً حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك ظلم وضلال ، ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن

---

(١) حديث تناول الطعام فى السحور : البخارى من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا

(٢) حديث هلموا إلى الغذاء المبارك : أبوداود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية وضعفه ابن القطان

(٣) حديث من فسر القرءان برأيه فليتبوأ مقعده من النار : الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبى داود من رواية ابن العبد وعند النسائى فى الكبرى

(٤) حديث اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ـ قاله لابن عباس : البخارى من حديث ابن عباس دون قوله : وعلمه التأويل ، وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الاسناد

(٥) حديث من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار : متفق عليه من حديث أبى هريرة وعلى وأنس

النَّارِ » بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم ، لأنها مبطلة للثقة بالألفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرءان بالكلية . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة . فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى، فان اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات الى ماعرف فى العصر الأول ، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما ، فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ

اللفظ الخامس : وهو الحكمة ـ فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم ، حتى على الذى يدحرج القرعة على أكف السوادية فى شوارع الطرق . والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى : (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « كَلِمَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ يَتَعَلَّمُهَا الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به من بقية الألفاظ ، واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فان شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا [2] لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال: « اللَّهُمَّ غَفْرًا » حتى كرروا عليه فقال : « هُمْ عُلَمَاءُ السُّوءِ » فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس، واليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك ، فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ماارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ،وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ » فقيل : ومن الغرباء؟ قال الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَهُ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي . وَالَّذِينَ يُحْيُونَ مَا أَمَاتُوهُ مِن سُنَّتِي »

---

(١) حديث كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا : تقدم بنحوه

(٢) حديث لما سئل عن شر الخلق أبى وقال اللهم غفرا ـ الحديث : الدارمى بنحوه من رواية الأحوص ابن حكيم عن أبيه مرسلا وهو ضعيف ورواه البزار فى مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف

(٣) حديث بدأ الاسلام غريبا ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه

وفى خبر آخر [١] « هُمُ الْمُتَمَسِّكُونَ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » وفى حديث آخر [٢] « الْغُرَبَاءُ نَاسٌ قَلِيلٌ صَالِحُونَ بَيْنَ نَاسٍ كَثِيرٍ مَنْ يُبْغِضُهُمْ فِى الْخَلْقِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُحِبُّهُمْ » . وقدصارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها . ولذلك قال الثورى رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو مذموم قليله وكثيره ، وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه ، والاستقصاء فيه ، وهو مثل أحوال البدن ، فان منها مايحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنها مايذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها مايحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فان التبذير لايحمد فيه وهو بذل، وكالشجاعة فان التهور لايحمد فيها وإن كان من جنس الشجاعة ، فكذلك العلم

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالافائدة فيه فى دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يغلب نفعه : كعلم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لافائدة فيه أصلا، وصرف العمر الذى هو أنفس مايملكه الانسان اليه إضاعة ، وإضاعة النفيس مذمومة ، ومنه مافيه ضرر يزيد على مايظن أنه يحصل به من قضاء وطر فى الدنيا ، فان ذلك لايعتد به بالاضافة إلى الضرر الحاصل عنه

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء ، فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، فان هذا علم مطلوب لذاته ، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فانه البحر الذى لايدرك غوره ، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر مايسّر لهم ، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم ، بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت

---

(١) حديث هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم يقوله فى وصف الغرباء : لم أر له أصلا

(٢) حديث الغرباء ناس قليلون صالحون : أحمد من حديث عبدالله بن عمرو

تقدير الله تعالى فى حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذى لايسطر فى الكتب . ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة كما سيأتى علامتهم ، هذا فى أول الأمر . ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة ، وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا ، والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لابقدر الجهد ، ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لامفتاح لها سواها

وأما العلوم التى لايحمد منها إلا مقدار مخصوص ، فهى العلوم التى أوردناها فى فروض الكفايات ، فان فى كل علم منها اقتصارا وهو الأقل، واقتصادا وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لامرد له إلى آخر العمر . فكن أحد رجلين : إما مشغولا بنفسك ، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، فان كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذى هو فرض عليك بحسب مايقتضيه حالك ، ومايتعلق منه بالأعمال الظاهرة : من تعلم الصلاة ، والطهارة ، والصوم ، وإنما الأهم الذى أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم ، إذ لاينفك بشر عن الصفات المذمومة : مثل الحرص والحسد ، والرياء ، والكبر ، والعجب وأخواتها ؛ وجميع ذلك مهلكات، وإهمالها من الواجبات مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهى الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدماميل ، والتهاون باخراج المادة بالفصد والإسهال . وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن، وعلماء الآخرة لايشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر : بافساد منابتها ، وقلع مغارسها من القلب . وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح ، واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يزال يتعب فى الطلاء ويزيد فى المواد ، وتتضاعف به الأمراض

فان كنت مريداً للآخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدى ، فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها ، على مافصلناه فى ربع المهلكات . ثم ينجرّ بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة فى ربع المنجيات لامحالة . فان القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، وإن لم تفرّغ من ذلك لم تنبت ذلك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية ، لاسيما وفى زمرة الخلق من قد قام بها ، فان مهلك نفسه فيما به

صلاح غيره سفيه . فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبّة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لايغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به !

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها ، وقدرت على ترك ظاهر الاثم وباطنه ، وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك ، وما أبعد ذلك منك ، فاشتغل بفروض الكفايات ، وراع التدريج فيها : فابتدىء بكتاب الله تعالى ، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرءان : من علم الناسخ والمنسوخ ، والمفصول والموصول ، والمحكم والمتشابه ، وكذلك فى السنة . ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ، وهكذا إلى بقية العلوم على مايتسع له العمر ويساعد فيه الوقت . ولا تستغرق عمرك فى فن واحد منها طلبا للاستقصاء ، فان العلم كثير والعمر قصير . وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، وكل مايطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه ، فاقتصر من شائع علم اللغة على ماتفهم منه كلام العرب وتنطق به ، ومن غريبه على غريب القرءان وغريب الحديث ، ودع التعمق فيه . واقتصر من النحو على مايتعلق بالكتاب والسنة ، فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء .

ونحن نشير اليها فى الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها .

فالاقتصار فى التفسير مايبلغ ضعف القرءان فى المقدار ، كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الوجيز ، والاقتصاد مايبلغ ثلاثة أضعاف القرءان كما صنفه من الوسيط فيه ، وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه ، فلا مرد له الى انتهاء العمر .

وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل مافى الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث .

وأما حفظ أسامى الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ، ولك أن تعول على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ، ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ماتحتاج اليه عند الحاجة . وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف اليهما ماخرج عنهما مما ورد فى المسندات الصحيحة . وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل مانقل من الضعيف والقوى والصحيح

والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة فى النقل ، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم .

وأما الفقه فالاقتصار فيه على مايحويه مختصر المزنى رحمه الله ، وهو الذى رتبناه فى خلاصة المختصر . والاقتصاد فيه مايبلغ ثلاثة أمثاله ، وهو القدر الذى أوردناه فى الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ما أوردناه فى البسيط ، الى ماوراء ذلك من المطولات

وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التى نقلها أهل السنة من السلف الصالح لاغير ، وما وراء ذلك طاب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها . ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر ، وهو القدر الذى أوردناه فى كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه مايبلغ قدر مائة ورقة ، وهو الذى أوردناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، ويحتاج اليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي ، وذلك لاينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم . وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقلما ينفع معه الكلام ، فانك إن أفحمته لم يترك مذهبه ، وأحال بالقصور على نفسه ، وقدّر أن عند غيره جوابا ما وهو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة . وأما العامي إذا صُرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد اليه بمثله قبل أن يشتدّ التعصب للأهواء . فاذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ، إذ التعصب سبب يرسخ العقائد فى النفوس ، وهو من آفات العلماء السوء ، فانهم يبالغون فى التعصب للحق ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوي بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوافر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم فى التمسك بما نسبوا اليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح فى الخلوة لا فى معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه . ولكن لما كان الجاه لايقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبًا عن الدين ونضالا عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة فى النفوس

وأما الخلافيات التى أُحدثت فى هذه الأعصار المتأخرة ، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات مالم يعهد مثلها فى السلف ، فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها

اجتناب السم القاتل، فانها الداء العضال ، وهو الذى رد الفقهاء كلهم الى طلب المنافسة والمباهاة على ماسيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها . وهذا الكلام ربما يسمع من قائله ، فيقال : الناس أعداء ماجهلوا . فلا تسننّ ذلك، فعلى الخبير سقطت ؛ فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه ، فهجره واشتغل بنفسه ؛ فلا يغرنك قول من يقول : الفتوى عماد الشرع ، ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف ، فان علل المذهب مذكورة فى المذهب ، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة ، وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم ، بل هى مع أنها غير مفيدة فى علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه ؛ فان الذى يشهد له حدس المفتى إذا صح ذوقه فى الفقه لايمكن تمشيته على شروط الجدل فى أكثر الأمر . فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه ، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ، ويتعلل بأنه يطالب علل المذهب ، وقد ينقضى عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب . فكن من شياطين الجن فى أمان ، واحترز من شياطين الانس ، فانهم أراحوا شياطين الجن من التعب فى الإغواء والإضلال

وبالجملة فالمرضِىّ عند العقلاء أن تقدر نفسك فى العالَم وحدك مع الله ، و بين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك ، ودع عنك ماسواه، والسلام

وقد رأى بعضُ الشيوخ بعضَ العلماء فى المنام فقال له : ماخبر تلك العلوم التى كنت تجادل فيها وتناظر عليها ؟ فبسط يده ونفخ فيها ، وقال : طاحت كلها هباء منثورا، وما انتفعتُ إلا بركعتين خلصتا لى فى جوف الليل ! وفى الحديث [1] « مَاضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ » ثم قرأ (مَاضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) . وفي الحديث فى معنى قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) الآية [2] هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى: (فَاحْذَرْهُمْ) . وقال بعض السلف : يكون فى آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ، ويفتح

---

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل :الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة، قال الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم : متفق عليه من حديث عائشة

لهم باب الجدل . وفى بعض الأخبار[1] « إِنَّكُمْ فِى زَمَانٍ أُلْهِمْتُم فِيهِ الْعَمَلَ وَسَيَأْتِى قَوْمٌ يُلْهَمُونَ الْجَدَلَ » وفى الخبر المشهور[2] « أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الأَلَدُّ الْخَصِمُ » وفى الخبر[3] « مَا أُوتِىَ قَوْمٌ الْمَنطِقَ إِلاَّ مُنِعُوا الْعَمَلَ » . والله أعلم

الباب الرابع

فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف

وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى ، فقهاء فى أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا ، فى وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم ، كما نقل من سيرهم . فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم .

وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول ، وملازم صفو الدين ، ومواظب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طُلبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات

فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة ، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة ، وتعرفوا اليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فمنهم من

(١) حديث إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل : لم أجده

(٢) حديث أبغض الخلق الى الله الألد الخصم : متفق عليه من حديث عائشة

(٣) حديث ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل: لم أجد له أصلا

حرم ومنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله . وقد كان أكثر الاقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة اليها فى الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ، فعامت رغبته إلى المناظرة والمجادلة فى الكلام ، فأكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ، إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه ، وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار . فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرات لاغير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو الى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

بيان التلبيس فى تشبيه هذه المناظرات

بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس الى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح ، فان الحق مطلوب والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ، هكذا

كان عادة الصحابة رضى الله عنهم فى مشاوراتهم : كتشاورهم فى مسألة الجد والإخوة ، وحدّ شرب الخمر ، ووجوب الغرم على الامام إذا أخطأ ، كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفا من عمر رضى الله عنه ، وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها ، وما نقل عن الشافعى وأحمد ومحمد ابن الحسن ومالك وأبى يوسف وغيرهم من العلماء ، رحمهم الله تعالى

ويطلعك على هذا التلبيس ماأذكره، وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ، ولكن له شروط وعلامات ثمان :

الأول — أن لايشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان. ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب ، ومثاله من يترك الصلاة فى نفسه ويتجرد فى تحصيل الثياب ونسجها ويقول : غرضى أستر عورة من يصلى عريانا ولا يجد ثوبا ، فان ذلك ربما يتفق ، ووقوعه ممكن ، كمايزعم الفقيه أن وقوع النوادر التى عنها البحث فى الخلاف ممكن ، والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هى فرض عين بالاتفاق . ومن توجه عليه ردّ وديعة فى الحال فقام وأحرم بالصلاة التى هى أقرب القربات الى الله تعالى عصى به ، فلا يكفى فى كون الشخص مطيعا كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشرط والترتيب .

الثانى ــ أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة ، فان رأى ماهو أهم وفعل غيره عصى بفعله، وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء ، فاشتغل بتعلم الحجامة وزعم أنه من فروض الكفايات ، ولو خلا البلد عنها لهلك الناس، وإذا قيل له فى البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية ، فيقول : هذا لايخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية . فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفى البلد فروض كفايات مهملة لاقائم بها . فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء اليها ، وأقربها الطب ، إذ لايوجد فى أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعا ، ولا يرغب أحد من الفقهاء فى الاشتغال به . وكذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهو من فروض الكفايات ، وربما يكون المناظر فى مجلس مناظرته مشاهدا للحرير ملبوسا ومفروشا وهو ساكت ، ويناظر فى مسألة لايتفق وقوعها قط ، وإن وقعت قام بها

جماعة من الفقهاء ، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات، وقد روى أنس رضى الله عنه أنه « قِيلَ يَارَسُولَ ٱللهِ (١) مَتَى يُتْرَكُ ٱلأَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْىُ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ؟ فقال عليه السّلامُ : إِذَا ظَهَرَتِ ٱلْمُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَٱلْفَاحِشَةُ فِي شِرَارِكُمْ وَتَحَوَّلَ ٱلْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ وَٱلْفِقْهُ فِي أَرَاذِلِكُمْ »

الثالث — أن يكون المناظر مجتهدا يفتى برأيه لا بمذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما ، حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبى حنيفة ترك مايوافق رأى الشافعى وأفتى بما ظهر له ، كما كان يفعله الصحابة رضى الله عنهم والأئمة ، فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتى فيما يُسأل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه ، فأى فائدة له فى المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره ، وما يشكل عليه يلزمه أن يقول لعل عند صاحب مذهبي جوابا عن هذا فانى لست مستقلا بالاجتهاد فى أصل الشرع ؟ ولو كانت مباحثته عن المسائل التى فيها وجهان أوقولان لصاحبه لكان أشبه به، فانه ربما يفتى بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط ، بل ربما ترك المسألة التى فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتا

الرابع ـ أن لا يناظر إلا فى مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً ، فان الصحابة رضى الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع ، أو ما يغلب وقوعه كالفرائض ، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التى تعم البلوى بالفتوى فيها ، بل يطلبون الطبوليات التى تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر . وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو هى من الزوايا وليست من الطبوليات ، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الأخبار . أو لأنها ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام ، والمقصود فى الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول

الخامس ـ أن تكون المناظرة فى الخلوة أحب اليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر

﴿ الباب الرابع ﴾

(١) حديث أنس قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ابن ماجه باسناد حسن

والسلاطين . فان الخلوة أجمع للفهم ، وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفى حضور الجمع ما يحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أو مبطلا ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله ، وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه ، وربما يقترح عليه فلا يجيب ، وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر فى قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام .

السادس ـ أن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لا خصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقا فى طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته فى طريق آخر ، فانه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به ، فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضى الله عنهم ، حتى إن امرأة ردت على عمر رضى الله عنه ونبهته على الحق وهو فى خطبته على ملأ من الناس ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضى الله عنه فأجابه فقال : ليس كذلك ياأمير المؤمنين ولكن كذا وكذا ، فقال : أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذى علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما فقال أبو موسى : لا تسألونى عن شىء وهذا الحبر بين أظهركم ، وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل فى سبيل الله فقتل ، فقال : هو فى الجنة ، وكان أمير الكوفة ، فقام ابن مسعود فقال أعده على الأمير فلعله لم يفهم ، فأعادوا عليه ، فأعاد الجواب ، فقال ابن مسعود : وأنا أقول : إن قتل فأصاب الحق فهو فى الجنة ، فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إنصاف طالب الحق . ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق ، فان ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظرى زمانك اليوم كيف يسودّ وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه ، وكيف يخجل به ، وكيف يجتهد فى مجاحدته بأقصى قدرته ، وكيف يذم من أفحمه طول عمره ، ثم لا يستحيى من تشبيه نفسه بالصحابة رضى الله عنهم فى تعاونهم على النظر فى الحق !

السابع ـ أن لا يمنع معينه فى النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ، ومن إشكال إلى إشكال ، فهكذا كانت مناظرات السلف ، ويُخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه ، كقوله : هذا لا يلزمنى ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك ، فان الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ، ويجب قبوله . وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضى فى المدافعات والمجادلات حتى يقيس

المستدل على أصل بعلّة يظنها فيقال له : ماالدليل على أن الحكم فى الأصل معلل بهذه العلة ؟ فيقول: هذا ماظهر لى فان ظهر لك ماهو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه ، فيصر المعترض ويقول : فيه معان سوى ماذكرته وقدعرفتها ولاأذكرها إذ لايلزمني ذكرها؛ ويقول المستدل: عليك إيراد ماتدعيه وراء هذا ، ويصر المعترض على أنه لايلزمه ، ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله، ولايعرف هذا المسكين أن قوله إنى أعرفه ولاأذكره إذلا يلزمنى، كذب على الشرع ، فانه إن كان لايعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها ، وإن كان صادقا فقدفسق بإخفائه ماعرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه، فان كان قويا رجع اليه، وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولا خلاف أن إظهار ماعلم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم . فمعنى قوله : لايلزمنى ، أى فى شرع الجدل الذى أبدعناه بحكم التشهى والرغبة فى طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لايلزمنى ، وإلا فهو لازم بالشرع ، فانه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق .

فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم : هل سمعت فيها مايضاهى هذا الجنس ؟ وهل منع أحدمن الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس ، إذ كانوا يذكرون كل مايخطر لهم كما يخطر ، وكانوا ينظرون فيه

الثامن — أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم ، والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم ، فيرغبون فيمن دونهم طمعا فى ترويج الباطل عليهم

ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ؛ ولكن فى هذه الشروط الثمانية مايهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلة

واعلم بالجملة أن من لايناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدوّ له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ، ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى المجتهد فيها مصيب أومساهم للمصيب فى الأجر ، فهو ضحكة للشيطان ، وعبرة للمخلصين . ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التى نعددها ونذكر تفاصيلها . فنسأل الله حسن العون والتوفيق

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها

من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس، هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة: من الزنا، والقذف والقتل والسرقة، وكما أن الذى خُيِّر بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه، فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره، فكذلك من غلب عليه حب الافحام والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة، دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها فى النفس، وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة. وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مذمتها من الأخبار والآيات فى ربع المهلكات، ولكنا نشير الآن إلى مجامع ماتهيجه المناظرة:

فمنها الحسد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] «اَلْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». ولا ينفك المناظر عن الحسد، فانه تارة يغلب وتارة يغلب، وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره؛ فما دام يبقى فى الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر، أو يظن أنه أحسن منه كلاما وأقوى نظرا، فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه، وانصراف القلوب والوجوه عنه اليه. والحسد نار محرقة، فمن بلى به فهو فى العذاب فى الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأعظم، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه؛ ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فانهم يتغايرون كما تتغاير التيوس فى الزريبة

ومنها التكبر والترفع على الناس، فقد قال صلى الله عليه وسلم[2] «مَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ

---

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب: أبو داود من حديث أبى هريرة، وقال البخارى لا يصح، وهو عند ابن ماجه من حديث أنس باسناد ضعيف، وفى تاريخ بغداد باسناد حسن

(٢) حديث من تكبر وضعه الله ـ الحديث: الخطيب من حديث عمر باسناد صحيح وقال غريب من حديث الثوري ولابن ماجه نحوه من حديث أبى سعيد بسند حسن

وَمَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى [١] « الْعَظَمَةُ إِزَارِى وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى ، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ » . ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال ، والترفع إلى فوق قدره ، حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه فى الارتفاع والانخفاض ، والقرب من وسادة الصدر والبعد منها ، والتقدم فى الدخول عند مضايق الطرق . وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغى صيانة عز العلم ، [٢] و « أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَنْهِيٌّ عَنِ الْإِذْلَالِ لِنَفْسِهِ » فيعبر عن التواضع الذى أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل ، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين ، تحريفا للاسم ، وإضلالا للخلق به ، كما فعل فى اسم الحكمة والعلم وغيرهما .

ومنها الحقد ، فلا يكاد المناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٣] « الْمُؤْمِنَ لَيْسَ بِحَقُودٍ » . وورد فى ذم الحقد مالا يخفى ، ولا نرى مناظرا يقدر على أن لا يضمر حقدا على من يحرك رأسه من كلام خصمه ، ويتوقف فى كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء ، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته فى نفسه ، وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق ، ويترشح منه إلى الظاهر لامحالة فى غالب الأمر . وكيف ينفك عن هذا ، ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه ، واستحسان جميع أحواله فى إيراده وإصداره ؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس فى صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر

ومنها الغيبة ، وقد شبهها الله بأكل الميتة ، ولا يزال المناظر مثابرا على أكل الميتة ، فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته . وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب فى الحكاية عنه ، فيحكى عنه لامحالة مايدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله ، وهو الغيبة . فأما الكذب فبهتان ، وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغي إلى خصمه ويقبل عليه ، حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة .

---

(١) حديث الكبرياء ردائى والعظمة ازارى ــ الحديث : أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ، وهو عند مسلم بلفظ الكبرياء رداؤه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد

(٢) حديث نهى المؤمن عن إذلال نفسه : الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة لاينبغي للمؤمن أن يذل نفسه

(٣) حديث المؤمن ليس بحقود : لم أقف له على أصل

ومنها تزكية النفس ، قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ) . وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه . ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة ، والتقدم بالفضل على الأقران . ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله : لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور ، وأنا المتفنن في العلوم ، والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث ، وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف ، وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه . ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا .

ومنها التجسس وتتبع عورات الناس ، وقد قال تعالى: (وَلَا تَجَسَّسُوا) . والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه ، حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ، ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة ، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكا ، ويستحسن ذلك منه ، ويعد من لطائف التسبب ، ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء ، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم .

ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمسارّهم ، ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين ، فكل من طلب المباهاة باظهار الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ، ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر ، فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها ، فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرا تغير لونه واضطرب عليه فكره ، فكأنه يشاهد شيطاناماردا أو سبعا ضاريا ! فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء ، وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم في السراء والضراء ، حتى قال الشافعي رضي الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل . فلا أدري كيف يدعي الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة ، فهل يتصوّر أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة ؟ هيهات هيهات! وناهيك بالشر شرا أن يُلزمك أخلاقَ المنافقين ، ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين

ومنها النفاق ، فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه ، وهم مضطرون اليه ، فانهم يلقون

الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بدّا من التودد اليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ، ويعلم ذلك المخاطب والمخاطَب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور ، فانهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب . نعوذ بالله العظيم منه ! فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا تَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلْعِلْمَ وَتَرَكُوا ٱلْعَمَلَ وَتَحَابُّوا بِٱلْأَلْسُنِ وَتَبَاغَضُوا بِٱلْقُلُوبِ وَتَقَاطَعُوا فِي ٱلْأَرْحَامِ، لَعَنَهُمُ ٱللهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » رواه الحسن، وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة

ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه ، حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق، ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده، وبذل غاية إمكانه فى المخادعة والمكر والحيلة لدفعه، حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية ، فلا يسمع كلاما إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه، حتى يغلب ذلك على قلبه فى أدلة القرآن وألفاظ الشرع، فيضرب البعض منها بالبعض . والمراء فى مقابلة الباطل محذور ، إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل ، قال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ تَرَكَ ٱلْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَى ٱللهُ لَهُ بَيْتًا فِي رَبَضِ ٱلْجَنَّةِ ، وَمَنْ تَرَكَ ٱلْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى ٱللهُ لَهُ بَيْتًا فِي أَعْلَى ٱلْجَنَّةِ » . وقد سوى الله تعالى بين من افترى على الله كذبا وبين من كذّب بالحق ؛ فقال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) وقال تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

ومنها الرياء وملاحظة الخلق ، والجهد فى استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء هو الداء العضال الذى يدعو إلى أكبر الكبائر، كما سيأتى فى كتاب الرياء ، والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق ، وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه

---

(١) حديث إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب ـ الحديث : الطبرانى من حديث سلمان باسناد ضعيف

(٢) حديث من ترك المراء وهو مبطل ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف ، قال الترمذى : حسن

فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة ، سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم : من الخصام المؤدى الى الضرب واللكم واللطم، وتمزيق الثياب ، والأخذ باللحى ، وسب الوالدين وشتم الأستاذين ، والقذف الصريح ، فان أولئك ليسوا معدودين فى زمرة الناس المعتبرين ؛ وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشر . نعم قد يسلم بعضهم من بعضها ، مع من هو ظاهر الانحطاط عنه ، أو ظاهر الارتفاع عليه ، أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له فى الدرجة

ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل، لم نطوّل بذكرها وتفصيل آحادها : مثل الأنفة ، والغضب ، والبغضاء ، والطمع، وحب طلب المال والجاه ، للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والأشر ، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسلاطين، والتردد اليهم ، والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة ، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء ، والخوض فيما لا يعنى، وكثرة الكلام ، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب ، واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدرى المصلى منهم فى صلاته ما صلى ، وما الذى يقرأ ومن الذى يناجيه ، ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر فى العلوم التى تعين فى المناظرة مع أنها لا تنفع فى الآخرة : من تحسين العبارة ، وتسجيع اللفظ ، وحفظ النوادر ، إلى غير ذلك من أمور لا تحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم، ولهم درجات شتى، ولا ينفك أعظمهم دينا وأكثرهم عقلا عن جمل من مواد هذه الأخلاق ، وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها .

واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة ، وهى لازمة أيضا للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران

وبالجملة هى لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى فى الآخرة . فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد ، أو يحييه حياة الأبد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: « أَشَدُّ النَّاس عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لا يَنْفَعُهُ اللهُ بِعِلْمِهِ » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ، وليته نجا منه رأساً برأس ؛ وهيهات هيهات ! فخطر العلم عظيم ، وطالبه طالب الملك المؤيد والنعيم السرمد ، فلا

ينفك عن المُلك أو الهُلك ، وهو كطالب الملك فى الدنيا ، فان لم يتفق له الإصابة فى الأموال لم يطمع فى السلامة من الإذلال ، بل لا بد من لزوم أفضح الأحوال

فان قلت : فى الرخصة فى المناظرة فائدة وهى ترغيب الناس فى طلب العلم ، إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم . فقد صدقتَ فيما ذكرتَه من وجه ، ولكنه غير مفيد ، إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان فى المكتب ، وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم ، ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج ، بل هو من الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم [(١)] « إِنَّ ٱللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا ٱلدِّينَ بِأَقْوامٍ لَاخَلَاقَ لَهُمْ » . وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « إِنَّ ٱللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا ٱلدِّينَ بِٱلرَّجُلِ ٱلْفَاجِرِ » . فطالب الرياسة فى نفسه هالك ، وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا ، وذلك فيمن كان ظاهر حاله فى ظاهر الأمر ظاهرَ حال علماء السلف ، ولكنه يضمر قصد الجاه . فمثاله مثال الشمع الذى يحترق فى نفسه ويستضىء به غيره ؛ فصلاح غيره فى هلاكه . فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التى تأكل نفسها وغيرها

فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره ، وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ؛ وإما مسعد نفسه وغيره ، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهرا وباطنا ؛ وإما مهلك نفسه مسعد غيره ، وهو الذى يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا فى ظاهره وقصدُه فى الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه . فانظر من أى الأقسام أنت ، ومن الذى اشتغلت بالاعتداد له ؛ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل . وسيأتيك فى كتاب الرياء بل فى جميع ربع المهلكات ماينفى عنك الريبة فيه ، إن شاء الله تعالى

---

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : النسائي من حديث أنس باسناد صحيح

(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : متفق عليه من حديث أبي هريرة

الباب الخامس

فى آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة، ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل:

الوظيفة الأولى - تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى. وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف. قال صلى الله عليه وسلم (١) «بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ» وهو كذلك باطنا وظاهرا؛ قال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) تنبيها للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر، أى باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب، فانها مع خبثها فى الحال مهلكات فى المآل؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لَا تَدْخُلُ (١) الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ» والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم؛ والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد، والحسد والكبر والعجب، وأخواتها، كلاب نابحة؛ فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى فى القلب إلا بواسطة الملائكة؟ (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى

﴿الباب الخامس﴾

(١) حديث بنى الدين على النظافة: لم أجده هكذا. وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: تنظفوا فان الاسلام نظيف. وللطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود: النظافة تدعو الى الايمان

(٢) حديث لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب: متفق عليه من حديث أبي طلحة الانصارى

القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها ، وهم المقدسون المطهرون المبرءون من الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيبا ،ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا .
ولست أقول: المراد بلفظ البيت هو القلب ، وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة، ولكني أقول: هو تنبيه عليه. وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر. ففارقْ الباطنية بهذه الدقيقة، فان هذه طريق الاعتبار، وهو مسلك العلماء والأبرار، إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه، كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة : بأن يعبر منها الى التنبه لكونه أيضا عرضة للمصائب؛ وكون الدنيا بصدد الانقلاب ؛ فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة . فاعبر أنت أيضا من البيت الذى هو بناء الخلق ، الى القلب الذى هو بيت من بناء الله تعالى ؛ ومن الكلب الذى ذم لصفته لا لصورته وهو ما فيه من سبعية ونجاسة ، الى الروح الكلبية وهى السبعية

واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره الى الدنيا والتكالب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس ، كلب في المعنى ، وقلب فى الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعانى لا الصور ؛ والصور فى هذا العالم غالبة على المعانى ، والمعانى باطنة فيها ، وفى الآخرة تتبع الصورُ المعانى ، وتغلب المعانى، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية، فيحشر الممزق[1] لأعراض الناس كلبا ضاريا، والشره إلى أموالهم ذئبا عاديا ، والمتكبر عليهم فى صورة نمر، وطالب الرياسة فى صورة أسد . وقد وردت بذلك الأخبار ، وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار

فان قلت : كم من طالب ردىء الأخلاق حصل العلوم . فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقى النافع فى الآخرة الجالب للسعادة ! فان من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصى سموم قاتلة مهلكة . وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا ؟ إنما الذى تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ، ويرددونه بقلوبهم أخرى ، وليس ذلك من العلم فى شىء ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب. وقال بعضهم:

---

(١) حديث حشر المزق لأعراض الناس فى صورة كلب ضار ـ الحديث : الثعلبى فى التفسير من حديث البراء بسند ضعيف

إنما العلم الخشية لقوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته ، وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه

فان قلت : إنى أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برّزوا فى الفروع والأصول، وعُدوا من جملة الفحول ، وأخلاقُهم ذميمة لم يتطهروا منها . فيقال : إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغَنَاء من حيث كونه علما ، وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب الى الله تعالى . وقد سبقت الى هذا إشارة ، وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح ، إن شاء الله تعالى

الوظيفة الثانية — أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن ، فان العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ، ولذلك قيل : العلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك . فاذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر . والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع

الوظيفة الثالثة — أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقى اليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته ، قال الشعبي : صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت اليه بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس [1] فأخذ بركابه ، فقال زيد : خلّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم. وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ التَّمَلُّقُ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ » . فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة

---

(١) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقوله هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء : الطبرانى والحاكم والبيهقي فى المدخل الا أنهم قالوا : هكذا نفعل. قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم

(٢) حديث ليس من أخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم: ابن عدى من حديث معاذ وأبى أمامة باسنادين ضعيفين

إلا من المرموقين المشهورين، وهو عين الحماقة . فان العلم سبب النجاة والسعادة . ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده الى الهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع . فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ، ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائنا من كان ، فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للمكان العالى

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع . قال الله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) . ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهماً ثم لاتعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ، ليستقبل كل ماألقى اليه بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فشربت جميع أجزائها ، وأذعنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده وليدع رأيه ، فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه ، إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب فى بعض أوقاته بالحرارة ليزيد فى قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج، فيعجب منه من لا خبرة له به. وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر : (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال : (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) ثم لم يصبر ولم يزل فى مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران . فان قلت : فقد قال الله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فالسؤال مأمور به

فاعلم أنه كذلك ، ولكن فيما يأذن المعلم فى السؤال عنه ، فان السؤال عما لم تبلغ مرتبتك الى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال ، أى دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له ، وبأوان الكشف ، ومالم يدخل أوان الكشف فى كل درجة من مراقى الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه . وقد قال على رضى الله عنه : إن من حق العالم

أن لاتكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشي له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته

الوظيفة الرابعة — أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة ، فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الادراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصغى الى المذاهب والشبه ، وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها ، فليحذر منه ، فان إضلاله أكثر من إرشاده ، فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حاله يعد فى عمى الحيرة وتيه الجهل . ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهى منع الحديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار ، وندب القوى إلى النظر فى الاختلافات يضاهي حث القوى على مخالطة الكفار . ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ، ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفى ذلك قال بعضهم : من رآنى فى البداية صار صديقا ، ومن رآنى فى النهاية صار زنديقا ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن ، وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض ، فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيهات . فذلك مرابطة القلب فى عين الشهود والحضور ، وملازمة الذكر الذى هو أفضل الأعمال على الدوام . وتشبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقى نجاسة يسيرة فى كوز ماء ، ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى فى البحر والبحر أعظم من الكوز ، فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز . ولا يدرى المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته ، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته . ولمثل هذا جوز للنبي صلى الله عليه وسلم مالم يجوز لغيره (١) «حَتَّى أُبِيحَ لَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ»

(١) حديث أبيح له صلى الله عليه وسلم تسع نسوة ، وهو معروف ، وفى الصحيحين من حديث ابن عباس : كان عند النبى صلى الله عليه وسلم تسع ـ الحديث

إذ كان له من القوة مايتعدى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن . وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى مابينهن من الضرار اليه ، حتى ينجر إلى معصية الله تعالى فى طلبه رضاهن ، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين

الوظيفة الخامسة — أن لايدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه ، وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه فى الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله ، فان الناس أعداء ماجهلوا ، قال تعالى « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجدْ مُرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعا من الإعانة . ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصود ، والقُوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر فى الآخرة اذا قصد به وجه الله تعالى

الوظيفة السادسة — أن لايخوض فى فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب ، ويبتدىء بالأهم ، فان العمر اذا كان لايتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه ، ويكتفى منه بشمه ، ويصرف جمام قوته فى الميسور من علمه الى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة ، أعنى قسمى المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى . ولست أعنى به الاعتقاد الذى يتلقفه العامى وراثة أو تلقفا ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة فى تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبد طهّر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهى إلى رتبة إيمان أبى بكر رضى الله عنه(١) الذى « لَوْ وُزِنَ بِإِيمَانِ الْعَالَمِينَ لَرَجَحَ » كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، فما عندى أن مايعتقده العامى ويرتبه المتكلم الذى لايزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاما ، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى

(١) حديث لو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالمين لرجح : ابن عدى من حديث ابن عمر باسناد ضعيف ورواه البيهقى فى الشعب موقوفا على عمر باسناد صحيح

وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذى وقر فى صدره . والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدرى مايسمعه على وفقه ، ويزعم أنه من ترهات الصوفية ، وأن ذلك غير معقول ، فينبغى أن تتئد فى هذا فعنده ضيعت رأس المال ، فكن حريصا على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ، ولا يرشدك اليه إلا حرصك فى الطلب

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لايدرك منتهى غوره . وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رئى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شىء فلا تظنن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء ، وفى يد الآخر : كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب .

الوظيفة السابعة — أن لايخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا ، وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج ، قال الله تعالى : (ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) أى لايجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا . وليكن قصده فى كل علم يتحراه الترقى إلى ماهو فوقه ، فينبغى أن لايحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل ، فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ، وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتاب معيار العلم . وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر ، والكل خطأ ، بل ينبغى أن يعرف الشىء فى نفسه . فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص . ولذلك قال على رضى الله عنه : لاتعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله

الوظيفة الثامنة ـ أن يعرف السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان : أحدهما شرف الثمرة ، والثانى وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب ، فان ثمرة أحدهما الحياة الأبدية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية ، فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم ، فان علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها ، وإن نسب الحساب إلى الطب كان

الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظة الثمرة أولى ، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم . فإياك وأن ترغب إلا فيه ، وأن تحرص إلا عليه

الوظيفة التاسعة ـ أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران ، وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة . ومع هذا فلا ينبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ، أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة ، وغير ذلك مما أوردناه فى المقدمات والمتمات من ضروب العلوم التى هى فرض كفاية . ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم ، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله ، فنهم المقاتل ، ومنهم الردء ، ومنهم الذى يسقيهم الماء ، ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم . ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم ، فكذلك العلماء ، قال الله تعالى : (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) . وقال تعالى : (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ ٱللَّهِ) . والفضيلة نسبية ، واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لايدل على حقارتهم اذا قيسوا بالكناسين . فلا تظنن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر ، بل الرتبة العليا للأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم العلماء الراسخين فى العلم ، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم . وبالجملة من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان ، نفعه ، ورفعه لامحالة

الوظيفة العاشرة — أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد ، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره . ومعنى المهم مايهمك ، ولا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرءان وشهد له من نور البصائر مايجرى مجرى العيان ، فالأهم مايبقى أبد الآباد ؛ وعند ذلك تصير الدنيا منزلا ، والبدن مركبا ، والأعمال سعيا إلى المقصد . ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ، ففيه النعيم كله ، وإن كان لا يعرف فى هذا العالم قدره

إلا الأقلون . والعلوم بالاضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ، أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون مايسبق إلى فهم العوام والمتكلمين، على ثلاث مراتب ، تفهمها بالموازنة بمثال : وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له : إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعا ، وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعافك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك، فله ثلاثة أصناف من الشغل : (الأول) تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة. و(الثانى) السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل . و(الثالث) الاشتغال بأعمال الحج ركنا بعد ركن ، ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة . وله فى كل مقام منازل ، من أول إعداد الأسباب إلى آخره ، ومن أول سلوك البوادى إلى آخره ، ومن أول أركان الحج الى آخره . وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد فى إعداد الزاد والراحلة ، ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك ، بل هو أقرب منه . فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة ، وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا . وقسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التى عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين ، فهذا سلوك الطريق ، وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله . وكما لايغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها ، كذلك لايغنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن .وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه ، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ماذكرناه فى تراجم علم المكاشفة ، وهاهنا نجاة وفوز بالسعادة ، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى ، وهم المقربون المنعمون فى جوار الله تعالى بالرَّوْح والريحان وجنة النعيم . وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة ، كما قال الله عز وجل : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) . وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له ، أو انتهض إلى جهته

لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال، ومن الضالين، فله نُزُل من حميم وتصلية جحيم

واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين ، أعنى أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هى أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار ، وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع ، وحالهم حال من أخبر فصدّق ، ثم شاهد فحقق ، وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والايمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان . فالسعادة وراء علم المكاشفة ، وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التى هى سلوك طريق الآخرة . وقطع عقبات الصفات وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات . وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك فى ذلك وراء علم سلامة البدن: ومساعدة أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذى يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن، وهو منوط بالسلطان ، وقانونه فى ضبط الناس على منهج العدل والسياسة فى ناصية الفقيه . وأما أسباب الصحة ففى ناصية الطبيب . ومن قال : العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، وأشار به الى الفقه ، أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة

فان قلت : لم شبهت علم الطب والفقه باعداد الزاد والراحلة ؟

فاعلم أن الساعى إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ، ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس ، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ، ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح ، وتارة بالنفس المطمئنة . والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر ، وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة . وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة ، وهو مضنون به بل لا رخصة فى ذكره . وغاية المأذون فيه أن يقال · هو جوهر نفيس ودر عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية ،وإنما هو أمر إلهى، كما قال تعالى: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى» وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن ، فلله الخلق والأمر جميعا ، والأمر أعلى من الخلق ، وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها، من عالم الأمر . ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها، فان القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدرى مايقول . فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن ، فهو وراء مانحن

بصدده . والمقصود أن هذه اللطيفة هى الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب ، فمنه مصدرها، واليه مرجعها. وأما البدن فمطيتها التى تركبها وتسعى بواسطتها. فالبدن لها فى طريق الله تعالى كالناقة للبدن فى طريق الحج ، وكالراوية الخازنة للماء الذى يفتقر اليه البدن ، فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية ، ولا يخفى أن الطب كذلك، فانه قد يحتاج اليه فى حفظ الصحة على البدن ، ولو كان الانسان وحده لاحتاج اليه ،والفقه يفارقه فى أنه لو كان الانسان وحده ربما كان يستغنى عنه، ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده ،إذ لا يستقل بالسعى وحده فى تحصيل طعامه ، بالحراثة والزرع والخبز والطبخ، وفى تحصيل الملبس والمسكن، وفى إعداد آلات ذلك كله ، فاضطر إلى المخالطة والاستعانة ، ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات ، وتنازعوا وتقاتلوا ، وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج ، كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال فى الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال فى التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس فى المعاملات والأفعال فقه ، وكل ذلك لحفظ البدن الذى هو مطية . فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب اذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها اذا لم يسلك بادية الحج ، والمستغرق عمره فى دقائق الكلمات التى تجرى فى مجادلات الفقه كالمستغرق عمره فى دقائق الأسباب التى بها تستحكم الخيوط التى تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك الى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه . فتأمل هذا أولاً ، واقبل النصيحة مجانا ممن قام عليه ذلك غاليا ولم يصل اليه إلا بعد جهد جهيد ، وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة ، فى النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة . فهذا القدر كاف فى وظائف المتعلم

بيان وظائف المرشد المعلم

اعلم أن للانسان فى علمه أربعة أحوال، كحاله فى اقتناء الأموال : اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه

فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا ، وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال ، فله حال طلب واكتساب ، وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكر فى المحصّل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال . فمن علم وعمل وعلّم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فانه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيّب غيره وهو طيب . والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع ، والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق ، كما قيل :

ماهو إلا ذبالة وقدت * تضىء للناس وهى تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما ، فليحفظ آدابه ووظائفه

الوظيفة الأولى ـ الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مُجرى بنيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فان الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، ولولا المعلم لانساق ماحصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم ، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة ، أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك ، نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا ، فان العلماء وأبناء الآخرة مسافرون الى الله تعالى ، وسالكون اليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق ، والترافق فى الطريق بين المسافرين الى الأمصار سبب التواد والتحاب ، فكيف السفر الى الفردوس الأعلى والترافق فى طريقه ولا ضيق فى سعادة الآخرة ؟ فلذلك لايكون بين أبناء الآخرة تنازع ، ولا سعة فى سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم .

---

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده : أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة

والعادلون الى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وداخلون فى مقتضى قوله تعالى : (ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ)

الوظيفة الثانية ــ أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً ، بل يعلّم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب اليه ؛ ولا يرى لنفسه منّـة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك فى التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ، ولولا المتعلم مانلت هذا الثواب ؟ فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى ، كما قال عز وجل : (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ)فان المال وما فى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم ، إذ به شرف النفس ؛ فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما ، وذلك هو الانتكاس على أم الراس . ومثله هو الذى يقوم فى العرض الأكبر مع المجرمين ناكسى رءوسهم عند ربهم . وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم . فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفى غيرهما ، فانهم يبذلون المال والجاه و يتحملون أصناف الذل فى خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ، ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف اليهم ، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له فى كل نائبة ، وينصر وليه ، ويعادى عدوه ، وينتهض جهارا له فى حاجاته ، ومسخرا بين يديه فى أوطاره ، فان قصّر فى حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه ، فأخسِسْ بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ، ثم لايستحيي من أن يقول: غرضى من التدريس نشر العلم تقربا الى الله تعالى ونصرة لدينه ! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات .

الوظيفة الثالثة ــ أن لايدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى

مايمكن، فليس مايصلحه العالم الفاجر بأكثر ممايفسده ، فانْ علم من باطنه أنه لايطلب العلم إلا للدنيا نظر الى العلم الذى يطلبه : فان كان هو علم الخلاف فى الفقه والجدل فى الكلام والفتاوى فى الخصومات والأحكام ، فيمنعه من ذلك ، فان هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولامن العلوم التى قيل فيها : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث ، وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها ، فاذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه ، فانه يثمر له طمعا فى الوعظ والاستتباع ، ولكن قد يتنبه فى أثناء الأمر أو آخره ، إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك يوشك أن يؤدى الى الصواب فى الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره ، ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذى ينثر حوالى الفخ ليقتنص به الطير ، وقد فعل الله ذلك بعباده ، إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها الى بقاء النسل ، وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم . وهذا متوقع فى هذه العلوم

فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة فى القلب ، وغفلة عن الله تعالى ، وتماديا فى الضلال ، وطلبا للجاه ، إلا من تداركه الله تعالى برحمته ، أو مزج به غيره من العلوم الدينية ، ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة . فانظر واعتبر ، واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك فى العباد والبلاد ، والله المستعان . وقد رئى سفيان الثورى رحمه الله حزينا ، فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجراً لأبناء الدنيا ، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا

الوظيفة الرابعة وهى من دقائق صناعة التعليم ـ أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ماأمكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لابطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم (١) « لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ الْبَعْرِ لَفَتُّوهُ وَقَالُوا مَا نُهِينَا عَنْهُ إِلاَّ وَفِيهِ شَيْءٌ » ! وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه ، فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا ، بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضا يميل

---

(١) حديث لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ـ الحديث: لم أجده

النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته

الوظيفة الخامسة ـ أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبّح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ، ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفّر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام فى حيض النسوان ، فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن . فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره ؛ وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة

الوظيفة السادسة ـ أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال :(١)« نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ » . فليبثّ اليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً عَلَىٰ بَعْضِهِمْ » . وقال على رضى الله عنه وأشار إلى صدره : إن هاهنا لعلوما جمّة لو وجدت لها حملة . وصدق رضى الله عنه ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد . هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به ، فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير ، فان الحكمة خير من الجوهر ، ومن كرهها فهو شر من الخنازير . ولذلك قيل : كِلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار . وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » !

---

(١) حديث نحن معاشر الانبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ـ الحديث : رويناه فى جزء من حديث أبى بكر ابن الشخير من حديث عمر أخصر منه ، وعند أبى داود من حديث عائشة : انزلوا الناس منازلهم

(٢) حديث من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار : ابن ماجه من حديث أبى سعيد بإسناد ضعيف ، وتقدم حديث أبى هريرة بنحوه

فقال : اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني، فقد قال الله تعالى : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ) تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق :

أأنثر دراً بين سارحة النَّعم ... فأصبح مخزونا براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره ... فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فان لَطف الله اللطيف بلطفه ... وصادفتُ أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيدا واستفدت مودة ... وإلا فمخزون لدىّ ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة — أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى اليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه ، فان ذلك يفتر رغبته فى الجلىّ ، ويشوّش عليه قلبه ، ويوهم اليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله . وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ، ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغى أن يشوّش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فانه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحلّ عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ، فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى ، وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره ، بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة ، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات ، وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة والنار ، كما نطق به القرآن ، ولا يحرك عليهم شبهة ، فانه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك . وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث ، فانه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ، ودوام عيش الخواص

الوظيفة الثامنة — أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر ، فاذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك ، سخر الناس به واتهموه ، وزاد

حرصهم على مانهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومَثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بمالا نقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟! ولذلك قيل فى المعنى :

لاتنهَ عن خُلق وتأتىَ مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) . ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل، إذ يزل بزلته عالم كثير، ويقتدون به، و«مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْه وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» ، ولذلك قال على رضى الله عنه : قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسّك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه . والله أعلم

الباب السادس

فى آفات العلم

وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء ، وقد ورد فى العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشدّ الخلق عذابا يوم القيامة ، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، ونعنى بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ، قال صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « لَايَكُونُ الْمَرْءُ عَالِمًا حَتَّى يَكُونَ بِعِلْمِهِ عَامِلًا » . وقال صلى الله عليه وسلم [2] «الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ، فَذَلِكَ حُجَّةُ

﴿ الباب السادس ﴾

(١) حديث لايكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا : ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء ، والبيهقى فى المدخل موقوفا على أبى الدرداء ، ولم أجده مرفوعا

(٢) حديث العلم علمان علم على اللسان ـ الحديث : الترمذى الحكيم فى النوادر ، وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح ، وأسنده الخطيب فى التاريخ من رواية الحسن عن جابر باسناد جيد ، وأعله ابن الجوزى

اللهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ ؛ وَعِلْمٌ فِى الْقَلْبِ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[١] « يَكُونُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وَعُلَمَاءُ فُسَّاقٌ » وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « لَا تَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلِتَصْرِفُوا بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِى النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم: « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا عِنْدَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » . وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « لَأَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَّالِ » فقيل: وماذلك؟ فقال : « مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ » . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا » . وقال عيسى عليه السلام: إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين !

فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم ، فان العالم إما متعرض لهلاك الأبد ، أو لسعادة الأبد ، وإنه بالخوض فى العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة

وأما الآثار ، فقد قال عمر رضى الله عنه : إن أخوف ماأخاف على هذه الأمة المنافق العليم. قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لاتكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال : كفى بترك العلم إضاعة له . وقيل لابراهيم بن عيينة : أى الناس أطول ندما ؟ قال : أما فى عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لايشكره ، وأما عند الموت فعالم مفرط . وقال الخليل بن أحمد :الرجال

(١) حديث يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقة : الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف

(٢) حديث لاتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ـ الحديث : ابن ماجه من حديث جابر باسناد صحيح

(٣) حديث غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ـ الحديث : أحمد من حديث أبى ذر باسناد جيد

(٤) حديث من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وحديث على باسناد ضعيف إلا أنه قال : زهدا . وروى ابن حبان فى روضة العقلاء موقوفا على الحسن : من ازداد علما ثم ازداد على الدنيا حرصا لم يزدد من الله إلا بعدا . وروى أبو الفتح الازدى فى الضعفاء من حديث علي من ازداد بالله علما ثم ازداد للدنيا حبا ازداد الله عليه غضبا

أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى، فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لايدرى ويدرى أنه لايدرى، فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لايدرى ولايدرى أنه لايدرى ، فذلك جاهل فارفضوه. وقال سفيان الثورى رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة : عزيزَ قوم ذل ، وغنى قوم افتقر ، وعالما تلعب به الدنيا. وقال الحسن :عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وقال صلى الله عليه وسلم: (١)«إِنَّ الْعَالِمَ لَيُعَذَّبُ عَذَابًا يُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ اسْتِعْظَامًا لِشِدَّةِ عَذَابِهِ» أراد به العالم الفاجر. وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٢) : «يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَالَكَ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ آمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ » . وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم . ولذلك قال الله عز وجل : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) لأنهم جحدوا بعد العلم، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ماجعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة ، إذ قال الله : (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) وقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَاعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ،فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . وقال تعالى فى قصة بلعام بن باعوراء : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

---

(١) حديث إن العالم يعذب عذابا يطيف به أهل النار ـ الحديث : لم أجده بهذا اللفظ ، وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده

(٢) حديث أسامة بن زيد : يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى فى النار فتندلق أقتابه ـ الحديث : متفق عليه بلفظ ارجل بدل العالم

حتى قال : (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) فكذلك العالم الفاجر، فان بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات ، فشبه بالكلب ، أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات

وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لاهى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص الى الزرع . ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى

فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من الجاهل ؛ وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ،ولهم علامات :

فمنها أن لايطلب الدنيا بعلمه ، فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ، ويعلم أنهما متضادتان ، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى ، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ ؛ فبقدر ماتصب منه فى الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر ؛ فان من لايعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام مايصفو منها ، فهو فاسد العقل ، فان المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك ، فكيف يكون من العلماء من لاعقل له ؟ ومن لايعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الايمان ، فكيف يكون من العلماء من لاإيمان له ؟ ومن لايعلم مضادة الدنيا للآخرة ، وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع ، فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم ، بل هو كافر بالقرءان كله من أوله الى آخره ، فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته ، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟

وفى أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى : إن أدنى ماأصنع بالعالم اذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى . ياداود لاتسأل عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادي . ياداود اذا رأيت لى طالبا فكن له خادما .

يا داود من رد إلىّ هاربا كتبته جهبذا ، ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبداً ». ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيي بن معاذ : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيّب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص . وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم ، فان كل محب يخوض فيما أحب . وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت فى بعض الكتب السالفة أن الله تعالى يقول : إن أهون ماأصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتى من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم فى نور علمهم . وكان يحيي بن معاذ الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : ياأصحاب العلم قصوركم قيصرية ، وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية ، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآثمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ! قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقال آخر :

يامعشر القراء ياملح البلد مايصلح الملح إذا الملح فسد !

وقيل لبعض العارفين : أترى ان من تكون المعاصي قرة عينه لايعرف الله ؟ فقال : لاأشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لايعرف الله تعالى . وهذا دون ذلك بكثير . ولاتظنن أن ترك المال يكفى فى اللحوق بعلماء الآخرة ، فان الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر : حدّثنا ، باب من أبواب الدنيا ، فاذا سمعت الرجل يقول حدثنا فانما يقول أوسعوا لى . ودفن بشر بن الحارث بضعة عشر مابين قمطرة وقوصرة من الكتب ، وكان يقول أنا أشتهى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت . وقال هو وغيره : إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت ، فاذا لم تشته فحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الافادة ومنصب الارشاد أعظم لذة من كل تنعم فى الدنيا ، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثورى : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد ، وكيف لاتخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

وقال سهل رحمه الله : العلم كله دنيا ، والآخرة منه العمل به ، والعمل كله هباء إلا الاخلاص : وقال الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء سكارى إلا العاملين ، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين ، والمخلص على وجل حتى يدرى ماذا يختم له به. وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا. وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية ، أو طلب الحديث الذي لا يحتاج اليه فى طلب الآخرة . وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه ؟ وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟ وقال صالح بن كيسان البصرى : أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعَالَى لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال عز وجل فى علماء الدنيا :(وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) وقال تعالى فى علماء الآخرة : (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقال بعض السلف : العلماء يحشرون فى زمرة الأنبياء ، والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين . وفى معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه

وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) « أَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ : قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ ،

---

(١) حديث أبي هريرة من طلب علما مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضاً ـ الحديث : أبى داود وابن ماجه باسناد جيد

(٢) حديث أبى الدرداء أوحي الله الى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ـ الحديث : ابن عبد البر باسناد ضعيف

وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الْكِبَاشِ وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذِّئَابِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ ، إِيَّايَ يُخَادِعُونَ ، وَبِي يَسْتَهْزِءُونَ : لَأَفْتَحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَذَرُ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا »

وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلَانِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعًا وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا ، فَذَلِكَ يُصَلِّي عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ وَحِيتَانُ الْمَاءِ وَدَوَابُّ الْأَرْضِ وَالْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ ، يَقْدَمُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيِّدًا شَرِيفًا حَتَّى يُرَافِقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فِي الدُّنْيَا فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِ اللهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعًا وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا ، فَذَلِكَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يُنَادِي مُنَادٍ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ : هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فِي الدُّنْيَا فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَأَخَذَ بِهِ طَمَعًا وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا ، فَيُعَذَّبُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ »

وأشد من هذا ماروى أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول : حدثنى موسى صفى الله ، حدثنى موسى نجىّ الله ، حدثنى موسى كليم الله ، حتى أثرى وكثر ماله ، ففقده موسى عليه السلام ، فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبرا ، حتى جاءه رجل ذات يوم وفى يده خنزير وفى عنقه حبل أسود ، فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلانا ؟ قال : نعم ، هو هذا الخنزير ؛ فقال موسى : يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل اليه : لو دعوتنى بالذى دعانى به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به : لأنه كان يطلب الدنيا بالدين

وأغلظ من هذا ماروى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا فى رواية عن النبى

---

(١) حديث ابن عباس علماء هذه الأمة رجلان ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط باسناد ضعيف

صلى الله عليه وسلم قال :(١) «مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الاسْتِمَاعِ، وَفِي الْكَلَامِ تَنْمِيقٌ وَزِيَادَةٌ وَلَا يُؤْمَنُ عَلَى صَاحِبِهِ الْخَطَأُ، وَفِي الصَّمْتِ سَلَامَةٌ وَعِلْمٌ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَخْزُنُ عِلْمَهُ فَلَا يُحِبُّ أَنْ يُوجَدَ عِنْدَ غَيْرِهِ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الأَوَّلِ مِنَ النَّارِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَكُونُ فِي عِلْمِهِ بِمَنْزِلَةِ السُّلْطَانِ إِنْ رُدَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ تُهُووِنَ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّهِ غَضِبَ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الثَّانِي مِنَ النَّارِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَجْعَلُ عِلْمَهُ وَغَرَائِبَ حَدِيثِهِ لأَهْلِ الشَّرَفِ وَالْيَسَارِ وَلَا يَرَى أَهْلَ الْحَاجَةِ لَهُ أَهْلًا فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الثَّالِثِ مِنَ النَّارِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ لِلْفُتْيَا فَيُفْتِي بِالْخَطَأِ، وَاللهُ تَعَالَى يُبْغِضُ الْمُتَكَلِّفِينَ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الرَّابِعِ مِنَ النَّارِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِيَغْزُرَ بِهِ عِلْمُهُ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الْخَامِسِ مِنَ النَّارِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَتَّخِذُ عِلْمَهُ مُرُوءَةً وَنُبْلًا وَذِكْرًا فِي النَّاسِ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ السَّادِسِ مِنَ النَّارِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَسْتَفِزُّهُ الزَّهْوُ وَالْعُجْبُ فَإِنْ وَعَظَ عَنُفَ وَإِنْ وُعِظَ أَنِفَ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ السَّابِعِ مِنَ النَّارِ. فَعَلَيْكَ يَا أَخِي بِالصَّمْتِ فَبِهِ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضْحَكَ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ أَوْ تَمْشِيَ فِي غَيْرِ أَرَبٍ»

وفي خبر آخر(٢) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُنْشَرُ لَهُ مِنَ الثَّنَاءِ مَا يَمْلأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ) وروى أن الحسن حمل اليه رجل من خراسان كيسا بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال : ياأبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة . فقال الحسن : عافاك الله تعالى ، ضم اليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك ، إنه من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا ، لقي الله تعالى يوم القيامة

(١) حديث معاذ من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع ـ الحديث: أبو نعيم وابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة : لم أجده هكذا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة

ولا خلاق له! وعن جابر رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « لَا تَجْلِسُوا عِنْدَ كُلِّ عَالِمٍ إِلاَّ إِلَى عَالِمٍ يَدْعُوكُمْ مِنْ خَمْسٍ إِلَى خَمْسٍ : مِنَ الشَّكِّ إِلَى الْيَقِينِ وَمِنَ الرِّيَاءِ إِلَى الإِخْلَاصِ ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى الزُّهْدِ ، وَمِنَ الْكِبْرِ إِلَى التَّوَاضُعِ ، وَمِنَ الْعَدَاوَةِ إِلَى النَّصِيحَةِ، قال تعالى: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ) الآية . فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا

ومنها أن لا يخالف فعله قوله ، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به ، قال الله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) وقال تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) وقال تعالى في قصة شعيب : (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) وقال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) وقال تعالى :(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا) (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا). وقال تعالى لعيسى عليه السلام « يَا ابْنَ مَرْيَمَ عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ اتَّعَظْتَ فَعِظِ النَّاسَ وَإِلاَّ فَاسْتَحِي مِنِّي » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتُم ؟ فَقَالُوا : كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَأْتِيهِ وَنَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « هَلَاكُ أُمَّتِي عَالِمٌ فَاجِرٌ وَعَابِدٌ جَاهِلٌ وَشَرُّ الشِّرَارِ شِرَارُ الْعُلَمَاءِ ، وَخَيْرُ الْخِيَارِ خِيَارُ الْعُلَمَاءِ »

وقال الأوزاعي رحمه الله : شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار ، فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : بلغني أن

---

(١) حديث جابر لا تجلسوا عند كل عالم ـ الحديث : أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ـ الحديث : ابن حبان من حديث أنس

(٣) حديث هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء ـ الحديث : الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا بآخر الحديث نحوه، وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث

الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: ويل لمن لايعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبي : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ماأدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهى عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله : ليس فى القيامة أشد حسرة من رجل علّم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وقال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزل القَطْر عن الصفا . وأنشدوا :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهما اذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة مكتوبٍ عليه : اقلبنى تعتبر:فقلبته فاذا عليه مكتوب : أنت بما تعلم لاتعمل فكيف تطلب علم مالم تعلم ! وقال ابن السماك رحمه الله : كم من مذكّر بالله ناس لله ؛ وكم من مخوّف بالله جرىء على الله، وكم من مقرّب إلى الله بعيد من الله ؛ وكم من داع إلى الله فارّ من الله ؛ وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله ! وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله: لقد أعربنا فى كلامنا فلم نلحَن ولحنّا فى أعمالنا فلم نعرب . وقال الأوزاعى:إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع

وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غَنْم أنه قال : حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كنا ندرس العلم فى مسجد قُباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال [1] « تَعَلَّمُوا مَاشِئْتُمْ أَن تَعَلَّمُوافَلَنْ يَأْجُرَكُمُ اللهُ حَتَّى تَعْمَلُوا » وقال عيسى

---

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة تعلموا ماشئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا: علقمة بن عبد البر وأسنده ابن عدى وابو نعيم والخطيب في كتاب اقتضاء العلم للعمل من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمى موقوفا على معاذ بسند صحيح

عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت ؛ فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زَلَّـة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال عمر رضي الله عنه : إذا زل العالم زل بزلته عالَمٌ من الخلق . وقال عمر رضى الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الزمان : إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتى على الناس زمان تملُح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه ، فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة ، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم ، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر فى عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب ! فوالله الذى لا إله إلا هو ماذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى ، والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى . وفى التوراة والانجيل مكتوب : لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم وقال حذيفة رضى الله عنه : إنكم فى زمان من ترك فيه عُشر مايعلم هلك ، وسيأتى زمان من عمل فيه بعشر مايعلم نجا ، وذلك لكثرة البطالين

واعلم أن مثل العالم مثل القاضى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « اَلْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ : قَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَذَلِكَ فِى الْجَنَّةِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْجَوْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَوْ لَا يَعْلَمُ فَهُوَ فِى النَّارِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فَهُوَ فِى النَّارِ » . وقال كعب رحمه الله : يكون فى آخر الزمان علماء يزهّدون الناس فى الدنيا ولا يزهدون ، ويخوفون الناس ولا يخافون ، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، يأكلون بألسنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال ، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ الشَّيْطَانَ رُبَّمَا يُسَوِّفُكُمْ بِالْعِلْمِ » فقيل يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) حديث القضاة ثلاثة ــ الحديث: أصحاب السنن من حديث بريدة ، وهو صحيح

(٢) حديث إن الشيطان ربما سبقكم بالعلم ــ الحديث : فى الجامع من حديث أنس بسند ضعيف

« يَقُولُ : اُطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَعْمَلْ حَتَّى تَعْلَمَ ، فَلَا يَزَالُ لِلْعِلْمِ قَائِلاً وَلِلْعَمَلِ مُسَوِّفاً حَتَّى يَمُوتَ وَمَا عَمِلَ »

وقال سَرِى السَّقَطى : اعتزل رجل للتعبد كان حريصا على طلب علم الظاهر ، فسألته فقال : رأيت فى النوم قائلا يقول لى إلى كم تضيع العلم ضيعك الله! فقلت: إنى لأحفظه، فقال حفظ العلم العمل به . فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية .وقال الحسن : تعلموا ماشئتم أن تعلموا فوالله لايأجركم الله حتى تعملوا، فان السفهاء همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الرعاية . وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ، ولكن انظر مايلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرن عليه شيئا

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: أنزل القرءان ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا ، وسيأتى قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم ، والعالم الذى لايعمل كالمريض الذى يصف الدواء ، وكالجائع الذى يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها وفى مثله قوله تعالى : (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ). وفى الخبر [1]« مِمَّا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي زَلَّةُ عَالِمٍ وَجِدَالُ مُنَافِقٍ فِى الْقُرْءانِ »

ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع فى الآخرة ، المرغب فى الطاعات ، مجتنبا للعلوم التى يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال . فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا فى وقت ضيق يخشى فواته ، فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب ، وترك مهمه الذى هو مؤاخذبه ، وذلك محض السفه . وقد روى [2] « أَنَّ رَجُلًا جَاءَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: عَلِّمْنِي مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُ : مَاصَنَعْتَ فِى رَأْسِ الْعِلْمِ؟

---

(١) حديث مما أخاف على أمتى زلة عالم ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى الدرداء ، ولابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين

(٢) حديث ان رجلا جاء الي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمنى من غرائب العلم ـ الحديث : ابن السني وأبو نعيم فى كتاب الرياضة لهما وابن عبدالبر من حديث عبدالله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جدا

فقَالَ : وَمَا رَأْسُ الْعِلْمِ ؟ قَالَ صلى لله عليه وسلم : هَلْ عَرَفْتَ الرَّبَّ تعالى ؟ قَالَ نَعَمْ. قَال فَاصَنَعْتَ فى حقِّهِ ؟ قَالَ : ماشَاءَ اللهُ . فقَال صلى الله عليـه وسلم : هَلْ عَرَفْتَ الْمَوْتَ ؟ قَالَ نَعمْ . قَالَ فَمَا أعْدَدْتَ لَهُ ؟ قَالَ : مَاشَاءَ الله . قَالَ صلى الله عليه وسلم : اذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَاهُنَاكَ ثُمَّ تَعَال نُعَلِّمْكَ مِنْ غرَائب الْعِلْمِ»

بل ينبغى أن يكون المتعلم من جنس ما روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى رضى الله عنهما : أنه قال له شقيق : منذ كم صحبتنى ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال : فما تعلمت منى فى هذه المدة ؟ قال : ثمانى مسائل . قال شقيق له : إنّا لله وإنا اليهِ رَاجِعُونَ ، ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل ! قال ياأستاذ لم أتعلم غيرها ، وإنى لا أحب أن أكذب. فقال : هات هذه الثمانى مسائل حتى أسمعها

قال حاتم : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه الى القبر فاذا وصل الى القبر فارقه ، فجعلت الحسنات محبوبى ، فاذا دخلت القبر دخل محبوبى معى ، فقال أحسنت ياحاتم ، فما الثانية ؟

فقال : نظرت فى قول الله عز وجل : (وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّه وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهوَىٰ فَإِنّ الجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) فعلمت أن قوله سبحانه هو الحق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى

الثالثة : أنى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل من معه شىء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت الى قول الله عز وجل : (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) فكلما وقع معى شىء له قيمة ومقدار وجهته الى الله ليبقى عنده محفوظا

الرابعة : أنى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع الى المال والى الحسب والشرف والنسب ، فنظرت فيها فاذا هى لاشىء ، ثم نظرت الى قول الله تعالى : (إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريما

الخامسة : أنى نظرت الى هـذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضا ، وأصل هذا كله الحسد ، ثم نظرت الى قول الله عز وجل : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فى

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فتركت الحسدَ واجتنبت الخلق ، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه، فتركت عداوة الخلق عنى

السادسة : نظرت الى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ، ويقاتل بعضهم بعضا ، فرجعت إلى قول الله عزوجل (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) فعاديته وحده واجتهدت فى أخذ حذرى منه ، لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدوٌّ لى ، فتركت عداوة الخلق غيره

السابعة : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت الى قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) فعلمت أنى واحد من هذه الدواب التى على الله رزقها ، فاشتغلت بما لله تعالى علىّ ،وتركت مالى عنده

الثامنة : نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق : هذا على ضيعته ، وهذا على تجارته ، وهذا على صناعته ، وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله ، فرجعت الى قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) فتوكلت على الله عز وجل ، فهو حسبى .

قال شقيق : ياحاتم وفقك الله تعالى ، فانى نظرت فى علوم التوراة والانجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة ، وهى تدور على هذه الثمان مسائل ،فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة ..

فهذا الفن من العلم لا يهتم بادراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة ، فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ، ويهملون أمثال هذه العلوم التى بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام . وقال الضحاك بن مزاحم : أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع ، وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام

ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه فى المطعم والمشرب ، والتنعم فى الملبس ، والتجمل فى الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد فى جميع ذلك ، ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ، ويميل الى الاكتفاء بالأقل فى جميع ذلك ، وكلما زاد الى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه ،

وارتفع فى علماء الآخرة حزبه . ويشهدلذلك ماحكى عن أبى عبد الله الخوّاص ، وكان من أصحاب حاتم الأصم : قال : دخلت مع حاتم الى الرّى ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلا نريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا على رجل من التجار متقشف يحب المساكين ، فأضافنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد ، قال لحاتم : ألك حاجة ؟ فاني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل . قال حاتم : عيادة المريض فيها فضل ، والنظر إلى الفقيه عبادة ، وأنا أيضا أجىء معك ، وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى ، فلما جئنا إلى الباب فاذا قصر مشرف حسن ، فبقى حاتم متفكراً يقول : باب عالم على هذه الحالة ! ثم أذن لهم فدخلوا ، فاذا دار حسناء قوراء ، واسعة نزهة ، واذا بزة وستور ، فبقى حاتم متفكرا ، ثم دخلوا الى المجلس الذى هو فيه ، واذا بفرُش وطيئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مذبة ، فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم ، فأومأ اليه ابن مقاتل أن اجلس ، فقال : لاأجلس ، فقال : لعل لك حاجة ، قال : نعم ، قال : وما هى ؟ قال : مسألة أسألك عنها ، قال : سل ، قال : قم فاستو جالسا حتى أسألك ، فاستوى جالسا ، قال حاتم : علمك هذا من أين أخذته ؟ فقال : من الثقات حدثونى به ، قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال: عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل ، قال حاتم : ففيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، وأصحابه إلى الثقات ، وأداه الثقات اليك: هل سمعت فيه من كان فى داره إشراف وكانت سعتها أكثر ، كان له عند الله عزجل المنزلة أكبر ؟ قال : لا ، قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت أنه من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدّم لآخرته ، كانت له عند الله المنزلة ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت : أبالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم والصالحين رحمهم الله ، أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ ياعلماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة ، أفلا أكون أناشراً منه ؟ وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا ، وبلغ أهل الرّى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل ، فقالوا له : إن الطنافسى بقزوين أكثر توسعا منه ،

فسار حاتم متعمدا فدخل عليه ، فقال : رحمك الله أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى مبتدأ دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة . قال نعم وكرامة ، ياغلام هات إناء فيه ماء ، فأتى به فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثم قال : هكذا فتوضأ ، فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطنافسى وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعا أربعا ، فقال الطنافسى : باهذا أسرفت ، قال له حاتم : فيماذا ؟ قال : غسلت ذراعيك أربعا ، فقال حاتم : ياسبحان الله العظيم : أنا فى كف من ماء أسرفت وأنت فى جميع هذا كله لم تسرف ! فعلم الطنافسى أنه قصد ذلك دون التعلم ، فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوما ، فلما دخل حاتم بغداد اجتمع اليه أهل بغداد فقالوا : ياأبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمى وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معى ثلاث خصال أظهر بهن على خصمى : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى أن لا أجهل عليه . فبلغ ذلك الامام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ماأعقله ! قوموا بنا اليه، فلما دخلوا عليه قال له : ياأبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : ياأبا عبدالله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال: تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك منهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيسا ، فاذا كنت هكذا سلمت

ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة ، فقال : ياقوم أية مدينة هذه ؟ قالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلى فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطىء بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم؟ قالوا: ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض ، قال حاتم : ياقوم فهذه مدينة فرعون ! فأخذوه وذهبوا به الى السلطان وقالوا : هذا العجمى يقول : هذه مدينة فرعون ، قال الوالى: ولم ذلك ؟ قال حاتم : لا تعجل على أنا رجل أعجمى غريب دخلت البلد فقلت : مدينة من هذه ؟ فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت فأين قصره ، وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فأنتم بمن تأسيتم ؛ أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر ؟ فخلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى ، وسيأتى من سيرة السلف فى البذاذة وترك التجمل مايشهد لذلك فى مواضعه

والتحقيق فيه : أن التزين بالمباح ليس بحرام ، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لاتمكن إلا بمباشرة أسباب فى الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصى : من المداهنة ، ومراعاة الخلق ومراءاتهم ، وأمور أخر هى محظورة ؛ والحزم اجتناب ذلك ، لأن من خاض فى الدنيا لايسلم منها ألبتة ،ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لايبالغ فى ترك الدنيا حتى (١) « نَزَعَ الْقَمِيصَ الْمُطَرَّزَ بِالْعَلَمِ » « وَنَزَعَ خَاتَمَ الذَّهَبِ (٢) فِي أَثْنَاءِ الْخُطْبَةِ » إلى غير ذلك مما سيأتى بيانه

وقد حكى أن يحيي بن يزيد النوفلى كتب إلى مالك بن أنس رضى الله عنهما :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين . من يحيي بن يزيد بن عبدالملك إلى مالك بن أنس . أما بعد : فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت اليك المطى ، وارتحل اليك الناس، واتخذوك إماما ، ورضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يامالك ، وعليك بالتواضع . كتبت اليك بالنصيحة منى كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه و تعالى . والسلام

فكتب اليه مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك بن أنس إلى يحيي بن يزيد . سلام الله عليك . أما بعد : فقد وصل إلىّ كتابك فوقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب ، أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فأما ماذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك ، ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) . وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا . والسلام

فانظر الى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأفتى بأنه مباح ، وقد صدق فيهما جميعا ، ومثل مالك فى منصبه اذا سمحت نفسه بالانصاف والاعتراف فى مثل

---

(١) حديث نزع القميص العلم : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث نزع الخاتم الذهب فى أثناء الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر

هذه النصيحة ، فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح ، حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداهنة ، والتجاوز الى المكروهات ، وأما غيره فلا يقدر عليه . فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم ، وهو بعيد من الخوف والخشية . وخاصية علماء الله تعالى الخشية . وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر

ومنها ـ أن يكون مستقصيا عن السلاطين ، فلا يدخل عليهم ألبتة ما دام يجد الى الفرار عنهم سبيلا ، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا اليه ، فأن الدنيا حلوة خضرة ، وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف فى طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم ، مع أنهم ظلمة ، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم ، وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم . فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه ، أو يسكت عن الانكار عليهم فيكون مداهنا لهم ، أو يتكلف فى كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم ، وذلك هو البهت الصريح . أو أن يطمع فى أن ينال من دنياهم ، وذلك هو السحت . وسيأتى فى كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الأدرار والجوائز وغيرها . وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور ، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط

وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] «مَنْ بَدَا جَفَا ـ يعنى من سكن البادية جفا ـ وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتَنَ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] «سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ ، فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرِيءَ ، وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ أَبْعَدَهُ اللهُ تَعَالَى» قيل : أفلا نقاتلهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لَا ، مَا صَلَّوْا » . وقال سفيان : فى جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القُراء الزائرون للملوك . وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ، قيل : وما هى ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللهِ تَعَالَى مَا لَمْ يُخَالِطُوا

---

(١) حديث من بدا جفا الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث ابن عباس

(٢) حديث سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ـ الحديث : مسلم من حديث أم سلمة .

(٣) حديث أنس العلماء أمناء الرسل على عباد الله ـ الحديث : العقيلى فى الضعفاء وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات

السَّلَاطِينَ ، فَإِذَافعلُوا ذَلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَاعْتَزِلُوهُمْ » رواه أنس

وقيل للأعمش: لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك ، فقال : لاتعجلوا : ثلث يموتون قبل الادراك، وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق. والثلث الباقي لايفلح منه إلا القليل. ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله : اذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فانه لص. وقال الأوزاعي : مامن شيء أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « شِرَارُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الأُمَرَاءَ ، وَخِيَارُ الأُمَرَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْعُلَمَاءَ »

وقال مكحول الدمشقي رحمه الله : من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقا اليه وطمعا فيما لديه ، خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمنون : ماأسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال : هو عندالأمير ! قال : وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يحب الدنيافاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك، وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ، ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافا، مع أني لا آخذ منه شيئا، ولا أشرب له شربة ماء، ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بني اسرائيل : يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق هواه ، ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه ، وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم

وقال الحسن : كان فيمن كان قبلكم رجل له قَدَم في الاسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عبدالله بن المبارك ، عنى به سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، قال : وكان لا يغشى السلاطين ، وينفر عنهم. فقال له بنوه: يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الاسلام فلو أتيتهم ! فقال: يابنَيّ آتي جيفة قد أحاط بها قوم ، والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها ! قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالا ، قال: يابني لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقا سمينا ! قال الحسن : خصمهم والله ، إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن، دون الايمان. وفى هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لايسلم من النفاق ألبتة ، وهو مضاد للايمان . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة لاتغش أبواب السلاطين فانك لاتصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من

(١) حديث شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء : ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء ، وذريعة صعبة للشيطان عليهم، لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى اليه أن فى وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم و يقيم شعائر الشرع ، الى أن يخيل اليه أن الدخول عليه من الدين ، ثم اذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويداهن ، ويخوض فى الثناء والإطراء ، وفيه هلاك الدين .وكان يقال : العلماء اذا علموا عملوا ، فاذا عملوا شغلوا ، فاذا شغلوا فقدوا ، فاذا فقدوا طلبوا ، فاذا طلبوا هربوا

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله الى الحسن :

أما بعد فأشر عليّ بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى

فكتب اليه :

أما أهل الدين فلا يريدونك ، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ،ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة

هذا فى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وكان أزهد أهل زمانه ، فاذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستنسب طلب غيره ومخالطته . ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثورى وابن المبارك والفضيل وابراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم ، إما لميلهم الى الدنيا ، وإما لمخالطتهم السلاطين

ومنها ـ ألا يكون مسارعا إلى الفتيا ، بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا، فان سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى، أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدرى ، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية . هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم . وفى الخبر «الْعِلْمُ ثَلاثَةٌ (١) : كِتَابٌ نَاطِقٌ ، وَسُنَّةٌ قَائِمَةٌ ، وَلَا أَدْرِى » قال الشعبى : لا أدرى نصف العلم ، ومن سكت حيث لا يدرى لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق ، لان الاعتراف بالجهل

---

(١) حديث العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى : الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر مرفوعا نحوه مع اختلاف وقد تقدم

أشد على النفس . فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم

كان ابن عمر اذا سئل عن الفتيا قال : اذهب الى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس فى كل مايستفتونه لمجنون . وقال جنة العالم لاأدرى ، فان أخطأها فقد أصيبت مقاتله . وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : ليس شىء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم ، يقول انظروا الى هذا سكوته أشد علىّ من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : أكلهم فاقة ، ونومهم غلبة ، وكلامهم ضرورة ، أى لايتكلمون حتى يسألوا ، وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا ، فان اضطروا أجابوا . وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام .

ومرّ علىّ وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس، فقال : هذا يقول اعرفونى . وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسألة فكأنما يقلع ضرسه . وكان ابن عمر يقول : تريدون أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا الى جهنم ؟ وقال أبو حفص النيسابورى : العالم هو الذى يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة : من أين أجبت ؟ وكان ابراهيم التيمى إذا سئل عن مسألة يبكى ويقول : لم تجدوا غيرى حتى احتجتم الىّ ؟ وكان أبو العالية الرياحى وابراهيم بن أدهم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير ، فاذا كثروا انصرفوا . وقال صلى الله عليه وسلم[1] مَا أَدْرِي أَعُزَيْرٌ نَبِيٌّ أَمْ لَا ، وَمَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ مَلْعُونٌ أَمْ لَا ، وَمَا أَدْرِي ذُو الْقَرْنَيْنِ نَبِيٌّ أَمْ لَا »[2] «ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خَيْرِ الْبِقَاعِ فِى الْأَرْضِ وَشَرِّهَا ، قَالَ : لَا أَدْرِي ، حَتَّى نَزَلَ عليه جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَسَأَلَهُ فَقَال : لَا أَدْرِى ، إِلَى أَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ خَيْرَ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِدُ ، وَشَرَّهَا الْأَسْوَاقُ »

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان فى الفقهاء من يقول لاأدرى أكثر ممن يقول أدرى ، منهم سفيان الثورى ، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل

---

(١) حديث ما أدري أعزير نبى أم لا ـ الحديث :أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدرى حتى نزل جبريل ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر

والفضيل بن عياض ، وبشر بن الحارث . وقال عبدالرحمن بن أبى ليلى : أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنهم أحد يُسأل عن حديث أوفتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه ذلك . وفى لفظ آخر : كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ، ويردها الآخر إلى الآخر ، حتى تعود إلى الأول

وروى أن أصحاب الصُّفّة أُهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو فى غاية الضر ، فأهداه إلى الآخر، وأهداه الآخر إلى الآخر ، هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوبا والمطلوب مهروبا عنه . ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ماروى مسندا عن بعضهم أنه قال : لايفتى الناس إلا ثلاثة : أمير ، أو مأمور ، أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الامامة والوصية ، والوديعة ، والفتيا . وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علما ، وأشدهم دفعا لها أورعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى خمسة أشياء : قراءة القرءان ، وعمارة المساجد ، وذكر الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم[(١)] « كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا ثَلَاثَةً : أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ ، أَوْ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى »

وقال تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأى من أهل الكوفة فى المنام فقال : مارأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه ، وقال : ماوجدناه شيئا ، وما حمدنا عاقبته . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتى فى مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر ! فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفى الحديث « إِذَا رَأَيْتُمُ[(٢)] الرَّجُلَ قَدْ أُوتِيَ صَمْتًا وَزُهْدًا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةَ » .

---

(١) حديث كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال الترمذى حديث غريب

(٢) حديث اذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزهدا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث ابن خلاد باسناد ضعيف

وقيل : العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين ، أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون

وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دِجلة : كل أحد يغترف منها ، ومثل بشر بن الحارث مثل بئر عذبة مغطاة لايقصدها إلا واحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم ، وفلان متكلم ، وفلان أكثر كلاما ، وفلان أكثر عملا . وقال أبو سليمان: المعرفة إلى السكوت أقرب منها الى الكلام . وقيل : إذا كثر العلم قلّ الكلام ، واذا كثر الكلام قلّ العلم . وكتب سلمان الى أبى الدرداء رضى الله عنهما وكان «قد آخى(١) بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم» : ياأخى : بلغنى أنك قعدت طبيبا تداوى المرضى ، فانظر فان كنت طبيبا فتكلم فان كلامك شفاء وإن كنت متطببا فاللهَ اللهَ لاتقتل مسلما . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك اذا سئل . وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن . وكان ابن عباس رضى الله عنهما اذا سئل يقول : سلوا حارثة بن زيد . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب وحكى أنه روى صحابى فى حضرة الحسن عشرين حديثا فسئل عن تفسيرها فقال : ماعندى إلا مارويت ، فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثا حديثا فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه ، فأخذ الصحابى كفًّا من حصى ورماهم به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم !

ومنها ـ أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه ، وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك ، من المجاهدة والمراقبة ، فان المجاهدة تفضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلوب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تفى بذلك ، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة مع حضور القلب بصافى الفكرة ، والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه ، فذلك مفتاح الالهام ، ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة . وكم من مقتصر على المهم فى التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الألباب !

---

(١) حديث مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء : البخارى من حديث أبى جحيفة

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : [1] « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَالَمْ يَعْلَمْ »

وفى بعض الكتب السالفة : يابنى اسرائيل لا تقولوا : العلم فى السماء من ينزل به إلى الأرض، ولا فى تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر يأتى به، العلم مجعول فى قلوبكم، تأدبوا بين يدىّ بآداب الروحانيين، وتخلقوا لى بأخلاق الصدّيقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم . وقال سهل بن عبد الله التُسْتَرى رحمه الله : خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ، ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء، ثم تلاقوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) الآية . ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » . وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى : [2] « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ » الحديث. فكم من معان دقيقة من أسرار القرءان تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين ، وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه ، وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية ، وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة اليه ، وكذلك فى علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب، فان كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه ، وإنما يخوضه كل طالب بقدر ما رزق منه ، وبحسب ما وفق له من حسن العمل

وفى وصف هؤلاء العلماء قال على رضى الله عنه فى حديث طويل : « القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع أتباع لكل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكو على الانفاق والمال ينقصه الانفاق ، والعلم دين يدان به ، تكتسب به الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، العلم حاكم والمال

---

(١) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم : أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وضعفه

(٢) حديث لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كنت سمعه وبصره. وهو فى الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف

محكوم عليه، ومنفعة المال تزول بزواله، مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر. ثم تنفس الصعداء، وقال: هاه! إن ها هنا علما جمًّا لو وجدت له حملة، بل أجد طالبًا غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا، ويستطيل بنعم الله على أوليائه، ويستظهر بحجته على خلقه، أو منقادا لأهل الحق لكن ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك، أو منهوما باللذات سلس القياد في طلب الشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه، أقرب شبها بهم الأنعام السائمة، اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه، ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مكشوف، وإما خائف مقهور، لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته؛ وكم وأين أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون قدرا، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا مااستوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه، وأمناؤه وعماله في أرضه، والدعاة إلى دينه. ثم بكى وقال: واشوقاه إلى رؤيتهم!!»

فهذا الذي ذكره أخيرا هو وصف علماء الآخرة، وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة

ومنها ـ أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فان اليقين هو رأس مال الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) «اَلْيَقِينُ اَلإِيمَانُ كُلُّهُ» فلا بد من تعلم علم اليقين، أعني أوائله، ثم ينفتح للقلب طريقه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) «تَعَلَّمُوا اُلْيَقِينَ» ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم، وقليل من اليقين خير من كثير من العمل. وقال صلى الله عليه وسلم لما قيل له: رجل حسن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين، فقال صلى الله عليه وسلم (٣) «مَامِنْ آدَمِيٍّ

---

(١) حديث اليقين الايمان كله: البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(٢) حديث تعلموا اليقين: أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلا وهو معضل ورواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان

(٣) حديث قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب: الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أنس باسناد مظلم

إلاَّ وَلَهُ ذُنُوبٌ » ولـكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم ، فتكفر ذنوبه ، ويبقى له فضل يدخل به الجنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[1] «إِنَّ مِنْ أَقَلِّ مَاأُوتِيتُمُ الْيَقِينَ وَعَزِيمَةَ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِىَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ مَافَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ» . وفى وصية لقمان لابنه : يابنى لايستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه

وقال يحيى بن معاذ : إن للتوحيد نورا ، وللشرك نارا ، وإن نور التوحيد أحرقُ لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين . وأراد به اليقين . وقد أشار الله تعالى فى القرءان إلى ذكر الموقنين فى مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات

فان قلت : فامعنى اليقين ، وما معنى قوته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه ، فان مالاتفهم صورته لايمكن طلبه ؟

فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين : أما النظّار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك ، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء له أربع مقامات :

الأول ـ أن يعتدل التصديق والتكذيب ؛ ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن شخص معين أن الله تعالى يعاقبه أم لا وهو مجهول الحال عندك ، فان نفسك لاتميل إلى الحكم فيه باثبات ولا نفى ، بل يستوى عندك إمكان الأمرين ، فيسمى هذا شكا

الثانى ـ أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بامكان نقيضه ، ولكنه إمكان لايمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فان نفسك تميل إلى أنه لايعاقب أكثر من ميلها الى العقاب ، وذلك لظهور علامات الصلاح ، ومع هذا فأنت تجوّز اختفاء أمر موجب للعقاب فى باطنه وسريرته ،فهذا التجويز مساوٍ لذلك الميل ، ولـكنه غير دافع رجحانه . فهذه الحالة تسمى ظنا

الثالث ـ أن تميل النفس الى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولايخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ، ولـكن ليس ذلك مع معرفة محققة ، إذ لو أحسن صاحب

---

(١) حديث من أولى ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ـ الحديث: لم أقف له على أصل وروى ابن عبد البر من حديث معاذ ماأنزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من الحلم ـ الحديث

هذا المقام التأمل والاصغاء الى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقادا مقاربا لليقين ، وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها ، إذ رسخ فى نفوسهم بمجرد السماع ، حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله

الرابع ـ المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لايشك فيه ولا يتصوّر الشك فيه ، فاذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينا عند هؤلاء . ومثاله أنه إذا قيل للعاقل : هل فى الوجود شىء هو قديم؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة ، لأن القديم غير محسوس، لا كالشمس والقمر ، فانه يصدق بوجودهما بالحس ، وليس العلم بوجود شىء قديم أزلى ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، بل مثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فان هذا أيضا ضرورى ، فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة . ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزما ويستمر عليه ، وذلك هو الاعتقاد ، وهو حال جميع العوام . ومن الناس من يصدّق به بالبرهان وهو أن يقال له : إن لم يكن فى الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة ، فان كانت كلها حادثة فهى حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالمؤدى الى المحال محال ، فيلزم فى العقل التصديق بوجود شىء قديم بالضرورة ، لأن الأقسام ثلاثة : وهى أن تكون الموجودات كلها قديمة ، أو كلها حادثة ، أو بعضها قديمة وبعضها حادثة ، فان كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كان الكل حادثا فهو محال، إذ يؤدى الى حدوث بغير سبب ، فيثبت القسم الثالث أو الأول ، وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينا عند هؤلاء ، سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل ، كالعلم باستحالة حادث بلا سبب ، أو بتواتر كالعلم بوجود مكة ، أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل ، أو بدليل كما ذكرنا

فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك . فكل علم لاشك فيه يسمى يقينا عند هؤلاء، وعلى هذا لايوصف اليقين بالضعف ، إذ لا تفاوت فى نفى الشك .

الاصطلاح الثانى — اصطلاح الفقهاء والمتصوّفة وأكثر العلماء ، وهو أن لا يلتفت فيه الى اعتبار التجويز والشك ، بل الى استيلائه وغلبته على العقل ، حتى يقال : فلان ضعيف اليقين

بالموت مع أنه لاشك فيه ، ويقال: فلان قوى اليقين فى إتيـان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لايأتيه . فمها مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع ، سمى ذلك يقينا .ولا شك فى أن الناس مشتركون فى القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولـكن فيهم من لايلتفت اليه ، ولا الى الاستعداد له ، وكأنه غير موقن به . ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعا لغيره، فيعبر عن مثل هذه الحـالة بقوة اليقين . ولذلك قال بعضهم : مارأيت يقينا لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت . وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة . ونحن إنما أردنا بقولنا : إن من شأن علمـاء الآخرة صرف العناية الى تقوية اليقين بالمعنيين جميعا ، وهو نفى الشك ، ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها

فاذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام، بالقوة والضعف ، والـكثرة والقلة ، والخفاء والجلاء ، فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثـانى ، وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب ، ودرجات معانى اليقين فى القوة والضعف لاتتناهى ، وتفاوت الخلق فى الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى .وأما التفاوت بالخفاء والجلاء فى الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضا ، أما فيما يتطرق اليه التجويز فلا ينكر،أعنى الاصطلاح الثانى ، وفيما انتفى الشك أيضـا عنه لاسبيل الى إنكاره ، فانك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فَدَك مثلا ، وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لاتشك فى الأمرين جميعا ،اذمستندهما جميعا التواتر؛ ولـكن ترى أحدهما أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى ؛ لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين ، وكذلك يدرك الناظر هذا فى النظريات المعروفة بالأدلة ، فانه ليس وضوح مالاح له بدليل واحد كوضوح مالاح له بالأدلة الـكثيرة مع تساويهما فى نفى الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الـكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال. وأما القلة والـكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علما من فلان ، أى معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ماورد الشرع به ، وقد يكون قوى اليقين فى بعضه

فان قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه ، وكثرته وقلته ، وجلاءه وخفاءه ، بمعنى نفى

الشك ، أو بمعنى الاستيلاء على القلب ، فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه، وفيماذا يطلب اليقين، فانى مالم أعرف مايطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه ؟

فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين، فان اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة، ومتعلقه المعلومات التى وردت بها الشرائع، فلا مطمع فى إحصائها ، ولكنى أشير إلى بعضها وهى أمهاتها :

فمن ذلك التوحيد : وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخرة لاحكم لها ،فالمصدق بهذا موقن ، فان انتفى عن قلبه مع الايمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين ، فان غلب على قلبه مع الايمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم، ونزّل الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع فانه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما، بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين ، فقد صار موقنا بالمعنى الثانى، وهو الأشرف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب ، وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل ، استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم ، وصار موقنا بريئا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق . فهذا أحد أبواب اليقين

ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) ، واليقين بأن ذلك يأتيه ، وأن ما قدر له سيساق اليه . ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملا فى الطلب ، ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على مافاته ، وأثمر هذا اليقين أيضا جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة

ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ،وهو اليقين بالثواب والعقاب ، حتى يرى نسبة الطاعات الى الثواب كنسبة الخبز الى الشبع ، ونسبة المعاصى الى العقاب كنسبة السموم والأفاعى الى الهلاك ، فكما يحرص على التحصيل للخبز طلبا للشبع فيحفظ قليله وكثيره ، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها ،وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها ، فكذلك يجتنب المعاصى قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها . فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين ، أما بالمعنى الثانى فيختص به المقربون.

وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة فى الحركات والسكنات والخطرات، والمبالغة فى التقوى، والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ

ومن ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك فى كل حال ، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك ، فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك ، وأما بالمعنى الثانى وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصدّيقون . وثمرته أن يكون الانسان فى خلوته متأدبا فى جميع أحواله ، كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر اليه ، فانه لا يزال مطرقا متأدبا فى جميع أعماله ، متماسكا محترزا عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ، ويكون فى فكرته الباطنة كهو فى أعماله الظاهرة ، إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره ، فتكون مبالغته فى عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته فى تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام فى اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار ، والذل والاستكانة والخضوع ، وجملة من الأخلاق المحمودة . وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة ، فاليقين فى كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة . وهذه الأخلاق فى القلب مثل الأغصان المتفرعة منها . وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان . فاليقين هو الأصل والأساس ، وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه . وسيأتى ذلك فى ربع المنجيات ، إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف فى معنى اللفظ الآن

ومنها ـ أن يكون حزينا منكسرا مطرقا صامتا ، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته : لا ينظر اليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى ، وكانت صورته دليلا على عمله ، فالجواد عينه مرآته ، وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذلة والتواضع . وقد قيل : ما ألبس الله عبدا ألبسة أحسن من خشوع فى سكينة، فهى لبسة الأنبياء ، وسيما الصالحين والصديقين والعلماء

وأما التهافت فى الكلام والتشدّق ، والاستغراق فى الضحك والحدة فى الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر ، والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه ، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به . وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التُّسْتَرى رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله ، وهم المفتون فى الحلال والحرام ، وهذا العلم لا يورث الخشية ؛ وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهم عموم المؤمنين؛ وعالم بالله تعالى وبأمر الله

تعالى وبأيام الله تعالى، وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم . وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة . فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه

وقال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، وليتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء : فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ماآتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا ؛ فذلك هو العلم النافع . وفى الأثر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفى الخبر (١) « إِنَّ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ ، أَبْدَانُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَقُلُوبُهُمْ فِي السَّمَاءِ ، أَرْوَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَعُقُولُهُمْ فِي الآخِرَةِ ،يَتَمَشَّوْنَ بِالسَّكِينَةِ ،وَيَتَقَرَّبُونَ بِالْوَسِيلَةِ » . وقال الحسن: الحلم وزير العلم ،والرفق أبوه، والتواضع سرباله

وقال بشر بن الحارث: من طلب الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فانه ممقوت فى السماء والأرض. ويروى فى الاسرائيليات أن حكيما صنف ثلاثمائة وستين مصنفا فى الحكمة حتى وصف بالحكيم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان ملأت الأرض نفاقا ولم تردنى من ذلك بشىء وإنى لاأقبل من نفاقك شيئا . فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة ومشى فى الأسواق ووا كل بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له :الآن وفقت لرضاى

وحكى الأزاعى رحمه الله عن بلال بن سعد أنه كان يقول : ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيذ بالله منه ؛ وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطى . وروى أنه (٢) « قِيلَ : يَارَسُولَ اللهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ

(١) حديث إن من خيار أمتى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه الحديث : الحاكم والبيهقى فى شعب الايمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان

(٢) حديث قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله الحديث : لم أجده هكذا بطوله وفى زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلا : سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أى الأعمال أفضل قال أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى. وللدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء . وقد تقدم

اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ، وَلَا يَزَالُ فُوكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى. قيل: فَأَيُّ الْأَصْحَابِ خَيْرٌ؟ قال صلى الله عليه وسلم: صَاحِبٌ إِنْ ذَكَرْتَ اللَّهَ أَعَانَكَ، وَإِنْ نَسِيتَهُ ذَكَّرَكَ. قيل: فَأَيُّ الْأَصْحَابِ شَرٌّ؟ قال صلى الله عليه وسلم: صَاحِبٌ إِنْ نَسِيتَ لَمْ يُذَكِّرْكَ، وَإِنْ ذَكَرْتَ لَمْ يُعِنْكَ. قيل: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قال: أَشَدُّهُمْ لِلَّهِ خَشْيَةً. قيل: فَأَخْبِرْنَا بِخِيَارِنَا نُجَالِسْهُمْ. قال صلى الله عليه وسلم: الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ. قيل: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قال: اللَّهُمَّ غَفْرًا. قَالُوا أَخْبِرْنَا يَارَسُولَ اللَّهِ، قال: الْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا»

وقال صلى الله عليه وسلم (١) «إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أَمَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ فِكْرًا فِي الدُّنْيَا، وَأَكْثَرَ النَّاسِ ضَحِكًا فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُهُمْ بُكَاءً فِي الدُّنْيَا، وَأَشَدُّ النَّاسِ فَرَحًا فِي الْآخِرَةِ أَطْوَلُهُمْ حُزْنًا فِي الدُّنْيَا»

وقال على رضى الله عنه فى خطبة له: ذمتى رهينة وأنا به زعيم، إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظمأ على الهدى سبخ أصل، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قَمَش علما أغار به فى أغباش الفتنة، سمّاه أشباه له من الناس وأرذالهم عالما، ولم يعش فى العلم يوما سالما، بكّر واستكثر، فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى، حتى إذا ارتوى من ماء آجن، وأكثر من غير طائل، جلس للناس معلما لتخليص ما التبس على غيره، فان نزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيه حشو الرأى، فهو من قطع الشبهات فى مثل نسج العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب، ركّاب جهالات، خباط عشوات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم، تبكى منه الدماء، وتستحل بقضائه الفروج الحرام، لا ملىء والله بإصدار ما ورد عليه، ولا هو أهل لما فوض اليه، أولئك الذين حلت عليهم المثُلات، وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا. وقال على رضى الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب

وقال بعض السلف: العالم إذا ضحك ضَحْكَة مَجَّ من العلم مَجّة. وقيل: إذا جمع المعلم

(١) حديث إن أكثر الناس أمنا يوم القيامة أكثرهم خوفا في الدنيا ـ الحديث: لم أجد له أصلا

ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المعلم : العقل، والأدب، وحسن الفهم. وعلى الجملة فالأخلاق التى ورد بها القرءان لاينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرءان للعمل لا للرياسة. وقال ابن عمر رضى الله عنهما(١) « لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْءانِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ فَيَتَعَلَّمُ حَلاَلَهَا وَحَرَامَهَا وَأَوَامِرَهَا وَزَوَاجِرَهَا ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالاً يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْءانَ قَبْلَ الإِيمَانِ فَيَقْرَأُ مَابَيْنَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتِمَتِهِ لاَيَدْرِى مَا آمِرُهُ وَمَا زَاجِرُهُ وَمَايَنْبَغِى أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ ،يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ» وفى خبر آخر بمثل معناه(٢) « كُنَّا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أُوتِينَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْءانِ ، وَسَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يُؤْتَوْنَ الْقُرْءانَ قَبْلَ الإِيمَانِ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ وَيُضَيِّعُونَ حُدُودَهُ وَحُقُوقَهُ يَقُولُونَ قَرَأْنَا فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا وَعَلِمْنَا فَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا ؟ فَذَلِكَ حَظُّهُمْ» وفى لفظ آخر: « أُولَئِكَ شِرَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ »

وقيل : خمس من الأخلاق هى من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل: الخشية، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا، وهو الزهد، فأما الخشية فمن قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . وأما الخشوع فمن قوله تعالى: (خَاشِعِينَ للهِ لاَيَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) . وأما التواضع فمن قوله تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) . وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) وأما الزهد فمن قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) ولما تلا(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :(فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

---

(١) حديث ابن عمر لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الايمان قبل القرءان ـ الحديث : الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقى

(٢) حديث كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الايمان قبل القرءان ـ الحديث: ابن ماجه من حديث جندب مختصرا مع اختلاف

(٣) حديث لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام» الحديث الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن مسعود

صَدْرَهُ للإِسْلَامِ) فقيل له : ماهذا الشَّرْحُ ؟ فقال : إن النُّورَ إذا قُذِفَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ ، قيل : فَهَلْ لِذَلِكَ مِن عَلَامَةٍ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نَعَمْ : التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ »

ومنها ـ أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب و يهيج الوسواس و يثير الشر ، فان أصل الدين التوقى من الشر ، ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة ، وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان ، وإنما الشأن فى معرفة مايفسدها ويشوشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة اليه ، وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة

وأما علماء الدنيا فانهم يتبعون غرائب التفريعات فى الحكومات والأقضية ، ويتعبون فى وضع صور تنقضى الدهور ولا تقع أبدا ، وإن وقعت فانما تقع لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان فى القائمين بها كثرة ، ويتركون مايلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فى خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم . وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر ، إيثارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه ، وشرهاً فى أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق ! وجزاؤه من الله أن لا ينتفع فى الدنيا بقبول الخلق ، بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ، ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على مايشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين ، وذلك هو الخسران المبين

ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم : اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك ، وكان أكثر كلامه فى خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس ، والصفات الخفية الغامضة ، من شهوات النفس . وقد قيل له : ياأبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن

أين أخذته ؟ قال: خصّني به رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ أَقَعَ فِيهِ وَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَا يَسْبِقُنِي عِلْمُهُ » . وقال مرة : « فَعَلِمْتُ أَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ لَا يَعْرِفُ الْخَيْرَ » وفى لفظ آخر « كَانُوا يَقُولُونَ يَارَسُولَ اللَّهِ مَا لِمَنْ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا ؟ يَسْأَلُونَهُ عَنْ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ ، وَكُنْتُ أَقُولُ يَارَسُولَ اللَّهِ : مَا يُفْسِدُ كَذَ وَكَذَا ؟ فَلَمَّا رَآنِي أَسْأَلُهُ عَنِ آفَاتِ الْأَعْمَالِ خَصَّنِي بِهَذَا الْعِلْمِ »

وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين ، وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة . وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم، ولا يخبر بأسمائهم . وكان عمر رضى الله عنه يسأله عن نفسه : هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك . وكان عمر رضى الله عنه اذا دُعى الى جنازة ليصلى عليها نظر : فان حضر حذيفة صلى عليها ، وإلا ترك . وكان يسمى صاحب السر

فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة ، لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى . وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا ، واذا تعرض العالم لشىء منه استغرب واستبعد ، وقيل هذا تزويق المذكرين ، فأين التحقيق ، ويرون أن التحقيق فى دقائق المجادلات . ولقد صدق من قال :

الطُّرْق شتىّ وطُرْق الحق مفردة والسالكون طريقَ الحق أفراد
لا يُعرفون ولا تُدرى مقاصدُهم فهم على مهل يمشون قُصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم ، فان الحق مرّ ، والوقوف عليه صعب ، وإدراكه شديد ، وطريقه مستوعر ، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة ، فان ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب

---

(١) حديث حذيفة كان الناس يُسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أساله عن الشر ـ الحديث : أخرجاه مختصرا

للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء ، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه ، فهو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت ، ومتى تكثر الرغبة فى هذا الطريق . ولذلك قيل : إنه كان فى البصرة مائة وعشرون متكلما فى الوعظ والتذكير، ولم يكن من يتكلم فى علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة : منهم سهل التُستَرى ، والصبيحى ، وعبد الرحيم ، وكان يجلس إلى أولئك الخلقُ الكثير الذى لا يحصى ، وإلى هؤلاء عدد يسير قلّما يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص ، وما يبذل للعموم فأمره قريب

ومنها ـ أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره ، وإنما المقلَّد صاحبُ الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله ؛ وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فى تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصا على فهم أسراره ؛ فان المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعلَه ، وفعله لا بد وأن يكون لسرّ فيه ، فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال ، فانه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ، ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ، فلا يسمى عالما اذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحِكَم والأسرار ، ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار فى نفسه متبوعا مقلَّدا ، فلا ينبغى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما(١) «مَامِنْ أَحَدٍ إِلاَّ يُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِهِ وَيُتْرَكُ إِلاَّ رَسُولَ ٱللَّهِ صلى الله عليه وسلم » وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه ، وقرأ على أبىّ بن كعب ، ثم خالفهما فى الفقه والقراءة جميعا . وقال بعض السلف : ماجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين ، وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فنأخذ منه ونترك ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال

وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتلاق قلوبهم أمورا أدركت بالقرائن ، فسددهم ذلك الى الصواب من حيث لا يدخل فى الرواية والعبارة

---

(١) حديث ابن عباس مامن أحد الا يؤخذ من علمه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم: الطبرانى من من حديثه يرفعه بلفظه من قوله: ويدع

إذ فاض عليهم من نور النبوّة مايحرسهم فى الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليدا غير مرضىّ فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد ، بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شىء منها فى زمن الصحابة وصدر التابعين ، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة ، وبعد وفاة جميع الصحابة وجلة التابعين رضى الله عنهم ، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ، بل كان الأولون يكرهون كَتْب الأحاديث وتصنيف الكتب ، لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرءان وعن التدبر والتذكر ، وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ . ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصحيف القرءان فى مصحف ، وقالوا : كيف نفعل شيئا مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخافوا اتكال الناس على المصاحف ، وقالوا : نترك القرءان يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم ، حتى أشار عمر رضى الله عنه وبقية الصحابة بكَتْب القرءان ، خوفا من تخاذل الناس وتكاسلهم ، وحذرا من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع اليه فى كلمة أو قراءة من المتشابهات ، فانشرح صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك ، فجمع القرءان فى مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك فى تصنيفه الموطأ ، ويقول : ابتدع مالم تفعله الصحابة رضى الله عنهم

وقيل : أول كتاب صنف فى الاسلام كتاب ابن جريج فى الآثار ، وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن ، جمع فيه سننا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثورى .

ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام ، وكثر الخوض فى الجدال ، والغوص فى إبطال المقالات ، ثم مال الناس اليه وإلى القصص والوعظ بها ، فأخذ علم اليقين فى الاندراس من ذلك الزمان ، فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب ، والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان ، وأعرض عن ذلك إلا الأقلون ، فصار يسمى المجادل المتكلم عالما ، والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما ، وهذا لأن العوام هم المستمعون اليهم ، فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلومهم ظاهرةً عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم ، فاستمر عليهم اسم العلماء ، وتوارث اللقب خلف عن سلف ، وأصبح

علم الآخرة مطويا، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم : كانوا إذا قيل لهم فلان أعلم أم فلان ، يقولون: فلان أكثر علما ، وفلان أكثر كلاما، فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضعف الدين فى قرون سالفة ، فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الانكار يستهدف لنسبته إلى الجنون، فالأولى أن يشتغل الانسان بنفسه ويسكت

ومنها أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يغرنّه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم ، وليكن حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثر همهم : أكان فى التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم فى العشرة ، أم كان فى الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان ، إلى غير ذلك من علوم الباطن

واعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف ، فمنهم أخذ الدين ، ولذلك قال على رضى الله عنه : خيرنا أتبعنا لهذا الدين لمّا قيل له : خالفت فلانا . فلا ينبغى أن يكترث بمخالفة أهل العصر فى موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الناس رأوا رأيا فيما هم فيه لميل طباعهم اليه ، ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة ، فادّعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه . ولذلك قال الحسن : محدثان أحدثا فى الاسلام : رجل ذو رأى سىء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترَفٌ يعبد الدنيا،لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب ، فارفضوهما إلى النار ، وإن رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه ، وصاحب هوى يدعوه إلى هواه ، وقد عصمه الله تعالى منهما ، يحنّ إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتفى آثارهم ، متعرض لأجر عظيم ، فكذلك كونوا

وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومسندا (١) أنه قال : « إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ : الْكَلَامُ

---

(١) حديث ابن مسعود إنما هما اثنتان الكلام والهدى ـ الحديث : ابن ماجه

وَالْهُدَى ، فَأَحْسَنُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ تعالَى ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، أَلَا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ شَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، أَلَا لَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ ، أَلَا كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، أَلَا إِنَّ الْبَعِيدَ مَا لَيْسَ بِآتٍ »

وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكَمِ ، وَجَانَبَ أَهْلَ الزَّلَلِ وَالْمَعْصِيَةِ ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ وَلَمْ يَعْدُهَا إِلَى بِدْعَةٍ »

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : حُسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أنتم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور ، وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق ، فمن لم يتوقف فى هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه ، هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضى الله عنه : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى ، وإنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به . ولقد صدق ، فان أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، إذ من غرر المعروفات فى زماننا تزيين المساجد وتنجيدها ، وإنفاق الأموال العظيمة فى دقائق عماراتها ، وفرش البسط الرفيعة فيها

ولقد كان يعد فرش البوارى فى المسجد بدعة . وقيل إنه من محدثات الحجاج ، فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا

---

(١) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالا اكتسبه ـ الحديث : أبو نعيم من حديث الحسين ابن على بسند ضعيف والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره ، والطبرانى والبيهقى من حديث ركب المصرى وسط الحديث وكلها ضعيفة .

وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجلّ علوم أهل الزمان ، ويزعمون أنه من أعظم القربات . وقد كان من المنكرات

ومن ذلك التلحين فى القرءان والأذان

ومن ذلك التعسف فى النظافة والوسوسة فى الطهارة ، وتقدير الأسباب البعيدة فى نجاسة الثياب ، مع التساهل فى حل الأطعمة وتحريمها ؛ إلى نظائر ذلك

ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أنتم اليوم فى زمانٍ الهوى فيه تابع للعلم ،وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول: تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ، ماأقل العلم فيهم ! والله المستعان . وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ، ولم يكن العلماء يقولون : حرام ولا حلال ، ولكن أدركتهم يقولون : مستحب ومكروه . ومعناه أنهم كانوا ينظرون فى دقائق الكراهة والاستحباب ، فأما الحرام فكان فحشه ظاهرا . وكان هشام بن عروة يقول : لا تسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فانهم قد أعدوا له جوابا ، ولكن سلوهم عن السنة فانهم لايعرفونها . وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله يقول :لاينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر فيحمدالله تعالى إذ وافق مافى نفسه. وإنما قال هذا لأن ماقد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب ، وربمايشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا . فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر فى صلاة العيد عند المصلى قام اليه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه فقال: يامروان ماهذه البدعة ؟ فقال: إنها ليست ببدعة ، إنها خير مما تعلم ،إن الناس قد كثروا فاردت أن يبلغهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لاتأتون بخير مما أعلم أبدا ، ووالله لاصليت وراءك اليوم ! وإنما أنكر ذلك عليه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « كَانَ يَتَوَكَّأُ فِي خُطْبَةِ الْعِيدِ وَالِاسْتِسْقَاءِ عَلَى قَوْسٍ أَوْ عَصاً » لَا عَلَى الْمِنْبَرِ

---

(١) حديث كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس او عصا : الطبرانى من حديث البراء ونحوه فى يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهوضعيف ورواه فى الصغير من حديث سعد القرظ كان اذا خطب فى العيدين خطب على قوس واذا خطب فى الجمعة خطب على عصا وهو عند ابن ماجه بلفظ كان اذا خطب فى الحرب خطب على قوس ـ الحديث

وفي الحديث المشهور[١] « مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا مَالَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . وفي خبر آخر : « مَنْ [٢] غَشَّ أُمَّتِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ » قيل يارسول الله : وما غش أمتك ؟ قَالَ« أَنْ يَبْتَدِعَ بِدْعَةً يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ لِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ : مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم لَمْ تَنَلْهُ شَفَاعَتُهُ » ومثال الجانى على الدين بابداع مايخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك فى قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره فى خدمة معيَّنة ،وذلك قد يغفر له؛ فأما قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ماتكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء ، وماسكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جاوزه ظلم ، ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « عَلَيْكُمْ بِٱلنَّمَطِ ٱلأَوْسَطِ ٱلَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ ٱلْعَالِي وَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ ٱلتَّالِي »

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الضلالة لها حلاوة فى قلوب أهلها ، قال الله تعالى : (وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) وقال تعالى: (أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) . فكل ماأحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم مماجاوز قدر الضرورة والحاجة ،فهو من اللعب واللهو

وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده فى وقت الصحابة رضى الله عنهم فرجعوا اليه محسورين ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء : ما نصيب منهم شيئا وقدأتعبونا، فقال : إنكم لا تقدرون عليهم : قد صحبوا نبيهم ، وشهدوا تنزيل ربهم ، ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم . فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا اليه منكسين ، فقالوا : ما رأينا أعجب من هؤلاء : نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فاذا كان آخر النهار

---

(١) حديث من أحدث فى ديننا ما ليس فيه فهو رد : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ :فى أمرنا ماليس منه . وعند أبى داود فيه

(٢) حديث من غش أمتى فعليه لعنة الله ـ الحديث :الدارقطنى فى الافراد من حديث أنس بسند ضعيف جداً

(٣) حديث إن لله ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته: لم أجد له أصلا

(٤) حديث عليكم بالنمط الأوسط ـ الحديث : أبو عبيد في غريب الحديث موقوفا على على بن أبى طالب ولم أجده مرفوعا

أخذوا فى الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ، فقال : إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم ، واتباعهم لسنة نبيهم ، ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم ، تلعبون بهم لعبا ، وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم ، إن استغفروا لم يغفر لهم ، ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات . قال : فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع ، فاستحلوها ، واتخذوها دينا ، لا يستغفرون الله منها ، ولا يتوبون عنها ، فسلط عليهم الأعداء ، وقادوهم أين شاءوا

فان قلت : من أين عرَف قائلُ هذا ماقاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدّثه بذلك؟

فاعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت ، تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة ، وتارة فى اليقظة على سبيل كشف المعانى بمشاهدة الأمثلة كما يكون فى المنام ، وهذا أعلى الدرجات ، وهى من درجات النبوّة العالية ، كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة

فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ماجاوز حد قصورك ، ففيه هلك المتحذلقون من العلماء ، الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول . فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى . ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء ، وكان خارجا عن الدين بالكلية . قال بعض العارفين : إنما انقطع الأبدال فى أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور ، لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت ، لأنهم عندهم جهال بالله تعالى ، وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التُّسْتَرى رضى الله عنه : إن من أعظم المعاصى الجهل بالجهل ، والنظر إلى العامة ، واستماع كلام أهل الغفلة ، وكل عالم خاض فى الدنيا فلا ينبغى أن يصغى إلى قوله ، بل ينبغى أن يتهم فى كل مايقول ، لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ، ويدفع مالا يوافق محبوبه . ولذلك قال الله عز وجل (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) . والعوام العصاة أسعد حالا من الجهال بطريق الدين ، المعتقدين أنهم من العلماء ، لأن العامى العاصى معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب ، وهذا الجاهل الظان أنه عالم فان ماهو مشتغل به من العلوم التى هى وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين ، فلا يتوب ولا يستغفر ، بل لا يزال مستمرا عليه إلى الموت

وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى ، وانقطع الطمع من إصلاحهم ، فالأسلم لذى الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم ، كما سيأتى فى كتاب العزلة بيانه، إن شاء الله تعالى. ولذلك كتب يوسف بن أسباط الى حذيفة المرعشى : ماظنك بمن بقى لايجد أحدا لايذكر الله تعالى معه إلا كان آثما أو كانت مذاكرته معصيةً ، وذلك أنه لايجد أهله ؟ ولقد صدق ، فان مخالطة الناس لاتنفك عن غيبة أو سماع غيبة ، أو سكوت على منكر . وإن أحسن أحواله أن يفيد علما أو يستفيده . ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لاتخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة ، علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة الى طلب الدنيا ، ووسيله الى الشر ، فيكون هو معينا له على ذلك ؛ وردءاً وظهيرا ومهيئا لأسبابه ، كالذى يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم كالسيف ، وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ،ولذلك لايرخص له فى البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق

فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف . فكن أحد رجلين : إما متصفا بهذه الصفات ، أو معترفا بالتقصير مع الإقرار به. وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن بدلت آلة الدنيا بالدين ، وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين ، وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين . نعوذ بالله من خدع الشيطان ،فبها هلك الجمهور. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لاتغره الحياة الدنيا ، ولا يغره بالله الغرور !

الباب السابع

فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لايحتاج إلى تكلف فى إظهاره ، لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل. والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ،والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين ، فكيف لايشرف ماهو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة ؟

أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل ، حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة اذا رأى صورة الانسان احتشمه وهابه ، لشعوره باستيلائه عليه ، لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ » وليس ذلك لكثرة ماله ، ولا لكبر شخصه ، ولا لزيادة قوته ، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله ، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع ، ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة ، هابوه ، وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة ، وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل

فشرف العقل مدرك بالضرورة . وإنما القصد أن نورد ماوردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه ، وقد سماه الله نورا في قوله تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) . وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة ، فقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) . وقال سبحانه : (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) . وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل ، كقوله : (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْقِلُوا عَنْ رَبِّكُمْ وَتَوَاصَوْا بِالْعَقْلِ تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُنْجِدُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ دَمِيمَ الْمَنْظَرِ حَقِيرَ الْخَطَرِ دَنِيَّ الْمَنْزِلَةِ رَثَّ الْهَيْئَةِ ، وَإِنَّ الْجَاهِلَ مَنْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ جَمِيلَ الْمَنْظَرِ عَظِيمَ الْخَطَرِ شَرِيفَ الْمَنْزِلَةِ حَسَنَ الْهَيْئَةِ فَصِيحًا نَطُوقًا ، فَالْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ أَعْقَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّنْ عَصَاهُ ، وَلَا تَغْتَرَّ

﴿ الباب السابع في العقل ﴾

(١) حديث الشيخ في قومه كالنبي في أمته : ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف

(٢) حديث يأيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل ـ الحديث : داود بن المحبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود

بِتَعْظِيمِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِيَّاكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ ، بِكَ آخُذُ ، وَبِكَ أُعْطِي ، وَبِكَ أُثِيبُ ، وَبِكَ أُعَاقِبُ » .

فان قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز ؟

فاعلم أن هذا من علم المكاشفة ، فلا يليق ذكره بعلم المعاملة . وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضي الله عنه (٢) قال « أَثْنَى قَوْمٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حَتَّى بَالَغُوا ، فقال صلى الله عليه وسلم : كَيْفَ عَقْلُ الرَّجُلِ ؟ فَقَالُوا : نُخْبِرُكَ عَنِ اجْتِهَادِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَأَصْنَافِ الْخَيْرِ وَتَسْأَلُنَا عَنْ عَقْلِهِ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ ، وَإِنَّمَا يَرْتَفِعُ الْعِبَادُ غَدًا فِي الدَّرَجَاتِ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » . وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « مَا اكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ فَضْلِ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى وَيَرُدُّهُ عَنْ رَدًى ، وَمَا تَمَّ إِيمَانُ عَبْدٍ وَلَا اسْتَقَامَ دِينُهُ حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ، وَلَا يَتِمُّ لِرَجُلٍ حُسْنُ خُلُقِهِ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَمَّ إِيمَانُهُ وَأَطَاعَ رَبَّهُ وَعَصَى عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ »

---

(١) حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل ـ الحديث : الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين

(٢) حديث أنس أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا في الثناء فقال : كيف عقل الرجل الحديث : ابن المحبر في العقل بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً

(٣) حديث عمر ما اكتسب رجل مثل فضل عقل ـ الحديث : ابن المحبر في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة

(٤) حديث إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله الحديث : ابن المحبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به . والحديث عند الترمذي مختصر دون قوله ولا يتم ، من حديث عائشة وصححه

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] « لِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ ، فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْفُجَّارِ فِي النَّارِ : «لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ» . وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لتميم الداري[٢] : « مَا السُّؤْدَدُ فِيكُمْ ؟ قَالَ الْعَقْلُ . قَالَ : صَدَقْتَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَمَا سَأَلْتُكَ فَقَالَ كَمَا قُلْتَ ، ثم قَالَ : سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا السُّؤْدَدُ فَقَالَ : الْعَقْلُ » وعن البراء بن عازب رضي الله عنه[٣] قال « كَثُرَتِ الْمَسَائِلُ يَوْمًا عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةً وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ ، وَأَحْسَنُكُمْ دَلَالَةً وَمَعْرِفَةً بِالْحُجَّةِ أَفْضَلُكُمْ عَقْلاً » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال[٤] « لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ سَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ : فُلَانٌ أَشْجَعُ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٌ أَبْلَى مَا لَمْ يُبْلِ فُلَانٌ وَنَحْوُ هَذَا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَمَّا هَذَا فَلَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ، قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى قَدْرِ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ ، وَكَانَتْ نُصْرَتُهُمْ وَنِيَّتُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ فَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ عَلَى مَنَازِلَ شَتَّى ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اقْتَسَمُوا الْمَنَازِلَ عَلَى قَدْرِ نِيَّاتِهِمْ وَقَدْرِ عُقُولِهِمْ » .

وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال[٥] : « جَدَّ الْمَلَائِكَةُ وَاجْتَهَدُوا

---

(١) حديث أبي سعيد لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله ـ الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث

(٢) حديث عمر أنه قال لتميم الداري ما السودد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث

(٣) حديث البراء كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يأيها الناس ان لكل شيء مطية ـ الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث

(٤) حديث أبي هريرة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان ـ الحديث : ابن المحبر

(٥) حديث البراء بن عازب جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله بالعقل ـ الحديث ابن المحبر كذلك وعنه الحارث فى مسنده ورواه البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن المحبر

فِي طَاعَةِ اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعَقْلِ، وَجَدَّ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ فَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْفَرُهُمْ عَقْلًا». وعن عائشة رضى الله عنها قالت[1] «قُلْتُ يَارَسُولَ اللّهِ بِمَ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: بِالْعَقْلِ، قُلْتُ: وَفِي الآخِرَةِ؟ قَالَ: بِالْعَقْلِ، قُلْتُ أَلَيْسَ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: يَاعَائِشَةُ: وَهَلْ عَمِلُوا إِلَّا بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَقْلِ؟ فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ»

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] «لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَعُدَّةٌ، وَإِنَّ آلَةَ الْمُؤْمِنِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الدِّينِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ غَايَةٌ وَغَايَةُ الْعِبَادِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ وَدَاعِي الْعَابِدِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بِضَاعَةٌ وَبِضَاعَةُ الْمُجْتَهِدِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ قَيِّمٌ وَقَيِّمُ بُيُوتِ الصِّدِّيقِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ وَعِمَارَةُ الآخِرَةِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ عَقِبٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُ بِهِ وَعَقِبُ الصِّدِّيقِينَ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُونَ بِهِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ سَفَرٍ فُسْطَاطٌ وَفُسْطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَقْلُ» وقال صلى الله عليه وسلم[3]: «إِنَّ أَحَبَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ نَصَبَ فِي طَاعَةِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَصَحَ لِعِبَادِهِ وَكَمَلَ عَقْلُهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ، وَعَمِلَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ». وقال صلى الله عليه وسلم[4] «أَتَمُّكُمْ عَقْلًا أَشَدُّكُمْ لِلّهِ تَعَالَى خَوْفًا وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّكُمْ تَطَوُّعًا»

---

(١) حديث عائشة قلت يارسول الله بأى شىء يتفاضل الناس فى الدنيا قال بالعقل ـ الحديث ابن المحبر والترمذى الحكيم فى النوادر نحوه

(٢) حديث ابن عباس لكل شىء آلة وعدة وان آلة المؤمن العقل ـ الحديث: ابن المحبر وعنه الحارث

(٣) حديث ان أحب المؤمنين الى الله من نصب فى طاعة الله ـ الحديث ابن المحبر من حديث ابن عمر ورواه أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس باسناد آخر ضعيف

(٤) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ـ الحديث: ابن المحبر من حديث أبى قتادة

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا فى حد العقل وحقيقته ، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة ، فصار ذلك سبب اختلافهم

والحق الكاشف للغطاء فيه : أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ، كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة ، وما يجرى هذا المجرى ، فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد ، بل يفرد كل قسم بالكشف عنه

فالأول — الوصف الذى يفارق الانسان به سائر البهائم ، وهو الذى استعدّ به لقبول العلوم النظرية ، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ، وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال فى حد العقل : إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية ، وكأنه نور يقذف فى القلب به يستعد لادراك الأشياء . ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل الى مجرد العلوم الضرورية ، فان الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية ، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية .ولو جاز أن يسوى بين الانسان والحمار فى الغريزة والادراكات الحسية ، فيقال : لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق فى الانسان علوما وليس يخلقها فى الحمار والبهائم ، لجاز أن يسوّى بين الحمار والجماد فى الحياه ،ويقال: لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق فى الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة ، فانه لو قدر الحمار جمادا ميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد ، وكما وجب أن يقال : لم يكن مفارقته للجماد فى الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة ، فكذا مفارقة الانسان البهيمة فى إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل ، وهو كالمرآة التى تفارق غيرها من الأجسام فى حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهى الصقالة ، وكذلك العين تفارق الجبهة فى صفات وهيئات بها استعدت للرؤية . فنسبة هذه الغريزة الى العلوم كنسبة العين الى الرؤية ، ونسبة القرءان والشرع إلى هذه الغريزة فى سياقها الى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس الى البصر ، فهكذا ينبغى أن تفهم هذه الغريزة

الثانى ـ هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات : كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الشخص الواحد لايكون فى مكانين فى وقت واحد ، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . وهو أيضا صحيح فى نفسه ، لأن هذه العلوم موجودة ، وتسميتها عقلا ظاهر ، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال : لا موجود إلا هذه العلوم

الثالث ـ علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال ، فان من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبى غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا

الرابع ـ أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها ، فاذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا ، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة ، وهذه أيضا من خواص الانسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان . فالأول هو الأس والسنخ والمنبع ، والثانى هو الفرع الأقرب اليه ، والثالث فرع الأول والثانى ، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب ، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهى الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع ، والأخيران بالاكتساب ، ولذلك قال علىّ كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم :(١) «مَاخَلَقَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ» والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ بِأَبْوابِ الْبِرِّ

(١) حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل : الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة

(٢) حديث اذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك : أبو نعيم فى الحلية من حديث على اذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها الى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب . واسناده ضعيف

وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ » وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء رضى الله عنه[١] « أَزْدَدْ عَقْلاً تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا » فَقَالَ : بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى وَكَيْفَ لِى بِذَلِكَ ؟ فقال : « اُجْتَنِبْ مَحَارِمَ اللهِ تَعَالَى وَأَدِّ فَرَائِضَ اللهِ سُبْحَانَهُ تَكُنْ عَاقِلاً ، وَاعْمَلْ بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الأَعْمَالِ تَزْدَدْ فِى عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَامَةً وَتَنَلْ فِى آجِلِ الْعُقْبَى بِهَا مِنْ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْبَ وَالْعِزَّ » وعن سعيد بن المسيب[٢] « أَنَّ عُمَرَ وَأُبَىَّ بْنَ كَعْبٍ وَأَبَا هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالوا : يَارَسُولَ اللهِ مَنْ أَعْلَمُ النَّاسِ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الْعَاقِلُ . قَالُوا: فَمَنْ أَعْبَدُ النَّاسِ ؟ قَالَ : الْعَاقِلُ . قَالُوا : فَمَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ؟ قَالَ: الْعَاقِلُ . قَالُوا : أَلَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ تَمَّتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ وَجَادَتْ كَفُّهُ وَعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسا ذليلا ، قال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر[٣] « إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ » .

ويشبه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة وكذا فى الاستعمال، وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته ، فيقال : العلم هو الخشية ، والعالم من يخشى الله تعالى ،فان الخشية ثمرة العلم ، فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة ، ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة ، والاسم يطلق على جميعها ، ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول . والصحيح وجودها ،بل هى الأصل ،وهذه العلوم كأنها مضمنة فى تلك الغريزة بالفطرة ، ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب

(١) حديث ازدد عقلا تزدد من ربك قربا ـ الحديث : قاله لأبى الدرداء : ابن المحبر ومن طريقه الحارث ابن أبي أسامة والترمذى الحكيم في النوادر .

(٢) حديث ابن المسيب أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل ـ الحديث : ابن المحبر

(٣) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته : ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلا وفيه قصة

يخرجها الى الوجود ، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج ، وكأنها مستكنة فيها فظهرت . ومثاله الماء فى الأرض ، فانه يظهر بحفر البئر ، ويجتمع ويتميز بالحس ، لا بأن يساق اليها شيء جديد . وكذلك الدهن فى اللوز ، وماء الورد فى الورد ، ولذلك قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة ، فانهم انقسموا فى إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقرّ والى جاحد ، ولذلك قال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) معناه : إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) أى كل آدمى فطر على الايمان بالله عز وجل ، بل على معرفة الأشياء على ما هى عليه ، أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للادراك

ثم لما كان الايمان مركوزا فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض فنسى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل : (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ). وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد ، فكأن التذكر ضربان : أحدهما أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه لكن غابت بعد الوجود ، والآخر أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ، ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان ، ولذلك تراه يتخبط فى مثل هذه الآيات ، ويتعسف فى تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعا من التعسفات ، ويتخايل اليه فى الأخبار والآيات ضروب من المناقضات ، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر اليها بعين الاستحقار ، ويعتقد فيها التهافت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل دارا فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة فى الدار فيقول : ما لهذه الأوانى لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها ؟ فيقال له إنها فى مواضعها وإنما الخلل فى بصرك . فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطمّ منه وأعظم ، إذ النفس كالفارس ، والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضر من عمى الفرس .

ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) وقال تعالى :(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية. وسمى ضده عمى، فقال تعالى :(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وقال تعالى :(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا). وهذه الأمور التى كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة ،وسمى الكل رؤية

وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة ،لم يعلق به من الدين إلا قشوره ، وأمثلته دون لبابه وحقائقه . فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها

بيان تفاوت النفوس فى العقل

قد اختلف الناس فى تفاوت العقل ، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله ، بل الأولى والأهم المبادرة الى التصريح بالحق

والحق الصريح فيه أن يقال : إن التفاوت يتطرق الى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، فان من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم فى مكانين ، وكون الشيء الواحد قديما حادثا ، وكذا سائر النظائر وكل مايدركه إدراكا محققا من غير شك . وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق اليها

أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات ، فلا يخفى تفاوت الناس فيه ، بل لايخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة ، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ، ولكن غير مقصور عليه ، فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا ، واذا كبر وتم عقله قدر عليه ، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا ، وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة ، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة ، وقد لا يقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذا لم يكن

طبيبا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ، ولكن اذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد ، فيكون الخوف جندا للعقل وعدّة له فى قمع الشهوات وكسرها ، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل لقوّة علمه بضرر المعاصى، وأعنى به العالم الحقيقى دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان . فان كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع الى تفاوت العقل، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا ، فانه يقوى غريزة العقل ، فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية اليه . وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل، فانها اذا قويت كان قمعها للشهوة لامحالة أشد

وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر ، فانهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ، ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة ، وإما تفاوتا فى الممارسة. فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة ، فالتفاوت فيه لاسبيل إلى جحده ، فانه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه . ومبادىء إشراقه عند سن التمييز ، ثم لايزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة . ومثاله نور الصبح ، فان أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه ، ثم يتدرج إلى الزيادة ، إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس

وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر، والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر، بل سنة الله عزوجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج فى الايجاد ، حتى إن غريزة الشهوة لاتظهر فى الصبي عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات. ومن أنكر تفاوت الناس فى هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل

ومن ظن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادى فهو أخس فى نفسه من آحاد السوادية ، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس فى فهم العلوم ، ولما انقسموا الى بليد لايفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم ، والى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة ، والى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم، كما قال تعالى : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام، إذ يتضح لهم فى بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ، ويعبر عن ذلك بالالهام . وعن مثله

عبّر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال[1] «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي: أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ». وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذى هو سماع الصوت بحاسة الأذن، ومشاهدة الملك بحاسة البصر، ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع. ودرجات الوحي كثيرة، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة، بل هو من علم المكاشفة

ولا تظنن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي، إذ لا يبعد أن يعرّف الطبيبُ المريضَ درجات الصحة، ويعلِّم العالم الفاسقَ درجات العدالة وإن كان خاليا عنها، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف النبوّة والولاية كان نبيا ولا وليا، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا

وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم، والى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم، والى من لا ينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه، كانقسام الأرض الى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا، والى ما يحتاج الى الحفر ليخرج الى القنوات، والى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض فى صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس فى غريزة العقل. ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت[2]: يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الْعَرْشِ؟ قَالَ نَعَمْ: الْعَقْلُ، قالوا وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالَ هَيْهَاتَ لَا يُحَاطُ بِعِلْمِهِ، هَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِعَدَدِ الرَّمْلِ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنِّي خَلَقْتُ الْعَقْلَ أَصْنَافًا شَتَّى كَعَدَدِ الرَّمْلِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ الثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ فَرَقًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ وَسْقًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»

---

(١) ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه ـ الحديث: الشيرازى في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف

(٢) حديث ابن سلام سئل النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يارب هل خلقت شيئا أعظم من العرش ـ الحديث: ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصرا

فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول ؟

فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول الى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والالزامات ، وهو صنعة الكلام ، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم فى التسمية ، إذ كان ذلك لا ينمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه فى القلوب ، فذموا العقل والمعقول ، وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة الباطنة التى بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه ؟ وإن ذم فما الذى بعده يحمد ؟ فان كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فان علم بالعقل المذموم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما . ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الايمان لا بالعقل ، فانا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الايمان ، وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور

وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ . فهذا القدر كاف فى بيان العقل . والله أعلم

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنّه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد . والحمد لله وحده أولاً وآخراً

كتاب قواعد العقائد

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقول وبالله التوفيق :

الحمد لله المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، ذى العرش المجيد ، والبطش الشديد ، الهادى صفوة العبيد ، الى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد ، السالك بهم الى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد ، المتجلي لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لايدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد ، المعرِّف إياهم أنه فى ذاته واحد لاشريك له ، فرد لامثيل له ، صمد لاضد له ، منفرد لاندّ له ، وأنه واحد قديم لاأول له ، أزلى لابداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبديّ لانهاية له ، قيوم لاانقطاع له ، دائم لاانصرام له ، لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال ، لايقضى عليه بالانقضاء والانفصال ، بتصرم الآباد وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم

التنزيه :

وأنه ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وأنه لا يماثل الأجسام ، لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء ، وأنه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات ، وأنه

مستو على العرش على الوجه الذى قاله ، وبالمعنى الذى أراده ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فى قبضته ، وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء ، كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شىء شهيد ، إذ لا يماثل قربهُ قربَ الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء ، تعالى عن أن يحويه مكان ، كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وأنه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه ذاته ، وأنه مقدس عن التغير والانتقال ، لا تحله الحوادث ، ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ، وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئىّ الذات بالأبصار ، نعمةً منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار ، وإتماماً منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم

الحياة والقدرة :

وَأنه تعالى حى قادر، جبار قاهر ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه ذو الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون فى قبضته ، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالإيجاد والابداع ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدّر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، لا تحصى مقدوراته ، ولا تتناهى معلوماته

العلم :

وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات ، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء ، على

الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذرّ فى جوّ الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال

الإرادة :

وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، إلا بقضائه وقدره ، وحكمته ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، لا رادّ لأمره ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوّة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته ، فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك ، وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها ، مريداً فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدّرها فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدّم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ، ولا تربص زمان ، فلذلك لم يشغله شان عن شان

السمع والبصر :

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئىّ وإن دقّ ، ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق •

الكلام :

وأنه تعالى متكلم آمرٌ ناهٍ ، واعدٌ متوعد ، بكلام أزلى قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع

باطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القرءان والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وأن القرءان مقروء بالألسنة ؛ مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى ، لا يقبل الانفصال والافتراق ، بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرض ، وإذا كانت له هذه الصفات كان حياً ، عالما ، قادراً ، مريدا ،سميعا ، بصيراً ، متكلماً ، بالحياة ، والقدرة ، والعلم ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، لا بمجرد الذات

الأفعال :

وأنه سبحانه وتعالى لاموجود سواه إلا وهو حادث بفعله،وفائض من عدله ، على أحسن الوجوه وأكملها ، وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم فى أفعاله ، عادل فى أقضيته ،لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصوّر منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ، ولا يتصوّر الظلم من الله تعالى ، فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن ، وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ، ونبات وجماد وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا ، وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا ، إذ كان فى الأزل موجوداً وحده ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهاراً لقدرته ، وتحقيقا لما سبق من إرادته ، ولما حق فى الأزل من كلمته ، لا لافتقاره اليه وحاجته ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول بالانعام والاصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان ، إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب . ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ، ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ، وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به

معنى الكلمة الثانية وهى الشهادة للرسل بالرسالة

وأنه بعث النبي الأمى القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والانس، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ماقرره منها، وفضّله على سائر الأنبياء، وجعله سيد البشر، ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد، وهو قول لاإله إلا الله مالم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك محمد رسول الله، وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، وأنه لايتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، وَأَوَّلُهُ سُؤَالُ [١] مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وَهُمَا شَخْصَانِ مُهيبانِ هائلانِ يُقعِدانِ الْعَبْدَ فِي قَبْرِهِ سَوِيًّا ذَا رُوحٍ وَجَسَدٍ فَيَسْأَلانِهِ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ، وَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهُمَا [٢] فَتَّانَا الْقَبْرِ [٣]، وَسُؤَالُهُمَا أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ [٤] بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ وَحُكْمُهُ عَدْلٌ عَلَى الْجِسْمِ وَالرُّوحِ عَلَى مَا يَشَاءُ [٥]، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْمِيزَانِ ذِي الْكِفَّتَيْنِ وَاللِّسَانِ وَصِفَتُهُ فِي الْعِظَمِ أَنَّهُ مِثْلُ طَبَقَاتِ

---

(١) حديث سؤال منكر ونكير: الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أبى هريرة اذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير. وفى الصحيحين من حديث أنس أن العبد اذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعد انه ـ الحديث

(٢) حديث انهما فتانا القبر: أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتانى القبر فقال عمر: أترد علينا عقولنا ـ الحديث

(٣) حديث ان سؤالهما أول فتنة بعد الموت: لم أجده

(٤) حديث عذاب القبر: أخرجاه من حديث عائشة انكم تفتنون أو تعذبون فى قبوركم ـ الحديث. ولهما من حديث أبى هريرة وعائشة استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر

(٥) حديث الايمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم انه مثل طباق السموات والارض: البيهقي فى البعث من حديث عمر قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والناو والميزان ـ الحديث. وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأبى داود من حديث عائشة أما فى ثلاثه مواطن لايذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، زاد ابن مردويه فى تفسيره قالت عائشة أى حبي قد علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع فى هذه الشيء ويوصع فى هذه الشيء فيرجح احداهما وتخف الاخرى والترمذى وحسنه من حديث أنس واطلبنى عند الميزان. ومن حديث عبد الله بن عمر فى حديث البطاقة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ـ الحديث. وروى ابن شاهين فى كتاب السنة عن ابن عباس كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها

السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل ، تحقيقا لتمام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور ، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله (١) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ ، وَهُوَ جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ وَأَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ تَزِلُّ عَلَيْهِ أَقْدَامُ الْكَافِرِينَ بِحُكْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ فَتَهْوِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَتَثْبُتُ عَلَيْهِ أَقْدَامُ الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِ اللهِ فَيُسَاقُونَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ (٢) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَوْضِ الْمَوْرُودِ: حَوْضِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم يَشْرَبُ منه المؤمنون قبل دخول الجنة وَبَعْدَ جَوَازِ الصِّرَاطِ (٣) مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا عَرْضُهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ حَوْلَهُ أَبَارِيقُ عَدَدُهَا بِعَدَدِ نُجُومِ السَّماء (٤) فِيهِ مِيزَابَانِ يَصُبَّانِ فِيهِ مِنَ

---

(١) حديث الايمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر: الشيخان من حديث أبى هريرة ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم . ولهما من حديث أبى سعيد ثم يضرب الجسر على جهنم زاد مسلم قال أبو سعيد إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقى فى الشعب والبعث من حديث أنس وضعفه وفى البعث من رواية عبيد بن عمير مرسلا ومن قول ابن مسعود الصراط كحد السيف وفى آخر الحديث مايدل على أنه مرفوع

(٢) حديث الايمان بالحوض وانه يشرب منه المؤمنون : مسلم من حديث أنس فى نزول «إنا أعطيناك الكوثر» هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم . ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب وسهل بن سعد أنا فرطكم على الحوض ومن حديث ابن عمر أمامكم حوض كما بين جرباء وأذرح وقال الطبرانى كما بينكم وبين جرباء وأذرح وهو الصواب وذكر الحوض فى الصحيح من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبى ذر وحابس بن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء

(٣) حديث من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء من حديث عبد الله بن عمرو ولهما من حديث أنس فيا من الأباريق كعدد نجوم السماء . وفى رواية لمسلم أكثر من عدد نجوم السماء

(٤) حديث فيه ميزابان يصبان من الكوثر : مسلم من حديث ثوبان يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق

الْكَوْثَر (١) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْحِسَابِ وَتَفَاوُتِ النَّاسِ فِيهِ إِلَى مُنَاقَشٍ فِي الْحِسَابِ وَإِلَى مُسَامَحٍ فِيهِ، وَإِلَى مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَهُمُ الْمُقَرَّبُونَ، فَيَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى (٢) مَنْ شَاءَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَمَنْ شَاءَ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْ تَكْذِيبِ الْمُرْسَلِينَ (٣) وَيَسْأَلُ الْمُبْتَدِعَةَ عَنِ السُّنَّةِ (٤) وَيَسْأَلُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْأَعْمَالِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ (٥) بِإِخْرَاجِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ الْانْتِقَامِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي جَهَنَّمَ مُوَحِّدٌ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى، فَلَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ

---

(١) حديث الايمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه الي مناقش فى الحساب ومسامح فيه والي من يدخل الجنة بغير حساب: البيهقى فى البعث من حديث عمر فقال يا رسول الله ما الايمان قل أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله ـ الحديث. وهو عند مسلم دون ذكر الحساب. وللشيخين من حديث عائشة من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى « فسوف يحاسب حسابا يسيرا » قال ذلك العرض ولهما من حديث ابن عباس عرضت على الأمم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ولمسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب زاد البيهقى فى البعث من حديث عمرو بن حزم وأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر بعده هذه الزيادة فقال فهلا استزدته ؟ قال : قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قل عمر فهلا استزدته ؟ قل:قد استزدته فأعطانى هكذا وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه الحديث

(٢) حديث سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين : البخارى من حديث أبى سعيد يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته الحديث. ولابن ماجه يجيء النبي يوم القيامة ـ الحديث وفيه فيقال هل بلغت قومك ـ الحديث

(٣) حديث سؤال المبتدعة عن السنة: ابن ماجه من حديث عائشة من تكلم بشيء من القدر سئل عنه يوم القيامة. ومن حديث أبى هريرة مامن داع يدعو الى شيء الا وقف يوم القيامة لازما لدعوة مادعا اليه وان دعا رجل رجلا واسنادهما ضعيف

(٤) حديث سؤال المسلمين عن الاعمال : أصحاب السنن من حديث أبي هريرة إن أول مايحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ـ الحديث. وسيأتي فى الصلاة

(٥) حديث اخراج الموحدين من النار حتى لايبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه : الشيخان من حديث أبى هريرة فى حديث طويل حتي اذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لايشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لاإله الا الله ـ الحديث

مُوَحِّدٍ، وأنْ يُؤْمِنَ [١] بِشَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْعُلَمَاءِ ثُمَّ الشُّهَدَاءِ ثُمَّ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَسَبِ جَاهِهِ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَاللهِ تعالَى، ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع، أُخْرِجَ بفضل الله عزّ وجل، فَلَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ مؤمن بل يَخْرُجُ منها مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَان، وَأَنْ يَعْتَقِدَ فَضْلَ الصَّحَابَةِ رضى الله عنهم وَتَرْتِيبَهُمْ، وَأَنَّ [٢] أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرَ ثُمَّ عُثْمَانَ ثم على رضى الله عنهم، [٣] وأن يُحْسِنَ الظَّنَّ بجميع الصحابة، ويُثْنِي عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين

فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق وعصابة السنة، وفارق رَهْط الضلال وحزب البدعة. فنسأل الله كمال اليقين، وحسن الثبات فى الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته، إنه أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفىً

الفصل الثانى

فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظا

---

(١) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقى من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء وقد تقدم فى العلم. وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدرى من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من الايمان فأخرجوه وفى رواية من خير وفيه فيقول الله تعالي شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ـ الحديث:

(٢) حديث أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على البخارى من حديث ابن عمر قال كنا نخير بين الناس فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ولأبى داود كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى أفضل أمة النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم زاد الطبرانى ويسمع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ولا ينكره

(٣) حديث أحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم غرضا بعدى وللشيخين من حديث أبى سعيد لا تسبوا أصحابى. وللطبرانى من حديث ابن مسعود اذا ذكر أصحابي فأمسكوا

ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئا فشيئا ، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق به ، وذلك مما يحصل فى الصبي بغير برهان . فمن فضل الله سبحانه على قلب الانسان أن شرحه فى أول نشوءه للايمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض ، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف فى الابتداء ، على معنى أنه يقبل الازالة بنقيضه لو ألقى اليه ، فلابد من تقويته وإثباته فى نفس الصبي والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل ، وليس الطريق فى تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام ، بل يشتغل بتلاوة القرءان وتفسيره ، وقراءة الحديث ومعانيه ، ويشتغل بوظائف العبادات ، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرءان وحججه ، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها ، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها ، وبما يسرى اليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم ، وسيماهم وسماعهم وهيآتهم فى الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له ، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر فى الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء

وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة ، فان ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده ، وما يفسده أكثر مما يصلحه ، بل تقويته بالجدل تضاهى ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب ، والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانا ، فناهيك بالعيان برهانا

فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين ، فترى اعتقاد العامى فى الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي والصواعق ، وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا ، الا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً ، كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً اذ لا فرق في التقلد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول ، فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه

ثم الصبي اذا وقع نشوه على هذه العقيدة ان اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ، ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا . وإن

أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة ، وساعده التوفيق حتي اشتغل بالعمل ، ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى ، واشتغل بالرياضة والمجاهدة ، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) . وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصدّيقين والمقربين ، واليه الاشارة بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حيث فضّل به الخلق . وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن ، فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى ، وفى الاستضاءة بنور اليقين ، وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم ، إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه

مسئلة

فان قلت : تعلُّم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أومندوب اليه ؟

فاعلم أن للناس فى هذا غلوا وإسرافا فى أطراف : فمن قائل إنه بدعة وحرام ، وإن العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل أنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان ، وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فانه تحقيق لعلم التوحيد ، ونضال عن دين الله تعالي

والى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعلى رحمه الله : سمعت الشافعي رضى الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمى المعتزلة يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه . وقال أيضا : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام . وحكى الكرابيسى أن الشافعي رضى الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله . ولما مرض الشافعى رضى الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له من أنا : فقال حفص الفرد:

لاحفظك الله ولارعاك حتى تتوب مما أنت فيه . وقال أيضا : لوعلم الناس مافى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد . وقال أيضا اذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له . قال الزعفرانى قال الشافعى حكمى فى أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام

وقال أحمد بن حنبل : لايفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل . وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة ، وقال له ويحك ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث ! وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة

وقال مالك رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . فقال بعض أصحابه فى تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا

وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق

وقال الحسن : لاتجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم . وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ماسكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر : ولذلك : قال النبى صلى الله عليه وسلم [١] « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء

واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه [٢] فقد عَلَّمَهُمْ الاسْتِنْجَاءَ [٣] وَنَدَبَهُمْ إِلَى عِلْمِ

---

(١) حديث هلك المتنطعون مسلم من حديث ابن مسعود

(٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء مسلم من حديث سلمان الفارسى

(٣) حديث ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم : ابن ماجه من حديث أبى هريرة تعلموا الفرائض وعلموها الناس الحديث وللترمذى من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت

ٱلْفَرَائِضِ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ [١] وَنَهَاهُمْ عَنِ ٱلْـكَلَامِ فِي ٱلْقَدَرِ وَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ ٱلْقَدَرِ » وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم فالزيادة على الاستاذ طغيان وظلم ، وهم الاستاذون والقدوة ، ونحن الاتباع والتلامذة .

وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض . وهذه الاصطلاحات الغريبة التى لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم فالأمر فيه قريب ، إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ، ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع ، الى جميع الاسئلة التي تورد على القياس ، لما كانوا يفقهونه فاحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كاحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها فى مباح .

وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعنى به الا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء فى الشرع ، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ؟

وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى اليه الكلام ، فذلك محرم ، ويجب الاحتراز عنه ، كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى اليه علم الحديث والتفسير والفقه ، وهو محرم يجب الاحتراز عنه ، ولكن لايمنع من العلم لأجل أدائه اليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَـكُمْ) . وقال عز وجل : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَـةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ). وقال تعالى : (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا) ـ أى حجة وبرهان . وقال تعالى : (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ) ـ وقال تعالي : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ) إلى قوله: (فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ) اذ ذكر سبحانه احتجاج ابراهيم ومجادلته وافحامه خصمه فى معرض الثناء عليه . وقال عز وجل: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) : وقال تعالى : (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) وقال تعالى فى قصة فرعون : (وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ) إلى قوله : (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ)

وعلى الجملة فالقرءان من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار . فعمدة أدلة المتكلمين فى

---

(١) حديث نهاهم عن الكلام فى القدر وقال : أمسكوا : تقدم فى العلم

التوحيد قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) . وفى النبوة : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) وفى البعث : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) الى غير ذلك من الآيات والأدلة

ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى : (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فالصحابة رضى الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة ، وكانت الحاجة اليه قليلة فى زمانهم

وأوّل من سنّ دعوة المبتدعة بالمجادلة الى الحق على بن أبى طالب رضى الله عنه ، اذ بعث ابن عباس رضى الله عنهما الى الخوارج فكلمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسبُ ولم يغنم . فقال : ذلك فى قتال الكفار ، أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها فى يوم الجمل فوقعت عائشة رضى الله عنها فى سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهى أمكم فى نص الكتاب ؟ فقالوا : لا ، فرجع منهم الى الطاعة بمجادلته ألفان

وروى أن الحسن ناظر قَدَريا فرجع عن القدر . وناظر على بن أبى طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية . وناظر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يزيد بن عميرة فى الايمان ، قال عبد الله لو قلت إنى مؤمن لقلت إني فى الجنة ، فقال له يزيد بن عميرة : يا صاحب رسول الله هذه زلة منك ، وهل الايمان الا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ، ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول انا مؤمنون ولا نقول انا من أهل الجنة ، فقال ابن مسعود : صدقت والله إنها منى زلة ، فينبغى أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا ، وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة ، فيقال اما قلة خوضهم فيه فانه كان لقلة الحاجة اذ لم تكن البدعة تظهر فى ذلك الزمان

واما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وازالة الشبهة ، فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم ، وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها

وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم فى الفقه والتفسير والحديث

أيضـا ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النـادرة التى لا تتفق إلا على الندور إما ادخاراً ليوم وقوعها وإن كان نادراً ، أو تشحيذاً للخواطر ، فنحن أيضـا نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة ، أو هيجان مبتدع ، أو لتشحيذ الخاطر ، أو لادخار الحجة حتي لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال ، كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال . فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين

فان قلت : فما المختـار عندك فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه فى كل حال أو بحمده فى كل حال خطأ ، بل لا بد فيه من تفصيل . فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعنى بقولى لذاته أن علة تحريه وصف فى ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنـا القول بأنه حرام ، ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار ، وإباحة تجرع الخمـر إذا غص الانسان بلقمة ولم يجـد ما يسيغها سوى الخمر . وإلى مايحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم فى وقت الخيار ، والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين ، فانه يحرم لمـا فيه من الاضرار . وهـذا ينقسم إلى مايضر قليله وكثيره ، فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذى يقتل قليله وكثيره ، وإلى ما يضر عنـد الـكثرة فيطلق القول عليه بالاباحة كالعسل ، فان كثيره يضر بالمحرور ، وكأكل الطين و كان اطلاق التحريم على الطين والخمر ، والتحليل على العسل ، التفات الى أغلب الأحوال . فإنْ تصدّى شيء تقابلت فيه الاحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصّل

فنعود الى علم الـكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب اليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام . أما مضرته فإثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وإزالتها عن الجزم والتصميم ، فذلك مما يحصل فى الابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الاشخاص . فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق

وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيته فى صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الأصرار عليه ، ولـكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل ، ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده باللطف فى أسرع زمان ، إلا

اذا كان نشؤه فى بلد يظهر فيها الجدل والتعصب ،فانه لو اجتمع عليه الأوّلون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره ، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من ادراك الحق ، حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك ، لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه. وهذا هو الداء العضال الذى استطار فى البلاد والعباد ، وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب . فهذا ضرره

وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا اذا سمعته من محدّث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ماجهلوا . فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلل فيه الى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك الى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود

ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وايضاح لبعض الأمور ، ولكن على الندور فى أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق فى صنعة الكلام ، بل منفعته شيء واحد ، وهو حراسة العقيدة التى ترجمناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة بانواع الجدل ، فان العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسدا ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه ، والناس متعبدون بهذه العقيدة التى قدمناها، إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم ، وأجمع السلف الصالح عليها ، والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة ، كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب . واذا وقعت الاحاطة بضرره ومنفعته فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر ، اذ لا يضعه إلا فى موضعه ، وذلك فى وقت الحاجة ، وعلى قدر الحاجة

وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذى ذكرناه ، فان تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ، ويزلزل عليهم الاعتقاد ، ولا يمكن القيام بعد ذلك بالاصلاح

وأما العامي المعتقد للبدعة فينبغى أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب ، وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر فى القلب القريب من سياق أدلة القرءان والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير ،فان ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين، إذ العامى إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده . فان عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام ، وكذا من وقع فى شك ، إذ يجب إزالته باللطف والوعظ ، والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام

واستقصاء الجدل إنما ينفع فى موضع واحد وهو أن يفرض عامي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق ، وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية ، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل . فجاز أن يلقى اليه

واما فى بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذى ذكرناه ، ولا يتعرض للأدلة ، ويتربص وقوع شبهة فان وقعت ذكر بقدر الحاجة

فان كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا ، فلا بأس أن يعلموا القدر الذى أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سببا لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم . وهذا مقدار مختصر . وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره

فان كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت فى نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذى ذكرناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد وهو قدر خمسين ورقة ، وليس فيه خروج عن النظر فى قواعد العقائد ، إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين

فان أقنعه ذلك عنه ، وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة ، والداء غالبا ، والمرض ساريا ، فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه ، وينتظر قضاء الله تعالى فيه ، إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه ، أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له

فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه

فأما الخارج منه فقسمان (أحدهما) بحث عن غير قواعد العقائد، كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان، وعن الادراكات، وعن الخوض فى الرؤية: هل لها ضد يسمى المنع أو العمى؛ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع مالا يرى، أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده، إلى غير ذلك من الترهات المضلات. والقسم الثانى: زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد، وزيادة أسئلة وأجوبة، وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا فى حق من لم يقنعه ذلك القدر. فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضاً

ولو قال قائل: البحث عن حكم الادراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر، والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد، فلا بأس بتشحيذه، كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضا، وذلك هوس، فان الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام، والحال التى يذم فيها، والحال التى يحمد فيها، والشخص الذى ينتفع به، والشخص الذى لا ينتفع به

فان قلت مهما اعترفت بالحاجة اليه فى دفع المبتدعة، والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرها، وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم، ولو ترك بالكلية لا ندرس، وليس فى مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم يتعلم، فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضا من فروض الكفايات، بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم، فان الحاجة ما كانت ماسة اليه

فاعلم أن الحق أنه لا بد فى كل بلد من قائم بهذا العلم، مستقل بدفع شبه المبتدعة التى ثارت فى تلك البلدة، وذلك يدوم بالتعليم، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير، فان هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء، وضرر الغذاء لا يحذر، وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر

فالعالم ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال

(احداها) التجرد للعلم والحرص عليه، فان المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت.

(الثانية) الذكاء والفطنة والفصاحة ، فان البليد لا ينتفع بفهمه والقدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه

(الثالثة) أن يكون فى طبعه الصلاح والديانة والتقوى ، ولا تكون الشهوات غالبة عليه ، فان الفاسق بادنى شبهة ينخلع عن الدين ، فان ذلك يحل عنه الحجر و يرفع السد الذى بينه و بين الملاذ ، فلا يحرص على إزالة الشبة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف ، فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه

واذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة فى الكلام إنما هي من جنس حجج القرءان من الكلمات اللطيفة المؤثرة فى القلوب ، المقنعة للنفوس ، دون التغلغل فى التقسيمات والتدقيقات التى لا يفهمها أكثر الناس ، واذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس . فاذا قابله مثله فى الصنعة قاومه . وعرفت أن الشافعى وكافة السلف انما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذى نبهنا عليه ، وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علىّ رضى الله عنه من المناظرة فى القدر وغيره ، كان من الكلام الجلى الظاهر وفى محل الحاجة ، وذلك محمود فى كل حال . نعم : قد تختلف الأعصار فى كثرة الحاجة وقلتها، فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك . فهذا حكم العقيدة التى تعبد الخلق بها ، وحكم طريق النضال عنها وحفظها . فأما ازالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ماهى عليه ، وإدراك الآسرار التى يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة ، فلا مفتح له الا المجاهد ، وقمع الشهوات والاقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافى عن شوائب المجادلات ، وهى رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق و بحسب التعرض و بحسب قبول المحل وطهارة القلب ، وذلك البحر الذى لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله

مسألة

فان قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار ، وبعضها جلي يبدو أولا ، وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسر الخالى عن كل شىء من أشغال الدنيا سوى المطلوب ، وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع ، إذ

ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن ، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه

فاعلم أن انقسام هذه العلوم الى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيره ، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا فى أوائل الصبا شيئا وجمدوا عليه ، فلم يكن لهم ترق الى شأو العلاء ، ومقامات العلماء والأولياء ، وذلك ظاهر من أدلة الشرع . قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ لِلْقُرْءانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَحَدًّا وَمَطْلَعاً » وقال عليّ رضى الله عنه وأشار الى صدره : ان ها هنا علوما جمة لو وجدت لها حملة . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَا حَدَّثَ أَحَدٌ قَوْماً بِحَدِيثٍ لَمْ تَبْلُغْهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ » وقال الله تعالى : (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ). وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلاَّ الْعَالِمُونَ بِاللهِ تَعَالَى » الحديث الى آخره كما أوردناه فى كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » فليت شعرى إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر ، فلم لم يذكره لهم ، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل : (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) : لو ذكرت تفسيره لرجمتمونى . وفى لفظ آخر لقلتم إنه كافر وقال أبو هريرة رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « مَا

---

(١) حديث ان للقرآن ظاهرا وباطنا الحديث ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه

(٢) حديث نحن معاشر الانبياء أمرنا أن نكلم الناس على عقولهم ـ الحديث : تقدم في العلم

(٣) حديث ماحدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم ـ الحديث : تقدم فى العلم

(٤) حديث ان من العلم كهيئة المكنون ـ الحديث تقدم فى العلم

(٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجاه من حديث عائشة وأنس

(٦) حديث ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ـ الحديث : تقدم فى العلم .

فَضَلَـكُمْ أَبُو بَـكْرٍ بِـكَثْرَةِ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ وَلَـكِنْ بِسِرٍّ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . ولاشك فى أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها ، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره

وقال سهل التسترى رضى الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر ، وعلم باطن لايسعه إظهاره الا لأهله ، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوّة ، وللنبوّة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوّة فى حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق ، بل الصحيح أنه لا تناقض فيه ، وأن الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة

مسألة

فان قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق اليها تأويلات ، فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن ، فان الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال إن الحقيقة خلاف الشريعة ، وهو كفر ، لأن الشريعة عبارة عن الظاهر ، والحقيقة عبارة عن الباطن ، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو ، فيزول به الانقسام ، ولا يكون للشرع سر لا يفشى ، بل يكون الخفى والجلى واحداً

فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما ، وينجرّ الى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة ، وهو غرض هذه الكتب ، فان العقائد التى ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها ، لا بأن يتوصل الى أن ينكشف لنا حقائقها ، فان ذلك لم يكلف به كافة الخلق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه فى هذا الكتاب ، ولولا أنه عملُ ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه فى الشطر الاول من الكتاب وانما الكشف الحقيقى هو صفة سر القلب وباطنه ، ولكن اذا انجر الكلام الى تحريك خيال فى مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز فى حله :

فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر ، فهو الى الكفر أقرب منه الى الايمان ، بل الأسرار التى يختص بها المقربون يدركها ، ولا يشاركهم الأكثرون فى

عملها ، ويمتنعون عن إفشائها اليهم ترجع الى خمسة أقسام

القسم الأول ـ أن يكون الشيء فى نفسه دقيقا تكل أكثر الافهام عن دركه ، فيختص بدركه الخواص ، وعليهم أن لا يفشوه الى غير أهله ، فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك . وإخفاءُ سر الروح (١) وَ« كَفُّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ بَيَانِهِ » من هذا القسم ، فان حقيقته مما تكل الأفهام عن دركه ، وتقصر الأوهام عن تصور كنهه

ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ، ومن لم يعرف نفسه ، فكيف يعرف ربه سبحانه ؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفا لبعض الأولياء والعلماء ، وان لم يكونوا أنبياء ، ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه ، بل فى صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها الا الظواهر للأفهام : من العلم ، والقدرة ، وغيرهما ، حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها الى علمهم وقدرتهم ، اذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة ، فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة ، ولو ذكر من صفاته ماليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع اذا ذكرت للصبي أو العنين لم يفهمها الا بمناسبة الى لذة المطعوم الذى يدركه ، ولا يكون ذلك فهما على التحقيق . والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل

وبالجملة فلا يدرك الانسان الا نفسه وصفات نفسه مما هى حاضرة له فى الحال ، أو مما كانت له من قبل ، ثم بالمقايسة اليه يفهم ذلك لغيره ، ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا فى الشرف والكمال ، فليس فى قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بان ذلك أكمل وأشرف ، فيكون معظم تحويمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وليس المعنى أنى أعجز عن التعبير عما أدركته ، بل هو اعتراف بالقصور

---

(١) حديث كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيأ ـ الحديث :

(١) حديث لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك مسلم من حديث عائشة انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فى سجوده

عن إدراك كنه جلاله . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عزوجل . وقال الصدّيق رضى الله عنه : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا الى معرفته إلا بالعجز عن معرفته

ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط . ولنرجع الى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن أدراكه ، ومن جملته الروح ، ومن جملته بعض صفات الله تعالى . ولعل الاشارة الى مثله فى قوله صلى الله عليه وسلم (١) «إِنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَنْ أَدْرَكَهُ » بَصَرُهُ

القسم الثانى — من الخفيات التى تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه ، ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ، ولا يضر بالانبياء والصديقين . وسر القدر الذى منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس بابصار الخفافيش ، وكما تضر رياح الورد بالجعل ، وكيف يبعد هذا وقولنا أن الكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق فى نفسه وقد أضر سماعه بقوم ، اذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم . وقد ألحد بن الراوندى وطائفة من المخذولين بمثل ذلك ، وكذلك سر القدر ، ولو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا اذ تقصر أفهامهم عن ادراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم . ولو قال قائل : ان القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ، ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر ، فلعل المدة اليها بعيدة فيطول الامد ، واذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ، ولعلها كانت قريبة فى علم الله سبحانه ، ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا . فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم

---

(١) حديث ان لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور واسناده ضعيف . وفيه أيضا من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك قال ان بينى وبينه سبعين حجابا من نور وفى الأكبر للطبرانى من حديث سهل بن سعد دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة ولمسلم من حديث أبى موسى حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه ولابن ماجه شىء أدركه بصره

القسم الثالث ـ أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ، ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب ، وله مصلحة فى أن يعظم وقع ذلك الأمر فى قلبه ، كما لو قال قائل : رأيت فلانا يقلد الدر فى أعناق الخنازير ، فكني به عن افشاء العلم وبث الحكمة الى غير أهلها ، فالمستمع قد يسبق الى فهمه ظاهر اللفظ ، والمحقق اذا نظر وعلم أن ذلك الانسان لم يكن معه در ولا كان فى موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن ، فيتفاوت الناس فى ذلك . ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك * متقابلان على السماك الأعزل

لازال ينسج ذاك خرقةمدبر * ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فانه عبر عن سبب سماوى فى الاقبال والادبار برجلين صانعين . وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التى تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ الْمَسْجِدَ لَيَنْزَوِي مِنَ النُّخَامَةِ كَمَا تَنْزَوِى الْجِلْدَةُ عَلَى النَّارِ » وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة . ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له ، فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (٢) « أَمَا يَخْشَى الَّذِى يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ !؟ » وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ، ولكن من حيث المعني هو كائن ، إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله ، بل بخاصيته وهى البلادة والحمق . ومن رفع رأسه قبل الامام فقد صار رأسه رأس حمار فى معنى البلادة والحمق وهو المقصود ، دون الشكل الذى هو قالب المعنى ، اذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فانهما متناقضان

وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى

أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم : (٣) « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين فلم نجد فيها أصابع

---

(١) حديث ان المسجد لينزوي من النخامة ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام ـ الحديث : أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث قلب العبدبين أصبعين من أصابع الرحمن مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

فعلم أنها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا فى تفهم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل فى كنايته عن الاقتدار قوله تعالى : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فان ظاهره ممتنع؛ إذ قوله :(كن) إن كان خطابا للشىء قبل وجوده فهو محال ؛ إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل ، وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين ، ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع فى النفوس فى تفهيم غاية الاقتدار عدل اليها

وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ، ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد فى تفسير قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) الآية ، وأن معنى الماء ها هنا هو القرءان ، ومعنى الأودية هى القلوب ، وأن بعضها احتملت شيئا كثيراً ، وبعضها قليلا ، وبعضها لم يحتمل ، والزبد مثل الكفر والنفاق ، فانه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فانه لا يثبت ، والهداية التى تنفع الناس تمكث. وفى هذا القسم تعمق جماعة فأوّلوا ما ورد فى الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما ، وهو بدعة ،إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية ، وإجراؤه على الظاهر غير محال ، فيجب إجراؤه على الظاهر

القسم الرابع ــ أن يدرك الانسان الشىء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له ، فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر ، والثانى كاللباب ، والأول كالظاهر ، والثانى كالباطن ، وذلك كما يتمثل للانسان فى عينه شخص فى الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم ، فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والايمان والتصديق ، إذ قد يصدق الانسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ، ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع ، بل للإنسان فى الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة . (الأول) تصديقه بوجوده قبل وقوعه . (والثانى) عند وقوعه (والثالث) بعد تصرمه ، فان تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقق به قبل الزوال . وكذلك من علوم الدين مايصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ماقبل ذلك، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففى هذه الأقسام الأربعة تتفاوت

الخلق ، وليس فى شيء منها باطن يناقض الظاهر ، بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر . والسلام

القسم الخامس — أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال ، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه . وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني فلم يتركني ورائى الحجر الذى ورائى . فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال . ومن هذا قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) . فالبليد يفتقر فى فهمه الى أن يقدر لهما حياة وعقلا ، وفهما للخطاب ، وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان : أتينا طائعين ، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال ، وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين الى التسخير . ومن هذا قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحان الله ليتحقق تسبيحه ، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان ، بل كونه مسبحا بوجوده ، ومقدسا بذاته ، وشاهدا بوحدانية الله سبحانه ، كما يقال

وفى كل شيء له آية • تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم ، لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ، ولكن بالذات والحال . وكذلك : ما من شيء إلا وهو محتاج فى نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده فى أطواره ، فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس ، يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر ، ولذلك قال تعالى : (وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) . وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا . وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله ، إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته . وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه ، وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر

وفى هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد : فمن مسرف فى رفع الظواهر انتهى الى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها ، حتى حملوا قوله تعالى : (وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) وقوله تعالى : (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ

كلّ شيءٍ) وكذلك المخاطبات التي تجرى من منكر ونكير ، وفى الميزان والصراط والحساب ، ومناظرات أهل النار وأهل الجنة فى قولهم : (أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) زعموا أن ذلك كله بلسان الحال

وغلا آخرون فى حسم الباب ، منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله: (كُنْ فَيَكُونُ) وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى فى كل لحظة بعدد كَوْن كل مكوّن ، حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ : قوله صلى الله عليه وسلم (١) « اَلْحَجَرُ ٱلْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي أَرْضِهِ » وقوله صلى الله عليه وسلم « قَلْبُ ٱلْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » وقوله صلى الله عليه وسلم (٢) إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ مِنْ جَانِبِ ٱلْيَمَنِ » ومال الى حسم الباب أرباب الظواهر

والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار ، والنزولَ ليس هو الانتقالَ ؛ ولكنه منع من التأويل حسما للباب ، ورعاية لصلاح الخلق ، فانه إذا فتح الباب اتسع الخرق ، وخرج الأمر عن الضبط ، وجاوز حد الاقتصاد ، إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط ، فلا بأس بهذا الزجر

ويشهد له سيرة السلف ، فانهم كانوا يقولون أمِرّوها كما جاءت ، حتي قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة

وذهبت طائفة الى الاقتصاد ، وفتحوا باب التأويل فى كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه ، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ، ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية

وزاد المعتزلة عليهم حتى أوّلوا من صفاته تعالى الرؤية ، وأوّلوا كونه سميعا بصيرا ، وأوّلوا المعراج ، وزعموا أنه لم يكن بالجسد ، وأوّلوا عذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وجملة من أحكام الآخرة ، ولكن أقروا بحشر الأجساد ، وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس محرق يحرق الجلود ويذيب الشحوم

---

(١) حديث الحجر يمين الله فى الأرض الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو
(٢) حديث انى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن أحمد من حديث أبى هريرة فى حديث قال فيه وأجد نفس ربكم من قبل اليمن ورجاله ثقات

ومن ترقيهم الى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد فى الآخرة ، وردوه الى آلام عقلية وروحانية ، ولذات عقلية ، وأنكروا حشر الأجساد ، وقالوا ببقاء النفوس ، وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس . وهؤلاء هم المسرفون

وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه الا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع . ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا الى السمع والألفاظ الواردة : فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه ، وما خالف أولوه . فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد ، فلا يستقر له فيها قدم ، ولا يتعين له موقف ، والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله

والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد فى هذه الأمور داخل فى علم المكاشفة ، والقول فيه يطول ، فلا نخوض فيه . والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له . فقد انكشفت بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة

وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حررناها ، وأنهم لا يكلفون غير ذلك فى الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى فى الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق ، فلنورد فى هذا الكتاب تلك اللوامع ، ولنقتصر فيها على ما حررناه لأهل القدس ، وسميناه الرسالة القدسية فى قواعد العقائد ، وهى مودعة فى هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس

فنقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى ميز عصابة السنة بأنوار اليقين ، وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين ، وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ، ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين ، وسددهم للتأسى بصحبه الأكرمين ، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا

بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصول ، إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الاله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهى أربعة ، ويدور كل ركن منها على عشرة أصول :

الركن الأول : في معرفة ذات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهى : العلم بوجود الله تعالى ، وقدمه ، وبقائه ، وأنه ليس بجوهر ، ولا جسم ولا عرض ، وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقراً على مكان ، وأنه يرى ، وأنه واحد

الركن الثاني : في صفاته ، ويشتمل على عشرة أصول ، وهو : العلم بكونه حيا ، عالما ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلما ، منزها عن حلول الحوادث ، وأنه قديم الكلام ، والعلم ، والإرادة

الركن الثالث : في أفعاله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهى : أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنها مكتسبة للعباد ، وأنها مرادة لله تعالى ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع ، وأن له تعالى تكليفَ مالا يطاق ، وأن له إيلام البرىء ، ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع ، وأن بعثه الأنبياء جائز وأن نبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيدة بالمعجزات

الركن الرابع : في السمعيات ، ومداره على عشرة أصول ، وهى : إثبات الحشر ، والنشر ، وسؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وخلق الجنة والنار ، وأحكام الإمامة ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروط الإمامة

فاما الركن الأوّل من أركان الايمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى

وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى

وأوّل ما يستضاء به من الأنوار، ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد اليه القرءان، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان. وقد قال تعالى : (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً ، وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَباً وَنَبَاتاً ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) وقال تعالى : (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ، وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) وقال تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ) إلى قوله : (لِلْمُقْوِينَ) فليس يخفى على من معه أدنى مُسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات ، وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات ، وبدائع فطرة الحيوان والنبات ، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره ، وفاعل يحكمه ويقدره ، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ، ومصرفة بمقتضى تدبيره ، ولذلك قال الله تعالى : (أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) . ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق الى التوحيد ليقولوا : لا إله إلا الله ، وما أمروا أن يقولوا : لنا إله وللعالم إله ، فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفى عنفوان شبابهم

ولذلك قال عز وجل : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ) وقال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّٰهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) فاذاً فى فطرة الانسان وشواهد القرءان ما يغنى عن إقامة البرهان ، ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول :

من بدائه العقول أن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث ، فاذاً لا يستغنى فى حدوثه عن سبب . أما قولنا : إن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن سبب فجلي ، فان كل حادث مختص بوقت يجوز فى العقل تقدير تقديمه وتأخيره ، فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة الى المخصص . وأما قولنا : العالم حادث ، فبرهانه أن أجسام العالم لاتخلو عن الحركة والسكون ، وهما حادثان ، وما لايخلو عن الحوادث فهو حادث ، ففى هذا البرهان ثلاث دعاوى :

الأولى : قولنا : إن الأجسام لاتخلو عن الحركة والسكون ، وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار ، فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار؛ فان من عقل جسما لا ساكنا ولا متحركا ، كان لمتن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبا

الثانية : قولنا: إنهما حادثان . ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض ، وذلك مشاهد فى جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد . فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته ، وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه ، فالطارىء منهما حادث لطريانه ، والسابق حادث لعدمه ، لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ، على ما سيأتى بيانه وبرهانه فى إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس

الثالثة : قولنا : مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهى النوبة الى وجود الحادث الحاضر فى الحال ، وانقضاء مالا نهاية له محال؛ ولأنه لو كان للفلك دورات لانهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترا ، أو شفعا ووترا جميعا ، أولا شفعا ولا وترا ، ومحال أن تكون شفعا ووتراً جميعا ، أولا شفعا ولا وترا ؛ فان ذلك جمع بين النفى والاثبات ، إذ فى إثبات أحدهما نفى الآخر ، وفى نفي أحدهما إثبات الآخر ، ومحال

أن يكون شفعا ؛ لأن الشفع يصير وترا بزيادة واحد ، وكيف يعوز مالانهاية له واحد ؟! ومحال أن يكون وترا إذ الوتر يصير شفعا بواحد ، فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها ؟ ومحال أن يكون لاشفعا ولا وترا ، إذ له نهاية .فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث فهو إذا حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة

الأصل الثانى

العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل أزلى ليس لوجوده أول بل أول كل شيء وقبل كل ميت وحى

وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضا إلى محدث ، وافتقر محدثه إلى محدث ، وتسلسل ذلك إلى مالانهاية ، وما تسلسل لم يتحصل ، أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول ، وذلك هو المطلوب الذى سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه

الأصل الثالث

العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه

وبرهانه : أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ، ولو جاز أن ينعدم شىء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شىء يتصور عدمه بنفسه ، فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب ، وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده ، لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصوّر الوجود معه ، وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه ، فكيف كان وجوده فى القدم ومعه ضده ؟ فإن كان الضد المعدم حادثا كان محالا إذ ليس الحادث فى مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم فى مضادته للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع ، والقديم أقوى وأولى من الحادث

الأصل الرابع

العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز ، بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز

وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان ، وما يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ولو تصوّر جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم ، فان سماه مسمّ جوهراً

ولم يرد به المتحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى

الأصل الخامس

العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر ، إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصا بحيز بطل كونه جسما ، لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع ، والحركة والسكون ، والهيئة والمقدار . وهذه سمات الحدوث ، ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم ، لجاز أن يعتقد الالهية للشمس والقمر ، أو لشيء آخر من أقسام الأجسام . فان تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر ، كان ذلك غلطا فى الاسم ، مع الإصابة فى نفى معنى الجسم

الأصل السادس

العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال فى محل ، لأن العرض مايحل فى الجسم ، فكل جسم فهو حادث لا محالة ، ويكون محدثه موجوداً قبله ، فكيف يكون حالا فى الجسم وقد كان موجوداً فى الأزل وحده وما معه غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق، كما سيأتى بيانه ، وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض ، بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه ، مستقل بذاته ، وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ، ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام ، فإذاً لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء . وأنى يشبه المخلوق خالقه ، والمقدور مقدره ، والمصور مصوره والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه ؟! فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته.

الأصل السابع ـ العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات

فان الجهة إما فوق ، وإما أسفل ، وإما يمين ، وإما شمال : أو قدام ، أو خلف . وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان ، إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا ، والآخر يقابله ويسمى رأسا . فحدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس ،

واسم السفل لما يلي جهة الرجل ، حتى إن النملة التي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق فى حقها تحتا ، وإن كان فى حقنا فوقا . وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى فى الغالب ، فحدث اسم اليمين للأقوى ، واسم الشمال لما يقابله ، وتسمى الجهة التى تلى اليمين يمينا ، والأخرى شمالا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك اليه ، فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم اليها بالحركة ، واسم الخلف لما يقابلها : فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ، ولولم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة ، لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة ، فكيف كان فى الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة ؟ أو كيف صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له : أبأن خلق العالم فوقه ، وتعالى عن أن يكون له فوق ، إذ تعالى أن يكون له رأس ، والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس ، أو خلق العالم تحته ، فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل ، والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل ، وكل ذلك مما يستحيل فى العقل ، ولأن المعقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر ، أو مختص بالجواهر اختصاص العرض ، وقد ظهر استحالة كونه جوهراً أو عرضا ، فاستحال كونه مختصا بالجهة . وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا فى الاسم مع المساعدة على المعنى ، ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له ، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر ، وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ، ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر . فأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء ، فهو لأنها قبلة الدعاء ، وفيه أيضا إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء ، تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء ، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء

الأصل الثامن

العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء ، وهو الذى لاينافى وصف الكبرياء ، ولا يتطرق اليه سمات الحدوث والفناء ، وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرءان : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء ، كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

واضطر أهل الحق الى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطل الى تأويل قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم: « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » على القدرة والقهر ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم: « الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي أَرْضِهِ » على التشريف والإكرام ؛ لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال ، فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسما مماسا للعرش ، إما مثله أو أكبر منه أو أصغر ، وذلك محال ، وما يؤدي الى المحال فهو محال

الأصل التاسع

العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار ، مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار ، لقوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ولا يرى في الدنيا تصديقا لقوله عز وجل : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام : (لَنْ تَرَانِي) . وليت شعري كيف عرف المعتزلي من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام ؟! وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ؟! ولعل الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم !

وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر ، فهو أنه غير مؤد الى المحال ، فان الرؤية نوع كشف وعلم ، إلا أنه أتم وأوضح من العلم . فإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة . وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم ، جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة ، جاز أن يرى كذلك

الأصل العاشر

العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له ، فرد لا ندّ له ، انفرد بالخلق والابداع واستبد بالإيجاد والاختراع ، لا مثل له يساهمه ويساويه ، ولا ضد له فينازعه ويناويه . وبرهانه قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) وبيانه : أنه لو كانا اثنين وأراد

أحدهما أمراً فالثانى إن كان مضطرا الى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادراً ، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته كان الثانى قويا قاهراً ، والأول ضعيفا قاصراً ولم يكن إلها قادراً

(الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول)

الأصل الأول

العلم بأن صانع العالم قادر ، وأنه تعالى فى قوله : (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) صادق ، لأن العالم محكم فى صنعته ، مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لااستطاعة له ، أو عن إنسان لاقدرة له ، كان منخلعا عن غريزة العقل ، ومنخرطا فى سلك أهل الغباوة والجهل

الأصل الثانى

العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ، ومحيط بكل المخلوقات ، لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، صادق فى قوله : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لاتستريب فى دلالة الخلق اللطيف ، والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف ، على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف ، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف

الأصل الثالث

العلم بكونه عز وجل حيا ، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات ، بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات ، وذلك انغماس فى غمرة الجهالات والضلالات

الأصل الرابع

العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله ، فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن

إرادته ، فهو المبدىء المعيد ، والفعال لما يريد ، وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده ، ومالاضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده : والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة ، فلابد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين ، ولوأغنى العلم عن الإرادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد فى الوقت الذى سبق العلم بوجوده ، لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال : وجد بغير قدرة ،لأنه سبق العلم بوجوده فيه

الأصل الخامس

العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وكيف لا يكون سميعا بصيراً والسمع والبصر كمال لامحالة وليس بنقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والكمال فى خلقه وصنعته ؟ أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا ،فقال له :«لِمَ تَعْبُدُ مَالاَيَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ، ولم يصدق قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة ، وعالما بلا قلب ودماغ ، فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة ، وسميعا بلا أذن ، إذ لا فرق بينهما

الأصل السادس

أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام ، وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره ، كما لا يشبه وجوده وجود غيره . والكلام بالحقيقة كلام النفس ، وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء ، حيث قال قائلهم:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا !

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول : لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم ، فاقطع عن عقله طمعك ، وكف عن خطابه لسانك . ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء ، وأن الباء قبل السين فى قولك : بسم الله ، فلا يكون

السين المتأخر عن الباء قديما ، فنزه عن الالتفات اليه قلبك ، فلله سبحانه سر فى إبعاد بعض العباد ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام فى الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى فى الآخرة موجوداً ليس بجسم ولا لون وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره ، فليعقل فى حاسة السمع ما عقله فى حاسة البصر . وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات ، فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه بالعبارات . وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة فى ورقة صغيرة ومحفوظة فى مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئى فى مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار فى الحدقة والقلب والورقة ، فليعقل كون الكلام مقروءاً بالألسنة ، محفوظا فى القلوب ، مكتوبا فى المصاحف ، من غير حلول ذات الكلام فيها ، إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام فى الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه فى الورق ، وحلت ذات النار بكتابة اسمها فى الورق ، ولاحترق

الاصل السابع

أن الكلام القائم بنفسه قديم ، وكذا جميع صفاته ، إذيستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم مايجب للذات فلاتعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل فى قدمه موصوفا بمحامد الصفات ، ولا يزال فى أبده كذلك منزها عن تغير الحالات ، لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، و إنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف ، فكيف يكون خالقها مشاركا لها فى قبول التغير ، وينبنى على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته ، وإنما الحادث هى الأصوات الدالة عليه . وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده ، حتى إذا خلق ولده وعَقَل وخلق الله له علما متعلقا بما فى قلب أبيه من الطلب ، صار مأموراً بذلك الطلب الذى قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له ، فليعقل قيام الطلب الذى دل عليه قوله عز وجل : (اَخْلَعْ نَعْلَيْكَ) بذات الله ، ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده ، إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب ، وسمع لذلك الكلام القديم

الأصل الثامن

أن علمه قديم ، فلم يزل عالما بذاته وصفاته ، وما يحدثه من مخلوقاته ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها ، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى ، إذلو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك علم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر . فهكذا ينبغى أن يفهم قدم علم الله تعالى

الأصل التاسع

أن إرادته قديمة ، وهى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى ، إذلو كانت حادثة لصارمحل الحودات ، ولوحدثت فى غير ذاته لم يكن هو مريدا لها ، كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست فى ذاتك ، وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الارادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ، ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية . ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة

الأصل العاشر

أن الله تعالى عالم بعلم ، حى بحياة ، قادر بقدرة ، ومريد بارادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر . وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم ، كقوله : غنىّ بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فان العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل . وكما لا يتصوّر قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصوّر قتيل بلا قاتل ولا قتل ، كذلك لا يتصوّر عالم بلا علم ، ولا علم بلا معلوم ، ولا معلوم بلا عالم . بل هذه الثلاثة متلازمة فى العقل لا ينفك بعض منها عن البعض : فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوّز انفكاكه عن المعلوم ، وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى وأوله الركن الثالث من أركان الإيمان)

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثاني

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى . القاهرة ت [illegible]

الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول

الاصل الأول

العلم بأن كل حادث فى العالم فهو فعله وخلقه واختراعه ، لا خالق له سواه ولا محدث له إلا إياه ، خلق الخلق وصنعهم ، وأوجد قدرتهم وحركتهم ، فجميع أفعال عباده مخلوقة له ، ومتعلقة بقدرته ، تصديقا له فى قوله تعالى : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) وفى قوله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) وفى قوله تعالى (وأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أمر العباد بالتحرز فى أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم ،لعلمه بموارد أفعالهم واستدل على العلم بالخلق ، وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها ، وهى متعلقة بحركة أبدان العباد ، والحركات متماثلة ، وتعلق القدرة بها لذاتها ؟ فما الذى يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها ؟ أو كيف يكون الحيوان مستبدا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب ؟ فكيف انفردت هى باختراعها دون رب الأرباب وهى غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب ؟ هيهات هيهات ! ذلت المخلوقات ، وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات

الأصل الثانى

أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له ، فانها خلقت مقدورة بقدرة هى وصفه ، وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة ، فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا ، وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها ، وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب ، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ، إذ

قدرة الله تعالى فى الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلا بها ، وهى عند الاختراع متعلقة به نوعا آخر من التعلق . فبه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها

الأصل الثالث

أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه ، فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته ، وبإرادته ومشيئته ، ومنه الشر والخير ، والنفع والضر ، والاسلام والكفر ، والعرفان والنكر ، والفوز والخسران ، والغواية والرشد ، والطاعة والعصيان ، والشرك والإيمان ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة : ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وقول الله عز وجل : ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾

ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصى والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها وإنما هى جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه والجارى على وفق إرادة العدو أكثر من الجارى على وفق إرادته تعالى ، فليت شعرى ، كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والاكرام إلى رتبة لو ردت اليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها ! إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم فى القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته ، والمعصية هى الغالبة على الخلق ، وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى . وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً . ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له

فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟ قلنا الأمر غير الارادة ، ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه ، فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ، ولو لم يكن آمراً لما كان عذره عند السلطان ممهدا ، ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه ، وهو محال

الأصل الرابع

أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ، ومتطول بتكليف العباد ، ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه . وقالت المعتزلة : وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد، وهو محال ، إذ هو الموجب والآمر والناهى ، وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذى فى تركه ضرر. إما آجل كما يقال : يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه فى الآخرة بالنار ، أوضرر عاجل كما يقال : يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت ، وإما أن يراد به الذى يؤدى عدمه إلى محال ، كما يقال : وجود المعلوم واجب ، إذ عدمه يؤدى إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا ، فان أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرضه للضرر ، وأن أراد به المعنى الثانى فهو مسلّم ، إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم . وإن أراد به معنى ثالثا فهو غير مفهوم . وقوله : يجب لمصلحة عباده ، كلام فاسد ، فانه اذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب فى حقه معنى . ثم ان مصلحة العباد فى أن يخلقهم فى الجنة ، فأما أن يخلقهم فى دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب ، فما فى ذلك غبطة عند ذوى الألباب

الأصل الخامس

أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق مالا يطيقونه ، خلافا للمعتزلة ، ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه ، وقد سألوا ذلك فقالوا : « رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدّقه ثم أمره بأن يأمره بأن يصدّقه فى جميع أقواله ، وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه فى أنه لا يصدقه ؟ وهل هذا إلا محال وجوده ؟

الأصل السادس

أن الله عز وجل إيلامَ الخلق وتعذيبَهم من غير جرم سابق ، ومن غير ثواب لاحق ، خلافا للمعتزلة ، لأنه متصرف فى ملكه ، ولا يتصوّر أن يعدُوَ تصرفهُ ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، وهو محال على الله تعالى ، فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما . ويدل على جواز ذلك وجوده ، فان ذبح البهائم إيلام لها ، وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة

فإن قيل: إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام، ويجب ذلك على الله سبحانه

فنقول: من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وُطئت، وكل بقة عُركت حتى يثيبها على آلامها، فقد خرج عن الشرع والعقل، اذ يقال: وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أنه يتضرر بتركه، فهو محال، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذا خرج عن المعانى المذكورة للواجب

الأصل السابع

أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء، فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء، بل لا يعقل فى حقه الوجوب، فانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون. وليت شعرى بما يجيب المعتزلى فى قوله: إن الاصلح واجب عليه فى مسألة نعرضها عليه، وهو أن يفرض مناظرة فى الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين فإن الله سبحانه يزيد فى درجات البالغ ويفضله عن الصبي لأنه تعب بالايمان والطاعات بعد البلوغ، ويجب عليه ذلك عند المعتزلى، فلو قال الصبي: يارب لم رفعت منزلته على؟ فيقول: لأنه بلغ واجتهد فى الطاعات، ويقول الصبي: أنت أمتنى فى الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتى حتى أبلغ فأجتهد فقد عدلت عن العدل فى التفضيل عليه بطول العمر له دونى فلم فضلته؟ فيقول الله تعالى: لأنى علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت فى الصبا. هذا عذر المعتزلى عن الله عز وجل، وعند هذا ينادى الكفارُ من دركات لظى ويقولون: يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا فى الصبا فانا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم: فماذا يجاب عن ذلك؟ وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الالهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال

فان قيل: مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحا لا يليق بالحكمة

قلنا: القبيح مالا يوافق الغرض، حتى إنه قد يكون الشيء قبيحا عند شخص حسنا عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر، حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه

أعداؤه ، فان أريد بالقبيح مالا يوافق غرض البارى سبحانه فهو محال ، إذ لا غرض له ، فلا يتصور منه قبيح ، كما لا يتصور منه ظلم ، إذ لا يتصور منه التصرف فى ملك الغير . وإن أريد بالقبيح مالا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد تشهى يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار ؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على فعلها على وفق إرادته ، وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح ، وأما الحكيم منا يراعى الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد به فى الدنيا ثناء وفى الآخرة ثوابا ، أو يدفع به عن نفسه آفة ، وكل ذلك على الله سبحانه وتعالى محال

الأصل الثامن

أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه ، لا بالعقل ، خلافاً للمعتزلة لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال ، فان العقل لا يوجب العبث ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض ، وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال فى حقه تعالى ، فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد ، بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان فى حقه تعالى سيان . وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضاً محال لأنه لا غرض له فى الحال ، بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه ، وليس فى المآل إلا الثواب والعقاب . ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية فى حقه يتساويان ، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تميز ذلك بالشرع ؟ ولقد ذل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر

فإن قيل : فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه ، فإذا قال المكلف للنبى : إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندى إلا بالنظر ، ولست أقدم على النظر ، أدى ذلك إلى إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم

قلنا : هذا يضاهى قول القائل للواقف فى موضع من المواضع : إن وراءك سبعاً ضارياً فإن لم تبرح عن المكان قتلك ، وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقى . فيقول الواقف :

لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائى ، ولا ألتفت ورائى ولا أنظر ما لم يثبت صدقك . فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ، ولا ضرر فيه على الهادى المرشد ، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول إن وراءكم الموت ، ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا لى صدقى بالالتفات إلى معجزتى وإلا هلكتم ، فمن التفت عرف واحترز ونجا ، ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ، ولا ضرر عَلَىّ إن هلك الناس كلهم أجمعون ، وإنما عَلَىّ البلاغ المبين . فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت ، والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله فى المستقبل ، والطبع يستحث على الحذر من الضرر ومعنى كون الشىء واجبا أن فى تركه ضرراً . ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف للضرر المتوقع ، فان العقل لا يهدى إلى التهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات . فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما فى تقدير الواجب . ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا ، إذ لا معني للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر فى الآخرة

الأصل التاسع

أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام ، خلافا للبراهمة حيث قالوا : لا فائدة فى بعثتهم إذ فى العقل مندوحة عنهم ، لأن العقل لايهدى إلى الأفعال المنجية فى الآخرة كما لا يهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة ، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ، ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ، ويعرف صدق النبي بالمعجزة

الأصل العاشر

أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين ، وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة [١] « كَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ » [٢] « وتَسْبِيحِ الْحَصَى » [٣] « وَإِنْطَاقِ الْعَجْمَاءِ وَمَا تَفَجَّرَ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ مِنَ الْمَاءِ »

---

(١) حديث انشقاق القمر متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس

(٢) حديث تسبيح الحصى البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى ذر وقال صالح بن أبى الأخضر ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بنى سليم لم يسم عن أبى ذر

(٣) حديث إنطاق العجماء أحمد والبيهقى باسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة فى البعير الذى شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم أهله وقد ورد فى كلام الضب والذئب والحمرة أحاديث رواها البيهقى فى الدلائل

ومن آياته الظاهرة التي تحدّى بها مع كافة العرب القرءان العظيم ، فانهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدّفوا لسبيه ونهبه وقتله وإخراجه كما أخبر الله عز وجل عنهم ، ولم يقدروا على معارضته بمثل القرءان ، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرءان ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين ، مع كونه أمياً غير ممارس للكتب ، والإنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال ، كقوله تعالى : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) وكقوله تعالى : (الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ)

ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى ، فمها كان مقرونا بتحدى النبي صلى الله عليه وسلم ينزّل منزلة قوله : صدقت ، وذلك مثل القائم بين أيدى الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك اليهم ، فانه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقعد على خلاف عادتك ففعل الملك ذلك ، حصل للحاضرين علم ضرورى بأن ذلك نازل منزلة قوله صدقت

الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول

« الْحَشْرُ وَالنَّشْرُ » (١) وقد ورد بهما الشرع ، وهو حق ، والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن . ومعناه الاعادة بعد الافناء ، وذلك مقدور لله تعالى ، كابتداء الانشاء ، قال الله تعالى : (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) فاستدل بالابتداء على الاعادة . وقال عز وجل : (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) والاعادة ابتداء ثان ، فهو ممكن كالابتداء الأول

---

(١) حديث الحشر والنشر الشيخان من حديث ابن عباس انكم لمحشورون الى الله ـ الحديث : ومن حديث سهل يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ـ الحديث : ومن حديث عائشة يحشرون يوم القيامة حفاة ومن حديث أبي هريرة يحشر الناس على ثلاث طرائق ـ الحديث : ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أفتنا في بيت المقدس وأرض المحشر والنشر الحديث واسناده جيد

الأصل الثانى

« سُؤَالُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ »[1] وقد وردت به الأخبار ، فيجب التصديق به ، لأنه ممكن ، إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذى به فهم الخطاب ، وذلك ممكن فى نفسه ، ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له ، فان النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « يَسْمَعُ كَلَامَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُشَاهِدُهُ وَمَنْ حَوْلَهُ لَا يَسْمَعُونَهُ وَلَا يَرَوْنَهُ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » فاذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه

الأصل الثالث

« عَذَابُ الْقَبْرِ » وقد ورد الشرع به قال الله تعالى [3] (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر ، وهو ممكن ، فيجب التصديق به ، ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور ، فان المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الادراك إليها

الأصل الرابع

الميزان ، وهو حق ، قال الله تعالى : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) . وقال تعالى : (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) الآية . ووجهه أن الله تعالى يحدث فى صحائف الأعمال وزنًا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى ، فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد ، حتى يظهر لهم العدل فى العقاب ، أو الفضل فى العفو وتضعيف الثواب

---

(١) حديث سؤال منكر ونكير تقدم

(٢) حديث كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لايسمعونه ولا يرونه البخارى ومسلم من حديث عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ياعائشة هذا جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم

(٣) حديث استعاذ من عذاب القبر أخرجاه من حديث أبى هريرة وعائشة وقد تقدم

الأصل الخامس

الصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، أرق من الشعرة وأحد من السيف ، قال الله تعالى : (فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) . وهذا ممكن ، فيجب التصديق به ، فان القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط

الأصل السادس

أن الجنة والنار مخلوقتان ، قال الله تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) . فقوله تعالى :(أُعدت) ، دليل على أنها مخلوقة ، فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه . ولا يقال : لا فائدة في خلقها قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى : « لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »

الأصل السابع

أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم ، ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا ، إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد ، ولم يخف ذلك ، فكيف خفي هذا ؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا ؟ فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالاختيار والبيعة . وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرق الإجماع ، وذلك مما لا يستجرىء على اختراعه إلا الروافض . واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وما جرى بين معاوية وعلى رضى الله عنهما كان مبنياً على الإجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة ، إذ ظن علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها ، فرأى التأخير أصوب ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرّض الدماء للسفك . وقدقال أفاضل العلماء : كل مجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد ، ولم يذهب إلى تخطئة علي ذو تحصيل أصلا

الاصل الثامن

أن فضل الصحابة رضى الله عنهم على حسب ترتيبهم فى الخلافة ، إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل ، وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقد ورد فى الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحى والتنزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل ، فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عن الحق صارف

الأصل التاسع

أن شرائط الامامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة ، والورع ، والعلم ، والكفاية ، ونسبة قريش ، لقوله صلى الله عليه وسلم (٢) « ٱلْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالامام من انعقدت له البيعة أكثر الخلق ، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق

الاصل العاشر

أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للامامة وكان فى صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته لأنا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال ، فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التى أثبتت لمزية المصلحة ، فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها ، كالذى يبنى قصرا و يهدم مصرا ، وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الأمام وبفساد الأقضية وذلك محال ، ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البغى فى بلادهم لمسيس حاجتهم ، فكيف لا نقضى بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة

فهذه الأركان الأربعة الحاوية للاصول الأربعين هى قواعد العقائد . فمن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لرهط البدعة . فالله تعالى يسددنا بتوفيقه ، ويهدينا الى الحق وتحقيقه ، بمنه وسعة جوده وفضله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى

---

(١) حديث الثناء على الصحابة تقدم

(٢) حديث الائمة من قريش النسائى من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر .

الفصل الرابع

من قواعد العقائد

في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال ، وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ، ووجه استثناء السلف فيه ، وفيه ثلاثة مسائل

مسألة

اختلفوا فى أن الاسلام هو الايمان أو غيره ، وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه ؟ فقيل : إنهما شيء واحد . وقيل : إنهما شيآن لا يتواصلان . وقيل إنهما شيآن ولكن يرتبط أحدهما بالآخر . وقد أورد أبو طالب المكى فى هذا كلاما شديد الاضطراب كثير التطويل . فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل مالا تحصيل له . فنقول: فى هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين فى اللغة ، وبحث عن المراد بهما فى إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما فى الدنيا والآخرة . والبحث الأول لغوى ، والثانى تفسيري ، والثالث فقهى شرعي

البحث الأول فى موجب اللغة

والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق قال الله تعالي : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) أي بمصدّق . والاسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والاباء والعناد . وللتصديق محل خاص وهو القلب ، واللسان ترجمانه . وأما التسليم فإنه عام فى القلب واللسان والجوارح ؛ فأن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الاباء والجحود ، وكذلك الاعتراف باللسان ، وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح . فموجب اللغة أن الاسلام أعم ، والايمان أخص ، فكان الايمان عبارة عن أشرف أجزاء الاسلام ، فاذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً

البحث الثانى عن إطلاق الشرع

والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد ، وورد على سبيل الاختلاف ، وورد على سبيل التداخل

أما الترادف في قوله تعالى : (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد . وقال تعالى : (يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) . وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ » (٢) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الايمان فأجاب بهذه الخمس

وأما الاختلاف فقوله تعالى : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) ومعناه استسلمنا في الظاهر فأراد بالايمان هاهنا التصديق فقط ، وبالاسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح . وفي حديث جبرائيل عليه السلام (٣) لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ . فَقَالَ « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبِالْحِسَابِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » فقال : فَمَا الْإِسْلَامُ فأجاب بذكر الخصال الخمس فعبر بالاسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل . وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم (٤) « أَعْطَى رَجُلاً عَطَاءً وَلَمْ يُعْطِ الْآخَرَ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : يَارَسُولَ اللهِ تَرَكْتَ فُلَاناً لَمْ تُعْطِهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فقال صلى الله عليه وسلم : أَوْ مُسْلِمٌ ، فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأما التداخل فما روى أيضاً أنه سئل (٥) فقيل « أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « الْإِسْلَامُ » فقال : أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « الْإِيمَانُ » وهذا دليل على الاختلاف ، وعلى التداخل ، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة ، لأن الايمان عمل من

---

(١) حديث بني الاسلام على خمس أخرجاه من حديث ابن عمر

(٢) حديث سئل عن الايمان فأجاب بهذه الخمس البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس تدرون ما الايمان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد وأن تؤتوا خمسا من المغنم

(٣) حديث جبريل لما سأله عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته ـ الحديث : أخرجاه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر الحساب فرواه البيهقي في البعث وقد تقدم

(٤) حديث سعد أعطى رجلا عطاء ولم يعط الاخر فقال له سعد يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم ـ الحديث : أخرجاه بنحوه

(٥) حديث سئل أي الاعمال أفضل فقال الاسلام فقال أي الاسلام أفضل فقال الايمان أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الاخير قال رجل يارسول الله أي الاسلام أفضل قال الايمان واسناده صحيح

الاعمال وهو افضلها ، والاسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب ، وهو التصديق الذي يسمى إيماناً . والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة

أما الاختلاف فهو أن يجعل الايمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط ، وهو موافق للغة . والاسلام عبارة عن التسليم ظاهرا ، وهو أيضا موافق للغة ، فان التسليم ببعض محالّ التسليم ينطلق عليه اسم التسليم فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه ، فان من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامسا وإن لم يستغرق جميع بدنه : فاطلاق اسم الاسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى:(قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) . وقوله صلى الله عليه وسلم: فى حديث سعد « أَوْ مُسْلِمٌ » لأنه فضل أحدهما على الآخر ، ويريد بالاختلاف تفاضل المسّميين

وأما التداخل فموافق أيضاً للغـة فى خصوص الإيمان ، وهو أن يجعـل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً ، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل فى الاسلام وهو التصـديق بالقلب وهو الذى عنيناه بالتداخل وهو موافق للغـة فى خصوص الايمان وعموم الاسلام للكل . وعلى هذا خرج قوله : (الايمان) ، فى جواب قول السائل : أى الاسلام أفضل؟ لأنه جعل الايمان خصوصاً من الاسلام فأدخله فيه

وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الاسلام عبارة على التسليم بالقلب والظاهر جميعاً فان كل ذلك تسليم ، وكذا الايمان ، ويكون التصرف فى الايمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر فى معناه ، وهو جائز ، لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته . وقد يطلق إسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح ، فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفا لاسم الاسلام ومطابقا له ، فلا يزيد عليه ولا ينقص . وعليه خرج قوله : (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

البحث الثالث عن الحكم الشرعى

وللاسلام والايمان حكمان أخروى ودنيوى

أما الأخروى فهو الأخراج من النار ، ومنع التخليد ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يترتب ، وعبروا عنه بأن الايمان ماذا هو ؟ فمن قائل : إنه مجرد العقد ، ومن قائل يقول : إنه عقد بالقلب وشهادة اللسان ، ومن قائل : يزيد ثالثا وهو العمل بالأركان

ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول : من جمع بين هذه الثلاثة فلاخلاف فى أن مستقره الجنة : وهذه درجة

والدرجة الثانية : أن يوجد اثنان وبعض الثالث ، وهو القول والعقد وبعض الأعمال ، ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر ، فعند هذا قالت المعتزلة : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر ، بل اسمه فاسق ، وهو على منزلة بين المنزلتين ، وهو مخلد فى النار وهذا باطل كما سنذكره

الدرجة الثالثة : أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح . وقد اختلفوا فى حكمه ، فقال أبو طالب المكى : العمل بالجوارح من الايمان ولا يتم دونه ، وادعى الاجماع فيه ، واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه ، كقوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إذ هذا يدل على أن العمل وراء الايمان لا من نفس الايمان ، وإلا يكون العمل فى حكم المعاد . والعجب أنه ادعى الاجماع فى هذا ، وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم : [٢] « لَا يَكْفُرُ إِلَّا بَعْدَ جُحُودِهِ لِمَا أَقَرَّ بِهِ » وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد فى النار بسبب الكبائر . والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة إذ يقال له : من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات فى الحال ، فهل هو فى الجنة : فلا بد أن يقول نعم ، وفيه حكم بوجود الايمان دون العمل ، فنزيد ونقول : لو بقى حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات ، أو زنى ثم مات

---

(١) حديث يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان أخرجاه من حديث أبى سعيد الخدرى فى الشفاعة وفيه اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فأخرجوه ـ الحديث : ولهما من حديث أنس فيقال انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان وهو عندهما متصل بلفظ خير مكان ايمان

(٢) حديث لاتكفروا أحدا لا بجحوده بما أقر به الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد لن يخرج أحد من الايمان الا بجحود ما دخل فيه واسناده ضعيف

فهل يخلد في النار ؟ فان قال نعم فهو مراد المعتزلة ، وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الايمان ولا شرطا في وجوده ولا في استحقاق الجنة به ، وإن قال : أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية ، فنقول : فما ضبط تلك المدة ؟ وما عدد تلك الطاعات التي بتركها يبطل الايمان ؟ وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الايمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلا

الدرجة الرابعة : أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات ، فهل تقول : مات مؤمناً بينه وبين الله تعالى ؟ وهذا مما اختلف فيه . ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الايمان وهو فاسد ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ » . وهذا قلبه طافح بالايمان ، فكيف يخلد في النار ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للايمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، كما سبق

الدرجة الخامسة : أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتي الشهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها ، فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة ونقول : هو مؤمن غير مخلد في النار ، والايمان هو التصديق المحض ، واللسان ترجمان الايمان فلا بد أن يكون الايمان موجوداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان ، وهذا هو الأظهر ، إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الايمان هو عبارة عن التصديق بالقلب. وقد قال صلى الله عليه وسلم : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ » ولا ينعدم الايمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب ، كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب. وقال قائلون : القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخباراً عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام ، والأول أظهر وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقالوا : هذا لا يدخل النار أصلا ، وقالوا : إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار . وسنبطل ذلك عليهم

الدرجة السادسة : أن يقول بلسانه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولكن لم يصدق بقلبه : فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار ، وأنه مخلد في النار . ولا نشك في أنه في

حكم الدنيا الذى يتعلق بالأئمة والولاة ، من المسلمين ، لأن قلبه لا يطلع عليه وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطو عليه فى قلبه ، وإنما نشك فى أمر ثالث وهو الحكم الدنيوى فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك بأن يموت له فى الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى ويقول : كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن فى يدى ، فهل يحل لى بينى وبين الله تعالى ؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح ؟ هذا محل نظر ، فيحتمل أن يقال : أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ، ويحتمل أن يقال : تناط بالظاهر فى حق غيره ، لأن باطنه غير ظاهر لغيره ، وباطنه ظاهر له فى نفسه بينه وبين الله تعالى . والأظهر والعلم عند الله تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ، ويلزمه إعادة النكاح . ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين ، وعمر رضى الله عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه ، والصلاة فعل ظاهر فى الدنيا وإن كان من من العبادات . والتوقى عن الحرام أيضا من جملة ما يجب لله كالصلاة ، لقوله صلى الله عليه وسلم: « طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ » وليس هذا مناقضاً لقولنا أن الارث حكم الاسلام وهو الاستسلام ، بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن ، وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة ، فلا ينبغى أن يظن القاصر فى العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده فى فن الكلام الذى يطلب فيه القطع ، فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم فى العلوم

فان قلت : فما شبهة المعتزلة والمرجئة ؟ وما حجة بطلان قولهم ؟ فأقول شبهتهم عمومات القرءان

أما المرجئة فقالوا : لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل : (فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً) ولقوله عز وجل : (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ) الآية ولقوله تعالى: (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا) إلى قوله : (فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) فقوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ » عام ، فينبغى أن يكون كل من ألقى فى النار مكذباً ، ولقوله تعالى : (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) وهذا حصر

وإثبات ونفى ، ولقوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) فالايمان رأس الحسنات ، ولقوله تعالى : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وقال تعالى : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) ولا حجة لهم فى ذلك ، فانه حيث ذكر الايمان فى هذه الآيات أريد به الايمان مع العمل ، إذ بينا أن الايمان قد يطلق ويراد به الاسلام ، وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة فى معاقبة العاصين ومقادير العقاب . وقوله صلى الله عليه وسلم « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » فكيف يخرج إذا لم يدخل ؟ ومن القرءان قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام ، وقوله تعالى : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) وتخصيصه بالكفر تحكم ، وقوله تعالى : (أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ) . وقال تعالى : (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) فهذه العمومات فى معارضة عموماتهم ، ولابد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين؛ لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون (١) ، بل قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) كالصريح فى أن ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه ، وقوله تعالى : (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصا معينا أيضا . وقوله تعالى : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا) أى فوج من الكفار . وتخصيص العمومات قريب . ومن هذه الآية وقع للأشعرى وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم ؛ وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها

وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى : (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) وقوله تعالى: (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وقوله تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) ثم قال : (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا) وقوله

---

(١) حديث تعذيب العصاة البخارى من حديث أنس « ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها » الحديث ويأتى فى ذكر الموت عدة أحاديث

تعالى : (وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) . وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونًا بالإيمان. وقوله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) وهذه العمومات أيضًا مخصوصة ، بدليل قوله تعالى : (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ما سوى الشرك . وكذلك قوله عليه السلام « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » وقوله تعالى : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) وقوله تعالى : (إِنَّ اللّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) فكيف يضيع أجر أصل الايمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة ؟ وقوله تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) أي لايمانه وقد ورد على مثل هذا السبب

فإن قلت : فقد مال الاختيار إلى أن الايمان حاصل دون العمل ، وقد اشتهر عن السلف قولهم : الايمان عقد وقول وعمل فما معناه ؟

قلنا : لا يبعد أن يعد العمل من الايمان لأنه مكمل له ومتمم ، كما يقال الرأس واليدان من الانسان ، ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانًا بعدم الرأس ، ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد . وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدها . فالتصديق بالقلب من الايمان كالرأس من وجود الانسان ، إذ ينعدم بعدمه . وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض . وقد قال صلى الله عليه وسلم : [1] « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » والصحابة رضي الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الايمان بالزنا ، ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانًا تامًا كاملاً ، كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف : هذا ليس بإنسان أي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الانسانية

مسألة

فان قلت : فقد اتفق السلف على أن الايمان يزيد وينقص : يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، فاذا كان التصديق هو الايمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان

فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول ، فما ذكروه حق ، وإنما

(١) حديث : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن : متفق عليه من حديث أبي هريرة

الشأن في فهمه ، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الايمان وأركان وجوده ، بل هو مزيد عليه يزيد به ، والزائد موجود ، والناقص موجود ، والشيء لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أن يقال : الانسان يزيد برأسه ، بل يقال : يزيد بلحيته وسمنه ، ولا يجوز أن يقال : الصلاة تزيد بالركوع والسجود ، بل تزيد بالآداب والسنن . فهذا تصريح بان الإيمان له وجود ، ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان

فان قلت : فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟

فأقول : إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الأشكال

فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه

الأول — أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر ، وهو إيمان العوام ، بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص . وهذا الاعتقاد عقدة على القلب، تارة تشتد وتقوى ، وتارة تضعف وتسترخى ، كالعقدة على الخيط مثلا ، ولا تستبعد هذا ، واعتبره باليهودى وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ، ولا بتخييل ووعظ ، ولا تحقيق وبرهان . وكذلك النصراني والمبتدعة ، وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ، ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف ، مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم . وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضاً . والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته ، كما يؤثر سقى الماء في نماء الأشجار . ولذلك قال تعالى : (فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) وقال تعالى : (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) . وقال صلى الله عليه وسلم : فيما يروى في بعض الأخبار[1] « الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ » وذلك بتأثير الطاعات في القلب ، وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الايمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك ، بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل

---

(١) حديث : الايمان يزيد وينقص : ابن عدى في الكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب اللحي يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء

بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به ، ادرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل . وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملا مقبلا أو ساجدا لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ، ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها وسيأتى هذا فى ربع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر ، والأعمال بالعقائد والقلوب ، فان ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت ، وأعنى بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس ، وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة ، والقلب من عالم الملكوت ، والأعضاء وأعمالها من عالم الملك ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى الى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر ، وظن آخرون أنه لا عالم الا عالم الشهادة ، وهو هذه الأجسام المحسوسة . ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال :

رق الزجاج وراقت الخمر * وتشابها فتشا كل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح * وكأنما قدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فان هذا العالم خارج عن علم المعاملة ، ولكن بين العالمين أيضاً اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تنكشف عنها بالتكليف ، فهذا وجه زيادة الايمان بالطاعة بموجب هذا الاطلاق ، ولهذا قال على كرم الله وجهه : إن الايمان ليبدو لمعة بيضاء ، فاذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله ، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فاذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم ، وتلا قوله تعالى : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) الآية

الاطلاق الثانى ـ أن يراد به التصديق والعمل جميعا . كما قال صلى الله عليه وسلم :[1] « اْلإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا » وكما قال صلى الله عليه وسلم : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي هُوَ مُؤْمِنٌ » وإذا دخل العمل فى مقتضى لفظ الايمان لم تخف زيادته ونقصانه ، وهل يؤثر

---

(١) حديث : الايمان بضع وسبعون بابا : وذكر بعد هذا فزاد فيه : أدناها إماطة الأذى عن الطريق : البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة : الايمان بضع وسبعون : زاد مسلم فى رواية : وأفضلها قول لا اله الا الله وأدناها : فذكره ورواه بلفظ المصنف الترمذى وصححه

ذلك فى زيادة الايمان الذى هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر . وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه

الاطلاق الثالث ـ أن يراد به التصديق اليقينى على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة . وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ، ولكنى أقول : الأمر اليقيني الذى لا شك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه ، فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لا شك فى واحد منهما ، فان اليقينيات تختلف فى درجات الايضاح ، ودرجات طمأنينة النفس اليها . وقد تعرضنا لهذا فى فصل اليقين من كتاب العلم فى باب علامات علماء الآخرة ، فلا حاجة إلى الاعادة . وقد ظهر فى جميع الاطلاقات أن ما قالوه من زيادة الايمان ونقصانه حق ، وكيف لا وفى الأخبار أنه يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وفى بعض المواضع فى خبر آخر (١) « مِثْقَالُ دِينَارٍ » فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما فى القلب لا يتفاوت ؟ !

مسألة

فان قلت : ما وجه قول السلف : أنا مؤمن إن شاء الله ، والاستثناء شك ، والشك فى الايمان كفر ، وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالايمان ويحترزون عنه ، فقال سفيان الثورى رحمه الله : من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ، ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة ، فكيف يكون كاذبا وهو يعلم أنه مؤمن فى نفسه ، ومن كان مؤمناً فى نفسه كان مؤمناً عند الله ، كما أن من كان طويلا وسخيا فى نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله ، وكذا من كان مسروراً أو حزينا أو سميعا أو بصيراً . ولو قيل للانسان . هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله . ولما قال سفيان ذلك قيل له : فماذا نقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ، وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن ؟ وقيل للحسن : أمؤمن أنت ؟ فقال : إن شاء الله ، فقيل له : لم تستثنى يا أبا سعيد فى الايمان ؟ فقال : أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق على الكلمة ، وكان يقول ما يؤمننى أن يكون الله سبحانه قد اطلع على فى بعض ما يكره فمقتنى وقال اذهب

---

(١) حديث : يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار : متفق عليه من حديث أبى سعيد وسيأتى فى ذكر الموت وما بعده

لاقبلتُ لك عملا فأنا أعمل في غير معمل . وقال ابراهيم بن أدهم . إذا قيل لك أمؤمن أنت؟ فقل لا إله إلا الله . وقال مرة . قل : أنا لا أشك في الايمان وسؤالك إياى بدعة . وقيل لعلقمة : أمؤمن أنت ؟ قال أرجو إن شاء الله . وقال الثورى : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وماندرى ما نحن عند الله تعالى ، فما معنى هذه الاستثناءات ؟

فالجواب أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه : وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الايمان ولكن في خاتمته أو كماله ، ووجهان لايستندان إلى الشك

الوجه الأول الذى لايستند إلى معارضة الشك : الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس ، قال الله تعالى : (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) وقال : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ) وقال تعالى : (اُنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) . وقيل لحكيم . ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه . والايمان من أعلى صفات المجد ، والجزم به تزكية مطلقة ، وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية كما يقال للانسان أنت طبيب أو فقيه أو مفسر ؟ فيقول نعم إن شاء الله ، لافى معرض التشكيك ، ولكن لاخراج نفسه عن تزكية نفسه . فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر ، ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر وهو التزكية وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء

الوجه الثانى : التأدب بذكر الله تعالى فى كل حال ، وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه ، فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ) ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه ، بل قال تعالى : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لا محالة ، وأنه شاءه ، ولكن المقصود تعليمه ذلك ، فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا ، حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر (١) « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ » واللحوق بهم غير مشكوك فيه ، ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى ، وربط الأمور به ، وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار بعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمنى . فاذا قيل لك : إن فلانا

---

(١) حديث لما دخل المقابر قال السلام عليكم دار قوم مؤمنين ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

يموت سريعا ، فتقول : إن شاء الله ، فيفهم منه رغبتك لا تشككك . وإذا قيل لك : فلان سيزول مرضه ويصح ، فتقول : إن شاء الله ، بمعنى الرغبة ، فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة ، وكذلك العدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر

الوجه الثالث

مستنده الشك ، ومعناه : أنا مؤمن حقا إن شاء الله ، إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم: (أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا *) فانقسموا إلى قسمين ، ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله ، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه ، وذلك ليس بكفر ، والشك في كمال الإيمان حق من وجهين :

أحدهما من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه

والثاني أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال. أما العمل فقد قال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *) فيكون الشك في هذا الصدق . وكذلك قال الله تعالى: (وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ *) فشرط عشرين وصفا : كالوفاء بالعهد ، والصبر على الشدائد ، ثم قال تعالى : (أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا *) وقد قال تعالى : (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ *) . وقال تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ *) الآية . وقد قال تعالى : (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ *)

وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « الإِيمَانُ عُرْيَانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى » الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » . فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال

(١) حديث الايمان عريان تقدم في العلم

* الانفال الآية ٤ . الحجرات الآية ١٥ ـ البقرة : ١٧٧ ـ المجادلة : ١١ الحديد : ١٠ ـ آل عمران : ١٦٣

وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله صلى الله عليه وسلم: (١) « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وفي بعض الروايات « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ » وفي حديث أبي سعيد الخدري (٢) « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ وَفِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الْعَذْبُ ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالصَّدِيدُ ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَ عَلَيْهِ حُكِمَ لَهُ بِهَا » وفي لفظ آخر « غَلَبَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَتْ بِهِ » وقال عليه السلام : (٣) « أَكْثَرُ مُنَافِقِي هَذِهِ الأُمَّةِ قُرَّاؤُهَا » وفي حديث (٤) « الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا »

وقال حذيفة رضي الله عنه : (٥) « كَانَ الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَصِيرُ بِهَا مُنَافِقاً إِلَى أَنْ يَمُوتَ ، وَإِنِّي لأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْيَوْمِ عَشْرَ مَرَّاتٍ »

وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق . وقال حذيفة : « المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا إذ ذاك يُخْفُونه وهم اليوم يُظْهِرونه » وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله ، وهو خفيّ وأبعد الناس منه من يتخوفه ، وأقربهم منه من يرى أنه برىء منه ، فقد قيل للحسن البصري : يقولون أن لا نفاق اليوم ، فقال : يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق . وقال هو أو غيره : لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا

---

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

(٢) حديث القلوب أربعة قلب أجرد ـ الحديث : أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

(٣) حديث أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها : أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر

(٤) حديث الشرك أخفى في أمتي من دبيب النملة على الصفا: أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر. ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى وسيأتي في ذم الجاه والرياء

(٥) حديث حذيفة كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا . الحديث : أحمد باسناد فيه جهالة وحديث حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : البخاري الا أنه قال شر بدل أكثر

وسمع ابن عمر (١) رضى الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال : « أرأيتَ لو كانَ حاضراً يَسْمَعُ أَكُنْتَ تتكلَّمُ فيهِ ؟ فقالَ : لا ، فقال : كُنَّا نَعُدُّ هـذا نِفَاقاً عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم »

وقالَ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كانَ ذا لسانَيْنِ فى الدُّنيا جَعَلَهُ اللهُ ذا لسانَيْنِ فِى الآخِرَة » وقال أيضاً : صلى الله عليه وسلم « شَرُّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِى يَأْتِى هؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِى هؤُلاءِ بِوَجْهٍ »

وقيل للحسن : إن قوماً يقولون إنا لا نخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحبُّ إلىَّ من تلاع الأرض ذهباً . وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه : إنى أخاف أن أكون منافقا ، فقال لو كنت منافقا ما خفت النفاق ، إن المنافق قد أمن من النفاق . وقال ابن أبى مليكة : « أدركت ثلاثين ومائة . وفى رواية : خمسين ومائة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق »

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « كانَ جالِساً فِي جَماعَةٍ مِنْ أَصْحابِهِ فَذَكَرُوا رَجُلاً وَأَكْثَرُوا الثَّناءَ عَلَيْهِ ، فَبَيْنَا هُمْ كَذلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمُ الرَّجُلُ وَوَجْهُهُ يَقْطُرُ ماءً مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ وَقَدْ عَلَّقَ نَعْلَهُ بِيَدِهِ وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ فَقالُوا يا رَسُولَ اللهِ هُوَ هذا الرَّجُلُ الَّذِى وَصَفْناهُ ، فَقالَ صلى الله عليه وسلم : أَرَى عَلَى وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطانِ ، فَجاءَ الرَّجُلُ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ مَعَ الْقَوْمِ ، فَقالَ النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم : نَشَدْتُكَ اللهَ هَلْ حَدَّثْتَ نَفْسَكَ حِينَ أَشْرَفْتَ عَلَى الْقَوْمِ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ مِنْكَ ؟ فَقالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ » وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه : (٣) « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْتَغْفِرُكَ لِما عَلِمْتُ وَلِما لَمْ أَعْلَمْ ، فَقِيلَ لَهُ : أَتَخافُ يا رَسُولَ اللهِ ؟

---

(١) حديث سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحمد والطبرانى بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج

(٢) حديث كان جالسا فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا الثناء عليه فبيناهم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء ـ الحديث : أحمد والبزار والدارقطنى من حديث أنس

(٣) حديث اللهم إنى أستغفرك لما علمت وما لم أعلم ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل ولأبى بكر بن الضحاك فى الشمائل فى حديث مرسل وشر ما أعلم وشر مالا أعلم

فَقَالَ : وَمَا يُؤْمِنُنِي وَالْقُلُوبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » وقد قال سبحانهُ : (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ*) قيل فى التفسير: عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت فى كفة السيئات

وقال سَرِيّ السَّقَطِى : لو أن إنسانا دخل بستانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة فقال : السلام عليك يا ولى الله ، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيراً فى يديها

فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي ، وأنه لا يؤمَن منه ، حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذُكر فى المنافقين ؟ وقال أبو سليمان الدارانى: سمعت من بعض الأُمراء شيئا فأردت أن أنكره فخفت أن يؤمر بقتلى ولم أخف من الموت ، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحى فكففت . وهذا من النفاق الذى يضادّ حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله

فالنفاق نفاقان :

أحدهما يُخرج من الدين ، ويُلحق بالكافرين ، ويُسلك فى زمرة المخلدين فى النار

والثانى : يفضى بصاحبه إلى النار مدة ، أو ينقص من درجات عليين، ويحط من رتبة الصدِّيقين ، وذلك مشكوك فيه ، ولذلك حَسُن الاستثناء فيه

وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ، وأمور أُخر لا يخلو عنها إلا الصدِّيقون

الوجه الرابع

وهو أيضا مستند إلى الشك ، وذلك من خوف الخاتمة ، فانه لا يدرى أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا ، فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق ، لأنه موقوف على سلامة الآخر، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال أنا صائم قطعا ، فلو أفطر فى أثناء نهاره بعد

* الزمر : ٤٧

ذلك لتبين كذبه ، إذ كانت الصحة موقوفة على التمام الى غروب الشمس من آخر النهار ، وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ، ووصفه بالصحة قبل آخره. بناء على الإستصحاب ، وهو مشكوك فيه ، والعاقبة مخوفة، ولا جلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التى لا تظهر إلا بظهور المقضى به ، ولامطلع عليه لأحد من البشر ، فخوف الخاتمة كخوف السابقة . وربما يظهر فى الحال ما سبقت الكلمة بنقيضه ، فمن الذى يدرى أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟

وقيل فى معنى قوله تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ *) أى بالسابقة ، يعنى أظهرتها. وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سُلبه

وقيل : من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقيل : هى عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء

وقال بعض العارفين : لو عرضت علىّ الشهادة عند باب الدار والموتُ على التوحيد عند باب الحجرة ، لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة ، لأنى لا أدرى ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار

وقال بعضهم : لو عرفت واحداً بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بينى وبينه سارية ومات ، لم أحكم أنه مات على التوحيد

وفى الحديث (١) « مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ فَهُوَ كَافِرٌ ، وَمَنْ قَالَ أَنَا عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ ». وقيل فى قوله تعالى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً *) صدقاً لمن مات على الإيمان ، وعدلاً لمن مات على الشرك . وقد قال تعالى : (وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ *)

---

(١) حديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل: الطبراني فى الأوسط بالشطر الاخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم والشطر الاول روى من قول يحى بن أبي كثير رواه الطبرانى فى الاصغر بلفظ من قال أنا فى الجنة فهو فى النار وسنده ضعيف

* ق : ١٩ * الأنعام : ١١٥ * الحج : ٤١

فمها كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجباً لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة ، كما أن الصوم عبارة عما يبرىء الذمة ، وما فسد قبل الغروب لا يبرىء الذمة ، فيخرج عن كونه صوماً ، فكذلك الإيمان ، بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضى الذى لا يشك فيه بعد الفراغ منه ، فيقال : أصمت بالأمس ؟ فيقول : نعم إن شاء الله تعالى . إذ الصوم الحقيق هو المقبول ، والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى . فمن هذا حسن الإستثناء فى جميع أعمال البر ، ويكون ذلك شكا فى القبول ، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله . فيحسن الشك فيه

فهذه وجوه حسن الإستثناء فى الجواب عن الإيمان ، وهى آخر ما نختم به كتاب قواعد العقائد

تم الكتاب بحمد الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى !

كتاب أسرار الطهارة

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه، وأعد لظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة. وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافة، وتنتصب جُنة بيننا وبين كل آفة :

أما بعد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورِ » وقال الله تعالى (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *) وقال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم [٣] « الطُّهُورُ نِصْفُ الإِيمَانِ » قال الله تعالى (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَـكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ *) فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الايمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بافاضة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخباث والأقذار هيهات هيهات

﴿ كتاب الطهارة ﴾

(١) حديث بنى الدين على النظافة لم أجده هكذا وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة تنظفوا فان الاسلام نظيف. والطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود : النظافة تدعو الى الايمان

(٢) حديث مفتاح الصلاة الطهور * د ت ه من حديث على قال الترمذي هذا أصح شىء فى هذا الباب وأحسن

(٣) حديث الطهور نصف الايمان ت من حديث رجل من بنى سليم وقال حسن ورواه مسلم من حديث أبى مالك الأشعرى بلفظ شطر كما فى الاحياء

* هذه رموز يشير بها الحافظ العراقى الى مراجع التخريج وبيانها أن خ للبخارى و م لمسلم و ت للترمذى و ن للنسائى و ه لابن ماجه و د لأبى داود وقط للدار قطنى وطس للطبرانى فى الأوسط وطص للطبرانى فى الأصغر وهق للبيهقى وحب لابن حبان وعق للعقيلى و ك للحاكم

* التوبة : ١٠٨ * المائدة : ٦

والطهارة لها أربع مراتب

المرتبة الأولى : تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات

المرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام

المرتبة الثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة

المرتبة الرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهى طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين . والطهارة فى كل رتبة نصف العمل الذى فيها ، فإن الغاية القصوى فى عمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ، ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة فى السر مالم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه ، ولذلك قال الله عزوجل (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ*) لأنهما لايجتمعان فى قلب، وَمَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ. وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة، ولن يتصف بها مالم ينظف عن نقائضها ، من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذى هو شرط فى الثانى. فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهى أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذى هو شرط فى الثانى، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول، وعمارتها بالطاعات الشطر الثانى ، فهذه مقامات الإيمان، ولكل مقام طبقة ،ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة ،فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة مالم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود ، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهى وعمارتها بالطاعات ،وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته،فلا تظن أن هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا ،نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التى هى كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب ، فصار يمعن فيها ويستقصى فى مجاريها ، ويستوعب جميع أوقاته فى الاستنجاء ، وغسل الثياب ، وتنظيف الظاهر ، وطلب المياه الجارية الكثيرة ، ظنا منه بحكم

* الانعام : ٩١

الوسوسة وتخيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط ، وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب ، وتساهلهم في أمر الظاهر ، حتى إن عمر رضي الله عنه مع علوّ منصبه توضأ من ماء في جرة نصرانية ، وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليد من الدسومات والأطعمة، بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخمص أقدامهم ، وعدوا الأشنان من البدع المحدثة ، ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات، ومن كان لايجعل بينه وبين الأرض حاجزا في مضجعه كان من أكابرهم ، وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء ، وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة [١] « كُنَّا نأْكُلُ الشِّوَاء فَتقامُ الصَّلَاةُ فَنُدْخِلُ أَصَابِعَنَا فِي الْحَصَى ثُمَّ نَفْرُكُهَا بِالتُّرَابِ وَنُكَبِّرُ » وقال عمر رضي الله عنه [٢] « مَا كُنَّا نَعْرِفُ الْأُشْنَانَ فِي عَصْرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم » وانما كانت مناديلنا بطون أرجلنا كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها ، ويقال أول ماظهر من البدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع: المناخل، والأشنان، والموائد ، والشبع ، فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم، الصلاة في النعلين أفضل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] «لَمَّا نَزَعَ نَعْلَيْهِ فِي صَلَاتِه بِإِخْبَارِ جِبْرائِيلَ عليهِ السلامُ لَهُ أَنَّ بِهِمَا نَجَاسَةً » وخلع الناس نعالهم ، قال صلى الله عليه وسلم «لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ ؟» وقال النخعي في الذين يخلعون نعالهم: وددت لو أن محتاجا جاء اليها فأخذها ، منكرا لخلع النعال ، فكذا كان تساهلهم في هذه الأمور، بل كانوا يمشون في طين الشوارع حفاة ، ويجلسون عليها، ويصلون في المساجد على الأرض، ويأكلون من دقيق البر والشعير ، وهو يداس بالدواب وتبول عليه ولا يحترزون من عرق الابل والخيل مع كثرة تمرغها في النجاسات ، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق النجاسات ، فهكذا كان تساهلهم فيها ، وقد انتهت النوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة ، فيقولون هي مبنى

---

(١) حديث كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصباء ـ الحديث ه من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء ولم أره من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عمر ما كنا نعرف الأشنان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما كانت مناديلنا باطن أرجلنا ـ الحديث : لم أجده من حديث عمر ولابن ماجه نحوه مختصرا من حديث جابر

(٣) حديث خلع نعليه في الصلاة اذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة د ك وصححه من حديث أبي سعيد الخدري

الدين ، فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعروسها ، والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر . والعجب . والجهل . والرياء . والنفاق ، ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه ، ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر ، أومشى على الأرض حافيا ، أوصلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجادة مفروشة ، أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من أَدم ، أو توضأ من آنية عجوز ، أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه النكير ، ولقبوه بالقذر ، وأخرجوه من زمرتهم ، واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته ، فسموا البذاذة التي هي من الإيمان قذراة ، والرعونة نظافة ، فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكرا وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه

فإن قلت : أفتقول إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيآتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات ؟

فأقول : حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ، ولكني أقول : إن هذا التنظيف والتكلف وإعداد الأواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المقنع به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب ، إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهي من المباحات ، وقد يقترن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات

فأما كونها مباحة في نفسها فلا يخفى أن صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وثيابه ، فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف

وأما مصيرها منكراً ، فبأن يجعل ذلك أصل الدين ، ويفسر به قوله صلى الله عليه وسلم « بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ » حتى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الأولين ، أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق ، وتحسين موقع نظرهم ، فإن ذلك هو الرياء المحظور ، فيصير منكرا بهذين الاعتبارين

وأما كونه معروفاً ، فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين ، وأن لا ينكر على من ترك ذلك ، ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ، ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه ، أو عن علم ، أو غيره ، فإذا لم يقترن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل

قربة بالنية ، ولكن لا يتيسر ذلك إلا للبطالين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لا يعني ، فيصير شغلهم به أولى ، لأن الاشتغال بالطهارات يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات ، فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو اسراف

وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم اليه إلا قدر الحاجة ، فالزيادة عليه منكر في حقهم ، وتضييع العمر الذي هو أنفس الجواهر وأعزها في حق من قدر على الانتفاع به . ولا يتعجب من ذلك فان حسنات الأبرار سيآت المقربين . ولا ينبغي للبطال أن يترك النظافة وينكر على المتصوفة ويزعم أنه يتشبه بالصحابة ، إذ التشبه بهم في أن لا يتفرغ إلا لما هو أهم منه ، كما قيل لداود الطائي : لم لا تسرح لحيتك ؟ قال : إني إذاً لفارغ . فلهذا لا أرى للعالم ولا للمتعلم ولا للعامل أن يضيع وقته في غسل الثياب احترازاً من أن يلبس الثياب المقصورة ، وتوهما بالقصار تقصيراً في الغسل ، فقد كانوا في العصر الأول يصلون في الفراء المدبوغة ، ولم يعلم منهم من فرق بين المقصورة والمدبوغة في الطهارة والنجاسة ، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ، ولا يدققون نظرهم في استنباط الاحتمالات الدقيقة ، بل كانوا يتأملون في دقائق الرياء والظلم ، حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يمشي معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور : لا تفعل ذلك فان الناس لو لم ينظروا اليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف . فالناظر اليه مُعين له على الإسراف ، فكانوا يعدون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا في احتمالات النجاسة ، فلو وجد العالم عاميا يتعاطى له غسل الثياب محتاطا فهو أفضل ، فانه بالإضافة إلى التساهل خير ، وذلك العامي ينتفع بتعاطيه ، إذ يشغل نفسه الأمارة بالسوء بعمل المباح في نفسه ، فيمتنع عليه المعاصي في تلك الحال . والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات ، فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظا عليه ، وأشرف وقت العامي أن يشتغل بمثله ، فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال ، وترتيب فضائلها ، ووجه

تقديم البعض منها على البعض ، فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق في أمور الدنيا بحذافيرها

وإذا عرفت هذه المقدمة ، واستبنت أن الطهارة لها أربع مراتب ، فاعلم أنا في هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا في المرتبة الرابعة وهي نظافة الظاهر ، لأنا في الشطر الأول من الكتاب لا نتعرض قصدا إلا للظواهر

فنقول : طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث ، وطهارة عن الحدث ، وطهارة عن فضلات البدن ، وهي التي تحصل بالقلم ، والاستحداد ، واستعمال النورة والختان وغيره

القسم الأول في طهارة الخبث

والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة

الطرف الأول في المزال

وهي النجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات ، وحيوانات ، وأجزاء حيوانات

أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر ، وكل منتبذ مسكر

والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما ، فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة : الآدمي ، والسمك ، والجراد ، ودود التفاح ، وفي معناه كل ما يستحيل من الأطعمة ، وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما ، فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه

وأما أجزاء الحيوانات فقسمان : (أحدهما) ما يقطع منه ، وحكمه حكم الميت . والشعر لا ينجس بالجز والموت ، والعظم ينجس . (الثاني) الرطوبات الخارجة من باطنه ، فكل ما ليس مستحيلا ولا له مقر فهو طاهر : كالدمع والعرق ، واللعاب ، والمخاط ، وماله مقر وهو مستحيل فنجس إلا ما هو مادة الحيوان : كالمني ، والبيض ، والقيح ، والدم ، والروث والبول نجس من الحيوانات كلها

ولا يعفى عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة :

(الأول) أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفى عنه ما لم يعْدُ المخرج

(الثانى) طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق . يعفى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه ، وهو الذى لا ينسب المتلطخ به إلى تفريط أو سقطة

(الثالث) ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها ، فيعفى عنه بعد الدلك للحاجة

(الرابع) دم البراغيث ما قل منه أو كثر ، إلا إذا جاوز حد العادة ، سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته

(الخامس) دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد . ودلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجهه ، فخرج منها الدم وصلى ولم يغسل . وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالبا ، وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادرا من خُرَّاج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ، ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الإنسان عنها فى أحواله .

ومسامحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل ، وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها

الطرف الثانى فى المزال به

وهو إما جامد ، وإما مائع . أما الجامد فحجر الاستنجاء ، وهو مطهر تطهير تجفيف ، بشرط أن يكون صلباً طاهراً منشفاً غير محترم

وأما المائعات فلا تُزال النجاسات بشيء منها إلا الماء ، ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه

ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه . أو لونه . أو ريحه ، فان لم يتغير وكان قريباً من مائتين وخمسين مَنًّا وهو خمسمائة رطل برطل العراق ، لم ينجس ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (١) « إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثاً » وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعى رضى الله عنه . هذا فى الماء الراكد

---

(١) حديث إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر

وأما الماء الجارى إذا تغير بالنجاسة فالجرية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها ، لأن جريات الماء متفاصلات . وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء ، وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين ، وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر ، وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر ، إلا إذا اجتمع فى حوض قدر قلتين ، وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجسا بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعى رضى الله عنه

وكنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضى الله عنه ، فى أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير ، إذ الحاجة ماسة إليه ، ومثار الوسواس اشتراط القلتين ، ولأجله شق على الناس ذلك . وهو لعمرى سبب المشقة ، ويعرفه من يجربه ويتأمله

ومما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطا لكان أولى المواضع بتعسر الطهارة مكة والمدينة ، إذ لا يكثر فيهما المياه الجارية ولا الراكدة الكثيرة . ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة فى الطهارة ، ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات ، وكانت أوانى مياههم يتعاطاها الصبيان والاماء الذين لا يحترزون عن النجاسات . وقد توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية . وهذا كالصريح فى أنه لم يعول إلا على عدم تغير الماء ، وإلا فنجاسة النصرانية وإنائها غالبة تُعلم بظن قريب ، فإذا عسر القيام بهذا المذهب وعدم وقوع السؤال فى تلك الاعصار دليل أول ، وفعل عمر رضى الله عنه دليل ثان

والدليل الثالث[1] « إِصْغَاءُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الاِنَاءَ لِلْهِرَّةِ » وَعَدَمُ تَغْطِيَةِ الأَوَانِي مِنْهَا بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ، ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الآبار .

والرابع : أن الشافعى رضى الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت . وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل : إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة؛

(١) حديث اصغاء الاناء للهرة الطبرانى فى الأوسط والدار قطنى من حديث عائشة وروى أصحاب السنن ذلك من فعل أبى قتادة

وإن أحيل ذلك على الحاجة ، فالحاجة أيضا ماسة إلى هذا ، فلا فرق بين طرح الماء فى أجانة فيها ثوب نجس ، أو طرح الثوب النجس فى الأجانة فيها ماء ، وكل ذلك معتاد في غسل الثياب والأوانى

والخامس: أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ، ولا خلاف فى مذهب الشافعى رضى الله عنه أنه إذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وإن كان قليلا ، وأىّ فرق بين الجارى والراكد . وليت شعرى هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوّة الماء بسبب الجريان ؟ ثم ماحدُّ تلك القوة : أتجرى فى المياه الجارية فى أنابيب الحمامات أم لا ؟ فإن لم تجر فما الفرق ، وإن جرت فما الفرق بين مايقع فيها وبين مايقع فى مجرى الماء من الأوانى على الأبدان وهى أيضا جارية ؟ ثم البول أشد اختلاطا بالماء الجارى من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن مايجرى عليها وإن لم يتغير نجس إلى أن يجتمع فى مستنقع قلتان ، فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة ؟

والسادس : أنه إذا وقع رطل من البول فى قلتين ، ثم فرقتا فكل كوز يغترف منه طاهر ، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل ، وليت شعرى : هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة كثرة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها

والسابع : أن الحمامات لم تزل فى الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدى والأوانى فى تلك الحياض مع قلة الماء ، ومع العلم بأن الأيدى النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها

فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى فى النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير ، معوّلين على قوله صلى الله عليه وسلم [1] « خُلِقَ الْمَاءُ طَهُوراً لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلاَّ مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ رِيحَهُ » وهذا فيه تحقيق ، وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل مايقع فيه وكان مغلوبا من جهته ، فكما ترى الكلب يقع فى المملحة فيستحيل ملحا، ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وزوال صفة الكلبية عنه ، فكذلك الخل يقع فى الماء ،

(١) حديث خلق الله الماء طهورا لاينجسه شىء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه ه من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف وقد رواه بدون الاستثناء د ن ت من حديث أبى سعيد وصححه د وغيره

وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فنبطل صفته ، ويتصوّر بصفة الماء وينطبع بطبعه ، إلا إذ كثر وغلب . وتعرف غلبته بغلبة طعمه أولونه أوريحه

فهذا المعيار وقد أشار الشرع إليه فى الماء القوى على إزالة النجاسة ، وهو جدير بأن يعول عليه ، فيندفع به الحرج ، ويظهر به معنى كونه ظهورا ، إذ يغلب عليه فيطهره ، كما صار كذلك فيما بعد القلتين ، وفى الغسالة ، وفى الماء الجارى ، وفى إصغاء الإناء للهرة

ولا تظن ذلك عفوا إذ لوكان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقى له نجسا ، ولا ينجس بالغسالة ، ولابولوغ السنور في الماء القليل

وأما قوله صلى الله عليه وسلم «لَا يحْمِلُ خَبَثًا » فهو فى نفسه مبهم ، فانه يحمل إذاتغير . فان قيل : أراد به إذا لم يتغير ، فيمكن أن يقال : إنه أراد به أنه فى الغالب لايتغير بالنجاسات المعتادة . ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين ، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التى ذكرناها ممكن . وقوله : « لايحمل خبثا » ظاهره نفى الحمل أى يقلبه إلى صفة نفسه ، كما يقال للمملحة لاتحمل كلبا ولاغيره أى ينقلب ، وذلك لأن الناس قد يستنجون فى المياه القليلة وفى الغدران ويغمسون الأوانى النجسة فيها ثم يترددون فى أنها تغيرت تغيرا مؤثرا أم لا . فتبين أنه إذا كان قلتين لايتغير بهذه النجاسات المعتادة

وإن قلت : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يَحْمِلُ خَبَثًا » ومهما كثرت حملها ، فهذا ينقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها حكما كما حملها حسا ، فلابد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعا

وعلى الجملة فميلى فى أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل ، فهما من سيرة الأولين ، وحسما لمادة الوسواس ، وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه فى مثل هذه المسائل

الطرف الثالث فى كيفية الازالة

والنجاسة إن كانت حكمية وهى التى ليس لها جرم محسوس ، فيكفى إجراء الماء على جميع مواردها . وإن كانت عينية فلابد من إزالة العين . وبقاء الطعم يدل على بقاء العين .

وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص . وأما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين . ولا يعفى عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يعسر إزالتها . فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص في اللون . والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين ، فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقينا يصلى معه ، ولا ينبغي أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات

القسم الثاني في طهارة الأحداث

ومنها الوضوء والغسل والتيمم ، ويتقدمها الاستنجاء

فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة ، إن شاء الله تعالى

باب آداب قضاء الحاجة

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء ، وأن يستتر بشيء إن وجده ، وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس ، وأن لا يستقبل الشمس والقمر ، وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلا إذا كان في بناء ، والعدول أيضا عنها في البناء أحب ؛ وإن استتر في الصحراء براحلته جاز ، وكذلك بذيله ، وأن يتقي الجلوس في متحدث الناس ، وأن لا يبول في الماء الراكد ، ولا تحت الشجرة المثمرة ، ولا في الجحر ، وأن يتقي الموضع الصلب ، ومهاب الرياح في البول استنزاها من رشاشه ، وأن يتكئ في جلوسه على الرجل اليسرى ؛ وإن كان في بنيان يقدم الرجل اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج ، ولا يبول قائما . قالت عائشة رضي الله عنها[1] « مَنْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَبُولُ قَائِماً فَلَا تُصَدِّقُوهُ » وقال عمر رضي الله عنه[2] رَآنِي « رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا أَبُولُ قَائِماً فَقَالَ : يا عُمَرُ لَا تَبُلْ قَائِمَا قَالَ عُمَرُ : فَمَا بُلْتُ قَائِمَا بَعْدُ » وفيه رخصة ،

(١) حديث عائشة من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه ت ن ه قال ت هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح .

(٢) حديث عمر رآني النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال يا عمر لا تبل قائما ابن ماجه بإسناد ضعيف ورواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر

إذ روى حذيفة رضى الله عنه « أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ [(١)] بالَ قَائِمًا فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ » ولا يبول فى المغتسل ، قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « عَامَّةُ الْوَسْوَاسِ مِنْهُ » وقال ابن المبارك : قد وسع فى البول فى المغتسل اذا جرى الماء عليه ، ذكره الترمذى . وقال عليه السلام : « لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي مُسْتَحَمِّهِ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فِيهِ فَإِنَّ عَامَّةَ الْوَسْوَاسِ مِنْهُ » وقال ابن المبارك : إن كان الماء جاريا فلا بأس به

ولا يستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى أو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس . وأن يقول عند الدخول : بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم ، وعند الخروج : الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى علىّ ما ينفعنى . ويكون ذلك خارجا عن بيت الماء ، وأن يعد النبل قبل الجلوس ، وأن لا يستنجى بالماء فى موضع الحاجة . وأن يستبرىء من البول بالتنحنح والنتر ثلاثا وإمرار اليد على أسفل القضيب ، ولا يكثر التفكر فى الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر . وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء ، فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى فى نفسه ذلك ، ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس . وفى الخبر [(٣)] «أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم فَعَلَهُ » أعنى رَشَّ الماء . وقد كان أخفهم استبراء أفقههم . فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه . وفى حديث سلمان رضى الله عنه [(٤)] « عَلَّمَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ فَأَمَرَنَا أَنْ لا نَسْتَنْجِيَ بِعَظْمٍ وَلا رَوْثٍ ، وَنَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ » وقال رجل لبعض الصحابة من العرب وقد خاصمه : لا أحسبك تحسن الخراءة ، قال: بلى وأبيك إنى لأحسنها وإنى بها لحاذق : أبعد الأثر وأعدّ المدر ، وأستقبل الشيح ، واستدبر

---

(١) حديث أنه عليه الصلاة والسلام بال قائما الحديث متفق عليه

(٢) حديث قال فى البول فى المغتسل عامة الوسواس منه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل قال الترمذى غريب قلت وإسناده صحيح

(٣) حديث رش الماء بعد الوضوء وهو الانتضاح د ن . من حديث سفيان بن الحكم الثقفى أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قال ت وابن عبد البر

(٤) حديث سلمان علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة الحديث م وقد تقدم فى قواعد العقائد

الريح ، وأقعى إقعاء الظبي ، وأجفل إجفال النعام . الشيح : نبت طيب الرائحة بالبادية . والإقعاء هاهنا أن يستوفز على صدور قدميه ، والاجفال أن يرفع عجزه

ومن الرخصة أن يبول الانسان قريبا من صاحبه مستترا عنه [1] فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حيائه ليبين للناس ذلك

كيفية الاستنجاء

ثم يستنجي لمقعدته بثلاثة أحجار ، فان أنقى بها كفى ، وإلا استعمل رابعا ، فان أنقى؟ استعمل خامسا ، لأن الإنقاء واجب والإيتار مستحب . قال عليه السلام [2] « مَنِ استَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ » ويأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المقعدة قبل موضع النجاسة وَيُمِرّه بالمسح ، والإدارة الى المؤخر ، ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث فيديره حول المسربة إدارة ، فإن عسرت الادارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزأه ، ثم يأخذ حجرا كبيرا بيمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثا في ثلاثة مواضع أو في ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار ، إلى أن لايرى الرطوبة في محل المسح ، فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة ، ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر ، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإيتار ، ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ، ويستنجي بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجو ، ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللمس ، ويترك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فإن ذلك منبع الوسواس

وليعلم أن كل مالا يصل إليه الماء فهو باطن ، ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر ، وكل ماهو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحد ظهوره أن يصل الماء اليه فيزيله ، ولا معنى للوسواس

---

(١) حديث البول قريبا من صاحبه متفق عليه من حديث حذيفة

(٢) حديث من استجمر فليوتر متفق عليه من حديث أبي هريرة

ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش . ويدلك يده بحائط أو بالأرض إزالة للرائحة إن بقيت . والجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى أنه لما نزل قوله تعالى [١] (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قُباء « مَا هَذِهِ الطَّهَارَةُ الَّتِي أَثْنَى اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ ؟ قالوا : كُنَّا نَجْمَعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْحَجَرِ »

كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء ، فلم يُر رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجا من الغائط إلا توضأ ، ويبتدئ بالسواك ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقُ الْقُرْءَانِ فَطَيِّبُوهَا بِالسِّوَاكِ » فينبغي أن ينوي عند السواك تطهير فمه لقراءة القرءان وذكر الله تعالى في الصلاة . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « صَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ سِوَاكٍ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ صَلَاةً بِغَيْرِ سِوَاكٍ » . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ » . وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « مَالِي أَرَاكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحًا ؟ اسْتَاكُوا » أي صفر الأسنان « وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [٦] يَسْتَاكُ

(١) حديث لما نزل قوله تعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا الحديث في أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه هـ ك وصححه من حديث أبي أيوب وجابر وأنس في الاستنجاء بالماء ليس فيه ذكر الحجر وقول النووي تبعا لابن الصلاح إن الجمع بين الماء والحجر في أهل قباء لا يعرف مردود بما تقدم

(٢) حديث ان أفواهكم طرق القرءان : أبو نعيم في الحلية من حديث علي ورواه هـ موقوفا على علي وكلاهما ضعيف

(٣) حديث صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر باسناد ضعيف ورواه د ك وصححه والبيهقي وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ من سبعين صلاة

(٤) حديث لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٥) حديث مالي أراكم تدخلون على قلحا استاكوا البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبد المطلب د والبغوي من حديث تمام بن عباس والبيهقي من حديث عبد الله بن عباس وهو مضطرب

(٦) حديث كان يستاك من الليل مرارا م من حديث ابن عباس

* التوبة : ١٠٨ .

فِي اللَّيْلَةِ مِرَاراً » وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال[١] « لَمْ يَزَلْ صلى الله عليه وسلم يَأْمُرُنَا بِالسِّوَاكِ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَنْزِلُ عَلَيْهِ فِيهِ شَيْءٌ » . وقال عليه السلام[٢] « عَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ فَإِنَّهُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ وَمَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ » . وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : السِّوَاكُ يزيد فى الحفظ ويُذهِبُ البلغم[٣] « وكان أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم يَرُوحُونَ وَالسِّوَاكُ عَلَى آذَانِهِمْ »

وكيفيته أن يستاك بخشب الآراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح، ويستاك عرضا وطولا ، وإن اقتصر فعرضا

ويستحب السواك عند كل صلاة ، وعند كل وضوء وإن لم يصلّ عقيبه ، وعند تغير النَّكهة بالنوم ، أوطول الأزم ، أوأكل ماتكره رائحته

ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال صلى الله عليه وسلم[٤] « لَاوُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يُسَمِّ اللهَ تَعَالَى » أى لاوضوء كامل . ويقول عند ذلك : أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ . ثم يغسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلهما الاناء ويقول : اللهم إنى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشوءم والهلكة ، ثم ينوى رفع الحدث أواستباحة الصلاة ، ويستديم النية إلى غسل الوجه ، فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ، ثم يأخذ غرفة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثا ويُغَرْغِر : بأن يرد الماء إلى الْغَلْصَمَة إلا أن يكون صائما فيرفق ، ويقول : اللهم أعِنّى على

---

(١) حديث ابن عباس لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء رواه أحمد

(٢) حديث عليكم بالسواك فانه مطهرة للفم مرضاة للرب البخارى تعليقا مجزوما من حديث عائشة والنسائى وابن خزيمة موصولا نات وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذى قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى شعب الايمان

(٣) حديث كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم الخطيب فى كتاب أسماء من روى عن مالك وعند د ت أن زيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب

(٤) حديث لا وضوء لمن لم يسم الله ت ه من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة ونقل ت عن البخارى أنه أحسن شيء فى هذا الباب

تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ، ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ، ويقول في الاستنشاق : اللهم أوجدلي رائحة الجنة وأنت عني راض ، وفي الاستنثار : اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار ، لأن الاستنشاق إيصال ، والاستنثار إزالة . ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى مايقبل من الذقن في الطول ، ومن الأذن إلى الأذن في العرض . ولايدخل في حد الوجه النزعتان اللتان على طرفي الجبينين فهما من الرأس ، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو مايعتاد النساء تنحية الشعر عنه ، وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن ، والطرف الثاني على زاوية الجبين ، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبان ، والشاربان ، والعذاران ، والأهداب ، لأنها خفيفة في الغالب . والعذاران هما مايوازيان الأذنين من مبتدأ اللحية

ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة ، أعني ما يقبل من الوجه ، وأما الكثيفة فلا . وحكم الْعَنْفَقَة حكم اللحية في الكثافة والخفة ، ثم يفعل ذلك ثلاثا ، أو يفيض الماء على ظاهر مااسترسل من اللحية ، ويدخل الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما (١) فقد رُوي أنه عليه السلام فَعَلَ ذَلِكَ . ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه ، وكذلك عند كل عضو ، ويقول عنده : اللهم بيضْ وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ، ولا تسوّد وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك . ويخلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب ، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثا ، ويحرك الخاتم ، ويطيل الغرة ويرفع الماء إلى أعلى العضد « فَإِنَّهُمْ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ » كذلك ورد الخبر ، قال عليه السلام (٢) « مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ » وروى « أَنَّ (٣) الْحِلْيَةَ تَبْلُغُ مَوَاضِعَ الْوُضُوءِ » . ويبدأ باليمنى ويقول : اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حسابا يسيرا ، ويقول عند غسل الشمال : اللهم إني أعوذ

---

(١) حديث ادخاله الاصبع في محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل أحمد من حديث أبي أمامة كان يتعاهد الماقين ورواه الدار قطني من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف أشربوا الماء أعينكم

(٢) حديث من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل خرجاه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث تبلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماء الوضوء أخرجاه من حديثه

بك أن تُعْطِيَنِي كتابي بشمالي أو من وراء ظهري ، ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويعدهما الى القفا ، ثم يردهما الى المقدمة . وهذه مسحة واحدة ، يفعل ذلك ثلاثا ، ويقول: اللهم اغشني برحمتك وأنزل عَلَيّ من بركاتك ، وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لاظل إلا ظلك . ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبحتيه فى صماخى أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ، ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا ويكرره ثلاثا ، ويقول : اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهم اسمعنى منادى الجنة مع الأبرار ، ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم (١) « مَسْحُ الرَّقَبَةِ أَمَانٌ مِنَ الْغُلِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ويقول اللهمّ فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال ، ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثا ويخلل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ، ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ، ويقول : اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام فى النار ، ويقول عند غسل اليسرى : أعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين ، ويرفع الماء الى أنصاف الساقين

فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسى أستغفرك اللهم وأتوب اليك فاغفرلى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين ، واجعلنى من عبادك الصالحين ، واجعلنى عبداً صبوراً شكوراً ، واجعلنى أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلا . يقال : إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة

ويكره فى الوضوء أمور : منها أن يزيد على الثلاث ، فمن زاد فقد ظلم ، وأن يسرف

---

(١) حديث مسح الرقبة أمان من الغل أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف

فى الماء[1] « توضأ عليه السلام ثلاثا وقال : من زاد فقد ظلم وأساء » وقال :[2] « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور » ويقال :[3] « من وهن علم الرجل ولوعه بالماء فى الطهور » وقال ابراهيم بن أدهم : يقال إن أول ما يبتدئ الوسواس من قبل الطهور . وقال الحسن : إن شيطانا يضحك بالناس فى الوضوء يقال له الولهان . ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء ، وأن يتكلم فى أثناء الوضوء ، وأن يلطم وجهه بالماء لطماً ، وكره قوم التنشيف وقالوا : الوضوء يوزن ؛ قاله سعيد بن المسيب والزهرى ، لكن روى معاذ رضى الله عنه أنه عليه السلام مسح وجهه[4] بطرف ثوبه » وروت عائشة رضى الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم[5] كانت له منشفة » ولكن طعن فى هذه الرواية عن عائشة . ويكره أن يتوضأ من إناء صفر ، وأن يتوضأ بالماء المشمس ، وذلك من جهة الطب . وقد روى عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما كراهية الإناء الصفر . وقال بعضهم أخرجت لشعبة ماء فى إناء صفر فأبى أن يتوضأ منه . ونقل كراهية ذلك عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما

ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغى أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق ، فينبغى أن يستحى من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه . وليتحقق أن طهارة القلب بالتوبة والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى ، وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكا إلى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البرانى من الدار . وما أجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوار والله سبحانه أعلم

---

(١) حديث توضأ ثلاثا ثلاثا وقال من زاد فقد أساء وظلم د ن واللفظ له و ه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٢) حديث سيكون قوم من هذه الامة يعتدون فى الدعاء والطهور د ه وابن حبان و ك من حديث عبدالله ابن مغفل

(٣) حديث من وهن علم الرجل ولوعه فى الماء فى التطهير لم أجد له أصلا

(٤) حديث معاذ أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه ت وقال غريب واسناده ضعيف

(٥) حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له منشفة ت وقال ليس بالقائم قال ولا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب شىء

فضيلة الوضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(١) « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » وفى لفظ آخر : « لَمْ يَسْهُ فِيهِمَا غُفِرَ لَهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً :(٢) « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُكَفِّرُ اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَالِكُمُ الرِّبَاطُ - ثلاث مرات » وَتَوَضَّأَ صلى الله عليه وسلم (٣) مَرَّةً مَرَّةً وَقَالَ هَذَا وُضُوءٌ لاَيَقْبَلُ اللهُ الصَّلاَةَ إِلَّا بِهِ ، وَتَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ وَقَالَ مَنْ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ آتَاهُ اللهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ ، وَتَوَضَّأَ ثَلاَثاً ثَلاَثاً وَقَالَ هَذَا وُضُوئِي وَوُضُوءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي وَوُضُوءُ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ » وقال صلى الله عليه وسلم :(٤) « مَنْ ذَكَرَ اللهَ عِنْدَ وُضُوئِهِ طَهَّرَ اللهُ جَسَدَهُ كُلَّهُ وَمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ لَمْ يُطَهِّرْ مِنْهُ إِلاَّ مَا أَصَابَ الْمَاءُ » وقال صلى الله عليه وسلم :(٥) « مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طُهْرٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ » وقال صلى الله عليه وسلم :(٦) « الْوُضُوءُ عَلَى الْوُضُوءِ نُورٌ عَلَى نُورٍ » وَهذا كله حث على تجديد الوضوء . وقال عليه السلام : « إِذَا تَوَضَّأَ (٧) الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ فَتَمَضْمَضَ خَرَجَتْ

---

(١) حديث من توضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وفى لفظ آخر لم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه ابن المبارك فى كتاب الزهد والرقائق باللفظين معا وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله بشيء من الدنيا ودون قوله لم يسه فيهما و د من حديث زيد بن خالد م صلى ركعتين لا يسهو فيهما الحديث

(٢) حديث ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات الحديث م عن أبى هريرة

(٣) حديث توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الا به الحديث ه من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

(٤) حديث من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله الحديث دار قطنى من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف

(٥) حديث من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات د ت ه من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

(٦) حديث الوضوء على الوضوء نور على نور لم أجد له أصلا

(٧) حديث اذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه الحديث د ه من حديث الصنابحى واسناده صحيح ولكن اختلف فى صحبه وعند م من حديث أبى هريرة وعمرو بن عنبسة نحوه مختصرا

الْخَطَايَا مِنْ فِيهِ ، وَإِذَا اسْتَنْثَرَ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ أَنْفِهِ ، وَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ وَجْهِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ يَدَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ ، فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أُذُنَيْهِ ، وَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْخَطَايَا مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ ثُمَّ كَانَ مَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَصَلَاتُهُ نَافِلَةً لَهُ » ويروى[1] « أَنَّ الطَّاهِرَ كَالصَّائِمِ » قال عليه الصلاة والسلام[2] « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » وقال عمر رضى الله عنه : إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان . وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه

كيفية الغسل

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ، ثم يسمى الله تعالى . ويغسل يديه ثلاثاً ، ثم يستنجى كما وصفت لك ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما ، فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً ، ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر ، ويخلل شعر الرأس واللحية ، ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف . وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر ، ويتعهد معاطف البدن ، وليتق أن يمس ذكره فى أثناء ذلك ، فإن فعل ذلك فليعد الوضوء ، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل

---

(١) حديث الطاهر النائم كالصائم أبو منصور الديلمى من حديث أبى هريرة وعمرو بن حريث الطاهر النائم كالصائم القائم وسنده ضعيف

(٢) حديث من توضأ فاحسن الوضوء ثم رفع طرفه الى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله الحديث د من حديث عقبه بن عامر وهو عندم دون قوله ثم رفع هكذا عزاه المزى فى الأطراف وقد رواه ن فى اليوم والليلة من رواية عقبة بن عامر وكذا رواه الدارمى فى مسنده

فهذه سنن الوضوء والغسل ، ذكرنا منها مالابد لسالك طريق الآخرة من علمه وعمله ، وما عداه من المسائل التى يحتاج اليها فى عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه

والواجب من جملة ماذكرناه فى الغسل أمران : النية ، واستيعاب البدن بالغسل

وفرض الوضوء : النية ، وغسل الوجه ؛ وغسل اليدين إلى المرفقين ، ومسح ماينطلق عليه الاسم من الرأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، والترتيب . وأما الموالاة فليست بواجبة

والغسل الواجب بأربعة : بخروج المنى ، والتقاء الختانين ، والحيض ، والنفاس . وماعداه من الأغسال سنة : كغسل العيدين ، والجمعة ، والأعياد والإحرام ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ، ولدخول مكة ، وثلاثة أغسال أيام التشريق ، ولطواف الوداع على قول ، والكافر إذا أسلم غير جنب ، والمجنون إذا أفاق ، ولمن غسل ميتا . فكل ذلك مستحب

كيفية التيمّم

من تعذر عليه استعمال الماء لفقده بعد الطلب ، أو بمانع له عن الوضوء إليه من سبع أوحابس ، أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أولعطش رفيقه ، أوكان ملكا لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن المثل ، أو كان به جراحة أومرض وخاف من استعماله فساد العضو أوشدة الضنا ، فينبغى أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم يقصد صعيدا طيبا عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ، ويضرب عليه كفيه ضامابين أصابعه ، ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ، وينوى عند ذلك استباحة الصلاة

ولايكلف إيصال الغبار إلى ماتحت الشعور خفّت أو كثُفت ، ويجتهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار ، ويحصل ذلك بالضربة الواحدة ، فإنّ عرض الوجه لايزيد على عرض الكفين ، ويكفى فى الاستيعاب غالب الظن ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج بين أصابعه ، ثم يلصق ظهور أصابع يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى بحيث لايجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عن المسبحة من الأخرى ، ثم يُمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ، ثم يقلب بطن كفه اليسري على باطن

ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع ، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ، ثم يفعل باليسرى كذلك ، ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه

وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة ، وإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة

وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ، وإن جمع بين فريضتين فينبغى أن يعيد للتيمم للثانية ، وهكذا يفرد كل فريضة بتيمم . والله أعلم

القسم الثالث فى النظافة والتنظيف عن الفضلات الظاهرة

وهى نوعان : أوساخ وأجزاء ـ النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترشحة وهى ثمانية

الأول : ما يجتمع فى شعر الرأس من الدرن والقمل ، فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين ، إزالة للشعث عنه . «وكَانَ صلى الله عليه وسلم [1] يَدْهُنُ الشَّعْرَ وَيُرَجِّلُهُ غِبًّا » ويأمر به ويقول عليه السلام : [2]« ادَّهِنُوا غِبًّا » وقال عليه الصلاه والسلام : [3]« مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرَةٌ فَلْيُكْرِمْهَا » أى ليصنها عن الأوساخ . « وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ [4] ثَائِرُ الرَّأْسِ أَشْعَثُ اللِّحْيَةِ فَقَالَ : أَمَا كَانَ لِهَذَا دُهْنٌ يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ ؟ ثم قال : يَدْخُلُ أَحَدُكُمْ كَأَنَّه شَيْطَانٌ ؟ »

الثانى : ما يجتمع من الوسخ فى معاطف الأذن ، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع فى قعر الصماخ ، فينبغى أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام ، فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع

---

(١) حديث كان يدهن الشعر ويرجله غبا ت فى الشمائل باسناد ضعيف من حديث أنس كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته وفى الشمائل أيضا باسناد حسن من حديث صحابى لم يسم أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غبا

(٢) حديث ادهنوا غبا قال ابن الصلاح لم أجد له أصلا وقال النووى غير معروف وعند د ت ن من حديث عبد الله بن مغفل النهى عن الترجل إلا غبا باسناد صحيح

(٣) حديث من كانت له شعرة فليكرمها من حديث أبى هريرة وقال به شعر فليكرمه وليس اسناده بالقوى

(٤) حديث دخل عليه رجل سائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره الحديث د ت وابن حبان من حديث جابر باسناد جيد

الثالث : مايجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه ، ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار

الرابع : مايجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القلح ، فيزيله السواك والمضمضة ، وقد ذكرناهما

الخامس : مايجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد . ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط . وفي الخبر المشهور « أنه صلى الله عليه وسلم [1] كَانَ لَا يُفَارِقُهُ الْمُشْطُ وَالْمِدْرَى وَالْمِرْآةُ فِي سَفَرٍ وَلَا حَضَرٍ » وهي سنة العرب . وفي خبر غريب أنه صلى الله عليه وسلم [2] كان يسرح لحيته في اليوم مرتين وكان صلى الله عليه وسلم [3] كث اللحية وكذلك كان أبو بكر وكان عثمان طويل اللحية رقيقها وكان علي عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه وفي حديث أغرب منه قالت عائشة رضي الله عنها [4] « اجْتَمَعَ قَوْمٌ بِبَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَرَأَيْتُهُ يَطَّلِعُ فِي الْحُبِّ يُسَوِّي مِنْ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ ، فَقُلْتُ أَوَ تَفْعَلُ ذَلِكَ يَارَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ نَعَمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَتَجَمَّلَ لِإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ » . والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس ، قياساً على أخلاق غيره ، وتشبيها للملائكة بالحدادين وهيهات ، فقد كان صلى الله عليه وسلم مأمورا بالدعوة ، وكان من وظائفه أن يسعى ، في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم ، كيلا تزدريه نفوسهم ، ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغره أعينهم فينفرهم ذلك . ويتعلق المنافقون بذلك في تنفيرهم وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل ، وهو أن

---

(١) حديث كان لايفارقه المشط والمدرى في سفر ولا حضر ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة واسنادها ضعيف وسيأتي في آداب السفر مطولا

(٢) حديث كان يسرح لحيته كل يوم مرتين تقدم حديث أنس كان يكثر تسريح لحيته والخطيب في الجامع من حديث الحكم مرسلا كان يسرح لحيته بالمشط

(٣) حديث كان كث اللحية ت في الشمائل من حديث هند بن أبي هاله وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي وأصله عند ت

(٤) حديث عائشة اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فرايته يطلع في الجب يسوى من رأسه ولحيته ابن عدي وقال حديث منكر

يرائي من ظاهره مالا يوجب نفره الناس عنه . والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود . فالتزين على هذا القصد محبوب ، وترك الشعث في اللحية اظهارا للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور ، وتركه شغلا بما هو أهم منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل . والناقد بصير ، والتلبيس غير رائج عليه بحال

وكم من جاهل يتعاطي هذه الأمور التفاتا إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ، ويزعم أن قصده الخير ، فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمجادلين والتقرب إلى الله تعالى به . وهذا أمر ينكشف يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * ويوم يُبَعْثَرُ مافي القبور ، ويُحَصَّلُ مافي الصدور ، فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من النبهرجة ، فنعوذ بالله من الخزى يوم العرض الأكبر

السادس : وسخ البراجم . وهى معاطف ظهور الأنامل ، كانت العرب لاتكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام ، فيجتمع في تلك الغضون وسخ ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (١) بِغَسْلِ الْبَرَاجِمِ

السابع : تنظيف الرَّوَاجِبِ ، أَمَرَ (٢) رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْعَرَبَ بِتَنْظِيفِهَا . وَهِيَ رُءُوسِ الأَنَامِلِ وَمَا تَحْتَ الأَظْفَارِ من الْوَسَخِ ، لأنها كانت لا يحضرها المقراض في كل وقت فتجتمع فيها أوساخ (٣) فَوَقَّتَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَلْمَ الأَظْفَارِ وَنَتْفَ الإِبْطِ وَحَلْقَ الْعَانَةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا . لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث الأمر بغسل البراجم الترمذى الحكيم في النوادر من حديث عبد الله بن بسر نقوا براجمكم ولابن عدى في حديث لأنس وأن يتعاهد البراجم اذا توضأ ولمسلم من حديث عائشة عشر من الفطرة وفيه وغسل البراجم

(٢) حديث الأمر بتنظيف الرواجب أحمد من حديث ابن عباس أنه قيل له يا رسول الله لقد أبطأ عنك جبريل فقيل ولم لا يبطأ وأنتم لاتستنون ولا تقلمون أظافركم ولا تقصون شواربكم ولاتنقون رواجبكم وفيه اسمعيل بن عياش

(٣) حديث التوقيت في قلم الاظفار ونتف الابط وحلق العانة أربعين يوما م من حديث أنس

* الطارق : ٨

(١) بتنظيف ما تحت الأظفار. وجاء فى الأثر « أن النبى صلى الله عليه وسلم (٢) استبطأ الوحى فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له : كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم وقلحا لا تستاكون ؟ مر أمتك بذلك » والأف : وسخ الظفر . والتف : وسخ الأذن . وقوله عز وجل : (فلا تقل لهما أف *) تعبهما أى بما تحت الظفر من الوسخ . وقيل لا تتأذ بهما كما تتأذى بما تحت الظفر

الثامن : الدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الحمام ، ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار . روى ذلك عن أبى الدرداء وأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنهما . وقال بعضهم : بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لآفته وذاك تعرض لفائدته . ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته . ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات

فعليه واجبان فى عورته ، وواجبان فى عورة غيره . أما الواجبان فى عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ، ويصونها عن مس الغير ، فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده ، ويمنع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة . وفى إباحة مس ماليس بسوأة لإزالة الوسخ احتمال ، ولكن الأقيس التحريم إذ الحق مس السوأتين فى التحريم بالنظر ، فكذلك ينبغى أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين

والواجبان فى عورة الغير أن يغض بصر نفسه عنها ، وأن ينهى عن كشفها ، لأن النهى عن المنكر واجب ، وعليه ذكر ذلك ، وليس عليه القبول ، ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجرى عليه مما هو حرام فى نفسه ، فليس عليه أن

---

(١) حديث الأمر بتنظيف ما تحت الأظفار الطبرانى من حديث وابصة بن سعيد سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن كل شىء حتى سألته عن الوسخ الذى يكون فى الاظفار فقال دع ما يريبك إلى مالا يريبك

(٢) حديث استبطاء الوحى فلما هبط عليه جبريل قال له كيف تنزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم تقدم قبل هذا بحديثين

* الاسراء : ٢٣

يستكر حراما يرشي المستأجر عليه إلى مباشرة حرام آخر . فأما قوله . أعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به ، فهذا لا يكون عذراً بل لا بد من الذكر ، فلا يخلو قلب عن التأثر من سماع الإنكار ، واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي ، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه وتنفير نفسه عنه ، فلا يجوز تركه . ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات ، إذ لا تخلو عن عورات مكشوفة لا سيما ما تحت السرة إلى ما فوق العانة ، إذ الناس لا يعدونها عورة . وقد ألحقها الشرع بالعورة وجعلها كالحريم لها ، ولهذا يستحب تخلية الحمام . وقال بشر بن الحارث : ما أعنف رجلا لا يملك إلا درهما دفعه ليخلي له الحمام . ورؤى ابن عمر رضي الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصب عينيه بعصابة . وقال بعضهم : لا بأس بدخول الحمام ولكن بإزارين : إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه

وأما السنن فعشرة . فالأول النية ، وهو أن لا يدخل لعاجل دنيا ولا عابثا لأجل هوى . بل يقصد به التنظف المحبوب تزينا للصلاة ، ثم يعطي الحمامي الأجرة قبل الدخول فان ما يستوفيه مجهول وكذا ما ينتظره الحمامي ، فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهالة من أحد العوضين وتطييب لنفسه ، ثم يقدم رجله اليسرى عند الدخول ، ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم . أعوذ بالله من الرجس النجس ، الخبيث المخبث ، الشيطان الرجيم ؛ ثم يدخل وقت الخلوة أو يتكلف تخلية الحمام ، فإنه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء ، وهو مذكر للنظر في العورات ، ثم لا يخلو الإنسان في الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف في أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لا يدري ؛ ولأجله عصب ابن عمر رضي الله عنهما عينيه ، ويغسل الجناحين عند الدخول ، ولا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأول ؛ وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال ، والزيادة عليه لو علمه الحمامي لكرهه لاسيما الماء الحار فله مؤنة وفيه تعب ، وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ، ويقدر نفسه محبوساً في البيت الحار ساعة ، ويقيسه

إلى جهنم ، فإنه أشبه بيت بجهنم ، النار من تحت والظلام من فوق ، نعوذ بالله من ذلك ، بل العاقل لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة ، فإنها مصيره ومستقره ، فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة ، فإن المرء ينظر بحسب همته

فإذا دخل بزاز ونجار وبناء وحائك دارا معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها ، والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها ، والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها ، والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها ، فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئاً إلا ويكون له موعظة وذكرى للآخرة بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة ، فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد ، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم ، وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكراً ونكيراً والزبانية ، وإن سمع صوتاً هائلا تذكر نفخة الصور ، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة ، وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول . وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل ! إذ لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا ، فإذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استحقرها إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته

ومن السنن أن لا يسلم عند الدخول ، وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره ، وإن أحب قال : عافاك الله . ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول : عافاك الله لابتداء الكلام ، ثم لا يكثر الكلام في الحمام ، ولا يقرأ القرءان إلا سراً . ولا بأس باظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريباً من الغروب ، فان ذلك وقت انتشار الشياطين

ولا بأس بأن يدلكه غيره ، فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط : أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه ، وقال إنه دلكني في الحمام مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه ليفرح بذلك . ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم [1] نَزَلَ مَنْزِلاً فِي بَعضِ أَسْفَارِهِ فَنَامَ عَلَى بَطْنِهِ وَعَبْدٌ أَسْوَدُ يَغمِزُ ظَهْرَهُ ،

(١) حديث نزل منزلا فى بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره الحديث الطبرانى فى الأوسط حديث عمر بسند ضعيف

فقلت : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال إن الدابة تقحمت بي »

ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة ، فقد قيل : الماء الحار فى الشتاء من النعيم الذى يسأل عنه . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : الحمام من النعيم الذى أحدثوه . هذا من جهة الشرع

أما من جهة الطب فقد قيل : الحمام بعد النورة أمان من الجذام . وقيل : النورة فى كل شهر مرة تطفىء المرة الصفراء وتنقى اللون وتزيد فى الجماع . وقيل بولة فى الحمام قائما فى الشتاء أنفع من شربة دواء . وقيل : نومة فى الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء . وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس . ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه . هذا حكم الرجال

وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم :(١) « لا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُدْخِلَ حَلِيلَتَهُ الْحَمَّامَ ، وَفِى الْبَيْتِ الْمُسْتَحَمّ » والمشهور (٢) « أَنَّهُ حَرَامٌ عَلَى الرِّجَالِ دُخُولُ الْحَمَّامِ إِلَّا بِمِئْزَرٍ وَحَرَامٌ عَلَى الْمَرْأَةِ دُخُولُ الْحَمَّامِ إِلَّا نُفَسَاءَ أَوْ مَرِيضَةً » ودخلت عائشة رضى الله عنها حماما من سقم بها فان دخلت لضرورة فلا تدخل إلا بمئزر سابغ . ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام ، فيكون معينا لها على المكروه

النوع الثانى فيما يحدث فى البدن

من الأجزاء وهى ثمانية

الأول : شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ، ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قزعا أى قطعا ، وهو دأب أهل الشطارة ، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعارا لهم ، فإنه إذا لم يكن شريفا كان ذلك تلبيسا

---

(١) حديث لا يحل لرجل أن يدخل حليلته الحمام الحديث يأتى فى الذى يليه مع اختلاف

(٢) حديث حرام على الرجال دخول الحمام الا بمئزر الحديث النسائى والحاكم وصححه من حديث جابر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بمئزر ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام وللحاكم من حديث عائشة الحمام حرام على نساء أمتى قال صحيح الاسناد ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر فلا يدخلها الرجال بالازار وامنعوها النساء الا من مريضة أو نفساء

الثانى : شعر الشارب . وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « قُصُّوا الشّارِبَ » وفى لفظ آخر « جُزُّوا الشَّوارِبَ » وفى لفظ آخر « حُفُّوا الشَّوارِبَ واعْفُوا اللِّحَى » أى اجعلوها حفاف الشفة أى حولها ، وحفاف الشيء حوله ، ومنه (وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ*) وفى لفظ آخر «احْفُوا» وهذا يشعر بالاستئصال . وقوله : حُفُّوا ، يدل على مادون ذلك . قال الله عز وجل . (إنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا *) أى يستقصى عليكم . وأما الحلق فلم يرد . والاحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة : نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال : ذكرتنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال المغيرة ابن شعبة « نَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [٢] وَقَدْ طَالَ شَارِبِي فَقَالَ تَعَالَ فَقُصَّهُ لِي عَلَى سِوَاكٍ »

ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب، فعل ذلك عمر وغيره ، لأن ذلك لا يستر الفم ، ولا يبقى فيه غَمَر الطعام ، إذ لا يصل اليه . وقوله صلى الله عليه وسلم « اعْفُوا اللِّحَى » أى كثروها . وَفِي الْخَبَرِ « أَنَّ الْيَهُودَ [٣] يُعْفُونَ شَوَارِبَهُمْ وَيَقُصُّونَ لِحَاهُمْ فَخَالِفُوهُمْ » وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعه

الثالث : شعر الأبط . ويستحب نتفه فى كل أربعين يوما مرة ، وذلك سهل على من تعوّد نتفه فى الابتداء ، فأما من تعود الحلق فيكفيه الحلق ، إذ فى النتف تعذيب وإيلام ، والمقصود النظافة ، وأن لا يجتمع الوسخ فى خللها ، ويحصل ذلك بالحلق

الرابع : شعر العانة . ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ؛ ولا ينبغى أن تتأخر عن أربعين يوماً

---

(١) حديث قصوا وفى لفظ جزوا وفى لفظ أحفوا الشوارب واعفوا اللحية متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ احفوا ولمسلم من حديث أبى هريرة جزوا ولأحمد من حديثه قصوا

(٢) حديث المغيرة بن شعبه نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربى فقال تعال فقصه لى على سواك د ن ت فى الشمائل

(٣) حديث أن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم فخالفوهم أحمد من حديث أبى أمامة قلنا يارسول الله أن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب قلت والمشهور أن هذا فعل المجوس ففى صحيح ابن حبان من حديث ابن عمر فى المجوس أنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم

* الزمر : ٧٥ * محمد : ٣٧

الخامس : الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ، ولما يجتمع فيها من الوسخ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَلِّمْ أَظْفَارَكَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقْعُدُ عَلَى مَا طَالَ مِنْهَا » ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء ، لأنه لا يمنع وصول الماء ، ولأنه يتساهل فيه للحاجة ، لاسيما فى أظفار الرجل ، وفى الأوساخ التى تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدى من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم ، وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ، ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزجر عن ذلك

ولم أر فى الكتب خبراً مرويا فى ترتيب قلم الأظفار ، ولكن سمعت أنه صلى الله عليه وسلم [2] بدأ بمسبحته اليمنى ، وختم بإبهامه اليمنى ، وابتدأ فى اليسرى بالخنصر إلى الابهام . ولما تأملت فى هذا خطر لى من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة ، إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوّة ، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من النقل بعد نقل الفعل اليه . فالذى لاح لى فيه ، والعلم عند الله سبحانه ، أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل ، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع ، والمسبحة أشرفها ، إذ هى المشيرة فى كلمتى الشهادة من جملة الأصابع ، ثم بعدها ينبغى أن يبتدئ بما على يمينها ، إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمين ، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالابهام هو اليمين ، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هى اليمنى ، واليد إذا تركت بطبعها كان الكف مائلا إلى جهة الارض ، إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار ، واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عاليا ، فما يقتضيه الطبع أولى ، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع فى حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة ، فتقع البداءة

---

(١) حديث يا أبا هريرة قلم ظفرك فان الشيطان يقعد على ما طال منها . الخطيب فى الجامع باسناد ضعيف من حديث جابر قصوا أظافيركم فان الشيطان يجرى ما بين اللحم والظفر

(٢) حديث البداءة فى قلم الأظفار بمسبحة اليمنى والختم بإبهامها وفى اليسرى بالخنصر الى الابهام لم أجد له أصلا وقد أنكره أبو عبد الله المازرى فى الرد على الغزالى وشنع عليه به

بخنصر اليسرى ، والختم بإبهامها ، ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم . وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص فى حلقة ليظهر ترتيبها ، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف ، أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف ، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندى أن لم يثبت فيها نقل ، أن يبدأ بخنصر اليمنى ، ويختم بخنصر اليسرى كما فى التخليل ، فإن المعانى التى ذكرناها فى اليد لا تتجه هاهنا إذ لا مسبحة فى الرجل ، وهذه الأصابع فى حكم صف واحد ثابت على الأرض ، فيبدأ من جانب اليمنى ، فإن تقديرها حلقة بوضع الأخمص على الأخمص يأباه الطبع بخلاف اليدين . وهذه الدقائق فى الترتيب تنكشف بنور النبوّة فى لحظة واحدة ، وإنما يطول التعب علينا . ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب فى ذلك ربما لم يخطر لنا ، وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه وسلم وترتيبه ربما تيسر لنا بما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى

ولا تظنن أن أفعاله صلى الله عليه وسلم فى جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب ، بل جميع الأمور الاختيارية التى ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام ، كأن لا يقدم على واحد معين بالاتفاق ، بل بمعنى يقتضى الاقدام والتقديم ، فان الاسترسال مهملا كما يتفق سجية البهائم ، وضبط الحركات بموازين المعانى سجية أولياء الله تعالى . وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب ، وعن الإهمال وتركه سدى أبعد ، كانت مرتبته إلى رتبه الأنبياء والأولياء أكثر ، وكان قربه من الله عز وجل أظهر ، إذ القريب من النبى صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل ، والقريب من الله لابد أن يكون قريبا ، فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره . فنعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا فى يد الشيطان بواسطة الهوى

واعتبر فى ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم [1] « فإِنَّهُ كَانَ يَكْتَحِلُ فِي عَيْنِهِ الْيُمْنَى ثَلَاثًا ، وَفِي الْيُسْرَى اثْنَيْنِ فَيَبْدَأُ بِالْيُمْنَى لِشَرَفِهَا » وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترا ، فإن للوتر فضلا عن الزوج ، فإن الله سبحانه وتر يحب الوتر ، فلا ينبغى أن يخلو

(١) حديث كان يكتحل فى عينه اليمنى ثلاثا وفى اليسرى اثنين الطبرانى من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى ، ولذلك استحب الإيتار فى الإستجمار ، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لايخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لاتستوعب أصول الأجفان بالكحل ، وإنما خصص اليمين بالثلاث لأن التفضيل لابد منه للإيتار واليمين أفضل فهى بالزيادة أحق

فإن قلت : فلم اقتصر على اثنين لليسرى وهى زوج ؟

فالجواب أن ذلك ضرورة ، إذ لو جعل لكل واحدة وترا كان المجموع زوجا ، إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعايته الإيتار فى مجموع الفعل وهو فى حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته فى الآحاد ، ولذلك أيضاً وجه ، « وهُوَ أَنْ يَكْتَحِلَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ ثَلاثًا » على قياس الوضوء ، وقد نقل ذلك فى الصحيح[1] وهو الأولى . ولو ذهبت أستقصى دقائق ماراعاه صلى الله عليه وسلم فى حركاته لطال الأمر ، فقس بما سمعته مالم تسمعه

واعلم أن العالم لا يكون وارثا للنبى صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معانى الشريعة ، حتى لا يكون بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة ، وهى درجة النبوة ، وهى الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث ، إذ الموروث هو الذى حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه ، والوارث هو الذى لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل اليه وتلقاه منه بعد حصوله له ، فأمثال هذه المعانى مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء ، ولا يستقل باستنباطها تلقيا بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام

السادس والسابع : زيادة السرة وقلفة الحشفة . أما السرة فتقطع فى أول الولادة ، وأما التطهير بالختان فعادة اليهود فى اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يثغر الولد أحب وأبعد عن الخطر ، قال صلى الله عليهم وسلم[2] « الْخِتَانُ سُنَّةٌ لِلرِّجَالِ وَمَكْرَمَةٌ لِلنِّسَاءِ » وينبغى أن لا يبالغ فى خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم لأم عطية وكانت تخفض « يَا أُمَّ

---

(١) حديث الاكتحال فى كل عين ثلاثا قال العزالى ونقل ذلك فى الصحيحين قلت هو عند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس قال الترمذى حديث حسن

(٢) حديث الختان سنة الرجال مكرمة النساء أحمد والبيهقى من رواية أبى المليح بن أسامة عن أبيه باسناد ضعيف

عَطِيَّةَ [1] أَشِمِّي وَلَا تَنْهَكِي فَإِنَّهُ أَسْرَى لِلْوَجْهِ وَأَحْظَى عِنْدَ الزَّوْجِ » أى أكثر لماء الوجه ودمه ، وأحسن فى جماعها . فانظر إلى جزالة لفظه صلى الله عليه وسلم فى الكناية ، وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التى هى أهم مقاصد النبوة إلى مصالح الدنيا ، حتى انكشف له وهو أمى من هذا الأمر النازل قدره ما لو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره ، فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ، ليجمع لهم بيمن بعثته مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم

الثامنة : ما طال من اللحية . وإنما أخرناها لنلحق بها ما فى اللحية من السنن والبدع ، إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها : وقد اختلفوا فيما طال منها : فقيل : ان قبض الرجل على لحيته وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس ، فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين ، واستحسنه الشعبى وابن سيرين ، وكرهه الحسن وقتادة ، وقالا : تركها عافية أحب ، لقوله صلى الله عليه وسلم « اعْفُوا اللِّحَى » والأمر فى هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب ، فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ اليه ، فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية : وقال النخعى : عجبت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين ، فإن التوسط فى كل شىء حسن ، ولذلك قيل : كلما طالت اللحية تشمر العقل

فصل

وفى اللحية عشر خصال مكروهة ، وبعضها أشد كراهة من بعض . خضابها بالسواد ، وتبييضها بالكبريت ، ونتفها ، ونتف الشيب منها ، والنقصان منها ، والزيادة فيها ، وتسريحها تصنعا لأجل الرياء ، وتركها شعثة إظهارا للزهد ، والنظر إلى سوادها عجبا بالشباب ، وإلى بياضها تكبرا بعلو السن ، وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبها بالصالحين

أما الأول وهو الخضاب بالسواد . فهو منهى عنه لقوله صلى الله عليه وسلم [2] « خَيْرُ شَبَابِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِشُيُوخِكُمْ وَشَرُّ شُيُوخِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِشَبَابِكُمْ » والمراد بالتشبه بالشيوخ

---

(١) حديث أم عطية أشمى ولا تنهكى . الحديث الحاكم والبيهقى من حديث الضحاك بن قيس ولأبى داود نحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف

(٢) حديث خير شبابكم من تشبه بكهولكم . الحديث الطبرانى من حديث واثلة باسناد ضعيف

فى الوقار لا فى تبييض الشعر [١] ونهى عن الْخِضاب بِالسَّوادِ وقال : هُو خِضابُ [٢] أَهْلِ النَّارِ وفى لفظ آخر الْخِضابُ بالسَّوادِ خِضابُ الْكُفَّارِ ، وتزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه وكان يخضب بالسواد . فنصل خضابه وظهرت شيبته ، فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضى الله عنه ، فرد نكاحه وأوجعه ضربا ، وقال : غررت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك . ويقال : أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [٣] « يكُونُ فِي آخِرِ الزَّمانِ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ بِالسَّوادِ كَحَواصِلِ الْحَمامِ لَا يرِيحُونَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »

الثانى: الخضاب بالصفرة والحمرة ، وهو جائز تلبيسا للشيب على الكفار فى الغزو والجهاد ، فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « الصُّفْرةُ خِضابُ الْمُسْلِمِينَ والْحُمْرةُ خِضابُ الْمُؤْمِنِينَ » وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة ، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو ، وذلك لا بأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة

الثالث : تبييضها بالكبريت استعجالاً لإظهار علو السن ، توصلاً إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ ، وترفعا عن الشباب ، وإظهاراً لكثرة العلم ، ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً ، وهيهات ، فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلا ، فالعلم ثمرة العقل ، وهى غريزة ، ولا يؤثر الشيب فيها ، ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد

---

(١) حديث نهى عن الخضاب بالسواد ابن سعد فى الطبقات من حديث عمرو بن العاص باسناد منقطع ولمسلم من حديث جابر وغيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد قاله حين رأى بياض شعر أبى قحافة

(٢) حديث الخضاب بالسواد خضاب أهل النار وفى لفظ خضاب الكفار الطبرانى والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ الكافر قال ابن أبى حاتم منكر

(٣) حديث يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد ـ الحديث : أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس باسناد جيد

(٤) حديث الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين الطبراني والحاكم بلفظ الافراد من حديث ابن عمر قال ابن أبي حاتم منكر

حماقته ، وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما ما آتى الله عز وجل عبدا علما إلا شابا والخير كله فى الشباب ، ثم تلا قوله عز وجل : (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ *) وقوله تعالى (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى *) وقوله تعالى : (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا *)

وكان أنس رضى الله عنه يقول:[1] « قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَلَيْسَ فى رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ . فَقِيلَ لَهُ يَا أَبَا حَمْزَةَ فَقَدْ أَسَنَّ ، فَقَالَ : لَمْ يَشِنْهُ اللهُ بِالشَّيْبِ ، فَقِيلَ : أَهُوَ شَيْنٌ ؟ فَقَالَ كُلُّكُمْ يَكْرَهُهُ » ويقال [2] إِنَّ يَحيى بْنَ أَكْثَم وَلِيَ الْقَضَاءَ وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً فَقَالَ لَهُ رَجُل فِي مَجْلِسِهِ يُرِيدُ أَنْ يُخْجِلَهُ بِصِغَرِ سنه : كَمْ سِنُّ الْقَاضِي أَيَّدَهُ الله ؟ فقال مِثْلُ سِنِّ عَتَّابِ بْنِ أَسِيد حِينَ وَلَّاهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِمَارَةَ مَكَّة وَقَضَاءَهَا فَأَفْحَمَهُ »

وروى عن مالك رحمه الله أنه قال : قرأت فى بعض الكتب لا تغرنكم اللحى فإن التيس له لحية . وقال أبو عمرو بن العلاء : إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحمق . ولو كان أمية بن عبد شمس . وقال أيوب السختيانى : أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقال على بن الحسين : من سبق إليه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سنا منك . وقيل لأبى عمرو بن العلاء : أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير ؟

(١) حديث قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب متفق عليه من حديث أنس دون قوله فقيل الخ ولمسلم من حديثه وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فال ما شانه الله ببيضاء

(٢) حديث أن يحى بن أكثم ولى القضاء وهو ابن احدى وعشرين سنة فقيل له كم سن العاضى فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلي الله عليه وسلم امارة مكة وقضاءها يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن الخطيب فى التاريخ باسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة الى عتاب بن أسيد فانه كان حين الولاية ابن عشرين سنة وأما بالنسبة الي معاذ فانما يتم له ذلك على قول يحى بن سعيد الانصاري ومالك وابن أبي حاتم انه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاثة وثلاثين سنة فى الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم

* الأنبياء : ٦٠ * الكهف : ١٣ * مريم : ١٢

فقال : إن كان الجهل يقبح به فالتعلم يحسن به . وقال يحى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بغلة الشافعي : يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحمد : لو عرفت لكنت تمشى من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتنى بعلو أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتنى لم أدركه بعلو ولا نزول

الرابع : نتف بياضها استنكافا من الشيب . وقد « نَهَى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1] عَنْ نَتْفِ الشَّيْبِ وَقَالَ هُوَ نُورُ الْمُؤْمِنِ » وهو فى معنى الخضاب بالسواد. وعلة الكراهية ماسبق، والشيب نور الله تعالى ، والرغبة عنه رغبة عن النور .

الخامس : نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس ، وذلك مكروه ومشوه للخلقة ونتف الْفنيكَيْن بدعة وهما جانبا العنفقة . شهد عند عمر بن عبد العزيز رجل كان ينتف فَنِيكَيْه ، فرد شهادته . ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن أبى ليلى قاضى المدينة شهادة من كان ينتف لحيته . وأما نتفها فى أول النبات تشبها بالمرد فمن المنكرات الكبار ، فإن اللحية زينة الرجال ، فإن لله سبحانه ملائكة يُقْسمون : والذى زين بنى آدم باللحى ، وهو من تمام الخلق ، وبها يتميز الرجال عن النساء . وقيل فى غريب التأويل : اللحية هى المراد بقوله تعالى : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ *) قال أصحاب الأحنف بن قيس : وددنا أن نشترى للأحنف لحية ولو بعشرين ألفا . وقال شريح القاضى : وددت أن لى لحية ولو بعشرة آلاف . وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل ، والنظر اليه بعين العلم والوقار والرفع فى المجالس ، وإقبال الوجوه اليه ، والتقديم على الجماعة ، ووقاية العرض ، فان من يشتم يعرض باللحية إن كان للمشتوم لحية . وقد قيل : إن أهل الجنة مرد إلا هرون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم ، فإن له لحية إلى سرته تخصيصا له وتفضيلا

السادس : تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزين للنساء والتصنع . قال كعب : يكون فى آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ، ويعرقبون نعالهم كالمناجل ، أولئك لا خلاق لهم

---

(١) حديث نهى عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن د ت وحسنه ن ه من رواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده

* فاطر : ١

السابع: الزيادة فيها وهو أن يزيد فى شعر العارضين من الصدغين، وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحى وينتهى إلى نصف الخد، وذلك يباين هيئة أهل الصلاح

الثامن: تسريحها لأجل الناس، قال بشر: فى اللحية شركان: تسريحها لأجل الناس، وتركها متفتلة لإظهار الزهد.

التاسع والعاشر: النظر فى سوادها وفى بياضها بعين العجب، وذلك مذموم فى جميع أجزاء البدن، بل فى جميع الأخلاق والأفعال على ما سيأتى بيانه

فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة، وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة: خمس منها فى الرأس، وهى [1] فرق شعر الرأس، والمضمضة، والاستنشاق [2] وقص الشارب، والسواك، وثلاثة فى اليد والرجل، وهى: القلم، وغسل البراجم [3] وتنظيف الرواجب. وأربعة فى الجسد، وهى نتف الإبط، والاستحداد، والختان، والاستنجاء بالماء، فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك. وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة الظاهرة دون الباطنة فلنقتصر على هذا. وليتحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التى يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى، وسيأتى تفصيلها فى ربع المهلكات مع تعريف الطرق فى إزالتها وتطهير القلب منها، إن شاء الله عز وجل

تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه، ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

---

(١) حديث فرق شعر الرأس الخ من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره إلى أن قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه

(٢) حديث عشر من الفطرة الحديث مسلم من حديث عائشة ولفظ قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء قال وكيع يعنى الاستنجاء قال مصعب ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة ضعفه ن ولأبى د ه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر اعفاء اللحية وانتقاص الماء قال د روى نحوه عن ابن عباس قال خمس كلها فى الرأس وذكر منها الفرق ولم يذكر اعفاء اللحية وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة الفطرة خمس الختان الحديث

(٣) حديث تنظيف الرواجب تقدم

كتاب أسرار الصلاة ومُهماتها

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى غمر العباد بلطائفه ، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه ، الذى تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه ، فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق فى السؤال والدعاء فقال : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ وَهَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ، وباين السلاطين بفتح الباب ورفع الحجاب ، فرخص للعباد فى المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات فى الجماعات والخلوات ، ولم يقتصر على الرخصة بل تلطف بالترغيب والدعوة ، وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة . فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه ، وأتم لطفه وأعم إحسانه ! والصلاة على محمد نبيه المصطفى ، ووليه المجتبى ، وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ، ومصابيح الدجى ، وسلم تسليما

أما بعد : فان الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات . وقد استقصينا فى فن الفقه فى بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه أصولها وفروعها ، صارفين جمام العناية إلى تفاريعها النادرة ووقائعها الشاذة ، لتكون خزانة للمفتى منها يستمد ، ومعولا له اليها يفزع ويرجع . ونحن الآن فى هذا الكتاب نقتصر على ما لا بد للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية فى معانى الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره فى فن الفقه ، ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب : (الباب الأول) فى فضائل الصلاة . (الباب الثانى) فى تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . (الباب الثالث) فى تفضيل الأعمال الباطنة منها . (الباب الرابع) فى الإمامة والقدوة (الباب الخامس) فى صلاة الجمعة وآدابها (الباب السادس) فى مسائل متفرقة تعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها (الباب السابع) فى التطوعات وغيرها

الباب الأول

في فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم :(١) « ثَلاثَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَثِيبٍ مِنْ مِسْكٍ أَسْوَدَ لا يَهُولُهُمْ حِسَابٌ وَلا يَنَالُهُمْ فَزَعٌ حَتَّى يُفْرَغَ مِمَّا بَيْنَ النَّاسِ: رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّ بِقَوْمٍ وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ ، وَرَجُلٌ أَذَّنَ فِي مَسْجِدٍ وَدَعَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَرَجُلٌ ابْتُلِيَ بِالرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يَشْغَلْهُ ذَلِكَ عَنْ عَمَلِ الآخِرَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « لا يَسْمَعُ نِدَاءَ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلا إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « يَدُ الرَّحْمَنِ عَلَى رَأْسِ الْمُؤَذِّنِ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ أَذَانِهِ » وقيل في تفسير قوله عز وجل : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً *) نزلت في المؤذنين :

وقال صلى الله عليه وسلم :(٤) « إِذَا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ » وذلك مستحب إلا في الحيعلتين فإنه يقول فيهما : لاحول ولا قوة إلا بالله ، وفي قوله : قد قامت الصلاة : أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض ، وفي التثويب : صدقت وبررت ونصحت ، وعند الفراغ يقول : اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرّفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد . وقال سعيد بن المسيب : من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك ، فإن أذن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة

﴿ كتاب أسرار الصلاة ﴾

(١) حديث ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك ـ الحديث : ت وحسنه من حديث ابن عمر مختصر وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف

(٢) حديث لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء الا شهد له يوم القيامة خ من حديث أبي سعيد

(٣) حديث يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أنس باسناد ضعيف

(٤) حديث اذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن متفق عليه من حديث أبي سعيد .

* فصلت : ٣٣

فضيلة المكتوبة

قال الله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا *) وقال صلى الله عليه وسلم : [1] « خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ وَلَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم : [2] « مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا تَرَوْنَ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ قالوا لَا شَيْءَ ، قال صلى الله عليه وسلم : فَإِنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تُذْهِبُ الذُّنُوبَ كَمَا يُذْهِبُ الْمَاءُ الدَّرَنَ » وقال صلى الله عليه وسلم : [3] « إِنَّ الصَّلَوَاتِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ » وقال صلى الله عليه وسلم : [4] « بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ شُهُودُ الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَا يَسْتَطِيعُونَهُمَا » وقال صلى الله عليه وسلم : [5] « مَنْ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ مُضَيِّعٌ لِلصَّلَاةِ لَمْ يَعْبَأِ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم : [6] « الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ هَدَمَ الدِّينَ » [7] « وَسُئِلَ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : الصَّلَاةُ لِمَوَاقِيتِهَا » وقال صلى الله عليه وسلم : [8] « مَنْ حَافَظَ عَلَى الْخَمْسِ بِإِكْمَالِ طُهُورِهَا وَمَوَاقِيتِهَا

---

(١) حديث خمس صلوات كتبهن الله على العباد الحديث د ن هـ حب من حديث عبادة بن الصامت وصححه ابن عبد البر

(٢) حديث مثل خمس صلوات كمثل نهر الحديث مسلم من حديث جابر ولهما نحوه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر م من حديث أبي هريرة

(٤) حديث بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح مالك من رواية سعيد بن المسيب مرسلا

(٥) حديث من لقي الله مضيعا للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته وفي معناه حديث أول ما يحاسب به العبد الصلاة وفيه فان فسدت فسد سائر عمله رواه طب في الأوسط من حديث أنس

(٦) حديث الصلاة عماد الدين البيهقي في الشعب بسند ضعفه من حديث عمر قال لك عكرمة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط انه غيره معروف

(٧) حديث سئل أي الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٨) حديث من حافظ على الخمس باكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا ـ الحديث : أحمد حب من حديث عبد الله بن عمرو

---

* النساء : ١٠٣

كانت له نورا وبرهانا يوم القيامة ، ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان » وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « مفتاح الجنة الصلاة » وقال : (٢) « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ، ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته : فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (٣) « من ترك صلاة متعمدا فقد كفر » أي قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده ، كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها . وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة ، وإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة ، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً قالوا : لم يا أبا هريرة ؟ قال : من أجل كثرة الخطا

ويروى « أن (٥) أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله » وقال صلى الله عليه وسلم : (٦) « يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب » وقال بعض العلماء : مثل المصلي مثل التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة . وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول : اذا حضرت الصلاة : قوموا الى ناركم التي أوقدتموها فأطفؤها

---

(١) حديث مفاتيح الجنة الصلاة د الطيالسي من حديث جابر وهو عند الترمذي ولكن ليس داخلا في الرواية

(٢) حديث ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب اليه من الصلاة ـ الحديث : لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر

(٣) حديث من ترك صلاة متعمدا فقد كفر البزار من حديث أبي الدرداء باسناد فيه مقال

(٤) حديث من ترك صلاة متعمدا فقد تبرأ من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم : حم هق من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله ثقات

(٥) حديث أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة ـ الحديث : رويناه في الطيوريات من حديث أبي سعيد باسناد ضعيف ولأصحاب السنن لـ وصحح اسناده نحوه من حديث أبي هريرة وسيأتي

(٦) حديث يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فان الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب لم أقف له على أصل

فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَثَلُ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ كَمَثَلِ الْمِيزَانِ مَنْ أَوْفَى اسْتَوْفَى » وقال (٢) يزيد الرقاشي: «كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُسْتَوِيَةً كَأَنَّهَا مَوْزُونَةٌ» وقال صلى الله عليه وسلم: (٣) « إِنَّ الرَّجُلَيْنِ مِنْ أُمَّتِي لَيَقُومَانِ إِلَى الصَّلَاةِ وَرُكُوعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَاحِدٌ وَإِنَّ مَا بَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وأشار إلى الخشوع وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْعَبْدِ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ بَيْنَ رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) « أَمَا يَخَافُ الَّذِي يُحَوِّلُ وَجْهَهُ فِي الصَّلَاةِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ وَجْهَهُ وَجْهَ حِمَارٍ ! » وقال صلى الله عليه وسلم: (٦) « مَنْ صَلَّى صَلَاةً لِوَقْتِهَا وَأَسْبَغَ وُضُوءَهَا وَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَخُشُوعَهَا عَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ تَقُولُ : حَفِظَكَ اللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي ، وَمَنْ صَلَّى لِغَيْرِ وَقْتِهَا وَلَمْ يُسْبِغْ وُضُوءَهَا وَلَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا وَلَا خُشُوعَهَا عَرَجَتْ وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي حَتَّى إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ لُفَّتْ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلَقُ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٧) « أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ » وقال ابن مسعود رضى الله عنه وسلمان رضى الله عنه الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ، ومن طفف فقد علم ما قال الله فى المطففين

---

(١) حديث مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى : ابن مبارك فى الزهد من حديث ابن الحسن مرسلا وأسنده البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس باسناد فيه جهالة

(٢) حديث يزيد الرقاشى كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة: ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف

(٣) حديث أن الرجلين من أمتى ليقومان الى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد الحديث: ابن المحبر فى العقل من حديث أبى أيوب الأنصارى بنحوه وهو موضوع ورواه الحارث بن أبى اسامة فى مسنده عن ابن المحبر

(٤) حديث لا ينظر الله إلى عبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده أحمد من حديث أبى هريرة باسناد صحيح

(٥) حديث أما يخاف الذى يحول وجهه فى الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار ابن عدى فى عوالى مشايخ مصر من حديث جابر ما يؤمنه اذا التفت فى صلاته أن يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب أو وجه خنزير قال منكر بهذا الاسناد وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يجعل الله وجهه وجه حمار

(٦) حديث من صلى الصلاة لوقتها فاسبغ وضوأها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرضت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى الحديث طب فى الاوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسى والبيهقى فى الشعب من حديث عبادة بن الصامت بسند ضعيف نحوه

(٧) حديث أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته أحمد والحاكم وصحح اسناده من حديث أبى قتادة

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم: [1] « صَلاةُ الْجَمَاعَةِ تَفضُلُ صَلاةَ الْفذِّ بِسَبْعٍ وعِشْرِينَ دَرجَةً » وروى أبو هريرة « أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم فَقَدَ نَاساً فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ فقالَ [2]: لَقدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلاً يُصلِّي بالنَّاسِ ثُمَّ أُخالِفَ إِلَى رِجالٍ يَتَخلَّفونَ عَنْهَا فأُحرِّقَ بُيُوتَهُمْ » وفي رواية أخرى « ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَآمُرَ بِهِمْ فَتُحَرَّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتُهُمْ بِحُزَمِ الْحَطَبِ وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْماً سَمِيناً أَوْ مِرْمَاتَيْنِ لَشَهِدَهَا » يعني صلاة العشاء . وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعاً [3] « مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ لَيْلَةٍ ، وَمَنْ شَهِدَ الصُّبْحَ فَكَأَنَّمَا قَامَ لَيْلَةً » وقال صلى الله عليه وسلم : [4] « مَنْ صَلَّى صَلاَةً فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ مَلأَ نَحْرَهُ عِبَادَةً »

وقال سعيد ابن المسيّب : مَا أَذَّن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتهي من الدنيا إلا ثلاثة : أخاً إنه إن تعوّجت قوّمني ، وقوتا من الرزق عفوا من غير تبعة ، وصلاةً في جماعة يرفع عني سهوها ويكتب لي فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أمَّ قوما مرة فلما انصرف قال : مازال الشيطان بي آنفاحتى أريت ان لي فضلا على غيري ، لاأؤم أبدا . وقال الحسن : لاتصلوا خلف رجل لايختلف إلى العلماء وقال النخعي : مثل الذي يؤم الناس بغير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لايدري زيادته من نقصانه. وقال حاتم الأصم : فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا

---

(١) حديث صلاة الجماعة تفضل الفذ بسبع وعشرين درجة متفق عليه من حديث ابن عمر

(٢) حديث أبي هريرة لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف الى رجال يتخلفون الحديث متفق عليه

(٣) حديث عثمان من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف الليلة الحديث: م من حديثه مرفوعا قال الترمذي وروى عن عثمان موقوفا

(٤) حديث من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة لم أجده مرفوعا وانما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد به خير . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خير له من أن يسمع النداء ثم لايجيب . وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له : إن الناس قد انصرفوا فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون لفضل هذه الصلاة أحب إلى من ولاية العراق . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ صَلَّى أَرْبَعِينَ يَوْمًا الصَّلَوَاتِ فِى جَمَاعَةٍ لاَ تَفُوتُهُ فِيهَا تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بَرَاءَتَيْنِ بَرَاءَةً مِنَ النِّفَاقِ ، وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ »

ويقال : إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرى : فتقول لهم الملائكة : ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون : كنا إذا سمعنا الأذان قمنا الى الطهارة لايشغلنا غيرها ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال : كنا نتوضأ قبل الوقت، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون : كنا نسمع الأذان فى المسجد. وروى أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ، ويعزون سبعا إذا فاتتهم الجماعة

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [2] « مَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ بِشَىْءٍ أَفْضَلَ مِنْ سُجُودٍ خَفِيٍّ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [3] « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَسْجُدُ لِلهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً » وروى [4] « أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِكَ وَأَنْ يَرْزُقَنِى مُرَافَقَتَكَ فِى الْجَنَّةِ ، فَقَالَ صلى الله عليه

(١) حديث من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لا تفوته تكبيرة الاحرام الحديث ت من حديث أنس باسناد رجاله ثقات

(٢) حديث ما تقرب العبد الى الله بشىء أفضل من سجود خفى ابن المبارك فى الزهد من حديث ضمرة ابن حبيب مرسلا

(٣) حديث ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة ه من حديث عبادة ابن الصامت باسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث ثوبان وأبى الدرداء

(٤) حديث أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أدع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك ويرزقنى مرافقتك فى الجنة الحديث م من حديث ربيعة بن كعب الاسلمى نحوه وهو الذى سأله ذلك

وسلم : أعِنيّ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » وقيل : (١) « أقْرَبُ مايَكونُ الْعَبْدُ إلى الله تعالى أنْ يكونَ ساجِدًا » وهو معنى قوله عز وجل : (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *) وقال عز وجل : (سِيماهُمْ في وُجُوهِهِم مِنْ أثَرِ السُّجُودِ *) فقيل هو ما يلصق بوجوههم من الأرض عند السجود . وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح . وقيل هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء

وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) «إذا قرأ ابْنُ آدم السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعتزل الشَّيْطانُ يبكي ويَقُولُ : ياوَيْلاهُ أُمِرَ هذَا بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ أنا بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ » . ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة ، وكانوا يسمونه السّجّاد . ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لايسجد إلا على التراب . وكان يوسف بن أسباط يقول : يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود

وقال عقبة بن مسلم : مامن خَصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، ومامن ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يخرّ ساجدا . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : أقرب مايكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد ، فأكثروا الدعاء عند ذلك

فضيلة الخشوع

قال الله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي *) وقال تعالى : (وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ *) وقال عز وجل : (لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارَى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ *) قيل سكارى من كثرة الهم ، وقيل من حب الدنيا . وقال وهب : المراد به ظاهره ، ففيه تنبيه على سكر

---

(١) حديث أن أقرب ما يكون العبد الى الله أن يكون ساجدا م من حديث أبي هريره

(٢) حديث اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي الحديث م من حديث أبي هريره

* العلق ١٩ * طه ١٤ * الأعراف ٢٠٥ * النساء ٤٣

الدنيا ، إذ بين فيه العلة فقال : (حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) وكم من مصلّ لم يشرب خمرًا وهو لايعلم ما يقول فى صلاته

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : [١] « مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : [٢] « إِنَّمَا الصَّلَاةُ تَمَكُّنٌ وَتَوَاضُعٌ وَتَضَرُّعٌ وَتَأَوُّهٌ وَتَنَادُمٌ وَتَضَعُ يَدَيْكَ فَتَقُولُ اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهِيَ خِدَاجٌ » وروى عن الله سبحانه فى الكتب السالفة أنه قال : ليس كل مصل أتقبل صلاته ، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتكبر على عبادى ، وأطعم الفقير الجائع لوجهى

وقال صلى الله عليه وسلم : [٣] « إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ وَأُمِرَ بِالْحَجِّ وَالطَّوَافِ وَأُشْعِرَتِ الْمَنَاسِكُ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى » فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور الذى هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك . وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه [٤] « وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ » أي مودع لنفسه ، مودع لهواه ، مودع لعمره ، سائر إلى مولاه ، كما قال عز وجل : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ *) وقال تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ *) وقال تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ *)

وقال صلى الله عليه وسلم : [٥] « مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ

---

(١) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشىء من الدنيا غفر له من ذنبه ابن أبى شيبه فى المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلا وهو فى الصحيحين من حديث عثمان بزيادة فى أوله دون قوله بشىء من الدنيا وزاد طس الا بخير

(٢) حديث انما الصلاة تمكن ودعاء وتضرع الحديث ت ن بنحوه من حديث الفضل بن عباس باسناد مضطرب

(٣) حديث انما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لاقامة ذكر الله د ت من حديث عائشة نحوه دون ذكر الصلاة قال ت حسن صحيح

(٤) حديث اذا صليت فصل صلاة مودع ابن ماجه من حديث أبى أيوب و ك من حديث سعد بن أبى وقاص وقال صحيح الاسناد والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث أنس نحوه

(٥) حديث من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح ورواه طب واسناده ابن مردويه فى تفسيره من حديث ابن عباس باسناد لين والطبرانى من قول ابن مسعود من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر الحديث واسناده صحيح

---

* الانشقاق : ٦ * البقره ٢٨٢ * البقره ٢٢٣

مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً » والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة . وقال بكر بن عبد الله : ياابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت . قيل : وكيف ذلك ؟ قال تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فاذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (١) يُحَدِّثُنَا وَنُحَدِّثُهُ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا وَلَمْ نَعْرِفْهُ » اشتغالاً بعظمة الله عز وجل

وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « لاَ يَنْظُرُ اللهُ إلى صَلاَةٍ لاَ يُحْضِرُ الرَّجُلُ فِيهَا قَلْبَهُ مَعَ بَدَنِهِ » وكان ابراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يُسمع وَجِيبُ قلبه على ميلين . وكان سعيد التنوخى إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته . « وَرَأَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (٣) رَجُلاً يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلاَةِ فَقَالَ لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ » ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول : اللهم زوجنى الحور العين . فقال : بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى ! وقيل لخلف بن أيوب : ألا يؤذيك الذباب فى صلاتك فتطردها ؟ قال : لا أُعوّد نفسى شيئا يفسد على صلاتى . قيل له :

---

(١) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرته الصلاة كانه لم يعرفنا ولم نعرفه الازدى فى الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلا كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا سمع الاذان كانه لا يعرف أحدا من الناس

(٢) حديث لاينظر الله الى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا اللفظ وروى محمد بن نصر فى كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبى دهرش مرسلا لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى بن كعب واسناده ضعيف

(٣) حديث رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاه فقال لوخشع قلب هذا لخشعت جوارحه الحكيم فى النوادر من حديث أبى هريره بسند ضعيف والمعروف انه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبى شيبة فى المصنف وفيه رجل لم يسم

وكيف تصبر على ذلك؟ قال بلغنى أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدى ربى أفأتحرك لذبابة

ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله: تحدثوا أنتم فانى لست أسمعكم. ويروى عنه أنه كان يصلى يوما فى جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة. وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلوّن وجهه. فقيل له: مالك ياأمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانةٍ عرَضها الله على السموات والأرض والجبال فأَبيْن أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها. ويروى عن علىّ بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله: ماهذا الذى يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم؟

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال داود صلى الله عليه وسلم فى مناجاته: إلهى من يسكن بيتك وممن تتقبل الصلاة؟ فاوحى الله إليه: ياداود إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة منه مَن تواضع لعظمتى، وقطع نهاره بذكرى، وكف نفسَه عن الشهوات من أجلى، يطعم الجائع، ويؤوى الغريب، ويرحم المصاب، فذلك الذى يضىء نوره فى السموات كالشمس، إن دعانى لبّيته، وإن سألنى أعطيته، أجعل له فى الجهل حلما، وفى الغفلة ذكرا، وفى الظلمة نورا، وانما مثله فى الناس كالفردوس فى أعلى الجنان لاتيبس أنهارها ولاتتغير ثمارها

ويروى عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذى أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحى؛ ثم أقوم إلى صلاتى وأجعل الكعبة بين حاجبى والصراط تحت قدمى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى وملك الموت ورائى أظنها آخر صلاتى، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيرا بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعا بتواضع، وأسجد سجودا بتخشع، وأقعد على الورك الأيسر، وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الابهام، وأتبعها الأخلاص، ثم لاأدرى أقبلت منى أم لا. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ *) وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْراً فِي الْجَنَّةِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « مَنْ أَلِفَ الْمَسْجِدَ أَلِفَهُ اللهُ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « لَا صَلَاةَ لِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) « الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ ، تَقُولُ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ أَوْ يَخْرُجْ مِنَ الْمَسْجِدِ »

وقال صلى الله عليه وسلم : (٦) « يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ الْمَسَاجِدَ فَيَقْعُدُونَ فِيهَا حِلَقاً حِلَقاً ذِكْرُهُمُ الدُّنْيَا وَحُبُّ الدُّنْيَا ، لَا تُجَالِسُوهُمْ فَلَيْسَ لِلَّهِ بِهِمْ حَاجَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل في بعض الكتب : (٧) إِنَّ بُيُوتِي فِي أَرْضِي الْمَسَاجِدُ ، وَإِنَّ زُوَّارِي فِيهَا عُمَّارُهَا ، فَطُوبَى لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ زَارَنِي فِي بَيْتِي ، فَحَقٌّ

---

(١) حديث من بنى لله مسجداً ولو مثل مفحص قطاة الحديث ه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبي ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله ولو مثل مفحص القطاة

(٢) حديث من ألف المسجد ألفه الله تعالى طب في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف

(٣) حديث إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس : متفق عليه من حديث أبي قتادة

(٤) حديث لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد : الدارقطني من حديث جابر وأبي هريرة باسنادين ضعيفين ولك من حديث أبي هريرة

(٥) حديث الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه ــ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٦) حديث يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا حلقاً ذكرهم الدنيا الحديث : ابن حبان من حديث ابن مسعود ولك من حديث أنس وقال صحيح الأسناد

(٧) حديث قال الله تعالى : ان بيوتي في أرضي المساجد وان زواري فيها عمارها ــ الحديث : أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف يقول الله عز وجل : يوم القيامة أين جيراني فتقول الملائكة من هذا الذي ينبغي له أن يجاورك فيقول أين قراء القرآن وعمار المساجد؟ وهو في الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسناد صحيح وأسند ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه

---

* النوبة : ١٨

عَلَى ٱلْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم :[١] « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ ٱلْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ » وقال سعيد بن المسيب : من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيراً . ويروى فى الأثر أو الخبر[٢] « اَلْحَدِيثُ فِى اَلْمَسْجِدِ يَأْكُلُ اَلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ اَلْبَهَائِمُ اَلْحَشِيشَ »

وقال النخعى : كانوا يرون أن المشى فى الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة . وقال أنس بن مالك : من أسرج فى المسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له مادام فى ذلك المسجد ضوؤه . وقال علىّ كرم الله وجهه : إذا مات العبد يبكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم قرأ (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ *) وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض أربعين صباحا . وقال عطاء الخراسانى : مامن عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال أنس بن مالك : مامن بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أوذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين، ومامن عبد يقوم يصلى إلا تزخرفت له الأرض ويقال: مامن منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم

الباب الثالث

فى كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغى للمصلى إذا فرغ من الوضوء ، والطهارة من الخبث فى البدن والمكان والثياب ، وستر العورة من السرة إلى الركبة ، أن ينتصب قائما متوجها إلى القبلة ، ويراوح بين قدميه

---

(١) حدث إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان ت وحسنه و هـ وك وصححه من حديث أبى سعيد

(٢) حديث الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش: لم أقف له على أصل

* الدخان : ٢٩

ولا يضمهما ، فإن ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل . وقد « نهى صلى الله عليه وسلم[(١)] الصَّفْنِ وَالصَّفْدِ فِي الصَّلَاةِ » والصفد : هو اقتران القدمين معا ، ومنه قوله تعالى (مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ *) . والصفن : هو رفع إحدى الرجلين ، ومنه قوله عز وجل : (الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ *) هذا ما يراعيه فى رجليه عند القيام

ويراعى فى ركبتيه ومعقد نطاقه الانتصاب . وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام ، وإن شاء أطرق ، والإطراق أقرب للخشوع وأغض للبصر ، وليكن بصره محصوراً على مصلاه الذى يصلى عليه ، فإن لم يكن له مصلى فليقرب من جدار الحائط أوليخط خطا ، فان ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرّق الفكر ، وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصلى وحدود الخط ، وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات . هذا أدب القيام

فاذا استوى قيامه واستقباله وإطراقه كذلك فليقرأ قل أعوذ برب الناس تحصنا به من الشيطان ، ثم ليأت بالاقامة ، وان كان يرجو حضور من يقتدى به فليؤذن أوّلا ثم ليحضر النية ، وهو أن ينوى فى الظهر مثلا ويقول بقلبه : أؤدى فريضة الظهر لله ، ليميزها بقوله أؤدى عن القضاء ، وبالفريضة عن النفل ، وبالظهر عن العصر وغيره ، ولتكن معانى هذه الألفاظ حاضرة فى قلبه فإنه هو النية ، والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ، ويجتهد أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب

فاذا حضر فى قلبه ذلك[(٢)] فَلْيَرْفَعْ يَدَيْهِ إِلَى حَذْوِ مَنْكِبَيْهِ بَعْدَ إرسالهما بحيث يحاذى

﴿ الباب الثانى ﴾

(١) حديث النهى عن الصفن والصفد فى الصلاة : عزاه رزين الى ت ولم أجده عنده ولا عند غيره وانما ذكره أصحاب الغريب كابن الأثير فى النهاية وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلا صافا أوصافنا قدميه فقال أخطأ هذا السنة

(٢) حديث رفع اليدين إلى حذو المنكبين وورد الى شحمة أذنيه وورد الى رءوس أذنيه : متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول ود من حديث وائل بن حجر باسناد ضعيف الى شحمة أذنيه ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث فروع أذنيه

* ابراهيم : ٢٩ * ص : ٣١

بكفيه منكبيه ، وبإبهاميه شحمتي أذنيه ، وبرءوس أصابعه رءوس أذنيه ، ليكون جامعا بين الأخبار الواردة فيه ، ويكون مقبلا بكفيه وإبهاميه إلى القبلة ، ويبسط الأصابع ولا يقبضها ، ولا يتكلف فيها تفريجا ولا ضما ، بل يتركها على مقتضى طبعها ، إذ نقل في الأثر النَّشْرُ والضَّمُّ [1] وهذا بينهما ، فهو أولى

وإذا استقرت اليدان في مقرهما ابتدأ التكبير مع إرسالهما وإحضار النية . ثم يضع اليدين على ما فوق السرة وتحت الصدر ، ويضع اليمنى على اليسرى إكراما لليمنى : بأن تكون محمولة ، وينشر المسبّحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ، ويقبض بالابهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى . وقد روي [2] أَنَّ التَّكْبِيرَ مَعَ رَفْعِ الْيَدَيْنِ وَمَعَ [3] اسْتِقْرَارِهِمَا وَمَعَ الْإِرْسَالِ [4] فكل ذلك لا حرج فيه ، وأراه بالارسال أليق ، فانه كلمة العقد ، ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ، ومبدؤه الارسال وآخره الوضعَ . ومبدأ التكبير الألف وآخره الراء ، فيليق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد . وأما رفع اليد فكالمقدمة لهذه البداية . ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفعا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ، ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضا إذا فرغ من التكبير ، ويرسلهما إرسالا خفيفا رفيقا ، ويستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الارسال . وفي بعض الروايات « أنه صلى الله عليه وسلم [5] كَانَ إِذَا كَبَّرَ أَرْسَلَ يَدَيْهِ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ وَضَعَ

(١) حديث نشر الأصابع عند الافتتاح ونقل ضمها وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هريرة والبيهقي لم يفرج بين أصابعه ولم يضمها ولم أجد التصريح بضم الأصابع

(٢) حديث التكبير مع رفع اليدين: البخاري من حديث ابن عمر: كان يرفع يديه حين يكبر ، ولأبي داود من حديث وائل يرفع يديه مع التكبير

(٣) حديث التكبير مع استقرار اليدين أي مرفوعتين : مسلم من حديث ابن عمر: كان اذا قام الى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر زاد د وهما كذلك

(٤) حديث التكبير مع ارسال اليدين د من حديث أبي حميد : كان اذا قام الى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بها منكبيه ثم كبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلا ، قال ابن الصلاح في المشكل فكلمة حتى التي هي للغاية تدل بالمعنى على ما ذكره أي من ابتداء التكبير مع الارسال

(٥) حديث كان اذا كبر أرسل يديه فاذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى : الطبراني من حديث معاذ باسناد ضعيف

اليُمنى على اليُسرى » فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه وأما التكبير فينبغي أن يضم الهاء من قوله : الله ، ضمة خفيفة من غير مبالغة ، ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو ، وذلك ينساق إليه بالمبالغة ، ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفا كأنه يقول أكبار ، ويجزم راء التكبير ولا يضمها . فهذه هيئة التكبير وما معه

القراءة :

ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح . وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر [1] « اللهُ أكبرُ كَبيرا وَالْحَمْدُ لِلهِ كثيرا وَسُبْحانَ اللهِ بُكْرَةً وَأصيلاً » [2] وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إلى قوله : وأَنا مِنَ الْمُسْلِمينَ » ثم يقول : [3] « سُبْحانَكَ اللّٰهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وتبارَكَ اسْمُكَ وتعالَى جَدُّكَ وَجَلَّ ثناؤُكَ ولَا إِلٰهَ غَيْرُكَ » ليكون جامعا بين متفرقات ما ورد في الأخبار . وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها . ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ثم يقرأ الفاتحة ، يبتدئ فيها ببسم الله الرحمن الرحيم بتمام تشديداتها وحروفها ، ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء ، ويقول : آمين في آخر الفاتحة ، ويمدها مداً ، ولا يصل آمين بقوله ولا الضالين وصلاً ، ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموما ، ويجهر بالتأمين . ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها ، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوىّ بأن يفصل بينهما بقدر قوله : سبحان الله ، ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصّل ، وفي المغرب من قصاره ، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو : والسماء ذات البروج وما قاربها ، وفي الصبح في السفر : قل

---

(١) حديث انه يقول بعد قوله الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا : م من حديث ابن عمر قال بينا نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا الحديث و د هـ من حديث جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال الله أكبر كبيرا الحديث

(٢) حديث دعاء الاستفتاح وجهت وجهي الحديث : م من حديث علي

(٣) حديث سبحانك اللهم وبحمدك الحديث في الاستفتاح أيضا د ت ك وصححه من حديث عائشة وضعفه ت قط ورواه م موقوفا على عمر وعند هق من حديث جابر الجمع بين وجهت وبين سبحانك اللهم

يأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، وكذلك فى ركعتى الفجر والطواف والتحية ، وهو فى جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا فى أول الصلاة

الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعى فيه أموراً ، وهو أن يكبر للركوع ، وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع ، وأن يمد التكبير مداً إلى الانتهاء إلى الركوع ، وأن يضع راحتيه على ركبتيه فى الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق ، وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما ، وأن يمد ظهره مستويا ، وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة ، لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع ، وأن يجافى مرفقيه عن جنبيه ، وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها ، وأن يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثاً ، والزيادة إلى السبعة وإلى العشر حسن إن لم يكن إماما ، ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ، ويرفع يديه ويقول : سمع الله لمن حمده ، ويطمئن فى الاعتدال ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد ، ولا يطول هذا القيام إلا فى صلاة التسبيح والكسوف والصبح (١) « وَيَقْنُتُ فِي الصُّبْحِ » فى الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود

السجود

ثم يهوى إلى السجود مكبراً ، فيضع ركبتيه على الأرض ، ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ، ويكبر عند الهوىّ ، ولا يرفع يديه فى غير الركوع . وينبغى أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبتاه ، وأن يضع بعدهما يديه ، ثم يضع بعدهما وجهه ، وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض ، وأن يجافى مرفقيه عن جنبيه ، ولا تفعل المرأة ذلك ، وأن يفرج بين رجليه ، ولا تفعل المرأة ذلك ؛ وأن يكون فى سجوده مخويا على الأرض ، ولا تكون المرأة مخوية ، والتخوية : رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين ، وأن

(١) حديث القنوت فى الصبح بالكلمات المأثورة : هى من حديث ابن عباس كان النبى صلى الله عليه وسلم يقنت فى صلاة الصبح وفى وتر الليل بهؤلاء الكلمات اللهم اهدنى فيمن هديت ـ الحديث د ت وحسنه و ن من حديث الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلمه هؤلاء الكلمات يقولهن فى الوتر . وإسناده صحيح

يضع يديه على الأرض حذاء مَنكبيه ، ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الابهام إليهما ، وإن لم يضم الابهام فلا بأس[(١)] ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب فإنه منهى عنه ، وأن يقول : سبحان ربى الأعلى ثلاثا ، فإن زاد فحسن إلا أن يكون إماما

ثم يرفع من السجود فيطمئن جالسا معتدلا ، فيرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى ، وينصب قدمه اليمنى ، ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها ، ويقول : رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى . ولا يطول هذه الجلسة إلا فى سجود التسبيح ، ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ، ويستوى منها جالسا جلسة خفيفة للاستراحة فى كل ركعة لا تشهد عقيبها ، ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ، ولا يقدم إحدى رجليه فى حال الارتفاع ، ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام ، بحيث تكون الهاء من قوله : الله ، عند استوائه جالسا ، وكاف أكبر عند اعتماده على اليد للقيام ، وراء أكبر فى وسط ارتفاعه إلى القيام ، ويبتدئ فى وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير فى وسط انتقاله ، ولا يخلو عنه إلا طرفاه ، وهو أقرب إلى التعميم ، ويصلى الركعة الثانية كالأولى ، ويعيد التعوذ كالابتداء

التشهد

ثم يتشهد فى الركعة الثانية التشهد الأول ، ثم يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ، ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبّحة ، ولا بأس بإرسال الابهام أيضا ، ويشير بمسبحة يمناه وحدها عند قوله : إلا الله ، لا عند قوله : لا إله ، ويجلس فى هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدتين ، وفى التشهد الأخير يستكمل[(٢)] الدعاء المأثور بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وسننه كسنن التشهد الأول ،

(١) حديث النهى عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب : متفق عليه من حديث أنس

(٢) حديث الدعاء المأثور بعد التشهد م من حديث على فى دعاء الاستفتاح قال ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم اللهم اغفر لى ما قدمت ـ الحديث . وفى الصحيحين من حديث عائشة إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ـ الحديث . وفى الباب غير ذلك جميعها فى الأصل

لكن يجلس في الأخير على وركه الأيسر ، لأنه ليس مستوفزا للقيام بل هو مستقر ، ويضجع رجله اليسرى خارجة من تحته ، وينصب اليمنى ، ويضع رأس الابهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه ، ثم يقول : السلام عليكم ورحمة الله ، ويلتفت يمينا بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليمن ، ويلتفت شمالا كذلك ، ويسلم تسليمة ثانية ، وينوى الخروج من الصلاة بالسلام ، وينوى بالسلام من على يمينه من الملائكة والمسلمين فى الأولى . وينوى مثل ذلك فى الثانية [1] ويجزم التسليم ولا يمده مدا ، فهو السنة . وهذه هيئة صلاة المنفرد . ويرفع صوته بالتكبيرات ، ولا يرفع صوته إلا بقدر مايسمع نفسه

وينوى الإمام الإمامة لينال الفضل ، فإن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء ، ونالوا فضل الجماعة . ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد . ويجهر بالفاتحة والسورة فى جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب ، وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله : آمين فى الصلاة الجهرية ، وكذلك المأموم ، ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معا لا تعقيبا ، ويسكت الإمام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب اليه نفسه ، ويقرأ المأموم الفاتحة فى الجهرية فى هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام ، ولا يقرأ المأموم السورة فى الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام ، ويقول الامام : سمع الله لمن حمده ، عند رفع رأسه من الركوع . وكذا المأموم ، ولا يزيد الإمام على الثلاث فى تسبيحات الركوع والسجود ، ولا يزيد فى التشهد الأول بعد قوله : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، ويقتصر فى الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ؛ ولا يطول على القوم ، ولا يزيد على دعائه فى التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينوى عند السلام السلام على القوم والملائكة ، وينوى القوم بتسليمهم جوابه ، ويثبت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ، ويقبل على الناس بوجهه . والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجل نساء لينصرفن قبله ، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم ، وينصرف الامام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلىّ ، ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء فى قنوت الصبح بل يقول : اللهم اهدنا ، ويجهر به ويؤمّن القوم ، ويرفعون أيديهم حذاء الصدور ، ويمسح الوجه عند ختم الدعاء الحديث نقل فيه ، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما فى آخر التشهد

---

(١) حديث جزم السلام سنة : د ت من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وضعفه ابن القطان

المنهيات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن في الصلاة والصفد وقد ذكرناهما ، وعن الإقعاء [١] ، وعن السدل [٢] والكف ، [٣] وعن الاختصار [٤] وعن الصلب [٥] وعن المواصلة [٦] وعن صلاة الحاقن [٧] والحاقب [٨] والحاذق [٩] وعن صلاة الجائع والغضبان والمتلثم [١٠] وهو ستر الوجه .

---

(١) حديث النهي عن الاقعاء . ت ه من حديث علي بسند ضعيف لا تقع بين السجدتين و م من حديث عائشة كان ينهى عن عقبة الشيطان و ك من حديث سمرة وصححه نهى عن الاقعاء

(٢) حديث النهي عن السدل في الصلاة . د ت ك وصححه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث النهي عن الكفت في الصلاة . متفق عليه من حديث ابن عباس أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكفت شعرا ولا ثوبا .

(٤) حديث النهي عن الاختصار . د ك وصححه من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ نهى أن يصلي الرجل مختصرا

(٥) حديث النهي عن الصلب في الصلاة . د ن من حديث ابن عمر باسناد صحيح

(٦) حديث النهي عن المواصلة . عزاه رزين الى ت ولم أجده عنده وقد فسره الغزالي بوصل القراءة بالتكبير ووصل القراءة بالركوع وغير ذلك وقد روى د ت وحسنه وابن ماجة من حديث سمرة سكتتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل في صلاته فاذا فرغ من قراءته واذا فرغ من قراءة القرءان وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كان يسكت بين التكبير والقراءة اسكاتة الحديث

(٧) حديث النهي عن صلاة الحاقن . ه و قط من حديث أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلي الرجل وهو حاقن و د من حديث أبي هريرة لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حاقن وله و ت وحسنه نحوه من حديث ثوبان و م من حديث عائشة لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان

(٨) حديث النهي عن صلاة الحاقب . لم أجده بهذا اللفظ وفسره المصنف تبعاً للأزهري بمدافعة الغائط وفيه حديث عائشة الذي قبل هذا

(٩) حديث النهي عن صلاة الحاذق . عزاه رزين الى ت ولم أجده عنده والذي ذكره أصحاب الغريب حديث لا رأي لحازق وهو صاحب الخف الضيق

(١٠) حديث النهي عن التلثم في الصلاة . د ه من حديث أبي هريرة بسند حسن نهى أن يغطي الرجل فاه في الصلاة رواه الحاكم وصححه قال الخطابي هو التلثم على الافواه

[illegible] وينصب ركبتيه ويجعل يديه على الأرض كالكلب . وعند أهل الحديث : أن يجلس على ساقيه جاثيا وليس على الأرض منه إلا رءوس أصابع الرجلين والركبتين

وأما السدل. فمذهب أهل الحديث فيه : أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك . وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم ، والقميص في معناه ، فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويداه في بدن القميص . وقيل معناه : أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه والأول أقرب

وأما الكف . فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أومن خلفه إذا أراد السجود ، وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره ، والنهي للرجال . وفي الحديث[١] « أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ وَلاَ أَكُفُّ شَعْراً وَلاَ ثَوْباً » وكره أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يأتزر فوق القميص في الصلاة ورآه من الكف

وأما الاختصار. فإن يضع يديه على خاصرتيه

وأما الصلب . فأن يضع يديه على خاصرتيه في القيام ويجافي بين عضديه في القيام

وأما المواصلة فهي خمسة ، اثنان على الإمام : أن لايصل قراءته بتكبيرة الإحرام ، ولا ركوعه بقراءته ؛ واثنان على المأموم : أن يصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ، ولا تسليمة بتسليمة ؛ وواحدة بينهما : أن لايصل تسليمة الفرض بالتسليمة الثانية ، وليفصل بينهما

وأما الحاقن : فمن البول ، والحاقب : من الغائط ، والحاذق : صاحب الخف الضيق ، فإن كل ذلك يمنع من الخشوع ، وفي معناه الجائع والمهتم ، وفهم نهي الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم[٢] « إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ » إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب . وفي الخبر[٣] « لاَ يَدْخُلَنَّ أَحَدُكُمُ الصَّلاَةَ وَهُوَ مُقَطِّبٌ وَلاَ

---

(١) حديث أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا .متفق عليه من حديث ابن عباس

(٢) حديث اذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء . متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة

(٣) حديث لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان لم أجده

يصلين أحدكم وهو غضبان » وقال الحسن : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وفى الحديث [١] «سَبْعَةُ أَشْيَاءَ فِي الصَّلاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ : الرُّعَافُ وَالنُّعَاسُ وَالْوَسْوَسَةُ . وَالتَّثَاؤُبُ . وَالْحِكَاكُ وَالِالْتِفَاتُ وَالْعَبَثُ بِالشَّيْءِ » وزاد بعضهم السهو والشك . وقال بعض السلف : أربعة فى الصلاة من الجفاء : الالتفات ، ومسح الوجه ، وتسوية الحصى وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك ، ونهى أيضا عن أن يشبك أصابعه [٢] أو يفرقع أصابعه [٣] أو يستر وجهه [٤] أو يضع إحدى كفيه على الأخرى ويدخلهما بين فخذيه [٥] فى الركوع . وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم : كنا نفعل ذلك فنهينا عنه . ويكره أيضاً أن ينفخ فى الأرض عند السجود للتنظيف ، وأن يسوى الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها ، ولا يرفع إحدى قدميه فيضعها على فخذه ، ولا يستند فى قيامه إلى حائط ، فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته . والله أعلم

---

(١) حديث سبعة أشياء من الشيطان فى الصلاة الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والالتفات وزاد بعضهم السهو والشك . ت من رواية عدى بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث غريب ولمسلم من حديث عثمان بن أبى العاص يارسول الله ان الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى الحديث وللبخارى من حديث عائشة فى الالتفات فى الصلاة هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم وللشيخين من حديث أبى هريرة التثاؤب من الشيطان ولهما من حديث أبى هريرة ان أحدكم اذا قام يصلى جاء الشيطان فلبس عليه صلاته حتى لايدرى كم صلى

(٢) حديث النهى عن تشبيك الأصابع . أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة ود ت ه حبه نحوه من حديث كعب بن عجرة

(٣) حديث النهى عن تفقيع الأصابع فى الصلاة . ه من حديث على باسناد ضعيف لا تفقع أصابعك فى الصلاة

(٤) حديث النهي عن ستر الوجه . د ه ك وصححه من حديث أبى هريرة حديث نهى أن يغطى الرجل فاه فى الصلاة قد تقدم

(٥) حديث النهي عن التطبيق فى الركوع . متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص قال كنا نفعله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدى على الركب

تمييز الفرائض والسنن

جملة ماذكرناه يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيآت مما ينبغى لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها

فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة : النية ، والتكبير ، والقيام ، والفاتحة ، والانحناء فى الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه ، مع الطمأنينة ، والاعتدال عنه قائما ، والسجود مع الطمأنينة ، ولا يجب وضع اليدين ، والاعتدال عنه قاعدا ، والجلوس للتشهد الأخير ، والتشهد الأخير ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسلام الأول ، فأمّا نية الخروج فلا تجب . وما عدا هذا فليس بواجب بل هى سنن وهيآت فيها وفى الفرائض

أما السنن فمن الأفعال أربعة . رفع اليدين فى تكبيرة الاحرام ، وعند الهوىّ إلى الركوع ، وعند الارتفاع إلى القيام ، والجلسة للتشهد الأول ، فأما ماذكرناه من كيفية نشر الأصابع وحدّ رفعها فهى هيآت تابعة لهذه السنة ، والتورك ، والافتراش هيآت تابعة للجلسة ، والاطراق : وترك الالتفات هيآت للقيام وتحسين صورته ، وجلسة الاستراحة لم نعدّها من أصول السنة فى الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة فى نفسها ، ولذلك لم تفرد بذكر

وأما السنن من الاذكار فدعاء الاستفتاح ، ثم التعوذ ، ثم قوله آمين فإنه سنة مؤكدة ، ثم قراءة السورة ، ثم تكبيرات الانتقالات ، ثم الذكر فى الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، ثم التشهد الأوّل ، والصلاة فيه على النبى صلى الله عليه وسلم . ثم الدعاء فى آخر التشهد الاخير ، ثم التسليمة الثانية ، وهذه وإن جمعناها فى اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو

وأما من الأفعال فواحدة وهى الجلسة الأولى للتشهد الأوّل فانها مؤثرة فى ترتيب نظم الصلاة فى أعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا ، بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر فى تغيير النظم ، فعبر عن ذلك بالبعض . وقيل الابعاض تجبر بالسجود

وأما الأذكار فكلها لاتقتضى سجود السهو إلا ثلاثة : القنوت ، والتشهد الأول ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، لأن الركوع والسجود فى صورتهما مخالفان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الاذكار وعن تكبيرات الانتقالات ، فعدم تلك الأذكار لاتغير صورة العبادة

وأما الجلسة للتشهد الاول ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد ، فتركها ظاهر التأثير . وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركهما لايؤثر مع أن القيام صار معمورا بالفاتحة ومميزا عن العادة بها . وكذلك الدعاء فى التشهد الأخير والقنوت أبعد مايجبر بالسجود ، ولكن شرع مدّ الاعتدال فى الصبح لأجله ، فكان كمد جلسة الاستراحة ، إذ صارت بالمد مع التشهد جلسة للتشهد الأوّل فبقى هذا قياما ممدودا معتادا ليس فيه ذكر واجب ، وفى الممدود احتراز عن غير الصبح ، وفى خلوه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام فى الصلاة

فان قلت : تمييز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها ، فأما تمييز سنة عن سنة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب فى ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه ؟

فاعلم أن اشتراكهما فى الثواب والعقاب والاستحباب لايرفع تفاوتهما . ولنكشف ذلك لك بمثال ، وهو : أن الانسان لايكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح ، والظاهر أجسام أعضائه ، ثم بعض تلك الأعضاء ينعدم الانسان بعدمها كالقلب والكبد والدماغ وكل عضو تفوت الحياة بفواته ، وبعضها لاتفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان ، وبعضها لايفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون ، وبعضها لايفوت بها أصل الجمال ولكن كماله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالبياض فى اللون . فهذه درجات متفاوته . فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبدنا باكتسابها .

فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنيـة وحضور القلب والاخلاص كما سيأتى ونحن الآن فى أجزائها الظاهرة ، فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجرى منها مجرى القلب والرأس والكبد ، إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها ، والسنن التى ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الإستفتاح والتشهد الأول تجرى منها مجرى اليدين والعينين والرجلين ولا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ، ولـكن يصير الشخص بسبب فواتهـا مشوه الخلقـة مذموما غير مرغوب فيه ، فـكذلك من اقتصر على أقل ما يجرى من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبداً حيا مقطوع الأطراف

وأما الهيآت وهى ماوراء السنن فتجرى مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون

وأما وظائف الأذكار فى تلك السنن فهى مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرها ، فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين اليهم ، وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر ، فاليك الخيرة فى تحسين صورتها وتقبيحها ، فان أحسنت فلنفسك وان أسأت فعليها ، ولا ينبغى أن يـكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السـنة الا أنه يجوز تركها فتتركهـا ، فان ذلك يضاهى قول الطبيب : إن فقء العين لايبطل وجود الانسان ولـكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرب فى قبول السلطان إذا أخرجه فى معرض الهدية ، فهكذا ينبغى أن تفهم مراتب السنن والهيآت والآداب ، فكل صلاة لم يتم الانسان ركوعها وسجودها فهى الخصم الاول على صاحبها ، تقول ضيعك الله كما ضيعتنى . فطالع الاخبار التى أوردناها فى كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها .

الباب الثالث

في الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب ، ثم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها ، ثم لنذكر تفصيل ماينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة ، فمن ذلك قوله تعالى (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي *) وظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر ، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره ، وقوله تعالى (وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ *) نهى ، وظاهره التحريم . وقوله عزوجل : (حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ *) تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا . وقوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الصَّلَاةُ تَمَسْكُنٌ وَتَوَاضُعٌ » حصر بالالف واللام ، وكلمة إنما للتحقيق والتوكيد ، وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام « إِنَّمَا الشُّفْعَةُ فِيمَا لَمْ يُقْسَمْ » الحصر والاثبات والنفي . وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا » وصلاة الغافل لاتمنع من الفحشاء والمنكر

وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلَاتِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ » وما أراد به إلا الغافل . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا »

﴿ الباب الثالث ﴾

(١) حديث كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب . ن ه من حديث أبي هريرة رب قائم ليس له من قيامه الا السهر ولأحمد رب قائم حظه من صلاته السهر واسناده حسن

(٢) حديث ليس للعبد من صلاته الا ما عقل . لم أجده مرفوعا وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلا لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب ولابن المبارك في الزهد موقوفا على عمار لا يكتب للرجل من صلاته ما سهى عنه

* طه : ١٤ * الأعراف : ٢٠٥ * النساء : ٤٣

والتحقيق فيه أن المصلى (١) مُنَاجٍ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كما ورد به الخبر ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة . وبيانه : أن الزكاة إن غفل الانسان عنها مثلا فهى فى نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذى هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة . وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة ، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام ، كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن

أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود . فأما الذكر فانه محاورة ومناجاة مع الله عز وجل ، فاما أن يكون المقصود منه كونه خطابا ومحاورة ، أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحانا للسان بالعمل ، كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك فى الصوم ، وكما يمتحن البدن بمشاق الحج ، ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق . ولا شك أن هذا القسم باطل ، فان تحريك اللسان بالهذيان ما أخفّه على الغافل ، فليس فيه امتحان من حيث إنه عمل ، بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق ، ولا يكون نطقا إلا إذا أعرب عما فى الضمير ، ولا يكون معربا إلا بحضور القلب . فأى سؤال فى قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *) إذا كان القلب غافلا ، وإذا لم يقصد كونه تضرعا ودعاء فأى مشقة فى تحريك اللسان به مع الغفلة ، لا سيما بعد الاعتياد هذا حكم الأذكار

بل أقول : لو حلف الانسان وقال لأشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم ، لم يبر فى يمينه ، ولو جرت على لسانه فى ظلمة وذلك الانسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً فى يمينه ، إذ لا يكون كلامه خطابا ونطقا معه ما لم يكن هو حاضراً فى قلبه ، فلو كانت تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه فى بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب اليه عند نطقه ، لم يصر باراً فى يمينه ، ولا شك فى أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله عز وجل ، وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده ، بل هو غافل عن المخاطب

(١) حديث المصلى يناجى ربه متفق عليه من حديث أنس

* الفاتحة : ٦

ولسانه يتحرك بحكم العادة ، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به : هذا حكم القراءة والذكر وبالجملة فهذه الخاصية لا سبيل إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل

وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ، ولو جاز أن يكون معظماً لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظماً لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه أو يكون معظماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس ، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص

وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف اليها مقصود المناجاة ، فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره ، بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال ، قال الله تعالى : (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ *) أي الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة ، فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها ؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب

فإن قلت : إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء ؛ فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير

فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة ، بل يبنون ظاهر أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح ، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان ، فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه . على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع ، فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته . وروى

* الحج : ٣٧

عن الحسن أنه قال : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ ابن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو فى الصلاة فلا صلاة له

وروى أيضاً مسنداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :[1] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّى الصَّلاَةَ لاَ يُكْتَبُ لَهُ سُدُسُهَا وَلاَ عُشْرُهَا وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاَتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا » وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتمسك به . وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها . فجعله إجماعا . وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . والحق الرجوع إلى أدلة الشرع ، والأخبار والآثار ظاهرة فى هذا الشرط ، إلا أن مقام الفتوى فى التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق ، فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب فى جميع الصلاة ، فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين . وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له ، إلا أن يشترط منه ما ينطلق عليه الاسم ولو فى اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير ، فاقتصرنا على التكليف بذلك

ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل فى جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية ، فإنه على الجملة أقدمَ على الفعل ظاهراً وأحضر القلب لحظة ، وكيف لا والذى صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر مّا بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذى يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالا من الذى يعرض عن الخدمة . وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطراً فى نفسه فإليك الخيرة بعده فى الاحتياط والتساهل ، ومع هذا فلا مطمع فى مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة ، فإن ذلك من ضرورة الفتوى كما سبق التنبيه عليه . ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها ، ولكن قد ذكرنا فى باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر فى كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع

---

(١) حديث أن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها الحديث د ن حب من حديث عمار ابن ياسر بنحوه

فلنقتصر على هـذا القدر من البحث ، فإن فيه مقنعا للمريد الطالب لطريق الآخرة وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن

وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة ، وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير فالنقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح فى أجزاء الصلاة ، وكم من حى لا حراك به قريب من ميت . فصلاة الغافل فى جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لا حراك به . نسأل الله حسن العون

بيان المعانى الباطنة التى تتم بها حياة الصلاة

اعلم أن هذه المعانى تكثر العبارات عنها ، ولكن يجمعها ست جمل ، وهى : حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم ، والهيبة ، والرجاء ، والحياء . فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج فى اكتسابها

أما التفاصيل فالأول حضور القلب ، ونعنى به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ، ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان فى قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شىء فقد حصل حضور القلب ، ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذى أردناه بالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه ، إذ ليس يشترك الناس فى تفهم المعانى للقرآن والتسبيحات . وكم من معان لطيفة يفهمها المصلى فى أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله . ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم أموراً تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة

وأما التعظيم : فهو أمر وراء حضور القلب والفهم ، إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له ، فالتعظيم زائد عليهما

وأما الهيبة : فزائدة على التعظيم ، بل هى عبارة عن خوف منشؤه التعظيم ، لأن من لا يخاف لا يسمى هائبا ، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجرى مجراه من

من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة ، والهيبة خوف مصدرها الاجلال

وأما الرجاء : فلا شك أنه زائد ، فكم من معظم ملكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته ، والعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل ، كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل

وأما الحياء : فهو زائد على الجملة ، لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ، ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب

وأما أسباب هذه المعاني الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة ، فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك ، ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى ، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه ، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا بل جائلا فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها ، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الصلاة وسيلة اليها ، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة ، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنن أن له سببا سوى ضعف الإيمان . فاجتهد الآن في تقوية الإيمان ، وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع

وأما التفهم : فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى . وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها ، أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر اليها ، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر ، فمن أحب شيئا أكثر ذكره ، فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، فلذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر

وأما التعظيم: فهى حالة للقلب تتولد من معرفتين إحداهما معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان ، فان من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه . الثانية : معرفة حقارة النفس وخستها ، وكونها عبدا مسخرا مربوبا ، حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه ، فيعبر عنه بالتعظيم ، ومالم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لاتنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله ، لأن القرينة الأخرى وهى معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه

وأما الهيبة والخوف :فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وأنه لوأهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة ، هذا مع مطالعة ما يجرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف مايشاهد من ملوك الأرض . وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة . وسيأتى أسباب ذلك فى كتاب الخوف من ربع المنجيات

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه فى وعده الجنة بالصلاة فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة

وأما الحياء فباستشعاره التقصير فى العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها ، وقلة إخلاصها وخبث دَخْلتها ، وميلها إلى الحظ العاجل فى جميع أفعالها ، مع العلم بعظيم مايقتضيه جلال الله عز وجل والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء . فهذه أسباب هذه الصفات وكل ماطلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ، ففى معرفة السبب معرفة العلاج ، ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين ، أعنى به هذه المعارف التى ذكرناها ، ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك

واستيلاؤها على القلب كما سبق فى بيان اليقين من كتاب العلم ، وبقدر اليقين يخشع القلب، ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها « كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُحَدِّثُنَا وَنُحَدِّثُهُ فإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا وَلَمْ نَعْرِفْهُ »

وقد روى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام « يا موسى إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا ، وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك ، وإذا قمت بين يدىّ فقم قيام العبد الذليل وناجنى بقلب وجل ولسان صادق » وروى أن الله تعالى أوحى إليه : قل لعُصاة أمتك لايذكرونى فإنى آليت على نفسى أن من ذكرنى ذكرته فإذا ذكرونى ذكرتهم باللعنة . هذا فى عاص غير غافل فى ذكره ، فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان . وباختلاف المعانى التى ذكرناها فى القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه فى لحظة منها ، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه فى لحظة ، بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجرى بين يديه ولذلك لم يحس مسلم ابن يسار بسقوط الاسطوانة فى المسجد اجتمع الناس عليها . وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره ، ووجيب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين ، وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم وكل ذلك غير مستبعد ، فان أضعافه مشاهد فى همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم ، حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ، ولكلّ درجات مما عملوا فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه ، فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات ، ولذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوّ ، ومن وجود النعيم بها واللذة . ولقد صدق فإنه يحشر كل على مامات عليه ، ويموت على ماعاش عليه ، ويراعى فى ذلك حال قلبه لا حال شخصه . فمن صفات القلوب تصاغ الصور فى الدار الآخرة ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . **نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه**

بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحييا من تقصيره ، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه ، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة ، ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه ، فلتعلم سببه

وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا ، أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر ، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ، ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض ، ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ، ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره ، أو يصلي في بيت مظلم ، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة ، وعلى الفرش المصبوغة ، ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع للهم . والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ، ويرون كمال الصلاة في أن لا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم . وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفا ولا سيفا إلا نزعه ولا كتابا إلا محاه

وأما الأسباب الباطنة فهي أشد ، فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحد ، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب ، وغض البصر لا يغنيه ، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل . فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره . ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهول المطلع

ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه ، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبي شيبة : [١] « إِنِّي نَسِيتُ أَنْ أَقُولَ لَكَ أَنْ تُخَمِّرَ ٱلْقِدْرَ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَيْتِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ النَّاسَ عَنْ صَلَاتِهِمْ » فهذا طريق تسكين الأفكار فإن كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق ، وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة الشاغلة له عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته ، وأنها إنما صارت مهمات لشهواته ، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق ، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه ، وجند إبليس عدوه ، فإمساكه أضر عليه من إخراجه ، فيتخلص منه باخراجه ، كما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما لَبِسَ [٢] ٱلْخَمِيصَةَ التى أتاه بها أبو جَهْمٍ وعليها عَلَم وصلى بها نزعها بعد صلاته وقال صلى الله عليه وسلم : « اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفاً عَنْ صَلَاتِي وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شراك نعله ثم نظر اليه فى صلاته إذ كان جديداً فأمر أن [٣] ينزع منها ويرد الشراك ٱلْخَلَق . وكان صلى الله عليه وسلم : [٤] قَدِ احْتَذَى نَعْلاً فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا فَسَجَدَ وَقَالَ : « تَوَاضَعْتُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ كَيْ لَا يَمْقُتَنِي » ثم خرج فدفعها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر علياً رضى الله عنه أن يشترى له نعلين سبتيتين جَرْدَاوَيْنِ فَلَبِسَهما . وكان صلى الله عليه وسلم فى يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه [٥] وقال : « شَغَلَنِي هَذَا نَظْرَةً إِلَيْهِ وَنَظْرَةً إِلَيْكُمْ » .

---

(١) حديث انى نسيت أن أقول لك تخمر القربتين اللذين فى البيت . الحديث د من حديث عثمان الحجبى وهو عثمان بن طلحة كما فى مسند أحمد ووقع للمصنف انه قال ذلك لعثمان بن شيبة وهو وهم

(٢) حديث نزع الخميصة وقال ائتونى بانبجانية أبى جهم متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم فى العلم

(٣) حديث أمره بنزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق اذ نظر اليه فى صلاته: ابن المبارك فى الزهد من حديث أبي النضر مرسلا باسناد صحيح

(٤) حديث احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربى. الحديث: أبو عبد الله بن حفيف فى شرف الفقراء من حديث عائشة باسناد ضعيف

(٥) حديث رميه بالخاتم الذهب من يده وقال شغلنى هذا نظرة اليه ونظرة اليكم . ن من حديث ابن عباس باسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهبا ولا فضة انما هو مطلق

وروى أن أبا طالحة (١) صلى فى حائط له فيه شجر فأعجبه دبسى طار فى الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه ببصره ساعة ثم لم يدر كم صلى ، فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من الفتنة ، ثم قال : يارسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت

وعن رجل آخر أنه صلى فى حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر اليها فأعجبته ولم يدر كم صلى ، فذكر ذلك لعثمان رضى الله عنه وقال : هو صدقة فاجعله فى سبيل الله عز وجل ، فباعه عثمان بخمسين ألفا ، فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر ، وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة . وهذا هو الداء القامع لمادة العلة ، ولا يغنى غيره . فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين ، والرد إلى فهم الذكر ، فذلك ينفع فى الشهوات الضعيفة ، والهمم التى لا تشغل إلا حواشى القلب . فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين ، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك ، وتنقضى جميع صلاتك فى شغل المجاذبة . ومثاله رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة فى يده ويعود إلى فكره ، فتعود العصافير ، فيعود إلى التنفير بالخشبة فقيل له إن هذا سير السوانى ، ولا ينقطع . فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة ، فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت اليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار ، وانجذاب الذباب إلى الأقذار ، والشغل يطول فى دفعها ، فإن الذباب كلما ذب آب ولأجله سمى ذبابا ، فكذلك الخواطر

وهذه الشهوات كثيرة ، وقلما يخلو العبد عنها ، ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا وكذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شىء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة ، فلا يطمعن

---

(١) حديث ان أبا طلحة صلى فى حائط له فيه شجر فأعجبه ريس طائر فى الشجر . الحديث : فى سهوه فى الصلاة وتصدقه بالحائط . مالك عن عبد الله بن أبى بكر أن أبا طلحة الأنصارى رفذكره بنحوه

فى أن تصفو له لذة المناجاة فى الصلاة فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته . وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه فى الدنيا انصرف لامحالة إليها همه، ولكن مع هذا فلا ينبغى أن يترك المجاهدة ، ورد القلب إلى الصلاة ، وتقليل الأسباب الشاغلة. فهذا هو الدواء المر ، ولمرارته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة مزمنة ، وصار الداء عضالا ، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك، فاذاً لا مطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً

وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة فى القلب مثل الماء الذى يصب فى قدح مملوء بخل ، فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لامحالة ، ولا يجتمعان

بيان تفصيل ماينبغى أن يحضر فى القلب

عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة

فنقول : حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لاتغفل أوّلا عن التنبيهات التى فى شروط الصلاة وأركانها

أما الشروط السوابق فهى : الأذان ، والطهارة ، وستر العورة ، واستقبال القبلة والانتصاب قائما ، والنية . فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر فى قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة ، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ، فاعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوءا بالفرح والإستبشار ، مشحونا بالرغبة إلى الابتدار ، فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: [1] « أَرِحْنَا يَا بِلاَلُ » أى أرحنا بها وبالنداء اليها إذ كان قرة عينه فيها صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أرحنا يا بلال . قط فى العلل من حديث بلال ولأبى داود ونحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم باسناد صحيح

وأما الطهارة: فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد، ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب، ثم في بشرتك وهو قشرك الأدنى، فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك، فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والندم على مافرطت، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك

وأما ستر العورة: فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق، فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق، فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل؟ فأحضر تلك الفضائح ببالك، وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر، وإنما يكفرها الندم والحياء والخوف، فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما، فتذل بها نفسك، ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكسا رأسه من الحياء والخوف

وأما الاستقبال: فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى أمر الله عز وجل ليس مطلوبا منك؟ هيهات! فلا مطلوب سواه، وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن، وضبط للجوارح، وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها، استتبعت القلب، وانقلبت به عن وجه الله عز وجل، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك، فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا قَامَ الْعَبْدُ إِلَى صَلاَتِهِ فَكَانَ هَوَاهُ وَوَجْهُهُ وَقَلْبُهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ انْصَرَفَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »

أما الاعتدال قائما: فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقا مطأطئا متنكسا، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه

(١) حديث إذا قام العبد الى صلاته وكان وجهه وهواه الى الله انصرف كيوم ولدته أمه لم أجده

تنبيهاً على الزام القلب التواضع والتذلل والتبرى عن الترؤس والتكبر، وليكن على ذكرك هاهنا خطر القيام بين يدى الله عز وجل فى هول المطلع عند العرض للسؤال. واعلم فى الحال أنك قائم بين يدى الله عز وجل وهو مطلع عليك، فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، بل قدر فى دوام قيامك فى صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب فى أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها. إنك تدّعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده، أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟! ولذلك لما قال [1] أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ فقال صل الله عليه وسلم «تَسْتَحِي مِنْهُ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ» وروى: مِنْ أَهْلِكَ

وأما النية: فاعزم على إجابة الله عز وجل فى امتثال أمره بالصلاة وإتمامها، والكف عن نواقضها ومفسداتها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاءَ لثوابه وخوفا من عقابه وطلبا للقربة منه، متقلدا للمنة منه باذنه إياك فى المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك. وعظّم فى نفسك قدر مناجاته، وانظر من تناجى، وكيف تناجى، وبما ذا تناجى؟ وعند هذا ينبغى أن يعرق جبينك من الخجل، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفر وجهك من الخوف

وأما التكبير: فإذا نطق به لسانك فينبغى أن لا يكذبه قلبك فإن كان فى قلبك شىء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب، وإن كان الكلام صدقا كما شهد على المنافقين فى قولهم إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله، فان كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل

---

(١) حديث قال أبو هريرة كيف الحياء من الله؟ قال تستحى منه كما تستحى من الرجل الصالح من قومك. الحرائطى فى مكارم الأخلاق. هق فى الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسلا نحوه وأرسله هق زيادة ابن عمر فى السند وفى العلل فقط عن ابن عمر له وقال انه أشبه شىء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة

فأنت أطوع له منك لله تعالى، فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيوشك أن يكون قولك الله أكبر كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر فى ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه

وأما دعاء الاستفتاح: فأول كلماته قولك : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر ، فانك إنما وجهته إلى جهة القبلة ، والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه . وإنما وجه القلب هو الذى تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض . فانظر اليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه فى البيت والسوق متبع للشهوات ، أو مقبل على فاطر السموات . وإياك أن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ، ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه ، فاجتهد فى الحال فى صرفه اليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك فى الحال صادقا . وإذا قلت : حنيفاً مسلماً ، فينبغى أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذى سلم المسلمون من لسانه ويده ، فان لم تكن كذلك كنت كاذبا ، فاجتهد فى أن تعزم عليه فى الاستقبال وتندم على ماسبق من الأحوال . وإذا قلت : وما أنا من المشركين ، فأخطر ببالك الشرك الخفى ، فان قوله تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً *) نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس ، وكن حذرا مشفقا من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة فى قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك ، فان اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت : محياى ومماتى لله . فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده ، وأنه إن صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته فى الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائما للحال

وإذا قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له ، مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك مايحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، فان من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو ليقتله فقال :

* الكهف : ١١٠

أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه فان ذلك لا ينفعه ، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان ، فكذلك من يتبع الشهوات التى هى محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول . فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان ، وحصنه لا إله إلا الله ، إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم[1] « لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي » والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه ، فأما من اتخذ إلهه هواه فهو فى ميدان الشيطان لا فى حصن الله عز وجل

واعلم أن من مكايده أن يشغلك فى صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معانى قراءتك فهو وسواس ، فان حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها

فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة : رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره ، وهى درجات أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعانى أولا ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه ، ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب

وتفصيل ترجمة المعانى أنك إذا قلت : بسم الله الرحمن الرحيم فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه . وافهم أن معناها أن الأمور كلها بالله سبحانه ، وأن المراد بالاسم هاهنا هو المسمى . وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان الحمد لله . ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل ففى تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى .

فإذا قلت : الرحمن الرحيم ، فأحضر فى قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك ، ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك : مالك يوم الدين

(١) حديث قال الله تعالى لا إله الا الله حصنى . ك فى التاريخ وأبو نعيم فى الحلية من طريق أهل البيت من حديث على باسناد ضعيف جدا وقول أبى منصور الديلمى انه حديث ثابت مردود عليه

أما العظمة فلأنه لايملك إلا إلاله . وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذى هو مالكه ، ثم جدد الاخلاص بقولك : إياك نعبد ، وجدد العجز والاحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك : وإياك نستعين ، وتحقق أنه ماتيسرت طاعتك إلا باعانته ، وأن له المنة إذ وفقك الله لطاعته ، واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلا لمناجاته ، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين

ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك : بسم الله الرحمن الرحيم ، ومن التحميد ، ومن إظهار الحاجة إلى الاعانة مطلقا ، فعين سؤالك ، ولا تطلب إلا أهم حاجاتك ، وقل : اهدنا الصراط المستقيم الذى يسوقنا إلى جوارك ، ويفضى بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا واستشهادا بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ، ثم التمس الاجابة وقل : آمين

فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم [١] « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ : نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ : يَقُولُ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : حَمِدَنِي عَبْدِي وَأَثْنَى عَلَيَّ » وهو معنى قوله : سمع الله لمن حمده ـ الحديث الخ . فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك فى جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة ، فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟

وكذلك ينبغى أن تفهم ماتقرؤه من السور كما سيأتى فى كتاب تلاوة القرآن ، فلا تغفل عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه ، ولكل واحد حق ، فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق الوعيد ، والعزم حق الأمر والنهى ، والاتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق أخبار الأنبياء .

---

(١) حديث قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، الحديث : م عن أبى هريرة .

وروى أن زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ *) خر ميتاً وكان ابراهيم النخعى إذا سمع قوله تعالى : (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ *) اضطرب حتى تضرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلى مغلوبا عليه . وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده ، فانه عبد مذنب ذليل بين يدى جبار قاهر ، وتكون هذه المعانى بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات . فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً

ثم يراعى الهيبة فى القراءة ، فيرتل ولا يسرد ، فان ذلك أيسر للتأمل ، ويفرق بين نغماته فى آية الرحمة والعذاب ، والوعد والوعيد ، والتحميد والتعظيم والتمجيد . كان النخعى إذا مر بمثل قوله عز وجل : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ *) يخفض صوته كالمستحى عن أن يذكره بكل شىء لا يليق به . وروى « أَنَّهُ يُقَالُ [1] لِقَارِىءِ الْقُرْءانِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلْ فِي الدُّنْيَا »

وأما دوام القيام فانه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعت واحد من الحضور . قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ [2] مُقْبِلٌ عَلَى الْمُصَلِّى مَا لَمْ يَلْتَفِتْ » وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات ، فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فاذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجى ليعود إليه وألزم الخشوع للقلب بأن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر . قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلا مصلياً يعبث بلحيته : « أَمَّا هَذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ » فان الرعية بحكم الراعى . ولهذا ورد فى الدعاء [3] « اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِىَ وَالرَّعِيَّةَ » وهو القلب والجوارح

---

(١) حديث يقال لصاحب القرآن اقرا وارق . د ت ن من حديث عبدالله بن عمر وقال ت حسن صحيح

(٢) حديث أن الله يقبل على المصلى مالم يلتفت . د ن ك وصحح اسناده من حديث أبى ذر

(٣) حديث اللهم أصلح الراعى والرعية لم أقف له على أصل وفسره المصنف بالقلب والجوارح

* المدثر : ٨ * الانشقاق : ١ * المؤمنون : ٩١

وكان الصديق رضى الله عنه فى صلاته كأنه وتد. وابن الزبير رضى الله عنه كأنه عود وبعضهم كان يسكن فى ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد. وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدى من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يتقاضاه بين يدى ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك؟ وكل من يطمئن بين يدى غير الله عز وجل خاشعا، وتضطرب أطرافه بين يدى الله عابثاً، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل، وعن اطلاعه على سره وضميره. وقال عكرمة فى قوله عز وجل: (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ *) قال: قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه

وأما الركوع والسجود: فينبغي أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه، وترفع يديك مستجيراً بعفو الله عز وجل من عقابه بتجديد نية، ومتبعاً سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك، وتجتهد فى ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك وتستعين على تقرير ذلك فى قلبك بلسانك، فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة، وأنه أعظم من كل عظيم، وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار، ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم لك ومؤكداً للرجاء فى نفسك بقولك: سمع الله لمن حمده، أى أجاب لمن شكره

ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد فتقول: ربنا لك الحمد. وتكثر الحمد بقولك ملء السموات وملء الأرض. ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة، فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه، من أذل الأشياء وهو التراب. وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل، فإنه أجلب للخشوع، وأدل على الذل. وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت، وإليه تعود، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل سبحان ربى الأعلى، وأكده بالتكرار فإن الكرة الواحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل، لا إلى التكبر والبطر. فارفع رأسك مكبراً

* الشعراء: ٢١٨

وسائلاً حاجتك وقائلاً : رب اغفر و ارحم وتجاوز عما تعلم ، أو ما أردت من الدعاء . ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانياً كذلك

وأما التشهد فاذا جلست له فاجلس متأدبا ، وصرح بأن جميع ما تدلى به من الصلوات والطيبات ، أى من الأخلاق الطاهرة لله . وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات ، وأحضر فى قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم ، وقل سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . وليصدق أملك فى أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه . ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين ، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وافيا بعدد عباده الصالحين ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم نبيه بالرسالة ، مجدداً عهد الله سبحانه باعادة كلمتى الشهادة ، ومستأنفاً للتحصن بها . ثم ادع فى آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة ، وأشرك فى دعائك أبويك وسائر المؤمنين ، واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين ، وانو ختم الصلاة به ، واستشعر شكراً لله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة ، وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها . وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه . « صَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ » ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير فى الصلاة ، وخف أن لا تقبل صلاتك ، وأن تكون ممقوتا بذنب ظاهر أو باطن ، فترد صلاتك فى وجهك وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله ، كان يحيى بن وثاب إذا صلّى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة . وكان ابراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض

فهذا تفصيل صلاة الخاشعين ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، والذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم فى العبودية . فليعرض الانسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدر الذى يسّر له منه ينبغى أن يفرح ، وعلى ما يفوته ينبغى أن يتحسر ، وفى مداواة ذلك ينبغى أن يجتهد

وأما صلاة الغافلين فهى مخطرة ، إلا أن يتغمده الله برحمته ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض . فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ، ويغمرنا بمغفرته ، إذ لا وسيلة لنا إلا الإعتراف بالعجز عن القيام بطاعته .

واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات ، وإخلاصها لوجه الله عز وجل ، وأداءها بالشروط الباطنة التى ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار فى القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة . فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون فى الصلاة ، لا سيما فى السجود إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود ، ولذلك قال تعالى : (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *) وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا . ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة ، وبالجلاء والخفاء ، حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه ، وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله ، كما كشف لبعضهم الدنيا فى صورة جيفة ، والشيطان فى صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها ، ويختلف أيضاً بما فيه المكاشفة ، فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله ولبعضهم من أفعاله ، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة ، ويكون لتعين تلك المعانى فى كل وقت أسباب خفية لا تحصى ، وأشدها مناسبة الهمة ، فإنها إذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف

ولما كانت هذه الأمور لا تتراءى إلا فى المرائى الصقيلة ، وكانت المرآة كلها صدئة ، فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية ، بل لخبث متراكم الصدأ على مصب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك ، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان فى متسع الهواء . ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض . وهكذا الإنسان فى كل طور يكاد ينكر ما بعده . ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوّة ، وقد خلق الخلق أطوارا ، فلا ينبغى أن ينكر كل واحد ما وراء درجته . نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوّشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل ، فقدوه فأنكروه

ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغيب ويصدق به إلى أن

* العلق : ١٩

يشاهد بالتجربة ، ففي الخبر(١) «إِنَّ ٱلْعَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ رَفَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ ٱلْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ وَوَاجَهَهُ بِوَجْهِهِ وَقَامَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ مِنْ لَدُنْ مَنْكِبَيْهِ إِلَى ٱلْهَوَاءِ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ وَيُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَائِهِ ، وَإِنَّ ٱلْمُصَلِّيَ لَيُنْثَرُ عَلَيْهِ ٱلْبِرُّ مِنْ عَنَانِ السَّمَاءِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ وَيُنَادِي مُنَادٍ : لَوْ عَلِمَ هَذَا ٱلْمُنَاجِي مَنْ يُنَاجِي مَا ٱلْتَفَتَ ، وَإِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ لِلْمُصَلِّينَ ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ بِعَبْدِهِ ٱلْمُصَلِّي » . ففتح أبواب السماء ، ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه ، كناية عن الكشف الذى ذكرناه

وفى التوراة مكتوب : ياابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدىّ مصليا باكيا ، فأنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى . قال فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنوّ الربّ سبحانه من القلب ، وإذا لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكان ، فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة ، وكشف الحجاب

ويقال إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة ، كل صف منهم عشرة آلاف ، وباهى الله به مائة ألف ملك . وذلك أن العبد قد جمع فى الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود ، وقد فرّق الله ذلك على أربعين ألف ملك ، فالقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة ، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ؛ فان مارزق الله تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم مستمر على حال واحد لا يزيد ولا ينقص ، ولذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ *) وفارق الانسان الملائكة فى الترقى من درجة إلى درجة ، فانه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد مزيد قربه ، وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام ، وليس لكل واحد إلا رتبته التى هى وقف عليه ، وعبادته التى هو مشغول بها ، لا ينتقل إلى غيرها ، ولا يفتر عنها (فَلَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللهَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ *) مفتاح مزيد الدرجات هى الصلوات ، قال الله عز وجل (قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ

---

(١) حديث ان العبد اذا قام فى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده الحديث : لم أجده

* الصافات : ١٦٤ * الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ * المؤمنون : ،

فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ *) مدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع ، ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *) ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *) فوصفهم بالفلاح أولا ، وبوراثة الفردوس آخرا . وما عندى أن هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ، ولذلك قال الله عز وجل فى أضدادهم (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *) فالمصلون هم ورثة الفردوس ، وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم

نسأل الله أن يجعلنا منهم ، وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله ،إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى.

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين

رضي الله عنهم

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل ، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا فى الصلاة وفى غير الصلاة ، بل فى خلوته ، وفى بيت الماء عند قضاء الحاجة ، فان موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ، ومعرفة جلاله ، ومعرفة تقصير العبد . فمن هذه المعارف يتولد الخشوع ، وليست مختصة بالصلاة . ولذلك روي عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وخشوعا له

وكان الربيع بن خيثم من شدة غضه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى . وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة ، فاذ رأته جاريته قالت لابن مسعود : صديقك الأعمى قد جاء . فكان يضحك ابن مسعود من قولها . وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقا غاضا بصره . وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول «(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ *) أما والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك » وفى لفظ آخر : لأحبك . وفى لفظ آخر : لضحك

* المؤمنون : ٢ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، * المدثر : ٤٢ ، ٤٣ * الحج : ٣٤

ومشى دات يوم مع ابن مسعود فى الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلتهب ، صعق وسقط مغشيا عليه . وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق ، فحمله على ظهره إلى منزله ، فلم يزل مغشيا عليه إلى مثل الساعة التى صعق فيها ، ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله هو الخوف . وكان الربيع يقول : مادخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها إلاما أقول وما يقال لى

وكان عامر بن عبد الله من خاشعى المصلين ، وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن فى البيت ، ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله . وقيل له ذات يوم : هل تحدثك نفسك فى الصلاة بشىء ؟ قال نعم بوقوفى بين يدى الله عز وجل ومنصرفى إلى احدى الدارين . قيل : فهل تجد شيئا مما نجد من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف الأسنة فىّ أحب الىّ من أن أجد فى صلاتى ماتجدون . وكان يقول : لوكشف الغطاءماازددت يقينا . وقدكان مسلم بن يسار منهم وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط أسطوانة فى المسجد وهو فى الصلاة . وتأكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقيل : إنه فى الصلاة لا يحس بما يجرى عليه فقطع وهو فى الصلاة

وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا . وقيل لآخر : هل تحدث نفسك بشىء من الدنيا فى الصلاة ؟ فقال : لافى الصلاة ولافى غيرها . وسئل بعضهم هل تذكر فى الصلاة شيأ ؟ فقال : وهل شىء أحب إلىّ من الصلاة فأذكره فيها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ .كان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس . وروى أن (١) عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ صَلَّى صَلاَتاً فأَخَفَّهَا ، فقيل له : خَفَّفْتَ ياأَبا الْيَقْظَانِ . فقال : هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيئا ؟ قالوا لا قال : إِنِّى بَادَرْتُ سَهْوَ الشيطانِ ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّى الصَّلاَةَ لاَ يُكْتَبُ لَهُ نِصْفُهَا وَلاَ ثُلُثُهَا وَلاَ رُبُعُهَا وَلاَ خُمُسُهَا وَلاَسُدُسُهَا وَلاَ عُشْرُهَا » وكان يقول: إنما يكتب للعبد من صلاته ماعقل منها

(١) حديث ان عمار بن ياسر صلى فأخفها فقيل له خففت ياأباليقظان. الحديث وفيه ان العبد ليصلى صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها الى آخره احمد باسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند د ن

ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضى الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة ، وقالوا : نبادر بها وسوسة الشيطان

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاه فى الاسلام وما أكمل لله تعالى صلاة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لايتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها * وسئل أبو العالية عن قوله (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٭) قال هو الذى يسهو فى صلاته فلا يدرى على كم ينصرف : أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذى يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج . وقال بعضهم : هو الذى إن صلاها فى أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن ، فلا يرى تعجيلها خيرا ولا تأخيرها إثما

واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول ، إن الصلاة فى الصحة لاتتجزأ ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه ، وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث ، إذ ورد[1] جَبْرُ نقصانِ الفرائِضِ بالنَّوافِلِ . وفى الخبر قال عيسى عليه السلام يقول الله تعالى : بالفرائض نجامنى عبدى ، وبالنوافل تقرب إلىّ عبدى

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: [2]« قَالَ اللهُ تَعَالَى لَا يَنْجُو مِنِّى عَبْدِى إِلَّا بِأَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ » وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم [3] صَلَّى صَلَاتاً فَتَرَكَ مِنْ قِرَاءَتِهَا آيَةً ، فَلَمَّا انْفَتَلَ قَالَ : مَا ذَا قَرَأْتُ ؟ فسكت القوم ، فسأل أبى بن كعب رضى الله عنه فقال : قَرَأْتَ سُورَةَ كَذَا وَتَرَكْتَ آيَةَ كَذَا فَمَا نَدْرِى أَنُسِخَتْ أَمْ رُفِعَتْ ، فقال : أَنْتَ لَهَا يَا أُبَىُّ ، ثم أقبل على الآخرين فقال « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَحْضُرُونَ صَلَاتَهُمْ وَيُتِمُّونَ صُفُوفَهُمْ وَنَبِيُّهُمْ بَيْنَ

---

(١) حديث جبر نقصان الفرائض بالنوافل. أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة ان أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته وفيه فان انتقص من فرضه شيأ قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل بها ما نقص من الفريضة

(٢) حديث قال الله تعالى لا ينجو منى عبدى الا بأداء ما افترضت عليه لم أجده

(٣) حديث صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما التفت قال ما ذا قرأت فسكت القوم فسأل أبى بن كعب الحديث : رواه محمد بن نصر فى كتاب الصلاة مرسلا وأبو منصور الديلمى من حديث أبى بن كعب ورواه ن مختصرا من حديث عبد الرحمن بن أبزى باسناد صحيح

أَيْدِيهِمْ لَايَدْرُونَ مَا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَذَا فَعَلُوا فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَبِيِّهِمْ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ : تُحْضِرُونِى أَبْدَانَكُمْ وَتُعْطُونِى أَلْسِنَتَكُمْ وَتَغِيبُونَ عَنِّى بِقُلُوبِكُمْ ، بَاطِلٌ مَا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ » وهـذا يدل على أن استماع مايقرأ الامام وفهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه

وقال بعضهم إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولوقسمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا ، قيـل : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون ساجدا عندالله وقلبه مصغ إلى هوى ، ومشاهد لباطل ، قد استولى عليه . فهذه صفة الخاشعين

فدلت هذه الحكايات والأخبارمع ماسبق على أن الأصل فى الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى فى المعاد . والله أعلم . نسأل الله حسن التوفيق

الباب الرابع

فى الإمامة والقدوة ، وفى أركان الصلاة وبعد السلام وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفى القراءة

أما الوظائف التى هى قبل الصلاة فستة :

أولها : أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه ، فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين ، فان كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر اليهم أولى . وفى الحديث : [1] « ثَلَاثَةٌ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ رُءُوسَهُمْ : الْعَبْدُ الْآبِقُ وَامْرَأَةٌ زَوْجُهَا سَاخِطٌ عَلَيْهَا ، وَإِمَامٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ » وكما ينهى عن تقدمه مع كراهتهم ، فكذلك ينهى عن التقدمة

﴿ الباب الرابع ﴾

(١) حديث ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رؤسهم العبد الآبق . الحديث : ت من حديث أبى أمامة وقال حسن غريب وضعفه هق

إن كان وراءه من هو أفقه منه ، إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم فإن لم يكن شيء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة

ويكره عند ذلك المدافعة ، فقد قيل إن قوما تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم وما روى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسببه إيثارهم من رأوه أنه أولى بذلك ، أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم ، فإن الأئمة ضمناء . وكان من لم يتعود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص فى صلاته حياء من المقتدين ، لاسيما فى جهره بالقراءة ، فكان لاحتراز من احترز أسباب من هذا الجنس

الثانية : إذا خير المرء بين الآذان والإمامة فينبغى أن يختار الإمامة ، فان لكل واحد منهما فضلا ، ولكن الجمع مكروه ، بل ينبغى أن يكون الإمام غير المؤذن . وإذا تعذر الجمع فالإمامة أولى . وقال قائلون : الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : (١) « الْإِمَامُ ضَامِنٌ وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ » فقالوا فيها خطر الضمان . وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « الإِمَامُ أَمِينٌ فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا » وفى الحديث (٣) « فَإِنْ أَتَمَّ فَلَهُ وَلَهُمْ وَإِنْ نَقَصَ فَعَلَيْهِ لَا عَلَيْهِمْ » ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : (٤) « اللَّهُمَّ أَرْشِدِ الْأَئِمَّةَ وَاغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ » والمغفرة أولى بالطلب فأن الرشد يراد للمغفرة . وفى الخبر (٥) « مَنْ أَمَّ فِى مَسْجِدٍ سَبْعَ سِنِينَ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ بِلاَ حِسَابٍ وَمَنْ أَذَّنَ أَرْبَعِينَ عَامًا دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون الإمامة

---

(١) حديث الامام ضامن والمؤذن مؤتمن : د ت من حديث أبى هريرة وحكى عن ابن المدينى أنه لم يثبته ورواه أحمد من حديث أبى أمامة باسناد حسن

(٢) حديث الامام أمين فاذا ركع فاركعوا . الحديث : خ من حديث أبى هريرة دون قوله الامام أمين وهو بهذه الزيادة فى مسند الحميدى وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة

(٣) حديث فان أتم فله ولهم وان انتقص فعليه ولاعليهم . د ه ك وصححه من حديث عقبة بن عامر والبخارى من حديث أبى هريرة يصلون بكم فان أصابوا فلكم وان أخطؤا فلكم وعليهم

(٤) حديث اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين هو بقية حديث الامام ضامن وتقدم قبل بحديثين

(٥) حديث من أذن فى مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب ت ه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قل ت حديث غريب

والصحيح أن الإمامة أفضل، إذ واظب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما والأئمة بعدهم. نعم فيها خطر الضمان. والفضيلة مع الخطر، كما أن رتبة الإمارة والخلافة أفضل، لقوله صلى الله عليه وسلم [1] « لَيَوْمٌ مِنْ سُلْطَانٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً » ولكن فيها خطر، ولذلك وجب تقديم الأفضل والأفقه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: [2] « أَئِمَّتُكُمْ شُفَعَاؤُكُمْ » أو قال: « وَفْدُكُمْ إِلَى اللهِ » فان أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم. وقال بعض السلف: ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء، ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدى الله عز وجل وبين خلقه: هذا بالنبوة، وهذا بالعلم، وهذا بعماد الدين وهو الصلاة

وبهذه الحجة احتج الصحابة [3] فى تقديم أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعنهم للخلافة إذ قالوا: « نَظَرْنَا فَإِذَا الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ فَاخْتَرْنَا لِدُنْيَانَا مَنْ رَضِيَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِدِينِنَا » وما قدموا [4] بِلَالاً احتجاجا بأنه رضيه للأذان. وما روى « أَنَّهُ قَالَ

---

(١) حديث ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة: الطبرانى من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ ستين

(٢) حديث أئمتكم وفدكم إلى الله تعالى فان أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم: قط هق وضعف اسناده من حديث ابن عمر والبغوي وابن قانع والطبرانى فى معاجمهم و ك من حديث مرثد ابن أبى مرثد نحوه وهو منقطع وفيه يحيى بن يحيى الأسلمى وهو ضعيف

(٣) حديث تقديم الصحابة أبا بكر وقولهم اخترنا لدنيانا من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ابن شاهين فى شرح مذاهب اهل السنة من حديث على قال لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلى بالناس وانى لشاهد ما أنا بغائب ولا بى مرض فرضينا لدنيانا مارضى به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا والمرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبى موسى فى حديث قال مروا أبا بكر فليصل بالناس

(٤) حديث تقديم ه الصحابة بلالا احتجاجاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيه للأذان أما المرفوع منه فرواه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبد الله بن زيد فى بدء الأذان وفيه قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ـ الحديث: وأما تقديمهم له بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فروى الطبرانى أن بلالا جاء الى أبى بكر فقال يا خليفة رسول الله أردت أن أربط نفسى فى سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر أنشدك بالله يا بلال وحرمتى وحقى لقد كبرت سنى وضعفت قوتى واقترب أجلى فأقام بلال معه فلما

له رجل : يا رسول الله (١) دلني على عمل أدخل به الجنة قال : « كن مؤذناً قال : لا أستطيع ، قال : كن إماماً ، قال لا أستطيع ، فقال صل بإزاء الإمام » فلعله ظن أنه لا يرضى بإمامته ، إذ الأذان اليه والامامة إلى الجماعة وتقديمهم له . ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها

الثالثة : أن يراعي الإمام أوقات الصلوات فيصلي في أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه (٢) ففضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا . هكذا روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي الحديث : (٣) « إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته ولما فاته من أول وقتها خير له من الدنيا وما فيها

ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة ، بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت ، فهي أفضل من كثرة الجماعة ، ومن تطويل السورة . وقد قيل : كانوا إذا حضر اثنان في الجماعة لم ينتظروا الثالث ، وإذا حضر أربعة في الجنازة لم ينتظروا الخامس . وقد (٤) تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا في سفر . وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر ، وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام يقضيها ، قال فأشفقنا من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد أحسنتم هكذا فافعلوا » وقد (٥) تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي

نو في أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ماقال لأبي بكر فأبى عليه فقال عمر فمن يا بلال فقال الى سعد فانه قد أذن بقباء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمر الأذان الى سعد وعقبه وفي أسناده جهالة

(١) حديث قال له رجل يارسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة قال كن مؤذنا ــ الحديث : البخاري في التاريخ والعقيلي في الضعفاء و طب في الأوسط من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٢) حديث فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٣) حديث ان العبد ليصلي الصلاة في أول وقتها ولم تفته ــ الحديث : الدارقطني من حديث أبي هريرة نحوه باسناد ضعيف

(٤) حديث تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الفجر وكان في سفر وانما تأخر للطهارة فقدموا عبد الرحمن بن عوف ــ الحديث : متفق عليه من حديث المغيرة

(٥) حديث تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر ــ الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعد

اللهُ عَنْهُ حَتّىٰ جاءَ رَسُولُ اللهُ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي الصَّلاةِ فَنامَ إِلَىٰ جانِبِهِ

وليس على الإمام انتظار المؤذن ، وإنما على المؤذن انتظـار الامام للاقامة ، فاذا حضر فلا ينتظر غيره

الرابعـة : أن يؤم مخلصاً لله عز وجل ، ومؤديا أمانة الله تعـالى فى طهارته وجميع شروط صلاته

أما الإخلاص فبأن لا يأخذ عليها أجرة ، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ابن أبي العاص الثقفي وقال : (١) « اتَّخِذْ مُؤَذِّناً لاَ يَأْخُذُ عَلَى الْأَذَانِ أَجْراً » فالأذان طريق إلى الصّلاة ، فهى أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر ، فان أخذ رزقاً من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولـكنه مكروه ، والكراهية فى الفرائض أشد منها فى التراويح ، وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ، ومراقبة مصالح المسجد فى إقامة الجماعة ، لا على نفس الصّلاة

وأما الأمانة : فهى الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر . فالمترشح للإمامة ينبغى أن يحترز عن ذلك بجهده فانه كالوفد والشفيع للقوم ، فينبغى أن يكون خير القوم . وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث ، فانه لا يطلع عليه سواه فان تذكر فى أثناء صلاته حدثاً أو خرج منه ريح فلا ينبغى أن يستحيى ، بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه ، فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) الجنابة فى أثناء الصّلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل فى الصّلاة .. وقال سفيان : صلِّ خلف كل بَر وفاجر إلا مُدمِن خمر ، أو معلن بالفسوق ، أو عاق لوالديه أو صاحب بدعة ، أو عبد آبق

الخامسة : أن لا يكبر حتي تستوى الصفوف ، فليلتفت يميناً وشمالاً فان رأى خللاً أمر بالتسوية . قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب ، ولا يكبر حتى يفرغ

---

(١) حديث اتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرة . أصحاب السنن وك وصححه من حديث عثمان بن أبى العاص الثقفى

(٢) حديث تذكر النبى صلى الله عليه وسلم الجنابة فى صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع د من حديث أبى بكرة باسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وانما قال ثم أرمأ اليهم أن مكانكم الحديث : وورد الاستخلاف من فعل عمر وعلى وعند خ استخلاف عمر فى قصة طعنه

المؤذن من الاقامة ، والمؤذن يؤخر الاقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس للصلاة ، ففي الخبر [١] « لِيَتَمَهَّلِ الْمُؤَذِّنُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ بِقَدْرِ مَا يَفْرُغُ الآكِلُ مِنْ طَعَامِهِ وَالْمُعْتَصِرُ مِنَ اعْتِصَارِهِ » وذلك لأنه « نَهَى [٢] عَنْ مُدَافَعَةِ الأَخْبَثَيْنِ » [٣] « وَأَمَرَ بِتَقْدِيمِ الْعَشَاءِ عَلَى الْعِشَاءِ » طلبا لفراغ القلب

السادسة : أن يرفع صوته بتكبيرة الاحرام وسائر التكبيرات، ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر مايسمع نفسه ، وينوى الإمامة لينال الفضل ، فان لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نووا الاقتداء ، ونالوا فضل القدوة ، وهو لاينال فضل الإمامة . وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبيرة الامام ، فيبتدىء بعد فراغه . والله أعلم

وأما وظائف القراءة فثلاثة :

أولها : أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ، ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح واولي العشاء والمغرب ، وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله : آمين في الصلاة الجهرية ، وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معا لاتعقيبا [٤] ، ويجهر بسم الله الرحمن الرحيم والاخبار فيه متعارضة [٥] . واختيار الشافعى رضى الله عنه الجهر

---

(١) حديث يتمهل المؤذن بين الأذان والأقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره : ت ك من حديث جابر يابلال اجعل بين أذانك واقامتك قدرما يفرغ الآكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته قال ت اسناده مجهول وقال ك ليس في اسناده مطعون فيه غير عمرو بن فايد قلت بل فيه عبد المنعم الدياجى منكر الحديث قاله خ وغيره

(٢) حديث النهى عن مدافعة الأخبثين م من حديث عائشة بلفظ لاصلاة وللبيهقي لايصلين أحدكم الحديث

(٣) حديث الأمر بتقديم العشاء على العشاء تقدم من حديث ابن عمر وعائشة إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء متفق عليه

(٤) حديث الجهر بسم الله الرحمن الرحيم قط ك وصححه من حديث ابن عباس

(٥) حديث ترك الجهر بها م من حديث أنس صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم وللنسائى يجهر بسم الله الرحمن الرحيم

الثانيه : أن يكون للامام فى القيام ثلاث سكتات . هكذا رواه [١] سَمُرة بن جُنْدُب وعِمْران بن الْحصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أولاهن) إذا كبر وهى الطولى منهنّ مقدار مايقرأ مَن خلفه فاتحة الكتاب ، وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح ، فانه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع ، فيكون عليه مانقص من صلاتهم ، فان لم يقرءوا الفاتحة فى سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليه لاعليهم (السكتة الثانية) إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة فى السكتة الأولى فاتحته ، وهى كنصف السكتة الأولى (السكتة الثالثة) إذا فرغ من السورة قبل أن يركع ، وهى أخفها ، وذلك بقدر ماتنفصل القراءة عن التكبير ، فقد نهى عن الوصل فيه ، ولا يقرأ المأموم وراء الامام إلا الفاتحة ، فان لم يسكت الامام قرأ فاتحة الكتاب معه ، والمقصر هو الامام ، وإن لم يسمع المأموم فى الجهرية لبعده أو كان فى السرية فلا بأس بقراءته السورة

الوظيفة الثالثة : أن يقرأ فى الصبح سورتين من المثانى مادون المائة ، فان الاطالة فى قراءة الفجر والتغليس بها سنة ، ولا يضره الخروج منها مع الإسفار ، ولا بأس بأن يقرأ فى الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها ، لأن ذلك لا يتكرر على الأسماع كثيرا ، فيكون أبلغ فى الوعظ ، وأدعى إلى التفكر ، وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض أول السورة وقطعها . وقد روى « أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم [٢] قَرَأَ بَعْضَ سُورَةِ يُونُسَ

---

(١) حديث سمرة بن حندب وعمران بن حصين فى سكتات الأمام أحمد من حديث سمرة قال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سكتات فى صلاته وقال عمران أنا أحفظهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبوا فى ذلك الى أبى بن كعب فكتب أن سمرة قد حفظ هكذا وجدته فى غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف ان عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا فى غير موضع من المسند و د ه حب و ت فأنكر ذلك عمران وقال حفظنا سكتة وقال حديث حسن انتهى وليس فى حديث سمرة الاسكتتان ولكن اختلف عنه فى محل الثانية فروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السورة ولقط من حديث أبى هريرة وضعفه من صلى صلاة مكتوبة مع الأمام فليقرأ بفاتحة الكتاب فى سكتاته

(٢) حديث قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع م من حديث عبدالله ابن السائب وقال سورة المؤمنين وقال موسى وهرون وعلقه خ

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِكْرِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ قَطَعَ فَرَكَعَ » وروى « أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم [١] قَرَأَ فِي الْفَجْرِ آيَةً مِنَ الْبَقَرَةِ وهي قوله : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا *) وفي الثانية (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ *) » [٢] وسمع بلالا يقرأ من هاهنا وهاهنا فسأله عن ذلك فقال : أخلط الطيب بالطيب فقال : أَحْسَنْتُ

ويقرأ في الظهر بطول المفصل إلى ثلاثين آية ، وفي العصر بنصف ذلك ، وفي المغرب بأواخر المفصل

وآخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] الْمَغْرِب قرأ فيها سورة الْمُرْسَلَاتِ ماصلى بعدها حتى قبض

وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثر الجمع ، قال صلى الله عليه وسلم في هذه الرخصة [٤] «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ » وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء وقد « كَانَ [٥] مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يُصَلِّي بِقَوْمٍ الْعِشَاءَ ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الصَّلَاةِ وَأَتَمَّ لِنَفْسِهِ ، فَقَالُوا : نَافَقَ الرَّجُلُ ! فَتَشَاكَيَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَزَجَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُعَاذاً فَقَالَ : أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ اقْرَأْ سُورَةَ سَبِّحْ ، وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا »

---

(١) حديث قرأ في الفجر ـ قولوا آمنا بالله ـ الآية وفي الثانية ـ ربنا آمنا بما أنزلت ـ م من حديث ابن عباس كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما ـ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ـ الآية التي في البقرة وفي الآخرة منهما ـ آمنا بالله واشهدوا بأنا مسلمون ـ و د من حديث أبي هريرة ـ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ـ الآية وفي الركعة الآخرة ـ ربنا آمنا بما أنزلت أو إنا أرسلناك بالحق ـ

(٢) حديث سمع بلالا يقرأ من هاهنا ومن هاهنا فسأله عن ذلك فقال اخلط الطيب بالطيب فقال أحسنت د من حديث أبي هريرة باسناد صحيح نحوه

(٣) حديث قراءته في المغرب بالمرسلات وهي آخر صلاة صلاها متفق عليه من حديث أم الفضل

(٤) حديث إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف. الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٥) حديث صلى معاذ بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة. الحديث: متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر والسماء والطارق وهي عند البيهقي

---

* البقرة : ١٣٦ * آل عمران : ٥٣

وأما وظائف الأركان فثلاثة :

أولها : أن يخفف الركوع والسجود ، فلا يزيد فى التسبيحات على ثلاث ، فقد روى عن أنس أنه قال (١) « مَا رَأَيْتُ أَخَفَّ صَلاَةً مِنْ رَسُولِ اللهِصلى الله عليه وسلم فِى تَمَامٍ » نعم روى أيضا أن أنس بن مالك (٢) لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال « مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ أَشْبَهَ صَلاَةً بِصَلاَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ هَذَا الشَّابِّ. قَالَ : وَكُنَّا نُسَبِّحُ وَرَاءَهُ عَشْراً عَشْراً » وروى مجملا أنهم قالوا (٣) « كُنَّا نُسَبِّحُ وَرَاءَ رَسُولِ صلى الله عليه وسلم فِى الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ عَشْراً عَشْراً » وذلك حسن ، ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن ، فاذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس ، لعشر . هذا وجه الجمع بين الروايات . وينبغى أن يقول الامام عند رفع رأسه من الركوع : سمع الله لمن حمده

الثانية فى المأموم : ينبغى أن لايساوى الامام فى الركوع والسجود بل يتأخر ، فلايهوى للسجود الا إذا وصلت جبهة الامام إلى المسجد (٤) هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولايهوى للركوع حتى يستوى الامام راكعا . وقد قيل : إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام : طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الامام ، وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساوونه ، وطائفة بلاصلاة وهم الذين يسابقون الأمام . وقد اختلف فى أن الإمام فى الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة : ولعل الأولى أن ذلك مع الاخلاص لابأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين ، فإن حقهم مرعى فى ترك التطويل عليهم

الثالثة : لايزيد فى دعاء التشهد على مقدار التشهد حذرا من التطويل ، ولا يخص نفسه

---

(١) حديث أنس مارأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام متفق عليه

(٢) حديث أنس انه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ماصليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الشاب الحديث: د ن باسناد جيد وضعفه ابن القطان

(٣) حديث كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركوع والسجود عشرا لم أجد له أصلا الافى الحديث الذى قبله وفيه فخررنا فى ركوعه عشر تسبيحات وفى سجوده عشر تسبيحات

(٤) حديث كان الصحابة لايهوون للسجود الا إذا وصلت جبهة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأرض متفق عليه من حديث البراء بن عازب

فى الدعاء ، بل يأتى بصيغة الجمع فيقول : اللهم اغفر لنا ، ولا يقول : اغفرلى ، فقد كره للامام أن يخص نفسه . ولا بأس أن يستعيذ فى التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فيقول : « نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَاقْبِضْنَا إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونِينَ » . وقيل سمى مسيحا لأنه يمسح الأرض بطولها . وقيل لأنه ممسوح العين أى مطموسها

وأما وظائف التحلل فثلاثة :

أولها : أن ينوى بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة

الثانية : أن يثبت عقيب السلام (٢) كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فيصلى النافلة فى موضع آخر ؛ فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن . وفى الخبر المشهور « أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم (٣) لَمْ يَكُنْ يَقْعُدُ إِلَّا قَدْرَ قَوْلِهِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »

الثالثة : إذا وثب فينبغى أن يقبل بوجهه على الناس . ويكره للمأموم القيام قبل انفتال الإمام ، فقد روى عن طلحة والزبير رضى الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قالا للامام : ما أحسن صلاتك وأتمها إلا شيئاً واحدا : إنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك ، ثم قالا للناس : ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم ! ثم ينصرف الامام حيث شاء من يمينه وشماله ، واليمين أحب . هذه وظيفة الصلوات

---

(١) حديث التعوذ فى التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر الحديث : تقدم وزاد فيه الغزالى هنا واذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا اليك غير مفتونين . ولم أجده مقيدا بآخر الصلاة وللترمذى من حديث ابن عباس واذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون و ك نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عايش وصححهما وسيأتى فى الدعاء .

(٢) حديث المكث بعد السلام خ من حديث أم سلمة

(٣) حديث انه لم يكن يقعد الا بقدر قوله اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام: م من حديث عائشة

وأما الصبح فزيد فيها القنوت ، فيقول الامام : اللهم اهدنى ، ويؤمن المأموم . فإذا انتهى إلى قوله : إنك تقضى ولا يقضى عليك ، فلا يليق به التأمين، وهو ثناء فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، أو صدقت وبررت ، وما أشبه ذلك وقد روى حديث[1] فى رفع اليدين فى القنوت، فإذا صح الحديث استحب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات فى آخر التشهد ، اذ لا يرفع بسببها اليد ، بل التعويل على التوقيف ، وبينهما أيضا فرق ، وذلك أن للأيدى وظيفة فى التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ، ولا وظيفة لهما هاهنا ، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة فى القنوت ، فانه لائق بالدعاء . والله أعلم

فهذه جمل آداب القدوة والامامة ، والله الموفق

الباب الخامس

فى فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

اعلم أن هذا يوم عظيم عظّم الله به الإسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى : (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ *) فحرّم الاشتغال بامور الدنيا ، وبكل صارف عن السعى إلى الجمعة . وقال صلى الله عليه وسلم :[2] « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْجُمُعَةَ فِي يَوْمِي هَذَا فِي مَقَامِي هَذَا » وقال صلى الله عليه سلم :[3] « مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلاثًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ » وفى لفظ آخر[4] « فَقَدْ نَبَذَ

(١) حديث رفع اليدين فى القنوت: البيهقى من حديث أنس بسند جيد فى قصة قتل القراء : ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما صلى الغداة رفع يديه يدعو عليهم

﴿ الباب الخامس ﴾

(٢) حديث ان الله فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا ـ الحديث ه من حديث جابر باسناد ضعيف

(٣) حديث من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه: أحمد واللفظ له وأصحاب السنن و ك وصححه من حديث أبى الجعد الضمرى

(٤) حديث من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر فقد نبذ الاسلام وراء ظهره: البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس

* الجمعة : ٩

ٱلْإِسْلَامَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال : في النار ، فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول : في النار

وفي الخبر(١) « إِنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابَيْنِ أُعْطُوا يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَصُرِفُوا عَنْهُ وَهَدَانَا ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ ، وَأَخَّرَهُ لِهَٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ وَجَعَلَهُ عِيداً لَهُمْ فَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِهِ سَبْقاً وَأَهْلُ ٱلْكِتَابَيْنِ لَهُمْ تَبَعٌ » وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (٢) « أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي كَفِّهِ مِرْآةٌ بَيْضَاءُ ، وَقَالَ هَٰذِهِ ٱلْجُمُعَةُ يَفْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ لِتَكُونَ لَكَ عِيداً وَلِأُمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ ، قُلْتُ فَمَا لَنَا فِيهَا ؟ قَالَ : لَكُمْ فِيهَا خَيْرُ سَاعَةٍ مَنْ دَعَا فِيهَا بِخَيْرٍ قُسِمَ لَهُ أَعْطَاهُ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ إِيَّاهُ أَوْ لَيْسَ لَهُ قَسْمٌ ذُخِرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ، أَوْ تَعَوَّذَ مِنْ شَرٍّ هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلَّا أَعَاذَهُ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ وهو سَيِّدُ الأيامِ عِنْدَنَا وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي ٱلْآخِرَةِ يَوْمَ ٱلْمَزِيدِ ، قُلْتُ : وَلِمَ ؟ قَالَ : إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ ٱتَّخَذَ فِي ٱلْجَنَّةِ وَادِياً أَفْيَحَ مِنَ ٱلْمِسْكِ أَبْيَضَ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ نَزَلَ تَعَالَىٰ مِنْ عِلِّيِّينَ عَلَى كُرْسِيِّهِ فَيَتَجَلَّىٰ لَهُمْ حَتَّىٰ يَنْظُرُوا إِلَىٰ وَجْهِهِ ٱلْكَرِيمِ »

وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسُ يَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ : فِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُهْبِطَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مَاتَ ، وَفِيهِ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ، وَهُوَ عِنْدَ ٱللَّهِ يَوْمُ ٱلْمَزِيدِ ، كَذَٰلِكَ تُسَمِّيهِ ٱلْمَلَائِكَةُ فِي ٱلسَّمَاءِ ، وَهُوَ يَوْمُ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱللَّهِ تَعَالَىٰ فِي ٱلْجَنَّةِ »

وفي الخبر(٤) « إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ سِتَّمِائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ ٱلنَّارِ » وفي حديث

---

(١) حديث ان أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه

(٢) حديث أنس أتاني جبريل في كفه مرآة بيضاء فقال هذه الجمعة ـ الحديث : الشافعي في المسند والطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف

(٣) حديث خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ـ الحديث : م من حديث أبي هريرة

(٤) حديث ان لله في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار : عد حب في الضعفاء وهب في الشعب من حديث أنس قال قط في العلل : والحديث غير ثابت

أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم[١] قال : « إِذَا سَلِمَتِ الْجُمُعَةُ سَلِمَتِ الْأَيَّامُ » وقال صلى الله عليه وسلم:[٢] « إِنَّ الْجَحِيمَ تُسَعَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ قَبْلَ الزَّوَالِ عِنْدَ اسْتِوَاءِ الشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ فَلَا تُصَلُّوا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ صَلَاةٌ كُلُّهُ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَا تُسَعَّرُ فِيهِ »

وقال كعب إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ، ومن الأيام الجمعة ، ومن الليالى ليلة القدر . ويقال إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضاً فى يوم الجمعة فتقول : سلام سلام ، يوم صالح . وقال صلى الله عليه وسلم:[٣] « مَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ ، وَوُقِيَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ »

بيان شروط الجمعة

اعلم أنها تشارك جميع الصلوات فى الشروط ، وتتميز عنها بستة شروط :

الأول: الوقت ، فان وقعت تسليمة الامام فى وقت العصر فاتت الجمعة ، وعليه أن يتمها ظهرا أربعا . والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجا من الوقت ففيه خلاف

الثانى: المكان ، فلا تصح فى الصحارى والبرارى وبين الخيام ، بل لابد من بقعة جامعة لأبنية لاتنقل ، بجمع أربعين ممن تلزمهم الجمعة ، والقرية فيه كالبلد ، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ، ولكن الأحب استئذانه

الثالث : العدد، فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكورا ، مكلفين ، أحراراً ، مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفا ، فان انفضوا حتى نقص العدد إما فى الخطبة أو فى الصلاة ، لم تصح الجمعة ، بل لابد منهم من الأول إلى الآخر

---

(١) حديث أنس اذا سلمت الجمعة سلمت الأيام: حب فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية وهق فى الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أنس

(٢) حديث ان الجحيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس الى أن قال الا يوم الجمعة ـ الحديث: د من حديث أبى قتادة وأعله بالانقطاع

(٣) حديث من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر: أبو نعيم فى الحلية من حديث جابر وهو و ت بنحوه مختصرا من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ليس اسناده بمتصل. قلت وصله ث الحكيم فى النوادر .

الرابع : الجماعة ، فلو صلى أربعون فى قرية أو فى بلد متفرقين لم تصح جمعتهم ، ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد بالركعة الثانية ، وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر ، وإذا سلم الامام تمها ظهرا

الخامس : أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى فى ذلك البلد ، فان تعذر اجتماعهم فى جامع واحد جاز فى جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة ، وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التى يقع بها التحريم أولا ، وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الامامين ، فان تساويا فالمسجد الأقدم ، فان تساويا ففى الأقرب ، ولكثرة الناس أيضا فضل يراعى

السادس : الخطبتان ، فهما فريضتان ، والقيام فيهما فريضة ، والجلسة بينهما فريضة . وفى الأولى أربع فرائض : التحميد ، وأقله الحمد لله ، والثانية الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والثالثة الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى ، والرابعة قراءة آية من القرءان ، وكذا فرائض الثانية أربعة ، إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة ، واستماع الخطبتين واجب من الأربعين

وأما السنن :

فاذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الامام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية ، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة ، ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام ، فاذا فرغ المؤذن قام مقبلا على الناس بوجهه لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، ويشغل يديه بقائم السيف أو العنزة والمنبر ، كى لا يعبث بهما ، أو يضع إحداهما على الأخرى ، ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة ، ولا يستعمل غريب اللغة ، ولا يمطط ، ولا يتغنى ، وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة . ويستحب أن يقرأ آية فى الثانية أيضا ، ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب ، فان سلم لم يستحق جوابا ، والاشارة بالجواب حسن ، ولا يشمت العاطسين أيضا . هذه شروط الصحة

فأما شروط الوجوب فلا تجب الجمعة إلا على ذكر ، بالغ ، عاقل ، مسلم ، حر ، مقيم فى

قرية تشتمل على أربعين جامعين لهذه الصفات ، أو فى قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف يليها ، والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت ، لقوله تعالى : (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ *) ويرخص لهؤلاء فى ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم غيره ، ثم يستحب لهم أعنى أصحاب الأعذار تأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة ، فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر أو عبد أو امرأة صحت جمعتهم وأجزأت عن الظهر . والله أعلم

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة

وهي عشرة جمل

الأول : أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها ، فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس ، لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة فى يوم الجمعة . قال بعض السلف : إن لله عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لايعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة . ويغسل فى هذا اليوم ثيابه ويبيضها ، ويعد الطيب إن لم يكن عنده ، ويفرغ قلبه من الأشغال التى تمنعه من البكور إلى الجمعة ، وينوى فى هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا ، وليكن مضموما إلى يوم الخميس أو السبت لامفردا ، فإنه مكروه . ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرءان ، فلها فضل كثير ، وينسحب عليها فضل يوم الجمعة ، ويجامع أهله فى هذه الليلة أو فى يوم الجمعة ، فقد استحب ذلك قوم حملوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم [1] « رَحِمَ اللهُ مَنْ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَغَسَّلَ وَاغْتَسَلَ » وهو حمل الأهل على الغسل . وقيل : معناه غسل ثيابه ، فروى بالتخفيف ، واغتسل لجسده . وبهذا تم آداب الاستقبال ، ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا : ماهذا اليوم ؟ قال بعض السلف : أوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس ، وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول إيش اليوم ؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة فى الجامع لأجلها

(١) حديث رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل الحديث : أصحاب السنن . وحسنه الترمذي وصححه من حديث أوس بن أوس . من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر الحديث وحسنه .

* الجمعة : ٩

الثانى : إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحب ، ليكون أقرب عهدا بالنظافة ، فالغسل مستحب استحبابا مؤكدا . وذهب بعض العلماء إلى وجوبه ، قال صلى الله عليه وسلم: (١) « غُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ » والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما (٢) « مَنْ أَتَى الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ شَهِدَ الْجُمُعَةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَلْيَغْتَسِلْ » وكان أهل المدينة إذا تسابَّ المتسابان يقول أحدهما للآخر : لأنت أشر ممن لا يغتسل يوم الجمعة (٤) وقال عمر لعثمان رضى الله عنهما لما دخل وهو يخطب : أهذه الساعة ! منكرا عليه ترك البكور، فقال : ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت ، فقال : والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل !

وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضى الله عنه ، وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم (٥) قال « مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَبِهَا وَنِعْمَتْ وَمَنِ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ » ومن اغتسل للجنابة فليفض الماء على بدنه مرة أخرى على نية غسل الجمعة ، فان اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة فى غسل الجنابة . وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له : أللجمعة ؟ فقال : بل عن الجنابة ، فقال أعد غسلا ثانياً ، وروى الحديث فى غسل الجمعة على كل محتلم ، وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه . وكان لا يبعد أن يقال : المقصود النظافة وقد حصلت دون النية ، ولكن هذا ينقدح فى الوضوء أيضا ، وقد جعل فى الشرع قربة فلا بد من طلب فضلها . ومن اغتسل ثم أحدث توضأ ولم يبطل غسله ، والأحب أن يحترز عن ذلك .

---

(١) حديث غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم : متفق عليه من حديث أبى سعيد

(٢) حديث نافع عن ابن عمر من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل : متفق عليه . وهذا لفظ حب

(٣) حديث من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا : حب وهق من حديث ابن عمر

(٤) حديث قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب أهذه الساعة ـ الحديث: الى أن قال والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل: متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يسم البخارى وعثمان

(٥) حديث من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ـ الحديث: د ت وحسنه و ن من حديث سمرة

الثالث : الزينة وهى مستحبة فى هذا اليوم ، وهى ثلاثة : الكسوة ، والنظافة ، وتطييب الرائحة

أما النظافة فبالسواك ، وحلق الشعر ، وقلم الظفر وقص الشارب ، وسائر ماسبق فى كتاب الطهارة . قال ابن مسعود : من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منه داء وأدخل فيه شفاء ، فان كان قد دخل الحمام فى الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود ، فليتطيب فى هذا اليوم بأطيب طيب عنده ، ليغلب بها الروائح الكريهة ، ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين فى جواره . [١] وأحب طيب الرجال ماظهر ريحه وخفى لونه ، وطيب النساء ماظهر لونه وخفى ريحه . روى ذلك فى الأثر . وقال الشافعى رضى الله عنه : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله

وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب ، إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض ، ولا يلبس ما فيه شهرة ، ولبس السواد ليس من السنة ، ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر اليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعمامة مستحبة فى هذا اليوم [٢] روى واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى أَصْحَابِ الْعَمَائِمِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ » فإن أكربه الحر فلا بأس بنزعها قبل الصلاة وبعدها ، ولكن لا ينزع فى وقت السعى من المنزل إلى الجمعة ، ولا فى وقت الصلاة ، ولا عند صعود الامام المنبر ولا فى خطبته

الرابع : البكور إلى الجامع ، ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين ، وثلاث ، وليبكر . ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر ، وفضل البكور عظيم . وينبغى أن يكون فى سعيه إلى الجمعة خاشعا متواضعا ناويا للاعتكاف فى المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للمبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة إياه ، والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه.

---

(١) حديث طيب الرجال ماظهر ريحه وخفى لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه: د ت وحسنه و ن من حديث أبى هريرة

(٢) حديث واثلة بن الأسقع ان الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة: ط وعد وقال منكر من حديث أبى الدرداء ولم أره من حديث واثلة

وقد قال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ رَاحَ إِلَى الْجُمُعَةِ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَى دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَى بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طُوِيَتِ الصُّحُفُ وَرُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَاجْتَمَعَتِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ ، فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا جَاءَ لِحَقِّ الصَّلَاةِ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ شَيْءٌ » والساعة الأولى إلى طلوع الشمس ، والثانية إلى ارتفاعها ، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال ، وفضلها قليل ، ووقت الزوال حق الصلاة ، ولا فضل فيه

وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « ثَلَاثٌ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِيهِنَّ لَرَكَضُوا رَكْضَ الْإِبِلِ فِي طَلَبِهِنَّ : الْأَذَانُ ، وَالصَّفُّ الْأَوَّلُ ، وَالْغُدُوُّ إِلَى الْجُمُعَةِ » وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : أفضلهن الغدو إلى الجمعة . وفى الخبر : (٣) « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ بِأَيْدِيهِمْ صُحُفٌ مِنْ فِضَّةٍ وَأَقْلَامٌ مِنْ ذَهَبٍ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ » وجاء فى الخبر : (٤) « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَفَقَّدُونَ الرَّجُلَ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ

(١) حديث من راح الى الجمعة فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ـ الحديث متفق عليه : من حديث أبى هريرة وليس فيه ورفعت الأقلام وهذه اللفظة عند البيهقى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٢) حديث ثلاث لو يعلم الناس مافيهن لركضوا ركض الابل فى طلبهن الأذان والصف الأول والغدو الى الجمعة : أبو الشيخ فى ثواب الأعمال من حديث أبى هريرة ثلاث لو يعلم الناس مافيهن ما أخذته الابالاستهام عليها حرصا على مافيهن من الخير والبركة ـ الحديث قال والتهجير الى الجمعة وفى الصحيحين من حديثه لو يعلم الناس مافى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا الا أن يستهموا لاستهموا ولو يعلمون مافى التهجير لاستبقوا اليه

(٣) حديث اذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب ـ الحديث ابن مردويه فى التفسير من حديث على باسناد ضعيف اذا كان يوم الجمعة نزل جبريل فركز لواءه بالمسجد الحرام وغدا سائر الملائكة الى المساجد التى يجمع فيها يوم الجمعة فركزوا ألويتهم وراياتهم بباب المساجد ثم نشروا قراطيس من فضة وأقلاما من ذهب

(٤) حديث ان الملائكة يتفقدون العبد اذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً مافعل فلان

يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَنْهُ : مَا فَعَلَ فُلاَنٌ وَمَا الَّذِي أَخَّرَهُ عَنْ وَقْتِهِ ؟ فَيَقُولُونَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَخَّرَهُ فَقْرٌ فَاغْنِهِ ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ مَرَضٌ فَاشْفِهِ ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ شُغْلٌ فَفَرِّغْهُ لِعِبَادَتِكَ ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ لَهْوٌ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِهِ إِلَى طَاعَتِكَ »

وكان يرى فى القرن الأول سحرا وبعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون فى السرج ، ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك . فقيل : أول بدعة حدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجامع ، وكيف لا يستحى المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد ، وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والربح ، فلم لا يسابقهم طلاب الآخرة

ويقال إن الناس يكونون فى قربهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة . ودخل ابن مسعود رضى الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثه نفر قد سبقوه بالبكور ، فاغتم لذلك وجعل يقول فى نفسه معاتبا لها : رابع أربعة ، وما رابع أربعة من البكور ببعيد

الخامس : فى هيئة الدخول ، ينبغى أن لا يتخطى رقاب الناس ، ولا يمر بين أيديهم ، والبكور يسهل ذلك عليه ، فقد ورد وعيد شديد [1] فى تَخَطِّى الرِّقَابِ وهو أنه يُجْعَلُ جِسْراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَخَطَّاهُ النَّاسُ [2] وروى ابن جريج مرسلا : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ رَأَى رَجُلاً يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى تَقَدَّمَ فَجَلَسَ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم صَلاَتَهُ عَارَضَ الرَّجُلَ حَتَّى لَقِيَهُ فَقَالَ : يَا فُلاَنُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجَمِّعَ الْيَوْمَ مَعَنَا ؟ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ جَمَّعْتُ مَعَكُمْ . فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : أَلَمْ نَرَكَ تَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ !؟ » أشار به إلى أنه أحبط عمله

هق من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة ونقص باسناد حسن واعلم أن المصنف ذكر هذ أثرا فان لم يردبه حديثا مرفوعا فليس من شرطنا وانما ذكرناه احتياطا

(١) حديث من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسرا الى جهنم : ت وضعفه و هـ من حديث معاذ بن أنس

(٢) حديث ابن جريج مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب اذ رآى رجلا يتخطى رقاب الناس الحديث وفيه مامنعك أن تجمع معنا اليوم ابن المبارك فى الرقائق

وفى حديث مسند أنه قال : (١) « مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَنَا ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تَرَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » فقال صلى الله عليه وسلم : رَأَيْتُكَ تَأَنَّيْتَ وَآذَيْتَ » : أى تأخرت عن البكور وآذيت الحضور . ومهما كان الصف الأول متروكا خاليا فله أن يتخطى رقاب الناس ، لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة . قال الحسن : تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فانه لا حرمة لهم . وإذا لم يكن فى المسجد إلا من يصلى فينبغى أن لا يسلم لأنه تكليف جواب فى غير محله

السادس : أن لا يمر بين يدى الناس ويجلس حيث هو إلى قرب اسطوانة أو حائط حتى لا يمرون بين يديه ، أعنى بين يدى المصلى ، فإن ذلك لا يقطع الصلاة ، ولكنه منهى عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٢) : « لَأَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ عَاماً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي » وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « لَأَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ رَمَاداً رَمْدِيداً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي » وقد روى فى حديث آخر فى المار والمصلى حيث صلى على الطريق أو قصر فى الدفع ، فقال : « لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي وَالْمُصَلِّي مَا عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ سَنَةً خَيْراً لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ » والإسطوانة والحائط والمصلى المفروش حد للمصلى ، فمن اجتاز به فينبغى أن يدفعه ، قال صلى الله عليه وسلم : (٤) « لِيَدْفَعْهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيَدْفَعْهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ »

وكان أبو سعيد الخضرى رضى الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه ، فربما

---

(١) حديث ما منعك أن تصلى معنا فقال أولم ترنى قال رأيتك آنيت وآذيت : د ن حب ك من حديث عبد الله بن بسر مختصرا

(٢) حديث لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدى المصلى : البزار من حديث زيد بن خالد وفى الصحيحين من حديث أبى جهم أن يقف أربعين قال أبو النضر لا أدرى أربعين يوما أو شهراً أو سنة و ه وحب من حديث أبى هريرة مائة عام

(٣) حديث لأن يكون الرجل رمادا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلى : أبو نعيم فى تاريخ اصبهان وابن عبد البر فى التمهيد موقوفا على عبد الله بن عمر وزاد متعمدا

(٤) حديث لو يعلم المار بين المصلى والمصلى ما عليها فى ذلك ــ الحديث : رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى السراج فى مسنده من حديث زيد بن خالد باسناد صحيح

(٥) حديث أبى سعيد فليدفعه فان أبى فليقاتله فانما هو شيطان ــ متفق عليه

تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان ، فيخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك فإن لم يجد اسطوانة فلينصب بين يديه شيئا طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده

السابع: أن يطلب الصف الأول فإن فضله كثير كما رويناه وفي الحديث: [١] « مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ وَزِيَادَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » وفي لفظ آخر : « غَفَرَ اللَّهُ لَهُ إِلَى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى » [٢] وقد اشترط في بعضها : ولم يتخط رقاب الناس

ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور :

أولها : أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكرا يعجز عن تغييره من لبس حرير أو غيره من الإمام أو غيره ، أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل ، أو سلاح مذهب أو غير ذلك مما يجب فيه الإنكار ، فالتأخر له أسلم وأجمع للهم . فعل ذلك جماعة من العلماء طلبا للسلامة . قيل لبشر بن الحارث : نراك تبكر وتصلي في آخر الصفوف . فقال : إنما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد ، وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه . ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبي جعفر المنصور ، فلما فرغ من الصلاة قال : شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال يا أبا عبد الله أليس في الخبر [٣] أُدْنُ وَاسْتَمِعْ ؟ فقال ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن عامر : صليت إلى جنب أبي الدرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف فلما صلينا قلت له : أليس يقال : خير الصفوف أولها؟

---

(١) حديث من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الامام واستمع ـ الحديث : ك من حديث أوس ابن أوس وأصله عند أصحاب السنن

(٢) حديث انه اشترط في بعضها ولم يتخط رقاب الناس: د حب ك من حديث أبي سعيد وابي هريرة وقال صحيح على شرط م

(٣) حديث أدن فاستمع: د من حديث سمرة أحضروا الذكر وادنوا من الامام وتقدم بلفظ من هجرودنا واستمع وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد

قال نعم[١] إلا أن : هذه الأمة : مرحومة منظور إليها من بين الأمم ، فإن الله تعالى إذا نظر إلى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس ، فانما تأخرت رجاء أن يغفر لى بواحد منهم ينظر الله إليه . وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك . فمن تأخر على هذه النية إيثارا واظهارا لحسن الخلق فلا بأس . وعند هذا يقال : الأعمال بالنيات

ثانيها : إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلاطين فالصف الأول محبوب ، وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة. كان الحسن وبكر المزنى لا يصليان فى المقصورة ، ورأيا أنها قصرت على السلاطين ، وهى بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المساجد ، والمسجد مطلق لجميع الناس ، وقد اقتطع ذلك على خلافه ، وصلى أنس بن مالك وعمران بن حصين فى المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب . ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع . فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجب كراهة

وثالثها : أن المنبر يقطع بعض الصفوف ، وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذى فى فناء المنبر ، وما على طرفيه مقطوع . وكان الثورى يقول : الصف الأول هو الخارج بين يدى المنبر . وهو متجه لأنه متصل ، ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه. ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ، ولا يراعى هذا المعنى . وتكره الصلاة فى الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد . وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب

الثامن : أن يقطع الصلاة عند خروج الأمام ، ويقطع الكلام أيضاً بل يشتغل بجواب المؤذن ، ثم باستماع الخطبة ، وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ، ولم يثبت له أصل فى أثر ولا خبر ، ولكنه إن وافق سجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء ، لأنه وقت فاضل ، ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لتحريمه .

---

(١) حديث أبى الدرداء إن هذه الأمة مرحومة منظور اليها من بين الأمم وإن الله اذا نظر الى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس ولم أجده

وقد روى عن على وعثمان رضى الله عنهما أنهما قالا: من استمع وأنصت فله أجران، ومن لم يستمع وأنصت فله أجر، ومن سمع ولغا فعليه وزران، ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد

وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ أَنْصِتْ أَوْ مَهْ فَقَدْ لَغَا وَمَنْ لَغَا وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَلَا جُمُعَةَ لَهُ » وهذا يدل على أن الإسكات ينبغى أن يكون بإشارة أو رمى حصاة لا بالنطق وفى حديث أبى ذر : (٢) « أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَ أُبَيًّا وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ فَقَالَ مَتَى أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنِ اسْكُتْ ، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُ أُبَيٌّ اذْهَبْ فَلَا جُمُعَةَ لَكَ ، فَشَكَاهُ أَبُو ذَرٍّ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : صَدَقَ أُبَيٌّ . وإن كان بعيداً من الإمام فلا ينبغى أن يتكلم فى العلم وغيره بل يسكت ، لأن كل ذلك يتسلسل ويفضى إلى هينمة حتى ينتهى إلى المستمعين ، ولا يجلس فى حلقة من يتكلم فمن عجز عن الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب . وإذا كانت تكره الصّلاة فى وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية

وقال على كرم الله وجهه : تكره الصّلاة فى أربع ساعات : بعد الفجر، وبعد العصر، ونصف النهار ، والصّلاة والإمام يخطب

التاسع : أن يراعى فى قدوة الجمعة ما ذكرناه فى غيرها ، فاذا سمع قراءة الامام لم يقرأ سوى الفاتحة ، فإذا فرغ من الجمعة قرأ الحمد لله سبع مرات قبل أن يتكلم ، وقل هو الله أحد والمعوذتين سبعاً سبعاً . وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان

---

(١) حديث من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا لاجمعة له: ت ن عن أبى هريرة د و ت قوله ومن لغا فلا جمعة له قال ت حديث حسن صحيح وهو فى الصحيحين بلفظ اذا قلت لصاحبك و د من حديث على من قال صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له

(٢) حديث أبى ذر لما سأل أبيا والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب وقال متى أنزلت هذه السورة ـ الحديث: هق وقال فى المعرفة أسناده صحيح د ه من حديث أبى بن كعب بسند صحيح ان السائل له أبو الدرداء وأبو ذر ولاحمد من حديث أبى الدرداء انه سأل أبيا ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عبد الله بن مسعود ولأبى يعلى من حديث جابر قال : قال سعد بن أبى وقاص لرجل لا جمعة لك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لم يا سعد فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال صدق سعد

ويستحب أن يقول بعد الجمعة : اللهم يا غنى يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغننى بحلالك عن حرامك و بفضلك عمن سواك . يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب . ثم يصلى بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضى الله عنهما : « أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم (٣) كَانَ يُصَلِّى بَعْدَ الْجُمُعَةِ رَكْعَتَيْنِ » وروى أبو هريرة أربعاً (٤) وروى على وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما ستا (٥) والكل صحيح فى أحوال مختلفة ، والأكمل أفضل

العاشر : أن يلازم المسجد حتى يصلى العصر ، فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل . يقال من صلى العصر فى الجامع كان له ثواب الحج ، ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة ، فان لم يأمن التصنع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعنى . فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكراً الله عز وجل ، مفكراً فى آلائه ، شاكراً لله تعالى على توفيقه ، خائفاً من تقصيره ، مراقباً لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس ، حتى لا تفوته الساعة الشريفة . ولا ينبغى أن يتكلم فى الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا ، قال صلى الله عليه وسلم : (٦) « يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ حَدِيثُهُمْ فِى مَسَاجِدِهِمْ أَمْرُ دُنْيَاهُمْ لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ حَاجَةٌ فَلَا تُجَالِسُوهُمْ »

بيان السنن والآداب الخارجة عن الترتيب السابق

الذى يعم جميع النهار ، وهى سبعة أمور

الأول : أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ، ولا يحضر مجالس القُصاص فلا خير فى كلامهم ، ولا ينبغى أن يخلو المريد فى جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات

---

(١) حديث ابن عمر فى الركعتين بعد الجمعة ـ متفق عليه

(٢) حديث أبى هريرة فى الأربع ركعات بعد الجمعة : م اذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا

(٣) حديث على وعبد الله فى صلاة ست ركعات بعد الجمعة: هق مرفوعا عن على وله موقوفا على ابن مسعود أربعا و د من حديث ابن عمر كان اذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستا

(٤) حديث يأتى على أمتى زمان يكون حديثهم فى مساجدهم أمر دنياهم ـ الحديث: هق فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وأسنده ك من حديث أنس وصحح أسناده وحب نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

حتى توافيه الساعة الشريفة وهو فى خير ، ولا ينبغى أن يحضر الحلق قبل الصلاة . وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ [١] نَهَى عَنِ التَّحَلُّقِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ » إلا أن يكون عالما بالله ، يذكر بأيام الله ، ويفقه فى دين الله ، يتكلم فى الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعاً بين البكور وبين الاستماع ، واستماع العلم النافع فى الآخرة أفضل من اشتغاله بالنوافل [٢] فقد روى أبو ذر أن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ، قال أنس بن مالك فى قوله تعالى : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ *) : أما إنه ليس بطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض وشهود جنازة ، وتعلم علم ، وزيارة أخ فى الله عز وجل

وقد سمى الله عز وجل العلم فضلا فى مواضع : قال تعالى : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا *) وقال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً *) يعنى العلم . فتعلمُ العلم فى هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات ،

والصلاة أفضل من مجالس القُصَّاص ، إذ كانوا يرونه بدعة ، ويخرجون القصاص من الجامع . بكر ابن عمر رضى الله عنهما إلى مجلسه فى المسجد الجامع فاذا قاصٌ يقص فى موضعه ، فقال : قم عن مجلسى ، فقال : لا أقوم وقد جلست وسبقتك اليه . فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه . فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : [٣] « لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا » وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتي يعود إليه . وروى أن قاصّاً كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضى الله عنها ، فأرسلت إلى ابن عمر أن هذا قد آذانى بقصصه وشغلنى عن سبحتى ، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده

---

(١) حديث عبد الله بن عمر فى النهى عن التحلق يوم الجمعة : د ن و ه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولم أجده من حديث ابن عمر

(٢) حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة تقدم فى العلم

(٣) حديث لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر

* الجمعة : ١٠ * النساء : ١١٣ * سبأ : ١٠

الثاني : أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة ، ففي الخبر المشهور [١] « إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ » وفي خبر آخر [٢] « لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ يُصَلِّي » واختلف فيها فقيل إنها عند طلوع الشمس . وقيل عند الزوال . وقيل مع الأذان . وقيل إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة . وقيل إذا قام الناس إلى الصلاة . وقيل آخر وقت العصر أعني وقت الاختيار . وقيل قبل غروب الشمس [٣] . وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعي ذلك الوقت وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها ، فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس ، وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم وعليها . وقال بعض العلماء هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر ، حتى تتوفر الدواعي على مراقبتها . وقيل إنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر . وهذا هو الأشبه ، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ، ولكن ينبغي أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم [٤] « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا » ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام ، فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضا لها بإحضار القلب ، وملازمة الذكر ، والنزوع عن وساوس الدنيا ، فعساه يحظى بشيء من تلك النفحات

وقد قال كعب الأحبار : [٥] إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة ، وذلك عند الغروب ، فقال أبو هريرة : وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة ، فقال كعب : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ان في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه : ت ه من حديث عمرو ابن عوف المزني

(٢) حديث لا يصادفها عبد مصل : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث فاطمة في ساعة الجمعة : قط في العلل هق في الشعب وعلته الاختلاف

(٤) حديث إن لربكم في أيام دهركم نفحات ـ الحديث : الحكيم في النوادر وطب في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ولابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة واختلف في أسناده

(٥) حديث اختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام

« مَنْ قَعَدَ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي الصَّلَاةِ » قال بلى ، قال فذلك صلاة ، فسكت أبو هريرة . وكان كعب مائلاً إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم ، وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل . وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الامام المنبر ، فليكثر الدعاء فيهما

الثالث : يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ثَمَانِينَ مَرَّةً غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَ ثَمَانِينَ سَنَةً . قيل يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ ؟ قَالَ تَقُولُ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَتَعْقِدُ وَاحِدَةً ، وَإِنْ قُلْتَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ صَلَاةً تَكُونُ لَكَ رِضَاءً وَلِحَقِّهِ أَدَاءً وَأَعْطِهِ الْوَسِيلَةَ وَابْعَثْهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ وَاجْزِهِ عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ وَاجْزِهِ أَفْضَلَ مَا جَازَيْتَ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها فى سبع جمع فى كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم ، وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة (٢) فقال « اللَّهُمَّ اجْعَلْ فَضَائِلَ صَلَوَاتِكَ وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ وَشَرَائِفَ زَكَوَاتِكَ وَرَأْفَتَكَ وَرَحْمَتَكَ وَتَحِيَّتَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَائِدِ الْخَيْرِ وَفَاتِحِ الْبِرِّ وَنَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَسَيِّدِ الْأُمَّةِ اللَّهُمَّ ابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً تُزْلِفُ بِهِ قُرْبَهُ وَتُقِرُّ بِهِ عَيْنَهُ يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ اللَّهُمَّ أَعْطِهِ الْفَضْلَ وَالْفَضِيلَةَ وَالشَّرَفَ وَالْوَسِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ وَالْمَنْزِلَةَ الشَّامِخَةَ الْمُنِيفَةَ ، اللَّهُمَّ أَعْطِ مُحَمَّداً

من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة قلت وقع فى الاحياء أن كعبا هو القائل أنها آخر ساعة وليس كذلك وانما هو عبد الله بن سلام وأما كعب فانما قال إنها فى كل سنة مرة ثم رجع والحديث رواه د ت ن حب من حديث أبى هريرة و ه نحوه من حديث عبد الله بن سلام

(١) حديث من صلى فى يوم الجمعة ثمانين مرة ـ الحديث : قط من رواية ابن المسيب قال أظنه عن أبى هريرة وقال حديث غريب وقال ابن النعمان حديث حسن

(٢) حديث اللهم اجعل فضائل صلواتك ـ الحديث : ابن أبى عاصم فى كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه بسند ضعيف وقفه على ابن مسعود

سُؤْلَهُ وَبَلِّغْهُ مَأْمُولَهُ وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ شَافِعٍ وَأَوَّلَ مُشَفَّعٍ ، اللَّهُمَّ عَظِّمْ بُرْهَانَهُ وَثَقِّلْ مِيزَانَهُ وَأَبْلِغْ حُجَّتَهُ وَارْفَعْ فِي أَعْلَى الْمُقَرَّبِينَ دَرَجَتَهُ ، اللَّهُمَّ احْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِهِ وَأَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ وَتَوَفَّنَا عَلَى مِلَّتِهِ وَأَوْرِدْنَا حَوْضَهُ وَاسْقِنَا بِكَأْسِهِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَادِمِينَ وَلَا شَاكِّينَ وَلَا مُبَدِّلِينَ وَلَا فَاتِنِينَ وَلَا مَفْتُونِينَ ، آمِينَ يَارَبَّ الْعَالَمِينَ »

وعلى الجملة فكل ماأتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهورة فى التشهد كان مصليا ، وينبغى أن يضيف إليه الاستغفار ، فإن ذلك أيضاً مستحب فى هذا اليوم

الرابع : قراءة القرآن فليكثر منه ، وليقرأ سورة الكهف خاصة فقد روى عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهما [1] « أَنَّ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَوْيَوْمَ الْجُمُعَةِ أُعْطِيَ نُورًا مِنْ حَيْثُ يَقْرَؤُهَا إِلَى مَكَّةَ وَغُفِرَلَهُ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى وَفَضْلَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَصَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ وَعُوفِيَ مِنَ الدَّاءِ وَالدُّبَيْلَةِ وَذَاتِ الْجَنْبِ وَالْبَرَصِ وَالْجُذَامِ وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ » ويستحب أن يختم القرءان فى يوم الجمعة وليلتها إن قدر، وليكن ختمه للقرءان فى ركعتى الفجر إن قرأ بالليل . أوفى ركعتى المغرب ، أو بين الأذان والإقامة للجمعة ، فله فضل عظيم . وكان العابدون يستحبون أن يقرءوا يوم الجمعة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ألف مرة ، ويقال إن من قرأها فى عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة ، وكانوا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة . وكانوا يقولون : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ألف مرة ، وإن قرأ المسبعات الست فى يوم الجمعة أو ليلتها فحسن ، وليس يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورا بأعيانها إلا فى يوم الجمعة وليلتها « كَانَ [2] يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ سُورَةَ الْجُمُعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ »

---

(١) حديث ابن عباس وأبى هريرة من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة ـ الحديث : لم أجده من حديثهما

(٢) حديث القراءة فى المغرب ليلة الجمعة قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد وفى عشائها الجمعة والمنافقين حب وهق من حديث سمرة وفى ثقات حب المحفوظ عن سماك مرسلا قلت لايصح مسندا ولا مرسلا

وروى « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) كَانَ يَقْرَؤُهُمَا فِي رَكْعَتَيِ الْجُمُعَةِ وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سُورَةَ سَجْدَةِ لُقْمَانَ وَسُورَةَ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ »

الخامس : الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لايجلس حتى يصلى أربع ركعات يقرأ فيهن (٢) قل هو الله أحد مائتى مرة فى كل ركعة خمسين مرة ، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنَّ مَنْ فَعَلَهُ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ » أو يرى له ، ولايدع ركعتى التحية وإن كان الإمام يخطب ، ولكن يخفف (٣) أمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بذلك . وفى حديث غريب « أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم (٤) سَكَتَ لِلدَّاخِلِ حَتَّى صَلَّاهُمَا » فقالَ الكوفيون إن سكت له الإمام صلاهما . ويستحب فى هذا اليوم أوفى ليلته أن يصلى أربع ركعات بأربع سور : الأنعام ، والكهف ، وطه ، ويس . فإن لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك ، ولايدع قراءة هذه الأربع سور فى ليلة الجمعة ، ففيها فضل كثير . ومن لايحسن القرءان قرأ مايحسن فهو له بمنزلة الختمة ، ويكثر من قراءة سورة الإخلاص . ويستحب أن يصلى صلاة التسبيح كما سيأتى فى باب التطوّعات كيفيتها (٥) لأنَّهُ صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس « صَلِّهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ » وكان ابن عباس رضى الله عنهما لايدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال ، وكان يخبر عن جلالة فضلها . والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة ، وبعد الجمعة إلى العصر لاستماع العلم ، وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار

---

(١) حديث القراءة فى الجمعة بالجمعة والمناقين وفى صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى : م من حديث ابن عباس وأبى هريرة

(٢) حديث من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ فيها قل هو الله أحد مائتى مرة ـ الحديث الخطيب فى الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال غريب جدا

(٣) حديث الامر بالتخفيف فى التحية إذا دخل والامام يخطب : م من حديث جابر وخ الامر بالركعتين ولم يذكر التخفيف

(٤) حديث سكوته صلى الله عليه وسلم عن الخطبة للداخل حتى فرغ من التحية : قط من حديث أنس وقال أسنده عبيد بن محمد ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلا

(٥) حديث صلاة التسبيح وقوله لعمه العباس صلها فى كل جمعة : د ه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال عق وغيره ليس فيها حديث صحيح

السادس : الصدقة مستحبة فى هذا اليوم خاصة ، فإنها تتضاعف إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم فى كلام الإمام ، فهذا مكروه . وقال صالح بن محمد : سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب وكان إلى جانب أبى ، فأعطى رجل أبى قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبى . وقال ابن مسعود : إذا سأل رجل فى المسجد فقد استحق أن لا يعطى ، وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه . ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال فى الجامع الذين يتخطون رقاب الناس ، إلا أن يسأل قائماً أو قاعداً فى مكانه من غير تخط وقال كعب الأحبار : من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول : اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم ، وباسمك الذى لا إله إلا الله هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه . وقال بعض السلف : من أطعم مسكيناً يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام : بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أسألك أن تغفر لى وترحمنى وتعافينى من النار ثم دعا بما بدا له استجيب له

السابع : أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ، ويكثر فيه الأوراد ، ولا يبتدئ فيه السفر[1] فقد روى « أَنَّهُ مَنْ سَافَرَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ دَعَا عَلَيْهِ مَلَكَاهُ » وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت . وكره بعض السلف شراء الماء فى المسجد من السقاء ليشربه أو يسبله حتى لا يكون مبتاعا فى المسجد فان البيع والشراء فى المسجد مكروه ، وقالوا لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل فى المسجد

وبالجملة ينبغى أن يزيد فى الجمعة فى أوراده وأنواع خيراته ، فإن الله سبحانه إذا أحب عبداً استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال ، وإذا مقته استعمله فى الأوقات الفاضلة بسيئ الأعمال ، ليكون ذلك أوجع فى عتابه ، وأشد لمقته ، لحرمانه بركة الوقت ، وانتهاكه حرمة الوقت . ويستحب فى الجمعة دعوات وسيأتى ذكرها فى كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى . وصلى الله على كل عبد مصطفى

(١) حديث من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه : قط فى الأفراد من حديث ابن عمر وفيه ابن لهيعة وقال عهيب والخطيب فى الرواة عن مالك من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

الباب السادس

فى مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأما المسائل التى تقع نادرة فقد استقصيناها فى كتب الفقه

مسألة :

الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصَّلاة فهو مكروه إلا لحاجة ، وذلك فى دفع المار ، وقتل العقرب التى تخاف ويمكن قتلها بضربة أوبضربتين ، فإذا صارت ثلاثا فقد كثرت وبطلت الصَّلاة ، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما ، وكذلك حاجته إلى الحك الذى يشوش عليه الخشوع . كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث فى الصَّلاة ، وابن عمر كان يقتل القملة فى الصَّلاة حتى يظهر الدم على يده . وقال النخعى . يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها . وقال ابن المسيب يأخذها ويخدّرها ثم يطرحها . وقال مجاهد : الأحب إلىّ أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدر ما لا تؤذى ثم يلقيها . وهذه رخصة ، وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل ، ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب ، وقال : لا أعود نفسى ذلك فيفسد علىّ صلاتى ، وقد سمعت أن الفساق بين يدى الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون . ومهما تثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأولى ، وإن عطس حمد الله عز وجل فى نفسه ولا يحرك لسانه ، وإن تجشأ فينبغى أن لا يرفع رأسه إلى السماء ، وإن سقط رداؤه فلا ينبغى أن يسويه ، وكذلك أطراف عمامته ، فكل ذلك مكروه إلا لضرورة

مسألة :

الصَّلاة فى النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلا وليست الرخصة فى الخف لعسر النزع بل هذه النجاسة معفو عنها وفى معناها المداس « صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] فِى نَعْلَيْهِ ثُمَّ نَزَعَ فَنَزَعَ النَّاسُ نِعَالَهُمْ ، فَقَالَ لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ ؟ قَالُوا : رَأَيْنَاكَ

﴿ الباب السادس ﴾

(١) حديث صلى فى نعليه ثم نزع فنزع الناس نعالهم ـ الحديث : أحمد واللفظ له دك وصححه من حديث أبى سعيد

خَلَعْتَ نَعْلَيْكَ فَخَلَعْنَا ، فَقَالَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا خَبَثًا ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقْلِبْ نَعْلَيْهِ وَلْيَنْظُرْ فِيهِمَا فَإِنْ رَأَى خَبَثًا فَلْيَمْسَحْهُ بِالْأَرْضِ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا » وقال بعضهم : الصّلاة في النعلين أفضل ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ ؟ وهذه مبالغة ، فإنه صلى الله عليه وسلم سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته وقد روى عبد الله بن السائب [1] « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلَعَ نَعْلَيْهِ » فإذاً قد فعل كليهما ، فمن خلع فلا ينبغي أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف ، بل يضعهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتا اليهما . ولعل من رأى الصّلاة فيهما أفضل راعى هذا المعنى وهو التفات القلب اليهما . روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم [2] قال : إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ نَعْلَيْهِ بَيْنَ رِجْلَيْهِ » وقال أبو هريرة لغيره اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما « وَوَضَعَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3] عَلَى يَسَارِهِ وَكَانَ إِمَامًا » فللإمام أن يفعل ذلك ، إذ لا يقف أحد على يساره ، والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فيشغلانه ولكن قدام قدميه ، ولعله المراد بالحديث . وقد قال جبير بن مطعم : وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة

مسألة :

إذا بزق في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل ، وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاما وليس على شكل حروف الكلام ، إلا أنه مكروه ، فينبغي أن يحترز منه ، إلا كما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : إذ روى بعض الصحابة « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [4] رَأَى فِي الْقِبْلَةِ نُخَامَةً فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا ثُمَّ حَكَّهَا بِعُرْجُونٍ كَانَ فِي يَدِهِ وَقَالَ ائْتُونِي بِعَبِيرٍ فَلَطَخَ أَثَرَهَا بِزَعْفَرَانٍ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا وَقَالَ : أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُبْزَقَ فِي وَجْهِهِ ؟

(١) حديث عبد الله بن السائب في خلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه : م
(٢) حديث أبي هريرة إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه : د بسند صحيح وضعفه المنذري وليس بجيد
(٣) حديث وضعه نعليه على يساره : م من حديث عبد الله بن السائب
(٤) حديث رأى في القبلة نخامة فغضب ـ الحديث : م من حديث جابر واتفقا عليه مختصرا من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر

فَقُلْنَا لَا أَحَدَ ، قَالَ : فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ » وفى لفظ آخر : « وَاجَهَهُ اللهُ تَعَالَى فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلَكِنْ عَنْ شِمَالِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى فَإِنْ بَدَرَتْهُ بَادِرَةٌ فَلْيَبْصُقْ فِي ثَوْبِهِ وَلْيَقُلْ بِهِ هَكَذَا » وَدَلَكَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ

مسألة :

لوقوف المقتدى سنة وفرض . أما السنة فأن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلا ، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام ، فان وقفت بجنب الامام لم يضر ذلك ، ولكن خالفت السنة ، فان كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الإمام وهى خلف الرجل ، ولا يقف أحد خلف الصف منفرداً ، بل يدخل فى الصف ، أو يجرّ إلى نفسه واحداً من الصف ، فان وقف منفرداً صحت صلاته مع الكراهية

وأما الفرض فاتصال الصف ، وهو أن يكون بين المقتدى والإمام رابطة جامعة ، فإنهما فى جماعة ، فإن كانا فى مسجد كفى ذلك جامعاً لأنه بنى له ، فلا يحتاج إلى اتصال صف ، بل إلى أن يعرف أفعال الإمام ، صلى أبو هريرة رضى الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الإمام . وإذا كان المأموم على فناء المسجد فى طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرّق فيكفى القرب بقدر غلوة سهم ، وكفى بها رابطة ، إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر ، وإنما يشترط إذا وقف فى صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطئ فى المسجد ، فالشرط أن يمد صف المسجد فى دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن ثم تصح صلاة من فى ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه ، وهكذا حكم الأبنية المختلفة ، فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء

مسألة :

المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أوّل صلاته ، فليوافق الإمام وليبن عليه ، وليقنت فى الصبح فى آخر صلاة نفسه وإن قنت مع الإمام ، وإن أدرك مع الامام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء ، وليبدأ بالفاتحة وليخففها ، فان ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه فى اعتداله من الركوع فليتم ، فان عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق

وإن ركع الإمام وهو فى السورة فليقطعها ، وإن أدرك الإمام فى السجود أو التشهد كبّر للإحرام ثم جلس ولم يكبر ، بخلاف ما إذا أدركه فى الركوع فإنه يكبر ثانيا فى الهوى ، لأن ذلك انتقال محسوب له ، والتكبيرات للانتقالات الأصلية فى الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة ، ولا يكون مدركا للركعة مالم يطمئن راكعاً فى الركوع والامام بعد فى حدّ الراكعين ، فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الامام حدّ الراكعين فاتته تلك الركعة

مسألة :

من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أوّلا ثم العصر ، فان ابتدأ بالعصر أجزأه ، ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف ، فان وجد إماماً فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده ، فإن الجماعة بالأداء أولى ، فان صلى منفردا فى أوّل الوقت ثم أدرك جماعة صلى فى الجماعة ونوى صلاة الوقت ، والله يحتسب أيهما شاء ، فان نوى فائتة أو تطوّعا جاز ، وان كان قد صلى فى الجماعة فأدرك جماعة أخرى فلينو الفائتة أو النافلة ، فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له ، وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة

مسألة :

من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه ، ولو رأى النجاسة فى أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم ، والأحب الاستئناف وأصل هذا قصة خلع النعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فانه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة

مسألة :

من ترك التشهد الأوّل أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأول أو فعل فعلا سهوا ، وكانت تبطل الصلاة بتعمده ، أو شك فلم يدر أصلى ثلاثا أو أربعا ، أخذ باليقين وسجد سجدتى السهو قبل السلام ، فان نسى فبعد السلام مهما تذكر على القرب ، فإن سجد بعد السلام ، وبعد أن أحدث ، بطلت صلاته ، فإنه لما دخل

فى السجود كأنه جعل سلامه نسيانا فى غير محله ، فلا يحصل التحلل به ، وعاد إلى الصلاة ، فلذلك يستأنف السلام بعد السجود ، فان تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد ، أو بعد طول الفصل فقدفات

مسألة :

الوسوسة فى نية الصلاة : سببها خبل فى العقل أو جهل بالشرع ، لأن امتثال أمر الله عز وجل مثل امتثال أمر غيره ، وتعظيمه كتعظيم غيره فى حق القصد ، ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال نويت أن أنتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله متصلا بدخوله مقبلا عليه بوجهى ، كان سفها فى عقله ، بل كما يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظما ، إلا إذا قام لشغل آخر أو فى غفلة . واشتراط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا فى كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الاقبال بالوجه على الداخل ، وانتفاء باعث آخر سواه وقصد التعظيم به ليكون تعظيما ، فانه لو قام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكون معظما . ثم هذه الصفات لابد وأن تكون معلومة ، وأن تكون مقصودة ، ثم لايطول حضورها فى النفس فى لحظة واحدة ، وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها ، إما تلفظا باللسان ، وإما تفكرا بالقلب ، فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية ، فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلى فى وقت فأجبت وقمت ، فالوسوسة محض الجهل ، فان هذه القصود وهذه العلوم تجتمع فى النفس فى حالة واحدة ، ولاتكون مفصلة الآحاد فى الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها ، وفرق بين حضور الشىء فى النفس وبين تفصيله بالفكر ، والحضور مضاد للعزوب والغفلة وإن لم يكن مفصلا ، فان من علم الحادث مثلا فيعامه بعلم واحد فى حالة واحدة ، وهذا العلم يتضمن علوما هى حاضرة وإن لم تكن مفصلة ، فان من علم الحادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدّم والتأخر والزمان ، وأن التقدم للعدم ، وأن التأخر للوجود . فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحادث ، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له : هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدم والمتأخر فقال ما عرفته قط ، كان كاذبا ، وكان قوله مناقضا لقوله : إنى أعلم الحادث

ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس ، فان الموسوس يكلف نفسه أن يحضر فى قلبه الظهرية والأدائية والفرضية فى حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها ، وذلك محال، ولو كلف نفسه ذلك فى القيام لأجل العالم لتعذر عليه ، فبهذه المعرفة يندفع الوسواس ، وهو أن يعلم أن امتثال أمر الله سبحانه فى النية كامتثال أمر غيره

ثم أزيد عليه على سبيل التسهيل والترخص وأقول : لولم يفهم الموسوس النية إلا باحضار هذه الأمور مفصلة ، ولم يتمثل فى نفسه الامتثال دفعة واحدة ، وأحضر جملة ذلك فى أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لايفرغ من التكبير الاوقد حصلت النية ، كفاه ذلك ولا نكلفه أن يقرن الجميع بأوّل التكبير أو آخره ، فان ذلك تكليف شطط ، ولوكان مأموراً به لوقع للأوّلين سؤال عنه ، ولوسوس واحد من الصحابة فى النية ، فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل ، فكيفما تيسرت النية للموسوس ينبغى أن يقنع به حتى يتعوّد ذلك وتفارقه الوسوسة ، ولايطالب نفسه بتحقيق ذلك ، فان التحقيق يزيد فى الوسوسة . وقد ذكرنا فى الفتاوى وجوهاً من التحقيق فى تحقيق العلوم والقصود المتعلقة بالنية تفتقر العلماء إلى معرفتها ، أما العامة فربما ضرها سماعها ويهيج عليها الوسواس ، فلذلك تركناها

مسألة :

ينبغى أن لايتقدّم المأموم على الامام فى الركوع والسجود والرفع منهما ولافى سائر الأعمال ، ولاينبغى أن يساويه بل يتبعه ويقفو أثره ، فهذا معنى الاقتداء ، فإن ساواه عمداً لم تبطل صلاته كما لووقف بجنبه غير متأخر عنه ، فان تقدم عليه ففى بطلان صلاته خلاف ، ولا يبعد أن يقضى بالبطلان تشبيها بما لوتقدم فى الموقف على الإمام ، بل هذا أولى ، لأن الجماعة اقتداء فى الفعل لافى الموقف ، فالتبعية فى الفعل أهمّ ، وإنما شرط ترك التقدم فى الموقف تسهيلاً للمتابعة فى الفعل ، وتحصيلا لصورة التبعية ، إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدم ، فالتقدم عليه فى الفعل لاوجه له إلا أن يكون سهواً ، ولذلك شدد رسول الله

صلى الله عليه وسلم النكير فيه فقال(١) « أما يَخْشَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ » وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة ، وذلك بأن يعتدل الامام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ، ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه ، فان وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الراكعين بطلت صلاته ، وكذا إن وضع الامام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأوّل

مسألة :

حق على من حضر الصّلاة إذا رأى من غيره إساءة فى صلاته أن يغيره وينكر عليه ، وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه ، فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد الوقوف خارج الصف ، والانكار على من يرفع رأسه قبل الإمام ، إلى غير ذلك من الأمور فقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « وَيْلٌ لِلْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ حَيْثُ لَا يُعَلِّمُهُ » وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه فى وزرها . وعن بلال بن سعد أنه قال الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ، فإذا أظهرت فلم تغير أضرت بالعامة . وجاء(٣) فى الحديث « أَنَّ بِلَالاً كَانَ يُسَوِّى الصُّفُوفَ وَيَضْرِبُ عَرَاقِيبَهُمْ بِالدِّرَّةِ » وعن عمر رضى الله عنه قال : تفقدوا اخوانكم فى الصلاة فإذا فقدتموهم ، فان كانوا مرضى فعودوهم ، وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم . والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ، ولا ينبغى أن يتساهل فيه . وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذى يتأخر عن الجماعة دون الحى . ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد يمين الصف ، ولذلك تزاحم الناس عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) حتى قيل له . تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ عَمَرَ مَيْسَرَةَ الْمَسْجِدِ كَانَ لَهُ كِفْلَانِ مِنَ الْأَجْرِ » ومهما وجد غلاما فى الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرجه إلى خلف ويدخل فيه ، أعنى إذا لم يكن بالغا . وهذا ماأردنا أن نذكره من المسائل التى تعم بها البلوى . وسيأتى أحكام الصلوات المتفرقة فى كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى

---

(١) حديث أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام : متفق عليه . من حديث أبى هريرة

(٢) حديث ويل للعالم من الجاهل ـ الحديث : صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث أن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة : لم أجده

(٤) حديث قيل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد ـ الحديث : همن حديث ابن عمر بسند ضعيف

الباب السابع

فى النوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سنن ، ومستحبات ، وتطوعات . ونعنى بالسنن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه : كالرواتب عقيب الصلوات ، وصلاة الضحى ، والوتر ، والتهجد ، وغيرها ، لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة ، ونعنى بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه كما سننقله فى صلوات الأيام والليالى فى الأسبوع ، وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه ، وأمثاله . ونعنى بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد فى عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب فى مناجاة الله عز وجل بالصّلاة التى ورد الشرع بفضلها مطلقاً فكأنه متبرع به ، إذ لم يندب إلى تلك الصّلاة بعينها وإن ندب إلى الصّلاة مطلقاً . والتطوع عبارة عن التبرع . وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملتها زائدة على الفرائض . فلفظ النافلة والسنة والمستحب والتطوع أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد ، ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح ، فلا مشاحة فى الألفاظ بعد فهم المقاصد . وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته فى الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار المعرّفة لفضلها ، وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ، ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد ، وأفضل سنن الجماعات صلاة العيد ، ثم الكسوف ، ثم الاستسقاء وأفضل سنن الانفراد الوتر ، ثم ركعتا الفجر ، ثم ما بعدهما من الرواتب على تفاوتها

واعلم أن النوافل باعتبار الإضافة إلى متعلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء ، وإلى ما يتعلق بأوقات ، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرر اليوم والليلة ، أو بتكرر الأسبوع ، أو بتكرر السنة . فالجملة أربعة أقسام

القسم الأول

ما يتكرر بتكرر الأيام والليالى وهى ثمانية : خمسة هى رواتب الصلوات الخمس ، وثلاثة وراءها وهى صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد

الأولى : راتبة الصبح ، وهى ركعتان : قال رسول الله صلى الله عليه سلم : [١] « رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . ويدخل وقتهما بطلوع الفجر الصادق ، وهو المستطير دون المستطيل ، وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير فى أوله ، إلا أن يتعلم منازل القمر ، أو يعلم اقتران طلوعه بالكواكب الظاهرة للبصر ، فيستدل بالكواكب عليه ، ويعرف بالقمر فى ليلتين من الشهر ، فان القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثنى عشر من الشهر . هذا هو الغالب . ويتطرق اليه تفاوت فى بعض البروج . وشرح ذلك يطول . وتعلُّم منازل القمر من المهمات للمريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح. ويفوت وقت ركعتى الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ولكن السنة أداؤهما قبل الفرض ، فان دخل المسجد وقد قامت الصَّلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه صلى الله عليه وسلم [٢] قال : « إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ صَلاَةَ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ » ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلاهما . والصحيح أنهما أداء ما وقعتا قبل طلوع الشمس ، لأنهما تابعتان للفرض فى وقته ، وإنما الترتيب بينهما سنة فى التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة ، فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقيتا أداء . والمستحب أن يصليهما فى المنزل ويخففهما ثم يدخل المسجد ويصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس ولا يصلى إلى أن يصلى المكتوبة ، وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب فيه الذكر والفكر والاقتصار على ركعتى الفجر والفريضة

الثانية : راتبة الظهر ، وهى ست ركعات : ركعتان بعدها وهى أيضاً سنة مؤكدة ، وأربع قبلها وهى أيضا سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين . روى أبو هريرة

﴿ الباب السابع ﴾

(١) حديث ركعتا الفجر خير من الدنيا ـ الحديث : م من حديث عائشة

(٢) حديث إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة م من حديث أبى هريرة

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال : « مَنْ صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ بَعْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ يُحْسِنُ قِرَاءَتَهُنَّ وَرُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ صَلَّى مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى اللَّيْلِ » « وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) لَا يَدَعُ أَرْبَعًا بَعْدَ الزَّوَالِ ، يُطِيلُهُنَّ وَيَقُولُ إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفَتَّحُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ لِي فِيهَا عَمَلٌ » رواه أبو أيوب الأنصاري وتفرد به ، ودل عليه أيضاً ما روت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم (٣) أنه قال : « مَنْ صَلَّى فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً غَيْرَ الْمَكْتُوبَةِ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ : وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ ، وَأَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْعَصْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ » وقال ابن عمر رضي الله عنهما : حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤) فِي كُلِّ يَوْمٍ عَشْرَ رَكَعَاتٍ فذكر ما ذكرته أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال : تلك ساعة لم يكن يدخل فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن حدثتني أختي حفصة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج . وقال في حديثه : ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعد العشاء ، فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة . ويدخل وقت ذلك بالزوال

والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبة مائلة إلى جهة الشرق ، إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب المغرب يستطيل ، فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار ، فيكون ذلك منتهى نقصان الظل ، فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة ،

---

(١) حديث أبي هريرة من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن ـ الحديث : ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغا من حديث ابن مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة

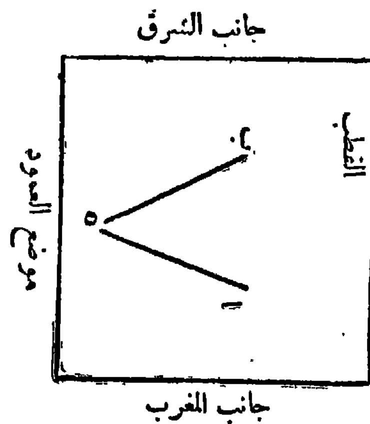
(٢) حديث أبي أيوب كان لا يدع أربعا بعد الزوال ـ الحديث : أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبي داود و ه مختصرا و ت نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حسن

(٣) حديث أم حبيبة من صلى في يوم اثنتي عشرة ركعة ـ الحديث : ن ك وصحح إسناده على شرط م ورواه م مختصرا ليس فيه تعيين أوقات الركعات

(٤) حديث ابن عمر حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات ـ الحديث متفق عليه واللفظ خ ولم يقل في كل يوم .

فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر ، ويعلم قطعاً أن الزوال فى علم الله سبحانه وقع قبله ، ولكن التكاليف لا ترتبط إلا بما يدخل تحت الحس . والقدر الباق من الظل الذى منه يأخذ فى الزيادة يطول فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدى ، ومنتهى قصره بلوغها أول السرطان . ويعرف ذلك بالأقدام والموازين

ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القلب الشمالى بالليل ويضع على الأرض لوحا مربعاً وضعاً مستويا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطاً من مسقط الحجر إلى الضلع الذى يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين ، أى لا يكون الخط مائلا إلى أحد الضلعين ، ثم تنصب عموداً على اللوح نصباً مستويا فى موضع علامة ه وهو بازاء القطب ، فيقع ظله على اللوح فى أول النهار مائلا إلى جهة المغرب فى صوب خط ا ثم لا يزال يميل إلى أن ينطبق على خط ب بحيث لو مد رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر ، ويكون موازيا للضلع الشرقى والغربى غير مائل إلى أحدهما فاذا بطل ميله إلى الجانب الغربى فالشمس فى منتهى الارتفاع ، فإذا انحرف الظل عن الخط الذى على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس . وهذا يدرك بالحس تحقيقاً فى وقت هو قريب من أول الزوال فى علم الله تعالى ، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة ، فاذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر. فهذا القدر لا بأس بمعرفته فى علم الزوال . وهذه صورته



الثالثة : راتبة العصر ، وهى أربع ركعات قبل العصر ، روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « رَحِمَ اللهُ عَبْداً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعاً » ففعل ذلك على رجاء الدخول فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستحب استحبابا مؤكداً ، فان دعوته تستجاب لامحالة. ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر

الرابعة : راتبة المغرب ، وهما ركعتان بعد الفريضة لم تختلف الرواية فيهما . وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن و إقامة المؤذن على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة كأُبيّ ابن كعب وعبادة بن الصامت وأبى ذر وزيد بن ثابت وغيرهم ، قال عبادة أو غيره « كَانَ الْمُؤَذِّنُ إِذَا أَذَّنَ لِصَلاَةِ الْمَغْرِبِ ابْتَدَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) السَّوَارِيَ يُصَلُّونَ رَكْعَتَيْنِ » وقال بعضهم : (٣) « كُنَّا نُصَلِّي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ حَتَّى يَدْخُلَ الدَّاخِلُ فَيَحْسَبُ أَنَّا صَلَّيْنَا فَيَسْأَلُ : أَصَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ ؟ » وذلك يدخل فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم : (٤) « بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاَةٌ لِمَنْ شَاءَ » وكان أحمد بن حنبل يصليهما فعابه الناس فتركهما ، فقيل له فى ذلك فقال : لم أر الناس يصلونهما فتركتهما ، وقال: لئن صلاهما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن

ويدخل وقت المغرب بغيبوبة الشمس عن الأبصار فى الأراضى المستوية التى ليست محفوفة بالجبال ، فإن كانت محفوفة بها فى جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق ، قال صلى الله عليه وسلم (٥) « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » والأحب المبادرة فى صلاة المغرب خاصة ، وإن أخرت وصليت

---

(١) حديث أبى هريرة رحم الله عبدا صلى أربعا قبل العصر : دت حب من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبى هريرة

(٢) حديث عبادة أو غيره فى ابتدار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السوارى إذا أذن لصلاة المغرب متفق عليه : من حديث أنس لا من حديث عبادة وروى عبد الله ابن أحمد فى زيادات المسند أن أبى بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركعتين قبل المغرب

(٣) حديث كنا نصلى الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا : م من حديث أنس

(٤) حديث بين كل أذانين صلاة لمن شاء : متفق عليه من حديث عبد الله بن مغفل

(٥) حديث اذا أقبل الليل من هاهنا ــ الحديث : متفق عليه من حديث عمر

قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ، ولـكنه مكروه . وأخر عمر رضى الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة ، وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين

الخامسة : راتبة العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة ، قالت عائشة رضى الله عنها « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١] يُصَلِّى بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ يَنَامُ » واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة: ركعتان قبل الصبح ، وأربع قبل الظهر ، وركعتان بعدها ، وأربع قبل العصر ، وركعتان بعد المغرب ، وثلاث بعد العشاء الآخرة ، وهى الوتر [٢] ومهما عرفت الاحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير ، فقد قال صلى الله عليه وسلم [٣] « الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ فَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ وَمَنْ شَاءَ أَقَلَّ » فإذاً اختيار كل مريد من هذه الصلوات بقدر رغبته فى الخير فقد ظهر فيما ذكرناه أن بعضها آكد من بعض ، وترك الآكد أبعد ، لاسيما والفرائض تكمل بالنوافل ، فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر

السادسة : الوتر ، قال أنس بن مالك « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٤] يُوتِرُ بَعْدَ الْعِشَاءِ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ يَقْرَأُ فِى الْأُولَى سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَفِى الثَّانِيَةِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ وَفِى الثَّالِثَةِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » وجاء فى الخبر « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٥] كَانَ يُصَلِّى بَعْدَ الْوِتْرِ رَكْعَتَيْنِ جَالِساً وَفِى بَعْضِهَا مُتَرَبِّعاً » وفى بعض الأخبار [٦] « إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فِرَاشَهُ زَحَفَ إِلَيْهِ وَصَلَّى فَوْقَهُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ يَقْرَأُ فِيهِمَا إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ وَسُورَةَ التَّكَاثُرِ » وفى رواية أخرى « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » ويجوز الوتر

---

(١) حديث عائشة كان يصلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام : د

(٢) حديث الوتر بثلاث بعد العشاء : أحمد واللفظ له والنسائى من حديث عائشة كان يوتر بثلاث لا يفصل بينهن

(٣) حديث الصلاة خير موضوع: أحمد وابن حبان ك وصححه من حديث أبى ذر

(٤) حديث أنس كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ فى الأولى سبح ـ الحديث : ابن عدى فى ترجمة محمد بن أبان ورواه ت ن ه من حديث ابن عباس بسند صحيح

(٥) حديث كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا : م من حديث عائشة

(٦) حديث اذا أراد أن يدخل فراشه زحف اليه ثم صلى ركعتين ـ الحديث : هق من حديث أبى أمامة وأنس نحوه وضعفه وليس فيه زحف اليه ولا ذكر ألهاكم التكاثر

مفصولا وموصولاً بتسليمة واحدة وتسليمتين : وَقَدْ « أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَكْعَةٍ (١) وَثَلاَث (٢) وَخَمْسٍ (٣) وَهَكَذَا بِالْأَوْتَارِ (٤) إِلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً (٥) » والرواية مترددة فى ثلاث عشرة (٦) وفى حديث شاذ سبع عشرة ركعة (٧) وكانت هذه الركعات أعنى ماسمينا جملتها وترا صلاته بالليل، وهو التهجد. والتهجد بالليل سنة مؤكدة وسيأتى ذكر فضلها فى كتاب الأوراد .

وفى الأفضل خلاف . فقيل إن الإيتار بركعة فردة أفضل، إذ صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يواظب على الإيتار بركعة فردة . وقيل الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لا سيما الإمام ، إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة ، فان صلى موصولا نوى بالجميع الوتر ، وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتى العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وصح ، لأن شرط الوتر أن يكون فى نفسه وترا ، وأن يكون موترا لغيره مما سبق قبله ، وقد أوتر الفرض ، ولو أوتر قبل العشاء لم يصح ، أى لاينال فضيلة الوتر (٨) الذى هو « خَيْرٌ لَهُ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » كما ورد به الخبر، وإلا فركعة فردة صحيحة فى أىّ وقت كان ، وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق فى الفعل ، ولأنه لم يتقدم ما يصير به وترا ،

---

(١) حديث الوتر بركعة متفق عليه : من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة

(٢) حديث الوتر بثلاث تقدم

(٣) حديث الوتر بخمس من حديث عائشة يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس فى شىء الا فى آخرها

(٤) حديث الوتر بسبع: م د ن واللفظ من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وضعف أوتر بسبع ركعات لايقعد الا فى السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلي السابعة حديث الوتر تسع م من حديث عائشة وهو فى الذى قبله

(٥) حديث الوتر باحدى عشرة أبو داود باسناد صحيح من حديث عائشة كان يوتر باربع وثلاث وست وثلاث وثمان وثلاث وعشر وثلاث ـ الحديث : ولمسلم من حديثها كان يصلي بالليل احدى عشرة ركعة ـ الحديث

(٦) حديث الوتر بثلاث عشرة تقدم فى الذى قبله وللترمذى والنسائى من حديث أم سلمة كان يوتر بثلاث عشرة وقال ت حسن ولمسلم من حديث عائشة كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة زاد فى رواية بركعتى الفجر

(٧) حديث الوتر سبع عشرة ابن المبارك من حديث طاوس مرسلا كان يصلى سبع عشرة ركعة من الليل

(٨) حديث الوتر خير من حمر النعم : د ت ه من حديث خارجة بن حذافة ان الله امدكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم وضعفه خ وغيره

فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففي نيته في الركعتين نظر ، فانه إن نوى بهما التهجد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر ، وإن نوى الوتر لم يكن هو في نفسه وترا ، وإنما الوتر ما بعده ولكن الأظهر أن ينوى الوتر كما ينوى في الثلاث الموصولة الوتر ، ولكن للوتر معنيان : أحدهما أن يكون في نفسه وترا ، والآخر أن ينشأ ليجعل وترا بما بعده ، فيكون مجموع الثلاثة وترا والركعتان من جملة الثلاث ، إلا أن وتريته موقوفة على الركعة الثالثة ، وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوى بهما الوتر ، والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها ، والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وترا بأنفسهما ، ولكنهما موترتان بغيرهما . والوتر ينبغي أن يكون آخر صلاة الليل ، فيقع بعد التهجد . وسيأتي فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما في كتاب ترتيب الأوراد

السابعة : صلاة الضحى فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها . أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثماني ركعات ، روت أم هانئ أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] صَلَّى الضُّحَى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ أَطَالَهُنَّ وَحَسَّنَهُنَّ » ولم ينقل هذا القدر غيرها . فأما عائشة رضي الله عنها فإنها ذكرت « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2] كَانَ يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعاً وَيَزِيدُ مَاشَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ » فلم تحد الزيادة ، أي أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها ، وقد يزيد زيادات . وروى في حديث مفرد « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3] كَانَ يُصَلِّي الضُّحَى سِتَّ رَكَعَاتٍ » : وأما وقتها فقد روى علي رضي الله عنه « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي الضُّحَى سِتًّا فِي وَقْتَيْنِ : [4] إِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَارْتَفَعَتْ قَامَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، وهو أول الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتي ،

---

(١) حديث أم هانئ صلى الضحى ثماني ركعات أطالهن وأحسنهن : متفق عليه دون زيادة أطالهن وأحسنهن وهي منكرة

(٢) حديث عائشة كان يصلي الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله : م

(٣) حديث كان يصلي الضحى ست ركعات : ك في فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورجاله ثقات

(٤) حديث كان اذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين واذا انبسطت الشمس وكانت في ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعا : ت ن هـ من حديث علي كان نبي الله صلى الله عليه وسلم اذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى ركعتين ثم أمهل

وَإِذا انْبَسَطَتِ الشَّمْسُ وَكَانَتْ فِي رُبُعِ السَّماءِ مِنْ جانِبِ الشَّرْقِ صَلَّى أَرْبَعاً » فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح ، والثانى إذا مضى من النهار ربعه بإزاء صلاة العصر ، فإن وقته أن يبقى من النهار ربعه ، والظهر على منتصف النهار . ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب . وهذا أفضل الأوقات . ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة

الثامنة : إحياء ما بين العشاءين ، وهى سنة مؤكدة . ومما نقل عدده من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بين العشاءين ستُّ رَكَعَاتٍ . ولهذه الصلاة فضل عظيم . وقيل إنها المراد بقوله عز وجل : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ *) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم [2] أنه قال : « مَنْ صَلَّى بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشاءِ فَإِنَّها مِنْ صَلاةِ الْأَوَّابِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ عَكَفَ نَفْسَهُ فِيما بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشاءِ فِي مَسْجِدِ جَماعَةٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلاَّ بِصَلاةٍ أَوْ بِقُرْآنٍ كانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ قَصْرَيْنِ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ كُلِّ قَصْرٍ مِنْهُما مِائَةُ عامٍ وَيَغْرِسُ لَهُ بَيْنَهُما غِراساً لَوْ طافَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ » وسيأتى بقية فضائلها فى كتاب الأوراد ، إن شاء الله تعالى

حتى اذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات لفظ ن وقال ت حسن

(١) حديث صلى بين العشاءين ست ركعات : ابن منده فى الصحى له وطب فى الأوسط والأصغر من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف و ت وضعفه من حديث أبى هريرة من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتى عشرة سنة

(٢) حديث من صلى بين المغرب والعشاء فانها من صلاة الأوابين : ابن المبارك فى الرقائق من رواية ابن المنذر مرسلا

(٣) حديث من عكف نفسه بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة : أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا له من حديث عبد الله بن عمر

* السجدة : ١٦

القسم الثانى

ما يتكرر بتكرر الأسابيع

وهى صلوات أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد

يوم الأحد :

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم [١] أنه قال : « مَنْ صَلَّى يَوْمَ الْأَحَدِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَآمَنَ الرَّسُولُ مَرَّةً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِعَدَدِ كُلِّ نَصْرَانِيٍّ وَنَصْرَانِيَّةٍ حَسَنَاتٍ وَأَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ نَبِيٍّ وَكَتَبَ لَه حَجَّةً وَعُمْرَةً وَكَتَبَ لَهُ بِكُلِّ رَكْعَةٍ أَلْفَ صَلَاةٍ وَأَعْطَاهُ اللهُ فِي الْجَنَّةِ بِكُلِّ حَرْفٍ مَدِينَةً مِنْ مِسْكٍ أَذْفَرَ »

وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم [٢] أنه قال : « وَحِّدُوا اللهَ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْأَحَدِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فَمَنْ صَلَّى يَوْمَ الْأَحَدِ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ وَالسُّنَّةِ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَتَنْزِيلِ السَّجْدَةِ وَفِي الثَّانِيَةِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَتَبَارَكَ الْمُلْكُ ثُمَّ تَشَهَّدَ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ يَقْرَأُ فِيهِمَا فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَةَ الْجُمُعَةِ وَسَأَلَ اللهَ سُبْحَانَهُ حَاجَتَهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ »

يوم الاثنين :

روى عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] أنه قال : « مَنْ صَلَّى يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مَرَّةً وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً

---

(١) حديث من صلى يوم الأحد أربع ركعات ـ الحديث : أبو موسى المديني من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

(٢) حديث على وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد ـ الحديث : ذكره أبو موسى المديني فيه بغير أسناد

(٣) حديث جابر من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين ـ الحديث : أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعا وهو حديث منكر

وَقُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ مَرَّةً مَرَّةً فَإِذَا سَلَّمَ اسْتَغْفَرَ اللهَ عشر مرات وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ مَرَّاتٍ غَفَرَ اللّهُ تَعَالَى لَهُ ذُنُوبَهُ كُلَّهَا » وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال: « مَنْ صَلَّى يَوْمَ الإِثْنَيْنِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً فَإِذَا فَرَغَ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَاسْتَغْفَرَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً يُنَادَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ لِيَقُمْ فَلْيَأْخُذْ ثَوَابَهُ مِنَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَوَّلُ مَا يُعْطَى مِنَ الثَّوَابِ أَلْفَ حُلَّةٍ وَيُتَوَّجُ وَيُقَالُ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَسْتَقْبِلُهُ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ هَدِيَّةٌ يُشَيِّعُونَهُ حَتَّى يَدُورَ عَلَى أَلْفِ قَصْرٍ مِنْ نُورٍ يَتَلَأْلَأُ »

يوم الثلاثاء :

روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال صلى الله عليه وسلم: (٢) « مَنْ صَلَّى يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ عَشْرَ رَكَعَاتٍ عِنْدَ انْتِصَافِ النَّهَارِ ـ وفي حديث آخر: عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً وَقُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ إِلَى سَبْعِينَ يَوْماً فَإِنْ مَاتَ إِلَى سَبْعِينَ يَوْماً مَاتَ شَهِيداً وَغُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ سَبْعِينَ سَنَةً »

يوم الأربعاء :

روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (٣) « مَنْ صَلَّى يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ

---

(١) حديث أنس من صلى يوم الاثنين اثنتي عشرة ركعة ـ الحديث: ذكره أبو موسى المديني بغير سند وهو منكر

(٢) حديث يزيد الرقاشي عن أنس من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف ـ الحديث: أبو موسى المديني بسند ضعيف ولم يقل عند انتصاف النهار ولا عند ارتفاعه

(٣) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة ـ الحديث: أبو موسى المديني وقال رواته ثقات والحديث مركب . قلت بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين

فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ نَادَى مُنَادٍ عِنْدَ الْعَرْشِ : يَا عَبْدَ اللهِ اسْتَأْنِفِ الْعَمَلَ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَرَفَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْكَ عَذَابَ الْقَبْرِ وَضِيقَهُ وَظُلْمَتَهُ وَرَفَعَ عَنْكَ شَدَائِدَ الْقِيَامَةِ وَرَفَعَ لَهُ مِنْ يَوْمِهِ عَمَلَ نَبِيٍّ »

يوم الخميس :

عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ صَلَّى يَوْمَ الْخَمِيسِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ مِائَةَ مَرَّةٍ وَفِي الثَّانِيَةِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ مِائَةَ مَرَّةٍ وَيُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ مِائَةَ مَرَّةٍ أَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ مَنْ صَامَ رَجَبَ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ وَكَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلُ حَاجِّ الْبَيْتِ وَكُتِبَ لَهُ بِعَدَدِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ حَسَنَةً »

يوم الجمعة :

روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) أنه قال : « يَوْمُ الْجُمُعَةِ صَلَاةٌ كُلُّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ قَامَ إِذَا اسْتَقَلَّتِ الشَّمْسُ وَارْتَفَعَتْ قَدْرَ رُمْحٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ أَسْبَغَ الْوُضُوءَ فَصَلَّى سُبْحَةَ الضُّحَى رَكْعَتَيْنِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ مِائَتَيْ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ مِائَتَيْ سَيِّئَةٍ وَمَنْ صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ رَفَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعَمِائَةِ دَرَجَةٍ وَمَنْ صَلَّى ثَمَانَ رَكَعَاتٍ رَفَعَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانَمِائَةِ دَرَجَةٍ وَغَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ كُلَّهَا وَمَنْ صَلَّى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْ دَرَجَةٍ » وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) أنه قال : « مَنْ دَخَلَ الْجَامِعَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ

---

(١) حديث عكرمة عن ابن عباس من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين ـ الحديث : أبوموسى المديني بسند ضعيف جدا

(٢) حديث علي يوم الجمعة مامن عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس ـ الحديث : لم أجد له أصلا وهو باطل

(٣) حديث نافع عن ابن عمر من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات ـ الحديث: الدارقطني في غرائب مالك وقال لايصح وعبدالله بن وصيف مجهول والخطيب في الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أعرف له وجها غير هذا

قَبْلَ صَلاَةِ الْجُمُعَةِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْسِينَ مَرَّةً لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ يُرَى لَهُ

يوم السبت :

روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (١) « مَنْ صَلَّى يَوْمَ السَّبْتِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مَرَّةً وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَإِذَا فَرَغَ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ حَجَّةً وَعُمْرَةً وَرَفَعَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ أَجْرَ سَنَةٍ صِيَامٍ نَهَارُهَا وَقِيَامٍ لَيْلُهَا وَأَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ حَرْفٍ ثَوَابَ شَهِيدٍ وَكَانَ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِ اللَّهِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ »

وأما الليالى ــ ليلة الأحد :

روى أنس بن مالك فى ليلة الأحد أنه صلى الله عليه وسلم (٢) قال : « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْأَحَدِ عِشْرِينَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْسِينَ مَرَّةً وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ مَرَّةً مَرَّةً وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ مَرَّةٍ وَاسْتَغْفَرَ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ مَرَّةٍ وَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَالْتَجَأَ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ قَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ آدَمَ صَفْوَةُ اللَّهِ وَفِطْرَتُهُ وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَمُحَمَّداً حَبِيبُ اللَّهِ كَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ بِعَدَدِ مَنْ دَعَا لِلَّهِ وَلَداً وَمَنْ لَمْ يَدْعُ لِلَّهِ وَلَداً وَبَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْآمِنِينَ وَكَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ مَعَ النَّبِيِّينَ »

---

(١) حديث أبى هريرة من صلى يوم السبت أربع ركعات ــ الحديث : أبو موسى المدينى فى كتاب وظائف الليالى والأيام بسند ضعيف جدا

(٢) حديث أنس من صلى ليلة الأحد بين المغرب والعشاء اثنى عشرة ركعة ــ الحديث : لم أجد له أصلا وحديث من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة ــ الحديث : ذكره أبو موسى المدينى بغير أسناد وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس فى فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات وكلاهما ضعيف جدا

قول العراقى حديث أنس من صلى ليلة الأحد عشرين الخ لم يكن بالاحياء ولعله بنسخته وكذا مالم يخرجه تأمل

ليلة الاثنين :

روى الأعمش عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(١) « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْإِثْنَيْنِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَفِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عِشْرِينَ مَرَّةً وَفِي الثَّالِثَةِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلَاثِينَ مَرَّةً وَفِي الرَّابِعَةِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ أَرْبَعِينَ مَرَّةً ثُمَّ يُسَلِّمُ وَيَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْسًا وَسَبْعِينَ مَرَّةً وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ خَمْسًا وَسَبْعِينَ مَرَّةً ثُمَّ سَأَلَ اللَّهَ حَاجَتَهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَهُ سُؤَالَهُ مَا سَأَلَ » وهي تسمى صلاة الحاجة

ليلة الثلاثاء :

« مَنْ صَلَّى(٢) رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً وَيَقْرَأُ بَعْدَ التَّسْلِيمِ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً كَانَ لَهُ ثَوَابٌ عَظِيمٌ وَأَجْرٌ جَسِيمٌ » روى عن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الثُّلَاثَاءِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مَرَّةً وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعْتَقَ اللَّهُ رَقَبَتَهُ مِنَ النَّارِ وَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَائِدَهُ وَدَلِيلَهُ إِلَى الْجَنَّةِ »

ليلة الأربعاء :

روت فاطمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم(٣) أنه قال: « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَفِي الثَّانِيَةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ

---

(١) حديث الأعمش عن أنس من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات ـ الحديث : ذكره أبو موسى المدينى هكذا عن الأعمش بغير أسناد وأسند من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثا فى صلاة ست ركعات فيها وهو منكر

(٢) حديث الصلاة فى ليلة الثلاثاء ركعتين ـ الحديث : ذكره أبو موسى بغير أسناد حكاية عن بعض المصنفين وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثا فى صلاة أربع ركعات فيها وكلها منكرة

(٣) حديث من صلى ليلة الأربعاء ركعتين ـ الحديث : لم أجد فيه إلا حديث جابر فى صلاة أربع ركعات فيها ورواه أبو موسى المدينى وروي من حديث أنس ثلاثين ركعة

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ عَشْرَ مَرَّاتٍ ثُمَّ إِذَا سَلَّمَ اسْتَغْفَرَ اللهَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يُصَلِّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ مَرَّاتٍ نَزَلَ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَكْتُبُونَ ثَوَابَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وفى حديث آخر : « سِتَّ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ مَاشَاءَ اللهُ وَيَقْرَأُ فِى آخِرِ الرَّكْعَتَيْنِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ثَلَاثِينَ مَرَّةً وَفِى الْأُولَيَيْنِ ثَلَاثِينَ مَرَّةً قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ يُشَفَّعُ فِى عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِمُ النَّارُ » روت فاطمة رضى الله عنها أنها قالت[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ سِتَّ رَكَعَاتٍ قَرَأَ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ يَقُولُ : جَزَى اللهُ مُحَمَّدًا عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ غُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ سَبْعِينَ سَنَةً وَكُتِبَ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ »

ليلة الخميس :

قال أبو هريرة رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم :[2] « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْخَمِيسِ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ خَمْسَ مَرَّاتٍ وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ خَمْسَ مَرَّاتٍ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ اللهَ تَعَالَى خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً وَجَعَلَ ثَوَابَهُ لِوَالِدَيْهِ فَقَدْ أَدَّى حَقَّ وَالِدَيْهِ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ عَاقًّا لَهُمَا وَأَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مَا يُعْطِى الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ »

ليلة الجمعة :

قال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :[3] « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مَرَّةً وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً فَكَأَنَّمَا عَبَدَ اللهَ تَعَالَى اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً صِيَامٌ نَهَارُهَا وَقِيَامٌ لَيْلُهَا »

---

(١) حديث فاطمة من صلى ست ركعات أى ليلة الأربعاء ـ الحديث : أبو موسى المدينى بسند ضعيف جدا

(٢) حديث أبى هريرة من صلى ليلة الخميس مابين المغرب والعشاء ركعتين ـ الحديث : أبو موسى المدينى وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف جدا وهو منكر

(٣) حديث جابر من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة ـ الحديث : باطل لا أصل له

وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم :(١) « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ صَلَاةَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ فِي جَمَاعَةٍ وَصَلَّى رَكْعَتَيِ السُّنَّةِ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهُمَا عَشْرَ رَكَعَاتٍ قَرَأَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ مَرَّةً مَرَّةً ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ وَنَامَ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ وَوَجْهُهُ إِلَى الْقِبْلَةِ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ » وقال صلى الله عليه وسلم(٢) « أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ فِي اللَّيْلَةِ الْغَرَّاءِ وَالْيَوْمِ الْأَزْهَرِ : لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ »

ليلة السبت

قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(٣) « مَنْ صَلَّى لَيْلَةَ السَّبْتِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ وَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَتَبَرَّأَ مِنَ الْيَهُودِ وَكَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ »

القسم الثالث

ما يتكرر بتكرر السنين

وهي أربعة : صلاة العيدين ، والتراويح ، وصلاة رجب وشعبان

الأولى : صلاة العيدين

وهي سنة مؤكدة ، وشعار من شعائر الدين ، وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور

الأول : التكبير ثلاثا نسقا ، فيقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ولو كره

---

(١) حديث أنس من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدهما عشر ركعات ـ الحديث : باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرءان وابراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرءان للميت من حديث أنس من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمسة عشر مرة وقال ابراهيم بن المظفر خمسين مرة أمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضا وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح في أيام الاسبوع ولياليه شيء والله أعلم

(٢) حديث أكثروا علي من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الازهر طب في الاوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبد المنعم بن بشير ضعفه ابن معين وابن حبان

(٣) حديث أنس من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة ـ الحديث : لم أجد له أصلا

الكافرون ، يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع فى صلاة العيد ، وفى العيد الثانى يفتتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر. وهذا أكمل الأقاويل . ويكبر عقب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل ، وهو عقيب الفرائض آكد

الثانى : إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه فى الجمعة ، والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال ، وليجنب الصبيان الحرير ، والعجائز التزين عند الخروج

الثالث : أن [١] يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر هكذا فعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٢] يَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ الْعَوَاتِقِ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ »

الرابع : المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس ، فان كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة فى المسجد ، ويجوز فى يوم الصحو أن يأمر الإمام رجلا يصلى بالضعفة فى المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين

الخامس : يراعى الوقت ، فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر اليوم الثالث عشر . ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها . هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣]

السادس : فى كيفية الصلاة ، فليخرج الناس مكبرين فى الطريق ، وإذا بلغ الإمام المصلى لم يجلس ولم يتنفل ، ويقطع الناس التنفل ، ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة . ويصلى الإمام بهم ركعتين ، يكبر فى الأولى سوى تكبيرة الاحرام والركوع سبع تكبيرات ، يقول بين كل تكبيرتين : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ويقول : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض عقيب تكبيرة الافتتاح ، ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ، ويقرأ سورة ق فى الأولى بعد الفاتحة ، واقتربت فى الثانية ،

---

(١) حديث الخروج فى العيد فى طريق والرجوع فى أخرى م من حديث أبى هريرة

(٢) حديث كان يأمر باخراج العواتق وذوات الخدور متفق عليه : من حديث أم عطية

(٣) حديث تعجيل صلاة الاضحى وتأخير صلاة الفطر الشافعى من رواية أبى الحويرث مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجران أن عجل الأضحى وأخر الفطر

والتكبيرات الزائدة فى الثانية خمس سوى تكبيرتى القيام والركوع ، وبين كل تكبيرتين ماذكرناه ، ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة ، ومن فاتته صلاة العيد قضاها

السابع : أن يضحى بكبش « ضَحَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١] بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ وَذَبَحَ بِيَدِهِ وَقَالَ بِسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي » وقال صلى الله عليه وسلم : [٢] « مَنْ رَأَى هِلَالَ ذِي الْحِجَّةِ وَأَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلَا يَأْخُذْ مِنْ شَعْرِهِ وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا » قال أبو أيوب الأنصارى : [٣] « كَانَ الرَّجُلُ يُضَحِّي عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالشَّاةِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَيَأْكُلُونَ وَيُطْعِمُونَ » وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما فوق ، وردت فيه الرخصة بعد النهى عنه [٤] وقال سفيان الثورى : يستحب أن يصلى بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة ، وبعد عيد الأضحى ست ركعات ، وقال هو من السنة

الثانية : التراويح

وهى عشرون ركعة ، وكيفيتها مشهورة ، وهى سنة مؤكدة ، وإن كانت دون العيدين واختلفوا فى أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد . وقد « خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٥] فِيهَا لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا لِلْجَمَاعَةِ ثُمَّ لَمْ يَخْرُجْ وَقَالَ : أَخَافُ أَنْ تُوجَبَ عَلَيْكُمْ »

---

(١) حديث ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال بسم الله والله أكبر هذا عنى وعمن لم يضح من أمتي متفق عليه دون قوله عنى الخ من حديث أنس وهذه الزيادة عند أبى داود و ت من حديث جابر وقال ت غريب ومنقطع

(٢) حديث من رأى هلال ذى الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره وأظفاره : م من حديث أم سلمة

(٣) حديث أبى أيوب كان الرجل يضحى على عهد الرسول الله صلى الله عليه وسلم الشاة عن أهله فيأكلون ويطعمون : ت ه حسن صحيح

(٤) قال سفيان الثورى من السنة أن يصلى بعد الفطر اثنتى عشرة ركعة وبعد الأضحى ست ركعات : لم أجد له أصلا فى كونه سنة وفى الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا فى قول التابعى من السنة كذا وأما قول تابعي التابع كذلك كالثورى فهو مقطوع

(٥) حديث خروجه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثا ثم لم يخرج وقال أخاف أن يوجب عليكم : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ خشيت أن تفرض عليكم

وجمع عمر رضى الله عنه الناس عليها فى الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحى ، فقيل : إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضى الله عنه ، ولأن الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ، ولأنه ربما يكسل فى الانفراد ، وينشط عند مشاهدة الجمع . وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين فألحقها بصلاة الضحى ، وتحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة . وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معاً ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم [1] « فَضْلُ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ فِى بَيْتِهِ عَلَى صَلَاتِهِ فِى الْمَسْجِدِ كَفَضْلِ صَلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ فِى الْمَسْجِدِ عَلَى صَلَاتِهِ فِى الْبَيْتِ » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : [2] « صَلَاةٌ فِى مَسْجِدِى هَذَا أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ صَلَاةٍ فِى غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ ، وَصَلَاةٌ فِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِى مَسْجِدِى وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ رَجُلٌ يُصَلِّى فِى زَاوِيَةِ بَيْتِهِ رَكْعَتَيْنِ لَا يَعْلَمُهُمَا إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » وهذا لأن الرياء والتصنع ربما يتطرق إليه فى الجمع ، ويأمن منه فى الوحدة . فهذا ما قيل فيه . والمختار أن الجماعة أفضل ، كما رآه عمر رضى الله عنه ، فان بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة ، وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التى تظهر . وأما الالتفات إلى الرياء فى الجمع ، والكسل فى الانفراد ، عدول عن مقصود النظر فى فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة . وكأن قائله يقول : الصلاة

---

(١) حديث فضل صلاة التطوع فى بيته على صلاته فى المسجد كفضل صلاة المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت ــ رواه آدم بن أبى اياس فى كتاب الثواب من حديث ضمرة بن حبيب مرسلا ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم موقوفا وفى سنن د باسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرء فى بيته أفضل من صلاته فى مسجدى هذا الا المكتوبة

(٢) حديث صلاة فى مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة فى غيره وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فى مسجدى وأفضل من هذا كله رجل يصلى ركعتين فى زاوية بيته لا يعلمها إلا الله ــ أبو الشيخ فى الثواب من حديث أنس صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بارض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليها العبد فى جوف الليل لايريد بها الا وجه الله عز وجل وأسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة تعليقا من حديث الأوزاعى قال دخلت على يحيى فاسند لى حديثا فذكره الا أنه قال فى الأولى ألف وفى الثانية مائة

خير من تركها بالكسل ، والإخلاص خير من الرياء . فلنفرض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ، ولا يرائى لو حضر الجمع ، فأيهما أفضل له ؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب فى الوحدة ، فيجوز أن يكون فى تفضيل أحدهما على الآخر تردد . ومما يستحب القنوت فى الوتر فى النصف الأخير من رمضان.

أما صلاة رجب

فقد روى باسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « مَا مِنْ أَحَدٍ يَصُومُ أَوَّلَ خَمِيسٍ مِنْ رَجَبٍ ثُمَّ يُصَلِّى فِيمَا بَيْنَ الْعِشَاءِ وَالْعَتَمَةِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ بِتَسْلِيمَةٍ يَقْرَأُ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ مَرَّةً وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ مَرَّةً فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلاَتِهِ صَلَّى عَلَىَّ سَبْعِينَ مَرَّةً يَقُولُ : اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ وَعَلَى آلِهِ ، ثُمَّ يَسْجُدُ وَيَقُولُ فِى سُجُودِهِ سَبْعِينَ مَرَّةً سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلاَئِكَةِ وَالرُّوحِ ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ سَبْعِينَ مَرَّةً : رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَتَجَاوَزْ عَمَّا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً أُخْرَى وَيَقُولُ فِيهَا مِثْلَ مَا قَالَ فِى السَّجْدَةِ الْأُولَى ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ فِى سُجُودِهِ فَإِنَّهَا تُقْضَى ـ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لاَ يُصَلِّى أَحَدٌ هٰذِهِ الصَّلاَةَ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ وَعَدَدِ الرَّمْلِ وَوَزْنِ الْجِبَالِ وَوَرَقِ الْأَشْجَارِ وَيُشَفَّعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِمَّنْ قَدِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ » فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها فى هذا القسم لأنها تتكرر بتكرر السنين ، وإن كانت رتبتها لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد ، لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد ، ولكنى رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها ، فأحببت إيرادها

وأما صلاة شعبان

فليلة الخامس عشر منه ، يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة ، يقرأ فى كل ركعة

(١) حديث مامن أحد يصوم أول خميس من رجب ـ الحديث : فى صلاة الرغائب أورده رزين فى كتابه وهو حديث موضوع

بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد . فهذا أيضاً مروى فى جملة الصلوات ، كان السلف يصلون هذه الصّلاة ويسمونها صلاة الخير ، ويجتمعون فيها وربما صلوها جماعة . روى عن الحسن أنه قال : حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم [1] « أَنَّ مَنْ صَلَّى هَـذِهِ الصَّلاَةَ فِى هَـذِهِ اللَّيْلَةِ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ سَبْعِينَ نَظْرَةً وَقَضَى لَهُ بِكُلِّ نَظْرَةٍ سَبْعِينَ حَاجَةً أَدْنَاهَا الْمَغْفِرَةُ » .

القسم الرابع

من النوافل ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهى تسعة

صلاة الخسوف ، والكسوف ، والاستسقاء ، وتحية المسجد وركعتى الوضوء ، وركعتين بين الأذان والإقامة ، وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه ، ونظائر ذلك فنذكر منها ما يحضرنا الآن

الأولى : صلاة الخسوف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [2] « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَالصَّلَاةِ » قال ذلك لما مات ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس : إنما كسفت لموته . والنظر فى كيفيتها ووقتها

أما الكيفية : فإذا كسفت الشمس فى وقت الصّلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودى : الصّلاة جامعة ، وصلى الإمام بالناس فى المسجد ركعتين ، وركع فى كل ركعة ركوعين أوائلها أطول من أواخرها ، ولا يجهر ، فيقرأ فى الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة ، وفى الثانية الفاتحة وآل عمران ، وفى الثالثة الفاتحة وسورة النساء

---

(١) حديث صلاة ليلة نصف شعبان: حديث باطل و ه من حديث علي إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها وأسناده ضعيف

(٢) حديث ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ـ الحديث : أخرجاه من حديث المغيرة بن شعبة

وفى الرابعة الفاتحة وسورة المائدة ، أو مقدار ذلك من القرءان من حيث أراد ؛ ولو اقتصر على الفاتحة فى كل قيام أجزأه ، ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس . ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الانجلاء ، ويسبح فى الركوع الأول قدر مائة آية ، وفى الثانى قدر ثمانين ، وفى الثالث قدر سبعين ، وفى الرابع قدر خمسين ، وليكن السجود على قدر الركوع فى كل ركعة ، ثم يخطب خطبتين بعد الصّلاة بينهما جلسة ، ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة ، وكذلك يفعل بخسوف القمر ، إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية

فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ، ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة ، وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرصُ الشمس ، إذ يبطل سلطان الليل ، ولا تفوت بغروب القمر خاسفا ، لأن الليل كله سلطان القمر ، فان انجلى فى أثناء الصّلاة أتمها مخففة ومن أدرك الركوع الثانى مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول

الثانية : صلاة الاستسقاء

فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو انهارت قناة ، فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام ، وما أطاقوا من الصدقة ، والخروج من المظالم ، والتوبة من المعاصى ، ثم يخرج بهم فى اليوم الرابع ، وبالعجائز والصبيان ، متنظفين فى ثياب بذلة واستكانة ، متواضعين ، بخلاف العيد . وقيل يستحب إخراج الدواب لمشاركتها فى الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم : [1] « لَوْلَا صِبْيَانٌ رُضَّعٌ وَمَشَايِخُ رُكَّعٌ وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبًّا » ولو خرج أهل الذمة أيضاً متميزين لم يمنعوا ، فاذا اجتمعوا فى المصلى الواسع من الصحراء نودى : الصلاة جامعة ، فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ، ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين وينبغى فى وسط الخطبة الثانية [2] أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه فى هذه الساعة تفاؤلا بتحويل الحال . هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل أعلاه

---

(١) حديث لولا صبيان رضع ومشايخ ركع ـ الحديث : هق وضعفه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث استدبار الناس واستقبال القبلة وتحويل الرداء فى الاستسقاء أخرجاه من حديث عبد الله بن زيد المازنى

أسفله ، وما على اليمين على الشمال ، وما على الشمال على اليمين ، وكذلك يفعل الناس ، ويدعون فى هذه الساعة سراً ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محولة كما هى حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب ، ويقول فى الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك ، فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا ، اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك فى سقيانا وسعة أرزاقنا . ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات فى الأيام الثلاثة قبل الخروج ، ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها ، وسيأتى ذلك فى كتاب الدعوات

الثالثة : صلاة الجنائز

وكيفيتها مشهورة ، وأجمع دعاء مأثور ما روى فى الصحيح عن عوف بن مالك قال : « رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ » حتى قال عوف : تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت . ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغى أن يراعى ترتيب الصلاة فى نفسه ويكبر مع تكبيرة الإمام ، فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذى فات كفعل المسبوق ، فإنه لو بادر التكبيرات لم تبق للقدوة فى هذه الصلاة معنى . فالتكبيرات هى الأركان الظاهرة ، وجدير بأن تقام مقام الركعات فى سائر الصلوات . هذا هو الأوجه عندى وإن كان غيره محتملا . والأخبار الواردة فى فضل صلاة الجنازة وتشييعها مشهورة ، فلا نطيل بإيرادها ، وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفايات ، وإنما تصير نفلا فى حق من لم تتعين عليه بحضور غيره ، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين ، لأنهم بجملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم ، فلا يكون ذلك كنفل لا يسقط به فرض عن أحد . ويستحب طلب

---

(١) حديث عوف بن مالك فى الصلاة على الجنازة اللهم اغفرلى وله وارحمنى وارحمه وعافنى وعافه الحديث : مسلم دون الدعاء للمصلى

كثرة الجمع تبركا بكثرة الهمم والأدعية واشتماله على ذى دعوة مستجابة ، لما روى كريب عن ابن عباس أنه مات له ابن فقال : يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس ، قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته ، فقال تقول هم أربعون ؟ قلت : نعم ، قال : أخرجوه فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يقول : « مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئاً إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ » وإذا شيع الجنازة فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال : السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت ، فإذا سوى على الميت قبره قام عليه وقال : اللهم عبدك رد إليك فارأف به وارحمه ، اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقبول حسن ، اللهم إن كان محسناً فضاعف له فى إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه

الرابعة : تحية المسجد

ركعتان فصاعداً سنة مؤكدة ، حتى إنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تأكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب ، وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل ، إذ المقصود أن لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياما بحق المسجد ، ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء ، فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، يقولها أربع مرات . يقال إنها عدل ركعتين فى الفضل . ومذهب الشافعى رحمه الله أنه لا تكره التحية فى أوقات الكراهية ، وهى بعد العصر ، وبعد الصبح ، ووقت الزوال ، ووقت الطلوع والغروب ، لما روى « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا نَهَيْتَنَا عَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : هُمَا رَكْعَتَانِ كُنْتُ أُصَلِّيهِمَا بَعْدَ الظُّهْرِ فَشَغَلَنِي عَنْهُمَا الْوَفْدُ » فأفاد هذا الحديث فائدتين

---

(١) حديث ابن عباس ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون ــ الحديث : م

(٢) حديث صلى ركعتين بعد العصر قيل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر الحديث أخرجاه من حديث أم سلمة ولمسلم من حديث عائشة كان يصلى ركعتين قبل العصر ثم انه شغل عنهما ــ الحديث

إحداها : أن الكراهية مقصورة على صلاة لاسبب لها ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل ، إذ اختلفت العلماء فى أن النوافل هل تقضى ؟ وإذا فعل مثل ما فاته هل يكون قضاء ؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنتفى بدخول المسجد وهو سبب قوى ، ولذلك لا تكره صلاة الجنازة إذا حضرت ، ولا صلاة الخسوف والاستسقاء فى هذه الأوقات لأن لها أسبابا

الفائدة الثانية : قضاء النوافل إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولنا فيه أسوة حسنة . وقالت عائشة رضى الله عنها « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ مَرَضٌ فَلَمْ يَقُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ صَلَّى مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً » وقد قال العلماء : من كان فى الصلاة ففاته جواب المؤذن فاذا سلم قضى وأجاب ، وإن كان المؤذن سكت . ولا معنى الآن لقول من يقول إن ذلك مثل الأول وليس يقضى إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وقت الكراهة . نعم من كان له ورد ففاته عن ذلك عذر فينبغى أن لا يرخص لنفسه فى تركه ، بل يتداركه فى وقت آخر ، حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية ، وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم (٢) قال : « أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » فيقصد به أن لا يفتر فى دوام عمله . وروت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم (٣) أنه قال : « مَنْ عَبَدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادَةٍ ثُمَّ تَرَكَهَا مَلَالَةً مَقَتَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » فليحذر أن يدخل تحت الوعيد . وتحقيق هذا الخبر أنه مقته الله تعالى بتركها ملالة ، فلولا المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه

الخامسة : ركعتان بعد الوضوء

مستحبتان ، لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة ، فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعى ، فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء

---

(١) حديث عائشة كان اذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة ــ الحديث : م

(٢) حديث أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل : أخرجاه من حديث عائشة

(٣) حديث عائشة من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقته الله : ورواه ابن السنى فى رياضة المتعبدين موقوفا على عائشة

قبل الفوات ، وعرف ذلك بحديث بلال ، إذ قال صلى الله عليه وسلم [١] « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ بِلَالاً فِيهَا فَقُلْتُ لِبِلَالٍ : بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ بِلَالٌ : لَا أَعْرِفُ شَيْئًا إِلَّا أَنِّي لَا أُحْدِثُ وُضُوءًا إِلَّا أُصَلِّي عَقِيبَهُ رَكْعَتَيْنِ »

السادسة : ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [٢] « إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَنْزِلِكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ يَمْنَعَانِكَ مَخْرَجَ السُّوءِ ، وَإِذَا دَخَلْتَ إِلَى مَنْزِلِكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ يَمْنَعَانِكَ مَدْخَلَ السُّوءِ » وفى معنى هذا كل أمر يبتدأ به مما له وقع، ولذلك ورد : « رَكْعَتَانِ [٣] عِنْدَ الْإِحْرَامِ وَرَكْعَتَانِ [٤] عِنْدَ ابْتِدَاءِ السَّفَرِ ، وَرَكْعَتَانِ [٥] عِنْدَ الرُّجُوعِ مِنَ السَّفَرِ فِي الْمَسْجِدِ قَبْلَ دُخُولِ الْبَيْتِ » فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين ، وإذا شرب شربة صلى ركعتين، وكذلك فى كل أمر يحدثه

وبداية الأمور ينبغى أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل ، وهى على ثلاث مراتب ، بعضها يتكرر مراراً كالأكل والشرب ، فيبدأ فيه باسم الله عز وجل ، قال صلى الله عليه وسلم: [٦] « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَبْتَرُ »

---

(١) حديث دخلت الجنة فرأيت بلالا فيها فقلت بلال بم سبقتنى إلى الجنة ـ الحديث : أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أبى هريرة إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء واذا دخلت منزلك ـ الحديث : هق فى الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان ابن سليم قال بكر حسبته عن أبى هريرة فذكره وروى الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة اذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فان الله جاعل له من ركعتيه خيرا قال ابن عدى وهو بهذا الأسناد منكر وقال خ لا أصل له

(٣) حديث ركعتى الاحرام خ من حديث ابن عمر

(٤) حديث صلاة ركعتين عند ابتداء السفر الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أنس ما استخلف فى أهله من خليفة أحب الى الله من أربع ركعات يصليهن العبد فى بيته اذا شد عليه ثياب سفره ـ الحديث وهو ضعيف

(٥) حديث الركعتين عند القدوم من السفر أخرجاه من حديث كعب بن مالك

(٦) حديث كل أمر ذى بال لم يبدأ فيه بسم الله فهو أبتر د ن هـ حب فى صحيحه من حديث أبى هريرة

الثانية : ما لا يكثر تكرره وله وقع ، كعقد النكاح ، وابتداء النصيحة والمشورة ، فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله ، فيقول المزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجتك ابنتي ، ويقول القابل: الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح . وكانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد

الثالثة : ما لا يتكرر كثيراً وإذا وقع دام وكان له وقع ، كالسفر ، وشراء دار جديده ، والإحرام وما يجرى مجراه ، فيستحب تقديم ركعتين عليه ، وأدناه الخروج من المنزل والدخول إليه ، فانه نوع سفر قريب

السابعة : صلاة الاستخارة

فمن هم بأمر وكان لا يدرى عاقبته ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه ، فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « بِأَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، وَفِي الثَّانِيَةِ الْفَاتِحَةَ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَإِذَا فَرَغَ دَعَا وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَعَاجِلِهِ وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ ثُمَّ يَسِّرْهُ لِي وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَعَاجِلِهِ وَآجِلِهِ فَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ أَيْنَمَا كَانَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » رواه جابر ابن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرءان ، وقال صلى الله عليه وسلم : إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِأَمْرٍ فَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لِيُسَمِّ الْأَمْرَ وَيَدْعُو بِمَا ذَكَرْنَا . وقال بعض الحكماء : من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً : من أعطي الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب

---

(١) حديث صلاة الاستخارة: خ من حديث جابر قال أحمد حديث منكر

الثامنة : صلاة الحاجة

فمن ضاق عليه الأمر ومسته حاجة فى صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة ، فقد[١] روى عن وهيب بن الورد أنه قال : إن من الدعاء الذى لا يرد أن يصلى العبد ثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسى وقل هو الله أحد ، فاذا فرغ خر ساجداً ثم قال : سبحان الذى لبس العز وقال به ، سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به ، سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه ، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له ، سبحان ذى المنّ والفضل ، سبحان ذى العز والكرم ، سبحان ذى الطول ، أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامات العامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، أن تصلى على محمد وعلى آل محمد . ثم يسأل حاجته التى لا معصية فيها ، فيجاب إن شاء الله عز وجل ، قال وهيب : بلغنا أنه كان يقال لا تعلموها لسفهائكم فيتعاونون بها على معصية الله عز وجل

التاسعة : صلاة التسبيح

وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ، ولا تختص بوقت ولا بسبب ، ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم[٢] قال للعباس بن عبد المطلب : « أَلاَ أُعْطِيكَ أَلاَ أَمْنَحُكَ أَلاَ أَحْبُوكَ بِشَىْءٍ إِذَا أَنْتَ فَعَلْتَهُ غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ سِرَّهُ وَعَلاَنِيَتَهُ ؟ تُصَلِّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ تَقْرَأُ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَةً فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِى أَوَّلِ رَكْعَةٍ وَأَنْتَ قَائِمٌ تَقُولُ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ثُمَّ تَرْكَعُ فَتَقُولُهَا وَأَنْتَ رَاكِعٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ ثُمَّ تَرْفَعُ مِنَ الرُّكُوعِ فَتَقُولُهَا قَائِماً عَشْراً ثُمَّ تَسْجُدُ فَتَقُولُهَا عَشْراً ثُمَّ تَرْفَعُ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا جَالِسًا

(١) حديث ابن مسعود فى صلاة الحاجة اثنى عشر ركعة: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس باسنادين ضعيفين جدا فيها عمرو بن هارون البلخى كذبه ابن معين وفيه علل أخرى وقد وردت صلاة الحاجة ركعتين رواه ت ه من حديث عبد الله بن أبى أوفى وقال ت حديث غريب وفى أسناده مقال

(٢) حديث صلاة التسبيح تقدم

عَشْراً ثُمَّ تَسْجُدُ فَتَقُولُهَا وَأَنْتَ سَاجِدٌ عَشْراً ثُمَّ تَرْفَعُ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا عَشْراً فَذَلِكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً فَافْعَلْ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي السَّنَةِ مَرَّةً » وفى رواية أخرى أنه يقول فى أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشراً بعد القراءة والباقى كما سبق عشراً عشراً ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعداً . وهذا هو الأحسن ، وهو اختيار ابن المبارك والمجموع من الروايتين ثلثمائة تسبيحة ، فان صلاها نهاراً فبتسليمة واحدة ، وإن صلاها ليلا فبتسليمتين أحسن ، إذ ورد « أَنَّ صَلَاةَ[1] اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى » وإن زاد بعد التسبيح قوله : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فهو حسن ، فقد ورد ذلك فى بعض الروايات

فهذه الصلوات المأثورة . ولا يستحب شيء من هذه النوافل فى الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد ، وما أوردناه بعد التحية من ركعتى الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا ، لأن النهى مؤكد ، وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الخسوف والاستسقاء والتحية . وقد رأيت بعض المتصوفة يصلى فى الأوقات المكروهة ركعتى الوضوء وهو فى غاية البعد ، لأن الوضوء لا يكون سبباً للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء ، فينبغى أن يتوضأ ليصلى لا أنه يصلى لأنه توضأ ، وكل محدث يريد أن يصلى فى وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصلى فلا يبقى للكراهية معنى ، ولا ينبغى أن ينوى ركعتى الوضوء كما ينوى ركعتى التحية ، بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوعا كيلا يتعطل وضوء كما كان يفعله بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء . وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب كالخسوف والتحية حتى ينوى ركعتى الوضوء ، فيستحيل أن ينوى بالصلاة الوضوء ، بل ينبغى أن ينوى بالوضوء الصلاة ، وكيف ينتظم أن يقول فى وضوئه أتوضأ لصلاتى وفى صلاته يقول أصلى لوضوئى ، بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل فى وقت الكراهية فلينو قضاء إن كان يجوز أن يكون فى ذمه صلاة تطرق اليها خلل لسبب من الأسباب ، فإن قضاء الصلوات فى أوقات الكراهية غير مكروه فأما نية التطوع فلا وجه لها

(١) حديث صلاة الليل مثنى مثنى : أخرجاه من حديث ابن عمر

ففى النهى فى أوقات الكراهية مهمات ثلاثة : (أحدها) التوقى من مضاهاة عبدة الشمس . و (الثانى) الاحتراز من انتشار الشياطين ، إذ قال صلى الله عليه وسلم (١) إِنَّ الشَّمْسَ لَتَطْلُعُ وَمَعَهَا قَرْنُ الشَّيْطَانِ فَإِذا طَلَعَتْ قَارَنَهَا ، وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فَارَقَهَا ، فَإِنِ اسْتَوَتْ قَارَنَهَا ، فَإِذَا زَالَت فَارَقَهَا ، فَإِذَا تَضَيَّفَتْ لِلْغُرُوبِ قَارَنَهَا ، فَإِذَا غَرَبَتْ فَارَقَهَا » ونهى عن الصلوات فى هذه الأوقات ونبه به على العلة . و (الثالث) أن سالكى طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات فى جميع الأوقات ، والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعى ، والإنسان حريص على ما منع منه ، ففى تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت ، فخصصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار ، حذراً من الملل بالمداومة ، وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر ، ففى الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط وفى الاستمرار على شىء واحد استثقال وملال ، ولذلك لم تكن الصلاة سجوداً مجرداً ولا ركوعا مجرداً ولا قياما مجرداً ، بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة ، فان القلب يدرك من كل عمل منها لذة جديدة عند الانتقال إليها ، ولو واظب على الشىء الواحد لتسارع إليه الملل . فإذا كانت هذه أموراً مهمة فى النهى عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ، ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، والله ورسوله أعلم بها . فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة فى الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد ، فأما ماضعف عنها فلا ينبغى أن يصادم به مقصود النهى . هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم

كمل كتاب أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، والحمد لله وحده ، وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

---

(١) حديث أن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا طلعت قارنها ـ الحديث : ن من حديث عبد الله الصنابحى وهو مرسل ومالك هو الذى يقول عبد الله الصنابحى ووهم فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير النبى صلى الله عليه وسلم

كتاب أسرار الزكاة

كتاب أسرار الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد وأشقى ، وأمات وأحيا ، وأضحك وأبكى ، وأوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى ، وأضر وأقنى ، الذى خلق الحيوان من نطفة تمنى ، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى ، ثم خصص بعض عباده بالحسنى ، فأفاض عليهم من نعمه ما أيسر به من شاء واستغنى ، وأحوج إليه من أخفق فى رزقه وأكدى ، إظهاراً للامتحان والابتلا ، ثم جعل الزكاة للدين أساساً ومبنى ، وبين أن بفضله تزكى من عباده من تزكى ومن غناه زكى ماله من زكى . والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى ، وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبانى الإسلام ، وأردف بذكرها الصلاة التى هى أعلى الأعلام فقال تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ *) وقال صلى الله عليه وسلم :[١] « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *) ومعنى الإنفاق فى سبيل الله إخراج حق الزكاة . قال الأحنف بن قيس : كنت فى نفر من قريش فمر أبو ذر فقال : بشر الكانزين بكىّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم ، وبكىّ فى أقفائهم يخرج من جباههم . وفى رواية أنه يوضع على حلمة ثدى أحدهم فيخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل . وقال أبو ذر : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال : « هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ » فقلت ومن هم ؟ قال « الْأَكْثَرُونَ

﴿ كتاب أسرار الزكاة ﴾

(١) حديث بنى الاسلام على خمس أخرجاه من حديث ابن عمر

(٢) حديث أبي ذر انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الأخسرون ورب الكعبة ـ الحديث : أخرجاه م و خ

* البقرة : ١١٠ * التوبة : ٣٤

أَمْوَالًا إِلَّا مَنْ قَالَ هٰكَذَا وَهٰكَذَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقِيلَ : مَا هُمْ مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ وَلَا بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّى زَكَاتَهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنَهُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا كُلَّمَا نَفِدَتْ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ » وإذا كان هذا التشديد مخرجاً فى الصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية ، ومعانيها الظاهرة والباطنة ، مع الإقتصار على مالا يستغنى عن معرفته مؤدى الزكاة وقابضها .

وينكشف ذلك فى أربعة فصول :

الفصل الأول : فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها

الثانى : فى آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة

الثالث : فى القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه

الرابع : فى صدقة التطوع وفضلها

الفصل الأول

فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها

والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع : زكاة النعم ، والنقدين ، والتجارة ، وزكاة الركاز والمعادن ، وزكاة المعشرات ، وزكاة الفطر

النوع الأول زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ، ولا يشترط البلوغ ، بل تجب فى مال الصبي والمجنون . هذا شرط من عليه

وأما المال فشروطه خمسة : أن يكون نعما ، سائمة ، باقية حولا ، نصابا كاملا ، مملوكا على الكمال

الشرط الأول : كونه نعما ، فلا زكاة إلا فى الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والغنم . فلا زكاة فيها

الثانى : السوم ، فلا زكاة فى معلوفة ، وإذا أسيمت فى وقت وعلفت فى وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها

الثالث : الحول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لاَزَكَاةَ فِى مَالٍ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ اَلْحَوْلُ » . ويستثنى من هذا نتاج المال فانه ينسحب عليه حكم المال . وتجب الزكاة فيه لحول الأصول ، ومهما باع المال فى أثناء الحول أو وهبه انقطع الحول

الرابع : كمال الملك والتصرف ، فتجب الزكاة فى الماشية المرهونة لأنه الذى حجر على نفسه فيه ، ولاتجب فى الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه ، فتجب زكاة مامضى عندعوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيًا به إذ الغنى مايفضل عن الحاجة

الخامس : كمال النصاب

أما الإبل

فلا شىء فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن ؛ والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية أو ثنية من المعز وهى التى تكون فى السنة الثالثة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض وهى التى فى السنة الثانية ، فإن لم يكن فى ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر وهو الذى فى السنه الثالثة يؤخذ وإن كان قادرا على شرائها وفى ست وثلاثين ابنة لبون ، ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة وهى التى فى السنة الرابعة ، فاذ صارت احدى وستين ففيها جذعة وهى التى فى السنة الخامسة ، فاذا صارت ستا وسبعين ففيها بنتا لبون ، فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان ، فاذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون ، فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون

وأما البقر

فلا شىء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذى فى السنة الثانية ثم فى أربعين مُسنة وهى التى فى السنة الثالثة ثم فى ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ففى كل أربعين مسنة ، وفى كل ثلاثين تبيع

(١) حديث لازكاة فى مال حتى يحول عليه الحول : أبو داود من حديث على باسناد جيد وهو من حديث عائشة باسناد ضعيف

وأما الغنم : فلازكاة فيها حتى تبلغ أربعين ، ففيها شاة جَذَعَة من الضأن أوثنية من المعز ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان ، إلى مائتي شاة وواحدة ففيها ثلاث شياة إلى ، أربعمائة ففيها أربع شياه ، ثم استقر الحساب في كل مائة شاة . وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب ، فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة ، وإن كان بين ثلاثة نفرمائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم ، وخلطة الجوار كخلطة الشيوع ، ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ، ويكون المرعى معا ، ويكون انزاء الفحل معا ، وأن يكونا جميعا من أهل الزكاة . ولاحكم للخلطة مع الذمي والمكاتب ، ومهما نزل في واجب الابل عن سن إلى سن فهو جائز مالم يجاوز بنت مخاض في النزول ، ولكن تضم إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أوعشرين درهما ولسنتين أربع شياه أو أربعين درهما وله أن يصعد في السن مالم يجاوز الجذعة في الصعود ، ويأخذ الجبران من الساعين من بيت المال ، ولا تؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحا ولو واحدة ، ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللئام لئيمة ، ولا يؤخذ من المال الأكولة ولاالماخض ولا الربى ولا الفحل ولا غراء المال

النوع الثاني زكاة المعشرات

فيجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة مَنّ ، ولا شيء فيما دونها ، ولافي الفواكه والقطن ولكن في الحبوب التي تقتات ، وفي التمر والزبيب . ويعتبر أن تكون ثمانمائة مَنٍّ تمرا أو زبيبا ، لارطبا وعنبا . ويخرج ذلك بعد التجفيف ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشيوع كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة مَنّ من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون منا من زبيب بقدر حصصهم ، ولايعتبر خلطة الجوار فيه ، ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير ، ويكمل نصاب الشعير بالسُّلْت فانه نوع منه . هذا قدر الواجب ان كان يسقى بسيح أوقناة

فان كان يسقى بنضح أودالية فيجب نصف العشر ، فان اجتمعا فالأغلب يعتبر

وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية ، ولا يؤخذ عنب

ولا رطب الا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة فى قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ولايمنع من هذه القسمة قولنا : إن القسمة بيع ، بل يرخص فى مثل هذا للحاجة

ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح فى الثمار وأن يشتد الحبُّ . ووقت الأداء بعد الجفاف

النوع الثالث زكاة النقدين

فإذا تم الحول على وزن مائتى درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم وهو ربع العشر ، ومازاد فبحسابه ولودرهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا بوزن مكة ففيها ربع العشر ومازاد فبحسابه ، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاة فى التبر وفى الحلي المحظور كأوانى الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال ، ولاتجب فى الحلى المباح . وتجب فى الدين الذى هو على ملىء ، ولكن تجب عند الاستيفاء وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل

النوع الرابع زكاة التجارة

وهى كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا ، فإن كان ناقصاً أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء . وتؤدى الزكاة من نقد البلد ، وبه يقوّم ، فإن كان مابه الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقويم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قُنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشترى به شيئاً ، ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة . والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة . وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ، ولم يستأنف له حولا كما فى النتاج . وأموال الصيارفة لاينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة . هذا وهو الأقيس

النوع الخامس الركاز والمعدن

والركاز مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الاسلام ملك ، فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس ، والحول غير معتبر . والأولى أن لايعتبر النصاب أيضا لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة ، واعتباره أيضاً ليس ببعيد ، لأن مصرفه مصرف الزكاة ، ولذلك يخصص على الصحيح بالنقدين . وأما المعادن فلازكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ، ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب. وفى الحول قولان ، وفى قول يجب الخمس . فعلى هذا لايعتبر . وفى النصاب قولان والأشبه والعلم عند الله تعالى أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فانه نوع اكتساب ، وفى الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ، ويعتبر النصاب كالمعشرات . والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ، ومن عين النقدين أيضا خروجا عن شبهة هذه الاختلافات فانها ظنون قريبة من التعارض ، وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه

النوع السادس فى صدقة الفطر

وهى « وَاجِبَةٌ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)] عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَضَلَ عَنْ قُوتِهِ وَقُوتِ مَنْ يَقُوتُهُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَلَيْلَتَهُ صَاعٌ مِمَّا يُقْتَاتُ بِصَاعِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » وهو . مَنَوَانِ وثلثا مَنٍّ يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه ، فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير ، وإن اقتات حبوباً مختلفة اختار خيرها ، ومن أيها أخرج أجزأه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال ، فيجب فيها استيعاب الأصناف ، ولايجوز أخراج الدقيق والسّويق

ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو فى نفقته ، أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد ، قال صلى الله عليه وسلم[(٢)] « أَدُّوا صَدَقَةَ الْفِطْرِ عَمَّنْ تَمُونُونَ » وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ، ولا تجب صدقة

---

(١) حديث وجوب صدقة الفطر على كل مسلم : أخرجاه من حديث ابن عمر قال فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان ــ الحديث

(٢) حديث أدوا زكاة الفطر عمن تمونون : قط هق من حديث ابن عمر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ممن تمونون قال هق أسناده غير قوى

العبد الكافر ، وإن تبرعت الزوجة بالاخراج عن نفسها أجزأها ، وللزوج الاخراج عنها دون إذنها ؛ وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته آكد . وقد «قَدَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) نَفَقَةَ الْوَلَدِ عَلَى نَفَقَةِ الزَّوْجَةِ وَنَفَقَتَهَا عَلَى نَفَقَةِ الْخَادِمِ » فهذه أحكام فقهية لابد للغنى من معرفتها . وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار

الفصل الثانى

فى الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور :

الأول : النية ، وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض . ويسن عليه تعيين الأموال ؛ فان كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة ، جاز ، لأنه لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه ، ونية الولى تقوم مقام نية المجنون والصبى ، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ، ولكن فى ظاهر حكم الدنيا أعنى فى قطع المطالبة عنه ، أما فى الآخرة فلا ، بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة ، وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه ، لأن توكيله بالنية نية

الثانى : البدار عقيب الحول . وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان ، ووقت تعجيلها شهر رمضان كله ، ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق ، وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه ، وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول . ويجوز تعجيل زكاة حولين ، ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أوارتد أوصار غنياً بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أومات فالمدفوع ليس بزكاة ، واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع ، فليكن المعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العاقبة

---

(١) حديث قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم : د من حديث أبى هريرة بسند صحيح . وحب ك وصححه ورواه ن حب بتقديم الزوجة على الولد وسيأتى

الثالث : أن لايخرج بدلا باعتبار القيمة ، بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولاذهب عن ورق ، وإن زاد عليه فى القيمة . ولعل بعض من لايدرك غرض الشافعي رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة ، وما أبعده عن التحصيل ، فان سد الخلة مقصود ، وليس هو كل المقصود ، بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام :

قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه ، وذلك كرمى الجمرات مثلا ، إذ لا حظّ للجمرة فى وصول الحصى اليها ، فقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل مالا يعقل له معنى ، لأن مايعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه اليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لالمعنى آخر ، وأكثر أعمال الحج كذلك ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) في إحرامه « لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ حَقًّا تَعَبُّداً وَرِقًّا » تنبيهاً على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه

القسم الثانى : من واجبات الشرع ماالمقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب ، فلا جرم لايعتبر فيه فعله ونيته ، ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع . فهذان قسمان لاتركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس

والقسم الثالث : هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعا وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعباد ، فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق . فهذا قسم فى نفسه معقول ، فان ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ، ولا ينبغى أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم . والزكاة من هذا القبيل ، ولم ينتبه له غير الشافعى رضى الله عنه ، فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة وهو جلى سابق إلى الأفهام ، وحق التعبد فى اتباع التفاصيل مقصود للشرع ، وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج فى كونها من مبانى الاسلام ولا شك فى أن على المكلف تعبا فى تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ، ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتى ،

---

(١) حديث لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا : البزار والدارقطنى فى العلل من حديث أنس

والتساهل فيه غير قادح فى حظ الفقير لكنه قادح فى التعبد . ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها فى كتب الخلاف من الفقهيات ، ومن أوضحها أن الشرع أوجب فى خمس من الابل شاة ، فعدل من الابل إلى الشاة ، ولم يعدل إلى النقدين والتقويم ، وإن قدر أن ذلك لقلة النقود فى أيدى العرب بطل بذكره عشرين درهماً فى الجبران مع الشاتين ، فلم لم يذكر فى الجبران قدر النقصان من القيمة ، ولم قدر بعشرين درهما وشاتين ، وإن كانت الثياب والأمتعة كلها فى معناها . فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما فى الحج ، ولكن جمع بين المعنيين ، والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات . فهذا شأن الغلط فيه

الرابع : أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر ، فان أعين المساكين فى كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفى النقل تخييب للظنون ، فان فعل ذلك أجزأه فى قول ، ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى ، فليخرج زكاة كل مال فى تلك البلدة ، ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء فى تلك البلدة

الخامس : أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين فى بلده ، فان استيعاب الأصناف واجب ، وعليه يدل ظاهر قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ *) الآية فانه يشبه قول المريض : إنما ثلث مالى للفقراء والمساكين ، وذلك يقتضى التشريك فى التمليك والعبادات ينبغى أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر . وقد عدم من الثمانية صنفان فى أكثر البلاد ، وهم المؤلفة قلوبهم ، والعاملون على الزكاة ، ويوجد فى جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء ، والمساكين ، والغارمون ، والمسافرون أعنى أبناء السبيل . وصنفان يوجدان فى بعض البلاد دون البعض وهم الغزاة والمكاتبون ، فان وجد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة ، وعين لكل صنف قسما ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متفاوتة ، وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف ، فان له أن يقسمه على عشرة وعشرين ، فينقص نصيب كل واحد ، وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان ، فلا ينبغى أن ينقص فى كل صنف عن ثلاثة إن وجد ، ثم لو لم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً ،

* التوبة : ٦٠

ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد ، فان عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليتشارك جماعة ممن عليهم الزكاة ، وليخلط مال نفسه بمالهم ، وليجمع المستحقين ، وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه فإن ذلك لا بد منه

بيان دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف

الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ، ووجه الامتحان فيها ، وأنها لم جعلت من مبانى الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان : وفيه ثلاثة معان

الأول : أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بافراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب ، واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ *) وذلك بالجهاد ، وهو مسامحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عز وجل ، والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام :

قسم صدّقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا ديناراً ولا درهما ، فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع (١) ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله ، فقال صلى الله عليه وسلم : مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ فقال مثله . وقال لأبى بكر رضى الله عنه : ما أبقيتَ لأهلك ؟ قال الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَكُمَا مَا بَيْنَ كَلِمَتَيْكُمَا » فالصديق وفّى بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله

---

(١) حديث جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشطر ماله ــ الحديث : د ت ك وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله بينكما مابين كلمتيكما

* التوبة : ١١١

القسم الثانى : درجتهم دون درجة هـذا ، وهم الممسكون أموالهـم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصـدهم فى الادخار الانفاق على قدر الحاجة دون التنعم ، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها ، وهؤلاء لايقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبي وعطاء ومجاهد ، قال الشعبي بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم أما سمعت قوله عز وجل (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى *) الآية ، واستدلوا بقوله عز وجل : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *) وبقوله تعالى : (وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ *) وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة

والذى يصح فى الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية ، إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولـكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم مايزيل الحاجة قرضا ، ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه . ويحتمل أن يقال يلزمه بذله فى الحال ولا يجوز له الاقتراض أى لايجوز له تـكليف الفقير قبول القرض ، وهـذا مختلف فيه والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب ، فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه ، وهى أقل الرتب . وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة ، قال الله تعالى : (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا *) يحفكم أى يستقص عليكم ، فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة ، وبين عبد لايستقصى عليه لبخله : فهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال

المعنى الثانى : التطهير من صفة البخل ، فانه من المهلكات ، قال صلى الله عليه وسلم (١) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال تعالى : (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *) وسيأتى فى ربع المهلكات وجه كونه مهلكا ،

(١) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم

* البقرة : ١٧٧ * الأنفال : ٣ * المنافقون : ١٠ * محمد : ٣٧ * التغابن : ١٦

وكيفية التفصي منه ، وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال ، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا. فالزكاة بهذا المعنى طهرة أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك ، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى

المعنى الثالث : شكر النعمة ، فإن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات البدنية شكراً لنعمة البدن ، والمالية شكراً لنعمة المال ،وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله !

الوظيفة الثانية : في وقت الأداء . ومن آداب ذوي الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتثال ، بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ، ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات ، وعلماً بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب ، ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يغتنم ، فإن ذلك لمة الملك ، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فما أسرع تقلبه ، والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر ، وله لمة عقيب لمة الملك ، فليغتنم الفرصة فيه ، وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعاً شهراً معلوما ، وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سبباً لنماء قربته وتضاعف زكاته ، وذلك كشهر المحرم ، فإنه أول السنة وهو وهو من الأشهر الحرم ، أو رمضان فقد « كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) أَجْوَدَ الْخَلْقِ وَكَانَ فِي رَمَضَانَ كَالرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ لَا يُمْسِكُ فِيهِ شَيْئاً » ولرمضان فضيلة ليلة القدر ، وأنه أنزل فيه القرءان . وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضاً من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام ، وفيه الحج الأكبر ، وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول ، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق ، وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر ، وأفضل أيام ذي الحجة العشر الأول

---

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود مايكون في رمضان ـ الحديث : أخرجاه من حديث ابن عباس

كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الثالث

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة ت: ٣١٨١٠

الوظيفة الثالثة : الإسرار ، فان ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال صلى الله عليه وسلم :(١) « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ الْمُقِلِّ إِلَى فَقِيرٍ فِي سِرٍّ » وقال بعض العلماء(٢) « ثَلَاثٌ مِنْ كُنُوزِ الْبِرِّ مِنْهَا إِخْفَاءُ الصَّدَقَةِ » وقد روى أيضاً مسنداً وقال صلى الله عليه وسلم:(٣) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلاً فِي السِّرِّ فَيَكْتُبُهُ اللهُ لَهُ سِرًّا ، فَإِنْ أَظْهَرَهُ نُقِلَ مِنَ السِّرِّ وَكُتِبَ فِي الْعَلَانِيَةِ ، فَإِنْ تَحَدَّثَ بِهِ نُقِلَ مِنَ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَكُتِبَ رِيَاءً » وفى الحديث المشهور :(٤) « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ أَحَدُهُمْ رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَلَمْ تَعْلَمْ شِمَالُهُ بِمَا أَعْطَتْ يَمِينُهُ » وفى الخبر:(٥) « صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ » وقال تعالى : (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ *) وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (٦) : « لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُسْمِعٍ وَلَا مُرَاءٍ وَلَا مَنَّانٍ » والمتحدث بصدقته يطلب السمعة ، والمعطى فى ملأ من الناس يبغى الرياء ، والإخفاء والسكوت هو المخلص منه .

وقد بالغ فى فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى ، فكان بعضهم يلقيه فى يد أعمى ، وبعضهم يلقيه فى طريق الفقير وفى موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى ، وبعضهم كان يصره فى ثوب الفقير وهو نائم ، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه ، كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه ، واحترازاً من الرياء والسمعة

---

(١) حديث أفضل الصدقة جهد المقل الى فقير فى سر: أحمد حب ك من حديث أبى ذر ولأبى داود من حديث أبى هريرة أى الصدقة أفضل قال جهد المقل

(٢) حديث ثلاث من كنوز البر فذكر منها اخفاء الصدقة: أبو نعيم فى كتاب الايجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٣) حديث ان العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله سرا فان أظهره نقل من السر ـ الحديث : الخطيب فى التاريخ من حديث أنس نحوه باسناد ضعيف

(٤) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله ـ الحديث : أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٥) حديث صدقة السر تطفىء غضب الرب: طب من حديث أبى أمامة ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب و هق في الشعب من حديث أبى سعيد كلاهما ضعيف والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة ان الصدقة لتطفىء غضب الرب ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضا

(٦) حديث لايقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان : لم أظفر به هكذا

* البقرة ٢٧١

ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى، إذ فى معرفة المسكين الرياء والمنة جميعاً ، وليس فى معرفة المتوسط إلا الرياء ، ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال ؛ وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال ، وكل واحد منهما مهلك فى الآخرة ولكن صفة البخل تنقلب فى القبر فى حكم المثال عقربا لادغا ، وصفة الرياء تنقلب فى القبر أفعى من الأفاعى ، وهو مأمور بتضعيفهما أوقتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما ، فمهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقويا للحية ، فبقدر ما ضعف من العقرب زاد فى قوة الحية ، ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه ، وقوة هذه الصفات التى بها قوتها العمل بمقتضاها ، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها ، والعمل بخلاف مقتضاها ، فأى فائدة فى أن يخالف دواعى البخل ويجيب دواعى الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأقوى . وستأتى أسرار هذه المعانى فى ربع المهلكات

الوظيفة الرابعة : أن يُظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيباً للناس فى الاقتداء ، ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره فى معالجة الرياء فى كتاب الرياء ، فقد قال الله عز وجل : (إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ *) وذلك حيث يقتضى الحال الابداء ، إما للاقتداء ، وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس ، فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من الرياء فى الإظهار ، بل ينبغى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الامكان ، وهذا لأن فى الاظهار محذوراً ثالثاً سوى المنّ والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بان يُرى فى صورة المحتاج ، فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى فى إظهاره ، وهو كاظهار الفسق على من تستر به فانه محظور ، والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهى عنه ، فأما من أظهره فاقامة الحد عليه إشاعة ، ولكن هو السبب فيها ، وبمثل هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غِيبَةَ لَهُ » وقد قال الله تعالى (وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً *) ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب ، فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه ، فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص

(١) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له : عد حب فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف

* البقرة ٢٧١ * فاطر ٢٨

فقد يكون الاعلان فى بعض الأحوال لبعض الاشخاص أفضل، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة ، اتضح له الأولى والأليق بكل حال

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمنّ والأذى ، قال الله تعالى (لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى *) واختلفوا فى حقيقة المنّ والأذى ، فقيل المنّ أن يذكرها ، والأذى أن يظهرها . قال سفيان : من منّ فسدت صدقته ، فقيل له كيف المنّ ؟ فقال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل المنّ أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل المنّ أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « لَا يَقْبَلُ اللهُ صَدَقَةَ مَنَّانٍ »

وعندى أن المنّ له أصل ومغرس ، وهو من أحوال القلب وصفاته ، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح ، فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه ، وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهناً به ، فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائباً عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[2] « إن الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ » . فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه ، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل ، ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفهاً وجهلا ، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه ، أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم يمنّ به على غيره ، ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه ، إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى ، أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل ؛ أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد ؛ وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسناً إليه ، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى

---

(١) حديث لا يقبل الله صدقة منان : هو كالذى قبله بحديث لم أجده

(٢) حديث ان الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع فى يد السائل : قط فى الافراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه هق فى الشعب بسند ضعيف

* البقرة : ٢٦٤

نفسه محسناً إليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المنّ ، وهو التحدث به ، وإظهاره ، وطلب المكافأة منه ، بالشكر والدعاء ، والخدمة والتوقير ، والتعظيم والقيام بالحقوق ، والتقديم فى المجالس ، والمتابعة فى الأمور . فهذه كلها ثمرات المنة : ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه

وأما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبعه أمران (أحدهما) كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه ، فان ذلك يضيق الخلق لامحالة و (الثانى) رؤيته أنه خير من الفقير ، وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه ، وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهية تسليم المال فهو حمق ، لأن من كره بذل درهم فى مقابلة مايساوى ألفا فهو شديد الحمق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الدار الآخرة ، وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكراً لطلب المزيد ، وكيفما فرض فالكراهة لاوجه لها . وأما الثانى فهو أيضا جهل ، لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير ، بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَربِّ الْكَعْبَةِ . فَقَالَ أَبُوذَرّ : مَنْ هُمْ ؟ قَالَ : هُمُ الْأَكْثَرُونَ امْوَالاً » الحديث . ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ، إذ يكتسب المال بجهده ، ويستكثر منه ، ويجتهد فى حفظه بمقدار الحاجة . وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ، ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم اليه . فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ، ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات ، إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فاذن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له فى أداء الواجب وتقبيضه الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه ، انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه ، وتبدل بالاستبشار والثناء وقبول المنة . فهذا منشأ المن والأذى

فإن قلت : فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض ، فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟

فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة ، وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أومالأ عدوا له عليه مثلا ، هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق ؟ فان زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة ، لأنه توقع بسببه مالم يكن يتوقعه قبل ذلك

فان قلت : فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه ، فما دواؤه ؟

فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا ، أما الباطن فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب ، وأن الفقير هو المحسن اليه فى تطهيره بالقبول . وأما الظاهر فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة ، فإن الأفعال التى تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق كما سيأتى أسراره فى الشطر الأخير من الكتاب ، ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويتمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين ، وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو ردّهُ وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا

وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ مايدعو به ، ثم كانتا تردان عليه مثل قوله وتقولان : هذا بذلك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة ، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما ، وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ، ومن حيث الباطن المعارف التى ذكرناها ، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم ، ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل . وهذه الشريطة من الزكوات تجرى مجرى الخشوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: (١) « لَيْسَ لِلْمَرْءِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا » وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « لَا يَتَقَبَّلُ اللهُ صَدَقَةَ مَنَّانٍ » وكقوله عز وجل : (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى *) وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر ، وقد أشرنا إلى معناه فى كتاب الصلاة

---

(١) حديث ليس للمؤمن من صلاته إلا ماعقل منها : تقدم فى الصلاه

* البقرة : ٢٦٤

الوظيفة السادسة: أن يستصغر العطية فانه إن استعظمها أعجب بها، والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال، قال تعالى: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا *) ويقال إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل. وقيل: لايتم المعروف الابثلاثة أمور: تصغيره، وتعجيله، وستره. وليس الاستعظام هو المن والأذى، فانه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أورباط أمكن فيه الاستعظام، ولا يمكن فيه المن والاذى، بل العجب والاستعظام يجرى فى جميع العبادات

ودواؤه علم وعمل، أما العلم فهو أن يعلم أن العشر أوربع العشر قليل من كثير، وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل كما ذكرنا فى فهم الوجوب، فهو جدير بأن يستحيي منه، فكيف يستعظمه وإن ارتقى إلى الدرجة العليا: فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ما ذا يصرفه، فالمال لله عز وجل، وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله، فلم يستعظم فى حق الله تعالى ماهو عين حق الله سبحانه، وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ماينتظر عليه أضعافه. وأما العمل فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بامساك بقية ماله عن الله عز وجل، فتكون هيئته الانكسار والحياء، كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض، لأن المال كله لله عز وجل، وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله، كما قال الله عز وجل: (فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا *)

الوظيفة السابعة: أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه، فان الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وإذا كان المخرج من شبهة فربما لايكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع وفى حديث أبان عن أنس بن مالك[1] « طُوبَى لِعَبْدٍ أَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ » وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب، إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله، فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام

---

(١) حديث أنس طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية عدو البزار

* التوبة: ٢٥ محمد: ٣٧

فى بيته لأوغر بذلك صدره . هـذا إن كان نظره إلى الله عز وجـل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه فى الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى ، أو أكل فأفنى ، والذى يأكله قضاء وَطَر فى الحال ، فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار . وقد قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ *) أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلا تؤثروا به ربكم . وفى الخبر [(١)] « سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ » وذلك بأن يخرجه الانسان وهو من أحل ماله وأجوده ، فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبدل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجـل بشىء مما يحبه ، وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله مايكرهون ، فقال تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا *) وقف بعض القراء على النفى تكذيبا لهم ، ثم ابتدأ وقال : (جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ *) أى كسب لهم جعلهم لله مايكرهون النار

الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ، ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية ، فان فى عمومهم خصوص صفات ، فليراع خصوص تلك الصفات ، وهى ستة:

الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة ، قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « لَا تَأْكُلْ إِلَّا طَعَامَ تَقِيٍّ وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ » . وهـذا لأن التقى يستعين به على التقوى ، فتكون شريكا له فى طاعته باعانتك إياه . وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « أَطْعِمُوا طَعَامَكُمُ الْأَتْقِيَاءَ وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ » وفى لفظ آخر [(٤)] « أَضِفْ بِطَعَامِكَ مَنْ تُحِبُّهُ فِى اللهِ تَعَالَى » . وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم

---

(١) حديث سبق درهم مائة ألف : ن حب وصححه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث لا تأكل الاطعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى : د ت من حديث أبى سعيد بلفظ لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى

(٣) حديث أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين : ابن المبارك فى البر والصلة من حديث أبى سعيد الخدرى قال ابن طاهر غريب فيه مجهول

(٤) حديث أضف بطعامك من يحبه الله : ابن المبارك أنبأنا جويبر عن الضحاك مرسلا

* البقرة : ٢٦٧ * النحل : ٦٢

فقيل له : لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل ، فقال : لا هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهم فاقة تشتت همّ أحدهم فلأن أردهمة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطى ألفا ممن همته الدنيا ، فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه ، وقال هذا : ولى من أولياء الله تعالى ، وقال : ماسمعت منذ زمان كلاما احسن من هذا ، ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال : اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فان التجارة لا تضر مثلك . وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه

الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة ، فان ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم ، فقيل له : لو عممت ! فقال : إنى لا أعرف بعد مقام النبوّة أفضل من مقام العلماء ، فاذا اشتغل قلب أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم ، فتفريغهم للعلم أفضل

الصفة الثالثة : أن يكون صادقا فى تقواه وعامه بالتوحيد ، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة . فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه ، وهو أن يرى أن النعمة كلها منه . وفى وصية لقمان لابنه : لا تجعل بينك وبين الله منعما ، وأعدد نعمة غيره عليك مغرما . ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل ، إذ سلط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودنياه فى فعله . فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ، ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لا تردد فيه ، والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجها ، ومزيل للضعف والتردد عنها ، ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث ، فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب ، وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه ، وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيع . وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ، ويدعو بالشر عند الإيذاء ، وأحواله متفاوتة .

وقد روى « أَنَّهُ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) بَعَثَ مَعْرُوفًا إِلَى بَعْضِ الْفُقَرَاءِ وَقَالَ لِلرَّسُولِ: احْفَظْ مَا يَقُولُ فَلَمَّا أَخَذَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ يَنْسَى مَنْ ذَكَرَهُ وَلاَ يُضَيِّعُ مَنْ شَكَرَهُ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ لَمْ تَنْسَ فُلاَنًا ـ يَعْنِي نَفْسَهُ ـ فَاجْعَلْ فُلاَنًا لاَ يَنْسَاكَ يَعْنِي بِفُلاَنٍ نَفْسَهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَسُرَّ وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلِمْتُ أَنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ » فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده ! وقال صلى الله عليه وسلم (٢) لرجل : تُبْ ، فَقَالَ : أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ وَلاَ أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ » (٣) ولما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك قال أبو بكر رضى الله عنه قومى فقبِّلى رأسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : والله لاَ أفْعَلُ ولا أَحْمَدُ إلاَّ اللهَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : دَعْهَا يَا أَبَا بَكْر . وفى لفظ آخر : أنها رضى الله عنها قالت لأبى بكر رضى الله عنه : بِحَمْدِ اللهِ لاَ بِحَمْدِكَ وَلاَ بِحَمْدِ صَاحِبِكَ ، فَلَمْ يُنْكِرْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك ، مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين ،

---

(١) حديث بعث معروفا إلى بعض الفقراء، وقال للرسول احفظ ما يقول فلما أخذه قال الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ــ الحديث : لم أجد له أصلا إلا فى حديث ضعيف من حديث ابن عمر روى ابن منده فى الصحابة أوله ولم يسق هذه القطعة التى أوردها المصنف وسمى الرجل حديرا فقد روينا من طريق البيهقى أنه وصل لحدير من أبى الدرداء شيء فقال اللهم انك لم تنس حديرا فاجعل حديرا لا ينساك وقيل أن هذا آخر لا صحبة له يكنى أبا جريرة وقد ذكره ابن حبان فى ثقات التابعين

(٢) حديث قال لرجل تب فقال أتوب الى الله ولا أتوب الى محمد ــ الحديث : أحمد وطب من حديث الأسود بن سريع بسند ضعيف

(٣) حديث لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الحديث : د من حديث عائشة بلفظ فقال أبواى قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أحمد الله لا اياكما وللبخارى تعليقا فقال أبواى قومى اليه فقلت لا والله لاأقوم اليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله وله ولمسلم فقالت لى أمى قومى اليه فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله وللطبرانى فقالت بحمد الله لا بحمد صاحبك وله من حديث ابن عباس فقالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك وله من حديث ابن عمر فقال أبوبكر قومى فاحتضنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا والله لاأدنو منه ــ الحديث : وفيه أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم بحمد الله لا بحمدك

قال الله تعالى : (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *) ومن لم يصفُ باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سره ، فليتق الله سبحانه فى تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه

الصفة الرابعة : أن يكون مستترا مخفيا حاجته لايكثر البث والشكوى ، أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته و بقيت عادته ، فهو يتعيش فى جلباب التجمل ، قال الله تعالى: (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً *) أى لا يلحون فى السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم ، أعزة بصبرهم . وهذا ينبغى أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين فى كل محلة ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل ، فثواب صرف المعروف اليهم أضعاف مايصرف إلى المجاهرين بالسؤال

الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب ، فيوجد فيه معنى قوله عز وجل (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ *) أى حبسوا فى طريق الآخرة بعلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب لايستطيعون ضربا فى الأرض لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الاطراف . فبهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها ، « وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] يُعْطِى الْعَطَاءَ عَلَى مِقْدَارِ الْعَيْلَةِ » وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام ، فتكون صدقة وصلة رحم ، وفى صلة الرحم من الثواب مالا يحصى ، قال علىّ رضى الله عنه : لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم أحب إلى من أن أتصدق بعشرين درهما ، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم ، و لأن أصله بمائة درهم أحب إلى من أن أعتق رقبة . والأصدقاء وإخوان الخير أيضا يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب . فليراع هذه الدقائق

(١) حديث كان يعطى العطاء على مقدار العيلة: لم أر له أصلا ولابى داود من حديث عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أتاه الفيء قسمه فى يومه وأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظا

* الزمر : ٤٥ * البقرة : ٢٧٣

فهذه هى الصفات المطلوبة ، وفى كل صفة درجات ، فينبغى أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهى الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ، ومهما اجتهد فى ذلك وأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، فانّ أَحَدَ أَجْرَيه فى الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عز وجل فى قلبه واجتهاه فى طاعته . وهذه الصفات هى التى تقوى فى قلبه فتشوّقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثانى : مايعود اليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته ، فإن قلوب الأبرار لها آثار فى الحال والمآل ، فان أصاب حصل الاجران ، وإن أخطا حصل الاوّل دون الثانى فبهذا يضاعف أجر المصيب فى الاجتهاد هاهنا وفى سائر المواضع ، والله أعلم

الفصل الثالث

فى القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلم أنه لايستحق الزكاة إلاحر مسلم ليس بهاشمى ولامطلبى اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين فى كتاب الله عز وجل. ولاتصرف زكاة إلى كافر، ولاإلى عبد ، ولاإلى هاشمى ، ولا إلى مطلبى . أما الصبى والمجنون فيجوز الصرف اليهما إذا قبض وليهما. فلنذكر صفات الأصناف الثمانية

الصنف الأول : الفقراء :

والفقير : هو الذى ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ، وان كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولاسراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تفى بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لانه فى الحال قد عدم ماهو محتاج اليه وما هو عاجز عنه ، فلا ينبغى أن يشترط فى الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة ، فان هذا غلو ، والغالب انه لايوجد مثله ، ولايخرجه عن الفقر كونه معتادا للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسبا ، بخلاف مالو قدر على كسب فان ذلك يخرجه عن الفقر ، فان قدر على الكسب بآلة فهو فقير ، ويجوز أن يشترى له آلة ، وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير

وإن كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبدا يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الاوقات فليكتسب ، لان الكسب أولى من ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم[1] « طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ » وأراد به السعى فى الاكتساب . وقال عمر رضى الله عنه : كسب فى شبهة خير من مسألة ، وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو من تجب عليه نفقته فهذا اهون من الكسب ، فليس بفقير

الصنف الثانى : المساكين

والمسكين : هو الذى لا يفى دخله بخرجه ، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين ، وقد لا يملك إلا فأسا وحبلا وهو غنى ، والدويرة التى يسكنها والثوب الذى يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت ، أعنى ما يحتاج إليه ، وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة ، وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر ، وحكم الكتاب حكم الثوب ، وأثاث البيت فانه محتاج إليه ، ولكن ينبغى أن يحتاط فى قطع الحاجة بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض : التعليم ، والاستفادة ، والتفرج بالمطالعة . أما حاجة التفرج فلا تعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الاخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع فى الآخرة ولا يجرى فى الدنيا إلا مجرى التفرج والاستئناس ، فهذا يباع فى الكفارة وزكاة الفطر ، ويمنع اسم المسكنة . وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجرة فهذه آلته ، فلا تباع فى الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة . وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به ، فان كان فى البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه ، وإن لم يكن فهو محتاج إليه ، ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة ، فينبغى أن يضبط مدة الحاجة . والأقرب أن يقال : ما لا يحتاج إليه فى السنة فهو مستغنى عنه ، فان من فضل من قوت يومه شىء لزمته الفطرة ، فاذا قدرنا القوت باليوم

---

(١) حديث طلب الحلال فريضة بعد الفريضة: الطبرانى والبيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

فحاجة أثاث البيت ، وثياب البدن ينبغى أن تقدر بالسنة ، فلا تباع ثياب الصيف فى الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه ،وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما؛ فان قال إحداهما أصح والأخرى أحسن فانا محتاج اليهما ، قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفه ، وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة ؛ فان كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيط ، وإن كان قصده التدريس فيحتاج اليهما؛ إذ فى كل واحدة فائدة ليست فى الأخرى.، وأمثال هذه الصور لاتنحصر ، ولم يتعرض له فى فن الفقه ، وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره ، فان استقصاء هذه الصور غير ممكن ، إذ يتعدى مثل هذا النظر فى أثاث البيت فى مقدارها وعددها ونوعها وفى ثياب البدن وفى الدار وسعتها وضيقها ، وليس لهذه الأمور حدود محدودة ؛ ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه،ويقرب فى التحديدات بما يراه ، ويقتحم فيه خطر الشبهات، والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع مايريبه إلى مالا يريبه ، والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينجى منها إلا الاحتياط . والله أعلم

الصنف الثالث : العاملون

وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضى . ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال ، ولا يزاد واحد منهم على أجرة المثل ، فان فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف ، وإن نقص كمل من مال المصالح

الصنف الرابع : المؤلفة قلوبهم على الإسلام

وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون فى قومهم وفى إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم

الصنف الخامس : المكاتبون

فيدفع إلى السيد سهم المكاتب ، وإن دفع إلى المكاتب جاز ، ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبداً له

الصنف السادس : الغارمون

والغارم هو الذى استقرض فى طاعة أو مباح وهو فقير ، فإن استقرض فى معصية

فلايعطى إلا إذا تاب،وإن كان غنيالم يقض دينه إلا إذا كان قداستقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة

الصنف السابع : الغزاة الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة

فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو

الصنف الثامن : ابن السبيل

وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز بها ، فيعطى إن كان فقيرا ، وإن كان له مال ببلد آخر أعطي بقدر بلغته

فإن قلت : فبم تعرف هذه الصفات

قلنا : أما الفقر والمسكنة فبقول الآخذ ، ولا يطالب ببينة ، ولا يحلف ، بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه . وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز ، فان لم يف به استرد . وأما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة ،فهذه شروط الاستحقاق . وأما مقدار مايصرف إلى كل واحد فسيأتى

بيان وظائف القابض

وهى خمسة

الأولى : أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة اليه ليكفى همه ويجعل همومه هما واحدا، فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر وهو المعنى بقوله تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *) ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهى تفرق همه اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفى الحاجات ، فأكثر الأموال وصبها فى أيدى عباده لتكون آلة لهم فى دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم ، فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه فى الخطر ، ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمى المشفق مريضه ، فزوى عنه فضولها ، وساق اليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب ، والتعب فى الجمع والحفظ عليهم ، وفائدته تنصب إلى الفقراء ، فيتجردون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت ، فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ، ولاتشغلهم عن التأهب الفاقة ، وهذا منتهى النعمة . فحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ،

* الذاريات : ٥٦

ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه ، كما سيأتى فى كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى . فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا وعونا له على الطاعة . ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله ، فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ماأباحه الله عز وجل ، فان استعان به على معصية الله كان كافرا لأنعم الله عز وجل ، مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه

الثانية : أن يشكر المعطى ويدعوله ويثنى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لايخرجه عن كونه واسطة ، ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة ، وذلك لاينافى رؤية النعمة من الله سبحانه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » وقد أثنى الله عز وجل على عباده فى مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها ، نحو قوله تعالى : (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[1]) إلى غير ذلك ، وليقل القابض فى دعائه : طهر الله قلبك فى قلوب الأبرار ، وزكى عملك فى عمل الأخيار ، وصلى على روحك فى أرواح الشهداء . وقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ، ولايحقره ، ولايذمه ، ولايعيره بالمنع إذا منع ، ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه ، فوظيفة المعطى الاستصغار ، ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام ، وعلى كل عبد القيام بحقه ، وذلك لاتناقض فيه ، إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض ، والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ، ويضره خلافه ، والأخذ بالعكس منه : وكل ذلك لايناقض رؤية النعمة من الله عز وجل ، فإن من لايرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا

الثالثة : أن ينظر فيما يأخذه ، فان لم يكن من حل تورع عنه (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ[2]) ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال ،

---

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله : ت وحسنه من حديث أبى سعيد وله ولأبى داود وابن حبان نحوه من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح

(٢) حديث من أسدى اليكم معروفا فكافئوه ـ الحديث : د ن من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ من صنع

---

(١) ص : ٤٤ (٢) الطلاق : ٢ ، ٣

فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان مايسلم إليه لايعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ، فان فتوى الشرع فى مثل هذا أن يتصدق به على ماسيأتى بيانه فى كتاب الحلال والحرام ، وذلك إذا عجز عن الحلال ، فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة ، إذ لايقع زكاة عن مؤديه وهو حرام

الرابعة : أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه فى مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذ الا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق ، فان كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين ، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل ، وإن أعطى زيادة أبى وامتنع ، اذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به ، وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده ، وإن كان غازيا لم يأخذ الا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة ، وتقدير ذلك بالاجتهاد ، وليس له حدّ ، وكذا زاد السفر ، والورع ترك مايريبه إلى مالا يريبه ، وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أوّلا إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها مايستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته ، فيمكن أن يبدل بما يكفى ويفضل بعض قيمته ، وكل ذلك إلى اجتهاده ، وفيه طرف ظاهر يتحقق معه انه مستحق ، وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق ، وبينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والاعتماد فى هذا على قول الآخذ ظاهرا

وللمحتاج فى تقدير الحاجات مقامات فى التضييق والتوسيع ، ولا تنحصر مراتبه . وميل الورع إلى التضييق ، وميل المتساهل إلى التوسيع ، حتى يرى نفسه محتاجاً إلى فنون من التوسع ، وهو ممقوت فى الشرع

ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيراً ، بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة . فهذا أقصى مايرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث « إنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] ادَّخَرَ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَةٍ » فهذا أقرب مايحدّ به حدّ الفقير والمسكين . ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى

(١) حديث ادخر لعياله قوت سنة: أخرجاه من حديث عمر كان يعزل نفقة أهله سنة وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس كان اذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقي قال الذهبي حديث منكر

ومذاهب العلماء فى قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة ، فمن مبالغ فى التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قد قوت يومه وليلته ، وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية « أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) نَهَى عَنِ السُّؤَالِ مَعَ الْغِنَى فَسُئِلَ عَنْ غِنَاهُ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : غَدَاؤُهُ وَعَشَاؤُهُ » . وقال آخرون : يأخذ إلى حد الغنى . وحد الغنى نصاب الزكاة ، إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الاغنياء ، فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، لما روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم (٢) قال « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَالٌ يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ » فسئل : وماغناه ؟ قال : خمسون درهما أوقيمتها من الذهب . وقيل راويه ليس بقوى . وقال قوم أربعون ، لمارواه عطاء بن يسار منقطعا أنه صلى الله عليه وسلم (٣) قال « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ أُوقِيَّةٌ فَقَدْ أَلْحَفَ فِي السُّؤَالِ » . وبالغ آخرون فى التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار مايشترى به ضيعة فيستغنى به طول عمره ، أو يهيىء بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره ، لأن هذا هو الغنى . وقد قال عمر رضى الله عنه : إذا أعطيتم فأغنوا . حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم ، إلا إذا خرج عن حد الاعتدال (٤) ولما شغل أبو طَلْحَةَ ببستانه عن الصَّلاةِ قال جَعَلْتُهُ صَدَقَةً فقال صلى الله عليه وسلم « اجْعَلْهُ فِي قَرَابَتِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » فأعطاه حسان وأباقتادة ، فحائط من نخل لرجلين كثير مغن . وأعطى عمر رضى الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئرلها . فهذا ماحكى فيه

فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد فى كراهية السؤال والتردد على الأبواب ، وذلك مستنكر ، وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشترى ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال ، وهو أيضا مائل إلى الإسراف

---

(١) حديث سهل بن الحنظلية فى النهى عن السؤال مع الغنى فيسال مايغنيه فقال غداؤه وعشاؤه: د حب بلفظ من سأل وله ما يغنيه فانما يستكثر من جمر جهنم ــ الحديث :

(٢) حديث ابن مسعود من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش ــ الحديث : أصحاب السنن وحسنه ت وضعفه النسائى والخطابى

(٣) حديث عطاء بن يسار منقطعا من سأل وله أوقية فقد ألحف فى السؤال: د ن من رواية عطاء عن رجل من بنى أسد متصلا وليس بمنقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابى فلا يضر عدم تسميته وأخرجه د ن حب من حديث أبى سعيد

(٤) حديث لما شغل أبا طلحة بستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة : تقدم فى الصلاة

والأقرب إلى الاعتدال كفاية سَنَة ، فما وراءه فيه خطر ، وفيما دونه تضييق . وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف ، فليس للمجتهد الا الحكم بما يقع له ثم يقال للورع[1] « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » كما قاله صلى الله عليه وسلم ، إذ الاثم حزاز القلوب ، فإذا وجد القابض فى نفسه شيئا مما يأخذه فليتق الله فيه ولا يترخص تعللا بالفتوى من علماء الظاهر ، فان لفتواهم قيودا ومطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات ، والتوقى من الشبهات من شيم ذوى الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة

الخامسة : أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه ، فان كان مايعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فانه لايستحق مع شريكه الا الثمن ، فلينقص من الثمن مقدار مايصرف إلى اثنين من صنفه . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق ، فانهم لايراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل . وانما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم . وسيأتى ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال فى كتاب الحلال والحرام، إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع

فى صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار :

قوله صلى الله عليه وسلم :[2] « تَصَدَّقُوا وَلَوْ بِتَمْرَةٍ فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الْجَائِعِ وَتُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم :[3] « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا

---

(١) حديث استفت قلبك وان أفتوك تقدم فى العلم

(٢) حديث تصدقوا ولو بتمرة فانها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار: ابن المبارك فى الزهد من حديث عكرمة مرسلا ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن استترى من النار ولو بشق تمرة فانها تسد من الجائع مسدها من الشبعان ولابى يعلى والبزار من حديث أبى بكر اتقوا النار ولو بشق تمرة فانها تقوم العوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان وأسناده ضعيف وللترمذى و ن فى الكبرى و ه فى حديث معاذ والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار

(٣) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة أخرجاه من حديث عدى بن حاتم

فبكلمة طيبة » وقال صلى الله عليه وسلم:(١) « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا طَيِّبًا إِلَّا كَانَ اللهُ آخِذَهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَبْلُغَ التَّمْرَةُ مِثْلَ أُحُدٍ » وقال صلى الله عليه وسلم:(٢) لأبي الدرداء « إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ثُمَّ انْظُرْ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهُ بِمَعْرُوفٍ » وقال صلى الله عليه وسلم: (٣) « مَا أَحْسَنَ عَبْدٌ الصَّدَقَةَ إِلَّا أَحْسَنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخِلَافَةَ عَلَى تَرِكَتِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم: (٤) « كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ » وقال صلى الله عليه وسلم: (٥) « الصَّدَقَةُ تَسُدُّ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الشَّرِّ » وقال صلى الله عليه وسلم: « صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ »

وقال صلى الله عليه وسلم: (٦) « مَا الَّذِي أَعْطَى مِنْ سَعَةٍ بِأَفْضَلَ أَجْرًا مِنَ الَّذِي يَقْبَلُ مِنْ حَاجَةٍ » ولعل المراد به الذي يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين، فيكون مساوياً للمعطي الذي يقصد بإعطائه عمارة دينه. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: (٧) « أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ. وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَأْمُلُ الْبَقَاءَ وَتَخْشَى الْفَاقَةَ وَلَا تُمْهِلْ حَتَّى

---

(١) حديث مامن عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا ـ الحديث: خ تعليقا و م ت ن في الكبرى واللفظ له هـ من حديث أبي هريرة

(٢) حديث قال لأبي الدرداء اذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ـ الحديث: م من حديث أبي ذر انه قال ذلك له وماذكره المصنف انه قال لأبي الدرداء وهم

(٣) حديث ماأحسن عبد الصدقة الا أحسن الله الخلافة على تركته: ابن المبارك في الزهد من حديث ابن شهاب مرسلا باسناد صحيح واسنده الخطيب فيمن روي عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه

(٤) حديث كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس: حب ك وصححه على شرط م من حديث عقبة ابن عامر

(٥) حديث الصدقة تسد سبعين بابا من الشر: ابن المبارك في البر من حديث أنس بسند ضعيف أن الله ليدرأ بالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء

(٦) حديث ماالمعطي من سعة بأفضل أجرا من الذي يقبل من حاجة: حب في الضعفاء وطب في الأوسط من حديث أنس ورواه في الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٧) حديث سئل أي الصدقة أفضل؟ قال ان تصدق وأنت صحيح شحيح ـ الحديث: أخرجاه من حديث أبي هريرة

إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ » وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) يوماً لأصحابه : « تَصَدَّقُوا ، فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ عِنْدِي دِينَاراً ، فَقَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ ، فَقَالَ إِنَّ عِنْدِي آخَرَ، قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى زَوْجَتِكَ ، قَالَ إِنَّ عِنْدِي آخَرَ ، قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ ، قَالَ إِنَّ عِنْدِي آخَرَ ، قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى خَادِمِكَ ، قَالَ إِنَّ عِنْدِي آخَرَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْتَ أَبْصَرُ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ » وقال : (٣) « رُدُّوا مَذَمَّةَ السَّائِلِ وَلَوْ بِمِثْلِ رَأْسِ الطَّائِرِ مِنَ الطَّعَامِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « لَوْ صَدَقَ السَّائِلُ مَا أَفْلَحَ مَنْ رَدَّهُ »

وقال عيسى عليه السلام : من رد سائلا خائباً من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام « وَكَانَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٥) لَا يَكِلُ خَصْلَتَيْنِ إِلَى غَيْرِهِ : كَانَ يَضَعُ طَهُورَهُ بِاللَّيْلِ وَيُخَمِّرُهُ ، وَكَانَ يُنَاوِلُ الْمِسْكِينَ بِيَدِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٦) « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِماً إِلَّا كَانَ فِي حِفْظِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا دَامَتْ عَلَيْهِ مِنْهُ رُقْعَةٌ »

الآثار :

قال عروة بن الزبير : لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بخمسين ألفاً وإن درعها لمرقع .

---

(١) حديث قال يوما لأصحابه تصدقوا فقال رجل إن عندى دينارا فقال أنفقه على نفسك ــ الحديث : د ن واللفظ له وحب ك من حديث أبي هريرة وقد تقدم قبل بيسير

(٢) حديث لا تحل الصدقة لآل محمد ــ الحديث : م من حديث المطلب بن ربيعة

(٣) حديث ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام : العقيلي في الضعفاء من حديث عائشة

(٤) حديث لو صدق السائل ما أفلح من رده : العقيلي في الضعفاء وابن عبد البر في التمهيد من حديث عائشة قال العقيلي لا يصح في هذا الباب شيء وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٥) حديث كان لا يكل خصلتين إلى غيره ــ الحديث : الدارقطني من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك في البر مرسلا

(٦) حديث ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ــ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

(٧) حديث ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان في حفظ الله ــ الحديث : ت وحسنه و ك وصحح إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالد بن طهمان ضعيف

وقال مجاهد فى قول الله عز وجل : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(١)) فقال : وهم يشتهونه . وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوى الحاجة منا . وقال عمر بن عبد العزيز : الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملِك ، والصدقة تدخلك عليه . وقال ابن أبى الجعد : إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء ، وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفاً ، وإنها لتفك لحيى سبعين شيطانا . وقال ابن مسعود : إن رجلا عَبَدَالله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة . وقال لقمان لابنه : اذا أخطأت خطيئة فاعط الصدقة . وقال يحي بن معاذ . ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا الا الحبة من الصدقة وقال عبد العزيز بن أبى رواد كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة : كتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وكتمان المصائب ، وروى مسنداً . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة . أنا أفضلكن . وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول سمعت الله يقول : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ(٢)) والله يعلم أنى أحب السكر . وقال النخعى . اذا كان الشىء لله عز وجل لا يسرنى أن يكون فيه عيب وقال عبيد بن عمير : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأعطش ما كانوا قط ، وأعرى ما كانوا قط فمن أطعم لله عز وجل أشبعه الله . ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ، ومن كسا لله عز وجل كساه الله . وقال الحسن : لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وقال الشعبى من لم ير نفسه الى ثواب الصدقة أحوج من الفقير الى صدقته ، فقد أبطل صدقته ، وضرب بها وجهه . وقال مالك لا نرى بأسا بشرب الموسر من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد لأنه انما جعل للعطشان من كان ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص . ويقال: إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال للنخاس أترضى ثمنها الدرهم والدرهمين ؟ قال لا ، قال فاذهب فان الله عز وجل رضى فى الحور العين بالفلس واللقمة

(١) الانسان : ٨ (٢) آل عمران : ٩٢

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريق طلاب الاخلاص فى ذلك ، فمال قوم إلى أن الاخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الاظهار أفضل . ونحن نشير إلى ما فى كل واحد من المعانى والآفات ، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه

أما الاخفاء ففيه خمسة معان :

الأول : أنه أبقى للستر على الآخذ ، فان أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة ، وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف

الثانى : أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ، فانهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء ، أو ينسبونه إلى أخذ زيادة ، والحسدُ وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر ، وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى وقال أبو أيوب السختيانى : إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يُحدث فى جيرانى حسدا . وقال بعض الزهاد : ربما تركت استعمال الشيء لأجل اخوانى : يقولون : من أين له هذا ؟ وعن ابراهيم التيمى أنه رُئى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه : من أين لك هذا ؟ فقال «كسانيه أخى خيثمة» ولو علمت أن أهله علموا به ماقبلته

الثالث : إعانة المعطى على إسرار العمل ، فان فضل السر على الجهر فى الاعطاء أكثر ، والاعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتمان لايتم إلا باثنين : فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى . ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فردّه اليه ، ودفع اليه آخر شيئاً فى السر فقبله ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنّ هذا عمِلَ بالأدب فى إخفاء معروفه فقبلته ، وذاك أساء أدبه فى عمله فرددته عليه . وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئا فى الملا فردّه ، فقال له: لم ترد على الله عز وجل ماأعطاك ؟ فقال : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل ، فرددتُ عليك شِرْكك . وقبل بعض العارفين فى السر شيئاً كان رده فى العلانية ، فقيل له فى ذلك ، فقال : عصيتَ الله بالجهر فلم أك عونا لك على المعصية ،

وأطعته بالاخفاء فأعنتك على برك . وقال الثورى : لو علمت أن أحدهم لايذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته

الرابع : أن فى إظهار الأخذ ذلا وامتهانا ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول : إن فى إظهاره إذلالاً للعلم وامتهانا لأهله، فما كنت بالذى أرفع شيئا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله

الخامس : الاحتراز عن شبهة الشركة ، قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ أُهْدِىَ لَهُ هَدِيَّةٌ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَهُمْ شُرَكَاؤُهُ فِيهَا » وبأن يكون ورقا أو ذهبا لايخرج عن كونه هدية . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَفْضَلُ مَا يُهْدِى الرَّجُلُ إِلَى أَخِيهِ وَرِقاً أَوْ يُطْعِمُهُ خُبْزاً » فجعل الورق هدية بانفراده فما يعطى فى الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ، ولايخلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة

أما الاظهار والتحدث به ففيه معان أربعة :

الأول : الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة

والثانى : إسقاط الجاه والمنزلة ، وإظهار العبودية والمسكنة ، والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء ، وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : أظهر الأخذ على كل حال إن كنت آخذاً ، فانك لاتخلو عن أحد رجلين : رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك ، فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك واقل لآفات نفسك ، أورجل تزداد فى قلبه باظهارك الصدق ، فذلك الذى يريده أخوك ، لأنه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك ، فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه

الثالث : هو أن العارف لانظر له إلا إلى الله عز وجل ، والسر والعلانية فى حقه واحد ،

---

(١) حديث من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها: العقيلى وابن حبان فى الضعفاء وطب فى الأوسط وهق من حديث ابن عباس قال عق لا يصح فى هذا المتن حديث

(٢) حديث أفضل مايهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يطعيه خبزا: عد وضعفه من حديث ابن عمر أن أفضل العمل عند الله أن يقضى عن مسلم دينه أو يدخل عليه سرورا أو يطعمه خبزا ولأحمد و ت وصححه من حديث البراء من منح منحة ورق أو منحة لبن أو هدى زقاقا فهو كعتاق نسمة

فاختلاف الحال شرك فى التوحيد . قال بعضهم : كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ فى السر ويرد فى العلانية . والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان فى الحال ، بل ينبغى أن يكون النظر مقصورا على الواحد الفرد . حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين ، فشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد ، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال . لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد ، فانفرد كل واحد وذبح ، إلا ذلك المريد فانه رد الدجاجة ، فسألهم فقالوا : فعلنا ما أمرنا به الشيخ ، فقال الشيخ للمريد: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال ذلك المريد : لم أقدر على مكان لا يرانى فيه أحد فان الله يرانى فى كل موضع، فقال الشيخ : لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل

الرابع : أن الاظهار إقامة لسنة الشكر ، وقد قال تعالى : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ[(١)]) والكتمان كفران النعمة ، وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى: (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ[(٢)]) وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ » وأعطى رجل بعض الصالحين شيئا فى السر فرفع به يده وقال : هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر فى أمور الآخرة أفضل . ولذلك قال بعضهم : إذا أعطيت فى الملا فخذ ثم اردد فى السر . والشكر فيه محثوث عليه ، قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » والشكر قائم مقام المكافأة ، حتى قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَأَثْنُوا عَلَيْهِ بِهِ خَيْراً وَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » [(٣)] ولما قال المهاجرون فى الشكر يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله ، فقال صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَا شَكَرْتُمْ لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ بِهِ فَهُوَ مُكَافَأَةٌ »

---

(١) حديث إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه: أحمد من حديث عمران ابن حصين بسند صحيح وحسنه ت من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٢) حديث من لم يشكر الناس لم يشكره الله تقدم

(٣) حديث قالت المهاجرون يا رسول الله ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عليهم ــ الحديث : ت وصححه من حديث أنس ورواه مختصرا د ن فى اليوم والليلة و ك وصححه هـ

(١) الضحى : ١١ (٢) النساء : ٣٧

فالآن إذا عرفت هـذه المعانى فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا فى المسألة بل هو اختلاف حال

فكشف الغطاء فى هذا أنا لا نحكم حكما بتًّا بأن الاخفاء أفضل فى كل حال أو الاظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات ، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص ، فينبغى أن يكون المخلص مراقبا لنفسه ، حتى لا يتدلى بحبل الغرور ، ولا ينخدع بتلبيس الطبع ، ومكر الشيطان . والمكر والخداع أغلب فى معانى الاخفاء منه فى الاظهار ، مع أن له دخلا فى كل واحد منهما ، فأما مدخل الخداع فى الاسرار فمن ميل الطبع إليه ، لما فيه من خفض الجاه والمنزلة ، وسقوط القدر عن أعين الناس ، ونظر الخلق إليه بعين الازدراء ، وإلى المعطي بعين المنعم المحسن . فهذا هو الداء الدفين ، ويستكن فى النفس ، والشيطان بواسطته يظهر معانى الخير حتى يتعلل بالمعانى الخمسة التى ذكرناها :

ومعيار كل ذلك ومحكه أمر واحد ، وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فانه إن كان يبغى صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن ، أو يتقي انتهاك الستر ، أو إعانة المعطى على الاسرار ، أو صيانة العلم عن الابتذال ، فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فان كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره : فتقديره الحذر من هـذه المعانى أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن اذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو ، والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص . ومن أحسن من ملاحظة مثل هـذا ربما يعجز الشيطان عنه ، والا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ .

وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطييب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين فى الشكر حتى يرغبوا فى إكرامه وتفقده . وهذا داء دفين فى الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بان يروج عليه هذا الخبث فى معرض السنة ويقول له الشكر من السنة والاخفاء من الرياء ، ويورد عليه المعانى التى ذكرناها ليحمله على الاظهار ، وقصده الباطن ماذكرناه

ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لاينتهي الخبر إلى المعطى، ولا إلى من يرغب في عطائه ، وبين يدي جماعة يكرهون اظهار العطية ويرغبون في اخفائها ، وعادتهم أنهم لايعطون الامن يخفي ولايشكر ، فان استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة ، وإلافهو مغرور

ثم إذا علم أن باعثه السنة في الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطى فينظر : فإن كان هو ممن يحب الشكر والنشر فينبغي أن يخفي ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لاينصره على الظلم ، وطلبه الشكر ظلم

وإذا علم من حاله أنه لايحب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] للرجل الذى مدح بين يديه : « ضَرَبْتُمْ عُنُقَهُ ، لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ » مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثني على قوم في وجوههم لثقته بيقينهم وعامه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال لواحد [2] « إِنَّهُ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] في آخر « إِذَاجَاءَكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ » وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم [4] « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « إِذَا عَلِمَ أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ خَيْراً فَلْيُخْبِرْهُ فَإِنَّهُ يَزْدَادُ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ » وقال صلى الله عليه وسلم [6] « إِذَا مُدِحَ الْمُؤْمِنُ رَبَا الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ »وقال الثوري : من عرف نفسه لم يضره مدح الناس

(١) حديث قال للرجل الذى مدح بين يديه ضربتم عنقه لو سمعها ماأفلح: متفق عليه من حديث أبي بكرة بلفظ ويحك قطعت عنق صاحبك زاد طب في رواية والله لو سمعها ماأفلح أبدا وفي سنده على ابن زيد بن جدعان متكلم فيه وله نحوه من حديث أبي موسى

(٢) حديث أنه سيد الوبر: العنبرى وطب وابن قانع في معاجمهم وحب في الثقات من حديث قيس بن عاصم المنقرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك

(٣) حديث اذا جاءكم كريم قوم فأكرموه: ه من حديث ابن عمر ورواه د في المراسيل من حديث الشعبي مرسلا بسند صحيح وقال روى متصلا وهو ضعيف و ك نحوه من حديث معبد بن خالد الانصارى عن أبيه وصحح أسناده

(٤) حديث أن من البيان لسحرا :خ من حديث ابن عمر

(٥) حديث اذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فانه يزداد رغبة في الخير: قط في العلل من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة وقال لايصح عن الزهرى وروى عن ابن المسيب مرسلا

(٦) حديث اذا مدح المؤمن ربا الايمان في قلبه : طب من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف

وقال أيضاً ليوسف بن أسباط : إذا أوليتك معروفاً كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فاشكر وإلا فلا تشكر

ودقائق هذه المعانى ينبغى أن يلحظها من يراعى قلبه ، فإن أعمال الجوارح مع اهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان ، وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع . ومثل هذا العلم هو الذى يقال فيه إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة ، إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر ، وبالجهل به تموت عبادة العمر كله ، وتتعطل

وعلى الجملة فالأخذ فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسلمها، فلا ينبغى أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة بحيث يستوى السر والعلانية ، وذلك هو الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى . نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق

بيان الأفضل من أخذ الصدقة والزكاة *

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الاخذ من الصدقة أفضل ، فان فى أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ، ولأنه ربما لا يكمل فى أخذه صفة الإستحقاق كما وصف فى الكتاب العزيز، وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع، وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا ، ولأن الزكاة لامنة فيها ، وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين ، ولأنه أخذ بالحاجة ، والانسان يعلم حاجة نفسه قطعا وأخذ الصدقة أخذ بالدين ، فإن الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيرا ولأن مرافقة المساكين أدخل فى الذل والمسكنة وأبعد من التكبر إذ قد يأخذ الانسان الصدقة فى معرض الهدية فلا تتميز عنه وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته

والقول الحق فى هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية ، فان كان فى شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغى أن يأخذ الزكاة ، فاذا علم أنه مستحق قطعا كما إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه فى قضائه فهو مستحق قطعا ، فاذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة ، فاذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال

لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ، فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ، ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين ، وإن كان المال معرضا للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير ، والأمر فيهما يتفاوت . وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال . والله أعلم .

كمل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، وعلى الملائكة والمقربين من أهل السموات والأرضين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين . والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

كتاب أسرار الصوم

كتاب أسرار الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم على عباده المنه ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنّه ، ورد أمله وخيب ظنه ، إذ جعل الصوم حصناً لأوليائه وجُنّه ، وفتح لهم به أبواب الجنه ، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنه ، وأن بقمعها تصبح النفس المطمئنة، ظاهرة الشوكة فى قصم خصمها قوية المنة . والصلاة على محمد قائد الخلق وممهد السنه ، وعلى آله وأصحابه ذوى الأبصار الثاقبة والعقول المرجحة ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فان الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم [(١)] « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان ، إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم [(٣)] « كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَّا الصِّيَامُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ » وقد قال الله تعالى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [(١)]) والصوم نصف الصبر ، فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب ، وناهيك فى معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم [(٤)] « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لِأَجْلِي فَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٥)] « لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ » وهو موعود بلقاء الله تعالى فى جزاء صومه وقال صلى الله عليه وسلم [(٦)] « لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ

﴿ كتاب أسرار الصيام ﴾

(١) حديث الصوم نصف الصبر : ت وحسنه من حديث رجل من بنى سليم و ه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث الصبر نصف الايمان : أبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن

(٣) حديث كل حسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم ـ الحديث : أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث والذي نفسى بيده لخلوف فم الصائم ـ الحديث : أخرجاه من حديثه وهو بعض الذى قبله

(٥) حديث للجنة باب يقال له الريان ـ الحديث : أخرجاه من حديث سهل بن سعد

(٦) حديث للصائم فرحتان ـ الحديث : أخرجاه من حديث أبى هريرة

(١) الزمر : ١٠

وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « لِكُلِّ شَيْءٍ بَابٌ ، وَبَابُ الْعِبَادَةِ الصَّوْمُ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « نَوْمُ الصَّائِمِ عِبَادَةٌ » . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم (٣) قال : « إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَنَادَى مُنَادٍ : يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ هَلُمَّ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ اقْصِرْ »

وقال وكيع في قوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (١)) هي أيام الصيام اذ تركوا فيها الأكل والشرب . وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة المباهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم (٤) فقال « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ بِالشَّابِّ الْعَابِدِ فَيَقُولُ أَيُّهَا الشَّابُّ التَّارِكُ شَهْوَتَهُ لِأَجْلِي الْمُبْذِلُ شَبَابَهُ لِي أَنْتَ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَائِكَتِي » وقال صلى الله عليه وسلم في الصائم « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (٥) انْظُرُوا يَا مَلَائِكَتِي إِلَى عَبْدِي تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَلَذَّتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي » وقيل في قوله تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)) قيل كان عملهم الصيام لأنه قال : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣)) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا ، ويجازف جزافا ، فلا يدخل تحت وهم وتقدير . وجدير بأن يكون كذلك ، لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له ، كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه ، والأرض كلها له ، لمعنيين

---

(١) حديث لكل شيء باب وباب العبادة الصوم : ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف

(٢) حديث نوم الصائم عبادة : رويناه في أمالي ابن منده من رواية ابن المغيرة القواس عن عبدالله بن عمر بسند ضعيف ولعله عبد الله بن عمرو فانهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية الا عنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن أبي أوفى وفيه سليمان ابن عمرو النخعي أحد الكذابين

(٣) حديث اذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ـ الحديث : ت وقال غريب و ه و ك وصححه على شرطها من حديث أبي هريرة وصحح خ وقفه على مجاهد وأصله متفق عليه دون قوله ونادمناد

(٤) حديث ان الله تعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته ـ الحديث ؛ عد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٥) حديث يقول الله تعالي للملائكته ياملائكتي انظروا الى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي

(١) الحاقة : ٢٤ (٢) السجدة : ١٧ (٣) الزمر : ١٠

أحدهما : أن الصوم كف وترك وهو فى نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد ، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل ، فانه عمل فى الباطن بالصبر المجرد

والثانى : أنه قهر لعدوّ الله عز وجل ، فان وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات ، وانما تقوى الشهوات بالاكل والشرب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِى مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ » . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « دَاوِمِى [٢] قَرْعَ بَابِ الْجَنَّةِ . قَالَتْ : بِمَاذَا ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِالْجُوعِ » . وسيأتى فضل الجوع فى كتاب شره الطعام وعلاجه من ربع المهلكات

فلما كان الصوم على الخصوص قمعاً للشيطان وسداً لمسالكه وتضييقاً لمجاريه ، استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل ، ففى قمع عدوّ الله نصرة لله سبحانه ، وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له ، قال الله تعالى : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [١]) فالبداية بالجهد من العبد ، والجزاء بالهداية من الله عز وجل ، ولذلك قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [٢]) وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [٣]) وانما التغيير تكثير الشهوات ، فهى مرتع الشياطين ومرعاهم ، فادامت مخصبة لم ينقطع ترددهم ، وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوبا عن لقائه . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِى آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ » فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة ، وصار جنة .

وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلابد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة ، بذكر أركانه ، وسننه ، وشروطه الباطنة . ونبين ذلك بثلاثة فصول :

---

(١) حديث ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ـ الحديث : متفق عليه من حديث صفية دون قوله فضيقوا مجاريه بالجوع

(٢) حديث قال لعائشة داومى قرع باب الجنة ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٣) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ـ الحديث : أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه

(١) محمد : ٧ (٢) العنكبوت : ٦٩ (٣) الرعد : ١١

الفصل الأول

فى الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بافساده

أما الواجبات الظاهرة فستة

الأول : مراقبة أول شهر رمضان ، وذلك برؤية الهلال ، فإن غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان . ونعنى بالرؤية العلم ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد ، ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة ، ومن سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضى به ، فليتبع كل عبد فى عبادته موجب ظنه ، وإذا رؤى الهلال ببلدة ولم يُرَ بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ، ولا يتعدى الوجوب

الثانى : النية . ولا بد لكل ليلة من نية مبيتة معينة جازمة ، فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذى عنينا بقولنا كل ليلة ، ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع ،وهو الذى عنينا بقولنا مبيتة،ولو نوى الصوم مطلقا أو الفرض مطلقا لم يجزه حتى ينوى فريضة الله عز وجل صوم رمضان ، ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يجزه فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل،واحتمال غلط العدل أو كذبه لايبطل الجزم،أو يستند إلى استصحاب حال كالشك فى الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لايمنع جزم النية ، أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس فى المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لايمنعه من النية ، ومهما كان شاكا ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان فان النية محلها القلب ، ولا يتصور فيه جزم القصد مع الشك ، كما لو قال فى وسط رمضان : أصوم غدا إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ ، ومحل النية لا يتصور فيه تردد ، بل هو قاطع بأنه من رمضان . ومن نوى ليلا ثم أكل لم تفسد نيته . ولو نوت امرأة فى الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها

الثالث : الإمساك عن إيصال شىء إلى الجوف عمدا مع ذكر الصوم ، فيفسد صومه بالأكل ، والشرب ، والسعوط ، والحقنة . ولا يفسد بالفصد ، والحجامة ، والاكتحال ،

وإدخال الميل فى الأذن والاحليل ، إلا أن يقطر فيه مايبلغ المثانة . وما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه ، أو مايسبق إلى جوفه فى المضمضة فلا يفطر ، إلا إذا بالغ فى المضمضة فيفطر لأنه مقصر ، وهو الذى أردنا بقولنا : عمدا . فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسى فإنه لايفطر ، أما من أكل عامدا فى طرفى النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارا بالتحقيق فعليه القضاء ، وإن بقى على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه . ولا ينبغى أن يأكل فى طرفى النهار إلا بنظر واجتهاد

الرابع : الإمساك عن الجماع ، وحده مغيب الحشفة . وإن جامع ناسيا لم يفطر ، وإن جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنبا لم يفطر ، وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع فى الحال صح صومه ، فان صبر فسد ولزمته الكفارة

الخامس : الامساك عن الاستمناء ، وهو إخراج المنى قصداً بجماع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر . ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها مالم ينزل ، لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخا أو مالكا لإربه ، فلا بأس بالتقبيل ، وتركه أولى . وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر لتقصيره

السادس : الامساك عن إخراج القىء ، فالاستقاء يفسد الصوم ، وإن ذرعه القىء لم يفسد صومه . وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به ، إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه ، فانه يفطر عند ذلك

وأما لوازم الافطار فأربعة :

القضاء ، والكفارة ، والفدية ، وإمساك بقية النهار تشبيها بالصائمين

أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالحائض تقضى الصوم ، وكذا المرتد . أما الكافر والصبى والمجنون فلا قضاء عليهم . ولا يشترط التتابع فى قضاء رمضان ، ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .

وأما الكفارة : فلا تجب إلا بالجماع . وأما الاستمناء والأكل والشرب وما عدا الجماع لاتجب به كفارة . فالكفارة عتق رقبة ، فان أعسر فصوم شهرين متتابعين ، وإن عجز فاطعام ستين مسكينا مُدًّا مُدًّا

وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر او قصر فيه ، ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها ، ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الامساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم فى السفر أفضل من الفطر الا إذا لم يطق ، ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيما فى أوله ، ولا يوم يقدم إذا قدم صائما

وأما الفدية : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولديهما ، لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد مع القضاء والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا

وأما السنن فست : تأخير السحور ، وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، وترك السواك بعد الزوال ، والجود فى شهر رمضان لما سبق من فضائله فى الزكاة ، ومدارسة القرآن والاعتكاف فى المسجد لاسيما فى العشر الأخير ، فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « كَانَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ طَوَى الْفِرَاشَ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ وَدَأَبَ وَأَدْأَبَ أَهْلَهُ » أى أداموا النصب فى العبادة ، إذ فيها ليلة القدر ، والأغلب أنها فى أوتارها ، وأشبه الأوتار ليلة إحدى وثلاث وخمس وسبع ، والتتابع فى هذا الاعتكاف أولى ، فان نذر اعتكافا متتابعا أو نواه انقطع تتابعه بالخروج من غير ضرورة : كما لو خرج لعيادة ، أو شهادة أو جنازة أو زيارة ، أو تجديد طهارة . وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع ، وله أن يتوضأ فى البيت . ولا ينبغى أن يعرج على شغل آخر « كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) لَا يَخْرُجُ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ وَلَا يَسْأَلُ عَنِ الْمَرِيضِ إِلَّا مَارًّا » . وينقطع التتابع بالجماع ، ولا ينقطع بالتقبيل ، ولا بأس فى المسجد بالطيب وعقد النكاح ، وبالأكل والنوم وغسل اليد فى الطست ، فكل ذلك قد يحتاج إليه فى التتابع . ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه « كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣) يُدْنِى رَأْسَهُ فَتُرَجِّلُهُ عَائِشَةُ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا وَهِىَ فِى الْحُجْرَةِ » ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغى أن يستأنف النية ، الا إذا كان قد نوى أولا عشرة أيام مثلا ، والأفضل مع ذلك التجديد .

---

(١) حديث كان اذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش ـ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المئزر

(٢) حديث كان لا يخرج الا لحاجته ولا يسأل عن المريض الا مارا : متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشطر الثانى رواه أبو داود بنحوه بسند لين

(٣) حديث كان يدنى رأسه لعائشة متفق عليه من حديثها

الفصل الثانى

فى أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص

أما صوم العموم : فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله

وأما صوم الخصوص : فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام

وأما صوم خصوص الخصوص : فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية . ويحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر ، وبالفكر فى الدنيا إلا دنيا تراد للدين ، فان ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ، حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف فى نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة ، فان ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل ، وقلة اليقين برزقه الموعود . وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين . ولا يطول النظر فى تفصيلها قولا ولكن فى تحقيقها عملا ، فانه اقبال بكنه الهمة على الله عز وجل ، وانصراف عن غير الله سبحانه ، وتلبس بمعنى قوله عز وجل : (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ[1])

وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين : فهو كف الجوارح عن الآثام. وتمامه بستة أمور

الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع فى النظر إلى كل مايذم ويكره ، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفاً مِنَ اللهِ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيمَاناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِى قَلْبِهِ » وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] أنه قال « خَمْسٌ يُفَطِّرْنَ الصَّائِمَ : الْكَذِبُ وَالْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ وَالْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ وَالنَّظَرُ بِشَهْوَةٍ »

---

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام ابليس ـ الحديث : ك وصحح أسناده من حديث حذيفة

(٢) حديث جابر عن أنس خمس يفطرون الصائم ـ الحديث : الأزدى فى الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازى هذا كذاب

(١) الانعام : ٩١

الثاني : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، والزامه السكوت ، وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرءان فهذا صوم اللسان . وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم . رواه بشر بن الحارث عنه ، وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام: الغيبة والكذب . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ » وجاء في الخبر « أَنَّ [2] امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَجْهَدَهُمَا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ حَتَّى كَادَتَا أَنْ تَتْلَفَا فَبَعَثَتَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنَانِهِ فِي الْإِفْطَارِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا قَدَحًا وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْ لَهُمَا قِيئَا فِيهِ مَا أَكَلْتُمَا فَقَاءَتْ إِحْدَاهُمَا نِصْفَهُ دَمًا عَبِيطًا وَلَحْمًا غَرِيضًا وَقَاءَتِ الْأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى مَلَأَتَاهُ فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَاتَانِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمَا وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمَا قَعَدَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى فَجَعَلَتَا يَغْتَابَانِ النَّاسَ ، فَهَذَا مَا أَكَلَتَا مِنْ لُحُومِهِمْ »

الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ، لأن كل ما حرم قوله حرم الاصغاء إليه ، ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت ، فقال تعالى : (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ [1]) وقال عز وجل (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ [2]) فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى : (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ [3]) ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [3] « الْمُغْتَابُ وَالْمُسْتَمِعُ شَرِيكَانِ فِي الْإِثْمِ »

الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام : من اليد ، والرجل ، وعن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الافطار ، فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الافطار على الحرام ، فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصرا ويهدم مصرا ، فإن الطعام الحلال إنما يضر

---

(١) حديث الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما ـ الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : في الغيبة للصائم أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : بسند فيه مجهول

(٣) حديث المغتاب والمستمع شريكان في الاثم غريب وللطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع الى الغيبة

(١) المائدة : ٤٢ (٢) المائدة : ٦٣ (٣) النساء : ١٠٤

بكثرته لا بنوعه ، فالصوم لتقليله . وتارك الاستكثار من الدواء خوفا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيها ، والحرام سم مهلك للدين ، والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره وقصد الصوم تقليله . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (١)« كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ » فقيل هو الذى يفطر على الحرام ، وقيل هو الذى يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل هو الذى لا يحفظ جوارحه عن الآثام

الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء جوفه ، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال ، وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره مافاته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه مالا يؤكل فى عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى ، لتقوى النفس على التقوى ، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان فى العود إلى الشرور ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل ، وهو أن يأكل أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، فأما اذا جمع ما كان يأكل ضحوة الى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه ، بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى ، فيصفو عند ذلك قلبه ، ويستديم فى كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء وليلة القدر عبارة عن الليلة التى ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)) ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب ، ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب مالم يخل همته عن غير الله عز وجل ، وذلك هو الأمر كله ، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام . وسيأتى له مزيد بيان فى كتاب الأطعمة ، إن شاء الله عز وجل

(١) حديث كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ن ه من حديث أبى هريرة

(١) القدر : ١

السادس : أن يكون قلبه بعد الافطار معلقاً مضطربا بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدرى أيقبَلُ صومه فهو من المقربين ، أو يرد عليه فهو من الممقوتين . وليكن كذلك فى آخر كل عبادة يفرُغ منها ، فقد روى عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال : « إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمار خلقه يستبقون فيه لطاعته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون ! أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه والمسيء باساءته ! أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك . وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك ، فقال إنى أعده لسفر طويل ، والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هى المعانى الباطنة فى الصوم

فان قلت : فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعانى فقد قال الفقهاء صومه صحيح ، فما معناه ؟

فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هى أضعف من هذه الأدلة التى أوردناها فى هذه الشروط الباطنة ، لاسيما الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته ، فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول ، وبالقبول الوصول الى المقصود ، ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل ، وهو الصمدية ، والاقتداء بالملائكة فى الكف عن الشهوات بحسب الامكان ، فأنهم منزهون عن الشهوات ، والانسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها فكلما انهمك فى الشهوات انحط إلى أسفل السافلين ، والتحق بغمار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين ، والتحق بأفق الملائكة ، والملائكة مقربون من الله عز وجل ، والذى يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم ، فان الشبيه من القريب قريب ، وليس القرب ثَمّ بالمكان بل بالصفات

وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب ، فأى جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء ، مع الانهماك فى الشهوات الأخر طول النهار ؟ ولو كان لمثله جدوى

فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إلاَّ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ » ؟ ولهذا قال أبو الدرداء : ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف لايعيبون صوم الحمقى وسهرهم ، ولذرة من ذوى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين، ولذلك قال بعض العلماء : كم من صائم مفطر ؛ وكم من مفطر صائم . والمفطر الصائم هو الذى يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش ويطلق جوارحه .

ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه فى الوضوء ثلاث مرات ، فقد وافق فى الظاهر العدد ، إلا أنه ترك المهم وهو الغسل ، فصلاته مردودة عليه بجهله . ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة ، فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل ، وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال. وقد قال صلى الله عليه وسلم(١) « إِنَّ الصَّوْمَ أَمَانَةٌ فَلْيَحْفَظْ أَحَدُكُمْ أَمَانَتَهُ » (٢) ولما تلا قوله عز وجل : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا(١)) وضع يده على سمعه وبصره فقال : السمع أمانة ، والبصر أمانة . ولو لا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فَلْيَقُلْ إِنِّى صَائِمٌ » أى انى أودعت لسانى لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك

فإذاً قد ظهر أن لكل عبادة ظاهرا وباطنا وقشرا ولبا ، ولقشورها درجات ، ولكل درجة طبقات ، فاليك الْخِيَرَةَ الآن فى أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب

---

(١) حديث انما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته : الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود فى حديث فى الامانة والصوم واسناده حسن

(٢) حديث لما تلا قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وضع يده على سمعه وبصره وقال السمع والبصر أمانة : د من حديث أبى هريرة دون قوله السمع أمانة

(١) النساء : ٥٨

الفصل الثالث

فى التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة ، وفواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة ، وبعضها يوجد فى كل شهر ، وبعضها فى كل أسبوع

أما فى السنة بعد أيام رمضان : فيوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، والعشر الأول من ذى الحجة ، والعشر الأول من المحرم ، وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم ، وهى أوقات فاضلة وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(١)] يُكْثِرُ صَوْمَ شَعْبَانَ حَتَّى كَانَ يُظَنُّ أَنَّهُ فِى رَمَضَانَ [(٢)] وفى الخبر « أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ » لأنه ابتداء السنة ، فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . قال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « صَوْمُ يَوْمٍ مِنْ شَهْرٍ حَرَامٍ أَفْضَلُ مِنْ ثَلاَثِينَ مِنْ غَيْرِهِ وَصَوْمُ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْ ثَلاَثِينَ مِنْ شَهْرٍ حَرَامٍ » [(٤)] وفى الحديث « مَنْ صَامَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مِنْ شَهْرٍ حَرَامٍ : الْخَمِيسَ وَالْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ عِبَادَةَ تِسْعِمِائَةِ عَامٍ » [(٥)] وفى الخبر « إِذَا كَانَ النِّصْفُ مِنْ شَعْبَانَ فَلاَ صَوْمَ حَتَّى رَمَضَانَ » ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما ، فان وصل شعبان برمضان فجائز ، فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّةً [(٦)] وَفَصَلَ مِرَاراً كَثِيرَةً [(٧)] ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردا له . وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان

---

(١) حديث كان يكثر صيام شعبان ـ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم : من حديث أبى هريرة

(٣) حديث صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين ـ الحديث : لم أجده هكذا وفى المعجم الصغير للطبرانى من حديث ابن عباس من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما

(٤) حديث من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت ـ الحديث : الأزدى فى الضعفاء من حديث أنس

(٥) حديث اذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان : الاربعة من حديث أبى هريرة حب فى صحيحه عنه اذا كان النصف من شعبان فافطروا حتى يجىء رمضان وصححه ت

(٦) حديث وصل شعبان برمضان مرة : الاربعة من حديث أم سلمة لم يكن يصوم من السنة شهرا تاما الا شعبان يصل به رمضان و د ن نحوه من حديث عائشة

(٧) حديث فصل شعبان من رمضان مرارا : د من حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من هلال شعبان مالا يتحفظ من غيره فان غم عليه عد ثلاثين يوما ثم صام وأخرجه قط وقال اسناده صحيح و ك وقال صحيح على شرط الشيخين

فالأشهر الفاضلة ذوالحجة والمحرم ورجب وشعبان ، والأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، واحد فرد وثلاثة سرد . وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات ، وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشوال من أشهر الحج وليس من الحرم ، والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج (١) وفى الخبر « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ فِيهِنَّ أَفْضَلُ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَيَّامِ عَشْرِ ذِى الْحِجَّةِ ، إِنَّ صَوْمَ يَوْمٍ مِنْهُ يَعْدِلُ صِيَامَ سَنَةٍ : وَقِيَامَ لَيْلَةٍ مِنْهُ تَعْدِلُ قِيَامَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، قِيلَ : وَلَا الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ : وَلَا الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ »

وأما ما يتكرر فى الشهر : فأول الشهر ، وأوسطه ، وآخره . ووسطه الأيام البيض ، وهى الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر

وأما فى الأسبوع : فالاثنين ، والخميس ، والجمعة فهذه هى الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام ، وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات

وأما صوم الدهر فانه شامل للكل وزيادة . وللسالكين فيه طرق : فنهم من كره ذلك ، إذ وردت أخبار تدل على كراهته (٢) والصحيح أنه إنما يكره لشيئين : أحدهما أن لا يفطر فى العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله ، والآخر أن يرغب عن السنة فى الافطار ويجعل الصوم حجرا على نفسه ، مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، فاذا لم يكن شىء من ذلك ورأى صلاح نفسه فى صوم الدهر فليفعل ذلك ، فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) فيما رواه أبو موسى الأشعرى « مَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ ضُيِّقَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ وَعَقَدَ تِسْعِينَ » ومعناه لم يكن له فيها موضع

(١) حديث ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب الى الله من عشر ذى الحجة ـ الحديث: ت ه من حديث أبى هريرة دون قوله قيل ولا الجهاد الخ وعند خ من حديث ابن عباس ما العمل فى أيام أفضل من العمل فى هذا العشر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد الا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء

(٢) الاحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر: خ م من حديث عبد الله بن عمرو فى حديث له لا صام من صام الابد ولمسلم من حديث أبى قتادة قيل يارسول الله كيف بمن صام الدهر قال لا صام ولا أفطر و ن نحوه من حديث عبد الله بن عمر وعمران بن حصين وعبد الله بن الشخير

(٣) حديث أبى موسى الاشعرى من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين: أحمد ن فى الكبرى و حب وحسنه أبو على الطوسى

ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر : بأن يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها . وقد ورد في فضله أخبار كثيرة ، لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « عُرِضَتْ عَلَيَّ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَكُنُوزُ الْأَرْضِ فَرَدَدْتُهَا وَقُلْتُ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا أَحْمَدُكَ إِذَا شَبِعْتُ وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ إِذَا جُعْتُ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَفْضَلُ الصِّيَامِ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ : كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا » ومن ذلك [3] مُنَازَلَتُهُ صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول إني أطيق أكثر من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم « صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا ، فَقَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ » وقد روى « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [4] مَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ »

ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه ، وهو أن يصوم يوما ويفطر يومين وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع في الأوقات الفاضلة ، وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث . وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الانسان معنى الصوم ، وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله ، فقد يقتضي حاله دوام الصوم ، وقد يقتضي دوام الفطر ، وقد يقتضي مزج الافطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه ، وذلك لا يوجب ترتيبا مستمرا ، ولذلك روى « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [5] كَانَ يَصُومُ حَتَّى يُقَالَ لَا يُفْطِرُ وَيُفْطِرُ حَتَّى يُقَالَ لَا يَصُومُ وَيَنَامُ حَتَّى يُقَالَ لَا يَقُومُ وَيَقُومُ حَتَّى يُقَالَ لَا يَنَامُ » وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات

---

(١) حديث عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا ـ الحديث : ت من حديث أبي أمامة بلفظ عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا وقال حسن

(٢) حديث أفضل الصيام صوم أخي داود ـ الحديث : أخرجاه من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث منازلته لعبد الله بن عمرو وقوله صم يوما وافطر يوما ـ الحديث : أخرجاه من حديثه

(٤) حديث ماصام شهرا كاملا قط إلا رمضان: أخرجاه من حديث عائشة

(٥) حديث كان يصوم حتى يقال لا يفطر ـ الحديث: م أخرجاه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر القيام والنوم و خ من حديث أنس كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئا ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تشاء تراه من الليل مصليا الا رأيته ولا نائما الا رأيته

وقد كره العلماء أن يوالى بين الافطار أكثر من أربعة أيام ، تقديرا بيوم العيد وأيام التشريق ، وذكروا أن ذلك يقسى القلب ، ويولد ردىء العادات ، ويفتح أبواب الشهوات . ولعمرى هو كذلك فى حق أكثر الخلق ، لا سيما من يأكل فى اليوم والليلة مرتين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوّع به . والله أعلم بالصواب

تم كتاب أسرار الصوم ، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم . وعلى جميع نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم ، وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الحج ، والله المعين لا رب غيره ،
وما توفيقى إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل

كتاب أسرار الحج

كتاب أسرار الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزا وحصنا ، وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا وتحصينا ومنًّا ، وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنًّا والصلاة على محمد نبى الرحمة ، وسيد الأمة ، وعلى آله وصحبه قادة الحق ، وسادة الخلق ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فان الحج من بين أركان الاسلام ومبانيه ، عبادة العمر ، وختام الأمر ، وتمام الاسلام ، وكمال الدين فيه ، أنزل الله عز وجل قوله (اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[1]) وفيه قال صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا » فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال ، وأجدر بها أن تصرف العناية الى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها . وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق، وجمل أركانها وشرائط وجوبها

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها المخفية وأعمالها الباطنة فلنبدأ بالباب الأوّل وفيه فصلان :

الفصل الأوّل : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشد الرحال إلى المساجد

﴿ كتاب أسرار الحج ﴾

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا عد من حديث أبى هريرة: و ت نحوه من حديث على وقال غريب وفى اسناده مقال

---

(١) المائدة : ٣

فضيلة الحج

قال الله عزوجل (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[(١)])وقال قتادة لما أمر الله عزوجل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج ، نادى : يأيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتا فحجوه . وقال تعالى (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ[(٢)]) قيل التجارة فى الموسم، والأجر فى الآخرة . ولما سمع بعض السلف هذا قال : غفر لهم ورب الكعبة . وقيل فى تفسير قوله عز وجل: (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ[(٣)]) أى طريق مكة يقعد الشيطان عليه ليمنع الناس منها وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ فِي يَوْمٍ أَصْغَرَ وَلاَ أَدْحَرَ وَلاَ أَحْقَرَ وَلاَ أَغْيَظَ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ » وما ذلك إلا لما يرى من نزول الرحمة ، وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام ، إذ يقال [(٣)] « إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا يُكَفِّرُهَا إِلاَّ الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ » وقد أسنده جعفر ابن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وذكر بعض المكاشفين من المقربين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له فى صورة شخص بعرفة ، فاذا هو ناحل الجسم ، مصفر اللون ، باكى العين ، مقصوف الظهر ، فقال له : ماالذى أبكى عينك؟ قال: خروج الحاج إليه بلا تجارة أقول قد قصدوه أخاف أن لايخيبهم فيحزننى ذلك ، قال فما الذى أنحل جسمك؟ قال صهيل الخيل فى سبيل الله عزوجل ولوكانت فى سبيلى كان أحب إلىّ ، قال فما الذى غير لونك ؟ قال تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلىّ ، قال فما الذى قصف ظهرك ؟ قال قول العبد أسألك حسن الخاتمة أقول ياويلتى متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن

---

(١) حديث من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه: أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث ما رؤى الشيطان فى يوم هو أصغر ـ الحديث: مالك عن ابراهيم بن أبى عبلة عن طلحة بن عبد الله بن كريز مرسلا

(٣) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الوقوف بعرفة : لم أجده أصلا

(١) الحج : ٢٧ (٢) الحج : ٢٨ (٣) الاعراف : ١٦

وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً فَمَاتَ أَجْرَى لَهُ أَجْرُ الْحَاجِّ الْمُعْتَمِرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَاتَ فِي إِحْدَى الْحَرَمَيْنِ لَمْ يُعْرَضْ وَلَمْ يُحَاسَبْ وَقِيلَ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « حَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ لَيْسَ لَهَا جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَزُوَّارُهُ إِنْ سَأَلُوهُ أَعْطَاهُمْ وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ وَإِنْ دَعَوْا اسْتُجِيبَ لَهُمْ وَإِنْ شَفَعُوا شُفِّعُوا » وفى حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام (٤) « أَعْظَمُ النَّاسِ ذَنْباً مَنْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ فَظَنَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَغْفِرْ لَهُ »

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) أنه قال : « يَنْزِلُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ رَحْمَةً : سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ ، وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ ، وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ » (٦) وفى الخبر : « اسْتَكْثِرُوا مِنَ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ فَإِنَّهُ مِنْ أَجَلِّ شَيْءٍ تَجِدُونَهُ فِي صُحُفِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَغْبَطِ عَمَلٍ تَجِدُونَهُ » ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة (٧) وفى الخبر : « مَنْ طَافَ أُسْبُوعًا حَافِياً حَاسِراً كَانَ لَهُ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ ، وَمَنْ طَافَ أُسْبُوعًا فِي الْمَطَرِ غُفِرَ لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ » ويقال إن الله عز وجل إذا غفر لعبده ذنبا فى الموقف غفره لكل من أصابه فى ذلك الموقف

---

(١) حديث من خرج من بيته حاجا أومعتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج المعتمر الى يوم القيامة ومن مات فى أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة: هق فى الشعب بالشطر الاول من حديث أبى هريرة وروى هو وقط من حديث عائشة الشطر الثانى نحوه وكلاهما ضعيف

(٢) حديث حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة: أخرجاه من حديث أبى هريرة الشطر الثانى بلفظ الحج المبرور وقال أن الحجة المبرورة وعند ابن عدي حجة مبرورة

(٣) حديث الحجاج والعمار وفد الله وزواره ـ الحديث: ه من حديث أبى هريرة دون قوله وزواره ودون قوله ان سألوه أعطاهم وان شفعوا شفعوا وله من حديث ابن عمر وسألوه فأعطاهم ورواه حب

(٤) حديث أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفه فظن أن الله لم يغفر له : الخطيب فى المتفق والمفترق وأبو منصور شهر دار بن شيرويه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعف

(٥) حديث ينزل على هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرون رحمة : حب فى الضعفاء وهق فى الشعب من حديث ابن عباس باسناد حسن وقال أبو حاتم حديث منكر

(٦) حديث استكثروا من الطواف بالبيت ـ الحديث : حب و ك من حديث ابن عمر استمتعوا من هذا البيت فانه هدم مرتين ويرفع فى الثالثة وقال ك صحيح على شرط الشيخين

(٧) حديث من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا فى المطر غفر له ماسلف من ذنوبه: لم أجده هكذا وعند ت ه من حديث ابن عمر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة لفظ ت وحسنه

وقال بعض السلف : إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة ، وهو أفضل يوم فى الدنيا وفيه حجَّ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1] حَجَّةَ الْوَدَاعِ وَكَانَ وَاقِفاً إِذْ نَزَلَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[1]) قال أهل الكتاب : لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد ، فقال عمر رضى الله عنه : أشهد لقد أنزلت هذه الآية فى يوم عيدين اثنين : يوم عرفة ، ويوم جمعة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة . وقال صلى الله عليه وسلم :[2] « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْحَاجِّ وَلِمَنِ اسْتَغْفَرَ لَهُ الْحَاجُّ »

ويروى أن على بن موفق حج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حججا ، قال : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى : ياابن موفق حججت عنى ؟ قلت نعم ، قال ولبيت عنى قلت نعم ، قال فانى أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك فى الموقف فأدخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب، وقال مجاهد وغيره من العلماء : إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل ، وصافحوا ركبان الحمر ، واعتنقوا المشاة اعتناقا

وقال الحسن : من مات عقيب رمضان أوعقيب غزو أوعقيب حج ، مات شهيدا . وقال عمر رضى الله عنه . الحاج مغفور له ولمن يستغفر له فى شهر ذى الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول .

وقد كان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، وأن يستقبلوا الحاج ، ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء ، ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام .

ويروى عن على بن موفق قال حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمنى فى مسجد الخيف فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر ،فنادى أحدهما صاحبه : ياعبد الله فقال الآخر : لبيك ياعبد الله ، قال تدرى كم حج بيت ربنا عز وجل فى هذه السنة قال : لاأدرى ، قال حج بيت ربنا ستمائة ألف أفتدرى كم قبل منهم ؟ قال لا قال ستة أنفس

---

(١) حديث وقوفه فى حجة الوداع يوم الجمعة ونزول اليوم أكملت لكم دينكم ـ الحديث : أخرجاه من حديث عمر

(٢) حديث اللهم اغفر للحجاج ولمن استغفر له الحاج : ك من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط م

(١) المائدة : ٣

قال : ثم ارتفعا فى الهواء فعاباعنى ، فانتبهت فزعا ، واغتممت غما شديدا ، وأهمنى أمرى ، فقلت إذا قبل حج ستة أنفس ؟ فأين أكون أنا فى ستة أنفس ؟ فلما أفضت من عرفة قمت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر فى كثرة الخلق وفى قلة من قبل منهم ، فحملنى النوم فاذا الشخصان قد نزلا على هيئتهما فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ، ثم قال : أتدرى ماذا حكم ربنا عز وجل فى هذه الليلة ؟ قال لا ، قال فانه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف قال فانتبهت وبى من السرور ما يجل عن الوصف

وعنه أيضا رضى الله عنه قال حججت سنة فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت : اللهم إنى قد وهبت حجتى وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته ، قال فرأيت رب العزة فى النوم جل جلاله فقال لى : ياعلى تتسخى على وأنا خلقت السخاء والأسخياء ، وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ، وأحق بالجود والكرم من العالمين : قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته

فضيلة البيت ومكة المشرفة

قال صلى الله عليه وسلم :(١) « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَعَدَ هَذَا الْبَيْتَ أَنْ يَحُجَّهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ سِتُّمِائَةِ أَلْفٍ، فَإِنْ نَقَصُوا أَكْمَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِنَّ الْكَعْبَةَ تُحْشَرُ كَالْعَرُوسِ الْمَزْفُوفَةِ وَكُلُّ مَنْ حَجَّهَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْتَارِهَا يَسْعَوْنَ حَوْلَهَا حَتَّى تَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُونَ مَعَهَا » وفى الخبر :(٢) « إِنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ يَاقُوتَةٌ مِنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ لِكُلِّ مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ وَصِدْقٍ » و« كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣) يُقَبِّلُهُ كَثِيراً » وروى « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٤) سَجَدَ عَلَيْهِ » و« كَانَ يَطُوفُ عَلَى الرَّاحِلَةِ

---

(١) حديث ان الله قد وعد هذا البيت ان يحجه فى كل سنة ستمائة ألف ــ الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ان الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة ويبعث يوم القيامة له عينان ــ الحديث : ت وصححه ن من حديث ابن عباس الحجر الأسود من الجنة لفظ ن وباقي الحديث رواه ت وحسنه و ه وحب و ك وصحح اسناده من حديث ابن عباس أيضا وللحاكم من حديث أنس ان الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة وصحح اسناده ورواه ن حب ك من حديث عبدالله بن عمرو

(٣) حديث انه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا أخرجاه من حديث عمر دون قوله كثيرا و ن أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا ان رآه خاليا

(٤) حديث انه كان يسجد عليه : البزار و ك من حديث عمر وصحح اسناده

فيضعُ المِحْجَنَ عَلَيْهِ ثُمَّ يُقَبِّلُ طَرَفَ المِحْجَنِ »[١] « وَقَبَّلَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَلَا نَشِيجُهُ فَالْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ فَرَأَى عَلِيًّا كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ يَا أَبَا الحَسَنِ هَاهُنَا تُسْكَبُ العَبَرَاتُ وَتُسْتَجَابُ الدَّعَوَاتُ ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بَلْ هُوَ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ، قَالَ : وَكَيْفَ؟ قَالَ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَخَذَ المِيثَاقَ عَلَى الذُّرِّيَّةِ كَتَبَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا ثُمَّ أَلْقَمَهُ هَذَا الحَجَرَ فَهُوَ يَشْهَدُ لِلْمُؤْمِنِ بِالوَفَاءِ وَيَشْهَدُ عَلَى الكَافِرِ بِالجُحُودِ » قيل فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام : اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك

وروى عن الحسن البصرى رضى الله عنه أن صوم يوم فيها بمائة ألف يوم ، وصدقة درهم بمائة ألف درهم ، وكذلك كل حسنة بمائة ألف ، ويقال طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة[٢] وفى الخبر الصحيح : « عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ كَحَجَّةٍ مَعِي » وقال صلى الله عليه وسلم :[٣] « أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ ثُمَّ آتِي أَهْلَ البَقِيعِ فَيُحْشَرُونَ مَعِي ثُمَّ آتِي أَهْلَ مَكَّةَ فَأُحْشَرُ بَيْنَ الحَرَمَيْنِ » وفى الخبر :[٤] « إِنَّ آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَضَى مَنَاسِكَهُ لَقِيَتْهُ المَلَائِكَةُ فَقَالُوا بَرَّ حَجُّكَ يَا آدَمُ لَقَدْ حَجَجْنَا هَذَا البَيْتَ قَبْلَكَ بِأَلْفَيْ عَامٍ » وجاء فى الأثر : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْظُرُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَأَوَّلُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهْلُ الحَرَمِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الحَرَمِ أَهْلُ المَسْجِدِ الحَرَامِ ، فَمَنْ رَآهُ طَائِفًا غَفَرَ لَهُ وَمَنْ رَآهُ مُصَلِّيًا غَفَرَ لَهُ وَمَنْ رَآهُ قَائِمًا مُسْتَقْبِلَ الكَعْبَةِ غَفَرَ لَهُ »

---

(١) حديث قبله عمر وقال انى لأعلم انك حجر: أخرجاه دون الزيادة التى رواها على ورواه بتلك الزيادة ك وقال ليس من شرط الشيخين

(٢) حديث عمرة فى رمضان كحجة معى: أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله معى فهى عند مسلم على الشك تقضى حجة أو حجة معى ورواه ك بزيادتها من غير شك

(٣) حديث أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معى ـ الحديث : ت وحسنه وحب من حديث ابن عمر

(٤) حديث ان آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا برحجك يا آدم ـ الحديث : رواه المفضل الجندى ومن طريقه ابن الجوزى فى العلل من حديث ابن عباس وقال لايصح ورواه الأزرقي فى تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس

وكوشف بعض الأولياء رضى الله عنهم ، قال : إنى رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ، ورأيت عبادان ساجدة لجدة . ويقال لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال ، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد ، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثرا وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحـد ، ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فاذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ، ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة ، ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغانى وأخبار الجاهلية ، ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله ، والساعة عنـد ذلك بمنزلة الحامل المقرب التى تتوقع ولادتها . وفى الخبر [1] « اسْتَكْثِرُوا مِنَ الطَّوَافِ بِهذَا الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ فَقَدْ هُدِمَ مَرَّتَيْنِ وَيُرْفَعُ فِى الثَّالِثَةِ » وروى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قال الله تعالى : [2] « إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُخَرِّبَ الدُّنْيَا بَدَأْتُ بِبَيْتِى فَخَرَّبْتُهُ ثُمَّ أُخَرِّبُ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ »

فضيلة المقام بمكة المكرمة حرسها الله تعالى وكراهيته

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة :

الأول : خوف التبرم والانس بالبيت ، فإن ذلك ربمـا يؤثر فى تسكين حرقة القلب فى الاحترام ، وهكذا كان عمر رضى الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول : يا أهل اليمن يمنكم ، ويأهل الشام شامكم ، ويأهل العراق عراقكم ولذلك هم عمر رضى الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف وقال خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت

الثانى : تهييج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العود ، فإن الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمنا أى يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطرا . وقال بعضهم: تكون فى بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك فى بلد آخر . وقال بعض السلف : كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به . ويقال إن لله تعالى عبادا تطوف بهم الكعبة تقربا إلى الله عز وجل

---

(١) حديث استكثروا من الطواف بهذا البيت ـ الحديث: البزار وحب ولك وصححه من حديث ابن عمر استمتعوا من هذا البيت فانه هدم مرتين ويرفع فى الثالثة

(٢) حديث قال الله اذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره: ليس له أصل

الثالث : الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها، فإن ذلك مخطر ، وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الموضع · وروى عن وهيب بن الورد المكى قال : كنت ذات ليلة فى الحجر أصلى فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار يقول إلى الله أشكو ثم إليك ياجبرائيل ماألقى من الطائفين حولى من تفكرهم فى الحديث ولغوهم ولهوهم ، لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه مامن بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة ، وتلا قوله تعالى : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[1]) أى أنه على مجرد الارادة ويقال إن السيآت تضاعف بها كما تضاعف الحسنات . وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول الإحتكار بمكة من الالحاد فى الحرم . وقيل الكذب أيضاً وقال ابن عباس : لأن أذنب سبعين ذنباً بركية أحب إلى من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة . وركية منزل بين مكة والطائف ولخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أنه لم يقض حاجته فى الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة . وبعضهم أقام شهراً ، وما وضع جنبه على الأرض . وللمنع من الاقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة

ولا تظنن أن كراهة المقام يناقض فضل البقعة ، لأن هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع . فمعنى قولنا : إن ترك المقام به أفضل ، أى بالاضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم ، أما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات ، وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال[1] « إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وأَحَبُّ بِلَادِ اللهِ تَعَالَى إِلَيَّ وَلوْلَا أَنِّى اخرِجْتُ مِنْكِ لَمَا خَرَجْتُ » وكيف لا . والنظر إلى البيت عبادة ، والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه ؟

---

(١) حديث انك لخير أرض الله وأحب بلاد الله الى الله ولولا انى أخرجت منك ماخرجت: ت وصححه و ن فى الكبرى و هو حسن من حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء

(١) الحج : ٢٥

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

مابعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالأعمال فيها أيضا مضاعفة، قال صلى الله عليه وسلم[1] « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » وكذلك كل عمل بالمدينة بألف، وبعد مدينته الأرض المقدسة فان الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام، وكذلك سائر الأعمال. وروى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم[2] أنه قال: « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ بِعَشْرَةِ آلَافِ صَلَاةٍ ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِأَلْفِ صَلَاةٍ ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم:[3] « مَنْ صَبَرَ عَلَى شِدَّتِهَا وَلَأْوَائِهَا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم :[4] « مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ فَإِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فان المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:[5] « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى »

وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث فى المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء، وماتبين لى أن الأمر كذلك ، بل الزيارة مأمور بها ، قال صلى الله عليه وسلم[6] « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا وَلَا تَقُولُوا هُجْراً » .

---

(١) حديث صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام: متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه م من حديث ابن عمر

(٢) حديث ابن عباس صلاة فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة فى المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة: غريب لم أجده بجملته هكذا و ه من حديث ميمونة باسناد جيد فى بيت المقدس إئتوه فصلوا فيه فان صلاة فيه كألف صلاة فى غيره وله من حديث أنس صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة فى مسجدى بخمسين ألف صلاة ليس فى أسناده من ضعف وقال الذهبي انه منكر

(٣) حديث لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة: م من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد

(٤) حديث من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ـ الحديث: ت ه من حديث ابن عمر قال ت حسن صحيح

(٥) حديث لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد

(٦) حديث كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها م من حديث بريدة بن الحصيب

والحديث إنما ورد في المساجد، وليس في معناها المشاهد، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ، ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر . وأما المشاهد فلا تتساوى ، بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد ، وينتقل إليه بالكلية إن شاء

ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام : مثل ابراهيم وموسى ويحيي وغيرهم عليهم السلام ! فالمنع من ذلك في غاية الاحالة ، فإذا جوز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها ، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة ، كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد هذا في الرحلة

أما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه ، فان لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة ، فهو أفضل المواضع له ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « الْبِلَادُ بِلَادُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْخَلْقُ عِبَادُهُ فَأَيُّ مَوْضِعٍ رَأَيْتَ فِيهِ رِفْقاً فَأَقِمْ وَاحْمَدِ اللهَ تَعَالَى » وفي الخبر: [2] « مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي شَيْءٍ فَلْيَلْزَمْهُ وَمَنْ جُعِلَتْ مَعِيشَتُهُ فِي شَيْءٍ فَلا يَنْتَقِلْ عَنْهُ حَتَّى يَتَغَيَّرَ عَلَيْهِ »

وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعليه بيده ، فقلت إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : إلى بلد أملا فيه جرابي بدرهم . وفي حكاية أخرى بلغني عن قرية فيها رخص أقيم فيها ، قال : فقلت وتفعل هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال نعم إذا سمعت برخص في بلد فاقصده فانه أسلم لدينك وأقل لهمك . وكان يقول : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف بالمشهورين ؟ هذا زمان تنقل يتنقل الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن

---

(١) حديث البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم : أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف

(٢) حديث من رزق في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه: ه من حديث أنس بالجملة الاولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ اذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له

ويحكى عنه أنه قال : والله ما أدرى أى البلاد أسكن ؟ فقيل له : خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة ؟ قيل :فالشام ، قال : يشار اليك بالأصابع. أراد الشهرة قيل : فالعراق . قال : بلد الجبابرة . قيل مكة . قال : مكة تذيب الكيس والبدن . وقال له رجل غريب : عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى . قال : أوصيك بثلاث : لاتصلين فى الصف الأول ، ولاتصحبن قرشيا ، ولا تظهرن صدقة . وإنما كره الصف الأول لانه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع

الفصل الثانى

فى شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشرائط : فشرط صحة الحج اثنان : الوقت ، والاسلام . فيصح حج الصبى ، ويحرم بنفسه إن كان مميزا ، ويحرم عنه وليه أن كان صغيرا ، ويفعل به مايفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر . فمن أحرم بالحج فى غير هذه المدة فهى عمرة ، وجميع السنة وقت العمرة ، ولكن من كان معكوفا على النسك أيام منى فلا ينبغى أن يحرم بالعمرة لأنه لايتمكن من الاشتغال عقيبه لاشتغاله بأعمال منى

وأما شروط وقوعه عن حجة الاسلام فخمسة : الاسلام ، والحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والوقت . فان أحرم الصبى أو العبد ولكن عتق العبد و بلغ الصبى بعرفة أو بمزدلفة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر ، أجزأهما عن حجة الاسلام ، لأن الحج عرفة ، وليس عليهما دم إلاشاة . وتشترط هذه الشرائط فى قوع العمرة عن فرض الاسلام الا الوقت

وإما شروط وقوع الحج نفلا عن الحر البالغ : فهو بعد براءة ذمته عن حجة الاسلام . فحج الاسلام متقدم ، ثم القضاء لمن أفسده فى حالة الوقوف ، ثم النذر ، ثم النيابة . ثم النفل وهذا الترتيب مستحق ، وكذلك يقع وإن نوى خلافه

وأما شروط لزوم الحج فخمسة : البلوغ ، والاسلام ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة . ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة . ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطابا لزمه الاحرام على قول ، ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج

وأما الاستطاعة فنوعان : أحدهما المباشرة ، وذلك له أسباب : أما فى نفسه فبالصحة ، وأما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلابحر مخطر ولاعدو قاهر ، وأما فى المال فبأن يجد نفقته ذهابه وايابه إلى وطنه ، كان له أهل أولم يكن ، لأن مفارقة الوطن شديدة ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة ، وأن يملك مايقضى به ديونه ، وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أوزاملة إن استمسك على الزاملة

وأما النوع الثانى : فاستطاعة المعضوب بماله ، وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الاسلام لنفسه ، ويكفى نفقة الذهاب بزاملة فى هذا النوع ، والابن إذا عرض طاعته على الاب الزمن صار به مستطيعا ، ولو عرض ماله لم يصربه مستطيعا ، لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد ، وبذل المال فيه منة على الوالد . ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ، ولكنه فيه على خطر ، فان تيسرله ولو فى آخر عمره سقطعنه ، وإنمات قبل الحج لقى الله عز وجل عاصيا بترك الحج ، وكان الحج فى تركته يحج عنه وإن لم يوص ، كسائر ديونه . وإن استطاع فى سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله فى تلك السنة قبل حج الناس ثم مات لقي الله عز وجل ولاحج عليه

ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى ، قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أكتب فى الامصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا ! وعن سعيد ابن جبير وابراهيم النخعى ومجاهد وطاوس : لوعلمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ماصليت عليه . وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه . وكان ابن عباس يقول : من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة الى الدنيا ، وقرأ قوله عزوجل « (١) رَبِّ أَرْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ » قال الحج

وأما الأركان التى لايصح الحج بدونها فخمسة : الاحرام ، والطواف ، والسعى بعده ، والوقوف بعرفة ، والحلق بعده على قول . وأركان العمرة كذلك إلاالوقوف

والواجبات المجبورة بالدم ست : الاحرام من الميقات ، فمن تركه وجاوز الميقات محلا فعليه شاة ، والرمى فيه الدم قولا واحدا . وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس. والمبيت بمزدلفة

(١) المؤمنون : ٩٩

والمبيت بمنى . وطواف الوداع . فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين ، وفى القول الثانى فيها دم على وجه الاستحباب

وأما وجوب أداء الحج والعمرة فثلاثة : الأول الافراد وهو الأفضل، وذلك أن يقدم الحج وحده ، فاذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر. وأفضل الحل لاحرام العمرة الجعرانة ، ثم التنعيم ، ثم الحديبية : وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع

الثانى : القران وهو أن يجمع فيقول : لبيك بحجة وعمرة معا فيصير محرما بهما ، ويكفيه أعمال الحج ، وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل ، إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين . وأما طوافه فغير محسوب لأن شرط طواف الفرض فى الحج أن يقع بعد الوقوف . وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكيا فلا شىء عليه ، لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة

الثالث : التمتع ، وهو أن يجاوز الميقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ، ولا يكون متمتعا إلا بخمس شرائط :

أحدها: أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام، وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة

الثانى : أن يقدم العمرة على الحج

الثالث : أن تكون عمرته فى أشهر الحج

الرابع : أن لا يرجع إلى ميقات الحج ، ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج

الخامس : أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد

فاذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعا ولزمه دم شاة ، فان لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة ، وسبعة إذا رجع إلى الوطن. وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعا أو متفرقا. وبدل دم القران والتمتع سواء . والافضل الافراد ثم التمتع ثم القران

وأما محظورات الحج والعمرة فستة :

الأول : اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة ، بل ينبغى أن يلبس أزارا ورداء ونعلين ، فان لم يجد نعلين فمكعبين ، فان لم يجد ازارا فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستظلال فى المحمل ، ولكن لا ينبغى أن يغطي رأسه فان احرامه فى الرأس . وللمرأة أن تلبس

كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها فى وجهها

الثانى : الطيب ، فليجتنب كل مايعده العقلاءطيبا فان تطيب أولبس فعليه دم شاة

الثالث : الحلق والقلم ، وفيهما الفدية أعنى دم شاة . ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر

الرابع : الجماع ، وهو مفسد قبل التحلل الأول ، وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه ، وأن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه

الخامس : مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التى تنقض الطهر مع النساء ، فهو محرم ، وفيه شاة ، وكذا فى الاستمناء . ويحرم النكاح والانكاح ، ولا دم فيه لأنه لا ينعقد

السادس : قتل صيد البر أعنى مايؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام ، فان قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب فى الخلقة ، وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه

الباب الثالث

فى ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهى عشر جمل

الجملة الاولى فى السير من أول الخروج إلى الاحرام ، وهى ثمانية :

الأولى فى المال : فينبغى أن يبدأ بالتوبة ، ورد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ، ويرد ما عنده من الودائع ، ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء ، ويتصدق بشىء قبل خروجه ، ويشترى لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف ، أو يكتريها ، فان اكترى فليظهر للمكارى كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه

الثانية : فى الرفيق : ينبغى أن يلتمس رفيقا صالحا محبا للخير معينا عليه ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن جبن شجعه ، وإن عجز قواه ، وإن ضاق صدره صبره . ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه ؛ فيودعهم ويلتمس أدعيتهم ؛ فان الله تعالى جاعل فى أدعيتهم خيرا

والسنة في الوداع أن يقول(١) «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك» وكان صلى الله عليه وسلم (٢) يقول لمن أراد السفر « في حفظ الله وكنفه ، زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت »

الثالثة : في الخروج من الدار : ينبغي إذا هم بالخروج أن يصلي ركعتين أولا ، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (قل يا أيها الكافرون) ، وفي الثانية الاخلاص ، فاذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة ، وقال : اللهم أنت الصاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب ، احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة ، اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، اللهم انا نسألك أن تطوى لنا الأرض ، وتهون علينا السفر ، وأن ترزقنا في سفرنا سلامة البدن والدين والمال ، وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب ، اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك ، ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ، ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك

الرابعة : إذ حصل على باب الدار قال : بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أذل أو أذل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل علي ، اللهم إني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقا إلى لقائك . فاذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت ، وبك اعتصمت وإليك توجهت ، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي ، فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني ، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت . ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يدخل عليه

﴿ الباب الثاني في ترتيب الأفعال الظاهرة ﴾

(١) حديث استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك : د ت وصححه و ن من حديث ابن عمر أنه كان يقول للرجل اذا اراد سفرا ادن مني حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا

(٢) حديث كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن اراد سفرا في حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت في الدعاء: الطبراني من حديث أنس وهو عند ت وحسنه دون قوله في حفظ الله وكنفه

الخامسة فى الركوب : فاذا ركب الراحلة يقول : بسم الله وبالله والله أكبر ، توكلت على الله ، ولاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم ، ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، سبحان الذى سخر لنا هذا وما كناله مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إنى وجهت وجهى اليك وفوضت أمرى كله اليك وتوكلت فى جميع أمورى عليك ، أنت حسبى ونعم الوكيل ؛ فاذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال ، سبحان الله والحمدلله ولاإله إلاالله والله أكبر ، سبع مرات ، وقال : الحمد لله الذى هدانالهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور

السادسة فى النزول: والسنة أن لاينزل حتى يحمى النهار ، ويكون أكثر سيره بالليل ، قال صلى الله عليه وسلم(١) « عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الارْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ مَا لاَ تُطْوَى بِالنَّهَارِ » وليقلل نومه بالليل حتى يكون عونا على السير ، ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين ، ورب البحار وماجرين ، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شره وشر مافيه ، اصرف عنى شرشرارهم ، فاذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامة التى لايجوزهن بر ولا فاجر من شر ماخلق . فاذا جن عليه الليل يقول : ياأرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر مافيك ، وشر مادب عليك ،أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود ، وحية وعقرب ، ومن شر ساكن البلد ، ووالد وماولد ، (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١))

السابعة فى الحراسة : ينبغى أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشى منفردا خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ، ويكون بالليل متحفظا عند النوم (٢) فان نام فى ابتداء الليل افترش ذراعه ، وإن نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه فى كفه ، هكذا كان ينام

---

(١) حديث عليكم بالدلجة فان الارض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار : د من حديث أنس دون قوله مالا تطوى بالنهار وهذه الزيادة فى الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلا

(٢) حديث كان اذا نام فى أول الليل افترش ذراعه واذا نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل ذراعه فى كفه : أحمد و ت فى الشمائل من حديث أبى قتادة باسناد صحيح وعزاه أبو مسعود الدمشقى والحميدى الى م ولم أره فيه

(١) الانعام : ١٣

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفره ، لأنه ربما استثقل النوم فتطلع الشمس وهو لايدرى، فيكون مايفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج . والأحب فى الليل (١) أَنْ يَتَنَاوَبَ الرَّفِيقَانِ فِى الْحِرَاسَةِ ، فاذا نام أحدهما حرس الآخر فهو السنة ، فان قصده عدو أو سبع فى ليل أونهار فليقرأ آية الكرسى وشهدالله ، والاخلاص والمعوذتين ، وليقل : بسم الله ماشاء الله لاقوة الابالله ، حسبى الله توكلت على الله ، ماشاء الله لايأتى بالخير الاالله ، ماشاء الله لايصرف السوء الاالله ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى ولادون الله ملجا ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ، تحصنت بالله العظيم ، واستغثت بالحى الذى لايموت ، اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام ، واكنفنا بركنك الذى لايرام ، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلانهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا ، اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة انك أنت أرحم الراحمين

الثامنة : مهما علا نشزا من الأرض فى الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثا ، ثم يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ، ولك الحمد على كل حال، ومهما هبط سبّح ، ومهما خاف الوحشة فى سفره قال: سبحان الله الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جللت السموات بالعزة والجبروت

الجملة الثانية فى آداب الاحرام من الميقات الى دخول مكة وهى خمسة :

الأول: أن يغتسل وينوى به غسل الاحرام ، أعنى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه ، ويتمم غسله بالتنظيف، ويسرح لحيته ورأسه ، ويقلم أظفاره ، ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها فى الطهارة

الثانى : إن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الاحرام ، فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ، ويتطيب فى ثيابه وبدنه ، ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الاحرام (٢) فقد « رُوِىَ بَعْضُ الْمِسْكِ عَلَى مَفْرِقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ الْإِحْرَامِ » مما كان استعمله قبل الاحرام

---

(١) حديث تناوب الرفيقين فى الحراسة فاذا نام أحدهما حرس الآخر: هق من طريق ابن اسحق من حديث جابر فى حديث فيه فقال الانصارى للمهاجرى أى الليل أحب اليك أن أكفيكه أوله أو آخره فقال له اكفنى أوله فاضطجع المهاجرى ـ الحديث: والحديث عند أبى داود لكن ليس فيه قول الانصارى للمهاجرى

(٢) حديث رؤية وبيض المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الاحرام : متفق عليه من حديث عائشة قالت كأنما أنظر الى وبيض المسك ـ الحديث :

الثالث : أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكبا ، أو يبدأ بالسير إن كان راجلا ، فعند ذلك ينوى الاحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو افرادا كما أراد ، ويكفي مجرد النية لانعقاد الاحرام ، ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك . وان زاد قال: لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، والرغباء اليك ، لبيك بحجة حقا ، تعبدا ورقا ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد

الرابع : إذا انعقد احرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول : اللهم إنى أريد الحج فيسره لى وأعنى على أداء فرضه وتقبله منى ، اللهم انى نويت أداء فريضتك فى الحج فاجعلنى من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك ، واجعلنى من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم ، اللهم فيسرلى أداء مانويت من الحج ، اللهم قد أحرم لك لحمى وشعرى ودمى وعصبى ومخى وعظامى ، وحرمت على نفسى النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة . ومن وقت الاحرام حرم عليه المحظورات الستة التى ذكرناها من قبل ، فليجتنبها

الخامس : يستحب تجديد التلبية فى دوام الاحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق ، وعند اجتماع الناس ، وعند كل صعود وهبوط ، وعند كل ركوب ونزول ، رافعا بها صوته بحيث لا يبح حلقه ولاينبهر [1] فانه لَا يُنَادِى أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا كما ورد فى الخبر . ولا بأس برفع الصوت بالتلبية فى المساجد الثلاثة ، فانها مظنة المناسك ، أعنى المسجد الحرام ، ومسجد الخيف ، ومسجد الميقات . وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت . وكان صلى الله عليه وسلم [2] إذا أعجبه شيء قال « لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ »

---

(١) حديث انكم لاتنادون أصم ولا غائبا : متفق عليه من حديث أبى موسى

(٢) حديث كان اذا أعجبه شيء قال لبيك ان العيش عيش الآخرة : الشافعى فى المسند من حديث مجاهد مرسلا بنحوه وللحاكم وصححه من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال لبيك اللهم لبيك قال انما الخير خير الآخرة .

الجملة الثالثة فى آداب دخول مكة إلى الطواف ، وهى ستة :

الأول: أن يغتسل بذى طوى لدخول مكة. والاغتسالات المستحبة المسنونة فى الحج تسعة : الأول للاحرام من الميقات ، ثم لدخول مكة ، ثم لطواف القدوم ، ثم للوقوف بعرفة ، ثم للوقوف بمزدلفة ، ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمار الثلاث ، ولا غسل لرمى جمرة العقبة ، ثم لطواف الوداع . ولم ير الشافعي رضى الله عنه فى الجديد الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع ، فتعود إلى سبعة

الثانى : أن يقول عند الدخول فى أول الحرم وهو خارج مكة : اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمى ودمى وشعرى وبشرى على النار ، وآمنى من عذابك يوم تبعث عبادك ، واجعلنى من أوليائك وأهل طاعتك

الثالث : أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو من ثنية كداء بفتح الكاف « عَدَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1] مِنْ جَادَّةِ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا » فالتأسى به أولى . وإذا خرج خرج من ثنية كدى بضم الكاف وهى الثنية السفلى ، والاولى هى العليا

الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت ، فليقل : لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم أنت السلام ومنك السلام ، ودارك دار السلام ، تباركت يا ذا الجلال والاكرام ، اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته ، اللهم فزده تعظيما ، وزده تشريفاً وتكريماً ، وزده مهابة ، وزد من حجه برا وكرامة ، اللهم افتح لى أبواب رحمتك وأدخلنى جنتك ، وأعذنى من الشيطان الرجيم

الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بنى شيبة وليقل : بسم الله وبالله ومن الله والى الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا قرب من البيت قال : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وعلى ابراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك ، وليرفع يديه وليقل : اللهم انى أسألك فى مقامى هذا فى أول مناسكى أن تقبل توبتى وأن تتجاوز عن خطيئتى وتضع عنى وزرى ، الحمد لله الذى بلغنى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا ، وجعله مباركا وهدى للعالمين ، اللهم إنى عبدك

(١) حديث دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء بفتح الكاف : متفق عليه من حديث ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التى بالبطحاء الحديث

والبلد بلدك ، والحرم حرمك ، والبيت بيتك ، جئتك أطلب رحمتك وأسألك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك ، الراجى لرحمتك ، الطالب مرضاتك .

السادس: أن تقصد الحجر الاسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول : اللهم أمانتى أديتها وميثاق وفيته اشهد لى بالموافاة ، فان لم يستطع التقبيل وقف فى مقابلته ويقول ذلك ثم لا يعرج على شىء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف

الجملة الرابعة فى الطواف :

فاذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وأما لغيره فينبغى أن يراعى أمورا ستة :

الأول: أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة فالطواف بالبيت صلاة ، ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام ، وليضطبع قبل ابتداء الطواف، وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الايسر فيرخى طرفا وراء ظهره وطرفا على صدره ، ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ، ويشتغل بالادعية التى سنذكرها

الثانى : إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره ، وليقف عند الحجر الأسود ، وليتنح عنه قليلا ليكون الحجر قدامه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه ، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريبا من البيت فانه أفضل ، ولكيلا يكون طائفاً على الشاذروان ، فإنه من البيت ، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذروان بالأرض ويلتبس به ، والطائف عليه لا يصح طوافه لأنه طائف فى البيت . والشاذروان هو الذى فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار ، ثم من هذا الموقف يبتدىء الطواف

الثالث : أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف : بسم الله والله أكبر ، اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم . ويطوف ، فأول مايجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول : اللهم هذا البيت بيتك ،وهذا الحرم حرمك ، وهذا الامن أمنك ، وهذا مقام العائذ بك من النار . وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام ابراهيم عليه السلام: اللهم ان بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين

فأعذني من النار ، من الشيطان الرجيم ، وحرم لحمي ودمي على النار ، وآمني من أهوال يوم القيامة ، واكفني مؤنة الدنيا والآخرة . ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقي ، فعنده يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك ، والكفر والنفاق ، والشقاق وسوء الاخلاق ، وسوء المنظر في الاهل والمال والولد . فاذا بلغ الميزاب قال : اللهم أظلنا تحت عرشك يوم لاظل إلاظلك ، اللهم اسقني بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا أظمأ بعدها أبدا . فاذا بلغ الركن الشامي قال : اللهم اجعله حجا مبرورا ، وسعيا عليه مشكورا ، وذنبا مغفورا ، وتجارة لن تبور ، ياعزيز ياغفور ، رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الاكرم . فاذا بلغ الركن اليماني قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر ، وأعوذ بك من الفقر ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من الخزي في الدنيا والآخرة . ويقول بين الركن اليماني والحجر الأسود : اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار . فاذا بلغ الحجر الأسود قال : اللهم اغفرلي برحمتك ، أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر ، وضيق الصدر وعذاب القبر . وعند ذلك قدتم شوط واحد : فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية في كل شوط

الرابع : أن يرمل في ثلاثة أشواط ، ويمشي في الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الاسراع في المشي مع تقارب الخطأ ، وهو دون العدو ، وفوق المشي المعتاد ؛ والمقصود منه ومن الاضطباع اظهار الشطارة والجلادة والقوّة . هكذا كان القصد أولا قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنّة[1] والأفضل الرمل مع الدنوّ من البيت ؛ فان لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل ؛ فليخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثا ؛ ثم ليقرب إلى البيت في المزدحم

(١) حديث مشروعية الرمل والاضطباع قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة أما الرمل : فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون أنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمي يثرب فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الاشواط الثلاثة ـ الحديث : وأما الاضطباع فروى د ه ك وصححه من حديث عمر قال فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب وقد أظهر الله الاسلام ونفى الكفر وأهله ومع ذلك لاندع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وليمش آربعا ؛ وإن أمكنه استلام الحجر فى كل شوط فهو الأحب ؛ وإن منعه الزحمة أشار باليد وقبّل يده ؛ وكذلك استلام الركن اليمانى يستحب من سائر الأركان . وروى « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) كَانَ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ وَيُقَبِّلُهُ (٢) وَيَضَعُ خَدَّهُ عَلَيْهِ » (٣) ومن أراد تخصيص الحجر بالتقبيل واقتصر فى الركن اليمانى على الاستلام أغنى عن اللمس باليد فهو أولى

الخامس : إذا تم الطواف سبعا فليأت الملتزم ؛ وهو بين الحجر والباب ؛ وهو موضع استجابة الدعوة ؛ وليلتزق بالبيت ؛ وليتعلق بالأستار ؛ وليلصق بطنه بالبيت ؛ وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه ، وليقل : اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار وأعذنى من الشيطان الرجيم ؛ وأعذنى من كل سوء ؛ وقنعنى بما رزقتنى ؛ وبارك لى فيما آتيتنى اللهم ان هذا البيت بيتك ؛ والعبد عبدك ؛ وهذا مقام العائذ بك من النار ؛ اللهم اجعلنى أكرم وفدك عليك . ثم ليحمد الله كثيرا فى هذا الموضع وليصل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل كثيرا وليدع بحوائجه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف فى هذا الموضع يقول لمواليه تنحوا عنى حتى أقر لربى بذنوبى

السادس : إذا فرغ من ذلك ينبغى أن يصلى خلف المقام ركعتين يقرأ فى الأولى

---

(١) حديث استلامه صلى الله عليه وسلم للركن اليمانى : متفق عليه من حديث ابن عمر قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة اذا استلم الركن الاسود ـ الحديث : ولهما من حديثه لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس من الاركان الا اليمانيين ولمسلم من حديث ابن عباس لم أره يستلم غير الركنين اليمانيين وله من حديث جابر الطويل حتى اذا أتينا البيت معه استلم الركن

(٢) حديث تقبيله صلى الله عليه وسلم له : متفق عليه من حديث عمر أنه قبل الحجر وقال لولا إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ماقبلتك وللبخارى من حديث ابن عمر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله وله فى التاريخ من حديث ابن عباس كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا استلم الركن اليمانى قبله

(٣) حديث وضع الخد عليه : قط ك من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الركن اليمانى ـ الحديث : قال ك صحيح الاسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز ضعفه الجمهور

قل ياأيها الكافرون ، وفى الثانية الاخلاص ، وهما ركعتا الطواف ، قال الزهرى[1] مَضَت السُّنة أن يصلى لكل سبع ركعتين ، وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز[2] فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل أسبوع طواف ، وليدع بعد ركعتى الطواف ، وليقل: اللهم يسر لى اليسرى وجنبنى العسرى ، واغفرلى فى الآخرة والاولى ، واعصمنى بألطافك حتى لا أعصيك ، وأعنِّى على طاعتك بتوفيقك وجنبنى معاصيك ، واجعلنى ممن يُحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين ، اللهم حببنى إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين ، اللهم فكما هديتنى إلى الاسلام فثبتنى عليه بألطافك وولايتك ، واستعملنى لطاعتك وطاعة رسولك ، وأجرنى من مضلات الفتن . ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف . قال صلى الله عليه وسلم:[3] « مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ اسْبُوعًا وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ » : وهذه كيفية الطواف . والواجب من جملته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت ، وأن يبتدىء بالحجر الاسود ويجعل البيت على يساره ، وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت ، لاعلى الشاذروان ولافى الحجر ، وأن يوالى بين الأشواط ولايفرقها تفريقا خارجا عن المعتاد ، وما عدا هذا فهو سنن وهيآت

الجملة الخامسة فى السعى :

فاذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو فى محاذاة الضلع الذى بين الركن اليمانى والحجر ، فاذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل ، فيرقى فيه درجات

---

(١) حديث الزهرى مضت السنة أن يصلى لكل أسبوع ركعتين : ذكره خ تعليقا السنة أفضل لم يطف النبي صلى الله عليه وسلم أسبوعا إلا صلى ركعتين وفى الصحيحين من حديث ابن عمر قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين

(٢) حديث قرانه صلى الله عليه وسلم بين أسابيع : ابن أبى حاتم من حديث بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة ورواه عق فى الضعفاء وابن شاهين فى أماليه من حديث أبى هريرة وزاد ثم صلى لكل أسبوع ركعتين وفى أسنادهما عبد السلام بن أبى الجبوب منكر ـ الحديث :

(٣) حديث من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الاجر كعتق رقبة : ت وحسنه و ن ه من حديث ابن عمر من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة لفظ ه وقال الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة وللبيهقى فى الشعب من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتاق رقبة

فى حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رَقِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) حَتَّى بَدَتْ لَهُ الْكَعْبَةُ » وابتداء السعي من أصل الجبل كاف . وهذه الزيادة مستحبة ، ولكن بعض تلك الدرج مستحدثة ، فينبغي أن لايخلفها وراء ظهره فلا يكون متما للسعى . وإذا ابتدأ من هاهنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات

وعند رقيه فى الصفا ينبغي أن يستقبل البيت ويقول : الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله على ماهدانا ، الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها ، لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لاإله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لاإله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لاإله إلاالله مخلصين له الدين ، الحمدلله رب العالمين ، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، اللهم إنى أسألك إيمانا دائما ويقينا صادقا ، وعلما نافعا ، وقلبا خاشعا ، ولسانا ذاكرا ، وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة . ويصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ويدعوا لله عز وجل بماشاء من حاجته عقيب هذا الدعاء

ثم ينزل ويبتدىء السعي وهو يقول : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ويمشى على هينة حتى ينتهى إلى الميل الأخضر وهو أول مايلقاه إذا نزل من الصفا ، وهو على زاوية المسجد الحرام فاذا بقى بينه وبين محاذاة الميل ستة أذرع أخذ فى السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميلين الأخضرين ، ثم يعود إلى الهينة

فإذا انتهى الى المروة صعدها كما صعد الصفا ، وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء ، وقد حصل السعي مرة واحدة ، فاذا عاد الى الصفا حصلت مرتان ، يفعل ذلك سبعا

---

(١) حديث انه رقى على الصفا حتى بدت له الكعبة: م من حديث جابر فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت وله من حديث أبي هريرة أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر الى البيت

ويرمل فى موضع الرمل فى كل مرة ، ويسكن فى موضع السكون كما سبق ، وفى كل نوبة يصعد الصفا والمروة ، فإذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة ؛ بخلاف الطواف. وإذا سعى فينبغى أن لا يعيد السعى بعد الوقوف . ويكتفى بهذا ركنا ، فانه ليس من شرط السعى أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط فى طواف الركن، نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان

الجملة السادسة فى الوقوف وما قبله

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات فلا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرما إلى اليوم السابع من ذى الحجة، فيخطب الامام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة، ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها وبالغدوّ منها إلى عرفة لاقامة فرض الوقوف بعد الزوال ؛ إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر . فينبغى أن يخرج إلى منى ملبيا . ويستحب له المشى من مكة فى المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه ، والمشى من مسجد ابراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وآكد.

فاذا انتهى إلى منى قال : اللهم هذه منى فامنن علىّ بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك . وليمكث هذه الليلة بمنى، وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك، فاذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح ، فاذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول : اللهم اجعلها خير غدوة غدوتها قط ، وأقربها من رضوانك ، وأبعدها من سخطك ، اللهم إليك غدوت وإياك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلنى ممن تباهى به اليوم من هو خير منى وأفضل

فاذا أتى عرفات فليضرب خباءه بنمرة قريبا من المسجد فَثَمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] قُبَّتَهُ . ونمرة هى بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة وليغتسل للوقوف .

---

(١) حديث ضربه صلى الله عليه وسلم قبته بنمرة : مسلم من حديث جابر الطويل فأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ـ الحديث :

فاذا زالت الشمس خطب الأمام خطبة وجيزة وقعد ، وأخذ المؤذن فى الأذان والامام فى الخطبة الثانية ، ووصل الاقامة بالاذان ، وفرغ الامام مع تمام إقامة المؤذن، ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين، وقصر الصلاة ، وراح إلى الموقف، فليقف بعرفة ولا يقفن فى وادى عرنة

وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدره فى الوادى وأخرياته من عرفة فمن وقف فى صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة ، ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم . والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الامام مستقبلا للقبلة راكبا ، وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة ، ولا يصوم فى هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء ، ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل لأحب أن يلبي تارة ويكب على الدعاء أخرى

وينبغى أن لا ينفصل من طرف عرفة الا بعد الغروب ليجمع فى عرفة بين الليل والنهار ، وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الغلط فى الهلال فهو الحزم وبه الامن من الفوات

ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج ، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ، ثم يريق دما لأجل الفوات ، ثم يقضى العام الآتى . وليكن أهم اشتغاله فى هذا اليوم الدعاء ، ففى مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات

والدعاء المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] وعن السلف فى يوم عرفة أولى ما يدعو به فليقل : لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى قلبي نوراً ، وفى سمعى نوراً ،

---

(١) حديث الدعاء المأثور فى يوم عرفة لااله الا الله وحده لاشريك له ــ الحديث : ت من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ماقلت أنا والنبيون من قبلى لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير وقال حسن غريب وله من حديث على قال أكثر مادعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة فى الموقف اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيرا مما نقول لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى واليك مآبى ولك رب تراثى اللهم انى أعوذ بك من شر ماتجىء به الريح وقال ليس بالقوى اسناده وروى المستغفرى فى الدعوات من حديثه ياعلى ان أكثر دعاء من قبلى يوم عرفة أن أقول لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم اجعل فى بصرى نورا وفى سمعى نورا وفى قلبي نورا اللهم اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى اللهم إنى أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الامر وفتنة القبر وشر مايلج

وفى بصرى نورا ، وفى لسانى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى. وليقل: اللهم رب الحمد لك الحمد كما نقول وخيرا مما نقول ، لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، واليك ما بى واليك ثوابى اللهم إنى أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الليل ، ومن شر ما يلج فى النهار ، ومن شر ماتهب به الرياح ، ومن شر بوائق الدهر ، اللهم إنى أعوذ بك من تحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك ، اللهم اهدنى بالهدى ، واغفرلى فى الآخرة والأولى ، ياخير مقصود ، وأسنى منزول به ، وأكرم مسؤل مالديه ، أعطنى العشية أفضل ماأعطيت أحدا من خلقك وحجاج بيتك ياأرحم الراحمين اللهم يارفيع الدرجات ومنزل البركات ، ويافاطر الأرضين والسموات : ضجت اليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات ، وحاجتى اليك أن لاتنسانى فى دار البلاء إذا نسينى أهل الدنيا ، اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولايخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، دعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه . اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا . رحيما ، ياخير المسؤلين ، وأكرم المعطين . إلهى من مدح لك نفسه فانى لائم نفسى ، إلهى أخرست المعاصى لسانى فمالى وسيلة من عمل ، ولاشفيع سوى الأمل . إلهى إنى أعلم أن ذنوبي لم تبق لى عندك جاها ولاللاعتذار وجها ولكنك أكرم الأكرمين . إلهى إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فان رحمتك أهل أن تبلغنى ، ورحمتك وسعت كل شىء ، وأنا شىء . إلهى إن ذنوبى وإن كانت عظاما ولكنها صغار فى جنب عفوك فاغفرها لى يا كريم . إلهى أنت أنت وأنا أنا أنا العواد إلى الذنوب ، وأنت العواد إلى المغفرة . إلهى إن كنت لاترحم إلا أهل طاعتك فالى من يفزع المذنبون .

فى الليل وشر ما يلج فى النهار وشر ماتهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر واسناده ضعيف وروى الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال كان مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة اللهم انك ترى مكانى وتسمع كلامى وتعلم سرى وعلانيتى ولايخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير فذكر الحديث : الى قوله ياخير المسؤلين وياخير المعطين واسناده ضعيف وباقى الدعاء من دعاء بعض السلف وفى بعضه ماهو مرفوع ولكن ليس مقيدا بموقف عرفة .

إلهى تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصدا ، فسبحانك ما أعظم حجتك على وأكرم عفوك عنى ، فبوجوب حجتك على وانقطاع حجتى عنك وفقرى اليك وغناك عنى إلا غفرت لى ، يا خير من دعاه داع ، وأفضل من رجاه راج ، بحرمة الاسلام ، وبذمة محمد عليه السلام أتوسل اليك فاغفر لى جميع ذنوبى ، واصرفنى من موقفى هذا مقضى الحوائج ، وهب لى ماسألت، وحقق رجائى فيما تمنيت . إلهى دعوتك بالدعاء الذى علمتنيه فلا تحرمنى الرجاء الذى عرفتنيه . إلهى ماأنت صانع العشية بعبد مقر لك بذنبه ، خاشع لك بذلته ، مستكين بجرمه ، متضرع اليك من عمله ، تائب اليك من اقترافه ، مستغفر لك من ظلمه ، مبتهل اليك فى العفو عنه ، طالب اليك نجاح حوائجه ، راج اليك فى موقفه مع كثرة ذنوبه ، فياملجأ كل حى ، وولى كل مؤمن ، من أحسن فبرحمتك يفوز ، ومن أخطأ فبخطيئته يهلك. اللهم اليك خرجنا ، وبفنائك أنخنا ، وإياك أملنا ، وما عندك طلبنا ، ولإحسانك تعرضنا ، ورحمتك رجونا ، ومن عذابك أشفقنا ، واليك بأثقال الذنوب هربنا ، ولبيتك الحرام حججنا ، يامن يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمائر الصامتين ، يامن ليس معه رب يدعى ، ويامن ليس فوقه خالق يخشى ، ويامن ليس له وزير يؤتى ، ولا حاجب يرشى ، يامن لا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما ، وعلى كثرة الحوائج إلا تفضلا وإحسانا . اللهم إنك جعلت لكل ضيف قرى ، ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة . اللهم إن لكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ، ولكل سائل عطية ، ولكل راج ثوابا ، ولكل ملتمس لما عندك جزاء ، ولكل مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك زلفى ، ولكل متوسل إليك عفوا ، وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ، ووقفنا بهذه المشاعر العظام ، وشهدنا هذه المشاهد الكرام ، رجاء لما عندك ، فلا تخيب رجاءنا . إلهنا تابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك ، وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بحجتك ، وظاهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك ، وأظهرت الآيات حتى أفصحت السموات والأرضون بأدلتك ، وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شىء لعزتك ، وعنت الوجوه لعظمتك ، إذا أساءت عبادك حلمت وأمهلت ، وإن أحسنوا تفضلت وقبلت ، وإن عصوا سترت ، وإن أذنبوا عفوت وغفرت ، وإذا دعونا أجبت ، وإذا نادينا سمعت ، وإذا أقبلنا إليك قربت ،

وإذا ولينا عنك دعوت . إلهنا إنك قلت فى كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ [1]) فأرضاك عنهم الاقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود ، وإنا نشهد لك بالتوحيد مخبتين ، ولمحمد بالرسالة مخلصين ، فاغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الإجرام ، ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل فى الاسلام إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعتق ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فأعتقنا ، وإنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا ، ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا ، ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار

وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول : يامن لا يشغله شأن عن شأن ، ولا سمع عن سمع ، ولا تشتبه عليه الأصوات ، يامن لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ، يامن لا يبرمه إلحاح الملحين ، ولا تضجره مسئلة السائلين ، أذقنا بَرْد عفوك وحلاوة مناجاتك ، وليدع بمابداله . وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، وليلح فى الدعاء ، وليعظم المسئلة فان الله لا يتعاظمه شىء وقال مطرف بن عبد الله وهو بعرفة : اللهم لا ترد الجميع من أجلى . وقال بكر المزنى قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أنى كنت فيهم

الجملة السابعة فى بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف

فاذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغى أن يكون على السكينة والوقار . وليجتنب وجيف الخيل وإيضاع الابل كما يعتاده بعض الناس ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « نَهَى عَنْ وَجِيفِ الْخَيْلِ وَإِيضَاعِ الْإِبِلِ ، وقَال : اتَّقُوا اللهَ وَسِيرُوا سَيْراً جَمِيلاً لَا تَطَؤُا ضَعِيفاً وَلَا تُؤْذُوا مُسْلِماً » فاذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لان المزدلفة من الحرم ، فليدخله بغسل وإن قدر على دخوله ماشيا فهو أفضل وأقرب إلى توقير الحرم ، ويكون فى الطريق رافعا صوته بالتلبية

---

(١) حديث نهى النبى عن وجيف الخيل وايضاع الابل: ن ك وصححه من حديث أسامة بن زيد عليكم بالسكينة والوقار فان البر ليس فى ايضاع الابل وقال ك ليس البر ايجاف الخيل والابل وللبخارى من حديث ابن عباس فان البر ليس بالايضاح

(١) الأنفال : ٣٨

فاذا بلغ المزدلفة ، قال : اللهم إن هذه مزدلفة ، جمعت فيها ألسنة مختلفة ، تسألك حوائج مؤتنفة، فاجعلني ممن دعاك فاستجبت له ، وتوكل عليك فكفيته ، ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصرا لها بأذان واقامتين ليس بينهما نافلة ، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ، ويبدأ بنافلة المغرب ، ثم بنافلة العشاء كما في الفريضتين ، فان ترك النوافل في السفر خسران ظاهر ، وتكليف ايقاعها في الاوقات إضرار وقطع للتبعية بينها وبين الفرائض. فاذا جاز أن يؤدى النوافل مع الفرائض بتيمم واحد بحكم التبعية فبأن يجوز أداؤها على حكم الجمع بالتبعية أولى . ولا يمنع من هذا مفارقة النفل للفرض في جواز أدائه على الراحلة لما أومأنا اليه من التبعية والحاجة ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة وهو مبيت نسك . ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبت فعليه دم وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه

ثم إذا انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل، ويتزود الحصى منها ، ففيها أحجار رخوة فليأخذ سبعين حصاة فانها قدر الحاجة . ولا بأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها ولتكن الحصى خفافا بحيث يحتوى عليه أطراف البراجم ، ثم ليغلس بصلاة الصبح ، وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الاسفار ويقول اللهم بحق المشعر الحرام ، والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام ، أبلغ روح محمد منا التحية والسلام ، وأدخلنا دار السلام ، ياذا الجلال والاكرام

ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهى إلى موضع يقال له وادى محسر ، فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادى وإن كان راجلا أسرع في المشى

ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير : فيلبي تارة ويكبر أخرى ، فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة ، فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر ؛ حتى ينتهى الى جمرة العقبة ، وهى على يمين مستقبل القبلة في الجادة والمرمى مرتفع قليلا في سفح الجبل ، وهو ظاهر بمواقع الجمرات ، ويرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح

وكيفيته : أن يقف مستقبلا للقبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ، ويرمى سبع حصيات رافعا يده ، ويبدل التلبية بالتكبير ، ويقول مع كل حصاة : الله أكبر على طاعة الرحمن

ورغم الشيطان ، اللهم تصديقا بكتابك واتباعا لسنة نبيك ، فاذا رمى قطع التلبية والتكبير ، الا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر الى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولا يقف فى هذا اليوم للدعاء بل يدعو فى منزله

وصفة التكبير أن يقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحانه الله بكرة وأصيلا، لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا اله إلا الله والله أكبر. ثم ليذبح الهدى إن كان معه ، والأولى أن يذبح بنفسه ، وليقل : بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك وأليك ، تقبل منى كما تقبلت من خليلك ابراهيم

والتضحية بالبدن أفضل ، ثم بالبقر ، ثم بالشاة ، والشاة أفضل من مشاركة ستة فى البدنة أو البقرة ، والضأن أفضل من المعز ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] «خَيْرُ الْأُضْحِيَةِ الْكَبْشُ الْاقْرَنُ » والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء . وقال أبو هريرة : البيضاء أفضل فى الأضحى من دم سوداوين . وليأكل منه إن كانت من هدى التطوع . ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء . والجدع فى الأنف والاذن القطع منهما . والغضب فى القرن : وفى نقصان القوائم . والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق . والخرقاء من أسفل . والمقابلة المخروقة الأذن من قدام . والمدابرة من خلف . والعجفاء المهزولة التى لا تنقى أى لا مخ فيها من الهزال

ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدىء بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ، ثم ليحلق الباقى ويقول : اللهم أثبت لى بكل شعرة حسنة وامح عنى بها سيئة ، وارفع لى بها عندك درجة . والمرأة تقصر الشعر ، والأصلع يستحب له إمرار الموسى على رأسه . ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول ، وحل له كل المحذورات إلا النساء والصيد

ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن فى الحج ، ويسمى طواف الزيارة . وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر . وأفضل وقته يوم النحر ،

(١) حديث خير الاضحية الكبش: د من حديث عبادة بن الصامت و ت ه من حديث أبى أمامة قال ت غريب وعفير يضعف فى الحديث

ولا آخر لوقته بل أن يؤخر إلى أى وقت شاء ، ولكن يبقى مقيداً بعلقة الاحرام ، فلا تحل له النساء إلى أن يطوف ، فاذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الاحرام بالكلية ، ولم يبق إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهى واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج وكيفية هـذا الطواف مع الركعتين كما سبق فى طواف القدوم. فاذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعـد طواف القدوم ، وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركنا فلا ينبغى أن يعيد السعى

وأسباب التحلل ثلاثة : الرمى ، والحلق، والطواف الذى هو ركن. ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ولا حرج عليه فى التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف

والسنة للامام فى هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال، وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الحج أربع خطب : خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة . وخطبة[1] يوم النحر ، وخطبة يوم النفر الأول . وكلها عقيب الزوال ، وكلها افراد إلا خطبة يوم عرفة فانها خطبتان بينهما جلسة

ثم إذا فرغ من الطواف عاد الى منى للمبيت والرمى ، فيبيت تلك الليـلة بمنى ، وتسمى ليـلة القر لأن الناس فى غـد يقرون بمنى ولا ينفرون، فاذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الأولى التى تلى عرفة وهى على يمين الجادة ، ويرمى اليها بسبع حصيات ، فاذا تعداها انحرف قليلا عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبـلة وحمد الله تعـالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ، ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلا على الدعاء ، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمى كما رمى الأولى ، ويقف كما وقف للاولى ، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمي سبعا ، ولا يعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليـلة بمنى ، وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح

---

(١) حديث الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم: خ من حديث أبى بكرة خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر وله من حديث ابن عباس خطب الناس يوم النحر وفى حديث علقه خ ووصله هـ من حديث ابن عمر وقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال أى يوم هذا ـ الحديث : وفيه ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع

فاذا صلى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق رمى فى هـذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله ، ثم هو مخـير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة ، فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه ، وان صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى فى يوم النفر الثانى أحـدا وعشرين حجرا كما سبق . وفى ترك المبيت والرمى اراقة دم ، وليتصدق باللحم ، وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ (١) ولا يترك حضور الفرائض مع الأمام فى مسجد الخيف ، فان فضله عظيم ، فاذا أفاض من منى فالاولى أن يقيم بالمحصب من منى ، ويصلى العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة فهو السنة (٢) رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، فان لم يفعل ذلك فلا شيء عليه

الجملة الثامنة فى صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الاحرام كما سبق فى الحج ، ويحرم بالعمرة من ميقاتها

وأفضل مواقيتها الجعرانة ، ثم التنعيم ، ثم الحديبية . وينوى العمرة ويلبى ، ويقصد مسجد عائشة رضى الله عنها ويصلى ركعتين ويدعو بما شاء ، ثم يعود إلى مكة وهو يلبى حتى يدخل المسجد الحرام ، فاذا دخـل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا . فاذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته

والمقيم بمكة ينبغى أن يكثر الاعتمار والطواف . وليكثر النظر إلى البيت . فاذا دخـله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الافضل ، وليدخله حافيا موقراء قيل لبعضهم : هل دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقـال : والله ما أرى هاتين القـدمين أهـلا للطواف حول بيت ربى

---

(١) حديث زيارة البيت في ليالى منى والمبيت بمنى: د فى المراسيل من حديث طاوس قال أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفيض كل ليلة من ليالى منى قال د وقد أسند قلت وصله ابن عدى عن طاوس عن ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور البيت أيام منى وفيـه عمرو بن رباح ضعيف والمرسل صحيح الاسناد ولأبى داود من حـديث عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمنى ليالى أيام التشريق

(٢) حديث نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والرقود به رقدة : خ من حـديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجعة ـ الحديث:

فكيف أراهما أهلا لأن ألمّ بهما بيت ربى ، وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا ؟ وليكثر شرب ماء زمزم ، وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه ، وليرتو منه حتى يتضلع ، وليقل : اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم ، وارزقنى الاخلاص واليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة !

قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ » أى يشفى ماقصد به

الجملة التاسعة فى طواف الوداع

مهما عنّ له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولا أشغاله ، وليشد رحاله ، وليجعل آخر أشغاله وداع البيت . ووداعه بأن يطوف به سبعا كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع ، فاذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام ، وشرب من ماء زمزم ، ثم يأتى الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول : اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، حملتنى على ما سخرت لى من خلقك حتى سيرتنى فى بلادك ، وبلغتنى بنعمتك حتى أعنتنى على قضاء مناسكك ، فان كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا ، وإلا فمُنّ الآن قبل تباعدى عن بيتك ، هذا أوان انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم أصحبنى العافية فى بدنى ، والعصمة فى دينى ، وأحسن منقلبى ، وارزقنى طاعتك أبدا ما أبقيتنى ، واجمع لى خيرى الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير ، اللهم لا تجعل هذا آخر عهدى ببيتك الحرام ، وإن جعلته آخر عهدى فعوضنى عنه الجنة ! والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه

الجملة العاشرة فى زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ زَارَنِى بَعْدَ وَفَاتِى فَكَأَنَّمَا زَارَنِى فِى حَيَاتِى » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ماء زمزم لما شرب له : ه من حديث جابر بسند ضعيف ورواه قط و ك فى المستدرك من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الاسناد ان سلم من محمد بن حبيب الجارودى قال ابن القطان سلم منه فان الخطيب قال فيه كان صدوقا قال ابن القطان لكن الراوى عنه مجهول وهو محمد ابن هشام المروزى

(٢) حديث من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى : الطبرانى والدارقطنى من حديث ابن عمر

[1]« وَمَنْ وَجَدَ سَعَةً وَلَمْ يَفِدْ إِلَيَّ فَقَدْ جَفَانِي » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَنْ جَاءَنِي زَائِرًا لَا يُهِمُّهُ إِلَّا زِيَارَتِي كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ شَفِيعًا » فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيرا

فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال : اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لى وقاية من النار وأمانا من العذاب وسوء الحساب . وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة ، وليتطيب ، وليلبس أنظف ثيابه ، فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظما ، وليقل : بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا

ثم يقصد المسجد ويدخله ، ويصلى بجنب المنبر ركعتين ، ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ، ويستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق ، وتكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه ، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد . وليجتهد أن يصلى فى المسجد الأول قبل أن يزاد فيه

ثم يأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه ، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التى فى زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديل على رأسه : وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله ، بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام فيقف ويقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك يانبى الله ، السلام عليك ياأمين الله ، السلام عليك ياحبيب الله ، السلام عليك ياصفوة الله ، السلام عليك ياخيرة الله ، السلام عليك ياأحمد ، السلام عليك يامحمد ، السلام عليك ياأبا القاسم ، السلام عليك ياماحى ، السلام عليك ياعاقب ، السلام عليك ياحاشر ، السلام عليك يابشير ، السلام عليك يانذير ،

---

(١) حديث من وجد سعة ولم يفد الى فقد جفانى: ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وابن حبان فى الضعفاء والخطيب فى الرواة عن مالك من حديث ابن عمر من حج ولم يزرني فقد جفانى وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات وروى ابن النجار فى تاريخ المدينة من حديث أنس مامن أحد من أمتى له سعة ثم لم يزرنى فليس له عذر

(٢) حديث من جاءنى زائرا لاتهمه الا زيارتى كان حقا على الله أن أكون له شفيعا : الطبرانى من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن

السلام عليك يا طهر ، السلام عليك يا طاهر ، السلام عليك ياأكرم ولد آدم ، السلام عليك ياسيد المرسلين ، السلام عليك ياخاتم النبيين ، السلام عليك يا رسول رب العالمين ، السلام عليك ياقائد الخير ، السلام عليك يافاتح البر ، السلام عليك يا نبي الرحمة ، السلام عليك ياهادي الأمة ، السلام عليك ياقائد الغر المحجلين ، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين ، جزاك الله عنا أفضل ماجزى نبياً عن قومه ورسولا عن أمته. وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون ، وكلما غفل عنك الغافلون ، وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجلّ وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه ، كما استنقذنا بك من الضلالة ، وبصرنا بك من العماية ، وهدانا بك من الجهالة ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله ، وأمينه وصفيه ، وخيرته من خلقه ، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت عدوك ، وهديت أمتك ، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين ، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرّف وكرم وعظم وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول : السلام عليك من فلان، السلام عليك من فلان

ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه

ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول : السلام عليكما يا وزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعاونين له على القيام بالدين مادام حيا ، والقائمين في أمته بعده بأمور الدين، تتبعان في ذلك آثاره، وتعملان بسنته ، فجزاكما الله خير ماجزى وزيري نبي عن دينه

ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بين القبر والاسطوانة اليوم ويستقبل القبلة ، وليحمد الله عز وجل ، وليمجده ، وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول : اللهم إنك قد قلت وقولك الحق: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [1]) اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك

(١) النساء : ٦٤

وقصدنا نبيك ، متشفعين به اليك فى ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا ، تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا ، فتب اللهم علينا ، وشفّع نبيك هذا فينا ، وارفعنا بمنزلته عندك وحقهِ عليك ، اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار ، واغفرلنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك ياأرحم الراحمين

ثم يأتى الروضة فيصلى فيها ركعتين ويكثر من الدعاء مااستطاع لقوله صلى الله عليه وسلم (١) « مَا بَيْنَ قَبْرِى وَمِنْبَرِى رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمِنْبَرِى عَلَى حَوْضِى » ويدعو عند المنبر . ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يضع يده عليها عند الخطبة . ويستحب له أن يأتى أحدا يوم الخميس ويزور قبور الشهداء ، فيصلى الغداة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ثم يخرج ، ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر ، فلا يفوته فريضة فى الجماعة فى المسجد . ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزور قبر عثمان رضى الله عنه وقبر الحسن بن على رضى الله عنهما ، وفيه أيضا قبر على بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم، ويصلى فى مسجد فاطمة رضى الله عنها ويزور قبر ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك كله بالبقيع

ويستحب له أن يأتى مسجد قباء فى كل سبت ويصلى فيه ، لماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) قال « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى يَأْتِىَ مَسْجِدَ قُبَاءَ وَيُصَلِّىَ فِيهِ كَانَ لَهُ عِدْلُ عُمْرَةٍ » ويأتى بئر أريس ، يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم (٤) تفَلَ فيها ، وهى عند المسجد ، فيتوضأ منها ويشرب من مائها . ويأتى مسجد الفتح وهو على الخندق ، وكذا يأتى سائر المساجد والمشاهد

---

(١) حديث مابين قبري ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى : منفق عليه من حديث أبى هريرة وعبد الله بن زيد

(٢) حديث وضعه صلى الله عليه وسلم يده عند الخطبة على رمانة المنبر : لم أقف له على أصل وذكر محمد ابن الحسن بن زبالة فى تاريخ المدينة أن طول رمانتى المنبر اللتين كان يمسكها صلى الله عليه وسلم بيديه الكريمتين اذا جلس شبر وأصبعان

(٣) حديث من خرج من بيته حتى يأتى مسجد قباء ويصلى فيه كان عدل عمرة : النسائى وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف باسناد صحيح

(٤) حديث ان النبى صلى الله عليه وسلم تفل فى بئر أريس : لم أقف له على أصل وانما ورد أنه تفل فى بئر البصة وبئرغرس كما سيأتى عند ذكرها

ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد، فيقصد مافدر عليه . وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها وهي سبع آبار طلبا للشفاء وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه

---

(١) حديث الآبار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها وهي سبعة آبار : قلت وهي بئر أريس وبئرحا وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو العهن أو بئر جمل فحديث بئر أريس رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه حتى دخل بئر أريس قال فجلست عند بابها وبابها من جريد حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ ـ الحديث : وحديث بئر حا منفق عليه من حديث أنس قال كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلا وكان أحب أمواله اليه بئر حا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ـ الحديث : وحديث بئر رومة رواه ت ن من حديث عثمان أنه قال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى بئر رومة ويجعل دلوه مع دلاء المسلمين ـ الحديث : قال ت حديث حسن وفي رواية لهما هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد الا بالثمن فابتعتها فجعلتها للغنى والفقير وابن السبيل ـ الحديث : وقال حسن صحيح وروى البغوي والطبراني من حديث بشير الاسلمي قال لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بمد الحديث : وحديث بئر غرس رواه ابن حبان في الثقات من حديث أنس أنه قال ائتوني بماء من بئر غرس فاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ ولابن ماجه باسناد جيد مرفوعا اذا أنامت فاغسلوني بسبع قرب من بئري بئر غرس وروينا في تاريخ المدينة لابن النجار باسناد ضعيف مرسلا ان النبي صلى الله عليه وسلم توضأ منها وبزق فيها وغسل منها حين توفى : وحديث بئر بضاعة رواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتوضأ من بئر بضاعة وفي رواية انه يستقى لك من بئر بضاعة ـ الحديث : قال يحيى بن معين اسناده جيد وقال ت حسن وللطبراني من حديث أبي أسيد بصق النبي صلى الله عليه وسلم في بئر بضاعة ورويناه أيضا في تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد وحديث بئر البصة رواه ابن عدي من حديث أبي سعيد الخدري ان النبي صلى الله عليه وسلم جاءه يوما فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسي فان اليوم الجمعة قال نعم فأخرج له سدرا وخرج معه الى البصة فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وصب غسالة رأسه ومراق شعره في البصة وفيه محمد بن الحسن ابن زبالة ضعيف وحديث بئر السقيا رواه د من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعذب له من بيوت السقيا زاد البزار في مسنده أو من بئر السقيا ولاحمد من حديث علي خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كنا بالسقيا التي كانت لسعد ابن أبي وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتوني بوضوء فلما توضأ قام ـ الحديث :

الاقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم ، قال صلى الله عليه وسلم[١] « لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم :[٢] « مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ فَإِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتى القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة كما سبق ، ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة اليه ، ويسأل السلامة فى سفره ، ثم يصلى ركعتين فى الروضة الصغيرة ، وهى موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة فى المسجد ، فاذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ، ثم اليمنى ، وليقل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزارى بزيارته وأصحبنى فى سفرى السلامة ويسر رجوعى إلى أهلى ووطنى سالما ياأرحم الراحمين . وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بماقدر عليه ، وليتتبع المساجد التى بين المدينة ومكة فيصلى فيها ، وهى عشرون موضعا

فصل فى سنن الرجوع من السفر

كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣] إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ يُكَبِّرُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ وَيَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ

وأما بئر جمل فنى الصحيحين من حديث أبى الجهم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بئر جمل ـ الحديث : وصله خ وعلقه م والمشهور أن الآبار بالمدينة سبعة وقد روى الدارمي من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه صبوا على سبع قرب من آبار شتى ـ الحديث : وهو عند خ دون قوله من آبار شتى

(١) حديث لايصبر على لأوائها وشدتها أحد الا كنت له شفيعا يوم القيامة : تقدم فى الباب قبله

(٢) حديث من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ـ الحديث : تقدم فى الباب قبله

(٣) حديث كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قفل من غزو أوحج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر وما زاده فى آخره فى بعض الروايات من قوله وكل شىء هالك إلاوجهه له الحكم واليه ترجعون رواه المحاملى فى الدعاء باسناد جيد

صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » وفى بعض الروايات « وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » فينبغى أن يستعمل هذه السنة فى رجوعه

وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول : اللهم اجْعَلْ لنا بها قَرَارا ورِزْقا حَسَنا[1] ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كى لايقدم عليهم بغتة ، فذلك هو السنة ولا ينبغى أن يطرق أهله ليلا فاذا دخل البلد فليقصد المسجد أولا[2] وليصل ركعتين فهو السنة . كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاذا دخل بيته قال : توبا توبا لربنا أوبا لايغادر علينا حَوْبا فاذا استقر فى منزله فلا ينبغى أن ينسى ماأنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخوض فى المعاصى ، فما ذاك علامة الحج المبرور ، بل علامته أن يعود زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة متأهبا للقاء رب البيت بعد لقاء البيت

الباب الثالث

فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهى عشرة

الأول: أن تكون النفقة حلالا، وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، حتى يكون الهم مجردا لله تعالى، والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره وقد روى فى خبر من طريق أهل البيت[3] « إذا كانَ آخِرُ الزَّمانِ خَرَجَ النَّاسُ إلى الْحَجِّ أَرْبعةَ أَصْنافٍ : سَلاطِينُهُمْ لِلنُّزْهَةِ، وَأَغْنِياؤُهُمْ لِلتِّجارَةِ، وفُقَراؤُهُمْ لِلْمَسْأَلَةِ، وقُرَّاؤُهُمْ لِلسُّمْعَةِ »

---

(١) حديث ارسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة : لم أجد فيه ذكر الارسال وفى الصحيحين من حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال أمهلوا حتى ندخل ليلا أى عشاء كى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة

(٢) حديث صلاة ركعتين فى المسجد عند القدوم من السفر : تقدم فى الصلاة

﴿ الباب الثالث فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة ﴾

(٣) حديث اذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة : الخطيب من حديث أنس باسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ورواه أبو عثمان الصابونى فى كتاب المائتين فقال تحج أغنياء أمتي للنزهة وأوساطهم للتجارة وفقراؤهم للمسئلة وقراؤهم للرياء والسمعة

وفى الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التى يتصوَّر أن تتصل بالحج ، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ، ويخرجه عن حيز حج الخصوص؛لاسيما إذا كان متجردا بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة . وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له مايبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد لاليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين ، فعند ذلك ينبغى أن يكون قصده زيارة بيت الله عزوجل ومعاونة أخيه المسلم باسقاط الفرض عنه . وفى مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « يُدْخِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالْحَجَّةِ الْوَاحِدَةِ ثَلاَثَةً اَلْجَنَّةَ : اَلْمُوصِى بِهاَ ، وَاْلمُنَفِّذُ لَهاَ ، وَمَنْ حَجَّ بِهاَ عَنْ أَخِيهِ » ولست أقول لاتحل الاجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الاسلام عن نفسه ، ولكن الأولى أن لا يفعل ، ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره ، فان الله عز وجل يعطى الدنيا بالدين ولا يعطى الدين بالدنيا . وفى الخبر(٢) « مَثَلُ الَّذِى يَغْزُو فِى سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَيَأْخُذُ أَجْراً مَثَلُ امِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : تُرْضِعُ وَلَدَهاَ وَتَأْخُذُ أَجْرَهاَ » فمن كان مثاله فى أخذ الاجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه ، فانه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه ، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الارضاع بتلبيس حالها عليهم

الثانى : أن لايعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس ، وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين فى الطريق ، فان تسليم المال اليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم ، فهو كالاعانة بالنفس ، فليتلطف فى حيلة الخلاص ، فان لم يقدر فقد قال بعض العلماء ولا بأس بما قاله . إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة ، فان هذه بدعة أحدثت ، وفى الانقياد لها مايجعلها سنة مطردة ، وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية ، ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ منى وأنا مضطر ، فانه لو قعد فى البيت أورجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء ، بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته ، فلو كان فى زى الفقراء لم يطالب ، فهو الذى ساق نفسه إلى حالة الاضطرار

---

(١) حديث يدخل الله بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه : هق من حديث جابر بسند ضعيف

(٢) حديث مثل الذى يغزو ويأخذ أجرا مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها : ابن عدى من حديث معاذ وقال مستقيم الاسناد منكر المتن

الثالث : التوسع فى الزاد وطيب النفس بالبذل والانفاق من غير تقتير ولا إسراف ، بل على الاقتصاد ، وأعنى بالاسراف التنعم بأطايب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين ، فأما كثرة البذل فلاسرف فيه ، إذلاخير فى السرف ولا سرف فى الخير كما قيل ، وبذل الزاد فى طريق الحج نفقة فى سبيل الله عز وجل ، والدرهم بسبعمائة درهم ، قال ابن عمر رضى الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده فى سفره . وكان يقول : أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة . وأحسنهم يقينا . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « اَلْحَجُّ اَلْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا اَلْجَنَّةَ . فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ : مَا بِرُّ اَلْحَجِّ ؟ فَقَالَ : طِيبُ اَلْكَلَامِ وَ إِطْعَامُ الطَّعَامِ »

الرابع : ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرءان . والرفث اسم جامع لكل لغو وخناء وفحش من الكلام ، ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن ، والتحدث بشأن الجماع ومقدماته ، فان ذلك يهيج داعية الجماع المحظور ، والداعى إلى المحظور محظور . والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل . والجدال هو المبالغة فى الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق فى الحال الهمة ويناقض حسن الخلق . وقد قال سفيان : من رفث فسد حجه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج ، والمماراة تناقض طيب الكلام ، فلا ينبغى أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله ، وعلى غيره من أصحابه ، بل يلين جانبه ، ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ، ويلزم حسن الخلق . وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى . وقيل سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا : هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال لا ، فقال : ماأراك تعرفه

الخامس : أن يحج ماشياً إن قدر عليه ، فذلك الأفضل : أوصى عبدالله بن عباس رضى الله عنهما بنيه عند موته فقال : يابنى حجوا مشاة فان للحاج الماشى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل : وما حسنات الحرم : قال الحسنة بمائة ألف . والاستحباب فى المشى فى المناسك ، والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى آكد منه فى الطريق ،

---

(١) حديث الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له مابر الحج قال طيب الكلام واطعام الطعام : أحمد من حديث جابر باسناد لين ورواه الحاكم مختصرا وقال صحيح الأسناد

وإن أضاف إلى المشي الإحرام من دويرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج، قاله عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عز وجل: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ [1]) وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الانفاق والمؤنة ، ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه ، وأقرب إلى سلامته وتمام حجه . وهذا عند التحقيق ليس مخالفاً للأول ؛ بل ينبغي أن يفصّل ويقال : من سهل عليه المشي فهو أفضل ، فإن كان يضعف ويؤدي به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل، كما أن الصوم للمسافر أفضل وللمريض ما لم يفض إلى ضعف وسوء خلق

وسئل بعض العلماء عن العمرة أيمشي فيها أو يكتري حمارا بدرهم فقال ان كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراء أفضل من المشي ، وإن كان المشي أشد عليه كالأغنياء فالمشي له أفضل ، فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس ؛ وله وجه، ولكن الأفضل له أن يمشي ويصرف ذلك الدرهم إلى خير ، فهو أولى من صرفه إلى المكاري عوضا عن ابتذال الدابة فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه

السادس : أن لا يركب إلا زاملة ، أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف من الزاملة أن لا يستمسك عليها لعذر ، وفيه معنيان : أحدهما التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذيه . والثاني اجتناب زي المترفين المتكبرين « حَجَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] عَلَى رَاحِلَةٍ وَكَانَ تَحْتَهُ رَحْلٌ رَثٌّ وقَطِيفَةٌ خَلَقَةٌ قِيمَتُهَا أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ » [2] « وَطَافَ عَلَى الرَّاحِلَةِ لِيَنْظُرَ النَّاسُ إِلَى هَدْيِهِ وَشَمَائِلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم : [3] « خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء في وقته ينكرونها ، فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال : برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوا لقات ورواحل وما رأيت في جميعهم إلا محملين . وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزي والمحامل يقول : الحاج قليل والركب كثير . ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال هذا نعم من الحجاج

---

(١) حديث حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم : الترمذي في الشمائل وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث طوافه صلى الله عليه وسلم على راحلته : تقدم

(٣) حديث خذوا عني مناسككم : م ن واللفظ له من حديث جابر

(١) البقرة : ١٩٦

السابع : أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر، غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في ديوان المتكبرين المترفين، ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين، فقد « أَمَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)] بِالشَّعَثِ وَالِاحْتِفَاءِ». وَ« نَهَى عَنِ التَّنَعُّمِ وَالرَّفَاهِيَةِ» في حديث فضالة بن عبيد[(٢)] وفي الحديث[(٣)] « إِنَّمَا الْحَاجُّ الشَّعِثُ التَّفِلُ »[(٤)] ويقول الله تعالى: انظروا إلى زوار بيتي قد جاءوني شعثاً غبراً من كل فج عميق . وقال تعالى : (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ [(١)]) والتفث : الشعث والاغبرار ، وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والأظفار .

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد. اخلولقوا واخشوشنوا ، أي البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة في الأشياء . وقد قيل. زين الحجيج أهل اليمن. لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف ، فينبغي أن يجتنب الحمرة في زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم، فقد روي « أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)] كَانَ فِي سَفَرٍ فَنَزَلَ أَصْحَابُهُ مَنْزِلاً فَسَرَحَتِ الْإِبِلُ فَنَظَرَ إِلَى أَكْسِيَةٍ حُمْرٍ عَلَى الْأَقْتَابِ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَى هَذِهِ الْحُمْرَةَ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ قَالُوا فَقُمْنَا إِلَيْهَا وَنَزَعْنَاهَا عَنْ ظُهُورِهَا حَتَّى شَرَدَ بَعْضُ الْإِبِلِ »

الثامن : أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، والمحمل خارج عن حد طاقتها ، والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها . كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود ، وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل . قال صلى الله عليه وسلم[(٦)] « لَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ كَرَاسِيَّ »

---

(١) حديث الامر بالشعث والاحتفاء : البغوي والطبراني من حديث عبد الله بن أبي حدرد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حفاة وفيه اختلاف ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف

(٢) حديث فضالة بن عبيد في النهي عن التنعم والرفاهية وان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن كثير من الارفاه ولأحمد من حديث معاذ اياك والتنعم ـ الحديث :

(٣) حديث انما الحاج الشعث التفل : ت ه من حديث ابن عمر وقال غريب

(٤) حديث يقول الله تعالى انظروا الى زوار بيتي قد جاءوا شعثا غبرا من كل فج عميق : الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله من كل فج عميق وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو

(٥) حديث انه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الابل فنظر الي أكسية حمر على الاقتاب : فقال أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم ـ الحديث : د من حديث رافع بن خديج وفيه رجل لم يسم

(٦) حديث لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي: أحمد من حديث سهل بن معاذ بسند ضعيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه

---

(١) الحج : ٢٩

ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها بذلك[١] فهو سنة وفيه آثار عن السلف. وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لا ينزل، ويوفى الأجرة، ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة، فيكون فى حسناته ويوضع فى ميزانه لا فى ميزان المكارى. وكل من آذى بهيمة وحملها ما لا تطيق طولب به يوم القيامة. قال أبو الدرداء لبعيره عند الموت: يأيها البعير لا تخاصمنى إلى ربك فانى لم أكن أحملك فوق طاقتك. وعلى الجملة فى كل كبد حرّاء أجر. فليراع حق الدابة وحق المكارى جميعا. وفى نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكارى. قال رجل لابن المبارك: احمل لى هذا الكتاب معك لتوصله فقال: حتى أستأمر الجمال فانى قد اكتريت. فانظر كيف تورع من استصحاب كتاب لا وزن له؟ وهو طريق الحزم فى الورع، فانه إذا فتح باب القليل انجرّ إلى الكثير يسيراً يسيراً

التاسع: أن يتقرب باراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه. ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه، وليأكل منه إن كان تطوعا ولا يأكل منه إن كان واجبا. قيل فى تفسير قوله تعالى: (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ[١]) إنه تحسينه وتسمينه. وسوق الهدى من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده، وليترك المكاس فى شرائه، فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون المكاس فيهن: الهدى والأضحية والرقبة، فان أفضل ذلك أغلاه ثمنا وأنفسه عند أهله[٢] وروى ابن عمر أن عمر رضى الله عنهما أهدى بختية فطُلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها، وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون. وفى ثلثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة، وفيها تكثير اللحم، ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل، فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وذلك يحصل بمراعاة النفاسة فى القيمة كثر العدد أو قل

(١) حديث النزول عن الدابة غدوة وعشية يريحها بذلك: الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس باسناد جيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا صلى الفجر فى السفر مشى ورواه البيهقى فى الأدب وقال مشى قليلا وناقته تقاد

(٢) حديث ابن عمر أن عمر أهدى بختية فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها: أخرجه د وقال اخرها

(١) الحج: ٣٢

« وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (١) مَا بِرُّ الْحَجِّ ؟ فَقَالَ : الْعَجُّ وَالثَّجُّ » والعج هو رفع الصوت بالتلبية . والثج هو نحر البدن . وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) قال : « مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ إِهْرَاقِهِ دَمًا وَإِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَظْلَافِهَا وَإِنَّ الدَّمَ يَقَعُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ بِالْأَرْضِ فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا » وفى الخبر : (٣) « لَكُمْ بِكُلِّ صُوفَةٍ مِنْ جِلْدِهَا حَسَنَةٌ وَكُلِّ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهَا لَتُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ فَأَبْشِرُوا » وقال صلى الله عليه وسلم : « اسْتَنْجِدُوا هَدَايَاكُمْ فَإِنَّهَا مَطَايَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

العاشر : أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى ، وبما أصابه من خسران ومصيبة فى مال أو بدن إن أصابه ذلك ، فان ذلك من دلائل قبول حجه ، فان المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله عز وجل : الدرهم بسبعمائة درهم ، وهو بمثابة الشدائد فى طريق الجهاد ؛ فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل . ويقال إن من علامة قبول الحج أيضا ترك ما كان عليه من المعاصى ، وأن يتبدل باخوانه البطالين إخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص فى النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره

اعلم أن أول الحج الفهم ، أعنى فهم موقع الحج فى الدين ، ثم الشوق إليه ، ثم العزم عليه ، ثم قطع العلائق المانعة منه ، ثم شراء ثوب الإحرام ، ثم شراء الزاد ، ثم اكتراء الراحلة

---

(١) حديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بر الحج فقال العج والثج : ت واستغربه و ه و ك وصححه والبزار واللفظ له من حديث أبى بكر وقال الباقولى أى الحج أفضل

(٢) حديث عائشة ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من اهراقه دما ـ الحديث : ت وحسنه ابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال خ انه مرسل ووصله ابن خزيمة

(٣) حديث لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وانها لتوضع فى الميزان فابشروا ه ك وصححه البيهقى من حديث زيد بن أرقم فى حديث فيه بكل شعرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شعرة من الصوف حسنة وفى رواية للبيهقى بكل قطرة حسنة قال خ لا يصح وروى أبو الشيخ فى كتاب الضحايا من حديث على أما انها يجاء بها يوم القيامة بلحومها ودمائها حتى توضع فى ميزانك يقولها لفاطمة

ثم الخروج ، ثم المسير فى البادية ، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ، ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق . وفى كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر، وتنبيه للمريد الصادق ، وتعريف وإشارة للفطن . فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشف لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه

أما الفهم : فاعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات ، والكف عن اللذات ، والاقتصار على الضرورات فيها ، والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات ، ولأجل هذا انفرد الرهبانيون فى الملل السالفة عن الخلق ، وانحازوا إلى قلل الجبال، وآثروا التوحش عن الخلق ، لطلب الأنس بالله عز وجل ، فتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة ، وألزموا أنفسهم بالمجاهدات الشاقة طمعا فى الآخرة ، وأثنى الله عز وجل عليهم فى كتابه فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [(١)] ﴾

فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات ، وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل، وفتروا عنه ، بعث الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لاحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين فى سلوكها [(١)] فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة فى دينه فقال صلى الله عليه وسلم « أَبْدَلَنَا اللَّهُ بِهَا الْجِهَادَ وَالتَّكْبِيرَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ » يعنى الحج . « وَسُئِلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٢)] عَنِ السَّائِحِينَ فَقَالَ هُمُ الصَّائِمُونَ » فانعم الله عز وجل على هذه الامة بأن جعل الحج رهبانية لهم . فشرف البيت العتيق بالاضافة إلى نفسه تعالى ، ونصبه مقصدا لعباده ، وجعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره ، وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه،

---

(١) حديث سئل عن الرهبانية والسياحة فقال بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف: أبو داود من حديث أبى أمامة أن رجلا قال يارسول الله ائذن لى فى السياحة فقال ان سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله رواه الطبرانى بلفظ ان لكل أمة سياحة وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الرباط فى نحر العدو وللبيهقى فى الشعب من حديث أنس رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله وكلاهما ضعيف والترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبى هريرة ان رجلا قال يارسول الله انى أريد ان أسافر فأوصنى قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف

(٢) حديث سئل عن السائحين فقال هم الصائمون البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة وقال المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا .

(١) المائدة : ٨٢

وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق ، شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته ، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم ، وأتم فى إذعانهم وانقيادهم ، ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لاتأنس بها النفوس ، ولاتهتدى إلى معانيها العقول : كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار . وبمثل هـذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فان الزكاة ارفاق ، ووجهه مفهوم ، وللعقل إليه ميل . والصوم كسر للشهوة التى هى آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل ؛ والركوع والسجود فى الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هى هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجـل . فأما ترددات السعى ورمي الجمار وأمثال هـذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولاأنس للطبع فيها ، ولااهتداء للعقل إلى معانيها ، فلايكون فى الاقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط ، وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه ، فان كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل، فلايكاد يظهر به كمال الرق والانقياد. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى الحج على الخصوص(١) « لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ حَقًّا تَعَبُّداً وَرِقًّا » ولم يقل ذلك فى صلاة ولا غيرها

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع، فيترددون فى أعمالهم على سنن الانقياد، وعلى مقتضى الاستعباد وكان مالايهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات فى تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق . وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الافعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف فى تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى

وأما الشوق : فانما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل ، وأنه وضع على مثال حضرة الملوك ، فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له ، وإن من قصد البيت فى الدنيا جدير بأن لايضيع زيارته ، فيرزق مقصود الزيارة فى ميعاده المضروب له ، وهو النظر إلى وجه الله الكريم فى دار القرار من حيث إن العين القاصرة الفانية فى دار الدنيا

---

(١) حديث لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا تقدم فى الزكاة

لاتهيأ لقبول نور النظر إلى وجه الله عز وجل ، ولا تطيق احتماله ، ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وإنها إن أمدت في الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ، ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم . فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لامحالة . هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل ، فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الاضافة ، فضلا عن الطلب لنيل ماوعد عليه من الثواب الجزيل

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن ، ومهاجرة الشهوات واللذات ، متوجها إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره ، وأن من طلب عظيما خاطر بعظيم ، وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة . وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص ، وأن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غيره ، فليصحح مع نفسه العزم ، وتصحيحه باخلاصه ، وإخلاصه باجتناب كل مافيه رياء وسمعة . فليحذر أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

وأما قطع العلائق : فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى ، فكل مظلمة علاقة ، وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادى عليه ويقول له : إلى أين تتوجه ؟ أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ، ومستهين به ، ومهمل له : أولا تستحى أن تقدم عليه قدوم العبد العاصى فيردك ولا يقبلك ، فان كنت راغبا فى قبول زيارتك فنفذ أوامره ، ورد المظالم ، وتب إليه أولا من جميع المعاصى ، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ماوراءك ، لتكون متوجها إليه بوجه قلبك ، كما انك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك ، فان لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولا إلا النصب والشقاء ، وآخراً إلا الطرد والرد . وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدر أن لا يعود إليه وليكتب وصيته لأولاده وأهله ، فان المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه . وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة ، فان ذلك بين يديه على القرب ، وما يقدمه من هذا السفر طمع فى تيسير ذلك السفر فهو المستقر وإليه المصير ، فلا ينبغى أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر .

وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال ، وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب مايبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد ، فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأن زاده التقوى، وأن ماعداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه، كالطعام الرطب الذى يفسد فى أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيرا محتاجا لاحيلة له . فليحذر أن تكون أعماله التى هى زاده إلى الآخرة لاتصحبه بعد الموت ، بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير

وأما الراحلة: إذا أحضرها فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة، وليتذكر عنده المركب الذى يركبه إلى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها ، فان أمر الحج من وجهٍ يوازى أمر السفر إلى الآخرة ، ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب ،فما أقرب ذلك منه، ومايدريه لعل الموت قريب، ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للجمل، وركوب الجنازة مقطوع به ، وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه، فكيف يحتاط فى أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر فى زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن

وأما شراء ثوبى الاحرام: فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه، فانه سيرتدى ويتزر بثوبى الاحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لايتم سفره إليه ، وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفا فى ثياب الكفن لامحالة ، فكما لايلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفا عادته فى الزى والهيئة ، فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا فى زى مخالف لزى الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما فى الكفن

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجها إلى الله عز وجل فى سفر لايضاهى أسفار الدنيا فليحضر فى قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه، وزيارة مَن يقصد وأنه متوجه إلى ملك الملوك فى زمرة الزائرين له، الذين نُودوا فأجابوا ، وشُوِّقوا فاشتاقوا واستنهضوا فنهضوا ، وقطعوا العلائق ؛ وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذى فخّم أمرَه وعظّم شأنه ورفع قدره ، تسليا بلقاء البيت عن لقاء رب البيت ، إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول

لا إدلالاً بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال ، ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته ، وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية فى الطريق لقى الله عز وجل وافداً إليه إذ قال جل جلاله (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ[1])

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ، ومن سباع البوادى عقاربَ القبر وديدانه وما فيه من الأفاعى والحيات ، ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشةَ القبر وكربته ووحدته وليكن فى هذه المخاوف فى أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر

وأما الاحرام والتلبية من الميقات : فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل ، فارج أن تكون مقبولا ، وأخش أن يقال لك : لالبيك ولاسعديك . فكن بين الرجاء والخوف متردداً ، وعن حولك وقوّتك متبرئاً ، وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلا ، فان وقت التلبية هو بداية الأمر وهى محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج على بن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرّ لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي ، فقيل له : لم لاتلبي ؟ فقال : أخشى أن يقال لى لالبيك ولاسعديك ، فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه . وقال أحمد بن أبى الحوارى : كنت مع أبى سليمان الدارنى رضى الله عنه حين أراد الاحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا فأخذته الغشية ثم أفاق وقال . ياأحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام : مُرْ ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فانى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة ، ويحك ياأحمد : بلغنى أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لالبيك ولاسعديك حتى ترد ما فى يديك ، فما نأمن أن يقال لنا ذلك! وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية فى الميقات إجابته لنداء الله عز وجل ، إذ قال : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ[2]) ونداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور ، وازدحامهم فى عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه ، ومنقسمين إلى مقربين وممقوتين ، ومقبولين ومردودين ، ومترددين فى أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج فى الميقات حيث لايدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا

(١) النساء : ١٠٠ (٢) الحج : ٢٧

وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل ، وليخش أن لا يكون أهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم خائبا ومستحقا للمقت ، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالبا ، فالكرم عميم ، والرب رحيم ، وشرف البيت عظيم ، وحق الزائر مرعى ، وذمام المستجير اللائذ غير مضيع

وأما وقوع البصر على البيت . فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه اياه ، وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم . واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه ، واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه ، فان كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فاحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله ، ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت ، بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت ، حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية ، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب ، وأن عالم الملك والشهادة مَدْرَجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب . والى هذه الموازنة وقعت الاشارة بأن البيت المعمور في السموات بازاء الكعبة ، فان طواف الملائكة به كطواف الأنس بهذا البيت . ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الامكان ، ووعدوا بأن [1] « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به ، على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى

---

(١) حديث من تشبه بقوم فهو منهم: أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته ؛ فصمم عزمتك على الوفاء ببيعتك ، فمن غدر في المبايعة استحق المقت ، وقد روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] أنه قال « اَلْحَجَرُ اْلأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِى اْلأَرْضِ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ كَمَا يُصَافِحُ الرَّجُلُ أَخَاهُ »

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم . فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ، وتبركا بالمماسة ، ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لافي البيت . ولتكن نيتك في التعلق بالستر الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان ، كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع اليه في عفوه عنه المظهر له أنه لاملجأله منه إلا اليه ، ولامفزع له إلا كرمه وعفوه ، وأنه لايفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت : فانه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى ، إظهارا للخلوص في الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ؛ كالذي دخل على الملك وخرج وهو لايدري ماالذي يقضي به الملك في حقه من قبول أورد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى . وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة ، وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيآت . وليتذكر تردده بين الكفتين ناظرا إلى الرجحان والنقصان مترددا بين العذاب والغفران

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات ، واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر ، اقتفاء لهم ، وسيرا بسيرهم ، عرصات القيامة ، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة ، واقتفاء كل أمة نبيها ، وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . واذا تذكرت ذلك فالزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل ؛ فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين . وحقق رجاءك بالاجابة فالموقف شريف ، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض . ولاينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد ، وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فاذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ،

(١) حديث ابن عباس الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه ـ الحديث : تقدم في العلم من حديث عبدالله بن عمرو

وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إليه أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة ، فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم . ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده ، فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد

وأما رمى الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر اظهارا للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبه بابراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأمله ، فان خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه ، وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به . فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة ، وفي الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره اذ لا يحصل ارغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه ، وأما ذبح الهدى فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدى وارج (١) أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فهكذا ورد الوعد فكلما كان الهدى أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم

وأما زيارة المدينة : فاذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل اليها هجرته ، وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنته ، وجاهد عدوه وأظهر بها دينه ، إلى أن توفاه الله عز وجل ، ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضي الله عنهما . ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله

(١) حديث انه يعتق بكل جزء من الأضحية جزأ من المضحى من النار : لم أقف له على أصل وفي كتاب الضحايا لأبي الشيخ من حديث أبي سعيد فان لك بأول قطرة تقطر من دمها أن يغفر لك ماتقدم من ذنوبك يقوله لفاطمه واسناده ضعيف

صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيهـا ، وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة ، فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل ، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها ، وتصور خشوعه وسكينته في المشى ، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه ، وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما منَّ الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه ، وأعظم تأسفك على مافاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضى الله عنهم ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر ، وأنك ربما لاتراه إلا بحسرة وقد حيل بينك و بينه قبوله إياك بسوء عملك ، كما قال صلى الله عليه وسلم[1] « يَرْفَعُ اللهُ إِلَيَّ أَقْوَاماً فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ يَارَبِّ أَصْحَابِي ! فَيَقُولُ إِنَّكَ لَاتَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ . فَأَقُولُ بُعْداً وَسُحْقاً » فان تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محجته . وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الايمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا ، بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته ، فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى اليك بعين الرحمة

فاذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة ، وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة ، وأنها جمعت أفضل خلق الله حيا وميتا ، فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه ، فادخله خاشعا معظما ، وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن كما حكى عن أبي سليمان أنه قال : حج أويس القرني رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فغشي عليه ، فلما أفاق قال: أخرجوني فليس يلذلي بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون !

(١) حديث يرفع الي أقوام فيقولون يامحمد يامحمد فأقول يارب أصحابي فيقول انك لاتدري ماأحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقا : متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله يامحمد يامحمد

وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم فينبغى أن تقف بين يديه كما وصفناه ، وتزوره ميتا كما تزوره حيا ، ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا ، وكما كنت ترى الحرمة فى أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلا بين يديه ، فكذلك فافعل ، فان المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك ، وأنه يبلغه سلامك وصلاتك فمثل صورته الكريمة فى خيالك موضوعا فى اللحد بازائك وأحضر عظيم رتبته فى قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم[1] « أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَكَّلَ بِقَبْرِهِ مَلَكاً يُبَلِّغُهُ سَلامَ مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِهِ » هذا فى حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادى شوقا الى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريمة؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم[2] « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْراً » فهذا جزاؤه فى الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟ ثم ائت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوهم صعود النبى صلى الله عليه وسلم المنبر ، ومثل فى قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته ، وسل الله عز وجل أن لا يفرق فى القيامة بينك وبينه . فهذه وظيفة القلب فى أعمال الحج

فاذا فرغ منها كلها فينبغى أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدرى أقبل منه حجه وأثبت فى زمرة المحبوبين أم رد حجه والحق بالمطرودين . وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فان صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأنس بالله تعالى ، ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع ، فليثق بالقبول ، فان الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه ، ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته . وكف عنه سطوة عدوّه إبليس لعنه الله ، فاذا ظهر ذلك عليه دل على القبول وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره العناء والتعب . نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك

تم كتاب أسرار الحج ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن

---

(١) حديث ان الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته: ن حب ك من حديث ابن مسعود بلفظ ان لله ملائكة سياحين فى الارض يبلغونى عن أمتى السلام

(٢) حديث من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا: م من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو

كتاب آداب تلاوة القرآن

كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي امتنّ على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم، وكتابه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصّل فيه من الأحكام، وفرّق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور، وبه النجاة من الغرور، وفيه شفاء لما في الصدور. من خالفه من الجبابرة قصمه الله، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله. هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والعروة الوثقى، والمعتصم الأوفى، وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير، لا تنقضي عجائبه، ولا تتناهى غرائبه، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد. هو الذي أرشد الأوّلين والآخرين، ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين فقالوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا [1]) فكل من آمن به فقد وفق، ومن قال به فقد صدق، ومن تمسك به فقد هدى، ومن عمل به فقد فاز. وقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [2]): ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه، والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة، وذلك لابد من بيانه وتفصيله

وتنكشف مقاصده في أربعة أبواب

الباب الأول: في فضل القرءان وأهله

الباب الثاني: في آداب التلاوة في الظاهر

الباب الثالث: في الأعمال الباطنة عند التلاوة

الباب الرابع: في فهم القرءان وتفسيره بالرأي وغيره

---

(١) الجن: ١، ٢ (٢) الحجر: ٩

الباب الأول

فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته

فضيلة القرآن

قال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ رَأَى أَنَّ أَحَداً أُوتِىَ أَفْضَلَ مِمَّا أُوتِىَ فَقَدِ اسْتَصْغَرَ مَا عَظَّمَهُ اللهُ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « مَا مِنْ شَفِيعٍ أَفْضَلَ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْقُرْآنِ لَا نَبِيٌّ وَلَا مَلَكٌ وَلَا غَيْرُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِى إِهَابٍ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِى تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) أيضاً « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَرَأَ طه وَيس قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِأَلْفِ عَامٍ فَلَمَّا سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ الْقُرْآنَ قَالَتْ طُوبَى لِأُمَّةٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ هَذَا، وَطُوبَى لِأَجْوَافٍ تَحْمِلُ هَذَا، وَطُوبَى لِأَلْسِنَةٍ تَنْطِقُ بِهَذَا » وقال صلى الله عليه وسلم : (٦) « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »

﴿ كتاب آداب تلاوة القرآن ﴾

﴿ الباب الأول فى فضل القرآن وأهله ﴾

(١) حديث من قرأ القرآن ثم رأى ان أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله : طب من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف

(٢) حديث ما من شفيع أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبى ولا ملك ولا غيره : رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا وللطبرانى من حديث ابن مسعود القرآن شافع مشفع ولمسلم من حديث أبى أمامة اقرءوا القرآن فانه يجىء يوم القيامة شفيعا لصاحبه

(٣) حديث لو كان القرآن فى اهاب ما مسته النار : الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء من حديث سهل ابن سعد ولأحمد والدارمى والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة ورواه ابن عدى والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عصمة بن مالك باسناد ضعيف

(٤) حديث أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن : أبو نعيم فى فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس واسنادهما ضعيف

(٥) حديث ان الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام ــ الحديث : الدارمى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

(٦) حديث خيركم من تعلم القرآن وعلمه : خ من حديث عثمان بن عفان

وقال صلى الله عليه وسلم: (١) « يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْءَانِ عَنْ دُعَائِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ الشَّاكِرِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم: (٢) « ثَلَاثَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَثِيبٍ مِنْ مِسْكٍ أَسْوَدَ لَا يَهُولُهُمْ فَزَعٌ وَلَا يَنَالُهُمْ حِسَابٌ حَتَّى يُفْرَغَ مَا بَيْنَ النَّاسِ : رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْءَانَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَجُلٌ أَمَّ بِهِ قَوْماً وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ » . وقال صلى الله عليه وسلم: (٣) أَهْلُ الْقُرْءَانِ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم: (٤) « إِنَّ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ ، فَقِيلَ يَارَسُولَ اللهِ وَمَاجِلَاؤُهَا؟ فَقَالَ: تِلَاوَةُ الْقُرْءَانِ وَذِكْرُ الْمَوْتِ» وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) «لَلَّهُ أَشَدُّ أُذُناً إِلَى قَارِىءِ الْقُرْءَانِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ»

الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : اقرءوا القرءان ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة : فان الله لا يعذب قلبا هو وعاء للقرءان . وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرءان فان فيه علم الأولين والآخرين . وقال أيضا : اقرءوا القرءان فانكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات ، أمَّا إنى لا أقول الحرف الم ، ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف . وقال أيضا : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرءان ، فان كان يحب القرءان ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان يبغض القرءان فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم. وقال عمرو بن العاص: كل آية فى القرءان درجة فى الجنة ومصباح فى بيوتكم. وقال أيضاً من قرأ القرءان فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى اليه

وقال أبو هريرة : إن البيت الذى يتلى فيه القرءان اتسع بأهله ، وكثر خيره ، وحضرته الملائكة ، وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذى لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل ضاق بأهله ، وقل خيره ، وخرجت منه الملائكة ، وحضرته الشياطين . وقال أحمد بن حنبل :

---

(١) حديث يقول الله من شغله قراءة القرءان عن دعائى ومسألتى أعطيته ثواب الشاكرين: ت من حديث أبى سعيد من شغله القرءان عن ذكرى أو مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين وقال حسن غريب ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف

(٢) حديث ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك ـ الحديث : تقدم فى الصلاة

(٣) حديث أهل القرءان أهل الله وخاصته: ن فى الكبرى و هـ ك من حديث أنس باسناد حسن .

(٤) حديث ان هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل ما جلاؤها قال تلاوة القرءان وذكر الموت: البيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٥) حديث لله أشد أذنا الى قارىء القرءان من صاحب القينة الى قينته: هـ حب ك وصححه من حديث فضالة بن عبيد

رأيت الله عز وجل فى المنام فقلت : يارب ماأفضل ماتقرب به المتقربون اليك ؟ قال بكلامى ياأحمد . قال قلت يارب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم . وقال محمد بن كعب القرظى : اذا سمع الناس القرءان من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قط

وقال الفضيل بن عياض : ينبغى لحامل القرءان أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء ، فمن دونهم ، فينبغى أن تكون حوائج الخلق إليه . وقال أيضا : حامل القرءان حامل راية الاسلام فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلغو مع من يلغو ، تعظيما لحق القرءان . وقال سفيان الثورى : إذا قرأ الرجل القرءان قبل الملك بين عينيه . وقال عمرو بن ميمون : من نشر مصحفاً حين يصلى الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا

ويروى (٢) أَنَّ خَالِدَ بْنَ عُقْبَةَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْءانَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى (١)) الآية فقال له : أَعِدْ فَأَعَادَ ، فقَالَ وَاللهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُورِقٌ ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ » وقال الحسن : والله مادون القرءان من غنى ولا بعده من فاقة . وقال الفضيل : من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ، ومن قرأها حين يمسى ثم مات من ليلته ختم له بطابع الشهداء . وقال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لبعض النساك : ماهاهنا أحد تستأنس به ، فمد يده الى المصحف ووضعه على حجره وقال : هذا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ثلاث يزدن فى الحفظ ، ويذهبن البلغم : السواك ، والصيام ، وقراءة القرءان

فى ذم تلاوة الغافلين

قال أنس بن مالك : رب تال للقرءان والقرءان يلعنه . وقال ميسرة : الغريب هو القرءان فى جوف الفاجر . وقال أبو سليمان الدارنى : الزبانية أسرع إلى حملة القرءان الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرءان . وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرءان ثم خلط ثم عاد فقرأ ، قيل له : مالك ولكلامى

---

(٢) حديث ان خالد بن عقبة جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على فقرأ عليه ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى فقال أعد فأعاد فقال ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر : ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب بغير اسناد ورواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد الا أنه قال الوليد بن المغيرة بدل خالد بن عقبة وكذا ذكره ابن اسحق فى السيرة بنحوه

وقال ابن الرماح : ندمت على استظهاري القرءان لأنه بلغني أن أصحاب القرءان يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة . وقال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرءان أن يعرف بليله اذا الناس ينامون ، وبنهاره اذا الناس يفرطون ، وبحزنه اذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته اذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون وينبغي لحامل القرءان أن يكون مستكينا لينا ، ولا ينبغي له أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحا ولا صخابا ولا حديدا

وقال صلى الله عليه وسلم:(١) « أَكْثَرُ مُنَافِقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قُرَّاؤُهَا» وقال صلى الله عليه وسلم(٢) « اقْرَإِ الْقُرْءَانَ مَا نَهَاكَ ، فَإِنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَؤُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم(٣) « مَا آمَنَ بِالْقُرْءَانِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ »

وقال بعض السلف : إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرءان فيلعن نفسه وهو لا يعلم ، يقول . ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم نفسه ، ألا لعنة الله على الكاذبين وهو منهم! وقال الحسن: إنكم اتخذتم قراءة القرءان مراحل وجعلتم الليل جملا فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله ، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار

وقال ابن مسعود: أنزل القرءان عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا ، إن أحدكم ليقرأ القرءان من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به. وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما(٤) « لَقَدْ عِشْنَا دَهْراً طَوِيلاً وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْءَانِ فَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالاً يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْءَانَ قَبْلَ الْإِيمَانِ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتِمَتِهِ لَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ»

---

(١) حديث أكثر منافقي أمتي قراؤها: أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيها ابن لهيعة

(٢) حديث اقرأ القرءان ما نهاك فان لم ينهك فلست تقرؤه: طب من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف

(٣) حديث ما آمن بالقرءان من استحل محارمه: ت من حديث صهيب وقال ليس اسناده بالقوي

(٤) حديث ابن عمر وحديث جندب لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الايمان قبل القرءان الحديث : تقدما في العلم

وقد ورد فى التوراة : ياعبدى أما تستحى منى : يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شىء منه ، وهذا كتابى أنزلته إليك ، أنظركم فصلت لك فيه من القول ، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه ، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك! ياعبدى يقعد اليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغى إلى حديثه بكل قلبك فان تكلم متكلم أوشغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف ، وها أناذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى ، أفجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك ؟

الباب الثالث

فى ظاهر آداب التلاوة وهى عشرة

الأول فى حال القارىء :

وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إماقائما ، وإما جالساً مستقبل القبلة ، مطرقاً رأسه ، غير متربع ولامتكىء ولاجالس على هيئة التكبر، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدى أستاذه . وأفضل الأحوال أن يقرأ فى الصلاة قائما ، وأن يكون فى المسجد ، فذلك من أفضل الأعمال . فان قرأعلى غير وضوء وكان مضطجعا فى الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك ، قال الله تعالى : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ[1]) فأثنى على الكل ولكن قدم القيام فى الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا . قال علىّ رضى الله عنه : من قرأ القرءان وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ، ومن قرأه فى غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة ، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات . وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب. قال أبو ذر الغفارى رضى الله عنه : إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل

الثانى فى مقدار القراءة :

وللقراء عادات مختلفة فى الاستكثار والاختصار ، فمنهم من يختم القرءان فى اليوم والليلة مرة ، وبعضهم مرتين ، وانتهى بعضهم إلى ثلاث ، ومنهم من يختم فى الشهر مرة .

(١) آل عمران ١٩١

وأولى مايرجع إليه فى التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ قَرَأَ الْقُرْءانَ فِى أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ لَمْ يَفْقَهْهُ » وذلك لان الزيادة عليه تمنعه الترتيل . وقد قالت عائشة رضى الله عنها لما سمعت رجلا يهذر القرءان هذرا : إن هذا ماقرأ القرءان ولاسكت . « وَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنْ يَخْتِمَ الْقُرْءانَ فِى كُلِّ سَبْعٍ » وكذلك كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يختمون القرءان فى كل جمعة : كعثمان ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبيّ بن كعب رضى الله عنهم . ففى الختم أربع درجات : الختم فى يوم وليلة وقد كرهه جماعة ، والختم فى كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا ، وكأنه مبالغة فى الاقتصار كما أن الأوّل مبالغة فى الاستكثار ، وبينهما درجتان معتدلتان : إحداهما فى الأسبوع مرة ، والثانية فى الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث

والأحب أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ، ويجعل ختمه بالنهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما ، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمته ، فان الملائكة عليهم السلام تصلى عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح ، وإن كان نهارا حتى يمسى فتشمله بركتهما جميع الليل والنهار . والتفصيل فى مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغى أن ينقص عن ختمتين فى الاسبوع ، وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر فى الأسبوع على مرة ، وإن كان نافذ الفكر فى معانى القرءان فقد يكتفى فى الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل

الثالث فى وجه القسمة :

أما من ختم فى الأسبوع مرة فيقسم القرءان (٣) سبعة أحزاب ، فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرءان أحزابا ، فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة

﴿ الباب الثانى فى ظاهر آداب التلاوة ﴾

(١) حديث من قرأ القرءان فى أقل من ثلاث لم يفقهه : أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه

(٢) حديث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يختم القرءان فى كل أسبوع : متفق عليه من حديثه

(٣) حديث تحزيب القرءان على سبعة أحزاب د ه من حديث أوس بن حذيفة فى حديث فيه طرأ على حزبى من القرءان قال أوس فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرءان قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع واحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل وفى رواية للطبرانى فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزىء القرءان فقالوا كان يجزئه ثلاثا فذكره مرفوعا واسناده حسن

وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه أقساما لا على هذا الترتيب . وقيل أحزاب القرءان سبعة : فالحزب الأول ثلاث سور ، والحزب الثانى خمس سور ، والحزب الثالث سبع سور ، والرابع تسع سور ، والخامس إحدى عشرة سورة ، والسادس ثلاث عشر سورة ، والسابع المفصل من ق إلى آخره . فهكذا حزبه الصحابة رضي الله عنهم ، وكانوا يقرءونه كذلك . وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء ، فما سوى هذا محدث .

الرابع فى الكتابة :

يستحب تحسين كتابة القرءان وتبيينه ، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها ، فإنها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه . وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء . وروى عن الشعبي وابراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجرة على ذلك ، وكانوا يقولون : جردوا القرءان . والظن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدى إلى احداث زيادات وحسما للباب ، وتشوقا إلى حراسة القرءان عما يطرق اليه تغييراً ، وإذا لم يؤد إلى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به ، ولا يمنع من ذلك كونه محدثا ، فكم من محدث حسن ، كما قيل فى إقامة الجماعات فى التراويح إنها من محدثات عمر رضى الله عنه ، وإنها بدعة حسنة ، إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضى إلى تغييرها . وبعضهم كان يقول : أقرأ فى المصحف المنقوط ولا أنقطه بنفسي . وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير : كان القرءان مجرداً فى المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا لا بأس به ، فانه نور له ، ثم أحدثوا بعده نقطا كباراً عند منتهى الآى فقالوا لا بأس به يعرف به رأس الآية ، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح . قال أبو بكر الهذلى : سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال : وما تنقيطها ؟ قلت : يعربون الكلمة بالعربية . قال : أما إعراب القرءان فلا بأس به

وقال خالد الحذاء : دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ فى مصحف منقوط وقد كان يكره النقط . وقيل إن الحجاج هو الذى أحدث ذلك ، وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرءان وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءاً وإلى أقسام أخر

الخامس الترتيل :

هو المستحب فى هيئة القرءان لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكر ، والترتيل معين عليه ، ولذلك نعتت أم سلمة رضى الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] فاذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا. وقال ابن عباس رضى الله عنه: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلىّ من أن أقرأ القرءان كله هذرمةً . وقال أيضا : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلىّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيرا. وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى الصلاة فكان قيامهما واحدا إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرءان كله فقال: هما فى الأجر سواء. واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر، فان العجمى الذى لا يفهم معنى القرءان يستحب له فى القراءة أيضا الترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام ؛ وأشد تأثيرا فى القلب من الهذرمة والاستعجال

السادس البكاء :

البكاء مستحب مع القراءة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « اتْلُوا الْقُرْءَانَ وَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوا » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْءَانِ » وقال صالح المرّى : قرأت القرءان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى: ياصالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن ، فمن الحزن ينشأ البكاء . قال صلى الله عليه وسلم[4] « إِنَّ الْقُرْءَانَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَتَحَازَنُوا » ووجه احضار الحزن أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى، فان لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فان ذلك أعظم المصائب

---

(١) حديث نعتت أم سلمة قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فاذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا: د ن ت وقال حسن صحيح

(٢) حديث اتلوا القرءان وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا : ه من حديث سعد ابن أبى وقاص بأسناد جيد

(٣) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرءان: خ من حديث أبى هريرة

(٤) حديث أن القرءان نزل بحزن فاذا قرأتموه فتحازنوا: أبو يعلى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف

السابع: ان يراعى حق الآيات فاذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالى ، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وفى القرءان أربع عشرة سجدة وفى الحج سجدتان ، وليس فى ص سجدة. وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض ، وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو فى سجوده بما يليق بالآية التى قرأها ، مثل أن يقرأ قوله تعالى: (خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [١]) فيقول: اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك . وإذا قرأ قوله تعالى : (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا [٢]) فيقول : اللهم اجعلنى من الباكين إليك ، الخاشعين لك . وكذلك كل سجدة. ويشترط فى هذه السجدة شروط الصلاة: من ستر العورة ، واستقبال القبلة ، وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث . ومن لم يكن على طهارة عند السماع فاذا تطهر يسجد . وقد قيل فى كمالها أن يكبر رافعا يديه لتحريمه ، ثم يكبر للهوىّ للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم . وزاد زائدون التشهد ، ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد ، فانه ورد الأمر فى السجود فليتبع فيه الأمر ، وتكبيرة الهوى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بُعد. ثم المأموم ينبغى أن يسجد عند سجود الامام، ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموما

الثامن: أن يقول فى مبتدأ قراءته :أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون . وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله، وليقل عند فراغه من القراءة صدق الله تعالى و بلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه ، الحمد لله رب العالمين ، وأستغفر الله الحى القيوم ، وفى أثناء القراءة اذا مر بآية تسبيح سبّح وكبّر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مر بمرجوّ سأل ، وإن مر بمخوّف استعاذ. يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا . قال حذيفة : « صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَابْتَدَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ [١] فَكَانَ لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا سَأَلَ ، وَلَا بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا اسْتَعَاذَ ،

---

(١) حديث حذيفة كان لا يمر بآية عذاب الا تعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه الا سبح: م مع اختلاف لفظ

(١) السجدة : ١٥ (٢) الاسراء : ١٠٩

وَلَا بِآيَةِ تَنْزِيهٍ إِلَّا سَبَّحَ» فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلوات الله عليه وسلامه[١] عند ختم القرءان «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِالْقُرْءَانِ وَاجْعَلْهُ لِي إِمَامًا وَنُورًا وَهُدًى وَرَحْمَةً اللَّهُمَّ ذَكِّرْنِي مِنْهُ مَا نَسِيتُ وَعَلِّمْنِي مِنْهُ مَا جَهِلْتُ وَارْزُقْنِي تِلَاوَتَهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ وَاجْعَلْهُ لِي حُجَّةً يَارَبَّ الْعَالَمِينَ»

التاسع فى الجهر بالقراءة :

ولا شك فى أنه لابد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف، ولابد من صوت فأقله ما يسمع نفسه ، فان لم يسمع نفسه لم تصح صلاته. فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر

ويدل على استحباب الإسرار ماروى أنه صلى الله عليه وسلم[٢] قال: « فَضْلُ قِرَاءَةِ السِّرِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْعَلَانِيَةِ كَفَضْلِ صَدَقَةِ السِّرِّ عَلَى صَدَقَةِ الْعَلَانِيَةِ » وفى لفظ آخر : « الْجَاهِرُ بِالْقُرْءَانِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ وَالْمُسِرُّ بِهِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ » وفى الخبر العام:[٣] « يَفْضُلُ عَمَلُ السِّرِّ عَلَى عَمَلِ الْعَلَانِيَةِ سَبْعِينَ ضِعْفًا » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم[٤] «خَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي وَخَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ» وفى الخبر[٥] «لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ» وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة فى صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلى فمره أن يخفض من صوته فقال الغلام : إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب فرفع سعيد صوته

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرءان اللهم ارحمنى بالقرءان واجعله لى اماما وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين : رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الارجانى فى فضائل القرءان وأبو بكر بن الضحاك فى الشمائل كلاهما من طريق أبى ذر الهروى من رواية داود ابن قيس معضلا

(٢) حديث فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية: قال وفى لفظ آخر الجاهر بالقرءان كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرءان كالمسر بالصدقة: د ن ت وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثانى

(٣) حديث يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا : البيهقى فى الشعب من حديث عائشة

(٤) حديث خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى: أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبى وقاص

(٥) حديث لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء : رواه أبوداود من حديث البياضى دون قوله بين المغرب والعشاء والبيهقى فى الشعب من حديث على قبل العشاء وبعدها وفيه الحارث الاعور وهو ضعيف.

وقال : ياأيها المصلى إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذ أمير المدينة

ويدل على استحباب الجهر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم (١) سَمِعَ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ يَجْهَرُونَ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ فَصَوَّبَ ذَلِكَ وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى فَلْيَجْهَرْ بِالْقِرَاءَةِ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَعُمَّارَ الدَّارِ يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ وَيُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ» ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم مختلفى الأحوال (٣) فمر على أبى بكر رضى الله عنه وهو يخافت، فسأله عن ذلك، فقال : إن الذى أناجيه هو يسمعنى . ومر على عمر رضى الله عنه وهو يجهر، فسأله عن ذلك، فقال : أوقظ الوَسْنَانَ وأزجر الشيطان، ومر على بلال وهو يقرأ آيا من هذه السورة وآيا من هذه السورة، فسأله عن ذلك، فقال : أخلط الطيب بالطيب . فقال صلى الله عليه وسلم « كُلُّكُمْ قَدْ أَحْسَنَ وَأَصَابَ »

فالوجه فى الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك على نفسه، فإن لم يخف ولم يكن فى الجهر مايشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل، لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضا تتعلق بغيره، فالخير المتعدى أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارىء، ويجمع همه إلى الفكر فيه، ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم فى رفع الصوت، ولأنه يزيد فى نشاطه للقراءة ويقلل من كسله، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه . ولأنه قد يراه بطال

(١) حديث أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون فى صلاة الليل فصوب ذلك : فى الصحيحين من حديث عائشة أن رجلا قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله فلانا ـ الحديث : وفيهما من حديث أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة ـ الحديث : ومن حديثه أيضا إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن : الحديث

(٢) حديث إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته : رواه بنحوه بزيادة فيه أبو بكر البزار ونصر المقدسى فى المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع

(٣) حديث مروره صلى الله عليه وسلم بأبى بكر وهو يخافت وبعمر وهو يجهر وببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة ـ الحديث : تقدم فى الصلاة

غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة ، فمتى حضره شيء من هـذه النيات فالجهر أفضل ، وإن اجتمعت هـذه النيات تضاعف الأجر ، وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم ، فان كان فى العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور .

ولهـذا نقول : قراءة القرءان فى المصاحف أفضـل ، إذ يزيد فى العمل النظر ، وتأمل المصحف ، وحمله ، فيزيد الأجر بسببه . وقد قيل الختمة فى المصحف بسبع ، لأن النظر فى المصحف أيضا عبادة . وخرق عثمان رضى الله عنه مصحفين لـكثرة قراءته منهما ، فكان كثير من الصحابة يقرءون فى المصاحف ، ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا فى المصحف. ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعي رضى الله عنه فى السحَر وبين يديه مصحف ، فقال له الشافعي: شغلكم الفقه عن القرءان، إنى لأصلى العتمة وأضع المصحف بين يدى فما أطبقه حتى أصبح

العاشر: تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم، فذلك سنة . قال صلى الله عليه وسلم[١] « زَيِّنُوا الْقُرْءَانَ بِأَصْوَاتِكُمْ » وقال عليه السلام :[٢] « مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْءَانِ» وقال صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْءَانِ» فقيل أراد به الاستغناء ، وقيـل أراد به الترنم . وترديد الألحان به ، وهو أقرب عند أهـل اللغة . وروى أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم كان ليلة[٣] ينتظر عائشة رضى الله عنها فابطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم مَاحَبَسَكِ ؟ قالت : يارسول الله كُنْتُ أستمع قراءة رجل ماسمعت أحسن صوتا منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع ، فقال صلى الله عليه وسلم : هَـذَا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ أَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَهُ[٤] واستمع صلى الله عليه وسلم أيضا ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما

(١) حديث زينوا القرءان بأصواتكم: د ن ه حب ك وصححه من حديث البراء بن عازب

(٢) حديث ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرءان: متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ ما آذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرءان زاد م لنبي حسن الصوت وفى رواية له كأذنه لنبي يتغنى بالقرءان

(٣) حديث كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ما حبسك قالت يارسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع الية طويلا ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله: ه من حديث عائشة ورجال اسناده ثقات

(٤) حديث استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرءان غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد: أحمد ن فى الكبرى من حديث عمر و ت ه من حديث ابن مسعود ان أبابكر وعمر بشراه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرءان ــ الحديث : قال ت حسن صحيح

فوقفوا طويلا ثم قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْءانَ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم(١) لابن مسعود : اقْرَأْ عَلَيَّ فَقَالَ يَارَسُولَ اللهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ، فَكَانَ يَقْرَأُ وَعَيْنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَفِيضَانِ »(٢) واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسى فقال « لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » فبلغ ذلك أباموسى فقال : يارسول الله لو علمت أنك تسمع لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا . ورأى هيثم القارىء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام قال فقال لى : أنت الهيثم الذى تزين القرءان بصوتك ؟ قلت : نعم . قال : جزاك الله خيرا . وفى الخبر كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرءان

وقد كان عمر يقول لأبى موسى رضى الله عنهما ذكرنا ربنا ، فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط ، فيقال ياأمير المؤمنين الصلاة الصلاة ، فيقول أولسنا فى صلاة ؟ إشارة إلى قوله عز وجل (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ(١)) وقال صلى الله عليه وسلم(٣) « مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وفى الخبر : كتب له عشر حسنات . ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالى هو السبب فيه كان شريكا فى الأجر ، إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع

الباب الثالث

فى أعمال الباطن فى التلاوة وهى عشرة

فهم أصل الكلام ، ثم التعظيم ، ثم حضور القلب ، ثم التدبر ، ثم التفهم ، ثم التخلى عن موانع الفهم ، ثم التخصيص ، ثم التأثر ، ثم الترقى ، ثم التبرى ،

فالأول : فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه . فلينظر كيف لطف بخلقه فى إيصال معانى كلامه

---

(١) حديث أنه قال لابن مسعود اقرأ فقال يارسول الله أقرأ وعليك أنزل فقال انى أحب أن أسمعه من غيرى ـ الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث استمع الى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا من مزامير آل داود : متفق عليه من حديث أبى موسى

(٣) حديث من استمع الى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة وفى الخبر كتب له عشر حسنات : أحمد من حديث أبى هريرة من استمع الى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة وفيه ضعف وانقطاع

(١) العنكبوت : ٤٥

الذى هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه ، وكيف تجلت لهم تلك الصفة فى طى حروف وأصوات هى صفات البشر ، اذا يعجز البشر عن الوصول الى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لماثبت لسماع الكلام عرش ولاثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره ، ولولا تثبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام لماأطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حيث صار دكا ، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة ، على حدّ فهم الخلق . ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال : إن كل حرف من كلام الله عز وجل فى اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف ، وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ماأطاقوه ، حتى يأتى إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله باذن الله عز وجل ورحمته لا بقوته وطاقته ، ولكن الله عز وجل طوقه ذلك واستعمله به

ولقد تأنق بعض الحكماء فى التعبير عن وجه اللطف فى إيصال معانى الكلام مع علو درجته الى فهم الانسان وتثبيته مع قصور رتبته ، وضرب له مثلا لم يقصر فيه ، وذلك أنه دعا بعضَ الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام ، فسأله الملك عن أمور فاجاب بما لايحتمله فهمه ، فقال الملك : أرأيت ماتأتى به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطيق الناس حمله ؟ فقال الحكيم : إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير مايريدون من تقديمها وتأخيرها واقبالها وادبارها، ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وتزيينه وبديع نظمه ، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم ، وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطيقوا حملها ،وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكمال صفاته ، فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذى سمعت بالدواب من الناس ، ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوأة فى تلك الصفات من أن شرف الكلام أى الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها، فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا، والحكمة للصوت نفسا وروحا فكما أن أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التى فيها ،

والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم فى الحق والباطل ، وهو القاضى العدل ، والشاهد المرتضى ، يأمر وينهى ، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة ، كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ، ويستدلون به على حوائجهم فقط ، فالكلام كالملك المحجوب، الغائب وجهه، النافذ أمره، وكالشمس العزيزة الظاهرة مكنون عنصرها، وكالنجوم الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقف على سيرها ، فهو مفتاح الخزائن النفيسة ، وشراب الحياة الذى من شرب منه لم يمت ، ودواء الأسقام الذى من سقى منه لم يسقم . فهذا الذى ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام، والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة، فينبغى أن يقتصر عليه

الثانى : التعظيم للمتكلم . فالقارىء عند البداية بتلاوة القرءان ينبغى أن يحضر فى قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأن فى تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر ، فانه تعالى قال : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ[1]) وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا ، فباطن معناه أيضا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب ، ولمثل هذا التعظيم كان عِكرمة بن أبى جهل إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول: هو كلام ربى ، هو كلام ربى فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر فى صفاته وجلاله وأفعاله ، فاذا حضر بباله العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما من الجن والانس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل فى قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله ، وأنه الذى يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى وهذا غاية العظمة والتعالى ، فبالتفكر فى أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام

الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس. قيل فى تفسير (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ[2])

(١) الواقعة : ٧٩ (٢) مريم : ١٢

أي بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره ، وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرءان تحدث نفسك بشيء؟ فقال : أو شيء أحب إلى من القرءان حتى أحدث به نفسي ؟ وكان بعض السلف إذا قرأ آيه لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية . وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم ، فان المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به و يستأنس ولا يغفل عنه ، ففي القرءان ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلا له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج ، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها ، فقد قيل: إن في القرءان ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات ، فالميمات ميادين القرءان ، والراءات بساتين القرءان ، والحاءات مقاصيره ، والمسبحات عرائس القرءان ، والحاميات ديابيج القرءان ، والمفصّل رياضه ، والخانات ماسوى ذلك فاذا دخل القارى الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرياض وسكن غرف الخانات ، استغرقه ذلك ، وشغله عما سواه ، فلم يعزب قلبه ، ولم يتفرق فكره

الرابع : التدبر وهو وراء حضور القلب ، فانه قد لا يتفكر في غير القرءان ، ولكنه يقتصر على سماع القرءان من نفسه وهو لا يتدبره . والمقصود من القراءة التدبر ، ولذلك سن فيه الترتيل لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال علي رضى الله عنه : لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام ، فانه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الامام بآية أخرى كان مسيئا ، مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه ، وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس ، فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال : الوسواس يعتريني في الصلاة ، فقيل في أمر الدنيا فقال : لأن تختلف فيّ الأسنة أحب إليّ من ذاك ، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدى ربى عز وجل وانى كيف أنصرف . فعد ذلك وسواسا ، وهو كذلك ، فانه يشغله عن فهم ما هو فيه ، والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم ديني ، ولكن يمنعه به عن الأفضل . ولما ذكر ذلك للحسن قال : إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا

ويروى « أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١] قَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ فَرَدَّدَهَا عِشْرِينَ مَرَّةً » وإنما ردَّدها صلى الله عليه وسلم لتدبره فى معانيها . وعن أبى ذر قال : « قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٢] بِنَا لَيْلَةً فَقَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا وَهِيَ (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ [١]) الآية وقام تميم الدارى ليلة بهذه الآية (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ [٢]) الآية وقام سعيد ابن جبير ليلة يردد هذه الآية (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ [٣]) وقال بعضهم : إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبى فيها لا أعدّ لها ثوابا . وحكى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال : إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أنى أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها . وعن بعض السلف أنه بقى فى سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها . وقال بعض العارفين : لى فى كل جمعة ختمة ، وفى كل شهر ختمة ، وفى كل سنة ختمة ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد ، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه . وكان هذا أيضا يقول : أقمت نفسى مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة

الخامس : التفهم ، وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرءان يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام ، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [٤]) وكقوله تعالى : (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ [٥]) فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها ، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين ، وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله [٣] « مَا أَسَرَّ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا كَتَمَهُ عَنِ النَّاسِ إِلَّا أَنْ يُؤْتِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدًا فَهْمًا فِي كِتَابِهِ » فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم

---

(١) حديث انه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة: رواه أبوذر الهروى فى معجمه من حديث أبى هريرة بسند صعيف

(٢) حديث أبى ذر قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ليلة بآية يرددها وهى إن تعذبهم فانهم عبادك: ن ه بسند صحيح

(٣) حديث على ما أسر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن الناس الا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه

---

(١) المائدة : ١١٨ (٢) الجاثية : ٢١ (٣) يس : ٥٩ (٤) الشورى : ١١ (٥) الحشر : ٣٢

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرءان، وأعظم علوم القرءان تحت أسماء الله عز وجل وصفاته ، إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها . فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل وجلاله ، إذا لفعل يدل على الفاعل ، فتدل عظمته على عظمته ، فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه في كل شيء ، إذ كل شيء فهو منه واليه وبه وله ، فهو الكل على التحقيق ، ومن لايراه في كل مايراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ماخلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لأنه سيبطل في ثاني الحال ، بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو ، إلا أن يعتبر وجوده من حيث انه موجود بالله عز وجل وبقدرته ، فيكون له بطريق التبعية ثبات ، وبطريق الاستقلال بطلان محض . وهذا مبدأ من مبادىء علم المكاشفة . ولهذا ينبغي اذا قرأ التالي قوله عز وجل : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (١)) (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٢)) (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٣)) (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٤)) فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني ، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر في كيفية انقسامها الى اللحم والعظم والعروق والعصب ، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ، ثم الى ماظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ، ثم الى ماظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة ، كما قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٥)) فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب ، فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع

ن من رواية أبي جحيفة قال سألنا عليا فقلنا هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرءان فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة الا أن يعطي الله عبدا فهما في كتابه ـ الحديث : وهو عند البخاري بلفظ هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس في القرءان وفي رواية وقال مرة ماليس عند الناس ولأبي داود والنسائي فقلنا هل عهد اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ لم يعهده الى الناس قال لا الا ما في كتابي هذا ـ الحديث : ولم يذكر الفهم في القرءان

(١) الواقعة : ٦٣ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧١ (٢) يس : ٧٧

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام: فاذا سمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئا، واذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق

وأما أحوال المكذبين: كعاد وثمود وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية، وكذلك اذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرءان، فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا [1]) ولذلك قال علي رضي الله عنه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب. فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم ما في القرءان ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [2]) والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم، وقد قيل: لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرءان كل ما يريد، ويعرف منه النقصان من المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد

السادس: التخلي عن موانع الفهم، فان أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرءان لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرءان قال صلى الله عليه وسلم (1) «لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى الْمَلَكُوتِ» معاني القرءان من جملة الملكوت، وكل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت

وحجب الفهم أربعة:

أولها: أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف

(١) حديث لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى الملكوت: تقدم في الصلاة

[1] الكهف: ١٠٩ [2] محمد: ١٦

فأنى تنكشف له المعانى ؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعا لمثل هذا التلبيس

ثانيها: أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة ، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفا على مسموعه فان لمع برق على بعد وبداله معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك؟فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله ، ولمثل هذا قالت الصوفية إن العلم حجاب ، وأرادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد، أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم، فأما العلم الحقيقى الذى هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجابا وهو منتهى المطلب ؟وهذا التقليد قد يكون باطلا فيكون مانعا: كمن يعتقد فى الاستواء على العرش التمكنَ والاستقرار ، فان خطر له مثلا فى القُدُّوس أنه المقدس عن كل مايجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك فى نفسه ،ولو استقر فى نفسه لانجرّ إلى كشف ثان وثالث ، ولتواصل ، ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل ، وقد يكون حقا ويكون أيضا مانعا من الفهم والكشف لأن الحق الذى كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات ، وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن كما ذكرناه فى الفرق بين العلم الظاهر والباطن فى كتاب قواعد العقائد

ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر ، مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع فان ذلك سبب ظلمة القلب وصداه وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب ، وبه حجب الأكثرون . وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معانى الكلام أشد احتجابا ، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه ، فالقلب مثل المرآة ، والشهوات مثل الصدأ ، ومعانى القرآن مثل الصور التى تتراءى فى المرآة ، والرياضة للقلب باماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا عَظَّمَتْ أُمَّتِي الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ ، وَإِذَا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) حديث اذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الاسلام واذا تركوا الامر بالمعروف حرموا بركة الوحى: رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب الامر بالمعروف معضلا من حديث الفضل بن عياض قال ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم

وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ حُرِمُوا بَرَكَةَ الْوَحْيِ » قال الفضيل : يعني حرموا فهم القرءان . وقد شرط الله عز وجل الانابة في الفهم والتذكير فقال تعالى (تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ [١]) وقال عز وجل (وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ [٢]) وقال تعالى (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ [٣]) فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، ولذلك لاتنكشف له أسرار الكتاب

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أنه لامعنى لكلمات القرءان إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي ، وأن من فسر القرءان برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضا من الحجب العظيمة . وسنبين معنى التفسير بالرأي في الباب الرابع وأن ذلك لا ينافض قول علي رضي الله عنه : إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن ، وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه

السابع : التخصيص ، وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرءان ، فان سمع أمراً أو نهيا قدّر أنه المنهي والمأمور ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك ، وإن سمع قصص الأوّلين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود ، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج اليه ، فما من قصة في القرءان إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ولذلك قال تعالى (مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ [٤]) فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء ، وصبرهم على الايذاء ، وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى ، وكيف لا يقدر هذا والقرءان ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة ، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ، ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ [٥]) وقال عز وجل (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [٦]) (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [٧]) (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ [٨]) (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [٩]) (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [١٠]) (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [١١]) وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارىء

---

(١) ق : ٨ (٢) غافر : ١٣ (٣) الرعد : ١٩ (٤) هود : ١٢٠ (٥) البقرة : ٢٣١ (٦) الانبياء : ١٠
(٧) النحل : ٤٤ (٨) محمد : ٣ (٩) الزمر : ٥٥ (١٠) الجاثية : ٢٠ (١١) آل عمران : ١٣٨

الواحدمقصود، فما له ولسائر الناس؟ فليقدرأنه المقصود قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ[1]) قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرءان فكأنما كلمه الله. وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرءان عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه، ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرءان رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات. وكان مالك بن دينار يقول: ما زرع القرءان في قلوبكم يا أهل القرءان؟ إن القرءان ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض. وقال قتادة: لم يجالس أحد هذا القرءان إلا قام بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: (هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا[2])

الثامن: التأثر، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فان التضييق غالب على آيات القرءان، فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها، كقوله عز وجل (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ[3]) ثم أتبع ذلك بأربعة شروط (لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) وقوله تعالى (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ[4]) ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر ذكر شرطا جامعا فقال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[5]) فالاحسان يجمع الكل. وهكذا من يتصفح القرءان من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك. فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن، ولذلك قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرءان يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله، وقلت راحته وبطالته

وقال وهيب بن الورد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئا أرق للقلوب ولا أشد استجلابا للحزن من قراءة القرءان وتفهمه وتدبره، فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته

---

(١) الانعام: ١٩ (٢) الاسراء: ٨٢ (٣) طه: ٨٢ (٤) العصر (٥) الاعراف: ٥٦

وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذكرهم لله عز وجل ولدا وصاحبة يغض صوته وينكسر في باطنه حياء من قبح مقالتهم ، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها ، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها . ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] لابن مسعود : اقرأ علىّ قال فافتتحت سورة النساء فلما بلغت (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً [١]) رأيت عينيه تذرفان بالدمع ، فقال لى : حسبك الآن . وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية

ولقد كان في الخائفين من خر مغشيا عليه عند آيات الوعيد ، ومنهم من مات في سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيا في كلامه فاذا قال (إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [٢]) ولم يكن خائفا كان حاكيا ، واذا قال (عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [٣]) ولم يكن حاله التوكل والانابة كان حاكيا، واذا قال (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا [٤]) فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة فان لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى (أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [٥]) وفي قوله تعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [٦]) وفي قوله عز وجل (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ [٧]) وفي قوله (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [٨]) وفي قوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٩]) الى غير ذلك من الآيات ، وكان داخلا في معنى قوله عز وجل : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ [١٠]) يعنى التلاوة المجردة ، وقوله عز وجل : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [١١]) لأن القرءان هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض . ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضا عنها . ولذلك قيل : إن من لم يكن متصفا بأخلاق القرءان فاذا قرأ القرءان ناداه الله تعالى: مالك ولكلامى وأنت معرض عنى ! دع عنك كلامى إن لم تتب إلىّ

---

(١) حديث انه قال لابن مسعود اقرأ على : الحديث تقدم في الباب قبله

---

(١) النساء : ٤١ (٢) الانعام : ١٥ (٣) الممتحنة : ٤ (٤) ابراهيم : ١٢ (٥) هود : ١٨ (٦) الصف : ٣
(٧) الانبياء : ١ (٨) النجم : ٢٩ (٩) الحجرات : ١١ (١٠) البقرة : ٧٨ (١١) يوسف : ١٠٥

ومثال العاصي اذا قرأ القرءان وكرره مثال من يكرر كتاب الملك فى كل يوم مرات وقد كتب اليه فى عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه ، فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت . ولذلك قال يوسف ابن أسباط : إنى لأهم بقراءة القرءان فاذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار . والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل (فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ [1]) ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [1] « اقْرَأُوا الْقُرْءانَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ وَلاَنَتْ لَهُ جُلُودُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَلَسْتُمْ تَقْرَءُونَهُ » وفى بعضها (فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ) قال الله تعالى : (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [2]) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْءانِ الَّذِي إِذَا سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « لاَ يَسْمَعُ الْقُرْءانُ مِنْ أَحَدٍ أَشْهَى مِنْهُ مِمَّنْ يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ »

فالقرءان يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به ، وإلا فالمؤنة فى تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض القراء : قرأت القرءان على شيخ لى ثم رجعت لاقرأ ثانياً فانتهرنى وقال : جعلت القرءان علىَّ عملا ، اذهب فاقرأ على الله عز وجل فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك . وبهذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم فى الأحوال والأعمال ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] عَنْ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الصَّحَابَةِ لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْءانَ مِنْهُمْ إِلاَّ سِتَّةٌ

(١) حديث اقرؤا القرءان ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فاذا اختلفتم فلستم تقرؤنه وفى بعضها فاذا اختلفتم فقوموا عنه: متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلى فى اللفظ الثانى دون قوله ولانت جلودكم

(٢) حديث ان أحسن الناس صوتا بالقرءان الذى اذا سمعته يقرأ رأيت انه يخشى الله تعالى: ه بسند ضعيف

(٣) حديث لا يسمع القرءان من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى : رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الغافقى فى كتاب فضائل القرءان

(٤) حديث مات رسول الله عليه وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرءان منهم الا ستة اختلف منهم فى اثنين وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذى يحفظ البقرة والانعام من علمائهم قلت قوله مات عن عشرين ألفا لعله أراد بالمدينة والا فقد روينا عن أبى زرعة الرازى انه قال قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى .

(١) آل عمران : ١٨٧ (٢) الأنفال : ٢

اختلف فى اثنين منهم . وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين . وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم [١] ولما جاء واحد ليتعلم القرءان فانتهى إلى قوله عز وجل (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ [١]) قال يكفى هذا وانصرف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه . وإنما العزيز مثل تلك الحالة التى منّ الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية ، فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى ، بل التالى باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [٢]) وبقوله عز وجل (كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى [٣]) أى تركتها ولم تنظر اليها ولم تعبأ بها ، فان المقصر فى الأمر يقال إنه نسى الأمر

وتلاوة القرءان حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار . فاللسان يرتل ، والعقل يترجم ، والقلب يتعظ

وأما من حفظ القرءان فى عهده وفى الصحيحين من حديث أنس قال جمع القرءان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الانصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد وأبو زيد قلت ومن أبو زيد قال أحد عمومتى وزاد ابن أبى شيبة كالمصنف من رواية الشعبى مرسلا وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وفى الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو استقرءوا القرءان من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وروى ابن الأنباري بسنده الى عمر قال كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الامة من يحفظ من القرءان السورة ونحوها ــ الحديث : وسنده ضعيف وللترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم دو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل ما معه من القرءان فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال ما معك يافلان قال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال اذهب فأنت أميرهم ــ الحديث :

(١) حديث الرجل الذى جاء ليتعلم فانتهى الي قوله تعالى ــ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ــ فقال يكفينى هذا وانصرف فقال النبى صلى الله عليه وسلم انصرف الرجل وهو فقيه: د ن فى الكبرى وحب ك وصححه من حديث عبدالله بن عمر وقال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اقرئنى يارسول الله ــ الحديث : وفيه فأقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذازلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها أبدا ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلح الرويجل أفلح الرويجل ولأحمدون فى الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال حسبي لاأبالى أن لاأسمع غيرها

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ (٢)، (٣) طه : ١٢٤ ، ١٢٦

التاسع الترقى : وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه فدرجات القراءة ثلاث .

أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل ، واقفا بين يديه ، وهو ناظر اليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤالَ والتملقَ والتضرعَ والابتهالَ

الثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ، ويناجيه بانعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والاصغاء والفهم

الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم ، وفى الكلمات الصفات ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث إنه منعَم عليه بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره ، وهذه درجة المقربين وماقبله درجة أصحاب اليمين ، وماخرج عن هذا فهو درجات الغافلين . وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال: والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكنهم لا يبصرون ! وقال أيضاً . وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه فلماسرى عنه قيل له فى ذلك فقال : مازلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته . ففى مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة . ولذلك قال بعض الحكماء : كنت أقرأ القرءان فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو على أصحابه ، ثم رفعت الى مقام فوقه فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به ، فعندها وجدت له لذة ونعيما لاأصبر عنه وقال عثمان وحذيفة رضى الله عنهما : لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرءان . وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى الى مشاهدة المتكلم فى الكلام . ولذلك قال ثابت البنانى : كابدت القرءان عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة . وبمشاهدة المتكلم دون ماسواه يكون العبد ممتثلا لقوله عز وجل : (فَفِرُّوا إِلَى اللهِ [1]) ولقوله تعالى : (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ [2]) فمن لم يره فى كل شيء فقد رأى غيره ، وكل ماالتفت اليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته

(١) (٢) الذاريات : ٥٠ ، ٥١

شيئا من الشرك الخفى ، بل التوحيد الخالص أن لا يرى فى كل شىء إلا الله عز وجل

العاشر : التبرى ، وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية ، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك ، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ، ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم . وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا . ولذلك كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : اللهم إنى أستغفرك لظلمى وكفرى . فقيل له هذا الظلم فما بال الكفر ؟ فتلا قوله عز وجل : (إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[1])

وقيل ليوسف بن أسباط : إذا قرأت القرءان بماذا تدعو ؟ فقال : بماذا أدعو ؟ أستغفر الله عز وجل من تقصيرى سبعين مرة فاذا رأى نفسه بصورة التقصير فى القراءة كان رؤيته سبب قربه ، فان من شهد العبد فى القرب لطف به فى الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى فى القرب وراءها ، ومن شهد القرب فى البعد مكر به بالأمن الذى يفضيه إلى درجة أخرى فى البعد أسفل مما هو فيه ، ومهما كان مشاهدا نفسه بعين الرضا صار محجوبا بنفسه ، فاذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى فى قراءته كشف له سر الملكوت . قال أبو سليمان الدارنى رضى الله عنه : وعد ابن ثوابان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر ، فلقيه أخوه من الغد فقال له : وعدتنى أنك تفطر عندى فأخلفت فقال : لو لا ميعادى معك ما أخبرتك بالذى حبسنى عنك : إنى لما صليت العتمة قلت أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن ما يحدث من الموت ، فلما كنت فى الدعاء من الوتر رفعت إلىّ روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فمازلت أنظر اليها حتى أصبحت

وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم الالتفات إليها والى هواها ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف: فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا ، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى انواع عذابها، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف

(١) إبراهيم : ٣٤

والشديد العسوف والمرجو والمخوف ، وذلك بحسب أوصافه ، إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القلب في اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها اذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لايبالي وكلام حنان متعطف لا يهمل .

الباب الرابع

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

لعلك تقول : عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرءان وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه ، فكيف يستحب ذلك . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْءانَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرءان على خلاف مانقل عن ابن عباس وسائر المفسرين ، وذهبوا إلى أنه كفر ، فان صح ماقاله أهل التفسير فما معنى فهم القرءان سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْءانَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »

فاعلم أن من زعم أن لامعنى للقرءان إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه ، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه [2] بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرءان متسعا لأرباب الفهم ، قال علي رضي الله عنه إلا أن يؤتي الله عبدا فهماً في القرءان . فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ لِلْقُرْءانِ ظَهْراً وَبَطْناً وَحَدّاً وَمَطْلَعاً » ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير ، فما معنى الظهر

﴿ الباب الرابع في فهم القرءان وتفسيره بالرأي من غير نقل ﴾

(١) حديث من فسر القرءان برأيه فليتبوأ مقعده من النار تقدم في الباب الثالث من العلم

(٢) حديث الاخبار والآثار الدالة على أن في معاني القرءان متسعا لأرباب الفهم تقدم في قول علي في الباب قبله الا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه

(٣) حديث ان للقرءان ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا تقدم في قواعد العقائد

والبطن والحد والمطلع ؟ وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب ؛ فما معناه وتفسير ظاهرها فى غاية الاختصار ؟ وقال أبو الدرداء : لايفقه الرجل حتى يجعل للقرءان وجوها . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم ومابقى من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرءان يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، اذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف ، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع . وترديدُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم [(١)] بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ عشرين مرة لايكون إلا لتدبره باطن معانيها ، وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لايحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرءان . وذلك لايحصل بمجرد تفسيره الظاهر

وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته وفى القرءان شرح ذاته وأفعاله وصفاته . وهذه العلوم لانهاية لها ، وفى القرءان إشارة الى مجامعها والمقامات فى التعمق فى تفصيله راجع إلى فهم القرءان . ومجرد ظاهر التفسير لايشير إلى ذلك ، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ففى القرءان إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها ، فكيف يفى بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ؟ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « اقْرَءُوا الْقُرْءانَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)]: فى حديث عَلِيّ كرم الله وجهه « وَالَّذِى بَعَثَنِى بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِى عَنْ أَصْلِ دِينِهَا وَجَمَاعَتِهَا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا ضَالَّةٌ مُضِلَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ فِيهِ نَبَأَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَنَبَأَ مَا يَأْتِى بَعْدَكُمْ وَحُكْمَ مَا بَيْنَكُمْ مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ قَصَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنِ ابْتَغَى الْعِلْمَ فِى غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ

---

(١) حديث تكرير النبي صلى الله عليه وسلم البسملة عشرين مرة تقدم فى الباب قبله

(٢) حديث اقرءوا القرءان والتمسوا غرائبه ابن أبى شيبة فى المصنف وأبو يعلى الموصلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بلفظ اعربوا وسنده ضعيف

(٣) حديث على والذى بعثنى بالحق لتفترقن أمتي على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون الى النار فاذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فان فيه نبأ من كان قبلكم ـ الحديث : بطوله هو عندت دون ذكر افتراق الامة بلفظ ألا انها ستكون فتنة مضلة فقلت ماالمخرج منها يارسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم فذكره مع اختلاف وقال غريب وأسناده مجهول

الْمَتِينُ وَنُورُهُ الْمُبِينُ وَشِفَاؤُهُ النَّافِعُ ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ ، لَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ وَلَا يَزِيغُ فَيَسْتَقِيمُ ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَلَا يَخْلَقُهُ كَثْرَةُ التَّرْدِيدِ » الحديث . وفى حديث حُذَيفة لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] بالاختلاف والفرقة بعده قال : فقلت يارسول الله فماذا تأمرنى إن أدركت ذلك ؟ فقال: تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ فَهُوَ الْمَخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ. قال : فأعدت عليه ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا : تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ فَفِيهِ النَّجَاةُ وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرءان فسربه جمل العلم ، أشار به إلى أن القرءان يشير إلى مجامع العلوم كلها : وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً [١]) يعنى الفهم فى القرءان ؛ وقال عز وجل : (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً [٢]) سمى ما آتاهما علما وحكما ، وخصص ماانفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم ، وجعله مقدما على الحكم والعلم . فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرءان مجالا رحبا ومتسعا بالغا ، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك فيه

فأما قوله صلى الله عليه وسلم [٢] مَنْ فَسَّرَ الْقُرْءَانَ بِرَأْيِهِ ، ونهيه عنه صلى الله عليه وسلم ، وقول أبى بكر رضى الله عنه أىّ أرض تقلّنى وأىّ سماء تظلنى اذا قلت فى القرءان برأيى إلى غير ذلك مما ورد فى الأخبار والآثار فى النهى عن تفسير القرءان بالرأى فلا يخلو: إما أن يكون المرادبه الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم ، أو المراد به أمرا آخر. وباطل قطعا أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرءان إلا بما يسمعه لوجوه

أحدها : أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسندا اليه ، وذلك مما لايصادف إلا فى بعض القرءان فأما مايقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغى أن لا يقبل ، ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم

---

(١) حديث حذيفة فى الاختلاف والفرقة بعده فقلت ما تأمرنى ان أدركت ذلك قال تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ـ الحديث د ن فى الكبرى وفيه تعلم كتاب الله وتبع ما فيه ثلاث مرات

(٢) حديث النهى عن تفسير القرءان بالرأى غريب

(١) البقرة ٢٦٩ : (٢) الانبياء : ٧٩

والثانى : أن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات. فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال، ولو كان الواحد مسموعا لرُدَّ الباقى فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه، حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل إن (الر) هى حروف من الرحمن وقيل : إن الألف الله، واللام لطيف، والراء رحيم . وقيل غير ذلك، والجمع بين الكل غير ممكن، فكيف يكون الكل مسموعا

والثالث : أنه صلى الله عليه وسلم[1] دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال: « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّين وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » فان كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك

والرابع : أنه قال عز وجل (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ[(1)]) فأثبت لأهل العلم استنباطا ومعلوم أنه وراء السماع ، وجملة ما نقلناه من الآثار فى فهم القرءان يناقض هذا الخيال، فبطل أن يشترط السماع فى التأويل وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرءان بقدر فهمه وحد عقله

وأما النهى فانه ينزل على أحد وجهين .

أحدهما : أن يكون له فى الشىء رأى ، واليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرءان على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرءان ذلك المعنى، وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرءان على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أنه ليس المراد بالآيه ذلك ولكن يلبس به على خصمه ، وتارة يكون مع الجهل ، ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر برأيه ، أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه ، وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرءان ، ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم[2] « تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِى السُّحُورِ بَرَكَةً » ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر، وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى

---

(١) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل تقدم فى الباب الثانى من العلم
(٢) حديث تسحروا فان فى السحور بركة تقدم فى الباب الثالث من العلم

(1) النساء : ٨٣

يقول: قال الله عز وجل: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى[١]) ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون: وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرءان على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأي، ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأي يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى

والوجه الثانى: أن يتسارع إلى تفسير القرءان بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرءان، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى. فالنقل والسماع لابد منه فى ظاهر التفسير أولا، ليتقى به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط

والغرائب التى لاتفهم إلا بالسماع كثيرة، ونحن نرمز إلى جمل منها، ليستدل بها على أمثالها، ويعلم أنه لايجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا، ولامطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ومن ادعى فهم أسرار القرءان ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لايفهم لغة الترك، فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لابد منها للفهم

ومالابد فيه من السماع فنون كثيرة: منها الايجاز بالحذف والاضمار كقوله تعالى: (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا[٢]) معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، ولم يدر أنهم بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم. وقوله تعالى: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ[٣]) أى حب العجل، فحذف الحب. وقوله عز وجل: (إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ[٤]) أى ضعف عذاب الأحياء، وضعف عذاب الموتى، فحذف العذاب وأبدل الأحياء والموتى

---

[١] طه: ٢٤ [٢] الاسراء: ٥٩ [٣] البقرة: ٩٣ [٤] الاسراء: ٧٥

بذكر الحياة والموت ، وكل ذلك جائز فى فصيح اللغة . وقوله تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا [١]) أى أهل القرية وأهل العير ، فالأهل فيهما محذوف مضمر . وقوله عز وجل (ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ [٢]) معناه خفيت على أهل السموات والأرض ، والشىء إذا خفى ثقل ، فأبدل اللفظ به وأقيم فى مقام على ، وأضمر الأهل وحذف . وقوله تعالى: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ [٣]) أى شكر رزقكم. وقوله عز وجل : (آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ [٤]) أى على ألسنة رسلك فحذف الألسنة. وقوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [٥]) أراد القرآن وماسبق له ذكر. وقال عز وجل: (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ [٦]) أراد الشمس وما سبق لها ذكر . وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [٧]) أى يقولون مانعبدهم . وقوله عز وجل (فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا. مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ [٨]) معناه لا يفقهون حديثا ، يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله ، فان لم يرد هذا كان مناقضا لقوله (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ [٩]) وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية ومنها المنقول المنقلب : كقوله تعالى (وَطُورِ سِينِينَ [١٠]) أى طور سيناء (سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ [١١]) أى على الياس ، وقيل ادريس لان فى حرف ابن مسعود سلام على ادراسين

ومنها المكرر القاطع لوصل الكلام فى الظاهر : كقوله عز وجل: (وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ [١٢]) معناه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن . وقوله عز وجل : (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ [١٣]) معناه الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا

ومنها المقدم والمؤخر: وهو مظنة الغلط . كقوله عز وجل: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى [١٤]) معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولاه لكان نصبا كاللزام. وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا [١٥]) أى يسئلونك عنها كأنك حفى بها . وقوله عز وجل: (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ [١٦])

(١) يوسف : ٨٢ (٢، ١٥) الاعراف: ١٨٧ (٣) الواقعة: ٨٢ (٤) آل عمران : ١٩٤ (٥) القدر: ١ (٦) ص : ٣٢
(٧) الزمر: ٣ (٨، ٩) النساء: ٧٩ ، ٧٨ (١٠) التين : ٢ (١١) الصافات : ١٣٠ (١٢) يونس: ٦٦ (١٣) الاعراف: ٧٥
(١٤) طه : ١٢٩ (١٦) الأنفال : ٤ ، ٥

فهذا الكلام غير متصل وانما هو عائد إلى قوله السابق قل الانفال لله والرسول. كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، أى فصارت أنفال الغنائم لك، إذا أنت راض بخروجك وهم كارهون، فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره، ومن هذا النوع قوله عزوجل: (حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ [1]) الآية

ومنها المبهم: وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف، أما الكلمة فكالشيء والقرين، والأمة، والروح، ونظائرها. قال الله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ [2]) أراد به النفقة مما رزق. وقوله عز وجل: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ [3]) أى الأمر بالعدل والاستقامة. وقوله عز وجل: (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ [4]) أراد به من صفات الربوبية وهى العلوم التى لا يحل السؤال عنها حتى يبتدئ بها العارف فى أوان الاستحقاق. وقوله عز وجل: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ [5]) أى من غير خالق، فربما يتوهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء

وأما القرين. فكقوله عزوجل: (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ. أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ [6]) أراد به الملك الموكل به، وقوله تعالى: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ [7]) أراد به الشيطان

وأما الأمة: فتطلق على ثمانية أوجه، الامة الجماعة. كقوله تعالى: (وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ [8]) وأتباع الأنبياء، كقولك نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ورجل جامع للخير يقتدى به. كقوله تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ [9]) والأمة الدين. كقوله عز وجل: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ [10]) والأمة الحين والزمان. كقوله عز وجل (إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ [11]) وقوله عز وجل: (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ [12]) والأمة القامة، يقال فلان حسن الأمة أى القامة، وأمة رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد. قال صلى الله عليه وسلم [1] « يُبْعَثُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنُ نُفَيْلٍ أُمَّةً وَحْدَهُ » والأمة الأم. يقال هذه امة زيد أى أم زيد

والروح أيضا ورد فى القرءان على معان كثيرة فلا نطول بايرادها

---

(١) حديث يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده ن فى الكبرى من حديث زيد بن حارثة و أسماء بنت أبى بكر باسنادين جيدين

(١) الممتحنة : ٤ (٢، ٣) النحل : ٧٥، ٧٦ (٤) الكهف : ٧٠ (٥) الطور : ٣٥ (٦) ق : ٢٣ (٧) ق : ٢٧
(٨) القصص : ٢٣ (٩) النحل : ١٢٠ (١٠) الزخرف : ٢٢ (١١) هود : ٨ (١٢) يوسف : ٤٥

وكذلك قد يقع الابهام فى الحروف مثل قوله عز وجل: (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً[١]) فالهاء الأولى كناية عن الحوافر وهى الموريات ، أى أثرن بالحوافر نقعا . والثانية كناية عن الاغارة ، وهى المغيرات صبحا فوسطن به جمعا ، جمع المشركين فأغاروا بجمعهم . وقوله تعالى (فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ[٢]) يعنى السحاب (فأخرجنا به من كل الثمرات[٣]) يعنى الماء وأمثال هذا فى القرءان لا ينحصر

ومنها التدريج فى البيان . كقوله عز وجل: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ[٤]) إذ لم يظهر به انه ليل أو نهار . وبان بقوله عز وجل : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ[٥]) ولم يظهر به أى ليلة فظهر بقوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ[٦]) وربما يظن فى الظاهر الاختلاف بين هـذه الآيات ؛ فهذا وأمثاله مما لا يغنى فيه إلا النقل والسماع ، فالقرءان من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس ، لأنه أنزل بلغة العرب ، فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحـذف وإبدال وتقديم وتأخير ليكون ذلك مفحما لهم ومعجزا فى حقهم ، فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية ، وبادر إلى تفسير القرءان ولم يستظهر بالسماع والنقل فى هـذه الأمور ، فهو داخل فيمن فسر القرءان برأيه ، مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه ، فيميل طبعه ورأيه إليه ، فإذا سمعه فى موضع آخر مال برأيه إلى ماسمعه من مشهور معناه وترك تتبع النقل فى كثير معانيه ، فهذا مايمكن أن يكون منهيا عنه دون التفهم لأسرار المعانى كما سبق . فاذا حصـل السماع بامثال هذه الامور علم ظاهر التفسير. وهو ترجمة الألفاظ ، ولا يكفى ذلك فى فهم حقائق المعانى ، ويدرك الفرق بين حقائق المعانى وظاهر التفسير بمثال ، وهو أن الله عز وجل : قال (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ[٧]) فظاهر تفسيره واضح ، وحقيقة معناه غامض ، فانه اثبات للرمى ، ونفى له ، وهما متضادان فى الظاهر ، مالم يفهم انه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذى لم يرم رماه الله عز وجل ، وكذلك قال تعالى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ[٨]) فاذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب ، وان كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم ؛ فما معنى أمرهم بالقتال ؟ فحقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات

---

(١) العاديات : ٤ ، ٥ (٢ ، ٣) الاعراف : ٥٧ (٤) البقرة : ١٨٥ (٥) الدخان : ٣ (٦) القدر : ١
(٧) الانفال : ١٧ (٨) التوبة : ١٤

لا يغنى عنه ظاهر التفسير ، وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة ، ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف بعد ايضاح أمور كثيرة غامضة صدقُ قوله عز وجل : (وَمَا رَمَيْتَ إِذ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى [1]) ولعل العمر لو أنفق فى استكشاف أسرار هذا المعنى ، وما يرتبط بمقدماته ولواحقه ، لانقضى العمر قبل استيفاء جميع لواحقه ، وما من كلمة من القرءان إلا وتحقيقها مُحوِج إلى مثل ذلك ، وإنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم ، وصفاء قلوبهم ، وتوفر دواعيهم على التدبر ، وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى إلى درجة أعلى منه ، فاما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولوكان البحر مدادا والاشجار أقلاما ، فاسرار كلمات الله لانهاية لها ، فتنفد الابحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل ، فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق فى الفهم بعد الاشتراك فى معرفة ظاهر التفسير ، وظاهر التفسير لايغنى عنه ، ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله صلى الله عليه وسلم [1] فى سجوده « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » أنه قيل له اسجد واقترب ، فوجد القرب فى السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض ، فان الرضا والسخط وصفان ، ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات ، فقال « أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله « لَا أُحْصِى ثَنَاءَ عَلَيْكَ » ثم علم أن ذلك قصور فقال « أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب ، ثم لها أغوار وراء هذا ، وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ، ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به ، وأسرار ذلك كثيرة ولا يدل تفسير ظاهر اللفظ عليه ، وليس هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ، ووصول إلى لبابه عن ظاهره ، فهذا ما نورده لفهم المعانى الباطنة لاما يناقض الظاهر والله أعلم.

تم كتاب آداب التلاوة ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد خاتم النبيين ، وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين ، وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأذكار والدعوات، والله المستعان لارب سواه

---

(١) حديث قوله صلى الله عليه وسلم فى سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك الحديث : مسلم من حديث عائشة

(١) الانفال : ١٧

كتاب الأذكار والدعوات

كتاب الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رأفته ، العامة رحمته ، الذى جازى عباده عن ذكرهم بذكره فقال تعالى : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [١]) ورغبهم فى السؤال والدعاء بامره فقال (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [٢]) فأطمع المطيع والعاصى والدانى والقاصى فى الانبساط إلى حضرة جلاله ، برفع الحاجات والأمانى ، بقوله (فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [٣]) والصلاة على محمد سيد أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه خيرة أصفيائه ، وسلم تسليما كثيراً

أما بعد : فليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ، ورفع الحاجات بالادعية الخالصة إلى الله تعالى ، فلابد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل فى أعيان الاذكار ، وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ، ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها ، ويتحرر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة

الباب الأول : فى فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا

الباب الثانى : فى فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

الباب الثالث : فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها

الباب الرابع : فى أدعية منتخبة محذوفة الاسناد من الادعية المأثوره

الباب الخامس : فى الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث

الباب الأول

فى فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات قوله سبحانه وتعالى : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [٤]) قال ثابت البنانى رحمه الله . انى أعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ففزعوا منه وقالوا كيف تعلم ذلك ؟ فقال إذا ذكرته ذكرنى ، وقال تعالى : (اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا [٥]) وقال تعالى (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ [٦])

(١ و ٤) البقرة : ١٥٢ (٢) غافر : ٦٠ (٣) البقرة : ١٨٦ (٥) الأحزاب : ٤١ (٦) البقرة : ١٩٨

وقال عزوجل : (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً [١]) وقال تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ [٢]) وقال تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ [٣]) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى بالليل والنهار فى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ، والسر والعلانية ، وقال تعالى فى ذم المنافقين (وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً [٤]) وقال عز وجل : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ . [٥]) وقال تعالى : (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ [٦]) قال ابن عباس رضى الله عنهما له وجهان ، أحدهما . أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر . أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه ، إلى غير ذلك من الآيات

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ كَالشَّجَرَةِ الْخَضْرَاءِ فِي وَسَطِ الْهَشِيمِ [١] » وقال صلى الله عليه وسلم : « ذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ كَالْمُقَاتِلِ بَيْنَ الْفَارِّينَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] يقول الله عز وجل : « أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ شَفَتَاهُ بِي » وقال صلى الله عليه وسلم : [٣] « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلٍ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » قالوا يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال : « وَلاَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّى يَنْقَطِعَ ثُمَّ تَضْرِبَ بِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ ثُمَّ تَضْرِبَ بِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ » وقال صلى الله عليه وسلم : [٤] « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَلْيُكْثِرْ

---

(١) حديث ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم :أ بو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال فى وسط الشجر ـ الحديث

(٢) حديث يقول الله تعالى أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه:ه حب من حديث أبى هريرة وك من حديث أبى الدرداء وقال صحيح الأسناد

(٣) حديث ماعمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله قال ولا الجهاد فى سبيل الله الا أن تضرب بسفك حتى ينقطع ثلاث مرات: ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ باسناد حسن

(٤) حديث من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى: ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس وهو عند ت بلفظ إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا: وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم

---

(١) البقرة : ٢٠٠ (٢) آل عمران : ١٩١ (٣) النساء : ١٠٣ ، (٤) النساء : ١٤٢ (٥) الاعراف : ٢٠٥
(٦) العنكبوت : ٤٥

ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] أي الأعمال أفضل؟ فقال: «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» وقال صلى الله عليه وسلم: [2] «أَصْبِحْ وَأَمْسِ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ بِذِكْرِ اللهِ تُصْبِحُ وَتُمْسِي وَلَيْسَ عَلَيْكَ خَطِيئَةٌ» وقال صلى الله عليه وسلم: [3] « لَذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ أَفْضَلُ مِنْ حَطْمِ السُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمِنْ إِعْطَاءِ الْمَالِ سَحًّا » وقال صلى الله عليه وسلم[4] يقول الله تبارك وتعالى : « إِذَا ذَكَرَنِي عَبْدِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِذَا ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِذَا مَشَى إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْهِ » يعني بالهرولة سرعة الاجابة وقال صلى الله عليه وسلم[5] «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » من جملتهم « رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [6] « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الْوَرِقِ وَالذَّهَبِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُونَ أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُونَ أَعْنَاقَكُمْ » قالوا وماذاك يارسول الله؟ قال « ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دَائِمًا » وقال صلى الله عليه وسلم[7] قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ،

---

(١) حديث سئل أي الأعمال أفضل قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى: حب وطب في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ

(٢) حديث أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله نصبح وتمسى وليس عليك خطيئة: أبو القاسم الاصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسى ويصبح وليس عليه خطيئة وفيه من لا يعرف

(٣) حديث لذكر الله بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن اعطاء المال سحا: رويناه من حديث أنس بسند ضعيف في الاصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر في التمهيد

(٤) حديث قال الله عز وجل اذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٥) حديث سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله من جملتهم رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه: متفق عليه من حديث أبي هريرة أيضا

(٦) حديث ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ـ الحديث: ت ه ك وصحح اسناده من حديث أبي الدرداء

(٧) حديث قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين: خ في التاريخ والبزار في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره حب في الضعفاء وفي الثقات أيضا

وأما الآثار: فقد قال الفضيل : بلغنا أن الله عز وجل قال : عبدي، اذكرني بعد الصبح ساعة ، وبعد العصر ساعة ، أكفك ما بينهما . وقال بعض العلماء : ان الله عز وجل يقول : أيما عبد اطّلعت على قلبه ، فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري، توليت سياسته وكنت جليسه ، ومحادثه وأنيسه . وقال الحسن: الذكر ذكران ، ذكر الله عز وجل، بين نفسك و بين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره ، وأفضلُ من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرّم الله عز وجل. ويروى أن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ليس يتحسر أهل الجنة على شيء، الا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها . والله تعالى أعلم

فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَاجَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِيمَنْ عِنْدَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ قُومُوا مَغْفُوراً لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ لَكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم[3] « مَاقَعَدَ قَوْمٌ مَقْعَداً لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال داود صلى الله عليه وسلم : « إِلٰهِي إِذَا رَأَيْتَنِي أُجَاوِزُ مَجَالِسَ الذَّاكِرِينَ إِلَى مَجَالِسِ الْغَافِلِينَ فَاكْسِرْ رِجْلِي دُونَهُمْ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تُنْعِمُ بِهَا عَلَيَّ » وقال صلى الله عليه وسلم[4]: « الْمَجْلِسُ الصَّالِحُ يُكَفِّرُ عَنِ الْمُؤْمِنِ أَلْفَيْ أَلْفِ مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ السُّوءِ »

---

(١) حديث ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى الا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده : م من حديث أبي هريرة

(٢) حديث ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك الا وجهه الا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات: أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس

(٣) حديث ماقعد قوم مقعدا لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فيه الا كان عليهم حسرة يوم القيامة: ت وحسنه من حديث أبي هريرة

(٤) حديث المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألف ألف مجلس من مجالس السوء : ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرجه ولده وكذلك لم أجد له أسنادا

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التى يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم . وقال سفيان بن عيينة رحمه الله ، إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى ، اعتزل الشيطان والدنيا ، فيقول الشيطان للدنيا الا ترين مايصنعون ؟ فتقول الدنيا دعهم فانهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك .(١) وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أنه دخل السوق وقال : اراكم هاهنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد ! فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق ، فلم يروا ميراثا ، فقالوا يا أبا هريرة ما رأينا ميراثا يقسم فى المسجد ، قال فماذا رأيتم ؟ قالوا رأينا قوما يذكرون الله عز وجل ويقرؤن القرءان ، قال فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروى الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال(٢) « إنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِى الأرْضِ فَضْلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ فَإذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إلَى بُغْيَتِكُمْ . فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إلَى السَّمَاءِ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . أىَّ شَىْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِى يَصْنَعُونَهُ . فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيُسَبِّحُونَكَ . فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهَلْ رَأَوْنِى فَيَقُولُونَ لا . فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِى فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَسْبِيحاً وَتَحْمِيداً وَتَمْجِيداً . فَيَقُولُ لَهُمْ مِنْ أىِّ شَىْءٍ يَتَعَوَّذُونَ . فَيَقُولُونَ مِنَ النَّارِ . فَيَقُولُ تَعَالَى وَهَلْ رَأَوْهَا فَيَقُولُونَ لا فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا . فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ هَرَباً مِنْهَا وَأَشَدَّ نُفُوراً . فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَأَىَّ شَىْءٍ يَطْلُبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ تَعَالَى وَهَلْ رَأَوْهَا فَيَقُولُونَ لا . فَيَقُولُ تَعَالَى فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً . فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ إنِّى أُشْهِدُكُمْ . أنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَيَقُولُونَ كَانَ فِيهِمْ فُلانٌ لَمْ يُرِدْهُمْ إنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ . فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ . هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ

---

(١) حديث أبى هريرة أنه دخل السوق وقال اراكم هاهنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد فذهب الناس الى المسجد وتركوا السوق ـ الحديث : الطبرانى فى المعجم الصغير باسناد فيه جهالة أو انقطاع

(٢) حديث الاعمش عن أبى هريرة أو أبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان لله عز وجل ملائكة سياحين فى الارض فضلا عن كتاب الناس ـ الحديث : رواه من هذا الوجه والحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وحده وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم

فضيلة التهليل

قال صلى الله عليه وسلم (١) « أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَا مِنْ عَبْدٍ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ وَلَا فِي نُشُورِهِمْ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الصَّيْحَةِ يَنْفُضُونَ رُؤُسَهُمْ مِنَ التُّرَابِ وَيَقُولُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) أيضاً لأبي هريرة « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ تَعْمَلُهَا تُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِنَّهَا لَا تُوضَعُ فِي مِيزَانٍ لِأَنَّهَا لَوْ وُضِعَتْ فِي مِيزَانِ مَنْ قَالَهَا صَادِقاً وَوُضِعَتِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ كَانَ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ أَرْجَحَ مِنْ ذَلِكَ »

---

(١) حديث أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا اله الا الله ـ الحديث : تقدم فى الباب الثانى من الحج

(٢) حديث من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد على كل شيء قدير مائة مرة الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث مامن عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه الى السماء فقال أشهد أن لااله الا الله ـ الحديث د من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم فى الطهارة

(٤) حديث ليس على أهل لااله الا الله وحشة فى قبورهم ولا فى النشور ـ الحديث : أبو يعلى والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٥) حديث ياأبا هريرة ان كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة الا شهادة أن لااله الا الله فانها لاتوضع فى ميزان لانها لو وضعت فى ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لااله الا الله أرجح من ذلك قلت وصية أبى هريرة هذه موضوعة وآخر الحديث رواه المستغفري فى الدعوات ولو جعلت لااله الا الله وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعا لو أن السموات السبع وعمارهن غيرى والارضين السبع فى كفة مالت بهن لااله الا الله رواه ن فى اليوم والليلة وحب و ك وصححه

وقال صلى الله عليه وسلم[١] «لَوْ جَاءَ قَائِلُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ صَادِقًا بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذُنُوبًا لَغَفَرَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ» وقال صلى الله عليه وسلم[٢] «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ لَقِّنِ الْمَوْتَى شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ فَإِنَّهَا تَهْدِمُ الذُّنُوبَ هَدْمًا» قلت يا رسول الله هذا للموتى. فكيف للاحياء؟ قال صلى الله عليه وسلم هِيَ أَهْدَمُ وَأَهْدَمُ» وقال صلى الله عليه وسلم[٣] «مَنْ قَالَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» وقال صلى الله عليه وسلم[٤] «لَتَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ كُلُّكُمْ إِلَّا مَنْ أَبَى وَشَرَدَ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شِرَادَ الْبَعِيرِ عَنْ أَهْلِهِ» فقيل يا رسول الله من الذي يأبى ويشرد عن الله قال «مَنْ لَمْ يَقُلْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ فَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا فَإِنَّهَا كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَهِيَ كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى وَهِيَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَهِيَ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَهِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى. وَهِيَ ثَمَنُ الْجَنَّةِ» وقال الله عز وجل (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ[١])

---

(١) حديث لو جاء حامل لااله الا الله صادقا بقراب الارض ذنوبا لغفر الله له غريب بهذا اللفظ وللترمذى فى حديث لانس يقول الله ياابن آدم انك لو أتيتنى بقراب الارض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيأ لأتينك بقرابها مغفرة ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث أنس يارب ماجزاء من هلل مخلصا من قلبه قال جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب وفيه انقطاع

(٢) حديث ياأبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لااله الا الله فانها تهدم الذنوب ـ الحديث: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق ابن المقرى من حديث أبى هريرة وفيه موسى بن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى المحتضرين من حديث الحسن مرسلا

(٣) حديث من قال لااله الا الله مخلصا دخل الجنة: الطبرانى من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف

(٤) حديث لتدخلن الجنة كلكم الا من أبى وشرد على الله شرود البعير على أهله: البخاري من حديث أبى هريرة كل أمتى يدخلون الجنة الا من أبى: زاد ك وصححها وشرد على الله شرود البعير على أهله قال البخارى قالوا يارسول الله ومن يأبى قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى: ولابن عدى وأبى يعلى والطبرانى فى الدعاء من حديثه أكثروا من قول لااله الا الله قبل أن يحال بينكم وبينها وفيه ابن وردان أيضا ولابى الشيخ فى الثواب من حديث الحكم بن عمير الثمالى مرسلا اذا قلت لااله الا الله وهى كلمة التوحيد ـ الحديث والحكم ضعيف ولأبى بكر ابن الضحاك فى الشمائل من حديث ابن مسعود فى إجابة المؤذن اللهم رب هذه الدعوة المجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الاخلاص ولابن عدى من حديث ابن عمر فى اجابة المؤذن دعوة الحق وللطبرانى فى الدعاء عن عبد الله بن عمر وكلمة الاخلاص لااله الا الله ـ الحديث: وللطبراني من حديث سلمة بن الاكوع وألزمهم كلمة التقوى قال لااله الا الله وللطبرانى فى الدعاء عن ابن عباس كلمة طيبة قال شهادة أن لااله الا الله وله عنه فى قوله دعوة الحق قال شهادة أن لااله الا الله وله عنه فقد استمسك بالعروة الوثقى قال لااله الا الله ولابن عدى والمستغفرى من حديث أنس ثمن الجنة لااله الا الله ولا يصح شىء منها

---

(١) الرحمن: ٦٠

فقيل الاحسان في الدنيا، قول لا إله إلا الله، وفي الآخرة الجنة . وكذا قوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ[1]) وروى البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال[1] «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَتْ لَهُ عِدْلَ رَقَبَةٍ أَوْ قَالَ نَسَمَةٍ » وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] «مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مِائَتَيْ مَرَّةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ كَانَ قَبْلَهُ وَلَا يُدْرِكُهُ أَحَدٌ كَانَ بَعْدَهُ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِأَفْضَلَ مِنْ عَمَلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَالَ فِي سُوقٍ مِنَ الْأَسْوَاقِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ »[3] ويروى أن العبد إذا قال لا إله إلا الله . أتت إلى صحيفته ، فلا تمر على خطيئة إلا محتها . حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها . وفي الصحيح عن أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم[4] أنه قال « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » وفي الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم[5] أنه قال: « مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي غُفِرَ لَهُ أَوْ دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ »

---

(١) حديث البراء من قال لااله الا الله وحده لاشريك له ـ الحديث : الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو في مسند أحمد دون قوله عشر مرات

(٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال في كل يوم مائة مرة لااله الا الله وحده لاشريك له ـ الحديث: أحمد بلفظ مائة وكذا رواه ك في المستدرك واسناده جيد وهكذا هو في بعض نسخ الاحياء

(٣) حديث ان العبد اذا قال لااله الا الله أتت الى صحيفته فلا تمر على خطيئه الا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس اليها: أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف

(٤) حديث أبي أيوب من قال لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد اسماعيل: متفق عليه

(٥) حديث عبادة بن الصامت من تعار من الليل فقال لااله الا الله ـ الحديث : رواه خ

---

(١) يونس : ٢٦

فضيلة التسبيح والتحميد

وبقية الأذكار

قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَبَّحَ [١] دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَحَمِدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبَّرَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَخَتَمَ الْمِائَةَ بِلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » وروى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] فقال : تولت عنى الدنيا ، وقلّت ذات يدى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ صَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ وَتَسْبِيحِ الْخَلَائِقِ وَبِهَا يُرْزَقُونَ » قال فقلت وماذا يا رسول الله ؟ قال : « قُلْ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِائَةَ مَرَّةٍ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى أَنْ تُصَلِّيَ الصُّبْحَ تَأْتِيكَ الدُّنْيَا رَاغِمَةً صَاغِرَةً وَيَخْلُقُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ مَلَكًا يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَكَ ثَوَابُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : [٤] « إِذَا قَالَ الْعَبْدُ الْحَمْدُ لِلَّهِ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الثَّانِيَةَ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى فَإِذَا قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الثَّالِثَةَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : سَلْ تُعْطَ »

---

(١) حديث من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ـ الحديث : م من حديث أبى هريرة

(٢) حديث من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث ان رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال رسول الله عليه وسلم فأين أنت عن صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون ـ الحديث : المستغفرى فى الدعوات من حديث ابن عمر وقال غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلا فى حديث مالك ولاحمد من حديث عبد الله بن عمرو ان نوحا قال لابنه آمرك بلا إله الا الله ـ الحديث ثم قال وسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شىء وبها يرزق الخلق واسناده صحيح

(٤) حديث اذا قال العبد الحمد لله ملأت مابين السماء والارض واذا قال الحمد لله الثانية ملأت مابين السماء السابعة الى الارض واذا قال الحمد لله الثالثة قال الله تعالى سل تعط : غريب بهذا اللفظ لم أجده

قال رفاعة الزرقي كنا يوما نصلي وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] فلما رفع رأسه من الركوع ، وقال سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته قال « مَنِ ٱلْمُتَكَلِّمُ آنِفاً ؟ » قال أنا يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكاً يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلاً » وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : [٢] « ٱلْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ هُنَّ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَسُبْحَانَ اللهِ ، وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، ولاَ حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِلَّا غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ ٱلْبَحْرِ » رواه ابن عمر. وروى النعمان بن بشير عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: [٤] «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ ٱلْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يَذْكُرُونَ بِصَاحِبِهِنَّ أَوَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالُ عِنْدَ اللهِ مَا يُذْكَرُ بِهِ » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم [٥] قال: « لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» وفي رواية أخرى زاد « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»

---

(١) حديث رفاعة الزرقي كنا يوما نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ـ الحديث : رواه خ

(٢) حديث الباقيات الصالحات هن لااله الا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ن في اليوم والليلة وحب ك وصححه من حديث أبي سعيد و ن ك من حديث أبي هريرة دون قوله ولا حول ولا قوة الا بالله

(٣) حديث ماعلى الأرض رجل يقول لااله الاالله والله أكبر وسبحان الله والحمدلله ولاحول ولاقوة الابالله الاغفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر : ك من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند ت وحسنه و ن في اليوم والليلة مختصرا دون قوله سبحان الله والحمدلله

(٤) حديث النعمان بن بشير الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتمجيده وتهليله وتحميده ينعطف حول العرش له دوي كدوي النحل يذكر بصاحبه ـ الحديث: ه و ك وصححه على شرط م

(٥) حديث أبي هريرة لأن أقول سبحان الله والحمدلله ولااله الاالله والله أكبر أحب الي مما طلعت عليه الشمس وزاد في رواية ولاحول ولاقوة الابالله وقال خير من الدنيا ومافيها: م باللفظ الأول وللمستغرق في الدعوات من رواية مالك بن دينار ان أبا أمامة قال النبي صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمدلله ولااله الاالله والله أكبر خير من الدنيا ومافيها قال أنت أغنم القوم وهو مرسل جيد الاسناد

وَقَالَ هِيَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» وقال صلى الله عليه وسلم:[١] «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ» رواه سمرة بن جندب وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] كان يقول: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ تَمْلَآنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو. فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا. أَوْ مُشْتَرٍ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا. وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ» وقال أبو ذر رضي الله عنه قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] أي الكلام أحب إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم: «مَا اصْطَفَى اللهُ سُبْحَانَهُ لِمَلَائِكَتِهِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ» وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] «إِنَّ اللهَ تَعَالَى اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ سُبْحَانَ اللهِ كُتِبَتْ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً وَتُحَطُّ عَنْهُ عِشْرُونَ سَيِّئَةً وَإِذَا قَالَ اللهُ أَكْبَرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ» وذكر إلى آخر الكلمات. وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٦] «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ» وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال قال الفقراء لرسول الله

---

(١) حديث سمرة بن جندب أحب الكلام الى الله اربع ـ الحديث: رواه م

(٢) حديث أبي مالك الاشعري الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان ـ الحديث: رواه م وقد تقدم في الطهارة

(٣) حديث أبي هريرة كلمتان خفيفتان على اللسان ـ الحديث: متفق عليه

(٤) حديث أبي ذر أي الكلام أحب الى الله قال مااصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم رواه م دون قوله سبحان الله العظيم

(٥) حديث أن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله ـ الحديث: ن في اليوم والليلة و ك وقال صحيح على شرط م وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الا انهما قالا في ثواب الحمد لله كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة

(٦) حديث جابر من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة: ت وقال حسن و ن في اليوم والليلة وحب و ك وقال صحيح على شرط م وصحح

صلى الله عليه وسلم (١) ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال « أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ بِهِ إِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَتَحْمِيدَةٍ وَتَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً وَتَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَأَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَيَضَعُ أَحَدُكُمُ اللُّقْمَةَ فِي فِي أَهْلِهِ فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » قالوا يارسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال صلى الله عليه وسلم « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ قَالُوا نَعَمْ. قَالَ كَذَلِكَ إِنْ وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ » وقال أبو ذر رضي الله عنه قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « سَبَقَ أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِالْأَجْرِ . يَقُولُونَ كَمَا نَقُولُ وَيُنْفِقُونَ وَلَا نُنْفِقُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ أَدْرَكْتَ مَنْ قَبْلَكَ ، وَفُقْتَ مَنْ بَعْدَكَ إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ قَوْلِكَ تُسَبِّحُ اللَّهَ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ » . وروت بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) أنه قال « عَلَيْكُنَّ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ فَلَا تَغْفُلْنَ وَاعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ فَإِنَّهَا مُسْتَنْطَقَاتٌ » يعني بالشهادة في القيامة . وقال ابن عمر رأيته صلى الله عليه وسلم (٤) يعقد التسبيح . وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري (٥) « إِذَا قَالَ الْعَبْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ قَالَ تَعَالَى صَدَقَ عَبْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي لَا شَرِيكَ لِي، وَإِذَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

---

(١) حديث أبي ذر قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالاجور يصلون كما نصلي الحديث : رواه م

(٢) حديث أبي در قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبق أهل الاموال بالاجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق ـ الحديث : رواه ه الا أنه قال قال سفيان لاأدري أيتهن أربع ولاحمد في هذا الحديث وتحمد أربعا وثلاثين واسنادهما جيد ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء وتكبر أربعا وثلاثين كما ذكر المصنف

(٣) حديث بسرة عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن واعقدن بالانامل فانها مستنطقات: د ت ك باسناد جيد

(٤) حديث ابن عمر رأيته صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح قلت انما هو عبد الله بن عمرو بن العاص: كما رواه د ن ت وحسنه و ك

(٥) حديث أبي هريرة وأبي سعيد إذا قال العبد لا إله الا الله والله أكبر قال الله صدق عبدي ـ الحديث: ت وقال حسن و ن في اليوم والليلة و ه ك وصححه

وَلَاحَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّابِاللهِ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ صَدَقَ عَبْدِى لَاحَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّابِى وَمَنْ قَالَهُنَّ عِنْدَ الْمَوْتِ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ » وروى مصعب بن سعد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ فَقِيلَ كَيْفَ ذٰلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ وَيُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ أَوْ يَا أَبَامُوسَى أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ قَالَ بَلَى قَالَ قُلْ لَاحَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّابِاللهِ » وفي رواية أخرى « أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ . لَاحَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّابِاللهِ » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٣) « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ قَوْلِ لَاحَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّابِاللهِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَسْلَمَ عَبْدِى وَاسْتَسْلَمَ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولًا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وفي رواية « مَنْ قَالَ ذٰلِكَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ »

وقال مجاهد إذا خرج الرجل من بيته ، فقال بسم الله ، قال الملك هديت ، فإذا قال . توكلت على الله قال الملك كفيت ، وإذا قال لاحول ولاقوة إلا بالله ، قال الملك وقيت فتتفرق عنه الشياطين فيقولون ماتريدون من رجل ، قد هدى وكفى ووقى لاسبيل لكم إليه

فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان ، وقلة التعب فيه ، صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها

---

(١) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ـ الحديث : م الا أنه قال أو يحط كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح

(٢) حديث ياعبد الله بن قيس أو ياأبا موسى ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لاحول ولا قوة الا بالله : متفق عليه

(٣) حديث أبي هريرة عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لاحول ولا قوة الا بالله يقول الله أسلم عبدى واستسلم: ن فى اليوم والليلة و ك من قال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله قال أسلم عبدى واستسلم وقال صحيح الاسناد

(٤) حديث من قال حين يصبح رضيت بالله ربا ـ الحديث : د ن فى اليوم والليلة و ك وقال صحيح الاسناد من حديث خادم النبى صلى الله عليه وسلم ورواه ت من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر ففيه سعد بن المرزبان ضعيف جدا .

فاعلم أن تحقيق هذا لايليق إلابعلم المكاشفة . والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب ، فاما الذكر باللسان والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى ، وفى الأخبار ما يدل عليه أيضاً [1] وحضور القلب فى لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى ، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو فى أكثر الاوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية ، وللذكر أول وآخر ، فأوله يوجب الانس والحب ،وآخره يوجبه الانس والحب ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الانس والحب ؛ فان المريد فى بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عزوجل ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور . ولا ينبغى أن يتعجب من هذا فان من المشاهد فى العادات أن تذكر غائبا غير مشاهد بين يدى شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه ، وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر ، ثم إذا عشق بكثرة الذكر التكلف أولا صار مضطرا إلى كثرة الذكر آخرا بحيث لايصبر عنه ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، ومن أكثر ذكر شيء وأن كان تكلفا أحبه ، فكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الانس بالمذكور والحب له ، ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجبا والثمر مثمراً ، وهذا معنى قول بعضهم كابدت القرءان عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة ، ولا يصدر التنعم إلا من الانس والحب ولايصدر الأنس إلامن المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعا ، فكيف يستبعد هذا ؟ وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه أولا ، ويكابد أكله ، ويواظب عليه فيصير موافقا لطبعه حتى لايصبر عنه ، فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف * هى النفس ماعودتها تتعود *

أى ما كلفتها أولا يصير لها طبعاً آخرا ، ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع من غير ذكر الله ، وما سوى الله عز وجل هو الذى يفارقه عند الموت ، فلا يبقى معه فى القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية . ولا يبقى إلاذكر الله عزوجل

---

(١) حديث الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى: ت وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الاسناد من حديث أبى هريرة واعلموا أن الله لايقبل الدعاء من قلب لاه

فان كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات فى الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذى كان ممنوعا فيه عما به أنسه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:(١) « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي ، أَحْبِبْ مَا أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » أراد به كل ما يتعلق بالدنيا ، فان ذلك يفنى فى حقه بالموت ، فكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، وانما تفنى الدنيا بالموت فى حقه إلى أن تفنى فى نفسها عند بلوغ الكتاب أجله ، وهذا الانس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل فى جوار الله عز وجل ، ويترقى من الذكر إلى اللقاء وذلك بعد أن يبعثر ما فى القبور ويحصل ما فى الصدور ، ولا ينكر بقاء ذكر الله عز وجل معه بعد الموت ، فيقول انه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل فانه لم يعدم عدما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت ، وإلى ماذكرناه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم(٢) « الْقَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » وبقوله صلى الله عليه وسلم :(٣) « أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ » وبقوله صلى الله عليه وسلم(٤) لقتلى بدر من المشركين « يَافُلاَنُ يَافُلاَنُ » وقد سماهم النبى صلى الله عليه وسلم « هَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَاوَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا » فسمع عمر رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ، فقال صلى الله عليه وسلم « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِكَلاَمِي مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لاَيَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا » والحديث فى الصحيح هذا قوله عليه السلام فى المشركين

---

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه : تقدم فى الكتاب السابع من العلم

(٢) حديث القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : ت من حديث أبى سعيد بتقديم وتأخير وقال غريب قلت فيه عبيد الله بن الوليد الوصافى ضعيف

(٣) حديث أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر : م من حديث ابن مسعود انه سئل عن هذه الآية ـ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ـ الآية قال أما أنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم فى جوف طير خضر فلم يسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفى رواية ت أما أنا سألنا عن ذلك فأخبرنا وذكر صاحب مسند الفردوس ان ابن منيع صرح برفعه فى مسنده

(٤) حديث ندائه لقتلى بدر من المشركين يافلان يا فلان وقد سماهم انى قد وجدت ماوعدنى ربى حقا فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا : م من حديث أنس ـ

فأما المؤمنون والشهداء فقد قال صلى الله عليه وسلم[(١)] « أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ » وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا ينافي ذكر الله عز وجل وقال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ[(١)]) الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة ، لأن المطلوب الخاتمة ونعني بالخاتمة وداعَ الدنيا والقدوم على الله ، والقلبُ مستغرق بالله عز وجل منقطعُ العلائق عن غيره ، فان قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقا بالله عز وجل ، فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة الا في صف القتال ، فانه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده ، بل من الدنيا كلها فانه يريدها لحياته ، وقد هوّن على قلبه حياته في حب الله عز وجل وطلب مرضاته ، فلا تجرد لله أعظم من ذلك ولذلك عظم أمر الشهادة ، وورد فيه من الفضائل مالا يحصى، فمن ذلك انه لما استشهد عبدالله بن عمرو الأنصاري يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)] لجابر « أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا جَابِرُ قَالَ بَلَى بَشَّرَكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحْيَا أَبَاكَ فَأَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِتْرٌ فَقَالَ تَعَالَى تَمَنَّ عَلَيَّ يَا عَبْدِي مَا شِئْتَ أُعْطِيكَهُ فَقَالَ يَا رَبِّ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى أُقْتَلَ فِيكَ وَفِي نَبِيِّكَ مَرَّةً أُخْرَى فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ سَبَقَ الْقَضَاءُ مِنِّي بِأَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ » ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة ، فانه لو لم يقتل وبقي مدة ربما عادت شهوات الدنيا اليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل ، ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة ، فان القلب وان ألزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب ، لا يخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ، ولا ينفك عن فترة تعتريه ، فاذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا ، والحالة هذه ، فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت اليه ، ويتمنى الرجوع إلى الدنيا ، وذلك لقلة حظه في الآخرة ، إذ يموت المرء على ما عاش عليه ، ويحشر على مامات عليه ، فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة ،

---

(١) حديث أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش : ه من حديث كعب بن مالك ان أرواح المومنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة وروى ن بلفظ انما نسمة المؤمن طائر ورواه ت بلفظ أرواح الشهداء وقال حسن صحيح

(٢) حديث ألا أبشرك ياجابر قال بلى بشرك الله بالخير قال ان الله أحيا أباك وأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمن علي ـ الحديث : ت وقال حسن و ه ك وصحح اسناده من حديث جابر

---

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .

إذا لم يكن قصد الشهيد (١) نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك كما ورد به الخبر ، بل حب الله عز وجل ، وإعلاء كلمته ، فهذه الحالة هي التي عبر عنها بأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ، ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة وحالة الشهيد توافق معنى قولك ، لا إله إلا الله ، فانه لامقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود ، وكل معبود إله ، فهذا الشهيد قائل بلسان حاله لا إله إلا الله،إذ لامقصود له سواه،ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن في حقه الخطر ، ولذلك فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) « قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَلَى سَائِرِ الْأَذْكَارِ » وذكر ذلك مطلقا في مواضع الترغيب ، ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والاخلاص فقال مرة من قال لا إله إلا الله مخلصاً ومعنى الاخلاص مساعدة الحال للمقال .

فنسأل الله تعالى ،أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالاً ، وظاهراً وباطناً حتى نودع الدنيا غير ملتفتين إليها ، بل متبرمين بها ومحبين للقاء الله، فان من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فهذه مرامز إلى معاني الذكر التي لايمكن الزيادة عليها في علم المعاملة .

الباب الثاني

في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي (١)) وقال تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٢))

---

(١) حديث الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك : متفق عليه من حديث أبي موسى قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله

(٢) حديث تفضيل لااله الا الله على سائر الاذكار : ت وقال حسن و ن في اليوم والليلة و ه من حديث جابر .

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) الاعراف : ٥٥

وقال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (١)) وقال عز وجل: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٢))

وروى النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال « إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ. ثُمَّ قَرَأَ ـ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » الآية . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم (٣) قال « لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الدُّعَاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ الْعَبْدَ لَا يُخْطِئُهُ مِنَ الدُّعَاءِ إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا ذَنْبٌ يُغْفَرُ لَهُ وَإِمَّا خَيْرٌ يُعَجَّلُ لَهُ وَإِمَّا خَيْرٌ يُدَّخَرُ لَهُ » وقال أبو ذر رضى الله عنه ، يكفى من الدعاء مع البر ما يكفى الطعام من الملح ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « سَلُوا اللهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ »

آداب الدعاء

وهى عشرة

الأول : أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل ، قال تعالى : (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣)). وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « يَنْزِلُ اللهُ تَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرُ فَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي

﴿ الباب الثانى فى آداب الدعاء وفضله ﴾

(١) حديث النعمان بن بشير ان الدعاء هو العبادة : أصحاب السنن و ك وقال صحيح الاسناد وقال ت حسن صحيح
(٢) حديث الدعاء مخ العبادة : ت من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث بن لهيعة
(٣) حديث أبى هريرة ليس شىء أكرم عند الله من الدعاء : ت وقال غريب و ه حب ك وقال صحيح الاسناد
(٤) حديث ان العبد لا يخطئه من الدعاء احدى ثلاث اما ذنب يغفر له واما خير يعجل له واما خير يدخر له : الديلمى فى الفردوس من حديث أنس وفيه روح بن مسافر عن أبان بن أبى عياش وكلاهما ضعيف : ولأحمد و خ فى الادب والحاكم وصحح اسناده من حديث أبى سعيد اما أن تعجل له دعوته واما أن يدخر له فى الآخرة واما أن يدفع عنه من السوء مثلها
(٥) حديث سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج : ت من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت وضعفه ابن معين وغيره .
(٦) حديث ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(١) غافر : ٦٠ (٢) الاسراء : ١١٠ (٣) الذاريات : ١٨

"فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » . وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم انما قال (سوف أستغفر لكم ربي[1]) ليدعو في وقت السحر، فقيل : انه قام في وقت السحر يدعو، وأولاده يؤمنون خلفه، فأوحى الله عز وجل إليه، أني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء

الثاني : أن يغتنم الاحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضي الله عنه . إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى، وعند نزول الغيث، وعند اقامة الصلوات المكتوبة، فاغتنموا الدعاء فيها، وقال مجاهد . إن الصلاة جعلت في خير الساعات، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات، وقال صلى الله عليه وسلم (١) « الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ لَا يُرَدُّ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) أيضاً « الصَّائِمُ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ » وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً، إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه، وفراغه من المشوشات، ويوم عرفة ويوم الجمعة، وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها، وحالة السجود أيضاً أجدر بالاجابة، قال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ » وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم (٤) أنه قال « إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْءَانَ رَاكِعاً أَوْ سَاجِداً فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ تَعَالَى وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ »

الثالث : أن يدعو مستقبل القبلة، ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه، وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) « أَتَى الْمَوْقِفَ بِعَرَفَةَ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَلَمْ يَزَلْ

---

(١) حديث الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد : د ن في اليوم والليلة و ت وحسنه من حديث أنس وضعفه ابن عدي وابن القطان ورواه في اليوم والليلة باسناد آخر جيد وحب و ك وصححه

(٢) حديث الصائم لا ترد دعوته : ت وقال حسن و ه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه

(٣) حديث أبي هريرة أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء : رواه م

(٤) حديث ابن عباس انني نهيت أن أقرأ القرءان راكعا أو ساجدا ـ الحديث : م أيضا

(٥) حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس : م دون قوله يدعو فقال مكانها واقفا و ن من حديث أسامة بن زيد كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو ورجاله ثقات

[1] يوسف : ٩٨

يَدْعُو حَتَّى غَرُبَتِ الشَّمْسُ » . وقال سلمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) « إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبِيدِهِ إِذَا رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهَا صُفْراً » . وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم(٢) « كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ فِي الدُّعَاءِ وَلَا يُشِيرُ بِأُصْبُعِهِ » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم(٣) مر على انسان يدعو ويشير باصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم « أَحَدْ أَحَدْ » أى اقتصر على الواحدة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه ارفعوا هذه الايدى قبل أن تغل بالاغلال

ثم ينبغى أن يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء . قال عمر رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) « إِذَا مَدَّ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ لَمْ يَرُدَّهُمَا حَتَّى يَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ » وقال ابن عباس كان صلى الله عليه وسلم(٥) « إِذَا دَعَا ضَمَّ كَفَّيْهِ وَجَعَلَ بُطُونَهُمَا مِمَّا يَلِي وَجْهَهُ » فهذه هيآت اليد . ولا يرفع بصره إلى السماء . قال صلى الله عليه وسلم(٦) « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدُّعَاءِ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ »

الرابع : خفض الصوت بين المخافتة والجهر . لما روى أن أبا موسى الأشعرى . قال قدمنا مع رسول الله . فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم(٧) « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ لَيْسَ بِأَصَمَّ وَلَا غَائِبٍ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْنَاقِ رِكَابِكُمْ »

---

(١) حديث سلمان إن ربكم حيى كريم يستحى من عبده اذا رفع يديه أن يردهما صفرا : د ت وحسنه و ه ك وقال أسناد صحيح على شرطها

(٢) حديث أنس كان يرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه فى الدعاء ولا يشير باصبعه: م دون قوله ولا يشير باصبعه والحديث : متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء

(٣) حديث أبى هريرة مر على انسان يدعو باصبعيه السبابتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد: ن وقال حسن و ه ك وقال صحيح الاسناد.

(٤) حديث عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه ت وقال غريب و ك فى المستدرك وسكت عليه وهو ضعيف

(٥) حديث ابن عباس كان صلى الله عليه وسلم اذا دعا ضم كفيه وجعل بطونها مما يلى وجهه: الطبرانى فى الكبير بسند ضعيف

(٦) حديث لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم : م من حديث أبى هريرة وقال عند الدعاء فى الصلاة

(٧) حديث أبى موسى الأشعرى يا أيها الناس ان الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب : متفق عليه مع اختلاف واللفظ الذى ذكره المصنف لابى داود

قالت عائشة رضى الله عنها فى قوله عز وجل [١] (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا [١]) أى بدعائك . وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال : (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا [٢]) وقال عز وجل : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً [٣])

الخامس : أن لا يتكلف السجع فى الدعاء . فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه ، قال صلى الله عليه وسلم [٢] « سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ » وقد قال عز وجل: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [٤]) قيل معناه التكلف للاسجاع ؛ والاولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فانه قد يعتدى فى دعائه ، فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته ، فما كل أحد يحسن الدعاء ، ولذلك روى عن مُعاذ رضى الله عنه . أن العلماء يحتاج إليهم فى الجنـة . اذ يقال لأهل الجنة تمنوا ، فلا يدرون كيف يتمنّون حتى يتعلموا من العلماء ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِيَّاكُمْ وَالسَّجْعَ فِي الدُّعَاءِ حَسْبُ أَحَدِكُمْ . أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ » وفى الخبر « سَيَأْتِي قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ » ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع ، فقال له . أَعَلَى الله تبالغ ؟ أشهد لقد رأيت حبيباً العجمى يدعو وما يزيد على قوله . اللهم اجعلنا جيدين ، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة ، اللهم وفقنا للخير ، والناس يدعون من كلّ ناحية وراءه ، وكان يعرف بركة دعائه ، وقال بعضهم ادع بلسان الذلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة والانطلاق ، ويقال ان العلماء والابدال لا يزيدون فى الدعاء على سبع كلمات فما دونها ، ويشهد له آخر سورة البقرة ، فإن الله تعالى لم يخبر فى موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك

---

(١) حديث عائشة فى قوله تعالى ـ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ـ أى بدعائك : متفق عليه

(٢) حديث سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وفى رواية والطهور : د ه حب ك من حديث عبد الله بن مغفل

(٣) حديث اياكم والسجع فى الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل: غريب بهذا السياق وللبخارى عن ابن عباس وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فانى عهدت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفعلون الا ذلك : و ه ك واللفظ له وقال صحيح الاسناد من حديث عائشة عليك بالكوامل وفيه وأسألك الجنة الى آخره

---

(١) الاسراء : ١١٠ (٢) مريم : ٣ (٣)،(٤) الاعراف : ٥٥

واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام ، فان ذلك لا يلائم الضراعة والذلة ، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم [(١)] « أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ . وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ » وأمثال ذلك . فليقتصر على المأثور من الدعوات ، أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف ، فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل

السادس : التضرع والخشوع ، والرغبة والرهبة ، قال الله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً [(١)]) وقال عز وجل : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً [(٢)]) وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْداً ابْتَلَاهُ حَتَّى يَسْمَعَ تَضَرُّعَهُ »

السابع : أن يجزم الدعاء ، ويوقن بالاجابة ، ويصدق رجاءه فيه ، قال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ إِذَا دَعَا اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٥)] « ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ » وقال سفيان بن عيينة . لا يمنعن أحدكم

---

(١) حديث أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود انك رحيم ودود وانك تفعل ماتريد : ت من حديث ابن عباس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته فذكر حديثا طويلا من جملته هذا وقال حديث غريب انتهى وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ

(٢) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس اذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا ـ الحديث : وفيه دعه فاني أحب أن أسمع صوته وللطبراني من حديث أبي أمامة ان الله يقول للملائكة انطلقوا إلى عبدى فصبوا عليه البلاء الحديث : وفيه فاني أحب أن أسمع صوته وسندهما ضعيف

(٣) حديث لايقل أحدكم اللهم اغفرلى ان شئت اللهم ارحمني ان شئت ليعزم المسألة فانه لامكره له : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٤) حديث اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فان الله لايتعاظمه شيء : حب من حديث أبي هريرة

(٥) حديث ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا أن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل : ت من حديث أبي هريرة وقال غريب : و ك وقال مستقيم الاسناد تفرد به صالح المرى وهو أحد زهاد البصرة قلت لكنه ضعيف في الحديث

---

(١) الانبياء : ٩٠ (٢) الاعراف : ٥٥

من الدعاء ما يعلم من نفسه ، فان الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق ابليس لعنه الله ، إذ قال (رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [(١)])

الثامن : أن يلح في الدعاء ، ويكرره ثلاثا ، قال ابن مسعود كان عليه السلام [(١)] « إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا » وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي فَإِذَا دَعَوْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ كَثِيراً فَإِنَّكَ تَدْعُو كَرِيماً » وقال بعضهم . انى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجو الاجابة ، سألت الله تعالى أن يوفقني لترك ما لا يعنيني ، وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ مَسْأَلَةً فَتَعَرَّفَ الْإِجَابَةَ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وَمَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ »

التاسع : أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع : « مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٤)] يَسْتَفْتِحُ الدُّعَاءَ إِلَّا اسْتَفْتَحَهُ بِقَوْلِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى الْوَهَّابِ » وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ، من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فان الله عز وجل يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما ، وروى في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٥)] أنه قال « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةً فَابْتَدِئُوا بِالصَّلَاةِ عَلَيَّ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِي إِحْدَاهُمَا وَيَرُدُّ الْأُخْرَى » رواه أبو طالب المكي

---

(١) حديث ابن مسعود كان صلى الله عليه وسلم اذا دعا دعا ثلاثا واذا سأل سأل ثلاثا : رواه مسلم وأصله : متفق عليه

(٢) حديث يستجاب لاحدكم مالم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث اذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الاجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال : البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصرا باسناد ضعيف

(٤) حديث سلمة بن الاكوع ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء الا استفتحه وقال سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب : أحمد و ك وقال صحيح الأسناد قلت فيه عمر بن راشد اليمامي ضعفه الجمهور

(٥) حديث اذا سألتم الله حاجة فابدءوا بالصلاة على فان الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطى احداهما ويرد الاخرى : لم أجده مرفوعا وانما هو موقوف على أبي الدرداء

---

(١) الأعراف : ١٤ ، ١٥

العاشر : وهو الأدب الباطن ، وهو الأصل فى الاجابة ، التوبة ورد المظالم والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة ، فذلك هو السبب القريب فى الاجابة ،فيروى عن كعب الأحبار أنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج موسى ببنى اسرائيل يستسقى بهم ، فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أنى لاأستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمّام ، فقال موسى يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا ، فأوحى الله عز وجل إليه ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ، فقال موسى لبنى اسرائيل توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا ، فأرسل الله تعالى عليهم الغيث ، وقال سعيد بن جبير . قحط الناس فى زمن ملك من ملوك بنى اسرائيل فاستسقوا ، فقال الملك لبنى اسرائيل ليرسلنّ الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه ، قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو فى السماء . فقال . أقتل أولياءه وأهل طاعته ، فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء.وقال سفيان الثورى بلغنى أن بنى اسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام ، لو مشيتم إلىّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكل ألسنتكم عن الدعاء،فانى لاأجيب لكم داعيا ، ولا أرحم لكم باكيا ، حتى تردوا المظالم إلى أهلها ، ففعلوا فمطروا من يومهم ، وقال مالك بن دينار أصاب الناس فى بنى إسرائيل قحط،فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل . إلى نبيهم أن أخبرهم انكم تخرجون إلىّ بأبدان نجسة،وترفعون إلىّ أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام،الآن قد اشتدّ غضبى عليكم ولن تزدادوا منى إلا بعدا ، وقال أبو الصديق الناجى خرج سليمان عليه السلام يستسقى فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهى تقول. اللهم انا خلق من خلقك،ولاغنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا ، فقال سليمان عليه السلام ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم . وقال الأوزاعى . خرج الناس يستسقون ، فقام فيهم بلال بن سعد . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال يامعشر من حضر ألستم مقرّين بالاساءة ؟ فقالوا اللهم نعم ، فقال اللهم إنا قد سمعناك تقول (مَاعَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ[1]) وقدأقررنا بالاساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا،اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا

(1) التوبة : ٩١

فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقيل لمالك بن دينار ادع لنا ربك فقال أنكم تستبطئون المطر، وأنا أستبطئ الحجارة، وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقى فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام. من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه فى المفازة الا واحد، فقال له عيسى عليه السلام أمالك من ذنب؟ فقال والله ماعلمت من شيء غير أنى كنت ذات يوم أصلى، فمرت بى امرأة فنظرت إليها بعينى هذه فلما جاوزتنى أدخلت أصبعى فى عينى فانتزعتها واتبعت المرأة بها فقال له عيسى عليه السلام فادع الله حتى أؤمن على دعائك، قال فدعا فتجللت السماء سحابا، ثم صبت فسقوا. وقال يحيى الغسانى. أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام، فاختاروا ثلاثة من علمائهم، فخرجوا حتى يستسقوا بهم، فقال أحدهم. اللهم انك أنزلت فى توراتك أن نعفو عمن ظلمنا، اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، وقال الثانى. اللهم انك أنزلت فى توراتك أن نعتق أرقاءنا، اللهم انا أرقاؤك فاعتقنا، وقال الثالث. اللهم انك أنزلت فى توراتك أن لانرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا، اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا. فسقوا، وقال عطاء السلمى. منعنا الغيث فخرجنا نستسقى، فاذا نحن بسعدون المجنون فى المقابر، فنظر إلىّ فقال ياعطاء أهذا يوم النشور أو بعثر مافى القبور؟ فقلت لا، ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقى، فقال ياعطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية. فقلت بل بقلوب سماوية، فقال هيهات ياعطاء قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا، فان الناقد بصير، ثم رمق السماء بطرفه، وقال الهى وسيدى ومولاى، لاتهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك، وما وارت الحجب من آلائك إلا ماسقيتنا ماء غدقا فراتا تحيى به العباد وتروى به البلاد، يامن هو على كل شيء قدير، قال عطاء فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت، وجاءت بمطر كأفواه القرب، فولى وهو يقول

أفلح الزاهدون والعابدونا * إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا * فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى * حسب الناس ان فيهم جنونا

وقال ابن المبارك : قدمت المدينة فى عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم: إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش . قد اتزر باحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: الهى أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوى الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك ، فاسألك ياحليما ذا أناة ، يامن لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعة ، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب ، قال ابن المبارك فجئت إلى الفضيل فقال مالى أراك كئيبا فقلت أمر سبقنا اليه غيرنا فتولاه دوننا ، وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخر مغشيا عليه

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس رضى الله عنه ، فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة قد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك صلى الله عليه وسلم ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعى لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم فاغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فانه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال

فضيلة الصلاة على رسول الله

صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [1]) وروى أنه صلى الله عليه وسلم [1] « جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالْبُشْرَى تُرَى فِي وَجْهِهِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّهُ جَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ أَمَا تَرْضَى يَا مُحَمَّدُ أَنْ لَا يُصَلِّيَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً وَاحِدَةً إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى فى وجهه فقال انه جاءنى جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ماترضى يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا : ن و حب من حديث أبى طلحة باسناد جيد

(١) الاحزاب : ٥٦

إلاَّ سَلَّمَتْ عَلَيْهِ عَشْراً » وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ فَلْيُقْلِلْ عِنْدَ ذٰلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاَةً » وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « بِحَسْبِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْبُخْلِ أَنْ أُذْكَرَ عِنْدَهُ فَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ » وقال صلى الله عليه وسلم: (٤) « أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلاَةِ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِنْ أُمَّتِي كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ » وقال صلى الله عليه وسلم: (٦) « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْأَذَانَ وَالْإِقَامَةَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَأَعْطِهِ الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ وَالشَّفَاعَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) حديث من صلى على صلت عليه الملائكة ماصلى فليقلل عبد من ذلك أوليكثر : ه من حديث عامر ابن ربيعة باسناد ضعيف والطبراني فى الاوسط باسناد حسن

(٢) حديث ان أولى الناس بى أكثرهم على صلاة : ت من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وحب

(٣) حديث بحسب امرىء من البخل ان أذكر عنده فلا يصلى على : قاسم بن أصبغ من حديث الحسن ابن على هكذا : و ن وحب من حديث أخيه الحسن البخيل. من ذكرت عنده فلم يصل على ورواه ت من رواية الحسين بن علي عن أبيه وقال حسن صحيح

(٤) حديث أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة : د ن ه حب ك وقال صحيح على شرط خ من حديث أوس بن أوس وذكره بن أبي حاتم فى العلل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر

(٥) حديث من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات : ن فى اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات وله فى السير ولابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله مخلصا من قلبه ودون ذكر محو السيئات ولم يذكر ابن حبان أيضا رفع الدرجات

(٦) حديث من قال حين يسمع الأذان والأقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك واعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتى :البخارى من حديث جابر دون ذكر الاقامة والشفاعة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقال النداء وللمستغفرى فى الدعوات حين يسمع الدعاء للصلاة وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة من حديث أبى الدرداء ذكر الصلاة فيه وله وللمستغفرى فى الدعوات بسند ضعيف من حديث أبى رافع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمع الأذان فذكر حديثا فيه واذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة ـ الحديث : وزاد وتقبل شفاعته فى أمته ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا على ثم سلوا الله لى الوسيلة وفيه فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة

(١) « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ مَادَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « لَيْسَ أَحَدٌ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ » (٤) وقيل له يارسول الله كيف نصلي عليك فقال « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ويقول بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم (٥) فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فامتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم بأبي أنت وأمي يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ (١))

---

(١) حديث من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب : الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في الثواب والمستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

(٢) حديث ان في الارض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام : تقدم في آخر الحج

(٣) حديث ليس أحد يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام : د من حديث أبي هريرة بسند جيد

(٤) حديث قيل له يارسول الله كيف نصلي عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته الحديث : متفق عليه من حديث أبي حميد الساعدي

(٥) حديث عمر في حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والاسراء به على البراق الى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالابطح وكلام الشاة المسمومة وانه دمي وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون وانه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالارض ولعق أصابعه : وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى . فحديث حنين الجذع : متفق عليه من حديث جابر وابن عمر . وحديث نبع الماء من بين أصابعه : متفق عليه من حديث أنس وغيره . وحديث الاسراء : متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالابطح . وحديث كلام الشاة المسمومة : رواه د من حديث جابر وفيه انقطاع . وحديث أنه دمي وجهه وكسرت رباعيته : متفق عليه من حديث سهل بن سعد في غزوة أحد . وحديث اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون رواه البيهقي في دلائل النبوة : والحديث في الصحيح من حديث ابن مسعود انه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبي من الانبياء ضربه قومه . وحديث لبس الصوف رواه الطيالسي من حديث سهل بن سعد . وحديث ركوبه الحمار وارادفه خلفه : متفق عليه من حديث أسامة بن زيد . وحديث وضع طعامه بالارض : رواه أحمد في الزهد من حديث الحسن مرسلا وللبخاري من حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط . وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب، فقال تعالى: (عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ [١]) بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم، فقال عز وجل : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ [٢]) الآية، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون (يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا [٣]) بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك، بأبى أنت وأمى يارسول الله، لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع لا تأكلنى فانى مسمومة، بأبى أنت وأمى يارسول الله .لقد دعا نوح على قومه فقال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [٤]) ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا فلقد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فابيت أن تقول إلا خيرا، فقلت « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل، بأبى أنت وأمى يارسول الله، لو لم تجالس إلا كفؤا لك ماجالستنا: ولو لم تنكح إلا كفؤا لك مانكحت إلينا، ولو لم تؤاكل إلا كفؤا لك ماواكلتنا، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا، ولبست الصوف، وركبت الحمار، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض، ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم، وقال بعضهم كنت أكتب الحديث وأصلى على النبى صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى، أما تتم الصلاة على فى كتابك فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه، وروى عن أبى الحسن قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت يارسول الله بم جوزى الشافعى عنك حيث يقول فى كتابه الرسالة وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، فقال صلى الله عليه وسلم جوزى عنى أنه لا يوقف للحساب

(١) التوبة : ٤٣ (٢) الأحزاب : ٧ (٣) الأحزاب : ٦٦ (٤) نوح : ٢٦

فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ (١)) وقال علقمة والاسود قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم فى كتاب الله عز وجل آيتان ماأذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ (٢)) الآية وقوله عز وجل (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (٣)) وقال عز وجل (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٤)) وقال تعالى (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (٥)) وكان صلى الله عليه وسلم : (١) يكثر أن يقول « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٣) « إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) « مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ أَوْ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ أَوْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ أَوْ عَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى انك أنت التواب الرحيم : الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح ان كان أبو عبيدة سمع من أبيه . والحديث متفق عليه من حديث عائشة انه كان يكثر أن يقول ذلك فى ركوعه وسجوده دون قوله انك أنت التواب الرحيم

(٢) حديث من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل غم مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب : د ن فى اليوم والليلة ه ك وقال صحيح الاسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان

(٣) حديث انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم سبعين مرة : خ من حديث أبى هريرة الا أنه قال أكثر من سبعين وهو فى الدعاء للطبرانى كما ذكره المصنف

(٤) حديث انه ليغان على قلبي حتى انى لاستغفر الله فى كل يوم مائة مرة : م من حديث الاغر

(٥) حديث من قال حين يأوى الى فراشه أستغفر الله الذى لااله الاهو الحى القيوم وأتوب اليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر ـ الحديث : ت من حديث أبى سعيد وقال غريب لانعرفه الا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافى قلت الوصافى وان كان ضعيفا فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة . رواه خ فى التاريخ دون قوله حين يأوى الى فراشه وقوله ثلاث مرات

(١،٢) آل عمران : ١٣٥ (٣) النساء : ١١٠ (٤) النصر : ٣ (٥) آل عمران : ١٧

(١) فى حديث آخر . « مَنْ قَالَ ذَلِكَ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ » وقال حذيفة (٢) كنت ذَرِب اللسان على أهلى ، فقلت يارسول الله لقد خشيت أن يدخلنى لسانى النار، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الاِسْتِغْفَارِ ، فَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً ، وقالت عائشة رضى الله عنها قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِى اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ . فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذَّنْبِ النَّدَمُ وَالاِسْتِغْفَارُ » وكان صلى الله عليه وسلم (٤) يقول فى الاستغفار « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَإِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَاقَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقال على رضى الله عنه كنت رجلا إذاسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله عزوجل بماشاء أن ينفعنى منه ، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته فاذا حلف صدقته ، قال وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) « يَقُولُ مَامِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ » ثُمَّ تلاقوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ (١)) الآية .

---

(١) حديث من قال ذلك غفرت ذنوبه وان كان فارا من الزحف : د ت من حديث زيد مولى النبى صلى الله عليه وسلم وقال غريب . قلت ورجاله موثقون ورواه ابن مسعود و ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث حذيفة كنت ذرب اللسان على أهلى ـ الحديث : وفيه أين أنت عن الاستغفار : ن فى اليوم والليلة و هـ ك وقال صحيح على شرط الشيخين

(٣) حديث عائشة ان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله فان التوبة من الذنب الندم والاستغفار : متفق عليه دون قوله فان التوبة الخ وزاد أو توبى اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه : وللطبرانى فى الدعاء فان العبد اذا أذنب ثم استغفر الله غفر له

(٤) حديث كان يقول اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفرلى جدى وهزلى : متفق عليه من حديث أبى موسى واللفظ لمسلم

(٥) حديث على عن أبى بكر ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله الا غفر الله له أصحاب السنن وحسنه ت

(١) آل عمران : ١٣٥

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهَا فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١)) وروى أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم (٢) قال : « إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَنَّى لِي هَـذِهِ فَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ » وروت عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم (٣) قال : « اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا » وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْباً فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ عَبْدِي اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) « مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وقال صلى الله عليه وسلم : (٦) « إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ إِنَّ لِي رَبّاً يَا رَبِّ فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرْتُ لَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٧) « مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ »

---

(١) حديث أبي هريرة ان المؤمن اذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ـ الحديث : ت وصححه و ن فى اليوم والليلة و ه حب ك

(٢) حديث أبي هريرة ان الله ليرفع العبد الدرجة فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه فيقول باستغفار ولدك لك : رواه أحمد باسناد حسن

(٣) حديث عائشة اللهم اجعلنى من الذين اذا أحسنوا استبشروا واذا أساءوا استغفروا : ه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه

(٤) حديث اذا أذنب العبد فقال اللهم اغفرلى يقول الله أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٥) حديث ماأصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة : د ت من حديث أبي بكر وقال غريب وليس اسناده بالقوى

(٦) حديث ان رجلا لم يعمل خيرا قط نظر الى السماء فقال ان لى ربا يارب اغفرلى فقال الله تعالى قد غفرت لك لم أقف له على أصل

(٧) حديث من أذنب فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وان لم يستغفر : الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(١) المطففين : ١٤

وقال صلى الله عليه وسلم:(١) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُهُ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ وَمَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى أَنْ أَغْفِرَ لَهُ غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي » وقال صلى الله عليه وسلم(٢) « مَنْ قَالَ سُبْحَانَكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَعَمِلْتُ سُوءًا فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ غَفَرْتُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَلَوْ كَانَتْ كَمَدَبِّ النَّمْلِ » وروى(٣) أن أفضل الاستغفار « اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ عَلَى نَفْسِي بِذَنْبِي فَقَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي مَا قَدَّمْتُ مِنْهَا وَمَا أَخَّرْتُ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا إِلَّا أَنْتَ »

الآثار: قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل ان أحب عبادى إلى المتحابون بحبى ، والمتعلقة قلوبهم بالمساجد . والمستغفرون بالاسحار ، أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم ، وصرفت العقوبة عنهم ، وقال قتادة رحمه الله القرءان يدلكم على دائكم ودوائكم ، أما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار ، وقال على كرم الله وجهه . العجب ممن يهلك ومعه النجاة ، قيل وما هى قال الاستغفار ؛ وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه ، وقال الفضيل . قول العبد أستغفر الله ، تفسيرها أقلنى وقال بعض العلماء . العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار ، وقال الربيع بن خيثم رحمه الله لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب اليه فيكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ، ولكن ليقل اللهم اغفرلى وتب علىّ ، وقال الفضيل ، رحمه الله . الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين ،

(١) حديث يقول الله ياعبادى كلكم مذنب الا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ومن علم انى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالى : ت ه من حديث أبى ذر وقال ت حسن وأصله عند م بلفظ آخر

(٢) حديث من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفرلى انه لا يغفر الذنوب الا أنت غفرت ذنوبه وان كانت كمدب النمل : البيهقى فى الدعوات من حديث على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كان عليك كعدد النمل أو كعدد الذر ذنوبا غفرها الله لك فذكره بزيادة لا اله الا أنت فى أوله وفيه ابن لهيعة

(٣) حديث أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ـ الحديث : خ من حديث شداد بن أوس دون قوله وقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ودون قوله ذنوبى ماقدمت منها وما أخرت ودون قوله جميعا

وقالت رابعة العدوية رحمها الله : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ، وقال بعض الحكماء من قدّم الاستغفار على الندم كان مستهزئا بالله عز وجل وهو لا يعلم ، وسمع أعرابى وهو متعلق بأستار الكعبة يقول . اللهم إن استغفارى مع إصرارى للؤم ، وان تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز ، فكم تتحبب إلىّ بالنعم مع غناك عنى ، وكم أتبغض اليك بالمعاصى مع فقرى اليك ، يامن إذا وعد وفى ، وإذا أوعد عفا ؛ أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك ياأرحم الراحمين ، وقال أبو عبد الله الوراق . لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوبا لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصا ان شاء الله تعالى . اللهم انى أستغفرك من كل ذنب تبت اليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسى ولم أوف لك به ، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علىّ فاستعنت بها على معصيتك ، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته فى ضياء النهار وسواد الليل ، فى ملأ أو خلاء وسر وعلانية ، ياحليم . ويقال انه استغفار آدم عليه السلام وقيل الخضر عليه الصلاة والسلام

الباب الثالث

فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها

مما يستحب أن يدعو بها المرء صباحاً ومساء وبعقب كل صلاة

فمنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر ، قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة ، فقام يصلى من الليل فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح[1] قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا شَمْلِي وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي وَتَرُدُّ بِهَا الْفِتَنَ عَنِّي وَتُصْلِحُ بِهَا دِينِي وَتَحْفَظُ بِهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي وَتُبَيِّضُ بِهَا وَجْهِي وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي

الباب الثالث فى أدعية مأثورة

(١) حديث ابن عباس اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى ـ الحديث : ت وقال غريب ولم يذكر فى أوله بعث العباس لابنه عبد الله ولا نومه فى بيت ميمونة وهو بهذه الزيادة فى الدعاء للطبرانى

وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ . اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَانًا صَادِقًا وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ عِنْدَ الْقَضَاءِ وَمَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ وَمُرَافَقَةَ الأَنْبِيَاءِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي وَإِنْ ضَعُفَ رَأْيِي وَقَلَّتْ حِيلَتِي وَقَصُرَ عَمَلِي وَافْتَقَرْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ فَأَسْأَلُكَ يَا كَافِيَ الأُمُورِ وَيَا شَافِيَ الصُّدُورِ كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ الْبُحُورِ أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْقُبُورِ ، اللَّهُمَّ مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي وَضَعُفَ عَنْهُ عَمَلِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيَّتِي وَأُمْنِيَّتِي مِنْ خَيْرٍ وَعَدْتَهُ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَإِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ وَأَسْأَلُكَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ حَرْبًا لأَعْدَائِكَ وَسِلْمًا لأَوْلِيَائِكَ نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَطَاعَكَ مِنْ خَلْقِكَ وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ مِنْ خَلْقِكَ اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الإِجَابَةُ وَهَذَا الْجَهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ذِي الْحَبْلِ الشَّدِيدِ وَالأَمْرِ الرَّشِيدِ أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ ، سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَقَالَ بِهِ سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ بِالْمَجْدِ وَتَكَرَّمَ بِهِ ، سُبْحَانَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلَّا لَهُ ، سُبْحَانَ ذِي الْفَضْلِ وَالنِّعَمِ ، سُبْحَانَ ذِي الْعِزَّةِ وَالْكَرَمِ ، سُبْحَانَ الَّذِي أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُورًا فِي قَلْبِي وَنُورًا فِي قَبْرِي وَنُورًا فِي سَمْعِي وَنُورًا فِي بَصَرِي وَنُورًا فِي شَعْرِي وَنُورًا فِي بَشَرِي وَنُورًا فِي لَحْمِي وَنُورًا فِي دَمِي وَنُورًا فِي عِظَامِي وَنُورًا مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَنُورًا مِنْ خَلْفِي وَنُورًا عَنْ يَمِينِي وَنُورًا عَنْ شِمَالِي وَنُورًا مِنْ فَوْقِي وَنُورًا مِنْ تَحْتِي اللَّهُمَّ زِدْنِي نُورًا وَأَعْطِنِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا

دعاء عائشة رضي الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] لعائشة رضي الله عنها « عَلَيْكِ بِالْجَوَامِعِ الْكَوَامِلِ قُولِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ

---

(١) حديث قوله لعائشة عليك بالجوامع الكوامل قولي اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ـ الحديث : هـ و ك وصححه من حديثها

عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَالَمْ أَعْلَمْ ، وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَسْتَعِيذُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَداً بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ »

دعاء فاطمة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] « يَا فَاطِمَةُ مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ »

دعاء أبي بكر الصديق رضى الله عنه

علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)] أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ وَمُوسَى نَجِيِّكَ وَعِيسَى كَلِمَتِكَ وَرُوحِكَ وَبِتَوْرَاةِ مُوسَى وَإِنْجِيلِ عِيسَى وَزَبُورِ دَاوُدَ وَفُرْقَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَبِكُلِّ وَحْيٍ أَوْحَيْتَهُ أَوْ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ أَوْ سَائِلٍ أَعْطَيْتَهُ أَوْ غَنِيٍّ أَفْقَرْتَهُ أَوْ فَقِيرٍ أَغْنَيْتَهُ أَوْ ضَالٍّ هَدَيْتَهُ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي بَثَثْتَ بِهِ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَى الْأَرْضِ فَاسْتَقَرَّتْ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَى السَّمٰوَاتِ فَاسْتَقَلَّتْ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَى الْجِبَالِ فَرَسَتْ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي اسْتَقَلَّ بِهِ عَرْشُكَ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الطُّهْرِ الطَّاهِرِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الْوِتْرِ الْمُنَزَّلِ فِي كِتَابِكَ مِنْ لَدُنْكَ مِنَ النُّورِ الْمُبِينِ وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَى النَّهَارِ فَاسْتَنَارَ وَعَلَى اللَّيْلِ فَأَظْلَمَ وَبِعَظَمَتِكَ وَكِبْرِيَائِكَ وَبِنُورِ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ أَنْ تَرْزُقَنِي الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ بِهِ وَتَخْلِطَهُ بِلَحْمِي وَدَمِي وَسَمْعِي وَبَصَرِي وَتَسْتَعْمِلَ بِهِ جَسَدِي بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

---

(١) حديث يافاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى الى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله : ن فى اليوم والليلة و ك من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول اللهم انى أسألك بمحمد نبيك وابراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك ـ الحديث : فى الدعاء لحفظ القرءان : رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه أن أبا بكر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انى أتعلم القرءان ويتفلت منى فذكره وعبد الملك وأبوه ضعيفان وهو منقطع بين هارون وأبى بكر

دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه

رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١] يَا بُرَيْدَةُ أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْراً عَلَّمَهُنَّ إِيَّاهُ ثُمَّ لَمْ يُنْسِهِنَّ إِيَّاهُ أَبَداً قَالَ فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ قُلْ «اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّ فِي رِضَاكَ ضَعْفِي، وَخُذْ إِلَى الْخَيْرِ بِنَاصِيَتِي، وَاجْعَلِ الْإِسْلَامَ مُنْتَهَى رِضَايَ اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي وَإِنِّي ذَلِيلٌ فَأَعِزَّنِي وَإِنِّي فَقِيرٌ فَأَغْنِنِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»

دعاء قبيصه بن المخارق

إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] علمني كلمات ينفعني الله عز وجل بها فقد كبرت سني وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام: «أَمَّا لِدُنْيَاكَ فَإِذَا صَلَّيْتَ الْغَدَاةَ فَقُلْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَهُنَّ أَمِنْتَ مِنَ الْغَمِّ وَالْجُذَامِ وَالْبَرَصِ وَالْفَالِجِ. وَأَمَّا لِآخِرَتِكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي مِنْ عِنْدِكَ وَأَفِضْ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ وَانْشُرْ عَلَيَّ مِنْ رَحْمَتِكَ وَأَنْزِلْ عَلَيَّ مِنْ بَرَكَاتِكَ ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا إِنَّهُ إِذَا وَفَّى بِهِنَّ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَدَعْهُنَّ فُتِحَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ مِنَ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»

دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه

قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه [٣] قد احترقت دارك، وكانت النار قد وقعت في محلته، فقال ما كان الله ليفعل ذلك، فقيل له ذلك ثلاثا وهو يقول. ما كان الله ليفعل ذلك، ثم أتاه آت فقال يا أبا الدرداء. إن النار حين دنت من دارك طفئت، قال قد علمت ذلك، فقيل له ما ندري أي قوليك أعجب، قال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ وَقَدْ قُلْتُهُنَّ وَهِيَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

---

(١) حديث يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن اياه ـ الحديث: ك من حديث بريدة وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث ان قبيصة بن المخارق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم علمني كلمات ينفعني الله بها فقد كبرت سني وعجزت ـ الحديث: ابن السني في اليوم والليلة من حديث ابن عباس وهو عند أحمد في المسند مختصرا من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم

(٣) حديث قيل لأبي الدرداء أحرقت دارك فقال ما كان الله ليفعل ذلك ـ الحديث: الطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء ضعيف

عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ مَاشَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح . اللهم ان هذا خلق جديد فافتحه عَلَيَّ بطاعتك ، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك ، وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى ، وزكها وضعفها لى ، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لى إنك غفور رحيم ودود كريم . قال ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه

دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم

كان يقول . اللهم انى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيرى . وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى ، اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى صديق ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط علىَّ من لا يرحمنى ياحى ياقيوم

دعاء الخضر عليه السلام

يقال إن الخضر والياس عليهما السلام إذا التقيا فى كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ، ماشاء الله كل نعمة من الله، ماشاء الله الخير كله بيد الله ، ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله، فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى

دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه

قال محمد بن حسان . قال لى معروف الكرخى رحمه الله ، ألا أعلمك عشر كلمات . خمس للدنيا وخمس للآخرة ، من دعا الله عز وجل بهن وجد الله تعالى عندهن، قلت اكتبها لى ، قال لا ، ولكن أرددها عليك كما رددها علَيَّ بكر بن خنيس رحمه الله ، حسبى الله لدينى حسبى الله لدنياى، حسبى الله الكريم لما أهمنى ، حسبى الله الحليم القوى لمن بغى علي ، حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء ، حسبى الله الرحيم عند الموت ، حسبى الله الرؤف عند المسألة فى القبر ،

حسبي الله الكريم عند الحساب ،حسبي الله اللطيف عند الميزان ، حسبي الله القدير عند الصراط ، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، وقد روى عن أبى الدرداء أنه قال. من قال فى كل يوم سبع مرات (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [١]) كفاه الله عزوجل ما أهمه ، من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا

دعاء عتبة الغلام

وقد رؤى فى المنام بعد موته فقال دخلت الجنة بهذه الكلمات، اللهم ياهادى المضلين، ويا راحم المذنبين ، ويامقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأخيار والمرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضى الله عنها لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعا ؛ وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء ، ثم قام فصلى ركعتين ثم قال ، اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى ، وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى ، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى ، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ، ويقينا صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على ، والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والاكرام ، فأوحى الله عز وجل اليه أني قد غفرت لك ، ولم يأتنى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له ، وكشفت غمومه وهمومه ، ونزعت الفقر من بين عينيه ، واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها

دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه

رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمَجِّدُ نَفْسَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَقُولُ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ، إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا الْعَفُوُّ الْغَفُورُ، إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا مُبْدِئُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيَّ يَعُودُ ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ خَالِقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

---

(١) حديث على ان الله تعالى يمجد نفسه كل يوم فيقول انى أنا الله رب العالمين انى أنا الله لا اله الا أنا الحى القيوم ـ الحديث : بطوله لم أجد له أصلا

(١) التوبة : ١٢٩

خَالِقُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا الْفَرْدُ الْوِتْرُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ الْمُقْتَدِرُ الْقَهَّارُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، الْقَادِرُ الرَّزَّاقُ فَوْقَ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ» .

وذكر قبل كل كلمة انى أنا الله لا إله إلا أنا كما أوردناه فى الأول ، فمن دعا بهذه الأسماء فليقل انك أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا ، فمن دعا بهن كتب من الساجدين المخبتين ، الذين يجاورون محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، صلوات الله عليهم فى دار الجلال وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين ، وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى

دعاء ابن المعتمد وهو سليمان التيمى وتسبيحاته رضى الله عنه

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا فى المنام ممن قتل شهيدا ببلاد الروم، فقال ما أفضل ما رأيت ثَمَّ من الأعمال ،قال رأيت تسبيحات ابن المعتمر من الله عز وجل بمكان وهى هذه. سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، عدد ماخلق ، وعدد ماهو خالق ، وزنة ماخلق ، وزنة ماهو خالق ، وملء ماخلق ، وملء ما هو خالق ، وملء سمواته ، وملء أرضه ، ومثل ذلك وأضعاف ذلك ، وعدد خلقه وزنة عرشه ، ومنتهى رحمته، ومداد كلماته ، ومبلغ رضاه حتى يرضى ، وإذا رضى، وعدد ماذكره به خلقه فى جميع مامضى ، وعددِ ماهم ذاكروه فيما بقى فى كل سنة ، وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشمّ ونفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لاينقطع أوّله ولا ينفد آخره

دعاء إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه

روى ابراهيم بن بشار خادمه أنه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى ، مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد ، والكاتب والشهيد ، يومنا هذا يوم عيد ، اكتب لنا فيه مانقول ، بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال فى خلقه مايريد ، أصبحت بالله مؤمنا ، وبلقائه مصدقا ، وبحجته معترفا ، ومن ذنبى مستغفرا ، ولربوبية الله خاضعا ،

ولسوى الله فى الآلهة جاحدا ، وإلى الله فقيرا ، وعلى الله متكلا ، وإلى الله منيبا ، أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه ، بأنه هو الله الذى لا إله إلا هو وحده لاشريك له ،وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما،وان الجنة حق ، وأن النار حق ، والحوض حق، والشفاعة حق ، ومنكرا ونكيرا حق ،ووعدك حق ووعيدك حق ، ولقاءك حق ، والساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، على ذلك أحيا وعليه أموت، وعليه أبعث إن شاء الله ، اللهم أنت ربى لا إله إلا انت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك مااستطعت ، أعوذ بك اللهم من شر ماصنعت ومن شر كل ذى شر ، اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفرلى ذنوبى فانه لايغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق فانه لايهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها فانه لا يصرف سيئها إلاأنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك، أنا لك وإليك، أستغفرك وأتوب إليك ، آمنت اللهم بما أرسلت من رسول ، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب ، وصلى الله على محمد النبي الأمى وعلى آله وسلم تسليما كثيرا، خاتم كلامى ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يارب العالمين ، اللهم أوردنا حوض محمد ، واسقنا بكاسه مشربا رويا سائغا هنيا لانظمأ بعده أبدا ،واحشرنافى زمرته غير خزايا ولانا كثين للعهد ولا مرتابين ولامفتونين ولامغضوب علينا ولاضالين ، اللهم اعصمنى من فتن الدنيا ووفقنى لما تحب وترضى وأصلح لى شأنى كله وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولاتضلنى وإن كنت ظالما سبحانك ياعلى ياعظيم يابارىء يارحيم ياعزيز ياجبار ،سبحان من سبحت له السموات باكنافها ، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبحت له الجبال باصدائها ،وسبحان من سبحت له الحيتان بلغتها ، وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراجها ، وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها ، وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن ، سبحان من سبح له كل شىء من مخلوقاته تباركت وتعاليت سبحانك ، سبحانك ياحي ياقيوم يا عليم يا حليم ، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيي وتميت وأنت حى لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شىء قدير

الباب الرابع

فى أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكى وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله

يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء كما سيأتى ذكره فى كتاب الأوراد ، فان كنت من المريدين لحرث الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به فقل فى مفتتح دعواتك (١) أعقاب صلواتك (٢) « سُبْحَانَ رَبِّىَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى الْوَهَّابِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقل (٣) « رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » وقل (٤) « اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ » وقل (٥) « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي وَأَقِلْ عَثَرَاتِي وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي

﴿ الباب الرابع فى أدعية مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم ﴾

(١) حديث افتتاح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب : تقدم فى الباب الثانى فى الدعاء

(٢) حديث القول عقب الصلوات لااله الا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير : متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة

(٣) حديث رضيت بالله ربا ـ الحديث : تقدم فى الباب الأول من الأذكار

(٤) حديث اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لااله الاأنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه : د ت وصححه وحب ك وصححه من حديث أبى هريرة أن أبا بكر الصديق قال يارسول الله مرنى بكلمات أقولهن اذا أصبحت واذا أمسيت قال قل اللهم فذكره

(٥) حديث اللهم انى أسألك العافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالي اللهم استر عورتى وآمن روعتى وأقل عثرتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى : د ن ه ك من حديث ابن عمر قال لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح

وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي، اللَّهُمَّ (١) لَا تُؤَمِّنِّي مَكْرَكَ وَلَا تُوَلِّنِي غَيْرَكَ وَلَا تَنْزِعْ عَنِّي سِتْرَكَ وَلَا تُنْسِنِي ذِكْرَكَ وَلَا تَجْعَلْنِي مِنَ الْغَافِلِينَ، وَقل «اللَّهُمَّ (٢) أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وقل اللَّهُمَّ (٣) عَافِنِي فِي بَدَنِي وَعَافِنِي فِي سَمْعِي وَعَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَقُلِ اللَّهُمَّ (٤) إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَعْتَدِيَ أَوْ يُعْتَدَى عَلَيَّ أَوْ أَكْسِبَ خَطِيئَةً أَوْ ذَنْبًا لَا تَغْفِرُهُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ (٥) الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ فِي الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا خَاشِعًا سَلِيمًا، وَخُلُقًا مُسْتَقِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي (٦) مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَعَلَى كُلِّ غَيْبٍ شَهِيدٌ،

---

(١) حديث اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين : رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله ولا تولني غيرك واسناده ضعيف

(٢) حديث اللهم أنت ربي لااله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفرلي انه لايغفر الذنوب الا أنت : خ من حديث شداد بن أوس وقد تقدم

(٣) حديث اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لااله الا أنت ثلاث مرات : د ن في اليوم والليلة من حديث أبي بكرة وقال ن جعفر بن ميمون ليس بالقوى

(٤) حديث اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء ـ الحديث : الى قوله أو ذنبا لايغفر : أحمد و ك من حديث زيد بن ثابت في أثناء حديث وقال صحيح الاسناد

(٥) حديث اللهم انى أسألك الثبات في الامر والعزيمة على الرشد ـ الحديث: الى قوله ـ وأنت علام الغيوب ـ ت ن ك وصححه من حديث شداد بن أوس قلت بل هو منقطع وضعيف

(٦) حديث اللهم اغفرلى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ـ الحديث : الى قوله وعلى كل غيب شهيد . متفق عليه من حديث أبي موسى دون قوله وعلى كل غيب شهيد وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب

اللهمَّ إنِّى أسأَلُكَ (١) إيمانًا لا يرتدُّ ونعيمًا لا ينفَدُ وقرَّةَ عينِ الأبدِ ومرافقةَ نبيِّكَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فى أعلى جنَّةِ الخلدِ ، اللهمَّ إنِّى أسأَلُكَ (٢) الطيِّباتِ وفعلَ الخيراتِ وتركَ المنكراتِ ، وحبَّ المساكينَ ، أسأَلُكَ حبَّكَ وحبَّ منْ أحبَّكَ ، وحبَّ كلِّ عملٍ يقرِّبُ إلى حبِّكَ ، وأنْ تتوبَ علىَّ وتغفرَ لى وترحمَنى ، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضْنى إليكَ غيرَ مفتونٍ اللهمَّ (٣) بعلمِكَ الغيبَ وقدرتِكَ على الخلقِ أحيِنى ما كانتِ الحياةُ خيرًا لى وتوفَّنى ما كانتِ الوفاةُ خيرًا لى ، أسأَلُكَ خشيتَكَ فى الغيبِ والشهادةِ وكلمةَ العدلِ فى الرِّضا والغضبِ والقصدَ فى الغنى والفقرِ ولذَّةَ النظرِ إلى وجهِكَ والشوقَ إلى لقائِكَ ، وأعوذُ بكَ منْ ضرَّاءَ مضرَّةٍ وفتنةٍ مضلَّةٍ ، اللهمَّ زيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ ، واجعلْنا هداةً مهتدينَ ، اللهمَّ (٤) اقسمْ لنا منْ خشيتِكَ ما تحولُ بهِ بيننا وبينَ معاصيكَ ، ومنْ طاعتِكَ ما تبلِّغُنا بهِ جنَّتَكَ ، ومنَ اليقينِ ما تهوِّنُ بهِ علينا مصائبَ الدنيا والآخرةِ ، اللهمَّ (٥) املأْ وجوهَنا منكَ حياءً ، وقلوبَنا منكَ فرَقًا ، وأسكنْ فى نفوسِنا منْ عظمتِكَ ما تذلِّلُ بهِ جوارحَنا لخدمتِكَ واجعلْكَ اللهمَّ أحبَّ إلينا ممَّنْ سواكَ ، واجعلْنا أخشى لكَ ممَّنْ سواكَ ،

---

(١) حديث اللهم انى أسألك ايمانا لايرتد ونعيما لاينفد وقرة عين الابد ـ الحديث : ن فى اليوم والليلة وك من حديث عبد الله بن مسعود دون قوله وقرة عين الابد وقال صحيح الاسناد ون من حديث عمار بن ياسر باسناد جيد وأسألك نعيما لايبيد وقرة عين لاتنقطع

(٢) حديث اللهم انى أسألك الطيبات وفعل الخيرات ـ الحديث : الى قوله غير مفتون : ت من حديث معاذ اللهم انى أسألك فعل الخيرات ـ الحديث : وقال حسن صحيح ولم يذكر الطيبات وهى فى الدعاء للطبرانى من حديث عبد الرحمن بن عايش وقال أبو حاتم ليست له صحبة

(٣) حديث اللهم انى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ـ الحديث : الى قوله واجعلنا هداة مهتدين : ن ك وقال صحيح الاسناد من حديث عمار بن ياسر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به

(٤) حديث اللهم اقسم لنا من خشيتك ماتحول به بيننا وبين معصيتك ـ الحديث : ت وقال حسن و ن فى اليوم والليلة و ك وقال صحيح على شرط خ من حديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يختم مجلسه بذلك

(٥) حديث اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحا ـ الحديث : إلى قوله واجعلنا أخشى لك من سواك لم أقف له على أصل

اللَّهُمَّ(١) اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِنَا هَذَا صَلَاحًا وَأَوْسَطَهُ فَلَاحًا وَآخِرَهُ نَجَاحًا ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَهُ رَحْمَةً وَأَوْسَطَهُ نِعْمَةً وَآخِرَهُ تَكْرِمَةً وَمَغْفِرَةً (٢) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِعِزَّتِهِ ، وَخَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِمُلْكِهِ ، وَاسْتَسْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ لِقُدْرَتِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَكَنَ كُلُّ شَيْءٍ لِهَيْبَتِهِ ، وَأَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِحِكْمَتِهِ وَتَصَاغَرَ كُلُّ شَيْءٍ لِكِبْرِيَائِهِ ، اللَّهُمَّ (٣) صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِ مُحَمَّدٍ وَذُرِّيَّتِهِ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ (٤) صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ رَسُولِكَ الْأَمِينِ وَأَعْطِهِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ يَوْمَ الدِّينِ ، اللَّهُمَّ (٥) اجْعَلْنَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِكَ الْمُفْلِحِينَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَاسْتَعْمِلْنَا لِمَرْضَاتِكَ عَنَّا ، وَوَفِّقْنَا لِمَحَابِّكَ مِنَّا ، وَصَرِّفْنَا بِحُسْنِ اخْتِيَارِكَ لَنَا ، (٦) نَسْأَلُكَ جَوَامِعَ الْخَيْرِ وَفَوَاتِحَهُ وَخَوَاتِمَهُ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ جَوَامِعِ الشَّرِّ وَفَوَاتِحِهِ وَخَوَاتِمِهِ

---

(١) حديث اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة : عبد بن حميد فى المنتخب والطبرانى من حديث ابن أوفى بالشطر الأول فقط إلى قوله نجاحا وأسناده ضعيف

(٢) حديث الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته ـ الحديث : إلى قوله وتصاغر كل شيء لكبريائه : الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله : والحمد لله الذى سكن كل شيء لهيبته إلى آخره . وكذلك رواه فى الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضا

(٣) حديث اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ـ الحديث : إلى قوله حميد مجيد : تقدم فى الباب الثانى

(٤) حديث اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسول الأميين وأعطه المقام المحمود يوم الدين : لم أجده بهذا اللفظ مجموعا و خ من حديث أبى سعيد اللهم صل على محمد عبدك ورسولك و حب قط ك هق من حديث ابن مسعود اللهم صل على محمد النبي الأمى و ن من حديث جابر وابعثه المقام المحمود الذى وعدته وهو عند خ باللفظ وابعثه مقاما محمودا قال قط أسناده حسن وقال ك صحيح وقال هق فى المعرفة أسناده صحيح

(٥) حديث اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين ـ الحديث : إلى قوله صرفنا بحسن اختيارك لنا : لم أقف له على أصل

(٦) حديث نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه : طب من حديث أم سلمة إنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات فذكر منها اللهم إنى أسألك فواتح الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين : فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه الا موسى بن عقبة

اللهم[1] بقدرتك على تب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، وبحلمك عني اعف عني إنك أنت الغفار الحليم ، وبعلمك بي ارفق بي إنك أنت أرحم الراحمين ، وبملكك لي ملكني نفسي ولا تسلطها عليّ إنك أنت الملك الجبار ، [2] سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي إنك أنت ربي ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم[3] ألهمني رشدي وقني شر نفسي ، اللهم[4] ارزقني حلالا لا تعاقبني عليه وقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحا تقبله مني ، [5] اسألك العفو والعافية وحسن اليقين ، والمعافاة في الدنيا والآخرة [6] يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ، هب لي ما لا يضرك وأعطني مالا ينقصك (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين[1]) ، (أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين[2]) (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك[3]) (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير[4]) (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين[5]) (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ،

---

(١) حديث اللهم بقدرتك على تب علي انك أنت التواب الرحيم وبحلمك على اعف عني ـ الحديث الى قوله انك الملك الجبار : لم أقف له على أصل

(٢) حديث سبحانك اللهم وبحمدك لا اله الا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي أنت ربي انه لا يغفر الذنوب الا أنت : هو في الدعوات من حديث على دون قوله ذنبي انك أنت ربي : وقد تقدم في الباب الثاني

(٣) حديث اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي : ت من حديث عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه لحصين وقال حسن غريب : ورواه ن في اليوم والليلة و ك من حديث حصين والد عمران وقال صحيح على شرط الشيخين

(٤) حديث اللهم ارزقني حلالا لا تعاقبني فيه وقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحا تقبله مني : ك من حديث ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف على كل غائبة لي بخير وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه

(٥) حديث اللهم انى أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة : ن من حديث أبي بكر الصديق بلفظ سلوا الله المعافاة فانه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة وفي رواية للبيهقي سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فانه ما أوتى العبد بعد اليقين خيرا من العافية وفي رواية لأحمد أسأل الله العفو والعافية

(٦) حديث يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي مالا يضرك وأعطني مالا ينقصك : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف

---

(١) الاعراف : ١٢٦ (٢) يوسف : ١٠١ (٣) الاعراف : ١٥٥ ، ١٥٦ (٤) الممتحنة : ٤ (٥) يونس : ٨٥

رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[1])، (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ[2]). (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[3]). (رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا[4]). (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[5]). (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ) إلى قوله عزوجل (إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ[6]). (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا[7]): إلى آخر السورة (1) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا وَاغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ (2) رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَتَجَاوَزْ عَمَّا تَعْلَمْ وَأَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ (3) إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا

(١) حديث رب اغفر لى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات: د ه باسناد حسن من حديث أبى أسيد الساعدى قال رجل من بنى سلمة هل بقى على من بر أبوى شىء قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما ـ الحديث: ولأبى الشيخ حب فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أنس من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مضى من أول الدهر أو هو كائن إلى يوم القيامة وسنده ضعيف وفى صحيح حب من حديث أبى سعيد أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل فى دعائه اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فانها زكاة

(٢) حديث رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين: أحمد من حديث أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول رب اغفر وارحم واهدنى السبيل الأقوم وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه وللطبرانى فى الدعاء من حديث ابن مسعود انه صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا سعى فى بطن المسيل اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه ورواه موقوفا عليه بسند صحيح

(٣) حديث اللهم انى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد الى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر: خ من حديث سعد بن أبى وقاص

(١) الممتحنة: ٥ (٢) آل عمران: ١٤٧ (٣) الحشر: ١٠ (٤) الكهف: ١٠ (٥) البقرة: ٢٠١ (٦) آل عمران: ١٩٣، ١٩٤

(٧) البقرة: ٢٨٦

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ (١) إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبْعٍ وَمِنْ طَمَعٍ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ وَمِنْ طَمَعٍ حَيْثُ لَا مَطْمَعَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٢) مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَمِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ وَمِنَ الْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَمِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ قُلُوبًا أَوَّاهَةً مُخْبِتَةً مُنِيبَةً فِي سَبِيلِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَمُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٣) مِنَ التَّرَدِّي وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْغَمِّ وَالْغَرَقِ وَالْهَدْمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فِي تَطَلُّبِ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٤) مِنْ شَرِّ مَا عَلِمْتُ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ (٥) جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَدْوَاءِ وَالْأَهْوَاءِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٦) مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرْكِ الشَّقَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٧) مِنَ الْكُفْرِ وَالدَّيْنِ وَالْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ

---

(١) حديث اللهم انى أعوذ بك من طبع يهدى الى طمع وطمع فى غير مطمع ومن طمع حيث لامطمع: أحمد ك من حديث معاذ وقال مستقيم الأسناد

(٢) حديث اللهم انى أعوذبك من علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لايسمع ـ الحديث : الى قوله والنجاة من النار ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح الاسناد وليس كما قال الا أنه ورد مفرقا فى أحاديث جيدة الأسانيد

(٣) حديث اللهم انى أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم ـ الحديث : الى قوله وأعوذ بك أن أموت فى تطلب الدنيا : د ن ك وصحح أسناده من حديث أبى اليسر واسمه كعب بن عمر بزيادة فيه دون قوله وأعوذ بك أن أموت فى تطلب دنيا وتقدم من عند البخارى الاستعاذة من فتنة الدنيا

(٤) حديث اللهم انى أعوذ بك من شر ماعلمت ومن شر مالم أعلم : قلت هكذا فى غير نسخة علمت وانما هو عملت وأعمل كذا رواه : م من حديث عائشة ولأبى بكر بن الضحاك فى الشمائل فى حديث مرسل فى الاستعاذة وفيه وشر مالم أعمل وشر مالم أعلم

(٥) حديث اللهم جنبنى منكرات الاخلاق والاعمال والادواء والاهواء : ت وحسنة و ك وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك

(٦) حديث اللهم انى أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء: متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٧) حديث اللهم انى أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال : ن ك وقال صحيح الاسناد من حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول من الكفر والدين وفى رواية للنسائى من الكفر والفقر ولمسلم من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال وللشيخين من حديث عائشة فى حديث قال فيه ومن شر فتنة المسيح الدجال

مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ (١) شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِي وَشَرِّ لِسَانِي وَقَلْبِي وَشَرِّ مَنِيِّي ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ (٢) جَارِ السَّوْءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٣) مِنَ الْقَسْوَةِ وَالْغَفْلَةِ وَالْعَيْلَةِ وَالذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ وَالْفُسُوقِ وَالشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ وَضِيقِ الْأَرْزَاقِ وَالسُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى وَالْجُنُونِ وَالْجُذَامِ وَالْبَرَصِ وَسَيِّءِ الْأَسْقَامِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ (٤) زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَمِنْ تَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَمِنْ فُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَمِنْ جَمِيعِ سَخَطِكَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٥) مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ وَشَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٦) مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَصَلَاةٍ لَا تَنْفَعُ وَدَعْوَةٍ لَا تُسْتَجَابُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْغَمِّ وَفِتْنَةِ الصَّدْرِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ (٧) مِنْ غَلَبَةِ الْعَدُوِّ وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى كُلِّ عَبْدٍ مُصْطَفَى مِنْ كُلِّ الْعَالَمِينَ آمِينَ

---

(١) حديث اللهم انى أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وقلبي وشر مني: د ن ت وحسنه ك وصحح أسناده من حديث سهل بن حميد

(٢) حديث اللهم انى أعوذ بك من جار السوء فى دار المقامة فان جار البادية يتحول : ن ك من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط م

(٣) حديث اللهم انى أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام : د ن مقتصرين على الاربعة الاخيرة و ك بتمامه من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

(٤) حديث اللهم انى أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك ومن جميع سخطك: م من حديث ابن عمر

(٥) حديث اللهم انى أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم: متفق عليه من حديث عائشة

(٦) حديث اللهم انى أعوذ بك من نفس لاتشبع وقلب لايخشع وصلاة لاتنفع ودعوة لاتستجاب وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر : م من حديث زيد بن أرقم فى أثناء حديث اللهم انى أعوذ بك من قلب لايخشع ونفس لاتشبع وعمل لايرفع ودعوة لايستجاب لها وصلاة لاتنفع وشك أبو المعتمر فى سماعه من أنس وللنسائى باسناد جيد من حديث عمر فى أثناء حديث وأعوذ بك و د من حديث أنس اللهم انى أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر

(٧) حديث اللهم انى أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء : ن ك من حديث عبد الله ابن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم

الباب الخامس

في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه ؛ وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه ، وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة ، فاذا خرجت إلى المسجد فقل «اللَّهُمَّ [١] اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً وَفِي لِسَانِي نُوراً وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُوراً وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُوراً وَاجْعَلْ خَلْفِي نُوراً وَأَمَامِي نُوراً وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُوراً ، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُوراً. وَقُلْ أَيْضاً «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ [٢] بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَبِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا إِلَيْكَ فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَراً وَلَا بَطَراً وَلَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً ، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »

فان خرجت من المنزل لحاجة فقل [٣] « بِسْمِ اللهِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ [٤] بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللهِ التُّكْلَانُ عَلَى اللهِ » فاذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل « اللَّهُمَّ [٥] صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَمِيعَ ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » وقدم رجلك اليمنى في الدخول

﴿ الباب الخامس في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث ﴾

(١) حديث القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس

(٢) حديث اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا اليك ـ الحديث : من حديث أبي سعيد الخدري باسناد حسن

(٣) حديث القول عند الخروج من المنزل لحاجته بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على : أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال ت حسن صحيح

(٤) حديث بسم الله الرحمن الرحيم ولاحول ولاقوة إلا بالله التكلان على الله : ه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزله قال بسم الله فذكره إلا أنه لم يقل الرحمن الرحيم وفيه ضعف

(٥) حديث القول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي ابواب رحمتك : ت ه من حديث فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ت حسن وليس أسناده بمتصل ولمسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد اذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك وزاد د في أوله فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم

فإذا رأيت فى المسجد[١] من يبيع أو يبتاع فقل «لاَ أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ» وإذا رأيت من [٢] ينشد ضالة فى المسجد فقل «لاَ رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ» أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] فاذا صليت ركعتى الصبح فقل: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِى بِهَا قَلْبِي الدعاء إلى آخره كما أوردناه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم [٤] فاذا ركعت فقل فى ركوعك «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَلَكَ خَشَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ أَنْتَ رَبِّى خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِى للهِ رَبِّ العَالَمِينَ» وإن أحببت فقل[٥] «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ[٦] أو سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلاَئِكَةِ والرُّوحِ»[٧] فاذا رفعت رأسك من الركوع فقل «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمٰوَاتِ وَمِلْءُ الْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»

وإذا سجدت فقل «اللَّهُمَّ[٨] لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ سَجَدَ وَجْهِيَ لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، اللَّهُمَّ سَجَدَ لَكَ سَوَادِي وَخَيَالِي وَآمَنَ بِكَ فُؤَادِي أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي وَهَذَا مَا جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ» أو تقول[٩] «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ثَلاَثَ مَرَّاتٍ

---

(١) حديث القول اذا رأى من يبيع أو يبتاع فى المسجد لا أربح الله تجارتك : ت وقال حسن غريب و ن فى اليوم والليلة من حديث أبى هريرة

(٢) حديث القول اذا رأى من ينشد ضالة فى المسجد لاردها الله عليك : م من حديث أبى هريرة

(٣) حديث ابن عباس فى القول بعد ركعتى الصبح اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى الخ: قد تقدم فى الدعاء

(٤) حديث ابن عباس فى القول فى الركوع اللهم لك ركعت ولك أسلمت ـ الحديث : م من حديث على

(٥) حديث القول فيه سبحان ربى العظيم ثلاثا : د ت ه من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع

(٦) حديث القول فيه سبوح قدوس رب الملائكة والروح : م من حديث عائشة

(٧) حديث القول عند الرفع من الركوع سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ـ الحديث : م من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس دون قوله سمع الله لمن حمده فهى فى اليوم والليلة للحسن بن على العمرى وهى عند م من حديث ابن أبى أوفى وعند خ من حديث أبى هريرة

(٨) حديث القول فى السجود اللهم لك سجدت ـ الحديث : م من حديث على اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبى وهذا ماجنيت على نفسى فاغفرلى فانه لايغفر الذنوب الاأنت ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح الأسناد وليس كما قال بل هو ضعيف

(٩) حديث سبحان ربى الأعلى ثلاثا : د ت ه من حديث ابن مسعود وهو منقطع

فإذا فرغت من الصلاة فقل «اللَّهُمَّ(١) أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها

فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل(٢) «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» فإذا دخلت السوق فقل(٣) «لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٤) بِسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَٰذِهِ السُّوقِ وَخَيْرَ مَا فِيهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُصِيبَ فِيهَا يَمِينًا فَاجِرَةً أَوْ صَفْقَةً خَاسِرَةً»

فإن كان عليك دين فقل: «اللَّهُمَّ(٥) اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»

فإذا لبست ثوباً جديداً فقل «اللَّهُمَّ(٦) كَسَوْتَنِي هَٰذَا الثَّوْبَ فَلَكَ الْحَمْدُ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ»

وإذا رأيت شيئاً من الطيرة تكرهه فقل(٧) «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»

---

(١) حديث القول إذا فرغ من الصلاة اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام: م من حديث ثوبان

(٢) حديث كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت: ن في اليوم والليلة من حديث رافع بن خديج باسناد حسن

(٣) حديث القول عند دخول السوق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير: ت من حديث عمر وقال غريب و لك وقال صحيح على شرط الشيخين

(٤) حديث بسم الله اللهم اني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم اني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم اني أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة: ك من حديث بريدة وقال أقربها لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة. قلت فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدي مختلف فيه

(٥) حديث دعاء الدين اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك: ت وقال حسن غريب و لك وقال صحيح الأسناد من حديث علي بن أبي طالب.

(٦) حديث الدعاء اذا لبس ثوبا جديدا اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له: د ت وقال حسن و ن في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري: ورواه ابن السني بلفظ المصنف

(٧) حديث القول إذا رأى شيئا من الطيرة يكرهه اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة الا بالله: ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة وهق في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلا ورجاله ثقات وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبة ابن عامر فجعله مسندا

وإذا رأيت الهلال فقل « اللَّهُمَّ (١) أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالْبِرِّ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ وَالتَّوْفِيقِ لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى، وَالْحِفْظِ مِمَّنْ تَسْخَطُ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ » ويقول « هِلَالُ (٢) رُشْدٍ وَخَيْرٍ، آمَنْتُ بِخَالِقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ (٣) خَيْرَ هَذَا الشَّهْرِ وَخَيْرَ الْقَدَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ يَوْمِ الْحَشْرِ »، وتكبر قبله أولا ثلاثا،

وإذا هبت الريح فقل « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ (٤) خَيْرَ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَمِنْ شَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ »

وإذا بلغك وفاة أحد فقل (٥) (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١)) (وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (٢)) اللَّهُمَّ اكْتُبْهُ فِي الْمُحْسِنِينَ، وَاجْعَلْ كِتَابَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَاخْلُفْهُ عَلَى عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ » وتقول عند التصدق (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣)) وتقول عند الخسران: (عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٤)) وتقول عند ابتداء الأمور (رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (٥)) (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٦))

---

(١) حديث التكبير عند رؤية الهلال ثلاثا ثم يقول اللهم أهله علينا بالأمن والايمان والسلامة والاسلام ربي وربك الله : الدارمي من حديث ابن عمر الا أنه أطلق التكبير ولم يقل ثلاثا : ورواه ت وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير والبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلا كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا رأى الهلال كبر ثلاثا

(٢) حديث هلال خير ورشد آمنت بخالقك : د مرسلا من حديث قتادة أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذي خلقك ثلاث مرات وأسنده الدارقطني في الأفراد والطبراني في الأوسط من حديث أنس وقال د وليس في هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث مسند صحيح

(٣) حديث اللهم انى أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر : ابن أبي شيبة وأحمد في مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوي عنه حدثني من لا أتهم

(٤) حديث القول اذا هبت الريح اللهم انى أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به : ت وقال حسن صحيح و ن في اليوم والليلة من حديث أبي بن كعب

(٥) حديث القول اذا بلغه وفاة أحد انا لله وانا اليه راجعون وانا الى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه من المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله : ابن السني في اليوم والليلة وحب من حديث أم سلمة اذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل انا لله وانا اليه راجعون ولمسلم من حديثها اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه

---

(١) البقرة : ١٥٦ (٢) الزخرف : ١٤ (٣) البقرة : ١٢٧ (٤) ن : ٣٢ (٥) الكهف : ١٠ (٦) طه : ٢٥، ٢٦

وتقول عند النظر إلى السماء (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [١]) (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا [٢])

وإذا سمعت صوت الرعد فقل [١] « سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ »

فإن رأيت الصواعق فقل [٢] « اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ » قاله كعب

فإذا أمطرت السماء فقل « اللَّهُمَّ [٣] سُقْيَا هَنِيئًا وَصَيِّبًا نَافِعًا ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ [٤] صَيِّبَ رَحْمَةٍ وَلَا تَجْعَلْهُ صَيِّبَ عَذَابٍ » فإذا غضبت فقل اللهم [٥] اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم

فإذا خفت قوما فقل ، اللَّهُمَّ [٦] إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ ،

فإذا غزوت فقل اللَّهُمَّ [٧] أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي وَبِكَ أُقَاتِلُ [٨] وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل : ذَكَرَ اللَّهُ مَنْ ذَكَرَنِي بِخَيْرٍ [٩] ، فإذا رأيت استجابة دعائك فقل ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ ، وإذا أبطأت فقل الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ [١٠] وإذا سمعت أذان المغرب فقل « اللَّهُمَّ هَذَا إِقْبَالُ لَيْلِكَ وَإِدْبَارُ نَهَارِكَ وَأَصْوَاتُ دُعَاتِكَ

---

(١) حديث القول اذا سمع صوت الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته : مالك في الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفا ولم أجده مرفوعا

(٢) حديث القول عند الصواعق اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك : ت وقال غريب ن في اليوم والليلة من حديث ابن عمر وابن السني باسناد حسن

(٣) حديث القول عند المطر اللهم سقيا هنيأ وصيبا نافعا : خ من حديث عائشة كان إذا رأى المطر قال اللهم اجعله صيبا نافعا وهو سيبا بالسين أوله ون في اليوم والليلة اللهم اجعله صيبا هنيأ واسنادها صحيح

(٤) حديث اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب : ن في اليوم والليلة من حديث سعيد بن المسيب مرسلا

(٥) حديث القول إذا غضب اللهم اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم : ابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف

(٦) حديث القول اذا خاف قوما اللهم انى أجعلك فى نحورهم وأعوذ بك من شرورهم : د ن في اليوم والليلة من حديث أبي موسى بسند صحيح

(٧) حديث القول اذا غزا اللهم أنت عضدي ونصيري بك أقاتل : د ت ن من حديث أنس قال ت حسن غريب

(٨) حديث القول عند طنين الأذن اللهم صل على محمد ذكر الله بخير من ذكرني : الطبراني وابن عدي وابن السني في اليوم والليلة من حديث أبي رافع بسند ضعيف

(٩) حديث القول اذا رأى استجابة دعائه الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات : تقدم في الدعاء

(١٠) حديث القول اذا سمع أذان المغرب اللهم هـذا اقبال ليلك وادبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفرلي : ت د وقال غريب و ك من حديث أم سلمة دون قوله وحضور صلواتك فانها عند الخرائطي في مكارم الأخلاق والحسن بن علي المعمري في اليوم والليلة

[١] آل عمران : ١٩١ [٢] الفرقان : ٦١

وَحُضُورُ صَلَوَاتِكَ ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي »(١) وإذا أصابك همّ فقل ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ غَمِّي وَذَهَابَ حُزْنِي وَهَمِّي قال صلى الله عليه وسلم « مَا أَصَابَ أَحَداً حُزْنٌ فَقَالَ ذَلِكَ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً » فقيل له يارسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال صلى الله عليه وسلم « بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا » وإذا وجدت وجعا فى جسدك أو جسد غيرك فارقه برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحا وضع سبابته على الأرض ثم رفعها ، وقال (٢) بِسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرُقْيَةِ بَعْضِنَا يُشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا (٣) ، وإذا وجدت وجعا فى جسدك فضع يدك على الذى يتألم من جسدك وقل « بِسْمِ اللهِ ثَلَاثاً وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ »(٤) ، فإذا أصابك كرب فقل « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَلِيُّ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (٥) فان أردت النوم فتوضأ أولا ، ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ، ثم كبر الله تعالى أربعا وثلاثين ، وسبحه ثلاثا وثلاثين ، واحمده ثلاثا وثلاثين ، ثم قل (٦) ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ،

---

(١) حديث القول اذا أصابه هم اللهم انى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ــ الحديث : أحمد وحب ك من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط م ان سلم من ارسال عبد الرحمن عن أبيه فانه مختلف فى سماعه من أبيه

(٢) حديث رقية رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله تربة أرضنا برقية بعضنا يشفى سقيمنا باذن ربنا: متفق عليه من حديث عائشة

(٣) حديث وضع يده على الذى يألم من جسده ويقول بسم الله ثلاثا ويقول أعوذ بعزة الله وقدرته من شرما أجد وأحاذر سبع مرات : م من حديث عثمان بن أبى العاص

(٤) حديث دعاء الكرب لا اله الا الله العلى الحليم ــ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس

(٥) حديث التكبير عند النوم أربعا وثلاثين والتسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد ثلاثا وثلاثين : متفق عليه من حديث على

(٦) حديث القول عند ارادة النوم اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك : النسائى فى اليوم والليلة من حديث على وفيه انقطاع

اللّهُمّ إني لا أستطيعُ أنْ أبلغَ ثناءً عليكَ ولوْ حرصْتُ ولكنْ أنتَ كما أثنيْتَ على نفسكَ ، اللّهُمّ(١) باسمكَ أحيا وأموتُ . اللّهُمّ(٢) ربَّ السمواتِ وربَّ الأرضِ وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ فالقَ الحَبِّ والنوى ومنزلَ التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، أعوذُ بكَ منْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ ، ومنْ شرِّ كلِّ دابّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها ، أنتَ الأوّلُ فليسَ قبلكَ شيءٌ ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بعدكَ شيءٌ ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقكَ شيءٌ وأنتَ الباطنُ فليسَ دونكَ شيءٌ اقضِ عنّي الدّينَ وأغنِني منَ الفقرِ ، اللّهُمّ(٣) إنكَ خلقتَ نفسي وأنتَ تتوفّاها ، لكَ مماتُها ومحياها ، اللّهُمّ إنْ أمتّها فاغفرْ لها وإنْ أحييتَها فاحفظْها ، اللّهُمّ إني أسألُكَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ (٤) باسمكَ ربّي وضعتُ جنبي فاغفرْ لي ذنبي ، اللّهُمّ(٥) قِني عذابكَ يومَ تجمعُ عبادكَ ، اللّهُمّ(٦) أسلمتُ نفسي إليكَ ووجّهتُ وجهي إليكَ وفوّضتُ أمري إليكَ وألجأتُ ظهري إليكَ رغبةً ورهبةً إليكَ لا ملجأَ ولا منجا منكَ إلّا إليكَ آمنتُ بكتابكَ الذي أنزلتَ ونبيّكَ الذي أرسلتَ » ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وليقل قبل ذلك اللّهُمّ(٧) أيقظْني في أحبِّ الساعاتِ إليكَ واستعملْني بأحبِّ الأعمالِ إليكَ تقرّبُني إليكَ زلفى وتبعدُني منْ سخطكَ بعداً أسألُكَ فتعطيني وأستغفرُكَ فتغفرُ لي وأدعوكَ فتستجيبُ لي »

---

(١) حديث اللهم باسمك أحيا وأموت : خ من حديث حذيفة و م من حديث البراء

(٢) حديث اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فالق الحب والنوى ـ الحديث : الى قوله وأغنا من الفقر م من حديث أبي هريرة

(٣) حديث اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها ـ الحديث : الى قوله اني أسألك العافية م من حديث ابن عمر

(٤) حديث باسمك ربي وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي : ن في اليوم والليلة من حديث عبد الله بن عمرو بسند جيد وللشيخين من حديث أبي هريرة باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ان أمسكت نفسي فاغفر لها وقال خ فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين

(٥) حديث اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك : ت في الشمائل من حديث ابن مسعود وهو عند د من حديث حفصة بلفظ تبعث وكذا رواه ت من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه

(٦) حديث اللهم اني أسلمت نفسي اليك وفوضت أمري اليك ـ الحديث : متفق عليه من حديث البراء

(٧) حديث اللهم أيقظني في أحب الساعات اليك واستعملني في أحب الأعمال اليك تقربني اليك زلفى وتبعدني من سخطك بعدا أسألك فتعطيني واستغفرك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس اللهم ابعثنا في أحب الساعات اليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا واسناده ضعيف، وهو معروف من قول حبيب الطائي كما رواه ابن ابي الدنيا في الدعاء

(١) فإذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (٢) أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلّٰهِ وَالْعَظَمَةُ وَالسُّلْطَانُ لِلّٰهِ وَالْعِزَّةُ وَالْقُدْرَةُ لِلّٰهِ (٣) أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، اللَّهُمَّ (٤) بِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، اللَّهُمَّ (٥) إِنِّى أَسْأَلُكَ أَنْ تَبْعَثَنَا فِى هَذَا الْيَوْمِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ ، وَنَعُوذُ بِكَ أَنْ نَجْتَرِحَ فِيهِ سُوءًا أَوْ نَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ فَإِنَّكَ قُلْتَ (وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى (١)) اللَّهُمَّ (٦) فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا ، أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ وَخَيْرَ مَا فِيهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا فِيهِ ،

---

(١) حديث القول اذا استيقظ من منامه الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور : خ من حديث حذيفة وم من حديث البراء

(٢) حديث أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله : الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة أصبحنا وأصبح الملك والحمد والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والارض وكل شىء لله رب العالمين وله فى الدعاء من حديث ابن أبى أوفى أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيهما لله واسنادهما ضعيف ولمسلم من حديث ابن مسعود أصبحنا وأصبح الملك لله

(١) حديث أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين : ن فى اليوم والليلة من حديث عبد الرحمن بن أبزى بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبزى عن أبى كعب مرفوعا

(٢) حديث اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك المصير : أصحاب السنن وحب وحسنه ت الا أنهم قالوا واليك النشور ولابن السنى واليك المصير

(٣) حديث اللهم انا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم الى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوأ أو نجره الى مسلم الحديث : لم أجد أوله وت من حديث أبى بكر فى حديث له وأعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن تقترف على أنفسنا سوءا أو نجره الى مسلم رواه د من حديث أبى مالك الأشعرى باسناد جيد

(٤) حديث اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر مافيه : قلت هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا اقض عنى الدين وأغننى من الفقر وقونى على الجهاد فى سبيلك وللدارقطنى فى الأفراد من حديث البراء نسألك خير هذا اليوم وخير مابعده ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده و د من حديث أبى مالك الأشعرى اللهم انا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته وأعوذ بك من شر مافيه وشر مابعده وبسنده جيد وللحسن بن على المعمر فى اليوم والليلة من حديث ابن مسعود اللهم انى أسألك خير ما فى هذا اليوم وخير مابعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر مابعده والحديث . عند م فى المساء خير مافى هذه الليلة ـ الحديث : ثم قال واذا أصبح قال ذلك أيضا

---

(١) الأنعام : ٦٠

«⁽¹⁾ بِسْمِ اللهِ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، مَاشَاءَ اللهُ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنَ اللهِ ، مَاشَاءَ اللهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللهِ ، مَا شَاءَ اللهُ لَا يَصْرِفُ السُّوءَ إِلَّا اللهُ ، ⁽²⁾ رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ، (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [1]) .

⁽³⁾ وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول أمسينا ويقول مع ذلك « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ وَأَسْمَائِهِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ وَبَرَأَ ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

⁽⁴⁾ وإذا نظر فى المرآة قال « الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي سَوَّى خَلْقِي فَعَدَّلَهُ وَكَرَّمَ صُورَةَ وَجْهِي وَحَسَّنَهَا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

---

(١) حديث بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله كل نعمة فمن الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله : عد فى الكامل من حديث ابن عباس ولا أعلمه إلا مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال يلتقى الخضر والياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم بمنى فيحلق كل واحد منها رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات فذكره ولم يقل الخير كله بيد الله قال موضعها لايسوق الخير إلا الله قال ابن عباس من قالهن حين يصبح وحين يمسى أمنه الله من الغرق والحرق وأحسبه قال ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب أورده فى ترجمة الحسين بن رزين وقال ليس بالمعروف وهو بهذا الاسناد منكر

(٢) حديث رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا : تقدم فى الباب الأول

(٣) حديث القول عند المساء مثل الصباح الا أنك تقول أمسينا وتقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ماذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربى على صراط المستقيم : أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث عبد الرحمن بن عوف من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التى لايجاوزهن بر ولا فاجر من شر ماخلق وبرأ وذرأ اعتصم من شر الثقلين ـ الحديث : وفيه وان قالهن حين يمسى كن له كذلك حتى يصبح وفيه ابن لهيعة ولأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسن فى حديث أن جبريل قال، يامحمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء، الحديث : واسناده جيد ولمسلم من حديث أبى هريرة فى الدعاء عند النوم أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها وللطبرانى فى الدعاء من حديث أبى الدرداء اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة الخ ـ الحديث : وقد تقدم فى الباب الثانى

(٤) حديث القول اذا نظر فى المرآة الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهى وحسنها وجعلنى من المسلمين : الطبرانى فى الأوسط وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضعيف

---

(1) الممتحنة : ٤

وإذا اشتريت خادما أو غلاما أودابة فخذ بناصيته وقل : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ »[1]

وإذا هنأت بالنكاح فقل : « بَارَكَ اللهُ فِيكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ »[2]

. وإذا قضيت الدين فقل للمقضى له[3] « بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ » إذ قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْحَمْدُ وَالْأَدَاءُ »

فهذه أدعية لا يستغنى المريد عن حفظها ، وماسوى ذلك من أدعية السفر و الصلاة والوضوء ذكرناها فى كتاب الحج والصلاة والطهارة

فان قلت فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له

فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء ، واستجلاب الرحمة ، كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان ، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح ، وقد قال تعالى: (خُذُوا حِذْرَكُمْ[1]) وأن لا يسقى الأرض بعد بث البذر ، فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت ، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر أو هو أقرب ، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر والذى قدر الخير قدره بسبب والذى قدر الشر قدر لدفعه سببا ، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته ،

ثم فى الدعاء من الفائدة ما ذكرناه فى الذكر فانه يستدعى حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات

---

(١) حديث القول اذا اشترى خادما أودابة اللهم انى أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ماجبل عليه : د هـ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد

(٢) حديث التهنئة بالنكاح بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير : دت هـ من حديث أبى هريرة قال ت حسن صحيح

(٣) حديث الدعاء لصاحب الدين اذا قضى الله دينه بارك الله لك فى أهلك ومالك انما جزاء السلف الحمد والاداء : ن من حديث عبد الله بن أبى ربيعة قال استقرض منى النبى صلى الله عليه وسلم أربعين ألفا فجاءه مال فدفعه الى قال فذكره واسناده حسن

---

(١) النساء : ٧١

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ »

والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمة ، فان الانسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض ، فالحاجة تحوج إلى الدعاء ، والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة ، فيحصل به الذكر الذى هو أشرف العبادات ، ولذلك صار البلاء موكلا بالأنبياء عليهم السلام ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ، ويمنع من نسيانه ، وأما الغنى فسبب للبطر فى غالب الأمور ، فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى

فهذا ما أردنا أن نورده من جملة الأذكار والدعوات ، والله الموفق للخير ، وأما بقية الدعوات فى الأكل والسفر وعيادة المريض وغيرها ، فستأتى فى مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان ،

تم كتاب الأذكار والدعوات بكماله ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأوراد ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) حديث الدعاء مخ العبادة : تقدم فى الباب الأول

كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الرابع

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى القاهرة ت ٣١٨١٠

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين
وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه حمدا كثيرا ، ونذكره ذكرا لا يغادر فى القلب استكبارا ولا نفورا ، ونشكره إذ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، ونصلى على نبيه الذى بعثه بالحق بشيراً ونذيرا ، وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين ، الذين اجتهدوا فى عبادة الله غدوة وعشيا وبكرة وأصيلا ، حتى أصبح كل واحد منهم نجما فى الدين هاديا وسراجا منيرا

أما بعد : فان الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده ، لا ليستقروا فى مناكبها بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها زادا يحملهم فى سفرهم إلى أوطانهم ، ويكتنزون منها تحفا لنفوسهم عملا وفضلا ، محترزين من مصايدها ومعاطبها ، ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها ، فالناس فى هذا العالم سفر ، وأول منازلهم المهد ، وآخرها اللحد ، والوطن هو الجنة أو النار ، والعمر مسافة السفر ، فسنوه مراحله ، وشهوره فراسخه ، وأيامه أمياله ، وأنفاسه خطواته ، وطاعته بضاعته ، وأوقاته رءوس أمواله ، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه ، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى فى دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم ، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الانكال والأغلال والعذاب الأليم فى دركات الجحيم ، فالغافل فى نفس من أنفاسه حتى ينقضى فى غير طاعة تقربه إلى الله زلفى متعرض فى يوم التغابن لغبينة وحسرة ما لها منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجد ، وودعوا بالكلية ملاذ النفس ، واغتنموا بقايا العمر ، ورتبوا بحسب تكرر الأوقات وظائف الأوراد ، حرصا على إحياء الليل والنهار فى طلب القرب من الملك الجبار والسعى إلى دار القرار ، فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول فى كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التى سبق شرحها على مقادير الأوقات ، ويتضح هذا المهم بذكر بابين

الباب الأول : فى فضيلة الأوراد ، وترتيبها فى الليل والنهار

الباب الثانى : فى كيفية إحياء الليل ، وفضيلته وما يتعلق به

الباب الأول

فى فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد

وبيان أن المواظبة عليها هى الطريق إلى الله تعالى

اعلم ان الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لانجاة إلا فى لقاء الله تعالى ، وأنه لاسبيل إلى اللقاء إلا بان يموت العبد محبا لله تعالى ، وعارفا بالله سبحانه ، وأن المحبة والأنس لاتحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه ، وأن المعرفة به لاتحصل إلا بدوام الفكر فيه وفى صفاته وأفعاله ، وليس فى الوجود سوى الله تعالى وأفعاله ،ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها ، والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة ، وكل ذلك لايتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار فى وظائف الأذكار والأفكار ، والنفس لما جبلت عليه من السآمة والملال لاتصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر، بل إذا رُدَّت إلى نمط واحد أظهرت الملال والاستثقال ، وان الله تعالى لايمل حتى تملوا ، فمن ضرورة اللطف بها أن تروّح بالتنقل من فن الى فن ، ومن نوع إلى نوع ، بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها ، وتعظم باللذة رغبتها ،وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها ، فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة ، فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها ، فان النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا ، فان صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا ، والشطر الآخر الى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا ، لموافقتها الطبع ، إذ يكون الوقت متساويا فأنّى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجح ، إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو فى طلبها القلب ويتجرد ، وأما الرد إلى العبادات فتكلف ، ولايسلم اخلاص القلب فيه وحضوره إلا فى بعض الأوقات ، فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته فى الطاعة ، ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب فى الطاعة أكثر أوقاته ، فان خلط عملا صالحا وآخر سيئا فامره مخطر ، ولكن الرجاء غير منقطع ، والعفو من كرم الله منتظر ، فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده و كرمه ،

فهذا ماانكشف للناظرين بنور البصيرة ، فان لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الايمان ، فقد قال الله تعالى لاقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (١)) وقال تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢)) وقال تعالى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٣)) وقال سبحانه : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤)) وقال تعالى : (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٥)) وقال تعالى : (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (٦)) وقال تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (٧)) ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ . قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)) وقال تعالى: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً (٩)) وقال عز وجل : (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (١٠)) وقال عز وجل : (كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١١)) وقال عز وجل : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٢)) وقال تعالى: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (١٣))

فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالاوراد على سبيل الدوام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْأَظِلَّةَ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى » وقد قال تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (١٤)) وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (١٥))

﴿ كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل ﴾

﴿ الباب الأول في فضيلة الأوراد ﴾

(١) حديث أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله : الطبراني و ك وقال صحيح الاسناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ خيار عباد الله

---

(١) المزمل : ٧ ، ٨ (٢) الدهر : ٢٥ ، ٢٦ (٣) ق : ٣٩ ، ٤٠ (٤) الطور : ٤٨ ، ٤٩ (٥) المزمل : ٦
(٦) طه : ١٣٠ (٧) هود : ١١٤ (٨) الزمر : ٩ (٩) السجدة : ١٦ (١٠) الفرقان : ٦٤ (١١) الذاريات : ١٧ ، ١٨
(١٢) الروم : ١٧ (١٣) الأنعام : ٥٢ (١٤) الرحمن : ٥ (١٥) الفرقان : ٤٥ ، ٤٦

وقال تعالى (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ [١]) وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [٢]) فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ، ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا ، بل لتعرف بها مقادير الاوقات ، فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة ، يدلك عليه قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [٣]) أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما مافات في الآخر ، وبين أن ذلك للذكر والشكر لاغير ، وقال تعالى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ [٤]) وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة ، ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلم أن أوراد النهار سبعة ، فمابين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد ، ومابين طلوع الشمس إلى الزوال وردان ، وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان ، وما بين العصر إلى المغرب وردان ، والليل ينقسم إلى أربعة أوراد ، وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس ، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر ، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به

فالورد الأول : مابين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ [٥]) وتمدحه به إذ قال (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ [٦]) وقال تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ [٧]) وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى : (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا [٨]) وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس وارشادة الناس إلى التسبيح فيه ، بقوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [٩]) وبقوله تعالى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا [١٠]) وقوله عزوجل: (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى [١١]) وقوله تعالى: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [١٢])

---

(١) يس : ٣٩ (٢) الأنعام : ٩٧ (٣) الفرقان : ٦٢ (٤) الاسراء : ١٢ (٥) التكوير : ١٨ (٦) الأنعام : ٩٦
(٧) الفلق : ١ (٨) الفرقان : ٤٦ (٩) الروم : ١٧ (١٠) طه : ١٣٠ (١١) طه : ١٣٠ (١٢) الدهر : ٢٥

فأما ترتيبه: فليأخذ من وقت انتباهه من النوم، فإذا انتبه فينبغي أن يبتدىء بذكر الله تعالى فيقول. الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، إلى آخر الأدعية والآيات التى ذكرناها فى دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات، وليلبس ثوبه وهو فى الدعاء، وينوى به ستر عورته إمتثالا لأمر الله تعالى، واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء، ويدخل أولا رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التى ذكرناها فيه فى كتاب الطهارة عند الدخول والخروج، ثم يستاك على السنة كما سبق، ويتوضأ مراعيا لجميع السنن والأدعية التى ذكرناها فى الطهارة، فإنا إنما قدمنا آحاد العبادات لكى نذكر فى هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط، فاذا فرغ من الوضوء صلى ركعتى الفجر، أعنى السنة فى منزله (١) «كَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم» ويقرأ بعد الركعتين سواء أداهما فى البيت أو المسجد الدعاء الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما، ويقول: اللهم (٢) إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، إلى آخر الدعاء، ثم يخرج من البيت متوجها إلى المسجد، ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد، ولا يسعى إلى الصلاة سعيا (٣) بل يمشى وعليه السكينة والوقار كما ورد به الخبر، ولا يشبك بين أصابعه، ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو (٤) بالدعاء المأثور لدخول المسجد، ثم يطلب من المسجد الصف الأول ان وجد متسعا، ولا يتخطى رقاب الناس ولا يزاحم، كما سبق ذكره فى كتاب الجمعة ثم يصلى ركعتى الفجر إن لم يكن صلاهما فى البيت، ويشتغل بالدعاء المذكور بعدهما، وإن كان قد صلى ركعتى الفجر صلى ركعتى التحية وجلس منتظرا للجماعة، والأحب التغليس بالجماعة فقد كان صلى الله عليه وسلم (٥) يغلس بالصبح، ولا ينبغى أن يدع الجماعة فى الصلاة عامة وفى الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل،

---

(١) حديث صلاة ركعتى الصبح فى المنزل: متفق عليه من حديث حفصة

(٢) حديث الدعاء بعد ركعتى الصبح اللهم انى أسألك رحمة من عندك ـ الحديث: تقدم

(٣) حديث المشى إلى الصلاة وعليه السكينة: متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث الدعاء المأثور لدخول المسجد تقدم فى الباب الخامس من الأذكار

(٥) حديث التغليس فى الصبح: متفق عليه من حديث عائشة

فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] أنه قال فى صلاة الصبح « مَنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيُصَلِّيَ فِيهِ الصَّلَاةَ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ حَسَنَةٌ وَمُحِيَ عَنْهُ سَيِّئَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا فَإِذَا صَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِهِ حَسَنَةٌ وَانْقَلَبَ بِحَجَّةٍ مَبْرُورَةٍ فَإِنْ جَلَسَ حَتَّى يَرْكَعَ الضُّحَى كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ رَكْعَةٍ أَلْفَا أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَنْ صَلَّى الْعَتَمَةَ فَلَهُ مِثْلُ ذَلِكَ وَانْقَلَبَ بِعُمْرَةٍ مَبْرُورَةٍ »

وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر، قال رجل من التابعين: دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أبا هريرة قد سبقنى ، فقال لى يا ابن أخى لأى شىء خرجت من منزلك فى هذه الساعة ، فقلت لصلاة الغداة فقال[(٢)] أبشر فانا كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المسجد فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله تعالى ، أو قال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن علىّ رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم[(٣)] طرقه وفاطمة رضى الله عنهما وهما نائمان فقال أَلَا تُصَلِّيَانِ؟ قال علىّ ، فقلت يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء أن يبعثها بعثها ، فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً »

ثم ينبغى أن يشتغل بعد ركعتى الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ، ثم يصلى الفريضة مراعيا جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة فى الصلاة والقدوة، فاذا فرغ منها قعد فى المسجد إلى طلوع الشمس

---

(١) حديث أنس فى صلاة الصبح من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة ، والحسنة بعشر أمثالها ، وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فان جلس حتى يركع كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة لم أجد له أصلا بهذا السياق وفى شعب الايمان للبيهقى من حديث أنس بسند ضعيف ومن صلى المغرب فى جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة متقبلة

(٢) حديث أبى هريرة كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المجلس فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله لم أقف له على أصل

(٣) حديث على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة وهما نائمان فقال ألا تصليان ؟ قال على فقلت يارسول الله انما أنفسنا بيد الله ـ الحديث : متفق عليه

فى ذكر الله تعالى كما سنرتبه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « لَأَنْ أَقْعُدَ فِي مَجْلِسِي أَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ » وروى أنه صلى الله عليه وسلم [٢] كَانَ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ » وفى بعضها « وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ » أى بعد الطلوع، وقد ورد فى فضل ذلك مالا يحصى، وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال « يَا ابْنَ آدَمَ اذْكُرْنِي بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ سَاعَةً وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ سَاعَةً أَكْفِكَ مَا بَيْنَهُمَا »

وإذا ظهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس، بل ينبغى أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع، أدعية، وأذكار، ويكررها فى سبحة، وقراءة قرءان، وتفكر

أما الأدعية فكلما يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، حينا ربنا بالسلام، وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام، ثم يفتتح الدعاء بما كان يفتتح به رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] وهو قوله « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى الْوَهَّابِ [٥] لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَهْلُ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ ، وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » ثم يبدأ بالأدعية التى أوردناها فى الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه، أو يحفظ من جملتها ما يراه أوفق بحاله، وأرق لقلبه، وأخف على لسانه

---

(١) حديث لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب: د من حديث أنس وتقدم فى الباب الثالث من العلم

(٢) حديث كان إذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس وفى بعضها ويصلى ركعتين أى بعد الطلوع: م من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين و ت من حديث أنس وحسنه من صلى الفجر فى جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة

(٣) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكر من رحمة ربه انه قال يا ابن آدم اذكرنى من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما: ابن المبارك فى الزهد هكذا مرسلا

(٤) حديث كان يفتتح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب: تقدم

(٥) حديث الفضل فى تكرار لا اله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير: تقدم من حديث أبى أيوب تكرارها عشرا دون قوله يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير فانها فى اليوم والليلة للنسائى من حديث أبى ذر دون قوله وهو حى لا يموت وهى كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين وللطبرانى فى الدعاء من حديث عبد الله بن عمرو تكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف

وأما الأذكار المكررة فهى كلمات ورد فى تكرارها فضائل لم نطول بايرادها ، وأقل ماينبغى أن يكرر كل واحدة منها ثلاثا أو سبعا وأكثره مائة أو سبعون ، وأوسطه عشر فليكررها بقدر فراغه وسعة وقته ، وفضل الأكثر أكثر والأوسط الأقصدُ أن يكررها عشر مرات ، فهو أجدر بأن يدوم عليه، وخير الأمور أدومها وإن قل، وكل وظيفة لايمكن المواظبة على كثيرها ، فقليلها مع المداومة أفضل ، وأشد تأثيرا فى القلب من كثيرها مع الفترة ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالى فتحدث فيها حفيرة ؛ ولو وقع ذلك على الحجر ، ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر ، وهذه الكلمات عشرة

الأولى: قوله ٠ لاإله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، يحيي و يميت وهو حى لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير

الثانية: قوله (١) سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

الثالثة : قوله . (٢) سبوح قدوس رب الملائكة والروح

الرابعة : قوله . (٣) سبحان الله العظيم وبحمده

الخامسة: قوله . (٤) أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة

---

(١) حديث الفضل فى تكرار سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ن فى اليوم والليلة وحب لثو صححه من حديث أبى سعيد الخدرى استكثروا من الباقيات الصالحات فذكرها

(٢) حديث تكرار سبوح قدوس رب الملائكة والروح: لم أجد ذكرها مكررة لكن عند م من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم كان يقولها فى ركوعه وسجوده وقد تقدم ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث البراء أكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح

(٣) حديث تكرار سبحان الله وبحمده : متفق عليه من حديث أبى هريرة من قال ذلك فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر

(٤) حديث تكرار أستغفر الله الذى لاإله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة: المستغفرى فى الدعوات من حديث معاذ أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ولفظه وأتوب إليه وفيه ضعف وهكذا رواه ت من حديث أبى سعيد فى قولها ثلاثا وللبخارى من حديث أبى هريرة انى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة ولم يقل الطبرانى أكثر ولمسلم من حديث الاعرابى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة. تقدمت هذه الأحاديث فى الباب الثانى من الأذكار ،

السادسة: قوله . اللهم (١) لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد

السابعة : قوله . (٢) لا إله إلا الله الملك الحق المبين

الثامنة : قوله (٣) بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم

التاسعة: اللهم (٤) صل على محمد ، عبدك ونبيك ورسولك، النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم

العاشرة : قوله (٥) أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ،

فهذه العشر كلمات ، إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة فهو أفضل من أن يكرر ذكرا واحدا مائة مرة ، لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلا على حياله، وللقلب بكل واحدة نوع تنبه وتلذذ ، وللنفس في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل

---

(١) حديث تكرار اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد: لم أجد تكرارها في حديث وانما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرفع من الركوع

(٢) حديث تكرار لا إله إلا الله الملك الحق المبين: المستغفري في الدعوات والخطيب في الرواة عن مالك من حديث علي من قالها في يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجلب به الغنى واستقرع به باب الجنة وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولأبي نعيم في الحلية من قال ذلك في كل يوم وليلة مائتي مرة لم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها وفيه سليم الخواص ضعيف وقال فيه أظنه عن علي

(٣) حديث تكرار بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم: أصحاب السنن وابن حبان و ك وصححه من حديث عثمان من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسي لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي قال ت حسن صحيح غريب

(٤) حديث تكرار اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الامي وعلى آل محمد: ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي في فضائل القرءان من حديث ابن أبي أوفى من أراد أن يموت في السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات فذكره وهو منكر قلت وورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعيين لهذه الصيغة رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء بلفظ من صلى علي حين يصبح عشرا وحين يمسي عشرا أدركته شفاعتي يوم القيامة وفيه انقطاع

(٥) حديث تكرار أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون: ت من حديث معقل بن يسار من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك ـ الحديث : ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة وقال حسن غريب ولابن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله من قالها حين يصبح عشر مرات أجير من الشيطان إلى الصبح ـ الحديث : ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة ألا أعلمك ياخالد كلمات تقولها ثلاث مرات قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون والحديث عند أبي داود و ت وحسنه و ك وصححه فيما يقال عند الفزع دون تكرارها ثلاثا من حديث عبد الله بن عمرو

فأما القراءة : فيستحب له قراءة جملة من الآيات : وردت الاخبار بفضلها ، وهو أن يقرأ سورة الحمد [١] وآية الكرسى [٢] وخاتمة البقرة [٣] من قوله (آمَنَ الرَّسُولُ [١]) [٤] (وَشَهِدَ اللَّهُ [٢]) [٥] (وَقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ [٣]) الآيتين وقوله تعالى [٦] (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [٤]) إلى آخرها وقوله تعالى [٧] (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ [٥]) إلى آخرها

---

(١) حديث فضل سورة الحمد: خ من حديث أبى سعيد بن المعلى أنها أعظم السور فى القرءان و م من حديث ابن عباس فى الملك الذى نزل إلى الأرض وقال للنبي صلى الله عليه وسلم أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته

(٢) حديث فضل آية الكرسى : م من حديث أبى ابن كعب ياأبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم قلت الله لا إله إلا هو الحى القيوم ـ الحديث و خ من حديث أبى هريرة فى توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجىء الشيطان اليه وقوله إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى فانه لن يزال عليك من الله حافظ ـ الحديث : وفيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه قد صدقك وهو كذوب

(٣) حديث فضل خاتمة البقرة : متفق عليه من حديث أبى مسعود من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث

(٤) حديث فضل شهد الله: أبو الشيخ حب فى كتاب الثواب من حديث ابن مسعود من قرأ شهد الله إلى قوله الاسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عنده وديعة جىء به يوم القيامة فقيل له عبدى هذا عهد إلى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة وفيه عمر بن المختار روى الاباطيل قاله ابن عدى وسيأتى حديث على بعده

(٥) حديث فضل قل اللهم مالك الملك الآيتين: المستغفرى فى الدعوات من حديث على أن فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الاسلام وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب معلقات مابينهن وبين الله حجاب ـ الحديث : وفيه فقال الله لايقرأ كن أحد من عبادى دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه ـ الحديث : وفيه الحارث ابن عمير وفى ترجمته ذكره حب فى الصعفاء وقال موضوع لاأصل له والحارث يروى عن الاثبات الموضوعات قلت وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم و ن وروى له خ تعليقا

(٦) حديث فضل لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها: طب فى الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد فذكر حديثا وفى آخره فقل حسبى الله إلى آخر السورة وذكر أبو القاسم الغافقى فى فضائل القرءان فى رغائب القرءان لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لزم قراءة لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة لم يمت هدما ولا غرقا ولا حرقا ولا ضربا بحديدة وهو ضعيف

(٧) حديث فضل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق: لم أجد فيه حديثا يخصها لكن فى فضل سورة الفتح مارواه أبو الشيخ فى كتاب من حديث أبى بن كعب من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو حديث موضوع

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) آل عمران : ١٨ (٣) آل عمران : ٢٦ (٤) التوبة : ١٢٨ (٥) الفتح : ٢٧

وقوله سبحانه[1] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا[1]) الآيه[2] وخمس آيات من أول الحديد[3] وثلاثا من آخر سورة الحشر

وإن قرأ المسبعات العشر التى أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة فقد روى عن[4] كرزبن وبرة رحمه الله، وكان من الأبدال قال أتانى أخ لى من أهل الشام فأهدى لى هدية وقال يا كرز اقبل منى هذه الهديه، فانها نعمت الهدية فقلت ياأخى ومن أهدى لك هذه الهدية، قال أعطانيها إبراهيم التيمى، قلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه أياها قال . بلى، قال كنت جالسا فى فناء الكعبة، وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد فجاءنى رجل فسلم علىّ وجلس عن يمينى، فلم أر فى زمانى أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحا منه، فقلت ياعبدالله من أنت، ومن أين جئت، فقال أنا الخضر فقلت فى أى شىء جئتنى، فقال جئتك للسلام عليك، وحبالك فى الله، وعندى هدية أريد أن أهديهالك، فقلت ماهى قال أن تقول قبل طاوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب، سورة الحمد، وقل أعوذ برب الناس، وقل أعوذ برب الفلق، وقل هو الله أحد وقل ياأيها الكافرون، وآية الكرسى، كل واحدة سبع مرات، وتقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعا، وتصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم سبعا، وتستغفر لنفسك

---

(١) حديث فضل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية: أحمد والطبرانى من حديث معاذ بن أنس آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية كلها وأسناده ضعيف

(٢) حديث فضل خمس آيات من أول الحديد: ذكر أبو القاسم الناقى فى فضائل القرءان من حديث على إذا أردت تسأل الله حاجة فاقرأ خمس آيات من أول سورة الحديد إلى قوله عليم بذات الصدور ومن آخر سورة الحشر من قوله لو أنزلنا هذا القرءان على جبل إلى آخر السورة ثم تقول يامن هو كذا افعل بى كذا وتدعو بما تريد

(٣) حديث فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر: ت من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا بورقة وللبيهقى فى البعث من حديث أبى أمامة بسند ضعيف من قرأ خواتيم سورة الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته فقد اوجب الله له الجنة

(٤) حديث كرز بن وبرة عن رجل من أهل الشام عن ابراهيم التيمى أن الخضر علمه المسبعات العشرة وقال فى آخرها أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم ليس له أصل ولم يصح فى حديث قط اجتماع الخضر بالنبى صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته

---

(١) الاسراء : ١١١

ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبعا ، وتقول اللهم افعل بي وبهم عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ، ولا تفعل بنا يامولانا مانحن لهأهل انك غفور حليم جواد كريم رؤف رحيم سبع مرات وانظر أن لاتدع ذلك غدوة وعشية

فقلت أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة ، فقال أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلت أخبرني بثواب ذلك ، فقال إذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك ، فذكر ابراهيم التيمي أنه رأى ذات يوم فى منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة ، فرأى ما فيها ووصف أمورا عظيمة مما رآه فى الجنة ، قال فسألت الملائكة فقلت لمن هذا؟ فقالوا للذى يعمل مثل عملك ، وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال فأتاني النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة كل صف مثل مابين المشرق والمغرب ، فسلم عليّ وأخذ بيدى فقلت يارسول الله،الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث،فقال صدق الخضر ، صدق الخضر ،وكل مايحكيه فهو حق،وهو عالم أهل الأرض،وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى فى الأرض ، فقلت يارسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذى رأيت فى منامى ، هل يعطى شيأ مما أعطيته ؟ فقال والذى بعثنى بالحق نبيا إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرنى ولم ير الجنة ، إنه ليغفر له جميع الكبائر التى عملها،ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ، ويأمر صاحب الشمال أن لايكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة والذى بعثنى بالحق نبيا مايعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا،ولا يتركه إلا من خلقه الله شقيا وكان ابراهيم التيمى يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فلعله كان بعد هذه الرؤيا

فهذه وظيفة القراءة فإن أضاف إليها شيأ مما انتهى إليه ورده من القرءان أو اقتصر عليه فهو حسن ، فان القرءان جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه فى باب التلاوة

وأما الأفكار فليكن ذلك إحدى وظائفه وسيأتى تفصيل مايتفكر فيه وكيفيته فى كتاب التفكر من ربع المنجيات ولكن مجامعه ترجع إلى فنين

أحدهما : أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة ، بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره

ويرتب وظائفه في يومه الذى بين يديه ، ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ، ليصلحه ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته للمسلمين

الفن الثاني : فيما ينفعه في علم المكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى، وتواتر آلائه الظاهرة والباطنة، لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها ، أو في عقوباته ونقماته لتزيد معرفته بقدرة الإله واستغنائه ، ويزيد خوفه منها ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكر فيها على بعض الخلق دون البعض ، وإنما نستقصي ذلك في كتاب التفكر ، ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات ، إذ فيه معنى الذكر لله تعالى ، وزيادة أمرين

أحدهما : زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف

والثاني: زيادة المحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ، ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ، ومعرفة قدرته ، وعجائب أفعاله فيحصل من الفكر المعرفة ، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة ، والذكر أيضا يورث الانس ، وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التي سببها المعرفة أقوى وأثبت وأعظم ، ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاكر من غير تمام الاستبصار ، كنسبة عشق من شاهد جمال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن في الخلق والخلق مطلقا من غير تفصيل وجوه الحسن فيهما ، فليس محبته له كمحبة المشاهد؛ وليس الخبر كالمعاينة، فالعباد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالايمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جملية إعتقدوها بتصديق من وصفها لهم ، والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر ، لأن أحدا لم يحط بكنه جلاله وجماله فان ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ، ولكن كل واحد شاهد بقدر مارفع له من الحجاب ، ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها ، وإنما عدد حجبها التي استحقت أن تسمى نوراً وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا

قال صلى الله عليه وسلم(١) « إِنَّ لِلَّهِ سَبْعِينَ حِجَابًا مِنْ نُورٍ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَا أَدْرَكَ بَصَرُهُ » وتلك الحجب أيضا مترتبة ، وتلك الأنوار متفاوتة فى الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب ، ويبدو فى الأول أصغرها ثم ما يليه ، وعليه أول بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فى ترقيه وقال : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) أى أظلم عليه الأمر (رَأَى كَوْكَبًا) أى وصل إلى حجاب من حجب النور ، فعبر عنه بالكوكب ، وما أريد به هذه الأجسام المضيئة، فإن آحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تليق بالأجسام ، بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليل عليه السلام ، والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ(١)) الآية ولنتجاوز هذه المعانى ، فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا بالكشف التابع للفكر الصافى ، وقل من ينفتح له بابه ، والمتيسر على جماهير الخلائق الفكر فيما يفيد فى علم المعاملة ، وذلك أيضا مما تغزر فائدته ، ويعظم نفعه

فهذه الوظائف الأربعة أعنى الدعاء والذكر والقراءة والفكر ، ينبغى أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح بل فى كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة ، فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع ، ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجنته ، والصوم هو الجنة التى تضيق مجارى الشيطان المعادى الصارف له عن سبيل الرشاد ، وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتى الفجر ، وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يشتغلون فى هذا الوقت بالأذكار (٢) وهو الأولى، إلا أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به

الورد الثانى : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار ، وأعنى بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس الى الزوال ، وذلك بمضى ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتى عشرة ساعة وهو الربع ، وفى هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان

(١) حديث ان لله سبعين حجابا من نور ــ الحديث : تقدم فى قواعد العقائد

(٢) حديث اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس: تقدم حديث جابر بن سمرة عند م فى جلوسه صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر فى مجلسه حتى تطلع الشمس وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وانما هو من قوله عما تقدم من حديث أنس

(١) النور : ٣٥

إحداها : صلاة الضحى وقد ذكرناها فى كتاب الصلاة ، وأن الأولى أن يصلى ركعتين عند الاشراق ، وذلك اذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رمح ، ويصلى أربعاً أوستا أوثمانيا إذا رمضت الفصال ، وضحيت الأقدام بحر الشمس ، فوقت الركعتين هو الذى أراد الله تعالى بقوله : (يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ [١]) فانه وقت اشراق الشمس وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن مؤازاة البخارات والغبارات التى على وجه الأرض ، فانها تمنع إشراقها التام ، ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [٢]) وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] على أصحابه ، وهم يصلون عند الاشراق ، فنادى بأعلى صوته « أَلاَ إِنَّ صَلاَةَ الْأَوَّابِينَ إِذَا رَمِضَتِ الْفِصَالُ » فلذلك نقول. إذا كان يقتصر على مرة واحدة فى الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى ، وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفى وقتى الكراهة ، وهو ما بين ارتفاع الشمس بطلوع نصف رمح بالتقريب إلى ما قبل الزوال فى ساعة الاستواء ، واسم الضحى ينطلق على الكل وكأن ركعتى الاشراق تقع فى مبتدا وقت الاذن فى الصلاة ، وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم : [٢] « إِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ وَمَعَهَا قَرْنُ الشَّيْطَانِ فَإِذَا ارْتَفَعَتْ فَارَقَهَا » فأقل ارتفاعها ان ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها ، وهذا يراعى بالتقريب

الوظيفة الثانية فى هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادات بكرة من عيادة مريض ، وتشييع جنازة ، ومعاونة على برّ وتقوى ، وحضور مجلس علم ، وما يجرى مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها ، فان لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع التي قدمناها من الأدعية ، والذكر والقراءة والفكر والصلوات المتطوع بها أن شاء؛ فانها مكروهة بعد صلاة الصبح ، وليست مكروهة الآن ، فتصير الصلاة قسما خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أراده ، أما بعد فريضة الصبح فتكره كل صلاة لا سبب لها ، وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتى الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر

---

(١) حديث خرج على أصحابه وهم يصلون عند الاشراق فنادى بأعلى صوته ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال طب من حديث زيد بن أرقم دون قوله فنادى بأعلى صوته وهو عند م دون ذكر الأشراق

(٢) حديث ان الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا ارتفعت فارقها تقدم فى الصلاة

[١] ص : ١٨ [٢] الضحى : ٩

الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ، ونعنى بالضحوة المنتصف وماقبله بقليل ، وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فاذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها ، وقبل مضيها صلاة الضحى فاذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر ، فاذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر ، فاذا مضت ثلاث أخرى فالمغرب ، ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة العصر بين الزوال والغروب ، الا أن الضحى لم تفرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم فخفف عنهم

الوظيفة الرابعة : فى هذا الوقت الأقسام الأربعة وزيد أمران

أحدهما : الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق ، فان كان تاجرا فينبغى أن يتجر بصدق وأمانة ، وان كان صاحب صناعة فبنصح وشفقة ، ولا ينسى ذكر الله تعالى فى جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب فى كل يوم لقوته ، فاذا حصّل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزود لآخرته ، فان الحاجة إلى زاد الآخرة أشد ، والتمتع به أدوم ، فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت ، فقد قيل : لايوجد المؤمن إلا فى ثلاث مواطن ، مسجد يعمره ، أو بيت يستره ، أو حاجة لابدله منها ، وقل من يعرف القدر فيما لابد منه ، بل أكثر الناس يقدرون فيما عنه بُدٌّ انه لابد لهم منه ، وذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء ، فيصغون إليه ، ويجمعون مالا يأكلون ، خيفة الفقر ، والله يعدهم مغفرة منه وفضلا ، فيعرضون عنه ولايرغبون فيه

الأمر الثانى : القيلولة وهى سنة يستعان بها على قيام الليل ، كما ان التسحر سنة يستعان به على صيام النهار ، فان كان لايقوم بالليل لكن لولم ينم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم فالنوم أحب له ، إذا كان لاينبعث نشاطه للرجوع إلى الاذكار والوظائف المذكورة ، إذ فى النوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم : يأتى على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم ، وكم من عابد أحسن أحواله النوم ، وذلك إذا كان يرائى بعبادته ولايخلص فيها ، فكيف بالغافل الفاسق ؟ قال سفيان الثورى رحمه الله : كان يعجبهم إذا تفرغوا أن يناموا طلبا للسلامة ، فاذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة ، ولكن ينبغى أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء

وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة ، فان ذلك من فضائل الأعمال ، وإن لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار ، لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهموم الدنيا ، فالقلب المتفرغ لخدمة ربه عند اعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته ، وفضل ذلك كفضل إحياء الليل ، فان الليل وقت الغفلة بالنوم وهـذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا ، وأحد معني قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ[1]) أي يخلف أحدهما الآخر في الفضل ، والثاني انه يخلفه فيتدارك فيه مافات في أحـدهما

الورد الرابع : مابين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ، وراتبته ، وهـذا أقصر أوراد النهار وأفضلها ، فاذا كان قد توضأ قبل الزوال وحضر المسجد فهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الاذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ، ثم ليقم إلى احياء مابين الاذان والاقامة فهو وقت الاظهار الذي أراده الله تعالى بقوله (وَحِينَ تُظْهِرُونَ[2]) وليصل[1] في هذا الوقت أربع ركعات لايفصل بينهن بتسليمة واحده ، وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء . انه يصليها بتسليمة واحدة ، ولكن طعن في تلك الرواية ، ومذهب الشافعي رضي الله عنه : انه يصلي مثنى مثنى كسائر النوافل ويفصل بتسليمة وهو الذي صحت به الأخبار[2] وليطول هـذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه في باب صلاة التطوع ، وليقرأ فيها سورة البقرة أوسورة من المثين ، أو أربعا من المثاني ، فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء ، وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع له فيها عمل ثم يصلي الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة كما سبق أو قصيرة لاينبغي أن يدعها ، ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعا ، فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها من غير فاصل ، ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة آية الكرسي ، وآخر سورة البقرة ، والآيات التي أوردناها في الورد الأول ، ليكون ذلك جامعا له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت

---

(١) حديث صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة وفيه انها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحب أن يرفع لي فيها عمل صالح: د هـ من حديث أبي أيوب وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس

(٢) حديث صلاة الليل والنهار مثنى مثنى: د و حب من حديث ابن عمر

(١) الفرقان : ٦٢ (٢) الروم : ١٨

الورد الخامس : مابعد ذلك إلى العصر، ويستحب فيه العكوف فى المسجد مشتغلا بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون فى انتظار الصلاة معتكفا، فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف ، وكان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويا كدوى النحل من التلاوة ، فان كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه فالبيت أفضل فى حقه ، فاحياء هـذا الورد وهو أيضا وقت غفلة الناس كاحياء الورد الثالث فى الفضل ، وفى هـذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالنهار ، قال بعض العلماء : ثلاث يمقت الله عليها الضحك بغير عجب ، والأكل من غير جوع ، والنوم بالنهار من غير سهر بالليـل ،

والحد فى النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، فالاعتدال فى نومه ثمان ساعات فى الليل والنهار جميعا ، فان نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار ، وإن نقص منه مقدارا استوفاه بالنهار . فحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سـنة ، ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقـد نقص من عمره الثلث ، ولـكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان ، وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه ، وقدر الاعتدال هـذا والنقصان منه ربما يفضى إلى اضطراب البدن ، الامن يتعود السهر تدريجا فقد يمرن نفسه عليه من غير اضطراب ، وهذا الورد من أطول الاوراد وأمتعها للعباد وهو أحد الآصال التى ذكرها الله تعالى اذ قال : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [1]) وإذا سجد لله عز وجـل الجمادات فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات !

الورد السادس : إذا دخـل وقت العصر دخل وقت الورد السادس ، وهو الذى أقسم الله تعالى به فقال تعالى (وَالْعَصْرِ [2]) هذا أحد معنى الآية ، وهو المراد بالآصال فى أحـد التفسيرين ، وهو العشى المذكور فى قوله (وَعَشِيًّا [3]) وفى قوله (بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ [4]) وليس فى هذا الورد صلاة الأربع ركعات بين الاذان والاقامة كما سبق فى الظهر ، ثم يصلى الفرض ويشتغل بالاقسام الاربعة المذكورة فى الورد الاول إلى أن ترتفع الشمس إلى رءوس الحيطان وتصفر ، والافضل فيه اذ منع عن الصلاة تلاوة القرءان بتدبر وتفهم ، إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر ، فيندرج فى هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثه

(١) الرعد : ١٥ (٢) الروم : ١٨ (٣) العصر : ١ (٤) ص : ١٨

الورد السابع: إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطي نورها الغبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد، وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع. وهو المراد بقوله تعالى (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [1]) وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى (فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ [2]) قال الحسن: كانوا أشد تعظيما للعشي منهم لأول النهار، وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة. فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول، مثل أن يقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأسأله التوبة، وسبحان الله العظيم وبحمده، مأخوذ من قوله تعالى (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [3]) والاستغفار على الأسماء التي في القرءان أحب كقوله أستغفر الله إنه كان غفارا، أستغفر الله إنه كان توابا، رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين، فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين

ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا [4]) (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [5]) والمعوذتين ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار، فاذا سمع الأذان قال اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك، كما سبق ثم يجيب المؤذن ويشتغل بصلاة المغرب، وبالغروب قد انتهت أوراد النهار، فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة، فان ساوى يومه أمسه فيكون مغبونا وإن كان شرا منه فيكون ملعونا فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَا بُورِكَ لِي فِي يَوْمٍ لَا أَزْدَادُ فِيهِ خَيْراً » فان رأى نفسه متوفرا على الخير جميع نهاره، مترفها عن التجشم كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه، وإن تكن الأخرى فالليل خلفة النهار فليعزم على تلافي ماسبق من تفريطه فان الحسنات يذهبن السيآت، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه، وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره، وليحضر في قلبه ان نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة، فلا يكون لها بعدها طلوع وعند ذلك يغلق باب التدارك والاعتذار، فليس العمر إلا أياما معدودة تنقضي لامحاله جملتها بانقضاء آحادها

---

(١) حديث لا بورك لي في يوم لاأزداد فيه خيرا: تقدم في العلم في الباب الأول الا أنه قال علما بدل خيرا

(١) الروم: ١٧ (٢) طه: ١٣٠ (٣) غافر: ٥٥ (٤) الشمس: ١ (٥) الليل: ١

بيان أوراد الليل

وهي خمسة

الأول . إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتغل باحياء مابين العشائين ، فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق ، أعنى الحمرة التي يغيبوبتها يدخل وقت العتمة،وقد أقسم الله تعالى به فقال (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١)) والصلاة فيه هي ناشئة الليل،لأنه أول نشو ساعاته وهو آن من الآناء المذكورة فى قوله تعالى(وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ (٢)) وهي صلاة الأوابين وهي المراد بقوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ (٣)) روى ذلك عن الحسن وأسنده ابن أبى زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل (١) عن هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم « الصَّلَاةُ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ » ثم قال صلى الله عليه وسلم « عَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ فَإِنَّهَا تَذْهَبُ بِمُلَاغَاتِ النَّهَارِ وَتُهَذِّبُ آخِرَهُ »والملاغات جمع ملغاة من اللغو،وسئل أنس رحمه الله عمن ينام بين العشاءين فقال: لا تفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ (٤)) وسيأتى فضل احياء مابين العشاءين فى الباب الثانى

وترتيب هذا الورد : أن يصلى بعد المغرب ركعتين أولا يقرأ فيهما قل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد ، ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل ؛ ثم يصلى أربعا يطيلها، ثم يصلى إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له،وإن كان المسجد قريبا من المنزل فلا بأس أن يصليها فى بيته ان لم يكن عزمه العكوف فى المسجد وإن عزم على العكوف فى انتظار العتمة فهو الأفضل اذا كان آمنا من التصنع والرياء

---

(١) حديث سئل عن قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره قال المصنف أسنده ابن أبى الزناد * إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت إنما هو اسماعيل بن أبى زياد بالياء المثناة من تحت رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية إسماعيل ابن أبى زياد الشامى عن الأعمش حدثنا أبو العلاء العنبرى عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره واسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الدارقطنى واسم أبى زياد مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش ولابن مردويه من حديث أنس انها نزلت فى الصلاة بين المغرب والعشاء والحديث عندت وحسنه بلفظ نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة

---

* قول العراقى ابن أبى الزناد هى نسخة وقعت له والا ففى النسخ الصحيحة ابن أبى زياد فليتأمل اه

الورد الثانى . يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس ، وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى به إذ قال (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ[1]) أى وما جمع من ظلمته وقال (إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ[2]) فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته

وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور

الأول : أن يصلى سوى فرض العشاء عشر ركعات ، أربعا قبل الفرض احياء لما بين الاذانين ، وستا بعد الفرض ركعتين ، ثم أربعا ، ويقرأ فيها من القرءان الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسى وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها

والثانى: أن يصلى[1] ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر فانه أكثر ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى بها من الليل ، والاكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل : والاقوياء من آخره ، والحزم التقديم فانه ربما لا يستيقظ أو يثقل عليه القيام الا اذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل ثم ليقرأ فى هذه الصلاة قدر ثلثمائة آية من السور المخصوصة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها مثل يس،[2] وسجدة لقمان ، وسورة الدخان ، وتبارك الملك ، والزمر والواقعة ، فان لم يصل فلا يدع قراءة هذه السور أو بعضها قبل النوم ؛

(١) حديث الوتر ثلاث عشرة ركعة يعنى بالليل وانه أكثر ما يصلى به النبى صلى الله عليه وسلم من الليل د من حديث عائشة لم يكن يوتر بانقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة وخ من حديث ابن عباس كانت صلاته ثلاث عشرة ركعة يعنى بالليل و م كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة وفى رواية للشيخين منها ركعتا الفجر ولهما أيضا ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على احدى عشرة ركعة

(٢) حديث اكثاره صلى الله عليه وسلم من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة غريب لم أقف على ذكر الاكثار فيه وحب من حديث جندب من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له و ت من حديث جابر كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك وله من حديث عائشة كان لا ينام حتى يقرأ بنى اسرائيل والزمر وقال حسن غريب وله من حديث أبى هريرة من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك وقال غريب ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث عائشة من قرأ فى ليلة الم تنزيل ويس وتبارك الذى بيده الملك واقتربت كن له نورا ـ الحديث : ولأبى منصور المظفر بن الحسين الغزنوى فى فضائل القرءان من حديث على ياعلى أكثر من قراءة يس ـ الحديث: وهو منكر وللحارث بن أبى أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا وت من حديث ابن عباس شيبتنى هود والواقعة ـ الحديث وقال حسن غريب

(١) الانشقاق : ١٧ (٢) الاسراء : ٧٨

فقد روى ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] فى كل ليلة أشهرها السجدة ، وتبارك الملك ، والزمر [٢] والواقعة ، وفى رواية الزمر وبنى إسرائيل ، وفى أخرى انه كان يقرأ [٣] المسبحات فى كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية ، وكان العلماء يجعلونها ستاً فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى ، إذ فى الخبر انه صلى الله عليه وسلم [٤] كان يحب سبح اسم ربك الاعلى ، [٥] وكان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور ، سبح اسم ربك الأعلى ، وقل يا أيها الكافرون ، والاخلاص ، فاذا فرغ قال : سبحان الملك القدوس ثلاث مرات

الثالث : الوتر . وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام ، قال أبو هريرة رضى الله عنه أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] أن لا أنام إلا على وتر ، وإن كان معتادا صلاة الليل فالتأخير أفضل ، قال صلى الله عليه وسلم [٧] « صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى فَإِذَا خِفْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِرَكْعَةٍ » وقالت عائشة رضى الله عنها : أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم [٨] أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر ، وقال على رضى الله عنه الوتر على ثلاثة أنحاء ، إن شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين ، يعنى أنه يصير وترا بما مضى ، وإن شئت أوترت بركعة فاذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل ، وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك ، هذا ماروى عنه ، والطريق الأول والثالث لا بأس به [٩] وأما نقض الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغى أن ينقض ،

---

(١) حديث كان يقرأ فى كل ليلة السجدة وتبارك الملك : ت وتقدم فى الحديث قبله

(٢) حديث كان يقرأ فى كل ليلة الزمر وبنى اسرائيل : ت وتقدم أيضا

(٣) حديث كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول فيهن آية أفضل من ألف آية : د ت وقال حسن و ن. فى الكبرى من حديث عرباض بن سارية

(٤) حديث كان يحب سبح اسم ربك الأعلى : أحمد والبزار من حديث على بسند ضعيف

(٥) حديث كان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والاخلاص د ن ه من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح وتقدم فى الصلاة من حديث أنس

(٦) حديث أبى هريرة أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر : متفق عليه بلفظ أن أوتر قبل أن أنام

(٧) حديث صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة : متفق عليه من حديث ابن عمر

(٨) حديث عائشة أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر : متفق عليه

(٩) حديث النهى عن نقض الوتر : قال المصنف صح فيه نهى قلت وإنما صح من قول عابد بن عمرو وله صحبة كما رواه خ ومن قول ابن عباس كما رواه هق ولم يصرح بأنه مرفوع فالظاهر أنه إنما أراد ما ذكرناه عن الصحابة

وروى مطلقاً أنه صلى الله عليه وسلم قال :[١] « لَا وِتْرَانِ فِي لَيْلَةٍ »

ولمن يتردد فى استيقاظه تلطف استحسنه بعض العلماء، وهو أن يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا على فراشه عند النوم ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت ، وألهاكم، لما فيهما من التحذير والوعيد ، وفى رواية قل ياأيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى ، فقيل إن استيقظ قامتا مقام ركعة واحدة ، وكان له أن يوتر بواحدة فى آخر صلاة الليل ، وكأنه صار ما مضى شفعا بهما وحسن استئناف الوتر واستحسن هذا أبو طالب المكى ، وقال : فيه ثلاثة أعمال ، قصر الأمل ، وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل ، وهو كما ذكره لكن ربما يخطر إنهما لو شفعتا ما مضى لكان كذلك وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول، فكونه شافعا إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه نظر ، إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم إيتاره قبلهما وإعادته الوتر فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتهما وتر بمعناها فيستحب وتراً إن لم يستيقظ وشفعا إن استيقظ ، ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح ، جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت ، وتعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت ، روى أنه صلى الله عليه وسلم[٣] ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة ، وقد قال[٤] « لِلْقَاعِدِ نِصْفُ أَجْرِ الْقَائِمِ وَلِلنَّائِمِ نِصْفُ أَجْرِ الْقَاعِدِ » وذلك يدل على صحة النافلة نائما

الورد الثالث : النوم . ولا بأس أن يعد ذلك فى الأوراد . فانه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة، فقد قيل[٥] إن العبد إذا نام على طهارة ، وذكر الله تعالى ، يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل فى شعاره ملك، فان تحرك فى نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله ،

---

(١) حديث لاوتران فى ليلة : د ت وحسنه و ن من حديث طلق بن على

(٢) حديث الركعتين بعد الوتر جالسا : تقدم فى الصلاة رواه مسلم من حديث عائشة

(٣) حديث ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا الا المكتوبة : متفق عليه من حديث عائشة لما بدن النبى صلى الله عليه وسلم وثقل كان أكثر صلاته جالسا

(٤) حديث للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد : خ من حديث عمران بن حصين

(٥) حديث قيل إنه إذا نام على طهارة ذاكر الله تعالى يكتب مصليا ويدخل فى شعاره ملك ـ الحديث : حب من حديث ابن عمر من بات طاهرا بات فى شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك اللهم اغفر لعبدك فلان فانه بات طاهرا

وفى الخبر[١] « إِذَا نَامَ عَلَى طَهَارَةٍ رُفِعَ رُوحُهُ إِلَى الْعَرْشِ » هذا فى العوام، فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية، فانهم يكاشفون بالأسرار فى النوم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[٢] « نَوْمُ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ وَنَفَسُهُ تَسْبِيحٌ »[٣] وقال معاذ لأبى موسى كيف تصنع فى قيام الليل؟ فقال أقوم الليل أجمع، لا أنام منه شيئا وأتفوق القرءان فيه تفوقا، قال معاذ لكنى أنا أنام ثم أقوم، وأحتسب فى نومتى ما أحتسب فى قومتى، فذكرا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « مُعَاذٌ أَفْقَهُ مِنْكَ »

وآداب النوم عشرة :

الأول الطهارة والسواك: قال صلى الله عليه وسلم[٤] « إِذَا نَامَ الْعَبْدُ عَلَى طَهَارَةٍ عُرِجَ بِرُوحِهِ إِلَى الْعَرْشِ فَكَانَتْ رُؤْيَاهُ صَادِقَةً وَإِنْ لَمْ يَنَمْ عَلَى طَهَارَةٍ قَصُرَتْ رُوحُهُ عَنِ الْبُلُوغِ، فَتِلْكَ الْمَنَامَاتُ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ لَا تَصْدُقُ » وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعا، وطهارة الباطن هى المؤثرة فى انكشاف حجب الغيب

الثانى: أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره وينوى القيام للعبادة عند التيقظ، وكلما يتنبه يستاك، كذلك كان يفعله بعض السلف، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] أنه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نومة، وعند التنبه منها، وإن لم تتيسر له الطهارة يستحب له مسح الاعضاء بالماء، فان لم يجد فليقعد، وليستقبل القبلة، وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكر فى آلاء الله تعالى وقدرته، فذلك يقوم مقام قيام الليل وقال صلى الله عليه وسلم[٦] « مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى يُصْبِحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش: ابن المبارك فى الزهد موقوفا على أبى الدرداء وهق فى الشعب موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص وروى طب فى الأوسط من حديث على ما من عبد ولا أمة نام فثقل نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذى لا يستيقظ دون العرش فهى الرؤيا التى تكذب وهو ضعيف

(٢) حديث نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح قلت المعروف فيه الصائم دون العالم وقد تقدم فى الصوم

(٣) حديث قال معاذ لأبى موسى كيف تصنع فى قيام الليل فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأتفوق القرءان تفوقا قال معاذ لكنى أنام ثم أقوم وأحتسب فى نومتى ما أحتسب فى قومتى فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال معاذ أفقه منك متفق عليه بنحوه من حديث أبى موسى وليس فيه أنهما ذكرا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ولا قوله معاذ أفقه منك وإنما زاد فيه طب فكان معاذ أفضل منه

(٤) حديث إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة الحديث تقدم

(٥) حديث انه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها تقدم فى الطهارة

(٦) حديث من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه: ن هـ من حديث أبى الدرداء بسند صحيح

الثالث : أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فانه لا يأمن القبض فى النوم ، فان من مات من غير وصية لم يؤذن له فى الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة ، يتزاوره الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم ، فيقول بعضهم لبعض هـذا المسكين مات من غير وصية ، وذلك مستحب خوف موت الفجأة ، وموت الفجأة تخفيف ، إلا لمن ليس مستعدا للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم

الرابع : أن ينام تائبا من كل ذنب ، سليم القلب لجميع المسلمين ، لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يعزم على معصية إن استيقظ قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ لَا يَنْوِي ظُلْمَ أَحَدٍ وَلَا يَحْقِدُ عَلَى أَحَدٍ غُفِرَ لَهُ مَا اجْتَرَمَ »

الخامس : أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه ، كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك تكلفا ، وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا ، ويقولون منها خلقنا واليها نرد ، وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم ، فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد

السادس : أن لا ينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل ، فقد كان نومهم غلبة ، وأكلهم فاقة ، وكلامهم ضرورة ، ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلا من الليل مايهجعون ، وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يدرى مايقول فلينم حتى يعقل مايقول ، وكان ابن عباس رضى الله عنه يكره النوم قاعدا ، وفى الخبر (٢) « لَا تُكَابِدُوا اللَّيْلَ » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أن فلانة تصلى بالليل ، فاذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى عن ذلك وقال « لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا تَيَسَّرَ لَهُ ، فَإِذَا غَلَبَهُ النَّوْمُ فَلْيَرْقُدْ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « تَكَلَّفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَمَلَّ حَتَّى تَمَلُّوا »

---

(١) حديث من أوى إلى فراشه لاينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له مااجترم ابن أبي الدنيا فى كتاب النية من أنس من أصبح ولم يهم بظلم أحد غفر له مااجترم وسنده ضعيف

(٢) حديث لاتكابدوا الليل: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفى جامع سفيان الثورى موقوفا على ابن مسعود لاتغالبوا هذا الليل

(٣) حديث قيل له فلانة تصلى فاذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهاهن عن ذلك الحديث: متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث تكلفوا من العمل ماتطيقون فان الله لايمل حتى تملوا: متفق عليه من حديث عائشة بلفظ اكلفوا

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « خَيْرُ هَذَا الدِّينِ أَيْسَرُهُ » وقيل له صلى الله عليه وسلم (٢) ان فلانا يصلى فلا ينام ، ويصوم فلا يفطر ، فقال « لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ هَذِهِ سُنَّتِي فَمَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَلَيْسَ مِنِّي » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « لَا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّهُ مَتِينٌ فَمَنْ يُشَادَّهِ يَغْلِبْهُ فَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ »

السابع أن ينام مستقبل القبلة ، والاستقبال على ضربين (أحدهما) استقبال المحتضر ، وهو المستلقى على قفاه ، فاستقباله أن يكون وجهه وأخمصاه إلى القبلة (والثانى) استقبال اللحد ، وهو أن ينام على جنب بان يكون وجهه اليها مع قبالة بدنه إذا نام على شـقه الأيمن

الثامن : (٤) الدعاء عند النوم فيقول باسمك ربى وضعت جنبي وباسمك أرفعه إلى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى كتاب الدعوات ، ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة ، مثل آية الكرسى وآخر البقرة وغيرهما، وقوله تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) إلى قوله (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [١]) يقال ان من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرءان فلم ينسه ، ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) إلى قوله (قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [٢]) وآخر بنى اسرائيل (قُلِ ادْعُوا اللهَ) الآيتين، فانه يدخل فى شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ، ويقرأ المعوذتين وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده ، كذلك روى من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) وليقرأ عشرا من أول الكهف ، وعشرا من آخرها وهذه الآى للاستيقاظ لقيام الليل ، وكان علىّ كرم الله وجهه يقول ما أرى ان رجلا مستكملا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة ، وليقل خمسا وعشرين مرة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ليكون مجموع هذه الكلمات الاربع مائة مرة

---

(١) حديث خير هذا الدين أيسره : أحمد من حديث محجن بن الأدرع وتقدم فى العلم

(٢) حديث قيل له أن فلانا يصلى ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال لكنى اصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتى فمن رغب عنها فليس منى : ن من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله هذه سنتى الخ وهذه الزيادة لابن خزيمة من رغب عن سنتى فليس منى وهي منفق عليها من حديث أنس

(٣) حديث لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبة ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله : خ من حديث أبى هريرة لن يشاد هذا الدين أحد الاغلبه فسددوا وقاربوا وللبيهقى من حديث جابر ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ولا يصح اسناده

(٤) حديث الدعاء المأثور عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي ـ الحديث : إلى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات

(٥) حديث قراءة المعوذتين عند النوم ينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده متفق عليه من حديث عائشة

---

(١) البقرة : ١٦٣ ، ١٦٤ (٢) الأعراف : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦

التاسع : أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة ، والتيقظ نوع بعث ، قال الله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا[١]) وقال (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ[٢]) فسماه توفيا ، وكما أن المستيقظ تنكشف له مشاهدات لا تناسب أحواله فى النوم ، فكذلك المبعوث يرى مالم يخطر قط بباله ولا شاهده حسه ، ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة ،

وقال لقمان لابنه : يابنى ان كنت تشك فى الموت فلا تنم ، فكما انك تنام كذلك تموت ، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه ، فكما انك تنتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك ، وقال كعب الأحبار: إذا نمت فاضطجع على شقك الايمن ، واستقبل القبلة بوجهك ، فانها وفاة وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] آخر مايقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى انه ميت فى ليلته تلك « اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ » الدعاء إلى آخره كما ذكرناه فى كتاب الدعوات فحق على العبد أن يفتش عن ثلاثة عند نومه : انه على ماذا ينام ، وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه أو حب الدنيا ، وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فان المرء مع من أحب ومع ما أحب

العاشر : الدعاء عند التنبه فليقل فى تيقظاته وتقلباته مهما تنبه ما كان يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » وليجتهد أن يكون آخر مايجرى على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى ، وأول مايرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى ، فهو علامة الحب ، ولا يلازم القلب فى هاتين الحالتين الا ما هو الغالب عليه ، فليجرب قلبه به فهو علامة الحب فانها علامة تنكشف عن باطن القلب ، وإنما استحبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى ، فاذا استيقظ ليقوم قال: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ

---

(١) حديث عائشة كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ـ الحديث: تقدم فى الدعوات دون وضع الخد على اليد وتقدم من حديث حفصة

(٢) حديث كان يقول عند تيقظه لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والارض ومابينهما العزيز الغفار ابن السنى وأبو نعيم فى كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة.

(١) الزمر: ٤٢ (٢) الأنعام : ٥٩

الورد الرابع : يدخل بمضى النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه ، وعند ذلك يقوم العبد للتهجد ، فاسم التهجد يختص بما بعد الهجود والهجوع وهو النوم ، وهذا وسط الليـل ويشبه الورد الذى بعد الزوال وهو وسط النهار ، وبه أقسم الله تعالى فقال : (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى[(1)]) أى إذا سكن ، وسكونه هـدوه فى هـذا الوقت ، فلا تبقى عين الا نائمة ، سوى الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولا نوم ، وقيل إذا سجى . إذا امتد وطال ، وقيل إذا أظلم . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم [(1)] أى الليل أسمع فقال « جَوْفُ اللَّيْلِ » وقال داود صلى الله عليه وسلم : إلهى إنى أحب أن أتعبدلك ، فأى وقت أفضل؟ فأوحى الله تعالى إليه ، ياداود لاتقم أول الليل ولا آخره فان من قام أوله نام آخره ، ومن قام آخره لم يقم أوله : ولـكن قم وسط الليـل حتى تخلو بى وأخلو بك ، وارفع إلىَّ حوائجك ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] أى الليل أفضل؟ فقال « نِصْفُ اللَّيْلِ الْغَابِرِ » يعنى الباقى ، وفى آخر الليل وردت الأخبار [(٣)] باهتزاز العرش ، وانتشار الرياح من جنات عدن ، ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا ، وغير ذلك من الأخبار ،

وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التى للاستيقاظ ، يتوضأ وضوءا كما سبق بسننه وآدابه وأدعيته ، ثم يتوجه إلى مصلاه ، ويقوم مستقبلا القبلة ، ويقول : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، ثم يسبح عشرا وليحمد الله عشرا ، وبهلل عشرا ، وليقل الله أكبر ذو الملـكوت والجبروت ، والـكبرياء والعظمة والجلال والقدرة ،

---

(١) حديث سئل أى الليل أسمع قال جوف الليل : دت وصححه من حديث عمرو بن عنبسة

(٢) حديث سئل أى الليل أفضل قال نصف الليل الغابر : أحمد وحب من حديث أبى ذر دون قوله الغابر وهى فى بعض طرق حديث عمرو بن عنبسة .

(٣) ﴿ حديث الأخبار الواردة فى اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن فى آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا ﴾ أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقى فهى آثار رواها محمد بن نصر فى قيام الليل من رواية سعيد الجريرى قال قال داود ياجبريل أى الليل أفضل قال ماأدرى غير أن العرش يهتز من السحر وفى رواية له عن الجريرى عن سعيد بن أبى الحسن قال إذا كان من السحر ألا ترى كيف تفوح ريح كل شجر وله من حديث أبى الدرداء مرفوعا إن الله تبارك وتعالى لينزل فى ثلاث ساعات بقين من الليل يفتح الذكر فى الساعة الأولى وفيه ثم ينزل فى الساعة الثانية إلى جنة عدن ـ الحديث ; وفيه مثله

---

(1) الضحى : ١

وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) في قيامه للتهجد «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ بَهَاءُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ قَيُّومُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ ، أَنْتَ الْحَقُّ ، وَمِنْكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنُّشُورُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ ، اللَّهُمَّ (٢) آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ، اللَّهُمَّ (٣) اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ، (٤) أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْبَائِسِ الْمِسْكِينِ ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْمُفْتَقِرِ الذَّلِيلِ ، فَلَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ! وَكُنْ بِي رَؤُوفًا رَحِيمًا يَا خَيْرَ الْمَسْؤُولِينَ وَأَكْرَمَ الْمُعْطِينَ ، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم (٥) إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

---

(١) حديث القول في قيامه للتهجد اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض ودون قوله ومن عليهن ومنك الحق

(٢) حديث اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها : أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة أنها فقدت النبي صلى الله عليه وسلم من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسي تقواها ـ الحديث :

(٣) حديث اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت : م من حديث علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة فذكره بلفظ لأحسن الأخلاق وفيه زيادة في أوله

(٤) حديث أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المضطر الذليل ـ الحديث : الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس أنه كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عشية عرفة تقدم في الحج

(٥) حديث عائشة كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ـ الحديث : رواه م

ثم يفتتح الصلاة ، ويصلى [١] ركعتين خفيفتين ، ثم يصلى مثنى مثنى ماتيسر له ، ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر ، ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة ، وقد صح فى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل أنه صلى أولا ركعتين خفيفتين ، ثم ركعتين طويلتين ، ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ، ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة ، وسئلت عائشة رضى الله عنها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] يجهر فى قيام الليل أم يسر؟ فقالت ربما جهر، وربما أسر، وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى فَإِذَا خِفْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِرَكْعَةٍ » وقال: « صَلَاةُ [٤] الْمَغْرِبِ أَوْتَرَتْ صَلَاةَ النَّهَارِ فَأَوْتِرُوا صَلَاةَ اللَّيْلِ » وأكثر ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] فى قيام الليل ثلاث عشرة ركعة ، ويقرأ فى هذه الركعات من ورده من القرءان ؛ أو من السور المخصوصة ماخف عليه ، وهو فى حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل ،

الورد الخامس : السدس الأخير من الليل ، وهو وقت السحر ، فان الله تعالى قال : (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [١]) قيل يصلون لما فيها من الاستغفار ، وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار ، وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبا الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره ، [٦] فى حديث طويل قال فى آخره فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم ، فقال له سلمان نم فنام ، ثم ذهب ليقوم فقال له نم فنام ، فلما كان عند الصبح قال له سلمان قم الآن، فقاما فصليا ، فقال إن لنفسك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه، وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لاينام الليل ، قال فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له ، فقال « صَدَقَ سَلْمَانُ »

---

(١) حديث أنه صلى بالليل أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة : م من حديث زيد ابن خالد الجهنى

(٢) حديث سئلت عائشة أكان يجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل أم يسر فقالت ربما جهر وربما أسر : د ن ه باسناد صحيح

(٣) حديث صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة : متفق عليه وقد تقدم

(٤) حديث صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل : أحمد من حديث ابن عمر باسناد صحيح

(٥) حديث القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فانه أكثر ماصح عنه : تقدم

(٦) حديث زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان نم فنام ـ الحديث: وفى آخره فقال صدق سلمان خ من حديث أبى جحيفة

---

(١) الذاريات: ١٨

وهذا هو الورد الخامس ، وفيه يستحب السحور ، وذلك عند خوف طلوع الفجر.

والوظيفة في هذين الوردين الصلاة ، فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ، ودخلت أوراد النهار ، فيقوم ويصلي ركعتي الفجر وهو المراد بقوله تعالى (وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ) ثم يقرأ (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) إلى آخرها ثم يقول : وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه ، وشهدت به ملائكته ، وأولو العلم من خلقه ، وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله تعالى وديعة ، وأسأله حفظها حتى يتوفاني عليها ، اللهم احطط عني بها وزرا ، واجعلها لي عندك ذخرا ، واحفظها عليّ وتوفني عليها حتى ألقاك بها غير مبدّل تبديلا

فهذا ترتيب الأوراد للعباد ، وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور ، صوم ، وصدقة ، وإن قلّت وعيادة مريض ، وشهود جنازة ، ففي الخبر[1] « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ فِي يَوْمٍ غُفِرَ لَهُ » وفي رواية « دَخَلَ الْجَنَّةَ » فإن اتفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته ، وكانوا يكرهون أن ينقضي اليوم ، ولم يتصدّقوا فيه بصدقة ولو بتمرة ، أو بصلة أو كسرة خبز ، لقوله صلى الله عليه وسلم[2] « الرَّجُلُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ » ولقوله صلى الله عليه وسلم[3] « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » ودفعت عائشة رضي الله عنها إلى سائل عنبة فأخذها ، فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض ، فقالت مالكم أن فيها لمثاقيل ذر كثير ، وكانوا لا يستحبون رد السائل ، إذ كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] ذلك ، ما سأله أحد شيئا فقال لا ، ولكنه إن لم يقدر عليه سكت ، وفي الخبر[5] « يُصْبِحُ ابْنُ آدَمَ وَعَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ جَسَدِهِ صَدَقَةٌ » يعني المفصل ، وفي جسده ثلثمائة وستون مفصلا ، « فَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَحَمْلُكَ عَنِ الضَّعِيفِ صَدَقَةٌ ، وَهِدَايَتُكَ إِلَى الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الْأَذَى صَدَقَةٌ » حتى ذكر التسبيح والتهليل ثم قال « وَرَكْعَتَا الضُّحَى تَأْتِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْ تَجْمَعَنَّ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ »

---

(١) حديث من جمع بين صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة في يوم غفر له وفي رواية دخل الجنة : م من حديث أبي هريرة ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة

(٢) حديث الرجل في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس : تقدم في الزكاة

(٣) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة : تقدم في الزكاة

(٤) حديث ما سأله أحد شيئا فقال لا إن لم يقدر عليه سكت : م من حديث جابر وللبزار من حديث أنس أو سكت

(٥) حديث يصبح ابن آدم وعلى كل سلامي من جسده صدقة ـ الحديث : م من حديث أبي ذر

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن المريد لحرث الآخرة ، السالك لطريقها ، لايخلو عن ستة أحوال ، فانه اما عابد ، واما عالم ، واما متعلم ، واما وال ، واما محترف ، واما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره ،

الأوّل : العابد ! وهو المتجرد للعبادة الذى لاشغل له غيرها أصلا ، ولو ترك العبادة لجلس بطالا ، فترتيب أوراده ماذكرناه ، نعم لايبعد أن تختلف وظائفه ، بأن يستغرق أكثر أوقاته ، إما فى الصلاة ، أو فى القراءة ، أو فى التسبيحات ، فقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم مَن ورده فى اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة ، وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا ، وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى ستمائة ، وإلى ألف ركعة ، وأقل مانقل فى أورادهم من الصلاة مائة ركعة فى اليوم والليلة ، وكان بعضهم أكثر ورده القرءان ، وكان يختم الواحد منهم فى اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم ، وكان بعضهم يقضى اليوم أو الليلة فى التفكر فى آية واحدة يرددها ، وكان كرز بن وبرة مقيما بمكة ، فكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعا ، وفى كل ليلة سبعين أسبوعا ، وكان مع ذلك يختم القرءان فى اليوم والليلة مرتين ، فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ ، ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ

فان قلت : فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الاوقات من هذه الأوراد ؟

فاعلم أن قراءة القرءان فى الصلاة قائما مع التدبر يجمع الجميع ، ولكن ربما تعسر المواظبة عليه ، فالافضل يختلف باختلاف حال الشخص ، ومقصود الاوراد تزكية القلب ، وتطهيره ، وتحليته بذكر الله تعالى ، وإيناسه به ، فلينظر المريد إلى قلبه فما يراه أشد تأثيرا فيه فليواظب عليه ، فاذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره ، ولذلك نرى الاصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الاوقات ، كما سبق والانتقال فيها من نوع إلى نوع ، لان الملال هو الغالب على الطبع ، وأحوال الشخص الواحد فى ذلك أيضا تختلف ، ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى ، فان سمع تسبيحة مثلا وأحس لها بوقع فى قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعا ، وقد روى عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الابدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطىء البحر ، فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم ير أحدا ، فقال من أنت

أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر ، أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت ، قلت فما اسمك ؟ قال مهلهائيل ، قلت فما ثواب من قاله ؟ قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة ، أو يرى له ، والتسبيح هو قوله: سبحان الله العلي الديان ، سبحان الله الشديد الاركان ، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار ، سبحان من لا يشغله شأن عن شان ، سبحان الله الحنان المنان ، سبحان الله المسبَّح في كل مكان ، فهذا وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له في قلبه وقعا فيلازمه ، وأيا ما وجد القلب عنده ، وفتح له فيه خير فليواظب عليه

الثاني : العالم الذي ينفع الناس بعلمه ، في فتوى ، أو تدريس ، أو تصنيف ، فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد ، فانه يحتاج إلى المطالعة للكتب ، والى التصنيف والافادة ، ويحتاج إلى مدة لها لا محالة ، فان أمكنه استغراق الاوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل بعد المكتوبات ورواتبها ، ويدل على ذلك جميع ماذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم في كتاب العلم ، وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى ، وتأمل ماقال الله تعالى وقال رسوله وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة ، ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره ، ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعا ، وانما نعني بالعلم المقدم على العبادة العلم الذي يرغب الناس في الآخرة ويزهدهم في الدنيا ، أو العلم الذي يعينهم على سلوك طريق الآخرة ، إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في المال والجاه ، وقبول الخلق ، والأولى بالعلم أن يقسم أوقاته أيضاً

فان استغراق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع ، فينبغي أن يخصص مابعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد ، كما ذكرناه في الورد الأول ، وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفادة والتعليم ، ان كان عنده من يستفيد علما لأجل الآخرة وان لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين ، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات ، ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة ، لا يتركها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة ان طال النهار ، ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع مايقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع ، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح ، فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان ، ووره الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة

ووِرده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة ، ووِرده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليروح فيه العين واليد فان المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين ، وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان، فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع

وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعي رضي الله عنه ، اذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول، وثلثا للصلاة وهو الوسط الوسطى، وثلثا للنوم وهو الأخير وهذا يتيسر في ليالي الشتاء والصيف ربما لا يحتمل ذلك الا إذا كان أكثر النوم بالنهار، فهذا ما نستحبه من ترتيب أوراد العلم

الثالث : المتعلم ، والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالاذكار والنوافل فحكمه حكم العالم في ترتيب الاوراد، ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالافادة وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف، ويرتب أوقاته كما ذكرنا وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على ان ذلك أفضل بل ان لم يكن متعلما على معنى انه يعلق ويحصل ليصير عالما بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه[1] « إِنَّ حُضُورَ مَجْلِسِ ذِكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ وَشُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ وَعِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « إِذَا رَأَيْتُمْ رِيَاضَ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا فِيهَا فقيل: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قال: حَلَقُ الذِّكْرِ » وقال كعب الأحبار رضي الله عنه ؛ لو أن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه ،حتى يترك كل ذي إمارة إمارته، وكل ذي سوق سوقه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ان الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فاذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله ، وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء ، فان الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء ،وقال رجل للحسن رحمه الله أشكو اليك قساوة قلبي، فقال أدنه من مجالس الذكر ، ورأى عمار الزاهدي مسكينة الطفاوية في المنام وكانت من المواظبات على حلق الذكر ، فقال مرحبا يامسكينة فقالت : هيهات هيهات ،ذهبت المسكنة وجاء الغنى، فقال هيه فقالت : ماتسأل عمن أبيح لها الجنة بحذافيرها،قال وبم ذلك ؟ قالت : بمجالسة أهل الذكر

(١) حديث أبي ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ـ الحديث : تقدم في العلم
(٢) حديث إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ـ الحديث : تقدم في العلم

وعلى الجملة فما ينحل عن القلب من عُقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام زكي السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حب الدنيا

الرابع: المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات في العبادات، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق، والاشتغال بالكسب، ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته، بل يواظب على التسبيحات والأذكار وقراءة القرءان، فان ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل، وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظورا فانه لا يعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه، ثم مهما فرغ من كفايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد، وإن داوم على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الاوراد التي ذكرناها، لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمة، والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له في نفسه تقربه إلى الله تعالى، ثم يحصل به فائدة للغير وتنجذب اليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر

الخامس: الوالي مثل الامام والقاضي والمتولي لينظر في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الاخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهارا ويقتصر على المكتوبة، ويقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان عمر رضي الله عنه يفعله، إذ قال: مالي وللنوم، فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين، ولو نمت بالليل ضيعت نفسي

وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدنية أمران، أحدهما العلم، والآخر الرفق بالمسلمين، لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل في نفسه، وعبادة تفضل سائر العبادات، يتعدى فائدته وانتشار جدواه، فكانا مقدمين عليه

السادس: الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهمومه هم واحد، فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحدا وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال، فلا يخطر بقلوبهم أمر، ولا يقرع سمعهم قارع، ولا يلوح لأبصارهم لائح، إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد، فلا محرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى، فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون

سببا لازديادهم ، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عز وجل، كما قال تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَفِرُّوا إِلَى اللهِ [1]) وتحقق فيهم قوله تعالى: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ [2]) واليه الاشارة بقوله: إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، وهذه منتهي درجات الصديقين ، ولا وصول اليها الا بعد ترتيب الاوراد والمواظبة عليها دهرا طويلا ، فلا ينبغي أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ، ويفتر عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لا يهجس في قلبه وسواس ، ولا يخطر في قلبه معصية ، ولا تزعجه هو اجم الاهوال ، ولا تستفزه عظائم الاشغال ، وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد فيتعين على الكافة ترتيب الاوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً [3]) فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض، وفي الخبر [1] « اْلإِيمَانُ ثَلاَثٌ وَثَلاَثُونَ وَثَلَثُمِائَةِ طَرِيقَةٍ مَنْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى بِالشَّهَادَةِ عَلَى طَرِيقٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ »وقال بعض العلماء الايمان ثلثمائة عشر خلقا بعدد الرسل ، فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله ، فاذا الناس وان اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصواب (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ [4]) وإنما يتفاوتون في درجات القرب في أصله وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به ، وأعرفهم به لا بد وأن يكون أعبدهم له ، فمن عرفه لم يعبد غيره

والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة ، فان المراد منه تغيير الصفات الباطنة ، وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها ، وإنما يترتب الأثر على المجموع فاذا لم يعقب العمل الواحد أثرا محسوسا ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحى الأثر الأول وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس ، فانه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير ، فلو بالغ ليلة في التكرار ، وترك شهرا أو أسبوعا ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر هذا فيه ، ولو وزع

---

(١) حديث الايمان ثلاث وثلاثون وثلثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة: ابن شاهين واللالكائي في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده الايمان ثلثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهن دخل الجنة وقال الطبراني والبيهقي ثلثمائة وثلاثون وفي أسناده جهالة

---

(١) الداريات : ٤٩ ، ٥٠ (٢) الكهف : ١٦ (٣) الاسراء ٨٤ (٤) الاسراء : ٥٧

ذلك القدر على الليالى المتواصلة لأثر فيه ، ولهذا السر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » « وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ عَمَلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) فَقَالَتْ كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً وَكَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ عَوَّدَهُ اللهُ عِبَادَةً فَتَرَكَهَا مَلاً لَهُ مَقَتَهُ اللهُ »

وهذا كان السبب فى صلاته بعد العصر تداركا لما فاته من ركعتين (٤) شغله عنهما الوفد ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر، ولكن فى منزله لا فى المسجد كيلا يقتدى به روته عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما

فإن قلت فهل لغيره أن يقتدى به فى ذلك مع أن الوقت وقت كراهية

فاعلم أن المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى الكراهية ، من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان ، أو الاستراحة عن العبادة حذرا من الملال ، لا يتحقق فى حقه، فلا يقاس عليه فى ذلك غيره، ويشهد لذلك فعله فى المنزل حتى لا يقتدى به صلى الله عليه وسلم

الباب الثالث

فى الأسباب الميسرة لقيام الليل وفى الليالى التى يستحب إحياؤها
وفى فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها (٥) « إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ عِنْدَ اللهِ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ لَمْ يَحُطَّهَا عَنْ مُسَافِرٍ ، وَلَا عَنْ مُقِيمٍ ، فَتَحَ بِهَا صَلَاةَ اللَّيْلِ وَخَتَمَ بِهَا صَلَاةَ النَّهَارِ . فَمَنْ صَلَّى الْمَغْرِبَ وَصَلَّى بَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » قال الراوى لا أدرى من ذهب أو فضة

---

(١) حديث أحب الاعمال إلى الله أدومها وان قل : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث سئلت عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبته : رواه م

(٣) حديث من عوده الله عبادة فتركها ملالا مقته الله : تقدم فى الصلاة وهو موقوف على عائشة

(٤) حديث شغله الوفد عن ركعتين فصلاها بعد العصر ثم لم يزل يصليها بعد العصر فى منزله : متفق عليه من حديث أم سلمة أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شغلنى ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر ولهما من حديث عائشة ما تركها حتى لقى الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصليها ولا يصليها فى المسجد مخافة أن يثقل على أمته والله الموفق للصواب

﴿ الباب الثانى فى الأسباب الميسرة لقيام الليل ﴾

(٥) حديث عائشة ان أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم ـ الحديث : رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصفار فى كتاب الصلاة ورواه الطبرانى فى الأوسط مختصرا وإسناده ضعيف

« وَمَنْ صَلَّى بَعْدَهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ قَالَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » وروت أم سلمة وأبو هريرة رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم [(١)] أنه قال : « مَنْ صَلَّى سِتَّ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الْمَغْرِبِ عَدَلَتْ لَهُ عِبَادَةَ سَنَةٍ كَامِلَةٍ أَوْ كَأَنَّهُ صَلَّى لَيْلَةَ الْقَدْرِ » وعن سعيد بن جبير عن ثوبان ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَنْ عَكَفَ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِصَلَاةٍ أَوْ قُرْءَانٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ قَصْرَيْنِ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ كُلِّ قَصْرٍ مِنْهُمَا مِائَةُ عَامٍ ، وَيَغْرِسُ لَهُ بَيْنَهُمَا غِرَاسًا لَوْ طَافَهُ أَهْلُ الدُّنْيَا لَوَسِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « مَنْ رَكَعَ عَشْرَ رَكَعَاتٍ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ » فقال عمر رضى الله عنه إذاً تكثر قصورنا يارسول الله ، فقال « اللهُ أَكْثَرُ وَأَفْضَلُ » أوقال « أَطْيَبُ » وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٤)] « مَنْ صَلَّى الْمَغْرِبَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَيَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَعَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَآيَتَيْنِ مِنْ وَسَطِهَا ، (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [(١)]) إلى آخر الآية (وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)

---

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر: ت ه بلفظ اثنتى عشرة سنة وضعفه ت وأما قوله كأنه صلى ليلة القدر فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الصفار ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحدا وضعت له فى عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر فى المسجد الأقصى وسنده ضعيف

(٢) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان من عكف نفسه مابين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرءان كان حقا على الله أن يبنى له قصرين فى الجنة: لم أجد له أصلا من هذا الوجه وقد تقدم فى الصلاة من حديث ابن عمر

(٣) حديث من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرا فى الجنة عمر إذن تكثر قصورنا يارسول الله ـ الحديث : ابن المبارك فى الزهد من حديث عبد الكريم بن الحارث مرسلا

(٤) حديث أنس من صلى المغرب فى جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يتكلم بشىء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد ـ الحديث : أبو الشيخ فى الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف

---

(١) البقرة : ١٦٣ ، ١٦٤

خمسَ عشرةَ مرَّةٍ، ثُمَّ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ فإذا قامَ في الرَّكْعَةِ الثانيةِ، قرأ فاتحةَ الكِتابِ، وآيةَ الكُرْسيِّ وآيتينِ بعدَها إلى قوله: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[1]) وثلاثَ آياتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مِنْ قولِه لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إلى آخِرِها وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خمسَ عشرةَ مرَّةٍ » وصف من ثوابه فى الحديث مايخرج عن الحصر ،

(١) وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال، قلت للخضر عليه السلام علمنى شيئا أعمله فى كل ليلة فقال إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصليا من غير أن تكلم أحدا ، وأقبل على صلاتك التى أنت فيها، وسلم من كل ركعتين ، واقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثا ، فاذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدا وصلّ ركعتين ، واقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات ، فى كل ركعة ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر الله تعالى سبع مرات ، وقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلىّ العظيم سبع مرات ، ثم ارفع رأسك من السجود ، واستو جالسا ، وارفع يديك وقل: ياحى ياقيوم ياذا الجلال والاكرام ، ياإله الأوّلين والآخرين يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يارب يارب يارب ، ياالله ياالله ياالله : ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك، وصلّ على النبى صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه ، حتى يذهب بك النوم ، فقلت له أحب أن تعلمنى ممن سمعت هذا فقال إنى حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى إليه به فكنت عنده وكان ذلك بحضر منى فتعلمته ممن علمه إيّاه

ويقال إن هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يقين ، وصدق نية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه قبل أن يخرج من الدنيا ، وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ، ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه وعلمه

وعلى الجملة ماورد فى فضل إحياء مابين العشاءين كثير ، حتى قيل(٢) لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة

---

(١) حديث كرز بن وبرة إن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء وفيه أن كرزا سأل الخضر ممن سمعت هذا قال انى حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حين علم هذا الدعاء الحديث : وهذا باطل لا أصل له

(٢) حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة قال مابين المغرب والعشاء: رواه أحمد وفيه رجل لم يسم

(١) البقرة : ٢٥٧

قال ما بين المغرب والعشاء وقال صلى الله عليه وسلم (١) «مَنْ صَلَّى مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فَذَلِكَ صَلاَةُ الْأَوَّابِينَ» وقال الأسود ما أتيت ابن مسعود رضى الله عنه فى هذا الوقت إلا ورأيته يصلى ؛ فسألته فقال نعم هى ساعة الغفلة ، وكان أنس رضى الله عنه يواظب عليها ويقول هى ناشئة الليل ، ويقول فيها نزل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ [1]) وقال أحمد بن أبى الحوارى قلت لأبى سليمان الدارانى أصوم النهار وأتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحيي ما بينهما؟ فقال اجمع بينهما فقلت إن لم يتيسر قال أفطر وصل ما بينهما

فضيلة قيام الليل

أما من الآيات فقوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ [2]) الآية وقوله تعالى : (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً [3]) وقوله سبحانه وتعالى : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ [4]) وقوله تعالى : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ [5]) الآية وقوله عز وجل : (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً [6]) وقوله تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ [7]) قيل هى قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس

ومن الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم (٢) « يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ، عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ وَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ » وفى الخبر (٣) إنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح ، فقال ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه ، وفى الخبر (٤) «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ سَعُوطاً وَلَعُوقاً وَذَرُوراً ، فَإِذَا أَسْعَطَ الْعَبْدَ سَاءَ خُلُقُهُ ، وَإِذَا أَلْعَقَهُ ذَرِبَ لِسَانُهُ بِالشَّرِّ ، وَإِذَا ذَرَّهُ نَامَ

(١) حديث من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الاوابين : تقدم فى الصلاة
(٢) حديث يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة
(٣) حديث ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال ذاك بال الشيطان فى أذنه : متفق عليه من حديث ابن مسعود
(٤) حديث إن للشيطان سعوطا ولعوقا وذرورا ـ الحديث : طب من حديث أنس إن للشيطان لعوقا وكحلا فاذا لعق الانسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كحله من كحله نامت عيناه عن الذكر ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب وسندهما ضعيف

[1] السجدة: ١٦ [2] المزمل: ٢٠ [3] المزمل: ٦ [4] السجدة: ٩ [5] الزمر: ٩ [6] الفرقان: ٦٤ [7] البقرة: ٤٥

اللَّيْلَ حَتَّى يُصْبِحَ » وقال « صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١) رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا الْعَبْدُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَفَرَضْتُهُمَا عَلَيْهِمْ » وفي الصحيح عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى خَيْراً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » وفي رواية : « يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ » وقال المغيرة بن شعبة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) حتى تفطرت قدماه ، فقيل له : أما قد غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وماتأخر ، فقال : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً » ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة ، فان الشكر سبب المزيد ، قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (١)) وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ حَيّاً وَمَيِّتاً وَمَقْبُوراً وَمَبْعُوثاً ؟ قُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلِّ وَأَنْتَ تُرِيدُ رِضَا رَبِّكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ صَلِّ فِي زَوَايَا بَيْتِكَ يَكُنْ نُورُ بَيْتِكَ فِي السَّمَاءِ كَنُورِ الْكَوَاكِبِ وَالنَّجْمِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ فَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَكْفِيرٌ لِلذُّنُوبِ ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ » وقال صلى الله عليه وسلم : (٥) « مَا مِنِ امْرِئٍ تَكُونُ لَهُ صَلَاةٌ بِاللَّيْلِ فَغَلَبَهُ عَلَيْهَا النَّوْمُ إِلَّا كُتِبَ لَهُ أَجْرُ صَلَاتِهِ ، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ »

---

(١) حديث ركعتان يركعها العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتها عليهم : آدم بن أبي أياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلا ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح .

(٢) حديث المغيرة بن شعبة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه ـ الحديث : متفق عليه

(٣) حديث ياأباهريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ياأبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا : باطل لا أصل له

(٤) حديث عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ـ الحديث : ت من حديث بلال وقال غريب ولا يصح ورواه طب وهق من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال ت أنه أصح

(٥) حديث مامن امرىء يكون له صلاة بالليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه : د ن من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم سماه ن في رواية الأسود بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرازي قال ن ليس بالقوي ورواه ن هـ من حديث أبي الدرداء نحوه بسند صحيح وتقدم في الباب قبله

---

(١) ابراهيم : ٧

وقال صلى الله عليه وسلم (١) لأبي ذر « لَوْ أَرَدْتَ سَفَراً أَعْدَدْتَ لَهُ عُدَّةً ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ فَكَيْفَ سَفَرُ طَرِيقِ الْقِيَامَةِ . أَلاَ أُنَبِّئُكَ يَا أَبَا ذَرٍّ بِمَا يَنْفَعُكَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؟ قَالَ بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي قَالَ صُمْ يَوْماً شَدِيدَ الْحَرِّ لِيَوْمِ النُّشُورِ ، وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِوَحْشَةِ الْقُبُورِ ، وَحُجَّ حَجَّةً لِعَظَائِمِ الأُمُورِ ، وَتَصَدَّقْ بِصَدَقَةٍ عَلَى مِسْكِينٍ ، أَوْ كَلِمَةَ حَقٍّ تَقُولُهَا أَوْ كَلِمَةَ شَرٍّ تَسْكُتُ عَنْهَا » وروى أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم (٢) رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم ، وهدأت العيون ، قام يصلي ويقرأ القرءان ويقول : يارب النار أجرني منها ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَآذِنُونِي فَأَتَاهُ فَاسْتَمَعَ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ يَا فُلاَنُ هَلاَّ سَأَلْتَ اللهَ الْجَنَّةَ ؟ قال يارسول الله إني لست هناك ، ولا يبلغ عملي ذاك ، فلم يلبث الا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام ، فقال « أَخْبِرْ فُلاَناً أَنَّ اللهَ قَدْ أَجَارَهُ مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » ويروى أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم (٣) « نِعْمَ الرَّجُلُ ابْنُ عُمَرَ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَكَانَ يُدَاوِمُ بَعْدَهُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ » قال نافع كان يصلي بالليل ثم يقول . يا نافع أسحرنا فأقول لا ، فيقوم لصلاته ، ثم يقول يانافع أسحرنا ؟ فأقول نعم فيقعد ، فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر ، وقال على بن أبي طالب ، شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح ، فأوحى الله تعالى إليه يايحيى أوجدت دارا خيرا لك من داري ؟ أم وجدت جوارا خيرا لك من جواري ؟ فوعزتي وجلالي يايحيى لواطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ، ولزهقت نفسك اشتياقا ، ولواطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ، ولبكيت الصديد بعد الدموع ، ولبست الجلد بعد المسوح ،

---

(١) حديث أنه قال لأبي ذر لو أردت سفرا أعددت له عدة فكيف بسفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أباذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بأبي وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب التهجد من رواية السرى ابن مخلد مرسلا والسرى ضعفه الأزدي

(٢) حديث أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل إذا آخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرءان ويقول يارب النار أجرني منها فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إذا كان ذلك فآذنوني ـ الحديث : لم أقف له على أصل

(٣) حديث أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك وليس فيه ذكر لجبريل

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ فَقَالَ سَيَنْهَاهُ مَا يَعْمَلُ » وقال صلى الله عليه وسلم:[2] « رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى ، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » وقال صلى الله عليه وسلم:[4] « أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ بِاللَّيْلِ فَقَرَأَهُ بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ »

الآثار : روى أن عمر رضى الله عنه ، كان يمر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض ، وكان ابن مسعود رضى الله عنه : إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح ، ويقال إن سفيان الثورى رحمه الله : شبع ليلة فقال : إن الحمار إذا زيد فى علفه زيد فى عمله ، فقام تلك الليلة حتى أصبح ، وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ، ثم يثب ويصلى إلى الصباح ثم يقول طير ذكر جهنم نوم العابدين ، وقال الحسن رحمه الله : مانعلم عملا أشد من مكابدة الليل ، ونفقة هذا المال ، فقيل له مابال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ، قال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره ، وقدم بعض الصالحين من سفره فمهد له فراش ، فنام عليه حتى فاته ورده ، فحلف أن لاينام بعدها على فراش أبدا ، وكان عبد العزيز بن أبى رواد إذا جن الليل يأتى فراشه فيمر يده عليه ، ويقول إنك للين ، ووالله إن فى الجنة لألين منك ولا يزال يصلى الليل كله ، وقال الفضيل : إنى لأستقبل الليل من أوله فيهولنى طوله فأفتتح القرآن فأصبح وماقضيت نهمتى ، وقال الحسن : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل

(١) حديث قيل له إن فلانا يصلى بالليل فاذا أصبح سرق قال سينهاه مايقول: ابن حبان من حديث أبى هريرة

(٢) حديث رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت ـ الحديث : د حب من حديث أبى هريرة

(٣) حديث من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات: د ن من حديث أبى هريرة وأبى سعيد بسند صحيح

(٤) حديث أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل : م من حديث أبى هريرة

(٥) حديث عمر من نام عن حزبه أو عن شىء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل: رواه م

وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم، وقد كثرت خطيئتك وكان صلة بن أشيم رحمه الله : يصلى الليل كله فاذا كان فى السحر قال: إلهى ليس مثلى يطلب الجنة ، ولكن أجرنى برحمتك من النار ، وقال رجل لبعض الحكماء : إنى لأضعف عن قيام الليل ، فقال له ياأخى لاتعص الله تعالى بالنهار ولا تقم بالليل ، وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان فى جوف الليل قامت الجارية ، فقالت ياأهل الدار الصلاة الصلاة فقالوا أصبحنا أطلع الفجر ؟ فقالت : وماتصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا نعم فرجعت إلى الحسن فقالت يا مولاى بعتنى من قوم لايصلون إلا المكتوبة ردنى فردها

وقال الربيع بت فى منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة ، فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا ، وقال أبو الجويرية لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر ، فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض ، وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل ، فمر بقوم فقالوا ان هذا يحيى الليل كله ، فقال انى أستحى أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحيي الليل كله، ويروى أنه ما كان له فراش بالليل ، ويقال إن مالك ابن دينار رضى الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[1]) الآية، وقال المغيرة بن حبيب رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ، ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة ، فجعل يقول اللهم حرم شيبة مالك على النار ، إلهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ، فأى الرجلين مالك؟ وأى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر ، وقال مالك بن دينار سهوت ليلة عن وردى ونمت، فإذا أنا فى المنام بجارية كأحسن مايكون، وفى يدها رقعة، فقالت لى أتحسن تقرأ؟ فقلت نعم، فدفعت إلى الرقعة فاذا فيها

أألهتك اللذائذ والأمانى * عن البيض الأوانس فى الجنان

تعيش مخلدا لا موت فيها * وتلهو فى الجنان مع الحسان

تنبه من منامك إن خيرا * من النوم التهجد بالقرءان

وقيل حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجدا، ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال : رأيت فى المنام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا ، فقلت لها من أنت ؟ قالت حوراء فقلت زوجينى نفسك ، فقالت أخطبنى إلى سيدى وأمهرنى فقلت: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد

(١) الجاثية : ٢١

وقال يوسف بن مهران : بلغني أن تحت العرش ملكا في صورة ديك براثنه من لؤلؤ ، وصئصئه من زبرجد أخضر، فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقى وقال ليقم القائمون، فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقى وقال ، ليقم المتهجدون، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقى، وقال ليقم المصلون، فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقى وقال ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم ، وقيل إن وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة ، وكان يقول لأن أرى في بيتي شيطانا أحب إلى من أن أرى في بيتي وسادة لأنها تدعو إلى النوم وكانت له مسورة من أدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها، وخفق خفقات، ثم يفزع إلى الصلاة

وقال بعضهم رأيت رب العزة في النوم فسمعته يقول: وعزتي وجلالي لأكرمن مثوى سليمان التيمي ، فانه صلى لي الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة ، ويقال. كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى ، أنه قال: إن عبدي الذي هو عبدي حقا الذي لا ينتظر بقيامه صياح الديكة

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهرا وباطنا فاما الظاهرة : فاربعة أمور

الاول : أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام ، كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا ، فتشربوا كثيرا، فترقدوا كثيرا ، فتتحسروا عند الموت كثيرا ، وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام :

الثاني : أن لا يتعب نفسه بالنهار في الاعمال التي تعيا بها الجوارح ، وتضعف بها الأعصاب ، فان ذلك أيضا مجلبة للنوم

الثالث : أن لا يترك القيلولة بالنهار فانها سنة (١) ، للاستعانة على قيام الليل

الرابع : أن لا يحتقب الأوزار بالنهار، فان ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة

---

(١) حديث الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل : هـ من حديث ابن عباس وقد تقدم

قال رجل للحسن : ياأباسعيد إنى أبيت معافى ، وأحب قيام الليل ، وأعد طهورى ، فما بالى لا أقوم ؟ فقال ذنوبك قيدتك ، وكان الحسن رحمه الله : إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم ، يقول أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لايقيلون ، وقال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته ، قيل وماذاك الذنب ، قال رأيت رجلا يبكى ، فقلت فى نفسى هذا مراء ، وقال بعضهم دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى ، فقلت أتاك نعى بعض أهلك فقال أشد ، فقلت وجع يؤلمك ، قال أشد ، قلت فماذاك ؟ قال بابى مغلق ، وسترى مسبل ، ولم أقرأ حزبى البارحة ، وماذاك الابذنب أحدثته ، وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير ، والشر يدعو إلى الشر ، والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير ، ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : لاتفوت أحدا صلاة الجماعة إلا بذنب ، وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة بُعد ، وقال بعض العلماء : إذا صمت يامسكين فانظر عند من تفطر ، وعلى أى شىء تفطر فان العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ، ولا يعود إلى حالته الأولى ، فالذنوب كلها تورث قساوة القلب ، وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير تناول الحرام ، وتؤثر اللقمة الحلال فى تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها ، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له ، ولذلك قال بعضهم كم من أكلة منعت قيام ليلة ، وكم من نظرة منعت قراءة سورة ، وإن العبد ليأكل أكلة ، أو يفعل فعلة ، فيحرم بها قيام سنة ، وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات ، وقال بعض السجانين كنت سجانا نيفا وثلاثين سنة ، أسأل كل مأخوذ بالليل ، أنه هل صلى العشاء فى جماعة فكانوا يقولون لا ، وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطى الفحشاء والمنكر

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور :

الأول : سلامة القلب عن الحقد على المسلمين ، وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا ، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لايتيسر له القيام ، وإن قام فلا يتفكر فى صلاته إلا فى مهماته ، ولا يجول إلا فى وساوسه وفى مثل ذلك يقال

يخبرنى البواب أنك نائم * وأنت إذا استيقظت أيضا فنائم

الثانى : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل ، فإنه إذا تفكر فى أهوال الآخرة ودركات جهنم

طار نومه، وعظم حذره ، كما قال طاوس إن ذكر جهنم طير نوم العابدين، وكما حكى أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله ، فقالت له سيدته إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار ، فقال إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم ، وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل، فقال: إذا ذكرت النار اشتد خوفي ، وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقي، فلا أقدر أن أنام ، وقال ذو النون المصري رحمه الله

منع القران بوعده ووعيده * مقل العيون بليلها أن تهجعا

فهموا عن الملك الجليل كلامه * فرقابهم ذلت إليه تخضعا

وأنشدوا أيضا: ياطويل الرقاد والغفلات * كثرة النوم تورث الحسرات

إن في القبر إن نزلت إليه * لرقادا يطول بعد الممات * ومهادا ممهدا لك فيه

بذنوب عملت أو حسنات * أأمنت البيات من ملك المو * ت وكم نال آمنا بييات

وقال ابن المبارك: إذا ما الليل أظلم كابدوه * فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا * وأهل الأمن في الدنيا هجوع

الثالث : أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان، كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته، فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره، فدخل المسجد ولم يزل يصلي حتى أصبح فقالت له زوجته كنا ننتظرك مدة ، فلما قدمت صليت إلى الصبح قال والله إني كنت أتفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتي شوقا إليها

الرابع: وهو أشرف البواعث الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه ، وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وان تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه فاذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به، وتلذذ بالمناجاة، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام

ولا ينبغي أن تستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل

فأما العقل: فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله ، أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته ، حتى لا يأتيه النوم طول ليله

فإن قلت إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه ، وإن الله تعالى لا يرى

فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر، أو كان في بيت مظلم، لكان المحب يتلذذ بمجاورته

المجردة دون النظر ودون الطمع فى أمر آخر سواه ، وكان يتنعم باظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه ، وإن كان ذلك أيضاً معلوما عنده

فان قلت إنه ينتظر جوابه ، فليتلذذ بسماع جوابه ، وليس يسمع كلام الله تعالى

فاعلم أنه كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة فى عرض أحواله عليه ، ورفع سريرته إليه كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره فى أثناء مناجاته فيتلذذ به ، وكذا الذى يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته فى جنح الليل يتلذذ به فى رجاء إنعامه ، والرجاء فى حق الله تعالى أصدق ، وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه فى الخلوات

وأما النقل : فيشهد له أحوال قوام الليل فى تلذذهم بقيام الليل، واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب، حتى قيل لبعضهم: كيف أنت والليل ؟ قال ما راعيته قط، يريني وجهه ثم ينصرف ، وما تأملته بعد ، وقال آخر: أنا والليل فرسا رهان، مرة يسبقنى إلى الفجر، ومرة يقطعنى عن الفكر ، وقيل لبعضهم كيف الليل عليك ، فقال ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء ، وأغتم بفجره إذا طلع ، ما تم فرحى به قط ، وقال على بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزننى شىء سوى طلوع الفجر ، وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام، لخلوتى بربى وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على ، وقال أبو سليمان : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا ، وقال أيضاً لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم ، وقال بعض العلماء : ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة ، وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا ، إنما هى من الجنة، أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم ، وقال ابن المنكدر : ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الإخوان ، والصلاة فى الجماعة ، وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنواراً ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين ، وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين : ان لى عبادا من عبادى أحبهم ويحبوننى ، ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم ، ويذكروننى وأذكرهم ، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم : فان حذوت طريقهم أحببتك

وإن عدلت عنهم مقتناك. قال يارب وما علامتهم؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إلي أقدامهم، وافترشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتعلقوا إلي بانعامي فبين صارخ وباكٍ، وبين متأوه وشاكٍ، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي أول ما أعطيهم، أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني، كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عز وجل، وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب، وهذا له سر وتحقيق ستأتي الإشارة إليه في كتاب المحبة

وفي الأخبار عن الله عز وجل أي عبدي، أنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري، وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل، وطلب حيلة يجلب بها النوم، فقال أستاذه: يا بني إن لله نفحات في الليل والنهار، تصيب القلوب المتيقظة، وتخطئ القلوب النائمة، فتعرض لتلك النفحات، فقال ياسيدي تركتني لا أنام بالليل ولا بالنهار

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل، وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال «إِنَّ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» وفي رواية أخرى «يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» وذلك كل ليلة، ومطلوب القائمين تلك الساعة وهي مبهمة في جملة الليل كليلة القدر في شهر رمضان، وكساعة يوم الجمعة، وهي ساعة النفحات المذكورة، والله أعلم

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب

الأولى: إحياء كل الليل: وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى، وتلذذوا بمناجاته، وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم، فلم يتعبوا بطول القيام، وردوا المنام إلى النهار في وقت اشتغال الناس، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء،

---

(١) حديث جابر إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة: رواه م

حكي أبو طالب المكي أن ذلك حكي على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واظب عليه أربعين سنة ، قال منهم سعيد بن المسيب ، وصفوان بن سليم المدنيان وفضيل بن عياض ، ووهيب بن الورد المكيان ، وطاوس ، ووهب بن منبه اليمانيان، والربيع ابن خيثم ، والحكم الكوفيان ، وأبو سليمان الداراني ، وعلى بن بكار الشاميان ، وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العباديان ، وحبيب أبو محمد ، وأبو جابر السلماني الفارسيان ، ومالك ابن دينار ، وسليمان التيمي، ويزيد الرقاشي ، وحبيب بن أبي ثابت ، ويحيى البكاء ، البصريون وكهمس بن المنهال ، وكان يختم في الشهر تسعين ختمة ، ومالم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى وأيضا من أهل المدينة أبو حازم ، ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم

المرتبة الثانية : أن يقوم نصف الليل ، وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف، وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول من الليل ، والسدس الأخير منه ، حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل ،

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب ، لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك، ويقلل صفرة الوجه ، والشهرة به ، فلو قام أكثر الليل، ونام سحراً قلت صفرة وجهه ، وقل نعاسه ، وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] إذا أوتر من آخر الليل ، فان كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن ، وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال ، فيؤذنه للصلاة ، وقالت أيضا رضي الله عنها [2] ، ما ألفيته بعد السحر إلا نائما ، حتى قال بعض السلف : هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، منهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان نوم هذا الوقت سببا للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب، وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار ،

---

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فان كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذن بالصلاة : م من حديث عائشة كان ينام أول الليل ويحيي آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام وقال النسائي فاذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فاذا كان له حاجة ألم بأهله ولأبي داود كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فان كنت مستيقظة حدثني وإن كنت نائمة أيقظني وصلى الركعتين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاة الصبح فيصلي ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة وهو متفق عليه بلفظ كان إذا صلى فان كنت مستيقظة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة وقال م إذا صلى ركعتي الفجر

(٢) حديث عائشة ما ألفيته السحر الأعلى إلا نائما : متفق عليه بلفظ ما ألفى رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر الأعلى في بيتي أو عندي إلا نائما لم يقل : خ الأعلى وقال هما كنت ألفى أو ألقى النبي صلى الله عليه وسلم من آخر الليل إلا وهو نائم عندي

وقيام ثلث الليل من النصف الأخير، ونوم السدس الأخير قيام داود صلى الله عليه وسلم

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه

المرتبة الخامسة: أن لا يراعي التقدير. فإن ذلك إنما يتيسر لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه، ويواظبه، ويوقظه ثم ربما يضطرب في ليالي الغيم، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان، وقومتان، وهو من مكابدة الليل، وأشد الأعمال وأفضلها وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] وهو طريقة ابن عمر، وأولي العزم من الصحابة، وجماعة من التابعين رضي الله عنهم وكان بعض السلف يقول: هي أول نومة، فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لي عينا

فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار، فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم [٢] نصف الليل، أو ثلثيه أو ثلثه، أو سدسه، يختلف ذلك في الليالي، ودل عليه قوله تعالى في الموضعين من سورة المزمل (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ[١]) فأدنى من ثلثي الليل كأنه نصفه، ونصف سدسه فإن كسر قوله ونصفه وثلثه كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع، وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائشة رضي الله عنها، كان صلى الله عليه وسلم [٣] يقوم إذا سمع الصارخ يعني الديك، وهذا يكون السدس فما دونه وروى غير واحد أنه قال راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] في السفر ليلا، فنام بعد العشاء زمانا

(١) حديث قيامه أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان: د ت وصححه و ه من حديث أم سلمة كان يصلي وينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح وللبخاري من حديث ابن عباس صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام ثم قام وفيه فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه ـ الحديث

(٢) حديث ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه: الشيخان من حديث ابن عباس قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ ـ الحديث: وفي رواية للبخاري فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء ـ الحديث: ولأبي داود قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ ـ الحديث: لمسلم من حديث عائشة فيبعثه الله بما شاء أن يبعثه من الليل

(٣) حديث عائشة كان يقوم إذا سمع الصارخ: متفق عليه.

(٤) حديث غير واحد قال راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك حتى بلغ إنك لا تخلف الميعاد ثم استل من فراشه سواكا فاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل ما نام ـ الحديث: ن من رواية

(١) المزمل: ٢٠

ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا [(١)]) حتى بلغ (إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) ثم استل من فراشه سواكا فاستاك به ، وتوضأ وصلى ، حتى قلت صلى مثل الذى نام ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ماصلى ، ثم استيقظ فقال ماقال أول مرة وفعل مافعل أول مرة

المرتبة السادسة: وهى الأقل أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، أو تتعذر عليه الطهارة، فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلا بالذكر والدعاء، فيكتب فى جملة قوام الليل برحمة الله وفضله، وقد جاء فى الأثر [(١)] « صَلِّ مِنَ اللَّيْلِ وَلَوْ قَدْرَ حَلْبِ شَاةٍ » . فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه مايراه أيسر عليه وحيث يتعذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل إحياء مابين العشاءين، والورد الذى بعد العشاء ، ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح نائما ، ويقوم بطرفى الليل وهذه هى الرتبة السابعة ، ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره وأما فى الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما إلى القدر فليس يجرى أمرهما فى التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ماذكرناه فى السادسة ولا الخامسة دون الرابعة

بيان الليالى والأيام الفاضلة

اعلم أن الليالى المخصوصة بمزيد الفضل التى يتأكد فيها استحباب الاحياء فى السنة خمس عشرة ليلة، لا ينبغى أن يغفل المريد عنها، فإنها مواسم الخيرات، ومظان التجارات، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح، ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح، فستة من هذه الليالى فى شهر رمضان خمس فى أوتار العشر الأخير، إذ فيها تطلب ليلة القدر، وليلة سبع عشرة من رمضان، فهى ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان: فيه كانت وقعة بدر، وقال ابن الزبير رحمه الله هى ليلة القدر، وأما التسع الأخر فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه

حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال قلت وأنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لارقبن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن مغيث فى كتاب الصلاة من رواية إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة أن رجلا قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ـ الحديث : وفيه أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل وهذا يدل أنه أيضا كان فى سفر

(١) حديث صل من الليل ولو قدر حلب شاة : أبو يعلى من حديث ابن عباس فى صلاة الليل مرفوعا نصفه ثلثه ربعه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة ولأبى الوليد بن مغيث من رواية اياس بن معاوية مرسلا لابد من صلاة الليل ولو حلبة ناقة أو حلبة شاة

---

(١) آل عمران : ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤

وهى ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة [1] فقد قال صلى الله عليه وسلم «لِلْعَامِلِ فِى هَذِهِ اللَّيْلَةِ حَسَنَاتُ مِائَةِ سَنَةٍ . فَمَنْ صَلَّى فِى هَذِهِ اللَّيْلَةِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَقْرَأُ فِى كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَةً مِنَ الْقُرْءَانِ وَيَتَشَهَّدُ فِى كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَيُسَلِّمُ فِى آخِرِهِنَّ ، ثُمَّ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ لِلهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِائَةَ مَرَّةٍ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ مِائَةَ مَرَّةٍ ، وَيُصَلِّى عَلَى النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ مَرَّةٍ ، وَيَدْعُو لِنَفْسِهِ بِمَا شَاءَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ، وَيُصْبِحُ صَائِمًا ، فَإِنَّ اللهَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُ كُلَّهُ إِلَّا أَنْ يَدْعُوَ فِى مَعْصِيَةٍ » وليلة النصف من شعبان ، ففيها مائة ركعة ، يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات كانوا لايتركونها كما أوردناه فى صلاة التطوع ، وليلة عرفة ، وليلتا العيدين قال صلى الله عليه وسلم [2] «مَنْ أَحْيَا لَيْلَتَىِ الْعِيدَيْنِ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ» . وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر ، يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم ، وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] قال « مَنْ صَامَ يَوْمَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ صِيَامَ سِتِّينَ شَهْرًا » وهو اليوم الذى أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام عَلَى محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ويوم سبعة عشر من رمضان ، وهو يوم وقعة بدر ، ويوم النصف من شعبان ، ويوم الجمعة ويوما العيدين والأيام المعلومات وهى عشر من ذى الحجة ، والأيام المعدودات ، وهى أيام التشريق وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] أنه قال « إِذَا سَلِمَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ سَلِمَتِ الْأَيَّامُ ، وَإِذَا سَلِمَ شَهْرُ رَمَضَانَ سَلِمَتِ السَّنَةُ » وقال بعض العلماء : من أخذ مهناة فى الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناة فى الآخرة ، وأراد به العيدين ، والجمعة ، وعرفة ، وعاشوراء

ومن فواضل الأيام فى الأسبوع ، يوم الخميس ، والاثنين ، ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى ، وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام فى كتاب الصوم ، فلا حاجة إلى الاعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين

---

(١) حديث الصلاة المأثورة فى ليلة السابع والعشرين من رجب ذكر أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل الأيام والليالى أن أبا محمد الجبارى : رواه من طريق الحاكم أبى عبد الله من رواية محمد ابن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعا و محمد بن الفضل وأبان ضعيفان جدا والحديث منكر

(٢) حديث من أحيا ليلتى العيد لم يمت قلبه يوم تموت القلوب : ه باسناد ضعيف من حديث أبى أمامة

(٣) حديث أبى هريرة من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذى هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم : رواه أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل الليالى والأيام من رواية شهر بن حوشب عنه

(٤) حديث أنس إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة : تقدم فى الباب الخامس من الصلاة فى ذكر يوم الجمعة فقط و قد رواه بجملته ابن حبان فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف

ربع العادات

كتاب آداب الأكل

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب آداب الأكل

وهو الأول من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذى أحسن تدبير الكائنات ، بخلق الأرض والسموات ، وأنزل الماء الفرات من المعصرات ، فأخرج به الحب والنبات، وقدر الأرزاق والأقوات ، وحفظ بالمأكولات قوى الحيوانات ، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات . والصلاة على محمد ذى المعجزات الباهرات ، وعلى آله وأصحابه صلاة تتوالى على ممر الأوقات، وتتضاعف بتعاقب الساعات . وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فان مقصد ذوى الألباب لقاء الله تعالى فى دار الثواب. ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلا بالعلم والعمل ، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات ، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات ، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين إن الأكل من الدين ، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) [1] فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ، ويقوى به على التقوى ، فلا ينبغى أن يترك نفسه مهملا سدى ، يسترسل فى الأكل استرسال البهائم فى المرعى ، فان ماهو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه، ينبغى أن تظهر أنوار الدين عليه . وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التى يزم العبد بزمامها ، ويلجم المتقى بلجامها حتى يتزن بميزان الشرع شهوة الطعام فى إقدامها واحجامها ، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر ، وإن كان فيها أوفى حظ للنفس . قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْجَرُ حَتَّى فِى اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ وَإِلَى فِى امْرَأَتِه » وإنما ذلك إذا رفعها بالدين وللدين ، مراعيا فيه آدابه ووظائفه . وها نحن نرشد الى وظائف الدين فى الأكل ، فرائضها وسننها وآدابها ومروءاتها وهيئاتها ، فى أربعة أبواب وفصل فى آخرها .

﴿ كتاب آداب الأكل ﴾

(١) حديث إن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فيه وإلى فى امرأته : خ من حديث لسعد بن أبى وقاص . وانك مها أنفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى فى امرأتك

(١) المؤمنون : ٥١

الباب الأول

فيما لا بد للمنفرد منه

وهو ثلاثة أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ، وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول

فى الآداب التى تتقدم على الأكل

وهى سبعة :

الأول : أن يكون الطعام بعد كونه حلالا فى نفسه ، طيبا فى جهة مكسبه ، موافقا للسنة والورع ، لم يكتسب بسبب مكروه فى الشرع ، ولا بحكم هوى ومداهنة فى دين ، على ما سيأتى فى معنى الطيب المطلق فى كتاب الحلال والحرام . وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال، وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل ، تفخيما لأمر الحرام ،وتعظيما لبركة الحلال، فقال تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ[1]) إلى قوله (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) الآية . فالاصل فى الطعام كونه طيبا . وهو من الفرائض وأصول الدين

الثانى : غسل اليد ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « الوُضُوءُ قَبْلَ الطَّعَامِ يَنْفِي الْفَقْرَ وَبَعْدَهُ يَنْفِي اللَّمَمَ » وفى رواية « يَنْفِي الْفَقْرَ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ » ولأن اليد لا تخلو عن لوث فى تعاطى الأعمال ، فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة ، ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة ، فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجرى منه مجرى الطهارة من الصلاة

﴿ الباب الأول ﴾

(١) حديث الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وبعده ينفى اللمم وفى رواية ينفى الفقر قبل الطعام وبعده : القضاعى فى مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلا باللفظ الأول وللطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفى الفقر ولأبى داود وت من حديث سلمان بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده وكلها ضعيفة

(١) النساء : ٩٢

الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض ، فهو أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة: « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١] إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ وَضَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ » فهذا أقرب إلى التواضع . فإن لم يكن فعلى السفرة ،فإنها تذكر السفر، ويتذكر من السفر سفر الآخرة وحاجته إلى زاد التقوى . وقال أنس ابن مالك رحمه الله ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] على خوان ولا في سُكُرُّجَة . قيل فعلى ماذا كنتم تأكلون؟ قال على السفرة وقيل أربع أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم :الموائد،والمناخل ،والأشنان،والشبع

واعلم أنا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى ، فلسنا نقول الأكل على المائدة منهي عنه نهي كراهة أو تحريم . إذلم يثبت فيه نهي . وما يقال أنه أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس كل ماأبدع منهيا ، بل المنهي بدعة تضاد سنة ثابتة ، وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الابداع قد يجب في بعض الاحوال إذا تغيرت الاسباب . وليس في المائدة الارفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل ، وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ، ليست متساوية . بل الاشنان حسن لمافيه من النظافة ، فان الغسل مستحب للنظافة ، والاشنان أتم في التنظيف . وكانوا لايستعملونه لانه ربما كان لايعتاد عندهم ، أولا يتيسر ، أوكانوا مشغولين بأمور أهم من المبالغة في النظافة ، فقد كانوا لايغسلون اليد أيضا ، وكانت مناديلهم أخمص أقدامهم . وذلك لايمنع كون الغسل مستحبا ، وأما المنخل ، فالمقصود منه تطييب الطعام وذلك مباح ، مالم ينته إلى التنعم المفرط . وأما المائدة . فتيسير للأكل وهو أيضا مباح ،مالم ينته إلى الكبر والتعاظم . وأما الشبع ، فهو أشد هذه الأربعة ، فانه يدعو إلى تهييج الشهوات ، وتحريك الادواء في البدن ، فلتدرك التفرقة بين هذه المبدعات

الرابع : أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ، ويستديمها كذلك. « كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٣] رُبَّمَا جَثَا لِلْأَكْلِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَجَلَسَ عَلَى ظَهْرِ قَدَمَيْهِ

---

(١) حديث كان إذا أتي بطعام وضعه على الأرض : أحمد في كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلا ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه وفيه مجاهد وثقه أحمد وضعفه الدارقطني

(٢) حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ـ الحديث : رواه خ

(٣) حديث ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى د من حديث عبد الله بن بشير في أثناء حديث أتوا تلك القصعة فالتفوا عليها فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : وله و ن من حديث أنس رأيته يأكل وهو مقع من الجوع وروى أبو الحسن بن المقرى في الشمائل من حديثه كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى

وَرُبَّمَا نَصَبَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى وَجَلَسَ عَلَى الْيُسْرَى وَكَانَ يَقُولُ [١] لَا آكُلُ مُتَّكِئاً [٢] إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ) والشرب متكئا مكروه للمعدة أيضا ويكره الأكل نائما ومتكئا ، الاما يتنقل به من الحبوب . وروى عن على كرم الله وجهه أنه أكل كعكا على ترس وهو مضطجع ، ويقال منبطح على بطنه ، والعرب قد تفعله

الخامس : أن ينوى بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ، ليكون مطيعا بالأكل . ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل . قال إبراهيم بن شيبان : منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئا لشهوتى . ويعزم مع ذلك على تقليل الاكل ، فانه إذا أكل لأجل قوة العبادة ، لم تصدق نيته إلا بأكل مادون الشبع ، فان الشبع يمنع من العبادة ولا يقوى عليها . فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة ، وايثار القناعة على الاتساع . قال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ . حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَثُلُثٌ طَعَامٌ وَثُلُثٌ شَرَابٌ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ » ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع ، فيكون الجوع أحد مالابد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغى أن يرفع اليد قبل الشبع ، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب . وسيأتى فائدة قلة الأكل ، وكيفية التدريج فى التقليل منه ، فى كتاب كسر شهوة الطعام من ربع المهلكات

السادس : أن يرضى بالموجود من الرزق ، والحاضر من الطعام ، ولا يجتهد فى التنعم وطلب الزيادة وانتظار الادم . بل من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الادم . « وَقَدْ وَرَدَ الْأَمْرُ بِإِكْرَامِ الْخُبْزِ » [٤] فكل ما يديم الرمق ، ويقوى على العبادة ، فهو خير كثير لا ينبغى أن يستحقر . بل لا ينتظر بالخبز الصلاة أن حضر وقتها ، إذا كان فى الوقت متسع قال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ وَالْعِشَاءُ فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ » وكان ابن عمر رضى الله عنهما ربما سمع قراءة الامام

ثم قال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد وأسناده ضعيف

(١) حديث كان يقول لا آكل متكئا : خ من حديث أبى جحيفة

(٢) حديث : انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ، تقدم قبله ، من حديث أنس بلفظ وأفعل بدل وأجلس ، رواه البزار من حديث ابن عمر ، دون قوله وأجلس

(٣) حديث ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ـ الحديث : ت وقال حسن ه من حديث المقداد بن معديكرب

(٤) حديث أكرموا الخبز : البزار والطبرانى وابن قانع من حديث عبد الله بن أم حرام باسناد ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات

(٥) حديث إذا حضر العشاء والعشاء فابدءوا بالعشاء : تقدم فى الصلاة والمعروف واقيمت الصلاة

ولايقوم من عشائه . ومهما كانت النفس لاتتوق إلى الطعـام ، ولم يكن فى تأخير الطعام ضرر ، فالأولى تقديم الصـلاة فأما إذا حضر الطعام ، وأقيمت الصلاة ، وكان فى التأخير مايبرد الطعام أويشوش أمره ، فتقديمه أحب عند اتساع الوقت ، تاقت النفس أولم تتق ، لعموم الخبر، ولان القلب لايخلوعن الالتفات إلى الطعام الموضوع، وإن لم يكن الجوع غالبا

السابع : أن يجتهد فى تكثير الأيدى على الطعام ، ولومن أهله وولده . قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ » وقال أنس رضى الله عنه «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(٢)] لَا يَأْكُلُ وَحْدَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم «خَيْرُ الطَّعَامِ مَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ الْأَيْدِى»

القسم الثانى

فى آداب حالة الأكل

وهو أن يبدأ بسم الله فى أوله ، وبالحمدلله فى آخره . ولو قال مع كل لقمة بسم الله فهو حسن ، حتى لايشغله الشره عن ذكر الله تعالى . ويقول مع اللقمة الاولى بسم الله ، ومع الثانية بسم الله الرحمن ، ومع الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم . ويجهر به ليذكر غيره ، ويأكل باليمنى ، ويبدأ بالملح ويختم به ، ويصغر اللقمة ، ويجود مضغها ، وما لم يبتلعها لم يمد اليد إلى الاخرى ، فان ذلك عجلة فى الأكل . وأن لايذم مأكولا . كان صلى الله عليه وسلم [(٣)] « لَا يَعِيبُ مَأْكُولاً ، كَانَ إِذَا أَعْجَبَهُ أَكَلَهُ وَإِلَّا تَرَكَهُ » وأن يأكل مما يليه ، الا الفاكهة فان له أن يجيل يده فيها . قال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « كُلْ مِمَّا يَلِيكَ » ثم كان صلى الله عليه وسلم [(٥)] « يَدُورُ عَلَى الْفَاكِهَةِ فَقِيلَ لَهُ فِى ذٰلِكَ فَقَالَ لَيْسَ هُوَ نَوْعاً وَاحِداً » وأن لا يأكل من دورة القصعة

---

(١) حديث اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه : د ه من حديث وحشي بن حرب باسناد حسن

(٢) حديث أنس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده : رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف

(٣) حديث أنس كان لايعيب مأكولا إن أعجبه أكله وإلا تركه : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث كل مايليك : متفق عليه من حديث عمر بن أبى سلمة

(٥) حديث كان يدور على الفاكهة وقال ليس هو نوعا واحدا : ت ه من حديث عكراش بن دويب وفيه وجالت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطبق فقال ياعكراش كل من حيث شئت فانه غير لون واحد قال ت غريب ورواه حب فى الضعفاء

ولا من وسط الطعام ، بل يأكل من استدارة الرغيف ؛ إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ، ولا يقطع [١] بالسكين ، ولا يقطع اللحم أيضا [٢] فقد نهى عنه ، وقال انهشوه نهشا ، ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها الا مايؤكل به . قال صلى الله عليه وسلم « أَكْرِمُوا الْخُبْزَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَهُ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ » ولا يمسح يده بالخبز . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا وَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ وَلَا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ » [٤] « وَلَا يَنْفُخُ فِي الطَّعَامِ الْحَارِّ فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ » بل يصبر إلى أن يسهل أكله ويأكل من التمر وترا سبعا أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو مااتفق ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها وكذا كل ماله عجم وثفل وأن لا يترك مااسترذله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام ، الا إذا غص بلقمة أوصدق عطشه ، فقد قيل ان ذلك مستحب في الطب ، وإنه دباغ المعدة .

وأما الشرب فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ، ويقول بسم الله ، ويشربه مصا لاعبا . قال صلى الله عليه وسلم [٥] « مُصُّوا الْمَاءَ مَصًّا وَلَا تَعُبُّوهُ عَبًّا فَإِنَّ الْكُبَادَ مِنَ الْعَبِّ » ولايشرب قائما ولا مضطجعا ، فانه صلى الله عليه وسلم [٦] « نَهَى عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا » وروى « أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٧] شَرِبَ قَائِمًا » ولعله كان لعذر . ويراعي أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه ، وينظر في الكوز

---

(١) حديث النهي عن قطع الخبز بالسكين : رواه حب في الضعفاء من حديث أبي هريرة فيه نوح بن أبي مريم وهو كذاب ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف

(٢) حديث النهي عن قطع اللحم بالسكين : د من حديث عائشة وقال انهشوه نهشا قال ن منكر و ت هـ من حديث صفوان بن أمية وانهشوا اللحم نهشا وسنده ضعيف

(٣) حديث إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فانه لايدري في أي طعامه البركة : م من حديث أنس وجابر

(٤) حديث النهي عن النفخ في الطعام والشراب : أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود و ت وصححه ابن ماجه الا انهم قالوا في الاناء و ت وصححه من حديث أبي سعيد نهى عن النفخ في الشراب

(٥) حديث مصوا الماء مصا ولا تعبوه عبا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بالشطر الأول ولأبي داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبي رباح إذا شربتم فاشربوا مصا

(٦) حديث النهي عن الشرب قائما : م من حديث أنس وأبي سعيد وأبي هريرة

(٧) حديث أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما : متفق عليه من حديث ابن عباس وذلك من زمزم

قبل الشرب ، ولا يتجشأ ولا يتنفس فى الكوز ، بل ينحيه عن فه بالحمد ، ويرده بالتسمية . وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] بعد الشرب « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى جَعَلَهُ عَذْبًا فُرَاتًا بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا » والكوز وكل مايدار على القوم يدار يمنة . وقد شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا ، وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله ، واعرابى عن يمينه ، وعمر ناحية ، فقال عمر رضى الله عنه ، أعط أبا بكر ، فناول الاعرابى ، وقال الأيمن فالأيمن . ويشرب فى ثلاثة أنفاس ، يحمد الله فى أواخرها ، ويسمي الله فى أوائلها ، ويقول فى آخر النفس الاول الحمد لله وفى الثانى يزيد رب العالمين ، وفي الثالث يزيد الرحمن الرحيم

فهذا قريب من عشرين أدبا فى حالة الأكل والشرب ، دلت عليها الأخبار والآثار

القسم الثالث

ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع ، ويلعق أصابعه ، ثم يمسح بالمنديل ، ثم يغسلها . ويلتقط فتات الطعام . قال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ أَكَلَ مَا يَسْقُطُ مِنَ الْمَائِدَةِ عَاشَ فِى سَعَةٍ وَعُوفِيَ فِى وَلَدِهِ » ويتخلل ولا يبتلع كل مايخرج من بين أسنانه بالخلال الا مايجمع من أصول أسنانه بلسانه . أما المخرج بالخلال فيرميه ، وليتمضمض بعد الخلال ففيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام وأن يلعق القصعة ويشرب ماءها ويقال : من لعق القصعة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة . وان التقاط الفتات مهور الحور العين . وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلّٰهِ [١]) ومهما أكل حلالا قال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وتنزل البركات .

---

(١) حديث كان يقول بعد الشرب الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا الطبرانى فى الدعاء مرسلا من رواية أبى جعفر محمد بن علي بن الحسين

(٢) حديث من أكل ماسقط من المائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده : أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر بلفظ أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحمق وله من حديث الحجاج بن علاط أعطي سعة من الرزق ووقى فى ولده وكلاهما منكر جدا

(١) البقرة : ١٧٢

اللهم أطعمنا طيبا ، واستعملنا صالحا وإن أكل شبهة فليقل : الحمدلله على كل حال ، اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك . ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ، ولإيلاف قريش ، ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولا . فان أكل طعام الغير فليدع له ، وليقل اللهم أكثر خيره ، وبارك له فيما رزقته ، ويسر له أن يفعل فيه خيرا ، وقنعه بما أعطيته ، واجعلنا وإياه من الشاكرين وأن أفطر عند قوم ، فليقل أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة . وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة ، ليطفيء بدموعه وحزنه حر النار التي تعرض لها ، لقوله صلى الله عليه وسلم [1] (كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) وليس من يأكل ويبكي كمن يأكل ويلهو . وليقل إذا أكل لبنا [2] (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيمَا رَزَقْتَنَا وَزِدنَا مِنْهُ)

فان أكل غيره قال : اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وارزقنا خيرا منه فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن لعموم نفعه . ويستحب عقيب الطعام أن يقول : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، سيدنا ومولانا ، يا كافي من كل شيء ولا يكفى منه شيء أطعمت من جوع وآمنت من خوف ، فلك الحمد آويت من يُتم ، وهديت من ضلالة ، وأغنيت من عيلة ، فلك الحمد حمدا كثيرا دائما طيبا نافعا مباركا فيه ، كما أنت أهله ومستحقه ، اللهم أطعمتنا طيبا فاستعملنا صالحا ، واجعله عونا لنا على طاعتك . ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك

وأما غسل اليدين بالاشنان ، فكيفيته أن يجعل الاشنان في كفه اليسرى ، ويغسل الاصابع الثلاث من اليد اليمنى أولا ، ويضرب أصابعه على الأشنان اليابس ، فيمسح به شفتيه ، ثم ينعم غسل الفم باصبعه ، ويدلك ظاهر اسنانه وباطنها والحنك واللسان ، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماء ، ثم يدلك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهرا وبطنا . ويستغنى بذلك عن اعادة الأشنان إلى الفم واعادة غسله .

---

(١) حديث كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به : هو في شعب الايمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ سحت وهو عند ت وحسنه بلفظ لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به

(٢) حديث القول عند أكل اللبن اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه : د ت وحسنه و ه من حديث ابن عباس إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه واطعمنا خيرا منه ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه

الباب الثالث

فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل وهى سبعة

الأول : أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم ، بكبر سن أو زيادة فضل ، إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به ، فحينئذ ينبغى أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل ، واجتمعوا له .

الثانى : أن لا يسكتوا على الطعام ، فان ذلك من سيرة العجم ، ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها

الثالث : أن يرفق برفيقه فى القصعة، فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله ، فان ذلك حرام إن لم يكن موافقا لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركا . بل ينبغى أن يقصد الايثار ولا يأكل تمرتين فى دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم . فان قلل رفيقه نشطه ورغبه فى الأكل ، وقال له كل ، ولا يزيد فى قوله كل على ثلاث مرات ، فان ذلك الحاح وافراط . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] إذا خوطب فى شىء ثلاثا لم يراجع بعد ثلاث وكان صلى الله عليه وسلم [2] يكرر الكلام ثلاثا فليس من الأدب الزيادة عليه فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع . قال الحسن بن على رضى الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه

الرابع : أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له كل . قال بعض الأدباء : أحسن الآكلين أكلا من لا يحوج صاحبه إلى أن يتفقده فى الأكل ، وحمل عن أخيه مؤنة القول . ولا ينبغى أن يدع شيئا مما يشتهيه لأجل نظر الغير إليه ، فان ذلك تصنع . بل يجرى على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئا فى الوحدة ، ولكن يعود نفسه حسن الادب فى الوحدة ، حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع . نعم ، لو قلل من أكله ايثارا لاخوانه ونظر لهم عند الحاجة إلى ذلك

﴿الباب الثانى فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل﴾

(١) حديث كان إذا خوطب فى شىء ثلاثا لم يراجع بعد ثلاث : أحمد من حديث جابر فى حديث طويل ومن حديث أبى حدرد أيضا وأسنادهما حسن

(٢) حديث كان يكرر الكلمة ثلاثا : خ من حديث أنس كان يعيد الكلمة ثلاثا

فهو حسن . وإن زاد فى الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم فى الأكل ، فلا بأس به ، بل هو حسن . وكان ابن المبارك يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول : من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهما وكان يعد النوى ، ويعطى كل من له فضل نوى بعدده دراهم ، وذلك لدفع الحياء ، وزيادة النشاط فى الانبساط . وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما أحب اخوانى إلى أكثرهم أكلا ، وأعظمهم لقمة . وأثقلهم عَلَيَّ من يحوجنى إلى تعهده فى الأكل . وكل هذا إشارة إلى الجرى على المعتاد وترك التصنع . وقال جعفر رحمه الله أيضا تتبين جودة محبة الرجل لاخيه بجودة أكله فى منزله

الخامس : إن غسل اليد فى الطست لاباس به ، وله أن يتنخم فيه إن أكل وحده ، وإن أكل مع غيره فلا ينبغى أن يفعل ذلك. فاذا قدم الطست إليه غيره إكراماً له فليقبله. اجتمع أنس ابن مالك وثابت البنانى رضى الله عنهما على طعام ، فقدم أنس الطست إليه ، فامتنع ثابت ، فقال أنس : إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها ، فانما يكرم الله عز وجل : وروى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير ، فصب الرشيد على يده فى الطست ، فلما فرغ قال ياأبا معاوية تدرى من صب على يدك ؟ فقال لا قال صبه أمير المؤمنين . فقال ياأمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته ، فاجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله .

ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد فى الطست فى حالة واحدة ، فهو أقرب إلى التواضع ، وأبعد عن طول الانتظار . فان لم يفعلوا ، فلا ينبغى أن يصب ماء كل واحد، بل يجمع الماء فى الطست . قال صلى الله عليه وسلم [1] (اجْمَعُوا وَضُوءَكُمْ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَكُمْ) قيل إن المراد به هذا. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الامصار: لا يرفع الطست من بين يدى قوم الا مملوءة ولا تشبهوا بالعجم. وقال ابن مسعود : اجتمعوا على غسل اليد فى طست واحد ولا تستنوا بسنة الاعاجم

والخادم الذى يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائما، وأحب أن يكون جالسا لانه أقرب إلى التواضع . وكره بعضهم جلوسه فروى أنه صب جالسا على يد واحد خادم جالسا

---

(١) حديث اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم : رواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث أبى هريرة باسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبى هريرة ابراهيم وقال انه معضل وفيه نظر

فقام المصبوب عليه ، فقيل له لم قمت ؟ فقال أحدنا لابدوأن يكون قائماوهذا أولى لانه أيسر للصب والغسل وأقرب إلى تواضع الذى يصب .وإذا كان له نيةفيه فتمكينه من الخدمة ليس فيه تكبر فان العادة جارية بذلك

ففى الطست اذا سبعة آداب:أن لا يبزق فيه.وأن يقدم به المتبوع.وأن يقبل الاكرام بالتقديم.وأن يدار يمنة.وأن يجتمع فيه جماعة.وأن يجمع الماء فيه . وأن يكون الخادم قائما . وأن يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق،حتى لايرش على الفراش وعلى أصحابه.وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه.هكذا فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما، فى أول نزوله عليه ، وقال لايروعك مارأيت منى ، نخدمة الضيف فرض .

السادس : أن لاينظر إلى أصحابه ، ولايراقب أكلهم فيستحيون. بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه.ولايمسك قبل إخوانه إذا كانوايحتشمون الأكل بعده.بل يمد اليدويقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا . فان كان قليل الأكل،توقف فى الابتداء وقلل الأكل حتى إذاتوسعوافى الطعام أكل معهم أخيرا.فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضى اللهعنهم فان امتنع لسبب فليعتذر إليهم ، دفعا للخجلة عنهم

السابع : أن لايفعل مايستقذره غيره . فلا ينفض يده فى القصعة ، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فى فيه . وإذا أخرج شيئامن فيه صرف وجهه عن الطعام ،وأخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة فى الخل ، ولا الخل فى الدسومة ، فقد يكرهه غيره . واللقمة التى قطعهابسنه، لا يغمس بقيتها فى المرقة والخل . ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات

الباب الثالث

فى آداب تقديم الطعام إلى الإخوان والزائرين

تقديم الطعام إلىالاخوان فيه فضل كثير.قال جعفر بن محمد رضى الله عنهما : إذا قعدتم مع الاخوان على المائدة فاطيلوا الجلوس ، فانها ساعة لاتحسب عليكم من أعماركم . وقال الحسن رحمه الله : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم ، يحاسب عليها ألبتة إلا نفقة الرجل على إخوانه فى الطعام ، فان الله يستحيي أن يسأله عن ذلك،

هذا مع ماورد من الأخبار فى الاطعام . قال صلى الله عليه وسلم «(١) لَا تَزَالُ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّى عَلَى أَحَدِكُمْ مَادَامَتْ مَائِدَتُهُ مَوْضُوعَةً بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى تُرْفَعَ» وروى عن بعض علماء خراسان أنه كان يقدم إلى إخوانه طعاما كثيرا لا يقدرون على أكل جميعه . وكان يقول : بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) أنه قال «إِنَّ الْإِخْوَانَ إِذَا رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَنِ الطَّعَامِ لَمْ يُحَاسَبْ مَنْ أَكَلَ فَضْلَ ذَلِكَ» فأنا أحب أن أستكثر مما أقدمه إليكم لنأكل فضل ذلك . وفى الخبر (٣) «لَا يُحَاسَبُ الْعَبْدُ عَلَى مَا يَأْكُلُهُ مَعَ إِخْوَانِهِ» وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك ويقلل إذا أكل وحده . وفى الخبر «(٤) ثَلَاثَةٌ لَا يُحَاسَبُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ أَكْلَةُ السُّحُورِ ، وَمَا أَفْطَرَ عَلَيْهِ ، وَمَا أَكَلَ مَعَ الْإِخْوَانِ» وقال على رضى الله عنه : لأن أجمع اخوانى على صاع من طعام ، أحب إلى من أن أعتق رقبة ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : من كرم المرء طيب زاده فى سفره وبذله لأصحابه . وكان الصحابة رضى الله عنهم يقولون : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق . وكانوا رضى الله عنهم يجتمعون على قراءة القرءان ، ولا يتفرقون إلا عن ذواق ، وقيل اجتماع الاخوان على الكفاية مع الأنس والألفة ليس هو من الدنيا ، وفى الخبر (٥) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِى : فَيَقُولُ كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ جَاعَ أَخُوكَ الْمُسْلِمُ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، وَلَوْ أَطْعَمْتَهُ كُنْتَ أَطْعَمْتَنِى

---

(١) حديث : لا تزال الملائكة تصلى على أحدكم مادامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع ، الطبرانى فى الأوسط ، من حديث عائشة ، بسند ضعيف

(٢) حديث : ان الآخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام ، لم أقف له على أصل

(٣) حديث لا يحاسب العبد بما يأكله مع اخوانه . هو فى الحديث الذى بعده بمعناه

(٤) حديث : ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور ، وما أفطر عليه ، وما أكل مع الأخوان ، الازدى فى الضعفاء ، من حديث جابر ، ثلاثة لا يسئلون عن النعيم : الصائم ، والمتسحر ، والرجل يأكل مع ضيفه . أورده فى ترجمة سليمان بن داود الجزرى ، وقال فيه منكر الحديث ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس ، نحوه من حديث أبى هريرة

(٥) حديث : يقول الله للعبد يوم القيامة يابن آدم جعت فلم تطعمنى ـ الحديث . م . من حديث أبى هريرة بلفظ استطعمتك فلم تطعمنى

وقال صلى الله عليه وسلم [١] «إذا جاءكم الزائر فأكرموه» وقال صلى الله عليه وسلم [٢] «إنَّ في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، هي لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام» وقال صلى الله عليه وسلم [٣] «خيركم من أطعم الطعام» وقال صلى الله عليه وسلم [٤] «من أطعم أخاه حتى يشبعه ، وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار بسبع خنادق ، ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام»

وأما آدابه : فبعضها في الدخول ، وبعضها في تقديم الطعام

آداب الدخول للطعام

أما الدخول ، فليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم ، فيدخل عليهم وقت الأكل ، فإن ذلك من المفاجأة ، وقد نهي عنه . قال الله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) [١] يعني منتظرين حينه ونضجه . وفي الخبر [٥] «من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً» ولكن حق الداخل إذا لم يتربص واتفق أن صادفهم على طعام ، أن لا يأكل ما لم يؤذن له ، فإذا قيل له كل ، نظر ، فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد ، وإن كانوا يقولونه حياء منه ، فلا ينبغي أن يأكل ، بل ينبغي أن يتعلل . أما إذا كان جائعا ، فقصد بعض إخوانه ليطعمه ، ولم يتربص به وقت

---

(١) حديث إذا جاءكم الزائر فأكرموه : الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس ، وهو حديث منكر . قاله ابن أبي حاتم في العلل عن أبيه

(٢) حديث : ان في الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هي لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام . ت . من حديث علي ، وقال غريب لا نعرفه الا من حديث عبد الرحمن بن اسحاق ، وقد تكلم فيه من قبل حفظه

(٣) حديث : خيركم من أطعم الطعام . أحمد ، والحاكم ، من حديث صهيب ، وقال صحيح الأسناد

(٤) حديث : من أطعم أخاه حتى يشبعه ، وسقاه حتى يرويه ؛ بعده الله من النار سبع خنادق ، ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام ، الطبراني ، من حديث عبد الله بن عمر . وقال ابن حبان ، ليس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الذهبي ، غريب منكر

(٥) حديث : من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما . هق . من حديث عائشة نحوه ، وضعفه ولأبي داود ، من حديث ابن عمر ، من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا اسناده ضعيف

---

(١) الأحزاب : ٥٣

أكله ، فلا بأس به . قَصَدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [(1)] وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَنْزِلَ أَبِى الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الانصارى لأَجْلِ طَعَامٍ يَأْكُلُونَهُ وَكَانُوا جِيَاعًا» والدخول على مثل هذه الحالة اعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الاطعام . وهى عادة السلف وكان عون بن عبدالله المسعودى له ثلثمائة وستون صديقاً ، يدور عليهم فى السنة . ولآخر ثلاثون يدور عليهم فى الشهر . ولآخر سبعة يدور عليهم فى الجمعة . فكان إخوانهم معلومهم بدلا عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم

فان دخل ولم يجد صاحب الدار ، وكان واثقا بصداقته ، عالما بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه . إذ المراد من الإذن الرضاء لاسيما فى الأطعمة ، وأمرها على السعة فرب رجل يصرح بالأذن ويحلف ، وهو غير راض ، فأكل طعامه مكروه . ورب غائب لم يأذن ، وأكل طعامه محبوب . وقد قال تعالى (أَوْ صَدِيقِكُمْ [(1)]) وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [(2)] دَارَ بَرِيرَةَ وَأَكَلَ طَعَامَهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ ، وَكَانَ الطَّعَامُ مِنَ الصَّدَقَةِ فَقَالَ بَلَغَتِ الصَّدَقَةُ مَحِلَّهَا » وذلك لعلمه بسرورها بذلك . لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان ، اكتفاء بعلمه بالاذن . فان لم يعلم فلابد من الاستئذان أولا ، ثم الدخول . وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن ، فيأكلون ما يجدون بغير اذن ، وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ، ويقول هكذا كنا . وروى عن الحسن رضى الله عنه ، أنه كان قائماً يأكل من متاع بقال فى السوق ، يأخذ من هذه الجونة تينة ، ومن هذه قسبة . فقال له هشام : مابدا لك يا أبا سعيد فى الورع تأكل متاع الرجل بغير اذنه ! فقال يالكع ، اتل على آية الاكل . فتلا إلى

---

(١) حديث قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهم منزل أبى الهيثم بن التيهان ، وأبى أيوب الأنصارى لأجل طعام يأكلونه : أما قصة أبى الهيثم فرواها ت من حديث أبى هريرة وقال حسن غريب صحيح والقصة عند م لكن ليس فيها ذكر لأبى الهيثم وانما قال رجل من الأنصار وأما حديث قصدهم منزل أبى أيوب فرواها الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٢) حديث دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهى غائبة وكان من الصدقة فقال بلغت الصدقة مكانها : متفق عليه من حديث عائشة أهدى لبريرة لحم فقال النبى صلى الله عليه وسلم هو لها صدقة ولنا هدية وأما قوله بلغت محلها فقاله فى الشاة التى أعطيتها نسيبة من الصدقة وهو متفق عليه أيضا من حديث أم عطية

---

(١) النور : ٦١

قوله تعالى (أَوْصَدِيقِكُمْ) فقال فمن الصديق يا أباسعيد ؟ قال من استروحت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب . ومشى قوم الى منزل سفيان الثورى فلم يجدوه ، ففتحوا الباب ،وأنزلوا السفرة ، وجعلوا يأكلون . فدخل الثورى وجعل يقول : ذكرتمونى أخلاق السلف ، هكذا كانوا . وزار قوم بعض التابعين ، ولم يكن عنده مايقدمه اليهم ، فذهب الى منزل بعض اخوانه ، فلم يصادفه فى المنزل ، فدخل فنظر الى قدر قد طبخها ، والى خبز قد خبزه وغير ذلك ، فحمله كله ، فقدمه الى أصحابه ، وقال كلوا . فجاء رب المنزل فلم ير شيأ . فقيل له قد أخذه فلان ، فقال قد أحسن . فلما لقيه قال ياأخى إن عادوا فعد

فهذه آداب الدخول

آداب تقديم الطعام

وأما آداب التقديم فترك التكلف أوّلا ، وتقديم ماحضر . فان لم يحضره شيء ولم يملك ، فلا يستقرض لأجل ذلك ، فيشوّش على نفسه . وان حضره ماهو محتاج اليه لقوّته ، ولم تسمح نفسه بالتقديم ، فلا ينبغى أن يقدم . دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل ، فقال : لولا انى أخذته بدَيْن لأطعمتك منه . وقال بعض السلف فى تفسير التكلف ،أن تطعم أخاك مالا تأكله أنت ، بل تقصد زيادة عليه فى الجودة والقيمة . وكان الفضيل يقول : انما تقاطع الناس بالتكلف ، يدعو أحدهم أخاه ، فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع اليه . وقال بعضهم : ما أبالى بمن أتانى من إخوانى،فانى لا أتكلف له ،انما أُقرّب ماعندى،ولو تكلفت له لكرهت مجيئه ومللته . وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لى، فيتكلف لى ، فقلت له إنك لا تأكل وحدك هذا ، ولا أنا ، فمابالنا اذا اجتمعنا أكلناه ! فاما أن تقطع هذا التكلف ، أو أقطع المجيء . فقطع التكلف ، ودام اجتماعنا بسببه

ومن التكلف أن يقدم جميع ماعنده ، فيجحف بعياله ويؤذى قلوبهم . روى ان رجلا دعا عليا رضى الله عنه ، فقال على : أجيبك على ثلاث شرائط : لاتدخل من السوق شيأ ، ولا تدخر مافى البيت ، ولا تجحف بعيالك . وكان بعضهم يقدم من كل مافى البيت فلا يترك

---
(1) النور : ٦١

نوعا إلا ويحضر شيأ منه . وقال بعضهم [١] «دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ فَقَدَّمَ إِلَيْنَا خُبْزًا وَخَلًّا وَقَالَ لَوْلَا أَنَّا نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ لَتَكَلَّفْتُ لَكُمْ» وقال بعضهم: إذا قصدت للزيارة فقدم ماحضر، وان استزرت فلا تبق ولا تذر . وقال سلمان « أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [٢] أَنْ لَا نَتَكَلَّفَ لِلضَّيْفِ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا ، وَأَنْ نُقَدِّمَ إِلَيْهِ مَا حَضَرَنَا » وفي حديث يونس النبي صلى الله عليه وسلم، أنه زاره إخوانه ، فقدم اليهم كسراً ، وجز لهم بقلا كان يزرعه . ثم قال لهم كلوا ، لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه وغيره من الصحابة ، أنهم كانوا يقدمون ماحضر من الكسر اليابسة وحشف التمر ، ويقولون لاندرى أيهما أعظم وزرا ، الذى يحتقر مايقدم اليه ، أو الذى يحتقر ماعنده أن يقدمه

الأدب الثاني : وهو للزائر أن لا يقترح ، ولا يتحكم بشيء بعينه ، فربما يشق على المزور احضاره . فان خيره أخوه بين طعامين ،فليتخير ايسرهما عليه . كذلك السنة . ففى الخبر [٣] «أَنَّهُ مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ شَيْئَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا »وروى الأعمش عن ابى وائل أنه قال مضيت مع صاحب لى نزور سلمان ، فقدم الينا خبز شعير وملحا جريشا.فقال صاحبى لوكان فى هذا الملح سعتر كان أطيب . فخرج سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعترا . فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا . فقال سلمان لوقنعت بما رزقت لم تكن مطهرتى مرهونة . هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه ، أو كراهته له. فان علم أنه يسر باقتراحه، ويتيسر عليه ذلك، فلا يكره له الاقتراح. فعل الشافعى رضى الله عنه ذلك مع الزعفرانى، إذ كان نازلا عنده ببغداد ، وكان الزعفرانى يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ، ويسلمها إلى الجارية

---

(١) حديث دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم الينا خبزاً وخلا وقال لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم: رواه أحمد دون قوله لولا أنا نهينا وهى من حديث سلمان الفارسى وسيأتى بعده وكلاهما ضعيف وللبخارى عن عمر بن الخطاب نهينا عن التكلف

(٢) حديث سلمان أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لانتكلف للضيف ماليس عندنا وأن نقدم اليه ماحضرنا : الخرائطى فى مكارم الأخلاق ولأحمد لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أو لولا أنا نهينا أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك وللطبرانى نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف ماليس عندنا

(٣) حديث ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرها : متفق عليه من حديث عائشة وزاد مالم يكن إثما ولم يذكرها م فى بعض طرقه

فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام ، وألحق بها لونا آخر بخطه . فلما رأى الزعفراني ذلك اللون ، أنكر وقال : ما أمرت بهذا فعرضت عليه الرقعة ملحقا فيها خط الشافعي . فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك ، وأعتق الجارية سرورا باقتراح الشافعي عليه . وقال أبو بكر الكتاني : دخلت على السري ، فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح . فقلت له أي شيء تعمل وأنا أشربه كله في مرة واحدة ! فضحك وقال ، هذا أفضل لك من حجة. وقال بعضهم الأكل على ثلاثة أنواع : مع الفقراء بالإيثار ، ومع الأخوان بالانبساط ، ومع أبناء الدنيا بالأدب

الأدب الثالث : أن يشهي المزور أخاه الزائر ، ويلتمس منه الاقتراح ، مهما كانت نفسه طيبة بفعل مايقترح . فذلك حسن ، وفيه أجر وفضل جزيل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ صَادَفَ مِنْ أَخِيهِ شَهْوَةً غُفِرَ لَهُ . وَمَنْ سَرَّ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فَقَدْ سَرَّ اللهَ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم [2] فيما رواه جابر « مَنْ لَذَّذَ أَخَاهُ بِمَا يَشْتَهِي كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَى عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ وَأَطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثَلَاثِ جَنَّاتٍ جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ ، وَجَنَّةِ عَدْنٍ وَجَنَّةِ الْخُلْدِ)

الأدب الرابع : أن لا يقول له هل أقدم لك طعاما ؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان. قال الثوري إذا زارك أخوك فلا تقل له أتأكل ؟ أو أقدم إليك ؟ ولكن قدم . فان أكل وإلا فارفع . وإن كان لا يريد أن يطعمهم طعاما ، فلا ينبغي أن يظهرهم عليه ، أو يصفه لهم. قال الثوري إذا أردت أن لا تطعم عيالك مما تأكله ، فلا تحدثهم به ، ولا يرونه معك. وقال بعض الصوفية : إذا دخل عليكم الفقراء ، فقدموا إليهم طعاما . وإذا دخل الفقهاء ، فسلوهم عن مسئلة. فاذا دخل القراء ، فدلوهم على المحراب .

---

(١) حديث من صادف من أخيه شهوة غفر له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله عز وجل : البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء من وافق من أخيه شهوة غفر له قال ابن الجوزي حديث موضوع وروى ابن حبان والعقيلي في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق من سر مؤمنا فانما سر الله ـ الحديث : قال العقيلي باطل لا أصل له

(٢) حديث جابر من لذذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة ـ الحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر وقال أحمد بن حنبل هذا باطل كذب

الباب الرابع

فى آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة : الدعوة أولا ، ثم الاجابة ، ثم الحضور ، ثم تقديم الطعام ، ثم الأكل ، ثم الانصراف

ولنقدم على شرحها إن شاء الله تعالى فضيلة الضيافة .

قال صلى الله عليه وسلم (١) « لَا تَتَكَلَّفُوا لِلضَّيْفِ فَتُبْغِضُوهُ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْغَضَ الضَّيْفَ فَقَدْ أَبْغَضَ اللهَ وَمَنْ أَبْغَضَ اللهَ أَبْغَضَهُ اللهُ » وَقَالَ صلى الله عليه وسلم « (٢) لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُضِيفُ » وَمَرَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (٣) بِرَجُلٍ لَهُ إِبِلٌ وَبَقَرٌ كَثِيرَةٌ فَلَمْ يُضَيِّفْهُ وَمَرَّ بِامْرَأَةٍ لَهَا شُوَيْهَاتٌ فَذَبَحَتْ لَهُ . فَقَالَ صلى الله عليه وسلم انْظُرُوا إِلَيْهِمَا، إِنَّمَا هَذِهِ الْأَخْلَاقُ بِيَدِ اللهِ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَمْنَحَهُ خُلُقًا حَسَنًا فَعَلَ » وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه نَزَلَ بِهِ صلى الله عليه وسلم (٤) ضَيْفٌ فَقَالَ : قُلْ لِفُلَانٍ الْيَهُودِيِّ نَزَلَ بِي ضَيْفٌ فَأَسْلِفْنِي شَيْئًا مِنَ الدَّقِيقِ إِلَى رَجَبٍ . فَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَاللهِ مَا أُسْلِفُهُ إِلَّا بِرَهْنٍ . فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ . وَاللهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ ، وَلَوْ أَسْلَفَنِي لَأَدَّيْتُهُ فَاذْهَبْ بِدِرْعِي وَارْهَنْهُ عِنْدَهُ » وكان ابراهيم الخليل ، صلوات الله عليه وسلامه ، إذا أراد أن يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتغدى معه وكان يكنى أبا الضيفان . ولصدق نيته فيه، دامت ضيافته فى مشهده إلى يومنا هذا ، فلا تنقضى ليلة إلا ويأكل عنده

﴿ الباب الرابع فى آداب الضيافة ﴾

(١) حديث لاتتكلفوا للضيف فتبغضوه فانه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان لايتكلفن أحد لضيفه مالايقدر عليه وفيه محمد بن الفرج الأزرق متكلم فيه

(٢) حديث لاخير فيمن لايضيف أحمد من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

(٣) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضفه ومر بامرأة لهاشويهات فذبحت له ـ الحديث : الخرائطى فى مكارم الأخلاق من رواية أبى المنهال مرسلا

(٤) حديث أبى رافع أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فقال قل لفلان اليهودى نزل بى ضيف فأسلفنى شيأ من الدقيق إلى رجب ـ الحديث : رواه إسحق بن راهويه فى مسنده والخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن مردويه فى التفسير باسناد ضعيف

جماعة ، من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوّام الموضع إنه لم يخل إلى الآن ليلة عن ضيف وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم[١] « مَاالْإِيمَانُ ؟ فَقَالَ إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَبَذْلُ السَّلَامِ » وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « فِى الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ »[٣] وسئل عن الحج المبرور « فقال إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الْكَلَامِ » وقال أنس رضى الله عنه : كل بيت لايدخله ضيف لاتدخله الملائكة . والأخبار الواردة فى فضل الضيافة والاطعام لاتحصى فلنذكر آدابها

أما الدعوة : فينبغى للداعى أن يعمد بدعوته الاتقياء دون الفساق قال صلى الله عليه وسلم[٤] « أَكَلَ طَعَامَكَ الْأَبْرَارُ » فى دعائه لبعض من دعا له : وقال صلى الله عليه وسلم[٥] « لَا تَأْكُلْ إِلَّا طَعَامَ تَقِيٍّ وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ » ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص. قال صلى الله عليه وسلم[٦] « شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ ، يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ دُونَ الْفُقَرَاءِ » وينبغى أن لايهمل أقاربه فى ضيافته ، فان إهمالهم إيحاش وقطع رحم. وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه ، فان فى تخصيص البعض إيحاشا لقلوب الباقين . وينبغى أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر ، بل استمالة قلوب الاخوان ، والتسنن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إطعام الطعام ، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين . وينبغى أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الاجابة ، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب . وينبغى أن لايدعو الا من يحب إجابته . قال سفيان : من دعا أحدا إلى طعام وهو يكره الاجابة ،

---

(١) حديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماالايمان قال إطعام الطعام وبذل السلام : متفق عليه من حديث عبدالله ابن عمرو بلفظ أى الاسلام خير قال تطعم الطعام وتقرى السلام على من عرفت ومن لم تعرف

(٢) حديث قال صلى الله عليه وسلم فى الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ت وصححه و ك من حديث معاذ وقد تقدم بعضه فى الباب الرابع من الأذكار وهو حديث اللهم إنى أسألك فعل الخيرات

(٣) حديث سئل عن الحج المبرور فقال إطعام الطعام وطيب الكلام تقدم فى الحج

(٤) حديث أكل طعامكم الأبرار : د من حديث أنس باسناد صحيح

(٥) حديث لاتأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقى : تقدم فى الزكاة

(٦) حديث شر الطعام طعام الوليمة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

فعليه خطيئة ،فان أجاب المدعو ، فعليه خطيئتان .لأنه حمله على الأكل مع كراهة ، ولوعلم ذلك لما كان يأكله . وإطعام التقي إعانة على الطاعة. وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . قال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين ، فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال: لا،إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والابرة ،أما أنت فمن الظلمة نفسهم

وأما الاجابةفهي سنة مؤكدة:وقدقيل بوجوبهافي بعض المواضع :قال صلى الله عليه وسلم (١) «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ»

آداب إجابة الدعوة إلى الطعام

وللاجابة خمسة آداب

الأول : أن لايميز الغني بالاجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهى عنه . ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الاجابة ، وقال، انتظار المرقة ذل . وقال آخر ، إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتي . ومن المتكبرين من يجيب الاغنياء دون الفقراء . وهو خلاف السنة . كانَ صلى الله عليه وسلم (٢) يُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ وَدَعْوَةَ الْمِسْكِينِ .ومر الحسن ابن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق،وقد نشروا كسرا على الأرض في الرمل ، وهم يأكلون ، وهو على بغلته . فسلم عليهم . فقالوا له هلم إلى الغداء يابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال نعم ، إن الله لايحب المستكبرين . فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ، ثم سلم عليهم وركب ، وقال ،قد أجبتكم فأجيبوني قالوا نعم . فوعدهم وقتا معلوما ، فحضروا ، فقدم إليهم فاخر الطعام ، وجلس يأكل معهم

وأما قول القائل ، إن من وضعت يدي في قصعته ، فقد ذلت له رقبتي ،فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة ، وليس كذلك . فانه ذل إذا كان الداعي لايفرح بالاجابة ، ولا يتقلد بها منة ، وكان يرى ذلك يداله على المدعو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعامه

(١) حديث:لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت . خ من حديث أبي هريرة

(٢) حديث كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين:ت ه من حديث أنس دون ذكر المسكين وضعفه ت وصححه ك

أن الداعي له يتقلد منة ، ويرى ذلك شرفا وذخرا لنفسه في الدنيا والآخرة . فهذا يختلف باختلاف الحال . فمن ظن به أنه يستثقل الاطعام ، وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا ، [1] فَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ إِجَابَتُهُ . بل الأولى التعلل . ولذلك قال بعض الصوفية: لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك ، وأنه سلم اليك وديعة كانت لك عنده ، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه . وقال سري السقطي رحمه الله : آه على لقمة ليس على لله فيها تبعة ، ولا لمخلوق فيها منة . فاذا علم المدعو أنه لامنة في ذلك ، فلا ينبغي أن يرد . وقال أبو تراب النخشبي رحمة الله عليه، عرض على طعام فامتنعت . فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما، فعلمت أنه عقوبته . وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه ، كل من دعاك تمر اليه ؟ فقال أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني .

الثاني : أنه لاينبغي أن يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة ، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه . بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع . لاجل ذلك يقال في التوراة أو بعض الكتب: سر ميلا عد مريضا ، سر ميلين شيع جنازة ، سر ثلاثة أميال أجب دعوة ، سر أربعة أميال زر أخا في الله . وانما قدم إجابة الدعوة والزيارة ، لأن فيه قضاء حق الحي ، فهو أولى من الميت . وقال صلى الله عليه وسلم [2] (لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ بِالغَمِيمِ لَأَجَبْتُ) وهو موضع على أميال من المدينة ، أَفْطَرَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [3] فِي رَمَضَانَ لَمَّا بَلَغَهُ وَقَصَرَ عِنْدَهُ فِي سَفَرِهِ [4]

---

(١) حديث : ليس من السنة اجابة من يطعم مباهاة أو تكلفاً . د. من حديث ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتباريين . قال .د. من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس . وللعقيلي في الضعفاء ، نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طعام المتباهيين ، والمتباريان المتعارضان بفعلهما للمباهاة والرياء ، قاله أبو موسى المديني

(٢) حديث : لو دعيت الى كراع بالغميم لأجبت ، ذكر الغميم فيه لبعرف ، والمعروف لو دعيت الى كراع كما تقدم قبله بثلاثة أحاديث . ويرد هذه الزيادة ما رواه .ت. من حديث أنس ، لو أهدي الى كراع لقبلت

(٣) حديث : افطاره صلى الله عليه وسلم في رمضان لما بلغ كراع الغميم رواه .م. من حديث جابر في عام الفتح

(٤) حديث : قصره صلى الله عليه وسلم في سفره عند كراع الغميم ، لم أقف له على أصل ، وللطبراني في الصغير ، من حديث ابن عمر ، كان يقصر الصلاة بالعقيق ، يريد اذا بلغه ، وهذا يرد الأول ، لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثه أميال أو أكثر ، وكراع الغميم بين مكة وعسفان والله أعلم

الثالث : أن لا يمتنع لكونه صائما . بل يحضر . فإن كان يسر أخاه إفطاره ، فليفطر . وليحتسب فى إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ، ما يحتسب فى الصوم وأفضل . وذلك فى صوم التطوع . وإن لم يتحقق سرور قلبه ، فليصدقه بالظاهر ، وليفطر . وإن تحقق أنه متكلف ، فليتعلل . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] لمن امتنع بعذر الصوم (تَكَلَّفَ لَكَ أَخُوكَ وَتَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ) وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالافطار . فالافطار ، عبادة بهذه النية ، وحسن خلق ، فثوابه فوق ثواب الصوم . ومهما لم يفطر ، فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب . وقد قيل ، الكحل والدهن أحد القراءين

الرابع : أن يمتنع من الاجابة ان كان الطعام طعام شبهة ، أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال ، أو كان يقام فى الموضع منكر ، من فرش ديباج ، أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط ، أو سماع شيء من المزامير والملاهي ، أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب ، واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب وشبه ذلك ، فكل ذلك مما يمنع الاجابة واستحبابها ، ويوجب تحريمها أو كراهيتها . وكذلك إذا كان الداعى ظالما ، أو مبتدعا ، أو فاسقا ، أو شريرا ، أو متكلفا طلبا للمباهاة والفخر

الخامس : أن لا يقصد بالاجابة قضاء شهوة البطن ، فيكون عاملا فى أبواب الدنيا . بل يحسن نيته ، ليصير بالاجابة عاملا للآخرة ، وذلك بان تكون نيته الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ »

وينوى الحذر من معصية الله لقوله صلى الله عليه وسلم [2] (مَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ

---

(١) حديث : وقال لمن امتنع بعذر الصوم ، تكلف لك أخوك وتقول إنى صائم . هق . من حديث أبى سعيد الخدرى ، صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ، وأتانى هو وأصحابه ، فلما وضع الطعام ، قال رجل من القوم إنى صائم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعاكم أخوكم وتكلف لكم الحديث . وللدارقطنى نحوه ، من حديث جابر

(٢) حديث : من لم يجب الداعي فقد عصي الله ورسوله . متفق عليه ، من حديث أبي هريرة

وينوى إكرام أخيه المؤمن اتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم[١] « مَنْ أَكْرَمَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فَكَأَنَّمَا أَكْرَمَ اللهَ »

وينوى إدخال السرور على قلبه امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم[٢] « مَنْ سَرَّ مُؤْمِناً فَقَدْ سَرَّ اللهَ » وينوى مع ذلك زيارته ، ليكون من المتحابين فى الله إذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] فيه التزاور والتباذل لله ، وقد حصل البذل من أحد الجانبين ، فتحصل الزيارة من جانبه أيضا

وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ، ويطلق اللسان فيه ، بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق ، أو استحقار أخ مسلم ، أو ما يجرى مجراه

فهذه ست نيات تلحق إجابته بالقربات آحادها ، فكيف مجموعها . وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى في كل عمل نية ، حتى فى الطعام والشراب . وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم[٤] « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ . وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » والنية إنما تؤثر فى المباحات والطاعات ، أما المنهيات فلا ، فانه لو نوى أن يسر إخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر، أو حرام آخر ، لم تنفع النية . ولم يجز أن يقال الأعمال بالنيات . بل لو قصد بالغزو الذى هو طاعة ، المباهاة وطلب المال ، انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح ، المردد بين وجوه الخيرات وغيرها ، يلتحق بوجوه الخيرات بالنية . فتؤثر النية فى هذين القسمين ، لا فى القسم الثالث

---

(١) حديث : من أكرم أخاه المؤمن فانما يكرم الله تعالى . الاصفهانى فى الترغيب والترهيب ، من حديث جابر . والعقيلى فى الضعفاء من حديث أبى بكر . وأسنادهما ضعيف

(٣) حديث : من سر مؤمنا فقد سر الله . تقدم فى الباب قبله

(٤) حديث : وجبت محبتى للمتزاورين فى والمتباذلين فى . م من حديث أبى هريرة . ولم يذكر المصنف هذا الحديث ، وانما أشار اليه

(٥) حديث : الاعمال بالنيات . متفق عليه ، من حديث عمر بن الخطاب

آداب الحضور لمنزل الداعي والجلوس فيه

وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ، ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن ، بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة . بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه ألبتة ، فانه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد ، فمخالفته تشوش عليه . وإن أشار اليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما ، فليتواضع . قال صلى الله عليه وسلم [1] «إِنَّ مِنَ التَّوَاضُعِ لِلّٰهِ الرِّضَا بِالدُّونِ مِنَ الْمَجْلِسِ» ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجرة الذي للنساء وسترهم . ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام ، فانه دليل على الشره . ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس .

وإذا دخل ضيف للمبيت ، فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء كذلك فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما . وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم ، وقال الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى ، لأنه يدعو الناس إلى كرمه ، فحكمه أن يتقدم بالغسل . وفي آخر الطعام يتأخر بالغسل ، لينتظر أن يدخل من يأكل ، فيأكل معه

وإذا دخل فرأى منكرا غيّره إن قدر ، وإلا أنكر بلسانه وانصرف . والمنكر فرش الديباج ، واستعمال أواني الفضة والذهب ، والتصوير على الحيطان ، وسماع الملاهي والمزامير وحضور النسوة المتكشفات الوجوه ، وغير ذلك من المحرمات . حتى قال أحمد رحمه الله إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ، ينبغي أن يخرج . ولم يأذن في الجلوس إلا في ضبة ، وقال إذا رأى كلّة فينبغي أن يخرج ، فان ذلك تكلف لا فائدة فيه ، ولا تدفع حرا ولا بردا ، ولا تستر شيأ . وكذلك قال ، يخرج اذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة وقال اذا اكترى بيتا فيه صورة ، أو دخل الحمام ورأى صورة ، فينبغي أن يحكها ، فان لم يقدر ، خرج

---

(١) حديث : إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس . الخرائطي في مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين ، من حديث طلحة بن عبيد ، بسند جيد

وكل ماذكره صحيح وإنما النظر في الكلة وتزيين الحيطان بالديباج ، فان ذلك لا ينتهى إلى التحريم إذ الحرير يحرم على الرجال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « هَذَانِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي حِلٌّ لِإِنَاثِهَا » وما على الحائط ليس منسوبا إلى الذكور . ولو حرم هذا لحرم تزيين الكعبة . بل الاولى أباحته لموجب قوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ [١]) لا سيما في وقت الزينة ، إذا لم يتخذ عادة للتفاخر ، وإن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه . ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج ، مهما لبسه الجوارى والنساء . والحيطان فى معنى النساء ، إذ ليسن موصوفات بالذكورة

آداب إحضار الطعام

وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة

الأول : تعجيل الطعام . فذلك من اكرام الضيف . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان ، وتأخروا عن الوقت الموعود ، فحق الحاضرين فى التعجيل أولى من حق أولئك فى التأخير . الا أن يكون المتأخر فقيرا ، أو ينكسر قلبه بذلك ، فلا بأس فى التأخير . وأحد المعنيين فى قوله تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ [٢]) انهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم . دل عليه قوله تعالى (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [٣]) وقوله (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ [٤]) والروغان الذهاب بسرعة ، وقيل فى خفية . وقيل جاء بفخذ من لحم ، وإنما سمى عجلا لانه عجله ولم يلبث . قال [٣] حاتم الاصم الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا فِي خَمْسَةٍ فَإِنَّهَا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حديث : هذان حرامان على ذكور أمتي . د . ن . هـ ، من حديث علي ، وفيه أبو أفلح الهمداني ، جهله ابن القطان . و . ن . ت . وصححه ، من حديث أبي موسى بنحوه . قلت الظاهر انقطاعه بين سعيد ابن أبي هند وأبي موسى ، فأدخل أحمد بينهما رجلا لم يسم

(٢) حديث : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه . متفق عليه ، من حديث أبي سريج

(٣) حديث حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا فى خمسة فانها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اطعام الطعام ، وتجهيز الميت ، وتزويج البكر ، وقضاء الدين ، والتوبة من الذنب . ت . من حديث سهل بن سعد : الاناة من الله ، والعجلة من الشيطان . وسنده ضعيف . وأما الاستثناء

---

(١) الأعراف ٣٢ (٢) الذاريات ٢٤ (٣) هود ٩٦ (٤) الذاريات ٢٦

صلى الله عليه وسلم إِطْعَامِ الضَّيْفِ وَتَجْهِيزِ الْمَيِّتِ وَتَزْوِيجِ الْبِكْرِ وَقَضَاءِ الدَّيْنِ وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ» ويستحب التعجيل في الوليمة. قيل الوليمة في أول يوم سنة، وفي الثاني معروف، وفي الثالث رياء

الثاني : ترتيب الاطعمة بتقديم الفاكهة أولا ان كانت، فذلك أوفق في الطب، فانها أسرع استحالة، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة. وفي القرءان تنبيه على تقديم الفاكهة، في قوله تعالى (وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ[1]) ثم قال (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ[2]) ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد. فقد قال عليه السلام «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». فان جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات. ودل على حصول الاكرام باللحم قوله تعالى في ضيف ابراهيم، إذ أحضر العجل الحنيذ أي المحنوذ، وهو الذي أجيد نضجه وهو أحد معنى الاكرام أعنى تقديم اللحم. وقال تعالى في وصف الطيبات (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى[3]) المن العسل والسلوى اللحم سمى سلوى لانه يتسلى به عن جميع الادام ولا يقوم غيره مقامه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «سَيِّدُ الادامِ اللَّحْمُ» ثم قال بعد ذكر المن والسلوى (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ[4]) فاللحم والحلاوة من الطيبات. قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه أكل الطيبات يورث الرضا عن الله

وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل. قال المأمون شرب الماء بثلج يخلص الشكر. وقال بعض الادباء: إذا دعوت إخوانك فأطعمهم حصرمية وبورانية، وسقيتهم ماء باردا، فقد أكملت الضيافة. وأنفق بعضهم دراهم في ضيافة فقال بعض الحكماء : لم نكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبزك جيدا، وماؤك باردا، وخلك حامضا فهو كفاية وقال بعضهم : الحلاوة بعد الطعام، خير من كثرة الالوان، والتمكن على المائدة

فروى . د . من حديث سعد بن أبي وقاص : التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة . قال الأعمش لا أعلم إلا أنه رفعه . وروى المزى في التهذيب ، في ترجمة محمد بن موسى بن نفيع ، عن مشيخة من قومه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : الاناة في كل شيء إلا في ثلاث : اذا صيح في خيل الله ، وإذا نودي بالصلاة ، واذا كانت الجنازة ـ الحديث. وهذا مرسل . و . ت . من حديث على : ثلاثة لاتؤخرها : الصلاة اذا أتت ، والجنازة اذا حضرت ، والأيم اذا وجدت كفؤا وسنده حسن .

---

(١) الواقعة ٢١ (٢) الواقعة ٢٢ (٣) البقرة ٥٧ (٤) البقرة ٥٧

خير من زيادة لونين ويقال إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل ، فذلك أيضا مستحب ولما فيه من التزين بالخضرة ، وفى الخبر إن المائدة التى أنزلت على بنى اسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكراث وكان عليها سمكة عند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة ، على كل رغيف زيتون وحب رمان فهذا إذا اجتمع حسن للموافقة :

الثالث : أن يقدم من الألوان ألطفها ، حتى يستوفى منها من يريد ، ولا يكثر الأكل بعده . وعادة المترفين تقديم الغليظ ، ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده . وهو خلاف السنة . فانه حيلة فى استكثار الأكل . وكان من سنة المتقدمين أن يقدموا جملة الألوان دفعة واحدة ، ويصففون القصاع من الطعام على المائدة ، ليأكل كل واحد مما يشتهى . وأن لم يكن عنده الا لون واحد ، ذكره ، ليستوفوا منه ، ولا ينتظروا أطيب منه

ويحكى عن بعض أصحاب المروءات ، أنه كان يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ، ويعرض على الضيفان . وقال بعض الشيوخ : قدم إلىّ بعض المشايخ لونا بالشام ، فقلت عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخرا ! فقال وكذا عندنا بالشام . ولم يكن له لون غيره . فخجلت منه وقال آخر : كنا جماعة فى ضيافة ، فقدم الينا ألوان من الرءوس المشوية ، طبيخا وقديدا ، فكنا لا نأكل ، ننتظر بعدها لونا أو حملا . فجاءنا بالطست ، ولم يقدم غيرها فنظر بعضنا إلى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزاحا ، إن الله تعالى يقدر ان يخلق رءوسا بلا أبدان . قال ، وبتنا تلك الليلة جياعا نطلب فتيتا إلى السحور . فلهذا يستحب أن يقدم الجميع ، أو يخبر بما عنده.

الرابع : أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء ، حتى يرفعوا الأيدى عنها . فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه ، أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل ، فيتنغص عليه بالمبادرة . وهى من التمكن على المائدة ، التى يقال انها خير من لونين . فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال . ويحتمل أن يكون أراد به سعة المكان . حكى عن الستوزى ، وكان صوفيا مزاحا ، فحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدم اليهم حمل ، وكان فى صاحب المائدة بخل ، فلما رأى القوم مزقوا الحمل كل ممزق ، ضاق صدره ، وقال ، ياغلام : ارفع إلى الصبيان . فرفع الحمل إلى داخل الدار . فقام الستورى

يعدو خلف الحمل ، فقيل له إلى أين ؟ فقال آكل مع الصبيان . فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل

ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم ، فانهم يستحيون . بل ينبغى أن يكون آخرهم أكلا . كان بعض الكرام يخبر القوم بجميع الألوان ، ويتركهم يستوفون. فاذا قاربوا الفراغ ، جثا على ركبتيه ، ومد يده إلى الطعام وأكل ، وقال ، بسم الله ساعدونى بارك الله فيكم وعليكم . وكان السلف يستحسنون ذلك منه

الخامس : أن يقدم من الطعام قدر الكفاية . فان التقليل عن الكفاية نقص فى المروءة ، والزيادة عليه تصنع ومراءاة ، لاسيما إذا كانت نفسه لا تسمح بان يأكلوا الكل ، إلا أن يقدم الكثير ، وهو طيب النفس لو أخذو الجميع ونوى أن يتبرك بفضلة طعامهم . إذ فى الحديث : لا يحاسب عليه . أحضر إبراهيم بن أدهم رحمه الله طعاما كثيرا على مائدته ، فقال سفيان ، يا أبا اسحق ، أما تخاف أن يكون هذا سرفا ؟ فقال إبراهيم ، ليس فى الطعام سرف . فان لم تكن هذه النية ، فالتكثير تكلف . قال ابن مسعود رضى الله عنه : نهينا أن نجيب دعوة من يباهى بطعامه . وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة . ومن ذلك كان لا يرفع من بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة طعام قط ، لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة ، ولا يأكلون تمام الشبع

وينبغى أن يعزل أولا نصيب أهل البيت ، حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شىء منه ، فلعله لا يرجع ، فتضيق صدورهم ، وتنطلق فى الضيفان ألسنتهم. ويكون قد أطعم الضيفان ما يتبعه كراهية قوم . وذلك خيانة فى حقهم

وما بقى من الأطعمة ، فليس للضيفان أخذه . وهو الذى تسميه الصوفيه الزلة . إلا إذا صرح صاحب الطعام ، بالأذن فيه عن قلب راض ، أو علم ذلك بقرينة حاله ، وانه يفرح به فان كان يظن كراهيته ، فلا ينبغى أن يؤخذ . وإذا علم رضاه ، فينبغى مراعاة العدل والنصفة مع الرفقاء . فلا ينبغى أن يأخذ الواحد إلا ما يخصه ، أو ما يرضى به رفيقه عن طوع ، لا عن حياء

آداب الانصراف

فأما الأنصراف فله ثلاثة آداب :

الأول : أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار ، وهو سنة . وذلك من اكرام الضيف وقد أمر باكرامه. قال عليه الصلاة والسلام «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» وقال عليه السلام «إِنَّ مِنْ سُنَّةِ الضَّيْفِ أَنْ يُشَيَّعَ إِلَى بَابِ الدَّارِ قال أبو قتادة قَدِمَ وَفْدُ النَّجَاشِيِّ عَلَى رَسُولِ اللّٰهِ صلى الله عليه وسلم فَقَامَ يَخْدِمُهُمْ بِنَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ نَحْنُ نَكْفِيكَ يَارَسُولَ اللّٰهِ فَقَالَ كَلاَّ إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِي مُكْرِمِينَ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُكَافِئَهُمْ

وتمام الاكرام طلاقة الوجه ، وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة ، قيل للاوزاعى رضى الله عنه ، ما كرامة الضيف؟ قال طلاقة الوجه ، وطيب الحديث . وقال يزيد بن أبى زياد، مادخلت على عبدالرحمن بن أبى ليلى الا حدثنا حديثا حسنا وأطعمنا طعاما حسنا:

الثانى : أن ينصرف الضيف طيب النفس وان جرى فى حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع، قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ودعى بعض السلف برسول ، فلم يصادفه الرسول، فلما سمع حضر ، وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل، وقال قد خرج القوم ، فقال هل بقى بقية؟ قال لا، قال فكسرة إن بقيت ، قال لم تبق، قال فالقدر أمسحها، قال قد غسلتها، فانصرف يحمد الله تعالى فقيل له فى ذلك، فقال قد أحسن الرجل، دعانا بنية، وردنا بنية، فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق:

وحكى ان أستاذ أبى القاسم الجنيد ، دعاه صبى الى دعوة أبيه أربع مرات ، فرده الأب فى المرات الأربع ،وهو يرجع فى كل مرة تطييبا لقلب الصبى بالحضور، ولقلب الأب بالانصراف

فهذه نفوس قد ذللت بالتواضع لله تعالى ، واطمأنت بالتوحيد، وصارت تشاهد فى كل رد وقبول عبرة فيما بينها وبين ربها، فلا تنكسر بما يجرى من العباد من الاذلال، كما لا تستبشر بما يجرى منهم من الاكرام ، بل يرون الكل من الواحد القهار . ولذلك قال بعضهم ، أنا لا أجيب الدعوة الا لأنى أتذكر بها طعام الجنة ، أى هو طعام طيب يحمل عنا كده ومؤنته وحسابه :

الثالث : أن لايخرج الا برضا صاحب المنزل واذنه ، ويراعى قلبه في قدر الاقامة . واذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج الى اخراجه : قال صلى الله عليه وسلم (١) «الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا زَادَ فَصَدَقَةٌ» نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام اذا ذاك : ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ، وَفِرَاشٌ لِلْمَرْأَةِ ، وَفِرَاشٌ لِلضَّيْفِ ، وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ»

فصل

يجمع آداباً ومناهي طبية وشرعية متفرقة

الأول: حكى عن ابراهيم النخعى أنه قال (٣) «الأَكْلُ فِي السُّوقِ دَنَاءَةٌ» وأسنده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واسناده قريب : وقد نقل ضده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال (٤) « كُنَّا نَأْكُلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نَمْشِي، وَنَشْرَبُ وَنَحْنُ قِيَامٌ » ورؤى بعض المشايخ من المتصوفة المعروفين يأكل فى السوق ، فقيل له فى ذلك ، فقال ويحك أجوع فى السوق وآكل فى البيت : فقيل تدخل المسجد ، قال أستحى أو أدخل بيته للأكل فيه

ووجه الجمع أن الأكل فى السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه . وهو مختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص فمن لايليق ذلك بسائر أعماله ، حمل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره ويقدح ذلك فى الشهادة ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله فى ترك التكلف كان ذلك منه تواضعا

الثانى . قال على رضى الله عنه ، من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعا من البلاء ، ومن أكل فى يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة فى بطنه ، ومن أكل كل يوم

(١) حديث الضيافة ثلاثة أيام فمازاد فصدقة متفق عليه من حديث أبى شريح الخزاعى

(٢) حديث فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان م من حديث جابر

(٣) حديث الاكل فى السوق دناءة الطبرانى من حديث أبى أمامة وهو ضعيف ورواه ابن عدى فى الكامل من حديثه وحديث أبى هريرة

(٤) حديث ابن عمر كنا نأكل على عهد رسول الله عليه وسلم ونحن نمشى ونشرب ونحن قيام ت و. وصحح

احدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير فى جسده شيأ يكرهه واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب ، والبسقارجات تعظم البطن وترخى الاليتين ،ولحم البقر داء ، ولبنها شفاء ، وسمنها دواء ، والشحم يخرج مثله من الداء . ولن تستشفى النفساء بشيء أفضل من الرطب . والسمك يذيب الجسد.وقراءة القرءانو السواك يذهبان البلغم .ومن أراد البقاء ولابقاء فليباكر بالغداء وليقدر العشاء وليلبس الحذاء .ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن،وليقل غشيان النساء وليخف الرداء وهو الدين

الثالث : قال الحجاج لبعض الاطباء ، صف لى صفة آخذ بها ولا أعدوها ، قال لاتنكح من النساء إلافتاةولاتأكل من اللحم إلا فتيا ، ولاتأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه، ولاتشربن دواء الا من علة ، ولاتأكل من الفاكهة الا نضيجها ، ولاتأكلن طعاما الا أجدت مضغه وكل ماأحببت من الطعام ، ولاتشربن عليه ، فاذا شربت فلا تأكلن عليه شيئا ،ولاتحبس الغائط والبول ، واذا أكلت بالنهار فنم ، واذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة . وفى معناه قول العرب ، تغد تمد ، تعش تمش ، يعنى تمدد . كما قال الله تعالى(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى [١])أى يتمطط ويقال ان حبس البول يفسد الجسد كما يفسد النهر ماحوله اذا سد مجراه

الرابع : فى الخبر [١] « قَطْعُ الْعُرُوقِ مَسْقَمَةٌ ، وَتَرْكُ الْعَشَاءِ مَهْرَمَةٌ »والعرب تقول ترك الغداء يذهب بشحم الكاذة . يعنى الالية ، وقال بعض الحكماء لابنه ، يابنى لاتخرج من منزلك حتى تأخذ حامك . أى تتغذى ، اذ به يبقى الحلم ويزول الطيش ، وهو أيضا أقل لشهوته لما يرى فى السوق . وقال حكيم لسمين ، أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فيم هى ؟قال من أكل لباب البر ، وصغار المغز ، وأدهن بخام بنفسج وألبس الكتان .

الخامس : الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض، هكذا قيل . وقال بعضهم من احتمى فهو على يقين من المكروه، وعلى شك من العوافى . وهذا حسن فى حال الصحة وَرَأَى رَسُولُ اللهِ

(١) حديث قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرمة ابن عدي فى الكامل من حديث عبد الله ابن جراد بالشطر الأول و . ت من حديث أنس بالشطر الثاني وكلاهما ضعيف وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث جابر

(١) القيامة : ٣٣

صلى الله عليه وسلم[1] «صُهَيْباً يَأْكُلُ تَمْراً وَإِحْدَى عَيْنَيْهِ رَمْدَاء فَقَالَ أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَأَنْتَ رَمِدٌ ! فَقَالَ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّمَا آكُلُ بِالشِّقِّ الآخَرِ ، يعني جانب السليمة فَضَحِكَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم

السادس : أنه يستحب أن يحمل طعام الى أهل الميت[2] « وَلَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ إِنَّ آلَ جَعْفَرٍ شُغِلُوا بِمَيِّتِهِمْ عَنْ صُنْعِ طَعَامِهِمْ فَاحْمِلُوا إِلَيْهِمْ مَا يَأْكُلُونَ ». فذلك سنة . واذا قدم ذلك الى الجمع حل الاكل منه ، الا ماهيأ للنوائح والمعينات عليه بالبكاء والجزع ، فلا ينبغى أن يؤكل معهم

السابع : لاينبغى أن يحضر طعام ظالم ، فان أكره فليقلل الأكل ولا يقصد الطعام الأطيب رد بعض المزكين شهادة من حضر طعام سلطان ، فقال كنت مكرها ، فقال رأيتك تقصد الأطيب ، وتكبر اللقمة ، وما كنت مكرها عليه . وأجبر السلطان هذا المزكى على الأكل ، فقال أما أن آكل وأخلى التزكية ، أو أزكى ولا آكل . فلم يجدوا بدا من تزكيته فتركوه وحكى أن ذا النون المصرى حبس ولم يأكل أياما فى السجن ، فكانت له أخت فى الله فبعثت إليه طعاما من مغزلها على يد السجان . فامتنع فلم يأكل فعاتبته المرأة بعد ذلك ، فقال كان حلالا ولكن جاءنى على طبق ظالم . وأشار به الى يد السجان وهذا غاية الورع

الثامن : حكى عن فتح الموصلى رحمه الله ، أنه دخل على بشر الحافى زائرا ، فاخرج بشر درهما فدفعه لاحمد الجلاء خادمه ، وقال اشتر به طعاما جيدا ، وأدما طيبا . قال فاشتريت خبزا نظيفا وقلت : لم يقل النبى صلى الله عليه وسلم[3] لشيء «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ » سوى اللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمرا جيدا فقدمت اليه فأكل وأخذ الباقى . فقال بشر أتدرون لم قلت . اشتر طعاما طيبا ؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر . أتدرون لم لم يقل لى كل لانه ليس

---

(١) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمراً واحدى عينيه رمدة فقال له أتأكل التمر وأنت رمد فقال انما أمضغ بالشق الآخر فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم : ه من حديث صهيب باسناد جيد

(٢) حديث لما جاء نعى جعفر بن أبى طالب قال صلى الله عليه وسلم ان آل جعفر شغلوا بميتهم عن طعامهم فاحملوا اليهم مايأكلون :د . ت . ه من حديث عبدالله بن جعفر نحوه بسند حسن ولابن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت عميس

(٣) حديث اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه قاله عند شرب اللبن : تقدم فى آخر الباب الأول من آداب الأكل

للضيف أن يقول لصاحب الدار كل : أتدرون لم حمل ما بقي ؟ لأنه اذا صح التوكل لم يضر الحمل

وحكي أبو علي الروذباذي رحمه الله عز رجل ، أنه اتخذ ضيافة ، فاوقد فيها ألف سراج فقال له رجل قد اسرفت ، فقال له ادخل، فكل ما أوقدته لغير الله فأطفئه . فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها . فانقطع . واشترى أبو علي الروذباذي احمالا من السكر ، وأمر الحلاويين حتى بنوا جدارا من السكر ، عليه شرف ومحاريب على أعمدة منقوشة كلها من سكر ، ثم دعا الصوفيه حتى هدموها وانتهبوها .

التاسع : قال الشافعي رضي الله عنه ، الأكل على أربعة انحاء : الأكل باصبع من المقت وباصبعين من الكبر ،(1) وبثلاث أصابع من السنة ، وبأربع وخمس من الشره . وأربعة أشياء تقوي البدن : أكل اللحم ، وشم الطيب ، وكثرة الغسل من غير جماع ، ولبس الكتان أربعة توهن البدن: كثرة الجماع وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة أكل الحموضة وأربعة تقوي البصر : الجلوس تجاه القبلة ، والكحل عند النوم ، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف الملبس . وأربعة توهن البصر : النظر إلى القذر ، والنظر إلى المصلوب والنظر إلى فرج المرأة والقعود في استدبار القبلة. وأربعة تزيد في الجماع: أكل العصافير، وأكل الاطريفل الاكبر وأكل الستق وأكل الجرجير . والنوم على أربعة انحاء: فنوم على القفا، وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السموات والأرض . ونوم على اليمين ، وهو نوم العلماء والعباد . ونوم على الشمال ، وهو نوم الملوك ليهضم طعامهم . ونوم على الوجه ، وهو نوم الشياطين. وأربعة تزيد في العقل : ترك الفضول من الكلام ، والسواك ، ومجالسة الصالحين ، والعلماء. وأربعة هن من العبادة : لايخطو خطوة الا على وضوء ، وكثرة السجود ، ولزوم المساجد ، وكثرة قراءة القرءان

وقال أيضا عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ، ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لايموت ؟ وعجبت لمن احتجم ، ثم يبادر الأكل ، كيف لايموت ! وقال لم أر شيئا أنفع في الوباء من البنفسج ، يدهن به ويشرب ، والله أعلم بالصواب .

---

(1) حديث الأكل بثلاث أصابع من السنة من حديث كعب بن مالك كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث صابع . وروى ابن الجوزي في العلل من حديث ابن عباس موقوفا كل بثلاث أصابع فانه من السنة .

کتاب آداب النکاح

كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثانى من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا تصادف سهام الأوهام فى عجائب صنعه مجرى ، ولا ترجع العقول عن أوائل بدائعها إلا والهة حيرى ، ولا تزال لطائف نعمه على العالمين تترى، فهى تتوالى عليهم اختيارا وقهرا . ومن بدائع ألطافه أن خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا ، وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها إلى الحراثة جبرا ، واستبقى بها نسلهم إقهارا وقسرا ، ثم عظم أمر الانساب وجعل لها قدرا ، فحرم بسببها السفاح وبالغ فى تقبيحه ردعا وزجرا، وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمرا إمرا ، وندب إلى النكاح وحث عليه استحبابا وأمرا، فسبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدما وكسرا ، ثم بث بذور النطف فى أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر الموت جبرا ، تنبيها على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعا وضرا ، وخيرا وشرا ، وعسرا ويسرا ، وطيا ونشرا ، والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالانذار والبشرى ، وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عدا ولا حصرا، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن النكاح معين على الدين ، ومهين للشياطين ، وحصن دون عدو الله حصين ، وسبب للتكثير الذى به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين ، فما أحراه بأن تتحرى أسبابه ، وتحفظ سننه وآدابه ، وتشرح مقاصده وآرابه ، وتفصل فصوله وأبوابه ، والقدر المهم من أحكامه ينكشف فى ثلاثة أبواب

الباب الأول : فى الترغيب فيه وعنه

الباب الثانى : فى الآداب المرعية فى العقد والعاقدين

الباب الثالث : فى آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق

الباب الأول

فى الترغيب فى النكاح والترغيب عنه

اعلم أن العلماء قد اختلفوا فى فضل النكاح ، فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلى لعبادة الله ، واعترف آخرون بفضله ، ولكن قدموا عليه التخلى لعبادة الله ، مهما لم تتق النفس إلى النكاح توقانا يشوش الحال ، ويدعو إلى الوقاع . وقال آخرون الأفضل تركه فى زماننا هذا ، وقد كان له فضيلة من قبل ، إذ لم تكن الأكساب محظورة ، وأخلاق النساء مذمومة ، ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن يقدم أولا ماورد من الأخبار والآثار فى الترغيب فيه ، والترغيب عنه ، ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله ، حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه فى حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها .

الترغيب فى النكاح

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى :(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)[1] وهذا أمر . وقال تعالى (فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ[2]) وهذا منع من العضل ، ونهى عنه . وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً[3]) فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل ، ومدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء فقال (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ[4]) الآية

ويقال إن الله تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء الا المتأهلين ، فقالوا ان يحيى صلى الله عليه وسلم قد تزوج ولم يجامع ، قيل انما فعل ذلك لنيل الفضل واقامة السنة ، وقيل لغض البصر . وأما عيسى عليه السلام ، فانه سينكح اذا نزل الأرض ويولد له

وأما الأخبار : فقوله صلى الله عليه وسلم « النِّكَاحُ سُنَّتِي فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَقَدْ رَغِبَ عَنِّي » وقال صلى الله عليه وسلم[1] « النِّكَاحُ سُنَّتِي فَمَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي »

---

(١) حديث : النكاح سنتى ، فمن أحب فطرتى فليستن بسنتى : أبو يعلى فى مسنده مع تقديم وتأخير ، من حديث ابن عباس بسند حسن

---

(١) النور : ٣٢ (٢) البقرة : ٢٣٢ (٣) الرعد : ٣٨ (٤) الفرقان : ٧٤

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم(١) « تَنَاكَحُوا تَكْثُرُوا فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى بِالسِّقْطِ » وقال أيضا عليه السلام (٢) « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ، وَإِنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ ، فَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ تَرَكَ التَّزْوِيجَ مَخَافَةَ الْعَيْلَةِ فَلَيْسَ مِنَّا » وهذا ذم لعلة الامتناع ، لا لأصل الترك . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ » وقال (٥) « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَا فَلْيَصُمْ ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ » وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد فى العين والفرج . والوجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته ، فهو مستعار للضعف عن الوقاع فى الصوم . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوِّجُوهُ . إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » وهذا أيضا تعليل الترغيب لخوف الفساد . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « مَنْ نَكَحَ لِلَّهِ وَأَنْكَحَ لِلَّهِ اسْتَحَقَّ وِلَايَةَ اللَّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(٢) حديث : تناكحوا تكثروا فانى أباهى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط . أبو بكر بن مردويه فى تفسيره ، من حديث ابن عمر ، دون قوله حتى بالسقط . واسناده ضعيف ، وذكره بهذه الزيادة البيهقى فى المعرفة ، عن الشافعى أنه بلغه

(٣) حديث : من رغب عن سنتى فليس منى ، وإن من سنتى النكاح ، فمن أحبنى فليستن بسنتى . متفق على أوله ، من حديث أنس : من رغب عن سنتى فليس منى . وباقيه تقدم قبله بحديث

(٤) حديث : من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا . رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس ، من حديث أبى سعيد بسند ضعيف ، وللدارمي فى مسنده ، والبغوى فى معجمه ، وأبى داود فى المراسيل ، من حديث أبى نجيح : من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا ، وأبو نجيح اختلف فى صحبته

(٥) حديث من كان ذا طول فليتزوج . ه . من حديث عائشة ، بسند ضعيف

(٦) حديث : من استطاع منكم الباءة فليتزوج الحديث . متفق عليه ، من حديث ابن مسعود

(٧) حديث : إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . ت . من حديث أبى هريرة ، ونقل عن خ انه لم يعده محفوظا ، وقال دانه خطأ ، ورواه ت أيضا من حديث أبى حاتم المزنى ، وحسنه ، ورواه د فى المراسيل ، وأعله ابن القطان بارساله ، وضعف رواته

(٨) حديث : من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله عز وجل . أحمد بسند ضعيف ، من حديث معاذ بن أنس : من أعطى لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، وأنكح لله ، فقد استكمل إيمانه

(١) « مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ شَطْرَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي » وهذا أيضا إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة ، تحصنا من الفساد . فكان المفسد لدين المرء فى الأغلب فرجه وبطنه ، وقد كفى بالتزويج أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يَنْقَطِعُ إِلاَّ ثَلاَثٌ : وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ ـ الحديث »ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح

وأما الآثار فقال عمر رضى الله عنه : لا يمنع من النكاح الاعجز أو فجور . فبين أن الدين غير مانع منه ، وحصر المانع فى أمرين مذمومين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج : يحتمل أنه جعله من النسك ، وتتمة له ، ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة الا بالتزويج ، ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب ، ولذلك كان يجمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما ويقول : إن أردتم النكاح أنكحتكم ، فان العبد إذا زنى نزع الأيمان من قلبه . وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : لو لم يبق من عمرى الا عشرة أيام لأحببت أن أتزوّج لكيلا ألقى الله عزبا . وماتت امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله عنه فى الطاعون ، وكان هو أيضا مطعونا فقال : زوّجونى فانى أكره أن ألقى الله عزبا . وهذا منهما يدل على انهما رأيا فى النكاح فضلا، لا من حيث التحرز عن غائلة الشهوة وكان عمر رضى الله عنه يكثر النكاح ويقول : ما أتزوّج إلا لأجل الولد . وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) يخدمه ، ويبيت عنده لحاجة ان طرقته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أَلاَ تَتَزَوَّجُ ؟ فقال يارسول الله انى فقير لا شيء لى ، وأنقطع عن خدمتك ، فسكت ، ثم عاد ثانيا ، فأعاد الجواب ثم تفكر الصحابى وقال : والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يصلحنى فى دنياى وآخرتى ، وما يقربنى إلى الله منى ،

---

(١) حديث : من تزوج فقد أحرز شطر دينه ، فليتق الله فى الشطر الآخر . ابن الجوزى فى العلل، من حديث أنس ، بسند ضعيف . وهو عند الطبرانى فى الأوسط ، بلفظ فقد استكمل نصف الايمان . وفى المستدرك، وصحح اسناده بلفظ من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه الحديث

(٢) حديث كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة ، فذكر فيه وولد صالح يدعو له . م . من حديث أبى هريرة بنحوه

(٣) حديث: كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبيت عنده لحاجة إن طرقته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تتزوج الحديث . أحمد . من حديث ربيعة الأسلمى ، فى حديث طويل ، وهو صاحب القصة ، باسناد حسن

ولئن قال لى الثلاثة لأفعلن . فقال له الثالثة لا تَتَزَوَّجْ ؟ قال فقلت يارسول الله زوجنى ، قال اذهب إلى بنى فلان ، فقل ان رسول الله صلى عليه وسلم يأمركم أن تزوجوني فتاتكم قال فقلت يارسول الله لاشىء لى، فقال لأصحابه «اجْمَعُوا لِأَخِيكُمْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ» فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فانكحوه ، فقال له «أَوْلِمْ» وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة وهذا التكرير يدل على فضل فى نفس النكاح ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح

وحكى ان بعض العباد فى الأمم السالفة فاق أهل زمانه فى العبادة ، فذكر لنبى زمانه حسن عبادته ، فقال نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشىء من السنة ، فاغتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبى عن ذلك فقال : أنت تارك للتزويج فقال لست أحرمه ولكنى فقير ، وأنا عيال على الناس ، قال أنا أزوجك ابنتى فزوجه النبى عليه السلام ابنته . وقال بشر ابن الحرث : فضل علىّ أحمد بن حنبل بثلاث . بطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وأنا أطلبه لنفسى فقط . ولاتساعه فى النكاح وضيقى عنه . ولأنه نصب اماما للعامة . ويقال ان أحمد رحمه الله تزوج فى اليوم الثانى من وفاة أم ولده عبد الله ، وقال أكره أن أبيت عزبا . وأما بشر ، فانه لما قيل إن الناس يتكلمون فيك لتركك النكاح ، ويقولون هو تارك للسنة ، فقال : قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة . وعوتب مرة أخرى ، فقال : ما يمنعنى من التزويج إلا قوله تعالى (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ[1]) فذكر ذلك لأحمد فقال : وأين مثل بشر ؟ انه قعد على مثل حد السنان. ومع ذلك فقد روى أنه رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال رفعت منازلى فى الجنة ، وأشرف بى على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين وفى رواية : قال لى ما كنت أحب أن تلقانى عزبا . قال فقلنا له مافعل أبو نصر التمار؟ فقال رفع فوقى بسبعين درجة . قلنا بماذا؟ فقد كنا نراك فوقه ، قال بصبره على بنياته والعيال . وقال سفيان بن عيينه : كثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له أربع نسوة ، وسبع عشرة سرية . فالنكاح سنة ماضية وخلق من أخلاق الانبياء . وقال رجل لابراهيم بن أدهم رحمه الله : طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة . فقال : لروعة منك بسبب العيال ، أفضل من جميع ما أنا فيه

(١) البقرة ٢٢٨

قال فما الذي يمنعك من النكاح؟ فقال مالي حاجة في امرأة، وما أريد أن أغر امرأة بنفسي وقد قيل فضل المتأهل على العزب، كفضل المجاهد على القاعد، وركعة من متأهل، أفضل من سبعين ركعة من عزب

الترهيب عن النكاح

وأما ماجاء في الترهيب عن النكاح فقد قال صلى الله عليه وسلم(١) «خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ الْخَفِيفُ الْحَاذُّ الَّذِي لاَ أَهْلَ لَهُ وَلاَ وَلَدَ» وقال صلى الله عليه وسلم(٢) «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلاَكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ وَأَبَوَيْهِ وَوَلَدِهِ، يُعَيِّرُونَهُ بِالْفَقْرِ وَيُكَلِّفُونَهُ مَالاَ يُطِيقُ فَيَدْخُلُ الْمَدَاخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ، فَيَهْلِكُ»

وفي الخبر(٣) قلة العيال أحد اليسارين، وكثرتهم أحد الفقرين. وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح، فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار. وقال أيضا: الوحيد يجد من حلاوة العمل، وفراغ القلب، مالا يجد المتأهل. وقال مرة: مارأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الاولى. وقال أيضا: ثلاث من طلبهن فقد ركن الى الدنيا: من طلب معاشا، أو تزوج امرأة، أو كتب الحديث. وقال الحسن رحمه الله: إذا أراد الله بعبد خيرا، لم يشغله بأهل ولامال. وقال ابن أبي الحواري تناظر جماعة في هذا الحديث، فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكونا له، بل أن يكونا له ولايشغلانه، وهو اشارة إلى قول أبي سليمان الداراني: ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو عليك مشؤم. وبالجملة لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقا، الا مقرونا بشرط. وأما الترغيب في النكاح، فقد ورد مطلقا ومقرونا بشرط فلنكشف الغطاء عنه، بحصر آفات النكاح وفوائده

---

(١) حديث: خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لاأهل له ولا ولد. أبو يعلى من حديث حذيفة ورواه الخطابي في العزلة من حديثه وحديث أبي أمامة، وكلاهما ضعيف

(٢) حديث: يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر، ويكلفونه مالا يطيق، فيدخلا المداخل التي يذهب فيها دينه، فيهلك: الخطابي في العزلة، من حديث ابن مسعود نحوه، وللبيهقي في الزهد نحوه، من حديث أبي هريرة، وكلاهما ضعيف

(٣) حديث: قلة العيال أحد اليسارين، وكثرتهم أحد الفقرين. القضاعي في مسند الشهاب، من حديث علي وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، من حديث عبد الله بن عمر، وابن هلال المزني، كلاهما بالشطر الأول، بسندين ضعيفين.

فوائد النكاح

وفيه فوائد خمسة : الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الاولى : الولد : وهو الاصل ، وله وضع النكاح والمقصود ابقاء النسل ، وأن لايخلو العالم عن جنس الإنس ، وانما الشهوة خلقت باعثة مستحثة ، كالموكل بالفحل فى اخراج البذر ، وبالانثى فى التمكين من الحرث ، تلطفا بهما فى السياقة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع ، كالتاطف بالطير فى بث الحب الذى يشتهيه ليساق الى الشبكة . وكانت القدرة الازلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب ، مع الاستغناء عنها ، اظهارا للقدرة ، واتماما لعجائب الصنعة ، وتحقيقا لما سبقت به المشيئة ، وحقت به الكلمة ، وجرى به القلم . وفى التوصل الى الولد قربة من أربعة أوجه هى الأصل فى الترغيب فيه عند الامن من غوائل الشهوة ، حتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزبا . الأول . موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد ، لابقاء جنس الانسان . والثانى . طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكثير من به مباهاته . والثالث . طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده والرابع . طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله

أما الوجه الأول فهو أدق الوجوه ، وأبعدها عن افهام الجماهير ، وهو أحقها وأقواها عند ذوى البصائر النافذة فى عجائب صنع الله تعالى ومجاري حكمه : وبيانه أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث ، وهيأ له أرضا مهيأة للحراثة ، وكان العبد قادرا على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فان تكاسل وعطل آلة الحرث ، وترك البذر ضائعا حتى فسد ، ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة ، كان مستحقا للمقت والعتاب من سيده . والله تعالى خلق الزوجين ، وخلق الذكر والانثيين وخلق النطفة فى الفقار ، وهيأ لها فى الأنثيين عروقا ومجارى ، وخلق الرحم قرارا ومستودعا للنطفة ، وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والانثى فهذه الأفعال والآلات ، تشهد بلسان ذلق فى الاعراب عن مراد خالقها ، وتنادى أرباب

الألباب بتعريف ماأعدت له ، هذا ان لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالمراد حيث قال(تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا) فكيف وقد صرح بالأمر ، وباح بالسر . فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحراثة ، مضيع للبذر ، معطل لما خلق الله من الآلات المعدة، وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة ، المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهى ، ليس برقم حروف وأصوات ، يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة فى إدراك دقائق الحكمة الأزليه . ولذلك عظم الشرع الأمر فى القتل للاولاد ، وفى الوأد ، لأنه منع التمام الوجود . وإليه أشار من قال العزل أحد الوأدين فالناكح ساع فى إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمعرض معطل ومضيع لما كره الله ضياعه . ولاجل محبة الله تعالى لبقاء النفوس، أمر بالاطعام وحث عليه ، وعبر عنه بعبارة القرض فقال (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا [١])

فان قلت : قولك ان بقاء النسل والنفس محبوب ، يوهم ان فناءها مكروه عند الله، وهو فرق بين الموت والحياة ، بالاضافة إلى ارادة الله تعالى ، ومعلوم ان الكل بمشيئة الله وأن الله غنى عن العالمين ، فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم ، أو بقاؤهم عن فنائهم؟ فاعلم ان هذه الكلمة حق أريد بها باطل . فان ماذكرناه لا ينافى اضافة الكائنات كلها إلى ارادة الله خيرها وشرها ، ونفعها وضرها ، ولكن المحبة والكراهة يتضادان وكلاهما لايضادان الارادة، فرب مراد مكروه ، ورب مراد محبوب ، فالمعاصى مكروهة ، وهى مع الكراهة مرادة ، والطاعات مرادة وهى مع كونها مرادة محبوبة ومرضية. أما الكفر والشر، فلا نقول انه مرضى ومحبوب، بل هو مراد . وقد قال الله تعالى (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ [٢]) فكيف يكون الفنا بالاضافة إلى محبة الله وكراهته كالبقاء ؟ فانه تعالى يقول(١) «مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ كَتَرَدُّدِي فِي قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُسْلِمِ ، هُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْمَوْتِ » فقوله لابد له من الموت ، إشارة إلى سبق الإرادة والتقدير المذكور فى قوله تعالى (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ [٣]) وفى قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ [٤]) ولا مناقضة بين قوله تعالى

---

(١) حديث : انه تعالى يقول : ماترددت فى شيء كترددى فى قبض روح عبدى المسلم يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه .خ. من حديث أبي هريرة ، انفرد به خالد بن محمد القطوانى ، وهو متكلم فيه

---

(١) البقرة ٢٤٥ (٢) الزمر ٧ (٣) الواقعة ٦٠ (٤) الملك ٢

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) وبين قوله وأنا أكره مساءته ولكن إيضاح الحق فى هذا، يستدعى تحقيق معنى الاردة والمحبة والكراهة، وبيان حقائقها . فان السابق إلى الافهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكراهتهم، وهيهات فبين صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد، ما بين ذاته العزيز وذاتهم . وكما أن ذوات الخلق جوهر وعرض، وذات الله مقدس عنه، ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض، الجوهر والعرض، فكذا صفاته لا تناسب صفات الخلق . وهذه الحقائق داخلة فى علم المكاشفة، ووراءه سر القدر الذى منع من افشائه فلنقصر عن ذكره، ولنقتصر على ما نبهنا عليه، من الفرق بين الاقدام على النكاح والاحجام عنه . قان فان أحدهما مضيع نسلا أدام الله وجوده من آدم صلى الله عليه وسلم عقبا بعد عقب إلى أن انتهى اليه، فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه، فمات أبتر لا عقب له . ولو كان الباعث على النكاح مجرد دفع الشهوة، لما قال معاذ فى الطاعون : زوّجونى لا ألقى الله عزبا

فان قلت: فما كان معاذ يتوقع ولدا فى ذلك الوقت، فما وجه رغبته فيه ؟ فأقول الولد يحصل بالوقاع، ويحصل الوقاع بباعث الشهوة، وذلك أمر لا يدخل فى الاختيار . انما المعلق باختيار العبد، احضار المحرك للشهوة، وذلك متوقع فى كل حال، فمن عقد فقد أدى ما عليه، وفعل ما اليه، والباقى خارج عن اختياره . ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضا، فان نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها، حتى ان الممسوح الذى لا يتوقع له ولد، لا ينقطع الاستحباب أيضا فى حقه على الوجه الذى يستحب للاصلع امرار الموسى على رأسه اقتداء بغيره، وتشبها بالسلف الصالحين، وكما يستحب الرمل والاضطباع فى الحج الآن، وقد كان المراد منه أوّلا إظهار الجلد للكفار، فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد، سنة فى حق من بعدهم . ويضعف هذا الاستحباب بالاضافة إلى الاستحباب فى حق القادر على الحرث، وربما يزداد ضعفا بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر، فان ذلك لا يخلو عن نوع من الخطر، فهذا المعنى هو الذى ينبه على شدة انكارهم لترك النكاح، مع فتور الشهوة

الوجه الثانى السعى فى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه، بتكثير ما به مباهاته

إذ قد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجوه كلها ، ماروى عن عمر رضى الله عنه أنه كان ينكح كثيرا ويقول : إنما أنكح للولد، وماروى من الأخبار فى مذمة المرأة العقيم ، اذ قال عليه السلام [١] « لَحَصِيرٌ فِى نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، خَيْرٌ مِنَ امْرَأَةٍ لاَ تَلِدُ » وقال [٢] « خَيْرُ نِسَائِكُمُ الْوَلُودُ الْوَدُودُ » وقال [٣] « سَوْدَاءُ وَلُودٌ خَيْرٌ مِنْ حَسْنَاءَ لاَ تَلِدُ » وهذا يدل على أنَّ طلب الولد أدخل فى اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة ، لان الحسناء أصلح للتحصين وغض البصر وقطع الشهوة

الوجه الثالث: أن يبقى بعده ولدا صالحا يدعوله ، كما ورد فى الخبر : أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثا فذكر الولد الصالح. وفى الخبر [٤] « إِنَّ الْأَدْعِيَةَ تُعْرَضُ عَلَى الْمَوْتَى عَلَى أَطْبَاقٍ مِنْ نُورٍ » وقول القائل : إن الولد ربما لم يكن صالحا ، لا يؤثر . فانه مؤمن ، والصلاح هو الغالب على أولاد ذوى الدين ، لاسيما إذا عزم على تربيته ، وحمله على الصلاح . وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد ، برا كان أو فاجرا ، فهو مثاب على دعوته وحسناته فانه من كسبه ، وغيره مؤاخذ بسيئاته ، فانه لا تزر وازرة وزر أخرى . ولذلك قال تعالى(أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)[١] أى مانقصناهم من أعمالهم ، وجعلنا أولادهم مزيدا فى احسانهم

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله، فيكون له شفيعا. فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال

---

(١) حديث : لحصير فى ناحية البيت خير من أمرأة لاتلد . أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين ، موقوفا على عمر بن الخطاب ، ولم أجده مرفوعا

(٢) حديث: خير نسائكم الولود الودود . البيهقي . من حديث ابن أبى أدية الصدفى ، قال البيهقى ، وروى باسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلا

(٣) حديث : سوداء ولود خير من حسناء لاتلد . ابن حبان فى الضعفاء ، من رواية بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، ولا يصح

(٤) حديث : إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور . رويناه فى الأربعين المشهورة ، من رواية أبى هدبة عن أنس ، فى الصدقة عن الميت وأبو هدبة كذاب

---

(١) الطور : ٢١

(١)«إِنَّ الطِّفْلَ يَجُرُّ بِأَبَوَيْهِ إِلَى الْجَنَّةِ» وفي بعض الأخبار (٢) «يَأْخُذُ بِثَوْبِهِ كَمَا أَنَا الْآنَ آخُذُ بِثَوْبِكَ» (٣) وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الْمَوْلُودَ يُقَالُ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَقِفُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَظَلُّ مُحْبَنْطِئًا أي مُمْتَلِئًا غَيْظًا وغضبا، وَيَقُولُ لَا أَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَأَبَوَايَ مَعِي، فَيُقَالُ أَدْخِلُوا أَبَوَيْهِ مَعَهُ الْجَنَّةَ» وفي خبر آخر (٤) «إِنَّ الْأَطْفَالَ يَجْتَمِعُونَ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، عِنْدَ عَرْضِ الْخَلَائِقِ لِلْحِسَابِ فَيُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ اذْهَبُوا بِهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقِفُونَ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُمْ مَرْحَبًا بِذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا لَا حِسَابَ عَلَيْكُمْ؛ فَيَقُولُونَ: فَأَيْنَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا، فَيَقُولُ الْخَزَنَةُ إِنَّ آبَاءَكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ لَيْسُوا مِثْلَكُمْ، إِنَّهُ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَسَيِّئَاتٌ فَهُمْ يُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا وَيُطَالَبُونَ، قَالَ فَيَتَضَاغَوْنَ وَيَضِجُّونَ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ضَجَّةً وَاحِدَةً، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ، مَا هَذِهِ الضَّجَّةُ؟ فَيَقُولُونَ رَبَّنَا أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لَا نَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَعَ آبَائِنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى تَخَلَّلُوا الْجَمْعَ فَخُذُوا بِأَيْدِي آبَائِهِمْ فَأَدْخِلُوهُمُ الْجَنَّةَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٥) «مَنْ مَاتَ لَهُ اثْنَانِ مِنَ الْوَلَدِ فَقَدِ احْتَظَرَ بِحِظَارٍ مِنَ النَّارِ»

---

(١) حديث: إن الطفل يجر أبويه إلى الجنة. هـ. من حديث على، وقال السقط بدل الطفل وله من حديث معاذ، إن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة، إذا هي احتسبته. وكلاهما ضعيف

(٢) حديث: أنه يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك. م. من حديث أبي هريرة

(٣) حديث: ان المولود يقال له ادخل الجنة، فيقف على باب الجنة، فيظل محبنطئا، أى ممتلئا غيظا وغضبا ويقول لا أدخل إلا وأبواى معى ـ الحديث. حب. فى الضعفاء من رواية بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، ولا يصح و. ن. من حديث أبى هريرة، يقال لهم ادخلوا الجنة، فيقولون حتى يدخل آباؤنا، فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم. واسناده جيد

(٤) حديث: إن الأطفال يجتمعون فى موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب، فيقال للملائكة اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة، فيقفون على باب الجنة، فيقال لهم مرحبا بذرارى المسلمين، ادخلوا لاحساب عليكم، فيقولون أين آباؤنا وأمهاتنا ـ الحديث بطوله. لم أجد له أصلا يعتمد عليه

(٥) حديث: من مات له اثنان من الولد احتظر بحظار من نار. البزار، والطبرانى، من حديث زهير ابن أبي علقمة: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله، انه مات لى ابنان سوى هذا، فقال احتظرت من دون النار بحظار شديد. ولمسلم من حديث أبى هريرة، فى المرأة التى قالت دفنت ثلاثة، لقد احتظرت بحظار شديد من النار

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ وَاثْنَانِ قَالَ وَاثْنَانِ »

وحكى أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره ، قال فانتبه من نومه ذات يوم ، وقال زوّجونى زوجونى فزوّجوه ، فسئل عن ذلك ، فقال لعل الله يرزقنى ولدا ويقبضه ، فيكون لى مقدمة فى الآخرة . ثم قال رأيت فى المنام كأن القيامة قدقامت وكأنى فى جملة الخلائق فى الموقف ، وبى من العطش ماكاد أن يقطع عنقى ، وكذا الخلائق فى شدة العطش والكرب ، فنحن كذلك اذ ولدان يتخللون الجمع ، عليهم مناديل من نور وبأيديهم أباريق من فضة ، وأكواب من ذهب ، وهم يسقون الواحد بعد الواحد ، يتخللون الجمع ، ويتجاوزون أكثر الناس ، فمددت يدى إلى أحدهم ، وقلت اسقنى فقد أجهدنى العطش فقال ليس لك فينا ولد انما نسقى آباءنا ، فقلت ومن أنتم ؟ فقالوا نحن من مات من أطفال المسلمين . وأحد المعانى المذكورة فى قوله تعالى (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ [1]) تقديم الأطفال إلى الآخرة

فقد ظهر بهذه الوجوه الاربعه ، ان أكثر فضل النكاح لأجل كونه سببا للولد

الفائدة الثانية : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر وحفظ الفرج ، وإليه الأشارة بقوله عليه السلام « مَنْ نَكَحَ فَقَدْ حَصَّنَ نِصْفَ دِينِهِ ، فَلْيَتَّقِ اللهَ فِى الشَّطْرِ الْآخَرِ » واليه الاشارة بقوله « عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ »

وأكثر مانقلناه من الآثار والاخبار اشارة الى هذا المعنى ، وهذا المعنى دون لأول ، لان الشهوة موكلة بتقاضى تحصيل الولد ، فالنكاح كاف لشغله ، دافع لجعله ، وصارف لشر سطوته . وليس من يجيب مولاه رغبة فى تحصيل رضاه ، كمن يجيب لطلب الخلاص عن غائلة التوكيل . فالشهوة والولد مقدران ، وبينهما ارتباط . وليس يجوز أن يقال المقصود اللذة والولد لازم منها ، كما يلزم مثلا قضاء الحاجة من الاكل ، وليس مقصودا فى ذاته . بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة ، والشهوة باعثة عليه

---

(١) حديث من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، قيل يارسول الله واثنان ، قال واثنان . خ . من حديث أنس ، دون ذكر الاثنين . وهو عند أحمد بهذه الزيادة ، من حديث معاذ ، وهو متفق عليه ، من حديث أبى سعيد بلفظ أيما امرأة بنحو منه

(١) البقرة : ٢٢٣

ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الارهاق الى الإيلاد ، وهو ما في قضائها من اللذة التي لاتوازيها لذة لو دامت ، فهي منبهة على اللذات الموعودة في الجنان ، اذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقا لاينفع ، فلو رغب العنين في لذة الجماع ، أو الصبي في لذة الملك والسلطنة ، لم ينفع الترغيب . واحدى فوائد لذات الدنيا ، الرغبة في دوامها في الجنة ليكون باعثا على عبادة الله

فانظر الى الحكمة ، ثم الى الرحمة ، ثم الى التعبية الالهية كيف عبيت تحت شهوة واحدة حياتان ، حياة ظاهرة وحياة باطنة ، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله ، فانه نوع من دوام الوجود ، والحياة الباطنة هي الحياة الاخروية ، فان هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام ، تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام ، فيستحث على العبادة الموصلة اليها فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها ، تيسر المواظبة على مايوصله الى نعيم الجنان . وما من ذرة من ذرات بدن الانسان باطنا وظاهرا ، بل ذرات ملكوت السموات والارض ، الا وتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها ماتحار العقول فيها ؛ ولكن انما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفائها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها .

فالنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل من لايؤتى عن عجز وعنة ، وهم غالب الخلق ؛ فان الشهوة اذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى ، جرت الى اقتحام الفواحش واليه أشار بقوله عليه السلام عن الله تعالى «إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» وان كان ملجما بلجام التقوى ، فغايته أن يكف الجوارح عن اجابة الشهوة ، فيغض البصر ، ويحفظ الفرج ، فاما حفظ القلب عن الوسواس والفكر ، فلا يدخل تحت اختياره ، بل لاتزال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الوقاع ، ولا يفتر عنه الشيطان الموسوس اليه في أكثر الاوقات ، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة ، حتى يجرى على خاطره من أمور الوقاع مالو صرح به بين يدى أخس الخلق لاستحيا منه ، والله مطلع على قلبه ، والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق ، ورأس الأمور للمريد في سلوك طريق الآخرة قلبه ، والمواظبة على الصوم لاتقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق الا أن ينضاف إليه ضعف في البدن ، وفساد في المزاج ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح ،

وهذه محنة عامة قل من يتخلص منها . قال قتادة فى معنى قوله تعالى (وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ[(١)]) هو الغلمة وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالا فى معنى قوله تعالى (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً[(٢)]) أنه لا يصبر عن النساء . وقال فياض بن نجيح : إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله ، وبعضهم يقول ذهب ثلث دينه وفى نوادر التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ[(٣)]) قال قيام الذكر . وهذه بلية غالبة ، إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين ، وهى مع أنها صالحة لان تكون باعثة على الحياتين كما سبق ، فهى أقوى آلة الشيطان على بنى آدم ، وإليه أشار عليه السلام بقوله « مَارَأَيْتُ[(١)] مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذَوِى الْأَلْبَابِ مِنْكُنَّ » وإنما ذلك لهيجان الشهوة . وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللَّهُمَّ[(٢)] إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِى وَقَلْبِي وَشَرِّ مَنِيِّ » وقال « أَسْأَلُكَ[(٣)] أَنْ تُطَهِّرَ قَلْبِي وَتَحْفَظَ فَرْجِى » فما يستعيذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجوز التساهل فيه لغيره

وكان بعض الصالحين يكثر النكاح ، حتى لا يكاد يخلو من اثنتين وثلاث ، فأنكر عليه بعض الصوفية ، فقال هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة ، أو وقف بين يديه موقفا فى معاملة ، فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟ فقالوا يصيبنا من ذلك كثير ، فقال لو رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد ، لما تزوجت ، لكنى ما خطر على قلبى خاطر يشغلنى عن حالى الا انفذته ، فاستريح وارجع إلى شغلى ، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبى معصية

وأنكر بعض الناس حال الصوفية ، فقال له بعض ذوى الدين : ما الذى تنكر منهم ؟ قال يأكلون كثيرا ، قال وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون ، لأكلت كما يأكلون ، قال ينكحون كثيرا ، قال وأنت أيضا لو حفظت عينيك وفرجك كما يحفظون ، لنكحت كما ينكحون . وكان الجنيد يقول : أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت . فالزوجة على التحقيق قوت

---

(١) حديث : مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكن . م . من حديث ابن عمر ، واتفقا عليه من حديث أبى سعيد ، ولم يسق م لفظه

(٢) حديث : اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وشر منى . تقدم فى الدعوات

(٣) حديث : أسألك أن تطهر قلبي ، وتحفظ فرجي . هق . فى الدعوات من حديث أم سلمة باسناد فيه لين

---

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) النساء : ٢٨ (٣) الفلق : ٣

وسبب لطهارة القلب « ولذلك أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم «[١] كُلَّ مَنْ وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى امْرَأَةٍ فَتَاقَتْ إِلَيْهَا نَفْسُهُ أَنْ يُجَامِعَ أَهْلَهُ» لان ذلك يدفع الوسواس عن النفس وروى جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ فَقَضَى حَاجَتَهُ وَخَرَجَ » وَقَالَ صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِصُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ ، فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا » وقال عليه السلام[٣] « لَا تَدْخُلُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ » وهي التي غاب زوجها عنها « فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ » قُلْنَا وَمِنْكَ ؟ قَالَ « وَمِنِّي وَلَكِنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ » قال سفيان بن عيينة : فاسلم معناه فاسلم أنا منه ، هذا معناه فان الشيطان لا يسلم . وكذلك يحكى عن ابن عمر رضي عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم ، أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل ، وربما جامع قبل أن يصلي المغرب ، ثم يغتسل ويصلي ، وذلك لتفريغ القلب لعبادة الله ، واخراج عدة الشيطان منه . وروى أنه جامع ثلاثا من جواريه في شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة وقال ابن عباس[٤] خير هذه الأمة أكثرها نساء

ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب ، كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشد ، ولاجل فراغ القلب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت ، مع أن فيه ارقاق الولد وهو نوع إهلاك ، وهو محرم على كل من قدر على حرة ، ولكن ارقاق الولد أهون من اهلاك الدين ، وليس فيه الا تنغيص الحياة على الولد مدة ، وفي اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الأخرويه التي تستحقر الاعمار الطويلة بالاضافة الى يوم من أيامها

وروى أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس ، وبقي شاب لم يبرح ، فقال

(١) حديث : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع بصره على امرأة فتاقت نفسه إليها أن يجامع أهله . أحمد . من حديث أبي كبشة الأنماري حين مرت به امرأة ، فوقع في قلبه شهوة النساء ، فدخل فأتى بعض أزواجه ، وقال فكذلك فافعلوا ، فانه من أماثل أفعالكم اتيان الحلال وإسناده جيد

(٢) حديث جابر ، رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته الحديث مسلم ، والترمذي ، واللفظ له وقال حسن صحيح

(٣) حديث : لا تدخلوا على المغيبات فان الشيطان يجري من احدكم مجرى الدم الحديث . ت . من حديث جابر ، وقال غريب . ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان

(٤) حديث ابن عباس ، خير هذه الأمة أكثرها نساء يعني النبي صلى الله عليه وسلم رواه . خ .

له ابن عباس هل لك من حاجة ؟ قال نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس ، وأنا الآن أهابك وأجلك . فقال ابن عباس: ان العالم بمنزلة الوالد ، فما كنت أفضيت به الى أبيك فافض الىّ به ، فقال انى شاب لازوجة لى ، وربما خشيت العنت على نفسى ، فربما استمنيت بيدى ، فهل فى ذلك معصية ، فأعرض عنه ابن عباس ، ثم قال . أف وتف ، نكاح الامة خير منه ، وهو خير من الزنا . فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور ، أدناها نكاح الامة ، وفيه إرقاق الولد ، وأشد منه الاستمناء باليد ، وأفحشه الزنا ، ولم يطلق ابن العباس الإباحة فى شيء منه ، لأنهما محذوران يفزع اليهما حذرا من الوقوع فى محذور أشد منه كما يفزع الى تناول الميتة حذرا من هلاك النفس ، فليس ترجيح أهون الشرين فى معنى الاباحة المطلقة ، ولا فى معنى الخير المطلق وليس قطع اليد المتأكلة من الخيرات ، وإن كان يؤذن فيه عند أشراف النفس على الهلاك

فإذاً فى النكاح فضل من هذا الوجه ، ولكن هذا لايعم الكل بل الأكثر ، فرب شخص فترت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره ، فينعدم هذا الباعث فى حقه ، ويبقى ماسبق من أمر الولد ، فان ذلك عام ، إلا للممسوح وهو نادر

ومن الطباع ماتغلب عليها الشهوة بحيث لاتحصنه المرأة الواحدة ، فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع ، فان يسر الله له مودة ورحمة ، واطمأن قلبه بهن ، وإلا فيستحب له الاستبدال ، فقد نكح على رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال ، ويقال إن الحسن بن على كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتى امرأة ، وكان ربما عقد على أربع فى وقت واحد ، وربما طلق أربعا فى وقت واحد واستبدل بهن . وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن (١) « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « حَسَنٌ مِنِّي وَحُسَيْنٌ مِنْ عَلِيٍّ » فقيل إن كثرة نكاحه أحد ماأشبه به خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث انه قال للحسن بن على اشبهت خلق وخلقي . قلت المعروف انه قال هذا اللفظ لجعفر بن ابى طالب كما هو متفق عليه من حديث البراء ، ولكن الحسن ايضا كان يشبه النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو متفق عليه من حديث ابى جحيفة ، وللترمذى ، وصححه ، وابن حبان من حديث انس ، لم يكن احد اشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن

(١) حديث حسن منى وحسين من على . إحمد . من حديث المقداد بن معد يكرب ، بسند جيد

وتزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأة ، وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع ، ومن كان له اثنتان لا يحصى، ومهما كان الباعث معلوما ، فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس، فلينُظر اليه في الكثرة والقلة

الفائدة الثالثة . ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة ، إراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فان النفس ملول ، وهى عن الحق نفور ، لأنه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالاكراه على مايخالفها جمحت وثابت ، وإذا روحت باللذات فى بعض الأوقات قويت ونشطت : وفى الاستئناس بالنساء من الاستراحة مايزيل الكرب ويروح القلب، وينبغى أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات، ولذلك قال الله تعالى(لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا[1]) وقال على رضى الله عنه ، روحوا القلوب ساعة ، فانها إذا أكرهت عميت، وفي الخبر[1] «عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَلاَثُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ ،وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا بِمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ » فان فى هذه الساعة عونا على تلك الساعات . ومثله بلفظ آخر[2] « لاَ يَكُونُ الْعَاقِلُ ظَاعِنًا إِلاَّ فِى ثَلاَثٍ، تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِى غَيْرِ مُحَرَّمٍ » وقال عليه الصلاة والسلام[3] « لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةٌ وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَى » والشرة الجد والمكابدة بحدة وقوة، وذلك فى ابتداء الارادة ، والفترة الوقوف للاستراحة . وكان أبو الدرداء يقول: إنى لأستجم نفسى بشيء من اللهو ، لأتقوى بذلك فيما بعد على الحق

---

(١) حديث : على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة فيها يناجى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه . حب . من حديث أبى ذر ، فى حديث طويل ، إن ذلك فى صحف ابراهيم

(٢) حديث لايكون العاقل ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . حب من حديث أبى ذر الطويل ، إن ذلك فى صحف ابراهيم

(٣) حديث : لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته الى سنتى فقد اهتدى . أحمد ، والطبرانى ، من حديث عبد الله ابن عمرو . وللترمذى نحو من هذا ، من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح

---

(١) الأعراف : ١٨٩

وفى بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « أَنَّهُ قَالَ شَكَوْتُ إِلَى جِبرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ضَعْفِي عَنِ الْوِقَاعِ فَدَلَّنِي عَلَى الْهَرِيسَةِ » وهذا إن صح لا محمل له إلا الاستعداد للاستراحة، ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة، فانه استثارة للشهوة ، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الأنس. وقال عليه الصلاة والسلام [2] « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلاَثٌ الطِّيبُ ، وَالنِّسَاءُ ، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ »

فهذه أيضا فائدة لا ينكرها من جرب اتعاب نفسه فى الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال وهى خارجة عن الفائدتين السابقتين ، حتى أنها تطرد فى حق الممسوح ومن لا شهوة له ، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالاضافة إلى هذه النية ؛ وقل من يقصد بالنكاح ذلك . وأما قصد الولد ، وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر . ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجارى والخضرة وأمثالها، ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليتنبه له

الفائدة الرابعة : تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب المعيشة. فان الانسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش فى منزله وحده ، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل ، لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل . فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق ؛ واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فانها تفرغك للآخرة . وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعا

---

(١) حديث : شكوت الى جبريل ضعفي عن الوقاع فدلنى على الهريسة . عد من حديث حذيفة وابن عباس والعقيلى من حديث معاذ وجابر ابن سمرة وابن حبان فى الضعفاء من حديث حذيفة والأزدى فى الضعفاء من حديث أبى هريرة ، بطرق كلها ضعيفة قال ابن عدى موضوع . وقال العقيلى باطل

(٢) حديث : حبب الى من دنياكم الطيب والنساء ، وقرة عينى فى الصلاة . ن ك . من حديث أنس باسناد جيد ، وضعفه العقيلى

وقال محمد بن كعب القرظى ، فى معنى قوله تعالى (رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً [١]) قال المرأة الصالحة، وقال عليه الصلاة والسلام [١] « لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْباً شَاكِراً ، وَلِسَاناً ذَاكِراً ، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى آخِرَتِهِ » فانظر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر وفى بعض التفاسير فى قوله تعالى (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً [٢]) قال الزوجة الصالحة، وكان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول ماأعطى العبد بعد الايمان بالله خيرا من امرأة صالحة ، وإن منهن غنما لايحذى منه ، ومنهن غلا لا يفدى منه . وقوله لايحذى أى لايعتاض عنه بعطاء وقال عليه الصلاة والسلام « [٢] فَضَلْتُ عَلَى آدَمَ بِخَصْلَتَيْنِ : كَانَتْ زَوْجَتُهُ عَوْناً لَهُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، وَأَزْوَاجِي أَعْوَانٌ لِى عَلَى الطَّاعَةِ ، وَكَانَ شَيْطَانُهُ كَافِراً ، وَشَيْطَانِي مُسْلِمٌ لاَ يَأْمُرُ إِلاَّ بِخَيْرٍ » فعد معاونتها على الطاعة فضيلة

فهذه أيضا من الفوائد التى يقصدها الصالحون ، إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر ، ولا تدعو إلى امرأتين ، بل الجمع ربما ينغص المعيشة ، وتضطرب به أمور المنزل . ويدخل فى هذه الفائدة قصد الإستكثار بعشيرتها ، وما يحصل من القوة بسبب تداخل العشائر ، فان ذلك مما يحتاج اليه فى دفع الشرور وطلب السلامة ، ولذلك قيل : ذل من لاناصر له ، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله ، وفرغ قلبه للعبادة ، فان الذل مشوش للقلب ، والعز بالكثرة دافع للذل .

الفائده الخامسه : مجاهده النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن، وارشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده . فكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فانها رعايه وولاية، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز

(١) جديث : ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته . ت . وحسنه ، و . هـ. واللفظ له من حديث وفيه انقطاع

(٢) حديث : فضلت على آدم صلى الله عليه وسلم بخصلتين ، كانت زوجته عونا له على المعصية ، وأزواجى أعوان لى على الطاعة . وكان شيطانه كافرا ، وشيطانى مسلم لايأمر إلا بخير . رواه الخطيب فى التاريخ ، من حديث ابن عمر ، وفيه محمد بن وليد بن أبان بن القلانسى، قال ابن عدى كان يضع الحديث . ولمسلم من حديث ابن مسعود ، مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال وأنا ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلم يأمرنى الا بخير

(١) البقرة : ٢٠١ (٢) النحل : ٩٧

منها من يحترز، خيفة من القصور عن القيام بحقها وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام [١] « يَوْمٌ مِنْ وَالٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً » ثم قال [٢] « أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره، كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، ولا من صبر على الأذى، كمن رفه نفسه وأراحها، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله. ولذلك قال بشر. فضل عليّ أحمد بن حنبل بثلاث: إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره. وقد قال عليه الصلاة والسلام [٣] « مَا أَنْفَقَهُ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْجَرُ فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ » وقال بعضهم لبعض العلماء: من كل عمل أعطاني الله نصيبا، حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما، فقال له أين أنت من عمل الابدال؟ قال وما هو؟ قال كسب الحلال، والنفقة على العيال. وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو: تعلمون عملا أفضل مما نحن فيه؟ قالوا ما نعلم ذلك، قال أنا أعلم، قالوا فما هو؟ قال رجل متعفف ذو عائلة، قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياما متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ حَسُنَتْ صَلاَتُهُ، وَكَثُرَ عِيَالُهُ، وَقَلَّ مَالُهُ، وَلَمْ يَغْتَبِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ » وفي حديث آخر [٥] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ » وفي الحديث [٦] إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ

---

(١) حديث: يوم من وال عادل أفضل من عبادة تسعين سنة، ثم قال ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. طب، وهق، من حديث ابن عباس، وقد تقدم بلفظ ستين سنة، دون ما بعده فانه متفق عليه من حديث ابن عمر

(٢) حديث: ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة، وان الرجل ليؤجر في رفع اللقمة الى في امرأته خ م. من حديث ابن مسعود، اذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها، كانت له صدقة. ولهما من حديث سعد بن أبي وقاص، ومهما أنفقت فهو لك صدقة، حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك

(٣) حديث: من حسنت صلاته، وكثر عياله، وقل ماله، ولم يغتب المسلمين، كان معي في الجنة كهاتين. أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري، بسند ضعيف

(٤) حديث: ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال. ه. من حديث عمران بن حصين، بسند ضعيف

(٥) حديث: إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم ليكفرها. أحمد من حديث عائشة، الا أنه قال بالحزن فيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

الْعَبْدِ، ابْتَلَاهُ اللهُ بِهَمِّ الْعِيَالِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ» وقال بعض السلف : من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الغم بالعيال . وفيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] أنه قال « مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهَمُّ بِطَلَبِ الْمَعِيشَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَأَنْفَقَ عَلَيْهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يُغْنِيَهُنَّ اللهُ عَنْهُ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ الْجَنَّةَ أَلْبَتَّةَ أَلْبَتَّةَ إِلَّا أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا لَا يُغْفَرُ لَهُ » كان ابن عباس إذا حدث بهذا قال: والله هو من غرائب الحديث وغرره

وروى أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت ، فعرض عليه التزويج ، فامتنع وقال: الوحدة روح لقلبي ، وأجمع لهمي . ثم قال : رأيت فى المنام بعد جمعة من وفاتها ، كأن أبواب السماء فتحت ، وكأن رجالا ينزلون ويسيرون فى الهواء ، يتبع بعضهم بعضا ، فكلما نزل واحد نظر إلىّ وقال لمن وراءه ، هذا هو المشئوم ، فيقول الآخر نعم ، ويقول الثالث كذلك ، ويقول الرابع نعم ، نخفت أن أسألهم هيبة من ذلك ، إلى أن مر بى آخرهم ، وكان غلاما ، فقلت له ياهذا :من هذا المشئوم الذى تومئون اليه ؟ فقال أنت ، فقلت ولم ذاك ؟ قال كنا نرفع عملك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله ، فمنذ جمعة أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين ، فما ندرى ما أحدثت، فقال لاخوانه: زوجونى زوجونى فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث . وفى أخبار الأنبياء عليهم السلام، إن قوما دخلوا على يونس النبى عليه السلام فأضافهم ، فكان يدخل ويخرج إلى منزله ، فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فتعجبوا من ذلك ، فقال لاتعجبوا ، فانى سألت الله تعالى وقلت : ما أنت معاقبى به فى الآخرة ، فعجله لى فى الدنيا . فقال إن عقوبتك بنت فلان تتزوج بها ، فتزوجت بها ، وأنا صابر على ماترون منها . وفى الصبر على ذلك رياضة النفس

---

(١) حديث : من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الهم بطلب المعيشة . الطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص المتشابه ، من حديث أبى هريرة ، باسناد ضعيف

(٢) حديث : من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن ، وأحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه ، أوجب الله له الجنة ألبتة ، الا أن يعمل عملا لايغفر له . الخرائطى فى مكارم الأخلاق ، من حديث ابن عباس ، بسند ضعيف وهو عنده بلفظ آخر . ولأبى داود واللفظ له ، والترمذى من حديث أبى سعيد من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن اليهن، فله الجنة، ورجاله ثقات ، وفى سنده اختلاف

وكسر الغضب ، وتحسين الخلق ، فان المنفرد بنفسه ، أو المشارك لمن حسن خلقه، لا تترشح منه خبائث النفس الباطنة ، ولا تنكشف بواطن عيوبه .فحق على سالك طريق الآخرة أن يجرب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحركات ، واعتياد الصبر عليها ، لتعتدل أخلاقه ، وترتاض نفسه ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه. والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكفل لهم ، وقيام بهم ، وعبادة فى نفسها

فهذه أيضا من الفوائد، ولكنه لا ينتفع بها إلا أحد رجلين،إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق ، لكونه فى بداية الطريق ، فلا يبعد أن يرى هذا طريقا فى المجاهدة وترتاض به نفسه، وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن ، وحركة بالفكر والقلب وإنما عمله عمل الجوارح ، بصلاة أو حج أو غيره ، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه ، التى لا يتعدى خيرها الى غيره ، فاما الرجل المهذب الأخلاق،إما بكفاية فى أصل الخلقة ، أو بمجاهدة سابقة اذا كان له سير فى الباطن وحركة بفكر القلب فى العلوم والمكاشفات فلا ينبغى أن يتزوج لهذا الغرض،فان الرياضة هو مكفي فيها . وأما العبادة فى العمل بالكسب لهم ،فالعلم أفضل من ذلك لأنه أيضا عمل وفائدته أكثر من ذلك ، وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب على العيال

فهذه فوائد النكاح فى الدين التى بها يحكم له بالفضيلة

آفات النكاح

أما آفات النكاح فثلاث

الأولى : وهى أقواها العجز عن طلب الحلال . فان ذلك لا يتيسر لكل أحد لاسيما فى هذه الأوقات مع اضطراب المعايش ، فيكون النكاح سببا فى التوسع للطلب والاطعام من الحرام ، وفيه هلاكه وهلاك أهله ، والمتعزب فى أمن من ذلك ، وأما المتزوج ففي الأكثر يدخل فى مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه ،وفى الخبر [1] «إِنَّ الْعَبْدَ

(١) حديث : إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهن الحديث ، لم أقف له على أصل

ليُوقَفُ عِنْدَ الْمِيزَانِ وَلَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ فَيُسْأَلُ عَنْ رِعَايَةِ عَائِلَتِهِ وَالْقِيَامِ بِهِمْ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، حَتَّى يَسْتَغْرِقَ بِتِلْكَ الْمُطَالَبَاتِ كُلَّ أَعْمَالِهِ فَلاَ تَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ ، فَتُنَادِي الْمَلاَئِكَةُ : هَذَا الَّذِي أَكَلَ عِيَالُهُ حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَارْتُهِنَ الْيَوْمَ بِأَعْمَالِهِ » ويقال إن أول مايتعلق بالرجل فى القيامة أهله وولده ، فيوقفونه بين يدى الله تعالى ، ويقولون يا ربنا خذ لنا بحقنا منه ، فانه ماعلمنا مانجهل ، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتص لهم منه ، وقال بعض السلف : إذا أراد الله بعبد شرا ، سلط عليه فى الدنيا أنيابا تنهشه ، يعنى العيال . وقال عليه الصلاة والسلام (١) « لاَ يَلْقَى اللهَ أَحَدٌ بِذَنْبٍ أَعْظَمَ مِنْ جَهَالَةِ أَهْلِهِ »

فهذه آفة عامة ، قل من يتخلص منها ، الا من له مال موروث او مكتسب من حلال يفى به وبأهله ، وكان له من القناعة مايمنعه من الزيادة ، فان ذلك يتخلص من هذه الآفة . أو من هو محترف ومقتدر على كسب حلال من المباحات ، باحتطاب أو اصطياد . أو كان فى صناعة لا تتعلق بالسلاطين ، ويقدر على أن يعامل به أهل الخير . ومن ظاهره السلامة ، وغالب ماله الحلال . وقال ابن سالم رحمه الله وقد سئل عن التزويج فقال : هو أفضل فى زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب مثل الحمار يرى الأتان فلا ينتهى عنها بالضرب ، ولا يملك نفسه فان ملك نفسه فتركه أولى

الآفة الثانية : القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن وهذه دون الاولى فى العموم فان القدرة على هذا أيسر من القدرة على الاولى ، وتحسين الخلق مع النساء ، والقيام بحظوظهن أهون من طلب الحلال ، وفى هذا أيضا خطر ، لانه راع ومسؤل عن رعيته . وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ » وروى أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع اليهم ، ومن يقصر عن القيام بحقهن ، وان كان حاضرا ، فهو بمنزله هارب ، فقد قال تعالى

---

(١) حديث : لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله . ذكره صاحب الفردوس ، من حديث أبى سعيد ولم يجده ولده أبو منصور فى مسنده .

(٢) حديث : كفى بالمرء اثما أن يضيع من يعول . د . ن . بلفظ من يقوت ، وهو عند . م . بلفظ آخر

« قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً » أمرنا أن نقيهم النار كما نقي أنفسنا ، والانسان قد يعجز عن القيام بحق نفسه ، واذا تزوج تضاعف عليه الحق ، وانضافت الى نفسه نفس أخرى، والنفس أمارة بالسوء، ان كثرت كثر الامر بالسوء، غالبا ولذلك اعتذر بعضهم من التزويج ، وقال أنا مبتلى بنفسي وكيف أضيف اليها نفسا أخرى ، كما قيل

لن يسع الفأرة جحرها * علقت المكنس في دبرها

وكذلك اعتذر ابراهيم بن أدهم رحمه الله وقال : لاأغر امرأة بنفسي ، ولا حاجة لي فيهن أي من القيام بحقهن وتحصينهن وامتاعهن وأنا عاجز عنه . وكذلك اعتذر بشر وقال يمنعني من النكاح قوله تعالى « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ » وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أصير جلادا على الجسر ، ورؤي سفيان بن عيينة رحمه الله على باب السلطان ، فقيل له ماهذا موقفك ؛ فقال : وهل رأيت ذا عيال أفلح ؟ وكان سفيان يقول

ياحبذا العزبة والمفتاح * ومسكن تخرقه الرياح * لاصخب فيه ولاصياح

فهذه آفة عامة أيضا ؛ وان كانت دون عموم الاولى ، لا يسلم منها الا حكيم عاقل ، حسن الأخلاق ، بصير بعادات النساء ، صبور على لسانهن ، وقاف عن اتباع شهواتهن ، حريص على الوفاء بحقهن ، يتغافل عن زللهن ؛ ويداري بعقله أخلاقهن . والاغلب على الناس السفه والفظاظة والحدة والطيش ، وسوء الخلق وعدم الانصاف مع طلب تمام الانصاف . ومثل هذا يزداد بالنكاح فسادا من هذا الوجه لامحالة ، فالوحدة أسلم له .

الآفة الثالثة : وهي دون الاولى والثانية ، أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للاولاد ، بكثرة جمع المال وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم . وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشؤم على صاحبه ، ولست أعني بهذا أن يدعو إلى محظور ، فان ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية ، بل أن يدعوه إلى التنعم بالمباح ، بل الاغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والامعان في التمتع بهن ، ويثور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس ، تستغرق القلب ، فينقضي الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيهما للتفكر في الآخرة والاستعداد لها . ولذلك قال

(١) التحريم : ٦

إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، من تعود أفخاذ النساء لم يجيء منه شيء . وقال أبو سليمان رحمه الله ، من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا . أي يدعوه ذلك إلى الركون إلى الدنيا

فهذه مجامع الآفات والفوائد

فالحكم على شخص واحد بأن الافضل له النكاح أو العزوبة مطلقا قصور عن الاحاطة بمجامع هذه الامور ، بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرا ومحكا ، ويعرض المريد عليه نفسه فان انتفت فى حقه الآفات ، واجتمعت الفوائد بان كان له مال حلال ، وخلق حسن ، وجدّ فى الدين تام ، لا يشغله النكاح عن الله وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يمارى فى أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعى فى تحصيل الولد . فان انتفت الفوائد ، واجتمعت الآفات ، فالعزوبه أفضل له . وان تقابل الامران وهو الغالب ، فينبغى أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة فى الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات فى النقصان منه ، فاذا غلب على الظن رجحان أحدهما ، حكم به . وأظهر الفوائد الولد ، وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات الحاجة الى كسب الحرام والاشتغال عن الله ، فلنفرض تقابل هذه الامور فنقول

من لم يكن فى أذية من الشهوة ، وكانت فائدة نكاحه فى السعى لتحصيل الولد ، وكانت الآفة الحاجة الى كسب الحرام والاشتغال عن الله ، فالعزوبة له أولى . فلا خير فيما يشغل عن الله ، ولا خير فى كسب الحرام : ولا يفى بنقصان هذين الامرين أمر الولد ، فان النكاح للولد سعى فى طلب حياة للولد موهومة ، وهذا نقصان فى الدين ناجز . فحفظه لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعى فى الولد ، وذلك ربح ، والدين رأس مال ، وفي فساد الدين بطلان الحياة الاخروية ، وذهاب رأس المال . ولا تقاوم هذه الفائدة احدى هاتين الآفتين . وأما اذا انضاف الى أمر الولد حاجة كسر الشهوة ، لتوقان النفس إلى النكاح ، نظر ، فان لم يقو لجام التقوى فى رأسه ، وخاف على نفسه الزنا ، فالنكاح له أولى . لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا ، أو يأكل الحرام ، والكسب الحرام أهون الشرين . وان كان يثق بنفسه أنه لا يزنى ، ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام ، فترك النكاح أولى لأن النظر حرام ، والكسب من غير وجهه حرام ، والكسب يقع دائما ، وفيه عصيانه وعصيان أهله

والنظر يقع أحيانا ، وهو يخصه ، وينصرم على قرب . والنظر زنا العين ولكن اذا لم يصدقه الفرج فهو إلى العفو أقرب من أكل الحرام ، الا أن يخاف افضاء النظر الى معصية الفرج ؛ فيرجع ذلك الى خوف العنت . واذا ثبت هذا فالحالة الثالثة وهو أن يقوى على غض البصر ، ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب أولى بترك النكاح لأن عمل القلب الى العفو أقرب ، وانما يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله واطعامه

فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ، ويحكم بحسبها : ومن أحاط بهذا لم يشكل عليه شيء مما نقلنا عن السلف من ترغيب في النكاح مرة ، ورغبة عنه أخرى ، اذ ذلك بحسب الأحوال صحيح .

فان قلت .فمن أمن الآفات فما الأفضل له التخلي لعبادة الله أو النكاح ؟

فأقول يجمع بينهما ، لان النكاح ليس مانعا من التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد ، ولكن من حيث الحاجة الى الكسب . فان قدر على الكسب الحلال ، فالنكاح أيضا أفضل ، لأن الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة ، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن فان فرض كونه مستغرقا للاوقات بالكسب ، حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة ، فان كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة الا بالصلاة النافلة ، أو الحج وما يجري مجراه من الأعمال البدنية ، فالنكاح له أفضل ، لان في كسب الحلال والقيام بالأهل ، والسعي في تحصيل الولد ، والصبر على أخلاق النساء ، أنواعا من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات . وان كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن ، والكسب يشوش عليه ذلك ، فترك النكاح أفضل .

فان قلت . فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله ، وان كان الأفضل التخلي لعبادة الله فلم استكثر رسولنا صلى الله عليه وسلم من الأزواج ؟ فاعلم ان الافضل الجمع بينهما في حق من قدر ، ومن قويت منته ، وعلت همته ، فلا يشغله عن الله شاغل . ورسولنا عليه

السلام أخذ بالقوة ، وجمع بين فضل العبادة والنكاح ، ولقد كان مع [١] تسع من النسوة متخليا لعبادة الله ، وكان قضاء الوطر بالنكاح فى حقه غير مانع ، كما لا يكون قضاء الحاجة فى حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعا لهم عن التدبير ، حتى يشتغلون فى الظاهر بقضاء الحاجة ، وقلوبهم مشغوفة بهممهم ، غير غافلة عن مهماتهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلو درجته ، لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى [٢] فكان ينزل عليه الوحى وهو فى فراش امرأته ، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره ، فلا يبعد أن يغير السواقى مالا يغير البحر الخضم ، فلا ينبغى أن يقاس عليه غيره .

وأما عيسى صلى الله عليه وسلم فانه أخذ بالحزم لا بالقوة ، واحتاط لنفسه ، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يتعذر معها طلب الحلال ، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلى للعبادة فآثر التخلى للعبادة . وهم أعلم بأسرار أحوالهم ، وأحكام أعصارهم ، فى طيب المكاسب وأخلاق النساء ، وما على الناكح من غوائل النكاح ، وما له فيه ، ومهما كانت الأحوال منقسمة ، حتى يكون النكاح فى بعضها أفضل ، وتركه فى بعضها أفضل فحقنا أن ننزل أفعال الأنبياء على الأفضل فى كل حال ، والله أعلم .

الباب الثانى

فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

العقد

أما العقد فأركانه وشروطه لينعقد ويفيد الحل أربعة :

الأول : إذن الولى ، فان لم يكن فالسلطان .

الثانى : رضا المرأة إن كانت ثيبا بالغا ، أو كانت بكرا بالغا ، ولكن يزوجها غير الأب والجد .

---

(١) حديث جمعه صلى الله عليه وسلم بين تسع نسوة . خ . من حديث أنس ، وله من حديثه أيضا ، وهن احدى عشرة
(٢) حديث : كان ينزل عليه الوحى وهو فى فراش امرأته . خ . من حديث أنس . يا أم سلمة لا تؤذينى فى عائشة ، فانه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها .

﴿ الباب الثانى فيما يراعى حالة العقد ﴾

الثالث: حضور شاهدين ظاهرى العدالة ، فان كانا مستورين حكمنا بالانعقاد للحاجة .

الرابع: إيجاب وقبول متصل به ، بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة ، سواء كان هو الزوج أو الولى أو وكيلهما .

وأما آدابه ، فتقديم الخطبة مع الولى ، لافى حال عدة المرأة ، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة ، ولا فى حال سبق غيره بالخطبة ، إذ نهى عن الخطبة على الخطبة [١]

ومن آدابه الخطبة قبل النكاح ، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول ، فيقول المزوج : الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، زوجتك ابنتى فلانة . ويقول الزوج : الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، قبلت نكاحها على هذا الصداق . وليكن الصداق معلوما خفيفا . والتحميد قبل الخطبة أيضا مستحب

ومن آدابه أن يلقى أمر الزوج إلى سمع الزوجة ، وإن كانت بكرا . فذلك أحرى وأولى بالألفة ، ولذلك يستحب النظر اليها قبل النكاح ، فانه أحرى أن يؤدم بينهما .

ومن الآداب إحضار جمع من أهل الصلاح ، زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة

ومنها أن ينوى بالنكاح إقامة السنة ، وغض البصر ، وطلب الولد ، وسائر الفوائد التى ذكرناها . ولا يكون قصده مجرد الهوى والتمتع ، فيصير عمله من أعمال الدنيا . ولا يمنع ذلك هذه النيات ، فرب حق يوافق الهوى . قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إذا وافق الحق الهوى فهو الزبد بالنرسيان . لا يستحيل أن يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعثا معا . ويستحب أن يعقد فى المسجد ، وفى شهر شوال . قالت عائشة رضى الله عنها [٢] تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال ، وبنى بى فى شوال .

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان أحدهما للحل ، والثانى لطيب المعيشة وحصول المقاصد.

النوع الأول. ما يعتبر فيها للحل. وهو أن تكون خلية عن موانع النكاح. والموانع تسعة عشر

---

(١) حديث : النهى عن الخطبة على الخطبة ، متفق عليه ، من حديث ابن عمر : ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله ، أو يأذن له

(٢) حديث عائشة : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال ، وبنى بى فى شوال ، رواه م

الأول : أن تكون منكوحة للغير.

الثاني : أن تكون معتدة للغير ، سواء كانت عدة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة . أو كانت في استبراء وطء عن ملك يمين.

الثالث : أن تكون مرتدة عن الدين ، لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر .

الرابع : أن تكون مجوسية

الخامس : أن تكون وثنية أو زنديقة ، لاتنسب إلى نبي وكتاب . ومنهن المعتقدات لمذهب الاباحة ، فلا يحل نكاحهن . وكذلك كل معتقدة مذهبا فاسدا يحكم بكفر معتقده

السادس : أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل ، أو بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فليست من نسب بنى اسرائيل . فاذا عدمت كلتا الخصلتين، لم يحل نكاحها . وإن عدمت النسب فقط ، ففيه خلاف .

السابع : أن تكون رقيقة ، والناكح حرا قادرا على طول الحرة ، أو غير خائف من العنت

الثامن : أن تكون كلها أو بعضها مملوكا للناكح ملك يمين

التاسع : أن تكون قريبة للزوج ، بان تكون من أصوله ، أو فصوله ، أو فصول أول أصوله ، أو من أول فصل من كل أصل بعده أصل . وأعني بالأصول الامهات والجدات ، وبفصوله الأولاد والأحفاد ، وبفصول أول أصوله الإخوة وأولادهم ، وبأول فصل من كل أصل بعده أصل العمات والخالات دون أولادهن .

العاشر : أن تكون محرمة بالرضاع . ويحرم من الرضاع مايحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق ، ولكن المحرم خمس رضعات ، وما دون ذلك لايحرم

الحادي عشر : المحرم بالمصاهرة ، وهو أن يكون الناكح قد نكح ابنتها أو جدتها ، أو ملك بعقد أو شبهة عقد من قبل ، أو وطئهن بالشبهة فى عقد ، أو وطىء أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد ، فمجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها ، ولا يحرم فروعها إلا بالوطء . أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل

الثاني عشر : أن تكون المنكوحة خامسة ، أى يكون تحت الناكح أربع سواها ، إما في نفس النكاح أو في عدة بينونة لم تمنع الخامسة

الثالث عشر : أن يكون تحت الناكح أختها ، أو عمتها أو خالتها ، فيكون بالنكاح جامعا بينهما . وكل شخصين بينهما قرابة ، لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى لم يجز بينهما النكاح ، فلا يجوز أن يجمع بينهما

الرابع عشر : أن يكون هذا الناكح قد طلقها ثلاثا ، فهى لا تحل له مالم يطأها زوج غيره فى نكاح صحيح

الخامس عشر : أن يكون الناكح قد لاعنها ، فانها تحرم عليه أبدا بعد اللعان

السادس عشر : أن تكون محرمة بحج أو عمرة ، أو كان الزوج كذلك ، فلا ينعقد النكاح إلا بعد تمام التحلل

السابع عشر أن تكون ثيبا صغيرة ، فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ

الثامن عشر : أن تكون يتيمة ، فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ

التاسع عشر : أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممن توفى عنها أو دخل بها ، فإنهن أمهات المؤمنين . وذلك لا يوجد فى زماننا

فهذه هى الموانع المحرمة

أما الخصال المطيبة للعيش ، التى لابد من مراعاتها فى المرأة ليدوم العقد ، وتتوفر مقاصده ، ثمانية : الدين ، والخلق ، والحسن ، وخفة المهر ، والولادة ، والبكارة ، والنسب وأن لا تكون قرابة قريبة .

الأولى : أن تكون صالحة ذات دين ، فهذا هو الأصل ، وبه ينبغى أن يقع الاعتناء. فانها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها وفرجها ، أزرت بزوجها ، وسودت بين الناس وجهه ، وشوشت بالغيرة قلبه ، وتنغص بذلك عيشه . فان سلك سبيل الحمية والغيرة ، لم يزل فى بلاء ومحنة . وإن سلك سبيل التساهل ، كان متهاونا بدينه وعرضه ، ومنسوبا إلى قلة الحمية والانفة . وإذا كانت مع الفساد جميلة ، كان بلاؤها أشد ، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ، ولا يصبر عليها ، ويكون كالذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]

---

(١) حديث : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان لى امرأة لا ترد يد لامس قال طلقها ـ الحديث د ن من حديث ابن عباس قال ن ليس بثابت والمرسل أولى بالصواب وقال أحمد حديث منكر وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات

وقال «يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي امْرَأَةً لَاتَرُدُّ يَدَ لَامِسٍ ، قَالَ طَلِّقْهَا . فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّهَا قَالَ أَمْسِكْهَا » وإنما أمره بامساكها ، خوفا عليه بانه إذا طلقها أتبعها نفسه ، وفسد هو أيضا معها فرأى ما في دوام نكاحه من دفع الفساد عنه مع ضيق قلبه أولى

وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله ، أو بوجه آخر . لم يزل العيش مشوشا معه . فإن سكت ولم ينكره ، كان شريكا في المعصية. مخالفا لقوله تعالى (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا[1]) وان أنكر وخاصم ، تنغص العمر. ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحريض على ذات الدين، فقال[1] « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِمَالِهَا وَجَمَالِهَا وحَسَبِهَا وَدِينِهَا ، فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » وفي حديث آخر[2] « مَنْ نَكَحَ الْمَرْأَةَ لِمَالِهَا وَجَمَالِهَا حُرِمَ جَمَالَهَا وَمَالَهَا وَمَنْ نَكَحَهَا لِدِينِهَا رَزَقَهُ اللهُ مَالَهَا وَجَمَالَهَا » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « لَاتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِجَمَالِهَا فَلَعَلَّ جَمَالَهَا يُرْدِيهَا وَلَا لِمَالِهَا فَلَعَلَّ مَالَهَا يُطْغِيهَا وَانْكِحِ الْمَرْأَةَ لِدِينِهَا »

وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عونا على الدين . فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له .

الثانية : حسن الخلق . وذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين ، فانها اذا كانت سليطة بذية اللسان ، سيئة الخلق كافرة للنعم ، كان الضرر منها أكثر من النفع والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء ، قال بعض العرب ، لاتنكحوا من النساء ستة : لاأنانة ولامنانة ، ولاحنانة ، ولاتنكحوا حداقة ، ولابراقة ولاشداقة . أما الأنانة ، فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة. فنكاح المراضة أو نكاح المتمارضة لاخير فيه . والمنانة التي تمن على زوجها فتقول فعلت لأجلك كذا وكذا . والحنانة التي تحن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر ، وهذا أيضا مما يجب اجتنابه ، والحداقة التي ترمي

---

(١) حديث : تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فعليك بذات الدين: متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث : من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها ـ الحديث: الطبراني في الاوسط من حديث أنس من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الا ذلا ومن تزوجها لمالها لم يزده الله الا فقراً ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ومن تزوج امرأة لم يرد بها الا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه ورواه حب في الضعفاء .

(٣) حديث : لاتنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها: ه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف ،

---

(١) التحريم : ٦.

إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه ، وتكلف الزوج شراءه . والبراقة تحتمل معنيين ، أحدهما أن تكون طول النهار فى تصقيل وجهها وتزيينه ، ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع ، والثانى أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها ، وتستقل نصيبها من كل شيء ، وهذه لغة يمانية ، يقولون برقت المرأة ، وبرق الصبي الطعام ، إذا غضب عنده : والشداقة المتشدقة الكثيرة الكلام . ومنه قوله عليه السلام [1] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْغَضُ الثَّرْثَارِينَ الْمُتَشَدِّقِينَ »

وحكى ان السائح الأزدى لقى الياس عليه السلام فى سياحتة فأمره بالتزويج ونهاه عن التبتل . ثم قال ، لاتنكح أربعا : المختلعة ، والمبارية ، والعاهرة ، والناشز . فأما المختلعة ، فهى التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب . والمبارية المباهية بغيرها ، المفاخرة بأسباب الدنيا . والعاهرة الفاسقة التى تعرف بخليل وخدن ؛ وهى التي قال الله تعالى « وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ [1] » والناشز التى تعلو على زوجها بالفعال والمقال . والنشز العالى من الأرض

وكان على رضى الله عنه يقول : شر خصال الرجال خير خصال النساء ، البخل ، والزهو ، والجبن . فان المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها . وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب . وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة ، خيفة من زوجها

فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الاخلاق المطلوبة فى النكاح

الثالثة : حسن الوجه . فذلك أيضا مطلوب ، إذ به يحصل التحصن . والطبع لا يكتفى بالدميمة غالبا ؛ كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان . وما نقلناه من الحث على الدين وان المرأة لا تنكح لجمالها ، ليس زجرا عن رعاية الجمال . بل هو زجر عن النكاح لاجل الجمال المحض مع الفساد فى الدين . فان الجمال وحده فى غالب الامر يرغب فى النكاح ، ويهون أمر الدين . ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال ، ان الالف والمودة تحصل به غالبا ، وقد ندب

---

(١) حديث : ان الله يبغض الثرثارين المتشدقين : ت وحسنه من حديث جابر وأن ابغضكم الى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون ولأبى داود والترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو ان الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها

(١) النساء : ٢٥

الشرع إلى مراعاة أسباب الالفة ، ولذلك استحب النظر . فقال (١) « إِذَا أَوْقَعَ اللهُ فِي نَفْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ امْرَأَةٍ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا » أى يؤلف بينهما ، من وقوع الأدمة على الأدمة ، وهى الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة . وانما ذكر ذلك للمبالغة فى الائتلاف

وقال عليه السلام (٢) « إِنَّ فِي أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شَيْئاً فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْهُنَّ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِنَّ » قيل كان فى اعينهن عمش . وقيل صغر

وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم الا بعد النظر ، احترازا من الغرور ، وقال الأعمش كل تزويج يقع على غير نظر فآخره همّ وغم : ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال وانما يعرف الجمال من القبح

وروى أن رجلا تزوج على عهد عمر رضى الله عنه ، وكان قد خضب ، فنصل خضابه ، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر ، وقالوا حسبناه شابا فأوجعه عمر ضربا . وقال غررت القوم وروى أن بلالا وصهيبا أتيا أهل بيت من العرب ، فخطبا اليهم ، فقيل لهما من أنتما ؟ فقال بلال أنا بلال ، وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله . فان تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسبحان الله . فقالوا بل تزوجان ، والحمد لله . فقال صهيب لبلال ، لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اسكت ، فقد صدقت فأنكحك الصدق

والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعا ، فيستحب إزالة الغرور فى الجمال بالنظر ، وفى الخلق بالوصف والاستيصاف . فينبغى أن يقدم ذلك على النكاح ، ولا يستوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق ، خبير بالظاهر والباطن ، ولا يميل إليها فيفرط فى الثناء ،

---

(١) حديث : اذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينهما : ابن ماجه بسند ضعيف من حديث محمد بن مسلمة دون قوله فانه أحرى وللترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما

(٢) حديث : إن فى أعين الانصار شيئا فاذا أراد احدكم أن يتزوج منهن فلينظر اليهن : مسلم من حديث أبى هريرة نحوه

ولا يحسدها فيقصر . فالطباع مائلة فى مبادى النكاح ، ووصف المنكوحات إلى الافراط والتفريط ، وقل من يصدق فيه ويقتصد ، بل الخداع والاغراء أغلب ، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوف إلى غير زوجته

فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة ، أو الولد ، أو تدبير المنزل ، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب . لأنه على الجملة باب من الدنيا . وإن كان قد يعين على الدين فى حق بعض الأشخاص . قال أبو سليمان الدارانى : الزهد فى كل شىء حتى فى المرأة ، يتزوج الرجلُ العجوزَ إيثارا للزهد فى الدنيا . وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول ، يترك أحدكم أن يتزوّج يتيمة فيؤجر فيها ، إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير ، ويتزوج بنت فلان وفلان ، يعنى أبناء الدنيا ، فتشتهى عليه الشهوات ، وتقول اكسنى كذا وكذا واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل مَن أعقلُهما ؟ فقيل العوراء ، فقال زوجونى إياها . فهذا دأب من لم يقصد التمتع

فأما من لا يأمن على دينه مالم يكن له مستمتع ، فليطلب الجمال . فالتلذذ بالمباح حصن للدين . وقد قيل إذا كانت المرأة حسناء ، خيرة الأخلاق ، سوداء الحدقة والشعر ، كبيرة العين ، بيضاء اللون ، محبة لزوجها ، قاصرة الطرف عليه ، فهى على صورة الحور العين فان الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة في قوله (خَيرَاتٌ حِسَانٌ[1]) أراد بالخيرات حسنات الأخلاق ، وفى قوله (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ[2]) وفى قوله (عُرُبًا أَتْرَابًا[3]) العروب هى العاشقة لزوجها ، المشتهية للوقاع ، وبه تتم اللذة والحورُ البياض ، والحوراء شديدة بياض العين شديدة سوادها فى سواد الشعر . والعيناء الواسعة العين . وقال عليه السلام[1] « خَيْرُ نِسَائِكُمْ . مَنْ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا زَوْجُهَا سَرَّتْهُ ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا » وَمَالِهِ وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج

الرابعة : أن تكون خفيفة المهر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] خَيْرُ النِّسَاء

(١) حديث : خير نسائكم التي اذا نظر اليها زوجها سرته وأن أمرها اطاعته واذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله النسائى من حديث أبى هريرة نحوه بسند صحيح وقال ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها وعند احمد فى نفسها وماله ولأبى داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح

(٢) حديث : خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهوراً ابن حبان من حديث ابن عباس خيرهن

(١) الرحمن : ٧٠ (٢) الرحمن : ٥٦ (٣) الواقعة : ٣٧

أَحْسَنُهُنَّ وُجُوهاً وَأَرْخَصُهُنَّ مُهُورًا » وقد نهى [١] عن المغالاة فى المهر؛ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت ، وكان رحى يد ، وجرة ، ووسادة من أدم حشوها ليف . [٣] وأولم على بعض نسائه بمُدين من شعير . وعلى أخرى بمدين من تمر ، ومدين من سويق [٤]

وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة فى الصداق ، ويقول ماتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] ولازوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم .

ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرُمة ، لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] على نواة من ذهب ، يقال قيمتها خمسة دراهم . وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أبى هريرة رضى الله عنه على درهمين ، ثم

أيسرهن صداقا وله من حديث عائشة من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها وروى أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الاهلين أن اعظم النساء بركة اصبحهن وجوها واقلهن مهراً وصححه

(١) حديث : النهى عن المغالاة فى المهر اصحاب السنن الاربعة موقوفا على عمر وصححه الترمذى

(٢) حديث : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحى يدوجرة ووسادة من أدم حشوها ليف أبو داود الطيالسى والبزار من حديث أنس تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم قال البزار ورأيته فى موضع آخر تزوجها على متاع بيت ورحى قيمته أربعون درهما ورواه الطبرانى فى الاوسط من حديث أبى سعيد وكلاهما ضعيف ولأحمد من حديث على لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين ورواه الحاكم وصحح اسناده وابن حبان مختصراً .

(٣) حديث : أولم على بعض نسائه بمدين من شعير البخاري من حديث عائشة

(٤) حديث : وأولم على أخرى بمدى تمر ومدى سويق الاربعة من حديث أنس أولم على صفية بسويق وتمر ولمسلم فجعل الرجل يجىء بفضل التمر وفضل السويق وفى الصحيحين التمر والأقط والسمن وليس فى شىء من الأصول تقييد التمر والسويق بمدين

(٥) حديث : كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولازوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم الاربعة من حديث عمر قال الترمذى حسن صحيح

(٦) حديث : تزوج بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم متفق عليه من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقويمها بخمسة دراهم رواه البيهقى

حملها هو إليه ليلا ، فأدخلها هو من الباب ، ثم انصرف ، ثم جاءها بعد سبعة أيام ، فسلم عليها

ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج عن خلاف العلماء فلا بأس به. وفى الخبر[١] « مِنْ بَرَكَةِ الْمَرْأَةِ سُرْعَةُ تَزْوِيجِهَا وَسُرْعَةُ رَحِمِهَا ،أي الوِلَادَةُ ، وَيُسْرُ مَهْرِهَا » وقال أيضا[٢] « أَبْرَكُهُنَّ أَقَلُّهُنَّ مَهْراً »

وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة ، فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل . ولا ينبغى أن ينكح طمعا فى المال . قال الثورى : إذا تزوج وقال أى شىء للمرأة فاعلم أنه لص

وإذا أهدى اليهم فلا ينبغى أن يهدى ليضطرهم الى المقابلة بأكثر منه . وكذلك اذا أهدوا اليه ، فنية طلب الزيادة نية فاسدة فأما التهادى فمستحب ، وهو سبب المودة. قال عليه السلام[٣] « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » وأما طلب الزيادة فداخل فى قوله تعالى(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ[١])أى تعطى لتطلب أكثر . وتحت قوله تعالى (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ[٢])فان الربا هو الزيادة . وهذا طلب زيادة على الجملة . وان لم يكن فى الأموال الربوية .فكل ذلك مكروه وبدعة فى النكاح ، يشبه التجارة والقمار ، ويفسد مقاصد النكاح

الخامسة:أن تكون المرأة ولودا فان عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها. قال عليه السلام[٤] « عَلَيْكُمْ بِالْوَلُودِ الْوَدُودِ »فان لم يكن لها زوج ،ولم يعرف حالها،فيراعى صحتها وشبابها فانها تكون ولودا فى الغالب مع هذين الوصفين

---

(١) حديث : من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها أى الولادة وتيسير مهرها أحمد والبيهقى من حديث عائشة من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها وان يتيسر صداقها وان يتيسر رحمها قال عروة يعنى الولادة واسناده جيد

(٢) حديث : أبركهن أقلهن مهراً أبو عمر التوقانى فى معاشرة الأهلين من حديث عائشة ان أعظم النساء بركة صبحهن وجوها وأقلهن مهراً وقد تقدم ولأحمد والبيهقى أن اعظم النساء بركة أيسرهن صداقا واسناده جيد

(٣) حديث : تهادوا تحابوا البخارى فى كتاب الأدب المفرد والبيهقى من حديث أبى هريرة بسند جيد

(٤) حديث : عليكم بالودود الولود أبو داود والنسائى من حديث معقل بن يسار تزوجوا الودود الولود واسناده صحيح

---

(١) المدثر : ٦ (٢) الروم : ٣٩

السادسة : أن تكون بكرا . قال عليه السلام لجابر وقد نكح ثيبا[١] « هَلاَّ بِكْرًا تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ »

وفى البكارة ثلاث فوائد

احداها : أن تحب الزوج وتألفه ، فيؤثر فى معنى الود : وقد قال صلى الله عليه وسلم « عَلَيْكُمْ بِالْوَدُودِ » والطباع مجبولة على الانس بأول مألوف . وأما التى اختبرت الرجال وما رست الاحوال ، فربما لاترضى بعض الاوصاف التى تخالف ماألفته ، فتقلى الزوج

الثانية :أن ذلك أكمل فى مودته لها ، فان الطبع ينفر عن التى مسها غير الزوج نفرة ما وذلك يثقل على الطبع مهما يذكر . وبعض الطباع فى هذا أشد نفورا

الثالثة :انها لاتحن الى الزوج الاول ، وآكد الحب مايقع مع الحبيب الاول غالبا

السابعة : أن تكون نسيبة . أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح .فانها ستربى بناتها وبنيها ، فاذا لم تكن مؤدبة ، لم تحسن التأديب والتربية . ولذلك قال عليه السلام[٢] « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ »فقيل ما خضراء الدمن قال« الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ » وقال عليه السلام[٣] « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ نَزَّاعٌ »

الثامنة : أن لاتكون من القرابة القريبة .فان ذلك يقلل الشهوة .قال صلى الله عليه وسلم[٤] « لاَ تَنْكِحُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ فَإِنَّ الْوَلَدَ يُخْلَقُ ضَاوِيًا »أى نحيفا.وذلك لتأثيره فى تضعيف

---

(١) حديث : قال لجابر وقد نكح ثيبا هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك متفق عليه من حديث جابر

(٢) حديث : اياكم وخضراء الدمن فقيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء الدار قطنى فى الافراد والرامهرمزى فى الأمثال من حديث أبى سعيد الخدرى قال الدار قطنى تفرد به الواقدى وهو ضعيف

(٣) حديث : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس ابن ماجه من حديث عائشة مختصرا دون قوله فان العرق وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس تزوجوا فى الحجر الصالح فان العرق دساس وروى أبو موسى المدينى فى كتاب تضييع العمر والايام من حديث ابن عمر وانظر فى أى نصاب تضع ولدك فان العرق دساس وكلاهما ضعيف

(٤) حديث : لاتنكحوا القرابة فان الولد يخلق ضاويا قال ابن الصلاح لم أجد له أصلا معتمدا . قلت انما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا فى النوابغ رواه ابراهيم الحربى فى غريب الحديث وقال معناه تزوجوا الغرائب قال ويقال اغربوا ولا تضووا

الشهوة . فان الشهوة انما تنبعث بقوة الاحساس بالنظر واللمس ، وانما يقوى الاحساس بالامر الغريب الجديد. فأما المعهود الذى دام النظر اليه مدة ، فانه يضعف الحس عن تمام ادراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة

فهذه هى الخصال المرغبة فى النساء

ويجب على الولى أيضا أن يراعى خصال الزوج ، ولينظر لكريمته فلا يزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه أو ضعف دينه ، أو قصر عن القيام بحقها ، أو كان لا يكافئها فى نسبها . قال عليه السلام (١) «النِّكَاحُ رِقٌّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ أَيْنَ يَضَعُ كَرِيمَتَهُ» والاحتياط فى حقها أهم ، لأنها رقيقة بالنكاح لا مخلص لها ، والزوج قادر على الطلاق بكل حال . ومهما زوج ابنته ظالما ، أو فاسقا ، أو مبتدعا ، أو شارب خمر ، فقد جنى على دينه ، وتعرض لسخط الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . وقال رجل للحسن قد خطب ابنتى جماعة ، فممن أزوجها ؟ قال ممن يتقى الله ، فان أحبها أكرمها ، وان أبغضها لم يظلمها . وقال عليه السلام (٢) «مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ فَاسِقٍ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا»

الباب الثالث

فى آداب المعاشرة وما يجرى فى دوام النكاح

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والأدب فى اثنى عشر أمرا: فى الوليمة، والمعاشرة، والدعابة، والسياسة والغيرة، والنفقة، والتعليم والقسم، والتأديب فى النشوز ، والوقاع ، والولادة، والمفارقة بالطلاق.

الأدب الأول: الوليمة وهى مستحبة: قال أنس رضى الله عنه «رَأَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه

---

(١) حديث : النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته رواه أبو عمر التوقانى فى معاشرة الاهلين موقوفا على عائشة وأسماء ابنتى أبى بكر . قال البيهقي وروى ذلك مرفوعا والموقوف أصح

(٢) حديث : من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها ابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس ورواه فى الثقات من قول الشعبي باسناد صحيح

وسلم (١) عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَثَرَ صُفْرَةٍ فَقَالَ مَاهَذَا ؟ فَقَالَ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ بَارَكَ اللهُ لَكَ . أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ » وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) على صفية بتمر وسويق ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « طَعَامُ أَوَّلِ يَوْمٍ حَقٌّ وَطَعَامُ الثَّانِي سُنَّةٌ ، وَطَعَامُ الثَّالِثِ سُمْعَةٌ وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ » ولم يرفعه الازياد ابن عبد الله ، وهو غريب

وتستحب تهنئته ، فيقول من دخل على الزوج: بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك (٤)

ويستحب اظهار النكاح ، قال عليه السلام (٥) فَصْلُ مَابَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ الدُّفُّ وَالصَّوْتُ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) « أَعْلِنُوا هَذَا النِّكَاحَ وَاجْعَلُوهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالدُّفُوفِ » وعن الربيع بنت معوذ قالت ، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) فدخل على غداة بنى بى ، فجلس على فراشى، وجويرات لنا يضربن بدفهن، ويندبن من قتل من آبائى الى أن قالت إحداهن * وفينا نبى يعلم مافى غد * فقال لها « اسْكُتِي عَنْ هَذِهِ وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ قَبْلَهَا »

الأدب الثانى : حسن الخلق معهن ، واحتمال الأذى منهن ، ترحما عليهن لقصور عقلهن قال الله تعالى (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (١)) وقال فى تعظيم حقهن (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (٢)) وقال (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (٣)) قيل هى المرأة. وآخر ماوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أنس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال ما هذا قال تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب فقال بارك الله لك أولم ولو بشاة متفق عليه

(٢) : حديث أولم على صفية بسويق وتمر الاربعة من حديث أنس ولمسلم نحوه وقد تقدم

(٣) حديث : طعام أول يوم حق وطعام الثانى سنة وطعام الثالث سمعة ومن سمع سمع الله به قال المصنف لم يرفعه الازياد بن عبد الله قلت هكذا قال الترمذى بعد ان اخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه

(٤) حديث أبى هريرة فى تهنئة الزوج بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما ـ فى خير أبو داود والترمذى وصححه ابن ماجه وتقدم فى الدعوات

(٥) حديث فصل مابين الحلال والحرام الدف والصوت الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب

(٦) حديث أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدف الترمذى من حديث عائشة وحسنه وضعفه البيهقى

(٧) حديث : الربيع بنت معوذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على غداة بنى بى فجلس على فراشى وجويريات لنا يضربن بدفوفهن الحديث رواه البخارى وقال يوم بدر وقع فى بعض نسخ الاحياء يوم بعاث وهو وهم

(١) النساء : ١٩ (٢) النساء : ٢١ (٣) النساء : ٣٦

(١) ثلاث ، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه ، وخفى كلامه ،جعل يقول « الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ ،وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ لاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَالاَ يُطِيقُونَ، اللهَ اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ فِي أَيْدِيكُمْ يعنى أسراء؛ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ » وقال عليه السلام (٢) « مَنْ صَبَرَ عَلَى سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا أَعْطَى أَيُّوبَ عَلَى بَلاَئِهِ وَمَنْ صَبَرَتْ عَلَى سُوءِ خُلُقِ زَوْجِهَا أَعْطَاهَا اللهُ مِثْلَ ثَوَابِ آسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ »

واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الاذى منها ، والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن يوما الى الليل (٤) وراجعت امرأة عمر رضى الله عنه عمر فى الكلام فقال أتراجعيني يالكعاء ؟ فقالت ان أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك . فقال عمر: خابت حفصة وخسرت ان راجعته . ثم قال لحفصة لاتغترى بابنة ابن أبى قحافة فانها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وخوفها من المراجعة ، وروى أنه دفعت احداهن فى صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) فزبرتها أمها فقال عليه السلام « دَعِيهَا

---

(١) حديث : آخر ما أوصي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه جعل يقول الصلاة وما ملكت أيمانكم لاتكلفوهم مالا يطيقون الله فى النساء فانهن عوان عندكم ـ الحديث النسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى الموت جعل يقول الصلاة وما ملكت أيمانكم فمازال يقولها ومايقبض بها لسانه وأما الوصية بالنساء فالمعروف ان ذلك كان فى حجة الوداع رواه مسلم فى حديث جابر الطويل وفيه فاتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله ـ الحديث

(٢) حديث : من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ـ الحديث لم أقف له على أصل

(٣) حديث : كان أزواجه صلى الله عليه وسلم يراجعنه وتهجره الواحدة منهن يوما الي الليل ـ الحديث متفق عليه من حديث عمر فى الحديث الطويل فى قوله تعالى ـ فان تظاهرا عليه ـ

(٤) حديث : وراجعت امرأة عمر عمر فى الكلام فقال أتراجعينى يا لكعاء قالت أن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك ـ الحديث هو الحديث الذى قبله وليس فيه قوله يالكعاء ولاقولها هو خير منك

(٥) حديث : دفعت احداهن فى صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها فقال صلى الله عليه وسلم دعيها فانهن يصنعن أكثر من ذلك لم أقف له على أصل

فَإِنَّهُنَّ يَصْنَعْنَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ »(١) وجرى بينه وبين عائشة كلام ، حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكما ، واستشهده. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَكَلَّمِينَ أَوْ أَتَكَلَّمُ ؟ فقالت بل تكلم أنت ولا تقل الا حقا فلطمها أبو بكر حتى دمي فوها وقال ، ياعدية نفسها أو يقول غير الحق ؟ فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعدت خلف ظهره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لَمْ نَدْعُكَ لِهَذَا وَلَا أَرَدْنَا مِنْكَ هَذَا »(٢) وقالت له مرة في كلام غضبت عنده، أنت الذي تزعم انك نبي الله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكرما وكان يقول لها(٣) « إِنِّي لأَعْرِفُ غَضَبَكِ مِنْ رِضَاكِ » قالت وكيف تعرفه ؟ « قال إِذَا رَضِيتِ قُلْتِ لَا وَإِلَهِ مُحَمَّدٍ ، وَإِذَا غَضِبْتِ قُلْتِ لَا وَإِلَهِ إِبْرَاهِيمَ » قالت صدقت انما أهجر اسمك »(٤) ويقال ان أول حب وقع في الاسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها(٥) وكان يقول لها « كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ غَيْرَ أَنِّي لَا أُطَلِّقُكِ » وكان يقول لنسائه(٦) « لَا تُؤْذُونِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا » وقال أنس رضي الله عنه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم(٧) ارحم الناس بالنساء والصبيان

---

(١) حديث جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكما ـ الحديث : الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف

(٢) حديث قالت له عائشة مرة غضبت عنده وأنت الذي تزعم انك نبي فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة وفيه ابن اسحق وقد عنعنه

(٣) حديث كان يقول لعائشة انى لأعرف غضبك من رضاك ـ الحديث : متفق عليه في حديثها

(٤) حديث : أول حب وقع في الاسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم عائشة الشيخان من حديث عمرو بن العاص انه قال أي الناس أحب اليك يارسول الله قال عائشة ـ الحديث : وأما كونه أول فرواه ابن الجوزى في الموضوعات من حديث أنس ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر ان ابن الزبير أول مولود ولد في الاسلام يريد بالمدينة والا فمحبة النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة أمر معروف يشهد له الأحاديث الصحيحة

(٥) حديث كان يقول لعائشة كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أنى لا أطلقك متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثنا ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب

(٦) حديث لا تؤذونى في عائشة فانه والله ما أنزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها البخارى من حديث عائشة

(٧) حديث أنس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان مسلم بلفظ ما رايت احدا كان ارحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد على بن عبد العزيز والبغوى والصبيان

الثالث: أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة ، والمزح والملاعبة . فهي التي تطيب قلوب النساء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن ، وينزل الى درجات عقولهن في الاعمال والاخلاق ، حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم [1] كان يسابق عائشة في العدو ، فسبقته يوما ، وسبقها في بعض الأيام ، فقال عليه السلام هذه بتلك . وفي الخبر أنه كان صلى الله عليه وسلم [2] من أفكه الناس مع نسائه . وقالت عائشة رضي الله عنها [3] سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم ، وهم يلعبون في يوم عاشوراء . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَتُحِبِّينَ أَنْ تَرَى لَعِبَهُمْ » قالت قلت نعم . فأرسل اليهم فجاؤا وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ، فوضع كفه على الباب ، ومد يده، ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر . وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «حَسْبُكِ» ، وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا . ثم قال « يَاعَائِشَةُ حَسْبُكِ». فقلت نعم . فأشار اليهم فانصرفوا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ» وقال عليه السلام [5] « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِنِسَائِي » وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ، فاذا التمسوا ما عنده وجد رجلا . وقال لقمان رحمه الله : ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي، واذا كان في القوم وجد رجلا

(١) حديث مسابقته صلى الله عليه وسلم لعائشة فسبقته ثم سبقها وقال هذه بتلك :ابو داود والنسائى من الكبري وابن ماجه في حديث عائشة بسند صحيح

(٢) حديث كان من افكه الناس مع نسائه :الحسن بن سفيان في مسنده من حديث انس دون قوله مع نسائه ورواه البزار والطبرانى في الصغير والأوسط فقالا مع صبي وفى اسناده ابن لهيعة

(٣) حديث عائشة سمعت اصوات اناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتحبين ان ترى لعبهم ـ الحديث : متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء وانما قال يوم عيد ودون قولها اسكت وفى رواية للنسائى في الكبرى قلت لاتعجل مرتين وفيه فقال ياحميراء وسنده صحيح

(٤) حديث : اكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله الترمذى والنسائى واللفظ له والحاكم وقال رواته ثقات على شرط الشيخين

(٥) حديث : خياركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى الترمذى وصححه من حديث أبى هريرة دون قوله وأنا خيركم لنسائى وله من حديث عائشة وصححه خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم

وفى تفسير الخبر المروى [1] « إنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْجَعْظَرِىَّ الْجَوَّاظَ » قيل هو الشديد على أهله ، المتكبر فى نفسه وهو أحد ما قيل فى معنى قوله تعالى (عُتُلٍّ [1]) قيل العتل هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله. وقال عليه السلام لجابر [2] « هَلاَّ بِكْراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ » ووصفت اعرابية زوجها وقدمات فقالت: والله لقد كان ضحوكا اذا ولج، سكيتا اذا خرج آكلا ما وجد، غير مسائل عما فقد

الرابع : أن لا يتبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها ، الى حد يفسد خلقها ، ويسقط بالكلية هيبته عندها . بل يراعى الاعتدال فيه ، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً ، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبتة . بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض . قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله فى النار . وقال عمر رضى الله عنه : خالفوا النساء فان فى خلافهن البركة . وقد قيل شاوروهن وخالفوهن . وقد قال عليه السلام [3] « تَعِسَ عَبْدُ الزَّوْجَةِ » وإنما قال ذلك لأنه اذا أطاعها فى هواها فهو عبدها . وقد تعس فان الله ملكه المرأة فملكها نفسه ، فقد عكس الامر ، وقلب القضية ، وأطاع الشيطان لما قال (وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ [2]) اذحق الرجل أن يكون متبوعا لا تابعا . وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء ، وسمى الزوج سيدا ، فقال تعالى (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ [3]) فاذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله كفراً

ونفس المرأة على مثال نفسك ، ان أرسلت عنانها قليلا جمحت بك طويلا، وان أرخيت عذارها فتراً جذبتك ذراعا ، وان كبحتها وشددت يدك عليها فى محل الشدة ملكتها .

(١) حديث : ان الله يبغض الجعظرى الجواظ أبو بكر بن لال فى مكارم الاخلاق من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وهو فى الصحيحين من حديث حارثة ابن وهب الخزاعى بلفظ ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر ولأبى داود لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظرى

(٢) حديث : قال لجابر هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك متفق عليه من حديثه وقد تقدم

(٣) حديث : تعس عبد الزوجة لم أقف له على أصل والمعروف تعس عبد الدينار وعبد الدرهم الحديث رواه البخارى من حديث أبى هريرة

(١) القلم : ١٣ (٢) النساء : ١١٩ (٣) يوسف : ٢٥

قال الشافعي رضي الله عنه : ثلاثة ان أكرمتهم أهانوك ، وان أهنتهم أكرموك : المرأة ، والخادم ، والنبطي . أراد به أن محضت الاكرام ولم تمزج غلظك بلينك ، وفظاظتك برفقك

وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الازواج . وكانت المرأة تقول لابنتها ، اختبري زوجك قبل الاقدام والجراءة عليه ، انزعي زج رمحه ، فان سكت فقطعي اللحم على ترسه ، فان سكت فكسري العظام بسيفه ، فان سكت فاجعلي الاكاف على ظهره وامتطيه ، فانما هو حمارك

وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والارض . فكل ماجاوز حده انعكس على ضده . فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة ، وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن ، فان كيدهن عظيم ، وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق ، وركاكة العقل ، ولا يعتدل ذلك منهن الا بنوع لطف ممزوج بسياسة . وقال عليه السلام [١] « مَثَلُ المَرْأَةِ الصَّالِحَةِ فِي النِّسَاءِ كَمَثَلِ الغُرَابِ الأَعْصَمِ بَيْنَ مِائَةِ غُرَابٍ » والاعصم يعني الابيض البطن . وفي وصية لقمان لابنه : يابني اتق المرأة السوء فانها تشيبك قبل الشيب ، واتق شرار النساء فانهن لايدعون الى خير . وكن من خيارهن على حذر . وقال عليه السلام [٢] « اسْتَعِيذُوا مِنَ الْفَوَاقِرِ الثَّلَاثِ » وعدّ منهن المرأة السوء فانها المشيبة قبل الشيب . وفي لفظ آخر « إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا سَبَّتْكَ وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا خَانَتْكَ » وقد قال عليه السلام في خيرات النساء [٣] « إِنَّكُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ » يعني ان صرفكن أبا بكر عن التقدم في الصلاة ميل منكن عن الحق الى الهوى . قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث : مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الاعصم من مائة غراب الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولأحمد من حديث عمرو بن العاص كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران فاذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار فقال لايدخل الجنة من النساء الامثل هذا الغراب في هذه الغربان واسناده صحيح وهو في السنن الكبرى للنسائي

(٢) حديث : أستعيذوا من الفواقر الثلاث وعد منهن المرأة السوء فانها المشيبة قبل الشيب وفي لفظ آخر أن دخلت عليها لسنتك وان غبت عنها خانتك أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد ثلاث من الفواقر وذكر منها وامرأة ان حضرت آذتك وإن غبت عنها خانتك وسنده حسن

(٣) حديث : انكن صواحبات يوسف متفق عليه من حديث عائشة

(١) (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) أى مالت وقال ذلك فى خير أزواجه ، وقال عليه السلام (٢) « لَا يُفْلِحُ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ امْرَأَةٌ » وقد زبر عمر رضى الله عنه امرأته لما راجعته ، وقال ماأنت الا لعبة فى جانب البيت ، ان كانت لنا اليك حاجة. والا جلست كما أنت.

فاذن فيهن شر ، وفيهن ضعف ، فالسياسة والخشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف . فالطبيب الحاذق هو الذى يقدر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أوّلا الى أخلاقها بالتجربة ، ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها

الخامس : الاعتدال فى الغيرة . وهو أن لايتغافل عن مبادىء الامور التى تخشى غوائلها ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن . فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « ان تتبع عَوْرَاتُ النِّسَاءِ » وفى لفظ آخر « أَنْ تُبْغَتَ النِّسَاءِ » ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال (٤) قبل دخول المدينة « لَا تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلاً » فخالفه رجلان فسبقا ، فرأى كل واحد فى منزله ما يكره . وفى الخبر المشهور (٥) « الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ قَوَّمْتَهُ كَسَرْتَهُ فَدَعْهُ تَسْتَمْتِعْ بِهِ عَلَى عِوَجٍ » وهذا فى تهذيب أخلاقها وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ غَيْرَةً يُبْغِضُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ غَيْرَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ » لان ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه، فان بعض الظن اثم

(١) حديث : نزول قوله تعالى ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما فى خير أزواجه متفق عليه من حديث عمر والمرأتان عائشة وحفصة

(٢) حديث لايفلح قوم تملكهم امرأة البخارى من حديث أبى بكرة نحوه

(٣) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تتبع عورات النساء الطبرانى فى الاوسط من حديث جابر نهى أن تتطلب عثرات النساء والحديث عند مسلم بلفظ نهى ان يطرق الرجل أهله ليلا يخونهم أو يطلب عثراتهم واقتصر البخارى منه على ذكر النهى عن الطروق ليلا

(٤) حديث انه قال قبل دخول المدينة لاتطرقوا أهلكم ليلا فخالفه رجلان فسعيا الى منازلهما فرأى كل واحد فى بيته ما يكره أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد

(٥) حديث: المرأة كالضلع ان أردت تقيمه كسرته الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٦) حديث : غيرة يبغضها الله وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك

(١) التحريم : ٤

وقال على رضى الله عنه : لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك

وأما الغيرة فى محلها فلا بد منها ، وهى محمودة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ وَالْمُؤْمِنُ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللهِ تَعَالَى أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ » وقال عليه السلام [٢] « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟ أَنَا وَاللهِ أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي » ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ماظهر وما بطن ، ولا أحد أحب اليه العذر من الله ولذلك بعث المنذرين والمبشرين ، ولا أحد أحب اليه المدح من الله ، ولأجل ذلك وعد الجنة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فِي الْجَنَّةِ قَصْراً وَبِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ ؟ فَقِيلَ لِعُمَرَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ يَا عُمَرُ » فبكى عمر وقال أعليك أغار يارسول الله . وكان الحسن يقول : أتدعون نساءكم يزاحمن العلوج فى الاسواق ؟ قبح الله من لا يغار . وقال عليه السلام [٤] إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَمِنْهَا مَا يَبْغَضُهُ اللهُ ، وَمِنَ الْخُيَلَاءِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَمِنْهَا مَا يَبْغَضُهُ اللهُ ، فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ ، وَالْغَيْرَةُ الَّتِي يَبْغَضُهَا اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ ، وَالاخْتِيَالُ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ اخْتِيَالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَعِنْدَ الصَّدْمَةِ . وَالاخْتِيَالُ الَّذِي يَبْغَضُهُ اللهُ الاخْتِيَالُ فِي الْبَاطِلِ » وقال عليه السلام [٥] « إِنِّي لَغَيُورٌ وَمَا مِنَ امْرِئٍ لَا يَغَارُ إِلَّا مَنْكُوسُ الْقَلْبِ »

---

(١) حديث : الله يغار والمؤمن يغار وغيرة الله تعالى ان يأتى الرجل المؤمن ماحرم الله عليه متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يقل البخارى والمؤمن يغار

(٢) حديث : أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله اغير منى الحديث متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة

(٣) حديث : رأيت ليلة اسرى بى فى الجنة قصراً وبفنائه جارية فقلت لمن هذا القصر فقيل لعمر الحديث متفق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسرى بى ولم يذكر الجارية وذكر الجارية فى حديث آخر متفق عليه من حديث ابى هريرة بينا أنا نائم فى الجنة رأيتنى الحديث

(٤) حديث : ان من الغيرة مايحبه الله تعالى ومنها ما يبغضه الله تعالى الحديث ابو داود والنسائى وابن حبان من حديث جابر بن عتيك وهو الذى تقدم قبله بأربعة احاديث

(٥) حديث : انى لغيور وما من امرىء لايغار الا منكوس القلب تقدم اوله وأما آخره فرواه أبو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الاهلين من رواية عبد الله بن محمد مرسلا والظاهر انه عبدالله بن الحنفية

والطريق المغني عن الغيرة أن لايدخل عليها الرجال ، وهي لاتخرج الى الاسواق. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لابنته فاطمة عليها السلام « أيُّ شيءٍ خيرٌ للمرأة؟ قالت أن لاترى رجلا ولايراها رجل فضمها اليه وقال (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ (١)) فاستحسن قولها وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسدون الكوى والثقب في الحيطان ، لئلا تطلع النسوان الى الرجال . ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة ، فضربها . ورأى امرأته قد دفعت الى غلامه تفاحة قد أكلت منها ، فضربها . وقال عمر رضي الله عنه . أعروا النساء يلزمن الحجال. وانما قال ذلك لانهن لايرغبن في الخروج في الهيئة الرثة وقال عوِّدوا نساءكم لا

وكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) للنساء في حضور المسجد ، والصواب الآن المنع ، الا العجائز . بل استصوب ذلك في زمان الصحابة . حتى قالت عائشة رضي الله عنها لو علم النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ماأحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج . ولمَّا قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ » فقال بعض ولده ، بلى والله لنمنعهن ، فضربه وغضب عليه ، وقال تسمعني أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتمنعوا فتقول بلى : وانما استجرأ على المخالفة لعلمه بتغير الزمان ، وانما غضب عليه لاطلاقه اللفظ بالمخالفة ظاهرا من غير اظهار العذر . وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) قد أذن لهن في الأعياد خاصة أن يخرجن ، ولكن لايخرجن الا برضا أزواجهن . والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ، ولكن القعود أسلم . وينبغي أن لاتخرج الا لمهم فان الخروج للنظارات والامور التي ليست مهمة، تقدح في المروءة ، وربما تفضي الى الفساد فاذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال ، ولسنا نقول ان وجه الرجل في حقها عورة،

(١) حديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة أي شيء خير للمرأة فقالت أن لا ترى رجلا الحديث البزار والدار قطني في الافراد من حديث علي بسند ضعيف

(٢) حديث : الاذن للنساء في حضور المساجد متفق عليه من حديث ابن عمر ائذنوا للنساء بالليل الى المساجد

(٣) حديث : قالت عائشة لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج متفق عليه قال البخاري لمنعهن من المساجد

(٤) حديث ابن عمر : لاتمنعوا اماء الله مساجد الله فقال بعض ولده بلى والله الحديث متفق عليه

(٥) حديث : الاذن لهن في الخروج في الاعياد متفق عليه من حديث أم عطية

(١) آل عمران : ٣٤

كوجه المرأة فى حقه ، بل هو كوجه الصبى الامرد فى حق الرجل ، فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط. فان لم تكن فتنة فلا ، اذ لم يزل الرجال على ممر الزمان مكشوفى الوجوه والنساء يخرجن منتقبات . ولو كان وجوه الرجال عورة فى حق النساء لأمروا بالتنقب أو منعن من الخروج إلا لضرورة

السادس : الاعتدال فى النفقة . فلا ينبغى أن يقتر عليهن فى الانفاق ، ولا ينبغى أن يسرف . بل يقتصد . قال تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا [١]) وقال تعالى (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ [٢]) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ ، أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ » وقيل كان لعلى رضى الله عنه أربع نسوة ، فكان يشترى لكل واحدة فى كل أربعة أيام لحما بدرهم . وقال الحسن رضى الله عنه : كانوا فى الرجال مخاصيب ، وفى الاثاث والثياب مجاديب . وقال ابن سيرين : يستحب للرجل أن يعمل لأهله فى كل جمعة فالوذجة . وكأن الحلاوة وان لم تكن من المهمات ، ولكن تركها بالكلية تقتير فى العادة.

وينبغى أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام، وما يفسد لو ترك . فهذا أقل درجات الخير. وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح اذن من الزوج . ولا ينبغى ان يستأثر عن أهله بمأكول طيب، فلا يطعمهم منه. فان ذلك مما يوغر الصدور و يبعد عن المعاشرة بالمعروف فان كان مزمعا على ذلك فليأكله بخفية ، بحيث لا يعرف أهله . ولا ينبغى أن يصف عندهم طعاما ليس يريد اطعامهم اياه . واذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته . فقد قال سفيان رضى الله عنه : بلغنا ان الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة

وأهم ما يجب عليه مراعاته في الانفاق أن يطعمها من الحلال، ولا يدخل مداخل السوء

(١) حديث : خيركم خيركم لأهله الترمذى من حديث عائشة وصححه وقد تقدم

(٢) حديث : دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها الدينار الذي أنفقته على أهلك مسلم من حديث أبي هريرة

(١) الاعراف : ٣١ (٢) الاسراء : ٢٩

لاجلها،فان ذلك جناية عليها الا مراعاة لهـا . وقـد أوردنا الاخبـار الواردة فى ذلك عنـد ذكـر آفات النـكاح

السابع . أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه مايحترز به الاحتراز الواجب . ويعلم زوجته أحكام الصلاة ، وما يقضى منها فى الحيض ومالا يقضى ، فانه أمر بان يقيها النار بقوله تعالى (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا[1])فعليه ان يلقنها اعتقاد أهل السنة ،ويزيل عن قلبها كل بدعة ان استمعت اليها ، ويخوفها فى الله ان تساهلت فى أمر الدين ، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ماتحتاج اليـه

وعلم الاستحاضة يطول، فاما الذى لابدمن ارشاد النساء اليه فى أمر الحيض بيان الصلوات التى تقضيها،فانها مهما انقطع دمها قبيل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر. واذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة ، فعليها قضاء المغرب والعشاء ، وهذا أقل ماراعيه النساء

فان كان الرجل قائما بتعليمها ، فليس لهـا الخروج لسؤال العلماء ، وان قصر علم الرجل ، ولكن ناب عنها فى السؤال فاخبرها بجواب المفتى ، فليس لها الخروج ، فان لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها ، ومهما تعلمت ماهو من الفرائض عليها ، فليس لها أن تخرج الى مجلس ذكر ولا الى تعلم فضل الا برضاه ، ومهما أهملت المرأة حكما من أحكام الحيض والاستحاضة،ولم يعلمها الرجل ،خرج الرجل معها وشاركها فى الاثم

الثامن : اذا كان له نسوة فينبغى أن يعدل بينهن، ولا يميل الى بعضهن ، فان خرج الى سفر وأراد استصحاب واحدة ، أقرع بينهن . كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] : فان ظلم امرأة بليلتها ، قضى لها ، فان القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يحتاج الى معرفة أحكام القسم ، وذلك يطول ذكره ، وقد قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم [2] «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا دُونَ الأُخْرَى،وفى لفظ وَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ» وانما عليه العدل فى العطاء والمبيت ،واما فى الحب والوقاع فذلك لايدخل تحت الاختيار

(١) حديث : القرعة بين أزواجه اذا أراد سفرا متفق عليه من حديث عائشة
(٢) حديث : من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الأخرى وفى لفظ آخر لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبى هريرة قال أبوداود وابن حبان فمال مع احداهما وقال الترمذى فلم يعدل بينهما

(١) التحريم : ٦

قال الله تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ [١]) أى لا تعدلوا فى شهوة القلب وميل النفس ، ويتبع ذلك التفاوت فى الوقاع

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] يعدل بينهن فى العطاء والبيوتة فى الليالى ، ويقول « اللَّهُمَّ هَذَا جُهْدِى فِيمَا أَمْلِكُ وَلاَ طَاقَةَ لِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ » يعنى الحب . وقد كانت عائشة رضى الله عنها [٢] أحب نسائه اليه ، وسائر نسائه يعرفن ذلك [٣] وكان يطاف به محمولا فى مرضه فى كل يوم وكل ليلة ، فيبيت عند كل واحدة منهن ويقول « أَيْنَ أَنَا غَداً » ففطنت لذلك امرأة منهن . فقالت انما يسأل عن يوم عائشة . فقلنا يارسول الله قد أذنا لك أن تكون فى بيت عائشة ، فإنه يشق عليك أن تحمل فى كل ليلة . فقال « وَقَدْ رَضِيتُنَّ بِذَلِكَ » فقلن نعم . قال « فَحَوِّلُونِى إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ »

ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ، ورضى الزوج بذلك ، ثبت الحق لها ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] يقسم بين نسائه ، فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت ،

---

(١) حديث : كان يعدل بينهن ويقول اللهم هذا جهدى فيما أملك ولاطاقة لي فيما تملك ولا أملك : أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث كانت عائشة أحب نسائه اليه : متفق عليه من حديث عمرو بن العاص انه قال أى الناس أحب اليك يارسول الله قال عائشة وقد تقدم

(٣) حديث : كان يطاف به محمولا فى مرضه كل يوم وليلة فيبيت عند كل واحدة ويقول أين أنا غداً الحديث ابن سعد فى الطبقات من رواية محمد بن على بن الحسين ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل فى ثوب يطاف به على نسائه وهو مريض يقسم بينهن وفى مرسل آخر له لما ثقل قال أين أنا غداً قالوا عند فلانة قال فأين أنا بعد غد قالوا عند فلانة فعرف أزواجه أنه يريد عائشة الحديث وللبخارى من حديث عائشة كان يسأل فى مرضه الذى مات فيه أين أنا غداً أين أنا غداً يريد يوم عائشة فأذن له أزواجه ان يكون حيث شاء وفى الصحيحين لما ثقل استأذن ازواجه ان يمرض فى بيتى فأذن له

(٤) حديث : كان يقسم بين نسائه فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت فوهبت ليلتها لعائشة الحديث ابو داود من حديث عائشة قالت سودة حين اسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله يومى لعائشة الحديث وللطبرانى فأراد ان يفارقها وهو عند البخارى بلفظ لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها بيوم سودة وللبيهقى مرسلا طلق سودة فقالت اريد ان احشر فى ازواجك الحديث

---

(١) النساء : ١٢٩

فوهبت ليلتها لعائشة ، وسألته أن يقرها على الزوجية حتى تحشر فى زمرة نسائه . فتركها ، وكان لايقسم لها ، ويقسم لعائشة ليلتين ، ولسائر أزواجه ليلة ليلة . ولكنه صلى الله عليه وسلم ،لحسن عدله وقوته ،كان اذا تاقت نفسه الى واحدة من النساء فى غير نوبتها ، فجامعها طاف فى يومه أو ليلته على سائر نسائه . فمن ذلك ماروى عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] طاف على نسائه فى ليلة واحدة . وعن أنس ، أنه عليه السلام [2] طاف على تسع نسوة فى ضحوة نهار

التاسع : فى النشوز . ومهما وقع بينهما خصام ، ولم يلتئم أمرهما . فان كان من جانبهما جميعا ، أو من الرجل ، فلا تسلط الزوجة على زوجها ، ولا يقدر على اصلاحها ، فلا بد من حكمين ،أحدهما من أهله ، والآخر من أهلها ، لينظرا بينهما . ويصلحا أمرهما إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما . وقد بعث عمر رضى الله عنه حكما الى زوجين،فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة،وقال ان الله تعالى يقول(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا [1])فعاد الرجل وأحسن النية ، وتلطف بهما فأصلح بينهما

وأما اذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فالرجال قوامون على النساء . فله ان يؤدبها ويحملها على الطاعة قهرا . وكذا اذا كانت تاركة للصلاة ، فله حملها على الصلاة قهرا . ولكن ينبغى ان يتدرج فى تأديبها . وهو ان يقدم أولا الوعظ والتحذير والتخويف ، فان لم ينجع ولاها ظهره فى المضجع ، أو انفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو فى البيت معها،من ليلة الى ثلاث ليال . فان لم ينجع ذلك فيها ، ضربها ضربا غير مبرح ، بحيث يؤلمها ولايكسر لها عظما ، ولا يدمى لها جسما ، ولايضرب وجهها فذلك منهى عنه،وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث : عائشة طاف على نسائه فى ليلة واحدة :متفق عليه بلفظ كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطوف على نسائه ثم يصبح محرما ينضح طيباً

(٢) حديث : أنس أنه طاف على تسع نسوة فى ضحوة نهار :ابن عدى فى الكامل وللبخارى كان يطوف على نسائه فى ليلة واحدة وله تسع نسوة

---

(١) النساء : ٣٥

(١) ماحق المرأة على الرجل ؟ قال « يُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمَ ، وَيَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَي ، وَلاَ يُقَبِّحُ الْوَجْهَ وَلاَ يَضْرِبُ إِلاَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلاَيَهْجُرُهَا إِلاَّ فِي الْمَبِيتِ »

وله أن يغضب عليها ويهجرها فى أمر من أمور الدين، إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر (٢) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أرسل الى زينب بهدية فردتها عليه ،فقالت له التى هو فى بيتها ، لقد أقمأتك اذ ردت عليك هديتك . أى أذلتك واستصغرتك. فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْتُنَّ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ أَنْ تُقْمِئْنَنِي » ثم غضب عليهن كلهن شهراً إلى أن عاد اليهن

العاشر : فى آداب الجماع . ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى، ويقرأ قل هو الله أحد أولا، ويكبر ويهلل ، ويقول بسم الله العليّ العظيم ، اللهم اجعلها ذرية طيبة ان كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبي . وقال عليه السلام (٣) « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَارَزَقْتَنَا فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ » وإذا قربت من الانزال ، فقل فى نفسك ولاتحرك شفتيك (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً) الآية وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته

ثم ينحرف عن القبلة، ولا يستقبل القبلة بالوقاع اكراما للقبلة وليغط نفسه وأهله بثوب. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) يغطى رأسه، ويغض صوته ،ويقول للمرأة عليك بالسكينة. وفى الخبر (٥) « إِذَا جَامَعَ أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ فَلاَ يَتَجَرَّدَانِ تَجَرُّدَ الْعِيرَيْنِ » أى الحمارين

---

(١) حديث : قيل له ماحق المرأة على الرجل فقال يطعمها اذا طعم ويكسوها اذا اكتسى ولايقبح الوجه ولا يضرب إلا ضربا غير مبرح ولايهجرها إلافى البيت: أبو داود والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من رواية معاوية ابن حيدة بسند جيد وقال ولايضرب الوجه ولايقبح وفى رواية لأبى داود ولاتقبح الوجه ولاتضرب

(٢) حديث : هجره صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً لما أرسل بهدية الى زينب فردتها فقالت له التى فى بيتها لقد أقمأتك الحديث ذكره ابن الجوزى فى الوفاء بغير اسناد وفى الصحيحين من حديث عمر كان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن وفى رواية من حديث جابر ثم اعتزلهن شهراً

(٣) حديث : لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال اللهم جنبنا الشيطان: الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس

(٤) حديث كان يغطى رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة عليك بالسكينة: الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف

(٥) حديث : إذا جامع أحدكم امرأته فلايتجردان تجرد العيرين: ابن ماجه من حديث عتبة ابن عبد بسند ضعيف

وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل ، قال صلى الله عليه وسلم (١) « لاَ يَقَعَنَّ أَحَدُكُمْ عَلَى امْرَأَتِهِ كَمَا تَقَعُ الْبَهِيمَةُ . وَلْيَكُنْ بَيْنَهُمَا رَسُولٌ ، قِيلَ وَمَا الرَّسُولُ ، يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الْقُبْلَةُ وَالْكَلاَمُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « ثَلاَثٌ مِنَ الْعَجْزِ فِي الرَّجُلِ ، أَنْ يَلْقَى مَنْ يُحِبُّ مَعْرِفَتَهُ فَيُفَارِقَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ ، وَالثَّانِي أَنْ يُكْرِمَهُ أَحَدٌ فَيَرُدُّ عَلَيْهِ كَرَامَتَهُ وَالثَّالِثُ أَنْ يُقَارِبَ الرَّجُلُ جَارِيَتَهُ أَوْ زَوْجَتَهُ فَيُصِيبَهَا قَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَهَا وَيُؤَانِسَهَا وَيُضَاجِعَهَا فَيَقْضِي حَاجَتَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتَهَا مِنْهُ »

ويكره له الجماع في ثلاث ليال من الشهر : الأول ، والآخر ، والنصف . يقال أن الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي . ويقال أن الشياطين يجامعون فيها . وروى كراهة ذلك عن علي ومعاوية وأبي هريرة رضي الله عنهم

ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة وليلته ، تحقيقاً لأحد التأويلين من قوله صلى الله عليه وسلم (٣) « رَحِمَ اللهُ مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ » الحديث

ثم اذا قضى وطره فليتمهل على أهله ، حتى تقضي هي أيضاً نهمتها . فان انزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها ، ثم القعود عنها ايذاء لها . والاختلاف في طبع الانزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقاً إلى الانزال . والتوافق في وقت الانزال ألذ عندها ، ليشتغل الرجل بنفسه عنها ، فانها ربما تستحي . وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة ، فهو أعدل اذ عدد النساء أربعة ، فجاز التأخير الى هذا الحد . نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين فان تحصينها واجب عليه ، وان كان لا يثبت المطالبة بالوطء ، فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها

ولا يأتيها في المحيض ، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل . فهو محرم بنص الكتاب . وقيل ان ذلك يورث الجذام في الولد ، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ، ولا يأتيها في غير المأتى ،

---

(١) حديث : لايقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة بعض الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر

(٢) حديث ثلاث من العجز في الرجل أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه ـ الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أخصر منه وهو ـ الحديث الذي قبله

(٣) حديث : رحم الله من غسل واغتسل تقدم في الباب الخامس من الصلاة

إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى ، والأذى فى غير المأتى دائم ، فهو أشد تحريماً من اتيان الحائض . وقوله تعالى(فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ‌[1]) أى أى وقت شئتم .وله أن يستمنى بيديها ، وأن يستمتع بما تحت الازار بما يشتهى ، سوى الوقاع ، وينبغى أن تتزر المرأة بازار من حقوها الى فوق الركبة فى حال الحيض ، فهذا من الأدب . وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها فى المضاجعة وغيرها ، وليس عليه اجتنابها

وان أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى ، فليغسل فرجه أولا . وان احتلم فلايجامع حتى يغسل فرجه أو يبول

ويكره الجماع فى أول الليل حتى لاينام على غير طهارة ، فان أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولا وضوء الصلاة فذلك سنة . قال ابن عمر قلت للنبي صلى الله عليه وسلم [1] أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نَعَمْ إِذَا تَوَضَّأَ » ولكن قد وردت فيه رخصة ، قالت عائشة رضى الله عنها كان النبي صلى الله عليه وسلم [2] ينام جنباً لم يمس ماء ،ومهما عادالى فراشه فليمسح وجه فراشه ، أو لينفضه ، فانه لايدرى ماحدث عليه بعده

ولا ينبغى أن يحلق ، أو يقلم ، أو يستحد ، أو يخرج الدم ، أو يبين من نفسه جزأ وهو جنب ، اذ ترد اليه سائر أجزائه فى الآخرة فيعود جنباً ويقال إن كل شعرة تطالبه بجنابتها

ومن الآداب أن لايعزل ، بل لايسرح إلا الى محل الحرث وهو الرحم [3] «فما من نسمة قدر الله كونها إلا وهى كائنة » هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فان عزل ، فقد اختلف العلماء فى اباحته وكراهته ، على أربع مذاهب : فمن مبيح مطلقاً بكل حال ، ومن محرم بكل حال ، ومن قائل يحل برضاها ولايحل دون رضاها ،وكأن هذا القائل يحرم الايذاء

---

(١) حديث ابن عمر قلت للنبي صلى الله عليه وسلم أينام أحدنا وهو جنب قال نعم إذا توضأ: متفق عليه من حديثه أن عمر سأل لأن عبدالله هو السائل

(٢) حديثه عائشة كان ينام جنباً لم يمس ماء: ابوداود والترمذى وابن ماجه وقال يزيد بن هارون انه وهم ونقل البيهقى عن الحفاظ الطعن فيه قال وهو صحيح من جهة الرواية

(٣) حديث : ما من نسمة قدر الله كونها إلا وهى كائنة : متفق عليه من حديث أبى سعيد

---

(١) البقرة :٢٢٣

دون العزل ، ومن قائل يباح فى المملوكة دون الحرة

والصحيح عندنا أن ذلك مباح . وأما الكراهية فانها تطلق لنهى التحريم ، ولنهى التنزيه ، ولترك الفضيلة ، فهو مكروه بالمعنى الثالث . أى فيه ترك فضيلة . كما يقال يكره للقاعد فى المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة . ويكره للحاضر فى مكة مقيما بها الا يحج كل سنة : والمراد بهذه الكراهية ترك الاولى والفضيلة فقط . وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة فى الولد ، ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَامِعُ أَهْلَهُ فَيُكْتَبُ لَهُ بِجِمَاعِهِ أَجْرُ وَلَدٍ ذَكَرٍ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقُتِلَ » وانما قال ذلك لأنه لو ولد له ولد مثل هذا الولد ، لكان له أجر التسبب اليه ، مع أن الله تعالى خالقه ومحييه ومقويه على الجهاد والذى اليه من التسبب فقد فعله ، وهو الوقاع ، وذلك عند الامناء فى الرحم

وانما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه ، لأن اثبات النهى انما يمكن بنص ، أو قياس على منصوص . ولا نص ، ولا أصل يقاس عليه ، بل ههنا أصل يقاس عليه ، وهو ترك النكاح أصلا ، أو ترك الجماع بعد النكاح ، أو ترك الانزال بعد الايلاج . فكل ذلك ترك للافضل وليس بارتكاب نهى . ولا فرق اذ الولد يتكون بوقوع النطفة فى الرحم ، ولها أربعة أسباب : النكاح ثم الوقاع ، ثم الصبر الى الانزال بعد الجماع ، ثم الوقوف لينصب المنى فى الرحم . وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض ، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث ، وكذا الثالث كالثانى ، والثانى كالأول ، . وليس هذا كالاجهاض والوأد ، لأن ذلك جناية على موجود حاصل ، وله أيضاً مراتب ، وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة فى الرحم ، وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة . وافساد ذلك جناية . فان صارت مضغة وعلقة ، كانت الجناية أفحش وان نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ، ازدادت الجناية تفاحشاً . ومنتهى التفاحش فى الجناية بعد الانفصال حياً

وانما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المنى فى الرحم لا من حيث الخروج من الاحليل ، لأن الولد لا يخلق من منى الرجل وحده ، بل من الزوجين جميعاً . اما من مائه ومائها ، أو من مائه ودم الحيض. قال بعض أهل التشريح ان المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض

(١) حديث ان الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر يقاتل فى سبيل الله : لم اجد له أصلا

وان الدم منها كاللبن من الرائب ، وان النطفة من الرجل شرط فى خثور دم الحيض وانعقاده، كالأنفحة للبن ، إذ بها ينعقد الرائب . وكيفما كان فماء المرأة ركن فى الانعقاد، فيجري الماءان مجرى الايجاب والقبول فى الوجود الحكمى فى العقود فمن أوجب ثم رجع قبل القبول ، لا يكون جانياً على العقد بالنقض والفسخ . ومهما اجتمع الايجاب والقبول، كان الرجوع بعده رفعاً وفسخاً وقطعاً . وكما أن النطفة فى الفقار لا يتخلق منها الولد ، فكذا بعد الخروج من الاخليل مالم يمتزج بماء المرأة أو دمها ، فهذا هو القياس الجلى

فان قلت: فان لم يكن العزل مكروها من حيث انه دفع لوجود الولد، فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه ، اذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة ، فيها شيء من شوائب الشرك الخفى، فأقول النيات الباعثة على العزل خمس :

الأولى: فى السرارى ، وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق ، وقصد استبقاء الملك بترك الاعتاق ، ودفع أسبابه ليس بمنهى عنه

الثانية :استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع ، واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق وهذا أيضاً ليس منهياً عنه

الثالثة: الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة الى التعب فى الكسب ودخول مداخل السوء ، وهذا أيضاً غير منهى عنه . فان قلة الحرج معين على الدين . نعم الكمال والفضل فى التوكل والثقة بضمان الله، حيث قال (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا[1]) ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل، ولكن النظر الى العواقب وحفظ المال وادخاره، مع كونه مناقضاً للتوكل ، لا نقول انه منهى عنه

الرابعة :الخوف من الأولاد الاناث ، لما يعتقد فى تزويجهن من المعرة، كما كانت من عادة العرب فى قتلهم الاناث ، فهذه نية فاسدة ، لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها ، لا بترك النكاح والوطء : فكذا فى العزل. والفساد في اعتقاد المعرفة فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ، وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافا من أن يعلوها رجل ، فكانت تتشبه بالرجال . ولا ترجع الكراهة الى عين ترك النكاح

(٢) هود: ٦

الخامسة : أن تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها فى النظافة، والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع . وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمبالغتهن فى استعمال المياه ،حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ، ولايدخلن الخلاء إلا عراة.فهذه بدعة تخالف السنة ،فهى نية فاسدة.واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضى الله عنها لما قدمت البصرة ، فلم تأذن لها ، فيكون القصد هو الفاسد دون منع الولادة

فان قلت:فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ تَرَكَ النِّكَاحَ مَخَافَةَ الْعِيَالِ فَلَيْسَ منَّا ثلاثا » قلتُ فالعزل كترك النكاح ، وقوله ليس منا أى ليس موافقا لنا على سنتنا وطريقتنا ، وسنتنا فعل الافضل

فان قلت: فقد قال صلى الله عليه وسلم [٢] فى العزل « ذَاكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ » وقرأ (وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ [(١)]) وهذا فى الصحيح، قلنا وفى الصحيح أيضا أخبار صحيحة [٣] فى الاباحة وقوله الوأد الخفي ، كقوله الشرك الخفي ، وذلك يوجب كراهة لاتحريما

فان قلت:فقد قال ابن عباس ، العزل هو الوأد الاصغر ، فان الممنوع وجوده به هو المؤودة الصغرى ، قلنا هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه ، وهو قياس ضعيف ، ولذلك أنكره عليه على رضى الله عنه لما سمعه ، وقال لاتكون موءودة إلا بعد سبع ، أى بعد الاخرى سبعة أطوار ، وتلا الآية الواردة فى أطوار الخلقة ، وهى قوله تعالى(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [(٢)])الى قوله(ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)أى نفخنا فيه الروح . ثم تلا قوله تعالى فى الآية (وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ) واذا نظرت الى ما قدمناه فى طريق القياس والاعتبار ، ظهر لك تفاوت منصب على وابن عباس رضى الله عنهما فى الغوص على المعانى ودرك العلوم

---

(١) حديث : من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا: تقدم فى أول النكاح

(٢) حديث : قال النبي صلى الله عليه وسلم فى العزل ذلك الوأد الخفى :مسلم من حديث جذامة بنت وهب

(٣) أحاديث : اباحة العزل مسلم من حديث أبى سعيد انهم سألوه عن العزل فقال لا عليكم أن لاتفعلوه ورواه النسائى من حديث أبى صرمة وللشيخين من حديث جابر كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد مسلم فبلغ ذلك نبى الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا وللنسائى من حديث أبى هريرة سئل عن العزل فقيل ان اليهود تزعم انها الموءودة الصغرى فقال كذبت يهود قال البيهقى رواة الاباحة أكثر واحفظ

---

(١) التكوير : ٨ (٢) المؤمنون : ١٢-١٣-١٤

كيف وفى المتفق عليه فى الصحيحين عن جابر أنه (١) قال ، كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ينزل . وفى لفظ آخر كنا نعزل ، فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينهنا . وفيه أيضا عن جابر أنه قال ، إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . فقال ان لى جارية هى خادمتنا وساقيتنا فى النخل ، وأنا أطوف عليها ، وأكره أن تحمل . فقال عليه السلام « اعْزِلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قُدِّرَ لَهَا » فلبث الرجل ماشاء الله ثم أتاه فقال ، ان الجارية قد حملت . فقال « قَدْ قُلْتُ سَيَأْتِيهَا مَاقُدِّرَ لَهَا » كل ذلك فى الصحيحين

الحادى عشر : فى آداب الولادة وهى خمسة :ـ

الأول أن لايكثر فرحه بالذكر ، وحزنه بالأنثى . فانه لايدرى الخيرة له فى أيهما . فكم من صاحب ابن يتمنى أن يكون بنتا . بل السلامة منهن أكثر، والثواب فيهن أجزل . قال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ كَانَ لَهُ ابْنَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَادِيبَهَا وَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْهِ كَانَتْ لَهُ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ » وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْرِكُ ابْنَتَيْنِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ إِلاَّ أَدْخَلَتَاهُ الْجَنَّةَ » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَتَانِ أَوْ أُخْتَانِ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا مَاصَحِبَتَاهُ

---

(١) حديث جابر المتفق عليه فى الصحيحين كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهناهو كما ذكر متفق عليه الا أن قوله فلم ينهنا انفرد بها مسلم

(٢) حديث جابر ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لى جارية وهي خادمنا وساقيتنا فى النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال اعزل عنها ان شئت ـ الحديث: ذكر المصنف أنه فى الصحيحين وليس كذلك وانما انفرد به مسلم

(٣) حديث : من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاءها ـ الحديث: الطبرانى فى الكبير والخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٤) حديث ابن عباس ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن اليهما ما صحبتاه الا أدخلتاه الجنة ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد

(٥) حديث أنس من كانت له ابنتان أو أختان فاحسن اليهما ما صحبتاه كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين الخرائطى فى مكارم الاخلاق بسند ضعيف ورواه الترمذي بلفظ من عال جاريتين وقال حسن غريب

كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ خَرَجَ إِلَى سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ فَاشْتَرَى شَيْئاً فَحَمَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ فَخَصَّ بِهِ الْإِنَاثَ دُونَ الذُّكُورِ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ ، وَمَنْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ » وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ حَمَلَ طُرْفَةً مِنَ السُّوقِ إِلَى عِيَالِهِ فَكَأَنَّمَا حَمَلَ إِلَيْهِمْ صَدَقَةً حَتَّى يَضَعَهَا فِيهِمْ وَلْيَبْدَأْ بِالْإِنَاثِ قَبْلَ الذُّكُورِ فَإِنَّهُ مَنْ فَرَّحَ أُنْثَى فَكَأَنَّمَا بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَتِهِ حَرَّمَ اللهُ بَدَنَهُ عَلَى النَّارِ » وقال أبو هريرة قال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ كَانَتْ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ أَخَوَاتٍ فَصَبَرَ عَلَى لَأْوَائِهِنَّ وَضَرَّائِهِنَّ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُنَّ » فقال رجل وثنتان يارسول الله؟ قال « وَثِنْتَانِ » فقال رجل أو واحدة ؟ فقال « وَوَاحِدَةٌ »

الأدب الثاني : أن يؤذن في أذن الولد ، روى رافع عن أبيه قال ، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم [٤] قد أذن في أذن الحسن حين ولدته فاطمة رضى الله عنها . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم [٥] أنه قال « مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ الْيُمْنَى وَأَقَامَ فِي أُذُنِهِ الْيُسْرَى دُفِعَتْ عَنْهُ أُمُّ الصِّبْيَانِ » ويستحب أن يلقنوه أول انطلاق لسانه لا إله إلا الله ، ليكون ذلك أول حديثه . [٦] والختان فى اليوم السابع ورد به خبر

---

(١) حديث أنس من خرج الى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله الى بيته فخص به الاناث دون الذكور نظر الله اليه ومن نظر الله اليه لم يعذبه : الخرائطى بسند ضعيف

(٢) حديث أنس من حمل طرفة من السوق الى عياله فكأنما حمل اليهم صدقة: الخرائطى بسند ضعيف جدا وابن عدى فى الكامل وقال ابن الجوزى حديث موضوع

(٣) حديث أبى هريرة من كانت له ثلاث بنات أو اخوات فصبر على لأوائهن :الحديث الخرائطى واللفظ له والحاكم ولم يقل أو اخوات وقال صحيح الاسناد

(٤) حديث أبى رافع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن فى أذن الحسين حين ولدته فاطمه: أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذى وصححه الا أنهما قالا الحسن مكبرا وضعفه ابن القطانى

(٥) حديث : من ولد له مولود وأذن فى أذنه اليمنى وأقام فى أذنه اليسرى رفعت عنه أم الصبيان:أبو يعلى الموصلى وابن السنى فى اليوم والليلة والبيهقى فى شعب الايمان من حديث الحسين بن على بسند ضعيف

(٦) حديث : الختان فى اليوم السابع: الطبرانى فى الصغير من حديث جابر بسند ضعيف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام واسناده ضعيف واختلف فى اسناده فقيل عبد الملك بن ابراهيم بن زهير عن أبيه عن جده

الأدب الثالث: أن تسميه اسما حسنا فذلك من حق الولد وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا سَمَّيْتُمْ فَعَبِّدُوا وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ » وقال (٣) «سَمُّوا بِاسْمِي وَلَا تُكَنُّوا بِكُنْيَتِي» قال العلماء ، كان ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم اذ كان ينادى يا أبا القاسم . والآن فلا بأس . نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٤) « لاَ تَجْمَعُوا بَيْنَ اسْمِي وَكُنْيَتِي » وقيل ان هذا أيضا كان في حياته . وتسمى رجل أبا عيسى، فقال عليه السلام (٥) «إِنَّ عِيسَى لَا أَبَ لَهُ »فيكره ذلك

والسقط ينبغي أن يسمى . قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية ، بلغني ان السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه ، فيقول أنت ضيعتني وتركتني لا اسم لى . فقال عمر بن عبد العزيز كيف وقد لايدرى أنه غلام أو جارية ؟ فقال عبد الرحمن من الاسماء ما يجمعهما ، كحمزة وعمارة ، وطلحة ، وعتبة .

وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ » ومن كان له اسم يكره يستحب تبديله . أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) اسم العاص بعبد الله . وكان اسم زينب برة فقال عليه السلام (٨) « تُزَكِّي نَفْسَهَا »

---

(١) حديث : اذا سميتم فعبدوا :الطبرانى من حديث عبد الملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ وصحح اسناده والبيهقي من حديث عائشة

(٢) حديث : أحب الاسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن : مسلم من حديث ابن عمر

(٣) حديث : سموا باسمى ولاتكنوا بكنيتى : متفق عليه من حديث جابر وفى لفظ تسموا

(٤) حديث : لاتجمعوا بين اسمى وكنيتى :أحمد وابن حبان من حديث أبى هريرة ولأبى داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث جابر من سمى باسمى فلا يتكنى بكنيتي ومن تكنى بكنيتى فلا يتسمى باسمى

(٥) حديث : ان عيسى لا أب له:ابو عمر التوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ولأبى داود أن عمر ضرب ابناله تكنى أبا عيسى وأنكر على المغيرة بن شعبة تكنيه بأبى عيسى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانى واسناده صحيح

(٦) حديث : انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم واسماء آبائكم فأحسنوا اسماءكم : ابو داود من حديث ابى الدرداء قال النووى باسناد جيد وقال البيهقي انه مرسل

(٧) حديث : بدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله :رواه البيهقى من حديث عبد الله ابن الحرث بن جزء الزبيدى بسند صحيح

(٨) حديث : قال صلى الله عليه وسلم لزينب وكان اسمها برة تزكى نفسها فسماها زينب :متفق عليه من حديث أبى هريرة

فسماها زينب وكذلك ورد النهى فى تسمية[١] أفلح ويسار ونافع وبركة لانه يقال أثم بركة فيقال لا .

الرابع : العقيقة عن الذكر بشاتين ، وعن الانثى بشاة . ولا بأس بالشاة ذكرا كان أو أنثى . وروت عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] أمر فى الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين ، وفى الجارية بشاة . وروى[٣] أنه عق عن الحسن بشاة . وهذا رخصة فى الاقتصار على واحدة . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « مَعَ الْغُلَامِ عَقِيقَتُهُ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَماً وَأَمِيطُوا عَنْهُ الْأَذَى »

ومن السنة أن يتصدق بوزن شعره ذهبا او فضة . فقد ورد فيه خبر إنه عليه السلام[٥] أمر فاطمة رضى الله عنها يوم سابع حسين ، أن تحلق شعره ، وتتصدق بزنة شعره فضة . قالت عائشة رضى الله عنها لا يكسر للعقيقة عظم

الخامس : أن يحنكه بتمرة أو حلاوة . وروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت ،[٦] ولدت عبد الله بن الزبير بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعته فى حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ، ثم تفل فى فيه . فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم حنكه بتمرة ، ثم دعا له ، وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد فى الاسلام ، ففرحوا به فرحا شديدا ، لأنهم قيل لهم إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم .

---

(١) حديث : النهي فى تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة : مسلم من حديث سمرة بن جندب الا أنه جعل مكان بركة رباحا وله من حديث جابر أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن ينهى أن يسمى بيعلى وبركة الحديث

(٢) حديث : عائشة أمر فى الغلام بشاتين مكافئتين وفى الجارية بشاة : الترمذى وصححه

(٣) حديث : عق عن الحسن بشاة الترمذى من حديث على وقال ليس اسناده بمتصل ووصله الحاكم الا أنه قال حسين ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال كبشا

(٤) حديث : مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى : البخارى من حديث سلمان بن عامر الضبي

(٥) حديث : أمر فاطمة يوم سابع حسين أن يحلق شعره ويتصدق بزنة شعره فضة : الحاكم وصححه من حديث على وهو عند الترمذى منقطع بلفظ حسن وقال ليس اسناده بمتصل ورواه احمد من حديث أبى رافع

(٦) حديث أسماء ولدت عبد الله بن الزبير بقباء ثم أتت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه فى حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فى فيه ـ الحديث متفق عليه

الثاني عشر : فى الطلاق . وليعلم أنه مباح ، ولكنه أبغض المباحات الى الله تعالى،وانما يكون مباحا اذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل . ومهما طلقها فقد آذاها . ولا يباح إيذاء الغير الا بجناية من جانبها ، أو بضرورة من جانبه .قال الله تعالى(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً) أى لاتطلبوا حيلة للفراق . وان كرهها أبوه فليطلقها . قال ابن عمر رضى الله عنهما [١]كان تحتى امرأة أحبها ، وكان أبى يكرهها ويأمرنى بطلاقها . فراجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يَاابْنَ عُمَرَ طَلِّقِ امْرَأَتَكَ » فهذا يدل على أن حق الوالد مقدم،ولكن والد يكرهها لا لغرض فاسد مثل عمر . ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهى جانية . وكذلك مهما كانت سيئة الخلق ، أو فاسدة الدين . قال ابن مسعود فى قوله تعالى(وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلَّاأَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة وهذا أريد به فى العدة ، ولكنه تنبيه على المقصود

وان كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى ببذل مال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فان ذلك إجحاف بها وتحامل عليها ، وتجارة على البضع . قال تعالى (فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) فرد ما أخذته فما دونه لائق بالفداء . فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهى آثمة . قال صلى الله عليه وسلم [٢] «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلاَقَهَا مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ لَمْ تَرُحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » وفى لفظ آخر « فَالْجَنَّةُ عَلَيْهَا حَرَامٌ » وفى لفظ آخر أنه عليه السلام [٣] قال « الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ »

ثم ليراع الزوج فى الطلاق أربعة أمور

الاول : أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه ، فان الطلاق فى الحيض أو الطهر الذى جامع

(١) حديث : ابن عمر كانت تحتى امرأة احبها وكان أبى يكرهها فأمرنى بطلاقها ـ الحديث أصحاب السنن قال ت حسن صحيح

(٢) حديث : أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة وفى لفظ فالجنة عليها حرام أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث ثوبان

(٣) حديث : المختلعات هن المنافقات :النسائى من حديث ابى هريرة وقال لم يسمع الحسن من ابى هريرة قال ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبى هريرة قلت رواه الطبرانى من حديث عقبة ابن عامر بسند ضعيف

فيه بدعي حرام ، وان كان واقعاً ، لما فيه من تطويل العدة عليها . فان فعل ذلك فليراجعها .
(١) طلق ابن عمر زوجته فى الحيض ، فقال صلى الله عليه وسلم لعمر « مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ طَلَّقَهَا وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا » فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء . وانما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين ، لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط

الثانى : أن يقتصر على طلقة واحدة ، فلا يجمع بين الثلاث ، لأن الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ، ويستفيد بها الرجعة ان ندم فى العدة . وتجديد النكاح ان أراد بعد العدة واذا طلق ثلاثا ربما ندم ، فيحتاج الى أن يتزوجها محلل ، والى الصبر مدة . وعقد المحلل منهى عنه . ويكون هو الساعى فيه . ثم يكون قلبه معلقا بزوجة الغير وتطليقه ، أعنى زوجة المحلل بعد ان زوج منه . ثم يورث ذلك تنفيرا من الزوجة . وكل ذلك ثمرة الجمع . وفى الواحدة كفاية فى المقصود من غير محذور . ولست أقول الجمع حرام ، ولكنه مكروه بهذه المعانى وأعنى بالكراهة تركه النظر لنفسه

الثالث : ان يتلطف فى التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق . قال تعالى (وَمَتِّعُوهُنَّ [١]) وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر فى أصل النكاح . كان الحسن بن على رضى الله عنهما مطلاقا ومنكاحا ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه ، وقال قل لهما اعتدا ، وأمره ان يدفع الى كل واحدة عشرة آلاف درهم . ففعل . فلما رجع اليه ، قال ماذا فعلتا ؟ قال أما احداهما فنكست رأسها وتنكست ، وأما الأخرى فبكت وانتحبت ، وسمعتها تقول متاع قليل من حبيب مفارق . فأطرق الحسن وترحم لها ، وقال لو كنت مراجعا امرأة بعد ما فارقتها لراجعتها .

ودخل الحسن ذات يوم على عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقيه المدينة ورئيسها . ولم يكن له بالمدينة نظير . وبه ضربت المثل عائشة رضى الله عنها حيث قالت ، لو لم أسر مسيرى ذلك ، لكان أحب الىّ من أن يكون لى ستة عشر ذكراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) حديث : طلق ابن عمر زوجته فى الحيض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر مره فليراجعها الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر

(١) البقرة : ٢٣٦

مثل عبد الرحمن بن الحرث بن هشام . فدخل عليه الحسن فى بيته ، فعظمه عبد الرحمن وأجلسه فى مجلسه ، وقال ، ألا أرسلت الىّ فكنت أجيئك ؟ فقال الحاجة لنا : قال وما هى ؟ قال جئتك خاطبا ابنتك . فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال ، والله ما على وجه الأرض أحد يمشى عليها أعز علىّ منك ، ولكنك تعلم ان ابنتى بضعة منى ، يسوءنى ماساءها ، ويسرّنى ما سرّها وأنت مطلاق ، فأخاف ان تطلقها . وان فعلت خشيت أن يتغير قلبى فى محبتك ، وأكره ان يتغير قلبي عليك ، فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان شرطت أن لا تطلقها زوجتك فسكت الحسن وقام وخرج . وقال بعض أهل بيته ، سمعته وهو يمشى ويقول ، ما أراد عبد الرحمن الا ان يجعل ابنته طوقا فى عنقى . وكان على رضى الله عنه يضجر من كثرة تطليقه ، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول فى خطبته : ان حسنا مطلاقا فلا تنكحوه حتى قام رجل من همدان فقال : والله ياأمير المؤمنين لننكحنه ما شاء ، فان أحب أمسك ، وان شاء ترك . فسر ذلك عليا وقال :

لو كنت بوابا على باب جنة ❊ لقلت لهمدان ادخلى بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن فى حبيبه من أهل وولد بنوع حياء ، فلا ينبغى أن يوافق عليه فهذه الموافقة قبيحة . بل الأدب المخالفة ما أمكن ، فان ذلك أسر لقلبه ، وأوفق لباطن دائه

والقصد من هذا بيان ان الطلاق مباح . وقد وعد الله الغنى فى الفراق والنكاح جميعاً فقال (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) وقال سبحانه وتعالى (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ)

الرابع : ان لا يفشى سرها لا فى الطلاق ولا عند النكاح . فقد ورد [1] فى افشاء سر النساء فى الخبر الصحيح وعيد عظيم . ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة ، فقيل له ما الذى يريبك فيها ؟ فقال العاقل لا يهتك ستر امرأته . فلما طلقها قيل له لمَ طلقتها ؟ فقال مالى ولامرأة غيرى ؟ فهذا بيان ما على الزوج

(١) حديث الوعيد فى افشاء سر المرأة : مسلم من حديث أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى الى امرأته وتفضى اليه ثم يفشي سرها

(١) النور : ٣٢ (٢) النساء : ١٣٠

القسم الثاني

من هذا الباب النظر فى حقوق الزوج عليها

والقول الثاني فيه ، ان النكاح نوع رق . فهى رقيقة له . فعليها طاعة الزوج مطلقا فى كل ماطلب منها فى نفسها ، مما لا معصية فيه . وقد ورد فى تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة . قال صلى الله عليه وسلم (١) « أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ » (٢) وكان رجل قد خرج الى سفر ، وعهد الى امرأته ان لاتنزل من العلو الى السفل . وكان أبوها فى الأسفل فمرض ، فأرسلت المرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن فى النزول الى أبيها . فقال صلى الله عليه وسلم « أَطِيعِي زَوْجَكِ » فمات . فاستأمرته ، فقال « أَطِيعِي زَوْجَكِ » فدفن أبوها . فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليها يخبرها ان الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها .

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا ، وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا ، دَخَلَتْ جَنَّةَ رَبِّهَا » وأضاف طاعة الزوج الى مبانى الاسلام . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) النساء فقال « حَامِلَاتٌ وَالِدَاتٌ مُرْضِعَاتٌ رَحِيمَاتٌ بِأَوْلَادِهِنَّ لَوْلَا مَا يَأْتِينَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ دَخَلَ مُصَلِّيَاتُهُنَّ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « اطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ » فقلن لم يارسول الله ؟ قال « يُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَيَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ » يعنى الزوج المعاشر

---

(١) حديث أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة : الترمذى وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم سلمة

(٢) حديث : كان رجل خرج الى سفر وعهد الى امرأته أن لا تنزل من العلو الى السفل وكان أبوها فى السفل فمرض : الحديث الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف الا أنه قال غفر لأبيها

(٣) حديث : اذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها : الحديث ابن حبان من حديث أبى هريرة

(٤) حديث : ذكر النساء فقال حاملات والدات مرضعات : الحديث ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى امامة دون قوله مرضعات وهى عند الطبرانى فى الصغير

(٥) حديث اطلعت فى النار فاذا أكثر اهلها النساء : الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس

وفي خبر آخر [١] « اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا أَقَلُّ أَهْلِهَا النِّسَاءُ فَقُلْتُ أَيْنَ النِّسَاءُ؟ قَالَ شَغَلَهُنَّ الْأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ » يعني الحلي ومصبغات الثياب

وقالت عائشة رضي الله عنها أتت فتاة الى النبي صلى الله عليه وسلم [٢] فقالت يارسول الله، انى فتاة اخطب فاكره التزويج، فما حق الزوج على المرأة؟ قال « لَوْ كَانَ مِنْ فَرْقِهِ إِلَى قَدَمِهِ صَدِيدٌ فَلَحَسَتْهُ مَا أَدَّتْ شُكْرَهُ » قالت أفلا أتزوج؟ قال « بَلَى تَزَوَّجِي فَإِنَّهُ خَيْرٌ » قال ابن عباس أتت امرأة من خثعم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] فقالت، انى امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج؟ قال « إِنَّ مِنْ حَقِّ الزَّوْجِ عَلَى الزَّوْجَةِ إِذَا أَرَادَهَا فَرَاوَدَهَا عَلَى نَفْسِهَا وَهِيَ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرٍ لَا تَمْنَعُهُ، وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ لَا تُعْطِيَ شَيْئًا مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِنْ فَعَلَتْ ذَلِكَ كَانَ الْوِزْرُ عَلَيْهَا وَالْأَجْرُ لَهُ، وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ لَا تَصُومَ تَطَوُّعًا إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِنْ فَعَلَتْ جَاعَتْ وَعَطِشَتْ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهَا، وَإِنْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ أَوْ تَتُوبَ » وقال صلى الله عليه وسلم « [٤] لَوْ أَمَرْتُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ

---

(١) حديث اطلعت في الجنة فاذا أقل أهلها النساء فقلت أين النساء قال شغلهن الأحمران الذهب والزعفران أحمد من حديث ابى امامة بسند ضعيف وقال الحرير بدل الزعفران ولمسلم من حديث عزة الأشجعية ويل للنساء من الأحمرين الذهب والزعفران وسنده ضعيف

(٢) حديث عائشة أتت فتاة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يانبي الله انى فتاة أخطب وانى أكره التزويج فما حق الزوج على المرأة ـ الحديث الحاكم وصحح اسناده من حديث أبي هريرة دون قوله بلى فتزوجي فانه خير ولم أره من حديث عائشة

(٣) حديث ابن عمر أتت امرأة من خثعم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت انى امرأة أيم واريد أن اتزوج فما حق الزوج الحديث البيهقي مقتصراً على شطر الحديث ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف

(٤) حديث: لو أمرت احدا ان يسجد لأحد لآمرت المرأة ان تسجد لزوجها والولد لأبيه من عظم حقهما عليهما الترمذي وابن حبان من حديث ابى هريرة دون قوله والولد لأبيه فلم ارها وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد وابن ماجه من حديث عائشة وابن حبان من حديث ابن ابى اوفى

لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » وقال صلى الله عليه وسلم «[1] أَقْرَبُ مَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ مِنْ وَجْهِ رَبِّهَا إِذَا كَانَتْ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا وَإِنَّ صَلَاتَهَا فِي صَحْنِ دَارِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي الْمَسْجِدِ وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي صَحْنِ دَارِهَا وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا » والمخدع بيت في بيت وذلك للستر ولذلك قال عليه السلام[2] « الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ » وقال أيضاً[3] « لِلْمَرْأَةِ عَشْرُ عَوْرَاتٍ فَإِذَا تَزَوَّجَتْ سَتَرَ الزَّوْجُ عَوْرَةً وَاحِدَةً فَإِذَا مَاتَتْ سَتَرَ الْقَبْرُ الْعَشْرَ عَوْرَاتٍ »

فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، احدهما الصيانة والستر . والآخر ترك المطالبة مما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه اذا كان حراما . وهكذا كانت عادة النساء في السلف . كان الرجل اذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته : اياك وكسب الحرام ، فانا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . وهم رجل من السلف بالسفر ، فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجته لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة ؟ فقالت زوجي منذ عرفته عرفته أكالا وما عرفته رزاقا ، ولي رب رزاق ، يذهب الاكال ويبقى الرزاق

وخطبت رابعة بنت اسماعيل أحمد بن ابى الحوارى ، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها والله مالى همة فى النساء لشغلى بحالى ، فقالت انى لأشغل بحالى منك ، ومالى شهوة ولكن ورثت مالا جزيلا من زوجى ، فاردت ان تنفقه على اخوانك ، وأعرف بك الصالحين ، فيكون لى طريقا الى الله عز وجل . فقال حتى استأذن أستاذى ، فرجع الى أبى سليمان الدارانى ، قال وكان ينهانى عن التزويج ، ويقول ما تزوج أحد من أصحابنا الا تغير . فلما سمع كلامها قال تزوج بها ، فانها ولية لله ، هذا كلام الصديقين . قال فتزوجتها ، فكان

---

(١) حديث : اقرب ماتكون المرأة من ربها اذا كانت فى قعر بيتها فان صلاتها فى صحن دارها افضل من صلاتها فى المسجد ـ الحديث ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره وآخره رواه ابو داود مختصرا من حديثه دون ذكر صحن الدار ورواه البيهقى من حديث عائشة بلفظ ولأن تصلى فى الدار خير لها من ان تصلى فى المسجد واسناده حسن ولابن حبان من حديث ام حميد نحوه

(٢) حديث : المرأة عورة فاذا خرجت استشرفها الشيطان الترمذى وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود

(٣) حديث : للمرأة عشر عورات فاذا تزوجت ستر الزوج عورة ـ الحديث الحافظ ابوبكر محمد بن عمر الجعابى فى تاريخ الطالبين من حديث على بسند ضعيف وللطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس للمرأة ستران قيل وماهما قال الروح والقبر

فى منزلنا كن من جص ، ففى من غسل أيدى المستعجلين للخروج بعد الاكل ، فضلا عمن غسل بالاشنان . قال وتزوجت عليها ثلاث نسوة ، فكانت تطعمنى الطيبات ، وتطيبنى وتقول اذهب بنشاطك وقوتك الى أزواجك . وكانت رابعة هذه تشبه فى أهل الشام برابعة العدوية بالبصرة .

ومن الواجبات عليها أن لاتفرط فى ماله ، بل تحفظه عليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تُطْعِمَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِلَّا الرَّطْبَ مِنَ الطَّعَامِ الَّذِى يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنْ أَطْعَمَتْ عَنْ رِضَاهُ كَانَ لَهَا مِثْلُ أَجْرِهِ . وَإِنْ أَطْعَمَتْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ لَهُ الْأَجْرُ وَعَلَيْهَا الْوِزْرُ »

ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب العشرة مع الزوج . كما روى ان أسماء بنت خارجة الفزارى قالت لابنته عند التزوج : انك خرجت من العش الذى فيه درجت فصرت الى فراش لم تعرفيه ، وقرين لن تألفيه . فكونى له ارضا يكن لك سماء ، وكونى له مهادا يكن لك عمادا ، وكونى له أمة يكن لك عبدا . لا تلحفي به فيقلاك ، ولاتباعدى عنه فينساك ، ان دنا منك فاقربى منه ، وان نأى فابعدى عنه ، واحفظي أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن منك الا طيبا ، ولا يسمع الا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا

وقال رجل لزوجته :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ❊ ولاتنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرك الدف مرة ❊ فانك لاتدرين كيف المغيب
ولاتكثرى الشكوى فتذهب بالهوى ❊ ويأباك قلبي والقلوب تقلب
فانى رأيت الحب فى القلب والأذى ❊ اذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فالقول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل ، أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، لازمة

---

(١) حديث لايحل لها أن تطعم من بيته إلا باذنه إلا الرطب من الطعام ـ الحديث ابو داود الطيالسي والبيهقى من حديث ابن عمر فى حديث فيه ولاتعطى من بيته شيئا إلا باذنه فان فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر ولأبى داود من حديث سعد قالت امرأة يارسول الله انا كل على آبائنا وابنائنا وازواجنا فما يحل لنا من اموالهم قال الرطب تأكلنه وتهدينه وصحح الدار قطنى فى العلل ان سعداً هذا رجل من الأنصار ليس ابن ابى وقاص واختاره ابن القطان ولمسلم من حديث عائشة اذا انفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما انفقت ولزوجها اجره بما كسب

لمغزلها ، لايكثر صعودها واطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، لاتدخل عليهم الا في حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلها في غيبته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه في نفسها وماله ولا تخرج من بيتها إلا باذنه ، فان خرجت باذنه فمختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محترزة من ان يسمع غريب صوتها ، أو يعرفها بشخصها ، لاتتعرف الى صديق بعلها في حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه ، همها صلاح شأنها ، وتدبير بيتها ، مقبلة على صلاتها وصيامها . وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضراً لم تستفتهم ، ولم تعاوده في الكلام ، غيرة على نفسها وبعلها ، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها ، وحق سائر أقاربها ، متنظفة في نفسها ، مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها ان شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج . وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ ، امْرَأَةٌ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا وَحَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى بَنَاتِهَا حَتَّى ثَابُوا أَوْ مَاتُوا » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « حَرَّمَ اللهُ عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ الْجَنَّةَ يَدْخُلُهَا قَبْلِي . غَيْرَ أَنِّي أَنْظُرُ عَنْ يَمِينِي فَإِذَا امْرَأَةٌ تُبَادِرُنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَأَقُولُ مَالِهَذِهِ تُبَادِرُنِي ؟ فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ امْرَأَةٌ كَانَتْ حَسْنَاءَ جَمِيلَةً وَكَانَ عِنْدَهَا يَتَامَي لَهَا فَصَبَرَتْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى بَلَغَ أَمْرُهُنَّ الَّذِى بَلَغَ فَشَكَرَ اللهُ لَهَا ذَلِكَ »

ومن آدابها أن لاتتفاخر على الزوج بجمالها ، ولاتزدرى زوجها لقبحه . فقد روى ان الاصمعى قال ، دخلت البادية فاذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجها ، تحت رجل من أقبح الناس وجها . فقلت لها ياهذه ، أترضين لنفسك أن تكونى تحت مثله ، فقالت يا هذا اسكت ، فقد أسأت فى قولك . لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلنى ثوابه ، أولعلى أسأت فيما بينى وبين خالقى فجعله عقوبتى . أفلا أرضى بما رضى الله لى ! فاسكتتنى . وقال الاصمعى رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى مختضبة ، وبيدها سبحة . فقلت ما أبعد هذا من هذا ! فقالت :

---

(١) حديث انا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين ـ الحديث ابوداود من حديث ابى مالك الأشجعى بسند ضعيف

(٢) حديث حرم الله على كل آدمى الجنة ان يدخل قبلى غير أنى انظر عن يمينى فاذا امرأة تبادرنى الى باب الجنة الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابى هريرة بسند ضعيف

ولله مني جانب لا أضيعه * وللهو مني والبطالة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له

ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها ، والرجوع الى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها ، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال . روي عن معاذ ابن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللهُ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا »

ومما يجب عليها من حقوق النكاح اذا مات عنها زوجها ، أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر ، وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة . قالت زينب بنت أبي سلمة ،دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب ، فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره ، فدهنت به جارية ثم مست بعارضيها ، ثم قالت : والله مالي بالطيب من حاجة ، غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقول « لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تَحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً » ويلزمها لزوم مسكن النكاح الى آخر العدة ، وليس لها الانتقال الى أهلها ولا الخروج الا لضرورة .

ومن آدابها أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها . فقد روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها قالت : (٣) تزوجني الزبير ، وماله في الارض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه ، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه ، وأدق النوى لناضحه وأعلفه ، وأستقي الماء ، وأخرز غربه ، وأعجن . وكنت أنقل النوى على رأسي من

---

(١) حديث معاذ لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه ـ الحديث الترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه

(٢) حديث أم حبيبة لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت أكثر من ثلاثة ايام إلا على زوج اربعة اشهر وعشرا متفق عليه

(٣) حديث اسماء تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح فكنت اعلف فرسه ـ الحديث متفق عليه

ثلثي فرسخ ، حتى أرسل اليّ أبو بكر بجارية ، فكفتني سياسة الفرس . فكأنما أعتقني . ولقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ومعه أصحابه ، والنوى على رأسي . فقال صلى الله عليه وسلم « اخ اخ لِيُنِيخ نَاقَتَهُ وَيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ » فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته ، وكان أغير الناس . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم انى قد استحييت . فجئت الزبير ، فحكيت له ما جرى ، فقال والله لحملك النوى على رأسك أشد على من ركوبك معه .

تم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومنه وصلى الله على كل عبد مصطفى

كتاب آداب الكسب والمعاش

كتاب آداب الكسب والمعاش

﴿ وهو الكتاب الثالث من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد موحد امحق في توحيده ماسوى الواحد الحق وتلاشى ، ونمجده تمجيد من يصرح بان كل شيء ماسوى الله باطل ولا يتحاشى ، وان كل من في السموات والارض لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ولا فراشا ، ونشكره اذ رفع السماء لعباده سقفا مبنيا ومهد الارض بساطا لهم وفراشا ، وكور الليل على النهار فجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا ، لينتشروا في ابتغاء فضله وينتعشوا به عن ضراعة الحاجات انتعاشا . ونصلي على رسوله الذي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشا ، وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمرا وانكماشا . وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد . فان رب الارباب ومسبب الأسباب ، جعل الآخرة دار الثواب والعقاب ، والدنيا دار التمحل والاضطراب والتشمر والاكتساب . وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش ، بل المعاش ذريعة الى المعاد ، ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، ومدرجة اليها

والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين ، والاقرب الى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين . ولن ينال رتبة الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد ، ولن ينتهض من طلب الدنيا وسيلة الى الآخرة وذريعة ما لم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة وها نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ، ونشرحها في خمسة أبواب

(الباب الاول) : في فضل الكسب والحث عليه

(الباب الثاني) : في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات

(الباب الثالث) : في بيان العدل في المعاملة

(الباب الرابع) : في بيان الاحسان فيها

(الباب الخامس) : في شفقة التاجر على نفسه ودينه

الباب الأول

﴿ فى فضل الكسب والحث عنه ﴾

أما من الكتاب فقوله تعالى (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا[١]) فذكره فى معرض الامتنان . وقال تعالى (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ[٢]) فجعلها ربك نعمة ، وطلب الشكر عليها ، وقال تعالى (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ[٣]) وقال تعالى (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ[٤]) وقال تعالى (فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ[٥])

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهَمُّ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ » وقال عليه السلام [٢] « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالاً وَتَعَطُّفًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » وكان صلى الله عليه وسلم [٤] جالسا مع أصحابه ذات يوم ، فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى . فقالوا ويح هذا ، لوكان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَقُولُوا هَذَا فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَكُفَّهَا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَيُغْنِيَهَا عَنِ النَّاسِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ ضَعِيفَيْنِ أَوْ ذُرِّيَّةٍ ضِعَافٍ لِيُغْنِيَهُمْ وَيَكْفِيَهُمْ فَهُوَ

الباب الأول فى فضل الكسب والحث عليه

(١) حديث من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة : تقدم فى النكاح

(٢) حديث التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء : الترمذى والحاكم من حديث أبى سعيد قال الترمذى حسن وقال الحاكم انه من مراسيل الحسن ولابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر

(٣) حديث من طلب الدنيا حلالا تعففاً عن المسألة وسعياً على عياله ـ الحديث أبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

(٤) حديث كان النبى صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظر الى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا ويح هذا لوكان جلده فى سبيل الله ـ الحديث الطبرانى فى معاجمه الثلاثة من حديث كعب ابن عجرة بسند ضعيف

---

(١) النبأ : ١١ (٢) الحجر : ٢٠ (٣) البقرة ١٩٨ (٤) المزمل : ٢٠ (٥) الجمعة ١٠

فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَإِنْ كَانَ يَسْعَى تفَاخُراً وَتَكَاثُراً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ يَتَّخِذُ الْمِهْنَةَ لِيَسْتَغْنِيَ بِهَا عَنِ النَّاسِ وَيُبْغِضُ الْعَبْدَ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ يَتَّخِذُهُ مِهْنَةً » وفى الخبر (٢) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَحَلُّ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٌ » وفى خبر آخر (٤) « أَحَلُّ مَا أَكَلَ الْعَبْدُ كَسْبُ يَدِ الصَّانِعِ إِذَا نَصَحَ » وقال عليه السلام (٥) « عَلَيْكُمْ بِالتِّجَارَةِ فَإِنَّ فِيهَا تِسْعَةَ أَعْشَارِ الرِّزْقِ » وروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلا فقال ماتصنع ؟ قال أتعبد . قال من يعولك ؟ قال أخي . قال أخوك أعبد منك . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئاً يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ . وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ

---

(١) حديث ان الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس ـ الحديث لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على ان الله يحب أن يرى عبده تعباً فى طلب الحلال وفيه محمد بن سهل العطار قال الدارقطنى يضع الحديث

(٢) حديث ان الله يحب المؤمن المحترف :الطبرانى وابن عدى وضعفه من حديث ابن عمر

(٣) حديث أحل ماأكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور: أحمد من حديث رافع بن خديج قيل يارسول الله أى الكسب أطيب قال عمل الرجل بيده وكل عمل مبرور ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه قال الحاكم صحيح الاسناد قال وذكر يحي بن معين ان عم سعيد البراء ابن عازب ورواه البيهقى من رواية سعيد بن عمير مرسلا وقال هذا هو المحفوظ وخطأ قول من قال عن عمه وحكاه عن البخارى ورواه احمد والحاكم من رواية جميع بن عمير عن خاله أبى بردة وجميع ضعيف والله أعلم

(٤) حديث أحل ماأكل العبد كسب الصانع اذا نصح: احمد من حديث ابى هريرة خير الكسب كسب العامل اذا نصح واسناده حسن

(٥) حديث عليكم بالتجارة فان فيها تسعة أعشار الرزق: ابراهيم الحربى فى غريب الحديث من حديث نعيم ابن عبدالرحمن تسعة أعشار الرزق فى التجارة ورجاله ثقات ونعيم هذا قال فيه ابن منده ذكر فى الصحابة ولايصح وقال أبوحاتم الرازى وابن حبان انه تابعى فالحديث مرسل

(٦) حديث انى لاأعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار الانهيتكم عنه فان الروح الأمين نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها ـ الحديث :ابن أبى الدنيا فى القناعة والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهدا لحديث ابى حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين وهما مختصران ورواه البيهقي فى شعب الايمان وقال انه منقطع

رِزْقَهَا وإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِى الطَّلَبِ » أمر بالاجمال فى الطلب ولم يقل اتركوا الطلب . ثم قال فى آخره « وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تعالى فَإِنَّ اللهَ لَايُنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [1] «الْأَسْوَاقُ مَوَائِدُ اللهِ تعالى فَمَنْ أَتَاهَا أَصَابَ مِنْهَا » وقال عليه السلام [2] « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً أَعْطَاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ » وقال [3] « مَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَاباً مِنَ السُّؤَالِ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْفَقْرِ »

وأما الآثار : فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يابنى استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ماافتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به

وقال عمر رضى الله عنه ، لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة . وكان زيد بن مسلمة يغرس فى أرضه، فقال له عمر رضى الله عنه أصبت . استغن عن الناس يكن أصون لدينك ، وأكرم لك عليهم ،كما قال صاحبكم أحيحة

فلن أزال على الزوراء أعمرها * ان الكريم على الاخوان ذو المال

وقال ابن مسعود رضى الله عنه انى لأكره أن أرى الرجل فارغا لافى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته. وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق أهو أحب اليك أم المتفرغ للعبادة؟ قال التاجر الصدوق أحب الىّ، لانه فى جهاد ، يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان، ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده . وخالفه الحسن البصرى فى هذا . وقال عمر رضى الله عنه ،ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لأهلى ، أبيع واشترى، وقال الهيثم ، ربما يبلغنى عن الرجل يقع فىّ فأذكر استغنائى عنه فيهون ذلك على وقال أيوب ، كسب فيه شيء أحب إلىّ من سؤال الناس ،

---

(١) حديث الأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها : رويناه فى الطيوريات من قول الحسن البصرى ولم أجده مرفوعا

(٢) حديث لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا ـ الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر : الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها وقال حسن صحيح

وجاءت ريح عاصفة في البحر ، فقال أهل السفينة لابراهيم بن أدهم رحمه الله ،وكان معهم فيها ، أما ترى هذه الشدة ؟ فقال ما هذه الشدة ، انما الشدة الحاجة الى الناس . وقال أيوب قال لي أبو قلابة الزم السوق ، فان الغنى من العافية . يعني الغنى عن الناس . وقيل لأحمد ، ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيأ حتى يأتيني رزقي ؟ فقد أحمد ، هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللّهَ جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي » وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال (٢) « تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً » فذكر أنها تغدو في طلب الرزق .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم والقدوة بهم . وقال أبو قلابة لرجل ، لأن أراك تطلب معاشك أحب الى من أن أراك في زاوية المسجد . وروى ان الأوزاعي لقي ابراهيم بن أدهم رحمهم الله ، وعلى عنقه حزمة حطب، فقال له يا أبا اسحق ، الى متى هذا ؟ اخوانك يكفونك . فقال دعني عن هذا يا أبا عمرو ،فانه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة . وقال أبو سليمان الداراني ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ينادي مناد يوم القيامة أين بغضاء الله في ارضه؟ فيقوم سؤال المساجد فهذه مذمة الشرع للسؤال والاتكال على كفاية الاغيار ، ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك الا الكسب والتجارة

فان قلت: فقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَنِ اجْمَعِ الْمَالَ وَكُنْ مِنَ التَّاجِرِينَ وَلَـكِنْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » وقيل لسلمان الفارسي أوصنا ، فقال من استطاع منكم أن يموت حاجا ، أو غازيا . أو عامرا لمسجد ربه ، فليفعل . ولا يموتن تاجرا ولا خائنا

(١) حديث ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي .احمد من حديث ابن عمر جعل رزقي تحت ظل رمحي واسناده صحيح

(٢) حديث ذكر الطير فقال تغدو خماصا وتروح بطانا :الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي حسن صحيح

(٣) حديث ماأوحي الى أن أجمع المال وكن من التاجرين ولكن أوحي الى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين :ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين

فالجواب انوجه الجمع بين هذه الاخبار تفصيل الاحوال . فنقول لسنا نقول التجارة أفضل مطلقا من كل شيء ، ولكن التجارة اما أن تطلب بها الكفاية ، أو الثروة ، أو الزيادة على الكفاية . فان طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره، لا ليصرف الى الخيرات والصدقات ، فهى مذمومة . لأنه اقبال على الدنيا التى حبها رأس كل خطيئة . فان كان مع ذلك ظالما خائنا ، فهو ظلم وفسق . وهذا ما أراده سلمان بقوله ، لاتمت تاجراً ولا خائنا . وأراد بالتاجر طالب الزيادة . فأما اذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده ، وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال ، فالتجارة تعففا عن السؤال أفضل . وان كان لايحتاج الى السؤال ، وكان يعطى من غير سؤال ، فالكسب أفضل . لأنه انما يعطى لأنه سائل بلسان حاله ، ومناد بين الناس بفقره . فالتعفف والتستر أولى من البطالة ، بل من الاشتغال بالعبادات البدنية . وترك الكسب أفضل لأربعة : عابد بالعبادات البدنية ، أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب فى علوم الأحوال والمكاشفات ، أو عالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به فى دينهم ، كالمفتى والمفسر والمحدث وأمثالهم ، أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمورهم ، كالسلطان والقاضى والشاهد . فهؤلاء اذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح ، أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء ، فإقبالهم على ماهم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب . ولهذا أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، ولم يوح اليه أن كن من التاجرين ، لأنه كان جامعا لهذه المعانى الاربعة الى زيادات لايحيط بها الوصف . ولهذا أشار الصحابة على أبى بكر رضى الله عنهم بترك التجارة لما ولى الخلافة ، اذ كان ذلك يشغله عن المصالح . وكان يأخذ كفايته من مال المصالح . ورأى ذلك أولى . ثم لما توفى أوصى برده الى بيت المال ، ولكنه رآه فى الابتداء أولى

ولهؤلاء الأربعة حالتان أخريان ، احداهما أن تكون كفايتهم عند ترك الكسب من أيدى الناس ، وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة ، من غير حاجة الى سؤال . فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه أولى ، اذ فيه إعانة الناس على الخيرات ، وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم .

الحالة الثانية الحاجة الى السؤال . وهذا فى محل النظر . والتشديدات التى رويناها

فى السؤال وذمه،تدل ظاهرا على أن التعفف عن السؤال أولى . واطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير . بل هو موكول الى اجتهاد العبد ونظره لنفسه ، بأن يقابل مايلقى فى السؤال من المذلة وهتك المروءة، والحاجة الى التثقيل والالحاح، بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره . فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته فى اشتغاله بالعلم أو العمل ، ويهون عليه بأدنى تعريض فى السؤال تحصيل الكفاية.وربما يكون بالعكس . وربما يتقابل المطلوب والمحذور . فينبغى أن يستفتى المريد فيه قلبه وان أفتاه المفتون فان الفتاوى لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال

ولقد كان فى السلف من له ثلثمائة وستون صديقاً ، ينزل على كل واحد منهم ليلة .ومنهم من له ثلاثون . وكانوا يشتغلون بالعبادة ، لعلمهم أن المتكفلين بهم يتقلدون منة من قبولهم لمبراتهم . فكان قبولهم لمبراتهم خيرا مضافا لهم الى عباداتهم.فينبغى أن يدقق النظر فى هذه الأمور فان أجر الآخذ كأجر المعطى ، مهما كان الآخذ يستعين به على الدين . والمعطى يعطيه عن طيب قلب . ومن اطلع على هذه المعانى أمكنه أن يتعرف حال نفسه .ويستوضح من قلبه ماهو الأفضل له بالاضافة الى حاله ووقته

فهذه فضيلة الكسب . وليكن العقد الذى به الاكتساب جامعاً لأربعة أمور، الصحة والعدل ، والاحسان ، والشفقة على الدين . ونحن نعقد فى كل واحد بابا ، ونبتدىء بذكر أسباب الصحة فى الباب الثانى .

الباب الثانى

فى علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة
وبيان شروط الشرع فى صحة هذه التصرفات التى هى مدار المكاسب فى الشرع

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب . لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ،وانما هو طلب العلم المحتاج اليه . والمكتسب يحتاج الى علم الكسب . ومهما حصل علم هذا الباب ، وقف على مفسدات المعاملة فيتقيها ، وما شذ عنه من الفروع المشكلة فيقع على

سبب اشكالها ، فيتوقف فيها الى أن يسأل . فانه اذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملى ، فلا يدرى متى يجب عليه التوقف والسؤال . ولو قال لا أقدم العلم ، ولكنى اصبر الى أن تقع لى الواقعة ، فعندها أتعلم واستفتى ، فيقال له وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جمل مفسدات العقود؟ فانه يستمر فى التصرفات ويظنها صحيحة مباحة ، فلا بد له من هذا القدر من علم التجارة ، ليتميز له المباح عن المحظور ، وموضع الاشكال عن موضع الوضوح . ولذلك روى عن عمر رضى الله عنه ، أنه كان يطوف السوق ، ويضرب بعض التجار بالدرة ، ويقول لا يبيع فى سوقنا إلا من يفقه ، وإلا أكل الربا شاء أم أبى

وعلم العقود كثير ، ولكن هذه العقود الستة لا تنفك المكاسب عنها ، وهى البيع ، والربا ، والسلم ، والاجارة ، والشركة ، والقراض ، فلنشرح شروطها

العقد الأول

البيع

وقد أحله الله تعالى ، وله ثلاثة أركان : العاقد ، والمعقود عليه ، واللفظ .

الركن الاول : العاقد . ينبغى للتاجر أن لا يعامل بالبيع أربعة : الصبى ، والمجنون ، والعبد والاعمى . لأن الصبى غير مكلف ، وكذا المجنون . وبيعهما باطل . فلا يصح بيع الصبى ، وان أذن له فيه الولىّ عند الشافعى . وما أخذه منهما مضمون عليه لهما ، وما سلمه فى المعاملة اليهما فضاع فى أيديهما فهو المضيع له . وأما العبد العاقل ، فلا يصح بيعه وشراؤه إلا باذن سيده . فعلى البقال والخباز والقصاب وغيرهم ، أن لا يعاملوا العبيد ، ما لم تأذن لهم السادة فى معاملتهم ، وذلك بأن يسمعه صريحا ، أو ينتشر فى البلد أنه مأذون له فى الشراء لسيده ، وفى البيع له ، فيعوّل على الاستفاضة ، أو على قول عدل يخبره بذلك . فإن عامله بغير اذن السيد فعقده باطل ، وما أخذه منه مضمون عليه لسيده . وما تسلمه ان ضاع فى يد العبد لا يتعلق برقبته ، ولا يضمنه سيده . بل ليس له الا المطالبة اذا عتق . وأما الأعمى فانه يبيع ويشترى ما لا يرى فلا يصح ذلك . فليأمره بان يوكل وكيلا بصيراً ليشترى له أو يبيع ، فيصح توكيله ، ويصح بيع وكيله . فان عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة ، وما أخذه منه مضمون

عليه بقيمته ، وما سلمه اليه أيضاً مضمون له بقيمته . وأما الكافر فتجوز معاملته ، لكن لا يباع منه المصحف ، ولا العبد المسلم ، ولا يباع منه السلاح ان كان من أهل الحرب . فان فعل فهي معاملات مردودة ، وهو عاص بها ربه

وأما الجندية من الاتراك ، والتركمانية ، والعرب ، والأكراد ، والسراق ، والخونة ، وأكلة الربا ، والظلمة ، وكل من أكثر ماله حرام ، فلا ينبغي أن يتملك مما في أيديهم شيأ لأجل أنها حرام، الا اذا عرف شيئا بعينه أنه حلال. وسيأتي تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام

الركن الثاني في المعقود عليه : وهو المال المقصود نقله من أحد العاقدين الى الآخر ، ثمنا كان أو مثمنا ، فيعتبر فيه ستة شروط :

الاول: أن لا يكون نجسا في عينه ، فلا يصح بيع كلب وخنزير ، ولا بيع زبل وعذرة ، ولا بيع العاج والأواني المتخذة منه ، فان العظم ينجس بالموت ، ولا يطهر الفيل بالذبح ، ولا يطهر عظمه بالتذكية . ولا يجوز بيع الخمر ، ولا بيع الودك النجس المستخرج من الحيوانات التي لا تؤكل ، وان يصلح للاستصباح أو طلاء السفن . ولا بأس ببيع الدهن الطاهر في عينه، الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه ، فانه يجوز الانتفاع به في غير الأكل ، وهو في عينه ليس بنجس . وكذلك لا أرى بأسا ببيع بزر القز ، فانه أصل حيوان ينتفع به ، وتشبيهه بالبيض وهو أصل حيوان ، أولى من تشبيهه بالروث . ويجوز بيع فارة المسك ، ويقضى بطهارتها اذا انفصلت من الظبية في حالة الحياة

الثاني: أن يكون منتفعاً به ، فلا يجوز بيع الحشرات ، ولا الفأرة ، ولا الحية . ولا التفات الى انتفاع المشعبذ بالحية ، وكذا لا التفات الى انتفاع أصحاب الحلق باخراجها من السلة وعرضها على الناس . ويجوز بيع الهرة والنحل ، وبيع الفهد والاسد ، ومايصلح لصيد أو ينتفع بجلده ويجوز بيع الفيل لأجل الحمل . ويجوز بيع الطوطي وهي الببغاء ، والطاوس والطيور المليحة الصور ، وان كانت لا تؤكل ، فان التفرج بأصواتها والنظر اليها غرض مقصود مباح ، وانما الكلب هو الذي لا يجوز أن يقتنى اعجابا بصورته ، لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه [١]

---

(١) حديث النهي عن اقتناء الكلب :متفق عليه من حديث ابن عمر من اقتنى كلباً إلا كلب ماشية أو ضاريا نقص من عمله كل يوم قيراطان

ولا يجوز بيع العود والصنج والمزامير والملاهي ، فانه لامنفعة لها شرعا . وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحيوانات التي تباع في الأعياد للعب الصبيان ، فان كسرها واجب شرعا . وصور الأشجار متسامح بها ، وأما الثياب والاطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها . وكذا الستور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها (١) « اتَّخِذِي مِنْهَا نَمَارِقَ » ولا يجوز استعمالها منصوبة ، ويجوز موضوعة . واذا جاز الانتفاع من وجه ، صح البيع لذلك الوجه

الثالث أن يكون المتصرف فيه مملوكا للعاقد ، أو مأذونا من جهة المالك . ولا يجوز أن يشترى من غير المالك انتظارا للاذن من المالك . بل لو رضى بعد ذلك وجب استئناف العقد . ولا ينبغى أن يشترى من الزوجة مال الزوج ، ولا من الزوج مال الزوجة ، ولا من الوالد مال الولد ، ولا من الولد مال الوالد ، اعتمادا على أنه لو عرف لرضى به ، فانه اذا لم يكن الرضا متقدما لم يصح البيع . وأمثال ذلك مما يجرى في الأسواق . فواجب على العبد المتدين أن يحترز منه .

الرابع أن يكون المعقود عليه مقدوراً على تسليمه شرعا وحسا ، فما لا يقدر على تسليمه حسا لا يصح بيعه . كالآبق ، والسمك في الماء ، والجنين في البطن ، وعسب الفحل . وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان ، واللبن في الضرع لا يجوز فانه يتعذر تسليمه ، لاختلاط غير المبيع بالمبيع . والمعجوز عن تسليمه شرعا ، كالمرهون والموقوف والمستولدة ، فلا يصح بيعها أيضا . وكذا بيع الام دون الولد ، اذا كان الولد صغيرا . وكذا بيع الولد دون الأم ، لأن تسليمه تفريق بينهما وهو حرام . فلا يصح التفريق بينهما بالبيع

الخامس ان يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف ، أما العلم بالعين فبأن يشير اليه بعينه ، فلو قال بعتك شاة من هذا القطيع أى شاة أردت ، أو ثوبا من هذه الثياب التي بين يديك ، أو ذراعا من هذا الكرباس وخذه من أى جانب شئت ، أو عشرة أذرع من

(١) حديث اتخذى منه نمارق يقوله لعائشة : متفق عليه من حديثها

هذه الأرض وخذه من أى طرف شئت ، فالبيع باطل . وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون فى الدين ، إلا أن يبيع شائعا ، مثل ان يبيع نصف الشيء أو عشره ، فان ذلك جائز . وأما العلم بالقدر ، فانما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر اليه . فلو قال بعتك هذا الثوب بما باع به فلان ثوبه ، وهما لا يدريان ذلك فهو باطل . ولو قال بعتك بزنة هذه الصنجة فهو باطل ، إذا لم تكن الصنجة معلومة . ولو قال بعتك هذه الصبرة من الحنطة فهو باطل . أو قال بعتك بهذه الصبرة من الدراهم ، أو بهذه القطعة من الذهب ، وهو يراها ، صح البيع ، وكان تخمينه بالنظر كافيا فى معرفة المقدار . وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية فى الأعيان . ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته منذ مدة لا يغلب التغير فيها ، والوصف لا يقوم مقام العيان . هذا أحد المذهبين . ولا يجوز بيع الثوب فى المنسج اعتمادا على الرقوم ، ولا بيع الحنطة فى سنبلها . ويجوز بيع الارز فى قشرته التى يدخر فيها . وكذا بيع الجوز واللوز فى القشرة السفلى ولا يجوز فى القشرتين . ويجوز بيع الباقلاء الرطب فى قشريه للحاجة . ويتسامح ببيع الفقاع لجريان عادة الاولين به ، ولكن نجعله إباحة بعوض ، فان اشتراه ليبيعه ، فالقياس بطلانه لأنه ليس مستترا استتر خلقة ، ولا يبعد أن يتسامح به ، إذ فى إخراجه إفساده كالرمان وما يستتر بستر خلق معه

السادس أن يكون المبيع مقبوضا ، ان كان قد استفاد ملكه بمعاوضة . وهذا شرط خاص وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] عن بيع مالم يقبض . ويستوى فيه العقار والمنقول فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل . وقبض المنقول بالنقل ، وقبض العقار بالتخلية وقبض ما ابتاعه بشرط الكيل لا يتم الا بان يكتاله . وأما بيع الميراث والوصية والوديعة ، ومالم يكن الملك حاصلا فيه بمعاوضة ، فهو جائز قبل القبض

الركن الثالث لفظ العقد . فلا بد من جريان ايجاب وقبول متصل به ، بلفظ دال على المقصود مفهم اما صريح أو كناية . فلو قال أعطيتك هذا بذاك ، بدل قوله بعتك ، فقال قبلته ، جاز مهما قصدا به البيع . لأنه قد يحتمل الاعارة إذا كان فى ثوبين أو دابتين . والنية تدفع الاحتمال . والصريح أقطع للخصومة . ولكن الكناية تفيد الملك والحل أيضا فيما يختاره . ولا ينبغى أن يقرن بالبيع شرطا على خلاف مقتضى العقد فلو شرط أن يزيد شيأ آخر ، أو أن يحمل المبيع إلى داره ، كل ذلك فسد ، إلا إذا أفرد استئجاره

---

(١) حديث النهى عن بيع مالم يقبض : متفق عليه من حديث ابن عباس

على النقل ، بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول . ومهما لم يجر بينهما إلا المعاطاة بالفعل دون التلفظ باللسان ، لم ينعقد البيع عند الشافعي أصلا ، وانعقد عند ابى حنيفة ان كان فى المحقرات . ثم ضبط المحقرات عسير . فان رد الامر إلى العادات، فقد جاوز الناس المحقرات فى المعاطاة . إذ يتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوبا ديباجا قيمته عشرة دنانير مثلا ويحمله إلى المشترى ، ويعود اليه بأنه ارتضاه ، فيقول له خذ عشرة ، فيأخذ من صاحبه العشرة ، ويحملها ويسلمها إلى البزاز ، فيأخذها ويتصرف فيها ، ومشترى الثوب يقطعه ، ولم يجر بينهما ايجاب وقبول أصلا . وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت البياع ، فيعرض متاعا قيمته مائة دينار مثلا فيمن يزيد . فيقول أحدهم هذا على بتسعين ، ويقول الآخر هذا على بخمسة وتسعين ، ويقول الآخر هذا بمائة ، فيقال له زن ، فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير ايجاب وقبول . فقد استمرت به العادات

وهذه من المعضلات التى ليست تقبل العلاج ، إذ الاحتمالات ثلاثة :

إما فتح باب المعاطاة مطلقا فى الحقير والنفيس وهو محال ، إذ فيه نقل الملك من غير لفظ دال عليه ، وقد أحل الله البيع ، والبيع اسم للايجاب والقبول ، ولم يجر ولم ينطلق اسم البيع على مجرد فعل بتسليم وتسلم . فبماذا يحكم بانتقال الملك من الجانبين ، لاسيما فى الجوارى والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه ، إذ للمسلِّم أن يرجع ويقول قد ندمت وما بعته ، إذ لم يصدر منى إلا مجرد تسليم ، وذلك ليس ببيع

الاحتمال الثانى أن نسد الباب بالكلية ، كما قال الشافعى رحمه الله من بطلان العقد . وفيه اشكال من وجهين أحدهما أنه يشبه أن يكون ذلك فى المحقرات معتادا فى زمن الصحابة، ولو كانوا يتكلفون الايجاب والقبول مع البقال والخباز والقصاب لثقل عليهم فعله ، ولنقل ذلك نقلا منتشرا، ولكان يشتهر وقت الاعراض بالكلية عن تلك العادة . فان الاعصار فى مثل هذا تتفاوت والثانى أن الناس الآن قد انهمكوا فيه ، فلا يشترى الانسان شيئاً من الأطعمة وغيرها إلا ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاطاة ، فأى فائدة فى تلفظه بالعقد اذا كان الأمر كذلك

الاحتمال الثالث أن يفصل بين المحقرات وغيرها ، كما قاله أبو حنيفة رحمه الله ، وعند ذلك يتعسر الضبط فى المحقرات ، ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه . وقد ذهب

ابن سريج إلى تخريج قول للشافعي رحمه الله على وفقه . وهو أقرب الأحتمالات إلى الاعتدال فلا بأس لوملنا اليه لمسيس الحاجات . ولعموم ذلك بين الخلق ، ولما يغلب على الظن بان ذلك كان معتادا فى الأعصار الاول

فاما الجواب عن الاشكالين فهو أن نقول :

أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير ، فان ذلك غير ممكن . بل له طرفان واضحان،إذ لايخفى أن شراء البقل ، وقليل من الفواكه ، والخبز واللحم من المعدود من المحقرات التى لا يعتاد فيها الاالمعاطاة ، وطالب الايجاب والقبول فيه يعد مستقصيا ، ويستبرد تكليفه لذلك ويستثقل ، وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ، ولا وجه له . فهذا طرف الحقارة . والطرف الثانى الدواب والعبيد ، والعقارات والثياب النفيسة فذلك مما لايستبعد تكلف الايجاب والقبول فيها . وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها ، هى فى محل الشبهة . فحق ذى الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط . وجميعُ ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة ، كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة ، وأوساط مشكلة .

وأما الثانى وهو طلب سبب لنقل الملك . فهو أن يجعل الفعل باليد أخذا وتسليما سببا . إذ اللفظ لم يكن سببا لعينه ، بل لدلالته . وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة فى العادة ، وانضم اليه مسيس الحاجة وعادة الاولين،واطراد جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول ، مع التصرف فيها ، وأى فرق بين أن يكون فيه عرض أو لايكون ؟ إذالملك لابدمن نقله فى الهبة أيضا، إلا أن العادة السالفة لم تفرق فى الهدايا بين الحقير والنفيس،بل كان طلب الايجاب والقبول يستقبح فيه كيف كان ،وفى المبيع لم يستقبح فى غير المحقرات. هذامانراه أعدل الاحتمالات

وحق الورع المتدين أن لايدع الايجاب والقبول ، للخروج عن شبهة الخلاف . فلا ينبغى أن يمتنع من ذلك لأجل أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول . فان ذلك لايعرف تحقيقا ، فربما اشتراه بقبول وإيجاب . فان كان حاضرا عند شرائه ، أو أقر البائع به، فليمتنع منه ، وليشتر من غيره . فان كان الشيء محقرا ، وهو اليه محتاج ، فليتلفظ بالايجاب والقبول فانه يستفيد به قطع الخصومة فى المستقبل معه ، اذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن ، ومن الفعل ممكن .

فان قلت فان أمكن هذا فيما يشتريه ، فكيف يفعل إذا حضر فى ضيافة أو على مائدة ، وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطاة فى البيع والشراء ، أو سمع منهم ذلك أو رآه ، أيجب عليه الامتناع من الأكل ؟

فأقول يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذى اشتروه مقدارا نفيسا ، ولم يكن من المحقرات . وأما الأكل فلا يجب الامتناع منه . فانى أقول أن ترددنا فى جعل الفعل دلالة على نقل الملك ، فلا ينبغي أن لا نجعله دلالة على الاباحة . فان أمر الاباحة أوسع ، وأمر نقل الملك أضيق . فكل مطعوم جرى فيه بيع معاطاة ، فتسليم البائع إذن فى الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال ، كاذن الحمامى فى دخول الحمام . والإذن فى الاطعام لمن يريده المشترى فينزل منزلة مالو قال أبحت لك أن تأكل هذا الطعام ، أو تطعم من أردت ، فانه يحل له . ولو صرح وقال كل هذا الطعام ، ثم أغرم لى عوضه ، لحل الأكل ، ويلزمه الضمان بعد الأكل . هذا قياس الفقه عندى ، ولكنه بعد المعاطاة آكل ملكه ومتلف له ، فعليه الضمان وذلك فى ذمته . والثمن الذى سامه إن كان مثل قيمته ، فقد ظفر المستحق بمثل حقه ، فله أن يتملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه . وإن كان قادرا على مطالبته ، فانه لا يتملك ماظفر به من ملكه ، لأنه ربما لا يرضى بتلك العين أن يصرفها إلى دينه ، فعليه المراجعة . وأما ههنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم ، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضا ، بأن يستوفى دينه مما يسلم اليه فيأخذه بحقه . لكن على كل الأحوال جانب البائع أغمض ، لأن ما أخذه قد يريد المالك ليتصرف فيه ، ولا يمكنه التملك إلا إذا أتلف عين طعامه فى يد المشترى ثم ربما يفتقر إلى استئناف قصد التملك ، ثم يكون قد تملك بمجرد رضا استفاده من الفعل دون القول . وأما جانب المشترى للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فهين ، فان ذلك يباح بالاباحة المفهومة من قرينة الحال ، ولكن ربما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ماأتلفه ، وانما يسقط الضمان عنه اذا تملك البائع ماأخذه من المشترى فيسقط . فيكون كالقاضى دينه والمتحمل عنه

فهذا مانراه فى قاعدة المعاطاة على غموضها ، والعلم عند الله . وهذه احتمالات وظنون رددناها ، ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون . وأما الورع فانه ينبغى أن يستفتى قلبه ، ويتقى مواضع الشبه .

العقد الثانى

عقد الربا

وقد حرمه الله تعالى وشدد الأمر فيه . ويجب الاحتراز منه على الصيارفة المتعاملين على النقدين ، وعلى المتعاملين على الأطعمة . إذ لاربا إلا فى نقد أو فى طعام . وعلى الصير فى أن يحترز من النسيئة والفضل . أما النسيئة فان لايبيع شيئا من جواهر النقدين ، بشىء من جواهر النقدين إلا يداً بيد . وهو أن يجرى التقابض فى المجلس . وهذا احتراز من النسيئة وتسليم الصيارفة الذهب الى دار الضرب ، وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء ومن حيث أن الغالب أن يجرى فيه تفاصل ، اذلا يرد المضروب بمثل وزنه

وأما الفضل فيحترز منه فى ثلاثة أمور : فى بيع المكسر بالصحيح ، فلاتجوز المعاملة فيهما الا مع المماثلة . وفى بيع الجيد بالردىء ، فلا ينبغى أن يشترى رديئا بجيد دونه فى الوزن ، أو ببيع رديئا بجيد فوقه فى الوزن ، أعنى اذا باع الذهب بالذهب ،والفضةبالفضة . فان اختلف الجنسان فلا حرج فى الفضل . والثالث فى المركبات من الذهب والفضة ، كالدنانير المخلوطة من الذهب والفضة ، ان كان مقدار الذهب مجهولا لم تصح المعاملة عليها أصلا ، الا اذا كان ذلك نقدا جاريا فى البلد ، فانا نرخص فى المعاملة عليه ، اذا لم يقابل بالنقد . وكذا الدراهم المغشوشة بالنحاس ، ان لم تكن رائجة فى البلد لم تصح المعاملة عليها ، لأن المقصود منها النقرة وهى مجهولة . وان كان نقدا رائجا فى البلد رخصنا فى المعاملة لأجل الحاجة ، وخروج النقرة عن ان يقصد استخراجها . ولكن لايقابل بالنقرة أصلا. وكذلك كل حلى مركب من ذهب وفضة ، فلايجوز شراؤه لا بالذهب ولا بالفضة . بل ينبغى أن يشترى بمتاع آخر ان كان قدر الذهب منه معلوما ، الا اذا كان مموهابالذهب تمويهالايحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار ، فيجوز بيعها بمثلها من النقرة ، وبما أريد من غير النقرة . وكذلك لايجوز للصير فى أن يشترى قلادة فيها خرز وذهب ، بذهب ، ولا أن يبيعه ، بل بالفضة يدا بيد ان لم يكن فيها فضة . ولايجوز شراء ثوب منسوج بذهب ، يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار ، بذهب . ويجوز بالفضة وغيرها

وأما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقابض فى المجلس ، اختلف جنس الطعام المبيع والمشترى أو لم يختلف . فان اتحد الجنس فعليهم التقابض ومراعاة المماثلة . والمعتاد فى هذا معامله القصاب ، بان يسلم اليه الغنم ويشترى بها اللحم ، نقدا أو نسيئة ، فهو حرام. ومعاملة الخباز ، بان يسلم اليه الحنطة ويشترى بها الخبز ، نسيئة أو نقدا ، فهو حرام. ومعاملة العصار بان يسلم اليه البزر والسمسم والزيتون ، ليأخذ منه الأدهان ، فهو حرام . وكذا اللبان ، يعطى اللبن ، ليؤخذ منه الجبن والسمن والزبد وسائر أجزاء اللبن ، فهو أيضا حرام . ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام الا نقداً ، وبجنسه إلا نقدا ومتماثلا . وكل ما يتخذ من الشيء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متماثلا ولا متفاضلا ، فلا يباع بالحنطة دقيق وخبز وسويق ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير ، ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن . والمماثلة لا تفيد اذا لم يكن الطعام فى حال كمال الادخار ، فلا يباع الرطب بالرطب ، والعنب بالعنب ، متفاضلا ومتماثلا .

فهذه جمل مقنعة فى تعريف البيع ، والتنبيه على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد ، حتى يستفتى فيها اذا تشكك والتبس عليه شيء منها . واذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال واقتحم الربا والحرام وهو لايدرى .

العقد الثالث

السلم

وليراع التاجر فيه عشرة شروط :

الاول أن يكون رأس المال معلوما على مثله ، حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع الى قيمة رأس المال . فان أسلم كفا من الدراهم جزافا فى كر حنطة لم يصح فى أحد القولين

الثانى أن يسلم رأس المال فى مجلس العقد قبل التفرق ، فلو تفرقا قبل القبض انفسخ السلم

الثالث أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه ، كالحبوب والحيوانات والمعادن ، والقطن والصوف والأبريسم ، والألبان واللحوم ، ومتاع العطارين واشباهها . ولايجوز فى المعجونات والمركبات وماتختلف أجزاؤه ، كالقسى المصنوعة ، والنبل المعمول ، والخفاف

والنعال المختلفة أجزاؤها وصنعتها ، وجلود الحيوانات . ويجوز السلم فى الخبز . ومايتطرق اليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته ، يعفى عنه ويتسامح فيه

الرابع أن يستقصى وصف هذه الأمور القابلة للوصف ، حتى لايبقى وصف تتفاوت به القيمة تفاوتا لايتغابن بمثله الناس الا ذكره . فان ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية فى البيع

الخامس أن يجعل الأجل معلوما ان كان مؤجلا ، فلا يؤجل الى الحصاد ، ولا الى ادراك الثمار ، بل الى الاشهر والأيام . فان الادراك قد يتقدم وقد يتأخر

السادس أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت المحل ، ويؤمن فيه وجوده غالبا فلا ينبغى أن يسلم فى العنب الى أجل لايدرك فيه ، وكذا سائر الفواكه . فان كان الغالب وجوده ، وجاء المحل ، وعجز عن التسليم بسبب آفة ، فله أن يمهله ان شاء ، أو يفسخ ويرجع فى رأس المال ان شاء

السابع أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به ، كي لا يثير ذلك نزاعا

الثامن أن لا يعلقه بمعين فيقول من حنطة هذا الزرع ، أو ثمرة هذا البستان ، فان ذلك يبطل كونه دينا . نعم لو أضاف الى ثمرة بلد أو قرية كبيرة لم يضر ذلك

التاسع أن لايسلم فى شيء نفيس عزيز الوجود ، مثل درة موصوفة يعز وجود مثلها ، أو جارية حسناء معها ولدها أو غير ذلك مما لا يقدر عليه غالبا

العاشر أن لايسلم فى طعام مهما كان رأس المال طعاما ، سواء كان من جنسه أو لم يكن. ولا يسلم فى نقد اذا كان رأس المال نقدا ، وقد ذكرنا هذا فى الربا

العقد الرابع

الإجارة

وله ركنان ، الأجرة والمنفعة . فأما العاقد واللفظ ، فيعتبر فيه ما ذكرناه فى البيع . والأجرة كالثمن ، فينبغى أن يكون معلوما وموصوفا بكل ما شرطناه فى المبيع ان كان عينا فان كان دينا فينبغى أن يكون معلوم الصفة والقدر

وليحترز فيه عن أمور جرت العادة بها وذلك مثل كراء الدار بعمارتها فذلك باطل.

اذ قدر العمارة مجهول. ولو قدر دراهم وشرط على المكترى أن يصرفها الى العمارة لم يجز ، لأن عمله فى الصرف الى العمارة مجهول

ومنها استئجار السلاخ ، على أن يأخذ الجلد بعد السلخ . واستئجار حمال الجيف بجلد الجيفة ، واستئجار الطحان بالنخالة أو ببعض الدقيق فهو باطل . وكذلك كل مايتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير ، فلايجوز أن يجعل أجرة

ومنها أن يقدر فى اجارة الدور والحوانيت مبلغ الأجرة . فلو قال لكل شهر دينار ، ولم يقدر أشهر الاجارة ، كانت المدة مجهولة ولم تنعقد الاجارة .

الركن الثانى المنفعة المقصودة بالاجارة ، وهى العمل وحده ان كان عمل مباح معلوم ، يلحق العامل فيه كلفة ، ويتطوع به الغير عن الغير ، فيجوز الاستئجار عليه . وجملة فروع الباب تندرج تحت هذه الرابطة . ولكنا لانطول بشرحها ، فقد طولنا القول فيها فى الفقهيات. وانما نشير الى ماتعم به البلوى ، فليراع فى العمل المستأجر عليه خمسة أمور

الأول:أن يكون متقوما ، بأن يكون فيه كلفة وتعب ، فلو استأجر طعاما ليزين به الدكان ، أو أشجارا ليجفف عليها الثياب ، أو دراهم ليزين بها الدكان ، لم يجز فان هذه المنافع تجرى مجرى حبة سمسم وحبة برمن الاعيان ، وذلك لايجوز بيعه . وهى كالنظر فى مرآة الغير ، والشرب من بئره ، والاستظلال بجداره ، والاقتباس من ناره . ولهذا لو استأجر بياعا على أن يتكلم بكلمة يروج بها سلعته ، لم يجز . ومايأخذه البياعون عوضا عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم فى ترويج السلع ، فهو حرام . اذ ليس يصدر منهم إلا كلمة لاتعب فيها ، ولاقيمة لها . وانما يحل لهم ذلك اذا تعبوا بكثرة التردد ، أو بكثرة الكلام فى تأليف أمر المعاملة . ثم لايستحقون إلاأجرة المثل، فأما ماتوطأعليه الباعة فهو ظلم ، وليس مأخوذا بالحق

الثانى:أن لاتتضمن الاجارة استيفاء عين مقصودة ، فلا يجوز اجارة الكرم لارتفاقه ، ولا اجارة المواشى للبنها ، ولا اجارة البساتين لثمارها . ويجوز استئجار المرضعة ، ويكون اللبن تابعا . لأن افراده غير ممكن . وكذا يتسامح بحبر الوراق وخيط الخياط . لأنهما لايقصدان على حيالهما

الثالث: أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حساً وشرعا، فلايصح استئجار الضعيف على عمل لايقدر عليه، ولااستئجار الأخرس على التعليم ونحوه. ومايحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه، كالاستئجار على قلع سن سليمة، أو قطع عضو لايرخص الشرع في قطعه، أواستئجار الحائض على كنس المسجد، أو المعلم على تعليم السحر أو الفحش، أو استئجار زوجة الغير على الارضاع دون اذن زوجها، أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات أو استئجار الصائغ على صيغة الأواني من الذهب والفضة، فكل ذلك باطل

الرابع: أن لايكون العمل واجبا على الاجير، أو لا يكون بحيث لا تجري النيابة فيه عن المستأجر فلايجوز أخذ الاجرة على الجهاد، ولا على سائر العبادات التي لا نيابة فيها، اذ لا يقع ذلك عن المستأجر. ويجوز عن الحج، وغسل الميت، وحفر القبور، ودفن الموتى، وحمل الجنائز. وفي أخذ الاجرة على امامة صلاة التراويح، وعلى الاذان، وعلى التصدي للتدريس، واقراء القرءان خلاف. أما الاستئجار على تعليم مسألة بعينها، أو تعليم سورة بعينها لشخص معين، فصحيح

الخامس: أن يكون العمل والمنفعة معلوما. فالخياط يعرف عمله بالثوب، والمعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها، وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة. وكل مايثير خصومة في العادة فلايجوز اهماله. وتفصيل ذلك يطول، وانما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الاحكام، ويتفطن به لمواقع الاشكال فيسأل، فان الاستقصاء شأن المفتي لاشأن العوام

العقد الخامس

القراض

وليراع فيه ثلاثة أركان

الركن الاول: رأس المال وشرطه أن يكون نقدا معلوما مسلما إلى العامل. فلا يجوز القراض على الفلوس ولاعلى العروض، فان التجارة تضيق فيه. ولايجوز على صرة من الدراهم، لان قدر الربح لا يتبين فيه. ولو شرط المالك اليد لنفسه لم يجز، لان فيه تضييق طريق التجارة

الركن الثاني. الربح وليكن معلوما بالجزئية، بان يشرط له الثلث، أو النصف، أوماشاء

فلو قال على أن لك من الربح مائة والباقى لى ، لم يجز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة ، فلا يجوز تقديره بمقدار معين ، بل بمقدار شائع

الثالث: العمل الذى على العامل . وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة عليه بتعيين وتأقيت. فلو شرط أن يشترى بالمال ماشية ليطلب نسلها فيتقاسمان النسل ، أو حنطة فيخبزها ويتقاسمان الربح ، لم يصح ، لأن القراض مأذون فيه فى التجارة ، وهو البيع والشراء ومايقع من ضرورتهما فقط ، وهذه حرف، أعنى الخبز ورعاية المواشى. ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشترى إلا من فلان ، أو لا يتجر إلا فى الخز الاحمر ، أو شرط مايضيق باب التجارة ، فسد العقد . ثم مهما انعقد ، فالعامل وكيل . فيتصرف بالغبطة تصرف الوكلاء

ومهما أراد المالك الفسخ ، فله ذلك . فاذا فسخ فى حالة والمال كله فيها نقد ، لم يخف وجه القسمة ، وان كان عروضا ولا ربح فيه رد عليه ، ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده الى النقد ، لأن العقد قد انفسخ ، وهو لم يلتزم شيئا . وان قال العامل أبيعه وأبى المالك ، فالمتبوع رأى المالك ، إلا إذا وجد العامل زبونا يظهر بسببه ربح على رأس المال . ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بجنس رأس المال ، لا بنقد آخر ، حتى يتميز الفاضل ربحا فيشتركان فيه ، وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال .ومهما كان رأس السنة ، فعليهم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة ، فاذا كان قد ظهر من الربح شىء ، فالاقيس أن زكاة نصيب العامل على العامل ، وأنه يملك الربح بالظهور

وليس للعامل أن يسافر بمال القراض دون اذن المالك. فان فعل صحت تصرفاته . ولكنه اذا فعل ضمن الاعيان والأثمان جميعاً ، لأن عدوانه بالنقل يتعدى إلى ثمن المنقول. وإن سافر بالاذن جاز . ونفقة النقل وحفظ المال على مال القراض ، كما أن نفقة الوزن والكيل والحمل الذى لا يعتاد التاجر مثله على رأس المال . فاما نشر الثوب وطيه ، والعمل اليسير المعتاد ، فليس له أن يبذل عليه أجرة

وعلى العامل نفقته وسكناه فى البلد ، وليس عليه أجرة الحانوت . ومهما تجرد فى السفر لمال القراض ، فنفقته فى السفر على مال القراض . فاذا رجع ، فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المطهرة والسفرة وغيرهما

العقد السادس

الشركة

وهى أربعة أنواع : ثلاثة منها باطلة

الأول شركة المفاوضة ، وهو أن يقولا تفاوضنا لنشترك فى كل مالنا وما علينا ، ومالاهما ممتازان ، فهى باطلة

الثانى شركة الابدان ، وهو أن يتشارطا الاشتراك فى أجرة العمل ، فهى باطلة

الثالث شركة الوجوه ، وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول ، فيكون من جهته التنفيل ، ومن جهة غيره العمل ، فهذا أيضاً باطل

وانما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان ، وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمه ، ويأذن كل واحد منهما لصاحبه فى التصرف . ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين . ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط ، ثم بالعزل يمتنع التصرف عن المعزول . وبالقسمة ينفصل الملك عن الملك

والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العروض المشتراة ، ولا يشترط النقد ، بخلاف القراض

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب ، والا اقتحم الحرام من حيث لا يدرى

وأما معاملة القصاب والخباز والبقال ، فلا يستغنى عنها المكتسب وغير المكتسب والخلل فيها من ثلاثة وجوه : من اهمال شروط البيع ، أو اهمال شروط السلم ، أو الاقتصار على المعاطاة . اذ العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء بحاجات كل يوم ، ثم المحاسبة فى كل مدة ، ثم التقويم بحسب مايقع عليه التراضى . وذلك مما نرى القضاء باباحته للحاجة ، ويحمل تسليمهم على اباحة التناول مع انتظار العوض ، فيحل أكله . ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الاتلاف ، فتجتمع فى الذمة تلك القيم . فاذا وقع التراضى على مقدار ما ، فينبغى أن يلتمس منهم الابراء المطلق ، حتى لا تبقى عليه عهدة ان تطرق اليه تفاوت فى التقويم

فهذا ما تجب القناعة به ، فان تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الحوائج فى كل يوم وكل ساعة ، تكليف شطط . وكذا تكليف الايجاب والقبول ، وتقدير ثمن كل قدر يسير منه ، فيه عسر . وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه ، والله الموفق .

الباب الثالث

فى بيان العدل واجتناب الظلم فى المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يحكم المفتى بصحتها وانعقادها . ولكنها تشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسخط الله تعالى . إذ ليس كل نهى يقتضى فساد العقد وهذا الظلم يعنى به مااستضر به الغير . وهو منقسم الى مايعم ضرره ، والى مايخص المعامل

القسم الأول

فيما يعم ضرره وهو أنواع

النوع الأول : الاحتكار : فبائع الطعام يدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار . وهوظلم عام . وصاحبه مذموم فى الشرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنِ احْتَكَرَ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ تَكُنْ صَدَقَتُهُ كَفَّارَةً لِاحْتِكَارِهِ » وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم [٢] أنه قال « مَنِ احْتَكَرَ الطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ وَبَرِئَ اللهُ مِنْهُ » وقيل « فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا » وعن على رضى الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوماً قسا قلبه . وعنه أيضاً انه أحرق طعام محتكر بالنار

وروى فى فضل ترك الاحتكار عنه صلى الله عليه وسلم [٣] مَنْ جَلَبَ طَعَامًا فَبَاعَهُ بِسِعْرِ

(الباب الثالث فى بيان العدل)

(١) حديث من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على والخطيب فى التاريخ من حديث أنس . بسندين ضعيفين

(٢) حديث ابن عمر من احتكر الطعام أربعين فقد برىء من الله وبرىء الله منه أحمد والحاكم بسند جيد وقال ابن عدى ليس بمحفوظ من حديث ابن عمر

(٣) حديث من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به وفى لفظ آخر فكأنما أعتق رقبة : ابن مردويه فى التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف مامن جالب يجلب طعاما الى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد وللحاكم من حديث اليسع ابن المغيرة أن الجالب الى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله وهو مرسل

يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِهِ » وفى لفظ آخر « فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً » وقيل فى قوله تعالى (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [١]) ان الاحتكار من الظلم . وداخل تحته فى الوعيد

وعن بعض السلف أنه كان بواسط فجهز سفينة حنطة الى البصرة ، وكتب الى وكيله ، بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ، ولا تؤخره الى غد . فوافق سعة فى السعر . فقال له التجار ، لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه . فأخره جمعة ، فربح فيه أمثاله، وكتب الى صاحبه بذلك . فكتب اليه صاحب الطعام ، ياهذا ، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وانك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية . فاذا أتاك كتابى هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتنى أنجو من اثم الاحتكار كفافا ، لا علىّ ولا لى

واعلم ان النهى مطلق . ويتعلق النظر به فى الوقت والجنس

أما الجنس فيطرد النهى فى اجناس الأقوات أما ماليس بقوت، ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهى اليه وإن كان مطعوما، وأما مايعين على القوت كاللحم والفواكه ، ومايسد مسدا يغنى عن القوت فى بعض الاحوال ، وان كان لايمكن المداومة عليه ، فهذا فى محل النظر . فمن العلماء من طرد التحريم فى السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت ومايجرى مجراه

وأما الوقت ، فيحتمل أيضا طرد النهى فى جميع الاوقات . وعليه تدل الحكاية التى ذكرناها فى الطعام الذى صادف بالبصرة سعة فى السعر . ويحتمل ان يخصص بوقت قلة الاطعمة ، وحاجة الناس اليه ، حتى يكون فى تأخير بيعه ضرر مّا فاما إذا اتسعت الاطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ، ولم يرغبوا فيها الا بقيمة قليلة ، فانتظر صاحب الطعام ذلك ، ولم ينتظر قحطا ، فليس فى هذا اضرار . وإذا كان الزمان زمان قحط ، كان فى ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثالها اضرار . فينبغى ان يقضى بتحريمه . ويعول فى نفى التحريم واثباته على الضرار ، فانه مفهوم قطعا من تخصيص الطعام . واذا لم يكن ضرار، فلا يخلو احتكار الاقوات عن كراهية ، فانه ينتظر مبادىء الضرار ، وهو ارتفاع الاسعار . وانتظار مبادىء الضرار محذور ، كانتظار عين الضرار ، ولكنه دونه . وانتظار عين الضرار أيضا هو دون الاضرار

---

(١) الحج : ٢٥

فبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم

وبالجملة التجارة فى الأقوات مما لايستحب ، لأنه طلب ربح ، والاقوات أصول خلقت قواما، والربح من المزايا فينبغى أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التى لاضرورة للخلق اليها . ولذلك أوصى بعض التابعين رجلا ،وقال لاتسلم ولدك فى بيعتين،ولافى صنعتين بيع الطعام وبيع الاكفان فأنه يتمنى الغلاء وموت الناس. والصنعتان أن يكون جزارا،فانها صنعة تقسى القلب ، أوصواغا، فانه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة

النوع الثانى ترويج الزيف من الدراهم فى أثناء النقد ، فهو ظلم . إذ يستضر به المعامل ان لم يعرف ، وإن عرف فسيروّجه على غيره ، فكذلك الثالث والرابع ، ولا يزال يتردد فى الايدى ، ويعم الضرر ، ويتسع الفساد ، ويكون وزر الكل ووباله راجعا اليه . فانه هو الذى فتح هذا الباب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَمِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » وقال بعضهم انفاق درهم زيف ، أشد من سرقة مائة درهم . لأن السرقة معصية واحدة ، وقد تمت وانقطعت وانفاق الزيف بدعة أظهرها فى الدين ، وسنة سيئة يعمل بها من بعده ، فيكون عليه وزرها بعد موته الى مائة سنة ، أومائتى سنة ، إلى أن يفنى ذلك الدرهم . ويكون عليه ما فسد من أموال الناس بسنته . وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتى سنة أو أكثر ، يعذب بها فى قبره ، ويسأل عنها الى آخر انقراضها قال تعالى (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ (١)) أى نكتب ايضا ماأخروه من آثار أعمالهم ، كما نكتب ما قدموه . وفى مثله قوله تعالى (يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (٢)) وانما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره

وليعلم أن فى الزيف خمسة أمور

---

(١) حديث من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لاينقص من أوزارهم شىء : مسلم من حديث جرير بن عبدالله

---

(١) يس : ١٢ (٢) القيامة : ١٣

الاول: انه اذارد عليه شيء منه ، فينبغي أن يطرحه في بئر ، بحيث لا تمتد اليه اليد . واياه أن يروجه في بيع آخر . وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز

الثاني : أنه يجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصي لنفسه ، ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفا وهو لا يدري ، فيكون آثما بتقصيره في تعلم ذلك العلم . فلكل عمل علم به يتم نصح المسلمين، فيجب تحصيله . ولمثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد ، نظرا لدينهم لا لدنياهم

الثالث: أنه ان سلّم وعرف المعامل أنه زيف، لم يخرج عن الاثم . لأنه ليس يأخذه الا ليروجه على غيره ولا يخبره . ولو لم يعزم على ذلك لكان لا يرغب في أخذه أصلا ، فانما يتخلص من اثم الضرر الذي يخص معامله فقط

الرابع: أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « رَحِمَ اللَّهُ أَمْرَأً سَهْلَ الْبَيْعِ سَهْلَ الشِّرَاءِ سَهْلَ الْقَضَاءِ سَهْلَ الاقْتِضَاءِ » فهو داخل في بركة هذا الدعاء ان عزم على طرحه في بئر . وإن كان عازما على أن يروجه في معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه في معرض الخير، فلا يدخل تحت من تساهل في الاقتضاء

الخامس: أن الزيف نعني به ما لا نقرة فيه أصلا ، بل هو مموه ، أوما لا ذهب فيه ، أعني في الدنانير . أما ما فيه نقرة ، فان كان مخلوطا بالنحاس وهو نقد البلد ، فقد اختلف العلماء في المعاملة عليه ، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد سواء علم مقدار النقرة أولم يعلم . وان لم يكن هو نقد البلد لم يجز ، الا اذا علم قدر النقرة فان كان في ماله قطعة نقرتها نا قصة عن نقد البلد ، فعليه أن يخبر به معامله ، وأن لا يعامل به الا من لا يستحل الترويج في جملة النقد بطريق التلبيس . فأما من يستحل ذلك فتسليمه اليه تسليطه على الفساد، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً . وذلك محظور واعانة على الشر ومشاركة فيه. وسلوك طريق الحق بمثال هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها . ولذلك قال بعضهم : التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد وقد كان السلف يحتاطون في مثل ذلك ، حتى روى عن بعض الغزاة في سبيل الله أنه قال : حملت على فرسي لأقتل علجا

---

(١) حديث رحم الله أمرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء : البخاري من حديث جابر

فقصر فرسى ، فرجعت . ثم حملت الثالثة ، فنفر منى فرسى ، وكنت لاأعتاد ذلك منه ؛ فرجعت حزينا ، وجلست منكس الرأس منكسر القلب ، لما فاتنى من العلج ، وما ظهر لى من خلق الفرس . فوضعت رأسى على عمود الفسطاط ، وفرسى قائم ، فرأيت فى النوم كأن الفرس يخاطبنى ويقول لى ،بالله عليك أردت أن تأخذ على العلج ثلاث مرات،وأنت بالأمس اشتريت لى علفا ودفعت فى ثمنه درهما زائفا ؟ لايكون هذا أبدا . قال فانتبهت فزعا فذهبت إلى العلاف ، وأبدلت ذلك الدرهم

فهذا مثال مايعم ضرره وليقس عليه أمثاله

القسم الثانى

ما يخص ضرره المعامل

فكل مايستضر به المعامل فهو ظلم . وإنما العدل أن لايضر بأخيه المسلم . والضابط الكلى فيه أن لايحب لأخيه إلا مايحب لنفسه . فكل مالو عومل به شق عليه ، وثقل على قلبه ، فينبغى أن لايعامل غيره به . بل ينبغى أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره . قال بعضهم من باع أخاه شيئا بدرهم ، وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق ، فانه قد ترك النصح المأمور به فى المعاملة ، ولم يحب لأخيه مايحب لنفسه . هذه جملته

فأما تفصيله ففى أربعة أمور : أن لايثنى على السلعة بما ليس فيها، وأن لايكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاأصلا ، وأن لايكتم فى وزنها ومقدارها شيئا، وأن لايكتم من سعرها مالو عرفه المعامل لامتنع عنه

أما الأول:فهو ترك الثناء . فان وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب . فإن قبل المشترى ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذبا . وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، إذ الكذب الذى يروج قد لايقدح فى ظاهر المروءة . وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان ، وتكلم بكلام لايعنيه . وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لم تكلم بها .قال الله تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[1]) إلاأن يثنى على السلعة بما فيها

---

[1] ق:٨١

مما لا يعرفه المشترى مالم يذكره . كما يصفه من خفى أخلاق العبيد والجوارى والدواب . فلا بأس بذكر القدر الموجود منه ، من غير مبالغة واطناب ، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه وتنقضى بسببه حاجته

ولا ينبغى أن يحلف عليه ألبتة . فانه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين الغموس ، وهى من الكبائر التى تذر الديار بلاقع . وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه ، وقد أساء فيه ، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة . وفى الخبر[1] « وَيْلٌ لِلتَّاجِرِ مِنْ بَلَى وَاللهِ وَلاَ وَاللهِ ، وَوَيْلٌ لِلصَّانِعِ مِنْ غَدٍ وَبَعْدَ غَدٍ » وفى الخبر[2] « الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ » وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم[3] أنه قال « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عُتُلٌ مُسْتَكْبِرٌ ، وَمَنَّانٌ بِعَطِيَّتِهِ ، وَمُنَفِّقٌ سِلْعَتَهُ بِيَمِينِهِ » فاذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروها ، من حيث أنه فضول لا يزيد فى الرزق ، فلا يخفى التغليظ فى أمر اليمين

وقد روى عن يونس بن عبيد ، وكان خزازا ، انه طلب منه خز للشراء ، فأخرج غلامه سقط الخز ونشره ، ونظر اليه وقال ، اللهم ارزقنا الجنة . فقال لغلامه ، رده الى موضعه ولم يبعه ، وخاف أن يكون ذلك تعريضا بالثناء على السلعة . فمثل هؤلاء هم الذين اتجروا فى الدنيا ، ولم يضيعوا دينهم فى تجاراتهم ، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا

الثانى : أن يظهر جميع عيوب المبيع ، خفيها وجليها ، ولا يكتم منها شيأ . فذلك واجب . فان أخفاه كان ظالما غاشا ، والغش حرام ، وكان تاركا للنصح فى المعاملة ، والنصح واجب .

---

(١) حديث ويل لتاجر من بلى والله ولا والله وويل للصانع من غد وبعد غد لم : أقف له على أصل وذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بغير اسناد نحوه

(٢) حديث اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ الحلف وهو عند البيهقى بلفظ الصنف

(٣) حديث أبى هريرة ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة عائل مستكبر ومنان بعطيته ومنفق سلعته بيمينه مسلم من حديثه الا انه لم يذكر فيها الا عائل مستكبر ولهما ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم رجل حلف على سلعة لقد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ولمسلم من حديث أبى ذر المنان والمسبل أزاره والمنفق سلعته بحلف الكاذب

ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى ، كان غاشا . وكذلك اذا عرض الثياب فى المواضع المظلمة . وكذلك اذا عرض أحسن فردى الخف أو النعل وأمثاله

ويدل على تحريم الغش ماروى أنه عليه السلام [١] مر برجل يبيع طعاما ، فأعجبه ، فأدخل يده فيه ، فرأى بللا ، فقال « مَاهَذَا ؟ قال أصابته السماء . فقال ؟ فَهَلاَّ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ ؟ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا »

ويدل على وجوب النصح باظهار العيوب ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم [٢] لما بايع جريرا على الاسلام ، ذهب لينصرف . فجذب ثوبه ، واشترط عليه النصح لكل مسلم فكان جرير اذا قام الى السلعة يبيعها ، بصر عيوبها ، ثم خيره وقال ، ان شئت فخذ، وان شئت فاترك . فقيل له انك اذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع . فقال انا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وكان واثلة بن الاسقع واقفا ، فباع رجل ناقة له بثلثمائة درهم ، فغفل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة ، فسعى وراءه وجعل يصيح به ، ياهذا اشتريتها للحم أو للظهر ؟ فقال بل للظهر . فقال ان بخفها نقبا قدرأيته ، وانها لاتتابع السير . فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم ، وقال لواثلة ، رحمك الله أفسدت عَلَىّ بيعى . فقال انا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] يقول « لاَيَحِلُّ لأَحَدٍ يَبِيعُ بَيْعاً إِلاَّ أَنْ يُبَيِّنَ آفَتَهُ ، ولاَيَحِلُّ لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلاَّ تَبْيِينُهُ » فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا مايرضاه لنفسه ، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ؛ بل اعتقدوا أنه من شروط الاسلام الداخلة تحت بيعتهم . وهذا أمر يشق على أكثر الخلق ، فلذلك يختارون التخلى للعبادة والاعتزال عن الناس ، لان القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة ، مجاهدة لايقوم بها إلا الصديقون

ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بان يعتقد أمرين

أحدهما : أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لايزيد فى رزقه ، بل يمحقه ويذهب ببركته.

---

(١) حديث مر برجل يبيع طعامافأعجبه فأدخل يده فرأى بللافقال ماهذا ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث جرير بن عبد الله بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل : مسلم متفق عليه

(٣) حديث واثلة لايحل لأحد يبيع بيعا إلا بين مافيه ولا يحل لمن يعلم ذلك الا بينه : الحاكم وقال صحيح الأسناد والبيهقى

وما يجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة . فقد حكى أن واحدا كان له بقرة يحلبها ، ويخلط بلبنها الماء ويبيعه ، فجاء سيل فغرّق البقرة . فقال بعض أولاده ، ان تلك المياه المتفرقة التي صببناها في اللبن ، اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) «الْبَيِّعَانِ إِذَا صَدَقَا وَنَصَحَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا. وَإِذَا كَتَمَا وَكَذَبَا نُزِعَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» وفي الحديث «(٢) يَدُ اللهِ عَلَى الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَتَخَاوَنَا فَإِذَا تَخَاوَنَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْهُمَا » فاذا لايزيد مال من خيانة ، كما لا ينقص من صدقة : ومن لا يعرف الزيادة . والنقصان إلا بالميزان ، لم يصدق بهذا الحديث . ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببا لسعادة الانسان في الدنيا والدين ، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها ، بحيث يتمنى الافلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله ، فيعرف معنى قولنا:ان الخيانة لا تزيد في المال ، والصدقة لا تنقص منه

والمعنى الثاني الذي لابد من اعتقاده ليتم له النصح ، ويتيسر عليه،أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا . وان فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر ، وتبقى مظالمها وأوزارها . فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، والخير كله في سلامة الدين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « لَا تَزَالُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تَدْفَعُ عَنِ الْخَلْقِ سُخْطَ اللهِ مَا لَمْ يُؤْثِرُوا صَفْقَةَ دُنْيَاهُمْ عَلَى آخِرَتِهِمْ » وفي لفظ آخر « مَا لَمْ يُبَالُوا مَا نَقَصَ مِنْ دُنْيَاهُمْ بِسَلَامَةِ دِينِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ وَقَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتُمْ لَسْتُمْ بِهَا صَادِقِينَ » وفي حديث آخر (٤) « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصاً دَخَلَ

---

(١) حديث البيعان اذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما الحديث: متفق عليه من حديث حكيم بن حزام

(٢) حديث يد الله على الشريكين مالم يتخاونافاذا تخاونا رفع يده عنهما: أبوداود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الأسناد

(٣) حديث لا تزال لا اله الا الله تدفع عن الخلق سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على اخراهم الحديث أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وفي رواية للترمذي الحكيم في النوادر حتى اذا نزلوا بالمنزل الذي لا يبالون ما نقص من دينهم اذا سلمت لهم دنياهم الحديث والطبراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة وهو ضعيف أيضا

(٤) حديث من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة قيل وما اخلاصها قال تحجزه عما حرم الله: الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط باسناد حسن

الْجَنَّةَ » قيل وما اخلاصه ؟ قال « أَنْ يُحْرِزَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ » وقال أيضا « مَا آمَنَ بِالْقُرْءَانِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ » ومن علم أن هذه الامور قادحة فى ايمانه ، وان ايمانه رأس ماله فى تجارته فى الآخرة ، لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له ، بسبب ربح ينتفع به أياما معدودة

وعن بعض التابعين أنه قال ، لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله ، وقيل لى مَن خير هؤلاء ؟ لقلت مَن أنصحهم لهم ؟ فاذا قالوا هذا ، قلت هو خيرهم . ولو قيل لى من شرهم ؟ قلت مَن أغشهم لهم ؟ فاذا قيل هذا ، قلت هو شرهم

والغش حرام فى البيوع والصنائع جميعا . ولا ينبغى أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه . بل ينبغى أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها ان كان فيها عيب . فبذلك يتخلص . وسأل رجل حذاء بن سالم فقال ، كيف لى أن أسلم فى بيع النعال ؟ فقال اجعل الوجهين سواء ، ولا تفضل اليمنى على الأخرى ، وجوّد الحشو ، وليكن شيئا واحدا تاما ، وقارب بين الخرز ، ولا تطبق احدى النعلين على الأخرى . ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين ، قال لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه ، وانما يحل للرفاء اذا علم أنه يظهره ، أو أنه لا يريده للبيع

فان قلت: فلا تتم المعاملة مهما وجب على الانسان أن يذكر عيوب المبيع

فأقول: ليس كذلك . اذ شرط التاجر أن لا يشترى للبيع إلا الجيد الذى يرتضيه لنفسه لو أمسكه . ثم يقنع فى بيعه بربح يسير ، فيبارك الله له فيه ، ولا يحتاج الى تلبيس . وانما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالربح اليسير ، وليس يسلم الكثير إلا بتلبس . فمن تعود هذا لم يستر المعيب ، فان وقع فى يده معيب نادرا فليذكره ، وليقنع بقيمته . باع ابن سيرين شاة ، فقال للمشترى ، أبرأ اليك من عيب فيها انها تقلب العلف برجلها . وباع الحسن بن صالح جارية ، فقال للمشترى ، انها تنخمت مرة عندنا دما .

فهكذا كانت سيرة أهل الدين ، فمن لا يقدر عليه فليترك المعاملة ، أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة .

(الثالث) أن لا يكتم فى المقدار شيئا ، وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه . وفى الكيل

فينبغى أن يكيل كما يكتال . قال الله تعالى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [١]) ولا يخلص من هذا الابان يرجح اذا أعطى وينقص اذا أخذ . اذ العدل الحقيق قلما يتصور . فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان ، فان من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه . وكان بعضهم يقول ، لاأشترى الويل من الله بحبة فكان اذا أخذ نقص نصف حبة ، واذا أعطى زاد حبة . وكان يقول ، ويل لمن باع بحبة جنةً عرضها السموات والارض . وما أخسر من باع طوبى بويل . وانما بالغوا فى الاحتراز من هذا وشبهه ، لأنها مظالم لايمكن التوبة منها . اذ لايعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدى حقوقهم . ولذلك لما اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ [١] قال للوزان لما كان يزن ثمنه « زِنْ وَأَرْجِحْ »

ونظر فضيل الى ابنه وهو يغسل دينارا يريد أن يصرفه ، ويزيل تكحيله وينقيه حتى لايزيد وزنه بسبب ذلك . فقال يابنى فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة . وقال بعض السلف ، عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو ، يزن ويحلف بالنهار ، وينام بالليل . وقال سليمان عليه السلام لابنه ، يابنى كما تدخل الحبة بين الحجرين ، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين . وصلى بعض الصالحين على مخنث ، فقيل له انه كان فاسقا ، فسكت ، فاعيد عليه ، فقال كأنك قلت لى كان صاحب ميزانين ، يعطى بأحدهما ويأخذ بالآخر . أشار به الى أن فسقه مظلمة بينه وبين الله تعالى ، وهذا من مظالم العباد . والمسامحة والعفو فيه أبعد . والتشديد فى أمر الميزان عظيم ، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة وفى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (لَا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِاللِّسَانِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) أى لسان الميزان ، فان النقصان والرجحان يظهر بميله

وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو فى كلمة ، ولاينصف بمثل ما ينتصف ، فهو داخل تحت قوله تعالى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ [١]) الآيات .

---

(١) حديث قال للوزان زن وأرجح اصحاب السنن والحاكم من حديث سويد بن قيس قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم

---

(١) المطففين : ١ - ٢ - ٣

فان تحريم ذلك فى المكيل ليس لكونه مكيلا ، بل لكونه أمرا مقصوداً ترك العدل والنصفة فيه . فهو جار فى جميع الاعمال . فصاحب الميزان فى خطر الويل ، وكل مكلف فهو صاحب موازين فى أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له ان عدل عن العدل ، ومال عن الاستقامة . ولولا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا [١])فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة . الا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتا عظيما . فلذلك تتفاوت مدة مقامهم فى النار الى أوان الخلاص، حتى لا يبقى بعضهم الا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين . فنسأل الله تعالى أن يقرِّبنا من الاستقامة والعدل ، فان الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموع فيه ، فانه أدق من الشعرة وأحد من السيف . ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار ، الذى من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف . وبقدر الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط .

وكل من خلط بالطعام ترابا أو غيره ثم كاله فهو من المطففين فى الكيل . وكل قصاب وزن مع اللحم عظما لم تجر العادة بمثله فهو من المطففين فى الوزن. وقس على هذا سائر التقديرات حتى فى الذرع الذى يتعاطاه البزاز ، فانه اذا اشترى أرسل الثوب فى وقت الذرع ولم يمده مدا واذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتا فى القدر. فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل

الرابع أن يصدق فى سعر الوقت ولا يخفى منه شيأ .فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] عن تلقى الركبان ونهى [٢] عن النجش .

أما تلقى الركبان فهو أن يستقبل الرفقه ويتلقى المتاع ، و يكذب فى سعر البلد . فقد قال صلى الله عليه وسلم « لَا تَتَلَقَّوُا الرُّكْبَانَ» ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق . وهذا الشراء منعقد ، ولكنه ان ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار . وإن كان صادقا ففى الخيار خلاف ، لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبيس . ونهى أيضا [٣] أن يبيع حاضر لباد

---

(١) حديث النهي عن تلقي الركبان متفق عليه من حديث ابن عباس وأبى هريرة
(٢) حديث النهى عن النجش متفق عليه من حديث ابن عمر وأبى هريرة
(٣) حديث النهى عن بيع الحاضر للبادى متفق عليه من حديث ابن عباس وأبى هريرة وأنس

---

(١) مريم ٧١

وهو أن يقدم البدوى البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع الى بيعه ، فيقول له الحضرى اتركه عندى حتى أغالى فى ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره . وهذا فى القوت محرم . وفى سائر السلع خلاف . والأظهر تحريمه لعموم النهى ، ولانه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولى المضيق

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش ، وهو أن يتقدم الى البائع بين يدى الراغب المشترى ، ويطلب السلعة بزيادة ، وهو لايريدها ، وانما يريد تحريك رغبة المشترى فيها . فهذا ان لم تجر مواطأة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه ، والبيع منعقد . وان جرى مواطأة ففي ثبوت الخيار خلاف والأولى اثبات الخيار ، لانه تغرير بفعل يضاهى التغرير فى المُصَرَّاة وتلقى الركبان

فهذه المناهى تدل على أنه لايجوز أن يلبّس على البائع والمشترى فى سعر الوقت ، ويكتم منه أمر الوعامه لما أقدم على العقد . ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب . فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة ، وله غلام بالسوس يجهز اليه السكر . فكتب اليه غلامه ان قصب السكر قد أصابته آفة فى هذه السنة ، فاشتر السكر . قال فاشترى سكرا كثيرا ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفا . فانصرف الى منزله فافكر ليلته ، وقال ربحت ثلاثين ألفا وخسرت نصح رجل من المسلمين . فلما أصبح غدا الى بائع السكر ، فدفع اليه ثلاثين ألفا ، وقال بارك الله لك فيها . فقال ومن أين صارت لى ؟ فقال انى كتمتك حقيقة الحال ، وكان السكر قد غلا فى ذلك الوقت ، فقال رحمك الله قد أعلمتنى الآن ، وقد طيبتها لك قال فرجع بها الى منزله ، وتفكر وبات ساهراً ، وقال ما نصحته ، فلعله استحيا منى فتركها لى . فبكر اليه من الغد ، وقال عافاك الله ، خذ مالك اليك ، فهو أطيب لقلبى . فأخذ منه ثلاثين الفا

فهذه الاخبار فى المناهى والحكايات تدل على أنه ليس له أن يغتنم فرصة ، وينتهز غفلة صاحب المتاع ، ويخفى من البائع غلاء السعر ، أو من المشترى تراجع الاسعار . فان فعل ذلك كان ظالما ، تاركا للعدل والنصح للمسلمين

ومهما باع مرابحة ، بان يقول بعت بما قام علىّ ، أو بما اشتريته ، فعليه أن يصدق . ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان ، ولو اشترى الى أجل وجب ذكره . ولو اشترى مسامحة من صديقه أو ولده يجب ذكره . لأن المعامل يعوّل على عادته فى الاستقصاء أنه لايترك النظر لنفسه ، فاذا تركه بسبب من الأسباب فيجب اخباره ، اذ الاعتماد فيه على أمانته

كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الخامس

فهرست الجزء الخامس

الباب الرابع

فى الإحسان فى المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والاحسان جميعاً . والعدل سبب النجاة فقط ، وهو يجرى من التجارة مجرى رأس المال . والاحسان سبب الفوز ونيل السعادة ، وهو يجرى من التجارة مجرى الربح . ولا يعد من العقلاء من قنع فى معاملات الدنيا برأس ماله ، فكذا فى معاملات الآخرة ، فلا ينبغى للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ، ويدع أبواب الاحسان وقد قال الله (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ[1]) وقال عز وجل (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ[2]) وقال سبحانه (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[3]) ونعنى بالاحسان فعل ما ينتفع به المعامل ، وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه . فان الواجب يدخل فى باب العدل وترك الظلم ، وقد ذكرناه

وتنال رتبة الاحسان بواحد من ستة أمور

الأول فى المغابنة . فينبغى أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة . فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لان البيع للربح ، ولا يمكن ذلك الا بغبن ما . ولكن يراعى فيه التقريب : فان بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد ، أما لشدة رغبته ، أو لشدة حاجته فى الحال اليه فينبغى أن يمتنع من قبوله . فذلك من الاحسان . ومهما لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلما : وقد ذهب بعض العلماء الى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار . ولسنا نرى ذلك ولكن من الاحسان أن يحط ذلك الغبن

يروى انه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ضربٌ قيمةُ كل حلة منها أربعمائة وضربٌ كل حلة قيمتها مائتان : فمر الى الصلاة وخلف ابن أخيه فى الدكان : فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين ، فاستحسنها ورضيها فاشتراها ؟ فمضى بها وهى على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلته ، فقال للاعرابى ، بكم اشتريت ؟ فقال بأربعمائة فقال

﴿ الباب الرابع فى الاحسان فى المعاملة ﴾

---

(١) القصص : ٧٧ (٢) النحل : ٩٠ (٣) الأعراف : ٥٦

لاتساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها . فقال هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة ،وأنا أرتضيها . فقال له يونس انصرف ،فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده الى الدكان ، ورد عليه مائتى درهم ، وخاصم ابن أخيه فى ذلك وقاتله ، وقال أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ؟ فقال والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟ وهذا ان كان فيه إخفاء سعر وتلبيس ، فهو من باب الظلم . وقد سبق

وفى الحديث [١] « غَبْنُ الْمُسْتَرْسِلِ حَرَامٌ »

وكان الزبير بن عدى يقول ، أدركت ثمانية عشر من الصحابة ، ما منهم أحد يحسن يشترى لحما بدرهم . فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم . وان كان من غير تلبيس ، فهو من ترك الإحسان . وقلما يتم هذا إلا بنوع تلبيس ، واخفاء سعر الوقت . وإنما الإحسان المحض ما نقل عن السرى السقطى ، انه اشترى كر لوز بستين ديناراً ، وكتب فى روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه . وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار . فصار اللوز بتسعين ، فأتاه الدلال وطلب اللوز ، فقال خذه ، قال بكم ، فقال بثلاثة وستين . فقال الدلال ، وكان من الصالحين ، فقد صار اللوز بتسعين ! فقال السرى ، قد عقدت عقدا لا أحله ، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين . فقال الدلال ، وأنا عقدت بينى وبين الله أن لا أغش مسلما ، لست آخذ منك إلا بتسعين . قال فلا الدلال اشترى منه ، ولا السرى باعه . فهذا محض الإحسان من الجانبين . فإنه مع العلم بحقيقة الحال

وروى عن محمد بن المنكدر ، انه كان له شقق بعضها بخمسة ، وبعضها بعشرة . فباع فى غيبته غلامه شقة من الخمسيات بعشرة . فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشترى طول النهار ، حتى وجده . فقال له إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال ياهذا قد رضيت فقال .وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا .فاختر احدى ثلاث خصال ، إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وأما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك .فقال أعطنى خمسة ،فرد عليه خمسة ، وانصرف الأعرابى يسأل ويقول

(١) حديث غبن المسترسل حرام.الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف والبيهقى من حديث جابر بسند جيد وقال ر بابدل حرام

مَنْ هَذَا الشيخ ؟ فقيل له هذا محمد بن المنكدر . فقال لا إله إلا الله ،هذا الذى نستسقى به فى البوادى إذا قحطنا . فهذا احسان فى أن لا يربح على العشرة الا نصفا أو واحدا، على ما جرت به العادة فى مثل ذلك المتاع فى ذلك المكان

ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته ، واستفاد من تكررها ربحا كثيرا ، وبه تظهر البركة . كان على رضى الله عنه يدور فى سوق الكوفة بالدّرة ويقول، معاشر التجار،خذوا الحق تسلموا لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره . قيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ماسبب يسارك؟قال ثلاث ، مارددت ربحا قط ، ولا طلب منى حيوان فأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة . ويقال إنه باع ألف ناقة فما ربح إلا عقلها ،باع كل عقال بدرهم ، فربح فيها ألفا ، وربح من نفقته عليها ليومه ألفا

الثانى:فى احتمال الغبن . والمشترى ان اشتري طعاما من ضعيف ، أوشيأ من فقير ، فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ، ويكون محسنا ، وداخلا فى قوله عليه السلام « رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَهْلَ الْبَيْعِ سَهْلَ الشِّرَاءِ » فأما إذا اشترى من غنى تاجر ، يطلب الربح زيادة على حاجته فاحتمال الغبن منه ليس محمودا . بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد . فقد ورد فى حديث من طريق أهل البيت [1] « الْمَغْبُونُ فِي الشِّرَاءِ لَا مَحْمُودٌ وَلَا مَأْجُورٌ » وكان إياس بن معاوية ابن قرة قاضى البصرة ، وكان من عقلاء التابعين يقول ، لست بخب، والخب لا يغبننى ، ولا يغبن ابن سيرين ، ولكن يغبن الحسن ويغبن أبى . يعنى معاوية بن قرة

والكمال فى أن لا يغبن ولا يغبن ، كما وصف بعضهم عمر رضى الله عنه فقال ، كان أكرم من أن يخدع ، وأعقل من أن يخدع . وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون فى الشراء ، ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال ، فقيل لبعضهم تستقصى فى شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالى ؟ فقال ان الواهب يعطى فضله ، وان المغبون يغبن عقله . وقال بعضهم انما أغبن عقلى وبصرى فلا أمكن الغابن منه . وإذا وهبت أعطى لله ولا أستكثر منه شيئا .

---

(١) حديث من طريق أهل البيت المغبون لا محمود ولا مأجور. الترمذى الحكيم فى النوادر من رواية عبيد الله بن الحسن عن أبيه عن جده ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن على برفعه قال الذهبى هو منكر

الثالث : فى استيفاء الثمن وسائر الديون . والإحسان فيه مرة بالمسامحة وحط البعض ومرة بالإمهال والتأخير ، ومرة بالمساهلة فى طلب جودة النقد . وكل ذلك مندوب اليه ومحثوث عليه قال النبى صلى الله عليه وسلم [1] « رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَهْلَ الْبَيْعِ سَهْلَ الشِّرَاءِ سَهْلَ الْقَضَاءِ سَهْلَ الاقْتِضَاءِ » فليغتنم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ تَرَكَ لَهُ حَاسَبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيراً » وفى لفظ آخر « أَظَلَّهُ اللهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ »

وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] رجلا كان مسرفا على نفسه ، حوسب فلم يوجد له حسنة ، فقيل له هل عملت خيرا قط ؟ فقال لا ، إلا أنى كنت رجلا أداين الناس ، فأقول لفتيانى سامحوا الموسر وأنظروا المعسر . وفى لفظ آخر ، وتجاوزوا عن المعسر ، فقال الله تعالى (نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكَ فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم [5] « مَنْ أَقْرَضَ دِينَاراً إِلَى أَجَلٍ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ إِلَى أَجَلِهِ ، فَإِذَا حَلَّ الْأَجَلُ فَأَنْظَرَهُ بَعْدَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ ذَلِكَ الدَّيْنِ صَدَقَةٌ » وقد كان من السلف من لا يحب أن يقضى غريمه الدين لأجل هذا الخبر ، حتى يكون كالمتصدق بجميعه فى كل يوم . وقال صلى الله عليه وسلم [6] « رَأَيْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ مَكْتُوباً الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالْقَرْضُ بِثَمَانِ عَشْرَةَ » فقيل

---

(١) حديث رحم الله سهل البيع سهل الشراء : تقدم فى الباب قبله

(٢) حديث اسمح يسمح لك : الطبرانى من حديث ابن عباس ورجاله ثقات

(٣) حديث من أنظر معسرا أو ترك له حاسبه الله حسابا يسيرا وفى لفظ آخر أظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله : مسلم باللفظ الثانى من حديث أبى اليسر كعب بن عمرو

(٤) حديث ذكر رجلا كان مسرفا على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة فقيل له هل عملت خيرا قط فقال لا إلا أنى كنت رجلا أداين الناس فأقول لفتيانى سامحوا الموسر ـ الحديث مسلم من حديث أبى مسعود الأنصارى وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة

(٥) حديث من أقرض دينا الى أجل فله بكل يوم صدقة الى أجله فاذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة : ابن ماجه من حديث بريدة من أنظر معسرا كان له مثله كل يوم صدقة ومن أنظره بعد أجله كان له مثله فى كل يوم صدقة وسنده ضعيف ورواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

(٦) حديث رأيت على باب الجنة مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانى عشرة : ابن ماجه من حديث أنس باسناد ضعيف

فى معناه إن الصدقة تقع فى يد المحتاج وغير المحتاج ، ولا يتحمل ذل الاستقراض إلا محتاج

ونظر النبى صلى الله عليه وسلم الى رجل يلازم رجلا بدين (١) ، فأومأ إلى صاحب الدين بيده ان ضع الشطر ، ففعل . فقال للمديون « قُمْ فَأَعْطِهِ »

وكل من باع شيئا وترك ثمنه فى الحال ، ولم يرهق الى طلبه ، فهو فى معنى القرض . وروى أن الحسن البصرى باع بغلة له بأربعمائة درهم ، فلما استوجب المال قال له المشترى ، اسمح يا أبا سعيد ، قال قد اسقطت عنك مائة . قال له فأحسن يا أبا سعيد ، فقال قد وهبت لك مائة أخرى . فقبض من حقه مائتى درهم . فقيل له يا أبا سعيد هذا نصف الثمن ! فقال هكذا يكون الاحسان والا فلا . وفى الخبر (٢) « خُذْ حَقَّكَ فِى كَفَافٍ وَعَفَافٍ وَافٍ أَوْ غَيْرَ وَافٍ يُحَاسِبْكَ اللهُ حِسَابًا يَسِيرًا »

الرابع : فى توفية الدين . ومن الاحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى الى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى اليه يتقاضاه . فقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً » ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر اليه ، ولو قبل وقته . وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن . وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر . قال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنِ ادَّانَ دَيْنًا وَهُوَ يَنْوِى قَضَاءَهُ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهُ وَيَدْعُونَ لَهُ حَتَّى يَقْضِيَهُ » وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر . ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله، وليقابله باللطف ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ، ولم يكن قد اتفق قضاؤه . فجعل الرجل يشدد الكلام على رسول الله صلى الله عليه

---

(١) حديث أومأ الى صاحب الدين بيده ضع الشطر ـ الحديث : متفق عليه من حديث كعب بن مالك

(٢) حديث خذ حقك فى عفاف ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبى هريرة باسناد حسن دون قوله يحاسبك الله حسابا يسيرا وله ولابن حبان والحاكم وصححه نحوه من حديث ابن عمر وعائشة

(٣) حديث خيركم أحسنكم قضاء : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث من أدان دينا وهو ينوى قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه : أحمد من حديث عائشة مامن عبد كانت له نية فى أداء دينه الا كان معه من الله عون وحافظ وفى رواية له لم يزل معه من الله حارس وفى رواية للطبرانى فى الأوسط الا كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه

وسلم، فهم به أصحابه. فقال (١) « دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا »

ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسطين الى من عليه الدين. فان المقرض يقرض عن غنى. والمستقرض يستقرض عن حاجة. وكذلك ينبغي أن تكون الاعانة للمشتري أكثر. فان البائع راغب عن السلعة يبغي ترويجها والمشتري محتاج اليها. هذا هو الأحسن، الا أن يتعدى من عليه الدين حده، فعند ذلك نصرته في منعه عن تعديه واعانة صاحبه، اذ قال صلى الله عليه وسلم (٢) « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » فقيل كيف ننصره ظالما؟ فقال « مَنْعُكَ إِيَّاهُ مِنَ الظُّلْمِ نُصْرَةٌ لَهُ »

الخامس: أن يقيل من يستقيله. فانه لا يستقيل إلا متندم مستضر بالبيع. ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه. قال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ أَقَالَ نَادِمًا صَفْقَتَهُ أَقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أو كما قال

السادس: أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة. وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم ان لم تظهر لهم ميسرة. فقد كان في صالحي السلف من له دفتران للحساب، أحدهما ترجمته مجهولة، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء. وذلك ان الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه، فيقول أحتاج الى خمسة أرطال مثلا من هذا وليس معي ثمنه، فكان يقول خذه واقض ثمنه عند الميسرة. ولم يكن يعد هذا من الخيار بل عد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر اصلا ولا يجعله دينا: لكن يقول خذ ما تريد، فان يسر لك فاقض، وإلا فأنت في حل منه وسعة

فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست، والقائم به محي لهذه السنة. وبالجملة التجارة محك الرجال، وبها يمتحن دين الرجل وورعه، ولذلك قيل.

لا يغرنك من المر * ء قميص رقعه   أو ازار فوق كعب الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه * أثر قد قلعه   ولدى الدرهم فانظر * غيه أو ورعه.

---

(١) حديث دعوه فان لصاحب الحق مقالا: متفق عليه من حديث أبي هريرة
(٢) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما ـ الحديث متفق عليه من حديث أنس
(٣) حديث من أقال نادما صفقته أقاله الله عثرته يوم القيامة: أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

ولذلك قيل اذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر، وأصحابه في السفر، ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى صلاحه . وشهد عند عمر رضى الله عنه شاهد ، فقال ائتنى بمن يعرفك فأتاه برجل فأثنى عليه خيرا . فقال له عمر أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال لا. فقال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال لا. قال فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال لا. قال أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى؟ قال نعم فقال اذهب فلست تعرفه وقال للرجل اذهب فائتنى بمن يعرفك

الباب الخامس

فى شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

ولا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده . فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة . وما يفوته من الربح فى الآخرة لا يفى به ماينال فى الدنيا . فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة . بل العاقل ينبغى أن يشفق على نفسه . وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله. ورأس ماله دينه وتجارته فيه . قال بعض السلف ، أولى الأشياء بالعاقل أحوجه اليه فى العاجل . وأحوج شيء اليه في العاجل أحمده عاقبة فى الآجل . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصيته : انه لابد لك من نصيبك فى الدنيا ، وأنت الى نصيبك من الآخرة أحوج ، فابدأ بنصيبك من الآخرة فخذه ، فانك ستمر على نصيبك من الدنيا فتنظمه . قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا [1] ﴾ أى لا تنس فى الدنيا نصيبك منها للآخرة ، فانها مزرعة الآخرة ، وفيها تكتسب الحسنات . وانما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور :

الأول حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة . فلينو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم ، واستعانة بما يكسبه على الدين ، وقياما بكفاية العيال ، ليكون من جملة المجاهدين به

ولينو النصح للمسلمين ، وأن يحب لسائر الخلق مايحب لنفسه

(1) القصص : ٧٧ .

ولينو اتباع طريق العدل والاحسان فى معاملته كما ذكرناه

ولينو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كل مايراه فى السوق

فاذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملا فى طريق الآخرة . فان استفاد ، الا فهو مزيد ، وان خسر فى الدنيا ربح فى الآخرة

الثانى أن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات. فان الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش ، وهلك أكثر الخلق . فانتظام أمر الكل بتعاون الكل ، وتكفل كل فريق بعمل . ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقى وهلكوا وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم [1] « اخْتِلَافُ أُمَّتِى رَحْمَةٌ » أى اختلاف هممهم فى الصناعات والحرف .

ومن الصناعات ما هى مهمة ، ومنها مايستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين فى الدنيا . فليشتغل بصناعة مهمة ، ليكون فى قيامه بها كافيا عن المسلمين ، مهما فى الدين. وليجتنب صناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص ، وجميع ماتزخرف به الدنيا . فكل ذلك كرهه ذوو الدين فأما عمل الملاهى والآلات التى يحرم استعمالها ، فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم . ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الابريسم للرجال ، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب للرجال . فكل ذلك من المعاصى ، والاجرة المأخوذة عليه حرام . ولذلك أوجبنا الزكاة فيها ، وأن كنا لا نوجب الزكاة فى الحلى ؛ لانها إذا قصدت للرجال فهى محرمة ، وكونها مهيأة للنساء لايلحقها بالحلى المباح مالم يقصد ذلك بها ، فيكتسب حكمها من القصد

وقد ذكرنا أن بيع الطعام وبيع الأكفان مكروه . لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر . ويكره أن يكون جزارا لما فيه من قساوة القلب . وأن يكون حجاما أو كناسا لما فيه من مخامرة النجاسة . وكذا الدباغ وما فى معناه . وكره ابن سيرين الدلال . وكره قتادة أجرة الدلال . ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب ، والافراط فى الثناء على السلعه لترويجها ، ولان العمل فيه لا يتقدر ، فقد يقل وقد يكثر ، ولا ينظر فى مقدار

(١) حديث اختلاف أمتى رحمة تقدم فى العلم

الاجرة إلى عمله، بل إلى قدر قيمة الثوب، هذا هو العادة، وهو ظلم . بل ينبغي أن ينظر الى قدر التعب

وكرهوا شراء الحيوان للتجارة ، لان المشتري يكره قضاء الله فيه ، وهو الموت الذى بصدده لامحالة وحلوله . وقيل بع الحيوان واشتر الموتان .

وكرهوا الصرف لان الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير ، ولانه طلب لدقائق الصفات فيما لايقصد أعيانها ، وانما يقصد رواجها . وقلما يتم للصير فى ربح الا باعتماد جهالة معامله بدقائق النقد ، فقلما يسلم الصيرفى وان احتاط . ويكره للصير فى وغيره كسر الصحيح والدنانير [١] الا عند الشك فى جودته ، أو عند ضرورة . قال أحمد بن حنبل رحمه الله، ورد نهى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه فى الصياغة من الصحاح وأنا أكره الكسر . وقال يشترى بالدنانير دراهم ، ثم يشترى بالدراهم ذهبا ويصوغه

واستحبوا تجارة البز. قال سعيد بن المسيب ، مامن تجارة أحب الىّ من البز مالم يكن فيها أيمان وقد روي [٢] « خَيْرُ تِجَارَتِكُمُ الْبَزُّ وَخَيْرُ صِنَاعَتِكُمُ الْخَرْزُ » وفى حديث آخر [٣] « لَوِ اتَّجَرَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَاتَّجَرُوا فِي الْبَزِّ . وَلَوِ اتَّجَرَ أَهْلُ النَّارِ لَاتَّجَرُوا فِي الصَّرْفِ »

وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع : الخرز ، والتجارة ، والحمل ، والخياطة ، والحذو ، والقصارة ، وعمل الخفاف ، وعمل الحديد ، وعمل المغازل، ومعالجة صيد البر والبحر ، والوراقة . قال عبدالوهاب الوراق، قال لى أحمد بن حنبل ماصنعتك ؟ قلت الوراقة ، قال كسب طيب ، ولو كنت صانعا بيدى لصنعت صنعتك: ثم قال لى لاتكتب الا مواسطة واستبق الحواشي وظهور الأجزاء

(١) حديث النهى عن كسر الدينار والدرهم أبو داود والترمذى وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبد الله عن أبيه قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم الامن بأس زاد الحاكم أن يكسر الدرهم فيجعل فضة ويكسر الدينار فيجعل ذهبا وضعفه ابن حبان

(٢) حديث خير تجارتكم البز وخير صنائعكم الخرز لم أقف له على اسناد وذكره صاحب الفردوس من حديث على ابن أبى طالب

(٣) حديث لواتجر أهل الجنة لاتجروا فى البز ولو اتجر أهل النار لاتجروا فى الصرف أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف وروى أبو يعلى والعقيلى فى الضعفاء الشطر الاول من حديث أبى بكر الصديق

وأربعة من الصناع موسومون عند الناس بضعف الرأى: الحاكة، والقطانون، والمغازليون والمعلمون. ولعل ذلك لان أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان، ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل، كما ان مخالطة العقلاء تزيد فى العقل، وعن مجاهد أن مريم عليها السلام مرت فى طلبها لعيسى عليه السلام بحاكة، فطلبت الطريق، فأرشدوها غير الطريق، فقالت اللهم انزع البركة من كسبهم وأمتهم فقراء، وحقرهم فى أعين الناس. فاستجيب دعاؤها

وكره السلف أخذ الأجرة على كل ماهو من قبيل العبادات وفروض الكفايات، كغسل الموتى ودفنهم، وكذا الأذان وصلاة التراويح، وان حكم بصحة الاستئجار عليه وكذا تعليم القرءان، وتعليم علم الشرع، فان هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للآخرة وأخذ الاجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة، ولا يستحب ذلك

الثالث أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة. وأسواق الآخرة المساجد. قال الله تعالى (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ[1]) وقال الله تعالى (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ[2]) فينبغى أن يجعل أول النهار الى وقت دخول السوق لآخرته، فيلازم المسجد، ويواظب على الأوراد. كان عمر رضى الله عنه يقول للتجار، اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم، ومابعده لدنياكم. وكان صالحو السلف يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، والوسط للتجارة. ولم يكن يبيع الهريسة والرءوس بكرة الا الصبيان وأهل الذمة، لانهم كانوا فى المساجد بعد. وفى الخبر[1] « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا صَعِدَتْ بِصَحِيفَةِ الْعَبْدِ وَفِيهَا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَفِي آخِرِهِ ذِكْرُ اللَّهِ وَخَيْرٌ كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ سَيِّءِ الْأَعْمَالِ » وفى الخبر[2] « تَلْتَقِي مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَعِنْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟

(١) حديث إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفى أول النهار وآخره ذكر وخير كفر الله مابينهما من سيء الأعمال أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بمعناه

(٢) حديث يلتقى ملائكة الليل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر فيقول الله وهو أعلم كيف تركتم عبادى الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الغداة وصلاة العصر الحديث

(١) النور : ٣٧ (٢) النور : ٣٦

فَيقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَجِئْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ . فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ »

ثم مهما سمع الاذان فى وسط النهار للاولى والعصر ، فينبغى أن لا يعرج على شغل، وينزعج عن مكانه ويدع كل ما كان فيه. فما يفوته من فضيلة التكبيرة الاولى مع الامام فى أول الوقت لاتوازيها الدنيا بما فيها. ومهما لم يحضر الجماعة عصى عند بعض العلماء . وقد كان السلف يبتدرون عند الاذان، ويخلون الاسواق للصبيان وأهل الذمة . وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت فى أوقات الصلوات ، وكان ذلك معيشة لهم وقد جاء فى تفسير قوله تعالى (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ[1]) انهم كانوا حدادين وخرازين،فكان أحدهم اذا رفع المطرقة ، أو غرز الاشفى فسمع الاذان ، لم يخرج الاشفى من المغرز ، ولم يوقع المطرقة ورمى بها ، وقام الى الصلاة .

الرابعة أن لا يقتصر على هذا بل يلازم ذكر الله سبحانه فى السوق ، ويشتغل بالتهليل والتسبيح . فذكر الله فى السوق بين الغافلين أفضل . قال صلى الله عليه وسلم « ذَاكِرُ اللهِ فِي الْغَافِلِينَ كَالْمُقَاتِلِ خَلْفَ الْفَارِّينَ وَكَالْحَيِّ بَيْنَ الْأَمْوَاتِ » وفى لفظ آخر « كَالشَّجَرَةِ الْخَضْرَاءِ بَيْنَ الْهَشِيمِ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » وكان ابن عمر ، وسالم بن عبد الله ، ومحمد بن واسع وغيرهم ، يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر . وقال الحسن : ذاكر الله فى السوق يجيء يوم القيامة له ضوء كضوء القمر ، وبرهان كبرهان الشمس . ومن استغفر الله فى السوق غفر الله له بعدد أهلها

وكان عمر رضى الله عنه اذا دخل السوق قال : اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفسوق ومن شر ما أحاطت به السوق . اللهم انى أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة .

---

(١) حديث من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحديث تقدم فى الأذكار

---

[1] النور : ٣٧

وقال أبو جعفر الفرغاني، كنا يوما عند الجنيد، فجرى ذكر ناس يجلسون في المساجد ويتشبهون بالصوفية، ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس، ويعيبون من يدخل السوق. فقال الجنيد، كم ممن هو في السوق حكمه أن يدخل المسجد ويأخذ باذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه! واني لأعرف رجلا يدخل السوق ورده كل يوم ثلثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة. قال فسبق الى وهمي أنه يعني نفسه

فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم في الدنيا. فان من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة، كيف يدع ربح الآخرة، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد وانما النجاة بالتقوى. قال صلى الله عليه وسلم[1] « اتَّقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ » فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المتجردين للدين كيفما تقلبت بهم الأحوال. وبه تكون حياتهم وعيشهم. إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم. وقد قيل من أحب الآخرة عاش، ومن أحب الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوب نفسه فتاش.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخل، وآخر خارج، وبأن يركب البحر في التجارة، فهما مكروهان. يقال أن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق. وفي الخبر[2] « لاَ يُرْكَبُ الْبَحْرُ إِلاَّ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ غَزْوٍ » وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول، لا تكن أول داخل في السوق، ولا آخر خارج منها، فان بها باضَ الشيطانُ وفرخ. روى عن معاذ بن جبل، وعبد الله بن عمر، أن ابليس يقول لولده زلنبور، سر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق زين لهم الكذب والحلف، والخديعة والمكر والخيانة، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها. وفي الخبر[3] « شَرُّ الْبِقَاعِ الْأَسْوَاقُ وَشَرُّ أَهْلِهَا أَوَّلُهُمْ دُخُولاً وَآخِرُهُمْ خُرُوجاً » وتمام هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته، فاذا حصل كفاية وقته انصرف، واشتغل

(١) حديث اتق الله حيثما كنت الترمذي من حديث أبي ذر وصححه
(٢) حديث لا تركب البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو وقيل إنه منقطع
(٣) حديث شر البقاع الأسواق وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجا تقدم صدر الحديث في الباب السادس من العلم وروي أبو نعيم في كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس أبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها إلى الله أولهم دخولا وآخرهم خروجا

بتجارة الآخرة . هكذا كان صالحو السلف . فقد كان منهم من إذا ربح دانقا انصرف قناعة به . وكان حماد بن سلمة يبيع الخز فى سفط بين يديه فكان إذا ربح حبتين رفع سفطه وانصرف
وقال ابراهيم بن بشار ، قلت لابراهيم بن أدهم رحمه الله ، أمر اليوم أعمل فى الطين ؟ فقال يا ابن بشار ، إنك طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب ما قد كفيته . أما رأيت حريصا محروما ؟ وضعيفا مرزوقا ؟ فقلت إن لى دانقا عند البقال ، فقال عز على بك تملك دانقا وتطلب العمل ! وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر . ومنهم بعد العصر . ومنهم من لا يعمل فى الأسبوع إلا يوما أو يومين . وكانو يكتفون به

السادس . أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب . ولا ينظر إلى الفتاوى ، بل يستفتى قلبه ، فاذا وجد فيه حزازة اجتنبه . وإذا حمل اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها ، حتى يعرف ، وإلا أكل الشبهة . وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] لبن فقال « مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا ؟ » فقالوا من الشاة . فقال « وَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذِه الشَّاةُ ؟ » فقيل من موضع كذا فشرب منه ثم قال « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ لَا نَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا وَلَا نَعْمَلَ إِلَّا صَالِحًا » وقال [2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ [1]) فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد لأن ما وراء ذلك يتعذر . وسنبين فى كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال ، فانه كان عليه السلام [3] لا يسأل عن كل ما يحمل اليه . وانما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى

---

(١) حديث سؤاله عن اللبن والشاة وقوله إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيبا ولا نعمل الا صالحا الطبرانى من حديث أم عبد الله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف

(٢) حديث ان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين الحديث مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث كان لا يسأل عن كل ما يحمل اليه أحمد من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مروا بامرأة فذبحت لهم شاة الحديث فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمة فلم يستطع أن يسيغها فقال هذه شاة ذبحت بغير اذن أهلها الحديث وله من حديث أبى هريرة كان اذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه الحديث وأسنادها جيد وفى هذا أنه كان لا يسأل عما أتى به من عند أهله والله أعلم

---

(١) البقرة : ١٧٢

ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله . وكذا الأجناد والظلمة لايعاملهم البتة ، ولا يعامل أصحابهم وأعوانهم لأنه معين بذلك على الظلم

وحكى عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور ، قال فوقع فى نفسى من ذلك شىء وإن كان ذلك العمل من الخيرات ، بل من فرائض الاسلام ، ولكن كان الأمير الذى تولى فى محلته من الظلمة . قال فسألت سفيان رضى الله عنه ، فقال لاتكن عونا لهم على قليل ولا كثير . فقلت هذا سور فى سبيل الله للمسلمين . فقال نعم ، ولكن أقل مايدخل عليك أن تحب بقاءهم ليوفوك أجرك ، فتكون قد أحببت بقاء من يعصى الله . وقد جاء فى الخبر (١) «مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فِي أَرْضِهِ» وفى الحديث (٢) « إِنَّ اللهَ لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ » فى حديث آخر (٣) « مَنْ أَكْرَمَ فَاسِقاً فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ » . ودخل سفيان على المهدى وبيده درج أبيض ، فقال ياسفيان أعطنى الدواة حتى أكتب فقال أخبرنى أى شىء تكتب ، فان كان حقا أعطيتك . وطلب بعض الامراء من بعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طينا ليختم به الكتاب ، فقال ناولنى الكتاب أولا حتى أنظر مافيه . فهكذا كانو يحترزون عن معاونة الظلمة ، ومعاملتهم أشد أنواع الاعانة . فينبغى أن يجتنبها ذوو الدين ماوجدوا اليه سبيلا

وبالجملة فينبغى أن ينقسم الناس عنده الى من يعامل ومن لايعامل ، وليكن من يعامله أقل ممن لايعامله فى هذا الزمان . قال بعضهم أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول ، من ترون لى أن أعامل من الناس ؟ فيقال له عامل من شئت . ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون عامل من شئت إلا فلانا وفلانا . ثم أتى زمان آخر فكان يقال لاتعامل أحدا إلا فلانا وفلانا . وأخشى أن يأتى زمان يذهب هذا أيضا . وكأنه قد كان الذى كان يحذر أن يكون . انا لله وانا اليه راجعون

---

(١) حديث من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت من قول الحسن وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب فى آفات اللسان

(٢) حديث إن الله ليغضب اذا مدح الفاسق ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن عدى فى الكامل وأبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الاسلام غريب بهذا اللفظ والمعروف من وقر صاحب بدعة الحديث رواه ابن عدى من حديث عائشة والطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزى كلها موضوعة

السابع: ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع كل واحد من معامليه. فإنه مراقب ومحاسب ، فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب ، في كل فعلة وقولة أنه لم أقدم عليها ، ولأجل ماذا ، فإنه يقال إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئا وقفة ويحاسب عن كل واحد محاسبة ، على عدد من عامله . قال بعضهم رأيت بعض التجار في النوم فقلت ماذا فعل الله بك ؟ فقال نشر على خمسين ألف صحيفة ، فقلت هذه كلها ذنوب ؟ فقال هذه معاملات الناس ، بعدد كل انسان عاملته في الدنيا ، لكل انسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته الى آخرها

فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين ، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين . وإن أضاف اليه الإحسان كان من المقربين. وان راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر في الباب الخامس ، كان من الصديقين والله أعلم بالصواب

تم كتاب آداب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنّه

كتاب الحلال والحرام

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الانسان من طين لازب وصلصال، ثم ركب صورته فى أحسن تقويم وأتم اعتدال ، ثم غذاه فى أول نشوه بلبن استصفاه من بين فرث ودم سائغا كالماء الزلال ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعى الضعف والانحلال ، ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيال ، وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوت الحلال ، وهزم بكسرها جند الشيطان المتشمر للاضلال ، ولقد كان يجرى من ابن آدم مجرى الدم السيال ، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجال ، اذ كان لاينزقه الى أعماق العروق الا الشهوة المائلة الى الغلبة والاسترسال، فبقى لما زمت بزمام الحلال خائبا خاسرا ماله من ناصر ولاوال. والصلاة على محمد الهادى من الضلال ، وعلى آله خير آل ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد: فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] «طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» رواه ابن مسعود رضى الله عنه . وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض أعصاها على العقول فهما ، وأثقلها على الجوارح فعلا. ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا، وصار غموض علمه سببا لاندراس عمله إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود ، وأن السبيل دون الوصول اليه مسدود ، وأنه لم يبق من الطيبات الا الماء الفرات ، والحشيش النابت فى الموات؛ وما عداه فقد أخبثته الأيدى العادية وأفسدته المعاملات الفاسدة. واذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات ، لم يبق وجه سوى الاتساع فى المحرمات. فرفضوا هذا القطب من الدين أصلا ، ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفصلا . وهيهات هيهات ، فالحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات. ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات. ولما كانت هذه بدعة عم فى الدين ضررها، واستطار

(كتاب الحلال والحرام)

(١) حديث ابن مسعود طلب الحلال فريضة على كل مسلم: تقدم فى الزكاة دون قوله على كل مسلم وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس واجب على كل مسلم وإسناده ضعيف

فى الخلق شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها ، بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان ، ولا يخرجه التضييق عن حيز الامكان . ونحن نوضح ذلك فى سبعة أبواب

الباب الأول: فى فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام : ودرجات الحلال والحرام

الباب الثانى : فى مراتب الشبهات ومثاراتها ، وتمييزها عن الحلال والحرام

الباب الثالث : فى البحث والسؤال والهجوم والاهمال ، ومظانها فى الحلال والحرام

الباب الرابع : فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

الباب الخامس : فى ادرارات السلاطين وصِلاتهم ومايحل منها ومايحرم

الباب السادس : فى الدخول على السلاطين ومخالطتهم

الباب السابع : فى مسائل متفرقة

الباب الأول

فى فضيلة الحلال ومذمة الحرام
وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا[١]) أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل ،وقيل ان المراد به الحلال .وقال تعالى(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ[٢]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا[٣])الآية وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[٤])ثم قال(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ[٥]) ثم قال(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ[٦]) ثم قال (وَمَنْ عَادَ

﴿ الباب الأول فى فضيلة طلب الحلال ﴾

(١) المؤمنون : ٥١ (٢) البقرة : ١٨٨ (٣) النساء : ١٠ (٤) البقرة : ٢٧٨ (٥) البقرة : ٢٧٩
(٦) البقرة : ٢٧٩

فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[١]) جعل آكل الربا أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله ، وفى آخره متعرضا للنار . والآيات الواردة فى الحلال والحرام لا تحصى

وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » ولما قال صلى الله عليه وسلم[١] « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » قال بعض العلماء ، أراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالحديثين واحدا وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « مَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ مِنْ حِلِّهِ فَهُوَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا فِي عَفَافٍ كَانَ فِي دَرَجَةِ الشُّهَدَاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « مَنْ أَكَلَ الْحَلَالَ أَرْبَعِينَ يَوْماً نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَأَجْرَى يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ »وفى رواية « زَهَّدَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا » وروى ان سعدا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة . فقال له « أَطِبْ طُعْمَتَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ » ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال[٥] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مُشَرَّدٍ فِي الْأَسْفَارِ مَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فَيَقُولُ يَارَبِّ يَارَبِّ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ » وفى حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم[٦] « إِنَّ لِلَّهِ مَلَكاً عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ يُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ مَنْ أَكَلَ حَرَاماً لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ »

(١) حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم: تقدم فى العلم

(٢) حديث من سعي علي عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ومن طلب الدنيا فى عفاف كان فى درجة الشهداء: الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة من سعي على عياله ففى سبيل الله ولأبى منصور فى مسند الفردوس من طلب مكسبة من باب حلال يكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين واسنادهما ضعيف

(٣) حديث من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه: ا ونعيم فى الحلية من حديث أبى أيوب من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ولابن عدى نحوه من حديث أبى موسى وقال حديث منكر

(٤) حديث ان سعدا سأل النبى صلى الله عليه وسلم ان يسأل الله أن يجعله مجاب الدعوة فقال له أطب طعمتك تستجب دعوتك: الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه

(٥) حديث رب أشعث مشرد فى الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام: الحديث مسلم من حديث ابى هريرة بلفظ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر الحديث

(٦) حديث ابن عباس إن لله ملكا على بيت القدس ينادى كل ليلة من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل: لم أقف له على أصل ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة الحديث وهو منكر

(١) البقرة : ٢٧٥

فقيل الصرف النافلة ، والعدل الفريضة . وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « مَنِ اشْتَرَى ثَوْباً بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ وَفِي ثَمَنِهِ دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ صَلَاتَهُ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « مَنْ لَمْ يُبَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ الْمَالَ لَمْ يُبَالِ اللهُ مِنْ أَيْنَ أَدْخَلَهُ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « الْعِبَادَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي طَلَبِ الْحَلَالِ » روى هذا مرفوعا وموقوفا على بعض الصحابة أيضا . وقال صلى الله عليه وسلم [(٥)] « مَنْ أَمْسَى وَانِياً مِنْ طَلَبِ الْحَلَالِ بَاتَ مَغْفُوراً لَهُ وَأَصْبَحَ وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٦)] « مَنْ أَصَابَ مَالاً مِنْ مَأْثَمٍ فَوَصَلَ بِهِ رَحِماً أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ جَمَعَ اللهُ ذَلِكَ جَمِيعاً ثُمَّ قَذَفَهُ فِي النَّارِ » وقال عليه السلام [(٧)] « خَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٨)] « مَنْ لَقِيَ اللهَ وَرِعاً أَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ الْإِسْلَامِ كُلَّهُ » ويروى ان الله تعالى قال فى بعض كتبه ، وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم ، وقال صلى الله عليه وسلم [(٩)] « دِرْهَمٌ مِنْ رِباً أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ ثَلَاثِينَ زَنْيَةً فِي الْإِسْلَامِ » وفى حديث أبى هريرة

---

(١) حديث من اشترى ثوبا بعشرة دراهم فى ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء: أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٢) حديث كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به: الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه وقد تقدم

(٣) حديث من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار: أبو منصور الديلمى، فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر قال ابن العربى فى عارضة الأحوذى شرح الترمذى أنه باطل لم يصح ولا يصح

(٤) حديث العبادة عشرة أجزاء فتسعة منها فى طلب الحلال: أبو منصور الديلمى من حديث أنس إلا أنه قال تسعة منها فى الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال وهو منكر

(٥) حديث من أمسى وانيا من طلب الحلال بات مغفورا له وأصبح والله عنه راض: الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفورا له وفيه ضعف

(٦) حديث من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع الله ذلك جميعا ثم قذفه فى النار: أبو داود فى المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلا

(٧) حديث خير دينكم الورع : تقدم فى العلم

(٨) حديث من لقي الله ورعا أعطاه ثواب الاسلام كله: لم أقف له على أصل

(٩) حديث درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية فى الاسلام: أحمد والدارقطنى من حديث عبد الله بن حنظلة وقال ستة وثلاثين ورجاله ثقات وقيل عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعا وللطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس ثلاثة وثلاثين وسنده ضعيف

رضى الله عنه(١) « الْمَعِدَةُ حَوْضُ الْبَدَنِ وَالْعُرُوقُ إِلَيْهَا وَارِدَةٌ فَإِذَا صَحَّتِ الْمَعِدَةُ صَدَرَتِ الْعُرُوقُ بِالصِّحَّةِ وَإِذَا سَقِمَتْ صَدَرَتْ بِالسَّقَمِ » ومثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان فاذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع واذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع

وقال الله عز وجل (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ(١)) الآية وفى الحديث(٢) « مَنِ اكْتَسَبَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَإِنْ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ وَإِنْ تَرَكَهُ وَرَاءَهُ كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ »

وقد ذكرنا جملة من الأخبار فى كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال

﴿ وأما الآثار ﴾ فقد ورد أن الصديق رضى الله عنه ،(٣) شرب لبنا من كسب عبده ، ثم سأل عبده ، فقال تكهنت لقوم فأعطونى . فأدخل أصابعه فى فيه وجعل يقىء . حتى ظننت أن نفسه ستخرج . ثم قال ، اللهم انى اعتذر اليك مما حملت العروق وخالط الامعاء وفى بعض الأخبار: أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك ، فقال أو ماعلمتم أن الصديق لايدخل جوفه إلا طيبا ؟ وكذلك شرب عمر رضى الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطا ، فأدخل أصبعه وتقيأ . وقالت عائشة رضى الله عنها ، انكم لتغفلون عن أفضل العبادة هو الورع . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، لوصليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز

---

(١) حديث أبى هريرة المعدة حوض البدن والعروق اليها واردة ـ الحديث: الطبرانى فى الأوسط والعقيلى فى الضعفاء وقال باطل لاأصل له

(٢) حديث من اكتسب مالا من حرام فان تصدق به لم يقبل منه وإن تركه وراءه كان زاده الى النار أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ولابن حبان من حديث أبى هريرة من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان اصره عليه

(٣) حديث ان أبا بكر شرب لبنا من كسب عبده ثم سأله فقال تكهنت لقوم فأعطونى فأدخل أصبعه فى فيه وجعل يقىء وفى بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال أو ماعلمتم أن الصديق لايدخل جوفه الا طيبا البخارى من حديث عائشة كان لأبى بكر غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوما بشىء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام أتدرى ماهذا فقال وما هو قال كنت تكهنت لانسان فى الجاهلية فذكره دون المرفوع منه فلم أجده

---

(١) التوبة ١٠٩

وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : ما أدرك من أدرك الا من كان يعقل ما يدخل جوفه .
وقال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتبه الله صديقا ، فانظر عند من تفطر يامسكين .
وقيل لابراهيم بن أدهم رحمه الله ، لم لا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال لو كان لى دلو شربت منه . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه ، من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول . والثوب النجس لا يطهره إلا الماء ، والذنب لا يكفره إلا الحلال . وقال يحيى بن معاذ ، الطاعة خزانة من خزائن الله ، إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانه لقم الحلال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقبل الله صلاة امرىء فى جوفه حرام . وقال سهل التسترى ، لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت . وقال : من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالا ، ولا يعمل إلا فى سنة أو ضرورة .

ويقال من أكل الشبهة أربعين يوما أظلم قلبه . وهو تأويل قوله تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١)) وقال ابن المبارك: ردُّ درهم من شبهة أحب الىّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم ، ومائة ألف ألف ، ومائة ألف حتى بلغ الى ستمائة ألف. وقال بعض السلف إن العبد يأكل أكلة فيتقلب قلبه ، فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبداً . وقال سهل رضى الله عنه . من أكل الحرام عصت جوارحه ، شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم . ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه ، ووفقت للخيرات . وقال بعض السلف ، إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال ، يغفر له ما سلف من ذنوبه . ومن أقام نفسه مقام ذل فى طلب الحلال ، تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر

وروى فى آثار السلف ان الواعظ كان اذا جلس للناس . قال العلماء ، تفقدوا منه ثلاثا ، فإن كان معتقدا لبدعة فلا تجالسوه ، فإنه عن لسان الشيطان ينطق . وإن كان سيىء الطعمة فعن الهوى ينطق . فان لم يكن مكين العقل فانه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح ، فلا تجالسوه وفى الأخبار المشهورة عن على عليه السلام وغيره ، ان الدنيا حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، وزاد آخرون ، وشبهتها عتاب ،

(١) المطففين : ١٤

وروى أن بعض الصالحين دفع طعاما الى بعض الأبدال فلم يأكل ، فسأله عن ذلك ، فقال نحن لا نأكل إلا حلالا ، فلذلك تستقيم قلوبنا ، ويدوم حالنا ، ونكاشف الملكوت ونشاهد الآخرة . ولو أكلنا مما تأكلون ثلاثة أيام ، لما رجعنا الى شيء من علم اليقين ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا . فقال له الرجل ، فإني أصوم الدهر وأختم القرءان فى كل شهر ثلاثين مرة . فقال له البدل ، هذه الشربة التى رأيتنى شربتها من الليل ، أحب الىّ من ثلاثين ختمة فى ثلثمائة ركعة من أعمالك . وكانت شربته من لبن ظبية وحشية . وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة ، فهجره أحمد إذ سمعه يقول : انى لا أسأل أحدا شيئا ولو اعطانى الشيطان شيئا لأكلته ، حتى اعتذر يحيى وقال ، كنت أمزح . فقال تمزح بالدين ! أما علمت أن الأكل من الدين ؟ قدمه الله تعالى على العمل الصالح ، فقال (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً [1])

وفى الخبر أنه مكتوب في التوراة ، من لم يبال من أين مطعمه ، لم يبال الله من أى أبواب النيران أدخله . وعن علىّ رضي الله عنه ، أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاما إلا مختوما ، حذرا من الشبهة . واجتمع الفضيل بن عياض ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، عند وهيب بن الورد بمكة . فذكروا الرطب . فقال وهيب ، هو من أحب الطعام الىّ ، إلا أنى لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها . فقال له ابن المبارك ، ان نظرت فى مثل هذا ضاق عليك الخبز . قال وما سببه ؟ قال إن أصول الضياع قد اختلطت بالصوافى . فغشى على وهيب فقال سفيان قتلت الرجل . فقال ابن المبارك ، ما أردت إلا أن أهون عليه . فلما أفاق قال لله علىّ أن لا آكل خبزا أبداً حتى ألقاه . قال فكان يشرب اللبن . قال فأتته أمه بلبن فسألها ، فقالت هو من شاة بنى فلان . فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم ، فذكرت فلما أدناه من فيه قال ، بقى أنها من أين كانت ترعى ، فسكتت . فلم يشرب ، لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للمسلمين . فقالت أمه اشرب ، فان الله يغفر لك . فقال ما أحب أن يغفر لى وقد شربته ، فأنال مغفرته بمعصيته . وكان بشر الحافى رحمه الله من الورعين ، فقيل له من أين تأكل ؟ فقال من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكى

(1) المؤمنون : ٥١.

كمن يأكل وهو يضحك . وقال يد أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة . وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات .

أصناف الحلال ومداخله

اعلم ان تفصيل الحلال والحرام انما يتولى بيانه كتب الفقه . ويستغنى المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة ، يعرف بالفتوى حلها ، لا يأكل من غيرها . فأما من يتوسع فى الأكل من وجوه متفرقة ، فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه فى كتب الفقه . ونحن الآن نشير إلى مجامعه فى سياق تقسيم ، وهو أن المال انما يحرم إما لمعنى فى عينه ، أو لخلل فى جهة اكتسابه

القسم الأول : الحرام لصفة فى عينه كالخمر والخنزير وغيرهما

وتفصيله ان الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام ، فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما ، أو من النبات ، أو من الحيوانات

أما المعادن: فهى أجزاء الأرض وجميع مايخرج منها ، فلا يحرم أكله إلا من حيث انه يضر بالآكل ، وفى بعضها مايجرى مجرى السم . والخبز لو كان مضرا لحرم أكله . والطين الذى يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر . وفائدة قولنا انه لا يحرم مع انه لا يؤكل ، انه لو وقع شىء منها فى مرقة أو طعام مائع لم يصر به محرما

وأما النبات: فلا يحرم منه إلا مايزيل العقل ، أو يزيل الحياة أو الصحة . فمزيل العقل البنج والخمر وسائر المسكرات . ومزيل الحياة السموم ومزيل الصحة الأدوية فى غير وقتها : وكان مجموع هذا يرجع إلى الضرر ، إلا الخمر والمسكرات ، فإن الذى لا يسكر منها أيضا حرام مع قلته لعينه ولصفته وهى الشدة المطربة ، وأما السم : فاذا خرج عن كونه مضرا لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم

وأما الحيوانات: فتنقسم إلى مايؤكل وإلى مالا يؤكل . وتفصيله فى كتاب الأطعمة . والنظر يطول فى تفصيله ، لاسيما فى الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر . ومايحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحا شرعيا ، روعى فيه شروط الذابح والآلة والمذبح . وذلك مذكور فى كتاب الصيد والذبائح ، ومالم يذبح ذبحا شرعيا أو مات فهو حرام . ولا يحل إلا ميتتان السمك والجراد .

وفي معناها مايستحيل من الأطعمة كدود التفاح والخل والجبن ،فإن الاحتراز منهما غير ممكن .فأما إذا أفردت وأكلت ، فحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب ، وكل ماليس له نفس سائلة ، لاسبب في تحريمها إلا الاستقذار. ولو لم يكن لكان لايكره.فإن وُجد شخص لايستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه ، فإنه التحق بالخبائث لعموم الاستقذار ، فيكره أكله. كما لو جمع المخاط وشربه كره ذلك . وليست الكراهة لنجاستها ،فإن الصحيح أنها لاتنجس بالموت ، إذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] بأن يمقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه. وربما يكون حاراً ، ويكون ذلك سبب موته . ولو تهرت نملة أو ذبابة في قدر لم يجب إراقتها . إذ المستقذر هو جرمه إذا بقي له جرم ، ولم ينجس حتى يحرم بالنجاسة.وهذا يدل على ان تحريمه للاستقذار . ولذلك نقول لو وقع جزء من آدمي ميت في قدر ، ولو وزن دانق ، حرم الكل ،لا لنجاسته ، فإن الصحيح أن الآدمي لاينجس بالموت ، ولكن لأن أكله محرم احتراما لااستقذارا

وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحل جميع أجزائها ، بل يحرم منها الدم والفرث ، وكل مايقضى بنجاسته منها. بل تناول النجاسة مطلقا محرم . ولكن ليس في الأعيان شيء محرم نجس إلا من الحيوانات . وأما من النبات ، فالمسكرات فقط دون مايزيل العقل ولايسكر ، كالبنج ، فإن نجاسة المسكر تغليظ للزجر عنه ، لكونه في مظنة التشوف. ومهما وقعت قطرة من النجاسة ،أو جزء من نجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن ، حرم أكل جميعه، ولايحرم الانتفاع به لغير الأكل ، فيجوز الاستصباح بالدهن النجس ، وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها

فهذه مجامع مايحرم لصفة في ذاته

القسم الثاني : مايحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه . وفيه يتسع النظر فنقول أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك ، أو بغير اختياره . فالذي يكون بغير اختياره كالإرث . والذي يكون باختياره إما أن لايكون من مالك . كنيل المعادن، أو يكون من مالك . والذي أخذ من مالك فإما أن يؤخذ قهرا ، أو يؤخذ تراضيا . والمأخوذ قهراً إما أن يكون لسقوط عصمة المالك، كالغنائم ،أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين، والنفقات

(١) حديث الأمر بأن يمقل الذباب في الطعام اذا وقع فيه:البخاري من حديث أبي هريرة

الواجبة عليهم . والمأخوذ تراضيا إما أن يؤخذ بعوض ، كالبيع والصداق، والأجرة ، وإما أن يؤخذ بغير عوض ، كالهبة والوصية . فيحصل من هذا السياق ستة أقسام

الأول: مايؤخذمن غير مالك ، كنيل المعادن ، وإحياء الموات، والاصطياد والاحتطاب والاستقاء من الأنهار ، والاحتشاش، فهذا حلال ، بشرط أن لايكون المأخوذمختصابذى حرمة من الآدميين . فإذا انفك من الاختصاصات ملكها آخذها وتفصيل ذلك فى كتاب إحياء الموات

الثانى : المأخوذ قهرا ممن لاحرمة له ، وهو الفىء والغنيمة، وسائر أموال الكفار والمحاربين . وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخمس . وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد . وتفصيل هذه الشروط فى كتاب السير ، من كتاب الفىء والغنيمة ، وكتاب الجزية

الثالث:مايؤخذ قهرا باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فيؤخذ دون رضاه.وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق ، وتم وصف المستحق الذى به استحقاقه ، واقتصر على القدر المستحق ، ولستوفاه ممن يملك الاستيفاء ، من قاض أو سلطان أو مستحق . وتفصيل ذلك فى كتاب تفريق الصدقات ، وكتاب الوقف ، وكتاب النفقات ، إذ فيها النظر فى صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق . فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالا

الرابع:مايؤخذ تراضيا بمعاوضة . وذلك حلال، إذا روعى شرط العوضين، وشرط العاقدين وشرط اللفظين ، أعنى الإيجاب والقبول ، مع ماتعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة وبيان ذلك فى كتاب البيع والسلم والإجارة، والحوالة والضمان والقراض، والشركة والمساقاة والشفعة ، والصلح والخلع والكتابه . والصداق وسائر المعاوضات

الخامس: مايؤخذعن رضا من غيرعوض . وهو حلال ، إذا روعى فيه شرط المعقود عليه ، وشرط العاقدين ، وشرط العقد ، ولم يؤد الى ضرر بوارث أو غيره . وذلك مذكور فى كتاب الهبات والوصايا والصدقات

السادس: مايحصل بغير اختيار كالميراث . وهو حلال اذا كان المورث قد اكتسب المال

من بعض الجهات الخمس على وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين ، وتنفيذ الوصايا ، وتعديل القسمة بين الورثة ، وإخراج الزكاة ، والحج ، والكفارة ، إن كان واجبا . وذلك مذكور فى كتاب الوصايا والفرائض

فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام ، أومأنا إلى جملتها ، ليعلم المريد أنه إن كانت طعمته متفرقة لا من جهة معينة فلا يستغنى عن علم هذه الأمور فكل ما يأكله من جهة من هذه الجهات ينبغى أن يستفتى فيه أهل العلم ، ولا يقدم عليه بالجهل . فإنه كما يقال للعالم لمَ خالفت علمك ، يقال للجاهل لمَ لازمت جهلك ولم تتعلم ، بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم

درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحرام كله خبيث ، لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ، وأصفى من بعض ، وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول بعضها حار فى الدرجة الأولى كالسكر ، وبعضها حار فى الثانية كالفانيذ ، وبعضها حار فى الثالثة كالدبس ، وبعضها حار فى الرابعة كالعسل ، كذلك الحرام بعضه خبيث فى الدرجة الأولى ، وبعضه فى الثانية أو الثالثة أو الرابعة . وكذا الحلال تتفاوت درجات صفائه وطيبه ، فلنقتد بأهل الطب فى الاصطلاح على أربع درجات تقريبا ، وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر ، إذ يتطرق إلى كل درجة من الدرجات أيضا تفاوت لا ينحصر ، فإن من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر ، وكذا غيره

فلذلك نقول الورع عن الحرام على أربع درجات :

ورع العدول . وهو الذى يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ، ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه . وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما يتطرق اليه احتمال التحريم ولكن المفتى يرخص فى التناول بناء على الظاهر فهو من مواقع الشبهة على الجملة ، فلنسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين ، وهو فى الدرجة الثانية

الثالثة : مالا تحرمه الفتوى ولا شبهة فى حله ، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم .

وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس . وهذا ورع المتقين . قال صلى الله عليه وسلم (١) « لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتّى يَدَعَ مَالاَ بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ »

الرابعة: مالا بأس به أصلا ، ولا يخاف منه أن يؤدى إلى ما به بأس ، ولكنه يتناول لغير الله ، وعلى غير نية التقوّى به على عبادة الله . أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية. والامتناع منه ورع الصديقين

فهذه درجات الحلال جملة إلى أن نفصلها بالأمثلة والشواهد

وأما الحرام الذى ذكرناه فى الدرجة الأولى ، وهو الذى يشترط التورع عنه فى العدالة وإطراح سمة الفسق ، فهو أيضا على درجات فى الخبث . فالمأخوذ بعقد فاسد ، كالمعاطاة مثلا فيما لا يجوز فيه المعاطاة حرام ، ولكن ليس فى درجة المغصوب على سبيل القهر . بل المغصوب أغلظ ، إذ فيه ترك طريق الشرع فى الاكتساب ، وإيذاء الغير. وليس فى المعاطاة إيذاء ، وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا وهذا التفاوت يدرك بتسديد الشرع ووعيده وتأكيده فى بعض المناهى ، على ماسيأتى فى كتاب التوبة ، عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة بل المأخوذ ظلما من فقير أو صالح أو من يتيم ، أخبث وأعظم من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق . لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذى

فهذه دقائق فى تفاصيل الخبائث لا ينبغى أن يذهل عنها. فلولا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت دركات النار . وإذا عرفت مثارات التغليظ فلا حاجة إلى حصره فى ثلاث درجات أو أربعة. فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهى، وهو طلب حصر فيما لا حاصر له . ويدلك على اختلاف درجات الحرام فى الخبث ماسيأتى فى تعارض المحذورات، وترجيح بعضها على بعض، حتى إذا اضطر إلى أكل ميتة، أو أكل طعام الغير، أو أكل صيد الحرم. فإنا نقدم بعض هذا على بعض

أمثلة

الدرجات الأربع فى الورع وشواهدها

أما الدرجة الأولى ، وهى ورع العدول ، فكل مااقتضى الفتوى تحريمه ، مما يدخل

(١) حديث لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس: ابن ماجه وقد تقدم

فى المداخل الستة التى ذكرناها من مداخل الحرام، لفقد شرط من الشروط، فهو الحرام المطلق الذى ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية. وهو الذى نريده بالحرام المطلق. ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد

وأما الدرجة الثانية ، فأمثلتها كل شبهة لا توجب اجتنابها ، ولكن يستحب اجتنابها كما سيأتى فى باب الشبهات . إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام، ومنها ما يكره اجتنابها ، فالورع عنها ورع الموسوسين ، كمن يمتنع من الاصطياد ، خوفا من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه . وهذا وسواس . ومنها ما يستحب اجتنابها ولا يجب ، وهو الذى ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم [(١)] « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالاَ يَرِيبُكَ » ونحمله على نهى التنزيه. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « كُلْ مَا أَصْمَيْتَ وَدَعْ مَا أَنْمَيْتَ » والإنماء أن يجرح الصيد فيغيب عنه ، ثم يدركه ميتا . إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر . والذى نختاره كما سيأتى أن هذا ليس بحرام . ولكن تركه من ورع الصالحين. وقوله دع ما يريبك أمر تنزيه . إذ ورد فى بعض الروايات ، كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثرا غير سهمك . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم فى الكلب المعلم « وَإِنْ أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ » فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه على سبيل التنزيه لأجل الخوف ، إذ قال لأبى ثعلبة الخشنى [(٣)] « كُلْ مِنْهُ » فقال وإن أكل منه ؟ فقال « وَإِنْ أَكَلَ » وذلك لأن حالة أبى ثعلبة وهو فقير مكتسب ، لا تحتمل هذا الورع . وحال عدى كان يحتمله

يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم، لأنه حاك فى قلبه شىء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به فأمثلة هذه الدرجة نذكرها فى التعرض لدرجات الشبهة . فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة

أما الدرجة الثالثة ، وهى ورع المتقين ، فيشهد لها قوله صلى الله عليه وسلم [(٤)] « لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَالاَ بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ » وقال عمر رضى الله عنه

---

(١) حديث دع ما يريبك إلى مالا يريبك: النسائى والترمذى والحاكم وصححاه من حديث الحسن بن على

(٢) حديث كل ما أصميت ودع ما أنميت: الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن عباس والبيهقى موقوفا عليه وقال ان المرفوع ضعيف

(٣) حديث قال لأبى ثعلبة كل منه فقال وان أكل قال وان أكل: أبو داود من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ومن حديث أبى ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادها جيد والبيهقى موقوفا عليه وقال إن المرفوع ضعيف

(٤) حديث لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس: ابن ماجه وقد تقدم

كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع فى الحرام . وقيل إن هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال أبو الدرداء ، إن من تمام التقوى أن يتقى العبد فى مثقال ذرة ، حتى يترك بعض مايرى أنه حلال خشية أن يكون حراما ، حتى يكون حجابا بينه وبين النار . ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان ، فحملها إليه ، فأخذ تسعة وتسعين ، وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة . وكان بعضهم يتحرز ، فكل مايستوفيه يأخذه بنقصان حبة ، وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة ، ليكون ذلك حاجزا من النار

ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتسامح به الناس ، فإن ذلك حلال فى الفتوى ، ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره ، وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع . فمن ذلك ماروى عن على بن معبد أنه قال : كنت ساكنا فى بيت بكراء . فكتبت كتابا ، وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأتربه وأجففه . ثم قلت الحائط ليس لى . فقالت لى نفسى ، وما قدر تراب من حائط ؟ فأخذت من التراب حاجتى . فلما نمت ، فإذا أنا بشخص واقف يقول : ياعلى بن معبد ، سيعلم غدا الذى يقول وما قدر تراب من حائط . ولعل معنى ذلك أنه يرى كيف يحط من منزلته . فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين . وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله

ومن ذلك ماروى أن عمر رضى الله عنه وصله مسك من البحرين . فقال وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين . فقالت امرأته عاتكة ، أنا أجيد الوزن . فسكت عنها ، ثم أعاد القول ، فأعادت الجواب . فقال لاأحببت أن تضعيه بكفة ، ثم تقولين فيها أثر الغبار ، فتمسحين بها عنقك ، فأصيب بذلك فضلا على المسلمين . وكان يوزن بين يدى عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين ، فأخذ بأنفه حتى لاتصيبه الرائحة . وقال وهل ينتفع منه إلا بريحه ؟ لما استبعد ذلك منه . وأخذ الحسن رضى الله عنه [1] تمرة من تمر الصدقة وكان صغيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم « كَخْ كَخْ » أى ألقها

---

(١) حديث أخذ الحسن بن على تمرة من الصدقة وكان صغيرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم كخ كخ ألقها البخارى من حديث أبى هريرة

ومن ذلك ماروى بعضهم أنه كان عند محتضر ، فمات ليلا . فقال اطفئوا السراج، فقد حدث للورثة حق فى الدهن . وروى سليمان التيمى عن نعيمة العطارة قالت ، كان عمر رضى الله عنه يدفع إلى امرأته طيبا من طيب المسلمين لتبيعه ، فباعتنى طيبا ، فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسر بأسنانها ، فتعلق بأصبعها شيء منه ، فقالت به هكذا بأصبعها ، ثم مسحت به خمارها . فدخل عمر رضى الله عنه فقال ، ماهذه الرائحة ؟ فأخبرته ، فقال طيب المسلمين تأخذينه؟ فانتزع الخمار من رأسها ، وأخذ جرة من الماء ، فجعل يصب على الخمار ، ثم يدلكه فى التراب ، ثم يشمه ، ثم يصب الماء ، ثم يدلكه فى التراب ويشمه ، حتى لم يبق له ريح . قالت ثم أتيتها مرة أخرى ، فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها . فأدخلت أصبعها فى فيها ثم مسحت به التراب . فهذا من عمر رضى الله عنه ورع التقوى ، لخوف أداء ذلك إلى غيره وإلا فغسل الخمار ماكان يعيد الطيب إلى المسلمين . ولكن أتلفه عليها زجرا وردعا، واتقاء من أن يتعدى الأمر إلى غيره

ومن ذلك ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله ، عن رجل يكون في المسجد يحمل بجمرة لبعض السلاطين ، ويبخر المسجد بالعود ، فقال ينبغى أن يخرج من المسجد ، فإنه لا ينتفع من العود إلا برائحته . وهذا قد يقارب الحرام . فإن القدر الذى يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد ، وقد يبخل به فلا يدرى أنه يتسامح به أم لا . وسئل أحمد بن حنبل عمن سقطت ورقة فيها أحاديث ، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردها ؟ فقال لا ، بل يستأذن ثم يكتب . وهذا أيضا قد يشك فى أن صاحبها هل يرضى به أم لا فما هو فى محل الشك والأصل تحريمه ، فهو حرام . وتركه من الدرجة الاولى

ومن ذلك التورع عن الزينة ؛ لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها ، وإن كانت الزينة مباحة فى نفسها . وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السبتية ، فقال أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو ، وأما من أراد الزينة فلا

ومن ذلك أن عمر رضى الله عنه لما ولى الخلافة ، كانت له زوجة يحبها فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة فى باطل ، فيطيعها ويطلب رضاها . وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس ، أى مخافة من أن يفضى إليه

وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات . حتى استكثار الأكل ، واستعمال الطيب للمتعزب ، فإنه يحرك الشهوة ، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر ، والفكر يدعو إلى النظر ، والنظر يدعو إلى غيره . وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم مباح فى نفسه ، ولكن يهيج الحرص ، ويدعو إلى طلب مثله ، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل فى تحصيله . وهكذا المباحات كلها ، إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة فى وقت الحاجة ، مع التحرز من غوائلها بالمعرفة أولا ، ثم بالحذر ثانيا ، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر . وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما يخلو عن خطر . حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان ، وقال أما تجصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه . حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها . واستدل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل [1] أن يكحل المسجد ، فقال « لَا عَرِيشَ كَعَرِيشِ مُوسَى وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ مِثْلُ الْكُحْلِ يُطْلَى بِهِ » فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا من رق ثوبه رق دينه . وكل ذلك خوفا من سريان اتباع الشهوات فى المباحات الى غيرها فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة . وإذا تعودت الشهوة المسامحة استرسلت . فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله . فكل حلال انفك عن مثل هذه المخالفة ، فهو الحلال الطيب فى الدرجة الثالثة . وهو كل ما لا يخاف أداؤه الى معصية ألبتة .

أما الدرجة الرابعة ، وهو ورع الصديقين ، فالحلال عندهم كل ما لا تتقدم فى أسبابه معصية ، ولا يستعان به على معصية ، ولا يقصد منه فى الحال والمآل قضاء وطر ، بل يتناول لله تعالى فقط ، وللتقوى على عبادته ، واستبقاء الحياة لأجله . وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله حراما ، امتثالا لقوله تعالى (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ [1]) وهذه رتبة الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم ، المنفردين لله تعالى بالقصد . ولا شك فى أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ، ليتورع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية .

---

(١) حديث أنه سئل أن يكحل المسجد فقال لاعريش كعريش موسى: الدار قطنى فى الافراد من حديث أبى الدرداء وقال غريب

(١) الانعام : ٩١ .

فمن ذلك ماروى عن يحيي بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته لو تمشيت فى الدار قليلا حتي يعمل الدواء ؟ فقال هذه مشية لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسى منذ ثلاثين سنة ، فكأنه لم تحضره نية فى هذه المشية تتعلق بالدين ، فلم يجز الإقدام عليها . وعن سري رحمه الله أنه قال : انتهيت إلى حشيش فى جبل ، وماء يخرج منه ، فتناولت من الحشيش ، وشربت من الماء ، وقلت فى نفسى ، إن كنت قد أكلت يوما حلالا طيبا فهو هذا اليوم فهتف بى هاتف ، إن القوة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هى ؟ فرجعت وندمت

ومن هذا ماروى عن ذى النون المصرى أنه كان جائعا محبوسا ، فبعثت إليه امرأة صالحة طعاما على يد السجان . فلم يأكل ، ثم اعتذر وقال ، جاءنى على طبق ظالم . يعنى أن القوة التى أوصلت الطعام إلىّ لم تكن طيبة . وهذه الغاية القصوى فى الورع

ومن ذلك أن بشرا رحمه الله ، كان لايشرب الماء من الأنهار التى حفرها الأمراء . فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه ، وان كان الماء مباحا فى نفسه ، فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء ، وقد أعطوا الأجرة من الحرام . ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال ، من كرم حلال ، وقال لصاحبه أفسدته إذ سقيته من الماء الذى يجرى فى النهر الذى حفرته الظلمة . وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء ، لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء . وكان بعضهم إذا مر فى طريق الحج لم يشرب من المصانع التى عملتها الظلمة مع أن الماء مباح ، ولكنه بقى محفوظا بالمصنع الذى عمل به بمال حرام ، فكأنه انتفاع به .

وامتناع ذى النون من تناول الطعام من يد السجان أعظم من هذا كله ، لأن يد السجان لاتوصف بأنها حرام ، بخلاف الطبق المغصوب إذا حمل عليه ولكنه وصل إليه بقوة اكتسبت بالغذاء الحرام . ولذلك تقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن ، خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة . مع أنه شربه عن جهل ، وكان لا يجب إخراجه . ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين

ومن ذلك التورع من كسب حلال اكتسبه خياط يخيط فى المسجد . فإن أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط فى المسجد . وسئل عن المغازلى يجلس فى قبة فى المقابر ، فى وقت يخاف

من المطر ، فقال إنما هى من أمر الآخرة ، وكره جلوسه فيها . وأطفأ بعضهم سراجا أسرجه غلامه من قوم يكره مالهم . وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقى فيه جمر من حطب مكروه . وامتنع بعضهم من أن يحكم شسع نعله فى مشعل السلطان . فهذه دقائق الورع عند سالكى طريق الآخرة

والتحقيق فيه أن الورع له أول ، وهو الامتناع عما حرمته الفتوى ، وهو ورع العدول وله غاية ، وهو ورع الصديقين ، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله ، مما أخذ بشهوة ، أو توصل إليه بمكروه ، أو اتصل بسببه مكروه . وبينهما درجات فى الاحتياط . فكلما كان العبد أشد تشديدا على نفسه كان أخف ظهرا يوم القيامة ، وأسرع جوازا على الصراط ، وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته . وتتفاوت المنازل فى الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات فى الورع . كما تتفاوت دركات النار فى حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام فى الخبث . وإذا علمت حقيقة الأمر فاليك الخيار ، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط ، وإن شئت فرخص ، فلنفسك تحتاط ، وعلى نفسك ترخص والسلام

الباب الثانى

فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ . فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَاقَعَ الْحَرَامَ كَالرَّاعِي حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ » فهذا الحديث نص فى إثبات الأقسام الثلاثة . والمشكل منها القسم المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس ، وهو الشبهة ، فلا بد من بيانها ، وكشف الغطاء عنها ، فإن ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل فنقول

الحلال المطلق . هو الذى خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه ، وانحل عن أسبابه ما تطرق اليه تحريم أو كراهية . ومثاله الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر ، قبل أن

﴿ الباب الثانى فى مراتب الشبهات ﴾

(١) حديث الحلال بين والحرام بين متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

يقع على ملك أحد ، ويكون هو واقفا عند جمعه ، وأخذه من الهواء فى ملك نفسه ، أو فى أرض مباحة .

والحرام المحض هو ما فيه صفة محرمة لايشك فيها ، كالشدة المطربة فى الخمر ، والنجاسة فى البول . أو حصل بسبب منهى عنه قطعا ، كالمحصل بالظلم والربا ونظائره . فهذان طرفان ظاهران .

ويلتحق بالطرفين ماتحقق أمره ولكنه احتمل تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه . فإن صيد البر والبحر حلال . ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ، ثم أفلتت منه ، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد ، بعد وقوعه فى يده وخريطته فمثل هذا الاحتمال لايتطرق الى ماء المطر المختطف من الهواء ، ولكنه فى معنى ماء المطر ، والاحتراز منه وسواس ، ولنسم هذا الفن ورع الموسوسين ، حتى تلتحق به أمثاله . وذلك لأن هذا وهم مجرد لادلالة عليه ، نعم لو دل عليه دليل ، فإن كان قاطعا ، كما لو وجد حلقة فى أذن السمكة ، أو كان محتملا ، كما لو وجد على الظبية جراحة يحتمل أن يكون كيّا لايقدر عليه إلا بعد الضبط ، ويحتمل أن يكون جرحا ، فهذا موضع الورع . وإذا انتفت الدلالة من كل وجه ، فالاحتمال المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم فى نفسه ، ومن هذا الجنس من يستعير دارا ، فيغيب عنه المعير ، فيخرج ، ويقول لعله مات وصار الحق للوارث ، فهذا وسواس ، إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك ، إذ الشبهة المحذورة ماتنشأ من الشك . والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشأ عن سببين . فما لاسبب له لايثبت عقده فى النفس ، حتى يساوى العقد المقابل له ، فيصير شكا . ولهذا نقول من شك أنه صلى ثلاثا أو أربعا أخذ بالثلاث . إذ الأصل عدم الزيادة . ولو سئل إنسان أن صلاة الظهر التى أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثا أو أربعا ؟ لم يتحقق قطعا أنها أربعة ، وإذا لم يقطع جوز أن تكون ثلاثة ، وهذا التجويز لايكون شكا إذ لم يحضره سبب أوجب اعتقاد كونها ثلاثا . فلتفهم حقيقة الشك ، حتى لايشتبه الوهم والتجويز بغير سبب . فهذا يلتحق بالحلال المطلق

ويلتحق بالحرام المحض ماتحقق تحريمه ، وإن أمكن طريان محلل ، ولكن لم يدل عليه سبب كمن فى يده طعام لمورثه الذى لاوارث له سواه ، فغاب عنه ، فقال يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك إلىّ فآكله . فإقدامه عليه إقدام على حرام محض ، لأنه احتمال لامستند له . فلاينبغى أن يعد هذا النمط من أقسام الشبهات . وإنما الشبهة نعنى بها مااشتبه علينا أمره ، بأن تعارض لنا فيه اعتقادان ، صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين

ومثارات الشبهة خمسة :

المثار الأول

الشك فى السبب المحلل والمحرم

وذلك لايخلو إما أن يكون متعادلا ، أو غلب أحد الاحتمالين. فإن تعادل الاحتمالان، كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ، ولا يترك بالشك . وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة ، كان الحكم للغالب . ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد . فلنقسمه إلى أقسام أربعة

القسم الأول أن يكون التحريم معلوما من قبل ، ثم يقع الشك في المحلل . فهذه شبهة يجب اجتنابها ، ويحرم الأقدام عليها

مثاله أن يرمى الى صيد فيجرحه ، ويقع فى الماء فيصادفه ميتا ، ولا يدرى أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فهذا حرام . لأن الأصل التحريم ، إلا اذا مات بطريق معين ، وقد وقع الشك فى الطريق ، فلا يترك اليقين بالشك . كما فى الأحداث والنجاسات ، وركعات الصلاة وغيرها . وعلى هذا ينزل قوله صلى الله عليه وسلم [1] لعدى بن حاتم « لَا تَأْكُلْهُ فَلَعَلَّهُ قَتَلَهُ غَيْرُ كَلْبِكَ » فلذلك كان صلى الله عليه وسلم [2] اذا أتى بشىء اشتبه عليه انه صدقة أو هدية ، سأل عنه ، حتى يعلم أيهما هو . وروى أنه صلى الله عليه وسلم [3] أرق ليلة فقال له بعض نسائه أرقت يارسول الله فقال « أَجَلْ ، وَجَدْتُ تَمْرَةً فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ »

---

(١) حديث لاتأكله فلعله قتله غير كلبك قاله لعدي بن حاتم متفق عليه من حديثه

(٢) حديث كان إذا أتى بشىء اشتبه عليه انه صدقة أوهبة يسأل عنه: البخارى من حديث أبي هريرة

(٣) حديث أنه أرق ليلة فقال له بعض نسائه أرقت يارسول الله فقال أجل وجدت تمرة فأكلتها فخشيت أن تكون من الصدقة أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده باسناد حسن

وفي رواية« فَأَكَلْتُهَا فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ »

ومن ذلك ماروى عن بعضهم أنه قال ، (١) كنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع ، فنزلنا منزلا كثيرا لضباب ، فبينا القدور تغلى بها . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُمَّةٌ مُسِخَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ » فأكفأنا القدور . ثم أعلمه الله بعد ذلك ، أنه (٢) لم يمسخ الله خلقا فجعل له نسلا . وكان امتناعه أولا لأن الأصل عدم الحل ، وشك فى كون الذبح محللا

القسم الثانى :أن يعرف الحل ، ويشك فى المحرم فالأصل الحل ، وله الحكم ، كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر . فقال أحدهما ، ان كان هذا غرابا فامرأتى طالق ، وقال الآخر إن لم يكن غرابا فامرأتى طالق ، والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم فى واحدة منهما، ولا يلزمهما اجتنابهما . ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما ، حتى يحلا لسائر الأزواج ، وقد أمر مكحول بالاجتناب فى هذه المسأله . وأفتى الشعبي بالاجتناب ، فى رجلين كانا قد تنازعا ، فقال أحدهما للآخر ، أنت حسود . فقال الآخر ، أحسدنا زوجته طالق ثلاثا . فقال الآخر نعم وأشكل الأمر . وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح . وان أراد التحريم المحقق فلا وجه له . إذ ثبت فى المياه والنجاسات والاحداث والصلوات ، أن اليقين لا يجب تركه بالشك وهذا فى معناه

فإن قلت: وأى مناسبة بين هذا وبين ذلك ؟ فاعلم أنه لا يحتاج الى المناسبة فانه لازم من غير ذلك فى بعض الصور . فانه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك فى نجاسته ، جاز له أن يتوضأ به فكيف لا يجوز له أن يشربه ! وإذا جوز الشرب ، فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك إلا أن ههنا دقيقة ، وهو أن وزان الماء أن يشك فى أنه طلق زوجته أم لا ، فيقال الأصل أنه ماطلق

---

(١) حديث كنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع فنزلنا منزلا كثير الضباب فبينا القدور تغلى بها اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة من بنى اسرائيل مسخت فأخاف أن تكون هذه فأكفأنا القدور :ابن حبان والبيهق من حديث عبدالرحمن وحسنه وروى أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث ثابت بن زيد بنحوه مع اختلاف قال البخارى وحديث ثابت أصح

(٢) حديث أنه لم يمسخ الله خلقا فجعل له نسلا: مسلم من حديث ابن مسعود ..

ووزان مسألة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإناءين، ويشتبه عينه ، فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد ، لأنه قابل يقين النجاسة بيقين الطهارة ، فيبطل الاستصحاب . فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجتين قطعا ، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة

فنقول: اختلف أصحاب الشافعي في الإناءين على ثلاثة أوجه ، فقال قوم يستصحب بغير اجتهاد . وقال قوم بعد حصول يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب، ولا يغني الاجتهاد . وقال المقتصدون يجتهد . وهو الصحيح . ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول إن كان غرابا فزينب طالق ، وإن لم يكن فعمرة طالق . فلا جرم لا يجوز له غشيانهما بالإستصحاب، ولا يجوز الاجتهاد ، إذ لا علامة . ونحرمهما عليه، لأنه لو وطئهما ، كان مقتحما للحرام قطعا ، وإن وطىء إحداهما وقال أقتصر على هذه كان متحكما بتعيينها من غير ترجيح فني هذا افترق حكم شخص واحد أو شخصين ، لأن التحريم على شخص واحد متحقق بخلاف الشخصين ، إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه

فإن قيل: فلو كان الاناءان لشخصين، فينبغي أن يستغني عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإنائه ، لأنه تيقن طهارته ، وقد شك الآن فيه

فنقول: هذا محتمل في الفقه . والأرجح في ظني المنع . وأن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده ، لأن صحة الوضوء لا تستدعي ملكا . بل وضوء الانسان بماء غيره في رفع الحدث كوضوئه بماء نفسه فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر، بخلاف الوطء لزوجة الغير فإنه لا يحل. ولأن للعلامات مدخلا في النجاسات، والاجتهاد فيه ممكن ، بخلاف الطلاق فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة، ليدفع بها قوة يقين النجاسة المقابلة ليقين الطهارة . وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه . وقد استقصيناه في كتب الفقه ، ولسنا نقصد الآن إلا التنبيه على قواعدها

القسم الثالث: أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب . فهو مشكوك فيه . والغالب حله . فهذا ينظر فيه ، فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا ، فالذي نختار فيه أنه يحل ، واجتنابه من الورع

مثاله: أن يرمي إلى صيد فيغيب ، ثم يدركه ميتا ، وليس عليه أثر سوى سهمه . ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر . فإن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى، التحق

بالقسم الأول . وقد اختلف قول الشافعي رحمه الله في هذا القسم . والمختار أنه حلال. لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق . والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه ، فطريانه مشكوك فيه ؛ فلا يدفع اليقين بالشك

فإن قيل: فقد قال ابن عباس: كل ما أصميت ودع ما أنميت ، وروت عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم [١] بأرنب ، فقال رميتى عرفت فيها سهمي ، فقال « أَصْمَيْتَ أَوْ أَنْمَيْتَ ؟ » فقال بل أنميت قال « إِنَّ اللَّيْلَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ لا يُقْدَرُ قَدْرُهُ إِلاَّ الَّذِى خَلَقَهُ فَلَعَلَّهُ أَعَانَ عَلَى قَتْلِه شَىْءٌ » وكذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] لعدى بن حاتم فى كلبه المعلم « وَإِنْ أَكَلَ فَلا تَأْكُلْ فَإِنِّى أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ » والغالب أن الكلب المعلم لا يسيء خلقه ، ولا يمسك إلا على صاحبه ، ومع ذلك نهى عنه . وهذا التحقيق ، وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب ، وتمام السبب بأن يفضى إلى الموت سليما من طريان غيره عليه ، وقد شك فيه ، فهو شك فى تمام السبب ، حتى اشتبه أن موته على الحل أو على الحرمة. فلا يكون هذا فى معنى ما تحقق موته على الحل فى ساعته، ثم شك فيما يطرأ عليه

فالجواب: أن نهى ابن عباس ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمول على الورع والتنزيه . بدليل ما روى فى بعض الروايات أنه قال [٣] « كُلْ مِنْهُ وَإِنْ غَابَ عَنْكَ مَا لَمْ تَجِدْ فِيهِ أَثَراً غَيْرَ سَهْمِكَ » وهذا تنبيه على المعنى الذى ذكرناه ، وهو أنه إن وجد أثرا آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن . وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة للظن ، فيحكم به على الاستصحاب ، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد ، والقياس المظنون والعمومات المظنونة ، وغيرها

---

(١) حديث عائشة ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال رميتي عرفت فيها سهمي فقال أصميت أو أنميت قال بل أنميت قال أن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره الا الذى خلقه لعله أعان على قتله شيء: ليس هذا من حديث عائشة وانما رواه موسى بن أبي عائشة عن أبي رزين قال جاء رجل الي النبي صلى الله عليه وسلم بصيد فقال إنى رميته من الليل فأعيانى ووجدت سهمي فيه من الغد وعرفت سهمى فقال الليل خلق من خلق الله عظيم لعله أعانك عليها شيء رواه أبو داود فى المراسيل والبيهقى وقال أبو رزين اسمه مسعود والحديث مرسل قاله البخارى

(٢) حديث قال لعدى فى كلبه المعلم وان أكل فلا تأكل فانى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه متفق عليه من حديثه

(٣) حديث كل منه وان غاب عنك مالم تجد فيه أثر سهم غيرك: متفق عليه من حديث عدى بن حاتم

وأما قول القائل إنه لم يتحقق موته على الحل فى ساعة ، فيكون شكا فى السبب،فليس كذلك . بل السبب قد تحقق ، إذ الجرح سبب الموت ، فطريان الغير شك فيه . ويدل على صحة هذا الاجماعُ على أن من جرح وغاب ، فوجد ميتا ، فيجب القصاص على جارحه بل إن لم يغب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط فى باطنه ، كما يموت الإنسان فجأة . فينبغى أن لا يجب القصاص إلا بحز الرقبة ، والجرح المذفف . لأن العلل القاتلة فى الباطن لاتؤمن ، ولأجلها يموت الصحيح فجأة ، ولا قائل بذلك ، مع أن القصاص مبناه على الشبهة وكذلك جنين المذكاة حلال . ولعله مات قبل ذبح الأصل ، لابسبب ذبحه ، أو لم ينفخ فيه الروح.وغرة الجنين تجب ، ولعل الروح لم ينفخ فيه ، أو كان قد مات قبل الجناية بسبب آخر . ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة .فان الاحتمال الآخر ، إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه ، التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه . فكذلك هذا

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ » فللشافعى رحمه الله فى هذه الصورة قولان ، والذى نختاره الحكم بالتحريم ، لأن السبب قد تعارض : إذ الكلب المعلم كالآلة والوكيل ، يمسك على صاحبه فيحل . ولو استرسل المعلم بنفسه فأخذ لم يحل . لأنه يتصور منه أن يصطاد لنفسه . ومهما انبعث بإشارته ، ثم أكل ، دل ابتداء انبعاثه على أنه نازل منزلة آلته ، وأنه يسعى فى وكالته ونيابته ، ودل أكله آخرا على أنه أمسك لنفسه لا لصاحبه . فقد تعارض السبب الدال ، فيتعارض الاحتمال ، والأصل التحريم فيستصحب ، ولا يزال بالشك . وهو كما لو وكل رجلا بأن يشترى له جارية ، فاشترى جارية ، ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله ، لم يحل للموكل وطؤها. لأن للوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعا . ولا دليل مرجح ، والأصل التحريم ، فهذا يلتحق بالقسم الأول لا بالقسم الثالث

القسم الرابع:أن يكون الحل معلوما ، ولكن يغلب على الظن طريان محرم ، بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعا .فيرفع الاستصحاب ،ويقضى بالتحريم.إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن

ومثاله أن يؤدى اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين ، بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة

الظن ، فتوجب تحريم شربه ، كما أوجبت منع الوضوء به ، وكذا إذا قال، إن قتل زيد عمرا أو قتل زيد صيدا ، منفردا بقتله ، فامرأتى طالق : فجرحه وغاب عنه ، فوجد ميتا، حرمت زوجته . لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق . وقد نص الشافعى رحمه الله ، أن من وجد فى الغدران ماء متغيرا ، احتمل أن يكون تغيره بطول المكث أو بالنجاسة ، فيستعمله ولو رأى ظبية بالت فيه ، ثم وجده متغيرا ، واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المكث لم يجز استعماله إذ صار البول المشاهد دلالة مغلبة لاحتمال النجاسة ، وهو مثال ماذكرناه وهذا فى غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشىء

فاما غلبة الظن لامن جهة علامة تتعلق بعين الشىء ، فقد اختلف قول الشافعى رضى الله عنه فى أن أصل الحل هل يزال به إذا اختلف قوله فى التوضؤ من أوانى المشركين ، ومدمن الخمر، والصلاة فى المقابر المنبوشة ، والصلاة مع طين الشوارع ، أعنى المقدار الزائد على مايتعذر الاحتراز عنه ، وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر . وهذا جار فى حل الشرب من أوانى مدمن الخمر والمشركين ، لأن النجس لايحل شربه فإذاً مأخذ النجاسة والحل واحد ، فالتردد فى أحدهما يوجب التردد فى الآخر ، والذى أختاره أن الاصل هو المعتبر ، وأن العلامة إذا لم تتعلق بعين المتناول لم توجب رفع الأصل وسيأتى بيان ذلك وبرهانه فى المثار الثانى للشبهة ، وهى شبهة الخلط

فقد اتضح من هذا حكم حلال شك فى طريان محرم عليه أو ظن ، وحكم حرام شك فى طريان محلل عليه أو ظن، وبان الفرق بين ظن يستند إلى علامة فى عين الشىء ، وبين مالا يستند إليه ، وكل ماحكمنا فى هذه الاقسام الاربعة بحله فهو حلال فى الدرجة الاولى والاحتياط تركه فالمقدم عليه لايكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لايقضى فى فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس ، فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلا

المثار الثانى للشبهة

شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ، ويشتبه الأمر ولا يتميز . والخلط لايخلو إما أن يقع بعدد

لايحصر من الجانبين أو من أحدهما ، أو بعدد محصور فإن اختلط بمحصور ، فلا يخلو إما أن يكون اختلاط امتزاج ، بحيث لا يتميز بالإشارة ، كاختلاط المائعات ، أو يكون اختلاط استبهام مع التميز للأعيان ، كاختلاط الأعبد والدور والأفراس . والذى يختلط بالاستبهام فلا يخلو إما أن يكون مما يقصد عينه كالعروض ، أو لا يقصد كالنقود . فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام

القسم الأول : أن تستبهم العين بعدد محصور . كما لو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة ، أو يتزوج إحدى الأختين ثم تلتبس ، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع : لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات فى هذا . وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد ، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل . ولا فرق فى هذا بين أن يثبت حل فيطرأ اختلاط بمحرم كما لو أوقع الطلاق على إحدى زوجتين فى مسألة الطائر أو يختلط قبل الاستحلال ، كما لو اختلطت رضيعة بأجنبية ، فأراد استحلال واحدة . وهذا قد يشكل فى طريان التحريم ، كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب . وقد نبهنا على وجه الجواب ، وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل ، فضعف الاستصحاب وجانب الحظر أغلب فى نظر الشرع ، فلذلك ترجح . وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام محصور . فان اختلط حلال محصور بحرام غير محصور ، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى

القسم الثانى : حرام محصور بحلال غير محصور . كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير . فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء منهن . وهذا لا يجوز أن يعلل بكثرة الحلال ، إذ يلزم عليه أن يجوز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ، ولا قائل به . بل العلة الغلبة والحاجة جميعا . إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب ، أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب ، فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح . وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعا ، لا يلزمه ترك الشراء والأكل فإن ذلك حرج ، وما فى الدين من حرج . ويعلم هذا بأنه لما سرق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مجن (١) ، وغل (٢) واحد فى الغنيمة عباءة ، لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء

---

(١) حديث سرقة المجن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقا فى مجن قيمته ثلاثة دراهم

(٢) حديث غل واحد من الغنائم عباءة : البخارى من حديث عبد الله بن عمرو واسم الغال كركرة

فى الدنيا وكذلك كل ماسرق . وكذلك كان يعرف [١] أن فى الناس من يربى فى الدراهم والدنانير ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية. وبالجملة إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصى ، وهو محال . وإذا لم يشترط هذا فى الدنيا لم يشترط أيضا فى بلد ، إلا إذا وقع بين جماعة محصورين . بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين . إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من الصحابة . ولا يتصور الوفاء به فى ملة من الملل ، ولا فى عصر من الأعصار

فإن قلت: فكل عدد محصور فى علم الله ، فما حد المحصور ؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضا إن تمكن منه، فاعلم أن تحديد أمثال هذه الأمور غير ممكن ، وإنما يضبط بالتقريب

فنقول: كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عدهم بمجرد النظر، كالألف والألفين ، فهو غير محصور . وما سهل ، كالعشرة والعشرين ، فهو محصور. وبين الطرفين أوساط متشابهة ، تلحق بأحد الطرفين بالظن . وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب ، فإن الإثم حزاز القلوب. وفى مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة [٢] «استَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » وكذا الأقسام الأربعة التى ذكرناها فى المثال الأول يقع فيها أطراف متقابلة ، واضحة فى النفى والإثبات ، وأوساط متشابهة . فالمفتى يفتى بالظن وعلى المستفتى أن يستفتى قلبه ، فإن حاك فى صدره شيء فهو الآثم بينه وبين الله ، فلا ينجيه فى الآخرة فتوى المفتى ، فإنه يفتى بالظاهر ، والله يتولى السرائر

القسم الثالث: أن يختلط حرام لايحصر بحلال لايحصر . كحكم الأموال فى زماننا هذا . فالذى يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور ، وقد حكمنا ثَمّ بالتحريم ، فلنحكم هنا به . والذى نختاره خلاف ذلك. وهو أنه لايحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه ، احتمل أنه حرام وأنه حلال

(١) حديث إن فى الناس من كان يربى فى الدراهم والدنانير وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم بالكلية هذا معروف وسيأتى حديث جابر بعده بحديثين وهو يدل على ذلك

(٢) حديث استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك قاله لوابصة تقدم

إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام . فإن لم يكن فى العين علامة تدل على أنه من الحرام ، فتركه ورع ، وأخذه حلال لا يفسق به آكله . ومن العلامات أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتى ذكرها ، ويدل عليه الأثر والقياس .

فأما الأثر فما علم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده. اذ كانت أثمان الخمور ودراهم الربا من أيدى أهل الذمة مختلطة بالأموال . وكذا غلول الأموال . وكذا غلول الغنيمة . ومن الوقت الذى نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال [1] « أَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَا الْعَبَّاسِ » ماترك الناس الربا بأجمعهم ، كما لم يتركوا شرب الخمور وسائر المعاصى . حتى روى أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باع الخمر ، فقال عمر رضى الله عنه : لعن الله فلانا هو أول من سن بيع الخمر . إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ فُلَانًا يُجَرُّ فِي النَّارِ عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا » [3] وقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزات من خرز اليهود ، لاتساوى درهمين ، قد غلها . وكذلك أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة ، ولم يمتنع أحدمنهم عن الشراء والبيع فى السوق بسبب نهب المدينة ، وقد نهبها أصحاب يزيد ثلاثة أيام . وكان من يمتنع من تلك الأموال مشارا إليه فى الورع . والأكثرون لم يمتنعوا ، مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة فى أيام الظلمة . ومن أوجب مالم يوجبه السلف الصالح ، وزعم أنه تفطن من الشرع مالم يتفطنوا له ، فهو موسوس مختل العقل . ولوجاز أن يزاد عليهم فى أمثال هذا ، لجاز مخالفتهم فى مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم ، كقولهم إن الجدة كالأم فى التحريم ، وابن الابن كالابن ، وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه فى القرءان، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة . وذلك محال ، فانهم أولى بفهم الشرع من غيرهم

وأما القياس : فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسد باب جميع التصرفات ، وخرب العالم .

---

(١) حديث أول ربا أضعه ربا العباس: مسلم من حديث جابر

(٢) حديث ان فلانا فى النار يجر عباءة قدغلها: البخارى من حديث عبدالله بن عمرو وتقدم قبله بثلاثة احاديث

(٣) حديث قتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزا من خرز اليهود لا يساوى درهمين قدغله أبوداود والنسائى وابن ماجه من حديث زيد ابن خالد الجهنى

إذ الفسق يغلب على الناس ، ويتساهلون بسببه فى شروط الشرع فى العقود ، ويؤدى ذلك لامحالة إلى الاختــلاط . فإن قيل : فقد تقلم أنه صلى الله عليه وسلم امتنع من الضب وقال « أَخْشَى أَنْ يَكُونَ مِمَّا مَسَخَهُ اللّٰهُ » وهو فى اختــلاط غير المحصور ، قلنا يحمل ذلك على التنزه والورع ، أو نقول الضب شكل غريب ، ربما يدل على أنه من المسخ ، فهى دلالة فى عين المتناول . فإن قيل:هذا معلوم فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمان الصحابة بسبب الربا والسرقة والنهب وغلول الغنيمة وغيرها ، ولكن كانت هى الأقل بالإضافة إلى الحلال . فماذا تقول فى زماننا ، وقد صار الحرام أكثر ما فى أيدى الناس ، لفساد المعاملات وإهمال شروطها ، وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة ، فمن أخذ مالاً لم يشهد عليه علامة معينة فى عينه للتحريم ، فهل هو حرام أم لا ؟ فأقول :ليس ذلك حراما . وانما الورع تركه ، وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلا . ولكن الجواب عن هذا ، أن قول القائل أكثر الأموال حرام فى زماننا غلط محض . ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر . فأكثر الناس ، بل أكثر الفقهاء ، يظنون أن ما ليس بنادر فهو الأكثر ، ويتوهمون أنهما قسمان متقابلان ليس بينهما ثالث . وليس كذلك . بل الأقسام ثلاثة : قليل وهو النادر ، وكثير ، وأكثر . ومثاله :ان الخنثى فيما بين الخلق نادر ، وإذا أضيف اليه المريض وجد كثيرا . وكذا السفر ، حتى يقال المرض والسفر من الأعذار العامة ،والاستحاضة من الأعذار النادرة . ومعلوم أن المرض ليس بنادر ، وليس بالأكثر أيضا . بل هو كثير . والفقيه إذا تساهل وقال ، المرض والسفر غالب ، وهو عـذر عام ، أراد به أنه ليس بنـادر . فإن لم يرد هذا فهو غلـط . والصحيح والمقيم هو الأكثر . والمسافر والمريض كثير . والمستحاضة والخنثى نادر .

فإذا فهم هذا فنقول : قول القائل الحرام أكثر باطل . لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلمة والجندية ، أو كثرة الربا والمعاملات الفاسـدة ، أو كثرة الأيدى التى تكررت من أول الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم

أما المستند الاول فباطل . فان الظالم كثير ، وليس هو بالأكثر . فانهم الجندية ، اذ لا يظلم الإ ذو غلبة وشوكة ، وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشيرهم . فكل سلطان

يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلا ، فيملك إقليما يجمع ألف ألف وزيادة . ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على جميع عسكره . ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل ، إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم مثلا ، مع تنعمهم فى المعيشة ، ولا يتصور ذلك . بل كفاية الواحد منهم تجمع من ألف من الرعية وزيادة . وكذا القول فى السراق ، فان البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل

وأما المستند الثانى ، وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة ، فهى أيضا كثيرة،وليست بالأكثر . إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع ، فعدد هؤلاء أكثر . والذى يعامل بالربا أو غيره ، فلو عددت معاملاته وحده ، لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الأنسان بوهمه فى البلد مخصوصا بالمجانة والخبث وقلة الدين ، حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر . ومثل ذلك المخصوص نادر.و إن كان كثيرا،فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة ، كيف ولا يخلو هو أيضا عن معاملات صحيحة تساوى الفاسدة أو تزيد عليها!وهذا مقطوع به لمن تأمله.وإنما غلب هذا على النفوس،لاستكثار النفوس الفساد، واستبعادها إياه ، واستعظامها له ، وإن كان نادرا.حتى ربما يظن أن الزنا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام، فيتخيل انهم الأكثرون وهو خطأ. فانهم الأقلون، وإن كانت فيهم كثرة .

وأما المستند الثالث ، وهو أخيلها ، أن يقال الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان ، والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد . فاذا نظرنا إلى شاة مثلا ، وهى تلد فى كل سنة ، فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من خمسمائة . ولا يخلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غصب أو معاملة فاسدة ، فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا ؟ وكذا بذور الحبوب والفواكه ، تحتاج إلى خمسمائة أصل ، أو ألف أصل مثلا ، إلى أول الشرع ، ولا يكون هذا حلالا ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالا . وأما المعادن ، فهى التى يمكن نيلها على سبيل الابتداء . وهى أقل الأموال ، وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنانير ،

ولاتخرج إلا من دار الضرب ، وهي فى أيدى الظلمة مثل المعادن فى أيديهم ، يمنعون الناس منها ، ويلزمون الفقراء استخراجها بالأعمال الشاقة ، ثم يأخذونها منهم غصباً . فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لايتطرق إليه عقد فاسد ، ولا ظلم وقت النيل ، ولا وقت الضرب فى دار الضرب ، ولا بعده فى معاملات الصرف والربا ، بعيدٌ نادر ، أو محال ، فلا يبقى إذاً حلال إلا الصيد ، والحشيش فى الصحارى الموات والمفاوز ، والحطب المباح . ثم من يحصله لايقدر على أكله ، فيفتقر إلى أن يشترى به الحبوب والحيوانات التى لاتحصل إلا بالاستنبات والتوالد ، فيكون قد بذل حلالا فى مقابلة حرام. فهذا هو أشد الطرق تخيلا

والجواب:أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال ، فخرج عن النمط الذى نحن فيه ، والتحق بما ذكرناه من قبل ، وهو تعارض الأصل والغالب . إذ الأصل فى هذه الأموال قبولها للتصرفات ، وجواز التراضى عليها . وقد عارضه سبب غالب يخرجه عن الصلاح له.فيضاهى هذا محل القولين للشافعى رضى الله عنه فى حكم النجاسات .والصحيح عندنا ، أنه تجوز الصلاة فى الشوارع ، إذا لم يجد فيها نجاسة . فان طين الشوارع طاهر . وأن الوضوء من أوانى المشركين جائز،وأن الصلاة فى المقابر المنبوشة جائزة . فنثبت هذا أولا ، ثم نقيس مانحن فيه عليه : ويدل على ذلك توضؤ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة ، وتوضؤ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية ، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ، ولايحترزون عما نجسه شرعنا . فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم . بل نقول نعلم قطعا أنهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة . ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة ، والطهارة فى تلك الثياب محال أو نادر . بل نقول: نعلم أنهم كانوا يأكلون خبز البر والشعير ولا يغسلونه ، مع أنه يداس بالبقر والحيوانات ، وهى تبول عليه وتروث ، وقلما يخلص منها . وكانوا يركبون الدواب وهى تعرق، وما كانوا يغسلون ظهورها ، مع كثرة تمرغها في النجاسات. بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة ،قد تزيلها الأمطار وقد لاتزيلها، وماكان يحترز عنها . وكانوا يمشون حفاة فى الطرق وبالنعال،ويصلون معها،ويجلسون على التراب،ويمشون

فى الطين من غير حاجة.وكانوا لا يمشون فى البول والعذرة،ولا يجلسون عليهما،ويستنزهون منه .ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة الكلاب وأبوالها،وكثرة الدواب وأرواثها ولا ينبغى أن نظن أن الأعصار او الأمصار تختلف فى مثل هذا،حتى يظن أن الشوارع كانت تغسل فى عصرهم ، أو كانت تحرس من الدواب . هيهات فذلك معلوم استحالته بالعادة قطعا . فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة ، أو علامة على النجاسة دالة على العين

فأما الظن الغالب الذى يستثار من رد الدراهم إلى مجارى الأحوال فلم يعتبروه .وهذا عند الشافعى رحمه الله . وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع . إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ، ويتوضأون من الحياض ، وفيها المياه القليلة ، والأيدى المختلفة تغمس فيها على الدوام . وهذا قاطع فى هذا الغرض. ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ، ثبت جواز شربه . والتحق حكم الحل بحكم النجاسة

فإن قيل:لا يجوز قياس الحل على النجاسة ، إذ كانوا يتوسعون فى أمور الطهارات ويحترزون من شبهات الحرام غاية التحرز ، فكيف يقاس عليها ؟

قلنا. إن أريد به أنهم صلوا مع النجاسة،والصلاة معها معصية، وهى عماد الدين،فبئس الظن . بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها. وإنما تسامحوا حيث لم يجب. وكان فى محل تسامحهم هذه الصورة التى تعارض فيها الأصل والغالب . فبان أن الغالب الذى لا يستند إلى علامة تتعلق بعين مافيه النظر مطرح . وأما تورعهم فى الحلال فكان بطريق التقوى ، وهو ترك مالا بأس به مخافة مابه بأس ،لأن أمر الأموال مخوف ، والنفس تميل اليها ان لم تضبط عنها . وأمر الطهارة ليس كذلك .فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه . وقد حكى عن واحد منهم أنه احترز من الوضوء بماء البحر ، وهو الطهور المحض . فالافتراق فى ذلك لا يقدح فى الغرض الذى أجمعنا فيه . على أنا نجرى فى هذا المستند على الجواب الذى قدمناه فى المستندين السابقين . ولا نسلم ماذكروه من أن الأكثر هو الحرام .لأن المال وإن كثرت أصوله ، فليس بواجب أن يكون فى أصوله حرام . بل الأموال الموجودة اليوم مما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض . وكما أنه

الذى يبتدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى مالا يغصب ولا يسرق ، فهكذا كل مال فى كل عصر ، وفى كل أصل ، فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول فى كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل . ولسنا ندرى أن هذا الفرع بعينه من أى القسمين، فلا نسلم أن الغالب تحريمه فإنه كما يزيد المغصوب بالتوالد ، يزيد غير المغصوب بالتوالد ، فيكون فرع الأكثر لامحالة فى كل عصر وزمان أكثر . بل الغالب أن الحبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر . وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى للتوالد. فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام . وليتفهم المسترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فانه مزلة قدم : وأكثر العلماء يغلطون فيه فكيف العوام ؟ هذا فى المتولدات من الحيوانات والحبوب

فأما المعادن:فأنها مخلاة مسبلة ، يأخذها فى بلاد الترك وغيرها من شاء . ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم ، أو يأخذون الأقل لامحالة لا الأكثر.ومن حازمن السلاطين معدنا فظلمه بمنع الناس منه . فأما ما يأخذه الآخذ منه،فيأخذه من السلطان بأجرة.والصحيح أنه يجوز الاستنابة فى إثبات اليد على المباحات والاستئجار عليها . فالمستأجر على الاستقاء إذا حاز الماء دخل فى ملك المستقى له ، واستحق الأجرة . فكذلك النيل . فاذا فرعنا على هذا لم نحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل . وذلك قليل بالاضافة . ثم لايوجب تحريم عين الذهب ، بل يكون ظالما ببقاء الأجرة فى ذمته . وأما دار الضرب فليس الذهب الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذى غصبه وظلم به الناس ، بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك ،أو النقد الردىء ، ويستأجرونهم على السبك والضرب ويأخذون مثل وزن ماسلموه اليهم ،إلاشيئاقليلا يتركونه أجرة لهم على العمل.وذلك جائز. وإن فرض دنانير مضروبة من دنانير السلطان ، فهو بالاضافة إلى مال التجار أقل لامحالة . نعم:السلطان يظلم أجراء دار الضرب ، بأن يأخذ منهم ضريبة ، لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس ، حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان ، فما يأخذه السلطان عوض من حشمته وذلك من باب الظلم . وهو قليل بالإضافة إلى مايخرج من دار الضرب . فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة مايخرج منه من المائة واحد ، وهو عشر العشير فكيف يكون

هو الأكثر ؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم ، وتشمر لتزيينها جماعة ممن رق دينهم حتى قبحوا الورع وسدوا بابه، واستقبحوا تمييز من يميز بين مال ومال، وذلك عين البدعة والضلال

فإن قيل: فلو قدر غلبة الحرام ، وقد اختلط غير محصور بغير محصور ، فماذا تقولون فيه إذا لم يكن فى العين المتناولة علامة خاصة ؟

فنقول: الذى نراه أن تركه ورع، وأن أخذه ليس بحرام . لأن الأصل الحل ، ولا يرفع إلا بعلامة معينة ، كما فى طين الشوارع ونظائرها بل أزيد

وأقول: لو طبق الحرام الدنيا ، حتى علم يقينا أنه لم يبق فى الدنيا ، لكنت أقول لستأنف تمهيد الشروط من وقتنا ، ونعفو عما سلف . ونقول ما جاوز حده انعكس إلى ضده . فمهما حرم الكل حل الكل . وبرهانه أنه إذا وقعت هذه الواقعة ، فالاحتمالات خمسة :

أحدها: أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم .

الثانى: أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمق ، يزجون عليها أياما إلى الموت

الثالث: أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا، سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة

الرابع: أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة

الخامس: أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة

أما الاول: فلا يخفى بطلانه

وأما الثانى: فباطل قطعا ، لأنه إذا اقتصر الناس على سد الرمق ، وزجوا أوقاتهم على الضعف ، فشا فيهم الموتان ، وبطلت الأعمال والصناعات ، وخربت الدنيا بالكلية ، وفى خراب الدنيا خراب الدين ، لأنها مزرعة الآخرة. وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات، بل أكثر أحكام الفقه ، مقصودها حفظ مصالح الدنيا ، ليتم بها مصالح الدين .

وأما الثالث: وهو الاقتصار على قدر الحاجة ، من غير زيادة عليه ، مع التسوية بين مال ومال بالغصب والسرقة والتراضى وكيفما اتفق ، فهو رفع لسد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد ، فتمتد الأيدى بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ، ولا يمكن زجرهم منه ، إذ يقولون ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا ، فإنه حرام عليه وعلينا ، وذو اليد له قدر الحاجة فقط ، فان كان هو محتاجا فانا أيضا محتاجون ، وإن كان الذى أخذته فى حق زائدا على الحاجة فقد سرقته

ممن هو زائد على حاجته يومه . وإذا لم يراع حاجة اليوم والسنة فما الذى نراعى ، وكيف يضبط ، وهذا يؤدى إلى بطلان سياسة الشرع . وإغراء أهل الفساد بالفساد

فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع ، وهو أن يقال كل ذى يد على مافى يده ، وهو أولى به ، لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصبا ، بل يؤخذ برضاه . والتراضى هو طريق الشرع ، وإذا لم يجز إلا بالتراضى فللتراضى أيضا منهاج فى الشرع ، تتعلق به المصالح . فان لم يعتبر ، فلم يتعين أصل التراضى وتعطل تفصيله

وأما الاحتمال الخامس ، وهو الاقتصار على قدر الحاجة ، مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدى ، فهو الذى نراه لائقا بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة . ولكن لا وجه لإيجابه على الكافة ، ولا لإدخاله فى فتوى العامة . لان أيدى الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدى الناس . وكذا أيدى السراق ، وكل من غلب سلب . وكل من وجد فرصة سرق . ويقول لا حق له إلا فى قدر الحاجة ، وأنا محتاج . ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدى الملاك ، ويستوعب بها أهل الحاجة ، ويدر على الكل الأموال يوما فيوما ، أو سنة فسنة ، وفيه تكليف شطط وتضييع أموال

أما تكليف الشطط : فهو أن السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق . بل لا يتصور ذلك أصلا .

وأما التضييع : فهو أن ما فضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغى أن يلقى فى البحر ، أو يترك حتى يتعفن . فإن الذى خلقه الله من الفواكه والحبوب زائد على قدر توسع الخلق وترفهم ، فكيف على قدر حاجتهم

ثم يؤدى ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية ، وكل عبادة نيطت بالغنى عن الناس إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم . وهو فى غاية القبح . بل أقول لو ورد نبى فى مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر ، ويمهد تفصيل أسباب الاملاك بالتراضى وسائر الطرق ، ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالا من غير فرق وأعنى بقولى يجب عليه ، إذا كان النبى ممن بعث لمصلحة الخلق فى دينهم ودنياهم . إذ لا يتم الصلاح برد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه . فإن لم يبعث للصلاح لم يجب هذا .

ونحن نجوز أن يقدر الله سببا يهلك به الخلق عن آخرهم ،فيفوت دنياهم ، ويضلون فى دينهم فإنه يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويميت من يشاء ، ويحيي من يشاء . ولكنا نقدر الأمر جاريا على ما ألف من سنة الله تعالى فى بعثة الانبياء لصلاح الدين والدنيا

ومالى أقدر هذا وقد كان ما أقدره ، فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة،والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبدة الأوثان ، وإلى مصدقين له قد شاع الفسق فيهم كما شاع فى زماننا الآن . والكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، والاموال كانت في أيدى المكذبين له والمصدقين. أما المكذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام .وأما المصدقون فكانوا يتساهلون مع أصل التصديق ، كما يتساهل الآن المسلمون ، مع أن العهد بالنبوة أقرب . فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراما . وعفا صلى الله عليه وسلم عما سلف ، ولم يتعرض له ، وخصص أصحاب الايدى بالاموال ، ومهد الشرع . وما ثبت تحريمه فى شرع لا ينقلب حلالا لبعثة رسول. ولا ينقلب حلالا بأن يسلم الذى فى يده الحرام فإنا لا نأخذ فى الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ثمن خمر أو مال ربا . فقد كانت أموالهم فى ذلك الزمان كأموالنا الآن . وأمر العرب كان أشد ،لعموم النهب والغارة فيهم .

فبان أن الاحتمال الرابع متعين فى الفتوى . والاحتمال الخامس هو طريق الورع . بل تمام الورع الاقتصار في المباح على قدر الحاجة ، وترك التوسع فى الدنيا بالكلية . وذلك طريق الآخرة. ونحن الآن نتكلم فى الفقه المنوط بمصالح الخلق . وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح . وطريق الدين لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ، ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام ، وخرب العالم ،فإن ذلك طلب ملك كبير فى الآخرة . ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا ، وتركوا الحرف الدنيئة،والصناعات الخسيسات، لبطل النظام . ثم يبطل ببطلانه الملك أيضا . فالمحترفون انما سخروا لينتظم الملك للملوك . وكذلك المقبلون على الدنيا سخروا ليسلم طريق الدين لذوى الدين ، وهو ملك الآخرة . ولولاه لما سلم لذوى الدين أيضا دينهم . فشرط سلامة الدين لهم أن يعرض الاكثرون

عن طريقهم،ويشتغلوا بأمور الدنيا . وذلك قسمة سبقت بها المشيئة الأزلية . واليه الاشارة بقوله تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (١))

فإن قيل:لاحاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لايبقى حلال ، فإن ذلك غير واقع . وهو معلوم . ولا شك فى أن البعض حرام . وذلك البعض هو الاقل أو الأكثر فيه نظر . وما ذكرتموه من أنه الاقل بالإضافة إلى الكل جلى . ولكن لابد من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح المرسلة . وما ذكرتموه من التقسيمات كلها مصالح مرسلة ، فلا بد لها من شاهد معين تقاس عليه ، حتى يكون الدليل مقبولا بالاتفاق ، فإن بعض العلماء لايقبل المصالح المرسلة .

فأقول:إن سلم أن الحرام هو الاقل ، فيكفينا برهانا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ، مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب . وان قدر زمان يكون الأكثر هو الحرام ، فيحل التناول أيضا ، فبرهانه ثلاثة أمور

الأول : التقسيم الذى حصرناه ، وأبطلنا منه أربعة ، وأثبتنا القسم الخامس . فان ذلك إذا أجرى فيما إذا كان الكل حراما ، كان أحرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل وقول القائل هو مصلحة مرسلة هوس . فإن ذلك إنما تخيل من تخيله فى أمور مظنونة ، وهذا مقطوع به . فإنا لا نشك فى أن مصلحة الدين والدنيا مراد الشرع ، وهو معلوم بالضرورة ، وليس بمظنون . ولا شك فى أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة ، أو الى الحشيش والصيد ، مخرب للدنيا أولا ، وللدين بواسطة الدنيا ثانيا . فما لا يشك فيه لايحتاج إلى أصل يشهد له ، وإنما يستشهد على الخيالات المظنونة المتعلقة بآحاد الأشخاص

البرهان الثانى : أن يعلل بقياس محرر ، مردود الى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالأقيسة الجزئية عليه . وإن كانت الجزئيات مستحقرة عند المحصلين ،بالاضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلى،الذى هو ضرورة النبي لو بعث فى زمان عم التحريم فيه،حتى لو حكم بغيره لخرب العالم

(١) الزخرف : ٣١

والقياس المحرر الجزئي : هو أنه قد تعارض أصل وغالب، فيما انقطعت فيه العلامات المعينة من الأمور التي ليست محصورة ، فيحكم بالأصل لا بالغالب ، قياسا على طين الشوارع وجرة النصرانيـة ، وأواني المشركين . وذلك قد أثبتناه من قبل بفعل الصحابة . وقولنا انقطعت العلامات المعينة ، احتراز عن الأواني التي يتطرق الاجتهاد إليها، وقولنا ليست محصورة ، احتراز عن التباس الميتة والرضيعة بالذكية والأجنبية

فإن قيل: كون الماء طهورا مستيقن ، وهو الأصل . ومن يسـلم أن الأصل في الأموال الحل ؟ بل الأصل فيها التحريم

فنقول: الأمور التي لا تحرم لصفة في عينها حرمة الخمر والخنزير ، خلقت على صفة تستعد لقبول المعاملات بالتراضي ، كما خلق الماء مستعدا للوضوء وقد وقع الشك في بطلان هذا الاستعداد منهما ، فلا فرق بين الأمرين ،فإنها تخرج عن قبول المعاملة بالتراضي بدخول الظلم عليها ، كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول النجاسة عليه . ولا فرق بين الأمرين

والجواب الثاني: أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك ، نازلة منزلة الاستصحاب وأقوى منه بدليل أن الشرع ألحقه به ، إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله ، لأن الأصل براءة ذمته ، وهذا استصحاب ومن ادعى عليه ملك في يده فالقول أيضا قوله ، اقامة لليد مقام الاستصحاب . فكل ماوجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ، مالم يدل على خلافه علامة معينة

البرهان الثالث : هو أن كل مادل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين ، لم يعتبر وإن كان قطعاً . فبأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى . وبيانه: أن ماعلم أنه ملك زيد ، فحقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه . ولو علم أن له مالكا في العالم ، ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه . فهو مال مرصد لمصالح المسلمين ، يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة . ولو دل على أن له مالكا محصوراً في عشرة مثلا أو عشرين ، امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة . فالذي يشك في أن له مالكا سوى صاحب اليد أم لا ، لا يزيد على الذي يتيقن قطعا أن له مالكا ولكن لا يعرف عينه ، فليجز التصرف فيه بالمصلحة ، والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة . فيكون هذا الأصل شاهدا له . وكيف لا: وكل مال ضائع فقد مالكه يصرفه السلطان إلى المصالح ، ومن المصالح الفقراء وغيرهم ، فلو صرف إلى فقير ملكه ، ونفذ فيه

تصرفه ، فلو سرقه منه سارق قطعت يده . فكيف نفذ تصرفه فى ملك الغير ، ليس ذلك إلا لحكمنا بأن المصلحة تقتضى أن ينتقل الملك اليه ، ويحل له ، فقضينا بموجب المصلحة

فإن قيل: ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان ، فنقول: والسلطان لم يجوّز له التصرف فى ملك غيره بغير إذنه ، لاسبب له إلا المصلحة ، وهو أنه لو ترك لضاع ، فهو مردد بين تضييعه وصرفه إلى مهم . والصرف إلى مهم أصلح من التضييع ، فرجع عليه . والمصلحة فيما يشك فيه ، ولا يعلم تحريمه ، أن يحكم فيه بدلالة اليد ، ويترك على أرباب الأيدى . إذ انتزاعها بالشك وتكليفهم الاقتصار على الحاجة ، يؤدى إلى الضرر الذى ذكرناه . وجهات المصلحة تختلف ، فإن السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبنى بذلك المال قنطرة ، وتارة أن يصرفه إلى جند الاسلام ، وتارة الى الفقراء ، ويدور مع المصلحة كيفما دارت . وكذلك الفتوى فى مثل هذا تدور على المصلحة . وقد خرج من هذا أن الخلق غير مأخوذين فى أعيان الأموال بظنون لاتستند إلى خصوص دلالة فى ملك الأعيان ، كما لم يؤاخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بعلمهم أن المال له مالك ، حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه ، ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملاك فى هذا المعنى

فهذا بيان شبهة الاختلاط . ولم يبق إلا النظر فى امتزاج المائعات والدراهم والعروض فى يد مالك واحد . وسيأتى بيانه فى باب تفصيل طريق الخروج من المظالم

المثار الثالث للشبهة

أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إما فى قرائنه ، وإما فى لواحقه ، وإما فى سوابقه أو فى عوضه ، وكانت من المعاصى التى لاتوجب فساد العقد ، وابطال السبب المحلل

مثال المعصية فى القرائن: البيع فى وقت النداء يوم الجمعة، والذبح بالسكين المغصوبة والاحتطاب بالقدوم المغصوب ، والبيع على بيع الغير ، والسوم على سومه . فكل نهى ورد فى العقود ولم يدل على فساد العقد ، فإن الامتناع من جميع ذلك ورع ، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأسباب محكوما بتحريمه . وتسمية هذا النمط شبهة فيه تسامح . لأن الشبهة فى غالب الأمر

تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ، ولا اشتباه ههنا ، بل العصيان بالذبح بسكين الغير معلوم ، وحل الذبيحة أيضا معلوم . ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة ، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه ، والكراهة تشبه التحريم . فإن أريد بالشبهة هذا ، فتسمية هذا شبهة له وجه . وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لا شبهة . وإذا عرف المعنى فلا مشاحة في الأسامي فعادة الفقهاء التسامح في الإطلاقات.

ثم اعلم أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات : الأولى منها تقرب من الحرام ، والورع عنه مهم . والأخيرة تنتهي إلى نوع من المبالغة ، تكاد تلتحق بورع الموسوسين . وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين . فالكراهة في صيد بكلب مغصوب أشد منها في الذبيحة بسكين مغصوب ، أو المقتنص بسهم مغصوب . إذ الكلب له اختيار . وقد اختلف في أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصياد . ويليه شبهة البذر المزروع في الأرض المغصوبة . فإن الزرع لمالك البذر ، ولكن فيه شبهة ، ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الارض في الزرع لكان كالثمن الحرام ولكن الأقيس أن لا يثبت حق حبس ، كما لو طحن بطاحونة مغصوبة واقتنص بشبكة مغصوبة ، إذ لا يتعلق حق صاحب الشبكة في منفعتها بالصيد ، ويليه الاحتطاب بالقدوم المغصوب ، ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المغصوب ، إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الذبيحة ، ويليه البيع في وقت النداء ، فإنه ضعيف التعلق بمقصود العقد ، وإن ذهب قوم إلى فساد العقد ، إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه . ولو أفسد البيع بمثله ، لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة ، أو صلاة فائتة وجوبها على الفور ، أو في ذمته مظلمة دانق فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجبات فليس للجمعة إلا وجوب بعد النداء ، وينجر ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلمة ، وكل من في ذمته درهم ، لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه ، إلا أنه من حيث ورد في يوم الجمعة نهي على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ، ولا بأس بالحذر منه ولكن قد ينجر إلى الوسواس ، حتى يتحرج عن نكاح بنات أرباب المظالم ، وسائر معاملاتهم

وقد حكي عن بعضهم أنه اشترى شيئا من رجل ، فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة ، فرده خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء . وهذا غاية المبالغة ، لأنه رد بالشك . ومثل هذا

الوهم فى تقدير المناهى أو المفسدات ، لاينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام . والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ، ولكن إلى حد معلوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم[1] «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» فليحذر من أمثال هذه المبالغات ، فإنها وإن كانت لاتضر صاحبها ، ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ، ثم يعجز عما هو أيسر منه ، فيترك أصل الورع ، وهو مستند أكثر الناس فى زماننا هذا ، إذ ضيق عليهم الطريق ، فأيسوا عن القيام به ، فأطرحوه . فكما أن الموسوس فى الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها ، فكذا بعض الموسوسين فى الحلال ، سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام ، فتوسعوا ، فتركوا التمييز وهو عين الضلال

وأما مثال اللواحق : فهو كل تصرف يفضى فى سياقه إلى معصية . وأعلاه بيع العنب من الخمار ، وبيع الغلام من المعروف بالفجور بالغلمان ، وبيع السيف من قطاع الطريق وقد اختلف العلماء فى صحة ذلك ، وفى حل الثمن المأخوذ منه والأقيس أن ذلك صحيح . والمأخوذ حلال . والرجل عاص بعقده ، كما يعصى بالذبح بالسكين المغصوب ، والذبيحة حلال ولكنه يعصى عصيان الإعانة على المعصية إذ لايتعلق ذلك بعين العقد . فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة ، وتركه من الورع المهم ، وليس بحرام . ويليه فى الرتبة بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خمارا وبيع السيف ممن يغزو ويظلم أيضا . لأن الاحتمال قد تعارض . وقد كره السلف بيع السيف فى وقت الفتنة ، خيفة أن يشتريه ظالم . فهذا ورع فوق الأول ، والكراهية فيه أخف . ويليه ماهو مبالغة ، ويكاد يلتحق بالوسواس ، وهو قول جماعة أنه لاتجوز معاملة الفلاحين بآلات الحرث ، لأنهم يستعينون بها على الحراثة ، ويبيعون الطعام من الظلمة ، ولا يباع منهم البقر والفدان وآلات الحرث ، وهذا ورع الوسوسة ، إذ ينجر إلى أن لايباع من الفلاح طعام ، لأنه يتقوى به على الحراثة . ولا يسقى من الماء العام لذلك . وينتهى هذا إلى حد التنطع المنهى عنه وكل متوجه إلى شىء على قصد خير لابد وأن يسرف ، إن لم يذمه العلم المحقق . وربما يقدم على ما يكون بدعة فى الدين ، ليستضر الناس بعده بها ، وهو يظن أنه مشغول بالخير . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم[2] « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » والمتنطعون

---

(١) حديث هلك المتنطعون : مسلم من حديث ابن مسعود وتقدم فى قواعد العقائد.

(٢) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى : تقدم فى العلم

هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١))

وبالجملة لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن. فإنه إذا جاوز مارسم له، وتصرف بذهنه من غير سماع، كان مايفسده أكثر مما يصلحه. وقد روى عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه، أنه أحرق كرمه خوفا من أن يباع العنب ممن يتخذه خمرا وهذا لا أعرف له وجها، إن لم يعرف هو سببا خاصا يوجب الإحراق، إذ ماأحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدرا منه من الصحابة. ولو جاز هذا لجاز قطع الذكر خيفة من الزنا وقطع اللسان خيفة من الكذب، إلى غير ذلك من الإتلافات

وأما المقدمات. فلتطرق المعصية اليها ثلاث درجات:

الدرجة العليا التى تشتد الكراهة فيها، مابقى أثره فى المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب، أورعت فى مرعى حرام. فإن ذلك معصية، وقد كان سببا لبقائها، وربما يكون الباقى من دمها ولحمها وأجزائها من ذلك العلف. وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجبا ونقل ذلك عن جماعة من السلف. وكان لأبى عبد الله الطوسى التروغندى شاة يحملها على رقبته كل يوم إلى الصحراء، ويرعاها وهو يصلى، وكان يأكل من لبنها، فغفل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان، فتركها فى البستان ولم يستحل أخذها.

فإن قيل: فقد روى عن عبد الله بن عمر، وعبيد الله، أنهما اشتريا إبلا، فبعثاها إلى الحمى، فرعته إبلهما حتى سمنت، فقال عمر رضى الله عنه، أرعيتماها فى الحمى؟ فقالا نعم. فشاطرهما فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف، فليوجب هذا تحريما؛ قلنا: ليس كذلك. فإن العلف يفسد بالأكل، واللحم خلق جديد، وليس عين العلف. فلا شركة لصاحب العلف شرعا. ولكن عمر غرمهما قيمة الكلأ، ورأى ذلك مثل شطر الابل فأخذ الشطر بالاجتهاد، كما شاطر سعد بن أبى وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة وكذلك شاطر أبا هريرة رضى الله عنه، إذ رأى أن كل ذلك لايستحقه العامل، ورأى شطر ذلك كافيا على حق عملهم، وقدره بالشطر اجتهادا

(١) الكهف: ١٠٤

الرتبة الوسطى : ماتقل عن بشر بن الحارث، من امتناعه عن الماء المساق فى نهر احتفره الظلمة. لأن النهر موصل اليه ، وقد عصى الله بحفره . وامتنع آخر عن عنب كرم يسق بماء يجرى فى نهر حفر ظلما ، وهو أرفع منه وأبلغ فى الورع . وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين فى الطرق . وأعلى من ذلك امتناع ذى النون من طعام حلال أوصل اليه على يد سجان ، وقوله أنه جاءنى على يد ظالم . ودرجات هذه الرتب لاتنحصر

الرتبة الثالثة : وهى قريب من الوسواس والمبالغة ، أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنا أو القذف ، وليس هو كما لو عصى بأكل الحرام ، فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام ، والزنا والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحمل. بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس ، بخلاف أكل الحرام . إذ الكفر لايتعلق بحمل الطعام . وينجر هذا إلى أن لايؤخذ من يد من عصى الله ولو بغيبة أو كذبة ، وهو غاية التنطع والإسراف. فليضبط ماعرف من ورع ذى النون وبشر ، بالمعصية فى السبب الموصل ، كالنهر وقوة اليد المستفادة بالغذاء الحرام . ولو امتنع عن الشرب بالكوز، لأن صانع الفخار الذى عمل الكوز كان قد عصى الله يوما بضرب إنسان أو شتمه ، لكان هذا وسواسا . ولو امتنع من لحم شاة ساقها آكل حرام ، فهذا أبعد من يد السجان، لأن الطعام يسوقه قوة السجان ، والشاة تمشى بنفسها ، والسائق يمنعها عن العدول فى الطريق فقط . فهذا قريب من الوسواس. فانظر كيف تدرجنا فى بيان ماتتداعى إليه هذه الأمور

واعلم أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر . فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التى يمكن تكليف عامة الخلق بها ، ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم ، دون ماعداه من ورع المتقين والصالحين . والفتوى فى هذا ماقاله صلى الله عليه وسلم لوابصة ، إذ قال « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » وعرف إذ قال[1] « الإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ » وكل ماحاك فى صدر المريد من هذه الأسباب ، فلو أقدم عليه مع حزازة القلب استضر به وأظلم قلبه بقدر الحزازة التى يجدها . بل لو أقدم على حرام فى علم الله، وهو يظن أنه حلال، لم يؤثر ذلك فى قساوة قلبه ولو أقدم على ماهو حلال فى فتوى علماء الظاهر ، ولكنه يجد حزازة فى قلبه ، فذلك يضره

(١) حديث الاثم حزاز القلوب: تقدم فى العلم

وانما الذى ذكرناه فى النهي عن المبالغة ، أردنا به أن القلب الصافى المعتدل هو الذي لايجد حزازة فى مثل تلك الأمور . فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ، ووجد الحزازة فأقدم مع مايجد فى قلبه ، فذلك يضره . لأنه مأخوذ فى حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه . وكذلك يشدد على الموسوس فى الطهارة ونية الصلاة . فإنه إذا غلب على قلبه أن الماء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات ، لغلبة الوسوسة عليه : فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار ذلك حكما فى حقه ، وإن كان مخطئا فى نفسه . أولئك قوم شددوا فشدد الله عليهم ولذلك شدد على قوم موسى عليه السلام ، لما استقصوا فى السؤال عن البقرة . ولو أخذوا أولا بعموم لفظ البقرة ، وكل ما ينطق عليه الاسم ، لأجزأهم ذلك . فلا تغفل عن هذه الدقائق التي رددناها نفيا وإثباتا ، فإن من لايطلع على كنه الكلام ولا يحيط بمجامعه يوشك أن يزل فى درك مقاصده .

وأما المعصية فى العوض فله أيضا درجات :ــ

الدرجة العليا : التى تشتد الكراهة فيها ، أن يشترى شيئا فى الذمة ، ويقضى ثمنه من غصب أو مال حرام . فينظر ، فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه ، فأكله قبل قضاء الثمن ، فهو حلال ، وتركه ليس بواجب بالإجماع ، أعنى قبل قضاء الثمن . ولا هو أيضا من الورع المؤكد . فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام ، فكأنه لم يقض الثمن . ولو لم يقضه أصلا ، لكان متقلدا للمظلمة بترك ذمته مرتهنة بالدين ، ولا ينقلب ذلك حراما. فإن قضى الثمن من الحرام ، وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام ، فقد برئت ذمته . ولم يبق عليه إلا مظلمة تصرفه فى الدراهم الحرام بصرفها إلى البائع . وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال ، فلا تحصل البراءة ، لأنه يبرئه مما أخذه ابراء استيفاء ، ولا يصلح ذلك للايفاء. هذا حكم المشترى والأكل منه وحكم الذمة

وإن لم يسلم اليه بطيب قلب ، ولكن أخذه ، فأكله حرام ، سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده . لأن الذى تومىء الفتوى به ثبوت حق الحبس للبائع ، حتى يتعين ملكه بإقباض النقد ، كما تعين ملك المشترى . وإنما يبطل حق حبسه ، اما بالإبراء أو الاستيفاء ، ولم يجر شيء منهما . ولكنه أكل ملك نفسه ، وهو عاص به عصيان الراهن

للطعام إذا أكله بغير إذن المرتهن. وبينه وبين أكل طعام الغير فرق : ولكن أصل التحريم شامل هذا كله ، إذاقبض قبل توفية الثمن،إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه.

فأما اذا وفى الثمن الحرام أولا ثم قبض ، فإن كان البائع عالما بأن الثمن حرام ، ومع هذا أقبض المبيع ، بطل حق حبسه ، وبقى له الثمن فى ذمته ، اذ ما أخذه ليس بثمن ، ولا يصير أكل المبيع حراما بسبب بقاء الثمن . فأما إذا لم يعلم أنه حرام،وكان بحيث لو علم لمارضى به، ولا أقبض المبيع ،فحق حبسه لا يبطل بهذا التلبيس . فأكله حرام تحريم أكله المرهون،إلى أن يبرئه،أو يوفى من حلال، أو يرضى هو بالحرام ويبرىء،فيصح إبراؤه،ولا يصح رضاه بالحرام.

فهذا مقتضى الفقه وبيان الحكم فى الدرجة الأولى من الحل والحرمة ، فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم ، لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشتد الكراهة فيه كما سبق . وأقوى الأسباب الموصلة الثمن . ولولا الثمن الحرام لما رضى البائع بتسليمه اليه . فرضاه لايخرجه عن كونه مكروها كراهية شديدة . ولكن العدالة لا تنخرم به . وتزول به درجة التقوى والورع . ولو اشترى سلطان مثلا ثوبا أو أرضا فى الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن ، وسلمه إلى فقيه أو غيره صلة أو خلعة . وهو شاك فى أنه سيقضى ثمنه من الحلال أو الحرام ، فهذا أخلف . إذ وقع الشك فى تطرق المعصية إلى الثمن ،وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقلته فى مال ذلك السلطان ، ومايغلب على الظن فيه ، وبعضه أشد من بعض ، والرجوع فيه إلى ماينقدح فى القلب

الرتبة الوسطى:أن لا يكون العوض غصبا ولا حراما ،ولكن يتهيأ لمعصية . كما لو سلم عوضا عن الثمن عنبا ، والآخذ شارب الخمر . أو سيفا ، وهو قاطع طريق . فهذا لايوجب تحريما في مبيع اشتراه فى الذمة ، ولكن يقتضى فيه كراهية دون الكراهية التى فى الغصب. وتتفاوت درجات هذه الرتبة أيضا ، بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن وندوره . ومهما كان العوض حراما ، فبذله حرام . وإن احتمل تحريمه ولكن أبيح بظن ، فبذله مكروه . وعليه ينزل عندى [1] النهى عن كسب الحجام وكراهته .

(١) حديث النهي عن كسب الحجام وكراهته:ابن ماجه من حديث أبى مسعود الأنصارى والنسائى من حديث أبى هريرة باسنادين صحيحين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام وللبخارى من حديث أبى جحيفة نهى عن ثمن الدم ولمسلم من حديث رافع بن خديج كسب الحجام خبيث

إذ نهى عنه عليه السلام [1] مرات ، ثم أمر بأن يعلف الناضح. وماسبق إلى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد . إذ يجب طرده فى الدباغ والكناس ،ولا قائل به. وإن قيل به، فلا يمكن طرده فى القصاب . إذ كيف يكون كسبه مكروها وهو بدل عن اللحم ،واللحم فى نفسه غير مكروه . ومخامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد . فإن الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ، ويمسحه بالقطنة . ولكن السبب أن فى الحجامة والفصد تخريب بنية الحيوان وإخراجا لدمه وبه قوام حياته . والأصل فيه التحريم . وإنما يحل بضرورة ، وتعلم الحاجة والضرورة بحدس واجتهاد . وربما يظن نافعا ويكون ضارا ، فيكون حراما عند الله تعالى ولكن يحكم بحله بالظن والحدس . ولذلك لايجوز للفصاد فصد صبي وعبد ومعتوه ، إلا بإذن وليه وقول طبيب . ولولا أنه حلال فى الظاهر لما أعطى عليه السلام [2] أجرة الحجام . ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهي عنه ، فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى وهذا كان ينبغى أن نذكره فى القرائن المقرونة بالسبب ، فإنه أقرب إليه

الرتبة السفلى: وهى درجة الموسوسين . وذلك أن يحلف إنسان على أن لا يلبس من غزل أمه ، فباع غزلها ، واشترى به ثوبا . فهذا لا كراهية فيه ، والورع عنه وسوسة . وروى عن المغيرة أنه قال فى هذه الواقعة لايجوز . واستشهد بأن النبى صلى الله عليه وسلم [3] قال « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الْخُمُورُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا » وهذا غلط ، لأن بيع الخمور باطل . إذ لم يبق للخمر منفعة فى الشرع. وثمن البيع الباطل حرام. وليس هذا من ذلك

---

(١) حديث نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح: أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث محيصة أنه استأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى إجارة الحجام فنهاه عنها فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال أعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك وفى رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال ألا أطعمه أيتاما لى قال لا قال أفلا أتصدق به قال لا فرخص له أن يعلفه ناضحه

(٢) حديث أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجرة الحجام: متفق عليه من حديث ابن عباس

(٣) حديث المغيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لعن اليهود إذ حرمت عليهم الخمور فباعوها لم أجده هكذا والمعروف أن ذلك فى الشحوم في الصحيحين من حديث جابر قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه

بل مثال هـذا أن يملك الرجـل جارية هى أختـه من الرضاع ، فتباع بجارية أجنبيـة . فليس لأحـد أن يتورع منه . وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف فى هذا الطرف . وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدريج فيها ، وإن كان تفاوت هذه الدرجات لاينحصر فى ثلاث أو أربع ولا فى عدد ، ولـكن المقصود من التعديد التقريب والتفهيم

فإن قيل: فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَنِ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشْرَةِ دَرَاهِمَ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ لَهُ صَلَاةً مَا كَانَ عَلَيْهِ » ثم أدخل ابن عمر أصبعيه فى أذنيـه ، وقال صمتا إن لم أكن سمعته منه ؛ قلنا ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا فى الذمة . وإذا اشترى فى الذمة ، فقد حكمنا بالتحريم فى أكثر الصور فليحمل عليها ، ثم كم من ملك يتوعد عليه بمنع قبول الصلاة لمعصية تطرقت إلى سببه ، وإن لم يدل ذلك على فساد العقـد كالمشترى فى وقت النداء وغيره .

المثار الرابع

الاختلاف فى الأدلة

فان ذلك كالاختلاف فى السبب ، لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة ، والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة . فهو سبب فى حق المعرفة . وما لم يثبت فى معرفة الغير ، فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن جرى سببه فى علم الله

وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع ، أو لتعارض العلامات الدالة ، أو لتعارض التشابه

القسم الاول : أن تتعارض أدلة الشرع ، مثـل تعارض عمومين من القرءان أو السنة أو تعارض قياسين ، أو تعارض قياس وعموم . وكل ذلك يورث الشك ، ويرجع فيه إلى الاستصحاب ، أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح . فان ظهر ترجيح فى جانب الحظر وجب الأخذ به . وإن ظهر فى جانب الحل جاز الأخذ به ، ولـكن الورع تركه ، واتقاء مواضع الخلاف مهم فى الورع فى حق المفتى والمقلد . وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلده ،

---

(١) حديث من اشترى ثوبا بعشرة دراهم : الحديث تقدم فى الباب قبله

الذى يظن أنه أفضل علماء بلده ، ويعرف ذلك بالتسامع ، كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقرائن ، وإن كان لا يحسن الطب . وليس للمستفتي أن ينتقد من المذاهب أوسعها عليه ، بل عليه أن يبحث حتى يغلب على ظنه الأفضل . ثم يتبعه فلا يخالفه أصلا . نعم : إن أفتى له إمامه بشيء ولإمامه فيه مخالف، فالفرار من الخلاف إلى الاجماع من الورع المؤكد . وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ، ورجح جانب الحل بحدس وتخمين وظن فالورع له الاجتناب فلقد كان المفتون يفتون بحل أشياء لايقدمون عليها قط، تورعا منها وحذرا من الشبهة فيها . فلنقسم هذا أيضا على ثلاث مراتب

الرتبة الأولى : ما يتأكد الاستحباب في التورع عنه ، وهو ما يقوى فيه دليل المخالف ويدق وجه ترجيح المذهب الآخر عليه . فمن المهمات التورع عن فريسة الكلب المعلم إذا أكل منها وإن أفتى المفتي بأنه حلال . لأن الترجيح فيه غامض . وقد اخترنا أن ذلك حرام وهو أقيس قولى الشافعي رحمه الله . ومهما وجد للشافعي قول جديد موافق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله ، أو غيره من الأئمة كان الورع فيه مهما ، وإن أفتى المفتي بالقول الآخر

ومن ذلك الورعُ عن متروك التسمية ، وإن لم يختلف فيه قول الشافعي رحمه الله ، لأن الآية ظاهرة في إيجابها ، والأخبار متواترة فيه . فانه صلى الله عليه وسلم قال لكل من سأله عن الصيد (١) « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ عَلَيْهِ اسْمَ اللهِ فَكُلْ » ونقل ذلك على التكرر . وقد شهر الذبح (٢) بالبسملة . وكل ذلك يقوى دليل الاشتراط . ولكن لما صح قوله صلى الله عليه وسلم (٣) « الْمُؤْمِنُ يَذْبَحُ عَلَى اسْمِ اللهِ تَعَالَى سَمَّى أَوْ لَمْ يُسَمِّ »

---

(١) حديث إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل : متفق عليه من حديث عدى بن حاتم ومن حديث أبي ثعلبة الخشني

(٢) حديث التسمية على الذبح متفق عليه من حديث رافع بن خديج ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ليس السن والظفر

(٣) حديث المؤمن يذبح على اسم الله سمي أو لم يسم : قال المصنف إنه صح قلت لا يعرف بهذا اللفظ فضلا عن صحته ولأبي داود في المراسيل من رواية الصلت مرفوعا ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر وللطبراني في الأوسط والدارقطني وابن عدى والبيهقي من حديث أبي هريرة قال رجل يارسول الله الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى الله فقال اسم الله على كل مسلم قال ابن عدي منكر وللدارقطني والبيهقي من حديث ابن عباس المسلم يكفيه اسمه فان نسي أن يسمى حين يذبح فليسم وليذكر اسم الله ثم ليأكل فيه محمد بن سنان ضعفه الجمهور

احتمل أن يكون هذا عاما ، موجباً لصرف الآية وسائر الأخبار عن ظواهرها ،ويحتمل أن يخصص هذا بالناسى ، و يترك الظواهر ولا تأويل ، وكان حمله على الناسى ممكنا تمهيدا لعذره فى ترك التسمية بالنسيان ، وكان تعميمه وتأويل الآية ممكنا إمكانا أقرب ، رجحنا ذلك ولا ننكر رفع الاحتمال المقابل له ، فالورع عن مثل هذا مهم واقع فى الدرجة الأولى

الثانية : وهى مزاحمة لدرجة الوسواس ، أن يتورع الإنسان عن أكل الجنين الذى يصادف فى بطن الحيوان المذبوح ، وعن الضب . وقد صح فى الصحاح من الأخبار حديث الجنين ان [1] ذكاته ذكاة أمه ، صحة لا يتطرق احتمال إلى متنه ،ولا ضعف إلى سنده وكذلك صح [2] أنه أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نقل ذلك فى الصحيحين . وأظن أن أبا حنيفة لم تبلغه هذه الأحاديث . ولو بلغته لقال بها إن أنصف . وإن لم ينصف منصف فيه كان خلافه غلطا لا يعتد به ، ولا يورث شبهة كما لو لم يخالف . وعلم الشيء بخبر الواحد ..

الرتبة الثالثة :أن لا يشتهر فى المسألة خلاف أصلا،ولكن يكون الحل معلوما بخبر الواحد فيقول القائل قد اختلف الناس فى خبر الواحد ، فمنهم من لا يقبله ، فأنا أتورع . فان النقلة وان كانوا عدولا ، فالغلط جائز عليهم . والكذب لغرض خفى جائز عليهم . لأن العدل أيضا قد يكذب . والوهم جائز عليهم . فانه قد يسبق إلى سمعهم خلاف مايقوله القائل . وكذا الى فهمهم . فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعونه من عدل تسكن نفوسهم اليه . وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ، ودلالة معينة فى حق الراوى ، فللتوقف وجه ظاهر ، وإن كان عدلا . وخلاف من خالف فى أخبار الآحاد غير معتد به ، وهو كخلاف

(١) حديث ذكاة الجنين ذكاة أمه: قال المصنف انه صح لا يتطرق احتمال إلى متنه ولا ضعف الى سنده وأخذ هذا من امام الحرمين فانه كذا قال فى الأساليب والحديث رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى سعيد والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح الأسناد وليس كذلك وللطبرانى فى الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد وقال عبد الحق لا يحتج بأسانيدها كلها

(٢) حديث أكل الضب على مائدة رسول الله عليه وسلم: قال المصنف هو فى الصحيحين وهو كما ذكر من حديث ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد

النظام فى أصل الإجماع ، وقوله إنه ليس بحجة . ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يمتنع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبى الاب ، ويقول ليس فى كتاب الله ذكر إلا للبنين . وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة ، وهم غير معصومين ، والغلط عليهم جائز ، إذ خالف النظام فيه . وهذا هوس . ويتداعى إلى أن يترك ما علم بعمومات القرءان إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن العمومات لاصيغة لها ، وإنما يحتج بما فهمه الصحابة منها بالقرائن والدلالات . وكل ذلك وسواس

فإذاً لاطرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو وإسراف، فليفهم ذلك .ومهما أشكل أمر من هذه الأمور ، فليستفت فيه القلب ، وليدع الْوَرِعُ ما يريبه الى مالا يريبه وليترك حزاز القلوب،وحكاكات الصدور . وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع . ولكن ينبغى أن يحفظ قلبه عن دواعى الوسواس ، حتى لايحكم إلا بالحق ، فلا ينطوى على حزازة فى مظان الوسواس ، ولا يخلو عن الحزازة فى مظان الكراهة . وماأعز مثل هذا القلب! ولذلك لم يرد عليه السلام [1] كل أحد الى فتوى القلب ، وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله

القسم الثانى: تعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة. فإنه قد ينهب نوع من المتاع فى وقت ، ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلا فى يد رجل من أهل الصلاح فيدل صلاحه على أنه حلال ، ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام ،فيتعارض الأمران . وكذلك يخبر عدل أنه حرام ، وآخر أنه حلال . أو تتعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ . فإن ظهر ترجيح حُكِمَ به ، والورع الاجتناب . وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف . وسيأتى تفصيله فى باب التعرف والبحث والسؤال

القسم الثالث : تعارض الأشباه فى الصفات التى تناط بها الأحكام . مثاله أن يوصى بمال للفقهاء ، فيعلم أن الفاضل فى الفقه داخل فيه ، وأن الذى ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لايدخل فيه. وبينهما درجات لاتحصى يقع الشك فيها. فالمفتى يفتى بحسب الظن، والورع الاجتناب . وهذا أغمض مثارات الشبهة . فإن فيها صورا يتحير المفتى فيها تحيرا لازما لاحيلة

---

(١) حديث لم يرد كل أحد الى فتوى قلبه وانما قال ذلك لوابصة : وتقدم حديث وابصة ويروى الطبرانى من حديث واثلة أنه قال ذلك لواثلة أيضا وفيه العلاء بن ثعلبة مجهول

له فيه ، إذ يكون المتصف بصفة فى درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين لا يظهر له ميله إلى أحدهما . وكذلك الصدقات المصروفة إلى المحتاجين ، فإن من لاشىء له معلوم أنه محتاج ، ومن له مال كثير معلوم أنه غنى . ويتصدى بينهما مسائل غامضة ، كمن له دار وأثاث وثياب وكتب ، فإن قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه ، والفاضل يمنع . والحاجة ليست محدودة ، وإنما تدرك بالتقريب . ويتعدى منه النظر فى مقدار سعة الدار وأبنيتها ، ومقدار قيمتها ، لكونها في وسط البلد ، ووقوع الاكتفاء بدار دونها ، وكذلك فى نوع أثاث البيت ، إذا كان من الصفر لا من الخزف ، وكذلك فى عددها ، وكذلك فى قيمتها ، وكذلك فيما يحتاج إليه كل يوم ، وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء ، ومالا يحتاج إليه إلا فى سنين . وشىء من ذلك لاحد له ، والوجه فى هذا ماقاله عليه السلام [(١)] « دَعْ مَايَرِيبُكَ إِلَى مَالاَ يَرِيبُكَ » وكل ذلك فى محل الريب . وإن توقف المفتى فلاوجه إلا التوقف . وإن أفتى المفتى بظن وتخمين فالورع التوقف . وهو أهم مواقع الورع . وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات ، وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال ، إذ فيه طرفان ، يعلم أن أحدهما قاصر ، وأن الآخر زائد ، وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال . والمطلع على الحاجات هو الله تعالى ، وليس للبشر وقوف على حدودها . فما دون الرطل المكى في اليوم قاصرا عن كفاية الرجل الضخم ، وما فوق ثلاثة أرطال زائد على الكفاية ، وما بينهما لا يتحقق له حد فليدع الورع مايريبه إلى مالا يريبه

وهذا جار فى كل حكم نيط بسبب ، يعرف ذلك السبب بلفظ العرب ، إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بحدود محدودة ، تنقطع أطرافها عن مقابلاتها كلفظ الستة ، فإنه لا يحتمل مادونها وما فوقها من الأعداد ، وسائر ألفاظ الحساب والتقديرات . فليست الألفاظ اللغوية كذلك ، فلا لفظ فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا ويتطرق الشك إلى أوساط فى مقتضياتها ، تدور بين أطراف متقابلة . فتعظم الحاجة إلى هذا الفن فى الوصايا والأوقاف فالوقف على الصوفية مثلا مما يصح . ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ ؟ هذا من الغوامض . فكذلك سائر الألفاظ

(١) حديث دع مايريبك إلى مالا يريبك : تقدم فى الباب قبله

وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفية على الخصوص ، ليعلم به طريق التصرف فى الألفاظ وإلا فلا مطمع فى استيفائها . فهذه اشتباهات تثور من علامات متعارضة ، تجذب إلى طرفين متقابلين : وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها ، إذا لم يترجح جانب الحل،بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب ، بموجب قوله صلى الله عليه وسلم « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » وبموجب سائر الأدلة التى سبق ذكرها .

فهذه مثارات الشبهات : وبعضها أشد من بعض . ولو تظاهرت شبهات شتى على شىء واحد كان الأمر أغلظ . مثل أن يأخذ طعاما مختلفا فيه ، عوضا عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة ، والبائع قد خالط ماله حرام ، وليس هو أكثر ماله ، ولكنه صار مشتبها به . فقد يؤدى ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر فى اقتحامها

فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها ، وليس فى قوة البشر حصرها . فما اتضح من هذا الشرح أخذ به ، وما التبس فليجتنب . فإن الإثم حزاز القلب . وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتى ، أما حيث حرمه فيجب الامتناع . ثم لا يعول على كل قلب ، فرب موسوس ينفر عن كل شىء ، ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شىء . ولا اعتبار بهذين القلبين . وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق ، المراقب لدقائق الأحوال . وهو المحك الذى يمتحن به خفايا الأمور . وما أعز هذا القلب فى القلوب . فمن لم يثق بقلب نفسه فليلتمس النور من قلب بهذه الصفة ، وليعرض عليه واقعته ، وجاء فى الزبور ، أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام ، قل لبنى اسرائيل إنى لا أنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم، ولكن أنظر إلى من شك فى شىء فتركه لأجلى، فذاك الذى أنظر اليه، وأؤيده بنصرى، وأباهى به ملائكتى.

الباب الثالث

فى البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانهما

اعلم أن كل من قدم إليك طعاما أو هدية ، أو أردت أن تشترى منه أو تهب ، فليس لك أن تفتش عنه وتسأل ، وتقول هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه . وليس

﴿ الباب الثالث فى البحث والسؤال ﴾

لك أيضا أن تترك البحث ، فتأخذ كل مالاتتيقن تحريمه . بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة ، ومندوب مرة ، ومكروه مرة ، فلا بد من تفصيله

والقول الشافى فيه ، هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة . ومنشأ الريبة ومثارها إما أمر يتعلق بالمال ، أو يتعلق بصاحب المال .

المثار الأول

أحوال المالك

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال : إما أن يكون مجهولا ، أو مشكوكا فيه ، أو معلوما بنوع ظن يستند إلى دلالة .

الحالة الأولى:أن يكون مجهولا . والمجهول هو الذى ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه ، كزي الأجناد . ولامايدل على صلاحه ، كثياب أهل التصوف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات .فإذا دخلت قرية لاتعرفها ، فرأيت رجلا لاتعرف من حاله شيئا، ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد ، فهو مجهول . وإذا دخلت بلدة غريبا، ودخلت سوقا ، ووجدت رجلا خبازا أو قصابا أو غيره ، ولا علامة تدل على كونه مريبا أو خائنا ، ولا مايدل على نفيه ، فهو مجهول ولا يدرى حاله . ولا نقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين ، لهما سببان متقابلان ، وأكثر الفقهاء لايدركون الفرق بين مالا يدرى ، وبين مايشك فيه . وقد عرفت مما سبق أن الورع ترك مالا يدرى

قال يوسف بن أسباط ، منذ ثلاثين سنة ما حاك فى قلبي شيء إلا تركته . وتكلم جماعة فى أشق الأعمال ، فقالوا هو الورع ، فقال لهم حسان بن أبى سنان ، ما شيء عندى أسهل من الورع ، إذا حاك فى صدرى شيء تركته

فهذا شرط الورع ، وإنمانذكر الآن حكم الظاهر فنقول :

حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدم اليك طعاما ، أو حمل إليك هدية ، أو أردت أن تشترى من دكانه شيئا، فلا يلزمك السؤال . بل يده وكونه مسلما دلالتان كافيتان فى الهجوم على أخذه . وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس، فهذه وسوسة وسوءظن

بهذا المسلم بعينه ، وإن بعض الظن إثم . وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لاتسيء الظن به . فإن أسأت الظن به فى عينه لأنك رأيت فسادا من غيره ، فقد جنيت عليه . وأثمت به فى الحال نقدا من غير شك . ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه

ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم فى غزواتهم وأسفارهم ، كانوا ينزلون فى القرى ، ولا يردون القرى . ويدخلون البلاد ، ولا يحترزون من الأسواق . وكان الحرام أيضا موجودا فى زمانهم ، وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبة ، إذ كان صلى الله عليه وسلم لايسأل عن كل ما يحمل إليه ، بل سأل فى أول قدومه إلى المدينة [١] عما يحمل إليه، أصدقة أم هدية ، لأن قرينة الحال تدل ، وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء ، فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة ، ثم إسلام المعطى ويده لايدلان على أنه ليس بصدقة . [٢] وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ، ولايسأل أصدقة أم لا ، إذ العادة ماجرت بالتصدق بالضيافة . ولذلك [٣] دعته أم سليم ، [٤] ودعاه الخياط كما فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه ، وقدم إليه طعاما فيه قرع . [٥] ودعاه الرجل الفارسى ، فقال عليه السلام أنا وَعَائِشَةُ فقال لا ، فقال فلا ، ثم أجابه بعد ، فذهب هو وعائشة يتساوقان ، فقرب إليهما إهالة ، ولم ينقل السؤال فى شىء من ذلك

وسأل أبو بكر رضى الله عنه عبده عن كسبه لما رابه من أمره . وسأل عمر رضى الله عنه الذى سقاه من لبن إبل الصدقة إذ رابه ، وكان أعجبه طعمه، ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة

---

(١) حديث سؤاله فى أول قدومه الى المدينة عما يحمل اليه أصدقة أم هدية: أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد من حديث سلمان ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام فسأله عنه أصدقة أم هدية الحديث تقدم فى الباب قبله من حديث أبى هريرة

(٢) حديث كان يدعى الى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا هذا معروف مشهور من ذلك فى الصحيحين حديث أبى مسعود الانصارى فى صنيع أبى شعيب طعاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه خامس خمسة

(٣) حديث دعته أم سليم : متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث أنس أن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم اليه طعاما فيه قرع : متفق عليه

(٥) حديث دعاه الرجل الفارسى فقال أنا وعائشة ـ الحديث مسلم عن أنس

وهـذه أسباب الريبة . وكل من وجـد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا بإجابته من غير تفتيش . بل لورأى فى داره تجملا ومالا كثيرا ، فليس له أن يقول الحلال عزيز وهذا كثير ، فمن أين يجتمع هذا من الحلال . بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا أو اكتسبه ، فهو بعينه يستحق إحسان الظن به . وأزيد على هذا وأقول ليس له أن يسأله . بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا مايدرى من أين هو ، فهو حسن فليتلطف فى الترك . وإن كان لابد له من أكله فليأكل بغير سؤال . إذ السؤال إيذاء وهتك ستر وإيحاش ، وهو حرام بلا شك

فإن قلت: لعله لايتأذى . فأقول لعله يتأذى . فأنت تسأل حذرا من لعل . فإن قنعت بلعل ، فلعل ماله حلال . وليس الإثم المحذور فى إيذاء مسلم بأقل من الإثم فى أكل الشبهة والحرام. والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش . ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدري هو به ، لأن الإيذاء فى ذلك أكثر . وإن سأل من حيث لا يدرى هو ، ففيه إساءة ظن وهتك ستر ، وفيه تجسس ، وفيه تشبث بالغيبة ، وإن لم يكن ذلك صريحا . وكل ذلك منهى عنه فى آية واحدة ، قال الله تعالى (اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) وكم زاهـد جاهل يوحش القلوب فى التفتيش ويتكلم بالكلام الخشن المؤذى . وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده ، طلبا للشهرة بأكل الحلال ولو كان باعثه محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشد من خوفه على بطنه أن يدخله مالا يدرى ، وهو غير مؤاخذ بما لا يدرى ، إذ لم يكن ثمّ علامة توجب الاجتناب

فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس . وإذا لم يكن بد من الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن . هذا هو المألوف من الصحابة رضى الله عنهم . ومن زاد عليهم فى الورع فهو ضال مبتدع ، وليس بمتبع . فلن يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه ، ولو أنفق مافى الارض جميعا كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] طعام بريرة ، فقيل إنه صدقة ، فقال (هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ)ولم يسأل على المتصدق عليها ، فكان المتصدق مجهولا عنده ولم يمتنع

---

(١) حديث أكله طعام بريره فقيل إنها صدقة فقال هو لها صدقة ولنا هدية: متفق عليه من حديث أنس

الحالة الثانية : أن يكون مشكوكا فيه بسبب دلالة أورثت ريبة . فلنذكر صورة الريبة ثم حكمها

أما صورة الريبة ، فهو أن تدله على تحريم ما فى يده دلالة إما من خلقته أو من زيه وثيابه أو من فعله وقوله ، أما الخلقة فبأن يكون على خلقة الأتراك والبوادى ، والمعروفين بالظلم وقطع الطريق وأن يكون طويل الشارب ، وأن يكون الشعر مفرقا على رأسه على دأب أهل الفساد . وأما الثياب فالقباء والقلنسوة وزى أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم . وأما الفعل والقول فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل ، فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضا فى المال ، ويأخذ ما لا يحل فهذه مواضع الريبة

فإذا أراد أن يشترى من مثل هذا شيئا أو يأخذ منه هدية أو يجيبه إلى ضيافة ، وهو غريب مجهول عنده ، لم يظهر له منه إلا هذه العلامات فيحتمل أن يقال اليد تدل على الملك ، وهذه الدلالات ضعيفة ، فالإقدام جائز ، والترك من الورع . ويحتمل أن يقال إن اليد دلالة ضعيفة وقد قابلها مثل هذه الدلالة فأورثت ريبة ، فالهجوم غير جائز . وهو الذى نختاره ونفتى به لقوله صلى الله عليه وسلم «[١] دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » فظاهره أمر ، وإن كان يحتمل الاستحباب لقوله صلى الله عليه وسلم « [٢] الْإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ » وهذا له وقع فى القلب لا ينكر . ولأن النبى صلى الله عليه وسلم سأل أصدقة هو أو هدية ، وسأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه ، وسأل عمر رضى الله عنه ، وكل ذلك كان فى موضع الريبة . وحمله على الورع وإن كان ممكنا ، ولكن لا يحمل عليه إلا بقياس حكمى . والقياس ليس يشهد بتحليل هذا . فإن دلالة اليد والإسلام ، وقد عارضتها هذه الدلالات ، أورثت ريبة . فإذا تقابلا فالاستحلال لا مستند له . وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة ، كما إذا وجدنا الماء متغيرا ، واحتمل أن يكون بطول المكث ، فإن رأينا ظبية بالت فيه ، ثم احتمل التغيير به ، تركنا الاستصحاب . وهذا قريب منه . ولكن بين هذه الدلالات تفاوت . فإن طول الشوارب ولبس القباء وهيأة الأجناد يدل على الظلم بالمال . أما القول والفعل المخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال ، فهو أيضا دليل ظاهر كما لو سمعه يأمر بالغصب والظلم ، أو يعقد عقد الربا

---

(١) حديث دع ما يريبك : تقدم فى البابين قبله

(٢) حديث الاثم حزاز القلوب : تقدم فى العلم

فأما إذا رآه قد شتم غيره فى غضبه ، أو أتبع نظره امرأة مرت به ، فهذه الدلالة ضعيفة . فكم من إنسان يتحرج فى طلب المال ، ولا يكتسب إلا الحلال ، ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة . فليتنبه لهذا التفاوت . ولا يمكن أن يضبط هذا بحد فليستفت العبد فى مثل ذلك قلبه

وأقول: إن هذا إن رآه من مجهول فله حكم . وإن رآه ممن عرفه بالورع فى الطهارة والصلاة وقراءة القرءان، فله حكم آخر إذا تعارضت الدلالتان بالإضافة إلى المال وتساقطتا وعاد الرجل كالمجهول . إذ ليست إحدى الدلالتين تناسب المال على الخصوص . فكم من متحرج فى المال لا يتحرج فى غيره ، وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يجد فالحكم فى هذه المواقع مايميل إليه القلب ، فإن هذا أمر بين العبد وبين الله فلا يبعد أن يناط بسبب خفى لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب ، وهو حكم حزازة القلب

ثم ليتنبه لدقيقة أخرى ، وهو أن هذه الدلالة ينبغى أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام ، بأن يكون جنديا أو عامل سلطان أو نائحة أو مغنية . فإن دل على أن فى ماله حراما قليلا لم يكن السؤال واجبا ، بل كان السؤال من الورع

الحالة الثالثة: أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة ، بحيث يوجب ذلك ظنا فى حل المال أو تحريمه . مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته فى الظاهر ، وجوز أن يكون الباطن بخلافه . فهنا لا يجب السؤال ، ولا يجوز كما فى المجهول . فالأولى الإقدام والإقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول . فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراما . وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء. قال صلى الله عليه وسلم [1] «لاَ تَأْكُلْ إلاَّ طَعَامَ تَقِيٍّ وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ» فأما إذا علم بالخبرة أنه جندى أو مغن أو مرب ، واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب ، فهنا السؤال واجب لا محالة كما فى موضع الريبة ، بل أولى

---

(١) حديث لا تأكل الا طعام تقى ولا يأكل طعامك الا تقي :تقدم فى الزكاة

المثار الثانى

ما يستند الشك فيه إلى سبب فى المال لا فى حال المالك

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام . كما إذا طرح فى سوق أحمال من طعام غصب، واشتراها أهل السوق ، فليس يجب على من يشترى فى تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما فى أيديهم حرام ، فعند ذلك يجب السؤال . فإن لم يكن هو الأكثر ،فالتفتيش من الورع ، وليس بواجب . والسوق الكبير حكمه حكم بلد. والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام ، أن الصحابة رضى الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق ، وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها. وكانوا لا يسألون فى كل عقد . وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادرا فى بعض الأحوال ، وهى محال الريبة فى حق ذلك الشخص المعين . وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين ، وربما أخذوا أموالهم ، واحتمل أن يكون فى تلك الغنائم شىء مما أخذوه من المسلمين . وذلك لا يحل أخذه مجانا بالاتفاق ، بل يرد على صاحبه عند الشافعى رحمه الله ، وصاحبه أولى به بالثمن عند أبى حنيفة رحمه الله . ولم ينقل قط التفتيش عن هذا

وكتب عمر رضى الله عنه إلى أذربيجان ، أنكم فى بلاد تذبح فيها الميتة ، فانظروا ذكيه من ميته . أذن فى السؤال وأمر به ، ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التى هى أثمانها ، لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود ، وإن كانت هي أيضا تباع . وأكثر الجلود كان كذلك وكذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه إنكم فى بلاد أكثر قصابيها المجوس . فانظروا الذكي من الميتة . فخص بالأكثر الأمر بالسؤال . ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور، وفرض مسائل يكثر وقوعها فى العادات ، فلنفرضها

مسألة :

شخص معين خالط ماله الحرام ، مثل أن يباع على دكان طعام مغصوب أو مال منهوب ومثل أن يكون القاضى أو الرئيس أو العامل أو الفقيه، الذى له إدرار على سلطان ظالم ،له أيضا مال موروث ودهقنة أو تجارة . أو رجل تاجر يعامل بمعاملات صحيحة ويربى أيضا . فإن كان الأكثر من ماله حراما لا يجوز الأكل من ضيافته ،ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفتيش

فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك ، وإلا ترك . وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبه ، فهذا فى محل النظر . لأنه على رتبة بين الرتبتين إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر ميتات مثلا ، وجب اجتناب الكل . وهذا يشبهه من وجه ،من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور ، لاسيما إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان . ويخالفه من وجه إذ الميتة يعلم وجودها فى الحال يقينا ، والحرام الذى خالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجودا فى الحال . وإن كان المال قليلا ، وعلم قطعا أن الحرام موجود فى الحال؛ فهو ومسألة اختلاط الميتة واحد . وإن كثر المال ، واحتمل أن يكون الحرام غير موجود فى الحال ، فهذا أخف من ذلك ، ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كما فى الأسواق والبلاد ، ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد ، ولا يشك فى أن الهجوم عليه بعيد من الورع جدا . ولكن النظر فى كونه فسقا مناقضا للعدالة.وهذا من حيث النقل أيضا.غامض ، لتجاذب الأشباه،ومن حيث النقل أيضا غامض،لان ما ينقل فيه عن الصحابة من الامتناع فى مثل هذا وكذا عن التابعين ، يمكن حمله على الورع ، ولا يصادف فيه نص على التحريم . وما ينقل من إقدام على الأكل ، كأكل أبى هريرة رضى الله عنه طعام معاوية مثلا ، إن قدر فى جملة مافى يده حرام ، فذلك أيضا يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبانه أن عين ما يأكله من وجه مباح

فالأفعال فى هذا ضعيفة الدلالة ، ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة ، حتى قال بعضهم لو أعطانى السلطان شيئا لأخذته ، وطرد الإباحة فيما إذا كان الأكثر أيضا حراما ، مهما لم يعرف عين المأخوذ ، واحتمل أن يكون حلالا . واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين ، كما سيأتى فى باب بيان أموال السلاطين

فأما إذا كان الحرام هو الأقل ، واحتمل أن لا يكون موجودا فى الحال ، لم يكن الأكل حراما . وإن تحقق وجوده فى الحال ، كما فى مسألة اشتباه الذكية بالميتة ، فهذا مما لا أدرى ما أقول فيه ، وهو من المشابهات التى يتحير المفتى فيها ، لأنها مترددة بين مشابهة المحصور وغير المحصور . والرضيعة إذا اشتبهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب . وإن كان ببلدة فيها عشرة آلاف لم يجب . وبينهما أعداد ، ولو سئلت عنها لكنت لا أدرى ما أقول فيها

ولقد توقف العلماء فى مسائل هى أوضح من هذه ، إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل رمى صيدا ، فوقع فى ملك غيره ، أيكون الصيد للرامى أولمالك الأرض ؟ فقال لاأدرى . فروجع فيه مرات ، فقال لاأدرى . وكثيرا من ذلك حكيناه عن السلف فى كتاب العلم . فليقطع المفتى طمعه عن درك الحكم فى جميع الصور .

وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة ، عن معاملته قوما يعاملون السلاطين ، فقال إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم ، وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المسامحة فى الأقل ، ويحتمل المسامحة فى الأكثر أيضا . وبالجملة فلم ينقل عن الصحابة أنهم كانوا يهجرون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر ، لتعاطيه عقداً واحداً فاسداً ، أو لمعاملة السلطان مرة . وتقدير ذلك فيه بعد . والمسألة مشكلة فى نفسها

فإن قيل: فقد روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، أنه رخص فيه ، وقال خذ ما يعطيك السلطان ، فإنما يعطيك من الحلال ، وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام . وسئل ابن مسعود رضى الله عنه فى ذلك ، فقال له السائل ، إن لى جارا لا أعلمه إلا خبيثا ، يدعونا أو نحتاج فنستسلفه . فقال إذا دعاك فأجبه ، وإذا احتجت فاستسلفه ، فإن لك المهنأ وعليه المأثم . وأفتى سلمان بمثل ذلك . وقد علل علىّ بالكثرة ، وعلل ابن مسعود رضى الله عنه بطريق الأشارة ، بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ، ولك المهنأ أى أنت لاتعرفه . وروى أنه قال رجل لابن مسعود رضى الله عنه ، إن لى جارا يأكل الربا فيدعونا إلى طعامه ، أفنأتيه ؟ فقال نعم . وروى فى ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه روايات كثيرة مختلفة، وأخذ الشافعى ومالك رضي الله عنهما جوائز الخلفاء والسلاطين ، مع العلم بأنه قد خالط مالهم الحرام

قلنا : أما ما روى عن علىّ رضى الله عنه ، فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك. فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ، ولا يكون له إلا قميص واحد فى وقت الغسل لايجد غيره . ولست أنكر أن رخصته صريح فى الجواز ، وفعله محتمل للورع . ولكنه لو صح فمال السلطان له حكم آخر . فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما لايحصر . وسيأتى بيان ذلك . وكذا فعل الشافعى ومالك رضى الله عنهما متعلق بمال السلطان ، وسيأتى حكمه . وإنما كلامنا فى آحاد الخلق ، وأموالهم قريبة من الحصر

وأما قول ابن مسعود رضى الله عنـه ، فقيل إنه إنما نقله خوات التيمى ، وإنه ضعيف الحفظ ، والمشهور عنه مايدل على توقي الشبهات ، إذ قال لايقولن أحـدكم أخاف وأرجو فإن الحلال بين ، والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات ، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك وقال:إجتنبوا الحكاكات فقيها الإثم

فإن قيل:فلمَ قلتم إذا كان الأكثر حراما لم يجز الأخذ ، مع أن المأخوذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص . واليد علامة على الملك ، حتى أن من سرق مال مثل هـذا الرجل قطعت يده ، والكثرة توجب ظنا مرسلا لايتعلق بالعين ، فليكن كغالب الظن فى طين الشوارع ، وغالب الظن فى الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام . ولايجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالاَيَرِيبُكَ» لأنه مخصوص ببعض المواضع بالاتفاق ، وهو أن لايريبه بعلامة فى عين الملك ،بدليل اختلاط القليل بغير المحصور ، فإن ذلك توجب ريبة ، ومع ذلك قطعتم بأنه لايحرم

فالجواب:أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب ، وإنما يؤثر إذا سلمت عن معارض قوى ، فإذا تحققنا الاختلاط ، وتحققنا أن الحرام المخالط موجود فى الحال . والمال غير خال عنه وتحققنا أن الأكثر هو الحرام ، وذلك فى حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ، ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد،وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالاَ يَرِيبُكَ» لايبقى له محمل . إذ لايمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور ، إذ كان ذلك موجودا فى زمانه ، وكان لايدعه . وعلى أى موضع حمل هذا كان هذا فى معناه ، وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس . فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب ، وللكثرة تأثير فى تحقيق الظن ، وكذا للحصر ، وقد اجتمعا ، حتى قال أبو حنيفة رضى الله عنه ، لاتجتهـد فى الأوانى إلا إذا كان الطاهر هو الأكثر . فاشترط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوة الكثرة . ومن قال يأخذ أى آنية أراد بلا اجتهاد ، بناء على مجرد الاستصحاب ، فيجوز الشرب أيضا ،فيلزمه التجويز ههنا بمجرد علامة اليد ، ولايجرى ذلك فى بول اشتبه بماء ، إذ لا استصحاب فيه . ولا نطرده أيضا فى ميتـة اشتبهت بذكية ، إذ لا استصحاب فى الميتـة ، واليـد لاتدل على أنه غير ميتة

وتدل فى الطعام المباح على أنه مهلك . فهنا أربع متعلقات ، استصحاب ، وقلة فى المخلوط أو كثرة، وانحصار أو اتساع فى المخلوط ، وعلامة خاصة فى عين الشىء يتعلق بها الاجتهاد . فمن يغفل عن مجموع الأربعة ربما يغلط ، فيشبه بعض المسائل بما لا يشبه

فحصل مما ذكرناه أن المختلط فى ملك شخص واحد ، إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله ، وكل واحد إما أن يعلم بيقين أو بظن عن علامة أو توهم ، فالسؤال يجب في موضعين وهو أن يكون الحرام أكثر يقينا أو ظنا ، كما لو رأى تركيا مجهولا يحتمل أن يكون كل ماله من غنيمة . وإن كان الأقل معلوما باليقين ، فهو محل التوقف . وتكاد تسير سير أكثر السلف وضرورة الأحوال إلى الميل إلى الرخصة . وأما الأقسام الثلاثة الباقية فالسؤال غير واجب فيها أصلا .

مسألة :

إذا حضر طعام إنسان ، علم أنه دخل فى يده حرام من إدرار كان قد أخذه ، أو وجه آخر ، ولا يدرى أنه بقى إلى الآن أم لا فله الأكل ، ولا يلزمه التفتيش . وإنما التفتيش فيه من الورع . ولو علم أنه قد بقى منه شىء ، ولكن لم يدر أنه الأقل أو الأكثر ، فله أن يأخذ بأنه الأقل ، وقد سبق أن أمر الأقل مشكل ، وهذا يقرب منه

مسألة :

إذا كان فى يد المتولى للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان ، يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثانى ، لأنه غير موصوف بتلك الصفة ، فهل له أن يأخذ ما يسلمه إليه صاحب الوقف ، نظر ، فإن كانت تلك الصفة ظاهرة يعرفها المتولى ، وكان المتولى ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث : لأن الظن بالمتولى أنه لا يصرف إليه ما يصرفه إلا من المال الذى يستحقه . وإن كانت الصفة خفية وإن كان المتولى ممن عرف حاله أنه يخلط ولا يبالى كيف يفعل فعليه السؤال . إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعول عليه . وهو وزان سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة والهدية عن تردده فيهما . لأن اليد لا تخصص الهدية عن الصدقة ولا الاستصحاب . فلا ينجى منه إلا السؤال ، فإن السؤال حيث أسقطناه فى المجهول

أسقطناه بعلامة اليد والإسلام ، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحما من ذبيحته ، واحتمل أن يكون مجوسيا ، لم يجز له ما لم يعرف أنه مسلم . إذ اليد لا تدل في الميتة ، ولا الصورة تدل على الإسلام ، إلا إذا كان أكثر أهل البلدة مسلمين ، فيجوز أن يظن بالذى ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم ، وإن كان الخطأ ممكنا فيه . فلا ينبغى أن تلتبس المواضع التى تشهد فيها اليد والحال بالتى لا تشهد

مسألة :

له أن يشترى فى البلد دارا ، وإن علم أنها تشتمل على دور مغصوبة . لأن ذلك اختلاط بغير محصور . ولكن السؤال احتياط وورع . وإن كان فى سكة عشر دور مثلا ، إحداها مغصوب أو وقف ، لم يجز الشراء ما لم يتميز . ويجب البحث عنه . ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب ، وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب ؛ فليس له أن يسكن أيها شاء ، ويأكل من وقفها بغير سؤال ، لأن ذلك من باب اختلاط المحصور ، فلا بد من التمييز ، ولا يجوز الهجوم مع الإبهام ، لأن الرباطات والمدارس فى البلد لا بد أن تكون محصورة .

مسألة :

حيث جعلنا السؤال من الورع ، فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه . وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام ، وعند ذلك لا يبالى بغضب مثله ، إذ يجب إيذاء الظالم بأكثر من ذلك . والغالب أن مثل هذا لا يغضب من السؤال - نعم : إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله ممن هو تحت رعايته ، فله أن يسأل مهما استراب ، لأنهم لا يغضبون من سؤاله ، ولأن عليه أن يسأل ليعلمهم طريق الحلال . ولذلك سأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه ، وسأل عمر من سقاه من إبل الصدقة ، وسأل أبا هريرة رضى الله عنه أيضا لما أن قدم عليه بمال كثير ، فقال ويحك ! أكل هذا طيب ! من حيث إنه تعجب من كثرته ، وكان هو من رعيته . لا سيما وقد رفق فى صيغة السؤال . وكذلك قال على رضى الله عنه ، ليس شىء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه ولا شىء أبغض إليه من جوره وخرقه .

مسألة:

قال الحارث المحاسبي رحمه الله ، لو كان له صديق أو أخ ، وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغي أن يسأله لأجل الورع . لأنه ربما يبدو له ما كان مستورا عنه ، فيكون قد حمله على هتك الستر . ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء . وما ذكره حسن . لأن السؤال إذا كان من الورع لامن الوجوب ، فالورع في مثل هذه الأمور الاحتراز عن هتك الستر ، وإثارة البغضاء أهم . وزاد على هذا فقال ، وإن رابه منه شيء أيضا لم يسأله ، ويظن به أنه يطعمه من الطيب ويجنبه الخبيث . فإن كان لايطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفا ، ولا يهتك ستره بالسؤال . قال لأني لم أر أحدا من العلماء فعله . فهذا منه مع مااشتهر به من الزهد ، يدل على مسامحة فيما إذا خالط المال الحرام القليل . ولكن ذلك عند التوهم لاعند التحقق . لأن لفظ الريبة يدل على التوهم بدلالة تدل عليه ، ولايوجب اليقين . فليراع هذه الدقائق بالسؤال

مسألة:

ربما يقول القائل أي فائدة في السؤال ممن بعض ماله حرام ، ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب . فإن وثق بأمانته ، فليثق بديانته في الحلال . فأقول مهما علم مخالطة الحرام لمال إنسان ، وكان له غرض في حضورك ضيافته ، أو قبولك هديته ، فلا تحصل الثقة بقوله ، فلا فائدة للسؤال منه ، فينبغي أن يسأل من غيره . وكذا إن كان بياعا ، وهو يرغب في البيع لطلب الربح ، فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ، ولافائدة في السؤال منه ، وإنما يسأل من غيره . وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن متهما . كما يسأل المتولى على المال الذي يسلمه أنه من أي جهة . وكما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدية والصدقة . فإن ذلك لايؤذى ، ولا يتهم القائل فيه . وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدرى طريق كسب الحلال ، فلا يتهم في قوله إذا أخبر عن طريق صحيح . وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه . فههنا يفيد السؤال . فإذا كان صاحب المال متهما ، فليسأل من غيره . فإذا أخبره عدل واحد قبله . وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لايكذب حيث لاغرض له فيه ، جاز قبوله . لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى . والمطلوب ثقة النفس . وقد يحصل من الثقة بقول فاسق مالا يحصل بقول عدل في بعض الأحوال . وليس كل من فسق يكذب

ولا كل من ترى العدالة فى ظاهره يصدق . وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم . فإن البواطن لا يطلع عليها . وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق . وكم من شخص تعرفه ، وتعرف أنه قد يقتحم المعاصى ، ثم إذا أخبرك بشىء وثقت به . وكذلك إذا أخبر به صبى مميز ممن عرفته بالتثبت ، فقد تحصل الثقة بقوله ، فيحل الاعتماد عليه . فأما إذا أخبر به مجهول لايدرى من حاله شىء أصلا ، فهذا ممن جوزنا الأكل من يده . لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه . وربما يقال إسلامه دلالة ظاهرة على صدقه ، وهذا فيه نظر . ولا يخلو قوله عن أثر مافى النفس . حتى لو اجتمع منهم جماعة تفيد ظنا قويا ، إلا أن أثر الواحد فيه فى غاية الضعف . فلينظر إلى حد تأثيره فى القلب . فإن المفتى هو القلب فى مثل هذا الموضع . وللقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطلق النطق . فليتأمل فيه

ويدل على وجوب الالتفات إليه ماروى عن عقبة بن الحارث ، أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] فقال ، إنى تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء، فزعمت أنها قد أرضعتنا وهى كاذبة. فقال «دَعْهَا» فقال إنها سوداء يصغر من شأنها . فقال عليه السلام « فَكَيْفَ وَقَدْ زَعَمَتْ أَنَّهَا قَدْ أَرْضَعَتْكُمَا ؛ لاَ خَيْرَلَكَ فِيهَا، دَعْهَا عَنْكَ » وفى لفظ آخر « كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ » ومهما لم يعلم كذب المجهول، ولم تظهر أمارة غرض له فيه ، كان له وقع فى القلب لامحالة فلذلك يتأكد الأمر بالاحتراز : فإن اطمأن اليه القلب ، كان الاحتراز حتما واجبا

مسألة :

حيث يجب السؤال، فلو تعارض قول عدلين تساقطا . وكذا قول فاسقين . ويجوز أن يترجح فى قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين . ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والمعرفة . وذلك مما يتشعب تصويره

مسألة :

لو نهب متاع مخصوص ، فصادف من ذلك النوع متاعا فى يد إنسان وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون من المغصوب . فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصلاح، جاز الشراء وكان تركه من الورع . وإن كان الرجل مجهولا لايعرف منه شيئا ، فإن كان يكثر نوع ذلك

(١) حديث عقبة انى تزوجت امرأة فجاءتنا أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهى كاذبة. البخارى من حديث عقبة بن الحارث

المتاع من غير المغصوب ؛ فله ان يشترى . وإن كان لايوجد ذلك المتاع فى تلك البقعة إلا نادرا ، وإنما كثر بسبب الغصب ، فليس يدل على الحل إلا اليد ، وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه ، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم . ولكن الوجوب فيه نظر. فإن العلامة متعارضة ، ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم ، إلا أن أرده إلى قلب المستفتى لينظر ما الأقوى فى نفسه . فإن كان الأقوى أنه مغصوب لزمه تركه . وإلا حلّ له شراؤه . وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها ، فهى من المتشابهات التى لايعرفها كثير من الناس فمن توقاها فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن اقتحمها فقد حام حول الحمى وخاطر بنفسه.

مسألة .

لو قال قائل قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] عن لبن قدم إليه ، فذُكِر أنه من شاة فسأل عن الشاة من أين هى فذُكِر له فسكت عن السؤال : أفيجب السؤال عن أصل المال أم لا ؟ وإن وجب ، فمن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة ؟ وما الضبط فيه

فأقول لاضبط فيه ولا تقدير . بل ينظر إلى الريبة المقتضية للسؤال إما وجوبا أو ورعا ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الريبة المقتضية له . وذلك يختلف باختلاف الأحوال . فإن كانت التهمة من حيث لايدرى صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال ، فإن قال اشتريت انقطع بسؤال واحد . وإن قال من شاتى وقع الشك فى الشاة ، فإذا قال اشتريت انقطع وإن كانت الريبة من الظلم ، وذلك مما فى أيدى العرب ، ويتوالد فى أيديهم المغصوب ، فلا تنقطع الريبة بقوله إنه من شاتى ولا بقوله : إن الشاة ولدتها شاتى فإن أسنده إلى الوراثة من أبيه ، وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام ، فقد ظهر التحريم . وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثرة التوالد وسوء الزمان وتطرق الإرث إليه لايغير حكمه . فلينظر فى هذه المعانى

مسألة :

سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية ، وفى يد خادمهم الذى يقدم إليهم الطعام وقف على ذلك المسكن ، ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء ، وهو يخلط الكل

---

(١) حديث سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبن قدم اليه ــ الحديث : تقدم فى الباب الخامس من آداب الكسب والمعاش

وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة؟ فقلت إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول

الأصل الأول : أن الطعام الذي يقدم إليهم فى الغالب يشتريه بالمعاطاة . والذى اخترناه صحة المعاطاة ، لاسيما فى الأطعمة والمستحقرات ، فليس فى هذا إلا شبهة الخلاف

الأصل الثانى : أن ينظر أن الخادم هل يشتريه بعين المال الحرام أو فى الذمة فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام . وإن لم يعرف فالغالب أنه يشترى فى الذمة . ويجوز الأخذ بالغالب ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد ، وهو شراؤه بعين مال حرام

الأصل الثالث : أنه من أين يشتريه ، فإن اشترى ممن أكثر ماله حرام لم يجز . وإن كان أقل ماله ففيه نظر قد سبق . وإذا لم يعرف جاز له الأخذ بأنه يشتريه ممن ماله حلال ، أو ممن لايدرى المشترى حاله بيقين كالمجهول . وقد سبق جواز الشراء من المجهول ، لأن ذلك هو الغالب . فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال

الأصل الرابع : أن يشتريه لنفسه أو للقوم . فإن المتولى والخادم كالنائب . وله أن يشترى له ولنفسه . ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ وإذا كان الشراء يجرى بالمعاطاة فلا يجرى اللفظ . والغالب أنه لاينوى عند المعاطاة . والقصاب والخباز ومن يعامله يعول عليه ، ويقصد البيع منه ، لاممن لايحضرون ، فيقع عن جهته ، ويدخل فى ملكه . وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة. ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم

الأصل الخامس : أن الخادم يقدم الطعام إليهم ، فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض ، فإنه لايرضى بذلك . وإنما يقدم اعتمادا على عوضه من الوقف . فهو معاوضة . ولكن ليس ببيع ولا إقراض . لأنه لو انتهض لمطالبتهم بالثمن استبعد ذلك . وقرينة الحال لاتدل عليه . فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب . أعنى هدية لالفظ فيها من شخص تقتضى قرينة حاله أنه يطمع فى ثواب . وذلك صحيح . والثواب لازم وههنا ماطمع الخادم في أن يأخذ ثوابا فيما قدمه إلا حقهم من الوقف ، ليقضي به دينه من الخباز والقصاب والبقال . فهذا ليس فيه شبهة . إذ لايشترط لفظ فى الهدية ولا فى تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب . ولا مبالاة بقول من لايصحح هدية فى انتظار ثواب

الأصل السادس: أن الثواب الذى يلزم فيه خلاف . فقيل إنه أقل متمول . وقيل قدر القيمة . وقيل مايرضى به الواهب . حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة . والصحيح أنه يتبع رضاه فإذا لم يرض يرد عليه . وههنا الخادم قد رضى بما يأخذ من حق السكان على الوقف فإن كان لهم من الحق بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر وإن كان ناقصا ورضى به الخادم صح أيضا وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن فى يده الوقف الآخر الذى يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضى فى الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام، والحرام لم يدخل فى أيدى السكان فهذا كالخلل المتطرق إلى الثمن وقد ذكرنا حكمه من قبل وأنه متى يقتضى التحريم ومتى يقتضى الشبهة. وهذا لا يقتضى تحريما على ما فصلناه . فلا تنقلب الهدية حراما بتوصل المهدى بسبب الهدية إلى حرام

الأصل السابع : أنه يقضى دين الخباز والقصاب والبقال من ريع الواقفين . فإن وفى ما أخذ من حقهم بقيمة ما أطعمهم فقد صح الأمر . وإن قصر عنه فرضى القصاب والخباز بأى ثمن كان حراما أوحلالا فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضا . فليلتفت إلى ماقدمناه من الشراء فى الذمة . ثم قضاء الثمن من الحرام . هذا إذا علم أنه قضاه من حرام . فإن احتمل ذلك واحتمل غيره ، فالشبهة أبعد .

وقد خرج من هذا ، أن أكل هذا ليس بحرام ، ولكنه أكل شبهة ، وهو بعيد من الورع ، لأن هذه الأصول إذا كثرت ، وتطرق إلى كل واحد احتمال ، صار احتمال الحرام بكثرته أقوى فى النفس . كما أن الخبر إذا طال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده . فهذا حكم هذه الواقعة . وهى من الفتاوى . وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخريج الوقائع الملتفة الملتبسة . وأنها كيف ترد إلى الأصول . فإن ذلك مما يعجز عنه أكثر المفتين .

الباب الرابع

فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم أن من تاب وفى يده مال مختلط ، فعليه وظيفة فى تمييز الحرام وإخراجه ، ووظيفة أخرى فى مصرف المخرج فلينظر فيهما

﴿ الباب الرابع فى كيفية خروج التائب عن المظالم ﴾

النظر الاول

فى كيفية التمييز والإخراج

اعلم أن كل من تاب وفى يده ما هو حرام معلوم العين ، من غصب أو وديعة أوغيره فأمره سهل . فعليه تمييز الحرام . وإن كان ملتبسا مختلطا ، فلا يخلو إما أن يكون فى مال هو من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، وإما أن يكون فى أعيان متمايزة كالعبيد والدور والثياب . فإن كان فى المتماثلات ، أو كان شائعا فى المال كله ، كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب فى بعضها في المرابحة ، وصدق فى بعضها . أومن غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، أو فعل ذلك فى الحبوب أو الدراهم والدنانير ، فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولا . فإن كان معلوم القدر ، مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وإن أشكل ، فله طريقان : أحدهما الأخذ باليقين ، والآخر الأخذ بغالب الظن . وكلاهما قد قال به العلماء فى اشتباه ركعات الصلاة . ونحن لا نجوز فى الصلاة إلا الأخذ باليقين . فإن الأصل اشتغال الذمة فيستصحب ، ولا يغير إلا بعلامة قوية ، وليس فى أعداد الركعات علامات يوثق بها . وأما ههنا فلا يمكن أن يقال الأصل أن ما فى يده حرام . بل هو مشكل . فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهادا . ولكن الورع فى الأخذ باليقين . فإن أراد الورع ، فطريق التحرى والاجتهاد أن لا يستبقى إلا القدر الذى يتيقن أنه حلال . وإن أراد الأخذ بالظن ، فطريقه مثلا أن يكون فى يده مال تجارة فسد بعضها ، فيتيقن أن النصف حلال ، وأن الثلث مثلا حرام ، ويبقى سدس يشك فيه ، فيحكم فيه بغالب الظن . وهكذا طريق التحرى فى كل مال . وهو أن يقتطع القدر المتيقن من الجانبين فى الحل والحرمة ، والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه ، وإن غلب الحل جاز له الإمساك ، والورع إخراجه . وإن شك فيه جاز الإمساك ، والورع إخراجه . وهذا الورع آكد لأنه صار مشكوكا فيه . وجاز إمساكه اعتمادا على أنه فى يده فيكون الحل أغلب عليه . وقد صار ضعيفا بعد يقين اختلاط الحرام . ويحتمل أن يقال الأصل التحريم ، ولا يأخذ إلا ما يغلب على ظنه أنه حلال ، وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر . وليس يتبين لى فى الحال ترجيح ، وهو من المشكلات

فان قيل:هب أنه أخذ باليقين ، لكن الذى يخرجه ليس يدرى أنه عين الحرام ، فلعل الحرام ما بقى فى يده ، فكيف يقدم عليه ؟ ولو جاز هذا ، لجاز أن يقال إذا اختلطت ميتة بتسع مذكاة فهى العشر ، فله أن يطرح واحدة أى واحدة كانت ، ويأخذ الباقى ويستحله ولكن يقال لعل الميتة فيما استبقاه . بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل، لاحتمال أنها الحرام

فنقول:هذه الموازنة كانت تصح لو لا أن المال يحل بإخراج البدل لتطرق المعاوضة إليه . وأما الميتة فلا تتطرق المعاوضة إليها . فليكشف الغطاء عن هذا الإشكال بالفرض فى درهم معين اشتبه بدرهم آخر ، فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه . وقد سئل أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن مثل هذا ، فقال يدع الكل حتى يتبين . وكان قد رهن آنية ، فلما قضى الدين حمل إليه المرتهن آنيتين ، وقال لا أدرى أيتهما آنيتك ، فتركهما فقال المرتهن هذا هو الذى لك ، وإنما كنت أختبرك . فقضى دينه ولم يأخذ الرهن .وهذا ورع . ولكنا نقول إنه غير واجب

فلنفرض المسألة فى درهم له مالك معين حاضر ، فنقول إذا رد أحد الدرهمين عليه ،ورضى به مع العلم بحقيقة الحال ، حل له الدرهم الآخر . لأنه لا يخلو إما أن يكون المردود فى علم الله هو المأخوذ ، فقد حصل المقصود . وإن كان غير ذلك ، فقد حصل لكل واحد درهم فى يد صاحبه . فالاحتياط أن يتبايعا باللفظ . فإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاطاة وإن كان المغصوب منه قد فات له درهم فى يد الغاصب ، وعسر الوصول إلى عينه ، واستحق ضمانه ، فلما أخذه وقع عن الضمان بمجرد القبض . وهذا فى جانبه واضح . فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظه . والإشكال فى الجانب الآخر أنه لم يدخل فى ملكه فنقول:لأنه أيضا إن كان قد تسلم درهم نفسه ، فقد فات له أيضا درهم فى يد الآخر ، فليس يمكن الوصول إليه ، فهو كالغائب ، فيقع هذا بدلا عنه فى علم الله إن كان الأمر كذلك . ويقع هذا التبادل فى علم الله كما يقع التقاص لو أتلف رجلان كل واحد منهما درهما على صاحبه . بل فى عين مسألتنا لو ألقى كل واحد ما فى يده فى البحر ، أو أحرقه ، كان قد أتلفه ولم يكن عليه عهدة للآخر بطريق التقاص فكذا إذا لم يتلف فإن القول بهذا أولى من المصير

إلى أن من يأخذ درهما حراما ، ويطرحه فى ألف ألف درهم لرجل آخر ، يصير كل المال محجورا عليه لايجوز التصرف فيه . وهذا المذهب يؤدى اليه . فانظر ما فى هذا من البعد وليس فيما ذكرناه إلا ترك اللفظ . والمعاطاة بيع . ومن لا يجعلها بيعا فحيث يتطرق إليها احتمال . إذ الفعل يضعف دلالته ، وحيث يمكن التلفظ. وههنا هذا التسليم والتسلم للمبادلة قطعا والبيع غير ممكن ؛ لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم فى عينه ، وقد يكون مما لا يقبل البيع كالو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره. وكذا الدبس والرطب وكل مالا يباع البعض منه بالبعض

فإن قيل: فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه فى مثل هذه الصورة ، وجعلتموه بيعا

قلنا: لانجعله بيعا. بل نقول هو بدل عمافات فى يده، فيملكه كما يملك المتلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله . هذا إذا ساعد صاحب المال ، فإن لم يساعده وأضرّ به ، وقال لا آخذ درهما أصلا إلا عين ملكى ، فإن استبهم فأتركه ولا أهبه وأعطل عليك مالك

فأقول: على القاضى أن ينوب عنه فى القبض ، حتى يطيب للرجل ماله ، فإن هذا محض التعنت والتضييق . والشرع لم يَرِد به فإن عجز عن القاضى ولم يجده ، فليحكم رجلا متدينا ليقبض عنه . فإن عجز ، فيتولى هو بنفسه ، ويفرد على نية الصرف إليه درهما ، ويتعين ذلك له ، ويطيب له الباقى . وهذا فى خلط المائعات أظهر وألزم

فإن قيل: فينبغى أن يحل له الأخذ ، وينتقل الحق إلى ذمته ، فأى حاجة إلى الإخراج أولا ثم التصرف فى البـــاقى ؟

قلنا: قال قائلون يحل له أن يأخذ مادام يبقى قدر الحرام . ولا يجوز أن يأخذ الكل . ولو أخذ لم يجزله ذلك . وقال آخرون ليس له أن يأخذ مالم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال . وقال آخرون يجوز للآخذ فى التصرف أن يأخذ منه ،وأما هو فلا يعطى ، فإن أعطى عصى هو دون الآخذ منه . وما جوز أحد أخذ الكل . وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة ، إذ يقول لعل المصروف إلى يقع عين حقى . . وبالتعيين وإخراج حق الغير وتمييزه يندفع هذا الاحتمال . فهذا المال يترجح بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم . كما يقدم المثل على القيمة . والعين على المثل فكذلك مايحتمل فيه رجوع المثل مقدم على مايحتمل فيه رجوع القيمة . ومايحتمل فيه رجوع العين يقدم

على ما يحتمل فيه رجوع المثل ولو جاز لهذا أن يقول ذلك ، لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ، ويقول عَلَيَّ قضاء حقك من موضع آخر ، إذ الاختلاط من الجانبين ، وليس ملك أحدهما بأن يقدر فائتا بأولى من الآخر ، إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه . أو ينظر إلى الذى خلط فيجعل بفعله ملتفا لحق غيره . وكلاهما بعيدان جدا . وهذا واضح فى ذوات الأمثال ، فإنها تقع عوضا فى الإتلافات من غير عقد

فأما إذا اشتبه دار بدور ، أو عبد بعبيد ، فلا سبيل إلى المصالحة والتراضى . فإن أبى أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه ، وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه ، فإن كانت متماثلة القيم ، فالطريق أن يبيع القاضى جميع الدور ، ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة . وإن كانت متفاوتة ، أخذ من طلب البيع قيمة أنفس الدور ، وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل . ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الاصطلاح لأنه مشكل . وإن لم يوجد القاضى فللذى يريد الخلاص وفى يده الكل أن يتولى ذلك بنفسه . هذه هى المصلحة وما عداها من الاحتمالات ضعيفة لا نختارها . وفيما سبق تنبيه على العلة ، وهذا فى الحنطة ظاهر ، وفى النقود دونه ، وفى العروض أغمض ، إذ لا يقع البعض بدلا عن البعض ، فلذلك احتيج إلى البيع . ولنرسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل

مسألة :

إذا ورث مع جماعة ، وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم ، فرد عليه قطعة معينة فهى لجميع الورثة . ولو رد من الضيعة نصفا ، وهو قدر حقه ، ساهمه الورثة . فإن النصف الذى له لا يتميز حتى يقال هو المردود ، والباقى هو المغصوب ، ولا يصير مميزا بنية السلطان وقصده حصر الغصب فى نصيب الآخرين

مسألة :

إذا وقع فى يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب ، والمال عقار ، وكان قد حصل منه ارتفاع ، فينبغى أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة . وكذلك كل مغصوب له منفعة أو حصل منه زيادة ، فلا تصح توبته ما لم يخرج أجرة المغصوب ، وكذلك كل زيادة حصلت منه . وتقدير أجرة العبيد والثياب والأوانى ، وأمثال ذلك مما لا يعتاد إجارتها مما يعسر

ولا يدرك ذلك إلا باجتهاد وتخمين . وهكذا كل التقويمات تقع بالاجتهاد . وطريق الورع الأخذ بالأقصى . وما ربحه على المال المغصوب فى عقود عقدها على الذمة، وقضى الثمن منه ، فهو ملك له . ولكن فيه شبهة ، إذ كان ثمنه حراما كما سبق حكمه . وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة . وقد قيل تنفذ بإجازة المغصوب منه للمصلحة فيكون المغصوب منه أولى به . والقياس أن تلك العقود تفسخ ، وتسترد الثمن ، وترد الأعواض فإن عجز عنه لكثرته ، فهى أموال حرام حصلت فى يده ، فللمغصوب منه قدر رأس ماله والفضل حرام يجب إخراجه ليتصدق به . ولا يحل للغاصب ولا للمغصوب منه بل حكمه حكم كل حرام يقع فى يده

مسألة :

من ورث مالا ولم يدر أن مورثه من أين اكتسبه، أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة ، فهو حلال باتفاق العلماء . وإن علم أن فيه حراما ، وشك فى قدره ، أخرج مقدار الحرام بالتحرى فإن لم يعلم ذلك ، ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالا للسلاطين واحتمل أنه لم يكن يأخذ فى عمله شيئا ، أو كان قد أخذ ولم يبق فى يده منه شىء لطول المدة ، فهذه شبهة يحسن التورع عنها ولا يجب . وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم، فيلزمه إخراج ذلك القدر بالاجتهاد . وقال بعض العلماء لا يلزمه والإثم على المورث . واستدل بما روى أن رجلا ممن ولى عمل السلطان مات ، فقال صحابى الآن طاب ماله أى لوارثه ، وهذا ضعيف . لأنه لم يذكر اسم الصحابى . ولعله صدر من متساهل ، فقد كان فى الصحابة من يتساهل . ولكن لا نذكره لحرمة الصحبة . وكيف يكون موت الرجل مبيحا للحرام المتيقن المختلط؟ ومن أين يؤخذ هذا؟ نعم إذا لم يتيقن ، يجوز أن يقال هو غير مأخوذ بما لا يدرى، فيطيب لوارث لا يدرى أن فيه حراما يقينا

النظر الثانى

فى المصرف

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال

إما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف إليه ، أو إلى وارثه وإن كان غائبا فينتظر

حضوره أو الإيصال إليه . وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره

وإما أن يكون لمالك غير معين ، وقع اليأس من الوقوف على عينه ، ولا يدرى أنه مات عن وارث أم لا ، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك ، كغلول الغنيمة ، فإنها بعد تفرق الغزاة كيف يقدر على جمعهم وإن قدر فكيف يفرق دينارا واحدا مثلا على ألف أو ألفين ؟ فهذا ينبغى أن يتصدق به

وإما من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ، ومصانع طريق مكة ، وأمثال هذه الأمور التى يشترك فى الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين ، ليكون عاما للمسلمين

وحكم القسم الاول لاشبهة فيه . أما التصدق وبناء القناطر ، فينبغى أن يتولاه القاضى فيسلم إليه المال إن وجد قاضيا متدينا . وإن كان القاضى مستحلا ، فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتدأ به فيما لا يضمنه ، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقر عليه ؟ بل يحكم من أهل البلد عالما متدينا ، فإن التحكيم أولى من الانفراد . فإن عجز ، فليتولى ذلك بنفسه . فان المقصود الصرف . وأما عين الصارف فإنما نطلبه لمصارف دقيقة فى المصالح . فلا يترك أصل الصرف بسبب العجز عن صارف هو أولى عند القدرة عليه

فإن قيل: مادليل جواز التصدق بما هو حرام ؟ وكيف يتصدق بما لا يملك ؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام . وحكى عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان ، فلما علم أنهما غير وجههما رماهما بين الحجارة ، وقال لا أتصدق إلا بالطيب، ولا أرضى لغيرى مالا أرضاه لنفسى

فنقول: نعم ذلك له وجه واحتمال ، وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس

أما الخبر : فأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بالتصديق بالشاة المصلية التى قدمت اليه فكلمته بأنها حرام ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « أَطْعِمُوهَا الأُسَارَى » ولما نزل قوله تعالى

---

(١) حديث أمر رسول صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التى قدمت بين يديه وكلمته بانها حرام اذ قال أطعموها الاسارى أحمد من حديث رجل من الانصار قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فلما رجعنا لقينا راعى امرأة من قريش فقال ان فلانة تدعوك ومن معك الى طعام ـ الحديث : وفيه فقال أجد لحم شاة أخذت بغير اذن أهلها وفيه فقال . أطعموها الأسارى واسناده جيد

(الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(١)) كذبه المشركون، وقالوا للصحابة ألا ترون ما يقول صاحبكم: يزعم أن الروم ستغلب! (١) فخاطرهم أبو بكر رضى الله عنه بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما حقق الله صدقه، وجاء أبو بكر رضى الله عنه بما قامرهم به، قال عليه السلام « هَذَا سُحْتٌ فَتَصَدَّقْ بِهِ » وفرح المؤمنون بنصر الله. وكان قد نزل تحريم القمار بعد إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له فى المخاطرة مع الكفار

وأما الأثر: فان ابن مسعود رضى الله عنه اشترى جارية، فلم يظفر بمالكها لينقده الثمن، فطلبه كثيرا فلم يجده. فتصدق بالثمن، وقال اللهم هذا عنه إن رضى، وإلا فالأجر لى. وسئل الحسن رضى الله عنه عن توبة الغال، وما يؤخذ منه بعد تفريق الجيش فقال يتصدق به. وروى أن رجلا سولت له نفسه، فغل مائة دينار من الغنيمة، ثم أتى أميره ليردها عليه، فأبى أن يقبضها، وقال له تفرق الناس. فأتى معاوية، فأبى أن يقبض فأتى بعض النساك، فقال ادفع خمسها إلى معاوية، وتصدق بما بقى. فبلغ معاوية قوله فتلهف إذ لم يخطر له ذلك. وقد ذهب أحمد بن حنبل، والحارس المحاسبى، وجماعة من الورعين إلى ذلك.

وأما القياس: فهو أن يقال إن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير، إذ قد وقع اليأس من مالكه. وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه فى البحر، فإنا إن رميناه فى البحر فقد فوتناه على أنفسنا وعلى المالك، ولم تحصل منه فائدة. وإذا رميناه فى يد فقير يدعو لمالكه، حصل للمالك بركة دعائه، وحصل للفقير سد حاجته وحصول الأجر للمالك بغير اختياره فى التصدق لا ينبغى أن ينكر. فان فى الخبر الصحيح (٢) « إِنَّ لِلزَّارِعِ وَالْغَارِسِ أَجْراً فِى كُلِّ مَا يُصِيبُهُ النَّاسُ وَالطُّيُورُ مِنْ ثِمَارِهِ وَزَرْعِهِ » وذلك بغير اختياره

(١) حديث مخاطرة أبى بكر للمشركين باذنه صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى ـ الم غلبت الروم ـ وفيه فقال صلى الله عليه وسلم هذا سحت فتصدق به البيهقى فى دلائل النبوة من حديث ابن عباس وليس فيه ان ذلك كان باذنه صلى الله عليه وسلم ـ والحديث عند الترمذى وحسنه والحاكم وصححه دون قوله أيضا هذا سحت فتصدق به

(٢) حديث أجر الزارع والغارس فى كل ما يصيب الناس والطيور: البخارى من حديث أنس ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة

(١) الروم: ١، ٢، ٣

وأما قول القائل. لاتتصدق إلا بالطيب ، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ، ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر . وترددنا بين التضييع وبين التصديق .ورجحنا جانب التصدق على جانب التضييع

وقول القائل:لانرضى لغيرنا مالا نرضاه لأنفسنا فهو كذلك . ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه . وللفقير حلال إذ أحله دليل الشرع . وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل . وإذا حل فقد رضينا له الحلال

ونقول : إن له أن يتصدق على نفسه وعياله إذا كان فقيرا أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لاينتفى عنهم بكونهم من عياله وأهله . بل هم أولى من يتصدق عليهم . وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته ،لأنه أيضا فقير . ولو تصدق به على فقير لجاز . وكذا إذا كان هو الفقير . ولنرسم فى بيان هذا الأصل أيضا مسائل

مسألة :

إذا وقع فى يده مال من يد سلطان . قال قوم يرد إلى السلطان ،فهو أعلم بما تولاه فيقلده ماتقلده . وهو خير من أن يتصدق به . واختار المحاسبي ذلك . وقا كيف يتصدق به ؟ فلعل له مالكا معينا . ولوجاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدق به . وقال قوم يتصدق به إذا علم أن السلطان لايرده إلى المالك ، لأن ذلك إعانة للظالم ، وتكثير لأسباب ظلمه ، فالرد إليه تضييع لحق المالك

والمختار :أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لايرده إلى مالكه ، فيتصدق به عن مالكه فهو خير للمالك ، إن كان له مالك معين ، من أن يرد على السلطان . لأنه ربما لايكون له مالك معين ، ويكون حق المسلمين • فرده على السلطان تضييع . فإن كان له مالك معين ، فالرد على السلطان تضييع وإعانة للسلطان الظالم ، وتفويت لبركة دعاء الفقير على المالك . وهذا ظاهر •فإذا وقع فى يده من ميراث ، ولم يتعد هو بالأخذ من السلطان ، فإنه شبيه باللقطة التى أيس عن معرفة صاحبها ، إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدق عن المالك ولكن له أن يتملكها.ثم وإن كان غنيا.من حيث إنما كتسبه من وجه مباح،وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح ، فيؤثر فى منعه من التملك ،ولايؤثر فى المنع من التصدق

مسألة :

إذا حصل فى يده مال لامالك له ، وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره ، ففى قدر حاجته نظر ذكرناه فى كتاب أسرار الزكاة . فقد قال قوم يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله . وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فعل . وهذا مااختاره المحاسبى ولكنه قال الأولى أن يتصدق بالكل إن وجد من نفسه قوة التوكل . وينتظر لطف الله تعالى فى الحلال . فإن لم يقدر فله أن يشترى ضيعة ، أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه وكل يوم وجد فيه حلالا أمسك ذلك اليوم عنه ،فإذا فنى عاد إليه ،فاذا وجد حلالا معينا تصدق بمثل ماأنفقه من قبل ، ويكون ذلك قرضا عنده . ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوى عليه . وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع . وماذكره لامزيد عليه.ولكن جعل ماأنفقه قرضا عنده فيه نظر . ولا شك فى أن الورع أن يجعله قرضا . فإذاوجدحلالا تصدق بمثله . ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذى يتصدق به عليه ، فلا يبعد أن لايجب عليه أيضا إذا أخذه لفقره ، لاسيما إذا وقع فى يده من ميراث ، ولم يكن متعديا بغصبه وكسبه ، حتى يغلظ الأمر عليه فيه .

مسألة :

إذا كان فى يده حلال وحرام أو شبهة ، وليس يفضل الكل عن حاجته . فاذا كان له عيال فليخص نفسه بالحلال ، لأن الحجة عليه أوكد فى نفسه منه فى عبده وعياله وأولاده الصغار . والكبارُ من الأولاد يحرسهم من الحرام إن كان لايفضى بهم إلى ماهو أشد منه . فان أفضى فيطعمهم بقدر الحاجة . وبالجملة كل مايحذره فى غيره فهو محذور فى نفسه وزيادة . وهو أنه يتناول مع العلم ، والعيال ربما تعذر إذا لم تعلم . إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول . وإذا تردد فى حق نفسه بين مايخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤن، كأجرة الحجام والصباغ والقصار والحمال ، والإطلاء بالنورةوالدهن وعمارة المنزل ، وتعهد الدابة ، وتسجير التنور ، وثمن الحطب ، ودهن السراج ، فليخص بالحلال قوته ولباسه ، فان ما يتعلق ببدنه ولا غنى به عنه هو أولى بأن يكون طيبا .و إذا دار الأمر بين القوت واللباس،فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال،لأنه ممتزج بلحمه ودمه

وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وأما الكسوة ففائدتها ستر عورته ، ودفع الحر والبرد والإبصار عن بشرته ، وهذا هو الأظهر عندى . وقال الحارث المحاسبي ، يقدم اللباس لأنه يبقى عليه مدة ، والطعام لا يبقى عليه ، لما روى أنه [1] لا يقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم فيها درهم حرام . وهذا محتمل ، ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن فى بطنه حرام ، ونبت لحمه من حرام [2] فراعاة اللحم والعظم أن ينبته من الحلال أولى . ولذلك تقيأ الصديق رضى الله عنه ماشرِبه مع الجهل ، حتى لا ينبت منه لحم يثبت ويبقى

فإن قيل: فإذا كان الكل منصرفا إلى أغراضه ، فأى فرق بين نفسه وغيره ، وبين جهة وجهة ، وما مدرك هذا الفرق

قلنا: عرف ذلك بما روي [3] أن رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحا وعبدا حجاما فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنهى عن كسب الحجام . فروجع مرات فنع منه . فقيل إن له أيتاما فقال «اعْلِفُوهُ النَّاضِحَ» فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أو دابته . فاذا انفتح سبيل الفرق ، فقس عليه التفصيل الذى ذكرناه

مسألة :

الحرام الذى فى يده لو تصدق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم . وإذا أنفق على نفسه فليضيق ماقدر . وما أنفق على عياله فليقتصد ، وليكن وسطا بين التوسيع والتضييق فيكون الأمر على ثلاث مراتب فإن انفق على ضيف قدم عليه وهو فقير ، فليوسع عليه وإن كان غنيا فلا يطعمه إلا إذا كان فى برية أو قدم ليلا ولم يجد شيئا . فإنه فى ذلك الوقت فقير. وإن كان الفقير الذى حضر ضيفا تقيا ، لو علم ذلك لتورع عنه فليعرض الطعام وليخبره

---

(١) حديث لا تقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم وفيها درهم حرام: أحمد من حديث ابن عمر وقد تقدم

(٢) حديث الجسد نبت من الحرام تقدم

(٣) حديث ان رافع بن خديج مات وخلف ناضحا وعبدا حجاما ـ الحديث: وفيه اعلفوه الناضح أحمد والطبرانى من رواية عباية بن رفاعة بن خديج أن جده حين مات ترك جارية وناضحا وغلاما حجاما ـ الحديث وليس المراد بجده رافع بن خديج فانه بقى الى سنة أربع وسبعين فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج ولم أره ذكرا فى الصحابة وفى رواية للطبرانى عن عباية بن رفاعة عن أبيه قال مات أبى وفى رواية له عن عباية قال مات رفاعة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ـ الحديث ، وهو مضطرب

جمعا بين حق الضيافة وترك الخداع . فلا ينبغي أن يكرم أخاه بما يكره . ولا ينبغي أن يعول على أنه لايدري فلا يضره . فإن الحرام إذا حصل في المعدة أثر في قساوة القلب وإن لم يعرفه صاحبه . ولذلك تقيأ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكانا قد شربا على جهل وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء ، أحللناه بحكم الحاجة إليه . فهو كالخنزير والخمر ، إذا أحللناهما بالضرورة . فلا يلتحق بالطيبات

مسألة :

إذا كان الحرام أو الشبهة في يد أبويه ، فليمتنع عن مؤاكلتهما . فإن كانا يسخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض . بل ينهاهما فلا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى : فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع ، فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاهما ، بل هو واجب . فليتلطف في الامتناع ،فإن لم يقدر،فليوافق،وليقلل الأكل ، بأن يصغر اللقمة ويطيل المضغ ،ولا يتوسع فإن ذلك عدوان . والأخ والأخت قريبان من ذلك ، لأن حقهما أيضا مؤكد وكذلك إذا ألبسته أمه ثوبا من شبهة ، وكانت تسخط برده : فليقبل وليلبس بين يديها ولينزع في غيبتها وليجتهد أن لا يصلي فيه إلا عند حضورها ، فيصلي فيه صلاة المضطر . وعند تعارض أسباب الورع ينبغي أن يتفقد هذه الدقائق

وقد حكى عن بشر رحمه الله ، أنه سلمت إليه أمه رطبة ، وقالت بحقي عليك أن تأكلها وكان يكرهه ، فأكل . ثم صعد غرفة ، فصعدت أمه وراءه ، فرأته يتقيأ . وإنما فعل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة . وقد قيل لأحمد بن حنبل ، سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة ؟ فقال لا ، فقال أحمد هذا شديد . فقيل له سئل محمد بن مقاتل العباداني عنها ،فقال برّ والديك ، فماذا تقول ؟ فقال للسائل ، أحب أن تعفيني،فقد سمعت ماقالا . ثم قال ! ماأحسن أن تداريهما

مسألة :

من في يده مال حرام محض ، فلا حج عليه ، ولا يلزمه كفارة مالية لأنه مفلس. ولا تجب عليه الزكاة ، إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع العشر مثلا ، وهذا يجب عليه إخراج الكل إما ردا على المالك إن عرفه ، أو صرفا إلى الفقراء إن لم يعرف المالك

وأما إذا كان مال شبهة يحتمل أنه حلال ، فإذا لم يخرجه من يده لزمه الحج ، لأن كونه حلالا ممكن . ولا يسقط الحج إلا بالفقر ، ولم يتحقق فقره . وقد قال الله تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا[1]) وإذا وجب عليه التصدق بما يزيد على حاجته ، حيث يغلب على ظنه تحريمه ، فالزكاة أولى بالوجوب . وإن لزمته كفارة ، فليجمع بين الصوم والإعتاق ليتخلص بيقين . وقد قال قوم يلزمهم الصوم دون الإطعام . إذ ليس له يسار معلوم . وقال المحاسبي ، يكفيه الإطعام . والذى نختاره أن كل شبهة حكمنا بوجوب اجتنابها ، وألزمناه إخراجها من يده ، لكون احتمال الحرام أغلب على ماذكرناه ، فعليه الجمع بين الصوم والإطعام أما الصوم ، فلأنه مفلس حكما . وأما الإطعام ، فلأنه قد وجب عليه التصدق بالجميع ، ويحتمل أن يكون له ، فيكون اللزوم من جهة الكفارة.

مسألة :

من فى يده مال حرام أمسكه للحاجة ، فأراد أن يتطوع بالحج ، فإن كان ماشيا ، فلا بأس به . لأنه سيأكل هذا المال فى غير عبادة ، فأكله فى عبادة أولى . وإن كان لا يقدر على أن يمشي ، ويحتاج إلى زيادة للمركوب ، فلا يجوز الأخذ لمثل هذه الحاجة فى الطريق كما لا يجوز شراء المركوب فى البلد . وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام ، بحيث يستغنى به عن بقية الحرام ، فالإقامة فى انتظاره أولى من الحج ماشيا بالمال الحرام

مسألة :

من خرج لحج واجب بمال فيه شبهة ، فليجتهد أن يكون قوته من الطيب . فإن لم يقدر ، فمن وقت الإحرام إلى التحلل . فإن لم يقدر ، فليجتهد يوم عرفة أن لا يكون قيامه بين يدى الله ودعاؤه فى وقت مطعمه حرام وملبسه حرام ، فليجتهد أن لا يكون فى بطنه حرام ، ولا على ظهره حرام . فإنا وإن جوزنا هذا بالحاجة ، فهو نوع ضرورة ، وما ألحقناه بالطيبات . فان لم يقدر ، فليلازم قلبه الخوف والغم لما هو مضطر إليه ، من تناول ما ليس بطيب ، فعساه ينظر إليه بعين الرحمة ، ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهته

مسألة :

سئل أحمد بن حنبل رحمه الله ، فقال له قائل ، مات أبى وترك مالا ، وكان يعامل من

(1) آل عمران : ٩٧

تكره معاملته ؟ فقال تدع من ماله بقدر ماربح . فقال له دين وعليه دين ؟ فقال تقضى وتقتضى . فقال أفترى ذلك ؟ فقال أفتدعه محتبسا بدينه ؟ وماذكره صحيح . وهو يدل على أنه رأى التحرى بإخراج مقدار الحرام ، إذ قال يخرج قدر الربح ، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له ، بدلا عما بذله فى المعاوضات الفاسدة ، بطريق التقاص والتقابل ، مهما كثر التصرف وعسر الرد ، وعول فى قضاء دينه على أنه يقين ، فلا يترك بسبب الشبهة .

الباب الخامس

فى إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم

اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلا بد له من النظر فى ثلاثة أمور : فى مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو ، وفى صفته التى بها يستحق الأخذ ، وفى المقدار الذى يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه فى الاستحقاق .

النظر الأول

فى جهات الدخل للسلطان

وكل مايحل للسلطان سوى الأحياء ، وما يشترك فيه الرعية قسمان :

مأخوذ من الكفار ، وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر ، والفيء وهو الذى حصل من مالهم فى يده من غير قتال ، والجزية وأموال المصالحة وهى التى تؤخذ بالشروط والمعاقدة

والقسم الثانى ، المأخوذ من المسلمين ، فلايحل منه إلا قسمان : المواريث وسائر الأمور الضائعة التى لايتعين لها مالك ، والأوقاف التى لامتولى لها . أما الصدقات ، فليست توجد فى هذا الزمان . وما عدا ذلك ، من الخراج المضروب على المسلمين ، والمصادرات وأنواع الرشوة ، كلها حرام .

فاذا كتب لفقيه أو غيره إدراراً أو صلة أو خلعة على جهة ، فلا يخلو من أحوال ثمانية فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية ، أو على المواريث ، أو على الأوقاف أو على ملك

أحيـاه السلطان ، أو على ملك اشتراه ، أو على عامل خراج المسلمين ، أو على بياع من جملة التجـار ، أو على الخزانة .

فالاول : هو الجزية . وأربعة أخماسها للمصالح ، وخمسها لجهات معينة . فما يكتب على الخمس من تلك الجهات ، أو على الأخماس الأربعة لما فيه مصلحة ، وروعى فيه الاحتيـاط فى القدر ، فهو حلال ، بشرط أن لاتكون الجزية إلا مضروبة على وجه شرعى ، ليس فيها زيادة على دينار ، أو على أربعة دنانير ، فإنه أيضا فى محل الاجتهاد .وللسلطان أن يفعل ماهو فى محل الاجتهاد . وبشرط أن يكون الذمي الذى تؤخذ الجزية منه ، مكتسبا من وجه لا يعلم تحريمه ، فلا يكون عامل سلطان ظالما ، ولا بياع خمر ، ولاصبيا ، ولاامرأة ،إذ لاجزية عليهما

فهذه أمور تراعى فى كيفية ضرب الجزية ، ومقدارها، وصفة من تصرف إليه، ومقدار مايصرف ، فيجب النظر فى جميع ذلك

الثانى : المواريث والأموال الضائعة . فهى للمصالح . والنظر أن الذى خلفـه هل كان ماله كله حراما أو أكثره أو أقله ، وقد سبق حكمه . فإن لم يكن حراما بقى النظر فى صفة من يصرف إليه ، بأن يكون فى الصرف اليه مصلحة ، ثم فى المقدار المصروف

الثالث : الأوقاف . وكذا يجرى النظر فيها كما يجري فى الميراث ، مع زيادة أمر، وهو شرط الواقف ، حتى يكون المـأخوذ موافقا له فى جميع شرائطه

الرابع : ماأحياه السلطان . وهذا لايعتبر فيـه شرط ، إذ له أن يعطى من ملكه ماشاء لمن شاء أى قدر شاء . وإنما النظر فى أن الغالب أنه أحياه بإكراه الأجراء،أو بأداءأجرتهم من حرام ، فإن الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهـار ، وبناء الجدران ، وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه. فإن كانوا مكرهين على الفعل، لم يملكه السلطان ، وهو حرام وإن كانوا مستـأجرين ، ثم قضيت أجورهم من الحرام ، فهذا يورث شبهة قدنبهنـا عليها فى تعلق الـكراهـة بالأعـواض

الخامس : مااشتراه السلطان فى الذمة،من أرض أو ثياب خلعـة أو فرس أو غيره . فهو ملكه . وله أن يتصرف فيه . ولكنه سيقضى ثمنه من حرام ، وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى . وقد سبق تفصيـله

السادس : أن يكتب على عامل خراج المسلمين، أو من يجمع أموال القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذى لاشبهة فيه . وهو أكثر الإدرارات فى هذا الزمان . إلا ما على أراضى العراق ، فإنها وقف عند الشافعى رحمه الله على مصالح المسلمين

السابع : مايكتب على بياع يعامل السلطان . فإن كان لايعامل غيره ،فما له كمال خزانة السلطان . وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر ، فما يعطيه قرض على السلطان ، وسيأخذ بدله من الخزانة فالخلل يتطرق إلى العوض . وقد سبق حكم الثمن الحرام

الثامن : مايكتب على الخزانة ، أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام . فإن لم يعرف للسلطان دخل إلامن الحرام ، فهو سحت محض . وإن عرف يقينا أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام ، واحتمل أن يكون مايسلم اليه بعينه من الحلال، احتمالا قريبا له وقع فى النفس ، واحتمل أن يكون من الحرام ، وهو الأغلب . لأن أغلب أموال السلاطين حرام فى هذه الأعصار ، والحلال فى أيديهم معدوم أو عزيز ، فقد اختلف الناس فى هذا . فقال قوم. كل مالا أتيقن أنه حرام فلى أن آخذه . وقال آخرون. لايحل أن يؤخذ مالم يتحقق أنه حلال ،فلا تحل شبهة أصلا. وكلاهما إسراف. والاعتدال ماقدمنا ذكره. وهو الحكم بأن الأغلب اذا كان حراما حرم وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق

ولقد احتج من جوز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال ، مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام ، بما روى عن جماعة من الصحابه ، أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة، وأخذوا الأموال . منهم أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى ، وزيد بن ثابت ، وأبو أيوب الأنصارى ، وجرير بن عبد الله ، وجابر ، وأنس بن مالك ، والمسور بن مخرمة. فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة ، من مروان ويزيد بن عبد الملك . وأخذ ابن عمرو ابن عباس من الحجاج، وأخذ كثير من التابعين منهم ، كالشعبى ، وابراهيم ، والحسن ، وابن أبى ليلى . وأخذ الشافعى من هرون الرشيد ألف دينار فى دفعة . وأخذ مالك من الخلفاء أموالا جمة وقال على رضى الله عنه ، خذ مايعطيك السلطان ، فإنما يعطيك من الحلال ، وما يأخذ من الحلال أكثر . وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا ، مخافة على دينه أن يحمل على مالا يحل . ألا ترى قول أبى ذر للأحنف بن قيس ، خذ العطاء ما كان نحلة ، فإذا كان أثمان

دينكم فدعوه ؟ وقال أبو هريرة رضى الله عنه ، إذا أعطينا قبلنا ، وإذا منعنا لم نسأل . وعن سعيد بن المسيب ، أن أبا هريرة رضى الله عنه ، كان إذا أعطاه معاويه سكت ، وإن منعه وقع فيه . وعن الشعبي ، عن مسروق ، لايزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار أي يحمله ذلك على الحرام ، لأنه فى نفسه حرام . وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ، ثم يقول لاأسأل أحدا ولا أرد مارزقنى الله . وأهدى إليه ناقة فقبلها ، وكان يقال لها ناقة المختار . ولكن هذا يعارضه ماروى أن ابن عمر رضى الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار . والإسناد فى رده أثبت . وعن نافع أنه قال ، بعث ابن معمر إلى ابن عمر بستين ألفا ، فقسمها على الناس ، جاءه سائل ، فاستقرض له من بعض من أعطاه ، وأعطى السائل . ولما قدم الحسن بن على رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال لأجيزك بجائزة لم أجزها أحدا قبلك من العرب ، ولاأجيزها أحدا بعدك من العرب قال فأعطاه اربعمائة ألف درهم ، فأخذها . وعن حبيب بن أبى ثابت ، قال لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس فقبلاها ، فقيل ماهى ؟ قال مال وكسوة . وعن الزبير بن عدى أنه قال ، قال سلمان ، إذا كان لك صديق عامل أو تاجر ، يقارف الربا ، فدعاك إلى طعام أو نحوه ، أو أعطاك شيئا فاقبل ، فإن المهنأ لك ، وعليه الوزر . فإن ثبت هذا فى المربى ، فالظالم فى معناه . وعن جعفر عن أبيه ، أن الحسن والحسين عليهما السلام ، كانا يقبلان جوائز معاوية وقال حكيم بن جبير ، مررنا على سعيد بن جبير ، وقد جعل عاملا على أسفل الفرات ، فأرسل إلى العشارين ، أطعمونا مما عندكم . فأرسلوا بطعام ، فأكل وأكلنا معه . وقال العلاء بن زهير الأزدى ، أتى إبراهيم أبى وهو عامل على حلوان ، فأجازه فقبل . وقال إبراهيم لابأس بجائزة العمال ، إن للعمال مؤنة ورزقا ، ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب ، فماأعطاك فهو من طيب ماله . فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة ، وكلهم طعنوا على من أطاعهم فى معصية الله تعالى

وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لايدل على التحريم ، بل على الورع ، كالخلفاء الراشدين وأبى ذر وغيرهم من الزهاد ، فإنهم امتنعوا من الحلال المطلق زهدا ، ومن الحلال الذى يخاف افضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى . فإقدام هؤلاء يدل على الجواز

وامتناع أولئك لايدل على التحريم . ومانقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفا ، ومانقل عن الحسن من قوله لا أتوضأ من ماء صيرفي ولو ضاق وقت الصلاة ، لأني لا أدري أصل ماله ، كل ذلك ورع لاينكر . واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع . ولكن لايحرم اتباعهم على الاتساع أيضا

فهذه هي شبهة من يجوز أخذ مال السلطان الظالم

والجواب أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل، بالإضافة إلى مانقل من ردهم و إنكارهم وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع ، فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاوتهم في الورع . فان للورع في حق السلاطين أربع درجات

الدرجة الأولى : أن لايأخذ من أموالهم شيئا أصلا كما فعله الورعون منهم . وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون ، حتى أن أبا بكر رضى الله عنه ، حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم ، فغرمها لبيت المال . وحتى أن عمر رضي الله عنه ، كان يقسم مال بيت المال يوما ، فدخلت ابنة له ، وأخذت درهما من المال ، فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الملحفة عن أحد منكبيه . ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي ، وجعلت الدرهم في فيها ، فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها ، وطرحه على الخراج ، وقال أيها الناس ليس لعمر ولالآل عمر إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم . وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال ، فوجد درهما فمرَّ بُنَيٌّ لعمر رضي الله عنه ، فأعطاه إياه ، فرأى عمر ذلك في يد الغلام فسأله عنه ، فقال أعطانيه أبو موسى ، فقال يا أباموسى ، ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر ؟ أردت أن لايبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلاطلبنا بمظلمة ! ورد الدرهم إلى بيت المال . هذا مع أن المال كان حلالا . ولكن خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر ، فكان يستبرىء لدينه ويقتصر على الأقل ، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم (١) « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » ولقوله (٢) « وَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ » ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات في الأموال السلطانية ،

---

(١) حديث دع ما يريبك الى مالا يريبك: تقدم فى الباب الاول من الحلال والحرام

(٢) حديث من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه: متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم أوله فى أول الباب الثانى من الحلال والحرام

حتى قال صلى الله عليه وسلم[١] حين بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة « اتَّقِ اللهَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ لَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِكَ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ لَهَا ثُؤَاجٌ » فقال يارسول الله أهكذا يكون ؟ قال « نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ » قال فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبدا . وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي . إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا » وإنما خاف التنافس فى المال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه، فى حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال، إنى لم أجد نفسى فيه إلا كالولى مال اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف . وروى أن ابنا لطاوس افتعل كتابا عن لسانه إلى عمر بن عبد العزيز ، فأعطاه ثلثمائة دينار ، فباع طاوس ضيعة له ، وبعث من ثمنها إلى عمر بثلثمائة دينار . هذا مع أن السلطان مثل عمر بن عبد العزيز فهذه هى الدرجة العليا فى الورع

الدرجة الثانية : هو أن يأخذ مال السلطان ، ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال . فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لا يضره . وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها ، أو ما اختص منها بأكابر الصحابة والورعين منهم ، مثل ابن عمر فإنه كان من المبالغين فى الورع ، فكيف يتوسع فى مال السلطان ؟ وقد كان من أشدهم إنكاراً عليهم ، وأشدهم ذما لأموالهم ، وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر وهو فى مرضه وأشفق على نفسه من ولايته ، وكونه مأخوذا عند الله تعالى بها ، فقالوا له إنا لنرجو لك الخير ، حفرت الآبار ، وسقيت الحاج ، وصنعت وصنعت ، وابن عمر ساكت . فقال ماذا تقول يا ابن عمر ؟ فقال أقول ذلك إذا طاب المكسب ، وزكت النفقة ، وسترد فترى . وفى حديث آخر ، أنه قال إن الخبيث لا يكفر الخبيث ، وإنك قد وليت البصرة، ولا أحسبك

---

(١) حديث قال لعبادة بن الصامت حين بعثه الى الصدقة اتق الله ياأبا الوليد لاتجيء يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك : الحديث الشافعي فى المسند من حديث طاوس مرسلا ولأبى يعلى فى المعجم من حديث ابن عمر مختصراً أنه قاله لسعد بن عبادة واسناده صحيح

(٢) حديث إنى لاأخاف عليكم أن تشركوا بعدى أخاف عليكم أن تنافسوا : متفق عليه من حديث عقبة بن عامر

إلا قد أصبت منها شراً . فقال له ابن عامر ، ألا تدعولى ؟ فقال ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يقول « لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ » وقد وليت البصرة . فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال فى أيام الحجاج ، ماشبعت من الطعام مذ انتهبت الدار إلى يومى هذا . وروى عن على رضى الله عنه ، أنه كان له سويق فى إناء مختوم يشرب منه ، فقيل أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه ؟ فقال أما إنى لا أختمه بخلاً به ، ولكن أكره أن يجعل فيه ما ليس منه ، وأكره أن يدخل بطنى غير طيب . فهذا هو المألوف منهم . وكان ابن عمر لايعجبه شىء إلا خرج عنه . فَطُلِبَ مِنْهُ نافعٌ بثلاثين ألفا ، فقال إنى أخاف أن تفتننى دراهم ابن عامر ، وكان هو الطالب ، اذهب فأنت حر . وقال أبو سعيد الخدرى ، ما منا أحد إلا وقد مالت به الدنيـــا ، إلا ابن عمر .

فهذا يتضح أنه لايظن به وبمن كان فى منصبه أنه أخذ ما لايدرى أنه حلال

الدرجة الثالثة . أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء ، أو يفرقه على المستحقين ، فإن مالايتعين مالكه ، هذا حكم الشرع فيه . فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه ، واستعان به على ظلم ، فقد نقول أخذه منه وتفرقته أولى من تركه فى يده . وهذا قد رآه بعض العلماء . وسيأتى وجهه . وعلى هذا ينزل ما أخذه أكثرهم . ولذلك قال ابن المبارك ، إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة ، مايقتدون بهما ، لأن ابن عمر فرق ما أخذ ، حتى استقرض فى مجلسه ، بعد تفرقته ستين ألفا . وعائشة فعلت مثل ذلك . وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به ، وقال رأيت أن آخذه منهم وأتصدق ، أحب إلىّ من أن أدعها فى أيديهم . وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بما قبله من هرون الرشيد فإنه فرقه على قرب ، حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة

الدرجة الرابعة : أن لايتحقق أنه حلال ، ولا يفرق ، بل يستبقى . ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال . وهكذا كان الخلفاء فى زمان الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، بعد الخلفاء الراشدين ، ولم يكن أكثر مالهم حراماً . ويدل عليه تعليل على رضى الله عنه ، حيث قال

(١) حديث لايقبل الله صلاة بغير طهور ولاصدقة من غلول : مسلم من حديث ابن عمر

فإن ما يأخذه من الحلال أكثر. فهذا مما قد جوزه جماعة من العلماء، تعويلا على الأكثر. ونحن إنما توقفنا فيه في حق آحاد الناس. ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر فلا يبعد أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى جواز أخذ ما لم يعلم أنه حرام، اعتمادا على الأغلب. وإنما منعنا إذا كان الأكثر حراما

فإذا فهمت هذه الدرجات، تحققت أن إدرارات الظلمة في زماننا لاتجرى مجرى ذلك وأنها تفارقه من وجهين قاطعين.

أحدهما: أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا. والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة، ولا وجود لها. وليس يدخل منها شيء في يد السلطان. ولم يبق إلا الجزية، وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لايحل أخذها به، فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه، والوفاء له بالشرط، ثم إذا نسبت ذلك إلى ماينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين، ومن المصادرات، والرشا، وصنوف الظلم، لم يبلغ عشر معشار عشيره

والوجه الثاني: أن الظلمة في العصر الأول، لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين، كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به. وكانوا يأخذون منهم ويفرقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشون مجالسهم، ولا يكثرون جمعهم، ولايحبون بقاءهم، بل يدعون عليهم، ويطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم. فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم، ولم يكن بأخذهم بأس. فأما الآن، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم، والتكثر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء، والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم. فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا، وبالتردد في الخدمة ثانيا، وبالثناء والدعاء ثالثا، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسا، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوي أعماله سابعا، لم ينعم عليه بدرهم واحد، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلا

فإذاً لايجوز أن يؤخذ منهم فى هذا الزمان مايعلم أنه حلال ، لإفضائه إلى هذه المعانى . فكيف مايعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فمن استجرأ على أموالهم ، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة بالحدادين . ففى أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم ، وخدمة عمالهم ، واحتمال الذل منهم ، والثناء عليهم ، والتردد إلى أبوابهم وكل ذلك معصية على ماسنبين فى الباب الذى يلى هذا . فإذاً قد تبين مما تقدم مداخل أموالهم ، وما يحل منها ومالا يحل . فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها مايحل بقدر استحقاقه وهو جالس فى بيته يساق إليه لايحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته ، ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم، ولا إلى مساعدتهم. فلا يحرم الأخذ ولكن يكره لمعان سننبه عليها فى الباب الذى يلى هذا

النظر الثانى

من هذا الباب فى قدر المأخوذ وصفة الآخذ

ولنفرض المال من أموال المصالح ، كأربعة أخماس الفيء ، والمواريث ، فإن ما عداه مما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة ، أو خمس فيء أو خمس غنيمة ، وما كان من ملك السلطان مما أحياه أو اشتراه ، فله أن يعطى ماشاء لمن شاء . وإنما النظر فى الأموال الضائعة ومال المصالح . فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة ، أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب . فأما الغنى الذى لا مصلحة فيه ، فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه . هذا هو الصحيح : وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه . وفى كلام عمر رضى الله عنه مايدل على أن لكل مسلم حقا فى بيت المال ، لكونه مسلما مكثرا جمع الإسلام . ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة ، بل على مخصوصين بصفات فإذا ثبت هذا ، فكل من يتولى أمرا يقوم به ، تتعدى مصلحته إلى المسلمين ، ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ماهو فيه ، فله فى بيت المال حق الكفاية . ويدخل فيه العلماء كلهم ، أعنى العلوم التى تتعلق بمصالح الدين ، من علم الفقه والحديث ، والتفسير والقراءة ، حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون وطلبة هذه العلوم أيضا يدخلون فيه ، فإنهم إن لم يُكفَوا لم يتمكنوا من الطلب . ويدخل فيه العمال ، وهم الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم ، وهم الأجناد المرتزقة ، الذين يحرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغى وأعداء الإسلام . ويدخل فيه الكتاب

والحساب والوكلاء ، وكل من يحتاج إليه فى ترتيب ديوان الخراج ، أعنى العمال على الأموال الحلال لا على الحرام ، فإن هذا المال للمصالح ، والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا . فبالعلماء حراسة الدين . وبالأجناد حراسة الدنيا . والدين والملك توأمان ، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر دينى ، ولكن يرتبط به صحة الجسد ، والدين يتبعه ، فيجوز أن يكون له ولمن يجرى مجراه فى العلوم المحتاج إليها فى مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد ، إدرار من هذه الأموال ، ليتفرغوا لمعالجة المسلمين أعنى من يعالج منهم بغير أجرة . وليس يشترط فى هؤلاء الحاجة ، بل يجوز أن يعطوا مع الغنى . فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة . وليس يتقدر أيضا بمقدار ، بل هو إلى اجتهاد الإمام . وله أن يوسع ويغنى ، وله أن يقتصر على الكفاية على مايقتضيه الحال وسعة المال . فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية فى دفعة واحدة أربعمائة ألف درهم . وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى لجماعة اثنى عشر ألف درهم نقرة فى السنة . وأثبتت عائشة رضى الله عنها فى هذه الجريدة ، ولجماعة عشرة آلاف ولجماعة ستة آلاف ، وهكذا . فهذا مال هؤلاء ، فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شىء . فإن خص واحدا منهم بمال كثير فلا بأس . وكذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوى الخصائص بالخلع والجوائز . فقد كان يفعل ذلك فى السلف . ولكن ينبغى أن يلتفت فيه إلى المصلحة ومهما خص عالم أو شجاع بصلة ، كان فيه بعث للناس ، وتحريض على الاشتغال والتشبه به

فهذه فائدة الخلع والصلات ، وضروب التخصيصات . وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان وإنما النظر فى السلاطين الظلمة فى شيئين :

أحدهما : أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته . وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذه من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان ؟

والثانى : أنه ليس يعمم بماله جميع المستحقين . فكيف يجوز للآحاد أن يأخذوا ؟ أفيجوز لهم الأخذ بقدر حصصهم ؟ أم لا يجوز أصلا ؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى ؟

أما الأول ، فالذى نراه أنه لا يمنع أخذ الحق . لأن السلطان الظالم الجاهل ، مهما ساعدته الشوكة ، وعسر خلعه ، وكان فى الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق ، وجب تركه ، ووجبت

الطاعة له، كما تجب طاعة الأمراء. إذ قد ورد فى الأمر بطاعة الأمراء، [1] والمنع من سل اليد [2] عن مساعدتهم، أوامر وزواجر. فالذى نراه أن الخلافة منعقدة للمتكفل بها من بنى العباس رضى الله عنه، وأن الولاية نافذة للسلاطين فى أقطار البلاد، والمبايعين للخليفة وقد ذكرنا فى كتاب المستظهرى، المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار تأليف القاضى أبى الطيب، فى الرد على أصناف الروافض من الباطنية، مايشير إلى وجه المصلحة فيه. والقول الوجيز أنا نراعى الصفات والشروط فى السلاطين، تشوفا إلى مزايا المصالح. ولو قضينا ببطلان الولايات الآن، لبطلت المصالح رأسا. فكيف يفوت رأس المال فى طلب الربح! بل الولاية الآن لاتتبع إلا الشوكة. فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة. ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة فى أصل الخطبة والسكة، فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء فى أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام. وتحقيق هذا قد ذكرناه فى أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد. فلسنا نطول الآن به

وأما الإشكال الآخر، وهو أن السلطان إذا لم يعمم بالعطاء كل مستحق، فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه؟ فهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب. فغلا بعضهم وقال، كل مايأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء، ولايدرى أن حصته منه دانق أو حبة، فليترك الكل. وقال قوم: له أن يأخذه قدر قوت يومه فقط، فإن هذا القدر يستحقه لحاجته على المسلمين. وقال قوم: له قوت سنة، فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير، وهو ذو حق فى هذا المال، فكيف يتركه؟ وقال قوم: إنه يأخذ مايعطى، والمظلوم هم الباقون. وهذا هو القياس. لأن المال ليس مشتركا بين المسلمين، كالغنيمة بين الغانمين، ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكا لهم، وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء، لم يجب التوزيع على ورثتهم

---

(١) حديث الامر بطاعة الامراء: البخارى من حديث أنس اسمعوا واطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة: ولمسلم من حديث أبى هريرة عليك بالطاعة فى منشطك ومكرهك الحديث: وله من حديث أبى ذر أوصانى النبى صلى الله عليه وسلم أن اسمع وأطيع ولو لعبد مجدع الاطراف

(٢) حديث المنع من سل اليد عن مساعدتهم: الشيخان من حديث ابن عباس ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الامات ميتة جاهلية ولمسلم من حديث أبى هريرة من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية وله من حديث ابن عمر من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له

بحكم الميراث . بل هـذا الحق غير متعين . وإنما يتعين بالقبض . بل هو كالصدقات ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكا لهم . ولم يمتنع بظلم المالك بقية الأصناف ، بمنع حقهم هذا إذا لم يصرف إليه كل المال ، بل صرف إليه من المال ماوصرف إليه بطريق الإيثار والتفضيل مع تعميم الآخرين لجاز له أن يأخـذه ، والتفضيل جائز فى العطاء . سوّى أبو بكر رضى الله عنه ، فراجعه عمر رضى الله عنه ، فقال إنما فضلهم عند الله ، وإنما الدنيا بلاغ . وفضل عمر رضى الله عنه فى زمانه ، فأعطى عائشة اثنى عشر ألفا وزينب عشرة آلاف ، وجويرية ستة آلاف ، وكذا صفية . وأقطع عمر لعلى خاصة رضى الله عنهما ، وأقطع عثمان أيضا من السواد خمس جنات ! وآثر عثمان عليا رضى الله عنهما بها ، فقبل ذلك منه ، ولم ينكر . وكل ذلك جائز فى محل الاجتهاد وهو من المجتهدات التى أقول فيها إن كل مجتهد مصيب . وهى كل مسألة لانص على عينها ، ولا على مسألة تقرب منها،فتكون فى معناها بقياس جلىّ ، كهذه المسألة ومسألة حد الشرب ،فإنهم جلدوا اربعين وثمانين ، والكل سنة وحق . وأن كل واحد من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضى الله عنهم . إذ المفضول ما ردّ فى زمان عمر شيئاً إلى الفاضل ، مما قد كان أخذه فى زمان ابى بكر ، ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل فى زمان عمر . واشترك فى ذلك كل الصحابة ، واعتقـدوا أن كل واحد من الرأيين حق . فليؤخذ هـذا الجنس دستورا للاختلافات التى يصوّب فيها كل مجتهد فأما كل مسألة شذ عن مجتهد فيها نص أو قياس جلىّ ، بغفلة أو سوء رأى ، وكان فى القوة بحيث ينقض به حكم المجتهد ، فلا نقول فيها إن كل واحد مصيب ،بل المصيب من أصاب النص أو ما فى معنى النص

وقد تحصل من مجموع هـذا أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا ، وأخذ من السلطان خلعـة أو إدرارا على التركات أو الجزية لم يصر فاسقا بمجرد أخذه ، وإنما يفسق بخدمته لهم ومعاونته إياهم ، ودخوله عليهم وثنائه وإطرائه لهم ، إلى غير ذلك من لوازم لايسلم المال غالبا إلا بها كما سنبينه .

الباب السادس

فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ويحرم
وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم

اعلم أن لك مع الأمراء والعمال والظلمة ثلاثة أحوال، الحالة الأولى، وهي شرها أن تدخل عليهم، والثانية: وهي دونها أن يدخلوا عليك والثالثة وهي الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك

أما الحالة الأولى : وهي الدخول عليهم فهو مذموم جداً في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار فننقلها لتعرف ذم الشرع له ثم نتعرض لما يحرم منه، وما يباح، وما يكره، على ماتقتضيه الفتوى في ظاهر العلم

أما الأخبار: فإنه لما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة قال[1] «فَمَنْ نَابَذَهُمْ نَجَا وَمَنِ اعْتَزَلَهُمْ سَلِمَ أَوْ كَادَ أَنْ يَسْلَمَ وَمَنْ وَقَعَ مَعَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ فَهُوَ مِنْهُمْ» وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إثمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه المنابذة والمنازعة وقال صلى الله عليه وسلم[2] «سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدْ عَلَى الْحَوْضِ» وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم[3] «أَبْغَضُ الْقُرَّاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الَّذِينَ يَزُورُونَ الْأُمَرَاءَ» وفي الخبر «خَيْرُ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْعُلَمَاءَ وَشَرُّ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْأُمَرَاءَ» وفي الخبر[4] «الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللهِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَاعْتَزِلُوهُمْ» رواه أنس رضي الله عنه

وأما الآثار. فقد قال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن قيل وماهي ؟ قال: أبواب الأمراء

(الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين)

(١) حديث فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم: الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال ومن خالطهم هلك

(٢) حديث سيكون بعدي إمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الحوض: النسائي والترمذي وصححه والحاكم من حديث كعب بن عجرة

(٣) حديث أبي هريرة أبغض القراء الى الله عز وجل الذين يأتون الامراء : تقدم في العلم

(٤) حديث أنس العلماء امناء الرسل على عباد الله مالم يخالطوا السلطان ـ الحديث: العقيلي في الضعفاء وفي ترجمة حفص الابري وقال حديثه غير محفوظ تقدم في العلم

يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ماليس فيه، وقال أبو ذر لسلمة: ياسلمة لاتغش أبواب السلاطين فإنك لاتصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه وقال سفيان: في جهنم واد لايسكنه إلا القراء الزوارون للملوك، وقال الأوزاعي: مامن شيء أبغض عند الله من عالم يزور عاملا، وقال سمنون ماأسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال عند الأمير، وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك، إذمادخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ماأواجههم به من الغلظة والمخالفة لهواهم

وقال عبادة بن الصامت: حب القارىء الناسك الأمراء نفاق، وحبه الأغنياء رياء. وقال أبوذر: من كثر سواد قوم فهو منهم. أي من كثر سواد الظلمة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولادين له، قيل له ولم؟ قال لأنه يرضيه بسخط الله. واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلا، فقيل كان عاملا للحجاج فعزله. فقال الرجل إنما عملت له على شيء يسير، فقال له عمر: حسبك بصحبته يوما أو بعض يوم شؤما وشرا. وقال الفضيل مازداد رجل من ذي سلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا، وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول: إن في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين وقال وهيب: هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمة من المقامرين، وقال محمد بن سلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء.

ولما خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه، عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخا كبيرا قد أثقلتك نعم الله، لما فهمك من كتابه، وعلمك من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى (لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ[1]) واعلم أن أيسر ماارتكبت وأخف مااحتملت، أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل البغي بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك. إتخذوك قطبا تدور عليك رحى ظلمهم

(١) آل عمران: ١٨٧

وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم ، وسلما يصعدون فيه إلى ضلالتهم . ويدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء . فما أيسر ماعمروا لك في جنب ماخربوا عليك ، وما أكثر ماأخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك . فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ[٢]) الآية ، وأنك تعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداو دينك فقد دخله سقم ، وهيء زادك فقد حضر سفر بعيد (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ[١]) والسلام

فهذه الأخبار والآثار تدل على مافي مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد . ولكن نفصل ذلك تفصيلا فقهيا ، نميز فيه المحظور عن المكروه والمباح ، فنقول

الداخل على السلطان متعرض لأن يعصى الله تعالى ، إما بفعله أو بسكوته ، وإما بقوله وإما باعتقاده . فلا ينفك عن أحد هذه الأمور

أما الفعل فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة ، وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام . ولا يغرنك قول القائل ، إن ذلك مما يتسامح به الناس كتمرة أو فتات خبز ، فإن ذلك صحيح في غير المغصوب . أما المغصوب فلا ، لأنه إن قيل إن كل جلسة خفيفة لاتنقص الملك فهي في محل التسامح ، وكذلك الاجتياز ، فيجري هذا في كل واحد ، فيجري أيضا في المجموع ، والغصب إنما تم بفعل الجميع . وإنما يتسامح به إذا انفرد . إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه . فأما إذا كان ذلك طريقا إلى الاستغراق بالاشتراك ، فحكم التحريم ينسحب على الكل . فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقا ، إعتمادا على أن كل واحد من المارين إنما يخطو خطوة لاتنقص الملك ، لأن المجموع مفوت للملك . وهو كضربة خفيفة في التعليم تباح ، ولكن بشرط الانفراد ، فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل ، وجب القصاص على الجميع . مع أن كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لاتوجب قصاصا . فإن فرض كون الظالم في موضع غير مغصوب كالموات مثلا ، فإن كان تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام . والدخول إليه غير جائز . لأنه انتفاع بالحرام واستظلال به . فإن فرض كل ذلك حلالا ، فلا يعصي بالدخول من حيث إنه دخول

(١) مريم : ٥٩ (٢) إبراهيم : ٣٨

ولا بقوله السلام عليكم . ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قائما فى سلامه وخدمته كان مكرما للظالم بسبب ولايته التى هى آلة ظلمه . والتواضع للظالم معصية . بل من تواضع لغنى ليس بظالم لأجل غناه لالمعنى آخر اقتضى التواضع ، نقص ثلثا دينه . فكيف إذا تواضع للظالم ! فلا يباح إلا مجرد الإسلام فأما تقبيل اليد والانحناء فى الخدمة فهو معصية ، إلا عند الخوف ، أو لإمام عادل ، أو لعالم ، أو لمن يستحق ذلك بأمر دينى. قبّل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، يد على كرم الله وجهه ، لما أن لقيه بالشام ، فلم ينكر عليه. وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم فى السلام ، والإعراض عنهم استحقارا لهم . وعد ذلك من محاسن القربات . فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر ، لأن ذلك واجب، فلا ينبغى أن يسقط بالظلم فإن ترك الداخل جميع ذلك ، واقتصر على السلام ، فلا يخلو من الجلوس على بساطهم . وإذا كان أغلب أموالهم حراما فلا يجوز الجلوس على فرشهم . هذا من حيث الفعل

فأما السكوت : فهو أنه سيرى فى مجالسهم من الفرش الحرير وأوانى الفضة ، والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ماهو حرام . وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك فى تلك السيئة . بل يسمع من كلامهم ماهو فحش وكذب وشتم وإيذاء ، والسكوت على جميع ذلك حرام . بل براهم لابسين الثياب الحرام ، وآكلين الطعام الحرام ، وجميع مافى أيديهم حرام ، والسكوت على ذلك غير جائز . فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلسانه ، إن لم يقدر بفعله . فإن قلت: إنه يخاف على نفسه ، فهو معذور فى السكوت فهذا حق . ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب مالا يباح إلا بعذر . فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد ، لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة ، حتى يسقط عنه بالعذر . وعند هذا أقول من علم فسادا فى موضع ، وعلم أنه لايقدر على إزالته ، فلا يجوز له أن يحضر ليجرى ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت . بل ينبغى أن يحترز عن مشاهدته

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم، أو يثنى عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه ، أو باستبشار فى وجهه ، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه . والحرص على طول عمره وبقائه ، فإنه فى الغالب لايقتصر على السلام ، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام

أما الدعاء له فلا يحل ، إلا أن يقول أصلحك الله ، أو وفقك الله للخيرات ، أو طول الله عمرك في طاعته ، أو مايجرى هذا المجرى . فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما فى معناه فغير جائز . قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فِي أَرْضِهِ » فإن جاوز الدعاء الى الثناء ، فسيذكر ماليس فيه فيكون به كاذبا ومنافقا ومكرما لظالم . وهذه ثلاث معاص . وقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ اللهَ لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ » وفى خبر آخر [3] « مَنْ أَكْرَمَ فَاسِقًا فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ » فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول ، والتزكية والثناء على مايعمل ، كان عاصيا بالتصديق وبالإعانة . فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية ، وتحريك للرغبة فيه . كما أن التكذيب والمذمة والتقبيح زجر عنه ، وتضعيف لدواعيه . والإعانة على المعصية معصية ، ولو بشطر كلمة . ولقد سئل سفيان رضى الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في برية ، هل يسقي شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه حتى يموت ، فإن ذلك إعانة له . وقال غيره يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ، ثم يعرض عنه

فان جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه ، وطول بقائه ، فان كان كاذبا عصى معصية الكذب والنفاق . وإن كان صادقا عصى بحبه بقاء الظالم ، وحقه أن يبغضه فى الله ويمقته فالبغض فى الله واجب ، ومحب المعصية والراضى بها عاص . ومن أحب ظالما فان أحبه لظلمه فهو عاص لمحبته ، وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه ، وكان الواجب عليه أن يبغضه . وإن اجتمع فى شخص خير وشر ، وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر . وسيأتى فى كتاب الأخوة والمتحابين فى الله وجه الجمع بين البغض والحب

فان سلم من ذلك كله ، وهيهات ، فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فانه ينظر إلى توسعه فى النعمة ويزدرى نعم الله عليه ، ويكون مقتحما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [4] « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ لَا تَدْخُلُوا عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهَا مَسْخَطَةٌ لِلرِّزْقِ » وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به

---

(١) حديث من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله فى أرضه : تقدم

(٢) حديث ان الله ليغضب اذا مدح الفاسق : تقدم

(٣) حديث من أكرم فاسقا فقد اعان على هدم الاسلام : تقدم أيضا

(٤) حديث يامعشر المهاجرين لاتدخلوا على أهل الدنيا فانها مسخطة للرزق : الحاكم من حديث عبدالله ابن الشخير أقلوا الدخول على الأغنياء فانه أجدر أن لا تزدروا نعم الله عز وجل وقال صحيح الاسناد

فى الدخول ، ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه ، وتجميله إياهم إن كان ممن يتجمل به. وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات [1] دعى سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك بن مروان ، فقال لاأبايع اثنين مااختلف الليل والنهار، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين . فقال ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر . فقال لا والله لايقتدى بى أحد من الناس . فجلد مائة ، وألبس المسوح

ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين : أحدهما :أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام ، وعلم أنه لو امتنع أوذى أو فسد عليهم طاعة الرعية، واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة ، لاطاعة لهم، بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لاتضطرب الولاية

والثانى: أن يدخل عليهم فى دفع ظلم عن مسلم سواه ، أو عن نفسه ، إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم . فذلك رخصة ، بشرط أن لا يكذب ولا يثنى ، ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولا . فهذا حكم الدخول

الحالة الثانية : أن يدخل عليك السلطان الظالم زائرا فجواب السلام لابد منه. وأما القيام والإكرام له فلا يحرم مقابلة له على إكرامه . فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للاحماد كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد ، فالاكرام بالاكرام ، والجواب بالسلام . ولكن الأولى أن لايقوم إن كان معه فى خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم ، ويظهر به غضبه للدين ، وإعراضه عمن أعرض عن الله فأعرض الله تعالى عنه . وإن كان الداخل عليه فى جمع ، فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم ، فلا بأس بالقيام على هذه النية وإن علم أن ذلك لايورث فسادا فى الرعية ، ولا يناله أذى من غضبه ، فترك الاكرام بالقيام أولى . ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه . فإن كان يقارف مالايعرف تحريمه. وهو يتوقع أن يتركه إذا عرف ، فليعرفه . فذلك واجب . وأما ذكر تحريم مايعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه . بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصى ، مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه . وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقا على وفق الشرع

---

(١) حديث دعى ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابنى عبد الملك فقال لاأبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين: أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح من رواية يحى بن سعيد

بحيث يحصل بها غرض الظالم من غير معصية ، ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم . فإذاً يجب عليه التعريف فى محل جهله ، والتخويف فيما هو مستجرىء عليه، والارشاد إلى ماهو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم . فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أثرا وذلك أيضا لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر

وعن محمد بن صالح قال : كنت عند حماد بن سلمة ، وإذا ليس فى البيت إلا حصير، وهو جالس عليه ، ومصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علمه ، ومطهرة يتوضأ منها ، فبينا أنا عنده إذ دق داق الباب ، فاذا هو محمد بن سليمان ، فأذن له ، فدخل وجلس بين يديه ، ثم قال له مالى إذا رأيتك امتلأت منك رعبا ؟ قال حماد، لأنه قال عليه السلام[1] « إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا أَرَادَ بِعِلْمِهِ وَجْهَ اللهِ هَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَكْنِزَ بِهِ الْكُنُوزَ هَابَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » ثم عرض عليه أربعين ألف درهم ، وقال : تأخذها وتستعين بها ، قال اردها على من ظلمته بها. قال والله ماأعطيتك إلا مما ورثته . قال لاحاجة لى بها . قال فتأخذها فتقسمها . قال: لعلى إن عدلت فى قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل فى قسمتها ، فيأثم ، فازوها عنى

الحالة الثالثة : أن يعتزلهم ، فلا يراهم ولا يرونه ، وهو الواجب . إذ لا سلامة إلا فيه فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ، ولايحب بقاءهم ، ولا يثنى عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم ، ولا يتأسف على مايفوت بسبب مفارقتهم ، وذلك إذا خطر بباله أمرهم . وإن غفل عنهم فهو الأحسن . وإذا خطر بباله تنعمهم ، فليذكر ما قاله حاتم الأصم : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ، فأما أمس فلا يجدون لذته ، وإنى وإياهم فى غد لعلى وجل، وإنما هو اليوم ، وما عسى أن يكون فى اليوم . وما قاله أبو الدرداء إذ قال : أهل الأموال يأكلون ونأكل ، ويشربون ونشرب ، ويلبسون ونلبس ، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها ، وعليهم حسابها ونحن منها برآء .

---

(٢) حديث حماد بن سلمة مرفوعا ان العالم إذا اراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء واذا أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء : هذا معضل وروى أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث واثلة بن الأسقع من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء وللعقيلى فى الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما منكر

وكل من أحاط علمه بظلم ظالم ومعصية عاص، فينبغي أن يحط ذلك من درجته في قلبه، فهذا واجب عليه ، لأن من صدر منه ما يكره نقص ذلك من رتبته في القلب لا محالة . والمعصية ينبغي أن تكره ، فإنه إما أن يغفل عنها ، أو يرضى بها ، أو يكره ، ولا غفلة مع العلم ، ولا وجه للرضا ، فلا بد من الكراهة . فليكن جناية كل أحد على حق الله، كجنايته على حقك

فإن قلت : الكراهة لاتدخل تحت الاختيار ، فكيف تجب ؟

قلنا: ليس كذلك. فإن المحب يكره بضرورة الطبع ماهو مكروه عند محبوبه ومخالف له . فإن من لا يكره معصية الله لا يحب الله . وإنما لا يحب الله من لا يعرفه . والمعرفة واجبة . والمحبة لله واجبة وإذا أحبه كره ما كرهه ، وأحب ما أحبه. وسيأتى تحقيق ذلك فى كتاب المحبة والرضا

فإن قلت: فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين ،

فأقول نعم تعلَّم الدخول منهم ثم ادخل. كما حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى مكة، فلما دخلها قال ائتونى برجل من الصحابة. فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا . فقال من التابعين . فأتى بطاوس اليمانى . فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ، ولكن قال، السلام عليك ياهشام، ولم يُكَنِّه ، وجلس بإزائه، وقال كيف أنت ياهشام؟ فغضب هشام غضبا شديدا حتى همّ بقتله . فقيل له أنت فى حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكن ذلك. فقال له ياطاوس، ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال وما الذى صنعت ؟ فازداد غضبا وغيظا . قال خلعت نعليك بحاشية بساطي . ولم تقبل يدي . ولم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين . ولم تكنني . وجلست بإزائى بغير اذنى وقلت كيف أنت يا هشام . قال أما مافعلت من خلع نعلى بحاشية بساطك، فإنى أخلعهما بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ، ولا يغضب عليّ . وأما قولك لم تقبل يدى فإنى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : لايحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة ، أو ولده من رحمة . وأما قولك لم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب . وأما قولك لم تكننى ، فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأولياءه ، فقال ياداود ، يايحيى ، ياعيسى ، وكنى أعداءه ، فقال تبت يدا أبى لهب . وأما قولك جلست بإزائى ، فانى سمعت أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار ، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال له هشام عظني.

فقال سمعت من أمير المؤمنين على رضى الله عنه يقول : إن في جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته . ثم قام وهرب

وعن سفيان الثورى رضى الله عنه قال : أدخلت على أبى جعفر المنصور بمنى ، فقال لى ارفع إلينا حاجتك ، فقلت له اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا . قال فطأطأ رأسه ثم رفعه ، فقال ارفع إلينا حاجتك ،فقلت إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا ،فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم فطأطأ رأسه ثم رفعه ، فقال ارفع إلينا حاجتك ، فقلت حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال لخازنه كم أنفقت؟ قال بضعة عشر درهما ، وأرى ههنا أموالا لا تطيق الجمال حملها . وخرج . فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا ألزموا ، وكانوا يغررون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم

ودخل ابن أبى شميلة على عبد الملك بن مروان ، فقال له تكلم . فقال له إن الناس لا ينجون فى القيامة من غصصها ومراراتها ، ومعاينة الردى فيها ، إلا من أرضى الله بسخط نفسه . فبكى عبد الملك وقال : لأجعلنّ هذه الكلمة مثالا نصب عيني ماعشت

ولما استعمل عثمان بن عفان رضى الله عنه عبد الله بن عامر ، أتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبطأ عنه أبو ذر ، وكان له صديقا ، فعاتبه ، فقال أبو ذر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يقول « إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا وَلِيَ وِلَايَةً تَبَاعَدَ اللهُ عَنْهُ »

ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة ، فقال أيها الأمير ، قرأت فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول : ما أحمق من سلطان ، وما أجهل ممن عصانى ، ومن أعز ممن اعتز بى أيها الراعى السوء ، دفعت إليك غنما سمانا صحاحا ، فأكلت اللحم ، ولبست الصوف وتركتها عظاما تتقعقع . فقال له والى البصرة ، أتدرى ما الذى يجرئك علينا ويجنبنا عنك؟ قال لا ، قال قلة الطمع فينا ، وترك الإمساك لما فى أيدينا

وكان عمر بن عبد العزيز واقفا مع سليمان بن عبد الملك، فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدمة الرجل. فقال له عمر ،هذا صوت رحمته، فكيف إذا سمعت صوت عذابه ؟

---

(١) حديث ابى ذر ان الرجل اذا ولى ولاية تباعد الله عز وجل منه : لم أقف له على أصل

ثم نظر سليمان إلى الناس ، فقال ما أكثر الناس ! فقال عمر : خصماؤك ياأمير المؤمنين . فقال له سليمان :ابتلاك الله بهم

وحكى أن سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد مكة ، فأرسل إلى أبي حازم فدعاه فلما دخل عليه قال له سليمان : يا أبا حازم ، مالنا نكره الموت ؟ فقال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . فقال : يا أبا حازم ، كيف القدوم على الله ؟قال :ياأمير المؤمنين ، أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله . وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعري مالي عند الله ؟ قال أبو حازم اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ »[1] قال سليمان : فأين رحمة الله؟قال قريب من المحسنين . ثم قال سليمان : يا أبا حازم أي عباد الله أكرم ؟ قال أهل البر والتقوى . قال فأي الأعمال أفضل ؟ قال أداء الفرائض مع اجتناب المحارم. قال: فأي الكلام أسمع ؟ قال :قول الحق عند من تخاف وترجو . قال فأي المؤمنين أكيس ؟ قال:رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها.قال:فأي المؤمنين أخسر؟ قال:رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال سليمان :ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال أو تعفيني ؟ قال لابد فإنها نصيحة تلقيها الىّ . قال ياأمير المؤمنين ، إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة ، من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقد ارتحلوا ، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم ! فقال له رجل من جلسائه : بئسما قلت . قال أبو حازم : إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .قال: وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال أن تأخذه من حله فتضعه في حقه . فقال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟ فقال:من يطلب الجنة ويخاف من النار فقال سليمان:ادع لي ، فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيري الدنيا والآخرة وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى . فقال سليمان :أوصني . فقال :أوصيك وأوجز ، عظم ربك ، ونزهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . وقال عمر بن عبد العزيز لأبي حازم : عظني ، فقال : اضطجع ، ثم اجعل الموت عند رأسك ، ثم انظر

(١) الانفطار : ١٣ ، ١٤

إلى ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة ، فخذ به الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن . فلعل تلك الساعة قريبة .

ودخل أعرابى على سليمان بن عبد الملك ، فقال تكلم يا أعرابى ، فقال يا أمير المؤمنين إنى مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته . فقال يا أعرابى ، إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه ؟ فقال الأعرابى: يا أمير المؤمنين ، إنه قد تكنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم . خافوك فى الله تعالى ولم يخافوا الله فيك . حرب الآخرة سلم الدنيا . فلا تأتمنهم على ما ائتمنك الله تعالى عليه ، فإنهم لم يألوا فى الأمانة تضييعا ، وفى الأمة خسفا وعسفا . وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا بمسؤلين عما اجترحت . فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره . فقال له سليمان: يا اعرابى ، أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع سيفيك، قال. أجل يا أمير المؤمنين ، ولكن لك لا عليك

وحكي أن أبا بكرة دخل على معاوية ، فقال اتق الله يا معاوية ، واعلم أنك فى كل يوم يخرج عنك ، وفى كل ليلة تأتى عليك ، لا تزداد من الدنيا إلا بعدا ، ومن الآخرة إلا قربا وعلى أثرك طالب لا تفوته . وقد نصب لك علما لا تجوزه . فما أسرع ما تبلغ العلم ، وما أوشك ما يلحق بك الطالب . وإنا وما نحن فيه زائل . وفى الذى نحن إليه صائرون باق إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

فهكذى كان دخول أهل العلم على السلاطين ، أعنى علماء الآخرة . فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم ، فيدلونهم على الرخص ، ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم . وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه فى معرض الوعظ ، لم يكن قصدهم الإصلاح ، بل اكتساب الجاه والقبول عندهم . وفى هذا غروران يغتر بهما الحمق

أحدهما: أن يظهر أن قصدى فى الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ ، وربما يلبسون على أنفسهم بذلك . وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم . وعلامة الصدق فى طلب الإصلاح أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ، ممن هو من أقرانه فى العلم، ووقع

موقع القبول، وظهر أثر الصلاح ، فينبغي أن يفرح به ، ويشكر الله تعالى على كفايته هذا المهم كمن وجب عليه أن يعالج مريضا ضائعا ، فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه فإن كان يصادف في قلبه ترجيحا لكلامه على كلام غيره فهو مغرور

الثاني : أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة . وهذا أيضا مظنة الغرور ومعياره ماتقدم ذكره

وإذ ظهر طريق الدخول عليهم ، فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل

مسألة :

إذا بعث إليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء ، فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه وإن لم يكن ، بل كان حكمه أنه يجب التصدق به على المساكين كما سبق ، فلك أن تأخذه وتتولى التفرقة ، ولا تعصى بأخذه . ولكن من العلماء من امتنع عنه . فعند هذا ينظر في الأولى فنقول:الأولى أن تأخذه ان أمنت ثلاث غوائل

الغائلة الأولى: أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب . ولولا أنه طيب لما كنت تمد يدك إليه ، ولا تدخله في ضمانك . فإن كان كذلك فلا تأخذه،فإن ذلك محذور. ولا يفي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجراءة على كسب الحرام

الغائلة الثانية:أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال،فيعتقدون أنه حلال ،فيقتدون بك في الأخذ ، ويستدلون به على جوازه ، ثم لايفرقون . فهذا أعظم من الأول . فإن جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضي الله عنه على جواز الأخذ ، ويغفلون عن تفرقته وأخذه على نية التفرقة . فالمقتدى والمتشبه به ينبغي أن يحترز عن هذا غاية الاحتراز ، فإنه يكون فعله سبب ضلال خلق كثير

وقد حكى وهب بن منبه ، أن رجلا أتى به إلى ملك بمشهد من الناس ليكرهه على أكل لحم الخنزير ، فلم يأكل . فقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف ، فلم يأكل . فقيل له في ذلك ، فقال إن الناس قد اعتقدوا أني طولبت بأكل لحم الخنزير ، فإذا خرجت سالما وقد أكلت ، فلا يعلمون ماذا أكلت ، فيضلون

ودخل وهب بن منبه ، وطاوس ، على محمد بن يوسف أخى الحجاج ،وكان عاملا. وكان فى غداة باردة فى مجلس بارز . فقال لغلامه ، هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبى عبد الرحمن أى طاوس ، وكان قد قعد على كرسى . فألقى عليه ، فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه . فغضب محمد بن يوسف . فقال وهب : كنت غنيا عن أن تغضبه لو أخذت الطيلسان وتصدقت به. قال نعم ،لولا أن يقول من بعدى إنه أخذه طاوس ولا يصنع به ما أصنع به إذن لفعلت

الغائلة الثالثة:أن يتحرك قلبك إلى حبه،لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أنفذه إليك .فإن كان كذلك فلا تقبل . فإن ذلك هو السم القاتل ، والداء الدفين ، أعنى مايحبب الظلمة إليك . فإن مَنْ أحببته لابد أن تحرص عليه ، وتداهن فيه . قالت عائشة رضى الله عنها جبلت النفوس على حب من أحسن إليها . وقال عليه السلام [1] « اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِي يَدًا فَيُحِبُّهُ قَلْبِي » بيَّن صلى الله عليه وسلم أن القلب لايكاد يمتنع من ذلك

وروى أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم ، فأخرجها كلها فأتاه محمد بن واسع ، فقال ماصنعت بما أعطاك هذا المخلوق ؟ قال سل أصحابي . فقالوا أخرجه كله . فقال أنشدك الله، أقلبك أشد حباله الآن أم قبل أن أرسل إليك ؟ قال لا بل الآن . قال إنما كنت أخاف هذا . وقد صدق . فإنه إذا أحبه أحب بقاءه ، وكره عزله ونكبته وموته وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله . وكل ذلك حب لأسباب الظلم ، وهو مذموم . قال سلمان وابن مسعود رضى الله عنهما ، من رضى بأمر ، وإن غاب عنه ، كان كمن شهده . قال تعالى (وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) قيل لاترضوا بأعمالهم ، فان كنت فى القوة بحيث لاتزداد حبالهم بذلك ، فلا بأس بالأخذ

وقد حكى عن بعض عباد البصرة أنه كان يأخذ أموالا ويفرقها ، فقيل له ألا تخاف أن تحبهم ؟ فقال لو أخذ رجل بيدى وأدخلنى الجنة ، ثم عصى ربه ، ماأحبه قلبي ، لأن الذي سخره للأخذ بيدى ، هو الذى أبغضه لأجله شكرا له على تسخيره إياه

---

(١) حديث اللهم لا تجعل لفاجر عندى يدافيحبه قلبى:ابن مردويه فى التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وأبو موسى المدينى فى كتاب تضييع العمر والأيام من طريق أهل البيت مرسلا وأسانيده كلها ضعيفة

---

(١) هود : ١١٣

وبهذا تبين أن أخذ المال الآن منهم ، وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذوز ومذموم ، لأنه لاينفك عن هذه الغوائل

مسألة :

إن قال قائل إذا جاز أخذ ماله وتفرقته ، فهل يجوز أن يسرق ماله ؟ أو تخفى وديعته وتنكر وتفرق على الناس ؟ فنقول ذلك غير جائز . لأنه ربما يكون له مالك معين ، وهو على عزم أن يرده عليه . وليس هذا كما لو بعثه إليك ، فإن العاقل لايظن به أنه يتصدق بمال يعلم مالكه فيدل تسليمه على أنه لايعرف مالكه . فإن كان ممن يشكل عليه مثله ، فلا يجوز أن يقبل منه المال لم يعرف ذلك . ثم كيف يسرق و يحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء فى ذمته ؟ فإن اليد دلالة على الملك . فهذا لاسبيل إليه . بل لو وجد لقطة ، وظهر أن صاحبها جندى ، واحتمل أن تكون له بشراء فى الذمة أو غيره ، وجب الرد عليه . فإذاً لايجوز سرقة مالهم ، لامنهم ولا ممن أودع عنده . ولا يجوز إنكار وديعتهم . ويجب الحد على سارق مالهم ، إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكا لهم ، فعند ذلك يسقط الحد بالدعوى

مسألة :

المعاملة معهم حرام ، لأن أكثر مالهم حرام . فما يؤخذ عوضا فهو حرام . فان أدى الثمن من موضع يعلم حله ، فيبقى النظر فيما سلّم إليهم ، فان علم أنهم يعصون الله به كبيع الديباج منهم ، وهو يعلم أنهم يلبسونه ، فذلك حرام ، كبيع العنب من الخمار . وإنما الخلاف فى الصحة . وإن أمكن ذلك ، وأمكن أن يُلْبِسَها نساؤه ، فهو شبهة مكروهة . هذا فيما يعصى فى عينه من الأموال . وفى معناه بيع الفرس منهم ، لاسيما فى وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين ، أو جباية أموالهم . فان ذلك إعانة لهم بفرسه وهى محظورة . فأما بيع الدراهم والدنانير منهم ، وما يجرى مجراها مما لايعصى فى عينه ، بل يتوصل بها ، فهو مكروه لما فيه من إعانتهم على الظلم ، لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب وهذه الكراهة جارية فى الإهداء إليهم ، وفى العمل لهم من غير أجرة ، حتى فى تعليمهم وتعليم أولادهم الكتابة والترسل والحساب . وأما تعليم القرءان فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة ، فان ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله . ولو انتصب وكيلا له يشترى لهم

فى الأسواق من غير جعل أو أجرة ، فهو مكروه من حيث الإعانة .وإن اشترى لهم مايعلم أنهم يقصدون به المعصية ، كالغلام ، والديباج للفرش واللبس ، والفرس للركوب إلى الظلم والقتل ، فذلك حرام . فمهما ظهر قصد المعصية بالمبتاع حصل التحريم . ومهما لم يظهر ، واحتمل بحكم الحال ودلالتها عليه ، حصلت الكراهة.

مسألة :

الأسواق التى بنوها بالمال الحرام تحرم التجارة فيها . ولاسكناها . فان سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعى ، لم يحرم كسبه ، وكان عاصيا بسكناه.وللناس أن يشتروا منهم ولكن لو وجدوا سوقا أخرى فالأولى الشراء منها،فإن ذلك إعانة لسكناهم، وتكثير لكراء حوانيتهم . وكذلك معامله السوق التى لاخراج لهم عليها ، أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج . وقد بالغ قوم حتى تحرزوا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضى التى لهم عليها الخراج . فانهم ربما يصرفون مايأخذون إلى الخراج ، فيحصل به الإعانة ، وهذا غلوّ فى الدين ، وحرج على المسلمين. فان الخراج قد عم الأراضى،ولا غنى بالناس عن ارتفاق الأرض ولا معنى للمنع منه . ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لايطلب خراجها وذلك مما يطول ويتداعى إلى حسم باب المعاش

مسأله :

معاملة قضاتهم وعمالهم وخدمهم حرام كمعاملتهم بل أشد.أماالقضاة فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ، ويكثرون جمعهم ، ويغرون الخلق بزيهم ، فإنهم على زى العلماء ، ويختلطون بهم، ويأخذون من أموالهم . والطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بذوى الجاه والحشمة . فهم سبب انقياد الخلق إليهم.وأما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من الغصب الصريح . ولايقع فى أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ، ولا وجه حلال حتى تضعف الشبهة باختلاط الحلال بمالهم. قال طاوس : لاأشهد عندهم وإن تحققت لأنى أخاف تعديهم على من شهدت عليه

وبالجملة ، إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء . فلولا القضاة

السوء والعلماء السوء ، لقل فساد الملوك خوفا من انكارهم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « لاَ تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَحْتَ يَدِاللهِ وَكَنَفِهِ مَالَمْ تُمَالِئْ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا » وإنما ذكر القراء لأنهم كانوا هم العلماء ، وإنما كان علمهم بالقرءان ومعانيه المفهومة بالسنة . وما وراء ذلك من العلوم فهى محدثه بعدهم . وقد قال سفيان . لاتخالط السلطان ولا من يخالطه . وقال، صاحب القلم ، وصاحب الدواة ، وصاحب القرطاس وصاحب الليطة ، بعضهم شركاء بعض. وقد صدق ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] لعن فى الخمر عشرة ، حتى العاصر والمعتصر وقال ابن مسعود رضى الله عنه : [٣] آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم [٤] وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن سيرين لاتحمل للسلطان كتابا حتى تعلم مافيه . وامتنع سفيان رحمه الله من مناولة الخليفة فى زمانه دواة بين يديه ، وقال حتى أعلم ماتكتب بها . فكل من حوالبهم من خدمهم وأتباعهم ظلمة مثلهم ، يجب بغضهم فى الله جميعا . روى عن عثمان بن زائدة ، أنه سأله رجل من الجند ، وقال أين الطريق ؟ فسكت وأظهر الصمم ، وخاف أن يكون متوجها إلى ظلم فيكون هو بارشاده إلى الطريق معينا . وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق ، من التجار والحاكة والحجامين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف ، مع غلبة الكذب والفسق عليهم ، بل مع الكفار من أهل الذمة . وإنما هذا فى الظلمة خاصة الآكلين لأموال اليتامى والمساكين ، والمواظبين على إيذاء المسلمين، الذين تعاونوا على طمس رسوم

---

(١) حديث لاتزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه مالم يمالىء قراؤها أمراءها: أبو عمرو الدانى فى كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلا ورواه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث علي وابن عمر بلفظ مالم يعظم أبرارها فجارها و يداهن خيارها شرارها واسنادهما ضعيف

(٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم لعن فى الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر : الترمذى وابن ماجه من حديث أنس قال الترمذى حديث غريب

(٣) حديث ابن مسعود آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للنسائى دون قوله وشاهده ولأبى داود لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه قال الترمذى وصححه وابن ماجه وشاهديه

(٤) حديث جابر لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه قال هم سواء مسلم من حديثه وأما حديث عمر فاشار اليه الترمذى بقوله وفى الباب ولابن ماجه من حديثه ان آخر ما أنزلت آية الربا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة وهو رواية ابن المسيب عنه والجمهور على أنه لم يسمع منه.

الشريعة وشعائرها ، وهذا لأن المعصية تنقسم إلى لازمة ومتعدية . والفسق لازم لا يتعدى وكذا الكفر . وهو جناية على حق الله تعالى ، وحسابه على الله وأما معصية الولاة بالظلم وهو متعد ، فانما يغلظ أمرهم لذلك . وبقدر عموم الظلم وعموم التعدى يزدادون عندالله مقتا . فيجب أن يزداد منهم اجتنابا ، ومن معاملتهم احترازا ، فقدقال صلى الله عليه وسلم[1] « يُقَالُ لِلشُّرَطِيِّ دَعْ سَوْطَكَ وَادْخُلِ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ رِجَالٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ »

فهذا حكمهم . ومن عرف بذلك منهم فقد عرف . ومن لم يعرف فعلامته القباء وطول الشوارب ، وسائر الهيئات المشهورة . فمن رؤى على تلك الهيئة تعين اجتنابه . ولا يكون ذلك من سوء الظن ، لأنه الذى جنى على نفسه إذ تزيا بزيهم . ومساواة الزى تدل على مساواة القلب . ولا يتجانن إلا مجنون ، ولا يتشبه بالفساق إلا فاسق . نعم الفاسق قد يلتبس فيتشبه بأهل الصلاح . فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد ، لأن ذلك تكثير لسوادهم . وإنما نزل قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ[1]) فى قوم من المسلمين كانوا يكثرون جماعة المشركين بالمخالطة . وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع بن نون أنى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم ، وستين ألفا من شرارهم ، فقال ما بال الأخيار قال إنهم لا يغضبون لغضبي ، فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم . وبهذا يتبين أن بغض الظلمة والغضب لله عليهم واجب . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم[3] « أَنَّ اللَّهَ لَعَنَ عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ خَالَطُوا الظَّالِمِينَ فِي مَعَاشِهِمْ »

---

(١) حديث يقال للشرطى دع سوطك وادخل النار : أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث من أشراط الساعة رجال معهم أسياط كاذناب البقر : أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد من حديث أبي أمامة يكون فى آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر ـ الحديث ولمسلم من حديث أبي هريرة يوشك ان طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذناب البقر وفى رواية له صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر ـ الحديث

(٣) حديث ابن مسعود لعن الله علماء بنى اسرائيل اذ خالطوا فى معايشهم أبوداود والترمذى وابن ماجه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم لفظ الترمذى وقال حسن غريب

---

(١) النساء : ٩٧

مسألة :

المواضع التي بناها الظلمة، كالقناطر والرباطات، والمساجد والسقايات، ينبغي أن يحتاط فيها وينظر

أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة، والورع الاحتراز ما أمكن، وإن وجد عنه معدلا تأكد الورع. وإنما جوزنا العبور، وإن وجد معدلا، لأنه إذا لم يعرف لتلك الأعيان مالكا، كان حكمها أن ترصد للخيرات. وهذا خير. فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة، أو مقبرة أو مسجد معين، فهذا لا يحل العبور عليه أصلا، إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير. ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه

وأما المسجد، فإن بني في أرض مغصوبة أو بخشب مغصوب من مسجد آخر، أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلا، ولا للجمعة. بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام، وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المغصوبة تسقط الفرض، وتنعقد في حق الاقتداء فلذلك جوزنا للمقتدي الاقتداء بمن صلى في الأرض المغصوبة، وإن عصى صاحبه بالوقوف في الغصب. وإن كان من مال لا يعرف مالكه، فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد. فإن لم يجد غيره، فلا يترك الجمعة والجماعة به، لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناه ولو على بعد. وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين. ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم، فلا عذر لمن يصلي فيه مع اتساع المسجد، أعني في الورع. قيل لأحمد بن حنبل، ماحجتك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالعسكر؟ فقال حجتي أن الحسن وإبراهيم التيمي خافا أن يفتنهما الحجاج، وأنا أخاف أن أفتن أيضا

وأما الخلوق والتجصيص فلا يمنع من الدخول، لأنه غير منتفع به في الصلاة، وإنما هو زينة. والأولى أنه لا ينظر إليه

وأما البواري التي فرشوها، فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها، وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز افتراشها، ولكن الورع العدول عنها، فإنها محل شبهة

وأما السقاية فحكمها ماذكرناه، وليس من الورع الوضوء والشرب منها، والدخول إليها، إلا إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ. وكذا مصانع طريق مكة

وأما الرباطات والمدارس ، فإن كانت رقبة الأرض مغصوبة،أو الآجر منقولا من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه ؛ فلا رخصة للدخول فيه . وإن التبس المالك ، فقد أرصد لجهة من الخير ، والورع اجتنابه . ولـكن لا يلزم الفسق بدخوله

وهذه الأبنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشد إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح ، ولأن الحرام أغلب على أموالهم ،إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر.

مسألة :

الأرض المغصوبة إذا جعلت شارعا لم يجز أن يتخطى فيه ألبتة . وإن لم يكن له مالك معين جاز ، والورع العدول إن أمكن . فإن كان الشارع مباحا ، وفوقه ساباط ، جاز العبور وجاز الجلوس تحت الساباط على وجه لا يحتاج فيه إلى السقف ، كما يقف فى الشارع لشغل فإذا انتفع بالسقف فى دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام . لأن السقف لا يراد إلا لذلك . وهكذا حكم من يدخل مسجدا أو أرضا مباحة سُقِّف أو حُوِّط بغصب ، فإنه بمجرد التخطى لا يكون منتفعا بالحيطان والسقف ، إلا إذا كان له فائدة فى الحيطان والسقف لحر أو برد أو تستر عن بصر أو غيره ، فذلك حرام . لأنه انتفاع بالحرام . إذ لم يحرم الجلوس على الغصب لما فيه من المماسة ، بل للانتفاع . والأرض تراد للاستقرار عليها ، والسقف للاستظلال به ، فلا فرق بينهما .

الباب السابع

فى مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها فى الفتاوى

مسألة :

سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ، ويجمع طعاما ، أو نقدا ويشترى به طعاما فمن الذى يحل له أن يأكل منه ؟ وهل يختص بالصوفية أم لا ؟

فقلت :أما الصوفية فلا شبهة فى حقهم إذا أكلوه . وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ، ولـكن لا يخلو عن شبهة . أما الحل فلأن مايعطى خادم الصوفية إنما يعطى

بسبب الصوفية ، ولكن هو المعطي لاالصوفية . فهو كالرجل المعيل يعطى بسبب عياله لأنه متكفل بهم . وما يأخذه يقع ملكا له لاللعيال . وله أن يطعم غير العيال ، إذ يبعد أن يقال لم يخرج عن ملك المعطى ، ولا يتسلط الخادم على الشراء به والتصرف فيه ، لأن ذلك مصير إلى أن المعاطاة لاتكفى ، وهو ضعيف . ثم لاصائر إليه فى الصدقات والهدايا ويبعد أن يقال زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله فى الخانقاه . إذ لاخلاف أن له أن يطعم منه من يقدم بعدهم . ولو ماتوا كلهم أو واحد منهم ، لايجب صرف نصيبه إلى وارثه . ولا يمكن أن يقال إنه وقع لجهة التصوف ولا يتعين له مستحق . لأن إزالة الملك إلى الجهة لاتوجب تسليط الآحاد على التصرف . فإن الداخلين فيه لاينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة . وإنما يتصرف فيه الولاة . والخادم لايجوز له أن ينتصب نائبا عن الجهة . فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه . وإنما يطعم الصوفية بوفاءشرط التصوف والمروءة . فإن منعهم عنه ، منعوه عن أن يظهر نفسه فى معرض التكفل بهم حتى ينقطع رفقه كما ينقطع عمن مات عياله

مسألة :

سئل عن مال أوصى به للصوفية ، فمن الذى يجوز أن يصرف إليه ؟

فقلت:التصوف أمر باطن لايطلع عليه ، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته ، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف فى اطلاق اسم الصوفى . والضابط الكلى ، أن كل من هو بصفة إذا نزل فى خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكرا عندهم ، فهو داخل فى غمارهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات ، الصلاح ، والفقر ، وزي الصوفية وأن لايكون مشتغلا بحرفة ، وأن يكون مخالطا لهم بطريق المساكنة فى الخانقاه . ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم ، وبعضها ينجبر بالبعض . فالفسق يمنع هذا الاستحقاق ، لأن الصوفي بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة . فالذى يظهر فسقه ، وإن كان على زيهم ، لايستحق ماأوصي به للصوفية . ولسنا نعتبر فيه الصغائر

وأما الحرفة والاشتغال بالكسب يمنع هذا الاستحقاق ، فالدهقان ، والعامل ، والتاجر والصانع فى حانوته أو داره ، والأجير الذى يخدم بأجرة ، كل هؤلاء لا يستحقون ما أوصى

به للصوفية . ولا ينجبر هذا بالزي والمخالطة . فأما الوراقة والخياطة ومايقرب منهما ، مما يليق بالصوفية تعاطيها ، فإذا تعاطاها لا في حانوت ، ولا على جهة اكتساب وحرفة،فذلك لايمنع الاستحقاق ، وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات

وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة : لاتمنع .

وأما الوعظ والتدريس:فلا ينافي اسم التصوف ، إذا وجدت بقية الخصال من الزي والمساكنة والفقر . إذ لايتناقض أن يقال صوفي مقرىء ، وصوفي واعظ ، وصوفي عالم أو مدرس . ويتناقض أن يقال صوفي دهقان ، وصوفي تاجر ، وصوفي عامل

وأما الفقر : فإن زال بغنى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة ، فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية . وإن كان له مال ولايفي دخله بخرجه، لم يبطل حقه.وكذا إذا كان لهمال قاصر عن وجوب الزكاة ، وإن لم يكن له خرج . وهذه أمور لادليل لها إلا العادات

وأما المخالطة لهم ومساكنتهم :فلها أثر .ولكن من لا يخالطهم وهو فى داره ، أو فى مسجد على زيهم ، ومتخلق بأخلاقهم ، فهو شريك فى سهمهم . وكان ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزي . فإن لم يكن على زيهم ، ووجد فيه بقية الصفات ، فلا يستحق إلا إذا كان مساكنا لهم فى الرباط ، فينسحب عليه حكمهم بالتبعية .فالمخالطةوالزي ينوب كل واحدمنهما عن الآخر . والفقيه الذى ليس على زيهم هذا حكمه ، فإن كان خارجا لم يعدصوفيا،وإن كان ساكنا معهم ، ووجدت بقية الصفات ، لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم

وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم : فلا يشترط ذلك فى الاستحقاق وعدمه لايضره مع وجود الشرائط المذكورة . وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم .

مسألة :

ما وقف على رباط الصوفية وسكانه ، فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به لان معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم ، فلغير الصوفي أن يأكل معهم برضاهم على مائدتهم مرة أو مرتين فإن أمر الأطعمة مبناه على التسامح ، حتى جاز الانفراد بها فى الغنائم المشتركة . وللقوال أن يأكل معهم فى دعوتهم من ذلك الوقف ، وكان ذلك من مصالح معايشهم . وما أوصى

به للصوفية لايجوز ان يصرف إلى قوال الصوفية ، بخلاف الوقف . وكذلك من أحضروه من العمال والتجار والقضاة والفقهاء ، ممن لهم غرض في استمالة قلوبهم ، يحل لهم الأكل برضاهم . فإن الواقف لايقف إلا معتقدا فيه ما جرت به عادات الصوفية ،فينزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام . فلايجوز لمن ليس صوفيا أن يسكن معهم على الدوام ويأكل وإن رضوا به . إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركة غير جنسهم

وأما الفقيه:إذا كان على زيهم وأخلاقهم ، فله النزول عليهم . وكونه فقيها لاينافي كونه صوفيا . والجهل ليس بشرط فى التصوف عند من يعرف التصوف.ولايلتفت إلى خرافات بعض الحمق بقولهم إن العلم حجاب ، فإن الجهل هو الحجاب . وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة فى كتاب العلم . وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود،وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما

وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهم وأخلاقهم ، فلهم منعه من النزول عليهم . فإن رضوا بنزوله ، فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية . فكان عدم الزي تجبره المساكنة، ولكن برضا أهل الزي . وهذه أمور تشهد لها العادات ، وفيها أمور متقابلة لايخفى أطرافها فى النفي والإثبات، ومتشابه أوساطها ، فمن احترز فى مواضع الاشتباه ، فقد استبرأ لدينه كما نبهنا عليه فى أبواب الشبهات

مسألة :

سئل عن الفرق بين الرشوة والهدية ، مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا، ولايخلو عن غرض ، وقد حرمت إحداهما دون الأخرى

فقلت:باذل المال لايبذله قط إلا لغرض : ولكن الغرض إما آجل كالثواب ، وإما عاجل . والعاجل إما مال ، وإما فعل وإعانة على مقصود معين ، وإما تقرب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبته ، إما للمحبة فى عينها ، وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة :

الأول : ماغرضه الثواب فى الآخرة . وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجا أو عالما ، أو منتسبا بنسب دينى ، أو صالحا فى نفسه متدينا . فما علم الآخذ أنه يُعطاه لحاجته

لايحل له أخذة إن لم يكن محتاجا . وما علم أنه يُعطاه لشرف نسبه ، لايحل له إن علم أنه كاذب فى دعوى النسب . وما يُعطى لعلمه ، فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون فى العلم كما يعتقده المعطى . فإن كان خيل إليه كما لا فى العلم ، حتى بعثه بذلك على التقرب ، ولم يكن كاملا ، لم يحل له . وما يُعطى لدينه وصلاحه ، لايحل له أن يأخذه إن كان فاسقا فى الباطن فسقا لو علمه المعطى ما أعطاه . وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف باطنه لبقيت القلوب مائلة اليه . وإنما ستر الله الجميل ، هو الذى يحبب الخلق إلى الخلق . وكان المتورعون يوكلون فى الشراء من لايعرف أنه وكيلهم ، حتى لايتسامحوا فى المبيع ، خيفة من أن يكون ذلك أكلا بالدين فإن ذلك مخطر ، والتقى خفى ، لا كالعلم والنسب والفقر ، فينبغى أن يجتنب الأخذ بالدين ما أمكن

القسم الثانى : ما يقصد به فى العاجل غرض معين ، كالفقير يهدى إلى الغنى طمعا فى خلعته ، فهذه هبة بشرط الثواب لايخفى حكمها . وإنما تحل عند الوفاء بالثواب المطموع فيه ، وعند وجود شروط العقود .

الثالث : أن يكون المراد إعانة بفعل معين ، كالمحتاج إلى السلطان يهدى إلى وكيل السلطان وخاصته ومن له مكانة عنده . فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال . فلينظر فى ذلك العمل الذى هو الثواب ، فإن كان حراما كالسعى فى تنجيز إدرار حرام ، أو ظلم إنسان أو غيره ، حرم الأخذ . وإن كان واجبا كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه ، أو شهادة متعينة ، فيحرم عليه ما يأخذه . وهى الرشوة التى لايشك فى تحريمها . وإن كان مباحا لا واجبا ولا حراما ، وكان فيه تعب ، بحيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه ، فما يأخذه حلال مهما وفى بالغرض . وهو جار مجرى الجعالة ، كقوله أوصل هذه القصة إلى يد فلان ، أو يد السلطان ، ولك دينار ، وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل متقوم ، أو قال اقترح على فلان أن يعيننى فى غرض كذا ، أو ينعم علىّ بكذا ، وافتقر فى تنجيز غرضه إلى كلام طويل ، فذلك جعل ، كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضى ، فليس بحرام إذا كان لايسعى فى حرام وإن كان مقصوده يحصل بكلمة لاتعب فيها ، ولكن تلك الكلمة من ذى الجاه ، أو تلك الفعلة من ذى الجاه تفيد ، كقوله للبواب لاتغلق دونه باب السلطان ، أو كوضعه قصة بين يدى السلطان فقط ، فهذا حرام ، لأنه عوض من الجاه ، ولم يثبت فى الشرع جواز ذلك

بل ثبت مايدل على النهى عنه ، كما سيأتى فى هـدايا الملوك . وإذا كان لايجوز العوض عن اسقاط الشفعة ، والرد بالعيب ، ودخول الأغصان فى هواء الملك ، وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة ، فكيف يؤخذ عن الجاه ؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ، ينبه بها على دواء ينفرد بمعرفته ، كواحد ينفرد بالعلم بنبت يقلع البواسير أو غيره ، فلا يذكره إلا بعوض ، فإن عمله بالتلفظ به غير متقوم ، كحبة من سمسم ، فلا يجوز أخذ العوض عليه ، ولا على علمه ، إذ ليس ينتقل علمه إلى غيره ، وإنما يحصل لغيره مثل علمه ويبقى هو عالما به . ودون هذا الحاذق فى الصناعة كالصيقل مثلا ، الذى يزيل اعوجاج السيف أو المرآة بدقة واحدة ، لحسن معرفته بموضع الخلل ، ولحذقه بإصابته ، فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير فى قيمة السيف والمرآة ، فهذا لا أرى بأسا بأخذ الأجرة عليه ، لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل فى تعلمها ليكتسب بها ، ويخفف عن نفسه كثرة العمل

الرابع : مايقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدى إليه ، لا لغرض معين ، ولكن طلبا للاستئناس ، وتأكيدا للصحبة ، وتوددا إلى القلوب . فذلك مقصود للعقلاء ، ومندوب إليه فى الشرع . قال صلى الله عليه وسلم [1] « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » وعلى الجملة فلا يقصد الإنسان فى الغالب أيضا محبة غيره لعين المحبة ، بل لفائدة فى محبته . ولكن إذا لم تتعين تلك الفائدة ولم يتمثل فى نفسه غرض معين يبعثه فى الحال أو المآل ، سمى ذلك هدية وحل أخذها

الخامس : أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته ، لا لمحبته ولا للأنس به من حيث إنه أنس فقط ، بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض له ينحصر جنسها ، وإن لم ينحصر عينها وكان لولا جاهه وحشمته لكان لايهدى إليه . فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب ، فالأمر فيه أخف ، وأخذه مكروه ، فإن فيه مشابهة الرشوة ، ولكنها هدية فى ظاهرها . فإن كان جاهه بولاية تولاها من قضاء أو عمل ، أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية ، حتى ولاية الأوقاف مثلا ، وكان لولا تلك الولاية لكان لايهدى إليه ، فهذه رشوة عرضت فى معرض الهدية : إذ القصد بها فى الحال طلب التقرب واكتساب المحبة ، ولكن لأمر ينحصر فى جنسه ، إذ ما يمكن التوصل إليه بالولايات لايخفى . وآية أنه لا يبغى المحبة أنه لو ولى

---

(١) حديث تهادوا تحابوا: البيهقى من حديث أبى هريرة وضعفه ابن عدى

فى الحال غيره اسلم المال إلى ذلك الغير ، فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة، واختلفوا فى كونه حراما، والمعنى فيه متعارضا ، فإنه دائر بين الهدية المحضة، وبين الرشوة المبذولة فى مقابلة جاه محض فى غرض معين. وإذا تعارضت المشابهة القياسية ، وعضدت الأخبار والآثار أحدهما ، تعين الميل إليه . وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر فى ذلك .

قال صلى الله عليه وسلم (١) « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ السُّحْتُ بِالْهَدِيَّةِ وَالْقَتْلُ بِالْمَوْعِظَةِ يُقْتَلُ الْبَرِيءُ لِتُوعَظَ بِهِ الْعَامَّةُ »

وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن السحت ، فقال يقضى الرجل الحاجة ، فتهدى له الهدية ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لا تعب فيها، أو تبرع بها لا على قصد أجرة ، فلا يجوز أن يأخذ بعده شيئا فى معرض العوض

شفع مسروق شفاعة ، فأهدى إليه المشفوع له جارية ، فغضب وردها، وقال لو علمت ما فى قلبك لما تكلمت فى حاجتك ولا أتكلم فيما بقى منها

وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال سحت. وأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض الذى أخذه ولداه من بيت المال ، وقال إنما أعطيتما لمكانكما منى ، إذ علم أنهما أعطيا لأجل جاه الولاية . وأهدت امرأة أبى عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقا ، فكافأتها بجوهر ، فأخذه عمر رضي الله عنه فباعه ، وأعطاها ثمن خلوقها ، ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين . وقال جابر وأبو هريرة رضى الله عنهما. هدايا الملوك غلول. ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية ، قيل له كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقبل الهدية ! فقال كان ذلك له هدية، وهو لنا رشوة. أى كان يتقرب إليه لنبوته لا لولايته، ونحن إنما نعطى للولاية

وأعظم من ذلك كله ، ما روى أبو حميد الساعدى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) بعث واليا على صدقات الأزد ، فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض ما معه

---

(١) حديث يأتى على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة يقتل البرىء ليوعظ به العامة : لم أقف له على أصل

(٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية: البخارى من حديث عائشة

(٣) حديث أبى حميد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا على صدقات الازد فلما جاء قال هذا مالكم وهذا هدية لى ـ الحديث متفق عليه

وقال هذا لكم ، وهذا لى هدية ، فقال عليه السلام « أَلاَ جَلَسْتَ فِى بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا! » ثم قال « مَالِى أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِى هَدِيَّةٌ أَلاَ جَلَسَ فِى بَيْتِ أُمِّهِ لِيُهْدَى لَهُ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يَأْخُذُ مِنْكُمْ أَحَدٌ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَّ أَتَى اللهَ يَحْمِلُهُ فَلاَ يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ » ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قال « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ »

وإذا ثبتت هذه التشديدات، فالقاضى والوالى ينبغى أن يقدر نفسه فى بيت أمه وأبيه فما كان يعطى بعد العزل وهو في بيت أمه ، يجوز له أن يأخذه فى ولايته . وما يعلم أنه إنما يعطاه لولايته ، فحرام أخذه . وما أشكل عليه فى هدايا أصدقائه ، أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا ، فهو شبهة فليجتنبه

تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومنّه وحسن توفيقه ، والله أعلم .

كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربع العادات الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولا وامتنانا ، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا، ونزع الغل من صدورهم فظلوا فى الدنيا أصدقاء وأخدانا ، وفى الآخرة رفقاء وخلانا ، والصلاة على محمد المصطفى،وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولا وفعلا وعدلا وإحسانا

أما بعد: فإن التحاب فى الله تعالى،والأخوة فى دينه من أفضل القربات،وألطف ما يستفاد من الطاعات فى مجارى العادات . ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين فى الله تعالى،وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزغات الشيطان فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلفى ، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى . ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضيلة الألفة والأخوة فى الله تعالى ، وشروطها ودرجاتها وفوائدها

الباب الثانى : فى حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها

الباب الثالث: فى حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من قد بلي بهذه الأسباب

الباب الأول

فى فضيلة الألفة والأخوة وفى شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة

اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق ،والتفرق ثمرة سوء الخلق . فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر . ومهما كان المثمر

محمودا ، كانت الثمرة محمودة . وحسن الخلق لايخفى فى الدين فضيلته ، وهو الذى مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (١)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » وقال أسامة بن شريك قلنا يارسول الله (٢) ما خير ما أعطي الإنسان ؟ فقال « خُلُقٌ حَسَنٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) «أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ خُلُقٌ حَسَنٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَا حَسَّنَ اللهُ خَلْقَ امْرِئٍ وَخُلُقَهُ فَيُطْعِمَهُ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ » قال أبو هريرة رضي الله عنه : وما حسن الخلق يارسول الله ؟ قال « تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ »

ولايخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة ، ومهما طاب المثمر طابت الثمرة . كيف وقد ورد فى الثناء على نفس الألفة ، سيما إذا كانت الرابطة هى التقوى والدين وحب الله ؛ من الآيات والأخبار والآثار مافيه كفاية ومقنع

قال الله تعالى مظهرا عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ (٢)) وقال (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً (٣)) أى بالألفة . ثم ذم التفرقة وزجر عنها ، فقال عز من قائل (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا (٤)) إلى (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي

(١) حديث أول مايدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق : الترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الاسناد وقد تقدم
(٢) حديث أسامة بن شريك يارسول الله ماخير ماأعطي الانسان قال خلق حسن : ابن ماجه باسناد صحيح
(٣) حديث بعثت لأتمم مكارم الاخلاق : أحمد والبيهقى والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة
(٤) حديث أثقل مايوضع فى الميزان خلق حسن : أبو داود والترمذى من حديث أبي الدرداء وقال حسن صحيح
(٥) حديث ما حسن الله خلق امرىء وخلقه فيطعمه النار : ابن عدى والطبرانى فى مكارم الأخلاق وفى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أبي هريرة قال ابن عدى فى اسناده بعض النكرة
(٦) حديث ياأبى هريرة عليك بحسن الخلق قال وما حسن الخلق قال تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك : البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه
(٧) حديث إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم اخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون : الطبرانى فى مكارم الاخلاق من حديث جابر بسند ضعيف

(١) القلم : ٤ (٢) الأنفال : ٦٣ (٣)،(٤) آل عمران : ١٠٣

مَجْلِساً أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « الْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) فى الثناء على الأخوة فى الدين « مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْراً رَزَقَهُ خَلِيلاً صَالِحاً إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ إِذَا الْتَقَيَا مَثَلُ الْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى . وَمَا الْتَقَى مُؤْمِنَانِ قَطُّ إِلَّا أَفَادَ اللهُ أَحَدَهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ خَيْراً » وقال عليه السلام فى الترغيب فى الأخوة فى الله (٤) « مَنْ آخَى أَخاً فِي اللهِ رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ »

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ ، إنى أحبك فى الله ، فقال له أبشر ثم أبشر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) يقول « يُنْصَبُ لِطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ كَرَاسِيُّ حَوْلَ الْعَرْشِ

---

(١) حديث المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف: أحمد والطبرانى من حديث سهل بن سعد والحاكم من حديث أبى هريرة وصححه

(٢) حديث من أراد الله به خيرا رزقه أخا صالحا ان نسى ذكره وان ذكر أعانه: غريب بهذا اللفظ والمعروف ان ذلك فى الامير ورواه أبو داود من حديث عائشة إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق ان نسى ذكره وان ذكر اعانه ـ الحديث ضعفه ابن عدي ولأبى عبد الرحمن السلمى فى آداب الصحبة من حديث علي من سعادة المرء ان يكون اخوانه صالحين

(٣) حديث مثل الاخوين اذا التقيا مثل اليدين تغسل احداهما الأخرى الحديث : السلمى فى آداب الصحبه وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلى كذاب وهو من قول سلمان الفارسي فى الاول من الحزبيات

(٤) حديث من آخى أخا فى الله عز وجل رفعه الله درجة فى الجنة لا ينالها بشىء من عمله: ابن أبى الدنيا فى كتاب الاخوان من حديث أنس ما أحدث عبد أخا فى الله عز وجل الا أحدث الله عز وجل له درجة فى الجنة واسناده ضعيف

(٥) حديث قال أبو ادريس الخولانى لمعاذ إنى أحبك فى الله فقال أبشر ثم أبشر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تنصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ـ الحديث : أحمد والحاكم فى حديث طويل ان أبا ادريس قال قلت والله انى لاحبك فى الله قال فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المتحابين بجلال الله فى ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله قال الحاكم صحيح على شرط الشخين وهو عند الترمذى من رواية أبى مسلم الخولانى عن معاذ بلفظ المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء قال حديث حسن صحيح ولأحمد من حديث أبى مالك الاشعرى ان لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء على منازلهم وقربهم من الله الحديث .وفيه تحابوا فى الله وتصافوا به يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فتجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون وهم اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ يَفْزَعُ النَّاسُ وَهُمْ لَا يَفْزَعُونَ وَيَخَافُ النَّاسُ وَهُمْ لَا يَخَافُونَ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » فقيل من هؤلاء يارسول الله؟ فقال « هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ تَعَالَى » ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وقال فيه[1] « إِنَّ حَوْلَ الْعَرْشِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا قَوْمٌ لِبَاسُهُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ » فقالوا يارسول الله صفهم لنا فقال « هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ وَالْمُتَجَالِسُونَ فِي اللهِ وَالْمُتَزَاوِرُونَ فِي اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللهِ إِلَّا كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ »

ويقال إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر، رفع الآخر معه إلى مقامه وإنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين، والأهل بعضهم ببعض. لأن الإخوة إذا اكتسبت في الله، لم تكن دون إخوة الولادة. قال عز وجل (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ[1]) وقال صلى الله عليه وسلم[3] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَزَاوَرُونَ مِنْ أَجْلِي. وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ مِنْ أَجْلِي. وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَبَاذَلُونَ مِنْ أَجْلِي وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ مِنْ أَجْلِي » وقال صلى الله عليه وسلم[4] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي » وقال صلى الله عليه وسلم[5] « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ

---

(١) حديث أبي هريرة ان حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولاشهداء الحديث : النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات

(٢) حديث ما تحاب اثنان في الله الا كان أحبهما الى الله أشدهما حبا لصاحبه: ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الاسناد

(٣) حديث ان الله يقول حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي الحديث أحمد من حديث عمرو بن عبسه وحديث عبادة بن الصامت ورواه الحاكم وصححه

(٤) حديث إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لاظل الا ظلي: مسلم

(٥) حديث أبي هريرة سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل الا ظله امام عادل ـ الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

(١) الطور: ٢١

فِي عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ ، اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ تَعَالَى ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَا زَارَ رَجُلٌ رَجُلاً فِي اللهِ شَوْقاً إِلَيْهِ وَرَغْبَةً فِي لِقَائِهِ إِلَّا نَادَاهُ مَلَكٌ مِنْ خَلْفِهِ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَطَابَتْ لَكَ الْجَنَّةُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي اللهِ فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ مَلَكاً فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ أُرِيدُ أَنْ أَزُورَ أَخِي فُلَاناً . فَقَالَ لِحَاجَةٍ لَكَ عِنْدَهُ ؟ قَالَ لَا . قَالَ لِقَرَابَةٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ؟ قَالَ لَا . قَالَ فَبِنِعْمَةٍ لَهُ عِنْدَكَ ؟ قَالَ لَا . قَالَ فَبِمَ ؟ قَالَ أُحِبُّهُ فِي اللهِ . قَالَ فَإِنَّ اللهَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يُخْبِرُكَ بِأَنَّهُ يُحِبُّكَ لِحُبِّكَ إِيَّاهُ وَقَدْ أَوْجَبَ لَكَ الْجَنَّةَ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ » فلهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم فى الله ، كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم فى الله . ويروي أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء ، أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت الراحة ، وأما انقطاعك إليّ فقد تعززت بى ، ولكن هل عاديت فيّ عدوا؟ أو هل واليت فيّ وليا ؟ وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ مِنَّةً فَتَرْزُقَهُ مِنِّي مَحَبَّةً »

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام لو أنك عبدتنى بعبادة أهل السموات والأرض ، وحب فى الله ليس ، وبغض في الله ليس ، ماأغنى عنك ذلك شيئا .

---

(١) حديث مازار رجل رجلا فى الله شوقا اليه ورغبة فى لقائه الا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة ابن عدي من حديث أنس دون قوله شوقا اليه ورغبة فى لقائه وللترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة من عاد مريضا أو زار أخا فى الله ناداه مناد من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا قال الترمذى غريب

(٢) حديث ان رجلا زار أخاله فى الله فأرصد الله له ملكا فقال أين تريد ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله : أحمد من حديث البراء بن عازب وفيه ليث ابن أبي سليم مختلف فيه والخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٤) حديث اللهم لاتجعل لفاجر علي منة ـ الحديث : تقدم فى الكتاب الذى قبله

وقال عيسى عليه السلام، تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصى، وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم . قالوا ياروح الله ، فمن نجالس ؟ قال جالسوا من تذكركم الله رؤيته ، ومن يزيد فى عملكم كلامه ، ومن يرغبكم فى الآخرة عمله . وروى فى الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام ، ياابن عمران ، كن يقظانا ، وارتد لنفسك إخوانا وكل خدن وصاحب لايوازرك على مسرتى فهو لك عدو . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، فقال ياداود ، مالى أراك منتبذا وحيدا ! قال إلهى قليت الخلق من أجلك . فقال ياداود ، كن يقظانا ، وارتد لنفسك أخدانا ، وكل خدن لايوافقك على مسرتى فلاتصاحبه فإنه لك عدو يقسى قلبك ويباعدك منى . وفى أخبار داود عليه السلام أنه قال ، يارب كيف لى أن يحبنى الناس كلهم وأسلم فيما بينى وبينك ؟ قال خالق الناس بأخلاقهم، وأحسن فيما بينى وبينك . وفي بعضها ، خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَى اللهِ الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإِخْوَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ لِلَّهِ مَلَكاً نِصْفُهُ مِنَ النَّارِ وَنِصْفُهُ مِنَ الثَّلْجِ يَقُولُ اللَّهُمَّ كَمَا أَلَّفْتَ بَيْنَ الثَّلْجِ وَالنَّارِ كَذَلِكَ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » وقال أيضاً (٣) « مَاأَحْدَثَ عَبْدٌ أَخاً فِى اللهِ إِلاَّ أَحْدَثَ اللهُ لَهُ دَرَجَةً فِى الْجَنَّةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « الْمُتَحَابُّونَ فِى اللهِ عَلَى عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ فِى رَأْسِ الْعَمُودِ سَبْعُونَ أَلْفَ غُرْفَةٍ يُشْرِفُونَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يُضِىءُ حُسْنُهُمْ لأَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا تُضِىءُ الشَّمْسُ لأَهْلِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ انْطَلِقُوا بِنَا نَنْظُرْ إِلَى الْمُتَحَابِّينَ فِى اللهِ فَيُضِىءُ حُسْنُهُمْ لأَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا تُضِىءُ الشَّمْسُ عَلَيْهِمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ مَكْتُوبٌ عَلَى جِبَاهِهِمْ الْمُتَحَابُّونَ فِى اللهِ »

---

(١) حديث ان أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون ـ الحديث: الطبرانى فى الاوسط والصغير من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

(٢) حديث ان لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألف بين قلوب عبادك الصالحين أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل والعرباض بن سارية بسند ضعيف

(٣) حديث ما أحدث عبد اخاه فى الله تعالى الا أحدث الله له درجة فى الجنة ابن أبى الدنيا فى كتاب الاخوان من حديث أنس وقد تقدم

(٤) حديث المتحابون فى الله على عمود من ياقوته حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة ـ الحديث الحكيم الترمذي في النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيفه

الآثار : قال علي رضى الله عنه : عليكم بالإخوان ، فإنهم عدة فى الدنيا والآخرة . ألا تسمع إلى قول أهل النار (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما والله لو صُمْتُ النهار لا أفطره ، وقمت الليل لا أنامه ، وأنفقت مالى علقا علقا فى سبيل الله ، أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله ، وبغض لأهل معصية الله مانفعنى ذلك شيئا . وقال ابن السماك عند موته ، اللهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك ، فاجعل ذلك قربة لى إليك . وقال الحسن على ضده ، ياابن آدم لايغرنك قول من يقول المرء مع من أحب ، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم ، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . وهذه اشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة فى بعض الأعمال أوكلها لاينفع . وقال الفضيل فى بعض كلامه ، هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بأى عمل عملته ؛ بأى شهوة تركتها ؟ بأى غيظ كظمته ؟ بأى رحم قاطع وصلتها ؟ بأى زلة لأخيك غفرتها ؟ بأى قريب باعدته فى الله ؟ بأى بعيد قاربته فى الله ؟

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام ، هل عملت لى عملا قط ؟ فقال إلهي إنى صليت لك ، وصمت ، وتصدقت وزكيت . فقال إن الصلاة لك برهان ، والصوم جنة والصدقة ظل ، والزكاة نور ، فأى عمل عملت لى ؟ قال موسى إلهى دلنى على عمل هو لك . قال ياموسى هل واليت لى وليا قط ؟ وهل عاديت لى عدوا قط ؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله

وقال ابن مسعود رضي الله عنه ، لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضي الله عنه ، مصارمة الفاسق قربان الله وقال رجل لمحمد بن واسع ، إنى لأحبك فى الله ، فقال أحبك الذى أحببتنى له ، ثم حول وجهه وقال ، اللهم إنى أعوذ بك أن أُحَبَّ فيك وأنت لى مبغض . ودخل رجل على داود الطائى فقال له ماحاجتك ؟ فقال زيارتك . فقال أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ، ولكن انظر ماذا ينزل بى إذا قيل لى من أنت فتزار ؟ أمن الزهاد أنت ؟ لا والله ، أمن العباد أنت ؟ لا والله

(١) الشعراء ١٠٠ ، ١٠١

أمن الصالحين أنت ؟ لا والله. ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول كنت فى الشبيبة فاسقا، فلما شخت صرت مرائيا والله للمرائى شر من الفاسق . وقال عمر رضى الله عنه ، إذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به ، فقلما يصيب ذلك . وقال مجاهد ، المتحابون فى الله إذا التقوا فكشر بعضهم إلى بعض ، تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس . وقال الفضيل نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة

بيان

معنى الأخوة فى الله وتمييزها من الأخوة فى الدنيا

اعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله غامض . وينكشف الغطاء عنه بما نذكره . وهو أن الصحبة تنقسم إلى مايقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع فى المكتب ، أو فى المدرسة ، أو فى السوق ، أو على باب السلطان ، أو فى الأسفار ، وإلى ماينشأ اختيارا ويقصد ، وهو الذي نريد بيانه ، إذ الأخوة فى الدين واقعة فى هذا القسم لامحالة إذ لاثواب إلا على الأفعال الاختيارية ، ولا ترغيب إلا فيها. والصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ، وهذه الأمور لايقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه ، فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته والذى يحب فإما أن يحب لذاته، لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه ، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود . وذلك المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها، وإما أن تكون متعلقا بالآخرة ، وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى . فهذه أربعة أقسام

أما القسم الأول : وهو حبك الإنسان لذاته ، فذلك ممكن . وهو أن يكون في ذاته محبوبا عندك ، على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه ، لاستحسانك له فإن كل جميل لذيذ في حق من أدرك جماله ، وكل لذيذ محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع . ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة ، أعنى حسن الخلقة ، وإما أن يكون هو الصورة الباطنة ، أعنى كمال العقل وحسن الأخلاق . ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لامحالة ، ويتبع كمال العقل غزارة العلم . وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم ، والعقل المستقيم ، وكل مستحسن

فستلذ به ومحبوب ، بل فى ائتلاف القلوب أمر أغمض من هـذا ، فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة فى صورة ، ولا حسن فى خلق وخلق ، ولكن لمناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة ، فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع ، والأشباه الباطنة خفية. ولها أسباب دقيقة ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها

عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] عن ذلك حيث قال « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » فالتناكر نتيجة التباين، والائتلاف نتيجة التناسب الذى عبر عنه بالتعارف . وفى بعض الالفاظ [2] « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ تَلْتَقِي فَتَتَشَامُّ فِي الْهَوَاءِ » وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال ، إن الله تعالى خلق الأرواح ففلق بعضها فلقا ، وأطافها حول العرش فأى روحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا ، تواصلا فى الدنيا، وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِيْنِ لَيَلْتَقِيَانِ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَمَا رَأَى أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ قَطُّ » وروى [4] أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدنية ، فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها . فقالت أين نزلت؟ فذكرت لها صاحبتها . فقالت صدق الله ورسوله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ » الحديث

والحق فى هذا أن المشاهـدة والتجربة تشهد للائتلاف عند التناسب ، والتناسب فى الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمر مفهوم

وأما الأسباب التى أوجبت تلك المناسبة ، فليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . وغاية هذيان المنجم أن يقول ، إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تثليثه ، فهذا نظر الموافقة

---

(١) حديث الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف : مسلم من حديث أبى هريرة والبخارى تعليقا من حديث عائشة

(٢) حديث الارواح تلتق فتتشام فى الهواء الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف من حديث على ان الارواح فى الهواء جند مجندة تلتق فتتشام الحديث

(٣) حديث ان أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط : أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ تلتق وقال أحدهم وفيه ابن لهيعة عن دراج

(٤) حديث إن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة فذكرت حديث الأرواح جنود مجندة الحسن بن سفيان فى مسنده بالقصة بسند حسن وحديث عائشة عند البخارى تعليقا مختصرا دونها كما تقدم

والمودة، فتقتضى التناسب والتواد . وإذا كان على مقابلته أو تربيعه ، اقتضى التباغض والعداوة . فهذا لو صدق بكونه كذلك فى مجارى سنة الله فى خلق السموات والأرض لكان الإشكال فيه أكثر من الإشكال فى أصل التناسب . فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر ، فما أوتينا من العلم إلا قليلا . ويكفينا فى التصديق بذلك التجربة والمشاهدة فقد ورد الخبر به ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ أَنَّ مُؤْمِناً دَخَلَ إِلَى مَجْلِسٍ فِيهِ مِائَةُ مُنَافِقٍ وَمُؤْمِنٌ وَاحِدٌ لَجَاءَ حَتَّى يَجْلِسَ إِلَيْهِ ، وَلَوْ أَنَّ مُنَافِقاً دَخَلَ إِلَى مَجْلِسٍ فِيهِ مِائَةُ مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٌ وَاحِدٌ لَجَاءَ حَتَّى يَجْلِسَ إِلَيْهِ » وهذا يدل على أن شبه الشىء منجذب إليه بالطبع ، وإن كان هو لا يشعر به . وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان فى عشرة إلا وفى أحدهما وصف من الآخر . وإن أجناس الناس كأجناس الطير ، ولا يتفق نوعان من الطير فى الطيران إلا وبينهما مناسبة . قال فرأى يوما غرابا مع حمامة ، فعجب من ذلك فقال اتفقا وليسا من شكل واحد ! ثم طارا ، فإذاهما أعرجان ، فقال من ههنا اتفقا. ولذلك قال بعض الحكماء . كل إنسان يأنس إلى شكله ، كما أن كل طير يطير مع جنسه . وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ، ولم يتشا كلا فى الحال ، فلا بد أن يفترقا . وهذا معنى خفي تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم

وقائل كيف تفارقتما * فقلت قولا فيه إنصاف
لم يك من شكلى ففارقته * والناس أشكال وألاف

فقد ظهر من هذا أن الإنسان قد يحب لذاته ، لا لفائدة تنال منه فى حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة والمناسبة فى الطباع الباطنة ، والأخلاق الخفية . ويدخل فى هذا القسم الحب للجمال ، إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة . فإن الصور الجميلة مستلذة فى عينها ، وإن قدر فقد أصل الشهوة ، حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، وإلى الماء الجارى والخضرة ، من غير غرض سوي عينها . وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله ، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس . ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله . إلا أنه

(١) حديث لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس وفيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس اليه الحديث : البيهقي فى شعب الايمان موقوفا على ابن مسعود وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل ولم يخرجه ولده فى المسند

إن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً ، كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها ، وإن لم يتصل به غرض مذموم ، فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم ، إذ الحب إما محمود وإما مذموم ، وإما مباح لا يحمد ولا يذم

القسم الثانى: أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته ، فيكون وسيلة إلى محبوب غيره، والوسيلة إلى المحبوب محبوب ، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة ،ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب .·. ولذلك أحب الناس الذهب والفضة ، ولا غرض فيهما ،إذ لا يطعم ولا يلبس ، ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات ، فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود ، إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم، كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده ، وتمهيدهم أمره فى قلبه فالمتوسل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يكن حبه من جملة الحب فى الله . وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا ؛ كحب التلميذ لأستاذه فهو أيضا خارج عن الحب لله . فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ؛ فمحبوبه العلم . فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله ؛ بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق ؛ فمحبوبه الجاه والقبول ؛ والعلم وسيلة إليه ؛ والأستاذ وسيلة إلى العلم ؛ فليس فى شىء من ذلك حب لله ؛ إذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى أصلا

ثم ينقسم هذا أيضا إلى مذموم ومباح ،فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره،كان الحب مذموما وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح ، فهو مباح ، وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل اليه ، فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها.

القسم الثالث: أن يحبه لا لذاته ، بل لغيره. وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه فى الدنيا بل يرجع إلى حظوظه فى الآخرة .فهذا أيضا ظاهر لا غموض فيه . وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه، لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ،ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة . فهذا من جملة المحبين فى الله . وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ، ويرقى به إلى درجة التعظيم فى ملكوت السماء . إذ قال

عيسى صلى الله عليه وسلم ، من عَلِمَ وعمل وعَلَّمَ فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السماء. ولا يتم التعليم إلا بمتعلم . فهو إذاً آلة فى تحصيل هذا الكمال. فإن أحبه لأنه آلة له ، إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذى هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم فى ملكوت السماء ، فهو محب فى الله . بل الذى يتصدق بأمواله لله ،ويجمع الضيفان ؛ ويهيء لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقربا إلى الله، فأحب طباخا لحسن صنعته فى الطبيخ ، فهو من جملة المحبين فى الله . وكذا لو أحب من يتولى له ايصال الصدقة الى المستحقين ، فقد أحبه فى الله

بل نزيد على هذا و نقول ، إذا أحب من يخدمه بنفسه فى غسل ثيابه ، وكنس بيته وطبخ طعامه ، ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ، ومقصوده من استخدامه فى هذه الاعمال الفراغ للعبادة ، فهو محب فى الله

بل نزيد عليه و نقول ، إذا أحب من ينفق عليه من ماله، ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التى يقصدها فى دنياه ، ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله ، فهو محب فى الله . فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفايتهم جماعة من أولى الثروة ، وكان المواسى والمواسى جميعا من المتحابين فى الله

بل نزيد عليه ونقول من نكح امرأة صالحة ، ليتحصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها دينه ، أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب فى الله . ولذلك وردت الاخبار [1] بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل فى فى امرأته

بل نقول كل من اشتهر بحب الله وحب رضاه ، وحب لقائه فى الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محبا فى الله . لأنه لا يتصور أن يحب شيئا الا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عز وجل

بل أزيد على هذا وأقول ، إذا اجتمع فى قلبه محبتان محبة الله ومحبة الدنيا ؛ واجتمع فى شخص واحد المعنيان جميعا ؛ حتى صلح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا ، فإذا أحبه لصلاحه للأمرين ، فهو من المحبين فى الله . كمن يحب أستاذه الذى يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا

---

(١) حديث الأجر فى الانفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل فى فى أمرأته تقدم

بالمواساة فى المال ، فأحبه من حيث إن فى طبعه طلب الراحة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة فهو وسيلة إليهما ؛ فهو محب فى الله.

وليس من شرط حب الله أن لا يحب فى العاجل حظا ألبتة ؛ إذ الدعاء أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، فيه جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة . وقال عيسى عليه السلام فى دعائه اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى لدينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى .فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا. ولم يقل ولا تجعل الدنيا أصلا من همى بل قال لا تجعلها أكبر همى. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه (١) « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » وقال اللَّهُمَّ (٢) عَافِنِي مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَبَلَاءِ الآخِرَةِ

وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة فى الآخرة مناقضا لحب الله تعالى ، فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة فى الدنيا ؛ كيف يكون مناقضا لحب الله ! والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين ؛ إحداهما أقرب من الأخرى . فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ، ولا يحبها اليوم ! وإنما يحبها غدا ، لأن الغد سيصير حالا راهنة . فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضا . إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ؛ وهى التى احترز عنها الأنبياء والأولياء ، وأمروا بالاحتراز عنها ، وإلى ما لا يضاد ، وهى التى لم يمتنعوا منها، كالنكاح الصحيح، وأكل الحلال ، وغير ذلك. فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه، أعنى أن يكرهه بعقله لا بطبعه، كما يكره التناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعت يده أو حزت رقبته، لا بمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهيه بطبعه ، ولا يستلذه لو أكله، فإن ذلك محال. ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه، وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به

والمقصود من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعلمه، أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويخدمه وأحدهما حظ عاجل والآخر آجل ، لكان فى زمرة المتحابين فى الله. ولكن بشرط

---

(١) حديث اللهم أنى أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة الترمذى من حديث ابن عباس فى الحديث الطويل فى دعائه صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الليل وقد تقدم

(٢) حديث اللهم عافنى من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة أحمد من حديث بشر بن أبى أرطاة بنحوه بسند جيد

واحد ، وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلا ، أو تعذر عليه تحصيله منه ؛ لنقص حبه بسببه فالقدر الذى ينقص بسبب فقده هو لله تعالى . وله على ذلك القدر ثواب الحب فى الله . وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به ، فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب . فليس حبك للذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما ، لأن الذهب يوصل إلى اغراض هى أكثر مما توصل إليه الفضة . فإذاً يزيد الحب بزيادة الغرض ، ولا يستحيل اجتماع الاغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل فى جملة الحب لله . وحدُّه هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده ، فهو حب فى الله . وكذلك كل زيادة فى الحب ، لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة ، فتلك الزيادة من الحب فى الله. فذلك وإن دق فهو عزيز . قال الجريرى : تعامل الناس فى القرن الأول بالدين حتى رق الدين وتعاملوا فى القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، وفى الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة

القسم الرابع : أن يحب لله وفى الله ، لا لينال منه علما أو عملا ، أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته . وهذا أعلى الدرجات . وهو أدقها وأغمضها . وهذا القسم أيضا ممكن . فإن من آثار غلبة الحب ، أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد فمن أحب إنسانا حبا شديدا أحب محب ذلك الإنسان ، وأحب محبوبه ، وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه ، وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه ، حتى قال بقية بن الوليد: إن المؤمن إذا أحب المؤمن ، أحب كلبه . وهو كما قال . ويشهد له التجربة فى أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء . ولذلك يحفظ ثوب المحبوب ويخفيه ، تذكرة من جهته ، ويحب منزله ومحلته وجيرانه ، حتى قال مجنون بنى عامر

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديارا

فإذاً المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدى من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ، ويناسبه ولو من بعد . ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة . فأصل المحبة لا يكفى فيه . ويكون اتساع الحب فى تعديه من المحبوب إلى ما يكتنفه ، ويحيط به ، ويتعلق

بأسبابه ، بحسب افراط المحبة وقوتها . وكذلك حب الله سبحانه وتعالى ، إذا قوى وغلب على القلب ، واستولى عليه ، حتى انتهى إلى حد الاستهتار ، فيتعدى إلى كل موجود سواه فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته . ومن أحب إنسانا أحب صنعته وخطه وجميع أفعاله . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم (١) إذا حمل إليه باكورة من الفواكه ، مسح بها عينيه وأكرمها ، وقال إنه قريب العهد بربنا

وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء فى مواعيده ، وما يتوقع فى الآخرة من نعيمه ، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته ، وتارة لذاته لا لأمر آخر ، وهو أدق ضروب المحبة وأعلاها . وسيأتى تحقيقها فى كتاب المحبة من ربع المنجيات إن شاء الله تعالى وكيفما اتفق حب الله ، فإذا قوى تعدى إلى كل متعلق به ضربا من التعلق ، حتى يتعدى إلى ما هو فى نفسه مؤلم مكروه ، ولكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم ، والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلام يغمر إدراك الألم ، وذلك كالفرح بضربة من المحبوب . أو قرصة فيها نوع معاتبة ، فإن قوة المحبة تثير فرحا يغمر إدراك الألم فيه . وقد انتهت محبة الله بقوم إلى ان قالوا لا نفرق بين البلاء والنعمة ، فإن الكل من الله ، ولا نفرح إلا بما فيه رضاه حتى قال بعضهم : لا أريد أن أنال مغفرة الله بمعصية الله . وقال سمنون :

وليس لى فى سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرنى

وسيأتى تحقيق ذلك فى كتاب المحبة

والمقصود أن حب الله إذا قوى ، أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله فى علم أو عمل وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن ، أو تأدب بآداب الشرع . وما من مؤمن محب للآخرة ، ومحب لله ، إلا إذا أخبر عن حال رجلين ، أحدهما عالم عابد والآخر جاهل فاسق ، إلا وجد فى نفسه ميلا إلى العالم العابد . ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته . وبحسب ضعف حبه لله وقوته . وهذا الميل حاصل وإن كانا

(١) حديث كان إذا حمل اليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال أنها قريب عهد بربها الطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس وأبى داود فى المراسيل والبيهقى فى الدعوات من حديث أبى هريرة دون قوله واكرمها الخ وقال أنه غير محفوظ وحديث أبى هريره فى الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون مسح عينيه بها ومابعده وقال الترمذى حسن صحيح

غائبين عنه ، بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر فى الدنيا ولا فى الآخرة . فذلك الميل هو حب فى الله ولله من غير حظ . فإنه إنما يحبه لأن الله يحبه ، ولأنه مرضي عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ؛ ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى ؛ إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ؛ ولا يظهر به ثواب ولا أجر . فإذا قوى حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم فى حب الله عز وجل

ولو كان الحب مقصوراً على حظ ينال من المحبوب فى الحال أو المآل ، لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ، ومن الصحابه والتابعين ، بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه ، وحب جميعهم مكنون فى قلب كل مسلم متدين . ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم فى واحد منهم ، وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم . وكل ذلك حب لله ، لأنهم خواص عباد الله ، ومن أحب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه . إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب . وعنه عبر قول من قال

أريد وصاله ويريد هجرى * فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال :

* وما لجرح إذا أرضاكم ألم *

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه فى نصف ماله أو فى ثلثه أو فى عشره . فمقادير الأموال موازين المحبة ، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك فى مقابلته . فمن استغرق الحب جميع قلبه ، لم يبق له محبوب سواه ، فلا يمسك لنفسه شيئا ، مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فإنه لم يترك لنفسه أهلا ولا مالا ، فسلم ابنته التي هى قرة عينه ، وبذل جميع ماله ، قال ابن عمر رضى الله عنهما ، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] جالس وعنده أبو بكر ، وعليه عباءة

---

(١) حديث ابن عمر بينما النبى صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال فنزل جبريل فأقرأه من ربه السلام ـ الحديث: ابن حبان والعقيلى فى الضعفاء. قال الذهبي فى الميزان هو كذب

قد خللها على صدره بخلال ، إذ نزل جبريل عليه السلام ، فاقرأه عن الله السلام ، وقال يارسول الله مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال ؟ فقال « أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَيَّ قَبْلَ الْفَتْحِ » قال فأقره من الله السلام ، وقل له يقول لك ربك ، أراض أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط قال فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر وقال « يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ مِنَ اللهِ وَيَقُولُ أَرَاضٍ أَنْتَ عَنِّي فِي فَقْرِكَ هَذَا أَمْ سَاخِطٌ ؟ » قال فبكى أبو بكر رضى الله عنه وقال ، أعلى ربى أسخط ! أنا عن ربى راض ، أنا عن ربى راض

فحصل من هذا أن كل من أحب عالما أو عابدا ، أو أحب شخصا راغبا فى علم أو فى عبادة أو فى خير ، فانما أحبه فى الله ولله ، وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه . فهذا شرح الحب فى الله ودرجاته ، وبهذا يتضح البغض فى الله أيضا ، ولكن نزيده بيانا

بيان

البغض فى الله

اعلم أن كل من يحب فى الله لا بد أن يبغض فى الله . فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله ، وممقوت عند الله . ومن أحب بسبب ، فبالضرورة يبغض لضده . وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وهو مطرد فى الحب والبغض فى العادات ، ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين فى القلب ، وإنما يترشح عند الغلبة ، ويترشح بظهور أفعال المحبين والمبغضين فى المقاربة والمباعدة ، وفى المخالفة والموافقة . فاذا ظهر فى الفعل سمى موالاة ومعاداة . ولذلك قال الله تعالى (هَلْ وَالَيْتَ فِيَّ وَلِيًّا وَهَلْ عَادَيْتَ فِيَّ عَدُوًّا) كما نقلناه

وهذا واضح فى حق من لم يظهر لك إلا طاعاته ، تقدر على أن تحبه ، أو لم يظهر لك الا فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة ، فتقدر على أن تبغضه . وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصى . فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان . وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة ، والموالاة والمعاداة . فأقول ذلك غير متناقض فى حق الله تعالى كما لا يتناقض فى الحظوظ البشرية . فإنه مهما اجتمع فى شخص واحد خصال يحب بعضها

ويكره بعضها ، فإنك تحبه من وجه ، وتبغضه من وجه . فمن له زوجة حسناء فاجرة ، أو ولد ذكى خدوم ولكنه فاسق ، فإنه يحبه من وجه ، ويبغضه من وجه ، ويكون معه على حالة بين حالتين . إذ لو فرض له ثلاثة أولاد ، أحدهم ذكى بار ، والآخر بليد عاق والآخر بليد بار ، أو ذكى عاق ، فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة، بحسب تفاوت خصالهم . فكذلك ينبغى أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ، ومن غلبت عليه الطاعة ، ومن اجتمع فيه كلاهما ، متفاوتة على ثلاث مراتب . وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب ، والاعراض والاقبال ، والصحبة والقطيعة ، وسائر الافعال الصادرة منه

فان قلت فكل مسلم فإسلامه طاعة منه ، فكيف أبغضه مع الاسلام ؟ فأقول تحبه لإسلامه ، وتبغضه لمعصيته . وتكون معه على حالة لوقستها بحال كافر أوفاجر أدركت تفرقة بينهما . وتلك التفرقة حب للاسلام ، وقضاء لحقه . وقدر الجناية على حق الله ، والطاعة لك كالجناية على حقك والطاعة لك فمن وافقك على غرض وخالفك فى آخر ، فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال ، وبين الاقبال والاعراض ، وبين التودد إليه والتوحش عنه ، ولا تبالغ فى إكرامه مبالغتك فى إكرام من يوافقك على جميع اغراضك ، ولا تبالغ فى إهانته مبالغتك فى اهانة من خالفك فى جميع أغراضك . ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الاهانة عند غلبة الجناية ، وتارة إلى طرف المجاملة والاكرام عند غلبة الموافقة . فهكذا ينبغى أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ، ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى

فان قلت فبماذا يمكن إظهار البغض ؟ فأقول أما فى القول ، فيكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة ، وبالاستخفاف والتغليظ فى القول أخرى . وأما فى الفعل ، فبقطع السعى فى إعانته مرة ، وبالسعى فى إساءته وإفساد مآربه أخرى . وبعض هذا أشد من بعض وهى بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه . أما مايجرى مجرى الهفوة التى يعلم أنه متندم عليها ، ولا يصر عليها ، فالأولى فيه الستر والإغماض . أما ماأصر عليه من صغيرة أو كبيرة ، فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبة وأخوة ، فله حكم آخر وسيأتى ، وفيه خلاف بين العلماء . وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحبة ، فلا بد من إظهار أثر

البغض ، إما فى الإعراض والتباعد عنه ، وقلة الالتفات إليه ، وإما فى الاستخفاف وتغليظ القول عليه ، وهذا أشد من الإعراض ، وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها . وكذلك فى الفعل أيضا رتبتان ، إحداهما قطع المعونة والرفق والنصرة عنه ، وهو أقل الدرجات . والأخرى السعى فى إفساد أغراضه عليه ، كفعل الأعداء المبغضين ، وهذا لابد منه ، ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية . أما مالا يؤثر فيه فلا . مثاله : رجل عصى الله بشرب الخمر ، وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطا بها ، بالمال والجمال والجاه ، إلا أن ذلك لا يؤثر فى منعه من شرب الخمر ، ولا فى بعث وتحريض عليه . فإذا قدرت على إعانته ليتم له غرضه ومقصوده ، وقدرت على تشويشه ليفوته غرضه ، فليس لك السعى فى تشويشه . أما الإعانة فلو تركتها إظهارا للغضب عليه فى فسقه ، فلا بأس . وليس يجب تركها . إذ ربما يكون لك نية فى أن تتلطف بإعانته ، وإظهار الشفقة عليه ، ليعتقد مودتك ويقبل نصحك ، فهذا حسن . وإن لم يظهر لك ، ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه ، فذلك ليس بممنوع ، بل هو الأحسن ، إن كانت معصيته بالجناية على حقك أو حق من يتعلق بك . وفيه نزل قوله تعالى (وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ) إلى قوله تعالى[1] (أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَكُمْ) إذ تكلم مسطح بن أثاثة فى واقعة[1] الإفك ، فحلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقه ، وقد كان يواسيه بالمال ، فنزلت الآية مع عظم معصية مسطح . وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وإطالة اللسان فى مثل عائشة رضى الله عنها ! إلا أن الصديق رضى الله عنه ، كان كالمجنى عليه فى نفسه بتلك الواقعة والعفو عمن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين . وإنما يحسن الإحسان إلى من ظلمك . فأما من ظلم غيرك ، وعصى الله به ، فلا يحسن الإحسان إليه . لأن فى الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم ، وحق المظلوم أولى بالمراعاة ، وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم . فأما إذا كنت أنت المظلوم ، فالأحسن فى حقك العفو والصفح

---

(١) حديث كلام مسطح فى الافك وهجر أبى بكر له حتى نزلت ولا يأتل أولو الفضل منكم الآية . متفق عليه من حديث عائشة

---

(١) النور : ٢٢

وطرق السلف قد اختلفت فى إظهار البغض مع أهل المعاصى . وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة ، وكل من عصى الله بمعصية متعدية منه إلى غيره . فأما من عصى الله فى نفسه ، فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم ، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة . فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكابر فى أدنى كلمة حتى هجر يحيى بن معين لقوله إنى لاأسأل أحدا شيئا ، ولو حمل السلطان إلىّ شيئا لأخذته . وهجر الحرث المحاسبى فى تصنيفه فى الرد على المعتزلة ، وقال إنك لابد تورد أولا شبهتهم ، وتحمل الناس على التفكر فيها ، ثم ترد عليهم . وهجر أبا ثور فى تأويله قوله صلى الله عليه وسلم [1] «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » وهذا أمر يختلف باختلاف النية . وتختلف النية باختلاف الحال . فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطرار الخلق وعجزهم . وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلا فى المعاداة والبغض ، وله وجه . ولكن قد تلتبس به المداهنة . فأكثر البواعث على الإغضاء عن المعاصى المداهنة ومراعاة القلوب ، والخوف من وحشتها ونفارها . وقد يلبس الشيطان ذلك على الغبي الاحمق بأنه ينظر بعين الرحمة . ومحك ذلك أن ينظر اليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ، ويقول انه قد سخر له ، والقدر لاينفع منه الحذر ، وكيف لايفعله وقد كتب عليه فمثل هذا قد تصح له نية في الاغماض عن الجناية على حق الله . وإن كان يغتاظ عند الجناية على حقه ، ويترحم عند الجناية على حق الله ، فهذا مداهن مغرور بمكيدة من مكايد الشيطان ، فليتنبه له

فإن قلت فأقل الدرجات فى إظهار البغض الهجر والاعراض ، وقطع الرفق والاعانة فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه ؟ فأقول لايدخل ذلك فى ظاهر العلم تحت التكليف والايجاب . فإنا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ، ماكانوا يهجرون بالكلية بل كانوا منقسمين فيهم من يغلظ القول عليه ، ويظهر البغض له ، وإلى من يعرض عنه ، ولا يتعرض له ، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد

فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ، ويكون عمل كل

---

(١) حديث ان الله خلق آدم على صورته : مسلم من حديث أبي هريرة

واحد على مايقتضيه حاله ووقته . ومقتضى الأحوال فى هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون فى رتبة الفضائل ، ولا تنتهى إلى التحريم والأيجاب ؛ فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى، وأصل الحب ، وذلك قد لا يتعدى من المحبوب إلى غيره ، وإنما المتعدى إفراط الحب واستيلاؤه ، وذلك لا يدخل فى الفتوى وتحت ظاهر التكليف فى حق عوام الخلق أصلا

بيان

مراتب الذين يبغضون فى الله وكيفية معاملتهم

فإن قلت إظهار البغض والعداوة بالفعل ، إن لم يكن واجبا ، فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفساق على مراتب مختلفة ، فكيف ينال الفضل بمعاملتهم ؟ وهل يسلك بجميعهم مسلكا واحدا أم لا ؟ فاعلم أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلوا إما أن يكون مخالفا فى عقده ، أو فى عمله . والمخالف فى العقد إما مبتدع أو كافر . والمبتدع إما داع الى بدعته أو ساكت . والساكت إما بعجزه أو باختياره . فأقسام الفساد فى الاعتقاد ثلاثة :

الأول الكفر . فالكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل والارقاق . وليس بعد هذين إهانة . وأما الذمى . فإنه لا يجوز إيذاؤه الا بالاعراض عنه، والتحقير له ، بالاضطرار الى أضيق الطرق ، وبترك المفاتحة بالسلام ، فاذا قال السلام عليك ، قلت وعليك . والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته : واما الانبساط معه، والاسترسال إليه ، كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهى مايقوى منها الى حد التحريم . قال الله تعالى (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ [١]) الآية . وقال صلى الله عليه وسلم [١] «الْمُسْلِمُ وَالْمُشْرِكُ لَا تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا» وقال عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ [٢]) الآية

---

(١) حديث المؤمن والمشرك لاترا أى ناراهما: أبو داود والترمذى من حديث جرير أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين قالوا يارسول الله ولم قال لاترا أى ناراهما ورواه النسائى مرسلا وقال البخارى الصحيح أنه مرسل

---

(١) المجادلة : ٢٢ (٢) الممتحنة :١

الثانى المبتدع الذى يدعو إلى بدعته . فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها ، فأمره أشد من الذمى ، لأنه لايقر بجزية ، ولا يسامح بعقد ذمة . وإن كان ممن لايكفر به ، فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لامحالة . ولكن الأمر فى الإنكار عليه أشد منه على الكافر ، لأن شر الكافر غير متعد ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره ، فلا يلتفتون إلى قوله إذ لايدعي لنفسه الإسلام واعتقاد الحق . أما المبتدع الذى يدعو إلى البدعة ، ويزعم أن مايدعو إليه حق ، فهو سبب لغواية الخلق ، فشره متعد . فالاستحباب فى إظهار بغضه ومعاداته، والانقطاع عنه وتحقيره، والتشنيع عليه ببدعته. وتنفير الناس عنه أشد. وإن سلم فى خلوة فلا بأس برد جوابه . وإن علمت أن الإعراض عنه ، والسكوت عن جوابه ، يقبح فى نفسه بدعته ، ويؤثر فى زجره ، فترك الجواب أولى . لأن جواب السلام ، وإن كان واجبا، فيسقط بأدنى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان في الحمام أو فى قضاء حاجته وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض وإن كان فى ملأ فترك الجواب أولى وتنفيرا للناس عنه وتقبيحا لبدعته في أعينهم وكذلك الأولى كف الإحسان إليه، والإعانة له ،لاسيا فيما يظهر للخلق قال عليه السلام[1] « مَنْ انْتَهَرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا وَمَنْ أَهَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ أَمَّنَهُ اللهُ يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَمَنْ أَلَانَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ أَوْ لَقِيَهُ بِبِشْرٍ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم »

الثالث : المبتدع العامى ، الذى لايقدر على الدعوة ، ولايخاف الاقتداء به ، فأمره أهون فالأولى أن لايقابح بالتغليظ والإهانة ، بل يتلطف به فى النصح ، فإن قلوب العوام سريعة التقلب . فإن لم ينفع النصح ، وكان فى الإعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه، تأكد الاستحباب فى الإعراض . وإن علم أن ذلك لايؤثر فيه ، لجمود طبعه ، ورسوخ عقده فى قلبه ، فالإعراض أولى . لأن البدعة إذا لم يبالغ فى تقبيحها شاعت بين الخلق ، وعم فسادها

وأما العاصى بفعله وعمله لا باعتقاده ، فلا يخلو إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره ، كالظلم والغصب . وشهادة الزور والغيبة ، والتضريب بين الناس ، والمشى بالنميمة وأمثالها أو كان مما لايقتصر عليه ويؤذى غيره . وذلك ينقسم إلى مايدعو غيره إلى الفساد ، كصاحب

---

(١) حديث من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وايمانا ـ الحديث: أبو نعيم فى الحلية والهروى فى ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند ضعيف

الماخور الذى يجمع بين الرجال والنساء ، ويهيء أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد . أو لايدعو غيره إلى فعله ، كالذى يشرب ويزنى . وهذا الذى لايدعو غيره ، إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة . وكل واحد فإما أن يكون مصرا عليه أو غير مصر . فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام ، ولكل قسم منها رتبة ، وبعضها أشد من بعض ولا نسلك بالكل مسلكا واحدا

القسم الأول : وهو أشدها ، مايتضرر به الناس كالظلم والغصب ، وشهادة الزور والغيبة والنميمة . فهؤلاء الأولى الإعراض عنهم ، وترك مخالطتهم ، والانقباض عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق . ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم فى الدماء وإلى من يظلم فى الأموال ، وإلى من يظلم فى الأعراض . وبعضها أشد من بعض فالاستحباب فى إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جدا . ومهما كان يتوقع من الإهانة زجرا لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه آكد وأشد

الثانى : صاحب الماخور الذى يهيء أسباب الفساد ، ويسهل طرقه على الخلق ، فهذا لايؤذى الخلق فى دنياهم ، ولكن يختلس بفعله دينهم . وإن كان على وفق رضاهم فهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه . فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب ولكن من حيث أنه متعد على الجملة إلى غيره فهو شديد . وهذا أيضا يقتضى الإهانة والإعراض والمقاطعة ، وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعا من الزجر له أو لغيره

الثالث : الذى يفسق فى نفسه بشرب خمر ، أو ترك واجب ، أو مقارفة محظور يخصه فالأمر فيه أخف . ولكنه فى وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه . ولو بالضرب والاستخفاف . فإن النهى عن المنكر واجب . وإذا فرغ منه ، وعلم ان ذلك من عادته ، وهو مصر عليه ، فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه ، وجب النصح . وإن لم يتحقق ، ولكنه كان يرجو ، فالأفضل النصح والزجر ، بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع . فأما الإعراض عن جواب سلامه ، والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه ، فهذا فيه نظر . وسير العلماء فيه مختلفة . والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل . فعند هذا يقال الأعمال بالنيات ، إذ فى الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع

من التواضع ، وفى العنف والإعراض نوع من الزجر . والمستفتى فيه القلب . فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه ، فالأولى ضده . إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإدلال بالصلاح . وقد يكون رفقه عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض ، أو لخوف من تأثير وحشته ونفرته فى جاه أو مال ، بظن قريب أو بعيد . وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان ، وبعيد عن أعمال أهل الآخرة . فكل راغب فى أعمال الدين ، مجتهد مع نفسه فى التفتيش عن هذه الدقائق ، ومراقبة هذه الأحوال والقلب هو المفتى فيه . وقد يصيب الحق فى اجتهاده وقد يخطيء ، وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به ، وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله ، وسالك طريق الآخرة وسيأتى بيان هذه الدقائق فى كتاب الغرور من ربع المهلكات . ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر ، الذي هو بين العبد وبين الله ، ماروى [1] أن شارب خمر ضرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات ، وهو يعود . فقال واحد من الصحابة ، لعنه الله ما أكثر مايشرب ! فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكَ » أو لفظا هذا معناه . وكان هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ

بيان الصفات

المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان . قال صلى الله عليه وسلم [2] « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ » ولابد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها فى صحبته . وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة ، إذ معنى الشرط ما لابد منه للوصول إلى المقصود ، فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط ، ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية . أما الدنيوية ، فكالانتفاع بالمال أو الجاه ، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة

---

(١) حديث ان شارب خمر ضرب بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : وفيه لاتكن عونا للشيطان على أخيك البخارى من حديث أبى هريرة

(٢) حديث المرء على دين خليله ـ الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح ان شاء الله

والمجاورة ، وليس ذلك من أغراضنا . وأما الدينية ، فيجتمع فيها أيضا أغراض مختلفة . إذ منها الاستفادة من العلم والعمل . ومنها الاستفادة من الجاه تحصنا به عن إيذاء من يشوش القلب • ويصد عن العبادة . ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القوت . ومنها الاستعانة فى المهمات ، فيكون عدة فى المصائب وقوة فى الاحوال . ومنها التبرك بمجرد الدعاء . ومنها انتظار الشفاعة فى الآخرة ، فقد قال بعض السلف، استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك .

وروى فى غريب التفسير فى قوله تعالي (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [1]) قال يشفعهم فى إخوانهم ، فيدخلهم الجنة معهم . ويقال إذا غفر الله للعبد شفع فى إخوانه . ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة ، وكرهوا العزلة والانفراد .

فهذه فوائد تستدعى كل فائدة شروطا لاتحصل إلا بها ، ونحن نفصلها . أما على الجملة فينبغى أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال . أن يكون عاقلا ، حسن الخلق، غير فاسق ولا مبتدع ، ولاحريص على الدنيا

أما العقل فهو رأس المال ، وهو الأصل . فلا خير فى صحبة الأحمق ، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وان طالت . قال علي رضى الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل * و اياك و إياه فكم من جاهل أردى * حليما حين آخاه
يقـــاس المرء بالمرء * إذا ما المرء ماشاه وللشيء من الشيء * مقاييس واشباه
وللقلب على القلب * دليل حين يلقاه

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لايدرى. ولذلك قال الشاعر:

إنى لآمن من عـدو عاقل * وأخاف خلا يعتريه جنون
فالعقل فن واحد وطريقه * أدرى فأرصد والجنون فنون

ولذلك قيل مقاطعة الأحمق قربان إلى الله . وقال الثورى ، النظر إلى وجه الاحمق خطيئة مكتوبة . ونعنى بالعاقل الذى يفهم الأمور على ما هى عليه ، إما بنفسه وإما إذا فهم

---

(١) الشوري : ٢٦

وأما حسن الخلق فلا بد منه . إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ماهى عليه ، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة ، أو بخل أو جبن ، أطاع هواه ، وخالف ماهو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته ، وتقويم أخلاقه . فلا خير فى صحبته

وأما الفاسق المصر على الفسق ، فلا فائدة فى صحبته ، لأن من يخاف الله لايصر على كبيرة ، ومن لايخاف الله لاتؤمن غائلته ، ولا يوثق بصداقته ، بل يتغير بتغير الأغراض وقال تعالى (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ[1]) وقال تعالى (فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ[2]) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[3]) وقال (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ[4]) وفى مفهوم ذلك زجر عن الفاسق

وأما المبتدع ، ففى صحبته خطر سراية البدعة وتعدى شؤمها إليه . فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة ، فكيف تؤثر صحبته ! وقد قال عمر رضى الله عنه ، فى الحث على طلب التدين في الصديق ، فيما رواه سعيد بن المسيب قال: عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء ، وعدة فى البلاء . وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك مايغلبك منه . واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ، ولا أمين إلا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره. ولا تطلعه على سرك، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى

وأما حسن الخلق، فقد جمعه علقمة العطاردى فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة . قال يابنى ، إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك . إصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وان رأى سيئة سدها. اصحب من اذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك . إصحب من إذا قلت صدّق قولك، وإن حاولتما أمرا أمّرك، وإن تنازعتما آثرك . فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة ، وشرط أن يكون قائما بجميعها . قال ابن أكثم، قال المأمون فأين هذا ؟ فقيل له أتدرى لم أوصاه بذلك ؟ قال لا. قال لأنه أراد أن لا يصحب أحدا

وقال بعض الأدباء : لاتصحب من الناس إلا من يكتم سرك ، ويستر عيبك . فيكون

(1) الكهف : ٢٨ (2) طه ١٦ (3) النجم : ٢٩ (4) لقمان : ١٥ .

معك فى النوائب، ويؤثرك بالرغائب ، وينشر حسنتك ، ويطوى سيئتك . فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك . وقال علي رضي الله عنه

إن أخاك الحق من كان معك * ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب زمان صدعك * شتت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين ، رجل تتعلم منه شيئا فى أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئا فى أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه.وقال بعضهم الناس أربعة : فواحد حلو كله فلا يشبع منه ، وآخر مر كله فلا يؤكل منه ، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : لاتصحب خمسة: الكذاب فإنك منه على غرور ، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب . والاحمق فإنك لست منه على شىء يريد أن ينفعك فيضرك . والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ماتكون اليه . والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة . والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها . فقيل وما أقل منها؟ قال الطمع فيها ثم لاينالها

وقال الجنيد لأن يصحبنى فاسق حسن الخلق،أحب الىّ من أن يصحبنى قارىءسيء الخلق وقال ابن أبي الحوارى : قال لى أستاذى أبو سليمان ،ياأحمد ، لاتصحب إلا أحد رجلين رجلا ترتفق به فى أمر دنياك ، أو رجلا تزيد معه وتنتفع به فى أمر آخرتك ، والاشتغال بغير هذين حمق كبير . وقال سهل بن عبدالله : اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس ،الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين

واعلم ان هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة .والمحيط ماذكرناه من ملاحظة المقاصد ، ومراعاة الشروط بالإضافة إليها.فليس ما يشترط للصحبة فى مقاصد الدنيا مشروطا للصحبة فى الآخرة والاخوة .كما قاله بشر : الإخوان ثلاثة :أخ لآخرتك وأخ لدنياك وأخ لتأنس به . وقلما تجتمع هذه المقاصد فى واحد ، بل تتفرق على جمع . فتتفرق الشروط فيهم لامحاله . وقد قال المأمون : الأخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لايستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج اليه فى وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل

الداء لايحتاج اليه قط ، ولكن العبد قد يبتلى به ، وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع . وقد قيل مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات ، فمنها ماله ظل وليس له ثمر ، وهو مثل الذى ينتفع به فى الدنيا دون الأخرة ، فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال . ومنها ماله ثمر وليس له ظل ، وهو مثل الذى يصلح للآخرة دون الدنيا . ومنها ماله ثمر وظل جميعاً ومنها ماليس له واحد منهما ، كأم غيلان ، تمزق الثياب ولا طعم فيها ولا شراب . ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب كما قال تعالى (يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ[1]) وقال الشاعر

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم * لايستوون كما لايستوى الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته * وذاك ليس له طعم ولا ثمر

فإذا لم يجد رفيقا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد ، فالوحدة أولى به . قال أبو ذر رضي الله عنه : الوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة ويروي مرفوعا

وأما الديانة وعدم الفسق ، فقد قال الله تعالى (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ[2]) ولأن مشاهدة لفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب ، وتبطل نفرة القلب عنها . قال سعيد بن المسيب : لاتنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة . بل هؤلاء لاسلامة فى مخالطتهم وانما السلامة فى الانقطاع عنهم . قال الله تعالى (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا[3]) أى سلامة ، والالف بدل من الهاء . ومعناه إنا سلمنا من اثمكم ؛ وأنتم سلمتم من شرنا

فهذا ماأردنا أن نذكره من معانى الأخوة وشروطها وفوائدها . فلنرجع فى ذكر حقوقها ولوازمها ، وطرق القيام بحقها

وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل . لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدرى صاحبه . فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص . ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا . فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ؛ ويستحب صحبة الراغبين فى الآخرة . قال علي عليه السلام . أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا

(١) الحج : ١٣ (٢) لقمان : ١٥ (٣) الفرقان : ٧٢

منه. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: ماأوقعنى فى بلية إلا صحبة من لا أحتشمه. وقال لقمان يابني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر

الباب الثانى

فى حقوق الأخوة والصحبة

اعلم ان عقد الأخوة رابطة بين الشخصين؛ كعقد النكاح بين الزوجين. وكما يقتضى النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح، كما سبق ذكره فى كتاب آداب النكاح فكذا عقد الأخوة. فلأخيك عليك حق فى المال والنفس، وفى اللسان والقلب بالعفو والدعاء، وبالاخلاص والوفاء، وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف: وذلك يجمعه ثمانية حقوق

الحق الأول

فى المال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ مَثَلُ الْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» وإنما شبههما باليدين لا باليد والرجل، لأنهما يتعاونان على غرض واحد فكذا الإخوان إنما تتم إخوتهما إذا ترافقا فى مقصد واحد، فهما من وجه كالشخص الواحد وهذا يقتضى المساهمة فى السراء والضراء، والمشاركة فى المآل والحال، وارتفاع الاختصاص والاستئثار

والمواساة بالمال مع الإخوة على ثلاث مراتب:

أدناها أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك، فتقوم بحاجته من فضلة مالك. فإذا سنحت له حاجة، وكانت عندك فضلة عن حاجتك، أعطيته ابتداء، ولم تحوجه إلى السؤال. فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير فى حق الإخوة

الثانية أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك فى مالك، ونزوله منزلتك، حتى تسمح بمشاطرته فى المال. قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه

الثالثة وهى العليا، أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك. وهذه رتبة الصديقين، ومنتهي درجات المتحابين. ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضا،

(الباب الثانى فى حقوق الإخوة والصحبة)

(١) حديث مثل الاخوين مثل اليدين ـ الحديث: تقدم فى الباب قبله

كما روي أنه سُعِيَ بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء ، فأمر بضرب رقابهم، وفيهم أبو الحسين النورى ، فبادر إلى السياف ليكون هو أول مقتول، فقيل له فى ذلك، فقال أحببت أن أوثر إخوانى بالحياة فى هذه اللحظة . فكان ذلك سبب نجاة جميعهم فى حكاية طويلة

فإن لم تصادف نفسك فى رتبة من هذه الرتب مع أخيك ، فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد فى الباطن . وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية ، لا وقع لها فى العقل والدين . فقد قال ميمون ابن مهران . من رضي من الإخوان بترك الأفضال فليؤاخ أهل القبور .

وأما الدرجة الدنيا فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين . روي أن عتبة الغلام ، جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه ، فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف ، فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال : آثرت الدنيا على الله ، أما استحييت أن تدعى الأخوة فى الله وتقول هذا ! ومن كان فى الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغى أن لا تعامله فى الدنيا . قال أبو حازم : إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله فى أمور دنياك . وإنما أراد به من كان فى هذه الرتبة

وأما الرتبة العليا فهى التى وصف الله تعالى المؤمنين بها فى قوله(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[1])أي كانوا خلطاء فى الأموال ، لا يميز بعضهم رحله عن بعض. وكان منهم من لا يصحب من قال نعلى ، لأنه أضافه إلى نفسه . وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له ، وكان غائبا ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ، ففتحه وأخذ حاجته . فأخبرت الجارية مولاها ، فقال إن صدقتِ فأنتِ حرة لوجه الله ، سرورا بما فعل . وجاء رجل إلى أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال إنى أريد أن أواخيك فى الله ، فقال أتدرى ما حق الأخاء ؟ قال عرفنى . قال: أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى . قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد . قال : فاذهب عنى . وقال علي بن الحسين رضى الله عنهما لرجل ، هل يدخل أحدكم يده فى كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال: لا . قال: فلستم بإخوان . ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه ، فقالوا يا أبا سعيد ، أصليت ؟ قال نعم. قالوا فإن أهل السوق لم يصلوا بعد . قال ومن يأخذ دينه من أهل السوق ؟ بلغنى أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتعجب منه

---

[1] الشورى : ٣٨

وجاء رجل إلى ابراهيم بن أدهم رحمه الله ، وهو يريد بيت المقدس ، فقال : إنى أريد أن أرافقك ، فقال له ابراهيم على أن أكون أملك لشيئك منك ؟ قال لا . قال أعجبنى صدقك قال فكان ابراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه . وكان لايصحب إلا من يوافقه وصحبه رجل شراك ، فأهدى رجل إلى ابراهيم فى بعض المنازل قصعة من ثريد ، ففتح جراب رفيقه ، وأخذ حزمة من شراك ، وجعلها فى القصعة ، وردها إلى صاحب الهدية . فلما جاء رفيقه ،قال: أين الشراك ؟ قال ذلك الثريد الذى أكلته إيش كان،قال: كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة . قال اسمح يسمح لك . وأعطى مرة حمارا كان لرفيقه بغير إذنه رجلا رآه راجلا . فلما جاء رفيقه سكت . ولم يكره ذلك

قال ابن عمر رضي الله عنهما ، أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال أخى فلان أحوج منى إليه ، فبعث به إليه ، فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر ، حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وروى أن مسروقا ادّانَ دينا ثقيلا ، وكان على أخيه خيثمة دين ، قال فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لايعلم ، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لايعلم . ولما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، آثره بالمال والنفس، فقال عبدالرحمن ، بارك الله لك فيهما . فآثره بما آثره به ، وكأنه قبله ثم آثره به . وذلك مساواة والبداية إيثار ، والإيثار أفضل من المساواة . وقال أبو سليمان الدارانى : لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من إخوانى ، لأستقللتها له . وقال أيضا إنى لألقم اللقمة أخا من اخوانى فأجد طعمها فى حلقى . ولما كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء ، قال علي رضى الله عنه. لَعشرون درهما أعطيها أخى فى الله، أحب إلىّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين وقال أيضا : لأن أصنع صاعا من طعام وأجمع عليه اخوانى فى الله، أحب إلىّ من أن أعتق رقبة .واقتداء الكل في الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ، فإنه دخل غيضة مع بعض

---

(١) حديث لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله لك فيهما: رواه البخاري من حديث أنس

(٢) حديث انه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه ـ الحديث : لم أقف له علي أصل

أصحابه ، فاجتنى منها سواكين ، أحدهما معوج ، والآخر مستقيم . فدفع المستقيم إلى صاحبه فقال له يارسول الله : كنت والله أحق بالمستقيم منى . فقال « مَا مِنْ صَاحِبٍ يَصْحَبُ صَاحِباً وَلَوْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ إِلَّا سُئِلَ عَنْ صُحْبَتِهِ هَلْ أَقَامَ فِيهَا حَقَّ اللهِ أَمْ أَضَاعَهُ » فأشار بهذا إلى أن الأيثار هو القيام بحق الله فى الصحبة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر يغتسل عندها ، فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب ، وقام يستر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] حتى اغتسل . ثم جلس حذيفة ليغتسل ، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب ، وقام يستر حذيفة عن الناس . فأبى حذيفة وقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله لاتفعل . فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل . وقال صلى الله وسلم [2] « مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ » وروي أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع ،دخلا منزل الحسن ، وكان غائبا ، فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن ، فجعل يأكل . فقال له مالك : كف يدك حتى يجيء صاحب البيت فلم يلتفت محمد إلى قوله ، وأقبل على الأكل . وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقا ،فدخل الحسن ، وقال ياموبلك ، هكذا كنا ، لايحتشم بعضنا بعضا ، حتى ظهرت أنت وأصحابك وأشار بهذا إلى أن الانبساط فى بيوت الاخوان من الصفاء فى الأخوة : كيف وقد قال الله تعالى (أَوْ صَدِيقِكُمْ[1]) وقال(أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ، ويفوّض التصرف كما يريد . وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوي ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية ، وأذن لهم فى الانبساط فى طعام الاخوان والأصدقاء

الحق الثانى

فى الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة . وهذه أيضا لها درجات، كما للمواساة بالمال. فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار ، وإظهار الفرح وقبول المنة قال بعضهم : إذا استقضيت

(١) حديث ستر حذيفة للنبى صلى الله عليه وسلم بثوب حتى اغتسل ثم ستره صلى الله عليه وسلم لحذيفة حتى اغتسل:لم أجده أيضا

(٢) حديث مااصطحب اثنان قط الا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه: تقدم فى الباب قبله بلفظ أشدهما حبا لصاحبه

(١) النور : ٦١

أخاك حاجة فلم يقضها ، فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى ، فإن لم يقضها فكبر عليه ، واقرأ هذه الآية (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة ، فجاء بهدية فقال ماهذا ؟ قال لما أسديته إليّ. فقال خذ مالك عافاك الله ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها ، فتوضأ للصلاة ، وكبر عليه أربع تكبيرات ، وعده فى الموتى . قال جعفر ابن محمد . إنى لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائى ، مخافة أن أردهم فيستغنوا عنى . هذا فى الأعداء ، فكيف فى الأصدقاء ؟ وكان فى السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة ، يقوم بحاجتهم ، ويتردد كل يوم إليهم ، ويمونهم من ماله ، فكانوا لايفقدون من أبيهم إلا عينه . بل كانوا يرون منه مالم يروا من أبيهم فى حياته . وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ، ويسأل ويقول : هل لكم زيت ؟ هل لكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها من حيث لايعرفه أخوه . وبهذا تظهر الشفقة والاخوة

فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه ، فلاخير فيها . قال ميمون ابن مهران : من لم تنتفع بصداقته ، لم تضرك عداوته ، وقال صلى الله عليه وسلم [1] « أَلَا وَإِنَّ لِلَّهِ أَوَانِيَ فِي أَرْضِهِ وَهِيَ الْقُلُوبُ فَأَحَبُّ الْأَوَانِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَصْفَاهَا وَأَصْلَبُهَا وَأَرَقُّهَا » أصفاها من الذنوب ، وأصلبها فى الدين ، وأرقها على الاخوان

وبالجملة فينبغى أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك ، أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة ، غير غافل عن أحواله ، كما لاتغفل عن أحوال نفسك . وتغنيه عن السؤال ، وإظهار الحاجة إلى الاستعانة . بل تقوم بحاجته كأنك لاتدرى أنك قمت بها ولا ترى لنفسك حقا بسبب قيامك بها ، بل تتقلد منة بقبوله سعيك فى حقه ، وقيامك بأمره

ولا ينبغى أن تقتصر على قضاء الحاجة ، بل تجتهد فى البداية بالإكرام فى الزيادة ، والإيثار والتقديم على الأقارب والولد . كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة . وقال الحسن : من شيع أخاه فى

---

(١) حديث ان لله أوانى فى أرضه وهى القلوب فأحب الأوانى إلى الله أصفاها وأصلبها : الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى الا أنه قال الينها وأرقها واسناده جيد

(٢) حديث ما زار رجل أخاً فى الله ـ الحديث : تقدم فى الباب قبله

---

(١) الأنعام : ٣٦

الله ، بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة وفي الأثر[٢] « مازار رجلٌ أخاً في الله شوقاً إلى لقائه إلاَّ ناداه مَلكٌ من خلفه طبتَ وطابت لك الجنة » وقال عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، أو مشاغيل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم . وروى أن ابن عمر كان يلتفت يمينا وشمالا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] فسأله عن ذلك ، فقال أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه . فقال « إذا أحببتَ أحدًا فسَلْهُ عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أعنته » وفى رواية « وعن اسم جدّه وعشيرته » وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل ، فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه ، تلك معرفة النوكي . وقيل لابن عباس : من أحب الناس إليك ؟ قال جليسي . وقال : ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثا من غير حاجة له إليّ ، فعلمت ما مكافأته من الدنيا . وقال سعيد بن العاص : لجليسي عليّ ثلاث : إذا دنا رحبت به ، وإذا حدث أقبلت عليه ، وإذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ[١]) إشارة إلى الشفقة والإكرام . ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيذ ، أو بحضور فى مسرة دونه . بل يتنغص لفراقه ، ويستوحش بانفراده عن أخيه

الحق الثالث

فى اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أما السكوت . فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته وحضرته . بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به . ولا يماريه ولا يناقشه . وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله . وإذا رآه فى طريق أو حاجة ، لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ، ولا يسأله عنه ، فربما يثقل عليه ذكره ، أو يحتاج إلى أن يكذب فيه . وليسكت عن أسراره التى بثها إليه ، ولا يبثها إلى غيره البتة ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف

---

(١) حديث ابن عمر اذا أحببت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته — الحديث : الخرائطي فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى شعب الايمان بسند ضعيف ورواه الترمذى من حديث يزيد بن نعامة وقال غريب ولا يعرف ليزيد بن نعامة سماع من النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) الفتح : ٢٩

شيئا منها ولو بعد القطيعة والوحشة . فإن ذلك من لؤم الطبع ، وخبث الباطن . وأن يسكت عن القدح فى أحبابه وأهله وولده . وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذى سبَّك من بلَّغك .وقال أنس : كان صلى الله عليه وسلم[1] لا يواجه أحدا بشيء يكرهه والتأذى يحصل أولا من المبلغ ، ثم من القائل . نعم لاينبغى أن يخفى مايسمع من الثناء عليه فإن السرور به أولا يحصل من المبلغ للمدح ، ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا ، إلا إذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهي عن منكر. ولم يجد رخصة فى السكوت.فإذ ذاك لا يبالى بكراهته فإن ذلك إحسان إليه فى التحقيق ، وإن كان يظن أنها إساءة فى الظاهر

أما ذكر مساويه وعيوبه ومساوى أهله ، فهو من الغيبة.وذلك حرام فى حق كل مسلم ويزجرك عنه أمران : أحدهما أن تطالع أحوال نفسك ، فإن وجدت فيها شيئا واحدا مذموما ، فهون على نفسك ماتراه من أخيك ، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه فى تلك الخصلة الواحدة ، كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به،ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأي الرجال المهذب ؟وكل مالا تصادفه من نفسك فى حق الله ، فلا تنتظره من أخيك فى حق نفسك فليس حقك عليه بأكثر من حق الله عليك.والأمر الثانى أنك تعلم أنك لو طلبت منزها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ، ولن تجد من تصاحبه أصلا . فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساو، فإذا غلبت المحاسن المساوى فهو الغاية والمنتهى . فالمؤمن الكريم أبدا يحضر فى نفسه محاسن أخيه ، لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام وأما المنافق اللئيم ، فإنه أبدا يلاحظ المساوى والعيوب . قال ابن المبارك :المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات . وقال الفضيل : الفتوة العفو عن زلات الاخوان . ولذلك قال عليه السلام[2] استَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ جَارِ السُّوءِ الَّذِى إِنْ رَأَى خَيْراً سَتَرَهُ وَإِنْ رَأَى شَرّاً أَظْهَرَهُ»

---

(١) حديث أنس كان لا يواجه أحدا بشيء يكرهه :أبو داود والترمذى في الشمائل والنسائى فى اليوم والليلة بسند ضعيف

(٢) حديث استيعذوا بالله من جار السوء الذي ان رأى خير ستره وان رأى شرا أظهره:البخارى فى التاريخ من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وللنسائى من جديث أبى هريرة وأبى سعيد بسند صحيح تعوذوا بالله من جار السوء فى دار المقام

وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ، ويمكن تقبيحه أيضا. روي (١) أن رجلا أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما كان من الغد ذمه؛ فقال عليه السلام «أَنْتَ بِالْأَمْسِ تُثْنِي عَلَيْهِ وَالْيَوْمَ تَذُمُّهُ!» فقال والله لقد صدقت عليه بالأمس، وما كذبت عليه اليوم . إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ماعلمت فيه وأغضبني اليوم فقلت أقبح ماعلمت فيه فقال عليه السلام «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر . ولذلك قال في خبر آخر (٢) « الْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ » وفى الحديث الآخر « إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ لَكُمُ الْبَيَانَ كُلَّ الْبَيَانِ » وكذلك قال الشافعي رحمه الله : ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل . وإذا جعل مثل هذا عدلا فى حق الله ، فبأن تراه عدلا فى حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى .

وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه ، يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك اساءة الظن . فسوء الظن غيبة بالقلب ، وهو منهي عنه أيضا . وحده أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن . فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة ، فلا يمكنك أن لا تعلمه ، وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن . وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفرسا ، وهو الذى يستند إلى علامة ، فان ذلك يحرك الظن تحريكا ضروريا لا يقدر على دفعه ، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه ، حتى يصدر منه فعل له وجهان فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الاردأ ، من غير علامة تخصه به . وذلك جناية عليه بالباطن . وذلك حرام فى حق كل مؤمن . إذ قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إنّ

---

(١) حديث ان رجلا اثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه ـ الحديث: وفيه فقال صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا: الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك من حديث أبي بكرة الا أنه ذكر المدح والذم فى مجلس واحد لا بيومين ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضا

(٢) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق: الترمذى وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبى أمامة بسند ضعيف

(٣) حديث ان الله حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء : الحاكم فى التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله وعرضه ورجاله ثقات الا ان أبا على النيسابورى قال ليس هذا عندى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم انما هو عندى من كلام ابن عباس ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ولمسلم من حديث أبى هريرة كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه

اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس . وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَاتَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » والتجسس فى تطلع الأخبار، والتحسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب ، والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . ويكفيك تنبيها على كمال الرتبة فى ستر القبيح وإظهار الجميل ، أن لله تعالى وصف به فى الدعاء ، فقيل يامن أظهر الجميل وستر القبيح . والمرضى عند الله من تخلق بأخلاقه ، فإنه ستار العيوب، وغفار الذنوب ، ومتجاوز عن العبيد . فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أوفوقك ، وماهو بكل حال عبدك ولا مخلوقك ! وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين ، كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما وقد كشف الريح ثوبه عنه؟ قالوا نستره ونغطيه. قال بل تكشفون عورته. قالوا سبحان الله ! من يفعل هذا ؟ فقال أحدكم يسمع بالكلمة فى أخيه، فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها.

واعلم أنه لايتم إيمان المرء مالم يحب لأخيه مايحبه لنفسه . وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بمايحب أن يعامله به . ولاشك أنه ينتظر منه ستر العورة ، والسكوت على المساوىء والعيوب ، ولوظهر له منه نقيض ماينتظره ، اشتد عليه غيظه وغضبه . فما أبعده إذا كان ينتظر منه مالايضمره له ، ولا يعزم عليه لأجله ، وويل له فى نص كتاب الله تعالى حيث قال (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (١)) وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه ، فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية ومنشأ التقصير فى ستر العورة، أو السعى فى كشفها ، الداء الدفين فى الباطن ، وهو الحقد والحسد فإن الحقود الحسود يملأ باطنه بالخبث، ولكن يحبسه فى باطنه ، ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالا . وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة ، وارتفع الحياء ، ويترشح الباطن بخبثه الدفين .

---

(١) حديث أياكم والظن فان الظن أكذب الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث لا تجسسوا ولا تحسسوا ولاتقاطعوا ولا تدبروا وكونوا عباد الله اخوانا: متفق عليه من حديث أبى هريرة وهو بعض الحديث الذى قبله

---

(١) المطففين : ١ ، ٢ ، ٣

ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد، فالانقطاع أولى. قال بعض الحكماء: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد. ولا يزيد لطف الحقود إلا وحشة منه. ومن فى قلبه سخيمة على مسلم، فإيمانه ضعيف، وأمره مخطر، وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله. وقد روى عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال: كنت باليمن، ولى جار يهودى يخبرنى عن التوراة. فقدم علي اليهودى من سفر، فقلت إن الله قد بعث فينا نبياً فدعانا إلى الإسلام فأسلمنا. وقد أنزل علينا كتابا مصدقا للتوراة. فقال اليهودى صدقت. ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به، إنا نجد نعته ونعت أمته فى التوراة، أنه لا يحل لامرىء أن يخرج من عتبة بابه وفى قلبه سخيمة على أخيه المسلم

ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذى استودعه، وله أن ينكره وإن كان كاذبا فليس الصدق واجبا فى كل مقام. فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب، فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه، فإن أخاه نازل منزلته، وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن. هذه حقيقة الأخوة. وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرائيا وخارجا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه السلام [1] « مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » وفى خبر آخر [2] « فَكَأَنَّمَا أَحْيَا مَوْؤُدَةً » وقال عليه السلام [3] « إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهُوَ أَمَانَةٌ » وقال [4] « الْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ: مَجْلِسٍ يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٍ يُسْتَحَلُّ فِيهِ فَرْجٌ حَرَامٌ، وَمَجْلِسٍ يُسْتَحَلُّ فِيهِ مَالٌ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ»

---

(١) حديث من ستر عورة أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة: ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال يوم القيامة ولم يقل فى الدنيا ولمسلم من حديث أبى هريرة من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة وللشيخين من حديث أبن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة

(٢) حديث فكأنما أحيا موؤدة من قبرها: أبو داود والنسائى والحاكم من حديث عقبة بن عامر من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موؤدة زاد الحاكم من قبرها وقال صحيح الاسناد

(٣) حديث أذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة: أبو داود والترمذي من حديث جابر وقال حسن

(٤) حديث المجالس بالامانة الا ثلاثة مجالس ـ الحديث: أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّمَا يَتَجَالَسُ الْمُتَجَالِسَانِ بِالْأَمَانَةِ وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَى صَاحِبِهِ مَا يَكْرَهُ » قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر ؟ قال أنا قبره . وقد قيل : صدور الأحرار قبور الأسرار . وقيل : إن قلب الأحمق فى فيه ، ولسان العاقل فى قلبه أى لا يستطيع الأحمق إخفاء ما فى نفسه فيبديه من حيث لا يدرى به . فمن هذا يجب مقاطعة الحمق ، والتوقى عن صحبتهم ، بل عن مشاهدتهم . وقد قيل لآخر كيف تحفظ السر ؟ قال أجحد المخبر ، وأحلف للمستخبر . وقال آخر : أستره وأستر أنى أستره . وعبر عنه ابن المعتز فقال

ومستودعى سراً تبوأت كتمه * فأودعته صدرى فصار له قبراً

وقال آخر ، وأراد الزيادة عليه

وما السر فى صدرى كثاو بقبره * لأنى أرى المقبوز ينتظر النشرا

ولكنى أنساه حتى كأننى * بما كان منه لم أحط ساعة خبرا

ولو جاز كتم السر بينى وبينه * عن السر و الاحشاء لم تعلم السرا

وأفشى بعضهم سرا له إلى أخيه ، ثم قال له حفظت ؟ فقال بل نسيت . وكان أبو سعيد الثورى يقول : إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه ، ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيراً وكتم سرك فاصحبه . وقيل لأبى يزيد : من تصحب من الناس ؟ قال من يعلم منك ما يعلم الله ، ثم يستر عليك كما يستره الله . وقال ذو النون : لا خير فى صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوما . ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم ، لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها . وقد قال بعض الحكماء . لا تصحب من يتغير عليك عند أربع ، عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه . بل ينبغى أن يكون صدق الأخوة ثابتا على اختلاف هذه الأحوال ، ولذلك قيل

وترى الكريم إذا تصرم وصله * يخفى القبيح ويظهر الإحسانا

وترى اللئيم إذا تقضى وصله * يخفى الجميل ويظهر البهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله ، إنى أرى هذا الرجل ، يعنى عمر رضي الله عنه ، يقدمك

---

(١) حديث انما يتجالس المتجالسان بالامانة لا يحل لأحدهما ان يفشى على صاحبه ما يكره : أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية أبى بكر بن حزم مرسلا والحاكم وصححه من حديث ابن عباس انكم تجالسون بينكم بالامانة

على الأشياخ ، فاحفظ عنى خمساً : لا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تجرين عليه كذبا ، ولا تعصين له أمراً ، ولا يطلعن منك على خيانة . فقال الشعبي . كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف .

ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة فى كل ما يتكلم به أخوك . قال ابن عباس : لا تمار سفيها فيؤذيك ، ولا حليما فيقليك . وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبضِ الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ » هذا مع أن تركه مبطلا واجب . وقد جعل ثواب النفل أعظم ، لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل . وإنما الأجر على قدر النَّصَب : وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمناقصة ، فإنها عين التدابر والتقاطع . فإن التقاطع يقع أولا بالآراء ، ثم بالأقوال ، ثم بالأبدان . وقال عليه السلام (٢) « لَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْرِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ » وأشد الاحتقار المماراة فإن من رد على غيره كلامه فقد نسبه إلى الجهل والحمق ، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه . وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش . وفى حديث أبى أمامة الباهلى قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ونحن نتمارى ، فغضب وقال « ذَرُوا الْمِرَاءَ لِقِلَّةِ خَيْرِهِ وَذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّ نَفْعَهُ قَلِيلٌ وَإِنَّهُ يُهَيِّجُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ » وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته ، وذهبت كرامته . وقال عبد الله بن الحسن إياك ومماراة الرجال ، فإنك لن تعدم مكر حليم ، أو مفاجأة لئيم . وقال بعض السلف :

---

(١) حديث من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ـ الحديث : تقدم فى العلم

(٢) حديث لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا المسلم أخو المسلم ـ الحديث مسلم من حديث أبى هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس وقد تقدم بعضه قبل هذا بسبعة أحاديث .

(٣) حديث أبى أمامة خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمارى فغضب وقال ذروا المراء لقلة خيره فان نفعه قليل فانه يهيج العداوة بين الاخوان : الطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة وأبى الدرداء وواثلة وأنس دون ما بعد قوله لقلة خيره ومن هنا إلى آخر الحديث : رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة فقط واسنادهما ضعيف

أعجز الناس من قصر فى طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم . وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة ، وتورث العداوة . وقد قال الحسن : لاتشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل .

وعلى الجملة ، فلا باعث على المماراة إلا إظهار التميز بمزيد العقل والفضل ، واحتقار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار ، والايذاء والشتم بالحمق والجهل ، ولا معنى للمعاداة إلا هذا . فكيف تضامه الأخوة والمصافاة . فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « لَا تُمَارِ أَخَاكَ وَلَا تُمَازِحْهُ وَلَا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ » وقد قال عليه السلام (٢) « إِنَّكُمْ لَا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنَّ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وَجْهٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ » والمماراة مضادة لحسن الخلق . وقد انتهى السلف فى الحذر عن المماراة ، والحض على المساعدة ، إلى حد لم يروا السؤال أصلا . وقالوا إذا قلت لأخيك قم ، فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه . بل قالوا ينبغى أن يقوم ولا يسأل . وقال أبو سليمان الداراني : كان لى أخ بالعراق ، فكنت أجيئه فى النوائب ، فأقول اعطنى من مالك شيئا . فكان يلقى إلي كيسه فآخذ منه ما أريد . فجئته ذات يوم ، فقلت أحتاج إلى شيء ، فقال كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي . وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالا ، فقال ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الأخاء . واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة فى الكلام والفعل والشفقة . قال أبو عثمان الحيرى : موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم . وهو كما قال

الحق الرابع

على اللسان بالنطق فإن الأخوة كما تقتضى السكوت من المكاره ، تقتضى أيضا النطق بالمحاب . بل هو أخص بالأخوة . لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور . وإنما تراد

---

(١) حديث ابن عباس لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه: الترمذى وقال غريب لانعرفه الا من هذا الوجه يعنى من حديث ليث بن أبى سليم وضعفه الجمهور

(٢) حديث انكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق: أبو يعلى الموصلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن عدي فى الكامل وضعفه والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة

الأخوان ليستفاد منهم ، لا ليتخلص عن أذاهم . والسكوت معناه كف الأذى . فعليه أن يتودد إليه بلسانه ، ويتفقده فى أحواله التى يحب أن يتفقد فيها ، كالسؤال عن عارض إن عرض ، وإظهار شغل القلب بسببه، واستبطاء العافية عنه ، وكذا جملة أحواله التى يكرهها ينبغى أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها . وجملة أحواله التى يسربها ، ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته له فى السرور بها . فمعنى الأخوة المساهمة فى السراء والضراء . وقد قال عليه السلام [1] « إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُم أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ » وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب . فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لامحالة . فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لامحالة . فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف . والتحاب بين المؤمنين مطلوب فى الشرع ومحبوب فى الدين . ولذلك علم فيه الطريق فقال [2] « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » ومن ذلك أن تدعوه بأحب أسمائه إليه فى غيبته وحضوره . قال عمر رضي الله عنه . ثلاث يصفين لك ود أخيك أن تسلم عليه إذا لقيته أولا ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه

ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله ، عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب فى جلب المحبة . وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله ، حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه ، وجميع مايفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ، ولكن تحسين مايقبل التحسين لابد منه . وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه ، مع إظهار الفرح ، فإن إخفاء ذلك محض الحسد

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك ، بل على نيته وإن لم يتم ذلك . قال علي رضي الله عنه : من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة . وأعظم من ذلك تأثيرا فى جلب المحبة الذب عنه فى غيبته ، مهما قصد بسوء ، أو تُعُرِّضَ لعرضه بكلام صريح أو تعريض . فحق الأخوة التشمير فى الحماية والنصرة ، وتبكيت المتعنت ، وتغليظ القول عليه . والسكوت عن ذلك موغر للصدر ، ومنفر للقلب ، وتقصير فى حق الأخوة

---

(١) حديث إذ أحب أحدكم أخاه فليخبره : أبي داود والترمذى وقال حسن صحيح والحاكم من حديث المقدام ابن معدي كرب

(٢) حديث تهادوا تحابوا : البيهقى من حديث أبى هريرة وقد تقدم غير مرة]

وإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] الأخوين باليدين، تغسل إحداهما الاخرى، لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَثْلِمُهُ» وهذا من الاثلام والخذلان. فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه فأخسس بأخ براك والكلاب تفترسك، وتمزق لحومك وهو ساكت، لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم. ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً [١]) والملك الذى يمثل فى المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة، يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة حتى أن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يغتاب الناس، لأن ذلك الملك فى تمثيله يراعى المشاركة والمناسبة بين الشيء وبين مثاله، فى المعنى الذى يجرى فى المثال مجرى الروح لا فى ظاهر الصور. فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب فى عقد الأخوة وقد قال مجاهد: لا تذكر أخاك فى غيبته إلا كما تحب أن يذكرك فى غيبتك. فإذن لك فيه معياران، أحدهما أن تقدر أن الذى قيل فيه؛ لو قيل فيك، وكان أخوك حاضرا، ما الذى كنت تحب أن يقوله أخوك فيك؟ فينبغى أن تعامل المتعرض لعرضه به. والثانى أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك، ويظن أنك لا تعرف حضوره، فما كان يتحرك فى قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى؟ فينبغى أن يكون فى مغيبه كذلك. فقد قال بعضهم: ما ذكر أخ لى بغيب إلا تصورته جالسا فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو حضر. وقال آخر: ما ذُكِرَ أخ لى إلا تصورت نفسى فى صورته، فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال فيّ وهذا من صدق الأسلام، وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراد لنفسه

وقد نظر أبو الدرداء الى ثورين يحرثان فى فدان، فوقف أحدهما يحك جسمه، فوقف الآخر فبكى وقال. هكذا الإخوان فى الله، يعملان لله، فإذا وقف أحدهما وافقه الآخر. وبالموافقة يتم الإخلاص. ومن لم يكن مخلصا فى إخائه فهو منافق. والإخلاص استواء الغيب والشهادة واللسان والقلب، والسر والعلانية، والجماعة والخلوة، والاختلاف والتفاوت فى شيء من ذلك مماذقة فى المودة

---

(١) حديث تشبيه الاخوين باليدين: تقدم فى الباب قبله

(٢) حديث المسلم أخو المسلم: تقدم فى أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث

---

[١] الحجرات: ١٢

وهو دخل فى الدين ، ووليجة فى طريق المؤمنين . ومن لايقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق . فلا جرم أجره جزيل لايناله إلا موفق . ولذلك قال عليه السلام (١) « أَبَاهِرٌ أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً وَأَحْسِنْ مُصَاحَبَةَ مَنْ صَاحَبَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً » فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة ، والإسلام جزاء الجوار. فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام ، على حد الفرق بين المشقة فى القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة فإن الصحبة تقتضى حقوقا كثيرة،فى أحوال متقاربة مترادفة على الدوام،والجوار لايقتضى إلا حقوقا قريبة ، فى أوقات متباعدة لاتدوم

ومن ذلك التعليم والنصيحة : فليس حاجة أخيك الى العلم بأقل من حاجته إلى المال فإن كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك ، وإرشاده إلى كل ماينفعه فى الدين والدنيا فإن علمته وأرشدته ، ولم يعمل بمقتضى العلم ، فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل ، وفوائد تركه ، وتخوفه بما يكرهه فى الدنيا والآخرة لينزجر عنه ، وتنبهه على عيوبه ، وتقبح القبيح فى عينه ، وتحسن الحسن : ولكن ينبغى أن يكون ذلك فى سر لا يطلع عليه أحد . فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان فى السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم (٢) « الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ » أى يرى منه مالا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد. كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة.وقال الشافعي رضي الله عنه . من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسعر . أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم ، وان قرعني بين الملأ فلا وقد صدق فإن النصح على الملأ فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه فى ظل ستره ، فيوقفه على ذنوبه سرا .

---

(١) حديث أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا:الترمذى وابن ماجه واللفظ له من حديث أبى هريره بالشطر الاول فقط وقال الترمذى مؤمنا قال وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما وقال ابن ماجه مؤمنا قال الدار قطنى والحديث ثابت ورواه القضاعى فى مسند الشهاب بلفظ المصنف

(٢) حديث المؤمن مرآة المؤمن:أبو داود من حديث أبى هريرة باسناد حسن

وقد يدفع كتاب عمله مختوما إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختوما ليقرأه . وأما أهل المقت فينادون على رؤس الأشهاد، وتستنطق جوارحهم بفضائحهم ، فيزدادون بذلك خزيا وافتضاحا ، ونعوذ بالله من الخزى يوم العرض الأكبر فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان، كما ان الفرق بين المدارة والمداهنة بالغرض الباعث على الاغضاء . فإن أغضيت لسلامة دينك ، ولما ترى من اصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار . وان أغضيت لحظ نفسك ، واجتلاب شهواتك ، وسلامة جاهك ، فأنت مداهن . وقال ذوالنون . لاتصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة

فإن قلت فإذا كان فى النصح ذكر العيوب ففيه إيحاش القلب؛ فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟ فاعلم أن الإيحاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبهه على مالا يعلمه فهو عين الشفقة ، وهو استمالة القلوب ، أعنى قلوب العقلاء : وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم . فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته ، أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكى نفسك عنها ، كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك ، وقد همت بإهلاكك فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك . والصفات الذميمة عقارب وحيات ، وهى فى الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح ، وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد ، وهى مخلوقة من نار الله الموقدة . ولذلك كان عمر رضي الله عنه يستهدى ذلك من أخوانه ويقول رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه . ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه . ماالذى بلغك عنى مما تكره ؟ فاستعفى ، فألح عليه، فقال بلغنى أن لك حلتين تلبس احداهما بالنهار والأخرى بالليل ، وبلغنى أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة ، فقال عمر رضي الله عنه : أماهذان فقد كفيتهما ، فهل بلغك غيرهما؟ فقال لا . وكتب حذيفة المرعشى، إلى يوسف بن أسباط بلغنى أنك بعت دينك بحبتين ، وقفت على صاحب لبن ، فقلت بكم هذا ؟ فقال بسدس فقلت له لا بثمن . فقال هو لك ، وكان يعرفك . إكشف عن رأسك قناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى ، واعلم أن من قرأ القرءان ولم يستغن ، وآثر الدنيا ، لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين . وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين

إذقال «وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ»[1] وهذا فى عيب هو غافل عنه. فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه ، فلا ينبغى أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف فى النصح ، بالتعريض مرة ، وبالتصريح أخرى ؛ إلى حد لا يؤدى إلى الإيحاش . فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه ، وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى . وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه

أما ما يتعلق بتقصيره فى حقك ، فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح ، والتعامى عنه . والتعرض لذلك ليس من النصح فى شىء . نعم إن كان بحيث يؤدى استمراره عليه إلى القطيعة ، فالعتاب فى السر خير من القطيعة . والتعريض به خير من التصريح . والمكاتبة خير من المشافهة . والاحتمال خير من الكل . إذ ينبغى أن يكون قصدك من أخيك اصلاح نفسك بمراعاتك إياه ، وقيامك بحقه، واحتمالك تقصيره ، لا الاستعانة به، والاسترفاق منه . قال أبو بكر الكتانى : صحبنى رجل وكان على قلبى ثقيلا ، فوهبت له يوما شيئا على أن يزول ما فى قلبى ، فلم يزل . فأخذت بيده يوما إلى البيت ، وقلت له ضع رجلك على خدى ، فأبى فقلت لابد ، ففعل . فزال ذلك من قلبى . وقال أبو علي الرباطى : صحبت عبد الله الرازى ، وكان يدخل البادية ، فقال علي أن تكون أنت الأمير أو أنا ؟ فقلت بل أنت . فقال وعليك الطاعة ؟ فقلت نعم فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد ، وحملها على ظهره ، فاذا قلت له أعطنى ، قال ألست قلت أنت الأمير ؟ فعليك الطاعة . فأخذنا المطر ليلة، فوقف على رأسى إلى الصباح وعليه كساء ، وأنا جالس يمنع عنى المطر . فكنت أقول مع نفسى ، ليتنى مت ولم أقل أنت الامير .

الحق الخامس

العفو عن الزلات والهفوات . وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية ، أو فى حقك بتقصيره فى الأخوة أما ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية . والإصرار عليها ، فعليك التلطف فى نصحه بما يقوم أوده ، ويجمع شمله ، ويعيد إلى الصلاح

(1) الاعراف : ٧٩

والورع حاله فإن لم تقدر ، وبقى مصرا ، فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين فى إدامة حق مودته ، أو مقاطعته . فذهب أبوذر رضي الله عنه إلى الإنقطاع ، وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه ، فأبغضه من حيث أحببته . ورأى ذلك من مقتضى الحب فى الله ، والبغض فى الله وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة ، فذهبوا إلى خلافه . فقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك ، وحال عما كان عليه ، فلا تدعه لأجل ذلك. فإن أخاك يعوج مرة ، ويستقيم أخرى . وقال إبراهيم النخعي . لاتقطع أخاك ، ولاتهجره عند الذنب بذنبه ، فأنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا . وقال أيضا : لا تحدثوا الناس بزلة العالم ، فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها وفى الخبر [1] « اتَّقُوا زَلَّةَ الْعَالِمِ وَلاَ تَقْطَعُوهُ وَانْتَظِرُوا فَيْئَتَهُ » وفى حديث عمر، وقد سأل عن أخ كان آخاه ،فخرجَ إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه ، وقال: مافعل أخى ؟ قال ذلك أخو الشيطان . قال:مه قال أنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر : قال إذا اردت الخروج فآذنى فكتب عند خروجه اليه : بسم الله الرحمن الرحيم (حمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ [1])الآية ثم عاتبه تحت ذلك وعذله. فلما قرأ الكتاب بكى ، وقال صدق الله ونصح لى عمر . فتاب ورجع

وحكي أن أخوين ابتلى احدهما بهوى ، فأظهر عليه أخاه ،وقال إنى قد اعتللت ،فإن شئت أن لا تعقد على صحبتى لله فافعل . فقال ما كنت لاحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبدا . ثم عقد أخوة بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه فطوى أربعين يوما فى كلها يسأله عن هواه فكان يقول. القلب مقيم على حاله ومازال هو يتحلل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين . فأخبره بذلك ، فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالا وضرا

وكذلك حكي عن أخوين من السلف ، انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه ألا تقطعه وتهجره؟ فقال أحوج ما كان إلي فى هذا الوقت لما وقع فى عثرته أن آخذ بيده ، وأتلطف له فى المعاتبة ،وادعو له بالعود إلى ما كان عليه

---

(١) حديث اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته:البغوى فى المعجم وابن عدى فى الكامل من حديث عمرو ابن عوف المزنى وضعفاه

---

(١) غافر : ١

وروى فى الاسرائيليات ، أن أخوين عابدين كانا فى جبل ، نزل أحدهما ليشتري من المصر لحما بدرهم ، فرأى بَغِياً عند اللحام ، فرمقها وعشقها ، واجتذبها إلى خلوة وواقعها ثم أقام عندها ثلاثا ، واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنايته. قال فافتقده أخوه واهتم بشأنه ، فنزل إلى المدينة ، فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه . فدخل إليه وهو جالس معها فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه . وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه فقال قم يا أخى فقد علمت شأنك وقصتك ، وما كنت قط أحب إلي ولا أعز من ساعتك هذه . فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه ، قام فانصرف معه ، فهذه طريقة قوم ، وهى ألطف وأفقه من طريقة أبى ذر رضي الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم

فإن قلت ، ولم قلت هذا ألطف وأفقه ؟ ومقارف هذه المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء ، لأن الحكم إذا ثبت بعلة ، فالقياس أن يزول بزوالها . وعلة عقد الأخوة التعاون فى الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية ، فأقول أما كونه ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة ، والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة ، لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة . ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة ، أصر واستمر . وأما كونه أفقه فمن حيث أن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال . وقد أصابته جائحة ؛ وألمت به آفة افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى أن يراقب ويراعى ولا يهمل بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التى ألمت به . فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان ، وهذا من أشد النوائب . والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه ومداومته ، فسيرجع على قرب ، ويستحي من الاصرار . بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل ، فيحرص حياء منه . قال جعفر بن سليمان . مهما فترت فى العمل ، نظرت إلى محمد ابن واسع وإقباله على الطاعة ، فيرجع الي نشاطى فى العبادة ، وفارقنى الكسل ، وعملت عليه أسبوعا . وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كلحمة النسب ، والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية . ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فى عشيرته (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [1]) ولم يقل انى برىء منكم ، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب . وإلى هذا أشار

---

(1) الشعراء : ٢١٦

أبو الدرداء لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال إنما أبغض عمله ، وإلا فهو أخى وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة. ولذلك قيل لحكيم أيما أحب اليك ، أخوك أوصديقك فقال إنما أحب أخى إذا كان صديقا لى . وكان الحسن يقول كم من أخ لم تلده أمك . ولذلك قيل : القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج الى قرابة . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه مودة يوم صلة ، ومودة شهر قرابة ، ومودة سنة رحم ماسة من قطعها قطعه الله . فإذاً الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب . وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق . فإنه لم يتقدم له حق فإن تقدمت له قرابة ، فلا جرم لا ينبغى أن يقاطع ، بل يجامل . والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصحبة ابتداء ليس مذموما ولا مكروها . بل قال قائلون الانفراد أولى فأما قطع الأخوة عن دوامها فمنهى عنه ، ومذموم فى نفسه ونسبته الى تركها ابتداء، كنسبة الطلاق الى ترك النكاح، والطلاق أبغض الى الله تعالى من ترك النكاح. قال صلى الله عليه وسلم[1] «شِرَارُ عِبَادِ اللهِ المَشَّاؤُنَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ» وقال بعض السلف فى ستر زلات الإخوان : ودّ الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه . فماذا اتقيتم من محبة عدوكم ؟ وهذا لان التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان، كما أن مقارفة العصيان من محابه . فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه ، فلا ينبغى أن يضاف اليه الثانى وإلى هذا أشار عليه السلام، فى الذى شتم الرجل الذى أتى فاحشة اذ قال « مَهْ وزبره » وقال[2] «لاَتَكُونُوا عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ » فبهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء لان مخالطة الفساق محذورة ومفارقة الأحباب والإخوان أيضا محذورة ، وليس من سَلِمَ عن معارضة غيره كالذى لم يسلم . وفى الابتداء قد سلم : فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى . وفى الدوام تعارضا فكان الوفاء بحق الاخوة أولى، هذا كله فى زلته فى دينه

أما زلته فى حقه بما يوجب إيحاشه ، فلا خلاف فى أن الأولى العفو والاحتمال . بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ، ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد ، فهو واجب بحق الأخوة . فقد قيل : ينبغى أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرا ، فان لم يقبله ، قلبك فرد

---

(١) حديث شرار عباد الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاحبة: أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند ضعيف

(٢) حديث لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم :البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى الباب قبله

اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك ماأقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله ! فأنت المعيب لاأخوك . فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين ، فينبغي ألا تغضب إن قدرت . ولكن ذلك لايمكن . وقد قال الشافعي رحمه الله : من استُغضِبَ فلم يغضب فهو حمار ، ومن استُرْضِيَ فلم يرض فهو شيطان . فلاتكن حمارا ولا شيطانا ، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل . قال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وقال آخر : ماشتمت أحدا قط ، لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق مَنْ غَفَرَهَا له ، أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضا . ثم تمثل وقال :

وأغفر عوراء الكريم إدخاره * وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقد قيل :

خـذ من خليلك ماصفا * ودع الذى فيـه الكدر
فالعمـر أقصر من معا * تبة الخليـل على الغير

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أوصادقا فاقبل عذره . قال عليه السلام [1] « مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ فَلَمْ يَقْبَلْ عُذْرَهُ فَعَلَيْهِ مِثْلُ إِثْمِ صَاحِبِ الْمَكْسِ » وقال عليه السلام [2] « الْمُؤْمِنُ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الرِّضَا » فلم يصفه بأنه لايغضب . وكذلك قال الله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ[1]) ولم يقل والفاقدين الغيظ . وهذا لأن العادة لاتنتهى إلى أن يجرح الانسان فلا يتألم ، بل تنتهى إلى أن يصبر عليه ويحتمل . وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن ، فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب . ولايمكن قلعه ، ولكن يمكن ضبطه وكظمه ، والعمل بخلاف مقتضاه . فإنه يقتضى التشفى والانتقام والمكافأة ، وترك العمل بمقتضاه ممكن . وقد قال الشاعر

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أى الرجال المهذب

---

(١) حديث من اعتذر اليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل صاحب مكس : ابن ماجه وأبو داود فى المراسيل من حديث جودان واختلف فى صحبته وجهله أبو حاتم وباقى رجاله ثقات ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف

(٢) حديث المؤمن سريع الغضب سريع الرضا : لم اجده هكذا وللترمذى وحسنه من حديث أبى سعيد الخدرى الا ان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى ـ الحديث : وفيه ومنهم سريع الغضب سريع الفىء فتلك بتلك

---

(1) آل عمران : ١٣٤

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : إذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ماتكرهه ، فإنك لاتأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول قال فجربته فوجدته كذلك . وقال بعضهم : الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقيعة . وينبغي أن لايبالغ في البغضة عندالوقيعة . قال تعالى (عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً[1]) وقال عليه السلام [1] « أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنَاً مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمَاً مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنَاً مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمَاً » وقال عمر رضي الله عنه : لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا . وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك

الحق السادس

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته ، بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل مايتعلق به . فتدعو له كما تدعو لنفسك ، ولاتفرق بين نفسك وبينه . فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق . فقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لِأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ » وفي لفظ آخر [3] « يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى بِكَ أَبْدَأُ يَاعَبْدِي » وفي الحديث [4] « يُسْتَجَابُ لِلرَّجُلِ فِي أَخِيهِ مَالَا يُسْتَجَابُ لَهُ فِي نَفْسِهِ » وفي الحديث [5] « دَعْوَةُ الرَّجُلِ لِأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ لَا تُرَدُّ » وكان أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي ، أسميهم بأسمائهم : وكان محمد بن يوسف الاصفهاني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بحزنك مهتم بما

(١) حديث أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما . الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال غريب قلت رجاله ثقات رجال مسلم لكن الراوي تردد في رفعه.

(٢) حديث إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك بمثل ذلك : مسلم من حديث أبي الدرداء

(٣) حديث الدعاء للأخ بظهر الغيب وفيه . يقول الله بك أبدأ ياعبدي : لم أجد هذا اللفظ

(٤) حديث يستجاب للرجل في أخيه مالا يستجاب له في نفسه : لم أجده بهذا اللفظ ولأبي داود والترمذي وضعفه من حديث عبد الله بن عمرو ان أسرع الدعاء اجابة دعوة غائب لغائب

(٥) حديث دعوة الأخ لأخيه في الغيب لاترد : الدار قطني في العلل من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم الا انه قال مستجابة مكان لاترد ،

(1) الممتحنة : ٧

قدمت وما صرت إليه ؛ يدعو لك فى ظلمة الليل ، وأنت تحت أطباق الثرى . وكأن الأخ الصالح يقتدى بالملائكة إذ جاء فى الخبر [١] « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَ النَّاسُ مَا خَلَّفَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ ؟ » يفرحون له بما قدم ، ويسألون عنه ، ويشفقون عليه . ويقال من بلغه موت أخيه فترحم عليه ، واستغفر له ، كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] أنه قال « مَثَلُ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ مَثَلُ الْغَرِيقِ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً مِنْ وَلَدٍ أَوْ وَالِدٍ أَوْ أَخٍ أَوْ قَرِيبٍ وَإِنَّهُ لَيَدْخُلُ عَلَى قُبُورِ الْأَمْوَاتِ مِنْ دُعَاءِ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْأَنْوَارِ مِثْلُ الْجِبَالِ » وقال بعض السلف: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور ، عليه منديل من نور فيقول هذه هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان ، قال فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية

الحق السابع

الوفاء والإخلاص . ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه . فإن الحب إنما يراد للآخرة . فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي . ولذلك قال عليه السلام [٣] ، فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله « وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ » وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره فى حال الحياة . ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم [٤] أكرم عجوز أدخلت عليه فقيل له فى ذلك ، فقال « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ كَرَمَ الْعَهْدِ مِنَ الدِّينِ »

---

(١) حديث إذا مات العبد قال الناس ماخلف وقالت الملائكة ما قدم : البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

(٢) حديث مثل الميت فى قبره مثل الغريق يتعلق بكل شىء ينتظر دعوة ولد أو والد ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة قال الذهبى فى الميزان انه خبر منكر جدا

(٣) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٤) حديث اكرامه صلى الله عليه وسلم لعجوز دخلت عليه وقوله أنها كانت تأتينا أيام خديجة وان حسن العهد من الايمان : الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة

فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ فى نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لايدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به ، حتى الكلب الذى على باب داره ينبغى أن يميز فى القلب عن سائر الكلاب

ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة ، شمت به الشيطان ، فإنه لايحسد متعاونين على بر ، كما يحسد متواخيين فى الله ومتحابين فيه . فإنه يجهد نفسه لإفساد مابينهما . قال الله تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ[1]) وقال مخبراعن يوسف (مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي[2]) ويقال : ماتواخى اثنان فى الله ، فتفرق بينهما ، إلا بذنب يرتكبه أحدهما . وكان بشر يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله ، سلبه الله من يؤنسه . وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم ، وعون على الدين . ولذلك قال ابن المبارك : ألذ الأشياء مجالسة الإخوان والانقلاب إلى كفاية . والمودة الدائمة هى التى تكون فى الله . وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض . ومن ثمرات المودة فى الله أن لاتكون مع حسد فى دين ودنيا . وكيف يحسده وكل ماهو لأخيه فإليه ترجع فائدته! وبه وصف الله تعالى المحبين فى الله تعالى فقال (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ[3]) ووجوه الحاجة هو الحسد

ومن الوفاء أن لايتغير حاله فى التواضع مع أخيه ، وإن ارتفع شأنه ، واتسعت ولايته وعظم جاهه . فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم . قال الشاعر

إن الكرام إذا ماأيسروا ذكروا * من كان يألفهم فى المنزل الخشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يابني ، لاتصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك ، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير

---

(١) الإسراء : ٥٣ (٢) يوسف : ١٠٠ (٣) الحشر : ٩

وحكى الربيع أن الشافعي رحمه الله آخى رجلا ببغداد ، ثم إن أخاه ولّي السيبين ،فتغير له عما كان عليه . فكتب إليه الشافعي بهذه الأبيات

إذهب فودّك من فؤادى طالق * أبدا وليس طلاق ذات البين

فإن ارعويت فإنها تطليقة * ويدوم ودك لى على ثنتين

وإن امتنعت شفعتها بمثالها * فتكون تطليقين فى حيضين

وإذا الثلاث أتتك منى بتة * لم يغن عنك ولاية السيبين

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء له المخالفة . فقد كان الشافعي رضي الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم ، وكان يقربه ويقبل عليه ، ويقول : مايقيمني بمصر غيره . فاعتل محمد ، فعاده الشافعي رحمه الله فقال :

مرض الحبيب فعدته * فمرضت من حذرى عليه

وأتى الحبيب يعودنى * فبرئت من نظرى إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته اليه بعد وفاته . فقيل للشافعي فى علته التى مات فيها رضي الله عنه ، إلى من نجلس بعدك ياأبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومىء اليه ، فقال الشافعي : سبحان الله ! أيشك فى هذا ؟ أبو يعقوب البويطى. فانكسر لها محمد . ومال أصحابه إلى البويطى مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله . لكن كان البويطى أفضل وأقرب الى الزهد والورع . فنصح الشافعي لله وللمسلمين ، وترك المداهنة ، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى . فلما توفى انقلب محمد ابن عبد الحكم عن مذهبه ، ورجع إلى مذهب أبيه ، ودرس كتب مالك رحمه الله ، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله. وآثر البويطى الزهد والخمول ، ولم يعجبه الجمع والجلوس فى الحلقة ، واشتغل بالعبادة ، وصنف كتاب الأم الذى ينسب الآن الى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنفه البويطى ، ولكن لم يذكر نفسه فيه ، ولم ينسبه إلى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره . والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله. قال الاحنف الإخاء جوهرة رقيقة ، إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات. فاحرسها بالكظم حتى تعتذر

إلى من ظلمك ، وبالرضا حتى لاتستكثر من نفسك الفضل ، ولا من أخيك التقصير .

ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء ، أن تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها ، كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها * سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال: لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ،مايخيل إليّ أن حسرتهم ذهبت من قلبي

ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه ، لاسيما من يظهر أوّلا أنه محب لصديقه كيلايتهم ، ثم يلقي الكلام عرضا ، وينقل عن الصديق مايوغر القلب، فذلك من دقائق الحيل في التضريب . ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلا . قال واحد لحكيم :قد جئت خاطبا لمودتك . قال ان جعلت مهرها ثلاثا فعلت . قال وما هي ؟ قال لاتسمع عليّ بلاغة ، ولا تخالفني في أمر ، ولا توطئني عشوة

ومن الوفاء أن لايصادق عدوّ صديقه . قال الشافعي رحمه الله . إذا أطاع صديقك عدوّك فقد اشتركا في عداوتك

الحق الثامن

التخفيف وترك التكلف والتكليف . وذلك بأن لايكلف أخاه مايشق عليه ، بل يروح سره من مهماته وحاجاته ، ويرفهه عن أن يحمله شيئا من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ، ولا يكلفه التواضع له ، والتفقد لأحواله ، والقيام بحقوقه . بل لايقصد بمحبته إلا الله تعالى ، تبركا بدعائه ،واستئناسا بلقائه ، واستعانة به على دينه ، وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه،وتحمل مؤنته . قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه مالا يقتضونه فقد ظلمهم ومن اقتضى منهم مثل مايقتضونه فقد أتعبهم . ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم . وقال بعض الحكما : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا .ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم . ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا

وتمام التخفيف ،بطيّ بساط التكليف ، حتى لايستحي منه فيما لايستحي من نفسه

وقال الجنيد : ماتواخى اثنان فى الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أواحتشم ، إلا لعلة فى أحدهما . وقال علي عليه السلام : شر الأصدقاء من تكلف لك ، ومن أحوجك إلى مداراة ، وألجأك إلى اعتذار . وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكليف ، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له ، فيقطعه ذلك عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : المؤمن أخو المؤمن،لا يغتنمه ولا يحتشمه . وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة، كل طبقة ثلاثون رجلا حارثا المحاسبي وطبقته،وحسنا المسوحى وطبقته،وسريا السقطى وطبقته،وابن الكريبى وطبقته.فماتواخى اثنان في الله،واحتشم أحدهما من صاحبه أواستوحش،إلا لعلة في أحدهما . وقيل لبعضهم : من نصحب؟قال من يرفع عنك ثقل التكلف،وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ.وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول: أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه،وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدى.وقال بعض الصوفية:لاتعاشر من الناس إلا من لاتزيد عنده ببر،ولاتنقص عنده بإثم، يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء.وإنما قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ . وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ، ومع أبناء الآخرة بالعلم ، ومع العارفين كيف شئت . وقال آخر : لاتصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ، ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل عنك مؤنة نفسك ، ويكفيك مؤنة نفسه . وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس ، وليس الأمر كذلك . بل ينبغى أن يواخى كل متدين عاقل ، ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ، ولا يكلف غيره هذه الشروط ، حتى تكثر إخوانه . إذ به يكون مواخيا فى الله ، وإلا كانت مواخاته لحظوظ نفسه فقط . ولذلك قال رجل للجنيد:قدعز الإخوان فى هذا الزمان.أين أخ لى فى الله ؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا . فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ، ويتحمل أذاك،فهذا لعمرى قليل . وإن أردت أخا فى الله ،تحمل أنت مؤنته،وتصبر على أذاه ، فعندى جماعة أعرفهم لك.فسكت الرجل

واعلم أن الناس ثلاثة : رجل تنتفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولاتتضرر به ولكن لاتنتفع به ، ورجل لاتقدر أيضا على أن تنفعه وتتضرر به ، وهو الأحمق أوالسيء الخلق . فهذا الثالث ينبغى أن تتجنبه . فأما الثانى فلا تجتنبه ، لأنك تنتفع فى الآخرة

بشفاعته وبدعائه ، وبثوابك على القيام به . وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إن أطعتني فما أكثر اخوانك . أى إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم .وقد قال بعضهم: صحبت الناس خمسين سنة ، فما وقع بيني وبينهم خلاف . فإني كنت معهم على نفسي.ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه .

ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يعترض فى نوافل العبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان . إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم . وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر . وإن نام الليل كله لم يقل له قم . ولمن صلى الليل كله لم يقل له نم . وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان . لأن ذلك إن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة . وقد قيل : من سقطت كلفته ، دامت ألفته .ومن خفت مؤنته ، دامت مودته . وقال بعض الصحابة : إن الله لعن المتكلفين . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « أَنَا وَالْأَتْقِيَاءُ مِنْ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ » وقال بعضهم (٢) : إذا عمل الرجل فى بيت أخيه أربع خصال ، فقد تم أنسه به . إذا أكل عنده ، ودخل الخلاء ، وصلى ،ونام فذكر ذلك لبعض المشايخ ، فقال بقيت خامسة ، وهو أن يحضر مع الأهل فى بيت أخيه ويجامعها . لأن البيت يتخذ للاستخفاء فى هذه الأمور الخمس . وإلا فالمساجد أروح لقلوب المتعبدين . فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الأخاء ، وارتفعت الحشمة ، وتأكد الانبساط .وقول العرب فى تسليمهم يشير إلى ذلك . إذ يقول أحدهم لصاحبه : مرحبا وأهلا وسهلا . أى لك عندنا مرحب وهو السعة فى القلب والمكان ، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا ، ولك عندنا سهولة فى ذلك كله ، أى لا يشتد علينا شىء مما تريد

ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ، ويحسن الظن بهم ويسىء الظن بنفسه . فإذا رآهم خيرا من نفسه ، فعند ذلك يكون هو خيرا منهم . وقال أبو معاوية الأسود : إخوانى كلهم خير منى . قيل وكيف ذلك؟قال كلهم يرى لي الفضل عليه

---

(١) حديث أنا وأمتى برآء من التكلف:الدار قطنى فى الافراد من حديث الزبير بن العوام ألا انى برىء من التكلف وصالحو أمتى واسناده ضعيف

(٢) حديث إذا صنع الرجل فى بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به ـ الحديث : لم أجد له أصلا

ومن فضّلني على نفسه فهو خير مني . وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ » فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال فى رؤية الفضل للأخ. ولذلك قال سفيان . إذا قيل لك يا شر الناس فغضبت ، فأنت شر الناس . أي ينبغى أن تكون معتقدا ذلك فى نفسك أبدا وسيأتى وجه ذلك فى كتاب الكبر والعجب . وقد قيل فى معنى التواضع ورؤية الفضل للأخوان أبيات :

تذلل لمن إن تذللت له * يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يزال * على الأصدقاء يرى الفضل له

وقال آخر :

كم صديق عرفته بصديق * صار أحظى من الصديق العتيق
ورفيق رأيته فى طريق * صار عندى هو الصديق الحقيق

ومهما رأى الفضل لنفسه ، فقد احتقر أخاه . وهذا فى عموم المسلمين مذموم قال صلى الله عليه وسلم [٢] « بِحَسْبِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ »

ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه فى كل مايقصده، ويقبل إشاراتهم فقد قال تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [١]) وينبغى أن لا يخفى عنهم شيئا من أسراره . كما روي أن يعقوب ابن أخي معروف قال : جاء أسود بن سالم إلى عمى معروف ، وكان مواخيا له فقال إن بشر بن الحارث يحب مؤاخاتك ، وهو يستحى أن يشافهك بذلك، وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتذبها ، إلا أنه يشترط فيها شروطا ، لا يحب أن يشتهر بذلك ، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة ، فإنه يكره كثرة الإلتقاء . فقال معروف : أما أنا لو آخيت أحدا لم أحب مفارقته ليلا ولا نهارا

---

(١) حديث المرء على دين خليله ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ماترى له: تقدم الشطر الاول منه فى الباب قبله واما الشطر الثانى فرواه ابن عدى فى الكامل من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم: مسلم من حديث أبى هريرة وتقدم فى أثناء حديث لاتدابروا فى هذا الباب

---

(١) آل عمران : ١٥٩

ولزرته فى كل وقت ، وآثرته على نفسى فى كل حال . ثم ذكر من فضل الأخوة والحب فى الله أحاديث كثيرة ، ثم قال فيها : وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا، فشاركه فى العلم ،(١) وقاسمه فى البدن ،(٢) وأنكحه أفضل بناته(٣) وأحبهن إليه ، وخصه بذلك لمؤاخاته . وأنا أشهدك أنى قد عقدت له أخوة بينى وبينه ، وعقدت أخاءه فى الله لرسالتك ولمسألته، على أن لايزورنى إن كره ذلك ، ولكنى أزوره متى أحببت . ومره أن يلقانى فى مواضع نلتقى بها . ومره أن لايخفى عليّ شيئا من شأنه ، وأن يطلعنى على جميع أحواله فأخبر ابن سالم بشرا بذلك ، فرضي وسرّ به

فهذا جامع حقوق الصحبة . وقد أجملناه مرة ، وفصلناه أخرى . ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ، ولا تكون لنفسك عليهم . وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم ، فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر ، فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك ، وتنظر إلى محاسنهم ، وتتعامى عن عيوبهم ، ولا تصرف بصرك عنهم فى وقت إقبالهم عليك ، وكلامهم معك .

---

(١) حديث آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وشاركه فى العلم: النسائى فى الخصائص من سننه الكبرى من حديث على قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبدالمطلب ـ الحديث :وفيه فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبي ووارثى فلم يقم اليه أحد فقمت اليه وفيه حتى إذا كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى وله وللحاكم من حديث ابن عباس أن عليا كان يقول فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والله أنى لأخوه ووليه ووارث علمه ـ الحديث:وكل ما ورد فى اخوته فضعيف لا يصح منه شيء وللترمذى من حديث ابن عمر وأنت أخى فى الدنيا والآخرة وللحاكم من حديث ابن عباس أنا مدينة العلم وعلى بابها وقال صحيح الاسناد وقال ابن حبان لاأصل له وقال ابن طاهر انه موضوع وللترمذى من حديث على أنا دار الحكمة و على بابها وقال غريب

(٢) حديث مقاسمته عليا للبدن: مسلم في حديث جابر الطويل ثم أعطى عليا فنحر ماغبر وأشركه فى هديه

(٣) حديث انه أنكح عليا أفضل بناته وأحبهن اليه: هذا معلوم مشهور ففى الصحيحين من حديث على لما أردت ان أبتنى بفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعدت رجلا صواغا ـ الحديث: وللحاكم من حديث أم أيمن زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة عليا ـ الحديث : وقال صحيح الاسناد وفى الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة يافطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين الحديث

روي أنه صلى الله عليه وسلم (١) كان يعطى كل من جلس إليه نصيبا من وجهه. وما استصغاه أحدا إلا ظن أنه أكرم الناس عليه. حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه، ولطيف مسألته، وتوجهه للجالس إليه. وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة. وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه، وتعجبا مما يحدثونه به. وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله، وتوقيرا له عليه السلام

وأما السمع، فبأن تسمع كلامه متلذذا بسماعه، ومصدقا به، ومظهرا للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادّة ولا منازعة ومداخلة واعتراض، فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم، وتحرس سمعك عن سماع مايكرهون

وأما اللسان، فقد ذكرنا حقوقه فإن القول فيه يطول، ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون

وأما اليدان، فأن لا يقبضهما عن معاونتهم فى كل مايتعاطى باليد

وأما الرجلان، فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين، ولا يتقدمهم إلا بقدر مايقدمونه، ولا يقرب منهم إلا بقدر مايقربونه. ويقوم لهم إذا أقبلوا، ولا يقعد إلا بقعودهم، ويقعد متواضعا حيث يقعد. ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق، مثل القيام والاعتذار والثناء، فإنها من حقوق الصحبة، وفى ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف. فإذا تم الاتحاد، انطوى بساط التكلف بالكلية، فلا يسلك به إلا مسلك نفسه، لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب: ومهما صفت القلوب استغني عن تكلف إظهار مافيها. ومن كان نظره إلى صحبة الخلق، فتارة يعوج وتارة يستقيم. ومن كان نظره إلى الخالق لزم الإستقامة ظاهرا وباطنا، وزين باطنه بالحب لله ولخلقه، وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده، فإنها أعلى أنواع الخدمة لله، إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق. ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة

---

(١) حديث كان يعطى كل من جلس اليه نصيبه من وجهه ـ الحديث: الترمذى فى الشمائل من حديث على فى أثناء حديث فيه يعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرده الابها أو بميسور من القول ثم قال مجالسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة وفيه يضحك مما يضحكون ويتعجب مما يتعجبون منه وللترمذى من حديث عبد الله الحارث بن جزء مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب.

خاتمة

لهذا الباب

تذكر فيها جملة من آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق، ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إن أردت حسن العشرة، فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم، ولا هيبة منهم. وتوقير من غير كبر، وتواضع فى غير مذلة. وكن فى جميع أمورك فى أوسطها. فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. ولا تنظر فى عطفيك، ولا تكثر الإلتفات، ولا تقف على الجماعات. وإذا جلست فلا تستوفز. وتحفَّظْ من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك فى أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك، وطرد الذباب من وجهك، وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وغيرها. وليكن مجلسك هاديا، وحديثك منظوما مرتبا. واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك، من غير إظهار تعجب مفرط. ولا تسأله إعادته. واسكت عن المضاحك والحكايات. ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك، ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك. ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، وتوق كثرة الكحل، والإسراف فى الدهن ولا تلح فى الحاجات، ولا تشجع أحدا على الظلم، ولا تُعْلِمْ أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلا هنت عندهم، وإن كان كثيرا لم تبلغ قط رضاهم. وخوِّفهم من غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف. ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك.

وإذا خاصمت فتوقر وتحفَّظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر فى حجتك. ولا تكثر الإشارة بيديك، ولا تكثر الإلتفات إلى من وراءك، ولا تجث على ركبتيك وإذا هدأ غيظك فتكلم.

وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان، فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهيه ما لم يكن معصية، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقا عنده، فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش، وزلة لا تقال

وإياك وصديق العافية، فإنه أعدى الأعداء: ولا تجعل مالك أكرم من عرضك

وإذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم ، وترك التخطى لمن سبق ، والجلوس حيث اتسع ، وحيث يكون أقرب إلى التواضع . وأن تحيّ بالسلام من قرب منك عند الجلوس . ولا تجلس على الطريق ، فإن جلست فأدبه غض البصر ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وعون الضعيف ، وإرشاد الضال ، ورد السلام ، وإعطاء السائل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والارتياد لموضع البصاق . ولا تبصق فى جهة القبلة ، ولا عن يمينك ولكن عن يسارك ، وتحت قدمك اليسرى

ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ، ومجانبة الكذب ، وصيانة السر ، وقلة الحوائج ، وتهذيب الألفاظ ، والاعراب فى الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك ، وقلة المداعبة ، وكثرة الحذر منهم وإن ظهرت لك المودة . وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده . وعلى الملك أن يحتمل كل شىء إلا إفشاء السر ، والقدح فى الملك والتعرض للحرم

ولا تجالس العامة فإن فعلت فأدبه ترك الخوض فى حديثهم ، وقلة الاصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم ، وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم

وإياك أن تمازح لبيبا أو غير لبيب ، فإن اللبيب يحقد عليك ، والسفيه يجترىء عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ، ويسقط ماء الوجه ، ويعقب الحقد ، ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ، ويجرىء السفيه ، ويسقط المنزلة عند الحكيم ، ويمقته المتقون . وهو يميت القلب ، ويباعد عن الرب تعالى ، ويكسب الغفلة ، ويورث الذلة . وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر . وبه تكثر العيوب ، وتبين الذنوب . وقد قيل : لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر . ومن بلي فى مجلس بمزاح أو لغط ، فليذكر الله عند قيامه . قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ »

---

(١) حديث من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك الحديث: الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء السادس

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

الباب الثالث

فى حق المسلم والرحم والجوار والمال وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه الأسباب

اعلم أن الانسان إما أن يكون وحده،أو مع غيره.وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه ، لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة . وكل مخالط ففى مخالطته أدب والأدب على قدر حقه ، وحقه على قدر رابطته التى بها وقعت المخالطة . والرابطة إما القرابة وهي أخصها ، أو أخوة الإسلام ،وهى أعمها،وينطوى فى معنى الأخوة الصداقة والصحبة وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، وإما الصداقة أو الأخوة

ولكل واحد من هذه الروابط درجات ، فالقرابة لها حق ، ولكن حق الرحم المحرم آكد . وللمحرم حق . ولكن حق الوالدين آكد . وكذلك حق الجار ، ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة ، حتى أن البلدى فى بلاد الغربة يجرى مجرى القريب فى الوطن ، لاختصاصه بحق الجوار فى البلد . وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة وللمعارف درجات ، فليس حق الذى عرف بالمشاهدة كحق الذى عرف بالسماع ، بل آكد منه . والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها ، فحق الصحبة فى الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر وكذلك الصداقة تتفاوت ، فإنها إذا قويت صارت أخوة ، فإن ازدادت صارت محبة ،فإن ازدادت صارت خلة ، والخليل أقرب من الحبيب ، فالمحبة ماتتمكن من حبة القلب ، والخلة ماتتخلل سر القلب ،فكل خليل حبيب،وليس كل حبيب خليلا .وتفاوت درجات الصداقة لايخفى بحكم المشاهدة والتجربة . فأما كون الخلة فوق الأخوة ، فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة . وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم[1] « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لَا تَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ » إذ الخليل هو الذى يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرا وباطنا ، ويستوعبه . ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله

(الباب الثالث فى حقوق المسلم والرحم والجوار)

(١) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبو بكر خليلا ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى

وقد منعته الخلة عن الاشتراك فيه ، مع أنه اتخذ عليا رضي الله عنه أخا فقال [١] « عَلِيٌّ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَرُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ النُّبُوَّةَ » فعدل بعلي عن النبوة ، كما عدل بأبي بكر عن الخلة فشارك أبو بكر عليا رضي الله عنهما في الأخوة ، وزاد عليه بمقاربة الخلة ، وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال ، فإنه نبه عليه بقوله « لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً » وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله وخليله وقد روي أنه صعد المنبر يوما مستبشرا فرحا ، فقال [٢] « إِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً فَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَأَنَا خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى » فإذاً ليس قبل المعرفة رابطة ، ولا بعد الخلة درجة . وما سواهما من الدرجات بينهما . وقد ذكرنا حق الصحبة والأخوة ، ويدخل فيهما ماوراءهما من المحبة والخلة . وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة ، حتى ينتهي أقصاها إلى أن توجب الإيثار بالنفس والمال ، كما آثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكما آثره طلحة ببدنه ، إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم

فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام ، وحق الرحم ، وحق الوالدين ، وحق الجوار وحق الملك أعني ملك اليمين فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح

حقوق المسلم

[٣] هي أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك وتنصح له إذا استنصحك وتحفظه بظهر

---

(١) حديث علي مني بمنزلة هارون من موسى الا النبوة : متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص

(٢) حديث ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ـ الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله فأنا حبيب الله وانا خليل الله (الاخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم)

(٣) هو أن يسلم عليه اذا لقيه فذكر عشر خصال الشيخان من حديث أبي هريرة حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز واجابة الدعوة وتشميت العاطس وفي رواية لمسلم حق المسلم على المسلم ست إذا لقيته تسلم عليه وزاد وإذا استنصحك فانصح له وللترمذي وابن ماجه من حديث علي للمسلم على المسلم ست فذكر منها ويحب له مايحب لنفسه وقال وينصح له اذا غاب أو شهد ولأحمد من حديث معاذ وأن تحب للناس ماتحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك وفي الصحيحين من حديث البراء أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع فذكر منها وابرار القسم ونصر المظلوم

الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ماتحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لنفسك ، ورد جميع ذلك فى أخبار وآثار . وقد روى أنس رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه[1] قال «أَرْبَعٌ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ أَنْ تُعِينَ مُحْسِنَهُمْ وَأَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمُذْنِبِهِمْ وَأَنْ تَدْعُوَ لِمُدْبِرِهِمْ وَأَنْ تُحِبَّ تَائِبَهُمْ» وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، فى معنى قوله تعالى (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ[1]) قال يدعو صالحهم لطالحهم ، وطالحهم لصالحهم فإذا نظر الصالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به وإذا نظر الصالح الى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه ، واغفر له عثرته

ومنها أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، ويكره لهم مايكره لنفسه . قال النعمان ابن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] يقول « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُدِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم[3] أنه قال «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»

ومنها أن لا يؤذي أحدا من المسلمين بفعل ولا قول . قال صلى الله عليه وسلم[4] «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل يأمر فيه بالفضائل[5] « فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَدَعِ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقْتَ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ» وقال أيضا[6] « أَفْضَلُ الْمُسْلِمِينَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أنس أربع من حقوق المسلمين عليك أن تعين محسنهم وان تستغفر لمذنبهم وان تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم : ذكره صاحب الفردوس ولم أجد له اسنادا

(٢) حديث النعمان بن بشير مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ــ الحديث : متفق عليه

(٣) حديث أبي موسى المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا : متفق عليه

(٤) حديث المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

(٥) حديث فان لم تقدر فدع الناس من الشر فانها صدقة تصدقت بها على نفسك : متفق عليه من حديث أبي ذر

(٦) حديث أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده : متفق عليه من حديث أبي موسى

---

(١) الفتح : ٢٩

(١) « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُسْلِمُ ؟ » فقالوا الله ورسوله أعلم قال « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » قالوا فمن المؤمن ؟ قال « مَنْ أَمِنَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » قالوا فمن المهاجر ؟ قال « مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَاجْتَنَبَهُ » وقال رجل يارسول الله ماالإسلام ؟ قال « أَنْ يَسْلَمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ وَيَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ » وقال مجاهد: يسلط على أهل النار الجرب ، فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده . فينادى يافلان هل يؤذيك هذا ؟ فيقول نعم . فيقول هذا بما كنت تؤذى المؤمنين . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا عَنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِى الْمُسْلِمِينَ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه يارسول الله (٣) علمنى شيئا أنتفع به . قال « اعْزِلِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ زَحْزَحَ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً يُؤْذِيهِمْ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهِ حَسَنَةً وَمَنْ كَتَبَ اللهُ لَهُ حَسَنَةً أَوْجَبَ لَهُ بِهَا الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ » وقال « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ أَذَى الْمُؤْمِنِينَ » وقال الربيع بن خثيم : الناس رجلان ، مؤمن فلا تؤذه، وجاهل فلا تجاهله

---

(١) حديث أتدرون من المسلم قالوا الله ورسوله أعلم قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: الطبرانى والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ورواه ابن ماجة مقتصرا على المؤمن والمهاجر وللحاكم من حديث أنس وقال على شرط مسلم والمهاجر من هجر السوء ولأحمد باسناد صحيح من حديث عمرو بن عبسة قال رجل يارسول الله ما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك

(٢) حديث لقد رأيت رجلا فى الجنة يتقلب فى شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين: مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث أبى هريرة يارسول الله علمنى شيئا أنتفع به قال اعزل الأذى عن طريق المسلمين: مسلم من حديث أبى برزة قال قلت يانبي الله فذكره

(٤) حديث من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له بها حسنة ومن كتب له بها حسنة أوجب له بها الجنة: أحمد من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف

(٥) حديث لايحل لمسلم ان ينظر الى أخيه بنظر يؤذيه: ابن المبارك فى الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسلا بسند ضعيف وفى البر والصلة له من زيادات الحسين المروزى حمزة بن عبدالله بن أبى سمى وهو الصواب

(٦) حديث ان الله تعالى يكره أذى المؤمنين: ابن المبارك فى الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسلا باسناد جيد

ومنها أن يتواضع لكل مسلم ، ولا يتكبر عليه . فإن الله لا يحب كل مختال فخور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١)) وعن ابن أبي أوفى ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يتواضع لكل مسلم ، ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته .

ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض قال صلى الله عليه وسلم (٣) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ » وقال الخليل بن أحمد : من نم لك نم عليك ، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك

ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب الأنصاري ، قال صلى الله عليه وسلم (٤) « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » وقد قال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً عَثْرَتَهُ أَقَالَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قال عكرمة : قال الله تعالى ليوسف ابن يعقوب : بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الدارين . قالت عائشة رضي الله عنها : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله عزا

---

(١) حديث ان الله أوحى الي ان تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد : أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن حماز ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث ابن أبي أوفى كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الارملة والمسكين فيقضي حاجته : النسائي باسناد صحيح والحاكم وقال على شرط الشيخين

(٣) حديث لا يدخل الجنة قتات : متفق عليه من حديث حذيفة

(٤) حديث أبي أيوب لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ـ الحديث : متفق عليه

(٥) حديث من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة : أبو داود والحاكم وقد تقدم

(٦) حديث عائشة ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط الا ان تصاب حرمة الله فينتقم لله : متفق عليه بلفظ الا أن تنتهك

---

(١) الاعراف : ١٩٩

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ رَجُلاً بِعَفْوٍ إِلَّا عِزّاً وَمَا مِنْ أَحَدٍ تَوَاضَعَ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ »

ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع ، لا يميز بين الأهل وغير الأهل روى علي بن الحسين ، عن أبيه عن جده رضي الله عنهم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « اصْنَعِ الْمَعْرُوفَ فِي أَهْلِهِ وَفِي غَيْرِ أَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَهُوَ أَهْلُهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ » وعنه باسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الدِّينِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَاصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ إِلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ » قال أبو هريرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله . ولم تكن ترى ركبته عن ركبة جليسه . ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه .

ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه ، بل يستأذن ثلاثا ، فإن لم يؤذن له انصرف قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] « الْإِسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ فَالْأُولَى يَسْتَنْصِتُونَ وَالثَّانِيَةُ يَسْتَصْلِحُونَ وَالثَّالِثَةُ يَأْذَنُونَ أَوْ يَرُدُّونَ »

---

(١) حديث مانقص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بعفو الاعزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله: مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده اصنع المعروف الى أهله فان لم تصب أهله فأنت أهله: ذكره الدارقطني فى العلل وهو ضعيف ورواه القضاعي فى مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا بسند ضعيف

(٣) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده رأس العقل بعد الايمان التودد الى الناس واصطناع المعروف الى كل بر وفاجر: الطبراني فى الاوسط والخطابي فى تاريخ الطالبين وعنه أبو نعيم فى الحلية دون قوله واصطناع الى آخره وقال الطبراني التحبب

(٤) حديث أبي هريرة كان لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها ـ الحديث: الطبراني فى الاوسط باسناد حسن ولابي داود والترمذي وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة الاستئذان ثلاث فالأولى يستنصتون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون الدار قطني فى الافراد بسند ضعيف وفى الصحيحين من حديث أبي موسى الاستئذان ثلاث فان أذن لك والا فارجع

ومنها: أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعاملهم بحسب طريقته . فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمي بالفقه ، والعيي بالبيان ، آذى وتأذى .

ومنها: أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان . قال جابر رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَلَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ » ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن . وقال جابر (٣) قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام غلام ليتكلم ، فقال صلى الله عليه وسلم « مَهْ فَأَيْنَ الْكَبِيرُ ؟ » وفي الخبر (٤) « مَا وَقَّرَ شَابٌّ شَيْخاً إِلَّا قَيَّضَ اللهُ لَهُ فِي سِنِّهِ مَنْ يُوَقِّرُهُ » وهذه بشارة بدوام الحياة ، فليتنبه لها ، فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ الْوَلَدُ غَيْظاً ، وَالْمَطَرُ قَيْظاً ، وَتَفِيضَ اللِّئَامُ فَيْضاً ، وَتَغِيضَ الْكِرَامُ غَيْضاً ، وَيَجْتَرِئَ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ ، وَاللَّئِيمُ عَلَى الْكَرِيمِ » (٦) والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان صلى الله عليه وسلم (٧) يقدم من السفر ، فيتلقاه الصبيان ، فيقف عليهم

---

(١) حديث جابر ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا: الطبراني في الاوسط بسند ضعيف وهو عند أبي داود والبخاري في الادب من حديث عبد الله بن عمرو بسند حسن

(٢) حديث من اجلال الله اكرام ذي الشيبة المسلم: أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري باسناد حسن

(٣) حديث جابر قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم مه فأين الكبير: الحاكم وصححه

(٤) حديث ماوقر شاب شيخا لسنه الا قيض الله له في سنه من يوقره: الترمذي من حديث أنس بلفظ ما أكرم ومن يكرمه وقال حديث غريب وفي بعض النسخ حسن وفيه أبو الرحال وهو ضعيف

(٥) حديث لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظا والمطر قيظا ـ الحديث: الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود واسنادهما ضعيف

(٦) حديث التلطف بالصبيان: البزار من حديث أنس كان من أفكه الناس مع صبي وقد تقدم في النكاح وفي الصحيحين يا أبا عمير مافعل النغير وغير ذلك

(٧) حديث كان يقدم من السفر فتتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون اليه ـ الحديث: مسلم من حديث عبد الله بن جعفر كان اذا قدم من سفر تلقي بنا قال فيلقى بي وبالحسن وقال فحمل أحدنا بين يديه والآخر خلفه وفي رواية تلقى بصبيان أهل بيته وانه قدم من سفر فسبق بي اليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه وفي الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير أتذكر اذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس قال نعم فحملنا وتركك لفظ مسلم وقال البخاري ان ابن الزبير قال لابن جعفر فالله أعلم

ثم يأمر بهم فيرفعون إليه، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك، فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه، وحملك أنت وراءه. ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم. وكان[1] يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة، وليسميه، فيأخذه فيضعه في حجره، فربما بال الصبي، فيصيح به بعض من يراه، فيقول «لَا تُزْرِمُوا الصَّبِيَّ بَوْلَهُ» فيدعه حتى يقضي بوله، ثم يفرغ من دعائه له وتسميته. ويبلغ سرور أهله فيه، لئلا يروا أنه تأذى ببوله. فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده

ومنها: أن يكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفيقا. قال صلى الله عليه وسلم[2] «أَتَدْرُونَ عَلَى مَنْ حُرِّمَتِ النَّارُ؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال «عَلَى اللَّيِّنِ الْهَيِّنِ السَّهْلِ الْقَرِيبِ» وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ السَّهْلَ الطَّلْقَ الْوَجْهِ» وقال بعضهم يارسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة. فقال[4] «إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلَ السَّلَامِ وَحُسْنَ الْكَلَامِ» وقال عبد الله بن عمر

(١) حديث كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه ـ الحديث: مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم فأتي بصبي فبال عليه فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله وأصله متفق عليه وفي رواية لأحمد فيدعو لهم وفيه صبوا عليه الماء صبا وللدار قطني بال ابن الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ به أخذا عنيفا ـ الحديث: وفيه الحجاج ابن ارطأة ضعيف ولأحمد ابن منيع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا على ظهره يلاعب صبيا إذ بال فقامت لتأخذه وتضربه فقال دعيه ائتوني بكوز من ماء ـ الحديث: واسناده صحيح

(٢) حديث أتدرون على من حرمت النار قالوا الله ورسوله أعلم قال الهين اللين السهل القريب: الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل اللين وذكرها الخرائطي من رواية محمد بن أبي معيقب عن أمه قال الترمذي حسن غريب

(٣) حديث أبي هريرة ان الله يحب السهل الطلق: البيهقي في شعب الايمان بسند ضعيف ورواه من رواية مورق العجلي مرسلا

(٤) حديث ان من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام: ابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ والبيهقي في شعب الايمان من حديث هانئ بن يزيد باسناد جيد

إن البر شيء هين ، وجه طليق وكلام لين . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفاً يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا » فقال أعرابي لمن هي يارسول الله ؟ قال « لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » وقال معاذ بن جبل قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَوَفَاءِ الْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ وَحِفْظِ الْجَارِ وَرَحْمَةِ الْيَتِيمِ وَلِينِ الْكَلَامِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ » وقال أنس رضي الله عنه: عرضت للنبي الله صلى الله عليه وسلم [٤] امرأة وقالت لي معك حاجة ، وكان معه ناس من أصحابه . فقال « اجْلِسِي فِي أَيِّ نَوَاحِي السِّكَكِ شِئْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ » ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها . وقال وهب بن منبه إن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة ، يفطر في كل سبعة أيام ، فسأل الله تعالى أنه يريه كيف يغوى الشيطان الناس . فلما طال عليه ذلك ولم يجب ، قال : لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيرا لي من هذا الأمر الذي طلبته. فأرسل الله إليه ملكا فقال له: إن الله أرسلني إليك، وهو يقول لك إن كلامك هذا الذي تكلمت به، أحب إلي مما مضى من عبادتك . وقد فتح الله بصرك فانظر. فنظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض، وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب. فقال أي رب من ينجو من هذا؟ قال الورع اللين

ومنها: أن لا يعد مسلما بوعد إلا ويفي به . قال صلى الله عليه وسلم « الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ » [٥]

---

(١) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث عدي بن حاتم وتقدم في الزكاة

(٢) حديث ان في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ـ الحديث: الترمذي من حديث علي وقال حديث غريب * قلت وهو ضعيف

(٣) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث : الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي وخفض الجناح واسناده ضعيف

(٤) حديث أنس عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لي معك حاجة فقال اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس اليك ـ الحديث : رواه مسلم

(٥) حديث العدة عطية: الطبراني في الاوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف

وقال «العِدَةُ دَيْنٌ» (١) وقال (٢) «ثَلَاثٌ فِي الْمُنَافِقِ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ» وقال (٣) «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى» وذكر ذلك

ومنها: أن ينصف الناس من نفسه، ولا يأتى إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه. قال صلى الله عليه وسلم (٤) «لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ الْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ، وَبَذْلُ السَّلَامِ» وقال عليه السلام (٥) «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَلْيُؤْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» وقال صلى الله عليه وسلم (٦) «يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِماً» قال الحسن: أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال، وقال فيهن جماع الأمر لك ولولدك. واحدة لى، وواحدة لك، وواحدة بينى وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق. فأما التى لى، تعبدنى ولا تشرك بى شيئا. وأما التى لك، فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه. وأما التى بينى وبينك، فمنك الدعاء وعلىّ الإجابة. وأما التى بينك وبين الناس، فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به. وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال: أى ربّ. أىّ عبادك أعدل؟ قال من أنصف من نفسه.

---

(١) حديث العدة دين: الطبرانى فى معجميه الأوسط والأصغر من حديث على وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو داود فى المراسيل

(٢) حديث ثلاث فى المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان: متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه

(٣) حديث ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى: البخارى من حديث أبى هريرة وأصله متفق عليه ولفظ مسلم وان صام وصلى وزعم انه مسلم وهذا ليس فى البخارى

(٤) حديث لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال الانفاق من الاقتار والانصاف من نفسه وبذل السلام: الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخارى عليه

(٥) حديث من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليأت الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه: مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص نحوه والخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظه

(٦) حديث يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف والمعروف انه قاله لأبى هريرة وقد تقدم

ومنها أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته ، فينزل الناس منازلهم روي أن عائشة رضي الله عنها كانت فى سفر ، فنزلت منزلا ، فوضعت طعامها ، فجاء سائل فقالت عائشة . ناولوا هذا المسكين قرصا ، ثم مر رجل على دابة ، فقالت أدعوه إلى الطعام فقيل لها : تعطين المسكين وتدعين هذا الغني ! فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لابد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل . هذا المسكين يرضى بقرص ، وقبيح بنا أن نعطي هذا الغني على هذه الهيئة قرصا . وروي أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ فجاء جرير بن عبد الله البجلي ، فلم يجد مكانا ، فقعد على الباب . فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، فألقاه إليه ، وقال له « اجْلِسْ عَلَى هَذَا » فأخذه جرير ووضعه على وجهه ، وجعل يقبله ويبكي ، ثم لفه ورمى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني . فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا ثم قال[1] « إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ » وكذلك كل من له عليه حق قديم فليكرمه . روي أن ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] التى أرضعته جاءت إليه . فبسط لها رداءه ، ثم قال لها « مَرْحَباً بِأُمِّي » ثم أجلسها على الرداء ثم قال لها « إِشْفَعِي تُشَفَّعِي وَسَلِي تُعْطَىْ » فقالت قومي . فقال « أَمَّا حَقِّي وَحَقُّ بَنِي هَاشِمٍ فَهُوَ لَكِ » فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقنا يارسول الله ثم وصلها بعد ، وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين ، فبيع ذلك من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائة ألف درهم[3] ولربما آتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ، ولا يكون فيها سعة يجلس معه ، فينزعها ويضعها تحت الذى يجلس إليه . فإن أبى عزم عليه حتى يفعل

---

(١) حديث إذا اتاكم كريم قوم فأكرموه وفى أوله قصة فى قدوم جرير بن عبد الله : الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وتقدم فى الزكاة مختصرا

(٢) حديث ان ظئر رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته جاءت اليه فبسط لها رداءه ـ الحديث : ابو داود والحاكم وصححه من حديث أبى الطفيل مختصرا فى بسط ردائه لها دون ما بعده

(٣) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم وسادته ووضعها تحت الذى يجلس اليه : احمد من حديث ابن عمرو أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فألقى اليه وسادة من أدم حشوها ليف ـ الحديث : واسناده صحيح وللطبرانى من حديث سلمان دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكىء على وسادة فألقاه الي ـ الحديث وسنده ضعيف قال صاحب الميزان هذا خبر ساقط

ومنها: أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلا . قال صلى الله عليه وسلم (١) « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ ؟ » قالوا بلى قال « إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ » وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر رضي الله عنه ، يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ما الذى أضحكك ؟ قال « رَجُلاَنِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَارَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ هَذَا فَقَالَ اللهُ تَعَالَى رُدَّ عَلَى أَخِيكَ مَظْلَمَتَهُ فَقَالَ يَارَبِّ لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ كَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ يَارَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَيْ لِلْمُتَظَلِّمِ ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ فِي الْجِنَانِ فَقَالَ يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى هَذَا لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ قَالَ يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ ؟ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ قَالَ بِمَاذَا يَارَبِّ ؟ قَالَ بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ يَارَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » ثم قال صلى الله عليه وسلم « اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

---

(١) حديث ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة: أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء

(٢) حديث أفضل الصدقة إصلاح ذات البين: الطبرانى فى الكبير والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الافريقى ضعفه الجمهور

(٣) حديث أنس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر يارسول الله بأبى وأمى ماالذى أضحكك قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذلى مظلمتى من هذا الحديث: الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الأسناد وكذا أبو يعلى الموصلى خرجه بطول وضعفه البخارى وابن حبان

وقد قال صلى الله عليه وسلم(١) « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً » وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس ، لأن ترك الكذب واجب ، ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « كُلُّ الْكَذِبِ مَكْتُوبٌ إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ أَوْ يَكْذِبَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا أَوْ يَكْذِبَ لِامْرَأَتِهِ لِيُرْضِيَهَا »

ومنها : أن تستر عورات المسلمين كلهم . قال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » وقال (٤) « لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أبو السعيد الخدري رضي الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا يَرَى الْمُؤْمِنُ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لما عز لما أخبره « لَوْ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْراً لَكَ » فإذاً على المسلم أن يستر عورة نفسه فحق اسلامه واجب عليه كحق اسلام غيره . قال أبو بكر رضي الله عنه : لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ، ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله . وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة . فرأى رجلا وامرأة على فاحشة . فلما أصبح قال للناس : رأيتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ، ما كنتم فاعلين ؟ قالوا إنما أنت إمام . فقال علي رضي الله عنه : ليس ذلك لك إذاً يقام عليك الحد .

---

(١) حديث ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا : متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

(٢) حديث كل الكذب مكتوب الا أن يكذب الرجل في الحرب ـ الحديث : الخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث النواس بن سمعان وفيه انقطاع وضعف ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة

(٣) حديث من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة : مسلم من حديث أبي هريرة وللشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة.

(٤) حديث لا يستر عبد عبدا الا ستره الله يوم القيامة : مسلم من حديث أبي هريرة أيضا

(٥) حديث أبي سعيد الخدري لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة : الطبراني في الاوسط والصغير والخرائطي في مكارم الاخلاق واللفظ له بسند ضعيف

(٦) حديث لو سترته بثوبك كان خيرا لك : أبو داود والنسائي من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الاسناد ونعيم مختلف في صحبته

إن الله لم يأمن على هـــذا الأمر أقل من أربعة شهود . ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم ،فقال القوم مثل مقالتهم الأولى،فقال علي رضي الله عنه مثل مقالته الأولى .وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه ،كان مترددا فى أن الوالى هل له أن يقضي بعلمه فى حدود الله، فلذلك راجعهم فى معرض التقدير لا فى معرض الإخبار ، خيفة من أن لا يكون له ذلك ، فيكون قاذفا بإخباره . ومال رأي عليّ إلى أنه ليس له ذلك

وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش ، فإن أفحشها الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول،يشاهدون ذلك منه فى ذلك منها كالمرود فى المكحلة،وهذا قطلا يتفق وإن عَلِمَه القاضى تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه.فانظر إلى الحكمة فى حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذى هو أعظم العقوبات ،ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه ، بتضييق الطريق فى كشفه . فنرجوا أن لا نحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر ففى الحديث[1] «إِنَّ اللهَ إِذَا سَتَرَ عَلَى عَبْدٍ عَوْرَتَهُ فِى الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا فِى الآخِرَةِ وَإِنْ كَشَفَهَا فِى الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا مَرَّةً أُخْرَى» وعن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال : خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة فى المدينة ، فبينما نحن نمشى إذ ظهر لنا سراج . فانطلقنا نؤمه . فلما دنونا منـه ، إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط . فأخذ عمر بيدى، وقال أتدرى بيت من هذا ؟ قلت لا فقال . هذا بيت ربيعة ابن أمية بن خلف ، وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت أرى أنا قد أتينا مانهانا الله عنه،قال الله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا[1])فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم.وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاوية[2] «إِنَّكَ إِنْ تَتَبَّعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ تُفْسِدُهُمْ»

---

(١) حديث ان الله اذا ستر على عبده عورة فى الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه فى الآخرة: الحديث الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث على من أذنب ذنبا فى الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يرجع فى شىء قد عفا عنه ومن أذنب ذنبا فى الدنيا فعوقب عليه فالله أعدل من أن يثنى العقوبة على عبده لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولمسلم من حديث أبى هريرة لاستر الله على عبد فى الدنيا الا ستره يوم القيامة

(٢) حديث انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم : قاله لمعاوية أبو داود باسناد صحيح من حديث معاوية

---

(١) الحجرات : ١٢.

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ »

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى ما أخذته ولا دعوت له أحدا حتى يكون معي غيري. وقال بعضهم : كنت قاعدا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، إذ جاءه رجل بآخر ، فقال: هذا نشوان . فقال عبد الله بن مسعود: استنكهوه فاستنكهوه فوجده نشوانا ، فحبسه حتي ذهب سكره ، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ، ثم قال للجلاد اجلد وارفع يدك ، وأعط كل عضو حقه . فجلده وعليه قباء أو مرط. فلما فرغ قال للذى جاء به ، ما أنت منه ؟ قال عمه . قال عبد الله ، ما أدبت فأحسنت الأدب ، ولا سترت الحرمة إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه ، وإن الله عفو يحب العفو . ثم قرأ (١) وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) ثم قال. إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم (٢) أتى بسارق فقطعه ، فكأنما أسف وجهه ، فقالوا يارسول الله كأنك كرهت قطعه ! فقال « وَمَا يَمْنَعُنِي ؟ لاَ تَكُونُوا عَوْناً لِلشَّيَاطِينِ عَلَى أَخِيكُمْ » فقالوا ألا عفوت عنه ؟ فقال « إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ إِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ حَدٌّ أَنْ يُقِيمَهُ إِنَّ اللهَ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ » وقرأ (٢) وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وفي رواية ، فكأنما سفي في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدة تغيره

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل ، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى . فتسور عليه ، فوجد عنده امرأة وعنده خمر . فقال ياعدو الله، أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ؟ فقال وأنت ياأمير المؤمنين فلا تعجل ، فإن كنت قد عصيت الله واحدة

---

(١) حديث يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم ـ الحديث : أبو داود من حديث أبي برزة باسناد جيد وللترمذى نحوه من حديث ابن عمر وحسنه

(٢) حديث ابن مسعود انى لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد وللخرائطى فى مكارم الأخلاق فكأنما سفى فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد ـ الحديث

(١و٢) النور : ٢٢

فقد عصيت الله في ثلاثا . قال الله تعالى(وَلَا تَجَسَّسُوا [1]) وقد تجسست .وقال الله تعالى (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا [2]) وقد تسورت على ؛ وقد قال الله تعالى (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ [3]) الآية وقد دخلت بيتى بغير إذن ولا سلام . فقال عمر رضي الله عنه . هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم والله ياأمير المؤمنين لئن عفوت عنى لاأعود إلى مثلها أبدا . فعفا عنه وخرج وتركه . وقال رجل لعبد الله بن عمر ياأبا عبد الرحمن ، كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى يوم القيامة قال سمعته يقول (١) « إِنَّ اللَّهَ لَيُدْنِي مِنْهُ الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ يَارَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ فَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ لَهُ يَاعَبْدِي إِنِّي لَمْ أَسْتُرْهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ السُّوءَ سِرًّا ثُمَّ يُخْبِرَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنِ اسْتَمَعَ خَبَرَ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

ومنها:أن يتقي مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة . فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه ، كان شريكا . قال الله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ [4]) وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « كَيْفَ تَرَوْنَ مَنْ يَسُبُّ أَبَوَيْهِ ؟ فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال

---

(١) حديث ابن عمر إن الله عز وجل ليدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا ـ الحديث : متفق عليه

(٢) حديث كل أمتى معافى إلا المجاهرين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث من استمع من قوم هم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة:البخارى من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا عليه وعلى أبى هريرة أيضا

(٤) حديث كيف ترون من سب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ـ الحديث :متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر ونحوه

---

[1] الحجرات : ١٢ [2] البقرة : ١٨٩ [3] النور : ٢٧ [4] الانعام : ١٠٨

نعم «يَسُبُّ أَبَوَيْ غَيْرِهِ فَيَسُبُّونَ أَبَوَيْهِ» وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] «كلم إحدى نسائه . فمر به رجل فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « يَا فُلاَنُ هَذِهِ زَوْجَتِي صَفِيَّةُ » فقال يارسول الله ، من كنت أظن فيه فإنى لم أكن أظن فيك ، فقال « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ » وزاد فى رواية[2] « إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً » وكانا رجلين ، فقال « عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ » الحديث ، وكانت قد زارته فى العشر الأواخر من رمضان . وقال عمر رضي الله عنه من أقام نفسه مقام التهم فلايلو من من أساء به الظن . ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق ، فعلاه بالدرة ، فقال ياأمير المؤمنين إنها امرأتى . فقال هلا حيث لا يراك أحد من الناس

ومنها : أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين ، إلى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر عليه . قال صلى الله عليه وسلم «[3] إِنِّي أُوتَى وَأُسْأَلُ وَتُطْلَبُ إِلَيَّ الْحَاجَةُ وَأَنْتُمْ عِنْدِي فَاشْفَعُوا لِتُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى يَدَيْ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ » ، وقال معاوية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] « اشْفَعُوا إِلَيَّ تُؤْجَرُوا إِنِّي أُرِيدُ الأَمْرَ وَأُؤَخِّرُهُ كَيْ تَشْفَعُوا إِلَيَّ فَتُؤْجَرُوا » وقال صلى الله عليه وسلم[5] « مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَفْضَلَ مِنْ صَدَقَةِ اللِّسَانِ » . قيل وكيف ذلك ؟ قال « الشَّفَاعَةُ يُحْقَنُ بِهَا الدَّمُ وَتُجَرُّ بِهَا الْمَنْفَعَةُ إِلَى آخَرَ وَيُدْفَعُ بِهَا الْمَكْرُوهُ عَنْ آخَرَ » وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما[6] أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأنى أنظر إليه خلفها وهو يبكى ودموعه تسيل على لحيته . فقال صلى الله عليه وسلم للعباس

---

(١) حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فقال يافلان هذه زوجتى فلانة الحديث وفيه إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم : رواه مسلم

(٢) حديث إنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا وقال على رسلكما انها صفية : متفق عليه من حديث صفية

(٣) حديث انى أوتى وأسأل وتطلب الى الحاجة وأنتم عندى فاشفعوا لتؤجروا الحديث : متفق عليه من حديث أبى موسى نحوه

(٤) هذا الحديث ساقط عند العراقي وهو من رواية أبى داود والنسائى وابن عساكر من طريق همام ابن منبه عن معاوية كما فى الشارح اه مصححه

(٥) حديث مامن صدقة أفضل من صدقة اللسان الحديث الخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له والطبرانى فى الكبير من حديث سمرة بن جندب بسند ضعيف

(٦) حديث عكرمة عن ابن عباس ان زوج بريره كان عبدا يقال له مغيث كأنى أنظر اليه خلفها يبكي الحديث : رواه البخارى

ألا تعجب من شدة حب مغيث لبريرة وشدة بغضها له؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ». فقالت يارسول الله أتأمرني فأفعل ؟ فقال «لاَ إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ»

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ، ويصافحه عند السلام. قال صلى الله عليه وسلم [1] «مَنْ بَدَأَ بِالْكَلاَمِ قَبْلَ السَّلاَمِ فَلاَ تُجِيبُوهُ حَتَّى يَبْدَأَ بِالسَّلاَمِ» وقال بعضهم دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ولم أسلم ، ولم أستأذن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ارْجِعْ فَقُلِ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَادْخُلْ» وروى جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] «إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَلَّمَ أَحَدُكُمْ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ» وقال أنس رضي الله عنه ، خدمت النبي صلى الله عليه وسلم [4] ثمان حجج ، فقال لي « يَا أَنَسُ أَسْبِغِ الْوُضُوءَ يُزَدْ فِي عُمْرِكَ وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ لَقِيتَهُ مِنْ أُمَّتِي تَكْثُرْ حَسَنَاتُكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَنْزِلَكَ فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ » وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا الْتَقَى الْمُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَةً تِسْعٌ وَسِتُّونَ لِأَحْسَنِهِمَا بِشْراً » وقال الله تعالى (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا [1]) وقال عليه السلام [5] « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا

---

(١) حديث من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث : الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في اليوم والليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين

(٢) حديث دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال صلى الله عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل: أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة

(٣) حديث جابر اذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فان الشيطان اذا سلم أحدكم لم يدخل بيته :الخرائطي في مكارم الاخلاق وفيه ضعف

(٤) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثماني حجج فقال لي ياأنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك واذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك : الخرائطي في مكارم الاخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف وللترمذي وصححه اذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك

(٥) حديث والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة

---

(١) النساء : ٨٦

وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال « أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » وقال أيضا [1] « إِذَا سَلَّمَ الْمُسْلِمُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَرَدَّ عَلَيْهِ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ سَبْعِينَ مَرَّةً » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَعْجَبُ مِنَ الْمُسْلِمِ يَمُرُّ عَلَى الْمُسْلِمِ وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ » وقال عليه السلام [3] « يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَإِذَا سَلَّمَ مِنَ الْقَوْمِ وَاحِدٌ أَجْزَأَ عَنْهُمْ » وقال قتادة : كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام ، وهى تحية أهل الجنة. وكان أبو مسلم الخولانى يمر على قوم فلا يسلم عليهم ، ويقول ما يمنعنى إلا أنى أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة

والمصافحة أيضا سنة مع السلام . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] فقال السلام عليكم فقال عليه السلام « عَشْرُ حَسَنَاتٍ » فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله فقال « عِشْرُونَ حَسَنَةً » فجاء آخر فقال . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فقال « ثَلَاثُونَ » وكان أنس رضي الله عنه [5] يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك

وروى عبد الحميد بن بهرام أنه صلى الله عليه وسلم [6] مر فى المسجد يوما، وعصبة من الناس

---

(١) حديث اذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة : ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة ولم يسنده ولده فى المسند

(٢) حديث الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه : لم أقف له على أصل

(٣) حديث يسلم الراكب على الماشى واذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم ومالك فى الموطأ عن زيد ابن أسلم مرسلا ولأبى داود من حديث على يجزى عن الجماعة اذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يسلم الراكب على الماشى الحديث وسيأتى فى بقية الباب

(٤) حديث جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال سلام عليك فقال صلى الله عليه وسلم عشر حسنات الحديث : أبو داود والترمذى من حديث عمران بن حصين قال الترمذى حسن غريب وقال البيهقى فى الشعب إسناده حسن

(٥) حديث أنس كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعه متفق عليه

(٦) حديث عبد الحميد بن بهرام أنه صلى الله عليه وسلم مر فى المسجد يوما وعصبة من النساء قعود فألوى بيده بالتسليم وأشار عبد الحميد بيده الترمذى من رواية عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبى حسين عن شهر ورواه أبو داود وقال أحمد لا بأس به

قعود فأومأ بيــــده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية . فقال عليه السلام (١) « لَا تَبْدَؤُا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَا تُصَافِحُوا أَهْلَ الذِّمَّةِ وَلَا تَبْدَؤُهُمْ بِالسَّلَامِ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِ الطُّرُقِ » قالت عائشة رضي الله عنها (٢) إن رهطا من اليهود دخلوا عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا السام عليك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عَلَيْكُمْ » قالت عائشة رضي الله عنها ، فقلت بل عليكم السام واللعنة . فقال عليه السلام « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي كُلِّ شَيْءٍ » قالت عائشة ألم تسمع ماقالوا ؟ فقال «فَقَدْ قُلْتُ عَلَيْكُمْ» وقال عليه السلام (٣) «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ وَالصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ » وقال عليه السلام (٤) « لَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَإِنَّ تَسْلِيمَ الْيَهُودِ بِالْإِشَارَةِ بِالْأَصَابِعِ وَتَسْلِيمَ النَّصَارَى بِالْإِشَارَةِ بِالْأَكُفِّ » قال أبو عيسى إسناده ضعيف . وقال عليه السلام (٥) « إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ فَلْيُسَلِّمْ فَإِنْ بَدَالَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْأَخِيرَةِ » وقال أنس رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) « إِذَا الْتَقَى الْمُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَةً تِسْعَةٌ وَسِتُّونَ

---

(١) حديث لاتبدؤا اليهود والنصارى بالسلام ـ الحديث مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عائشة أن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك الحديث متفق عليه

(٣) حديث يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير : متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل مسلم والصغير على الكبير

(٤) حديث لاتشبهوا باليهود والنصارى فان تسليم اليهود الاشارة بالاصابع وتسليم النصارى الاشارة بالاكف الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف

(٥) اذا انتهي أحدكم إلى مجلس فليسلم فان بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولي بأحق من الأخيرة أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبي هريرة

(٦) حديث أنس إذا التقي المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة ـ الحديث : الخرائطى بسند ضعيف وللطبرانى فى الاوسط من حديث أبي هريرة مائة رحمة تسعة وتسعون لأبشهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسالة لاخيه وفيه الحسن بن كثير بن يحي بن أبي كثير مجهول

لِأَحْسَنِهِمَا بِشْراً » وقال عمر رضي الله عنه ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ وَسَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ وَتَصَافَحَا نَزَلَتْ بَيْنَهُمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ لِلْبَادِيءِ تِسْعُونَ وَلِلْمُصَافِحِ عَشْرَةٌ » وقال الحسن ، المصافحة تزيد في الود : وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « تَمَامُ تَحِيَّاتِكُمْ بَيْنَكُمُ الْمُصَافَحَةُ »

وقال عليه السلام (٣) « قُبْلَةُ الْمُسْلِمِ أَخَاهُ الْمُصَافَحَةُ » ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركا به ، وتوقيرا له ، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال . قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم (٤) وعن كعب بن مالك قال ، لما نزلت توبتي ، أتيت النبي صلى الله عليه وسلم (٥) فقبلت يده، وروى ان أعرابيا قال يارسول الله (٦) ائذن لى فأقبل رأسك ويدك . قال فأذن له ففعل . ولقي ابو عبيدة عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنهما ، فصافحه وقبل يده، وتنحيا يبكيان. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ، فرد عليه ، ومد يده إليه فصافحه . فقال يارسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمُسْلِمَيْنِ

---

(١) حديث عمر بن الخطاب اذا التقى المسلمان فسلم كل واحد على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة الحديث البزار في مسنده والخرائطى في مكارم الاخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وفي أسناده نظر

(٢) حديث أبي هريرة تمام تحياتكم بينكم المصافحة :الخرائطى فى مكارم الاخلاق وهو عند الترمذى من حديث أبى أمامة وضعفه

(٣) حديث قبلة المسلم أخاه المصافحة الخرائطى وابن عدى من حديث أنس وقال غير محفوظ

(٤) حديث عمر قبلنا يد رسول الله صلى الله عليه وسلم :أبو داود بسند حسن

(٥) حديث كعب بن مالك لما نزلت توبتى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده :أبو بكر بن المقرى فى كتاب الرخصة فى تقبيل اليد بسند ضعيف

(٦) حديث ان اعرابيا قال يارسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل:الحاكم من حديث بريدة الا أنه قال رجليك موضع يدك وقال صحيح الاسناد

(٧) حديث البراء بن عازب أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد ميه يده فصافحه الحديث : رواه الخرائطي بسند ضعيف وهو عند أبى داود والترمذى وابن ماجه مختصرا مامن مسلمين يلتقيان فلتصافحان الا غفر لهما قبل أن يتفرقا قال الترمذي حسن غريب من حديث أبى اسحق عن البراء

إِذَا الْتَقَيَا فَتَصَافَحَا تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُمَا » وعن النبي صلى الله عليه وسلم [١] قال « إِذَا مَرَّ الرَّجُلُ بِالْقَوْمِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ لِأَنَّهُ ذَكَّرَهُمُ السَّلَامَ وَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ » أو قال « وَأَفْضَلُ »

والانحناء عند السلام منهي عنه . قال أنس رضي الله عنه ، قلنا يارسول الله [٢] أينحني بعضنا لبعض ؟ قال لا . قال فيقبل بعضنا بعضا؟ قال لا . قال فيصافح بعضنا بعضا ؟ قال نعم [٣] والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر . وقال أبو ذر رضي الله عنه ما لقيته صلى الله عليه وسلم [٤] إلا صافحني . وطلبني يوما فلم أكن في البيت ، فلما أخبرت جئت وهو على سرير ، فالتزمني . فكانت أجود وأجود

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر . فعل ابن عباس ذلك [٥] بركاب زيد بن ثابت وأخذ عمر بغرز زيد حتى رفعه ، وقال هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد .

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام . قال أنس : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا ، لما يعلمون من كراهيته لذلك . وروى أنه عليه السلام قال مرة [٧] « إِذَا رَأَيْتُمُونِي فَلَا تَقُومُوا كَمَا تَصْنَعُ الْأَعَاجِمُ »

---

(١) حديث اذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وان لم يردوا عليه رد عليه ملأ خير منهم وأطيب : الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعا وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح

(٢) حديث أنس قلنا يارسول الله أينحني بعضنا لبعض قال لا ـ الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي

(٣) حديث الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر : الترمذي من حديث عائشة قالت قدم زيد بن حارثة الحديث وفيه فاعتنقه وقبله وقال حسن غريب

(٤) حديث أبي ذر ما لقيته صلى الله عليه وسلم الا صافحني ـ الحديث أبو داود وفيه رجل من عنزة لم يسم وسماه البيهقي في الشعب عبد الله

(٥) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت تقدم في العلم

(٦) حديث أنس ما كان شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك الترمذي وقال حسن صحيح

(٧) حديث اذا رأيتموني فلا تقوموا كما يصنع الأعاجم : أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال كما يقوم الاعاجم وفيه أبو العديس مجهول

وقال عليه السلام [١] « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وقال عليه السلام [٢] « لَا يُقِيمِ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَوَسَّعُوا وَتَفَسَّحُوا » وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهي وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا أَخَذَ الْقَوْمُ مَجَالِسَهُمْ فَإِنْ دَعَا أَحَدٌ أَخَاهُ فَأَوْسَعَ لَهُ فَلْيَأْتِهِ فَإِنَّمَا هِيَ كَرَامَةٌ أَكْرَمَهُ بِهَا أَخُوهُ فَإِنْ لَمْ يُوَسِّعْ لَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَوْسَعِ مَكَانٍ يَجِدُهُ فَيَجْلِسْ فِيهِ »

وروي أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] وهو يبول ، فلم يجب فيكره السلام عَلَى من يقضي حاجته

ويكره أن يقول ابتداء عليك السلام ، فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام [٥] « إِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى » قالها ثلاثا ، ثم قال « إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَقُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ »

ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلسا أن لا ينصرف ، بل يقعد وراء الصف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] جالسا فى المسجد ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى

---

(١) حديث من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار : أبو داود والترمذى من حديث معاوية وقال حسن

(٢) حديث لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا : متفق عليه من حديث ابن عمر

(٣) حديث إذا أخذ القوم مجالسهم فان دعا رجل أخاه فأوسع يعنى له فليجلس فانه كرامة من الله عزوجل الحديث البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن شيبة ورجاله ثقات وابن شيبة هذا ذكره أبو موسى المدينى فى ذيله فى الصحابة وقد رواه الطبرانى فى الكبير من رواية مصعب ابن شيبة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أخصر منه وشيبة بن جبير والد منصور ليست له صحبة

(٤) حديث أن رجلا سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبول فلم يجب : مسلم من حديث ابن عمر بلفظ فلم يرد عليه

(٥) حديث قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك السلام فقال إن عليك السلام تحية الميت الحديث : أبو داود والترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث ابن جرى الهجيمى وهو صاحب القصة قال الترمذى حسن صحيح

(٦) حديث كان صلى الله عليه وسلم جالسا فى المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها الحديث متفق عليه من حديث أبي واقد الليثي

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها . وأما الثاني فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أَلا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ وَأَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا » (٢) وسلمت أم هانىء على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « مَنْ هَذِهِ » ؟ فقيل له أم هانىء فقال عليه السلام « مَرْحَباً بِأُمِّ هَانِىءٍ »

ومنها : أن يصون عرض أخيه المسلم و نفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ، و يرد عنه ويناضل دونه ، وينصره . فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام . روى أبو الدرداء أن رجلا نال من رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عنه رجل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَرُدُّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وعن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) قال « مَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ وَهُوَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَهُ فَلَمْ يَنْصُرْهُ أَدْرَكَهُ اللهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَنَصَرَهُ نَصَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » وقال عليه السلام (٦) « مَنْ حَمَى عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي الدُّنْيَا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مَلَكاً يَحْمِيهِ

(١) حديث ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا : أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عارب

(٢) حديث سلمت أم هانىء عليه فقال مرحبا بأم هانىء : مسلم من حديث أم هانىء

(٣) حديث أبي الدرداء من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار : الترمذي وحسنه

(٤) حديث ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه والخرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيهما شهر بن حوشب

(٥) حديث أنس من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصرا على ما ذكر منه وإسناده ضعيف

(٦) حديث من حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار : أبو داود من حديث معاذ بن أنس نحوه بسند ضعيف

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّارِ » وقال جابر وأبو طلحة، سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يقول « مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ عِرْضُهُ وَيُسْتَحَلُّ حُرْمَتُهُ إِلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَهُ وَمَا مِنِ امْرِئٍ خَذَلَ مُسْلِماً فِي مَوْطِنٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ إِلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ »

ومنها : تشميت العاطس . قال عليه السلام (٢) فى العاطس ، يقول الحمد لله على كل حال ويقول الذى يشمته يرحمكم الله . ويرد عليه العاطس فيقول يهديكم الله ويصلح بالكم ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) يعلمنا يقول « إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ مَنْ عِنْدَهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَلْيَقُلْ يَغْفِرُ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ » وشمت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) عاطسا ولم يشمت آخر . فسأله عن ذلك ، فقال « إِنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَنْتَ سَكَتَّ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « يُشَمَّتُ الْعَاطِسُ الْمُسْلِمُ إِذَا عَطِسَ ثَلاَثاً فَإِنْ زَادَ فَهُوَ زُكَامٌ » وروى أنه (٦) شمت عاطسا ثلاثا ، فعطس أخرى ، فقال « إِنَّكَ مَزْكُومٌ » وقال أبو هريرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) إذا عطس غض صوته ، واستتر بثوبه أو يده ، وروى خمر وجهه ، وقال أبو موسى الأشعرى ، كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) رجاء

---

(١) حديث جابر وأبى طلحة ما من امرىء ينصر مسلما فى موضع ينتهك فيه من عرضه ويستحل حرمته الحديث : أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف فى أسناده

(٢) حديث يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذى يشمته يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم : البخارى وأبو داود من حديث أبى هريرة ولم يقل البخارى على كل حال

(٣) حديث ابن مسعود اذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين ـ الحديث : النسائى فى اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضا أبو داود والترمذى من حديث سالم بن عبد الله واختلف فى سناده

(٤) حديث شمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال انه حمد الله وأنت سكت متفق عليه من حديث أنس

(٥) حديث شمتوا المسلم اذا عطس ثلاثا فان زاد فهو زكام : أبو داود من حديث أبى هريرة شمت أخاك ثلاثا ـ الحديث وأسناده جيد

(٦) حديث أنه شمت عاطسا فعطس أخرى فقال انك مزكوم : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٧) حديث أبى هريرة كان اذا عطس غض صوته وستر بثوبه أو يده : أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وفى رواية لأبى نعيم فى اليوم والليلة خمر وجهه وفاه

(٨) حديث أبى موسى كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول يهديكم الله أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح

أن يقول يرحمكم الله، فكان يقول «يَهْدِيكُمُ اللهُ». وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم [1] في الصلاة، فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يرضى ربنا وبعد مايرضى، والحمد لله على كل حال. فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال «مَنْ صَاحِبُ الْكَلِمَاتِ؟» فقال أنا يارسول الله ماأردت بهن إلا خيرا. فقال «رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكاً كُلُّهُمْ يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا» وقال صلى الله عليه وسلم [2] «مَنْ عَطَسَ عِنْدَهُ فَسَبَقَ إِلَى الْحَمْدِ لَمْ يَشْتَكِ خَاصِرَتَهُ» وقال عليه السلام [3] «الْعِطَاسُ مِنَ اللهِ وَالتَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ فَإِذَا قَالَ هَاهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْ جَوْفِهِ» وقال ابراهيم النخعي: إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله. وقال الحسن: يحمد الله في نفسه. وقال كعب: قال موسى عليه السلام، يارب أقريب أنت فأناجيك؟ أم بعيد فأناديك؟ فقال أنا جليس من ذكرني فقال فإنا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها، كالجنابة والغائط. فقال اذكرني على كل حال

ومنها: أنه إذا بلي بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه. قال بعضهم: خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالقة، فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر. وقال أبو الدرداء: إنا لنبش في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم. وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره قال الله تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ [1]) قال ابن عباس في معنى قوله (وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ [2]) أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة. وقال في قوله تعالى (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ

---

(١) حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ـ الحديث: أبو داود من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وأسناده جيد

(٢) حديث من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته: الطبراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث علي بسند ضعيف

(٣) حديث العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله العطاس من الله فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وقال البخاري إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ـ الحديث

---

(١) المؤمنون: ٩٦ (٢) الرعد: ٢٢

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ[1]) قال بالرغبة والرهبة، والحياء والمداراة. وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال[1] « ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ هُوَ » فلما دخل ألان له القول ، حتى ظننت أن له عنده منزلة . فلما خرج قلت له: لما دخل قلت الذى قلت ثم ألنت له القول ! فقال « يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ » وفي الخبر[2] « مَا وَقَى الرَّجُلُ بِهِ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ » وفي الأثر: خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه ، ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا ، حتى يجعل الله له منه فرجا .

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالمساكين ، ويحسن إلى الأيتام . كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول[3] « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » وقال كعب الأحبار ، كان سليمان عليه السلام فى ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس إليه ، وقال مسكين جالس مسكينا . وقيل ما كان كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب اليه من أن يقال له يامسكين. وقال كعب الأحبار : ما فى القرءان من يا أيها الذين أمنوا فهو فى التوراة يا أيها المساكين . وقال عبادة بن الصامت : إن للنار سبعة أبواب ، ثلاثة للأغنياء ، وثلاثة للنساء ، وواحد للفقراء والمساكين . وقال الفضيل : بلغني أن نبيا من الأنبياء قال يارب كيف لى أن أعلم رضاك عنى ؟ فقال انظر كيف رضا المساكين عنك. وقال عليه السلام [4] « إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ الْمَوْتَى قِيلَ وَمَنِ الْمَوْتَى يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الْأَغْنِيَاءُ » وقال موسى :

---

(١) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث : متفق عليه

(٢) حديث ماوقى المرء به عرضه فهو له صدقة: أبو يعلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني فى زمرة المساكين : ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والترمذى من حديث عائشة وقال غريب

(٤) حديث إياكم ومجالسة الموتى قيل وما الموتى قال الأغنياء : الترمذي وضعفه والحاكم وصحح أسناده من حديث عائشة اياك ومجالسة الأغنياء

---

(١) البقرة : ٢٥١

إلهي أين أبغيك ؟ قال عند المنكسرة قلوبهم . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لاَ تَغْبِطَنَّ فَاجِراً بِنِعْمَةٍ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي إِلَى مَا يَصِيرُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ طَالِباً حَثِيثاً »

وأما اليتيم: فقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ ضَمَّ يَتِيماً مِنْ أَبَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ أَلْبَتَّةَ » وقال عليه السلام [٣] « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ » وهو يشير بأصبعيه وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً كَانَتْ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « خَيْرُ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ وَشَرُّ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ »

ومنها : النصيحة لكل مسلم، والجهد في إدخال السرور على قلبه . قال صلى الله عليه وسلم [٦] « الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِلْمُؤْمِنِ كَمَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « إِنَّ أَحَدَكُمْ مِرْآةُ أَخِيهِ فَإِذَا رَأَى فِيهِ شَيْئاً فَلْيُمِطْهُ عَنْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٨] « مَنْ قَضَى حَاجَةً لِأَخِيهِ فَكَأَنَّمَا

---

(١) حديث لاتغبطن فاجرا بنعمة ـ الحديث : البخاري في التاريخ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

(٢) حديث من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة ألبتة : أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمرو وفيه علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه

(٣) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة : البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة

(٤) حديث من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة: أحمد والطبراني باسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله ترحما ولابن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى من مسح يده على رأس يتيم رحمة له ـ الحديث.

(٥) حديث خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه ضعف.

(٦) حديث المؤمن يحب للمؤمن مايحب لنفسه تقدم بلفظ لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ولم اره بهذا اللفظ

(٧) حديث إن أحدكم مرآة أخيه ـ الحديث : رواه أبو داود والترمذي وقد تقدم

(٨) حديث من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره : البخاري في التاريخ والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسلا

خَدَمَ اللهُ عُمْرَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَقَرَّ عَيْنَ مُؤْمِنٍ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا كَانَ خَيْراً لَهُ مِنِ اعْتِكَافِ شَهْرَيْنِ » و قال عليه السلام (٢) « مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ مَغْمُومٍ أَوْ أَعَانَ مَظْلُوماً غَفَرَ اللهُ لَهُ ثَلَاثاً وَسَبْعِينَ مَغْفِرَةً » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً » فقيل كيف ينصره ظالما ؟ قال « يَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ » وقال عليه السلام (٤) « إِنَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ إِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ أَوْ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ غَمّاً أَوْ يَقْضِيَ عَنْهُ دَيْناً أَوْ يُطْعِمَهُ مِنْ جُوعٍ » وقال صلى الله عليه وسلم مَنْ حَمَى مُؤْمِناً مِنْ مُنَافِقٍ يَعْنِتُهُ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِي لَحْمَهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « خَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ الشِّرْكُ بِاللهِ وَالضُّرُّ لِعِبَادِ اللهِ . وَخَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الْبِرِّ الإِيمَانُ بِاللهِ وَالنَّفْعُ لِعِبَادِ اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ » وقال معروف الكرخي : من قال كل يوم اللهم ارحم أمة محمد ، كتبه الله من الأبدال وفي رواية أخرى اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، كل يوم ثلاث مرات، كتبه الله من الأبدال

---

(١) حديث من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين : الحاكم وصححه من حديث ابن عباس لأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته وأشار بأصبعه أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين وللطبرانى فى الأوسط من مشى فى حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكافه عشر سنين وكلاهما ضعيف

(٢) حديث من فرج عن مغموم أو أعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة : الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من حديث أنس بلفظ من أغاث ملهوفا

(٣) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

(٤) حديث ان من أحب الأعمال إلي الله إدخال السرور على المؤمن ـ الحديث : الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٥) حديث خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضر بعباد الله ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يسنده ولده فى مسنده

(٦) حديث من لم يهتم للمسلمين فليس منهم الحاكم من حديث حذيفة والطبرانى فى الأوسط من حديث أبي ذر وكلاهما ضعيف

وبكى علي بن الفضيل يوماً فقيل له ما يبكيك ؟ قال أبكى على من ظلمنى إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ، وسئل عن ظلمه ، ولم تكن له حجة

ومنها أن يعود مرضاهم ،فالمعرفة والإسلام كافيان فى إثبات هذا الحق، ونيل فضله. وأدب العائد خفة الجلسة ، وقلة السؤال ، وإظهار الرقة ، والدعاء بالعافية ،وغض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لايقابل الباب ، ويدق برفق ، ولا يقول أنا إذا قيل له مَن،ولا يقول ياغلام ، ولكن يحمد ويسبح . وقال صلى الله عليه وسلم « تَمَامُ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ أَنْ يَضَعَ أَحَدُكُمْ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ وَيَسْأَلُهُ كَيْفَ هُوَ؟ وَتَمَامُ تَحِيَّاتِكُمُ الْمُصَافَحَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] «مَنْ عَادَ مَرِيضاً قَعَدَ فِي مَخَارِفِ الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا قَامَ وُكِّلَ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفِ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى اللَّيْلِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] إِذَا عَادَ الرَّجُلُ الْمَرِيضَ خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ فَإِذَا قَعَدَ عِنْدَهُ قَرَّتْ فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ قَالَ اللهُ تَعَالَى طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مَنْزِلاً فِي الْجَنَّةِ » وقال عليه السلام « إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَقَالَ انْظُرَا مَاذَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاؤُهُ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَفَعَا ذَلِكَ إِلَى اللهِ وَهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ :

---

(١) حديث من عاد مريضا قعد فى الجنة ـ الحديث : أصحاب السنن والحاكم من حديث على من أتى أخاه المسلم عائدا مشى فى خرافة الجنة حتى يجلس فاذا جلس غمرته الرحمة فان كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسى وان كان مساء ـ الحديث : لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذي ولمسلم من حديث ثوبان من عاد مريضا لم يزل فى خرفة الجنة

(٢) حديث اذا عاد الرجل المريض خاض فى الرحمة فاذا قعد عنده قرت: الحاكم والبيهقى من حديث جابر وقال انغمس فيها قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر وذكره مالك فى الموطأ بلاغا بلفظ قرت فيه ورواه الواقدي بلفظ استقر فيها وللطبراني فى الصغير من حديث أنس فاذا قعد عنده غمرته الرحمة وله فى الأوسط من حديث كعب بن مالك وعمرو ابن حزم استنقع فيها

(٣) حديث إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوأت منزلا فى الجنة: الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة الا أنه قال ناداه مناد قال الترمذى غريب قلت فيه عيسى ابن سنان القسملى ، ضعفه الجمهور

(١) لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَ لَهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ » وقال عثمان رضي الله عنه ، مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) فقال « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أُعِيذُكَ بِاللَّهِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ مِنْ شَرِّ مَا تَجِدُ » قالها مرارا

ودخل صلى الله عليه وسلم (٤) على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض ، فقال له « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَعْجِيلَ عَافِيَتِكَ أَوْ صَبْراً عَلَى بَلِيَّتِكَ أَوْ خُرُوجاً مِنَ الدُّنْيَا إِلَى رَحْمَتِكَ فَإِنَّكَ سَتُعْطَى إِحْدَاهُنَّ » ويستحب للعليل أيضا أن يقول : أعوذ بعزة الله وقدرته ، من شر ما أجد وأحاذر ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا شكا أحدكم بطنه فليسأل امرأته شيئا من صداقها ، ويشتري به عسلا ، ويشربه بماء السماء ، فيجتمع له الهنيء والمريء والشفاء والمبارك . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَمْرٍ هُوَ حَقٌّ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ فِي أَوَّلِ مَضْجَعِهِ مِنْ مَرَضِهِ نَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ؟ قلت بلى يارسول الله :

---

(١) حديث اذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال انظرا مايقوله لعواده ـ الحديث : مالك في الموطأ مرسلا من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري وفيه عباد بن كثير الثقفي ضعيف ـ الحديث : وللبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى اذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني الى عواده أطلقته من أساري ثم أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ثم يستأنف العمل وإسناده جيد

(٢) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه : البخاري من حديث أبي هريرة

(٣) حديث عثمان مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الأحد الصمد ـ الحديث : ابن السني في اليوم والليلة والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان باسناد حسن

(٤) حديث دخل على علي وهو مريض فقال قل اللهم اني أسألك تعجيل عافيتك ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم عليا وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة أن جبريل علمها للنبي صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات

(٥) حديث أبي هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار : ابن أبي الدنيا في الدعاء وفي المرض والكفارات

قال « يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً إِنَّ كِبْرِيَاءَ رَبِّنَا وَجَلَالَهُ وَقُدْرَتَهُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، اللَّهُمَّ إِنْ أَنْتَ أَمْرَضْتَنِي لِتَقْبِضَ رُوحِي فِي مَرَضِي هَذَا فَاجْعَلْ رُوحِي فِي أَرْوَاحِ مَنْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْكَ الْحُسْنَى وَبَاعِدْنِي مِنَ النَّارِ كَمَا بَاعَدْتَ أَوْلِيَاءَكَ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْكَ الْحُسْنَى » وروي أنه قال عليه السلام [١] « عِيَادَةُ الْمَرِيضِ بَعْدَ ثَلَاثٍ فُوَاقُ نَاقَةٍ » وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : عيادة المريض مرة سُنة ، فما ازدادت فنافلة . وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث وقال عليه السلام [٢] « أَغِبُّوا فِي الْعِيَادَةِ وَأَرْبِعُوا فِيهَا »

وجملة أدب المريض حسن الصبر ، وقلة الشكوى والضجر ، والفزع إلى الدعاء ، والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء .

ومنها أن يشيع جنائزهم . قال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ شَيَّعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ مِنَ الْأَجْرِ فَإِنْ وَقَفَ حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ » وفى الخبر [٤] « الْقِيرَاطُ مِثْلُ أُحُدٍ » ولما روى أبو هريرة هذا الحديث ، وسمعه ابن عمر ، قال لقد فرطنا إلى الآن فى قراريط كثيرة والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة ، قال اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول ، والآخر لا عقل له . وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكى ويقول : والله لا تقر عينى حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لا أعلم مادمت حيا . وقال الأعمش . كنا نشهد الجنائز فلا ندرى لمن نعزى لحزن القوم كلهم . ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت ، فقال لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ، إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومرارة الموت قد ذاق

---

(١) حديث عيادة المريض فواق ناقة : ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض من حديث أنس باسناد فيه جهالة

(٢) حديث أغبوا فى العيادة وأربعوا : ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد الا أن يكون مغلوبا وإسناده ضعيف

(٣) حديث من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فان وقف حتى تدفن فله قيرطان : الشيخان من حديث أبى هريرة

(٤) حديث القيراط مثل جبل أحد : مسلم من حديث ثوبان وأبى هريرة وأصله متفق عليه

وخوف الخاتمة قد أمن . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ »

ومنها أن يزور قبورهم . والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ » وقال عمر رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) فأتى المقابر ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكينا. فقال ما يبكيكم؟ قلنا: بكينا لبكائك. قال «هَذَا قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي ، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الْوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ » وكان عمر رضي الله عنه ، إذا وقف على قبر بكى حتى تبل لحيته، ويقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) يقول « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ » وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود ، و بيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة ، فهذا ما أعددت لك فما أعددت لى ؟ وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى ؟ يوم أوضع فى قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك ، فقال أجلس إلى قوم يذكروننى معادى ، وإن قمت عنهم لم يغتابونى . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ مَنْ تَغْبِطُونَ ؟ قَالُوا نَغْبِطُ أَهْلَ الْمَسَاجِدِ لِأَنَّهُمْ يَصُومُونَ وَلَا نَصُومُ وَيُصَلُّونَ وَلَا نُصَلِّي وَيَذْكُرُونَ اللهَ وَلَا نَذْكُرُهُ » وقال سفيان : من أكثر ذكر القبر وجده

---

(١) حديث يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد: مسلم من حديث أنس

(٢) حديث مارأيت منظرا الا والقبر أفظع منه : الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الاسناد وقال الترمذي حسن غريب

(٣) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس الى قبر ـ الحديث: فى زيارته قبر أمه. مسلم من حديث أبى هريرة مختصرا وأحمد من حديث بريدة وفيه فقام اليه عمر ففداه بالأب والأم يقول يارسول مالك الحديث

(٤) حديث عثمان بن عفان ان القبر أول منازل الآخرة ـ الحديث : الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح اسناده

(٥) حديث مامن ليلة الا ينادى مناد ياأهل القبور من تغبطون فيقولون نغبط أهل المساجد ـ الحديث لم أجد له أصلا

روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع ابن خثيم قد حفر فى داره قبراً ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ، ومكث ساعة ، ثم قال (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ [١]) ، ثم يقول : يا ربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، وقال يا ميمون ، هذه قبور آبائى بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم . أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات ؟ وأصاب الهوام من أبدانهم ؟ ثم بكى ، وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله

وآداب المعزى خفض الجناح ، وإظهار الحزن ، وقلة الحديث ، وترك التبسم .

وآداب تشييع الجنازة لزوم الخشوع ، وترك الحديث ، وملاحظة الميت ، والتفكر فى الموت ، والاستعداد له ، وأن يمشي أمام الجنازة بقربها [١] والإسراعُ بالجنازة سُنة

فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق ، والجملة الجامعة فيه أن لا تستصغر منهم أحداً حيا كان أو ميتا فتهلك لأنك لا تدرى لعله خير منك ، فإنه وإن كان فاسقا فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح . ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم فى حال دنياهم ، فإن الدنيا صغيرة عند الله ، صغير ما فيها ، ومهما عظم أهل الدنيا ، فى نفسك فقد عظمت الدنيا ، فتسقط من عين الله . ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم ، فتصغر فى أعينهم ، ثم تحرم دنياهم ، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير . ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة ، فيطول الأمر عليك فى المعاداة ، ويذهب دينك ودنياك فيهم ، ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكرا فى الدين ، فتعادى أفعالهم القبيحة ، وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم . فحسبهم جهنم يصلونها ، فمالك تحقد عليهم ! ولا تسكن إليهم فى مودتهم لك ، وثنائهم عليك فى وجهك ، وحسن بشرهم لك ، فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة إلا واحدا ، وربما لا تجده . ولا تشك إليهم أحوالك ، فيكلك الله إليهم . ولا تطمع أن يكونوا لك فى الغيب والسر كما فى العلانية ، فذلك طمع كاذب ، وأنى تظفر به .

---

(١) حديث الاسراع بالجنازة : متفق عليه من حديث أبى هريرة اسرعوا بالجنازة ـ الحديث :

[١] المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠

ولا تطمع فيما فى أيديهم ، فتستعجل الذل ، ولا تنال الغرض . ولا تعل عليهم تكبرا لاستغنائك عنهم ، فإن الله يلجئك إليهم ، عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء . وإذا سألت أخا منهم حاجة فقضاها ، فهو أخ مستفاد . وإن لم يقض فلا تعاتبه ، فيصير عدوا تطول عليك مقاساته . ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول ، فلا يسمع منك ويعاديك وليكن وعظك عرضا واسترسالا ، من غير تنصيص على الشخص . ومهما رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذى سخرهم لك ، واستعذ بالله أن يكلك إليهم . وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شرا ، أو أصابك منهم مايسوءك ، فكل أمرهم إلى الله ، واستعذ بالله من شرهم ، ولا تشغل نفسك بالمكافأة ، فيزيد الضرر ، ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعى ، واعتقد أنك لو استحقيت ذلك لجعل الله لك موضعا فى قلوبهم ، فالله المحبب والمبغض إلى القلوب ، وكن فيهم سميعا لحقهم ، أصم عن باطلهم ، نطوقا بحقهم ، صموتا عن باطلهم

واحذر صحبة أكثر الناس ، فإنهم لا يقيلون عثرة ، ولا يغفرون زلة ، ولا يسترون عورة ، ويحاسبون على النقير والقطمير ، ويحسدون على القليل والكثير ، ينتصفون ولا ينصفون ، ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون ، يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان ، فصحبة أكثرهم خسران ، وقطيعتهم رجحان . إن رضوا فظاهرهم الملق ، وإن سخطوا فباطنهم الحنق ، لا يؤمنون فى حنقهم ، ولا يرجون فى ملقهم . ظاهرهم ثياب ، وباطنهم ذئاب . يقطعون بالظنون ، ويتغامزون وراءك بالعيون ، ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون . يحصون عليك العثرات فى صحبتهم ، ليواجهوك بها فى غضبهم ووحشتهم . ولا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدة فى دار أو موضع واحد ، فتجربه فى عزله وولايته ، وغناه وفقره ، أو تسافر معه ، أو تعامله فى الدنيا والدرهم ، أو تقع فى شدة فتحتاج إليه ، فإن رضيته فى هذه الأحوال ، فاتخذه أبا لك إن كان كبيرا ، أو ابنا لك إن كان صغيرا ، أو أخاك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ماتقتضيه أخوة الإسلام ، فيستحق الجار المسلم

ما يستحقه كل مسلم وزيادة. إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ، فَالْجَارُ الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ الْجَارُ الْمُسْلِمُ ذُو الرَّحِمِ فَلَهُ حَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الرَّحِمِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْإِسْلَامِ وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْمُشْرِكُ » فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار. وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ » وقال عليه السلام (٧) « إِذَا أَنْتَ رَمَيْتَ كَلْبَ جَارِكَ فَقَدْ آذَيْتَهُ » ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: إن لي جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق علي، فقال اذهب، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه. وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) إن فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل وتؤذي جيرانها. فقال صلى الله عليه وسلم « هِيَ فِي النَّارِ » وجاء رجل إليه عليه السلام (٩) يشكو جاره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اصْبِرْ » ثم قال له في الثالثة أو الرابعة « اطْرَحْ

---

(١) حديث الجيران ثلاثة جار له حق وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق ـ الحديث: الحسن بن سفيان والبزار في مسنديهما وأبو الشيخ في كتاب الثواب وابو نعيم في الحلية من حديث جابر وابن عدي من حديث عبد الله بن عمر وكلاهما ضعيف

(٢) حديث احسن مجاورة من جاورك تكن مسلما: تقدم

(٣) حديث مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه: متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر

(٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره: متفق عليه من حديث أبي شريح

(٥) حديث لا يؤمن عبد حتى يؤمن جاره بوائقه: البخاري من حديث أبي شريح أيضا

(٦) حديث أول خصمين يوم القيامة جاران: أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف

(٧) حديث اذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته: لم أجده أصلا

(٨) حديث ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال هي في النار: أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الاسناد

(٩) حديث جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال اصبر ثم قال له في الثالثة أو الرابعة اطرح متاعك على الطريق ـ الحديث: أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ » قال فجعل الناس يمرون به ويقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره. قال فجعلوا يقولون لعنه الله . فجاءه جاره فقال له رد متاعك ، فوالله لا أعود .

وروى الزهري أن رجلا أتى النبي عليه السلام ، فجعل يشكو جاره . فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادي على باب المسجد،[1] ألا إن أربعين دارا جار . قال الزهري أربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا . وأومأ إلى أربع جهات وقال عليه السلام [2] « الْيُمْنُ وَالشُّؤْمُ فِي الْمَرْأَةِ وَالْمَسْكَنِ وَالْفَرَسِ فَيُمْنُ الْمَرْأَةِ خِفَّةُ مَهْرِهَا وَيُسْرُ نِكَاحِهَا وَحُسْنُ خُلُقِهَا وَشُؤْمُهَا غَلاَءُ مَهْرِهَا وَعُسْرُ نِكَاحِهَا وَسُوءُ خُلُقِهَا وَيُمْنُ الْمَسْكَنِ سِعَتُهُ وَحُسْنُ جِوَارِ أَهْلِهِ وَشُؤْمُهُ ضِيقُهُ وَسُوءُ جِوَارِ أَهْلِهِ وَيُمْنُ الْفَرَسِ ذُلُّهُ وَحُسْنُ خُلُقِهِ وَشُؤْمُهُ صُعُوبَتُهُ وَسُوءُ خُلُقِهِ »

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط ، بل احتمال الأذى . فإن الجار أيضا قد كف أذاه ، فليس في ذلك قضاء حق . ولا يكفي احتمال الأذى ، بل لابد من الرفق ، وإسداء الخير والمعروف ، إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة ، فيقول يارب سل هذا لِمَ منعني معروفه ، وسد بابه دوني ؟ وبلغ ابن المقفع أن جارا له يبيع داره في دين ركبه وكان يجلس في ظل داره ، فقال ماقمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدما ، فدفع إليه ثمن

---

(١) حديث الزهري الا ان أربعين داراجار : أبو داود في المراسيل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال أربعون ذراعا وكلاهما ضعيف

(٢) حديث اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها ـ الحديث : مسلم من حديث ابن عمر الشؤم في الدار والمرأة والفرس وفي رواية له إن يك من الشؤم شيء حقا وله من حديث سهل بن سعد إن كان ففي الفرس والمرأة والمسكن والترمذي من حديث حكيم بن معاوية لاشؤم وقد يكون اليمن في الدار والمرأة والفرس ورواه ابن ماجه فسماه محمد بن معاوية وللطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت يارسول الله ماسوء الدار قال ضيق ساحتها وخبث جيرانها قيل فماسوء الدابة قال منعها ظهرها وسوء خلقها قيل فما سوء المرأة قال عقم رحمها وسوء خلقها وكلاهما ضعيف ورويناه في كتاب الخيل للدمياطي من رواية سالم بن عبد الله مرسلا اذا كان الفرس ضروبا فهو مشؤم وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجا قبل زوجها فحنت الى الزوج الاول فهي مشؤمة واذا كانت الدار بعيدة من المسجد لايسمع فيها الأذان والاقامة فهي مشؤمة واسناده ضعيف ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه

الدار ، وقال لاتبعها . وشكا بعضهم كثرة الفأر فى داره ، فقيل له لو اقتنيت هرا ، فقال أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران،فأكون قدأحببت لهم مالا أحب لنفسى
وجملة حق الجار أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ويعوده فى المرض ، ويعزيه فى المصيبة ، ويقوم معه فى العزاء ، ويهنئه فى الفرح ، ويظهر الشركة فى السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه فى وضع الجذع على جداره ، ولا فى مصب الماء فى ميزابه ، ولا فى مطرح التراب فى فنائه ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره . ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاما ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده فى كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه. هذا إلى جملة الحقوق التى ذكرناها لعامة المسلمين
وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ ؟ إِنِ اسْتَعَانَ بِكَ أَعَنْتَهُ وَإِنِ اسْتَنْصَرَكَ نَصَرْتَهُ وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ وَإِنِ افْتَقَرَ عُدْتَ عَلَيْهِ وَإِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ وَإِنْ مَاتَ تَبِعْتَ جَنَازَتَهُ وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ وَلَا تَسْتَعْلِ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا تُؤْذِهِ وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ وَلَا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ قِدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا » ثم قال « أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَبْلُغُ حَقَّ الْجَارِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ » هكذا رواه عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . (٢) قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر ، وغلام له يسلخ شاة فقال ياغلام ، إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارا. فقال له كم تقول هذا فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

---

(١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتدرون ما حق الجار ان استعان بك أعنته وان استقرضك أقرضته ـ الحديث : الخرائطى فى مكارم الاخلاق وابن عدى فى الكامل وهو ضعيف

(٢) حديث مجاهد كنت عند عبد الله بن عمرو وغلام له يسلخ شاة فقال ياغلام اذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى الحديث : ابو داود والترمذى وقال حسن غريب

وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأسا أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك . وقال أبوذر رضي الله عنه . أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم [١] وقال « إِذَا طَبَخْتَ قِدْرًا فَأَكْثِرْ مَاءهَا ثُمَّ انْظُرْ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتٍ فِي جِيرَانِكَ فَاغْرِفْ لَهُمْ مِنْهَا » وقالت عائشة رضي الله عنها . قلت يارسول الله [٢] إن لي جارين ، أحدهما مقبل على ببابه ، والآخر ناء ببابه عني وربما كان الذي عندي لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقا ؟ فقال « الْمُقْبِلُ عَلَيْكِ بِبَابِهِ »

ورأى الصديق ولده عبد الرحمن وهو يناصي جارا له ، فقال لا تناص جارك ، فإن هذا يبقى والناس يذهبون . وقال الحسن بن عيسى النيسابوري : سألت عبد الله بن المبارك فقلت الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه أمرا ، والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله بريء ، وأكره أن أدعه ، فيجد على جاري ، فكيف أصنع ؟ قال إن غلامك لعله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب ، فاحفظه عليه ، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث فتكون قد أرضيت جارك ، وأدبته على ذلك الحدث . وهذا تلطف في الجمع بين الحقين . وقالت عائشة رضي الله عنها : خلال المكارم عشر ، تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب . صدق الحديث، وصدق الناس، واعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار والتذمم للصاحب ؛ وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء : وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « يَامَعْشَرَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ الْمَسْكَنَ الْوَاسِعَ وَالْجَارَ الصَّالِحَ

---

(١) حديث ابي ذر اوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم اذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض اهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها: رواه مسلم

(٢) حديث عائشة قلت يارسول الله أن لي جارين ــ الحديث : رواه البخاري

(٣) حديث أبي هريرة يانساء المسلمين لاتحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة :رواه البخاري

(٤) حديث ان من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء:أحمد من حديث نافع ابن عبد الحارث وسعد بن أبي وقاص وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الاسناد

وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ » وقال عبد الله . قال رجل يارسول الله (١) كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ قال « إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ » وقال جابر رضي الله عنه . قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ كَانَ لَهُ جَارٌ فِي حَائِطٍ أَوْ شَرِيكٌ فَلَا يَبِعْهُ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَضَعَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ » وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول ، مالى أراكم عنها معرضين ؟ والله لأرمينها بين أكتافكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْراً عَسَلَهُ قِيلَ وَمَا عَسَلُهُ ؟ قال « يُحَبِّبُهُ إِلَى جِيرَانِهِ »

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا الرَّحْمَنُ وَهَذِهِ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِنِ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث عبد الله قال رجل يارسول الله كيف لى أن أعلم اذا أحسنت أوأسأت قال اذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت: أحمد والطبرانى وعبد الله هو ابن مسعود واسناده جيد

(٢) حديث جابر من كان له جار فى حائط أوشريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه: ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار وقال صحيح الاسناد وهو عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظ المصنف ولابن ماجه من حديث ابن عباس من كانت له أرض فأراد بيعها فليعرضها على جاره ورجاله رجال الصحيح

(٣) حديث أبى هريرة قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه فى حائط جاره شاء أم أبى: الخرائطى فى مكارم الأخلاق هكذا وهو متفق عليه بلفظ لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبه فى حائطه: رواه ابن ماجه باسناد ضعيف واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة

(٤) حديث من أراد الله به خيرا عسله: أحمد من حديث أبى عنبسة الخولانى ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الزهد من حديث عمرو بن الحق زاد الخرائطى قيل وما عسله قال حببه الى جيرانه وقال البيهقى يفتح له عملا صالحا قبل موته حتى يرضى عنه من حوله: واسناده جيد

(٥) حديث يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم ـ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

«(١) مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَيُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» وفي رواية أخرى «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ وَيُوَسَّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) أي الناس أفضل؟ قال «أَتْقَاهُمْ لِلهِ وَأَوْصَلُهُمْ لِرَحِمِهِ وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» وقال أبو ذر رضي الله عنه: أوصاني خليلي عليه السلام(٣) بصلة الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً. وقال صلى الله عليه وسلم(٤) «إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ وَلَيْسَ الْوَاصِلُ الْمُكَافِئَ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا» وقال عليه السلام(٥) «إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِمِ حَتَّى أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُونَ فُجَّاراً فَتَنْمُو أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا وَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ» وقال زيد ابن أسلم: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦) إلى مكة، عرض له رجل، فقال إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم، فعليك بني مُدْلِج. فقال عليه السلام «إِنَّ اللهَ قَدْ مَنَعَنِي مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ بِصِلَتِهِمِ الرَّحِمَ». وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما(٧): قدمت عليَّ أمي، فقلت يارسول الله، إن أمي قدمت عليَّ وهي مشركة، أفأصلها؟ قال نعم.

---

(١) حديث من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه: متفق عليه من حديث أنس دون قوله فليتق الله وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي باسناد جيد

(٢) حديث أي الناس أفضل فقال أتقاهم لله وأوصلهم للرحم: أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب باسناد حسن

(٣) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا: أحمد وابن حبان وصححه

(٤) حديث ان الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل المكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها الطبراني والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو وهو عند البخاري دون قوله الرحم معلقة بالعرش فرواها مسلم من حديث عائشة

(٥) حديث أعجل الطاعات ثوابا صلة الرحم – الحديث: ابن حبان من حديث أبي بكرة والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف

(٦) حديث زيد بن أسلم لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج فقال إن الله منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم: الخرائطي في مكارم الأخلاق وزاد وطعنهم في لبات الابل وهو مرسل صحيح الاسناد

(٧) حديث أسماء بنت أبي بكر قدمت علي أمي فقلت يا رسول الله قدمت علي أمي وهي مشركة أفأصلها قال نعم صليها: متفق عليه

وفي رواية أفأعطيها ؟ قال نعم صِلِيهَا . وقال عليه السلام[١] « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَساكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ »[٢] ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه ، عملا بقوله تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ[(١)])قال يارسول الله ،هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين . فقال عليه السلام « وَجَبَ أَجْرُكَ عَلَى اللهِ فَاقْسِمْهُ فِي أَقَارِبِكَ » وقال عليه السلام[٣] « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ » وهو في معنى قوله[٤] « أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَصْفَحَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وروي أن عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله مُرُوا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق ، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم

حقوق الوالدين والولد

لايخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم ، فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال صلى الله عليه وسلم[٥] « لَنْ يَجْزِيَ وَلَدٌ وَالِدَهُ حَتَّى يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ » وقد قال صلى الله عليه وسلم[٦] « بِرُّ الْوَالِدَيْنِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقد قال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم صدقة وصلة :الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان بن عامر الضبي

(٢) حديث لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط له كان يعجبه عملا بقوله تعالى حتى تنفقوا مما تحبون الحديث أخرجه البخاري وقد تقدم

(٣) حديث أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح : أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب وفيه الحجاج ابن أرطاة ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة

(٤) حديث أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ـ الحديث : احمد من حديث معاذ بن انس بسند ضعيف والطبراني نحوه من حديث ابي امامة وقد تقدم

(٥) حديث لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه : مسلم من حديث ابي هريرة

(٦) حديث بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد :لم أجده هكذا وروي أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من حديث أنس أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه قال هل بقي من والديك أحد قال أمي قال قابل الله في برها فاذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد وإسناده حسن

(١) آل عمران: ٩٢

(١) « مَنْ أَصْبَحَ مُرْضِياً لِأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ أَمْسَى فَمِثْلُ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِداً وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا وَمَنْ أَصْبَحَ مُسْخِطاً لِأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَى النَّارِ وَإِنْ أَمْسَى مِثْلُ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ فَوَاحِدٌ وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا وَإِنْ ظَلَمَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ الْجَنَّةَ يُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَلَا يَجِدُ رِيحَهَا عَاقٌّ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « بِرَّ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ » ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام ياموسى ، إنه من برّ والديه وعقنى كتبته بارا ، ومن برنى وعق والديه كتبته عاقا . وقيل لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام ، لم يقم له ، فأوحى الله إليه ، أتتعاظم أن تقوم لأبيك ؟ وعزتى وجلالى لا أخرجت من صلبك نبيا ، وقال صلى الله عليه وسلم : (٤) « مَا عَلَى أَحَدٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لِوَالِدَيْهِ إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ فَيَكُونُ لِوَالِدَيْهِ أَجْرُهَا وَيَكُونُ لَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمَا شَيْءٌ »

وقال مالك بن ربيعة : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) إذ جاءه رجل من بنى سلمة ، فقال يارسول الله ، هل بقي عليّ من بر أبويّ شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال « نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي

---

(١) حديث من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ـ الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح

(٢) حديث ان الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم : الطبرانى فى الصغير من حديث أبى هريرة دون ذكر القاطع وهي فى الأوسط من حديث جابر إلا أنه قال من مسيرة ألف عام واسنادها ضعيف

(٣) حديث بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك : النسائي من حديث طارق المحاربى وأحمد والحاكم من حديث أبى رمثة ولأبى داود نحوه من حديث كليب بن منفعة عن جده وله وللترمذى والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده من أبر قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة قال رجل من أحق الناس بحسن الصحبة قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك لفظ مسلم

(٤) حديث ماعلى أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين ـ الحديث: الطبرانى فى الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده بسند ضعيف دون قوله إذا كانا مسلمين

(٥) حديث مالك بن ربيعة بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال هل بقى على من بر ابوي شيء ـ الحديث: ابو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الاسناد

لَاتُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ الْأَبُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « بِرُّ الْوَالِدَةِ عَلَى الْوَلَدِ ضِعْفَانِ» وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « دَعْوَةُ الْوَالِدَةِ أَسْرَعُ إِجَابَةً » قيل يارسول الله ولِمَ ذاك ؟ قال « هِيَ أَرْحَمُ مِنَ الْأَبِ وَدَعْوَةُ الرَّحِمِ لَاتَسْقُطُ » وسأله رجل فقال يارسول الله من أبر ؟ فقال (٤) « بِرَّ وَالِدَيْكَ » فقال ليس لى والدان ، فقال « بِرَّ وَلَدَكَ كَمَا أَنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا كَذَلِكَ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « رَحِمَ اللهُ وَالِدًا أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ » أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال صلى الله عليه وسلم « سَاوُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ » وقد قيل : ولدك ريحانتك ، تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك . وقال أنس رضى الله عنه . قال النبي صلى الله عليه وسلم (٦) « الْغُلَامُ يُعَقُّ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمَّى وَيُمَاطُ عَنْهُ الْأَذَى فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ أُدِّبَ فَإِذَا بَلَغَ تِسْعَ سِنِينَ عُزِلَ فِرَاشُهُ فَإِذَا بَلَغَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ضُرِبَ عَلَى الصَّلَاةِ فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً زَوَّجَهُ أَبُوهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ قَدْ أَدَّبْتُكَ وَعَلَّمْتُكَ وَأَنْكَحْتُكَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابِكَ فِي الْآخِرَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) مِنْ حَقِّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ

---

(١) حديث ان من ابر البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه : مسلم من حديث ابن عمر

(٢) حديث بر الوالدة على الولد ضعفان: غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا ثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث ابى هريرة وهو معنى هذا الحديث

(٣) حديث الوالدة اسرع اجابة ـ الحديث : لم اقف له على اصل

(٤) حديث قال رجل يارسول الله من أبر قال بر والديك فقال ليس لى والدان فقال ولدك فكما ان لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق: أبو عمر النوقانى فى كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله فكما أن لوالديك الخ وهذه القطعة رواها الطبرانى من حديث ابن عمر قال الدارقطنى فى العلل إن الأصح وقفه على ابن عمر

(٥) حديث رحم الله والدا أعان ولده على بره: أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث على ابن أبى طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه النوقانى من رواية الشعبى مرسلا

(٦) حديث أنس الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمي ويماط عنه الأذى فاذا بلغ ست سنين آدب فاذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فاذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فاذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم اخذ بيده وقال قد أدبتك وعلمتك وانكحتك أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة ابو الشيخ ابن حبان فى كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال وادبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم وفى اسناده من لم يسم

(٧) حديث من حق الولد على الوالدان يحسن ادبه ويحسن اسمه : البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضعفها

أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » وقال عليه السلام (١) « كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه » وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ، ثم توضع على يافوخ الصبي ، حتى يسيل عنه مثل الخيط . ثم يغسل رأسه ، ويحلق بعد . وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك ، فشكا إليه بعض ولده . فقال هل دعوت عليه ، قال نعم . قال أنت أفسدته

ويستحب الرفق بالولد . رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم (٢) وهو يقبل ولده الحسن . فقال إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال عليه السلام « إن من لا يرحم لا يرحم » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) يوما « اغسلي وجه أسامة » فجعلت أغسله وأنا أنفة ، فضرب يدي ، ثم أخذه فغسل وجهه ، ثم قبله ، ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » وتعثر الحسن ، والنبي صلى الله عليه وسلم (٤) على منبره ، فنزل فحمله ، وقرأ قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة (١)) وقال عبد الله ابن شداد · بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) يصلي بالناس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته

---

(١) حديث كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه : أصحاب السنن من حديث سمرة قال الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن فقال إن لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال من لايرحم لايرحم : البخارى من حديث أبى هريرة

(٣) حديث عائشة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اغسلى وجه أسامة فجعلت أغسله وأنا أنفة فضرب بيدى ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال قد أحسن بنا اذ لم يكن جارية : لم أجده هكذا ولأحمد من حديث عائشة أن أسامة عثر بعتبة الباب فدمى فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمصه ويقول لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنفقها: واسناده صحيح

(٤) حديث عثر الحسين وهو على منبره صلى الله عليه وسلم فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة : أصحاب السنن من حديث بريدة فى الحسن والحسين معا يمشيان ويعثران قال الترمذى حسن غريب

(٥) حديث عبد الله بن شداد بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس اذ جاء الحسن فركب عنقه النسائى من رواية عبد الله بن شداد عن ابيه وقال فيه الحسن او الحسين على الشك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

(١) التغابن : ١٥

قالوا قد أطلت السجود يا رسول الله؛ حتى ظننا أنه قد حدث أمر! فقال «إنَّ ابْنِي قَدِ ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ» وفى ذلك فوائد: إحداها القرب من الله تعالى. فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا؛ وفيه الرفق بالولد، والبر وتعليم لأمته. وقال صلى الله عليه وسلم[1] «رِيحُ الْوَلَدِ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ» وقال يزيد بن معاوية أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل اليه قال له ياأبا بحر، ماتقول فى الولد؟ قال يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم؛ يمنحوك ودهم؛ ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا، فيملوا حياتك، ويودوا وفاتك، ويكرهوا قربك. فقال له معاوية. لله أنت يا أحنف! لقد دخلت عليّ وأنا مملوء غضبا وغيظا على يزيد. فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد، وبعث إليه بمائتى ألف درهم، ومائتى ثوب. فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم، ومائة ثوب، فقاسمه إياها على الشطر.

فهذه هى الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين، وكيفية القيام بحقهما! تعرف مما ذكرناه فى حق الأخوة. فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة؛ بل يزيد ههنا أمران: أحدهما أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات، وإن لم تجب فى الحرام المحض حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام؛ فعليك أن تأكل معهما؛ لأن ترك الشبهة ورع ورضا الوالدين حتم. وكذلك ليس لك أن تسافر فى مباح أو نافلة إلا باذنهما. والمبادرة إلى الحج الذى هو فرض الإسلام نفل، لأنه على التأخير. والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم، ولم يكن فى بلدك من يعلمك. وذلك كمن يسلم ابتداء فى بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام، فعليه الهجرة، ولا يتقيد بحق الوالدين

قال أبو سعيد الخدري. هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] من اليمن وأراد الجهاد، فقال عليه السلام «هَلْ بِالْيَمَنِ أَبَوَاكَ؟» قال نعم قال «هَلْ أَذِنَا لَكَ؟»

---

(١) حديث ريح الولد من ريح الجنة: الطبرانى فى الصغير والأوسط وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه مندل بن على ضعيف

(٢) حديث ابى سعيد الخدرى هاجر رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن واراد الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم باليمن أبواك قال نعم ـ الحديث احمد وابن حبان دون قوله ما استطعت الخ

قال : لا. فقال عليه السلام « فَارْجِعْ إِلَى أَبَوَيْكَ فَاسْتَأْذِنْهُمَا فَإِنْ فَعَلاَ فَجَاهِدْ وَإِلاَّ فَبِرَّهُمَا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرُ مَا تَلْقَى اللهَ بِهِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ » وجاء آخر إليه صلى الله عليه وسلم (١) ليستشيره فى الغزو ، فقال « أَلَكَ وَالِدَةٌ ؟» قال نعم قال « فَالْزَمْهَا فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا » وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة ؛ وقال ماجئتك حتى (٢) أبكيت والدي ، فقال « ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « حَقُّ كَبِيرِ الإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ كَحَقِّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ » وقال عليه السلام (٤) « إِذَا اسْتُصْعِبَتْ عَلَى أَحَدِكُمْ دَابَّتُهُ أَوْ سَاءَ خُلُقُ زَوْجَتِهِ أَوْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَلْيُؤَذِّنْ فِي أُذُنِهِ »

حقوق المملوك

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه فى آداب النكاح ، فأما ملك اليمين فهو أيضا يقتضى حقوقا فى المعاشرة لابد من مراعاتها . فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) أن قال « اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا لاَ يُطِيقُونَ فَمَا أَحْبَبْتُمْ فَأَمْسِكُوا

---

(١) حديث جاء آخر الى النبي صلى الله عليه وسلم يستشيره فى الغزو فقال ألك والدة فقال نعم قال فالزمها فان الجنة تحت قدمها: النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جاهمة ان جاهمة أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال الحاكم صحيح الاسناد

(٢) حديث جاء آخر فقال ما جئتك حتى أبكيت والدى فقال ارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما: أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح الاسناد

(٣) حديث حق كبير الاخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده: أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة ورواه أبو داود فى المراسيل من رواية سعيد بن عمرو بن العاص مرسلا ووصله صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص واسناده ضعيف

(٤) حديث اذا استصعب على أحدكم دابته أوساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن فى أذنه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث الحسين بن على بن ابى طالب بسند ضعيف نحوه

(٥) حديث كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون الحديث الخ وهو مفرق فى عدة أحاديث فروى أبو داود من حديث على كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم وفى الصحيحين من حديث انس كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم ولهما من حديث أبى ذر أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم مايغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم لفظ رواية مسلم وفى رواية لأبى داود من لايمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لايلايمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى واسناده صحيح

وَمَا كَرِهْتُمْ فَبِيعُوا وَلَا تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَوْ شَاءَ لَمَلَّكَهُمْ إِيَّاكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُ » وقال عليه السلام [٢] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ خَبٌّ وَلَا مُتَكَبِّرٌ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] فقال يارسول الله ، كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اعْفُ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً » وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالى فى كل يوم سبت ، فإذا وجد عبدا فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه.

ويروى عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أنه رأى رجلا على دابته ، وغلامه يسعى خلفه. فقال له ياعبدالله، احمله خلفك فإنما هو أخوك : روحه مثل روحك. فحمله ، ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه . وقالت جارية لأبي الدرداء : إنى سممتك منذسنة ، فما عمل فيك شيئا ! فقال لم فعلت ذلك ؟ فقالت أردت الراحة منك . فقال اذهبي فأنت حرة لوجه الله . وقال الزهرى: متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر. وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم قال من قيس بن عاصم. قيل فما بلغ من حلمه ؟ قال بينما هو جالس فى داره ، إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء ، فسقط السفود من يدها على ابن له ، فعقره فمات ، فدهشت الجارية فقال ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها أنت حرة لا بأس عليك . وكان عون بن عبد الله إذا عصاه غلامه قال: ما أشبهك بمولاك، مولاك يعصى مولاه ، وأنت تعصى مولاك . فأغضبه يوما، فقال إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر . وكان عند ميمون بن مهران ضيف ، فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون ، فقال ياجارية

---

(١) حديث للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق: مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة: أحمد مجموعا والترمذى مفرقا وابن ماجه مقتصرا على سيء الملكة من حديث ابي بكر وليس عند احدمنهم متكبر وزاد احمد والترمذى البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذى احد طريقيه

(٣) حديث ابن عمر جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كم نعفو عن الخادم فصمت ثم قال اعف عنه كل يوم سبعين مرة أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح غريب

أحرقتني، قالت يامعلم الخير، ومؤدب الناس، ارجع إلى ماقال الله تعالى؟ قال وماقال الله تعالى: قالت قال (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ[(١)]) قال قد كظمت غيظي. قالت (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ[(٢)]) قال قدعفوت عنك قالت زد فإن الله تعالى، يقول (واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[(٣)]) قال أنت حرة لوجه الله تعالى

وقال ابن المنكدر. إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] ضرب عبدا له فجعل العبد يقول أسألك بالله، أسألك بوجه الله، فلم يعفه. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد، فانطلق إليه، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك يده، فقال رسول الله «سَأَلَكَ بِوَجْهِ اللهِ فَلَمْ تُعْفِهِ فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَمْسَكْتَ يَدَكَ» قال فإنه حر لوجه الله يارسول الله. فقال «لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَسَفَعَتْ وَجْهَكَ النَّارُ» وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] «الْعَبْدُ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ» ولما أعتق أبو رافع بكى وقال: كان لي أجران فذهب أحدهما. وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَأَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَالشَّهِيدُ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، وَأَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ لَا يُعْطِي حَقَّ اللهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ» وعن أبي مسعود الأنصاري قال [(٤)] بينا أنا أضرب غلاما لي، إذ سمعت صوتا من خلفي، اعلم يا أبا مسعود مرتين، فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فألقيت السوط من يدي، فقال «وَاللهِ

---

(١) حديث ابن المنكدر أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدا له فجعل العبد يقول أسألك بالله أسألك بوجه الله فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ـ الحديث ابن المبارك في الزهد مرسلا وفي رواية لمسلم في حديث أبي مسعود الآتي ذكره فجعل يقول أعوذ بالله قال فجعل يضربه فقال أعوذ برسول الله فتركه وفي رواية له فقلت هو حر لوجه الله فقال أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار

(٢) حديث إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين: متفق عليه من حديث ابن عمر

(٣) حديث عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار فأول ثلاثة يدخلون الجنة الشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده ـ الحديث: الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة

(٤) حديث أبي مسعود الأنصاري بينا أنا أضرب غلاما لي سمعت صوتا من خلفي اعلم أبا مسعود مرتين الحديث: رواه مسلم

---

(١)، (٢)، (٣) آل عمران: ١٣٤

لَهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا ابْتَاعَ أَحَدُكُمُ الْخَادِمَ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ شَيْءٍ يُطْعِمُهُ الْحُلْوَ فَإِنَّهُ أَطْيَبُ لِنَفْسِهِ » رواه معاذ. وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَلْيُجْلِسْهُ وَلْيَأْكُلْ مَعَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً » وفي رواية « إِذَا كَفَى أَحَدَكُمْ مَمْلُوكُهُ صَنْعَةَ طَعَامِهِ فَكَفَاهُ حَرَّهُ وَمُؤْنَتَهُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ فَلْيُجْلِسْهُ وَلْيَأْكُلْ مَعَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُنَاوِلْهُ أَوْ لِيَأْخُذْ أُكْلَةً فَلْيُرَوِّغْهَا » وأشار بيده « وَلْيَضَعْهَا فِي يَدِهِ وَلْيَقُلْ كُلْ هَذِهِ »

ودخل على سلمان رجل وهو يعجن ، فقال يا أبا عبد الله ماهذا ؟ فقال بعثنا الخادم في شغل ، فكرهنا أن نجمع عليه عملين . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ جَارِيَةٌ فَصَانَهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَذَلِكَ لَهُ أَجْرَانِ » وقد قال صلى الله عليه وسلم (٤) « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »

فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء ، وأن يعفو عن زلته ، ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنايته في معاصيه وجنايته على حق الله تعالى ، وتقصيره في طاعته ، مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته وروى فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) قال « ثَلَاثَةٌ لَا يُسْأَلُ عَنْهُمْ رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ ، وَرَجُلٌ عَصَى إِمَامَهُ فَمَاتَ عَاصِياً ، فَلَا يُسْأَلُ عَنْهُمَا وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ فَلَا يُسْأَلُ عَنْهَا ، وَثَلَاثَةٌ لَا يُسْأَلُ عَنْهُمْ ، رَجُلٌ يُنَازِعُ اللَّهَ رِدَاءَهُ وَرِدَاؤُهُ الْكِبْرِيَاءُ وَإِزَارُهُ الْعِزُّ ، وَرَجُلٌ فِي شَكٍّ مِنَ اللَّهِ ، وَقُنُوطٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ »

تم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

---

(١) حديث معاذ إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلو فانه أطيب لنفسه : الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف

(٢) حديث أبي هريرة وليأكل معه فان أبى فليناوله وفي رواية إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه الحديث متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر علاجه وهذه اللفظة عند البخاري

(٣) حديث من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران : متفق عليه من حديث أبي موسى

(٤) حديث كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

(٥) حديث فضالة بن عبيد ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا ـ الحديث الطبراني والحاكم وصححه

كتاب آداب العزلة

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته ، بأن صرف هممهم إلى مؤانسته وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته ، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته وحقر فى قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها ، حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجارى فكرته ، فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى فى خلوته ، واستوحش بذلك عن الأنس بالأنس وإن كان من أخص خاصته . والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحابته سادة الحق وأئمته

أما بعد : فإن للناس اختلافاً كثيراً فى العزلة والمخالطة ، وتفضيل إحداهما على الأخرى مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها ، وفوائد تدعو إليها ، وميل أكثر العبّاد والزهاد إلى اختيار العزلة ، وتفضيلها على المخالطة . وما ذكرناه فى كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة ، يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون ، من اختيار الاستيحاش والخلوة ؛ فكشفُ الغطاء عن الحق فى ذلك مهم ، ويحصل ذلك برسم بابين

الباب الأول : فى نقل المذاهب والحجج فيها

الباب الثانى : فى كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل

الباب الأول

فى نقل المذاهب والأقاويل وذكر حجج الفريقين فى ذلك

أما المذاهب : فقد اختلف الناس فيها ، وظهر هذا الاختلاف بين التابعين . فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة ، سفيان الثورى ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائى وفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط ، وحذيفة المرعشي ، وبشر الحافى

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة، واستكثار المعارف والإخوان ، والتألف والتحبب إلى المؤمنين ؛ والاستعانة بهم فى الدين ، تعاونا على البر والتقوى . ومال إلى هذا سعيد بن المسيب والشعبي ، وابن أبى ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله وابن عيينة ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة

والمأثور عن العلماء من الكلمات ؛ ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل . فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات ، لنبين المذاهب فيها ، وما هو مقرون بذكر العلة نورده عند التعرض للغوائل والفوائد فنقول :

قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : خذوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كفى بالله محبا ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً . وقيل : اتخذ الله صاحباً ، ودع الناس جانباً . وقال أبو الربيع الزاهد ، لداود الطائى : عظنى . قال: صم عن الدنيا ، واجعل فطرك الآخرة ، وفر من الناس فرارك من الأسد . وقال الحسن رحمه الله كلمات أحفظهن من التوراة ، قنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حرا ، ترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلا فتمتع طويلا . وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت ، والعاشر فى عزلة الناس . وقال يوسف ابن مسلم ، لعلى بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ؟ وقد كان لزم البيت ، فقال : كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا ، كنت أجالس الناس ولا أكلمهم . وقال سفيان الثورى : هذا وقت السكوت ، وملازمة البيوت . وقال بعضهم : كنت فى سفينة ، ومعنا شاب من العلوية ، فمكث معنا سبعاً لا نسمع له كلاماً ؛ فقلنا له ياهذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا ؟ فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت * ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علما * فغايته التفرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعى لرجل : تفقه ثم اعتزل . وكذا قال الربيع بن خثيم . وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم . فترك ذلك واحداً واحداً

حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له . وقيل لعمر ابن عبدالعزيز: لو تفرغت لنا ؟ فقال ذهب الفراغ، فلا فراغ إلا عند الله تعالى. وقال الفضيل إنى لأجد للرجل عندى يدا إذا لقينى أن لا يسلم علىّ وإذا مرضت أن لا يعودنى . وقال أبو سليمان الدارانى : بينما الربيع بن خثيم جالس على باب داره ، إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه ، فجعل يمسح الدم ويقول : لقد وعظت ياربيع . فقام ودخل داره . فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته

وكان سعد بن أبى وقاص ؛ وسعيد بن زيد لزما بيوتهما بالعقيق ، فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها ، حتى ماتا بالعقيق . وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثورى يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، لقد حلت العزلة . وقال بشر بن عبدالله: أقل من معرفة الناس فإنك لاتدرى ما يكون يوم القيامة فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلا . ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم ، فقال له ألك حاجة ؟ قال نعم . قال ماهى ؟ قال أن لاترانى ولا أراك ولاتعرفنى . وقال رجل لسهل . أريد أن أصحبك ، فقال إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر؟ قال الله ، قال فليصحبه الآن . وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول ، لوددت أنى فى مكان أرى الناس ولا يرونى . فبكى الفضيل وقال : ياويح على، أفلا أتمها فقال لاأراهم ولا يرونى وقال الفضيل أيضا : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أفضل المجالس مجلس فى قعر بيتك لا ترى ولا ترى . فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة

ذكر حجج

المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتج هؤلاء بقوله تعالى (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا[1]) الآية وبقوله تعالى (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ[2]) امتن على الناس بالسبب المؤلف . وهذا ضعيف ، لأن المراد به تفرق الآراء ، واختلاف المذاهب فى معانى كتاب الله ، وأصول الشريعة . والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور، وهي الأسباب المثيرة للفتن، المحركة للخصومات. والعزلة لاتنافى ذلك

(١) آل عمران : ١٠٥ (٢) آل عمران : ١٠٣

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « الْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ » وهذا أيضاً ضعيف ، لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق ، التي تمتنع بسببه المؤالفة ولا يدخل تحته الحسن الخلق ، الذي إن خالط ألف وأُلف ، ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلبا للسلامة من غيره

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْراً خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ » وَقَال (٢) « مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ » وبقوله صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي إِسْلاَمٍ دَامِجٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ » وهذا ضعيف ، لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة ، فالخروج عليهم بغي وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم ، وذلك محظور ، لاضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ، ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر ، فالمخالفة فيها تشويش مثير للفتنة ، فليس في هذا تعرض للعزلة

واحتجوا بنهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر فوق ثلاث ، إذ قال « (٤) مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ » وقال عليه السلام (٥) « لاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ » وقال « مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ (٦) سَنَةً فَهُوَ كَسَافِكِ دَمِهِ »

﴿ كتاب العزلة ﴾

(الباب الأول في نقل المذاهب والحجج فيها)

(١) حديث المؤمن إلف مألوف ــ الحديث تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة

(٢) حديث من ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام

(٣) حديث من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربقة الاسلام : الطبراني والخطابي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد

(٤) حديث من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار : أبو داود من حديث أبي هريرة باسناد صحيح

(٥) حديث لا يحل لامرىء أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة : متفق عليه من حديث أنس دون قوله والسابق بالصلح زاد فيه الطبراني والذي يبدأ بالصلح يسبق الى الجنة

(٦) حديث من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه : أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حدرد ابن أبي حدرد واسناده صحيح

قالوا والعزلة هجره بالكلية . وهذا ضعيف ، لأن المراد به الغضب على الناس ، واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة . فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين : أحدهما أن يرى فيه صلاحا للمهجور في الزيادة . والثاني أن يرى لنفسه سلامة فيه والنهي وإن كان عاما فهو محمول على ما وراء الموضعين المخصوصين ، بدليل ما روى عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم [1] هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر . وروي عن عمر أنه صلى الله عليه وسلم [2] اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا ، وصعد إلى غرفة له ، وهي خزانته ، فلبث تسعا وعشرين يوما ، فلما نزل ، قيل له إنك كنت فيها تسعا وعشرين ، فقال « الشَّهْرُ قَدْ يَكُونُ تِسْعاً وعِشْرِينَ » وروت عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال [3] « لاَيَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لاَ تُؤْمَنُ بَوَائِقُهُ » فهذا صريح في التخصيص ، وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأحمق قربة إلى الله . فإن ذلك يدوم إلى الموت ، إذ الحماقة لا ينتظر علاجها . وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلا حتى مات ، فقال : هذا شيء قد تقدم فيه قوم ، سعد بن أبي وقاص كان مهاجرا لعمار بن ياسر حتى مات ، وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبد الرحمن بن عوف ، وعائشة كانت مهاجرة لحفصة وكان طاوس مهاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا . وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة

واحتجوا بما روى [4] أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه ، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لاَ تَفْعَلْ أَنْتَ وَلاَ أَحَدٌ مِنْكُمْ لَصَبْرُ أَحَدِكُمْ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ أَرْبَعِينَ عَاماً » ، والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر قلت انما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح

(٢) حديث عمر أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا ـ الحديث : متفق عليه

(٣) حديث عائشة لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث الا أن يكون ممن لايأمن بوائقه : ابن عدي وقال غريب المتن والاسناد وحديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء باسناد صحيح

(٤) حديث ان رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لاتفعل الحديث : البيهقي من حديث عسعس بن سلامة قال ابن عبد البر يقولون ان حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين

مع شدة وجوبه فى ابتداء الإسلام ، بدليل ما روي عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [١] فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس فى هذا الشعب ، ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ عَامًا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَتَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّهُ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ »

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل ، أنه صلى الله عليه وسلم [٢] قال « إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ وَالشَّارِدَةَ وَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْعَامَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْمَسَاجِدِ » وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم ، وسيأتى بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة

ذكر حجج

المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى ، حكاية عن إبراهيم عليه السلام (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي [١]) الآية ثم قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا [٢]) إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة . وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين ، وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه إلا هجرهم

---

(١) حديث أبى هريرة غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بشعب فيه عيينة طية الماء غزيرة فقال واحد من القوم لو اعتزلت الناس فى هذا الشعب ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم الا أن الترمذى قال سبعين عاما

(٢) حديث معاذ بن جبل الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ القاصية : أحمد والطبرانى ورجاله ثقات الا أن فيه انقطاعا

---

(١) مريم : ٤٨ (٢) مريم : ٩٤

وإنما الكلام فى مخالطة المسلمين وما فيها من البركة ، لما روي أنه قيل يا رسول الله الوضوء من جر مخمر أحب اليك أو من هذه المطاهر التى يتطهر منها الناس ؟ فقال[1] « بَلْ مِنْ هَذِهِ الْمَطَاهِرِ الْتِمَاساً لِبَرَكَةِ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ » وروي أنه صلى الله عليه وسلم[2] لما طاف بالبيت ، عدل إلى زمزم ليشرب منها ، فإذا التمر المنقع فى حياض الأدم وقدمغثه الناس بأيديهم ، وهم يتناولون منه ويشربون ، فاستسقى منه ، وقال اسقونى . فقال العباس إن هذا النبيذ شراب قد مغث وخيض بالأيدى ،أفلا آتيك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر فى البيت؟ فقال «اسْقُونِي مِنْ هَذَا الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ أَلْتَمِسُ بَرَكَةَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ» فشرب منه. فإذاً كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم

واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام (وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ[1]) وإنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم . وقال تعالى فى أصحاب الكهف (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ[2]) أمرهم بالعزلة. وقد اعتزل نبينا صلى الله عليه وسلم[3] قريشا لما آذوه وجفوه ، ودخل الشعب ! وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة ، ثم تلاحقوا به إلى المدينة ، بعد أن أعلى الله كلمته . وهذا أيضا

(١) حديث قيل له صلى الله عليه وسلم الوضوء من جر مخمر أحب اليك أو من هذه المطاهر التى يطهر منها الناس فقال بل من هذه المطاهر ـ الحديث: الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف

(٢) حديث لما طاف بالبيت عدل الى زمزم يشرب منها فاذا التمر منقع فى حياض الأدم قد مغثه الناس بأيديهم ـ الحديث: وفيه فقال اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس رواه الأزرقى فى تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طاوس مرسلا نحوه

(٣) حديث اعتزاله صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة الى الحبشة الحديث : رواه موسى بن عقبة فى المغازى ومن طريقه البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب مرسلا ورواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن شهاب على بن أبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام مرسلا أيضا ووصله من رواية أبى سلمة الحضرمى عن ابن عباس الا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بنى هاشم فى الشعب وذكر موسى بن عقبة ان اباطالب جمع بنى عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ومغازى موسى بن عقبة أصح المغازى وذكر موسى بن عقبة أيضا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ولأبى داود من حديث أبى موسى أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن ننطلق إلى أرض النجاشى قال البيهقى وإسناده صحيح ولأحمد من حديث ابن مسعود بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى وروى ابن إسحق باسناد جيد ومن طريقه البيهقى فى الدلائل من حديث أم سلمة أن بأرض الحبشة ملكا لايظلم أحد عنده فألحقوا ببلاده ـ الحديث

(١) الدخان ٢١ (٢) الكهف : ١٦

اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ، ولا من توقع إسلامه من الكفار . وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون ، وإنما اعتزلوا الكفار . وإنما النظر فى العزلة من المسلمين

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم (١) لعبد الله بن عامر الجهنى ، لما قال يارسول الله، ماالنجاة؟ قال « لِيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » وروي أنه قيل له صلى الله عليه وسلم (٢) أى الناس أفضل ؟ قال « مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى » قيل ثم من ؟ قال « رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ »

وفى الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر . فأما قوله لعبد الله بن عامر ، فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه صلى الله عليه وسلم بنور النبوة من حاله ، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة ، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ، ورب شخص تكون سلامته فى العزلة لا فى المخالطة ، كما قد تكون سلامته فى القعود فى البيت ، وأن لا يخرج إلى الجهاد . وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل . وفى مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٤) « الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام « رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » فهذا إشارة إلى شرير بطبعه ، تتأذى الناس بمخالطته . وقوله « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّقِيَّ الْخَفِيَّ » إشارة إلى إيثار الخمول، وتوقى الشهرة ، وذلك لا يتعلق بالعزلة

---

(١) حديث سأله عقبة بن عامر يارسول الله ماالنجاة فقال ليسعك بيتك ـ الحديث : الترمذي من حديث عقبة وقال حسن

(٢) حديث أى الناس أفضل فقال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قيل ثم من قال رجل معتزل الحديث : متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى

(٣) حديث ان الله يحب العبد التقى النقى الخفى مسلم: من حديث سعد بن أبى وقاص

(٤) حديث الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم : الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابى قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد

فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس . وكم من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة . واحتجوا بما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه (١) « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ ؟ » قالوا بلى يارسول الله . فأشار بيده نحو المغرب وقال « رَجُلٌ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُغِيرَ أَوْ يُغَارَ عَلَيْهِ . أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَهُ ؟ » وأشار بيده نحو الحجاز وقال « رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَعْلَمُ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ اعْتَزَلَ شُرُورَ النَّاسِ »

فإذا ظهر أن هذه الأدلة لاشفاء فيها من الجانبين ، فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ، ومقايسة بعضها بالبعض ، ليتبين الحق فيها .

الباب الثاني

فى فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق فى فضلها

اعلم أن اختلاف الناس فى هذا يضاهي اختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة . وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده . فكذلك القول فيما نحن فيه . فلنذكر أولا فوائد العزلة ، وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية ، والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات فى الخلوة ، والمواظبة على العبادة ، والفكر وتربية العلم ، وإلى تخلص من ارتكاب المناهي التى يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة ، من جلساء السوء . وأما الدنيوية ، فتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة ، كتمكن المحترف فى خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة ، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها ، وطمعه فى الناس ، وطمع الناس فيه ، وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة ، والتأذي بسوء خلق الجليس فى مرائه أو سوء ظنه ، أو نميمته أو محاسدته أو التأذي بثقله وتشويه خلقته ، وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها فى ست فوائد

---

(١) ألا أنبئكم بخير الناس قالوا بلى قال فأشار بيده نحو المغرب وقال رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ـ الحديث : الطبراني من حديث أم مبشر الا أنه قال نحو المشرق بدل المغرب وفيه ابن اسحق رواه بالعنعنة وللترمذي والنسائي نحوه مختصرا من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن

الفـائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر ، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة ، وملكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعى فراغا ، ولا فراغ مع المخالطة . فالعزلة وسيلة إليه . ولهذا قال بعض الحكماء لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى ، والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله ، الذاكرون الله بالله ، عاشوا بذكر الله ، وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله . ولا شك فى أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر ، فالعزلة أولى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم (١) فى ابتداء أمره يتبتل فى جبل حراء ، وينعزل إليه ، حتى قوى فيه نور النبوة ، فكان الخلق لا يحجبونه عن الله ، فكان يبدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله تعالى ، حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال (٢) « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَـكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ » ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا ، والإقبال على الله سرا ، إلا قوة النبوة . فلا ينبغى أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع فى ذلك ولا يبعد أن تنتهى درجة بعض الأولياء إليه . فقد نقل عن الجنيد أنه قال : أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة ، والناس يظنون أنى أكلمهم . وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقا لا يبقى لغيره فيه متسع . وذلك غير منكر . ففى المشتهرين بحب الخلق ، من يخالط الناس ببدنه ، وهو لا يدرى ما يقول ، ولا ما يقال له ، لفرط عشقه لمحبوبه ، بل الذى دهاه مُلِمٌّ يشوش عليه أمراً من أمور دنياه ، فقد يستغرقه لهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم

(الباب الثانى فى فوائد العزلة وغوائلها)

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم فى أول أمره يتبتل فى جبل حراء وينعزل إليه : متفق عليه من حديث عائشة نحوه فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ـ الحديث :

(٢) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله : مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

ولا يسمع أصواتهم ، لشدة استغراقه . وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء ، فلا يستحيل ذلك فيه . ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة . ولذلك قيل لبعض الحكماء : ماالذى أرادوا بالخلوة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة ، وتثبت العلوم فى قلوبهم ، ليحيوا حياة طيبة ، ويذوقوا حلاوة المعرفة . وقيل لبعض الرهبان : ماأصبرك على الوحدة ! فقال : ما أنا وحدى ، أنا جليس الله تعالى ، إذا شئت أن يناجينى قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت . وقيل لبعض الحكماء : إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة؟ فقال إلى الأنس بالله . وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم بن أدهم رحمه الله فى بلاد الشام فقلت له يا ابراهيم ، تركت خراسان ، فقال ما تهنأت بالعيش إلا ههنا ، أفر بدينى من شاهق إلى شاهق ، فمن يرانى يقول موسوس أو حمال أو ملاح . وقيل لغزوان الرقاشى : هبك لاتضحك ، فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ قال إنى أصيب راحة قلبى فى مجالسة من عنده حاجتى . وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، ههنا رجل لم نره قط جالسا إلاوحده خلف سارية فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبرونى به ، فنظروا إليه ذات يوم ، فقالوا للحسن هذا الرجل الذى أخبرناك به ، وأشاروا إليه . فمضى إليه الحسن وقال له : ياعبد الله ، أراك قد حببت إليك العزلة ، فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس . قال فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس وعن الحسن فقال له الحسن : وما ذاك الشغل يرحمك الله؟ فقال إنى أصبح وأمسى بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسى بشكر الله تعالى على النعمة ، والاستغفار من الذنب . فقال له الحسن: أنت ياعبد الله أفقه عندى من الحسن ، فالزم ما أنت عليه .

وقيل بينما أويس القرنى جالس، إذ أتاه هرم بن حيان، فقال له أويس: ماجاء بك ؟ قال جئت لآنس بك. فقال أويس: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره. وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به ، وقلت أخلو بربى . وإذا رأيت الصبح أدركنى، استرجعت كراهية لقاء الناس ، وأن يجيئنى من يشغلنى عن ربى . وقال عبد الله بن زيد . طوبى لمن عاش فى الدنيا وعاش فى الآخرة . قيل له وكيف ذلك ؟ قال يناجي الله فى الدنيا ، ويجاوره فى الآخرة .

وقال ذو النون المصرى: سرور المؤمن ولذته فى الخلوة بمناجاة ربه. وقال مالك بن دينار من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين، فقد قل علمه، وعمى قلبه، وضيع عمره. وقال ابن المبارك. ماأحسن حال من انقطع إلى الله تعالى.

ويروى عن بعض الصالحين أنه قال: بينما أنا أسير فى بعض بلاد الشام، إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال. فلما نظر إلىّ، تنحى إلى أصل شجرة، وتستر بها. فقلت سبحان الله، تبخل علي بالنظر إليك! فقال يا هذا، إنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبى فى الصبر عن الدنيا وأهلها، فطال فى ذلك تعبي، وفنى فيه عمرى، فسألت الله تعالى أن لايجعل حظى من أيامى فى مجاهدة قلبي. فسكنه الله عن الاضطراب، وألفه الوحدة والانفراد. فلما نظرت إليك، خفت أن أقع في الأمر الأول، فإليك عنى، فإنى أعوذ من شرك برب العارفين، وحبيب القانتين. ثم صاح واغمّاهُ من طول المكث فى الدنيا ثم حول وجهه عنى، ثم نفض يديه وقال: إليك عنى يادنيا، لغيرى فتزينى، وأهلك فغرى. ثم قال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة، وحلاوة الانقطاع إليه، ماألهى قلوبهم عن ذكر الجنان، وعن الحور الحسان، وجمع همهم فى ذكره، فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته. ثم مضى وهو يقول: قدوس قدوس

فإذاً فى الخلوة أنس بذكر الله، واستكثار من معرفة الله، وفى مثل ذلك قيل

وإنى لأستغشى وما بى غشوة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا

وأخرج من بين الجلوس لعلنى ... أحدث عنك النفس بالسر خاليا

ولذلك قال بعض الحكماء: إنمايستوحش الإنسان من نفسه، لخلو ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم. فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، وقد قيل: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس

فإذاً هذه فائدة جزيلة، ولكن فى حق بعض الخواص. ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق فى معرفة الله، فالتجرد له أفضل من كل مايتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات، أن يموت الإنسان محبا لله، عارفابالله، ولا محبة إلابالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر. وفراغ القلب شرط فى كل واحد منهما، ولا فراغ مع المخالطة

الفائدة الثانية

التخلص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة ، ويسلم منها فى الخلوة وهى أربعة : الغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة ، التى يوجبها الحرص على الدنيا

أما الغيبة ، فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهها ، عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم ، لا ينجو منها إلا الصديقون . فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس ، والتفكه بها ، والتنقل بحلاوتها ، وهى طعمتهم ولذتهم ، وإليها يستروحون من وحشتهم فى الخلوة . فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكت كنت شريكا ، والمستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك ، وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك ، فازدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهو من أصول الدين ، وهو واجب كما سيأتى بيانه فى آخر هذا الربع ، ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصى الله به ، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر . إذ ربما يجره طلب الخلاص منها إلى معاص هى أكبر مما نهى عنه ابتداء . وفى العزلة خلاص من هذا ، فإن الأمر فى إهماله شديد ، والقيام به شاق . وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيبا وقال : أيها الناس[1] إنكم تقرءون هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ[(1)]) وإنكم تضعونها فى غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ » وقد قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَا مَنَعَكَ إِذَا رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تُنْكِرَهُ ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ لِعَبْدٍ حُجَّتَهُ قَالَ يَارَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ »

---

(١) حديث أبي بكر انكم تقرؤن هذه الآية يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم وانكم لتضعونها فى غير موضعها ــ الحديث : أصحاب السنن قال الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث ان الله يسأل العبد حتى يقول مامنعك اذا رأيت المنكر فى الدنيا أن تنكره ــ الحديث : ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى باسناد جيد

---

(1) المائدة : ١٠٥

وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق . ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر ، وفى العزلة خلاص ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إثارة للخصومات ، وتحريك لغوائل الصدور ، كما قيل :

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة ... وقد يستفيد البغضة المتنصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا ، فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه . فإذا سقط عليه ، يقول ياليتنى تركته مائلا . نعم لو وجد أعوانا أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام . وأنت اليوم لا تجد الأعوان، فدعهم وانج بنفسك

وأما الرياء ، فهو الداء العضال ، الذى يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه ، وكل من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راآهم ، ومن راآهم وقع فيما وقعوا فيه ، وهلك كما هلكوا وأقل مايلزم فيه النفاق ، فإنك إن خالطت متعاديين ، ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضا إليهما جميعا . وإن جاملتهما ، كنت من شرار الناس . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « تجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ » وقال عليه السلام[2] « إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ » وأقل ما يجب فى مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ، ولا يخلو ذلك عن كذب ، إما فى الأصل ، وإما فى الزيادة . وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال ، بقولك كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت فى الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا نفاق محض . قال سرى لو دخل علىّ أخ لى فسويت لحيتى بيدى لدخوله ، لخشيت أن أكتب فى جريدة المنافقين. وكان الفضيل جالسا وحده فى المسجد الحرام ، فجاء إليه أخ له ، فقال ما جاء بك؟ قال المؤانسة يا أبا على . فقال هى والله بالمواحشة أشبه . هل تريد إلا أن تتزين لى وأتزين لك؟ وتكذب لى وأكذب لك إما أن تقوم عنى ، أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يشعر به . ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال : كيف أنت ياهشام؟ فغضب عليه وقال . لم لم تخاطبنى بأمير المؤمنين ؟ فقال: لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذبا

---

(١) حديث تجدون من شرار الناس ذا الوجهين: متفق عليه من حديث أبى هريرة
(٢) حديث ان من شر الناس ذا الوجهين: مسلم من حديث أبى هريرة وهو الذى قبله

فمن أمكنه أن يحترز هـذا الاحتراز ، فليخالط الناس . وإلا فليرض بإثبات اسمه فى جريدة المنافقين ، فقدكان السلف يتلاقون ويحترزون فى قولهم كيف أصبحت ؟ وكيف أمسيت ؟ وكيف أنت ؟ وكيف حالك ؟ وفى الجواب عنـه ، فـكان سؤالهم عن أحوال الدين لاعن أحوال الدنيا : قال حاتم الأصم ، لحامد اللفاف : كيف أنت فى نفسك ؟ قال سالم معافى . فكره حاتم جوابه ، وقال ياحامد ، السلامة من وراء الصراط والعافية فى الجنة

وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال أصبحت لاأملك تقديم ماأرجو ، ولا أستطيع دفع ماأحاذر . وأصبحت مرتهنا بعملى ، والخير كله فى يدغيرى ولا فقير أفقر منى . وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له كيف أصبحت؟ قال أصبحت من ضعفاء مذنبين ، نستوفى أرزاقنا ، وتنتظر آجالنا . وكان أبو الدرداء إذا قيل له كيف أصبحت ؟ قال أصبحت بخير إن نجوت من النار . وكان سفيان الثورى إذا قيل له كيف أصبحت؟ يقول أصبحت أشكر ذا إلى ذا ، وأذم ذا إلى ذا ، وأفر من ذا إلى ذا . وقيل لأويس القرنى كيف أصبحت ؟ قال كيف يصبح رجل إذا أمسى لايدرى أنه يصبح ؟ وإذا أصبح لايدرى أنه يمسى ؟ وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت ؟ قال أصبحت فى عمر ينقص ، وذنوب تزيد وقيل لبعض الحكماء كيف أصبحت ؟ قال أصبحت لاأرضى حياتى لمماتى ، ولا نفسى لربى وقيل لحكيم كيف أصبحت ؟ قال أصبحت آكل رزق ربى ، وأطيع عدوه ابليس . وقيل لمحمد بن واسع كيف أصبحت ؟ قال ماظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة ؟ وقيل لحامد اللفاف كيف أصبحت ؟ قال أصبحت أشتهى عافيـة يوم إلى الليل . فقيل له ألست فى عافية فى كل الأيام ؟ فقال العافية يوم لاأعصى الله تعالى فيه

وقيل لرجل وهو يجود بنفسه ماحالك ؟ فقال وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ؟ ويدخل قبرا موحشا بلامؤنس ، وينطلق إلى ملك عدل بلاحجة ، وقيل لحسان بن أبى سنان ماحالك قال ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب ؛ وقال ابن سيرين لرجل كيف حالك فقال وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا وهو معيل ؟ فدخل ابن سيرين منزله ، فأخرج له ألف درهم فدفعها اليه ، وقال خمسمائة اقض بها دينك ، وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك . ولم يكن عنده غيرها

ثم قال : والله لا أسأل أحدا حاله أبدا . وإنما فعل ذلك لأنه خشي أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره ، فيكون بذلك مرائيا منافقا ، فقد كان سؤالهم عن أمور الدين، وأحوال القلب في معاملة الله . وإن سألوا عن أمور الدنيا فمن اهتمام ، وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة

وقال بعضهم . إني لأعرف أقواما كانوا لا يتلاقون ، ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواما يتلاقون ويتساءلون ، حتى عن الدجاجة في البيت ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه . فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق ؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت؟ ويقول الآخر كيف أنت؟ فالسائل لا ينتظر الجواب، والمسؤل يشتغل بالسؤال ولا يجيب. وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف . ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد ، والألسنة تنطق بالسؤال . قال الحسن: إنما كانوا يقولون السلام عليكم ، إذا سلمت والله القلوب . وأما الآن ، فكيف أصبحت عافاك الله ؟ كيف أنت أصلحك الله ؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة ، فإن شاؤا غضبوا علينا ، وإن شاؤا لا . وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك كيف أصبحت بدعة . وقال رجل لأبي بكر بن عياش كيف أصبحت ؟ فما أجابه ، وقال دعونا من هذه البدعة . وقال إنما حدث هذا في زمان الطاعون ، الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام ، من الموت الذريع كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشية فيقول كيف أمسيت ؟

والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ، ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق وكل ذلك مذموم ، بعضه محظور ، وبعضه مكروه . وفي العزلة الخلاص من ذلك ، فإن من لقي الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه ، واغتابوه وتشمروا لإيذائه، فيذهب دينهم فيه ، ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم ، فهو داء دفين ، قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين . فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة ، مع كونه منكرا عليه في باطنه ، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته ، لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله ، إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع ، فيسقط وقعه واستعظامه له

وإنما الوازع عنه شدة وقعه فى القلب ، فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة ، أو شك أن يحل القوة الوازعة ، ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه. ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره ، استحقر الصغائر من نفسه . ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم فى أن يستصغر ما عنده ، وتؤثر مجالسة الفقراء فى استعظام ما أتيح له من النعم. وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة ، هذا تأثيره فى الطبع ، فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين فى العبادة والتنزه عن الدنيا ، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار ، وإلى عبادته بعين الاستحقار . وما دام يرى نفسه مقصرا ، فلا يخلو عن داعية الاجتهاد ، رغبة فى الاستكمال ، واستتماما للاقتداء . ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان ، وإعراضهم عن الله ، وإقبالهم على الدنيا ، واعتيادهم المعاصى ، استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة فى الخير يصادفها فى قلبه ، وذلك هو الهلاك . ويكفى فى تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته . وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم [1] « عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ » وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله . وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه ، وهو انبعاث الرغبة من القلب ، وحركة الحرص على الاقتداء بهم ، والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير . ومبدأ الرحمة فعل الخير ، ومبدأ فعل الخير الرغبة ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة

والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن ، كالمفهوم من عكسه ، وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة ، لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصى ، واللعنة هى البعد ومبدأ البعد من الله هو المعاصى والإعراض عن الله ، بالإقبال على الحظوظ العاجلة ، والشهوات الحاضرة ، لا على الوجه المشروع . ومبدأ المعاصى سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب ، ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع . وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ؟ بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [2] « مَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ » فكما أن الريح

---

(١) حديث عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة: ليس له أصل فى الحديث المرفوع وانما هو قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزى فى مقدمة صفوة الصفوة

(٢) حديث مثل الجليس السوء كمثل الكير ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبى موسى

يعلق بالثوب ولا يشعر به ، فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به . وقال «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يَهَبْ لَكَ مِنْهُ تَجِدْ رِيحَهُ » ولهذا أقول : من عرف من عالم زلة ، حرم عليه حكايتها لعلتين ، إحداهما أنها غيبة ، والثانية ، وهي أعظمها أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها ، فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية : فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك ، دفع الاستنكار وقال ، كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله ، حتى العلماء والعباد . ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ، ولا يتعاطاه موفق معتبر ، لشق عليه الإقدام . فكم من شخص يتكالب على الدنيا ، ويحرص على جمعها ، ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبحها ، ويزعم أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ، وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية ، ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق ، بل لطلب الرياسة ، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ، ولوازمها من المعاصي والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات ، والإعراض عن الحسنات . بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه ، بالتنزيل على مقتضى الشهوة ، ليتعلل به . وهو من دقائق مكايد الشيطان ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ [1]) وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا [1] وقال « مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْتَمِعُ الْحِكْمَةَ ثُمَّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا بِشَرِّ مَا يَسْتَمِعُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِيًا فَقَالَ لَهُ يَا رَاعِي اجْزُرْ لِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ فَقَالَ اذْهَبْ فَخُذْ خَيْرَ شَاةٍ فِيهَا فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الْغَنَمِ » وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا .

ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته ، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان ، استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره . وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ، ولا تنفر عنه طباعهم ، كنفرتهم عن تأخير الصوم . مع أن صلاة واحدة ، يقتضي تركها الكفر عند قوم ، وحز الرقبة عند قوم

---

(١) حديث مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يحمل منها إلا شر مايسمع كمثل رجل أتى راعيا فقال ياراعى اجزرلى شاة من غنمك ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

(١) الزمر : ١٨

وترك صوم رمضان كله لايقتضيه . ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر ، والتساهل فيها مما يكثر ، فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب . وذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب ، أو شرب من إناء فضة ، استبعدته النفوس ، واشتد إنكارها ، وقد يشاهد فى مجلس طويل ، لايتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ، ولا يستبعد منه ذلك ، والغيبة أشد من الزنا ، فكيف لاتكون أشد من لبس الحرير ! ولكن كثرة سماع الغيبة، ومشاهدة المغتابين ، أسقط وقعها عن القلوب ، وهون على النفس أمرها

فتفطن لهذه الدقائق ، وفر من الناس فرارك من الأسد ، لأنك لاتشاهد منهم إلا مايزيد فى حرصك على الدنيا ، وغفلتك عن الآخرة ، ويهون عليك المعصية، ويضعف رغبتك فى الطاعة . فإن وجدت جليسا يذكرك الله رؤيته وسيرته ، فالزمه ولا تفارقه ، واغتنمه ولا تستحقره ، فإنها غنيمة العاقل، وضالة المؤمن . وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء . ومهما فهمتَ هذه المعانى ، ولاحظتَ طبعك ، والتفتَ إلى حال من أردت مخالطته ، لم يخف عليك أن الأولى التباعد عنه بالعزلة ، أو التقرب إليه بالخلطة. وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة ، أو على الخلطة . بأن إحداهما أولى. إذ كلُّ مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ، ولا حق فى المفصل إلا التفصيل .

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها، والتعرض لأخطارها فقلما تخلوا البلاد عن تعصبات ، وفتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم فى سلامة منها .قال عبد الله ابن عمرو بن العاص : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] الفتن ووصفها ، وقال « إذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَخفتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا» وشبك بين أصابعه، قلت هكذا فما تأمرني ؟ فقال « الْزَمْ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ »

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص اذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم ـ الحديث : أبو داود والنسائي فى اليوم والليلة باسناد حسن

وروى أبو سعيد الخدري ، أنه صلى الله عليه وسلم (١) قال « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَماً يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ » وروى عبدالله بن مسعود ، أنه صلى الله عليه وسلم (٢) قال « سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلَّا مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ وَمِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ وَمِنْ حَجَرٍ إِلَى حَجَرٍ كَالثَّعْلَبِ الَّذِي يَرُوغُ » قيل له ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال « إِذَا لَمْ تُنَلِ الْمَعِيشَةُ إِلَّا بِمَعَاصِي اللهِ تَعَالَى فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ الْعُزُوبَةُ » قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرتنا بالتزويج ؟ قال « إِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ كَانَ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ أَبَوَيْهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ فَعَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ » قالوا وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ الْيَدِ فَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يُطِيقُ حَتَّى يُورِدَهُ ذَلِكَ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ » وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه . إذ لا يستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة . ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى . ولست أقول هذا أوان ذلك الزمان ، فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر . ولأجله قال سفيان : والله لقد حلت العزلة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أيام الفتنة وأيام الهرج ، قلت وما الهرج ؟ قال « حِينَ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ » قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال « كُفَّ نَفْسَكَ وَيَدَكَ وَادْخُلْ دَارَكَ » قال قلت يارسول الله أرأيت إن دخل عليّ داري ؟ قال « فَادْخُلْ بَيْتَكَ »

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن : رواه البخاري

(٢) حديث ابن مسعود سيأتي على الناس زمان لايسلم لذي دين دينه الا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق الى شاهق: تقدم في النكاح

(٣) حديث ابن مسعود ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتنة وأيام الهرج قلت وما الهرج قال حين لايأمن الرجل جليسه ـ الحديث : أبو داود مختصرا والخطابي في العزلة بتمامه وفي اسناده عند الخطابي انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج الى معرفته

قلت فإن دخل علي بيتي ؟ قال « فَادْخُلْ مَسْجِدَكَ وَاصْنَعْ هَكَذَا » وقبض على الكوع « وَقُلْ رَبِّيَ اللهُ حَتَّى تَمُوتَ » وقال سعد لما دعي إلى الخروج أيام معاوية : لا . إلا أن تعطوني سيفا له عينان بصيرتان ، ولسان ينطق بالكافر فأقتله ، وبالمؤمن فأكف عنه . وقال مثلنا ومثلكم ، كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء ، فبينما هم كذلك يسيرون ، إذ هاجت ريح عجاجة ، فضلوا الطريق ، فالتبس عليهم . فقال بعضهم الطريق ذات اليمين ، فأخذوا فيها ، فتاهوا وضلوا . وقال بعضهم ذات الشمال ، فأخذوا فيها ، فتاهوا وضلوا . وأناخ آخرون ، وتوقفوا حتى ذهبت الريح ، وتبينت الطريق ، فسافروا . فاعتزل سعد وجماعة معه ، فارقوا الفتن ، ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه لما بلغه (١) أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام . فقال له أين تريد ؟ فقال العراق فإذا معه طوامير وكتب فقال هذه كتبهم وبيعتهم ، فقال لا تنظر إلى كتبهم ، ولا تأتهم ، فأبى . فقال إني أحدثك حديثا ، إن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخيره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة على الدنيا ، وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يليها أحد منكم أبدا وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم . فأبى أن يرجع ، فاعتنقه ابن عمر وبكى ، وقال أستودعك الله من قتيل أو أسير . وكان في الصحابة عشرة آلاف ، فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلا : وجلس طاوس في بيته . فقيل له في ذلك ، فقال فساد الزمان ، وحيف الأئمة ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه ، قيل له لزمت القصر ، وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة في فجاجكم عالية وفيما هناك عما أنتم فيه عافية . فإذاً الحذر من الخصومات ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة

(١) حديث ابن عمر انه لما بلغه أن الحسين توجه الى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ـ الحديث : وفيه أنه صلى الله عليه وسلم خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة الطبراني مقتصرا على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل على مسيرة ثلاثة أيام وكذا رواه البزار بنحوه واسنادهما حسن

الفائدة الرابعة

الخلاص من شر الناس ، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ، ومرة بسوء الظن والتهمة ،ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة ، التي يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة أو الكذب ، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال مالا تبلغ عقولهم كنهه ، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم ،يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم . قال ماهما ؟ قال

اخفض الصوت إن نطقت بليل　　والتفت بالنهــــار قبل المقال
ليس للقــول رجعة حين يبدو　　بقبيـــح يكون أو بجمال

ولا شك أن من اختلط بالناس ، وشاركهم فى أعمالهم ، لا ينفك من حاسد وعدو يسيء الظن به ، ويتــوهم أنه يستعد لمعاداته ، ونصب المكيدة عليه ، وتدسيس غائلة وراءه . فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العـدو فاحذرهم . وقد اشتد حرصهم على الدنيا ، فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها . قال المتنبي

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه　　وصـدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عـــداته　　فأصبح فى ليل من الشك مظلم

وقد قيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار . وأنواع الشر الذى يلقاه الإنسان من معارفه ، وممن يختلط به كثيرة . ولسنا نطول بتفصيلها . ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها وفى العزلة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة ، فقال أبو الدرداء أخبر تقله يروى مرفوعا . وقال الشاعر

من حمـد الناس ولم يبلهم　　ثم بلاهم ذم من يحمد
وصار بالوحدة مستأنسا　　يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضي الله عنه : فى العزلة راحة من القرين السوء . وقيل لعبد الله بن الزبير ألا تأتى المدينــة فقال ما بقى فيها إلا حاسد نعمة ، أو فرح بنقمة . وقال ابن السماك

كتب صاحب لنا : أما بعد ، فإن الناس كانوا دواء يتداوى به ؛ فصاروا داء لا دواء له، ففر منهم فرارك من الأسد . وكان بعض الأعراب يلازم شجرا ويقول :هو نديم فيه ثلاث خصال إن سمع منى لم ينم علي ، وإن تفلت فى وجهه احتمل منى، وإن عربدت عليه لم يغضب . فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدنى فى الندماء . وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر، فقيل له فى ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ، ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر .وقال الحسن رضي الله عنه : أردت الحج ، فسمع ثابت البنانى بذلك،وكان أيضا من أولياء الله فقال : بلغنى أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك . فقال له الحسن : ويحك ، دعنا نتعاشر بستر الله علينا إنى أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه.وهذه إشارة إلى فائدة أخرى فى العزلة ، وهو بقاء الستر على الدين ، والمروءة والأخلاق ، والفقر وسائر العورات . وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ[1])وقال الشاعر

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

ولا يخلو الإنسان فى دينه ودنياه ، وأخلاقه وأفعاله عن عورات ، الأولى فى الدين والدنيا سترها ، ولا تبقى السلامة مع انكشافها . وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لا شوك فيه ؛ فالناس اليوم شوك لا ورق فيه . وإذا كان هذا حكم زمانه ، وهو فى أواخر القرن الأول فلا ينبغى أن يشك فى أن الأخير شر . وقال سفيان بن عيينة : قال لى سفيان الثورى فى اليقظة فى حياته ، وفى المنام بعد وفاته : أقلل من معرفة الناس ، فإن التخلص منهم شديد. ولا أحسب أنى رأيت ما أكره إلا ممن عرفت . وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده ، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته ؛ فذهبت أطرده ، فقال دعه يا هذا ، هذا لا يضر ولا يؤذى ؛ وهو خير من الجليس السوء . وقيل لبعضهم : ما حملك على أن تعتزل الناس؟ قال: خشيت أن أسلب دينى ولا أشعر. وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء وقال أبو الدرداء: اتقوا الله واحذروا الناس ، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه . وقال بعضهم : أقلل المعارف ، فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك . لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم : أنكر من تعرف ، ولا تتعرف إلى من لا تعرف

(١) البقرة:٢٧٣

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك ، وينقطع طمعك عن الناس . فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد . فإنّ رضا الناس غاية لاتدرك . فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى . ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة ، وعيادة المريض ، وحضور الولائم والإملاكات وفيها تضييع الأوقات ، و تعرض للآفات . ثم قد تعوق عن بعضها العوائق ، وتستقبل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعـذار ، فيقولون له قمت بحق فلان ، وقصرت فى حقنا . ويصير ذلك سبب عداوة ، فقد قيل : من لم يعد مريضا فى وقت العيادة ، اشتهى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصيره · ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لايقـدر عليـه المتجرد له طول الليل والنهار ، فكيف من له مهم يشغله فى دين أو دنيا ! قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء · وقال ابن الرومى

عدوك من صديقك مستفاد   فلا تستكثرن من الصحاب
فـإنّ الداء أكـثر ماتراه   يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله : أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه ، وانبعث بقوّة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة فى أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما اعتزل لم يشاهد . وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع . ولذلك قال الله تعالى(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ(١))وقال صلى الله عليه وسلم(١) « انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ » وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء ، فلم أزل مغموما . كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبى ، ودابة أفره من دابتى ، فجالست الفقراء فاسترحت . وحكي أن المزنى رحمه الله

---

(١) جديث انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فانه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم : مسلم من حديث أبي هريرة

(١) طه : ١٣١

خرج من باب جامع الفسطاط ، وقد أقبل ابن عبد الحكم فى موكبه ، فبهره مارأى من حسن حاله وحسن هيئته ، فتلا قوله تعالى (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (١)) ثم قال : بلى أصبر وأرضى . وكان فقيرا مقلا . فالذى هو فى بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن فإن من شاهد زينة الدنيا ، فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر ، فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر ، وهو أمرّ من الصبر ، أو تنبعث رغبته ، فيحتال فى طلب الدنيا ، فيهلك هلاكا مؤبدا ، أما فى الدنيا فبالطمع الذى يخيب فى أكثر الأوقات ، فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له ، وأما فى الآخرة فبإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه . ولذلك قال ابن الاعرابى

إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب فى الحال ذلا

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ، ومقاساة حمقهم وأخلاقهم . فإن رؤية الثقيل هى العمى الأصغر . قيل للأعمش : مم عمشت عيناك ؟ قال من النظر إلى الثقلاء

ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال : فى الخبر أن (١) من سلب الله كريمتيه عوضه الله عنهما ماهو خير منهما ، فما الذى عوضك ؟ فقال فى معرض المطايبة : عوضنى الله منهما أنه كفانى رؤية الثقلاء وأنت منهم . وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول : نظرت إلى ثقيل مرة فغشى علىّ . وقال جالينوس : لكل شيء حمى ، وحمى الروح النظر إلى الثقلاء . وقال الشافعي رحمه الله : ماجالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى ، كأنه أثقل علىّ من الجانب الآخر

---

(١) حديث من سلب الله كريمته عوضه عنها ماهو خير منها: الطبرانى باسناد ضعيف من حديث جرير من سلبت كريمتيه عوضته عنها الجنة وله ولأحمد نحوه من حديث أبى أمامة بسند حسن وللبخارى من حديث أنس يقول الله تبارك وتعالى اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه

(١) الفرقان : ٢٠

وهذه الفوائد ماسوى الأوليين ، متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة . ولكنها أيضا تتعلق بالدين . فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل ، لم يأمن أن يغتابه ، وأن يستنكر ماهو صنع الله . فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن ، أو محاسدة أو نميمة أو غيرذلك ، لم يصبر عن مكافأته . وكل ذلك يجر إلى فساد الدين . وفى العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

إعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية مايستفاد بالاستعانة بالغير ، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة . فكل مايستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفواته من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة ، والدواعى إليها ماهى ، وهى التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب وإنالته فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلنفصل ذلك ، فإنها من فوائد المخالطة وهى سبع

الفائدة الأولى

التعليم والتعلم . وقد ذكرنا فضلهما فى كتاب العلم . وهما أعظم العبادات فى الدنيا ، ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة . إلا أن العلوم كثيرة ، وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضرورى فى الدنيا . فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة . وإن تعلم الفرض ، وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ، ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل . وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل ، فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران . ولهذا قال النخعي وغيره . تفقه ثم اعتزل . ومن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ، ويبطل عمله بحيث لا يدرى . ولا ينفك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ، ويأنس بها ، وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها ، فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان ، وهو يرى نفسه من العبّاد . فالعلم هو أصل الدين ، فلا خير فى عزلة العوام والجهال ، أعنى من لا يحسن العبادة فى الخلوة ، ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها

فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه. فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب ، تضاعف لا محالة مرضه . فلا تليق العزلة إلا بالعالم

وأما التعليم ففيه ثواب عظيم ، مهما صحت نية المعلم والمتعلم . ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع ، فهو هلاك الدين . وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم

وحكم العالم في هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لا طالب إلا لكلام مزخرف ، يستميل به العوام في معرض الوعظ أو لجدل معقد يتوصل به إلى إفحام الأقران، ويتقرب به إلى السلطان ، ويستعمل في معرض المنافسة والمباهاة . وأقرب علم مرغوب فيه المذهب، ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال ، وتولي الولايات ، واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلهم يقتضي الدين والحزم الاعتزال عنهم . فإن صودف طالب لله ، ومتقرب بالعلم إلى الله، فأكبر الكبائر الاعتزال عنه ، وكتمان العلم منه . وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ، ثم يرجعون إلى الله ، وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا وهم هلكى على طلب الدنيا ، ومتكالبون عليها، أو راغبون عنها وزاهدون فيها ، وليس الخبر كالمعاينة

واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان ، هو علم الحديث وتفسير القرءان، ومعرفة سير الأنبياء والصحابة . فإن فيها التخويف والتحذير ، وهو سبب لإثارة الخوف من الله ، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل . وأما الكلام والفقه المجرد ، الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات المذهب منه والخلاف ، لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله . بل لا يزال متماديا في حرصه إلى آخر عمره . ولعل ما أودعناه هذا الكتاب ، إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا ، فيجوز أن يرخص فيه ، إذ يرجى أن ينزجر به في آخر عمره ، فإنه مشحون بالتخويف بالله ، والترغيب في الآخرة ، والتحذير من الدنيا . وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرءان، ولا يصادف في كلام ، ولا في خلاف ، ولا في مذهب . فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه ، فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالا من الجاهل المغرور ، أو المتجاهل المغبون .

وكل عالم اشتد حرصه على التعليم ، يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس فى الحال ، باستشعار الإدلال على الجهال والتكبر عليهم . (١) فآفة العلم الخيلاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم . ولذلك حكي عن بشر ، أنه دفن سبعة عشر قمطرا من كتب الأحاديث التي سمعها ، وكان لا يحدث . ويقول : إنى أشتهى أن أحدث ، فلذلك لا أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت . ولذلك قال : حدثنا باب من أبواب الدنيا . وإذا قال الرجل حدثنا ، فإنما يقول أوسعوا لى . وقالت رابعة العدوية لسفيان الثورى : نعم الرجل أنت لولا رغبتك فى الدنيا . قال وفيما ذا رغبت ؟ قالت فى الحديث . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج أو طلب الحديث ، أو اشتغل بالسفر ، فقد ركن إلى الدنيا .

فهذه آفات قد نبهنا عليها فى كتاب العلم ، والحزمُ الاحترازُ بالعزلة ، وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن . بل الذى يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه ، فالصواب له إن كان عاقلا فى مثل هذا الزمان أن يتركه : فلقد صدق أبو سليمان الخطابى حيث قال : دع الراغبين فى صحبتك والتعلم منك ، فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان العلانية أعداء السر ، إذا لقوك تملقوك ، وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقيبا ، وإذا خرج كان عليك خطيبا ، أهل نفاق ونميمة ، وغل وخديعة ، فلا تغتر باجتماعهم عليك ، فما غرضهم العلم بل الجاه والمال ، وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وأغراضهم ، وحمارا فى حاجاتهم ، إن قصرت فى غرض من أغراضهم ، كانوا أشد أعدائك ، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم ، فتعادى عدوهم ، وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم ، وتنتهض لهم سفيها ، وقد كنت فقيها ، وتكون لهم تابعا خسيسا ، بعد أن كنت متبوعا رئيسا ، ولذلك قيل اعتزال العامة ، مروءة تامة : فهذا معنى كلامه ، وإن خالف بعض ألفاظه . وهو حق وصدق . فإنك ترى المدرسين فى رق دائم ، وتحت حق لازم ، ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم ، فكأنه يهدى تحفه إليهم ، ويرى حقه

---

(١) حديث آفة العلم الخيلاء المعروف ما رواه مطين فى مسنده من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء

واجبا عليهم . وربما لايختلف إليه ما لم يتكفل برزق له على الإدرار ، ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله ، فلا يزال متردداً إلى أبواب السلاطين ، ويقاسي الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين ، حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام ، ثم لايزال العامل يسترقه ويستخدمه ، ويمتهنه ويستذله ، إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه ، إن سوّى بينهم مقته المميزون ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز ، والقصور عن درك مصارفات الفضل ، والقيام في مقادير الحقوق بالعدل . وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بألسنة حدود ، وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد . فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا ، وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبى والعجب أنه مع هذا البلاء كله ، يمني نفسه بالأباطيل ، ويدليها بحبل الغرور . ويقول لها : لاتفتري عن صنيعك ، فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ، ومذيعة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وناشرة علم دين الله ، وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله ، وأموال السلاطين لا مالك لها ، وهي مرصدة للمصالح ، وأي مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم ؟ فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله . ولولم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل ، أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء ، الذين يأكلون ما يجدون ، ولايميزون بين الحلال والحرام ، فتلحظهم أعين الجهال ، ويستجرئون على المعاصي باستجرائهم ، اقتداء بهم ، واقتفاء لآثارهم . ولذلك قيل : مافسدت الرعية إلا بفساد الملوك ، وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء . فنعوذ بالله من الغرور والعمى ، فإنه الداء الذي ليس له دواء .

الفائدة الثانية

النفع والانتفاع . أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة . وذلك لايتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة . فيقع في جهاد من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه كما ذكرناه في كتاب الكسب ، فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعا لأقنعه ، فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب في الأكثر إلا من المعاصي . إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة ، فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به ، فهو أفضل من العزلة ، للاشتغال بالنافلة

وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق فى معرفة الله ، ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، والتجرد بها لذكر الله . أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة ، لا عن أوهام وخيالات فاسدة

وأما النفع ، فهو أن ينفع الناس ، إما بماله أو ببدنه . فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة ففى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب ، وذلك لاينال إلا بالمخالطة . ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهى أفضل له من العزلة ، إن كان لايشتغل فى عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية . وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب ، بدوام ذكر أو فكر فذلك لايعدل به غيره ألبتـــة

الفائدة الثـالثة

التأديب والتأدب . ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس ، والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسرا للنفس ، وقهرا للشهوات . وهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة ، وهى أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه ، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته . ولهذا انتدب خدام الصوفية فى الرباطات ، فيخالطون الناس بخدمتهم ، وأهل السوق للسؤال منهم ، كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية ، المنصرفين بهممهم إلى الله سبحانه . وكان هذا هو المبدأ فى الأعصار الخالية . و الآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ، ومال ذلك عن القانون ، كما مالت سائر شعائر الدين ، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع ، والتذرع إلى جمع المـال ، والاستظهار بكثرة الأتباع . فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ، ولو إلى القبر . وإن كانت النية رياضة النفس ، فهى خير من العزلة فى حق المحتاج إلى الرياضة وذلك مما يحتاج إليه فى بداية الإرادة . فبعـد حصول الارتياض ، ينبغى أن يفهم أن الدابة لايطلب من رياضتها عين رياضتها ، بل المراد منها أن تتخذ مركبا ، يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق . والبدن مطية للقلب ، يركبها ليسلك بها طريق الآخرة . وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به فى الطريق . فمن اشتغـل طول العمر بالرياضة . كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها . فلا يستفيد منها إلا الخلاص فى الحال من عضها ورفسها

ورعها ، وهى لعمرى فائدة مقصودة ، ولكن مثلها حاصل من البهيمة الميتة ، وإنما تراد الدابة لفائدة تحصل من حياتها . فكذلك الخلاص من ألم الشهوات فى الحال ، يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغي أن يقنع به . كالراهب الذى قيل له ياراهب ، فقال ماأنا راهب ، إنما أنا كلب عقور ، حبست نفسى حتى لاأعقر الناس. وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لاينبغي أن يقتصر عليه ؛ فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس، بل ينبغى أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها . ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك ، استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة. فالأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا والعزلة آخرا

وأما التأديب فإنما نعنى به أن يروض غيره . وهو حال شيخ الصوفية معهم. فإنه لايقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم: وحاله حال المعلم ، وحكمه حكمه . ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ، مايتطرق إلى نشر العلم . إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض ، أبعد منها من طلبة العلم . ولذلك يرى فيهم قلة ، وفى طلبة العلم كثرة . فينبغي أن يقيس ماتيسر له من الخلوة ، بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر ، وليؤثر الأفضل . وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ، ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفى ولا إثبات

الفائدة الرابعة

الاستئناس والإيناس . وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ، ومواضع المعاشرة والأنس . وهذا يرجع إلى حظ النفس فى الحال . وقد يكون ذلك على وجه حرام ، بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته . أو على وجه مباح . وقد يستحب ذلك لأمر الدين ، وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله فى الدين ، كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى وقد يتعلق بحظ النفس ، ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب، لتهييج دواعى النشاط فى العبادة . فإن القلوب إذا أكرهت عميت . ومهما كان فى الوحدة وحشة ، وفى المجالسة أنس يروح القلب ، فهي أولى . إذ الرفق فى العبادة من حزم العبادة .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » وهذا أمر لا يستغنى عنه . فإن النفس لا تألف الحق على الدوام مالم تروح . وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة . وهذا عنى بقوله عليه السلام « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ » والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين . ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس . وقال مرة : لدخلت بلادا لا أنيس بها . وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فلا يستغنى المعتزل إذاً عن رفيق ، يستأنس بمشاهدته ومحادثته فى اليوم والليلة ساعة . فليجتهد فى طلب من لا يفسد عليه فى ساعته تلك سائر ساعاته . فقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين ، وحكاية أحوال القلب ، وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق ، والاهتداء إلى الرشد . ففى ذلك متنفس ومتروح للنفس . وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه . فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة والراضى عن نفسه مغرور قطعا . فهذا النوع من الاستئناس فى بعض أوقات النهار ، ربما يكون أفضل من العزلة فى حق بعض الأشخاص . فليتفقد فيه أحوال القلب ، وأحوال الجليس أولا ، ثم ليجالس

الفائدة الخامسة

فى نيل الثواب وإنالته

أما النيل ، فبحضور الجنائز ، وعيادة المرضى ، وحضور العيدين . وأما حضور الجمعة فلا بد منه . وحضور الجماعة فى سائر الصلوات أيضا لا رخصة فى تركه ، إلا لخوف ضرر ظاهر ، يقاوم مايفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه . وذلك لا يتفق إلا نادرا . وكذلك فى حضور الإملاكات والدعوات ثواب ، من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم

وأما إنالته ، فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس ، أو ليعزوه فى المصائب ، أو يهنوه على النعم . فإنهم ينالون بذلك ثوابا . وكذلك إذا كان من العلماء ، وأذن لهم فى الزيارة ، نالوا ثواب الزيارة ، وكان هو بالتمكين سببا فيه

---

(١) حديث ان الله لا يمل حتى تملوا : تقدم
(٢) حديث المرء على دين خليله : تقدم فى آداب الصحبة

فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها التي ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة، فقد حكى عن جماعة من السلف ، مثل مالك وغيره، ترك إجابة الدعوات وعيادة المرضى ، وحضور الجنائز . بل كانوا أحلاس بيوتهم ، لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور . وبعضهم فارق الأمصار، وانحاز إلى قلل الجبال، تفرغا للعبادة، وفرارا من الشواغل

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع . فإنه من أفضل المقامات ، ولا يقدر عليه في الوحدة . وقد يكون الكبر سببا في اختيار العزلة . فقد روي في الإسرائيليات ، أن حكيما من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا في الحكمة ، حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة . فأوحى الله إلى نبيه قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا ، وإني لا أقبل من نفاقك شيئا. قال فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض ، وقال الآن قد بلغت رضا ربي . فأوحى الله إلى نبيه ، قل له إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم . فخرج فدخل الأسواق ، وخالط الناس وجالسهم وواكلهم ، وأكل الطعام بينهم ، ومشى في الأسواق معهم . فأوحى الله تعالى إلى نبيه ، الآن قد بلغ رضاي. فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر ، ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله، وأبقى لطراوة ذكره بين الناس

وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط ، فلا تعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترا على مقابحه ، إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده ، من غير استغراق وقت في الخلوة بذكر أو فكر . وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم ، واجتماعهم على بابهم وطرقهم، وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك . ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس، لبغض إليه زياراتهم له ، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال : وهل جئتني إلا لأتزين لك وتتزين لي وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذي زاره : حاجتي أن لا أراك ولا تراني. فمن ليس مشغولا مع نفسه بذكر الله ، فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام

والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه : أحدها: أن التواضع والمخالطة لاتنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه . إذ كان علي رضي الله عنه يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

لاينقص الكامل من كماله   ما جر من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضي الله عنهم ، يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم . وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول وهو والى المدينة والحطب على رأسه ، طرقوا لأميركم . وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم [1] يشترى الشيء . فيحمله إلى بيته بنفسه ، فيقول له صاحبه أعطنى أحمله ، فيقول « صَاحِبُ الشَّيْءِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ » وكان الحسن بن على رضي الله عنهما يمر بالسؤال ، وبين أيديهم كسر، فيقولون هلم إلى الغذاء يا ابن رسول الله ، فكان ينزل ويجلس على الطريق ، ويأكل معهم ويركب ويقول : إن الله لايحب المستكبرين .

الوجه الثانى: أن الذى شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه ، وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة ، علم أن الخلق لايغنون عنه من الله شيئا ، وأن ضرره ونفعه بيد الله ، ولا نافع ولا ضار سواه . وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله ، سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس . بل رضا الناس غاية لاتنال ، فرضا الله أولى بالطلب . ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا ، إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله . ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا ، لشيء أمره به . فقال يا أستاذ ، لا أقدر عليه لأجل الناس. فالتفت إلى أصحابه وقال : لاينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين : عبد تسقط الناس من عينه ، فلا يرى فى الدنيا إلا خالقه

---

(١) حديث كان يشترى الشيء ويحمله الى بيته بنفسه فيقول له صاحبه اعطنى أحمله فيقول صاحب المتاع أحق بحمله : أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف فى حمله السراويل الذى اشتراها

وأنّ أحدا لايقدر على أن يضره ولاينفعه ، وعبد سقطت نفسه عن قلبه ، فلا يبالى بأي حال يرونه . وقال الشافعي رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض ، فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله . وقيل للحسن يا أبا سعيد ، إن قوما يحضرون مجلسك ، ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك ، وتعنيتك بالسؤال . فتبسم وقال للقائل : هون على نفسك فإنى حدثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت ، وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس ، لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه وسلم : يارب احبس عنى ألسنة الناس . فقال ياموسى هذا شيء لم اصطفه لنفسى فكيف أفعله بك ! وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير : إن لم تطب نفسا بأنى أجعلك علكا فى أفواه الماضغين ، لم أكتبك عندى من المتواضعين . فإذاً من حبس نفسه فى البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه ، فهو فى عناء حاضر فى الدنيا (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(١)) فإذاً لاتستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا ، وعبادة وعلما ، بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته ، وكثرت آفاته ، ولتشوشت عليه عباداته . فهذه غوائل خفية فى اختيار العزلة ، ينبغى أن تتقى ، فإنها مهلكات فى صور منجيات

الفائدة السابعة

التجارب . فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم . والعقل الغريزى ليس كافيا فى تفهم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدها التجربة والممارسة . ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب . فالصبي إذا اعتزل بقي غمرا جاهلا . بل ينبغى أن يشتغل بالتعلم ، ويحصل له فى مدة التعلم مايحتاج إليه من التجارب ، ويكفيه ذلك ، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ، ولايحتاج إلى المخالطة .

ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه . وذلك لايقدر عليه فى الخلوة فإن كل مجرب فى الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه

(١) الزمر : ٢٦

وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها ، يجب إماطتها وقهرها ؛ ولا يكفى تسكينها بالتباعد عما يحركها . فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث ، مثال دمل ممتلىء بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألمه مالم يتحرك ، أو يمسه غيره ، فإن لم يكن له يد تمسه ، أوعين تبصر صورته ، ولم يكن معه من يحركه ، ربما ظن بنفسه السلامة ، ولم يشعر بالدمل فى نفسه واعتقد فقده . ولكن لو حركه محرك ، أو أصابه مشرط حجام ، لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال . فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل ، والحسد ، والغضب ، وسائر الأخلاق الذميمة ، إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك . وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة ، الطالبون لتزكية القلوب ، يجربون أنفسهم . فمن كان يستشعر فى نفسه كبراً سعى فى إماطته ، حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس ، أو حزمة حطب على رأسه ويتردد فى الأسواق ، ليجرب نفسه بذلك . فإن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية ، قل من يتفطن لها . ولذلك حكي عن بعضهم أنه قال أعدت صلاة ثلاثين سنة ، مع أنى كنت أصليها فى الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعذر ، فما وجدت موضعا فى الصف الأول ، فوقفت فى الصف الثانى ، فوجدت نفسى تستشعر خجلة من نظر الناس إلىّ ، وقد سُبِقْتُ إلى الصف الأول ، فعلمت أن جميع صلواتى التى كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء ، ممزوجة بلذة نظر الناس إلىّ ، ورؤيتهم إياي فى زمرة السابقين إلى الخير ، فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة فى استخراج الخبائث وإظهارها ولذلك قيل السفر يسفر عن الأخلاق ، فإنه نوع من المخالطة الدائمة . وستأتى غوائل هذه المعانى ودقائقها فى ربع المهلكات ، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير ، وبالعلم بها يزكو العمل القليل . ولولا ذلك مافضل العلم على العمل . إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد إلا للصلاة ، أفضل من الصلاة . فإنا نعلم أن مايراد لغيره ، فإما ذلك الغير أشرف منه . وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد ، حتى قال صلى الله عليه وسلم [1] « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه .

---

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى : تقدم فى العلم

أحدها ماذكرناه . والثانى عموم النفع لتعدي فائدته ، والعمل لا تتعدى فائدته . والثالث أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فذلك أفضل من كل عمل. بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق ، لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبته . فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدين ، والعمل كالشرط له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ[1]) فالكلم الطيب هو هذا العلم، والعمل كالحمال الرافع له إلى مقصده ، فيكون المرفوع أفضل من الرافع . وهذا كلام معترض لايليق بهذا الكلام ، فلنرجع إلى المقصود فنقول

إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها ، تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ . بل ينبغى أن ينظر إلى الشخص وحاله ، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة . ويقاس الفائت بالحاصل . فعند ذلك يتبين الحق ، ويتضح الأفضل . وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب ، إذ قال. يايونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة .ويختلف ذلك بالأحوال وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل . هـذا هو الحق الصراح . وكل ماذكر سوى هذا فهو قاصر . وإنما هو إخبار كل واحـد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له فى الحال . والفرق بين العالم والصوفى فى ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لايتكلم إلا عن حاله ، فلا جرم تختلف أجوبتهم فى المسائل ، والعالم هو الذى يدرك الحق على ماهو عليه ، ولا ينظر إلى حال نفسه ، فيكشف الحق فيه. وذلك مما لا يختلف فيه . فإن الحق واحد ابدا . والقاصر عن الحق كثير لايحصى . ولذلك سئل الصوفية عن الفقر ، فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر . وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله ، وليس بحق فى نفسه . إذ الحق لا يـكون إلا واحـداً . ولذلك قال أبوعبد الله الجلاء ، وقد سئل عن الفقر فقال : اضرب بكميك الحائط ، وقل ربى الله ، فهو الفقر . وقال الجنيد : الفقير هو الذى لايسأل أحـدا ولا يعارض ، وإن عورض سكت .

---

(١) فاطر : ٩

وقال سهل بن عبد الله : الفقير الذي لايسأل ولا يدخر . وقال آخر : هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك . وقال إبراهيم الخواص: هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى . والمقصود أنه لو سئل منهم مائة ، لسمع مائة جواب مختلفة ، قلما يتفق منها اثنان . وذلك كله حق من وجه ، فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه. ولذلك لا ترى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما في التصوف ، أو يثني عليه ، بل كل واحد منهم يدعي أنه الواصل إلى الحق ، والواقف عليه ، لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم ، فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ، ولا يلتفتون إلى غيرهم. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل ، وكشف الغطاء ، ورفع الاختلاف . ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال بالنظر في الظل ، فقال بعضهم هو في الصيف قدمان ، وحكي عن آخر أنه نصف قدم ، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام ، وحكي عن آخر أنه خمسة أقدام وآخر يرد عليه ، فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم . فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه ببلد نفسه ، فصدق في قوله ، وأخطأ في تخطئته صاحبه ، إذ ظن أن العالم كله بلده ، أو هو مثل بلده . كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه . والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره ، وعلة اختلافه بالبلاد ، فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ، ويقول في بعضها لا يبقى ظل ، وفي بعضها يطول ، وفي بعضها يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة

فإن قلت: فمن آثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم، فما آدابه في العزلة ؟ فنقول إنما يطول النظر في آداب المخالطة ، وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة

وأما آداب العزلة فلا تطول. فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شر نفسه عن الناس أولا ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعا ، فهذه آداب نيته . ثم ليكن في خلوته مواظبا على العلم والعمل، والذكر والفكر ، ليجتني ثمرة العزلة ، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ، فيشوش أكثر وقته ، وليكف عن السؤال عن أخبارهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد ، وما الناس مشغولون به ، فإن كل ذلك ينغرس في القلب ، حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب . فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر

فى الأرض ، فلا بد أن ينبت و تتفرع عروقه و أغصانه ، ويتداعى بعضها إلى بعض. وأحد مهمات المتنزل قطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله . والأخبار ينابيع الوساوس وأصولها

وليقنع باليسير من المعيشة ، وإلا اضطره التوسع إلى الناس ، واحتاج إلى مخالطتهم وليكن صبورا على مايلقاه من أذى الجيران . وليسد سمعه عن الإصغاء إلى مايقال فيه من ثناء عليه بالعزلة ، أو قدح فيه بترك الخلطة ، فإن كل ذلك يؤثر فى القلب ولو مدة يسيرة وحال اشتغال القلب به لابد أن يكون واقفاً عن سيره إلى طريق الآخرة فإن السير ، إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب ، وإما بالفكر فى جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأرضه ، وإما بالتأمل فى دقائق الأعمال ومفسدات القلوب، وطلب طرق التحصن منها . وكل ذلك يستدعي الفراغ ، والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب فى الحال . وقد يتجدد ذكره فى دوام الذكر من حيث لاينتظر . وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح، لتستريح نفسه إليه فى اليوم ساعة من كدّ المواظبة، ففيه عون على بقية الساعات

ولا يتم له الصبر فى العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه . ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل ، بأن لايقدر لنفسه عمراً طويلا ، بل يصبح على أنه لا يمسى ويمسى على أنه لايصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ، ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لوقدر تراخي الأجل . وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر، مهما ضاق قلبه من الوحدة وليتحقق أن من لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت وأن من أنس بذكر الله ومعرفته ، فلا يزيل الموت أنسه . إذ لايهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه، فرحا بفضل الله عليه ورحمته. كما قال الله تعالى فى الشهداء (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ[(١)]) وكل متجرد لله فى جهاد نفسه فهو شهيد ، مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر[(١)] فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه، كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم. والجهاد الأكبر جهاد النفس ، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يعنون جهاد النفس

تم كتاب العزلة ، ويتلوه كتاب آداب السفر ، والحمد لله وحده

---

(١) حديث المجاهد من جاهد نفسه وهواه : الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله وهواه وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

كتاب آداب السفر

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص هممهم لمشاهدة عجائب صنعه فى الحضر والسفر ، فأصبحوا راضين بمجارى القدر ، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى منتزهات البصر ، إلا على سبيل الاعتبار بما يسح فى مسارح النظر ، ومجارى الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر ، والسهل والوعر ، والبدو والحضر ، والصلاة على محمد سيد البشر ، وعلى آله وصحبه المقتفين لآثاره فى الأخلاق والسير ، وسلم كثيراً

أما بعد : فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه ، أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه ، والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات ، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وأشرف السفرين السفر الباطن ، فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد ، لازم درجة القصور ، وقانع بمرتبة النقص ، ومستبدل بمتسع فضاء جنة عرضها السموات والأرض ظلمة السجن ، وضيق الحبس ، ولقد صدق القائل

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه فى خطب خطير ، لم يستغن فيه عن دليل وخفير فاقتضى غموض السبيل ، وفقد الخفير والدليل ، وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل ، اندرس مسالكه. فانقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفين ، منتزهات الأنفس والملكوت والآفاق ، وإليه دعا الله سبحانه بقوله : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ[1])

---

(1) فصلت : ٥٣

وبقوله تعالى (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[١]) وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى : (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[٢]) وبقوله سبحانه : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[٣]) فمن يسر له هذا السفر لم يزل فى سيره متنزها فى جنة عرضها السموات والأرض ، وهو ساكن بالبدن ، مستقر فى الوطن ، وهو السفر الذى لا تضيق فيه المناهل والموارد ، ولا يضر فيه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه وتتضاعف ثمراته وفوائده ، فغنائمه دائمة غير ممنوعة ، وثمراته متزايدة غير مقطوعة ، إلا إذا بدا للمسافر فترة فى سفره ، ووقفة فى حركته ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا زاغوا أزاغ الله قلوبهم وما الله بظلام للعبيد ولكنهم يظلمون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان فى هذا الميدان والتطواف فى متنزهات هذا البستان ، ربما سافر بظاهر بدنه ، فى مدة مديدة فراسخ معدودة ، مغتنما بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة فإن كان مطلبه العلم والدين ، أو الكفاية للاستعانة على الدين ، كان من سالكى سبيل الآخرة وكان له فى سفره شروط وآداب إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بعمال الآخرة ، ونحن نذكر آدابه وشروطه فى بابين إن شاء الله تعالى

الباب الأول : فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته ، وفيه فصلان :

الباب الثانى : فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

---

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ (٢) الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨ (٣) يوسف : ١٠٥

الباب الأول

فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع
وفى نية السفر وفائدته وفيه فصلان

الفصل الأول

فى فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة ، وفيه فوائد وله آفات كما ذكرناه فى كتاب الصحبة والعزلة ، والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب ، فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ، ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب ، والمهروب عنه إما أمر له نكاية فى الأمور الدنيوية ، كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد ، أو خوف سببه فتنة ، أو خصومة ، أو غلاء سعر ، وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأذية فى بلدة فيهرب منها ، وإما أمر له نكاية فى الدين ، كمن ابتلى فى بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله ، فيؤثر الغربة والخمول ، ويجتنب السعة والجاه ، أو كمن يدعى إلى بدعة قهراً ، أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته ، فيطلب الفرار منه ، وأما المطلوب فهو إما دنيوى كالمال والجاه ، أو دينى ، والدينى إما علم وإما عمل والعلم إما علم من العلوم الدينية ، وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة وإما علم بآيات الأرض وعجائبها ، كسفر ذى القرنين وطوافه فى نواحى الأرض ، والعمل إما عبادة ، وإما زيارة ، والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد والزيارة أيضا من القربات ، وقد يقصد بها مكان كمكة والمدينة وبيت المقدس والثغور فإن الرباط بها قربة ، وقد يقصد بها الأولياء والعلماء ، وهم إما موتى فتزار قبورهم ، وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ، ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة فى الاقتداء بهم ، فهذه هى أقسام الأسفار ، ويخرج من هذه القسمة أقسام

القسم الأول : السفر فى طلب العلم ، وهو إما واجب ، وإما نفل ، وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا ، وذلك العلم إما علم بأمور دينه ، أو بأخلاقه فى نفسه ، أو بآيات الله فى أرضه ، وقد قال عليه السلام (١) « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ » وفى خبر آخر (٢) « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ » وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد ، وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ، ما كان سفره ضائعا (٣) ورحل جابر بن عبدالله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة ، فساروا شهرا فى حديث بلغهم عن عبد الله بن أنيس الأنصارى ، يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه وكل مذكور فى العلم محصل له من زمان الصحابة إلى زماننا هذا لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله

وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضا مهم ، فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه ، ومن لا يطلع على أسرار باطنه ، وخبائث صفاته ، لا يقدر على تطهير القلب منها ، وإنما السفر هو الذى يسفر عن أخلاق الرجال ، وبه يخرج الله الخبء فى السموات والأرض ، وإنما سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذى زكى عنده بعض الشهود هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم أخلاقه فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه ، وكان بشر يقول : يامعشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب : وإذا طال مقامه فى موضع تغير

(كتاب آداب السفر)

(الباب الأول فى الآداب من أول النهوض الى آخر الرجوع)

(١) حديث من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع : الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب

(٢) حديث من سلك طريقا يلتمس فيه علما ـ الحديث : رواه مسلم وتقدم فى العلم

(٣) حديث رحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر فى حديث بلغه عن عبدالله بن أنيس الخطيب فى كتاب الرحلة باسناد حسن ولم يسم الصحابى وقال البخارى فى صحيحه رحل جابر ابن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال الى الشام واسناده حسن ولأحمد ان أبا أيوب ركب إلي عقبة بن عامر الى مصر فى حديث وله ان عقبة ابن عامر أتى سلمة ابن مخلد وهو أمير مصر فى حديث آخر وكلاهما منقطع

وبالجملة فإن النفس فى الوطن مع مواتاة الأسباب لاتظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر ، وصرّفت عن مألوفاتها المعتادة ، وامتحنت بمشاق الغربة ، انكشفت غوائلها ، ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها وقد ذكرنا فى كتاب العزلة فوائد المخالطة ، والسفرُ مخالطةٌ ، مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق

وأما آيات الله فى أرضه ، ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر ، ففيها قطع متجاورات وفيها الجبال ، والبرارى ، والبحار ، وأنواع الحيوان ، والنبات ، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ، ومسبح له بلسان ذلق لايدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد، وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا : فإنهم لا يبصرون ، ولا يسمعون لانهم عن السمع معزولون ، وعن آيات ربهم محجوبون (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[١]) وما أريد بالسمع السمع الظاهر، فإن الذين أريدوا بهما كانوا معزولين عنه ، وإنما أريد به السمع الباطن ، ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات ، فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذى هو نطق وراء نطق المقال ، يشبه قول القائل حكاية لكلام الوتد والحائط ، قال الجدار للوتد: لِمَ تشقنى ؟ فقال: سل من يدقنى ، ولم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى ، ومامن ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هى توحيدها ، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس ، هى تسبيحها ، ولكن لايفقهون تسبيحها ، لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ، ومن ركاكة لسان المقال ، إلى فصاحة لسان الحال، ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير ، لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير، ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسماع كلام الله تعالى الذى يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات ، ومن يسافر ليستقرىء هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة، بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات ، لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر فى موضع ، ويفرغ قلبه للتمتع

(١) الروم : ٧

بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات ، فماله وللتردد فى الفلوات، وله غنية في ملكوت السموات ، فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات ، وهي إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات فى الشهر والسنة مرات ، بل هي دائبة فى الحركة على توالى الأوقات، فمن الغرائب أن يدأب فى الطواف بآحاد المساجد ، من أمرت الكعبة أن تطوف به ، ومن الغرائب أن يطوف فى أكناف الأرض ، من تطوف به أقطار السماء ، ثم مادام المسافر مفتقرا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر ، فهو بعد فى المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه متعكف على باب الوطن لم يفض به المسير إلى متسع الفضاء ، ولا سبب لطول المقام فى هذا المنزل ، إلا الجبن والقصور ، ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إن الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق ، إلا أن الأول خبر عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثانى خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التى لا يطؤها إلا مخاطر بنفسه والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين ، وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل والهالكون فى التيه هم الأكثرون من ركاب هذه الطريق، ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم ، وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه ، ومهما عظم المطلوب قل المساعد ، ثم الذى يهلك أكثر من الذى يملك، ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وطول التعب

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت فى مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك فى الدين والدنيا إلا فى حيز الخطر ، وقد يسمى الجبانُ الجبنَ والقصورَ ، باسم الحزم والحذر ، كما قيل

ترى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله فى الأرض ،فلنرجع إلى الغرض الذى كنا نقصده ولنبين

القسم الثانى : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك

وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة فى كتاب أسرار الحج ،ويدخل فى جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام ،وزيارة قبور الصحابة ، والتابعين ، وسائر العلماء ، والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته ، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ، ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام[1] « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِي هَذَا ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى » لأن ذلك فى المساجد فإنها متماثلة بعد هذه المساجد ، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، فى أصل الفضل ، وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتا عظيما ، بحسب اختلاف درجاتهم عند الله

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات ، والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء ، وبركة النظر إليهم ، فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة ، وفيه أيضا حركة للرغبة فى الاقتداء بهم ، والتخلق بأخلاقهم وآدابهم ، هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم ، كيف ومجرد زيارة الإخوان فى الله فيه فضل كما ذكرناه فى كتاب الصحبة ، وفى التوراة : سر أربعة أميال زر أخا فى الله . وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة ، وسوى الثغور للرباط بها ، فالحديث ظاهر ، فى أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة، وقد ذكرنا فضائل الحرمين فى كتاب الحج . وبيت المقدس أيضا له فضل كبير . خرج ابن عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس ، حتى صلى فيه الصلوات الخمس ، ثم كر راجعاً من الغد إلى المدينة ، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه ، أن لا تصرف نظرك عنه ما دام مقيما فيه حتى يخرج منه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك

القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين ، وذلك أيضا حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين ، ومما يجب الهرب منه ، الولاية ، والجاه وكثرة العلائق والأسباب ، فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ

(١) حديث لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد ـ الحديث ـ تقدم فى الحج

عن غير الله ، فإن لم يتم فراغه فبقدر فراغه يتصور أن يشتغل بالدين ؛ ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ، ولكن يتصور تخفيفها وتثقيلها وقد نجا المخفون ، وهلك المثقلون ، والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء ، بل قبل المخف بفضله ، وشمله بسعة رحمته ، والمخف هو الذي ليست الدنيا أكبر همه ، وذلك لا يتيسر في الوطن ، لمن اتسع جاهه ، وكثرت علائقه ، فلا يتم مقصوده إلا بالغربة ، والخمول ، وقطع العلائق التي لابد عنها ، حتى يروض نفسه مدة مديدة ، ثم ربما يمده الله بمعونته ، فينعم عليه بما يقوى به يقينه ، ويطمئن به قلبه ، فيستوى عنده الحضر والسفر ، ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها ، فلا يصده شيء منها عما هو بصدده من ذكر الله . وذلك مما يعز وجوده جداً ، بل الغالب على القلوب الضعف ، والقصور عن الاتساع للخلق والخالق ، وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء والوصول إليها بالكسب شديد، وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا ، ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كتفاوت القوة الظاهرة في الأعضاء ، فرب رجل قوي ذي مرة سوى شديد الأعصاب ، محكم البنية ؛ يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل ، والتدريج فيه ؛ قليلا قليلا ، لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوته زيادة ما ، وإن كان ذلك لا يبلغه درجته ، فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا ، فإن ذلك غاية الجهل ، ونهاية الضلال

وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن وقال سفيان الثوري : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل ، فكيف على المشتهرين ، هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد ، كلما عرف في موضع تحول إلى غيره ، وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد علق قلته بيده ، ووضع جرابه على ظهره ، فقلت إلى أين يا أبا عبد الله قال بلغني عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقلت له وتفعل هذا ؟ قال : نعم . إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك ؛ وأقل لهمك ، وهذا هرب من غلاء السعر ، وكان سرى السقطى يقول للصوفية إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار ، وأورقت الأشجار ، وطاب

الانتشار فانتشروا ، وقد كان الخوّاص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوما، وكان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتمادا على الأسباب قادحا فى التوكل ، وسيأتى أسرار الاعتماد على الأسباب فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى

القسم الرابع : السفر هربا مما يقدح فى البدن ، كالطاعون ، أو فى المال ، كغلاء السعر أو مايجرى مجراه ولا حرج فى ذلك ، بل ربما يجب الفرار فى بعض المواضع ، وربما يستحب فى بعض ، بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد واستحبابه . ولكن يستثنى منه الطاعون ، فلا ينبغى أن يفر منه لورود النهي فيه ، قال أسامة بن زيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ أَوِ السَّقَمَ رِجْزٌ عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ ثُمَّ بَقِيَ بَعْدُ فِي الْأَرْضِ فَيَذْهَبُ الْمَرَّةَ وَيَأْتِي الْأُخْرَى فَمَنْ سَمِعَ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا يَقْدَمَنَّ عَلَيْهِ وَمَنْ وَقَعَ بِأَرْضٍ وَهُوَ بِهَا فَلَا يُخْرِجَنَّهُ الْفِرَارُ مِنْهُ » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ فَنَاءَ أُمَّتِي بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ » فقلت : هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : « غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ تَأْخُذُهُمْ فِي مَرَاقِهِمْ . الْمُسْلِمُ الْمَيِّتُ مِنْهُ شَهِيدٌ ، وَالْمُقِيمُ عَلَيْهِ الْمُحْتَسِبُ كَالْمُرَابِطِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْفَارُّ مِنْهُ كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ »

وعن مكحول عن أم أيمن قالت أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) بعض أصحابه « لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا وَإِنْ عُذِّبْتَ أَوْ حُرِّقْتَ ، وَأَطِعْ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ لَكَ فَاخْرُجْ مِنْهُ وَلَا تَتْرُكِ الصَّلَاةَ عَمْدًا فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ عَمْدًا فَقَدْ بَرِئَتْ ذِمَّةُ اللهِ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ وَالْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ ، وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ فَإِنَّهَا تُسْخِطُ اللهَ ، وَلَا تَفِرَّ مِنَ الزَّحْفِ وَإِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوَتَانٌ وَأَنْتَ فِيهِمْ فَاثْبُتْ فِيهِمْ ، أَنْفِقْ مِنْ طَوْلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ وَلَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْهُمْ ، أَخِفْهُمْ بِاللهِ »

---

(١) حديث اسامة بن زيد ان هـذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الامم قبلكم ـ الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم

(٢) حديث عائشة ان فناء أمتى بالطعن والطاعون ـ الحديث : رواه أحمد وابن عبد البر فى التمهيد باسناد جيد

(٣) حديث أم أيمن أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهله لاتشرك بالله شيئا وان حرقت بالنار البيهقى وقال فيه ارسال

فهـذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنـه ، وكذلك القدوم عليـه ، وسيأتى شرح ذلك فى كتاب التوكل

فهـذه أقسام الأسفار ، وقد خرج منـه أن السفر ينقسم إلى مذموم ، وإلى محمود وإلى مباح ، والمذموم ينقسم إلى حرام كإباق العبد ، وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون ، والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم

ومن هـذه الأسباب تتبين النية فى السفر فإن معنى النيـة والانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية ، ولتكن نيته الآخرة فى جميع أسفاره وذلك ظاهر فى الواجب والمندوب ، ومحال فى المكروه ، والمحظور، وأما المباح فرجعه إلى النية فمهما كان قصده بطلب المال مثلا التعفف عن السؤال ، ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال والتصـدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة ، ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة ، لقوله صلى الله عليه وسـلم [1] « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فقوله صلى الله عليه وسلم: الأعمال بالنيات عام فى الواجبات والمندوبات والمباحات ، دون المحظورات ، فإن النية لا تؤثر فى إخراجها عن كونها من المحظورات وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته ، فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها ، ونقص من آخرته أضعافه وفرق عليه همه ، وكثر بالحرص والرغبة شغله ، ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة ، وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته ، وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له

وأما النظر فى أن السفر هو الأفضل أو الإقامة فذلك يضاهى النظر فى أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ، وقد ذكرنا منهاجه فى كتاب العزلة فليفهم هذا منه ، فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة ، تفرق الهم ، وتشتت القلب فى حق الأكثرين ، والأفضل فى هذا ماهو الأعون على الدين ، ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى ، وتحصيـل

---

(١) حديث الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

الأنس بذكر الله تعالى ، والأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما والسفر هو المعين على التعلم فى الابتداء ، والإقامة هى المعينة على العمل بالعلم فى الانتهاء ، وأما السياحة فى الأرض على الدوام فمن المشوشات للقلب إلا فى حق الأقوياء ، فإن المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب ، تارة بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده فى إقامته ، وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق ، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع ثم الشغل بالحظ ، والترحال مشوش لجميع الأحوال فلا ينبغى أن يسافر المريد إلا فى طلب علم ، أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة فى الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالسكون أولى به ، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار ، لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ، ودقائق الأعمال ، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى ، وبذكره فى الخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين ، قد ألفوا البطالة ، واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلانوا جانب السؤال والكدية ، واستطابوا الرباطات المبنية لهم فى البلاد ، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم ، واستخفوا عقولهم وأديانهم ، من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة ، وانتشار الصيت ، واقتناص الأموال بطريق السؤال تعللا بكثرة الأتباع ، فلم يكن لهم فى الخانقاهات حكم نافذ ، ولا تأديب للمريدين نافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فلبسوا المرقعات ، واتخذوا فى الخانقاهات منتزهات ، وربما تلقفوا ألفاظا مزخرفة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم فى خرقتهم ، وفى سياحتهم وفى لفظهم وعبارتهم ، وفى آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة ، ويتوهمون أن المشاركة فى الظواهر توجب المساهمة فى الحقائق ، وهيهات ، فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم ، فهؤلاء بغضاء الله ، فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ ، ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ إلا من سافر لحج أو عمرة فى غير رياء ولا سمعة ، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدى به فى علمه وسيرته

وقد خلت البلاد عنه الآن ، والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت ، إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل ، لأن العلوم لم تندرس بعد ، والعالم وإن كان عالم سوء فإنما فساده في سيرته لا في علمه ، فيبقى عالما غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم

وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى ، واستحقار ما سوى الله ، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح ، ومهما فسد العمل فات الأصل ، وفي أسفار هؤلاء نظر للفقهاء ، من حيث إنه إتعاب للنفس بلا فائدة ، وقد يقال إن ذلك ممنوع ، ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإن حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة ، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفوس المتحركين لهذه الحظوظ أيضا خسيسة ، ولا بأس بإتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه ، فهو المتأذي والمتلذذ ، والفتوى تقتضي تشتيت العوام في المباحات التي لا نفع فيها ولا ضرر ، فالسائحون في غير مهم في الدين والدنيا ، بل لمحض التفرج في البلاد ، كالبهائم المترددة في الصحارى ، فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ، ولم يلبسوا على الخلق حالهم ، وإنما عصيانهم في التلبيس والسؤال على اسم التصوف ، والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية ، لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح ، عدل في دينه ، مع صفات أخر ، وراء الصلاح ، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء ، أكلهم أموال السلاطين ، وأكل الحرام من الكبائر ، فلا تبقى معه العدالة والصلاح ولو تصور صوفي فاسق ، لتصور صوفي كافر ، وفقيه يهودي ، ، وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص ، فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذي يحصل به العدالة ، وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ، ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى ، حرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه سحتا ، وأعنى به إذا كان المعطى بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم ، فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الدعوى ومن زعم أنه علوى وهو كاذب ، وأعطاه مسلم مالا لحبه أهل البيت ، ولو علم أنه كاذب

لم يعطه شيئا فأخذه على ذلك حرام، وكذلك الصوفي ، ولهذا احترز المحتاطون عن الأكل بالدين ، فإن المبالغ فى الاحتياط لدينه لاينفك فى باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب فى مواساته لفترت رغبته عن المواساة ، فلا جرم كانوا لايشترون شيئا بأنفسهم مخافة أن يسامحوا لأجل دينهم ، فيكونوا قد أكلوا بالدين ، وكانوا يوكلون من يشترى لهم ويشترطون على الوكيل أن لايظهر أنه لمن يشترى ، نعم : إنما يحل أخذ مايعطى لأجل الدين إذا كان الآخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه مايعلمه الله تعالى لم يقتض ذلك فتورا فى رأيه فيه ، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممتنع أو عزيز ، والمغرور الجاهل بنفسه أحرى بأن يكون جاهلا بأمر دينه فإن أقرب الأشياء إلى قالبه قلبه ، فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ، ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لامحالة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الغائلة ، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعا أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته ، فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره ، فليصرح له وليقل إنك إن كنت تعطينى لما تعتقده فى من الدين فلست مستحقا لذلك ، ولو كشف الله تعالى سترى لم ترنى بعين التوقير ، بل اعتقدت أنى شر الخلق أو من شرارهم ، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين ، وعدم استحقاقه لما يأخذه ، ولكن ههنا مكيدة للنفس بينة، ومخادعة فليتفطن لها ، وهو أنه قد يقول ذلك مظهرا أنه متشبه بالصالحين فى ذمهم نفوسهم واستحقارهم لها ، ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء ، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء ، وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء ؛ فكم من ذام نفسه وهو لها مادح بعين ذمه ، فذم النفس فى الخلوة مع النفس هو المحمود ، وأما الذم فى الملأ فهو عين الرياء ، إلا إذا أورده إيرادا يحصل للمستمع يقينا بأنه مقترف للذنوب ، ومعترف بها ، وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ، ويمكن تلبيسه بقرائن الأحوال ، والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن مخادعته لله عز وجل ، أو مخادعته لنفسه محال ، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك ، فهذا هو القول فى أقسام السفر ، ونية المسافر ، وفضيلته .

الفصل الثانى

فى آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه، وهي أحد عشر أدباً

الأول : أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ، ويرد الودائع إن كانت عنده ، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده فى سفره ، ولا بد فى السفر من طيب الكلام ، وإطعام الطعام ، وإظهار مكارم الأخلاق فى السفر ، فإنه يخرج خبايا الباطن ، ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر ، وقد يصلح فى الحضر من لا يصلح فى السفر . ولذلك قيل : إذا أثنى على الرجل معاملوه فى الحضر ، ورفقاؤه فى السفر ، فلا تشكوا فى صلاحه ، والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه فى الضجر فهو الحسن الخلق ، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق ، وقد قيل : ثلاثة لا يلامون على الضجر ، الصائم ، والمريض ، والمسافر ، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكارى ، ومعاونة الرفقة بكل ممكن ، والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ، ومطايبة فى بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية ، ليكن ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه

الثانى : أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق ، وليكون رفيقه ممن يعينه على الدين ، فيذكره إذا نسي ، ويعينه ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم [1] « عَنْ أَنْ يُسَافِرَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ » وقال [2] « الثَّلَاثَةُ نَفَرٌ » وقال أيضا [3] « إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فِي السَّفَرِ فَأَمِّرُوا أَحَدَكُمْ »

---

(١) حديث النهى عن أن يسافر الرجل وحده: أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخارى بلفظ لو يعلم الناس ما فى الوحدة ماسار راكب بليل وحده

(٢) حديث الثلاثة نفر: رويناه من حديث على فى وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف الثلاثة ركب رواه أبو داود والترمذى وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٣) حديث اذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم: الطبرانى من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(١) وكانوا يفعلون ذلك ، ويقولون : هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم وليؤمروا أحسنهم أخلاقا ، وأرفقهم بالأصحاب ، وأسرعهم إلى الإيثار ، وطلب الموافقة وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف فى تعيين المنازل ، والطرق ، ومصالح السفر ولا نظام إلا فى الوحدة ولا فساد إلا فى الكثرة ، وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد و(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (١)) ومهما كان المدبر واحدا انتظم أمر التدبير وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور فى الحضر والسفر ، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد ، وأمير خاص كرب الدار ، وأما السفر : فلا يتعين له أمير إلا بالتأمير فلهذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء ، ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم ، وأن يجعل نفسه وقاية لهم ، كما نقل عن عبد الله المروزى أنه صحبه أبو على الرباطى ، فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا ، فقال بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبى على على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة ، فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه ، وفى يده كساء يمنع عنه المطر ، فكلما قال له عبد الله لا تفعل ، يقول ألم تقل إن الإمارة مسلمة لى فلا تتحكم علي ولا ترجع عن قولك حتى قال أبو على : وددت أنى مت ولم أقل له أنت الأمير ، فهكذا ينبغى أن يكون الأمير ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « خَيْرُ الْأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ » وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة ، والذى ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه ، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد فى الحاجة واحدا ، فيتردد فى السفر بلا رفيق ، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب ، لفقد أنس الرفيق ، ولو تردد فى الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحدا

---

(١) حديث كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم : البزار والحاكم عن عمر أنه قال إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمروا عليكم أحدكم ذاأمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث خير الأصحاب أربعة : أبو داود والترمذى والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذى حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

---

(١) الأنبياء : ٢٢

فلا يخلو أيضا عن الخطر وعن ضيق الصدر ، فإذاً مادون الأربعة لايفي بالمقصود ، ومافوق الأربعة يزيد ، فلا تجمعهم رابطة واحدة ، فلا ينعقد بينهم الترافق ، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ، ومن يستغنى عنه لاتنصرف الهمة إليه فلا تتم المرافقة معه ، نعم فى كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف ، ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة لاللرفاقة العامة ، وكم من رفيق فى الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ، ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه

الثالث : أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء ، وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال بعضهم صحبت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله ، فلما أردت أن أفارقه شيعنى ، وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] يقول « قَالَ لُقْمَانُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئاً حَفِظَهُ وَإِنِّى أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ » وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] أنه قال « إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ سَفَراً فَلْيُوَدِّعْ إِخْوَانَهُ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَاعِلٌ لَهُ فِى دُعَائِهِمُ الْبَرَكَةَ » وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] كان إذا ودع رجلا قال « زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَّهَكَ إِلَى الْخَيْرِ حَيْثُ تَوَجَّهْتَ » فهذا دعاء المقيم للمودع ، وقال موسى بن وردان أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته ، فقال ألا أعلمك ياابن أخى شيئا علمنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوداع ، فقلت بلى قال قل [٤] « أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ الَّذِى لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم [٥] فقال إنى أريد سفرا فأوصنى فقال له « فِى حِفْظِ اللهِ وَفِى كَنَفِهِ زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَّهَكَ لِلْخَيْرِ حَيْثُ كُنْتَ أَوْ أَيْنَمَا كُنْتَ » شك فيه الراوى

---

(١) حديث ابن عمر قال لقمان ان الله اذا استودع شيئا حفظه وانى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك : النسائى فى اليوم والليلة ورواه أبوداود مختصرا واسناده جيد

(٢) حديث زيد بن أرقم اذا أراد أحدكم سفرا فليودع اخوانه فان الله جاعل له فى دعائهم البركة : الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف

(٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كان إذا ودع رجلا قال زودك الله التقوى : الخرائطى فى مكارم الأخلاق والمحاملى فى الدعاء وفيه ابن أبى لهيعة

(٤) حديث أبى هريرة أستودعك الله الذى لاتضيع ودائعه : ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة باسناد حسن

(٥) حديث أنس فى حفظ الله وفى كنفه زودك الله التقوى ـ الحديث : تقدم فى الحج فى الباب الثانى

وينبغي إذا استودع الله تعالى مايخلفه أن يستودع الجمع ولا يخصص ، فقد روي أن عمر رضي الله عنه ، كان يعطي الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له، فقال له عمر: مارأيت أحداً أشبه بأحد من هذا بك ، فقال له الرجل،أحدثك عنه ياأمير المؤمنين بأمر: إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعني على هذه الحالة ، فقلت :أستودع الله مافي بطنك ، فخرجت ثم قدمت ، فإذا هي قد ماتت فجلسنا نتحدث ،فإذا نار على قبرها فقلت للقوم: ما هـذه النار ؟ فقالوا : هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليـلة ، فقلت : والله إنها كانت لصوامة قوامة ؟ فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراج وإذا هذ الغلام يدب ، فقيل لي إن هذه وديعتك ، ولو كنت استودعت أمه لوجدتها.فقال عمر رضي الله عنه ، لهو أشبه بك من الغراب بالغراب

الرابع . أن يصلى قبل سفره صلاة الاستخارة ، كما وصفناها في كتاب الصلاة ،ووقت الخروج يصلي لأجل السفر فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم (١) فقال إني نذرت سفرا وقد كتبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها، إلى ابني، أم أخي ،أم أبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا اسْتَخْلَفَ عَبْدٌ فِي أَهْلِهِ مِنْ خَلِيفَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ يُصَلِّيهِنَّ فِي بَيْتِهِ إِذَا شَدَّ عَلَيْهِ ثِيَابَ سَفَرِهِ يَقْرَأُ فِيهِنَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَقَرَّبُ بِهِنَّ إِلَيْكَ فَاخْلُفْنِي بِهِنَّ فِي أَهْلِي وَمَالِي فَهِيَ خَلِيفَتُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَحِرْزٌ حَوْلَ دَارِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ »

الخامس : اذا حصل على باب الدار فليقل ، بسم الله توكلت على الله ، ولا حـول ولا قوة إلا بالله ، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ،أو أجهل أو يجهل علي؟ فإذامشى قال:اللهم بك انتشرت،وعليك توكلت،وبك اعتصمت،وإليك توجهت اللهم أنت ثقتي، وأنت رجائي، فاكفني ما أهمني ومالا أهتم به ، وما أنت أعلم به مني،عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ، ووجهني للخير أينما توجهت

---

(١) حديث أنس أن رجلا قال إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فالى أي الثلاثة أدفعها إلى أبي أم أخي أم امرأتي فقال ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات ـ الحديث : الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف

وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه ، فإذا ركب الدابة فليقل . بسم الله وبالله والله أكبر ، توكلت على الله ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلي العظيم ،ماشاءالله كان ومالم يشألم يكن (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [١])فإذا استوت الدابة تحته فليقل (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ [٢]) اللهم أنت الحامل على الظهر ، وأنت المستعان على الأمور

السادس : أن يرحل عن المنزل بكرة ، روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم [١] رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وبكر،وقال « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا »ويستحب أن يبتدىء بالخروج يوم الخميس فقد روى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ السَّبْتِ » وكان صلى الله عليه وسلم [٣] إذا بعث سرية بعثها أول النهار ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم [٤] قال « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ خَمِيسِهَا » وقال عبد الله بن عباس إذا كان لك إلى رجل حاجة [٥] فاطلبها منه نهارا ، ولا تطلبها ليلا.واطلبها بكرة فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا »

ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصيا بترك الجمعة

---

(١) حديث جابر انه صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال اللهم بارك لأمتي في بكورها رواه الخرائطي وفي السنن الأربعة من حديث صخر العامري اللهم بارك لأمتي في بكورها قال الترمذي حديث حسن

(٢) حديث كعب بن مالك قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت البزار مقتصرا على يوم خميسها والخرائطي مقتصرا على يوم السبت وكلاهما ضعيف

(٣) حديث كان اذا بعث سرية بعثها أول النهار: الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي

(٤) حديث أبي هريرة اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها: ابن ماجه والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه يوم الخميس وكلا الاسنادين ضعيف

(٥) حديث ابن عباس إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهارا ـ الحديث : البزار والطبراني في الكبير والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وإسناده ضعيف

---

(١) الزخرف : ١٣،١٤ (٢) الاعراف : ٤٣

واليوم منسوب إليها فكان أوله من أسباب وجوبها، والتشييع للوداع مستحب وهو سنة ، قال صلى الله عليه وسلم [١] « لأَنْ أُشَيِّعَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ فَأَكْتُنِفَهُ عَلَى رَحْلِهِ غَدْوَةً أَوْ رَوْحَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »

السابع: أن لا ينزل حتى يحمى النهار فهي السنة ويكون أكثر سيره بالليل ، قال صلى الله عليه وسلم [٢] « عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ » فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار ، ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وماجرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر مافيه ، اصرف عني شر شرارهم ، فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ، ثم ليقل : اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر من شرماخلق، فإذا جن عليه الليل فليقل :ياأرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك ، ومن شر مافيك ، وشر مادب عليك ، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب، ومن شر ساكني البلد ووالد وماولد (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [١]) ومهما علا شرفا من الأرض في وقت السير فينبغي أن يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ، ولك الحمد على كل حال ، ومهما هبط سبح، ومهما خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جللت السموات بالعزة والجبروت

الثامن : أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشي منفردا خارج القافلة ، لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظا عند النوم ، كان صلى الله عليه وسلم [٣] إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعه ، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا ، وجعل رأسه في كفه والغرض من ذلك ، أن لايستثقل في النوم فتطلع الشمس وهو نائم لايدري ، فيكون مايفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره

---

(١) حديث لأن أشيع مجاهدا في سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روحة أحب إلي من الدنيا ومافيها ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس

(٢) حديث عليكم بالدلجة ـ الحديث : تقدم في الباب الثاني من الحج

(٣) حديث كان اذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه ـ الحديث : تقدم في الحج

(١) الانعام : ١٣

والمستحب بالليل (١) أن يتناوب الرفقاء فى الحراسة ، فإذا نام واحد حرس آخر فهذه السنة ، ومهما قصده عدو أو سبع فى ليل أو نهار ، فليقرأ آية الكرسى ،وشهدالله،وسورة الإخلاص ، والمعوذتين ، وليقل بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ، حسبي الله ، توكلت على الله ، ماشاء الله ، لايأتى بالخيرات إلا الله ، ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ، حسبي الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى ،ولادون الله ملجأ.(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (١)) تحصنت بالله العظيم ، واستعنت بالحي القيوم الذى لايموت ، اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام ، واكنفنا بركنك الذى لايرام ، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك ، وأنت ثقتنا ورجاؤنا ، اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين

التاسع : أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها مالا تطيق ، ولا يضربها فى وجهها فإنه منهي عنه ، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم ، وتتأذى به الدابة ،كان أهل الورع لاينامون على الدواب إلا غفوة، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لاَ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ كَرَاسِيَّ » ويستحب أن ينزل عن الدابة ، (٣) غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة، وفيه آثار عن السلف ، وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لاينزل ، ويوفى الأجرة ، ثم كان ينزل ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيوضع فى ميزان حسناته لافى ميزان حسنات المكارى. ومن آذى بهيمة بضرب أو حمل مالاتطيق طولب به يوم القيامة ، إذ فى كل كبد حراء أجر ، قال أبو الدرداء رضي الله عنه لبعير له عند الموت، أيها البعير لاتخاصمنى إلى ربك فإنى لم أك أحملك فوق طاقتك ، وفى النزول ساعة صدقتان ، إحداهما ، ترويح الدابة ، والثانية إدخال السرور على قلب المكارى ، وفيه فائدة أخرى ،وهى رياضة البدن، وتحريك الرجلين

---

(١) حديث تناوب الرفقاء فى الحراسة : تقدم فى الحج فى الباب الثانى
(٢) حديث لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى ، تقدم فى الباب الثالث من الحج
(٣) حديث النزول عن الدابة غدوة وعشية : تقدم فيه

(١) المجادلة : ٢١

والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب ، وينبغى أن يقرر مع المكارى مايحمله عليها شيئاً شيئاً ويعرضه عليه ، ويستأجر الدابة بعقد صحيح ، لئلا يثور بينهما نزاع يؤذى القلب ويحمل على الزيادة فى الكلام ، فما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد ، فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المكارى ، فلاينبغى أن يحمل فوق المشروط شيئا وإن خف ، فإن القليل يجر الكثير ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، قال رجل لابن المبارك وهو على دابة أحمل لى هذه الرقعة إلى فلان فقال : حتى أستأذن المكارى ، فإنى لم أشارطه على هذه الرقعة ، فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن سلك طريق الورع

العاشر : ينبغى أن يستصحب ستة أشياء ، قالت عائشة رضي الله عنها ' كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) إذا سافر حمل معه خمسة أشياء ، المرآة ، والمكحلة ' والمقراض والسواك ، والمشط ، وفى رواية أخرى عنها ستة أشياء المرآة ، والقارورة ، والمقراض والسواك ، والمكحلة ، والمشط ، وقالت أم سعد الأنصارية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، لايفارقه فى السفر المرآة والمكحلة ، وقال صهيب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (٣) « عَلَيْكُمْ بِالْإِثْمِدِ عِنْدَ مَضْجَعِكُمْ فَإِنَّهُ مِمَّا يَزِيدُ فِي الْبَصَرِ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ » وروي أنه كان يكتحل ثلاثا ثلاثا : وفى رواية أنه اكتحل (٤) لليمنى ثلاثا ، ولليسرى ثنتين وقد زاد الصوفية الركوة والحبل ، وقال بعض الصوفية إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه ، وإنما زادوا هذا لما رأوه من الاحتياط فى طهارة الماء وغسل الثياب فالركوة لحفظ الماء الطاهر ، والحبل لتجفيف الثوب المغسول ، ولنزع الماء من الآبار

---

(١) حديث عائشة كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء المرآة والمكحلة والمدرى والسواك والمشط وفى رواية ستة أشياء : الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى سننه والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة

(٢) حديث أم سعد الأنصارية كان لايفارقه فى السفر المرآة والمكحلة : رواه الخرائطى وإسناده ضعيف

(٣) حديث صهيب عليكم بالإثمد عند مضجعكم فانه يزيد فى البصر وينبت الشعر : الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذى وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس وصححه ابن عبد البر وقال الخطابى صحيح الاسناد

(٤) حديث كان يكتحل لليمنى ثلاثا ولليسرى ثنتين : الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين

وكان الأولون يكتفون بالتيمم ، ويغنون أنفسهم عن نقل الماء ، ولا يبالون بالوضوء من الغدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها ، حتى توضأ عمر رضي الله عنه من ماء في جرة نصرانية وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل ، فيفرشون الثياب المغسولة عليها ، فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة ، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابتة ،وأما مايعين على الاحتياط فى الدين فستحسن ، وقد ذكرنا أحكام المبالغة فى الطهارات فى كتاب الطهارة ،وأن المتجرد لأمر الدين لاينبغى أن يؤثر طريق الرخصة ، بل يحتاط فى الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه ، وقيل : كان الخواص من المتوكلين ، وكان لايفارقه أربعة أشياء فى السفر والحضر ، الركوة ، والحبل ، والإبرة بخيوطها ، والمقراض ، وكان يقول هذه ليست من الدنيا .

الحادى عشر: فى آداب الرجوع من السفر كان النبى صلى الله عليه وسلم [1] إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ويقول: لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وإذا أشرف على مدينته ، فليقل : اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا ، ثم ليرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومه، كيلا يقدم عليهم بغتة فيرى مايكرهه، ولا ينبغي له [2] أن يطرقهم ليلا ، فقد ورد النهى عنه ، وكان صلى الله عليه وسلم [3] إذا قدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت، وإذا دخل قال [4] « تَوْبًا تَوْبًا لِرَبِّنَا أَوْبًا أَوْبًا لَايُغَادِرُ عَلَيْنَا حَوْبًا » وينبغى أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنة

---

(١) حديث كان إذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر ـ الحديث : تقدم فى الحج

(٢) حديث النهى عن طروق الأهل ليلا : تقدم

(٣) حديث كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولا وصلى ركعتين : تقدم

(٤) حديث كان إذا دخل قال توبا توبالربنا أوبا لايغادر حوبا : ابن السنى فى اليوم والليلة والحاكم من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين

فقد روي أنه إن لم يجد شيئا فليضع فى مخلاته (١) حجرا وكأن هذا مبالغة فى الاستحثاث على هذه المكرمة ، لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر ، والقلوب تفرح به فيتأكد الاستحباب فى تأكيد فرحهم ، وإظهار التفات القلب فى السفر إلى ذكرهم بما يستصحبه فى الطريق لهم ، فهذه جملة من الآداب الظاهرة

وأما الآداب الباطنة ففى الفصل الأول بيان جملة منها ، وجملته أن لايسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر ، ومهما وجد قلبه متغيرا إلى نقصان فليقف ولينصرف ، ولا ينبغى أن يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه ، وينوى فى دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجتهد أن يستفيد من كل واحد منهم أدبا أو كلمة لينتفع بها لا ليحكي ذلك ، ويظهر أنه لقى المشايخ ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام ، إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك ولا يجالس فى مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين ، وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة ، إلا إذا شق على أخيه مفارقته ، وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة ، ولا يشغل نفسه بالعشرة ، فإن ذلك يقطع بركة سفره ، وكلما دخل بلدا لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله فإن كان فى بيته فلا يدق عليه بابه ، ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج ، فإذا خرج تقدم إليه بأدب فسلم عليه ، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله فإن سأله أجاب بقدر السؤال ، ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولا ، وإذا كان فى السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخيائها ، ولا ذكر أصدقائه فيها، وليذكر مشايخها وفقراءها ولا يهمل فى سفره زيارة قبور الصالحين، بل يتفقدها فى كل قرية وبلدة، ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ، ومع من يقدر على إزالتها ، ويلازم فى الطريق الذكر وقراءة القرءان بحيث لايسمع غيره ، وإذا كلمه إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يحدثه، ثم ليرجع إلى ما كان عليه ، فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها ، فالبركة فى مخالفة النفس وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغى له أن يسافر تبرما بالخدمة. فذلك كفران نعمة ومهما وجد نفسه فى نقصان عما كان عليه فى الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع إذ لو كان لحق لظهر أثره . قال رجل لأبى عثمان المغربى خرج فلان مسافرا : فقال

(١) حديث إطراق أهله عند القدوم ولو بحجر : الدار قطنى من حديث عائشة بإسناد ضعيف

السفر غربة ، والغربة ذلة ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه ، وأشار به إلى أن من ليس له فى السفر زيادة دين فقد أذل نفسه ، وإلا فعز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة ، فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه ، حتى يعز فى هذه الغربة ولا يذل ؛ فإن من اتبع هواه فى سفره ذل لا محالة إما عاجلا وإما آجلا

الباب الثالث

فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

اعلم أن المسافر يحتاج فى أول سفره إلى أن يتزود لدنياه ولآخرته ، أما زاد الدنيا فالطعام والشراب ، وما يحتاج إليه من نفقة ، فإن خرج متوكلا من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره فى قافلة ، أو بين قرى متصلة ، وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب ، فإن كان ممن يصبر على الجوع أسبوعا أو عشرا مثلا أو يقدر على أن يكتفى بالحشيش فله ذلك ، وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية ، فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ، ولهذا سر سيأتى فى كتاب التوكل ، وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو ، والحبل ، ونزع الماء من البئر ، ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء فى فيه ، فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح فى التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه ، وستأتى حقيقة التوكل فى موضعها ، فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين وأما زاد الآخرة فهو العلم الذى يحتاج إليه فى طهارته وصومه وصلاته وعباداته ، فلا بد وأن يتزود منه إذ السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخففه السفر كالقصر ، والجمع ، والفطر ، وتارة يشدد عليه أمورا كان مستغنيا عنها فى الحضر ، كالعلم بالقبلة ، وأوقات الصلوات ، فإنه فى البلد يكتفى بغيره من محاريب المساجد ، وأذان المؤذنين وفى السفر قد يحتاج إلى أن يتعرف بنفسه فإذن ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول

العلم برخص السفر

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين ، مسح الخفين ،والتيمم ، وفي صلاة الفرض رخصتين القصر ، والجمع ، وفي النفل رخصتين ، أداؤه على الراحلة ، وأداؤه ماشيا ، وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر ، فهذه سبع رخص .

الرخصة الأولى : المسح على الخفين . قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] إذا كنا مسافرين أو سفرا ، أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن . فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث ، فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا ، أو يوما وليلة إن كان مقيما ، ولكن بخمسة شروط

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة ، فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف ، لم يجز له المسح عند الشافعي رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسه .

الثاني : أن يكون الخف قويا يمكن المشي فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلا ، إذ العادة جارية بالتردد فيه في المنازل لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجرموق الضعيف

الثالث : أن لا يكون في موضع فرض الغسل خرق ، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجز المسح عليه ، وللشافعي قول قديم أنه يجوز مادام يستمسك على الرجل، وهو مذهب مالك رضي الله عنه ، ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه ، وتعذر الخرز في السفر في كل وقت ، والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساترا لا تبدو بشرة القدم من خلاله

(الباب الثاني فيما لابد للمسافر من تعلمه)

(١) حديث صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرا أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن: الترمذي وصححه وابن ماجه والنسائي في الكبرى وابن خزيمة وابن حبان

وكذا المشقوق الذى يرد على محل الشق بشرج ، لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك، فلايعتبر إلا أن يكون ساترا إلى مافوق الكعبين كيفما كان ، فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقى باللفافة لم يجز المسح عليه

الرابع : أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه ، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء فإن اقتصر على غسل القدمين جاز

الخامس: أن يمسح على الموضع المحاذى لمحل فرض الغسل لاعلى الساق ، وأقله مايسمى مسحا على ظهر القدم من الخف ، وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبهة الخلاف ، وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار ، كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ووصفه أن يبل اليدين ، ويضع رؤس أصابع اليمنى من يده على رؤس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه ، بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه،ويضع رؤس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ، ويمرها إلى رأس القدم، ومهما مسح مقيما ثم سافر،أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة،وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف فى الحضر ومسح فى الحضر ، ثم خرج وأحدث فى السفر وقت الزوال مثلا مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلى إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ، ويعيد لبس الخف ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث ، ولو أحدث بعد لبس الخف فى الحضر ، ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام ، لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ، ثم لايمكن الاحتراز من الحدث ، فأما إذا مسح فى الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين ، ويستحب لكل من يريد لبس الخف فى حضر أو سفر ، أن ينكس الخف وينفض مافيه حذرا من حية أوعقرب ، أو شوكة ، فقد روي عن أبى أمامة أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفيه ، فلبس أحدهما فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية ، فقال

(١) حديث مسحه صلى الله عليه وسلم على الخف وأسفله : أبوداودوالترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث المغيرة وهكذا ضعفه البخارى وأبوزرعة

صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يَلْبَسُ خُفَّيْهِ حَتَّى يَنْفُضَهُمَا »

الرخصة الثانية التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر وإنما يتعذر الماء ، بأن يكون بعيدا عن المنزل بعدا لو مشي إليه لم يلحقه غوث القافلة ، إن صاح أو استغاث ، وهو البعد الذى لا يعتاد أهل المنزل فى ترددهم لقضاء الحاجة التردد إليه ، وكذا إن نزل على الماء عدو أو سبع فيجوز التيمم ، وإن كان الماء قريبا ، وكذا إن احتاج إليه لعطشه فى يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم ، وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز الوضوء ويلزمه بذله إما بثمن أو بغير ثمن ، ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقة أو لحم أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم ، بل عليه أن يجتزى بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقة ، ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله ، لما فيه من المنة وإن بيع بثمن المثل لزمه الشراء ، وإن بيع بغبن لم يلزمه ، فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جوز الوصول إليه بالطلب وذلك بالتردد حوالى المنزل ، وتفتيش الرحل ، وطلب البقايا من الأوانى والمطاهر ، فإن نسي الماء فى رحله ، أو نسي بئرا بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره فى الطلب ، وإن علم أنه سيجد الماء فى آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم فى أول الوقت فإن العمر لا يوثق به ، وأول الوقت رضوان الله

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فقيل له أتتيمم وجدران المدينة تنظر إليك ؟ فقال أو أبقى إلى أن أدخلها ، ومهما وجد الماء بعد الشروع فى الصلاة لم تبطل صلاته ، ولم يلزمه الوضوء وإذا وجده قبل الشروع فى الصلاة لزمه الوضوء ، ومهما طلب فلم يجد فليقصد صعيدا طيبا عليه تراب يثور منه غبار ، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما ضربة فيمسح بهما وجهه ويضرب ضربة أخري بعد نزع الخاتم ، ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه ، فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى ، وكيفية التلطف فيه ماذكرناه فى كتاب الطهارة فلا نعيده ، ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ماشاء بذلك التيمم وإن أراد الجمع بين فريضتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية فلا يصلى فريضتين إلا بتيممين

---

(١) حديث أبي أمامة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما : رواه الطبرانى وفيه من لا يعرف

ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها ، فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم ولينو عند مسح الوجه استباحة الصلاة ، ولو وجد من الماء ما يكفيه لبعض طهارته فليستعمله ثم ليتيمم بعده تيمما تاما

الرخصة الثالثة : في الصلاة المفروضة القصر ، وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة

الأول : أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فالأظهر لزوم الإتمام

الثاني : أن ينوي القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام

الثالث : أن لا يقتدى بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزمه الإتمام ، بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام ، وإن تيقن بعده أنه مسافر ، لأن شعار المسافر لا تخفى ، فليكن متحققا عند النية ، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا بعد أن عرف أنه مسافر لم يضره ذلك ، لأن النيات لا يطلع عليها ، وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح ، وحد السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال ، فلا بد من معرفته ، والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعا معينا ؛ ولا يصير مسافرا ما لم يفارق عمران البلد ، ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه ، وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحوطة دون التي ليست بمحوطة ، ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه ما لم يجاوز العمران ، وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص ، إذ صار مسافرا بالانزعاج والخروج منه

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة

الأول : الوصول إلى العمران من البلد الذي عزم على الإقامة به

الثاني : العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعدا ، إما في بلد أو في صحراء

الثالث : صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازه ، ولكنه يتعوق عليه ويتأخر، فله أن يترخص وإن طالت المدة على أقيس القولين لأنه منزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته ، ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالا أو غيره ، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر ، ولا بين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاؤه ثلاثة أيام أو لغيره ، إذ ترخص رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فقصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضع واحد ، وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه، إذ لا معنى للتقدير بثمانية عشر يوما والظاهر أن قصره كان لكونه مسافرا لا لكونه غازيا مقاتلا هـذا معنى القصر

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين، كل مرحلة ثمانية فراسخ، وكل فرسخ ثلاثة أميال، وكل ميل أربعة آلاف خطوة، وكل خطوة ثلاثة أقدام . ومعنى المباح أن لا يكون عاقا لوالديه هاربا منهما ، ولا هاربا من مالكه ، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هاربا من المستحق مع اليسار ، ولا يكون متوجها في قطع طريق أو قتل إنسان أو طلب إدرار حرام من سلطان ظالم أو سعي بالفساد بين المسلمين

وبالجملة فلا يسافر الإنسان إلا في غرض ، والغرض هو المحرك فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراما ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره فسفره معصية، ولا يجوز فيه الترخص

وأما الفسق في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة ، بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة، ولو كان له باعثان أحدهما مباح، والآخر محظور، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلا بتحريكه، ولكان لا محالة يسافر لأجله فله الترخص

---

(١) حديث قصره صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات ثمانية عشر يوما على موضوع واحد : أبو داود من حديث عمران بن حصين في قصة الفتح فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لا يصلي إلا ركعتين وللبخاري من حديث ابن عباس أقام بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة ولأبي داود سبعة عشر بتقديم السين وفي رواية له خمسة عشر

والمتصوفة الطوافون فى البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة فى ترخصهم خلاف ، والمختار أن لهم الترخص

الرخصة الرابعة : الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء فى وقتيهما. فذلك أيضا جائز فى كل سفر طويل مباح ، وفى جوازه فى السفر القصير قولان ، ثم إن قدم العصر إلى الظهر فلينو الجمع بين الظهر والعصر فى وقتهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقم ، وعند الفراغ يقيم للعصر ، ويجدد التيمم أولا إن كان فرضه التيمم ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة ، فإن قدم العصر لم يجز ، وإن نوى الجمع عند التحرم بصلاة العصر جاز عند المزنى ، وله وجه فى القياس ، إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية، بل الشرع جوز الجمع ، وهذا جمع ، وإنما الرخصة فى العصر ، فتكفى النية فيها ، وأما الظهر فجار على القانون ، ثم إذا فرغ من الصلاتين ، فينبغى أن يجمع بين سنن الصلاتين ، أما العصر فلا سنة بعدها ، ولكن السنة التى بعد الظهر يصليها بعد الفراغ من العصر ، إما راكبا أو مقيما ، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطعت الموالاة وهى واجبة على وجه ، ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر فليجمع بينهن قبل الفريضتين فيصلى سنة الظهر أولا ، ثم سنة العصر ، ثم فريضة الظهر ، ثم فريضة العصر ، ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض ، ولا ينبغى أن يهمل النوافل فى السفر ، فما يفوته من ثوابها أكثر مما يناله من الربح ، لاسيما وقد خفف الشرع عليه ، وجوز له أداءها على الراحلة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها ، وإن أخر الظهر إلى العصر فيجرى على هذا الترتيب ولا يبالى بوقوع راتبة الظهر بعد العصر فى الوقت المكروه ، لأن ماله سبب لا يكره فى هذا الوقت ، وكذلك يفعل فى المغرب والعشاء والوتر ، وإذا قدم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويختم الجميع بالوتر ، وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جمعا ، فهو نية الجمع ، لأنه إنما يخلو عن هذه النية ، إما بنية الترك ، أو بنية التأخير عن وقت العصر وذلك حرام ، والعزم عليه حرام ، وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصيا

لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها ، ويحتمل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركا فى السفر بين الصلاتين ، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب ، ولذلك ينقدح أن لاتشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر ، أما إذا قدم العصر على الظهر لم يجز ، لأن مابعد الفراغ من الظهر هو الذى جعل وقتا للعصر إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيره وعذر المطر مجوز للجمع ، كعذر السفر ، وترك الجمعة أيضا من رخص السفر ، وهى متعلقة أيضا بفرائض الصلوات ، ولو نوى الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر فى الحضر فعليه أداء العصر ، وما مضى إنما كان مجزئا بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر .

الرخصة الخامسة : التنفل راكبا . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته ، وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة ، وليس على المتنفل الراكب فى الركوع والسجود إلا الإيماء ، وينبغى أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة ، فإن كان فى مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه

وأما استقبال القبلة فلا يجب لافى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها ، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة ، فليكن فى جميع صلاته إما مستقبلا للقبلة أو متوجها فى صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها، فلو حرف دابته عن الطريق قصدا بطلت صلاته ، إلا إذا حرفها إلى القبلة ، ولو حرفها ناسيا وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وإن طال ففيه خلاف ، وإن جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته، لأن ذلك مما يكثر وقوعه ، وليس عليه سجود سهو، إذ الجماح غير منسوب إليه ، بخلاف مالو حرف ناسيا ، فإنه يسجد للسهو بالإيماء .

الرخصة السادسة : التنفل للماشى جائز فى السفر . ويومىء بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد، لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة ، وحكمه حكم الراكب ، لكن ينبغى أن يتحرم

---

(١) حديث كان يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة : متفق عليه من حديث ابن عمر

بالصلاة مستقبلا للقبلة ، لأن الانحراف فى لحظة لاعسر عليه فيه ، بخلاف الراكب فإن فى تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ، وربما تكثر الصلاة فيطول عليه ذلك ولا ينبغى أن يمشى فى نجاسة رطبة عمدا ، فإن فعل بطلت صلاته ، بخلاف مالووطئت دابة الراكب نجاسة ، وليس عليه أن يشوش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التى لاتخلو الطريق عنها غالبا ، وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه فى التنفل

الرخصة السابعة: الفطر وهو فى الصوم فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقيما ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم ، وإن أصبح مسافرا صائما ثم أقام فعليه الإتمام وإن أقام مفطرا فليس عليه الإمساك بقية النهار ، وإن أصبح مسافرا على عزم الصوم لم يلزمه ، بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر ، والقصر أفضل من الإتمام ، للخروج عن شبهة الخلاف ولأنه ليس فى عهدة القضاء ، بخلاف المفطر فإنه فى عهدة القضاء ، وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى فى ذمته إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل

فهذه سبع رخص ، تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل ، وهى القصر ، والفطر ، والمسح ثلاثة أيام ، وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلا كان أو قصيرا وهما سقوط الجمعة ، وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم ، وأما صلاة النافلة ماشيا وراكبا ففيه خلاف والأصح جوازه فى القصير ، والجمع بين الصلاتين فيه خلاف ، والأظهر اختصاصه بالطويل ، وأما صلاة الفرض راكبا وماشيا للخوف فلا تتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة فى الحال بالتيمم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها

فإن قلت : فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك

فاعلم : أنه إن كان عازما على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكبا وماشيا لم يلزمه علم شروط الترخص فى ذلك ، لأن الترخص ليس بواجب عليه ، وأما علم رخصة التيمم فيلزمه ، لأن فقد الماء ليس إليه إلا أن يسافر على شاطىء نهر يوثق ببقاء مائه أو يكون معه فى الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة ، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة أما إذا كان يظن عدم الماء ولم يكن معه عالم فيلزمه التعلم لا محالة

فإن قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها ، فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم تجب وربما لاتجب

فأقول : من بينه وبين الكعبة مسافة لاتقطع إلا فى سنة فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر ، ويلزمه تعلم المناسك لا محالة ، إذا كان يظن أنه لا يجد فى الطريق من يتعلم منه لأن الأصل الحياة واستمرارها ، وما لايتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب ، وكل ما يتوقع وجوبه توقعا ظاهرا غالبا على الظن ، وله شرط لايتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لا محالة ، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته فلا يحل إذا للمسافر أن ينشىء السفر ما لم يتعلم هذا القدر من علم التيمم ، وإن كان عازما على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذى ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص ، فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه

فإن قلت : إنه إذ لم يتعلم كيفية التنفل راكبا وماشيا ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة وهى غير واجبة فكيف يكون علمها واجبا

فأقول : من الواجب أن لايصلي النفل على نعت الفساد ، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام ، فعليه أن يتعلم ما يحترز به عن النافلة الفاسدة حذرا عن الوقوع فى المحظور ، فهذا بيان علم ماخفف عن المسافر فى سفره

القسم الثانى

ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علم القبلة والأوقات وذلك أيضا واجب فى الحضر ، ولكن فى الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه ، يغنيه عن طلب القبلة ، ومؤذن يراعى الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت ، والمسافر قد تشتبه عليه القبلة ، وقد يلتبس عليه الوقت ، فلابد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت

أما أدلة القبلة فهى ثلاثه أقسام، أرضية ، كالاستدلال بالجبال، والقرى، والأنهار، وهوائية

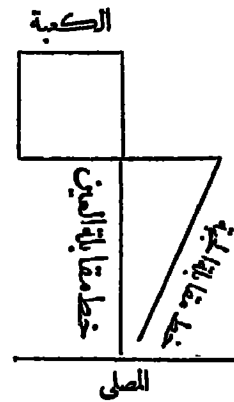
كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها ، وصباها ودبورها ، وسماوية ، وهي النجوم

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل ، أو شماله أو ورائه ، أو قدامه ، فليعلم ذلك وليفهمه ، وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهم ذلك ، ولسنا نقدر على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر

وأما السماوية ، فأدلتها تنقسم إلى نهارية وإلى ليلية . أما النهارية فالشمس ، فلا بد أن يراعي قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه ، أهي بين الحاجبين ، أو على العين اليمنى ، أو اليسرى ، أو تميل إلى الجبين ميلا أكثر من ذلك ، فإن الشمس لا تعدو في البلاد الشمالية هذه المواقع ، فإذا حفظ ذلك فمهما عرف الزوال بدليله الذي سنذكره عرف القبلة به ، وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر ، فإنه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة ، وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه ، وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب وذلك بأن يحفظ أن الشمس تغرب عن يمين المستقبل ، أو هي مائلة إلى وجهه ، أو قفاه ؟ وبالشفق أيضا تعرف القبلة للعشاء الأخيرة وبمشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح ، فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف ، فإن المشارق والمغارب كثيرة ، وإن كانت محصورة في جهتين فلا بد من تعلم ذلك أيضا ، ولكن قد يصلي المغرب والعشاء بعد غيبوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به ، فعليه أن يراعي موضع القطب وهو الكوكب الذي يقال له الجدي ، فإنه كوكب كالثابت لا تظهر حركته عن موضعه ، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل ، أو على منكبه الأيمن من ظهره ، أو منكبه الأيسر في البلاد الشمالية من مكة ، وفي البلاد الجنوبية كاليمن وما والاها ، فيقع في مقابلة المستقبل ، فيتعلم ذلك ، وما عرفه في بلده فليعول عليه في الطريق كله إلا إذا طال السفر ، فإن المسافة إذا بعدت اختلفت موقع الشمس ، وموقع القطب ، ، وموقع المشارق والمغارب ، إلا أن ينتهي في أثناء سفره إلى بلاد فينبغي أن يسأل أهل البصيرة ، أو يراقب هذه الكواكب ، وهو مستقبل محراب جامع البلد ، حتى يتضح له ذلك فمهما تعلم هذه الأدلة فله أن يعول عليها ، فإن بان له

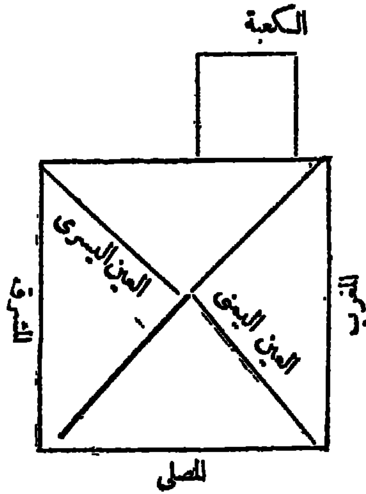
أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغي أن يقضى، وإن انحرف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء

وقد أورد الفقهاء خلافا فى أن المطلوب جهة الكعبة أو عينها ، وأشكل معنى ذلك على قوم ، إذ قالوا إن قلنا أن المطلوب العين ، فمتى يتصور هذا مع بعد الديار، وإن قلنا أن المطلوب الجهة ، فالواقف فى المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج ببدنه عن موازاة الكعبة لا خلاف فى أنه لاتصح صلاته ، وقد طولوا فى تأويل معنى الخلاف فى الجهة والعين ، ولا بد أولا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة ، فمعنى مقابلة العين . أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لا تّصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان ، وهذه صورته ، والخارج من موقف المصلي يقدر أنه خارج من بين عينيه فهذه صورة مقابلة العين



وأما مقابلة الجهة فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط ، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة ، فلو مد هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق ، فيخرج عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة ، كالخط الذى كتبنا عليه مقابلة الجهة فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا لعينها ، وحد تلك الجهة مايقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلا الجهة خارجين من العينين فيلتقى طرفاهما فى داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة

فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل فى الجهة، وسعة ما بين الخطين تتزايد بطول الخطين ، وبالبعد عن الكعبة ، وهذه صورته



فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول الذى يصح عندنا فى الفتوى أن المطلوب العين إذ كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها ، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفى استقبال الجهة

فأما طلب العين عند المشاهدة فمجمع عليه ، وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضي الله عنهم والقياس

أما الكتاب : فقوله تعالى(وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [(١)]) أي نحوه ومن قابل جهة الكعبة يقال قد ولى وجهه شطرها

وأما السنة ، فما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] أنه قال لأهل المدينة « مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ قِبْلَةٌ » والمغرب يقع على يمين أهل المدينة ، والمشرق على يسارهم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما يقع بينهما قبلة ، ومساحة الكعبة لا تفي بما بين المشرق والمغرب ، وإنما يفي بذلك جهتها ، وروي هذا اللفظ أيضا عن عمر وابنه رضي الله عنهما

---

(١) حديث ما بين المشرق والمغرب قبلة: الترمذى وصححه والنسائى وقال منكر وابن ماجه من حديث أبى هريرة.

(١) البقرة : ١٥٠

وأما فعل الصحابة رضي الله عنهم : فما روي[1] أن أهل مسجد قباء كانوا فى صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبيت المقدس ، مستدبرين الكعبة ، لأن المدينة بينهما ، فقيل لهم الآن قد حولت القبلة إلى الكعبة فاستداروا فى أثناء الصلاة من غير طلب دلالة، ولم ينكر عليهم وسمي مسجدهم ذا القبلتين ، ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لاتعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ، فكيف أدركوا ذلك على البديهة فى أثناء الصلاة وفى ظلمة الليل ، ويدل أيضا من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالي مكة وفى سائر بلاد الإسلام ، ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحاريب ، ومقابلة العين لاتدرك إلا بدقيق النظر الهندسى

وأما القياس: فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال و بناء المساجد فى جميع أقطار الأرض ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها، بل ربما يزجر عن التعمق فى علمها ، فكيف ينبنى أمر الشرع عليها فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة

وأما دليل صحة الصورة التى صورناها وهو حصر جهات العالم فى أربع جهات ، فقوله عليه السلام فى آداب قضاء الحاجة[2] « لَا تَسْتَقْبِلُوا بِهَا الْقِبْلَةَ وَلاَ تَسْتَدْبِرُوهَا وَلَـكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا » وقال هذا بالمدينة ، والمشرق على يسار المستقبل بها ، والمغرب على يمينه ، فنهى عن جهتين ورخص فى جهتين ، ومجموع ذلك أربع جهات، ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض فى ست ، أو سبع ، أو عشر ، وكيفما كان فما حكم الباقى بل الجهات تثبت فى الاعتقادات بناء على خلقة الإنسان ، وليس له إلا أربع جهات ، قدام وخلف ويمين وشمال ، فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان فى ظاهر النظر أربعا، والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات ، فظهر أن المطلوب الجهة ، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أدلة القبلة

فأما مقابلة العين : فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ، ومقدار درجات طولها ، وهو بعدها عن أول عمارة فى المشرق، ثم يعرف ذلك أيضا فى موقف المصلى

---

(٢) حديث ان أهل قبا كانوا فى صلاة الصبح مستقبلين لبيت المقدس فقيل لهم إلا أن القبلة قد حولت إلى الكعبة فاستداروا ـ الحديث: مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف

(٣) حديث لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أوغربوا متفق عليه من حديث أبي أيوب

ثم يقابل أحدهما بالآخر ، ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة ، والشرع غير مبني عليها قطعا ، فإذاً القدر الذى لابد من تعلمه من أدلة القبلة موقع المشرق والمغرب فى الزوال ، وموقع الشمس وقت العصر ، فبهذا يسقط الوجوب

فإن قلت : فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصى

فأقول : إن كان طريقه على قرى متصلة فيها محاريب أو كان معه فى الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بعدالته وبصيرته ، ويقدر على تقليده فلا يعصى ، وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى ، لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل علمه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره ، فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بغيم مظلم ، أو ترك التعلم ولم يجد فى الطريق من يقلده ، فعليه أن يصلي فى الوقت على حسب حاله ، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ ، والأعمى ليس له إلا التقليد ، فليقلد من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهدا فى القبلة ، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك فى حضر أو سفر ، وليس للأعمى ولا للجاهل أن يسافر فى قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلة حيث يحتاج إلى الاستدلال ، كما ليس للعامي أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلمه دينه ، وكذا إن لم يكن فى البلد إلا فقيه فاسق ، فعليه الهجرة أيضا إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق ، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى ، كما فى الرواية ، وإن كان معروفا بالفقه مستور الحال فى العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد مَن له عدالة ظاهرة ، لأن المسافر فى البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين فإن رآه لابسا للحرير ، أو ما يغلب عليه الإبريسم ، أو راكبا لفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله ، فليطلب غيره ، وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام ، أو يأخذ منه إدرارا ، أو صلة من غير أن يعلم أن الذى يأخذه من وجه حلال ، فكل ذلك فسق يقدح فى العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة .

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها

فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإن كل شخص لابد أن يقع له فى ابتداء النهار ظل مستطيل فى جانب المغرب ، ثم لايزال ينقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ فى الزيادة فى جهة المشرق ، ولايزال يزيد إلى الغروب ، فليقم المسافر فى موضع أو لينصب عودا مستقيما وليعلم على رأس الظل ، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه فى النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر

وطريقه فى معرفة ذلك أن ينظر فى البلد وقت أذان المؤذن المعتمد ظل قامته ، فإن كان مثلا ثلاثة أقدام بقدمه فهما صار كذلك فى السفر وأخذ فى الزيادة صلى ، فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفا بقدمه دخل وقت العصر ، إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام و نصف بالتقريب ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف ، وإن كان اول الشتاء فينقص كل يوم ، وأحسن ما يعرف به ظل الزوال الميزان ، فليستصحبه المسافر ، وليتعلم اختلاف الظل به فى كل وقت ، وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان فى السفر فى موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصير بين عينيه مثلا إن كانت كذلك فى البلد

وأما وقت المغرب : فيدخل بالغروب ، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه فينبغى أن ينظر إلى جانب المشرق فهما ظهر سواد فى الأفق مرتفع من الأرض قدر رمح فقد دخل وقت المغرب .

وأما العشاء: فيعرف بغيبوبة الشفق وهو الحمرة فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها ، فإن ذلك يكون بعد غيبوبة الحمرة

وأما الصبح : فيبدو فى الأول مستطيلا كذنب السرحان فلا يحكم به إلى أن ينقضى زمان ، ثم يظهر بياض معترض لايعسر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أول الوقت ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَيْسَ الصُّبْحُ هَكَذَا » وجمع بين كفيه «وَإِنَّمَا الصُّبْحُ هَكَذَا »

---

(١) حديث ليس الصبح هكذا وجمع كفه إنما الصبح هكذا ووضع احدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما وأشار به إلى أنه معترض: ابن ماجه من حديث ابن مسعود باسناد صحيح مختصر دون الاشارة بالكف والسبابتين ولأحمد من حديث طلق بن على ليس الفجر المستطيل في الأفق لكنه المعترض الأحمر واسناده حسن

ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما ، وأشار به إلى أنه معترض ، وقد يستدل عليه بالمنازل، وذلك تقريب لا تحقيق فيه ، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضا لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل ، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب، والذى ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين، وهذا تقريب ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معترضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها ،وبعضها منتصبة فيطول زمان طلوعها ، ويختلف ذلك فى البلاد اختلافا يطول ذكره ، نعم : تصلح المنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده ، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلا

وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب ، وإذا بقى قريب من منزلتين ، يتحقق طلوع الصبح الصادق ، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثى منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب،وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه ، فمن وقت الشك ينبغى أن يترك الصائم السحور ويقدم القائم الوتر عليه ، ولا يصلى صلاة الصبح حتى تنقضى مدة الشك ، فإذا تحقق صلى ، ولو أراد مريد أن يقدر على التحقيق وقتا معينا يشرب فيه منسحرا ، ويقوم عقيبه ويصلى الصبح متصلا به ، لم يقدر على ذلك ، فليس معرفة ذلك فى قوة البشر أصلا بل لابد من مهلة للتوقف والشك ، ولا اعتماد إلا على العيان ولا اعتماد فى العيان إلا على أن يصير الضوء منتشرا فى العرض حتى تبدو مبادى الصفرة

وقد غلط فى هذا جمع من الناس كثير ، يصلون قبل الوقت ،ويدل عليه ماروى أبو عيسى الترمذى فى جامعه بإسناده عن طلق بن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال(١) « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا يَهِيِّنَكُمُ السَّاطِعُ الْمُصَعِّدُ وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمُ الْأَحْمَرُ »،وهذا صريح فى رعاية الحمرة ، قال أبو عيسى وفى الباب عن عدي بن حاتم ، وأبى ذر ، وسمرة ابن جندب ، وهو حديث حسن غريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم

---

(١) حديث طلق بن على كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر قال المصنف رواه أبو عيسى الترمذى فى جامعه وقال حسن غريب وهو كما ذكر ورواه أبو داود أيضا

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، كلوا واشربوا مادام الضوء ساطعا ، قال صاحب الغريبين : أي مستطيلا . فإذاً لا ينبغي أن يعول إلا على ظهور الصفرة ، وكأنها مبادى الحمرة ، وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات ، لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول أو قبل النوم حتى يستريح ، فإن وطّن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن فتسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ، ويتجشم كلفة النزول ، وكلفة تأخير النوم إلى التيقن ، استغنى عن تعلم علم الأوقات ، فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها

تم كتاب آداب السفر ، ويليه كتاب آداب السماع والوجد

كتاب آداب السماع والوجد

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته ، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته ، حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى ، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى فلم يروا فى الكونين شيئا سواه ، ولم يذكروا فى الدارين إلا إياه ، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ، ولا طربهم إلا به ، ولا قلقهم إلا عليه ، ولا حزنهم إلا فيه ، ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه ، فمنه سماعهم ، وإليه استماعهم فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم ، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته ، واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته ، والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وصحبه أئمة الحق وقادته ، وسلم كثيراً .

أما بعد : فإن القلوب والسرائر ، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار فى الحديد والحجر ، وأخفيت كما أخفي الماء تحت التراب والمدر ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع ، ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساويها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه ، كما لا يرشح الاناء إلا بما فيه ، فالسماع للقلب محك صادق ، ومعيار ناطق ، فلا يصل نفس السماع إليه ، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه ، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للإسماع حتى أبدت بواردتها مكامنها ، وكشفت بها عن مساويها وأظهرت محاسنها

وجب شرح القول فى السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات ، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات ، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء فى أنهما من المحظورات أو المباحات ، ونحن نوضح ذلك فى بابين

الباب الأول : فى إباحة السماع

الباب الثانى : فى آداب السماع وآثاره فى القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب .

الباب الأول

فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع وكشف الحق فيه.

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه.

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويثمر السماع حالة فى القلب تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف ، أما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وأما موزونة فتسمي التصفيق والرقص ، فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول وننقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه ، ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه ، فأما نقل المذاهب

فقد حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعي ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه ، وقال الشافعي رحمه الله فى كتاب آداب القضاء ، إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته وقال القاضى أبو الطيب : استماعه من المرأة التى ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال ، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته وقال وحكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب • ويقول • وضعته الزنادقة

ليشتغلوا به عن القرءان ، وقال الشافعي رحمه الله ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهى ، ولا أحب اللعب بالشطرنج ، وأكره كل ما يلعب به الناس، لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة ، وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء، وقال إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده، وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك، ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وكذلك سائر أهل الكوفة، سفيان الثورى وحماد، وإبراهيم، والشعبي، وغيرهم

فهذا كله نقله القاضى أبو الطيب الطبرى ، ونقل أبو طالب المكى إباحة السماع عن جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم ، وقال قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى وتابعى بإحسان، وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة ، وهي الأيام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره ، كأيام التشريق ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما، قال وقيل لأبى الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون ، فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى ، فقد كان عبد الله ابن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر اللهو اللعب فى السماع ، وروي عن يحيي بن معاذ أنه قال فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الأخاء مع الوفاء ، ورأيت فى بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبي وفيه مايدل على تجويزه السماع مع زهده ، وتصاونه وجده فى الدين وتشميره ، قال وكان ابن مجاهد لايجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع ، وحكى غير واحد أنه قال اجتمعنا فى دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع ، وأبو بكر بن داود ، وابن مجاهد فى نظرائهم فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود فى أنه يسمع فقال ابن داود حدثنى أبى عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع ، وكان أبى يكرهه

وأنا على مذهب أبي، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع أماجدي أحمد بن بنت منيع فحدثني عن صالح ابن أحمد، أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة، فقال ابن مجاهد لابن داود دعني أنت من أبيك وقال لابن بنت منيع دعني أنت من جدك أي شيء تقول ياأبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام، فقال ابن داود لا، قال: فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده، قال لا، قال فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أيحرم عليه؟ قال أنا لم أقو لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين، قال وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع، وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكريه، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكريه

وحكي عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام، فقلت له ماتقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا، فقال هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء؟

وحكي عن ممشاد الدينوري أنه قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يارسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا؟ فقال ما أنكر منه شيئا، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرءان ويختمون بعده بالقرءان

وحكي عن طاهر بن بلال الهمداني الوراق وكان من أهل العلم أنه قال: كنت معتكفا في جامع جدة على البحر، فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه قولا ويستمعون، فأنكرت ذلك بقلبي، وقلت في بيت من بيوت الله، يقولون الشعر، قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية، وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك. فقلت في نفسي. ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول، فالتفت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: هذا حق بحق أو قال حق من حق أنا أشك فيه، وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع، عند الأكل، لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة، لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين، وعند السماع

لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا ، وعن ابن جريج أنه كان يرخص فى السماع فقيل له: أيؤتى يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات لأنه شبيه باللغو ، وقال الله تعالى(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ [١])هذا ما نقل من الأقاويل ومن طلب الحق فى التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هـذه الأقاويل ، فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهى ، وكل ذلك قصور بل ينبغى أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلم أن قول القائل : السماع حرام . معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ،وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ، ومعرفة الشرعيات محصورة فى النص ، أو القياس على المنصوص وأعنى بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله ، أو فعله ، وبالقيـاس ، المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله ، فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقى فعـلا لا حرج فيه كسائر المباحات ، ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ويتضح ذلك فى جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم ، ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا فى إثبات هذا الغرض ، لـكن نستفتح ونقول قد دل النص والقياس جميعا على إباحته .

أما القياس : فهو أن الغناء اجتمعت فيـه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ، ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم إلى المفهـوم كالأشعار وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغى أن يحرم ، بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس. فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع ، بإدراك ما هو مخصوص به وللإنسان عقل وخمس حواس ، ولـكل حاسة إدراك ، وفى مدركات تلك الحاسة ما يستلذ ، فلذة النظر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن

[١] البقرة ٢٢٥

وبالجملة سائر الألوان الجميلة وهى فى مقابلة مايكره من الألوان الكدرة القبيحة، وللشم الروائح الطيبة، وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة، وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة ، وهي فى مقابلة المرارة المستبشعة ، وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة ، وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة ، وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهى فى مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها ، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها

وأما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده به ، إذ قال (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ [1]) فقيل هو الصوت الحسن ، وفى الحديث[1] « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الصَّوْتِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَلَّهُ أَشَدُّ أَذَنًا لِلرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْءَانِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ لِقَيْنَتِهِ » وفى الحديث فى معرض المدح لداود عليه السلام [3] أنه كان حسن الصوت فى النياحة على نفسه ، وفى تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته ، وكان يحمل فى مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب منها فى الأوقات ، وقال صلى الله عليه وسلم فى مدح أبى موسى الأشعرى [4] « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » وقول الله تعالى (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [2]) يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ، ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون فى القرءان للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب ، لأنه ليس من القرءان ، وإذا جاز سماع

---

(١) حديث ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت : الترمذى فى الشمائل عن قتادة وزاد قوله وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت ورويناه متصلا فى الغيلانيات من رواية قتادة عن أنس والصواب الأول قاله الدار قطنى ورواه ابن مردويه فى التفسير من حديث على بن أبى طالب وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرءان من صاحب القينة إلى قينته : تقدم فى كتاب تلاوة القرءان .

(٣) حديث كان داود حسن الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزبور ــ الحديث : لم أجد له أصلا

(٤) حديث لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود : قاله فى مدح أبى موسى تقدم فى تلاوة القرءان

---

(١) فاطر : ١ (٢) لقمان : ١٩

صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة ، والمعانى الصحيحة،وإن من الشعر لحكمة ، فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيب حسن

الدرجة الثانية : النظر فى الصوت الطيب الموزون ، فإن الوزن وراء الحسن ، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن ، وكم من صوت موزون غير مستطاب ، والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة ، فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره ، وإماأن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور ، فهى مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع ، فلذلك يستلذ سماعها، والأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات،وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر ، وهو تشبيه للصنعة بالخلقة ، ومامن شىء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال فى الخلقة التى استأثر الله تعالى باختراعها ، فمنه تعلم الصناع وبه قصدوا الاقتداء ، وشرح ذلك يطول ، فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور ،ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي ، كالذى يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره ، ولا يستثنى من هذه [1] إلا الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها ، لا للذتها ، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان ، ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة فى الفطام عنها حتى انتهى الأمر فى الابتداء

---

(١) حديث النع من اللاهى والأوتار والزامير : البخارى من حديث أبى عامر أو أبى مالك الأشعرى ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الخز والحرير والمعازف صورته عند البخارى صورة التعليق ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيلى والمعازف الملاهى. قاله الجوهري ولأحمد من حديث ابى أمامة ان الله أمرنى أن أمحق المزامير والكبارات يعنى البرابط والمعازف وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة ان ربى حرم على الخمر والكوبة والقنين وله فى حديث لأبى أمامة باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف وكلها ضعيفة ولأبى الشيخ من حديث مكحول مرسلا الاستماع الي اللاهى معصية ـ الحديث : ولابى داود من حديث ابن عمر سمع مزمارا فوضع أصبعيه على أذنيه قال أبو داود وهو منكر

إلى كسر الدنان ، فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الاتباع ، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين ، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر ، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ، ليكون حمى للحرام ووقاية له ، وحظارا مانعا حوله ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ » فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل

إحداها : أنها تدعو إلى شرب الخمر ، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر .

الثانية : أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب ، فهي سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق إذا قوي فهو سبب الإقدام ولهذه العلة نهى عن الانتباذ [2] في المزفت ، والحنتم ، والنقير ، وهي الأواني التي كانت مخصوصة بها ، فمعنى هذا أن مشاهدة صورتها تذكرها ، وهذه العلة تفارق الأولى ، إذ ليس فيها اعتبار لذة في الذكر إذ لا لذة في رؤية القنينة وأواني الشرب ، لكن من حيث التذكر بها ، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع لخصوص هذه العلة فيه

الثالثة : الاجتماع عليها لما أن صار من عادة أهل الفسق ، فيمنع من التشبه بهم لأن من تشبه بقوم فهو منهم ، وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة، خوفا من التشبه بهم ، وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة ، وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين ، وضربها عادة المخنثين ، ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو ، وبهذه العلة نقول لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا ، وأحضروا آلات الشرب وأقداحه وصبوا فيها السكنجبين ، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساقي ويشربون ، ويحيي بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم

---

(١) حديث إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه : تقدم في كتاب الحلال والحرام

(٢) حديث النهي عن الحنتم والمزفت والنقير : متفق عليه من حديث ابن عباس

وإن كان المشروب مباحا فى نفسه لأن فى هذا تشبها بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعا فى بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر ، لاعتياد أهل الصلاح ذلك فيهم

فبهذه المعانى حرم المزمار العراقى والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها وماعدا ذلك فليس فى معناها كشاهين الرعاة ، والحجيج وشاهين الطبالين، وكالطبل والقضيب وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى مايعتاده أهل الشرب ، لأن كل ذلك لايتعلق بالخمر، ولايذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها فلم يكن فى معناها فبقى على أصل الإباحة ، قياسا على أصوات الطيور وغيرها، بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضا، وبهذا يتبين أنه ليست العلة فى تحريمها مجرد اللذة الطيبة بل القياس تحليل الطيبات كلها ، إلا مافى تحليله فساد قال الله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ[1]) فهذه الأصوات لاتحرم من حيث إنها أصوات موزونة ، وإنما تحرم بعارض آخر كما سيأتى فى العوارض المحرمة

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم وهو الشعر ، وذلك لايخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه مازاد إلا كونه مفهوما والكلام المفهوم غير حرام، والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع ، نعم ينظر فيما يفهم منه. فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به ، سواء كان بألحان أو لم يكن

والحق فيه ماقاله الشافعي رحمه الله ، إذ قال: الشعر كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح ، ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان ، فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا ، ومهما انضم مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظورا لا تتضمنه الآحاد ولا محظور ههنا، وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم(١)

(١) حديث انشاد الشعر بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه من حديث أبى هريرة ان عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ اليه فقال قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ـ الحديث : ولمسلم من حديث عائشة انشاد حسن
هجوت محمدا فأجبت عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء

[1] الأعراف : ٣٢

وقال عليه السلام (١) « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » وأنشدت عائشة رضي الله عنها

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وروى فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) المدينة ، وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، وكان بها وباء ، فقلت يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول

كل امرىء مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بواد وحولى أذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد

القصيدة وإنشاد حسان أيضا

وإن سنام المجد من آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وللبخارى إنشاد ابن رواحة

وفينا رسول الله يتلو كتابه   إذا انشق معروف من الفجر ساطع

الأبيات .

(١) حديث ان من الشعر لحكمة : البخارى من حديث أبي بن كعب وتقدم فى العلم

(٢) حديث عائشة فى الصحيحين لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال الحديث : وفيه انشاد أبو بكر

كل امرىء مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وانشاد بلال

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بواد وحولى اذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل

قلت هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] ينقل اللبن مع القوم فى بناء المسجد، وهو يقول

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرر بنا وأطهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى

لَاهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

وهذه فى الصحيحين وكان النبي صلى الله عليه وسلم[٢] يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ينافح، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَاخَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ولما أنشده النابغة شعره قال له صلى الله عليه وسلم[٣] « لَا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ »

---

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم فى بناء المسجد وهو يقول

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرر بنا وأطهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى

اللهم ان العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال المصنف والبيتان فى الصحيحين قلت البيت الأول انفرد به البخارى فى قصة الهجرة من رواية عروة مرسلا وفيه البيت الثانى أيضا إلا أنه قال الأجر بدل العيش تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى قال ابن شهاب ولم يلغنا فى الأحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت والبيت الثانى فى الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون

اللهم لاخير إلا خير الآخره فانصر الأنصار والمهاجره

وليس البيت الثانى موزونا وفى الصحيحين أيضا أنه قال فى حفر الخندق بلفظ فبارك فى الأنصار والمهاجرة وفى رواية فاغفر وفى رواية لمسلم فأكرم ولهما من حديث سهل بن سعد فاغفر للمهاجرين والأنصار

(٢) حديث كان يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ـ الحديث: البخارى تعليقا وأبو داود والترمذى والحاكم متصلا من حديث عائشة وقال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح الاسناد وفى الصحيحين انها قالت انه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث انه قال للنابغة لما أنشده شعرا لا يفضض الله فاك: البغوى فى معجم الصحابة وابن عبد البر فى الاستيعاب باسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبد الله قال أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

الأبيات ورواه البزار بلفظ

علونا العباد عفة وتكرما

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت ، كل ذلك يقول هيه هيه ، ثم قال إن كاد في شعره ليسلم ، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] كان يحدى له وأن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَاأَنْجَشَةُ رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ » ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمان الصحابة رضي الله عنهم ، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للاستلذاذ ، فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ، ومهيج لما هو الغالب عليه فأقول لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الأصوات ما يفرح ، ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ، ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر ، بل هذا جار في الأوتار ، حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج ، وكيف يكون ذلك لفهم المعنى ، وتأثيره مشاهد

الأبيات وفيه فقال أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك وللحاكم من حديث خزيم بن أوس سمعت العباس يقول يارسول الله اني أريد أن أمتدحك فقال قل لا يفضض الله فاك فقال العباس

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

الأبيات

(١) حديث عائشة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون الأشعار وهو يتبسم الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة

(٢) حديث الشريد أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن ابي الصلت كل ذلك يقول هيه هيه ـ الحديث : رواه مسلم

(٣) حديث أنس كان يحدى له في السفر وأن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال الحديث : أبو داود الطيالسي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك

فى الصبي فى مهده ، فإنه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ، والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط مايسكره ويولهه ،فتراها إذا طالت عليها البوادى ، واعتراها الأعياء والكلال ، تحت المحامل والأحمال ، إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها ، وتصغى إلى الحادى ، ناصبة آذانها ، وتسرع فى سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها ، وربما تتلف أنفسها من شدة السير ، وثقل الحمل ، وهى لاتشعر به لنشاطها ، فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى رضي الله عنه ، قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه ، فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيدا بقيد ، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل ، كأنه ينزع روحه ، فقال لى الغلام أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاى ، فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى هذا القدر ، فعساه يحل القيد عنى ، قال فلما أحضروا الطعام امتنعت ، وقلت لا آكل ما لم أشفع فى هذا العبد فقال إن هذا العبد قد أفقرنى وأهلك جميع مالى ، فقلت ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتا طيبا وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالا ثقالا ، وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة ، من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك ، قال فأحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ، ووقعت أنا على وجهى ، فما أظن أنى سمعت قط صوتا أطيب منه

فإذاً تأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع ، وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ، ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم ، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص ، واختلاف طرق النغمات

فحكمه حكم مافى القلب ، قال أبو سليمان : السماع لايجعل فى القلب ماليس فيه ، ولكن يحرك ماهو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع ،لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب ، وهى سبعة مواضع

الأول:غناء الحجيج:فإنهم أولا يدورون فى البلاد بالطبل ، والشاهين ، والغناء ، وذلك مباح ، لأنها أشعار نظمت فى وصف الكعبة ، والمقام ، والحطيم ،وزمزم،وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى ، واشتعال نيرانه إن كان ثمّ شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلا ، وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محمودا كان التشويق إليه بكل مايشوق محمودا ، وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه فى الوعظ ، ويزينه بالسجع ، ويشوق الناس إلى الحج،بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه ، جاز لغيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع فى القلب ، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زادوقعه،فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير ، وكل ذلك جائز مالم يدخل فيه المزامير والأوتار التى هى من شعار الأشرار ، نعم :إن قصد به تشويق من لايجوز له الخروج إلى الحج كالذى أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه فى الخروج فهذا يحرم عليه الخروج فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع وبكل كلام يشوق إلى الخروج ، فإن التشويق إلى الحرام حرام وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالبا لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق

الثانى: مايعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو ، وذلك أيضا مباح،كما للحاج ولكن ينبغى أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار ، وتحسين الشجاعة،واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه بالأشعار المشجعة مثل قول المتنبى

فإن لا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل غير مكرم

وقوله أيضا

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

وأمثال ذلك ، وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة ، وهـذا أيضا مباح فى وقت يباح فيه الغزو ، ومندوب إليه فى وقت يستحب فيه الغزو ، ولـكن فى حق من يجوز له الخروج إلى الغزو

الثالث : الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء، والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار ، وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق ، وصوت طيب ، كان أوقع فى النفس ، وذلك مباح فى كل قتال مباح، ومندوب فى كل قتال منـدوب ، ومحظور فى قتال المسلمين ، وأهل الذمة ، وكل قتال محظور ، لأن تحريك الدواعى إلى المحظور محظور ، وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلى ، وخالد رضي الله عنهما ، وغـيرهما ولذلك نقول ينبغى أن يمنع من الضرب بالشاهين فى معسكر الغزاة ، فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ، ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ، ويورث الفتور فى القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب ، فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحـركة المشجعة ، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع

الرابع أصوات النياحة ونغماتها ، وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء ، وملازمة الـكآبة والحزن قسمان : محمود ، ومـذموم ، فأما المذموم فـكالحزن على مافات ، قال الله تعالى : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ[1]) والحزن على الأموات من هذا القبيل ، فإنه تسخط لقضاء الله تعالى، وتأسف على ما لا تدارك له ، فهذا الحزن لما كان مذموما كان تحريكه بالنياحة مذموما ، فلذلك ورد النهى الصريح [1] عن النياحة ، وأما الحزن المحمود: فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه ، وبكاؤه على خطاياه ، والبكاء والتباكى والحزن والتحازن على ذلك محمود ، وعليه بكاء آدم عليه السلام ، وتحريك هـذا الحزن وتقويته محمود ، لأنه يبعث على

---

(١) حديث النهى عن النياحة متفق عليه من حديث أم عطية أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم فى البيعة أن لا ننوح

---

(١) الحديد : ٢٣

التشمير للتدارك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة ، إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكى، ويحزن ويحزن حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته ، وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه ، وذلك محمود ، لأن المفضى إلى المحمود محمود ، وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب، ولا أن يبكى ويتباكى، ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه

الخامس: السماع فى أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له : وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا ، كالغناء فى أيام العيد ، وفى العرس ، وفى وقت قدوم الغائب ، وفى وقت الوليمة ، والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرءان العزيز ، وكل ذلك مباح ، لأجل إظهار السرور به ، ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب ، فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه ، ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]

طلع البـــدر علينا　　من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا　　ما دعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود ، فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا محمود ، فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم [2] حجلوا فى سرور أصابهم كما سيأتى فى أحكام الرقص ، وهو جائز فى قدوم كل قادم يجوز الفرح به ، وفى كل سبب مباح من أسباب السرور ، ويدل على هذا ما روي فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم [3] يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأمه ، فاقدروا قدر

---

(١) حديث أنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم
طلع البدر علينا　من ثنيات الوداع　　وجب الشكر علينا　ما دعا لله داع
البيهقى فى دلائل النبوة من حديث عائشة معضلا وليس فيه ذكر للدف والالحان

(٢) حديث حجل جماعة من الصحابة فى سرور أصابهم: أبو داود من حديث على وسيأتى فى الباب الثانى

(٣) حديث عائشة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد ـ الحديث : هو كما ذكره المصنف أيضا فى الصحيحين لكن قوله انه فيهما من رواية

الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو إشارة إلى طول مدة وقوفها ، وروى البخارى ومسلم أيضا فى صحيحيهما حديث عقيل عن الزهرى ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها ، وعندها جاريتان فى أيام منى تدففان وتضربان ،والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه ، وقال « دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ » وقالت عائشة رضي الله عنها رأيت النبي صلى الله عليه وسلم [١] يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر رضي الله عنه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أَمِنًا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ » يعنى من الأمن [٢] ومن حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه ، وفيه تغنيان وتضربان ،وفى حديث أبى طاهر عن ابن وهب ، والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] يقوم على باب حجرتى ، والحبشة يلعبون بحرابهم فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسترنى بثوبه أو بردائه ، لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلى ، حتى أكون أنا الذى أنصرف .

وروي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] قالت وكان يأتينى صواحب لى ، فكن يتقنعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم

عقيل عن الزهرى ليس كما ذكر بل هو عند البخارى كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه

(١) حديث عائشة رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمنا يابنى أرفدة : تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم الى آخره فرواه مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله أمنا يابنى أرفدة بل قال دعهم ياعمر زاد النسائى فانما هم بنو أرفدة ولهما من حديث عائشة دونكم يابنى أرفدة وقد ذكره المصنف بعد هذا

(٢) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفى يغنيان ويضربان : رواه مسلم وهو عند البخارى من رواية الأوزاعى عن ابن شهاب

(٣) حديث أبى طاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتى والحبشة يلعبون بحرابهم ـ الحديث : رواه مسلم أيضا

(٤) حديث عائشة كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : وهو فى الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصرا الى قولها فيلعبن معي وأما الرواية المطولة التى ذكرها المصنف بقوله وفى رواية فليست من الصحيحين انما رواها أبو داود باسناد صحيح

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرّ لجيئهن إلىّ ، فيلعبن معى ، وفى رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يوما «مَا هَذَا» قالت بناتى قال « فَمَا هَذَا الَّذِى أَرَى فِى وَسَطِهِنَّ » قالت فرس ، قال «مَاهَذَا الَّذِى عَلَيْهِ »قالت جناحان قال « فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ » قالت أوما سمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة،قالت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان فى اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته ؛ بدليل ماروى فى بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقاع، وقالت عائشة رضي الله عنها دخل عَلَيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وعندى جاريتان ، تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرنى ، وقال مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « دَعْهُمَا » فلما غفل غمزتهما ، فخرجتا ، وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب ، فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال تشتهين تنظرين ، فقلت نعم فأقامنى وراءه ، وخدى على خده ، ويقول « دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ » حتى إذا مللت قال « حَسْبُكِ » قلت نعم قال « فَاذْهَبِي » وفى صحيح مسلم فوضعت رأسى على منكبه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذى انصرفت

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيحين ، وهو نص صريح فى أن الغناء واللعب ليس بحرام وفيها دلالة على أنواع من الرخص

الأول : اللعب ولا يخفى عادة الحبشة فى الرقص واللعب

والثانى : فعل ذلك فى المسجد

والثالث : قوله صلى الله عليه وسلم « دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ » وهذا أمر باللعب والتماس له ، فكيف يقدر كونه حراما

---

(١) حديث عائشة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ـ الحديث : هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف والرواية التى عزاها بها مسلم كما ذكر

والرابع : منعه لأبى بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإنكار والتغيير ، وتعليله بأنه يوم عيد أى هو وقت سرور ، وهذا من أسباب السرور

والخامس : وقوفه طويلا فى مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها ، وفيه دليل عَلَى أن حسن الخلق فى تطييب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف فى الامتناع والمنع منه

والسادس : قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة « أَتَشْتَهِينَ أَنْ تَنْظُرِى » ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا عن غضب أو وحشة، فإن الالتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور، فيقدم محذور على محذور، فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه

والسابع : الرخصة فى الغناء والضرب بالدف من الجاريتين مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك

والثامن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ولو كان يضرب بالأوتار فى موضع لما جوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير ، بل إنما يحرم عند خوف الفتنة فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص ، والضرب بالدف ، واللعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج فى أوقات السرور كلها قياسا على يوم العيد فإنه وقت سرور، وفى معناه يوم العرس ، والوليمة ، والعقيقة ، والختان ، ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح، وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم فى موضع واحد على طعام أو كلام ، فهو أيضا مظنة السماع

السادس : سماع العشاق تحريكا للشوق ، وتهييجا للعشق ، وتسلية للنفس ، فإن كان فى مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق والشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال، فإن الرجاء لذيذ، واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق ، والحب للشيء المرجو ، ففى هذا السماع تهييج العشق ، وتحريك الشوق ، وتحصيل لذة الرجاء المقدر فى الوصال مع الإطناب فى وصف

حسن المحبوب ، وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته أو سريته فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته فى لقائها ، فيحظى بالمشاهدة البصر، وبالسماع الأذن ويفهم لطائف معانى الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة ، فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ، وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وهذا منه، وكذلك إن غضبت منه جارية ، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء ، وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها ، وكان ينزل مايسمع على ماتمثل فى نفسه ، فهذا حرام ، لأنه محرك للفكر فى الأفعال المحظورة ومهيج للداعية إلى مالا يباح الوصول إليه ، وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب فى وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك ، وذلك ممنوع فى حقهم ، لما فيه من الداء الدفين ، لا لأمر يرجع إلى نفس السماع ، ولذلك سئل حكيم عن العشق ، فقال : دخان يصعد إلى دماغ الإنسان ، يزيله الجماع ويهيجه السماع

السابع: سماع من أحب الله وعشقه ، واشتاق إلى لقائه ، فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه ، فالسماع فى حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ، ومور زناد قلبه ، ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها ، يعرفها من ذاقها ، وينكرها من كل حسه عن ذوقها ، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود ، والمصادفة أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع ، ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدرات ، كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات ، وهى غاية مطالب المحبين لله تعالى ، ونهاية ثمرة القربات كلها ، فالمفضى إليها من جملة القربات ، لا من جملة المعاصى والمباحات ، وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى فى مناسبة النغمات الموزونة للارواح ، وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقا ، وفرحا وحزنا ، وانبساطا وانقباضا ، ومعرفة السبب فى تأثر الأرواح

بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات ، والبليد الجامد القاسى القلب ، المحروم عن لذة السماع ، يتعجب من التذاذ المستمع ووجده ، واضطراب حاله ، وتغير لونه ، تعجب البهيمة من لذة اللوز ينج ، وتعجب العنين من لذة المباشرة ، وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه ، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته ، وعجائب صنعه ؛ ولكل ذلك سبب واحد ، وهو أن اللذة نوع إدراك ، والإدراك يستدعى مدركا ويستدعى قوة مدركة ، فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ ، فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق ، وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ، ولذة المعقولات من فقد العقل ، وكذلك ذوق السماع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة فى القلب فمن فقدها عدم لا محالة لذته ، ولعلك تقول كيف يتصور العشق فى حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له فاعلم أن من عرف الله أحبه لا محالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته ، والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا ، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة ، ولذلك قالت العرب : إن محمدا قد عشق ربه لما رأوه يتخلى للعبادة فى جبل حراء

واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال ، والله تعالى جميل يحب الجمال ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة ، وصفاء اللون ، أدرك بحاسة البصر ، وإن كان الجمال بالجلال والعظمة ، وعلو الرتبة ، وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق ، وإفاضتها عليهم على الدوام ، إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب ، ولفظ الجمال قد يستعار أيضا لها ، فيقال إن فلانا حسن وجميل ، ولا تراد صورته ، وإنما يعنى به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات ، حسن السيرة ، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحسانا لها ، كما تحب الصورة الظاهرة ، وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا ، وكم من الغلاة فى حب أرباب المذاهب ، كالشافعى ، ومالك ، وأبى حنيفة ، رضي الله عنهم حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى نصرتهم وموالاتهم ، ويزيدوا على كل عاشق فى الغلو والمبالغة ، ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته ، أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ولكن لجمال صورته الباطنة ، وسيرته المرضية ، والخيرات الحاصلة من علمه لأهل الدين

وغير ذلك من الخصال ، ثم لايعقل عشق من ترى الخيرات منه ، بل على التحقيق من لاخير ولا جمال ولا محبوب فى العالم إلا وهو حسنة من حسناته ، وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال فى العالم أدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضة ، ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى ، فهو ذرة من خزائن قدرته ، ولمعة من أنوار حضرته

فليت شعرى كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ، وكيف لايتأكد عند العارفين بأوصافه حبه ، حتى يجاوز حداً يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلما فى حقه ، لقصوره عن الأنباء عن فرط محبته ، فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره ، واستتر عن الأبصار بإشراق نوره ، ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ، ودهشت القلوب وتخاذلت القوى ، وتنافرت الأعضاء ، ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادى أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش ، وسيأتى تحقيق هذه الإشارة فى كتاب المحبة ، ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل ، بل المتحقق بالمعرفة لايعرف غير الله تعالى ، إذ ليس فى الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله ، ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره ، فمن عرف الشافعي مثلا رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه ، لامن حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية ، فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ، ولاجاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله ، وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هى صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف ، وجلالة قدره ، كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى ، غير مجاوزة إلى سواه ، ومن حد هذا العشق أنه لايقبل الشركة ، وكل ماسوى هذا العشق فهو قابل للشركة ، إذ كل محبوب سواه يتصور له نظير ، إما فى الوجود ، وإما فى الإمكان ، فأما هذا الجمال فلا يتصور له ثان ، لافى الإمكان ولا فى الوجود ، فكان اسم العشق على حب غيره

مجازاً محضاً لا حقيقة ، نعم الناقص القريب فى نقصانه من البهيمة ، قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال ، الذى هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام ، وقضاء شهوة الوقاع فمثل هذا الحمار ينبغى أن لا يستعمل معه لفظة العشق ، والشوق ، والوصال ، والأنس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعانى ، كما تجنب البهيمة النرجس والريحان ، وتخصص بالقت والحشيش وأوراق القضبان ، فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها فى حق الله تعالى ، إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه ، والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة فى أمثال هذه الألفاظ ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب ينقطع بسببه نياط القلب ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أنه ذكر غلاما كان فى بنى اسرائيل على جبل ، فقال لأمه . من خلق السماء ؟ قالت الله عز وجل ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت الله عز وجل ، قال : فمن خلق الغيم ؟ قالت الله عز وجل ، قال : إنى لأسمع لله شأنا ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع ، وهذا كأنه سمع مادل على جلال الله تعالى وتمام قدرته فطرب لذلك ووجد ، فرمى بنفسه من الوجد . وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى . قال بعضهم رأيت مكتوبا فى الإنجيل غنينا لكم فلم تطربوا ، وزمرنا لكم فلم ترقصوا ، أي شوقنا كم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع ، وبواعثه ، ومقتضياته ، وقد ظهر على القطع إباحته فى بعض المواضع ، والندب إليه فى بعض المواضع .

فإن قلت : فهل له حالة يحرم فيها

فأقول : إنه يحرم بخمسة عوارض عارض فى المسمع ، وعارض فى آلة الإسماع ، وعارض فى نظم الصوت ، وعارض فى نفس المستمع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هى المسمع ، والمستمع ، وآلة الإسماع

---

(١) حديث أبى هريرة ان غلاما كان فى بنى اسرائيل على جبل فقال لأمه من خلق السماء فقالت الله الحديث : وفيه ثم رمى نفسه من الجبل فتقطع رواه ابن حبان

العارض الأول : أن يكون المسمع امرأة لايحل النظر إليها ، وتخشى الفتنة من سماعها وفى معناها الصبي الأمرد الذى تخشى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ، ولا سماع صوتها فى القرءان أيضا ، وكذلك الصبي الذى تخاف فتنته .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسما للباب ، أو لايحرم إلا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت

فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان :

أحدها : أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام ، سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة ، فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور .

والثانى : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين ، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة ، كتحريك السماع بل هو أشد ، وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء فى زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال فى السلام ، والاستفتاء ، والسؤال والمشاورة ، وغير ذلك ، ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى ، لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ، فينبغى أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه ، هذا هو الأقيس عندى ، ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين فى بيت عائشة رضى الله عنها إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه ، ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه ، فلذلك لم يحترز ، فإذاً يختلف هذا بأحوال المرأة ، وأحوال الرجل فى كونه شابا وشيخا ، ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هذا بالأحوال ، فإنا نقول للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم ، وليس للشاب ذلك لأن القبلة تدعو إلى الوقاع فى الصوم ، وهو محظور . والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص

العارض الثانى: فى الآلة بأن تكون من شمار أهل الشرب ، أو المخنثين ، وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة ، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف ، وإن كان فيه الجلاجل ، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات

العارض الثالث: فى نظم الصوت وهو الشعر ،فإن كان فيه شىء من الخنا والفحش والهجو أو ماهو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم،أو على الصحابة رضي الله عنهم كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم،فسماع ذلك حرام ، بألحان وغير ألحان والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال ، وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز ، فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم[1] بذلك ، فأما النسيب: وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فهذا فيه نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته فإن نزله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل ، وإجالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه فينبغى أن يجتنب السماع رأسا فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه سواء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة ، فالذى يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلا ظلمة الكفر ، وبنضارة الخد نور الإيمان وبذكر الوصال لقاء الله تعالى ، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى فى زمرة المردودين وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوشة لدوام الأنس بالله تعالى ، ولا يحتاج فى تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة ،بل تسبق المعانى الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه مر فى السوق فسمع واحدا يقول : الخيار عشرة بحبة ، فغلبه الوجد . فسئل عن ذلك ، فقال : إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار واجتاز بعضهم فى السوق فسمع قائلا يقول : ياسعتر برى ، فغلبه الوجد

---

(١) حديث أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين: متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجم أوهاجهم وجبريل معك

فقيل له على ماذا كان وجدك ؟ فقال سمعته كانه يقول ياسعتر برى ، حتى أن العجمى قد يغلب عليه الوجد على الأبيات المنظومة بلغة العرب ، فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان أخر. أنشد بعضهم :

وما زارنى فى الليل إلا خيـــاله

فتواجد عليه رجل أعجمي، فسئل عن سبب وجده ، فقال إنه يقول مازاريم ، وهو كما يقول ، فإن لفظ زار يدل فى العجمية على المشرف على الهلاك ، فتوهم أنه يقول كلنا مشرفون على الهلاك فاستشعر عنـد ذلك خطر هلاك الآخرة ، والمحترق فى حب الله تعالى وجـدُه بحسب فهمه وفهمه بحسب تخيله ، وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد الشاعر ولغتـه فهذا الوجد حق وصدق ، ومن استشعر خطر هلاك الآخرة لجدير بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه ، فإذاً ليس فى تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة، بل الذى غلب عليه عشق مخلوق ينبغى أن يحترز من السماع بأي لفظ كان ، والذى غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ، ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة المتعلقة بمجارى همته الشريفة

العارض الرابع فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان فى غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ، والخد ، والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته ، وينزله على صورة معينة ، ينفخ الشيطان بها فى قلبـه ، فتشتعل فيه نار الشهوة ، وتحتد بواعث الشر، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان ، والتخذيل للعقل المـانع منه الذى هو حزب الله تعالى ، والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهوات وبين حزب الله تعـالى وهو نور العقل ، إلا فى قلب قد فتحـه أحد الجندين ، واستولى عليه بالـكلية ، وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان ، وغلب عليها ، فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها ، فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسنتها، والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص ، فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ، ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ، ولا غلبت عليه شهوة فيكون فى حقه محظورا ، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذى ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية ، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام ، فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج ، فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة ، ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب ، إذ راحة القلب معالجة له فى بعض الأوقات ، لتنبعث دواعيه فتشتغل فى سائر الأوقات بالجد فى الدنيا كالكسب والتجارة ، أو فى الدين كالصلاة والقراءة . واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال عَلَى الخد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته ، فما أقبح ذلك ، فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة ، فما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام ، فهذا المباح كسائر المباحات

فإن قلت : فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح فى بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولا بالإباحة ، إذ إطلاق القول فى المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ

فاعلم أن هذا غلط ، لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين ما فيه النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ، ألا ترى أنا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا ، قلنا : إنه حلال على الإطلاق مع أنه حرام على المحرور الذى يستضر به ، وإذا سئلنا عن الخمر قلنا : إنها حرام مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشربها مهما لم يجد غيرها ، ولكن هى من حيث إنها خمر ، حرام ، وإنما أبيحت لعارض الحاجة والعسل من حيث إنه عسل حلال ، وإنما حرم لعارض الضرر ، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه ، فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع فى وقت النداء يوم الجمعة ، ونحوه من العوارض ، والسماع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم

وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته ، فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبالى بمن يخالف بعد ظهور الدليل

وأما الشافعى رضي الله عنه فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلا ، وقد نص الشافعي وقال فى الرجل يتخذه صناعة: لاتجوز شهادته ، وذلك لأنه من اللهو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صنعة كان منسوبا إلى السفاهة وسقوط المروءة ، وإن لم يكن محرما بيّن التحريم ، فإن كان لاينسب نفسه إلى الغناء ، ولا يؤتى لذلك ، ولا يأتى لأجله ، وإنما يعرف بأنه قد يطرب فى الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ، ولم يبطل شهادته ، واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة رضي الله عنها .وقال يونس بن عبد الأعلى: سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع ، فقال الشافعى : لا أعلم أحدا من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه فى الأوصاف ، فأما الحداء ، وذكر الأطلال والمرابع ، وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح ، وحيث قال إنه لهو مكروه يشبه الباطل ، فقوله لهو صحيح ، ولكن اللهو من حيث إنه لهو ليس بحرام، فلعب الحبشة ورقصهم لهو ، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه ، بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل مالا فائدة فيه ، فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه فى اليوم مائة مرة فهذا عبث لافائدة له ولا يحرم ، قال الله تعالى (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ[1]) فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشىء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم ، والمخالفة فيه مع أنه لافائدة فيه لا يؤاخذ به ، فكيف يؤاخذ بالشعر والرقص ؟ وأما قوله يشبه الباطل ، فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه ، بل لو قال هو باطل صريحا لما دل على التحريم ، وإنما يدل على خلوه عن الفائدة ، فالباطل ما لا فائدة فيه ، فقول الرجل لامرأته مثلا بعت نفسى منك وقولها اشتريت ، عقد باطل مهما كان القصد اللعب والمطايبة ، وليس بحرام إلا إذا قصد به التمليك المحقق الذى منع الشرع منه ، وأما قوله مكروه فينزل على بعض المواضع التى ذكرتها لك ، أو ينزل على التنزيه ، فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج ، وذكر أنى أكره

(١) البقرة : ٢٢٥

كل لعب، وتعليله يدل عليه، فإنه قال ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة، فهذا يدل على التنزيه، ورده الشهادة بالمواظبة عليه لايدل على تحريمه أيضا، بل قد ترد الشهادة بالأكل فى السوق، ومايخرم المروءة، بل الحياكة مباحة، وليست من صنائع ذوى المروءة، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة، فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه، وهذا هو الظن أيضا بغيره من كبار الأئمة، وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم

بيان حجج القائلين

بتحريم السماع والجواب عنها

احتجوا بقوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ[1]) قال ابن مسعود والحسن البصرى، والنخعى، رضي الله عنهم: إن لهو الحديث هو الغناء، وروت عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم[1] قال: « إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْقَيْنَةَ وَبَيْعَهَا وَثَمَنَهَا وَتَعْلِيمَهَا » فنقول أما القينة: فالمراد بها الجارية التى تغني للرجال فى مجلس الشرب. وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة، بدليل ماروى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضي الله عنها

وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم وليس النزاع فيه، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به، ومضلا عن سبيل الله تعالى، وهو المراد فى الآية، ولو قرأ القرءان ليضل به عن سبيل الله لكان حراما

حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم عمر بقتله، ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال، فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم

---

(١) حديث عائشة ان الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها الطبرانى فى الأوسط باسناد ضعيف قال البيهقي ليس بمحفوظ

(١) لقمان: ٦

واحتجوا بقوله تعالى (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ [١]) قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الغناء بلغة حمير ، يعني السمد ، فنقول ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا ، لأن الآية تشتمل عليه

فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم، فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين ، كما قال تعالى (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ [٢]) وأراد به شعراء الكفار ، ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم [١] قال « كَانَ إِبْلِيسُ أَوَّلَ مَنْ نَاحَ وَأَوَّلَ مَنْ تَغَنَّى » فقد جمع بين النياحة والغناء ، قلنا لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام، ونياحة المذنبين على خطاياهم، فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق ،حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم [٢] أنه قال « مَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِغِنَاءٍ إِلَّا بَعَثَ اللهُ لَهُ شَيْطَانَيْنِ عَلَى مَنْكِبَيْهِ يَضْرِبَانِ بِأَعْقَابِهِمَا عَلَى صَدْرِهِ حَتَّى يُمْسِكَ »

قلنا: هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه ، وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة ، وعشق المخلوقين ، فأما ما يحرك الشوق إلى الله والسرور بالعيد أو حدوث الولد ، أو قدوم الغائب ، فهذا كله يضاد مراد الشيطان، بدليل قصة الجاريتين والحبشة ، والأخبار التي نقلناها من الصحاح ، فالتجويز في موضع واحد نص في الإباحة

---

(١) حديث جابر كان ابليس أول من ناح وأول من تغنى لم أجد له أصلا من حديث جابر وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده .

(٢) حديث أبي أمامة مارفع أحد عقيرته بغناء الا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على منكبية يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والطبراني في الكبير وهو ضعيف

---

(١) النجم : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ (٢) الشعراء : ٢٢٤

و المنع فى ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل ، أما الفعل فلا تأويل له، إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط ، وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم[١] قال « كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا تَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَرَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَمُلَاعَبَتَهُ لِامْرَأَتِهِ »

قلنا: فقوله باطل لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة ، وقد يسلم ذلك على أن التلهى بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم[٢] « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ » فإنه يلحق به رابع وخامس، فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ ، وفى هـذا دليل على أن التفرج فى البساتين ، وسماع أصوات الطيور ، وأنواع المداعبات ، مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل

واحتجوا بقول عثمان رضي الله عنه : ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست ذكري بيميني مذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلنا : فليكن التمنى ، ومس الذكر باليمنى حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء ، فمن أين يثبت أن عثمان رضي الله عنه كان لا يترك إلا الحرام

واحتجوا بقول ابن مسعود رضى الله عنه[٣] الغناء ينبت فى القلب النفـاق ، وزاد بعضهم كما ينبت الماء البقل ، ورفعه بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو غير صحيح

قالوا ومر على ابن عمر رضى الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى، فقال: ألا لا أسمع الله لكم ألا لا أسمع الله لكم

---

(١) حديث عقبة بن عامر كل شىء يلهو به الرجل فهو باطل الا تأديبه فرسه ورمية بقوسه وملاعبته زوجته أصحاب السنن الاربعة وفيه اضطراب

(٢) حديث لا يحل دم امرىء إلا باحدى ثلاث متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٣) حديث ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل قال المصنف و المرفوع غير صحيح لان فى إسناده من لم يسم: رواه أبو داود وهو فى رواية ابن العبد ليس فى روايه اللؤلؤى ورواه البيهقى مرفوعا وموقوفا

وعن نافع أنه قال كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما [١] فى طريق ، فسمع زمارة راع ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول يانافع أتسمع ذلك حتى قلت لا فأخرج أصبعيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع ، وقال الفضيل ابن عياض رحمه الله : الغناء رقية الزنا ، وقال بعضهم الغناء رائد من رواد الفجور ، وقال يزيد ابن الوليد : إياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد الشهوة ، ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل مايفعله السكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء داعية الزنا ، فنقول قول ابن مسعود رضى الله عنه ينبت النفاق أراد به فى حق المغنى ، فإنه فى حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ، ويروج صوته عليه ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضا لايوجب تحريما ، فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة ، وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع ، وغير ذلك ينبت فى القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله ، فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط . بل المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا ، ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته ، وقطع ذنبه ، لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشيته ، فهذا النفاق من المباحات ، وأما قول ابن عمر رضى الله عنهما ألا لاأسمع الله لكم ، فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء بل كانوا محرمين ، ولا يليق بهم الرفث ، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو فأنكر ذلك عليهم لكونه منكرا بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام ، وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال ، وأما وضعه أصبعيه فى أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعا بذلك ولا أنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه فى الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ، ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يمنع ابن عمر ، لايدل أيضا على التحريم ، بل يدل على أن الأولى تركه

---

(١) حديث نافع كنت وابن عمر فى طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعه فى أذنيه ــ الحديث ، ورفعه أبو داود وقال هذا حديث منكر

ونحن نرى أن الأولى تركه فى أكثر الأحوال، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر فى القلب، فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم، إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه؛ أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب، فلعله صلى الله عليه وسلم كان فى حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله على تلك الحالة، كما شغله العلم عن الصلاة، بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق، وإن كان كمالا بالإضافة إلى غيره، ولذلك قال الحصرى ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من يسمع منه إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم: فالأنبياء عليهم السلام على الدوام فى لذة السمع والشهود، فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة، وأما قول الفضيل هو رقية الزنا وكذلك ماعداه من الأقاويل القريبة منه فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأما القياس: فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار، وقد سبق الفرق، أو يقال هو لهو ولعب وهو كذلك، ولكن الدنيا كلها لهو ولعب، قال عمر رضي الله عنه لزوجته: إنما أنت لعبة فى زاوية البيت، وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التى هى سبب وجود الولد، وكذلك المزح الذى لا فحش فيه حلال، نقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] وعن الصحابة، كما سيأتى تفصيله فى كتاب آفات اللسان إن شاء الله، وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج فى لعبهم، وقد ثبت بالنص إباحته؟ على أنى أقول: اللهو مروح للقلب، ومخفف عنه أعباء الفكر، والقلوب إذا أكرهت عميت، وترويحها إعانة لها على الجد؛ فالمواظب على التفقه مثلا، ينبغى أن يتعطل يوم الجمعة، لأن عطلة يوم تبعث على النشاط فى سائر الأيام، والمواظب على نوافل الصلوات فى سائر الأوقات، ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات ولأجله كرهت الصلاة فى بعض الأوقات، فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجد، ولا يصبر على الجد المحض، والحق المر الا نفوس الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) حديث خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم اد كان عليه أعلام سغلت قلبه تقدم فى الصلاة

(٢) حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم يأتى فى آفات اللسان كما قال المصنف

فاللهو دواء القلب من داء الأعياء والملال ، فينبغى أن يكون مباحا ، ولكن لا ينبغى أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء ، فإذاً اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا فى حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها ، بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة فينبغى أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذى ذكرناه ، نعم : هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال ، فإن الكامل هو الذى لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومن أحاط بعلم علاج القلوب ، ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق، علم قطعا أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لاغنى عنه

الباب الثانى

فى آثار السماع وآدابه

اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع ، ثم يثمر الفهم الوجد ، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح ، فلينظر فى هذه المقامات الثلاثة

المقام الأول فى الفهم

وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع ، وللمستمع أربعة أحوال

إحداها : أن يكون سماع بمجرد الطبع ، أي لاحظ له فى السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات وهذا مباح ، وهو أخس رتب السماع ، إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم ، بل لا يستدعى هذا الذوق إلا الحياة، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة

الحالة الثانية : أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معينا ، وإما غير معين وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات، ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها

الحالة الثالثة : أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملته لله تعالى، وتقلب أحواله فى التمكن مرة والتعذر أخرى ، وهذا سماع المريدين لاسيما المبتدئين ، فإن للمريد لا محالة مرادا هو مقصده ، ومقصده معرفة الله سبحانه ، ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة

بالسر وكشف الغطاء، وله فى مقصده طريق هو سالكه، ومعاملات هو مثابر عليها وحالات تستقبله فى معاملاته، فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب، أو قبول أو رد أو وصل أو هجر، أو قرب أو بعد، أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر، أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس، أو وحشة أو استئناس، ووفاء بالوعد، أو نقض للعهد، أو خوف فراق، أوفرح بوصال، أو ذكر ملاحظة الحبيب، ومدافعة الرقيب، أو همول العبرات أو ترادف الحسرات، أوطول الفراق، أو عدة الوصال، أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار، فلا بد أن يوافق بعضها حال المريد فى طلبه، فيجرى ذلك مجرى القدح الذى يورى زناد قلبه، فتشتعل به نيرانه، ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه، ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجال رحب فى تنزيل الألفاظ على أحواله، وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه، بل لكل كلام وجوه، ولكل ذى فهم فى اقتباس المعنى منه حظوظ، ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كي لايظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والخد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها، ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعانى من الأبيات، ففى حكايات أهل السماع مايكشف عن ذلك

فقدحكي أن بعضهم سمع قائلا يقول،

قال الرسول غدا تزو ... ر فقلت تعقل ماتقول

فاستفزه اللحن والقول، وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء نونا، فيقول قال الرسول غدا نزور، حتى غشي عليه من شدة الفرح واللذة والسرور، فلما أفاق سئل عن وجده مم كان، فقال ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم [1] إن أهل الجنة يزورون ربهم فى كل يوم جمعة مرة

• وحكى الرقى عن ابن الدراج أنه قال كنت أنا وابن الفوطى مارين على دجلة بين البصرة والأبلة، فإذا بقصر حسن له منظرة، وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول

كل يوم تتلون ... غيرهذا بك أحسن

---

(١) حديث ان أهل الجنة يزورون ربهم فى كل جمعة : الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه عبد الحميد بن حبيب بن أبى العشرين مختلف فيه وقال الترمذى لانعرفه إلامن هذا الوجه قال وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعى شيئاً من هذا

فإذا شاب حسن تحت المنظرة ، وبيده ركوة ، وعليه مرقعة يستمع، فقال ياجارية بالله وبحياة مولاك ألا أعدت عليّ هذا البيت . فأعادت فكان الشاب يقول هـذا والله تلوّنى مع الحق فى حالى، فشهق شهقة ومات ، قال فقلنا قد استقبلنا فرض فوقفنا ، فقال صاحب القصر للجارية أنت حرة لوجه الله تعالى ، قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر: أشهدكم أن كل شيء لى فى سبيل الله ، وكل جواري أحرار ، وهذا القصر للسبيل، قال ثم رمى بثيابه ، واتزر بإزار ، وارتدى بآخر ، ومر على وجهه والناس ينظرون إليه، حتى غاب عن أعينهم وهم يبكون فلم يسمع له بعدُ خبر

والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى، ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب فى المعاملة ، وتأسفه على تقلب قلبه ، وميله عن سنن الحق ، فلما قرع سمعه مايوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ، ويقول له :

كل يوم تتلون ... غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه ، فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته، وإلا خطر له من السماع فى حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به ، ففى سماع المريد المبتدى خطر ، إلا إذا لم ينزل مايسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى ، ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه، فلو سمعه فى نفسه وهو يخاطب به ربه عز وجل، فيضيف التلون إلى الله تعالى فيكفر ، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق ، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق ، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه، بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق ، فإنه تارة يبسط قلبه ، وتارة يقبضه ، وتارة ينوره ، وتارة يظلمه ، وتارة يقسيه ، وتارة يلينه ، وتارة يثبته على طاعته ويقويه عليها ، وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق ، وهذا كله من الله تعالى ومن يصدر منه أحوال مختلفة فى أوقات متقاربة فقد يقال له فى العادة إنه ذو بداوات وأنه متلون ، ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبه إلى التلون فى قبوله ورده ، وتقريبه وإبعاده ، وهـذا هو المعنى فسماع هذا كذلك فى حق الله تعالى كفر محض ، بل ينبغى أن

يعلم أنه سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون ، ويغير ولا يتغير ، بخلاف عباده وذلك العلم يحصل للمريد باعتقاد تقليدي إيماني ، ويحصل للعارف البصير بيقين كشفي حقيقي ، وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو المغير من غير تغير ، ولا يتصور ذلك إلا في حق الله تعالى بل كل مغير سواه فلا يغيره مالم يتغير ، ومن أرباب الوجد من يغلب عليه حال مثل السكر المدهش، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى ، ويستنكر اقتهاره القلوب وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت ، فإنه المستصفى لقلوب الصديقين ، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين فلا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة، ولا أمد الأنبياء عليهم السلام بتوفيقه ونور هدايته لوسيلة سابقة ، ولكنه قال (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١)) وقال عز وجل : (وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٢)) وقال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (٣)) فإن خطر ببالك أنه لم اختلفت السابقة ، وهم في ربقة العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز حد الأدب ، فإنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

ولعمري تأدب اللسان والظاهر مما يقدر عليه الأكثرون ، فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد ، بهذا الاختلاف الظاهر في التقريب والإبعاد ، والإشقاء والإسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد، فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم، ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام أنه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء ، لأنه محرك لأسرار القلوب ومكامنها ، ومشوش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر، إلا ممن عصمه الله تعالى بنور هدايته ، ولطيف عصمته ولذلك قال بعضهم ليتنا نجونا من هذا السماع رأسا برأس ، ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة ، فإن غاية ذلك معصية وغاية الخطأ هاهنا كفر

واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع ، فيغلب الوجد على مستمعين لبيت واحد وأحدهما مصيب في الفهم ، والآخر مخطىء ، أو كلاهما مصيبان ، وقد فهما معنيين مختلفين متضادين

---

(١) الصفات : ١٧١ (٢) السجدة : ١٣ (٣) الأنبياء : ١٠١

ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض، كما حكي عن عتبة الغلام أنه سمع رجلا يقول

سبحان جبار السما إن المحب لفى عنا

فقال : صدقت ، وسمعه رجل آخر فقال : كذبت ، فقال بعض ذوى البصائر أصابا جميعا وهو الحق ، فالتصديق كلام محب غير ممكّن من المراد ، بل مصدود متعب بالصد والهجر ، والتكذيب كلام مستأنس بالحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به ، أو كلام محب غير مصدود عن مراده فى الحال ، ولا مستشعر بخطر الصد فى المآل وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه ، فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم

وحكى عن أبى القاسم بن مروان وكان قد أصحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة ، فحضر دعوة وفيها إنسان يقول

واقف فى الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا ، فلما سكنوا سألهم عن معنى ما وقع لهم من معنى البيت، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها فلم يقنعه ذلك ، فقالوا له فماذا عندك فيه ؟ فقال أن يكون فى وسط الأحوال ، ويكرم بالكرامات ، ولا يعطى منها ذرة ، وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال والكرامات ، والأحوال سوابقها والكرامات تسنح فى مباديها ، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها ، ولا فرق بين المعنى الذى فهمه وبين ماذكروه ، إلا فى تفاوت رتبة المتعطش إليه ، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها ، فإن مكن منها تعطش إلى ماوراءها ، فليس بين المعنيين اختلاف فى الفهم، بل الاختلاف بين الرتبتين

وكان الشبلى رحمه الله كثيرا مايتواجد على هذا البيت :

ودادكم هجر وحبكم قلى ووصلكم صرم وسلمكم حرب

وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة ، بعضها حق وبعضها باطل ، وأظهرها أن يفهم هذا فى الخلق ، بل فى الدنيا بأسرارها ، بل فى كل ماسوى الله تعالى، فإن الدنيا مكارة

خداعة ، قتالة لأربابها ، معادية لهم فى الباطن ، ومظهرة صورة الود ، [١] فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبرة ، كما ورد فى الخبر ، وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا

تنح عن الدنيا فلا تخطبنها ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يفى مرجوّها بمخوفها ومكروهها إما تأملت راجح
لقدقال فيها الواصفون فأكثروا وعندي لها وصف لعمري صالح
سلاف قصاراها زعاف ومركب شهي إذا استلذلته فهو جامح
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح

والمعنى الثانى : أن ينزله على نفسه فى حق الله تعالى ، فإنه إذا تفكر فعرفته جهل ، إذ ماقدروا الله حق قدره ، وطاعته رياء ، إذ لايتقى الله حق تقاته ، وحبه معلول إذ لايدع شهوة من شهواته فى حبه ، ومن أراد الله به خيرا بصره بعيوب نفسه ، فيرى مصداق هذا البيت فى نفسه ، وإن كان على المرتبة بالإضافة إلى الغافلين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَ أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وقال عليه الصلاه والسلام [٣] « إِنِّى لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وإنما كان استغفاره عن أحوال هى درجات بُعْد بالإضافة إلى مابعدها ، وإن كانت قربا بالإضافة إلى ماقبلها ، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لانهاية له ، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه ، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال

والمعنى الثالث : أن ينظر فى مبادى أحواله فيرتضيها ، ثم ينظر فى عواقبها فيزدريها ، لاطلاعه على خفايا الغرور فيها ، فيرى ذلك من الله تعالى ، فيستمع البيت فى حق الله تعالى شكاية من القضاء والقدر ، وهذا كفر ، كما سبق بيانه ، وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان ، وذلك بقدر غزارة علم المستمع وصفاء قلبه

الحالة الرابعة : سماع من جاوز الأحوال والمقامات ، فعزب عن فهم ماسوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى بحر عين الشهود

---

(١) حديث ماامتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة : ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحي بن أبي كثير مرسلا
(٢) حديث لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : رواه مسلم وقد تقدم
(٣) حديث إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة : تقدم فى الباب الثانى من الأذكار

الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن ، وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى ، فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود، وفنى أيضا عن الشهود ،فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد، فقد غفل عن المشهود ، فالمستهتر بالمرئى لا التفات له فى حال استغراقه إلى رؤيته ، ولا إلى عينه التى بها رؤيته ، ولا إلى قلبه الذى به لذته ، فالسكران لا خبر له من سكره، والمتلذذ لا خبر له من التذاذه ، وإنما خبره من المتلذذ به فقط ، ومثاله العلم بالشيء فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشيء ، فالعالم بالشيء مهما ورد عليه العلم بالعلم بالشيء كان معرضا عن الشيء ، ومثل هذه الحاله قد تطرأ فى حق المخلوق ، وتطرأ أيضا فى حق الخالق ، ولكنها فى الغالب تكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم ، وإن دام لم تطقه القوة البشرية ، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه، كما روي عن أبى الحسن النورى أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت

مازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ،فوقع فى أجمة قصب قد قطع،وبقيت أصوله مثل السيوف فصار يعدو فيها، ويعيد البيت إلى الغداة ، والدم يخرج من رجليه حتى ورمت قدماه وساقاه ، وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله

فهذه درجة الصديقين فى الفهم والوجد، فهى أعلى الدرجات، لأن السماع على الأحوال نازل من درجات الكمال، وهى ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله،أعنى أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدى والسكاكين فيسمع لله،وبالله،وفى الله،ومن الله،وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق،وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد ، وتحقق بمحض الإخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلا بل خمدت بالكلية بشريته ، وفنى التفاته إلى صفات البشرية رأسا ، ولست أعنى بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه ، ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذى هو من أمر الله عز وجل ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها

ولذلك السر وجود ، وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه ، فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر ، ومثاله المرآة المجلوة إذ ليس لها لون فى نفسها، بل لونها لون الحاضر فيها وكذلك الزجاجة ، فإنها تحكى لون قرارها ، ولونها لون الحاضر فيها ، وليس لها فى نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان، ويعرب عن هذه الحقيقة أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه ، قول الشاعر :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة ، منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد، وقال أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى فى دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، أو تدرعها بها أو حلولها فيها ، على ما اختلفت فيهم عباراتهم ، وهو غلط محض ، يضاهى غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة ، إذ ظهر فيها لون الحمرة من مقابلها ، وإذا كان هذا غير لائق بعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض فقد ذكرنا تفاوت الدرجات فى فهم المسموعات

المقام الثانى

بعد الفهم والتنزيل ... الوجد

وللناس كلام طويل فى حقيقة الوجد، أعنى الصوفية ، والحكماء الناظرين فى وجه مناسبة السماع للأرواح ، فلننقل من أقوالهم ألفاظا ، ثم لنكشف عن الحقيقة فيه

أما الصوفية : فقد قال ذو النون المصرى رحمه الله : فى السماع أنه وارد حق جاء يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغي إليه بنفس تزندق ، فكأنه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق ، وهو الذى يجده عند ورود وارد السماع ، إذ سمى السماع وارد حق ، وقال أبو الحسين الدراج مخبراً عما وجده فى السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال جال بى السماع فى ميادين البهاء ، فأوجدنى وجود الحق عند العطاء فسقانى بكأس الصفاء ، فأدركت به منازل الرضاء ، وأخرجنى إلى رياض التنزه والفضاء

وقال الشبلي رحمه الله : السماع ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة ، وإلا فقد استدعى الفتنة ، وتعرض للبلية ، وقال بعضهم : السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة ، لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ، ويدرك برقة الطبع لرقته ، وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله ، وقال عمرو بن عثمان المكى : لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنه سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين ، وقال بعضهم : الوجد مكاشفات من الحق

وقال أبو سعيد بن الأعرابي : الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة الرقيب ، وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السر ، وإيناس المفقود ، وهو فناؤك من حيث أنت ، وقال أيضا : الوجد أول درجات الخصوص ، وهو ميراث التصديق بالغيب ، فلما ذاقوه وسطع فى قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب ، وقال أيضا : الذى يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ، لأن النفس محجوبة بأسبابها ، فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ، ورق وصفا ، ونجعت الموعظة فيه ، وحل من المناجاة في محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية ، وقلب شاهد ، وسر ظاهر ، فشاهد ما كان منه خاليا فذلك هو الوجد ، لأنه قد وجد ما كان معدوما عنده ، وقال أيضا : الوجد ما يكون عند ذكر مزعج ، أو خوف مقلق ، أو توبيخ على زلة ، أو محادثة بلطيفة ، أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب ، أو أسف على فائت ، أو ندم على ماض ، أو استجلاب إلى حال ، أو داع إلى واجب ، أو مناجاة بسر ، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر ، والباطن بالباطن ، والغيب بالغيب ، والسر بالسر ، واستخراج مالك بما عليك ، مما سبق لك السعي فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك ، فيثبت لك قدم بلا قدم ، وذكر بلا ذكر ، إذ كان هو المبتدىء بالنعم والمتولى وإليه يرجع الأمر كله ، فهذا ظاهر علم الوجد ، وأقوال الصوفية من هذا الجنس فى الوجد كثيرة .

وأما الحكماء فقال بعضهم : فى القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظهرت سرت وطربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر ، وقال بعضهم نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأى

واستجلاب العازب من الأفكار ، وحدة الكال من الأفهام والآراء حتى يثوب ماعزب وينهض ماعجز ، ويصفو ما كدر ، ويمرح فى كل رأى ونية ، فيصيب ولا يخطىء ، ويأتى ولا يبطىء ، وقال آخر . كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم ، فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحانى ، وقال بعضهم : وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات ، فقال : ذلك عشق عقلى ، والعاشق العقلى لايحتاج إلى أن يناغى معشوقه بالمنطق الجرمى ، بل يناغيه ويناجيه بالتبسم ، واللحظ ، والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة ، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية ، وأما العاشق البهيمى ، فإنه يستعمل المنطق الجرمى ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف ، وعشقه الزائف ، وقال آخر من حزن فليسمع الألحان ، فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها ، وإذا فرحت اشتعل نورها ، وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل ، وذلك بقدر صفائه ونقائه من الغش والدنس

والأقاويل المقررة فى السماع والوجد كثيرة ، ولا معنى للاستكثار من إيرادها ، فلنشتغل بتفهيم المعنى الذى الوجد عبارة عنه فنقول : إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع ، وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من نفسه ، وتلك الحالة لاتخلو عن قسمين ، فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات ، هى من قبيل العلوم والتنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم ، بل هى كالشوق والخوف ، والحزن والقلق ، والسرور والأسف ، والندم والبسط والقبض ، وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها ، فإن ضعف بحيث لم يؤثر فى تحريك الظاهر ، أو تسكينه ، أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته ، أو يطرق أو يسكن عن النظر ، والنطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا وإن ظهر على الظاهر سمى وجدا ، إما ضعيفا ، وإما قويا ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده ، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه ، فقد يقوى الوجد فى الباطن ، ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه ، وقد لايظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك ، وحل عقد التماسك ، وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابى حيث قال فى الوجد : إنه مشاهدة الرقيب ، وحضور الفهم

وملاحظة الغيب ، ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف ما لم يكن مكشوفا قبله فإن الكشف يحصل بأسباب

منها التنبيه والسماع منبه

ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها ، فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورود

ومنها صفاء القلب ، والسماع يؤثر فى تصفية القلب ، والصفاء يسبب الكشف

ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع ، فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته ، كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله ، وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملكوت ، كما أن عمل البعير حمل الأثقال

فبواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف بل القلب إذا صفا ، ربما يتمثل له الحق فى صورة مشاهدة ، أو فى لفظ منظوم يقرع سمعه ، يعبر عنه بصوت الهاتف ، إذا كان فى اليقظة ، وبالرؤيا إذا كان فى المنام ، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة

وعلمُ تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة ، وذلك كما روى عن محمد بن مسروق البغدادى أنه قال : خرجت ليلة فى أيام جاهلتي وأنا نشوان ، وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به ألا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفى جهنم ماء ما تجرعه خلق فأبقى له فى الجوف إمعاء

قال فكان ذلك سبب توبتى ، واشتغالى بالعلم والعبادة ، فانظر كيف أثر الغناء فى تصفية قلبه ، حتى تمثل له حقيقة الحق فى صفة جهنم فى لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر

وروى عن مسلم العبادانى أنه قال : قدم علينا مرة صالح المرى ، وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ، ومسلم الأسوارى ، فنزلوا على الساحل قال فهيأت لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجاءوا ، فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت :

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيها غير نافع

قال : فصاح عتبة الغلام صيحة ، وخر مغشيا عليه ، وبقى القوم فرفعت الطعام ، وما ذاقوا والله منه لقمة ؛ وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضا بالبصر صورة الخضر عليه السلام ، فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة ، وفى مثل هذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام ، إما على حقيقة صورتها ، وأما على مثال يحاكى صورتها بعض المحاكاة وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] جبريل عليه السلام مرتين فى صورته ، وأخبر عنه بأنه سد الأفق وهو المراد بقوله تعالى (عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَى [١]) إلى آخر هذه الآيات .

وفى مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب ، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفرس ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] « اتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ »

وقد حكى أن رجلا من المجوس ، كان يدور على المسلمين ويقول : ما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « اتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ » فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك ، حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية ، فسأله فقال له معناه : أن تقطع الزنار الذى على وسطك تحت ثوبك ، فقال صدقت هذا معناه وأسلم ، وقال الآن عرفت أنك مؤمن ، وأن إيمانك حق

وكما حكى عن إبراهيم الخواص ، قال كنت ببغداد فى جماعة من الفقراء فى الجامع ، فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه ، فقلت لأصحابى يقع لى أنه يهودى ، فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم ، وقال أى شىء قال الشيخ فىّ ، فاحتشموه فألح عليهم ، فقالوا له : قال إنك يهودى ، قال فجاءنى وأكب على يدى ، وقبل رأسى وأسلم وقال نجد فى كتبنا أن الصديق لا تخطىء فراسته ، فقلت أمتحن المسلمين فتأملتهم ، فقلت إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة ، لأنهم يقولون حديثه سبحانه ، ويقرؤن كلامه فلبست عليكم ، فلما اطلع على الشيخ وتفرس فىّ علمت أنه صديق ، قال وصار الشاب من كبار الصوفية

---

(١) حديث رأى جبريل عليه السلام مرتين فى صورته فأخبر أنه سد الأفق : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى : الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حديث غريب

(١) النجم : ٥ ، ٦ ، ٧

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام [1] « لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ » وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة ، فإنها مرعى الشيطان وجنده ، ومن خلّص قلبه من تلك الصفات وصفّاه ، لم يطف الشيطان حول قلبه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1]) وبقوله تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ [2]) والسماع سبب لصفاء القلب ، وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء ، وعلى هذا يدل ماروي أن ذا النون المصري رحمه الله دخل بغداد ، فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال ، فاستأذنوه فى أن يقول لهم شيئا فأذن لهم فى ذلك فأنشأ يقول ·

صغير هواك عذبنى   فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت فى قلبي   هوى قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئب   إذا أضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر ، فقال ذو النون الذى يراك حين تقوم ، فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذى النون على قلبه أنه متكلف متواجد فعرّفه أن الذى يراه حين يقوم هو الخصم فى قيامه لغير الله تعالى ، ولو كان الرجل صادقا لما جلس فإذا قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات

واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى مايمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه ، وإلى مالا تمكن العبارة عنه أصلا ، ولعلك تستبعد حالة أو علما لا تعلم حقيقته ، ولا يمكن التعبير عن حقيقته ، فلا تستبعد ذلك ، فإنك تجد فى أحوالك القريبة لذلك شواهد

أما العلم : فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان فى الصورة ، ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا فى الحكم ، وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس فيدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه ، وإدراكه الفرق

---

(١) حديث لولا ان الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا إلي ملكوت السماء: تقدم فى الصوم

(١) الحجر : ٤٠ ، ٤٢

علم يصادفه فى قلبه بالذوق ، ولا يشك فى أن لوقوعه فى قلبه سببا ، وله عند الله تعالى حقيقة ، ولا يمكنه الإخبار عنه لالقصور فى لسانه ، بل لدقة المعنى فى نفسه عن أن تناله العبارة ، وهذا مما قد تفطن له المواظبون على النظر فى المشكلات

وأما الحال : فكم من إنسان يدرك فى قلبه فى الوقت الذى يصبح فيه قبضاً أو بسطاً ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر إنسان فى شىء فيؤثر فى نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ، ويبقى الأثر فى نفسه وهو يحس به ، وقد تكون الحالة التى يحسها سرورا ثبت فى نفسه، بتفكره فى سبب موجب للسرور ، أو حزنا فينسى المتفكَّر فيه ، ويحس بالأثر عقيبه ، وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لايعرب عنها لفظ السرور والحزن : ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن المقصود ، بل ذوق الشعر الموزون، والفرق بينه وبين غير الموزون تختص به بعض الناس دون بعض ، وهى حالة يدركها صاحب الذوق ، بحيث لايشك فيها ، أعنى التفرقة بين الموزون والمزحف ، فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده به لمن لاذوق له ، وفى النفس أحوال غريبة هذا وصفها ، بل المعانى المشهورة من الخوف والحزن والسرور ، إنما تحصل فى السماع عن غناء مفهوم ، وأما الأوتار وسائر النغمات التى ليست مفهومة ، فإنها تؤثر فى النفس تأثيرا عجيبا ، ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار ، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوقٌ لايعرف صاحبه المشتاقَ إليه فهو عجيب ، والذى اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين وما أشبهه ، ليس يدرى إلى ماذا يشتاق ويجد فى نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدرى ما هو ، حتى يقع ذلك للعوام ، ومن لا يغلب على قلبه لا حب آدمي ولا حب الله تعالى ، وهذا له سر ، وهو أن كل شوق فله ركنان

أحدهما : صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه

والثانى : معرفة المشتاق إليه، ومعرفة صورة الوصول إليه ، فإن وجدت الصفة التى بها الشوق ، ووجد العلم بصورة المشتاق إليه ، كان الأمر ظاهرا ، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها ، أورث ذلك دهشة وحيرة لامحالة، ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ، ولا عرف صورة الوقاع، ثم راهق الحلم

وغلبت عليه الشهوة ، لكان يحس من نفسه بنار الشهوة ، ولكن لا يدرى أنه يشتاق إلى الوقاع ، لأنه ليس يدرى صورة الوقاع ، ولا يعرف صورة النساء ، فكذلك فى نفس الآدمى مناسبة مع العالم الأعلى ، واللذات التى وُعد بها فى سدرة المنتهى ، والفراديس العلا إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء ، كالذى سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ، ولا صورة رجل ، ولا صورة نفسه فى المرآة ليعرف بالمقايسة فالسماع يحرك منه الشوق . والجهل المفرط ، والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه، وأنساه ربه وأنساه مستقره الذى إليه حنينه واشتياقه بالطبع ، فيتقاضاه قلبه أمرا ليس يدرى ماهو فيدهش ويتحير ويضطرب ، ويكون كالمختنق الذى لا يعرف طريق الخلاص

فهذا وأمثاله من الأحوال التى لايدرك تمام حقائقها . ولايمكن المتصف بها أن يعبر عنها ، فقد ظهر انقسام الوجد إلى مايمكن إظهاره ، وإلى مالايمكن إظهاره

واعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هاجم ، وإلى متكلف ويسمى التواجد ، وهذا التواجد المتكلف ، فمنه مذموم ، وهو الذى يقصد به الرياء ، وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ، ومنه ما هو محمود ، وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة

ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] من لم يحضره البكاء فى قراءة القرءان أن يتباكى ويتحازن ، فإن هذه الأحوال قد تتكلف مباديها ، ثم تتحقق أواخرها ، وكيف لايكون التكلف سببا فى أن يصير المتكلف فى الآخرة طبعا ، وكل من يتعلم القرءان أولا يحفظه تكلفا ، ويقرؤه تكلفا مع تمام التأمل ، وإحضار الذهن ، ثم يصير ذلك ديدنا للسان مطرداً ، حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل ، فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ، ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته، وكذلك الكاتب يكتب فى الابتداء بجهد شديد ، ثم تتمرن على الكتابة يده ، فيصير الكتب له طبعا، فيكتب أوراقا كثيرة ، وهو مستغرق القلب بفكر آخر ، فجميع ما تحتمله النفس والجوارح

---

(١) حديث البكاء عند قراءة القرءان فان لم تبكوا فتباكوا : تقدم فى تلاوة القرءان فى الباب الثانى :

من الصفات ، لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولا ، ثم يصير بالعادة طبعا وهو المراد بقول بعضهم . العادة طبيعة خامسة ، فكذلك الأحوال الشريفة لاينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها ، بل ينبغى أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره ، فلقد شوهد فى العادات من اشتهى أن يعشق شخصا ولم يكن يعشقه ، فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ، ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة ، والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخا خرج عن حد اختياره فاشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص ، فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه ، والخوف من سخطه ، وغير ذلك من الأحوال الشريفة ، إذا فقدها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم ، وتحسين صفاتهم فى النفس ، وبالجلوس معهم فى السماع ، وبالدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، فى أن يرزقه تلك الحالة بأن ييسر له أسبابها ، ومن أسبابها السماع ، ومجالسة الصالحين ، والخائفين ، والمحسنين ، والمشتاقين ، والخاشعين ، فمن جالس شخصا سرت إليه صفاته من حيث لايدرى ، ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فى دعائه « اَللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ » فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء فى طلب الحب

فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات ، وإلى أحوال ، وانقسامه إلى مايمكن الإفصاح عنه ، وإلى مالا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلف ، وإلى المطبوع

فإن قلت : فما بال هؤلاء لايظهر وجدهم عند سماع القرءان ، وهو كلام الله ، ويظهر عند الغناء ، وهو كلام الشعراء ، فلو كان ذلك حقا من لطف الله تعالى ، ولم يكن باطلا من غرور الشيطان ، لكان القرءان أولى به من الغناء

فنقول : الوجد الحق هو ماينشأ من فرط حب الله تعالى ، وصدق إرادته ، والشوق إلى لقائه وذلك يهيج بسماع القرءان أيضا وإنما الذى لايهيج بسماع القرءان حب الخلق وعشق المخلوق

---

(١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ـ الحديث : تقدم فى الدعوات

ويدل على ذلك قوله تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[١]) وقوله تعالى (مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ[٢]) وكل مايوجد عقيب السماع بسبب السماع فى النفس فهو وجد ، فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب ، كل ذلك وجد ، وقد قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ[٣])وقال تعالى:(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ[٤]) فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال ، وإن لم يكن من قبيل المكاشفات، ولكن قديصير سببا للمكاشفات والتنبيهات ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم[٢] « زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » وقال لأبى موسى الأشعرى[٣] « لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ »

وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرءان فكثيرة فقوله صلى الله عليه وسلم[٤] « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » خبر عن الوجد ،فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف ، وذلك وجد ، وروى أن ابن مسعود رضي الله عنه ، قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] سورة النساء فلما انتهى إلى قوله تعالى (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا[٥]) قال: «حَسْبُكَ» وكانت عيناه تذرفان بالدموع وفى رواية أنه عليه السلام قرأ هذه الآية، أو قرىء عنده[٦] (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا[٦]) فصعق، وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم[٧] قرأ (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ[٧]) فبكى

(٢) حديث زينوا القرآن بأصواتكم: تقدم فى تلاوة القرءان

(٣) حديث لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داوذ : قاله لأبى موسى تقدم فيه

(٤) حديث شيبتنى هود وأخواتها : الترمذى من حديث أبى جحيفة وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذى حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى

(٥) حديث ان ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك ـ الحديث : متفق عليه من حديثه

(٦) حديث أنه قرىء عنده (إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) فصعق : ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى الشعب من طريقه من حديث أبى حرب بن أبى الاسود مرسلا

(٧) حديث انه قرأ (إن تعذبهم فانهم عبادك) فبكي : مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

(١) الرعد : ٢٨ (٢) الزمر: ٢٣ (٣) الأنفال: ٢ (٤) الحشر : ٢١ (٥) النساء : ٤١ (٦) المزمل: ١٢، ١٣

(٧) المائدة : ١١٨

وكان عليه السلام[1] إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر، والاستبشار وجد، وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرءان، فقال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ[1]) وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل

وأما مانقل من الوجد بالقرءان عن الصحابه رضي الله عنهم، والتابعين فكثير، فمنهم من صعق، ومنهم من بكى، ومنهم من غشي عليه، ومنهم من مات فى غشيته، وروى أن زرارة بن أبى أوفى، وكان من التابعين، كان يؤم الناس بالرقة، فقرأ (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ[2]) فصعق ومات فى محرابه رحمه الله

وسمع عمر رضي الله عنه رجلا يقرأ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ[3]) فصاح صيحة وخر مغشيا عليه، فحمل إلى بيته فلم يزل مريضا فى بيته شهرا، وأبو جرير من التابعين قرأ عليه صالح المرى، فشهق ومات. وسمع الشافعي رحمه الله قارئا يقرأ (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ[4]) فغشى عليه، وسمع على بن الفضيل قارئا يقرأ (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[5]) فسقط مغشيا عليه، فقال الفضيل : شكر الله لك، ماقد علمه منك وكذلك نقل عن جماعة منهم وكذلك الصوفية، فقد كان الشبلى فى مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف إمام له فقرأ الإمام (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ[6]) فزعق الشبلى زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه، واحمر وجهه، وارتعدت فرائصه، وكان يقوم بمثل هذا يخاطب الأحباب يردد ذلك مرارا . وقال الجنيد : دخلت على سري السقطى، فرأيت بين يديه رجلا قد غشي عليه، فقال لى هذا رجل قد سمع آية من القرءان فغشى عليه فقلت اقرؤا عليه تلك الآية بعينها، فقرئت فأفاق، فقال : من أين قلت هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماه من أجل مخلوق، فبمخلوق أبصر، ولو كان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق، فاستحسن ذلك ويشير إلى ماقاله الجنيد قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة … وأخرى تداويت منها بها

---

(١) حديث كان إذا مر بآية رحمة دعا واستبشر : تقدم فى تلاوة القرءان دون قوله واستبشر
(٢) حديث انه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل : أبو داود والنسائي والترمذي فى الشمائل من حديث عبدالله بن الشخير وقد تقدم

(١) المائدة : ٨٣ (٢) المدثر : ٨ (٣) الطور : ٧ (٤) المرسلات : ٣٥ ؛ ٣٦ (٥) التطفيف : ٦ (٦) الاسراء : ٨٦.

وقال بعض الصوفية : كنت أقرأ ليلة هذه الآية (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [١]) فجعلت أرددها ، فإذا هاتف يهتف بى ، كم تردد هذه الآية ، فقد قتلت أربعة من الجن ما رفعوا رءوسهم إلى السماء منذ خلقوا

وقال أبو على المغازلى للشبلى ، ربما تطرق سمعى آية من كتاب الله تعالى ، فتجذبنى إلى الإعراض عن الدنيا ، ثم أرجع إلى أحوالى ، وإلى الناس فلا أبقى على ذلك ، فقال ما طرق سمعك من القرءان فاجتذبك به إليه ، فذلك عطف منه عليك ، ولطف منه بك ، وإذا ردك إلى نفسك ، فهو شفقة منه عليك ، فإنه لا يصلح لك إلا التبرى من الحول والقوة فى التوجه إليه

وسمع رجل من أهل التصوف قارئا يقرأ (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً [٢]) فاستعادها من القارىء ، وقال كم أقول لها ارجعى ، وليست ترجع وتواجد ، وزعق زعقة فخرجت روحه وسمع بكر بن معاذ قارئا يقرأ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ [٣]) الآية فاضطرب ، ثم صاح ارحم من أنذرته ، ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك ثم غشي عليه ، وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، إذا سمع أحدا يقرأ (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ [٤]) اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد ، وعن محمد بن صبيح ، قال كان رجل يغتسل فى الفرات فمر به رجل على الشاطىء يقرأ (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ [٥]) فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات

وذكر أن سلمان الفارسى أبصر شابا يقرأ ، فأتى على آية فاقشعر جلده ، فأحبه سلمان وفقده فسأل عنه ، فقيل له إنه مريض ، فأتاه يعوده ، فإذا هو فى الموت ، فقال يا عبد الله أرأيت تلك القشعريرة التى كانت بى ، فإنها أتتنى فى أحسن صورة ، فأخبرتنى أن الله قد غفر لى بها كل ذنب

وبالجملة لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرءان ، فإن كان القرءان لا يؤثر فيه أصلا ، فمثله كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها ، قال جعفر الخلدى : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة ، فقال للجنيد متى يستوى عند العبد حامده وذامه فقال بعض الشيوخ : إذا دخل البيمارستان وقيد بقيدين ، فقال الجنيد : ليس هذا من شأنك ثم أقبل على الرجل ، وقال إذا تحقق أنه مخلوق فشهق الرجل شهقة ومات

---

(١) آل عمران : ١٨٥ (٢) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ (٣) غافر : ١٨ (٤) الانشقاق : ١ (٥) يس : ٥٩

فإن قلت : فإن كان سماع القرءان مفيداً للوجد ، فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئين ، فكان ينبغى أن يكون اجتماعهم وتواجدهم فى حلق القراء لا حلق المغنين ، وكان ينبغى أن يطلب عند كل اجتماع فى كل دعوة قارىء لا قوال ، فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالة .

فاعلم أن الغناء أشد تهييجا للوجد من القرءان من سبعة أوجه

الوجه الأول : أن جميع آيات القرءان لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له ، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم ، فمن أين يناسب حاله قوله تعالى : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ [١]) وقوله تعالى :(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ [٢]) وكذلك جميع الآيات التى فيها بيان أحكام الميراث ، والطلاق والحدود ، وغيرها ، وإنما المحرك لما فى القلب ما يناسبه ، والأبيات إنما يضعها الشعراء إعرابا بها عن أحوال القلب ، فلا يحتاج فى فهم الحال منها إلى تكلف ، نعم من يستولى عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعا لغيرها ، ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعانى البعيدة من الألفاظ ، فقد يخرج وجده على كل مسموع ، كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ) حالة الموت المحوج إلى الوصية ، وأن كل إنسان لا بد أن يخلف ماله وولده ، وهما محبوباه من الدنيا فيترك أحد المحبوبين للثانى ويهجرهما جميعا ، فيغلب عليه الخوف والجزع ، أو يسمع ذكر الله فى قوله (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ) فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده ، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته ، بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه نظراً لهم فى حياتهم وموتهم ، فيقول : إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا ، فيهيج منه حال الرجاء ويورثه ذلك ، استبشاراً وسروراً ، أو يخطر له من قوله تعالى : (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) تفضيل الذكر بكونه رجلا على الأنثى ، وأن الفضل فى الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقا ، فيخشى أن يحجب أو يؤخر فى نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى فى أموال الدنيا ، فأمثال هذا قد يحرك الوجد ولكن لمن فيه وصفان :

(١) النساء : ١١ (٢) النور : ٤

أحدهما : حالة غالبة مستغرقة قاهرة ، والآخر : تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل ،للتنبيه بالأمور القريبة على المعانى البعيدة ، وذلك مما يعز فلأجل ذلك يفزع إلى الغناء الذى هو ألفاظ مناسبة للأحوال ، حتى يتسارع هيجانها ، وروى أن أبا الحسين النورى كان مع جماعة فى دعوى فجرى بينهم مسألة فى العلم ، وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه ، وأنشدهم :

رب ورقاء هتوف فى الضحى ... ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفاً ودهراً صالحا ... وبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها ... وبكاها ربما أرقنى
ولقد أشكو فما أفهمها ... ولقد تشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها ... وهي أيضا بالجوى تعرفنى

قال فما بقى أحد من القوم إلا قام وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذى خاضوا فيه ، وإن كان العلم جدًا وحقاً

الوجه الثانى : أن القرءان محفوظ للأكثرين ، ومتكرر على الأسماع والقلوب ، وكلما سمع أولا عظم أثره فى القلوب وفى الكرة الثانية يضعف أثره ، وفى الثالثة يكاد يسقط أثره ، ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام ، فى مرات متقاربة فى الزمان ، فى يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك ، ولو أبدل ببيت آخر لتجدد له أثر فى قلبه ، وإن كان معربا عن عين ذلك المعنى ، ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأول يحرك النفس ، وإن كان المعنى واحداً وليس يقدر القارىء على أن يقرأ قرءانا غريبا فى كل وقت ، ودعوة ، فإن القرءان محصور لا يمكن الزيادة عليه ، وكله محفوظ متكرر

وإلى ماذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه ، حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرءان ويبكون ، فقال : كنا كما كنتم ، ولكن قست قلوبنا ، ولا تظنن أن قلب الصدّيق رضي الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب ، وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه ، وقلة التأثر به ، لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه ، إذ محال فى العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكى ، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ثم يرددها ويبكى ولا يفارق الأول الآخر

إلا فى كونه غريبا جديدا ، ولكل جديد لذة ، ولكل طارىء صدمة ، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة ، ولذا هم عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت ، أى يأنسوا به ، ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا بكى وزعق وربما غشى عليه إذ وقع عليه بصره وقد يقيم بمكة شهرا ، ولا يحس من ذلك فى نفسه بأثر ، فإذاً المغنى يقدر على الأبيات الغريبة فى كل وقت، ولا يقدر فى كل وقت على آية غريبة

الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيرا فى النفس ، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذى ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن فى الشعر دون الآيات ولو زحف المغنى البيت الذى ينشده ، أو لحن فيه ، أو مال عن حد تلك الطريقة فى اللحن لاضطرب قلب المستمع ، وبطل وجده وسماعه ، ونفر طبعه لعدم المناسبة، وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش ، فالوزن إذاً مؤثر ، فلذلك طاب الشعر

الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره فى النفس بالألحان التى تسمى الطرق والدستانات . وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر الممدود ، والوقف فى أثناء الكلمات ، والقطع والوصل فى بعضها ، وهذا التصرف جائز فى الشعر، ولا يجوز فى القرءان إلا التلاوة كما أنزل، فقصره ومده والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام أو مكروه ، وإذا رتل القرءان كما أنزل سقط عنه الأثر الذى سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير ، وإن لم يكن مفهوما كما فى الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التى لا تفهم

الوجه الخامس : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره ، لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوي ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ فى التأثير ، وواجب أن يصان القرءان عن مثل هذه القرائن ، لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب والقرءان جد كله عند كافة الخلق ، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصة ، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو ، بل ينبغى أن يوقر القرءان فلا يقرأ على شوارع الطرق ، بل فى مجلس ساكن ، ولا فى حال الجنابة ولا على غير طهارة ، ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرءان فى كل حال ، إلا المراقبون لأحوالهم.

فيعدل إلى الغناء الذى لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة ، ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرءان ليلة العرس ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بضرب الدف في العرس ، فقال « أَظْهِرُوا النِّكَاحَ وَلَوْ بِضَرْبِ الْغِرْبَالِ » أو بلفظ هذا معناه وذلك جائز مع الشعر دون القرءان ، ولذلك لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] بيت الربيع بنت معوذ ، وعندها جوار يغنين ، فسمع إحداهن تقول : وفينا نبي يعلم ما فى غد ، على وجه الغناء ، فقال صلى الله عليه وسلم « دَعِى هَذَا وَقُولِى مَا كُنْتِ تَقُولِينَ » وهذه شهادة بالنبوة ، فزجرها عنها وردها إلى الغناء الذى هو لهو ، لأن هذا جد محض ، فلا يقرن بصورة اللهو ، فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسباب التى بها يصير السماع محركا للقلب فواجب فى الاحترام العدول إلى الغناء عن القرءان ، كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء

الوجه السادس : أن المغنى قد يغنى ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه ، وينهاه عنه ويستدعى غيره ، فليس كل كلام موافقا لكل حال ، فلو اجتمعوا فى الدعوات على القارىء فربما يقرأ آية لا توافق حالهم ، إذ القرءان شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال ، فآيات الرحمة شفاء الخائف ، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن ، وتفصيل ذلك مما يطول ، فإذا لا يؤمن أن لا يوافق المقروء الحال ، وتكرهه النفس ، فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلا إلى دفعه ، فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله ، ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى ، وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ، ففيه خطر الكراهة . أو خطر التأويل الخطأ ، لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك ، هذا ما ينقدح لى فى علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرءان

وههنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسى فى الاعتذار عن ذلك ، فقال : القرءان كلام الله وصفة من صفاته ، وهو حق لا تطيقه البشرية ، لأنه غير مخلوق . فلا تطيقه الصفات المخلوقة ، ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحيرت ، والألحان

---

(١) حديث الأمر بضرب الدف فى العرس : تقدم فى النكاح

(٢) حديث دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يغنين ـ الحديث البخارى من حديثها وقد تقدم فى النكاح

الطيبة مناسبة للطباع ، ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، والشعر نسبته نسبة الحظوظ فإذا علقت الألحان والأصوات بما فى الأبيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضا ، كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب ، لمشاكلة المخلوق المخلوق ، فما دامت البشرية باقية ، ونحن بصفاتنا وحظوظنا تتنعم بالنغمات الشجية، والأصوات الطيبة ، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى ، الذى هو صفته وكلامه ، الذى منه بدأ وإليه يعود ، هذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره

وقد حكي عن أبى الحسن الدرّاج أنه قال : قصدت يوسف بن الحسين الرازى من بغداد للزيارة والسلام عليه ، فلما دخلت الريّ كنت أسأل عنه ، فكل من سألته عنه قال أيش تعمل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف ، ثم قلت فى نفسى قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه، فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه فى مسجد وهو قاعد فى المحراب ، وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ ، فإذا هو شيخ بهيّ حسن الوجه واللحية ، فسلمت عليه ، فأقبل عليّ وقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من بغداد فقال : وما الذى جاء بك ؟ فقلت : قصدتك للسلام عليك، فقال : لو أن فى بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشترى لك دارا أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجيء؟ فقلت: ما امتحننى الله بشيء من ذلك ، ولو امتحننى ما كنت أدرى كيف أكون ، ثم قال لى أتحسن أن تقول شيئا ؟ فقلت نعم . فقال : هات فانشأت أقول

رأيتك تبنى دائما فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى
كأنى بكم والليت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغنى

قال : فأطبق المصحف ، ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال يا بنيّ تلوم أهل الريّ يقولون : يوسف زنديق ، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ فى المصحف لم تقطر من عينى قطرة ، وقد قامت القيامة على لهذين البيتين، فإذا القلوب وإن كانت محترقة فى حب الله تعالى ، فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرءان وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ، ولكونه مشاكلا للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر ، وأما القرءان فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه ، وهو لذلك معجز لا يدخل فى قوة البشر ، لعدم مشاكلته لطبعه

وروي أن إسرافيل أستاذ ذى النون المصرى ، دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت فى الأرض بأصبعه ويترنم ببيت ، فقال : هل تحسن أن تترنم بشيء ؟ فقال: لا، قال: فأنت بلا قلب ، إشارة إلى أن من له قلب ، وعرف طباعه ، علم أنه تحركه الأبيات والنغمات تحريكا لا يصادف فى غيرها ، فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره.

وقد ذكرنا حكم المقام الأول فى فهم المسموع وتنزيله ، وحكم المقام الثانى فى الوجد الذى يصادف فى القلب ، فلنذكر الآن أثر الوجد أعنى مايترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء ، وحركة ، وتمزيق ثوب وغيره فنقول :

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا، وما يحمد من آثار الوجد وما يذم، فأما الآداب فهى خمس جمل

الأول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان ، قال الجنيد السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع ، الزمان ، والمكان، والإخوان، ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعام أو خصام ، أو صلاة، أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه ، فهذا معنى مراعاة الزمان ، فيراعى حالة فراغ القلب له ، وأما المكان : فقد يكون شارعا مطروقا ، أو موضعا كريه الصورة ، أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك ، وأما الإخوان: فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهد الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستثقلا فى المجلس واشتغل القلب به ، وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرائى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوشات ، فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى ، ففى هذه الشروط نظر للمستمع

الأدب الثانى: هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم ، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر ، والمريد الذى يستضر بالسماع أحد ثلاثة

أقلهم درجة هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه ، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ، ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع ، فليشتغل بذكر أو خدمة ، وإلا فهو تضييع لزمانه

الثانى : هو الذى له ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ، ولم ينكسر بعدُ انكسارا تؤمن غوائله ، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة ، فيقطع عليه طريقه ، ويصده عن الاستكمال

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته ، وأمنت غائلته، وانفتحت بصيرته، واستولى على قلبه حب الله تعالى ، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ، ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل ، فإذا فتح له باب السماع نزّل المسموع فى حق الله تعالى على مايجوز وما لايجوز ، فيكون ضرره من تلك الخواطر التى هى كفر أعظم من نفع السماع

قال سهل رحمه الله : كل وجد لايشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، فلايصلح السماع لمثل هذا ، ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا ، وحب المحمدة والثناء ، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع ، فيصير ذلك عادة له ، ويشغله ذلك عن عباداته، ومراعاة قلبه، وينقطع عليه طريقه ، فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه

قال الجنيد : رأيت إبليس فى النوم ، فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشىء ؟ قال : نعم فى وقتين ، وقت السماع ، ووقت النظر ، فإنى أدخل عليهم به ، فقال بعض الشيوخ لو رأيته أنا لقلت له ما أحمقك، من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر ، كيف تظفر به؟ فقال الجنيد: صدقت

الأدب الثالث : أن يكون مصغيا إلى مايقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرزا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه ، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته فى سره ، متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم ، بل يكون ساكن الظاهر هادىء الأطراف ، متحفظا عن التنحنح والتثاؤب ، ويجلس مطرقا رأسه ، كجلوسه فى فكر مستغرق لقلبه ، متماسكا عن التصفيق والرقص ، وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراآة ، ساكتا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بد ، فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم ، ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه ، ولا ينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال انقطع وجده على القرب ، ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال هو قاسى القلب عديم الصفاء والرقة

حكي أن شابا كان يصحب الجنيد، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق، فقال له الجنيد يوما إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني، فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء ولا يزعق، فحكي أنه اختنق يوما لشدة ضبطه لنفسه، فشهق شهقة فانشق قلبه وتلفت نفسه

وروي أن موسى عليه السلام قص فى بنى اسرائيل فزق واحد منهم ثوبه أو قميصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، قل له مزق لى قلبك ولا تمزق ثوبك ، قال أبو القاسم النصراباذى لأبى عمرو بن عبيد ، أنا أقول إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خير لهم من أن يغتابوا ، فقال أبو عمرو الرياء فى السماع ، وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة ، أو نحو ذلك

فإن قلت : الأفضل هو الذى لا يحركه السماع ولا يؤثر فى ظاهره ، أو الذى يظهر عليه

فاعلم : أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان ، وتارة يكون مع قوة الوجد فى الباطن ، ولكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح ، فهو كمال ، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا فى الأحوال كلها ، فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال ، فإن صاحب الوجد فى غالب الأحوال لا يدوم وجده ، فمن هو فى وجد دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود ، فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ، ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضي الله عنه ، كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا ، معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد فى كل الأحوال ، فنحن فى سماع معانى القرءان على الدوام ، فلا يكون القرءان جديدا فى حقنا طارئا علينا حتى نتأثر به ، فإذاً قوة الوجد تحرك ، وقوة العقل والتماسك تضبط الظاهر ، وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدة قوته ، وإما لضعف مايقابله ، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك ، فلا تظنن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجدا من الساكن باضطرابه ، بل رب ساكن أتم وجدا من المضطرب ، فقد كان الجنيد يتحرك فى السماع فى بدايته ثم صار لا يتحرك ، فقيل له فى ذلك فقال (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ[1]) إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل فى الملكوت والجوارح متأدبة فى الظاهر ساكنة

(١) النمل : ٨٨

وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة ، صحبت سهل بن عبد الله ستين سنة ، فما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر أو القرءان ، فلما كان فى آخر عمره قرأ رجل بين يديه (فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ[1]) الآية ، فرأيته قد ارتعد وكاد يسقط ، فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك ، فقال نعم ياحبيبي قد ضعفنا ، وكذلك سمع مرة قوله تعالى(ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ[2]) فاضطرب فسأله ابن سالم وكان من أصحابه ، فقال قد ضعفت فقيل له ، فإن كان هذا من الضعف فما قوة الحال ، فقال : أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية ، وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود ، كما حكي عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال : حالتى قبل الصلاة وبعدها واحدة ، لأنه كان مراعيا للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى فى كل حال فكذلك يكون قبل السماع وبعده ، إذ يكون وجده دائما ، وعطشه متصلا ، وشربه مستمرا بحيث لايؤثر السماع فى زيادته ، كما روي أن ممشاد الدينورى أشرف على جماعة فيهم قوال فسكتوا ، فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلو جمعت ملاهى الدنيا فى أذنى ماشغل همى ولاشفي بعض ما بي

وقال الجنيد رحمه الله تعالى لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم . وفضل العلم أتم من فضل الوجد

فإن قلت : فمثل هذا لم يحضر السماع

فاعلم : أن من هؤلاء من ترك السماع فى كبره ، وكان لا يحضر إلا نادرا لمساعدة أخ من الإخوان ، وإدخالا للسرور على قلبه وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته ، فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ، فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف ، وإن لم يقدروا على الاقتداء به فى صيرورته طبعا لهم ، وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم ، فيكونون معهم بأبدانهم نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم ، كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم ، بأسباب عارضة تقتضى الجلوس معهم ، وبعضهم نقل عنه ترك السماع ، ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه ، وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحانى فى السماع ، ولا كان من أهل اللهو ، فتركه لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه ، وبعضهم تركه لفقد الإخوان قيل : لبعضهم لم لا تسمع ؟ فقال : ممن ومع من ؟

(١) الحديد : ١٥ (٢) الفرقان : ٢٦

الأدب الرابع . أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ، ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراآة ، لأن التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط ، فكل سرور مباح فيجوز تحريكه ، ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) وهم يزفنون هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات ، وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، أنهم حجلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ، وذلك في قصة ابنة حمزة(٢) لما اختصم فيها عليّ بن أبي طالب ، وأخوه جعفر ، وزيد بن حارثة رضي الله عنهم ، فتشاحوا في تربيتها ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلي « أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ » فحجل علي ، وقال لجعفر « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي » فحجل وراء حجل علي ، وقال لزيد « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا » فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال عليه السلام « هِيَ لِجَعْفَرَ » لأن خالتها تحته ، والخالة والدة وفي رواية أنه قال لعائشة رضي الله عنها « أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَى زَفْنِ الْحَبَشَةِ » والزفن والحجل هو الرقص ، وذلك يكون لفرح أو شوق ، فحكمه حكم مهيجه إن كان فرحه محمودا ، والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مذموما فهو مذموم

نعم لا يليق اعتياد ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة ، لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب ، وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به ، لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به ، وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه ، وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المكره ، إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه ، مع أنه فعل اختياري فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لاضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس ، فكذلك الزعقة وتمزيق

(١) حديث نظر عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون : تقدم في الباب قبله
(٢) حديث اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثه في ابنة حمزة فقال لعلي أنت مني وأنا منك فحجل وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلقي فحجل وقال لزيد أنت أخونا ومولانا فحجل ـ الحديث : أبو داود من حديث علي باسناد حسن وهو عند البخاري دون فحجل

الثياب ، قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم ، فقد ذكر عند السرى حديث الوجد الحادّ الغالب، فقال نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدرى، فروجع فيه، واستبعد أن ينتهى إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع، ومعناه أنه فى بعض الأحوال قد ينتهى إلى هذا الحد فى بعض الأشخاص

فإن قلت : فما تقول فى تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع ، فإنهم يمزقونها قطعا صغارا ويفرقونها على القوم ، ويسمونها الخرقة

فاعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعا لأنه تمزيق لغرض ، وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار ، وذلك مقصود ، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح ، ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ، ويعطيها لمائة مسكين ، ولكن ينبغى أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها فى الرقاع ، وإنما منعنا فى السماع التمزيق المفسد للثوب الذى يهلك بعضه ، بحيث لا يبقى منتفعا به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار

الأدب الخامس: موافقة القوم فى القيام إذا قام واحد منهم فى وجد صادق من غير رياء وتكلف، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة. فلا بد من الموافقة فذلك من آداب الصحبة، وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحيه العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته، أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق، فالموافقة فى هذه الأمور من حسن الصحبة والعشرة، إذ المخالفة موحشة ولكل قوم رسم، ولا بد من [1] مخالفة الناس بأخلاقهم، كما ورد فى الخبر، لا سيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة، وقول القائل إن ذلك بدعة لم يكن فى الصحابة فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة ، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا، والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم [2] فى بعض الأحوال كما رواه أنس رضي الله عنه، ولكن إذا لم يثبت فيه نهي عام فلا نرى به بأسا فى البلاد التى جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام ، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام ، وتطييب القلب به

---

(١) حديث مخالفة الناس بأخلاقهم : الحاكم من حديث أبى ذر خالقو الناس بأخلاقهم ـ الحديث : قال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث كانوا لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحوال: كما رواه أنس تقدم فى آداب الصحبة

وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطييب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها ، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهى لا يقبل التأويل ، ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه ، ولا يشوش عليهم أحوالهم ، إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذى يلوح للجمع منه أثر التكلف ، ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع ، فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محك للصدق والتكلف، سئل بعضهم عن الوجد الصحيح ، فقال ، صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد

فإن قلت : فما بال الطباع تنفر عن الرقص ، ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين ، فلا يراه ذو جد فى الدين إلا وينكره

فاعلم : أن الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رأى الحبشة يزفنون فى المسجد وما أنكره، لما كان فى وقت لائق به وهو العيد ومن شخص لائق به وهم الحبشة، نعم: نفرة الطباع عنه لأنه يُرى غالبا مقرونا باللهو واللعب، واللهو واللعب مباح، ولكن للعوام من الزنوج والحبشة ومن أشبههم ، وهو مكروه لذوى المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذى المنصب ، فلا يجوز أن يوصف بالتحريم ، فمن سأل فقيرا شيئا فأعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة، ولو سأل ملكا فأعطاه رغيفا أو رغيفين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ومكتوبا فى تواريخ الأخبار من جملة مساويه، ويعير به أعقابه وأشياعه ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام ، لأنه من حيث إنه أعطى خبزا للفقير حسن، ومن حيث إنه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبح ، فكذلك الرقص وما يجرى مجراه من المباحات، ومباحات العوام سيئات الأبرار ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب وأما إذا نظر إليه فى نفسه وجب الحكم بأنه هو فى نفسه لا تحريم فيه والله أعلم

فقد خرج من جملة التفصيل السابق : أن السماع قد يكون حراما محضا ، وقد يكون مباحا، وقد يكون مكروها، وقد يكون مستحبا، أما الحرام. فهو لأكثر الناس من الشبان، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو وأما المباح فهو لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن، وأما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحموده والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله؟

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء السابع

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت: ٣١٨١٠

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثانى من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لاتستفتح الكتب إلا بحمده ، ولاتستمنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفده والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده ، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده أما بعد: فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله ، لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لاتأخذه فى الله لومة لائم ، فمن سعى فى تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة . إما متكفلا بعملها ، أو متقلداً لتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضا بأعبائها ومتشمراً فى إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها ، وها نحن نشرح علمه فى أربعة أبواب :

الباب الأول : فى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته

الباب الثانى : فى أركانه وشروطه

الباب الثالث : فى مجاريه وبيان المنكرات المألوفة فى العادات

الباب الرابع : فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

الباب الأول

فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفضيلته والمذمة فى إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه، وإشارات العقول السليمة إليه الآيات، والأخبار، والآثار

أما الآيات: فقوله تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [1]) ففى الآية بيان الإيجاب ، فإن قوله تعالى (وَلْتَكُنْ) أمر وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حصر وقال (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وفيها بيان أنه فرض كفاية لافرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ) فإذاً مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لامحالة ، وقال تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [2]) فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر ، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ [3]) فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذى هجر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين فى هذه الآية وقال تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [4]) وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر، وقال عز وجل (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ [5]) وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) آل عمران: ١١٣ ، ١١٤ (٣) التوبة: ٧١ (٤) المائدة: ٧٨، ٧٩ (٥) آل عمران: ١١٠

والنهى عن المنكر ، إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس ، وقال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١)) فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهى عن السوء ، ويدل ذلك على الوجوب أيضا وقال تعالى : (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ (٢)) فقرن ذلك بالصلاة والزكاة فى نعت الصالحين والمؤمنين ، وقال تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (٣)) وهو أمر جزم ، ومعنى التعاون الحث عليه ، وتسهيل طرق الخير ، وسد سبل الشر ، والعدوان بحسب الإمكان وقال تعالى : (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٤)) فبين أنهم أثموا بترك النهى ، وقال تعالى (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ (٥)) الآية فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد ، وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ (٦)) وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين ، وقال تعالى (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧)) وقال تعالى (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا (٨)) الآية ، والإصلاح نهي عن البغي ، وإعادة إلى الطاعة ، فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله ، فقال (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ (٩)) وذلك هو النهى عن المنكر

وأما الأخبار : فمنها ماروي عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال فى خطبة خطبها(١) أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (١٠))

---

(١) حديث أبى بكر أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الحديث : أصحاب السنن وتقدم فى العزلة

---

(١) الأعراف : ١٦٥ (٢) الحج : ٤١ (٣) المائدة : ٢ (٤) المائدة : ٦٣ (٥) هود : ١١٦ (٦) النساء : ١٣٥
(٧) النساء : ١١٤ (٨) الحجرات : ٩ (١٠) المائدة : ١٠٥

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « مَا مِنْ قَوْمٍ عَمِلُوا بِالْمَعَاصِي وَفِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلْ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ »

وروي عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) عن تفسير قوله تعالى (لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (١)) فقال: « يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ مُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهَا بِمِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ » قيل. بل منهم يارسول الله؟ قال: « لَا بَلْ مِنْكُمْ لِأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا وَلَا يَجِدُونَ عَلَيْهِ أَعْوَانًا »

وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال: إن هذا ليس زمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ » معناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ يَقُولُ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ »

---

(١) حديث أبي ثعلبة أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) ـ الحديث: أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه

(٢) حديث لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم: البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف وللترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم قال هذا حديث حسن

(٣) حديث يا أيها الناس ان الله سبحانه يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعو فلا يستجاب لكم: أحمد والبيهقي من حديث عائشة بلفظ مروا وانهوا وهو عند ابن ماجه دون عزوه إلى كلام الله تعالى وفي اسناده لين

(١) المائدة: ١٠٥

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَا أَعْمَالُ الْبِرِّ عِنْدَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، وَمَا جَمِيعُ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام (٢) « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ ، فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ الْعَبْدَ حُجَّتَهُ قَالَ رَبِّ وَثِقْتُ بِكَ وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ قَالُوا مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا قَالَ فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا ذَلِكَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا ، قَالُوا وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « كَلَامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْخَاصَّةَ بِذُنُوبِ الْعَامَّةِ حَتَّى يُرَى الْمُنْكَرُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُونَهُ »

وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) أنه قال : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شُبَّانُكُمْ وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ » قالوا وإن ذلك لكائن يا رسول الله ؟ قال « نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ » قالوا وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ » قالوا وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال:

---

(١) حديث ما أعمال البر عند الجهاد فى سبيل الله إلا كنفثة فى بحر لجى : ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس مقتصرا على الشطر الاول من حديث جابر باسناد ضعيف وأما الشطر الاخير فرواه علي بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلا أو معضلا ولا ادرى من يحيى بن عطاء

(٢) حديث ان الله تعالى ليسأل العبد ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ـ الحديث : ابن ماجه وقد تقدم

(٣) حديث إياكم والجلوس على الطرقات ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي سعيد

(٤) حديث كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمرا بالمعروف ـ الحديث : تقدم فى العلم

(٥) حديث إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر ـ الحديث : أحمد من حديث عدى ابن عميرة وفيه من لم يسم والطبرانى من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه

(٦) حديث أبي أمامة كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وان ذلك كائن يارسول الله قال نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه ؟ قال كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ـ الحديث : ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف دون

« نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ » قالوا وما أشد منه ؟ قال « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً » قالوا وكائن ذلك يارسول الله ؟! قال « نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ » قالوا وما أشد منه ؟ قال « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ » قالوا وكائن ذلك يارسول الله؟! قال « نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ . يَقُولُ اللهُ تَعَالَى بِي حَلَفْتُ لَأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهَا حَيْرَانَ »

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَا تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يُقْتَلُ مَظْلُوماً فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ ، وَلَا تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يُضْرَبُ مَظْلُوماً فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ » قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « لَا يَنْبَغِي لِامْرِئٍ شَهِدَ مُقَاماً فِيهِ حَقٌّ إِلَّا تَكَلَّمَ بِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يُقَدِّمَ أَجَلَهُ وَلَنْ يَحْرِمَهُ رِزْقاً هُوَ لَهُ » .

وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ، ولا حضور المواضع التى يشاهد المنكر فيها ، ولا يقدر على تغييره ، فإنه قال اللعنة تنزل على من حضر ، ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذار بأنه عاجز ، ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات فى الأسواق ، والأعياد ، والمجامع ، وعجزهم عن التغيير ، وهذا يقتضى لزوم الهجر للخلق ، ولهذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ماساح السواح وخلوا دورهم وأولادهم ، إلا بمثل مانزل بنا ، حين رأوا الشر قد ظهر ، والخير قد اندرس ، ورأوا أنه لايقبل ممن تكلم ، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعتريهم : وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلايسلمون منه

قوله كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصرا على الاسئلة الثلاثة الأول وأجوبتها دون الأخيرين وإسناده ضعيف

(١) حديث عكرمة عن ابن عباس لاتقفن عند رجل يقتل مظلوما فان اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه : الطبرانى بسند ضعيف والبيهقى فى شعب الايمان بسند حسن

(٢) حديث لاينبغى لامرىء شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فانه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند الحديث الذى قبله وروى الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد لايمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه

فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم ، ثم قرأ (فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١)) قال ففر قوم فلولا ما جعل الله جل ثناؤه في النبوة من السر ، لقلنا ما هم بأفضل من هؤلاء ، فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام تتلقاهم وتصافحهم ، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه ، ويسألها أين أمرت فتخبره ، وليس بنبي

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ حَضَرَ مَعْصِيَةً فَكَرِهَهَا فَكَأَنَّهُ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَأَحَبَّهَا فَكَأَنَّهُ حَضَرَهَا » ومعنى الحديث أن يحضر لحاجة ، أو يتفق جريان ذلك بين يديه ، فأما الحضور قصدا فممنوع بدليل الحديث الأول

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا إِلَّا وَلَهُ حَوَارِيٌّ فَيَمْكُثُ النَّبِيُّ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى يَعْمَلُ فِيهِمْ بِكِتَابِ اللهِ وَبِأَمْرِهِ حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ مَكَثَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْمَلُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَبِأَمْرِهِ وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ فَإِذَا انْقَرَضُوا كَانَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ يَرْكَبُونَ رُءُوسَ الْمَنَابِرِ يَقُولُونَ مَا يَعْرِفُونَ وَيَعْمَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ جِهَادُهُمْ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ إِسْلَامٌ »

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كان أهل قرية يعملون بالمعاصي ، وكان فيهم أربعة نفر ينكرون مايعملون ، فقام أحدهم فقال إنكم تعملون كذا وكذا ، فجعل ينهاهم ويخبرهم بقبيح مايصنعون ، فجعلوا يردون عليه ، ولا يرعوون عن أعمالهم ، فسبهم فسبوه ، وقاتلهم فغلبوه فاعتزل ، ثم قال : اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ، وسببتهم فسبوني ، وقاتلتهم فغلبوني ثم ذهب ، ثم قام الآخر فنهاهم فلم يطيعوه فسبهم فسبوه فاعتزل ، ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ، وسببتهم فسبوني ، ولو قاتلتهم لغلبوني ، ثم ذهب ، ثم قام الثالث فنهاهم فلم يطيعوه فاعتزل ، ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ، ولو سببتهم لسبوني

---

(١) حديث أبي هريرة من حضر معصية فكرهها فكأنه غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها رواه ابن عدي وفيه يحيى بن أبي سليمان قال البخاري منكر الحديث

(٢) حديث ابن مسعود مابعث الله عز وجل نبيا إلا وله حواري ـ الحديث : روى مسلم نحوه

---

(١) الذاريات : ٥٠ .

ولو قاتلتهم لغلبوني ثم ذهب، ثم قام الرابع فقال اللهم إني لو نهيتهم لعصوني، ولو سببتهم لسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني، ثم ذهب، قال ابن مسعود رضي الله عنه كان الرابع أدناهم منزلة، وقليل فيكم مثله

وقال ابن عباس رضي الله عنهما قيل يا رسول (١) أتهلك القرية وفيها الصالحون قال: « نَعَمْ » قيل بم يارسول الله ؟ قال « بِتَهَاوُنِهِمْ وَسُكُوتِهِمْ عَلَى مَعَاصِي اللهِ تَعَالَى » وقال جابر ابن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « أَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنِ اقْلِبْ مَدِينَةَ كَذَا وَكَذَا عَلَى أَهْلِهَا » فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال اقلبها عليه وعليهم ، فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط ، وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « عُذِّبَ أَهْلُ قَرْيَةٍ فِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفاً عَمَلُهُمْ عَمَلُ الْأَنْبِيَاءِ » قالوا يارسول الله كيف؟ قال « لَمْ يَكُونُوا يَغْضَبُونَ لِلّٰهِ وَلَا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » وعن عروة عن أبيه قال قال موسى صلى الله عليه وسلم ، يا رب أي عبادك أحب إليك قال الذي يتسرع إلى هواي كما يتسرع النسر إلى هواه ، والذي يكلف بعبادي الصالحين كما يكلف الصبي بالثدي ، والذي يغضب إذا أتيت محارمي كما يغضب النمر لنفسه ، فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال، قل الناس أم كثروا ، وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف

وقال أبو ذر الغفاري قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، يارسول الله (٤) هل من جهاد غير قتال المشركين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم يا أبا بكر « إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى مُجَاهِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَفْضَلُ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَحْيَاءٌ مَرْزُوقِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ يُبَاهِي اللهُ بِهِمْ مَلَائِكَةَ

---

(١) حديث ابن عباس قيل يارسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال نعم قيل بم يارسول الله قال بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله : البزار والطبراني بسند ضعيف

(٢) حديث جابر أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا ـ الحديث : الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وضعفه وقال المحفوظ من قول مالك بن دينار

(٣) حديث عائشة عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء لم أقف عليه مرفوعا وروى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابراهيم بن عمر الصنعاني أوحى الله الى يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم قال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الأخيار قال انهم لم يغضبوا لغضبي فكانوا يؤا كلونهم ويشاربونهم

(٤) حديث أبي ذر قال أبو بكر يارسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين قال نعم يا أبا بكر ان لله تعالى مجاهدين في الأرض افضل من الشهداء فذكر الحديث : وفيه فقال هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ـ الحديث بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر

السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر رضي الله عنه يارسول الله ومن هم؟ قال « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون في الله والمبغضون في الله » ثم قال والذي نفسي بيده « إن العبد منهم ليكون في الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء للغرفة منها ثلثمائة ألف باب منها الياقوت والزمرد الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم ليزوج بثلثمائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له أتذكر يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر كلما نظر إلى واحدة منهن ذكرت له مقاماً أمر فيه بمعروف ونهى فيه عن منكر »

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: قلت يارسول الله[1] أي الشهداء أكرم على الله عز وجل قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجري عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش » وقال الحسن البصري رحمه الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] يقول « بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر »

---

(١) حديث أبي عبيدة قلت يارسول الله أي الشهداء أكرم على الله قال رجل قام الى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ـ الحديث : البزار مقتصرا على هذا دون قوله فان لم يقتله إلى آخره وهذه الزيادة منكرة وفيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف

(٢) حديث الحسن البصري مرسلا أفضل شهداء أمتي رجل قام الى امام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر: لم أره من حديث الحسن وللحاكم في المستدرك وصحح اسناده من حديث جابر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله

(٣) حديث عمر بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر: رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأشار اليه أبو منصور الديلمي بقوله . وفي الباب ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا .

أما الآثار فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما، لا يجل كبيركم ، ولا يرحم صغيركم ، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتنتصرون فلا تنصرون ، وتستغفرون فلا يغفر لكم ،

وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال : الذى لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ، ولا بقلبه ، وقال مالك بن دينار : كان حبر من أحبار بنى اسرائيل يغشى الرجال والنساء منزله . يعظهم ويذكرهم بأيام الله عز وجل ، فرأى بعض بنيه يوما وقد غمز بعض النساء ، فقال مهلا يا بنى مهلا ، وسقط من سريره فانقطع نخاعه ، وأسقط امرأته ، وقتل بنوه فى الجيش ، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه : أن أخبر فلانا الحبر ، أنى لا أخرج من صلبك صديقا أبدا ، أما كان من غضبك لى إلا أن قلت مهلا يابنى مهلا

وقال حذيفة : يأتى على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم ، وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام إنى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم ، وستين ألفا من شرارهم ، فقال يارب هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار، قال إنهم لم يغضبوا لغضبي ، وواكلوهم ، وشاربوهم ، وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ، فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة

وقال كعب الأحبار ، لأبى مسلم الخولانى كيف منزلتك من قومك؟ قال حسنة، قال كعب إن التوراة لتقول غير ذلك، قال وما تقول ؟ قال تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، ساءت منزلته عند قومه ، فقال صدقت التوارة وكذب أبو مسلم، وكان عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما يأتى العمال، ثم قعد عنهم. فقيل له لو أتيتهم فلعلهم يجدون فى أنفسهم، فقال أرهب أن تكلمت أن يروا أن الذى بى غير الذى بى ، وإن سكت رهبت أن آثم ، وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ، ويستتر عنه حتى لا يجرى بمشهد منه

وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه أول ما تغلبون عليه من الجهاد ، الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بألسنتكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فإذا لم يعرف القلب المعروف ، ولم ينكر المنكر ، نكس فجعل أعلاه أسفله ، وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : أيما عبد عمل فى شيء من دينه بما أمر به

أو نهى عنه ، وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها ، وتشوش الزمان ، فهو ممن قد قام لله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه ، فقد جاء بما هو الغاية في حقه ، وقيل للفضيل ألا تأمر وتنهى فقال إن قوما أمروا ونهوا ، فكفروا ، وذلك أنهم لم يصبروا على ماأصيبوا ، وقيل للثورى ألاتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، فقال إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكره

فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه

الباب الثاني

في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة ؛ المحتسب ؛ والمحتسب عليه ؛ والمحتسب فيه ؛ ونفس الاحتساب ، فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروط

الركن الأول المحتسب

وله شروط ، وهو أن يكون مكلفا ، مسلما ، قادرا ، فيخرج منه المجنون ، والصبي والكافر ، والعاجز ، ويدخل فيه آحاد الرعايا ، وإن لم يكونوا مأذونين ، ويدخل فيه الفاسق ، والرقيق ، والمرأة ،

فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ، ووجه إطراح ما أطرحناه

أما الشرط الأول : وهو التكليف ، فلا يخفى وجه اشتراطه ، فإن غير المكلف لا يلزمه أمر ، وماذكرناه أردنا به شرط الوجوب ، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل حتى أن الصبي المراهق للبلوغ المميز ، وإن لم يكن مكلفا فله إنكار المنكر ، وله أن يريق الخمر ، ويكسر الملاهي ، وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ، ولم يكن لأحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف ، فإن هذه قربة وهو من أهلها كالصلاة ، والإمامة ، وسائر القربات

وليس حكمه حكم الولايات ، حتى يشترط فيه التكليف ، ولذلك أثبتناه للعبد وآحاد الرعية

نعم : فى المنع بالفعل ، وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة ، ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان ، كقتل المشرك وإبطال أسبابه ، وسلب أسلحته ، فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستضر به ، فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر

وأما الشرط الثانى : وهو الإيمان ، فلا يخفى وجه اشتراطه ؛ لأن هذا نصرة للدين. فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدو له

وأما الشرط الثالث : وهو العدالة ، فقد اعتبرها قوم ، وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ[1]) وقوله تعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ[2]) وبما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِقَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ فَقُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ فَقَالُوا كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَأْتِيهِ وَنَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ » وبما روي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني

وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتداء ، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة . والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح ، فمن ليس بصالح فى نفسه ،فكيف يصلح غيره ، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ، وكل ماذكروه خيالات

وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب ، وبرهانه هو أن نقول : هل يشترط فى الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصى كلها ، فإن شرط ذلك فهو خرق للاجماع ، ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلا عمن دونهم ، والأنبياء عليهم السلام قد اختلف فى عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية ، وكذا جماعة من الأنبياء ولهذا قال سعيد بن جبير : إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء

(١) حديث مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ــ الحديث : تقدم فى العلم

(١) البقرة : ٤٤ (٢) الصف : ٣

لم يأمر أحد بشيء ، فأعجب مالكا ذلك من سعيد بن جبير ، وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغائر ، حتى يجوز للابس الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر ، فنقول : وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ، ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر فإن قالوا: لا،خرقوا الإجماع ، إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر ، وشارب الخمر ، وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزو لا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده،فإن قالوا نعم فنقول: شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا؟فإن قالوا: لا،قلنا . فما الفرق بينه وبين لابس الحرير؟ إذ جاز له المنع من الخمر ، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب ، كالشرب بالنسبة إلى لبس الحرير فلا فرق ، وإن قالوا نعم وفصلوا الأمر فيه ، بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عما دونه ، وإنما يمنع عما فوقه ، فهذا تحكم ، فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزانى من الشرب ، بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانه وخدمه من الشراب ، ويقول يجب على الانتهاء ، والنهى ، فمن أين يلزمنى من العصيان بأحدهما أن أعصى الله تعالى بالثانى ،وإذا كان النهي واجبا على فمن أين يسقط وجوبه بإقدامى،إذ يستحيل أن يقال يجب النهى عن شرب الخمر عليه مالم يشرب ، فإذا شرب سقط عنه النهى

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقول القائل الواجب على الوضوء ، والصلاة ، فأنا أتوضأ وإن لم أصل ، وأتسحر وإن لم أصم ، لأن المستحب لى السحور والصوم جميعا ، ولكن يقال أحدهما مرتب على الآخر ، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفسه ، فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول

والجواب أن التسحر يراد للصوم ، ولولا الصوم لما كان التسحر مستحبا ، وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير ، وإصلاح الغير لا يراد لاصلاح النفس ، ولا صلاح النفس لإصلاح الغير ، فالقول بترتب أحدهما على الآخر تحكم ، وأما الوضوء والصلاة فهو لازم فلا جرم أن من توضأ ولم يصل ، كان مؤديا أمر الوضوء ، وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الوضوء والصلاة جميعا ، فليكن من ترك النهى والانتهاء أكثر عقابا ممن نهي ولم ينته كيف، والوضوء شرط لا يراد لنفسه ، بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة،وأما الحسبة فليست شرطا فى الانتهاء والائتمار فلا مشابهة بينهما

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقال إذا زنى الرجل بامرأة وهى مكرهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها ، فأخذ الرجل يحتسب فى أثناء الزنا ، ويقول أنت مكرهة فى الزنا، ومختارة فى كشف الوجه لغير محرم ، وها أنا غير محرم لك فاسترى وجهك ، فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ، ويستشنعه كل طبع سليم

فالجواب : أن الحق قد يكون شنيعا ، وأن الباطل قد يكون مستحسنا بالطباع، والمتبع الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات، فإنا نقول : قوله لها فى تلك الحالة لا تكشفى وجهك واجب ، أو مباح ، أو حرام ، فإن قلتم إنه واجب فهو الغرض ، لأن الكشف معصية والنهي عن المعصية حق ، وإن قلتم إنه مباح ، فإذاً له أن يقول ما هو مباح ، فما معنى قولكم ليس للفاسق الحسبة ، وإن قلتم إنه حرام ، فنقول كان هذا واجبا فمن أين حرم بإقدامه على الزنا ، ومن الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر

وأما نفرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسببين

أحدهما: أنه ترك الأهم واشتغل بما هو مهم ، وكما أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى ما لا يعنى ، فتنفر عن ترك الأهم ، والاشتغال بالمهم ، كما تنفر عمن يتحرج عن تناول طعام مغصوب وهو مواظب على الربا ، وكما تنفر عمن يتصاون عن الغيبة ويشهد بالزور . لأن الشهادة بالزور أفحش ، وأشد من الغيبة التى هى إخبار عن كائن يصدق فيه المخبر ، وهذا الاستبعاد فى النفوس لا يدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب ، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم تزد بذلك عقوبته ، فكذلك ضرره فى الآخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر فى الطبع ، من حيث إنه ترك الأكثر لا من حيث إنه أتى بالأقل ، فمن غصب فرسه ، ولجام فرسه ، فاشتغل بطلب اللجام ، وترك الفرس ، نفرت عنه الطباع ، ويرى مسيئا ، إذ قد صدر منه طلب اللجام ، وهو غير منكر ، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس بطلب اللجام ، فاشتد الإنكار عليه لتركه الأهم بما دونه ، فكذلك حسبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه ، وهذا لا يدل على أن حسبته من حيث إنها حسبة مستنكرة

الثانى: أن الحسبة تارة تكون بالنهي بالوعظ ، وتارة بالقهر، ولا ينجع وعظ من لا يتعظ أولا

ونحن نقول: من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لعلم الناس بفسقه ، فليس عليه الحسبة بالوعظ إذ لا فائدة في وعظه ، فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه، ثم إذا سقط فائدة كلامه سقط وجوب الكلام، فأما إذا كانت الحسبة بالمنع، فالمراد منه القهر، وتمام القهر: أن يكون بالفعل والحجة جميعا وإذا كان فاسقا فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة ، إذ يتوجه عليه أن يقال له فأنت لم تقدم عليه فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة ، وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقا كما أن من يذب الظالم عن آحاد المسلمين ، ويهمل أباه وهو مظلوم معهم ، تنفر الطباع عنه ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقا ، فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه ، لأنه لا يتعظ ، وإذا لم يكن عليه ذلك وعلم أنه يفضى إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار ، فنقول ليس له ذلك أيضا ، فرجع الكلام إلى أن أحد نوعى الاحتساب وهو الوعظ قد بطل بالفسق ، وصارت العدالة مشروطة فيه

وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك ، فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمور وكسر الملاهى وغيرها إذا قدر ، وهذا غاية الإنصاف والكشف في المسألة

وأما الآيات التي استدلوا بها فهو إنكار عليهم ، من حيث تركهم المعروف لا من حيث أمرهم، ولكن أمرهم دل على قوة علمهم ، وعقاب العالم أشد ، لأنه لا عذر له مع قوة علمه وقوله تعالى (لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تفْعَلُونَ [١]) المراد به الوعد الكاذب ، وقوله عز وجل (وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ [٢]) إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم ، لا من حيث إنهم أمروا غيرهم ولكن ذكر أمر الغير استدلالا به على علمهم وتأكيدا للحجة عليهم ، وقوله : ياابن مريم عظ نفسك الحديث ، هو في الحسبة بالوعظ ، وقد سلمنا أن وعظ الفاسق ساقط الجدوى عند من يعرف فسقه ، ثم قوله فاستحى منى لا يدل على تحريم وعظ الغير ، بل معناه استحى منى فلا تترك الأهم وتشتغل بالمهم ، كما يقال احفظ أباك ثم جارك وإلا فاستحى

فإن قيل : فليجز للكافر الذى أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزنى ، لأن قوله لا تزن حق في نفسه ، فمحال أن يكون حراما عليه ، بل ينبغى أن يكون مباحا أو واجبا

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) الصف : ٣

قلنا: الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه ، فيمنع من حيث إنه تسلط (وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) وأما مجرد قوله . لا تزن فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهى عن الزنا . ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم ، وفيه إذلال للمحتكم عليه ، والفاسق يستحق الإذلال ، ولكن لا من الكافر الذى هو أولى بالذل منه ، فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة ، وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله لا تزن من حيث إنه نهى ، بل نقول إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه ، إن رأينا خطاب الكافر بفروع الدين ، وفيه نظر استوفيناه في الفقهيات ولا يليق بغرضنا الآن

الشرط الرابع : كونه مأذونا من جهة الإمام والوالى ، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة ، وهذا الاشتراط فاسد ، فإن الآيات والأخبار التى أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى ، إذ يجب نهيه أينما رآه ، وكيفما رآه على العموم ، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له

والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم وهو الامام الحق عندهم ، وهؤلاء أخس رتبة من أن يكلموا ، بل جوابهم أن يقال لهم ، إذا جاؤا إلى القضاء طالبين لحقوقهم فى دمائهم وأموالهم ، إن نصرتكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيدى من ظلمكم نهى عن المنكر ، وطلبكم لحقكم من جملة المعروف وما هذا زمان النهى عن الظلم ، وطلب الحقوق ، لأن الامام الحق بعدُ لم يخرج

فإن قيل فى الأمر بالمعروف إثبات سلطنة ، وولاية ، واحتكام على المحكوم عليه ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقاً ، فينبغى أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الولى وصاحب الأمر .

فنقول : أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام ، والكافر ذليل ، فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ، وما فيه من عز السلطنة ، والاحتكام لا يحوج إلى تفويض ، كعز التعليم والتعريف ، إذ لا خلاف فى أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن الوالى وفيه عز الإرشاد وعلى المعرف ذل التجهيل ، وذلك يكفى فيه مجرد الدين وكذلك النهى .

وشرح القول فى هذا أن الحسبة لها خمس مراتب كما سيأتى ، أولها التعريف ، والثانى الوعظ بالكلام اللطيف ، والثالث : السب والتعنيف ، ولست أعنى بالسب الفحش ، بل أن يقول يا جاهل يا أحمق ألا تخاف الله ، وما يجرى هذا المجرى ، والرابع : المنع بالقهر بطريق المباشرة ، ككسر الملاهى ، وإراقة الخمر ، واختطاف الثوب الحرير من لابسه واستلاب الثوب المغصوب منه ورده على صاحبه ، والخامس : التخويف والتهديد بالضرب ومباشرة الضرب له ، حتى يمتنع عما هو عليه ، كالمواظب على الغيبة والقذف ، فإن سلب لسانه غير ممكن ، ولكن يحمل على اختيار السكوت بالضرب ، وهذا قد يحوج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ، ويجر ذلك إلى قتال ، وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام الا المرتبة الخامسة ، فإن فيها نظرا سيأتى

أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الامام ، وأما التجهيل ، والتحميق ، والنسبة إلى الفسق ، وقلة الخوف من الله ، وما يجرى مجراه ، فهو كلام صدق ، والصدق مستحق بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر ، كما ورد فى الحديث [١] فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه ، وكذلك كسر الملاهى ، وإراقة الخمور ، فإنه تعاطى ما يعرف كونه حقا من غير اجتهاد ، فلم يفتقر إلى الإمام ، وأما جمع الأعوان ، وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ، ففيه نظر سيأتى ، واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض ، بل كل من أمر بمعروف ، فإن كان الوالى راضيا به فذاك وإن كان ساخطا له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه ، فكيف يحتاج إلى إذنه فى الإنكار عليه

ويدل على ذلك عادة السلف فى الإنكار على الأئمة ، كما روى [٢] أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد ، فقال له رجل إنما الخطبة بعد الصلاة ، فقال له مروان ، ترك ذلك يا فلان ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه ، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُنْكِرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ

(١) حديث أفضل الجهاد كلمة حق عند امام جائر : أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى

(٢) حديث ان مروان خطب قبل الصلاة فى العيد ـ الحديث : وفيه حديث أبى سعيد مرفوعا من راى منكر ـ الحديث : رواه مسلم

وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » فلقد كانوا فهموا من هـذه العمومات دخول السلاطين تحتهـا ، فكيف يحتاج إلى إذنهم .

وروى أن المهدى لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله ، فلما أخذ فى الطواف نحى الناس عن البيت ، فوثب عبد الله بن مرزوق فلببه بردائه ثم هزه ، وقال له انظر ماتصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البُعد حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ؟ وقد قال الله تعالى (سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ[1]) من جعل لك هذا ، فنظر فى وجهه وكان يعرفه لأنه من مواليهم ، فقال أعبد الله بن مرزوق ، قال : نعم ؟ فأخـذ فجىء به إلى بغداد ، فـكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه فى العامة ، فجعله فى اصطبل الدواب ليسوس الدواب ، وضموا إليه فرسا عضوضا سيىء الخلق ، ليعقره الفرس ، فلين الله تعالى له الفرس ، قال ثم صيروه إلى بيت وأغلق عليه ، وأخذ المهدى المفتاح عنده ؟ فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل فأوذن به المهدى ، فقال له من أخرجك ؟ فقال الذى حبسنى ، فضج المهدى وصاح ، وقال ماتخاف أن أقتلك ، فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول : لو كنت تملك حياة أوموتا ، فمازال محبوسا حتى مات المهدى ، ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة ، قال وكان قد جعل على نفسه نذرا ، إن خلصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة ، فكان يعمل فى ذلك حتى نحرها

وروى عن حبان بن عبد الله قال : تـنزه هرون الرشيد بالدوين ؟ ومعه رجل من بنى هاشم ، وهو سليمان بن أبى جعفر ، فقال له هرون : قـد كانت لك جارية تغنى فتحسن فجئنا بها ، قال فجاءت فغنت ، فلم يحمد غناءها ، فقال لها ماشأنك ؟ فقالت ليس هذا عودى فقال للخادم جئنا بعودها ، قال فجاء بالعود فوافق شيخا يلقط النوى ، فقال الطريق ياشيخ فرفع الشيخ رأسه ، فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض ، فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربع ، فقال احتفظ بهذا فإنه طلبة أمـير المؤمنين ، فقال له صاحب الربع ليس ببغداد أعبد من هذا ، فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين ، فقال له اسمع ماأقول لك ثم دخل على هرون فقال إنى مررت على شيخ يلقط النوى فقلت له الطريق ، فرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فـكسره ، فاستشاط هرون وغضب واحمرت عيناه

---

(١) الحج : ٢٥

فقال له سليمان بن أبي جعفر : ماهـذا الغضب ياأمير المؤمنين ؟ إبعث إلى صاحب الربع يضرب عنقه ، ويرم به فى الدجلة ، فقال : لا ، ولـكن نبعث إليه ونناظره أولا ، فجاء الرسول فقال أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، قال اركب قال : لا ، فجاء يمشى حتى وقف على باب القصر ، فقيل لهرون قـد جاء الشيخ فقال للندماء : أى شىء ترون نرفع ماقدامنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ ، أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر ، فقالوا له نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح ، فقاموا إلى مجلس ليس فيه منكر ، ثم أمر بالشيخ فأدخل وفى كمه الـكيس الذى فيه النوى ، فقال له الخادم أخرج هذا من كمك ، وادخل على أمير المؤمنين ، فقال من هذا عشائى الليلة ، قال نحن نعشيك ، قال لاحاجة لى فى عشائكم فقال هرون للخادم أى شىء تريد منه ؟ قال فى كمه نوى ، قلت له اطرحه وادخل على أمير المؤمنين ، فقال دعه لايطرحه قال فدخل وسلم وجلس ، فقال له هرون ياشيخ ماحملك على ماصنعت ، قال وأى شىء صنعت ؟ وجعل هرون يستحى أن يقول كسرت عودى ، فلما أكثر عليـه ، قال إنى سمعت أباك ، وأجدادك ، يقرءون هذه الآية على المنـبر (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ [1]) وأنا رأيت منكرا فغيرته ، فقال فغـيره فو الله ماقال إلا هـذا ، فلما خرج أعطى الخليفة رجلا بدرة ، وقال اتبع الشيخ فإن رأيتـه يقول ، قلت لأمير المؤمنين وقال لى فلا تعطه شيئا ، وإن رأيته لايكلم أحدا فاعطه البدرة ، فلما خرج من القصر إذا هو بنواة فى الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحدا ، فقال له يقول لك أمير المؤمنين خذ هـذه البدرة فقال قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخـذها ، ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التى يعالج قلعها من الأرض ، وهو يقول

أرى الدنيا لمن هى فى يديه ... هموما كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شىء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

(١) النحل : ٩٠

وعن سفيان الثوري رحمه الله ، قال حج المهدي في سنة ست وستين ومائة ، فرأيته يرمي جمرة العقبة ، والناس يخبطون يمينا وشمالا بالسياط ، فوقفت فقلت ياحسن الوجه ، حدثنا أيمن عن وائل ، عن قدامة بن عبدالله الكلابي ، قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] يرمي الجمرة يوم النحر ، على جمل ، لاضرب ، ولا طرد ، ولا جلد ، ولا إليك إليك ، وهاأنت يخبط الناس بين يديك يمينا وشمالا ، فقال لرجل من هذا ؟ قال سفيان الثوري ، فقال ياسفيان لو كان المنصور ما احتملك على هذا ، فقال لو أخبرك المنصور بما لقي ، لقصرت عما أنت فيه قال فقيل له إنه قال لك يا حسن الوجه ، ولم يقل لك يا أمير المؤمنين ، فقال اطلبوه فطلب سفيان فاختفى

وقد روي عن المأمون أنه بلغه أن رجلا محتسبا يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ولم يكن مأمورا من عنده بذلك ، فأمر بأن يدخل عليه ، فلما صار بين يديه قال له إنه بلغني أنك رأيت نفسك أهلا للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر من غير أن نأمرك ، وكان المأمون جالسا على كرسي ينظر في كتاب ، أو قصة فأغفله ، فوقع منه ، فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به ، فقال له المحتسب ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ، ثم قل ماشئت ، فلم يفهم المأمون مراده ، فقال ماذا تقول حتى أعاده ثلاثا فلم يفهم ، فقال أما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع : فنظر المأمون تحت قدمه ، فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل ثم عاد ، وقال لم تأمر بالمعروف ؟ وقد جعل الله ذلك إلينا أهل البيت ، ونحن الذين قال الله تعالى فيهم (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ[1]) فقال صدقت ياأمير المؤمنين ، أنت كما وصفت نفسك من السلطان ، والتمكن غير أنا أعوانك ، وأولياؤك فيه ، ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ[2]) الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » وقد مكنت في الأرض ، وهذا كتاب الله وسنة رسوله

---

(١) حديث قدامة بن عبد الله رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة يوم النحر على جمل لاضرب ولا طرد ولا جلد ولا اليك ولا اليك : الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وأما قوله في أوله ان الثوري قال حج المهدي سنة ست وستين فليس بصحيح فان الثوري توفي سنة احدى وستين

(٢) حديث المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا : متفق عليه من حديث أبي موسى وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة

(١) الحج : ٤١ (٢) التوبة : ٧١

فإن انقدت لهما شكرت لمن أعانك لحرمتهما ، وإن استكبرت عنهما ولم تنقد لما لزمك منهما فإن الذى إليه أمرك ، وبيده عزك وذلك ، قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فقل الآن ما شئت ، فأعجب المأمون بكلامه ، وسر به ، وقال مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف فامض على ما كنت عليه بأمرنا ، وعن رأينا ، فاستمر الرجل على ذلك

ففى سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن

فإن قيل : أفتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد ، والعبد على المولى ، والزوجة على الزوج والتلميذ على الأستاذ ، والرعية على الوالى مطلقا ، كما يثبت للوالد على الولد ، والسيد على العبد والزوج على الزوجة ، والأستاذ على التلميذ ، والسلطان على الرعية ، أو بينهما فرق

فاعلم أن الذى نراه أنه يثبت أصل الولاية ، ولكن بينهما فرق فى التفصيل ، ولنفرض ذلك فى الولد مع الوالد ، فنقول قد رتبنا للحسبة خمس مراتب ، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين ، وهما التعريف ، ثم الوعظ والنصح باللطف ، وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ، ولا بمباشرة الضرب ، وهما الرتبتان الأخريان ، وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدى إلى أذى الوالد وسخطه ، هذا فيه نظر ، وهو بأن يكسر مثلا عوده ، ويريق خمره ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير ، ويرد إلى الملاك ما يجده فى بيته من المال الحرام ، الذى غصبه أو سرقه .أو أخذه إدرار رزق من ضريبة المسلمين ، إذا كان صاحبه معينا ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه ، والمنقورة في خشب بيته ، ويكسر أوانى الذهب والفضة ، فإن فعله فى هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب ، ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه ، إلا أن فعل الولد حق ، وسخط الأب منشؤه حبه للباطل وللحرام ، والأظهر فى القياس أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك ، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر ، وإلى مقدار الأذى والسخط فإن كان المنكر فاحشا وسخطه عليه قريبا كإراقة خمر من لا يشتد غضبه ، فذلك ظاهر وإن كان المنكر قريبا ، والسخط شديدا كما لو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صورة حيوان ، وفى كسرها خسران مال كثير ، فهذا مما يشتد فيه الغضب ، وليس تجرى هذه المعصية مجرى الخمر وغيره ، فهذا كله مجال النظر

فإن قيل : ومن أين قلتم ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل ، والأمرُ بالمعروف فى الكتاب والسنة ورَد عاما من غير تخصيص ، وأما النهي عن التأفيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات

فنقول :قد ورد فى حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم ، إذ لا خلاف[١] فى أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه فى الزنا حدا ، ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه بل لا يباشر قتل أبيه الكافر ، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص ، ولم يكن له أن يؤذيه فى مقابلته

وقد ورد فى ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع ، فإذا لم يجز له إيذاؤه بعقوبة هى حق على جناية سابقة ، فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هى منع عن جناية مستقبلة متوقعة ، بل أولى

وهذا الترتيب أيضا ينبغى أن يجرى فى العبد والزوجة ، مع السيد والزوج ، فهما قريبان من الولد فى لزوم الحق وإن كان ملك اليمين آكد من ملك النكاح ، ولكن فى الخبر[٢] أنه لو جاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، وهذا يدل على تأكيد الحق أيضا

وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها معه إلا التعريف والنصح

فأما الرتبة الثالثة: ففيها نظر من حيث إن الهجوم على أخذ الأموال من خزائنه وردها إلى الملاك وعلى تحليل الخيوط من ثيابه الحرير ،وكسر آنية الخمور فى بيته يكاد يفضى إلى خرق هيبته ، وإسقاط حشمته ،وذلك محظور ،وورد النهي عنه[٣] كما ورد النهي عن السكوت على المنكر ،فقد تعارض فيه أيضا محذوران ،والأمر فيه موكول إلى اجتهاد منشؤه النظر فى تفاحش المنكر ،ومقدار ما يسقط من حشمته تسبب الهجوم عليه ،وذلك مما لا يمكن ضبطه ،وأما التلميذ والأستاذ فالأمر فيما بينهما أخف لأن المحترم هو الأستاذ المفيد للعلم من حيث الدين ،ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه ،فله أن يعامله بموجب علمه الذى تعلمه منه

---

(١) الأخبار الواردة فى أن الجلاد ليس له أن يجلد أباه فى الزنا ولا أن يباشر اقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وانه لو قطع يده لم يلزمه القصاص ثم قال وثبت بعضها بالاجماع . قلت لم أجد فيه إلا حديث لا يقاد الوالد بالولد رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذى فيه اضطراب

(٢) حديث لو جاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها: تقدم فى النكاح

(٣) حديث النهى عن الانكار على السلطان جهرة بحيث يؤدى الى خرق هيبته: الحاكم فى المستدرك من حديث عياض بن غنم الأشعرى من كانت عنده نصيحة لذى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذه بيده فليخل به فان قبلها قبلها والا كان قد أدى الذى عليه والذى له: قال صحيح الاسناد وللترمذى وحسنه من حديث أبى بكرة من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله فى الأرض

ورُوي أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده ؟ فقال يعظه ما لم يغضب فإن غضب سكت عنـه

الشرط الخامس: كونه قادرا : ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبة إلا بقلبه، إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه . جاهدوا الـكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا فى وجوههم فافعلوا

واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسى ، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروها يناله ، فذلك فى معنى العجز، وكذلك إذا لم يخف مكروهاً ولكن علم أن إنكاره لا ينفـع فليلتفت إلى معنيين، أحدهما: عدم إفادة الإنـكار امتناعا ، والآخر: خوف مكروه ، ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال

أحدها : أن يجتمع المعنيان ، بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة ، بل ربما تحرم فى بعض المواضـع ، نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنـكر ويعتزل فى بيته حتى لا يشاهد ولا يخرج إلا لحاجة مهمة ، أو واجب ، ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد، أو يحمل على مساعدة السلاطين فى الظلم والمنكرات فتلزمه الهجرة إن قدر عليها. فإن الإكراه لا يكون عذرا فى حق من يقدر على الهرب من الإكراه

الحالة الثانية : أن ينتفى المعنيان جميعا ، بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه ، فيجب عليه الإنـكار وهذه هى القدرة المطلقة

الحالة الثالثة : أن يعلم أنه لا يفيد إنـكاره لكنه لا يخاف مكروها ، فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها ، ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام ، وتذكير الناس بأمر الدين

الحالة الرابعة: عكس هذه ، وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمى زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ، ويريق الخمر، أو يضرب العود الذى فى يده ضربة مختطفة فيكسره فى الحال ، ويتعطل عليه هذا المنكر ، ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه، فهذا ليس بواجب وليس بحرام ، بل هو مستحب ، ويدل عليـه الخبر الذى أوردناه فى فضل كلمة حق عند إمام جائر ، ولا شك فى أن ذلك مظنة الخوف

ويدل عليه أيضا ما رُوي عن أبي سليمان الدارانى رحمه الله تعالى أنه قال: سمعت من بعض الخلفاء

كلاما فأردت أن أنكر عليه ، وعلمت أنى أقتل ولم يمنعنى القتل ، ولكن كان فى ملأ من الناس فخشيت أن يعترينى التزين للخلق ، فأقتل من غير إخلاص فى الفعل .

فإن قيل فما معنى قوله تعالى (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [1])

قلنا : لا خلاف فى أن المسلم الواحد ، له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل ، وإن علم أنه يقتل ، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية ، وليس كذلك ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ، : ليس التهلكة ذلك ، بل ترك النفقة فى طاعة الله تعالى ، أى من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه ، وقال البراء بن عازب : التهلكة هو أن يذنب الذنب ، ثم يقول لا يتاب علىّ ، وقال أبو عبيدة : هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيرا حتى يهلك ، وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل ، جاز أيضا له ذلك فى الحسبة ، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار ، كالأعمى يطرح نفسه على الصف ، أو العاجز ، فذلك حرام ، وداخل تحت عموم آية التهلكة ، وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل ، أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جراءته ، واعتقادهم فى سائر المسلمين قلة المبالاة ، وحبهم للشهادة فى سبيل الله ، فتنكسر بذلك شوكتهم ، فكذلك يجوز للمحتسب ، بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب والقتل ، إذا كان لحسبته تأثير فى رفع المنكر ، أو فى كسر جاه الفاسق أو فى تقوية قلوب أهل الدين ، وأما إن رأى فاسقا متغلبا ، وعنده سيف ، وبيده قدح ، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح ، وضرب رقبته ، فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجها ، وهو عين الهلاك ، فإن المطلوب أن يؤثر فى الدين أثرا ، ويفديه بنفسه ، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له ، بل ينبغى أن يكون حراما ، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر ، أو ظهر لفعله فائدة ، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه ، فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه ، فلا تجوز له الحسبة بل تحرم ، لأنه عجز عن دفع المنكر ، إلا بأن يفضى ذلك إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة فى شىء ، بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ، ولكن كان ذلك سببا لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه ، فلا يحل له الإنكار على الأظهر ، لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقا

[1] البقرة : ١٩٥

لا من زيد أو عمرو ، وذلك بأن يكون مثلا مع الإنسان شراب حلال ، نجس بسبب وقوع نجاسة فيه ، وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر ، أو تشرب أولاده الخمر ، لإعوازهم الشراب الحلال ، فلا معنى لإراقة ذلك ، ويحتمل أن يقال إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلا لمنكر ، وأما شرب الخمر فهو الملوم فيه ، والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر

وقد ذهب إلى هذا ذاهبون ، وليس يبعيد ، فإن هذه مسائل فقهية لايمكن فيها الحكم إلا بظن ، ولايبعـد أن يفرق بين درجات المنكر المغير ، والمنكر الذى تفضى إليه الحسبة والتغيير ، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها ، وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنسانا وأكله فلا معنى لهذه الحسبة . نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان ، أو قطع طرفه يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه .

فهذه دقائق واقعة فى محل الاجتهاد ، وعلى المحتسب اتباع اجتهاده فى ذلك كله ، ولهذه الدقائق نقول : العامى ينبغى له أن لايحتسب إلا فى الجليات المعلومة ، كشرب الخمر ، والزنا وترك الصلاة ، فأما مايعلم كونه معصية بالإضافة إلى مايطيف به من الأفعال ، ويفتقر فيه إلى اجتهاد ، فالعامى إن خاض فيه كان مايفسده أكثر مما يصلحه ، وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالى ، إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلا لها ، لقصور معرفته ، أو قصور ديانته ، فيؤدى ذلك إلى وجوه من الخلل ، وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله .

فإن قيل : وحيث أطلقتم العلم بأن يصيبه مكروه ، أو أنه لاتفيد حسبته ، فلو كان بدل العلم ظن ، فما حكمه ؟ .

قلنا : الظن الغالب فى هذه الأبواب فى معنى العلم ، وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم ، إذ يرجح العلم اليقينى على الظن .. ويفرق بين العلم والظن فى مواضع أخر ، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعا أنه لايفيد ، فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد ، وهو مع ذلك لايتوقع مكروها ، فقد اختلفوا فى وجوبه والأظهر وجوبه ، إذ لاضرر فيه ، وجدواه متوقعة ، وعمومات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تقتضى الوجوب بكل حال ، ونحن إنما نستثنى عنه بطريق التخصيص ما إذا علم

أنه لافائدة فيه ، أما بالإجماع ، أو بقياس ظاهر ، وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور فإذا علم اليأس عنه فلافائدة فيه ، فأما إذا لم يكن يأس فينبغي أن لا يسقط الوجوب

فإن قيل : فالمكروه الذى تتوقع إصابته إن لم يكن متيقناً ولا معلوماً بغالب الظن ولكن كان مشكوكا فيه ، أو كان غالب ظنه أنه لايصاب بمكروه ، ولكن احتمل أن يصاب بمكروه فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لايجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه ، أم يجب فى كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه

قلنا : إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب ، وإن غلب أنه لا يصاب وجب ، ومجرد التجويز لايسقط الوجوب ، فإن ذلك ممكن فى كل حسبة ، وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر فيحتمل أن يقال : الأصل الوجوب بحكم العمومات ، وإنما يسقط بمكروه والمكروه هو الذى يظن أو يعلم حتى يكون متوقعا ، وهذا هو الأظهر ، ويحتمل أن يقال إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لاضرر فيه عليه ، أو ظن أنه لاضرر عليه ، والأول أصح نظراً إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف

فإن قيل : فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة ، فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريبا ، حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه ، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ماجبل عليه من حسن الأمل ، حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه ، فعلى ماذا التعويل؟

قلنا : التعويل على اعتدال الطبع ، وسلامة العقل والمزاج ، فإن الجبن مرض ، وهو ضعف فى القلب ، سببه قصور فى القوّة وتفريط ، والتهور إفراط فى القوّة وخروج عن الاعتدال بالزيادة ، وكلاهما نقصان ، وإنما الكمال فى الاعتدال الذى يعبر عنه بالشجاعة وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل ، وتارة عن خلل فى المزاج بتفريط أو إفراط ، فإن من اعتدل مزاجه فى صفة الجبن والجراءة فقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جراءته جهله ؛ وقد لا يتفطن لمدارك دفع الشر فيكون سبب جبنه جهله وقد يكون عالما بحكم التجربة والممارسة بمداخل الشر ودوافعه ، ولكن يعمل الشر البعيد فى تخذيله وتحليل قوته فى الإقدام بسبب ضعف قلبه مايفعله الشر القريب فى حق الشجاع

المعتدل الطبع ، فلا التفات إلى الطرفين ، وعلى الجبان أن يتكلف إزالة الجبن إزالة علته، وعلته جهل أو ضعف ، ويزول الجهل بالتجربة ، ويزول الضعف بممارسة الفعل المخوف منه تكلفا حتي يصير معتادا . إذ المبتدىء في المناظرة والوعظ مثلا قد يجبن عنه طبعه لضعفه ، فإذا مارس واعتاد فارقه الضعف ، فإن صار ذلك ضروريا غير قابل للزوال ، بحكم استيلاء الضعف على القلب ، فحكم ذلك الضعيف يتبع حاله فيعذر كما يعذر المريض فى التقاعد عن بعض الواجبات ولذلك قد نقول على رأى لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسلام على من يغلب عليه الجبن فى ركوب البحر ، ويجب على من لا يعظم خوفه منه، فكذلك الأمر فى وجوب الحسبة

فإن قيل : فالمكروه المتوقع ماحده ؟ فإن الإنسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا ويتوقع منه نوع من الأذى ، وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان ، أو يقدح فيه فى مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذى يسقط الوجوب به

قلنا : هذا أيضا فيه نظر غامض ، وصورته منتشرة ، ومجاريه كثيرة ، ولكنا نجتهد فى ضم نشره وحصر أقسامه ، فنقول المكروه نقيض المطلوب ، ومطالب الخلق فى الدنيا ترجع إلى أربعة أمور

أما فى النفس : فالعلم

وأما فى البدن : فالصحة والسلامة

وأما فى المال : فالثروة

وأما فى قلوب الناس : فقيام الجاه

فإذاً المطلوب العلم ، والصحة ، والثروة ، والجاه ، ومعنى الجاه ملك قلوب الناس ، كما أن معنى الثروة ملك الدراهم ، لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض ، كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض ، وسيأتى تحقيق معنى الجاه ، وسبب ميل الطبع إليه فى ربع المهلكات وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ، ولأقاربه والمختصين به ، ويكره فى هذه الأربعة أمران أحدهما . زوال ماهو حاصل موجود ، والآخر : امتناع ماهو منتظر مفقود ، أعنى إندفاع مايتوقع وجوده ، فلا ضرر إلا فى فوات حاصل وزواله ، أو تعويق منتظر ، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله ، والممكن حصوله كأنه حاصل

وفوات إمكانه كأنه فوات حصوله ، فرجع المكروه إلى قسمين، أحدهما : خوف امتناع المنتظر وهذا لا ينبغي أن يكون مرخصا في ترك الأمر بالمعروف أصلا ولنذكر مثاله في المطالب الأربعة

أما العلم: فمثاله تركه الحسبة على من يختص بأستاذه، خوفا من أن يقبح حاله عنده فيمتنع من تعليمه

وأما الصحة : فتركه الإنكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلا ، وهو لابس حريرا، خوفا من أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المنتظرة

وأما المال . فتركه الحسبة على السلطان وأصحابه ، وعلى من يواسيه من ماله ، خيفة من أن يقطع إدراره في المستقبل ؛ ويترك مواساته

وأما الجاه : فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجاها في المستقبل ، خيفة من أن لا يحصل له الجاه ، أو خيفة من أن يقبح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية

وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة ، لأن هذه زيادات امتنعت، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضررا مجاز ، وإنما الضرر الحقيقي فوات حاصل ، ولا يستثنى من هذا شيء إلا ما تدعو إليه الحاجة ، ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر ، كما إذا كان محتاجا إلى الطبيب لمرض ناجز ، والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ، ويعلم أن في تأخره شدة الضنا به وطول المرض ، وقد يفضي إلى الموت ، وأعني بالعلم الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء ، والعدول إلى التيمم ، فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص في ترك الحسبة

وأما في العلم : فمثل أن يكون جاهلا بمهمات دينه ولم يجد إلا معلما واحدا ، ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره ، وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه لكون العالم مطيعا له ، أو مستمعا لقوله ، فإذاً الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور ، ولا يبعد أن يرجح أحدهما ، ويختلف ذلك بتفاحش المنكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات الدين

وأما في المال : فكمن يعجز عن الكسب والسؤال ، وليس هو قوي النفس في التوكل ولا منفق عليه سوى شخص واحد ، ولو احتسب عليه قطع رزقه ، وافتقر في تحصيله إلى طلب إدرار حرام ، أو مات جوعا ، فهذا أيضا إذا اشتد الأمر فيه لم يبعد أن يرخص له في السكوت

وأما الجاه : فهو أن يؤذيه شرير ، ولا يجد سبيلا إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير ، أو يشرب الخمر ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ، ووسيلة له ، فيمتنع عليه حصول الجاه ، ويدوم بسببه أذى الشرير

فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استثناؤها ، ولكن الأمر فيها منوط باجتهاد المحتسب ، حتى يستفتى فيها قلبه ، ويزن أحد المحذورين بالآخر ، ويرجح بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع ، فإن رجح بموجب الدين سمي سكوته مداراة ، وإن رجح بموجب الهوى سمى سكوته مداهنة ، وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق ، ولكن الناقد بصير ، فحق على كل متدين فيه أن يراقب قلبه ، ويعلم أن الله مطلع على باعثه وصارفه إنه الدين أو الهوى ، وستجد كل نفس ما عملت من سوء أو خير محضرا عند الله ولو فى فلتة خاطر ، أو فى فلتة ناظر من غير ظلم وجور ، فما الله بظلام للعبيد

وأما القسم الثانى : وهو فوات الحاصل فهو مكروه ومعتبر فى جواز السكوت فى الأمور الأربعة إلا العلم ، فإن فواته غير مخوف إلا بتقصير منه ، وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال ، وهذا أحد أسباب شرف العلم ، فإنه يدوم فى الدنيا ، ويدوم ثوابه فى الآخرة ، فلا انقطاع له أبد الآباد

وأما الصحة والسلامة : ففواتهما بالضرب ، فكل من علم أنه يضرب ضربا مؤلما يتأذى به فى الحسبة لم تلزمه الحسبة ، وإن كان يستحب له ذلك كما سبق ، وإذا فهم هذا فى الإيلام بالضرب ، فهو فى الجرح والقطع والقتل أظهر

وأما الثروة : فهو بأن يعلم أنه تنهب داره ، ويخرب بيته ، وتسلب ثيابه ، فهذا أيضا يسقط عنه الوجوب ، ويبقى الاستحباب إذ لا بأس بأن يفدي دينه بدنياه ، ولكل واحد من الضرب والنهب حد فى القلة لا يكترث به كالحبة فى المال ، واللطمة الخفيف ألمها فى الضرب ، وحد فى الكسرة يتعين اعتباره ، ووسط يقع فى محل الاشتباه والاجتهاد ، وعلى المتدين أن يجتهد فى ذلك ، ويرجح جانب الدين ما أمكن

وأما الجاه : ففواته بأن يضرب ضربا غير مؤلم ، أو يسب على ملا من الناس ، أو يطرح

منديله فى رقبته ويدارُ به فى البلد ، أو يسود وجهه ويطاف به ، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم للبدن ، وهو قادح فى الجاه ، ومؤلم للقلب ، وهذا له درجات فالصواب أن يقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة ، كالطواف به فى البلد حاسرا حافيا فهذا يرخص له فى السكوت لأن المروءة مأمور بحفظها فى الشرع ، وهذا مؤلم للقلب ألما يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دريهمات قليلة ، فهذه درجة

الثانية ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة . فان الخروج فى ثياب فاخرة تجمل ، وكذلك الركوب للخيول ، فلو علم أنه لو احتسب لكلف المشي فى السوق فى ثياب لا يعتاد هو مثلها أو كلف المشي راجلا وعادته الركوب ، فهذا من جملة المزايا وليست المواظبة على حفظها محمودة ، وحفظ المروءة محمود ، فلا ينبغي أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر ، وفى معنى هذا مالو خاف أن يتعرض له باللسان ، أما فى حضرته بالتجهيل والتحميق ، والنسبة إلى الرياء والبهتان وأما فى غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب ، إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التى ليس إليها كبير حاجة ولو تركت الحسبة بلوم لائم ، أو باغتياب فاسق ، أو شتمه وتعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله ، لم يكن للحسبة وجوب أصلا ، إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة ، وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المغتاب ، ولكن أضافه إليه وأدخله معه فى الغيبة ، فتحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية ، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة ، لأن غيبته أيضا معصية فى حق المغتاب ، ولكن يستحب له ذلك ليفدى عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار ، وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة وعظم الخطر فى السكوت عنها ، فلا يقابله إلا ما عظم فى الدين خطره ، والمال و النفس والمروءة قد ظهر فى الشرع خطرها ، فأما مزايا الجاه والحشمة ودرجات التجمل ، وطلب ثناء الخلق ، فكل ذلك لا خطر له

وأما امتناعه لخوف شىء من هذه المكاره فى حق أولاده وأقاربه ، فهو فى حقه دونه ، لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره ، ومن وجه الدين هو فوقه ، لأن له أن يسامح فى حقوق نفسه ، وليس له المسامحة فى حق غيره ، فإذاً ينبغي أن يمتنع ، فإنه إن

كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية ، كالضرب والنهب ، فليس له هذه الحسبة ، لأنه دفع منكر يفضى إلى منكر ، وإن كان يفوت لا بطريق المعصية فهو إيذاء للمسلم أيضا ، وليس له ذلك إلا برضاهم ، فإذا كان يؤدى ذلك إلى أذى قومه فليتركه ، وذلك كالزاهد الذى له أقارب أغنياء ، فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان ، ولكنه يقصد أقاربه انتقاما منه بواسطتهم ، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها ، فإن إيذاء المسلمين محذور ، كما أن السكوت على المنكر محذور ، نعم إن كان لا ينالهم أذى فى مال أو نفس ، ولكن ينالهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر ، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات فى تفاحشها ، ودرجات الكلام المحذور فى نكايته فى القلب ، وقدحه فى العرض

فإن قيل : فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه ، وكان لا يمتنع عنه إلا بقتال ، ربما يؤدى إلى قتله ، فهل يقاتل عليه ؟ فإن قلتم يقاتل فهو محال ، لأنه إهلاك نفس خوفا من إهلاك طرف ، وفى إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضا

قلنا : يمنعه عنه ، ويقاتله إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه ، بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية ، وقتله فى الحسبة ليس بمعصية ، وقطع طرف نفسه معصية ، وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتى على قتله ، فإنه جائز لا على معنى أنا نفدى درهما من مال مسلم بروح مسلم ، فإن ذلك محال ، ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية ، وقتله فى الدفع عن المعصية ليس بمعصية ، وإنما المقصود دفع المعاصى

فإن قيل : فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه ، فينبغى أن نقتله فى الحال حسما لباب المعصية

قلنا : ذلك لا يعلم يقينا ، ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية ، ولكنا إذا رأيناه فى حال مباشرة القطع دفعناه ، فإن قاتلنا قاتلناه ، ولم نبال بما يأتى على روحه ، فإذاً لمعصية لها ثلاثة أحوال

إحداها . أن تكون متصرمة ، فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير ، وهو إلى الولاة لا إلى الآحاد

الثانية : أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها ، كلبسه الحرير ، وإمساكه العود

والخمر ، فإبطال هذه المعصية واجب بكل مايمكن ، مالم تؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها ، وذلك يثبت للآحاد والرعية

الثالثة أن يكون المنكر متوقعا ، كالذى يستعد بكنس المجلس وتزيينه ، وجمع الرياحين لشرب الخمر ، وبعد لم يحضر الخمر ، فهذا مشكوك فيه ، إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح ، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ، ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة ، وقد أقدم على السبب المؤدى إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ماليس له فيه إلا الانتظار ، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن عند الدخول والخروج ، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته ، فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب ، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف فى نفسه معصية ، وإن كان مقصد العاصى وراءه ، كما أن الخلوة بالأجنبية فى نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية ، وتحصيل مظنة المعصية معصية ، ونعنى بالمظنة مايتعرض الإنسان به لوقوع المعصية غالبا ، بحيث لا يقدر على الانكفاف عنها ، فاذا هو على التحقيق حسبة على معصية راهنة لا على معصية منتظرة

الركن الثانى للحسبة

ما فيه الحسبة

وهو كل منكر موجود فى الحال ، ظاهر للمحتسب بغير تجسس ، معلوم كونه منكرا بغير اجتهاد ، فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها

الأول : كونه منكرا :

ونعنى به أن يكون محذور الوقوع فى الشرع ، وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا ، لأن المنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه وكذا إن رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه منه ، وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل ، وظهوره بين الناس ، بل لو صادف هذا المنكر فى خلوة لوجب المنع منه

وهذا لا يسمى معصية فى حق المجنون، إذ معصية لا عاصى بها محال ، فلفظ المنكر أدلّ عليه وأعم من لفظ المعصية ، وقد أدرجنا فى عموم هذا الصغيرة والكبيرة ، فلا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة فى الحمام ، والخلوة بالأجنبية ، واتباع النظر للنسوة الأجنبيات ، كل ذلك من الصغائر ، ويجب النهى عنها ، وفى الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتى فى كتاب التوبة

الشرط الثانى : أن يكون موجودا فى الحال

وهو احتراز أيضا عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر ، واحتراز عما سيوجد فى ثانى الحال ، كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب فى ليلته ، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ ، وإن أنكر عزمه عليه لم يجز وعظه أيضا فإن فيه إساءة ظن بالمسلم ، وربما صدق فى قوله ، وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق وليتنبه للدقيقة التى ذكرناها ، وهو أن الخلوة بالأجنبية معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء ، وما يجرى مجراه

الشرط الثالث : أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس

فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه وقصة عمر وعبد الرحمن بن عوف فيه مشهورة وقد أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وكذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه ، تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال يا أمير المؤمنين : إن كنتُ أنا قد عصيتُ الله من وجه واحد ، فأنت قد عصيتَه من ثلاثة أوجه ، فقال وما هى ؟ فقال قد قال الله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا[1]) وقد تجسست، وقال تعالى (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا[2]) وقد تسورت من السطح ، وقال (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا[3]) وما سلمت فتركه عمر ، وشرط عليه التوبة ولذلك شاور عمر الصحابة رضى الله عنهم، وهو على المنبر، وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه ، فأشار علىّ رضى الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين ، فلا يكفى فيه واحد

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) : (٣) النور : ٢٧

وقد أوردنا هذه الأخبار فى بيان حق المسلمين من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها

فإن قلت : فما حد الظهور والاستتار

فاعلم أن من أغلق باب داره ، وتستر بحيطانه ، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية ، إلا أن يظهر فى الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار؛ كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار ، فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهى

وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم ، بحيث يسمعها أهل الشوارع ؛ فهذا إظهار موجب للحسبة ، فإذاً إنما يدرك مع تخلل الحيطان صوت أو رائحة فإذا فاحت روائح الخمر ، فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمور المحترمة فلا يجوز قصدها بالإراقة وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب، فهذا محتمل ، والظاهر جواز الحسبة وقد تستر قارورة الخمر فى الكم وتحت الذيل ، وكذلك الملاهى ، فإذا رؤى فاسق ، وتحت ذيله شىء لم يجز أن يكشف عنه مالم يظهر بعلامة خاصة ، فإن فسقه لايدل على أن الذى معه خمر ، إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره ، فلا يجوز أن يستدل بإخفائه وأنه لو كان حلالا لما أخفاه ، لأن الأغراض فى الإخفاء مما تكثر ، وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر ، والظاهر أن له الاحتساب ، لأن هذه علامة تفيد الظن ، والظن كالعلم فى أمثال هذه الأمور ، وكذلك العود ربما يعرف بشكله ، إذا كان الثوب الساتر له رقيقا فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت، وماظهرت دلالته فهو غير مستور، بل هو مكشوف وقد أمرنا بأن نستر ماستر الله ، وننكر على من أبدى لنا صفحته ، والإبداء له درجات، فتارة يبدو لنا بحاسة السمع ، وتارة بحاسة الشم ، وتارة بحاسة البصر ، وتارة بحاسة اللمس، ولا يمكن أن نخصص ذلك بحاسة البصر ، بل المراد العلم ، وهذه الحواس أيضا تفيد العلم فإذاً إنما يجوز أن يكسر ماتحت الثوب إذ علم أنه خمر ، وليس له أن يقول أرنى لأعلم مافيه. فإن هذا تجسس ومعنى التجسس، طلب الأمارات المعرفة، فالأمارة المعرفة إن حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها ، فأما طلب الأمارة المعرفة فلا رخصة فيه أصلا

الشرط الرابع : أن يكون كونه منكراً معلوما بغير اجتهاد

فكل ما هو فى محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى أكله

الضب ، والضبع ، ومتروك التسمية ، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذى ليس بمسكر ، وتناوله ميراث ذوى الأرحام ، وجلوسه فى دار أخذها بشفعة الجوار ، إلى غير ذلك من مجارى الاجتهاد .

نعم : لو رأى الشافعي شافعيا يشرب النبيذ ، وينكح بلاولى ويطأ زوجته ، فهذا فى محل النظر ، والأظهر أن له الحسبة والإنكار ، إذ لم يذهب أحد من المحصلين ، إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهاد غيره ، ولا أن الذى أدى اجتهاده فى التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء ، أن له أن يأخذ بمذهب غيره ، فينتقد من المذاهب أطيبها عنده بل على كل مقلد اتباع مقلده فى كل تفصيل ، فإذاً مخالفته للمقلد متفق على كونه منكراً بين المحصلين ، وهو عاص بالمخالفة ، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغمض منه ، وهو أنه يجوز للحنفي أن يعترض على الشافعى إذا نكح بغير ولى ، بأن يقول له الفعل فى نفسه حق ، ولكن لا فى حقك ، فأنت مبطل بالإقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعى ، ومخالفة ما هو صواب عندك معصية فى حقك ، وإن كانت صوابا عندالله ، وكذلك الشافعى يحتسب على الحنفى إذا شاركه فى أكل الضب ، ومتروك التسمية وغيره ، ويقول له إما أن تعتقد أن الشافعى أولى بالاتباع ، ثم تقدم عليه ، أولا تعتقد ذلك ، فلا تقدم عليه ، لأنه على خلاف معتقدك ، ثم ينجر هذا إلى أمر آخر من المحسوسات ، وهو أن يجامع الأصم مثلا امرأة على قصد الزنا ، وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوجه أبوه إياها فى صغره ، ولكنه ليس يدرى ، وعجز عن تعريفه ذلك لصممه ، أو لكونه غير عارف بلغته ، فهو فى الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ، ومعاقب عليه فى الدار الآخرة ، فينبغى أن يمنعها عنه مع أنها زوجته ، وهو بعيد من حيث إنه حلال فى علم الله ، قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلطه وجهله ، ولا شك فى أنه لو علق طلاق زوجته على صفة فى قلب المحتسب مثلا ، من مشيئة أو غضب أو غيره ، وقد وجدت الصفة فى قلبه ، وعجز عن تعريف الزوجين ذلك ولكن علم وقوع الطلاق فى الباطن ، فإذا رآه يجامعها فعليه المنع ، أعنى باللسان لأن ذلك زنا ، إلا أن الزانى غير عالم به ، والمحتسب عالم بأنها طلقت منه ثلاثا ، وكونهما غير عاصيين

لجهلهما بوجود الصفة لا يخرج الفعل عن كونه منكرا ، ولا يتقاعد ذلك عن زنا المجنون وقد بينا أنه يمنع منه ، فإذا كان يمنع مما هو منكر عند الله وإن لم يكن منكراً عند الفاعل ولا هو عاص به لعذر الجهل ، فيلزم من عكس هذا أن يقال : ما ليس بمنكر عند الله وإنما هو منكر عند الفاعل لجهله ، لا يمنع منه ، وهذا هو الأظهر والعلم عند الله

فتحصل من هذا أن الحنفي لا يعترض على الشافعي فى النكاح بلاولى ، وأن الشافعي يعترض على الشافعي فيه ، لكون المعترض عليه منكرا ، باتفاق المحتسب والمحتسب عليه

وهذه مسائل فقهية دقيقة ، والاحتمالات فيها متعارضة ، وإنما أفتينا فيها بحسب ما ترجح عندنا فى الحال ، ولسنا نقطع بخطأ ترجيح المخالف فيها ، إن رأى أنه لا يجرى الاحتساب إلا فى معلوم على القطع ، وقد ذهب إليه ذاهبون ، وقالوا لا حسبة إلا فى مثل الخمر والخنزير وما يقطع بكونه حراما ، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر فى حق المجتهد ، إذ يبعد غاية البعد ، أن يجتهد فى القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده فى جهة بالدلالات الظنية ، ثم يستدبرها ، ولا يمنع منه لأجل ظن غيره ، لأن الاستدبار هو الصواب

ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يختار من المذاهب ما أراد غير معتد به ، ولعله لا يصح ذهاب ذاهب إليه أصلا ، فهذا مذهب لا يثبت ، وإن ثبت فلا يعتد به

فإن قلت : إذا كان لا يعترض على الحنفى فى النكاح بلاولى ، لأنه يرى أنه حق فينبغى أن لا يعترض على المعتزلى فى قوله : إن الله لا يُرى ، وقوله : وإن الخير من الله ، والشر ليس من الله ، وقوله : كلام الله مخلوق ، ولا على الحشوى فى قوله : إن الله تعالى جسم وله صورة وأنه مستقر على العرش ، بل لا ينبغى أن يعترض على الفلسفى فى قوله : الأجساد لا تبعث وإنما تبعث النفوس ، لأن هؤلاء أيضا أدى اجتهادهم إلى ما قالوه وهم يظنون أن ذلك هو الحق

فإن قلت : بطلان مذهب هؤلاء ظاهر ، فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضا ظاهر ، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يُرى ، والمعتزل ينكرها بالتأويل ، فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفى ، كمسألة النكاح بلاولى ومسألة شفعة الجوار ونظائرهما

فاعلم أن المسائل تنقسم إلى ما يتصور أن يقال فيه كل مجتهد مصيب ، وهى أحكام الأفعال فى الحل والحرمة ، وذلك هو الذى لا يعترض على المجتهدين فيه . إذ لم يعلم خطؤهم قطعا بل ظنا ، وإلى مالا يتصور أن يكون المصيب فيه الاواحدا ، كمسألة الرؤية ، والقدر، وقدم الكلام ، ونفى الصورة ، والجسمية ، والاستقرار عن الله تعالى ، فهذا مما يعلم خطأ المخطىء فيه قطعا ، ولا يبقى لخطئه الذى هو جهل محض وجه ، فإذاً البدع كلها ينبغى أن تحسم أبوابها ، وتنكر على المبتدعين بدعهم ، وإن اعتقدوا أنها الحق ، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم ، وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق ، لأن خطأهم معلوم على القطع ، بخلاف الخطأ فى فى مظان الاجتهاد

فإن قلت : فمهما اعترضت على القدرى ، فى قوله : الشر ليس من الله : إعترض عليك القدرى أيضا ، فى قولك : الشر من الله ، وكذلك قولك . إن الله يُرى ، وفى سائر المسائل إذ المبتدع محق عند نفسه ، والمحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعى أنه محق ، وينكر كونه مبتدعا فكيف يتم الاحتساب

فاعلم أنا لأجل هذا التعارض نقول ، ينظر إلى البلدة التى فيها أظهرت تلك البدعة، فإن كانت البدعة غريبة ، والناس كلهم على السنة ، فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان ، وإن انقسم أهل البلد إلى أهل البدعة ، وأهل السنة ، وكان فى الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة فليس للآحاد الحسبة فى المذاهب إلا بنصب السلطان ، فإذا رأى السلطان الرأى الحق ونصره ، وأذن لواحد أن يزجر المتبدعة عن إظهار البدعة ، كان له ذلك وليس لغيره ، فإن مايكون بإذن السلطان لا يتقابل ، وما يكون من جهة الآحاد فيتقابل الأمر فيه

وعلى الجملة فالحسبة فى البدعة أهم من الحسبة فى كل المنكرات ، ولكن ينبغى أن يراعى فيها هذا التفصيل الذى ذكرناه ، كيلا يتقابل الأمر فيها ، ولا ينجر إلى تحريك الفتنة ، بل لو أذن السلطان مطلقا فى منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق ، أو أن الله لا يُرى ، أو أنه مستقر على العرش مماس له ، أو غير ذلك من البدع لتسلط الآحاد على المنع منه ، ولم يتقابل الأمر فيه ، وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط .

الركن الثالث

المحتسب عليه

وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه فى حقه منكرا ، وأقل ما يكفى فى ذلك أن يكون إنسانا، ولا يشترط كونه مكلفا، إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه، وإن كان قبل البلوغ، ولا يشترط كونه مميزا، إذ بينا أن المجنون لو كان يزنى بمجنونة أو يأتى بهيمة لوجب منعه منه

نعم من الأفعال مالا يكون منكرا فى حق المجنون ، كترك الصلاة والصوم وغيره ولكنا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل ، فإن ذلك أيضا مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح ، وغرضنا الإشارة إلى الصفة التى بها يتهيأ توجه أصل الإنكار عليه لا ما بها يتهيأ للتفاصيل.

فإن قلت فاكتف بكونه حيوانا ، ولا تشترط كونه إنسانا ، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعا لإنسان، لكنا نمنعها منه كما نمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة

فاعلم : أن تسمية ذلك حسبة لاوجه لها ، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر ،ومنع المجنون عن الزنا وإتيان البهيمة لحق الله، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر ، والإنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه لحقين، أحدهما : حق الله تعالى ، فإن فعله معصية ، والثانى : حق المتلف عليه ، فهما علتان تنفصل إحداهما عن الأخرى فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجدت المعصية وسقط حق المجنى عليه بإذنه، فتثبت الحسبة والمنع بإحدى العلتين، والبهيمة إذا أتلفت فقد عدمت المعصية ، ولكن يثبت المنع بإحدى العلتين ، ولكن فيه دقيقة وهو أنا لسنا نقصد باخراج البهيمة منع البهيمة ، بل حفظ مال المسلم إذ البهيمة لو أكلت ميتة، أو شربت من إناء فيه خمر ، أو ماء مشوب بخمر، لم نمنعها منه ، بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات ، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقدرنا على حفظه بغير تعب ، وجب ذلك علينا حفظا للمال ، بل لو وقعت جرة لإنسان من علو ، وتحتها قارورة لغيره ، فتدفع الجرة لحفظ القارورة ، لا لمنع الجرة من السقوط

فإنا لا نقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة ، ونمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة ، وشرب الخمر ، وكذا الصبي لا صيانة للبهيمة المأتية ، أو الخمر المشروب ، بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر ، وتنزيها له من حيث إنه إنسان محترم

فهذه لطائف دقيقة لا يتفطن لها إلا المحققون فلا ينبغي أن يغفل عنها ، ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر ، إذ قد يتردد في منعهما من لبس الحرير وغير ذلك ، وسنتعرض لما نشير إليه في الباب الثالث

فإن قلت : فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع إنسان فهل يجب عليه إخراجها وكل من رأى مالا لمسلم أشرف على الضياع ، هل يجب عليه حفظه ، فإن قلتم إن ذلك واجب ، فهذا تكليف شطط ، يؤدي إلى أن يصير الإنسان مسخرا لغيره طول عمره ، وإن قلتم لا يجب فلم يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير

فنقول : هذا بحث دقيق غامض ، والقول الوجيز فيه أن نقول : مهما قدر على حفظه من الضياع ، من غير أن يناله تعب في بدنه ، أو خسران في ماله ، أو نقصان في جاهه ، وجب عليه ذلك ، فذلك القدر واجب في حقوق المسلم ، بل هو أقل درجات الحقوق ، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة ، وهذا أقل درجاتها ، وهو أولى بالإيجاب من رد السلام فإن الأذى في هذا أكثر من الأذى في ترك رد السلام ، بل لا خلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم ، وكان عنده شهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه ، وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة ، ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لا ضرر على الدافع فيه ، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جاه لم يلزمه ذلك ، لأن حقه مرعى في منفعة بدنه ، وفي ماله وجاهه ، كحق غيره ، فلا يلزمه أن يفدي غيره بنفسه ، نعم الإيثار مستحب ، وتجشم المصاعب لأجل المسلمين قربة ، فأما إيجابها فلا ، فإذاً إن كان يتعب بإخراج البهائم عن الزرع لم يلزمه السعي في ذلك ، ولكن إذا كان لا يتعب بتنبيه صاحب الزرع من نومه أو بإعلامه يلزمه ذلك ، فإهمال تعريفه وتنبيهه كإهماله تعريف القاضي بالشهادة ، وذلك لا رخصة فيه ، ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر ، حتى يقال إن كان لا يضيع من منفعته في مدة اشتغاله بإخراج البهائم ، إلا قدر درهم مثلا . وصاحب الزرع يفوته مال كثير ، فيترجح جانبه

لأن الدرهم الذى له هو يستحق حفظه ، كما يستحق صاحب الألف حفظ الألف، ولا سبيل للمصير إلى ذلك ، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو معصية كالغصب، أوقتل عبد مملوك للغير ، فهذا يجب المنع منه ، وإن كان فيه تعب ما، لأن المقصود حق الشرع، والغرض دفع المعصية ، وعلى الإنسان أن يتعب نفسه فى دفع المعاصى كما عليه أن يتعب نفسه فى ترك المعاصى والمعاصى كلها فى تركها تعب، وإنما الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس، وهي غاية التعب، ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر، بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المحذورات التى يخافها المحتسب

وقد اختلف الفقهاء في مسئلتين ، تقربان من غرضنا

إحـداهما : أن الالتقاط هل هو واجب ، واللقطة ضائعة ، والملتقط مانع من الضياع وساع فى الحفظ ، والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال ، إن كانت اللقطة فى مواضع لو تركها فيه لم تضع ، بل يلتقطها من يعرفها ، أو تترك كما لو كان فى مسجد ، أو رباط ، يتعين من يدخله وكلهم أمناء ، فلا يلزمه الالتقاط ، وإن كانت فى مضيعة نظر ، فإن كان عليه تعب فى حفظها ، كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل ، فلا يلزمه ذلك ، لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك ، وحقه بسبب كونه إنسانا محترما ، والملتقط أيضا إنسان ، وله حق فى أن لا يتعب لأجل غيره، كما لا يتعب غيره لأجله، فإن كانت ذهبا أو ثوبا أو شيئا لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب التعريف ، فهذا ينبغى أن يكون فى محل الوجهين ، فقائل يقول : التعريف والقيام بشرطه فيه تعب ، فلا سبيل إلى إلزامـه ذلك ، إلا أن يتبرع فيلتزم طلبا للثواب ، وقائل يقول : إن هـذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين ، فينزل هذا منزلة تعب الشاهد فى حضور مجلس الحكم ، فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى ، إلا أن يتبرع به ، فإذا كان مجلس القاضى فى جواره لزمه الحضور ، وكان التعب بهذه الخطوات لا يعد تعبا فى غرض إقامة الشهادة ، وأداء الأمانة ، وإن كان فى الطرف الآخر من البلد ،وأحوج إلى الحضور فى الهاجرة وشدة الحر ،فهذا قد يقع فى محل الاجتهاد والنظر ، فإن الضرر الذى ينـال الساعى فى حفظ حق الغير له طرف فى القـلة لا يشك فى أنه لا يبالى به وطرف فى الـكثرة، لا يشك فى أنه لا يلزم احتماله، ووسط يتجاذبه الطرفان

ويكون أبدا فى محل الشبهة والنظر ، وهي من الشبهات المزمنة التى ليس فى مقدور البشر إزالتها ، إذ لا علة تفرق بين أجزائها المتقاربة، ولكن المتقى ينظر فيها لنفسه ويدع ما يريبه إلى مالا يريبه ، فهذا نهاية الكشف عن هذا الاصل م؟

الركن الرابع

نفس الاحتساب

وله درجات وآداب ، أما الدرجات ، فأولها التعرف ، ثم التعريف ، ثم النهى ، ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم ايقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود

أما الدرجة الأولى

وهى التعرف ، ونعنى به طلب المعرفة بجريان المنكر ، وذلك منهى عنه وهو التجسس الذى ذكرناه ، فلا ينبغى أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما فى ثوبه ليعرف شكل المزمار ، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه عما يجرى فى داره

نعم : لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر فى داره ، وبأن فى داره خمرا أعده للشرب ، فله إذ ذاك . أن يدخل داره ، ولا يلزمه الاستئذان ، ويكون تخطى ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ، ككسر رأسه بالضرب للمنع مهما احتاج إليه ، وإن أخبره عدلان أو عدل واحد

وبالجملة كل من تقبل روايته لا شهادته ، ففى جواز الهجوم على داره بقولهم فيه نظر واحتمال ، والأولى أن يمتنع ، لأن له حقا فى أن لا يتخطى داره بغير إذنه ، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين ، فهذا أولى ما يجعل مرادا فيه ، وقد قيل إنه كان نقش خاتم لقمان ، الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت

الدرجة الثانية

التعريف

فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله، وإذا عرف أنه منكر تركه، كالسوادى[1] يصلى ولا يحسن الركوع والسجود، فيعلم أن ذلك لجهله، بأن هذا ليست بصلاة، ولو رضى بأن لا يكون مصليا لترك أصل الصلاة، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف، وذلك لأن فى ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق، والتجهيل إيذاء، وقلما يرضى الانسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور، لاسيما بالشرع، ولذلك ترى الذى يغلب عليه الغضب، كيف يغضب إذا نبه على الخطأ والجهل، وكيف يجتهد فى مجاحدة الحق بعد معرفته، خيفة من أن تنكشف عورة جهله، والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية لأن الجهل قبح فى صورة النفس، وسواد فى وجهه، وصاحبه ملوم عليه، وقبح السوأتين يرجع إلى صورة البدن، والنفس أشرف من البدن، وقبحها أشد من قبح البدن، ثم هو غير ملوم عليه، لأنه خلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله، ولا فى إختياره إزالته وتحسينه والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله، ويعظم ابتهاجه فى نفسه بعلمه، ثم لذته عند ظهور جمال علمه لغيره، وإذا كان التعريف كشفا للعورة مؤذيا للقلب، فلا بد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق

فنقول له: إن الإنسان لا يولد عالما، ولقد كنا أيضا جاهلين بأمور الصلاة، فعلمنا العلماء ولعل قريتك خالية عن أهل العلم، أو عالمها مقصر فى شرح الصلاة، وإيضاحها إنما شرط الصلاة الطمأنينة فى الركوع والسجود، وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء فإن إيذاء المسلم حرام محذور، كما أن تقريره على المنكر محذور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول على التحقيق، وأما إذا وقفت على خطأ فى غير أمر الدين، فلا ينبغي أن ترده عليه فانه يستفيد منك علما، ويصير لك عدوا، إلا إذا علمت أنه يغتنم العلم، وذلك عزيز جدا

---

(١) السوادي: الجاهل من أهل الريف

الدرجة الثالثة

النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى

وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا، أو فيمن أصرّ عليه بعد أن عرف كونه منكرا، كالذى يواظب على الشرب أو على الظلم. أو على اغتياب المسلمين، أو ما يجرى مجراه فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك، وتحكى له سيرة السلف، وعبادة المتقين وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه، ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه، إذ المسلمون كنفس واحدة، وهاهنا آفة عظيمة ينبغى أن يتوقاها، فإنها مهلكة، وهى أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل، فربما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التميز بشرف العلم، وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل، فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح فى نفسه من المنكر الذى يعترض عليه، ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، وهذه مذلة عظيمة، وغائلة هائلة، وغرور للشيطان يتدلى بحبله كل إنسان، إلا من عرّفه الله عيوب نفسه، وفتح بصيرته بنور هدايته فإن فى الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين، أحدهما: من جهة دالة العلم، والآخر من جهة دالة الاحتكام والسلطنة، وذلك يرجع إلى الرياء، وطلب الجاه، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفى، وله محك ومعيار ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الانسان عن المنكر بنفسه، أو باحتساب غيره، أحب إليه من امتناعه باحتسابه، فإن كانت الحسبة شاقة عليه، ثقيلة على نفسه، وهو يود أن يكفى بغيره، فليحتسب فإن باعثه هو الدين، وإن كان اتعاظ ذلك العاصي بوعظه، وانزجاره بزجره، أحب إليه من اتعاظه بوعظ غيره، فما هو إلا متبع هوى نفسه، ومتوسل إلى إظهار جاه نفسه بواسطة حسبته، فليتق الله تعالى، وليحتسب أوّلا على نفسه، وعند هذا يقال ما قيل لعيسى عليه السلام، يا ابن مريم: عظ نفسك فإن اتعظتَ فعظ الناس، وإلا فاستحى منى وقيل لداود الطائى رحمه الله، أرأيت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء، فأمرهم بالمعروف

ونهاهم عن المنكر ، فقال : أخاف عليه السوط ، قال إنه يقوى عليه ، قال أخاف عليه السيف قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب

الدرجة الرابعة

السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن

وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادي الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول ابراهيم عليه السلام (أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١)) ولسنا نعني بالسب الفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ، ولا الكذب ، بل أن يخاطبه بما فيه ، مما لا يعد من جملة الفحش كقوله يافاسق ياأحمق ياجاهل ، ألا تخاف الله وكقوله ياسوادياغبي ، وما يجرى هذا المجرى فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل ، ولولا حمقه لما عصى الله تعالى ، بل كل من ليس بكيّس فهو أحمق ، والكيِّس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة ، حيث قال(١) « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ والْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » ، ولهذه الرتبة أدبان

أحدهما : أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة ، والعجز عن اللطف ، والثاني : أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه ! فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه ، بل يقتصر على قدر الحاجة ، فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره ، فلا ينبغي أن يطلقه بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له ، والإزدراء بمحله ، لأجل معصيته وإن علم أنه لو تكلم ضرب ، ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب، لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب ، بل يلزمه أن يقطب وجهه ، ويظهر الإنكار له

الدرجة الخامسة

التغيير باليد

وذلك ككسر الملاهي ، وإراقة الخمر ؛ وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير ، وإخراجه من الدار المغصوبة

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ الحديث : الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

(١) الأنبياء : ٦٧

بالجر برجله ، وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا ، وهو جنب ، وما يجرى مجراه ، ويتصور ذلك فى بعض المعاصى دون بعض ، فأما معاصى اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصى وجوارحه الباطنة وفى هذه الدرجة أدبان

أحدهما : أن لا يباشر بيده التغيير ، ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك ، فاذا أمكنه أن يكلفه المشي فى الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد ، فلا ينبغى أن يدفعه أو يجره وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهى ، وحل دروز[1] ثوب الحرير ، فلا ينبغى أن يباشر ذلك بنفسه ، فان فى الوقوف على حد الكسر نوع عسر ؛ فاذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه ، وتولاه من لا حجر عليه فى فعله

الثانى : أن يقتصر فى طريق التغيير على القدر المحتاج إليه ، وهو أن لا يأخذ بلحيته فى الاخراج ولا برجله إذا قدر على جره بيده ، فان زيادة الأذى فيه مستغنى عنه ، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط ، ولا يحرق الملاهى والصليب الذى أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر ، وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج فى استئناف إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناف من الخشب ابتداء ، وفى إراقة الخمور يتوقى كسر الأوانى إن وجد إليه سبيلا ، فان لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك وسقطت قيمة الظرف ، وتقومه بسبب الخمر ، إذ صار حائلا بينه وبين الوصول الى إراقة الخمر ، ولو ستر الخمر ببدنه لكنا نقصد بدنه بالجرح والضرب ، لنتوصل إلى إراقة الخمر ، فاذا لا تزيد حرمة ملكه فى الظروف على حرمة نفسه ، ولو كان الخمر فى قوارير ضيقة الرؤس ولو اشتغل باراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه ، فله كسرها فهذا عذر ، وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ، ولكن كان يضيع فى زمانه وتتعطل عليه أشغاله ، فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله ، لأجل ظروف الخمر وحيث كانت الاراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان

فإن قلت : فهلا جاز الكسر لأجل الزجر ، وهلا جاز الجر بالرجل فى الإخراج عن الارض المغصوبة ، ليكون ذلك أبلغ فى الزجر

فاعلم : أن الزجر إنما يكون عن المستقبل ، والعقوبة تكون على الماضى ، والدفع على الحاضر الراهن

---

[1] دروز جمع درز وهو الارتفاع الذى يحصل فى الثوب إذا جمع طرفاه فى الخياطه وهو فارس معرب

وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع ، وهو إعدام المنكر ، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة ، أوزجر عن لاحق ، وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية،نعم : الوالى له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه

وأقول : له أن يأمر بكسر الظروف التى فيها الخمور زجرا ، (١) وقد فعل ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيدا للزجر ، ولم يثبت نسخه ، ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفطام شديدة ، فإذا رأى الوالى باجتهاده مثل تلك الحاجة جاز له مثل ذلك ، وإذا كان هذا منوطا بنوع اجتهاد دقيق ، لم يكن ذلك لآحاد الرعية

فإن قلت : فليجز للسلطان زجر الناس عن المعاصى ، بإتلاف أموالهم ،وتخريب دورهم التى فيها يشربون ويعصون ، وإحراق أموالهم التي بها يتوصلون إلى المعاصى

فاعلم ، أن ذلك لو ورد الشرع به ، لم يكن خارجا عن سنن المصالح ، ولكنا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها ، وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة ، وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخا ، بل الحكم يزول بزوال العلة ، ويعود بعودها ، وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ، ومنعنا آحاد الرعية منه، لخفاء وجه الاجتهاد فيه ، بل نقول لو أريقت الخمور أولا ، فلا يجوز كسر الأوانى بعدها ، وإنما جاز كسرها تبعا للخمر ، فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال ، إلا أن تكون ضارية بالخمر لا تصلح إلا لها ، فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقرونا بمعنيين

أحدهما : شدة الحاجة إلى الزجر ، والآخر : تبعية الظروف للخمر التى هى مشغولة بها وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما ، ومعنى ثالث . وهو صدوره عن رأى صاحب الأمر لعلمه بشدة الحاجة إلى الزجر ، وهو أيضا مؤثر ، فلا سبيل إلى إلغائه فهذه تصرفات دقيقة فقهية ، يحتاج المحتسب لا محالة إلى معرفتها

---

(١) حديث تكسير الظروف التى فيها الخمور فى زمنه صلى الله عليه وسلم : الترمذى من حديث أبى طلحة انه قال يانبى الله انى اشتريت خمرا لايتام فى حجرى قال اهرق الخمر واكسر الدنان وفيه ليث ابن أبى سليم والاصح رواية السدى عن يحى بن عباد عن أنس ان أباطلحة كان عندى قاله الترمذى

الدرجة السادسة

التهديد والتخويف كقوله دع عنك هذا ، أولأ كسرن رأسك ، أولأ ضربن رقبتك أو لآمرن بك وما أشبهه ، وهذا ينبغي أن يقدم على تحقيق الضرب إذ أمكن تقديمه ، والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لايجوز له تحقيقه ، كقوله لأنهبن دارك أو لأضربن ولدك، أو لأسبين زوجتك ، وما يجرى مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام وإن قاله من غير عزم فهو كذب ، نعم : إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال ، وله أن يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه ، وليس ذلك من الكذب المحذور ، بل المبالغة في مثل ذلك معتادة ، وهو معنى مبالغة الرجل في إصلاحه بين شخصين ، وتأليفه بين الضرتين ، وذلك مما قد رخص فيه للحاجة ، وهذا في معناه ، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص ، وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس ، أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل ، لأن الخلف في الوعيد كرم ، وإنما يقبح أن يعد بما لا يفعل ، وهذا غير مرضى عندنا ، فإن الكلام القديم لايتطرق إليه الخلف ، وعدا كان أو وعيدا ، وإنما يتصور هذا في حق العباد ، وهو كذلك إذ الخلف في الوعيد ليس بحرام

الدرجة السابعة

مباشرة الضرب باليد والرجل ، وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع ، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف ، والقاضي قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس ، فإن أصر المحبوس ، وعلم القاضي قدرته على أداء الحق ، وكونه معاندا فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه وكذلك المحتسب يراعي التدريج ، فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك مالم تثر فتنة ، كما لو قبض فاسق مثلا على امرأة أو كان يضرب بمزمار معه ، وبينه وبين المحتسب نهر حائل ، أو جدار مانع ، فيأخذ قوسه

ويقول له خل عنها أو لأرمينك ، فإن لم يخل عنها فله أن يرمى ، وينبغى أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ، ويراعى فيه التدريج ، وكذلك يسل سيفه ، ويقول اترك هذا المنكر أو لأضربنك ، فكل ذلك دفع للمنكر ، ودفعه واجب بكل ممكن ، ولا فرق فى ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله وما يتعلق بالآدميين ، وقالت المعتزلة : ما لا يتعلق بالآدميين فلا حسبة فيه الا بالكلام أو بالضرب ، ولكن للإمام لا للآحاد

الدرجة الثامنة

أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح ، وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدى ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا ، فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتياجه إلى إذن الإمام

فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك ، لأنه يؤدى إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد

وقال آخرون : لا يحتاج إلى الإذن وهو الأقيس ، لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تجر إلى ثوان ، والثوانى إلى ثوالث ، وقد ينتهى لا محالة إلى التضارب والتضارب يدعو إلى التعاون ، فلا ينبغى أن يبالى بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع معاصيه ، ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار ، قمعا لأهل الكفر ، فكذلك قمع أهل الفساد جائز ، لأن الكافر لا بأس بقتله ، والمسلم إن قتل فهو شهيد ، فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله والمحتسب المحق إن قتل مظلوما فهو شهيد

وعلى الجملة فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر فى الحسبة ، فلا يغير به قانون القياس ، بل يقال كل من قدر على دفع منكر ، فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه ، فالمسألة إذاً محتملة كما ذكرناه ، فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق

بيان آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب فى آحاد الدرجات ، ونذكر الآن جملها ومصادرها ، فنقول :

جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات فى المحتسب ، العلم ، والورع ، وحسن الخلق

أما العلم ، فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ، ومجاريها وموانعها ، ليقتصر على حد الشرع فيه

والورع : ليردعه عن مخالفة معلومه ، فما كل من علم عمل بعلمه ، بل ربما يعلم أنه مسرف فى الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض وليكن كلامه ووعظه مقبولا ، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ، ويورث ذلك جراءة عليه

وأما حسن الخلق : فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل الباب ، وأسبابه والعلم والورع لا يكفيان فيه ، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع فى قمعه ، مالم يكن فى الطبع قبوله بحسن الخلق ، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة ، والغضب ، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه فى دين الله ، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم ، أو ضرب ، نسى الحسبة ، وغفل عن دين الله ، واشتغل بنفسه ، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات ، وبها تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرة ، لمجاوزة حد الشرع فيها ، ودل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم [1] « لاَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ إِلاَّ رَفِيقٌ فِيماَ يَأْمُرُ بِهِ رَفِيقٌ فِيماَ يَنْهَى عَنْهُ حَلِيمٌ فِيماَ يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمٌ فِيماَ يَنْهَى عَنْهُ فَقِيهٌ فِيماَ يَأْمُرُ بِهِ فَقِيهٌ فِيماَ يَنْهَى عَنْهُ » وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيها مطلقا ، بل فيما يأمر به وينهى عنه ، وكذا الحلم

قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : إذا كنت ممن يأمر بالمعروف ، فكن من آخذ الناس به ، وإلا هلكت ، وقد قيل

---

(١) حديث لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر الا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهي عنه ـ الحديث : لم أجده هكذا والبيهقى فى الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من أمر بمعرف فليكن أمره بمعروف

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله فإنما يزرى على عقله

ولسنا نعنى بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ، ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس ، فقد روى عن أنس رضى الله عنه ، قال قلنا يارسول الله ، [1] لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ، ولا نهى عن المنكر حتى نجتنبه كله ، فقال صلى الله عليه وسلم « بَلْ مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ »

وأوصى بعض السلف بنيه فقال . إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر ، وليثق بالثواب من الله ، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى ، فإذاً من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر ، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف ،فقال حاكيا عن لقمان (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ [1])

ومن الآداب تقليل العلائق ، حتى لا يكثر خوفه ، وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة ، فقد روى عن بعض المشايخ ، أنه كان له سنور ، وكان يأخذ من قصاب فى جواره كل يوم شيئا من الغدد لسنوره ، فرأى على القصاب منكرا ، فدخل الدار أولا وأخرج السنور ، ثم جاء واحتسب على القصاب ، فقال له القصاب لأعطينك بعد هذا شيئا لسنورك ، فقال مااحتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك ، وهو كما قال ، فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة ، ومن طمع فى أن تكون قلوب الناس عليه طيبة ، وألسنتهم بالثناء عليه مطلقة ، لم تتيسر له الحسبة

قال كعب الأحبار لأبى مسلم الخولانى ، كيف منزلتك بين قومك ؟ قال حسنة ، قال إن التوراة تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه فقال أبو مسلم : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم

---

(١) حديث أنس قلنا يارسول الله لانأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولاننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله فقال صلى الله عليه وسلم بل مروا بالمعروف وان لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وان لم تجتنبوه كله: الطبرانى فى المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه

---

(١) لقمان : ١٧

ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ ، وعنف له فى القول فقال يارجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأمره بالرفق فقال تعالى (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (١)) فليكن اقتداء المحتسب فى الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم ، فقد روى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم (١) فقال يانبي الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم قربوه أدن فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام « أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ » فقال : لا ، جعلنى الله فداك قال « كَذلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ أَتُحِبُّهُ لاِبْنَتِكَ ؟ » قال : لا جعلنى الله فداك قال « كَذلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ أَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ » وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة ، وهو يقول فى كل واحد لا ، جعلنى الله فداك ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول كذلك الناس لايحبونه ، وقالا جميعا فى حديثهما أعنى ابن عوف والراوى الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال « اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبَهُ وَاغْفِرْ ذَنْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضُ إِلَيْهِ مِنْهُ » يعنى من الزنا

وقيل للفضيل ابن عياض رحمه الله إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان، فقال الفضيل ما أخذ منهم إلا دون حقه ، ثم خلا به وعذله ووبخه ، فقال سفيان : ياأبا علي إن لم نكن من الصالحين فإنا لنحب الصالحين ، وقال حماد بن سلمة : إن صلة بن أشيم ، مر عليه رجل قد أسبل إزاره ، فهمّ أصحابه أن يأخذوه بشدة ، فقال دعونى أنا أكفيكم ، فقال ياابن أخى إن لى إليك حاجة قال وما حاجتك ياعم ؟ قال أحب أن ترفع من إزارك ، فقال : نعم وكرامة فرفع إزاره فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدة لقال لا ولا كرامة وشتمكم، وقال محمد بن زكريا الغلابى : شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة ، وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله . وإذا فى طريقه غلام من قريش سكران ، وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس يضربونه ، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه ، فقال للناس : تنحوا عن ابن أخى

---

(١) حديث أبى أمامة ان شابا قال يارسول الله ائذن لى فى الزنا فصاح الناس به الحديث : رواه أحمد باسناد جيد رجاله رجال الصحيح

(١) طه : ٤٤

ثم قال . إلىّ يابن أخى : فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ، ثم قال له : امض معى فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار ، وقال لبعض غلمانه : بيته عندك ، فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ، ولا تدعه ينصرف حتى تأتينى به ، فلما أفاق ذكر له ماجرى فاستحيا منه وبكى ، وهمّ بالانصراف ، فقال الغلام قد أمر أن تأتيه فأدخله عليه ، فقال له أما استحييت لنفسك ؟ أما استحييت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه ، فبكى الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله تعالى عهداً يسألنى عنه يوم القيامة ، أنى لا أعود لشرب النبيذ ، ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب ، فقال إدن منى فقبل رأسه ، وقال : أحسنت يا بنى ، فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث ، وكان ذلك ببركة رفقه ثم قال : إن الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويكون معروفهم منكرا ، فعليكم بالرفق فى جميع أموركم ، تنالون به ماتطلبون ، وعن الفتح بن شخرف قال : تعلق رجل بامرأة وتعرض لها ، وبيده سكين لايدنو منه أحد إلا عقره ، وكان الرجل شديد البدن فبينا الناس كذلك ، والمرأة تصيح فى يده ، إذ مر بشر بن الحارث فدنا منه ، وحك كتفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل على الأرض ، ومشى بشر ، فدنوا من الرجل وهو يترشح عرقا كثيرا ، ومضت المرأة لحالها ، فسألوه ماحالك ؟ فقال ماأدرى ، ولكنى حاكنى شيخ وقال لى إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ماتعمل ، فضعفت لقوله قدماى ، وهبته هيبة شديدة ، ولا أدرى من ذلك الرجل ، فقالوا له هو بشر بن الحارث ، فقال واسوأتاه كيف ينظر إلى بعد اليوم ، وحم الرجل من يومه ، ومات يوم السابع

فهكذا كانت عادة أهل الدين فى الحسبة ، وقد نقلنا فيها آثارا وأخبارا فى باب البغض فى الله والحب فى الله ، من كتاب آداب الصحبة ، فلا نطول بالإعادة ، فهذا تمام النظر فى درجات الحسبة وآدابها ، والله الموفق بكرمه ، والحمد لله على جميع نعمه

الباب الثالث

فى المنكرات المألوفة فى العادات

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع فى حصرها واستقصائها فمن ذلك

منكرات المساجد

اعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة ، فإذا قلنا . هذا منكر مكروه ، فاعلم أن المنع منه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام إلا إذالم يعلم الفاعل أنه مكروه ، فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم فى الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه ، وإذا قلنا : منكر محظور ، أو قلنا : منكر مطلقا فنريد به المحظور ، ويكون السكوت عليه مع القدرة محظور

فمما يشاهد كثيرا فى المساجد ، إساءة الصلاة بترك الطمأنينة فى الركوع والسجود ، وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث ، فيجب النهى عنه ، إلا عند الحنفى الذى يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة ، إذ لا ينفع النهى معه ، ومن رأى مسيئا فى صلاته فسكت عليه فهو شريكه ، هكذا ورد به الأثر ، وفى الخبر مايدل عليه ، إذ ورد فى الغيبة (١) أن المستمع شريك القائل ، وكذلك كل ما يقدح فى صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو عمى ، فكل ذلك تجب الحسبة فيه

ومنها قراءة القرءان باللحن ، يجب النهى عنه ، ويجب تلقين الصحيح ، فإن كان المعتكف فى المسجد يضيع أكثر أوقاته فى أمثال ذلك ، ويشتغل به عن التطوع والذكر ، فليشتغل به ، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوعه ، لأن هذا فرض ، وهى قربة تتعدى فائدتها ، فهى أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدتها ، وإن كان ذلك يمنعه عن الوراقة مثلا ، أو عن الكسب الذى هو طعمته ، فإن كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ، ولم يجز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا ، وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له ، فيسقط الوجوب عنه لعجزه والذى يكثر اللحن فى القرءان ، إن كان قادرا على التعلم فليمتنع من القراءة

﴿ الباب الثالث فى المنكرات المؤلفة ﴾

(١) حديث للغتاب والمستمع شريكان فى الاثم : تقدم فى الصوم

قبل التعلم ، فإنه عاص به ، وإن كان لا يطاوعه اللسان ، فإن كان أكثر ما يقرؤه لحنا ، فليتركه وليجتهد فى تعلم الفاتحة وتصحيحها وإن كان الأكثر صحيحا وليس يقدر على التسوية ، فلا بأس له أن يقرأ ، ولكن ينبغى أن يخفض به الصوت ، حتى لا يسمع غيره ولمنعه سرا منه أيضا وجه ، ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته ، وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها ، فلست أرى به بأسا ، والله اعلم

ومنها: تراسل المؤذنين فى الأذان ، وتطويلهم مد كلماته ، وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر فى الحيعلتين ، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ، ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر ، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان ، لتداخل الأصوات ، فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها ، فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها ، وكذلك إذا كان للمسجد مؤذن واحد ، وهو يؤذن قبل الصبح ، فينبغى أن يمنع من الأذان بعد الصبح ، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس ، إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح ، حتى لا يعول على أذانه فى صلاة ، وترك سحور ، أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح

ومن المكروهات أيضا تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر فى مسجد واحد فى أوقات متعاقبة متقاربة ، إما من واحد أو جماعة فإنه لا فائدة فيه ، إذ لم يبق فى المسجد نائم ، ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى ينبه غيره ، فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف

ومنها: أن يكون الخطيب لابسا ثوب أسود ، يغلب عليه الابريسم ، أو ممسكا لسيف مذهب ، فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وأما مجرد السواد فليس بمكروه ، لكنه ليس بمحبوب ، إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض ، ومن قال إنه مكروه وبدعة ، أراد به أنه لم يكن معهودا فى العصر الأول ، ولكن إذا لم يرد فيه نهى ، فلا ينبغى أن يسمى بدعة ومكروها ولكنه ترك للأحب

ومنها: كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلام البدعة ، فالقاص إن كان يكذب فى أخباره فهو فاسق ، والإنكار عليه واجب . وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه : ولا يجوز حضور مجلسه . إلا على قصد إظهار الرد عليه . إما للكافة إن قدر عليه ، أو لبعض الحاضرين حواليه فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدعة ، قال الله تعالى لنبيه (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ [1]) ومهما كان كلامه مائلا إلى الأرجاء، وتجرئة الناس على المعاصى ، وكان الناس يزدادون بكلامه جراءة ، وبعفو الله وبرحمته وثوقا يزيد بسببه رجاؤهم على خوفهم فهو منكر : ويجب منعه عنه ، لأن فساد ذلك عظيم ، بل لو رجح خوفهم على رجائهم ، فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق ، فإنهم إلى الخوف أحوج ؛ وإنما العدل تعديل الخوف والرجاء كما قال عمر رضى الله عنه ، لو نادى مناد يوم القيامة ، ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نادى مناد ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ومهما كان الواعظ شابا متزينا للنساء فى ثيابه ، وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات : وقد حضر مجلسه النساء : فهذا المنكر يجب المنع منه فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح ، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله ، بل لا ينبغى أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع ، وهيئته السكينة والوقار ، وزيه زى الصالحين ، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تماديا فى الضلال

ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر ، فإن ذلك أيضا مظنة الفساد ، والعادات تشهد لهذه المنكرات ؛ ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة بهن ، فقد منعتهن عائشة رضى الله عنها . فقيل لها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منعهن من الجماعات ، فقالت . لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ما أحدثن بعده لمنعهن

وأما اجتياز المرأة فى المسجد مستترة فلا تمنع منه ، إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد مجازا أصلا ، وقراءة القراء بين يدى الوعاظ مع التمديد والألحان على وجه يغير نظم القرءان

---

(١) حديث عائشة لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن أى النساء من بعده لمنعهن المساجد متفق عليه

---

(١) الأنعام : ٦٨

ويجاوز حد التنزيل ؛ منكر مكروه ، شديد الكراهة ، أنكره جماعة من السلف

ومنها: الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة ، والتعويذات ، وكقيام السؤال ، وقراءتهم القرءان وإنشادهم الأشعار وما يجرى مجراه ، فهذه الأشياء منها ما هو محرم ، لكونه تلبيسا وكذبا ، كالكذابين من طرقية الأطباء وكأهل الشعبذة والتلبيسات ، وكذا أرباب التعويذات فى الأغلب ، يتوصلون إلى بيعها بتلبيسات على الصبيان والسوادية ، فهذا حرام فى المسجد وخارج المسجد ، ويجب المنع منه ، بل كل بيع فيه كذب وتلبيس وإخفاء عيب على المشترى فهو حرام

ومنها :ما هو مباح خارج المسجد ، كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة ، فهذا فى المسجد أيضا لا يحرم إلا بعارض ، وهو أن يضيق المحل على المصلين ، ويشوش عليهم صلاتهم : فإن لم يكن شىء من ذلك فليس بحرام ، والأولى تركه ، ولكن شرط إباحته أن يجرى فى أوقات نادرة وأيام معدودة ، فإن اتخذ المسجد دكانا على الدوام حرم ذلك ومنع منه ، فمن المباحات ما يباح بشرط القلة ، فإن كثر صار صغيرة ، كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار ، فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه لخيف منه أن ينجر إلى الكثير فليمنع منه ، وليكن هذا المنع إلى الوالى أو إلى القيم بمصالح المسجد من قبل الوالى ، لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد ، وليس للآحاد المنع مما هو مباح فى نفسه لخوفه أن ذلك يكثر

ومنها: دخول المجانين والصبيان السكارى فى المسجد ، ولا بأس بدخول الصبى المسجد إذا لم يلعب ولا يحرم عليه اللعب فى المسجد ، ولا السكوت على لعبه ، إلا إذا اتخذ المسجد ملعبا ، وصار ذلك معتادا ، فيجب المنع منه ، فهذا مما يحل قليله دون كثيره

ودليل حل قليله ، ما روى فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف لأجل عائشة رضى الله عنها ، حتى نظرت إلى الحبشة يزفنون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد فى المسجد ، ولا شك فى أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعبا لمنعوا منه ، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكرا ، حتى نظر إليه بل أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبصرهم عائشة تطييبا لقلبها ، إذ قال « دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ » كما نقلناه فى كتاب السماع

وأما المجانين : فلا بأس بدخولهم المسجد ، إلا أن يخشى تلويثهم له ، أو شتمهم أو نطقهم بما هو فحش ، أو تعاطيهم لما هو منكر فى صورته : ككشف العورة وغيره ، وأما المجنون

الهادىء الساكن الذى قد علم بالعادة سكونه وسكوته ، فلا يجب إخراجه من المسجد والسكران فى معنى المجنون ، فإن خيف منه القذف . أعنى القىء أو الإيذاء باللسان ، وجب إخراجه ، وكذا لو كان مضطرب العقل ، فإنه يخاف ذلك منه ، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح ، فهو منكر مكروه شديد الكراهة ، وكيف لا ، ومن أكل الثوم والبصل فقد نهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور المساجد (١) ولكن يحمل ذلك على الكراهة ، والأمر فى الخمر أشد

فإن قال قائل . ينبغى أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجرا

قلنا : لا بل ينبغى أن يلزم القعود فى المسجد ويدعى إليه ، ويؤمر بترك الشرب مهما كان فى الحال عاقلا فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الآحاد ، بل هو إلى الولاة وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين : فأما لمجرد الرائحة فلا : نعم : إذا كان يمشى بين الناس متمايلا بحيث يعرف سكره . فيجوز ضربه فى المسجد وغير المسجد ، منعا له عن إظهار أثر السكر ، فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة ، والمعاصى يجب تركها ، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها ، فإن كان مستترا مخفيا لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه ، والرائحة قد تفوح من غير شرب ، بالجلوس فى موضع الخمر وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع ، فلا ينبغى أن يعول عليه

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة فى الأسواق الكذب فى المرابحة ، وإخفاء العيب ، فمن قال اشتريت هذه السلعة مثلا بعشرة وأربح فيها كذا ، وكان كاذبا ، فهو فاسق ، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشترى بكذبه ، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكا له فى الخيانة وعصى بسكوته ، وكذا إذا علم به عيبا فيلزمه أن ينبه المشترى عليه ، وإلا كان راضيا بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام ، وكذا التفاوت فى الذراع والمكيال والميزان ، يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالى حتى يغيره

ومنها : ترك الإيجاب والقبول ، والاكتفاء بالمعاطاة ، ولكن ذلك فى محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه ، وكذا فى الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس ، يجب

---

(١) هذا الحديث : لم يخرجه العراقى وقد خرجه الشارح عن البخارى ومسلم وغيرهما

الإنكار فيها، فإنها مفسدة للعقود، وكذا في الربويات كلها وهي غالبة وكذا سائر التصرفات الفاسدة

ومنها : بيع الملاهي ، وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد ، لأجل الصبيان فتلك يجب كسرها ، والمنع من بيعها كالملاهي ، وكذلك بيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير وقلانس الذهب والحرير ، أعني التي لا تصلح إلا للرجال أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور ، وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة ، التي يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب ، وكذلك تلبيس انخراق الثياب بالرفو ، وما يؤدي إلى الالتباس ، وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبيسات ، وذلك يطول إحصاؤه فليقس بما ذكرناه مالم نذكره

منكرات الشوارع

فمن المنكرات المعتادة فيها وضع الاسطوانات ، وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة ، وغرس الأشجار ، وإخراج الرواشن والأجنحة ، ووضع الخشب ، وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق ، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة ، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلا ، لسعة الطريق فلا يمنع منه

نعم: يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق ، في القدر الذي ينقل إلى البيوت فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ، ولا يمكن المنع منه ، وكذلك ربط الدواب على الطريق ، بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه ، إلا بقدر حاجة النزول والركوب ، وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة ، وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة ، والمرعى هو الحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات

ومنها: سوق الدواب وعليها الشوك ، بحيث يمزق ثياب الناس ، فذلك منكر إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك ، نعم. لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل ، وكذلك تحميل الدواب من الأحمال مالا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه ، وكذلك ذبح القصاب إذا كان

يذبح فى الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم ، فإنه منكر يمنع منه بل حقه أن يتخذ فى دكانه مذبحا ، فإن فى ذلك تضييقا بالطريق ، وإضرارا بالناس ، بسبب ترشيش النجاسة ، وبسبب استقذار الطباع للقاذورات ، وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق وتبديد قشور البطيخ ، أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر ، كل ذلك من المنكرات وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط فى الطريق الضيقة ، فإن ذلك ينجس الثياب ، أو يضيق الطريق ، فلا يمنع منه فى الطرق الواسعة إذا العدول عنه ممكن ، فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج فى الطرق من غير كسح فذلك منكر ، ولكن ليس يختص به شخص معين إلا الثلج الذى يختص بطرحه على الطريق واحد ، والماء الذى يجتمع على الطريق من ميزاب معين ، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق ، وإن كان من المطر فذلك حسبة عامة ، فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها ، وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذى الناس فيجب منعه منه ، وإن كان لا يؤذى إلا بتنجيس الطريق ، وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه ، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه ، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق ، فكلبه أولى بالمنع

منكرات الحمامات

منها : الصور التى تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعا لا تصل إليه يده ، فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر ، فإن مشاهدة المنكر غير جائزة ، ويكفيه أن يشوه وجهها ، ويبطل به صورتها ، ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان

ومنها : كشف العورات والنظر إليها ، ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ ، وما تحت السرة ، لتنحية الوسخ ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار ، فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها

ومنها : الانبطاح على الوجه بين يدى الدلاك ، لتغميز الأفخاذ والأعجاز ، فهذا مكروه

إن كان مع حائل ، ولكن لا يكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة، وكذلك كشف العورة للحجام الذمى من الفواحش، فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنها للذمية فى الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال

ومنها غمس اليد والأوانى النجسة فى المياه القليلة ، وغسل الإزار والطاس النجس فى الحوض وماؤه قليل ، فإنه منجس للماء إلا على مذهب مالك ، فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ، ويجوز على الحنفية والشافعية ، وإن اجتمع مالكى وشافعى فى الحمام فليس للشافعى منع المالكى من ذلك إلا بطريق الالتماس واللطف ، وهو أن يقول له إنا نحتاج أن نغسل اليد أولا ، ثم نغمسها فى الماء ، وأما أنت فمستغن عن إيذائى ، وتفويت الطهارة علىّ ، وما يجرى مجرى هذا ، فإن مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالقهر

ومنها، أن يكون فى مداخل بيوت الحمام ومجارى مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون ، فهذا منكر ويجب قلعه وإزالته ، وينكر على الحمامى إهماله ، فانه يفضى إلى السقطة وقد تؤدّى السقطة إلى انكسار عضو أو انخلاعه ، وكذلك ترك السدر والصابون المزلق على أرض الحمام منكر ، ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به إنسان وانكسر عضو من أعضائه ، وكان ذلك فى موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه ، فالضمان متردد بين الذى تركه ، وبين الحمامى ، إذ حقه تنظيف الحمام ، والوجه إيجاب الضمان على تاركه فى اليوم الأول ، وعلى الحمامى فى اليوم الثانى ، إذ عادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة والرجوع فى مواقيت إعادة التنظيف إلى العادات فليعتبر بها وفى الحمام أمور أخر مكروهة ذكرناها فى كتاب الطهارة فلتنظر هناك

منكرات الضيافة

فمنها : فرش الحرير للرجال فهو حرام ، وكذلك تبخير البخور فى مجمرة فضة أو ذهب ، أو الشراب أو استعمال ماء الورد فى أوانى الفضة ، أو ما رءوسها من فضة

ومنها: إسدال الستور وعليها الصور

ومنها: سماع الأوتار أو سماع القينات

ومنها اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان فى الرجال شباب يخاف الفتنة منهم ، فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره ، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج ولم يجزله الجلوس ؛ فلا رخصة له فى الجلوس فى مشاهدة المنكرات ؛ وأما الصور التى على النمارق ، والزرابى المفروشة ، فليس منكرا ، وكذا على الأطباق والقصاع لا الأوانى المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رؤس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام ، يجب كسر مقدار الصورة منه ، وفى المكحلة الصغيرة من الفضة خلاف ، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها ، ومهما كان الطعام حراما أوكان الموضع مغصوبا ، أوكانت الثياب المفروشة حراما فهو من أشد المنكرات ، فإن كان فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور إذ لا يحل حضور مجالس الشرب ، وإن كان مع ترك الشرب ، ولا يجوز مجالسة الفاسق فى حالة مباشرته للفسق ، وإنما النظر فى مجالسته بعد ذلك ، وأنه هل يجب بغضه فى الله ومقاطعته كما ذكرناه فى باب الحب والبغض فى الله ، وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب ، فهو فاسق لا يجوز الجلوس معه من غير ضرورة ، فان كان الثوب على صبى غير بالغ فهذا فى محل النظر ، والصحيح أن ذلك منكر ويجب نزعه عنه إن كان مميزا لعموم قوله عليه السلام [1] « هَذَانِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي » وكما يجب منع الصبى من شرب الخمر ، لا لكونه مكلفا ولكن لأنه يأنس به فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه فكذلك شهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده ، فيكون ذلك بذرا للفساد يبذر فى صدره ، فتنبت منه شجرة من الشهوة راسخة يعسر قلعها بعد البلوغ ، أما الصبى الذى لا يميز فيضعف معنى التحريم فى حقه ، ولا يخلو عن احتمال ، والعلم عند الله فيه ، والمجنون فى معنى الصبى الذى لا يميز نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف ، ولا أرى رخصة فى تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها ، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص ، فلا يجوز إلا لحاجة مهمة ، كالفصد والحجامة والختان ، والتزين بالحلق غير مهم ، بل فى التقريط بتعليقه على الأذن ، وفى المخانق والاسورة كفاية عنه ، فهذا وإن كان معتادا فهو حرام ، والمنع منه واجب ، والاستئجار عليه غير صحيح ، والأجرة المأخوذة عليه حرام ، إلا أن يثبت

---

(١) حديث هذان حرامان على ذكور أمتى : أبوداود والنسائى وابن ماجه من حديث على وقد تقدم فى الباب الرابع من آداب الأكل

من جهة النقل فيه رخصة ولم يبلغنا إلى الآن فيه رخصة

ومنها : أن يكون فى الضيافة مبتدع يتكلم فى بدعته فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد ، فإن كان لا يقدر عليه لم يجز ، فإن كان المبتدع لا يتكلم ببدعته فيجوز الحضور مع إظهار الكراهة عليه والإعراض عنه ، كما ذكرناه فى باب البغض فى الله ، وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر ، فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور وعند الحضور يجب الإنكار عليه ، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح أعنى ما يقل منه ، فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح ، وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التلبيس فليس من جملة المنكرات ، كقول الإنسان مثلا طلبتك اليوم مائة مرة ، وأعدت عليك الكلام ألف مرة ، وما يجرى مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق ، فذلك لا يقدح فى العدالة ، ولا ترد الشهادة به وسيأتى حد المزاح المباح ، والكذب المباح فى كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات

ومنها : الإسراف فى الطعام والبناء ، فهو منكر بل فى المال منكران ، أحدهما : الإضاعة والآخر : الإسراف ، فالإضاعة تفويت مال بلا فائدة يعتد بها ، كإحراق الثوب وتمزيقه وهدم البناء من غير غرض ، وإلقاء المال فى البحر ، وفى معناه صرف المال إلى النائحة والمطرب ، وفى أنواع الفساد ، لأنها فوائد محرمة شرعا ، فصارت كالمعدومة ، وأما الإسراف فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائحة والمطرب والمنكرات ، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات فى جنسها ولكن مع المبالغة ، والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال ، فنقول : من لم يملك إلا مائة دينار مثلا ، ومعه عياله وأولاده ، ولا معيشة لهم سواه ، فأنفق الجميع فى وليمة فهو مسرف يجب منعه منه ، قال تعالى : (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا[1]) نزل هذا فى رجل بالمدينة ، قسم جميع ماله ولم يبق شيئا لعياله ، فطولب بالنفقة فلم يقدر على شىء ، وقال تعالى : (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ[2]) وكذلك قال عز وجل : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[3]) فمن يسرف هذا

---

(١) الأسراء : ٢٩ ، ٢٦ ، ٢٧ (٣) الفرقان : ٦٧

الإسراف ينكر عليه ، ويجب على القاضى أن يحجر عليه ، إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة فى التوكل صادقة : فله أن ينفق جميع ماله فى أبواب البر ، ومن له عيال أو كان عاجزا عن التوكل ، فليس له أن يتصدق بجميع ماله ، وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه ، وتزيين بنيانه ، فهو أيضا إسراف محرم ، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة : ولم تزل المساجد تزين ، وتنقش أبوابها وسقوفها ، مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة ، فكذا الدور ، وكذلك القول في التجمل بالثياب ، والأطعمة ، فذلك مباح فى جنسه ، ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته

وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها ، فقس بهذه المنكرات المجامع ، ومجالس القضاة ، ودواوين السلاطين ، ومدارس الفقهاء ، ورباطات الصوفية ، وخانات الأسواق فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور ، واستقصاء جميع المنكرات يستدعى استيعاب جميع تفاصيل الشرع ، أصولها وفروعها ، فلنقتصر على هذا القدر منها

المنكرات العامة

اعلم أن كل قاعد فى بيته أينما كان ، فليس خاليا فى هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم ، وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع فى شروط الصلاة فى البلاد ، فكيف فى القرى والبوادى ، ومنهم الأعراب والأكراد ، والتركمانية وسائر أصناف الخلق ، وواجب أن يكون فى كل مسجد ومحلة من البلد فقيه ، يعلم الناس دينهم ، وكذا فى كل قرية ، وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه ، وتفرغ لفرض الكفاية ، أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ، ومن العرب والأكراد ، وغيرهم ويعلمهم دينهم ، وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرها مغصوب ، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين ، وإلا عم الحرج الكافة أجمعين ، أما العالم ، فلتقصيره فى الخروج ، وأما الجاهل ، فلتقصيره فى ترك التعلم ، وكل عامى عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره ، وإلا فهو شريك فى الإثم

ومعلوم أن الانسان لا يولد عالما بالشرع ، وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها

ولعمري الأثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر ، وهو بصناعتهم أليق ، لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش ، فهم قد تقلدوا أمرا لا بد منه فى صلاح الخلق ، وشأن الفقيه وحرفته تبليغ مابلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء وليس للإنسان أن يقعد فى بيته ولا يخرج إلى المسجد، لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهى ، وكذا كل من تيقن أن فى السوق منكرا يجرى على الدوام ، أو فى وقت بعينه ، وهو قادر على تغييره ، فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود فى البيت ، بل يلزمه الخروج ، فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ، ويقدر على البعض لزمه الخروج، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه ، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح

فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محلته ، ثم إلى أهل بلده ، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ، ثم إلى أهل البوادى من الأكراد والعرب وغيرهم وهكذا إلى أقصى العالم ، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا حرج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ، ولا يسقط الحرج مادام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه ، وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه ، أو بغيره ، فيعلمه فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه ، يشغله عن تجزئة الأوقات فى التفريعات النادرة ، والتعمق فى دقائق العلوم التى هى من فروض الكفايات ، ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين ، أو فرض كفاية هو أهم منه

الباب الرابع

فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف ، وأن أوله التعريف ، وثانيه الوعظ ، وثالثه التخشين فى القول ، ورابعه المنع بالقهر فى الحمل على الحق بالضرب والعقوبة ، والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان ، وهما التعريف ، والوعظ ، وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتنة ، ويهيج الشر ، ويكون مايتولد منه من المحذور أكثر ، وأما التخشين فى القول كقوله ياظالم يامن لايخاف الله وما يجرى مجراه ، فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز ، وإن كان لايخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه ، فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة ، والتعرض لأنواع العذاب ، لعلمهم بأن ذلك شهادة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(١) « خَيْرُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، ثُمَّ رَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى فَقَتَلَهُ عَلَى ذٰلِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » ووصف النبي صلى الله عليه وسلم (٣) عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: « * قَرْنٌ مِنْ حَدِيدٍ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ » وتركه قوله الحق ماله من صديق ولما علم المتصلبون فى الدين ، أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن صاحب

(الباب الرابع فى أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر)

(١) حديث خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه فى ذات الله فقتله على ذلك: الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وتقدم فى الباب قبله

(٢) حديث أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر تقدم

(٣) حديث وصفه صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بانه قرن من حديد لاتأخذه فى الله لومة لائم تركه الحق ماله من صديق: الترمذى بسند ضعيف مقتصرا على آخره ـ الحديث : من حديث على رحم الله عمر يقول الحق وان كان مرا تركه الحق وماله من صديق وأما أول الحديث : فرواه الطبرانى أن عمر قال لكعب الاحبار كيف تجد نعتى قال أجد نعتك قرناً من حديد قال وما قرن من حديد قال أمير شديد لا تأخذه فى الله لومة لائم

* القرن بفتح القاف الحصن

ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار ، قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب، وصابرين عليه في ذات الله تعالى ، ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله

وطريقُ وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل عن علماء السلف وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام ونقتصر الآن على حكايات تعرف وجه الوعظ ، وكيفية الإنكار عليهم

فمنها : ما روي من إنكار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أكابر قريش ، حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء ، وذلك ما روى عن عروة رضي الله عنه ، قال: قلت لعبد الله بن عمرو : ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فيما كانت تظهر من عداوته ، فقال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل ، سفه أحلامنا وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا ، فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، قال فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجهه عليه السلام ، ثم مضى ، فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ، ثم قال : « أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ » قال فأطرق القوم حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم راشدا ، فوالله ما كنت جهولا ، قال فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك ، إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه

---

(١) حديث عروة قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ــ الحديث: بطوله البخاري مقتصرا وابن حبان بتمامه

وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا ، أنت الذى تقول كذا ، لما كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، قال فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نَعَمْ أَنَا الَّذِى أَقُولُ ذَلِكَ » قال فلقد رأيت منهم رجلا أخذ بمجامع ردائه ، قال وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه دونه يقول وهو يبكى « وَيْلَكُمْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ » قال ثم انصرفوا عنه ، وإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه

وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلف ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ »

وروي أن معاوية رضي الله عنه حبس العطاء ، فقام إليه أبو مسلم الخولانى ، فقال له يامعاوية إنه ليس من كدك ، ولا من كد أبيك ، ولا من كد أمك ، قال فغضب معاوية ونزل عن المنبر ، وقال لهم : مكانكم ، وغاب عن أعينهم ساعة ، ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقول « الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالشَّيْطَانُ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ » وإنى دخلت فاغتسلت ، وصدق أبو مسلم ، إنه ليس من كدى ، ولا من كد أبى ، فهلموا إلى عطائكم

وروي عن ضبة بن محصن العنزى قال : (٣) كان علينا أبو موسى الأشعرى أميرا بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : رواه البخارى

(٢) حديث معاوية الغضب من الشيطان ـ الحديث : وفى أوله قصة أبو نعيم فى الحلية وفيه من لا أعرفه

(٣) حديث ضبة بن محصن كان علينا أبو موسى الأشعرى أميرا بالبصرة وفيه عن عمر أنه قال والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وليلته فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله رواه البيهقى فى دلائل النبوة باسناد ضعيف هكذا وقصة الهجرة رواها

رضى الله عنه ، قال فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه ، تفضله عليه : فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكونى ، يقول إن ضبة بن محصن العنزى يتعرض لى فى خطبتى ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلىّ ، قال فأشخصنى إليه ، فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إلىّ ، فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لى لا مرحبا ولا أهلا قلت أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لى ولا مال ، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصى من مصرى بلا ذنب أذنبته ولا شىء أتيته ، فقال ما الذى شجر بينك وبين عاملى ، قال قلت الآن أخبرك به إنه كان إذا خطبنا حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظنى ذلك منه فقمت إليه ، فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكونى ، قال فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا وهو يقول: أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبى يغفر الله لك ، قال قلت : غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال ثم اندفع باكيا وهو يقول ، والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ، قلت : نعم ، قال :

أما الليلة : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا ، فتبعه أبو بكر ، فجعل يمشى مرة أمامه ، ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من أفعالك ، فقال يا رسول الله أذكر الرصد ، فأكون أمامك ، وأذكر الطلب ، فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت ، فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه ، وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ، ثم قال والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك ، قال فدخل فلم ير فيه شيئا فحمله ، فأدخله

البخارى من حديث عائشة بغير هذا السياق واتفق عليها الشيخان من حديث أبى بكر بلفظ آخر ولهما من حديثه قال قلت يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال ياأبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وأما قاله لأهل الردة فى الصحيحين من حديث أبى هريرة لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبى بكر كيف تقاتل الناس ـ الحديث

وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شىء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه ، وجعلت دموعه تتحدر على خديه من ألم مايجد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له « يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، والطمأنينة لأبى بكر » فهذه ليلته

وأما يومه : فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، فقال بعضهم نصلى ولا نزكى ، فأتيته لا آلوه نصحا ، فقلت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تألف الناس وأرفق بهم ، فقال لى أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ فبماذا أتألفهم ؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحى ، فوالله لو منعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقاتلنا عليه ، فكان والله رشيدا لأمر ، فهذا يومه

ثم كتب إلى أبى موسى يلومه

وعن الأصمعى ، قال : دخل عطاء بن أبى رباح على عبد الملك بن مروان ، وهو جالس على سريره ، وحواليه الأشراف من كل بطن ، وذلك بمكة فى قت حجه فى خلافته ، فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه ، وقال له يا أبا محمد ما حاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين : اتق الله فى حرم الله ، وحرم رسوله ، فتعاهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فقال له أجل أفعل ، ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك ، فقال يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك ، وقد قضيناها ، فما حاجتك أنت ؟ فقال . مالى إلى مخلوق حاجة ، ثم خرج فقال عبد الملك هذا وأبيك الشرف

وقد روى أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما قف على الباب ، فإذا مر بك رجل فأدخله علىّ ليحدثنى ، فوقف الحاجب على الباب مدة ، فمر به عطاء بن أبى رباح وهو لا يعرفه فقال له يا شيخ ادخل إلى أمير المؤمنين ، فإنه أمر بذلك ، فدخل عطاء على الوليد ، وعنده عمر بن عبد العزيز ، فلما دنا عطاء من الوليد ، قال السلام عليك ياوليد ، قال فغضب الوليد

على حاجبه ، وقال له ويلك أمرتك أن تدخل إلىّ رجلا يحدثنى ويسامرنى ، فأدخلت إلىّ رجلا لم يرض أن يسمينى بالاسم الذى اختاره الله لى ، فقال له حاجبه ما مر بى أحد غيره ، ثم قال لعطاء اجلس ، ثم أقبل عليه يحدثه ، فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له : بلغنا أن فى جهنم واديا يقال له هبهب ، أعده الله لكل إمام جائر فى حكمه ، فصعق الوليد من قوله وكان جالسا بين يدى عتبة باب المجلس ، فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشيا عليه ، فقال عمر لعطاء قتلت أمير المؤمنين ، فقبض عطاء على ذراع عمر بن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة ، وقال له يا عمر إن الأمر جد فجد ، ثم قام عطاء وانصرف ، فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال : مكثت سنة أجد ألم غمزته فى ذراعى

وكان ابن شميلة يوصف بالعقل والأدب ، فدخل على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك تكلم ، قال بم أتكلم ؟ وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله ، فبكى عبد الملك ثم قال يرحمك الله ، لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون ، فقال الرجل يا أمير المؤمنين إن الناس فى القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ، ومعاينة الردى فيها ، إلا من أرضى الله بسخط نفسه ، فبكى عبد الملك ، ثم قال لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالا نصب عينى ما عشت .

ويروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة ، فدخلنا عليه ودخل الحسن البصرى رحمه الله آخر من دخل ، فقال الحجاج مرحبا بأبى سعيد إلىّ إلىّ ثم دعا بكرسى ، فوضع إلى جنب سريره ، فقعد عليه ، فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا ، إذ ذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فنال منه ، ونلنا منه مقاربة له ، وفرقا من شره ، والحسن ساكت عاض على إبهامه ، فقال يا أبا سعيد مالى أراك ساكتا ، قال ما عسيت أن أقول ، قال أخبرنى برأيك فى أبى تراب ، قال سمعت الله جل ذكره يقول (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (1)) فعلىّ ممن

(1) البقرة : ١٤٣

هدى الله من أهل الايمان ، فأقول : ابن عم النبي عليه السلام ، وختنه على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات ، سبقت له من الله ، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها ، وأقول إن كانت لعلي هناة فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا ، فبسر وجه الحجاج وتغير ، وقام عن السرير مغضبا ، فدخل بيتا خلفه وخرجنا ، قال عامر الشعبي فأخذت بيد الحسن ، فقلت يا أبا سعيد . أغضبت الأمير وأوغرت صدره ، فقال إليك عنى يا عامر ، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتيت شيطانا من شياطين الأنس تكلمه بهواه ، وتقاربه في رأيه ، ويحك يا عامر ، هلا اتقيت إن سئلت فصدقت ، أو سكت فسلمت ، قال عامر يا أبا سعيد ، قد قلتها وأنا أعلم ما فيها ، قال الحسن فذاك أعظم فى الحجة عليك ، وأشد فى التبعة ، قال وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال أنت الذى تقول : قاتلهم الله ، قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ، قال : نعم قال : ما حملك على هذا ؟ قال ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ليبيننه للناس ولا يكتمونه قال يا حسن أمسك عليك لسانك ، وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك

وحكي أن حطيطا الزيات جيء به إلى الحجاج ، فلما دخل عليه ، قال أنت حطيط؟ قال نعم ، سل عما بدالك ، فإنى عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال ، إن سئلت لأصدقن وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن ، قال فما تقول فىّ ؟ قال أقول إنك من أعداء الله فى الأرض ، تنتهك المحارم ، وتقتل بالظنة ، قال فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان ، قال أقول إنه أعظم جرما منك ، وإنما أنت خطيئة من خطاياه ، قال فقال الحجاج ضعوا عليه العذاب ، قال فانتهي به العذاب إلى أن شقق له القصب ، ثم جعلوه على لحمه ، وشدوه بالحبال ، ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة ، حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئا ، قال فقيل للحجاج إنه فى آخر رمق ، فقال أخرجوه فارموا به فى السوق . قال جعفر فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له حطيط ألك حاجة ؟ قال شربة ماء فأتوه بشربة ، ثم مات وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه

وروي أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة ، وأهل الكوفة ، وأهل المدينة ، وأهل

الشام ، وقرائها ، فجعل يسألهم وجعل يكلم عامرا الشعبي فجعل لايسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما ، ثم أقبل على الحسن البصرى فسأله ، ثم قال هما هذان ، هـذا رجل أهل الكوفة يعنى الشعبي ، وهذا رجل أهل البصرة يعنى الحسن، فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن ، فأقبل على الشعبي ، فقال ياأبا عمرو إنى أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية، ولزمنى حقهم ،فأنا أحب حفظهم ، وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغنى عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه ، فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه فى بيت المال ، ومن نيتى أن أرده عليهم فيبلغ أمير المؤمنين أنى قد قبضته على ذلك النحو ، فيكتب إلىّ أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ، ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة ، فهل علىّ فى هـذا تبعة ؟ وفى أشباهه من الأمور ، والنية فيها على ما ذكرت ، قال الشعبي فقلت : أصلح الله الأمير إنما السلطان والد يخطىء ويصيب ، قال فسر بقولى وأعجب به ، ورأيت البشر فى وجهه وقال فلله الحمد ، ثم أقبل على الحسن فقال ما تقول يا أبا سعيد ؟ قال قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ، ورجل مأمور على الطاعة ، ابتليت بالرعية ، ولزمنى حقهم والنصيحة لهم ، والتعهد لما يصلحهم ، وحق الرعيـة لازم لك ، وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة ، وإنى سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَنِ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطْهَا بِالنَّصِيحَةِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » ويقول إنى ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم ، وأن يرجعوا إلى طاعتهم فيبلغ أمير المؤمنـين أنى قبضتها على ذلك النحو فيكتب إلىّ أن لا ترده ، فلا أستطيع رد أمره ، ولا أستطيع إنفاد كتابه ، وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين ، والله أحق أن يطاع ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل ، فإن وجـدته موافقا لـكتاب الله فخذ به

---

(١) حديث الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة رواه البغوى فى معجم الصحابة باسناد لين وقد اتفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار

وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه ، ياابن هبيرة اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين ، يزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك ، وتقدم على ربك ، وتنزل على عملك ، ياابن هبيرة : إن الله ليمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وإن أمر الله فوق كل أمر ، وإنه لا طاعة فى معصية الله ، وإنى أحذرك بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، فقال ابن هبيرة أربع على ظلمك أيها الشيخ ، وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ، فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم ، وصاحب الفضل ، وإنما ولاه الله تعالى ماولاه من أمر هذه الأمة ، لعلمه به ، وما يعلمه من فضله ونيته ، فقال الحسن ياابن هبيرة الحساب من ورائك ، سوط بسوط وغضب بغضب ، والله بالمرصاد ، ياابن هبيرة : إنك إن تلق من ينصح لك فى دينك ، ويحملك على أمر آخرتك ، خير من أن تلقى رجلا يغرك ويمنيك ، فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه ، قال الشعبي : فقلت ياأبا سعيد أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، وحرمتنا معروفه وصلته ، فقال إليك عنى ياعامر قال فخرجت إلى الحسن التحف والطرف ، وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا ، فكان أهلا لما أدى إليه ، وكنا أهلا أن يفعل ذلك بنا فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربى بين المقارف ، وما شهدنا مشهدا إلا برز علينا ، وقال لله عز وجل ، وقلنا مقاربة لهم قال عامر الشعبي وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأحابيه

ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبى بردة ، فقال له ما تقول فى القدر ؟ فقال جيرانك أهل القبور فتفكر فيهم فإن فيهم شغلا عن القدر

وعن الشافعي رضى الله عنه : قال حدثنى عمى محمد بن على ، قال إنى لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور ، وفيه ابن أبى ذؤيب ، وكان والى المدينة الحسن بن زيد ، قال فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبى جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد ، فقال الحسن ياأمير المؤمنين سل عنهم ابن أبى ذؤيب ، قال فسأله فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبى ذؤيب؟ فقال أشهد أنهم أهل تحطم فى أعراض الناس كثير والأذي لهم ، فقال أبو جعفر قد سمعتم

فقال الغفاريون يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد ، فقال يا ابن أبى ذؤيب ما تقول فى الحسن ابن زيد ، فقال أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبى ذؤيب وهو الشيخ الصالح ، فقال يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك ، فقال ما تقول فىّ ؟ قال تعفينى ياأمير المؤمنين قال أسألك بالله إلا أخبرتنى ، قال تسألنى بالله كأنك لا تعرف نفسك ، قال والله لتخبرنى ، قال أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه ، فجعلته فى غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش ، قال فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبى ذؤيب فقبض عليه ، ثم قال له أما والله لولا أنى جالس ههنا لأخذت فارس والروم ، والديلم ، والترك ، بهذا المكان منك قال : فقال ابن أبى ذؤيب ياأمير المؤمنين ، قد ولى أبو بكر وعمر ، فأخذا الحق ، وقسما بالسوية ، وأخذا بأقفاء فارس والروم ، وأصغرا آنافهم ، قال فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله ، وقال والله لو لا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك فقال ابن أبى ذؤيب والله ياأمير المؤمنين إنى لأنصح لك من ابنك المهدى ، قال فبلغنا أن ابن أبى ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثورى ، فقال له يا أبا الحارث لقد سرنى ما خاطبت به هذا الجبار ، ولكن ساءنى قولك له ابنك المهدى ، فقال يغفر الله لك يا أبا عبد الله ، كلنا مهدى كلنا كان فى المهد

وعن الأوزاعى عبد الرحمن بن عمرو (١) قال بعث إلىّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيته ، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد علىّ واستجلسنى ثم قال لى ما الذى أبطأ بك عنا ياأوزاعى ؟ قال قلت وما الذى تريد ياأمير المؤمنين ؟ قال أريد الأخذ عنكم ، والاقتباس منكم ، قال فقلت فانظر ياأمير المومنين أن لا تجهل شيئاً مما أقول لك . قال وكيف أجهله وأنا أسألك عنه ، وفيه وجهت إليك وأقدمتك له ، قال قلت أخاف أن

---

(١) حديث الأوزاعى مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة والقصة بجملتها رواها ابن أبى الدنيا فى كتاب مواعظ الخلفاء ورويناها فى مشيخة يوسف ابن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد وفى اسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح قال ابن عدى يحدث بمناكير وهو عندى من أهل الصدق وقد رأيت سرد الاحاديث المذكورة فى الموعظة لنذكر هل لبعضها طريق غير هذا الطريق وليعرف صحابى كل حديث أو كونه مرسلا فأولها

تسمعه ثم لا تعمل به ، قال فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال هـذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة ، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام ، فقلت ياأمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر ، قال[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَيُّمَا عَبْدٍ جَاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ مِنَ اللهِ فِي دِينِهِ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ سِيقَتْ إِلَيْهِ فَإِنْ قَبِلَهَا بِشُكْرٍ وَإِلَّا كَانَتْ حُجَّةً مِنَ اللهِ عَلَيْهِ لِيَزْدَادَ بِهَا إِثْماً وَيَزْدَادَ اللهُ بِهَا سُخْطاً عَلَيْهِ »

يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن ياسر ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَيُّمَا وَالٍ مَاتَ غَاشًّا لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ »

ياأمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين ، إن الذى لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم ، لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بهم رؤفا رحيما ، مواسيا لهم بنفسه في ذات يده ، محمودا عند الله وعند الناس ، فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق ، وأن تكون بالقسط له فيهم قائما ولعوراتهم ساترا ، لا تغلق عليك دونهم الأبواب ، ولا تقيم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم ، وتبتئس بما أصابهم من سوء

ياأمير المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم ، أحمرهم وأسودهم ، مسلمهم وكافرهم ، وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام ، وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه

ياأمير المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن رويم ، قال كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبرائيل عليه السلام ، فقال له

---

(١) حديث عطية بن بشر أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء

(٢) حديث عطية بن ياسر أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة : ابن أبي الدنيا فيه وابن عدى في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد

(٣) حديث عروة بن رويم كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين الحديث : ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان في ثقات التابعين

يا محمد ، ماهذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك ، وملأت قلوبهم رعبا ، فكيف بمن شقق أستارهم ، وسفك دماءهم ، وخرب ديارهم ، وأجلاهم عن بلادهم ، وغيبهم الخوف منه

يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن زياد ، عن حارثة عن حبيب بن مسلمة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي فقال « اقْتَصَّ مِنِّي » فقال الأعرابي قد أحللتك ، بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبدا ، ولو أتيت على نفسي فدعا له بخير

يا أمير المؤمنين رض نفسك لنفسك ، وخذ لها الأمان من ربك ، وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « لَقِيدُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »

يا أمير المؤمنين ، إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك

يا أمير المؤمنين أتدري ماجاء في تأويل هذه الآية عن جدك (مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا [1]) قال الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن

يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة ، لخشيت أن أسأل عنها ، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك

يا أمير المؤمنين أتدري ماجاء في تأويل هذه الآية عن جدك (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [2])

---

(١) حديث حبيب بن مسلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أقص من نفسه وللحاكم من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه طعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاصرة أسيد بن حضير فقال أو جعتني قال اقتص ـ الحديث : قال صحيح الاسناد

(٢) حديث لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها : ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي معضلا لم يذكر اسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ لقاب

(١) الكهف : ٤٩ (٢) ص : ٢٦

قال الله تعالى فى الزبور: ياداود إذا قعد الخصمان بين يديك، فكان لك فى أحدهما هوى، فلا تتمنين فى نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك عن نبوتى، ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة، ياداود إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاء كرعاء الإبل، لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء

يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر. لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه.

يا أمير المؤمنين حدثنى يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١) استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيما، فقال له ما منعك من الخروج إلى عملك، أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد فى سبيل الله، قال: لا قال: وكيف ذلك؟ قال إنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَا مِنْ وَالٍ يَلِي شَيْئًا مِنْ أُمُورِ النَّاسِ إِلَّا أُوتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ لَا يَفُكُّهَا إِلَّا عَدْلُهُ فَيُوقَفُ عَلَى جِسْرٍ مِنَ النَّارِ يَنْتَفِضُ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرُ انْتِفَاضَةً تُزِيلُ كُلَّ عِضْوٍ مِنْهُ عَنْ مَوْضِعِهِ ثُمَّ يُعَادُ فَيُحَاسَبُ فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَجَا بِإِحْسَانِهِ وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا انْخَرَقَ بِهِ ذَلِكَ الْجِسْرُ فَيَهْوِي بِهِ فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » فقال له عمر رضي الله عنه ممن سمعت هذا؟ قال من أبى ذر وسلمان، فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا نعم، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر واعمراه من يتولاها بما فيها، فقال أبو ذر رضى الله عنه: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض، قال فأخذ المنديل فوضعه على وجهه، ثم بكى وانتحب حتى أبكانى، ثم قلت ياأمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي صلى الله عليه وسلم، إمارة مكة

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عمر أن عمر استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة.. الحديث: وفيه مرفوعا مامن وال يلى شيئا من أمور الناس الاأتى الله يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه - الحديث: ابن أبى الدنيا فيه مهذا الوجه ورواه الطبرانى من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار أبى الحكم عن أبى وائل أن عمر استعمل بشر بن عاصم فذكر أخصر منه وان بشرا سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم ولم يذكر فيه سلمان

أو الطائف ، أو اليمن ، فقال له النبي عليه السلام [1] « يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ النَّبِيِّ نَفْسٌ تُحْيِيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لاَ تُحْصِيهَا » نصيحة منه لعمه ، وشفقة عليه ، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [1]) فقال [2] « يَا عَبَّاسُ وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّيِ النَّبِيِّ وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ إِنِّي لَسْتُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنَّ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلَكُمْ » .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل ، أريب العقد ، لا يطلع منه على عورة ، ولا يخاف منه على حرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم

وقال : الأمراء أربعة ، فأمير قوي ، ظلف نفسه وعماله ، فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ، ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه ، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه ، فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « شَرُّ الرُّعَاةِ الْحُطَمَةُ فَهُوَ الْهَالِكُ وَحْدَهُ » وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم [4] فقال أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة ، فقال له « يَا جِبْرِيلُ صِفْ لِيَ النَّارَ » فقال إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى أصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة

---

(١) حديث ياعباس ياعم النبي نفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها : ابن أبي الدنيا هكذا معضلا بغير اسناد ورواه البيهقي من حديث جابر متصلا ومن رواية ابن المنكدر مرسلا وقال هذا هو المحفوظ مرسلا

(٢) حديث ياعباس وياصفية ويافاطمة لا أغني عنكم من الله شيئا لي عملي ولكم عملكم : ابن أبي الدنيا هكذا معضلا دون اسناد ورواه البخاري من حديث أبي هريرة متصلا دون قوله لي عملي ولكم عملكم

(٣) حديث شر الرعاة الحطمة : رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزني متصلا وهو عند ابن أبي الدنيا عن الأوزاعي معضلا كما ذكره المصنف

(٤) حديث بلغني أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافيخ النار وضعت على النار تسعر ليوم القيامة ـ الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا فيه هكذا معضلا بغير اسناد .

(١) الشعراء : ٢١٤

لايطفىء جمرها ، ولا يطفأ لهبها ، والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ، ولو أن ذنوبا من شرابها صب فى مياه الأرض جميعا لقتل من ذاقه ، ولو أن ذراعا من السلسلة التى ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعا لذابت وما استقلت ، ولو أن رجلا أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، وتشويه خلقه وعظمه ، فبكى النبى صلى الله عليه وسلم ، وبكى جبريل عليه السلام لبكائه ، فقال أتبكى يامحمد وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ولِمَ بَكَيْتَ يَا جِبْرِيلُ وَأَنْتَ الرُّوحُ الْأَمِينُ أَمِينُ اللهِ عَلَى وَحْيِهِ » قال أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت ، فهو الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى ، فأكون قد أمنت مكره ، فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء ياجبريل ويامحمد ، إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما ، وفضل محمد على سائر الأنبياء ، كفضل جبريل على سائر الملائكة

وقد بلغنى ياأمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال اللهم إن كنت تعلم أنى أبالى إذا قعد الخصمان بين يدى على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلنى طرفة عين

ياأمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه . فهذه نصيحتى إليك والسلام عليك ، ثم نهضت فقال لى إلى أين فقلت إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله ، فقال قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، وبه أستعين وعليه أتوكل ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثل هذا ، فإنك المقبول القول غير المتهم فى النصيحة قلت أفعل إن شاء الله

قال محمد بن مصعب فأمر له بمال يستعين على خروجه فم يقبله ، وقال أنا فى غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى ذلك .

وعن ابن المهاجر قال قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله ، حاجا فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف فى آخر الليل ، يطوف ويصلى ولا يعلم به ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، وأقيمت الصلاة فيصلى بالناس ، فخرج ذات

ليلة حين أسحر ، فبينا هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع،فأسرع المنصورفى مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ،ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه ، فأتاه الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين ، فصلى ركعتين . واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول فسلم عليه ، فقال له المنصور ماهذا الذى سمعتك تقوله من ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم ، فوالله لقد حشوت مسامعى ماأمرضنى وأقلقنى ، فقال ياأمير المؤمنين ، إن أمنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاغل ، فقال له أنت آمن على نفسك ، فقال الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغى والفساد فى الأرض أنت فقال ويحك وكيف يدخلنى الطمع ، والصفراء والبيضاء فى يدى ، والحلو والحامض فى قبضتى ، قال وهل دخل أحدا من الطمع مادخلك ياأمير المؤمنين ، إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجُر وأبوابا من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها منهم ، وبعثت عمالك فى جمع الأموال وجبايتها ، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة ، إن نسيت لم يذكروك ، وإن ذكرت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح وأمرت بأن لايدخل عليك من الناس إلافلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ، ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك ، تجبي الأموال ولا تقسمها ، قالوا هذا قد خان الله ، فمالنا لانخونه وقد سخر لنا فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا ماأرادوا ، وأن لايخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم ، وكان أوّل من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم

من الرعية ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك ، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، ووقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته ، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتل عليه ، فإذا جهدوا خرج وظهرت صرخ بين يديك ، فيضرب ضربا مبرحا ، ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا ، ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهى إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف ، ولقد كان الرجل يأتى من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم ، فينادى يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم ، فينتصف ، ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك ، فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى : فقال له وزراؤه مالك تبكى لا بكت عيناك ، فقال : أما إنى لست أبكى على المصيبة التى نزلت بى ، ولكن أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه ، هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ، ورقته على شح نفسه فى ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبى الله ، لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك ، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة

إن قلت أجمعها لولدى فقد أراك الله عبرا فى الطفل الصغير ، يسقط من بطن أمه ، وما له على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست الذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء وإن قلت . أجمع المال لأشيد سلطانى ، فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة ، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف ، حين أراد الله بكم ما أراد

وإن قلت : أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لاتدرك إلا بالعمل الصالح

يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟ قال : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا ، وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم ، وهو الذى يرى منك ما عقد عليه قلبك ، وأضمرته جوارحك فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ، ودعاك إلى الحساب ، هل يغنى عنك عنده شيء مما كنت فيه ، مما شححت عليه من ملك الدنيا ، فبكى المنصور بكاء شديداً حتى نحب وارتفع صوته ، ثم قال : يا ليتنى لم أخلق ولم أك شيئا ، ثم قال كيف احتيالى فيما خولت فيه ، ولم أر من الناس إلا خائنا ، قال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين ، قال ومن هم ؟ قال : العلماء قال: قدفروا منى ، قال هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانتصر للمظلوم من الظالم ، وامنع المظالم ، وخذ الشيء مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك ، فقال المنصور : اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، وأقيمت الصلاة ، فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسى ، عليك بالرجل إن لم تأتنى به لأضربن عنقك ، واغتاظ عليه غيظا شديداً ، فخرج الحرسى يطلب الرجل فبينا هو يطوف ، فإذا هو بالرجل يصلى فى بعض الشعاب ، فقعد حتى صلى ، ثم قال: ياذا الرجل أما تتقى الله ، قال : بلى ، قال : أما تعرفه ، قال : بلى ، قال : فانطلق معى إلى الأمير ، فقد آلى أن يقتلنى إن لم آته بك ، قال ليس لى إلى ذلك من سبيل ، قال : يقتلنى قال : لا قال : كيف ، قال : تحسن تقرأ ؟ قال : لا ، فأخرج من مزود كان معه رقا مكتوبا فيه شيء ، فقال : خذه فاجعله فى جيبك ، فإن فيه دعاء الفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال: لا يرزقه إلا الشهداء ، قلت : رحمك الله قد أحسنت إلىّ ، فإن رأيت أن تخبرنى ما هذا الدعاء وما فضله ، قال من دعا به مساءاً وصباحا هدمت ذنوبه ، ودام سروره ، ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه ، وبسط له فى رزقه ، وأعطى أمله ، وأعين على عدوّه ، وكتب عند الله

صديقا ، ولا يموت إلا شهيداً ، تقول : اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك ، وعـــلانية القول كالسر فى علمك ، وانقـــاد كل شىء لعظمتك، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ، اجعل لى من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا ، اللهم إن عفـوك عن ذنوبى ، وتجـاوزك عن خطيئتى ، وسترك على قبيح عملى ، أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه ، أدعوك آمنا ، وأسألك مستأنسا ، وإنك المحسن إلىّ وأنا المسىء إلى نفسى فيما بينى وبينك ، تتودد إلىّ بنعمك ، وأتبغض إليك بالمعاصى ، ولـكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك ، فعد بفضلك وإحسانك علىّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، قال فأخذته فصيرته فى جيبى ، ثم لم يكن لى هم غير أمير المؤمنين فدخلت فسلمت عليه ، فرفع رأسه فنظر إلىّ وتبسم ، ثم قال ويلك وتحسن السحر ، فقلت لا والله يا أمـير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال هات الرق الذى أعطاك ، ثم جعل يبكى ، وقال قـد نجوت وأمر بنسخه ، وأعطانى عشرة آلاف درهم ، ثم قال أتعرفه ؟ قلت : لا ، قال ذلك الخضر عليه السلام

وعن أبى عمران الجونى ، قال لما ولى هرون الرشيد الخلافة ، زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ، ففتح بيوت الأموال ، وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان ابن سعيد بن المنذر الثورى قديما ، فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هرون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه ، فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ، ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هرون ، فكتب إليه كتابا يقول فيه

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هرون الرشـيد أمـير المؤمنين إلى أخيـه سفيان بن سعيد بن المنـذر ، أما بعد : يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أنى قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ، ولم أقطع منها ودك ، وإنى منطو لك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا ، لما أجد لك فى قلبى من المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقى

من إخوانى وإخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنانى بما صرت إليه ، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية مافرحت به نفسى ، وقرت به عينى ، وإنى استبطأتك فلم تأتنى ، وقد كتبت إليك كتابا شوقا منى إليك شديدا ، وقد علمت ياأبا عبد الله ماجاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل .

فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده ، فإذا كلهم يعرفون سفيان الثورى وخشونته فقال علي برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقانى ، فقال ياعباد خذ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة ، فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ، ثم سل عن سفيان الثورى ، فإذا رأيته فألق كتابى هذا إليه ، وع بسمعك وقلبك جميع مايقول ، فاحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرنى به ، فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة ، فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ، ثم سأل عن سفيان ، فقيل له هو فى المسجد ، قال عباد فأقبلت إلى المسجد ، فلما رآنى قام قائما ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير ، قال عباد : فوقعت الكلمة فى قلبي فخرجت ، فلما رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلى ، ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسى بباب المسجد ودخلت ، فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤسهم ، كأنهم لصوص ، قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت ، فما رفع أحد إلىّ رأسه ، وردوا السلام علىّ برءوس الأصابع ، فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض علىّ الجلوس وقد علانى من هيبتهم الرعدة ، ومددت عينى إليهم فقلت : إن المصلى هو سفيان ، فرميت بالكتاب إليه ، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه ، كأنه حية عرضت له فى محرابه ، فرجع وسجد وسلم وأدخل يده فى كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه بيده ، ثم رماه إلى من كان خلفه ، وقال يأخذه بعضكم يقرؤه ، فإنى أستغفر الله أن أمس شيئا مسه ظالم بيده ، قال عباد فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من فم حية تنهشه ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب ، فلما فرغ من قراءته قال اقلبوه واكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه ، فقيل له ياأبا عبد الله إنه خليفة ، فلو كتبت إليه فى قرطاس نقى ، فقال اكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه ، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به

وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا ، فقيل له مانكتب ؟ فقال اكتبوا

بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى ، إلى العبد المغرور بالآمال ، هرون الرشيد ، الذى سلب حلاوة الإيمان ، أما بعد : فإنى قد كتبت إليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وقليت موضعك ، فإنك قد جعلتنى شاهدا عليك بإقرارك على نفسك فى كتابك ، بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه ، وأنفذته فى غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت إلى تشهدنى على نفسك ، أما إنى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها فى أرض الله تعالى ، والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ، أم رضى بذلك حملة القرءان ، وأهل العلم ، والأرامل والأيتام أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك ، فشد ياهرون مئزرك ، وأعد للمسألة جوابا ، وللبلاء جلبابا ، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، فقد رزئت فى نفسك ، إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرءان ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما ، وللظالمين إماما ، ياهرون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت سترا دون بابك ، وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، يشربون الخمور ، ويضربون من يشربها ، ويزنون ويحدون الزانى ، ويسرقون ويقطعون السارق ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم ، قبل أن تحكم بها على الناس ، فكيف بك ياهرون غدا ، إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى ، احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ، أين الظلمة وأعوان الظلمة ، فقدمك بين يدى الله تعالى ، ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار كأنى بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ، ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك ، وسيئات غيرك فى ميزانك ، زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتى ، واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها

واعلم أنى قد نصحتك ، وما أبقيت لك فى النصح غاية ، فاتق الله ياهرون فى رعيتك واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وأحسن الخلافة عليهم

واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك ، وهو صائر إلى غيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد ، فمنهم من تزود زاداً نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته وإنى أحسبك ياهرون ممن خسر دنياه وآخرته ، فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه ، والسلام

قال عباد: فألقى إلىّ الكتاب منشورا غير مطوى ولا مختوم ، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة ، وقد وقعت الموعظة من قلبي ، فناديت ياأهل الكوفة فأجابونى ، فقلت لهم : ياقوم من يشترى رجلا هرب من الله إلى الله ، فأقبلوا إلىّ بالدنانير والدراهم ، فقلت لا حاجة لى فى المال ، ولكن جبة صوف خشنة ، وعباءة قطوانية ، قال فأتيت بذلك ، ونزعت ما كان علىّ من اللباس الذى كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود البرذون[1] ، وعليه السلاح الذى كنت أحمله ، حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافيا راجلا ، فهزأ بى من كان على باب الخليفه ، ثم استؤذن لى ، فلما دخلت عليه وبصر بى على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائما ، وجعل يلطم رأسه ووجهه ، ويدعو بالويل والحزن ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل ، مالى وللدنيا ، مالى والملك يزول عنى سريعا ، ثم ألقيت الكتاب إليه منشورا كما دفع إلىّ فأقبل هرون يقرؤه ، ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشهق ، فقال بعض جلسائه ياأمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد ، وضيقت عليه السجن ، كنت تجعله عبرة لغيره ، فقال هرون : اتركونا ياعبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقى من أهلكتموه ، وإن سفيان أمة وحده ، فاتركوا سفيان وشأنه ، ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة ، حتى توفى رحمه الله ، فرحم الله عبداً نظر لنفسه ، واتقى الله فيما يقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه يحاسب ، وبه يجازى والله ولى التوفيق

وعن عبد الله بن مهران ، قال حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ، ثم ضرب بالرحيل

(١) البرذون : : الدابة التى كان يركبها

فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة ، والصبيان يؤذونه ويولعون به إذ أقبلت هوادج هرون، فكف الصبيان عن الولوع به، فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته ياأمير المؤمنين فكشف هرون السجاف بيده عن وجهه، فقال لبيك يابهلول. فقال: ياأمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل ، عن قدامة بن عبد الله العامري ، قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم[1] منصرفا من عرفة على ناقة له صهباء ، لاضرب ولاطرد ، ولا إليك إليك ، وتواضعك في سفرك هذا ياأمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك ، قال فبكى هرون حتى سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال يابهلول زدنا رحمك الله ، قال: نعم ياأمير المؤمنين رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف في جماله ، كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار ، قال أحسنت يابهلول ودفع له جائزة ، فقال اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها ، قال يابهلول فإن كان عليك دين قضيناه ، قال ياأمير المؤمنين : هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لايجوز ، قال يابهلول فنجرى عليك ما يقوتك أو يقيمك ، قال فرفع بهلول رأسه إلى السماء ، ثم قال ياأمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فحال أن يذكرك وينساني ، قال فأسبل هرون السجاف ومضى

وعن أبي العباس الهاشمي عن صالح بن المأمون ، قال دخلت على الحارث المحاسبي رحمه الله فقلت له ياأبا عبد الله ، هل حاسبت نفسك ؟ فقال كان هذا مرة قلت له فاليوم قال أكاتم حالي ، إني لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسي ، ولولا أن يغلبني فيها فرح ما أعلنت بها ، ولقد كنت ليلة قاعدا في محرابي ، فإذا أنا بفتى حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي ثم قعد بين يدي ، فقلت له من أنت ؟ فقال أنا واحد من السياحين أقصد المتعبدين في محاريبهم ، ولا أرى لك اجتهادا فأي شيء عملك ، قال قلت له: كتمان المصائب واستجلاب الفوائد ، قال فصاح وقال : ماعلمت أن أحدا بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفته ، قال الحارث فأردت أن أزيد عليه فقلت له : أما علمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم، ويكتمون

---

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامري رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقة له صهباء لاضرب ولا طرد ولا اليك اليك :الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه دون قوله منصرفا من عرفة وانما قالوا يرمي الجمرة وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني.

أسرارهم ، ويسألون الله كتمان ذلك عليهم ، فمن أين تعرفهم ؟ قال فصاح صيحة غشى عليه منها ، فمكث عندى يومين لا يعقل ، ثم أفاق وقد أحدث فى ثيابه ، فعلمت إزالة عقله فأخرجت له ثوبا جديدا ، وقلت له هذا كفنى قد آثرتك به ، فاغتسل وأعد صلاتك ، فقال هات الماء ، فاغتسل وصلى ، ثم التحف بالثوب وخرج ، فقلت له أين تريد؟ فقال لى قم معى فلم يزل يمشى ، حتى دخل على المأمون فسلم عليه ، وقال ياظالم ، أنا ظالم إن لم أقل لك ياظالم ، استغفر الله من تقصيرى فيك ، أما تتقى الله تعالى فيما قد ملكك ، وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون ، وقال : من أنت ؟ قال: أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبلى ، فلم أجد لنفسى فيه حظا ، فتعلقت بموعظتك لعلى ألحقهم ، قال فأمر بضرب عنقه فأخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفا فى ذلك الثوب ، ومناد ينادى من ولى هذا ؟ فليأخذه ، قال الحارث: فاختبأت عنه ، فأخذه أقوام غرباء فدفنوه وكنت معهم لا أعلمهم بحاله ، فأقمت فى مسجد بالمقابر محزونا على الفتى ، فغلبتنى عيناى فإذا هو بين وصائف لم أر أحسن منهن ، وهو يقول ياحارث أنت والله من الكاتمين الذين يخفون أحوالهم ، ويطيعون ربهم ، قلت وما فعلوا قال الساعة يلقونك ، فنظرت إلى جماعة ركبان ، فقلت من أنتم ؟ قالوا الكاتمون أحوالهم ، حرك هذا الفتى كلامك له فلم يكن فى قلبه مما وصفت شيء فخرج للأمر والنهى ، وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لعبده

وعن أحمد بن ابراهيم المقرى قال كان أبو الحسين النورى رجلا قليل الفضول ، لا يسأل عما لا يعنيه ، ولا يفتش عما لا يحتاج إليه ، وكان إذا رأى منكرا غيره ولو كان فيه تلفه فنزل ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشرعة الفحامين ، يتطهر للصلاة ، إذ رأى زورقا فيه ثلاثون دنا [1] مكتوب عليها بالقار لطف ، فقرأه وأنكره ، لأنه لم يعرف فى التجارات ولا فى البيوع شيئا يعبر عنه بلطف ، فقال للملاح أيش فى هذه الدنان ، قال وأيش عليك امض فى شغلك ، فلما سمع النورى من الملاح هذا القول ازداد تعطشا إلى معرفته ، فقال أحب أن تخبرنى أيش فى هذه الدنان ، قال وأيش عليك ، أنت والله صوفى فضولى ، هذا خمر للمعتضد يريد أن يتمم به مجلسه ، فقال النورى وهذا خمر ، قال : نعم ، فقال : أحب

---

(١) الدن : الوعاء

أن تعطيني ذلك المدرى ، فاغتاظ الملاح عليه وقال لغلامه أعطه حتى أنظر مايصنع ، فلما صارت المدرى فى يده صعد إلى الزورق ولم يزل يكسرها دِناً دِناً حتى أتى على آخرها إلا دناً واحدا ، والملاح يستغيث إلى أن ركب صاحب الجسر ، وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النورى وأشخصه إلى حضرة المعتضد ، وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ، ولم يشك الناس فى أنه سيقتله ، قال أبو الحسين فأدخلت عليه ، وهو جالس على كرسى حديد وبيده عمود يقلبه ، فلما رآنى قال من أنت ؟ قلت محتسب ، قال ومن ولاك الحسبة ، قلت الذى ولاك الإمامة ولانى الحسبة ياأمير المؤمنين ، قال فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلىّ وقال : ما الذى حملك على ماصنعت ؟ فقلت شفقة منى عليك ، إذ بسطت يدى إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه ، قال فأطرق مفكرا فى كلامى ثم رفع رأسه إلىّ وقال : كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان ؟ فقلت فى تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن ، فقال هات خبرنى ، فقلت: ياأمير المؤمنين إنى أقدمت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لى بذلك ، وغمر قلبى شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة ، فغابت هيبة الخلق عنى ، فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدن ، فاستشعرت نفسى كبرا على أنى أقدمت على مثلك فمنعت ، ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال ، فقال المعتضد : إذهب فقد أطلقنا يدك غيّر ما أحببت أن تغيره من المنكر ، قال أبو الحسين فقلت : ياأمير المؤمنين بغض إلىّ التغيير لأنى كنت أغيّر عن الله تعالى وأنا الآن أغيّر عن شرطى ، فقال المعتضد ماحاجتك ؟ فقلت ياأمير المؤمنين تأمر بإخراجى سالما ، فأمر له بذلك وخرج إلى البصرة ، فكان أكثر أيامه بها خوفا من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد ، فأقام بالبصرة إلى أن توفى المعتضد ، ثم رجع إلى بغداد

فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم فى القلوب القاسية فلينها ، وأزال قساوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد

أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر ، والله المستعان على كل حال

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وترتيبه ، وأدّب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه ، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه ، وحرم عن التخلق بأخلافه من أراد تخييبه ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا ، أما بعد

فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر ، والأعمال نتيجة الأخلاق ، والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها وأنوار السرائر هى التى تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها ، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساويها ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الألهية لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية ، ولقد كنت عزمت على أن أختم ربع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة ، لئلا يشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب ، ثم رأيت كل كتاب من ربع العادات قد أتى على جملة من الآداب ، فاستثقلت تكريرها وإعادتها فإن طلب الإعادة ثقيل ، والنفوس مجبولة على معاداة المعادات ، فرأيت أن أقتصر فى هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد فأسردها مجموعة فصلا فصلا ، محذوفة الأسانيد ، ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التى شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلاهم رتبة ، وأجلهم قدرا ، فكيف مجموعها ، ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته ، ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشيم ، ومنتزعا عن آذان الجاحدين لنبوته صمام الصمم ، والله تعالى ولى التوفيق ، للاقتداء بسيد المرسلين فى الأخلاق ، والأحوال وسائر معالم الدين ، فإنه دليل المتحيرين ، ومجيب دعوة المضطرين

ولنذكر فيه أولا بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرءان، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه، ثم بيان كلامه وضحكه، ثم بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام، ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس، ثم بيان عفوه مع القدرة، ثم بيان إغضائه عما كان يكره، ثم بيان سخاوته وجوده، ثم بيان شجاعته وبأسه، ثم بيان تواضعه، ثم بيان صورته وخلقته، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه

محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، فكان يقول فى دعائه [1] « اللَّهُمَّ حَسِّنْ خَلْقِي وَخُلُقِي » ويقول « [2] اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ » فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عز وجل (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [1]) فأنزل عليه القرءان وأدبه به، فكان خلقه القرءان

قال سعد بن هشام [3] دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها، فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: أما تقرأ القرءان؟ قلت. بلى، قالت: كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرءان، وإنما أدبه القرءان بمثل قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [2]) وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ

(كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة)

(١) حديث كان يقول فى دعائه اللهم حسن خلقي وخلقي: أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة ولفظهما اللهم أحسنت خلقي فأحسن خلقي واسنادها جيد وحديث ابن مسعود رواه حب

(٢) حديث اللهم جنبني منكرات الأخلاق: ت وحسنه وك وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك وقال ت اللهم أني أعوذ بك

(٣) حديث سعد بن هشام دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرءان رواه مسلم ووهم الحاكم فى قوله انهما لم يخرجاه

---

(١) غافر: ٦٠ (٢) الاعراف: ١٩٩

ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ[1])وقوله(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[2]) وقوله: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[3])وقوله: (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[4])وقوله:(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ[5]) وقوله :(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[6])وقوله.(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[7]) وقوله : (اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً[8])

[1] ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وهو يمسح الدم ويقول « كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ » فأنزل الله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ[9]) تأديبا له على ذلك، وأمثال هذه التأديبات فى القرءان لاتحصر ، وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق ، فإنه أدب بالقرءان وأدب الخلق به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «[2] بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق ، بما أوردناه فى كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق فلا نعيده ، ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى :(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[10]) فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه، ثم انظر إلى عميم لطفه، وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى ، فهو الذى زينه بالخلق الكريم ، ثم أضاف إليه ذلك فقال (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[11])ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم للخلق،[3] أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها

---

(١) حديث كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد ـ الحديث : فى نزول ليس لك من الأمر شىء م من حديث أنس وذكره خ تعليقا

(٢) حديث بعثت لأتمم مكارم الأخلاق : أحمد و ك هق من حديث أبى هريرة قال الحاكم صحيح على شرط م وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٣) حديث ان الله يحب معالى الاخلاق ويبغض سفسافها: هق من حديث سهل بن سعد متصلا ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلا ورجالهما ثقات

---

(١) النحل : ٩٠ (٢) لقمان : ١٧ (٣) الشورى : ٤٣ (٤) المائدة : ١٣ (٥) النور : ٢٢ (٦) فصلت : ٣٤
(٧) آل عمران : ١٣٤ (٨) الحجرات : ١٢ (٩) آل عمران ١٢٨ (١٠ ، ١١) القلم : ٤

قال علي رضي الله عنه [١] ياعجبا لرجل مسلم ! يجيئه أخوه المسلم في حاجة ، فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا ، لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق ، فإنها مما تدل على سبيل النجاة ، فقال له رجل أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم ، وما هو خير منه لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية في السبي ، فقالت يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائي. فقال صلى الله عليه وسلم « يَاجَارِيَةُ هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا ، لَوْ كَانَ أَبُوكِ مُسْلِماً لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ ، خَلُّوا عَنْهَا فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ، فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ، الله يحب مكارم الأخلاق فقال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا حَسَنُ الْأَخْلَاقِ) وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم [٢] قال « إِنَّ اللهَ حَفَّ الْإِسْلَامَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ »

ومن ذلك حسن المعاشرة ، وكرم الصنيعة ، ولين الجانب ، وبذل المعروف ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وعيادة المريض المسلم ، برا كان أو فاجرا ، وتشييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت ، مسلما كان أو كافرا ، وتوقير ذي الشيبة المسلم ، وإجابة الطعام والدعاء عليه ، والعفو ، والإصلاح بين الناس ، والجود ، والكرم ، والسماحة ، والابتداء بالسلام ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، واجتناب ماحرمه الاسلام ، من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها ، وكل ذي وتر ، وكل ذي دخل ، والغيبة ، والكذب ، والبخل والشح ، والجفاء ، والمكر ، والخديعة ، والنميمة ، وسوء ذات البين ، وقطيعة الأرحام وسوء الخلق ، والتكبر ، والفخر ، والاختيال ، والاستطالة ، والبذخ ، والفحش ، والتفحش

---

(١) حديث علي قوله واعجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ــ الحديث : وفيه مرفوعا لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية في السبي فقالت يا محمد ان رأيت أن تخلي عني الحديث : ت الحكيم في نوادر الاصول باسناد فيه ضعف

(٢) حديث معاذ حف الاسلام بمكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال ــ الحديث : بطوله لم أقف له على أصل ويغني عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث

والحقد ، والحسد ، والطيرة ، والبغى ، والعدوان ، والظلم

قال أنس رضى الله عنه [١] فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ، ولم يدع غشا ، أو قال عيبا ، أو قال شينا ، إلا حذرناه ونهانا عنه ، ويكفى من ذلك كله هذه الآية (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ [١]) الآية

وقال معاذ أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [٢] فقال « يَامُعَاذُ أُوصِيكَ بِاتِّقَاءِ اللهِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ وَحِفْظِ الْجَارِ وَرَحْمَةِ الْيَتِيمِ وَلِينِ الْكَلَامِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَحُسْنِ الْعَمَلِ وَقِصَرِ الْأَمَلِ وَلُزُومِ الْإِيمَانِ وَالتَّفَقُّهِ فِى الْقُرْآنِ وَحُبِّ الْآخِرَةِ وَالْجَزَعِ مِنَ الْحِسَابِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ وَأَنْهَاكَ أَنْ تَسُبَّ حَكِيماً أَوْ تُكَذِّبَ صَادِقاً أَوْ تُطِيعَ آثِماً أَوْ تَعْصِىَ إِمَاماً عَادِلاً أَوْ تُفْسِدَ أَرْضاً وَأُوصِيكَ بِاتِّقَاءِ اللهِ عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ وَمَدَرٍ وَأَنْ تُحْدِثَ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَةً السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ »

فهكذا أدب عباد الله ، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب

بيان جملة من محاسن أخلاقه

التى جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

فقال كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس [٣] وأشجع الناس ، [٤] وأعدل

---

(١) حديث أنس لم يدع صلى الله عليه وسلم نصيحة جميلة الا وقد دعانا اليها وأمرنا بها: لم أقف له على اسناد وهو صحيح من حيث الواقع

(٢) حديث يامعاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث: أبو نعيم فى الحلية وهق فى الزهد وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس أبو الشيخ فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عبد الرحمن بن أبزى كان رسول لله صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس الحديث وهو مرسل وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبد الله بن سلام فى قصة اسلام زيد بن شعنة من أحبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب ياعمر كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولاتزيده شدة الجهل عليه الا حلما فقد اختبرتهما ـ الحديث :

(٤) الحديث : انه كان أشجع الناس متفق عليه من حديث أنس

(١) النحل : ٩٠

الناس ،(١) وأعف الناس ، (٢) لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها ، أو عصمة نكاحها ، أو تكون ذات محرم منه

وكان أسخى الناس ، (٣) لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، (٤) وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه ، وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، (٥) لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ، من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله ،

---

(١) حديث كان أعدل الناس : ت في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب في الحديث الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه وفيه قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء ـ الحديث : وفيه من لم يسم

(٢) حديث كان أعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له الشيخان من حديث عائشة ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها

(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم أسخى الناس: الطبراني في الأوسط من حديث أنس فضلت على الناس بأربع: بالسخاء والشجاعة ـ الحديث : ورجاله ثقات وقال صاحب الميزان انه منكر وفي الصحيحين من حديثه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس واتفقا عليه من حديث ابن عباس وتقدم في الزكاة

(٤) حديث كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وان فضل ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج اليه: د من حديث بلال في حديث طويل فيه أهدى صاحب فدك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركائب عليهن كسوة وطعام وبيع بلال لذلك ووفاء دينه. ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد وحده وفيه قال فضل شيء فقلت نعم ديناران قال انظر أن تريحني منهما فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما فلم يأتنا أحد فبات في المسجد حتى أصبح وظل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى اذا صلى العتمة دعاني فقال ما فعل الذي قبلك قلت قد أراحك الله منه فكبر وحمد الله شفقا من أن يدركه الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى جاء أزواجه ـ الحديث :وللبخاري من حديث عقبة بن الحارث ذكرت وأنا في الصلاة فكرهت أن يمسي ويبيت عندنا فأمرت بقسمته ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسلا كان لا يقبل مالا عنده ولا يبيته

(٥) حديث كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله : متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم في الزكاة

لايسأل شيئا إلا أعطاه ،[1] ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه ، حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء ،[2]

وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويخدم في مهنة أهله ،[3] ويقطع اللحم معهن ،[4]

وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ،[5] ويجيب دعوة العبد والحر ،[6]

---

(١) حديث كان لايسأل شيئا إلا أعطاه . الطيالسي والدارمي من حديث سهل بن سعد وللبخاري من حديثه في الرجل الذي سأله الشملة فقيل له سألته إياها وقد علمت أنه لايرد سائلا ـ الحديث : ولمسلم من حديث أنس ما سئل على الاسلام شيئا الا أعطاه وفي الصحيحين من حديث جابر ما سئل شيئا قط فقال لا

(٢) حديث انه كان يؤثر مما ادخر لعياله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام : هذا معلوم ويدل عليه مارواه ت ن هـ من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة بعشرين صاعا من طعام أخذه لأهله وقال هـ بثلاثين صاعا من شعير وإسناده جيد وخ من حديث عائشة توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين وفي رواية هق بثلاثين صاعا من شعير

(٣) حديث وكان صلى الله عليه وسلم يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله : أحمد من حديث عائشة كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ بلفظ ويرقع الثوب وللبخاري من حديث عائشة كان يكون في مهنة أهله

(٤) حديث إنه كان يقطع اللحم : أحمد من حديث عائشة أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلا فأمسكت وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قالت فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر في أثناء حديث وأيم الله مامن الثلاثين ومائة إلا حزله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواد بطنها

(٥) حديث كان من أشد الناس حياء لايثبت بصره في وجه أحد : الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حيا من العذراء في خدرها

(٦) حديث كان يجيب دعوة العبد والحر : ت هـ ك من حديث أنس كان يجيب دعوة المملوك قال ك صحيح الاسناد قلت بل ضعيف وللدارقطني في غرائب مالك وضعفه والخطيب في أسماء من روي عن مالك من حديث أبي هريرة كان يجيب دعوة العبد إلى أي طعام دعي ويقول لو دعيت إلى كراع لأجبت وهذا بعمومه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند خ من حديث أبي هريرة وقد تقدم وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبد الله بن عتبة كان لايدعوه أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه الحديث وهو مرسل

ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ، أوفخذ ارنب ، ويكافىء عليها [١] ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ، [٢] ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين ، [٣] يغضب لربه ولا يغضب لنفسه [٤] وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر ، أو على أصحابه

عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى ، وقال « أنالا أنتصر بمشرك » [٥] ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم ، قتيلا بين اليهود ، فلم يحف عليهم ، ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة

---

(١) حديث كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها: خ من حديث عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها وأما ذكر جرعة اللبن وفخذ الأرنب ففى الصحيحين من حديث أم الفضل أنها أرسلت بقدح لبن إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة فشربه ولأحمد من حديث عائشة أهدت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا ــ الحديث : وفى الصحيحين من حديث أنس أن أبا طلحة بعث بورك أرنب أو فخذها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله

(٢) حديث كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٣) حديث كان لا يستكبر أن يمشى مع المسكين : ن ك من حديث عبد الله بن أبى أوفى بسند صحيح وقد تقدم فى الباب الثانى من آداب الصحبة ورواه ك أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى وقال صحيح على شرط الشيخين

(٤) حديث كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه : ت فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة وفيه وكان لا تغضبه الدنيا وما كان منها فاذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وفيه من لم يسم

(٥) حديث وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى انسان واحد يزيد فى عدد من معه فأبى وقال أنا لا أستنصر بمشرك م من حديث عائشة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما أدركه قال جئت لأتبعك وأصيب معك فقال له أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال فارجع فلن أستعين بمشرك ــ الحديث.

وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به [١]

وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ومرة [٢] يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال ، وإن وجد تمرا دون خبز أكله ، وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله ، وإن وجد حلوا أو عسلا أكله ، وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله ، [٣] لا يأكل متكئا ، [٤] ولا على خوان ، [٥] منديله باطن

---

(١) حديث وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم فوداه بمائة ناقة: الحديث ــ متفق عليه من حديث سهل بن أبي حثمة ورافع بن خديج والرجل الذى وجد مقتولا هو عبد الله ابن سهل الانصاري ــ

(٢) حديث كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع :متفق عليه من حديث جابر فى قصة حفر الخندق وفيه فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم شد على بطنه حجرا وأغرب حب فقال فى صحيحه انما هو الحجز بضم الحاء وآخره زاى جمع حجزة وليس بمتابع على ذلك ويرد على ذلك ما رواه ت من حديث أبي طلحة شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين ورجاله كلهم ثقات

(٣) حديث كان يأكل ماحضر ولا يرد ماوجد ولا يتورع من مطعم حلال ان وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد خبز برأ وشعير أكله وإن وجد حلوا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله :انتهى ــ هذا كله معروف من أخلاقه ففى ت من حديث أم هانىء دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم فقال أعندك شيء قلت لا إلا خبز يابس وخل فقال هات ــ الحديث : وقال حسن غريب وفى كتاب الشمائل لأبى الحسن بن الضحاك بن المقرى من رواية الأوزاعى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأبالى مارددت به الجوع وهذا معضل ولمسلم من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا ماعندنا إلا خل فدعا به ــ الحديث : وله من حديث أنس رأيته مقعيا يأكل تمرات و ت وصححه من حديث أم سلمة أنها قربت إليه جنبا مشويا فأكل منه ــ الحديث : وللشيخين من حديث عائشة ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا خبز بر حتى مضى لسبيله لفظ م وفى رواية له ماشبع من خبز شعير يومين متتابعين و ت وصححه و ه من حديث ابن عباس كان أكثر خبزهم الشعير وللشيخين من حديث عائشة كان يحب الحلواء والعسل ولهما من حديث ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبنا فدعا بماء فمضمض و ن من حديث عائشة كان يأكل الرطب بالبطيخ واسناده صحيح

(٤) حديث انه كان لا يأكل متكئا : تقدم فى آداب الأكل فى الباب الأول

(٥) حديث أنه كان لا يأكل على خوان : تقدم فى الباب المذكور

قدميه ، (١) لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية ، حتى لقي الله تعالى إيثارا على نفسه ، لا فقرا ولا بخلا ، (٢) يجيب الوليمة ، (٣) ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز (٤) ، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ، (٥) أشد الناس تواضعا ، وأسكنهم في غير كبر ، (٦) وأبلغهم في غير تطويل (٧)

---

(١) حديث كان منديله باطن قدمه : لا أعرفه من فعله وإنما المعروف فيه ما رواه هـ من حديث جابر كنا زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلا ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا : وقد تقدم في الطهارة

(٢) حديث لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله : تقدم في جملة الأحاديث التي قبله بثلاثة أحاديث

(٣) حديث كان يجيب الوليمة : هذا معروف وتقدم قوله لو دعيت إلى كراع لأجبت وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس أنه كان الرجل من أهل العوالي ليدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف الليل على خبز الشعير فيجيب وإسناده ضعيف

(٤) حديث كان يعود المريض ويشهد الجنازة : ت وضعفه و هـ ك وصححه من حديث أنس ورواه ك من حديث سهل بن حنيف وقال صحيح الاسناد وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده للجنائز

(٥) حديث كان يمشي وحده بين أعدائه بلا حارس : ت ك من حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية والله يعصمك من الناس فأخرج رأسه من القبة فقال انصرفوا فقد عصمني الله قال ت غريب وقال ك صحيح الاسناد

(٦) حديث كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم من غير كبر : أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته صلى الله عليه وسلم هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه إلى أن قال متواضع في غير ذلة وفيه دائب الاطراق وإسناده ضعيف وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه منها عند ن من حديث ابن أبي أوفى كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين ـ الحديث : وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء فجلس وجلسنا كأن على رءوسنا الطير ـ الحديث : ولأصحاب السنن من حديث أسامة ابن شريك أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير

(٧) حديث كان أبلغ الناس من غير تطويل : خ م من حديث عائشة كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه ولهما من حديثها لم يكن يسرد الحديث كسردكم : علقه خ ووصله م زادت ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه وله في الشمائل من حديث ابن أبي هالة يتكلم بجوامع الكلم فصل لا فضول ولا تقصير

(١) وأحسنهم بشرا ، (٢) لايهوله شىء من أموز الدنيا ، ويلبس ماوجد فمرة (٣) شملة، ومرة برد حبرة يمانيا ، ومرة جبة صوف ، ماوجد من المباح لبس ، (٤) وخاتمه فضة (٥) يلبسه فى خنصره الأيمن (٦) والأيسر، (٧) يردف خلفه عبده أو غيره

---

(١) حديث كان أحسنهم بشرا : ت فى الشمائل من حديث على بن أبى طالب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق ـ الحديث : وله فى الجامع من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء مارأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث كان لايهوله شىء من أمور الدنيا : أحمد من حديث عائشة ماأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذوتقى وفى لفظ له ماأعجب النبى صلى الله عليه وسلم شىء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذوتقى وفيه ابن لهيعة

(٣) حديث كان يلبس ماوجد فمرة شملة ومرة حبرة ومرة جبة صوف ماوجد من المباح لبس : خ من حديث سهل بن سعد جاءت امرأة ببردة قال سهل هل تدرون ما البردة هى الشملة منسوج فى حاشيتها وفيه فخرج إلينا وإنها لازاره ـ الحديث : ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فى شملة قد عقد عليها فيه الأحوص بن حكيم مختلف فيه وللشيخين من حديث أنس كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الحبرة ولهما من حديث المغيرة بن شعبة وعليه جبة من صوف

(٤) حديث خاتمه فضة : متفق عليه من حديث أنس اتخذ خاتما من فضة

(٥) حديث لبسه الخاتم فى خنصره الأيمن : م من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة فى يمينه وللبخارى من حديثه فانى لأرى بريقه فى خنصره

(٦) حديث تختمه فى الأيسر : م من حديث أنس كان خاتم النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى

(٧) حديث إردافه خلفه عبده أو غيره أردف صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد من عرفة كما ثبت فى الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة وأردفه مرة أخرى على حمار وهو فى الصحيحين أيضا من حديث أسامة وهو مولاه وابن مولاه وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو فى الصحيحين أيضا من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة

يركب ما امكنه مرة فرسا ،[١] ومرة بعيرا ، ومرة بغلة شهباء ، ومرة حمارا ، ومرة يمشى راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود المرضى فى أقصى المدينة [٢] يحب الطيب ، ويكره الرائحة الرديئة ،[٣] ويجالس الفقراء ،[٤] ويؤاكل المساكين

---

(١) حديث كان يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة راجلا ومرة حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى فى أقصى المدينة فى الصحيحين من حديث أنس ركوبه صلى الله عليه وسلم فرسا لأبى طلحة ولمسلم من حديث جابر بن سمرة ركوبه الفرس عريا حين انصرف من جنازة بن الدحداح ولمسلم من حديث سهل بن سعد كان للنبى صلى الله عليه وسلم فرس يقال له اللحيف ولهما من حديث ابن عباس طاف النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع على بعير ولهما من حديث البراء رأيت النبى صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء يوم حنين ولهما من حديث أسامة أنه صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على أكاف ـ الحديث : ولهما من حديث ابن عمر كان يأتى قبا راكبا وماشيا ولمسلم من حديثه فى عيادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانيس ولا قمص نمشى فى السباخ : الحديث

(٢) حديث كان يحب الطيب والرائحة الطيبة ويكره الروائح الرديئة : ن من حديث أنس حبب إلي النساء والطيب ودك من حديث عائشة أنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فخلعها وكان يعجبه الريح الطيبة لفظ ك وقال صحيح على شرط الشيخين ولابن عدى من حديث عائشة كان يكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة

(٣) حديث كان يجالس الفقراء : د من حديث أبى سعيد جلست فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وأن بعضهم ليستتر بعضا من العرى ـ الحديث : وفيه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بنفسه فينا ـ الحديث : و هـ من حديث خباب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم اسنادهما حسن

(٤) حديث مؤاكلته للمساكين : خ من حديث أبى هريرة قال وأهل الصفة أضياف الاسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها

(١) ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، (٢) يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، (٣) لايجفو على أحد ، (٤) يقبل معذرة المعتذر إليه ، (٥) يمزح ولا يقول إلا حقا ، يضحك (٦) من غير قهقهة ، (٧) يرى اللعب المباح فلا ينكره

---

(١) حديث كان يكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم : ت فى الشمائل من حديث على الطويل فى صفته صلى الله عليه وسلم وكان من سيرته إيثار أهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين وفيه ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ـ الحديث : والطبرانى من حديث جرير فى قصة إسلامه فألقى إلي كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه وإسناده جيد ورواه ك من حديث معبد بن خالد الانصاري عن أبيه نحوه وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم : ك من حديث ابن عباس كان يجل العباس اجلال الوالد والوالدة وله من حديث سعد بن أبى وقاص أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن عليا فقال ماأنا أخرجكم وأسكنه ولكن الله أخرجكم وأسكنه قال فى الأول صحيح الأسناد وسكت عن الثانى وفيه امسلم الملائى ضعيف فآثر عليا لفضله بتقدم إسلامه وشهوده بدرا والله أعلم وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد لايبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر

(٣) حديث كان لايجفو على أحد : د ت فى الشمائل و ن فى اليوم والليلة من حديث أنس كان قلما يواجه رجلا بشىء يكرهه وفيه ضعف وللشيخين من حديث أبى هريرة أن رجلا استأذن عليه صلى الله عليه وسلم فقال بئس أخو العشيرة فلما دخل ألان له القول ـ الحديث

(٤) حديث يقبل معذرة المعتذر إليه : متفق عليه من حديث كعب بن مالك فى قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه طفق المخلفون يعتذرون إليه فقبل منهم علانيتهم ـ الحديث

(٥) حديث يمزح ولا يقول إلا حقا : أحمد من حديث أبى هريرة وهو عند ت بلفظ قالوا إنك تداعبنا قال إنى ولا أقول إلا حقا وقال حسن

(٦) حديث ضحكه من غير قهقهة : الشيخان من حديث عائشة مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم و ت من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء ما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسما قال صحيح غريب وله فى الشمائل فى حديث هند بن أبى هالة جل ضحكه التبسم

(٧) حديث يرى اللعب المباح ولا يكرهه : الشيخان من حديث عائشة فى لعب الحبشة بين يديه فى المسجد وقال لهم دونكم يابنى أرفدة وقد تقدم فى كتاب السماع

(١) يسابق أهله ،(٢) وترفع الأصوات عليه فيصبر ،(٣) وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها، وكان له(٤) عبيد وإماء لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس(٥) ولا يمضى له وقت

---

(١) حديث مسابقته صلى الله عليه وسلم أهله : د ن فى الكبرى و ه من حديث عائشة فى مسابقته لها وتقدم فى الباب الثالث من النكاح

(٢) حديث ترفع الأصوات عنده فيصبر : خ من حديث عبد الله بن الزبير قدم ركب من بنى تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر أمر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافى وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله

(٣) حديث وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها : محمد بن سعد فى الطبقات من حديث أم سلمة كان عيشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن أو قالت أكثر عيشنا كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاح بالغابة ـ الحديث : وفى رواية له كانت لنا أعنز سبع فكان الراعى يبلغ بهن مرة الحمى ومرة أحدا ويروح بهن علينا وكانت لقاح بذى الجبل فيؤب إلينا ألبانها بالليل ـ الحديث : وفي إسنادها محمد بن عمر الواقدى ضعيف فى الحديث وفى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع كانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ترعى بذى قرد الحديث : ولأبى داود من حديث لقيط بن صبره لنا غنم مائة لا نريد أن تزيد فاذا ولد الراعى بهمة ذبحنا مكانها شاة ـ الحديث

(٤) حديث كان له عبيد وإما فلا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس : محمد بن سعد فى الطبقات من حديث سلمى قالت كان خدم النبي صلى الله عليه وسلم أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد أعتقهن كلهن وإسناده ضعيف وروى أيضا أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبد العزيز بأسماء خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر بركة أم أيمن وزيد بن حارثة وأبا كبشة وأنسة وشقران وسفينة وثوبان ورباحا وبسارا وأبا رافع وأبا مويهبة ورافعا أعتقهم كلهم وفضالة ومدعما وكركرة وروى أبو بكر بن الضحاك فى الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد ضعيف كان صلى الله عليه وسلم يأكل مع خادمه و م من حديث أبى اليسر أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ـ الحديث

(٥) حديث لا يمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه : ت فى الشمائل من حديث علي بن أبى طالب كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزأ لله وجزأ لأهله وجزأ لنفسه ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة ـ الحديث

فى غير عمل لله تعالى ، أو فيما لابد له منه من صلاح نفسه ، [1] يخرج إلى بساتين أصحابه [2] لايحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكا لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا [3] قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة ، والسياسة التامة ، وهو أمى لايقرأ ولا يكتب ،

---

(١) حديث يخرج إلى بساتين أصحابه :تقدم فى الباب الثالث من آداب الأكل خروجه صلى الله عليه وسلم الى بستان أبى الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصارى وغيرهما

(٢) حديث لايحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولايهاب ملكا لملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحدا: خ من حديث سهل بن سعد مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما تقولون فى هذا قالوا حرى أن خطب أن ينكح ـ الحديث: وفيه فمر رجل من فقراء المسلمين فقال ما تقولون فى هذا قالوا حرى ان خطب أن لاينكح ـ الحديث: وفيه هذا خير من ملء الارض مثل هذا و م من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشى والى كل جبار يدعوهم الى الله عز وجل

(٣) حديث قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمى لايقرأ ولايكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى وفى فقر وفى رعاية الغنم لا أب له ولا أم فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحيدة وأخبار الأولين والآخرين ومافيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول :هذا كله معروف معلوم فروى ت فى الشمائل من حديث علي بن أبى طالب فى حديثه الطويل فى صفته وكان من سيرته فى جزء الأمة ايثار أهل الفضل باذنه وقسمه الحديث وفيه فسألته عن سيرته فى جلسائه فقال كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ـ الحديث :وفيه كان يخزن لسانه الافيما يعنيه وفيه قد ترك نفسه من ثلاث من المراء والاكثار ومالايعنيه ـ الحديث :وقد تقدم بعضه وروى ابن مردويه من حديث ابن عباس فى قوله وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك قال كان النبى صلى الله عليه وسلم أمياً لايقرأ ولايكتب وقد تقدم فى العلم وللبخارى من حديث ابن عباس قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحم وحب من حديث أم سلمة فى قصة هجرة الحبشة أن جعفرا قال للنجاشى أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ـ الحديث : ولأحمد من حديث أبى ابن كعب انى لفى صحراء ابن عشر سنين واشهر فاذا كلام فوق راسى ـ الحديث : و خ من حديث ابى هريرة كنت ارعاها اى الغنم على قراريط لأهل مكة ولأبى يعلى و حب من حديث حليمة إنما نرجو كرامة الرضاعة من والد المولود وكان يتيما ـ الحديث : وتقدم حديث بعثت بمكارم الأخلاق

نشأ فى بلاد الجهل والصحارى، فى فقر، وفى رعاية الغنم، يتيما لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، والطرق الحميدة، وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة، والغبطة والخلاص فى الدنيا، ولزوم الواجب وترك الفضول، وفقنا الله لطاعته فى أمره، والتأسى به فى فعله، آمين يارب العالمين

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

مما رواه أبو البحترى، قالوا [١] ما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة، [٢] وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة، وقيل له وهو فى القتال لو لعنتهم يارسول الله، فقال [٣] « إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً وَلَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا » وكان [٤] إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر، عام أو خاص، عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له [٥] وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى، وما انتقم من شىء صنع اليه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، وما خير بين أمرين قط الا اختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه إثم

---

(١) حديث ما شتم أحدا من المؤمنين الاجعلها الله كفارة ورحمة : متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه فأى المؤمنين لعنته شتمته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة وفى رواية فاجعلها زكاة ورحمة وفى رواية فاجعلها له كفارة وقربة وفى رواية فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة

(٢) حديث ما لعن امرأة ولا خادما قط المعروف ما ضرب مكان لعن كما هو متفق عليه من حديث عائشة وللبخارى من حديث أنس لم يكن فحاشا ولا لعانا وسيأتى الحديث الذى بعده فيه هذا المعنى

(٣) حديث انما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا : م من حديث أبى هريرة

(٤) حديث كان اذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له الشيخان من حديث أبى هريرة قالوا يارسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع عليهم فقيل هلكت دوس فقال اللهم اهد دوسا وائت بهم

(٥) حديث ما ضرب بيده أحدا قط الا أن يضرب فى سبيل الله وما انتقم فى شىء صنع اليه الا أن تنتهك حرمة الله ــ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة

أو قطيعة رحم ، فيكون أبعد الناس من ذلك ، وما كان[1] يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته ، وقال أنس رضى الله عنه[2] والذى بعثه بالحق ما قال لى فى شىء قط كرهه لمَ فعلته ، ولا لامنى نساؤه إلا وقال دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر ، قالوا وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] مضجعا، إن فرشوا له اضطجع، وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض

وقد وصفه الله تعالى فى التوراة قبل أن يبعثه فى السطر الأول ، فقال محمد رسول الله ، عبدى المختار ، لا فظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، مولده بمكة ، وهجرته بطابة ، وملكه بالشام ، يأتزر على وسطه هو ومن معه ، دعاه للقرءان والعلم ، يتوضأ على أطرافه ، وكذلك لغته فى الأنجيل،

---

(١) حديث ما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته : خ تعليقا من حديث أنس ان كانت الأمة من اماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت ووصله ه وقال فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة فى حاجتها وقد تقدم وتقدم أيضا من حديث ابن أبى أوفى ولا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين حتى يقضى لهما حاجتهما

(٢) حديث أنس والذى بعثه بالحق ماقال فى شىء قط كرهه لم فعلته ولا لأمنى أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر :الشيخان من حديث أنس ماقال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته وروى أبو الشيخ فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث له قال فيه ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه فان عاتبنى أحد من أهله قال دعوه فلو قدر شىء كان وفى رواية له كذا قضى

(٣) حديث ماعاب مضجعا أن فرشوا له اضطجع وان لم يفرشوا له اضطجع على الارض :لم أجده بهذا اللفظ والمعروف ماعاب طعاما ويؤخذ من عموم حديث على بن أبى طالب ليس بفظ إلى أن قال ولا عياب رواه ت فى الشمائل والطبرانى وابو نعيم فى دلائل النبوة وروى ابن ابى عاصم فى كتاب السنة من حديث انس ما اعلمه عاب شيئا قط وفى الصحيحين من حديث عمر اضطجاعه على حصير و ت وصححه من حديث ابن مسعود نام على حصير فقام وقد اثر فى جنبه :الحديث

(١) وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام . (٢) ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، (٣) وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ ؛

(٤) وكان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ، ثم أخذ بيده فشابكه ، ثم شد قبضته عليها ؛

(٥) وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله

(٦) وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه ، فقال ألك حاجة فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته

(٧) وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ، ويمسك بيديه عليهما ، شبه الحبوة

---

(١) حديث كان من خلقه ان يبدأ من لقيه بالسلام : ت فى الشمائل من حديث هند بن ابى هالة

(٢) حديث ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف : الطبرانى ومن طريقه ابو نعيم فى دلائل النبوة من حديث على بن ابى طالب و ه من حديث انس كان اذا لقى الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف ورواه ت نحوه وقال غريب

(٣) حديث وما اخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر : ت ه من حديث انس الذي قبله كان اذا استقبل الرجل فصافحه لاينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع لفظ ت وقال غريب

(٤) حديث كان اذا لقي أحدا من اصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته : د من حديث ابى ذر وسأله رجل من عنزة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصافحكم اذا لقيتموه قال مالقيته قط الا صافحنى ــ الحديث : وفيه الرجل الذى من عنزة ولم يسم وسماه البيهقى فى الأدب عبد الله وروينا فى علوم الحديث للحاكم من حديث أبي هريرة قال شبك بيدى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وهو عند م بلفظ اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى

(٥) حديث كان لايقوم ولا يجلس الا على ذكر الله عز وجل : ت فى الشمائل من حديث على فى حديثه الطويل في صفته وقال على ذكر بالتنوين

(٦) حديث كان لايجلس اليه احد وهو يصلى إلا خفف صلاته واقبل عليه فقال ألك حاجة فاذا فرغ من حاجته عاد الى صلاته لم اجد له أصلا

(٧) حديث كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليها شبه الحبوة : د ت فى الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس فى المجلس احتبى بيديه واسناده ضعيف وللبخاري من حديث ابن عمر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة محتبيا بيديه

(١) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه (٢) كان حيث انتهى به المجلس جلس ، (٣) وما رؤى قط مادًّا رجليه بين أصحابه ، حتى لا يضيق بهما على أحد ، إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة

(٤) وكان يكرم من يدخل عليه ، حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه

(٥) وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل

(٦) وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه ، حتى كان مجلسه وسمعه ، وحديثه ، ولطيف محاسنه ، وتوجهه للجالس إليه ، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء ، وتواضع ، وأمانة ، قال الله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (١)).

---

(١) حديث انه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس اصحابه : د ن من حديث ابى هريرة وابى ذر قالا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهرانى اصحابه فيجىء الغريب فلا يدرى ايهم هو حتى يسأل ـ الحديث

(٢) حديث انه حيثما انتهى به المجلس جلس : ت فى الشمائل فى حديث على الطويل

(٣) حديث ما رؤى قط مادا رجليه بين اصحابه حتى يضيق بها على احد الا ان يكون المكان واسعا لاضيق فيه: الدار قطنى فى غرائب مالك من حديث انس وقال باطل وت وه لم ير مقدما ركبتيه بين يدى جليس له زاد ابن ماجه قط وسنده ضعيف

(٤) حديث كان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولارضاع يجلسه عليه: ك وصحح اسناده من حديث انس دخل جرير بن عبد الله على النبى صلى الله عليه وسلم وفيه فأخذ بردته فألقاها عليه فقال اجلس عليها ياجرير ـ الحديث : وفيه فاذا اتاكم كريم قوم فأكرموه وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة وللطبرانى فى الكبير من حديث جرير فألقى الى كساء ولأبى نعيم فى الحلية فبسط الى رداءه

(٥) حديث كان يؤثر الداخل بالوسادة التى تكون تحته ـ الحديث : تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة

(٦) حديث ما استصفاه احد الاظن انه اكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس اليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس اليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وامانة :ت فى الشمائل من حديث على الطويل وفيه ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه ان أحدا أكرم عليه منه وفيه مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وامانة

---

(١) : آل عمران ١٥٩

(١) ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم ، (٢) ويكنى من لم تكن له كنية ، فكان يدعى بما كناه به (٣) ويكنى أيضا النساء اللاتى لهن الأولاد ، واللاتى لم يلدن يبتدىء لهن الكنى ، (٤) ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم ، (٥) وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا .

---

(١) حديث كان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم : فى الصحيحين فى قصة الغار من حديث أبى بكر يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما وللحاكم من حديث ابن عباس أنه قال لعمر يا أباحفص أبصرت وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر أنه لأول يوم كنانى فيه بأبى حفص وقال صحيح على شرط م وفى الصحيحين أنه قال لعلى قم ياأبا تراب وللحاكم من حديث رفاعة بن مالك ان ابا حسن وجد مغصا فى بطنه فتخلفت عليه يريد عليا ولأبى يعلى الموصلى من حديث سعد ابن ابى وقاص فقال من هذا ابو إسحق فقلت نعم وللحاكم من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم كناه ابا عبد الرحمن ولم يولد له

(٢) حديث كان يكنى من لم يكن له كنية وكان يدعى بما كناه به : ت من حديث انس قال كنانى النبي صلى الله عليه وسلم ببقلة كنت اختليها يعنى ابا حمزة قال حديث غريب و هـ ن عمر قال لصهيب ابن مالك تكتنى وليس لك ولد قال كنانى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابى يحيى وللطبرانى من حديث ابى بكرة تدليت ببكرة من الطائف فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم فأنت ابو بكرة

(٣) حديث كان يكنى النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن يبتدىء لهن الكنى: ك من حديث ام ايمن فى قصة شربها بول النبى صلى الله عليه وسلم فقال ياأم ايمن قومى الى تلك الفخارة ـ الحديث وهـ من حديث عائشة انها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم كل ازواجك كنيته غيرى قال فأنت ام عبد الله وخ من حديث ام خالد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لها ياام خالد هذا سناه وكانت صغيرة وفيه مولى للزبير لم يسم ولأبى داود باسناد صحيح انها قالت يارسول الله كل صواحبى لهن كنى قال فاكتنى بابنك عبد الله بن الزبير

(٤) حديث كان يكنى الصبيان: في الصحيحين من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لاخ له صغير ياأبا عمير مافعل النغير

(٥) حديث كان أبعد الناس غضبا واسرعهم رضا هذا من المعلوم ويدل عليه اخباره صلى عليه وسلم أن بنى آدم خيرهم بطىء الغضب سريع الفىء : رواه ت من حديث أبى سعيد الخدرى وقال حديث حسن وهو صلى الله عليه وسلم خير بنى آدم وسيدهم وكان صلى الله عليه وسلم لايغضب لنفسه ولا ينتصر لها رواه ت فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة

(١) وكان أرأف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس (٢) ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات .

(٣) وكان إذا قام من مجلسه قال « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » ثم يقول علمنيهن جبريل عليه السلام

بيان كلامه وضحكه صلى الله عليه وسلم

(٤) كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاما، ويقول (٥) « أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ » (٦) وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) حديث كان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس هذا من المعلوم وروينا في الجزء الأول من فوائد أبي الدحداح من حديث علي في صفة النبي صلى الله عليه وسلم كان أرحم الناس بالناس ــ الحديث بطوله

(٢) حديث لم تكن ترفع في مجلسه الأصوات : ت في الشمائل من حديث علي الطويل

(٣) حديث كان إذا قام من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك ــ الحديث :أخرجه النسائي في اليوم والليلة و ك في المستدرك من حديث رافع بن خديج وتقدم في الأذكار والدعوات

(٤) حديث كان أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما: أبو الحسن بن الضحاك في كتاب الشمائل وابن الجوزي في الوفاء بإسناد ضعيف من حديث بريدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفصح العرب وكان يتكلم بالكلام لا يدرون ماهو حتى يخبرهم

(٥) حديث أنا أفصح العرب : الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري أنا أعرب العرب وإسناده ضعيف و ك من حديث عمر قال قلت يارسول الله مابالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ــ الحديث : وفي كتاب الرعد والمطر لابن أبي الدنيا في حديث مرسل أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم مارأيت أفصح منك

(٦) حديث أن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله عليه وسلم ك من حديث ابن عباس وصححه كلام أهل الجنة عربي

(١) وكان نزر الكلام ، سمح المقالة ، إذا نطق ليس بمهذار : وكان كلامه كخرزات نظمن قالت عائشة رضى الله عنها (٢) كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا : كان كلامه نزرا ، وأنتم تنثرون الكلام نثرا ، قالوا (٣) وكان أوجز الناس كلاما ، وبذلك جاءه جبريل ، وكان مع الإيجاز يجمع كل ماأراد ، (٤) وكان يتكلم بجوامع الكلم ، لا فضول ولا تقصير ، كأنه يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف ، يحفظه سامعه ويعيه .

---

(١) حديث كان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه خرزات النظم : الطبرانى من حديث أم معبد وكان منطقه خرزات نظم ينحدرن حلو المنطق لا نزر ولاهذر وقدتقدم وسيأتى فى حديث عائشة بعده كان إذا تكلم تكلم نزرا وفى الصحيحين من حديث عائشة كان يحدثنا حديثا لو عده العاد لأحصاه .

(٢) حديث عائشة كان لايسرد كسردكم هذا كان كلامه نزرا وأنتم تنثرونه نثرا: اتفق الشيخان على أول الحديث وأما الجملتان الأخيرتان فرواه الخلعى فى فوائده باسناد منقطع

(٣)حديث كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الايجاز يجمع كل ماأراد: عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع وللدارقطنى من حديث ابن عباس باسناد جيد أعطيت جوامع الكلم واختصر لى الحديث اختصارا وشطره الأول متفق عليه كما سيأتى قال خ بلغنى فى جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة فى الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك وللحاكم من حديث عمر المتقدم كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل فحفظنيها

(٤) حديث كان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه: ت فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة بعثت بجوامع الكلم ولأبى داود من حديث جابر كان فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل وفيه شيخ لم يسم وله وللترمذى من حديث عائشة كان كلام النبى صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه وقال ت يحفظه من جلس إليه وقال ت فى اليوم والليلة يحفظه من سمعه وإسناده حسن

(١) وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة
(٢) وكان طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة (٣) ولا يقول المنكر، ولا يقول فى الرضا والغضب إلا الحق (٤) ويعرض عمن تكلم بغير جميل (٥) ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره (٦) وكان إذا سكت تكلم جلساؤه، ولا يتنازع عنده فى الحديث، (٧) ويعظ بالجد والنصيحة

---

(١) حديث كان جهير الصوت أحسن الناس نغمة :ت ن فى الكبرى من حديث صفوان بن عسال قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر بينا نحن عنده إذ ناداه اعرابى بصوت له جهورى يا محمد فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو من صوته هاؤم ـ الحديث : وقال احمد فى مسنده وأجابه نحوا مما تكلم به ـ الحديث : وقد يؤخذ من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان جهورى الصوت ولم يكن يرفعه دائما وقد يقال لم يكن جهوري الصوت وإنما رفع صوته رفقا بالاعرابى حتي لا يكون صوته أرفع من صوته وهو الظاهر وللشيخين من حديث البراء ماسمعت أحدا أحسن صوتاً منه

(٢) حديث كان طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة :ت فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة

(٣) حديث لايقول المنكر ولا يقول فى الرضى والغضب إلا الحق : د من حديث عبد الله بن عمرو قال كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا تكتب كل شىء ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم فى الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال اكتب فوالذى نفسى بيده مايخرج منه إلا حق : رواه ك وصححه

(٤) حديث يعرض عمن تكلم بغير جميل: ت فى الشمائل من حديث على الطويل يتغافل عما لايشتهى الحديث

(٥) حديث يكنى عما اضطره الكلام مما يكره فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لامرأة رفاعة حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك رواه خ من حديث عائشة ومن ذلك مااتفقا عليه من حديثها فى المرأة التى سألته عن الاغتسال من الحيض خذى فرصة ممسكة فتطهرى بها ـ الحديث :

(٦) حديث كان إذا سكت تكلم جلساؤه ولايتنازع عنده فى الحديث : ت فى الشمائل فى حديث على الطويل

(٧) حديث يعظ بالجد والنصيحة م من حديث جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ـ الحديث :

ويقول(١) «لاَ تَضْرِبُوا الْقُرْءانَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ فَإِنَّهُ أُنْزِلَ عَلَى وُجُوهٍ»(٢) وكان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه ، وتعجبا مما تحدثوا به ، وخلطا لنفسه بهم.(٣) ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه ،(٤) وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به ، وتوقيرا له

قالوا(٥) ولقد جاءه أعرابى يوما ، وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه ، فأراد أن يسأله فقالوا لاتفعل ياأعرابى ، فإنا ننكر لونه ،فقال دعونى فوالذى بعثه بالحق نبيا لاأدعه حتى يتبسم ، فقال يارسول الله بلغنا أن المسيح يعنى الدجال يأتى الناس بالثريد وقد هلكوا

---

(١) حديث لا تضربوا القرءان بعضه ببعض وانه أنزل على وجوه :الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو باسناد حسن أن القرءان يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض وفى رواية للهروى فى ذم الكلام أن القرءان لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض وفى رواية له أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض وفى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب ان هذا القرءان أنزل على سبعة أحرف

(٢) حديث كان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخلطا لنفسه بهم :ت من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الصحيحين من حديث جرير ولا رآنى الا تبسم و ت فى الشمائل من حديث على يضحك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه وم من حديث جابر بن سمرة كانوا يتحدثون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم

(٣) حديث ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه : متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود فى قصة آخر من يخرج من النار وفى قصة الحبر الذى قال إن الله يضع السموات على أصبع ومن حديث أبى هريرة فى قصة المجامع فى رمضان وغير ذلك

(٤) حديث كان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له .ت فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة فى أثناء حديثه الطويل جل ضحكه التبسم

(٥) حديث جاءه اعرابى يوما وهو متغير ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا لا تفعل ياأعرابى فانا ننكر لونه فقال دعونى والذى بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم فقال يارسول الله بلغنا ان المسيح الدجال يأتى الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا ــ الحديث : وهو حديث منكر لم أقف له على أصل ويرده قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه حين سأله انهم يقولون ان معه جبل خبز ونهرماء قال هو أهون على الله من ذلك وفى رواية لمسلم انهم يقولون ان معه جبالا من خبز ولحم ــ الحديث : نعم فى حديث حذيفة وأبى مسعود المتفق عليهما أن معه ماء ونارا ــ الحديث :

جوعا ، أفترى لى بابى أنت وأمى أن أكف عن ثريده ، تعففا وتنزها ، حتى أهلك هزالا أم أضرب فى ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به ، قالوا فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال لا بل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين

قالوا [١] وكان من أكثر الناس تبسما ،وأطيبهم نفسا ،مالم ينزل عليه قرءان ، أو يذكر الساعة ، أو يخطب بخطبة عظة ،

[٢] وكان إذا سر ورضى فهو أحسن الناس رضا ، فإن وعظ وعظ بجد، وإن غضب وليس يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شىء ، وكذلك كان فى أموره كلها

وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله ، وتبرأ من الحول والقوة :واستنزل الهدى فيقول «اللَّهُمَّ [٣] أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا فَأَتَّبِعَهُ وَأَرِنِي المُنْكَرَ مُنْكَراً وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ وَأَعِذْنِي

---

(١) حديث كان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه القرءان أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة تقدم حديث عبد الله بن الحارث ما رأيت أحدا أكثر تبسما منه وللطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر كان إذا نزل عليه الوحى قلت نذير قوم فاذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكا ـ الحديث : ولأحمد من حديث على أو الزبير كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك فى وجهه وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه ورواه أبو يعلى من حديث الزبير من غير شك والحاكم من حديث جابر كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وهو عند مسلم بلفظ كان إذا خطب

(٢) حديث كان إذا سر ورضى فهو أحسن الناس رضا وإن وعظ وعظ بجد وان غضب ولا يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شىء وكذلك كان فى أموره كلها أبو الشيخ ابن حيان فى كتاب أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضى فكأنما ملاحك الجدر وجهه واسناده ضعيف والمراد به المرآة توضع فى الشمس فيرى ضوءها على الجدار وللشيخين من حديث كعب بن مالك قال وهو يبرق وجهه من السرور وفيه وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه الحديث : وم كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ـ الحديث : وقد تقدم وت فى الشمائل فى حديث هند بن أبى هالة لا تغضبه الدنيا وما كان منها فاذى تعدى الحق لم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها وقد تقدم

(٣) حديث كان يقول اللهم أرنى الحق حقا فاتبعه وأرنى المنكر منكرا وارزقنى اجتنابه وأعذنى من أن يشتبه على فاتبع هواى بغير هدى منك واجعل هواى تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم لم أقف لأوله على أصل وروى المستغفرى فى الدعوات من حديث أبى هريرة كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول اللهم إنك سألتنا من أنفسنا مالا نملكه إلا بك فأعطنا ما يرضيك عنا وم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل اهدنى لما اختلف فيه إلى آخر الحديث

مِنْ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيَّ فَأَتَّبِعَ هَوَايَ بِغَيْرِ هُدًى مِنْكَ وَأَجْعَلْ هَوَايَ تَبَعاً لِطَاعَتِكَ وَخُذْ رِضَا نَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي فِي عَافِيَةٍ وَاهْدِنِي لِمَا أُخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام

(١) وكان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد

(٢) وكان أحب الطعام اليه ما كان على ضفف ، والضفف ما كثرت عليه الأيدى

(٣) وكان إذا وضعت المائدة قال « بِسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا نِعْمَةً مَشْكُورَةً تَصِلُ بِهَا نِعْمَةَ الْجَنَّةِ » (٤) وكان كثيرا إذا جلس يأكل ، يجمع بين ركبتيه وبين قدميه ، كما يجلس المصلى

﴿ بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام ﴾

(١) حديث كان يأكل ماوجد : تقدم

(٢) حديث كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرت عليه الأيدى: أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وابن عدى فى الكامل من حديث جابر بسند حسن أحب الطعام الى الله ما كثرت عليه الأيدى ولأبى يعلى من حديث أنس لم يجتمع له غداء وعشاء خبز ولحم الاعلى ضفف واسناده ضعيف

(٣) حديث كان اذا وضعت المائدة قال بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة * أما التسمية فرواها ن من رواية من خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرب اليه طعا ما يقول بسم الله ـ الحديث : واسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده

(٤) حديث كان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصلى الا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد * عبد الرزاق فى المصنف من رواية أيوب معضلا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أكل أحفز وقال آكل كما يأكل العبد ـ الحديث : وروى ابن الضحاك فى الشمائل من حديث أنس بسند ضعيف كان اذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد وروى أبو الشيخ فى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بسند حسن من حديث أبى بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجثوا على ركبتيه وكان لا يتكىء أورده فى صفة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وللبزار من حديث ابن عمر انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ولأبى يعلى من حديث عائشة آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وسندها ضعيف

إلا أن الركبة تكون فوق الركبة ، والقدم فوق القدم ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ » (١) وكان لا يأكل الحار ويقول « إِنَّهُ غَيْرُ ذِي بَرَكَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَمْ يُطْعِمْنَا نَاراً فَأَبْرِدُوهُ » (٢) وكان يأكل مما يليه (٣) ويأكل بأصابعه الثلاث (٤) وربما استعان بالرابعة ، (٥) ولم يأكل بأصبعين ويقول « إِنَّ ذَلِكَ أَكْلَةُ الشَّيْطَانِ »

---

(١) حديث كان لا يأكل الحار ويقول إنه غير ذى بركة وإن الله لم يطعمنا نارا : البيهقى من حديث أبي هريرة باسناد صحيح أتى النبي صلى الله عليه وسلم يوما بطعام سخن فقال مادخل بطنى طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم ولأحمد باسناد جيد والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث خولة بنت قيس وقدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجدحرها فقبضها لفظ الطبرانى والبيهقى وقال أحمد فأحرقت أصابعه فقال حس وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة ابردوا الطعام فان الطعام الحار غير ذى بركة وله فيه وفى الصغير من حديثه أتى بصحفة تفور فرفع يده منها وقال إن الله لم يطعمنا نارا وكلاهما ضعيف

(٢) حديث كان يأكل مما يليه : أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفى اسناده رجل لم يسم وسماه فى رواية له وكذلك البيهقى فى روايته فى الشعب عبيد بن القاسم نسيب سفيان الثورى وقال البيهقى تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب ولأبى الشيخ من حديث عبد الله ابن جعفر نحوه

(٣) حديث أكله بأصابعه الثلاث : م من حديث كعب بن مالك

(٤) حديث استعانته بالرابعة: رويناه فى الغيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبد الله العمرى هالك وفى مصنف ابن أبى شيبة من رواية الزهرى مرسلا كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بالخمس

(٥) حديث لم يأكل بأصبعين ويقول إن ذلك أكلة الشيطان : الدارقطنى فى الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف لا تأكل بإصبع فانه أكل الملوك ولا تأكل بأصبعين فانه أكل الشياطين الحديث

(١) وجاءه عثمان بن عفان رضى الله عنه بفالوذج ، فأكل منه ، وقال ماهذا ياأباعبد الله؟ قال : بأبى أنت وأمى ، نجعل السمن والعسل فى البرمة ، ونضعها عن النار ، ثم نغليه ، ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت : فنقليه على السمن ، والعسل فى البرمة ، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتى كما ترى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ هَذَا الطَّعَامَ طَيِّبٌ »

(٢) وكان يأكل خبز الشعير غير منخول

(٣) وكان يأكل القثاء بالرطب (٤) وبالملح

(٥) وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب

---

(١) حديث جاء عثمان بن عفان بفالوذج ـ الحديث : قلت المعروف ان الذى صنعه عثمان الخبيص رواه البيهق فى الشعب من حديث ليث بن أبى سليم قال إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان قدمت عليه عير تحمل النق والعسل ـ الحديث : وقال هذا منقطع وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن سلام أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان وفيه فاذا دقيق وسمن وعسل وفيه ثم قال لأصحابه كلوا هذا الذى تسميه فارس الخبيص وأما خبر الفالوذج فرواه ه باسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال أول ما سمعنا بالفالوذج أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أمتك تفتح عليهم الأرض ويفاض عليهم من لدنيا حتى أنهم ليأكلون الفالوذج قال النبى صلى الله عليه وسلم وما الفالوذج قال يخلطون السمن والعسل جميعا قال ابن الجوزى فى الموضوعات هذا حديث باطل لاأصل له

(٢) حديث كان يأكل خبز الشعير غير منخول : البخارى من حديث سهل بن سعد

(٣) حديث كان يأكل القثاء بالرطب : متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر

(٤) حديث كان يأكل القثاء بالملح : أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحي بن هاشم كذبه ابن معين وغيره ورواه ابن عدى وفيه عباد بن كثير متروك

(٥) حديث كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعنب : أبو نعيم فى الطب النبوى من رواية أمية بن زيد العبسى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ وروى أبو الشيخ وابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث أنس كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره ويأكل الرطب بالبطيخ وكان أحب الفاكهة إليه فيه يوسف ابن عطية الصفار مجمع على ضعفه وروى ابن عدى من حديث عائشة كان أحب الفاكهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرطب والبطيخ وله من حديث آخر لها فان خير الفاكهة العنب وكلاهما ضعيف

(١) وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر، (٢) وربما أكله بالرطب (٣) ويستعين باليدين جميعاً وأكل يوماً الرطب فى يمينه وكان يحفظ النوى فى يساره، فمرت شاة فأشار إليها بالنوى، فجعلت تأكل من كفه اليسرى، وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة (٤) وكان ربما أكل العنب خرطا، يرى زؤانه على لحيته كخرز اللؤلؤ، (٥) وكان أكثر طعامه الماء والتمر، (٦) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين

---

(١) حديث كان يأكل البطيخ بالخبز والسكر: أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل العنب بالخبز فيما رواه ابن عدى من حديث عائشة مرفوعا عليكم بالمرازمة قيل يارسول الله وما المرازمة قال أكل الخبز مع العنب فان خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز وإسناده ضعيف وأما أكل البطيخ بالسكر فان أريد بالسكر نوع من التمر والرطب مشهور فهو الحديث الآتى بعده وإن أريد به السكر الذى هو الطبرزذ فلم أر له أصلا إلا فى حديث منكر معضل رواه أبو عمر النوقانى فى كتاب البطيخ من رواية محمد بن على بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل بطيخا بسكر وفيه موسى ابن ابراهيم المروزى كذبه يحيى بن معين

(٢) حديث أكل البطيخ بالرطب: ت ن من حديث عائشة وحسنه ت و هـ من حديث سهل بن سعد كان يأكل الرطب بالبطيخ وهو عند الدارمى بلفظ البطيخ بالرطب

(٣) حديث استعانته باليدين جميعا فأكل يوما الرطب فى يمينه وكان يحفظ النوى فى يساره فمرت شاة فأشار اليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة أما استعانته بيديه جميعا فرواه أحمد من حديث عبد الله بن جعفر قال آخر ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى احدى يديه رطبات وفى الأخرى قثاء يأكل من هذه ويعض من هذه وتقدم حديث أنس فى أكله بيديه قبل هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة: فرويناها فى فوائد أبى بكر الشافعى من حديث أنس باسناد ضعيف

(٤) حديث ربما أكل العنب خرطا الحديث: ابن عدى فى الكامل من حديث العباس والعقيلى فى الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصرا وكلاهما ضعيف

(٥) حديث كان أكثر طعامه الماء والتمر: خ من حديث عائشة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء.

(٦) حديث كان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين: أحمد من رواية اسماعيل بن أبى خالد عن أبيه قال دخلت على رجل وهو يجمع لبنا بتمر وقال اذن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها الأطيبين ورجاله ثقات وإبهامه لا يضر.

(١) وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول « هُوَ يَزِيدُ فِي السَّمْعِ وَهُوَ سَيِّدُ الطَّعَامِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُطْعِمَنِيهِ كُلَّ يَوْمٍ لَفَعَلَ » (٢) وكان يأكل الثريد باللحم والقرع (٣) وكان يحب القرع ويقول « إِنَّهَا شَجَرَةُ أَخِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ » قالت عائشة رضي الله عنها (٤) وكان يقول « يَا عَائِشَةُ إِذَا طَبَخْتُمْ قِدْراً فَأَكْثِرُوا فِيهَا مِنَ الدُّبَّاءِ فَإِنَّهُ يَشُدُّ قَلْبَ الْحَزِينِ » (٥) وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد (٦) وكان لا يتبعه ولا يصيده، ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله

(١) حديث كان أحب الطعام إليه اللحم ويقول هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل : أبو الشيخ من رواية ابن سمعان قال سمعت من علمائنا يقولون كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم : الحديث و ت في الشمائل من حديث جابر أتانا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فذبحنا له شاة فقال كأنهم علموا أنا نحب اللحم وإسناده صحيح و هـ من حديث أبي الدرداء باسناد ضعيف سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم

(٢) حديث كان يأكل الثريد باللحم والقرع : م من حديث أنس

(٣) حديث كان يحب القرع ويقول أنها شجرة أخي يونس : ن هـ من حديث أنس كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب القرع وقال ن الدبا وهو عند م بلفظ تعجبه وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يونس فلفظته في أصل شجرة وهي الدباء

(٤) حديث ياعائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من لدباء فانها تشد قلب الحزين . رويناه في فوائد أبي بكر الشافعي

(٥) حديث كان يأكل لحم الطير الذي يصاد : ت من حديث أنس قال كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطير فجاء علي فأكل معه قال حديث غريب قلت وله طرق كلها ضعيفة وروى د ت واستغربه من حديث سفينة قال أكلت مع النبي صلى الله عليه وسلم لحم حبارى

(٦) حديث كان لايتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيؤتى به فيأكله :قلت هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال من تبع الصيد غفل رواه د ن ت من حديث ابن عباس وقال حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني قد كانت قبلي لله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد فهو ضعيف جدا

(١) وكان إذا أكل اللحم لم يطأطىء رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم ينتهشه انتهاشا (٢) وكان يأكل الخبز والسمن (٣) وكان يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة (٤) ودعا فى العجوة بالبركة، وقال هى من الجنة، وشفاء من السم والسحر

---

(١) حديث كان إذا أكل اللحم لم يطاطىء رأسه إليه ورفعه إلى فيه رفعا ثم نهشه: د من حديث صفوان ابن أمية قال كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فآخذ اللحم من العظم فقال ادن اللحم من فيك فانه أهنى وامرأ و ت من حديثه انهش اللحم نهشا فانه أهنى وأمرأ وهو منقطع والذى قبله منقطع أيضا وللشيخين من حديث أبى هريرة فتناول الذراع فنهش منها نهشة ـ الحديث

(٢) حديث كان يأكل الخبز والسمن: متفق عليه من حديث أنس فى قصة طويلة فيها فاتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت وعصرت أم سليم عكة فآدمته ـ الحديث: وفيه ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم وفى رواية هـ فصنعت فيها شيئا من سمن ولا يصح و د هـ من حديث ابن عمر وددت أن عندى خبزة بيضاء من بر سمراء ملبقة بسمن ـ الحديث: قال د منكر

(٣) حديث كان يحب من الشاة الذراع والكتف ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخل ومن التمر العجوة: وروى الشيخان من حديث أبى هريرة قال وضعت بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكانت أحب الشاة إليه ـ الحديث: وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس كان أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتف وإسناده ضعيف ومن حديث أبى هريرة ولم يكن يعجبه من الشاة إلا الكتف وتقدم حديث أنس كان يحب الدباء قبل هذا بستة أحاديث ولأبى الشيخ من حديث أنس كان أحب الطعام إليه الدباء وله من حديث ابن عباس باسناد ضعيف كان أحب الصباغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخل وله بالأسناد المذكور كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة

(٤) حديث دعا فى العجوة بالبركة وقال هى من الجنة وشفاء من السم والسحر: البزار والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن الاسود قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد سدوس فاهدينا له تمرا وفيه حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذامى فقال بارك الله فى الجذامى وفى حديقه خرج هذا منها ـ الحديث: قال أبو موسى المدينى قيل هو تمر أحمر و ت ن هـ من حديث أبى هريرة العجوة من الجنة وهى شفاء من السم وفى الصحيحين من حديث سعد بن أبى وقاص من تصبح سبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر.

(١) وكان يحب من البقول الهندباء ، والباذروج والبقلة الحمقاء التي يقال لها الرجلة

(٢) وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول

(٣) وكان لا يأكل من الشاة سبعا ، الذكر ، والانثيين ، والمثانة والمرارة ، والغدد والحيا والدم ة ويكره ذلك

(٤) وكان لا يأكل الثوم ، ولا البصل ، ولا الكراث (٥) وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله ، وإن كرهه تركه ، وإن عافه لم يبغضه إلى غيره

---

(١) حديث يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء التي يقال لها الرجلة : أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس عليكم بالهندباء فانه ما يوم الا ويقطر عليه قطرة من قطر الجنة وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة وأما الباذروج فلم أجد فيه حديثا وأما الرجلة فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بالرجلة وفي رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله فيك أنبتي حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناه الصداع وهذا مرسل ضعيف

(٢) حديث كان يكره الكليتين لمكانهما من البول: رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن محمد بن عبيدالله بن الشخير من حديث ابن عباس بأسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن علي العدوي أحد الكذابين

(٣) حديث كان لا يأكل من الشاة الذكر والانثيين والمثانه والمرارة والغدة والحيا والدم : ابن عدى ومن طريقه البيهقي من حديث ابن عباس باسناد ضعيف ورواه البيهقي من رواية مجاهد مرسلا

(٤) حديث كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث :مالك في الموطأ عن الزهرى عن سليمان بن يسار مرسلا ووصله الدار قطني في غرائب مالك عن الزهرى عن أنس وفي الصحيحين من حديث جابر أتى بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحا ـ الحديث:وفيه قال فاني أناجي من لا تناجي ولمسلم من حديث أبي أيوب في قصة بعثه إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال إني أكرهه من أجل ريحه

(٥) حديث ماذم طعاما قط لكن ان أعجبه أكله وان كرهه تركه وان عافه لم يبغضه إلى غيره : تقدم أول الحديث : وفي الصحيحين من حديث ابن عمر في قصة الضب فقال كلوا فانه ليس بحرام ولا بأس به ولكنه ليس من طعام قومي

(١) وكان يعاف الضب ، والطحال ولا يحرمهما
(٢) وكان يلعق بأصابعه الصحفة ويقول « آخِرُ الطَّعَامِ أَكْثَرُ بَرَكَةً »
(٣) وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر
(٤) وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ، ويقول إنه لايدرى في أي الطعام البركة (٥) وإذا فرغ قال « الْحَمْدُ لِلهِ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَطْعَمْتَ فَأَشْبَعْتَ وَسَقَيْتَ فَأَرْوَيْتَ لَكَ الْحَمْدُ غَيْرَ مَكْفُورٍ وَلاَ مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ » (٦) وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلاً جيداً ، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه

---

(١) حديث كان يعاف الضب والطحال ولا يحرمها :أما الضب ففى الصحيحين عن ابن عباس لم يكن بأرض قومى فاجدنى أعافه ولهما من حديث ابن عمر أحلت لناميتتان ودمان وفيه أما الدمان فالكبد والطحال وللبيهقى موقوفا على زيد بن ثابت انى لآكل الطحال وما بى إليه حاجة الا ليعلم أهلى انه لا باس به .

(٢) حديث كان يلعق الصحفة ويقول آخر الطعام أكثر بركة :البيهقى فى شعب الايمان من حديث جابر فى حديث قال فيه ولا ترفع القصعة حتى تلعقها أو تلعقها فان آخر الطعام فيه البركة و م من حديث أنس أمرنا أن نسلت الصحفة وقال ان أحدكم لايدرى أى طعامه يبارك له فيه

(٣) حديث كان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر م من حديث كعب بن مالك دون قوله حتى تحمر فلم أقف له على أصل

(٤) حديث كان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول انه لايدرى فى أى أصابعه البركة: م من حديث كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يمسح يده حتى يلعقها وله من حديث جابر فاذا فرغ فليلعق أصابعه فانه لايدري فى أى طعامه تكون البركة وللبيهقى فى الشعب من حديثه لا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق يده فان الرجل لا يدرى فى أى طعامه يبارك له فيه

(٥) حديث وإذا فرغ قال اللهم لك الحمد أطعمت وأشبعت وسقيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه :الطبرانى من حديث الحرث بن الحارث بسند ضعيف وللبخارى من حديث أبى أمامة كان إذا فرغ من طعامه قال الحمد لله الذى كفانا وآوانا غير مكفى ولا مكفور وقال مرة الحمد لله ربنا غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا

(٦) حديث كان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه أبو يعلى من حديث ابن عمر باسناد ضعيف من أكل من هذه اللحوم شيئا فليغسل يده من ريح وضره لايؤذى من حذاءه.

(١) وكان يشرب فى ثلاث دفعات ، وله فيها ثلاث تسميات، وفى أواخرها ثلاث تحميدات (٢) وكان يمص الماء مصا ، ولا يعب عبا

(٣) وكان يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه (٤) فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذى على يمينه ، السنة أن تعطى فإن أحببت آثرتهم (٥) وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ (٦) وكان لا يتنفس فى الإناء بل ينحرف عنه (٧) وأتى بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه ، وقال شربتان فى شربة ، وإدامان فى إناء واحد ، ثم قال صلى الله عليه وسلم «لَا أُحَرِّمُهُ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْفَخْرَ وَالْحِسَابَ بِفُضُولِ الدُّنْيَا غَدًا وَأُحِبُّ التَّوَاضُعَ فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ رَفَعَهُ اللهُ»

---

(١) حديث كان يشرب فى ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات وفى آخرها ثلاث تحميدات : الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة ورجاله ثقات وم من حديث أنس كان إذا شرب تنفس ثلاثا

(٢) حديث كان يمص الماء مصا ولا يعبه عبا: البغوى والطبرانى وابن عدى وابن قانع وابن منده وأبو نعيم فى الصحابة من حديث بهز كان يستاك عرضا ويشرب مصا وللطبرانى من حديث أم سلمة كان لا يعب ولأبى الشيخ من حديث ميمونة لا يعب ولا يلهث وكلها ضعيفة

(٣) حديث كان يدفع فضل سؤره إلى من عن يمينه : متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث استئذانه من على يمنه إذا كان على يساره أجل رتبة : متفق عليه من حديث سهل بن سعد

(٥) حديث شربه بنفس واحد: أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف وللحاكم من حديث أبى قتادة وصححه إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد ولعل تأويل هذين الحديثين على ترك التنفس فى الاناء والله أعلم

(٦) حديث كان لا يتنفس فى الاناء حتى ينحرف عنه :ك من حديث أبى هريره ولا يتنفس أحدكم فى الاناء إذا شرب منه ولكن اذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس وقال حديث صحيح الاسناد

(٧) حديث أتى باناء فيه عسل وماء فأبى أن يشربه وقال شربتان فى شربة وادامان فى اناء واحد الحديث: البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله شربتان فى شربة إلى آخره وسنده ضعيف

(١) وكان في بيته أشد حياء من العاتق ، لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه عليهم ، إن أطعموه أكل ، وما أعطوه قبل ، وما سقوه شرب ، (٢) وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

(٣) كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ماوجد من إزار ، او رداء ، أو قميص أو جبة

---

(١) حديث كان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وماأطعموه قبل وما سقوه شرب :الشيخان من حديث أبي سعيد كان أشد حياء من العذراء في خدرها ـ الحديث: وقد تقدم وأما كونه كان لا يسألهم طعاما فانه أراد أي طعام بعينه من حديث عائشة انه قال ذات يوم ياعائشة هل عندكم شيء قالت فقلت ماعندنا شيء ـ الحديث : وفيه فلما رجع قلت أهديت لنا هدية قال ماهو قلت حيس قال هاتيه وفي رواية قربيه وفي رواية النسائي أصبح عندكم شيء تطعمينيه ولابي داود هل عندكم طعام و ت أعندك غداء وفي الصحيحين من حديث عائشة فدعا بطعام فأتي بخبز وأدم من أدم البيت فقال ألم أر برمة على النار فيها لحم ـ الحديث وفي رواية لمسلم لو صنعتم لنا من هذا اللحم ـ الحديث : فليس في قصة بريرة الا الاستفهام والرضا والحكمة فيه بيان الحكم لا التشهي والله اعلم وللشيخين من حديث ام الفضل انها ارسلت اليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه ولأبي داود من حديث ام هانيء فجاءت الوليدة باناء فيه شراب فتناوله فشرب منه واسناده حسن

(٢) حديث وكان ربما قام فأخذ مايأكل أو يشرب بنفسه : د من حديث أم المنذر بنت قيس دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب ومعه علي وعلي ناقه ولنا دوال معلقة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منها ـ الحديث : وإسناده حسن وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث كبشة دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب من في قربة معلقة قائما ـ الحديث

﴿ بيان أخلاقه وآدابه في اللباس ﴾

(٣) حديث كان يلبس من الثياب ماوجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك : الشيخان من حديث عائشة انها اخرجت ازارا مما يصنع باليمن وكساء من هذه الملبدة فقالت في هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية إزارا غليظا ولهما من حديث انس كنت امشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية ـ الحديث : لفظ مسلم وقال خ برد نجراني و ه بسند ضعيف من حديث ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قميصا قصير اليدين والطول و د ت وحسنه و ن من حديث ام سلمة كان احب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص ولأبي داود من حديث اسماء بنت يزيد كانت يد قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرسغ وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه وتقدم قبل هذا حديث الجبة والشملة والحبرة

أو غير ذلك ، وكان يعجبه الثياب الخضر (١) وكان أكثر لباسه البياض ، ويقول « أَلْبِسُوهَا أَحْيَاءَكُمْ وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ (٢) » وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب (٣) وكان له قباء سندس فيلبسه ، فتحسن خضرته على بياض لونه (٤) وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق

---

(١) حديث كان أكثر لباسه البياض ويقول البسوها احياءكم وكفنوا فيها موتاكم : هـ ك من حديث ابن عباس خير ثيابكم البياض فالبسوها احياءكم وكفنوا فيها موتاكم قال ك صحيح الاسناد وله ولأصحاب السنن من حديث سمرة عليكم بهذه الثياب البياض فليلبسها احياؤكم وكفنوا فيها موتاكم لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وقال ت حسن صحيح

(٢) حديث كان يلبس القباء المحشو للحرب وغير المحشو : الشيخان من حديث المسور بن مخرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه اقبية من ديباج مزرر بالذهب ـ الحديث : وليس فى طرق الحديث لبسها إلا فى طريق علقها خ قال فخرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب ـ الحديث : وم من حديث جابر لبس النبي صلى الله عليه وسلم يوما قباء من ديباج اهدي له ثم نزعه ـ الحديث

(٣) حديث كان له قباء سندس فيلبسه ـ الحديث : احمد من حديث انس ان أكيدر دومة أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جبة سندس او ديباج قبل ان ينهى عن الحرير فلبسها والحديث فى الصحيحين وليس فيه انه لبسها وقال فيه وكان ينهى عن الحرير وعند ت وصححه ن انه لبسها ولكنه قال بجبة ديباج منسوجة فيها الذهب

(٤) حديث كان ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الأزار فوق ذلك إلى نصف الساق : ابو الفضل محمد بن طاهر فى كتاب صفوة التصوف من حديث عبد الله بن بسر كانت ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم ازاره فوق الكعبين وقميصه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك واسناده ضعيف و ك وصححه من حديث ابن عباس كان يلبس قميصا فوق الكعبين ـ الحديث : وهو عنده بلفظ قميصا قصير اليدين والطول وعندها و ت فى الشمائل من رواية الأشعث قال سمعت عمتي تحدث عن عمها فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وفيه فاذا ازاره الى نصف ساقه ورواه ن وسمى الصحابي عبيد بن خالد واسم عمته الأشعث وهم بنت الأسود ولا يعرف

(١) وكان قميصه مشدود الأزرار ، وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها

(٢) وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران ، وربما صلى بالناس فيها وحدها (٣) وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره

(٤) وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَلْبَسُ كَمَا يَلْبَسُ الْعَبْدُ »

(٥) وكان له ثوبان لجمعته خاصة ، سوى ثيابه في غير الجمعة

---

(١) حديث كان قميصه مشدود الازرار وربما حل الازرار فى الصلاة وغيرها: د هـ ت فى الشمائل من رواية معاوية بن قرة بن اياس عن ابيه قال اتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى رهط من مزينة وبايعناه وان قميصه لمطلق الأزرار وللبيهقى من رواية زيد بن اسلم قال رايت ابن عمر يصلى محلولة ازراره فسالته عن ذلك فقال رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله وفى العلل للترمذى انه سال خ عن هذا الحديث فقال انا القى هذا الشيخ كان حديثه موضوع يعنى زهير بن محمد راويه عن زيد بن اسلم قلت تابعه عليه الوليد ابن مسلم عن زيد رواه ابن خزيمة فى صحيحه وللطبرانى من حديث ابن عباس باسناد ضعيف دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى محتبيا محلل الازرار

(٢) حديث كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها : د ت من حديث قيلة بنت مخرمة قالت رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه اسمال ملاتين كانتا بزعفران قال ت لانعرفه إلا من عبد الله بن حسان قلت ورواته موثقون و د من حديث قيس بن سعد فاغتسل ثم ناوله أبى سعد ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها الحديث ورجاله ثقات

(٣) حديث ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره :هـ وابن خزيمة من حديث ثابت بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فى بنى عبد الأشهل وعليه كساء متلفف به الحديث وفى رواية البزار فى كساء

(٤) حديث كان له كساء ملبد يلبسه ويقول أنا عبد ألبس كما يلبس العبد:الشيخان من رواية أبى بردة قال أخرجت الينا عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت فى هذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وللبخارى من حديث عمر انما أنا عبد ولعبد الرزاق فى المصنف من رواية أيوب السختيانى مرفوعا معضلا انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة متصلا

(٥) حديث كان له ثوبان لجمعته خاصة ـ الحديث :الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد فاذا انصرف طويناهما إلى مثله ويرده حديث عائشة عند ابن ماجه ما رأيته يسب أحدا ولا يطوى له ثوب

(١) وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ، ويعقد طرفيه بين كتفيه ، (٢) وربما أمّ به الناس على الجنائز (٣) ، وربما صلى فى بيته فى الإزار الواحد ملتحفا به ، مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذى جامع فيه يومئذ ، (٤) وكان ربما صلى بالليل فى الإزار ، ويرتدى ببعض الثوب مما يلى هدبه ، ويلقى البقية على بعض نسائه ، فيصلى كذلك

(٥) ولقد كان له كساء أسود فوهبه ، فقالت له أم سلمة بأبى أنت وأمى ، مافعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال كسوته ؟ مارأيت شيئا قط كان أحسن من بياضك على سواده

---

(١) حديث ربما لبس الازار الواحد ليس عليه غيره فعقد طرفيه بين كتفيه: الشيخان من حديث عمر فى حديث اعتزاله أهله فاذا عليه ازاره وليس عليه غيره وللبخارى من رواية محمد بن المنكدر صلى بنا جابر فى ازار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعة على المشجب وفى رواية له وهو يصلى فى ثوب ملتحفا به ورداؤه موضوع وفيه رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى هكذا

(٢) حديث ربما أم به الناس على الجنائز: لم أقف عليه

(٣) حديث ربما صلى فى بيته فى الازار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الازار الذى جامع فيه يومئذ : أبو يعلى باسناد حسن من حديث معاوية قال دخلت على أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى ثوب واحد فقلت ياأم حبيبة أيصلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الثوب الواحد قالت نعم وهو الذى كان فيه ما كان تعنى الجماع ورواه الطبرانى فى الأوسط

(٤) حديث ربما كان يصلى بالليل ويرتدى ببعض الثوب مما يلى هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه : د من حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فى ثوب بعضه على ولمسلم كان يصلى من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعلى مرط بعضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى عبد الرحمن حاضن عائشة رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعائشة يصليان فى ثوب واحد نصفه على النبى صلى الله عليه وسلم ونصفه على عائشة وسنده ضعيف

(٥) حديث كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة بأبى أنت وأمى مافعل ذلك الكساء ـ الحديث : لم أقف عليه من حديث أم سلمة ولمسلم من حديث عائشة خرج النبى صلى الله عليه وسلم وعليه مرط مرجل أسود ولأبى داود و ن صنعت للنبى صلى الله عليه وسلم بردة سوداء من صوف فلبسها ـ الحديث : وزاد فيه ابن سعد فى الطبقات فذكرت بياض النبى صلى الله عليه وسلم وسوادها ورواه ك بلفظ جبة وقال صحيح على شرط الشيخين

وقال أنس [1] وربما رأيته يصلى بنا الظهر فى شملة عاقدا بين طرفيه ، [2] وكان يتختم [3] وربما خرج وفى خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشىء [4] وكان يختم به على الكتب ويقول «الْخَاتَمُ عَلَى الْكِتَابِ خَيْرٌ مِنَ التُّهْمَةِ » [5] وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ، ثم يصلى إليها ، [6] وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته

---

(١) حديث أنس وربما رأيته يصلى بنا الظهر فى شملة عاقدا بين طرفيها : البزار وأبو يعلى بلفظ صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه وللبزار خرج فى مرضه الذى مات فيه مرتديا بثوب قطن فصلى بالناس وإسناده صحيح و ه من حديث عبادة بن الصامت صلى فى شملة قد عقد عليها وفى كامل بن عدى قد عقد عليها هكذا وأشار سفيان إلى قفاه وفى جزء الغطريف فعقدها فى عنقه ماعليه غيرها وإسناده ضعيف

(٢) حديث كان يتختم : الشيخان من حديث ابن عمر وأنس

(٣) حديث ربما خرج وفى خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشىء : عد من حديث واثلة بسند ضعيف كان إذا أراد الحاجة أوثق فى خاتمه خيط وزاد الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث ابن عمر ليذكره به وسنده ضعيف

(٤) حديث كان يختم به على الكتب ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة : الشيخان من حديث أنس لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى الروم قالوا إنهم لايقرءون إلا كتابا مختوما فاتخذ خاتما من فضة ـ الحديث : و ن ت فى الشمائل من حديث ابن عمر اتخذ خاتما من فضة كان يختم به ولا يلبسه وسنده صحيح وأما قوله الخاتم على الكتاب خير من التهمة فلم أقف له على أصل

(٥) حديث كان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى إليها : الطبرانى وأبو الشيخ والبيهقى فى شعب الايمان من حديث عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قلنسوة بيضاء ولأبى الشيخ من حديث ابن عباس كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث قلانس قلنسوة بيضاء مضربة وقلنسوة برد حبرة وقلنسوة ذات آذان يلبسها فى السفر فربما وضعها بين يديه إذا صلى وإسنادهما ضعيف ولأبى داود و ت من حديث ركانة فرق مابيننا وبين المشركين العمائم على القلانس قال ت غريب وليس إسناده بالقائم

(٦) حديث ربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته : خ من حديث ابن عباس صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر وقد عصب رأسه بعصابة دسماء ـ الحديث

(١) وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على ، فربما طلع على فيها ، فيقول صلى الله عليه وسلم « أَتَاكُمْ عَلِيٌّ فِي السَّحَابِ »

(٢) وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ، ويقول (٣) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ » (٤) وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره (٥) وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ، ثم يقول « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِماً مِنْ سَمَلِ ثِيَابِهِ لاَ يَكْسُوهُ إِلاَّ لِلَّهِ إِلاَّ كَانَ فِي ضَمَانِ اللَّهِ وَحِرْزِهِ وَخَيْرِهِ مَا وَارَاهُ حَيًّا وَمَيِّتاً » (٦) وكان له فراش من أدم ، حشوه ليف ، طوله ذراعان أو نحوه

---

(١) حديث كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم أتاكم على فى السحاب ابن عدى وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جدا ولابن نعيم فى دلائل النبوة من حديث عمر فى أثناء حديث عمامته السحاب ـ الحديث

(٢) حديث كان اذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه : ت من حديث أبي هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد اختلف فى رفعه

(٣) حديث الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس : ت وقال غريب و ه ك وصححه من حديث عمر بن الخطاب

(٤) حديث كان اذا نزع ثوبه خرج من مياسره : أبو الشيخ من حديث ابن عمر كان اذا لبس شيئا من الثياب بدأ بالأيمن واذا نزع بدأ بالأيسر وله من حديث أنس كان اذا ارتدى أو ترجل أو انتعل بدأ بيمينه واذا خلع بدأ بيساره وسندها ضعيف وهو فى الانتعال فى الصحيحين من حديث أبى هريرة قوله لا من فعله حديث كان له ثوب لجمعته خاصة ـ الحديث تقدم قريبا بلفظ ثوبين

(٥) حديث كان اذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول ما من مسلم يكسو مسلما ـ الحديث : ك فى المستدرك والبيهقى فى الشعب من حديث عمر قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال الحمد لله الذى كسانى ما أتجمل به فى حياتى وأوارى به عورتى ثم قال ما من مسلم يلبس ثوبا جديدا الحديث دون ذكر تصدقه صلى الله عليه وسلم بثيابه وهو عند ت ه دون ذكر النبى لبس صلى الله عليه وسلم لثيابه وهو أصح وقد تقدم قال البيهقى وهو غير قوى

(٦) حديث كان له فراش من أدم حشوه ليف ـ الحديث متفق عليه من حديث عائشة مقتصرا على هذا دون ذكر عرضه وطوله ولأبى الشيخ من حديث أم سلمة كان فراش النبى صلى الله عليه وسلم نحو ما يوضع الانسان فى قبره وفيه من لم يسم

وعرضه ذراع وشبر ، أو نحوه (١) وكانت له عباءة تفرش له ، حيثما تنقل تثنى طاقين تحته (٢) وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره (٣) وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته العقاب ، واسم سيفه الذى يشهد به الحروب ذو الفقار ،

---

(١) حديث كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تفرش طاقين تحته : ابن سعد فى الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية ـ الحديث : ولأبى سعيد عنها انها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين الحديث : وكلاهما لا يصح و ت فى الشمائل من حديث حفصة وسئلت ما كان فراشه قالت مسح تثنيه ثنتين فينام عليه ـ الحديث : وهو منقطع

(٢) حديث كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره : متفق عليه من حديث عمر فى قصة اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم نساءه

(٣) حديث كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذى يشهد به الحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له المخذم وآخر يقال له القضيب وكان قبضة سيفه محلاة بالفضة : الطبرانى من حديث ابن عباس كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سيف قائمته من فضة وقبيعته من فضه وكان يسمى ذا الفقار وكانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول وكانت له حربة تسمى النبعة وكانت له مجن تسمى الدفن وكان له ترس أبيض يسمى موجزا وكان له فرس أدهم يسمى السكب وكان له سرج يسمى الداج المؤخر وكان له بغلة شهباء يقال لها الدلدل وكانت له ناقة تسمى القصواء وكان له حمار يسمى يعفور وكان له بساط يسمى الكر وكانت له عنزة تسمى النمر وكانت له ركوة تسمى الصادر وكانت له مرآة تسمى المرآة وكان له مقراض يسمى الجامع وكان له قصب شوحط يسمى المشوق وفيه على بن غرزة الدمشقى نسب إلى وضع الحديث ورواه ابن عدى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء تسمى العقاب ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسلا وله من حديث على بن أبى طالب كان اسم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا الفقار ت ه من حديث ابن عباس انه صلى الله عليه وسلم تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر وك من حديث على فى أثناء حديث وسفيه ذو الفقار وهو ضعيف ولابن سعد فى الطبقات من رواية مروان بن أبى سعيد بن المعلى مرسلا قال أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاح بنى قينقاع ثلاثه أسياف سيف قلعى وسيف يدعى بتارا وسيف يدعى الحنف وكان عنده بعد ذلك المخذم ورسوب أصابهما من القلس وفى سنده الواقدى وذكر ابن أبى خيثمة فى تاريخه انه يقال انه صلى الله عليه وسلم قدم المدنية ومعه سيفان يقال لأحدهما العضب شهد به بدرا ولأبى داود وت وقال حسن ون وقال منكر من حديث أنس كانت قبيعة سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فضة

وكان له سيف يقال له المخذم ، وآخر يقال له الرسوب ، وآخر يقال له القضيب ، وكانت قبضة سفيه محلاة بالفضة ، (١) وكان يلبس المنطقة من الأدم ، فيها ثلاث حلق من فضة ، (٢) وكان اسم قوسه الكتوم ، وجعبته الكافور ، (٣) وكان اسم ناقته القصواء ، وهي التي يقال لها العضباء ، واسم بغلته الدلدل ، وكان اسم حماره يعفور ، واسم شاته التي يشرب لبنها عينة ، (٤) وكان له مطهرة من فخار يتوضأ فيها ، ويشرب منها ، فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا ، فيدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدفعون عنه ، فإذا وجــــدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم ، وأجسادهم ، ويبتغون بذلك البركة .

---

(١) حديث كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة : لم أقف له على أصل ولابن سعد في الطبقات وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسلا كان في درع النبي صلى الله عليه وسلم حلقتان من فضة .

(٢) حديث كان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور : لم أجد له أصلا وقد تقدم في حديث ابن عباس أنه كانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أخـذ من سلاح بني قينقاع ثلاثة قسي قوس اسمها الروحاء وقوس شوحط تدعى البيضاء وقوس صفراء تدعى الصفراء من سبع

(٣) حديث كان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها العضباء واسم بغلته الدلدل واسم حماره يعفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة : تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبراني وللبخاري من حديث أنس كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة يقال لها العضباء ولمسلم من حـديث جابر في حجة الوداع ثم ركب القصواء ولـ ك من حديث علي ناقته القصواء وبغلته دلدل وحماره عفير ـ الحديث : ورويناه في فوائد ابن الدحداح فقال حماره يعفور وفيه شاته بركة ولـ خ من حديث معاذ كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير ولابن سعد في الطبقات من رواية ابراهيم بن عبد الله من ولد عتبة بن غزوان كانت منائح رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم سبعا عجوة وزمزم وسقيا وبركة وورشة وهـلال وأطراف وفي سنده الواقدي وله من رواية مكحول مرسلا كانت له شاة تسمى قمر

(٤) حديث كانت له مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب فيها ـ الحديث : لم أقف له على أصل

بيان عفوه صلى الله عليه وسلم مع المقدرة

(١) كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة حتى (٢) أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه ، فقام رجل من أهل البادية ، فقال يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل ، فقال « وَيْحَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي » فلما ولى ، قال: « رُدُّوهُ عَلَيَّ رُوَيْدًا »

وروى جابر أنه صلى الله عليه وسلم (٣) كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة ، فى ثوب بلال ، فقال له رجل يارسول الله اعدل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَيْحَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ فَقَدْ خِبْتُ إِذًا وَخَسِرْتُ إِنْ كُنْتُ لاَ أَعْدِلُ » فقام عمر فقال ألا أضرب عنقه فإنه منافق ، فقال « مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) فى حرب ، فرأوا من المسلمين غرة ، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف : فقال من يمنعك منى ؟ فقال: « الله » قال فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال « مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي » فقال: كن خير آخذ ، قال « قُلْ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ » فقال : لا غير أنى لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس

﴿ بيان عفوه مع القدرة ﴾

(١) حديث كان أحلم الناس : تقدم

(٢) حديث أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمه بين أصحابه ـ الحديث : أبو الشيخ من حديث ابن عمر باسناد جيد

(٣) حديث جابر أنه كان يقبض للناس يوم حنين من فضة فى ثوب بلال فقال له رجل يانبي الله أعدل ـ الحديث : رواه م

(٤) حديث كان فى حرب فرؤى فى المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ـ الحديث : متفق عليه من حديث جابر بنحوه وهو فى مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسمى الرجل غورث بن الحارث

وروى أنس [١] أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ، ليأكل منها فجيء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك ، فقالت أردت قتلك ، فقال « مَا كَانَ اللهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَى ذَلِكَ » قالوا أفلا نقتلها فقال « لاَ »

[٢] وسحره رجل من اليهود ، فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد ، فوجد لذلك خفة ، وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط

وقال علي رضي الله عنه [٣] بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا » فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا أخرجي الكتاب ، فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب ، أو لتنزعن الثياب فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة ، إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا حاطب « مَا هَذَا » ؟ قال يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت امرأ ملصقا في قومي ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم ، أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ولم أفعل ذلك كفرا ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتداداً عن ديني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّهُ صَدَقَكُمْ » فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »

[٤] وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة ، فقال رجل من الأنصار هذه قسمة ما أريد

---

(١) حديث أنس أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ـ الحديث : رواه م وهو عند خ من حديث أبي هريرة

(٢) حديث سحره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه ـ الحديث : ن باسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر

(٣) حديث علي بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ـ الحديث متفق عليه

(٤) حديث قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الانصار هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ; الحديث ـ متفق عليه من حديث ابن مسعود

بها وجه الله ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه ، وقال « رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ »

وكان صلى الله عليه وسلم يقول (١) « لاَ يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئاً فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ »

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه

(٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيق البشرة ، لطيف الظاهر والباطن ، يعرف في وجهه غضبه ورضاه ، (٣) وكان إذا اشتد وجْده أكثر من مس لحيته الكريمة (٤) ، وكان لايشافه أحداً بما يكرهه ، دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهها ، فلم يقل له شيئاً حتى خرج فقال لبعض القوم لو قلتم لهذا أن يدع هذه ، يعني الصفرة ، (٥) وبال أعرابي في المسجد بحضرته ، فهم به الصحابة ، فقال صلى الله عليه وسلم «لاَ تُزْرِمُوهُ» أي لا تقطعوا عليه البول ، ثم قال له « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنَ الْقَذَرِ ، وَالْبَوْلِ ، وَالْخَلاَءِ » وفي رواية « قَرِّبُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا . »

---

(١) حديث لايبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر: دت من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه

﴿ بيان اغضائه صلى الله عليه وسلم عما يكرهه ﴾

(٢) حديث كان رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه : أبو الشيخ من حديث ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف رضاه وغضبه بوجهه: الحديث ـ وقد تقدم

(٣) حديث كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة : الحديث ـ وقد تقدم أبو الشيخ من حديث عائشة باسناد حسن

(٤) حديث كان لايشافه أحدا بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهه فلم يقل شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم لو قلتم لهذا أن يدع هذه يعني الصفرة :د ت في الشمائل و ن في اليوم والليلة من حديث أنس واسناده ضعيف

(٥) حديث بال أعرابي في المسجد بحضرته فقال صلى الله عليه وسلم لا تزرموه ـ الحديث :متفق عليه من حديث أنس

(١) وجاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم، ثم قال له « أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قال الأعرابي لا ولا أجملت ، قال ، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم « أَنْ كُفُّوا » ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا، ثم قال: « أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ » قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى يَذْهَبَ مِنْ صُدُورِهِمْ مَا فِيهَا عَلَيْكَ » ، قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ هَذَا الأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَزِدْنَاهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ أَكَذَلِكَ؟ » فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ هَذَا الأَعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ ، فَأَتْبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُوراً فَنَادَاهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي فَإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا وَأَعْلَمُ فَتَوَجَّهَ لَهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهَا فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الأَرْضِ فَرَدَّهَا هَوْناً هَوْناً حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَاسْتَوَى عَلَيْهَا وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ »

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

(٢) كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخاهم ، وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة

---

(١) حديث جاء اعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أحسنت إليك فقال الاعرابي لا ولا أجملت : الحديث بطوله البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

﴿ بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم ﴾

(٢) حديث كان أجود الناس وأسخاهم وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة :الشيخان من حديث أنس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس ولهما من حديث ابن عباس كان أجود الناس بالخير وكان أجود مايكون في شهر رمضان وفيه فاذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة

لا يمسك شيئا [١] وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا ، ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله [٢] وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه ، و إن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة [٣] وما سئل شيئا قط فقال لا [٤] وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها ، [٥] وجاء رجل فسأله فقال ما عندى شيء ولكن ابتع علىّ ، فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال عمر يارسول الله ما كلفك الله مالا تقدر عليه ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال الرجل أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وعرف السرور فى وجهه ،

[٦] ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة ، فخطفت رداءه

---

(١) حديث كان على إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال كان أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا الحديث رواه ت وقال ليس اسناده بمتصل

(٢) حديث ما سئل شيئا قط على الاسلام إلا أعطاه : الحديث - متفق عليه من حديث أنس

(٣) حديث ماسئل شيئا قط فقال لا: متفق عليه من حديث جابر

(٤) حديث حمل اليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها أبو الحسن بن الضحاك فى الشمائل من حديث الحسن مرسلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال من البحرين ثمانون ألفا لم يقدم عليه مال أكثر منه لم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلا ولم يعط ساكتا فقال له العباس - الحديث :وللبخارى تعليقا من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث : وفيه فما كان يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس - الحديث : ووصله عمر بن محمد البحرى فى صحيحه

(٥) حديث جاءه رجل فسأله فقال ماعندى شيء ولكن ابتع على فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال عمر يارسول الله ما كلفك الله - الحديث : ت فى الشمائل من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروى لم يروه غير ابنه هرون

(٦) حديث لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه - الحديث: خ من حديث جبير بن مطعم

فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أَعْطُونِي رِدَائِي لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاةِ نَعَماً لَقَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلَا كَذَّاباً وَلَا جَبَاناً »

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

(١) كان صلى الله عليه وسلم أنجد الناس وأشجعهم ، قال علي رضي الله عنه (٢) لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا ، وقال أيضا (٣) كنا إذا احمر البأس ، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه

(٤) قيل : وكان صلى الله عليه وسلم قليل الكلام ، قليل الحديث ، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر ، وكان من أشد الناس بأسا (٥) وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو وقال عمران بن حصين (٦) مالقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب

﴿ بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم ﴾

(١) حديث كان أنجد الناس وأشجعهم : الدارمي من حديث ابن عمر بسند صحيح مارأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وللشيخين من حديث أنس كان أشجع الناس وأحسن الناس ــ الحديث

(٢) حديث علي لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم ــ الحديث : أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم باسناد جيد

(٣) حديث علي أيضا كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الحديث ن باسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء

(٤) حديث كان قليل الكلام قليل الحديث فاذا أمر بالقتال تشمر ــ الحديث : أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض الثمالي مرسلا

(٥) حديث كان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب ــ الحديث : م من حديث البراء والله إذا حمي الوطيس نتقي به وإن الشجاع منا الذي يحاذي به

(٦) حديث عمران بن حصين مالقي كتيبة إلا كان أول من يضرب : أبو الشيخ أيضا وفيه من لم أعرفه

وقالوا (١) كان قوي البطش (٢) ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته ، فجعل يقول « أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ » فما رؤى يومئذ أحد كان أشدّ منه

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

(٣) كان صلى الله عليه وسلم أشدّ الناس تواضعا فى علو منصبه ، قال ابن عامر (٤) رأيته يرمى الجمرة على ناقة شهباء ، لا ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك (٥) وكان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة ، وكان مع ذلك يستردف (٦) وكان يعود المريض ، ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك (٧) ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، وكان يصنع فى بيته مع أهله فى حاجتهم (٨) وكان أصحابه لا يقومون له ، لما عرفوا من كراهته لذلك

---

(١) حديث كان قوى البطش: أبو الشيخ أيضا من رواية أبى جعفر معضلا وللطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الله بن عمر وأعطيت قوة أربعين فى البطش والجماع وسنده ضعيف

(٢) حديث لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول أنا النبى لا كذب ــ الحديث : متفق عليه من حديث البراء دون قوله فما رؤى أحد يومئذ أشد منه وهذه الزيادة لأبى الشيخ وله من حديث على فى قصة بدر وكان من أشد الناس يومئذ بأسا

﴿ بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم ﴾

(٣) حديث كان أشد الناس تواضعا فى علو منصبه : أبو الحسن بن الضحاك فى الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى فى حديث طويل فى صفته قال فيه متواضع فى غير مذلة واسناده ضعيف

(٤) حديث قال ابن عامر رأيته يرمى الجمرة على ناقة صهباء لاضرب ولا طرد ولا إليك إليك : ت ن ه من حديث قدامة بن عبد الله بن عمار قال ت حسن صحيح وفى كتاب أبى الشيخ قدامة ابن عبد الله بن عامر كما ذكره المصنف

(٥) حديث كان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف : متفق عليه من حديث أسامة بن زيد .

(٦) حديث كان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك : ت وضعفه و ك وصحح إسناده من حديث أنس وتقدم منقطعا

(٧) حديث كان يخصف النعل ويرقع الثوب ويصنع فى بيته مع أهله فى حاجته : هو فى المسند من حديث عائشة وقد تقدم فى أوائل آداب المعيشة

(٨) حديث كان أصحابه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك: هو عندت من حديث أنس وصححه وتقدم فى آداب الصحبة

(١) وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم (٢) وأتى صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيبته فقال له « هَوِّنْ عَلَيْكَ فَلَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » (٣) وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب، فبنوا له دكانا من طين، فكان يجلس عليه

وقالت له عائشة رضى الله عنها (٤) كل جعلنى الله فداك متكئا، فإنه أهون عليك، قال فأصغى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض، ثم قال « بَلْ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ » (٥) وكان لا يأكل على *خوان، ولا في *سكرجة، حتى لحق بالله تعالى (٦) وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال لبيك (٧) وكان إذا جلس

---

(١) حديث كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم : متفق عليه من حديث أنس وتقدم فى آداب الصحبة

(٢) حديث أتى برجل فأرعد من هيبته فقال هون الله عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد : ك من حديث جرير وقال صحيح على شرط الشيخين

(٣) حديث كان يجلس مع أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو ـ الحديث د ن من حديث أبى هريرة وأبى ذر وقد تقدم

(٤) حديث قالت عائشة كل جعلنى الله فداك متكئا فانه أهون عليك ـ الحديث : أبو الشيخ من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف

(٥) حديث كان صلى الله عليه وسلم لايأكل على خوان ولا فى سكرجة حتى لقى الله : خ من حديث أنس وتقدم فى آداب الأكل

(٦) حديث وكان صلى الله عليه وسلم لايدعوه أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال لبيك : أبو نعيم فى دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان متهم بالكذب وللطبرانى فى الكبير باسناد جيد من حديث محمد بن حاطب فى أثناء حديث أن أمه قالت يارسول الله فقال لبيك وسعديك ـ الحديث :

(٧) حديث كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس مع الناس إن تكلموا فى معنى أمر الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم ـ الحديث : ت فى الشمائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر الشراب وفيه سليمان بن خارجة تفرد عنه الوليد بن أبى الوليد وذكره بن حبان فى الثقات

(*) الخوان هو مايوضع عليه الطعام عند الأكل

(*) سكرجه بضم السين والكاف والراء والتشديد إناء صغير يوكل فيه الشىء القليل من الأدام

مع الناس إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم ، وإن تكلموا فى الدنيا تحدث معهم ، رفقا بهم وتواضعا لهم ، (١) وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ، ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ، ولا يزجرهم إلا عن حرام

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

(٢) كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان ، فيطولهما ، فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ، ونسب هو عليه السلام إلى الربعة ويقول صلى الله عليه وسلم « جُعِلَ الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي الرَّبْعَةِ »

---

(١) حديث كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ـ الحديث : م من حديث جابر بن سمرة دون قوله ولا يزجرهم الا عن حرام

﴿ بيان صورته صلى الله عليه وسلم ﴾

(٢) حديث كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم انه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ـ الحديث : بطوله أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشه بزيادة ونقصان دون شعر أبي طالب الآتي ودون قوله وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ ودون قوله وربما كان واسع الجبهة الى قوله وكان سهل الخدين وفيه صبيح بن عبد الله الفرغاني منكر الحديث قاله الخطيب وفى الصحيحين من حديث البراء له شعر يبلغ شحمة أذنيه و د ت وحسنه و ه من حديث أم هانىء قدم الى مكة وله أربع غدائر و ت من حديث علي في صفته صلى الله عليه وسلم أدعج العينين أهدب الأشفار ـ الحديث : وقال ليس اسناده بمتصل وله في الشمائل من حديث ابن أبي هالة أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن بينهما عرق يدره الغضب أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم كث اللحية سهل الخدين ضليع الفم مفلج الاسنان ـ الحديث :

وأما لونه : فقد كان أزهر اللون ، ولم يكن بالآدم ، ولا بالشديد البياض ، والأزهر هو الابيض الناصع الذى لا تشوبه صفرة ولا حمرة ، ولا شيء من الألوان

ونعتـه عمـه أبو طالب فقـال (١)

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ونعته بعضهم ، بأنه مشرب بحمرة ، فقالوا إنما كان المشرب منه بالحمرة ماظهر للشمس والرياح ، كالوجه والرقبة ، والأزهر الصافى عن الحمرة ماتحت الثياب منه

وكان عرقه صلى الله عليه وسلم فى وجهه كاللؤلؤ ، أطيب من المسك الأذفر

وأما شعره : فقد كان رجل الشعر حسنه ، ليس بالسبط ، ولا الجعد القطط ، وكان إذا مشطه بالمشط يأتى كأنه حبك الرمل ، وقيل كان شعره يضرب منكبيه ، وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه ، وربما جعله غدائر أربعا تخرج كل أذن من بين غديرتين ، وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ ، وكان شيبه فى الرأس واللحية سبع عشرة شعرة ، مازاد على ذلك

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها ، وأنورهم ، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر ، وكان يرى رضاه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته ، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث يقول :

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان صلى الله عليه وسلم واسع الجبهة ، أزج الحاجبين سابغهما ، وكان أبلج ما بين الحاجبين ، كأن ما بينهما الفضة المخلصة ، وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما ، وكان فى عينيه

(١) حديث نعته عمه أبو طالب فقال

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل

ذكره ابن اسحاق فى السيرة وفى المسند عن عائشة أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضي فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه و خ تعليقا من حديث بن عمر ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب فانشده وقد وصله باسناد صحيح

تمزيج من حمرة ، وكان أهدب الأشفار ، حتى تكاد تلتبس من كثرتها ، وكان أقنى العرنين أي مستوى الأنف ، وكا مفلج الأسنان أي متفرقها ، وكان إذا افتر ضاحكا افتر عن مثل سنا البرق إذا تلالأ ، وكان من أحسن عباد الله شفتين ، وألطفهم ختم فم ، وكان سهل الخدين صلبها ، ليس بالطويل الوجه ، ولا المكلثم ، كث اللحية ، وكان يعفى لحيته ويأخذ من شاربه ، وكان أحسن عباد الله عنقا ، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، ماظهر من عنقه للشمس والرياح .فكأنه ابريق فضة مشرب ذهبا ، يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذهب ،

وكان صلى الله عليه وسلم عريض الصدر ، لايعدو لحم بعض بدنه بعضا ، كالمرآة في استوائها ، وكالقمر في بياضه ، موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب ، لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره ، وكانت له عكن ثلاث يغطى الأزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ، ضخم الكراديس ، أي رؤس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين ، وكان واسع الظهر ، ما بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو مما يلي منكبه الايمن ، فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة ، حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس ،

وكان عبل العضدين والذراعين ، طويل الزندين ، رحب الراحتين ، سائل الاطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار طيبا ، مسها بطيب أولم يمسها ، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه ،

وكان عبل ماتحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان معتدل الخلق في السمن ، بدن في آخر زمانه ، وكان لحمه متما سكا ، يكاد يكون على الخلق الاول لم يضره السمن

وأما مشيه صلى الله عليه وسلم ، فكان يمشي كأنما يتقلع من صخر ، وينحدر من صبب يخطو تكفيا ، ويمشي الهوينى ، بغير تبختر ، والهوينى تقارب الخطا ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول « أَنَا أَشْبَهُ النَّاسِ بِآدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْبَهَ النَّاسِ بِي خَلْقاً وَخُلُقاً »

(١) وكان يقول: « إِنَّ لِي عِنْدَ رَبِّي عَشَرَةَ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ وَأَنَا الْحَاشِرُ يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ وَرَسُولُ التَّوْبَةِ وَرَسُولُ الْمَلَاحِمِ وَالْمُقَفِّي قَفَّيْتُ النَّاسَ جَمِيعاً وَأَنَا قُثَمٌ » قال أبو البحتري والقُثَم الكامل الجامع والله أعلم

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم ، وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله ، وعاداته وسجاياه ، وسياسته لأصناف الخلق ، وهدايته إلى ضبطهم ، وتألفه أصناف الخلق ، وقوده إياهم إلى طاعته ، مع ما يحكى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة ، وبدائع تدبيراته فى مصالح الخلق ، ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع ، الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها ، فى طويل أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ، ولا ملبس ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه ، حتى إن العربى القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب ، فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله ، فكيف من شاهد أخلاقه ، ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده ، وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق ، وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام ، وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله ،

---

(١) حديث إن لى عند ربى عشرة أسماء ــ الحديث: ابن عدى من حديث على وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة باسناد ضعيف وله ولأبى نعيم فى الدلائل من حديث أبى الطفيل لى عند ربى عشرة أسماء قال أبو الطفيل حفظت منها ثمانية فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف ابن وهب أن أبا جعفر قال إن الاسمين طه ويس واسناده ضعيف وفى الصحيحين من حديث جبير بن مطعم لى أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الماحى وأنا الحاشر وأنا العاقب ولمسلم من حديث أبى موسى والمقفى ونبى التوبة ونبى الرحمة ولأحمد من حديث حذيفة ونبى الملاحم وسنده صحيح

إذ قلّما اتفق ذلك في حق أحد يجمع ذلك ، وهو رجل أمي لم يمارس العلم ، ولم يطالع الكتب ، ولم يسافر قط في طلب علم ، ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيماً ضعيفاً مستضعفاً ، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ، ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط ، دون غيره من العلوم ، فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه ، وغير ذلك من خواص النبوة ، لولا صريح الوحي ، ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك ، فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية ،

وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل ، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار ، واشتملت عليه الكتب الصحيحة ، إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل ، فقد خرق الله العادة على يده غير مرة ، [1] إذ شق له القمر بمكة لما سألته قريش آية ، [2] وأطعم النفر الكثير في منزل جابر ، [3] وفي منزل أبي طلحة ، ويوم الخندق ، ومرة [4] أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق ، وهو من أولاد المعز ، فوق العتود ، ومرة [5] أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده ، ومرة [6] أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها ، فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم

﴿ بيان معجزاته ﴾

(١) حديث انشقاق القمر : متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس

(٢) حديث إطعام النفر الكثير في منزل جابر : متفق عليه من حديثه

(٣) حديث إطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة : متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق : الاسماعيلي في صحيحه ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة من حديث جابر وفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة وهو عند خ دون ذكر العدد وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة وهم ألف

(٥) حديث إطعامه أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده : م من حديث أنس وفيه حتى فعل ذلك بثمانين رجلا ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤرا وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل حتى أكل منه بضع وثمانون رجلا وهو متفق عليه بلفظ والقوم سبعون أو ثمانون رجلا

(٦) حديث إطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها الحديث : البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحق حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنة بشير بن سعد وإسناده جيد

(١) ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام ، فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش ، وتوضئوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه (٢) وأهراق عليه السلام وضوءه فى عين تبوك ، ولا ماء فيها ومرة أخرى فى بئر الحديبية فجاشتا بالماء ، فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا ، وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء

وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، (٣) أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان فى اجتماعه ، كربضة البعير وهو موضع بروكه فزودهم كلهم منه ، وبقى منه فحبسه (٤) ورمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ، ونزل بذلك القرءان فى قوله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (١)) (٥) وأبطل الله تعالى الكهانة بمبعثه صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث نبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضؤا ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس فى ذكر الوضوء فقط ولأبى نعيم من حديثه خرج إلى قبا فأتى من بعض بيوتهم بقدح صغير وفيه ثم قال هلم إلى الشرب قال أنس بصر عينى نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدح حتى رووا منه واسناده جيد وللبزار واللفظ له والطبرانى فى الكبير من حديث ابن عباس كان فى سفر فشكا أصحابه العطش فقال ائتونى بماء فأتوه باناء فيه ماء فوضع يده فى الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ـ الحديث

(١) حديث اهراقه وضوءه فى عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى فى بئر الحديبية فجاشتا بالماء ـ الحديث م من حديث معاذ بقصة عين تبوك ومن حديث سلمة بن الاكوع بقصة عين الحديبية وفيه فاما دعا وأما بصق فيها فجاشا ـ الحديث : وللبخارى من حديث البراء انه توضأ وصبه فيها وفى الحديثين معا انهم كانوا أربعة عشر مائة وكذا عند خ من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر وقال البيهقى انه الاصح ولهما من حديثه أيضا ألف وخمسمائة ولمسلم من حديث ابن أبى أو فى ألف وثلثمائة

(٢) حديث أمر عمر أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان كربضة البعير ـ الحديث : أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين بن سعيد باسنادين صحيحين وأصل حديث دكين عند أبى داود مختصراً من غير بيان لعددهم

(٣) حديث رميه الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ـ الحديث : م من حديث سلمة بن الاكوع دون ذكر نزول الآية فرواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث جابر وابن عباس

(٤) حديث إبطال الكهانة ببعثه : الخرائطى من حديث مرداس بن قيس الدوسى قال حضرت النبى صلى الله عليه وسلم وذكرت عنده الكهانة وما كان من تغيرها عند مخرجه ـ الحديث ـ ولأبى نعيم فى الدلائل من حديث ابن عباس فى استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم دحروا بالنجوم وأصله عند خ بغير هذا السياق

---

(١) الانفال : ١٧

فعدمت ، وكانت ظاهرة موجودة ، [١] وحن الجذع الذى كان يخطب إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن ، [٢] ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك ، وعجزوا عنه ، وهذا مذكور فى سورة يقرأ بها فى جميع جوامع الاسلام ، من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة جهرا تعظيما للآية التى فيها

وأخبر عليه السلام بالغيوب ، [٣] وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة ، [٤] وبأن عمارا تقتله الفئة الباغية ، [٥] وأن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين

[٦] وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل فى سبيل الله أنه من أهل النار ، فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه ، وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة بشىء من وجوه تقدمت المعرفة بها ، لا بنجوم ولا بكشف ، ولا بخط ولا بزجر ، لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه

[٧] واتبعه سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه فى الأرض ، واتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس ، وأنذره بأن سيوضع فى ذراعيه سوارا كسرى فكان كذلك

---

(١) حديث حنين الجذع : خ من حديث جابر وسهل بن سعد

(٢) حديث دعا اليهود الى تمنى الموت واخبرهم بأنهم لا يتمنونه ـ الحديث : خ من حديث ابن عباس لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ـ الحديث : وللبيهقى فى الدلائل من حديث ابن عباس لا يقولها رجل منكم الا غص بريقه فمات مكانه فأبوا أن يفعلوا ـ الحديث واسناده ضعيف

(٣) اخباره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة : متفق عليه من حديث أبى موسى الاشعرى

(٤) حديث اخباره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية : م من حديث أبى قتادة وأم سلمة وخ من حديث أبى سعيد

(٥) حديث اخباره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين : خ من حديث أبى بكرة

(٦) حديث اخباره عن رجل قاتل فى سبيل الله أنه من أهل النار : متفق عليه من حديث أبى هريرة وسهل بن سعد

(٧) حديث اتباع سراقة بن مالك له فى قصة الهجرة فساخت قدما فرسه فى الأرض ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى بكر الصديق

(١) وأخبر بمقتل الأسود العنسى الكذاب ليلة قتله ، وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله
(٢) وخرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رءوسهم ولم يروه ؛ (٣) وشكا إليه
البعير بحضرة أصحابه وتذلل له (٤) وقال لنفر من أصحابه مجتمعين ، أحدكم فى النار ضرسه مثل
أحد ، فماتوا كلهم على استقامة ، وارتد منهم واحد فقتل مرتدا (٥) وقال لآخرين منهم آخركم
موتا فى النار ، فسقط آخرهم موتا فى النار فاحترق فيها فمات
(٦) ودعا شجرتين فأتتاه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا
وكان عليه السلام نحو الربعة فإذا مشى مع الطوال طالهم

---

(١) حديث اخباره بمقتل الاسود العنسى ليلة قتل وهو بصنعاء اليمن ومن قتله وهو مذكور فى السير والذى قتله فيروز الديلمى وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما فأوحى إلى فى المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان بعدى فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء ـ الحديث

(٢) حديث خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رءوسهم ولم يروه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه أنهم كانوا مائة وكذلك رواه ابن اسحاق من حديث محمد بن كعب القرظى مرسلا

(٣) حديث شكا اليه البعير وتذلل له: د من حديث عبد الله بن جعفر فى أثناء حديث وفيه فانه شكا إلى انك تجيعه وتدئبه وأول الحديث عند م دون ذكر قصة البعير

(٤) حديث قال لنفر من أصحابه أحدكم ضرسه فى النار مثل أحد ـ الحديث : ذكره الدارقطنى فى المؤتلف والمختلف من حديث أبى هريرة بغير اسناد فى ترجمة الرجال بن عنفوة وهو الذى ارتد وهو بالجيم وذكره عبد الغنى بالمهملة وسبقه إلى ذلك الواقدى والمدائنى والأول اصح وأكثر كما ذكره الدار قطنى وابن ماكولا ووصله الطبرانى من حديث رافع بن خديج بلفظ أحد هؤلاء النفر فى النار وفيه الواقدى عن عبد الله بن نوح متروك

(٥) حديث قال لآخرين منهم آخركم موتا فى النار فسقط آخرهم موتا فى نار فاحترق فيها فمات: الطبرانى والبيهقى فى الدلائل من حديث ابن محذورة وفى رواية البيهقى أن آخرهم موتا سمرة بن جندب لم يذكر انه احترق ورواه البيهقى من حديث أبى هريرة نحوه ورواته ثقات وقال ابن عبد البر انه سقط فى قدر مملوءة ماء حارا فمات وروى ذلك باسناد متصل الا أن فيه داود بن المحبر وقد ضعفه الجمهور

(٦) حديث دعا شجرتين فأتتاه فاجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا : أحمد من حديث على بن مرة بسند صحيح

(١) ودعا عليه السلام النصارى إلى المباهلة فامتنعوا فعرفهم صلى الله عليه وسلم أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا ، فعلموا صحة قوله فامتنعوا

(٢) وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك ، وأربد بن قيس ، وهما فارسا العرب ، وفاتكاهم عازمين على قتله عليه السلام ، فحيل بينهما وبين ذلك ، ودعا عليهما ، فهلك عامر بغدة ، وهلك أربد بصاعقة أحرقته (٣) وأخبر عليه السلام أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي ، فخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته فيه ، (٤) وأطعم عليه الصلاة والسلام السم فمات الذي أكله معه ، وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين ، وكلمه الذراع المسموم (٥) وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ، ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعدوا أحد منهم ذلك الموضع ، (٦) وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك ، (٧) وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ ما زوى له منها فكان كذلك ، فقد بلغ ملكهم من أول المشرق . من بلاد

---

(١) حديث دعا النصارى إلى المباهلة وأخبر ان فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا : خ من حديث ابن عباس في أثناء حديث ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا

(٢) حديث أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله فحيل بينهما وبين ذلك ـ الحديث : طب في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسند لين

(٣) حديث اخباره انه يقتل أبي بن خلف الجمحي فخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته : البيهقي في دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة بن الزبير مرسلا

(٤) حديث انه أطعم السم فمات الذي أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين وكلمه الذراع المسموم : د من حديث جابر في رواية له مرسلة ان الذي مات بشر بن البراء وفي الصحيحين من حديث أنس أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها ـ الحديث : وفيه فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٥) حديث اخباره صلى الله عليه وسلم يوم بدر بمصارع صناديد قريش ـ الحديث م من حديث عمر بن الخطاب

(٦) حديث أخباره بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك : متفق عليه من حديث أم حرام

(٧) حديث زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ ما زوى له منها ـ الحديث : م من حديث عائشة وفاطمة أيضا .

الترك إلى اخر المغرب ، من بحر الأندلس وبلاد البربر ، ولم يتسعوا فى الجنوب ولا فى الشمال ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم سواء بسواء

(١) وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحاقا به ، فكان كذلك ، (٢) وأخبر نساءه بأن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به ، فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يدا بالصدقة أولهن لحوقا به رضى الله عنها ، (٣) ومسح ضرع شاة حائل لا لبن لها فدرت ، وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضى الله عنه ، وفعل ذلك مرة أخرى فى خيمة أم معبد الخزاعية

(٤) وندرت عين بعض أصحابه فسقطت ، فردها عليه السلام بيده ، فكانت أصح عينيه وأحسنهما ، (٥) وتفل فى عين على رضى الله عنه وهو أرمد يوم خيبر ، فصح من وقته وبعثه بالراية ، (٦) وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم ، (٧) وأصيبت رجل بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم فمسحها بيده فبرأت من حينها ، (٨) وقل زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقى ، فاجتمع شىء يسير جدا فدعا فيه بالبركة ، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء فى العسكر إلا ملىء من ذلك ،

---

(١) حديث اخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقا به: متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضا

(٢) حديث أخبر نساءه ان أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب ـ الحديث : م من حديث عائشة وفى الصحيحين أن سودة كانت أولهن لحوقا به قال ابن الجوزى وهذا غلط من بعض الرواة بلا شك

(٣) حديث مسح ضرع شاة حائل لا لبن لها فدرت فكان ذلك سبب اسلام ابن مسعود: أحمد من حديث ابن مسعود باسناد جيد

(٤) حديث ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما :أبو نعيم والبيهقى كلاهما فى دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذى سقطت عينه فى رواية للبيهقى انه كان ببدر وفى رواية أبى نعيم انه كان باحد وفى اسناده اضطراب وكذا رواه البيهقى فيه من حديث أبى سعيد الخدرى

(٥) حديث تفل فى عين على وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية :متفق عليه من حديث على ومن حديث سهل بن سعد أيضا

(٦) حديث كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه: خ من حديث ابن مسعود

(٧) حديث أصيبت رجل بعض أصحابه فمسحها بيده فبرأت من حينها: خ فى قصة قتل أبى رافع

(٨) حديث قل زاد جيش كان معه فدعا بما بقى فاجتمع شىء يسير فدعا فيه بالبركة ـ الحديث : متفق عليه من حديث سلمة بن الأكوع

(١) وحكى الحكم بن العاص بن وائل مشيته عليه السلام مستهزئا فقال صلى الله عليه وسلم كذلك فكن ، فلم يزل يرتعش حتى مات ،

(٢) وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها إن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا، ولم يكن بها برص ، فقال عليه السلام فلتكن كذلك فبرصت ، وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر ، إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم

وإنما اقتصرنا على المستفيض ومن يستريب في انخراق العادة على يده ، ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواترا ، بل المتواتر هو القرءان فقط ، كمن يستريب في شجاعة علي رضي الله عنه ، وسخاوة حاتم الطائي ، ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ، ولكن مجموع الوقائع يورث علما ضروريا ، ثم لا يتمارى في تواتر القرءان ، وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق ، وليس لنبي معجزة باقية سواه صلى الله عليه وسلم ، إذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق ، وفصحاء العرب ، وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم ، والفصاحة صنعتهم ، وبها منافستهم ومباهاتهم ، وكان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، إن شكوا فيه ، وقال لهم (قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[(١)]) وقال ذلك تعجيزا لهم ، فعجزوا عن ذلك ، وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ، ونساءهم وذراريهم للسبي ، وما استطاعوا أن يعارضوا ، ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه ، ثم انتشر ذلك

---

(١) حديث حكي الحكم بن العاص مشيته مستهزئا به فقال فكذلك كن الحديث البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج بصحة باسناد جيد والحاكم في المستدرك من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث خطب امرأة فقال ابوها ان بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال فلتكن كذلك فبرصت المرأة : ذكرها ابن الجوزي في التلقيح وسماها جمرة بنت الحرث بن عوف المزني وتبعه على ذلك الدمياطي في جزء له في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح ذلك

(١) الاسراء : ٨٨

بعده فى أقطار العالم شرقا وغربا ، قرنا بعد قرن ، وعصرا بعد عصر ، وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة ، فلم يقدر أحد على معارضته ، فأعظم بغباوة من ينظر فى أحواله ثم فى أقواله ، ثم فى أفعاله ، ثم فى أخلاقه ، ثم فى معجزاته ، ثم فى استمرار شرعه إلى الآن ثم فى انتشاره فى أقطار العالم ، ثم فى إذعان ملوك الأرض له فى عصره وبعد عصره ، مع ضعفه ويتمه ، يتمارى بعد ذلك فى صدقه ، وما أعظم توفيق من آمن به ، وصدقه ، واتبعه فى كل ما ورد وصدر.

فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به فى الأخلاق ، والأفعال ، والأحوال ، والأقوال بمنه وسعة جوده :

تم كتاب آداب المعيشة ، وأخلاق النبوة ، بحمد الله وعونه ، ومنه وكرمه ، ويتلوه كتاب شرح عجائب القلب ، من ربع المهلكات ، ان شاء الله تعالى

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثامن

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت ٣١٨١٠

كتاب شرح عجائب القلب

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الأول من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش فى مبادى أشراق أنواره الأحداق والنواظر . المطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر . مقلب القلوب ، وغفار الذنوب ، وستار العيوب ومفرج الكروب . والصلاة على سيد المرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا

أما بعد ، فشرف الإنسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق ، باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التى هي فى الدنيا جماله وكماله وفخره ، وفى الآخرة عدته وذخره . وإنما استعد للمعرفة بقلبه ، لا بجارحة من جوارحه . فالقلب هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله ، وهو الساعى إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله . ولديه . وإنما الجوارح أتباع وخدم ، وآلات يستخدمها القلب ، ويستعملها استعمال المالك للعبد ، واستخدام الراعى للرعية ، والصانع للآلة . فالقلب هو المقبول عند الله ، إذا سلم من غير الله . وهو المحجوب عن الله ، إذا صار مستغرقا بغير الله . وهو المطالب ، وهو المخاطب ، وهو المعاتب ، وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه ، وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه . وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره . وهو العاصى المتمرد على الله تعالى ، وإنما السارى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره . وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه . وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه . وهو الذى إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه . ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته ، وكيفية تقلبه بين أصبعين

من أصابع الرحمن، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين ، وينخفض إلى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ، ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين

ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ، ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه (نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [1]) فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين ، وأساس طريق السالكين

وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات ، وهو العلم الظاهر ، ووعدنا أن نشرح فى الشطر الثانى مايجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات ، وهو العلم الباطن ، فلا بد أن نقدم عليه كتابين كتابا فى شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا فى كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه . ثم نندفع بعد ذلك فى تفصيل المهلكات والمنجيات. فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال مايقرب من الأفهام ، فإن التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

بيان

معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب ، ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى ، واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها . وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى ، واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى مايتعلق بغرضنا

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين . أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود ، هو منبع الروح ومعدنه . ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ، ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم

---

(١) الحشر : ١٩

بل هو موجود للميت . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هـذا الـكتاب لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لاقدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين

والمعنى الثانى: هو لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسمانى تعلق . وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته ، فإن تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما: أنه متعلق بعلوم المكاشفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة والثانى: أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح ، وذلك مما [1] لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس لغيره أن يتكلم فيه

والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب ، أردنا به هذه اللطيفة . وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها ، لا ذكر حقيقتها فى ذاتها . وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ، ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها

اللفظ الثانى : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين . أحدهما: جسم لطيف ، منبعه تجويف القلب الجسمانى ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن . وجريانه فى البدن ، وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت ، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه . والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى ، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان . فأما غرض أطباء الدين ، المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فى الروح: متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح وفيه فأمسك النبي صلى الله عليه فلم يرد عليهم فعلمت أنه يوحى اليه ـ الحديث : وقد تقدم

فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا .

المعنى الثاني :هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذي شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [١]) وهو أمر عجيب ربانى ، تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضا مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان ، على ماسيأتى شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ،لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام [١] « أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ »

المعنى الثاني: هى اللطيفة التى ذكرناها ، التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها . فإذا سكنت تحت الأمر ، وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات ، سميت النفس المطمئنة .قال الله تعالى فى مثلها (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً [٢]) والنفس بالمعنى الأول لايتصور رجوعها إلى الله تعالى ، فإنها مبعدة عن الله ، وهى من حزب الشيطان وإذا لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ، ومعترضة عليها ، سميت النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال الله تعالى (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [٣]) وإن تركت الاعتراض ، وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان ، سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ [٤]) وقد يجوز أن يقال المراد بالأمارة بالسوء هى النفس بالمعنى الأول . فإذاً النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثانى محمودة، لأنها نفس الإنسان، أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات

---

(١) حديث أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك :البيهقى فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الفجر : ٢٧ (٣) القيامة : ٢ (٤) يوسف : ٥٢

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم. والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب. والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم ، فيكون هو القلب ، أعنى تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف . والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك . وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (٢) « أَوَّلُ مَاخَلَقَ اللهُ الْعَقْلُ » فإن العلم عرض لايتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وان يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ولأنه لايمكن الخطاب معه . وفى الخبر أنه قال له تعالى أقبل ، فأقبل . ثم قال له أدبر ، فأدبر الحديث

فإذاً قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة ، وهى القلب الجسمانى ، والروح الجسمانى ، والنفس الشهوانية ، والعلوم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها . فالمعانى خمسة ، والألفاظ أربعة . وكل لفظ أطلق لمعنيين . وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ، فتراهم يتكلمون فى الخواطر ، ويقولون هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس .وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الاسماء ولأجل كشف الغطاء عن ذلك ، قدمنا شرح هذه الأسامى وحيث ورد فى القرءان والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصه ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ، ومستعملة له ، ولكنها تتعلق به بواسطة القلب . فتعلقها الأول بالقلب ، وكأنه محلها ومملكتها ، وعالمها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش ، والصدر بالكرسى ،فقال القلب هو العرش ،والصدر هو الكرسى . ولايظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه ، فإن ذلك محال، بل أراد به أنه مملكته ،والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه،فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى. ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنتجاوزه

(٢) حديث أول ماخلق الله العقل :وفى الخبر أنه قال له أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر الحديث تقدم فى العلم

بيان جنود القلب

قال الله تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ [١]) فلله سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة ، لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب ، فهو الذى يتعلق بغرضنا . وله جندان : جند يرى بالأبصار ، وجند لا يرى إلا بالبصائر . وهو فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان : فهذا معنى الجند

فأما جنده المشاهد بالعين ، فهو اليد والرجل ، والعين والأذن واللسان ، وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها خادمة للقلب ، ومسخرة له ، فهو المتصرف فيها ، والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته ، لا تستطيع له خلافا ، ولا عليه تمردا فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم . وكذا سائر الأعضاء . وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة ، لا يستطيعون له خلافا ، بل لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . وإنما يفترقان فى شىء ، وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها ، والأجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب

وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود ، من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه ، وقطع المنازل إلى لقائه . فلأجله خلقت القلوب قال الله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ [٢]) وإنما مركبه البدن ، وزاده العلم وإنما الأسباب التى توصله إلى الزاد ، وتمكنه من التزود منه ، هو العمل الصالح . وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ، ما لم يسكن البدن ، ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهى منزل من منازل الهدى ، وإنما سميت دنيا لأنها أدنى المنزلتين . فاضطر إلى أن يتزود من هذا العالم ، فالبدن مركبه الذى يصل به إلى هذا العالم . فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه . وإنما يحفظ البدن

(١) المدثر : ٣١ (٢) الذاريات : ٥٦

بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك . فافتقر لأجل جلب الغـذاء إلى جندين : باطن وهو الشهوة ، وظاهر وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء . فخلق فى القلب من الشهوات ما احتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات، وينتقم من الأعداء ، وظاهر وهو اليد والرجل الذى بهما يعمل بمقتضى الغضب . وكل ذلك بأمور خارجة . فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها . ثم المحتاج إلى الغذاء : مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء والفه . فافتقر للمعرفة إلى جندين : باطن وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق ، وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ، ولا تحويه مجلدات كثيرة ، وقد أشرنا إلى طرف يسير منها فى كتاب الشكر ، فليقتنع به .

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث ، إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المنافى كالغضب . وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة والثانى هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هـذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثانى بالقدرة ، وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء ، لاسيما العضلات منها والأوتار . والثالث هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس ، وهى قوة البصر والسمع ، والشم والذوق واللمس . وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك . ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة ، وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب ، والدم والعظم ، التى أعدت آلات لهذه الجنود . فإن قوة البطش إنما هى بالأصابع ، وقوة البصر إنما هى بالعين وكذا سائر القوى . ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة ، أعنى الأعضاء ، فإنها من عالم الملك والشهادة . وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها

وهـذا الصنف الثالث ، وهو المدرك من هذه الجملة ، ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة ، وهى الحواس الخمس ، أعنى السمع والبصر ، والشم والذوق واللمس ، وإلى ما أسكن منازل باطنة ، وهى تجاويف الدماغ ، وهى أيضا خمسة . فإن الإنسان بعد رؤية الشىء يغمض عينيه ، فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شىء يحفظه

وهو الجند الحافظ ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود إليه ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففى الباطن حس مشترك ، وتخيل وتفكر ، وتذكر وحفظ . ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر ، والذكر والتخيل ، لكان الدماغ يخلو عنه ، كما تخلو اليد والرجل عنه . فتلك القوى أيضا جنود باطنة ، وأماكنها أيضا باطنة

فهذه هى أقسام جنود القلب . وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول . ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء ، والفحول من العلماء ، ولكنا نجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ، ليقرب ذلك من أفهامهم

بيان

أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما ، فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه ، وتحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده : وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد ، حتى يملكاه ويستعبداه ، وفيه هلاكه ، وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله إلى سعادة الأبد . وللقلب جند آخر ، وهو العلم والحكمة والتفكر كما سيأتى شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند ، فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين ، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان . فإن ترك الاستعانة ، وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة ، هلك يقينا ، وخسر خسرانا مبينا . وذلك حالة أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة ، وكان ينبغى أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم ، فيما يفتقر العقل إليه . ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة

المثال الأول : أن نقول ، مثل نفس الإنسان فى بدنه ، أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ومملكته . فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها ، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة ، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح ، والوزير العاقل . والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والغضب والحمية له كصاحب

الشرطة ، والعبد الجالب للميرة كذاب مكار ، خداع خبيث ، يتمثل بصورة الناصح ، وتحت نصحه الشر الهائل ، والسم القاتل ، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى آرائه وتدبيراته ، حتى أنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة . كما أن الوالى فى مملكته إذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره ، ومستشيراله ، ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث ، مستدلا بإشارته فى أن الصواب فى نقيض رأيه ، أدَّبهُ صاحب شرطته ، وساسه لوزيره ، وجعله مؤتمرا له ،مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون العبد مسوسالا سائسا ، ومأمورا مدبرًا لا أميرا مدبرا ، استقام أمر بلده ، وانتظم العدل بسببه فكذا النفس ، متى استعانت بالعقل ، وأدبت بحمية الغضب ، وسلَّطتها على الشهوة واستعانت بإحداهما على الأخرى ، تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدارجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها ، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ[1]) وقال تعالى (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ[2]) وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ[3]) وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود ، وتسليط بعضها على بعض ، فى كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى

المثال الثانى : اعلم أن البدن كالمدينة ، والعقل أعنى المدرك من الإنسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه ، وأعضاؤه كرعيته ، والنفس الأمارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ، ويسعى فى إهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر . ونفسه كمقيم فيه مرابط . فإن هو جاهد عدوه وهزمه ، وقهره على ما يحب ، حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة ، كما قال تعالى (وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً[4]) وإن ضيع ثغره ، وأهمل رعيته ، ذم أثره ، فانتقم منه عند الله تعالى [1] فيقال له يوم القيامة ، يا راعى السوء

---

(١) حديث يقال يوم القيامة يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة : الخبر لم أجد له أصلا

(١) الجاثية : ٢٣ (٢) الاعراف : ١٧٦ (٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١ (٤) النساء : ٩٥

أكلت اللحم ، وشربت اللبن ، ولم تأو الضالة ، ولم تجبر الكسير ، اليوم أنتقم منك : كما ورد فى الخبر . وإلى هـذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « رَجَعْنَا مِن الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ »

المثال الثالث : مثل العقل مثال فارس متصيد ، وشهوته كفرسه ، وغضبه ككلبه . فمتى كان الفارس حاذقا ، وفرسه مروضا ، وكلبه مؤدبا معلما ، كان جديرا بالنجاح . ومتى كان هو فى نفسه أخرق ، وكان الفرس جموحا ، والكلب عقورا ، فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا ، فهو خليق بأن يعطب ، فضلا عن أن ينال ما طلب . وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان ، وقلة حكمته ، وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة ، خصوصا شهوة البطن والفرج . وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه

بيان

خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى . إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها ، فتعلم عداوته بقلبها ، فتهرب منه . فذلك هو الإدراك الباطن فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ؛ ولأجله عظم شرفه ، واستأهل القرب من الله تعالى . وهو راجع إلى علم وإرادة

أما العلم ، فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية ، والحقائق العقلية . فإن هذه أمور وراء المحسوسات ، ولا يشاركه فيها الحيوانات . بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة . وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص ، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس . وإذا فهمت هذا فى العلم الظاهر الضرورى فهو فى سائر النظريات أظهر

---

(١) حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : البيهقى فى الزهد من حديث جابر وقال هذا اسناد فيه ضعف

وأما الإرادة ، فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر ، وطريق الصلاح فيه ، انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة ، وإلى تعاطي أسبابها ، والإرادة لها. وذلك غير إرادة الشهوة ، وإرادة الحيوانات ، بل يكون على ضد الشهوة ، فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة ، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض ، والعاقل يجد في نفسه زاجرا عنها . وليس ذلك زاجر الشهوة . ولو خلق الله العقل المعرّف بعواقب الأمور ، ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل ، لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق .

فإذاً قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ، ينفك عنها سائر الحيوان ، بل ينفك عنها الصبي في أول الفطرة . وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ . وأما الشهوة والغضب ، والحواس الظاهرة والباطنة ، فإنها موجودة في حق الصبي . ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان . إحداهما أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية ، كالعلم باستحالة المستحيلات ، وجواز الجائزات الظاهرة ، فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم ، كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة ، فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد

الثانية أن يتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر ، فتكون كالمخزونة عنده ، فإذا شاء رجع إليها. وحاله حال الحاذق بالكتابة ، إذ يقال له كاتب ، وإن لم يكن مباشرا للكتابة ، بقدرته عليها . وهذه هي غاية درجة الإنسانية . ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى ، يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها ، وبشرف المعلومات وخستها، وبطريق تحصيلها ، إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضهم بتعلم واكتساب . وقد يكون سريع الحصول ، وقد يكون بطيء الحصول . وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء ، والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقي فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها وأقصى الرتب رتبة النبي ، الذي تنكشف له كل الحقائق

أو أكثرها ، من غير اكتساب وتكلف ، بل بكشف إلهي في أسرع وقت . وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة . ومراقي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما ، لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ، ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي . وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته . ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى ، غير مضنون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ لَنَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا » والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة كما سيأتي بيانه

وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « يَنْزِلُ اللهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبُ لَهُ ؟ » وبقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه [2] عز وجل « لَقَدْ طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي وَأَنَا إِلَى لِقَائِهِمْ أَشَدُّ شَوْقًا » وبقوله تعالى [3] « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا » كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا ، ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالأواني ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ان لربكم في ايام دهركم نفحات ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم

(٢) حديث يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار الى لقائي الحديث : لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس اسنادا

(٣) حديث يقول الله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(١) « لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ »

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة . وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله . فبه كمال الإنسان ، وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال . فالبدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق ، وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ، ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة ، فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية . فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار . وكذلك الإنسان . يشارك الحمار والفرس في أمور ، ويفارقهما في أمور هي خاصيته . وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين ، والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة ، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط . وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء . فمن استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل ، فقد تشبه بالملائكة ، فحقيق بأن يلحق بهم ، وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا ، كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام (مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٢)) ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية ؛ يأكل كما تأكل الأنعام ، فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم ، فيصير إما غمرا كثور ، وإما شرها كخنزير ، وإما ضريا ككلب أو سنور ، أو حقودا كجمل ، أو متكبرا كنمر ، أو ذا روغان كثعلب ، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد . وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس ، إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى ، كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب

وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده ، والدار الآخرة مستقره ، والدنيا منزله ، والبدن مركبه ، والأعضاء خدمه ، فيستقر هو ، أعني المدرك من الإنسان ، في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك ، ويجرى القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده ، إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ، ويجرى القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ـ الحديث : أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام

(٢) يوسف : ٣١

مجرى خازنه ، ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ، ويجرى الأعضاء المتحركة مجرى كتابه ، ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه ، فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع ، فيوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، والشم بعالم الروائح ، وكذلك سائرها ، فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم، ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهى الحافظة ، ويعرضها الخازن على الملك. فيقتبس الملك منها مايحتاج إليه فى تدبير مملكته ، وإتمام سفره الذى هو بصدده ، وقمع عدوه الذى هو مبتلى به ، ودفع قواطع الطريق عليه . فإذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا ، شاكرا نعمة الله . وإذا عطل هذه الجملة. أواستعملها لكن فى مراعاة أعدائه، وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة ، أوفى عمارة طريقه دون منزله ، إذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ، ووطنه ومستقره الآخرة، كان مخذولا شقيا ، كافرا بنعمة الله تعالى ، مضيعا لجنود الله تعالى، ناصرا لأعداء الله، مخذلا لحزب الله . فيستحق المقت، والإبعاد فى المنقلب والمعاد ، نعوذ بالله من ذلك

وإلى المثال الذى ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت [1] الإنسان عيناه هاد ، وأذناه قمع ، ولسانه ترجمان ، يداه جناحان ، ورجلاه بريد والقلب منه ملك ، فإذا طاب الملك طابت جنوده . فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال علي رضى الله عنه فى تمثيل القلوب : إن لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب ، فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها . ثم فسّره فقال : أصلبها فى الدين، وأصفاها فى اليقين، وأرقها على الإخوان وهو إشارة إلى قوله تعالى (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [1]) وقوله تعالى (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ [2]) قال أبى بن كعب رضى الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقلبه . وقوله تعالى (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ [3]) مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [4]) وهو قلب المؤمن. وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى . فهذه أمثلة القلب

(١) حديث عائشة الانسان عيناه هاد واذناه قمع ولسانه ترجمان - الحديث: أبو نعيم فى الطب النبوى والطبرانى فى مسند الشاميين والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبى ذر اما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شىء

(١) الفتح : ٢٩ (٢) النور: ٣٥ (٣) النور : ٤٠ (٤) البروج :٢١

بيان

مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلم أن الإنسان قد اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهى الصفات السبعية ، والبهيمية ، والشيطانية ، والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع ، من العداوة والبغضاء ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم ، من الشره والحرص والشبق وغيره . ومن حيث إنه فى نفسه أمر ربانى ، كما قال الله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي[1]) فإنه يدعى لنفسه الربوبية ، ويحب الاستيلاء والاستعلاء ، والتخصص والاستبداد بالأمور كلها ، والتفرد بالرياسة ، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ، بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويحزن إذا نسب إلى الجهل . والإحاطة بجميع الحقائق ، والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية . وفى الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز ، مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة ، حصلت فيه شيطانية ، فصار شريرا ، يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر فى معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين . وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة ، أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية . وكل ذلك مجموع فى القلب ، فكأن المجموع فى إهاب الإنسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم . فالخنزير هو الشهوة ، فإنه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته ، بل لجشعه وكلبه وحرصه . والكلب هو الغضب ، فإن السبع الضارى والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل ، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر ، وفى باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه ، وحرص الخنزير وشبقه . فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء ، والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع

(١) الاسراء : ٨٥

ويغرى أحدهما بالآخر ، ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه . والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره ، بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة . ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه ، إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ، ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ؛ ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته . فإن فعل ذلك وقدر عليه . اعتدل الأمر ، وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم . وإن عجز عن قهرها ، قهروه واستخدموه ، فلا يزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ، ويرضى الكلب ، فيكون دائما فى عبادة كلب وخنزير ، وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء

والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه ، وكوشف بحقيقة حاله ، ومثل له حقيقة حاله ، كما يمثل للمكاشفين إما فى النوم أو فى اليقظة ، لرأى نفسه ماثلا بين يدى خنزير ، ساجدا له مرة ، وراكعا أخرى ، ومنتظراً لإشارته وأمره ، فمهما هاج الخنزير لطلب شىء من شهواته ، انبعث على الفور فى خدمته ، وإحضار شهوته . أو رأى نفسه ماثلا بين يدى كلب عقور ، عابدا له ، مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه ، مدققا بالفكر فى حيل الوصول إلى طاعته . وهو بذلك ساع فى مسرة شيطانه ، فإنه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ، ويبعثهما على استخدامه ، فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما

فليراقب كل عبد حركاته وسكناته : وسكوته ونطقه ، وقيامه وقعوده ، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيا طول النهار فى عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم ، إذ جعل المالك مملوكا ، والرب مربوبا ، والسيد عبدا ، والقاهر مقهورا . إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء ، وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة ، فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه ، حتى يصير طابعا ، ورينا مهلكا للقلب ومميتا له

أما طاعة خنزير الشهوة ، فيصدر منها صفة الوقاحة والخبث ، والتبذير والتقتير ، والرياء والهتكة ، والمجانة والعبث ، والحرص والجشع ، والملق والحسد ، والحقد والشماتة وغيرها

وأما طاعة كلب الغضب ، فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور ، والبذالة والبذخ ، والصلف والاستشاطة ، والتكبر والعجب ، والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق ، وإرادة الشر ، وشهوة الظلم وغيرها

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب ، فيحصل منها صفة المكر والخداع ، والحيلة والدهاء ، والجراءة ، والتلبيس والتضريب والغش ، والخب والخنا وأمثالها

ولو عكس الأمر ، وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية ، لاستقر فى القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين ، والإحاطة بحقائق الأشياء ، ومعرفة الأمور على ماهى عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولا ستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولا نتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة ، مثل العفة ، والقناعة والهدو ، والزهد والورع والتقوى ، والانبساط وحسن الهيئة ، والحياء والظرف ، والمساعدة وأمثالها . ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها ، وردها إلى حد الواجب ، صفة الشجاعة والكرم والنجدة ، وضبط النفس والصبر ، والحلم والاحتمال والعفو ، والثبات والنبل ، والشهامة والوقار وغيرها

فالقلب فى حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب . أما الآثار المحمودة التى ذكرناها ، فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء ، حتى يتلألأ فيه جلية الحق ، وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب فى الدين وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم[1] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً جَعَلَ لَهُ وَاعِظاً مِنْ قَلْبِهِ » وبقوله صلى الله عليه وسلم[2] « مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ » وهذا القلب هو الذى يستقر فيه الذكر. قال الله تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[1])

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة واسناده جيد

(٢) حديث من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ : لم أجدله أصلا

---

(١) الرعد :٢٨

وأما الآثار المذمومة ، فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب . ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى ، إلى أن يسود ويظلم ، ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الرين . قال الله تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[١]) وقال عز وجل (أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ[٢]) فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب ، كما ربط السماع بالتقوى . فقال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا[٣]) (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ[٤])

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب ، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ، ويستهين بأمر الآخرة ، ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها . فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار ، دخل من أذن وخرج من أذن ، ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك ، أولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور

وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب : كما نطق به القرءان والسنة . قال ميمون بن مهران إذا أذنب العبد ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع وتاب ، صقل ، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[١] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ ، وَقَلْبُ الْكَافِرِ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ » فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ، ومعاصيه مسودات له . فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه ، ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ، ولكن ينقص نوره ، كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ، ويتنفس ثم تمسح ، فإنها لا تخلو عن كدورة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم[٢] « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَقَلْبٌ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ

---

(١) حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر ـ الحديث : أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه

(٢) حديث القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر ـ الحديث : أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري وقد تقدم

---

(١) المطففين : ١٤ (٢) الاعراف : ١٠٠ (٣) المائدة : ١٠٨ (٤) البقرة : ٢٨٢

يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقَرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالصَّدِيدُ فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَيْهِ حُكِمَ لَهُ بِهَا » وفى رواية « ذَهَبَتْ بِهِ » قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [1]) فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر ، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بلقاء الله تعالى

بيان

مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب ، أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح ، وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات . فكما أن للمتلون صورة ، ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع فى مرآة القلب وتتضح فيها . وكما أن المرآة غير ، وصور الأشخاص غير ، وحصول مثالها فى المرآة غير ، فهى ثلاثة أمور ، فكذلك ههنا ثلاثة أمور ، القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق فى القلب وحضورها فيه . فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء ، والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة

وكما أن القبض مثلا يستدعى قابضا كاليد ، ومقبوضا كالسيف ، ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف فى اليد ويسمى قبضا ، فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما . وقد كانت الحقيقة موجودة ، والقلب موجودا ، ولم يكن العلم حاصلا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب . كما أن السيف موجود ، واليد موجودة ، ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلا ، لعدم وقوع السيف فى اليد

نعم القبض عبارة عن وصول السيف بعينه فى اليد ، والمعلوم بعينه لا يحصل فى القلب ، فمن علم النار لم تحصل عين النار فى قلبه ، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتمثيله بالمرآة أولى ، لأن عين الإنسان لا تحصل فى المرآة ، وإنما يحصل مثال مطابق له .

---

(١) الاعراف : ٢٠١

وكذا حصول مثل مطابق لحقيقة العلوم فى القلب يسمى علما . وكما أن المرآة لاتنكشف فيها الصورة لخمسة أمور .

أحدها : نقصان صورتها ، كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل

والثانى : لخبثه وصدئه وكدورته ، وإن كان تام الشكل

والثالث . لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها ، كما إذا كانت الصورة وراء المرآة

والرابع . لحجاب مرسل بين المرآة والصورة

والخامس : للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة ، حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها . وإنما خلت القلوب عن العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة

أولها : نقصان فى ذاته ، كقلب الصبى ، فإنه لا ينجلى له المعلومات لنقصانه .

والثانى : لكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات ، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » أى حصل فى قلبه كدورة لايزول أثرها . إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها ، فلوجاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة ، لازداد لامحالة إشراق القلب . فلما تقدمت السيئة ، سقطت فائدة الحسنة ، لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ، ولم يزدد بها نورا . فهذا خسران مبين ، ونقصان لا حيلة له . فليست المرآة التى تتدنس ثم تمسح بالمصقلة ، كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق . فالإقبال على طاعة الله ، والإعراض عن مقتضى الشهوات : هو الذى يجلو القلب ويصفيه . ولذلك قال الله تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [١]) وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

---

(١) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود اليه أبدا : لم أر له أصلا

(٢) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم : أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وقدتقدم فى العلم

---

(١) العنكبوت : ٦٩

الثالث . أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة . فإن قلب للطيع الصالح، وإن كان صافيا ، فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق ، لأنه ليس يطلب الحق ، وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية ، أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية ، والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ماهو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال ، وخفايا عيوب النفس ، إن كان متفكرا فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإذا كان تقييدا لهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق ، فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها ؟ فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي !

الرابع:الحجاب . فإن المطيع القاهر لشهواته ، المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك ، لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا ، على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ماتلقفه من ظاهر التقليد . وهذا أيضا حجاب عظيم ، به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض ، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية ، جمدت في نفوسهم ، ورسخت في قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق

الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب . فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول ، إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه ، حتى إذا تذكرها ، ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار ، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب ، فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه . فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية ، لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة . بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين ، يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص ، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث ، على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى . ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان ، وبينهما طريق في الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب

فالجهل بتلك الأصول، وبكيفية الازدواج، هو المانع من العلم. ومثاله ماذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها. بل مثاله أن يريد الانسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة. فإنه إذا رفع المرآة بازاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا، فلا يظهر فيها القفا. وإن رفعها وراء القفا وحاذاه، كان قد عدل بالمرآة عن عينه، فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها، فيحتاج الى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها، ويرعى مناسبة بين وضع المرآتين، حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة، فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة، يعز على بسيط الارض من يهتدى إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات

فهذه هي الاسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور. وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر رباني شريف، فارق سائر جواهر العلم بهذه الخاصية والشرف. وإليه الاشارة بقوله عز وجل (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ [1]) اشارة الى أن له خاصية تميز بها عن السموات والارض والجبال، بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد، وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الاصل، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول الى تحقيقها، الأسباب التي ذكرناها. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ » إشارة إلى بعض هذه الاسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت. وإليه الاشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله يارسول الله (٣) اين الله ؟ في الارض أو في السماء ؟ قال « فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » وفي الخبر قال الله تعالى

---

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث ابن عمر أين الله قال في قلوب عباده المؤمنين : لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان لله آنية من اهل الارض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث

[1] الاحزاب : ٧٢

(١) « لَمْ يَسَعْنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ اللَّيِّنِ الْوَادِعِ » وفى الخبر أنه (٢) قيل يارسول الله ، من خير الناس؟ فقال « كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ الْقَلْبِ » فقيل وما مخموم القلب؟ فقال « هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لاَ غِشَّ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ غَدْرَ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ » ولذلك قال عمر رضى الله عنه : رأى قلبي ربي. إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه ، فيرى جنة عرض بعضها السموات والارض ، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض ، لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة ، وهو وإن كان واسع الأطراف ، متباعد الأكناف ، فهو متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت ، وهى الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار ، المخصوصة بإدراك البصائر ، فلانهاية له . نعم الذى يلوح للقلب منه مقدار متناه، ولكنه فى نفسه وبالإضافة إلى علم الله ، لانهاية له . وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة، تسمى الحضرة الربوبية ، لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات ، إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله . فما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة بعينها عند قوم : وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه فى الجنة بحسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله . وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه، قد أفلح من زكاها ، ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه ، أعنى اشراق نور المعرفة ، وهو المراد بقوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ [١]) وبقوله (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [٢])

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : إيمان العوام ، وهو إيمان التقليد المحض

والثانية : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام

---

(١) حديث قال الله ماوسعنى أرضى ولاسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع : لم أرله أصلا وفى حديث أبى عتبة قبله عند الطبرانى بعد قوله وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها اليه ألينها وأرقها

(٢) حديث قيل من خير الناس قال كل مؤمن مخموم القلب ـ الحديث : ه من حديث عبدالله بن عمر باسناد صحيح

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الزمر : ٢٢

والثالثة : إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين

ونبين لك هذه المراتب بمثال ، وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا فى الدار له ثلاث درجات :

الأولى : أن يخبرك من جربته بالصدق ، ولم تعرفه بالكذب ، ولا اتهمته فى القول ، فإن قلبك يسكن إليه ، ويطمئن بخبره بمجرد السماع ، وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد وهو مثل إيمان العوام . فإنهم لما بلغوا سن التمييز ، سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى ، وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته ، وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به ، وكما سمعوا به قبلوه ، وثبتوا عليه ، واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم ، لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم . وهذا الإيمان سبب النجاة فى الآخرة ، وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين ، وليسوا من المقربين . لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد ، بل من الاعداد ، فيما يتعلق بالاعتقادات فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم ، إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ ، لأنهم ألقى إليهم الخطأ . والمسلمون اعتقدوا الحق ، لا لإطلاعهم عليه ، ولكن ألقى إليهم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ، ولكن من وراء جدار ، فتستدل به على كونه فى الدار . فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه فى الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع . فإنك إذا قيل لك إنه فى الدار ، ثم سمعت صوته ، ازددت به يقينا ، لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت فى حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص . وهذا إيمان ممزوج بدليل . والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت قد يشبه الصوت ، وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة ، إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع ، لأنه ليس يجعل للتهمة موضعا ، ولا يقدر فى هذا التلبيس والمحاكاة غرضا

الرتبة الثالثة: أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده . وهذه هى المعرفة الحقيقية ، والمشاهدة اليقينية، وهى تشبه معرفة المقربين والصديقين ، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة ،

فينطوى فى إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ . نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم ، وبدرجات الكشف . أما درجات العلوم فمثاله أن يبصر زيدا فى الدار عن قرب ، وفى صحن الدار ، فى وقت إشراق الشمس ، فيكمل له إدراكه . والآخر يدركه فى بيت ، أو من بعد ، أو فى وقت عشية ، فيتمثل له فى صورته ما يستيقن معه أنه هو ، ولكن لا يتمثل فى نفسه الدقائق والخفايا من صورته . ومثل هذا متصور فى تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية . وأما مقادير العلوم ، فهو بأن يرى فى الدار زايدا وعمرا وبكرا وغير ذلك ، وآخر لا يرى إلا زيدا ، فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب

بيان

حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ، ولكن العلوم التى تحل فيه تنقسم إلى عقلية ، وإلى شرعية ، والعقلية تنقسم إلى ضرورية ، ومكتسبة ، والمكتسبة إلى دنيوية ، وأخروية ، أما العقلية ، فنعنى بها ما تقضى بها غريزة العقل ، ولا توجد بالتقليد والسماع . وهى تنقسم إلى ضرورية ، لا يدرى من اين حصلت ، وكيف حصلت ، كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين ، والشىء الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما معا ، فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها ، ولا يدرى متى حصل له هذا العلم ، ولا من اين حصل له . أعنى أنه لا يدرى له سببا قريبا . وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذى خلقه وهداه . وإلى علوم مكتسبة ، وهى المستفادة بالتعلم والاستدلال . وكلا القسمين قد يسمى عقلا . قال على رضى الله عنه

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول: هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي [١] « مَا خَلَقَ اللّٰهُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ » والثاني: هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى رضي الله عنه [٢] « إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ » إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية، ولا بالعلوم الضرورية، بل بالمكتسبة. ولكن مثل علي رضى الله عنه، هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين. فالقلب جار مجرى العين، وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين. وقوة الابصار لطيفة تفقد فى العمى، وتوجد فى البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل. والعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة إدراك البصر فى العين، ورؤيته لأعيان الأشياء. وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التميز أو البلوغ، يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات. والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب، يجرى مجرى قرص الشمس. وإنما لم يحصل العلم فى قلب الصبي قبل التمييز، لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نقش العلم. والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى، جعله سببا لحصول نقش العلوم فى قلوب البشر. قال الله تعالى (الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [١]) وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه، كما لا يشبه وصفه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب، كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض. فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه، إلا أنه لا مناسبة بينهما فى الشرف فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التي هى اللطيفة المدركة، وهى كالفارس، والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس، بل لا نسبة لأحد الضررين الى الآخر

ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر، سماه الله تعالى باسمه فقال (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [٢]) سمى إدراك الفؤاد رؤية. وكذلك قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ [٣]) وما أراد به الرؤية الظاهرة، فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام

---

(١) حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل: ت الحكيم فى نوادر الاصول باسناد ضعيف وقد تقدم فى العلم

(٢) حديث إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك: أبو نعيم من حديث علي باسناد ضعيف

---

(١) العلق : ٤ (٢) النجم : ١١ (٣) الانعام : ٧٥

حتى يعرض فى معرض الامتنان . ولذلك سمى ضد إدراكه عمى ، فقال تعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[١]) وقال تعالى (وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا[٢]) فهذا بيان العلم العقلى

أما العلوم الدينية ، فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفهم معانيهما بعد السماع . وبه كمال صفة القلب ، وسلامته عن الادواء والأمراض ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب ، وإن كان محتاجا اليها . كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن ، بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء . إذ مجرد العقل لا يهتدى إليه ، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ، ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرءان والسنة مغرور . فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية . والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء . فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة ، وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب . فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية ، واكتفى بالعلوم العقلية ، استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء

وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن ، هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة ، نعوذ بالله منه . بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض ، فيعجز عن الجمع بينهما ، فيظن أنه تناقض فى الدين ، فيتحير به ، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين . وانما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل إليه نقصا فى الدين ، وهيهات . وإنما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم ، فتعثر فيها بأوانى الدار ، فقال لهم ما بال هذه الأوانى تركت على الطريق؟ لم لا ترد إلى مواضعها ؟ فقالوا له تلك الأوانى

(١) الحج : ٤٦ (٢) الاسراء : ٧٢

فى مواضعها ، وإنما أنت لست تهتدى للطريق لعماك ، فالعجب منك أنك لاتحيل عثرتك على عماك ، وإنما تحيلها على تقصير غيرك .

فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية

والعلوم العقلية تنقسم الى دنيوية وأخروية . فالدنيوية كعلم الطب ، والحساب والهندسة والنجوم ، وسائر الحرف والصناعات . والأخروية كعلم أحوال القلب ، وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، كما فصلناه فى كتاب العلم . وهما علمان متنافيان : أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه ، قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر . ولذلك ضرب علي رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككفتى الميزان ، وكالمشرق والمغرب ، وكالضرتين ، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى . ولذلك ترى الأكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة ، جهالا فى أمور الآخرة . والأكياس فى دقائق علوم الآخرة ، جهالا فى أكثر علوم الدنيا . لأن قوة العقل لاتفى بالأمرين جميعا فى الغالب ، فيكون أحدهما مانعا من الكمال فى الثانى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ » أى البله فى أمور الدنيا . وقال الحسن فى بعض مواعظه : لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو أدركوكم لقالوا شياطين . فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحده أهل الكياسة فى سائر العلوم ، فلا يغرنك جحودهم عن قبوله ، إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب . فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [1]) الآية وقال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ [2]) وقال عزوجل (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [3]) فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين ، لايكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم ، وهم الأنبياء

---

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله : البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبى فى التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدى أنه منكر

---

(١) يونس : ٧ (٢) الروم : ٧ (٣) النجم : ١٩ و ٣٠

المؤيدون بروح القدس ، المستمدون من القوة الالهية ، التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة ، وقصرت عن الإستكمال فيها

بيان

الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية ، وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال ، تختلف الحال فى حصولها : فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا . ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ، ينقسم إلى مالا يدرى العبد أنه كيف حصل له ، ومن أين حصل ، وإلى مايطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب والأول يسمى إلهاما ونفثا فى الروع ، والثانى يسمى وحيا وتختص به الأنبياء ، والأول يختص به الأولياء والأصفياء ، والذى قبله . وهو المكتسب بطريق الاستدلال ، يختص به العلماء

وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لان تنجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها . وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التى سبق ذكرها . فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ ، الذى هو منقوش بجميع ماقضى الله به إلى يوم القيامة وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة القلب ، يضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها ، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد ، وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه . وكذلك قد تهب رياح الألطاف ، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فينجلى فيها بعض ماهو مسطور فى اللوح المحفوظ . ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به مايكون فى المستقبل ، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت ، فبه ينكشف الغطاء . وينكشف أيضا فى اليقظة

حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم ، تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالى إلى حد ما ، ودوامه فى غاية الندور . فلم يفارق الإلهام الاكتساب فى نفس العلم ، ولا فى محله ، ولا فى سببه ، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب . فإن ذلك ليس باختيار العبد . ولم يفارق الوحى الإلهام فى شيء من ذلك ، بل فى مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملائكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ [1])

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة . فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . فمن كان لله كان الله له .

وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرءان ، ولا بالتأمل فى تفسير ،

---

(١) الشورى : ٥١

ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شئ سوى الله تعالى . فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه الله الله على الدوام ، مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظبا على الذكر . ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا فى قلبه ، حاضرا فيه ، كأنه لازم له لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد ، واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى . بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله. فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق . وعند ذلك إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق فى قلبه ، ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفا وإن ثبت قد يطول ثباته ؛ وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على دفن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط

وأما النظار وذوو الاعتبار ، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء . والأولياء . ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَشَدُّ تَقَلُّبًا مِنَ الْقِدْرِ فِي غَلَيَانِهَا » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام [2] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ »

---

(١) حديث قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها: أحمد و ك وصححه من حديث المقداد بن الأسود

(٢) حديث قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن: م من حديث عبدالله بن عمرو

وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ، ويختلط العقل ، ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمئن النفس إليها مدة طويلة ، إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها

فكم من صوفي سلك هذا الطريق ، ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل ، لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال . فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض

وزعموا أن ذلك يضاهي مالو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك : وصار فقيها بالوحي والإلهام ، من غير تكرير وتعليق ، فأنا أيضا ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه . ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ، ولكنه بعيد جدا . فكذلك هذا ، وقالوا لا بد أولا من تحصيل ما حصله العلماء ، وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء ، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة

بيان

الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس . وما ليس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين :

أحدهما : أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض ، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ، ويرفع منه التراب ، إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس

مثال الانهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الخواس ، والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يمتلىء علما ، ويمكن أن تسد هـذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله

فإن قلت : فكيف يتفجر العلم من ذات القلب ، وهو خال عنه ؟

فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ، ولا يسمح بذكره فى علم المعاملة ، بل القـدر الذى يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة فى اللوح المحفوظ ، بل فى قلوب الملائكة المقربين ، فكما أن المهندس يصور أبنية الدار فى بياض ، ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السموات والأرض ، كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره فى اللوح المحفوظ ، ثم أخرجـه إلى الوجود على وفق تلك النسخة . والعالم الذى خرج إلى الوجود بصورته ، تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره ، يرى صورة السماء والأرض فى خياله ، حتى كأنه ينظر إليها ، ولو انعدمت السماء والأرض ، وبقى هو فى نفسه ، لوجد صورة السماء والأرض فى نفسه ، كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب ، فيحصل فيه حقائق الأشياء التى دخلت فى الحس والخيال ، والحاصل فى القلب موافق للعالم الحاصل فى الخيال والحاصل فى الخيال موافق للعالم الموجود فى نفسه خارجا من خيال الإنسان وقلبه، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة فى اللوح المحفوظ . فكأن للعالم أربع درجات فى الوجود . وجود فى اللوح المحفوظ ، وهو سابق على وجوده الجسمانى ، ويتبعه وجوده الحقيقى ، ويتبع وجوده الحقيقى وجوده الخيالى ، أعنى وجود صورته فى الخيال ، ويتبع وجوده الخيـالى وجوده العقلى ، أعنى وجود صورته فى القلب . وبعض هذه الموجودات روحانية وبعضها جسمانية ، والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض . وهذا الالطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها . بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها ، ثم يسرى من وجودها فى الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود فى القلب ، فإنك أبدا لاتدرك إلا ماهو واصل إليك ، فلو لم يجعل للعالم كله مثالا فى ذاتك ، لما كان لك خبر مما يباين ذاتك .

فسبحان من دبر هذه العجائب فى القلوب والأبصار ، ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول

القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته : تارة من الحواس ، وتارة من اللوح المحفوظ . كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس ، تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذى يقابل الشمس ويحكى صورتها . فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات ، كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لايكون ناظرا إلى نفس الشمس

فإذاً للقلب بابان ، باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ ، فتعلمه علما يقينيا بالتأمل فى عجائب الرؤيا ، واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، أو كان فى الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم [1] « سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ » قيل ومن هم المفردون يارسول الله ؟ قال « الْمُتَنَزِّهُونَ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا

---

(١) حديث سبق المفردون قيل ومن هم قال المستهترون بذكر الله — الحديث : م من حديث أبى هريرة مقتصرا على أول الحديث : وقال فيه وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ورواه ك بلفظ قال الذين يستهترون بذكر الله وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقى فى الشعب يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا ورواه هكذا الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث أبى الدرداء دون الزيادة التى ذكرها المصنف فى آخره وكلاهما ضعيف

الْقِيَامَةَ خِفَافًا »ثم قال فى وصفهم إخبارا عن الله تعالى « ثُمَّ أُقْبِلُ بِوَجْهِي عَلَيْهِمْ أَتَرَى مَنْ وَاجَهْتُهُ بِوَجْهِي يَعْلَمُ أَحَدٌ أَيَّ شَيْءٍ أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ » ثم قال تعالى « أَوَّلُ مَا أُعْطِيهِمْ أَنْ أَقْذِفَ النُّورَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَمَا أُخْبِرُ عَنْهُمْ » ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن

فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا ، وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس ، المفتوحة إلى عالم الملك . وعجائب عالم القلب ، وتردده بين عالمى الشهادة والغيب ، لايمكن أن يستقصى فى علم المعاملة ، فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين

المثال الثانى يعرفك الفرق بين العملين ، أعنى عمل العلماء ، وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم ، واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلوب ، وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط

فقد حكي أن أهل الصين وأهل الروم ، تباهوا بين يدى بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور ، فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفة ، لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ، ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر . ففعل ذلك . فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر ، ودخل أهل الصين من غير صبغ ، وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه . فلما فرغ أهل الروم ، ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا ، فعجب الملك من قولهم ، وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ . فقيل وكيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا ماعليكم ، ارفعوا الحجاب ، فرفعوا ، وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية ، مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل . فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه ، وتزكيته وصفائه ، حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق ، كفعل أهل الصين . وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ، ونقش العلوم ، وتحصيل نقشها فى القلب ، كفعل أهل الروم

فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لايموت ، وعلمه عند الموت لايمحى ، وصفاؤه لايتكدر . وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله : التراب لا يأكل محل الإيمان . بل يكون

وسيلة وقربة إلى الله تعالى . وأما ماحصله من نفس العلم ، وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم ، فلا غنى به عنه ، ولاسعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض ، كما أنه لاغنى إلا بالمال ، فصاحب الدرهم غنى ، وصاحب الخزائن المترعة غنى ، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان ، كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته . فالمعارف أنوار ، ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ [١])

وقد روى فى الخبر [١] « إِنَّ بَعْضَهُمْ يُعْطَى نُوراً مِثْلَ الْجَبَلِ وَبَعْضَهُمْ أَصْغَرَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَى نُوراً عَلَى إِبْهَامِ قَدَمَيْهِ فَيُضِيءُ مَرَّةً وَيَنْطَفِئُ أُخْرَى فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَيْهِ فَمَشَى وَإِذَا طُفِئَ قَامَ وَمُرُورُهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ عَلَى قَدْرِ نُورِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالسَّحَابِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوَاكِبِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ إِذَا اشْتَدَّ فِى مَيْدَانِهِ وَالَّذِى أُعْطِىَ نُوراً عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يَحْبُو حَبْواً عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ يَجُرُّ يَداً وَيُعَلِّقُ أُخْرَى وَيُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ » الحديث .

فبهذا يظهر تفاوت الناس فى الإيمان ولو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضا يضاهى قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح ، فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج ، وبعضهم نوره كنور الشمع ، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم ، وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما ينكشف فى نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ، ولا ينكشف فى نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت

فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف ، وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين . ولذلك جاء فى الخبر [٢] « أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ

---

(١) حديث إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى نوره على إبهام قدمه الحديث : الطبرانى وك من حديث ابن مسعود قال ك صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من فى قلبه ربع مثقال من إيمان ــ الحديث : متفق عليه من حديث أبى سعيد وليس فيه قوله ربع مثقال

---

(١) الحديد : ١٢

ذَرَّةٍ مِن إِيمَانٍ وَنِصفُ مِثقَالٍ وَرُبعُ مِثقَالٍ وَشَعِيرَةٌ وَذَرَّةٌ » كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان ، وإن هذه المقادير من الإيمان لا تمنع دخول النار . وفى مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وأن من فى قلبه ذرة لا يستحق الخلود فى النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم[١] « لَيسَ شَيءٌ خَيرًا مِن أَلفِ مِثلِهِ إِلَّا الإِنسَانُ المُؤمِنُ » إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن . فإنه خير من ألف قلب من العوام

وقد قال تعالى (وَأَنتُمُ الأَعلَونَ إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ [١]) تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد . وقال عز وجل (يَرفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ [٢]) فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم ، وميزهم عن الذين أوتوا العلم . ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد ، وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف . وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى (وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ [٣]) فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض

وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « أَكثَرُ أَهلِ الجَنَّةِ البُلهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِى الأَلبَابِ »
وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « فَضلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضلِى عَلَى أَدنَى رَجُلٍ مِن أَصحَابِى »
وفى رواية « كَفَضلِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ »

فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم . ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن ، إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران ، والمحروم يرى فوق درجته درجات غظيمة ، فيكون نظره إليها كنظر الغنى الذى يملك عشرة دراهم ،

---

(١) حديث ليس شىء خيرا من ألف مثله إلا الانسان المؤمن : الطبرانى من حديث سلمان بلفظ الانسان ولأحمد من حديث ابن عمر لا نعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل المؤمن وإسنادهما حسن
(٢) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب : تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلا
(٣) حديث فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى : ت من حديث أبى أمامة وصححه وقد تقدم فى العلم وكذلك الرواية الثانية

---

(١) آل عمران : ١٣٩ (٢) و (٣) المجادلة : ١١

إلى الغنى الذى يملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكل واحد منهما غنى ، ولكن ماأعظم الفرق بينهما ! وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ! وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .

بيان

شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب من حيث لايدرى ، فقد صار عارفا بصحة الطريق . ومن لم يدرك نفسه قط ، فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدا . ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات

أما الشواهد فقوله تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [1]) فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ وَوَفَّقَهُ فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَعْلَمُ تَاهَ فِيمَا يَعْلَمُ وَلَمْ يُوَفَّقْ فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ »

وقال الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً [2]) من الإشكالات والشبه (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ [3]) يعلمه علما من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة . وقال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً [4]) قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور . فقال عليه الصلاة والسلام [2] « اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُوراً وَزِدْنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُوراً

---

(١) حديث من عمل بما علم ـ الحديث : تقدم فى العلم دون قوله ووفقه فيما يعمل فلم أرها

(٢) حديث اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس

---

(1) العنكبوت : ٦٩ (2) و (3) الطلاق : ٢ (4) الانفال : ٢٩

وَفِي قَبْرِي نُوراً وَفِي سَمْعِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً » حتى قال« فِي شَعْرِي وَفِي بَشَرِي وَفِي لَحْمِي وَدَمِي وَعِظَامِي » وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى[١] (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ[١]) ماهذا الشرح ؟ فقال « هُوَ التَّوْسِعَةُ إِنَّ النُّورَ إِذَا قُذِفَ بِهِ فِي الْقَلْبِ اتَّسَعَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْشَرَحَ »

وقال صلى الله عليه وسلم[٢] لابن عباس « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » وقال علي رضي الله عنه[٣] ماعندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما في كتابه . وليس هذا بالتعلم . وقيل في تفسير قوله تعالى (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ[٢]) انه الفهم في كتاب الله تعالى. وقال تعالى (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ[٣]) خص ماانكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق . والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ تَعَالَى » وإليه يشير قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ[٤]) وقوله تعالى (قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[٥]) وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال[٥] « الْعِلْمُ عِلْمَانِ فَعِلْمٌ بَاطِنٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ » وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ماهو فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا

---

(١) حديث سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام ـ الحديث : وفي المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم .

(٢) حديث اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل: قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله وعلمه التأويل فاخرجه بهذه الزيادة أحمد وحب وك وصححه وقد تقدم في العلم

(٣) حديث علي ماعندنا شيء أسره الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يؤتى الله عبدا فهما في كتابه تقدم في آداب تلاوة القرءان

(٤) حديث اتقوا فراسة المؤمن ـ الحديث : ت من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٥) حديث العلم علمان ـ الحديث : تقدم في العلم

---

(١) الزمر : ٢٢ (٢) البقرة : ٢٦٩ (٣) الانبياء : ٧٩ (٤) الحجر : ٧٥ (٥) البقرة : ١١٨

وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وَمُعَلَّمِينَ وَمُكَلَّمِينَ وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ » وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث يعنى الصديقين ، والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجة . والقرءان مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف . وذلك علم من غير تعلم

وقال الله تعالى (وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (١)) خصصها بهم . وقال تعالى (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٢)) وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب ، فإذا نسى ماحفظه صار جاهلا إنما العالم الذى يأخذ علمهُ من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس. وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٣)) مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علما لدنيا، بل اللدنى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل ، ولو جمع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضا خارج عن الحصر . وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته ، إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملا ،فولدت بنتا . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته، ياسارية الجبل الجبل. إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :دخلت على عثمان رضى الله عنه، وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى ،فنظرت إليها شزرا ،وتأملت محاسنها، فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ! أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك

---

(١) حديث إن من أمتى محدثين ومكلمين وان عمر منهم: خ من حديث أبى هريرة لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فان يك فى أمتى أحد فانه عمر ورواه م من حديث عائشة

---

(١) يونس : ٦ (٢) آل عمران : ١٣٨ (٣) الكهف : ٦٥

فقلت أوحي بعد النبي ؟ فقال لا ولـكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .

وعن أبي سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان ، فقلت في نفسي هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس . فناداني وقال ، والله يعلم مافي أنفسكم فاحذروه . فاستغفرت الله في سري ، فناداني وقال ، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده . ثم غاب عني ولم أره . وقال زكريابن داود ، دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال فلما قمت قلت في نفسي ، من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بي ، ياأباالعباس ، ردهذه الهمة الدنية ، فإن لله تعالى ألطافا خفية

وقال أحمد النقيب ، دخلت على الشبلي ، فقال مفتونا ياأحمد . فقلت ما الخبر ؟ قال كنت جالسا فجرى بخاطري أنك بخيل . فقلت ما أنا بخيل . فعاد مني خاطري وقال بل أنت بخيل فقلت ما فتح اليوم علي بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني . قال فما استتم الخاطر حتى دخل علي صاحب المؤنس الخادم ، ومعه خمسون دينارا ، فقال اجعلها في مصالحك . قال وقمت فأخذتها وخرجت . وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه ، فتقدمت إليه ، وناولته الدنانير ، فقال أعطها المزين ، فقلت إن جملتها كذا وكذا ، قال أوليس قد قلنا لك إنك بخيل؟ قال فناولتها المزين ، فقال المزين ، قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا قال فرميت بها في دجلة ، وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل

وقال حمزة بن عبد الله العلوي ، دخلت على أبي الخير التيناني ، واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاما ، فلما خرجت من عنده ، إذا به قد لحقني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال ، يافتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك . وكان أبو الخير التيناني هذا مشهورا بالكرامات ، وقال ابراهيم الرقي ، قصدته مسلما عليه ، فحضرت صلاة المغرب ، فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا ، فقلت في نفسي ضاعت سفرتي ، فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدني سبع ، فعدت إلى أبي الخير ، وقلت قصدني سبع ، فخرج وصاح به وقال ، ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني ! فتنحى الأسد ، فتطهرت ، فلما رجعت ، قال لي اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد

وماحكى من تفرس المشايخ ، وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر . بل ماحكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه وسماع صوت الهاتف ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر . والحكاية لاتنفع الجاحد مالم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل

والدليل القاطع الذى لايقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب . وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ غائص لايسمع ولايبصر لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل ، كما اشتمل عليه القرءان . وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلايستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولايشتغل بإصلاح الخلق . وهذا لايسمى نبيا ، بل يسمى وليا ، فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لامحالة أن يقر بأن القلب له بابان ، باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب ، وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى فإذا أقر بهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه . فهذا ماينبه على حقيقة ماذكرناه ، من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولايليق ذلك إلا بعلم المكاشفة . فلنقتصر على ماذكرناه فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين ، ظهر لى الملك ، فسألنى أن أملى عليه شيئا من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد ، وقال مانكتب لك عملا ، ونحن نحب أن نصعدلك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل ، فقلت ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا بلى قلت فيكفيكما ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لايطلعون على أسرار القلب ، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين ، سألت بعض الأبدال عن مسألة

من مشاهدة اليقين ؛ فالتفت إلى شماله فقال ، ما تقول رحمك الله ؟ ثم التفت إلى يمينه فقال ، ما تقول رحمك الله ؟ ثم أطرق إلى صدره وقال ، ما تقول رحمك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته ، فسألته عن التفاته فقال ، لم يكن عندى فى المسألة جواب عتيد ، فسألت صاحب الشمال فقال لا أدرى ، فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدرى ، فنظرت إلى قلبي وسألته فحدثنى بما أجبتك ، فإذا هو أعلم منهما . وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام « إِنَّ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ » وفى الأثر أن الله تعالى يقول ، أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى ، توليت سياسته وكنت جليسه ، ومحادثه وأنيسه . وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه ، القلب بمنزلة القبة المضروبة ، حولها أبواب مغلقة ، فأى باب فتح له عمل فيه . فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى . وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع ، والإعراض عن شهوات الدنيا . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد ، احفظوا ما تسمعون من المطيعين ، فإنهم ينجلى لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء ، يد الله على أفواه الحكماء ، لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق . وقال آخر ، لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

بيان

تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة ، لها أبواب ، تنصب إليه الأحوال من كل باب . ومثاله أيضا مثال هدف ، تنصب إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة ، فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها . أو مثال حوض ، تنصب فيه مياه مختلفة ، من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال ، أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب ، والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان ، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل

منه أثر فى القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل ، وبسبب قوة فى المزاج ، حصل منها فى القلب أثر ، وإن كف عن الإحساس . فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى ، وينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب

وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر ، وأعنى بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار ، وأعنى به إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد ، وإما على سبيل التذكر ، فإنها تسمى خواطر ، من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والخواطر هى المحركات للإرادات . فإن النية والعزم والإرادة ، إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لامحالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء

والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر ، أعنى إلى مايضر فى العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير ، أعنى إلى ما ينفع فى الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان ، فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخاطر المحمود يسمى الهاما ، والخاطر المذموم ، أعنى الداعى إلى الشر ، يسمى وسواسا . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم أن كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب

هذا ماعرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه واسود بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة . وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانا . واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى أغواء وخذلانا . فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أسامى مختلفة . والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير ، وإفادة العلم ، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر ، والأمر بالفحشاء ، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر . فالوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان

فى مقابلة الملك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان . وإليه الاشارة بقوله تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ [١]) فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة ، إلا الله تعالى فإنه فرد لامقابل له ، بل هو الواحد الحق ، الخالق للأزواج كلها . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « فِى الْقَلْبِ لَمَّتَانِ لَمَّةٌ مِنَ الْمَلَكِ إِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَلْيَحْمَدِ اللهَ وَلَمَّةٌ مِنَ الْعَدُوِّ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَنَهْيٌ عَنِ الْخَيْرِ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ثم تلا قوله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ [٢]) الآية وقال الحسن إنما هما همان يجولان فى القلب ، هم من الله تعالى ، وهم من العدو ، فرحم الله عبداً وقف عند همه ، فما كان من الله تعالى أمضاه ، وما كان من عدوه جاهده . ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ، ودم وعصب ، منقسمة بالأنامل . ولكن روح الأصبع سرعة التقلب ، والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لاتريد أصبعك لشخصه ، بل لفعله فى التقليب والترديد ، كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك والله تعالى يفعل مايفعل باستسخار الملك والشيطان ، وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الأجسام مثلا

والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ، ولقبول آثار الشيطان ، صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى ، والإكباب على الشهوات ، أو الإعراض عنها ومخالفتها . فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى ، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه ، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه . وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه ، وتشبه بأخلاق

---

(١) حديث فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير ـ الحديث : ت وحسنه و ن فى الكبرى من حديث ابن مسعود

(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين ـ الحديث : تقدم

---

(١) الذاريات : ٤٩ (٢) البقرة : ٢٦٨

الملائكة عليهم السلام ، صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم . ولما كان لايخلو قلب عن شهوة وغضب ، وحرص وطمع وطول أمل ، إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى ، لاجرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَلَهُ شَيْطَانٌ » قالوا وأنت يارسول الله ! قال « وَأَنَا إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُ إِلاَّ بِخَيْرٍ » وإنما كان هذا لأن الشيطان لايتصرف إلا بواسطة الشهوة ، فمن أعانه الله على شهوته ، حتى صارت لاتنبسط إلاحيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي ، فشهوته لاتدعو إلى الشر ، فالشيطان المتدرع بها لايأمر إلا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى ، وجد الشيطان مجالا فوسوس ، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ، ارتحل الشيطان وضاق مجاله ، وأقبل الملك وألهم . والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم ، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثانى اختلاسا

وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها ، فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة ، وإطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان ، وهو الهوى والشهوات ، وعمارته بذكر الله تعالى ، الذى هو مطرح أثر الملائكة . وقال جابر بن عبيدة العدوى : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد فى صدرى من الوسوسة ، فقال إنما مثل ذلك مثل البيت الذى يمر به اللصوص ، فإن كان فيه شيء عالجوه ، وإلامضوا وتركوه . يعنى أن القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ [١]) فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لاعبد الله . ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ [٢]) وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده ، فهو عبد الهوى لا عبد الله . ولذلك قال عمرو بن العاص للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله، [٢] حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقراءتى ، فقال « ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ فَإِذَا

---

(١) حديث مامنكم من أحد الاوله شيطان ـ الحديث : م من حديث ابن مسعود
(٢) حديث ابن أبى العاص ان الشيطان حال بينى وبين صلاتى ـ الحديث : م من حديث ابن أبى العاص

---

(١) الاسرا : ٦٥ (٢) الجاثية : ٢٣

أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا » قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني . وفي الخبر[١] « إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه » ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء، انعدم منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى ، وسوى ما يتعلق به، فيجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان . وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ، ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده ؛ وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة ، والتبري عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون ، الغالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . وقال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [١]) وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [٢]) قال هو منبسط على القلب ، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان ، كالتطارد بين النور والظلام ، وبين الليل والنهار . ولتضادهما قال الله تعالى (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ [٣]) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خُرْطُومَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ هُوَ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَنَسَ وَإِنْ نَسِيَ اللَّهَ تَعَالَى الْتَقَمَ قَلْبَهُ » وقال ابن وضاح[٣] في حديث ذكره ، إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب ، مسح الشيطان وجهه بيده ؛ وقال بأبي وجه من لا يفلح . وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه ، فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ، ومحيطة بالقلب

---

(١) حديث ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ـ الحديث : ه ت من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس اسناده بالقوي عند أهل الحديث

(٢) حديث أنس ان الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه

(٣) حديث ابن وضاح إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال بأبي وجه لا يفلح لم أجده أصلا

---

(١) الاعراف : ٢٠١ (٢) الناس : ٤ (٣) المجادلة : ١٩

من جوانبه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ » وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ، ومجرى الشيطان الشهوات. ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى ، إخباراً عن إبليس (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (١)) وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقٍ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ أَتُسْلِمُ وَتَتْرُكُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ! فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ أَتُهَاجِرُ أَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ! فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ أَتُجَاهِدُ وَهُوَ تَلَفُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ نِسَاؤُكَ وَيُقْسَمُ مَالُكَ ! فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ »

فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة ، وهى هذه الخواطر التى تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه ، وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد. وهذه الخواطر معلومة ، فإذاً الوسواس معلوم بالمشاهدة ، وكل خاطر فله سبب ، ويفتقر إلى اسم يعرفه ، فاسم سببه الشيطان ، ولا يتصور أن ينفك عنه آدمى ، وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته . ولذلك قال عليه السلام (٣) « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ » فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان ، والتوفيق والخذلان.

فبعد هذا نظر من ينظر فى ذات الشيطان ، أنه جسم لطيف ، أو ليس بجسم . وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم . فهذا الآن غير محتاج إليه فى علم المعاملة ، بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت فى ثيابه حية ، وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها ، وطولها وعرضها ، وذلك عين الجهل. فمصادمة الخواطر

---

(١) حديث ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم : تقدم
(٢) حديث ان الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ـ الحديث : ن من حديث سبرة بن أبى فاكه باسناد صحيح
(٣) حديث ما من أحد الا له شيطان ـ الحديث : تقدم

---

(١) الاعراف : ١٦ و ١٧

الباعثة على الشر قد علمت ، ودل ذلك على أنه عن سبب لامحالة ، وعلم أن الداعى إلى الشر المحذور فى المستقبل عدو ، فقد عرف العدو لامحالة ، فينبغى أن يشتغل بمجاهدته . وقد عرّف الله سبحانه عداوته فى مواضع كثيرة من كتابه ، ليؤمن به ويحترز عنه ، فقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [1]) وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [2]) فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه ، لابالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه

نعم ينبغى أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه ، وسلاح الشيطان الهوى والشهوات ، وذلك كاف للعاملين . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ، نعوذ بالله منه ، وحقيقة الملائكة ، فذلك ميدان العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفات ، فلا يحتاج فى علم المعاملة إلى معرفته

نعم ينبغى أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر ، فلا يخفى كونه وسوسة ، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير ، فلا يشك فى كونه إلهاما . وإلى ما يتردد فيه ، فلا يدرى أنه من لمَّة الملك ، أو من لمة الشيطان ، فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر فى معرض الخير ، والتميز فى ذلك غامض ، وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح ، فيصور الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم بطريق الوعظ ، أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل ، هلكى من الغفلة ، قد أشرفوا على النار ، أمالك رحمة على عباد الله ، تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك ، وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ، ولسان ذلق ، ولهجة مقبولة ، فكيف تكفر نعمة الله تعالى ، وتتعرض لسخطه ، وتسكت عن إشاعة العلم ، ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم . ولا يزال يقرر ذلك فى نفسه ، ويستجره بلطيف الحيل ، إلى أن يشتغل بوعظ الناس . ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ ، وإظهار الخير ، ويقول له إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ، ولم يهتدوا إلى الحق ، ولا يزال يقرر ذلك عنده ، وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء ، وقبول الخلق ، ولذة الجاه ، والتعزز بكثرة الأتباع والعلم ، والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ، فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير ، وإنما قصده

---

(١) فاطر : ٦ (٢) يس : ٦٠

الجاه والقبول . فيهلك بسببه ، وهو يظن أنه عند الله بمكان ، وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِقَوْمٍ لاَخَلاَقَ لَهُمْ » « وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » [٢] ولذلك روى أن إبليس لعنه الله ، تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ، فقال له قل لا إله إلا الله ، فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك . لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء ، والعباد والزهاد ، والفقراء والأغنياء ، وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ، ولا يرضون لأنفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة . وسنذكر جملة من مكايد الشيطان فى كتاب الغرور ، فى آخر هذا الربع . ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص ، نسميه تلبيس إبليس . فإنه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد لاسيا فى المذاهب والاعتقادات ، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها ، كل ذلك إذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ، ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان. وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة ، لا بهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم . كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا[١]) أى رجعوا إلى نور العلم (فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [٢]) أى ينكشف لهم الإشكال . فأما من لم يرض نفسه بالتقوى ، فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى ، فيكثر فيه غلطه ، ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر . وفى مثلهم قال سبحانه وتعالى (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ[٣]) قيل هي أعمال ظنوها حسنات ، فإذا هي سيئات .

وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ، ومكايد الشيطان ، وذلك فرض عين على كل عبد ، وقد أهمله الخلق ، واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس ، وتسلط عليهم الشيطان ، وتنسيهم عداوته ، وطريق الاحتراز عنه . ولا ينجى من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر ،

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : ن من حديث أنس باسناد جيد

(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم

(١) و (٢) الاعراف : ٢٠١ (٣) الزمر : ٤٧

وأبوابها الحواس الخمس ، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا . والخلوة فى بيت مظلم تسد باب الحواس ، والتجرد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ، ويبقى مع ذلك مداخل باطنه فى التخيلات الجارية فى القلب ، وذلك لايدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى . ثم إنه لايزال يجاذب القلب وينازعه ، ويلهيه عن ذكر الله تعالى ، فلابد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت ، إذ لايتخلص أحد من الشيطان مادام حياً

نعم قد يقوى بحيث لاينقاد له ، ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة مادام الدم يجرى فى بدنه ، فإنه مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لاتنغلق ، وهى الشهوة والغضب ، والحسد والطمع ، والشره وغيرها ، كما سيأتى شرحها ومهما كان الباب مفتوحا ، والعدوّ غير غافل ، لم يدافع إلا بالحراسة والمجاهدة . قال رجل للحسن : يا أبا سعيد . أينام الشيطان ؟ فتبسم وقال ، لو نام لاسترحنا . فإذاً لا خلاص للمؤمن منه . نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوّته . قال صلى الله عليه وسلم[1] «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِى شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِى أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِى سَفَرِهِ» وقال ابن مسعود ، شيطان المؤمن مهزول ، وقال قيس بن الحجاج ، قال لى شيطانى ، دخلت فيك وأنا مثل الجزور ، وأنا الآن مثل العصفور . قلت ولم ذاك ؟ قال تذيبنى بذكر الله تعالى .

فأهل التقوى لايتعذر عليهم سد أبواب الشيطان ، وحفظها بالحراسة ، أعنى الأبواب الظاهرة ، والطرق الجلية التى تفضى إلى المعاصى الظاهرة . وإنما يتعثرون فى طرقه الغامضة فإنهم لايهتدون إليها فيحرسونها ، كما أشرنا إليه فى غرور العلماء والوعاظ . والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة ، وباب الملائكة باب واحد . وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة . فالعبد فيها كالمسافر الذى يبقى فى بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك ، فى ليلة مظلمة . فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة ، وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههنا هى القلب المصفى بالتقوى ، والشمس المشرقة هو العلم الغزير ، المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مما يهدى إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة

(١) حديث إن المؤمن ينضى شيطانه ـ الحديث : أحمد من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (١) خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال « هَذَا سَبِيلُ اللهِ » ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ، ثم قال « هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » ثم تلا (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ (١)) لتلك الخطوط فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه

وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه ، وهو الذى يخدع به العلماء ، والعباد المالكين لشهواتهم ، الكافين عن المعاصى الظاهرة . فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يخفى إلا أن يضطر الآدمي إلى سلوكه . وذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) « كَانَ رَاهِبٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَعَمَدَ الشَّيْطَانُ إِلَى جَارِيَةٍ فَخَنَقَهَا وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا أَنَّ دَوَاءَهَا عِنْدَ الرَّاهِبِ فَأَتَوْا بِهَا إِلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى قَبِلَهَا فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَهُ لِيُعَالِجَهَا أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَزَيَّنَ لَهُ مُقَارَبَتَهَا وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى وَاقَعَهَا فَحَمَلَتْ مِنْهُ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ وَقَالَ الْآنَ تَفْتَضِحُ يَأْتِيكَ أَهْلُهَا فَاقْتُلْهَا فَإِنْ سَأَلُوكَ فَقُلْ مَاتَتْ فَقَتَلَهَا وَدَفَنَهَا فَأَتَى الشَّيْطَانُ أَهْلَهَا فَوَسْوَسَ إِلَيْهِمْ وَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِمْ أَنَّهُ أَحْبَلَهَا ثُمَّ قَتَلَهَا وَدَفَنَهَا فَأَتَاهُ أَهْلُهَا فَسَأَلُوهُ عَنْهَا فَقَالَ مَاتَتْ فَأَخَذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ بِهَا فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ أَنَا الَّذِي خَنَقْتُهَا وَأَنَا الَّذِي أَلْقَيْتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا فَأَطِعْنِي تَنْجُ وَأُخَلِّصْكَ مِنْهُمْ قَالَ بِمَاذَا قَالَ اُسْجُدْ لِي سَجْدَتَيْنِ فَسَجَدَ لَهُ سَجْدَتَيْنِ فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ فَهُوَ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ » (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اُكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ (٢))

فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر . وكل ذلك لطاعته له فى قبول الجارية للمعالجة ، وهو أمر هين ، وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة ، فيحسن ذلك فى قلبه بخفى الهوى ، فيقدم عليه كالراغب فى الخير ، فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ،

---

(١) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال هذا سبيل الله ـ الحديث : ن فى الكبرى وك وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث كان راهب فى بنى اسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب ـ الحديث : بطوله فى تأويل قوله تعالى كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر . ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن مردويه فى تفسيره فى حديث عبيد بن أبى رفاعة مرسلا والحاكم نحوه موقوفا على علي بن أبى طالب وقال صحيح الأسناد ووصله بطين فى مسنده من حديث علي

---

(١) الانعام : ١٥٣ (٢) الحشر : ١٦

ويجره البعض إلى البعض ، بحيث لايجد محيصا . فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ »

بيان

تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثال القلب مثال حصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ، فيملكه ويستولى عليه . ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه . ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدرى أبوابه . فحماية القلب من وسواس الشيطان واجبة ، وهو فرض عين على كل عبد مكلف . وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب . ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله . فصارت معرفة مداخله واجبة . ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد ، وهى كثيرة ، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب ، التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان

فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة . فإن الغضب هو غول العقل ، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به ، كما يلعب الصبى بالكرة . فقد روى أن موسى عليه السلام ، لقيه ابليس ، فقال له ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما ، وأنا خلق من خلق الله أذنبت ، وأريد أن أتوب ، فاشفع لى إلى ربى أن يتوب علىّ ، فقال موسى نعم . فلما صعد موسى الجبل ، وكلم ربه عز وجل ، وأراد النزول ، قال له ربه أدّ الأمانة . فقال موسى يارب ، عبدك أبليس يريد أن تتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى ، ياموسى قد قضيت حاجتك ، مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه . فلقى موسى أبليس ، فقال له قد قضيت حاجتك ، أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك . فغضب واستكبر ، وقال لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ! ثم قال ياموسى إن لك علىّ حقا بما شفعت لى إلى ربك . فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن ، أذكرنى حين تغضب فإن روحى فى قلبك ، وعينى فى عينك ، وأجرى منك مجرى الدم أذكرنى

(١) حديث من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه لفظ خ

إذا غضبت ، فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه ، فما يدرى مايصنع . واذكرنى حين تلقى الزحف ، فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف ، فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم ، فإنى رسولها إليك ورسولك إليها ، فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك

فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص ، فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد ، وهو أعظم مداخله

وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس ، أرنى كيف تغلب ابن آدم ، فنال آخذه عند الغضب وعند الهوى . فقد حكى أن ابليس ظهر لراهب ، فقال له الراهب ، أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال الحدّة . فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . وقيل إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ، وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه !

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص . فمهما كان العبد حريصا على كل شيء ، أعماه حرصه وأصمه . إذ قال صلى الله عليه وسلم [1] « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ » ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان . فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر . فحينئذ يجد الشيطان فرصة ، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته ، وإن كان منكرا وفاحشا

فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة ، حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى . فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه ، فقال له نوح ، ما أدخلك ؟ فقال دخلت لأصيب قلوب أصحابك ، فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك . فقال له نوح أخرج منها ياعدو الله فإنك لعين . فقال له ابليس ، خمس أهلك بهن الناس ، وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين . فأوحى الله تعالى إلى نوح أنه لا حاجة لك بالثلاث ، فليحدثك بالاثنتين فقال له نوح ما الاثنتان ؟ فقال هما اللتان لا تكذبانى ، هما اللتان لا تخلفانى ، بهما أهلك الناس الحرص والحسد . فبالحسد لعنت ، وجعلت شيطانا رجيما . وأما الحرص ، فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتى منه بالحرص

---

(١) حديث حبك الشيء يعمى ويصم : أبوداود من حديث أبى الدرداء باسناد ضعيف

ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام ، وإن كان حلالا صافيا . فإن الشبع يقوى الشهوات ، والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأى عليه معاليق من كل شىء ، فقال له ياإبليس ، ماهذه المعاليق ؟ قال هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم . فقال فهل لى فيها من شىء ؟ قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر . قال فهل غير ذلك ؟ قال لا . قال لله علىّ أن لاأملأ بطنى من الطعام أبدا ، فقال له إبليس ، ولله علىّ أن لاأنصح مسلما أبدا

ويقال فى كثرة الأكل ست خصال مذمومة

أولها :أن يذهب خوف الله من قلبه الثانى : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه ، لأنه يظن أنهم كلهم شباع والثالث : أنه يثقل عن الطاعة والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لايجد له رقة والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لايقع فى قلوب الناس والسادس : أن يهيج فيه الأمراض

ومن أبوابه حب التزين من الأثاث والثياب والدار . فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان ، باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار ، وتزيين سقوفها وحيطانها ، وتوسيع أبنيتها ، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ، ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يؤديه من شىء إلى شىء إلى أن يساق إليه أجله فيموت ، وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى ، ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر . نعوذ بالله منه

ومن أبوابه العظيمة الطمع فى الناس ، لأنه إذا غلب الطمع على القلب ، لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه ، بأنواع الرياء والتلبيس ، حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده . فلا يزال يتفكر فى حيلة التودد والتحبب إليه ، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك ، وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه ، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

فقد روى صفوان بن سليم ، أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة ، فقال له ياابن حنظلة إحفظ عنى شيئا أعلمك به . فقال لاحاجة لى به ، قال انظر فإن كان خيرا أخذت ، وإن كان

شرا رددت . ياابن حنظلة ، لاتسأل أحـدا غير الله سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت : فإنى أملـكك إذا غضبت

ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك التثبت فى الأمور . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « الْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالتَّأَنِّي مِنَ اللهِ تَعَالَى » وقال عز وجل (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ [1]) وقال تعالى (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً [2]) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ [3]) وهذا لأن الأعمال ينبغى أن تكون بعد التبصرة والمعرفة والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك وعنـد الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لايدرى

فقد روى أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام، أتت الشياطين إبليس ، فقالوا أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها ، فقال هذا حادث قد حدث ، مكانـكم ، فطار حتى أتى خافقى الأرض ، فلم يجد شيئا ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد ، وإذا الملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال إن نبيا قد ولد البارحة ، ماحملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة

ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير ، وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار ، فإن كل مايزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان . فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق ، انبعث من قلبه عشر شهوات ، تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى ، فلا يكفيه ماوجد ، بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا . فالآن لما وجد مائة ، ظن أنه صار بها غنيا ، وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ، ليشترى دارا يعمرها ، وليشترى جارية ، وليشترى أثاث البيت ، ويشترى الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعى شيئا آخر يليق به ، وذلك لا آخر له ، فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم ، فلا آخر لها سواه

---

(١) حديث العجلة من الشيطان والتأنى من الله : ت من حديث سهل بن سعد بلفظ الاناة وقال حسن

(١) الانبياء : ٣٧ (٢) الاسراء : ١١ (٣) طه : ١١٤

قال ثابت البنانى ، (١) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابليس لشياطينه ، لقد حدث أمر ، فانظروا ما هو . فانطلقوا حتى أعيوا ، ثم جاؤا وقالوا ما ندرى ، قال أنا آتيكم بالخبر . فذهب ثم جاء وقال ، قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، قال فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فينصرفون خائبين ، ويقولون ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء ، نصيب منهم ، ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك . فقال ابليس، رويدا بهم ؛ عسى الله أن يفتح لهم الدنيا ، فنصيب منهم حاجتنا

وروى أن عيسى عليه السلام توسد يوما حجرا ، فمر به ابليس ، فقال ياعيسى رغبت فى الدنيا ! فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم ، فرمى به من تحت رأسه ؛ وقال هذا لك مع الدنيا . وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم ، فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلا للصلاة ، مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسده ، فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده ، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ، ولا تتحرك رغبته إلى النوم . هذا فى حجر . فكيف بمن يملك المخاد الميثرة ، والفرش الوطيئة ، والمنتزهات الطيبة ، فمتى ينشط لعبادة الله تعالى

ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر ، فإن ذلك هو الذى يمنع من الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم ، وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرءان العزيز ، قال خيثمة بن عبد الرحمن ، إن الشيطان يقول ، ما غلبنى ابن آدم غلبة فلن يغلبنى على ثلاث : أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، ومنعه من حقه . وقال سفيان ، ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر : فإذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق ، وتكلم بالهوى ، وظن بربه ظن السوء

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، والأسواق هى معشش

---

(١) حديث ثابت لما بعث صلى الله عليه وسلم قال ابليس لشياطينه لقد حدث أمر ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا

الشياطين. وقال أبو أمامة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [١] « إِنَّ أَبْلِيسَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ يَارَبِّ أَنْزَلْتَنِي إِلَى الْأَرْضِ وَجَعَلْتَنِي رَجِيماً فَاجْعَلْ لِي بَيْتاً قَالَ الْحَمَّامُ قَالَ أَجْعَلْ لِي مَجْلِساً قَالَ الْأَسْوَاقُ وَمَجَامِعُ الطُّرُقِ قَالَ أَجْعَلْ لِي طَعَاماً قَالَ طَعَامُكَ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ قَالَ اجْعَلْ لِي شَرَاباً قَالَ كُلُّ مُسْكِرٍ قَالَ أَجْعَلْ لِي مُؤَذِّناً قَالَ الْمَزَامِيرُ قَالَ أَجْعَلْ لِي قُرْآناً قَالَ الشِّعْرُ قَالَ أَجْعَلْ لِي كِتَاباً قَالَ الْوَشْمُ قَالَ أَجْعَلْ لِي حَدِيثاً قَالَ الْكَذِبُ قَالَ أَجْعَلْ لِي مَصَايِدَ قَالَ النِّسَاءُ »

ومن أبوابه العظيمة التعصب للمذاهب والأهواء ، والحقد على الخصوم ، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار . وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا . فإن الطعن في الناس ؛ والاشتغال بذكر نقصهم ، صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية . فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق ، وكان موافقا لطبعه ، غلبت حلاوته على قلبه ، فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور ، يظن أنه يسعى في الدين ، وهو ساع في اتباع الشياطين فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو آكل الحرام ، ومطلق اللسان بالفضول والكذب ، ومتعاط لأنواع الفساد ، ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له ، إذ موالي أبي بكر من أخذ سبيله ، وسار بسيرته ، وحفظ ما بين لحييه . وكان من سيرته رضي الله عنه ، أن يضع حصاة في فيه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه ، فأنى لهذا الفضولي أن يدعي ولاءه وحبه ، ولا يسير بسيرته

ونرى فضوليا آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه ، وكان من زهد علي وسيرته ، أنه لبس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم ، وقطع رأس الكمين إلى الرسغ ، ونرى الفاسق لابسا لثياب الحرير ، ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام ، وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه ، وهو أول خصمائه يوم القيامة

---

(١) حديث أبي أمامة ان إبليس لما نزل إلى الارض قال يارب أنزلتني إلى الارض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتا قال الحمام ـ الحديث : الطبراني في الكبير واسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس باسناد ضعيف أيضا

وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا الإنسان هو قرة عينه ، وحياة قلبه ، فأخذ يضربه ويمزقه ، وينتف شعره ويقطعه بالمقراض ، وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه ، فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، من الأهل والولد ، بل من أنفسهم . والمتشعبون لعاصين الشرع هم الذين يمزقون الشرع ، ويقطعونه بمقاريض الشهوات ، ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه . فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة ، وعند أولياء الله تعالى ! لا بل لو كشف الغطاء ، وعرف هؤلاء ما يحبه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ، ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محبا لأبي بكر وعمر ، فالنار لا تحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبا لعلي ، لم يكن عليه خوف ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] لفاطمة رضي الله عنها ، وهي بضعة منه[2] « إِعْمَلِي فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا » وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء

وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد ، وغيرهم من الأئمة . فكل من ادعى مذهب إمام ، وهو ليس يسير بسيرته ، فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة ، إذ يقول له : كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان ، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان ، فما بالك خالفتني في العمل والسيرة ، التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ، ثم ادعيت مذهبي كاذبا ، وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم ، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم ، وضعفت في الدين بصيرتهم ، وقويت في الدنيا رغبتهم ، واشتد على الاستتباع حرصهم ، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب ، فحبسوا ذلك في صدورهم ، ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته ، فاستمر الناس عليه ، ونسوا أمهات دينهم ، فقد هلكوا وأهلكوا ، فالله تعالى يتوب علينا وعليهم

---

(١) حديث فاطمة بضعة مني: متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة

(٢) حديث إني لا أغني عنك من الله شيئا. قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة

وقال الحسن : بلغنا أن إبليس قال : سوّلت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصى، فقصموا ظهرى بالاستغفار . فسوّلت لهم ذنوبا لايستغفرون الله تعالى منها ، وهى الأهواء . وقد صدق الملعون ، فإنهم لايعلمون أن ذلك من الأسباب التى تجر إلى المعاصى ، فكيف يستغفرون منها

ومن عظيم حيل الشيطان ، أن يشغل الإنسان عن نفسه ، بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومات . قال عبد الله بن مسعود : جلس قوم يذكرون الله تعالى ، فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ، ويفرق بينهم ، فلم يستطع . فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا ، فأفسد بينهم ، فقاموا يقتتلون ، وليس إياهم يريد ، فقام الذين يذكرون الله تعالى ، فاشتغلوا بهم ، يفصلون بينهم ، فتفرقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم

ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتجروا فيه ، على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته ، وفى أمور لا يبلغها حد عقولهم ، حتى يشككهم فى أصل الدين ، أو يخيل إليهم فى الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها ، يصير بها كافرا أو مبتدعا ، وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع فى صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة ، وانه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله . فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقل نفسه ، وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه ، وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَكَ ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ » والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث فى علاج هذا الوسواس ، فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء . وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ، ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ، ويتركوا العلم للعلماء . فالعامى لو يزنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم فى العلم . فإنه من تكلم فى الله وفى دينه من غير إتقان العلم ، وقع فى الكفر من حيث لايدرى . كمن يركب لجة البحر وهو لايعرف السباحة . ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد

---

(١) حديث عائشة ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله ـ الحديث : أحمد والبزار وأبو يعلى فى مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبى هريرة

والمذاهب لاتحصر ، وإنما أردنا بما أوردناه المثال

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين .. قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ[1]) فمن يحكم بشر على غيره بالظن ، بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك ، أو يقصر فى القيام بحقوقه ، أو يتوانى فى إكرامه ، وينظر إليه بعين الاحتقار ، ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات . ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم . فقال صلى الله عليه وسلم [1] « اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَمِ » حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك .

روى عن علي بن حسين [2] ، أن صفية بنت حي بن أخطب ، أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فى المسجد ، قالت فأتيته فتحدثت عنده ، فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى ، فمر به رجلان من الأنصار ، فسلما ثم انصرفا . فناداهما وقال « إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » فقالا يارسول الله مانظن بك إلا خيرا . فقال « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ الْجَسَدِ وَإِنِّى خَشِيتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكُمَا » فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما ، وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لايتساهل العالم الورع المعروف بالدين فى أحواله ، فيقول مثلى لايظن به إلا الخير إعجابا منه بنفسه . فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لاينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم ، وبعين السخط بعضهم . ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء ، وعن تهمة الأشرار ، فإن الأشرار لايظنون بالناس كلهم إلا الشر . فمهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب ، فاعلم أنه خبيث فى الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو . فإن المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العيوب . والمؤمن سليم الصدر فى حق كافة الخلق

---

(١) حديث اتقوا مواضع التهم : لم أجد له أصلا

(٢) حديث صفية بنت حي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتيته فتحدثت عنده ـ الحديث : وفيه ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم متفق عليه

---

(1) الحجرات : ١٢

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب . ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه . وفى هذا القدر ماينبه على غيره ، فليس فى الآدمى صفة مذمومة إلا وهى سلاح الشيطان ومدخل من مداخله

فإن قلت: فما العلاج فى دفع الشيطان ؟ وهل يكفى فى ذلك ذكر الله تعالى. وقول الإنسان لاحول ولا قوة إلا بالله ؟

فاعلم أن علاج القلب فى ذلك سد هذه المداخل ، بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة ، وذلك مما يطول ذكره . وغرضنا فى هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات ، وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ماسيأتى شرحه . نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات ، كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ، ولم يكن له استقرار ، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى ، لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى ، وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس، لاسلطان له على القلب ، فلا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[1]) خصص بذلك المتقى : فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم ، فإنه ينزجر بأن تقول له اخسأ ، فمجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع ، فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام . فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر . فأما الشهوة إذا غلبت على القلب ، دفعت حقيقة الذكر إلى حواشى القلب ، فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان فى سويداء القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة ، فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات ، بل لخلوها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان . ودليل ذلك قوله تعالى (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[2]) وسائر الأخبار والآيات الواردة فى الذكر

قال أبو هريرة ، التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر . فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار . فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن

(١) الاعراف : ٢٠١ (٢) النحل : ٩٨

مالك مهزول ؟ قال أنا مع رجل إذا أكل سمى الله ، فأظل جائعا . وإذا شرب سمى الله، فأظل عطشانا . وإذا لبس سمى الله ، فأظل عريانا . وإذا ادهن سمى الله ، فأظل شعثا . فقال لكني مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك ، فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه

وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح ، اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا ، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم. اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك ، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك ؛ إنك على كل شيء قدير . قال فتمثل له ابليس يوما في طريق المسجد ، فقال له يا ابن واسع ، هل تعرفني؟ قال ومن أنت ؟ قال أنا إبليس . فقال وما تريد ؟ قال أريد أن لا تعلم أحدا هذه الاستعاذة ، ولا أتعرض لك ، قال والله لا أمنعها ممن أرادها ، فاصنع ما شئت

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال [١] : كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ، فيقوم بين يديه وهو يصلي ، فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب . فأتاه جبرائيل عليه السلام ، فقال له « قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ ، مِنْ شَرِّ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمٰنُ » فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه

وقال الحسن [٢] نبئت أن جبرائيل عليه السلام ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتا من الجن يكيدك ، فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي . وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى كان الشيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ـ الحديث: ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين فذكر نحوه

(٢) حديث الحسن نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان عفريتا من الجن يكيدك ـ الحديث: ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلا

(١) « لَقَدْ أَتَانِي الشَّيْطَانُ فَنَازَعَنِي ثُمَّ نَازَعَنِي فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَرْسَلْتُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ مَاءِ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي وَلَوْلَا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَصْبَحَ طَرِيحًا فِي الْمَسْجِدِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجًّا إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَ الَّذِي سَلَكَهُ عُمَرُ » وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته ، وهى الشهوات

فمهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر ، كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا ، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء ، والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ويطمع أن ينفعه ، كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة . والذكر الدواء ، والتقوى احتماء ، وهى تخلى القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر ، اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (١)) وقال تعالى (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢)) ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه ، وإن ذكر الله بلسانه

وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان ، (٣) ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين ، فانظر إلى نفسك ، فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة ، فراقب قلبك إذا كنت فى صلاتك ، كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق ، وحساب العاملين ، وجواب المعاندين ، وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها ، حتى أنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا فى صلاتك ،

---

(١) حديث أتانى شيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه ـ الحديث ابن أبى الدنيا من رواية الشعبى مرسلا هكذا وللبخارى من حديث أبى هريرة ان عفريتا من الجن تفلت على البارحة أو كلمة نحوها ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه ـ الحديث و ن فى الكبرى من حديث عائشة كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدى ـ الحديث : واسناده جيد

(٢) حديث ماسلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجه : متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ يا ابن الخطاب مالقيك الشيطان سالكا فجا

(٣) الحديث الوارد بأن الذكر ياعمر يطرد الشيطان : تقدم

---

(١) ق : ٣٧ (٢) الحج : ٤

ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت . فالصلاة محك القلوب ، فيها يظهر محاسنها ومساويها . فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا ، فلاجرم لا ينطرد عنك الشيطان ، بل ربما يزيد عليك الوسواس ، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر . فإن أردت الخلاص من الشيطان ، فقدم الاحتماء بالتقوى ، ثم أردفه بدواء الذكر ، يفر الشيطان منك ، كما فر من عمر رضى الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية ، وأنت صديقه فى السر . أى أنت مطيع له . وقال بعضهم ياعجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه . وكما أن الله تعالى قال (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ [(١)]) وأنت تدعوه ولا يستجيب لك ، فكذلك تذكرُ الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء

قيل لإبراهيم بن أدهم: مابالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ وقد قال تعالى (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ [(٢)]) قال لأن قلوبكم ميتة . قيل وما الذى أماتها ؟ قال ثمان خصال : عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرءان ولم تعملوا بحدوده ، وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا [(٣)]) فواطأتموه على المعاصى ، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم ، فأسخطتم ربكم ، فكيف يستجيب لكم

فإن قلت: فالداعى إلى المعاصى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟

فاعلم أنه لاحاجة لك إلى معرفة ذلك فى المعاملة . فاشتغل بدفع العدو ، ولا تسأل عن صفته. كل البقل من حيث يؤتى ، ولا تسأل عن المبقلة. ولكن الذى يتضح بنور الاستبصار فى شواهد الأخبار أنهم جنود مجندة ، وأن لكل نوع من المعاصى شيطانا يخصه ويدعو إليه . فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ، ويكفيك القدر الذى ذكرناه ، وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب ، كما ذكرناه فى نور النار وسواد الدخان

(١) و (٢) غافر: ٦٠ (٣) فاطر : ٦

وأما الأخبار فقد قال مجاهد : لأبليس خمسة من الأولاد ، قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ، ثبر ، والأعور ، ومبسوط ، وداسم ، وزلنبور . فأما ثبر ، فهو صاحب المصائب ، الذي يأمر بالثبور ،وشق الجيوب، ولطم الخدود ،ودعوى الجاهلية. وأما الأعور فإنه صاحب الزنا ، يأمر به ويزينه . وأما مبسوط ، فهو صاحب الكذب . وأماداسم ،فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله ، يرميهم بالعيب عنده، ويغضبه عليهم . وأمازلنبور ،فهو صاحب السوق ،فبسببه لايزالون متظلمين ،[1] وشيطان الصلاة يسمى خنزب ،[2] وشيطان الوضوء يسمى الولهان . وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة

وكما أن الشياطين فيهم كثرة ، فكذلك في الملائكة كثرة. وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة ، واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به . وقد قال أبو أمامة الباهلي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « وُكِّلَ بِالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسِتُّونَ مَلَكاً يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، مِنْ ذَلِكَ لِلْبَصَرِ سَبْعَةُ أَمْلَاكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يُذَبُّ الذُّبَابُ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ وَمَا لَوْ بَدَا لَكُمْ لَرَأَيْتُمُوهُ عَلَى كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ كُلٌّ بَاسِطٌ يَدَهُ فَاغِرٌ فَاهُ وَلَوْ وُكِلَ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ »

وقال أيوب بن يونس بن يزيد ،بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ، ثم ينشأون معهم . وروى جابر بن عبد الله ، أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال يارب ، هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة ، إن لم تعني عليه لاأقوى عليه . قال لايولد لك ولد إلا وكل به ملك . قال يارب زدني . قال أجزي بالسيئة سيئة ، وبالحسنة عشرا إلى ماأريد .قال رب زدني . قال باب التوبة مفتوح ، مادام في الجسد الروح . قال إبليس ، يارب هذا العبد الذي كرمته علي ، أن لاتعني عليه لاأقوى عليه . قال لايولد له ولد إلا ولد لك ولد . قال يارب زدني ، قال تجري منهم مجرى الدم ، وتتخذون صدورهم بيوتا . قال رب زدني ، قال، أجلب عليهم بخيلك ورجلك ، إلى قوله غرورا .

---

(١) حديث ان شيطان الصلاة يسمى خنزب :م من حديث عثمان بن أبي العاص وقد تقدم أول الحديث

(٢) حديث ان شيطان الوضوء يسمى الولهان : تقدم وهو عند ت من حديث أبي

(٣) حديث أبي أمامة وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وطب في المعجم الكبير باسناد ضعيف

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] « خَلَقَ اللهُ الْجِنَّ ثَلاَثَةَ أَصْنَافٍ ، صِنْفٌ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ وَخَشَاشُ الْأَرْضِ وَصِنْفٌ كَالرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ وَصِنْفٌ عَلَيْهِمُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ . وَخَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْإِنْسَ ثَلاَثَةَ أَصْنَافٍ ، صِنْفٌ كَالْبَهَائِمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ[(١)]) وَصِنْفٌ أَجْسَامُهُمْ أَجْسَامُ بَنِي آدَمَ وَأَرْوَاحُهُمْ أَرْوَاحُ الشَّيَاطِينِ وَصِنْفٌ فِي ظِلِّ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ »

وقال وهيب بن الورد بلغنا أن إبليس تمثل ليحيي بن زكريا عليهما السلام، وقال إني أريد أن أنصحك قال لاحاجة لي في نصحك ، ولكن أخبرني عن بني آدم . قال هم عندنا ثلاثة أصناف ، أما صنف منهم، وهم أشد الأصناف علينا ، نقبل على أحدهم حتى نفتنه و نتمكن منه ، فيفزع إلى الاستغفار والتوبة ، فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه . ثم نعود عليه، فيعود ، فلا نحن نيأس منه ، ولا نحن ندرك منه حاجتنا . فنحن منه في عناء . وأما الصنف الآخر ، فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم ، نقلبهم كيف شئنا . قد كفونا أنفسهم . وأما الصنف الثالث ، فهم مثلك معصومون ، لا نقدر منهم على شيء

فإن قلت : فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض ؟ وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يتمثل له به ؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصورة مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين ؟ حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين

فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان ، هي حقيقة صورتهما . ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة .[٢] فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه أفضل الصلاة والسلام في صورته إلا مرتين ، وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته ، فواعده بالبقيع

---

(١) حديث أبي الدرداء خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وحب في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه و ك نحوه مختصرا في الجن فقط ثلاثة أصناف من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم مارأى جبريل في صورته إلا مرتين : الشيخان من حديث عائشة وسئلت هل رأى محمد ربه وفيه ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين

---

(١) الاعراف ١٧٩

وظهر له بحراء ، فسد الأفق من المشرق إلى المغرب . ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج ، عند سدرة المنتهى . وإنما كان يراه فى صورة الآدمى غالبا.[٤] فكان يراه فى صورة دحية الكلبى ،[٥] وكان رجلا حسن الوجه . والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته، فيتمثل الشيطان له فى اليقظة ، فيراه بعينه ، ويسمع كلامه بأذنه ، فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته . كما ينكشف فى المنام لأكثر الصالحين . وإنما المكاشف فى اليقظة، هو الذى انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التى تكون فى المنام ، فيرى فى اليقظة ما يراه غيره فى المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى فى النوم جسد رجل شبه البلور ، يرى داخله من خارجه ، ورأى الشيطان فى صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر ، بين منكبه وأذنه ، له خرطوم دقيق ، قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه . فإذا ذكر الله تعالى خنس

ومثل هذا قد يشاهد بعينه فى اليقظة . فقد رآه بعض المكاشفين فى صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدنيا . وهذا يجرى مجرى مشاهدة صورته الحقيقية ، فإن القلب لابد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذى يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذى يقابل عالم الملك والشهادة ، لأن أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان ، وجه إلى عالم الغيب ، وهو مدخل الإلهام والوحى ، ووجه إلى عالم الشهادة . فالذى يظهر منه فى الوجه الذى يلى جانب عالم الشهادة ، لايكون إلا صورة متخيلة ، لأن عالم الشهادة كله متخيلات ، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس ، فيجوز أن لاتكون الصورة على وفق المعنى ، حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن ، قبيح السر ، لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس . أما الصورة

---

(١) حديث انه كان يرى جبريل فى صورة الآدمى غالبا: الشيخان من حديث عائشة وسئلت فأين قوله فدنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه فى صورة الرجل ــ الحديث

(٢) حديث انه كان يرى جبريل فى صورة دحية الكلبى : الشيخان من حديث اسامة بن زيد ان جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبى صلى الله عليه وسلم لأم سلمة من هذا قالت دحية ــ الحديث :

التى تحصل فى الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب ، فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها ، لأن الصورة فى عالم الملكوت تابعة للصفة وموافقة لها . فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة . فيرى الشيطان فى صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها، ويرى الملك فى صورة جميلة ، فتكون تلك الصورة عنوان المعانى، ومحاكية لهـا بالصدق . ولذلك يدل القرد والخنزير فى النوم على إنسان خبيث ، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر

وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير . وهذه أسرار عجيبة ، وهى من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة ، وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب ، ، وكذلك الملك ، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك فى النوم ، وتارة بطريق الحقيقة . والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى ، هو مثال المعنى، لا عين المعنى إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة ، وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم

بيان

ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض . وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة ، يلتبس طريق الجمع بينها ، إلا على سماسرة العلماء بالشرع . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « عُفِىَ عَنْ أُمَّتِى مَا حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسَهَا مَالَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْحَفَظَةِ إِذَا هَمَّ عَبْدِى بِسَيِّئَةٍ فَلاَ تَكْتُبُوهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ لَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا » وقد خرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين . وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة . وفى لفظ آخر ، «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ »

---

(١) حديث عفى لأمتى عما حدثت به نفوسها : متفق عليه من حديث أبى هريرة ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ـ الحديث

(٢) حديث أبى هريرة يقول الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ـ الحديث : قال المصنف أخرجه م خ فى الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم ولهذا والله أعلم قدمه فى الذكر

وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ » وفى لفظ آخر ، « وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا » وكل ذلك يدل على العفو

فأما مايدل على المؤاخذة ، فقوله سبحانه (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ [١]) وقوله تعالى (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [٢]) فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه . وقوله تعالى (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ [٣]) وقوله تعالى (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ [٤])

والحق عندنا فى هذه المسألة لا يوقف عليه ، مالم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب ، من مبدأ ظهورها ، إلى أن يظهر العمل على الجوارح فنقول

أول ما يرد على القلب الخاطر . كما لو خطر له مثلا صورة امرأة ، وأنها وراء ظهره فى الطريق ، لو التفت إليها لرآها

والثانى : هيجان الرغبة إلى النظر . وهو حركة الشهوة التى فى الطبع . وهذا يتولد من الخاطر الأول . ونسميه ميل الطبع ، ويسمى الأول حديث النفس

والثالث : حكم القلب بأن هذا ينبغى أن يفعل . أى ينبغى أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال ، لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات . وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل . وهو على كل حال حكم من جهة العقل . ويسمى هذا اعتقادا ، وهو يتبع الخاطر والميل

الرابع : تصميم العزم على الالتفات ، وجزم النية فيه . وهذا نسميه هماً بالفعل ، ونية وقصدا . وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف . ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس ، تأكد هذا الهم ، وصار إرادة مجزومة . فإذا انجزمت الإرادة

---

(١) البقرة : ٢٨٤ (٢) الاسراء : ٣٦ (٣) البقرة : ٢٨٣ (٤) المائدة : ٨٩

فربما يندم بعد الجزم ، فيترك العمل . وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه . وربما يعوقه عائق ، فيتعذر عليه العمل

فهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة . الخاطر ، وهو حديث النفس . ثم الميل ثم الاعتقاد ، ثم الهم ، فنقول

أما الخاطر فلا يؤاخذ به ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار . وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار ، وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم « عُفِيَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نُفُوسَهَا » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ، ولا يتبعها عزم على الفعل . فأما الهم والعزم ، فلا يسمى حديث النفس . بل حديث النفس كما روي عن عثمان بن مظعون ، حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم [1] يارسول الله ، نفسي تحدثني أن أطلق خولة . قال « مَهْلاً إِنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ » قال نفسي تحدثني أن أجب نفسي قال « مَهْلاً خِصَاءُ أُمَّتِي دُءُوبُ الصِّيَامِ » قال نفسي تحدثني أن أترهب . قال « مَهْلاً وَرَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ وَالْحَجُّ » وقال نفسي تحدثني أن أترك اللحم . قال « مَهْلاً فَإِنِّي أُحِبُّهُ

---

(١) حديث ان عثمان بن مظعون قال يارسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال مهلا أن من سنتي النكاح ـ الحديث : ت الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمري كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وللدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياعثمان أني لم أومر بالرهبانية ـ الحديث : وفيه من رغب عن سنتي فليس مني وهو عند م بلفظ رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان ابن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا وللبغوي والطبراني في معجمي الصحابة باسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون أنه قال يارسول الله اني رجل تشق على هذه العزوبة في المغازي فتأذن لي يارسول الله في الخصاء فأختصي قال لا ولكن عليك ياابن مظعون بالصيام فانه مجفرة ولأحمد والطبراني باسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو خصاء أمتي الصيام والقيام وله من حديث سعيد بن العاص باسناد فيه ضعف ان عثمان بن مظعون قال يارسول الله ائذن لي في الاختصاء فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف ـ الحديث : وهـ بسند ضعيف من حديث عائشة النكاح من سنتي ولأحمد ولأبي يعلى من حديث أنس لكل نبي وقال أبو يعلى لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله وفيه زيد العمي وهو ضعيف ولأبي داود من حديث أبي أمامة ان سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله وإسناده جيد

وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُهُ وَلَوْ سَأَلْتُ اللهَ لَأَطْعَمَنِيهِ » فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل ، هي حديث النفس . ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل .

وأما الثالث وهو الاعتقاد ، وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل ، فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا . والأحوال تختلف فيه . فالاختياري منه يؤاخذ به ، والاضطراري لا يؤاخذ به

وأما الرابع ، وهو الهم بالفعل ، فإنه مؤاخذ به . إلا أنه إن لم يفعل نظر ، فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى ، وندما على همه ، كتبت له حسنة . لأن همه سيئة ، وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة . والهم على وفق الطبع ، مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى ، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع ، يحتاج إلى قوة عظيمة . فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع . فكتب له حسنة ، لأنه رجح جده في الامتناع وهمه به ، على همه بالفعل . وإن تعوق الفعل بعائق ، أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى ، كتبت عليه سيئة . فإن همه فعل من القلب اختياري . والدليل على هذا التفصيل ، ما روى في الصحيح مفصلا في لفظ الحديث . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً ، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ ، فَقَالَ ارْقُبُوهُ فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي » وحيث قال فإن لم يعملها ، أراد به تركها لله . فأما إذا عزم على فاحشة ، فتعذرت عليه بسبب أو غفلة ، فكيف تكتب له حسنة ! وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّمَا يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ » ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما أو يزني بامرأة ، فمات تلك الليلة ، مات مصرا ، ويحشر على نيته ، وقد هم بسيئة ولم يعملها

---

(١) حديث قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر ـ الحديث قال المصنف انه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث انما يحشر الناس على نياتهم : هـ من حديث جابر دون قوله إنما وله من حديث أبي هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم واسناده حسن و م من حديث عائشة يبعثهم الله على نياتهم وله من حديث أم سلمة يبعثون على نياتهم

والدليل القاطع فيه ، ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال[١] « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » فقيل يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « لِأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » وهـذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار ، مع أنه قتل مظلوما . فكيف يظن أن الله لايؤاخذ بالنية والهم ! بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به ، إلا أن يكفره بحسنة . ونقضُ العزم بالندم حسنة . فلذلك كتبت له حسنة فأما فوت المراد بعائق ، فليس بحسنة

وأما الخواطر وحـديث النفس وهيجان الرغبة ، فـكل ذلك لايدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف مالايطاق . ولذلك لما نزل قوله تعالى (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ[١]) جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا[٢] كلفنا مالانطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لايحب أن يثبت في قلبه ، ثم يحاسب بذلك . فقال صلى الله عليه وسلم « لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » فقالوا سمعنا وأطعنا . فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[٢]) فظهر به أن كل مالايدخل تحت الوسع من أعمال القلب ، هو الذي لايؤاخذ به . فهذا هو كشف الغطاء عن هـذا الالتباس . وكل من يظن أن كل مايجرى على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة ، فلا بد وأن يغلط . وكيف لايؤ خذ أعمال القلب من الـكبر والعجب ، والرياء ، النفاق والحسد ، وجملة الخبائث من أعمـال القلب ! بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا أى مايدخل تحت الاختيار . فلو وقع البصر بغير اختيار على غـير ذى محرم ، لم يؤاخذ به . فإن أتبعها نظرة ثانية ، كان مؤاخذا به . لأنه مختار . فكذا خواطر القلب تجرى هذا المجرى : بل القلب

---

(١) حديث إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي بكرة

(٢) حديث لما نزل قوله تعالى وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا ما لانطيق ـــ الحديث : م.س حديث أبي هريرة وابن عتبة

(١) البقرة : ٢٨٤ (٢) البقرة : ٢٨٦

أولى بمؤاخذته لأنه الأصل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) « التَّقوَى هٰهُنَا » وأشار إلى القلب. وقال الله تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَـكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُم(١)) وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « الإِثْمُ حَوَّازُ القُلُوبِ » وقال (٣) « البِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » حتى انا نقول ، إذا حكم القلب المفتي بإيجاب شيء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه . بل من قد ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلي ، فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ ، كان له ثواب بفعله . فإن تذكر ثم تركه ، كان معاقبا عليه . ومن وجد على فراشه امرأة ، فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية . ثم وطئها ، عصى بوطئها ، وإن كانت زوجته . وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح

بيان

أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب ، الناظرين في صفاتها وعجائبها ، اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق

فقالت فرقة : الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل ، لأنه عليه السلام قال (٤) « فَإِذَا ذُكِرَ اللهُ خَنَسَ » والخنس هو السكوت ، فكأنه يسكت .

وقالت فرقة : لا ينعدم أصله ، ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر ، لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر ، كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة ، كالمشغول بهمه ، فإنه قد يكلم ولا يفهم ، وإن كان الصوت يمر على سمعه .

---

(١) حديث التقوى ههنا وأشار الى القلب: م من حديث أبي هريرة وقال الى صدره
(٢) حديث الاثم حواز القلوب : تقدم في العلم
(٣) حديث البر ما اطمأن اليه القلب وان أفتوك وأفتوك : الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه وان أفتاك الناس وأفتوك وقد تقدما
(٤) حديث وإذا ذكر الله خنس: ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ـ الحديث ؛ وقد تقدم قريبا

---

(١) الحج : ٣٧

وقالت فرقة: لاتسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا، ولكن تسقط غلبتها للقلب، فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف.

وقالت فرقة: ينعدم عند الذكر فى لحظة، وينعدم الذكر فى لحظة، ويتعاقبان فى أزمنة متقاربة، يظن لتقاربها أنها متساوقة. وهى كالكرة التى عليها نقط متفرقة، فإنك إذا أدرتها بسرعة، رأيت النقط دوائر، بسرعة تواصلها بالحركة. واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد، ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر، ولا وجه له إلا هذا

وقالت فرقة: الوسوسة والذكر يتساوقان فى الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع. وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين فى حالة واحدة، فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَا مِنْ عَبْدٍ إلاَّ وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ عَيْنَانِ فِى رَأْسِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دُنْيَاهُ وَعَيْنَانِ فِى قَلْبِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ » وإلى هذا ذهب المحاسبي.

والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة، ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس. وإنما نظر كل واحد منهم. إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه، والوسواس أصناف

الاول: أن يكون من جهة التلبيس بالحق. فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التنعم باللذات، فإن العمر طويل؛ والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم. فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى، وعظيم ثوابه وعقابه، وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد، ولكن الصبر على النار أشد منه، ولا بد من أحدهما. فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده، وجدد إيمانه ويقينه، خنس الشيطان وهرب. إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصى. ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضى إلى النار فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك، فينقطع وسواسه. وكذلك يوسوس اليه بالعجب بعمله، فيقول أى عبد يعرف الله كما تعرفه؟ ويعبده كما تعبده؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى! فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التى بها عمله وعلمه،

(١) حديث مامن عبد إلا وله أربعة أعين عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ الآخرة مكان دينه وفيه الحسين ابن أحمد بن محمد الهروى الشماخي الحافظ كذبه ك والآفة منه

كل ذلك من خلق الله تعالى . فمن أين يعجب به ! فيخنس الشيطان . إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله . فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ، ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة

الصنف الثاني: أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها . وهذا ينقسم إلى مايعلم العبد يقينا أنه معصية ، وإلى مايظنه بغالب الظن . فإن علمه يقينا ، خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة ، ولم يخنس عن التهييج . وإن كان مظنونا ، فربما يبقى مؤثرا ، بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه ، فتكون الوسوسة موجودة ، ولكنها مدفوعة غير غالبة

الصنف الثالث: أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر ، وتذكر الأحوال الغالبة ، والتفكر في غير الصلاة مثلا . فإذا أقبل على الذكر ، تصور أن يندفع ساعة ويعود ، ويندفع ويعود فيتعاقب الذكر والوسوسة ، ويتصور أن يتساوقا جميعا ، حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة ، وعلى تلك الخواطر ، كأنهما في موضعين من القلب . وبعيد جدا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر . ولكنه ليس محالا . إذ قال عليه السلام [1] « مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثْ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » فلولا أنه متصور لما ذكره . إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب ، حتى صار كالمستهتر . فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به ، قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه ، بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه . كذلك المستغرق في الحب ، قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ، ويغوص في فكره ، بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه . ولو كلمه غيره لم يسمع . ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه . وإذا تصور هذا في خوف من عدو ، وعند الحرص على مال وجاه ، فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ! ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر

وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس ، علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجها ، ولكن في محل مخصوص

---

(١) حديث من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا: تقدم في الصلاة

وبالجملة فالخلاص من الشيطان فى لحظة أو ساعة غير بعيد . ولكن الخلاص منه عمراً طويلا بعيد جداً ، ومحال فى الوجود . ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة ، لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى [١] أنه نظر إلى علم ثوبه فى الصلاة ، فلما سلم رمى بذلك الثوب ، وقال « شَغَلَنِي عَنِ الصَّلَاةِ » وقال « اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ » [٢] وكان فى يده خاتم من ذهب ، فنظر إليه وهو على المنبر ، ثم رمى به وقال « نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ » وكان ذلك لوسوسة الشيطان ، بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب . وكان ذلك قبل تحريم الذهب . فلذلك لبسه ثم رمى به . فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمي والمفارقة . فما دام يملك شيئا وراء حاجته ، ولو ديناراً واحداً ، لا يدعه الشيطان فى صلاته من الوسوسة فى الفكر فى ديناره ، وأنه كيف يحفظه ، وفيماذا ينفقه ، وكيف يخفيه حتى لايعلم به أحد ، أو كيف يظهره حتى يتباهى به ، إلى غير ذلك من الوساوس . فمن أنشب مخالبه فى الدنيا وطمع فى أن يتخلص من الشيطان ، كان كمن انغمس فى العسل ، وظن أن الذباب لايقع عليه ، فهو محال . فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد ، بل أبواب كثيرة ..

قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة ، حتى يلقيه فى بدعة . فإن أبى أمره بالتحرج والشدة ، حتى يحرم ماليس بحرام . فإن أبى شككه فى وضوئه وصلاته ، حتى يخرجه عن العلم . فإن أبى خفف عليه أعمال البر ، حتى يراه الناس صابراً عفيفا ، فتميل قلوبهم إليه ، فيعجب بنفسه ، وبه يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة ، فإنها آخر درجة ، ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم فى ثوبه فى الصلاة ـ الحديث : تقدم فيه

(٢) حديث كان فى يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المنبر فرماه فقال نظرة إليه ونظرة اليكم : ن من حديث ابن عباس وتقدم فى الصلاة

بيان

سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب فى التغير والثبات

اعلم أن القلب كما ذكرناه ، تكتنفه الصفات التي ذكرناها ، وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها ، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإذا أصابه شيء يتأثر به ، أصابه من جانب آخر ما يضاده ، فتتغير صفته . فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى ، نزل به الملك وصرفه عنه . وإن جذبه شيطان إلى شر ، جذبه شيطان آخر إلى غيره . وإن جذبه ملك إلى خير ، جذبه آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان . لا يكون قط مهملا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ [1]) ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى ، فى عجائب القلب وتقلبه ، كان يحلف به فيقول [1] « لاَ وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ » وكان كثيرا ما يقول [2] « يَامُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » وقالوا أو تخاف يارسول الله! قال « وَمَا يُؤَمِّنُنِي وَالْقَلْبُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ » وفى لفظ آخر « إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ » وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة فقال [3] « مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الْعُصْفُورِ يَتَقَلَّبُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ » وقال عليه السلام

---

(١) حديث لاومقلب القلوب : خ من حديث ابن عمر

(٢) حديث يامثبت القلوب ثبت قلبي على دينك ـ الحديث: ت من حديث أنس وحسنه وك من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط م ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ون فى الكبرى ه ك وصححه على شرط خ م من حديث النواس ابن سمعان مامن قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه وان شاء أزاغه ون فى الكبرى باسناد جيد نحوه من حديث عائشة

(٣) حديث مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة: ك فى المستدرك وقال صحيح على شرط م والبيهقي فى الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجراح . قلت رواه البغوى فى معجمه من حديث أبي عبيده غير منسوب وقال لاأدرى له صحبة أم لا

---

(١) الانعام : ١١٠

(١) « مَثَلُ الْقَلْبِ فِي تَقَلُّبِهِ كَالْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا » وقال (٢) « مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ » وهذه التقلبات ، وعجائب صنع الله تعالى في تقليبها من حيث لا تهتدى إليه المعرفة ، لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى

والقلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة

قلب عمر بالتقوى ، وزكا بالرياضة ، وطهر عن خبائث الأخلاق ، تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت ، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ، ليعرف دقائق الخير فيه ، ويطلع على أسرار فوائده ، فينكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لا بد من فعله ، فيستحثه عليه ، ويدعوه إلى العمل به . وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا فى جوهره ، طاهرا بتقواه ، مستنيرا بضياء العقل ، معمورا بأنوار المعرفة ، فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا ، فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ، ويهديه إلى خيرات أخرى ، حتى ينجر الخير إلى الخير ، وكذلك على الدوام . ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير ، وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (١)) وفى مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية ، حتى لا يخفى فيه الشرك الخفى ، الذى هو أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء فلا يخفى على هذا النور خافية ، ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان . بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غرورا ، فلا يلتفت إليه . وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات ، يصير على القرب معمورا بالمنجيات التى سنذكرها ، من الشكر ، والصبر : والخوف ، والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والمحبة ، والرضا ، والشوق ، والتوكل ، والتفكر ، والمحاسبة ، وغير ذلك . وهو القلب الذى أقبل الله عز وجل بوجهه عليه ، وهو القلب المطمئن ، المراد بقوله تعالى (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢)) وبقوله عز وجل (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٣))

---

(١) حديث مثل القلب فى تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا : أحمد وك وقال صحيح على شرط خ من حديث المقداد بن الأسود

(٢) حديث مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من حديث أبى موسى الأشعرى باسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس باسناد ضعيف

(١) الليل : ٥ (٢) الرعد : ٢٨ (٣) الفجر : ٢٧

القلب الثاني : القلب المخذول المشحون بالهوى ، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشر فيه ، أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه ، فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتي منه ، ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به ، واستمر على استنباط الحيل له ، وعلى مساعدة الهوى ، فتستولى النفس وتساعد عليه ، فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته ، لانحباس جند العقل عن مدافعته ، فيقوى سلطان الشيطان ، لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى ، فيقبل عليه بالتزين والغرور والأماني ، ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا . فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة ، إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه ، حتى تنطفىء أنواره فيصير العقل كالعين التي ملأ الدخان أجفانها ، فلا يقدر على أن ينظر . وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب ، حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ماهو الحق فيه ، عمى عن الفهم ، وصم عن السمع ، وهاجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى ، فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب ، بقضاء من الله تعالى وقدره ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً [1]) وبقوله عز وجل (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ [2]) وبقوله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ [3]) .

ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات . كالذي يتورع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه ، وطاش عقله ، وسقط مساك قلبه . أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ، ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب ، مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه . أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار ، بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر

(١) الفرقان : ٤٣ و ٤٤ (٢) يس : ٧ (٣) البقرة : ٦

فينسى فيه المروءة والتقوى . فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب، حتى يظلم وتنطفىء منه أنواره ، فينطفىء نور الحياء والمروءة والإيمان ،ويسعى فى تحصيل مراد الشيطان

القلب الثالث : قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر ، فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر، فتقوى الشهوة وتحسّن التمتع والتنعم ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ، ويدفع فى وجه الشهوة ، ويقبح فعلها ، وينسبها إلى الجهل : ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر ،وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل .فيحمل الشيطان حملة على العقل ،فيقوى داعى الهوى ،ويقول ماهذا التحرج البارد ؟ ولم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك ؟وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه ، أو يترك غرضه ؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها ؟ وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا ، يضحك عليك أهل الزمان ؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان ؟ وقد فعلوا مثل مااشتهيت ، ولم يمتنعوا ؟ أما ترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ؟ ولو كان ذلك شرا لامتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان ، وتنقلب إليه فيحمل الملك حملة على الشيطان ، ويقول : هل هلك إلا من اتبع لذة الحال : ونسى العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة ؟ وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد ؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهواتك؟ ولا تستثقل ألم النار ؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم ؟ واتباعهم هواهم ؟ومساعدتهم الشيطان؟ مع أن عذاب النار لايخففه عنك معصية غيرك . أرأيت لو كنت فى يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم فى الشمس ، وكان لك بيت بارد ، أكنت تساعد الناس ؟ أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس، ولا تخالفهم خوفا من حر النار ؟ فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك . فلا يزال يتردد بين الجندين ، متجاذبا بين الحزبين . إلى أن يغلب على القلب ماهو أولى به

فإن كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التى ذكرناها، غلب الشيطان ، ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان ،معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه ، وجرى على جوارحه بسابق القدر ماهو سبب بعده

عن الله تعالى. وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية ، لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة ، وتهوينه أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ، أي بين تجاذب هذين الجندين ، وهو الغالب ، أعنى التقلب ، والانتقال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة ، أو مع حزب الشيطان ، فنادر من الجانبين ، وهذه الطاعات والمعاصى ، تظهر من خزائن الغيب ، إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب ، فإنه من خزائن الملكوت ، وهى أيضا إذا ظهرت كانت علامات ، تعرف أرباب القلوب ، سابق القضاء ، فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ، ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصى ، وسلط عليه أقران السوء ، وألقى فى قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يغر الحمق ، بقوله إن الله رحيم ، فلا تبال ، وإن الناس كلهم مايخافون الله فلا تخالفهم ، وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا يعدهم التوبة ، ويمنيهم المغفرة ، فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل ، وما يجرى مجراها ، فيوسع قلبه لقبول الغرور ، ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ[1]) (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ[2]) فهو الهادى والمضل يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، لاراد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، خلق الجنة ، وخلق لها أهلا ، فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار ، وخلق لها أهلا ، فاستعملهم بالمعاصى عرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار ، فقال (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ[3]) ثم قال تعالى ، فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، [1] « هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي » فتعالى الله الملك الحق لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

---

(١) حديث قال الله عزوجل هؤلاء إلى الجنة ولاأبالى وهؤلاء إلى النار ولاأبالى : أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمى وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب إنه مضطرب الاسناد

---

(١) الانعام : ١٢٥ (٢) آل عمران : ١٦٠ (٣) الانفطار : ١٣

ولنقتصر على هذا القدر اليسير، من ذكر عجائب القلب، فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه، لمعرفة أغوار علوم المعاملة، وأسرارها، لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر، ولا يجتزى بالقشر عن اللباب، بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب، وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى، والله ولى التوفيق

تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة، ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق والحمد لله وحده، وصلى الله على كل عبد مصطفى

كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق
ومعالجة أمراض القلب

كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق
ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثانى من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرّف الأمور بتدبيره ، وعدّل تركيب الخلق فأحسن فى تصويره ، وزيّن صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وحرسه من الزيادة والنقصان فى شكله ومقاديره وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره ، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، وامتنّ عليهم بتسهيل صعبه وعسيره ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره ، الذى كان يلوح أنوار النبوة من بين أسارير ه ، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين طهّروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنّسوا بقليله ولا بكثيره ،

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين ، والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة ، والمهلكات ، الدامغة ، والمخازى الفاضحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة ، هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان ، وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب ، وأسقام النفوس ، إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لا يفوت إلا حياة الجسد

ومهما اشتدت عناية الأطباء ، بضبط قوانين العلاج للأبدان . وليس فى مرضها إلا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب ، وفى مرضها فوت حياة باقية أولى . وهذا النوع من الطب ، واجب تعلمه على كل ذى لب ، إذ لا يخلو قلب

من القلوب عن أسقام ، لو أهملت تراكمت ، وترادفت العلل ، وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى تأنق فى معرفة عللها وأسبابها ، ثم إلى تشمير فى علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1]) وإهمالها هو المراد بقوله (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [2])

ونحن نشير فى هذا الكتاب ، إلى جمل من أمراض القلوب ، وكيفية القول فى معالجتها على الجملة . من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتى فى بقية الكتب من هذا الربع ، وغرضنا الآن النظر الكلى فى تهذيب الأخلاق ، وتمهيد منهاجها ، ونحن نذكر ذلك ، ونجعل علاج البدن مثالا له ، ليقرب من الأفهام دركه ، ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ، ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثم بيان شواهد النقل ، على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير . ثم بيان علامات حسن الخلق . ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشو . ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة . فهى أحد عشر فصلا . يجمع مقاصدها هذا الكتاب . إن شاء الله تعالى

بيان

فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه ، مثنيا عليه ومظهراً نعمته لديه (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [3]) وقالت عائشة رضى الله عنها ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] خلقه القرءان . وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق ، فتلا قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ

﴿ كتاب رياضة النفس ﴾

(١) حديث عائشة كان خلقه القرءان : تقدم وهو عند م

(١) و(٢) الشمس : ٩ (٣) القلم : ٤

بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [١]) ثم قال صلى الله عليه وسلم [١] « هُوَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » [٤] وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه ، فقال يارسول الله ، ماالدين ؟ قال « حُسْنُ الْخُلُقِ » فأتاه من قبل يمينه ، فقال يارسول الله ، ماالدين ؟ قال « حُسْنُ الْخُلُقِ » ثم أتاه من قبل شماله ، فقال ماالدين ؟ فقال « حُسْنُ الْخُلُقِ » ثم أتاه من ورائه ، فقال يارسول الله ، ماالدين ؟ فالتفت إليه وقال « أَمَا تَفْقَهُ ! هُوَ أَنْ لَا تَغْضَبَ » وقيل يارسول الله ، [٥] ماالشؤم ؟ قال « سُوءُ الْخُلُقِ »

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] أوصني ، فقال « اتَّقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ » قال زدني ، قال « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » قال زدني ، قال « خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » وسئل عليه السلام ، أي الأعمال أفضل ؟ قال « خُلُقٌ حَسَنٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « مَا حَسَّنَ اللهُ خَلْقَ عَبْدٍ وَخُلُقَهُ فَيُطْعِمَهُ النَّارَ » وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهي سيئة الخلق ، تؤذي جيرانها بلسانها . قال « لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » وقال أبو الدرداء ، سمعت رسول الله

---

(١) حديث تأويل قوله تعالى خذالعفو الآية هوأن تصل من قطعك ـ الحديث : ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان

(٢) حديث بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :أحمد وك والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آدب الصحبة

(٣) حديث أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن: دت وصححه من حديث أبي الدرداء

(٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال ماالدين قال حسن الخلق ـ الحديث محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلا

(٥) حديث ما الشؤم قال سوء الخلق :أحمد من حديث عائشة الشؤم سوء الخلق ولأبي داود من حديث رافع بن مكيث سوء الخلق شؤم وكلاهما لا يصح

حديث قال رجل أوصني قال اتق الله حيثما كنت ـ الحديث: ت من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح

حديث ما حسن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه النار: تقدم في آدابه الصحبة

---

(١) الأعراف : ١٩٩

صلى الله عليه وسلم يقول[١] « أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ » ولما خلق الله الإيمان ، قال اللهم قونى ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر ، قال اللهم قونى ، فقواه بالبخل وسوء الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ اللهَ اسْتَخْلَصَ هٰذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ وَلاَ يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلاَّ السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ أَلاَ فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا » وقال عليه السلام[٣] « حُسْنُ الْخُلُقِ خَلْقُ اللهِ الأَعْظَمُ »[٤] وقيل يارسول الله، أي المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » وقال صلى الله عليه وسلم[٥] « إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم[٦] « سُوءُ الْخُلُقِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ » وعن جرير بن عبد الله قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٧] « إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ حَسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فَحَسِّنْ خُلُقَكَ » وعن البراء بن عازب قال[٨] « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها ، وأحسنهم خلقا . وعن أبي مسعود

---

(١) حديث أبي الدرداء أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق ـ الحديث لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود وت من حديث أبي الدرداء ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق وقال غريب وقال في بعض طرقه حسن صحيح

(٢) حديث ان الله استخلص هذا الدين لنفسه ـ الحديث : الدارقطني في كتاب المستجاد والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدري باسناد فيه لين

(٣) حديث حسن الخلق خلق الله الاعظم :الطبراني في الاوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف

(٤) حديث قيل يارسول الله أي المؤمنين أفضلهم ايمانا قال أحسنهم خلقا :دت ك من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ أكمل المؤمنين وللطبراني من حديث أبي أمامة أفضلكم إيمانا أحسنكم خلقا

(٥) حديث انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق :البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بعض طرق البزار رجاله ثقات

(٦) حديث سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل: ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضا وضعفها ابن جرير

(٧) حديث إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك :الخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب وفيه ضعف

(٨) حديث البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا :الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن

البدرى قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه (١) « اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي »

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (٢) قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصِّحَّةَ وَالْعَافِيَةَ وَحُسْنَ الْخُلُقِ » وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) قال « كَرَمُ الْمُؤْمِنِ دِينُهُ وَحَسَبُهُ حُسْنُ خُلُقِهِ وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ » وعن أسامة بن شريك قال ، (٤) شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ، ماخير ماأعطى العبد ؟ قال « خُلُقٌ حَسَنٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً »

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (٦) قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلَا تَعْتَدُّوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ ، تَقْوَى تَحْجِزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللهِ . أَوْ حِلْمٌ يَكُفُّ بِهِ السَّفِيهَ أَوْ خُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ » وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم فى افتتاح

---

(١) حديث أبى مسعود البدرى اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى : الخرايطى فى مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبى الهذيل عن أبى مسعود البدرى وإنما هو ابن مسعود أى عبد الله هكذا رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة

(٢) حديث عبد الله بن عمرو اللهم إنى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق: الخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد فيه لين

(٣) حديث أبى هريرة كرم المرء دينه ومروءته وعقله وحسن خلقه: حب وك وصححه على شرط م والبيهقى قلت فيه مسلم بن خالد الزنجى وقد تكلم فيه قال البيهقى وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال اسناد صحيح

(٤) حديث أسامة بن شريك شهدت الأعاريب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ماأعطى العبد قال خلق حسن: ه وتقدم فى آداب الصحبة

(٥) حديث إن أحبكم إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا : طس طس من حديث أبى هريرة ان أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا وللطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر أن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا وقد تقدم الحديثان فى آداب الصحبة

(٦) حديث ابن عباس ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشىء من عمله ـ الحديث : الخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير وفى مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة

الصلاة [١] « اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ » وقال أنس [٢] ، بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إذ قال « إِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ لَيُذِيبُ الْخَطِيئَةَ كَمَا تُذِيبُ الشَّمْسُ الْجَلِيدَ » وقال عليه السلام [٣] « مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ حُسْنُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « الْيُمْنُ حُسْنُ الْخُلُقِ »

وقال عليه السلام لأبى ذر [٥] « يَا أَبَا ذَرٍّ لَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ » وعن أنس [٦] قال ، قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرأيت المرأة يكون لها زوجان فى الدنيا ، فتموت ويموتان ، ويدخلون الجنة ، لأيهما هى تكون ؟ قال « لِأَحْسَنِهِمَا خُلُقًا كَانَ عِنْدَهَا فِي الدُّنْيَا يَا أُمَّ حَبِيبَةَ ذَهَبَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « إِنَّ الْمُسْلِمَ الْمُسَدَّدَ لَيُدْرِكُ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ بِحُسْنِ خُلُقِهِ وَكَرَمِ مَرْتَبَتِهِ » وفى رواية « دَرَجَةَ الظَّمْآنِ فِي الْهَوَاجِرِ » وقال عبدالرحمن بن سمرة كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال [٨] « إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ عَجَبًا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ فَجَاءَ حُسْنُ خُلُقِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق ـ الحديث: م من حديث علي

(٢) حديث أنس ان حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما يذيب الشمس الجليد : الخرايطى فى مكارم الاخلاق بسند ضعيف ورواه طب وطس والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبى هريرة وضعفه أيضا

(٣) حديث من سعادة المرء حسن الخلق : الخرايطى فى مكارم الاخلاق والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف

(٤) حديث اليمن حسن الخلق: الخرايطى فى مكارم الاخلاق من حديث على باسناد ضعيف

(٥) حديث يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق : ه حب من حديث أبى ذر

(٦) حديث أنس قالت أم حبيبة يارسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان : البزار والطبرانى فى الكبير والخرايطى فى مكارم الأخلاق باسناد ضعيف

(٧) حديث أن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه ـ الحديث : أحمد من حديث عبد الله ابن عمرو بالرواية الاولى ومن حديث أبى هريرة بالرواية الثانية وفيها ابن لهيعة

(٨) حديث عبد الرحمن بن سمرة انى رأيت البارحة عجبا ـ الحديث : الخرايطى فى مكارم الاخلاق بسند ضعيف

وقال أنس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم[١] «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ وَإِنَّهُ لَضَعِيفٌ فِي الْعِبَادَةِ »

وروى أن عمر رضى الله عنه ،[٢] استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته . فلما استأذن عمر رضى الله عنه تبادرن الحجاب . فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه م تضحك بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ فقال « عَجِبْتُ لِهَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ » فقال عمر ، أنت كنت أحق أن يهبنك يارسول الله . ثم أقبل عليهن عمر فقال ، ياعدوات أنفسهن ، أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قلن نعم ، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال صلى الله عليه وسلم « إِيهاً يَاابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكاً فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « سُوءُ الْخُلُقِ ذَنْبٌ لَا يُغْفَرُ وَسُوءُ الظَّنِّ خَطِيئَةٌ تَفُوحُ» ، وقال عليه السلام[٤] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرْكِ جَهَنَّمَ »

الآثار قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبت أى الخصال من الإنسان خير ؟ قال الدين . قال : فإذا كانت اثنتين ؟ قال : الدين والمال . قال : فإذا كانت ثلاثا ؟ قال : الدين والمال والحياء . قال : فإذا كانت أربعا ؟ قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق . قال : فإذا كانت خمسا ؟ قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء . قال : فإذا كانت ستا ؟

---

(١) حديث ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ـ الحديث : طب والخرايطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب طبقات الاصبهانيين من حديث أنس باسناد جيد

(٢) حديث ان عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه الحديث : متفق عليه

(٣) حديث سوء الخلق ذنب لا يغفر ـ الحديث : طص من حديث عائشة ما من شىء الاله توبة الا صاحب سوء الخلق فانه لا يتوب من ذنب الا عاد فى شر منه واسناده ضعيف

(٤) حديث ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل من درك جهنم الطبرانى : والخرايطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى طبقات الاصبهانيين من حديث أنس بأسناد جيد وهو بعض ـ الحديث : الذى قبله بحديثين

قال · يابنى إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي ، ولله ولى ، ومن الشيطان برى. وقال الحسن : من ساء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك ، إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة فى الجنه ، وهو غير عابد ، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك فى جهنم ، وهو عابد . وقال يحيى بن معاذ فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال وهب بن منبه ، مثل السيىء الخلق كمثل الفخارة المكسورة ، لا ترقع ولا تعاد طينا . وقال الفضيل لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق ، أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيىء الخلق

وصحب ابن المبارك رجلا سيىء الخلق فى سفر ، فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى . فقيل له فى ذلك ، فقال بكيته رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه · وقال الجنيد ، أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات ، وإن قل عمله ، وعلمه ، الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلق ، وهو كمال الإيمان

وقال الكتانى ، التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف . وقال عمر رضى الله عنه ، خالطوا الناس بالأخلاق ، وزايلوهم بالأعمال . وقال يحي بن معاذ سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات . وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات . وسئل ابن عباس ، ما الكرم ؟ فقال هو ما بين الله فى كتابه العزيز : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ[1]) قيل فما الحسب ؟ قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا وقال لكل بنيان أساس، وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء ، ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم . فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

بيان

حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن الناس قد تكلموا فى حقيقة حسن الخلق ، وأنه ماهو . وما تعرضوا لحقيقته ، وإنما تعرضوا لثمرته . ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل واحد من ثمراته ماخطر له وما كان حاضرا فى ذهنه . ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده ، وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته

---

(١) الحجرات : ١٣

على التفصيل والاستيعاب . وذلك كقول الحسن ، حسن الخلق بسط الوجه ، وبذل الندى وكف الأذى . وقال الواسطى ، هو أن لايخاصم ولا يخاصم ، من شدة معرفته بالله تعالى وقال شاه الكرمانى ، هو كف الأذى ، واحتمال المؤن . وقال بعضهم ، هو أن يكون من الناس قريبا ، وفيما بينهم غريبا . وقال الواسطى مرة ، هو إرضاء الخلق فى السراء والضراء . وقال أبو عثمان ، هو الرضا عن الله تعالى . وسئل سهل التسترى عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال ، وترك المكافأة ، والرحمة للظالم ، والاستغفار له ، والشفقة عليه . وقال مرة ، أن لايتهم الحق فى الرزق ، ويثق به ، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن ، فيطيعه ولا يعصيه فى جميع الأمور فيما بينه وبينه ، وفيما بينه وبين الناس . وقال على رضى الله عنه ، حسن الخلق فى ثلاث خصال : اجتناب المحارم ، وطلب الحلال ، والتوسعة على العيال . وقال الحسين ابن منصور ، هو أن لايؤثر فيك جفاء الخلق ، بعد مطالعتك للحق . وقال أبو سعيد الخراز ، هو أن لايكون لك هم غير الله تعالى .

فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لالنفسه . ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضا . وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى ، من نقل الأقاويل المختلفة

فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا ، يقال فلان حسن الخلق والخلق ، أى حسن الباطن والظاهر . فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ، ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة ، إما قبيحة ، وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة ، أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه ، إذ قال تعالى (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [1]) فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين ، والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس فى هذا المقام واحد

فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر وروية . فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة ، المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا . وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة

(١) ص : ٧١ و ٧٢ .

التى هى المصدر خلقا سيئا . وإنما قلنا إنها هيئة راسخة : لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة ، لا يقال خلقه السخاء ، مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال، أو السكوت عند الغضب بجهد وروية ، لا يقال خلقه السخاء والحلم

فهنا أربعة أمور

أحدها : فعل الجميل والقبيح . والثانى : القدرة عليهما . والثالث: المعرفة بهما والرابع : هيئة للنفس، بها تميل إلى أحد الجانبين ، ويتيسر عليها أحد الأمرين، إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل ، أما لفقد المال أو لمانع . وربما يكون خلقه البخل ، وهو يبذل ، إما لباعث ، أو لرياء

وليس هو عبارة عن القوة ، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء ، بل إلى الضدين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك . وذلك لا يوجب خلق البخل ، ولا خلق السخاء .

وليس هو عبارة عن المعرفة ، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا ، على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذاً عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا ، لا يتم بحسن العينين دون الأنف ، والفم ، والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة ، واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق . وهو قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم ، فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال

فإذا صلحت هذه القوة ، حصل منها ثمرة الحكمة . والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وهى التى قال الله فيها (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [1])

وأما قوة الغضب ، فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ماتقتضيه الحكمة

وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة . أعنى إشارة العقل والشرع

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع . فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هى القدرة ، ومثالها مثال المنفذ المضى لإشارة العقل . والغضب هو الذى تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد ، فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة ، لا بحسب هيجان شهوة النفس . والشهوة مثالها مثال الفرس الذى يركب فى طلب الصيد ، فإنه تارة يكون مروضا مؤدبا ، وتارة يكون جموحا .

فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت ، فهو حسن الخلق مطلقا . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض ، فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة . كالذى يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض . وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة . فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا . وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها . وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا . والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة . والطرفان رذيلتان مذمومتان . والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل : وهو الجور . وأما الحكمة ، فيسمى إفراطها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خبثا وجربزة . ويسمى تفريطها بلها . والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة

فإذاً أمهات الأخلاق وأصولها أربعة ، الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . ونعنى بالحكمة : حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية . ونعنى بالعدل : حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة ، وتحملهما على مقتضى الحكمة

(1) البقرة : ٢٦٩

وبضبطها فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعنى بالشجاعة : كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها . ونعنى بالعفة : تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها . إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأى ، وإصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها تصدر الجربزة ، والمكر ، والخداع ، والدهاء ومن تفريطها يصدر البله ، والغمارة ، والحمق ، والجنون . وأعنى بالغمارة قلة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل . فقد يكون الإنسان غمرا فى شيء دون شيء . والفرق بين الحمق والجنون أن الأحمق مقصوده صحيح ، ولكن سلوكه الطريق فاسد ، فلا تكون له روية صحيحة فى سلوك الطريق الموصل إلى الغرض . وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغى أن يختار ، فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً

وأما خلق الشجاعة ، فيصدر منه الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والوقار ، والتودد ، وأمثالها . وهى أخلاق محمودة . وأما إفراطها وهو التهور ، فيصدر منه الصلف ، والبذخ ، والاستشاطة ، والتكبر والعجب . وأما تفريطها ، فيصدر منه المهانة ، والذلة ، والجزع ، والخساسة ، وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب

وأما خلق العفة ، فيصدر منه السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط ، فيحصل منه الحرص ، والشره ، والوقاحة ، والخبث ، والتبذير ، والتقصير ، والرياء ، والهتكة ، والمجانة والعبث ، والملق ، والحسد ، والشماتة ، والتذلل للأغنياء ، واستحقار الفقراء ، وغير ذلك

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة ، وهى الحكمة ، والشجاعة ، والعفة والعدل . والباقى فروعها . ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه . فكل من قرب منه فى هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى ، بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكل من جمع كمال هذه الأخلاق ، استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا، يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها ، واتصف بأضدادها ، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد ، فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد ، فينبغى أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب ، فينبغى أن يقتدى به ، ويتقرب إليه : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال.

وقد أشار القرءان إلى هذه الأخلاق فى أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [1]) فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب ، هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة. والمجاهدة بالمال ، هو السخاء، الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس ، هى الشجاعة ، التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل ، وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [2]) إشارة إلى أن للشدة موضعا ، وللرحمة موضعا . فليس الكمال فى الشدة بكل حال ،ولا فى الرحمة بكل حال . فهذا بيان معنى الخلق ، وحسنه وقبحه ، وبيان أركانه وثمراته وفروعه

بيان

قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه ، استثقل المجاهدة والرياضة ، والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق . فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك ، لقصوره ونقصه وخبث دخلته ، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، فإن الطباع لا تتغير . واستدل فيه بأمرين

أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن، كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها . فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته . فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى

---

(١) حديث بعث لأتمم مكارم الأخلاق :تقدم فى آداب الصحبة

---

(١) الحجرات : ١٥ (٢) الفتح : ٢٩

والثانى: أنهم قالوا حسن الخلق بقمع الشهوة والغضب ، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع ، فإنه قط لا ينقطع عن الآدمى . فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة . فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة ، وذلك محـال وجوده

فنقول لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير ، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حَسِّنُوا أَخْلاَقَكُمْ » وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى ، وتغيير خلق البهيمة ممكن . إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول

الموجودات منقسمة إلى مالا مدخل للآدمى واختياره فى أصله وتفصيله ، كالسماء والكواكب ، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا ، وسائر أجزاء الحيوانات ، وبالجملة كل ماهو حاصل كامل ، وقع الفراغ من وجوده وكماله . وإلى ماوجد وجودا ناقصا ، وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه . وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، بأن النواة ليست بتفاح ولا نخل ، إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها . ولا تصير تفاحا أصلا ، ولا بالتربية . فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار ، حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة ، لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر ، لم نقدر عليه أصلا . ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة ، قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك . وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة ، بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطيئة القبول . ولاختلافها سببان

أحدهما: قوة الغريزة فى أصل الجبلة ، وامتداده مدة الوجود ، فإن قوة الشهوة، والغضب والتكبر ، موجودة فى الإنسان . ولكن أصعبها أمرا ، وأعصاها على التغيير ، قوة الشهوة

---

(١) حديث حسنوا أخلاقكم : أبو بكر ابن لال فى مكارم الأخلاق من حديث معاذ يامعاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات :

فإنها أقدم وجودا . إذا الصبي فى مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة . ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب . وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز

والسبب الثانى: أن الخلق قديتأكد بكثرة العمل بمقتضاه ، والطاعة له ، وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا ، والناس فيه على أربع مراتب

الأولى : وهو الأنسان الغفل ، الذى لايميز بين الحق والباطل ، والجميل والقبيح ، بل بقى كما فطر عليه ، خاليا عن جميع الاعتقادات ، ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات . فهذا سريع القبول للعلاج جدا ، فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، وإلى باعث من نفسه ، يحمله على المجاهدة ، فيحسن خلقه فى أقرب زمان

والثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ؛ ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله فتعاطاه ، انقيادا لشهواته ، وإعراضا عن صواب رأيه ، لاستيلاء الشهوة عليه . ولكن علم تقصيره فى عمله . فأمره أصعب من الأول ، إذقد تضاعفت الوظيفة عليه ، إذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا ، من كثرة الاعتياد للفساد ، والآخر أن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح . ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة ، إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم

والثالثة : أن يعتقد فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة ، وأنها حق وجميل ، وتربى عليها . فهذا يكاد تمتنع معالجته ، ولا يرجى صلاحه إلا على الندور ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال

والرابعة : أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى الفضيلة فى كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ، ويباهى به ، ويظن أن ذلك يرفع قدره . وهذا هو أصعب المراتب . وفى مثله قيل : ومن العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب

والأول من هؤلاء جاهل فقط : والثاني جاهل وضال ، والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير

وأما الخيال الآخر ، الذى استدلوا به ، وهو قولهم إن الآدمى مادام حيا فلا ينقطع عنه الشهوة والغضب ، وحب الدنيا ، وسائر هذه الأخلاق ، فهذا غلط وقع لطائفة . ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها . وهيهات . فإن الشهوة خلقت لفائدة ،

وهى ضرورية فى الجبلة . فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ؛ ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك . ومهما بقى أصل الشهوة ، فيبقى لامحالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة ، حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية . بل المطلوب ردها إلى الاعتدال ، الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا . وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ، ومع قوته منقادا للعقل . ولذلك قال الله تعالى (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [(١)]) وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب : ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية ، والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك . إذ قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ » [(٢)] وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب ، حتى تحمر وجنتاه . ولكن لا يقول إلا حقا . فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق . وقال تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ [(٢)]) ولم يقل والفاقدين الغيظ .

فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال ، بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ، ولا يغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما ، والغالب عليهما ، ممكن . وهو المراد بتغيير الخلق . فإنه ربما تستولى الشهوة على الإنسان ، بحيث لا يقوى عقله على دفعها عن الانبساط إلى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال . فدل أن ذلك ممكن . والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها

---

(١) حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر : م من حديث أنس وله من حديث أبى هريرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر

(٢) حديث أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان الغضب لا يخرجه عن الحق : الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير فى قصة شراج الحرة فقال لأن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبى سعيد الخدرى وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه ولهما من حديث عائشة وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسلم ما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ـ الحديث

---

(١) الفتح : ٢٩ (٢) آل عمران : ١٣٤

والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين ، أن السخاء خلق محمود شرعا ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير . وقد أثنى الله تعالى عليه فقال (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا [1]) وقال تعالى (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ [2]) وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود. قال الله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [3]) وقال فى الغضب (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [4]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا» وهذا له سر وتحقيق ، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [5]) والبخل من عوارض الدنيا . والتبذير أيضا من عوارض الدنيا . وشرط القلب أن يكون سليما منهما ، أى لا يكون ملتفتا إلى المال ، ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه . فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق ، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا . وإذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين ، وأبعد عن الطرفين ، وهو الوسط . فإن الفاتر لا حار ولا بارد ، بل هو وسط بينهما ، فكأنه خال عن الوصفين : فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن والتهور . والعفة بين الشره والجمود . وكذلك سائر الأخلاق . فكلا طرفى الأمور ذميم . هذا هو المطلوب . وهو ممكن . نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ، ويذم إمساك المال رأسا ، ولا يرخص له فى شىء منه ، لأنه لو رخص له فى أدنى شىء اتخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه ، وظن أنه القدر المرخص فيه . فإذا قصد قطع الأصل ، وبالغ فيه ، ولم يتيسر له إلا كسر سورته ، بحيث يعود إلى الاعتدال ، فالصواب له أن يقصد قلع الأصل ، حتى يتيسر له القدر المقصود ، فلا يكشف هذا السر للمريد ، فإنه موضع غرور الحمق ، إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق ، وأن إمساكه بحق.

---

(١) حديث خير الأمور أوساطها : البيهقى فى شعب الايمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا

(١) الفرقان : ٦٧ (٢) الاسراء : ٢٩ (٣) الأعراف : ٣١ (٤) الفتح : ٢٩ (٥) الشعراء : ٨٩

بيان

السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل ، وكمال الحكمة ، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة ، وللشرع أيضا . وهذا الإعتدال يحصل على وجهين

أحدهما بجود إلهى ، وكمال فطرى ، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل ، حسن الخلق ، قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ، ومؤدبا بغير تأديب ، كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا عليهما السلام ، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ماقد ينال بالاكتساب . فرب صبي خلق صادق اللهجة ، سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق . وربما يحصل بالتعلم

والوجه الثانى اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد ، وهو بذل المال . فلا يزال يطالب نفسه ، ويواظب عليه تكلفا ، مجاهدا نفسه فيه ، حتى يصير ذلك طبعا له ، ويتيسر عليه ، فيصير به جوادا . وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع ، وقد غلب عليه الكبر ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة ، وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف ، إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا ، فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق . وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا . فالسخى هو الذى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة . والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع . ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس ، مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ، ومالم تترك جميع الأفعال السيئة . ومالم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ، ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها . كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ومهما كانت

(١) حديث وجعلت قرة عينى فى الصلاة : ن من حديث أنس وقد تقدم

العبادات ، وترك المحظورات ، مع كراهة واستثقال ، فهو النقصان . ولا ينال كمال السعادة به . نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ، ولكن بالإضافة إلى تركها ، لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع . ولذلك قال الله تعالى (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « اُعْبُدِ اللهَ فِي الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ »

ثم لا يكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق ، استلذاذ الطاعة ، واستكراه المعصية ، فى زمان دون زمان ، بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام ، وفى جملة العمر . وكلما كان العمر أطول ، كانت الفضيلة أرسخ وأكمل . ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال [2] « طُولُ العُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى » ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر ، كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر ، والأخلاق أقوى وأرسخ . وإنما مقصود العبادات تأثيرها فى القلب وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات . وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ، ويرسخ فيها حب الله تعالى . فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل . فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذى يوصله إليه . وغضبه وشهوته من المسخرات له ، فلا يستعملها إلا على الوجه الذى يوصله إلى الله تعالى . وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحا به ، مستلذا له .

ولا ينبغى أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين ، ومصير العبادات لذيذة فإن العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك . فإنا قد نرى الملوك والمنعمين فى أحزان دائمة ، ونرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ، ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار . مع أن القمار ربما سلبه ماله ، وخرب بيته ، وتركه مفلسا ،

---

(١) حديث اعبد الله فى الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير : طب

(٢) حديث سئل عن السعادة فقال طول العمر فى عبادة الله : رواه القطاعى فى مسند الشهاب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف وللترمذى من حديث أبى بكرة وصححه أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله

---

(١) البقرة : ٤٥

ومع ذلك فهو يحبه ، ويلتذ به . وذلك لطول ألفه له وصرف نفسه إليه مدة

وكذلك اللاعب بالحمام ، قد يقف طول النهار في حر الشمس ، قائما رجليه . وهو لايحس بألمها ، لفرحه بالطيور وحركاتها ، وطيرانها وتحليقها في جو السماء

بل نرى الفاجر العيار ، يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع ، والصبر على السياط ، وعلى أن يتقدم به للصلب ، وهو مع ذلك متبجح بنفسه ، وبقوته في الصبر على ذلك ، حتى يرى ذلك فخرا لنفسه . ويقطع الواحد منهم إربا إربا ، على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ، ولا يبالي بالعقوبات ، فرحا بما يعتقده كمالا وشجاعة ورجولية . فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال ، قرة عينه ، وسبب افتخاره

بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالإناث ، في نتف الشعر ، ووشم الوجه ، ومخالطة النساء . فترى المخنث في فرح بحاله ، وافتخار بكماله في تخنثه ، يتباهى به مع المخنثين . حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة ، كما يجري بين الملوك والعلماء

فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام ، مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف . فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل ، وتميل إليه وإلى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة ، والتزمت المواظبة عليه ! بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهي الميل إلى أكل الطين . فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة . فأما ميله إلى الحكمة ، وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل إلى الطعام والشراب ، فإنه مقتضى طبع القلب . فإنه أمر رباني . وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته ، وعارض على طبعه . وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة ، وحب الله عز وجل . ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به ، كما قد يحل المرض بالمعدة ، فلا تشتهي الطعام والشراب ، وهما سببان لحياتها . فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى ، فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينا له على حب الله تعالى ، وعلى دينه ، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض

فإذاً قد عرفت بهذا قطعا ، أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء ، لتصير طبعا انتهاء . وهذا من عجيب العلاقة بين

القلب والجوارح ، أعنى النفس والبدن . فإن كل صفة تظهر فى القلب ، يفيض أثرها على الجوارح ، حتى لاتتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجرى على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب . والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال ، وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية ،حتى يصير كاتبا بالطبع ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ، مايتعاطاه الكاتب الحاذق ، ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكى الخط الحسن فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن . فيتشبه بالكاتب تكلفا ، ثم لايزال يواظب عليه ، حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعا ، كما كان يصدر منه فى الابتداء تكلفا . فكان الخط الحسن ، هو الذى جعل خطه حسنا . ولكن الأول بتكلف ، إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ، ثم انخفض من القلب إلى الجارحة ، فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه ، حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس .

وكذلك من أراد أن يصير سخيا عفيف النفس ، حليما متواضعا ، فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفا ، حتى يصير ذلك طبعا له ، فلا علاج له إلا ذلك . وكما أن طالب فقه النفس ، لاييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ، ولا ينالها بتكرار ليلة ، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها ، وتحليتها بالأعمال الحسنة ؛ لاينالها بعبادة يوم ، ولا يحرم عنها بعصيان يوم . وهو معنى قولنا ، إن الكبيرة الواحدة لاتوجب الشقاء المؤبد ، ولكن العطلة فى يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تتداعى قليلا قليلا ، حتى تأنس النفس بالكسل ، وتهجر التحصيل رأسا ، فيفوتها فضيلة الفقه . وكذلك صغائر المعاصى ، يجر بعضها إلى بعض ، حتى يفوت أصل السعادة ، بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة . وكما أن تكرار ليلة لايحس تأثيره فى فقه النفس ، بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدريج ، مثل نمو البدن ، وارتفاع القامة ، فكذلك الطاعة الواحدة لايحس تأثيرها فى تزكية النفس وتطهيرها فى الحال ولكن لاينبغى أن يستهان بقليل الطاعة ، فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد ، فلكل واحد منها تأثير . فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفى ، فله ثواب

لامحالة ، فإن الثواب بأزاء الأثر ، وكذلك المعصية

وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة ، وهكذا على التوالى، يسوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذا من يستهين صغائر المعاصى ، ويسوف نفسه بالتوبة على التوالى ، إلى أن يختطفه الموت بغتة ، أو تترا كم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة ، إذ القليل يدعو إلى الكثير ، فيصير القلب مقيدا بسلاسل شهوات لايمكن تخليصه من مخالبها . وهو المعنى بانسداد باب التوبة . وهو المراد بقوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا [1]) الآية . ولذلك قال علىّ رضي الله عنه، إن الإيمان ليبدو فى القلب نكتة بيضاء ، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض ، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيضّ القلب كله . وإن النفاق ليبدو فى القلب نكتة سوداء ، كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد ، فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كله

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير ، وإخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا . فمن تظاهرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما ، فهو فى غاية الفضيلة . ومن كان رذلا بالطبع ، واتفق له قرناء السوء ، فتعلم منهم ، وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها ، فهو فى غاية البعد من الله عز وجل . وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات ، ولكل درجة فى القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [2]) (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [3])

بيان

تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها ، كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه . فلنتخذ البدن مثالا فنقول .

---

(١) يس : ٩ (٢) الزلزال : ٧ و ٨ (٣) النحل : ٣٣

مثال النفس فى علاجها، بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن فى علاجه ، بمحو العلل عنه ، وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل . وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق ، والتغذية بالعلم

وكما أن البدن إن كان صحيحا ، فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه. فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة ، فينبغى أن تسعى لحفظها ، وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء ، فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها

وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن ، الموجبة للمرض ، لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا

وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتهيات، لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر، لمداواة مرض القلب ، بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب والعياذ بالله تعالى، مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد

وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة، إلا إذا كان على حد مخصوص، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة والقلة ؛ ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائض التى تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار

وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها، أهى ضعيفة أم قوية، فإذا عرف ذلك

التفت إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعة المريض ، وسنه وسائر أحواله ، ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطبب نفوس المريدين ، ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وفى طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد ، قتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم ، وأمات قلوبهم . بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله . وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله بنيته من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته . فإن كان المريد مبتدئا ، جاهلا بحدود الشرع ، فيعلمه أولا الطهارة ، والصلاة ، وظواهر العبادات . وإن كان مشغولا بمال حرام ، أو مقارفا لمعصية ، فيأمره أولا بتركها فإذا تزين ظاهره بالعبادات ، وطهر عن المعاصى الظاهرة جوارحه ، نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ، ليتفطن لأخلاقه ، وأمراض قلبه . فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه ، وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه ، حتى لا يلتفت إليه . وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه ، فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال ، فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل ، ولا ذل أعظم من ذل السؤال . فيكلفه المواظبة على ذلك مدة ، حتى ينكسر كبره وعز نفسه . فإن الكبر من الأمراض المهلكة ، وكذلك الرعونة . وإن رأى الغالب عليه النظافة فى البدن والثياب ، ورأى قلبه مائلا إلى ذلك ، فرحا به ، ملتفتا إليه استخدمه فى تعهد بيت الماء وتنظيفه ، وكنس المواضع القذرة ، وملازمة المطبخ ومواضع الدخان ، حتى تتشوش عليه رعونته فى النظافة . فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ، ويطلبون المرقعات النظيفة ، والسجادات الملونة ، لا فرق بينهم وبين العروس التى تزين نفسها طول النهار . فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه ، أو يعبد صنما . فمهما عبد غير الله تعالى . فقد حجب عن الله . ومن راعى فى ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت إليها قلبه ، فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا ، أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة ، فينبغى أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ،

كالذى يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء ، إذا كان الماء لايزيل الدم . كما يرغب الصبي فى المكتب ، باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب فى الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب فى الآخرة . فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة ، فلينقل إلى جاه أخف منه . وكذلك سائر الصفات . وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه . ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يهيء الأطعمة اللذيذة ، ويقدمها إلى غيره ، وهو لا يأكل منها ، حتى يقوى بذلك نفسه ، فيتعود الصبر وينكسر شرهه . وكذلك إذا رآه شابا متشوقا إلى النكاح ، وهو عاجز عن الطول ، فيأمره بالصوم . وربما لا تسكن شهوته بذلك ، فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ، ويمنعه اللحم والأدم رأسا ، حتى تذل نفسه ، وتنكسر شهوته. فلا علاج فى مبدإ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى الغضب غالبا عليه ، ألزمه الحلم والسكوت ، وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه ، حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه . كما حكى عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ، ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ، ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه ، حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستشعر فى نفسه الجبن وضعف القلب ، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة ، فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة . وبعض الشيوخ فى ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام ، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به فى البحر ، إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود، والرياء بالبذل

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ، فإن ذلك سيأتى فى بقية الكتب . وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضادة لكل ماتهواه النفس ، وتميل إليه . وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز

فى كلمة واحدة ، فقال تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [1])

والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم . فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا ، فينبغى أن يصبر ويستمر . فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ، ففسدت . وإذا اتفق منه نقض عزم ، فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه ، كما ذكرناه فى معاقبة النفس ، فى كتاب المحاسبة والمراقبة . وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته ، وحسنت عنده تناول الشهوة ، فتفسد بها الرياضة بالكلية .

بيان

علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به . وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذى خلق له ، حتى لا يصدر منه أصلا ، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب . فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به ، الذى خلق لأجله ، وهو العلم والحكمة والمعرفة ، وحب الله تعالى وعبادته ، والتلذذ بذكره ، وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه ، والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه . قال الله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [2]) ففى كل عضو فائدة . وفائدة القلب الحكمة والمعرفة ، وخاصية النفس التى للآدمى ما يتميز بها عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها ، بل بمعرفة الأشياء على ما هى عليه

وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل ، الذى جعلها أشياء . فلو عرف كل شيء ، ولم يعرف الله عز وجل ، فكأنه لم يعرف شيئا . وعلامة المعرفة المحبة . فمن عرف الله تعالى أحبه . وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات ، كما قال الله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ [3]) إلى قوله (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ

(1) النازعات : ٤٠ (2) الذاريات : ٥٦ (3) التوبة : ٢٤

مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ[١]) فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض . كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء ، فهى مريضة فهذه علامات المرض

وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة ، إلا ماشاء الله . إلا أن من الأمراض مالا يعرفها صاحبها . ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه . فلذلك يغفل عنه . وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه . فإن دواءه مخالفة الشهوات . وهو نزع الروح . فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه ، لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه . فلهذا صار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات ، وباطنها عادات ومراآت . فهذه علامات أصول الأمراض

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة ، فهو أن ينظر فى العلة التى يعالجها فإن كان يعالج داء البخل ، فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل ، وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذرا ، فيكون التبذير أيضا داء . فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة ، حتى تغلب الحرارة ، فهو أيضا داء . بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير ، حتى يكون على الوسط ، وفى غاية البعد عن الطرفين

فإن أردت أن تعرف الوسط ، فانظر إلى الفعل الذى يوجبه الخلق المحذور . فإن كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقة . فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد فى المواظبة على البذل . وإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق ، فقد غلب عليك التبذير ، فارجع إلى المواظبة على الإمساك . فلا تزال تراقب نفسك ، وتستدل على خلقك بتسيير الأفعال وتعسيرها ، حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال ، فلا تميل إلى بذله ، ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ،

---

(١) التوبة : ٢٤

فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك . فكل قلب صار كذلك ، فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة. ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق ، حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا ،حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها ، غير ملتفتة إليها ،ولا متشوقة إلى أسبابها . فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة ، راضية مرضية ، داخلة فى زمرة عباد الله المقربين ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر، وأحد من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة . وقلما ينفك العبد من ميلٍ عن الصراط المستقيم . أعنى الوسط ، حتى لا يميل إلى أحد الجانبين ، فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذى مال إليه . ولذلك لا ينفك عن عذاب ما ،واجتياز على النار ، وإن كان مثل البرق . قال الله تعالى (وَإِن مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا [1]) أى الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه . ولأجل عسر الاستقامة ، وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى فى كل يوم سبع عشرة مرة ، فى قوله إهدنا الصراط المستقيم ، إذ وجب قراءة الفاتحة فى كل ركعة

فقد روى أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال قد قلت يا رسول الله شيبتنى هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ [2]) فالاستقامة على سواء السبيل فى غاية الغموض . ولكن ينبغى أن يجتهد الإنسان فى القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة . فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعددها ، وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين

بيان

الطريق الذى يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا ، بصره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة

---

(١) مريم : ٧١ (٢) هود : ١١٢

لم تخف عليه عيوبه . فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج . ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق

الأول: أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع إشارته فى مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز فى هذا الزمان وجوده

الثانى : أن يطلب صديقا صدوقا ، بصيرا متدينا ، فينصبه رقيبا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله . فما كره من أخلاقه وأفعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، ينبهه عليه. فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين . كان عمر رضى الله عنه يقول ، رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وكان يسأل سلمان عن عيوبه . فلما قدم عليه ، قال له ما الذى بلغك عنى مما تكرهه ؟ فاستعفى . فألح عليه ، فقال بلغنى أنك جمعت بين أدامين على مائدة ، وإن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل . قال وهل بلغك غير هذا ؟ قال لا . فقال أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له ، أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين ، فهل ترى عليّ شيئا من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره ، وعلو منصبه ، هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه . فكل من كان أوفر عقلا ، وأعلى منصبا ، كان أقل إعجابا ، وأعظم اتهاما لنفسه

إلا أن هذا أيضا قد عز ، فقل فى الأصدقاء من يترك المداهنة ، فيخبر بالعيب ، أو يترك الحسد ، فلا يزيد على قدر الواجب . فلا تخلو فى أصدقائك عن حسود ، أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا . أو عن مداهن ، يخفى عنك بعض عيوبك . ولهذا كان داود الطائى قد اعتزل الناس ، فقيل له لم لا تخالط الناس ؟ فقال وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى . فكانت شهوة ذوى الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم . وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا . ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان . فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة . فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة ، وفرحنا به ، واشتغلنا بإزالة العقرب ، وإبعادها وقتلها . وإنما

نكايتها على البدن . ويدوم ألمها يوماً فما دونه. ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب، أخشى أن تدوم بعد الموت أبداً ، أو آلافاً من السنين ، ثم أنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ، ولا نشتغل بإزالتها ، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته ، فنقول له وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه . ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب ، التي أثمرتها كثرة الذنوب : وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسأل الله عز وجل ، أن يلهمنا رشدنا ، ويبصرنا بعيوبنا ، ويشغلنا بمداواتها ، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه . فإن عين السخط تبدى المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن . يذكره عيوبه . أكثر من انتفاعه بصديق مداهن ، يثني عليه ويمدحه ، ويخفي عنه عيوبه . إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو ، وحمل مايقوله على الحسد . ولكن البصير لايخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ، فإن مساويه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم

الطريق الرابع : أن يخالط الناس . فكل مارآه مذموماً فيما بين الخلق ، فليطالب نفسه به ، وينسبها إليه . فإن المؤمن مرآة المؤمن . فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه . ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى . فما يتصف به واحد من الأقران، لاينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شيء منه . فليتفقد نفسه . ويطهرها من كل مايذمه من غيره . وناهيك بهذا تأديباً . فلو ترك الناس كلهم مايكرهونه من غيرهم، لاستغنوا عن المؤدب . قيل لعيسى عليه السلام ، مَن أدبك ؟ قال ماأدبني أحد . رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته .

وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفاً زكياً ، بصيراً بعيوب النفس، مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه ، مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ، ناصحاً لهم . فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب ، فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه ، وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده

بيان

شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق فى معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وإن مادة أمراضها هى اتباع الشهوات

اعلم أن ماذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار ، إنفتحت بصيرتك ، وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين . فإن عجزت عن ذلك، فلاينبغى أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد . فإن للإيمان درجة، كما أن للعلم درجة . والعلم يحصل بعد الإيمان . وهو وراءه . قال الله تعالى (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ [(١)]) فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هى الطريق إلى الله عز وجل ، ولم يطلع على سببه وسره ،فهو من الذين آمنوا . وإذا اطلع على ماذكرناه من أعوان الشهوات ، فهومن الذين أوتوا العلم . وكلاوعدالله الحسنى . والذى يقتضى الإيمان بهذا الأمر فى القرءان والسنة وأقاويل العلماء ، أكثر من أن يحصر

قال الله تعالى (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [(٢)]) وقال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى [(٣)]) قيل نزع منها محبة الشهوات

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَمْسِ شَدَائِدَ مُؤْمِنٍ يَحْسُدُهُ وَمُنَافِقٍ يُبْغِضُهُ وَكَافِرٍ يُقَاتِلُهُ وَشَيْطَانٍ يُضِلُّهُ وَنَفْسٍ تُنَازِعُهُ » فبين أن النفس عدو منازع ، يجب عليه مجاهدتها . ويروى أن الله تعالى ، أوحى إلى داود عليه السلام ، ياداود ، حذروأنذرأصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة . وقال عيسى عليه السلام ، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم ، لقوم قدموا من الجهاد [(٢)] «مَرْحَبًا بِكُمْ قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ

---

(١) حديث المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه ـ الحديث : أبو بكر بن بلال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : البيهقى فى الزهد وقد تقدم فى شرح عجائب القلب

---

(١) المجادلة : ١١ (٢) النازعات ٤٠ و ٤١ (٣) الحجرات : ٣

الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » قيل يارسول الله ، وما الجهاد الأكبر؟ قال « جِهَادُ النَّفْسِ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « كُفَّ أَذَاكَ عَنْ نَفْسِكَ وَلاَ تُتَابِعْ هَوَاهَا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى إِذاً تُخَاصِمُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْعَنُ بَعْضُكَ بَعْضاً إِلَّا أَنْ يَغْفِرَ اللهُ تَعَالَى وَيَسْتُرَ »

وقال سفيان الثورى ، ما عالجت شيئا أشد علىّ من نفسى ، مرة لى ، ومرة علىّ . وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه ، يانفس ، لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ، ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين . كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين . يانفس ، ألا تستحين ! وقال الحسن : ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازى ، جاهد نفسك بأسياف الرياضة ، والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من جميع الأنام . فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات . ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات . وليس على العبد شىء أشد من الحلم عند الجفا ، والصبر على الأذى ، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام ، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام ، جردت عليها سيوف قلة الطعام ، من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأيدى الخمول وقلة الكلام ، حتى تنقطع عن الظلم والانتقام ، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام ، وتصفيها من ظلمة شهواتها ، فتنجو من غوائل آفاتها ، فتصير عند ذلك نظيفة ونورية ، خفيفة روحانية ، فتجول فى ميدان الخيرات ، وتسير فى مسالك الطاعات ، كالفرس الفاره فى الميدان ، وكالملك المتنزه فى البستان وقال أيضا أعداء الإنسان ثلاثة ، دنياه ، وشيطانه ونفسه . فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات . وقال بعض الحكماء ، من استولت عليه النفس صار أسيرا فى جب شهواتها ، محصورا فى سجن هواها ، مقهورا مغلولا زمامه فى يدها.

---

(١) حديث المجاهد من جاهد نفسه : ت فى أثناء حديث وصححه و ه من حديث فضالة بن عبيد

(٢) حديث كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله ــ الحديث : لم أجده بهذا السياق

تجره حيث شاءت ، فتمنع قلبه من الفوائد : وقال جعفر بن حميد ، أجمعت العلماء والحكماء ، على أن النعيم لايدرك إلا بترك النعيم . وقال أبو يحيى الوراق . من أرضى الجوارح بالشهوات ، فقد غرس فى قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد ، مازاد على الخبز فهو شهوة . وقال أيضا ، من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل

ويروى أن امرأة العزيز ، قالت ليوسف عليه السلام ، بعد أن ملك خزائن الأرض ، وقعدت له على رابية الطريق فى يوم موكبه ، وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألفا من عظماء مملكته ، سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا ، وذلك جزاء المفسدين . وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا . فقال يوسف ، كما أخبر الله تعالى عنه (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [1])

وقال الجنيد . أرقت ليلة ، فقمت إلى وردى ، فلم أجد الحلاوة التى كنت أجدها . فأردت أن أنام ، فلم أقدر . فجلست ، فلم أطق الجلوس . فخرجت . فإذا رجل ملتف فى عباءة ، مطروح على الطريق . فلما أحس بى قال ، ياأباالقاسم ، إلىّ الساعة . فقلت ياسيدى من غير موعد ! فقال بلى ، سألت الله عز وجل أن يحرك لى قلبك . فقلت قد فعل ، فما حاجتك ؟ قال فمتى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت إذا خالفت النفس هواها . فأقبل على نفسه فقال ، اسمعى ، فقد أجبتك بهذا سبع مرات ، فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد . ها قد سمعتيه ، ثم انصرف وما عرفته

وقال يزيد الرقاشى ، إليكم عنى الماء البارد فى الدنيا ، لعلى لا أحرمه فى الآخرة ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، متى أتكلم ؟ قال إذا اشتهيت الصمت . قال متى أصمت قال إذا اشتهيت الكلام . وقال على رضى الله عنه ، من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات فى الدنيا وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق ، فإذا رأى الشىء يشتهيه ، قال لنفسه اصبرى ، فو الله ما أمنعك إلا من كرامتك علىّ

---

(1) يوسف : ٩٠

فإذاقد اتفق العلماء والحكماء ، على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة ، إلا بنهي النفس عن الهوى ، ومخالفة الشهوات . فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل مايترك من الشهوات وما لايترك ، لا يدرك إلا بما قدمناه

وحاصل الرياضة وسرها ، أن لاتتمتع النفس بشيء مما لا يوجد فى القبر ، إلا بقدر الضرورة . فيكون مقتصرا من الأكل ، والنكاح ، واللباس ، والمسكن ، وكل ما هو مضطر إليه ، على قدر الحاجة والضرورة . فإنه لو تمتع بشيء منه ، أنس به وألفه . فإذامات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه . ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لا حظ له فى الآخرة بحال . ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه ، والتفكر فيه والانقطاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله . ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط . فمن لم يقدر على حقيقة ذلك ، فليقرب منه والناس فيه أربعة

رجل مستغرق قلبه بذكر الله ، فلا يتلفت إلى الدنيا إلا فى ضرورات المعيشة فهو من الصديقين . ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة ، والصبر عن الشهوات مدة مديدة

الثانى : رجل استغرقت الدنيا قلبه ، ولم يبق لله تعالى ذكر فى قلبه ، إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره باللسان لا بالقلب ، فهذا من الهالكين

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ، ولكن الغالب على قلبه هو الدين ، فهذا لا بد له من ورود النار ، إلا أنه ينجو منها سريعا ، بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعا ، لكن الدنيا أغلب على قلبه ، فهذا يطول مقامه فى النار لكن يخرج منها لامحالة ، لقوة ذكر الله تعالى فى قلبه ، وتمكنه من صميم فؤاده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نعوذ بك من خزيك ، فإنك أنت المعاذ

وربما يقول القائل ، إن التنعم بالمباح مباح ، فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضعيف . بل حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وسبب إحباط كل حسنة والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا ، وهو سبب البعد . وسيأتي ذلك فى كتاب ذم الدنيا

وقد قال ابراهيم الخواص ، كنت مرة فى جبل اللكام ، فرأيت رمانا ، فاشتهيته ؛ فأخذت منه واحدة ، فشققتها ، فوجدتها حامضة . فمضيت وتركتها . فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير . فقلت السلام عليك . فقال وعليك السلام ياابراهيم . فقلت كيف عرفتنى ؟ فقال من عرف الله عزوجل لم يخف عليه شىء . فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل ، فلوسألته أن يحميك من هذه الزنابير ؟ فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان ؟ فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة ، ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا . فتركته ومضيت

وقال السرى ، أنا منذ أربعين سنة ، تطالبنى نفسى أن أغمس خبزة فى دبس * فما أطعمتها

فإذاً لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ، مالم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات ، طمعت فى المحظورات . فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول ، فحقه أن يلزمه السكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات فى الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام . فلا يتكلم إلا بحق . فيكون سكوته عبادة ، وكلامه عبادة

ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شىء جميل ، لم تتحفظ عن النظر إلى مالا يحل وكذلك سائر الشهوات . لأن الذى يشتهى به الحلال ، هو بعينه الذى يشتهى الحرام . فالشهوة واحدة . وقد وجب على العبد منعها من الحرام . فإن لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ، ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تفرح بالتنعم فى الدنيا وتركن إليها ، وتطمئن إليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة ، كالسكران الذى لا يفيق من سكره ، وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل ، يسرى فى العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن ، وذكر الموت ، وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب ، قال الله تعالى : (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [1]) وقال تعالى : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ [2]) وقال تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [3]) الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة ، فأولوا الحزم من أرباب القلوب ، جربوا قلوبهم فى حال الفرح بمؤاتاة

(١) يونس : ٧ (٢) الرعد : ٢٦ (٣) الحديد : ٢٠

* الدبس : عسل التمر وعسل النحل

الدنيا فوجدوها قاسية نفرة ، بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها فى حالة الحزن ، فوجدوها لينة رقيقة صافية ، قابلة لأثر الذكر ، فعلموا أن النجاة فى الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، ففطموها عن ملاذها ، وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها ، وعلموا أن حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، ومتشابهها عتاب ، وهو نوع عذاب ، فمن نوقش الحساب فى عرصات القيامة فقد عذب ، فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم فى الدنيا والآخرة ، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عز وجل ، والاشتغال بطاعته ، وفعلوا بها ما يفعل بالبازى إذا قصد تأديبه ، ونقله من التوثب والاستيحاش ، إلى الانقياد والتأديب ، فإنه يحبس أولا فى بيت مظلم ، وتخاط عيناه ، حتى يحصل به الفطام عن الطيران فى جو الهواء وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال . ثم يرفق به باللحم ، حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفا إذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع إليه

فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره ، إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أولا ، ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ، ثم عودت الثناء والذكر والدعاء ثانيا فى الخلوة ، حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عز وجل ، عوضا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات . وذلك يثقل على المريد فى البداية ، ثم يتنعم به فى النهاية ، كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه ، إذ كان لا يصبر عنه ساعة ، فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ويشتد نفوره عن الطعام الذى يقدم إليه بدلا عن اللبن . ولكنه إذا منع اللبن رأسا يوما فيوما ، وعظم تعبه فى الصبر عليه ، وغلبه الجوع ، تناول الطعام تكلفا . ثم يصير له طبعا. فلو رد بعد ذلك إلى الثدى لم يرجع إليه . فيهجر الثدى ، ويعاف اللبن ، ويألف الطعام .

وكذلك الدابة ، فى الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب ، فتحمل على ذلك قهرا وتمنع عن السرح الذى ألفته بالسلاسل والقيود أولا ، ثم تأنس به ، بحيث تترك فى موضعها فتقف فيه من غير قيد

فكذلك تؤدب النفس كما يؤدب الطير والدواب . وتأديبها بأن تمنع من النظر ، والأنس والفرح بنعيم الدنيا . بل بكل ما يزايلها بالموت : إذ قيل له أحبب ما أحببت فإنك مفارقه

فإذا علم أنه من أحب شيئا يلزمه فراقه ، ويشقى لامحالة لفراقه ، شغل قلبه بحب مالا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصحبه فى القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما قلائل ، فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة فى سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرا ، ليتنعم به سنة أو دهرا . وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا . فلا بد من الصبر والمجاهدة، فعند الصباح يحمد القوم السرى ، وتذهب عنهم عمايات الكرى ، كما قاله علي رضي الله عنه

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله . والأصل فيه أن يترك كل واحد مابه فرحه من أسباب الدنيا . فالذى يفرح بالمال ، أو بالجاه ، أو بالقبول فى الوعظ ، أو بالعز فى القضاء والولاية ، أو بكثرة الأتباع فى التدريس والإفادة فينبغى أن يترك أولا مابه فرحه . فإنه إن منع عن شيء من ذلك ، وقيل له ثوابك فى الآخرة لم ينقص بالمنع ، فكره ذلك ، وتألم به ، فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها . وذلك مهلك فى حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح ، فليعتزل الناس ، ولينفرد بنفسه ، وليراقب قلبه ، حتى لايشتغل إلا بذكر الله تعالى ، والفكر فيه . وليترصد لما يبدو فى نفسه من شهوة ووسواس ، حتى يقمع مادته مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سببا ، ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة ، وليلازم ذلك بقية العمر ، فليس للجهاد آخر إلا الموت

بيان

علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه . فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة ، حتى ترك فواحش المعاصى ، ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه ، وحسن خلقه ، واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق . فإن حسن الخلق هو الإيمان ؛ وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه . وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك ، لتعلم آية حسن الخلق

قال الله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ[١]) إلى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ[٢]) وقال عز وجل: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ[٣]) الى قوله (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[٤]) وقال عز وجل : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ[٥]) إلى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا[٦]) وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا[٧]) إلى آخر السورة .

فمن أشكل عليه حاله ، فليعرض نفسه على هذه الآيات . فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض . فليشتغل بتحصيل مافقده ، وحفظ ماوجده

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال[١] « الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » وقال عليه السلام[٢] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » وقال[٤] « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ »

وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم[٥] « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا » وقال صلى الله عليه وسلم[٦] « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتًا وَقُورًا

---

(١) حديث المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه : الشيخان من حديث أنس لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه

(٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه : متفق عليه من حديث أبى شريح الخزاعى ومن حديث أبي هريرة

(٣) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره : متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قبله

(٤) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت : متفق عليه أيضا من حديثهما وهو بعض الذى قبله

(٥) حديث أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا : تقدم غير مرة

(٦) حديث إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقى الحكمة ه من حديث أبي خلا بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فانه يلقن الحكمة

---

(١) المؤمنون : ١و٢و٣ (٢) المؤمنون : ١٠ (٣) و(٤) التوبة : ١١٢ (٥) الانفال : ٢ (٦) الانفال : ٤ (٧) الفرقان : ٦٣

فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةَ » وقال (١) « مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ » وقال (٢) « لَايَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ » وقال عليه السلام (٣) « لَايَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّمَا يَتَجَالَسُ الْمُتَجَالِسَانِ بِأَمَانَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَى أَخِيهِ مَايَكْرَهُهُ »

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال ، هو أن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، قليل الكلام ، كثير العمل ، قليل الزلل ، قليل الفضول ، برا ، وصولا ، وقورا ، صبورا ، شكورا ، رضيا ، حليما ، رفيقا ، عفيفا ، شفيقا ، لالعانا ، ولا سبابا ، ولا نماما ، ولامغتابا ، ولاعجولا ، ولاحقودا ، ولا بخيلا ، ولاحسودا ، بشاشا ، هشاشا ، يحب فى الله ، ويبغض فى الله ، ويرضى فى الله ، ويغضب فى الله ، فهذا هو حسن الخلق .

(٥) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق ، فقال « إِنَّ الْمُؤْمِنَ هِمَّتُهُ فِي الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْعِبَادَةِ وَالْمُنَافِقَ هِمَّتُهُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَالْبَهِيمَةِ »

وقال حاتم الأصم ، المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راج كل أحد إلا الله . والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله . والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله . والمؤمن يحسن ويبكى ، والمنافق يسىء ويضحك . والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملأ . والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد . والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى ، واحتمال الجفاء . ومن شكا من سوء

---

(١) حديث من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن : أحمد والطبرانى وك وصححه على شرطهما من حديث أبى موسى ورواه طب ك وصححه على شرط الشيخين من حديث أبى أمامة

(٢) حديث لايحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه : ابن المبارك فى الزهد والرقائق وفى البر والصلة مرسلا وقد تقدم

(٣) حديث لايحل لمسلم أن يروع مسلما : طب طس من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث ابن عمر وإسناده ضعيف

(٤) حديث إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله ــ الحديث : تقدم فى آداب الصحبة

(٥) حديث سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال إن المؤمن همه فى الصلاة والصيام ــ الحديث : لم أجد له أصلا

خلق غيره ، دل ذلك على سوء خلقه . فإن حسن الخلق احتمال الأذى . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] ، كان يوما يمشي ومعه أنس . فأدركه أعرابي ، فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية . قال أنس رضي الله عنه ، حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه . فقال يا محمد ، هب لي من مال الله الذي عندك . فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه ، قال ،[(٢)] « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » قيل إن هذا يوم أحد . فلذلك أنزل الله تعالى فيه (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[(١)])

ويحكى أن ابراهيم بن أدهم ، خرج يوما إلى بعض البراري ، فاستقبله رجل جندي ، فقال أنت عبد ؟ قال نعم . فقال له أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة . فقال الجندي ، إنما أردت العمران ، فقال هو المقبرة . فغاظه ذلك ، فضرب رأسه بالسوط فشجه ، ورده إلى البلد ، فاستقبله أصحابه ، فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له . فقالوا هذا ابراهيم بن أدهم . فنزل الجندي عن فرسه ، وقبل يديه ورجليه ، وجعل يعتذر إليه . فقيل بعد ذلك له ، لم قلت له أنا عبد ؟ فقال إنه لم يسألني عبد من أنت ؟ بل قال أنت عبد؟ فقلت نعم ، لأني عبد الله فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة . قيل كيف وقد ظلمك ؟ فقال علمت أنني أوجر على ما نالني منه ، فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ، ونصيبه مني الشر

ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة ، وكان الداعي قد أراد تجربته . فلما بلغ منزله ، قال له ليس لي وجه . فرجع أبو عثمان . فلما ذهب غير بعيد ، دعاه ثانيا ، فقال له يا أستاذ ارجع ، فرجع أبو عثمان ، ثم دعاه الثالثة ، وقال ارجع على ما يوجب الوقت ، فرجع . فلما بلغ الباب ، قال له مثل مقالته الأولى ، فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة ، فرده : حتى عامله بذلك مرات ، وأبو عثمان لايتغير من ذلك . فأكب على

---

(١) حديث كان يمشي فادركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس

(٢) حديث اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون : حب والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه قومه

---

(١) ن : ٤

رجليه وقال ، ياأستاذ ، إنما أردت أن أختبرك ، فما أحسن خلقك ! فقال إن الذى رأيت مني هو خلق الكلب . إن الكلب إذا دعي أجاب ، وإذا زجر انزجر

وروي عنه أيضا أنه اجتاز يوما فى سكة ،فطرحت عليه إجّانة * رماد . فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ،ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ، ولم يقل شيئا . فقيل ألا زبرتهم؟ فقال إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروي أن علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه ، كان لونه يميل إلى السواد ، إذ كانت أمه سوداء . وكان بنيسابور حمام على باب داره . وكان إذا أراد دخول الحمام ، فرّغه له الحمامىّ فدخل ذات يوم ، فأغلق الحمامى الباب ، ومضى فى بعض حوائجه . فتقدم رجل رستاق * إلى باب الحمام ، ففتحه ، ودخل ، فنزع ثيابه ودخل ، فرأى على بن موسى الرضا . فظن أنه بعض خدام الحمام . فقال له قم واحمل إلىّ الماء . فقام على بن موسى ،وامتثل جميع ما كان يأمره به . فرجع الحمامى ، فرأى ثياب الرستاق ،وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا ،فخاف وهرب ، وخلاهما . فلما خرج على بن موسى ، سأل عن الحمامى .فقيل له إنه خاف مما جرى فهرب . قال لاينبغى له أن يهرب . إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء .

وروي أن أبا عبد الله الخياط ، كان يجلس على دكانه . وكان له حريف مجوسى ،يستعمله فى الخياطة . فكان إذا خاط له شيئا ، حمل إليه دراهم زائفة . فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ، ولا يردها عليه . فاتفق يوما أن أبا عبدالله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسى فلم يجده . فدفع إلى تلميذه الأجرة ، واسترجع ماقد خاطه . فكان درهما زائفا . فلما نظر إليه التلميذ ، عرف أنه زائف ، فرده عليه . فلما عاد أبو عبد الله ، أخبره بذلك . فقال بئس ماعملت . هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة ، وأنا أصبر عليه ، وآخذ الدراهم منه ، وألقيها فى البئر ، لئلا يغربها مسلما

وقال يوسف بن أسباط ، علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف ، وحسن الإنصاف ، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات ،والتماس المعذرة ،واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس ، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلاقة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه

---

* الاجانة بالتشديد : الوعاء الذى يغسل فيه الثياب * الرستاق : الساكن طرف الاقليم

وسئل سهل عن حسن الخلق فقال ، أدناه احتمال الأذى ، وترك المكافأة ، والرحمة للظالم ، والاستغفار له ، والشفقة عليه

وقيل للأحنف بن قيس ، ممن تعلمت الحلم ؟ فقال من قيس بن عاصم . قيل وما بلغ من حلمه ؟ قال بينما هو جالس فى داره ، إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء . فسقط من يدها ، فوقع على ابن له صغير ، فمات . فدهشت الجارية . فقال لها لاروع عليك ، أنت حرة لوجه الله تعالى

وقيل إن أويسا القرنى ، كان إذا رآه الصبيان ، يرمونه بالحجارة . فكان يقول لهم ، ياإخوتاه ، إن كان ولا بد فارمونى بالصغار ، حتى لاتدموا ساقى ، فتمنعونى عن الصلاة

وشتم رجل الأحنف بن قيس ، وهو لايجيبه . وكان يتبعه . فلما قرب من الحى وقف وقال ، إن كان قد بقى فى نفسك شىء فقله ، كى لايسمعك بعض سفهاء الحى فيؤذوك

وروى أن عليا كرم الله وجهه ، دعا غلاما فلم يجبه . فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه . فقام إليه ، فرآه مضطجعا . فقال أما تسمع ياغلام ؟ قال بلى . قال فما حملك على ترك إجابتى ؟ قال أمنت عقوبتك فتكاسلت . فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله ، يامرائى ، فقال ياهذه ، وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة

وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء . فقيل له لم تمسكه ؟ فقال لأتعلم الحلم عليه

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقها ، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها ، فأثمرت الرضا بكل ماقدره الله تعالى ، وهو منتهى حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به ، فهو غاية سوء خلقه . فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات ، فلا ينبغى أن يغتر بنفسه ، فيظن بها حسن الخلق . بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة ، إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق ، فإنها درجة رفيعة ، لاينالها إلا المقربون والصديقون

بيان

الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية عن كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه . فإن عود الخير وعلمه ، نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم ، شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه ، والوالى له . وقد قال الله عز وجل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً[1]) ومهما كان الأدب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى . وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من القرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر ، فيهلك هلاك الأبد . بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره ، فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث .

ومهما رأى فيه مخايل التمييز ، فينبغى أن يحسن مراقبته . وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فإنه إذا كان يحتشم ويستحى ، ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض . فصار يستحى من شىء دون شىء . وهذه هدية من الله تعالى إليه ، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب ، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ . فالصبي المستحى لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام . فينبغى أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع فى الأكل

(١) التحريم : ٦

وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعود الخبز القفار فى بعض الأوقات ، حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذى يكثر الأكل ، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام ، وقلة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان

وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه . ومهما رأى على صبي ثوبا من ابريسم أو ملون ، فينبغى أن يستنكره ويذمه . ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ، ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه مايرغبه فيه فإن الصبي مهما أهمل فى ابتداء نشوه ، خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق ، كذابا ، حسودا سروقا ، نماما ، لحوحا ، ذافضول وضحك ، وكياد ومجانة . وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب

ثم يشغل فى المكتب ، فيتعلم القرءان ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل ، وفعل محمود ، فينبغى أن يكرم عليه ، ويجازى عليه بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس . فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة ، فينبغى أن يتغافل عنه ، ولا يهتك ستره ، ولا يكاشفه ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولاسيما إذا ستره الصبي ، واجتهد فى إخفائه . فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة ، حتى لا يبالى بالمكاشفة . فعند ذلك إن عاد ثانيا ، فينبغى أن يعاتب سرا ، ويعظم الأمر فيه ، ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ، وأن يطلع عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس . ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ، فإنه يهون عليه سماع الملامة ، وركوب القبائح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه

وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا ، والأم تخوفه

بالأب ، وتزجره عن القبائح

وينبغى أن يمنع عن النوم نهارا ، فإنه يورث الكسل . ولا يمنع منه ليلا . ولكن يمنع الفرش الوطيئة ، حتى تتصلب أعضاؤه ، ولا يسمن بدنه ، فلا يصبر عن التنعم . بل يعود الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم

وينبغى أن يمنع من كل ما يفعله فى خفية : فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح . فإذا تعود ترك فعل القبيح

ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل . ويعود أن لا يكشف أطرافه ، ولا يسرع المشى ، ولا يرخى يديه ، بل يضمهما إلى صدره

ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه ، أو بشىء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره ، والتلطف فى الكلام معهم

ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بداله حشمة إن كان من أولاد المحتشمين . بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ، وإن كان من أولاد الفقراء ، فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة ، وأن ذلك من دأب الكلب ، فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها

وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة ، والطمع فيهما : ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضة ، والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان . بل على الأكابر أيضا

وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده ، فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة ، وأنه فعل أبناء اللئام . ويمنع اليمين رأسا ، صادقا كان أو كاذبا ، حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر . ويمنع أن يبتدىء بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال . وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ، ممن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ، ويوسع له المكان ، ويجلس بين يديه .

ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك . فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء

وينبغى إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصبر ، ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان

وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب ، أن يلعب لعبا جميلا ، يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللعب . فإن منع الصبى من اللعب ، وارهاقه إلى التعلم دائما ، يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا

وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنا ، من قريب وأجنبى : وأن ينظر إليهم بين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم

ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوف من السرقة وأكل الحرام ، ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان

فإذا وقع نشوه كذلك فى الصبا ، فمهما قارب البلوغ ، أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور . فيذكر له أن الأطعمة أدوية ، وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها ، إذ لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع نعيمها ، وأنها دار ممر ، لا دار مقر . وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر وأن الموت منتظر فى كل ساعة . وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة ، حتى تعظم درجته عند الله تعالى ، ويتسع نعيمه فى الجنان

فإذا كان النشو صالحا ، كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا ، يثبت فى قلبه كما يثبت النقش فى الحجر . وإن وقع النشو بخلاف ذلك ، حتى ألف الصبى اللعب ، والفحش والوقاحة ، وشره الطعام ، واللباس ، والتزين ، والتفاخر ، نبا قلبه عن قبول الحق ، نبوة الحائط عن التراب اليابس

فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا . وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم [1] « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ »

قال سهل بن عبد الله التستري ، كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل ، فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار . فقال لي يوما ، ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات ، من غير أن تحرك به لسانك، الله معي الله ناظر إليَّ ، الله شاهد . فقلت ذلك ليالي ، ثم أعلمته ، فقال قل في كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ، ثم أعلمته . فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته . فوقع في قلبي حلاوته . فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي ، احفظ ماعلمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة . فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لذلك حلاوة في سري ثم قال لي خالي يوما ، ياسهل ، من كان الله معه ، وناظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟ إياك والمعصية ، فكنت أخلو بنفسي . فبعثوا بي إلى المكتب ، فقلت إني لأخشى أن يتفرق علي همي ؛ ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم . ثم أرجع . فمضيت إلى الكتاب ، فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين ، أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر ، وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة ، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها ؛ فأتيت البصرة ، فسألت علماءها ، فلم يشف أحد عني شيئا . فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة ابن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها ، فأجابني . فأقمت عنده مدة ، أنتفع بكلامه ، وأتأدب بآدابه . ثم رجعت إلى تستر ، فجعلت قوتي اقتصادا على أن يشترى لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي ، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة ، بحتا بغير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ، ثم خمسا ، ثم سبعا ثم خمسا وعشرين ليلة . فكنت على ذلك عشرين سنة . ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر ، وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى . قال أحمد ، فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى .

---

(١) حديث كل مولود يولد على الفطرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

بيان

شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين ، أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا إليها ، سالكا سبلها ، مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها . فإن من كانت عنده خرزة، فرأى جوهرة نفيسة ، لم يبق له رغبة فى الخرزة ، وقويت إرادته فى بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا حرث الآخرة ، ولا طالبا للقاء الله تعالى ، فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر. ولست أعنى بالإيمان حديث النفس ، وحركة اللسان بكلمتى الشهادة ، من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك يضاهى قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرز ، إلا أنه لا يدرى من الجوهرة إلا لفظها ، وأما حقيقتها فلا . ومثل هذا المصدق ، إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ، ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة . فإذاً: المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة ، والمانع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى ، الهادين إلى طريقه ، والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها ، وعظم أمر الآخرة ودوامها . فالخلق غافلون ، قد انهمكوا فى شهواتهم ، وغاصوا فى رقدتهم . وليس فى علماء الدين من ينبههم . فإن تنبه منهم متنبه ، عجز عن سلوك الطريق لجهله. فإن طلب الطريق من العلماء ، وجدهم مائلين إلى الهوى ، عادلين عن نهج الطريق . فصار ضعف الإرادة ، والجهل بالطريق ، ونطق العلماء بالهوى ، سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه . ومهما كان المطلوب محجوبا، والدليل مفقودا ، والهوى غالبا، والطالب غافلا ، امتنع الوصول ، وتعطلت الطرق لا محالة . فإن تنبه متنبه من نفسه ، أو من تنبيه غيره ، وانبعث له إرادة فى حرث الآخرة وتجارتها ، فينبغى أن يعلم أن له شروطا لا بد من تقديمها فى بداية الإرادة ، وله معتصم لا بد من التمسك به ، وله حصن لا بد من التحصن به ، ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها فى وقت سلوك الطريق

أما الشروط التي لابد من تقديمها في الإرادة، فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق . فإن حرمان الخلق عن الحق، سببه تراكم الحجب، ووقوع السد على الطريق . قال الله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ [١])

والسد بين المريد وبين الحق أربعة، المال، والجاه، والتقليد، والمعصية

وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه، حتى لايبقى له إلا قدر الضرورة . فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه، فهو مقيد به، محجوب عن الله عز وجل

وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه، بالتواضع وإيثار الخمول، والهرب من أسباب الذكر، وتعاطى أعمال تنفر قلوب الخلق عنه

وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب، وأن يصدق بمعنى قوله لاإله إلا الله، محمد رسول الله، تصديق إيمان، ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى . وأعظم معبود له الهوى، حتى إذا فعل ذلك، انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا . فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة، لا من المجادلة . فإن غلب عليه التعصب لمعتقده، ولم يبق في نفسه متسع لغيره، صار ذلك قيدا له وحجابا . إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا

وأما المعصية فهي حجاب، ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم، وتصميم العزم على ترك العود، وتحقيق الندم على مامضى، ورد المظالم، وإرضاء الخصوم . فإن من لم يصحح التوبة، ولم يهجر المعاصي الظاهرة، وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرءان وتفسيره، وهو بعد لم يتعلم لغة العرب . فإن ترجمة عربية القرءان لابد من تقديمها أولا، ثم الترقي منها إلى أسرار معانيه . فكذلك لابد من تصحيح ظاهر الشريعة أولا وآخرا، ثم الترقي إلى أغوارها وأسرارها

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة، وتجرد عن المال والجاه، كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث، وصار صالحا للصلاة . فيحتاج إلى إمام يقتدى به . فكذلك المريد، يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لامحالة، ليهديه إلى سواء السبيل . فإن سبيل الدين غامض،

---
(١) يس : ٩

وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة. فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة. فمن سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير ، فقد خاطر بنفسه وأهلكها · ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها ، فإنها تجف على القرب . وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر ؛ فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه ، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد ، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعته شيئا ولا يذر . وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه لو أخطأ ، أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب

فإذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين ، يدفع عنه قواطع الطريق ، وهو أربعة أمور . الخلوة ،والصمت ،والجوع ، والسهر .وهذا تحصن من القواطع . فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ، ليشاهد به ربه ، ويصلح لقربه

أما الجوع ، فإنه ينقص دم القلب ويبيضه ، وفى بياضه نوره . ويذيب شحم الفؤاد ، وفى ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة ، كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ، ضاق مسلك العدو فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات .وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين جوعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التسترى ماصار الأبدال أبدالا إلا بأربع خصال · بإخماص البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس

ففائدة الجوع فى تنوير القلب أمر ظاهر ، يشهد له التجربة .وسيأتى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين

وأما السهر ، فإنه يجلو القلب ، ويصفيه وينوره ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذى حصل من الجوع ، فيصير القلب كالكوكب الدرى ، والمرآة المجلوة ، فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة ، وحقارة الدنيا وآفاتها · فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة .

والسهر أيضا نتيجة الجوع ، فإن السهر مع الشبع غير ممكن. والنوم يقسى القلب ويميته

الا إذا كان بقدر الضرورة ، فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قيل فى صفة الأبدال ، إن أكلهم فاقة ، ونومهم غلبة ، وكلامهم ضرورة . وقال ابراهيم الخواص رحمه الله ، أجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء

وأما الصمت ، فإنه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره ، فينبغى أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة . فإن الكلام يشغل القلب ، وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ، ويستثقل التجرد للذكر والفكر ، فيستريح إليه . فالصمت يلقح العقل ، ويجلب الورع ، ويعلم التقوى

وأما الخلوة ، ففائدتها دفع الشواغل ، وضبط السمع والبصر ، فإنهما دهليز القلب ، والقلب فى حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة ، من أنهار الحواس . ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ، ومن الطين الحاصل منها ، ليتفجر أصل الحوض ، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر . وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض ، والأنهار مفتوحة إليه ، فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص . فلابد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة فى بيت مظلم . وإن لم يكن له مكان مظلم ، فليلف رأسه فى جيبه ، أو يتدثر بكساء أو إزار ، ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة ،[1] فقيل له (يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ[1]) (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ[2])

فهذه الأربعة جنة وحصن ، بها تدفع عنه القواطع ، وتمنع العوارض القاطعة للطريق

فإذا فعل ذلك ، اشتغل بعده بسلوك الطريق . وإنما سلوكه بقطع العقبات ، ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب ، التى سببها الالتفات إلى الدنيا . وبعض تلك العقبات أعظم من بعض . والترتيب فى قطعها ، أن يشتغل بالأسهل فالأسهل ، وهى تلك الصفات

---

(١) حديث بدء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر : متفق عليه من حديث جابر جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى - الحديث : وفيه فأتيت خديجة فقلت دثرونى وصبوا على الماء باردا فدثرونى وصبوا على ماء باردا قال فنزلت يا أيها المدثر وفى رواية فقلت زملونى زملونى ولهما من حديث عائشة فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع

---

(١) المزمل : ١ (٢) المدثر : ١

أعنى أسرار العلائق ، التى قطعها فى أول الإرادة وآثارها ، أعنى المال ، والجاه ، وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق ، والتشوف إلى المعاصى . فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها ، كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة . وفيه تطول المجاهدة . ويختلف ذلك باختلاف الأحوال . فرب شخص قد كفى أكثر الصفات ، فلا تطول عليه المجاهدة . وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ، ومخالفة الهوى ، فى كل صفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره

فإذا كفى ذلك ، أو ضعف بالمجاهدة ، ولم يبق فى قلبه علاقة ، شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة ، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً ، وهو لباب الأوراد وثمرتها ، أعنى ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره . ولا يشغله به مادام قلبه ملتفتا إلى علائقه . قال الشبلى للحصرى إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التى تأتينى فيها ، إلى الجمعة الأخرى ، شيء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتينى

وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة ، واستيلاء حب الله تعالى على القلب ، حتى يكون فى صورة العاشق المستهتر ، الذى ليس له إلا هم واحد . فإذا كان كذلك ، ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ، ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال . فإن أصل طريق الدين القوت الحلال . وعند ذلك يلقنه ذكرا من الأذكار ، حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا ، الله الله ، أو سبحان الله سبحان الله ، أو مايراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه ، حتى تسقط حركة اللسان ، وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك . ثم لا يزال يواظب عليه ، حتى يسقط الأثر عن اللسان ، وتبقى صورة اللفظ فى القلب . ثم لا يزال كذلك ، حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب ، حاضرة معه ، غالبة عليه ، قد فرغ عن كل ما سواه . لأن القلب إذا شغل بشيء ، خلا عن غيره أى شيء كان . فإذا اشتغل بذكر الله تعالى ، وهو المقصود ، خلا لامحالة عن غيره

وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب ، والخواطر التى تتعلق بالدنيا ، وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره . فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو فى لحظة ،

خلا قلبه عن الذكر فى تلك اللحظة . وكان أيضا نقصانا . فليجتهد فى دفع ذلك

ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هـذه الـكلمة ، جاءته الوساوس من هـذه الـكلمة . وأنها ماهى ، وما معنى قولنا الله ، ولأى معنى كان إلها وكان معبودا . ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفـكر . وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ماهو كفر وبدعة . ومهما كان كارها لذلك ، ومتشمرا لإماطته عن القلب ، لم يضره ذلك. وهي منقسمة إلى مايعلم قطعا أن الله تعالى منزه عنه ، ولـكن الشيطان يلقى ذلك فى قلبه ، ويجريه على خاطره ، فشرطه أن لايبالى به ، ويفزع إلى ذكر الله تعالى ، ويبتهل إليه ليدفعه عنه ، كما قال تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [١]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [٢]) وإلى مايشك فيه ، فينبغى أن يعرض ذلك على شيخه . بل كل مايجد فى قلبه من الأحوال ، من فترة أو نشاط ، أو التفات إلى علقة ، أو صدق فى إرادة ، فينبغى أن يظهر ذلك لشيخه ، وأن يستره عن غيره ، فلا يطلع عليه أحدا

ثم إن شيخه ينظر فى حاله ، ويتأمل فى ذكائه وكياسته . فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق ، فينبغى أن يحيله على الفـكر ، ويأمره بملازمته، حتى يقذف فى قلبه من النور مايـكشف له حقيقته . وإن علم أن ذلك مما لايقوى عليه مثله ، رده إلى الاعتقاد القاطع ، بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه . وينبغى أن يتأنق الشيخ ويتلطف به ، فإن هـذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها . فـكم من مريد اشتغل بالرياضة ، فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه . فانقطع عليه طريقه ، فاشتغل بالبطالة ، وسلك طريق الإباحة ، وذلك هو الهلاك العظيم . ومن تجرد للذكر ، ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه ، لم يخل عن أمثال هذه الأفـكار . فإنه قد ركب سفينة الخطر . فإن سلم كان من ملوك الدين ، وإن أخطأ كان من الهالـكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

---

(١) الاعراف : ٢٠٠ (٢) الاعراف : ٢٠١

(١) « عَلَيْكُمْ بِدِينِ الْعَجَائِزِ » وهو تلقي أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد، والاشتغال بأعمال الخير . فإن الخطر في العدول عن ذلك كثير . ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المريد فإن لم يكن ذكيا فطنا، متمكنا من اعتقاد الظاهر ، لم يشغله بالذكر والفكر ، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة ، والأوراد المتواترة . أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر ، لتشمله بركتهم . فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ، ويتعهد دوابهم ، ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وتعمه بركتهم ، وإن كان لا يبلغ درجتهم

ثم المريد المتجرد للذكر والفكر ، قد يقطعه قواطع كثيرة، من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال ، وما يبدو من أوائل الكرامات . ومهما التفت إلى شيء من ذلك ، وشغلت به نفسه ، كان ذلك فتورا في طريقه ووقوفا . بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ، ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه . ويدوم على ذلك ، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة . قال بعض السياحين ، قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق ، كيف الطريق إلى التحقيق ؟ فقال أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق . وقال مرة ، قلت له دلني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام . فقال لي لا تنظر إلى الخلق ، فإن النظر إليهم ظلمة . قلت لابد لي من ذلك ، قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة . قلت لابد لي من ذلك . قال فلا تعاملهم ، فإن معاملتهم وحشة ، قلت أنا بين أظهرهم لابد لي من معاملتهم . قال فلا تسكن إليهم ، فإن السكون إليهم هلكة . قلت هذا لعلة . قال ياهذا ، أتنظر إلى الغافلين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ! هذا مالا يكون أبدا

فإذاً : منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام . ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره . ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة . فإذا حصل قلبه مع الله تعالى ، انكشف

---

(١) حديث عليكم بدين العجائز : قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديث محمد بن عبد الرحمن بن السلماني عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان في آخر الزمان واختلفت الأهواء فعليكم بدين أهل البادية والنساء وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه حب في الضعفاء في ترجمة بن السلماني والله أعلم

له جلال الحضرة الربوبية ، ويجلى له الحق ، وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف ، بل لا يحيط به الوصف أصلا . وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك؟ فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصحا ، ويتصدى للتذكير ، فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة فتدعوه تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني ، وتحسين الألفاظ المعبرة عنها ، وترتيب ذكرها ، وتزيينها بالحكايات وشواهد القرءان والأخبار ، وتحسين صنعة الكلام ، لتميل إليه القلوب والأسماع . فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق ، تدعو عباده إليه ، ومالك فيه نصيب ، ولا لنفسك فيه لذة . ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاما منه ، وأجزل لفظا ، وأقدر على استجلاب قلوب العوام . فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة ، إن كان محركه كيد القبول . وإن كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم ، فيعظم به فرحه ، ويقول الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وازرني على إصلاح عباده . كالذي وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجده ضائعا ، وتتعين عليه ذلك شرعا . فجاء من أعانه عليه ، فإنه يفرح به ، ولا يحسد من يعينه . والغافلون موتى القلوب ، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ، ففي كثرتهم استرواح وتناصر ، فينبغي أن يعظم الفرح بذلك ، وهذا عزيز الوجود جدا . فينبغي أن يكون المريد على حذر منه ، فإنه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق . فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ، ولذلك قال الله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[1]) ثم بين ان الشر قديم في الطباع ، وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال (إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ[2])

فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى

فأما تفصيل الرياضة في كل صفة ، فسيأتي . فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه وأعني به الشهوات المتعلقة بها ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات . ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج . وأنس بهما ، أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها الا بالمال

(١) الأعلى : ١٦ (٢) الأعلى : ١٨ .

والجاه . وإذا طلب المال والجاه، حدث فيه الكبر والعجب والرياسة . وإذا ظهر ذلك ، لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا ، وتمسك من الدين بما فيه الرياسة ، وغلب عليه الغرور

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين ، أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى . كتاب فى كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب فى آفات اللسان وكتاب فى كسر الغضب والحقد والحسد ، وكتاب فى ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب فى كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب فى ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب فى ذم الكبر والعجب . وكتاب فى مواقع الغرور . وبذكر هذه المهلكات ، وتعليم طرق المعالجة فيها ، يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى ،فإن ماذكرناه فى الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب ، الذى هو معدن المهلكات والمنجيات . وماذكرناه فى الكتاب الثانى ، هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ، ومعالجة أمراض القلوب. أما تفصيلها فإنه يأتى فى هذه الكتب إن شاء الله تعالى

تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

کتاب کسر الشهوتین

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال في كبريائه وتعاليه، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيل القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه ، المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده في جميع موارده ومجاريه ، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفي بأمانيه فهو الذي يرشده ويهديه ، وهو الذي يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذي يوفقه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذي يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحميه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجاري الشيطان الذي يناويه ، ويكسر به شهوة النفس التي تعاديه ، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه ، هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه ، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه ، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه ، وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه ، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه . والصلاة على محمد عبده النبيه ، ورسوله الوجيه ، صلاة تزلفه وتحظيه وترفع منزلته وتعليه ، وعلى الأبرار من عترته وأقربيه ، والأخيار من صحابته وتابعيه

أما بعد : فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار ، إلى دار الذل والافتقار إذ نهيا عن الشجرة، فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ، ومنبت الأدواء والآفات إذ يتبعها شهوة الفرج ، وشدة الشبق إلى المنكوحات . ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال ، اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات . ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات ، وضروب المنافسات والمحاسدات . ثم يتولد بينهما

آفة الرياء ، وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء . ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد ، والعداوة والبغضاء . ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء . وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة ، وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء . ولو ذلل العبد نفسه بالجوع ، وضيق مجارى الشيطان ، لأذعنت لطاعة الله عز وجل ، ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك فى الدنيا ، وإيثار العاجلة على العقبى ، ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا

وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد ، وجب شرح غوائلها وآفاتها ، تحذيراً منها ، ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها ، والتنبيه على فضلها ، ترغيبا فيها . وكذلك شرح شهوة الفرج ، فإنها تابعة لها

ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى فى فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ، ثم فوائده ، ثم طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن ، بالتقليل من الطعام والتأخير ، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته ، باختلاف أحوال الناس ، ثم بيان الرياضة فى ترك الشهوة ، ثم القول فى شهوة الفرج ، ثم بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله ، ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين

بيان

فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ فَإِنَّ الْأَجْرَ فِي ذَلِكَ كَأَجْرِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جُوعٍ وَعَطَشٍ » وقال ابن عباس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم[2] « لَا يَدْخُلُ مَلَكُوتَ

﴿ كتاب كسر الشهوتين ﴾

(١) حديث جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ابن عباس لايدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه : لم أجده أيضا

السَّماءَ مَنْ مَلأَ بَطْنَهُ » وقيل يارسول الله ، (١) أى الناس أفضل ؟ قال « مَنْ قَلَّ مَطْعَمُهُ وَضَحِكُهُ وَرَضِيَ بِمَا يَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « سَيِّدُ الأَعْمَالِ الْجُوعُ وَذُلُّ النَّفْسِ لِبَاسُ الصُّوفِ » وقال أبو سعيد الخدرى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « الْبَسُوا وَكُلُوا وَاشْرَبُوا فِي أَنْصَافِ الْبُطُونِ فَإِنَّهُ جُزْءٌ مِنَ النُّبُوَّةِ »

وقال الحسن : قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « الْفِكْرُ نِصْفُ الْعِبَادَةِ وَقِلَّةُ الطَّعَامِ هِيَ الْعِبَادَةُ » وقال الحسن أيضا ، (٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَفْضَلُكُمْ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَطْوَلُكُمْ جُوعاً وَتَفَكُّراً فِي اللهِ سُبْحَانَهُ وَأَبْغَضُكُمْ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ نَؤُومٍ أَكُولٍ شَرُوبٍ »

وفى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان يجوع من غير عوز ، أى مختارا لذلك وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبَاهِي الْمَلائِكَةَ بِمَنْ قَلَّ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ اللهُ تَعَالَى انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ابْتَلَيْتُهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الدُّنْيَا فَصَبَرَ وَتَرَكَهُمَا اشْهَدُوا يَامَلائِكَتِي مَامِنْ أَكْلَةٍ يَدَعُهَا إِلاَّ أَبْدَلْتُهُ بِهَا دَرَجَاتٍ فِي الْجَنَّةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٨) « لاَتُمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقَلْبَ كَالزَّرْعِ يَمُوتُ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٩) « مَامَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ حَسْبُ

---

(١) حديث أى الناس أفضل قال من قل طعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته : يأتى الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث

(٢) حديث سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف

(٣) حديث أبى سعيد الخدرى البسوا واشربوا وكلوا فى أنصاف البطون

(٤) حديث الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة

(٥) حديث الحسن أفضلكم عند الله أطولكم جوعا وتفكرا ـ الحديث : لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلا

(٦) حديث كان يجوع من غير عوز أى مختارا لذلك : البيهقى فى شعب الايمان من حديث عائشة قالت لوشئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه وأسناده معضل

(٧) حديث إن الله يباهى الملائكة بمن قل طعمه فى الدنيا ـ الحديث : ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الصيام

(٨) حديث لاتميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب ـ الحديث : لم أقف له على أصل

(٩) حديث ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ـ الحديث : ت من حديث المقدام وقد تقدم ،

ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلاً فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »

وفى حديث أسامة بن زيد ، وحديث أبى هريرة [١] الطويل ، ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه « إِنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ طَالَ جُوعُهُ وَعَطَشُهُ وَحُزْنُهُ فِي الدُّنْيَا الْأَخْفِيَاءُ الْأَتْقِيَاءُ الَّذِينَ إِنْ شَهِدُوا لَمْ يُعْرَفُوا وَإِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا تَعْرِفُهُمْ بِقَاعُ الْأَرْضِ وَتَحُفُّ بِهِمْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ نَعِمَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَنَعِمُوا بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَشَ النَّاسُ الْفُرُشَ الْوَثِيرَةَ وَافْتَرَشُوا الْجِبَاهَ وَالرُّكَبَ ضَيَّعَ النَّاسُ فِعْلَ النَّبِيِّينَ وَأَخْلَاقَهُمْ وَحَفِظُوهَا هُمْ تَبْكِي الْأَرْضُ إِذَا فَقَدَتْهُمْ وَيَسْخَطُ الْجَبَّارُ عَلَى كُلِّ بَلْدَةٍ لَيْسَ فِيهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ . لَمْ يَتَكَالَبُوا عَلَى الدُّنْيَا تَكَالُبَ الْكِلَابِ عَلَى الْجِيَفِ أَكَلُوا الْعُلَقَ وَلَبِسُوا الْخِرَقَ شُعْثًا غُبْرًا يَرَاهُمُ النَّاسُ فَيَظُنُّونَ أَنَّ بِهِمْ دَاءً وَمَا بِهِمْ دَاءٌ وَيُقَالُ قَدْ خُولِطُوا فَذَهَبَتْ عُقُولُهُمْ وَمَا ذَهَبَتْ عُقُولُهُمْ وَلَكِنْ نَظَرَ الْقَوْمُ بِقُلُوبِهِمْ إِلَى أَمْرِ اللهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنْهُمُ الدُّنْيَا فَهُمْ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَمْشُونَ بِلَا عُقُولٍ عَقَلُوا حِينَ ذَهَبَتْ عُقُولُ النَّاسِ لَهُمُ الشَّرَفُ فِي الْآخِرَةِ يَا أُسَامَةُ إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي بَلْدَةٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ أَمَانٌ لِأَهْلِ تِلْكَ الْبَلْدَةِ وَلَا يُعَذِّبُ اللهُ قَوْمًا هُمْ فِيهِمْ الْأَرْضُ بِهِمْ فَرِحَةٌ وَالْجَبَّارُ عَنْهُمْ رَاضٍ اتَّخِذْهُمْ لِنَفْسِكَ إِخْوَانًا عَسَى أَنْ تَنْجُوَ بِهِمْ وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ وَبَطْنُكَ جَائِعٌ وَكَبِدُكَ ظَمْآنُ فَافْعَلْ فَإِنَّكَ تُدْرِكُ بِذَلِكَ شَرَفَ الْمَنَازِلِ وَتَحُلُّ مَعَ النَّبِيِّينَ وَتَفْرَحُ بِقُدُومِ رُوحِكَ الْمَلَائِكَةُ وَيُصَلِّي عَلَيْكَ الْجَبَّارُ »

روى الحسن عن أبى هريرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال [٢] « الْبَسُوا الصُّوفَ وَشَمِّرُوا وَكُلُوا فِي أَنْصَافِ الْبُطُونِ تَدْخُلُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ » وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين ، أجيعوا أكبادكم ، وأعروا أجسادكم ، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل .

---

(١) حديث أسامة بن زيد وأبى هريرة أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه ـ الحديث بطوله الخطيب فى الزهد من حديث سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ومن طريقه : رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضا ورواه الحارث بن أبى أسامة من هذا الوجه

(٢) حديث الحسن عن أبى هريرة البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف .

وروي ذلك أيضا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، رواه طاوس

(١) وقيل مكتوب فى التوراة ، إن الله ليبغض الحبر السمين ، لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل ، وذلك قبيح . خصوصا بالحبر . ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه إن الله تعالى يبغض القارىء السمين . وفى خبر مرسل ، (٢) « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِى مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ » وفى الخبر (٣) « إِنَّ الأَكْلَ عَلَى الشِّبَعِ يُورِثُ الْبَرَصَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِى مِعًى وَاحِدٍ وَالْمُنَافِقُ يَأْكُلُ فِى سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ » أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن ، أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته . وذكر المعى كناية عن الشهوة ، لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذه المعى . وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن

وروى الحسن عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ، (٥) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَدِيمُوا قَرْعَ بَابِ الْجَنَّةِ يُفْتَحْ لَكُمْ » فقلت كيف نديم قرع باب الجنة؟ قال « بِالْجُوعِ وَالظَّمَإِ » . وروي (٦) أن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول صلى الله عليه وسلم فقال له « أَقْصِرْ مِنْ جُشَائِكَ فَإِنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ شِبَعًا فِى الدُّنْيَا » وكانت عائشة رضي الله عنها ، تقول (٧) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلىء قط شبعا وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع ، فأمسح بطنه بيدى ، وأقول نفسى لك الفداء

---

(١) حديث طاوس مرسلا أجيعوا أكبادكم ـ الحديث : لم أجده أيضا

(٢) حديث ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ـ الحديث : تقدم فى الصيام دون الزيادة التى فى آخره وذكر المصنف هنا انه مرسل والمرسل رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان من حديث على بن الحسين دون الزيادة أيضا

(٣) حديث ان الأكل على الشبع يورث البرص : لم أجد له أصلا

(٤) حديث المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء : متفق عليه من حديث عمر وحديث أبى هريره

(٥) حديث الحسن عن عائشة أديموا قرع باب الجنة ـ الحديث : لم أجده أيضا

(٦) حديث ان جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقصر من جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا: البيهقى فى الشعب من حديث أبى جحيفة وأصله عند ت وحسنه و ه من حديث ابن عمر تجشأ رجل ـ الحديث : لم يذكر أبا جحيفة

(٧) حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم لم يمتلىء شبعا قط وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع ـ الحديث: لم أجده أيضا

لو تبلغت من الدنيا بقدر مايقويك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول « يَاعَائِشَةُ إِخْوَانِي مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ قَدْ صَبَرُوا عَلَى مَاهُوَ أَشَدُّ مِنْ هذَا فَمَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ فَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُمْ فَأَجِدُنِي أَسْتَحِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يُقْصَرَ بِي غَدًا دُونَهُمْ فَالصَّبْرُ أَيَّامًا يَسِيرَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَنْقُصَ حَظِّي غَدًا فِي الْآخِرَةِ وَمَامِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِأَصْحَابِي وَإِخْوَانِي » قالت عائشة، فوالله مااستكمل بعد ذلك جمعة ، حتى قبضه الله إليه .

وعن أنس قال ،[1] جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « مَاهَذِهِ الْكِسْرَةُ ؟ » قالت قرص خبزته ، ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » وقال أبو هريرة [2] ما أشبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ أَهْلَ الْجُوعِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الشِّبَعِ فِي الْآخِرَةِ وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ الْمُتْخَمُونَ الْمَلَأَى وَمَا تَرَكَ عَبْدٌ أَكْلَةً يَشْتَهِيهَا إِلَّا كَانَتْ لَهُ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ »

وأما الآثار ، فقد قال عمر رضي الله عنه ، إياكم والبطنة ، فإنها ثقل في الحياة ، نتن في الممات . وقال شقيق البلخي ، العبادة حرفة ، حانوتها الخلوة ، وآلتها المجاعة . وقال لقمان لابنه ، يابني ، إذا امتلأت المعدة ، نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه ، أي شيء تخافين ؟ أتخافين أن تجوعي ؟ لاتخافي ذلك ؟ أنت أهون على الله من ذلك ، إنما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

---

(١) حديث أنس جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الحديث : الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسند ضعيف

(٢) حديث أبي هريرة ماشبع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا أخرجه م وقد تقدم

(٣) حديث إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة : طب وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

وكان كهمس يقول،الهى أجعتنى وأعريتنى ، وفى ظلم الليالى بلامصباح أجلستنى ، فبأى وسيلة بلغتنى ما بلغتنى ! وكان فتح الموصلى إذا اشتد مرضه وجوعه يقول ، إلهى ابتليتنى بالمرض والجوع ، وكذلك تفعل بأوليائك ، فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به علي ؟ وقال مالك ابن دينار ، قلت لمحمد بن واسع ، ياأبا عبد الله ، طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس . فقال لى ، ياأبا يحيي ، طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض

وكان الفضيل بن عياض يقول ، إلهى أجعتنى وأجعت عيالى ، وتركتنى فى ظلم الليالى بلا مصباح ، وإنما تفعل ذلك بأوليائك ، فبأى منزلة نلت هذا منك ؟ وقال يحي بن معاذ بجوع الراغبين منبهة ، وجوع التائبين تجربة ،وجوع المجتهدين كرامة ، وجوع الصابرين سياسة ، وجوع الزاهدين حكمة

وفى التوراة ، اتق الله ، وإذا شبعت فاذكر الجياع . وقال أبو سليمان ، لأن أترك لقمة من عشائى ، أحب إلي من قيام ليلة إلى الصبح . وقال أيضا ، الجوع عند الله فى خزائنه ، لا يعطيه إلا من أحبه

وكان سهل بن عبد الله التسترى يطوى نيفا وعشرين يوما لا يأكل . وكان يكفيه لطعامه فى السنة درهم . وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه ، حتى قال لايوافى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام ، إقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى أكله . وقال لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا . وقال لا أعلم شيئا أضر على طلاب الآخرة من الأكل . وقال وضعت الحكمة والعلم فى الجوع ووضعت المعصية والجهل فى الشبع . وقال ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال . وقد جاء فى الحديث[1] ثلث للطعام ، فمن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته . وسئل عن الزيادة فقال ، لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين . فإذا كان ذلك وجد الزيادة . وقال : ما صار الأبدال أبدالا إلا بإخماص البطون والسهر والصمت والخلوة . وقال : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع . ورأس كل فجور بينهما الشبع . وقال :من جوع نفسه إنقطعت عنه الوساوس . وقال : إقبال الله عز وجل

---

(١) حديث : ثلث للطعام : تقدم

على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله . وقال : اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد . وقال : ما مر على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية وإن شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام

وسئل حكيم ، بأى قيد أقيد نفسى ؟ قال قيدها بالجوع والعطش ، وذللها بإخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، وأكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها ، وأصحبها بخلاف هواها. وكان عبد الواحد ابن زيد يقسم بالله تعالى ، أن الله تعالى ماصافى أحدا إلا بالجوع ، ولا مشوا على الماء إلا به ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع

وقال أبو طالب المكى ، مثل البطن مثل المزهر ، وهو العود المجوف ذو الأوتار ، إنما حسن صوته لخفته ورقته ، ولأنه أجوف غير ممتلىء . وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة ، وأدوم للقيام ، وأقل للمنام . وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى ، ثلاثة يحبهم الله تعالى رجل قليل النوم ، قليل الأكل ، قليل الراحة .

وروى أن عيسى عليه السلام ، مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل ، فخطر بباله الخبز ، فانقطع عن المناجاة ، فإذا رغيف موضوع بين يديه . فجلس يبكى على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى بارك الله فيك ياولى الله ، ادع الله تعالى لى ، فإنى كنت فى حالة . فخطر ببالى الخبز ، فانقطعت عنى . فقال الشيخ ، اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفر لى . بل كان إذا حضر لى شىء أكلته من غير فكر وخاطر وروى أن موسى عليه السلام ، لما قربه الله عز وجل نجيا ، كان قد ترك الأكل أربعين يوما ، ثلاثين ثم عشرا ، على ماورد به القرءان ، لأنه أمسك بغير تبييت يوما ، فزيد عشرة لأجل ذلك

بيان

فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ فَإِنَّ الْأَجْرَ فِي ذَلِكَ » ولعلك تقول ، هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ، ومقاساة الأذى . فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر فى كل مايتأذى به الإنسان ، من ضربه لنفسه ، وقطعه للحمه ، وتناوله الأشياء المكروهة ، وما يجري مجراه . فاعلم أن هذا يضاهى قول من شرب دواء فانتفع به ، وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته ، فأخذ يتناول كل مايكرهه من المذاق ، وهو غلط . بل نفعه فى خاصية فى الدواء ، وليس لكونه مرا . وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء . فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء . ومن جوع نفسه مصدقا لما جاء فى الشرع من مدح الجوع ، وانتفع به ، وإن لم يعرف علة المنفعة . كما أن من شرب الدواء انتفع به ، وإن لم يعلم وجه كونه نافعا . ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقى من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ [1]) فنقول فى الجوع عشر فوائد

الفائدة الأولى : صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، وإنفاذ البصيرة . فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ، ويكثر البخار فى الدماغ ، شبه السكر ، حتى يحتوى على معادن الفكر ، فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار ، وعن سرعة الإدراك . بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه . وفسد ذهنه ، وصار بطىء الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني ، عليك بالجوع ، فإنه مذلة للنفس ، ورقة للقلب ، وهو يورث العلم السماوى

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَحْيُوا قُلُوبَكُمْ بِقِلَّةِ الضَّحِكِ وَقِلَّةِ الشِّبَعِ وَطَهِّرُوهَا بِالْجُوعِ تَصْفُوَ وَتَرِقَّ » ويقال ، مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القناعة مثل السحاب ، والحكمة

---

(١) حديث جاهدوا أنفسكم : لم يخرجه العراقى

(٢) حديث أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق : لم أجد له أصلا

---

(١) المجادلة : ١١

كالمطر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « منْ أجَاعَ بَطْنَهُ عَظُمَتْ فِكْرَتُهُ وَفَطِنَ قَلْبُهُ » وقال ابن عباس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ شَبِعَ وَنَامَ قَسَا قَلْبُهُ » ثم قال « لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الْجُوعُ » وقال الشبلي ، ماجعت لله يوما إلا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة مارأيته قط

وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة ، والاستبصار بحقائق الحق ، والشبع يمنع منه ، والجوع يفتح بابه . والمعرفة باب من أبواب الجنة. فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه ، يابنى، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو زيد البسطامى الجوع سحاب ، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « نُورُ الْحِكْمَةِ الْجُوعُ وَالتَّبَاعُدُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الشِّبَعُ وَالْقُرْبَةُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حُبُّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوُّ مِنْهُمْ لاَ تَشْبَعُوا فَتُطْفِؤُا نُورَ الْحِكْمَةِ مِنْ قُلُوبِكُمْ وَمَنْ بَاتَ فِي خِفَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ بَاتَ الْحُورُ حَوْلَهُ حَتَّى يُصْبِحَ »

الفائدة الثانية : رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة ، والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ، ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر ، حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب . وقد يرق فى بعض الأحوال ، فيعظم تأثره بالذكر ، وتلذذه بالمناجاة . وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه . وقال أبو سليمان الدارانى أحلى ما تكون إليّ العبادة إذا التصق ظهرى ببطنى . وقال الجنيد ، يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال أبو سليمان ، إذا جاع القلب وعطش ، صفا ورق . وإذا شبع عمى وغلظ . فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة ، أمر وراء تيسير الفكر ، واقتناص المعرفة ، فهى فائدة ثانية

---

(١) حديث من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه : كذلك لم أجد له أصلا

(٢) حديث من شبع ونام قساقلبه ثم قال ان لكل شيء زكاة وان زكاة الجسد الجوع : ه من حديث أبي هريرة لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم واسناده ضعيف

(٣) حديث نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عزوجل الشبع ـ الحديث : ذكره أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وكتب عليه انه مسند وهي علامة مارواه باسناده

الفائدة الثالثة : الانـكسار والذل ، وزوال البطر والفرح والأشر ، الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى . فلا تنكسر النفس ولاتذل بشىء كما تذل بالجوع . فعنده تسكن لربها ، وتخشع له ، وتقف على عجزهـا وذلها ، إذ ضعفت منتها ، وضاقت حيلتها ، بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها . وما لم يشاهـد الإنسان ذل نفسه وعجزه ، لايرى عزة مولاه ولاقهره . وإنما سعادته فى أن يكون دائما مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز ، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر . فليكن دائما جائعا ، مضطراً إلى مولاه ، مشاهداً للاضطرار بالذوق . ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى صلى الله عليه وسلم[1] قال « لَا بَلْ أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً فَإِذَا جُعْتُ صَبَرْتُ وَتَضَرَّعْتُ وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُ » أو كما قال

فالبطن والفرج باب من أبواب النار ؛ وأصله الشبع . والذل والانكسار باب من أبواب الجنة ، وأصله الجوع . ومن أغلق باباً من أبواب النار ، فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان ، كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر

الفائدة الرابعة : أن لاينسى بلاء الله وعذابه ، ولاينسى أهل البلاء . فإن الشبعان ينسى الجائع ، وينسى الجوع والعبد الفطن لايشاهد بلاء من غيره الإ ويتذكر بلاء الآخرة : فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى أنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ، ويسقون الغساق والمهل . فلاينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذى يهيج الخوف . فمن لم يكن فى ذلة ، ولا علة ، ولا قلة ، ولا بلاء نسى عذاب الآخرة ، ولم يتمثل فى نفسه ، ولم يغلب على قلبه . فينبغى أن يكون العبد فى مقاساة بلاء ، أو مشاهدة بلاء . وأولى مايقاسيه من البلاء الجوع . فإن فيه فوائد جمة ، سوى تذكر عذاب الآخرة . وهذا أحـد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البـلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل . ولذلك قيل ليوسف عليه السلام . لم تجوع وفى يديك خزائن الأرض ؟ فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . فذكر الجائعين والمحتاجين إحـدى فوائد الجوع

---

(١) حديث أجوع يوما وأشبع يوما ـ الحديث : تقدم وهو عند ت

فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام ، والشفقة على خلق الله عز وجل . والشبعان في غفلة عن ألم الجائع .

الفائدة الخامسة : وهي من أكبر الفوائد ، كسر شهوات المعاصي كلها ، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء . فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى . ومادة القوى والشهوات لامحالة الأطعمة . فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة . وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة في أن تملكه نفسه . وكما أنك لاتملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع ، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت ، فكذلك النفس . كما قيل لبعضهم ، مابالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقدانهد ؟ فقال لأنه سريع المرح ، فاحش الأشر ، فأخاف أن يجمح بي فيورطني ، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملني على الفواحش وقال ذو النون ، ما شبعت قط إلا عصيت أوهممت بمعصية . وقالت عائشة رضي الله عنها ، أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع . إن القوم لما شبعت بطونهم ، جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا

وهذه ليست فائدة واحدة ، بل هي خزائن الفوائد . ولذلك قيل ، الجوع خزانة من خزائن الله تعالى . وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام . فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان ، كالغيبة والفحش ، والكذب والنميمة وغيرها ، فيمنعه الجوع من كل ذلك . وإذا شبع ، افتقر إلى فاكهة فيتفكه لامحالة بأعراض الناس ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم

وأما شهوة الفرج ، فلا تخفى غائلتها . والجوع يكفي شرها . وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه . وإن منعته التقوى فلا يملك عينه . فالعين تزني ، كما أن الفرج يزني . فإن ملك عينه بغض الطرف ، فلا يملك فكره . فيخطر له من الأفكار الرديئة ، وحديث النفس بأسباب الشهوة ، وما يتشوش به مناجاته . وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا . وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم ، كل مريد صبر على السياسة ، فصبر على الخبز البحت سنة ، لايخلط به شيئا من الشهوات ، ويأكل في نصف بطنه ، رفع الله عنه مؤنة النساء

الفائدة السادسة : دفع النوم ، ودوام السهر . فإن من شبع شرب كثيرا ، ومن كثر شربه كثر نومه . ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام ،معاشر المريدين لاتأكلوا كثيرا ،فتشربوا كثيرا ، فترقدوا كثيرا ، فتخسروا كثيرا . وأجمع رأى سبعين صديقا ، على أن كثرة النوم من كثرة الشرب . وفى كثرة النوم ضياع العمر ، وفوت التهجد ، وبلادة الطبع ، وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر ، وهو رأس مال العبد فيه يتجر . والنوم موت ، فتكثيره ينقص العمر . ثم فضيلة التهجد لاتخفى . وفى النوم فواتها ومهما غلب النوم ، فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة . ثم المتعزب إذا نام على الشبع احتلم . ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ، ويحوجه إلى الغسل ، إما بالماء البارد فيتأذى به ، أو يحتاج إلى الحمام وربما لايقدر عليه بالليل ، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد . ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام ، وربما تقع عينه على عورة فى دخول الحمام ، فإن فيه أخطارا ذكرناها فى كتاب الطهارة . وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة . وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة ، لتعذر الغسل فى كل حال .فالنوم منبع الآفات والشبع مجلبة له ، والجوع مقطعة له

الفائدة السابعة : تيسير المواظبة على العبادة . فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات ،لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل . وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه. والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات ، لكثر ربحه . قال السرى : رأيت مع على الجرجانى سويقا يستف منه ، فقلت ماحملك على هذا ؟ قال إنى حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة . فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ ! وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لاقيمة لها ،فينبغى أن يستوفى منه خزانة باقية فى الآخرة لاآخر لها ،وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد ، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته

ومن جملته الصوم ؛ فإنه يتيسر لمن تعود الجوع . فالصوم ، ودوام الاعتكاف ، ودوام الطهارة ، وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة . وإنما يستحقرها الغافلون ، الذين لم يعرفوا قدر الدين ، لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[1])

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات ، فقد حلاوة المناجاة ، وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق ؛ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ، ودفع الأمراض . فإن سببها كثرة الأكل ، وحصول فضلة الاخلاط في المعدة والعروق . ثم المرض يمنع من العبادات ، ويشوش القلب ، ويمنع من الذكر والفكر ، وينغص العيش ، ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب . وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات ، لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات . وفي الجوع ما يمنع ذلك كله

حكي أن الرشيد جمع أربعة أطباء ، هندي ، ورومي ، وعراقي ، وسوادي ، وقال . ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه . فقال الهندي ، الدواء الذي لا داء فيه عندي ، هو الأهليلج الأسود* . وقال العراقي ، هو حب الرشاد الأبيض . وقال الرومي ، هو عندي الماء الحار . وقال السوادي ، وكان أعلمهم ، الأهليلج يعفص المعدة ، وهذا داء . وحب الرشاد يزلق المعدة ، وهذا داء . والماء الحار يرخي المعدة ، وهذا داء . قالوا فما عندك ؟ فقال الدواء الذي لا داء معه عندي ، أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه . فقالوا صدقت .

وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم[1] « ثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ » فتعجب منه وقال ، ما سمعت كلاما في قلة الطعام

---

(١) حديث ثلث للطعام : تقدم أيضا

(1) الروم : ٧ * الاهليلج ثمر منه أصفر ومنه اسود وهو البالغ النضيج

أحكم من هذا ، وإنه لكلام حكيم . وقال صلى الله عليه وسلم « [1] أَلْبِطْنَةُ أَصْلُ الدَّاءِ وَالْحِمْيَةُ أَصْلُ الدَّوَاءِ وَعَوِّدُوا كُلَّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ » وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك

وقال ابن سالم ، من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب ، لم يعتل إلا علة الموت قيل وما الأدب قال تأكل بعد الجوع ، وترفع قبل الشبع وقال بعض أفاضل الأطباء ، في ذم الاستكثار ، إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان ، وأضر ما أدخل معدته المالح ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان . وفي الحديث [2] « صُومُوا تَصِحُّوا » ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام من الأسقام ، وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما

الفائدة التاسعة : خفة المؤنة . فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير . والذي تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له ، آخذا بخنقه في كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيعصي ، أو من الحلال فيذل . وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس ، وهو غاية الذل والقماءة . والمؤمن خفيف المؤنة وقال بعض الحكماء ، إني لأقضي عامة حوائجي بالترك ، فيكون ذلك أروح لقلبي . وقال آخر ، إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة ، استقرضت من نفسي ، فتركت الشهوة ، فهي خير غريم لي .

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، يسأل أصحابه عن سعر المأكولات ؛ فيقال إنها غالية فيقول أرخصوها بالترك . وقال سهل رحمه الله ، الأكول مذموم في ثلاثة أحوال ، إن كان من أهل العبادة فيكسل . وإن كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات . وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه

وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا . وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن . وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها ، وهي أبواب النار . وفي حسمها فتح أبواب الجنة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « أَدِيمُوا قَرْعَ بَابِ الْجَنَّةِ بِالْجُوعِ » فمن قنع برغيف في كل يوم ، قنع في سائر الشهوات أيضا ، وصار حرا ،

---

(١) حديث البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاد : لم أجد له أصلا

(٢) حديث صوموا تصحوا : الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

واستغنى عن الناس ، واستراح من التعب ، وتخلى لعبادة الله عز وجل ، وتجارة الآخرة فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلهيه لا محالة

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار ، والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته ، (١) كما ورد به الخبر . فما يأكله كان خزانته الكنيف ، وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى . فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى ، أو أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى . فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع

وكان الحسن رحمة الله عليه، إذا تلا قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (١)) قال عرضها على السموات السبع الطباق ، والطرائق التى زينها بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقال لها سبحانه وتعالى ، هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال إن أحسنت جوزيت . وإن أسأت عوقبت . فقالت لا . ثم عرضها كذلك على الأرض ، فأبت ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب ، فقال لها هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ فذكر الجزاء والعقوبة ، فقالت لا . ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوما لنفسه ، جهولا بأمر ربه . فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم، فأصابوا آلافا ، فماذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم ، وضيقوا بها قبورهم ، وأسمنوا براذينهم ، وأهزلوا دينهم ، وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان ، يتعرضون للبلاء وهم من الله فى عافية ، يقول أحدهم تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا ، يتكىء على شماله ، ويأكل من غير ماله ، حديثه سخرة ، وماله حرام ، حتى إذا أخذته الكظة ، ونزلت به البطنة ، قال ياغلام ائتنى بشىء أهضم به طعامى . يالكع ، أطعامك تهضم ؟ إنما دينك تهضم . أين الفقير ؟ أين الأرملة ؟ أين المسكين ؟ أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم ؟

فهذه إشارة إلى هذه الفائدة ، وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر .

---

(١) حديث كل امرىء فى ظل صدقته : ك من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم

---

(١) الاحزاب : ٧٢

فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه . (١) ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل سمين البطن ، فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال «لَوْ كَانَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا لَكَانَ خَيْراً لَكَ» أي لو قدمته لآخرتك ، وآثرت به غيرك ، وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ، ولو شاء لأكله ، فيقول والله لاأجعل هذا كله لبطنى ، حتى أجعل بعضه لله

فهذه عشرة فوائد للجوع ، يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ، ولا تتناهى فوائدها . فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة ، وباب الزهد . والشبع مفتاح الدنيا ، وباب الرغبة . بل ذلك صريح فى الأخبار التى رويناها . وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معانى تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع ، كانت لك رتبة المقلدين فى الإيمان ، والله أعلم بالصواب

بيان

طريق الرياضة فى كسر شهوات البطن

اعلم أن على المريد فى بطنه ومأكوله أربع وظائف :

الأولى: أن لا يأكل إلا حلالا ، فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا مايجب مراعاته من درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام . وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل ، وهو تقدير قدر الطعام فى القلة والكثرة ، وتقدير وقته فى الإبطاء والسرعة ، وتعيين الجنس المأكول فى تناول المشتهيات وتركها

أما الوظيفة الأولى فى تقليل الطعام . فسبيل الرياضة فيه التدريج . فمن اعتاد الأكل الكثير ، وانتقل دفعة واحدة إلى القليل ، لم يحتمله مزاجه وضعف ، وعظمت مشقته .

---

(١) حديث نظر الى رجل سمين البطن فأومأ الى بطنه بأصبعه وقل لوكان هذا فى غيرهذا لكان خيرا لك : أحمد و ك فى المستدرك والبيهقى فى الشعب من حديث جعدة الجشمى واسناده جيد

فينبغى أن يتدرج إليه قليلا قليلا . وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلا ، وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد ، فينقص كل يوم ربع سبع رغيف . وهو أن ينقص جزأ من ثمانية وعشرين جزأ ، أوجزأ من ثلاثين جزأ . فيرجع إلى رغيف فى شهر ، ولا يستضر به ، ولا يظهر أثره : فإن شاء فعل فى ذلك بالوزن، وإن شاء بالمشاهدة . فيترك كل يوم مقدار لقمة ، وينقصه مما أكله بالأمس

ثم هذا فيه أربع درجات ، أقصاها أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه، وهو عادة الصديقين ، وهو اختيار سهل التسترى رحمة الله عليه ، إذ قال : إن الله استعبد الخلق بثلاث : بالحياة ، والعقل ، والقوة. فإن خاف العبد على اثنين منها ، وهي الحياة والعقل ، أكل ، وأفطر إن كان صائما ، وتكلف الطلب إن كان فقيرا . وإن لم يخف عليهما بل على القوة ، قال فينبغى أن لا يبالى ، ولو ضعف حتى صلى قاعدا ، ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع ، أفضل من صلاته قائما مع كثرة الأكل .

وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به ، فقال كان قوتى فى كل سنة ثلاثة دراهم ، كنت آخذ بدرهم دبسا ، وبدرهم دقيق الأرز ، وبدرهم سمنا ، وأخلط الجميع ، وأسوى منه ثلثمائة وستين أكرة ، آخذ فى كل ليلة أكرة أفطر عليها . فقيل له فالساعة كيف تأكل؟ قال بغير حد ولا توقيت . ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام

الدرجة الثانية :أن يرد نفسه بالرياضة فى اليوم والليلة إلى نصف مد ، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه منا . ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن فى حق الأكثرين كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم . وهو فوق اللقيمات ، لأن هذه الصيغة فى الجمع للقلة فهو لما دون العشرة . وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه ، إذ كان يأكل سبع لقم ، أو تسع لقم

الدرجة الثالثة : أن يردها إلى مقدار المد ، وهو رغيفان ونصف . وهذا يزيد على ثلث البطن فى حق الأكثرين ، ويكاد ينتهى إلى ثلثى البطن ، ويبقى ثلث للشراب ، ولا يبقى شيء للذكر . وفى بعض الألفاظ ، ثلث للذكر بدل قوله للنفس

الدرجة الرابعة : أن يزيد على المد إلى المن . ويشبه أن يكون ماوراء المن إسرافا ، مخالفا

لقوله تعالى (وَلاَ تُسْرِفُوا[1]) أعني في حق الأكثرين . فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن ، والشخص ، والعمل الذى يشتغل به

وههنا طريق خامس لاتقدير فيه ، ولكنه موضع غلط . وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ، ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد . ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفا أو رغيفين ، فلا يتبين له حد الجوع الصادق . ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة وقد ذكر للجوع الصادق علامات .

إحداها :أن لاتطلب النفس الأدم ، بل تأكل الخبز وحده بشهوة ، أى خبز كان .فمهما طلبت نفسه خبزا بعينه ، أو طلبت أدما ، فليس ذلك بالجوع الصادق

وقد قيل من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه . أى لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة . ومعرفة ذلك غامض .فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذى لايضعفه عن العبادة التي هو بصددها . فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته

وعلى الجملة فتقدير الطعام لايمكن ، لانه يختلف بالأحوال والأشخاص . نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعا من حنطة فى كل جمعة ، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعا ونصفا وصاع الحنطة أربعة أمداد فيكون كل يوم قريبا من نصف مد . وهو ماذكرناه أنه قدر ثلث البطن . واحتيج فى التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه . وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول : طعامى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لاأزيد عليه شيئا حتى ألقاه ، فإنى سمعته يقول[1] « أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَأَحَبُّكُمْ إِلَيَّ مَنْ مَاتَ عَلَى مَاهُوَ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ » وكان يقول فى إنكاره على بعض الصحابة ، قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ، ولم يكن ينخل . وخبزتم المرقق ، وجمعتم بين إدامين ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى آخر .ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] وكان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم . والمد رطل وثلث .

---

(١) حديث أبى ذر أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم الى من مات على ماهو عليه اليوم: أحمد فى كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية دون قوله وأحبكم الى وهو منقطع

(٢) حديث كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم: ك وصحح اسناده من حديث طلحة البصرى

---

(1) الاعراف : ٣١

ويسقط منه النوى . وكان الحسن رحمة الله عليه يقول ، المؤمن مثل العنيزة ، يكفيه الكف من الحشف ، والقبضة من السويق ، والجرعة من الماء . والمنافق مثل السبع الضارى ، بلعا بلعا وسرطا سرطا ، لا يطوى بطنه لجاره ، ولا يؤثر أخاه بفضله . وجهوا هذه الفضول أمامكم وقال سهل : لو كانت الدنيا دما عبيطا ، لكان قوت المؤمن منها حلالا . لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط

الوظيفة الثانية : فى وقت الأكل ومقدار تأخيره . وفيه أيضا أربع درجات

الدرجة العليا: أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها . وفى المريدين من رد الرياضة إلى الطي لا إلى المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوما ، وأربعين يوما . وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم ، منهم محمد بن عمرو القرنى ، وعبد الرحمن بن ابراهيم ، ورحيم ، وابراهيم التيمى ، وحجاج بن فرافصة ، وحفص العابد المصيصى ، والمسلم بن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبد الله التسترى ، وابراهيم بن أحمد الخواص

وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستة أيام . وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام . وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروي أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا . كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة قال بعض العلماء : من طوى لله أربعين يوما ، ظهرت له قدرة من الملكوت . أى كوشف ببعض الأسرار الإلهية .

وقد حكي أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب ، فذاكره بحاله ، وطمع فى إسلامه وترك ماهو عليه من الغرور . فكلمه فى ذلك كلاما كثيرا ، إلى أن قال له الراهب ، إن المسيح كان يطوى أربعين يوما ، وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبي أو صديق . فقال له الصوفى ، فإن طويت خمسين يوما تترك ما أنت عليه ؟ وتدخل فى دين الإسلام ؟ وتعلم أنه حق وأنك على باطل ؟ قال نعم . فجلس لا يبرح إلا حيث يراه ، حتى طوى خمسين يوما ، ثم قال وأزيدك أيضا . فطوى إلى تمام الستين فتعجب الراهب منه ، وقال ما كنت أظن أن أحدا يجاوز المسيح . فكان ذلك سبب إسلامه

وهذه درجة عظيمة ، قل من يبلغها إلا مكاشف محمول ، شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته

واستوفى نفسه فى لذته ، وأنساه جوعته وحاجته

الدرجة الثانية: أن يطوى يومين إلى ثلاثة: وليس ذلك خارجا عن العادة ، بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة

الدرجة الثالثة : وهى أدناها ، أن يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة . وهذا هو الأقل . وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع ، حتى لايكون له حالة جوع . وذلك فعل المترفين ، وهو بعيد من السنة . (١) فقد روى أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان إذا تغذى لم يتعش ، وإذا تعشى لم يتغد . وكان السلف يأكلون فى كل يوم أكلة . (٢) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة « إِيَّاكِ وَالسَّرَفَ فَإِنَّ أَكْلَتَيْنِ فِى يَوْمٍ مِنَ السَّرَفِ وَأَكْلَةً وَاحِدَةً فِى كُلِّ يَوْمَيْنِ إِقْتَارٌ وَأَكْلَةً فِى كُلِّ يَوْمٍ قَوَامٌ بَيْنَ ذَلِكَ وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »

ومن اقتصر فى اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحرا ، قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح ، فيحصل له جوع النهار للصيام ، وجوع الليل للقيام وخلو القلب لفراغ المعدة ، ورقة الفكر ، واجتماع الهم ، وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازعه قبل وقته . (٣) وفى حديث عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، قال ، ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط ، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماه . وما واصل وصالكم هذا قط ، غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر . وفى حديث عائشة رضي الله عنها قالت (٤) كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر

فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام ، وكان ذلك يشغله عن حضور القلب

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغد :لم أجد له أصلا

(٢) حديث قال لعائشة إياك والاسراف فان أكلتين فى يوم من السرف :البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وقال فى اسناده ضعف

(٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وان كان ليقوم حتى تزلع قدماه :رواه ن مختصرا كان يصلى حتى تزلع قدماه واسناده جيد

(٤) حديث عائشة كان يواصل الى السحر:لم أجده من فعله وانما هو من قوله فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر رواه خ من حديث أبى سعيد وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه

فى التهجد ، فالأولى أن يقسم طعامه نصفين . فإن كان رغيفين مثلا ، أكل رغيفا عند الفطر ورغيفا عند السحر ،لتسكن نفسه، ويخف بدنه عند التهجد .ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد ، وبالثانى على الصوم . ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما ، فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ، ويوم صومه وقت السحر فهذه الطرق فى مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه

الوظيفة الثالثة : فى نوع الطعام ، وترك الأدام . وأعلى الطعام مخ البر . فإن نخل فهو غاية الترفه . وأوسطه شعير منخول . وأدناه شعير لم ينخل وأعلى الأدم اللحم والحلاوة . وأدناه الملح والخل . وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم

وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الأدام على الدوام ، بل الامتناع عن الشهوات فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان فأكله ، اقتضى ذلك بطرا فى نفسه ، وقسوة فى قلبه ، وأنسا له بلذات الدنيا ، حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى . وتصير الدنيا جنة فى حقه ويكون الموت سجنا له . وإذا منع نفسه عن شهواتها ، وضيق عليها ، وحرمها لذاتها ، صارت الدنيا سجنا عليه ، ومضيقا له ، فاشتهت نفسه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقها وإليه الإشارة بقول يحيى بن معاذ حيث قال : معاشر الصديقين ، جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس ، فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس

فكل ماذكرناه من آفات الشبع فإنه يجرى فى كل الشهوات ، وتناول اللذات . فلا نطول بإعادته . فلذلك يعظم الثواب فى ترك الشهوات من المباحات ، ويعظم الخطر فى تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم [١] « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مُخَّ الْحِنْطَةِ » وهذا ليس بتحريم ، بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص ، ومن داوم عليه أيضا فلا يعصى بتناوله ، ولكن تتربى نفسه بالنعيم ، فتأنس بالدنيا ، وتألف اللذات ، وتسعى فى طلبها ، فيجرها ذلك إلى المعاصى . فهم شرار الأمة ، لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور ، تلك الأمور معاص .

---

(١) حديث شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة : لم أجد له أصلا

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ وَنَبَتَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ وَإِنَّمَا هِمَّتُهُمْ أَلْوَانُ الطَّعَامِ وَأَنْوَاعُ اللِّبَاسِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، اذكر أنك ساكن القبر ، فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات

وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة ، وتمرين النفس عليها ، ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روي أن وهب بن منبه قال التقى ملكان في السماء الرابعة ، فقال أحدهما للآخر ، من أين ؟ قال أمرت بسوق حوت من البحر إشتهاه فلان اليهودى لعنه الله . وقال الآخر ، أمرت بإهراق زيت إشتهاه فلان العابد . فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل ، وقال ، اعزلوا عني حسابها . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات ، كما أوردناه في كتاب رياضة النفس .

[2] وقد روى نافع ، أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضا ، فاشتهى سمكة طرية ، فالتمست له بالمدينة فلم توجد . ثم وجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت له بدرهم ونصف ، فشويت وحملت إليه على رغيف ، فقام سائل على الباب ، فقال للغلام لفها برغيفها وادفعها إليه . فقال له الغلام ، أصلحك الله ، قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها ، فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف ، فنحن نعطيه ثمنها فقال لفها وادفعها إليه. ثم قال الغلام للسائل ، هل لك أن تأخذ درهما وتتركها ؟ قال نعم . فأعطاه درهما ، وأخذها وأتى بها ، فوضعها بين يديه وقال ، قد أعطيته درهما وأخذتها منه . فقال لفها وادفعها إليه ، ولا تأخذ منه الدرهم ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَيُّمَا امْرِئٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ »

---

(١) حديث شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث : ابن عدي في الكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الايمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلا قال الدار قطني في العلل انه أشبه بالصواب ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة باسناد لا بأس به

(٢) حديث نافع ان ابن عمر كان مريضا فاشتهى سمكة ـ الحديث : وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرىء اشتهى شهوة فردشهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له : ابو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا سَدَدْتُ كَلْبَ الْجُوعِ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنَ الْمَاءِ الْقَرَاحِ فَعَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا الدَّمَارُ » أشار إلى أن المقصود ردّ ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما ، دون التنعم بلذات الدنيا

وبلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له ، إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني . فأعلمه فدخل عليه : فقرب عشاؤه ، فأتوه بثريد لحم ، فأكل معه عمر . ثم قرب الشواء ، وبسط يزيد يده ، وكف عمر يده وقال الله الله يا يزيد بن أبي سفيان ، أطعام بعد طعام ! والذي نفس عمر بيده ، لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم . وعن يسار بن عمير قال ، مانخلت لعمر دقيقا قط إلا وأنا له عاص

وروي أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ، ويجففه في الشمس : ثم يأكله ويقول ، كسرة وملح ، حتى يتهيأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حب كان في الشمس نهاره ، فتقول مولاة له ياعتبة ، لو أعطيتني دقيقك خبزته لك ، وبردت لك الماء ؟ فيقول لها ياأم فلان ، قد شردت عني كلب الجوع

قال شقيق بن ابراهيم ، لقيت ابراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل ، عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، يبكي وهو جالس بناحية من الطريق . فعدلت إليه ، وقعدت عنده ، وقلت إيش هذا البكاء يا أبا أسحق ؟ فقال خير . فعاودته مرة واثنتين وثلاثا ، فقال ياشقيق أستر عليّ فقلت يا أخي قل ماشئت . فقال لي ، اشتهت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجا ، فمنعتها جهدي ، حتى إذا كان البارحة ، كنت جالسا وقد غلبني النعاس ، إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ، ورائحة سكباج . قال فاجتمعت بهمتي عنه ، فقربه . وقال ياإبراهيم كل ، فقلت ماآكل ، قد تركته لله عز وجل . فقال لي قد أطعمك الله كل . فما كان لي جواب إلا أني بكيت . فقال لي كل رحمك الله . فقلت قد أمرنا أن لانطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم . فقال كل عافاك الله فإنما أعطيته ، فقيل لي ياخضر

---

(١) حديث اذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف

إذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم ، فقد رحمها الله من طول صبرها على مايحملهامن منعها ، إعلم ياإبراهيم أنى سمعت الملائكة يقولون ، من أعطى فلم يأخذ ، طلب فلم يعط ، فقلت. إن كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالى . ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ، ناوله شيئا وقال ، ياخضر لقمه أنت . فلم يزل يلقمنى حتى نعست. فانتبهت وحلاوته فى فى قال شقيق فقلت أرنى كفك ، فأخذت بكفه فقبلتها . وقلت يامن يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع ، يامن يقدح فى الضمير اليقين ، يامن يشفى قلوبهم من محبته ، أترى لشقيق عندك حالا ؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت ، بقدر هذا الكف عندك ، و بقدر صاحبه ، وبالجود الذى وجد منك ، جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك . قال فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت

وروي عن مالك بن دينار ، أنه بقى أربعين سنة يشتهى لبنا ، فلم يأكله ، وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه كلوا ، فما ذقته منذ أربعين سنة . وقال أحمد بن أبى الحوارى اشتهى أبو سليمان الدارانى رغيفا حارا بملح ، فجئت به إليه ، فعض منه عضة ثم طرحه ، وأقبل يبكى وقال ، عجلت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى واشقوتى . قد عزمت على التوبة فأقلنى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى . وقال مالك بن ضيغم ، مررت بالبصرة فى السوق ، فنظرت إلى البقل ، فقالت لى نفسى لو أطعمتنى الليلة من هذا ؟ فأقسمت أن لاأطعمها إياه أربعين ليلة .

ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ، ماأكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال ياأهل البصرة ، عشت فيكم خمسين سنة ماأكلت لكم رطبة ولا بسرة ، فما زاد فيكم مانقص منى ، ولا نقص منى مازاد فيكم ، وقال : طلقت الدنيا منذ خمسين سنة ، اشتهت نفسى لبنا منذ أربعين سنة ، فو الله لاأطعمها حتى ألحق بالله تعالى

وقال حماد بن أبى حنيفة ، أتيت داود الطائى ، والباب مغلق عليه ، فسمعته يقول ، نفسى اشتهيت جزرا فأطعمتك جزرا . ثم اشتهيت تمرا فآليت أن لاتأكليه أبدا . فسلمت ودخلت ، فإذا هو وحده . ومر أبو حازم يوما فى السوق ، فرأى الفاكهة فاشتهاها . فقال لابنه ، اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة ، لعلنا نذهب إلى الفاكهة التى لا مقطوعة

ولا ممنوعة · فلما اشتراها وأتى بها إليه ، قال لنفسه قد خدعتيني حتى نظرت واشتهيت ، وغلبتيني حتى اشتربت · والله لاذقتيه . فبعث بها إلى يتامى من الفقراء

وعن موسى الأشج أنه قال ، نفسى تشتهى ملحا جريشا منذ عشرين سنة . وعن أحمد ابن خليفة قال ، نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ، ما طلبت منى إلا الماء حتى تروى ، فما أرويتها . وروى أن عتبة الغلام اشتهى لحما سبع سنين . فلما كان بعد ذلك قال ، استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبع سنين سنة بعد سنة ، فاشتريت قطعة لحم على خبز ، وشويتها وتركتها على رغيف . فلقيت صبيا ، فقلت ألست أنت ابن فلان وقدمات أبوك ؟ قال بلى فناولته إياها . قالوا وأقبل يبكى ، يقرأ (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا[1]) ثم لم يذقه بعد ذلك . ومكث يشتهى تمرا سنين ، فلما كان ذات يوم اشترى تمرا بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه . قال فهبت ريح شديدة ، حتى أظلمت الدنيا . ففزع الناس. فأقبل عتبة على نفسه يقول ، هذا لجراءتى عليك وشرائى التمر بالقيراط . ثم قال لنفسه ، ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ، عَلَيَّ أن لا تذوقيه

واشترى داود الطائى بنصف فلس بقلا ، وبفلس خلا . وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه ويلك ياداود ، ما أطول حسابك يوم القيامة · ثم لم يأكل بعده إلا قفارا . وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى · فقال لأنك تأكل مع خبزك تمرا ، وهو لا يزيد على الخبز شيئا . قال فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة ؟ قال نعم وغيرها . فأخذ يبكى . فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينك ، أعلى التمر تبكى ؟ فقال عبد الواحد دعه ، فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك ، وهو إذا ترك شيئا لم يعاوده · وقال جعفر بن نصر ، أمرنى الجنيد أن أشترى له التين الوزيرى ، فلما اشتريته ، أخذ واحدة عند الفطور فوضعها فى فمه ، ثم ألقاها وجعل يبكى ثم قال ، احمله فقلت له فى ذلك . فقال هتف بى هاتف أما تستحى ، تركته من أجلى ثم تعود إليه

وقال صالح المرى ، قلت لعطاء السلمى ، إنى متكلف لك شيئا ، فلا ترد علىّ كرامتى. فقال افعل ما تريد · قال فبعثت إليه مع ابنى شربة من سويق ، قد لتته بسمن وعسل

---

[1] الدهر : ٨

فقلت لا تبرح حتى بشربها . فلما كان من الغد ، جعلت له نحوها ، فردها ولم يشربها . فعاقبته ولمته على ذلك ، وقلت سبحان الله رددت على كرامتى ، فلما رأى وجدى لذلك ، قال لا يسوؤك هذا . إنى قد شربتها أول مرة ، وقد راودت نفسى فى المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك ، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى (يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ [١]) الآية . قال صالح ، فبكيت وقلت فى نفسى ، أنا فى واد وأنت فى واد آخر .

وقال السرى السقطى ، نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أغمس جزرة فى دبس ، فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء ، أعرف رجلا تقول له نفسه ، أنا أصبر لك على طى عشرة أيام ، واطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها ، فيقول لها ، لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركى هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا . فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها . فقال له العابد ، مه أى شىء تصنع ؟ أما علمت أن فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة ؟ وعمل فيه كذا وكذا صانعا حتى استدار . من السحاب الذى يحمل الماء ، والماء الذى يسقى الأرض ، والرياح ، والأرض ، والبهائم ، وبنى آدم ، حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به !

وفى الخبر [١] لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك ، حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا . أولهم ميكائيل عليه السلام ، الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التى تزجى السحاب ، والشمس والقمر ، والأفلاك ، وملائكة الهواء ودواب الأرض ، وآخرهم الخباز (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [٢])

وقال بعضهم أتيت قاسما الجرعى ، فسألته عن الزهد أى شىء هو ؟ فقال أى شىء سمعت فيه ؟ فعددت أقوالا ، فسكت . فقلت وأى شىء تقول أنت ؟ فقال اعلم أن البطن دنيا العبد . فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد . وبقدر ما يملكه بطنه ، تملكه الدنيا

وكان بشر بن الحارث قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شىء يوافقه من المأكولات . فقال تسألنى فإذا وصفت لك لم تقبل منى ؟ قال صف لى حتى أسمع .

---

(١) حديث لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل ـ الحديث : لم أجد له أصلا

[١] ابراهيم : ١٧ [٢] ابراهيم : ٣٤ والنحل ١٣

قال تشرب سكنجبينا ، وتمص سفرجلا ، وتأكل بعد ذلك اسفيذباجا . فقال له بشر ، هل تعلم شيئا أقل من السكنجبين يقوم مقامه ؟ قال لا . قال أنا أعرف . قال ماهو ؟ قال الهندبا بالخل . ثم قال ، أتعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال لا . قال أنا أعرف . قال ماهو ؟ قال الخرنوب الشامى . قال فتعرف شيئا أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه ؟ قال لا . قال أنا أعرف . ماء الحمص بسمن البقر فى معناه . فقال له عبد الرحمن ، أنت أعلم منى بالطب ، فلمَ تسألنى ؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ، ومن الشبع من الأقوات . وكان امتناعهم للفوائد التى ذكرناها . وفى بعض الأوقات لأنهم كانوا لايصفو لهم الحلال ، فلم يرخصوا لأنفسهم إلا فى قدر الضرورة . والشهوات ليست من الضرورات ، حتى قال أبو سليمان: الملح شهوة ، لأنه زيادة على الخبز ، وما وراء الخبز شهوة . وهذا هو النهاية . فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لايغفل عن نفسه ، ولا ينهمك فى الشهوات . فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل مايشتهيه ، ويفعل كل مايهواه . فينبغى أن لايواظب على أكل اللحم . قال على كرم الله وجهه ، من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ، ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه . وقيل إن للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر

ومهما كان جائعا ، وتاقت نفسه إلى الجماع ، فلا ينبغى أن يأكل ويجامع ، فيعطى نفسه شهوتين ، فتقوى عليه . وربما طلبت النفس الأكل لينشط فى الجماع

ويستحب أن لاينام على الشبع ، فيجمع بين غفلتين ، فيعتاد الفتور ، ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصل ، أو ليجلس فيذكر الله تعالى ، فإنه أقرب إلى الشكر . وفى الحديث [1] « أَذِيبُوا طَعَامَكُمْ بِالذِّكْرِ وَالصَّلاَةِ وَلاَ تَنَامُوا عَلَيْهِ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ » وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات ، أو يسبح مائة تسبيحة ، أو يقرأ جزأ من القرآن عقيب أكله . فقد كان سفيان الثورى إذا شبع ليلة أحياها . وإذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر . وكان يقول ، أشبع الزنجى وكده ، ومرة يقول ، أشبع الحمار وكده

---

(١) حديث أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم: طس وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف

ومهما اشتهى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه ، فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه ، لتكون قوتا ، ولا تكون تفكها ، لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة ،نظر سهل إلى ابن سالم وفى يده خبز وتمر ، فقال له ابدأ بالتمر ، فإن قامت كفايتك به ، وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك

ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا ، فليقدم اللطيف ،فإنه لايشتهى الغليظ بعده . ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا للطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه ، لاتأكلوا الشهوات ، فإن أكلتموها فلا تطلبوها ، فإن طلبتموها فلا تحبوها . وطلبُ بعض أنواع الخبز شهوة . قال عبد الله بن عمر رحمة الله عليهما ، ماتأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز . فرأى ذلك الخبز فاكهة

وعلى الجملة ، لاسبيل إلى إهمال النفس فى الشهوات المباحات ، واتباعها بكل حال . فبقدر مايستوفى العبد من شهوته ، يخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . وبقدر مايجاهد نفسه ، ويترك شهوته ، يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته. قال بعض أهل البصرة ، نازعتنى نفسى خبز أرز وسمكا فمنعتها، فقويت مطالبتها، واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة . فلما مات قال بعضهم رأيته فى المنام ، فقلت ماذا فعل الله بك ؟ قال لاأحسن أن أصف ماتلقانى به ربى من النعم والكرامات . وكان أول شىء استقبلنى به خبز أرز وسمكا وقال كل اليوم شهوتك هنيأً بغير حساب. وقد قال تعالى (كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ [١]) وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبو سليمان ، ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . وفقنا الله لما يرضيه

بيان

اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أن المطلوب الأقصى فى جميع الأمور والأخلاق الوسط . إذ خير الأمور أوساطها . وكلا طرفى قصد الأمور ذميم . وما أوردناه فى فضائل الجوع ربما يومىء إلى أن الإفراط

(١) الحاقة : ٢٤

فيه مطلوب . وهيهات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة ، أن كل مايطلب الطبع فيه الطرف الأقصى ، وكان فيه فساد ، جاء الشرع بالمبالغة فى المنع منه ، على وجه يومىء عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة مايقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالم يدرك أن المقصود الوسط ، لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع ، فالشرع ينبغى أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثا ، والشرع مانعا ، فيتقاومان ، ويحصل الاعتدال . فإن من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد ، فيعلم أنه لا ننتهى إلى الغاية ، فإنه إن أسرف مسرف فى مضادة الطبع ، كان فى الشرع أيضا مايدل على إساءته . كما أن الشرع بالغ فى الثناء على قيام الليل ، وصيام النهار ، ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ، ويقوم الليل كله نهى عنه[1]

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لايحس بثقل المعدة ، ولايحس بألم الجوع . بل ينسى بطنه ، فلايؤثر فيه الجوع أصلا . فإن مقصود الأكل بقاء الحياة ، وقوة العبادة . وثقلُ المعدة يمنع من العبادة . وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها . فالمقصود أن يأكل أكلا لايبقى للمأكول فيه أثر ، ليكون متشبها بالملائكة ، فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع ، وغايةُ الإنسان الاقتداء بهم . وإذا لم يمكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع ، فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط ، وهو الاعتدال .

ومثال طلب الآدمى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة ، بالرجوع إلى الوسط ، مثال نملة ألقيت فى وسط حلقة محمية على النار ، مطروحة على الأرض . فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة ، وهى محيطة بها لاتقدر على الخروج منها ، فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذى هو الوسط . فلو ماتت ماتت على الوسط . لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التى فى الحلقة المحيطة . فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة ، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطمع للإنسان فى الخروج ، وهو يريد أن يتشبه بالملائكة

(١) حديث النهى عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله تقدم

فى الخلاص . فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط . فصار الوسط مطلوبا فى جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم [٢] «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا » وإليه الإشارة بقوله تعالى(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا [١])

ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع ، تيسرت له العبادة والفكر ، وخف فى نفسه وقوى على العمل مع خفته . ولكن هذا بعد اعتدال الطبع . أما فى بداية الأمر ، إذا كانت النفس جموحا ، متشوقة إلى الشهوات ، مائلة إلى الإفراط ، فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة فى إيلامها بالجوع ، كما يبالغ فى إيلام الدابة التى ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره ، إلى أن تعتدل . فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ، ترك تعذيبها وإيلامها . ولأجل هذا السر ، يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو فى نفسه . فيأمره بالجوع وهو لا يجوع . ويمنعه الفواكه والشهوات وقد لا يمتنع هو منها . لأنه قد فرغ من تأديب نفسه ، فاستغنى عن التعذيب . ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح ، والامتناع عن العبادة ، كان الأصلح لها الجوع ، الذى تحس بألمه فى أكثر الأحوال لتنكسر نفسه . والمقصود أن تنكسر حتى تعتدل ، فترد بعد ذلك فى الغذاء أيضا إلى الاعتدال وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكى طريق الآخرة ، إما صديق ، وإما مغرور أحمق

أما الصديق ، فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم ، واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق

وأما المغرور ، فلظنه بنفسه أنه الصديق المستغنى عن تأديب نفسه ، الظان بها خيرا ، وهذا غرور عظيم ، وهو الأغلب . فإن النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا ، وكثيرا ما تغتر فتنظر إلى الصديق ومسامحته نفسه فى ذلك ، فيسامح نفسه . كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه ، فيتناول ما يتناوله ، ويظن بنفسه الصحة فيهلك

والذى يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير ، فى وقت مخصوص ، ونوع مخصوص ، ليس مقصودا فى نفسه ، وإنما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق ، غير بالغة رتبة الكمال ،

---

(٢) حديث خير الامور أوساطها : البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم

(١) الاعراف : ٣١

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه . قالت عائشة رضى الله عنها [١] ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لايفطر ، ويفطر حتى نقول لايصوم . [٢] وكان يدخل على أهله فيقول « هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ شَيْءٍ » فإن قالوا نعم أكل ، وإن قالوا لا قال « إِنِّي إِذاً صَائِمٌ » [٣] وكان يقدم إليه الشيء فيقول « أَمَا إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَرَدْتُ الصَّوْمَ » ثم يأكل . [٤] وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال « إِنِّي صَائِمٌ » فقالت له عائشة رضى الله عنها ، قد أهدى إلينا حيس ، فقال « كُنْتُ أَرَدْتُ الصَّوْمَ وَلَكِنْ قَرِّبِيهِ »

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له ، كيف كنت فى بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات منها أنه كان يقتات ورق النبق مدة . ومنها أنه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين . ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم فى ثلاث سنين . فقيل له فكيف أنت فى وقتك هذا ؟ فقال آكل بلا حد ولا توقيت . وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت أنى آكل كثيرا ، بل أنى لاأقدر بمقدار واحد ما آكله

وقد كان معروف الكرخى يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل . فقيل له إن أخاك بشرا لايأكل مثل هذا . فقال إن أخى بشرا قبضه الورع ، وأنا بسطتنى المعرفة . ثم قال ، إنما أنا ضيف فى دار مولاى ، فإذا أطعمنى أكلت ، وإذا جوعنى صبرت . مالى والاعتراض والتمييز . ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال ، خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواريا . فقيل ياأبا إسحق ، بهذا كله ؟ قال ويحك ، إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال . وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ، ودعا إليه نفرا

---

(١) حديث عائشة كان يصوم حتى نقول لايفطر ويفطر حتى نقول لايصوم: متفق عليه

(٢) حديث كان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شيء فان قالوا نعم أكل وان قالوا لا قال انى صائم : د ت وحسنه و ن من حديث عائشة وهو عند م بنحوه كما سيأتى

(٣) حديث كان يقدم اليه الشيء فيقول اما انى كنت أريد الصوم : البيهقى من حديث عائشة بلفظ وان كنت قد فرضت الصوم وقال اسناده صحيح وعند م قد كنت أصبحت صائما

(٤) حديث خرج وقال انى صائم فقالت عائشة يارسول الله قد اهدى الينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قربيه م بلفظ قد كنت أصبحت صائما وفى رواية له أدنيه فلقد أصبحت صائما فأكل وفى لفظ للبيهقى انى كنت أريد الصوم ولكن قربيه

يسيرا ، فيهم الأوزاعى ، والثورى . فقال له الثورى : يا أبا إسحق ، أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ، فقال ليس فى الطعام إسراف ، إنما الإسراف فى اللباس والأثاث

فالذى أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا ، يرى هـذا من إبراهيم بن أدهم ، ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتى الملح منذ عشرين سنة ، وعن سرى السقطى أنه منذ أربعين سنة يشتهى أن يغمس جزرة فى دبس فما فعل ، فيراه متناقضا ، فيتحير ، أو يقطع بأن أحدهما مخطىء . والبصير بأسرار القول ، يعلم أن كل ذلك حق ، ولكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال .

ثم هذه الأحوال المختلفة ، يسمعها فطن محتاط ، أو غبى مغرور . فيقول المحتاط ، ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي . فليس نفسى أطوع من نفس سرى السقطى ، ومالك ابن دينار ، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات ، فيقتدى بهم : والمغرور يقول ، ما نفسى بأعصى على من نفس معروف الكرخى ، وإبراهيم بن أدهم ، فأقتدى بهم ، وأرفع التقدير فى مأكولى . فأنا أيضا ضيف فى دار مولاى ، فمالى وللاعتراض . ثم إنه لو قصر أحد فى حقه وتوقيره ، أو فى ماله وجاهه بطريقة واحدة ، قامت القيامة عليه ، واشتغل بالاعتراض . وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمق . بل رفع التقدير فى الطعام ، والصيام ، وأكل الشهوات ، لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة . فيكون بينه وبين الله عـلامة فى استرساله وانقباضه . ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل على نية ، كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا لله فى أكله وإفطاره

فينبغى أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه ، فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يحب العسل ويأكله ، ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل ، جعل يدير الإناء فى يده ويقول ، أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها ، اعزلوا عنى حسابها وتركها

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ أن يكاشف بها مريده . بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعوه إلى الاعتدال ، فإنه يقصر لا محالة عما يدعوه إليه . فينبغى أن يدعوه

---

(١) حديث كان يحب العسل ويأكله : متفق عليه من حديث عائشة كان يحب الحلواء والعسل ـ الحديث : وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه

إلى غاية الجوع ، حتى يتيسر له الاعتدال . ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة . فإن الشيطان يجد متعلقا من قلبه ، فيلقى إليه كل ساعة إنك عارف كامل ، وماالذى فاتك من المعرفة والكمال ؟ بل كان من عادة ابراهيم الخواص ، أن يخوض مع المريد فى كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا يخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل ، فينفره ذلك من رياضته . والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير ، لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفا فى سياقتهم إلى السعادة . وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء . وإذا كان حد الاعتدال خفيا فى حق كل شخص ، فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك فى كل حال

ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولده عبد الله ، إذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مأدوما بسمن ،فعلاه بالدِّرة وقال ، لاأم لك ، كُلْ يوما خبزا ولحما ، ويوما خبزا ولبنا ، ويوما خبزا وسمنا ، ويوما خبزا وزيتا ، ويوما خبزا وملحا ، ويوما خبزا قفارا . وهذا هو الاعتدال فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف . ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار . وهذا قوام بين ذلك . والله تعالى أعلم

بيان

آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان ، هما أعظم من أكل الشهوات

إحداهما : أن لاتقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ، ولكن لايريد أن يُعْرَفَ بأنه يشتهيها ، فيخفى الشهوة ، ويأكل فى الخلوة مالايأكل مع الجماعة . وهذا هو الشرك الخفى — سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد ، فسكت عنه .فقيل له هل تعلم به بأسا؟ قال يأكل فى الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذه آفة عظيمة : بل حق العبد إذا ابتلى بالشهوات وحبها أن يظهرها . فإن هذا صدق الحال ، وهو يدل عن فوات المجاهدات بالأعمال . فإن إخفاء النقص ، وإظهار ضده من الكمال ، هو نقصانان متضاعفان . والكذب مع الإخفاء كذبان . فيكون مستحقا لمقتين ، ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين ولذلك

شدد أمر المنافقين ، فقال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [١]) لأن الكافر كفر وأظهر · وهذا كفر وستر · فكان ستره لكفره كفراً آخر . لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه ، وعظم نظر المخلوقين · فمحا الكفر عن ظاهره . والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ، ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء . بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ، ويظهر من نفسه الشهوة ، إسقاطا لمنزلته من قلوب الخلق . وكان بعضهم يشترى الشهوات ويعلقها فى البيت ، وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تلبيس حاله ، ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين ، حتى لا يشوشون عليه حاله

فنهاية الزهد ، الزهد فى الزهد بإظهار ضده . وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صدقين . كما أن الأول جمع بين كذبين · وهذا قد حمل على النفس ثقلين ، وجرعها كأس الصبر مرتين . مرة بشربه ، ومرة برميه . فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . وهذا يضاهى طريق من يُعْطَى جهرا فيأخذ ، ويَرُدُّ سرا ، ليكسر نفسه بالذل جهرا ، وبالفقر سرا . فمن فاته هذا فلا ينبغى أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه ، والصدق فيه : ولا ينبغى أن يغره قول الشيطان ، إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك ، فاستره إصلاحا لغيرك . فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره . فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ، ويروجه الشيطان عليه فى معرض إصلاح غيره . فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه ، وإن علم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به فى الفعل ، أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات

الآفة الثانية : أن يقدر على ترك الشهوات ، لكنه يفرح أن يعرف به : فيشتهر بالتعفف عن الشهوات . فقد خالف شهوة ضعيفة ، وهى شهوة الأكل · وأطاع شهوة هى شر منها وهى شهوة الجاه . وتلك هي الشهوة الخفية . فمهما أحس بذلك من نفسه ، فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام . فليأكل . فهو أولى له

قال أبو سليمان ، إذا قدمت إليك شهوة ، وقد كنت تاركا لها ، فأصب منها شيئا يسيرا ولا تعط نفسك مناها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة ، وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها — وقال جعفر بن محمد الصادق ، إذا قدمت إلىّ شهوة ، نظرت

(١) النساء : ١٤٥

إلى نفسي ، فإن هي أظهرت شهوتها ، أطعمتها منها . وكان ذلك أفضل من منعها . وإن أخفت شهوتها ، وأظهرت العزوب عنها ، عاقبتها بالترك ، ولم أنلها منها شيئا . وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ، ووقع في شهوة الرياء . كان كمن هرب من عقرب ، وفزع إلى حية . لأن شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام . والله ولى التوفيق

القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين . إحداهما : أن يدرك لذته ، فيقيس به لذات الآخرة ، فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد : والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم . وليس ذلك إلا بألم محسوس ، ولذة محسوسة مدركة . فإن ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق

الفائدة الثانية : بقاء النسل ، ودوام الوجود . فهذه فائدتها . ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا ، إن لم تضبط ولم تقهر ، ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل في تأويل قوله تعالى (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ [1]) معناه شدة الغلمة . وعن ابن عباس [1] في قوله تعالى (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ [2]) قال هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه قال في تفسيره الذكر إذا دخل . وقد قيل إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه [2] « أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِي وَقَلْبِي وَهَنِي وَمَنِيِّي » وقال عليه السلام [3] « النِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ » ولولا هذه الشهوة ، لما كان للنساء سلطنة على الرجال

---

(١) حديث ابن عباس موقوفا ومسندا في قوله تعالى ومن شر غاسق اذا وقب قال هو قيام الذكر وقال الذي أسنده الذكر اذا دخل هذا حديث لا أصل له

(٢) حديث اللهم اني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومنيي تقدم في الدعوات

(٣) حديث النساء حبائل الشيطان : الاصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني باسناد فيه جهالة

---

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) الفلق : ٣

روى أن موسى عليه السلام ، كان جالسا فى بعض مجالسه ، إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا . فلما دنا منه ، خلع البرنس فوضعه ، ثم أتاه ، فقال السلام عليك ياموسى . فقال له موسى مَن أنت ؟ فقال أنا إبليس . فقال لاحياك الله . ماجاء بك ؟ قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ، ومكانتك منه . قال فما الذى رأيت عليك؟ قال برنس أختطف به قلوب بنى آدم . قال فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه ؟ قال إذا أعجبته نفسه ، واستكثر عمله ، ونسى ذنوبه . وأحذرك ثلاثا ، لاتخل بامرأة لاتحل لك، فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى ،حتى أفتنه بها ، وأفتنها به . ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به . ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها . فإنه ماأخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى ،حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول ،ياويلتاه علم موسى مايحذر به بنى آدم

وعن سعيد بن المسيب قال : ما بعث الله نبيا فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء . ولا شيء أخوف عندى منهن . ومابالمدينة بيت أدخله إلا بيتى وبيت ابنتى، أغتسل فيه يوم الجمعة ، ثم أروح . وقال بعضهم ، إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى ، وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطىء ، وأنت موضع سرى ، وأنت رسولى فى حاجتى ـ فنصف جنده الشهوة . ونصف جنده الغضب . وأعظم الشهوات شهوة النساء

وهذه الشهوة أيضا لها إفراط وتفريط واعتدال . فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة ، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين

أحدهما:أن يتناولوا ما يقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع ، كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوى المعدة ، لتعظم شهوة الطعام . وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية ، فتنام عنه فى بعض الأوقات ، فيحتال لإثارتها وتهييجها ، ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها . فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها ، فيدرك لذة بسبب الخلاص،

فإن قلت: فقد روى فى غريب الحديث، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع، فأمرنى بأكل الهريسة

فاعلم: أنه صلى الله عليه وسلم كان تحته تسع نسوة، ووجب عليه تحصينهن بالإمتاع، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن. فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع

والأمر الثانى: أنه قد تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق، وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم. لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع، وهى أقبح الشهوات، وأجدرها أن يستحيا منه، حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضى إلا من محل واحد. والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق، فتكتفى به، وهذا لا يكتفى إلا بشخص واحد معين، حتى يزداد به ذلا إلى ذل، وعبودية إلى عبودية. وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة. وقد خلق ليكون مطاعا، لا ليكون خادما للشهوة، ومحتالا لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة. وهو مرض قلب فارغ لا هم له. وإنما يجب الاحتراز من أوائله، بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإذا استحكم عسر دفعه. فكذلك عشق المال، والجاه، والعقار، والأولاد، حتى حب اللعب بالطيور، والنرد، والشطرنج، فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا، ولا يصبرون عنها ألبتة

ومثال من يكسر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله. وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب، ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين فى اليسر والعسر. فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور فأما فى أواخرها، فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد، يكاد يؤدى إلى نزع الروح. فإن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد، وهو مذموم جدا

وتفريطها بالعنة، أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة، وهو أيضا مذموم. وإنما المحمود

---

(١) حديث شكوت الى جبريل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة: العقيلى فى الضعفاء طس من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع.

أن تكون معتدلة . ومطيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها . ومهما أفرطت ، فكسرها بالجوع والنكاح . قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَعَاشِرَ الشَّبَابِ عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَالصَّوْمُ لَهُ وِجَاءٌ »

بيان

ما على المريد فى ترك التزويج وفعله

اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ، ينبغى أن لا يشغل نفسه بالتزويج . فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ، ويستجره إلى الأنس بالزوجة . ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله . ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [٢] فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما فى الدنيا عن الله تعالى ، فلا تقاس الملائكة بالحدادين . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ، وقال ، ما رأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الأول ، وقيل له مرة ، ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها ، فقال لا آنسنى الله بها ، أى أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى ، وقال أيضا ، كل ما شغلك عن الله من أهل ، ومال ، وولد ، فهو عليك مشؤم فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به ، وقد كان استغراقه بحب الله تعالى ، بحيث كان يجد احترافه فيه إلى حد كان يخشى منه فى بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قالبه فيهدمه ، فلذلك [٣] كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول « كَلِّمِينِي يَا عَائِشَةُ » لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه ، لقصور طاقة قالبه عنه ، فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل ، وكان أنسه بالخلق عارضا ، رفقا ببدنه ، ثم أنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم . فإذا ضاق صدره قال [٤] « أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ » حتى يعود إلى ما هو قرة عينه [٥] فالضعيف إذا لاحظ أحواله فى مثل هذه الأمور فهو مغرور ، لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج ـ الحديث : تقدم فى النكاح

(٢) حديث كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما فى الدنيا : تقدم

(٣) حديث كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول كلمينى يا عائشة : لم أجد له أصلا

(٤) حديث أرحنا بها يا بلال : تقدم فى الصلاة

(٥) حديث أن الصلاة كانت قرة عينه تقدم أيضا

فشرط المريد العزبة فى الابتداء إلى أن يقوى فى المعرفة . هذا إذا لم تغلبه الشهوة . فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل ،والصوم الدائم . فإن لم تنقمع الشهوة بذلك ،وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا ، وإن قدر على حفظ الفرج ،فالنكاح له أولى، لتسكن الشهوة . وإلا فمهما لم يحفظ عينه ، لم يحفظ عليه فكره ، ويتفرق عليه همه ، وربما وقع فى بلية لا يطيقها ، وزنا العين من كبار الصغائر ، وهو يؤدى على القرب إلى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج . ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه

قال عيسى عليه السلام ، إياكم والنظرة ، فإنها تزرع فى القلب شهوة ، وكفى بها فتنة وقال سعيد بن جبير ، إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ، ولذلك قال لابنه عليه السلام ، يابنى ، امش خلف الأسد والأسود ، ولا تمش خلف المرأة .وقيل ليحيى عليه السلام، مابدء الزنا ؟ قال النظر والتمنى . وقال الفضيل ، يقول إبليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لا أخطىء به . يعنى النظر

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفاً مِنَ اللهِ تَعَالَى أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيمَاناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « اتَّقُوا فِتْنَةَ الدُّنْيَا وَفِتْنَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ » وقال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (١)) الآية .وقال عليه السلام (٤) « لِكُلِّ ابْنِ آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَا فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبْلَةُ وَالْقَلْبُ يَهُمُّ أَوْ يَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ »

---

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام ابليس ــ الحديث :تقدم ايضا

(٢) حديث ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء : متفق عليه من حديث أسامة بن زيد

(٣) حديث اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء : م من حديث أبى سعيد الخدرى

(٤) حديث لكل ابن آدم حظه من الزنا فالعينان تزنيان ــ الحديث : م هو واللفظ له من حديث أبى هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه

---

(١) النور : ٣٠

(١) وقالت أم سلمة ، استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان . فقال عليه السلام « احْتَجِبَا » فقلنا أوليس بأعمى لا يبصرنا ؟ فقال « وأَنْتُمَا لَا تُبْصِرَانِهِ » ؟ وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان ، كما جرت به العادة فى المآتم والولائم ، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة . وإنما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم ، لأجل عموم الحاجة

وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ، ولم يقدر على حفظها عن الصبيان ، فالنكاح أولى به . فإن الشر فى الصبيان أكثر . فإنه لو مال قلبه إلى امرأة ، أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح . والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة حرام . بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى ، لم يحل له النظر إليه

فإن قلت : كل ذى حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة ، ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة

فأقول : لست أعنى تفرقة العين فقط . بل ينبغى أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة ، وبين ماء صاف وماء كدر . وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها . فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ، ولكن ميلا خاليا عن الشهوة . ولأجل ذلك لا يشتهى ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ، ولا تقبيل الماء الصافى . وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها ، وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ، ولكنها تفرقة لا شهوة فيها . ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة فمهما وجد ذلك الميل فى قلبه ، وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل ، وبين النبات الحسن ، والأثواب المنقشة ، والسقوف المذهبة ، فنظره نظر شهوة ، فهو حرام . وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون

قال بعض التابعين : ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشاب الناسك ، من غلام أمرد يجلس إليه . وقال سفيان ، لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله ، يريد الشهوة ، لكان لوطا . وعن بعض السلف قال : سيكون فى هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون

---

(١) حديث أم سلمة استأذن ابن أم مكتوم الاعمى وانا وميمونة جالستان فقال احتجبا ـ الحديث : د ن ت وقال حسن صحيح .

صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون

فإذاً آفة النظر إلى الأحداث عظيمة فمهما عجز المريد عن غض بصره ، وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح ، فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع

وقال بعضهم : غلبت عليّ شهوتى فى بدء إرادتى عالم أطق : فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى . فرأيت شخصا فى المنام ، فقال مالك ؟ فشكوت إليه ، فقال تقدم إلى ، فتقدمت إليه . فوضع يده على صدرى ، فوجدت بردها فى فؤادى وجميع جسدى . فأصبحت وقد زال مابى . فبقيت مُعافى سنة . ثم عاودنى ذلك ، فأكثرت الاستغاثة ، فأتانى شخص فى المنام فقال لى أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك ؟ قلت نعم . فقال مد رقبتك ، فمددتها فجرد سيفا من نور ، فضرب به عنقى ، فأصبحت وقد زال مابى ، فبقيت مُعافى سنة . ثم عاودنى ذلك أو أشد منه ، فرأيت كأن شخصا فيما بين جنبى وصدرى يخاطبنى ويقول ، ويحك كم تسأل الله تعالى رفع مالا يحب رفعه ! قال فتزوجت ، فانقطع ذلك عنى ، وولد لى

ومهما احتاج المريد إلى النكاح ، فلا ينبغى أن يترك شرط الإرادة فى ابتداء النكاح ودوامه . أما فى ابتدائه ، فبالنية الحسنة . وفى دوامه بحسن الخلق ، وسداد السيرة ، والقيام بالحقوق الواجبة ، كما فصلنا جميع ذلك فى كتاب آداب النكاح ، فلا نطول بإعادته . وعلامة صدق إرادته ، أن ينكح فقيرة متدينة ، ولا يطلب الغنية .

قال بعضهم . من تزوج غنية كان له منها خمس خصال ، مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف ، وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم ، ينبغى أن تكون المرأة دون الرجل بأربع ، وإلا استحقرته ، بالسن ، والطول ، والمال ، والحسب ، وأن تكون فوقه بأربع ، بالجمال ، والأدب ، والورع ، والخلق . وعلامة صدق الإرادة فى دوام النكاح الخلق

تزوج بعض المريدين بامرأة ، فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة ، وشكت ذلك إلى أبيها ، وقالت قد تحيرت فى هذا الرجل . أنا فى منزله منذ سنين ، ما ذهبت إلى الخلاء قط ، إلا وحمل الماء قبلى إليه

وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال . فلما قرب زفافها ، أصابها الجدرى . فاشتد حزن

أهلها لذلك ، خوفا من أن يستقبحها . فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب ، حتى زفت إليه ، فزال عنهم الحزن . فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت . ففتح عينيه حين ذلك . فقيل له في ذلك ، فقال تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا . فقيل له قد سبقت إخوانك بهذا الخلق

وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق . فكان يصبر عليها . فقيل له لمَ لا تطلقها ؟ فقال أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها ، فيتأذى بها

فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون . وإن قدر على الترك فهو أولى له، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق ، وعلم أن ذلك يشغله عن حاله

كما روى أن محمدا بن سليمان الهاشمي ، كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم . فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها . فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى . فكتب إليها ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم ، وليس تمضي الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها . فأجيبيني . فكتبت إليه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن . فإذا أتاك كتابي هذا ، فهيء زادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك ، فيقتسموا تراثك . فصم الدهر ، وليكن فطرك الموت . وأما أنا ، فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضعافه ، ما سرني أن أشتغل عن الله طرفة عين . وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان

فلينظر المريد إلى حاله وقلبه . فإن وجده في العزوبة ، فهو الأقرب . وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به . ودواء هذه العلة ثلاثة أمور ، الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال بشغل يستولي على القلب . فإن لم تنفع هذه الثلاثة ، فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح ، وإلى تزويج البنات . قال سعيد بن المسيب، ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء ، وقال سعيد أيضا ، وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه ، وهو يعشو بالأخرى ، ما شيء أخوف عندي من النساء

وعن عبد الله بن أبي وداعة ، قال كنت أجالس سعيد بن المسيب ، فتفقدنى أياما ، فلما أتيته ، قال ، أين كنت ؟ قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها . فقال هلا أخبرتنا فشهدناها قال ثم أردت أن أقوم ، فقال هل استحدثت امرأة ؟ فقلت يرحمك الله تعالى ، ومَن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال أنا ، فقلت وتفعل ؟ قال نعم . فحمد الله تعالى ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة . قال فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح . فصرت إلى منزلى ، وجعلت أفكر ممن آخذ ، وممن أستدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلى ، فأسرجت ، وكنت صائما ، فقدمت عشائى لأفطر وكان خبزا وزيتا ، وإذا بابى يقرع . فقلت . مَن هذا؟ قال سعيد . قال فأفكرت فى كل إنسان اسمه سعيد ، إلا سعيد بن المسيب . وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد قال فخرجت إليه ، فإذا به سعيد بن المسيب . فظننت أنه قد بداله . فقلت . يا أبا محمد ، لو أرسلت إلىّ لأتيتك . فقال . لا ، أنت أحق أن تؤتى . قلت فما تأمر ؟ قال إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت ، فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه امرأتك . وإذا هى قائمة خلفه فى طوله . ثم أخذ بيدها ، فدفعها فى الباب ورده . فسقطت المرأة من الحياء . فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت ، فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه . ثم صعدت السطح ، فرميت الجيران ، فجاؤنى . وقالوا ما شأنك ؟ قلت ويحكم ! زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها الليلة على غفلة . فقالوا أو سعيد زوجك ؟ قلت نعم . قالوا وهى فى الدار ؟ قلت نعم . فنزلوا إليها . وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت ، وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام . قال فأقمت ثلاثا ؟ ثم دخلت بها ، فإذا هى من أجمل النساء . وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج . قال فمكثت شهرا لا يأتينى سعيد ولا آتيه . فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته ، فسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ، ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس . فقال : ما حال ذلك الإنسان . فقلت : بخير يا أبا محمد ، على ما يحب الصديق ويكره العدو ، وقال إن رابك منه أمر فدونك والعصا . فانصرفت إلى منزلى ، فوجه إلىّ بعشرين ألف درهم

قال عبد الله بن سليمان ، وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك ابن مروان ، لابنه الوليد ، حين ولاه العهد . فأبى سعيد أن يزوجه . فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد ، حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء ، وألبسه جبة صوف

فاستعجال سعيد في الزفاف تلك الليلة ، يعرفك غائلة الشهوة ، ووجوب المبادرة في الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح ، رضي الله تعالى عنه ورحمه .

بيان

فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان ، وأعصاها عند الهيجان على العقل ، إلا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ، ويخشى من اقتحامه . وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز ، أو لخوف ، أو لحياء ، أو لمحافظة على جسمه ، وليس في شيء من ذلك ثواب ، فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر . نعم من العصمة أن لا يقدر ، ففي هذه العوائق فائدة ، وهي دفع الإثم ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأي سبب كان تركه . وإنما الفضل والثواب الجزيل ، في تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيما عند صدق الشهوة . وهذه درجة الصديقين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ » وقال عليه السلام [2] « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ » وعد منهم رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها ، فقال إني أخاف الله رب العالمين .

وقصة يوسف عليه السلام ، وامتناعه من زليخا ، مع القدرة ، ومع رغبتها ، معروفة . وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز ، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة

---

(١) حديث من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد : خ في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد ابن سعيد ثم قال يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي فرس ورمح غزوت سويدا رواه الخرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر

(٢) حديث سبعة يظلهم الله في ظله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

وروى أن سليمان بن يسار ، كان من أحسن الناس وجها . فدخلت عليه امرأة ، فسألته نفسه ، فامتنع عليها ، وخرج هاربا من منزله وتركها فيه ، قال سليمان ، فرأيت تلك الليلة فى المنام يوسف عليه السلام ، وكأنى أقول له أنت يوسف ؟ قال نعم ، أنا يوسف الذى هممت ، وأنت سليمان الذى لم تهم . أشار إلى قوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ [1]) وعنه أيضا ماهو أعجب من هذا ، وذلك أنه خرج من المدينة حاجا ، ومعه رفيق له ، حتى نزلا بالإيواء ، فقام رفيقه وأخذ السفرة ، وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئا . وجلس سليمان فى الخيمة ، وكان من أجمل الناس وجها ، وأورعهم . فبصرت به أعرابية من قلة الجبل ، وانحدرت إليه ، حتى وقفت بين يديه ، وعليها البرقع والقفازان . فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر . وقالت أهنئنى . فظن أنها تريد طعاما . فقالت لست أريد هذا إنما أريد مايكون من الرجل إلى أهله . فقال جهزك إلىّ إبليس. ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ فى النحيب . فلم يزل يبكى. فلما رأت منه ذلك ، سدلت البرقع على وجهها، وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها . وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء ، وانقطع حلقه . فقال مايبكيك ؟ قال خير ، ذكرت صبيتى قال لا والله ، إلا أن لك قصة . إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها . فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية . فوضع رفيقه السفرة، وجعل يبكى بكاء شديدا. فقال سليمان ، وأنت مايبكيك ؟ قال أنا أحق بالبكاء منك ، لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزالا يبكيان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة ، فسعى وطاف ثم أتى الحجر . فاحتبى بثوبه ، فأخذته عينه فنام ، وإذا رجل وسيم طوال له إشارة حسنة ، ورائحة طيبة ، فقال له سليمان رحمك الله ، مَن أنت ؟ قال له أنا يوسف الصديق ؟ قال نعم ، قال ان فى شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا ، فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الإيواء أعجب

وروى عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يقول « أَنْطَلَقَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوا فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ

(١) حديث ابن عمر انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم البيت الى غار فذكر الحديث بطوله: رواه خ

(١) يوسف : ٢٤

تَدْعُوا اللهَ تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلَا مَالاً فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْماً فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَمَالاً فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ فِي يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ حَوْلَ قَدَمِي فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئاً لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ

وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ فَرَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا مِائَةً وَعِشْرِينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا . اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا

وَقَالَ الثَّالِثُ : اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وَأَعْطَيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهُ تَرَكَ الْأَجْرَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَنَمَّيْتُ لَهُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ أَعْطِنِي أَجْرِي فَقُلْتُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ أَتَهْزَأُ بِي ؟ فَقُلْتُ لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَخُذْهُ فَاسْتَاقَهُ وَأَخَذَهُ كُلَّهُ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ . فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ »

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوات فعف . وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين . فإن العين مبدأ الزنا . فحفظها مهم : وهو عسر ، من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه . والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها، والمعاودة يؤاخذ بها. قال صلى الله عليه وسلم[1] « لَكَ الْأُولَى وَعَلَيْكَ الثَّانِيَةُ » أي النظرة .

---

(١) حديث لك الاولى وليست لك الثانية : أي النظرة د ت من حديث بريدة قاله لعلي قال ت حديث غريب

وقال العلاء بن زياد : لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع فى القلب شهوة .

وقلما يخلو الإنسان فى تردداه عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة · وعنده ينبغى أن يقرر فى نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل فإنه إن حقق النظر فاستحسن ، ثارت الشهوة ، وعجز عن الوصول ، فلا يحصل له إلا التحسر وإن استقبح ، لم يلتذ وتألم لأنه قصد الالتذاذ ، فقد فعل ما آلمه . فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية ، وعن تألم ، وعن تحسر . ومهما حفظ العين بهذا الطريق ، اندفع عن قلبه كثير من الآفات . فإن أخطأت عينه ، وحفظ الفرج مع التمكن ، فذلك يستدعى غاية القوة ، ونهاية التوفيق

فقد يروى عن أبى بكر بن عبد الله المزنى ، أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها فى حاجة لهم إلى قرية أخرى ، فتبعها ، وراودها عن نفسها ، فقالت له : لا تفعل لأنا أشد حبا لك منك لى ، ولكنى أخاف الله . قال فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ! فرجع تائبا · فأصابه العطش حتى كاد يهلك . فإذا هو برسول لبعض أنبياء بنى اسرائيل ، فسأله ، فقال مالك ؟ قال العطش . قال تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية . قال مالى من عمل صالح فأدعو ، فادع أنت . قال أنا أدعو وأمّن أنت على دعائى . فدعا الرسول ، وأمّن هو ، فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية . فأخذ القصاب إلى مكانه ، فمالت السحابة معه . فقال له الرسول ، زعمت أن ليس لك عمل صالح ، وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت ، فأظلتنا سحابة ، ثم تبعتك · لتخبرنى بأمرك . فأخبره فقال الرسول إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه

وعن أحمد بن سعيد العابد ، عن أبيه ، قال . كان عندنا بالكوفة شاب متعبد ، لازم المسجد الجامع ، لا يكاد يفارقه . وكان حسن الوجه ، حسن القامة ، حسن السمت . فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل ، فشغفت به ، وطال عليها ذلك . فلما كان ذات يوم ، وقفت له على الطريق ، وهو يريد المسجد . فقالت له يافتى ، اسمع منى كلمات أكلمك بها ، ثم اعمل ماشئت . فمضى ولم يكلمها · ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه ، وهو يريد منزله . فقالت له يافتى ، اسمع منى كلمات أكلمك بها . فأطرق مليا وقال لها ، هذا موقف تهمة ، وأنا أكره

أن أكون للتهمة موضعا. فقالت له: والله ماوقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ؛ ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا مني . والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي ، لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها . وجملة ماأقول لك : أن جوارحي كلها مشغولة بك . فالله الله في أمري وأمرك . قال فمضى الشاب إلى منزله ، وأراد أن يصلي، فلم يعقل كيف يصلي . فأخذ قرطاسا وكتب كتابا ، ثم خرج من منزله ، وإذا بالمرأة واقفة في موضعها . فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، إعلمي أيتها المرأة ، أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم ، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه ، غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب . فمن ذا يطيق غضبه ؟ فإن كان ماذكرت باطلا ، فإني أذكرك يوما تكون السماء فيه كالمهل ، وتصير الجبال كالعهن ، وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم . وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري . وإن كان ماذكرت حقا ، فإني أدلك على طبيب هدى ، يداوي الكلوم المرضة ، والأوجاع الرمضة . ذلك الله رب العالمين . فاقصديه بصدق المسألة ، فإني مشغول عنك بقوله تعالى (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ[1]) فأين المهرب من هذه الآية ، ثم جاءت بعد ذلك بأيام ، فوقفت له على الطريق ، فلما رآها من بعيد ، أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها . فقالت يافتى لاترجع ، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا إلا غدا بين يدى الله تعالى . ثم بكت بكاء شديدا ، وقالت أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك ، أن يسهل ما قد عسر من أمرك . ثم إنها تبعته ، وقالت امنن علي بموعظة أحملها عنك ، وأوصني بوصية أعمل عليها . فقال لها أوصيك بحفظ نفسك ، من نفسك ، وأذكرك قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ[2]) قال فأطرقت وبكت بكاء شديدا أشد من بكائها الأول ، ثم أنها أفاقت ، ولزمت بيتها ، وأخذت

---

(1) غافر : ١٨ (2) الانعام : ٥٩

في العبادة ، فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدا . فكان الفتى بعد ذلك كرها بعد موتها ثم يبكي ، فيقال له مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك ؟ فيقول ، إني قد ذبحت طمعها في أول أمرها ، وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى ، فأنا أستحي منه أن أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا ، وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه ، وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء ، وسلم تسليما كثيرا .

کتاب آفات اللسان

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدّله ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ، ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، ويكشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله : من علم حصله ، ونطق سهله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ، ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله ، وأسمى فضله ، وبين سبله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ، ما كبر الله عبد وهلله

أما بعد: فإن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة . فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه . إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان ، وهما غاية الطاعة والعصيان . ثم إنه ما من موجود أو معدوم ، خالق أو مخلوق ، متخيل أو معلوم ، مظنون أو موهوم ، إلا واللسان يتناوله ، ويتعرض له بإثبات أو نفى . فإن كل ما يتناوله العلم ، يعرب عنه اللسان ، إما بحق أو باطل . ولا شىء إلا والعلم متناول له . وهذه خاصية لا توجد فى سائر الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء . واللسان رحب الميدان ، ليس له مرد ، ولا لمجاله منتهى وحد ، له فى الخير مجال رحب ، وله فى الشر ذيل سحب . فمن أطلق عذبة اللسان ، وأهمله مرخى العنان ، سلك به الشيطان فى كل ميدان ، وساقه إلى شفا جرف هار ، إلى أن يضطره إلى البوار . ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة

ويكفه عن كل مايخشى غائلته فى عاجله وآجله

وعلم مايحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم ،غامض عزيز ،والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير . وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان ، فإنه لاتعب فى إطلاقه ، ولا مؤنة فى تحريكه وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذر من مصائده وحبائله. وأنه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره ، نفصل مجامع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة ، بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار فى ذمها ، فنذكر أولا فضل الصمت . ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعنى، ثم آفة فضول الكلام ثم آفة الخوض فى الباطل، ثم آفة المراء والجدال ثم آفة الخصومة ثم آفة التقعر فى الكلام، بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيه، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، ثم آفة اللعن ، إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، ثم آفة الغناء بالشعر ، وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحل فلا نعيده ، ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة إفشاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم آفة الكذب فى القول واليمين ، ثم بيان التعاريض فى الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النميمة ، ثم آفة ذى اللسانين ، الذى يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل ، وعن كلامه ، وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة ، وهى آخر الآفات ، ومايتعلق بذلك ، وجملتها عشرون آفة ، ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

بيان

عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم . ولا نجاة من خطره إلا بالصمت . فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ صَمَتَ نَجَا » وقال عليه السلام

---

(١) حديث من صمت نجا: ت من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبرانى بسند جيد

(١) « الصَّمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ » أى حكمة وحزم . (٢) وروى عبد الله بن سفيان ، عن أبيه قال: قلت يارسول الله ، أخبرنى عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال « قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » قال قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه . (٣) وقال عقبة بن عامر ، قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » (٤) وقال سهل بن سعد الساعدى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي بِمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ وُقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ وَلَقْلَقِهِ فَقَدْ وُقِيَ الشَّرَّ كُلَّهُ » القبقب هو البطن ، والذبذب الفرج ؟ واللقلق اللسان . فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان ، لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج (٦) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر مايدخل الناس الجنة ، فقال « تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » وسئل عن أكبر مايدخل النار فقال « الْأَجْوَفَانِ الْفَمُ وَالْفَرْجُ » فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ، فقد قال (٧) معاذ بن جبل ، قلت يارسول الله ، أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ جَبَلٍ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ »

---

(١) حديث الصمت حكمة وقليل فاعله: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال والصحيح عن أنس ان لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب روضة العقلاء بسند صحيح الى أنس

(٢) حديث سفيان الثقفى اخبرنى عن الاسلام بامر لاأسأل عنه أحدا بعدك ـ الحديث: ت وصححه و ن ه وهو عند م دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان

(٣) حديث عقبة بن عامر قلت يارسول الله ماالنجاة قال أملك عليك لسانك ـ الحديث : ت وقال حسن

(٤) حديث سهل بن سعد من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة رواه خ

(٥) حديث من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه ـ الحديث: أبو منصور الديلمى من حديث انس بسند ضعيف بلفظ فقد وجبت له الجنة

(٦) حديث سئل عن أكثر مايدخل الجنة ـ الحديث : ت وصححه و ه من حديث أبى هريرة

(٧) حديث معاذ قلت يارسول الله انؤخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم الاحصائد ألسنتهم : ت وصححه و ه ك وقال صحيح على شرط الشيخين

(١) وقال عبد الله الثقفى « قلت يارسول الله ، حدثنى بأمر أعتصم به ، فقال « قُلْ رَبِّىَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ » قلت يارسول الله ، ماأخوف ماتخاف علىّ؟ فأخذ بلسانه وقال « هَذَا »

(٢) وروى أن معاذا قال . يارسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ، ثم وضع عليه أصبعه . (٣) وقال أنس بن مالك ، قال صلى الله عليه وسلم « لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ الْعَبْدِ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْلَمَ فَلْيَلْزَمِ الصَّمْتَ » وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (٥) « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتِ الْأَعْضَاءُ كُلُّهَا تُذَكِّرُ اللِّسَانَ أَيْ تَقُولُ اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا »

(٦) وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه بيده ، فقال له ماتصنع ياخليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردنى الموارد . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْجَسَدِ إِلاَّ يَشْكُو إِلَى اللهِ اللِّسَانَ عَلَى حِدَّتِهِ »

---

(١) حديث عبد الله الثقفى قلت يارسول الله حدثنى بامر اعتصم به ـ الحديث : رواه ن قال ابن عساكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقفى كما رواه ت وصححه هـ وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث

(٢) حديث ان معاذا قال يارسول الله أى الاعمال أفضل فاخرج لسانه ثم وضع يده عليه : الطبرانى وابن أبى الدنيا فى الصمت وقال أصبعه مكان يده

(٣) حديث أنس لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الاخلاق بسند فيه ضعف

(٤) حديث من سره أن يسلم فليلزم الصمت : ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الاعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف

(٥) حديث إذا أصبح ابن آدم أصبحت الاعضاء كلها تذكر اللسان ـ الحديث : ت من حديث أبى سعيد الخدرى رفعه ووقع فى الاحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وانما هو عن سعيد بن جبير عن أبى سعيد رفعه ورواه ت موقوفا على عماد بن زيد وقال هذا أصح

(٦) حديث ان عمر اطلع على أبى بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع ياخليفة رسول الله قال ان هذا أوردنى الموارد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شىء من الجسد الايشكو إلى الله عزوجل اللسان على حدته ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو يعلى فى مسنده والدارقطنى فى العلل والبيهقى فى الشعب من رواية أسلم مولى عمر وقال الدارقطنى ان المرفوع وهم على الدار وردى قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ولا علة له

(١) وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول ، يالسان قل خيرا تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم . فقيل له ياأبا عبد الرحمن ، أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال لا ، بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ » (٢) وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ وَقَاهُ اللهُ عَذَابَهُ وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ »

(٣) وروى أن معاذ بن جبل قال يارسول الله أوصني. قال « اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمَا هُوَ أَمْلَكُ لَكَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ » وأشار بيده إلى لسانه (٤) وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ الْعِبَادَةِ وَأَهْوَنِهَا عَلَى الْبَدَنِ الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » (٥) وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خيراً أَوْ لِيَسْكُتْ » (٦) وقال الحسن ، ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رَحِمَ اللهُ عَبْداً تَكَلَّمَ فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ »

وقيل لعيسى عليه السلام ، دلنا على عمل ندخل به الجنة . قال لاتنطقوا أبدا . قالوا لانستطيع ذلك ، فقال فلا تنطقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام ، إن كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب

---

(١) حديث ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول يالسان قل خيرا تغنم وفيه مرفوعا ان أكثر خطايا ابن آدم في لسانه : الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن

(٢) حديث ابن عمر من كف لسانه ستر الله عورته ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن

(٣) حديث ان معاذا قال أوصني قال اعبدالله كانك تراه ـ الحديث : ابن ابي الدنيا في الصمت وطب ورجاله ثقات وفيه انقطاع

(٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعا ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ابن أبي الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا

(٥) حديث أبي هريره من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليقل خيرا أو ليسكت متفق عليه

(٦) حديث الحسن ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم : ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل بن عياش عن الحجازيين

(١) وعن البراء بن عازب قال ، جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، دلنى على عمل يدخلنى الجنة . قال « أَطْعِمِ الْجَائِعَ وَاسْقِ الظَّمْآنَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أُخْزُنْ لِسَانَكَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ » وقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ فَلْيَتَّقِ اللهَ امْرُؤٌ عَلِمَ مَا يَقُولُ » وقال عليه السلام (٣) « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتاً وَقُوراً فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةَ » (٤) وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النَّاسُ ثَلاَثَةٌ غَانِمٌ وَسَالِمٌ وَشَاحِبٌ فَالْغَانِمُ الَّذِى يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى وَالسَّالِمُ السَّاكِتُ وَالشَّاحِبُ الَّذِى يَخُوضُ فِى الْبَاطِلِ » وقال عليه السلام (٥) « إِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ وَرَاءَ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِشَىْءٍ تَدَبَّرَهُ بِقَلْبِهِ ثُمَّ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ وَإِنَّ لِسَانَ الْمُنَافِقِ أَمَامَ قَلْبِهِ فَإِذَا هَمَّ بِشَىْءٍ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَتَدَبَّرْهُ بِقَلْبِهِ »

وقال عيسى عليه السلام ، العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت ، وجزء فى الفرار من الناس

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٦) « مَنْ كَثُرَ كَلاَمُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ »

الآثار : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يضع حصاة فى فيه ، يمنع بها نفسه عن الكلام

---

(١) حديث البراء جاء اعرابى فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال أطعم الجائع ـ الحديث : ابن ابى الدنيا باسناد جيد

(٢) حديث اخزن لسانك الا من خير ـ الحديث : طس من حديث أبى سعيد وله فى المعجم الكبير ولابن حبان فى صحيحه نحوه من حديث أبى ذر

(٣) حديث إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقى الحكمة : ه من حديث أبى خلاد بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقد تقدم

(٤) حديث ابن مسعود الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب ـ الحديث : الطبرانى وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ المجالس وضعفه ابن عدى ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود

(٥) حديث ان لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ـ الحديث : لم أجده مرفوعا وانما رواه الخرائطى فى مكارم الاخلاق من رواية الحسن البصرى قال كانوا يقولون

(٦) حديث من كثر كلامه كثر سقطه ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من جديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى روضة العقلاء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب

وكان يشير إلى لسانه ويقول ، هذا الذى أوردنى الموارد . وقال عبد الله بن مسعود والله الذى لا إله إلا هو ، ماشيء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس ، لسانى سبع ، إن أرسلته أكلنى . وقال وهب بن منبه فى حكمة آل داود ، حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه، حافظا للسانه، مقبلا على شانه. وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه

وقال الأوزاعى ، كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله، أما بعد ، فإن من أكثر ذكر الموت ، رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه . وقال بعضهم ، الصمت يجمع للرجل فضيلتين ، السلامة فى دينه ، والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار ، ياأبا يحيى ، حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد ، ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال ، إلا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله

وقال الحسن : تكلم قوم عند معاوية رحمه الله ، والأحنف بن قيس ساكت . فقال له مالك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ فقال له ، أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت

وقال أبو بكر بن عياش ، اجتمع أربعة ملوك ، ملك الهند، وملك الصين ، وكسرى، وقيصر . فقال أحدهم ، أنا أندم على ما قلت ، ولا أندم على مالم أقل . وقال الآخر ، إنى إذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى . وقال الثالث ،عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته ، وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع ، أنا على ردمالم أقل أقدر منى على رد ما قلت

وقيل أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ماتكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة . وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما . فكل ما تكلم به كتبه ، ثم يحاسب نفسه عند المساء

فإن قلت :فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان ، من الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء والنفاق ، والفحش ، والمراء ، وتزكية النفس ، والخوض فى الباطل، والخصومة ، والفضول والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وإيذاء الخلق ، وهتك العورات

فهذه آفات كثيرة ، وهي سباقة إلى اللسان ، لا تثقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان ، فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب ، فإن ذلك من غوامض العلم كما سيأتي تفصيله ففي الخوض خطر ، وفي الصمت سلامة . فلذلك عظمت فضيلته . هذا مع ما فيه من جمع الهم ، ودوام الوقار ، والفراغ للفكر والذكر والعبادة ، والسلامة من تبعات القول في الدنيا ، ومن حسابه في الآخرة ، فقد قال تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[1])

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام ، قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة

أما الذي هو ضرر محض ، فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر ، فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران

فلا يبقى إلا القسم الرابع . فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام ، وبقي ربع . وهذا الربع فيه خطر ، إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء ، والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجا يخفى دركه ، فيكون الإنسان به مخاطرا

ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره ، علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب ، حيث قال (١) «مَنْ صَمَتَ نَجَا» (٢) فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعا ، وجوامع الكلم ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء ، وفيما سنذكره من الآفات ، وعسر الاحتراز عنها ، ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نعد آفات اللسان ، ونبتدئ بأخفها ، ونترقى إلى الأغلظ قليلا ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب . فإن النظر فيها أطول ، وهي عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى

---

(١) حديث من صمت نجا : تقدم

(٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم : م من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

[1] ق : ١٨

الآفة الأولى

الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها ، من الغيبة والنميمة ، والكذب ، والمراء ، والجدال ، وغيرها ، وتتكلم فيما هو مباح لاضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا ، إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ، ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذى هو أدنى بالذي هو خير . لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ، ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر مايعظم جدواه ، ولو هللت الله سبحانه ، وذكرته ، وسبحته ، لكان خيرا لك . فكم من كلمة يبنى بها قصر فى الجنة ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز ، فأخذ مكانه مدرة لاينتفع بها ، كان خاسرا خسرانا مبينا . وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى ، واشتغل بمباح لايعنيه فإنه وإن لم يأثم ، فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى [1] فإن المؤمن لايكون صمته إلا فكرا ، ونظره إلا عبرة ، ونطقه إلا ذكرا . هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم

بل رأس مال العبد أوقاته . ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ، ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة ، فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ » بل ورد ماهو أشد من هذا . قال أنس [3] استشهد غلام منا يوم أحد ، فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع . فمسحت أمه عن وجهه التراب ، وقالت : هنيئا لك الجنة يابني

﴿ الآفة الأولى الكلام فيما لا يعنيك ﴾

(١) حديث المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا : لم أجد له أصلا وروى محمد بن زكريا العلائى أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله أمرنى أن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة

(٢) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه : ت وقال غريب وهو من حديث أبى هريرة

(٣) حديث استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ـ الحديث : وفيه لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع مالا يضره : ت من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف

فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُدْرِيكِ ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لاَ يَعْنِيهِ وَيَمْنَعُ مَالاَ يَضُرُّهُ » وفي حديث آخر ،(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا ، فسأل عنه ، فقالوا مريض . فخرج يمشي حتى أتاه ، فلما دخل عليه قال « أَبْشِرْ يَا كَعْبُ » فقالت أمه ، هنيئا لك الجنة يا كعب . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَذِهِ الْمُتَأَلِّيَةُ عَلَى اللهِ ؟ » قال هي أمي يارسول الله . قال « وَمَا يُدْرِيكِ يَا أُمَّ كَعْبٍ لَعَلَّ كَعْبًا قَالَ مَالاَ يَعْنِيهِ أَوْ مَنَعَ مَالاَ يُغْنِيهِ » ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه في مباح ، فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب ، فإنه نوع من العذاب

وعن محمد بن كعب (٢) ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فدخل عبد الله بن سلام ، فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه بذلك ، وقالوا أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به ، فقال إني لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر ، وترك مالا يعنيني . وقال أبو ذر ،(٣) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلاَ أُعَلِّمُكَ بِعَمَلٍ خَفِيفٍ عَلَى الْبَدَنِ ثَقِيلٍ فِي الْمِيزَانِ » قلت بلى يارسول الله ، قال « هُوَ الصَّمْتُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَتَرْكُ مَالاَ يَعْنِيكَ »

وقال مجاهد ، سمعت ابن عباس يقول ، خمس لهن أحب إلي من الدهم* الموقوفة ، لا تتكلم فيما لا يعنيك ، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر . ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا ، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه ، قد وضعه في غير موضعه ، فعنت ، ولا تمار حليما ولا سفيها فإن الحليم يقليك ، والسفيه يؤذيك . واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به

---

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض ـ الحديث : وفيه لعل كعبا قال مالا يعنيه أومنع مالا يغنيه : ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوى عنه

(٢) حديث محمد بن كعب ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام الحديث : وفيه ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنيني : ابن ابي الدنيا هكذا مرسلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه

(٣) حديث أبي ذر ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ـ الحديث : وفيه هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك : ابن أبي الدنيا بسند منقطع

* الدهم : العدد الكثير من الابل أو الخيل .

واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاجترام. وقيل للقمان الحكيم، ماحكمتك؟ قال لاأسأل عما كفيت، ولا أتكلف مالا يعنيني. وقال مورق العجلي، أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة، لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه. قالوا وما هو؟ قال السكوت عما لا يعنيني. وقال عمر رضى الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى. ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى

وحد الكلام فيما لا يعنيك، أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال، ولا مال. مثاله أن تجلس مع قوم، فتذكر لهم أسفارك. وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر. وإذا بالغت في الجهاد، حتى لم يمتزج بحكاياتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس، من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص، ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى، فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك. وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها!

ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك. فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضييع. هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات، فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له، هل أنت صائم؟ فإن قال نعم، كان مظهرا لعبادته، فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات. وإن قال لا، كان كاذبا. وإن سكت، كان مستحقرا لك، وتأذيت به. وإن احتال لمدافعة الجواب، افتقر إلى جهد، وتعب فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء، أو للكذب، أو للاستحقار، أو للتعب في حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه، وسؤالك عما حدث به غيرك. فتقول له ماذا تقول؟ وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنسانا في الطريق، فتقول من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيى

وإن لم يصدق وقع فى الكذب ، وكنت السبب فيه . وكذلك تسأل عن مسألة لاحاجة بك إليها ، والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لاأدرى ، فيجيب عن غير بصيرة

ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس ، فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر . وإنما مثال مالا يعنى ماروى أن لقمان الحكيم ، دخل على داود عليه السلام ، وهو يسرد درعا ، ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم . فجعل يتعجب مما رأى . فأرادأن يسأله عن ذلك ، فمنعته حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله . فلما فرغ ، قام داود ولبسه ، ثم قال نعم الدرع للحرب . فقال لقمان ، الصمت حكم وقليل فاعله . أى حصل العلم بهمن غيرسؤال ، فاستغنى عن السؤال . وقيل إنه كان يتردد إليه سنة ، وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال

فهذا وأمثاله من الأسئلة ، إذا لم يكن فيه ضرر ، وهتك ستر ، وتوريطفى رياء وكذب وهو مما لا يعنى ، وتركه من حسن الإسلام ، فهذاحده

وأما سببه الباعث عليه ، فالحرص على معرفة مالا حاجة به إليه ، أوالمباسطة بالكلام على سبيل التودد ، أوتزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين . هذاعلاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل ، فالعزلة ، أو أن يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه ، وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدا

الآفة الثانية

فضول الكلام

وهو أيضا مذموم . وهذا يتناول الخوض فيمالا يعني ، والزيادة فيمايعني على قدر الحاجة فإن من يعنيه أمر ، يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ، ويقرره ، ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة ، فذكر كلمتين ، فالثانية فضول . أى فضل عن الحاجة

وهو أيضامذموم لما سبق . وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوأمرا بمعروف ، أونهيا عن منكر ، أوأن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابدلك منها . أتنكرون أن عليكم حافظين ، كراما كاتبين ، عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد! أمايستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره ، كان أكثر مافيها ليس من أمر دينه ولا دنياه

وعن بعض الصحابة قال إن الرجل ليكلمنى بالكلام، لَجَوَابُهُ أشهى إلىّ من الماء البارد إلى الظمآن ، فأترك جوابه ، خيفة أن يكون فضولا . وقال مطرف ، ليعظم جلال الله فى قلوبكم ، فلاتذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار ، اللهم أخزه : وماأشبه ذلك

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر . بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى . قال الله عز وجل (لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْمَعْرُوفٍ أَوْإِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ [١]) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « طُوبَى لِمَنْ أَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ » فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك ، فأمسكوا فضل المال ، وأطلقوا فضل اللسان ! وعن مطرف بن عبد الله ، عن أبيه ، قال [٢] قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر ، فقالوا أنت والدنا ، وأنت سيدنا؟ وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغراء ، وأنت وأنت ، فقال « قُولُوا قَوْلَكُمْ وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ » إشارة إلى أنّ اللسان إذا اطلق بالثناء ، ولو بالصدق ، فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها وقال ابن مسعود ، أنذركم فضول كلامكم.

﴿ الآفة الثانية فضول الكلام ﴾

(١) حديث طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله: البغوى وابن قانع فى معجمى الصحابة والبيهقى من حديث ركب المصرى وقال ابن عبد البر انه حديث حسن وقال البغوى لاأدرى سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لانعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا ـ الحديث : د ن فى اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

---

(١) النساء : ١١٤

حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته. وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب، حتى أن الرجل ليُسكِتُ ابنه فيقول، أبتاع لك كذا وكذا، فيكتب كذابا. وقال الحسن: ياابن آدم، بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك، فاعمل ماشئت، وأكثر أو أقل.

وروى أن سليمان عليه السلام، بعث بعض عفاريته، وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه. فأخبروه بأنه مرّ فى السوق، فرفع رأسه إلى السماء، ثم نظر إلى الناس وهزّ رأسه. فسأله سليمان عن ذلك. فقال عجبت من الملائكة على رءوس الناس، ما أسرع ما يكتبون! ومن الذين أسفل منهم، ما أسرع ما يملون.

وقال إبراهيم التيمى: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر، فإن كان له تكلم، وإلا أمسك والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا. وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه

وقال عمرو بن دينار [1] تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم «كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ؟» فقال شفتاى وأسنانى، قال «أَفَمَا كَانَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَا يَرُدُّ كَلَامَكَ؟» وفى رواية، أنه قال ذلك فى رجل أثنى عليه، فاستهتر فى الكلام، ثم قال «مَا أُوتِيَ رَجُلٌ شَرًّا مِنْ فَضْلٍ فِي لِسَانِهِ»

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه، إنه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة

وقال بعض الحكماء، إذا كان الرجل فى مجلس، فأعجبه الحديث، فليسكت. وإن كان ساكتا، فأعجبه السكوت، فليتكلم. وقال يزيد بن أبى حبيب: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه، فإن فى الاستماع سلامة، وفى الكلام تزيين، وزيادة ونقصان. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة، فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها. وقال إبراهيم يهلك الناس خلتان، فضول المال، وفضول الكلام

فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه، وعلاجه ماسبق فى الكلام فيما لا يعنى

---

(١) حديث عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال كم دون لسانك من باب ـ الحديث: ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء التاسع

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت ٢١٨١

الآفة الثالثة

الخوض فى الباطل

وهو الكلام فى المعاصى ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة . فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه ، وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعنى ، أو أكثر مما يعنى ، فهو ترك الأولى ، ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعنى ، لا يؤمن عليه الخوض فى الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أو الخوض فى الباطل .

وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها . فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا . وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها ، وهو يستحقرها . فقد قال بلال بن الحارث ، [1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَهْوِى بِهَا أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا » وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقى لها بالا ، يهوى بها فى جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة

﴿ الآفة الثالثة الخوض فى الباطل ﴾

(١) حديث بلال بن الحارث أن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ـ الحديث: هـ ت وقال حسن صحيح

(٢) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا: ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند حسن وللشيخين وت أن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار لفظ ت وقال حسن غريب

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « أَعْظَمُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضاً فِى الْبَاطِلِ » وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (١)) وبقوله تعالى (فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ (٢)) وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة . أكثرهم كلاما فى معصية الله : وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم ، توضئوا ، فإن بعض ماتقولون شر من الحدث

فهذا هو الخوض فى الباطل ، وهو وراء ماسيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها ، أو تدبر للتوصل إليها ، من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم ،وكل ذلك باطل ،والخوض فيه خوض فى الباطل ، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه

الآفة الرابعة

المراء والجدال

وذلك منهى عنه . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « لاَ تُمَارِ أَخَاكَ وَلاَ تُمَازِحْهُ وَلاَ تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ » وقال عليه السلام (٣) « ذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ لاَ تُفْهَمُ حِكْمَتُهُ وَلاَ تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِى أَعْلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِى رَبَضِ الْجَنَّةِ » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت

---

(١) حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل : ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح

(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)

(٢) حديث لاتمار أخاك ولاتمازحه ولاتعده موعدا فتخلفه : ت من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث ذروا المراء فانه لاتفهم حكمته ولاتؤمن فتنته : طب من حديث أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس ابن مالك ووائلة بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله لاتفهم حكمته ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود

(٤) حديث من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ـ الحديث : تقدم فى العلم

(١) المدثر : ٤٥ (٢) النساء : ١٤٠

(١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ مَاعَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي وَنَهَانِي عَنْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ مُلَاحَاةُ* الرِّجَالِ » وقال أيضا (٢) «مَاضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللهُ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ » وقال أيضا (٣) « لَايَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً »وقال أيضا (٤) « سِتٌّ مَنْ كُنَّ فِيهِ بَلَغَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ الصِّيَامُ فِي الصَّيْفِ وَضَرْبُ أَعْدَاءِ اللهِ بِالسَّيْفِ وَتَعْجِيلُ الصَّلَاةِ فِي الْيَوْمِ الدَّجْنِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمُصِيبَاتِ وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَهُوَ صَادِقٌ »

وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرءان ، فإنك لاتستطيعهم ، ولكن عليك بالسّنة وقال عمر بن العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات ، أكثر التنقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء ، فإنه ساعة جهل العالم ، وعندها يبتغى الشيطان زلته . وقيل ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه. ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال أيضا المراء يقسي القلوب ، ويورث الضغائن. وقال لقمان لابنه يابني لا تجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد، إذا رأيت الرجل لجوجا، ممارياً معجباً برأيه ، فقد تمت خسارته . وقال سفيان . لو خالفت أخي في رمانة ، فقال حلوة ، وقلت حامضة . لسعى بي إلى السلطان . وقال أيضا ، صاف من شئت ، ثم أغضبه بالمراء، فليرمينك بداهية تمنعك العيش . وقال ابن أبي ليلى ، لا أماري صاحبي ، فإما أن أكذبه ، وأما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء ، كفى بك إثما أن لا تزال ممارياً .

(١) حديث أم سلمة ان أول ماعهد الى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم

(٢) حديث ماضل قوم الا أوتوا الجدل :ت من حديث أبي أمامة وصححه وزاد بعد هدى كانوا عليه وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف

(٣) حديث لايستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يذر المراء وان كان محقا :ابن أبي الدنيا من حديث ابي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاحة والمراء وان كان صادقا

(٤) حديث ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان ــ الحديث : وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمي من حديث أبي مالك الاشعري بسند ضعيف بلفظ ست خصال من الخير ــ الحديث :

* ملاحاة الرجال : مقاولتهم ومخاصمتهم يقال . لاحيته ملاحاة ولحاء إذا نازعته

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « تَكْفِيرُ كُلِّ لِحَاءٍ رَكْعَتَانِ » وقال عمر رضي الله عنه ، لاتتعلم العلم لثلاث ، ولاتتركه لثلاث . لا تتعلمه لتمارى به ، ولا لتباهى به ، ولالترائى به ولاتتركه حياء من طلبه ، ولازهادة فيه ، ولارضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام ، من كثر كذبه ، ذهب جماله . ومن لاحى الرجال ، سقطت مروءته . ومن كثر همه ، سقم جسمه . ومن ساء خلقه ، عذب نفسه

وقيل لميمون بن مهران ، مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لا أشاريه ولا أماريه

وما ورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ، إما فى اللفظ ، وإما فى المعنى ، وإما فى قصد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به ، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين ، فاسكت عنه

والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه ، بإظهار خلل فيه من جهة النحو ، أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلاوجه لإظهار خلله

وأما فى المعنى ، فبأن يقول ليس كما تقول ، وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا

وأما فى قصده ، فمثل أن يقول هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض . وما يجرى مجراه . وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ، ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم . بل الواجب السكوت ، أو السؤال فى معرض الاستفادة ، لا على وجه العناد والنكارة أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن

وأما المجادلة ، فعبارة عن قصد إفحام الغير ، وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مسكر وهاعند المجادل ، يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ، ليبين به فضل نفسه ، ونقص صاحبه . ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو سكت عنه .

---

(١) حديث تكفير كل لحاء ركعتان : الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس ، قويتان لها

أما إظهار الفضل ، فهو من قبيل تزكية النفس ، وهى من مقتضى ما فى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء ؛ وهى من صفات الربوبية

وأما تنقيص الآخر ، فهو من مقتضى طبع السبعية ، فإنه يقتضى أن يمزق غيره ، ويقصمه ويصدمه ويؤذيه

وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان . وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة . وهذا مجاوز حد الكراهة ، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب ، وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح فى قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار بين المتماريين ، كما يثور الهراش بين الكلبين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعلم نكاية ، وأقوى فى إفحامه وإلجامه

وأما علاجه . فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره ، كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغضب . فإن علاج كل علة بإماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا ، حتى يتمكن من النفس ، ويعسر الصبر عنه

روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه ، قال لداود الطائى . لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد نفسى بترك الجدال . فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ، ولا تتكلم . قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علىّ منها . وهو كما قال ، لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه ، تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ » لشدة ذلك على النفس .

وأكثر ما يغلب ذلك فى المذاهب والعقائد ؛ فإن المراء طبع ، فإذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغى للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة . وإذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة ، لا بطريق

الجدال . فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه فى التلبيس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا . فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد . فإذ عرف أن النصح لا ينفع ، اشتغل بنفسه وتركه . وقال صلى الله عليه وسلم[(١)] « رَحِمَ اللهُ مَنْ كَفَّ لِسانَهُ عَنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ إِلاَّ بِأَحْسَنِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ » وقال هشام بن عروة. كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات . وكل من اعتاد المجادلة مدة ، وأثنى الناس عليه ، ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا ، قويت فيه هذه المهلكات ، ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب ، والكبر ، والرياء ، وحب الجاه ، والتعزز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها ، فكيف بمجموعها !

الآفة الخامسة

الخصومة

وهى أيضا مذمومة . وهى وراء الجدال والمراء . فالمراء طعن فى كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار مزية الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج فى الكلام ، ليستوفى به مال أو حق مقصود . وذلك تارة يكون ابتداء ، وتارة يكون اعتراضا . والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضى الله عنها ،[(٢)] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ » وقال أبو هريرة ،[(٣)] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ جادَلَ فِي خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ »

---

(١) حديث رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة الا بأحسن مايقدر عليه : ابن أبى الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ رحم الله امرأ كف لسانه عن إعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا

: (الآفة الخامسة الخصومة)

(٢) حديث عائشة ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم : خ وقد تقدم

(٣) حديث أبى هريرة من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع : ابن أبى الدنيا والأصفهانى فى الترغيب والترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور

وقال بعضهم ، إياك والخصومة ، فإنها تمحق الدين . ويقال ماخاصم ورع قط فى الدين

وقال ابن قتيبة ، مرّ بى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة ،فقال مايجلسك ههنا ؟ قلت خصومة بينى وبين ابن عم لى . فقال إن لأبيك عندى يدا ، وأنى أريد أن أجزيك بها . وإنى والله مارأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة . قال فقمت لأنصرف . فقال لى خصمى ، مالك ؟ قلت لاأخاصمك . قال إنك عرفت أن الحق لى . قلت لا ، ولكن أكرم نفسى عن هذا . قال فإنى لاأطلب منك شيئا هو لك

فإن قلت : فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة فى طلبه ، أو فى حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ؟ وكيف تذم خصومته

فاعلم أن هــذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل ، والذى يخاصم بغير علم ، مثل وكيل القاضى ، فإنه قبل أن يتعرف أن الحق فى أى جانب ، هو يتوكل فى الخصومة من أى جانب كان ، فيخاصم بغير علم . ويتناول الذى يطلب حقه ، ولكنه لايقتصر على قدر الحاجة ، بل يظهر اللدد فى الخصومة ، على قصد التسلط ، أو على قصد الإيذاء

ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ، ليس يحتاج إليها فى نصرة الحجة ، وإظهار الحق . ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد ، لقهر الخصم وكسره ، مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال . وفى الناس من يصرح به ويقول ، إنما قصدى عناده وكسر عرضه ، وإنى إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولا أبالى . وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج ، وهو مذموم جدا .

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع ، من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج ، على قدر الحاجة ، ومن غير قصد عناد وإيذاء ، ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ماوجد إليه سبيلا . فإن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب . وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه ، وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان فى عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات . وأقل مافيه تشويش خاطره ، حتى أنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه ، فلا يبقى الأمر على حد الواجب .

فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال . فينبغى أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ؛ وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة ، وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الإثم ، ولا تذم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه ، لأن عنده مايكفيه ، فيكون تاركا للأولى، ولا يكون آثما . نعم أقل مايفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام ، وما يرد فيه من الثواب إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض ، الذى حاصله إما تجهيل ، وإما تكذيب . فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه ، فقد جهله أو كذبه ، فيفوت به طيب الكلام

وقال صلى الله عليه وسلم «يُمَكِّنُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ طِيبُ الْكَلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ »[1] وقد قال الله تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا [(١)]) وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، من سلم عليك من خلق الله ، فاردد عليه السلام وإن كان مجوسيا ، إن الله تعالى يقول (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا [(٢)]) وقال ابن عباس أيضا لو قال لى فرعون خيرا لرددت عليه . وقال أنس[2] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَلَانَ الْكَلَامَ »

وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير ، فقال مر بسلام . فقيل ياروح الله أتقول هذا لخنزير ؟ فقال أكره أن أعود لسانى الشر . وقال نبينا عليه السلام[3] « الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » وقال[4] « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » وقال عمر رضى الله عنه ، البر شىء هين ، وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء ، الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح . وقال بعض الحكماء ، كل كلام لا يسخط ربك

---

(١) حديث يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام الطبرانى من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هانى أبى شريح باسناد جيد يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٢) حديث أنس ان فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها ـ الحديث : ت وقد تقدم

(٣) حديث الكلمة الطيبة صدقة : م من حديث أبى هريرة

(٤) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث عدى ابن حاتم وقد تقدم

---

(١) البقرة : ٨٣ (٢) النساء : ٨٦

إلا أنك ترضى به جليسك ، فلا تكن به عليه بخيلا ، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين

وهذا كله فى فضل الكلام الطيب ، وتضاده الخصومة ، والمراء ، والجدال ، واللجاج فإنه الكلام المستكره الموحش ، المؤذى للقلب ، المنغص للعيش ، المهيج للغضب ، الموغر للصدر ، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

الآفة السادسة

التقعر فى الكلام

بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات ، وماجرت به عادة المتفاصحين ، المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ، ومن التكلف الممقوت ، الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا وَأَتْقِيَاءُ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ فِي الْكَلَامِ » وقالت فاطمة رضى الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَلَا هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » ثلاث مرات . والتنطع هو التعمق والاستقصاء .

وقال عمر رضى الله عنه ، إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمرو بن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة . فتكلم بين يدى حاجته بكلام . فقال له سعد ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٤) « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَخَلَّلُونَ الْكَلَامَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ الْكَلَأَ بِأَلْسِنَتِهَا »

(الآفة السادسة التقعر فى الكلام والتشدق)

(١) حديث ان أبغضكم الى الله وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون أحمد من حديث أبى ثعلبة وهو عند ت من حديث جابر وحسنه بلفظ ان أبغضكم الى

(٢) حديث فاطمة شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم — الحديث : وفيه يتشدقون ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب

(٣) حديث ألا هلك المتنطعون م من حديث ابن مسعود

(٤) حديث سعد يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها رواه أحمد

وكأنه أنكر عليه ماقدمه على الكلام، من التشبب، والمقدمة المصنوعة المتكلفة وهذا أيضا من آفات اللسان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين، فقال بعض قوم الجاني، (١) كيف ندى من لاشرب ولاأكل ولا صاح ولا استهل، ومثل ذلك بطل! فقال «أَسَجْعًا كَسَجْعِ الْأَعْرَابِ» وأنكر ذلك؛ لأن أثر التكلف والتصنع بيّن عليه. بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم

ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة، والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها، وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه، فهو لائق به. فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات، فلا يليق بها السجع والتشدق، والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة، والتميز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع، ويزجر عنه

الآفة السابعة

الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه، ومصدره الخبث واللؤم. قال صلى الله عليه وسلم (٢) «إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ» (٣) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين، فقال «لَا تَسُبُّوا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ

---

(١) حديث كيف ندى من لاشرب ولاأكل الحديث: م من حديث المغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلهما عندخ أيضا

(الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان)

(٢) حديث اياكم والفحش ـ الحديث: ن في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله ابن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث النهى عن سب قتلى بدر من المشركين ـ الحديث: ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس باسناد صحيح ان رجلا وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه ـ الحديث: وفيه لاتسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا

مِمَّا تَمُولُونَ وَتُؤْذُونَ الأَحْيَاءَ أَلاَ إِنَّ الْبَذَاءَ لُؤْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم[1] « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ وَلاَ الْفَاحِشِ وَلاَ الْبَذِيءِ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « الْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشٍ أَنْ يَدْخُلَهَا » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الأَذَى يَسْعَوْنَ بَيْنَ الْحَمِيمِ وَالْجَحِيمِ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ رَجُلٌ يَسِيلُ فُوهُ قَيْحًا وَدَمًا فَيُقَالُ لَهُ مَا بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بِنَا مِنَ الأَذَى فَيَقُولُ إِنَّ الأَبْعَدَ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ قَذِعَةٍ خَبِيثَةٍ فَيَسْتَلِذُّهَا كَمَا يَسْتَلِذُّ الرَّفَثَ » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة[4] « يَا عَائِشَةُ لَوْ كَانَ الْفُحْشُ رَجُلاً لَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] « الْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف مالا يجوز كشفه، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح، حتى ينتهي إلى حد التكلف ، ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين ، وفي صفات الله تعالى ، فإن القاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه ، إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب . ولكن ذكره مقرونا بالبذاء ، يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه ، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل ، دون الكشف والبيان

وقال صلى الله عليه وسلم[6] « إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ الصَّيَّاحَ فِي الأَسْوَاقِ »

---

(١) حديث ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي: ت باسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا قال الدار قطني في العلل والموقوف أصح

(٢) حديث الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها: ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ـ الحديث : وفيه ان الأبعد كان ينظر الى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع واختلف في صحبته فذكره أبو نعيم في الصحابة وذكره خ حب في التابعين

(٤) حديث ياعائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء: ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها

(٥) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق: ت وحسنه و ك وصححه على شرطهما من حديث أبي امامة وقد تقدم

(٦) حديث ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الاسواق: ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله وللطبراني من حديث أسامة بن زيد ان الله لا يحب الفاحش المتفحش واسناده جيد

وقال جابر بن سمرة (١) ، كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي أمامي . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْفُحْشَ وَالتَّفَاحُشَ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلَامًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلَاقًا »

وقال ابراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب . وقال الأحنف بن قيس ، ألا أخبركم بأدوإ الداء ، اللسان البذي ، والخلق الدني . فهذه مذمة الفحش

فأما حده وحقيقته ، فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة . وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به . فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكنون عنها ، ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها . وقال ابن عباس ، إن الله حيي كريم ، يعفو ويكنو . كنى باللمس عن الجماع . فالمسيس ، واللمس ، والدخول ، والصحبة ، كنايات عن الوقاع . وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة ، يستقبح ذكرها ، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير . وهذه العبارات متفاوتة في الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد ، وأوائلها مكروهة ، وأواخرها محظورة ، وبينهما درجات يترددفيها .

وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول ، والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما . وإن هذا أيضا مما يخفى ، وكل ما يخفى يستحيا منه ، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة ، فإنه فحش

وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء ، فلا يقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد ، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود ، والتصريح فيها يفضي إلى الفحش

وكذلك من به عيوب يستحيا منها ، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها ، كالبرص ، والقرع ، والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه ، وما يجري مجراه . فالتصريح بذلك داخل في الفحش . وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون ، كان عمر بن عبد العزيز

(١) حديث جابر بن سمرة ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شي ء الحديث : أحمد وابن أبي الدنيا باسناد صحيح

يتحفظ فى منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأتيناه نسأله لنرى ما يقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد .

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم ، ومن عادتهم السب . وقال أعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم [١] أوصنى فقال « عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَإِنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ فِيهِ يَكُنْ وَبَالُهُ عَلَيْهِ وَأَجْرُهُ لَكَ وَلاَ تَسُبَّنَّ شَيْئاً » قال فما سببت شيئا بعده

وقال عياض بن حمار [٢] قلت يارسول الله ، إن الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « الْمُتَسابَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَعَاوَيَانِ وَيَتَهَاتَرَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « الْمُسْتَبَّانِ مَاقَالاَ فَعَلَى الْبَادِىءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِيَ الْمَظْلُومُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ » وفى رواية « مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » قالوا يارسول الله، كيف يسب الرجل والديه؟ قال « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ الآخَرُ أَبَاهُ »

الآفة الثامنة

اللعن

إما لحيوان أو جماد أو إنسان . وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث قال اعرابى أوصنى فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشيء تعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه ـ الحديث : أحمد والطبرانى باسناد جيد من حديث أبى جرى الهجيمى قيل اسمه جابر ابن سليم وقيل سليم بن جابر

(٢) حديث عياض بن حمار قلت يارسول الله الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس ان أنتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران : د الطيالسى واصله عند أحمد

(٣) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٤) حديث المستبان ماقالا فعلى البادىء حتى يعتدى المظلوم : م من حديث أبى هريرة وقال مالم يعتد

(٥) حديث ملعون من سب والديه وفى رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثانى من حديث عبد الله بن عمرو

(١) « المؤمن ليس بلعان » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم » وقال حذيفة ، ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول وقال عمران بن حصين (٣) بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها ، فلعنتها . فقال صلى الله عليه وسلم « خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ » قال فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس ، لا يتعرض لها احد

وقال أبو الدرداء ، ما لعن أحد الأرض إلا قالت ، لعن الله أعصانا لله . وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) أبابكر وهو يلعن بعض رقيقه ، فالتفت إليه وقال « يَا أَبَا بَكْرٍ أَصِدِّيقِينَ وَلَعَّانِينَ ! كَلَّا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ » مرتين أو ثلاثا ، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لا أعود

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) ، « إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أنس (٦) ، كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره ، فقال صلى الله عليه وسلم « يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسِرْ مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُونٍ » وقال ذلك إنكارا عليه

واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، أن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين

(الآفة الثامنة اللعن)

(١) حديث المؤمن ليس بلعان : تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ـ الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لايكون المؤمن لعانا

(٢) حديث لاتلاعنوا بلعنة الله ـ الحديث : ت د من حديث سمرة بن جندب قال ت حسن صحيح

(٣) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها ـ الحديث : رواه م

(٤) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال ياأبا بكر لعانين وصديقين ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار ابن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأى فيه

(٥) حديث إن اللعانين لايكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة : م من حديث أبي الدرداء

(٦) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ابن أبي الدنيا باسناد جيد

وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع ، فإن في اللعنة خطرا ، لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون ، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه

والصفات المقتضية للعن ثلاثة ، الكفر ، والبدعة ، والفسق . وللعن في كل واحدة ثلاثة مراتب

الأولى : اللعن بالوصف الأعم ، كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين ، والفسقة

الثانية : اللعن بأوصاف أخص منه ، كقولك لعنة الله على اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وعلى القدرية ، والخوارج ، والروافض ، أو على الزناة ، والظلمة ، وآكلي الربا ، وكل ذلك جائز ، ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر ، لأن معرفة البدعة غامضة ، ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام ، لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ، ويثير نزاعا بين الناس وفسادا

الثالثة . اللعن للشخص المعين ، وهذا فيه خطر . كقولك زيد لعنه الله ، وهو كافر ، أو فاسق ، أو مبتدع والتفصيل فيه ، أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا ، فتجوز لعنته . كقولك فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . أما شخص بعينه في زماننا ، كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر . فإنه ربما يسلم ؛ فيموت مقربا عند الله ، فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟

فإن قلت . يلعن لكونه كافرا في الحال ، كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد

فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله ، أي ثبته الله على الإسلام ، الذي هو سبب الرحمة . وعلى الطاعة . ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة . فإن هذا سؤال للكفر ، وهو في نفسه كفر . بل الجائز أن يقال ، لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدري ، والمطلق متردد بين الجهتين ، ففيه خطر ، وليس في ترك اللعن خطر

وإذا عرفت هذا في الكافر ، فهو في زيد الفاسق ، أو زيد المبتدع أولى . فلعن الأعيان فيه خطر ، لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما باللعن ، فكان يقول في دعائه على قريش ، (١) « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ » وذكر جماعة

---

(١) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة . متفق عليه من حديث ابن مسعود

قوموا على الكفر بار حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه . [1] إذ روى أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا ، فنزل قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ [(1)]) يعنى أنهم ربما يسلمون ، فمن أين تعلم أنهم ملعونون

وكذلك من بان لنا موته على الكفر ، جاز لعنه ، وجاز ذمه ، إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يجز ، كما روى [(2)] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مر به ، وهو يريد الطائف . فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يارسول الله ، هذا قبر رجل كان أطعم للطعام ، وأضرب للهام من أبى قحافة . فقال أبو بكر ، يكلمنى هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام ! فقال صلى الله عليه وسلم « اكْفُفْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ » فانصرف ثم أقبل على أبى بكر فقال « يَاأَبَا بَكْرٍ إِذَا ذَكَرْتُمُ الْكُفَّارَ فَعَمِّمُوا فَإِنَّكُمْ إِذَا خَصَّصْتُمْ غَضِبَ الأَبْنَاءُ لِلآبَاءِ » فكف الناس عن ذلك

[(3)] وشرب نعيمان الخمر ، فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال بعض الصحابة ، لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال صلى الله عليه وسلم « لاَ تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ

---

(١) حديث انه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء . الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا ـ الحديث : وفى رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان ـ الحديث : ولهما من حديث أبى هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه ـ الحديث : وفيه اللهم العن لحيان ورعلا ـ الحديث : وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء لفظ م

(٢) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد ابن العاص فغضب ابنه ـ الحديث : د فى المراسيل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فانه كان يحاهد الله ورسوله ـ الحديث : وفيه فاذا سببتم المشركين فسبوهم جميعا

(٣) حديث شرب نعيمان الخمر فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر مايؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتكن عونا للشيطان على أخيك وفى رواية لاتقل هذا فانه يحب الله ورسوله ابن عبد البر فى الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار

---

(١) آل عمران : ١٢٨

عَلَى أَخِيكَ » وفى رواية « لاَ تَقُلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ » فنهاه عن ذلك . وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز

وعلى الجملة ، ففى لعن الأشخاص خطر ، فليجتنب . ولا خطر فى السكوت عن لعن إبليس مثلا . فضلا عن غيره

فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد ، لأنه قاتل الحسين أو آمر به ؟

قلنا : هذا لم يثبت أصلا ، فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به مالم يثبت ، فضلا عن اللعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا ، وقتل أبو لؤلؤة عمر رضى الله عنهم ، فإن ذلك ثبت متواترا . فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « لاَ يَرْمِى رَجُلٌ رَجُلاً بِالْكُفْرِ وَلاَ يَرْمِيهِ بِالفِسْقِ إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَا شَهِدَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ بِالْكُفْرِ إِلاَّ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَافِراً فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا فَقَدْ كَفَرَ بِتَكْفِيرِهِ إِيَّاهُ » وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم . فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها ، كان مخطئا لا كافرا . وقال معاذ [(٣)] قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنْهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِماً أَوْ تَعْصِىَ إِمَاماً عَادِلاً »

والتعرض للأموات أشد . قال مسروق ، دخلت على عائشة رضى الله عنها ؛ فقالت ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفى . قالت رحمه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله

من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ومحمد هذا ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك والبخارى من حديث عمر أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلده فى الشرب فأتى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبى هريرة فى رجل شرب ولم يسم وفيه لا تعينوا عليه الشيطان وفى رواية لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم

(١) حديث لا يرمى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك : متفق عليه والسياق للبخارى من حديث أبى ذر مع تقديم ذكر الفسق

(٢) حديث ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما ان كان كافرا فهو كما قال وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف

(٣) حديث معاذ أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى اماما عادلا : أبو نعيم فى الحلية فى أثناء حديث له طويل

صلى الله عليه وسلم [(١)] «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» وقال عليه السلام [(٢)] «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا بِهِ الْأَحْيَاءَ» وقال عليه السلام [(٣)] «أَيُّهَا النَّاسُ احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي وَأَصْهَارِي وَلَا تَسُبُّوهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ فَاذْكُرُوا مِنْهُ خَيْراً»

فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الآمر بقتله لعنه الله

قلنا الصواب أن يقال ، قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله . لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة . فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا . ولا يجوز أن يلعن . والقتل كبيرة ، ولا تنتهى إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق ، كان فيه خطر . وليس فى السكوت خطر ، فهو أولى

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة، وإطلاق اللسان بها. والمؤمن ليس بلعّان. فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين. فالاشتغال بذكر الله أولى ، فإن لم يكن، ففى السكوت سلامة. قال مكى بن إبراهيم، كنا عند ابن عون، فذكروا بلال بن أبى بردة ، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه. وابن عون ساكت. فقالوا يا ابن عون، إنما نذكره لما ارتكب منك، فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة . لا إله إلا الله، ولعن الله فلانا. فلأن يخرج من صحيفتى لا إله إلا الله، أحب إلىّ من أن يخرج منها لعن الله فلانا. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [(٤)] أوصنى، فقال «أُوصِيكَ أَنْ لَا تَكُونَ لَعَّاناً»

---

(١) حديث عائشة لاتسبوا الاموات فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا خ وذكر المصف فى أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك فى الزهد والرقائق مع القصة

(٢) حديث لاتسبوا الاموات فتؤذوا الاحياء: الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا ان بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم

(٣) حديث أيها الناس احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولاتسبوهم ايها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عياض الانصارى احفظونى فى أصحابى وأصهارى واسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة لاتسبوا أصحابى ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم وللنسائى من حديث عائشة لاتذكروا موتاكم الا بخير واسناده جيد

(٤) حديث قال رجل أوصنى قال أوصيك أن لاتكون لعانا: أحمد والطبرانى وابن أبى عاصم فى الآحاد والثانى من حديث جرموز الهجيمى وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبى عاصم

وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان ، وقال بعضهم : لعن المؤمن يعدل قتله . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا ، لو قلت إنه مرفوعا لم أبال . وعن أبي قتادة ، قال [١] كان يقال من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله . وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر ، حتى الدعاء على الظالم . كقول الإنسان مثلا لا صحح الله جسمه ، ولا سلمه الله ، وما يجرى مجراه . فإن ذلك مذموم . وفي الخبر [٢] « إِنَّ الْمَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى يُكَافِئَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

الآفة التاسعة

الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل ، فلا نعيده

أما الشعر ، فكلام حَسَنُهُ حَسَنٌ ، وقبيحه قبيح . إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر ، فكرهه ، فقيل له في ذلك ، فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر ، فقال اجعل مكان هذا ذكرا ، فإن ذكر الله خير من الشعر .

وعلى الجملة : فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام ، إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم [٤] « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » نعم مقصود الشعر المدح ، والذم ، والتشبيب ، وقد يدخله الكذب . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] حسان بن ثابت

---

(١) حديث لعن المؤمن كقتله : متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك

(٢) حديث ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة : لم أقف له على أصل ، وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف من دعا على من ظلمه فقد انتصر

﴿ الآفة التاسعة الغناء والشعر ﴾

(٣) حديث لأن يمتلئ جوف احدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا : مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد

(٤) حديث ان من الشعر لحكمة : تقدم في العلم وفي آداب السماع

(٥) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين : متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان أهجهم وجبريل معك

الأنصاري بهجاء الكفار . والتوسع في المدح ، فإنه وإن كان كاذبا ، فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب . كقول الشاعر

ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء . فإن لم يكن صاحبه سخيا ، كان كاذبا . وإن كان سخيا . فالمبالغة من صنعة الشعر ، فلا يقصد منه أن يعتقد صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو تتبعت ، لوجد فيها مثل ذلك ، فلم يمنع منه قالت عائشة رضي الله عنها : [١] «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نورا » قالت فبهت ، فنظر إليّ فقال « مَالَكِ بُهِتِّ ؟ » فقلت يارسول الله ، نظرت إليك ، فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولو رآك أبو كبير الهذلي ، لعلم أنك أحق بشعره . قال « وَمَا يَقُولُ يَا عَائِشَةُ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ ؟ » قلت يقول هذين البيتين

ومبرأ من كل غبر حيضة   وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقام إليّ ، وقبل ما بين عيني ، وقال « جَزَاكِ اللَّهُ خَيْراً يَا عَائِشَةُ مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ » [٢] ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين ، أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص ، فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره

---

(١) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا ـ الحديث : وفيه انشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي

ومبرأ من كل غبر حيضة   وفساد مرضعة وداء مغيل

فاذا نظرت الى أسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل

الى آخر الحديث : رواه البيهقي في دلائل النبوة

(٢) حديث لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره

وما كان بدر ولا حابس   يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرىء منهما   ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه ـ الحديث : مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباسفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع ابن حابس كل انسان منهم مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

وما كان بدر ولا حابس . يسودان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم « اقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ » فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ، ثم رجع وهو من أرضى الناس . فقال له صلى الله عليه وسلم « أَتَقُولُ فِيَّ الشِّعْرَ ؟ » فجعل يعتذر إليه ويقول ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ، ثم يقرضنى كما يقرض النمل ، فلا أجد بدا من قول الشعر . فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَدَعُ الْعَرَبُ الشِّعْرَ حَتَّى تَدَعَ الْإِبِلُ الْحَنِينَ »

الآفة العاشرة

المزاح

وأصله مذموم منهى عنه ، إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم « لَا تُمَارِ أَخَاكَ وَلَا تُمَازِحْهُ »(١)

فإن قلت : المماراة فيها إيذاء ، لأن فيها تكذيبا للأخ والصديق ، أو تجهيلا له ، وأما المزاح فمطايبة ، وفيه انبساط وطيب قلب ، فلم ينهى عنه؟

فاعلم . أن المنهى عنه الإفراط فيه ، أو المداومة عليه

أما المداومة ، فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه ، واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة

وأما الإفراط فيه ، فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب ، وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم ،

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد فى رواية وأعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة اقطعوا عنى لسانه فليست فى شىء من الكتب المشهورة

(الآفة العاشرة المزاح)

(١) حديث لا تمار أخاك ولا تمازحه : الترمذى وقد تقدم

لم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « إِنِّي لَأَمْزَحُ وَلا أقولُ إِلاّ حقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا . وأما غيره إذا فتح باب المزاح ، كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا »

وقال عمر رضي الله عنه ، من كثر ضحكه ، قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم [3] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً »

وقال رجل لأخيه يا أخي ، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال : نعم ، قال . فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال : لا قال . ففيم الضحك ؟ قيل فما رئي ضاحكا حتى مات ، وقال يوسف بن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل : أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك . ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين . وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول ، أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ! وقال ابن عباس ، من أذنب ذنبا وهو يضحك ، دخل النار وهو يبكي . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ، ألست تعجب من بكائه؟ قيل بلى ، قال . فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه

فهذه آفة الضحك . والمذموم منه أن يستغرق ضحكا . والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ، ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] قال القاسم مولى معاوية [5] أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على قلوص له صعب

---

(١) حديث أني امزح ولا أقول الا حقا : تقدم

(٢) حديث ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا : تقدم

(٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : متفق عليه من حديث أنس وعائشة

(٤) حديث كان ضحكه التبسم : تقدم

(٥) حديث القاسم مولى معاوية أقبل اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا الى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه

فسلّم ، فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله ، يقربه ، فيضحك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه . ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ، إن الأعرابي قد صرعه قلوصه ، وقد هلك . فقال « نعم وأفواهكم ملأى من دمه »

وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار ، فقد قال عمر رضى الله عنه ، من مزح استخف به وقال محمد بن المنكدر ، قالت لى أمى ، يابنى لا تمازح الصبيان فتهون عندهم . وقال سعيد ابن العاص لابنه ، يابنيّ لاتمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيء فيجترىء عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، اتقوا الله وإياكم والمزاح ، فإنه يورث الضغينة ، ويجر إلى القبيح . تحدثوا بالقرءان ، وتجالسوا به ، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضى الله عنه . أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟ قالوا لا . قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق . وقيل لكل شيء بذور ، وبذور العداوة المزاح . ويقال المزاح مسلبة للنهى ، مقطعة للأصدقاء .

فإن قلت . قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه

فأقول . إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه . ولكن من الغلط العظيم ، أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ، ويفرط فيه ، ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ، ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد[٤] . وهو خطأ . إذ من الصغائر مايصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات مايصير صغيرة بالإصرار . فلا ينبغى أن يغفل عن هذا

ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأفواهكم ملأى من دمه : ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل

(١) حديث أذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد : تقدم

نعم روى أبو هريرة (١) أنهم قالوا يارسول الله، إنك تداعبنا ،فقال « إِنِّي وَإِنْ دَاعَبْتُكُمْ لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا » وقال عطاء (٢) إن رجلا سأل ابن عباس ، أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم . قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه : إنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا ،فقال لها « الْبَسِيهِ وَاحْمَدِي ، وَجُرِّي مِنْهُ ذَيْلاً كَذَيْلِ الْعَرُوس » وقال أنس ، إن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) كان من أفكه الناس مع نسائه . وروى (٤) أنه كان كثير التبسم . وعن الحسن (٥) قال ، أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها صلى الله عليه وسلم « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ » فبكت فقال « إِنَّكِ لَسْتِ بِعَجُوزٍ يَوْمَئِذٍ » قال الله تعالى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (١))

وقال زيد بن أسلم (٦) إن امرأة يقال لها أم أيمن ، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ، إن زوجي يدعوك . قال « وَمَنْ هُوَ ؟ أَهُوَ الَّذِي بِعَيْنِهِ بَيَاضٌ ؟ » قالت والله مابعينه بياض . فقال « بَلَى إِنَّ بِعَيْنِهِ بَيَاضاً » فقالت لا والله. فقال صلى الله عليه وسلم « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَبِعَيْنِهِ بَيَاضٌ » وأراد به البياض المحيط بالحدقة . وجاءت امرأة أخرى فقالت (٧) يارسول الله ، احملني على بعير . فقال « بَلْ نَحْمِلُكِ عَلَى ابْنِ الْبَعِيرِ » فقالت ماأصنع به ؟ إنه لا يحملني . فقال صلى الله عليه وسلم « مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا وَهُوَ ابْنُ بَعِيرٍ » فكان يمزح به

---

(١) حديث أبي هريرة قالوا أنك تداعبنا قال اني وان داعبتكم فلا أقول الا حقا: الترمذي وحسنه

(٢) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال ابن عباس نعم ـ الحديث: فذكر منه قوله لامرأة من نسائه البسيه واحمدي وجري منه ذيلا كذيل العروس لم أقف عليه

(٣) حديث أنس كان من أفكه الناس: تقدم

(٤) حديث انه كان كثير التبسم

(٥) حديث الحسن لا يدخل الجنة عجوز: الترمذي في الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت ان زوجي يدعوك أهو الذي بعينه بياض ـ الحديث: الزبير ابن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف

(٧) حديث قوله لامرأة استحملته نحملك على ابن البعير ـ الحديث: ابوداود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ انا حاملك على ولد الناقة

---

(١) الواقعة : ٣٥

وقال أنس ، كان لأبى طلحة ابن يقال له أبو عمير [1] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول « يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَافَعَلَ النُّغَيْرُ » لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور ،

وقالت عائشة رضى الله عنها [2] ، خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال « تَعَالِى حَتَّى أُسَابِقَكِ » فشددت درعى على بطنى ، ثم خططنا خطا ، فقمنا عليه واستبقنا ، فسبقنى . وقال « هَذِهِ مَكَانُ ذِى الْمَجَازِ » وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز، وأنا جارية قد بعثنى أبى بشىء ، فقال أعطينيه ، فأبيت وسعيت ، وسعى فى أثرى ، فلم يدركنى . وقالت أيضا [3] ، سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال « هَذِهِ بِتِلْكَ » وقالت أيضا رضى الله عنها [4] ، كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسودة بنت زمعة ، فصنعت حريرة وجئت به ، فقلت لسودة كلى · فقالت لا أحبه ، فقلت والله لتأكلن أولأ لطخن به وجهك ، فقالت ما أنا بذائقته . فأخذت بيدى من الصحفة شيئا منه . فلطخت به وجهها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها . فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد منى . فتناولت من الصحفة شيئا ، فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك

وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى ، [5] كان رجلا دميما قبيحا ، فلما بايعه النبى صلى الله عليه وسلم ، قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء ، وذلك قبل أن تنزل

---

(١) حديث أنس أباعمير مافعل النغير : متفق عليه وتقدم فى أخلاق النبوة

(٢) حديث عائشة فى مسابقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز : لم أجد له أصلا ولم تكن عائشة معه فى غزوة بدر

(٣) حديث عائشة سابقنى فسبقته : النسائى وابن ماجه وقد تقدم فى النكاح

(٤) حديث عائشة فى لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة وأبو يعلى باسناد جيد

(٥) حديث أن الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما : الزبير بن بكار فى الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلا أو معضلا وللدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة ابن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة

أيه تعجب ، أفلا أحدثك عن إحداهما تزوجها ، وعائشة جالسة تسمع فقالت ، أهي أحسن أم أنت ؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه ، لأنه كان دميا

وروى علقمة عن أبي سلمة [١] ، أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن على عليهما السلام ، فيرى الصبي لسانه ، فيهش له . فقال له عيينة بن بدر الفزارى ، والله ليكونن لى الابن قد تزوج ، وبقل وجهه ، وما قبلته قط . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ »

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان . وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم ، من غير ميل إلى هزل . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] مرة لصهيب وبه رمد ، وهو يأكل تمرا « أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَأَنْتَ رَمِدٌ ؟ » فقال : إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله . فتبسم صلى الله عليه وسلم . قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه .

وروى [٣] أن خوات بن جبير الأنصارى كان جالسا إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة . فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ مَالَكَ مَعَ النِّسْوَةِ ؟ » فقال يفتلن ضفيراً لجمل لى شرود . قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ، ثم عاد

---

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة انه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن على فيرى الصبى لسانه فيهش اليه فقال عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن لى الابن رجلا قد خرج وجهه وماقبلته قط فقال ان من لا يرحم لا يرحم : أبو يعلى من هذا الوجه دون ما فى آخره من قول عيينة ابن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده وحكى الخطيب فى المبهات قولين فى قائل ذلك أحدهما انه عيينة بن حصن والثانى انه الأقرع بن حابس وعند مسلم من رواية الزهرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة ان الأقرع بن حابس أبصر النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال ان لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم

(٢) حديث قال لصهيب وبه رمد أتأكل التمر وأنت رمد فقال انما آكل على الشق الآخر فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم : ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات

(٣) حديث ان خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو

فقال « يَاأَبَا عَبْدِ اللهِ أَمَا تَرَكَ ذَلِكَ الْجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ ؟ » قال فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته، حتى قدمت المدينة، وبعد ماقدمت المدينة. قال فرآني في المسجد يوما أصلي، فجلس إلي، فطولت، فقال « لَا تُطَوِّلْ فَإِنِّي أَنْتَظِرُكَ » فلما سلمت قال « يَاأَبَا عَبْدِ اللهِ أَمَا تَرَكَ ذَلِكَ الْجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ ؟ » قال فسكت واستحييت ، فقام ، وكنت بعد ذلك أتفرر منه ، حتى لحقني يوما وهو على حمار ، وقد جعل رجليه في شق واحد فقال « أَبَا عَبْدِ اللهِ أَمَا تَرَكَ ذَلِكَ الْجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ ؟ » فقلت والذي بعثك بالحق ماشرد منذ أسلمت فقال « اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ اللَّهُمَّ اهْدِ أَبَا عَبْدِ اللهِ » قال فحسن إسلامه وهداه الله

وكان نعيمان الأنصاري [1] رجلا مزاحا ، فكان يشرب الخمر في المدينه ، فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيضربه بنعله ، ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم . فلما كثر ذلك منه ، قال له رجل من الصحابة : لعنك الله. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ » وكان لايدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ، ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول يارسول الله ، هذا قد اشتريته لك ، وأهديته لك . فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن ، جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال يارسول الله ، أعطه ثمن متاعه . فيقول له صلى الله عليه وسلم « أَوَ لَمْ تُهْدِهِ لَنَا ؟ » فيقول يارسول الله، إنه لم يكن عندى ثمنه ، وأحببت أن تأكل منه . فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ويأمر لصاحبه بثمنه

فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور ، لاعلى الدوام . والمواظبة عليها هزل مذموم ، وسبب للضحك المميت للقلب

الآفة الحادية عشرة

السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا ، كما قال تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ

(١) حديث كان نعيمان رجلا مزاحا وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ــ الحديث وفيه انه كان يشتري الشيء ويهديه الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول اعطه ثمن متاعه ــ الحديث : الزبير بن بكار في الفكاهة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسلا وقد تقدم أوله

﴿ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء ﴾

عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ [1]) ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير ، والتنبيه على العيوب والنقائص ، على وجه يضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به ، لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها ، [1] حاكيت إنسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم « وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي حَاكَيْتُ إِنْسَانًا وَلِي كَذَا وَكَذَا » وقال ابن عباس فى قوله تعالى : (يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا [2]) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمعة [2] أنه قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال « عَلَامَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ ! » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ آخَرُ فَيُقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَحُ لَهُ الْبَابُ فَيُقَالُ لَهُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَلَا يَأْتِيهِ »

وقال معاذ بن جبل ؛ [4] قال النبى صلى الله عليه وسلم « مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ » وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه استهانة به واستصغارا له . وعليه نبه قوله تعالى (عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ [3]) أي لا تستحقره استصغارا ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به .

---

(١) حديث عائشة حكيت انسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم ما يسرنى انى حاكيت انسانا ولى كذ وكذا : أبو داود والترمذى وصححه

(٢) حديث عبد الله بن زمعة وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل: متفق عليه

(٣) حديث ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فاذا جاء أغلق دونه ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا ورويناه فى ثمانيات النجيب من رواية أبى هدبة أحد الهالكين عن أنس

(٤) حديث معاذ بن جبل من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله: الترمذى دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه

---

(١) الحجرات : ١١ (٢) الكهف : ٤٩ (٣) الحجرات : ١١

فاما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح . وقد سبق مايذم منه وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوسة ، كالضحك على خطه ، وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا ، أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها

الآفة الثانية عشرة

إفشاء السر

وهو منهى عنه ، لما فيه من الإيذاء ، والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبى صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ » وقال [2] مطلقا « الْحَدِيثُ بَيْنَكُمْ أَمَانَةٌ » وقال الحسن . إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك

ويروى أن معاوية رضى الله عنه ، أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا . فقال لأبيه ، ياأبت إن أمير المؤمنين أسر إلىّ حديثا ، وما أراه يطوى عنك مابسطه إلى غيرك . قال فلا تحدثنى به ، فإن من كتم سره كان الخيار إليه ؛ ومن أفشاه كان الخيار عليه . قال . فقلت ياأبت ، وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يابنى ، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر . قال : فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال . ياوليد ، أعتقك أبوك من رق الخطأ

فإفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا مايتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة ، فأغنى عن الإعادة

الآفة الثالثة عشرة

الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لاتسمح بالوفاء ، فيصير الوعد خلفا ، وذلك

﴿ الآفة الثانية عشرة افشاء السر ﴾

(١) حديث اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة : أبوداود والترمذى وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث الحديث بينكم أمانة : ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

من أمارات النفاق قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [١]) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الْوَأْيُ مِثْلُ الدَّيْنِ أَوْ أَفْضَلُ » والوأى الوعد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام ، فى كتابه العزيز ؛ فقال (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ [٢]) قيل إنه وعد إنسانا فى موضع ، فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسى . فبقى إسمعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره

ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال ، إنه كان خطب إلىّ ابنتى رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد ، فو الله لا ألقى الله بثلث النفاق ، أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى [٣] وعن عبد الله بن أبى الخنساء قال : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك ، فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال « يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَهُنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ » وقيل لإبراهيم الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجىء . قال . ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] إذا وعد وعدا قال « عَسَى » وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله ، وهو الأولى ثم إذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد ، فلابد من الوفاء ، إلا أن يتعذر . فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفى ، فهذا هو النفاق .

وقال أبو هريرة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم [٥] « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ »

---

(١) حديث العدة عطية : الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن ابى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا

(٢) حديث الوأى مثل الدين أو أفضل : ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية أبن لهيعة مرسلا وقال الوأى يعنى الوعد ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف

(٣) حديث عبد الله بن أبى الخنساء بايعت النبى صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يا بنى قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث انتظرك : رواه ابو داود واختلف فى اسناده وقال ابن مهدى ما اظن ابراهيم ابن طهمان الا اخطأ فيه

(٤) حديث كان إذا وعد وعدا قال عسى : لم اجد له اصلا

(٥) حديث ابى هريرة ثلاث من كن فيه فهو منافق ـ الحديث : وفيه إذا وعد اخلف متفق عليه وقد تقدم

---

(١) المائدة : ١ (٢) مريم : ٥٤

وقال عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف ، أو ترك الوفاء عن غير عذر . فأما من عزم على الوفاء ، فعنّ له عذر منعه من الوفاء ، لم يكن منافقا ، وإن جرى عليه ماهو صورة النفاق .

ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا ، كما يحترز من حقيقته . ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) ، كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما ، فأتى بثلاثة من السبي ، فأعطى اثنين وبقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول . ألا ترى أثر الرحى بيدى ؟ فذكر موعده لأبى الهيثم ، فجعل يقول « كَيْفَ بِمَوْعِدِي لِأَبِي الْهَيْثَمِ » فآثره به على فاطمة ، لما كان قد سبق من موعده له ، مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم(٣) جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين ، فوقف عليه رجل من الناس ، فقال إن لى عندك موعدا يارسول الله ، قال « صَدَقْتَ فَاحْتَكِمْ مَاشِئْتَ » فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها . قال « هِيَ لَكَ » وقال « احْتَكَمْتَ يَسِيراً وَلَصَاحِبَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ كَانَتْ أَحْزَمَ مِنْكَ وَأَجْزَلَ حُكْماً مِنْكَ حِينَ حَكَّمَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَتْ حُكْمِي أَنْ تَرُدَّنِي شَابَّةً وَأَدْخُلَ مَعَكَ الْجَنَّةَ »

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو اربع من كن فيه كان منافقا ـ الحديث متفق عليه

(٢) حديث كان وعد اباالهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه ـ الحديث : وفيه فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذي من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة

(٣) حديث انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ما شئت ـ الحديث : وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك ـ الحديث : ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر

قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا ، فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعى
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَيْسَ الْخُلْفُ أَنْ يَعِدَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ »
وفى لفظ آخر « إِذَا وَعَدَ الرَّجُلُ أَخَاهُ وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ فَلَمْ يَجِدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »

الآفة الرابعة عشرة

الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ،وفواحش العيوب . قال اسماعيل بن واسط ، سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال . (٢) ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ، ثم بكى وقال « إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ » وقال أبو أمامة . (٣) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْكَذِبَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النِّفَاقِ » وقال الحسن . كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب وقال عليه السلام (٤) « كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثاً هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ

---

(١) حديث ليس الخلف ان يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى وفى لفظ آخر إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا اثم عليه:أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى الا أنهما قالا فلم يف

(الآفة الرابعة عشرة الكذب فى القول واليمين)

(٢) حديث أبى بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال اياكم والكذب ـ الحديث : ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبى بكر وانما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن

(٣) حديث أبى أمامة ان الكذب باب من ابواب النفاق :ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ويغنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن فيه كان منافقا قال فى كل منهما وإذا حدث كذب وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها

(٤) حديث كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له كاذب:البخارى فى كتاب الأدب المفرد وابو داود من حديث سفيان بن اسيد وضعفه ابن عدى ورواه احمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان باسناد جيد

بِهِ كَاذِبٌ » وقال ابن مسعود ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا »

ومر (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ، يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر . والله لا أزيدك على كذا وكذا . فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما . فقال « أَوْجَبَ أَحَدُهُمَا بِالْإِثْمِ وَالْكَفَّارَةِ » وقال عليه السلام (٣) « الْكَذِبُ يُنْقِصُ الرِّزْقَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الْفُجَّارُ » فقيل يا رسول الله، أليس قد أحل الله البيع ؟ قال « نَعَمْ وَلَكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ فَيَأْثَمُونَ وَيُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) ، « ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ الْمَنَّانُ بِعَطِيَّتِهِ وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « مَا حَلَفَ حَالِفٌ بِاللهِ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إِلَّا كَانَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال أبو ذر (٧) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ رَجُلٌ كَانَ فِي فِئَةٍ فَنَصَبَ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ

---

(١) حديث ابن مسعود لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا: متفق عليه

(٢) حديث مر برجلين يتبايعان شاة ويحالفان ــ الحديث : وفيه فقال اوجب احدهما بالاثم والكفارة ابو الفتح الازدي في كتاب الاسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناه في امالي ابن سمعون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ وقال ابو حاتم هو عبد الله بن ناسخ

(٣) حديث الكذب ينقص الرزق : أبو الشيخ في طبقات الاصبهانيين من حديث أبي هريرة ورويناه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر واسناده ضعيف

(٤) حديث ان التجار هم الفجار ــ الحديث : وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل

(٥) حديث ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل ازاره : مسلم من حديث أبي ذر

(٦) حديث ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة الترمذي والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس

(٧) حديث أبي ذر ثلاثة يحبهم الله ــ الحديث وفيه وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الحلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الاحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ اخر باسناد جيد والنسائي من حديث أبي هريرة أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف ــ الحديث: واسناده جيد

وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سَوْءٍ يُؤْذِيهِ فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ وَرَجُلٌ كَانَ مَعَهُ قَوْمٌ فِي سَفَرٍ أَوْ سَرِيَّةٍ فَأَطَالُوا السُّرَى حَتَّى أَعْجَبَهُمْ أَنْ يَمَسُّوا الْأَرْضَ فَنَزَلُوا فَتَنَحَّى يُصَلِّي حَتَّى يُوقِظَ أَصْحَابَهُ لِلرَّحِيلِ . وَثَلَاثَةٌ يَشْنَؤُهُمُ اللهُ التَّاجِرُ أَوِ الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « رَأَيْتُ كَأَنَّ رَجُلاً جَاءَنِي فَقَالَ لِي قُمْ فَقُمْتُ مَعَهُ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَائِمٌ وَالْآخَرُ جَالِسٌ بِيَدِ الْقَائِمِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُلْقِمُهُ فِي شِدْقِ الْجَالِسِ فَيَجْذِبُهُ حَتَّى يَبْلُغَ كَاهِلَهُ ثُمَّ يَجْذِبُهُ فَيُلْقِمُهُ الْجَانِبَ الْآخَرَ فَيَمُدُّهُ فَإِذَا مَدَّهُ رَجَعَ الْآخَرُ كَمَا كَانَ فَقُلْتُ لِلَّذِي أَقَامَنِي مَا هَذَا ؟ فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ كَذَّابٌ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وعن عبد الله بن جراد قال ، (٣) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت يارسول الله ، هل يزنى المؤمن ؟ قال « قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ » قال يانبي الله ،هل يكذب المؤمن قال لا . ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ (١)) وقال أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) يدعو فيقول فى دعائه « اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ وَفَرْجِي مِنَ الزِّنَا وَلِسَانِي مِنَ الْكَذِبِ »

---

(١) حديث ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له: أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

(٢) حديث رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس ـ الحديث : البخارى من حديث سمرة ابن جندب فى حديث طويل

(٣) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن قال قد يكون من ذلك قال هل يكذب قال لا ـ الحديث : ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء.

(٤) حديث أبى سعيد اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب هكذا وقع فى نسخ الاحياء عن ابن سعيد وانما هو عن أم معبد كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا وزاد وعملى من الرياء وعينى من الخيانة واسناده ضعيف

(١) النحل : ١٠٥

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » وقال عبد الله بن عامر ، [٢] جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي ، ياعبد الله ، تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ ؟ » قالت تمرا فقال « أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « لَوْ أَفَاءَ اللهُ عَلَيَّ نَعَماً عَدَدَ هٰذَا الْحَصَى لَقَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذَّاباً وَلا جَبَاناً »

وقال صلى الله عليه وسلم ، وكان متكئا ، [٤] « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » ثم قعد وقال « أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ » وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكْذِبُ الْكِذْبَةَ فَيَتَبَاعَدُ الْمَلَكُ عَنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ » وقال أنس [٦] قال النبي صلى الله عليه وسلم « تَقَبَّلُوا إِلَيَّ بِسِتٍّ أَتَقَبَّلْ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ » فقالوا وماهن ؟ قال « إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلا يَكْذِبْ وَإِذَا وَعَدَ فَلا يُخْلِفْ وَإِذَا ائْتُمِنَ فَلا يَخُنْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ »

---

(١) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ـ الحديث : وفيه والامام الكذاب مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي ياعبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت ان تعطيه قالت تمرا فقال ان لم تفعلي كتبت عليك كذبة رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم ان عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه قلت وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات الا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة

(٣) حديث لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا : رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة

(٤) حديث ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ الحديث : وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكرة

(٥) حديث ابن عمر ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به الترمذي وقال حسن غريب

(٦) حديث أنس تقبلوا الى بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ـ الحديث : الحاكم في المستدرك والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ كُحْلاً وَلَعُوقاً وَنَشُوقاً أَمَّا لَعُوقُهُ فَالْكَذِبُ وَأَمَّا نَشُوقُهُ فَالْغَضَبُ وَأَمَّا كُحْلُهُ فَالنَّوْمُ »

وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال ، (٢) قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامي هذا فيكم ، فقال « أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ عَلَى الْيَمِينِ وَلَمْ يُسْتَحْلَفْ وَيَشْهَدَ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِإِثْمٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) ، أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « كُلُّ خَصْلَةٍ يُطْبَعُ أَوْ يَطْوِي عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إِلاَّ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ »

وقالت عائشة رضى الله عنها (٧) ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب ، فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها .

---

(١) حديث أن للشيطان كحلا ولعوقا ـ الحديث: الطبرانى وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث خطب عمر بالجابية ـ الحديث : وفيه ثم يفشو الكذب الترمذي وصححه والنسائى فى الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر

(٣) حديث من حدث بحديث وهو يرى انه كذب فهو أحد الكذابين مسلم فى مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب

(٤) حديث من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٥) حديث انه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها : ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل

(٦) حديث على كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن الا الخيانة والكذب: ابن ابى شيبة فى المصنف من حديث أبى امامة ورواه ابن عدى فى مقدمة الكامل من حديث سعد ابن أبى وقاص وابن عمر أيضا وأبى أمامة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب قاله الدار قطنى فى العلل

(٧) حديث ما كان من خلق الله شىء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات الا أنه قال عن ابن أبى مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ فى الطبقات فقال ابن أبى مليكة ولم يشك وهو صحيح

وقال موسى عليه السلام : يارب ، أي عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه . وقال لقمان لابنه يابنى ، إياك والكذب ، فإنه شهى كلحم العصفور ، عما قليل يقلاه صاحبه .

وقال عليه السلام فى مدح الصدق [1] « أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا يَضُرُّكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا صِدْقُ الْحَدِيثِ وَحِفْظُ الْأَمَانَةِ وَحُسْنُ خُلُقٍ وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ » وقال أبو بكر رضى الله عنه [2] فى خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول ؛ ثم بكى وقال « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ » وقال معاذ . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ »

وأما الآثار فقد قال على رضى الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه . ما كذبت كذبة منذ شددت علىّ إزارى . وقال عمر رضي الله عنه ، أحبكم إلينا مالم نركم أحسنكم اسما فإذا رأينا كم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا فإذا اختبرنا كم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة

وعن ميمون بن أبى شبيب قال ، جلست أكتب كتابا ، فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت ، فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [(1)]) وقال الشعبى ما أدرى أيهما أبعد غورا فى النار ، الكذاب أو البخيل . وقال ابن السماك ، ما أرانى أوجر على ترك الكذب ، لأنى إنما أدعه أنفة

---

(١) حديث أربع إذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا صدق الحديث .. الحديث : الحاكم والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث أبى بكر عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وقد تقدم بعضه فى أول هذا النوع

(٣) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث : أبو نعيم فى الحلية وقد تقدم .

---

(١) ابراهيم : ٢٧

وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار ، قرأت في بعض الكتب ، مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله ، فإن كان صادقا صدق ، وإن كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار ، كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك ابن دينار ، الصدق والكذب يعتركان في القلب ؛ حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر ابن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء ، فقال له كذبت . فقال عمر ، والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه

بيان

ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره . فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ماهو عليه ، فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره . ورب جهل فيه منفعة ومصلحة . فالكذب محصل لذلك الجهل ، فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا ، قال ميمون بن مهران ، الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله ، فدخل دارا ، فانتهى إليك فقال أرأيت فلانا ؟ ما كنت قائلا ؟ ألست تقول لم أره ، وما تصدق به ؟ وهذا الكذب واجب

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد . فكل مقصود محمود ، يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام . وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا . كما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو إصلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب ، فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه ، فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه ، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة .

والذى يدل على الاستثناء ، ماروى عن أم كلثوم قالت [١] ، ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب ، إلا فى ثلاث ، الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا » وقالت أسماء بنت يزيد [٣] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا رَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا »

وروى عن أبى كاهل [٤] قال وقع بين اثنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما . فلقيت أحدهما فقلت مالك ولفلان ؟ فقد سمعته يحسن عليك الثناء . ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك ، حتى اصطلحا . ثم قلت أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يَا أَبَا كَاهِلٍ أَصْلِحْ بَيْنَ النَّاسِ » أى ولو بالكذب وقال عطاء بن يسار [٥] قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ، أكذب على أهلى ؟ قال « لَا خَيْرَ فِى الْكَذِبِ » قال أعدها وأقول لها ؟ قال « لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ »

وروى أن ابن أبى عذرة الدؤلى ، وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه ، كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن . فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها . فلما علم بذلك ، أخذ بيد عبد الله ابن الأرقم ، حتى أتى به إلى منزله . ثم قال لامرأته ، أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لا تنشدنى

---

(١) حديث أم كلثوم ما سمعته يرخص فى شىء من الكذب الا فى ثلاث : مسلم وقد تقدم

(٢) حديث أم كلثوم أيضا ليس بكذاب من أصلح بين الناس ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا

(٣) حديث اسماء بنت يزيد كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما : أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه

(٤) حديث أبى كاهل وقع بين رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام ـ الحديث : وفيه ياأبا كاهل اصلح بين الناس رواه الطبرانى ولم يصح

(٥) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى قال لا خير فى الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك : ابن عبد البر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

قال فإني أنشدك الله . قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال إنكم لتحدثون أنى أظلم النساء وأخلعهن . فاسأل ابن الأرقم . فسأله فأخبره . فأرسل إلى امرأة ابن أبى عذرة ، فجاءت هى وعمتها . فقال أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت إنى أول من تاب وراجع أمر الله تعالى ، إنه ناشدنى فتحرجت أن أكذب ، أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم ، فاكذبى ، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك فإن أقل البيوت الذى يبنى على الحب ؛ ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب

وعن النواس بن سمعان الكلابى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَالِى أَرَاكُمْ تَتَهَافَتُونَ فِى الْكَذِبِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ فِى النَّارِ كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ لَامَحَالَةَ إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِى الْحَرْبِ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ أَوْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ شَحْنَاءُ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا أَوْ يُحَدِّثَ امْرَأَتَهُ يُرْضِيهَا » وقال ثوبان . الكذب كله إثم ، إلا مانفع به مسلما ، أو دفع عنه ضررا . وقال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فلأن أخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم ، فالحرب خدعة

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها ، إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره

أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ، فله أن ينكره . أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها ، فله أن ينكر ذلك ، فيقول مازنيت وماسرقت وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه ، وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه ، وإن كان كاذبا

---

(١) حديث النواس بن سمعان مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب مكتوب ـ الحديث : أبو بكر بن لال فى مكارم الاخلاق بلفظ تتبايعون إلى قوله فى النار دون ما بعده فرواه الطبرانى وفيها شهر بن حوشب

(٢) حديث من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله : الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله واسناده حسن

وأما عرض غيره ، فبأن يُسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره . وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلح بين الضرات من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه . وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه ، فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها . أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد ، فلا بأس به .

ولكن الحد فيه ، أن الكذب محذور . ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ، ويزن بالميزان القسط . فإذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق ، أشد وقعا فى الشرع من الكذب ، فله الكذب . وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران ، بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة . فإن شك فى كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم ، فيرجع إليه . ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ، ينبغى أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه . وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب . فأما إذا تعلق بغرض غيره ، فلا تجوز المسامحة لحق الغير ، والإضرار به .

وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم . ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فواتها محذورا ، حتى أن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفتخر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء [1] ، سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ، إن لى ضرة ، وإنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ، أضارُّها بذلك . فهل علىّ شىء فيه؟ فقال صلى الله عليه وسلم « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَىْ زُورٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ تَطَعَّمَ بِمَا لَا يُطْعَمُ أَوْ قَالَ لِى وَلَيْسَ لَهُ أَوْ أُعْطِيتُ وَلَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَىْ زُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذى لا يتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدرى ، وهذا حرام

---

(١) حديث اسماء قالت امرأة ان لى ضرة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ـ الحديث : متفق عليه وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق

(٢) حديث من تطعم بمالا يطعم وقال لى وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة : لم أجده بهذا اللفظ

ومما يلتحق بالنساء الصبيان . فإن الصبي إذا كان لا يرغب فى المكتب إلا بوعد ، أو وعيد ، أو تخويف كاذب ، كان ذلك مباحا . نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ، ويحاسب عليه ، ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه ، وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح ، فلهذا يكتب

وكل من أتى بكذبة ، فقد وقع فى خطر الاجتهاد ، ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا . وذلك غامض جداً . والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه ، كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى وزعموا أن القصد منه صحيح . وهو خطأ محض ، إذ قال صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ، ولا ضرورة . إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب . ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها .

وقول القائل إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ، ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شىء ، نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين

بيان

الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف : أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضي الله عنه : أما فى المعاريض ما يكفى الرجل عن الكذب ! وروى ذلك عن ابن عباس وغيره .

---

(١) حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار : متفق عليه من طرق وقد تقدم فى العلم

وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب . فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة ، فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون

ومثال التعريض ماروى أن مطرفا دخل على زياد ، فاستبطأه . فتعلل بمرض وقال : مارفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا مارفعني الله . وقال إبراهيم ، إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب ، فقل إن الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء . فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع ، وعنده للإبهام

وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه . فلما رجع ، قالت له امرأته ، ماجئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشيء ، فقال : كان عندي ضاغط . قالت : كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه ، فبعث عمر معك ضاغطا ! وقامت بذلك بين نسائها ، واشتكت عمر . فلما بلغه ذلك ، دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا ؟ قال لم أجد ماأعتذر به إليها إلا ذلك . فضحك عمر رضي الله عنه ، وأعطاه شيئا ، فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيبا ، وأراد به الله تعالى

وكان النخعي لايقول لابنته أشتري لك سكرا ، بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا ؟ فإنه ربما لايتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار ، قال للجارية ، قولي له أطلبه في المسجد ، ولاتقولي ليس ههنا ، كيلا يكون كذبا . وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه، خط دائرة، وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا

وهذا كله في موضع الحاجة . فأما في غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا ، فهو مكروه على الجملة . كما روى عبد الله بن عتبة قال ، دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه ، فخرجت وعليّ ثوب ، فجعل الناس يقولون ، هذا كساكه أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه . فنهاه عن ذلك ، لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب ، لأجل غرض المفاخرة ، وهذا غرض باطل لافائدة فيه . نعم المعاريض تباح لغرض خفيف ، كتطييب

قلب الغير بالمزاح ، كقوله صلى الله عليه وسلم [١] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ » وقوله للأخرى الذى فى عين زوجك بياض ، وللأخرى نحملك على ولد البعير ، وما أشبهه

وأما الكذب الصريح ، كما فعله نعيمان الأنصارى مع عثمان ، فى قصة الضرير ، إذ قال له إنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمقى ، بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت فى تزويجك فإن كان فيه ضرر يؤدى إلى إيذاء قلب ، فهو حرام . وإن لم يكن إلا لمطايبته ، فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا يَكْمُلُ لِلْمَرْءِ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَحَتَّى يَجْتَنِبَ الْكَذِبَ فِى مِزَاحِهِ »

وأما قوله عليه السلام [٣] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لِيُضْحِكَ بِهَا النَّاسَ يَهْوِى بِهَا فِى النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا » أراد به مافيه غيبة مسلم ، أو إيذاء قلب ، دون محض المزاح

ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ، ما جرت به العادة فى المبالغة ، كقوله طلبتك كذا وكذا مرة ، وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها ، بل تفهيم المبالغة . فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا . وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها فى الكثرة ، لا يأثم ، وإن لم تبلغ مائة . وبينهما درجات ، يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب

ومما يعتاد الكذب فيه ، ويتساهل به ، أن يقال كل الطعام ، فيقول لا أشتهيه . وذلك منهى عنه ، وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد : [٤] قالت أسماء بنت عميس ، كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث لا يدخل الجنة عجوز وحديث فى عين زوجك بياض وحديث نحملك على ولد البعير : تقدمت الثلاثة فى الآفة العاشرة

(٢) حديث لا يستكمل المؤمن ايمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أبى مليكة الذمارى وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أنس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقطنى فى المؤتلف والمختلف من حديث أبى هريرة لا يؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه قال أحمد بن حنبل منكر

(٣) حديث ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا : تقدم فى الآفة الثالثة

(٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى

ومعى نسوة ، قالت فو الله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن ، فشرب ، ثم ناوله عائشة ، قالت فاستحيت الجارية ، فقلت لاتردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولى صواحبك ، فقلن لانشتهيه . فقال « لاتَجْمَعْنَ جُوعا وَكَذِبًا » قالت فقلت يارسول الله ، إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه لا أشتهيه ، أيعد ذلك كذبا ؟ قال « إِنَّ الْكَذِبَ لَيُكْتَبُ كَذِبًا حَتَّى تُكْتَبُ الْكُذَيْبَةُ كُذَيْبَةً »

وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب ، قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص ، حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له لو مسحت عينيك ، فيقول وأين قول الطبيب لا تمس عينيك ، فأقول لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه انسل لسانه فى الكذب عن حد اختياره ، فيكذب ولا يشعر .

وعن خوات التيمى قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له ، فانكبت عليه ، فقالت كيف أنت يابنى ؟ فجلس الربيع وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ماعليك لو قلت يا ابن أخى فصدقت

ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله ، أن يقول العبد إن الله يعلم لما لا يعلم

وربما يكذب فى حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم ، إذ قال عليه السلام [1] « إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْيَةِ أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ يُرِىَ عَيْنَيْهِ فِى الْمَنَامِ مَالَمْ يَرَ أَوْ يَقُولَ عَلَىَّ مَالَمْ أَقُلْ » وقال عليه السلام [2] « مَنْ كَذَبَ فِى حُلْمٍ كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ بَيْنَهُمَا أَبَدًا »

فى الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة لكن فى طبقات الاصبهانيين لأبى الشيخ من رواية عطاء ابن أبى رباح عن أسماء بنت عميس زففنا الى النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه ـ الحديث : فاذا كانت غير عائشه ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك

(١) حديث ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم تريا أو يقول على مالم أقل : البخارى من حديث واثلة بن الاسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفرى أن يرى عينيه ما لم تريا

(٢) حديث من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين البخارى من حديث ابن عباس

الآفة الخامسة عشرة

الغيبة

والنظر فيها طويل ، فلنذكر أولا مذمة الغيبة ، وما ورد فيها من شواهد الشرع
وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه ، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى
(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ [1])
وقال عليه السلام [1] « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ » والغيبة تتناول العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو برزة ، قال عليه السلام [2] « لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا »

وعن جابر وأبى سعيد [3] قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكُمْ وَالْغِيبَةَ فَإِنَّ الْغِيبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَزْنِى وَيَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ » وقال أنس [4] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِى عَلَى أَقْوَامٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ بِأَظَافِرِهِمْ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ وَيَقَعُونَ فِى أَعْرَاضِهِمْ » وقال سليم بن جابر [5] أتيت النبى عليه الصلاة والسلام ، فقلت علمنى خيرا أنتفع به . فقال « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَصُبَّ مِنْ دَلْوِكَ فِى إِنَاءِ الْمُسْتَقِى وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ وَإِنْ أَدْبَرَ فَلَا تَغْتَابَنَّهُ »

﴿ الآفة الخامسة عشرة الغيبة ﴾

(١) حديث كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه : مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أبى هريرة لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا : متفق عليه من حديث أبى هريرة وأنس دون قوله ولا يغتب بعضكم بعضا وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٣) حديث جابر وأبى سعيد اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا ـ الحديث : ابن ابى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير

(٤) حديث أنس مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم ـ الحديث : أبو داود مسندا ومرسلا والمسند أصح

(٥) حديث سليم بن جابر أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به ـ الحديث : أحمد فى المسند وابن ابى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد وإذا أدبر فلا يغتابه وفى اسنادها ضعف

---

(١) الحجرات : ١٢

وقال البراء [١] خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق فى بيوتهن ، فقال « يَامَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِى جَوْفِ بَيْتِهِ » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام ، من مات تائبا من الغيبة ، فهو آخر من يدخل الجنة . ومن مات مصرا عليها ، فهو أول من يدخل النار

وقال أنس ، [٢] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم ، فقال « لاَ يُفْطِرَنَّ حَدٌ حَتَّى آذَنَ لَهُ » فصام الناس ، حتى إذا أمسوا ، جعل الرجل يجيء فيقول يارسول الله ظللت صائما فائذن لى لأفطر ، فيأذن له . والرجل ، والرجل ، حتى جاء رجل فقال ، يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك ، فائذن لهما أن يفطرا . فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ثم عاوده ، فأعرض عنه ثم عاوده ، فقال « إِنَّهُمَا لَمْ يَصُومَا وَكَيْفَ يَصُومُ مَنْ ظَلَّ نَهَارَهُ يَأْكُلُ لَحْمَ النَّاسِ اذْهَبْ فَمُرْهُمَا إِنْ كَانَتَا صَائِمَتَيْنِ أَنْ تَسْتَقِيئَا » فرجع إليهما فأخبرهما ، فاستقاءتا ، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم . فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ بَقِيَتَا فِى بُطُونِهِمَا لأَكَلَتْهُمَا النَّارُ » وفى رواية ، أنه لما أعرض عنه . جاء بعد ذلك وقال ، يارسول الله ، والله إنهما قد ماتتا أوكادتا أن تموتا . فقال صلى الله عليه وسلم ، [٣] « ائْتُونِى بِهِمَا » فجاءتا . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح ، فقال لأحداهما قيىء . فقاءت من قيح ودم وصديد ، حتى ملأت القدح . وقال للأخرى قيىء فقاءت كذلك . فقال إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما ،

---

(١) حديث البراء يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ـ الحديث : ابن ابى الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبى برزة باسناد جيد

(٢) حديث أنس امر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس ـ الحديث : فى ذكر المرأتين اللتين اغتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم : ابن ابى الدنيا فى الصمت وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ويزيد ضعيف

(٣) حديث المرأتين المذكورتين وقال إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ـ الحديث : أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى فى مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المبهم

وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جاءت إحداهما إلى الأخرى ، فجعلتا تأكلان لحوم الناس

وقال أنس[1] خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه ، فقال . إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا ، أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل : وأربى الربا عرض المسلم

وقال جابر[2] ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ، فأتى على قبرين يعذب صاحباهما. فقال « إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ » فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين : فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر . وقال « أَمَا إِنَّهُ سَيُهَوَّنُ مِنْ عَذَابِهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ أَوْ مَا لَمْ يَيْبَسَا ».

ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] ماعزا في الزنا ، قال رجل لصاحبه ، هذا أقعص كما يقعص الكلب . فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة ، فقال ، « انْهَشَا مِنْهَا » فقالا يا رسول الله ، ننهش جيفة ! فقال « مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتَنُ مِنْ هَذِهِ »

وكان الصحابة رضي الله عنهم ، يتلاقون بالبشر ، ولا يغتابون عند الغيبة . ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة[4] من أكل لحم أخيه في الدنيا ، قرب إليه لحمه في الآخرة : وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله ، فينضج ويكلح. وروي مرفوعا كذلك . وروي أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد،

---

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه ـ الحديث : وفيه واربى الربا عرض الرجل المسلم ابن أبي الدنيا بسند ضعيف

(٢) حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب باسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس الا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه باسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال انهشا منها ـ الحديث : أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد

(٤) حديث أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب اليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ـ الحديث : ابن مردويه في التفسير مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن اسحاق رواه بالعنعنة

فمر بهما رجل كان مخنثا فتركا ذلك . فقالا لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة ، فدخلا ، فصليا مع الناس ، فحاك في أنفسهما ما قالا فأتيا عطاء فسألاه ، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد ، أنه قال في (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ[1]) الهمزة الطعان في الناس ، واللمزة الذي يأكل لحوم الناس . وقال قتادة ، ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث . ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن ، والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم ، أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس ، إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك ، فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة ، يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول ، ابن آدم ، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب ، فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك ، كان شغلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار ، مر عيسى عليه السلام ، ومعه الحواريون . بجيفة كلب . فقال الحواريون ، ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال عليه الصلاة والسلام ، ما أشد بياض أسنانه . كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال له إياك والغيبة ، فإنها إدام كلاب الناس وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء . وإياكم وذكر الناس فإنه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

بيان

معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه ، أو في خُلُقِهِ أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه ، وداره ، ودابته أما البدن ، فكذكرك العمش ، والحول ، والقرع ، والقصر ، والطول ، والسواد ،

(1) الهمزة : ١

والصفرة : وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب، فبأن تقول أبوه نبطى : أوهندى ، أوفاسق ، أوخسيس ، أوإسكاف ، أوزبال ، أوشيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق ، فبأن تقول : هوسيء الخلق : بخيل ، متكبر مراء . شديد الغضب ،جبان،عاجز ، ضعيف القلب ، متهور ، ومايجرى مجراه . وأمافى أفعاله المتعلقة بالدين .فكقولك هوسارق ، أوكذاب، أوشارب خمر ، أوخائن،أوظالم ،أومتهاون بالصلاة، أو الزكاة ، أولا يحسن الركوع ،أوالسجود ، أولا يحترز من النجاسات،أوليس بار ابوالديه، أولايضع الزكاة موضعها، أولا يحسن قسمتها ، أولا يحرس صومه عن الرفث ، والغيبة ، والتعرض لأعراض الناس . وأمافعله المتعلق بالدنيا ، فكقولك إنه قليل الأدب ،متهاون بالناس، أولايرى لأحد على نفسه حقا ، أويرى لنفسه الحق على الناس ،أوأنه كثير الكلام ، كثير الأكل ، نؤم ، ينام فى غير وقت النوم ، ويجلس فى غيرموضعه . وأما فى ثوبه ، فكقولك إنه واسع الكم ، طويل الذيل ، وسخ الثياب

وقال قوم : لاغيبة فى الدين ، لأنه ذم ماذمه الله تعالى ، فذكره بالمعاصى ،وذمه بها يجوز، بدليل ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ذكرت له امرأة ،وكثرة صلاحها وصومها، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال « هِيَ فِي النَّارِ » [2] وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة ، فقال « فَمَا خَيْرُهَا إِذاً » فهذا فاسد ، لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه فى غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه ، إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد الغيبة . وكل هذا ، وإن كان صادقا فيه ، فهو به مغتاب ، عاص لربه ، وآكل لحم أخيه، بدليل ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم [3] قال « هَلْ تَدْرُونَ مَاالْغِيبَةُ » قالوا الله ورسوله أعلم. قال « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ »

(١) حديث ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها فقال هى فى النار : ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال فما خيرها اذا : الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسلا ورويناه فى أمالى ابن شمعون هكذا

(٣) حديث هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

قيل أرأيت إن كان فى أخى ما أقوله ، قال « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » وقال معاذ بن جبل ، [١] ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا ما أعجزه ، فقال صلى الله عليه وسلم « اغْتَبْتُمْ أَخَاكُمْ » قالوا يارسول الله ، قلنا ما فيه . قال « إِنْ قُلْتُمْ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتُّمُوهُ » وعن حذيفة، عن عائشة رضي الله عنها، [٢] أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة، فقالت إنها قصيرة. فقال صلى الله عليه وسلم « اغْتَبْتِيهَا »

وقال الحسن ، ذكر الغير ثلاثة ، الغيبة، والبهتان، والإفك. وكل فى كتاب الله عز وجل فالغيبة أن تقول ما فيه . والبهتان أن تقول ما ليس فيه . والإفك أن تقول ما بلغك . وذكر ابن سيرين رجلا فقال ، ذاك الرجل الأسود ، ثم قال ، أستغفر الله ، إنى أرانى قد اغتبته وذكر ابن سيرين ، إبراهيم النخعى ، فوضع يده على عينه ، ولم يقل الأعور . وقالت عائشة [٣] لا يغتابن أحدكم أحدا ، فإنى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إن هذه لطويلة الذيل ، فقال لى « الْفِظِي الْفِظِي » فلفظت مضغة لحم

بيان

أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان ، إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك ، وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول ، والإشارة ، والإيماء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة والحركة ، وكل ما يفهم المقصود، فهو داخل فى الغيبة، وهو حرام فمن ذلك، قول عائشة رضى الله عنها [٤] ، دخلت علينا امرأة ؛ فلما ولت ، أومأت بيدى أنها قصيرة، فقال عليه السلام « اغْتَبْتِيهَا »

---

(١) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما اعجزه ـ الحديث : الطبرانى بسند ضعيف

(٢) حديث عائشة انها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتيها: رواه احمد واصله عند ابى داود والترمذى وصححه بلفظ اخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو فى الصمت لابن ابى الدنيا والصواب عن أبى حذيفة كما عند احمد وابى داود والترمذى واسم ابى حذيفة سلمة بن صهيب

(٣) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفظى فلفظت بضعة من لحم ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لا أعرفها

(٤) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات

ومن ذلك المحاكاة، كأن يمشي متعارجا، أو كما يمشي. فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. ولما رأى صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال [١] «مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَاكَيْتُ إِنْسَاناً وَلِي كَذَا وَكَذَا»

وكذلك الغيبة بالكتابة، فإن القلم أحد اللسانين. وذكر المصنف شخصا معينا، وتهجين كلامه في الكتاب غيبة، إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره، كما سيأتي بيانه وأما قوله. قال قوم كذا، فليس ذلك غيبة. إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت

ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا، لأن المحذور تفهيمه، دون ما به التفهيم. فأما إذا لم يفهم عينه جاز كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] إذا كره من إنسان شيئا، قال «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا» فكان لا يعين. وقولك بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعي العلم: إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص، فهي غيبة

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين. فإنهم يفهمون المقصود، على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة، ويفهمون المقصود. ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين، الغيبة والرياء. وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان. فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام. أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها. وإنما قصده أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء. وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته. فيقول ما أحسن أحوال فلان، ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور، وابتلي بما يبتلى به كلنا، وهو قلة الصبر. فيذكر نفسه، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك، ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين، بأن يذم نفسه. فيكون مغتابا ومرائيا، ومزكيا نفسه. فيجمع بين ثلاث فواحش، وهو بجهله، يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة. ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل: إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم، ويحبط بمكايده عملهم: ويضحك عليهم، ويسخر منهم

---

(١) حديث ما سرني أني حكيت ولي كذا وكذا: تقدم في الآفة الحادية عشرة

(٢) حديث كان إذا كره من انسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ـ الحديث: أبو داود من حديث عائشة دون قوله وكان لا يعينه ورجاله رجال الصحيح

ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان ، فلا يتنبه له بعض الحاضرين ، فيقول سبحان الله ماأعجب هـذا ، حتى يصغى إليه ، ويعلم مايقول . فيذكر الله تعالى ، ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه ، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره ،جهلا منه وغرورا . وكذلك يقول ، ساءني ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه . فيكون كاذبا في دعوى الاغتمام ؛ وفي إظهار الدعاء له. بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته . ولو كان يغتم به لاغتم أيضا بإظهار مايكرهه . وكذلك يقول ، ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه . فهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفي قصده . وهو لجهله لايدرى أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب . فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة ؛ فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق . فيقول ، عجب ، ماعلمت أنه كذلك ، ماعرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه . فإن كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « الْمُسْتَمِعُ أَحَدُ الْمُغْتَابِينَ » وقد روى عن أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، [2] أن أحدهما قال لصاحبه ، إن فلانا لنؤم ، ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأكلا به الخبز . فقال صلى الله عليه وسلم « قَدِ ائْتَدَمْتُمَا » فقالا مانعلمه . قال « بَلَى إِنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْ لَحْمِ أَخِيكُمَا » فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما ، والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما ، اقعص الرجل كما يقعص الكلب [3] « انْهَشَا مِنْ هَذِهِ الْجِيفَةِ » فجمع بينهما . فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة ، إلا أن ينكر بلسانه ، أو بقلبه إن خاف ، وإن قـدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، فلم يفعل

---

(١) حديث المستمع أحد المغتابين: الطبراني من حديث ابن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف

(٢) حديث ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه ان فلانا لنؤم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتدمتما فقالا ما نعلم فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما: أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلا نحوه

(٣) حديث انهشا من هذه الميتة قاله للرجلين اللذين قال أحدهما اقعص كما يقعص الكلب : تقدم قبل هـذا بإثني عشر حديثا

لزمه . وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشته لذلك بقلبه ، فذلك نفاق ، ولا يخرجه من الإثم مالم يكرهه بقلبه . ولا يكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أو يشير بحاجبه وجبينه فإن ذلك استحقار للمذكور ، بل ينبغى أن يعظم ذلك ، فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ أَذَلَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُسِ الْخَلَائِقِ » وقال أبو الدرداء ، (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْ عِرْضِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أيضا (٣) « مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ » وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة ، وفى فضل ذلك أخبار كثيرة ، أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين ، فلا نطول بإعادتها

بيان

الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد فى حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة ، أما الثمانية

فالأول : أن يشفى الغيظ ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه ، يشتفى بذكر مساويه ، فيسبق اللسان إليه بالطبع ، إن لم يكن ثم دين وازع . وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب فى الباطن ، فيصير حقدا ثابتا ، فيكون سببا دائما لذكر المساوى . فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة

---

(١) حديث من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق : الطبرانى من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث أبى الدرداء من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ابن أبى الدنيا فى الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وفى رواية له كان له حجابا من النار وكلاهما ضعيف

(٣) حديث من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله ان يعتقه من النار : احمد والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد

الثانى : موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس ، استثقلوه ، ونفروا عنه ، فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة . وقد يغضب رفقاؤه ، فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم ، إظهارا للمساهمة فى السراء والضراء ، فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ، ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة ، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ، ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقا ، ليكذب عليه بعده ، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول ، ما من عادتى الكذب ، فإنى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله ، فكان كما قلت

الرابع : أن ينسب إلى شىء ، فيريد أن يتبرأ منه ، فيذكر الذى فعله ، وكان من حقه أن يبرىء نفسه ، ولا يذكر الذى فعل ، فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له فى الفعل ، ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول فلان جاهل ، وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه ، فيقدح فيه لذلك

السادس : الحسد ، وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ، ويحبونه ، ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس ، حتى يكفوا عن كرامته ، والثناء عليه ، لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه ، وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق

السابع : اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب

الثامن : السخرية والاستهزاء . استحقارا له ، فإن ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضا فى الغيبة . ومنشؤه التكبر ، واستصغار المستهزأ به

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة ، فهى أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان فى معرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر

الاول : أن تنبعث من الدين داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ، فإنه قد يكون به صادقا ؛ ويكون تعجبه من المنكر ؛ ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه ، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى إظهار تعجبه ، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدرى . ومن ذلك قول الرجل ، تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة ، وكيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل

الثانى : الرحمة ، وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به ، فيقول مسكين فلان قد غمنى أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه ، فيذكره فيصير به مغتابا ، فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدرى ، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه ، فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه

الثالث : الغضب لله تعالى ، فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه ، فيظهر غضبه ، ويذكر اسمه . وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ولا يظهره على غيره . أو يستر اسمه ، ولا يذكره بالسوء

فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام . فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة ، والغضب إذا كان لله تعالى ، كان عذرا فى ذكر الاسم ، وهو خطأ . بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة ، لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم ، كما سيأتى ذكره

روى عن عامر بن واثلة ،[1] أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام . فلما جاوزهم ، قال رجل منهم ، إنى لأبغض هذا فى الله تعالى

---

(١) حديث عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم انى لأبغض هذا فى الله ـ الحديث : بطوله وفيه فقال قم فلعله خير منك : أحمد باسناد صحيح

فقال أهل المجلس ، لبئس ماقلت ، والله لننبئنه . ثم قالوا يافلان ، لرجل منهم ، قم فأدركه وأخبره بما قال . فأدركه رسولهم . فأخبره . فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى له ماقال ، وسأله أن يدعوه له ، فدعاه وسأله . فقال قد قلت ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم « لِمَ تبْغُضُهُ » فقال أنا جاره ، وأنا به خابر . والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة . قال فاسأله يارسول الله ، هل رآنى أخرتها عن وقتها ؟ أو أسأت الوضوء لها ؟ أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال لا . فقال والله مارأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر . قال فاسأله يارسول الله ، هل رآنى قط أفطرت فيه ؟ أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه . فقال والله مارأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ، ولا رأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله ، إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر . قال فاسأله هل رآنى نقصت منها ؟ أو ماكست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال لا . فقال صلى الله عليه وسلم للرجل « قُمْ فَلَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ »

بيان

العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها ، إنما تعالج بمعجون العلم والعمل . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها

وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة . والآخر على التفصيل

أما على الجملة ، فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته ، بهذه الأخبار التى رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه ، بدلا عما استباحه من عرضه . فإن لم تكن له حسنات ، نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ، ومشبه عنده بآكل الميتة . بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه ، فيحصل بها الرجحان ، ويدخل بها النار . وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك

بعد المخاصمة والمطالبة ، والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَا النَّارُ فِي الْيَبَسِ بِأَسْرَعَ مِنَ الْغِيبَةِ فِي حَسَنَاتِ الْعَبْدِ »

وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى فقال ما بلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى . فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة ، لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك

وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه ، فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه . وذكر قوله صلى الله عليه وسلم [2] « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ » ومهما وجد عيبا ، فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه ، ويذم غيره . بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه ، فى التنزه عن ذلك العيب ، كعجزه . وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره . وإن كان أمرا خلقيا ، فالذم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم يا قبيح الوجه ، قال ما كان خلق وجهى إلىّ فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه ، فليشكر الله تعالى ، ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب . بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب ، جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب . وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته ، كتألمه بغيبة غيره له . فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب ، فينبغى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جملية

أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة ، فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب

أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب آفات الغضب ، وهو أن يقول إنى إذا أمضيت غضبى عليه ، فلعل الله تعالى يمضى غضبه علىّ بسبب الغيبة ، إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت بزجره . وقد قال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ لِجَهَنَّمَ بَابًا لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « مَنِ اتَّقَى رَبَّهُ كَلَّ لِسَانُهُ وَلَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ »

---

(١) حديث ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد : لم أجد له أصلا

(٢) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس : البزار من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث ان لجهنم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله : البزار وابن أبى الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٤) حديث من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه فى الاربعين البلدانية للسلفى

وقال صلى الله عليه وسلم(١) «مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُمْضِيَهُ دَعَاهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ» وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين ، يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق

وأما الموافقة ، فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك ، إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك ، وتحقر مولاك ، فتترك رضاه لرضاهم ، إلا أن يكون غضبك لله تعالى . وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغى أن تغضب لله أيضا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب ، وهى الغيبة

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة ، حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق ، أشد من التعرض لمقت المخلوقين . وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ، ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ، فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم ، وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة . ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا ، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة ، وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله ، فهذا جهل . لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به . فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به ، كائنا من كان . ولو دخل غيرك النار ، وأنت تقدر على أن لا تدخلها ، لم توافقه . ولو وافقته لسفه عقلك . ففيما ذكرته غيبة ، وزيادة معصية ، أضفتها إلى ما اعتذرت عنه ، وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل ، فهى أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر ، وصرحت بالعذر ، وقالت العنز أكيس منى ، وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أنا أفعل ، لكنت تضحك من جهلها . وحالك مثل حالها . ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس ، بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك ، فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر .

---

(١) حديث من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ـ الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس

وربما نقص اعتقادهم فيك ، إذا عرفوك بثلب الناس ، فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا ، بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل ، لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا

وأما الغيبة لأجل الحسد ، فهو جمع بين عذابين ، لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت في الدنيا معذبا بالحسد ، فما قنعت بذلك ، حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا نفسك في الدنيا ، فصرت أيضا خاسراً في الآخرة ، لتجمع بين النكالين . فقد قصدت محسودك ، فأصبت نفسك ، وأهديت إليه حسناتك ، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك ، إذ لا تضره غيبتك وتضرك ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك ، أو تنقل إليك سيآته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقدحك ، سبب انتشار فضل محسودك ، كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة　　طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس ، بإخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام . فلو تفكرت في حسرتك ، وجنايتك ، وخجلتك ، وخزيك يوم القيامة ، يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق إلى النار ، لأدهشك ذلك عن اخزاء صاحبك . ولو عرفت حالك ، لكنت أولى أن تضحك منك ، فانك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ، ويسوقك تحت سيآته ، كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزئا بك ، وفرحا بخزيك ، ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك ، وتسلطه على الانتقام منك

وأما الرحمة له على إثمه ، فهو حسن ، ولكن حسدك ابليس ، فأضلك ، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ماهو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم ، فيخرج عن كونه مرحوما ، وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك

وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ، ليحبط أجر غضبك ، وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة ، فتعجب من نفسك أنت ، كيف أهلكت

نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه ، وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سترك ، كما هتكت بالتعجب ستر أخيك .

فإذاً علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التي هى من أبواب الإيمان . فمن قوى إيمانه بجميع ذلك ، انكف لسانه عن الغيبة لامحالة

بيان

تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير ؛ فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك . ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه . بل الشك أيضا معفو عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ[1]) . وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لايعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك ، بعيان لا يقبل التأويل ، فعند ذلك لايمكنك إلا أن تعتقد ماعلمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع فى قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذبه ، فإنه أفسق الفساق . وقد قال الله تعالى . (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ[2]) فلا يجوز تصديق إبليس : وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد ، واحتمل خلافه ، لم يجز أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق فى خبره ، ولكن لايجوز لك أن تصدق به . حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر ، لايجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها ، وما شربها ، أو حمل عليه قهرا . فكل ذلك لامحالة دلالة محتملة

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) الحجرات : ٦

فلا يجوز تصديقها بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم[١] « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته ، أو بينة عادلة . فإذا لم يكن كذلك ، وخطر لك وسواس سوء الظن ، فينبغي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر

فإن قلت · فبماذا يعرف عقد الظن ، والشكوك تختلج ، والنفس تحدث

فنقول : أمارة عقد سوء الظن ، أن يتغير القلب معه عما كان ، فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ، ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه ، والاغتمام بسببه ، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه . وقد قال صلى الله عليه وسلم[٢] « ثَلاَثٌ فِي الْمُؤْمِنِ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ فَمَخْرَجُهُ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ أَنْ لاَ يُحَقِّقَهُ » أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب ، فبتغيره إلى النفرة والكراهة · وأما في الجوارح ، فبالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك ، وسرعة فهمك ، وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته . وأما إذ أخبرك به عدل ، فمال ظنك إلى تصديقه، كنت معذورا . لأنك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل . إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد . وتسيء بالآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت ، فتتطرق التهمة بسببه[٣] ، فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة . ورد شهادة العدو . فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا ، فلا تصدقه ولا تكذبه .

---

(١) حديث ان الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر

(٢) حديث ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج : الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف

(٣) حديث رد الشرع شهادة لوالد العدل وشهادة العدو : الترمذي من حديث عائشة وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذي غمر لأخيه وفيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ولأبي داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه

ولكن تقول فى نفسك ، المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى ، وكان امره محجوبا عنى ، وقد بقى كما كان ، لم ينكشف لى شىء من أمره

وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ، ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس ، وذكر مساويهم . فهذا يظن انه عدل ، وليس بعدل . فإن المغتاب فاسق . وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته . إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ، ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته ، وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ، ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك الخاطر السوء ، خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة

ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة ، فانصحهُ فى السر ، ولا يخد عنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه . وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه ، لينظر إليك بعين التعظيم ، وتنظر إليه بعين الاستحقار ، وتترفع عليه بأبداء الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك . وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك ، أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الاعانة له على دينه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضا منهى عنه . قال الله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا [1]) فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس ، أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته

بيان

الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل اليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهى ستة أمور :

(1) الحجرات : ١٢ .

الاول : التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذالرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم . إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً » وقال عليه السلام [٢] « مَطَلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ » وقال عليه السلام [٣] « لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عُقُوبَتَهُ وَعِرْضَهُ »

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه، فسلم عليه، فلم يرد السلام. فذهب إلى أبى بكر رضي الله عنه، فذكر له ذلك فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك، ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه، أن أبا جندل قدعاقر الخمر بالشام. كتب إليه، بسم الله الرحمن الرحيم (حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ [١]) الآية فتاب . ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك، فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره . وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح . فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما

الثالث : الاستفتاء ، كما يقول للمفتى ، ظلمنى أبى ، أو زوجتى، أو أخى، فكيف طريق فى الخلاص . والأسلم التعريض ، بأن يقول ، ماقولك فى رجل ظلمه أبوه ، أو أخوه ، أو زوجته . ولكن التعيين مباح بهذا القدر ، لما روى عن هند بنت عتبة ، أنها قالت [٤] للنبى صلى الله عليه وسلم ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، لايعطينى مايكفينى أنا وولدى ، أفآخذ من غير علمه ؟ فقال « خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ » فذكرت الشح ، والظلم لها ولولدها ، ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء

الرابع . تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه ، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك

---

(١) حديث لصاحب الحق مقال متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث مطل الغنى ظلم متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث لى الواجد يحل عرضه وعقوبته أبوداود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح

(٤) حديث انهندا قالت ان أباسفيان رجل شحيح متفق عليه من حديث عائشة

---

(١) غافر : ١ و٢ و٣

الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره ، وهو موضع الغرور ، إذ قد يكون الحسد هو الباعث ، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق . وكذلك من اشترى مملوكا ، وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق ، أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك ؛ فإن في سكوتك ضرر المشترى ، وفي ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد ، فله الطعن فيه إن علم مطعنا

وكذلك المستشار في التزويج ؛ وإيداع الأمانة ، له أن يذكر مايعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة . فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك ، فهو الواجب ، وفيه الكفاية . وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه ، فله أن يصرح به . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « أَتَرْعَوْنَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ اُهْتِكُوهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ النَّاسُ اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ » وكانوا يقولون ، ثلاثة لا غيبة لهم ، الإمام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه

الخامس . أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يقول ، روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، وما يجرى مجراه . فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ؛ ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه ، بعد أن قد صار مشهورا به . نعم إن وجد عنه معدلا ، وأمكنه التعريف بعبارة أخرى ، فهو أولى . ولذلك يقال للأعمى البصير ، عدولا عن اسم النقص

السادس . أن يكون مجاهرا بالفسق ، كالمخنث ، وصاحب الماخور ، والمجاهر بشرب الخمر ، ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به . فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به ، فلا إثم عليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ فَلَا غِيبَةَ لَهُ » وقال عمر رضى الله عنه

---

(١) حديث أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت

(٢) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ابن عدى وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

ليس لفاجر حرمة . وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر . إذ المستتر . لابد من مراعاة حرمته . وقال الصلت بن طريف ، قلت للحسن ، الرجل الفاسق المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه ، والإمام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك ، وهم يقصدون إظهاره . نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم

وقال عوف ، دخلت على ابن سيرين ، فتناولت عنده الحجاج . فقال، إن الله حكم عدل، ينتقم للحجاج ممن اغتابه ، كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه . وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً ، كان أصغر ذنب أصبته ، أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج

بيان

كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج به من حق الله سبحانه . ثم يستحل المغتاب ، ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغي أن يستحله وهو حزين ، متأسف ، نادم على فعله إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفي الباطن لا يكون نادما ، فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن ، يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ » وقال مجاهد ، كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه ، وتدعو له بخير

وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة ، قال أن تمشي إلى صاحبك فتقول له ، كذبت فيما قلت ، وظلمتك ، وأسأت. فإن شئت أخذت بحقك، وإن شئت عفوت . وهذا هو الأصح

وقول القائل ، العرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال ، كلام ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف ، وتثبت المطالبة به

---

(١) حديث كفارة من اغتبته أن تستغفر له ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف

بل فى الحديث الصحيح ، ماروى أنه صلىٰ الله عليه وسلم قال [١] « مَنْ كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عِرْضٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَسْتَحْلِلْهَا مِنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَيْسَ هُنَاكَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَزِيدَتْ عَلَى سَيِّئَاتِهِ » وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل ، قد اغتبتيها فاستحليها

فإذا لا بد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا ، فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ، ويكثر من الحسنات

فإن قلت . فالتحليل هل يجب؟ فأقول لا . لأنه تبرع ، والتبرع فضل وليس بواجب . ولكنه مستحسن . وسبيل المعتذر ، أن يبالغ فى الثناء عليه ، والتودد إليه ، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فإن لم يطب قلبه ، كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له ، يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب ، لا أحلل من ظلمنى . وقال ابن سيرين إنى لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلل ماحرم الله أبدا

فإن قلت . فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحِلَّهَا » وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن

فنقول : المراد به العفو عن المظلمة ، لا أن ينقلب الحرام حلالا . وما قاله ابن سيرين ، حسن فى التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة

فإن قلت : فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم [٢] « أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى النَّاسِ » فكيف يتصدق بالعرض ؟ ومن تصدق به فهل يباح تناوله ؟ فإن كان لا تنفذ صدقته ، فما معنى الحث عليه

---

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم انى تصدقت بعرضى على الناس البزار وابن السنى فى اليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة قلت وانما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى .

فنقول معناه أنى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ، ولا أخاصمه . وإلا فلا تصير الغيبة حلالا به ، ولا تسقط المظلمة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب . إلا أنه وعد ، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم ، فإن رجع وخاصم ، كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك . بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف ، لم يسقط حقه من حد القاذف . ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا

وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن ، إذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ، نودوا ليقم من كان له أجر على الله . فلا يقوم إلا العافون عن الناس فى الدنيا . وقد قال الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [١]) فقال النبى صلى الله عليه وسلم [١] « ياجبريل ما هذا العفو ؟ » فقال ، إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطى من حرمك . وروى عن الحسن ، أن رجلا قال له إن فلانا قد اغتابك . فبعث إليه رطبا على طبق ، وقال قد بلغنى أنك أهديت إلىّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها . فاعذرنى ، فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام

الآفة السادسة عشرة

النميمة

قال الله تعالى (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ [٢]) ثم قال (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ [٣]) قال عبد الله ابن المبارك . الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث . وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة ، دل على أنه ولد زنا ، استنباطا من قوله عز وجل (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) والزنيم هو الدعى . وقال تعالى (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [٤]) قيل الهمزة النمام وقال تعالى (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ [٥]) قيل إنها كانت نمامة ، حمالة للحديث . وقال تعالى (فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [٦]) قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون

---

(١) حديث نزول خذ العفو الآية فقال ياجبريل ماهذا فقال ان الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك تقدم فى رياضة النفس

---

(١) الاعراف : ١٩٩ (٢) و٣ القلم : ١١ و١٣ (٤) الهمزة : ١ (٥) المسد : ٤ (٦) التحريم : ١٠

وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ » وفى حديث آخر « لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ » والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « أَحَبُّكُمْ إِلَى اللهِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللهِ الْمَشَّاؤُنَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ الْمُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَثَرَاتِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ » قالوا بلى . قال « الْمَشَّاؤُنَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ » وقال أبو ذر ، (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَشَاعَ عَلَى مُسْلِمٍ كَلِمَةً لِيَشِينَهُ بِهَا بِغَيْرِ حَقٍّ شَانَهُ اللهُ بِهَا فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أبو الدرداء (٥) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لِيَشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُذِيبَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ » وقال أبو هريرة ، (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ شَهِدَ عَلَى مُسْلِمٍ بِشَهَادَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ويقال إن ثلث عذاب القبر من النميمة

وعن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٧) « إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الْجَنَّةَ قَالَ لَهَا تَكَلَّمِي فَقَالَتْ سَعِدَ مَنْ دَخَلَنِي فَقَالَ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَايَسْكُنُ فِيكِ ثَمَانِيَةُ نَفَرٍ مِنَ النَّاسِ لَايَسْكُنُكِ مُدْمِنُ خَمْرٍ وَلَا مُصِرٌّ عَلَى الزِّنَا وَلَا قَتَّاتٌ وَهُوَ النَّمَّامُ

---

(١) حديث لايدخل الجنة نمام وفى حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم

(٢) حديث أبي هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الطبراني فى الأوسط والصغير وتقدم فى آداب الصحبة

(٣) حديث ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤن بالنميمة الحديث أحمد من حديث أبي مالك الاشعري وقد تقدم

(٤) حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ابن ابي الدنيا فى الصمت والطبراني فى مكارم الاخلاق وفيه عبدالله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث

(٥) حديث أبي الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار ابن أبي الدنيا موقوفا على أبي الدرداء ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم

(٦) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار أحمد وابن أبي الدنيا وفى رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن ابي الدنيا من الاسناد

(٧) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت سعد من دخلني قال الجبار وعزتي وجلالي لايسكن فيك ثمانية فذكر منها ولاقتات وهو النمام لم أجده هكذا بتمامه ولأحمد لايدخل الجنة

وَلَا دَيُّوثٌ وَلَا شُرَطِيٌّ وَلَا مُخَنَّثٌ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ وَلَا الَّذِى يَقُولُ عَلَىَّ عَهْدُ اللهِ إِنْ لَمْ أَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ لَمْ يَفِ بِهِ »

وروى كعب الأحبار ، أن بنى اسرائيل أصابهم قحط ، فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا . فأوحى الله تعالى إليه ، إنى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام ، قد أصر على النميمة . فقال موسى ، يارب من هو ؟ دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا . قال ياموسى ، أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ! فتابوا جميعا ، فسقوا . ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات . فلما قدم عليه ، قال إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم ، أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار وما أحر منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم ، البهتان على البرىء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض؟ والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم

بيان

حد النميمة وما يجب فى ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا. وليست النميمة مختصة به . بل حدها كشف مايكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه ، أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو بالإيماء . وسواء كان المنقول من الأعمال ، أو من الأقوال وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المنقول عنه ، أو لم يكن . بل حقيقة النميمة إفشاء السر ،

عاق لوالديه والديوث وللنسائى من حديث عبد الله بن عمرو لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر وللشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ولهما من حديث جبير بن مطعم لا يدخل الجنة قاطع وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تكلمى تزينى فتزينت فقالت طوبى لمن دخلنى ورضى عنه إلهى فقال الله عز وجل لا أسكنك مخنث ولا نائحة

وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل مارآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره، فينبغى ان يسكت عنه ، إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، مراعاة لحق المشهود له . فأما إذا رآه يخفى مالا لنفسه ، فذكره فهو نميمة ، وإفشاء للسر فإن كان ما ينم به نقصا وعيبا فى المحكى عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة

فالباعث على النميمة أما إرادة السوء للمحكى عنه ،أو إظهار الحب للمحكى له ، أو التفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل

وكل من حملت إليه النميمة ، وقيل له إن فلانا قال فيك كذا ، أو فعل فى حقك كذا أو هو يدبر فى إفساد أمرك ،أو فى ممالأة عدوك ،أو تقبيح حالك ،أو ما يجرى مجراه، فعليه ستة أمور

الأول. أن لا يصدقه لأن النمام فاسق ،وهو مردود الشهادة ، قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ [١])

الثانى . أن ينهاه عن ذلك، وينصح له ، ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ [٢])

الثالث. أن يبغضه فى الله تعالى، فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى

الرابع . أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [٣])

الخامس . أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا [٤])

السادس . أن لا ترضى لنفسك مانهيت النمام عنه ، ولا تحكى نميمته ، فتقول فلان قد حكى لى كذا وكذا ، فتكون به نماما ومغتابا ، وقد تكون قد أتيت ماعنه نهيت

وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أنه دخل عليه رجل ، فذكر له عن رجل شيئا . فقال له عمر ، إن شئت نظرنا فى أمرك ، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا [٥]) وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ [٦]) وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو ياأمير المؤمنين لا أعود إليه أبدا

(١) الحجرات : ٦ (٢) لقمان : ١٧ (٣) و(٤) الحجرات : ١٢ (٥) الحجرات : ٦ (٦) القلم : ١١

وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض إخوانه ، فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم ، قد أبطأت فى الزيارة ، وأتيت بثلاث جنايات . بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة . وروى أن سليمان بن عبد الملك، كان جالسا وعنده الزهرى، فجاءه رجل ، فقال له سليمان، بلغنى إنك وقعت فىّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل مافعلت ولا قلت . فقال سليمان ، إن الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهرى ، لا يكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت . ثم قال للرجل إذهب بسلام

وقال الحسن . من نم اليك ، نم عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغى أن يبغض ، ولا يوثق بقوله ، ولا بصداقته . وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة ، والغدر والخيانة ، والغل والحسد والنفاق ، والإفساد بين الناس والخديعة . وهو ممن يسعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض

وقال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [(1)]) والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم [(1)] « إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ » والنمام منهم . وقال [(2)] « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » قيل وما القاطع . قال « قَاطِعٌ بَيْنَ النَّاسِ » وهو النمام ، وقيل قاطع الرحم

وروى عن علي رضى الله عنه ، أن رجلا سعى إليه برجل ، فقال ياهذا ، نحن نسأل عما قلت ، فإن كنت صادقا مقتناك ، وإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن شئت أن نقيلك أقلناك . فقال أقلنى ياأمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظى ، أى خصال المؤمن أوضع له؟ فقال كثرة الكلام ، وإفشاء السر ، وقبول قول كل أحد. وقال رجل لعبد الله بن عامر ، وكان أميرا بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قل فأخبرنى بما قال لك . حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبى أنى لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال

---

(١) حديث ان من شر الناس من اتقاه الناس لشره :متفق عليه من حديث عائشة نحوه
(٢) حديث لايدخل الجنة قاطع :متفق عليه من حديث جبير بن مطعم

---

(١) الشورى : ٤٢

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ، ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير ، نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به ، كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعي ، فلو كان صادقا في قوله لكان لئيما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة

والسعاية هي النميمة ، إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « السَّاعِي بِالنَّاسِ إِلَى النَّاسِ لَغَيْرُ رِشْدَةٍ » يعني ليس بولد حلال

ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك ، فاستأذنه في الكلام ، وقال إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام ، فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته . فقال قل . فقال يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه ، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا ، وفي الأمانة تضييعا ، والأعراض قطعا وانتها كا أعلى قربهم البغي والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة ، وأنت مسؤل عما أجرموا ، وليسوا المسؤلين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره

وسعى رجل بزياد الأعجم ، إلى سليمان بن عبد الملك ، فجمع بينهما للموافقة . فأقبل زياد على الرجل وقال

فأنت امرؤ ما ائتمنتك خاليا ... فخنت وأما قلت قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

---

(١) حديث الساعي بالناس الى الناس لغير رشدة: الحاكم من حديث أبي موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أو فيه شيء منها وقال له أسانيد هذا أمثلها قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال ـ والحديث : لا أصل له وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ لا يسعى على الناس الا ولد بغي والا من فيه عرق منه وزاد بين سهل وبين بلال ابن أبي بردة أبا الوليد القرشي

وقال رجل لعمرو بن عبيد ، أن الأسوارى ما يزال يذكرك فى قصصه بشر . فقال له عمرو ، ياهذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل ، حيث نقلت إلينا حديثه . ولا أديت حقى ، حين اعلمتنى عن أخى ما أكره . ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا ، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين

ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة ، نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها . السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة . فإن كنت أجريتها مجرى النصح، فخسرانك فيها أفضل من الربح . ومعاذالله أن نقبل مهتوكافى مستور . ولولا أنك فى خفارة شيبتك ، لقابلناك بما يقتضيه فعالك فى مثلك . فتوق ياملعون العيب ، فإن الله أعلم بالغيب . الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله

وقال لقمان لابنه ، يابنى ، أوصيك بخلال، إن تمسكت بهن لم تزل سيدا . ابسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع ، أو سماع باغ يريد فسادك ، ويروم خداعك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .

وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق ،وهى أثافى الذل. وقال بعضهم لو صح مانقله النمام إليك ، لكان هو المجترىء بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك ؛ لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة ، فشر النمام عظيم ، ينبغى أن يتوقى . قال حماد ابن سلمة : باع رجل عبدا ، وقال للمشترى : مافيه عيب إلا النميمة . قال قدرضيت . فاشتراه فمكث الغلام أياما ، ثم قال لزوجة مولاه ، إن سيدى لايحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات ، حتى أسحره عليها ، فيحبك . ثم قال للزوج ، إن امرأتك اتخذت خليلا ، وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك . فتناوم لها ، فجاءت المرأة بالموسى ، فظن أنها تريد قتله ، فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين . فنسأل الله حسن التوفيق

الآفة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه

وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين . وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر ، [١] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كانَ لَهُ وَجْهانِ فى الدُّنْيا كانَ لَهُ لسانانِ مِنْ نارٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ » وقال أبو هريرة ، [٢] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَجِدُونَ مِنْ شَرِّ عِبادِ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذى يَأْتِى هَؤُلاءِ بِحَدِيثٍ وَهَؤُلاءِ بِحَدِيثٍ » وفى لفظ آخر « الَّذى يَأْتِى هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ »

وقال أبو هريرة : لاينبغى لذى الوجهين أن يكون أميناً عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة ، بطلت الأمانة ، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَبْغَضُ خَلِيقَةِ اللهِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ الْكَذَّابُونَ وَالْمُسْتَكْبِرُونَ وَالَّذِينَ يُكْثِرُونَ الْبَغْضَاءَ لِإِخْوانِهِمْ فى صُدُورِهِمْ فَإِذَا لَقُوهُمْ تَمَلَّقُوا لَهُمْ وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ كانُوا بُطاءً وَإِذَا دُعُوا إِلَى الشَّيْطانِ وَأَمْرِهِ كانُوا سِراعاً » . وقال ابن مسعود ، لايكونن أحدكم إمعة . قالوا وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح . واتفقوا على أن ملاقاة الإثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات كثيرة ، وهذه من جملتها وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة . فقال له عمر ، يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تصل عليه فقال ياأمير المؤمنين ، إنه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال اللهم لا ، ولا أومن منها أحدا بعدك

(الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين)

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة : البخارى فى كتاب الادب المفرد وأبوداود بسند حسن

(٢) حديث أبى هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ـ الحديث : متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخارى وهو عند ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

(٣) حديث أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم ـ الحديث : لم أقف له على أصل

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين ؟ وما حد ذلك ؟

فأقول . إذا دخل على متعاديين ، وجامل كل واحد منهما ، وكان صادقا فيه ، لم يكن منافقا ، ولا ذا لسانين . فإن الواحد قد يصادق متعاديين . ولكن صداقة ضعيفة ، لا تنتهي إلى حد الأخوة . إذ لو تحققت الصداقة ، لاقتضت معاداة الأعداء ، كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة . نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر ، فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وإن لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ماهو عليه من المعاداة مع صاحبه : فهذا ذو لسانين . وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته . وكذلك إذا أثنى على أحدهما ، وكان إذا خرج من عنده يذمه ، فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت ، أو يثني على المحق من المتعاديين ، ويثني عليه في غيبته ، وفي حضوره ، وبين يدي عدوه . قيل لابن عمر رضي الله عنهما ، [1] إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير ، وعن الثناء عليه . فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن ، فهو نفاق ، لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك . فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل ، وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى ، وأثنى ، فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم [2] «حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ» لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراآتهم . فأما إذا ابتلي به لضرورة ، وخاف إن لم يثن ، فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه ، إنا لنكشر في وجوه أقوام ،

---

(١) حديث قيل لابن عمر انا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبراني من طرق

(٢) حديث حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف الا انه قال حب الغناء وقال الشعب مكان البقل

وإن قلوبنا لتلعنهم . وقالت عائشة رضي الله عنها [١] استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ هُوَ » ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يارسول الله ، قلت فيه ماقلت، ثم ألنت له القول ! فقال « يَاعَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ الَّذِي يُكْرَمُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ » ولكن هذا ورد في الإقبال، وفي الكشر والتبسم . فأما الثناء، فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة ، أو إكراه يباح الكذب بمثله ، كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ، ولا التصديق ، ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك ، فهو منافق . بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه، وينكر بقلبه

الآفة الثامنة عشرة

المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع . أما الذم ، فهو الغيبة والوقيعة ، وقد ذكرنا حكمها .

والمدح يدخله ست آفات ، أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح . فأما المادح :

فالأولى . أنه قد يفرط ، فينتهي به إلى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤس الأشهاد ، بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه

الثانية : أنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ، ولا معتقدا لجميع مايقوله : فيصير به مرائيا منافقا .

الثالثة: أنه قد يقول مالا يتحققه ، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه . روى [٢] أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه السلام « وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ » ثم قال « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ لَابُدَّ مَادِحًا أَخَاهُ فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلَانًا وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا حَسِيبُهُ اللهُ إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ »

---

(١) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ـ الحديث : وفيه ان شر الناس الذي يكرم اتقاء شره متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها

(الآفة الثامنة عشرة المدح)

(٢) حديث ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبي بكرة بنحوه وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة ، التي تعرف بالأدلة ، كقوله إنه متق وورع ، وزاهد ، وخير ، وما يجرى مجراه . فأما إذا قال رأيته يصلى بالليل ، ويتصدق ، ويحج ، فهذه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله إنه عدل ، رضا ، فإن ذلك خفي ، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه . إلا بعد خبرة باطنة . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل ، فقال أسافرت معه ؟ قال لا . قال . أخالطته في المبايعة والمعاملة ؟ قال لا . قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال : والله الذى لا إله إلا هو لا أراك تعرفه

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ » وقال الحسن . من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه . والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ، ولا يمدح ليفرح . وأما الممدوح فيضره من وجهين :

أحدهما . أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضي الله عنه . كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة ، والناس حوله ، إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل هذا سيد ربيعة . فسمعها عمر ومن حوله ، وسمعها الجارود . فلما دنا منه ، خفقه بالدرة . فقال مالى ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال مالى ولك أما لقد سمعتها ؟ قال سمعتها فمه . قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء ، فأحببت أن أطاطىء منك .

الثانى : هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ، ورضي عن نفسه . ومن أعجب بنفسه قل تشمره . وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً . فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ، ظن أنه قد أدرك . ولهذا قال عليه السلام «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ» وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِذَا مَدَحْتَ أَخَاكَ فِي وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرَرْتَ عَلَى حَلْقِهِ مُوسَى وَمِيضاً »وقال أيضا لمن مدح رجلا [3] « عَقَرْتَ الرَّجُلَ عَقَرَكَ اللهُ »

---

(١) حديث ان الله يغضب اذا مدح الفاسق: ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عدى بلفظ اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش قال الذهبي في الميزان منكر وقد تقدم في آداب الكسب

(٢) حديث اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا: ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا

(٣) حديث عقرت الرجل عقرك الله :قاله لمن مدح رجلا لم أجد له أصلا

وقال مطرف، ماسمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي - وقال زياد بن أبي مسلم؛ ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة ، إلا تراءى له الشيطان . ولكن المؤمن يراجع . فقال ابن المبارك، لقد صدق كلاهما . أما ما ذكره زياد، فذلك قلب العوام . وأما ما ذكره مطرف، فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لَوْ مَشَى رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ بِسكِّينٍ مُرْهَفٍ كَانَ خَيْراً لَهُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ » وقال عمر رضي الله عنه : المدح هو الذبح . وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل . والمدح يوجب الفتور . أو لأن المدح يورث العجب والكبر ، وهما مهلكان كالذبح ، فلذلك شبهه به

فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح ، لم يكن به بأس. بل ربما كان مندوبا إليه ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال [٢] « لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ الْعَالَمِ لَرَجَحَ » وقال في عمر [٣] « لَوْ لَمْ أُبْعَثْ لَبُعِثْتَ يَا عُمَرُ » وأي ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا . بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر . إذ قال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ » أي لست أقول هذا تفاخرا ، كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله ، وبالقرب من الله ، لا بولد آدم وتقدمه عليهم . كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه ، وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه

وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه . قال صلى الله عليه وسلم [٥] « وَجَبَتْ » لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد إن لبني آدم جلساء

---

(١) حديث لو مشى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثني عليه في وجهه: لم أجده أيضا

(٢) حديث لو وزن ايمان أبي بكر بايمان العالمين لرجح: تقدم في العلم

(٣) حديث لو لم أبعث لبعثت يا عمر: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكر والمعروف حديث عقبة بن عامر لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب رواه الترمذي وحسنه

(٤) حديث أنا سيد ولد آدم ولا فخر: الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وله من حديث عبادة بن الصامت أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ولمسلم من حديث أبي هريرة أنا سيد ولد آدم يوم القيامة

(٥) حديث وجبت قاله لما أثنوا على بعض الموتى: متفق عليه من حديث أنس

من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير ، قالت الملائكة ولك بمثله . وإذا ذكره بسوء ، قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك . واحمد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

بيان

ما على الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب ، وآفة الفتور ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح . ولو انكشف له جميع أسراره ، وما يجرى على خواطره ، لكف المادح عن مدحه

وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم[1] « أَحْثُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ الْمَادِحِينَ » وقال سفيان بن عيينة ، لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين : فقال اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى ، وأنت تعرفنى . وقال آخر لما أثنى عليه ، اللهم إن عبدك هذا تقرب إلىّ بمقتك ، وأنا أشهدك على مقته . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه ، اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه ، فقال أتهلكنى وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على علىّ كرم الله وجهه فى وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال أنا دون ما قلت ، وفوق ما فى نفسك

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام

لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين . فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء . فمن قصر فى علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل . لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله ما قال حذيفة قال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) حديث احثوا فى وجوه المداحين التراب : مسلم من حديث المقداد .

(١) « لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ مَاشَاءَ اللهُ وَشِئْتَ وَلَكِنْ لِيَقُلْ مَاشَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، (٢) جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكلمه فى بعض الأمر ، فقال ماشاء الله وشئت. فقال صلى الله عليه وسلم « اجَعَلْتَنِي لِلّهِ عَدِيلاً بَلْ مَاشَاءَ اللهُ وَحْدَهُ » وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ، فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال « قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع

وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان، ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال، اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول العتق يكون بعد الورود . وكانوا يستجيرون من النار ، ويتعوذون من النار

وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة « إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد ، وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين

وقال ابراهيم ، إذا قال الرجل للرجل ياحمار ، ياخنزير ، قيل له يوم القيامة ، حمارا رأيتنى خلقته ! خنزيرا رأيتنى خلقته ؟ . وعن ابن عباس رضى الله عنها إن أحدكم ليشرك « حتى يشرك بكلبه ، فيقول لولاه لسُرقنا الليلة

وقال عمر رضى الله عنه ، (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْهَاكُمْ أَن تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » قال عمر رضي الله عنه « فو الله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لاَ تُسَمُّوا الْعِنَبَ كَرْماً

(الآفة التاسعة عشرة فى الغفلة عن دقائق الخطأ)

(١) حديث حذيفة لايقل أحدكم ماشاء الله وشئت ـ الحديث : أبوداود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فى بعض الامر فقال ماشاء الله وشئت فقال جعلتنى لله عدلا قل ماشاء الله وحده النسائى فى الكبرى باسناد حسن وابن ماجه

(٣) حديث خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ـ الحديث: مسلم من حديث عدى بن حاتم

(٤) حديث عمر ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم :متفق عليه

(٥) حديث لاتسموا العنب الكرم انما الكرم الرجل المسلم: متفق عليه من حديث أبى هريرة

إِنَّمَا الْكَرْمُ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ »

• وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِى وَلاَ أَمَتِى كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ وَلْيَقُلْ غُلاَمِى وَجَارِيَتِى وَفَتَاىَ وَفَتَاتِى وَلاَ يَقُولُ الْمَمْلُوكُ رَبِّى وَلاَ رَبَّتِى وَلْيَقُلْ سَيِّدِى وَسَيِّدَتِى فَكُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَالرَّبُّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لاَ تَقُولُوا لِلْفَاسِقِ سَيِّدَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ قَالَ أَنَا بَرِىءٌ مِنَ الْإِسْلاَمِ فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلاَمِ سَالِماً »

فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ، ولا يمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان ، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم . وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ صَمَتَ نَجَا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب ، وهى على طريق المتكلم ، فإن سكت سلم من الكل . وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه ؛ إلا أن يوافقه لسان فصيح ، وعلم غزير ، وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر . فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغنيمتين

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة

ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرءان . إلا أن ذلك ثقيل على النفوس، والفضول خفيف على القلب . والعامى يفرح بالخوض فى العلم . إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك : حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر ، وهو لا يدرى

---

(١) حديث لا تقولوا للمنافق سيدنا ـ الحديث : أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح

(٢) حديث من قال أنا برىء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال ـ الحديث : النسائى وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح

(٣) حديث من صمت نجا : الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان

(الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى)

وكل كبيرة يرتكبها العامى ، فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم ، لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرءان ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم ؛ يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر . وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك ، وهو موجب للعقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ، ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم . فإنه بالإضافة إليه عامى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « ذَرُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ »

وقال أنس : [2] سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سَلُونِى وَلَا تَسْأَلُونِى عَنْ شَىْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ » فقام إليه رجل ؛ فقال يارسول الله من أبى ؟ فقال « أَبُوكَ حُذَافَةُ » فقام إليه شابان أخوان ، فقالا يارسول الله ، من أبونا ؟ فقال « أَبُوكُمَا الَّذِى تُدْعَيَانِ إِلَيْهِ » ثم قام إليه رجل آخر ، فقال يارسول الله ، أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال « لَا بَلْ فِى النَّارِ » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا . فقام إليه عمر رضى الله عنه ، فقال رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا . فقال « اجْلِسْ يَا عُمَرُ رَحِمَكَ اللهُ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَمُوَفَّقٌ » وفى الحديث ، [3] نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل ، والقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « يُوشِكُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا قَدْ خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ

---

(١) حديث ذرونى ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلونى فلا تسألونى عن شىء الا أنبأتكم به ـ الحديث : متفق عليه مقتصرا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر ولمسلم من حديث أبى موسى فقام اخر فقال من أبى فقال أبوك سالم مولى شيبة

(٣) حديث النهى عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة

(٤) حديث يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

اللهُ الصَّمَدُ[١]) حَتّىٰ تَخْتِمُوا السُّورَةَ ثُمَّ لِيَتْفُلْ أَحَدُكُمْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثًا وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » وقال جابر [١] ، مانزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال

وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام ، تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا [٢]) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر ، وقال (لاَتُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً [٣]) فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ [٤]) وفارقه

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفتن ،فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك. وخوضهم فى حروف القرءان ، يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا ، فلم يشتغل بشيء منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ، فاستحق بذلك العقوبة لامحالة . فكذلك تضييع العامي حدود القرءان واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة،وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى. والله تعالى أعلم

---

(١) حديث جابر مانزلت آية التلاعن الا لكثرة السؤال رواه البزار باسناد جيد

[١] الصمد : ١ ، ٢ (٢ ، ٣ ، ٤) الكهف : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لايتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . الذى استدرج عباده من حيث لايعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك مايشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون . ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ،وامتحن به حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ،وعرفهم أنه لايخفى عليه شىء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ،فقال (مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ[1]) . والصلاة والسلام على محمد رسوله الذى يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يوازى عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد . فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة فى طى الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد . ويستخرجها الكبر الدفين فى قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد . وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب ، فقد قويت فيه قرابة الشيطان ، حيث قال(خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[2]) فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب . ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك ، وفسد من فسد ، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد . وإذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ،

(١) يس : ٤٩ ، ٥٠ (٢) الأعراف : ١٢

فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه ، ليحذر ذلك ويتقيه، ويميطه عن القلب إن كان، وينفيه ويعالجه إن رسخ فى قلبه ويداويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه ، مالم يعرف الطريق الذى به يدفع الشر ويقصيه

ونحن نذكر ذم الغضب، وآفات الحقد والحسد فى هذا الكتاب، ويجمعها بيان ذم الغضب ، ثم بيان حقيقة الغضب، ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ، ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب ، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ، ثم بيان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام، ثم القول فى معنى الحقد ونتائجه ، وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول فى ذم الحسد ، وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته، وغاية الواجب فى إزالته ، ثم بيان السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال ، والأقران ، والأخوة ، وبنى العم، والأقارب . وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه ، ثم بيان الدواء الذى به ينفى مرض الحسد عن القلب ، ثم بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب ، وبالله التوفيق

بيان

ذم الغضب

قال الله تعالى: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ [1]) الآية ، ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة . وروى أبو هريرة [1] أن رجلا قال يارسول الله ، مرنى بعمل وأقلل . قال « لاَ تَغْضَبْ » ثم أعاد عليه فقال « لاَ تَغْضَبْ » وقال ابن عمر [2] قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « قل لى قولا وأقلله لعلى أعقله . فقال « لاَ تَغْضَبْ » فأعدت عليه مرتين ، كل ذلك يرجع إلى لا تغضب .

(كتاب الغضب والحقد والحسد)

(١) حديث أبى هريرة ان رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل وأقلل قال لاتغضب ثم أعاد عليه فقال لاتغضب :رواه البخارى

(٢) حديث ابن عمر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لى قولا وأقلل ـ الحديث : نحوه أبو يعلى باسناد حسن

---

(١) الفتح : ٢٦

وعن عبد الله بن عمرو (١) ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا ينقذني من غضب الله ؟ قال « لاَ تَغْضَبْ » وقال ابن مسعود (٢) ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ ؟ » قلنا الذي لا تصرعه الرجال . قال « لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنِ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وقال أبو هريرة (٣) قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وقال ابن عمر (٤) قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى (وَسَيِّداً وَحَصُوراً (١)) قال السيد الذي لا يغلبه الغضب . وقال أبو الدرداء ، (٥) قلت يا رسول الله ، دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « لاَ تَغْضَبْ » وقال يحيي لعيسى عليهما السلام ، لا تغضب ، قال : لا أستطيع أن لا أغضب ، إنما أنا بشر . قال لا تقتن مالا ، قال هذا عسى

وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « الْغَضَبُ يُفْسِدُ الإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الصَّبْرُ الْعَسَلَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « مَا غَضِبَ أَحَدٌ إِلاَّ أَشْفَى عَلَى جَهَنَّمَ » وقال له رجل (٨) ، أي شيء أشد قال « غَضَبُ اللهِ » قال فما يبعدني عن غضب الله ؟ قال « لاَ تَغْضَبْ »

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب الطبراني في مكارم الاخلاق وابن عبد البر في التمهيد باسناد حسن وهو عند أحمد وان عبد الله ابن عمرو وهو السائل

(٢) حديث ابن مسعود ما تعدون الصرعة ـ الحديث : رواه مسلم

(٣) حديث أبي هريرة وليس الشديد بالصرعة ـ الحديث : متفق عليه

(٤) حديث ابن عمر من كف غضبه ستر الله عورته : ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وذم الغضب وفي الصمت وتقدم في آفات اللسان

(٥) حديث أبي الدرداء دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب : ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والاوسط باسناد حسن

(٦) حديث الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل : الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف

(٧) حديث ما غضب أحد الا أشفى على جهنم : البزار وابن عدي من حديث ابن عباس للنار باب لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله واسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان

(٨) حديث قال رجل أي شيء أشد علي قال غضب الله قال فما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب : أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الاخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث

---

(١) آل عمران : ٣٩

الآثار . قال الحسن : ياابن آدم ، كلما غضبت وثبت ، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار . وعن ذى القرنين ، أنه لقي ملكا من الملائكة ، فقال علمني علما أزداد به إيمانا ويقينا ، قال لا تغضب ، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة . وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك . وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ، ولا تكن جبارا عنيدا

وعن وهب بن منبه ، أن راهبا كان في صومعته ، فأراد الشيطان أن يضله ، فلم يستطع فجاءه حتى ناداه ، فقال له افتح فلم يجبه ، فقال افتح . فإني إن ذهبت ندمت . فلم يلتفت إليه . فقال إني أنا المسيح قال الراهب ، وإن كنت المسيح ، فما أصنع بك ؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ؟ ووعدتنا القيامة ؟ فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك . فقال إني الشيطان ، وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ، فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك . فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال : فولى مدبرا . فقال الراهب ألا تسمع ؟ قال بلى . قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم ؟ قال الحدة . إن الرجل إذا كان حديدا ، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة

وقال خيثمة ، الشيطان يقول ، كيف يغلبني ابن آدم ، وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه ، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه . وقال جعفر بن محمد ، الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار ، رأس الحمق الحدة ، وقائده الغضب . ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه وقال مجاهد ، قال ابليس ، ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث . إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا . وإذا غضب قال بما لا يعلم ، وعمل بما يندم . ونبخله بما في يديه ، ونمنيه بما لا يقدر عليه . وقيل لحكيم ، ما أملك فلانا لنفسه قال إذا لا تذله الشهوة . ولا يصرعه الهوى ، ولا يغلبه الغضب ، وقال بعضهم إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبد الله بن مسعود ، انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه . وأمانته عند طمعه ، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله ، أن لا تعاقب عند غضبك على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه . ولا تجاوز به خمسة عشرة سوطا . وقال على بن زيد ، أغلظ

رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول ؛ فأطرق عمر زمانا طويلا ، ثم قال أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله منى غدا . وقال بعضهم لابنه ، يابنى ، لا يثبت العقل عند الغضب ، كما لا تثبت روح الحى فى التنانير المسجورة .

فأقل الناس غضبا أعقلهم . فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للآخرة كان حلما وعلما . فقد قيل الغضب عدو العقل ، والغضب غول العقل · وكان عمر رضى الله عنه اذا خطب قال فى خطبته ، أفلح منكم من حفظ من الطمع ، والهوى ، والغضب . وقال بعضهم ، من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وعلم فى حلم ، وكيس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتجمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة ، وتحمل فى رفاقة ، وصبر فى شدة ، لايغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ، ولا يبذر ، ولا يسرف ، ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى رخاء

وقيل لعبد الله بن المبارك ، أجمل لنا حسن الخلق فى كلمة . فقال ترك الغضب وقال نبى من الأنبياء لمن تبعه ، من يتكفل لى أن لايغضب ، فيكون معى فى درجتى ، ويكون بعدى خليفتى . فقال شاب من القوم ، أنا . ثم أعاد عليه ، فقال الشاب أنا أوفى به فلما مات كان فى منزلته بعده ، وهو ذو الكفل . سمى به لأنه تكفل بالغضب ، ووفى به . وقال وهب ابن منبه ، للكفر أربعة أركان ، الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع

بيان

حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان ، بأسباب فى داخل بدنه ، وأسباب خارجة عنه ، أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ، ويدفع عنه الهلاك ، إلى أجل معلوم سماه فى كتابه . أما السبب الداخل ، فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة . وتجففها ، وتبخرها ،

حتى تصير أجزاؤها بخارا متصاعدا منها . فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها ، لفسد الحيوان . فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان ، وخلق فى الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء ، كالموكل به فى جبر ما انكسر ، وسد ما انثلم : ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب

وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها الإنسان ، فكالسيف ، والسنان ، وسائر المهلكات التى يقصد بها : فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه ، فتدفع المهلكات عنه : فخلق الله طبيعة الغضب من النار ، وغرزها فى الإنسان ، وعجنها بطينته ، فمهما صد عن غرض من أغراضه ، ومقصود من مقاصده ، اشتعلت نار الغضب ، وثارت به ثورانا يغلى به دم القلب وينتشر فى العروق ، ويرتفع إلى أعالى البدن كما ترتفع النار ، وكما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر . فلذلك ينصب إلى الوجه ، فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها ، تحكى لون ما وراءها من حمرة الدم ، كما تحكى الزجاجة لون ما فيها . وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه ، واستشعر القدرة عليه . فإن صدر الغضب على من فوقه ، وكان معه يأس من الانتقام ، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، وصار حزنا . ولذلك يصفر اللون . وإن كان الغضب على نظير يشك فيه ، تردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب

وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام . وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها ، وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به

ثم إن الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث فى أول الفطرة ، من التفريط ، والإفراط والاعتدال . أما التفريط ، فبفقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم . وهو الذى يقال فيه إنه لا حمية له ولذلك قال الشافعي رحمه الله ، من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا ، فهو ناقص جدا . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية ، فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [١]) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ [٢]) الآية . وإنما الغلظة والشدة

(١) الفتح : ٢٩ (٢) التحريم : ٩

من آثار قوة الحمية ، وهو الغضب . وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة ، حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ، ولااختيار، بل يصير فى صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية ، وأمور اعتيادية. فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب ، حتى كأن صورته فى الفطرة صورة غضبان . ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب ، لأن الغضب من النار ، كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ (١) « وَإِنَّمَا بُرُودَةُ الْمِزَاجِ تُطْفِئُهُ وَتَكْسِرُ سَوْرَتَهُ »

وأما الأسباب الاعتيادية ، فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفي الغيظ ، وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم أنا الذى لاأصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا ، ومعناه لاعقل فيّ ولا حلم . ثم يذكره فى معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ فى نفسه حسن الغضب ، وحب التشبه بالقوم ، فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب ، وقوى اضطرامها ، أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع ، بل زاده ذلك غضبا . وإذا استضاء بنور عقله ، وراجع نفسه ، لم يقدر . إذ ينطفىء نور العقل ، وينمحى فى الحال بدخان الغضب . فإن معدن الفكر الدماغ . ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ ، يستولى على معادن الفكر . وربما يتعدى إلى معادن الحس ، فتظلم عينه ، حتى لايرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار ، فاسود جوه ، وحمى مستقره ، وامتلأ بالدخان جوانبه ، وكان فيه سراج ضعيف فانمحى ، أو انطفأ نوره ، فلا تثبت فيه قدم ، ولا يسمع فيه كلام ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغى أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق . فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب ، فتفنى الرطوبة التى بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظا ، كما تقوى النار فى الكهف فينشق ، وتنهد أعاليه على أسفله وذلك لإبطال النار ما فى جوانبه من القوة الممسكة ، الجامعة لأجزائه . فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالحقيقة

---

(١) حديث الغضب من النار : الترمذى من حديث أبي سعيد بسند ضعيف الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ولأبى داود من حديث عطية السعدى ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار

فالسفينة فى ملتطم الأمواج ، عند اضطراب الرياح فى لجة البحر ، أحسن حالا ، وأرجى سلامة ، من النفس المضطربة غيظا . إذ فى السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها ، وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب ، فهو صاحب السفينة ، وقد سقطت حيلته ، إذ أعماه الغضب وأصمه

ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة . ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته ، لسكن غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته . وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن . وإنما قبحت صورة الباطن أولا ، ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغيرُ الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فقس الثمرة بالمثمرة . فهذا أثره فى الجسد

وأما أثره فى اللسان ، فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام ، الذى يستحيى منه ذو العقل ، ويستحيي منه قائله عند فتور الغضب . وذلك مع تخبط النظم ، واضطراب اللفظ

وأما أثره على الأعضاء ، فالضرب ، والتهجم ، والتمزيق ، والقتل ، والجرح عند التمكن من غير مبالاة . فإن هرب منه المغضوب عليه ، أو فاته بسبب ، وعجز عن التشفى ، رجع الغضب على صاحبه ، فمزق ثوب نفسه ، ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ، ويعدو عدو الواله السكران ، والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعا ، لايطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ، ويعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الأرض ، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها ، ويتعاطى أفعال المجانين ، فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ، ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلا ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ، ويقابلها بذلك

وأما أثره فى القلب مع المغضوب عليه ، فالحقد ، والحسد ، وإضمار السوء ، والشماتة بالمساآت ، والحزن بالسرور ، والعزم على إفشاء السر ، وهتك الستر ، والاستهزاء ، وغير ذلك من القبائح . فهذه ثمرة الغضب المفرط . وأما ثمرة الحمية الضعيفة ، فقلة الأنفة مما يؤنف منه ، من التعرض للحرم ، والزوجة ، والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس ، والقماءة ، وهو أيضا مذموم . إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم ، وهو خنوثة

قال صلى الله عليه وسلم (١) « إنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَإِنَّ اللهَ أَغْيَرُ مِنِّي » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها ، وضعت الصيانة فى نسائها .

ومن ضعف الغضب الخور ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « خَيْرُ أُمَّتِي أَحِدَّاؤُهَا » يعنى فى الدين . وقال تعالى (وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ (١)) بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة .

ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم . وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (٣) « خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا » . فمن مال غضبه إلى الفتور ، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله . فينبغى أن يعالج نفسه ، حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط ، حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش ، فينبغى أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم ، وهو أرق من الشعرة ، وأحد من السيف . فإن عجز عنه ، فليطلب القرب منه قال تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ (٢)) فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ، ينبغى أن يأتى بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض ، وبعض الخير أرفع من بعض

فهذه حقيقة الغضب ودرجاته ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه ، إنه على ما يشاء قدير

---

(١) حديث ان سعد الغيور ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم فى النكاح

(٢) حديث خير أمتى احداؤها : الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث على بسند ضعيف وزاد الذين اذا غضبوا رجعوا

(٣) حديث خير الامور أوساطها : البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم

---

(١) النور : ٢ (٢) النساء : ١٢٩

بيان

الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد . وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج ، وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير . وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه ما نذكره ، وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً ، فلا يخلو من الغيظ والغضب . وما دام يوافقه شىء ، ويخالفه آخر ، فلا بد من أن يحب ما يوافقه ، ويكره ما يخالفه : والغضب يتبع ذلك . فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة . إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام

الأول : ما هو ضرورة فى حق الكافة ، كالقوت ، والمسكن ، والملبس ، وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح ، فلابد وأن يغضب . وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه ، أو أريق ماؤه الذى لعطشه . فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ، ومن غيظ على من يتعرض لها

القسم الثانى : ما ليس ضروريا لأحد من الخلق ، كالجاه ، والمال الكثير ، والغلمان والدواب . فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكنزان ، ويغضب على من يسرقهما ، وإن كان مستغنيا عنهما فى القوت . فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه . فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه ، فهدمها ظالم ، فيجوز أن لا يغضب . إذ يجوز أن يكون بصيرا بأمر الدنيا ، فيزهد فى الزيادة على الحاجة ، فلا يغضب بأخذها ، فإنه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها ، وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضرورى ، كالجاه ، والصيت ، والتصدر فى المجالس ، والمباهاة فى العلم . فمن غلب هذا الحب عليه ، فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل . ومن لا يحب ذلك

فلا يبالى ولو جلس فى صف النعال ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت خاب الإنسان ومكارهه ، فأكثرت غضبه . وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر ، كان صاحبها أحط رتبة وأنقص . لأن الحاجة صفة نقص . فمهما كثرت كثر النقص . والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وفى شهواته ، وهو لا يدرى أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن ، حتى ينتهى بعض الجهال بالعادات الرديئه ، ومخالطة قرناء السوء ، إلى أن يغضب لو قيل له إنك لا تحسن اللعب بالطيور ، واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير ، وتناول الطعام الكثير ، وما يجرى مجراه من الرذائل . فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى ، لأن حبه ليس بضرورى

القسم الثالث : ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض . الكتاب مثلا فى حق العالم ، لأنه مضطر إليه فيحبه ، فيغضب على من يحرقه ويغرقه . وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب ، الذى لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها . فإن ماهو وسيلة إلى الضرورى والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا . وهذا يختلف بالأشخاص . وإنما الحب الضرورى ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله [1] « مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ وَلَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » ومن كان بصيرا بحقائق الأمور ، وسلم له هذه الثلاثة ، يتصور ، أن لا يغضب فى غيرها

فهذه ثلاثة أقسام ، فلنذكر غاية الرياضة فى كل واحد منها

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ، ولكن لكى يقدر على أن لا يطيع الغضب ، ولا يستعمله فى الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ، ويستحسنه العقل . وذلك ممكن بالمجاهدة ، وتكلف الحلم والاحتمال مدة ، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا . فأما قمع أصل الغيظ من القلب ، فذلك ليس مقتضى الطبع ، وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه ، حتى لا يشتد هيجان الغيظ فى الباطن . وينتهى ضعفه إلى أن لا يظهر أثره فى الوجه . ولكن ذلك شديد جدا . وهذا حكم القسم الثالث أيضا

---

(١) حديث من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها : الترمذى . وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله بحذافيرها قال الترمذى حسن غريب

لأن ما صار ضروريا فى حق شخص ، فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به ، وتضعف هيجانه فى الباطن ، حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه

وأما القسم الثانى : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه ، إذ يمكن إخراج حبه من القلب . وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ، ومستقره الآخرة ، وإن الدنيا معبر يعبر عليها ، ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال فى وطنه ومستقره فيزهد فى الدنيا ، ويمحو حبها عن قلبه . ولو كان للإنسان كلب لا يحبه . لا يغضب إذا ضربه غيره . فالغضب تبع للحب . فالرياضة فى هذا تنتهى إلى قمع أصل الغضب ، وهو نادر جدا وقد تنتهى إلى المنع من استعمال الغضب ، والعمل بموجبه ، وهو أهون

فإن قلت: الضرورى من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب . فمن له شاة مثلا وهى قوته ، فماتت ، لا يغضب على أحد ، وإن كان يحصل فيه كراهة . وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ، ولا يغضب على الفصاد والحجام . فمن غلب عليه التوحيد ، حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه . فلا يغضب على أحد من خلقه ، إذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته ، كالقلم فى يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم . فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته ، كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل ، فيندفع الغضب بغلبة التوحيد ، ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله ، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة فى مرضه ، وجوعه ، وجرحه وقتله ، فلا يغضب ، كما لا يغضب على الفصاد والحجام ، لأنه يرى أن الخيرة فيه . فنقول هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد ، إنما تكون كالبرق الخاطف ، تغلب فى أحوال مختطفة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط ، رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه . ولو تصور ذلك على الدوام لبشر ، لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم (١) فإنه كان يغضب

---

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه: مسلم من حديث جابر كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه وللحاكم كان اذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وقد تقدم فى أخلاق النبوة

حتى تحمر وجنتاه ، حتى قال [١] « اللَّهُمَّ أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ ضَرَبْتُهُ فَاجْعَلْهَا مِنِّي صَلاةً عَلَيْهِ وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، [٢] يارسول الله ، أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا ؟ فقال « اُكْتُبْ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيًّا مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ » وأشار إلى لسانه . فلم يقل إنى لاأغضب . ولكن قال إن الغضب لايخرجنى عن الحق ، أى لاأعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « مَالَكِ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ » فقالت ومالك شيطان ؟ قال « بَلَى وَلَكِنِّي دَعَوْتُ اللهَ فَأَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِالْخَيْرِ » ولم يقل لاشيطان لى وأراد شيطان الغضب ، لكن قال لايحملنى على الشر . وقال على رضى الله عنه ، [٤] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايغضب للدنيا . فإذا أغضبه الحق ، لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شىء ، حتى ينتصر له فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله ، فهو التفات إلى الوسائط على الجملة

بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته ، التى لابد له فى دينه منها ، فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانفكاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى ، إذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه ، فلا يكون فى القلب متسع للغضب ، لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهمات ، يمنع الاحساس بما عداه ، وهذا كما أن سلمان لما شتم قال ، إن خفت موازينى فأنا شر مما تقول ، وإن ثقلت موازينى لم يضرنى ماتقول فقد كان همه مصروفا إلى الآخرة ، فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال ياهذا ، قد سمع الله كلامك ، وإن دون الجنة عقبة ، إن قطعتها لم يضرنى ما تقول ،

---

(١) حديث اللهم أنابشر أغضب كما يغضب البشر ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله أغضب كما يغضب البشر وقال جلدته بدل ضربته وفى رواية اللهم انما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وأصله متفق عليه وتقدم ولمسلم من حديث أنس انما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر ولأبى يعلى من حديث أبى سعيد أوضربته

(٢) حديث عبد الله بن عمرو يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا قال اكتب فوالذى بعثنى بالحق مايخرج منه الاحق وأشار الى لسانه: أبوداود بنحوه

(٣) حديث غضبت عائشة فقال النبى صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة

(٤) حديث على كان لايغضب للدنيا ـ الحديث : الترمذى فى الشمائل وقد تقدم

وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه ، فقال ماستر الله عنك أكثر . فكأنه كان مشغولا بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله حق تقاته ، ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان . وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار ، يا مرائي . فقال ماعرفني غيرك . فكأنه كان مشغولا بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء ، ومنكرا على نفسه مايلقيه الشيطان إليه ، فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال ، إن كنت صادقا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا ، لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم . ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ، ولكنهم لم يشتغلوا به ، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم . فإذاً اشتغال القلب ببعض المهمات ، لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب . فإذاً يتصور فقد الغيظ ، إما باشتغال القلب بمهم ، أو بغلبة نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث ، وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ ، فيطفىء شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال في أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب ، وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها ، كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا . ومن أخرج حب المزايا عن القلب ، تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه ، يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ، ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير ، والحمد لله وحده .

بيان

الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها ، وإزالة أسبابها . فلابد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام . أي شيء أشد؟ قال غضب الله . قال فما يقرب من غضب الله؟ قال أن تغضب ، قال فما يبدي الغضب وما ينبته ؟ قال عيسى الكبر ، والفخر ، والتعزز ، والحمية

والأسباب المهيجة للغضب : هي الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتعيير والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهي بأجمعها أخلاق

رديئة مذمومة شرعا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلابد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها . فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع ، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ، كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والعجب ، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد ، وإنما اختلفوا فى الفضل أشتاتا ، فبنو آدم جنس واحد ، وإنما الفخر بالفضائل ، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل،وهى أصلها ورأسها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك . فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك ، من حيث البنية والنسب ، والأعضاء الظاهرة والباطنة

وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية ، التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس ، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح ، وصيانة النفس عن مر الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة ، طلبا لعز الاستغناء، وترفعا عن ذل الحاجة . وكل خلق من هذه الأخلاق ، وصفة من هذه الصفات ، يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة . وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها . ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة ، حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فإذا انمحت عن النفس ، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال ، تسميتهم الغضب شجاعة ، ورجولية ، وعزة نفس ، وكبر همة ، وتلقيبه بالألقاب المحمودة ، غباوة وجهلا ، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر ، فى معرض المدح بالشجاعة . والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه . وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل ، بل هو مرض قلب ، ونقصان عقل ، وهو لضعف النفس ونقصانها . وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح ، والمرأة أسرع غضبا من الرجل ، والصبى أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا

من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، ولبخله إذا فاتته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » بل ينبغى أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء ، والحكماء والعلماء ، وأكابر الملوك الفضلاء وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك ؟ والجهلة والأغبياء ، الذين لا عقول لهم ، ولا فضل فيهم

بيان

علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب ؛ وقطع لأسبابه حتى لا يهيج . فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت ، حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم . وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل . أما العلم فهو ستة أمور

الأول : أن يتفكر فى الأخبار التى سنوردها ، فى فضل كظم الغيظ . والعفو ، والحلم ، والاحتمال ، فيرغب فى ثوابه ؛ فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينطفىء عنه غيظه . قال مالك بن أوس بن الحدثان ، غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [1]) فكان عمر يقول (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [2]) فكان يتأمل فى الآية ، وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلى عليه ، كثير التدبر فيه ؛ فتدبر فيه ، وخلى الرجل . وأمر عمر ابن عبد العزيز بضرب رجل ؛ ثم قرأ قوله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [3]) فقال لغلامه خل عنه

الثانى : أن يخوف نفسه بعقاب الله ، وهو أن يقول قدرة الله علىّ أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبى عليه ، لم آمن أن يمضى الله غضبه علىّ يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو ، فقد قال تعالى فى بعض الكتب القديمة ، يا ابن آدم ، اذكرنى حين

---

(١) حديث ليس الشديد بالصرعة تقدم قبله

(١) و(٢) الاعراف : ١٩٩ (٣) آل عمران : ١٣٤

تغضب ، أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا إلى حاجة ، فأبطأ عليه ، فلما جاء قال [١] « لَوْلاَ الْقِصَاصُ لَأَوْجَعْتُكَ » أى القصاص فى القيامة . وقيل ما كان فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها ارحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة ، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمر العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا ، إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب ، وليس هذا من أعمال الآخرة ، ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة ، يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه فى الدنيا فراغته للعلم والعمل ، وما يعينه على الآخرة ، فيكون مثابا عليه

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ويتفكر فى قبح الغضب فى نفسه ، ومشابهة صاحبه للكلب الضارى ، والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب ، للأنبياء والأولياء ، والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء ، إن كان قد بقى معه مسكة من عقل

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وأن يكون له سبب . مثل قول الشيطان له ، إن هذا يحمل منك على العجز ، وصغر النفس والذلة ، والمهانة ، وتصير حقيرا فى أعين الناس . فيقول لنفسه ، ما أعجبك ! تأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح ، إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منه ! وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين ! فمها كظم الغيظ . فينبغى أن يكظمه لله ، وذلك يعظمه عند الله فماله وللناس ، وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن . أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة ليقم من أجره على الله . فلا يقوم إلا من عفا . فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغى أن يقرره على قلبه .

---

(١) حديث لولا القصاص لاوجعتك : أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله ، لا على وفق مراده. فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه

وأما العمل ، فأن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أن يقال عند الغيظ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] إذا غضبت عائشة ، أخذ بأنفها وقال « يَاعُوَيْشُ قُولِي اللَّهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ » فيستحب أن تقول ذلك

فإن لم يزل بذلك ، فاجلس إن كنت قائما ، واضطجع إن كنت جالسا ، واقرب من الأرض التي منها خلقت ، لتعرف بذلك ذل نفسك . واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون ، فإن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي الْقَلْبِ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى انْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ وَحُمْرَةِ عَيْنَيْهِ ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ قَائِماً فَلْيَجْلِسْ وَإِنْ كَانَ جَالِساً فَلْيَنَمْ »

فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء فقد قال صلى الله عليه وسلم [4] « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ بِالْمَاءِ فَإِنَّمَا الْغَضَبُ مِنَ النَّارِ » وفي رواية « إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ

---

(١) حديث الامر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ : متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه ـ الحديث : وفيه لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه مايجد فقالوا له ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ الحديث :

(٢) حديث كان اذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال ياعويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي ـ الحديث : ابن السني في اليوم والليلة من حديثها وتقدم في الأذكار والدعوات

(٣) حديث ان الغضب جمرة توقد في القلب ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله توقد وقد تقدم ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب

(٤) حديث اذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد ـ الحديث : أبوداود من حديث عطية السعدي دون قوله بالماء البارد وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها المصنف وقد تقدم

بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ » وقال ابن عباس [١] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ » وقال أبو هريرة [٢] ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب غضبه . وقال أبو سعيد الخدرى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « أَلاَ إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَلْيُلْصِقْ خَدَّهُ بِالأَرْضِ » وكان هذا إشارة إلى السجود ، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل ، وتزايل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب

وروى أن عمر غضب يوما ، فدعا بماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان ، وهذا يذهب الغضب . وقال عروة بن محمد ، لما استعملت على اليمن ، قال لى أبى ، أوليت ؟ قلت نعم . قال فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك ، وإلى الأرض تحتك ، ثم عظم خالقهما

وروى أن أباذر قال لرجل ياابن الحمراء : فى خصومة بينهما . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، فقال [٤] « يَا أَبَا ذَرٍّ بَلَغَنِي أَنَّكَ الْيَوْمَ عَيَّرْتَ أَخَاكَ بِأُمِّهِ » فقال نعم . فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه ، فذكر ذلك لرسول الله

---

(١) حديث ابن عباس اذا غضبت فاسكت : احمد وابن ابى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقى فى شعب الايمان وفيه ليث بن أبى سليم

(٢) حديث أبى هريرة كان اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد باسناد جيد فى اثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له لم جلست ثم اضطجعت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والا فليضطجع والمرفوع عند أبى داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الاسود

(٣) حديث أبى سعيد ألا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ـ الحديث : الترمذى وقال حسن

(٤) حديث أبى ذر أنه قال لرجل ياأبا الحمراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : وفيه فقال يا أباذر ارفع رأسك فانظر ـ الحديث : وفيه ثم قال اذا غضبت الى آخره ابن أبى الدنيا فى العفو وذم الغضب باسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال كان بينى وبين رجل من إخوانى كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكانى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ياأباذر إنك إمرؤ فيك جاهلية ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود الا أن تفضله بتقوى ورجاله ثقات

صلى الله عليه وسلم فقال « يَاأَبَا ذَرّ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ لَسْتَ بِأَفْضَلَ مِنْ أَحْمَرَ فِيهَا وَلاَ أَسْوَدَ إِلاَّ أَنْ تَفْضُلَهُ بِعَمَلٍ » ثم قال « إِذَا غَضِبْتَ فَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فَاقْعُدْ وَإِنْ كُنْتَ قَاعِدًا فَاتَّكِئْ وَإِنْ كُنْتَ مُتَّكِئًا فَاضْطَجِعْ »

وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم ،يغضب فيشتد غضبه. فكتب ثلاث صحائف ، وأعطى كل صحيفة رجلا . وقال للأول . إذا غضبت فأعطنى هذه . وقال للثانى إذا سكن بعض غضبي فأعطنى هذه . وقال للثالث . إذا ذهب غضبي فأعطنى هذه . فاشتد غضبه يوما ، فأعطى الصحيفة الأولى ، فإذا فيها ' ماأنت وهذا الغضب ، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا . فسكن بعض غضبه ، فأعطي الثانية ، فإذا فيها ، ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . فأعطى الثالثة ،فإذا فيها ،خذ الناس بحق الله ، فإنه لايصلحهم إلا ذلك . أى لاتعطل الحدود . وغضب المهدى على رجل ، فقال شبيب لاتغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال خلوا سبيله

فضيلة

كظم الغيظ

قال الله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [1]) وذكر ذلك فى معرض المدح ،وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى رَبِّهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَشَدُّكُمْ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَأَحْلَمُكُمْ مَنْ عَفَا عِنْدَ الْقُدْرَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم

﴿ فضيلة كظم الغيظ ﴾

(١) حديث من كف غضبه كف الله عنه عذابه ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان واللفظ له من حديث أنس باسناد ضعيف ولابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وقاه الله عذابه ـ الحديث : وقد تقدم فى آفات اللسان

(٢) حديث أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة : ابن أبى الدنيا من حديث على بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلا باسناد جيد وللبزار والطبرانى فى مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه

(١) آل عمران : ١٣٤

(١) « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ لأَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا » وفى رواية « مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا » وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَاجَرَعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى » وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، (٣) قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِجَهَنَّمَ بَابًا لاَيَدْخُلُهُ إِلاَّ مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَامِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ وَمَا كَظَمَهَا عَبْدٌ إِلاَّ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ وَيُخَيِّرُهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ »

الآثار: قال عمر رضى الله عنه . من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل مايشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه . يابنى ، لاتذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك . وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا ، واجتمع سفيان الثورى ، وأبو خزيمة اليربوعى ، والفضيل ابن عياض ، فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضي الله عنه ، والله ما تقضى بالعدل ، ولا تعطى الجزل . فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه ، فقال له رجل ياأمير المؤمنين ، ألا تسمع أن الله تعالى

---

(١) حديث من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا وفى رواية أمنا وإيمانا ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبوداود بالرواية الثانية من حديث رجل من ابناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ورواها ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم

(٢) حديث ابن عمر ماجرع رجل جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله: ابن ماجه

(٣) حديث ابن عباس إن لجهنم بابا لايدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله: تقدم فى آفات اللسان

(٤) حديث مامن جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه ايمانا: ابن ابى الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلقى من حديث ابن عمر وحديث الصحابى الذى لم يسم وقد تقدما

(٥) حديث من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء: تقدم فى آفات اللسان

يقول . (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[1]) فهذا من الجاهلين . فقال عمر صدقت . فكأنما كانت نارا فأطفئت . وقال محمد بن كعب . ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ماليس له . وجاء رجل إلى سلمان ، فقال ياعبد الله أوصنى . قال: لا تغضب ، قال لا أقدر . قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

بيان

فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم ، أى تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة . ولكن إذا تعود ذلك ، مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ . وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعى ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ وَمَنْ يَتَخَيَّرِ الْخَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ » وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه ، كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَاطْلُبُوا مَعَ الْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ لِينُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ حِلْمَكُمْ » أشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر ، هو الذى يهيج

(فضيلة الحلم)

(١) حديث انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ــ الحديث : الطبراني والدار قطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف

(٢) حديث أبى هريرة اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ــ الحديث : ابن السنى فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف

---

[1] الاعراف : ١١٩

الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم [١] « اللَّهُمَّ أَغْنِنِي بِالْعِلْمِ وَزَيِّنِّي بِالْحِلْمِ، وَأَكْرِمْنِي بِالتَّقْوَى وَجَمِّلْنِي بِالْعَافِيَةِ » وقال أبو هريرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « ابْتَغُوا الرِّفْعَةَ عِنْدَ اللهِ » قالوا وما هي يارسولَ الله ؟ قال « تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَحْلُمُ عَمَّنْ جَهِلَ عَلَيْكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « خَمْسٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ الْحَيَاءُ وَالْحِلْمُ وَالْحِجَامَةُ وَالسِّوَاكُ وَالتَّعَطُّرُ » وقال علي كرم الله وجهه ، [٤] قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ لَيُدْرِكُ بِالْحِلْمِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَإِنَّهُ لَيُكْتَبُ جَبَّاراً عَنِيداً وَلاَ يَمْلِكُ إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِهِ » وقال أبو هريرة ، [٥] إن رجلا قال يارسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، ويجهلون عليّ وأحلم عنهم . قال « إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ * وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ مَادُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » الملّ يعني به الرمل .

[٦] وقال رجل من المسلمين ، اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة . فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أني قد غفرت له

---

(١) حديث كان من دعائه اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية: لم أجد له أصلا

(٢) حديث ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي قال تصل من قطعك ـ الحديث : الحاكم والبيهقي وقد تقدم

(٣) حديث خمس من سنن المرسلين الحياء والعلم والحجامة والسواك والتعطر: أبو بكر بن أبي عاصم في المثاني والآحاد والترمذي الحكيم في نوادر الاصول من رواية مليح بن عبدالله الخطمي عن أبيه عن جده وللترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح

(٤) حديث علي ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم ـ الحديث : الطبراني في الأوسط بسند ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة ان رجلا قال يارسول الله ان لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون الي ويجهلون على وأحلم عنهم ـ الحديث رواه مسلم

(٦) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئا فهو صدقة عليه ـ الحديث : أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد ابن أبي عبس بن جبر عن ابيه عن جده باسناد لين زاد البيهقي عن علية بن زيد وعلية هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب انه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضمضم قلت وليس بأبي ضمضم انما هو علية بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وانما هو متقدم

* تسفهم الملّ : يعني تجعل وجوههم كلون الرماد

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « أيعجزُ أحدُكُم أنْ يكُونَ كأبي ضَمْضَمٍ ؟ » قالوا وما أبو ضمضم ؟ قال « رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ كانَ إذا أصْبَحَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إنِّي تَصَدَّقْتُ اليَوْمَ بِعِرْضِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي » . وقيل في قوله تعالى (رَبَّانِيِّينَ (١)) أي حلماء علماء .

وعن الحسن في قوله تعالى (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٢)) قال حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبي رباح (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (٢)) أي حلما . وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل (وَكَهْلًا (٤)) قال الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٥)) أي إذا أوذوا صفحوا (٢) . وروى أن ابن مسعود مر بلغو معرضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَصْبَحَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَمْسَى كَرِيمًا » ثم تلا ابراهيم ابن ميسرة ، وهو الراوى ، قوله تعالى (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٦)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكُنِي وَلَا أُدْرِكُهُ زَمَانٌ لَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ الْعَلِيمَ وَلَا يَسْتَحْيُونَ فِيهِ مِنَ الْحَلِيمِ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْعَجَمِ وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « لِيَلِيَنِي مِنْكُمْ ذَوُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ* الْأَسْوَاقِ » . وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج ، فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه السلام (٥) « إنَّ فِيكَ يَا أَشَجُّ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ »

---

(١) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم ـ الحديث : تقدم في آفات اللسان .

(٢) حديث ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ابن المبارك في البر والصلة

(٣) حديث اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الحليم ـ الحديث : أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف

(٤) حديث ليليني منكم أولوا الاحلام والنهى ـ الحديث : مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود

(٥) حديث يا أشج ان فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة ـ الحديث : متفق عليه

---

(١) آل عمران : ٧٩ ، (٢) الفرقان : ٦٣ (٤) آل عمران : ٤٦ ، (٥) (٦) الفرقان : ٧٢

---

* الهيشات : الفتن

قال ماهما بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ قال « الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ » فقال خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال « بَلْ خُلُقَانِ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا » فقال الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْحَلِيمَ الْحَيِيَّ الْغَنِيَّ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ التَّقِيَّ وَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ الْغَبِيَّ »

وقال ابن عباس ، (٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثَلاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلاَ تَعْتَدُّوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ تَقْوَى تَحْجُزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحِلْمٌ يَكُفُّ بِهِ السَّفِيهَ وَخُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « إِذَا جَمَعَ اللهُ الْخَلاَئِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرٌ فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ فَيَقُولُونَ لَهُمْ إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ نَحْنُ أَهْلُ الْفَضْلِ فَيَقُولُونَ لَهُمْ مَا كَانَ فَضْلُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا وَإِذَا أُسِيءَ إِلَيْنَا عَفَوْنَا وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلُمْنَا فَيُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ »

الآثار: قال عمر رضي الله عنه . تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وقال على رضي الله عنه . ليس الخير إن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك وأن لاتباهى الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى ، وقال الحسن اطلبوا العلم ، وزينوه بالوقار والحلم . وقال أكثم بن صيفى : دعامة العقل الحلم ، وجماع الأمر الصبر . وقال ابو الدرداء : أدركت الناس ورقا لاشوك فيه ، فأصبحوا شوكا لاورق فيه ، إن عرفتهم نقدوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . قالوا كيف نصنع ؟ قال تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك . وقال على رضي الله عنه : إن أول ما عوض الحليم من حلمه ، أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى ، لا يبلغ العبد مبلغ الرأى ،

---

(١) حديث ان الله يحب الحيى الحليم الغنى المتعفف ـ الحديث : الطبرانى من حديث سعد أن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى

(٢) حديث ابن عباس ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدن بشىء من عمله أبو نعيم فى كتاب الايجاز باسناد ضعيف والطبرانى من حديث أم سلمة باسنادلين وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٣) حديث اذاجمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس ـ الحديث : وفيه اذاجهل علينا حلمنا البيهقى فى شعب الايمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال البيهقى فى اسناده ضعف

حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته . ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم . وقال معاوية لعمرو ابن الأهتم ، أي الرجال أشجع ؟ قال من رد جهله بحلمه . قال أي الرجال أسخى قال من بذل دنياه لصلاح دينه . وقال أنس بن مالك ، في قوله تعالى (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[1]) إلى قوله (عَظِيمٍ[2]) هو الرجل يشتمه أخوه ، فيقول إن كنت كاذبا فغفر الله لك ، وإن كنت صادقا فغفر الله لي .

وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة ، فحلم علي ، فاستعبدني بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس ، بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال يا أمير المؤمنين ، كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ، وأسعى في حوائجهم . فمن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصر عني فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما ، فلما فرغ ، قال يا عكرمة ، هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز ، أشهد أنك من الفاسقين . فقال ليس تقبل شهادتك .

وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، أنه سبه رجل، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم ، جمع له خمس خصال محمودة ، الحلم ، وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل ، وحمله على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى مدح بعد الذم . اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير . وقال رجل لجعفر بن محمد ، إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر ، وإني أريد أن أتركه ، فأخشى أن يقال لي إن تركك له ذل . فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد ، كان يقال من أساء فأحسن إليه ، فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته . وقال الأحنف بن قيس ، لست بحليم ، ولكنني أتحلم . وقال وهب بن منبه ، من يرحم يُرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يُغلب ، ومن يعجل يخطىء ، ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المراء يشتم ، ومن لا يكره الشر يأثم ، ومن يكره الشر يُعصم ومن يتبع وصية الله يُحفظ ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ، ومن لا يسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله

(١و٢) فصلت : ٣٤ و ٣٥

يخذل، ومن يستعن بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار ، بلغني أنك ذكرتني بسوء قال أنت إذاً أكرم عليّ من نفسي . إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي . وقال بعض العلماء ، الحلم أرفع من العقل ، لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء ، والله لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك ، فقال معك يدخل لا معي . ومر المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود ، فقالوا له شراً ، فقال لهم خيراً . فقيل له إنهم يقولون شراً ، وأنت تقول خيراً فقال كل ينفق مما عنده . وقال لقمان ، ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة ، لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه

ودخل على بعض الحكماء صديق له ، فقدم إليه طعاما ، فخرجت امرأة الحكيم ، وكانت سيئة الخلق ، فرفعت المائدة ، وأقبلت على شتم الحكيم . فخرج الصديق مغضبا . فتبعه الحكيم وقال له ، تذكر يوم كنا في منزلك نطعم ، فسقطت دجاجة على المائدة ، فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا . قال نعم . قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة . فسري عن الرجل غضبه وانصرف ، وقال صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجلا قدم حكيم فأوجعه ، فلم يغضب . فقيل له في ذلك . فقال أقمته مقام حجر تعثرت به . فذبحت الغضب وقال محمود الوراق

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان

القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله . فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصي وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به ، وقد فصلناه في الفقه . وأما السب فلا يقابل بمثله ،

إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِمَا فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا فِيهِ » وقال « الْمُسْتَبَّانِ مَاقَالَا فَهُوَ عَلَى الْبَادِئِ مَالَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ » وقال [2] « الْمُسْتَبَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ » وشتم رجل [3] أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو ساكت . فلما ابتدأ ينتصر منه ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر ، إنك كنت ساكتا لما شتمني فلما تكلمت قمت ؟ قال « لِأَنَّ الْمَلَكَ كَانَ يُجِيبُ عَنْكَ فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ ذَهَبَ الْمَلَكُ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الشَّيْطَانُ »

وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ؛ وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه ، والأفضل تركه ، ولكنه لايعصى به . والذى يرخص فيه ، أن تقول من أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود ، وهل أنت إلا من بنى هذيل ؟ وقال ابن مسعود وهل أنت إلا من بنى أمية ؟ ومثل قوله ياأحمق . قال مطرف ، كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه ، إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض وقال ابن عمر [4] فى حديث طويل ، حتى ترى الناس كلهم حمقى فى ذات الله تعالى

وكذلك قوله ياجاهل ، إذ مامن أحد إلا وفيه جهل ، فقد آذاه بما ليس بكذب

وكذلك قوله ياسيىء الخلق ، ياصفيق الوجه ، ياثلابا للأعراض ، وكان ذلك فيه .

وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك فى عينى بما فعلت ، وأخزاك الله وانتقم منك . فأما النميمة ، والغيبة ، والكذب ، وسب الوالدين ، فحرام بالاتفاق لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالدا عند سعد ، فقال سعد منه ، إن مابيننا لم يبلغ ديننا . يعنى أن يأثم بعضنا فى بعض . فلم يسمع السوء ، فكيف يجوز له أن يقوله . والدليل على جواز ماليس بكذب ولا حرام ، كالنسبة إلى الزنا

---

(١) حديث إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه : أحمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم

(٢) حديث المستبان شيطانان يتهاتران : تقدم

(٣) حديث شتم رجل أبابكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : أبو داود من حديث أبي هريرة متصلا ومرسلا قال البخارى المرسل أصح

(٤) حديث ابن عمر فى حديث طويل حتى ترى الناس كأنهم حمقى فى ذات الله عز وجل : تقدم فى العلم

والفحش والسب ، ماروت عائشة رضى الله عنها ، (١) أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت يارسول الله ، أرسلنى إليك أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة ، والنبي صلى الله عليه وسلم نائم ، فقال « يَا بُنَيَّةُ أَتُحِبِّينَ ماأُحِبُّ ؟ » قالت نعم . قال « فَأَحِبِّي هَذِهِ » فرجعت إليهن ، فأخبرتهن بذلك ، فقلن ماأغنيت عنا شيئا . فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت وهى التى كانت تساميني فى الحب ، فجاءت فقالت ، بنت أبى بكر ، وبنت أبى بكر ، فما زالت تذكرنى وأنا ساكتة ، أنتظر أن يأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجواب ، فأذن لى . فسببتها حتى جف لسانى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كَلاَّ إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ » يعنى أنك لاتقاومينها فى الكلام قط . وقولها سببتها ليس المراد به الفحش ، بل هو الجواب عن كلامها بالحق ، ومقابلتها بالصدق

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « الْمُسْتَبَّانِ مَاقَالاَ فَعَلَى الْبَادِىءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِى الْمَظْلُومُ » فأثبت للمظلوم انتصارا إلى أن يعتدى . فهذا القدر هو الذى أباحه هؤلاء ، وهو رخصة فى الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ، ولا تبعد الرخصة فى هذا القدر ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجره إلى ماوراءه ، ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن أصل الجواب ، لعله أيسر من الشروع فى الجواب ، والوقوف على حد الشرع فيه . ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه فى فورة الغضب ، ولكن يعود سريعا ، ومنهم من يكف نفسه فى الابتداء ولكن يحقد على الدوام

والناس فى الغضب أربعة : فبعضهم كالحلفاء ، سريع الوقود سريع الخمود . وبعضهم كالغضا ، بطىء الوقود بطىء الخمود ، وهذا هو بطىء الوقود سريع الخمود ، وهو الأحمد ، مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة . وبعضهم سريع الوقود بطىء الخمود ، وهذا هو شرهم . وفى الخبر (٣) « الْمُؤْمِنُ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الرِّضَا » فهذه بتلك . وقال الشافعى رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان .

(١) حديث عائشة ان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت يارسول الله أرسلنى أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة ــ الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث المستبان ماقالا فعلى البادىء ــ الحديث : رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن سريع الغضب سريع الرضى : تقدم

وقد قال أبو سعيد الخدرى(١)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلاَ إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى فَمِنْهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ . وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ ، فَتِلْكَ بِتِلْكَ وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْءِ أَلاَ وَإِنَّ خَيْرَهُمُ الْبَطِيءُ الْغَضَبِ السَّرِيعُ الْفَيْءِ وَشَرَّهُمُ السَّرِيعُ الْغَضَبِ الْبَطِيءُ الْفَيْءِ »

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر فى كل إنسان ، وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا فى حال غضبه ، لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا عليه ، فيكون متشفيا لغيظه ، ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب حظ . فينبغى أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه . ورأى عمر رضى الله عنه سكران : فأراد أن يأخذه ويعزره ، فشتمه السكران . فرجع عمر . فقيل له ياأمير المؤمنين ، لما شتمك تركته ؟ قال لأنه أغضبنى ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسى ، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسى . وقال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه ، لولا أنك أغضبتني لعاقبتك

القول

فى معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه ، فصار حقدا . ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله ، والبغضة له ، والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى . وقد قال صلى الله عليه وسلم(٢) « الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ » فالحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر ثمانية أمور :

الأول : الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه ، فتغتم بنعمة إن أصابها ، وتسر بمصيبة إن نزلت به . وهذا من فعل المنافقين ، وسيأتى ذمه إن شاء الله تعالى

الثانى : أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء

الثالث . أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه ؛ وإن طلبك وأقبل عليك

---

(١) حديث أبي سعيد الخدرى ألا ان بنى آدم خلقوا على طبقات ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث المؤمن ليس بحقود : تقدم فى العلم

الرابع : وهو دونه ، أن تعرض عنه استصغاراله

الخامس : أن تتكلم فيه بما لا يحل ، من كذب ، وغيبة ، وإفشاء سر ، وهتك ستر ، وغيره

السادس : أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه

السابع : إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه

الثامن : أن تمنعه حقه من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظلمة ، وكل ذلك حرام

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به ، ولكن تستثقله في الباطن ، ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة ، والرفق ، والعناية ، والقيام بحاجاته ، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى ، والمعاونة على المنفعة له . أو بترك الدعاء له ، والثناء عليه ، أو التحريض على بره ومواساته. فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ، ويحول بينك وبين فضل عظيم ، وثواب جزيل . وإن كان لا يعرضك لعقاب الله [1] . ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ، وكان قريبه ، لكونه تكلم في واقعة الإفك ، نزل قوله تعالى (وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ [1]) إلى قوله (أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ [2]) فقال أبو بكر نعم نحب ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه . والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس ، وإرغاما للشيطان ، فذلك مقام الصديقين ، وهو من فضائل أعمال المقربين . فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة

أحدها. أن يستوفي حقه الذي يستحقه ، من غير زيادة ونقصان وهو العدل

الثاني : أن يحسن إليه بالعفو والصلة ، وذلك هو الفضل .

الثالث . أن يظلمه بما لا يستحقه ، وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني هو اختيار الصديقين ، والأول هو منتهى درجات الصالحين ، ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان

---

(١) حديث الحلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الآية : متفق عليه من حديث عائشة

---

(١) و (٢) النور : ٢٢

فضيلة

العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا ، فيسقطه ويبرىء عنه ، من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه ، قال الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [1]) وقال الله تعالى (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى [2])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلَاثٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كُنْتُ حَلَّافًا لَحَلَفْتُ عَلَيْهِنَّ مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا وَلَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « التَّوَاضُعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ اللهُ وَالْعَفْوُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عِزًّا فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللهُ وَالصَّدَقَةُ لَا تَزِيدُ الْمَالَ إِلَّا كَثْرَةً فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ » . وقالت عائشة رضي الله عنها [3] ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ، مالم ينتهك من محارم الله . فإذا انتهك من محارم الله شيء ، كان أشدهم في ذلك غضبا . وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرها ، مالم يكن إثما . وقال عقبة ، لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فأبتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي. فقال [4] « يَا عُقْبَةُ أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ثلاث والذى نفسي بيده ان كنت حالفا لحلفت عليهن مانقصت صدقة من مال ـ الحديث : الترمذى من حديث أبي كبشة الانماري ولمسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث التواضع لايزيد العبد الارفعة فتواضعوا يرفعكم الله : الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ـ الحديث : الترمذي في الشمائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم

(٤) حديث عقبة بن عامر ياعقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك ـ الحديث ابن ابي الدنيا والطبراني في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم

---

[1] الأعراف : ١١٩ [2] البقرة : ٢٣٧

[١]« قالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ يَارَبِّ أيُّ عِبادِكَ أعزُّ عَلَيْكَ ؟ قالَ الَّذى إذا قَدَرَ عَفَا » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس ، قال الذى يعفو إذا قدر ، فاعفوا يعزكم الله

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس ، وأراد أن يأخذله بمظلمته . فقال له صلى الله عليه وسلم [٢] « إنَّ الْمَظْلُومِينَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدِ انْتَصَرَ » وعن أنس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إذَا بَعَثَ اللهُ الْخَلائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ثَلاثَةَ أصْوَاتٍ يَامَعْشَرَ الْمُوَحِّدِينَ إنَّ اللهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ فَلْيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ »

وعن أبي هريرة ، [٤] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، طاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة ، فأخذ بعضادتى الباب فقال « مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ ؟ » فقالوا نقول أخ وابن عم ، حليم رحيم . قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم « أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ » (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [١])

---

(١) حديث قال موسى يارب أى عبادك أعز عليك قال الذى إذا قدر عفا : الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة وفى أوله قصة ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو من رواية أبى صالح الحنفى مرسلا

(٣) حديث أنس إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات يامعشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض : أبو سعيد أحمد بن ابراهيم المقرى فى كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة ياأمة محمد ان الله تعالى يقول ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى واسناده ضعيف ورواه الطبرانى فى الاوسط بلفظ نادى مناد ياأهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم على وله من حديث أم هانىء ينادى مناد ياأهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الثواب

(٤) حديث أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال ما تقولون ـ الحديث : رواه ابن الجوزى فى الوفا من طريق ابن أبى الدنيا وفيه ضعف

---

(١) يوسف : ٩٣

قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور ،فدخلوا فى الإسلام . وعن سهيل بن عمرو قال [١] لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وضع يديه على باب الكعبة ،والناس حوله فقال « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَشَرِيكَ لَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ثم قال « يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَاتَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ ؟» قال قلت يارسول الله ، نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم ،وقد قدرت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ »(لاَتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ [١])

وعن أنس قال [٢] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا وَقَفَ الْعِبَادُ نَادَى مُنَادٍ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ » قيل ومن ذا الذى له أجر ؟ قال « الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ فَيَقُومُ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » وقال ابن مسعود، [٣] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاَيَنْبَغِي لِوَالِي أَمْرٍ أَنْ يُؤْتَى بِحَدٍّ إِلاَّ أَقَامَهُ وَاللهُ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ» ثم قرأ (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا [٢]) الآية . وقال جابر ، [٤] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلاَثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ حَيْثُ شَاءَ مَنْ أَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ [٣]) عَشْرَ مَرَّاتٍ وَعَفَا عَنْ قَاتِلِهِ » قال أبو بكر ، أو إحداهن يارسول الله ؟ قال « أَوْ إِحْدَاهُنَّ »

---

(١) حديث سهل بن عمرو لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة الحديث : بنحوه لم أجده

(٢) حديث أنس إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل من ذا الذى أجره على الله قال العافون عن الناس ـ الحديث : الطبرانى فى مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه

(٣) حديث ابن مسعود لا ينبغى لوالى أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو ـ الحديث : أحمد والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة

(٤) حديث جابر ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ـ الحديث : الطبرانى فى الاوسط وفى الدعاء بسند ضعيف

---

[١] يوسف : ٩٢ [٢] النور : ٢٢ [٣] الصمد : ١

الآثار : قال ابراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب

وقال بعضهم ، إذا أراد الله أن يتحف عبدا ، قيض له من يظلمه · ودخل رجل على عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ، فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ، ويقع فيه . فقال له عمر إنك إن تلق الله ومظلمتك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة إن ظللت تدعو على من ظلمك ، فإن الله تعالى يقول ، إن آخرَ يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخر تكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى

وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه : كِل الظالم إلى ظلمه ، فإنه أسرع إليه من دعائك عليه ، إلا أن يتداركه بعمل ، وقمن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال ، بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة ، فينادي من كان له عند الله شيء فليقم ، فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال ، أتى النعمان بن المنذر برجلين ، قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما ، فعفا عنه ، والآخر أذنب ذنبا خفيفا ، فعاقبه وقال

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال ، وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر . قال فكنت عنده ، إذ أتي برجل فأمر بقتله . فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر . فقلت يا أمير المؤمنين ، ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن ، قال وما هو ، قلت سمعته يقول ، إذا كان يوم القيامة ، جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد ، حيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر . فيقوم مناد فينادي ، من له عند الله يد فليقم . فلا يقوم إلا من عفا . فقال والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه . فقال خليا عنه

وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة . فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال . وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك · فقال للراهب ، أرأيت ذا القرنين ،

أ كان نبيا ؟ فقال لا . ولكنه إنما أعطى ماأعطى بأربع خصال كن فيه . كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لغد. وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم فحلم ، حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم فحلم ، حتى إذا قدر عفا

وقال زياد ، القدرة تذهب الحفيظة ، يعنى الحقد والغضب . وأتى هشام برجل ابلغه عنه أمر ، فلما أقيم بين يديه ، جعل يتكلم بحجته . فقال له هشام ، وتتكلم أيضا ؟ فقال الرجل ياأمير المؤمنين ، قال الله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا[1]) أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاما ؟ قال هشام ، بلى ويحك تكلم

وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين، فقال له اقطعه فإنه من أعدائنا . فقال بل أستر عليه ، لعل الله يستر علىّ يوم القيامة . وجلس ابن مسعود فى السوق يبتاع طعاما ، فابتاع ، ثم طلب الدراهم ، وكانت فى عمامته ، فوجدها قد حلت : فقال لقد جلست وإنها لمعى . فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون ، اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها ، اللهم افعل به كذا فقال عبد الله ، اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها . وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل ، ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان ، جلس إلىّ فى المسجد الحرام ، ثم قام ليطوف ، فسرقت دنانير كانت معه ، فجعل يبكى فقلت أعلى الدنانير تبكى؟ فقال لا . ولكن مثلتنى وإياه بين يدى الله عز وجل، فأشرف عقلى على إدحاض حجته فبكائى رحمة له . وقال مالك بن دينار ، أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا . وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف . فدخلنا معه عليه . فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام ، وما صنع به إخوته من بيعهم إياه ، وطرحهم له فى الجب . فقال باعوا أخاهم ، وأحزنوا أباهم . وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ، ثم قال ، أيها الأمير ، ماذا صنع الله به ؟ أداله منهم ، ورفع ذكره ، وأعلى كلمته ، وجعله على خزائن الأرض . فماذا صنع حين أكمل له أمره ؟ وجمع له أهله ؟ قال (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[2]) يعرّض للحكم بالعفو عن أصحابه . قال الحكم ، فأنا أقول (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ[3]) ولو لم أجد إلا ثوبى هذا لواريتكم تحته.

---

(1) النحل : ١١١ (٢ ، ٣) يوسف : ٩٢

وكتب ابن المقفع إلى صديق له، يسأله العفو عن بعض إخوانه، فلان هارب من زلته إلى عفوك. لائذ منـــك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما . إلا ازداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى بن الأشعث ، فقال لرجاء بن حيوة ، ماترى؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ماتحب من الظفر ، فأعط الله مايحب من العفو . فعفا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج ، فأفلت منه ، فأخذ أخا له ، فقال له إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك فقال أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى ؟ قال نعم . قال فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم ، وأقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى . ثم تلا (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى[1]) فقال زياد، خلوا سبيله ؟ هذا رجل قد لقن حجته : وقيل مكتوب فى الأنجيل ، من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ، ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة . وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه ، بحيث يدهش عن التفكر ؛ ويمنع من التثبت . فالرفق فى الأمور ثمرة لايثمرهـا إلا حسن الخلق . ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة : وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هـذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق ، وبالغ فيه . فقال[1] « يَاعَائِشَةُ إِنَّهُ مَنْ اعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ »

﴿ فضيلة الرفق ﴾

(١) حديث ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ـ الحديث : أحمد والعقيلى فى الضعفاء فى ترجمة عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى وضعفه عن القاسم عن عائشة وفى الصحيحين من حديثها ياعائشة ان الله يحب الرفق فى الامر كله

(٢) حديث اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق : أحمد بسند جيد والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة

(١) النجم : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللَّهَ لَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَالاَ يُعْطِي عَلَى الْخُرْقِ وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرِّفْقَ وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرِّفْقَ إِلاَّ حُرِمُوا مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى » . وقالت عائشة رضى الله عنها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَالاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « يَاعَائِشَةُ ارْفُقِي فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ كَرَامَةً دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « أَيُّمَا وَالٍ وُلِّيَ فَرَفَقَ وَلاَنَ رَفَقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « تَدْرُونَ مَنْ يُحْرَمُ عَلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْخُرْقُ شُؤْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٨) « التَّأَنِّي مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال ، (٩) يارسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ، فاخصصني منك بخير : فقال « الْحَمْدُ لِلَّهِ » مرتين

---

(١) حديث ان الله ليعطى على الرفق مالايعطى على الخرق ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير من حديث جرير باسناد ضعيف

(٢) حديث ان الله رفيق يحب الرفق ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة

(٣) حديث ياعائشة ارفقى ان الله اذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق : أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبى داود ياعائشة أرفقى

(٤) حديث من يحرم الرفق يحرم الخير كله : مسلم من حديث جرير دون قوله كله فهى عند أبى داود

(٥) حديث أيما وال ولى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة : مسلم من حديث عائشة وفى حديث فيه ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به

(٦) حديث تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب : الترمذى من حديث ابن مسعود وتقدم فى آداب الصحبة

(٧) حديث الرفق يمن والخرق شؤم : الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن مسعود والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

(٨) حديث التأنى من الله والعجلة من الشيطان : أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة من الله وقد تقدم

(٩) حديث أتاه رجل فقال يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ـ الحديث وفيه فاذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فأمضه ـ الحديث : ابن المبارك فى الزهد والرقائق من حديث أبى جعفر هو المسمى عبد الله بن مسور الهاشمى ضعيف جدا ولأبى نعيم فى كتاب الايجاز من رواية اسماعيل الانصارى عن أبيه عن جده اذا هممت بأمر فأجلس فتدبر عاقبته واسناده ضعيف

أو ثلاثا ، ثم أقبل عليه فقال « هَلْ أَنْتَ مُسْتَوْصٍ » مرتين أو ثلاثا . قال نعم . قال « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ سِوَى ذَلِكَ فَانْتَهِ » وعن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) « يَا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ »

الآثار : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله ، فأمرهم أن يوافوه . فلما أتوه ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ، أيها الناس ، أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا ، النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير . أيتها الرعاة ، إن للرعية عليكم حقا ، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز ، من حلم إمام ورفقه . وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم ، من جهل إمام وخرقه . واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهرانيه ، يرزق العافية ممن هو دونه . وقال وهب بن منبه ، الرفق ثني الحلم . وفي الخبر موقوفا ومرفوعا(٢) « اَلْعِلْمُ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ وَالْحِلْمُ وَزِيرُهُ وَالْعَقْلُ دَلِيلُهُ وَالْعَمَلُ قَيِّمُهُ وَالرِّفْقُ وَالِدُهُ وَاللِّينُ أَخُوهُ وَالصَّبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ » وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزينه العلم ، وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق . وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو ابن العاص لابنه عبد الله ، ما الرفق ؟ قال . أن تكون ذا أناة فتلاين الولاة . قال فما الخرق ؟ قال . معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه ، تدرون ما الرفق ؟ قالوا قل يا أبا محمد قال : أن تضع الأمور مواضعها ، الشدة في موضعها ، واللين في موضعه ، والسيف في موضعه والسوط في موضعه . وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين ، والفظاظة بالرفق كما قيل .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

---

(١) حديث عائشة عليك بالرفق فانه لا يدخل في شيء الا زانه ـ الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده أبو الشيخ في كتاب الثواب وفضائل الاعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف

فالمحمود وسط بين العنف واللين ، كما فى سائر الأخلاق : ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل ، كانت الحاجة إلى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر . فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف فى محله حسنا ، كما أن الرفق فى محله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو ألذ من الزبد بالشهد ، وهكذا • وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، روي أن عمرو بن العاص ، كتب إلى معاوية يعاتبه فى التأنى ، فكتب إليه معاوية

أما بعد . فإن التفهم فى الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب ، أو كاد أن يكون مصيبا . وإن العجل مخطىء ، أو كاد أن يكون مخطئا . وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق . ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى . وعن أبى عون الأنصارى ، قال ماتكلم الناس بكلمة صعبة ، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفى . لا تتخذ من الخدم إلا ما لابد منه ، فإن مع كل إنسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا ، إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن . المؤمن وقاف متأن ، وليس كحاطب ليل .

• فهذا ثناء أهل العلم على الرفق ، وذلك لأنه محمود ، ومفيد فى أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على الندور . وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطى كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة ، أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق ، فإن النجح معه فى الأكثر

القول

فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى إزالته

بيان

ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب ، فهو فرع فرعه ، والغضب أصل أصله . ثم إن للحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد فى ذم

الحسد خاصة أخبار كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وقال صلى الله عليه وسلم فى النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته [٢] « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا »

وقال أنس ، [٣] كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال ،فسلم . فلما كان الغد : قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . فطلع ذلك الرجل . وقاله فى اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص : فقال له ، إنى لاحيت أبى ،فأقسمت أن لاأدخل عليه ثلاثا . فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى الثلاث فعلت . فقال نعم . فبات عنده ثلاث ليال ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال غير أنى ماسمعته يقول إلا خيرا. فلمامضت الثلاث ، وكدت أن أحتقر عمله ، قلت ياعبد الله ، لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عملك ، فلم أرك تعمل عملا كثيرا . فما الذى بلغ بك ذلك؟ فقال ماهو إلا مارأيت. فلما وليت دعانى فقال . ماهو إلا مارأيت ، غير أنى لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا ، على خير أعطاه الله إياه. قال عبدالله ، فقلت له هى التى بلغت بك ،وهى التى لا نطيق

(القول فى ذم الحسد)

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب : أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم

(٢) حديث لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

(٣) حديث أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ـ الحديث بطوله وفيه أن ذلك الرجل قال لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله : رواه أحمد باسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وسمى الرجل فى رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « ثلاثٌ لاَ يَنْجُو مِنْهُنَّ أحدٌ الظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ وَالْحَسَدُ وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا ظَنَنْتَ فَلاَ تُحَقِّقْ وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ وَإِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ » وفى رواية « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ » فأثبت فى هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « دبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبِغْضَةُ هِيَ الْحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ حَالِقَةُ الشَّعْرِ وَلَكِنْ حَالِقَةُ الدِّينِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثْبِتُ ذَلِكَ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّهُ سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأُمَمِ » قالوا وما داء الأمم ؟ قال « الأَشَرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّبَاعُدُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ ثُمَّ الْهَرْجُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ » . وروى أن موسى عليه السلام ، لما تعجل إلى ربه تعالى ، رأى فى ظل العرش رجلا ، فغبطه بمكانه . فقال إن هذا لكريم على ربه . فسأل

---

(١) حديث ثلاث لاينجو منهن أحد الظن والطعن والحسد ـ الحديث : وفى رواية وقل من ينجو منهن ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهرى وموسى ابن يعقوب الزمعى ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبى الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبرانى من حديث حارثة بن النعمان نحوه وتقدم فى آفات اللسان

(٢) حديث دب إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء ـ الحديث : الترمذى من حديث مولى الزبير عن الزبير

(٣) حديث كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر : أبو مسلم الكشى والبيهقى فى الشعب من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط من وجه آخر بلفظ كادت الحاجة أن تكون كفرا وفيه ضعف أيضا

(٤) حديث انه سيصيب أمتى داء الأمم قبلكم قالوا وماداء الأمم قال الاشر والبطر ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى ذم الحسد والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة باسناد جيد

(٥) حديث لاتظهر الشماتة بأخيك فيعافيه ويبتليك : الترمذى من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفى رواية ابن أبى الدنيا فيرحمه الله

ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره، وقال أحدثك من عمله بثلاث . كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة. وقال زكريا عليه السلام. قال الله تعالى: الحاسد عدو لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي

وقال صلى الله عليه وسلم (١) «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ يَكْثُرَ فِيهِمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُونَ وَيَقْتَتِلُونَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ» وقال صلى الله عليه وسلم (٣) «إِنَّ لِنِعَمِ اللهِ أَعْدَاءً» فقيل ومن هم؟ فقال «الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» وقال صلى الله عليه وسلم (٤) «سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسَنَةٍ» قيل يارسول الله من هم؟ قال «الْأُمَرَاءُ بِالْجَوْرِ وَالْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالدَّهَاقِينُ بِالتَّكَبُّرِ وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ وَأَهْلُ الرُّسْتَاقِ بِالْجَهَالَةِ وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ»

الآثار: قال بعض السلف، أول خطيئة كانت هي الحسد. حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته، فأبى أن يسجد له، فحمله الحسد على المعصية. وحكى أن عون بن عبد الله، دخل على الفضل بن المهلب، وكان يومئذ على واسط. فقال إني أريد أن أعظك بشيء. فقال وما هو؟ قال إياك والكبر، فإنه أول ذنب عصى الله به، ثم قرأ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

---

(١) حديث أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون: ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد ان مما أخاف عليكم من بعدي مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ولهما من حديث عمرو بن عوف البدري والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا الحديث ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو إذا فتحت عليكم فارس والروم الحديث وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث ولأحمد والبزار من حديث عمر لاتفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة

(٢) حديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود: ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف

(٣) حديث إن لنعم الله أعداء قيل ومن أولئك قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله: الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إن لأهل النعم حسادا فاحذروهم

(٤) حديث ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة قيل يارسول الله ومن هم قال الامراء بالجور ـ الحديث: وفيه والعلماء بالحسد أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ [١]) الآية . وإياك والحرص ، فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض، يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها ، فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ (اهْبِطُوا مِنْهَا [٢]) إلى آخر الآية . وإياك والحسد ، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ، ثم قرأ (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ [٣]) الآيات . وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك . وإذا ذكر القدر فاسكت . وإذا ذكرت النجوم فاسكت.

وقال بكر بن عبد الله . كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك : فيقول أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسيء سيكفيكه إساءته . فحسده رجل على ذلك المقام والكلام ، فسعى به إلى الملك ، فقال إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول مايقول ، زعم أن الملك أبخر . فقال له الملك ،وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر . فقال له انصرف حتى أنظر. فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله ، فأطعمه طعاما فيه ثوم . فخرج الرجل من عنده ، وقام بحذاء الملك على عادته . فقال أحسن إلى المحسن بإحسانه ،فإن المسيء سيكفيكه إساءته. فقال له الملك ادن مني. فدنا منه ، فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم. فقال الملك في نفسه،ما أرى فلانا إلا قد صدق . قال وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة . فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله ، إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه ،واسلخه، واحش جلده تبنا، وابعث به إليّ ،فأخذ الكتاب وخرج ، فلقيه الرجل الذي سعى به ، فقال ماهذا الكتاب ؟ قال خط الملك لي بصلة . فقال هبه لي . فقال هو لك . فأخذه ومضى به إلى العامل ، فقال العامل ، في كتابك أن أذبحك وأسلخك. قال إن الكتاب ليس هو لي، فالله الله في أمري حتى تراجع الملك. فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه ، وسلخه ، وحشا جلده تبنا ،وبعث به . ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ،وقال مثل قوله فعجب الملك ، وقال مافعل الكتاب؟فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له. قال الملك، إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر. قال ماقلت ذلك. قال فلم وضعت يدك على فيك قال لأنه أطعمني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه. قال صدقت ارجع إلى مكانك،فقد كفى المسيء إساءته

---

(١) البقرة : ٣٤ (٢) البقرة: ٣٨ (٣) المائدة : ٢٧

وقال ابن سيرين رحمه الله . ماحسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة ؟ وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ! وقال رجل للحسن ، هل يحسد المؤمن ؟ قال ما أنساك بني يعقوب ، نعم ، ولكن غمه في صدرك ، فإنه لا يضرك مالم تعد به يدا ولا لسانا ، وقال أبو الدرداء ، ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه ، وقل حسده ، وقال معاوية ، كل الناس أقدر على رضاه ، إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها ، ولذلك قيل

كل العداوات قد ترجى إماتتها * إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ ، وحسد الحسود ما يلقى . وقال أعرابي : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه . وقال الحسن يا ابن آدم ، لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه ، فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك ، فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم ، الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا . ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا . ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما . ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا . ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا

بيان

حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة . فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة ، فلك فيها حالتان

إحداهما : أن تكره تلك النعمة ، وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حده كراهة النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ، ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة . وقد تختص باسم المنافسة . وقد تسمى المنافسة حسدا ، والحسد منافسة ، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني . وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَالْمُنَافِقَ يَحْسُدُ »

فأما الأول: فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها على تهييج الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها، ومحبتك لزوالها فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد. ولو أمنت فساده، لم يغمك بنعمته. ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم، من غير أن يكون لك منه مضرة، وإلى هذا أشار القرآن بقوله (﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[١]) وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان.

وقال تعالى (﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾[٢]) فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد. وقال عز وجل (﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[٣]) وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام، وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى (﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[٤]) فلما كرهوا حب أبيهم له، وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه، فغيبوه عنه. وقال تعالى (﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾[٥]) أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون. فأثنى عليهم بعدم الحسد

وقال تعالى في معرض الإنكار (﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٦]) وقال تعالى (﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[٧]) إلى قوله (﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[٨]) قيل في التفسير حسدا، وقال تعالى (﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[٩]) فأنزل الله العلم ليجمعهم، ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم

---

(١) حديث المؤمن يغبط والمنافق يحسد: لم أجد له أصلا مرفوعا وإنما هو من قول الفضيل بن عياض كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد

---

(١) آل عمران: ١٢٠ (٢) البقرة: ١٠٩ (٣) النساء: ٨٩ (٤) يوسف: ٨ (٥) الحشر: ٩ (٦) النساء: ٥٤
(٧) و (٨) البقرة: ٢١٣ (٩) الشورى: ١٤

أن يتألفوا بالعلم ، فتحاسدوا واختلفوا ، إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة ، وقبول القول ، فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس [1] كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا قاتلوا قوما ، قالوا نسألك بالنبي الذى وعدتنا أن ترسله ، و بالكتاب الذى تنزله ، إلا مانصرتنا . فكانوا ينصرون . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسماعيل عليه السلام عرفوه ، و كفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ [1]) إلى قوله (أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا [2]) أى حسدا . وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم ، [2] جاء أبى وعمى من عندك يوما ، فقال أبى لعمى ماتقول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذى بشر به موسى قال فما ترى ؟ قال أرى معاداته أيام الحياة . فهذا حكم الحسد فى التحريم

وأما المنافسة ، فليست بحرام . بل هى إما واجبة ، وإما مندوبة ، وإما مباحة . وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة ، والمنافسة بدل الحسد . قال قثم بن العباس ، [3] لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة ، قالا لعلي

(بيان حقيقة الحسد وحكمه)

(١) حديث ابن عباس قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذى وعدتنا أن ترسله ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا: ابن اسحاق فى السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره بنحوه وهو منقطع

(٢) حديث قالت صفية بنت حيى للنبى صلى الله عليه وسلم جاء أبى وعمى من عندك يوما فقال أبى لعمى ما تقول فيه قال أقول انه النبى الذى بشر به موسى ـ الحديث : ابن اسحاق فى السيرة قال حدثنى أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضا

(٣) حديث قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلى ـ الحديث : هكذا وقع للمصنف انه قثم والفضل وانما هو الفضل والمطلب بن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال اجتمع ربيعة ابن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لى وللفضل بن عباس ائتيا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه فذكر ـ الحديث

---

(١) البقرة : ٨٩ (٢) البقرة : ٩٠

حين قال لهما لا تذهبا إليه ، فإنه لا يؤمر كما عليها ، فقالا له ماهـذا منك إلا نفاسة . والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك ، أي هذا منك حسد ، وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة ، والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة . والذي يدل على إباحة المنافسة ، قوله تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [1]) وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ [2]) وإنما المسابقة عند خوف الفوت ، وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ، إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه ، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها . فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال [1] « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ » ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال [2] « مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةٍ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً وَعِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَيَقُولُ رَبِّ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً مِثْلَ مَالِ فُلاَنٍ لَكُنْتُ أَعْمَلُ فِيهِ بِمِثْلِ عَمَلِهِ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ » وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله ، فيعمل مثل ما يعمل ، من غير حب زوال النعمة عنه قال « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي مَعَاصِي اللهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَيَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَالِ فُلاَنٍ لَكُنْتُ أُنْفِقُهُ فِي مِثْلِ مَا أَنْفَقَهُ فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ » فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله

فإذاً لا حرج على من يغبط غيره في نعمة ، ويشتهي لنفسه مثلها ، مهما لم يحب زوالها عنه ، ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة ، كالإيمان والصلاة ، والزكاة ، فهذه المنافسة واجبة . وهو أن يحب أن يكون مثله ، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية ، وذلك حرام . وإن كانت النعمة من الفضائل ، كإنفاق

---

(١) حديث لا حسد إلا في اثنتين ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم في العلم

(٢) حديث أبي كبشة مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا ـ الحديث : رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح

(١) المطففين : ٢٦ (٢) الحديد : ١٢

الأموال في المكارم والصدقات ، فالمنافسة فيها مندوب إليها . وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح ، فالمنافسة فيها مباحة . وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته ، واللحوق به في النعمة ، وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المنعم عليه ، والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه . وهو يكره أحد الوجهين ، وهو تخلف نفسه ، ويحب مساواته له . ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات نعم ذلك ينقص من الفضائل ، ويناقض الزهد ، والتوكل ، والرضا ، ويحجب عن المقامات الرفيعة ، ولكنه لا يوجب العصيان

وههنا دقيقة غامضة ، وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة ، وهو يكره تخلفه ونقصانه ، فلا محالة يحب زوال النقصان وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فإذا انسد أحد الطريقين ، فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود ، كان ذلك أشفى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره . وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه . فإن كان بحيث لو ألقي الأمر إليه ، ورد إلى اختياره ، لسعى في إزالة النعمة عنه ، فهو حسود حسدا مذموما . وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعفى عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده ، مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه : ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « ثَلَاثٌ لَا يَنْفَكُّ الْمُؤْمِنُ عَنْهُنَّ الْحَسَدُ وَالظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ » ثم قال « وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ إِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ » أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به . وبعيد أن يكون الإنسان مريد اللحاق بأخيه في النعمة ، فيعجز عنها ، ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة . إذ يجد لا محالة ترجيحا له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام ، فينبغي أن يحتاط فيه ، فإنه موضع الخطر . وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوي الإيمان ، رزين التقوى ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره ، جره ذلك إلى الحسد المذموم

---

(١) حديث ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة ـ الحديث : تقدم غيره مرة

وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى ينزل هو إلى مساواته ، إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لا رخصة فيه أصلا ، بل هو حرام ، سواء كان فى مقاصد الدين ، أو مقاصد الدنيا ، ولكن يعفى عنه فى ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه حقيقة الحسد وأحكامه، وأما مراتبه فأربع

الأولى : أن يحب زوال النعمة عنه : وإن كان ذلك لا ينتقل إليه . وهذا غاية الخبث

الثانية : أن يحب زوال النعمة إليه ، لرغبته فى تلك النعمة ، مثل رغبته فى دار حسنة ، أو امرأة جميلة ، أو ولاية نافذة ، أو سعة نالها غيره ، وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها

الثالثة : أن يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها . فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما

الرابعة . أن يشتهى لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه . وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا . والمندوب إليه إن كان فى الدين . والثالثة فيها مذموم وغير مذموم . والثانية أخف من الثالثة والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة الثانية حسدا فيه تجوز وتوسع ، ولكنه مذموم لقوله تعالى (وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ (١)) فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم

بيان

أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة ، فسببها حب ما فيه المنافسة . فإن كان ذلك أمرا دينيا ، فسببه حب الله تعالى وحب طاعته . وإن كان دنيويا ، فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها . وإنما نظرنا الآن فى الحسد المذموم ، ومداخله كثيرة جدا ؛ ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب ، العداوة ، والتعزز ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها . فإنه إنما يكره النعمة على غيره ، إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير

(١) النساء : ٣٢

وهذا لايختص بالأمثال ، بل يحسد الخسيس الملك ، بمعنى أنه يحب زوال نعمته ، لكونه مبغضاله بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه ، وهو لايطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتعزز

واما أن يكون فى طبعه أن يتكبر على المحسود ، ويمتنع ذلك عليه لنعمته. وهو المراد بالتكبر

وإما أن تكون النعمة عظيمة ، والمنصب عظيما ، فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة ، وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته ، بأن يتوصل بها إلى مزاحمته فى أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التى تنبنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لايكون بسبب من هذه الأسباب ، بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ، ولابد من شرح هذه الأسباب

السبب الأول : العداوة والبغضاء . وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب ، وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه ، وغضب عليه ، ورسخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشفى والانتقام . فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان . وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى : فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها ، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه ، وأنها لأجله . ومهما أصابته نعمة ، ساءه ذلك ؛ لأنه ضد مراده . وربما يخطر له أنه لامنزلة له عند الله ؛ حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه ، بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما . وإنما غاية التقى أن لا يبغى ، وأن يكره ذلك من نفسه . فأما أن يبغض إنسانا ثم يستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن . وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة ، إذ قال تعالى (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ[1]) الآية . وكذلك قال تعالى (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ[2]) . والحسد بسبب البغض ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل ، واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحيل ، والسعاية ، وهتك الستر ، وما يجرى مجراه

(١) آل عمران : ١١٩ ، ١٢٠ (٢) آل عمران : ١١٨

السبب الثانى : التعزز . وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية ، أو علما ، أو مالا ، خاف أن يتكبر عليه ، وهو لا يطيق تكبره ، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر ، بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضى بمساواته مثلا ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه

السبب الثالث : الكبر . وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ، ويستصغره ويستخدمه ، ويتوقع منه الانقياد له ، والمتابعة فى أغراضه . فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ، ويترفع عن متابعته ، أو ربما يتشوف إلى مساواته ، أو إلى أن يرتفع عليه ، فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم ! وكيف نطأطىء رءوسنا[(١)] فقالوا (لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[(١)]) أى كان لا يثقل علينا أن يتواضع له ، ونتبعه إذا كان عظيما . وقال تعالى يصف قول قريش (أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا[(٢)]) كالاستحقار لهم والأنفة منهم

السبب الرابع : التعجب . كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة ، إذ قالوا (مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا[(٣)]) وقالوا (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا[(٤)]) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ[(٥)]) فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة ، والوحى ، والقرب من الله تعالى ، بشر مثلهم . فحسدوهم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم ، جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم فى الخلقة ، لا عن قصد تكبر ، وطلب رياسة ، وتقدم عداوة ، أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين (أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً[(٦)]) وقالوا (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ[(٧)])

(بيان أسباب الحسد والمنافسة)

(١) حديث سبب نزول قوله تعالى لولا نزل هذا القرمان على رجل من القريتين عظيم : ذكره ابن اسحاق فى السيرة وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين فأنزل الله فيما بلغنى هذه الآية ورواه أبو محمد بن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسيريهما من حديث ابن عباس الا أنهما قالا مسعود بن عمرو وفى رواية لابن مردويه حبيب بن عمير الثقفي وهو ضعيف

(١) الزخرف : ٣١ (٢) الانعام : ٥٣ (٣) يس : ١٥ (٤) المؤمنون : ٤٧ (٥) المؤمنون : ٣٤ (٦) الاسراء : ٩٤ (٧) الفرقان : ٢١

وقال تعالى (أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ[1]) الآية

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد . وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد . فإن كل واحد يحسد صاحبه فى كل نعمة تكون عونا له فى الانفراد بمقصوده . ومن هذا الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الأخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الأبوين ، للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال . وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه ، للتوصل به إلى المال والجاه . وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة ، إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم . وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة ، وطلب الجاه لنفسه ، من غير توصل به إلى مقصود وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر فى فنه ، وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظير له فى أقصى العالم لساءه ذلك ، وأحب موته ، أو زوال النعمة عنه ، التى بها يشاركه فى المنزلة ، من شجاعة ، أو علم ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو جمال ، أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ، ويفرح بسبب تفرده . وليس السبب فى هذا عداوة ، ولا تعززا ، ولا تكبرا على المحسود ، ولا خوفا من فوات مقصود ، سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس ، للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به ، خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم ، مهما نسخ علمهم

السبب السابع : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ، وتكبر ، ولا طلب مال ، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى ، فما

---

(1) الأعراف : ٦٣

أنعم الله به عليه ، يشق ذلك عليه . وإذا وصف له اضطراب أمور الناس ،وإدبارهم ، وفوات مقاصدهم ، وتنغص عيشهم ، فرح به . فهو أبدا يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته . ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره . فهذا يبخل بنعمة الله تعالى ، على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة . وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ، ورذالة فى الطبع ، عليه وقعت الجبلة ، ومعالجته شديدة . لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب ، أسبابه عارضة يتصور زوالها ، فيطمع فى إزالتها . وهذا أخبث فى الجبلة ، لا عن سبب عارض فتعسر إزالته ، إذ يستحيل فى العادة إزالته . فهذه هى أسباب الحسد ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب ، أو أكثرها ، أو جميعها فى شخص واحد ،فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينهتك حجاب المجاملة ، وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب . وقلما يتجرد سبب واحد منها .

بيان

السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والأخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ، ولأنه يتكبر ، ولأنه عدو ، ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط ، يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ، ويتواردون على الأغراض : فإذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الأغراض ، نفر طبعه عنه ، وأبغضه ، وثبت الحقد فى قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ، ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التى توصله إلى أغراضه ، وتترادف جملة من هذه الأسباب . إذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين ، فلا يكون بينهما

محاسدة . وكذلك فى محلتين . نعم إذا تجاوروا فى مسكن ، أوسوق ، أو مدرسة ، أومسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما ، فيثور من التناقض التنافر والتباغض ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد . ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ،والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز ، لا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة .

ويحسد الرجل أخاه وابن عمه ، أكثر مما يحسد الأجانب . والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها ، أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته : لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف ، فلا يتزاحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ، ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر . إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز . ثم مزاحمة البزاز المجاور له ، أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق. فلاجرم يكون حسده للجار أكثر

وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم ، لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ، وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم العالم ، ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص

فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه ، وأحب الصيت فى جميع أطراف العالم عما هو فيه ، فإنه يحسد كل من هو فى العالم ، وإن بعد ، ممن يساهمه فى الخصلة التى يتفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين. أما الآخرة فلا ضيق فيها. وإنما مثال الآخرة نعمة العلم ، فلاجرم من يحب معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته ، وملائكته ، وأنبيائه ، وملكوت سمواته وأرضه ، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا ، لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين ، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته ، ويلتذ به ، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس ، وثمرة الاستفادة والإفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى ، وهو بحر واسع

لاضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضا فيما عند الله تعالى ، لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه ، وليس فيها ممانعة ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأنس بكثرتهم

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال ، والجاه ، تحاسدوا ، لأن المال أعيان وأجسام ، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر . ومعنى الجاه ملك القلوب . ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم ، انصرف عن تعظيم الآخر ، أو نقص عنه لامحالة ، فيكون ذلك سببا للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى ؛ لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره بها ، وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال ، أن المال لا يحل في يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى . والعلم في قلب العالم مستقر ، ويحل في قلب غيره بتعليمه ، من غير أن يرتحل من قلبه . والمال أجسام وأعيان ، ولها نهاية : فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض ، لم يبق بعده مال يتملكه غيره . والعلم لانهاية له ولا يتصور استيعابه . فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسمائه ، صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ، ولم يكن ممنوعا منه ، ولا مزاحما فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام ، أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة . فإن نعيم العارف وجنته معرفته ، التي هي صفة ذاته ، يأمن زوالها ، وهو أبدا يجني ثمارها . فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه ، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل قطوفها دانية . فهو وإن غمض العين الظاهرة ، فروحه أبدا ترتع في جنة عالية ، ورياض زاهرة . فإن فرض كثرة في العارفين ، لم يكونوا متحاسدين ، بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [1]) فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا . فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ، ومشاهدة المحبوب في العقبى ! فإذاً لايتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة ؛ لأن الجنة لامضايقة فيها ، ولا مزاحمة ، ولاتنال إلا بمعرفة الله تعالى ، التي لامزاحمة فيها في الدنيا أيضا . فأهل الجنة بالضرورة برآء

(١) الحجر : ٤٧

من الحسد فى الدنيا والآخرة جميعا . بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين ، إلى مضيق سجين . ولذلك وسم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ماخص به من الاجتباء ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى ، وتمرد وعصى

فقد عرفت أنه لاحسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ، ولهذا لاترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ، ويتحاسدون على رؤية البساتين ، التى هى جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لاوزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار ، فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا

فعليك إن كنت بصيرا ، وعلى نفسك مشفقا ، أن تطلب نعمة لازحمة فيها ، ولذة لا كدر لها ، ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله عز وجل ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك فى الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضا . فإن كنت لاتشتاق إلى معرفة الله تعالى ، ولم تجد لذتها ، وفتر عنك رأيك ، وضعفت فيها رغبتك فأنت فى ذلك معذور ، إذ العنين لايشتاق إلى لذة الوقاع ، والصبي لايشتاق إلى لذة الملك فإن هـذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين . فكذلك لذة المعرفة ، يختص بإدراكها الرجال (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ [١]) ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ [٢])

بيان

الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد ، هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين ،

(١) النور : ٣٧ (٢) الزخرف : ٣٦

وأنه لاضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما؛ ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك، فارقت الحسد لامحالة.

أما كونه ضررا عليك في الدين. فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية على حدقة التوحيد، وقذى فى عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين: وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه فى حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار فى محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم. وهذه خبائث فى القلب، تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وتمحوها كما يمحو الليل النهار

وأما كونه ضررا عليك فى الدنيا، فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا، أو تتعذب به ولا تزال فى كمد وغم، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموما، محروما، متشعب القلب، ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك، وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت فى الحال محنتك وغمك نقدا، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب، لكان مقتضى الفطنة. إن كنت عاقلا، أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته، مع عدم النفع. فكيف وأنت عالم بما فى الحسد من العذاب الشديد فى الآخرة! فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله، بل مع ضرر يحتمله، وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة

وأما أنه لا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح. لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة، فلابد أن يدوم إلى أجل معلوم، قدره الله سبحانه، فلا حيلة فى دفعه. بل كل شيء عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب. ولذلك شكا نبيّ من الأنبياء، من امرأة ظالمة مستولية على الخلق، فأوحى الله إليه فر من قدامها، حتى تنقضى أيامها. أي ما قدرناه في الأزل لاسبيل إلى تغييره، فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء

بدوام إقبالها فيها . ومهما لم تزل النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا . ولا يكون عليه إثم فى الآخرة . ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل ، فإنه بلاء تشتهيه أولا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد ، لم يبق لله تعالى عليك نعمة ، ولا على أحد من الخلق ، ولا نعمة الإيمان أيضا ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ[1]) إذ ما يريده الحسود لا يكون . نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره ، فإن إرادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد ، فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار ، وكذا سائر النعم .

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك ، فهذا غاية الجهل والغباوة . فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضا ، يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ، ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك فى أن لم تزل النعمة بالحسد ، مما يجب عليك شكرها ، وأنت بجهلك تكرهها

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا ، فواضح . أما منفعته فى الدين ، فهو أنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل ، بالغيبة ، والقدح فيه ، وهتك ستره ، وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهديها إليه : أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك ، حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا ، محروما عن النعمة ، كما حرمت فى الدنيا عن النعمة . فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة ، إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه ، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة ، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعته فى الدنيا ، فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء ، وغمهم ، وشقاوتهم ، وكونهم معذبين ، مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد . وغاية أمانى أعدائك ، أن يكونوا فى نعمة ، وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم . وقد فعلت بنفسك

---

(1) البقرة : ١٠٩

ماهو مرادهم . ولذلك لايشتهى عدوك موتك ، بل يشتهى أن تطول حياتك ، ولكن في عذاب الحسد ، لتنظر إلى نعمة الله عليه ، فينقطع قلبك حسداً . ولذلك قيل

لا مات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذى يكمد

لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك ، أعظم من فرحه بنعمته . ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه ، لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده. فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد، إلا كما يشتهيه عدوك

فإذا تأملت هذا ، عرفت أنك عدوّ نفسك ، وصديق عدوك ، إذ تعاطيت ماتضررت به فى الدنيا والآخرة ، وانتفع به عدوك فى الدنيا والآخرة ، وصرت مذموما عند الخالق والخلائق ، شقيا فى الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة ، شئت أم أبيت باقية . .

ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك ، حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على ابليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم ، والورع ، والجاه ، والمال ، الذى اختص به عدوك عنك ، خاف أن تحب ذلك له ، فتشاركه فى الثواب بسبب المحبة ، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا فى الخير ، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر فى الدين لم يفته ثواب الحب لهم ، مهما أحب ذلك . فخاف ابليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه ، فتفوز بثواب الحب ، فبغضه إليك ، حتى لا تلحقه بحبك ، كما لم تلحقه بعملك . وقد قال أعرابى للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله (١) الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقام أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقال (٢) يارسول الله ، متى الساعة ؟ فقال « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ » قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس ، فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس ، فنحن نحب رسول الله ، وأبا بكر ، وعمر ، ولا نعمل مثل عملهم ، ونرجو أن نكون معهم

---

(١) حديث الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال هو مع من أحب: متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث سؤال الاعرابى متى الساعة فقال ما أعددت لها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس

وقال أبو موسى ،[١] قلت يارسول الله ، الرجل يحب المصلين ولا يصلى ، ويحب الصوام ولا يصوم حتى عد أشياء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « هُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال رجل لعمر بن عبد العزيز ، إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما فإن لم تستطع أن تكون عالماً فكن متعلما ، فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم فإن لم تستطع فلا تبغضهم . فقال سبحان الله ، لقد جعل الله لنا مخرجا

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ، ففوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك ، وحملك على الكراهة ، حتى أثمت . وكيف لا ، وعساك تحاسد رجلا من أهل العلم ، وتحب أن يخطىء فى دين الله تعالى ، وينكشف خطؤه ليفتضح ، وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم ، أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم ، وأى إثم يزيد على ذلك ! فليتك إذفاتك اللحاق به ، ثم اغتممت بسببه ، سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء فى الحديث[٢] « أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ الْمُحْسِنُ وَالْمُحِبُّ لَهُ وَالْكَافُّ عَنْهُ » أى من يكف عنه الأذى ، والحسد ، والبغض ، والكراهة . فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة ، حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك فى عدوك ، بل على نفسك :

بل لو كوشفت بحالك فى يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد فى صورة من يرمى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله ، فلا يصيبه ، بل يرجع إلى حدقته اليمنى ، فيقلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ثانية ، فيرمى أشد من الأولى ، فيرجع إلى عينه الأخرى ، فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيعود ثالثة ، فيعود على رأسه فيشجه ، وعدوه سالم فى كل حال ، وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداؤه حوله يفرحون به ، ويضحكون عليه . وهذا حال الحسود ؛ وسخرية الشيطان منه

---

(١) حديث أبى موسى قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلى ــ الحديث : وفيه هو مع من أحب متفق عليه من حديث بلفظ آخر مختصرا الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال المرء مع من أحب

(٢) حديث أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحب له والكاف عنه : لم أجد له أصلا.

بل حالك فى الحسد أقبح من هذا ، لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين ، ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة ، والحسد يعود بالإثم ،والإثم لا يفوت بالموت،ولعله يسوقه إلى غضب الله،وإلى النار.فلأن تذهب عينه فى الدنيا،خيرله من أن تبقى له عين يدخل بها النار،فيقلعها لهيب النار

فانظر كيف انتقم الله من الحاسد ، إذ أراد زوال النعمة عن المحسود ، فلم يزلها عنه ، ثم أزالها عن الحاسد ، إذ السلامة من الإثم نعمة ، والسلامة من الغم والكمد نعمة ، وقد زالتا عنه ، تصديقا لقوله تعالى (وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ[1]) وربما يبتلى بعين مايشتهيه لعدوه ، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها ، ماتمنيت لعثمان شيئا إلا نزل بى ، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت

فهذا إثم الحسد نفسه ، فكيف مايجر إليه الحسد من الاختلاف، وجحود الحق ،وإطلاق اللسان واليد بالفواحش فى التشفى من الأعداء ، وهو الداء الذى فيه هلك الأمم السالفة

فهذه هى الأدوية العلمية ، فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف ، وقلب حاضر ،انطفأت نار الحسد من قلبه ، وعلم أنه مهلك نفسه ، ومفرح عدوه ، ومسخط ربه ، ومنغص عيشه

وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يحكم الحسد ، فكل مايتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه . فإن بعثه الحسد على القدح فى محسوده ، كلف لسانه المدح له ، والثناء عليه . وإن حمله على التكبر عليه ، ألزم نفسه التواضع له ، والاعتذار إليه . وإن بعثه على كف الإنعام عليه ، ألزم نفسه الزيادة فى الإنعام عليه . فمهما فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود ، طاب قلبه وأحبه . ومهما ظهر حبه ، عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع ، والثناء ، والمدح ، وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه . ويسترقه ، ويستعطفه ، ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان . ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول ، فيطيب قلبه ، ويصير ماتكلفه أولا طبعا آخرا. ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له، لو تواضعت وأثنيت عليه ، حملك العدو على العجز ،أو على النفاق أو الخوف ، وأن ذلك مذلة ومهانة . وذلك من خدع الشيطان ومكايده . بل المجاملة تكلفا كانت أو طبعا ، تكسر سورة العداوة من الجانبين ، وتقل مرغوبها ، وتعود القلوب

---

(١) فاطر : ٤٣

التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد ، وغم التباغض

فهذه هي أدوية الحسد ، وهي نافعة جدا ، إلا أنها مُرة على القلوب جدا. ولكن النفع في الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء ، لم ينل حلاوة الشفاء . وإنما تهون مرارة هذا الدواء ، أعني التواضع للأعداء ، والتقرب إليهم بالمدح والثناء ، بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها ، وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى ، وحب ما أحبه ، وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل . وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد . وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين ، إما بأن يكون ما تريد ، أو بأن تريد ما يكون . والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي .

فأما الدواء المفصل ، فهو تتبع أسباب الحسد ، من الكبر وغيره ، وعزة النفس ، وشدة الحرص على ما لا يغني . وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى فإنها مواد هذا المرض ، ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة . فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ، ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده . فإنه ما دام محبا للجاه ، فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه ، ويغمه ذلك لا محالة . وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ، ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلو عنه رأسا فلا يمكنه ، والله الموفق

بيان

القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبا . فإذا تيسرت له نعمة ، فلا يمكنك أن لا تكرهها له ، حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له . ولكن إن قوي ذلك فيك ، حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل ، بحيث يعرف ذلك

من ظاهرك بأفعالك الاختيارية ، فأنت حسود عاص بحسدك . وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة ، وليس فى نفسك كراهة لهذه الحالة ، فأنت أيضا حسود عاص . لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل. قال الله تعالى(وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا [1]) وقال عز وجل(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً [2]) وقال (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ [3]) . أما الفعل ، فهو غيبة وكذب ، وهو عمل صادر عن الحسد ، وليس هو عين الحسد . بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها ، بل هو معصية بينك وبين الله تعالى، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح .

فأما إذا كففت ظاهرك ، وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع ، من حب زوال النعمة ، حتى كأنك تمقت نفسك على ما فى طبعها ، فتكون تلك الكراهة من جهة العقل ، فى مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أديت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الأحوال أكثر من هذا

فأما تغيير الطبع ، ليستوى عنده المؤذى والمحسن ، ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة ، أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ، مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى ، مثل السكران الواله. فقد ينتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة ، وهى عين الرحمة . ويرى الكل عباد الله ، وأفعالهم أفعالا لله ، ويراهم مسخرين . وذلك إن كان ، فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ، ويعود العدو إلى منازعته ، أعنى الشيطان ، فإنه ينازع بالوسوسة . فمهما قابل ذلك بكراهته ، وألزم قلبه هذه الحالة ، فقد أدى ما كلفه .

وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه ، لما روى عن الحسن ، أنه سئل عن الحسد فقال ، غمه فإنه لا يضرك مالم تبده . وروى عنه موقوفا

(١) الحشر : ٩ (٢) النساء : ٨٩ (٣) آل عمران : ١٢٠

ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثَلَاثَةٌ لَا يَخْلُو مِنْهُنَّ الْمُؤْمِنُ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ » فمخرجه من الحسد أن لا يبغى .

والأولى أن يحمل هذا على ماذكرناه ، من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل ، فى مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو . وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع ماورد من الأخبار فى ذم الحسد ، يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم . ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذا كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو فى محل الاجتهاد . والاظهر ماذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ، ومن حيث المعنى . إذ يبعد أن يعفى عن العبد فى إرادته إساءة مسلم ، واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة . وقد عرفت من هذا أن لك فى أعدائك ثلاثة أحوال

أحدها : أن تحب مساءتهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك ، وميل قلبك إليه بعقلك ، وتمقت نفسك عليه ، وتود لو كانت لك حيلة فى إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه قطعا ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه

الثانى : أن تحب ذلك ، وتظهر الفرح بمساءته ، إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحظور قطعا

الثالث : وهو بين الطرفين ، أن تحسد بالقلب ، من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد فى مقتضاه ، وهذا فى محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلو عن إثم ، بقدر قوة ذلك الحب وضعفه ، والله تعالى أعلم

والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

كتاب ذمّ الدنيا

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عرّف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها ، حتى نظروا فى شواهدها وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيآتها ، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ، ولا يفى مرجوها بمخوفها ، ولا يسلم طلوعها من كسوفها . ولكنها فى صورة امرأة مليحة ، تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين فى وصالها . ثم هي فرارة عن طلابها ، شحيحة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها . إن أحسنت ساعة ، أساءت سنة . وإن أساءت مرة ، جعلتها سنة . فدوائر إقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيها خاسرة بائرة ، وآفاتها على التوالى لصدور طلابها راشقة ، ومجارى أحوالها بذل طالبيها ناطقة فكل مغرور بها إلى الذل مصيره ، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره . شأنها الهرب من طالبها ، والطلب لهاربها . ومن خدمها فاتته ، ومن أعرض عنها واتته لايخلو صفوها عن شوائب الكدورات ، ولا ينفك سرورها عن المنغصات سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لايثمر إلاّ الحسرة والندم . فهى خداعة مكارة طيارة فرارة ، لاتزال تتزين لطلابها ، حتى إذا صاروا من أحبابها ، كشرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها ، وكشفت لهم عن مكنون عجابها ، فأذاقتهم قواتل سمامها ورشقتهم بصوائب سهامها ، بينما أصحابها منها فى سرور وإنعام ، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ، ووارتهم فى أكفانهم تحت الصعيد . إن ملكت واحدا منهم جميع ماطلعت عليه الشمس ، جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس . تمنى أصحابها سرورا ، وتعدهم غرورا ، حتى يأملون كثيرا ، ويبنون قصورا ، فتصبح قصورهم قبورا ،

وجمعهم بورا ، وسعيهم هباء منثورا ، ودعائهم ثبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا والصلاة على محمد عبده ورسوله ، المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا ، وسراجا منيرا ، وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا . وعلى الظالمين نصيرا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله ، وعدوة لأولياء الله ، وعدوة لأعداء الله

أما عداوتها لله ، فإنها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها

وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل ، فإنها تزينت لهم بزينتها ، وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها

وأما عداوتها لأعداء الله ، فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها ، فاقتنصتهم بشبكتها ، حتى وثقوا بها ، وعولوا عليها ، فخزلتهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد ، فهم على فراقها يتحسرون ، ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون ، بل يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[1])

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها ، فلابد أولا من معرفة حقيقة الدنيا ، وما هي ، وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ، وما مدخل غرورها وشرورها ، فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم الدنيا ، وأمثلتها وحقيقتها ، وتفصيل معانيها وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى ، وهو المعين على ما يرتضيه

بيان

ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرءان مشتمل على ذم الدنيا ، وصرف الخلق عنها ، ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرءان لظهورها ، وإنما نورد بعض الاخبار الواردة فيها

---

(١) البقرة : ٨٦ .

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] مر على شاة ميتة ، فقال « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الشَّاةَ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ » قالوا من هوانها ألقوها : قال « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ عَلَى أَهْلِهَا وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَاسَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَافِيهَا إِلاَّ مَاكَانَ للهِ مِنْهَا » وقال أبو موسى الأشعرى [٤] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »

[٦] وقال زيد بن أرقم ، كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فدعا بشراب ، فأتى بماء وعسل . فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، وسكتوا وما سكت . ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته . قال ثم مسح عينيه ، فقالوا ياخليفة رسول الله ماأبكاك ؟ قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا . فقلت يارسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال « هَذِهِ الدُّنْيَا مُثِّلَتْ لِى فَقُلْتُ

﴿كتاب ذم الدنيا﴾

(١) حديث مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على صاحبها ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذى وقال حسن صحيح ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر

(٢) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون مافيها : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وزاد الاذكر الله وماوالاه وعالم ومتعلم

(٤) حديث أبى موسى الأشعرى من أحب دنياه أضر بآخرته ـ الحديث : أحمد والبزار والطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه

(٥) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة : ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى شعب الايمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا

(٦) حديث زيد بن أرقم كنا مع أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى ـ الحديث : وفيه كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ـ الحديث : البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصحح اسناده وابن أبى الدنيا والبيهقى من طريقه بلفظه

لَهَا إِلَيْكِ عَنِّي ثُمَّ رَجَعَتْ فَقَالَتْ إِنَّكَ إِنْ أَفْلَتَّ مِنِّي لَمْ يُفْلِتْ مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « يَاعَجَباً كُلَّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْغُرُورِ » وروى (٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة ، فقال « هَلُمُّوا إِلَى الدُّنْيَا » وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة ، وعظاما قد نخرت ، فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق ، وأن الأجسام التى ترى بها ستصير عظاما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا بُسِطَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَمُهِّدَتْ تَاهُوا فِي الْحِلْيَةِ وَالنِّسَاءِ وَالطِّيبِ وَالثِّيَابِ »

وقال عيسى عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا . اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : يامعشر الحواريين ، إنى قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدى . فإن من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لاتدرك إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا . وقال أيضا : بطحت لكم الدنيا ، وجلستم على ظهرها ، فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء . فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا ، فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم . وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضا : الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا ، حتى يستكمل فيها رزقه . وطالب الدنيا تطلبه الآخرة ، حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه

---

(١) حديث ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور : ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلا

(٢) حديث انه وقف على مزبلة فقال هلموا الى الدنيا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الايمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلا وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس

(٣) حديث ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ـ الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله ان بني اسرائيل الخ والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلا بالزيادة التي في آخره

وقال موسى بن يسار[(١)]. قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنَّهُ مُنْذُ خَلَقَهَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا » وروى أن سليمان ابن داود عليهما السلام ، مر في موكبه والطير تظله ، والجن والإنس عن يمينه وشماله ، قال فربعابد من بني اسرائيل ، فقال والله يابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال فسمع سليمان وقال ، لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فإن ما أعطى ابن داود يذهب ، والتسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم[(٢)] « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ » وقال صلى الله عليه وسلم[(٣)] « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لاَدَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لاَمَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَعَقْلَ لَهُ وَعَلَيْهَا يُعَادِي مَنْ لاَ عِلْمَ لَهُ وَعَلَيْهَا يَحْسُدُ مَنْ لاَ فِقْهَ لَهُ وَلَهَا يَسْعَى مَنْ لاَ يَقِينَ لَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم[(٤)] « مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ وَأَلْزَمَ اللهُ قَلْبَهُ أَرْبَعَ خِصَالٍ هَمًّا لاَ يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَبَدًا وَشُغْلاً لاَ يَتَفَرَّغُ مِنْهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لاَ يَبْلُغُ غِنَاهُ أَبَدًا وَأَمَلاً لاَ يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ أَبَداً » وقال أبو هريرة ،[(٥)] قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَاأَبَا هُرَيْرَةَ أَلاَ أُرِيكَ الدُّنْيَا جَمِيعَهَا بِمَا فِيهَا ؟ » فقلت بلى يارسول الله . فأخذ بيدي ، وأتى بي واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رءوس أناس ، وعذرات ، وخرق ، وعظام ، ثم قال « يَاأَبَا هُرَيْرَةَ هَذِهِ

---

(١) حديث موسى بن يسار ان الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وانه منذ خلقها لم ينظر اليها ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسلا

(٢) حديث ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي ــ الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن الشخير

(٣) حديث الدنيا دار من لادار له ــ الحديث : أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله ولها يجمع من لاعقل له دون بقيته وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه ومال من لامال له واسناده جيد

(٤) حديث من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال ــ الحديث : الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر دون قوله وألزم الله قلبه الخ وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس باسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بمافيها قلت بلى يارسول الله فأخذ بيدي وأتى بي واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة ــ الحديث : لم أجد له أصلا

الرُّؤُوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ كَحِرْصِكُمْ وَتَأْمُلُ كَأَمَلِكُمْ ثُمَّ هِيَ الْيَوْمَ عِظَامٌ بِلَا جِلْدٍ ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ رَمَادًا وَهَذِهِ الْعَذِرَاتُ هِيَ أَلْوَانُ أَطْعِمَتِهِمُ اكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اكْتَسَبُوهَا ثُمَّ قَذَفُوهَا فِي بُطُونِهِمْ فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامَوْنَهَا وَهَذِهِ الْخِرَقُ الْبَالِيَةُ كَانَتْ رِيَاشَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ فَأَصْبَحَتْ وَالرِّيَاحُ تُصَفِّقُهَا وَهَذِهِ الْعِظَامُ عِظَامُ دَوَابِّهِمُ الَّتِي كَانُوا يَنْتَجِعُونَ عَلَيْهَا أَطْرَافَ الْبِلَادِ فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا عَلَى الدُّنْيَا فَلْيَبْكِ » قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا

ويروى أن الله عزوجل ، لما أهبط آدم إلى الأرض ، قال له ابن للخراب ، ولد للفناء

وقال داود بن هلال ، مكتوب فى صحف إبراهيم عليه السلام ، يادنياما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إنى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك ، وما خلقت خلقا أهون علىّ منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير ، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ، ولا يدوم لك أحد ، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة . طوبى لهم ، مالهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلىّ من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم، والملائكة حافون بهم ، حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] «الدُّنْيَا مَوْقُوفَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَى لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا وَتَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَارَبِّ اجْعَلْنِي لِأَدْنَى أَوْلِيَائِكَ الْيَوْمَ نَصِيبًا فَيَقُولُ اسْكُتِي يَالَا شَيْءُ إِنِّي لَمْ أَرْضَكِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَأَرْضَاكِ لَهُمُ الْيَوْمَ » . وروى فى أخبار آدم عليه السلام ، أنه لما أكل من الشجرة ، تحركت معدته لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولا فى شيء من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة . فلذلك نهى عن أكلها . قال فجعل يدور فى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه ، فقال له قل له أى شيء تريد ؟ قال آدم ، أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى فقيل للملك قل له فى أى مكان تريد أن تضعه ؟ على الفرش ؟ أم على السرر ؟ أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ اهبط إلى الدنيا

---

(١) حديث الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر اليها ـ الحديث : تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلا ولم أجد باقيه

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « لَيَجِيئَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْمَالُهُمْ كَجِبَالِ تِهَامَةَ فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ » قالوا يارسول الله ، مصلين ؟ قال « نَعَمْ كَانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُذُونَ هَنَةً مِنَ اللَّيْلِ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَثَبُوا عَلَيْهِ »

وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه [(٢)] « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لاَ يَدْرِى مَااللهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لاَ يَدْرِى مَااللهُ قَاضٍ فِيهِ فَلْيَتَزَوَّدِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلآخِرَةِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلاَّ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ » .

وقال عيسى عليه السلام ، لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام ، قال لنوح عليه السلام ، ياأطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . وقيل لعيسى عليه السلام ، لو اتخذت بيتا يكنك ، قال يكفينا خلقان من كان قبلنا

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم [(٣)] « احْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ »

وعن الحسن قال [(٤)] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُذْهِبَ اللهُ عَنْهُ الْعَمَى وَيَجْعَلَهُ بَصِيراً أَلاَ إِنَّهُ مَنْ رَغِبَ فِى الدُّنْيَا وَطَالَ أَمَلُهُ فِيهَا أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ وَمَنْ زَهِدَ فِى الدُّنْيَا وَقَصَّرَ فِيهَا أَمَلَهُ أَعْطَاهُ اللهُ عِلْماً بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ أَلاَ إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ لاَ يَسْتَقِيمُ لَهُمْ

---

(١) حديث ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبى حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمى من حديث أنس وهو ضعيف أيضا

(٢) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى ـ الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع

(٣) حديث احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت : ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه من رواية أبى الدرداء الرهاوى مرسلا وقال البيهقى ان بعضهم قال عن أبى الدرداء عن رجل من الصحابة قال الذهبى لايدرى من أبو الدرداء قال وهذا منكر لاأصل له

(٤) حديث الحسن هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ـ الحديث : ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه هكذا مرسلا وفيه ابراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم

الْمُلْكُ إِلاَّ بِالْقَتْلِ وَالتَّجَبُّرِ وَلاَ الْغِنَى إِلاَّ بِالْفَخْرِ وَالْبُخْلِ وَلاَ الْمَحَبَّةُ إِلاَّ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى أَلاَ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ مِنْكُمْ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى وَصَبَرَ عَلَى الْبَغْضَاءِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ لاَ يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلاَّ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى أَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صِدِّيقاً » . وروى أن عيسى عليه السلام ، اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما ، فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه ، فوقعت عينه على خيمة من بعيد، فأتاها فإذا فيها امرأة ، فحاد عنها ، فإذا هو بكهف فى جبل ، فأتاه ، فإذا فيه أسد . فوضع يده عليه وقال ، إلهى جعلت لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لى مأوى . فأوحى الله تعالى إليه ، مأواك فى مستقر رحمتى ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ، ولأطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن مناديا ينادى أين الزهاد فى الدنيا زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى بن مريم . وقال عيسى بن مريم عليه السلام ، ويل لصاحب الدنيا ، كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتغره ويأمنها ، ويثق بها وتخذله . وويل للمغترين ، كيف أرتهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون . وويل لمن الدنيا همه ، والخطايا عمله ، كيف يفتضح غدا بذنبه . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، ياموسى ، مالك ولدار الظالمين ؛ إنها ليست لك بدار ، أخرج منها همك ، وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هى ، إلا لعامل يعمل فيها ، فنعمت الدار هى . ياموسى ، إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، بعث أبا عبيدة بن الجراح ، فجاءه بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، ثم قال « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ؟ » قالوا أجل يارسول الله . قال « فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا

---

(١) حديث بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبى عبيدة : متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدرى

كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » وقال أبو سعيد الخدرى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ » فقيل ما بركات الأرض ؟ قال « زَهْرَةُ الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَا تُشْغِلُوا قُلُوبَكُمْ بِذِكْرِ الدُّنْيَا » فنهى عن ذكرها ، فضلا عن إصابة عينها

وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية ، فإذا أهلها موتى فى الأفنية والطرق فقال يا معشر الحواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا . فقالوا يا روح الله ، وددنا أن لو علمنا خبرهم . فسأل الله تعالى ، فأوحى إليه ، إذا كان الليل فنادهم يجيبوك . فلما كان الليل ، أشرف على نشز ، ثم نادى يا أهل القرية ، فأجابه مجيب لبيك يا روح الله . فقال ما حالكم وما قصتكم ؟ قال بتنا فى عافية ، وأصبحنا فى الهاوية . قال وكيف ذاك ؟ قال بحبنا الدنيا ، وطاعتنا أهل المعاصى . قال وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها ، وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها . قال فما بال أصحابك لم يجيبونى ؟ قال لأنهم ملجمون بلجم من نار ، بأيدى ملائكة غلاظ شداد . قال فكيف أجبتني أنت من بينهم ؟ قال لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدرى أنجو منها أم أكبكب فيها . فقال المسيح للحواريين ، لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ، ولبس المسوح ، والنوم على المزابل ، كثير مع عافية الدنيا والآخرة

وقال أنس (٣) : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق . فجاء أعرابى بناقة له فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ » وقال عيسى عليه السلام ، من الذي يبنى على موج البحر دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا . وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه . قال ابغضوا الدنيا يحببكم الله تعالى .

---

(١) حديث أبى سعيد ان أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض ـ الحديث : متفق عليه

(٢) حديث لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا : البيهقى فى الشعب من طريق ابن أبى الدنيا من رواية محمد ابن النضر الحارثى مرسلا .

(٣) حديث أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق ـ الحديث : وفيه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا الا وضعه البخارى .

وقال أبو الدرداء (١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَهَانَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلَآثَرْتُمُ الآخِرَةَ » ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه ، لو تعلمون ما أعلم ، لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ، ولا راجع إليها إلا ما لابد لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل ، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته . مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ، ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم . مالكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ، ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته . ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم . لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا ، لآثرتم طلب الآخرة ، لأنها أملك لأموركم . فإن قلتم حب العاجلة غالب ، فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها ، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف ، في طلب أمر لعلكم لا تدركونه ، فبئس القوم أنتم ، ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فائتونا لنبين لكم ، ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم . والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم . إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم ، وتأخذون بالحزم في أموركم . مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه ، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب ، وتقيمون فيها المآتم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ، ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ، ولا يتغير حالكم . إني لأرى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره ، مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله . فاصطحبتم على الغل ، ونبتت مراعيكم على الدمن ، وتصافيتم على رفض الأجل

---

(١) حديث أبي الدرداء ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة الطبراني دون قوله ولهانت الخ وزاد ولخرجتم إلى الصعدات ـ الحديث : وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر وما تلذذتم بالنساء على الفرش وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة

ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم ، وألحقني بمن أحب رؤيته ، ولو كان حيا لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم ، وإن تطلبوا ماعند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام ، يامعشر الحواريين ، ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا . وفى معناه قيل

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام ، ياطالب الدنيا لتبر ، تركك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « لَتَأْتِيَنَّكُمْ بَعْدِي دُنْيَا تَأْكُلُ إِيمَانَكُمْ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، ياموسى لاتركنن إلى حب الدنيا ؛ فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ، ورجع وهو يبكى . فقال موسى ، يارب عبدك يبكى من مخافتك . فقال ياابن عمران ، لو سال دماغه مع دموع عينيه ، ورفع يديه حتى يسقطا ، لم أغفر له وهو يحب الدنيا

الآثار : قال على رضى الله عنه ، مَنْ جمع فيه ست خصال ، لم يدع للجنة مطلبا . ولا عن النار مهربا . أولها من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ؛ وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة ، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله ، من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره

وقال لقمان عليه السلام لابنه ، يابنى ، إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل ، طالت فكرتى فى هذه الآية (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (١)) وقال بعض الحكماء ، إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا ، إلا وقد كان

---

(١) حديث لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب لم أجد له أصلا

(١) الكهف : ٧ ، ٨

له أهل قبلك ، وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا ، إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك في أكله ، وصم عن الدنيا ، وأفطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار . وقيل لبعض الرهبان ، كيف ترى الدهر ؟ قال يخلق الأبدان،ويجدد الآمال ويقرب المنية،ويبعد الأمنية.قيل فما حال أهله؟قال من ظفر به تعب،ومن فاته نصب.وفي ذلك قيل

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ... فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة ، أو منية قاضية . وقال بعضهم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها ، قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها ، لم يعط منها شيئا إلاّ أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها ، لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبي حازم ، أشكو إليك حب الدنيا ، وليست لي بدار . فقال انظر ما آتاكه الله عز وجل منها ، فلا تأخذه إلا من حله ، ولا تضعه إلا في حقه ، ولا يضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا ، لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه ، حتى يتبرم بالدنيا ، ويطلب الخروج منها . وقال يحي بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئا ، فيجيء في طلبه فيأخذك . وقال الفضيل . لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى ، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفا يبقى ، على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى ، على ذهب يبقى ! وقال أبو حازم ، إياكم والدنيا ، فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة ، إذا كان معظما للدنيا ، فيقال هذا عظم ما حقره الله . وقال ابن مسعود ، ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف ، وماله عارية . فالضيف مرتحل ، والعارية مردودة ، وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا ، فأقبلوا على ذمها ، فقالت اسكتوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره .

وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت ؟ فقال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضا فى ذلك

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورا وأنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه فلما استوى ماقد بناه تهدما

وقيل أيضا فى ذلك

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فىء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه ، يابنى ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا . ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا . وقال مطرف بن الشخير ، لاتنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم . وقال ابن عباس ، إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم ، الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاشرة الكلاب . وفى ذلك قيل

ياخاطب الدنيا إلى نفسها تنح عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غدارة قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء ، من هوان الدنيا على الله أنه لايعصى إلا فيها ، ولا ينال ماعنده إلا بتركها . وفى ذلك قيل

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وقيل أيضا

ياراقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التى كانت منعمة كر الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا
يامن يعانق دنيا لابقاء لها يمسى ويصبح فى دنياه سفارا

هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه ، لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أتت إبليس جنوده فقالوا ، قد بعث نبي وأخرجت أمة . قال يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم . قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى أن لا يعبدوا الأوثان : وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث ، أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، وإمساكه عن حقه . والشر كله من هذا نبع . وقال رجل لعلى كرم الله وجهه ، ياأمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا . قال وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، فى حلالها الحساب : وفى حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال ، أطول أم أقصر ؟ فقيل قصر ، فقال حلالها حساب ، وحرامها عذاب

وقال مالك بن دينار ، اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ، يعنى الدنيا . وقال أبو سليمان الدارانى ، إذا كانت الآخرة فى القلب ، جاءت الدنيا تزاحمها . فإذا كانت الدنيا فى القلب ، لم تزاحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة ، وهذا تشديد عظيم

ونرجو أن يكون ماذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال ، الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب ، فأيهما غلب كان الآخر تبعا له . وقال مالك بن دينار ، بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مما قاله على كرم الله وجهه ، حيث قال ، الدنيا والآخرة ضرتان ، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن ، والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا . وقال رجل للحسن ، ما تقول فى رجل آتاه الله مالا ، فهو يتصدق منه ، ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيش فيه ، يعنى يتنعم . فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدم ذلك ليوم فقره .

وقال الفضيل ، لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علىّ حلالا ، لا أحاسب عليها فى الآخرة لكنت أتقذرها ، كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه . وقيل ، لما قدم عمر رضي الله عنه الشام : فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم وسأله

ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر رضي الله عنه ، لو اتخذت متاعا فقال يا أمير المؤمنين ، إن هذا يبلغنا المقيل . وقال سفيان ، خذ من الدنيا لبدنك ، وخذ من الآخرة لقلبك ، وقال الحسن ، والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا

وقال وهب . قرأت في بعض الكتب ، الدنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الجهال ، لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه ، يابني ، إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها ، واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها ، أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود ، إذا رأيت العبد تزداد دنياه ، وتنقص آخرته وهو به راض ، فذلك المغبون ، الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر

وقال عمرو بن العاص على المنبر ،[1] والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم . والله ما مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له . وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا[1]) من قال ذا ؟ قاله من خلقها ، ومن هو أعلم بها . إياكم وما شغل من الدنيا ، فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل ، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا ، مسكين ابن آدم ، رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، إن أخذه من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به . ابن آدم يستقل ماله ، ولا يستقل عمله . يفرح بمصيبته في دينه ، ويجزع من مصيبته في دنياه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز ، سلام عليك ، أما بعد . فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات . فأجابه عمر ، سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض ، الدخول في الدنيا هين ، ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم ، عجبا لمن يعرف أن الموت حق ، كيف يفرح ! وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ! وعجبا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها ، كيف يطمئن إليها ! وعجبا لمن يعلم

---

(١) حديث عمرو بن العاص والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ـ الحديث : الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه

---

(١) لقمان : ٣٣

أن القدر حق ، كيف ينصب ! وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران ، عمره مائتاسنة . فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال سنيات بلاء ، وسنيات رخاء. يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ، ويهلك هالك . فلولا المولود لباد الخلق ، ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له سل ماشئت. قال: عمر مضى فترده، أو أجل حضر فتدفعه. قال لا أملك ذلك. قال لا حاجة لى إليك

وقال داود الطائى رحمه الله ، ياابن آدم ، فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بانقضاء أجلك . ثم سوفت بعملك ، كأن منفعته لغيرك . وقال بشر ، من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم ، ما فى الدنيا شيء يسرك ، إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث ، أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد ، قد نلت الغنى . فقال إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا .

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا ، إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار ، اصطلحنا على حب الدنيا ، فلا يأمر بعضنا بعضا ، ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعرى أى عذاب الله ينزل علينا . وقال أبو حازم ، يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن ، أهينوا الدنيا ، فوالله ماهى لأحد بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضا ، إذا أراد الله بعبد خيرا ، أعطاه من الدنيا عطية، ثم يمسك فإذا نفد أعاد عليه . وإذا هان عليه عبد ، بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول فى دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك ، أمسك الدنيا عنى ، وقال محمد بن المنكدر ، أرأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجاهد فى سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة ، فيقال إن هذا عظم فى عينه ما صغره الله ، وصغر فى عينه ما عظمه الله ، كيف ترى يكون حاله ؟ فمن منا ليس هكذا ؟ الدنيا عظيمة عنده ، مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا

وقال أبو حازم ، اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانا ، وأما مؤنة الدنيا، فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها ، إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه ،

وقال أبو هريرة ، الدنيا موقوفة بين السماء والأرض ، كالشن البالى ، تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها ، يارب ، يارب ، لم تبغضنى ؟ فيقول لها اسكتى يالا شيء . وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا ، والذنوب فى القلب قد احتوشته ؟ فمتى يصل الخير إليه ؟ وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشيء من الدنيا ، فقد أخطأ الحكمة . ومن جعل شهوته تحت قدميه ، فرق الشيطان من ظله . ومن غلب علمه هواه ، فهو الغالب . وقيل لبشر ، مات فلان . فقال جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ضيع نفسه . قيل له إنه كان يفعل ويفعل ، وذكروا أبوابا من البر ، فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا ؟

وقال بعضهم ، الدنيا تبغض إلينا نفسها ، ونحن نحبها . فكيف لو تحببت إلينا . وقيل لحكيم ، الدنيا لمن هي ؟ قال لمن تركها . فقيل الآخرة لمن هى ؟ قال لمن طلبها . وقال حكيم ، الدنيا دار خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها . والجنة دار عمران ، وأعمر منها قلب من يطلبها . وقال الجنيد ، كان الشافعى ، رحمه الله ، من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا ، وعظ أخا له فى الله ، وخوفه بالله ، فقال ياأخى ، إن الدنيا دحض مزلة ، ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر . شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع الى الله ، وارض برزق الله لا تتسلف من دار فنائك إلي دار بقائك ، فإن عيشك فيء زائل ، وجدار مائل . أكثر من عملك ، وأقصر من أملك

وقال ابراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم فى المنام أحب إليك أم دينار فى اليقظة ؟ فقال دينار فى اليقظة . فقال كذبت ، لأن الذى تحبه فى الدنيا ، كأنك تحبه فى المنام . والذى لا تحبه فى الآخرة ، كأنك لا تحبه فى اليقظة . وعن اسماعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة ، فيقولون إليك عنا ياخنزيرة . فلو وجدوا لها إسما أقبح من هذا لسموها به . وقال كعب ، لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها . وقال يحيي بن معاذ الرازى ، رحمه الله العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه . وقال أيضا ، الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . وقال بكر بن عبد الله ، من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا ، كان كمطفيء النار بالتبن . وقال بندار ، إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون فى الزهد ، فاعلم أنهم فى سخرة الشيطان

وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها ، يعنى الحرص ، حتى يصير رمادا . ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها ، فصار سبيكة ذهب ينتفع به . ومن أقبل على الله عز وجل ، أحرقته نيران التوحيد ، فصار جوهرا لا حد لقيمته

وقال على كرم الله وجهه ، إنما الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومركوب ، ومنكوح ، ومشموم . فأشرف المطعومات العسل ، وهو مذقة ذباب . وأشرف المشروبات الماء ، ويستوى فيه البر والفاجر . وأشرف الملبوسات الحرير ، وهو نسج دودة وأشرف المركوبات الفرس ، وعليه يقتل الرجال . وأشرف المنكوحات المرأة ، وهى مبال فى مبال . وإن المرأة لتزين أحسن شىء منها ، ويراد أقبح شىء منها . وأشرف المشمومات المسك ، وهو دم

بيان

المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم ، ياأيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها ، وتزينت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة . فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت . فانظروا إليها بعين الحقيقة ، فإنها دار كثير بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت . فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال فلان عليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ، ولا يرجى لك الشفاء . ثم يقال فلان أوصى ، ولماله أحصى . ثم يقال قد ثقل لسانه ، فما يكلم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه . وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ، ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطلق . ثم حل بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك

إخوانك ، وأحضرت أكفانك فغسلوك ، وكفنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك

وقال بعضهم لبعض الملوك ، إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها ، وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه ، أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه فالدنيا أحق بالذم ، هي الآخذة ماتعطي . الراجعة فيما تهب . بينا هي تضحك صاحبها ، إذ أضحكت منه غيره . وبينا هي تبكي له ، إذ أبكت عليه . وبينا هي تبسط كفها بالإعطاء ، إذ بسطتها بالاسترداد . فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم ، وتعفره بالتراب غدا . سواء عليها ذهاب ماذهب ، وبقاء مابقي ، تجد في الباقي من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصري ، إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة ، فاحذرها ياأمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها . لها في كل حين قتيل ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها . هي كالسم يأكله من لايعرفه ، وفيه حتفه . فكن فيها كالمداوي جراحه ، يحتمي قليلا ، مخافة مايكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء ، مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدارة ، الختالة الخداعة ، التي قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها ، وحلت بآمالها ، وسوفت بخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة . وهي لأزواجها كلهم قالية . فلا الباقي بالماضي معتبر ، ولا الآخر بالأول مزدجر ، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكر . فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ، ونسي المعاد ، فشغل فيها لبه ، حتى زلت به قدمه ، فعظمت ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه ، وحسرات الفوت بغصته . وراغب فيها لم يدرك منها ماطلب ، ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فاحذرها ياأمير المؤمنين ، وكن أسر ماتكون فيها ، أحذر ماتكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، السار في أهلها غار ، والنافع فيها غدا ضار . وقد وصل الرخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها إلى فناء ،

فسرورها مشوب بالأحزان ، لايرجع منها ماولى وأدبر ، ولا يدرى ماهوآت ، فيلنتظر . أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، إن عقل ونظر . فهو من النعماء على خطر ، ومن البلاء على حذر . فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فمالها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها [1] . ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، إذكره أن يخالف على الله أمره ، أو يحب ماأبغضه خالقه ، أو يرفع ماوضع مليكه . فزواها عن الصالحين اختبارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها ، المقتدر عليها ، أنه أكرم بها ، ونسى ماصنع الله عزوجل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، [2] حين شد الحجر على بطنه ، ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل ، أنه قال لموسى عليه السلام ، إذا رأيت الغنى مقبلا ، فقل ذنب عجلت عقوبته . وإذا رأيت الفقر مقبلا ، فقل مرحبا بشعار الصالحين . وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة ، عيسى بن مريم عليه السلام ، فإنه كان يقول ، إدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلائى فى الشتاء مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ماأنبتت الأرض ، أبيت وليس لى شيء ، وأصبح وليس لى شيء . وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه ، لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون ، قال لايرو عنكما لباسه الذى لبس من الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، ليس ينطق ، ولا يطرف ، ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنكما ماتمتع به منها فإنما هى زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين . فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا ، يعرفه

---

(١) حديث الحسن كتب به الى عمر بن عبد العزيز عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها ـ الحديث : ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه انى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة ـ الحديث : وسنده صحيح وللترمذى من حديث أبى امامة عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ـ الحديث :

(٢) حديث الحسن مرسلا فى شده الحجر على بطنه : ابن أبى الدنيا أيضا هكذا وللبخارى من حديث أنس رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين وقال حديث غريب

فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما ، لفعلت . ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي ، إنى لأذودهم عن نعيمها ، كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وإنى لأجنبهم سلاذها ، كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن منازل الغرة . وما ذاك لهوانهم علىّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا . إنما يتزين لى أوليائى بالذل ، والخوف ، والخضوع ، والتقوى تنبت فى قلوبهم ، وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التى يلبسون ، ودثارهم الذى يظهرون ، وضميرهم الذى يستشعرون ، ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون . فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك . واعلم أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة ، فقال فيها ، اعلموا أنكم ميتون ، ومبعوثون من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ، ومجزيون بها . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها بالبلاء محفوفة ، وبالفناء معروفة ، وبالغدر موصوفة . وكل مافيها إلى زوال ، وهى بين أهلها دول وسجال . لاتدوم أحوالها ، ولا يسلم من شرها نزالها . بينا أهلها منها فى رخاء وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور . أحوال مختلفة ، وتارات منصرفة ، العيش فيها مذموم ، والرخاء فيها لايدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها ، وتقصيهم بحمامها ، وكل حتفه فيها مقدور ، وحظه فيها موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا ، وأشد منكم بطشا ، وأعمر ديارا ، وأبعد آثارا . فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها ، وأجسادهم بالية ، وديارهم على عروشها خاوية ، وآثارهم عافية ، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة ، الصخور والأحجار المسندة ، فى القبور اللاطئة الملحدة ، فمحلها مقترب ، وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين ، وأهل محلة متشاغلين ، لايستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان ، على مابينهم من قرب المكان والجوار ، ودنو الدار . وكيف يكون بينهم تواصل ، وقد طحنهم بكلكله البلا ، وأكلتهم الجنادل والثرى ، وأصبحوا

بعد الحياة أمواتا ، وبعد نضارة العيش رفاتا ، فجع بهم الأحباب ، وسكنوا تحت التراب وظعنوا فليس لهم إياب ، هيهات هيهات(كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [١]) فكأن قد صرتم إلى ماصاروا إليه ، من البلا والوحدة فى دار المثوى وارتهنتم فى ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو عاينتم الأمور ، وبعثرت القبور ، وحصل مافى الصدور ، وأوقفتم للتحصيل ، بين يدى الملك الجليل . فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب ، وهتكت عنكم الحجب والأستار ، وظهرت منكم العيوب والأسرار ، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت . إن الله عز وجل يقول (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [٢]) وقال تعالى(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ [٣]) الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه ، متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله ، إنه حميد مجيد . وقال بعض الحكماء : الأيام سهام والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ، ويخترمك بلياليه وأيامه ، حتى يستغرق جميع أجزائك . فكيف بقاء سلامتك ، مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الليالى فى بدنك لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص ، لاستوحشت من كل يوم يأتى عليك واستثقلت ممر الساعات بك . ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم . وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها ، وما تأتى به من العجائب ، أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب

وقال بعض الحكماء ، وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال ، الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، ومالم يأت فلا علم لك به . والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته ، وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان والدهر موكل بتشتيت الجماعات ، وانخرام الشمل ، وتنقل الدول . والأمل طويل ، والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور : وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال ياأيها الناس ، إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى . إنما خلقتم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون عباد الله ، إنكم

(١) المؤمنون : ١٠٠ (٢) النجم : ٣١ (٣) الكهف : ٤٩

فى داركم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرون إليه، وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل

وقال على كرم الله وجهه فى خطبته ، أوصيكم بتقوى الله ، والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم ، وأنتم تريدون تجديدها . فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر ، سلكوا طريقا وكأنهم قد قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه . وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ، وكم عسى أن يبقى من له يوم فى الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها. فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال . عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه

وقال محمد بن الحسين ، لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها ، وحذر أصحابه من فتنتها ، أكلوا منها قصدا ، وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفى ، وتركوا ما يلهى . لبسوا من الثياب ما ستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية ، وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب ، فخربوا الدنيا ، وعمروا بها الآخرة. ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم ، فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم ، فارتحلوا إليها بقلوبهم ، لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم . تعبوا قليلا ، وتنعموا طويلا . كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم

بيان

صفة الدنيا بالأمثلة

إعلم أن الدنيا سريعة الفناء ، قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ، ثم تخلف فى الوفاء . تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهى سائرة سيرا عنيفا ، ومرتحلة ارتحالا سريعا . ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها ، فيطمئن إليها . وإنما يحس عند انقضاها

ومثالها الظل ، فإنه متحرك ساكن متحرك فى الحقيقة ، ساكن فى الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصرى رحمه الله، أنشد وقال:

أحلام نوم أوكظل زائل إن اللبيب بمثلها لايخدع

وكان الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يتمثل كثيرا ويقول

ياأهل لذات دنيا لابقاء لها إن اغترارا بظل زائل حمق

وقيل إن هذا من قوله

ويقال أن أعرابيا نزل بقوم ، فقدموا إليه طعاما ، فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك ، فاقتلعوا الخيمة ، فأصابته الشمس ، فانتبه فقام وهو يقول

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

مثال آخر للدنيا ، من حيث التغرير بخيالاتها ، ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام ، وأضغاث الأحلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « الدُّنْيَا حُلْمٌ وَأَهْلُهَا عَلَيْهَا مُجَازَوْنَ وَمُعَاقَبُونَ » وقال يونس بن عبيد ، ما شبهت نفسى فى الدنيا إلا كرجل نام ، فرأى فى منامه ما يكره وما يحب . فبينما هو كذلك إذ انتبه .فكذلك الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شىء مما ركنوا إليه ، وفرحوا به .

وقيل لبعض الحكماء ، أى شىء أشبه بالدنيا ، قال أحلام النائم

مثال آخر للدنيا ، فى عداوتها لأهلها ، وإهلاكها لبنيها

اعلم أن طبع الدنيا التلطف فى الاستدراج أولا ، والتوصل إلى الإهلاك آخرا . وهى كامرأة تتزين للخطاب ، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا ، فرآها فى صورة عجوز هتماء ، عليها من كل زينة ، فقال لها كم تزوجت قالت لا أحصيهم، قال فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت بل كلهم قتلت . فقال عيسى عليه السلام ، بؤسا لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ! كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر !

---

(١) حديث الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون : لم أجد له أصلا

مثال آخر للدنيا ، فى مخالفة ظاهرها لباطنها .

اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر ، قبيحة السرائر . وهى شبه عجوز متزينة ، تخدع الناس بظاهرها ، فإذا وقفوا على باطنها ، وكشفوا القناع عن وجهها ، تمثل لهم قبائحها ، فندموا على اتباعها ، وخجلوا من ضعف عقولهم فى الاغترار بظاهرها . وقال العلاء بن زياد ، رأيت فى المنام عجوزا كبيرة ، متعصبة الجلد ، عليها من كل زينة الدنيا ، والناس عكوف عليها معجبون ، ينظرون إليها . فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها ، وإقبالهم عليها . فقلت لها ويلك من أنت ؟ قالت أوما تعرفنى؟ قلت لا أدرى من أنت ، قالت أنا الدنيا . قلت أعوذ بالله من شرك . قالت إن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش ، رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء ، تصفق بيديها ، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون . فلما كانت بحذائى ، أقبلت علىّ فقالت ، لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال ، رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . وقال الفضيل بن عياض ، قال ابن عباس ، يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها فتشرف على الخلائق ، فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال هذه الدنيا التى تناحرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم . ثم يقذف بها فى جهنم ، فتنادى أى رب ، أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول الله عز وجل ، ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل ، بلغنى أن رجلا عرج بروحه ، فإذا امرأة على قارعة الطريق ، عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحدا إلاّ جرحته فإذا هى أدبرت كانت أحسن شىء رآه الناس ، وإذا هى أقبلت كانت أقبح شىء رآه الناس عجوزا شمطاء ، زرقاء عمشاء . قال فقلت أعوذ بالله منك . قالت لا والله ، لا يعيذك الله منى حتى تبغض الدرهم . قال فقلت من أنت ؟ قالت أنا الدنيا

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها

اعلم أن الأحوال ثلاثة ، حالة لم تكن فيها شيئا ، وهى ماقبل وجودك إلى الازل . وحالة لاتكون فيها مشاهدا للدنيا ، وهي مابعد موتك إلى الأبد . وحالة متوسطة بين الأبد والأزل ، وهى أيام حياتك فى الدنيا . فانظر إلى مقدار طولها ، وانسبه إلى طرفى الأزل

والأبد ، حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير ، فى سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَالِى وَلِلدُّنْيَا وَ إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَرُفِعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَ ظِلِّهَا سَاعَةً ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه ، فى ضر وضيق ، أو فى سعة ورفاهية . بل لايبنى لبنة على لبنة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ، وما وضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة [3] ورأى بعض الصحابة يبنى بيتا من جص ، فقال أرى الأمر أعجل من هذا ، وأنكر ذلك

و إلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال ، الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وهو مثال واضح ، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة واللحد هو الميل الآخر . و بينهما مسافة محدودة . فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها . وكيفما كان فلا بد له من العبور . والبناء على القنطرة ، وتزيينها بأصناف الزينة ، وأنت عابر عليها ، غاية الجهل والخذلان

مثال آخر للدنيا فى لين موردها ، وخشونة مصدرها

اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة ، يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها ، وهيهات . فإن الخوض فى الدنيا سهل ، والخروج منها مع السلامة شديد . وقد كتب على رضى الله عنه ، إلى سلمان الفارسي مثالها فقال ، مثل الدنيا مثل الحية ، لين مسها ، ويقتل سمها . فأعرض عما يعجبك منها . لقلة ما يصحبك منها . وضع عنك همومها ، بما أيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها . فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام

---

(١) حديث مالى وللدنيا انما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس

(٢) حديث ما وضع لبنة على لبنة ـ الحديث : ابن حبان فى الثقات والطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف من سأل عنى أوسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث

(٣) حديث رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من جص فقال أرى الأمر أعجل من هذا : أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح

مثال آخر للدنيا ، فى تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الدُّنْيَا كَالْمَاشِي فِي الْمَاءِ هَلْ يَسْتَطِيعُ الَّذِي يَمْشِي فِي الْمَاءِ أَنْ لاَ تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ » وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون فى نعيم الدنيا بأبدانهم ، وقلوبهم منها مطهرة ، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان . بل لو أخرجوا مما هم فيه ، لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها . فكما أن المشى على الماء يقتضى بللا لامحالة يلتصق بالقدم ، فكذلك ملابسة الدنيا تقتضى علاقة وظلمة فى القلب . بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة . قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع ، كذلك صاحب الدنيا ، لايلتذ بالعبادة ، ولا يجد حلاوتها مع مايجد من حب الدنيا . وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن ، تصعب ويتغير خلقها . كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ، ونصب العبادة ، تقسو وتغلظ . وبحق أقول لكم ، إن الزق مالم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل . كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات ، أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم ، فسوف تكون أوعية للحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بَلاَءٌ وَفِتْنَةٌ وَإِنَّمَا مَثَلُ عَمَلِ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الْوِعَاءِ إِذَا طَابَ أَعْلاَهُ طَابَ أَسْفَلُهُ وَإِذَا خَبُثَ أَعْلاَهُ خَبُثَ أَسْفَلُهُ »

مثال آخر لما بقى من الدنيا وقلته بالإضافة إلى ماسبق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « مَثَلُ هَذِهِ الدُّنْيَا مَثَلُ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ »

---

(١) حديث انما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى فى الماء ـ الحديث : ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من رواية الحسن وقال بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره ووصله البيهقى فى الشعب وفى الزهد من رواية الحسن عن أنس

(٢) حديث إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة ـ الحديث : ابن ماجه من حديث معاوية فرقه فى موضعين ورجاله ثقات

(٣) حديث مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله الى آخره . أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس بسند ضعيف

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك

قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ، ازداد عطشا حتى يقتله

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ، ولنضارة أوائلها ، وخبث عواقبها .

اعلم أن شهوات الدنيا فى القلب لذيذة ، كشهوات الأطعمة فى المعدة . وسيجد العبد عند الموت . لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح، مايجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت فى المعدة غايتها . وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما ، وأكثر دسما ، وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنا ، فكذلك كل شهوة فى القلب هى أشهى وألذ وأقوى، فنتنها وكراهتها والتأذى بها عند الموت أشد . بل هى فى الدنيا مشاهدة . فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه فى كل مافقد ، بقدر لذته به، وحبه له . وحرصه عليه . فكل ماكان عند الوجود أشهى عنده وألذ، فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت إلا فقد مافى الدنيا . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم [1] قال للضحاك ابن سفيان الكلابى « أَلَسْتَ تُؤْتَى بِطَعَامِكَ وَقَدْ مُلِّحَ وَقُزِّحَ ثُمَّ تَشْرَبُ عَلَيْهِ اللَّبَنَ وَالْمَاءَ » قال بلى . قال « فَإِلَامَ يَصِيرُ ؟ » قال إلى ماقد علمت يارسول الله . قال « فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنْيَا بِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ طَعَامُ ابْنِ آدَمَ » . وقال أبى بن كعب [2] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الدُّنْيَا ضُرِبَتْ مَثَلًا لِابْنِ آدَمَ فَانْظُرْ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنِ ابْنِ آدَمَ وَإِنْ قَذَّحَهُ وَمَلَّحَهُ إِلَامَ يَصِيرُ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ اللهَ ضَرَبَ الدُّنْيَا لِمَطْعَمِ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا وَضَرَبَ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ » وقال الحسن ، قد

---

(١) حديث أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابى ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ـ الحديث : وفيه فان الله ضرب مثل الدنيا لما يصير اليه طعام ابن آدم أحمد والطبرانى من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه

(٢) حديث أبى بن كعب ان الدنيا ضربت مثلا لابن آدم الحديث : الطبرانى وابن حبان بلفظ أن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد فى زياداته بلفظ جعل

(٣) حديث أن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا ـ الحديث : الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذى تقدم من حديث الضحاك بن سفيان ان الله ضرب ما يخرج من بنى آدم مثلا للدنيا

رأيتم يطيبونه بالأفاويه والطيب، ثم يرمون به حيث رأيتم . وقد قال الله عز وجل ، (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ[1]) قال ابن عباس ، إلى رجيعه . وقال رجل لابن عمر ، إني أريد أن أسألك وأستحي . قال فلا تستحي واسأل . قال إذا قضى أحدنا حاجته ، فقام ينظر إلى ذلك منه . قال نعم ، إن الملك يقول له انظر إلى ما بخلت به ، انظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول ، انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة ، فيقول انظروا إلى ثمارهم ، ودجاجهم ، وعسلهم ، وسمنهم

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ »

مثال آخر للدنيا وأهلها، في اشتغالهم بنعيم الدنيا، وغفلتهم عن الآخرة. وخسرانهم العظيم بسببها

اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم ، مثل قوم ركبوا سفينة ، فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة ، وحذرهم المقام ، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها فتفرقوا في نواحي الجزيرة ، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة ، فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الأماكن ، وألينها ، وأوفقها لمراده . وبعضهم توقف في الجزيرة ، ينظر إلى أنوارها ، وأزهارها العجيبة ، وغياضها الملتفة ، ونغمات طيورها الطيبة ، وألحانها الموزونة الغريبة ، وصار يلحظ من بريتها أحجارها ، وجواهرها ، ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر ، العجيبة النقوش ، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها ، وعجائب صورها ثم تنبه لخطر فوات السفينة ، فرجع إليها ، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا حرجا ، فاستقر فيه وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار ، وأعجبه حسنها ، ولم تسمح نفسه بإهمالها ، فاستصحب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقا . وزاده ما حمله من الحجارة

---

(١) حديث ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع اليه : مسلم من حديث المستورد بن شداد

---

(١) عبس : ٢٤

ضيقا . وصار ثقيلا عليه ووبالا ، فندم على أخذه ، ولم يقدر على رميه ، ولم يجد مكانا لوضعه فحمله فى السفينة على عنقه ، وهو متأسف على أخذه ، وليس ينفعه التأسف .

وبعضهم تولج الغياض ، ونسى المركب ، وبعد فى متفرجه ومتنزهه منه ، حتى لم يبلغه نداء الملاح ، لاشتغاله بأكل تلك الثمار ، واستشمام تلك الأنوار ، والتفرج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع ، وغير خال من السقطات والنكبات ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه ، وغصن يجرح بدنه ، وشوكة تدخل فى رجله ، وصوت هائل يفزع منه ، وعوسج يخرق ثيابه ، ويهتك عورته ، ويمنعه عن الانصراف لو أراده فلما بلغه نداء أهل السفينة ، انصرف مثقلا بما معه ولم يجد فى المركب موضعا ، فبقى فى الشط حتى مات جوعا ، وبعضهم لم يبلغه النداء ، وصارت السفينة ، فمنهم من افترسته السباع ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات فى الأوحال ، ومنهم من نهشته الحيات ، فتفرقوا كالجيف المنتنة وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار ، فقد استرقته ، وشغله الحزن بحفظها ، والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار ، وكمدت تلك الألوان والأحجار ، فظهر نتن رائحتها ، فصارت مع كونها مضيقة عليه ، مؤذية له بنتنها ووحشتها ، فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها فى البحر هربا منها . وقد أثر فيه ما أكل منها ، فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح ، فبلغ سقيما مدبرا . ومن رجع قريبا ، ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح . ومن رجع أولا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما

فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض وهى الذهب والفضة ، وهشيم النبت ، وهى زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت ، بل يصير كلاًّ ووبالا عليه ، وهو فى الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه حال الخلق كلهم ، إلا من عصمه الله عز وجل

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم

وقال الحسن رحمه الله (١) : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْرُوا مَا سَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرَ أَوْ مَا بَقِيَ أَنْفَدُوا الزَّادَ وَخَسِرُوا الظَّهْرَ وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانَي الْمَفَازَةِ وَلَا زَادَ وَلَا حَمُولَةَ فَأَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ تَقْطُرُ رَأْسُهُ فَقَالُوا هَذَا قَرِيبُ عَهْدٍ بِرِيفٍ وَمَا جَاءَكُمْ هَذَا إِلَّا مِنْ قَرِيبٍ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَالَ يَا هَؤُلَاءِ فَقَالُوا يَا هَذَا فَقَالَ عَلَامَ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا عَلَى مَا تَرَى فَقَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءٍ وَرِيَاضٍ خُضْرٍ مَا تَعْمَلُونَ ؟ قَالُوا لَا نَعْصِيكَ شَيْئًا قَالَ عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ بِاللَّهِ لَا يَعْصُونَهُ شَيْئًا قَالَ فَأَوْرَدَهُمْ مَاءً رَوَاءً وَرِيَاضًا خُضْرًا فَمَكَثَ فِيهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ يَا هَؤُلَاءِ قَالُوا يَا هَذَا قَالَ الرَّحِيلَ قَالُوا إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ إِلَى مَاءٍ لَيْسَ كَمَائِكُمْ وَإِلَى رِيَاضٍ لَيْسَتْ كَرِيَاضِكُمْ فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا هَذَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّا لَنْ نَجِدَهُ وَمَا نَصْنَعُ بِعَيْشٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا ؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ وَهُمْ أَقَلُّهُمْ أَلَمْ تُعْطُوا هَذَا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَعْصُوهُ شَيْئًا وَقَدْ صَدَقَكُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ فَوَاللَّهِ لَيَصْدُقَنَّكُمْ فِي آخِرِهِ فَرَاحَ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ وَتَخَلَّفَ بَقِيَّتُهُمْ فَبَدَرَهُمْ عَدُوٌّ فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيرٍ وَقَتِيلٍ »

مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ، ثم تفجعهم على فراقها

اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا ، مثل رجل هيأ دارا وزينها ، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد . فدخل واحد داره ، فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليتملكه ويأخذه ، فجهل رسمه .

---

(١) حديث الحسن بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه انما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ـ الحديث : ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لاحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث : وفيه فقال أي أحد الملكين ان مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة فذكر نحوه أخصر منه واسناده حسن

وظن أنه قد وهب ذلك منه، فتعلق به قلبه لما ظن أنه له . فلما استرجع منه ضجر وتفجع . ومن كان عالما برسمه ، انتفع به وشكره ، ورده بطيب قلب وانشراح صدر

وكذلك من عرف سنة الله فى الدنيا ، علم أنها دار ضيافة ، سبلت على المجتازين لا على المقيمين ، ليتزودوا منها ، وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعوارى ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم ، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها .

فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها ، نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه

بيان

حقيقة الدنيا وماهيتها فى حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ، ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هى ، وما الذى ينبغى أن يجتنب منها ، وما الذى لا يجتنب . فلابد وأن نبين الدنيا المذمومة ، المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هى فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الدانى منها يسمى دنيا ، وهو كل ما قبل الموت . والمتراخى المتأخر يسمى آخرة ، وهو ما بعد الموت . فكل ما لك فيه حظ ، ونصيب ، وغرض ، وشهوة ، ولذة ، عاجل الحال قبل الوفاة . فهى الدنيا فى حقك إلا أن جميع ما لك إليه ميل ، وفيه نصيب وحظ ، فليس بمذموم ، بل هو ثلاثة أقسام .

القسم الأول : ما يصحبك فى الآخرة ، وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيئان ، العلم ، والعمل فقط . وأعنى بالعلم العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وملكوت أرضه وسمائه ، والعلم بشريعة نبيه . وأعنى بالعمل ، العبادة الخالصة لوجه الله تعالى . وقد يأنس العالم بالعلم ، حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده ، فيهجر النوم ، والمطعم . والمنكح فى لذته ، لأنه أشهى عنده من جميع ذلك . فقد صار حظا عاجلا فى الدنيا ، ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة ، لم نعد هذا من الدنيا أصلا ، بل قلنا إنه من الآخرة

وكذلك العابد ، قد يأنس بعبادته فيستلذها ، بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم

العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم ، ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوة الصلاة ، والركوع ، والسجود في القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة ، وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه ، من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك

وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة ، وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع ، والسجود ، إنما يكون في الدنيا ، ، فلذلك أضافها إلى الدنيا، إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الأقصى ، كل ما فيه حظ عاجل ، ولا ثمرة له في الآخرة أصلا ، كالتلذذ بالمعاصي كلها ، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات ، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، والغلمان ، والجواري ، والخيول ، والمواشي ، والقصور ، والدور ، ورفيع الثياب ، ولذائذ الأطعمة . فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة . وفيما يعد فضولا ، أو في محل الحاجة ، نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضي الله عنه ، أنه استعمل أبا الدرداء على حمص ، فاتخذ كنيفا أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر ، من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك في بناء فارس والروم ، ما نكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه .

القسم الثالث ، وهو متوسط بين الطرفين ، كل حظ في العاجل ، معين على أعمال الآخرة . كقدر القوت من الطعام ، والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة ، التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم

(١) حديث حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة : النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله ثلاث وتقدم في النكاح

الأول ، لأنه معين على القسم الأول ، ووسيلة إليه فهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل ، لم يكن به متناولا للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا . وإن كان باعثه الحظ العاجل ، دون الاستعانة على التقوى ، التحق بالقسم الثاني ، وصار من جملة الدنيا

ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات ، صفاء القلب ، أعني طهارته عن الأدناس وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا . والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى ، والمواظبة عليه، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر . وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت . أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا، فهي من المنجيات إذ تكون جُنَّة بين العبد وبين عذاب الله ، كما ورد في الأخبار (١) « أَنَّ أَعْمَالَ الْعَبْدِ تُنَاضِلُ عَنْهُ فَإِذَا جَاءَ الْعَذَابُ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ جَاءَ قِيَامُ اللَّيْلِ يَدْفَعُ عَنْهُ وَإِذَا جَاءَ مِنْ جِهَةِ يَدَيْهِ جَاءَتِ الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ عَنْهُ » الحديث

وأما الأنس والحب فهما من المسعدات ، وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ؟ وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت ، إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة . وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ، ولم يكن له إلا محبوب واحد ، وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ، ومطالعة جماله فارتفعت العوائق ، وأفلت من السجن ، وخلي بينه وبين محبوبه ، فقدم عليه مسروراً سليما من الموانع ، آمنا من العوائق ، وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ، ولم يكن له محبوب إلا الدنيا ، وقد غصب منه ، وحيل بينه وبينه ، وسدت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه . ولذلك قيل

ما حال من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

---

(١) حديث مناضلة أعمال العبد عنه فاذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه ـ الحديث : الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي ضعفه البخاري وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر اذا دخل الانسان قبره فان كان مؤمنا أحفّ به عمله الصلاة والصيام ـ الحديث : واسناده صحيح

وليس الموت عدماً . إنما هو فراق لمحاب الدنيا ، وقدوم على الله تعالى . فإذاً سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث ، وهى الذكر ، والفكر ، والعمل الذى يفطمه عن شهوات الدنيا ، ويبغض إليه ملاذها ، ويقطعه عنها . وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن . وصحة البدن لا تنال إلا بقوت ، وملبس ، ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذى لابد منه من هذه الثلاثة ، إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة ، لم يكن من أبناء الدنيا ، وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة . وإن أخذ ذلك لحظ النفس ، وعلى قصد التنعم ، صار من أبناء الدنيا ، والراغبين فى حظوظها . إلا أن الرغبة فى حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ، ويسمى ذلك حراما ، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ، ويعرضه لطول الحساب ، ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف فى عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب ، فمن نوقش الحساب عذب[1] ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ » وقد قال أيضا « حَلاَلُهَا عَذَابٌ » إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب ، لكان مايفوت من الدرجات العلى فى الجنة ، وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيسة لابقاء لها ، هو أيضا عذاب . وقس به حالك فى الدنيا ، إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية ، كيف يتقطع قلبك عليها حسرات ، مع علمك بأنها سعادات منصرمة لابقاء لها ، ومنغصة بكدورات لاصفاء لها . فما حالك فى فوات سعادة لايحيط الوصف بعظمتها ، وتنقطع الدهور دون غايتها

فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر ، أو بالنظر إلى خضرة ، أو شربة ماء بارد ، فإنه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه . وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه[3] « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُ عَنْهُ » أشار به إلى الماء البارد ، والتعرض لجواب السؤال فيه ذل ، وخوف ، وخطر ، ومشقة ، وانتظار . وكل ذلك من نقصان

(١) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه موقوفا على على بن أبى طالب - بإسناد منقطع بلفظ وحرامها النار ولم أجده مرفوعا

(٣) حديث هذا من النعيم الذى تسئل عنه تقدم فى الأطعمة

الحظ . ولذلك قال عمر رضى الله عنه ، اعزلوا عنى حسابها ، حين كان به عطش ، فعرض عليه ماء بارد بعسل ، فأداره فى كفه ، ثم امتنع عن شربه .

فالدنيا قليلها وكثيرها ، حرامها وحلالها ، ملعونة إلا ماأعان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن ، كان حذره من نعيم الدنيا أشد . حتى أن عيسى عليه السلام ، وضع رأسه على حجر لما نام ، ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال ، رغبت فى الدنيا . وحتى أن سليمان عليه السلام فى ملكه ، كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ، وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا وشدة ، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة ، مع القدرة عليها ووجودها أشد . ولهذا روى أن الله تعالى [١] زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فكان يطوى أياما ، [٢] وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع . ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظرا لهم ، وامتنانا عليهم ، ليتوفر من الآخرة حظهم . كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم الفصد والحجامة ، شفقة عليه ، وحبا له ، لابخلا عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ماليس لله فهو من الدنيا ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا

فإن قلت فما الذى هو لله ؟

فأقول الأشياء ثلاثة أقسام ، منها مالايتصور أن يكون لله وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات ، وأنواع التنعمات فى المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا صورة ومعنى

ومنها ماصورته لله ، ويمكن أن يجعل لغير الله ، وهى ثلاثة ، الفكر ، والذكر ، والكف عن الشهوات . فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ، ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر ، فهى لله ؛ وليست من الدنيا . وإن كان الغرض من الفكر ، طلب العلم للتشرف به ، وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة ، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال

---

(١) حديث زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أيام : محمد بن خفيف فى شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال قلت يارسول الله عجبا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك ـ الحديث : وهو من طريق ابن اسحاق معنعنا وللترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله ـ الحديث : قال الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث كان يشد الحجر على بطنه من الجوع تقدم

أو الحمية لصحة البدن .أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هـذا من الدنيا بالمعنى ، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ماصورته لحظ النفس ، ويمكن أن يكون معناه لله . وذلك كالأكل ، والنكاح ، وكل مايرتبط به بقاؤه وبقاء ولده . فإن كان القصد حظ النفس ، فهو من الدنيا . وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى ، فهو لله بمعناه ، وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلالاً مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ وَمَنْ طَلَبَهَا اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَصِيَانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد

فإذاً الدنيا حظ نفسك العاجل ، الذى لاحاجة إليه لأمر الآخرة ، ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [١]) ومجامع الهوى خمسة أمور ، وهى ماجمعه الله تعالى فى قوله (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [٢]) والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة ، يجمعها قوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٣]) . فقد عرفت أن كل ماهو لله فليس من الدنيا . وقدر ضرورة القوت ، ومالابد منه من مسكن وملبس ، هو لله إن قصد به وجه الله . والاستكثار منه تنعم ، وهو لغير الله . وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجـة ، ولها طرفان وواسطة . طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر ، فإن الاقتصار على حد الضرورة غـير ممكن . وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه ، وينبغى أن يحـذر منه . وبينهما وسائط متشابهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والحزم فى الحذر والتقوى ، والتقرب من حد الضرورة ماأمكن ، اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ، إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى أن أويسا القرنى ، كان يظن أهله أنه مجنون ، لشـدة تضييقه على نفسه ، فبنوا له بيتا

---

(٣) حديث من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

(١) النازعات : ٤١ (٢) الحديد : ٢٠ (٣) آل عمران : ١٤

على باب دارهم ، فكان يأتى عليهم السنة ، والسنتان ، والثلاث ، لايرون له وجها . وكان يخرج أول الأذان ، ويأتى إلى منزله بعد العشاء الآخرة . وكان طعامه أن يلتقط النوى ، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره ، وإن لم يصب مايقوته من الحشف باع النوى ، واشترى بثمنه مايقوته . وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية ، فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ، ثم يلبسها . فكان ذلك لباسه . وكان ربما مر الصبيان ، فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم ، ياإخوتاه ، إن كنتم ولا بدأن ترمونى ،فارمونى بأحجار صغار ، فإنى أخاف أن تدموا عقبي ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء .فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فقال[1] « إِنِّى لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ مِنْ جَانِبِ الْيَمَنِ » إشارة إليه رحمه الله .

ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : أيها الناس ، من كان منكم من العراق فليقم . قال فقاموا . فقال اجلسوا إلّا من كان من أهل الكوفة . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من مراد . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من قرن . فجلسوا كلهم إلارجلا واحدا . فقال له عمر ، أقرنى أنت ؟ فقال نعم . فقال أتعرف أويس بن عامر القرنى ؟ فوصفه له ، فقال نعم ، وماذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين ! والله مافينا أحمق منه ، ولا أجن منه ، ولا أوحش منه ، ولا أدنى منه . فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال ، ماقلت ماقلت إلالأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] يقول ، يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر .فقال هرم بن حبان ، لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب ، قدمت الكوفة . فلم يكن لى هم إلا أن أطلب أويسا القرنى ، وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطىء الفرات نصف النهار ، يتوضأ ويغسل ثوبه . قال فعرفته بالنعت الذى نعت لى ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة ، محلوق الرأس ، كث اللحية ، متغير جداً ، كريه الوجه ، متهيب المنظر . قال فسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ونظر إلىّ . فقلت حياك الله من رجل . ومددت يدى لأصافحه ،

---

(١) حديث إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن أشار به إلى أويس القرنى تقدم فى قواعد العقائد لم أجد له أصلا

(٢) حديث عمر يدخل الجنة فى شفاعته مثل ربيعة ومضر يريد أويسا ورويناه فى جزء ابن السماك من حديث أبى أمامة يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر واسناده حسن وليس فيه ذكر لأويس بل فى آخره فكان المشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان

فأبى أن يصافحنى. فقلت رحمك الله يا أويس وغفر لك ، كيف أنت رحمك الله . ثم خنقتنى العبرة من حبى إياه ، ورقتى عليه ، إذ رأيت من حاله مارأيت ، حتى بكيت وبكى . فقال وأنت فحياك الله ياهرم بن حبان ، كيف أنت ياأخى ؟ومن دلك علىّ ؟ قال قلت الله . فقال لا إله إلا الله سبحان الله ، إن كان وعد ربنا لمفعولا . قال فعجبت حين عرفنى ، ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآنى . فقلت من أين عرفت اسمى واسم أبى ، وما رأيتك قبل اليوم ؟ قال نبأنى العليم الخبير ، وعرفت روحى روحك ، حين كلمت نفسى نفسك ، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ، ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار ، وتفرقت بهم المنازل . قال قلت حدثنى رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحديث أسمعه منك . قال إنى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن لى معه صحبة. بأبى وأمى رسول الله . ولكن رأيت رجالا قد صحبوه ، وبلغنى من حديثه كما بلغك ، ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب ، أن أكون محدثا ، أو مفتيا ، أو قاضيا . فى نفسى شغل عن الناس ياهرم بن حيان . فقلت ياأخى إقرأ علىّ آية من القرءان أسمعها منك ، وادع لى بدعوات ؛ وأوصنى بوصية أحفظها عنك ، فإنى أحبك فى الله حبا شديدا . قال فقام وأخذ بيدى على شاطىء الفرات ، ثم قال ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى ، ثم قال ،قال ربى ،والحق قول ربى ، وأصدق الحديث حديثه ، وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَاخَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١]) حتى انتهى إلى قوله (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [٢]) فشهق شهقة ظننت أنه قد غشى عليه . ثم قال ، ياابن حيبان ،مات أبوك حيبان ، ويوشك أن تموت ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .ومات أبوك آدم ، وماتت أمك حواء ، ومات نوح ، ومات ابراهيم خليل الرحمن ، ومات موسى نجى الرحمن ، ومات داود خليفة الرحمن ، ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم ، وهو رسول رب العالمين ، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، ومات عمر بن الخطاب أخى وصفيى . ثم قال ياعمراه ياعمراه ..قال فقلت رحمك الله إن عمر لم يمت ،قال فقد نعاه إلىّ ربى ، ونعى إلىّ نفسى

(١)، (٢) الدخان : من ٣٨ لي ٤٢

ثم قال ، أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات، ثم قال هذه وصيتى إياك ياهرم بن حيان، كتاب الله، ونهج الصالحين المؤمنين ،فقد نعيت إلى نفسى و نفسك،عليك بذكر الموت ،لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وأنذر قومك إذا رجعت إليهم ، وانصح للأمة جميعا . وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر ، فتفارق دينك وأنت لا تعلم ، فتدخل النار يوم القيامة . ادع لى ولنفسك . ثم قال ، اللهم إن هذا يزعم أنه يحبنى فيك ، وزارنى من أجلك ، فعرفنى وجهه فى الجنة ، وأدخله علىّ فى دارك دار السلام ، واحفظه مادام فى الدنيا حيثما كان ، وضم عليه ضيعته ، وأرضه من الدنيا باليسير ، وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا ، واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين ، وأجزه عنى خير الجزاء . ثم قال استودعك الله ياهرم بن حيان ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبنى ،فإنى أكره الشهرة،والوحدة أحب إلى ، إنى كثير الهم ، شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا ، فلا تسأل عنى ولا تطلبنى، واعلم أنك منى على بال وإن لم أرك ولم ترنى فاذكرنى ، وادع لى ، فإنى سأذكرك وأدعو لك إن شاء الله . انطلق أنت ههنا ، حتى أنطلق أنا ههنا . فحرصت أن أمشى معه ساعة ، فأبى علىّ ، وفارقته ، فبكى وأبكانى ، وجعلت أنظر فى قفاه ، حتى دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك ، فما وجدت أحدا يخبرنى عنه بشىء ، رحمه الله وغفر له

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا . وقد عرفت مما سبق فى بيان الدنيا ، ومن سيرة الأنبياء والأولياء ، أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء ، وأقلته الغبراء ، إلا ما كان لله عز وجل من ذلك . وضد الدنيا الآخرة ، وهو كل ما أريد به الله تعالى ،مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا ، لأجل قوة طاعة الله ، وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال . وهو أن الحاج إذا حلف أنه فى طريق الحج ، لا يشتغل بغير الحج ، بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد ، وعلف الجمل وخرز الراوية ، وكل مالا بد للحج منه لم يحنث فى يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج . فكذلك البدن مركب النفس ، تقطع به مسافة العمر ، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل ، هو من الآخرة لا من الدنيا .

نعم إذا قصد تلذذ البدن، وتنعمه بشيء من هذه الأسباب، كان منحرفاً عن الآخرة، ويخشى على قلبه القسوة. قال الطنافسي، كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً فسمعت في الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم، ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه. فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك، فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى

بيان

حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها، وليس كذلك

أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها، فهي الأرض وما عليها. قال الله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [1]) فالأرض فراش للآدميين، ومهاد، ومسكن، ومستقر، وما عليها لهم ملبس، ومطعم، ومشرب، ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان. أما النبات، فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي. وأما المعادن، فيطلبها للآلات والأواني، كالنحاس والرصاص، وللنقد كالذهب والفضة، ولغير ذلك من المقاصد. وأما الحيوان، فينقسم إلى الإنسان، والبهائم. أما البهائم، فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمراكب والزينة، وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان، أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان. ويطلب قلوب الناس ليملكها، بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه، إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا، وقد جمعها الله تعالى في قوله (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ [2]) وهذا من الإنس (وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ [3]) وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ [4]) وهي

(١) الكهف: (٢ و ٣ و ٤) آل عمران: ١٤

البهائم والحيوانات (وَالْحَرْثِ [١]) وهو النبات والزرع

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين ، علاقة مع القلب ، وهو حبه لها وحظه منها ، وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد ، أو المحب المستهتر بالدنيا . ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا ، كالكبر ، والغل ، والحسد والرياء ، والسمعة وسوء الظن ، والمداهنة ، وحب الثناء ، وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها ، العلاقة الثانية مع البدن ، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان ، لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها . والخلق إنما نسوا أنفسهم ، ومآبهم ، ومنقلبهم بالدنيا ، لهاتين العلاقتين ، علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه ، وعرف ربه ، وعرف حكمة الدنيا وسرها ، علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا ، لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى . وأعني بالدابة البدن . فإنه لا يبقى إلا بمطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن . كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف ، وماء ، وجلال

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده ، مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ، ولا يزال يعلف الناقة ، ويتعهدها ، وينظفها ، ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ، ويبرد لها الماء بالثلج ، حتى تفوته القافلة ، وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة ، وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي ، فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة . فكذلك البصير في السفر الآخرة ، لا يشتغل بتعهد البدن إلا بالضرورة ، كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة . ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن ، في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها . وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن . فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون . ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور ، واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا . وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها ، وحظوظهم منها . ولكنهم

---

(١) آل عمران : ١٤

جهلوا وغفلوا ، وتتابعت أشغال الدنيا عليهم ، واتصل بعضها ببعض ، وتداعت إلى غير نهاية محدودة ، فتاهوا في كثرة الأشغال ، ونسوا مقاصدها . ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس في مقاصدها ، حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى ، وكيف أنستهم عاقبة أمورهم فنقول :

الأشغال الدنيوية هي الحرف ، والصناعات ، والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها وسبب كثرة الأشغال ، هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث ، القوت ، والمسكن ، والملبس فالقوت للغذاء والبقاء ، والملبس لدفع الحر والبرد ، والمسكن لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت ، والمسكن ، والملبس ، مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه . نعم خلق ذلك للبهائم ، فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبخ ، والحر والبرد لا يؤثر في بدنه ، فيستغنى عن البناء ، ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فتستغنى عن اللباس . والإنسان ليس كذلك ، فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات ، هي أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية : وهي الفلاحة ، والرعاية ، والاقتناص ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فللمسكن . والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة ، فللملبس . والفلاحة للمطعم . والرعاية للمواشي . والخيل أيضا للمطعم والمركب . والاقتناص نعني به تحصيل ما خلقه الله من صيد ، أو معدن ، أو حشيش ، أو حطب فالفلاح يحصل النباتات ، والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها ، والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمي . وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي . ونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة

ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات ، كالحياكة ، والفلاحة ، والبناء ، والاقتناص والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع أخر من الصناعات ، النجارة ، والحدادة والخرز : وهؤلاء هم عمال الآلات . ونعني بالنجار كل عامل في الخشب كيفما كان . وبالحداد كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والابرى وغيرهما . وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الخراز ، فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها .

فهذه أمهات الصناعات . ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده، بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين، أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والانثى وعشرتهما . والثانى: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد . فإن الاجتماع يفضى إلى الولد لامحالة . والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت . ثم ليس يكفيه اجتماع مع الأهل والولد فى المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك مالم تجتمع طائفة كثيرة، ليتكفل كل واحد بصناعة، فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده، وهو يحتاج إلى آلاتها، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز . وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس، وهو يفتقر إلى حراسة القطن، وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة . فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده، وحدثت الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا فى صحراء مكشوفة، لتأذوا بالحر والبرد والمطر واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة، ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات، والأثاث، والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر، وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها . لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون، والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل . فحدثت البلاد لهذه الضرورة

ثم مهما اجتمع الناس فى المنازل والبلاد وتعاملوا، تولدت بينهم خصومات، إذ تحدث رياسة، وولاية للزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة، بخلاف الولاية على البهائم، إذ ليس لها قوة المخاصمة وإن ظلمت . فأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين، هذا فى المنزل وأما أهل البلد أيضا، فيتعاملون فى الحاجات، ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا . وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة، يتواردون على المراعى، والأراضى، والمياه، وهى لاتفى بأغراضهم، فيتنازعون لامحالة . ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة، بعمى، أو مرض، أو هرم، وتعرض عوارض مختلفة، ولو ترك ضائعا لهلك، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا . ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له . فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى، فمنها صناعة المساحة

التي بها تعرف مقادير الأرض ، لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية ، لحراسة البلد بالسيف ، ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم ، والتوصل لفصل الخصومة . ومنها الحاجة إلى الفقه ، وهو معرفة القانون الذى ينبغى أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده ، حتى لا يكثر النزاع ، وهو معرفة حدود الله تعالى فى المعاملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لابد منها ، ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم ، والتمييز ، والهداية . وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ، ويحتاجون إلى المعاش ، ويحتاج أهل البلد إليهم ، إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا ، تعطلت الصناعات . ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت ، تعطلت البلاد عن الحراس ، واستضر الناس . فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التى لا مالك لها إن كانت . أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار فإن كانوا أهل ديانة وورع ، قنعوا بالقليل من أموال المصالح . وإن أرادوا التوسع ، فتمس الحاجة لا محالة إلى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم ، ليمدوهم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخر ، إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال ، وهم العمال . وإلى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمستخرجون . وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة ، وهم الخزان . وإلى من يفرق عليهم بالعدل ، وهو الفارض للعساكر . وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا يجمعهم رابطة ، انخرم النظام ، فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم ، وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ، ويختار لكل واحد ما يليق به ، ويراعى النصفة فى أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند فى الحرب ، وتوزيع أسلحتهم ، وتعيين جهات الحرب ، ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم ، إلى غير ذلك من صناعات الملك . فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح ، وبعد الملك الذى يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم ، الحاجة إلى الكتاب ، والخزان ، والحساب ، والجباة ، والعمال . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ، ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف ، فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس فى الصناعات ثلاث طوائف ،

الفلاحون ، والرعاة ، والمحترفون . والثانية الجندية الحماة بالسيوف . والثالثة المترددون بين الطائفتين فى الأخذ والعطاء ، وهم العمال ، والجباة ، وأمثالهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت ، والملبس ، والمسكن ، وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا ، لا يفتح منها باب ، إلا وينفتح بسببه أبواب أخر وهكذا تتناهى إلى غير حد محصور ، وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها ، من وقع فى مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالى

فهذه هى الحرف والصناعات ، إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات ، والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به ، وأعلاها الأغذية ، ثم الأمكنة التى يأوى الإنسان إليها وهى الدور ، ثم الأمكنة التى يسعى فيها للتعيش كالحوانيت ، والأسواق ، والمزارع ثم الكسوة ، ثم أثاث البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات وقد يكون فى الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب فى الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع ، فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة ، فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ، ويحتاجان إلى الفلاح . فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر ، حتى يأخذ منه غرضه ، وذلك بطريق المعاوضة : إلا أن النجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ، ربما لا يحتاج الفلاح فى ذلك الوقت إلى آلته ، فلا يبيعه والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ، ربما كان عنده طعام فى ذلك الوقت ، فلا يحتاج إليه . فتتعوق الأغراض . فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ، ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات . وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمله الفلاحون ، فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات . فظهرت لذلك الأسواق والمخازن ، فيحمل الفلاح الحبوب ، فإذا لم يصادف محتاجا ، باعها بثمن رخيص من الباعة ، فيخزنونها فى انتظار أرباب الحاجات طمعا فى الربح . وكذلك فى جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد ، فيتردد الناس ، يشترون من القرى الأطعمة ، ومن البلاد الآلات وينقلون ذلك ويتعيشون به ، لتنتظم أمور الناس فى البلاد بسببهم ، إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام . فالبعض يحتاج إلى البعض ، فيحوج إلى النقل فيحدث التجار المتكفلون بالنقل ، ويباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول

الليل والنهار فى الأسفار لغرض غيرهم ، ونصيبهم منها جمع المال الذى يأكله لامحالة غيرهم إما قاطع طريق ، وإما سلطان ظالم . ولكن جعل الله تعالى فى غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة. ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا فى الدنيا. ولو فعلوا ذلك ، لبطلت المعايش ولو بطلت لهلكوا، ولهلك الزهاد أيضا

ثم هذه الأموال التى تنقل لايقدر الإنسان على حملها ، فتحتاج إلى دواب تحملها . وصاحب المال قد لاتكون له دابة ، فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة . ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا . ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين ، فإن من يريد أن يشترى طعاما بثوب ، فمن أين يدرى المقدار الذى يساويه من الطعام كم هو . والمعاملة تجرى فى أجناس مختلفة ، كما يباع ثوب بطعام ، وحيوان بثوب . وهذه أمور لاتتناسب ، فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين ، يعدل أحدهما بالآخر ، فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم . وأبقى الأموال المعادن ، فاتخذت النقود من الذهب ، والفضة ، والنحاس . ثم مست الحاجة إلى الضرب ، والنقش ، والتقدير ، فمست الحاجة إلى دار الضرب والصيارفة : وهكذا تتداعى الاشغال والأعمال بعضها إلى بعض ، حتى انتهت إلى ماتراه

فهذه أشغال الخلق ، وهى معاشهم . وشىء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب فى الابتداء . وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به ، أو يمنعه عنه مانع ، فيبقى عاجزا عن الاكتساب ، لعجزه عن الحرف . فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان ، اللصوصية ، والكداية . إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما . ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ، ويحفظون عنهم أموالهم ، فافتقروا إلى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير أما اللصوص ، فمنهم من يطلب أعوانا ، ويكون فى يديه شوكة وقوة ، فيجتمعون ويتكاثرون ، ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم ، فيفزعون إلى الحيل ، إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طرارا أوسلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص ، الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها

وأما المكدى ، فإنه إذا طلب مالسعى فيه غيره ، وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة ، فلا يعطى شيئا . فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال ، وتمهيد العذر لأنفسهم فى البطالة ، فاحتالوا للتعلل بالعجز ، إما بالحقيقة ، كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ، ليعذروا بالعمى فيعطون . وإما بالتعامى، والتفالج ، والتجانن ، والتمارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل، مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق، ليكون ذلك سبب الرحمة

وجماعة يلتمسون أقوالا وأفعالا ، يتعجب الناس منها ، حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ، ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتمسخر ، والمحاكاة ، والشعبذة ، والأفعال المضحكة وقد يكون بالأشعار الغريبة ، والكلام المنثور المسجع ، مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس ، لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت . أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين فى الأسواق وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض ، كبيع التعويذات والحشيش ، الذى يخيل بائعه أنها أدوية ، فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ ، والمكدون على رءوس المنابر ؛ إذا لم يكن وراءهم طائل علمى ، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام ، وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين ، وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة

فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبوا عليها ، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ، ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ، ومقصودهم ، ومنقلبهم ، ومآبهم فتاهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا ، خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم ، واختلفت آراؤهم على عدة أوجه . فطائفة غلبهم الجهل والغفلة ، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم ، فقالوا المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا . وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ، ومن ليس له تنعم فى الدنيا ، ولا قدم فى الدين . فإنه يتعب نهارا ليأكل ليلا ، ويأكل ليلا ليتعب نهارا

وذلك كثير السوانى ، فهو سفر لاينقطع إلا بالموت . وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا الأمر ، وأنه ليس المقصود أن يشق الإنسان بالعمل ولا يتنعم فى الدنيا ، بل السعادة فى أن يقضي وطره من شهوة الدنيا ، وهى شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم ، وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان ، وجمع لذائذ الأطعمة . يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة . فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر . وطائفة ظنوا أن السعادة فى كثرة المال ، والاستغناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم ، وأتعبوا نهارهم فى الجمع ، فهم يتعبون فى الأسفار طول الليل والنهار ، ويترددون فى الأعمال الشاقة ، ويكتسبون ويجمعون ، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة ، شحا وبخلا عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم ، وفى ذلك دأبهم وحركتهم ، إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله فى الشهوات واللذات ، فيكون للجامع تعبه ووباله ، وللآكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون . وطائفة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم ، وانطلاق الألسنة بالثناء ، والمدح بالتجمل والمروءة ، فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ، ويضيقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة ، والدواب النفيسة . ويزخرفون أبواب الدور ، وما يقع عليها أبصار الناس ، حتى يقال إنه غنى ، وإنه ذو ثروة ، ويظنون أن ذلك هى السعادة فهمتهم فى نهارهم وليلهم ، فى تعهد موقع نظر الناس . وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس ، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات ، وتقلد الأعمال السلطانية ، لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم ، وانقادت لهم رعاياهم ، فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله ، وعن عبادته ، وعن التفكر فى آخرتهم ومعادهم

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها ، تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة ، والقدر الذى يكفى منها ، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم ارقى منها

فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال ، وعرف غاية المقصود منها ، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل ، إلا وهو عالم بمقصوده ، وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك . وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه ، وفرغ القلب ، وغلب عليه ذكر الآخرة ، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له . وإن تعدى به قدر الضرورة ، كثرت الأشغال ، وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية . فتتشعب به الهموم . ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا ، فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا

وتنبه لذلك طائفة، فأعرضوا عن الدنيا، فحسدهم الشيطان، ولم يتركهم ، وأضلهم في الإعراض أيضا ، حتى انقسموا إلى طوائف ، فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة ، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها ، سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم ، للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند ، فهم يتهجمون على النار، ويقتلون أنفسهم بالإحراق، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا .

وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص ، بل لا بد أولا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب . ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة ، وبعضهم فسد عقله وجن ، وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة ، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية ، فظن أن ما كلفه الشرع محال ، وأن الشرع تلبيس لا أصل له ، فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله ، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد ، لا ينقصه عصيان عاص ، ولا تزيده عبادة متعبد . فعادوا إلى الشهوات ، وسلكوا مسلك الإباحة ، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة ، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل ، وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق . ووراء هذا مذاهب باطلة ، وضلالات هائلة ، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة . وإنما الناجي منها فرقة واحدة ، وهي السالكة ما كان عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لايترك الدنيا بالكلية . ولايقمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا ، فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات ، فيقمع منها مايخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولايتبع كل شهوة ، ولا يترك كل شهوة . بل يتبع العدل ، ولايترك كل شيء ولا يطلب كل شيء من الدنيا . بل يعلم مقصود كل ماخلق من الدنيا ، ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت مايقوى به البدن على العبادة ، ومن المسكن مايحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن ، أقبل على الله تعالى بكنه همته ، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازما لسياسة الشهوات، ومراقبا لها ، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى . ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام [1] لما قال « النَّاجِي مِنْهَا وَاحِدَةٌ » قالوا يارسول الله . ومن هم ؟ قال « أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ » فقيل ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » وقد كانوا على النهج القصد ، وعلى السبيل الواضح الذى فصلناه من قبل . فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين . وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية . وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط . بل كان أمرهم بين ذلك قواما . وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع ، والله أعلم

تم كتاب ذم الدنيا ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) حديث افتراق الأمة وفيه الناجى منهم واحدة قالوا ومن هم قال أهل السنة والجماعة ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه تفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار الا ملة واحدة فقالوا من هى يارسول الله قال ماأنا عليه وأصحابى ولابى داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهى الجماعة وأسانيدها جياد

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء العاشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني – القاهرة ت: ٣١٨١٠

كتاب ذمّ البخل وذمّ حبّ المال

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات
من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، وردّدهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير . كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا

والصلاة على محمد الذى نسخ بملته مللا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد. فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف ولكن الأموال أعظم فتنها ، وأطم محنها . وأعظم فتنة فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها . فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لاتكون عاقبة أمره إلا خسرا ، وبالجملة فهى لاتخلو من الفوائد والآفات . وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التى لايقوى عليها إلا ذوو البصائر فى الدين ، من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة ، بل فى الدنيا عامة . إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشفى الغيظ بحكم

الغصب والحسد بعضها، والكبر وطلب العلو بعضها، ولها أبعاض كثيرة. ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل : ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده، إذ فيه آفات وغوائل، وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان. ثم للفاقد حالتان، القناعة، والحرص، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة. وللحريص حالتان، طمع فيما فى أيدى الناس، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق. والطمع شر الحالتين. وللواجد حالتان، إمساك بحكم البخل والشح، وإنفاق وإحداهما مذمومة، والأخرى محمودة. وللمنفق حالتان، تبذير، واقتصاد. والمحمود هو الاقتصاد. وهذه أمور متشابهة، وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم

ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى. وهو بيان ذم المال، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته، ثم ذم الحرص والطمع، ثم علاج الحرص والطمع، ثم فضيلة السخاء، ثم حكايات الأسخياء، ثم ذم البخل، ثم حكايات البخلاء، ثم الإيثار وفضله، ثم حد السخاء والبخل، ثم علاج البخل، ثم مجموع الوظائف فى المال، ثم ذم الغنى ومدح الفقر إن شاء الله تعالى

بيان
ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [١]) وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [٢]) فمن اختار ماله وولده على ما عند الله، فقد خسر وغبن خسرانا عظيما، وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [٣]) الآية وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [٤]) فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ [٥]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِى الْقَلْبِ كَمَا

(كتاب ذم البخل وحب المال)

١) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل : لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف

(١) المنافقون : ٩ (٢) التغابن : ١٥ (٣) هود : ١٥ (٤) العلق : ٦، ٧ (٥) التكاثر : ١

يُنبتُ الْماءُ الْبَقْلَ » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « ماذئبانِ ضاريانِ أُرسِلاَ في زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ إِفْسَادًا فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « هَلَكَ الْمُكْثِرُونَ إِلاَّ مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادِ اللهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيلٌ مَاهُمْ » (٣) وقيل يارسول الله ، أى امتك شر ؟ قال « الأَغْنِيَاءُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « سَيَأْتِى بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ أَطَايِبَ الدُّنْيَا وَأَلْوَانَهَا وَيَرْكَبُونَ فُرَّهَ الْخَيْلِ وَأَلْوَانَهَا وَيَنْكِحُونَ أَجْمَلَ النِّسَاءِ وَأَلْوَانَهَا وَيَلْبَسُونَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ وَأَلْوَانَهَا لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ الْقَلِيلِ لاَتَشْبَعُ وَأَنْفُسٌ بِالْكَثِيرِ لاَتَقْنَعُ عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ إِلَيْهَا اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ إِلَهِهِمْ وَرَبًّا دُونَ رَبِّهِمْ إِلَى أَمْرِهَا يَنْتَهُونَ وَلِهَوَاهُمْ يَتَّبِعُونَ . فَعَزِيمَةٌ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ لِمَنْ أَدْرَكَهُ ذَلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقِبِ عَقِبِكُمْ وَخَلَفِ خَلَفِكُمْ أَنْ لاَ يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَعُودَ مَرْضَاهُمْ وَلاَ يَتَّبِعَ جَنَائِزَهُمْ وَلاَ يُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى

---

(١) حديث ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر فسادا لها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم: الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جائعان مكان ضاريان ولم يقولا فى زريبة وقالا الشرف بدل الجاه قال الترمذى حسن صحيح وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد ما ذئبان ضاريان فى زريبة غنم ـ الحديث : وللبزار من حديث أبى هريرة ضاريان جائعان واسناد الطبرانى فيهما ضعيف

(٢) حديث هلك الأكثرون الامن قال به فى عباد الله هكذا وهكذا ـ الحديث.: الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن أبزى بلفظ المكثرون ولم يقل فى عباد الله ورواه أحمد من حديث أبى سعيد بلفظ المكثرون وهو متفق عليه من حديث أبى ذر بلفظهم الأخسرون فقال أبو ذر من هم فقال هم الاكثرون أموالا إلا من قال هكذا ـ الحديث :

(٣) حديث قيل يارسول الله أى أمتك شر قال الاغنياء: غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى فى الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلا وللبزار من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم

(٤) حديث سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ـ الحديث بطوله الطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث أبى أمامة سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون فى الكلام أولئك شرار أمتى وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلا ،

هَدْمِ الْإِسْلاَمِ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » [٣] وقال رجل يارسول الله ، مالي لا أحب الموت ؟ فقال « هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ ؟» قال نعم يارسول الله . قال « قَدِّمْ مَالَكَ فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ إِنْ قَدَّمَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ وَإِنْ خَلَّفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَخِلاَّءُ ابْنِ آدَمَ ثَلاَثَةٌ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ وَالثَّالِثُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهُوَ مَالُهُ وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهُوَ أَهْلُهُ وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَهُوَ عَمَلُهُ »

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ، مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : مامنزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا حسنة . قال لكنهما والمدر عندي سواء .

[٥] وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما ، ياأخي ، إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدي شكره ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ اللهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ امْضِ فَقَدْ أَدَّيْتَ حَقَّ اللهِ فِيَّ ثُمَّ يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِعِ اللهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ

---

(١) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذحتفه وهو لا يشعر : البزار من حديث أنس وفيه هانيء بن المتوكل ضعفه ابن حبان

(٢) حديث يقول العبد مالي مالي ـ الحديث : مسلم من حديث عبدالله بن الشخير وأبي هريرة وقد تقدم

(٣) حديث قال رجل يارسول الله مالي لا أحب الموت ـ الحديث : لم أقف عليه

(٤) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره ـ الحديث : أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير باسناد جيد نحوه ورواه أبوداود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد ـ الحديث :

(٥) حديث كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه ـ الحديث : قلت ليس هو من حديث سلمان لانما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل الدنيا المال وهو منقطع

كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ وَيْلَكَ أَلاَ أَدَّيْتَ حَقَّ اللهِ فِيَّ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ » . وكل ماأوردناه فى كتاب الزهد والفقر ، فى ذم الغنى ومدح الفقر ، يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بتكريره . وكذا كل ماذكرناه فى ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ماورد فى المال خاصة . قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ مَاقَدَّمَ ؟ وَقَالَ النَّاسُ مَاخَلَّفَ ؟ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَ تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا الدُّنْيَا »

الآثار : روى أن رجلا نال من أبى الدرداء ، وأراه سوأ ، فقال اللهم من فعل بى سوأ فأصح جسمه ، وأطل عمره ، وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء ، مع صحة الجسم وطول العمر ، لأنه لابد وأن يفضى إلى الطغيان . ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ، ثم قال ، أما إنك مالم تخرج عنى لاتنفعنى . وروي أن عمر رضي الله عنه ، أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها . فقالت ماهذا ؟ قالوا أرسل إليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له . ثم سلت ستراكان لها ، فقطعته وجعلته صررا ، وقسمته فى أهل بيتها ورحمها وأيتامها . ثم رفعت يديها وقالت ، اللهم لايدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به

وقال الحسن ، والله ماأعز الدرهم أحد إلاأذله الله . وقيل إن أول ماضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ، ثم وضعهما على جبهته ، ثم قبلهما وقال ، من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال سميط بن عجلان ، إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين ، يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ ، الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل ومارقيته؟ قال أخذه من حله ، ووضعه فى حقه . وقال العلاء بن زياد ، تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة ، فقلت أعوذ بالله من شرك . فقالت إن سرك أن يعيذك الله منى ، فأبغض الدرهم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها ، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها . فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفى ذلك قيل

---

(١) حديث إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم .. الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة يبلغ به وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٢) حديث لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا : الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ فترغبوا

إنى وجدت فلاتظنوا غيره آن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفى ذلك قيل أيضا

لا يغرنك من المر ء قميص رقعه

أو إزار فوق عظيم ال ساق منه رفعه

أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه

أره الدرهم تعرف حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال ياأمير المؤمنين ، صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك . تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ، وكان له ثلاثة عشر من الولد ، فقال عمر ، أقعدونى ، فأقعدوه . فقال،أماقولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما ، فإنى لم أمنعهم حقالهم ، ولم أعطهم حقا لغيرهم . وإنما ولدى أحد رجلين ، إما مطيع لله فالله كافيه ، والله يتولى الصالحين . وإما عاص لله ، فلا أبالى على ما وقع

وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا ، فقيل له لو ادخرته لولدك من بعدك قال لا ، ولكنى أدخره لنفسى عند ربى ، وأدخر ربى لولدى . وروى أن رجلا قال لأبى عبد ربه ياأخى ، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير ، فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ ، مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته . قيل وماهما ؟ قال يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله

بيان

مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا فى مواضع من كتابه العزيز ، فقال جل وعز (إِنْ تَرَكَ خَيْراً)[1] الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ

(٢) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ نعما وقالا للمرء

(١) البقرة : ١٨٠

لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ » وكل ماجاء فى ثواب الصدقة والحج ، فهو ثناء على المال ، إذلا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى (وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [١]) وقال تعالى ممتنا على عباده(وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً [٢]) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » وهو ثناء على المال

ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح ، إلا بأن تعرف حكمة المال ، ومقصوده ، وآفاته ، وغوائله ، حتى ينكشف لك أنه خير من وجه ، وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ، ومذموم من حيث هو شر . فإنه ليس بخير محض ، ولا هو شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعا . وماهذا وصفه فيمدح لامحالة تارة ، ويذم أخرى . ولكن البصير المميز ، يدرك أن المحمود منه غير المذموم . وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه فى كتاب الشكر ، من بيان الخيرات ، وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه ، هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة ، التي هى النعيم الدائم ، والملك المقيم ، والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] ، من أكرم الناس وأكيسهم فقال « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً » ، وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل فى الدنيا ، وهى الفضائل النفسية ، كالعلم ، وحسن الخلق ، والفضائل البدنية ، كالصحة ، والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن ، كالمال ، وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة ، فالخارجة أخسها . والمال من جملة الخارجات . وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ، ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما ، ولا يرادان لذاتهما . إذ النفس هى الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة فى ذاتها . والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس ، والأعضاء . والمطاعم والملابس تخدم البدن ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن المناكح

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا : أبو مسلم الليثى فى سننه والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس وقد تقدم فى كتاب ذم الغضب

(٢) حديث أكرم الناس وأكيسهم قال أكثرهم للموت ذكرا الحديث : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ أى المؤمنين أكيس ورواه ابن أبى الدنيا فى الموت بلفظ المصنف واسناده جيد

(١) الكهف : ٨٢ (٢) نوح : ١٢

إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها ، وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب ، فقد عرف قدر المال ، ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن ، الذي هو ضرورة كمال النفس ، الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده ، واستعمله لتلك الغاية ، ملتفتا إليها ، غير ناس لها ، فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه . فإذاً المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح . ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة ، وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة ، وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذاً محمود مذموم . محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم [(١)] . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر ، كما ورد به الخبر . ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله ، وكان المال مسهلا لها وآلة إليها ، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره ، حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام [(٢)] « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللَّهُمَّ [(٣)] أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » واستعاذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فقال (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [(١)]) وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر . وإنما معنى عبادتهما حبهما ، والاغترار بهما ، والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم [(٤)] « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ وَلَا انْتَعَشَ وَإِذَا شِيكَ * فَلَا انْتَقَشَ » فبين أن محبهما عابد لهما . ومن عبد حجرا فهو عابد صنم . بل كل

---

(١) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر : تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية احذروا الدنيا

(٢) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا : الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٤) حديث تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل وانتقش وانما علق آخره بلفظ تعس وانتكس ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

---

(١) ابراهيم : ٣٥

---

* أي إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالمنقاش

من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى ، وعن أداء حقه ،فهو كعابد صنم .وهو شرك ، إلا أن الشرك شركان ، شرك خفى لا يوجب الخلود فى النار ،وقلما ينفك عنه المؤمنون،فإنه أخفى من دبيب النمل،وشرك جلى،يوجب الخلود فى النار نعوذ بالله من الجميع

بيان

تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق . ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده ، أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره

أما الفوائد : فهى تنقسم إلى دنيوية ودينية . أما الدنيوية ، فلا حاجة إلى ذكرها ، فإن معرفتها مشهورة ، مشتركة بين أصناف الخلق . ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها

وأما الدينيه ، فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع

النوع الأول : أن ينفقه على نفسه ، إما فى عبادة ، أو فى الاستعانة على عبادة وأما فى العبادة ، فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد ، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات . والفقير محروم من فضلهما . وأما فيما يقويه على العبادة ، فذلك هو مضم والملبس ، والمسكن ، والمنكح ؛ وضرورات المعيشة . فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، كان القلب مصروفا إلى تدبيرها ، فلا يتفرغ للدين . وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين ، من الفوائد الدينية . ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط

النوع الثاني : مايصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام ، الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام أما الصدقة ، فلا يخفى ثوابها ، وإنها لتطفىء غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المروءة ، فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف ، فى ضيافة ، وهدية ، وإعانة ، وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة مايسلم إلى المحتاج . إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ، ويلتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود

إلامن يصطنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا ، والضيافات ، وإطعام الطعام ، من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها . . وأما وقاية العرض ، فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائدته فى العاجلة ، من الحظوظ الدينية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَاوَقَى بِهِ الْمَرْءُ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة ، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة ، التى تحمل فى المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة

وأما الاستخدام . فهو أن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر ، الذى هو أعلى مقامات السالكين . ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام ، وطحنه ، وكنس البيت ، حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج إليه . وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل به غرضك ، فأنت متعوب إذا اشتغلت به . إذ عليك من العلم والعمل . والذكر والفكر ، مالا يتصور أن يقوم به غيرك . فتضييع الوقت فى غيره خسران

النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد والقناطر ، والرباطات ، ودور المرضى ، ونصب الحباب فى الطريق، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات . وهى من الخيرات المؤبدة ، الدارة بعد الموت ، المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية . وناهيك بها خيرا .

فهذه جملة فوائد المال فى الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والوقار والكرامة فى القلوب . فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية

وأما الآفات فدينية ، ودنيوية . أما الدينية فثلاث

الأولى: أن تجر إلى المعاصى ، فإن الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد . ومهما كان الإنسان آيسا عن نوع من المعصية ، لم تتحرك داعيته.

---

(١) حديث ماوقى المرء عرضه به فهو صدقة : أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم

فإذا استشعر القدرة عليها ، انبعثت داعيته . والمال نوع من القدرة ، يحرك داعية المعاصى وارتكاب الفجور . فإن اقتحم ما اشتهاه هلك . وإن صبر وقع فى شدة ، إذ الصبر مع القدرة أشد . وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء

الثانية : أنه يجر إلى التنعم فى المباحات ، وهذا أول الدرجات . فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ، ويلبس الثوب الخشن ، ويترك لذائذ الأطعمة ، كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى ملكه ، فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ، ويمرن عليها نفسه ، فيصير التنعم مألوفا عنده ، ومحبوبا لا يصبر عنه . ويجره البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به ، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ، ويخوض فى المرآة ، والمداهنة ، والكذب ، والنفاق ، وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ، ويتيسر له تنعمه . فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلابد وأن ينافقهم ، ويعصى الله فى طلب رضاهم . فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى ، وهى مباشرة الحظوظ ، فلا يسلم عن هذه أصلا . ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد ، والحقد ، والرياء ، والكبر ، والكذب ، والنميمة ، والغيبة ، وسائر المعاصى التى تخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدى أيضا إلى سائر الجوارح ، وكل ذلك يلزم من شؤم المال ، والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

الثالثة : وهى التى لا ينفك عنها أحد ، وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى . وكل ماشغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام ، فى المال ثلاث آفات . أن يأخذه من غير حله . فقيل إن أخذه من حله ؟ فقال يضعه فى غير حقه . فقيل إن وضعه فى حقه ؟ فقال يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله ، والتفكر فى جلاله . وذلك يستدعى قلبا فارغا . وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكرا فى خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفى خصومة الشركاء ومنازعتهم فى الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان فى الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير فى العمارة ، وخصومة الفلاحين فى خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكرا فى خيانة شريكه ، وانفراده بالربح ، وتقصيره فى العمل ، وتضييعه للمال . وكذلك

صاحب المواشي ، وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه ، وفى كيفية حفظه ، وفى الخوف مما يعثر عليه ، وفى دفع أطماع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها . والذى معه قوت يومه فى سلامة من جميع ذلك .

فهذه جملة الآفات الدنيوية ، سوى مايقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا من الخوف ، والحزن ، والغم ، والهم ، والتعب فى دفع الحساد ، وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه . فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقى إلى الخيرات . وماعدا ذلك سموم وآفات ، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه ، إنه على ذلك قدير

بيان

ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه فى كتاب الفقر . ولكن ينبغى أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى مافى أيديهم ، ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان . ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم ، والملبس ، والمسكن ؛ ويقتصر على أقله قدرا ، وأخسه نوعا . ويرد أمله إلى يومه ، أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير ، أو طول أمله ، فاته عز القناعة ، وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص . وجره الحرص والطمع إلى مساوى الأخلاق ، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت . وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع ، وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ » [2] وعن أبى واقد الليثى ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه ، أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه . فجئته ذات يوم فقال « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ

---

(١) حديث لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ــ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس

(٢) حديث أبى واقد الليثى ان الله عزوجل يقول إنا أنزلنا المال لاقام الصلاة وإيتاء الزكاة ــ الحديث : أحمد والبيهقى فى الشعب بسند صحيح

وادٍ مِنْ ذَهَبٍ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانٍ وَلَوْ كَانَ لَهُ الثَّانِي لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ »[1] وقال أبو موسى الأشعرى ، نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت. وحفظ منها ، إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . وقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ مَنْهُومُ الْعِلْمِ وَمَنْهُومُ الْمَالِ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْأَمَلُ وَحُبُّ الْمَالِ » أو كما قال .

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة، وغريزة مهلكة، أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال صلى الله عليه وسلم[4] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[5] « مَا مِنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلاَ غَنِيٍّ إِلاَّ وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتًا فِي الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم[6] « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب ، فقال[7] « أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال ، أى عبادك أغنى؟ قال أقنعهم بما أعطيته. قال فأيهم أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود. قال رسول الله

---

(١) حديث أبى موسى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ـ الحديث : مسلم مع اختلاف دون قوله ان الله يؤيد الدين ورواه بهذه الزيادة الطبرانى وفيه على بن زيد متكلم فيه

(٢) حديث منهومان لا يشبعان ـ الحديث : الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٣) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشة كفافا وقنع به: الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من حديث فضالة بن عبيد ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه

(٥) حديث ما من أحد غنى ولا فقير الا ود يوم القيامة أنه كان أوتى فى الدنيا قوتا : ابن ماجه من رواية نفيع ابن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف

(٦) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس: متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٧) حديث ألا أيها الناس اجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له: الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح اسناده وقد تقدم فى آداب الكسب والمعاش

صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ » وقال أبو هريرة . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا اشْتَدَّ بِكَ الْجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى الدُّنْيَا الدَّمَارُ » وقال ابو هريرة رضي الله عنه، قال رسول لله صلى لله علية وسلم [2] « كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا »

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصارى ، أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله عظني وأوجز . فقال [3] « إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَلَا تُحَدِّثَنَّ بِحَدِيثٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » وقال عوف بن مالك الأشجعى ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] تسعة أو ثمانية أو سبعة . فقال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ؟» فلنا أو ليس قد بايعناك يارسول الله ؟ ثم قال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ » فبسطنا أيدينا فبايعناه . فقال قائل منا ، قد بايعناك ، فعلى ماذا نبايعك ؟ قال « أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الْخَمْسَ وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا » وأسر كلمة خفية « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه ، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه

الآثار : قال عمر رضى الله عنه ، إن الطمع فقر . وإن اليأس غنى . وإنه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم . وقيل لبعض الحكماء ، ما الغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . وفى ذلك قيل

---

(١) حديث ابن مسعود ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى القناعة والحاكم مع اختلاف فيه وقد تقدم

(٢) حديث أبى هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس ـ الحديث : ابن ماجه وقد تقدم

(٣) حديث أبى أيوب إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه واجمع اليأس مما فى أيدى الناس : ابن ماجه وتقدم فى الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال صحيح الاسناد

(٤) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال ألا تبايعون ـ الحديث : وفيه ولا تسألوا الناس مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسمعوا وقال سوط أحدهم وهى عند أبى داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف

العيش ساعات تمر　　وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه　　واترك هواك تعيش حر
فلرب حتف ساقه　　ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع ، يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ، ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال سفيان : خير دنياكم مالم تبتلوا به ، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وملك ينادى ياابن آدم ، قليل يكفيك ، خير من كثير يطغيك وقال سميط بن عجلان ، إنما بطنك ياابن آدم شبر فى شبر ، فلِمَ يدخلك النار ؟ وقيل لحكيم ما مالك؟ قال التجمل في الظاهر ، والقصد فى الباطن ، واليأس مما فى أيدى الناس

ويروى أن الله عز وجل قال ، ياابن آدم ، لوكانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . وإذا أنا أعطيتك منها القوت ، وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا إليك محسن وقال ابن مسعود ، إذا طلب أحدكم الحاجة ، فليطلبها طلبا يسيرا ، ولا يأتى الرجل فيقول، إنك وإنك فيقطع ظهره ، فإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أوما رزق . وكتب بعض بنى أمية إلى أبى حازم ، يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه . فكتب إليه قد رفعت حوائجى إلى مولاى ، فما أعطانى منها قبلت ، وما أمسك عنى قنعت

وقيل لبعض الحكماء ، أى شيء أسر للعاقل ؟ وأيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء. وقال بعض الحكماء ، وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع. وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفى ذلك قيل

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة　　إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه　　والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها　　لم يلق فى دهره شيئا يؤرقه

وقد قيل أيضا

حتى متى أنا فى حل وترحال　　وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغتربا　　عن الأحبة لا يدرون ما حالى

بمشرق الأرض طوراثم مغربها لا يخطر الموت من حرصي على بال
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه ، ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى؟ حلتان لشتائي وقيظي وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي ، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ، ولا بأوضعهم . فو الله ما أدري أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها . وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال ياأخي ، أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه . كأنك ياأخي لم تر حريصا محروما ، وزاهدا مرزوقا . وفي ذلك قيل

أراك يزيدك الإثراء حرصا على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوما إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي ، حكى أن رجلا صاد قنبرة ، فقالت ما تريد أن تصنع بي ؟ قال أذبحك وآكلك . قالت والله ما أشفي من قرم ، ولا أشبع من جوع ، ولكن أعلمك ثلاث خصال ، هي خير لك من أكلي . أما واحدة ، فأعلمك وأنا في يدك ، وأما الثانية ، فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة ، فإذا صرت على الجبل . قال هات الأولى . قالت: لا تلهفن على مافاتك . فخلاها ، فلما صارت على الشجرة ، قال هات الثانية ، قالت لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت . ياشقي ، لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالا . قال فعض على شفته وتلهف وقال ، هات الثالثة . قالت أنت قد نسيت اثنتين ، فكيف أخبرك بالثالثة ، ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك ؟ ولا تصدقن بما لا يكون ؟ أنا لحمي ، ودمي ، وريشي ، لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت وهذا مثال لفرط طمع الآدمي ، فإنه يعميه عن درك الحق ، حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون

وقال ابن السماك ، إن الرجاء حبل في قلبك ، وقيد في رجلك . فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك وقال أبو محمد اليزيدي ، دخلت على الرشيد، فوجدته ينظر في ورقة

مكتوب فيها بالذهب . فلما رآني تبسم . فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال نعم . وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية. فاستحسنتهما. وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدني

إذا سد باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ، ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها ؟ قال الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحوائج وقال رجل للفضيل ، فسر لي قول كعب . قال يطمع الرجل في الشيء يطلبه ، فيذهب عليه دينه . وأما الشره ، فشره النفس في هذا وفي هذا ، حتى لا تحب أن يفوتها شيء . ويكون لك إلى هذا حاجة ، وإلى هذا حاجة ، فإذا قضاها لك خزم أنفك ، وقادك حيث شاء ، واستمكن منك ، وخضعت له . فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به ، وعدته إذا مرض ، لم تسلم عليه لله عز وجل ، ولم تعده لله ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك من مائة حديث عن فلان عن فلان

قال بعض الحكماء ، من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع ، أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع ، وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد ، مررت براهب ، فقلت له من أين تأكل ؟ قال من بيدر اللطيف الخبير ، الذي خلق الرحا يأتيها بالطحين . وأومأ بيده إلى رحا أضراسه . فسبحان القدير الخبير

بيان

علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان . الصبر ، والعلم ، والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور الأول : وهو العمل ، الاقتصاد في المعيشة ، والرفق في الإنفاق . فمن أراد عز القناعة ، فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى ما لا بد له منه . فمن كثر خرجه ، واتسع إنفاقه ، لم تمكنه القناعة . بل إن كان وحده ، فينبغي أن يقنع بثوب

واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ، ويقلل من الأدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ، ويمكن معه الإجمال فى الطلب ، والاقتصاد فى المعيشة. وهو الأصل فى القناعة، ونعنى به الرفق فى الإنفاق، وترك الخرق فيه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِى الْأَمْرِ كُلِّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَاعَالَ مَنِ اقْتَصَدَ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ خَشْيَةُ اللهِ فِى السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْقَصْدُ فِى الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالْعَدْلُ فِى الرِّضَا وَالْغَضَبِ » وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض ، وهو يقول إن من فقهك رفقك فى معيشتك

وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [4] « الْإِقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالْهَدْىُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بِضْعٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ » وفى الخبر [5] « التَّدْبِيرُ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [6] « مَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللهُ وَمَنْ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ اللهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [7] « إِذَا أَرَدْتَ أَمْراً فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكَ فَرَجاً وَمَخْرَجًا » والتؤدة فى الإنفاق من أهم الأمور

الثانى : أنه إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه ، فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه

---

(١) حديث ان الله يحب الرفق فى الأمر كله : متفق عليه من حديث عائشة وتقدم

(٢) حديث ما عال من اقتصد: أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد

(٣) حديث ثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب: البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف

(٤) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزأ من النبوة أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمت الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل الهدى الصالح وقال من أربعة

(٥) حديث التدبير نصف المعيشة: رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد ابن عيسى جهله العقيلى ووثقه ابن معين

(٦) حديث من اقتصد أغناه الله ـ الحديث : البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصرى قال الذهبي شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكر أى هذا الحديث ولأحمد وأبى يعلى فى حديث لأبى سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله

(٧) حديث اذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجا ومخرجا: رواه ابن المبارك فى البر والصلة وقد تقدم

وإن لم يشتد حرصه . فإن شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الأرزاق . بل ينبغى أن يكون واثقا بوعد الله تعالى ، إذ قال عز وجل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [١]) وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار ، فربما تمرض ، وربما تعجز ، وتحتاج إلى احتمال الذل فى السؤال . فلا يزال طول العمر يتعبه فى الطلب ، خوفا من التعب ، ويضحك عليه فى احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله ، لتوهم تعب فى ثانى الحال ، وربما لا يكون . وفى مثله قيل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما [١] « لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزْهَزَتْ رُؤُسُكُمَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين ، فقال له [٢] « لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ مَا يُقَدَّرْ يَكُنْ وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » . ولا ينفك الإنسان عن الحرص ، إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى فى تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال فى الطلب بل ينبغى أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر . قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [٢]) فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغى أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَبَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . وقال سفيان ، اتق الله فما رأيت

---

(١) حديث لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما ـ الحديث : ابن ماجه من حديث حبة وسواء ابنى خالد وقد تقدم

(٢) حديث لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك . قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف فى صحبته ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافرى مرسلا

(٣) حديث ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب ـ الحديث : تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا

(٤) حديث أبى الله ان يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب : ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بإسناد واه ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

---

(١) هود : ٦ (٢) الطلاق : ٢ ، ٣

تقيا محتاجا . أى لايترك التقى فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبى ، قلت لأعرابى ، من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت فإذا صدروا ؟ فبكى وقال ، لولم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش . وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين . شيئا منهما هولى ، فلن أعجله قبل وقته ، ولو طلبته بقوة السموات والأرض ، وشيئا منهما هو لغيرى ، فذلك لم أنله فيما مضى ، فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى ، كما يمنع الذى لى من غيرى . ففى أى هذين أفنى عمرى ، فهذا دواء من جهة المعرفة ، لابد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر

الثالث : أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فإذا تحقق عنده ذلك ، انبعثت رغبته إلى القناعة ، لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب ، وفى الطمع لا يخلو من ذل . وليس فى القناعة الا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله ، وفيه ثواب الآخرة . وذلك مما يضاف إليه نظر الناس، وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس ، والقدرة على متابعة الحق . فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس ، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ، ويلزمه المداهنة . وذلك يهلك دينه . ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم(1) « عِزُّ الْمُؤْمِنِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ » ففى القناعة الحرية والعز . ولذلك قيل، استغن عمن شئت تكن نظيره . واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره

الرابع : أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود ، والنصارى ، وأراذل الناس ، والحمقى من الأكراد ، والأعراب الأجلاف ، ومن لا دين لهم ولا عقل ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء ، والأولياء ، وإلى سمت الخلفاء الراشدين ، وسائر الصحابة والتابعين . ويستمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة

---

(١) حديث عز المؤمن استغناؤه عن الناس: الطبرانى فى الأوسط والحاكم وصحح اسناده وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للنبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعى فى مسند الشهاب من قول النبى صلى الله عليه وسلم

أراذل الناس ، أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك ، والقناعة باليسير ، فإنه إن تنعم فى البطن ، فالحمار أكثر أكلا منه . وإن تنعم فى الوقاع ، فالخنزير أعلى رتبة منه : وإن تزين فى الملبس والخيل ، ففى اليهود من هو أعلى زينة منه . وإن قنع بالقليل ، ورضى به ، لم يساهمه فى رتبته إلا الأنبياء والأولياء

الخامس: أن يفهم مافى جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا فى آفات المال ، ومافيه من خوف السرقة ، والنهب ، والضياع . وما فى خلو اليد من الأمن والفراغ . ويتأمل ما ذكرناه فى آفات المال ، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ، ألحق بزمرة الأغنياء ، وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه فى الدنيا لا إلى من فوقه . فإن الشيطان أبدا يصرف نظره فى الدنيا إلى من فوقه فيقول لم تفتر عن الطلب ، وأرباب الأموال يتنعمون فى المطاعم والملابس . ويصرف نظره فى الدين إلى من دونه فيقول ، ولم تضيق على نفسك وتخاف الله ، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ، والناس كلهم مشغولون بالتنعم ، فلم تريد أن تتميز عنهم . قال أبو ذر (١) أوصانى خليلى صلوات الله عليه ، أن أنظر إلى من هو دونى ، لا إلى من هو فوقى ، أى فى الدنيا . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ عَلَيْهِ فِى الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ »

فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل ، للتمتع دهرا طويلا ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء ، لشدة طمعه فى انتظار الشفاء

بيان

فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقودا ، فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص .

---

(١) حديث أبى ذر أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم أن أنظر الى من هو دونى ولا أنظر لمن هو فوق أحمد وابن حبان فى أثناء حديث وقد تقدم

(٢) حديث أبى هريرة اذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه: متفق عليه وقد تقدم

وإن كان موجودا ، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء ، واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل . فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم [1] حيث قال « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مُتَدَلِّيَةٌ إِلَى الْأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا قَادَهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ » وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللهُ تَعَالَى إِنَّ هَذَا دِينٌ أَرْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلاَّ السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ » وفي رواية « فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ » . وعن عائشة الصديقية رضى الله عنها، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « مَا جَبَلَ اللهُ تَعَالَى وَلِيًّا لَهُ إِلاَّ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ »

وعن جابر قال ، قيل يارسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ [4] قال « الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ » وقال عبد الله بن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [5] « خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يَبْغَضُهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ تَعَالَى فَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ »

---

(١) حديث السخاء شجرة في الجنة ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسيأتي بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد

(٢) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى ان هذا دين رضيته لنفسى ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق: الدارقطني في المستجاد وقد تقدم

(٣) حديث عائشة ماجعل الله ولياله الاعلى السخاء وحسن الخلق: الدارقطني في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا

(٤) حديث جابر أى الايمان أفضل قال الصبر والسماحة: أبو يعلى وابن حبان في الضعفا. بلفظ سئل عن الايمان وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ ماالايمان قال الصبر والسماحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى في الزهد بلفظ أي الأعمال أفضل قال الصبر والسماحة وحسن الخلق واسناده صحيح

(٥) حديث عبد الله بن عمرو خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فاما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخا ـ الحديث : أبو منصور الديلمي دون قول في آخره وإذا أراد الله بعبده خيرا وقال فيه الشجاعة بدل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو وروى الديلمي أيضا من حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس اليه وفيه يحيى ابن شبيب ضعفه ابن حيان

وَأَمَّا اللَّذَانِ يَبْغَضُهُمَا اللهُ فَسُوءُ الْخُلُقِ وَالْبُخْلُ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا أَسْتَعْمَلَهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ » وروى المقدام بن شريح ، عن أبيه ، عن جده ،(١) قال ، قلت يارسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَذْلَ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءَ السَّلَامِ وَحُسْنَ الْكَلَامِ » . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ فَمَنْ كَانَ سَخِيًّا أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَالشُّحُّ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ فَمَنْ كَانَ شَحِيحًا أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ » وقال أبو سعيد الخدرى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم(٣) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى اطْلُبُوا الْفَضْلَ مِنَ الرُّحَمَاءِ مِنْ عِبَادِي تَعِيشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي وَلَا تَطْلُبُوهُ مِنَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ سَخَطِي » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) « تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ » وقال ابن مسعود . قال صلى الله عليه وسلم(٥) « الرِّزْقُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ أَسْرَعُ مِنَ السِّكِّينِ إِلَى ذِرْوَةِ الْبَعِيرِ وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُبَاهِي بِمُطْعِمِ الطَّعَامِ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ »

---

(١) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام: الطبراني بلفظ بذل السلام وحسن الكلام وفى رواية له يوجب الجنة إطعام الطعام وافشاء السلام وفى رواية له عليك بحسن الكلام وبذل الطعام

(٢) حديث أبى هريرة السخاء شجرة فى الجنة ـ الحديث : وفيه والشح شجرة فى النار ـ الحديث: الدارقطنى فى المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهرى ضعيف جدا

(٣) حديث أبى سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم ـ الحديث : ابن حبان فى الضعفاء والخرائطى فى مكارم الأخلاق والطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن مروان السدى الصغير ضعيف ورواه العقيلى فى الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدى وقال انه مجهول وتابع محمد بن مروان السدى عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار ابن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجانى والأزدى ورواه الحاكم من حديث على وقال انه صحيح الاسناد وليس كما قال

(٤) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخى فإن الله آخذ بيده كلما عثر: الطبرانى فى الأوسط والخرائطى فى مكارم الاخلاق وقال الخرائطى أقيلوا السخى زلته وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه ورواه الطبرانى فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه باسناد ضعيف ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق الدارقطنى

(٥) حديث ابن مسعود الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير ـ الحديث : لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ وَيُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » . وقال أنس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة . فرجع إلى قومه فقال ، ياقوم أسلموا ، فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقه . وقال ابن عمر ، قال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَمَنْ بَخِلَ بِتِلْكَ الْمَنَافِعِ عَلَى الْعِبَادِ نَقَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِ » . وعن الهلالى قال . أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٤)] بأسرى من بنى العنبر ، فأمر بقتلهم ، وأفرد منهم رجلا . فقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، يارسول الله ، الرب واحد ، والدين واحد ، والذنب واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « نَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ اُقْتُلْ هَؤُلَاءِ وَاتْرُكْ هَذَا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَكَرَ لَهُ سَخَاءً فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٥)] « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةً وَثَمَرَةُ الْمَعْرُوفِ تَعْجِيلُ السَّرَاحِ » وعن نافع ، عن ابن عمر قال ، قال رسول الله

الخير أسرع إلى البيت الذى يغشى وفى حديث ابن عباس يؤكل فيه من الشفرة الى سنام البعير ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء الحديث : وكلها ضعيفة

(١) حديث إن الله جواد يحب الجود ويحب معالى الأمور ويكره سفسافها : الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز وهذا مرسل وللطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الأمور وفى الكبير والبيهقى معالى الأخلاق ـ الحديث : وأسناده صحيح وتقدم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

(٢) حديث أنس لم يسأل على الاسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين الحديث : مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة

(٣) حديث ابن عمر إن لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتى وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبدالله ابن زيد الحمصى ضعفه الأزدى

(٤) حديث الهلالى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا الحديث : وفيه فان الله شكر له سخاء فيه لم أجد له أصلا

(٥) حديث إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح : لم أقف له على أصل

صلى الله عليه وسلم (١) « طَعَامُ الْجَوَادِ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَهُ عَظُمَتْ مَؤُنَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ » فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام، إستكثروا من شيء لا تأكله النار . قيل وما هو ؟ قال المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « الْجَنَّةُ دَارُ الْأَسْخِيَاءِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَأُ الدَّاءِ الْبُخْلُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « أَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَقَدْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنَّ بُدَلَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِصَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَخَاءِ الْأَنْفُسِ وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ وَالنُّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ »

---

(١) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء : ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدفى فى عواليه وقال رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وأنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فان أهل مصر تكلموا فيه

(٢) حديث من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ ماعظمت نعمة الله على عبد إلا دكره وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطي فى مكارم الأخلاق من حديث عمر باسناد منقطع وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ورواه العقيلى من حديث ابن عباس قال ابن عدي يروى من وجوه كلها غير محفوظة

(٣) حديث عائشة الجنة دار الأسخياء : ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال الذهبي حديث منكر ما آفته سوى حجدر قلت رواه الدارقطني فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا

(٤) حديث أبي هريرة إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ـ الحديث : الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه وأدوأ الداء البخل ورواه بهذه الزيادة : الدارقطنى فيه

(٥) حديث اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله . الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا وتقدم فى آداب المعيشة

(٦) حديث إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الانفس ـ الحديث : الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينورى أورد ابن عدى له منا كير وفى الميزان أنه ضعيف منكر ـ الحديث : ورواه الخرائطي فى مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المرى متكلم فيه

وقال أبو سعيد الخدري ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وُجُوهاً مِنْ خَلْقِهِ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فَعَالَهُ وَوَجَّهَ طُلَّابَ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَهُ كَمَا يَسَّرَ الْغَيْثَ إِلَى الْبَلْدَةِ الْجَدْبَةِ فَيُحْيِيهَا وَيُحْيِي بِهِ أَهْلَهَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كُتِبَ لَهُ صَدَقَةً وَمَا وَقَى بِهِ الرَّجُلُ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ نَفَقَةٍ فَعَلَى اللهِ خَلَفُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَالدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ وَاللهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « كُلُّ مَعْرُوفٍ فَعَلْتَهُ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ صَدَقَةٌ »

وروى أن الله تعالى ، أوحى إلى موسى عليه السلام ، لا تقتل السامري فإنه سخي

وقال جابر ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) بعثا ، عليهم قيس بن سعد بن عبادة ، فجهدوا ، فنحر لهم قيس تسع ركائب . فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْجُودَ لَمِنْ شِيمَةِ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ »

الآثار : قال علي كرم الله وجهه ، إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها ، فإنها لا تفنى . وإذا أدبرت عنك فأنفق منها ، فإنها لا تبقى . وأنشد

---

(١) حديث أبي سعيد إن الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف ـ الحديث: الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هارون العبدي عنه وأبو هارون ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه

(٢) حديث كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ـ الحديث : ابن عدي والدارقطني في المستجاد والخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالي وثقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة

(٣) حديث كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان: الدارقطني في المستجاد من رواية الحجاج بن ارطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النميري ضعيف

(٤) حديث كل معروف فعلته الى غني أو فقير صدقة : الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين

(٥) حديث جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم الحديث : وفيه فقال ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجودبها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلفه

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم ، عن المروءة ، والنجدة ، والكرم . فقال أما المروءة ، فحفظ الرجل دينه ، وحذره نفسه ، وحسن قيامه بضيفه ، وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية . وأما النجدة ، فالذب عن الجار ، والصبر في المواطن . وأما الكرم ، فالتبرع بالمعروف قبل السؤال ، والإطعام في المحل ، والرأفة بالسائل ، مع بذل النائل

ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة ، فقال حاجتك مقضية . فقيل له يا ابن رسول الله ، لو نظرت في رقعته ، ثم رددت الجواب على قدر ذلك ؟ فقال ، يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى اقرأ رقعته . وقال ابن السماك ، عجبت لمن يشتري المماليك بماله ، ولا يشتري الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب ، من سيدكم ؟ فقال من احتمل شتمنا . وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا . وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما ، من وصف ببذل ماله لطلابه ، لم يكن سخيا . وإنما السخي من يبتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له ، إذا كان يقينه بثواب الله تاما . وقيل للحسن البصري ، ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل . قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه . قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة

وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه ، لا مال أعون من العقل ، ولا مصيبة أعظم من الجهل ، ولا مظاهرة كالمشاورة . ألا وإن الله عز وجل يقول ، إني جواد كريم ، لا يجاورني لئيم . واللؤم من الكفر ، وأهل الكفر في النار . والجود والكرم من الإيمان ، وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة رضي الله عنه ، رب فاجر في دينه ، أخرق في معيشته ، يدخل الجنة بسماحته . وروى أن الأحنف بن قيس رأى رجلا في يده درهم ، فقال لمن هذا الدرهم؟ فقال لي . فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك . وفي معناه قيل

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ، فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا . وقال الأصمعي ، كتب الحسن بن علي ، إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم

يعتب عليه في إعطاء الشعراء . فكتب إليه ، خير المال ماوقى به العرض . وقيل لسفيان ابن عيينة ، ماالسخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان ، والجود بالمال . قال وورث أبي خمسين ألف درهم ، فبعث بها صررا إلى إخوانه وقال ، قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي ، أفأبخل عليهم بالمال ! وقال الحسن . بذل المجهود في بذل الموجود ، منتهى الجود

وقيل لبعض الحكماء ، من أحب الناس إليك ؟ قال من كثرت أياديه عندي قيل فإن لم يكن قال من كثرت أيادي عنده . وقال عبد العزيز بن مروان ، إذا الرجل أمكنني من نفسه ، حتى أضع معروفي عنده ، فيده عندي مثل يدي عنده . وقال المهدي لشبيب بن شبة ، كيف رأيت الناس في داري ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا . وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

إن الصنيعة لاتكون صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها ... لله أو لذوي القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ، إن هذين البيتين ليبخلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا ، وإن أصاب اللئام كنت له أهلا

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر ، عن أم درة ، وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها ، قالت ، إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ، ثمانين ومائة ألف درهم . فدعت بطبق ، فجعلت تقسمه بين الناس . فلما أمست ، قالت ياجارية ، هاتي فطوري . فجاءتها بخبز وزيت . فقالت لها أم درة ، مااستطعت فيما قسمت اليوم ، أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتيني لفعلت . وعن أبان بن عثمان قال ، أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس ، فأتى وجوه قريش فقال ، يقول لكم عبيد الله تغدوا عندي اليوم . فأتوه حتى ملأوا عليه الدار . فقال ماهذا ؟ فأخبر الخبر . فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا ، وخبزوا وقدمت الفاكهة إليهم ، فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد ، فأكلوا حتى صدروا . فقال عبيد الله لوكلائه ، أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم . قال فليتغد عندنا هؤلاء في كل يوم

وقال مصعب بن الزبير ، حج معاوية ، فلما انصرف مر بالمدينة . فقال الحسين بن علي

لأخيه الحسن ، لاتلقه ، ولا تسلم عليه . فلما خرج معاوية ، قال الحسن ، إن علينا دينا ، فلابد لنا من إتيانه . فركب فى أثره ولحقه ، فسلم عليه ، وأخبره بدينه . فروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار ، وقد أعيا وتخلف عن الإبل ، وقوم يسوقونه . فقال معاوية ماهذا ؟ فذكر له . فقال اصرفوه بما عليه إلى أبى محمد . وعن واقد بن محمد الواقدى قال ، حدثنى أبى أنه رفع رقعة إلى المأمون ، يذكر فيها كثرة الدين ، وقلة صبره عليه . فوقع المأمون على ظهر رقعته ، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء ، والحياء . فأما السخاء فهو الذى أطلق مافى يديك ، وأما الحياء فهو الذى يمنعك عن تبليغنا ماأنت عليه . وقد أمرت لك بمائة ألف درهم . فإن كنت قد أصبت ، فازدد فى بسط يدك . وإن لم أكن قد أصبت ، فجنايتك على نفسك ، وأنت حدثتنى وكنت على قضاء الرشيد ، عن محمد بن إسحق ، عن الزهرى ، عن أنس ، أن النبى صلى الله عليه وسلم [1] قال للزبير بن العوام « يَازُبَيْرُ اعْلَمْ أَنَّ مَفَاتِيحَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بِإِزَاءِ الْعَرْشِ يَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ فَمَنْ كَثَّرَ كَثَّرَ لَهُ وَمَنْ قَلَّلَ قَلَّلَ لَهُ » وأنت أعلم . قال الواقدى ، فو الله لمذاكرة المأمون إياى بالحديث ، أحب إلىّ من الجائزة ، وهى مائة ألف درهم وسأل رجل الحسن بن على رضى الله عنهما حاجة ، فقال له ياهذا ، حق سؤالك إياى يعظم لدىّ ، ومعرفتى بما يجب لك تكبر علىّ ، ويدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله تعالى قليل ، وما فى ملكى وفاء لشكرك . فإن قبلت الميسور ، ورفعت عنى مؤنة الاحتمال ، والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك ، فعلت . فقال يابن رسول الله ، أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله ، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها . فقال هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم . فأحضر خمسين ألفا . قال فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال هى عندى . قال أحضرها . فأحضرها . فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل ، وقال هات من يحملها لك . فأتاه بحمالين ، فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين . فقال له مواليه ، والله ماعندنا درهم فقال أرجو أن يكون لى عند الله أجر عظيم

---

(١) حديث أنس يازبير أعلم ان مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ـ الحديث : وفى أوله قصة مع المأمون الدارقطنى فيه وفى إسناده الواقدى عن محمد بن إسحاق عن الزهرى بالعنعنة ولا يصح

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة . فقالوا لنا جار صوام قوام ، يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه ، وهو فقير ، وليس عنده ما يجهزها به . فقام عبد الله بن عباس ، فأخذ بأيديهم ، وأدخلهم داره ، وفتح صندوقا . فأخرج منه ست بدر . فقال احملوا . فحملوا . فقال ابن عباس ، ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه . ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها ، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه ، ومابنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى . ففعل وفعلوا

وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر ، وعبد الحميد بن سعد أميرهم ، فقال ، والله لأعلمن الشيطان أني عدوه . فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم ، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حليّ نسائه ، وقيمتها خمسمائة ألف ألف . فلما تعذر عليه ارتجاعها ، كتب إليهم ببيعها ، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا ، فقال له رجل ، بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا . فقال قد فعلت . وحقه لأعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل

وكان أبو مرثد أحد الكرماء ، فمدحه بعض الشعراء . فقال للشاعر ، والله ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدمني إلى القاضي ، وادّع علىّ بعشرة آلاف درهم ، حتى أقر لك بها ، ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوسا . ففعل ذلك ، فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم ، وأخرج أبو مرثد من الحبس . وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة ، فحضر بابه شاعر ، فأقام مدة ، وأراد الدخول على معن . فلم يتهيأ له . فقال يوما لبعض خدام معن ، إذا دخل الأمير البستان فعرفني . فلما دخل الأمير البستان أعلمه . فكتب الشاعر بيتا على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان . وكان معن على رأس الماء . فلما بصر بالخشبة ، أخذها وقرأها ، فإذا مكتوب عليها

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فمالي إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعي بالرجل . فقال له كيف قلت ؟ فقاله . فأمر له بعشر بدر فأخذها ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه . فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط

وقرأها، ودعا بالرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم. فلما أخذها الرجل، تفكر، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج. فلما كان فى اليوم الثالث، قرأ ما فيها، ودعا بالرجل، فطلب فلم يوجد. فقال معن، حق علىّ أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار

وقال أبو الحسن المدائنى، خرج الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر حجاجا. ففاتهم أثقالهم. فجاعوا وعطشوا. فمروا بعجوز فى خباءلها، فقالوا هل من شراب؟ فقالت نعم فأناخوا إليها، وليس لها إلا شويهة فى كسر الخيمة. فقالت احلبوها، وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك. ثم قالوا لها، هل من طعام؟ قالت لا إلا هذه الشاة. فليذبحها أحدكم، حتى أهيء لكم ما تأكلون. فقام إليها أحدهم، وذبحها، وكشطها. ثم هيأت لهم طعاما. فأكلوا، وأقاموا حتى أبردوا. فلما ارتحلوا، قالوا لها، نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين، فألمى بنا، فإنا صانعون بك خيرا. ثم ارتحلوا. وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب الرجل، وقال ويلك، تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش! قال ثم بعد مدة، ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه، ويتعيشان بثمنه. فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن على جالس على باب داره، فعرف العجوز، وهي له منكرة. فبعث غلامه فدعا بالعجوز، وقال لها يا أمة الله، أتعرفيني؟ قالت لا. قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا. فقالت العجوز بأبى أنت وأمى أنت هو؟ قال نعم. ثم أمر الحسن، فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين. فقال لها الحسين، بكم وصلك أخي؟ قالت بألف شاة وألف دينار. فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر. فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت بألفى شاة وألفى دينار. فأمر لها عبد الله بألفى شاة وألفى دينار، وقال لها لو بدأت بى لأتعبتهما. فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة، وأربعة آلاف دينار

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله، وهو وحده. فقام إليه غلام من ثقيف، فمشى إلى جانبه. فقال له عبد الله، ألك حاجة يا غلام؟ قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشى وحدك، فقلت أقيك بنفسى، وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه. فأخذ

عبد الله بيده ، ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار ، فدفعها إلى الغلام ، وقال استنفق هذه ، فنعم ماأدبك أهلك . وحكى أن قوما من العرب ، جاؤا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره ، وباتوا عنده . وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد . فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له ، هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي ؟ وكان السخي الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين . فقال له في النوم نعم . فباعه في النوم بعيره بنجيبه . فلما وقع بينهما العقد ، عمد هذا الرجل إلى بعيره ، فنحره في النوم . فانتبه الرجل من نومه ، فإذا الدم يثج من نحر بعيره . فقام الرجل ، فنحره ، وقسم لحمه ، فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ، ثم رحلوا وساروا . فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق ، استقبلهم ركب . فقال رجل منهم ، من فلان بن فلان منكم ؟ باسم ذلك الرجل . فقال أنا . فقال هل بعت من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر . قال نعم ، بعت منه بعيري بنجيبه في النوم . فقال خذ هذا نجيبه . ثم قال ، هو أبي ، وقد رأيته في النوم ، وهو يقول إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان ، وسماه . وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضر به المرض . فقال ياهذا أعنا على الدهر . فقال الرجل لغلامه ، مابقي معك من النفقة فادفعه إليه . فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم . فذهب لينهض ، فلم يقدر من الضعف فبكى . فقال له الرجل ، مايبكيك ، لعلك استقللت ماأعطيناك ؟ قال لا . ولكن ذكرت ماتأكل الأرض من كرمك فأبكاني . واشترى عبد الله بن عامر ، من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق ، بتسعين ألف درهم . فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله ، مالهؤلاء ؟ قالوا يبكون لدارهم . فقال ياغلام ، ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا

وقيل بعث هارون الرشيدى إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار . فبلغ ذلك الليث بن سعد ، فأنفذ إليه ألف دينار . فغضب هارون وقال ، أعطيته خمسمائة ، وتعطيه ألفا ، وأنت من رعيتي ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة ، مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئا من عسل . فأمر

لها بزق من عسل . فقيل له إنها كانت تقنع بدون هـذا . فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم، حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا . وقال الأعمش ، اشتكت شاة عندى ، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ، ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه ، فإذا خرج قال ، خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إلىّ فى علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره ، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ

وقال عبد الملك بن مروان ، لأسماء بن خارجة ، بلغنى عنك خصال ، فحدثنى بها . فقال هى من غيرى أحسن منها منى . فقال عزمت عليك إلا حدثتنى بها . فقال ياأمير المؤمنين مامددت رجلى بين يدى جليس لى قط ، ولا صنعت طعاما قط ، فدعوت عليه قوما ، إلا كانوا أمن على منى عليهم . ولا نصب لى رجل وجهه قط ، يسألنى شيئا ، فاستكثرت شيئا أعطيته إياه . ودخل سعيد بن خالد ، على سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا ، كتب لمن سأله صكا على نفسه ، حتى يخرج عطوه فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال

إنى سمعت مع الصباح مناديا يامن يعين على الفتى المعوان

ثم قال ، ماحاجتك ؟ قال دَينى قال وكم هو ؟ قال ثلاثون ألف دينار . قال لك دَينك ومثله

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء . قال فانكسرت درجته بالعشى ، لكثرة من زاره وعاده . وعن أبى إسحاق قال ، صليت الفجر فى مسجد الأشعث بالكوفة ، أطلب غريما لى . فلما صليت ، وضع بين يدى حلة ونعلان . فقلت لست من أهل هـذا المسجد . فقالوا إن الأشعث بن قيس الكندى ، قدم البارحة من مكة ، فأمر لكل من صلى فى المسجد بحلة ونعلين . وقال الشيخ أبو سعد الخركوشى النيسابورى رحمه الله ، سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعى المجاور بمكة يقول ، كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا، فولد لبعضهم مولود . قال فجئت إليه، وقلت

له وُلدلي مولود ، وليس معي شيء . فقام معي ، ودخل على جماعة ، فلم يفتح بشيء . فجاء إلى قبر رجل ، وجلس عنده ، وقال رحمك الله ، كنت تفعل وتصنع ، وإني درت اليوم على جماعة ، فكلفتهم دفع شيء لمولود ، فلم يتفق لي شيء . قال ثم قام ، وأخرج دينارا ، وقسمه نصفين ، وناولني نصفه . وقال هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك بشيء . قال فأخذته وانصرفت ، فأصلحت مااتفق لي به ، قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه ، فقال سمعت جميع ما قلت ، وليس لنا إذن في الجواب ،ولكن أحضر منزلي ، وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون ، ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار،فاحملها إلى هذا الرجل . فلما كان من الغد ، تقدم إلى منزل الميت ، وقص عليهم القصة ، فقالوا له اجلس . وحفروا الموضع ، وأخرجوا الدنانير ، وجاؤابها ، فوضعوها بين يديه . فقال هذا مالكم ، وليس لرؤياي حكم .فقالوا هو يتسخى ميتا ، ولا نتسخى نحن أحياء ! فلما ألحوا عليه ، حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود ، وذكر له القصة . قال فأخذ منها دينارا ، فكسره نصفين ، فأعطاه النصف الذي أقرضه ، وحمل النصف الآخر ، وقال يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء . فقال أبو سعيد ، فلا أدرى أي هؤلاء أسخى .

وروى أن الشافعي رحمه الله ، لما مرض مرض موته بمصر ، قال مروافلانا يغسلني . فلما توفى ، بلغه ، خبر وفاته ، فحضر وقال ، ائتوني بتذكرته . فأتى بها ، فنظر فيها ، فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين . فكتبها على نفسه ، وقضاها عنه ، وقال هذا غسلي إياه . أي أرادبه هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي ، لما قدمت مصر ، طلبت منزل ذلك الرجل ، فدلوني عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم ، فرأيت فيهم سيما الخير ، وآثار الفضل . فقلت بلغ أثره في الخير اليهم، وظهرت بركته فيهم ،مستدلا بقوله تعالى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا [1]) . وقال الشافعي رحمه الله ، لاأزال أحب حماد بن أبي سليمان، لشيء بلغني عنه . أنه كان ذات يوم راكبا حماره ، فحركه ، فانقطع زره . فمر على خياط، فأراد أن ينزل إليه ليسوي زره . فقال الخياط ، والله لا نزلت . فقام الخياط إليه ،

---

(١) الكهف : ٨٢ .

فسوى زره. فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير ، فسلمها إلى الخياط ، واعتذر إليه من قلتها . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه

يالهف قلبي على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروآت
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ماليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال ، أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله ، فقال ياربيع ، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني . وقال الربيع ، سمعت الحميدي يقول ، قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار ، فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ، ونثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه ، يقبض له قبضة ويعطيه ، حتى صلى الظهر ، ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال . أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال . وكان قلما يمسك شيئا من سماحته . فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك . قال فخرج ، ثم قدم علينا ، فسألته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها ، لمعرفتي بأصلها ، وقد وقف أكثرها . ولكني بنيت بمنى مضربا ، يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ... ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي ، دخل أبي على المأمون ، فوصله بمائة ألف درهم . فلما قام من عنده تصدق بها . فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه ، عاتبه المأمون في ذلك . فقال يا أمير المؤمنين ، منعُ الموجود سوء ظن بالمعبود . فوصله بمائة ألف أخرى

. وقام رجل إلى سعيد بن العاص ، فسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم . فبكى . فقال له سعيد ما يبكيك ؟ قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى

ودخل أبو تمام على ابراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها ، فوجده عليلا . فقبل منه المدحة ، وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ، وقال عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه . فأقام شهرين فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

إن حراما قبول مدحتنا ... وترك ما نرتجي من الصفد

كما الدراهم والدنانير فى البـ ـيع حرام إلا يدا بيـــد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم ، قال لحاجبه : كم أقام بالباب ، قال شهرين . قال أعطه ثلاثين ألفا ، وجئني بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنـا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنـا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم . فخرج عثمان يوما إلى المسجد ، فقال له طلحة ، قد تهيأ مالك فاقبضه . فقال هو لك يا أبا محمد، معونة لك على مروءتك.

وقالت سعدى بنت عوف ، دخلت على طلحة ، فرأيت منه ثقلا . فقلت له ما لك ؟ فقال اجتمع عندى مال وقد غمني . فقلت وما يغمك : أدع قومك . فقال يا غلام . على بقومى فقسمه فيهم . فسألت الخادم كم كان ؟ قال أربعمائة ألف . وجاء أعرابى إلى طلحة ، فسأله وتقرب إليه برحم . فقال إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك . إن لى أرضا قد أعطانى بها عثمان ثلثمائة ألف ، فإن شئت فاقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ، ودفعت إليك الثمن فقال الثمن . فباعها من عثمان ، ودفع إليه الثمن . وقيل بكى علي كرم الله وجهه يوما . فقيل ما يبكيك ؟ فقال لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهانني .

وأتى رجل صديقا له ، فدق عليه الباب ، فقال ما جاء بك ؟ قال علىّ أربعمائة درهم دين. فوزن أربعمائة درهم ، وأخرجها إليه ، وعاد يبكى . فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله ، حتى احتاج إلى مفاتحتى . فرحم الله من هذه صفاتهم ، وغفر لهم أجمعين

بيان

ذم البخل

قال الله تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [1]) وقال تعالى (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [2]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ

---

(1) التغابن : ١٦ (2) آل عمران : ١٨٠

مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [(1)]) . وقال صلى الله عليه وسلم [(1)] « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [(2)] « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [(3)] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا خَبٌّ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وفي رواية « وَلَا جَبَّارٌ » وفي رواية « وَلَا مَنَّانٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم [(4)] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(5)] « إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ ثَلَاثَةً الشَّيْخَ الزَّانِيَ وَالْبَخِيلَ الْمَنَّانَ وَالْمُعِيلَ الْمُخْتَالَ » وقال صلى الله عليه وسلم [(6)] « مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا قَلَصَتْ وَلَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا حَتَّى أَخَذَتْ بِتَرَاقِيهِ فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ » . وقال صلى الله عليه وسلم [(7)] « خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إياكم والشح ـ الحديث : مسلم من حديث جابر بلفظ واتقوا الشح فان الشح ـ الحديث : ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو إياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا

(٢) حديث إياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم: الحاكم من حديث أبي هريرة بفك حرماتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث لايدخل الجنة بخيل ولاخب ولاخائن ولاسيء الملكة وفي رواية ولامنان: أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولامنان فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه لايدخل الجنة سيء الملكة

(٤) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم في العلم

(٥) حديث إن الله يبغض ثلاثا الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال : الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل المنان وقال فيه الغني الظلوم وقد تقدم وللطبراني في الأوسط من حديث علي ان الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال وسنده ضعيف

(٦) حديث مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٧) حديث خصلتان لاتجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق : الترمذي من حديث أبي سعد وقال غريب

(1) النساء : ١٣٧

(١) « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ. إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَاحِشَ وَلاَ الْمُتَفَحِّشَ وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحُّ أَمَرَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَذَبُوا وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ » . وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكته باكية ، فقالت واشهيداه . فقال صلى الله عليه وسلم (٤) « وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّهُ شَهِيدٌ فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لاَ يَعْنِيهِ أَوْ يَبْخَلُ بِمَا لاَ يُنْقِصُهُ » وقال جبير ابن مطعم ، (٥) بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة ، فخطفت رداءه . فوقف صلى الله عليه وسلم فقال « أَعْطُونِي رِدَائِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاةِ نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً »

وقال عمر رضي الله عنه ، (٦) قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما . فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم . فقال « إِنَّهُمْ يُخَيِّرُونِي بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي وَلَسْتُ بِبَاخِلٍ »

---

(١) حديث اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن ـ الحديث : البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار

(٢) حديث إياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ـ الحديث : الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عوضا عنهما وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا وكذا رواه أبو داود مقتصرا على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش

(٣) حديث شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع : أبو داود من حديث جابر بسند جيد

(٤) حديث وما يدريك انه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه : أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وللبيهقي في الشعب من حديث أنس ان أمه قالت لينهك الشهادة وهو عند الترمذي الا أن رجلا قال له أبشر بالجنة

(٥) حديث جبير بن مطعم بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به ـ الحديث : البخاري وتقدم في أخلاق النبوة

(٦) حديث عمر قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما ـ الحديث : وفيه ولست بباخل مسلم

وقال أبو سعيد الخدري، (١) دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألاه ثمن بعير. فأعطاهما دينارين. فخرجا من عنده، فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفا، وشكرا ما صنع بهما. فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا. فقال صلى الله عليه وسلم «لَكِنْ فُلَانٌ أَعْطَيْتُهُ مَا بَيْنَ عَشَرَةٍ إِلَى مِائَةٍ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي فَيَنْطَلِقُ فِي مَسْأَلَتِهِ مُتَأَبِّطُهَا وَهِيَ نَارٌ» فقال عمر، فلم تعطيهم ماهو نار؟ فقال «يَأْبَوْنَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى اللهُ لِيَ الْبُخْلَ»

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) «الْجُودُ مِنْ جُودِ اللهِ تَعَالَى فَجُودُوا يَجُدِ اللهُ لَكُمْ أَلَا إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْجُودَ فَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ طُوبَى وَشَدَّ أَغْصَانَهَا بِأَغْصَانِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْهَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَلَا إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَخَلَقَ الْبُخْلَ مِنْ مَقْتِهِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ أَلَا إِنَّ الْبُخْلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكُفْرُ فِي النَّارِ»

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَلِجُ الْجَنَّةَ إِلَّا سَخِيٌّ وَالْبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي النَّارِ فَلَا يَلِجُ النَّارَ إِلَّا بَخِيلٌ» وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) لوفد بني لحيان «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي لَحْيَانَ» قالوا سيدنا جدّ بن قيس، إلا أنه رجل فيه بخل. فقال صلى الله عليه وسلم «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ

---

(١) حديث أبي سعيد في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفا ـ الحديث: وفيه ويأبى الله لي البخل رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد انهما سألاه ثمن بعير. ورواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات

(٢) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم ـ الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أقف له على اسناد

(٣) حديث السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج في الجنة الاسخي ـ الحديث: تقدم دون قوله فلا يلج في الجنة الى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده

(٤) حديث أبي هريرة من سيدكم يابني لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس ـ الحديث: الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ يابني سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء وأما الرواية التي قال فيها سيدكم عمرو ابن الجموح فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك باسناد حسن

الْبُخْلِ وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ » وفى رواية ، أنهم قالوا سيدنا جد بن قيس فقال « بِمَ تُسَوِّدُونَهُ ؟ » قالوا إنه أكثرنا مالا ، وإنا على ذلك لنرى منه البخل .فقال عليه السلام « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ لَيْسَ ذَلِكَ سَيِّدَكُمْ » قالوا فمن سيدنا يارسول الله ؟قال « سَيِّدُكُمْ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ » . وقال على رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْبَخِيلَ فِى حَيَاتِهِ السَّخِيَّ عِنْدَ مَوْتِهِ » وقال أبو هريرة ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « السَّخِيُّ الْجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ »

وقال أيضا ،قال صلى الله عليه وسلم [٣] « الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِى قَلْبِ عَبْدٍ » وقال أيضا [٤] « خَصْلَتَانِ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِى مُؤْمِنٍ ، الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « لاَ يَنْبَغِى لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ بَخِيلاً وَلاَ جَبَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « يَقُولُ قَائِلُكُمْ الشَّحِيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظَّالِمِ وَأَيُّ ظُلْمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللهُ تَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلاَلِهِ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلاَ بَخِيلٌ »

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٧] كان يطوف بالبيت ، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول ، بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى ذنبى . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا ذَنْبُكَ صِفْهُ لِى » فقال هو أعظم من أن أصفه لك. فقال « وَيْحَكَ ذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْأَرَضُونَ ؟ » فقال بل ذنبى أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْجِبَالُ ؟ » قال بل ذنبى أعظم

---

(١) حديث على ان الله ليبغض البخيل فى حياته السخى عندموته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أجدله اسنادا

(٢) حديث أبى هريرة السخى الجهول أحب الى الله من العابد البخيل الترمذى بلفظ ولجاهل سخى وبقية حديث ان السخى قريب من الله وقدتقدم

(٣) حديث أبى هريرة لايجتمع الشح والايمان فى قلب عبد النسائى وفى اسناده اختلاف

(٤) حديث خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن ــ الحديث . الترمذى من حديث أبى سعيد وقدتقدم

(٥) حديث لاينبغى لمؤمن أن يكون جبانا ولابخيلا لم أره بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم من الشح ـ الحديث : وفيه لايدخل الجنة شحيح ولابخيل لم أجده بتمامه وللترمذى من حديث أبى بكر لايدخل الجنة بخيل وقدتقدم

(٧) حديث كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الاغفرت لى الحديث : فى ذم البخل وفيه قال إليك عنى لاتحرقنى بنارك ـ الحديث بطوله وهو باطل لاأصل له

يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْبِحَارُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ السَّمٰوَاتُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْعَرْشُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ اللهُ » قال بل الله أعظم وأعلى قال « وَيْحَكَ فَصِفْ لِي ذَنْبَكَ » قال يارسول الله ، إني رجل ذو ثروة من المال ، وإن السائل ليأتيني يسألني ، فكأنما يستقبلني بشعلة من نار . فقال صلى الله عليه وسلم « إِلَيْكَ عَنِّي لَا تُحْرِقْنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْهِدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ لَوْ قُمْتَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ثُمَّ صَلَّيْتَ أَلْفَيْ أَلْفِ عَامٍ ثُمَّ بَكَيْتَ حَتَّى تَجْرِيَ مِنْ دُمُوعِكَ الْأَنْهَارُ وَتُسْقَى بِهَا الْأَشْجَارُ ثُمَّ مُتَّ وَأَنْتَ لَئِيمٌ لَأَكَبَّكَ اللهُ فِي النَّارِ وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْبُخْلَ كُفْرٌ وَأَنَّ الْكُفْرَ فِي النَّارِ وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ (وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ [1]) (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [2])

الآثار : قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لما خلق الله جنة عدن ، قال لها تزيني . فتزينت ثم قال لها أظهري أنهارك ، فأظهرت عين السلسبيل ، وعين الكافور ، وعين التسنيم . فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر ، وأنهار العسل واللبن . ثم قال لها أظهري سررك ، وحجالك وكراسيك ، وحليك ، وحللك ، وحور عينك . فأظهرت . فنظر إليها فقال تكلمي . فقالت طوبى لمن دخلني . فقال الله تعالى ، وعزتي لأاسكنك بخيلا

وقالت أم البنين ، أخت عمر بن عبد العزيز ، أف للبخيل . لو كان البخل قميصا مالبسته ولو كان طريقا ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء ، لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر ، كان يقال إذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم ، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم . وقال علي كرم الله وجهه في خطبته إنه سيأتي على الناس زمان عضوض ، يعض الموسر على ما في يده ، ولم يؤمر بذلك . قال الله تعالى (وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ [3]) وقال عبد الله بن عمرو ، الشح أشد من البخل . لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه ، ويشح بما في يده فيحبه والبخيل

---

(1) محمد : ٣٨ (2) التغابن : ١٦ (3) البقرة : ٢٣٧

هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي ، لاأدري أيهما أبعد غورا في نار جهنم. البخل أو الكذب وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند ، وفيلسوف الروم . فقال للهندي تكلم . فقال خير الناس من ألفي سخيا ، وعند الغضب وقورا ، وفي القول متأنيا ، وفي الرفعة متواضعا، وعلى كل ذي رحم مشفقا . وقام الرومي فقال ، من كان بخيلا ورث عدوه ماله ، ومن قل شكره لم ينل النجح ، وأهل الكذب مذمومون ، وأهل النميمة يموتون فقراء ، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا [١]) قال البخل . أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله ، فهم لايبصرون الهدى . وقال كعب ، ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان ، اللهم عجل لممسك تلفا ، وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي ، سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال ، لقد صغر فلان في عيني، لعظم الدنيا في عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، لا أرى أن أعدل بخيلا ، لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه ، خيفة من أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة

وقال علي كرم الله وجهه ، والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى (عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ [٢]) وقال الجاحظ ، مابقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث ، البخيل لا غيبة له . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ إِذاً لَبَخِيلٌ » ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [٢] فقالوا صوامة ، قوامة ، إلا أن فيها بخلا . قال « فَمَا خَيْرُهَا إِذاً »

وقال بشر ، النظر إلى البخيل يقسي القلب ، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال يحيى بن معاذ، مافي القلب للأسخياء إلا حب، ولو كانوا فجارا، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز ، أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه . ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام ابليس في صورته فقال له يا ابليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك . قال أحب

---

(٢) حديث مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة الا أن فيها بخلا ـ الحديث : تقدم في آفات اللسان

(١) يس : ٨ (٢) التحريم : ٣

الناس إلىّ المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلىّ الفاسق السخي . قال لأن البخيل قد كفانى بخله ، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه فى سخائه فيقبله . ثم ولى وهو يقول ، لولا أنك يحيي لما أخبرتك

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه ، وقدم إليه طباهجة ببيض فأكل منه ، فأكثر . وجعل يشرب الماء ، فانتفخ بطنه ، ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى . فلما جهده الأمر ، وصف حاله للطبيب ، فقال لا بأس عليك ، تقيأ ما أكلت فقال هاه ، أتقيأ طباهجة ببيض ، الموتُ ولا ذلك - وقيل أقبل أعرابى يطلب رجلا ، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه . فجلس الأعرابى ، فقال له الرجل ، هل تحسن من القرءان شيئا ؟ قال نعم فقرأ (وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ (١)) فقال وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك

ودعا بعضهم أخاله ، ولم يطعمه شيئا - فحبسه إلى العصر ، حتى اشتد جوعه ، وأخذه مثل الجنون . فأخذ صاحب البيت العود ، وقال له بحياتى أى صوت تشتهى أن أسمعك ؟ قال صوت المقلى

ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل ، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه . فقال له قائل ، صف لى مائدته . فقال هى فتر فى فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش . قيل فمن يحضرها ؟ قال الكرام الكاتبون ، قال فما يأكل معه أحد ؟ قال بلى الذباب : فقال سوأتك بدت ، وأنت خاص به ، وثوبك مخرق . قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد إلى النوبة ، مملوأ إبرا ، ثم جاءه جبريل ، وميكائيل ، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام ، يطلبون منه إبرة ، ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر ، ما فعل - ويقال كان مروان بن أبى حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه ، فإذا قرم إليه ، أرسل غلامه ، فاشترى له رأسا . فأكله فقيل له نراك لا تأكل إلا الرؤس فى الصيف والشتاء ، فلم تختار ذلك ؟ قال نعم ، الرأس أعرف سعره ، فآمن خيانة الغلام ، ولا يستطيع أن يغبننى فيه وليس بلحم يطبخه الغلام ،

---

(١) التين : ١

فيقدر أن يأكل منه، إن مس عينا، أو أذنا، أو خدا، وقفت على ذلك. وآكل منه ألوانا عينه لونا، وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصمته لونا، ودماغه لونا، وأكفي مؤنة طبخه. فقد اجتمعت لي فيه مرافق

وخرج يوما يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله، مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال إن أعطيت مائة ألف، أعطيتك درهما. فأعطي ستين ألفا، فأعطاها أربعة دوانق. واشترى مرة لحما بدرهم، فدعاه صديق له، فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق، وقال أكره الإسراف

وكان للأعمش جار، وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول، لو دخلت فأكلت كسرة وملحا، فيأبى عليه الأعمش. فعرض عليه ذات يوم، فوافق جوع الأعمش، فقال سر بنا. فدخل منزله، فقرب إليه كسرة وملحا. فجاء سائل، فقال له رب المنزل، بورك فيك فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك. فلما سأل الثالثة، قال له اذهب وإلا والله خرجت إليك بالعصا، قال فناداه الأعمش وقال. اذهب، ويحك، فلا والله ما رأيت أحدا أصدق مواعيد منه، هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح، فلا والله ما زادني عليهما

بيان

الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجات السخاء الإيثار. وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه. وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه لمحتاج، أو لغير محتاج. والبذل مع الحاجة أشد. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة. فكم من بخيل يمسك المال ويمرض، فلا يتداوى. ويشتهي الشهوة، فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لأكلها. فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة. وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين، فإن الأخلاق عطايا، يضعها الله حيث يشاء

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1] ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم

(1) الحشر : ٩

«أَيُّمَا امْرِئٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ غُفِرَ لَهُ»[(١)] وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)] ثلاثة أيام متوالية ، حتى فارق الدنيا . ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا[(٣)] . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يديه إلى الطعام كأنه يأكل ، ولا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام . فلما أصبح . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمُ اللَّيْلَةَ إِلَى ضَيْفِكُمْ » ونزلت (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[(١)]) . فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى سماه الله تعالى عظيما ، فقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[(٢)])

وقال سهل بن عبد الله التستري ، قال موسى عليه السلام ، يارب ، أرني بعض درجات محمد صلى عليه وسلم وأمته . فقال ياموسى ، إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازله ، جليلة عظيمة ، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي . قال فكشف له عن ملكوت السموات ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى . فقال يارب ، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال بخلق اختصصته به من بينهم ، وهو الإيثار ياموسى ، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره ، إلا استحييت من محاسبته ، وبوأته من جنتي حيث يشاء . وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم

---

(١) حديث أيما رجل أشتهى شهوة فردشهوته وآثر على نفسه غفرله : ابن حيان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث عائشة ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكنا نؤثر على أنفسنا : البيهقي في الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله وللشيخين ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض زاد مسلم من طعام

(٣) حديث نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الانصار فذهب به الى أهله الحديث : في نزول قوله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة متفق عليه من حديث أبي هريرة

---

(١) الحشر : ٩ (٢) القلم : ٤

وفيه غلام أسود يعمل فيه . إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه . فقال ياغلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال مارأيت . قال فلمَ آثرت به هذا الكلب ؟ قال ماهي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوي يومى هذا . فقال عبد الله بن جعفر ، ألام على السخاء ؟ إن هذا الغلام لأسخى مني . فاشترى الحائط والغلامَ ومافيه من الآلات ، فأعتق الغلام ، ووهبه منه .

وقال عمر رضي الله عنه ، أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال إن أخي كان أحوج مني إليه ، فبعث به إليه . فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر ، حتى تداوله سبعة أبيات ، ورجع إلى الأول .

وبات علي كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام ، إني آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر . فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة ، وأحباها ، فأوحى الله عز وجل إليهما ، أفلا كنتما مثل على ابن أبي طالب ، آخيت بينه وبين نبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ، ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض ، فاحفظاه من عدوه . فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه . وجبريل عليه السلام يقول ، بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب . والله تعالى يباهي بك الملائكة ، فأنزل الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ[1]) . وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا ، وكانوا في قرية بقرب الري ، ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم . فكسروا الرغفان

---

(١) حديث بات علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله الى جبريل وميكائيل اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ـ الحديث : في نزول قوله تعالى ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله أحمد مختصرا من حديث ابن عباس شرى علي نفسه فلبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ـ الحديث وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على أصل وفيه أبو بلج مختلف فيه ـ والحديث : منكر

(١) البقرة : ٢٠٧

وأطفؤا السراج ، وجلسوا للطعام . فلما رفع ، فإذا الطعام بحاله ، ولم يأكل أحد منه شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل ، وليس عنده شيء . فنزع خشبة من سقف بيته ، فأعطاه ، ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوي ، انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ، ومعي شيء من ماء ، وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به وجهه . فإذا أنا به . فقلت أسقيك ؟ فأشار إلىّ أن نعم . فإذا رجل يقول آه . فأشار ابن عمي إلىّ أن انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال آه . فأشار هشام انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات . فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو قد مات ، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقال عباس بن دهقان ، ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها ، إلا بشر بن الحارث ، فإنه أتاه رجل في مرضه ، فشكا إليه الحاجة ، فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوبا فمات فيه .

وعن بعض الصوفية ، قال كنا بطرسوس ، فاجتمعنا جماعة ، وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد . فلما بلغنا ظاهر الباب ، إذا نحن بدابة ميتة ، فصعدنا إلى موضع عال ، وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة ، رجع إلى البلد ، ثم عاد بعد ساعة ، ومعه مقدار عشرين كلبا . فجاء إلى تلك الميتة ، وقعد ناحية ، ووقعت الكلاب في الميتة . فما زالت تأكلها ، وذلك الكلب قاعد ينظر إليها ، حتى أكلت الميتة . وبقي العظم ، ورجعت الكلاب إلى البلد . فقام ذلك الكلب ، وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقي عليها قليلا ، ثم انصرف

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار ، وأحوال الأولياء ، في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا ، وبالله التوفيق ، وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل

بيان

حد السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع ، أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا هو يرى نفسه سخيا ، وربما يراه غيره بخيلا وقد يصدر فعل من إنسان ، فيختلف فيه الناس ، فيقول قوم هذا بخل ، ويقول آخرون

ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبا للمال ، ولأجله يحفظ المال ويمسكه فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا ، فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك ، فما البخل الذى يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول

قد قال قائلون حد البخل منع الواجب . فكل من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخيل وهذا غير كاف . فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب ، والخبز للخباز ، بنقصان حبة أو نصف حبة ، فإنه يعد بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ، ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه ، أو تمرة أكلوها من ماله ، يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف ، فحضر من يظن أنه يأكل معه ، فأخفاه عنه ، عد بخيلا

وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية . وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية ، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة ، كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب مافوق ذلك . وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ، وهو مايستغرق جميع ماله ، أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل

وكذلك تكلموا فى الجود ، فقيل : الجود عطاء بلامن ، وإسعاف من غير روية

وقيل : الجود عطاء من غير مسألة ، على رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل ، الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى ، والعبد لله عز وجل ، فيعطى عبد الله مال الله ؟ على غير رؤية الفقر وقيل . من أعطى البعض ، وأبقى البعض ، فهو صاحب سخاء . ومن بذل الأكثر ، وأبقى لنفسه شيئا . فهو صاحب جود . ومن قاسى الضر ، وآثر غيره بالبلغة ، فهو صاحب إيثار . ومن لم يبذل شيئا ، فهو صاحب بخل

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل . بل نقول ، المال خلق لحكمة ومقصود ، وهو صلاحه لحاجات الخلق . ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ،

وبينهما وسط وهو المحمود ، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ، إذلم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء . وقد قيل له (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ[١])وقال تعالى(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً[٢]) . فالجود وسط بين الإسراف والإقتار ، وبين البسط والقبض . وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ، مالم يكن قلبه طيبا به ، غير منازع له فيه . فإن بذل في محل وجوب البذل ، ونفسه تنازعه ، وهو يصابرها فهو متسخ . وليس بسخي ، بل ينبغي أن لايكون لقلبه علاقة مع المال ، إلا من حيث يراد المال له ، وهو صرفه إلى مايجب صرفه إليه . فإن قلت : فقدسار هذاموقوفا على معرفة الواجب ، فما الذي يجب بذله . فأقول ، إن الواجب قسمان ، واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخي هو الذي لايمنع واجب الشرع ، ولا واجب المروءة فإن منع واحدا منهما ، فهو بخيل . ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل . كالذي يمنع أداء الزكاة ، ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤديها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسخى بالتكلف . أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ، ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل . وأما واجب المروءة ، فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات . فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله ، استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة . ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله ، وأقاربه ، ومماليكه ، مالا يستقبح مع الأجانب . ويستقبح من الجار ، مالا يستقبح مع البعيد . ويستقبح في الضيافة من المضايقة ، مالا يستقبح في المعاملة . فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة ، في ضيافة ، أو معاملة . وبما به المضايقة ، من طعام ، أو ثوب . إذ يستقبح في الأطعمة مالا يستقبح في غيرها . ويستقبح في شراء الكفن مثلا ، أو شراء الأضحية ، أو شراء خبز الصدقة ، مالا يستقبح في غيره من المضايقة : وكذلك بمن معه المضايقة ، من صديق ، أو أخ ، أو قريب ، أو زوجة ، أو ولد ، أو أجنبي . وبمن منه المضايقة ، من صبي أو امرأة ، أو شيخ ، أو شاب ، أو عالم ، أو جاهل ، أو موسر ، أو فقير .

---

(١) الإسراء : ٢٩ (٢) الفرقان : ٦٧

فالبخيل هو الذى يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع ، إما بحكم الشرع ، وإما بحكم المروءة . وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال . فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال . فمانع الزكاة والنفقة بخيل : وصيانة المروءة أهم من حفظ المال . والمضايق فى الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه ، هاتك ستر المروءة لحب المال ، فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدى الواجب ، ويحفظ المروءة ، ولكن معه مال كثير قد جمعه . ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين . فقد تقابل غرض حفظ المال ، ليكون له عدة على نوائب الزمان . وغرض الثواب ، ليكون رافعا لدرجاته فى الآخرة . وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس ، وليس ببخل عند عوام الخلق . وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا ، فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ، إن كان فى جواره محتاج فمنعه وقال ، قد أديت الزكاة الواجبة ، وليس على غيرها : ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج ، وصلاح دينه ، واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به ، فقد تبرأ من البخل .

نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ، ما لم يبذل زيادة على ذلك ، لطلب الفضيلة ، ونيل الدرجات فإذا اتسعت نفسه لبذل المال ، حيث لا يوجبه الشرع ، ولا تتوجه إليه الملامة فى العادة فهو جواد ، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر . وبعض الناس أجود من بعض . فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة ، هو الجود . ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ، ولا يكون عن طمع ، ورجاء خدمة ، أو مكافأة أو شكر ، أو ثناء . فإن من طمع فى الشكر والثناء فهو بياع ، وليس بجواد . فإنه يشترى المدح بماله . والمدح لذيذ ، وهو مقصود فى نفسه . والجود هو بذل الشىء من غير عوض هذا هو الحقيقة ، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى . وأما الآدمى ، فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشىء إلا لغرض . ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب فى الآخرة ، أو اكتساب فضيلة الجود ، وتطهير النفس عن رذالة البخل ، فيسمى جوادا . فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا ، أو من ملامة الخلق ، أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه ، فكل ذلك

ليس من الجود، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهي أعواض معجلة له عليه، فهو معتاض لاجواد ، كما روى عن بعض المتعبدات ، أنها وقفت على حبان بن هلال ، وهو جالس مع أصحابه ، فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها سلى عماشئت ،وأشاروا إلى حبان ابن هلال . فقالت ماالسخاء عندكم ؟ قالوا العطاء ، والبذل ، والإيثار . قالت هذا السخاء في الدنيا ؟ فما السخاء في الدين ؟ قالوا أن نعبد الله سبحانه ، سخية بها أنفسنا ، غير مكرهة قالت فتريدون على ذلك أجرا ؟ قالوا نعم ، قالت ولمَ ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها . قالت سبحان الله ، فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة ، فبأى شيء تسخيتم عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت السخاء عندى ، أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته ، غير كارهين ، لاتريدون على ذلك أجرا ، حتى يكون مولاكم يفعل بكم مايشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم ، فيعلم منها أنكم تريدون شيئا بشيء ؟ إن هذا في الدنيا لقبيح . وقالت بعض المتعبدات ، أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط ؟ قيل فقيم ؟قالت السخاء عندى في المهج . وقال المحاسبي ، السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ، ويسخو قلبك ببذل مهجتك ، وإهراق دمك لله تعالى ، بسماحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا . وإن كنت غير مستغن عن الثواب . ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء ، بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك مالا تحسن أن تختاره لنفسك

بيان

علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سببان : أحدهما حب الشهوات التي لاوصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل . فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ، ربما أنه كان لا يبخل بماله ، إذ القدر الذى يحتاج إليه في يوم ، أو في شهر ، أو في سنة ، قريب . وإن كان قصير الأمل ، ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه ،

فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام (١) « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر ، وقلة الثقة بمجيء الرزق ، قوى البخل لامحالة .

السبب الثانى : أن يحب عين المال . فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره ، إذا اقتصر على ماجرت به عادته بنفقته ، وتفضل آلاف ، وهو شيخ بلا ولد ، ومعه أموال كثيرة ، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ، ولا بمداواة نفسه عند المرض ، بل صار محبا للدنانير ، عاشقا لها ، يلتذ بوجودها فى يده ، وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض ، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة . وهذا مرض للقلب عظيم ، عسير العلاج ، لاسيما فى كبر السن . وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا ، فأحب رسوله لنفسه ، ثم نسى محبوبه ، واشتغل برسوله . فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات . فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ . ثم قد تنسى الحاجات ، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب فى نفسه ، وهو غاية الضلال . بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به . فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة .

فهذه أسباب حب المال وإنما علاج كل علة بمضادة سببها . فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير ، وبالصبر . وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت ، والنظر فى موت الأقران ، وطول تعبهم فى جمع المال ، وضياعه بعدهم . وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا ، وحاله أحسن ممن ورث . وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده ، يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر . وأن ولده إن كان تقيا صالحا فالله كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية ، وترجع مظلمته إليه . ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل فى الأخبار الواردة فى ذم البخل ، ومدح السخاء ، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم

ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ، ونفرة الطبع عنهم ، واستقباحهم له . فإنه مامن بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه .

---

(١) حديث الولد مبخلة زاد فى رواية محزنة : ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله محزنة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبى سعيد والحاكم من حديث الاسود بن خلف واسناده صحيح

فيعلم أنه مستثقل ومستقذر فى قلوب الناس ، مثل سائر البخلاء فى قلبه . ويعالج أيضا قلبه بأن التفكر فى مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق . ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقى يدخره لنفسه فى الآخرة ، بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم . فإذا عرف بنور البصيرة ، أن البذل خير له من الإمساك فى الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل إن كان عاقلا . فإن تحركت الشهوة ، فينبغى أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ، ويخوفه ، ويصده عنه . حكى أن أبا الحسن البوشنجى كان ذات يوم فى الخلاء ، فدعا تلميذا له ، وقال انزع عنى القميص وادفعه إلى فلان . فقال هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال لم آمن على نفسى أن تتغير ، وكان قد خطر لى بذله

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا . كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق ، بالسفر عن مستقره ، حتى إذا سافر وفارق تكلفا ، وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه . فكذلك الذى يريد علاج البخل ، ينبغى أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله . بل لو رماه فى الماء كان أولى به من إمساكه أياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه ، أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء ، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا فى حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل ، واكتسب بها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ، ويزيله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدى باللعب بالعصافير وغيرها ، لا ليخلى واللعب ولكن لينفك عن الثدى إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، ينبغى أن يسلط بعضها على بعض ، كما تسلط الشهوة على الغضب ، وتكسر سورته بها . ويسلط الغضب على الشهوة ، وتكسر رعونتها به . إلا أن هذا مفيد فى حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف . فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال ، فلا فائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ، ويزيد فى أخرى مثلها . إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء . فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه . فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء ، فينبغى أن يبذل ، فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ، مايقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها . ثم يأكل بعضها بعضا ، حتى ترجع إلى اثنتين ، قويتين ، عظيمتين . ثم لا تزالان تتقاتلان ، إلى أن تغلب إحداها الأخرى ، فتأكلها ، وتسمن بها . ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها ، إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، يمكن أن يسلط بعضها على بعض ، حتى يقمعها ، ويجعل الأضعف قوتا للأقوى ، إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة ، وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات ، أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضى لامحالة أعمالا ، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت . مثل البخل ، فإنه يقتضى إمساك المال . فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ، ماتت صفة البخل ، وصار البذل طبعا ، وسقط التعب فيه . فإن علاج البخل بعلم وعمل . فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل ، وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف . ولكن قد يقوى البخل ، بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه . وإذا لم تتحقق المعرفة ، لم تتحرك الرغبة ، فلم يتيسر العمل . فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذى يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله ، فإنه لاحيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية ، فى معالجة علة البخل فى المريدين ، أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم . وكان إذا توهم فى مريد فرحه بزاويته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره إليه ، وأخرجه عن جميع ما ملكه . وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه ، أو سجادة يفرح بها ، يأمره بتسليمها إلى غيره ، ويلبسه ثوبا خلقا ، لايميل إليه قلبه . فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل ، أنس بالدنيا وأحبها . فإن كان له ألف متاع ، كان له ألف محبوب ولذلك إذا سرق كل واحد منه ، ألمت به مصيبة بقدر حبه له . فإذا مات ، نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة ، لأنه كان يحب الكل ، وقد سلب عنه . بل هو فى حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج ، مرصع بالجواهر ، لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا . فقال لبعض الحكماء عنده ، كيف ترى هذا ؟ قال أراه مصيبة أو فقرا قال كيف ؟ قال إن كسر كان مصيبة لاجبر لها ، وإن سرق صرت فقيرا إليه ، ولم تجد مثله

وقد كنت قبل أن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر . ثم اتفق يوما أن كسر أوسرق وعظمت مصيبة الملك عليه ، فقال صدق الحكيم ، ليته لم يحمل إلينا . وهذا شأن جميع أسباب الدنيا . فإن الدنيا عدوّة لأعداء الله ، إذ تسوقهم إلى النار . وعدوّة أولياء الله إذتغمهم بالصبر عنها . وعدوّة الله، إذتقطع طريقه على عباده، وعدوّة نفسها ، فإنها تأكل نفسها، فإن المال لايحفظ إلا بالخزائن والحراس، والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال ، وهو بذل الدراهم والدنانير . فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته ، حتى يفنى . ومن عرف آفة المال لم يأنس به ، ولم يفرح به، ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته . ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل ، لأن ماأمسكه لحاجته فليس ببخل ، ومالا يحتاج إليه فلايتعب نفسه بحفظه ، فيبذله . بل هو كالماء على شط الدجلة . إذ لايبخل به أحد ، لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة

بيان

مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله

اعلم أن المال كما وصفناه ، خير من وجه ، وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق . ويأخذها الغافل ، فيقتله سمها من حيث لا يدرى . ولا يخلو أحد عن سم المال ، إلا بالمحافظة على خمس وظائف

الأولى :أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ، وأنه لم يحتاج إليه ، حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة ، القادحة فى المروءة ، كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذى فيه الذلة وهتك المروءة ، وما يجرى مجراه

الثالثة : فى المقدار الذى يكتسبه ، فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب . ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس ، ومسكن، ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات ، أدنى وأوسط ، وأعلى . وما دام مائلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة ، كان محقا ،

ويجىء من جملة المحققين . وإن جاوز ذلك ، وقع فى هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات فى كتاب الزهد

الرابعة :أن يراعى جهة المخرج ، ويقتصد فى الإنفاق ، غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه، فيضع ما اكتسبه من حِله في حقه ، ولا يضعه في غير حقه . فإن الإثم فى الأخذ من غير حقه ، والوضع فى غير حقه،سواء

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ ، والترك ، والإنفاق ، والإمساك . فيأخذ مايأخذ ليستعين به على العبادة . ويترك مايترك زهدا فيه ، واستحقارا له . إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال. ولذلك قال على رضي الله عنه ، لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض ، وأراد به وجه الله تعالى ، فهو زاهد . ولو أنه ترك الجميع ، ولم يرد به وجه الله تعالى ، فليس بزاهد .

فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله ، مقصورة على عبادة ، أو مايعين على العبادة فإن أبعد الحركات عن العبادة ، الأكل وقضاء الحاجة . وهما معينان على العبادة .فإذا كان ذلك قصدك بهما ، صار ذلك عبادة فى حقك . وكذلك ينبغى أن تكون نيتك فى كل مايحفظك ، من قميص ، وإزار ، وفراش ، وآنية . لأن كل ذلك مما يحتاج إليه فى الدين . وما فضل من الحاجة ، ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، ولا يمنعه منه عند حاجته . فمن فعل ذلك ، فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها ، واتقى سمها ، فلا تضره كثرة المال . ولكن لايتأتى ذلك إلا لمن رسخ فى الدين قدمه ، وعظم فيه علمه . والعامي إذا تشبه بالعالم فى الاستكثار من المال، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة ، شابه الصبي الذى يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ، ويتصرف فيها ، فيخرج ترياقها ، فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ، ومستلينا جلدها ، فيأخذها اقتداء به ، فتقتله فى الحال .إلا أن قتيل الحية يدرى أنه قتيل ، وقتيل المال قد لايعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية . فقيل

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير ، فى تخطى قلل الجبال، وأطراف البحار،والطرق المشوكة ، فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل فى تناول المال .

بيان

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى تفضيل الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر . وقد أوردنا ذلك فى كتاب الفقر والزهد ، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكنا فى هذا الكتاب ، ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات إلى تفصيل الأحوال . ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضى الله عنه ، فى بعض كتبه ، فى الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم . والمحاسبي رحمه الله خبر الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه

وقد قال بعد كلام له فى الرد على علماء السوء ، بلغنا أن عيسى بن مريم عليه السلام ، قال ياعلماء السوء ، تصومون ، وتصلون ، وتصدقون ، ولا تفعلون ماتؤمرون ، وتدرسون مالا تعملون . فياسوء ماتحكمون . تتوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لاتكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل فى صدوركم . ياعبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته ! بحق أقول لكم ، إن قلوبكم تبكى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم . بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى الناس أخسر منكم ؟ لو تعلمون ، ويلكم ، حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محل المتحيرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم . مهلا مهلا . ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة متعطلة . ياعبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم ، فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم

حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم

ثم قال الحارث رحمه الله : إخوانى ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا . فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون ، أو يعفو الكريم بفضله . وبعد :

فإنى رأيت الهالك المؤثر للدنيا، سروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم، وفنون المعاصى ، وإلى البوار والتلف مصيره . فرح الهالك برجائه ، فلم تبق له دنياه ، ولم يسلم له دينه . خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . فيالها من مصيبة ما أفظعها، ورزية ما أجلها . ألا فراقبوا الله إخوانى ، ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه ، من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ، ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال ، فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ، ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون .

ويحك أيها المفتون ، إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف ، مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك ، لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف ، والزينة ، فقد اغتبت السادة ، ونسبتهم إلى أمر عظيم . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد ازدريت محمدا والمرسلين ، ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد فى هذا الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك ، من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم [1] عن جمع المال ، وقد علم أن جمع المال خير للأمة ، فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلقد كان للأمة ناصحا ، وعليهم مشفقا ، وبهم رؤفا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده ، حين نهاهم عن جمع المال ،

---

(١) حديث النهى عن جمع المال : ابن عدى من حديث ابن مسعود ما أوحى الله الى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ـ الحديث : ولأبى نعيم والخطيب فى التاريخ والبيهقى فى الزهد من حديث الحارث بن سويد فى أثناء الحديث لا تجمعوا ما لا تأكلون وكلاهما ضعيف

وقد علم أن جمع المال خير لهم. أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع، فلذلك نهاهم عنه، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل، فلذلك رغبت في الاستكثار، كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك، تعالى الله عن جهلك أيها المفتون. تدبر بعقلك مادهاك به الشيطان، حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة. ويحك، ماينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف، وقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا. ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك. فقال كعب، سبحان الله، وما تخافون على عبد الرحمن، كسب طيبا، وأنفق طيبا، وترك طيبا. فبلغ ذلك أباذر، فخرج مغضبا يريد كعبا، فمر بعظم لحي بعير، فأخذه بيده، ثم انطلق يريد كعبا. فقيل لكعب، إن أبا ذر يطلبك، فخرج هاربا، حتى دخل على عثمان يستغيث به، وأخبره الخبر وأقبل أبو ذر يقص الأثر في طلب كعب، حتى انتهى إلى دار عثمان، فلما دخل، قام كعب فجلس خلف عثمان، هاربا من أبي ذر، فقال له أبو ذر، هيه يا ابن اليهودية، تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوما نحو أحد وأنا معه، فقال « يَا أَبَا ذَرّ » فقلت لبيك يارسول الله، فقال(١) « الْأَكْثَرُونَ هُمُ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقُدَّامِهِ وَخَلْفِهِ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرّ » قلت نعم يارسول الله، بأبي أنت وأمي، قال « مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ » قلت أو قنطارين يارسول الله؟ قال « بَلْ قِيرَاطَانِ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرّ أَنْتَ تُرِيدُ الْأَكْثَرَ وَأَنَا أُرِيدُ الْأَقَلَّ » فرسول الله يريد هذا، وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف،

---

(١) حديث أبي ذر الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كسب طيبا وترك طيبا وانكار أبي ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا في قول الحارث بن أسد المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولفظ كعب اذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ماأحب لو كان هذا الجبل لي ذهبا ـ الحديث : وفيه ابن لهيعة

كذبت وكذب من قال . فلم يرد عليه خوفا حتى خرج ﷺ وبلغنا أن عبدالرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن ، فضجت المدينة ضجة واحدة ، فقالت عائشة رضي الله عنها ، ماهذا؟ قيل عير قدمت لعبدالرحمن ، قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فبلغ ذلك عبدالرحمن فسألها ، فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] يقول « إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ سَعْيًا وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُهَا مَعَهُمْ إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ عَوْفٍ رَأَيْتُهُ يَدْخُلُهَا مَعَهُمْ حَبْوًا » فقال عبدالرحمن ، إن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرار ، لعلي أن أدخلها معهم سعيا .

وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] قال لعبد الرحمن بن عوف « أَمَا إِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَغْنِيَاءِ أُمَّتِي وَمَا كِدْتَ أَنْ تَدْخُلَهَا إِلَّا حَبْوًا »

ويحك أيها المفتون ، فما احتجاجك بالمال ، وهذا عبد الرحمن في فضله ، وتقواه ، وصنائعه المعروف ، وبذله الأموال في سبيل الله ، مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] ، وبشراه بالجنة أيضا ، يوقف في عرصات القيامة وأهوالها ، بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ، ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصدا ، وأعطى في سبيل الله سمحا ، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين ، وصار يحبو في آثارهم حبوا . فما ظنك بأمثالنا الغرقى في فتن الدنيا

وبعد ، فالعجب كل العجب لك يامفتون ، تتمرغ في تخاليط الشبهات والسحت ، وتتكالب على أوساخ الناس ، وتتقلب في الشهوات ، والزينة ، والمباهاة ، وتتقلب في فتن

---

(٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين شعثا ـ الحديث : في أن عبد الرحمن ابن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا في كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه ـ الحديث :

(٣) حديث انه قال أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت أن تدخلها الاحبوا : البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف ياابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيف فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور

(٤) حديث بشر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه أبو بكر في الجنة ـ الحديث : وفيه وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخاري والترمذي وهذا أصح

الدنيا ، ثم تحتج بعبد الرحمن ، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة ، كأنك أشبهت السلف وفعلهم . ويحك ! إن هذا من قياس إبليس، ومن فتياه لأوليائه

وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف ، لتعرف فضائحك ، وفضل الصحابة

ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال ، أرادوها للتعفف ، والبذل فى سبيل الله ، فكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يمنعوا منها حقا ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفى الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا . فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم . وبعد

فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله فى أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله مسرورين ، وفى البلاء راضين ، وفى الرخاء شاكرين ، وفى الضراء صابرين ، وفى السراء حامدين . وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلوّ والتكاثر ورعين ، لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ، ورضوا بالبلغة منها ، وزجوا الدنيا ، وصبروا على مكارهها، وتجرعوا مرارتها ، وزهدوا فى نعيمها وزهراتها . فبالله أكذلك أنت ، ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا ، وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله ، وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء ، أصبح كئيبا حزينا . وإذا لم يكن عندهم شيء، أصبح فرحا مسرورا . فقيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك . قال إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شيء فرحت ، إذ كان لى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة . وإذا كان عند عيالى شيء ، إغتممت ، إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا ، وقالوا مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف . وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا ، وقالوا الآن تعاهدنا ربنا

فهذه أحوال السلف ونعتهم ، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذلك أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم ، وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم

وذلك أنك تطغى عند الغنى ، وتبطر عند الرخاء ، وتمرح عند السراء ، وتغفل عن شكر ذى النعماء ، وتقنط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء ،

نعم : وتبغض الفقر، وتأنف من المسكنة، وذلك فخر المرسلين. وأنت تأنف من فخرهم، وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر، وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه. وكفى به إثما وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا، وزهرتها، وشهواتها، ولذاتها. ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] قال « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ فَرَبَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال، ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم، فيقال لهم (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا[١]) وأنت في غفلة، قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا، فيالها حسرة ومصيبة. نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو، والفخر، والزينة في الدنيا، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر، لقي الله وهو عليه غضبان. وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك، حين أردت التكاثر والعلو. نعم : وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله، فأنت تكره لقاء الله، والله للقائك أكره، وأنت في غفلة . وعساك تأسف على مافاتك من عرض الدنيا، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وقيل سنة. وأنت تأسف على مافاتك، غير مكترث بقربك من عذاب الله. نعم : ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك، وتفرح بإقبال الدنيا عليك، وترتاح لذلك سرورا بها، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[٢] « مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسُرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال، إنك تحاسب على التحزن على مافاتك من الدنيا، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها. وأنت فرح بدنياك، وقد سلبت الخوف من الله تعالى . وعساك تعنى بأمور دنياك، أضعاف ماتعنى بأمور آخرتك . وعساك ترى مصيبتك في معاصيك، أهون

---

(١) حديث شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث: تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة

(٢) حديث من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه: لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه

---

(١) الأحقاف: ٢٠

من مصيبتك فى انتقاص دنياك . نعم : وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ماجمعت من الأوساخ كلها ، للعلو ، والرفعة فى الدنيا . وعساك ترضى المخلوقين ، مساخطا لله تعالى ، كيما تكرم وتعظم . ويحك ، فكأن احتقار الله تعالى لك فى القيامة ، أهون عليك من احتقار الناس إياك . وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ، ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها ، فكأن الفضيحة عند الله ، أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله تعالى . الله عن جهلك . فكيف تنطق عند ذوى الألباب ، وهذه المثالب فيك ! أف لك ، متلوثا بالأقذار ، وتحتج بمال الأبرار ! هيهات هيهات ، ماأبعدك عن السلف الأخيار ! والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم ، أزهد منكم فيما حرم عليكم . إن الذى لابأس به عندكم ، كان من الموبقات عندهم ، وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصى . فليت أطيب مالك وأحله ، مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك ، كما أشفقوا على حسناتهم أن لاتقبل . ليت صومك على مثال إفطارهم . وليت اجتهادك فى العبادة على مثل فتورهم ونومهم . وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال ، غنيمة الصديقين مافاتهم من الدنيا ، ونهمتهم مازوى عنهم منها . فمن لم يكن كذلك ، فليس معهم فى الدنيا ، ولا معهم فى الآخرة . فسبحان الله ، كم بين الفريقين من التفاوت ! فريق خيار الصحابة فى العلو عند الله ؛ وفريق أمثالكم فى السفالة ، أو يعفو الله الكريم بفضله . وبعد ، فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال ، للتعفف والبذل فى سبيل الله ، فتدبر أمرك . ويحك هل تجد من الحلال فى دهرك كما وجدوا فى دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط فى طلب الحلال كما احتاطوا ؟ لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال ، كنا ندع سبعين بابا من الحلال ، مخافة أن نقع فى باب من الحرام . أفتطمع من نفسك فى مثل هذا الاحتياط ؟ لا ورب الكعبة ، ماأحسبك كذلك . ويحك ، كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات ، المزوجة بالسحت والحرام . وقد بلغنا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال « مَنِ اجْتَرَأَ عَلَى الشُّبُهَاتِ أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِي الْحَرَامِ » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات ، أعلى وأفضل ، وأعظم لقدرك عند الله ، من اكتساب الشبهات ، وبذلها في سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال ، لأن تدع درهما واحدا ، مخافة أن لايكون حلالا ، خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة ، لاتدرى أيحل لك أم لا

فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ، ويحك إن كنت كما زعمت بالغا في الورع ،فلا تتعرض للحساب فإن خيار الصحابة خافوا المسألة . وبلغنا أن بعض الصحابة قال ، ماسرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال ، وأنفقها في طاعة الله ، ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجماعة. قالوا ولمَ ذاك رحمك الله ؟ قال لأنى غنى عن مقام يوم القيامة ، فيقول عبدى من أين اكتسبت ؟ وفي أى شيء أنفقت . فهؤلاء المتقون كانوا في جدة الإسلام ، والحلال موجود لديهم . تركوا المال وجلا من الحساب ، مخافة أن لا يقوم خير المال بشره وأنت بغاية الأمن ، والحلال في دهرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ، ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال . ويحك ، أين الحلال فتجمعه . وبعد ، فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ؟ وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال ، فيتركه مخافة أن يفسد قلبه . أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة ، فلا يزول عن شيء من الحق في أمرك وأحوالك؟ لئن ظننت ذلك ، لقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء

ويحك ، إنى لك ناصح ، أرى لك أن تقنع بالبلغة ، ولا تجمع المال لأعمال البر، ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) أنه قال « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » وقال عليه السلام (٣) « يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ

---

(١) حديث من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث :

(٢) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام فيقال اذهبوا به الى النار : بطوله لم أقف له على أصل

فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلاَلٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلاَلٍ فَيُقَالُ لَهُ قِفْ لَعَلَّكَ قَصَّرْتَ فِي طَلَبِ هَذَا بِشَيْءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ صَلاَةٍ لَمْ تُصَلِّهَا لِوَقْتِهَا وَفَرَّطْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَوُضُوئِهَا فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلاَلٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئًا مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ اخْتَلْتَ فِي هَذَا الْمَالِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ ثَوْبٍ بَاهَيْتَ بِهِ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ لَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ فِي شَيْءٍ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ مَنَعْتَ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتُكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلاَلٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئًا مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ وَلَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ وَلَمْ أُضَيِّعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ قَالَ فَيَجِيءُ أُولَئِكَ فَيُخَاصِمُونَهُ فَيَقُولُونَ يَارَبِّ أَعْطَيْتَهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَجَعَلْتَهُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَأَمَرْتَهُ أَنْ يُعْطِيَنَا فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُمْ وَمَا ضَيَّعَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنَ الْفَرَائِضِ وَلَمْ يَخْتَلْ فِي شَيْءٍ فَيُقَالُ قِفِ الآنَ هَاتِ شُكْرَ كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكَ مِنْ أَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ أَوْ لَذَّةٍ فَلاَ يَزَالُ يُسْأَلُ »

ويحك ، فمن ذا الذى يتعرض لهذه المسألة التى كانت لهذا الرجل ،الذى تقلب فى الحلال وقام بالحقوق كلها ، وأدى الفرائض بحدودها ، حوسب هذه المحاسبة . فكيف ترى يكون حال أمثالنا ، الغرقى فى فتن الدنيا ، وتخاليطها ، وشبهاتها ، وشهواتها ، وزينتها ،

ويحك لأجل هذه المسائل ، يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك . بهؤلاء الأخيار أسوة . فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ فى الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال بزعمك للتعفف ، والبذل فى سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ، ولم تسخط الله فى شيء من سرائرك وعلانيتك . ويحك ، فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة ، وتعتزل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال ، وتسبق مع الرعيل الأول فى زمرة المصطفى ، لا حبس عليك للمسألة والحساب ،

فإماسلامة، وإماعطب ،فإنه بلغنا أن رسول اللهصلى اللهعليهوسلم(٣) قال « يَدْخُلُ صَعَالِيكُ الْمُهَاجِرِينَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمُ الْجَنَّةَ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وقال عليه السلام (٤) « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ فَيَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَالآخَرُونَ جُثَاةٌ عَلَى رُكَبِهِمْ فَيَقُولُ قِبَلَكُمْ طُلْبَتِي أَنْتُمْ حُكَّامُ النَّاسِ وَمُلُوكُهُمْ فَأَرُونِي مَاذَا صَنَعْتُمْ فِيمَا أَعْطَيْتُكُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، ماسرني أن لى حمر النعم ولا أكون فى الرعيل الأول ، مع محمد عليه السلام وحزبه ، ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين ، فى زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليهوسلم ، وجل المتقين (٥) . لقد بلغنى أن بعض الصحابة- وهو أبو بكر رضي الله عنه ، عطش ،فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل ، فلما ذاقه خنقته العبرة ، ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه ، وذهب ليتكلم ، فعاد فى البكاء . فلما أكثر البكاء ، قيل له ، أكل هذا من أجل هذه الشربة ؟ قال نعم . بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما معه أحد فى البيت غيرى فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول إليك عنى فقلت له فداك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحدا،فمن تخاطب؟ فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا تَطَاوَلَتْ إِلَيَّ بِعُنُقِهَا وَرَأْسِهَا فَقَالَتْ لِى يَا مُحَمَّدُ خُذْنِى فَقُلْتُ إِلَيْكِ عَنِّى فَقَالَتْ إِنْ تَنْجُ مِنِّى يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّهُ لاَ يَنْجُو مِنِّى مَنْ بَعْدَكَ » فأخاف أن تكون هذه قد لحقتنى ، تقطعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقوم ، فهؤلاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليهوسلم شربة

---

(١) حديث يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بلفظ فقراء مكان صعاليك ولهما وللنسائى فى الكبرى من حديث أبى هريرة يدخل الفقراء الجنة ـ الحديث : ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر ان فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء الى الجنة بأربعين خريفا

(٢) حديث يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون ـ الحديث : لم أر له أصلا

(٣) حديث ان بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل ـ الحديث : فى دفع النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله اليك عنى ـ الحديث : البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كنا عند أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ـ الحديث : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا فى هذا الكتاب

من حلال ، ويحك أنت فى أنواع من النعم والشهوات ، من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع ! أف لك ، ما أعظم جهلك . ويحك ، فإن تخلفت فى القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محمد المصطفى ، لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء . ولئن قصرت عن السباق ، فليطولن عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثرة ، لتصيرن إلى حساب عسير . ولئن لم تقنع بالقليل ، لتصيرن إلى وقوف طويل ، وصراخ وعويل . ولئن رضيت بأحوال المتخلفين ، لتقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب العالمين ، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين . ولئن خالفت أحوال المتقين ، لتكونن من المحتبسين فى أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت . وبعد فإن زعمت أنك فى مثال خيار السلف ، قنع بالقليل ، زاهد فى الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ، ولا تدخر شيئاً لغدك ، مبغض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلا ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة ، قوى فى أمرك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك فى الله ، وأحكمت أمورك كلها على ماوافق رضوان الله ، ولن توقف فى المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبذل فى سبيل الله ، ويحك . أيها المغرور ، فتدبر الأمر ، وأمعن النظر . أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال ، وفراغ القلب للذكر ، والتذكر ، والتذكار ، والفكر ، والاعتبار ، أسلم للدين ، وأيسر للحساب ، وأخف للمسألة ، وآمن من روعات القيامة ، وأجزل للثواب ، وأعلى لقدرك عند الله أضعافا ؟ بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال ، لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها ، والآخر يذكر الله ، لكان الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم ، عن الرجل يجمع المال لأعمال البر ، قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين ، سئل عن رجلين ، أحدهما طلب الدنيا حلالا فأصابها ، فوصل بها رحمه ، وقدم لنفسه . وأما الآخر فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها . فأيهما أفضل ، قال بعيد والله ما بينهما . الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها

ويحك . فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها . ولك فى العاجل إن تركت الاشتغال بالمال ، أن ذلك أروح لبدنك ، وأقل لتعبك ، وأنعم لعيشك ، وأرضى لبالك ، وأقل لهمومك . فما عذرك فى جمع المال ، وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟

نعم : وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله ، فاجتمع لك راحة العاجل ، مع السلامة والفضل فى الآجل . وبعد ، فلو كان فى جمع المال فضل عظيم ، لوجب عليك فى مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك . إذ هداك الله به ، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا

ويحك ، تدبر ما سمعت ، وكن على يقين أن السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى ، سابقا إلى جنة المأوى ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] قال « سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ مَنْ إِذَا تَغَدَّى لَمْ يَجِدْ عَشَاءً وَإِذَا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضًا وَلَيْسَ لَهُ فَضْلُ كِسْوَةٍ إِلَّا مَا يُوَارِيهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَكْتَسِبَ مَا يُغْنِيهِ يُمْسِي مَعَ ذَلِكَ وَيُصْبِحُ رَاضِياً عَنْ رَبِّهِ » (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً [1]) : ألا يا أخى ، متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان ، فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه . لا ، ولكنك خوفا من الفقر تجمعه ، وللتنعم ، والزينة ، والتكاثر ، والفخر ، والعلو ، والرياء ، والسمعة ، والتعظم والتكرمة تجمعه ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال ، ويحك ، راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك ، إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا ، فكن مقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ، ومجانبة الفضول . نعم : وكن عند جمع المال ، زريا على نفسك معترفا بإساءتك ، وجلا من الحساب . فذلك أنجى لك ، وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال

إخوانى : اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجوداً ، وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة فأما جمع المال فى دهرنا ، فأعاذنا الله وإياكم منه

وبعد ، فأين لنا مثل تقوى الصحابة وورعهم ، ومثل زهدهم واحتياطهم . وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم . دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون

---

(١) حديث سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء ـ الحديث : عزاه صاحب مسند الفردوس للطبرانى من رواية أبى حازم عن أبى هريرة مختصرا بلفظ سادة الفقراء فى الجنة ـ الحديث : ولم أره فى معاجيم الطبرانى

---

(١) النساء : ٦٩

الورود. فياسعادة المخفين يوم النشور، وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط، وقد نصحت لكم إن قبلتم، والقابلون لهذا قليل، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين

هذا آخر كلامه، وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الغنى، ولا مزيد عليه. ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا. وفي كتاب الفقر والزهد. ويشهد له أيضا ماروى عن أبي أمامة الباهلي [1] أن ثعلبة بن حاطب قال، يارسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا. قال « يَاثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَتُطِيقُهُ » قال يارسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا. قال « يَاثَعْلَبَةُ أَمَالَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ تَعَالَى أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَباً وَفِضَّةً لَسَارَتْ » قال والذي بعثك بالحق نبيا، لئن دعوت الله أن يرزقني مالا، لأعطين كل ذي حق حقه، ولأفعلن ولأفعلن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً » فاتخذ غنما، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل واديا من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة، ويدع ماسواهما. ثم نمت وكثرت، فتنحى، حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة، فيسألهم عن الأخبار في المدينة. وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، فقال « مَافَعَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ؟ » فقيل يارسول الله، اتخذ غنما، فضاقت عليه المدينة. وأخبر بأمره كله فقال « يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قال وأنزل الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ [1]) وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة، ورجلا من بني سليم على الصدقة. وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة، وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين. وقال « مُرَّا بِثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ ؛ وَبِفُلاَنٍ » رجل من بني سليم « وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ماهذه إلا جزية،

---

(١) حديث أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال ياثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ـ الحديث : بطوله الطبراني بسند ضعيف.

---

(١) التوبة : ١٠٣

ماهذه إلا جزية، ماهذه إلا أخت الجزية ،انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليّ فانطلقا نحو السليمي، فسمع بهما ، فقام إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها . فلما رأوها ، قالوا لا يجب عليك ذلك : وما نريد نأخذ هذا منك. قال بلى خذوها، نفسي بها طيبة، وإنما هي لتأخذوها. فلما فرغا من صدقاتهما ، رجعا حتى مرّا بثعلبة ،فسألاه الصدقة ،فقال أروني كتابكما. فنظر فيه ، فقال هذه أخت الجزية : انطلقا حتى أرى رأيي . فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال « يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قبل أن يكلماه ، ودعا للسليمي . فأخبراه بالذى صنع ثعلبة ، وبالذى صنع السليمي . فأنزل الله تعالى في ثعلبة (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لِئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ[1]) وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة ، فقال لا أم لك يا ثعلبة ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا . فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال « إِنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ » فجعل يحثو التراب على رأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَذَا عَمَلُكَ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي » فلما أبى أن يقبل منه شيئا ، رجع إلى منزله . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأبى أن يقبلها منه . وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأبى أن يقبلها منه . وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان

فهذا طغيان المال وشؤمه ، وقد عرفته من هذا الحديث . ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى ، آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران ابن حصين رضي الله عنه أنه قال ، كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] منزلة وجاه،فقال « يَا عِمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهاً فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : بطوله وفيه لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة لم أجده من حديث عمران ولأحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار وضأت

---

(١) التوبة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » فقلت نعم ، بأبي أنت وأمي يارسول الله . فقام وقمت معه ، حتى وقفت بباب منزل فاطمة ، فقرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارسول الله .قال « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ؟» قالت ومن معك يارسول الله ؟ فقال «عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ» فقالت والذي بعثك بالحق نبيا ، ماعليّ إلا عباءة، فقال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا »وأشار بيده . فقالت هذا جسدي فقد واريته ، فكيف برأسي ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكِ » ثم أذنت له فدخل . فقال « السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا بُنَيَّتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ ؟ » قالت أصبحت والله وجعة ، وزادني وجعا على مابي أني لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدني الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لاَ تَجْزَعِي يَا بُنَيَّتَاهُ فَوَاللهِ مَاذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثٍ وَإِنِّي لَأَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها ،وقال لها « أَبْشِرِي فَوَاللهِ إِنَّكِ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فقالت ، فأين آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَخَدِيجَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَذَى فِيهَا وَلَا صَخَبَ » ثم قال لها « اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكِ فَوَاللهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا سَيِّدًا فِي الْآخِرَةِ »

فانظر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها ،وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر ، وتركت المال . ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم ، وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده ، وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل مافيه مع أداء الحقوق ، والتوقي من الشبهات ، والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه ، وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال

وقد روى عن جرير ، عن ليث قال ، صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام ، فقال أكون معك وأصحبك . فانطلقا ، فانتهيا إلى شط نهر ، فجلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين ، وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى عليه السلام إلى النهر ، فشرب ، ثم رجع

النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل لك في فاطمة تعودها ــ الحديث : وفيه أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتي سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما واسناده صحيح.

فلم يجد الرغيف . فقال للرجل ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى . قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها ، قال فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخشف قم بإذن الله ، فقام فذهب . فقال للرجل أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى . ثم انتهيا إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل ، فمشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له ، أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف؟ فقال لا أدرى . فانتهيا إلى مفازة ، فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ، ثم قال ، كن ذهبا بإذن الله تعالى ، فصار ذهبا . فقسمه ثلاثة أثلاث ، ثم قال ؛ ثلث لى ، وثلث لك ، وثلث لمن أخذ الرغيف . فقال أنا الذى أخذت الرغيف . فقال كله لك . وفارقه عيسى عليه السلام ، فانتهى إليه رجلان فى المفازة ، ومعه المال ، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه . فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشترى لنا طعاما نأكله . قال فبعثوا أحدهم ، فقال الذى بعث ، لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى هذا الطعام سما فأقتلهما ، وآخذ المال وحدى . قال ففعل . وقال ذانك الرجلان ، لأى شىء نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه ، واقتسمنا المال بيننا . قال فلما رجع إليهما قتلاه ، وأكلا الطعام فماتا ، فبقى ذلك المال فى المفازة ، وأولئك الثلاثة عنده قتلى . فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة ، فقال لأصحابه ، هذه فاحذروها

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ، ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم ، قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور ، وكنسوها ، وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم . وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض . وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال له أجب ذا القرنين . فقال مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى . فقال ذو القرنين صدق . فأقبل إليه ذو القرنين ، وقال له ، أرسلت إليك لتأتينى فأبيت فها أنا قد جئت . فقال لو كان لى إليك حاجة لأتيتك . فقال له ذو القرنين ، مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وماذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شىء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناهما ، لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال ما بالكم قد احتفرتم قبورا ، فإذا أصبحتم

تعاهدتموها ، فكنستموها ، وصليتم عندها قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا ، منعتنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض . أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام ، فاحتلبتموها ، وركبتموها ، فاستمتعتم بها ، قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها ورأينا فى نبات الأرض بلاغا . وإنما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام . وأيما ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما ، كائنا ما كان من الطعام . ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين ، فتناول جمجمة ، فقال ياذا القرنين ، أتدرى من هذا ؟ قال لا ، ومن هو ؟ قال ملك من ملوك الأرض ، أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ، فغشم ، وظلم ، وعتا . فلما رأى الله سبحانه ذلك منه ، حسمه بالموت ، فصار كالحجر الملقى . وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية ، فقال ياذا القرنين ، هل تدرى من هذا ؟ قال لا أدرى ، ومن هو ؟ قال هذا ملك ملكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم ، والظلم ، والتجبر ، فتواضع وخشع لله عز وجل ، وأمر بالعدل فى أهل مملكته ، فصار كما ترى ، قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به فى آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال ، وهذه الجمجمة قد كانت كهذين . فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين ، هل لك فى صحبتى ، فأتخذك أخا ، ووزيرا ، وشريكا فيما آتانى الله من هذا المال ؟ قال ما أصلح أنا وأنت فى مكان ، ولا أن نكون جميعا . قال ذو القرنين ولم ؟ قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ، ولى صديق . قال ولم ؟ قال يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ، ولا أجد أحدا يعادينى لرفضى لذلك ، ولما عندى من الحاجة وقلة الشيء . قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ، ومتعظا به . فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل ، وبالله التوفيق

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذمّ الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات
من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذنوب ، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا العيوب ، البصير بسرائر النيات ، وخفايا الطويات ، الذى لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ » ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء ، فضلا عن عامة العباد والأتقياء . وهو من أواخر غوائل النفس ، وبواطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم ، وجاهدوها ، وفطموها عن الشهوات ، وصانوها عن الشبهات ، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير ، وإظهار العمل والعلم ، فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة ، إلى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة ، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ، ولم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده ،

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(١) حديث إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية : ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا الشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه عند البيهقى فى الشعب بلفظ المصنف

وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات ، وتوقيه الشبهات ، وتحمله مشاق العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء ، وبالغوا فى التقريظ والإطراء . ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ، ورغبوا فى بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه ، وفاتحوه بالخدمة والسلام ، وأكرموه فى المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه فى البيع والمعاملات ، وقدموه فى المجالس ، وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين ، وانقادوا له فى أغراضه موقرين . فأصابت النفس فى ذلك لذة هى أعظم اللذات ، وشهوة هى أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات ؛ واستلانت خشونة المواظبة على العبادات ، لإدراكها فى الباطن لذة اللذات ، وشهوة الشهوات . فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية ، التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية . ويرى أنه مخلص فى طاعة الله ، ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد ، وتصنعا للخلق ، وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الأعمال ، وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ولذلك قيل . آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وإذا كان الرياء هو الداء الدفين ، الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه ، وحقيقته، ودرجاته وأقسامه ، وطرق معالجته ، والحذر منه . ويتضح الغرض منه فى ترتيب الكتاب على شطرين:

الشطر الأول : فى حب الجاه والشهرة . وفيه بيان ذم الشهرة ، وبيان فضيلة الخمول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب فى كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمى وليس بكمال حقيقى ، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم وبيان السبب فى حب المدح والثناء وكراهية الذم ، وبيان العلاج فى حب الجاه ، وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهة الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم . فهى اثنا عشر فصلا ، منها تنشأ معانى الرياء ، فلابد من تقديمها ، والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

بيان

ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار ، وهو مذموم . بل المحمود الخمول ، إلا من شهره الله تعالى ، لنشر دينه ، من غير تكلف طلب الشهرة منه. قال أنس رضي الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ » وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ السُّوءِ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلا ، ولا بأس به، إذ روى هذا الحديث ، فقيل له يا أبا سعيد ، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ! فقال إنه لم يعن هذا ، وإنما عنى به المبتدع في دينه ، والفاسق في دنياه . وقال علي كرم الله وجهه تبذل ولا تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السختياني ، والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لايشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان ، أنه كان إذا كثرت حلقته ، قام مخافة الشهرة . وعن أبي العالية ، أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحوا من عشرة ، فقال ذباب طمع ، وفراش نار

---

(١) حديث أنس حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه : البيهقي في الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث جابر بحسب امرئ من الشر ـ الحديث : مثله وزاد في آخره ان الله لا ينظر الى صوركم ـ الحديث : هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التي في آخره وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما ورواه ابن يونس في تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ هلاك بالرجل وفسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق واسنادهما ضعيف

وقال سليم بن حنظلة . بينا نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه ، إذ رآه عمر ، فعلاه بالدرة . فقال انظر ياأمير المؤمنين ما تصنع . فقال إن هذه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وعن الحسن قال . خرج ابن مسعود يوما من منزله ، فاتبعه ناس ، فالتفت إليهم فقال: غلام تتبعونى ؟ فو الله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ، ما اتبعنى منكم رجلان . وقال الحسن . إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى . وخرج الحسن ذات يوم ، فاتبعه قوم . فقال هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن

وروى أن رجلا صحب ابن محيريز فى سفر . فلما فارقه قال أوصنى . فقال إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف ، وتمشى ولا يمشى إليك ، وتسأل ولا تسأل فافعل . وخرج أيوب فى سفر ، فشيعه ناس كثيرون . فقال لولا أنى أعلم أن الله يعلم من قلبى أنى لهذا كاره ، لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قميصه ، فقال إن الشهرة فيما مضى كانت فى طوله ، وهى اليوم فى تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبى قلابة، إذ دخل عليه رجل عليه أكسية . فقال إياكم وهذا الحمار الناهق. يشير به إلى طلب الشهرة.

وقال الثورى : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة ، والثياب الرديئة ، إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا . وقال رجل لبشر بن الحارث أوصنى ، فقال أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك ، وكان حوشب يبكى ويقول : بلغ اسمى مسجد الجامع . وقال بشر : ماأعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

بيان

فضيلة الخمول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ* لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » وقال ابن مسعود: قال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) حديث رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك: مسلم من حديث أبى هريرة رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره: وللحاكم رب أشعث أغبر ذى طمرين

*الطمر : الثوب الخلق

[1] « رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ لَوْ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ وَأَهْلُ النَّارِ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَّاظٍ * » وقال أبو هريرة: قال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصَتْ لِقَوْلِهِمْ حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَخَلْخَلُ فِي صَدْرِهِ لَوْ قُسِّمَ نُورُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوَسِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَمًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْسًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَلَوْ سَأَلَهُ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا وَمَا مَنَعَهَا إِيَّاهُ إِلَّا لِهَوَانِهَا عَلَيْهِ رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »

وروى أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد، فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال ما يبكيك؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [5] يقول « إِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ »

تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الاسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه

(١) حديث ابن مسعود رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم اني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا: ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف

(٢) حديث ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف ـ الحديث: متفق عليه من حديث حارثة بن وهب

(٣) حديث أبي هريرة إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم ـ الحديث:

(٤) حديث ان من أمتي من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ـ الحديث: الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان باسناد صحيح دون قوله ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها إياه لهوانه عليه

(٥) حديث معاذ بن جبل إن اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الأخفياء ـ الحديث: الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقي متروك

* الجواظ: الكثير اللحم المختال في مشيته

وقال محمد بن سويد : قحط أهل المدينة، وكان بها رجل صالح لا يؤبه له، لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم . فبينماهم فى دعائهم ، إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، ثم بسط يديه ، فقال يارب أقسمت عليك، إلا أمطرت علينا الساعة . فلم يرد يديه ، ولم يقطع دعاءه ، حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق . فقال يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم . وسكن. وتبع الرجل صاحبه الذى استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه ، فخرج إليه ، فقال إنى أتيتك فى حاجة ، فقال ماهى ؟ قال تخصنى بدعوة . قال سبحان الله ! أنت أنت وتسألنى أن أخصك بدعوة ! ثم قال ماالذى بلغك مارأيت ؟ قال أطعت الله فيما أمرنى ونهانى ، فسألت الله فأعطانى .

وقال ابن مسعود كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب ، تعرفون فى أهل السماء وتخفون فى أهل الأرض . وقال أبو امامة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِى عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ * ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِى السِّرِّ وَكَانَ غَامِضاً فِى النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ثُمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ » قال ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال « عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أحب عباد الله إلى الله الغرباء . قيل ومن الغرباء ؟ قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى يقول فى بعض مايمن به على عبده: ألم أنعم عليك ؟ ألم أسترك ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى عند نفسى من أوضع خلقك ، واجعلنى عند الناس من أوسط خلقك وقال الثورى : وجدت قلبى يصلح بمكة والمدينة ، مع قوم غرباء ، أصحاب قوت وعناء .

وقال إبراهيم بن أدهم : ماقرت عينى يوماً فى الدنيا قط إلا مرة ، بت ليلة فى بعض مساجد قرى الشام ، وكان بى البطن ، فجرنى المؤذن برجلى حتى أخرجنى من المسجد . وقال الفضيل إن قدرت على أن لا تعرف فافعل . وما عليك أن لا تعرف ؟ وما عليك أن لا يثنى عليك ؟ وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى .

---

(١) حديث أبى أمامة ان أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ - الحديث : الترمذى وابن ماجة باسنادين ضعيفين

* خفيف الحاذ : خفيف الظهر من العيال

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة، وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب . وحب الجاه هو منشأ كل فساد

فإن قلت فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء، والخلفاء الراشدين، وأئمة العلماء. فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة . فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم: فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء وهم كالغريق الضعيف ، إذا كان معه جماعة من الغرقى ، فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم ، فإنهم يتعلقون به ، فيضعف عنهم ، فيهلك معهم. وأما القوي ، فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به ، فينجيهم ويثاب على ذلك

بيان

ذم حب الجاه

قال الله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا [١]) جمع بين إرادة الفساد والعلو وبيّن أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعاً وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٢]) وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه ، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا ، وأكثر زينة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَسْرَعَ إِفْسَادًا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » وقال صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه [٣] « إِنَّمَا هَلَاكُ النَّاسِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَحُبِّ الثَّنَاءِ » نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه

---

(١) حديث المال والجاه ينبتان النفاق ـ الحديث : تقدم في أول هذا الباب ولم أجده

(٢) حديث ماذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم ـ الحديث : تقدم أيضا هناك

(٣) حديث انما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء، لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع ـ الحديث : ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف حب الثناء من الناس يعمي ويصم

---

(١) القصص : ٨٣ (٢) هود : ١٥ ، ١٦

بيـــان

معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها . ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ، ليتوصل بهما إلى الأغراض ، والمقاصد ، وقضاء الشهوات ، وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه ، هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ، ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات . ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات . فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال ، انقاد له ، وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب ، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده . وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه ، بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده. وقد يعتقد ماليس كمالا كمالا ، ويذعن قلبه للموصوف به ، انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده . فإن انقياد القلب حال للقلب ، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها . وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد ، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ، ويملك رقابهم بملك قلوبهم . بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية ، والطاعة له فما يطلبه فوق مايطلبه مالك الرق بكثير . فإذاً معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، فبقدر مايعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم . وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب . وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه

فهذا هو معنى الجاه وحقيقته ، وله ثمرات ، كالمدح والإطراء . فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر مايعتقده ، فيثنى عليه . وكالخدمة والإعانة ، فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده ، فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالإيثار ، وترك المنازعة ، والتعظيم

والتوقير بالمفاتحة بالسلام ، وتسليم الصدر فى المحافل ، والتقديم فى جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب . ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص ، إما بعلم ، أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال فى صورة ، أو قوة فى بدن ، أو شيء مما يعتقده الناس كمالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب ، فتكون سببا لقيام الجاه ، والله تعالى أعلم

بيان

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبا ، هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا . بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار . وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانهما ، إذ لا تصلح لمطعم ، ولا مشرب ، ولا منكح ، ، ولا ملبس ، وإنما هى والحصباء بمثابة واحدة . ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب ، وذريعة إلى قضاء الشهوات فكذلك الجاه ، لأن معنى الجاه ملك القلوب . وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض . فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال . ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه :

الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . فالعالم أو الزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب ، لو قصد اكتساب المال تيسر له . فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ، ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال . وأما الرجل الخسيس ، الذى لا يتصف بصفة كمال ، إذا وجد كنزا ، ولم يكن له جاه يحفظ ماله ، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له . فإذاً الجاه آلة ووسيلة إلى المال . فمن ملك الجاه فقد ملك المال . ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال . فلذلك صار الجاه أحب

الثانى : هو أن المال معرض للبلوى والتلف ، بأن يسرق ، ويغصب ، ويطمع فيه

الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة ، والحراس ، والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة . وأما القلوب إذا ملكت ، فلا تتعرض لهذه الآفات ، فهى على التحقيق خزائن عتيدة ، لا يقدر عليها السراق ، ولا تتناولها أيدى النهاب والغصاب . وأثبت الأموال العقار ، ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ، ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ . وأما خزائن القلوب فهى محفوظة محروسة بأنفسها . والجاه فى أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم : إنما تغصب القلوب بالتصريف ، وتقبيح الحال ، وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ؟ ولا يتيسر على محاوله فعله

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد ، من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله ، بعلم أو عمل أو غيره ، أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها ، فيصف ما يعتقده لغيره ، ويقتنص ذلك القلب أيضا له . ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر ، لأن ذلك إذا استطار فى الأقطار اقتنص القلوب ، ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد ، وليس له مرد معين وأما المال ، فمن ملك منه شيئا فهو مالكه ، ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة والجاه أبدا فى النماء بنفسه ، ولا مرد لموقعه ، والمال واقف . ولهذا إذا عظم الجاه، وانتشر الصيت ، وانطلقت الألسنة بالثناء ، استحقرت الأموال فى مقابلته . فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال ، وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح

فإن قلت : فالإشكال قائم فى المال والجاه جميعا ، فلا ينبغى أن يحب الإنسان المال والجاه نعم: القدر الذى يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم ، أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة ، إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه للمال والجاه معلوم ، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفى الطباع أمر عجيب وراء هذا ، وهو حب جمع الأموال ، وكنز الكنوز ، وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه ، وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التى يعلم قطعا أنه لا يطؤها ، ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليبروه بمال ، أو ليعينوه على غرض من أغراضه

ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ ؛ وحب ذلك ثابت فى الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل ، فإنه حب لما لافائدة فيه لافى الدنيا ولا فى الآخرة .

فنقول : نعم هذا الحب لاتنفك عنه القلوب ، وله سببان : أحدهما جلى تدركه الكافة ، والآخر خفى ، وهو أعظم السببين ، ولكنه أدقهما وأخفاهما ، وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفى فى النفس ، وطبيعة مستكنة فى الطبع ، لايكاد يقف عليها إلا الغواصون

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفيا فى الحال ، فإنه طويل الأمل ، ويخطر بباله أن المال الذى فيه كفايته ربما يتلف ، فيحتاج إلى غيره . فإذا خطر ذلك بباله ، هاج الخوف من قلبه . ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر ، يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة . فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة ، يقدر طول الحياة ، ويقدر هجوم الحاجات ، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك ، فيطلب ما يدفع خوفه ، وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر

وهذا خوف لايوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما فى الدنيا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْهُومَانِ لَايَشْبَعَانِ مَنْهُومُ الْعِلْمِ وَمَنْهُومُ الْمَالِ » ومثل هذه العلة تطرد فى حبه قيام المنزلة والجاه فى قلوب الأباعد عن وطنه وبلده . فإنه لايخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن ، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ، ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة ، كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه فى قلوبهم ، لما فيه من الأمن من هذا الخوف .

وأما السبب الثانى : وهو الأقوى ، أن الروح أمر ربانى ، به وصفه الله تعالى : إذ قال سبحانه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) ومعنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ، ولا رخصة فى إظهاره ، [2] إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث منهومان لايشبعان ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى مسعود بسند ضعيف والبزار والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

(٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح : البخارى من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(١) الاسراء : ٨٥

ولكنك قبل معرفة ذلك ، نعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية ، كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية ، كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية ، كالمكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية ، كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء . وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الربانى يحب الربوبية بالطبع . ومعنى الربوبية التوحد بالكمال ، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية ، فصار محبوبا بالطبع للإنسان . والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة فى الوجود نقص لامحالة . فكمال الشمس فى أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية . والمنفرد بالوجود هو الله تعالى ، إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته ، بل هو قائم به . فلم يكن موجودا معه ، لأن المعية توجب المساواة فى الرتبة والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال . بل الكامل من لانظير له فى رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس فى أقطار الآفاق ليس نقصانا فى الشمس ، بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة ، مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافى العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة ، فيكون تابعا ولا يكون متبعا . فإذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود ، وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفى باطنه ماصرح به فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [١]) ولكنه ليس يجد له مجالا . وهو كما قال . فإن العبودية قهر على النفس ، والربوبية محبوبة بالطبع . وذلك للنسبة الربانية التى أومأ إليها قوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [٢]) ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال ، لم تسقط شهوتها للكمال ، فهى محبة للكمال ، ومشتهية له ، وملتذة به لذاته لالمعنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ، ولكمال ذاته ، ومبغض للهلاك الذى هو عدم ذاته ، أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود ، فى الاستيلاء على كل الموجودات . فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك ، فإن لم يكن منك

(١) النازعات : ٢٤ (٢) الاسراء : ٨٥

فأن تكون مستوليا عليه. فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع، لأنه نوع كمال. وكل موجود يعرف ذاته، فإنه يحب ذاته، ويحب كمال ذاته ويلتذ به. إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب الإرادة، وكونه مسخرا لك تردده كيف تشاء، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه. إلا أن الموجودات منقسمة إلى مالا يقبل التغيير في نفسه، كذات الله تعالى وصفاته، وإلى مايقبل التغيير، ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق، كالأفلاك، والكواكب، وملكوت السموات ونفوس الملائكة، والجن، والشياطين، وكالجبال، والبحار، وماتحت الجبال والبحار. وإلى مايقبل التغيير بقدرة العبد، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن، والنبات، والحيوان ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات..

فإذاً انقسمت الموجودات إلى مايقدر الإنسان على التصرف فيه، كالأرضيات، وإلى مالا يقدر عليه، كذات الله تعالى، والملائكة، والسموات. أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم، والإحاطة، والاطلاع على أسرارها، فإن ذلك نوع استيلاء، إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم، والعالم كالمستولى عليه. فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى، والملائكة، والأفلاك، والكواكب، وجميع عجائب السموات، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها، لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال. وهذا يضاهى اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة، إلى معرفة طريق الصنعة فيها. كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنه قد يشتهى أن يعرف اللعب به، وأنه كيف وضع. وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة، أو الشعبذة، أوجر الثقيل أو غيره، وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه، ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته، فهو متألم ببعض العجز، متلذذ بكمال العلم إن علمه

وأما القسم الثانى: وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد، وهى قسمان: أجساد، وأرواح

أما الأجساد، فهى الدراهم، والدنانير، والأمتعة، فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ماشاء من الرفع، والوضع، والتسليم، والمنع، فإن ذلك قدرة، والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع. فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها

فى ملبسه ومطعمه ، وفى شهوات نفسه . وكذلك طلب استرقاق العبيد ، واستعباد الأشخاص الأحرار ، ولو بالقهر والغلبة ، حتى يتصرف فى أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ، ويقوم القهر منزلته فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضا لذيذة لما فيهامن القدرة

القسم الثانى : نفوس الآدميين وقلوبهم ، وهي أنفس ما على وجه الأرض . فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها ، لتكون مسخرة له ، متصرفة تحت إشارته وإرادته ، لما فيه من كمال الاستيلاء ، والتشبه بصفات الربوبية . والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فإن كل كمال محبوب ، لأن الكمال من الصفات الإلهية ، والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع ، للمعنى الربانى من جملة معانى الإنسان ، وهو الذى لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة ، وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعى إليه

فإذاً معنى الجاه تسخر القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال ، وهو من أوصاف الربوبية . فإذاً محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ، ولا نهاية للمقدورات . وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن ، والنقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ » فإذاً مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة ، وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال

فهذا هو السبب فى كون العلم ، والمال ، والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات ، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض . بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات . ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم فى جميع العجائب والمشكلات لأن فى العلم استيلاء على المعلوم ، وهو نوع من الكمال الذى هو من صفات الربوبية ، فكان محبوبا بالطبع . إلا أن فى حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى

بيان

الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة . ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي . وبيانه أن كمال العلم لله تعالى ، وذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى

الثاني : من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهي عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح ، وأيقن ، وأصدق ، وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم ، كان أقرب إلى الله تعالى

الثالث : من حيث بقاء العلم أبد الآباد ، بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب ، كان أقرب إلى الله تعالى

والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات . أما المتغيرات : فمثالها العلم بكون زيد في الدار . فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ، ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان ، فينقلب جهلا ، فيكون نقصانا لا كمالا . فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته ، كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ، ويعود علمك جهلا . ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كعلمك مثلا بارتفاع جبل ، ومساحة أرض ، وبعدد البلاد ، وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك . وكذلك العلم باللغات ، التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات . فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق ، تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالا في القلب

القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية ، وهو جواز الجائزات ، ووجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات . فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ، ولا الجائز محالا ، ولا المحال واجبا . فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله ، وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويجوز في أفعاله . فالعلم بالله تعالى ، وبصفاته ، وأفعاله ، وحكمته في ملكوت

السموات والأرض ، وترتيب الدنيا والآخرة ، وما يتعلق به ، هو الكمال الحقيقى ، الذى يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالا للنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت ، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا . أى تكون هذه المعرفة رأس مال ، يوصل إلى كشف مالم ينكشف فى الدنيا ، كما أن من معه سراج خفى ، فإنه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه ، فيكمل النور بذلك النور الخفى على سبيل الاستتمام . ومن ليس معه أصل السراج ، فلا مطمع له فى ذلك . فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى ، لم يكن له مطمع فى هذا النور ، فيبقى كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، بل كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب : ظلمات بعضها فوق بعض . فإذاً لا سعادة إلا فى معرفة الله تعالى .

وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها مالا فائدة له أصلا ، كمعرفة الشعر ، وأنساب العرب وغيرهما ، ومنها ماله منفعة فى الإعانة على معرفة الله تعالى ، كمعرفة لغة العرب ، والتفسير والفقه ، والأخبار ، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرءان ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما فى القرءان من كيفية العبادات ، والأعمال التى تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [١]) وقال عز وجل (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [٢]) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى . وإنما الكمال فى معرفة الله ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوى فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هى فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة ، فهى من تكملة معرفة الله تعالى . وهذا حكم كمال العلم ، ذكرناه وإن لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال

وأما القدرة ، فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى ، وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله . ومايحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد ، وقدرته وحركته ،

---

(١) الشمس : ٩ (٢) العنكبوت : ٦٩

فهى حادثة بإحداث الله ، كما قررناه فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل ، وفى مواضع شتى من ربع المنجيات . فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ، ويوصله إلى الله تعالى . فأما كمال القدرة فلا. نعم : له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال ، وهى وسيلة له إلى كمال العلم ، كسلامة أطرافه ، وقوة يده للبطش ، ورجله للمشى ، وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم . وقد يحتاج فى استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه ، للتوصل به إلى المطعم والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله ، فلاخير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية ، التى تنقضى على القرب . ومن ظن ذلك كمالا فقد جهل .

فالخلق أكثرهم هالكون فى غمرة هذا الجهل. فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال . فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ، ولما طلبوه شغلوا به ، وتهالكوا عليه ،فنسوا الكمال الحقيقى الذى يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته ، وهو العلم والحرية . أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى . وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا ، والاستيلاء عليها بالقهر ، تشبها بالملائكة الذين لاتستفزهم الشهوة ، ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال ، الذى هو من صفات الملائكة .

ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه ، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد ، كان إلى الله تعالى أقرب ، وبالملائكة أشبه ، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة . وإنما لم نورده فى أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإن التغير نقصان ، إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك نقص فى الذات وفى صفات الكمال . فإذاً الكمالات ثلاثة ، إن عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالا ، ككمال العلم ، وكمال الحرية ، وأعنى به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية . وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال ، وعلى استسخار القلوب والأبدان ، تنقطع بالموت . ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت ،

بل يبقيان كما لا فيه ، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان ، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال ، وهو الكمال الذى لايسلم ، وإنسلم فلابقاءله، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم، الذى إذاحصل كان أبديا لاانقطاع له . وهؤلاءهم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلاجرم لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً [1]) فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس . والمال والجاه هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ [2]) الآية ،وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ [3]) إلى قوله (فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ [4]) وكل ماتذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل مالايقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقدعرفت بهذاأن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لاأصل له،وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل،وإليه أشار أبو الطيب بقوله

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقى . اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك

بيان

ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب ، والقدرة عليها ، فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ماخلق فى الدنيا ، فيمكن أن يتزود منه للآخرة . وكما أنه لابدمن أدنى مال لضرورة المطعم ،والمشرب ، والملبس ، فلابد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق . والإنسان كمالايستغني عن طعام يتناوله.فيجوز أن يحب الطعام،أوالمال الذي يبتاع به الطعام،فكذلك

(1) الكهف : ٤٦ (2) يونس : ٢٤ (3) ، (4) الكهف : ٤٥

لايخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له فى قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له فى قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له فى قلب أستاذه من المحل مايحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له من المحل فى قلب سلطانه مايحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم . فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال . فلا فرق بينهما . إلا أن التحقيق فى هذا يفضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له فى داره بيت ماء ، لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته . ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء . فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء . فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب ، فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتدرك التفرقة بمثال آخر ، وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام . ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به . وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ، ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها . فهذا هو الحب دون الأول . وكذلك الجاه والمال ، قد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين . فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم . وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان. مالم يحمله الحب على مباشرة معصية ، ومايتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور ، ومالم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة. فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين، وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتى

فإن قلت ، طلبه المنزلة والجاه فى قلب أستاذه ، وخادمه، ورفيقه ،وسلطانه ، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ، أو يباح إلى حد مخصوص ، على وجه مخصوص ؟

فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان منه مباحان ، ووجه محظور

أما الوجه المحظور ، فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها. مثل العلم ، والورع ، والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى ، أو عالم ، أو ورع ، وهو لا يكون كذلك

فهذا حرام ، لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة

وأما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها ، كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [1]) فإنه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان محتاجا إليه ، وكان صادقا فيه

والثانى : أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ، ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم ، فلا تزول منزلته به . فهذا أيضا مباح . لأن حفظ الستر على القبائح جائز . ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة فى العلم به . كالذى يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ، ولا يلقى إليه أنه ورع . فإن قوله إنى ورع تلبيس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع ، بل يمنع العلم بالشرب .. ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ، ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس ، إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله ، وهو مراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ! فطلب الجاه بهذا الطريق حرام . وكذلك بكل معصية . وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق . وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو فى غيره ، فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال

بيان

السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب

السبب الأول : وهو الأقوى ، شعور النفس بالكمال : فإنا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيذ . فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت ، واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها . فإن الوصف الذى به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا ، أو يكون مشكوكا فيه . فإن كان جليا ظاهرا محسوسا ، كانت اللذة به أقل . ولكنه

---
(١) يوسف : ٥٥

لايخلو عن لذة ، كثنائه عليه بأنه طويل القامة ، أبيض اللون . فإن هذا نوع كمال ، ولكن النفس تغفل عنه ، فتخلو عن لذته : فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة

وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك ، فاللذة فيه أعظم : كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع ، أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه ، وفى كمال علمه ، وكمال ورعه ، ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك ، بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الأمور ، إذ تطمئن نفسه إليه . فإذا ذكره غيره ، أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال ، فتعظم لذته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات ، خبير بها ، لايجازف فى القول إلا عن تحقيق . وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة ، والذكاء ، وغزارة الفضل ، فإنه فى غاية اللذة . وإن صدر ممن يجازف فى الكلام ، أولايكون بصيرا بذلك الوصف ، ضعفت اللذة . وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه ، لأنه يشعره بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوت والشعور به مؤلم . ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به ، كما ذكرناه فى المدح

السبب الثانى : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وأنه مريد له ، ومعتقد فيه ، ومسخر تحت مشيئته . وملك القلوب محبوب . والشعور بحصوله لذيذ . وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته ، وينتفع باقتناص قلبه ، كالملوك والأكابر . ويضعف مهما كان المادح ممن لايؤبه له ، ولا يقدر على شيء . فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ، ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم ، لأن الفائت به أعظم

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه . لاسيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ، ويعتد بثنائه . وهذا مختص بثناء يقع على الملأ . فلاجرم كلما كان الجمع أكثر ، والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله ، كان المدح ألذ ، والذم أشد على النفس

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح ، إما عن طوع ، وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضا لذيذة ، لما فيها من القهر والقدرة . وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لايعتقد فى الباطن مامدح به ، ولكن

كونه مضطرا إلى ذكره نوعُ قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تسكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد ، فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع فى مدح مادح واحد ، فيعظم بها الالتذاذ . وقد تفترق ، فتنقص اللذة بها

أما العلة الأولى ، وهى استشعار الكمال ، فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب ، أوسخى ، أو عالم بعلم ، أومتورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات . فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ، ويعلم خلوه عن هذه الصفة ، بطلت اللذة الثانية ، وهو استيلاؤه على قلبه : وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء . فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب ، بطلت اللذات كلها ، فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الأسباب الثلاثة

فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح ، وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه ، وحب المحمدة ، وخوف المذمة . فإن ما لا يعرف سببه ، لا يمكن معالجته . إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى

بيان

علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفا بالتودد إليهم ، والمراآة لأجلهم . ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد . ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل فى العبادات ، والمراآة بها ، وإلى اقتحام المحظورات ، للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال ، وإفسادهما للدين ، بذئبين ضاريين ، وقال عليه السلام إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس ، فيضطر إلى النفاق معهم ، وإلى التظاهر بخصال

حميدة هو خال عنها. وذلك هو عين النفاق. فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب ، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه ، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس ، وعلى قلوبهم . وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات . بل لو سجدلك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب، فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له . ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التى لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقى والكمال الوهمى كما سبق ، صغر الجاه فى عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر فى عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ، ويستحقر العاجلة ، ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصرى حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات ، فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل، وقدره كائنا . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب فى جوابه : أما بعد ، فكأنك بالدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل . فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى ، إذ علموا أن العاقبة للمتقين ، فاستحقروا الجاه والمال فى الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة ، لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب . ولذلك قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [١]) وقال عز وجل (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [٢]) فمن هذا حده فينبغى أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر فى الأخطار التى يستهدف لها أرباب الجاه فى الدنيا . فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء ، وخائف على الدوام على جاهه ، ومحترز من أن تتغير منزلته فى القلوب . والقلوب أشد تغيرا من القدر فى غليانها . وهى مترددة بين الإقبال والإعراض . فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر ، فإنه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب، وحفظ الجاه ، ودفع كيد الحساد، ومنع أذى الأعداء ،

---

(١) الأعلى : ١٦، ١٧ (٢) القيامة : ٢٠

كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه . فلايفى فى الدنيا مرجوها بمخوفها ، فضلا عما يفوت فى الآخرة . فبهذا ينبغى أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته ، وقوى إيمانه ، فلا يلتفت إلى الدنيا . فهذا هو العلاج من حيث العلم

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق ، بمباشرة أفعال يلام عليها ، حتى يسقط من أعين الخلق ، وتفارقه لذة القبول ، ويأنس بالخمول ورد الخلق ، ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملامتية ، إذ اقتحموا الفواحش فى صورتها ، ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس ، فيسلموا من آفة الجاه . وهذا غير جائز لمن يقتدى به ، فإنه يوهن الدين فى قلوب المسلمين . وأما الذى لايقتدى به ، فلايجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات مايسقط قدره عند الناس ، كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه ، استدعى طعاما وبقلا ، وأخذ يأكل بشره ، ويعظم اللقمة . فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد . الحمد لله الذى صرفك عنى

ومنهم من شرب شرابا حلالا فى قدح لونه لون الخمر ، حتى يظن به أنه يشرب الخمر ، فيسقط من أعين الناس . وهذا فى جوازه نظر من حيث الفقه . إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون مافرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد ، وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ، ولبس ثياب غيره وخرج ، فوقف فى الطريق حتى عرفوه ، فأخذوه وضربوه ، واستردوا منه الثياب ، وقالوا إنه طرار ، وهجروه . وأقوى الطرق فى قطع الجاه الاعتزال عن الناس ، والهجرة إلى موضع الخمول . فإن المعتزل فى بيته . فى البلد الذى هو به مشهود لايخلو عن حب المنزلة التى ترسخ له فى القلوب بسبب عزلته . فإنه ربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه ، وهو مغرور . وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها . ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه ، فذموه ، أو نسبوه إلى أمر غير لائق به ، جزعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك ، وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم . وربما يحتاج فى إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ، ولايبالى به . وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال ، بل هو شر منه ، فإن فتنة الجاه أعظم ،

ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فى الناس . فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى ، وقطع طمعه عن الناس رأسا ، أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال فلا يبالى أكان له منزلة فى قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق ، لأنه لا يراهم ، ولا يطمع فيهم . ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة . فمن قنع استغنى عن الناس ؛ وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ، ولم يكن لقيام منزلته فى القلوب عنده وزن . ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول والذل ، مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة ، أو قلة ، أو علة. وينظر فى أحوال السلف، وإيثارهم للذل على العز، ورغبتهم فى ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين.

بيان

وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم . فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس ، رجاء للمدح وخوفا من الذم . وذلك من المهلكات فيجب معالجته . وطريقه ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح . فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك ، وتقول لنفسك : هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها، فهى إما صفة تستحق بها المدح ، كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح ، كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية. فإن كانت من الأعراض الدنيوية. فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض، الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل. بل العاقل يقول كما قال المتنبى:

أشد الغم عندى فى سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا . وإن فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها . بل بوجودها . والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها ، كالعلم والورع ، فينبغى أن لا يفرح بها ، لأن الخاتمة غير معلومة ، وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى . وخطر الخاتمة باق ، ففى الخوف من سوء الخاتمة

شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا . بل الدنيا دار أحزان وغموم ، لا دار فرح وسرور . ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى ، لا بمدح المادح . فإن اللذة في استشعار الكمال ، والكمال موجود من فضل الله لا من المدح ، والمدح تابع له ، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح ، والمدح لا يزيدك فضلا

وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول : سبحان الله ! ما أكثر العطر الذي في أحشائه ، وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان ثم يفرح بذلك . فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ، ففرحت به ، والله مطلع على خبائث باطنك ، وغوائل سريرتك ، وأقذار صفاتك ، كان ذلك من غاية الجهل

فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك ، التي هي من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به

وأما السبب الثاني : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح ، وكونه سببا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب . وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس ، وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس ، وفرحك به ، يسقط منزلتك عند الله ، فكيف تفرح به !

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ، ولا تستحق الفرح . بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ، كما نقل ذلك عن السلف . لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ، كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل : وروى في بعض الأخبار ، فإن صح فهو قاصم للظهور ، [1] أن رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لَوْ كَانَ صَاحِبُكَ حَاضِرًا فَرَضِيَ الَّذِي قُلْتَ فَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أن رجلا أثنى على رجل خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضي الذي قلت ومات على ذلك دخل النار : لم أجد له أصلا

مرة للمادح[1] « وَيْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ مَا أَفْلَحَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال عليه السلام « أَلَا لَا تَمَادَحُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ »[2]

فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته ، وما يدخل على القلب من السرور العظيم به ، حتى أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء ، فقال . أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم . فغضب وقال : إني لم آمرك بأن تزكيني . وقيل لبعض الصحابة : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله . فغضب وقال : أني لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم لما مدح . اللهم إن عبدك تقرب إليّ بمقتك ، فأشهدك على مقته . وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق ، وهم ممقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلق لأن الممدوح هو المقرب عند الله ، والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار . فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار ، فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره . وإن كان من أهل الجنة ، فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه ، إذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم ، وسقط من قلبه حب المدح ، واشتغل بما يهمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

بيان
علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة في كراهة الذم ، هو ضد العلة في حب المدح . فعلاجه أيضا يفهم منه . والقول الوجيز فيه ، أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يكون قد صدق فيما قال ، وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقا ، ولكن قصده الإيذاء والتعنت وإما أن يكون كاذبا . فإن كان صادقا وقصده النصح ، فلا ينبغي أن تذمه ، وتغضب عليه وتحقد بسببه . بل ينبغي أن تتقلد منته . فإن من أهدى إليك عيوبك ، فقد أرشدك

(١) حديث ويحك قطعت ظهره ـ الحديث : قاله للمادح تقدم

(٢) حديث ألا لا تمادحوا واذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب : تقدم دون قوله ألا لا تمادحوا

إلى المهلك حتى تتقيه . فينبغى أن تفرح به ، وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . فأما اغتمامك بسببه ، وكراهتك له ، وذمك إياه ، فإنه غاية الجهل

وإن كان قصده التعنت ، فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك ، إن كنت جاهلا به ، أو ذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه ، أو قبحه فى عينك ، لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك ، وقد استفدته منه ، فاشتغل بطلب السعادة ، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة . فمهما قصدت الدخول على ملك ، وثوبك ملوث بالعذرة ، وأنت لاتدرى ، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة ، فقال لك قائل : أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك ، فينبغى أن تفرح به ، لأن تنبيهك بقوله غنيمة . وجميع مساوى الأخلاق مهلكة فى الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبغى أن تغتنمه . وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه ، وهو نعمة منه عليك . فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت ، وتضرر هو به

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برئ منه عند الله تعالى ، فينبغى أن لا تكره ذلك ، ولا تشتغل بذمه . بل تتفكر فى ثلاثة أمور

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ، ودفعه عنك بذكر ما أنت برئ عنه

والثانى : أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك ، فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه ، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها . وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فما بالك تفرح بقطع الظهر ، وتحزن لهدايا الحسنات التى تقربك إلى الله تعالى ! وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله

وأما الثالث ، فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله ، وأهلك نفسه بافترائه ، وتعرض لعقابه الأليم ، فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه ، فتشمت به الشيطان ، وتقول اللهم أهلكه ، بل ينبغى أن تقول اللهم أصلحه ، اللهم تب عليه ،

اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » لما أن كسروا ثنيته ، وشجوا وجهه ، وقتلوا عمه حمزة يوم أحد .

ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة ، فقيل له فى ذلك ، فقال علمت أنى مأجور بسببه ، وما نالنى منه إلا خير ، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببى . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع . فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبه وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه . وما دام الطمع قائما ، كان حب الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم فى سلامة دينه ، فإن ذلك بعيد جدا

بيان

اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ، ويشكر المادح ، ويغضب من الذم ، ويحقد على الذام ، ويكافئه أو يحب مكافأته . وهذا حال أكثر الخلق ، وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب

الحالة الثانية : أن يمتعض فى الباطن على الذام ، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور . وهذا من النقصان ، إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال

الحالة الثالثة : وهى أول درجات الكمال ، أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فلا تغمه المذمة ، ولا تسره المدحة . وهذا قد يظنه بعض العبّاد بنفسه ، ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه ، بعلاماته . وعلاماته أن لا يجد فى نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده ، أكثر مما يجده فى المادح . وأن لا يجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح ، فوق ما يجده فى قضاء حاجة الذام . وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه ، أهون عليه

---

(١) حديث اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون قاله لما ضربه قومه : البيهقى فى دلائل النبوة وقد تقدم والحديث فى الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبى من الأنبياء حين ضربه قومه .

من انقطاع المادح . وأن لا يكون موت المادح المطرى له ، أشد نكاية فى قلبه من موت الذام وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه ، أكثر مما يكون بمصيبة الذام . وأن لا تكون زلة المادح ، أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام . فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح ، واستويا من كل وجه ، فقد نال هذه الرتبة . وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب

وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن فى قلوبهم وهم لا يشعرون . حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات . وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الذام قد عصى الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ! وإنما استثقالك للذام من الدين المحض . وهذا محض التلبيس . فإن العابد لو تفكر ، علم أن فى الناس من ارتكب من كبائر المعاصى أكثر مما ارتكب الذام فى مذمته ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم . ويعلم أن المادح الذى مدحه لا يخلو عن مذمة غيره ، ولا يجد فى نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه . والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذاً العابد المغرور لنفسه يغضب ، ولهواه يمتعض ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه ، فيزيده ذلك بعدا من الله . ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس ، فأكثر عباداته تعب ضائع ، يفوت عليه الدنيا ، ويخسره فى الآخرة . وفيهم قال الله تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [1])

الحالة الرابعة : وهى الصدق فى العبادة ، أن يكره المدح ويمقت المادح ، إذ يعلم أنه فتنة عليه ، قاصمة للظهر ، مضرة له فى الدين . ويحب الذام ، إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ، ومرشد له إلى مهمه ، ومهد إليه حسناته . فقد قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « رَأْسُ التَّوَاضُعِ أَنْ تَكْرَهَ أَنْ تُذْكَرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وقد روى فى بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم [(٢)] قال « وَيْلٌ لِلصَّائِمِ وَوَيْلٌ لِلْقَائِمِ وَوَيْلٌ لِصَاحِبِ

(١) حديث رأس التواضع ان يكره أن يذكر بالبر والتقوى: لم أجد له أصلا

(٢) حديث ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف ـ الحديث: لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله ولم يخرجه ولده فى مسنده .

(1) الكهف : ١٠٣ .

الصُّوفِ إِلاَّ مَنْ » فقيل يارسول الله إلا من ؟ فقال « إِلاَّ مَنْ تَنَزَّهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْغَضَ الْمِدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ الْمَذَمَّةَ » وهذا شديد جدا

وغاية أمثالنا الطمع فى الحالة الثانية : وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل . فأما الحالة الثالثة : وهى التسوية بين المادح والذام ، فلسنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية ، فإنها لا تفى بها ، لأنها لابد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه . ولا نقدر على أن نسوى بينهما فى الفعل الظاهر ، كما لا نقدر عليه فى سريرة القلب . ومن قدر على التسوية بين المادح والذام فى ظاهر الفعل ، فهو جدير بأن يتخذ قدوة فى هذا الزمان إن وجد ، فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين

وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات فى المدح ، فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن ، حتى يرائى بالعبادات ، ولا يبالى بمقارفة المحظورات ، لاستمالة قلوب الناس ، واستنطاق ألسنتهم بالمدح : وهذا من الهالكين

ومنهم من يريد ذلك ، ويطلبه بالمباحات ، ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المحظورات . وهذا على شفا جرف هار . فإن حدود الكلام الذى يستميل به القلوب ، وحدود الأعمال ، لا يمكنه أن يضبطها . فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد . فهو قريب من الهالكين جدا

ومنهم من لا يريد المدحة ، ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه . فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة ، ولم يتكلف الكراهية ، فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التى قبلها . وإن جاهد نفسه فى ذلك ، وكلف قلبه الكراهية ، وبغض السرور إليه بالتفكر فى آفات المدح ، فهو فى خطر المجاهدة ، فتارة تكون اليد له ، وتارة تكون عليه

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ، ولم يغتم به ، ولم يؤثر فيه ، وهذا على خير ، وإن كان قد بقى عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ، ولكن لا ينتهى به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه . وأقصى درجاته أن يكره ، ويغضب ، ويظهر الغضب وهو صادق فيه . لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له ، فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق ، وهو مفلس عنه . وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال فى حق الذام .

وأول درجاته إظهار الغضب ، وآخرها إظهار الفرح . ولا يكون الفرح . وإظهاره إلا ممن فى قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه ، وكثرة عيوبها ، ومواعيدها الكاذبة ، وتلبيساتها الخبيثة ، فيبغضها بغض العدو . والإنسان يفرح عن يذم عدوه.وهذا شخص عدوه نفسه ، فيفرح إذا سمع ذمها ، ويشكر الذام على ذلك ؛ ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفى له من نفسه ، ويكون غنيمة عنده ، إذ صار بالمذمة أوضع فى أعين الناس ، حتى لا يبتلى بفتنة الناس . وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها ، فعساه يكون خيرا لعيوبه التى هو عاجز عن إماطتها . ولو جاهد المريد نفسه طول عمره فى هذه الخصلة الواحدة ، وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، لكان له شغل شاغل فيه ، لا يتفرغ معه لغيره . وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة ، هذه إحداها ، ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة فى العمر الطويل

الشطر الثانى من الكتاب

فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء . وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء ، وما يرائى به ، وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخفى ، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ، وبيان دواء الرياء وعلاجه ، وبيان الرخصة فى إظهار الطاعات ، وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب ، وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق، وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها ، وهي عشرة فصول ، وبالله التوفيق

بيان

ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام ، والمرائى عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار أما الآيات. فقوله تعالى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ [(١)]) وقوله عز وجل (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ [(٢)])

---

(١) الماعون ٤ ، ٥ ، ٦ (٢) فاطر : ١٠

قال مجاهد . هم أهل الرياء . وقال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا [١]) فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله . والرياء ضده . وقال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [٢]) نزل [١] ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يارسول الله ، فيم النجاة؟ فقال « أَنْ لَا يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللهِ يُرِيدُ بِهَا النَّاسَ » [٢] وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة ، المقتول في سبيل الله ، والمتصدق بماله ، والقارىء لكتاب الله ، كما أوردناه في كتاب الإخلاص . وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان قارىء . فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا ، وأن رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ » وفي حديث آخر طويل ، [٤] أن الله تعالى يقول للملائكة ، إن هذا لم يردني بعمله ، فاجعلوه في سجين . وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث نزول قوله تعالى من كان يرجو لقاء ربه الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعباداته وأعماله الحاكم من حديث طاوس قال رجل انى أقف الموقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا في نسختي من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة والبزار من حديث معاذ بسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك ـ الحديث : وفيه انه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

(٢) حديث أبي هريرة في الثلاثة المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتابه فان الله يقول لكل واحد منهم كذبت : رواه مسلم وسيأتي في كتاب الاخلاص

(٣) حديث ابن عمر من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به : متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفي الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع انه من حديث عبد الله بن عمرو

(٤) حديث ان الله يقول للملائكة ان هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين : ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الاخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

---

(١) الدهر : ٩ (٢) الكهف ١١٠

(١) «إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال «الرِّيَاءُ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمُ الْجَزَاءَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ» قيل وما هو يارسول الله؟ قال «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ»

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَأَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ». وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم صوم أحدكم، فليدهن رأسه ولحيته، ويمسح شفتيه، لئلا يرى الناس أنه صائم. وإذا أعطى بيمينه، فليخف عن شماله. وإذا صلى فليرخ ستر بابه، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٤) «لاَ يَقْبَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلاً فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ» وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك؟ قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر، يعني النبي صلى الله عليه وسلم (٥) يقول «إِنَّ أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ»

وقال صلى الله عليه وسلم (٦) «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ» وهي أيضاً ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه. وقال صلى الله عليه وسلم (٧) «إِنَّ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ رَجُلاً تَصَدَّقَ بِيَمِينِهِ فَكَادَ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ»

---

(١) حديث ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر ـ الحديث: أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود ابن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج

(٢) حديث استعيذوا بالله من جب الحزن قيل وما هو قال واد في جهنم أعد للقراء المرائين: الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي

(٣) حديث يقول الله من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله ـ الحديث: مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله وأنا منه بريء ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهي عند ابن ماجه بسند صحيح

(٤) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء: لم أجده هكذا

(٥) حديث معاذ ان أدنى الرياء شرك: الطبراني هكذا والحاكم بلفظ ان اليسير من الرياء شرك وقد تقدم قبل هذه الورقة

(٦) حديث أخوف ما أخاف عليكم الرياء ـ الحديث: تقدم في أول هذا الكتاب

(٧) حديث ان في ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله: متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث سبعة يظلهم الله في ظله

ولذلك ورد [١] أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ الْمُرَائِيَ يُنَادَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاجِرُ يَاغَادِرُ يَامُرَائِي ضَلَّ عَمَلُكَ وَحَبِطَ أَجْرُكَ اذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ » [٣] وقال شداد بن أوس : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي ، فقلت مايبكيك يارسول الله ؟ قال « إِنِّي تَخَوَّفْتُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ صَنَماً وَلَا شَمْساً وَلَا قَمَراً وَلَا حَجَراً وَلَكِنَّهُمْ يُرَاؤُنَ بِأَعْمَالِهِمْ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ مَادَتْ بِأَهْلِهَا فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَصَيَّرَهَا أَوْتَاداً لِلْأَرْضِ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَاخَلَقَ رَبُّنَا خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ فَخَلَقَ اللهُ الْحَدِيدَ فَقَطَعَ الْجِبَالَ ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الْحَدِيدَ ثُمَّ أَمَرَ اللهُ الْمَاءَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ وَأَمَرَ الرِّيحَ فَكَدَّرَتِ الْمَاءَ فَاخْتَلَفَتِ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَتْ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى قَالُوا يَارَبِّ مَاأَشَدُّ مَاخَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَى لَمْ أَخْلُقْ خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ فَهَذَا أَشَدُّ خَلْقٍ خَلَقْتُهُ »

وروى عبد الله بن المبارك ، بإسناده عن رجل ، أنه قال لمعاذ بن جبل : حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكى معاذ ، حتى ظننت أنه لايسكت ، ثم سكت . ثم قال ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي « يَامُعَاذُ » قلت لبيك بأبي أنت وأمي يارسول الله . قال « إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثاً إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ أَنْتَ ضَيَّعْتَهُ

---

(١) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين : ضعفه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء ان الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف يفضل الذكر الخفي الذي لاتسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة

(٢) حديث ان المرائي ينادى يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائي ضل عملك وحبط أجرك ـ الحديث : ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد ياكافر ياخاسر ولم يقل يامرائي واسناده ضعيف

(٣) حديث شداد بن أوس اني تخوفت على أمتي الشرك ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا

(٤) حديث لما خلق الله الارض مادت بأهلها ـ الحديث : وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب

وَلَمْ تَحْفَظْهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا مُعَاذُ[1] إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ فَجَعَلَ لِكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكاً بَوَّاباً عَلَيْهَا قَدْ جَلَّلَهَا عِظَماً فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِينَ أَصْبَحَ إِلَى حِينَ أَمْسَى لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا صَعِدَتْ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا زَكَّتْهُ فَكَثَّرَتْهُ فَيَقُولُ الْمَلَكُ لِلْحَفَظَةِ اضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا صَاحِبُ الْغِيبَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَ مَنْ اغْتَابَ النَّاسَ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ ثُمَّ تَأْتِي الْحَفَظَةُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فَتَمُرُّ بِهِ فَتُزَكِّيهِ وَتُكَثِّرُهُ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هَذَا عَرَضَ الدُّنْيَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَبْتَهِجُ نُوراً مِنْ صَدَقَةٍ وَصِيَامٍ وَصَلَاةٍ قَدْ أَعْجَبَ الْحَفَظَةَ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ الْكِبْرِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَزْهَرُ كَمَا يَزْهَرُ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ لَهُ دَوِيٌّ مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ أَنَا صَاحِبُ الْعُجْبِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِي عَمَلِهِ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ كَأَنَّهُ الْعَرُوسُ الْمَزْفُوفَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنَا مَلَكُ الْحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ مَنْ يَتَعَلَّمُ

---

(١) حديث معاذ الطويل ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها ـ الحديث : بطوله فى صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف الى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه فى الزهد وفى اسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ فَضْلاً مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَصِيَامٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لاَ يَرْحَمُ إِنْسَانًا قَطُّ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَصَابَهُ بَلاَءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضَرَّ بِهِ بَلْ كَانَ يَشْمَتُ بِهِ أَنَا مَلَكُ الرَّحْمَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْمٍ وَصَلاَةٍ وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ مَعَهُ ثَلاَثَةُ آلاَفِ مَلَكٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ جَوَارِحَهُ اقْفِلُوا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّي أَحْجُبُ عَنْ رَبِّي كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرِدْ بِهِ وَجْهَ رَبِّي إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى إِنَّهُ أَرَادَ رِفْعَةً عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَذِكْرًا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَصِيتًا فِي الْمَدَائِنِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ عَمَلَ الْمُرَائِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلاَئِكَةُ السَّمَوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوا بِهِ الْحُجُبَ كُلَّهَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُخْلِصِ لِلَّهِ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهَذَا الْعَمَلِ وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا وَتَقُولُ السَّمَوَاتُ كُلُّهَا عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَتُنَا وَتَلْعَنُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » قال معاذ. قلت يارسول الله ، أنت رسول الله ، وأنا معاذ :قال « اقْتَدِ بِي وَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ نَقْصٌ يَامُعَاذُ حَافِظْ عَلَى لِسَانِكَ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَاحْمِلْ ذُنُوبَكَ عَلَيْكَ وَلاَ تَحْمِلْهَا عَلَيْهِمْ وَلاَ تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّهِمْ وَلاَ تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ وَلاَ تُدْخِلْ عَمَلَ الدُّنْيَا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ وَلاَ تَتَكَبَّرْ فِي مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ

وَلاَ تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ وَلاَ تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَلا تُمَزِّقِ النَّاسَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ تَعَالَى (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً[1]) أَتَدْرِي مَنْ هُنَّ يَامُعَاذُ ؟ » قلت ماهن بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ قال « كِلاَبٌ فِي النَّارِ تَنْشُطُ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ » قلت بأبي أنت وأمي يارسول الله فمن يطيق هذه الخصال ؟ ومن ينجو منها ؟ قال « يَامُعَاذُ إِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ » قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرءان من معاذ ، للحذر مما في هذا الحديث

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، رأى رجلا يطأطىء رقبته. فقال ياصاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب ، إنما الخشوع فى القلوب. ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده ، فقال أنت أنت لو كان هذا فى بيتك؟ وقال على كرم الله وجهه : للمرائى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان فى الناس . ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه ، وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفى فى سبيل الله، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس؟ قال لا شىء لك. فسأله ثلاث مرات، كل ذلك يقول لا شىء لك، ثم قال فى الثالثة· إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، الحديث

وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له أتحب أن تمقت ؟ قال لا . قال فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك . ولا يقولن هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لا شريك له . وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له : اقتص منى . فقال لا بل أدعها لله ولك . فقال له عمر : ما صنعت شيئا ، إما أن تدعها لى فاعرف ذلك ، أو تدعها لله وحده . فقال ودعتها لله وحده فقال فنعم اذن . وقال الحسن ، لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة. لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه ، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة . وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى فى الطريق ، فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة . ويقال إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرائى، ياغادر، ياخاسر، يافاجر، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا.

(١) النازعات : ٢

وقال الفضيل بن عياض كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون . وقال عكرمة . إن الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله ، لأن النية لا رياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه . المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس هو رجل صالح . وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء ! فلابد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة . إذا راءى العبد ، يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزئ بى . وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة . قراء الرحمن ، وقراء الدنيا ، وقراء الملوك . وإن محمد ابن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل . من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلىّ .

وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمت بالليل ، فإنه أشرف من سمتك بالنهار ، لأن السمت بالنهار للمخلوقين ، وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك . إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان . فقيل له وكيف ذلك ؟ قال يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن أدهم ما صدق الله من أراد أن يشتهر

بيان

حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع . وإنما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير ، إلا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها . فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله . فالمرائى هو العابد ، والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى إظهارها والرياء هو قصده إظهار ذلك . والمراءى به كثير ، وتجمعه خمسة أقسام ، وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس : وهو البدن ، والزى ، والقول ، والعمل ، والأتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة . إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات ، أهون من الرياء بالطاعات

القسم الأول : الرياء فى الدين بالبدن . وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل ، وكثرة الاجتهاد ، وعظم الحزن على الدين . وكذلك يرائى بتشعيث الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت ، استدل الناس بها على هذه الأمور ، فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم . وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته ، أو ضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره ، ويكحل عينيه وكذلك روى عن أبى هريرة . وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء . ولذلك قال ابن مسعود . أصبحوا صياما مدهنين . فهذه مراآة أهل الدين بالبدن فأما أهل الدنيا، فيراءون بإظهار السمن ، وصفاء اللون واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن . وقوة الأعضاء وتناسبها

الثانى : الرياء بالهيئة والزى أما الهيئة . فبتشعيث شعر الرأس ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، وتركه مخرقا ، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين

ومن ذلك لبس المرقعة ، والصلاة على السجادة ، ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف فى الباطن . ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة ، وإسبال الرداء على العينين ، ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان ، يلبسه من هو خال عن العلم ، ليوهم أنه من أهل العلم . والمراءون بالزى على طبقات . فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ، ليرائى بغلظها ، ووسخها ، وقصرها ، وتخرقها ، أنه غير مكترث بالدنيا . ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح . وذلك لخوفه أن يقول

الناس قد بداله من الزهد ، ورجع عن تلك الطريقة ، ورغب فى الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك ، والوزراء ، والتجار . ولو لبسوا الثياب الفاخرة، ردهم القراء . ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ، أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء . فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة ، والمرقعات المصبوغة ، والفوط الرفيعة فليبسونها . ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الأغنياء ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء . فيلتمسون القبول عند الفريقين . وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء . ولو كلفوا لبس الديبقى ، والكتان الدقيق الأبيض ، والمقصب المعلم ، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم ، لعظم ذلك عليهم ، خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا فى زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته فى زى مخصوص، فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه ، أو إلى مافوقه ، وإن كان مباحا . خيفة من المذمة

وأما أهل الدنيا : فمرا آتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الرفيعة ، وأنواع التوسع والتجمل فى الملبس ، والمسكن ، وأثاث البيت ، وفره الخيول . وبالثياب المصبغة، والطيالسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس ، فإنهم يلبسون فى بيوتهم الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ، مالم يبالغوا فى الزينة

الثالث الرياء بالقول . ورياء أهل الدين بالوعظ ، والتذكير ، والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال فى المحاورة ، وإظهارا لغزارة العلم ، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصى ، وتضعيف الصوت فى الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرءان ، ليدل بذلك على الخوف ، والحزن ، وادعاء حفظ الحديث ، ولقاء الشيوخ ، والدق على من يروى الحديث ببيان خلل فى لفظه ، ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح ، لإظهار الفضل فيه . والمجادلة على قصد إفحام الخصم ، ليظهر للناس قوته فى علم الدين . والرياء بالقول كثير ، وأنواعه لا تنحصر .

وأما أهل الدنيا، فرا آتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال، والتفاصح فى العبارات، وحفظ النحو الغريب ، للاغراب على أهل الفضل ، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب

الرابع : الرياء بالعمل . كمرا آة المصلى بطول القيام ، ومد الظهر، وطول السجود والركوع وإطراق الرأس ، وترك الالتفات ، وإظهار الهدوء والسكون ، وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم ، والغزو ، والحج ، وبالصدقة ، وبإطعام الطعام ، وبالإخبات فى المشى عند اللقاء ، كإرخاء الجفون ، وتنكيس الرأس ، والوقار فى الكلام . حتى أن المرائى قد يسرع فى المشى إلى حاجته ، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين ، رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار . فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته ، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ، ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له ، بل هو لاطلاع إنسان عليه ، يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العبّاد والصلحاء . ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته فى الخلوة ، مشيته بمرأى من الناس ، فيكلف نفسه المشية الحسنة فى الخلوة ، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء، وقد تضاعف به رياؤه ، فإنه صار فى خلوته أيضا مرائيا فإنه إنما يحسن مشيته فى الخلوة، ليكون كذلك فى الملأ، لا لخوف من الله وحياء منه . وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالتبختر، والاختيال وتحريك اليدين، وتقريب الخطا، والأخذ بأطراف الذيل، وإدارة العطفين، ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة

الخامس : المرآة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء . ليقال إن فلانا قد زار فلانا . أو عابدا من العبّاد ، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ، ويترددون إليه . أوملكا من الملوك ، أوعاملا من عمال السلطان ، ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته فى الدين . وكالذى يكثر ذكر الشيوخ ، ليرى أنه لقى شيوخا كثيرة واستفاد منهم ، فيباهى بشيوخه . ومباهته ومرا آته تترشح منه عند مخاصمته فيقول لغيره من لقيت من الشيوخ، وأنا قد لقيت فلانا وفلانا، ودرت البلاد، وخدمت الشيوخ، وما يجرى مجراه

فهذه مجامع ما يرائى به المراءون . وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد

ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه . فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة ، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه فى قلوب الخلق.

ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة فى ديره أو صومعته ، لتشوش قلبه ، ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ، ويسعى بكل حيلة فى إزالة ذلك من قلوبهم ، مع قطع طمعه من أموالهم ، ولكنه يحب مجرد الجاه ، فإنه لذيذ كما ذكرناه فى أسبابه ، فإنه نوع قدرة وكمال فى الحال وإن كان سريع الزوال، لايغتر به إلا الجهال. ولكن أكثر الناس جهال

ومن المرائين من لايقنع بقيام منزلته، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد

ومنهم من يريد انتشار الصيت فى البلاد، لتكثر الرحلة إليه . ومنهم يريد الاشتهار عند الملوك ، لتقبل شفاعته ، وتنجز الحوائج على يده ، فيقوم له بذلك جاه عند العامة

ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام ، وكسب مال ، ولو من الأوقاف وأموال اليتامى ، وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شر طبقات المرائين، الذين يراءون بالأسباب التى ذكرناها فهذه حقيقة الرياء، وما به يقع الرياء. فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل

فأقول : فيه تفصيل ، فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، فإن كان بغير العبادات ، فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد. ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات ، وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال ، وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكسب قليل من الجاه ، وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام حيث قال (إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ [1]) وكما أن المال فيه سم ناقع ، ودرياق نافع ، فكذلك الجاه . وكما أن كثير المال يلهى ويطغى ، وينسى ذكر الله والدار الآخرة ، فكذلك كثير الجاه بل أشد . وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام ، فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام ، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور ، كانصراف الهم إلى كثرة المال. ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصى القلب واللسان وغيرها

وأما سعة الجاه ، من غير حرص منك على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله إن زال . فلا ضرر فيه . فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاه الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ، ولا يوصف بالتحريم

---

(١) يوسف : ٥٥

فعلى هذا نقول . تحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراآة ، وهو ليس بحرام ، لأنه ليس رياء بالعبادة ، بل بالدنيا . وقس على هـذا كل تجمل للناس وتزين لهم . والدليل عليه ما روى عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة ، فكان ينظر فى حب الماء ، ويسوى عمامته وشعره . فقالت أو تفعل ذلك يارسول الله؟ قال « نَعَمْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لِإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ » نعم : هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة ، لأنه كان مأمورا بدعوة الخلق ، وترغيبهم فى الاتباع ، واستمالة قلوبهم . ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه . فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله ، لئلا تزدريه أعينهم . فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر . فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم ، حذرا من ذمهم ولومهم ، واستروحا إلى توقيرهم واحترامهم ، كان قد قصد أمرا مباحا . إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ، ويطلب راحة الأنس بالإخوان . ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم

فإذاً المراآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة . وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء ، لا فى معرض العبادة والصدقة ، ولكن ليعتقد الناس أنه سخى ، فهذا مراآة ، وليس بحرام . وكذلك أمثاله • أما العبادات ، كالصدقة ، والصلاة ، والصيام والغزو ، والحج ، فللمرائى فيه حالتان : إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته ، لأن الأعمال بالنيات . وهذا ليس يقصد العبادة . ثم لا يقتصر على إحباط عبادته ، حتى نقول صار كما كان قبل العبادة ، بل يعصى بذلك ويأثم ، كما دلت عليه الأخبار والآيات . والمعنى فيه أمران :

أحدهما : يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر ، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله ، وأنه من أهل الدين وليس كذلك . والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضا ، حتى لو قضى دين جماعة ، وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته ، أثم به ، لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر فى حب الماء ويسوى عمامته وشعره ـ الحديث : ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الطهارة

والثانى : يتعلق بالله ، وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله ، فهو مستهزىء بالله ولذلك قال قتادة : إذا راءى العبد ، قال الله لملائكته انظروا إليه كيف يستهزىء بى . ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار ، كما جرت عادة الخدم ؛ وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك ، أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك ، إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته ؛ بل قصد بذلك عبدا من عبيده . فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف ، لا يملك له ضرا ولا نفعا ! وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله؟ إذ آثره على ملك الملوك ، فجعله مقصود عبادته . وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات . ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] الشرك الأصغر

نعم : بعض درجات الرياء أشد من بعض، كما سيأتى بيانه فى درجات الرياء إن شاء الله تعالى. ولا يخلو شىء منه عن إثم غليظ أو خفيف ، بحسب ما به المراآة . ولو لم يكن فى الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله ، لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله ، فقد قصد غير الله . ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا . إلا أن الرياء هو الكفر الخفى ، لأن المرائى عظم فى قلبه الناس ، فاقتضت تلك المعظمة أن يسجد ويركع ، فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه . ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود ، وبقى تعظيم الخلق ، كان ذلك قريبا من الشرك ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده ، بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله . فمن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا ، وذلك غاية الجهل . ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان ، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ، ونفعه ، ورزقه ، وأجله ، ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى. فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم ، وأقبل بقلبه عليهم ، ليستميل بذلك قلوبهم . ولو وكله الله تعالى إليهم فى الدنيا والآخرة ، لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم ،

---

(١) حديث سمى الرياء الشرك الأصغر : أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبرانى من رواية محمود ابن لبيد عن رافع بن خديج فجعله فى مسند رافع وتقدم قريبا وللحاكم وصحح اسناده من حديث شداد بن أوس كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر

لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا ! فكيف فى يوم لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ! بل تقول الأنبياء فيه نفسى، نفسى . فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ،و نيل القرب عند الله ، مايرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس، فلاينبغى أن نشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله ، من حيث النقل والقياس جميعا . هذا إذا لم يقصد الأجر . فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته،فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص،وقد ذكرناحكمه فى كتاب الإخلاص ويدل على مانقلناه من الآثار،قول سعيد بن المسيب، وعبادة بن الصامت إنه لا أجر له فيه أصلا

بيان

درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض . واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرياء

الركن الأول : نفس قصد الرياء . وذلك لايخلو إما أن يكون مجردا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب . فإن كان كذلك ، فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب،أو أضعف،أو مساوية لإرادة العبادة. فتكون الدرجات أربعا

الأولى : وهى أغلظها ،أن لايكون مراده الثواب أصلا . كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لايصلى . بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس . فهذا جرّد قصده إلى الرياء ، فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس،وهو لايقصد الثواب ، ولو خلا بنفسه لما أدّاها . فهذه الدرجة العليا من الرياء

الثانية:أن يكون له قصد الثواب أيضا،ولكن قصدا ضعيفا،بحيث لوكان فى الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل. ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل. فهذا قريب مما قبله ، وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل ، لا ينفى عنه المقت والإثم

الثالثة : أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل . فلما اجتمعا انبعثت الرغبة . أو كان كل واحد

منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل . فهذا قد أفسد مثل ما أصلح . فنرجو أن يسلم رأسا برأس ، لاله ولا عليه . أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب . وظواهر الأخبار تدل على أنه لايسلم ، وقد تكلمنا عليه فى كتاب الإخلاص

الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ، ولو لم يكن لكان لايترك العبادة : ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه . فالذى نظنه والعلم عند الله ، أنه لا يحبط أصل الثواب ، ولكنه ينقص منه ، أويعاقب على مقدار قصد الرياء ، ويثاب على مقدار قصد الثواب . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان ، أوكان قصد الرياء أرجح

الركن الثانى : المراءى به وهو الطاعات . وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها

القسم الأول : وهو الأغلظ ، الرياء بالأصول . وهو على ثلاث درجات :

الأولى : الرياء بأصل الإيمان ، وهذا أغلظ أبواب الرياء . وصاحبه مخلد فى النار . وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة ، وباطنه مشحون بالتكذيب ، ولكنه يرائى بظاهر الإسلام . وهو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى مواضع شتى ، كقوله عزوجل (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [1]) أى فى دلالتهم بقولهم على ضمائرهم . وقال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا [2]) الآية وقال تعالى (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ [3]) وقال تعالى (يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ [4]) والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ، ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض . وذلك مما يقل فى زماننا . ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا ، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ، ميلا إلى قول الملحدة .

---

(١) المنافقون : ١ (٢) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ (٣) آل عمران : ١١٩ (٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣

أو يعتقد طى بساط الشرع والأحكام ، ميلا إلى أهل الإباحة . أو يعتقد كفرا أو بدعة، وهو يظهر خلافه .فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين فى النار . وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر

الثانية : الرياء بأصول العبادات ، مع التصديق بأصل الدين . وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله أن يكون مال الرجل فى يد غيره ، فيأمره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجها . أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع ، وعادته ترك الصلاة فى الخلوة . وكذلك يصوم رمضان ، وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر . وكذلك يحضر الجمعة ، ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها . أو يصل رحمه أو يبر والديه ، لا عن رغبة ، ولكن خوفا من الناس ، أو يغزو ، أو يحج كذلك .فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله . يعتقد أنه لا معبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل ، وينشط عند اطلاع الناس . فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته فى محمدتهم أشد من رغبته فى ثواب الله . وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت ، وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد

الثالثة : أن لا يرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لا يعصى ؛ ولكنه يكسل عنها فى الخلوة ، لفتور رغبته فى ثوابها ، ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب . ثم يبعثه الرياء على فعلها . وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وغسل الميت . وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ، ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للمحمدة ؛ ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضا عظيم ، ولكنه دون ما قبله . فإن الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق ، وهذا أيضا قد فعل ذلك . واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله . وأما هذا فلم يفعل ذلك ، لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على الشطر من الأول ، وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات

القسم الثانى: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهو أيضا على ثلاث درجات :

الأولى : أن يرائى بفعل ما فى تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ، ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود ، وترك الالتفات ، وتمم القعود بين السجدتين . وقد قال ابن مسعود . من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عزوجل . أى أنه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاه . ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أومتكئا ، فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة ، كان ذلك منه تقدعا للغلام على السيد ، واستهانة بالسيد لامحالة . وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة فى الملأ دون الخلوة . وكذلك الذى يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة ، أو من الحب الردىء ، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته

وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق ، لا إكمالا لعبادة الصوم ، خوفا من المذمة . فهذا أيضاً من الرياء المحظور ، لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات . فإن قال المرائى إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود ، وكثرة الالتفات ، أطلقوا اللسان بالذم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ، فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس . وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك ، وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك . فلو كان باعثك الدين ، لكان شفقتك على نفسك أكثر . وما أنت فى هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك ، لينال منه فضلا وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ، ولا يبالى به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه . وذلك محال . بل من يراعى جانب غلام الملك ، ينبغى أن تكون مراقبته للملك أكثر ، نعم للمرائى فيه حالتان : إحداهما . أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس ، وذلك حرام قطعا . والثانية أن يقول ليس يحضرنى الإخلاص فى تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتى عند الله ناقصة ، وآذانى الناس بذمهم وغيبتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ، ولا أرجوا عليه ثوابا ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة ، فيفوت الثواب وتحصل المذمة . فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح

أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره النية ، فينبغى أن يستمر على عادته فى الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراآة بطاعة الله ، فإن ذلك استهزاء كما سبق .

الدرجة الثانية : أن يرائى بفعل مالا نقصان فى تركه ، ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته . كالتطويل فى الركوع والسجود ، ومد القيام ، وتحسين الهيئة ، ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى ، وتحسين الاعتدال ، والزيادة فى القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان ، وطول الصمت . وكاختيار الأجود على الجيد فى الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية فى الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

الثالثة : أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا . كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول ، وتوجهه إلى يمين الإمام ، وما يجرى مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ، ومتى يحرم بالصلاة .

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائى به ، وبعضه أشد من بعض ، والكل مذموم

الركن الثالث : المرائى لأجله . فإن للمرائى مقصودا لامحالة ، وإنما يرائى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة . وله أيضا ثلاث درجات .

الأولى: وهى أشدها وأعظمها ، أن يكون مقصوده التمكن من معصية . كالذى يرائى بعباداته ، ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة ، أو الصدقات ، ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها . أو تسلم إليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج ، فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ، ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة فى المعاصى . وقد يظهر بعضهم زى التصوف ، وهيئة الخشوع ، وكلام الحكمة ، على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور . وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرءان ، يظهرون الرغبة فى سماع العلم والقرءان ، وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج إلى الحج ، ومقصوده الظفر بمن فى الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى ، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته ، واتخذوها آلة ومتجرا ، وبضاعة لهم فى فسقهم

ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم ، من هو مقترف جريمة اتهم بها ، وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه ، فيظهر التقوى لنفي التهمة ، كالذي جحد وديعة ، واتهمه الناس بها ،فيتصدق بالمال، ليقال إنه يتصدق بمال نفسه ، فكيف يستحل مال غيره. وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام ، فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى

الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا ، من مال ، أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة . كالذي يظهر الحزن والبكاء، ويشتغل بالوعظ والتذكير ،لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء . فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة . وكالذي يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد،فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجها بنته. فهذا رياء محظور ،لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكنه دون الأول،فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه

الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ ، وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ، ولا يعد من الخاصة والزهاد ، ويعتقد أنه من جملة العامة . كالذي يمشي مستعجلا ، فيطلع عليه الناس ، فيحسن المشي ويترك العجلة ، كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار . وكذلك إن سبق إلى الضحك ،أو بدا منه المزاح، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار ،فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ،وإظهار الحزن،ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه . والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير . وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون ، أو يصومون الخميس والإثنين ، أو يتصدقون ، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ، ويلحق بالعوام . ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئا من ذلك . وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء ، أو في الأشهر الحرم ، فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم . فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله . أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن إنه صائم ، وقد لا يصرح بأني صائم ، ولكن يقول لي عذر . وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ، ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا ، فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته . ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا ، تصريحا أو تعريضا ، بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم

أو يقول أفطرت تطيبيا لقلب فلان . ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه ، كي لا يظن، به أنه يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ، ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا ، مثل أن يقول إن فلانا محب للإخوان ، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه ، وقد ألح عليّ اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه . ومثل أن يقول إن أمي ضعيفة القلب ، مشفقة عليّ ، تظن أني لو صمت يوما مرضت ، فلا تدعني أصوم . فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء ، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن . أما المخلص ، فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه . فإن لم يكن له رغبة في الصوم ، وقد علم الله ذلك منه ، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله ، فيكون ملبسا . وإن كان له رغبة في الصوم لله ، قنع بعلم الله تعالى ، ولم يشرك فيه غيره . وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به ، وتحريك رغبة الناس فيه . وفيه مكيدة وغرور ، وسيأتي شرح ذلك وشروطه

فهذه درجات الرياء ، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ،وهو من أشد المهلكات . وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل ، كما ورد به الخبر ، يزل فيه فحول العلماء ، فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب، والله أعلم

بيان

الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي فالجلي هو الذي يبعث على العمل ، ويحمل عليه ، ولو قصد الثواب . وهو أجلاه . وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده ، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله ، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ، ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له ، وخف عليه ، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان ،

وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ، ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب . ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل ، لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته . فرب عبد يخلص في عمله ، ولا يعتقد

الرياء بل يكرهه ويرده ، ويتمم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك ، وارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة . وهذا السرور يدل على رياء خفي ، منه يرشح السرور . ولولا التفات القلب إلى الناس ، لما ظهر سروره عند اطلاع الناس . فلقد كان الرياء مستكنا في القلب ، استكنان النار في الحجر ، فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور . ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ، ولم يقابل ذلك بكراهية ، فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء ، حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه ، بالتعريض والقاء الكلام عرضا وإن كان لا يدعو إلى التصريح . وقد يخفى فلا يدعو إلى الأظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل ، كإظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، ويبس الشفتين ، وجفاف الريق ، وآثار الدموع ، وغلبة النعاس الدال على طول التهجد . وأخفى من ذلك أن أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ، ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه ، وأن يسامحوه في البيع والشراء ، وأن يوسعوا له في المكان . فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، ووجد لذلك استبعادا في نفسه ، كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه . ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة ، لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه . ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ، ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء ، [1] أخفى من دبيب النمل . وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصديقون

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدءون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث لا أجر لكم ، قد استوفيتم أجوركم . وقال عبد الله بن المبارك روى عن وهب ابن منبه

---

(١) حديث في الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل : أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق وضعفه هو والدارقطني

أنه قال : إن رجلا من السواح قال لأصحابه : إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان . فنخاف أن نكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم . إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه . فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكب من الناس ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس . فقال السائح ماهذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك . فقال للغلام . ائتنى بطعام . فأتاه ببقل ، وزيت ، وقلوب الشجر . فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا . فقال الملك . أين صاحبكم ؟ فقالوا هذا . قال كيف أنت ؟ قال كالناس . وفى حديث آخر بخير . فقال الملك ماعند هذا من خير . فانصرف عنه . فقال السائح الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون لذلك فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم . كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة ، فيجازيهم الله فى القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق ، إذ علموا أن الله لايقبل فى القيامة إلا الخالص، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة ، وأنه يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجزى والد عن ولده ويشتغل الصديقون بأنفسهم ، فيقول كل واحد نفسى نفسى ، فضلا عن غيرهم . فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة ، فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربى الخالص لعلمهم بأن أرباب البوادى لايروج عندهم الزائف والنبهرج ، والحاجة تشتد فى البادية ، ولا وطن يفزع إليه ، ولا حميم يتمسك به ، فلا ينجى إلا الخالص من النقد . فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة ، والزاد الذى يتزودونه له من التقوى .

فإذاً شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء ، فإنه لما قطع طمعه عن البهائم ، لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا . فلو كان مخلصا قانعا بعلم الله، لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لايقدرون له على رزق ، ولا أجل ، ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب . كما لايقدر عليه البهائم ، والصبيان ، والمجانين . فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر ، مفسدا للعمل ، بل فيه تفصيل

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ، فالسرور مذموم كله؟ أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول أولا : كل سرور فليس بمذموم . بل السرور منقسم إلى محمود ، وإلى مذموم : فأما المحمود ، فأربعة أقسام.

الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق، علم أن الله أطلعهم ، وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به، ونظره إليه، وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة. ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم. وقد قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا [1] ﴾ فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به

الثاني : أن يستدل بإظهار الله الجميل ، وستره القبيح عليه في الدنيا ، أنه كذلك يفعل في الآخرة . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ » فيكون الأول فرحا بالقبول في الحال ، من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

الثالث : أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة ، فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا ، وأجر السر بما قصده أولا . ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ ، وموجب للسرور لامحالة .

الرابع : أن يحمده المطلعون على طاعته ، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ، وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده ، أو يذمه ويهزأ به ، أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه . فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله ، وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره ، مثل فرحه بحمدهم إياه

وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس ،

---

(١) حديث ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة: مسلم من حديث أبي هريرة

(١) يونس : ٥٨

حتى يمدحوه، ويعظموه، ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام فى مصادره وموارده، فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

بيان

ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل، أو قبل الفراغ. فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل. إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص، سالما عن الرياء، فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، ولم يتمن إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله، ولم يكن منه إلا مادخل من السرور والارتياح على قلبه. نعم: لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء، ولكن ظهرت له بعده رغبة فى الإظهار، فتحدث به وأظهره، فهذا مخوف. وفى الآثار والأخبار: مايدل على أنه يحبط. فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول: قرأت البارحة البقرة، فقال ذلك حظه منها. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]، أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يارسول الله فقال له « مَا صُمْتَ وَلاَ أَفْطَرْتَ » فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره، وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ابن مسعود، استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له، لما أن ظهر منه التحدث به. إذ يبعد أن يكون مايطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل. بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذى مضى، ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها. بخلاف مالو تغير عقده إلى الرياء

---

(١) حديث قال لرجل قال صمت الدهر ماصمت ولا أفطرت: مسلم من حديث أبى قتادة قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لاصام ولا أفطر. وللطبرانى من حديث أسماء بنت يزيد فى أثناء حديث فيه فقال رجل انى صائم قال بعض القوم انه لا يفطر انه يصوم كل يوم قال النبى صلى الله عليه وسلم لاصام ولا أفطر من صام الابد ولم أجده بلفظ الخطاب

قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ، ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا ، وكان قد عقد على الإخلاص ، ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر فى العمل ، وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به، حبط أجره ومثاله أن يكون فى تطوع ، فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك ، وهو يشتهى أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئا نسيه من ماله ، وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة ، فاستتمها خوفا من مذمة الناس ، فقد حبط أجره . وعليه الإعادة إن كان فى فريضة . وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « الْعَمَلُ كَالْوِعَاءِ إِذَا طَابَ آخِرُهُ طَابَ أَوَّلُهُ » أى النظر إلى خاتمته . وروى أنه[2] « من راءى بعمله ساعة ، حبط عمله الذى كان قبله . وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لا على الصدقة ، ولا على القراءة . فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى . والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ، ففرح بحضورهم وعقد الرياء ، وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد أثر فى العمل ، وانتهض باعثا على الحركات . فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب ، وصار قصد العبادة مغمورا ، فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه . لأنا نكتفى بالنية السابقة عند الإحرام ، بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها . ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد ، وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه . ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط فى أمر هو أهون من هذا ، وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ، يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه ، قال قد اختلف الناس فى هذا ، فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول ، وركن إلى حمد المخلوقين ، ولم يختم عمله بالإخلاص ، وإنما يتم العمل بخاتمته

---

(١) حديث العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله: ابن ماجه من حديث معاوية بن أبى سفيان بلفظ اذا طاب أسفله طاب أعلاه وقد تقدم

(٢) حديث من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله: لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به ورواه مسلم من حديث ابن عباس

ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد فى العمل ، ولا آمن عليه . وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء . ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى إنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية ، وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يارسول الله [1] ، أسر العمل لاأحب أن يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرنى . قال « لَكَ أَجْرَانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ » ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله لايضره أى لايدع العمل ، ولا تضره الخطرة وهو يريد الله . ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره . وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل ، يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ ، وليس فى الحديث أنه قبل الفراغ

الثانى : أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل ، لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا ، وغايته أن يعفى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران !

والثالث . أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبى هريرة ، بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح . ومنهم من يرفعه . فالحكم بالعمومات الواردة فى الرياء أولى .

هذا ماذكره ، ولم يقطع به ، بل أظهر ميلا إلى الإحباط . والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره فى العمل ، بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين ، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع ، فلا يفسد العمل ، لأنه لم ينعدم به أصل نيته ، وبقيت تلك النية باعثة على العمل ، وحاملة على الإتمام . وأما الأخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ماإذا لم يرد به إلا الخلق . وأما ماورد فى الشركة فهو محمول على ماإذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب ، أو أغلب منه . أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه ، فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال . ولا ينبغى أن يفسد الصلاة . ولا يبعد أيضا أن يقال إن الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ، والخالص مالايشوبه شىء ، فلا يكون مؤديا للواجب

---

(١) حديث ان رجلا قال أسر العمل لاأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال لك أجران ـ الحديث: البيهقى فى شعب الايمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبى هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجر السر والعلانية

مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا فى كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن ، فليرجع إليه ، فهذ حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة ، إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ

القسم الثالث : الذى يقارن حال العقد ، بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء. فإن استمر عليه حتى سلم ، فلا خلاف فى أنه يقضى ، ولا يعتد بصلاته . وإن ندم عليه فى أثناء ذلك ، واستغفر ورجع قبل التمام ، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه . قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف . وقالت فرقة تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ، وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة ، لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر فى قلبه لايخرج التحريم عن كونه عقدا . وقالت فرقة لا يلزمه إعادة شىء ، بل يستغفر الله بقلبه ، ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة ، كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله . وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة ، فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل. فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لاتكون إلا لله . ولو سجد لغير الله لكان كافرا . ولكن اقترن به عارض الرياء ، ثم زال بالندم والتوبة ، وصار إلى حالة لا يبالى بحمد الناس وذمهم، فتصح صلاته

ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا ، خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود ، دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة فى الصلاة ، فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدح فى النية ، وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح

فالذى يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال . إن كان باعثه مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر ، لم ينعقد افتتاحه ، ولم يصح مابعده . وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة، وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلى لأجل الناس، فهذه صلاة لانية فيها، إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة

فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلى ، إلا أنه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون فى صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم ، أو فى عقد صلاة وحج . فإن كان فى صدقة ، فقد عصى بإجابة باعث الرياء ، وأطاع بإجابة باعث الثواب

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1]) فله ثواب بقدر قصده الصحيح ، وعقاب بقدر قصده الفاسد ، ولا يحبط أحدهما الآخر

وإن كان فى صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية ، فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا . فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة . فقد عصى من وجه ، وأطاع من وجه إذ اجتمع فى قلبه الباعثان . ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة ، والاقتداء به باطل . حتى أن من صلى التراويح ، وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء ، بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه ، وخلا فى بيت وحده لما صلى ؛ لا يصح الاقتداء به . فإن المصير إلى هذا بعيد جدا . بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه ، فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ، ويصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص.

فأما إذا كان فى فرض واجتمع الباعثان ، وكان كل واحد لا يستقل ، وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما ، فهذا لا يسقط الواجب عنه . لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا فى حقه بمجرده واستقلاله . وإن كان كل باعث مستقلا ، حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء ، فهذا محل النظر ، وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ، ولم يؤد الواجب الخالص . ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه . كما لو صلى فى دار مغصوبة ، فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة فى الدار المغصوبة ، فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه . وتعارض الاحتمال فى تعارض البواعث فى أصل الصلاة

أما إذا كان الرياء فى المبادرة مثلا دون أصل الصلاة ، مثل من بادر إلى الصلاة فى أول الوقت لحضور جماعة ؛ ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء ، فهذا مما يقطع بصحة صلاته ، وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره . بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد عن القدح فى النية

هذا فى رياء يكون باعثا على العمل ، وحاملا عليه . وأما مجرد السرور باطلاع الناس

---

(1) الزلزلة : ٧ ، ٨

عليه ، إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر فى العمل ، فبعيد أن يفسد الصلاة

فهذا ما نراه لائقا ، بقانون الفقه . والمسألة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه . والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ، ومقتضى فتاوى الفقهاء فى صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات ، بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه ، والعلم عند الله عز وجل فيه ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو الرحمن الرحيم

بيان

دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات . وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته ، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا فى شرب الأدوية المرة البشعة . وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم . إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتميز ممتد العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض ، فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ، ويرسخ ذلك فى نفسه وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله ، وقد انغرس الرياء فى قلبه وترسخ فيه ، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ، ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا . وفى علاجه مقامان : أحدهما قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه ، والثانى : دفع ما يخطر منه فى الحال

المقام الأول : فى قلع عروقه واستئصال أصوله . وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول . وهى لذة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدى الناس ويشهد للرياء بهذه الأسباب ، وأنها الباعثة للمرائى ، ما روى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم [1] فقال . يارسول الله : الرجل يقاتل حمية . ومعناه أنه يأنف أن يقهر ، أو يذم بأنه مقهور مغلوب . وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه . وهذا هو طلب لذة الجاه

---

(١) حديث أبي موسى أن اعرابيا قال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ـ الحديث : متفق عليه

والقدر فى القلوب . والرجل يقاتل للذكر . وهذا هو الحمد باللسان. فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال ابن مسعود . إذا التقى الصفان نزلت الملائكة ، فكتبوا الناس على مراتبهم . فلان يقاتل للذكر. وفلان يقاتل للملك والقتال للملك إشارة إلى الطمع فى الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه . يقولون فلان شهيد ، ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ غَزَا لاَ يَبْغِي إلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ، ولكن يحذر من ألم الذم ، كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير ، فإنه يتصدق بالقليل كى لا يبخل . وهو ليس يطمع فى الحمد وقد سبقه غيره . وكالجبان بين الشجعان ، لا يفر من الزحف خوفا من الذم ، وهو لا يطمع فى الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم . وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل ، فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل ، وهو لا يطمع فى الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ، ولا يقدر على الصبر على ألم الذم . ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه ، خيفة من أن يذم بالجهل . ويفتى بغير علم ، ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الذم

فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك المرائى إلى الرياء . وعلاجه ماذكرناه فى الشطر الأول من الكتاب على الجملة . ولكنا نذكر الآن مايخص الرياء . وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما فى الحال، وإما فى المآل . فإن علم أنه لذيذ فى الحال ، ولكنه ضار فى المآل. سهل عليه قطع الرغبة عنه . كمن يعلم أن العسل لذيذ ، ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه . فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة

ومهما عرف العبد مضرة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق ، وفى الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من العقاب العظيم ، والمقت الشديد ، والخزى الظاهر ، حيث ينادى على رءوس الخلائق يافاجر ، ياغادر ، يامرائى ، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد ، واستهزأت بطاعة الله

---

(١) حديث من غزا لا يبغى الا عقالا فله مانوى : النسائى وقد تقدم

وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله . أما كان أحد أهون عليك من الله ؟ فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى ، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا ، بما يفوته فى الآخرة ، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ، ويهوى إلى النار . فلو لم يكن فى الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا فى معرفة ضرره . وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله فى زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق . فإن رضا الناس غاية لا تدرك . فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق . ورضا بعضهم فى سخط بعضهم . ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه ، وأسخطهم أيضا عليه . ثم أى غرض له فى مدحهم ، وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ، ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة

وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ، ولا رازق إلا الله . ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة . فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ، ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطىء ؟ وإذا أصاب فلا تفى لذته بألم منته ومذلته

وأما ذمهم فلم يحذر منه ، ولا يزيده ذمهم شيئا ما لم يكتبه عليه الله ، ولا يعجل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيده مقتا إن كان ممقوتا عند الله ؟ فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها ، فترت رغبته ، وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكفيه أن الناس لو علموا ما فى باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص ، لمقتوه . وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ، ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله .

ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه ، وحببه إليهم ، وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال فى مدحهم . ولا نقصان فى ذمهم ، كما قال شاعر من تميم [(١)] إن مدحى زين ، وإن ذمى شين . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَذَبْتَ ذَاكَ اللهُ الَّذى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ » إذ لا زين إلا فى مدحه ، ولا شين إلا فى ذمه . فأى خير لك فى مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس ، وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين

فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد ، والمنازل الرفيعة عند الله ، استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة ، مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه ، وانصرف إلى الله قلبه ، وتخلص من مذلة الرياء ، ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ، ينشرح بها صدره ، وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ، ووحشته من الخلق ، واستحقاره للدنيا ، واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه ، وانحل عنه داعية الرياء ، وتذلل له منهج الإخلاص

فهذا وما قدمناه فى الشطر الأول ، هى الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء

وأما الدواء العملى . فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله ، واطلاعه على عباداته ، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها ، فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه ، لا تجالسنا بعد هذا . فلم يرخص فى إظهار هذا القدر ، لأن فى ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها . فلا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة . وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله ، وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد . ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فمن العبد المجاهدة ، ومن الله الهداية . ومن العبد قرع الباب ، ومن الله فتح الباب . والله لا يضيع أجر المحسنين ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما

---

(١) حديث قال شاعر من بنى تميم إن مدحى زين إن ذمى شين فقال كذبت ذاك الله : حم من حديث الأقرع ابن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات الا أنى لا أعرف لابى سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الاقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل ان حمدى

المقام الثانى : فى دفع العارض منه فى أثناء العبادة . وذلك لابد من تعلمه أيضا . فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة ، وقطع الطمع ، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين ، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم ، فالشيطان لايتركه فى أثناء العبادات ، بل يعارضه بخطرات الرياء . ولا تنقطع عنه نزغاته . وهوى النفس وميلها إلا ينمحى بالكلية . فلا بد وأن يتشمر لدفع مايعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة . قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد ، وقد تترادف على التدريج

فالأول : العلم باطلاع الخلق ، ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس فى حمدهم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة فى قبول النفس له ، والركون إليه ، وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول معرفة . والثانى حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد . وإنما كمال القوة فى دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثانى فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق ، أو رجاء اطلاعهم ، دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علموا أولم يعلموا ، والله عالم بحالك ؟ فأى فائدة فى علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ، يذكر ما رسخ فى قلبه من قبل من آفة الرياء ، وتعرضه للمقت عند الله فى القيامة ، وخيبته فى أحوج أوقاته إلى أعماله . فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة فى الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة . إذ يتفكر فى تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء والنفس تطاوع لامحالة أقواهما وأغلبهما

فإذاً لابد فى رد الرياء من ثلاثة أمور . المعرفة ، والكراهة ، والإباء . وقد يشرع العبد فى العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ، ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التى كان الضمير منطويا عليها . وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد ، واستيلاء الحرص عليه ، بحيث لا يبقى فى القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء ، وشؤم عاقبته ، إذ لم يبق موضع فى القلب خال عن شهوة الحمد أوخوف الذم . وهو كالذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ، ثم يجرى من الأسباب مايشتد به غضبه ، فينسى سابقة عزمه ، ويمتلىء قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ، ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب ،

وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب · وإليه أشار جابر بقوله . (١) بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت ، فأنسيناها يوم حنين حتى نودى ياأصحاب الشجرة ، فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف ، فنسيت العهد السابق ،حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد الإيمان ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة. فإن الكراهة ثمرة المعرفة

وقد يتذكر الإنسان ، فيعلم أن الخاطر الذى خطرله هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ، ولا يقدر على ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة ، أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة ، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق ، وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه ، فتكون الحجة عليه أوكد ، إذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته ، وكونه مذموما عند الله · ولا تنفعه معرفته ، إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ، ولكن مع ذلك يقبل داعى الرياء ويعمل به ، لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة : وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته ، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل

فإذاً لا فائدة إلا فى اجتماع الثلاث ، وهى المعرفة ، والكراهة والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة ، وحب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، وقلة التفكر فيما عند الله ، وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة . وبعض ذلك ينتج بعضا ويثمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات ، فهو رأس كل خطيئة ، ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا ، هى التى تغضب القلب وتسلبه ، وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة ، والاستضاءة بنور الكتاب، والسنة ، وأنوار العلوم . فإن قلت :فمن صادف من نفسه كراهة الرياء ، وحملته الكراهة على الإباء ، ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه، وحبه له، ومنازعته إياه، إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه ،وغير مجيب إليه فهل يكون فى زمرة المرائين؟

---

(١) حديث جابر بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ـ الحديث : مسلم مختصراً دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس

فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق ، وليس فى طاقة العبد منع الشيطان عن نزغانه ، ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها . و إنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين ، وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر . فإذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ماروى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] شكوا إليه وقالوا. تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير ، أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق ، أحب إلينا من أن نتكلم بها . فقال عليه السلام « أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا نعم قال « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له . ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة . والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة فى حق الله تعالى . فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة ، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى

وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال [2] « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ إِلَى الْوَسْوَسَةِ » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك ، وكرهته نفسك لنفسك ، فلا يضرك ماهو من عدوك . وما كان من نفسك ، فرضيته نفسك لنفسك ، فعاتبها عليه . فإذاً وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك ، مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة . والخواطر التى هى العلوم ، والتذكرات ، والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء ، هى من الشيطان . والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس . والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل . إلا أن للشيطان ههنا مكيدة ، وهى أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء ، خيل إليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال ، حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب . لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله ، فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله

---

(١) حديث شكوى الصحابة مايعرض فى قلوبهم وقوله ذلك صريح الايمان : مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك محض الايمان والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه ورواه النسائى فيه من حديث عائشة

(٢) حديث ابن عباس الحمد لله الذى رد كيده الشيطان الى الوسوسة : أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ كيده

والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب

الأولى : أن يرده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه ، بل يشتغل بمجادلته ، ويطيل الجدال معه ، لظنه أن ذلك أسلم لقلبه . وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله ، وعن الخير الذى هو بصدده ، وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك

الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك ، فيقتصر على تكذيبه ودفعه ، ولا يشتغل بمجادلته

الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا ، لأن ذلك وقفة . وإن قلت بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان ، فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص ، والاشتغال بالله ، وإخفاء الصدقة والعبادة ، غيظا للشيطان . وذلك هو الذى يغيظ الشيطان ويقمعه ، ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلانا يذكرك . فقال والله لأغيظن من أمره . قيل ومن أمره ؟ قال الشيطان . اللهم اغفر له . أى لأغيظنه بأن أطيع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة ، كف عنه خيفة من أن يزيد فى حسناته

وقال إبراهيم التيمى : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعه ، وليحدث عند ذلك خيرا . فإذا رآه كذلك تركه . وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك وإذا رآك مداوما ملَّكَ وقلاك . وضرب الحارث المحاسبى رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث ، لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا . فحسدهم على ذلك ضال مبتدع ، وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد منهم وصرفه عن ذلك ، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى . فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة ، فاشتغل معه ليرد ضلاله ، وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر

تأخره . فلما مر الثانى عليه نهاه واستوقفه فوقف، فدفع فى نحر الضال ، ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومر به الثالث ، فلم يلتفت إليه ، ولم يشتغل بدفعه ولا بقتـاله ، بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاؤه بالكلية . فمر الرابع ، فلم يتوقف له ؛ وأراد أن يغيظه فزاد فى عجلته، وترك التأنى فى المشى . فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير، فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغانه، فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه إنتظار الوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟

قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان، لأنهم انقطعوا إلى الله ، واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم ، وخنس عنهم ، كما أيس من ضعفاء العباد فى الدعوة إلى الخمر والزنا ، فصارت ملاذ الدنيا عندهم ، وإن كانت مباحة ، كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية ، فلم يبق للشيطان إليهم سبيل ، فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ، ونقص توكله . فمن أيقن بأن لا شريك لله فى تدبيره فلا يحذر غيره . ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ، ولا يكون إلا ما أراده الله ، فهو الضار والنافع ، والعارف يستحيي منه أن يحذر غيره . فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر

وقالت فرقة من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان . وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر، وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية ، فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا . إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان و نزغانه فكيف يتخلص غيرهم ! وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا . بل فى صفات الله تعالى وأسمائه، وفى تحسين البدع والضلال وغير ذلك . ولا ينجو أحد من الخطر فيه . ولذلك قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ [1]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الحج : ٥٢

(١) « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي » (٢) مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير . فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور . ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان . ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور ، بعد أن قال الله لهما (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١)) ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة ، وأطلق له وراء ذلك ما أراد . فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان ، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا ، وهي منبع المحن والفتن ، ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها ! وقال موسى عليه السلام ، فيما أخبر عنه تعالى (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ (٢)) ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ (٣)) وقال عز وجل (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ (٤)) والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان . فكيف يدعي الأمن منه ؟ . وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله . فإن من الحب له إمتثال أمره . وقد أمر بالحذر من العدو ، كما أمر بالحذر من الكفار . فقال تعالى (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ (٥)) وقال تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ (٦)) فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة ؛ وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل . فإن أخذ الترس والسلاح ، وجمع الجنود ، وحفر الخندق ، لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكيف يقدح

---

(١) حديث انه ليغان على قلبي : تقدم

(٢) حديث ان شيطانه أسلم فلا يأمر الا بخير : تقدم أيضا

---

(١) طه : ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ (٢) القصص ١٥ (٣ و ٤) الأعراف : ٢٧ (٥) النساء : ١٠٢ (٦) الأنفال : ٦٠

فى التوكل الخوف مما خوف الله به ، والحذر مما أمر بالحذر منه ! . وقد ذكرنا فى كتاب التوكل مايبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية . وقوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [1] لايناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع ، والمحيي ، والمميت هو الله تعالى . فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادى والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه فى التوكل وهذا مااختاره الحارث المحاسبي رحمه الله ، وهو الصحيح الذى يشهد له نور العلم . وما قبله يشبه أن يكون من كلام العبّاد الذين لم يغزر علمهم ، ويظنون أن مايهجم عليهم من الأحوال فى بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام ، وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه فى كيفية الحذر . فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدوّ ، فلا ينبغى أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره ، والحذر منه ، والترصد له فإنا إن غفلنا عنه لحظة ، فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدى إلى خلو القلب عن ذكر الله ، واشتغال الهم كله بالشيطان ، وذلك مراد الشيطان منا ، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ، ولا ننسى الشيطان وعداوته ، والحاجة إلى الحذر منه . فنجمع بين الأمرين فإنا إن نسيناه ربما عارض من حيث لا نحتسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله . فالجمع أولى

وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان . أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله ، فلا يخفى غلطه . وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر ، فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا ، وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدى ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى . فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب ، وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به ، فيوشك أن يظفر به ، ولا يقوى على دفعه . فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ، ولا بإدمان ذكره

وأما الفرقة الثانية : فقد شاركت الأولى ، إذ جمعت فى القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله . وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ، إبليس وغيره . فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ، ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به ، وسكن الحذر فيه ، فيشتغل بذكر الله ، ويكب

---

(1) الانفال : ٦٠

عليه بكل الهمة ، ولا يخطر بباله أمر الشيطان . فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته، ثم خطر الشيطان له تنبه له : وعند التنبه يشتغل بدفعه . والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان . بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيلزم نفسه الحذر ، وينام على أن يتنبه فى ذلك الوقت ، فيتنبه فى الليل مرات قبل أوانه ، لما أسكن فى قلبه من الحذر . مع أنه بالنوم غافل عنه . فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ! ومثل هذا القلب هو الذى يقوى على دفع العدو ، إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى ، وأحيا فيه نور العقل والعلم ، وأماط عنه ظلمة الشهوات

فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده ، وألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافى. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر . والذى جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ، ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر ، فيطول تعبه ، ولا تجف البئر من الماء القذر . والبصير هو الذى جعل لمجرى الماء القذر سدا ، وملأها بالماء الصافى فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ، ومؤنة ، وزيادة تعب

بيان

الرخصة فى قصد إظهار الطاعات

اعلم أن فى الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص ، والنجاة من الرياء . وفى الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس فى الخير . ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين . ولكن فى الإظهار أيضا فائدة . ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[1])

والإظهار قسمان . أحدهما فى نفس العمل ، والآخر بالتحدث بما عمل

القسم الأول: إظهار نفس العمل، كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها. كما روى عن الأنصارى

(1) البقرة : ٢٧١

الذى جاء بالصرة ، فتتابع الناس بالعطية لما رأوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعمِلَ بِهاَ كاَنَ لَهُ أَجْرُهاَ وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ » وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة ، والصيام ، والحج ، والغزو وغيرها ، ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغازى إذا هم بالخروج ، فاستعد وشد الرحل قبل القوم ، تحريضا لهم على الحركة ، فذلك أفضل له . لأن الغزو فى أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره . فالمبادرة إليه ليست من الإعلان ، بل هو تحريض مجرد . وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل ، لينبه جيرانه وأهله ، فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة ، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء

وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة ، فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ، ويرغب الناس فى الصدقة ، فالسر أفضل . لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء ، فقد اختلف الناس فى الأفضل . فقال قوم السر أفضل من العلانية ، وإن كان فى العلانية قدوة وقال قوم السر أفضل من علانية لاقدوة فيها . أما العلانية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء ، وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ، ويدل عليه قوله عليه السلام « لَهُ أَجْرُهاَ وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهاَ » وقد روى فى الحديث (٢) أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا . ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا . وهذا لا وجه للخلاف فيه ، فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء ، وتم الإخلاص على وجه

---

(١) حديث من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه : وفى أول قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلى

(٢) حديث ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن به على عمل السر سبعين ضعفا : البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أو يضاعف الذكر الخفى الذى لا يسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف

واحد فى الحالتين ، فما يقتدى به أفضل لامحالة . وإنما يخاف من ظهور الرياء ؛ ومهما حصلت شائبة الرياء ، لم ينفعه اقتداء غيره ، وهلك به ، فلا خلاف فى أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيفتان

إحداهما : أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به ، أو يظن ذلك ظنا . ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وإنما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق ، وذموه ولم يقتدوا به . فليس له الإظهار من غير فائدة . وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ، ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به

والثانية : أن يراقب قلبه . فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفى ، فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجمل بالعمل ، وبكونه يقتدى به . وهذا حال كل من يظهر أعماله ، إلا الأقوياء المخلصين ، وقليل ماهم . فلا ينبغى أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر . فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم ، فأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك . والغرق بالماء فى الدنيا ألمه ساعة . وليت كان الهلاك بالرياء مثله . لا بل عذابه دائم مدة مديدة . وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء فى الإظهار ، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص ، فتحبط أجورهم بالرياء . والتفطن لذلك غامض . ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعابد آخر من أقرانك ، ويكون لك فى السر مثل أجر الإعلام . فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به ، وهو المظهر للعمل ، فباعثه الرياء دون طلب الأجر ، واقتداء الناس به ، ورغبتهم فى الخير . فإنهم قد رغبوا فى الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار ، لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراآتهم . فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع ، والشيطان مترصد ، وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات ، فلا ينبغى أن يعدل بالسلامة شيئا . والسلامة فى الإخفاء وفى الإظهار من الأخطار مالا يقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء

القسم الثانى : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ . وحكمه حكم إظهار العمل نفسه . والخطر فى هذا أشد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى فى الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة فى إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء ، لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها . فهو من هذا الوجه أهون . والحكم فيه أن من قوى قلبه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس فى عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به ، والرغبة فى الخير بسببه ، فهو جائز . بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات . لأنه ترغيب فى الخير ، والترغيب فى الخير خير

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ . ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ماهي قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت أنه حق

وقال عمر رضى الله عنه : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر ، لأنى لاأدرى أيهما خير لى وقال ابن مسعود : ماأصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه (١) ما تغنيت ، ولاتمنيت ، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال شداد بن أوس : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه . وكان قد قال لغلامه : ائتنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لاتبكوا على ، فإنى ماأحدثت ذنبا منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ماقضى الله فىّ بقضاء قط فسرنى أن يكون قضى لى بغيره . وما أصبح لى هوى إلا فى مواقع قدر الله

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المراآة إذا صدرت ممن يرائى بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التى ذكرناها . فلا ينبغى أن يسد باب إظهار الأعمال ، والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء . بل إظهار المرائى للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء ، فيه خير كثير للناس ، ولكنه شر للمرائى .

---

(١) حديث عثمان قوله ماتغنيت ولاتمنيت ولامسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو يعلى الموصلى فى معجمه باسناد ضعيف من رواية أنس عنه فى أثناء حديث وان عثمان قال يارسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك ياعثمان

فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله . وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان فى سكك البصرة عند الصبح ، فيسمع أصوات المصلين بالقرءان من البيوت . فصنف بعضهم كتابا فى دقائق الرياء ، فتركوا ذلك ، وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف . فإظهار المرائى فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه . (١) وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم، كما ورد فى الأخبار . وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم ، والله تعالى أعلم

بيان

الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له

إعلم أن الأصل فى الإخلاص استواء السريرة والعلانية ،كما قال عمر رضى الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية . قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال ما إذا اطلع عليك لم تستحى منه . وقال أبو مسلم الخولانى : ما عملت عملا أبالى أن يطلع الناس عليه ، إلا إتيانى أهلى ، والبول ، والغائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه ، وهو يخفيها ، ويكره اطلاع الناس عليها ، لاسيما ما تختلج به الخواطر فى الشهوات والأمانى . والله مطلع على جميع ذلك . فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور ، وليس كذلك . بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى ، مع أنه ليس كذلك . فهذا هو ستر المرائى . وأما الصادق الذى لا يرائى ،فله ستر المعاصى ، ويصح قصده فيه ، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه

الأول : أن يفرح بستر الله عليه . وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره ، وخاف أن يهتك ستره فى القيامة . إذ ورد فى الخبر (٢) أن من ستر الله عليه فى الدنيا ذنبا ، ستره الله عليه فى الآخرة . وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان

---

(١) حديث إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم : هما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم والثانى رواه النسائى من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضا

(٢) حديث ان من ستر عليه فى الدنيا يستر عليه فى الآخرة : تقدم قبل هذا بورقة

الثانى : أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ، ويحب سترها ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ » فهو وإن عصى الله بالذنب ، فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصى . وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ، ويغتم بسببه

الثالث : أن يكره ذم الناس له به ، من حيث أن ذلك يغمه ، ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى . فإن الطبع يتأذى بالذم ، وينازع العقل ، ويشغل عن الطاعة . وبهذه العلة أيضا ينبغى أن يكره الحمد الذى يشغله عن ذكر الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان . إذ صدق الرغبة فى فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان

الرابع : أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فإن الذم مؤلم للقلب ، كما أن الضرب مؤلم للبدن . وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ، ولا الإنسان به عاص . وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ، ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم . وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به ، نعم : كمال الصدق فى أن تزول عنه رؤيته للخلق ، فيستوى عنده ذامه ومادحه ، لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون . وذلك قليل جدا . وأكثر الطباع تتألم بالذم ، لما فيه من الشعور بالنقصان . ورب تألم بالذم محمود ، إذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين ، فإنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى ، وعلى نقصان فى الدين . فكيف لا يغتم به ! نعم : الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يحب أن يحمد بالورع . ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره . فإن وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد . وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع ، فليس بمذموم . فله الستر حذرا من ذلك . ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ، ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما . فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ، إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم . وأما الذم فإنه مؤلم . فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى الحال . وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد

---

(١) حديث من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله : الحاكم فى المستدرك وقد تقدم

وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله . فإن ذلك غاية النقصان فى الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر

الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذام قد عصى الله تعالى به. وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا، فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره، بخلاف التوجع من جهة الطبع

السادس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه . وهذا وراء ألم الذم. فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته، وإن كان ممن يؤمن شره . وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذرا منه

السابع : مجرد الحياء، فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر. وهو خلق كريم يحدث فى أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل، فيستحيي من القبائح إذا شوهدت منه . وهو وصف محمود، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْحَيِيَّ الْحَلِيمَ » فالذى يفسق ولا يبالى أن يظهر فسقه للناس، جمع إلى الفسق التهتك، والوقاحة، وفقد الحياء . فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحيي . إلا أن الحياء ممتزج بالرياء، ومشتبه به اشتباها عظيما، قل من يتفطن له . ويدعى كل مراء أنه مستحي، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب . بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم، وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الإخلاص، ويتصور أن يخلص معه، ويتصور أن يرائى معه . وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا، ونفسه لا تسخو بإقراضه، إلا أنه يستحيي من رده . وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحيي، ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب . فله عند ذلك أحوال

أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالى، فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له

---

(١) حديث الحياء خير كله: مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٢) حديث الحياء شعبة من الايمان: متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٣) حديث الحياء لا يأتى إلا بخير: متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث ان الله يحب الحيي الحليم: الطبرانى من حديث فاطمة والبزار من حديث أبى هريرة ان الله يحب الغنى الحليم المتعفف وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه

فإن المستحي إما أن يتعلل أو يقرض . فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال. أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء ، بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي أن تعطى حتى يثنى عليك، ويحمدك ، وينشر اسمك بالسخاء . أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل. فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء، وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء. ويبقى في نفسه البخل، فيتعذر الإعطاء. فيهيج داعي الإخلاص ويقول له . إن الصدقة بواحدة ، والقرض بثمان عشرة ، ففيه أجر عظيم ، وإدخال سرور على قلب صديق. وذلك محمود عند الله تعالى. فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيّج الحياء إخلاصه

الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ، ولا خوف من مذمته ، ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه ، فأعطاه بمحض الحياء ، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده . ولو جاءه من لا يستحى منه من الأجانب أو الأراذل ، لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه . فهذا مجرد الحياء ، ولا يكون هذا إلا في القبائح ، كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرائي يستحي من المباحات أيضا ، حتى أنه يرى مستعجلا في المشي فيعود إلى الهدوّ ، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويزعم أن ذلك حياء ، وهو عين الرياء. وقد قيل إن بعض الحياء ضعف ، وهو صحيح . والمراد به الحياء مما ليس بقبيح ، كالحياء من وعظ الناس ، وإمامة الناس في الصلاة . وهو في الصبيان والنساء محمود ، وفي العقلاء غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ ؛ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه ، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم . وهذا الحياء حسن . وأحسن منه أن تستحي من الله ، فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس ، والضعيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب

الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به . وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة، وهو القدوة ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به . وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفي العاصي أيضا معصيته من أهله وولده ، لأنهم يتعلمون منه

ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائيا ، كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح ، وحبهم إياه بسببه ، وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم (١) . دلني على ما يحبني الله عليه ، ويحبني الناس ، قال « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَانْبُذْ إِلَيْهِمْ هَـذَا الْحُطَـامَ يُحِبُّوكَ »

فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا ، وقد يكون محمودا ، وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك . فإنه تعالى إذا أحب عبدا حببه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك ، وغزوك ، وصلاتك ، وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة . فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال ، فلا فرق بينهما

بيان

ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به . وذلك غلط وموافقة للشيطان . بل الحق فيما يترك من الأعمال ومالا يترك لخوف الآفات ما نذكره

وهو أن الطاعات تنقسم إلى مالا لذة في عينه ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والغزو ، فإنها مقاساة ومجاهدات ، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذيذ ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى ما هو لذيذ ، وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق ، كالخلافة ، والقضاء ، والولايات ، والحسبة ، وإمامة الصلاة ، والتذكير والتدريس ، و إنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ، ولما فيه من اللذة

القسم الأول ، الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ، ولا لذة في عينها كالصوم ، والصلاة ، والحج . فخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل ، فيبعث على الابتداء لرؤية الناس ، وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه .

---

(١) حديث قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله ـ الحديث : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ وازهد فيما في أيدي الناس وقد تقدم

فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة . فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ، ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك ، لا تسخين بالعمل لأجله ، وتسخين بالعمل لأجل عباده ، حتى يندفع باعث الرياء ، وتسخو النفس بالعمل لله ، عقوبة للنفس على خاطر الرياء ، وكفارة له ، فليشتغل بالعمل

الثانية : أن ينبعث لأجل الله ، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها . فلا ينبغى

سرا تحت الأرض ، ألتى فى قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم ، وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك . فكيف تتخلص منه ؟ بل لانجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء ، وهو أنه ضرر فى الآخرة ، ولا نفع فيه فى الدنيا ، لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالى ، وإن نزغ العدو نازغ الطبع ، فإن ذلك لاينقطع . وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات

فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل ، فلا تترك العمل ، وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك . بل إن قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك ، وعقوبة لنفسك ، فافعل . فإن قال لك الشيطان أنت مراء ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهة الرياء ، وإبائه ، وخوفك منه ، وحيائك من الله تعالى .

وإن لم تجد فى قلبك له كراهية ، ومنه خوفا ، ولم يبق باعث دينى ، بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع فى العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعى دخل عليه إنسان وهو يقرأ ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال ، لايرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمى : إذا أعجبك الكلام فاسكت . وإذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن : إن كان أحدهم ليمر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة . وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة

قلنا هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى وإظهار الحسن البصرى هذا الكلام فى معرض الوعظ ، أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء ، وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز . والكلام فى الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء : فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد فى الإخلاص ، ولا يتركه . وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف . فالاقتداء ينبغى أن يكون بالأقوياء . وأما إطباق ابراهيم النخعى المصحف ، فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله ، واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته . فرأى أن لا يراه فى القراءة

أبعد عن الرياء ، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة ، وإقبال الناس عليه ، وشغلهم اياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق · فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها ، لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمي إذا أعجبك الكلام فاسكت ، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام ، كالفصاحة في الحكايات وغيرها ، فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور . فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب · فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني . وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات . ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ، ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ، ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة ، وزجرا عن طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق ، وتعظم فيه الآفات والأخطار . وأعظمها الخلافة ، ثم القضاء ، ثم التذكير والتدريس والفتوى ، ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « لَيَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ سِتِّينَ عَاماً » فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ثَلَاثَةٌ الْإِمَامُ الْمُقْسِطُ » أحدهم . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ » أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ » رواه أبو سعيد الخدري

---

(١) حديث ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما : الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٢) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط : مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط ـ الحديث : ولم أر فيه ذكر الاولية

(٣) حديث أبي هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل : تقدم

(٤) حديث أبي سعيد الخدري أقرب الناس مني مجلسا يوم القيامة امام عادل : الاصبهاني في الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه وفيه أيضا اسحاق بن ابراهيم الديباجي ضعيف أيضا

فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات . ولم يزل المتقون يتركونها ، ويحترزون منها ، ويهربون من تقلدهـا ، وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ، ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر ، وهو أعظم ملاذ الدنيا . فإذا صارت الولاية محبوبة ، كان الوالي ساعيا في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه ، فيمتنع من كل مايقدح في جاهه وولايته وإن كان حقا . ويقدم على مايزيد في مكانته وإن كان باطلا وعند ذلك يهلك ؛ ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة ، بمفهوم الحديث الذي ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول ما يأخذها بما فيها . وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « مَامِنْ وَالٍ عَشَرَةٍ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ » رواه معقل بن يسار . وولاه عمر ولاية ، فقال يأمير المؤمنين أشر علي ، قال اجلس واكتم عليّ وروى الحسن ، أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، فقال للنبي خر لي ، قال « أجْلِسْ » وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَاتَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا »

وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر . لا تأمر على اثنين ، ثم ولي هو الخلافة فقام بها . فقال له رافع

---

(١) حديث مامن والي عشرة الاجاء يوم القيامة يده مغلولة الى عنقه لايفكها إلا عدله : أحمد من حديث عبادة ابن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البزار والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء مامن والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه ــ الحديث : وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة : متفق عليه

(٢) حديث الحسن ان رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم خر لي قال اجلس الطبراني موصولا من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضا من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق

(٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة لاتسل الامارة ــ الحديث : متفق عليه

ألم تقل لي لا تأمر على اثنين ، وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال بلى وأنا أقول لك ذلك ، فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله . يعني لعنة الله . ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهي عنها متناقضا ، وليس كذلك . بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين ، لاينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات . وأن الضعفاء لاينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا . وأعني بالقوى الذي لاتميله الدنيا ، ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم ، وزهدوا في الدنيا ، وتبرموا بها ، وبمخالطة الخلق ، وقهروا أنفسهم وملكوها ، وقمعوا الشيطان فأيس منهم . فهؤلاء لايحركهم إلا الحق ، ولايسكنهم إلا الحق ، ولو زهقت فيهم أرواحهم . فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة . ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات

ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق ، كافة عن الشهوات في غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية ، وأن تستحلي الجاه ، وتستلذ نفاذ الأمر ، فتكره العزل ، فيداهن خيفة من العزل ، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية . فقال قائلون لايجب ، لأن هذا خوف أمر في المستقبل ، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس . والصحيح أن عليه الاحتراز ، لأن النفس خداعة ، مدعية للحق ، واعدة بالخير . فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية . فكيف إذا أظهرت التردد ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع . فالعزل مؤلم . وهو كما قيل: العزل طلاق الرجال. فإذا شرع لاتسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق ، وتهوى به في قعر جهنم . ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت ، إلا أن يعزل قهرا . وكان فيه عذاب عاجل على كل محب الولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية ، وحملت على السؤال والطلب ، فهو إمارة الشر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّا لاَ نُوَلِّي أَمْرَنَا مَنْ سَأَلَنَا » فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف ، علمت أن نهي أبي بكر رافعا عن الولاية ، ثم تقلده لها ليس بمتناقض

(١) حديث إنا لانولي أمرنا من سألنا : متفق عليه من حديث أبي موسى

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة ، فهو فى معناها . فإن كل ذى ولاية أمير . أى له أمر نافذ . والإمارة محبوبة بالطبع . والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) « اَلْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ » وقال عليه السلام (٢) « مَنِ اسْتُقْضِيَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ » فحكمه حكم الإمارة ، ينبغى أن يتركه الضعفاء ، وكل من للدنيا ولذاتها وزن فى عينه . وليتقلده الأقوياء ، الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلمة ، ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهنتهم ، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ، ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه ، أو لم يطيعوه . فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ، ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له فى الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت العهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله . فإن لم تسمح نفسه بذلك ، فهو إذاً يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ، وهو مع الظلمة فى الدرك الأسفل من النار ؟ . وأما الوعظ ، والفتوى ، والتدريس ، ورواية الحديث ، وجمع الأسانيد العالية ، وكل ما يتسع بسببه الجاه ، ويعظم به القدر ، فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات . وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا . ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لى ودفن بشر كذا وكذا قمطر من الحديث ، وقال يمنعنى من الحديث أنى أشتهى أن أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت

والواعظ يجد فى وعظه وتأثر قلوب الناس به ، وتلاحق بكائهم ، وزعقاتهم ، وإقبالهم عليه ، لذة لا توازيها لذة . فإذا غلب ذلك على قلبه ، مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام ، وإن كان باطلا . ويفر عن كل كلام يستثقله العوام ، وإن كان حقا . ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ، ويعظم منزلته فى قلوبهم ، فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر . وكان ينبغى أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة ، وطريق سلوك سبيل الدين ، ليعمل به أولا

---

(١) حديث القضاة ثلاثة ـ الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم فى العلم وإسناده صحيح

(٢) حديث من استقضى فقد ذبح بغير سكين : أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ من جعل قاضيا وفى رواية من ولى القضاء وإسناده صحيح

ثم يقول : إذا أنعم الله عليّ بهذه النعمة ، ونفعني بهذه الحكمة ، فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون . فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة ، فحكمه حكم الولايات . فمن لاباعث له إلا طلب الجاه والمنزلة، والأكل بالدين، والتفاخر والتكاثر. فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه. إلى أن ترتاض نفسه، وتقوى في الدين همته، ويأمن على نفسه الفتنة. فعند ذلك يعود إليه

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست ، وعم الجهل كافة الخلق

فنقول : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] عن طلب الإمارة ، وتوعد عليها ، حتى قال [٢] « إِنَّكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا » وقال [٣] « نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ » ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا ، وثار القتال بين الخلق ، وزال الأمن ، وخربت البلاد وتعطلت المعايش . فلمَ نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبيّ بن كعب حين رأى قوما يتبعونه، وهو في ذلك يقول أبيّ سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن ، فمنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع، ومذلة على التابع. وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه

واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح ، فمنعه . فقال أتمنعني من نصح الناس ؟ فقال أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، أذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم ، كالوعظ والتدريس والفتوى . وفي كل واحد منهما فتنة ولذة ، فلا فرق بينهما

فأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم ، فهو غلط . إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء . بل الرياسة وحبها يضطر الخلق

---

(١) حديث النهى عن طلب الامارة: وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسل الامارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث

(٢) حديث انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيامة وندامة الامن أخذها بحقها: البخارى من حديث أبي هريرة دون قوله الامن أخذها بحقها وزاد في آخره فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة ودون قوله حسرة وهي في صحيح ابن حبان

(٣) حديث نعمت المرضعة وبئست الفاطمة: البخارى من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذى قبله ورواه ابن حبان بلفظ فبئست المرضعة وبئست الفاطمة

(٤) حديث النهى عن القضاء: مسلم من حديث أبي ذر لا تؤمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم

إلى طلبها . وكذلك حب الرياسة لايترك العلوم تندرس . بل لوحبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التى فيها القبول والرياسة ، لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم . فلا تشغل قلبك بأمر الناس ، فإن الله لايضيعهم . وانظر لنفسك . ثم إنى أقول مع هذا إذا كان فى البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا ، فليس فى النهى عنه إلا امتناع بعضهم . وإلا فيعلم أن كلهم لايمتنعون ، ولا يتركون لذة الرياسة . فإن لم يكن فى البلد إلا واحد ، وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه . وحسن سمته فى الظاهر ، وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها ، فلا نمنعه منه ، ونقول له اشتغل وجاهد نفسك . فإن قال لست أقدر على نفسى ، فنقول اشتغل وجاهد ، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لاقائم به غيره . ولو واظب وغرضه الجاه ، فهو الهالك وحده . وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ، ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَـٰذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ »

ثم الواعظ هو الذى يرغب فى الآخرة ، ويزهد فى الدنيا بكلامه ، وبظاهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ فى هذه الأعصار ، من الكلمات المزخرفة ، والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار ، مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين ، وتخويف للمسلمين ؛ بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصى بطيبات النكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم ، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا فى واعظ حسن الوعظ ، جميل الظاهر ، يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره . وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ، ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام : ياعلماء السوء ، تصومون وتصلون ، وتتصدقون ، ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون مالا تعملون ، فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة

---

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم: النسائى وقد تقدم قريبا

كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل فى صدوركم . ياعبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم . فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى ناس أخس منكم ؟ لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون فى محلة التجبرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم ، مهلا مهلا ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة معطلة. ياعبيدالدنيا ، لا كعبيداتقياء ، ولا كأحرار كرام .توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم،ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى .فيوقفكم على سوآتكم،ثم يجزيكم بسوء أعمالكم

وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث فى بعض كتبه ، ثم قال . هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا . فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ،ولكن ورد فى العلم والوعظ رغائب كثيرة،حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) « لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى وَاتُّبِعَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ » إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراآة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لا تترك العمل ، ولكن أتم العمل وجاهد نفسك

فاعلم أن فضل العلم كبير ؛ وخطره عظيم . كفضل الخلافة والإمارة . ولا نقول لأحد

---

(١) حديث لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا ومافيها: متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ خير لك من حمر النعم وقد تقدم فى العلم

(٢) حديث أيما داع دعا الى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه: ابن ماجه من حديث أنس بزيادة فى أوله ولمسلم من حديث أبى هريرة من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ـ الحديث:

من عباد الله اترك العلم ، إذ ليس فى نفس العلم آفة . وإنما الآفة فى إظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية الحديث . ولا نقول له أيضا اتركه مادام يجد فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء ، أما إذا لم يحركه إلا الرياء ، فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها . أما إذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهو لها كاره ، فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء فى العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم فى الولايات ، وفى التصدى للمناصب الكبيرة فى العلم ، وبالجملة فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات ، والآفات فيها عظيمة . وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة .

الثانية : الصوم ، والصلاة ، والحج ، والغزو . وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة ، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها ، والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة .

الثالثة : وهى متوسطة بين الرتبتين ، وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوى ، والرواية والتدريس . والآفاتُ فيها أقل مما فى الولايات ، وأكثر مما فى الصلاة . فالصلاة ينبغى أن لا يتركها الضعيف والقوىّ ، ولكن يدفع خاطر الرياء . والولاياتُ ينبغى أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء . ومناصب العلم بينهما . ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه ، وأن الحذر منه فى حق الضعيف أسلم ، والله أعلم

وههنا رتبة رابعة ، وهى جمع المال ، وأخذه للتفرقة على المستحقين . فإن فى الإنفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفى إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس . والآفاتُ فيها أيضا كثيرة . ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به ، فقال القاعد أفضل . لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء مايسرنى أنى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها . أما إنى لا أحرم البيع والشراء ، ولكنى أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وقد اختلف العلماء ، فقال قوم إذا طلب الدنيا من الحلال ، وسلم منها ، وتصدق بها ، فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل . وقال قوم : الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله.

وقد قال المسيح عليه السلام : ياطالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبرّ . وقال : أقل مافيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله ، وذكرُ الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات

فأما من يتعرض لآفة الرياء ، فتركه لها أبر ، والاشتغال بالذكر لاخلاف فى أنه أفضل وبالجملة مايتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات . والأحب أن يعمل ويدفع الآفات فإن عجز فلينظر ، وليجتهد ، وليستفت قلبه ،وليزن مافيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل مايدل عليه نور العلم دون مايميل إليه الطبع . وبالجملة مايجده أخف على قلبه فهو فى الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لاتشير إلا بالشر ، وقلما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لايبعد ذلك أيضا فى بعض الأحوال . وهذه أمور لايمكن الحكم على تفاصيلها بنفى وإثبات . فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ، ويدع مايريبه إلى مالايريبه

ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل ،فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ،وهو عين البخل . ولا خلاف فى أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل ترك الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر وذلك لما فى الكسب من الآفات فأما المال الحاصل من الحلال ،فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال

فإن قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس ؟ . فاعلم أن لذلك علامات

إحداها : أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا ، أو أغزر منه علما، والناس له أشدّ قبولا فرح به ولم يحسده . نعم :لابأس بالغبطة ، وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه

والأخرى : أن الأكابر إذا حضروا مجلسه ، لم يتغير كلامه . بل بقي كما كان عليه. فينظر إلى الخلق بعين واحدة . والأخرى أن لايحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الأسواق

ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها . وقد روى عن سعيد بن أبى مروان قال كنت جالسا إلى جنب الحسن ، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر . فدخل المسجد على برذونه ، فجعل يلتفت فى المسجد ، فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن ، فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن . فلما رآه الحسن متوجها إليه ، تجافى له عن ناحية مجلسه . قال سعيد : وتجافيت له أيضا

عن ناحية مجلسى ، حتى صار بينى وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج . فجاء الحجاج حتى جلس بينى وبينه ، والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به فى كل يوم فما قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت فى نفسى لأبلون الحسن اليوم، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد فى كلامه يتقرب إليه ،أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه .فتكلم الحسن كلاما واحدا ، نحوا مما كان يتكلم به فى كل يوم ، حتى انتهى إلى آخر كلامه . فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال . صدق الشيخ و بر . فعليكم بهذه المجالس وأشباهها ،فاتخذوها حلقا وعادة ،فإنه بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [1] أن مجالس الذكر رياض الجنة. ولولا ما حملناه من أمر الناس ماغلبتمونا على هذه المجالس ، لمعرفتنا بفضلها . قال ثم افتر الحجاج ،فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته . فلما فرغ طفق فقام . فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج ، فقال عباد الله المسلمين ، ألا تعجبون أنى رجل شيخ كبير ، وأنى أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ،وأن لى ثلثمائة درهم من العطاء ، وأن لى سبع بنات من العيال ! فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه ، والحسن مكب . فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه ، فقال مالهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ،ومال الله دولا ، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم . فإذا غزا عدو الله غزا فى الفساطيط الهبابة ،وعلى البغال السباقة . وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا . فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده . فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن ، فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه . فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج ، فقالوا أجب الأمير .فقام الحسن ،وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذى تكلم به . فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم ، وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك ، إنما كان يتبسم . فأقبل حتى قعد فى مجلسه ، فعظم الأمانة ، وقال إنما تجالسون بالأمانة ، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا فى الدينار والدرهم . إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل ، فنطمئن إلى جانبه ، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار

---

(١) حديث ان مجالس الذكر رياض الجنة: تقدم فى الاذكار والدعوات

إني أتيت هذا الرجل ، فقال أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا ، لاأبالك ، تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك . قال فدفعه الله عني . وركب الحسن حمارا يريد المنزل ، فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوما يتبعونه ، فوقف فقال : هل لكم من حاجة ؟ أو تسألون عن شيء ؟ وإلا فارجعوا ، فما يبقى هذا من قلب العبد . فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ، ولا يتوانسون ولا يتعاونون ، فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك ياأرحم الراحمين

بيان

ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع ، فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده ، أو يصلي ، مع أنه كان لايعتاد الصلاة بالليل أصلا . وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع ، فينبعث له نشاط في الصوم ، ولولا هم لما انبعث هذا النشاط . فهذا ربما يظن أنه رياء ، وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى ، وفي قيام الليل وصيام النهار . ولكن قد تعوقه العوائق ، ويمنعه الاشتغال ، ويغلبه التمكن من الشهوات . أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل في منزله ، فتقطعه الأسباب عن التهجد ، مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجته ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده ، أو مطالعة حساب له مع معامليه . فإذا وقع في منزل غريب ، اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير ، وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله ، وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ، ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله ، فتتحرك داعيته للدين لا للرياء . أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع ،

أو سبب آخر ، فيغتنم زوال النوم ، وفى منزله ربما يغلبه النوم . وربما ينضاف إليه أنه فى منزله على الدوام ، والنفس لاتسمح بالتهجد دائما ، وتسمح بالتهجد وقتا قليلا ، فيكون ذلك سبب هذا النشاط ، مع اندفاع سائر العوائق . وقد يعسر عليه الصوم فى منزله ومعه أطايب الأطعمة ، ويشق عليه الصبر عنها . فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه ، فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين . فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ، ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم . والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لاتعمل فإنك تكون مرائيا ، إذ كنت لاتعمل فى بيتك ، ولا تزد على صلاتك المعتادة

وقد تكون رغبته فى الزيادة لأجل رؤيتهم ، وخوفا من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لاتسمح بأن يسقط من أعينهم ، فيريد أن يحفظ منزلته . وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ؛ ولست تصلى لأجلهم بل لله ، وإنما كنت لاتصلى كل ليلة لكثرة العوائق ، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبه إلا على ذوى البصائر . فإذا عرف أن المحرك هو الرياء ، فلا ينبغى أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة ، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله . وإن كان انبعاثه لدفع العوائق ، وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم ، فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه ، بل من وراء حجاب ، وهو فى ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لايرونه ، فإن سخت نفسه فليصل ، فإن باعثه الحق وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعثه الرياء .

وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة فى الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم ، وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى . وقد يتحرك بذلك باعث الدين ، ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد . فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين ، فلا ينبغى أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد ، بل ينبغى أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ، ويشتغل بالعبادة . وكذلك قد يبكى جماعة ، فينظر إليهم ، فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى ، لامن الرياء ، ولو سمع

ذلك الكلام وحده لما بكى . ولكن بكاء الناس يؤثر فى ترقيق القلب . وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق ، إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه ، فيتباكى تكلفا . وذلك محمود ، وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه ، هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم ، فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغى أن يترك التباكى . قال لقمان عليه السلام لابنه: لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيحة ، والتنفس ، والأنين عند القرءان أو الذكر ، أو بعض مجارى الأحوال ، تارة تكون من الصدق ، والحزن والخوف ، والندم ، والتأسف ، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره ، وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن . وذلك محمود . وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ، ليعرف بذلك . فإن تجردت هذه الداعية فهى الرياء . وإن اقترنت بداعية الحزن ، فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه . وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره ، وضاع سعيه ، وتعرض لسخط الله تعالى به.

وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمده ويزيد فى رفع الصوت . فتلك الزيادة رياء ، وهو محظور . لأنها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء . فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت ، أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحى أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكلفا ، ليرى أنه سقط لكونه مغشيا عليه ، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق . وقد يزول عقله ، فيسقط ، ولكن يفيق سريعا ، فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة ، وإنما هى كبرق خاطف ، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله . وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا ، فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ، ولو كان لدام ضعفه فيستديم إظهار الضعف والأنين ، فيتكىء على غيره ، يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل فى المشى ، ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكايد الشيطان

ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه فى الباطن ، واطلعوا على ضميره لمقتوه ، وأن الله مطلع على ضميره ، وهوله أشد مقتا . كما روى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف ، فقال ياشيخ الذى يراك حين تقوم ، فجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين . وقدجاء فى الخبر « تَعَوَّذُوا [1] بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ » وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع

ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف ، وتذكر ذنب وتندم عليه : وقد يكون للمراآة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهى مع تقاربها متشابهة . فراقب قلبك فى كل ما يخطر لك وانظر ماهو ، ومن اين هو . فإن كان لله فأمضه ، واحذر مع ذلك أن يكون قدخفى عليك شىء من الرياء الذى هو كدبيب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها . واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا . فإذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ، ومقته لك ، وتذكر ماقاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام ، إذ قال ياأيوب : أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ، ويجزى بسريرته؟ وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت . وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيتى ، وتقبح لك فيما أخلو سريرتى ، محافظا على رياء الناس من نفسى ، ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى ، أبدى للناس أحسن أمرى ، وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقربا إلى الناس بحسناتى ، وفرارا منهم إليك بسيئاتى فيحل بى مقتك ، ويجب على غضبك . أعذنى من ذلك يارب العالمين

وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام : ياأيوب ، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن ، تسود وجوههم؟

---

(١) حديث تعوذوا بالله من خشوع النفاق: البيهقى فى الشعب من حديث أبى بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه أحمد وابن معين

فهذه جمل آفات الرياء ، فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ، ففي الخبر (١) إن للرياء سبعين بابا ، وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض ، حتى أن بعضه مثل دبيب النمل ، وبعضه أخفى من دبيب النمل . وكيف يدرك ماهو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبه . وليته أدرك بعد بذل المجهود . فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب ، وامتحان للنفس ، وتفتيش عن خدعها ، نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه

بيـــان

ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يُلزِمُ المريد قلبه في سائر أوقاته ، القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لايخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله . فأما من خاف غيره وارتجاه ، اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله . فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان ، لما فيه من خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لايقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصا على الإفشاء ، وتقول مثل هذا العمل العظيم ، أو الخوف العظيم ، أو البكاء العظيم ، لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك . فما في الخلق من يقدر على مثله . فكيف ترضى بإخفائه . فيجهل الناس محلك ، وينكرون قدرك ، ويحرمون الاقتداء بك ! ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ، ودوامه أبد الآباد ، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده . ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه ، وسقوط عند الله ،

---

(١) حديث الرياء سبعون بابا هكذا ذكر المصنف هذا - الحديث : هنا وكانه تصحف عليه أوعلى من نقله من كلامه انه الرياء بالمثناة وانما هو الربا بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ الربا سبعون حوبا أيسرها ان ينكح الرجل أمه وفي اسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الربا ثلاثة وسبعون بابا واسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك وهذه الزيادة قد يستدل بها على انه الرياء بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم

وإحباط للعمل العظيم . فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق ، وهم عاجزون لايقدرون لى على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه .

ولا ينبغى أن ييأس عنه ، فيقول إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء ، فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم . فيترك المجاهدة فى الإخلاص . لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقى ، لأن المتقى إن فسدت نوافله . بقيت فرائضه كاملة تامة . والمخلط لاتخلو فرائضه عن النقصان ، والحاجة إلى الجبران بالنوافل . فإن لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض ، هلك به . فالمخلط إلى الإخلاص أحوج

وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم [١] أنه قال « يُحَاسَبُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنْ نَقَصَ فَرْضُهُ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ فَرْضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ أُخِذَ بِطَرَفَيْهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ » فيأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص ، وعليه ذنوب كثيرة ، فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ، ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل . وأما المتقى ، فجهده فى زيادة الدرجات . فإن حبط تطوعه بقى من حسناته مايترجح على السيئات ، فيدخل الجنة . فإذاً ينبغى أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه ، لتصح نوافله . ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ ، حتى لايظهره ولا يتحدث به .

وإذا فعل جميع ذلك . فينبغى أن يكون وجلا من عمله ، خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفى مالم يقف عليه ، فيكون شاكا فى قبوله ورده ، مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها ، ورد عمله بسببها . ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده لافى ابتداء العقد . بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ، مايريد بعمله إلا الله ، حتى يصح عمله . فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان ، كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله ، من رياء أو عجب أولى به . ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص ، وشك فى أنه هل أفسده برياء ، فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات ، فالإخلاص يقين والرياء شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذى يتقرب إلى الله بالسعى فى حوائج الناس وإفادة العلم ، ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور

---

(١) حديث تميم الدارى فى إكمال فريضة الصلاة بالتطوع : أبو داود وابن ماجه وتقدم فى الصلاة

على قلب من قضى حاجته فقط . ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ، ومكافأة وحمد ، وثناء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة ، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددا منه في حاجة فقد أخذ أجره ، فلا ثواب له غيره . نعم . إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى أن بعضهم وقع في بئر ، فجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه ، فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرءان ، أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخي : أهديت لسفيان الثوري ثوبا فرده علىّ . فقلت له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده علىّ . قال علمت ذلك ، ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيرا . فقال له يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء ؟ فقال يرحم الله أباك ، كان وكان ، وأثنى عليه . فقال يا أبا عبد الله ، قد عرفت كيف صار هذا المال إلى ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك . قال فقبل سفيان ذلك . قال فلما خرج قال لولده : يا مبارك ، ألحقه فرده علىّ . فرجع فقال أحب تأخذ مالك . فلم يزل به حتى رده عليه ، وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى ، فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويلك ، أي شيء قلبك هذا حجارة ! عُدَّ أنه ليس لك عيال ، أما ترحمني ؟ أما ترحم إخوتك ؟ أما ترحم عيالنا ؟ فأكثرت عليه . فقال لي يا مبارك ، تأكلها أنت هنيئا مريئا ، وأسئل عنها أنا . فإذاً يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط . ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ، ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه . وهو خطأ . لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال والعلم . وربما يفيد وربما لا يفيد . فكيف يخسر في الحال عملا نقدا على توهم علم ا وذلك غير جائز . بل ينبغي أن يتعلم لله ، ويعبد لله ، ويخدم المعلم لله ، لا ليكون له في قلبه منزلة ،

إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة . فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله، ولا يريدوا بطاعتهم غيره

وكذلك من يخدم أبويه ، لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما ، إلا من حيث أن رضا الله عنه فى رضا الوالدين . ولا يجوز له أن يرائى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإن ذلك معصية فى الحال، وسيكشف الله عن ريائه، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا

وأما الزاهد المعتزل عن الناس ، فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله. فإن ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليه العبادات فى خلوته به. وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله، وهو لا يدرى أنه المخفف للعمل عليه

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان ، دخلت عليه فى صومعته ، فقلت ياسمعان منذكم أنت فى صومعتك ؟ قال منذ سبعين سنة . قلت فما طعامك ؟ قال ياحنيفى وما دعاك إلى هذا ؟ قلت أحببت أن أعلم . قال فى كل ليلة حمصة . قلت فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال ترى الدير الذى بحذائك؟ قلت نعم : قال إنهم يأتونى فى كل سنة يوما واحدا ، فيزينون صومعتى ، ويطوفون حواها ويعظمونى . فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة . فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة . فاحتمل ياحنيفى جهد ساعة لعز الأبد . فوقر فى قلبى المعرفة . فقال حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى . قال انزل عن الصومعة . فنزلت . فأدلى لى ركوة فيها عشرون حمصة فقال لى : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك . فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا ياحنيفى ، ما الذى أدلى إليك الشيخ ؟ قلت من قوته . قالوا فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا ساوم . قلت عشرون دينارا . فأعطونى عشرين دينارا . فرجعت إلى الشيخ ، فقال ياحنيفى ما الذى صنعت ؟ قلت بعته منهم . قال بكم ؟ قلت بعشرين دينارا . قال أخطأت ، لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك . هذا عز من لا تعبده . فانظر كيف يكون عز من تعبده ! ياحنيفى أقبل على ربك ، ودع الذهاب والجيئة . والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة فى القلوب يكون باعثا فى الخلوة ، وقد لا يشعر العبد به . فينبغى أن يلزم نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة . فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ، ولم يضق به ذرعا، إلا كراهة ضعيفة . إن وجدها فى قلبه فيردها فى الحال بعقله وإيمانه ،

فإنه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه ، لم يزده ذلك خشوعا ، ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه . فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ، ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان ، وبادر إلى ذلك ، ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه، فيرجى له أن لايخيب سعيه ، إلا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لاينبسطوا إليه ، فذلك لابأس به ، ولكن فيه غرور . إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض ، فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا ، أو يضحك كثيرا ، أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك . فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة ، فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر فى قلبه أنه ليس فى الوجود أحد سوى الله ، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله ،فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لايشق عليه إزالتها • فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان ، أحدهما غنى والآخر فقير، فلا يجد عند إقبال الغنى زيادة هزة فى نفسه لاكرامة ، إلا إذا كان فى الغنىّ زيادة علم أو زيادة ورع ، فيكون مكرما له بذلك الوصف لابالغنى . فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر ، فهو مراء أو طماع. وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد فى الرغبة إلى الآخرة ، ويحبب إلى القلب المسكنة . والنظر إلى الأغنياء بخلافه . فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقير !

وقد حكى أنه لم يرالأغنياء فى مجلس أذل منهم فيه فى مجلس سفيان الثورى كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء ،حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء فى مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغنى إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة فى فقير ، لكنت لاتقدم الغنى عليه فى إكرام وتوقير ألبتة ، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى فإيثارك له لايكون إلا طمعا فى غناه ، ورياء له . ثم إذا سويت بينهما فى المجالسة ، فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفى ، أو طمع خفى . كما قال ابن السماك لجارية له : مالى إذا أتيت بغداد فتحت لى الحكمة ؟ فقالت الطمع يشحذ لسانك . وقد صدقت . فإن اللسان ينطلق عند الغنى بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده مالايحضر عند الفقير

ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ماسوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة ، وتكون فى الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات ، وساعدته اللذات ، ولكن فى بدنه سقم ، وهو يخاف الهلاك على نفسه فى كل ساعة لو اتسع فى الشهوات . وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته ، عاش ودام ملكه . فلما عرف ذلك جالس الأطباء ، وحارف الصيادلة ، وعود نفسه شرب الأدوية المرة ، وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات ، وصبر على مفارقتها . فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله، ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه . فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر فى توالى الأوجاع والآلام عليه ، وأداء ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته ، الموجب لشماتة الأعداء به . ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء ، الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه ، فى عيش هنىء ، وبدن صحيح ، وقلب رخى ، وأمر نافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ، ومصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له فى آخرته ، وهى لذات الدنيا وزهرتها ، فاجتزى منها بالقليل، واختار النحول والذبول ، والوحشة ، والحزن، والخوف ، وترك المؤانسة بالخلق ، خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه . فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه ، وإيمانه بعاقبة أمره ؛ وبما أعدّ له من النعيم المقيم فى رضوان الله أبد الآباد . ثم علم أن الله كريم رحيم ، لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا ، وبهم رءوفا ، وعليهم عطوفا. ولو شاء لأغناهم عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ، ويعرف صدق إرادتهم ، حكمة منه وعدلا ثم إذا تحمل التعب فى بدايته ؛ أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء ، وسهل عليه الصبر ، وحبب إليه الطاعة ، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ، ويتولى سياسته وتقويته ، وأمده بمعونته . فإن الكريم لا يضيع سعى الراجى ، ولا يخيب أمل المحب ، وهو الذى يقول . من تقرب إلىّ شبرا تقربت إليه ذارعا : ويقول تعالى . لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إلى لقائهم أشد شوقا . فليظهر العبد فى البداية جده وصدقه وإخلاصه ، فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ماهو اللائق ، بجوده ، وكرمه ، ورأفته ، ورحمته . تم كتاب ذم الجاه والرياء ، والحمد لله وحده

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الحادي عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت ٣١٨١٠

كتاب ذمّ الكبر والعجب

كتاب ذمّ الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق ، البارىء ، المصوّر ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع . فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذى بهر أبصارَ الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه . فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدى القياصرة عظمته وكبرياؤه . فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه . جل جلاله وتقدست أسماؤه . والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « قَالَ اللهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى فَمَنْ نَازَعَنِى فِيهِمَا قَصَمْتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » فالكبر والعجب داآن مهلكان . والمتكبر

(كتاب ذم الكبر والعجب)

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته : الحاكم فى المستدرك دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم فى العلم وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر

(٢) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : البزار والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا .

والمعجب سقيمان مريضان ؛ وهما عند الله ممقوتان بغيضان . وإذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات ، وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب فى شطرين . شطر فى الكبر، وشطر فى العجب

الشطـــر الأول

من الكتاب فى الكبر

وفيه بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان مابه التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر ، وبيان امتحان النفس فى خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه

بيـــان

ذم الكبر

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ[١]) وقال عز وجل (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[٢]) وقال تعالى (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[٣]) وقال تعالى (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ[٤]) وقال تعالى (لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا[٥]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[٦])

وذم الكبر فى القرآن كثير . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل فى قلبه مثقال حبة من إيمان : مسلم من حديث ابن مسعود

(١) الاعراف : ١٤٦ (٢) غافر : ٣٥ (٣) ابراهيم : ١٥ (٤) النحل : ٢٣ (٥) الفرقان : ٢١ (٦) غافر : ٦٠

(١) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلاَ أُبَالِي » ومن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا ، فتواقفا ، فمضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يبكي . فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال هذا ، يعني عبد الله بن عمرو ، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقول « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير ، والإنس ، والجن ، والبهائم اخرجوا . فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ، ومائتي ألف من الجن . فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلاَ جَبَّارٌ وَلاَ سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَالِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسُقَاطُهُمْ وَعَجَزَتُهُمْ

---

(١) حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم : مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود قذفته في النار وقال مسلم عذبته وقال رداؤه وازاره بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضا

(٢) حديث عبد الله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه : أحمد والبيهقي في شعب الايمان من طريقه باسناد صحيح

(٣) حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ـ الحديث : الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب

(٤) حديث يخرج من النار عنق له أذنان ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب

(٥) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة : تقدم في أسباب الكسب والمعاش والمعروف خائن مكان جبار

(٦) حديث تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

فقال الله للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها » وقال صلى الله عليه وسلم[١] « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال بئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى بئس عبد عتا وبغى ونسي المبدأ والمنتهى » وعن ثابت أنه قال[٢] : بلغنا أنه قيل يارسول الله ، ما أعظم كبر فلان ! فقال « أليس بعده الموت ؟ » وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » . وقال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المقلون »

---

(١) حديث بئس العبد عبد تجبر واعتدى ـ الحديث : الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس اسناده بالقوي ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه

(٢) حديث ثابت بلغنا انه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت : البيهقي في الشعب هكذا مرسلا بلفظ تجبر

(٣) حديث عبد الله بن عمرو ان نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال اني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر ـ الحديث : أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال صحيح الاسناد

(٤) حديث أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع : وهذه الزيادة عندهما من حديث عبد الله ابن عمرو وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزاعي ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ » قالوا يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال « الْمُتَكَبِّرُونَ »

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ ذَرًّا فِي مِثْلِ صُوَرِ الرِّجَالِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَسُ يَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الْخَبَالِ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ » . وقال أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم[3] « يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى » وعن محمد بن واسع قال . دخلت على بلال بن أبي بردة ، فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم[4] أنه قال « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ هَبْهَبُ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ » فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه . وقال صلى الله عليه وسلم[5] « إِنَّ فِي النَّارِ قَصْرًا يُجْعَلُ فِيهِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيُطْبَقُ عَلَيْهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم[6] « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ »

---

(١) حديث ان أحبكم إلينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا ـ الحديث : أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى بلفظ الى ومنى وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبى ثعلبة وقد تقدم فى رياضة النفس أول الحديث

(٢) حديث يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا فى صور الرجال ـ الحديث : الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب

(٣) حديث أبى هريرة يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر ـ الحديث : البزار هكذا مختصرا دون قوله الجبارون واسناده حسن

(٤) حديث أبى موسى ان فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار : أبو يعلى والطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له فى الضعفاء هذا الحديث

(٥) حديث ان فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم : البيهقى فى الشعب من حديث أنس وقال توابيت مكان قصرا وقال فيقفل مكان يطبق وفيه أبان بن أبى عياش وهو ضعيف .

(٦) حديث اللهم انى أعوذ بك من نفخة الكبرياء : لم أره بهذ اللفظ وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير ابن مطعم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة ولأصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه تكلم فيه أبو داود وقال الترمذى هو أشهر حديث فى هذا الباب .

وقال(١) «مَنْ فَارَقَ رُوحُهُ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِىءٌ مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ الْكِبْرُ وَالدَّيْنُ وَالْغُلُولُ»

الآثار . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه . لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب . لما خلق الله جنة عدن ، نظر إليها فقال . أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب مادّ رجليه ، فلم يقبضهما ، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة ، فرأى أثر ذلك في وجهه ، فقال . عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن . العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ، ثم يعارض جبار السموات.

وقد قيل في (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(١)) هو سبيل الغائط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن على . ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك ، قل أو كثر . وسئل سلمان عن السيئة التى لا تنفع معها حسنة ، فقال الكبر . وقال النعمان بن بشير على المنبر . إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى في غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

بيان

ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشى وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) «لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا» وقال صلى الله عليه وسلم(٣) « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ

(١) حديث من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاثة دخل الجنة الكبر والدين والغلول: الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور فى الرواية انه الكبر بالموحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزى فى جامع المسانيد عن الدارقطنى قال انما هو الكنز بالنون والزاى وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث فى تفسير والذين يكنزون الذهب والفضة

(٢) حديث لا ينظر الله الى من جر إزاره بطرا: متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث بينا رجل يتبختر فى بردیه قد أعجبته نفسه الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(١) الذاريات : ٢١

فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر ، فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد ، فسمعته يقول . أي بني ارفع إزارك ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يقول « لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خُيَلاَءَ » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) بصق يوما على كفه ، ووضع أصبعه عليه وقال « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى ابْنَ آدَمَ أَتُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ سَلَّطَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » قال ابن الأعرابي . هي مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ »

الآثار : عن أبي بكر الهذلي قال : بينما نحن مع الحسن ، إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة ، وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه ، وهو يمشي يتبختر . إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثاني عطفه ، مصعر خده ، ينظر في عطفيه . أي حميق أنت ، تنظر في عطفيك ، في نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدي حق الله منها ! والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون ، في كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفتة . فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه . فقال لا تعتذر إلي وتب إلى ربك . أما سمعت قول الله تعالى

---

(١) حديث ابن عمر لا ينظر الله الى من جر إزاره خيلاء : رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم ان المار رجل من بني ليث غير مسمى

(٢) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن جحاش

(٣) حديث اذا مشت أمتي المطيطاء ـ الحديث : الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر ـ المطيطاء بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت مصغرا ولم يستعمل مكبرا

(٤) حديث من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان : أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر

(وَلاَ تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً [١])

ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة ، فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه ، محب لشمائله ، كأن القبر قد وارى بدنك ، وكأنك قد لاقيت عملك . ويحك داو قلبك ، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يختال فى مشيته ، فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من فى بطنه خرء . فقال عمر كالمعتذر : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . ورأى محمد بن واسع ولده يختال ، فدعاه وقال : أتدرى من أنت ؟ أما أمك فاشتريها بمائتى درهم ، وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله . ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال . إن للشيطان إخوانا كررها مرتين أو ثلاثا . ويروى أن مطرف بن عبد الله ابن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز ، فقال : ياعبد الله ، هذه مشية يبغضها الله ورسوله . فقال له المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال بلى أعرفك ، أولك نطفة مذرة . وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة . فمضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد فى قوله تعالى (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى [٢]) أى يتبختر

وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال ، فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

بيان

فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزّاً وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلّٰهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حَكَمَةٌ يُمْسِكَانِهِ بِهَا فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَذَاهَا ثُمَّ قَالاَ اللَّهُمَّ ضَعْهُ وَإِنْ وَضَعَ

(١) حديث مازاد الله عبدا بعفو الاعزا ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٢) حديث مامن أحد الاومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها ـ الحديث : العقيلى فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف

(١) لقمان : ١٨ (٢) القيامة : ٣٣

نَفْسَهُ قَالَ اللَّهُمَّ ارْفَعْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم(١) « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » وعن أبى سلمة المدينى ، عن أبيه ، عن جده قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) عندنا بقباء ، وكان صائما . فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن ، وجعلنا فيه شيئا من عسل . فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل ، فقال « مَاهَذَا ؟ » قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل . فوضعه وقال « أَمَا إِنِّي لاَ أُحَرِّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ »

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم(٣) كان فى نفر من أصحابه فى بيته يأكلون ، فقام سائل على الباب ، وبه زمانة يتكره منها . فأذن له . فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ، ثم قال له « اطْعَمْ » فكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره فـمامات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . وقال صلى الله عليه وسلم(٤) « خَيَّرَنِي رَبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونَ عَبْداً رَسُولاً أَوْ مَلِكاً نَبِيًّا فَلَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا أَخْتَارُ وَكَانَ صَفِيِّي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْداً رَسُولاً »

---

(١) حديث طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ـ الحديث : البغوى وابن قانع والطبرانى من حديث ركب المصرى والبزار من حديث أنس وقد تقدم بعضه فى العلم وبعضه فى آفات اللسان

(٢) حديث أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما ـ الحديث : وفيه من تواضع رفعه الله ـ الحديث : رواه البزار من رواية طلحة بن يحيى ابن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقبا وقال الذهبى فى الميزان انه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل ـ الحديث : وفيه أما انى لا أزعم أنه حرام ـ الحديث : وفيه ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد دون قوله ومن بذر أفقره الله وذكرا فيه قوله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وتقدم فى ذم الدنيا

(٣) حديث السائل الذى كان به زمانة مكرة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم ـ الحديث : لم أجد له أصلا والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذى غريب

(٤) حديث خيرنى ربى بين أمرين عبدا رسولا وملكا نبيا ـ الحديث : ابو يعلى من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ، ولم يتعاظم على خلقى ، وألزم قلبه خوفى ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « الْكَرَمُ التَّقْوَى وَالشَّرَفُ التَّوَاضُعُ وَالْيَقِينُ الْغِنَى »

وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين فى الدنيا ، هم أصحاب المنابر يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا ، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم . بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم (٢) قال « إِذَا هَدَى اللهُ عَبْداً لِلْإِسْلَامِ وَحَسَّنَ صُورَتَهُ وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضُعًا فَذَلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَرْبَعٌ لَا يُعْطِيهِمُ اللهُ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ : الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ وَالتَّوَاضُعُ وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا » . وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « التَّوَاضُعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ » ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث إذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته ـ الحديث : الطبرانى موقوفا على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودى مختلف فيه

(٣) حديث أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد فى الدنيا : الطبرانى والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشىء : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة : البيهقى فى الشعب نحوه وفيه زمعة ابن صالح ضعفه الجمهور

(٥) حديث إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ـ الحديث : الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطى وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف

(١) كان يطعم ، فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر ، فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه · فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِي يَدِهِ يَكُونُ مِهْنَةً لِأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ الْكِبْرَ عَنْ نَفْسِهِ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) لأصحابه يوما « مَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ ؟ » قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال « التَّوَاضُعُ » قال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ »

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته . وقال انتعش رفعك الله . وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض ، وقال اخسأ خسأك الله . فهو في نفسه كبير ، وفي أعين الناس حقير ، حتى أنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال جرير ابن عبدالله · أنتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم ، قد استظل بنطع له ، وقد جاوزت الشمس النطع ، فسويته عليه . ثم إن الرجل استيقظ ، فإذا هو سلمان الفارسي . فذكرت له ما صنعت . فقال لي : ياجرير ، تواضع لله في الدنيا ، فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة . ياجرير ، أتدري ماظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت لا قال إنه ظلم الناس بعضهم بعضا في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع . وقال يوسف بن أسباط : يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد ، وقال الفضيل ، وقد سئل عن التواضع ما هو فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبي قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك

---

(١) حديث كان يطعم فجاءه رجل أسود به جدري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه : لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم

(٢) حديث إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه : غريب

(٣) حديث مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع: غريب أيضا

(٤) حديث إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار : غريب أيضا

عليه فضل . وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا ، أو جمالا ، أو ثيابا ، أو علما ، ثم لم يتواضع فيه ، كان عليه وبالا يوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ، إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك ، وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله ، وتواضع بها لله ، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ، ورفع بها درجة فى الآخرة . وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ؛ ولم يتواضع بها لله ، إلا منعه الله نفعها فى الدنيا ، وفتح له طبقا من النار ، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان ، أى الرجل أفضل ؟ قال من تواضع عن قدرة ، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السماك على هارون فقال ياأمير المؤمنين ، إن تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك . فقال ما أحسن ما قلت فقال ياأمير المؤمنين ، إن امرأ آتاه الله جمالا فى خلقته ، وموضعا فى حسبه ، وبسط له فى ذات يده ، فعف فى جماله ، وواسى من ماله ، وتواضع فى حسبه ، كتب فى ديوان الله من خالص أولياء الله . فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح ، تصفح وجوه الأغنياء والأشراف ، حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين . وقال بعضهم . كما تكره أن يراك الأغنياء فى الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء فى الثياب المرتفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ، فقال لهم الحسن . أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام . شمخت الجبال وتطاولت ، وتواضع الجودى ، فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال أبو سليمان . إن الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين ، فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام ، فخصه من بينهم بالكلام .

وقال يونس بن عبيد ، وقد انصرف من عرفات . لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم أنى أخشى أنهم حرموا بسببى . ويقال . أرفع ما يكون المؤمن عند الله ، أوضع ما يكون عند نفسه . وأوضع ما يكون عند الله ، أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمرى : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لا تثمر . وقال مالك بن دينار . لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم

رجلا ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب ، إلا رجلا بفضل قوة أوسعى . قال فلما بلغ لابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل . من أحب الرياسة لم يفلح أبدا

وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت ياأبا عبد الله ، أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا . فبكى ثم قال : ليتنى لم أكن سبب هلاككم . قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلى رحمه الله فقال له : ماأنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التى تحت الباء . فقال له الشبلى . أباد الله شاهدك أوتجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلى فى بعض كلامه : ذلى عطل ذل اليهود . ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبى الفتح بن شخرف قال : رأيت على بن أبى طالب رضي الله عنه فى المنام ، فقلت له ياأبا الحسن عظنى . فقال لى :ماأحسن التواضع بالأغنياء فى مجالس الفقراء ، رغبة منهم فى ثواب الله . وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ، ثقة منهم بالله عز وجل . وقال أبو سليمان : لايتواضع العبد حتى يعرف نفسه

وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر . فقيل له فتى يكون متواضعا ؟ قال إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ، ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان . لو اجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكى . الشريف إذا تنسك تواضع ، والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ . التكبر على ذوى التكبر عليك بماله تواضع

ويقال التواضع فى الخلق كلهم حسن ، وفى الأغنياء أحسن . والتكبر فى الخلق كلهم قبيح ، وفى الفقراء أقبح . ويقال لاعز إلا من تذلل لله عز وجل ، ولارفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو على الجوزجانى . النفس معجونة بالكبر ، والحرص ، والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع ، والنصيحة ، والقناعة . وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به فى ذلك ، فإذا هاجت فى نفسه نار الكبر أدركها التواضع ،

مع نصرة الله تعالى . وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة ، مع عون الله عز وجل

وعن الجنيد رحمه الله، أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه، لولا أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم (١) أنه قال « يَكُونُ فى آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ » ما تكلمت عليكم وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر . ولعل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضعها ، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها

وعن عمرو بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة ، فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان ، وإذاهم يعنفون الناس . قال ثم عدت بعد حين، فدخلت بغداد، فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر ، قال فجعلت أنظر إليه وأتأمله ، فقال لى مالك تنظر إلىّ ؟ فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة. فقال له أنا ذلك الرجل . فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال إنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله حيث يترفع الناس . وقال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعى هيبة الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء ،وكان عطاء السلمى إذا سمع صوت الرعد قام وقعد ، وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجلى يصيبكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافى يقول : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم

ودعا رجل لعبدالله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه . فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما ، فقال سلمان : لكننى خلقت من نطفة قذرة ، ثم أعود جيفة منتنة ، ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم ،

---

(١) حديث يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم :الترمذى من حديث أبى هريرة اذا اتخذالفيء دولا الحديث : وفيه كان زعيم القوم أرذلهم ــ الحديث : وقال غريب وله من حديث على بن أبى طالب اذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أرذلهم ولأبى نعيم فى الحلية من حديث حذيفة من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة فذكرها منها وفيهما فرج بن فضالة ضعيف

وإن خفف فأنا لئيم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : وجدنا الكرم فى التقوى ، والغنى فى اليقين ، والشرف فى التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق

بيان

حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق فى النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق . وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال . ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر وإذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذى فى النفس ، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه . فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ، ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتى . فإن العجب لا يستدعى غير المعجب . بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا ، إلا أن يكون مع غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبرا . ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا ، فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه ، أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه . ولا يكفى أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر . بل ينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ، ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره . فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لا أن هذه الرؤية تنفى الكبر . بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل فى قلبه اعتداد ، وهزة ، وفرح ، وركون إلى ما اعتقده ، وعز فى نفسه بسبب ذلك . فتلك العزة ، والهزة ، والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم [1] « أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ » وكذلك قال عمر . أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، للذى استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح

---

(١) حديث أعوذ بك من نفخة الكبرياء: تقدم فيه

فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ، وهو الاستعظام ، كبر وانتفخ وتعزز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة فى النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن عباس فى قوله تعالى (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ [1]) قال عظمة لم يبلغوها . ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر والباطن هى ثمرات . ويسمى ذلك تكبرا . فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه ، وازدراه ، وأقصاه عن نفسه ، وأبعده ، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره . فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ، ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ، ولا بخدمة عتبته . فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته ، وتقدم عليه فى مضايق الطرق ، وارتفع عليه فى المحافل ، وانتظر أن يبدأه بالسلام ، واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه . وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه ، وإن وعظ استنكف من القبول . وإن وعظ عنف فى النصح ، وإن رد عليه شىء من قوله غضب ، وإن علّم لم يرفق بالمتعلمين ، واستذلهم ، وانتهرهم ، وامتن عليهم ، واستخدمهم وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير ، استجهالا لهم واستحقارا . والأعمال الصادرة من خلق الكبر كثيرة ، وهى أكثر من أن تحصى ، فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة

فهذا هو الكبر ، وآفته عظيمة ، وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلما ينفك عنه العباد ، والزهاد ، والعلماء ، فضلا عن عوام الخلق . وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هى أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شىء من العز . ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز . ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز . ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز . ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز . ولا يقدر على

(١) حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم فيه

ترك الحسد وفيه العز . ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز . ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز . ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز . ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ، ليحفظ به عزه . وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه ، خوفا من أن يفوته عزه . فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه

والأخلاق الذميمة متلازمة ، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له . وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين . قال الله تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ [١]) إلى قوله (وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [٢]) ثم قال (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [٣]) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا [٤]) وقال تعالى (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [٥]) وقال عز وجل (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ [٦]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٧]) وقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [٨]) قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم . وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام . إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا . كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر . ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن طأطأ أظله وأكنه ؟ فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال [١] « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ »

---

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس : مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال بطر الحق وغمط الناس ورواه الترمذي فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا

(١ ، ٢) الانعام : ٩٣ (٣) الزمر : ٧٢ (٤) مريم : ٦٩ (٥) النحل ٢٢ (٦) سبأ : ٣١ (٧) غافر : ٦٠ (٨) الاعراف : ١٤٦

بيان

المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى ، أو رسله ، أو سائر خلقه . وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولا . فتارة يتكبر على الخلق ، وتارة يتكبر على الخالق . فإذاً التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام .

الأول : التكبر على الله . وذلك هو أفحش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان . مثل ما كان من نمروذ ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء . وكما يحكى عن جماعة من الجهلة ، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية ، مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [١]) إذ استنكف أن يكون عبدا لله . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٢]) وقال تعالى (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [٣]) الآية وقال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [٤])

القسم الثاني : التكبر على الرسل ، من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس . وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار ، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه . وتارة يمتنع مع المعرفة ، ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق ، والتواضع للرسل ، كما حكى الله عن قولهم (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا [٥]) وقولهم (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا [٦]) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ [٧]) (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا [٨]) (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ [٩]) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه (أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [١٠]) وقال الله تعالى (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [١١]) فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا . قال وهب . قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك . قال حتى أشاور هامان فشاور هامان ، فقال هامان

---

(١) النازعات : ٢٤ (٢) غافر : ٦٠ (٣) النساء ١٧٢ (٤) الفرقان : ٦٠ (٥) المؤمنون ٤٧ (٦) ابراهيم : ١٠
(٧) المؤمنون : ٣٤ (٨) الفرقان : ٢١ (٩) الانعام : ٨ (١٠) الزخرف : ٥٣ (١١) القصص : ٣٩

بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبدا تعبد افاستنكف عن عبودية الله، وعن اتباع موسى عليه السلام

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (١)) قال قتادة · عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبى مسعود الثقفى طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا . فقال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (٢)) وقال الله تعالى (لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا (٤)) أى استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم. وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم . (١) كيف نجلس إليك وعندك هولاء ! أشاروا إلى فقراء المسلمين ، فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم ، فأنزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ (٥)) إلى قوله (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ (٦)) وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٧)) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم ، إذ لم يروا الذين ازدروهم ، فقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ قيل يعنون عمارا وبلالا ، وصهيبا ، والمقداد رضي الله عنهم . ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا . ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف . قال الله تعالى مخبرا عنهم (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٨)) وقال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (٨)) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل ، وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله ، والتواضع لرسوله

القسم الثالث : التكبر على العباد · وذلك بأن يستعظم نفسه ، ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم ، فيزدريهم ويستصغرهم ، ويأنف من من مساواتهم . وهذا وإن كان دون الأول والثانى ، فهو أيضا عظيم من وجهين.

---

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ـ مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص الا انه قال فقال المشركون وقال ابن ماجه قالت قريش

---

(٢) الزخرف : ٣١ (٣) الزخرف : ٣٢ (٤) الانعام : ٥٣ (٥ ، ٦) الانعام : ٥٢ (٧) الكهف : ٢٨
(٨) البقرة : ٨٩ (٩) النحل : ١٤

أحدهما : الكبر ، والعز ، والعظمة ، والعلاء ، لا يليق إلا بالملك القادر . فأما العبد المملوك الضعيف ، العاجز ، الذى لا يقدر على شىء ، فمن أين يليق بحاله الكبر ! فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله . ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك ، فيضعها على رأسه ، ويجلس على سريره . فما أعظم استحقاقه للمقت! وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه ! وما أقبح ما تعاطاه . وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمته . أى أنه خاص صفتى ، ولا يليق إلا بى . والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى . وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك ، ويستخدمهم ويترفع عليهم ، ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم ، فهو منازع له فى بعض أمره ، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره ، والاستبداد بملكه . فالخلق كلهم عباد الله ، وله العظمة والكبرياء عليهم . فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون ، ماهو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم ، وبين منازعته فى أصل الملك

الوجه الثانى : الذى تعظم به رذيلة الكبر ، إنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله ، وتشمر لجحده . ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده ، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس . وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [1]) فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به ، فقد شاركهم فى هذا الخلق

وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ ، كما قال الله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [2]) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس

(1) فصلت : ٢٦ (2) البقرة : ٢٠٦

فقتل المتكبر الذى خالفه ، والذى أمره كبرا . وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك. وقال صلى الله عليه وسلم [١] لرجل « كُلْ بِيَمِينِكَ » قال لا أستطيع . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لَا اسْتَطَعْتَ » فما منعه إلا كبره. قال فما رفعها بعد ذلك أى اعتلت يده.

فإذاً تكبره على الخلق عظيم ، لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله. وإنما ضرب إبليس مثلا لهذا ، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ [١])وهذا الكبر بالنسب ،لأنه قال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [٢]) فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به ؛ وكان مبدؤه الكبر على آدم ، والحسد له . فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد . فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين، إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يارسول الله، [١] إنى امرؤ قد حبب إلىّ من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لَا وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ » وفى حديث آخر [٢] « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ » وقوله وغمص الناس ، أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله ، أو خير منه ، وهذه الآفة الأولى . وسفه الحق هو رَدُّهُ ، وهى الآفة الثانية .

فكل من رأى أنه خير من أخيه ، واحتقر أخاه وازدراه ، ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه ، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله ، فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله

بيان

ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال

---

(١) حديث قال لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت ـ الحديث : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٢) حديث قول ثابت بن قيس بن شماس انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ماترى ـ الحديث : وفيه الكبر من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بحديثين

(٣) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس :تقدم معه

---

(١) (٢) ص:٧٦

وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي . فالديني هو العلم والعمل . والدنيوي هو النسب، والجمال ، والقوة ، والمال ، وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب

الأول : العلم . وماأسرع الكبر إلى العلماء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « آفَةُ الْعِلْمِ الْخُيَلَاءُ » فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم، ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ، ويستحقر الناس ، وينظر إليهم نظره إلى البهائم ، ويستجهلهم ، ويتوقع أن يبدءوه بالسلام . فإن بدأ واحد منهم بالسلام ، أورد عليه ببشر ، أوقام له ، أوأجاب له دعوة ،رأى ذلك صنيعة عنده ،ويداعليه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم ، وفعل بهم مالا يستحقون من مثله،وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه ، شكرا له على صنيعه . بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم،ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره ، كأنهم عبيده أوأجراؤه،وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم،ومعروف لديهم ، واستحقاق حق عليهم . هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما في أمر الآخرة ،فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر ممايخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم. وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما. بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه ، وخطر الخاتمة ، وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم . وهذا العلم يزيد خوفا ، وتواضعا ، وتخشعا ، ويقتضي أن يرى كل الناس خيرا منه ، لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ،ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علما ازداد وجعا. وهو كما قال

فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ، فاعلم أن لذلك سببين :

أحدهما : أن يكون اشتغاله بما يسمى علما ، وليس علما حقيقيا.وإنما العلم الحقيقي مايعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه . وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر ، والأمن . قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ[1]) فأما وراء ذلك

(١) حديث آفة العلم الخيلاء :قلت هكذا ذكره المصنف والمعروف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفي لايدري من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان

(١) فاطر : ٢٨

كعلم الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات، وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها ، امتلأ بها كبرا ونفاقا. وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما . بل العلم هو معرفة العبودية، والربوبية، وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالبا

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، رديء النفس، سيء الأخلاق. فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، ولم يرض نفسه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر . فإذا خاض في العلم أي علم كان ، صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا. فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال. العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا ، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها. فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبرا ، والمتواضع تواضعا. وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به؟ فازداد كبرا . وإذا كان الرجل خائفا مع جهله ، فازداد علما ، علم أن الحجة قد تأكدت عليه ، فيزداد خوفا وإشفاقا ، وذلا وتواضعا .

فالعلم من أعظم ما يتكبر به. ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[2]) وقال عز وجل (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ[3]) ووصف أولياءه فقال (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ[1]) وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه[1] « يَكُونُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْءَانَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْءَانَ فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا وَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا » ثم التفت إلى أصحابه وقال « أُولَئِكَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه. لا تكونوا جبابرة العلماء. فلا يفي علمكم بجهلكم ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص، فأبى أن يأذن له ، وقال له : إنه الذبح. واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم ، فقال . إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بقوم ، فلما سلم من صلاته قال. لتلتمسن إماما غيري ، أو لتصلن وحدانا ، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم

---

(١) حديث العباس يكون قوم يقرءون القرءان لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرءان فمن أقرأ منا الحديث: ابن المبارك في الزهد والرقائق

(١) الشعراء : ٢١٥ (٢) آل عمران : ١٥٩ (٣)

فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة . فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم، ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة، فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله . لو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا إليه ، رجاء أن تشملنا بركته ، وتسرى إلينا سيرته وسجيته وهيهات، فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ، فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول، قد انقرضوا فى القرن الأول ومن يليهم. بل يعز فى زماننا عالم يختلج فى نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضا إما معدوم وإما عزيز. ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله[1] «سَيَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ نَجَا» لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى. ورطة اليأس والقنوط ، مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا. ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه؟ وليتنا تمسكنا بعشر عشره ، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله

الثانى : العمل والعبادة . وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر ، واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد . ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا . أما فى الدنيا ، فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم ، وتوقيرهم ، والتوسع لهم فى المجالس ، وذكرهم بالورع والتقوى ، وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ ، إلى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء . وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما فى الدين ، فهو أن يرى الناس هالكين ، ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك . قال صلى الله عليه وسلم[2] « إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ » وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله ، مغتر بالله ، آمن من مكره ، غير خائف من سطوته . وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره . قال صلى الله عليه وسلم[3] « كَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ » وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ، ويعظمه لعبادته ويستعظمه ، ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه . فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه ، وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم ، كأنه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم إذا أحبوه

---

(١) حديث سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا : أحمد من رواية رجل عن أبى ذر

(٢) حديث اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم : مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ احسب امرئ من الشر

الصلاحه ،أن ينقلهم الله إلى درجته فى العمل،وما أجدره إذاازدارهم بعينه ،أن ينقله الله إلى حد الإهمال ، كما روي أن رجلا فى بنى اسرائيل كان يقال له خليع بنى اسرائيل،لكثرة فساده مرّ برجل آخر يقال له عابد بنى اسرائيل . وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به ، فقال الخليع فى نفسه أنا خليع بنى اسرائيل،وهذا عابد بنى اسرائيل. فلو جلست إليه لعل الله يرحمنى. فجلس إليه. فقال العابد . أنا عابد بنى اسرائيل ،وهذا خليع بنى اسرائيل ، فكيف يجلس إلىّ ! فأنف منه، وقال له قم عنى فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان ،مرهما فليستأنفا العمل ، فقدغفرت للخليع ، وأحبطت عمل العابد . وفى رواية أخرى،فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع . وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ،فالجاهل العاصى إذا تواضع هيبةً لله ،وذل خوفا منه، فقد أطاع الله بقلبه ،فهو أطوع لله من العالم المتكبر ،والعابد المعجب . وكذلك روى أن رجلا فى بنى اسرائيل،أتى عابدا من بنى اسرائيل،[1] فوطىء على رقبته وهو ساجد.فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه أيها المتألى علىّ ،بل أنت لا يغفر الله لك . وكذلك قال الحسن.وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز.أى أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف.،ويرى الفضل له ،وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه . وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف،أو آذاه مؤذ ،استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله . ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل، وجمع بين الكبر ،والعجب، والاغترار بالله . وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون ما يجرى عليه . وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله، والانتقام له منه . مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ،فمنهم من قتلهم ،ومنهم من ضربهم ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة . ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه ، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله فى مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين

(١) حديث الرجل من بنى اسرائيل الذى وطىء على رقبة عابد من بنى اسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك ـ الحديث : أبو داود والحاكم من حديث أبى هريرة فى قصة العابد الذى قال للعاصى والله لا يغفر الله لك أبدا وهو بغير هذه السياقة وإسناده حسن

وأما الأكياس من العباد ، فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ، ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم . فانظر إلى الفرق بين الرجلين ، هذا يتقي الله ظاهرا وباطنا ، وهو وجل على نفسه ، مزدر لعمله وسعيه ، وذاك ربما يضمر من الرياء ، والكبر ، والحسد ، والغل ، ماهو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله ، فقد أحبط بجهله جميع عمله . فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض ، وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ولذلك روى أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم [1] فأقبل ذات يوم ، فقالوا يارسول الله هذا الذي ذكرناه لك . فقال « إِنِّى أَرَى فِي وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ » فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ » قال اللهم نعم . فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه ، وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله . لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات

الدرجة الأولى : أن يكون الكبر مستقرا في قلبه ، يرى نفسه خيرا من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه . وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية

الثانية : أن يظهر ذلك على أفعاله ، بالترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه . وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه ؛ ويقطب جبينه ، كأنه متنزه عن الناس ، مستقذر لهم ، أو غضبان عليهم . وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الوجه حتى يعبس ، ولا في الخد حتى يصعر ، ولا في الرقبة حتى تطأطأ ، ولا في الذيل حتى يضم ، إنما الورع في القلوب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « التَّقْوَى هَهُنَا » وأشار إلى صدره . فقد كان رسول الله

---

(١) حديث ان رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل ذات يوم فقالوا يارسول الله هذا الذي ذكرناه لك . فقال اني أرى في وجهه سفعة من الشيطان ــ الحديث : أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس

(٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى صدره : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

صلى الله عليه وسلم[1] أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك. فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس، يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[1])

وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم، فأحوالهم أخف حالا ممن هو فى الرتبة الثالثة، وهو الذى يظهر الكبر على لسانه، حتى يدعوه إلى الدعوى، والمفاخرة، والمباهاة وتزكية النفس، وحكايات الأحوال والمقامات، والتشمر لغلبة الغير فى العلم والعمل

أما العابد فإنه يقول فى معرض التفاخر لغيره من العباد: من هو؟ وما عمله؟ ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثنى على نفسه ويقول، إنى لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل، وأختم القرآن فى كل يوم، وفلان ينام سحرا، ولا يكثر القراءة. وما يجرى مجراه. وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول. قصدنى فلان بسوء فهلك ولده، وأخذ ماله، أو مرض أو ما يجرى مجراه، يدعى الكرامة لنفسه. وأما مباهاته، فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل، قام وصلى أكثر مما كان يصلى. وإن كانوا يصبرون على الجوع، فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم، ويظهر لهم قوته وعجزهم. وكذلك يشتد فى العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه، أو أقوى منه فى دين الله . وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول. أنا متفنن فى العلوم، ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا. ومن أنت؟ وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذى سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته فهو أنه يجتهد فى المناظرة أن يغلب ولا يغلب. ويسهر طول الليل والنهار فى تحصيل علوم يتجمل بها فى المحافل، كالمناظرة، والجدل وتحسين العبارة. وتسجيع الألفاظ. وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران، ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها. فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم

(١) حديث كان أكرم الخلق وأتقاهم ـ الحديث: تقدم فى كتاب أخلاق النبوة

ليرد عليه ، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل . وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه ، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ » كيف يستعظم نفسه ، ويتكبر على غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار . وإنما العظيم من خلا عن هذا . ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر . والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل

الثالث : التكبر بالحسب والنسب . فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب ، وإن كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم . وثمرته على اللسان التفاخر به ، فيقول لغيره يا نبطي ، ويا هندي ، ويا أرمني ، من أنت ؟ ومن أبوك ؟ فأنا فلان بن فلان ، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي ، ومع مثلي تتكلم ! وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب ، وإن كان صالحا وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال . فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته ، وترشح منه ، كما روي عن أبي ذر أنه قال : قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم [2] فقلت له يا ابن السوداء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا أبا ذرّ طَفَّ الصَّاعُ طَفَّ الصَّاعُ لَيْسَ لِابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ السَّوْدَاءِ فَضْلٌ » فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي ، فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء ، وأن ذلك خطأ وجهل . وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه ، إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل . ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا

---

(١) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر : تقدم

(٢) حديث أبي ذر قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء ـ الحديث : ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى

عند النبي صلى الله عليه وسلم ،[١] فقال أحدهما للآخر : أنافلان بن فلان ، فمن أنت لاأم لك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « افْتَخَرَ رَجُلَانِ عِنْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْ لِلَّذِي افْتَخَرَ بَلِ التِّسْعَةُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « لَيَدَعَنَّ قَوْمٌ الْفَخْرَ بِآبَائِهِمْ وَقَدْ صَارُوا فَحْمًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدُوفُ بِآنَافِهَا الْقَذَرَ »

الرابع : التفاخر بالجمال ، وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ؛ ويدعو ذلك إلى التنقص ، والثلب ، والغيبة ، وذكر عيوب الناس . ومن ذلك ماروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم ،[٣] فقلت بيدى هكذا ، أى إنها قصيرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قَدِ اغْتَبْتِهَا » وهذا منشؤه خفاء الكبر ، لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها ، واستقصرت المرأة فى جنب نفسها ، فقالت ماقالت

الخامس : الكبر بالمال . وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم ، وبين التجار فى بضائعهم ، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى لباسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم . فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين ، وأنا لو أردت لا اشتريت مثلك ، واستخدمت من هو فوقك . ومن أنت ؟ ومامعك ؟ وأساس بيتى يساوى أكثر من جميع مالك وأنا أنفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة . وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا[١]) حتى أجابه فقال (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا

---

(١) حديث ان رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنافلان بن فلان فمن أنت لاأب لك ـ الحديث : عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط

(٢) حديث ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ـ الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث أبى هريرة

(٣) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى إنها قصيرة ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان

(١) الكهف : ٣٤

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً[1]) وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد . ثم بين الله عاقبة أمره بقوله (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً[2]) .

ومن ذلك تكبر قارون ، إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[3])

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش ، والتكبر به على أهل الضعف

السابع : التكبر بالأتباع ، والأنصار ، والتلامذة ، والغلمان ، وبالعشيرة ، والأقارب ، والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين

وبالجملة فكل ما هو نعمة ، وأمكن أن يعتقد كمالا ، وإن لم يكن فى نفسه كمالا ، أمكن أن يتكبر به . حتى أن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به ، وإن لم يكن فعله إلا نكالا . وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب ، وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ، ويتكبر به ، لظنه أن ذلك كمال ، وإن كان مخطئا فيه

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلى بشىء منه على من لا يدلى به ، أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده ، وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه ، لظنه أنه هو الأعلم ، ولحسن اعتقاده فى نفسه

نسأل الله العون بلطفه ورحمته ، إنه على كل شىء قدير

بيان

البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهى ثمرة ونتيجة . وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ، ورؤية قدرها فوق قدر الغير . وهذا الباطن له موجب واحد ، وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر كما سيأتى معناه

---

[1] الكهف : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ [2] الكهف : ٤٢ [3] القصص : ٧٩

فإنه إذا أعجب بنفسه ، وبعلمه ، وبعمله ، أو بشيء من أسبابه ، استعظم نفسه وتكبر .

وأما الكبر الظاهر ، فأسبابه ثلاثة . سبب فى المتكبر ، وسبب فى المتكبر عليه ، وسبب فيما يتعلق بغيرهما . أما السبب الذى فى المتكبر ، فهو العجب . والذى يتعلق بالمتكبر عليه ، هو الحقد والحسد . والذى يتعلق بغيرهما ، هو الرياء . فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء أما العجب ، فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن ، والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر فى الأعمال ، والأقوال والأحوال . وأما الحقد ، فإنه يحمل على التكبر من غير عجب ، كالذى يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه ، فأورثه الغضب حقدا ، ورسخ فى قلبه بغضه . فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له ، وإن كان عنده مستحقا للتواضع . فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ، أو بغضه له . ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته ، وعلى الأنفة من قبول نصحه . وعلى أن يجتهد فى التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه . فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به . وأما الحسد فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود ، وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد . ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق ، حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم . فكم من جاهل يشتاق إلى العلم ، وقد بقى فى رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه ، حسدا وبغيا عليه ، فهو يعرض عنه ، ويتكبر عليه ، مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه . ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه

وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه ، وليس بينه وبينه معرفة ، ولا محاسدة ، ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ، ولا يتواضع له فى الاستفادة ، خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه . فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذى يتكبر بالعجب : أو الحسد ، أو الحقد ، فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث . وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا ، وهو يعلم أنه كاذب . ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ، ويترفع عليه فى المجالس ، ويتقدم عليه فى الطريق ، ولا يرضى بمساواته فى الكرامة والتوقير ، وهو عالم

باطنا بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر فى باطنه ، لمعرفته بأنه كاذب فى دعوى النسب . ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين . وكأن اسم المتكبر إنما يطلق فى الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر فى الباطن ، صادر عن العجب ، والنظر إلى الغير بعين الاحتقار . وهو إن سمى متكبرا فلأجل التشبه بأفعال الكبر ، نسأل الله حسن التوفيق . والله تعالى أعلم

بيان

أخلاق المتواضعين ، ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل ، كصعر فى وجهه ، ونظره شزرا ، وإطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا . وفى أقواله ، حتى فى صوته ونغمته ، وصيغته فى الإيراد . ويظهر فى مشيته وتبختره ، وقيامه وجلوسه ، وحركاته وسكناته . وفى تعاطيه لأفعاله ، وفى سائر تقلباته فى أحواله ، وأقواله ، وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ، ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض . فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام .

وقال أنس [1] لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ومنها أن لا يمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه . قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بُعدا ما مشى خلفه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذ كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال ، ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] فى بعض الأوقات يمشى مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ، ويمشى فى غمارهم ، إما لتعليم غيره ، أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر

---

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له الحديث : تقدم فى آداب الصحبة وفى أخلاق النبوة

(٢) حديث كان فى بعض الأوقات يمشى مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى امامة بسند ضعيف جدا انه خرج يمشى إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال انى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع فى نفسى شىء من الكبر وهو منكر فيه جماعة ضعفاء

والعجب (١) كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة ، وأبدله بالخليع ، لأحد هذين المعنيين . ومنها أن لا يزور غيره ، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين . وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرملة . فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا . فجاء سفيان . فقيل له . يا أبا اسحق ، تبعث إليه بمثل هذا ! فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه . ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه ، إلا أن يجلس بين يديه . والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي روّاد ، فمس فخذي فخذه ، فنحيت نفسي عنه . فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ؟ وإني لا أعرف رجلا منكم شرا مني . وقال أنس (٢) كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت . ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ، ويتحاشى عنهم وهو من الكبر (٣) دخل رجل وعليه جدري قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوما ، ولا أبرص . ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته . ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته . والتواضع خلافه . روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف ، وكان يكتب ، فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه . قال أفأنبه الغلام ؟ فقال هي أول نومة نامها . فقام وأخذ البطة ، وملأ المصباح زيتا . فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ! فقال ذهبت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ، ما نقص مني شيء . وخير الناس من كان عند الله متواضعا . ومنها أن لا يأخذ متاعه (٤) ويحمله إلى بيته . وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك . وقال علي كرم الله وجهه . لا ينقص الرجل الكامل

---

(١) حديث اخراجه الثوب الجديد في الصلاة وابداله بالخليع : قلت المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية وكلاهما تقدم في الصلاة

(٢) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : تقدم في آداب المعيشة

(٣) حديث الرجل الذي به جدري واجلاسه إلى جنبه : تقدم قريبا

(٤) حديث حمله متاعه إلى بيته : أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله : وتقدم

من كداله ماحمل من شيء إلى عياله . وكان أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير ، يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك . وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأني أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله ، وقال بعضهم . رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم . فحمله في ملحفته . فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال لا ، أبو العيال أحق أن يحمل

ومنها اللباس ، إذ يظهر به التكبر والتواضع . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[(١)] « الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ » فقال هارون : سألت معنا عن البذاذة ، فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ، وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم . وعوتب على كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ، ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام . جودة الثياب خيلاء في القلب . وقال طاوس : إني لأغسل ثوبي هذين ، فأنكر قلبي ماداما نقيين ،

ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار ، فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها . فلما استخلف ، كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم . فيقول ما أجوده لولا لينه . فقيل له أين لباسك ، ومركبك ، وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن لى نفسا ذواقة ، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلافة ، وهي أرفع الطباق ، تاقت إلى ماعند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد . صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعطاك ، فلو لبست ، فنكس رأسه مليا ، ثم رفع رأسه فقال ، إن أفضل القصد عند الجدة ، وإن أفضل العفو عند القدرة . وقال صلى الله عليه وسلم[(٢)] « مَنْ تَرَكَ زِينَةً لِلّٰهِ وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضُعًا لِلّٰهِ وَابْتِغَاءً لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ عَبْقَرِيَّ الْجَنَّةِ »

---

(١) حديث البذاذة من الايمان : أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم

(٢) حديث من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله ـ الحديث : أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة لله ـ الحديث وفي اسناده نظر

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم [١] عن الجمال فى الثياب ، هل هو من الكبر ؟ فقال « لا وَلَكِنَّ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ » فكيف طريق الجمع بينهما ؟ . فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال . وهو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] من حال ثابت ابن قيس ، إذ قال إنى امرؤ حبب إلىّ من الجمال ما ترى ، فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب ، لا ليتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر . كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ، ولا يبالى إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شىء ولو فى خلوته ، وحتى فى سنور داره . فذلك ليس من التكبر .

فإذاً انقسمت الأحوال . نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال . على أن قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء فى القلب . وقول نبينا صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعنى أن الكبر لا يوجبه . ويجوز أن لا يوجبه الكبر ، ثم يكون هو مورثا للكبر .

وبالجملة فالأحوال تختلف فى مثل هذا ، والمحبوب الوسط من اللباس ، الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٣] « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِى غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ [٤] إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » وقال بكر بن عبد الله المزنى : البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية . وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى . البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية

---

(١) حديث سئل عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث ان ثابت بن قيس قال للنبى صلى الله عليه وسلم انى امرؤ حبب الى الجمال ـ الحديث : اهو الذى قبله سمى فيه السائل وقد تقدم

(٣) حديث كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير اسراف ولا مخيلة : النسائى وابن ماجه من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده

(٤) حديث ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : الترمذى وحسنا من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه . فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى فى كتاب الغضب والحسد

وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغي أن يقتدى به . ومنه ينبغي أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبى سعيد الخدرى : ماترى فيما أحدث الناس من الملبس ، والمشرب، والمركب، والمطعم ؟ فقال يا ابن أخى، كل لله ، واشرب لله ، والبس لله . وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة ، فهو معصية وسرف وعالج فى بيتك من الخدمة [1] ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشترى الشيء من السوق ، ولا يمنعه من الحياء أن يعلقه بيده ، أو يجعله فى طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصافح الغنى والفقير ، والكبير والصغير . ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير ، أسود أو أحمر ، حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لا يستحيي من أن يجيب إذا دعى ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر مادعى إليه ، وإن لم يجد إلا حشف الدقل ، لا يرفع غداء لعشاء ، ولا عشاء لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة طليق الوجه ، بسام من غير ضحك ، محزون من غير عبوس ، شديد فى غير عنف ، متواضع فى غير مذلة ، جواد من غير سرف ، رحيم لكل ذى قربى ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ، ولا يمد يده من طمع . قال أبو سلمة . فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد فى زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر ، إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلىء قط شبعا ، ولم يبث إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوى ليلته حتى يصبح ، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز

(١) حديث أبى سعيد الخدرى وعائشة قال الخدرى لأبى سلمة عالج فى بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج فى بيته كان يعلف الناضح ـ الحديث : وفيه قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبى سعيد فقالت ماأخطأ ولقد قصر أوما أخبرك انه لم يمتلىء قط شبعا الحديث : بطوله لم أقف له على اسناد

الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل . وربما بكيت رحمة له مما أوتى من الجوع ، فأمسح بطنه بيدى ، وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر مايقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول ياعائشة ، إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، وقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم . فأجدنى استحيي إن ترفهت فى معيشتى ، أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، وما من شىء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى . قالت عائشة رضى الله عنها . فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل

فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين . فمن يطلب التواضع فليقتد به . ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين ، فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نطلب العز فى غيره ، لما عوتب فى بذاذة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال ، خلف من الأنبياء ، هم أوتاد الأرض . فلما انقضت النبوة ، أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ، ولكن بصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله ، بصبر من غير تجبن ، وتواضع فى غير مذلة . وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا ، أو ثلاثون رجلا ، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه

واعلم ياأخى أنهم لا يلعنون شيئا ، ولا يؤذونه ، ولا يحقرونه ، ولا يتطاولون عليه ، ولا يحسدون أحدا ، ولا يحرصون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيرا ، وألينهم عريكة ، وأسخاهم نفسا . علامتهم السخاء ، وسجيتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة . ليسوا اليوم فى خشية ، وغدا فى غفلة . ولكن مداومين على حالهم الظاهر ، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ، ولا الخيل المجراة . قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله ، واشتياقا إليه وقدما فى استباق الخيرات . أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون ،

قال الراوى: فقلت يا أبا الدرداء ، ما سمعت بصفة أشد علىّ من تلك الصفة ، وكيف لى أن أبلغها؟ فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا . فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا . وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد ، واكتنفه بالعصمة. واعلم يا ابن أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [1])

قال يحى بن كثير . فنظرنا فى ذلك ، فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محب المحبين لك يارب العالمين ، فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

بيان

الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات . ولا يخلو أحد من الخلق عن شىء منه . وإزالته فرض عين . ولا يزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القامعة له. وفى معالجته مقامان

أحدهما: استئصال أصله من سنخه ، وقلع شجرته من مغرسها فى القلب

الثانى : دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التى بها يتكبر الإنسان على غيره

المقام الأول : فى استئصال أصله . وعلاجه علمىّ وعملىّ . ولا يتم الشفاء إلا بمجموعها. أما العلمى ، فهو أن يعرف نفسه ، ويعرف ربه تعالى. ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر. فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، وأقل من كل قليل . وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة . وإذا عرف ربه ، علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله

أما معرفته ربه وعظمته ومجده ، فالقول فيه يطول ، وهو منتهى علم المكاشفة

وأما معرفته نفسه ، فهو أيضا يطول ، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع فى إثارة التواضع والمذلة . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله ، فإن فى القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته . وقد قال تعالى (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

---

(1) النحل : ١٢٨

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [١]) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه . فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية . أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا ؛ وقد كان في حيز العدم دهورا، بل لم يكن لعدمه أول . وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظما، ثم كسا العظم لحما . فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا . فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت، إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا، بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع، ولا يبصر، ولا يحس، ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش، ولا يدرك ولا يعلم . فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وبيكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته، فهذا معنى قوله (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ [٢]) . ومعنى قوله (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ [٣]) كذلك خلقه أولا . ثم امتن عليه فقال (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ [٤]) وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت . وكذلك قال (مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [٥]) ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا، ترابا أولا، ونطفة ثانيا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقدا للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [٦] وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [٧]) . فانظر إلى نعمة الله عليه، كيف نقله من تلك الذلة، والقلة والخسة، والقذارة، إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجودا بعد العدم، وحيا بعد العجز

(١، ٢، ٤) عبس : من ١٧ إلى ٢٢ (٣، ٥) الدهر : ١، ٢، ٣ (٦) يس : ٧٧ (٧) الروم : ٢٠

وغنيا بعد الفقر . فكان فى ذاته لاشىء ، وأى شىء أخس من لاشىء ، وأى قلة أقل من العدم المحض ، ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام ، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ، ليعرفه خسة ذاته ، فيعرف به نفسه . وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ، ويعلم بها عظمته وجلاله ، وأنه لايليق الكبرياء إلا به جل وعلا ولذلك امتن عليه فقال (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [1]) وعرف خسته اولا فقال (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً [1]) ثم ذكر منته عليه فقال (فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [2]) ليدوم وجوده بالتناسل ، كما حصل وجوده أولا بالاختراع

فمن كان هذا بدأه ، وهذه أحواله ، فمن أين له البطر والكبرياء، والفخر والخيلاء ، وهو على التحقيق أخس الأخساء ، وأضعف الضعفاء ! ولكن هذه عادة الخسيس ، إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره ، وأدام له الوجود باختياره ، لجاز أن يطغى ؛ وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات المختلفة ، والطباع المتضادة من المرة ، والبلغم ، والريح ، والدم ، يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى ، أم سخط ، فيجوع كرها ، ويعطش كرها ويمرض كرها ، ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا خيراً ولا شرا ، يريد أن يعلم الشىء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشىء فينساه ، ويريد أن ينسى الشىء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى مايهمه فيجول فى أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه ، ويشتهى الشىء وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشىء وربما تكون حياته فيه . يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه ويستبشع الأدوية وهى تنفعه وتحييه ، ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ، ويختطف روحه ، ويسلب جميع مايهواه فى دنياه . فهو مضطر ذليل ، إن ترك بقى ، وإن اختطف فنى . عبد مملوك لا يقدر على شىء من نفسه ، ولا شىء من غيره فأى شىء أذل منه . لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله . فهذا أوسط أحواله فليتأمله

---

(1) البلد : ٨ ، ٩ ، ١٠ (٢ ، ٣) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (١)) ومعناه أنه يسلب روحه، وسمعه، وبصره، وعلمه، وقدرته، وحسه، وإدراكه وحركته، فيعود جمادا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، لا حس فيه ولا حركة. ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة، كما كان فى الأول نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه، وتتفتت أجزاؤه، وتنخر عظامه، ويصير رميما رفاتا، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما، وبخديه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، ويهرب منه لشدة الإنتان. وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير ترابا يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا، وصار كأن لم يغن بالأمس حصيدا، كما كان فى أول أمره أمدا مديدا. وليته بقى كذلك، فما أحسنه لو ترك ترابا. لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة، وسماء مشققة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة ونجوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر. ويرى صحائف منشورة، فيقال له اقرأ كتابك، فيقول وما هو؟ فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها، وتتكبر بنعيمها، وتفتخر بأسبابها، ملكان رقيبان، يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله، من قليل وكثير، ونقير وقطمير، وأكل وشرب، وقيام وقعود. قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك. فهلم إلى الحساب، واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب. فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب، قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه. فإذا شاهده قال: يا ويلتنا، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢)) . فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم، بل ماله وللفرح فى لحظة واحدة، فضلا عن البطر والأشر، فقد ظهر له أول حاله، ووسطه، ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا، ليصير مع البهائم ترابا، ولا يكون إنسانا

(٢،١) عبس : ٢١، ٢٢

يسمع خطابا ، أو يلقى عذابا . وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع ، إذ أوله التراب ، وآخره التراب ، وهو بمعزل عن الحساب والعذاب . والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ؛ ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته ، وقبح صورته . ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة . فمن هذا حاله فى العاقبة ، إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ، كيف يفرح ويبطر ، وكيف يتكبر ويتجبر ، وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا . وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة ؟ إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ، ويجبر الكسر بمنه · والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ، ولا قوة إلا بالله أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط ، فحبس فى السجن ، وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض ، وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدرى أيعفى عنه أم لا ، كيف يكون ذله فى السجن ؟ أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه ، وقد استحق العقوبة من الله تعالى ، ولا يدرى كيف يكون آخر أمره . فيكفيه ذلك حزنا ، وخوفا ، وإشفاقا ، ومهانة ، وذلا . فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر

وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق ، بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ، ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » وقيل لسلمان لم لا تلبس ثوبا جديدا ؟ فقال : إنما أنا عبد ، فإذا أعتقت يوما لبست جديدا . أشار به إلى العتق فى الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا ، وقيل الصلاة عماد الدين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا . ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما ، وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام

---

(١) حديث كان يأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد : تقدم فى آداب المعيشة

بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما ، فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم (١) عليه ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك ، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة ، أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ، ويزول كبرهم ، ويستقر التواضع فى قلوبهم . وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع ، والسجود ، والمثول قائما ، هو العمل الذى يقتضيه التواضع . فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال ، فليواظب على نقيضه ، حتى يصير التواضع له خلقا ، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا ، وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح ، وسر الارتباط الذى بين عالم الملك وعالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت

المقام الثانى : فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة . وقد ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل . فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى . فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع الأسباب السبعة

الأول : النسب ، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل

لئن فخرت بآباء ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا فى صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ! بل لو كان الذى ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لى ، ومن أنت ؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولى . أفترى أن الدودة التى خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التى من بول فرس ؟ هيهات ، بل هما متساويان ، والشرف للإنسان لا للدودة

الثانى : أن يعرف نسبه الحقيقى ، فيعرف أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (١)) فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالأقدام ، ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنونا ، كيف يتكبر

---

(١) حديث حكيم بن حزام بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما ـ الحديث : رواه أحمد مقتصرا على هذا وفيه ارسال خفى

---

(١) السجدة : ٧ ، ٨

وأخس الأشياء ما إليه انتسابه، إذ يقال : ياأذل من التراب ، ويا أنتن من الحمأة ، ويا أقذر من المضغة . فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب ، فنقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك . ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه ، فالأب الأعلى من التراب ، فمن أين رفعته ؟ وإذا لم يكن له رفعة ، فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فإذاً أصله من التراب ، وفصله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب . فالأصل يوطأ بالأقدام ، والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقى للإنسان . ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ، ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله ، كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم ، وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف ، فبينما هو كذلك إذا أخبره عدول لايشك فى قولهم ، أنه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلبيس عليه ، فلم يبق له شك فى صدقهم أفترى أن ذلك يبقى شيئاً من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم . فهو من استشعار الخزى لخسته فى شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر فى أصله وعلم أنه من النطفة ، والمضغة ، والتراب . إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب ، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها ، لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم . فكيف إذا عرف أنه فى نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التى يتنزه عنها هو فى نفسه .

السبب الثانى : التكبر بالجمال . ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح مايقدر عليه تعززه بالجمال ، فإنه وكل به الأقذار فى جميع أجزائه ، الرجيع فى أمعائه ، والبول فى مثانته ، والمخاط فى أنفه ، والبزاق فى فيه ، والوسخ فى أذنيه ، والدم فى عروقه ، والصديد تحت بشرته ، والصنان تحت إبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره ، فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذله . هذا فى حال توسطه . وفى أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور ، من النطفة ، ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقذار ؛ إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ، ثم من الرحم مفيض دم الحيض ، ثم خرج من مجرى القذر

قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول مرتين . وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من فى بطنه خرء . إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه . ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل، لثارت منه الأنتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط

فإذا نظر أنه خلق من أقذار ، وأسكن فى أقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار ، لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن ، وكلون الأزهار فى البوادى ، فبينما هو كذلك إذا صار هشيما تذروه الرياح . كيف ولو كان جماله باقيا ، وعن هذه القبائح خاليا ، لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه . كيف ولا بقاء له ، بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض ، أو جدرى ، أو قرحة ، أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب . فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى . ويمنعه من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز ، وأذل من كل ذليل . وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه . وأن بقة لو دخلت فى أنفه ، أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته . وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته . وأن حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة . فمن لا يطيق شوكة ، ولا يقاوم بقة ، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة ، فلا ينبغى أن يفتخر بقوته . ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار ، أو بقرة أو فيل ، أو جمل . وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم

السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال . وفى معناه كثرة الأتباع والأنصار ، والتكبر بولاية السلاطين ؛ والتمكن من جهتهم . وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقبح أنواع الكبر . فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره : ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا . والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة فى نفسه ، بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر . فإن تغير عليه كان أذل الخلق ،

وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل . كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل . فأف لشرف يسبقك به اليهودى وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة ، فيعود صاحبه ذليلا مفلسا . فهذه أسباب ليست فى ذاته . وما هو فى ذاته ليس إليه دوام وجوده ، وهو فى الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل . وكل ما ليس إليك فليس لك وشىء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه ، إن أبقاه لك ، وإن استرجعه زال عنك . وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شىء . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره . ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته ، وجماله وماله ، وحريته ، واستقلاله ، وسعة منازله ، وكثرة خيوله وغلمانه ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف ، بأنه رقيق لفلان ، وأن أبويه كانا مملوكين له ، فعلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما فى يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه فى أمواله ، وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل ، قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام ، وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ، ولا يعرف طريقا فى الخلاص ألبتة . أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته ، وثروته ، وقوته ، وكماله؟ أم تذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير . فإنه يرى نفسه كذلك ، فلا يملك رقبته ، وبدنه وأعضاءه ، وماله ، وهو مع ذلك بين آفات ، وشهوات ، وأمراض ، وأسقام ، هى كالعقارب والحيات ، يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته ، إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة

فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة ، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفى كما سنذكره

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات ، وأغلب الأدواء ، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد . وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله ، عظيم عند الناس . وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما . بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل

ولذلك قال كعب الأحبار : إن للعلم طغيانا كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضى الله عنه : العالم إذ زل زل بزلته عالم . فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين ،

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل مالم يحتمل عشره من العالم . فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم ، فجنايته أفحش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « يُؤْتَى بِالعَالِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَا فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ آمُرُ بِالخَيْرِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ » وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (١)) أراد به علماء اليهود . وقال فى بلعم بن باعوراء (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا (٢)) حتى بلغ (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (٣)) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوتى بلعم كتابا ، فأخلد إلى شهوات الأرض ، أى سكن حبه إليها ، فمثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . أى سواء آتيته الحكمة أولم أوته لا يدع شهوته

ويكفى العالم هذا الخطر . فأى عالم لم يتبع شهوته ؟ وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل ، فليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالملك المخاطر بروحه فى ملكه لكثرة أعدائه . فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا. فكم من عالم يشتهى فى الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه

فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ! فلا ينبغى أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) حديث يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ـ الحديث : متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد بلفظ يؤتى بالرجل وتقدم فى العلم

---

(١) الجمعة : ٥ (٢ ، ٣) الاعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

وقد كان بعضهم يقول : ياليتنى لم تلدنى أمى. ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول : ياليتنى كنت هذه التبنة . ويقول الآخر : ليتنى كنت طيرا أوكل . ويقول الآخر : ليتنى لم أك شيئا مذكورا . كل ذلك خوفا من خطر العاقبة . فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ، ومهما أطال فكره فى الخطر الذى هو بصدده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق ، ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل النقصان فى بعضها ، وشك فى بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا . فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرجه من كل ماهو فيه عريانا ذليلا ، ويلقيه على بابه فى الحر والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر ، وبلغ به المجهود ، أمر برفع حسابه ، وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم ، لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك ، وعفا عن بعضهم ؟ وهو لا يدرى من أى الفريقين يكون . فإذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل ، وبطل عزه وكبره ، وظهر حزنه وخوفه ، ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب . فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه ، بجنايات على جوارحه ، وبذنوب فى باطنه من الرياء ، والحقد ، والحسد ، والعجب ، والنفاق وغيره ، وعلم مما هو بصدده من الخطر العظيم ، فارقه كبره لا محالة

الأمر الثانى : أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وقال له إن لك عندى قدرا مالم تر لنفسك قدرا ، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى . فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه ، وهذا يزيل التكبر عن قلبه ، وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام ، إذ علموا أن من نازع الله تعالى فى رداء الكبرياء قصمه . وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم . فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لا محالة

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يغنيه أن يخطر بباله

خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر ؟

فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر فى خطر الخاتمة . بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر ، فيختم له بالإيمان ، ويضل هذا العالم ، فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لايدرى ذلك . فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه ، فاستحقره وازدراه لكفره ، وقد رزقه الله الإسلام ، وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة . وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة

فإذاً من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال . هذا عصى الله بجهل ، وأنا عصيته بعلم ، فهو أعذر منى . وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم مالم أعلم ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال . هذا قد أطاع الله قبلى ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى صغير قال . إنى عصيت الله قبله ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال . مايدرينى لعله يختم له بالإسلام ، ويختم لى بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلىّ ، كما لم يكن ابتداؤها إلىّ . فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفى الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله ، لافيما يظهر فى الدنيا ممالابقاء له ، ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه . ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته . لاأن يشتغل بخوف غيره . فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا حبس جماعة فى جناية ، ووعدوا بأن تضرب رقابهم ، لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ، إذ شغل كل واحدهم نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره

فإن قلت . فكيف أبغض المبتدع فى الله ، وأبغض الفاسق ، وقد أمرت ببغضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما ، والجمع بينهما متناقض .

فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله فى إنكار البدعة والفسق بكبر النفس ، والإدلال بالعلم والورع . فكم من عابد جاهل ، وعالم مغرور ، إذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده ، وتنزه عنه بكبر باطن فى نفسه ، وهو ظان أنه قد غضب لله

كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليعهم . وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن . والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله ، وهو خير . فإن الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه ، والمتكبر يغضب . وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه ، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون . والذى يخلصك من هذا ، أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق ، أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور . أحدها: التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ، ليصغر عند ذلك قدرك فى عينك ، والثانى : أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم ، واعتقاد الحق ، والعمل الصالح ، من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر ، والثالث ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته ، أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى ، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك ، وأنت فى غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك ، أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول

إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه ، فإن كان الغلام محبا مطيعا لمولاه ، فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب . وإنما يغضب عليه لمولاه ، ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه ، من غير تكبر عليه . بل هو متواضع له ، يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام ، فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع : فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق ، وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى فى الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء فى الأزل ، وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه ، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة .

فهكذا يكون بعض العلماء والأكياس، فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره ، مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة . وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان ، لما عرفه من فضيلة العلم . وقد قال تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم . فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه ، وهذا عالم فاجر ، فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم ، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن . وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك . وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه ، لم يجز له أن يحتقر عالما ، بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد ، لقوله عليه السلام « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي »

فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وخاتمة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق ، لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم ، وقد مقته به . وإذا كان هذا ممكنا ، كان على نفسه خائفا . فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه ، وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف . وفي حق غيره الرجاء . وذلك يمنعه من التكبر بكل حال . فهذا حال العابد مع العالم

فأما مع غير العالم ، فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين . فينبغي أن لا يتكبر

---

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي : الترمذي من حديث أبي أمامة وتقدم في العلم

(١) الزمر : ٩

على المستور فلعله أقل منه ذنوبا ، وأكثر منه عبادة ، وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ماتزيد عليه ذنوبك فى طول عمرك. فلاينبغى أن تتكبر عليه . ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا ، لأن عدد ذنوبك فى طول عمرك ، وذنوب غيرك فى طول العمر لاتقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة . نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل ، والشرب ، والزنا ، ومع ذلك فلاينبغى أن تتكبر عليه ، إذ ذنوب القلوب من الكبر ، والحسد ، والرياء ، والغل ، واعتقاد الباطل ، والوسوسة فى صفات الله تعالى ، وتخيل الخطأ فى ذلك كل ذلك شديد عند الله . فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ماصرت به عند الله ممقوتا . وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله ، وإخلاص ، وخوف ، وتعظيم : ما أنت خال عنه . وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فينكشف الغطاء يوم القيامة ، فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن ، والإمكان البعيد فيما عليك ينبغى أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك . فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك ، بل فيما هو مخوف فى حقك فإنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لايخفف شيئا من عذابك . فإذا تفكرت فى هذا الخطر ، كان عندك شغل شاغل عن التكبر ، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك . وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال : فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة وما العاشرة ، بها ساد مجده وبها علا ذكره ، أن يرى الناس كلهم خيرا منه ، وإنما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هى شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه . إن رأى من هو خير منه سره ذلك ، وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه إلا خائفا من العاقبة . ويقول لعل بر هذا باطن ، فذلك خير له ، ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله ، فيرحمه الله ويتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال . ويرى ظاهر فذلك شر لى ، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . ثم قال : فحينئذ كمل عقله : وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء فى الأزل بشقوته . فماله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال . نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه . وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل

فقيل له فى النوم ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو لك . فأتاه فسأله عن عمله ، فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب فيتصدق ببعضه ، ويطعم عياله ببعضه . فرجع وهو يقول : إن هذا الحسن ، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله ، فأتى فى النوم ثانيا فقيل له ائت فلانا الإسكاف فقل له ماهذا الصفار الذى بوجهك . فأتاه فسأله فقال له . مارأيت أحدا من الناس إلا وقع لى أنه سينجو وأهلك أنا . فقال العابد بهذه . والذى يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى (يُؤْتُونَ مَا أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ[1]) أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ[2]) وقال تعالى (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ[3]) وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام ، مع تقدسهم عن الذنوب ، ومواظبتهم على العبادات ، على الدؤب بالإشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[4]) (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[5]) فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء فى الأزل ، وينكشف عند خاتمة الأجل ، غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر ، وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن ، والأمن مهلك . والتواضع دليل الخوف ، وهو مسعد . فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق ، والنظر إليهم بعين الاستصغار ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال .

فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير . إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمن التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة . فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ، ونسيت وعدها فمن هذا لا ينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة ، بل ينبغى أن تكمل بالعمل ، وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس . وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن ، وإن كانت الامتحانات كثيرة

الامتحان الأول : أن ينظر فى مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه ، فثقل عليه قبوله ، والانقياد له ، والاعتراف به ، والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا ، فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه

(١) المؤمنون : ٦٠ (٢) المؤمنون : ٥٧ (٣) الطور : ٢٦ (٤) الأنبياء : ٢٠ (٥) الأنبياء : ٢٨

أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه ، وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه ، فجزاك الله خيرا كما نبهتني له ، فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها . فإذا واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعا ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ، ففيه كبر . فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ، ويثقل عليه في الملأ ، فليس فيه كبر ، وإنما فيه رياء ؛ فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته ، وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعا ، ففيه الكبر والرياء جميعا ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني ، فليعالج كلا الداءين ، فإنهما جميعا مهلكان

الامتحان الثاني . أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشي خلفهم ، ويجلس في الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفا ، حتى يسقط عنه ثقله . فبذلك يزايله الكبر . وههنا للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس في صف النعال ، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضا ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ، ويجلس بينهم بجنبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر . فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق ، والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه ، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر ـ

الامتحان الرابع . أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر . وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء . وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك . وقد أهمل الناس طب القلوب ، واشتغلوا بطب الأجساد ، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها ، إذ قال تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [(١)]) . ويروى عن عبد الله بن سلام ، أنه حمل حزمة حطب ، فقيل له يا أبا يوسف ، قد كان فى غلمانك وبنيك ما يكفيك . قال أجل ، ولكن أردت أن أجرب نفسى هل تنكر ذلك . فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة ، حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة وفى الخبر [(١)] « مَنْ حَمَلَ الْفَاكِهَةَ أَوِ الشَّيْءَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الْكِبْرِ » .

الامتحان الخامس . أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن نفور النفس عن ذلك فى الملأ رياء ، وفى الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، له مسح يلبسه بالليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَنِ اعْتَقَلَ الْبَعِيرَ وَلَبِسَ الصُّوفَ فَقَدْ بَرِىءَ مِنَ الْكِبْرِ » وقال عليه السلام [(٣)] « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ بِالْأَرْضِ وَأَلْبَسُ الصُّوفَ وَأَعْقِلُ الْبَعِيرَ وَأَلْعَقُ أَصَابِعِي وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » وروى أن أبا موسى الأشعرى قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس .

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر ، فما يختص بالملأ فهو الرياء ، وما يكون فى الخلوة فهو الكبر ، فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

---

(١) حديث من حمل الشىء والفاكهة فقد برىء من الكبر : البيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة وضعفه بلفظ من حمل بضاعته

(٢) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر : البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بزيادة فيه وفى إسناده القاسم العمرى ضعيف جداً

(٣) حديث إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف ـ الحديث : تقدم بعضه ولم أجده بتمامه

---

(١) الشعراء : ٨٩

بيان

غاية الرياضة فى خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان وواسطة . فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة،والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس . فإن كلا طرفى الأمور ذميم ،وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه ، وأجلسه فيه ، ثم تقدم وسوى له نعله ، وغدا إلى باب الدار خلفه، فقد تخاسس وتذلل . وهذا أيضا غير محمود . بل المحمود عند الله العدل . وهو أن يعطى كل ذى حق حقه . فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته . فأما تواضعه للسوقى فبالقيام ، والبشر فى الكلام ، والرفق فى السؤال ، وإجابة دعوته ، والسعى فى حاجته ، وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه ، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره . فلا يحتقره ، ولا يستصغره ، وهو لا يعرف خاتمة أمره .

فإذاً سبيله فى اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم ، حتى يخف عليه التواضع المحمود فى محاسن العادات ، ليزول به الكبر عنه . فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع . وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع . بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ، ومن غير روية . فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره ، حتى أحب التملق والتخاسس ، فقد خرج إلى طرف النقصان ، فليرفع نفسه ، إذ ليس للمؤمن من أن تذل نفسه ، إلى أن يعود إلى الوسط الذى هو الصراط المستقيم وذلك غامض فى هذا الخلق وفى سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر . كما أن الميل إلى طرف التبذير فى المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل . فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان ، وأحدهما أفحش

وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان ؛ وأحدهما أقبح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ، ووضع الأمور مواضعها كما يجب ، وعلى ما يجب ، كما يعرف ذلك بالشرع والعادة . ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

الشطر الثاني من الكتاب

في العجب

وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال ، وحدهما ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب ، وتفصيل علاجه

بيان

ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا (١)) ذكر ذلك في معرض الإنكار . وقال عز وجل (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا (٢)) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (٣)) وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه .

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال (٢) « إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ »

---

(١) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبي ثعلبة اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك: أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم

(١) التوبة : ٢٥ (٢) الحشر : ٢ (٣) الكهف : ١٠٤

وقال ابن مسعود : الهلاك فى اثنتين : القنوط والعجب : وإنما جمع بينهما لأن السعادة لاتنال إلا بالسعي ، والطلب ، والجد ، والتشمر . والقانط لايسعى، ولا يطلب . والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب . والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب ، حاصلة له ، ومستحيلة فى اعتقاد القانط . فمن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ [١]) قال ابن جريج . معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم : لاتبروها ، أى لاتعتقدوا أنها بارة ، وهو معنى العجب

ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] يوم أحد بنفسه ، فأكب عليه حتى أصيبت كفه . فكأنه أعجبه فعله العظيم ، إذ فداه بروحه حتى جرح . فتفرس ذلك عمر فيه فقال : مازال يعرف فى طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنأو هو العجب فى اللغة ، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما . ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس . أين أنت من طلحة؟ قال ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم ، فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم !

وقال مطرف : لأن أبيت نائما ، وأصبح نادما ، أحب إلى من أن أبيت قائما ، وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبُ الْعُجْبُ » فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذ رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة ، لمواظبته على العبادة . فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر . ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يعجبنك ما رأيت منى . فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ، ثم صار إلى ماصار إليه .

---

(١) حديث وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه : البخارى من رواية قيس بن أبى حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) حديث لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك العجب العجب : البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى منكر الحديث وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف جدا

---

(١) النجم : ٣٢ .

وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت إذا ظن أنه محسن . وقد قال تعالى (لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى [1]) والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا

بيان

آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة . فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لا تخفى . هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى ، فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها ، لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها . وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه . بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها . ثم إذا أعجب بها عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب . والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة من نعمه ، وعطية من عطاياه . ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها . وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ، ومن الاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ، ولا وعظ واعظ . بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ، ويصر على خطئه . فإن كان رأيه فى أمر دنيوى فيحقق فيه ، وإن كان فى أمر دينى لاسيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به . ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه ، واستضاء بنور القرآن ، واستعان بعلماء الدين ، وواظب

---

(1) البقرة : ٢٦٤

على مدارسة العلم ، وتابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب . فلذلك كان من المهلكات . ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى ، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه، نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

بيان

حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة . وللعالم بكمال نفسه في علم، وعمل، ومال ، وغيره حالتان : إحداهما: أن يكون خائفا على زواله ، ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله . فهذا ليس بمعجب . والأخرى: أن لا يكون خائفا من زواله، لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه ، لا من حيث إضافته إلى نفسه . وهذا أيضا ليس بمعجب. وله حالة ثالثة هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ، ونعمة، وخير، ورفعة، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه. فيكون فرحه به من حيث إنه صفته، ومنسوب إليه بأنه له، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه . فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله، مهما شاء سلبها عنه ، زال العجب بذلك عن نفسه

فإذاً العجب هو استعظام النعمة ، والركون إليها ، مع نسيان إضافتها إلى المنعم . فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا ، واستبعد أن يجري عليه مكروه ، استبعادا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق ، سمي هذا إدلالا بالعمل . فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه ، فيكون معجبا . فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه ، كان مدلا عليه . وقال قتادة في قوله تعالى (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ [1]) أي لا تدل بعملك . وفي الخبر [1] « إِنَّ صَلَاةَ الْمُدِلِّ لَا تُرْفَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَلَأَنْ تَضْحَكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِيَ وَأَنْتَ مُدِلٌّ بِعَمَلِكَ »

---

(١) حديث ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(١) المدثر : ٦

والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل . إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة ، دون توقع جزاء عليه . والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته، واستنكر ردها بباطنه، وتعجب منه ،كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال ، وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم

بيان

علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده . وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، فقط . فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد ،كالعبادة والصدقة ، والغزو ، وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة ، والنسب ، وما لا يدخل تحت اختياره ، ولا يراه من نفسه فنقول

الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب ، إنما يعجب به من حيث إنه فيه ، فهو محله ومجراه . أو من حيث إنه منه وبسببه ، وبقدرته وقوته . فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه ، وهو محله ومجراه ، يجرى فيه وعليه من جهة غيره ، فهذا جهل . لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه ! وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه ، وباختياره حصل ، وبقدرته تم ، فينبغي أن يتأمل في قدرته ، وإرادته ، وأعضائه ، وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له ، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه ، من غير حق سبق له ، ومن غير وسيلة يدلي بها ، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحق ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة . فمهما برز الملك لغلمانه ، ونظر إليهم ، وخلع من جملتهم على واحد منهم ، لا لصفة فيه ، ولا لوسيلة ، ولا لجمال ، ولا لخدمة ، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه ، وإيثاره من غير استحقاق . وإعجابه بنفسه من أين وما سببه . ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول . الملك حكم عدل

لا يظلم ، ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة ، لما اقتضى الإيثار بالخلعة ، ولما آثرنى بها . فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته ، التى خصصك بها من غيرك من غير وسيلة . أو هى عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا ، لم يكن لك أن تعجب بها . بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به ، فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له . فيقال وهو الذى أعطاك الفرس ، فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا ، أو يعطيك أحدهما بعد الآخر . فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك

وأما إن كانت تلك الصفة من غيره ، فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة . وهذا يتصوّر فى حق الملوك ، ولا يتصوّر فى حق الجبار القاهر ملك الملوك ، المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة . فإنك إن أعجبت بعبادتك ، وقلت وفقنى للعبادة لحبى له ، فيقال ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فستقول هو . فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده ، إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك ، وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك

فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بغناه ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده . فإن قلت : لا يمكننى أن أجهل أعمالى ، وأنى أنا عملتها ، فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عملى لما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب . وإن كانت الأعمال منى وبقدرتى فكيف لا أعجب بها

فاعلم أن جوابك من وجهين . أحدهما هو صريح الحق ، والآخر فيه مسامحة . أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك ، وإرادتك وحركتك ، وجميع ذلك من خلق الله واختراعه . فما عملت إذ عملت ، وما صليت إذ صليت ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى . فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب ، بمشاهدة أوضح من أبصار العين . بل خلقك وخلق أعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم ، وخلق لك

الإرادة . ولو أردت أن تنفى شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات فى فى أعضائك ، مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق فى العضو قوة ، وفى القلب إرادة . ولم يخلق إرادة مالم يخلق علما بالمراد . ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم . فتدريجه فى الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك ، وقد غلطت . وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله، سيأتى تقريره فى كتاب الشكر، فإنه أليق به، فارجع إليه

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى ، الذى فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك . فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ، ووجود عملك وإرادتك ، وقدرتك ، وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك. فإن كان العمل بالقدرة ، فالقدرة مفتاحه . وهذا المفتاح بيد الله . ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ، ومفاتيحها القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهى بيد الله لا محالة . أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة فى قلعة حصينة ، ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب ، بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط . فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ، ومكنك منها ، فمددت يدك وأخذتها ، كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن ، لأن المؤنة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة . وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح : فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة ، وحركت الدواعى والبواعث ، وصرف عنك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ، ولا باعث إلا وكل بك ، فالعمل هين عليك وتحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب، كلها من الله ، ليس شيء منها إليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده، وفضله وكرمه فى إيثاره إياك على الفساق من عباده ، إذ سلط دواعى الفساد على الفساق ، وصرفها عنك ، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم ، وصرفهم عنك ، ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه ، وسلطها عليك

حتى تيسر لك الخير ، وتيسر لهم الشر . ففعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ، ولا بجريمة سابقة من الفاسق العاصي . بل آثرك ، وقدمك ، واصطفاك بفضله ، وأبعد العاصي ، وأشقاه بعدله . فما أعجب أعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك !

فإذاً لاتنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لاتجد سبيلا إلى مخالفتها فكأنه الذى اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لالك . وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ماتستبين به أنه لافاعل إلا الله ، ولا خالق سواه . والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلا ، وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم ، فيقول كيف منعنى قوت يومى وأنا العاقل الفاضل ! وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل ! حتى يكاد يرى هذا ظلما . ولا يدرى المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا ، لكان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال . إذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما ؟ فهلا جمعتهما لى أو هلا رزقتنى أحدهما وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له . مابال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه . ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك ؟ لامتنع عنه . فإذاً ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتعجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الذميمة القبيحة ، فتتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ؟ ويخصص مثل ذلك القبح ! ولا تدرى المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها ، وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال . فإذن نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه . يارب لم حرمتنى الدنيا وأعطيتها الجهال ، كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول . أيها الملك لم لاتعطينى الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول كنت لاتتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس . فهب أنى ماأعطيتك فرسا ، أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة ، تطلب بها نعمة أخرى . . فهذه أوهام لاتخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل وينزل ذلك بالعلم المحقق بأن العبد ، وعمله ، وأوصافه ، كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق ؛ وهذا ينفى العجب والإدلال ، ويورث الخضوع ، والشكر ،

والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله ، إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى . ولذلك قال داود عليه السلام: يارب ماتأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم . ولا يأتى يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفى رواية ، ماتمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك ، إما يصلى وإما يصوم وإما يذكرك . فأوحى الله تعالى إليه ياداود، ومن أين لهم ذلك؟ إن ذلك لم يكن إلا بى . ولولا عونى إياك ماقويت، وسأكلك إلى نفسك. قال ابن عباس : إنما أصاب داود ماأصاب من الذنب بعجبه بعمله ، إذ أضافه إلى آل داود مدلا به ، حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب. فقال :إنى ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا إن ابتليتنى صبرت . فأدل بالعمل قبل وقته . فقال الله تعالى : فإنى لم أخبرهم بأى شىء أبتليهم ، ولا فى أى شهر ، ولا فى أى يوم . وأنا مخبرك فى سنتك هذه ،وشهرك هذا ، أبتليك غدا بامرأة . فاحذر نفسك . فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم ، وقالوا لانغلب اليوم من قلة ، وكلوا إلى أنفسهم . فقال تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (١)) وروى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال: إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء ، وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواى. فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت ياأيوب ، أنى لك ذلك ؟ أى من أين لك ذلك . قال : فأخذ رمادا ووضعه على رأسه وقال: منك يارب ، منك يارب . فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا (٢)) وقال النبى

---

(١) حديث قولهم يوم حنين لانغلب اليوم من قلة: البيهقى فى دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلا أن رجلا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ولابن مردويه فى تفسيره من حديث أنس لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم نقاتل ففروا فيه: الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور

(١) التوبة : ٢٥ (٢) النور : ٢٠

صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس[1] «مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ » قالوا ولا أنت يارسول الله قال « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ » ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا ، وتبنا ، وطيرا ، مع صفاء أعمالهم وقلوبهم . فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله ، أو يدل به ، ولا يخاف على نفسه · فإذاً هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب : شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها · بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إن من لا يبالى أن يحرم من غير جناية ، ويعطى من غير وسيلة ، لا يبالى أن يعود ويسترجع ماوهب ، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء ، وهذا لا يبقى معه عجب بحال . والله تعالى أعلم

بيان

أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التى بها يتكبر كما ذكرناه . وقد يعجب بما لا يتكبر به ، كعجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

الأول : أن يعجب ببدنه فى جماله ، وهيئته ، وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وحسن صوته . وبالجملة تفصيل خلقته · فيلتفت إلى جمال نفسه ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى . وهو بعرضة الزوال فى كل حال . وعلاجه ماذكرناه فى الكبر بالجمال وهو التفكر فى أقذار باطنه ، وفى أول أمره ، وفى آخره ، وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت فى التراب ، وأنتنت فى القبور ، حتى استقذرتها الطباع

الثانى : البطش والقوة ، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً[1]) وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر

---

(١) حديث مامنكم من أحد ينجيه عمله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

---

(١) فصلت : ١٥

موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار، حتى صارت في عنقه . وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته ، كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال [1] : لأطوفن الليلة على مائة امرأة . ولم يقل إن شاء الله تعالى . فحرم ما أراد من الولد . وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتني صبرت . وكان إعجابا منه بالقوة، فلما ابتلي بالمرأة لم يصبر

ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب ، وإلقاء النفس في التهلكة ، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء . وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه

الثالث : العجب بالعقل والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأي ، وترك المشورة ، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه . ويخرج إلى قلة الاصغاء إلى أهل العلم ، إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل ، واستحقارا لهم وإهانة

وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن ، بحيث يضحك منه . فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره . وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا ، وإن اتسع علمه . وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ! وأن يتهم عقله . وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم . فيحذر أن يكون منهم وهو لايدري ، فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه . ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداهنه يثني عليه ، فيزيده عجبا ، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ، ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا .

الرابع : العجب بالنسب الشريف . كعجب الهاشمية . حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه ، وأنه مغفور له . ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد .

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل . وإن اقتدى بآبائه ، فما كان من أخلاقهم العجب ، بل الخوف والإزراء على النفس ،

---

(١) حديث قال سليمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة

واستعظام الخلق، ومذمة النفس. ولقد شرفوا بالطاعة، والعلم، والخصال الحميدة، لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به. وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شرا من الكلاب، وأخس من الخنازير. ولذلك قال تعالى (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى [١]) أى لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد. ثم ذكر فائدة النسب فقال (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا [٢]) ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [٣]) ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [١] من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي ولكن قال «أَكْرَمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً» وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة، فقال الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن! فقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [٤])

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [١] «إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» أى كبرها «كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ» وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] «يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَا تَأْتِي النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ يَامُحَمَّدُ يَامُحَمَّدُ فَأَقُولُ هَكَذَا» أى أعرض عنكم. فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش. ولما نزل قوله تعالى [٤] (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [٥]) ناداهم بطنا بعد بطن، حتى قال «يَافَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَاصَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكيس الناس قال أكثرهم للموت ذكرا ـ الحديث: ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب

(٢) حديث إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ـ الحديث: أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب

(٣) حديث يامعشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ـ الحديث: الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال يامعشر بني هاشم وسنده ضعيف

(٤) حديث لما نزل قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الحجرات: ١٣ (٥) الشعراء: ٢١٤

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اعْمَلاَ لِأَنْفُسِكُمَا فَإِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً»

فمن عرف هذه الأمور ، وعلم أن شرفه بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آبائه التواضع ، اقتدى بهم في التقوى والتواضع . وإلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله ، مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع ، والتقوى ، والخوف ، والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم[1] بعد قوله لفاطمة وصفية « إِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شيئاً إِلاَّ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا* » وقال عليه الصلاة والسلام[2] « أَتَرْجُوا سليمٌ شَفَاعَتِي وَلاَ يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة

فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها ، لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه . فإنه إن يغضب عليه . فلا يأذن لأحد في شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له ، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة . كالذنوب عند ملوك الدنيا ، فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك . فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى (وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى[1]) وبقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ[2]) وبقوله (وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ[3]) وبقوله (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ[4])

وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه ، وجب الخوف والإشفاق لا محالة ، ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة ، لما أمر قريشا بالطاعة ، ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ، ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة . فالانهماك في الذنوب وترك التقوى ، اتكالا على رجاء الشفاعة ، يضاهي انهماك المريض في شهواته ،

---

(١) حديث قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية إلا أن لكما رحما سأبلها ببلالها : مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها

(٢) حديث أيرجوا سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب : الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله ابن جعفر وفيه اصيرم بن حوشب عن اسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا

---

(١) الأنبياء : ٢٨ (٢) البقرة : ٢٥٥ (٣) سبأ : ٢٣ (٤) المدثر : ٤٨ .

* سأبلها ببلالها : أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا

اعتماداً على طبيب حاذق ، قريب ، مشفق ، من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل . لأن سعى الطبيب وهمته وحذقه ، تنفع فى إزالة بعض الأمراض لا فى كلها . فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتماداً على مجرد الطب . بل للطبيب أثر على الجملة . ولكن فى الأمراض الخفيفة ، وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغى أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء ، للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعا . وذلك لايزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة ، مع كمال تقواهم ، وحسن أعمالهم ، وصفاء قلوبهم ، وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة ، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة . ولم يتكلوا عليه ، ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم . فكيف يعجب بنفسه ، ويتكل على الشفاعة ، من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم !

الخامس : العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم ، دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل

وعلاجه أن يتفكر فى مخازيهم ، وما جرى لهم من الظلم على عباد الله ، والفساد فى دين الله ، وأنهم الممقوتون عند الله تعالى . ولو نظر إلى صورهم فى النار ، وأنتانهم وأقذارهم . لاستنكف منهم ، ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولأنكر على من نسبه إليهم ، استقذارا واستحقارا لهم ولو انكشف له ذلهم فى القيامة ، وقد تعلق الخصماء بهم ، والملائكة آخذون بنواصيهم ، يجرونهم على وجوههم إلى جهنم فى مظالم العباد ، لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم . فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم ، أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين فأما العجب بنسبهم فجهل محض .

السادس : العجب بكثرة العدد من الأولاد ، والخدم ، والغلمان ، والعشيرة ، والأقارب والأنصار ، والأتباع . كما قال الكفار (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا [1]) وكما قال المؤمنون يوم حنين ، لانغلب اليوم من قلة » وعلاجه ماذكرناه فى الكبر ، وهو أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم ، وأن كلهم عبيد عجزة ، لايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . وكم من فئة

---

(1) سبأ : ٣٥

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ثم كيف يعجب بهم ،وإنهم سيفترقون عنه إذامات ،فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده ، لا يرافقه أهل ولا ولد ، ولا قريب ، ولا حميم ، ولا عشير ، فيسلمونه إلى البلى ، والحيات ، والعقارب ، والديدان ، ولا يغنون عنه شيئا ،وهو في أحوج أوقاته إليهم . وكذلك يهربون منه يوم القيامة (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ [١]) الآية . فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك،وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر ، والقيامة ، وعلى الصراط، إلا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك ، وموتك وحياتك

السابع : العجب بالمال . كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا [٢])ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] رجلا غنيا جلس بجنبه فقير، فانقبض عنه وجمع ثيابه. فقال عليه السلام «أَخَشِيتَ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَقْرُهُ »وذلك للعجب بالغنى

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وعظم غوائله . وينظر إلى فضيلة الفقراء ، وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام [٢] « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ أَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذر: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [٣] فدخل المسجد فقال لي « يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد. ثم قال « ارْفَعْ رَأْسَكَ » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة . فقال لي « يَا أَبَا ذَرٍّ هَذَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِرَابِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا » وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال ، يبين حقارة

---

(١) حديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فانقبض منه ـ الحديث : رواه أحمد في الزهد
(٢) حديث بينا رجل في حلة قد أعجبته نفسه ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم
(٣) حديث أبي ذر كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي ـ الحديث : وفيه هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان في صحيحه

---

(١) عبس : ٣٤ (٢) الكهف : ٣٤

الأغنياء، وشرف الفقراء عند الله تعالى . فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره فى القيام بحقوق المال ، فى أخذه من حله، ووضعه فى حقه . ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزى والبوار ، فكيف يعجب بماله

الثامن : العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا[١]) وقال تعالى (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا[٢])وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ، وبذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افترقت فرقا ، فكل معجب برأيه ، وكل حزب بما لديهم فرحون. وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم. والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة، مع ظن كونه حقا

وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره ،لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ،ولو عرفه لتركه . ولا يعالج الداء الذى لا يعرف . والجهل داء لا يعرف ، فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ، ويزيله عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله ، فإنه لا يصغى إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه ، وهو يظنها نعمة. فكيف يمكن علاجه ، وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده . وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا ؛ لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة ، أو دليل عقلى صحيح ، جامع لشروط الأدلة : ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ، ومكامن الغلط فيها، إلا بقريحة تامة ، وعقل ثاقب ، وجد وتشمر فى الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم ، طول العمر ، ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور . والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم ، أن لا يخوض فى المذاهب، ولا يصغى إليها ، ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وأن رسوله صادق فيما أخبر به .

---

(١) حديث انه يغلب على آخر هذه الامة الاعجاب بالرأى :هو حديث أبى ثعلبة المتقدم فاذا رأيت شحا مطاعا وهو متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وهو عند أبى داود والترمذى

---

(١) فاطر : ٨ (٢) الكهف ١٠٤

ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ماجاء به الكتاب والسنة ، من غير بحث وتنقير ،وسؤال عن تفصيل . بل يقول آمنا وصدقنا . ويشتغل بالتقوى ، واجتناب المعاصي،وأداء الطاعات، والشفقة على المسلمين ، وسائر الأعمال . فإن خاض في المذاهب والبدع ،والتعصب في العقائد هلك من حيث لايشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم فأما الذي عزم على التجرد للعلم ، فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه .وذلك مما يطول الأمر فيه.والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد ، لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى ، وهو عزيز الوجود جدا ، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

تم كتاب ذم الكبر والعجب ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتاب ذمّ الغرور

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور . مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور . والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور . وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على ممر الدهور ، ومكر الساعات والشهور

أما بعد ، فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعى إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ [1]) والمغترون قلوبهم (كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا . وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [2]).

فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم ، فشرح صدورهم للإسلام والهدى . والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم ، فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ، ومنبع المهلكات ، فلا بد من شرح مداخله

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ٤٠

ومجاريه ، وتفصيل مايكثر وقوع الغرور فيه ، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه . فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد ، فأخذ منها حذره ، وبنى على الحزم والبصيرة أمره . ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور ، وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها . ونشير إلى وجه اغترارهم بها ، وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ، ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصا . وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف :

الصنف الأول من العلماء . الصنف الثانى من العبّاد . الصنف الثالث من المتصوفة

الصنف الرابع من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة : وجهات غرورهم مختلفة . فمنهم من رأى المنكر معروفا . كالذى يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين مايسعى فيه لنفسه وبين مايسعى فيه لله تعالى ، كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة . ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف . إلى غير ذلك من مداخل لاتتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة

ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ، ولكن بعد بيان ذم الغرور ، وبيان حقيقته وحده .

بيان

ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ [1]) وقوله تعالى (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ [2]) الآية ، كاف فى ذم الغرور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ كَيْفَ يَغْبِنُونَ سَهَرَ الْحَمْقَى وَاجْتِهَادَهُمْ وَلَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينٍ أَفْضَلُ

(كتاب ذم الغرور)

(١) حديث حبذا نوم الأكياس وفطرهم ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفى بعض الروايات أبى الورد موضع أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا

(١) لقمان : ٣٣ (٢) الحديد : ١٤

مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِنَ الْمُغْتَرِّينَ » وقال صلى الله عليه وسلم[1] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » وكل ماورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور . لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ماهو به ، والغرور هو جهل ، إلا أن كل جهل ليس بغرور . بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ، ومغرورا به وهو الذى يغره . فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا ، سمى الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى مايوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع ، عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير ، إما فى العاجل أو فى الآجل ، عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه . فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم ، واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق ، فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور

المثال الأول : غرور الكفار . فمنهم من غرته الحياة الدنيا ، ومنهم من غره بالله الغرور أما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فهم الذين قالوا . النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، فهى إذاً خير ، فلا بد من إيثارها . وقالوا . اليقين خير من الشك ، ولذات الدنيا يقين ، ولذات الآخرة شك ، فلا نترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة ، تشبه قياس إبليس حيث قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[1]) وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[2]) . وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان ، وإما بالبرهان .

أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ[3]) وفى قوله عز وجل (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ[4]) وقوله (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى[5])

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

---

(١) ص : ٧٦ (٢) البقرة : ٨٦ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٦٠ (٥) الأعلى : ١٧

وقوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ [1]) وقوله (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا [2]) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بذلك طوائف من الكفار ، فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ، ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال [2] : نشدتك الله أبعثك الله رسولا ؟ فكان يقول نعم . فيصدق . وهذا إيمان العامة ، وهو يخرج من الغرور . وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب، مع أنه لا يدرى وجه كونه خيرا

وأما المعرفة بالبيان والبرهان . فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغروره سبب . وذلك السبب هو دليل . وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس ، ويورث السكون إليه ، وإن كان صاحبه لا يشعر به، ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان . أحدهما : أن الدنيا نقد، والآخرة نسيئة ، وهذا صحيح . والآخر : قوله إن النقد خير من النسيئة ، وهذا محل التلبيس . فليس الأمر كذلك . بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود ، فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير . فإن الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ؛ ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه . وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك فى الحال ، خوفا من ألم المرض في المستقبل . فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ، ويتعبون فى الأسفار نقدا ؛ لأجل الراحة والربح نسيئة . فإن كان عشرة فى ثانى الحال، خيرا من واحد فى الحال، فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة. فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة ، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة

---

(١) حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور فى السنن من ذلك قصة اسلام الانصار وبيعتهم وهى عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرءان فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه ـ الحديث : وهى عند أحمد باسناد جيد

(٢) حديث قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولا فيقول نعم فيصدق: متفق عليه من حديث أنس فى قصة ضمام بن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم آلله أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفى آخره فقال الرجل آمنت بما جئت به وللطبرانى من حديث ابن عباس فى قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وان ندع اللات والعزى قال نعم ـ الحديث ؛

---

(١) آل عمران : ١٨٥ (٢) لقمان : ٣٣

فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف . بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد . وإن نظر من حيث النوع ، رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فإذاً قد غلط فى قوله النقد خير من النسيئة . فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور ، أطلق وأريد به خاص ، فغفل به المغرور عن خصوص معناه . فإن من قال النقد خير من النسيئة ، أراد به خيرا من نسيئة هى مثله ، وإن لم يصرح به . وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر ، وهو أن اليقين خير من الشك ، والآخرة شك . وهذا القياس أكثر فسادا من الأول . لأن كلا أصليه باطل . إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله . وإلا فالتاجر فى تعبه على يقين ، وفى ربحه على شك ، والمتفقه فى اجتهاده على يقين ، وفى إدراكه رتبة العلم على شك . والصياد فى تردده فى المقتنص على يقين ، وفى الظفر بالصيد على شك . وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك . ولكن التاجر يقول . إن لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضررى ، وإن اتجرت كان تعبي قليلا وربحى كثيرا . وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه ، وهو من الشفاء على شك ، ومن مرارة الدواء على يقين . ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت . فكذلك من شك فى الآخرة ، فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل ، وهو منتهى العمر ، بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة . فإن كان ما قيل فيه كذبا ، فما يفوتنى إلا التنعم أيام حياتى ، وقد كنت فى العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم . فأحسب أنى بقيت فى العدم . وإن كان ما قيل صدقا فأبقى فى النار أبد الآباد ، وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ما قلتهُ حقا فقد تخلصت وتخلصنا . وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت . وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ، ولكن كلم الملحد على قدر عقله ، وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور

وأما الأصل الثانى من كلامه ، وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ . بل ذلك يقين عند المؤمنين . وليقينه مدركان : أحدهما الإيمان والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضا يزيل الغرور ، وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى ، فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ، ولا يطالبهم بتصحيح

ذلك بالبراهين الطبية . بل يثق بقولهم ويعمل به . ولو بقى سوادىّ أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا ، وأغزر منه فضلا ، وأعلم منه بالطب ، بل لاعلم له بالطب ، فيعلم كذبهم بقولهم ، ولا يعتقد كذبه بقوله ، ولا يغتر فى علمه بسببه . ولو اعتمد قوله ، وترك قول الأطباء ، كان معتوها مغرورا .

فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة، والمخبرين عنها، والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول إلى سعادتها ، وجدهم خير خلق الله ، وأعلاهم رتبة فى البصيرة، والمعرفة، والعقل وهم الأنبياء ، والأولياء ، والحكماء ، والعلماء ، واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من البطالين ، غلبت عليهم الشهوة ، ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فعظم عليهم ترك الشهوات ، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار ، فجحدوا الآخرة، وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادىّ لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء ، فكذلك قول هذا الغبي الذى استرقته الشهوات ، لا يشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء. وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق ، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة ، والغرور يزول به

وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة ، فهو الوحى للأنبياء ، والإلهام للأولياء . ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين ، تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط ، وهيهات . فإن التقليد ليس بمعرفة . بل هو اعتقاد صحيح. والأنبياء عارفون . ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هى عليها ، فشاهدوها بالبصيرة الباطنة ، كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر . فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح ، وأنه من أمر الله تعالى ، وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ، لأن ذلك الأمر كلام ، والروح ليس بكلام وليس المراد بالأمر الشأن ، حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط ، لأن ذلك عام فى جميع المخلوقات . بل العالم عالمان : عالم الأمر ، وعالم الخلق . ولله الخلق والأمر . فالأجساد ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق ، إذ الخلق عبارة عن التقدير فى وضع اللسان . وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر . وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة

فى ذكره ، لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذى منع من إفشائه . فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه . وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه . وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر ربانى بطبعه وفطرته ، وأنه فى العالم الجسمانى غريب ، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه فى ذاته ، بل بأمر عارض غريب من ذاته . وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم ، وعبر عنه بالمعصية : وهى التى حطته عن الجنة التى هى أليق به بمقتضى ذاته ، فإنها فى جوار الرب تعالى ؛ وأنه أمر ربانى ، وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعى ذاتى ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته ، فينسى عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه . إذ قيل له (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [١]) أى الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم . يقال فسقت الرطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطرى وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون ، وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فإنها تضربهم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش . وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى صاحبه وليا وعارفا . وهى مبادى مقامات الأنبياء ، وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء

ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك ، يدفع إما بيقين تقليدى ، وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن . والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى ، وهجروا الأعمال الصالحة ، ولابسوا الشهوات والمعاصى ، فهم مشاركون للكفار فى هذا الغرور ، لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة . نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد ، فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضا من المغرورين ، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ، ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرد الإيمان لا يكفى للفوز . قال تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى [٢]) وقال تعالى (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [٣]) ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحشر : ١٩ (٢) طه : ٨٢ (٣) الاعراف : ٥٦ .

(١) « الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » وقال تعالى ـ (وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (١)) ـ فوعد المغفرة فى جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا ، لا بالإيمان وحده . فهؤلاء أيضا مغرورون ، أعنى المطمئنين إلى الدنيا ، الفرحين بها . المترفين بنعيمها ، المحبين لها ، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا ، دون الكارهين له خيفة لما بعده . فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا . ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله ، فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم وبألسنتهم إنه لو كان لله من معاد ، فنحن أحق به من غيرنا ، ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٢)) وجملة أمرهما كما نقل فى التفسير ، أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار ، واشترى بستانا بألف دينار ، وخدما بألف دينار ، وتزوج امرأة على ألف دينار . وفى ذلك كله يعظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفنى ويخرب ، ألا اشتريت قصرا فى الجنة لا يفنى ! واشتريت بستانا يخرب ويفنى ، ألا اشتريت بستانا فى الجنة لا يفنى ! وخدما لا يفنون ولا يموتون ! وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفى كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ماهناك شيء ، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب ، وإن كان فليكونن لى فى الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٣)) فقال الله تعالى ردا عليه (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا كَلَّا (٤)) . وروى عن خباب بن الأرت أنه قال(٢) : كان لى على العاص بن وائل دين ، فجئت أتقاضاه ، فلم يقض لى . فقلت إنى آخذه فى الآخرة . فقال لى : إذا صرت إلى الآخرة فإن لى هناك مالا وولدا أقضيك منه . فأنزل الله تعالى قوله (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٥))

---

(١) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

(٢) حديث خباب بن الأرت قال كان لى على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى أفرأيت الذى كفر بآياتنا الآية البخارى : مسلم

---

(١) سورة العصر (٢) الكهف : ٣٦ (٣) مريم : ٧٧ (٤) مريم : ٧٨ (٥) مريم : ٧٧

وقال الله تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى [١])

وهذا كله من الغرور بالله ، وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا ، فيقيسون عليها نعمة الآخرة . وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ [٢]) فقال تعالى جوابا لقولهم (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [٣]) ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر ، فيزدرونهم ويستحقرونهم فيقولون (أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [٤]) ويقولون (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ [٥])

وترتيب القياس الذى نظمه فى قلوبهم ، أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا فى المستقبل ، كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب ، إذ يقول : لولا أنى كريم عند الله ومحبوب ، لما أحسن إلىّ ، والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لا بل تحت ظنه أن إنعامه عليه فى الدنيا إحسان ، فقد اغترّ بالله إذ ظن أنه كريم عنده ، بدليل لا يدل على الكرامة ، بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر ، فالذى يحبه يمنعه من اللعب ، ويلزمه المكتب ، ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ، ويمنعه من الفواكه وملاذّ الأطعمة التى تضره ، ويسقيه الأدوية التى تنفعه . والذى يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد ، فيلعب ، ولا يدخل المكتب ، ويأكل كل ما يشتهى ، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم ، لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه ، فلم يمنعه ولم يحجر عليه . وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها ، فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، [١] فإن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه

---

(١) حديث ان الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه ـ الحديث : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان

---

(١) فصلت : ٥٠ (٢ ، ٣) المجادلة : ٨ (٤) الانعام : ٥٣ (٥) الاحقاف : ١١

كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه . هكذا ورد فى الخبر عن سيد البشر

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته . ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال . وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ[1]) فأجاب الله عن ذلك (كَلَّا[2]) أى ليس كما قال ، إنما هو ابتلاء ، نعوذ بالله من شر البلاء ، ونسأل الله التثبيت. فبين أن ذلك غرور . قال الحسن : كذبهما جميعا بقوله (كَلَّا[3]) يقول ليس هذا بإكرامى ولا هذا بهوانى. ولكن الكريم من أكرمته بطاعتى ، غنيا كان أو فقيرا، والمهان من أهنته بمعصيتى ، غنيا كان أو فقيرا .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان ، إما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ، ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله ، ويدرك ذلك بالإلهام فى منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ، ولا يليق بعلم المعاملة . وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق ، فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ، ويصدق رسوله . وقد قال تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ[4]) وقال تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[5]) وقال تعالى (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[6]) وفى تفسير قوله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[7]) أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة . ليزيد غرورهم وقال تعالى (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا[8]) وقال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ[9]) إلى غير ذلك مما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فمن آمن به تخلص من هذا الغرور ، فإن منشأ هذا الغرور

(١ ، ٢ ، ٣) الفجر : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ (٤) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ (٥ ، ٧) القلم : ٤٤ (٦) الأنعام : ٤٤

(٨) آل عمران : ١٧٨ (٩) ابراهيم : ٤٢

الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ، ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر إلى فرعون ، وهامان ، وقارون ، وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم، كيف أحسن الله إليهم ابتداء ، ثم دمرهم تدميرا . فقال تعالى (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ (١)) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال (فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٢)) وقال تعالى (وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٣)) وقال عز وجل (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٤)) وقال تعالى (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (٥)) فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه ، وتمكينه من النعم ، على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا ، مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى

فإذاً من أمن مكر الله فهو مغتر . ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه ، وهو التصديق بدلالته على الكرامة ، وهذا هو حد الغرور

المثال الثاني : غرور العصاة من المؤمنين ، بقولهم إن الله كريم ، وإنا نرجو عفوه ، واتكالهم على ذلك ، وإهمالهم الأعمال ، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين ، وأن نعمة الله واسعة ، ورحمته شاملة ، وكرمه عميم . وأين معاصي العباد في بحار رحمته ، وإنا موحدون ومؤمنون ، فنرجوه بوسيلة الإيمان . وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف ، والتقوى ، والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم ، فلا تحتاجون إلى الطاعة . وينسى المغرور أن نوحا عليه السلام

(١) مريم : ٩٨ (٢) الاعراف : ٩٩ (٣) النحل : ٥٥ (٤) آل عمران : ٥٤ (٥) الطارق : ١٥

أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة ، فلم يرد فكان من المغرقين فقال (رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي[١]) فقال تعالى (يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ[٢]) وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم[١] ، وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها ، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة ، حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى . وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصى . فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصى ، فكذلك لا يحب الولد العاصى بحبه للأب المطيع ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا . بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه ، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ، ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ، ويصل إلى الكعبة ويراها بمشى أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا . وكذا العكس . وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه ، فيأذن فى الشفاعة له كما سبق فى كتاب الكبر والعجب

فإن قلت فأين الغلط فى قول العصاة والفجار : إن الله كريم ، وإنا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى خيرا ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب

فاعلم أن الشيطان لا يغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر ، مردود الباطن . ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال[٢] « ٱلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ وَٱلْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَى ٱللهِ » وهذا هو التمنى على الله تعالى : غير الشيطان اسمه فسماه رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال (إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث الكيس من دان نفسه : تقدم قريبا

(١ ، ٢) هود : ٤٥ ، ٤٦

الله أولئك يرجون رحمة الله [١]) يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال . قال الله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون [٢]) وقال تعالى (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة [٣]) أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان ، وشرط له أجرة عليها ، وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعد ، ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأوانى ، وأفسد جميعها ، ثم جلس ينتظر الأجر ، ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا ، أو راجيا؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة قيل للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال هيهات !هيهات ! تلك أمانيهم يترجحون فيها. من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار :لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاى. فقال له رجل : إنا لنرجو الله. فقال مسلم: هيهات! هيهات! من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح ، أو نكح ولم يجامع ، أو جامع ولم ينزل ، فهو معتوه . فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يعمل صالحا ، أو عمل ولم يترك المعاصى ، فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ، ووطىء ، وأنزل ، بقى مترددا فى الولد ، يخاف ويرجو فضل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن ،وعمل الصالحات، وترك السيئات ، وبقى مترددا بين الخوف والرجاء ، يخاف أن لا يقبل منه ،وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت ، حتى يموت على التوحيد ،ويحرص قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصى فهو كيس ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله .وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . ولتعلمن نبأه بعد حين .وعندذلك يقولون كما أخبر الله عنهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون [٤])أى علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ، ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر فكذلك لا يحصل فى الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح ، فارجعنا نعمل صالحا ، فقد علمنا الآن صدقك فى قولك ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها

---

(١) البقرة : ٢١٨ (٢) الواقعة : ٢٤ (٣) آل عمران : ١٨٥ (٤) الملك : ٨ .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ[1]) أى ألم نسمعكم سنة الله فى عباده، وأنه توفى كل نفس ما كسبت، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، فما الذى غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟ (قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ[2])

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟ فاعلم أنه محمود فى موضعين:

أحدهما: فى حق العاصى المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب. قال الله تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ[3]) أمرهم بالإنابة. وقال تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى[4]) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور. كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو فى السوق، فخطر له أن يسعى إلى الجمعة، فقال له الشيطان إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك، فكذب الشيطان ومر يعدو، وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج. وإن استمر على التجارة، وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت، أو لأجل غيره، أو لسبب من الأسباب التى لا يعرفها، فهو مغرور

الثانى: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال، ويقتصر على الفرائض: فيرجى نفسه نعيم الله تعالى، وما وعد به الصالحين، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ[5]) إلى قوله أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[6])

فالرجاء الأول: يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثانى: يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر. فكل توقع حث على توبة أو على تشمر فى العبادة فهو رجاء. وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة. كما إذا خطر له أن يترك الذنب

(١ و ٢) الملك: ٩، ١٠، ١١ (٣) الزمر: ٥٣، ٥٤ (٤) طه: ٨٢ (٥ و ٦) المؤمنون

ويشتغل بالعمل ، فيقول له الشيطان مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ، ولك رب كريم ؛ غفور رحيم ، فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة ، فهو غرة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف ، فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول ..إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب . وإنه مع أنه كريم ، خلد الكفار فى النار أبد الآباد ، مع أنه لم يضره كفرهم : بل سلط العذاب ، والمحن ،والأمراض ، والعلل . والفقر ، والجوع ، على جملة من عباده فى الدنيا ، وهو قادر على إزالتها . فمن هذه سنته فى عباده ، وقد خوّفنى عقابه ، فكيف لا أخافه ! وكيف أغتر به . فالخوف والرجاء قائدان وسائقان ،يبعثان الناس على العمل . فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا ، وسبب إعراضهم عن الله تعالى ، وإهمالهم السعى للآخرة ،فذلك غرور . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم [1] وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة وقد كان ماوعد به صلى الله عليه وسلم . فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله ، يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ، ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن، فترى الخلق آمنين ، مسرورين ،مطمئنين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصى ، وانهماكهم فى الدنيا ، وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء ،والصحابة ، والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينى ،فعلام ذا كان بكاء أولئك ، وخوفهم ، وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور فى كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ، فيما رواه معقل ابن يسار « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَخْلَقُ فِيهِ الْقُرْآنُ فِي

---

(١) حديث ان الغرور يغلب على آخر هذه الامة: تقدم فى آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبى ثعلبة فى اعجاب كل ذى رأى برأيه

(٢) حديث معقل بن يسار يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرءان فى قلوب الرجال ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل

قُلُوب الرِّجَال كَمَا تَخْلَقُ الثِّيَابُ عَلَى الأَبْدَانِ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ يَكُونُ طَمَعاً لاَخَوْفَ مَعَهُ إِنْ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ يُتَقبَّلُ مِنِّي وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ يُغْفَرُ لِي » فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرءان وما فيه . وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا[1]) ومعناه أنهم ورثوا الكتاب أى هم علماء، ويأخذون عرض هذا الأدنى أى شهواتهم من الدنيا، حراما كان أو حلالا . وقد قال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ[2]) (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ[3]) والقرءان من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ، ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه . وترى الناس يهذونه هذّا يخرجون الحروف من مخارجها ، ويتناظرون على خفضها ، ورفعها ، ونصبها وكأنهم يقرءون شعرا من أشعار العرب ، لا يهمهم الإلتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا . فهذه أمثلة الغرور بالله ، وبيان الفرق بين الرجاء والغرور

ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص ، إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ، ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم ، مع أن ما فى كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل . فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ، ويكون مايتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه . ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين ، وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام ، يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال وماهو إلا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان ، وفى الكفة الأخرى ألفا ، وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة . وذلك غاية جهله . نعم ؛ ومنهم من يظن ان طاعاته أكثر من معاصيه ، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها ، كالذى يستغفر الله بلسانه ، أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ، ثم يغتاب المسلمين ، ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد . ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة ، وغفل عن هذيانه طول نهاره ، الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه

---

(١) الأعراف : ٦٩ (٢) الرحمن : ٤٦ (٣) ابراهيم : ١٤

مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[1]) فهذا أبداً يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات ، ولا يلتفت إلى ماورد من عقوبة المغتابين ، والكذابين ، والنمامين ، والمنافقين يظهرون من الكلام مالا يضمرونه ، إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه ، لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به فى فتراته كان يعده ويحسبه ، ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه . فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته فى الأجرة على النسخ ، ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه . ماهذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها . فقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين ، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرءان ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقى ، ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم

بيان

أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمغترون منهم فرق . ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وتعمقوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقد الجوارح ، وحفظها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم ، بل يقبل فى الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله . وهم مغرورون . فإنهم لو نظروا بعين البصيرة ، علموا أن العلم علمان علم معاملة ، وعلم مكاشفة ، وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة علم المعرفة : فأما العلم

[1] ق : ١٨

بالمعاملة ، كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ، وكيفية علاجها والفرار منها ، فهى علوم لاتراد إلا للعمل ، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة . وكل علم يراد للعمل فلاقيمة له دون العمل : فمثال هذا كمريض به علة لايزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة ، لايعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى فى طلب الطبيب، بعد أن هاجر عن وطنه ، حتى عثر على طبيب حاذق ، فعلمه الدواء ، وفصل له الأخلاط وأنواعها ، ومقاديرها ، ومعادنها التى منها تجتلب، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف خلطه ، وعجنه ، فتعلم ذلك ، وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ، ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها . أفترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا ؟ هيهات ! هيهات ! لو كتب منه ألف نسخة ، وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة ، لم يغنه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ، ويشترى الدواء، ويخلطه كما تعلم ، ويشربه ، ويصبر على مرارته ، ويكون شربه فى وقته، وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه . وإذا فعل جميع ذلك ، فهو على خطر من شفائه ، فكيف إذا لم يشربه أصلا ؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه ، فقد ظهر غروره

وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها ، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها ، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها ، فهو مغرور . إذ قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1]) ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس

وعند هذا يقول له الشيطان : لايغرنك هذا المثال ، فإن العلم بالدواء لايزيل المرض . وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه ، والعلم يجلب الثواب . ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم . فإن كان المسكين معتوها مغرورا، وافق ذلك مراده وهواه، فاطمأن إليه وأهمل العمل . وإن كان كيسا ، فيقول للشيطان : أتذكرنى فضائل العلم ، وتنسينى ماورد فى العالم الفاجر الذى لايعمل بعلمه ؟ كقوله تعالى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ [2]) وكقوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً [3]) فأى خزى

(١) الشمس : ٩ (٢) الأعراف : ١٧٧ (٣) الجمعة : ٥

أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] «مَنِ ازْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا» وقال أيضا [٢] «يُلْقَى الْعَالِمُ فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى» وكقوله عليه الصلاة والسلام [٣] «شرُّ النَّاسِ الْعُلَمَاءُ السُّوءُ» وقول أبي الدرداء : ويل للذى لا يعلم مرة ، ولو شاء الله لعلمه · وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات . أي أن العلم حجة عليه ، إذ يقال له . ماذا عملت فيما علمت ؟ وكيف قضيت شكر الله ؟ وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ » . فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم ، في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر . وما ورد في فضل العلم يوافقه . فيميل الشيطان قلبه إلى مايهواه ، وذلك عين الغرور . فإنه إن نظر بالبصيرة ، فمثاله ماذكرناه . وإن نظر بعين الإيمان ، فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بذم العلماء السوء . وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال ، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذى يدعى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، وبصفاته ، وأسمائه ، وهو مع ذلك يهمل العمل ، ويضيع أمر الله وحدوده ، فغروره أشد . ومثاله مثال من أراد خدمة ملك ، فعرف الملك ، وعرف أخلاقه ، وأوصافه ، ولونه ، وشكله ، وطوله ، وعرضه ، وعادته ومجلسه ، ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه ، وما يغضب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه ، وعاطل عن جميع ما يحبه من زى ، وهيئة ، وكلام ، وحركة ، وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه ، والاختصاص به ، متلطخا بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلا عن جميع ما يحبه ، متوسلا إليه بمعرفته له ولنسبه ، واسمه ، وبلده ، وصورته ، وشكله ، وعادته في سياسة غلمانه ، ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جدا . إذ لو ترك جميع ما عرفه ، واشتغل بمعرفته فقط ، ومعرفة ما يكرهه ويحبه ،

---

(١) حديث من ازداد علما ولم يزدد هدى ـ الحديث : تقدم في العلم

(٢) حديث يلقى العالم في النار فتندلق أقتابه ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٣) حديث شر الناس علماء السوء : تقدم في العلم

(٤) حديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه : تقدم فيه

لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به . بل تقصيره فى التقوى ، واتباعه للشهوات ، يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامى دون المعانى . إذ لو عرف الله حق معرفته ، لخشيه واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفنى كما تخاف السبع الضارى . نعم من يعرف من الأسد لونه ، وشكله ، واسمه ، قد لا يخافه ، وكأنه ما عرف الأسد . فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالى ، ويعلم أنه مسخر فى قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة ، وأبد عليهم العذاب أبد الآباد ، لم يؤثر ذلك فيه أثرا ، ولم تأخذه عليه رقة ، ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) وفاتحة الزبور : رأس الحكمة خشية الله . وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا . واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب ، فقيل له . إن فقهاءنا لا يقولون ذلك . فقال : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليله ، الصائم نهاره ، الزاهد فى الدنيا . وقال مرة . الفقيه لا يدارى ولا يمارى ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت منه حمد الله ، وإن ردت عليه حمد الله . فإذاً الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه ، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه ، وهو العالم . ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل ، فواظبوا على الطاعات الظاهرة ، وتركوا المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله ، من الكبر ، والحسد ، والرياء ، وطلب الرياسة والعلاء ، وإرادة السوء للأقران والنظراء ، وطلب الشهرة فى البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم ، فهو مكب عليها ، غير متحرز عنها . ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم (١) « أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ » وإلى قوله عليه السلام (٢) « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » وإلى قوله عليه الصلاة

---

(١) حديث أدنى الرياء شرك : تقدم فى ذم الجاه والرياء

(٢) حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم غير مرة

---

[1] فاطر : ٢٨

والسلام (١) « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام (٢) « حُبُّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب . والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومثال هؤلاء كبئر الحش ، ظاهرها جص ، وباطنها نتن : أو كقبور الموتى ، ظاهرها مزين ، وباطنها جيفة . أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه ، فاستنار ظاهره ، وباطنه مظلم . أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره ، فجصص باب داره ، وترك المزابل في صدر داره . ولا يخفى أن ذلك غرور . بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعا فنبت ، ونبت معه حشيش يفسده . فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله . فأخذ يجز رؤسه وأطرافه ، فلا تزال تقوى أصوله فتنبت ، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن لا يطهر القلب منها لاتتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمريض ظهر به الجرب ، وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فقنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول مايزيد في المادة ، فلايزال يطلي الظاهر والجرب دائم به ، يتفجر من المادة التي في الباطن

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم . فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم . ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر ، والرياسة ، وطلب العلو ، والشرف ، قالوا ماهذا كبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، ونصرة دين الله ، وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين ،

---

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات ـ الحديث : تقدم في العلم وغيره .
(٢) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب ـ الحديث : تقدم
(٣) حديث إن الله لاينظر إلى صوركم ـ الحديث : تقدم

وإنى لو لبست الدون من الثياب ، وجلست فى الدون من المجالس ، لشمت بى أعداء الدين ، وفرحوا بذلك ، وكان ذلى ذلا على الإسلام . ونسى المغرور أن عدوه الذى حذره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين ، وبماذا أرغم الكافرين . ونسى ماروى عن الصحابة من التواضع ، والتبذل ، والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب العز فى غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب ، والديبقى ، والإبريسم المحرم ، والخيول ، والمراكب ، ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين . وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، ولكن قال إنما هذا غضب للحق ، ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد . حتى يعتقد أنه لو طعن فى غيره من أهل العلم ، أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها ، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن . فيكون غضبه لله ، أم لا يغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع ، بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه ، وحسده لأقرانه ، من خبث باطنه ؟ وهكذا يرائى بأعماله وعلومه ، وإذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات ، إنما غرضى من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليهتدوا إلى دين الله تعالى ، فيتخلصوا من عقاب الله تعالى . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره ، كما يفرح باقتدائهم به . فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم ، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر . وربما يذكر هذا له ، فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول . إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بى كان الأجر لى ، والثواب لى . فإنما فرحى بثواب الله ، لا بقبول الخلق قولى . هذا ما يظنه بنفسه ، والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبى بأن ثوابه فى الخمول وإخفاء العلم ، أكثر من ثوابه فى الإظهار ، وحبس مع ذلك فى سجن ، وقيد بالسلاسل ، لاحتال فى هدم السجن وحل السلاسل ، حتى يرجع إلى موضعه الذى به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره . وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ، ويثنى عليه ، ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام ، قال له الشيطان :

هيهات، إنما ذلك عند الطمع فى مالهم. فأما أنت ففرضك أن تشفع للمسلمين، وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك. والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، فصار يشفعه فى كل مسلم، حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين، ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه، والكذب عليه لفعل

وكذلك قد ينتهى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام، قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين، أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغتر بهذا التلبيس فى ثلاثة أمور

أحدها: فى أنه مال لا مالك له، فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء. وغاية الأمر وقوع الخلط فى أموالهم. ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها، فلا خلاف فى أنه مال حرام. ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة، ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر

الثانى: فى قوله. إنك من مصالح المسلمين، وبك قوام الدين، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين، ورغبوا فى طلب الدنيا، والإقبال على الرياسة، والإعراض عن الآخرة بسببه، أكثر من الذين زهدوا فى الدنيا ورفضوها، وأقبلوا على الله. فهو على التحقيق دجال الدين، وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين إذ الإمام هو الذى يقتدى به فى الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله، كالأنبياء عليهم السلام، والصحابة، وعلماء السلف. والدجال هو الذى يقتدى به فى الإعراض عن الله، والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته. وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء. إنه كصخرة وقعت فى فم الوادى، فلا هى تشرب الماء، ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم فى هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير

وفرقة أخرى. أحكموا العلم، وطهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصى، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب، من الرياء، والحسد، والحقد،

والكبر ، وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منها ، وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ، إذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ، مادك وغمض مدركه ، فلم يفطنوا لها وأهملوها . وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه ، وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على مالم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ، وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف ، فانبسطت تحت التراب ، فأهملها وهو يظن أنه قد قلعها ، فإذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويت ، وأفسدت أصول الزرع من حيث لايدرى . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ، ويذهل عن المراقبة للخفايا، والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها ، وتحسين ألفاظها ، وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته ، ولعل باعثه الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت فى الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمات ، وإيثاره فى الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة ، والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه ، والبكاء عليه ، والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب ، والأتباع ، والمستفيدين ، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم ، والورع ، وظاهر الزهد ، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا ، لا عن تفجع بعصيبة الدين، ولكن عن إدلال بالتمييز، واعتداد بالتخصيص

ولعل هذا المسكين المغرور ، حياته فى الباطن بما انتظم له من أمر ، وإمارة ، وعز ، وانقياد ، وتوقير ، وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب، واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله ، فعساه يتشوش عليه قلبه ، وتختلط أوراده ووظائفه ، وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب فى تغطية عيبه ، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع ، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره . وينبو قلبه عمن عرف حد فضله وورعه ، وإن كان ذلك على وفق حاله . وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض، وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه فى الفضل والورع . وإنما ذلك لأنه أطوع له ، واتبع لمراده ، وأكثر

ثناء عليه ، وأشد إصغاء إليه ، وأحرص على خدمته . ولعلهم يستفيدون منه ، ويرغبون فى العلم ، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه ، وقيامه بحق علمه ، فيحمد الله تعالى على مايسّر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ، ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه ، وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب فى إيثاره الخمول ، والعزلة ، وإخفاء العلم لم يرغب فيه ، لفقده فى العزلة ، ولاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة

ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بنى آدم أنه بعامه امتنع منى ، فبجهله وقع فى حبائلى . وعساه يصنف ويجتهد فيه ، ظانا أنه يجمع علم الله لينتفع به ، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف . فلو ادعى مدع تصنيفه ، ومحا عنه اسمه ، ونسبه إلى نفسه ، ثقل عليه ذلك ، مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف ، والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه . ولعله فى تصنيفه لايخلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة ، وإما ضمنا بالطعن فى غيره ، ليستبين من طعنه فى غيره أنه أفضل ممن طعن فيه ، وأعظم منه علما . ولقد كان فى غنية عن الطعن فيه ولعله يحكى من الكلام المزيف مايزيد تزييفه ، فيعزيه إلى قائله ، وما يستحسنه فلعله لايعزيه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له ، أو يغيره أدنى تغيير ، كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لايعرف أنه مسروق . ولعله يجتهد فى تزيين ألفاظه ، وتسجيعه وتحسين نظمه ، كيلا ينسب إلى الركاكة ، ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ، ليكون أقرب إلى نفع الناس ، وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف فى الحكمة ، فأوحى الله إلى نبى زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقا ، وإنى لاأقبل من نفاقك شيئا

ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ، ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه ، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه ، نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه ، وأنه أكثر تبعا أو غيره ، فيفرح إن كان أتباعه أكثر ، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه . ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا

ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ، ثقل على قلبه ، ووجد فى نفسه نفرة منه ، فبعد ذلك لايهتز باطنه لإكرامه ، ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر

من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى ، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له فى دينه، لآفة من الآفات كانت تلحقه فى هذه الفئة، وسلامته عنها فى تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه

ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادي الحسد لم يقدر على إظهاره ، فيتعلل بالطعن فى دينه وفى ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول : إنما غضبت لدين الله لا لنفسي. ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له ، وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه. وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ، يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ، وسر قلبه راض به ، ومريد له ، والله مطلع عليه فى ذلك

فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويسوءه ذلك ويكرهه ، ويحرص على إصلاحه . فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته. وساءته سيئته ، فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه ، الممتن على الله بعمله وعلمه ، الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، ولكن قصروا فى العمل بالعلم . ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون . إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم ، وإما لاقتصارهم عليه

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات ، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها ، وسموه الفقه وعلم المذهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلم يتفقدوا الجوارح ، ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ، ولا البطن عن الحرام ، ولا الرِّجْلَ عن المشى إلى السلاطين ، وكذا سائر الجوارح . ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر ، والحسد ، والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم

أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه ، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء ، واشتغل بتكراره وتعليمه. لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ، ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم دواء

الاستحاضة ، وبتكرار ذلك ليلا ونهارا ، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول . ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألنى عن ذلك . وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقه المسكين ، قد يسلط عليه حب الدنيا ، واتباع الشهوات ، والحسد ، والكبر ، والرياء ، وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافى ، فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله وأشتغل بعلم السلم ، والإجارة ، والظهار ، واللعان ، والجراحات ، والديات ، والدعاوى ، والبينات ، وبكتاب الحيض ، وهو لا يحتاج إلى شىء من ذلك قط فى عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان فى المفتين كثرة ، فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه ، والرياسة ، والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه ، وليس يدرى أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية : وهذا لو كانت نيته صحيحة كما قال ، وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى . فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه فى جوارحه وقلبه ، فهذا غروره من حيث العمل

وأما غروره من حيث العلم ، فحيث اقتصر على علم الفتاوى ، وظن أنه علم الدين ، وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وربما طعن . فى المحدثين ، وقال إنهم نقلة أخبار ، وحملة أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق ، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذى يورث الخوف ، والهيبة ، والخشوع ، ويحمل على التقوى . فتراه آمنا من الله ، مغترا به ، متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه ، فإنه قوام دينه وإنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام . فقد ترك العلوم التى هى أهم ، وهو غافل مغرور . وسبب غروره ما سمع فى الشرع من تعظيم الفقه ، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى ، إذ قال تعالى (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [1]) والذى يحصل به الإنذار غير هذا العلم . فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات

(1) التوبة : ١٢٢

والمال فى طريق الله آلة ، والبدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التى هي الصفات المذمومة ، فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى . وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله . فمثاله فى الاقتصار على علم الفقه ، مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شيء ، ولا بسبيله . وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم . ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ، ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة ، والإلزام ، وإفحام الخصوم ، ودفع الحق ، لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ، والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس ، طبعهم الإيذاء ، وهمهم السفه ولا يقصدون العلم إلا لضرورة مايلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لايحتاجون إليه فى المباهاة كعلم القلب ، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى ، بمحو الصفات المذمومة ، وتبديلها بالمحمودة ، فإنهم يستحقرونه ، ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ . وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ماجمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى ، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ؛ بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف . وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب والتعدية ، فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام ، وإقامة سوق الجدل بها . فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء ، والرد على المخالفين ، وتتبع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة ، واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك وإفحامهم ، وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لايكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم ، وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف

بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ، ولم يتعلم علمهم . ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها . ثم هم فرقتان : ضالة ومحقة ، فالضالة هى التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هى التى تدعو إلى السنة ، والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها ، وظنها بنفسها النجاة . وهم فرق كثيرة ، يكفر بعضهم بعضا . وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ، ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا ، والدليل شبهة

وأما الفرقة المحقة ، فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور ، وأفضل القربات فى دين الله ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه مالم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن ، أو ليس كامل الإيمان ، ولا مقرب عند الله . فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها فى تعلم الجدل ، والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم ، حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لالتذاذه بالغلبة ، والإفحام ، ولذة الرياسة ، وعز الإنتماء إلى الذب عن دين الله تعالى ، عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأوّل . فإن النبى صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى ، فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات ، وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم . بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة ، وتوسموا مخايل قبول ، فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه ، وأبغضوه فى الله ، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر . بل قالوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ، ومن السنة ترك الجدل فى الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو إمامة الباهلى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « مَا ضَلَّ قَوْمٌ قَطُّ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ » [2] وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون ، فغضب عليهم حتى كأنه فقىء فى وجهه حب

---

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل: تقدم فى العلم وفى آفات اللسان

(٢) حديث خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقىء فى وجهه حب الرمان الحديث : تقدم

الرمان من الغضب ، فقال « أَلِهَذَا بُعِثْتُمْ أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ انظُرُوا إِلَى مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فقد زجرهم عن ذلك ، وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل ، فلم يقعد معهم فى مجلس مجادلة لإلزام، وإفحام ،وتحقيق حجة ودفع سؤال، وإيراد إلزام . فما جادلهم إلا بتلاوة القرءان المنزل عليهم . ولم يزد فى المجادلة عليه لان ذلك يشوش القلب ، ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لايقدر على محوها من قلوبهم . وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة ، وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام . ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا ، وقالوا لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا فى المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود ، والنصارى ، وأهل الملل ، وماضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم، فمالنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ماينفعنا فى يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لانأمن على أنفسنا الخطأ فى تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله. بل يزيده التعصب والخصومة تشددا فى بدعته .فاشتغالى بمخاصمة نفسى ومجادلتها ، ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى . هذا لو كنت لم أُنْهَ عن الجدل والخصومة ، فكيف وقد نهيت عنه! وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ! فالأولى أن أتفقد نفسى ، وأنظر من صفاتها مايبغضه الله تعالى وما يحبه ، لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير . وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والزهد ، واليقين والإخلاص ، والصدق ونظائره ، وهم مغرورون ، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ، ودعوا الخلق إليها ، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات ، وهم منفكون عنها عند الله ، إلاّ عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين . وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ، ويظنون أنهم ماتبحروا فى علم المحبة إلاوهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون . ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب ، والبعد ، وعلم السلوك

إلى الله ، وكيفية قطع المنازل فى طريق الله . فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز ، والجاه ، والمال ؛ والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص فى الوصف ، ويصف الرياء ويذكره. وهو يرائى بذكره ، ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد فى الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها . فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا ، لو منع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق . ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه ، وصلحوا على يديه ، لمات غما وحسدا . ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهؤلاء أعظم الناس غرة ، وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب فى الأخلاق المحمودة ، والمنفر عن المذمومة ، هو العلم بغوائلها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه ، وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به ، فبعد ذلك بماذا يعالج ، وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف

نعم : إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة ، يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله ، فما الذى تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف ، فما الذى امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد ، فما الذى تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الأنس بالله ، فمتى طابت له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلىء بالحلاوة إذا أحدق به المريدون . وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى ، فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ، ويستروح منه إلى غيره ؟

فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ، ويطالبونها بالحقيقة ، ولا يقنعون منها

بالتزويق ، بل بموثق من الله غليظ . والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون ، وإذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون ، بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم ،فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى ، كما ورد به الخبر ، لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه، وينهون عن الشر ويأتونه

وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون فى قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعانى ، وهو حب الله ، والخوف منه ، والرضا بفعله ، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية فى هذه المعانى ، فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك ، وما رزقهم الله علمه ، وما نفع الناس بكلامهم فيها ، إلا لاتصافهم بها . وذهب عليهم أن القبول للكلام ، والكلام للمعرفة ، وجريان اللسان والمعرفة للعلم ، وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة . فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف ، بل فى القدرة على الوصف . بل ربما زاد أمنه ، وقل خوفه ، وظهر إلى الخلق ميله ، وضعف فى قلبه حب الله تعالى . وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ، ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لايقدر على وصف الصحة والشفاء ، وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لايفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به ، وإنما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل . فكذلك العلم بالخوف ، والحب ، والتوكل ، والزهد ، وسائر هذه الصفات ، غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لاعيب فى كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرءان والأخبار ، ووعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم

وفرقة أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة ، إلا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ، ولسنا نعرفه ،فاشتغلوا بالطامات والشطح ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، طلباً للإغراب وطائفة شغفوا بطيارات النكت ، وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم بالإسجاع ، والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة . فهؤلاء شياطين الإنس ، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء

فإنهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ، فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصى ، ورغبة فى الدنيا ، لاسيا إذا كان الواعظ متزينا بالثياب ، والخيل ، والمراكب ، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا ، فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه، بل لا يصلح أصلا، ويضل خلقا كثيرا . ولا يخفى وجه كونه مغرورا

وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا ، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ، ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها . فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم فى المحاريب ، وبعضهم فى الأسواق مع الجلساء . وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم ، فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له ، وأمن عقاب الله ، من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

وفرقة أخرى . استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث ، أعنى فى سماعه ، وجمع الروايات الكثيرة منه ، وطلب الأسانيد الغريبة العالية . فهمة أحدهم أن يدور فى البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ، ولقد رأيت فلانا ، ومعى من الأسناد ما ليس مع غيرى وغرورهم من وجوه

منها أنهم كحملة الأسفار ، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معانى السنة ، فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ، ويظنون أن ذلك يكفيهم . ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها ، وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به

ومنها أنهم يتركون العلم الذى هو فرض عين ، وهو معرفة علاج القلب ، ويشتغلون بتكثير الأسانيد ، وطلب العالى منها ، ولا حاجة بهم إلى شىء من ذلك

ومنها وهو الذى أكب عليه أهل الزمان ، أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع ، فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة ، ولكنه مهم فى نفسه للوصول إلى إثبات الحديث ، إذ التفهم بعد الإثبات ، والعمل بعد التفهم . فالأول السماع ، ثم التفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر . وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ، ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبى يحضر فى مجلس الشيخ ، والحديث يقرأ ، والشيخ ينام والصبى يلعب ، ثم يكتب اسم الصبى فى السماع ، فإذا كبر تصدى ليسمع منه . والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولا يسمع ،

ولا يصغى، ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ . والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغيّر مايقرأ عليه لم يشعر به ، ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور إذ الأصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه. فتكون الرواية عن الحفظ ، والحفظ عن السماع ، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته من الصحابة أو التابعين ، وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغى لتسمع . فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفا . ولو غير غيرك منه حرفا وأخطأ علمت خطأه

ولحفظك طريقان : أحدهما أن تحفظ بالقلب ، وتستديمه بالذكر والتكرار ، كما تحفظ ماجرى على سمعك فى مجارى الأحوال . والثانى أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه ، حتى لا تصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره . فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره . فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك ، فيكون كتابك مذكرا لما سمعته ، وتأمن فيه من التغيير والتحريف . فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب ، وجرى على سمعك صوت غفل ، وفارقت المجلس، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ ، وجوزت أن يكون مافيه مغيرا ، أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب . فإنك لا تدرى لعلك لم تسمع مافيه ، بل سمعت شيئا يخالف مافيه ولو فى كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ، ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها ، فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ[1]) وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان : إنا سمعنا مافى هذا الكتاب ، إذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه ، فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع ، مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير . ولو جاز أن يكتب سماع الصبي ، والغافل، والنائم ، والذى ينسخ . لجاز أن يكتب سماع المجنون ، والصبي فى المهد . ثم إذا بلغ الصبي ، وأفاق المجنون ، يسمع عليه . ولا خلاف فى عدم جوازه . ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي فى المهد ، لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذى يلعب ،

(١) الأسراء : ٣٦

والغافل، والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ . وإن استجرأ جاهل فقال يكتب سماع الصبي في المهد ، فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لايسمع الصوت ، وهذا يسمع الصوت ، فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت؟ فليقتصر إذ صار شيخا على أن يقول : سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلسا يروى فيه حديث، كان يقرع سمعي صوته ، ولا أدري ماهو . فلا خلاف في أن الرواية كذلك لاتصح . وما زاد عليه فهو كذب صريح . ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لايفهم العربية لأنه سمع صوتا غفلا ،لجاز إثبات سماع صبي في المهد ، وذلك غاية الجهل. ومن أين يؤخذ هذا ؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا » وكيف يؤدى كما سمع من لايدرى ماسمع؟

فهذا أفحش أنواع الغرور . وقد بلى بهذا أهل الزمان . ولواحتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة . إلا أن للمحدثين في ذلك جاها وقبولا ، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك ، فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم ، فينقص جاههم ، وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط ، بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة ، وإن كان لايدرى مايجرى. وصحة السماع لانعرف من قول المحدثين ، لأنه ليس من علمهم ، بل من علم علماء الأصول بالفقه وماذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه . فهذا غرور هؤلاء . ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل ، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ، ومعرفة معاني الأخبار . بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ، ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر

(١) حديث نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ـ الحديث : أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود قال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس

مجلس السماع ، فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام (١) « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ » فقام وقال : يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .

وفرقه أخرى اشتغلوا بعلم النحو، واللغة ، والشعر ، وغريب اللغة، واغتروا به ، وزعموا أنهم قد غفر لهم ، وأنهم من علماء الأمة . إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو . فأفنى هؤلاء أعمارهم فى دقائق النحو ، وفى صناعة الشعر ، وفى غريب اللغة . ومثالهم كمن يفنى جميع العمر فى تعلم الخط ، وتصحيح الحروف وتحسينها ، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة ، فلابد من تعلمها وتصحيحها . ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط ، بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان ، والباقى زيادة على الكفاية . وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك ، والمضيع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيع له فى معرفة لغة الترك والهند . وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة علم الغريبين فى الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب . فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه . ثم لو اقتصر عليه ، وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها ، فهذا أيضا مغرور . بل مثاله مثال من ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرءان ، واقتصر عليه ، وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعانى ، وإنما الحروف ظروف وأدوات . ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء ، وضيع أوقاته فى تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجبين ، فهو من الجهال المغرورين . فكذلك غرور أهل النحو ، واللغة ، والأدب ، والقراآت ، والتدقيق فى مخارج الحروف ، مهما تعمقوا فيها ، وتجردوا لها ، وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج إليه فى تعلم العلوم التى هى فرض عين . فاللب الأقصى هو العمل . والذى فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالقشر للعمل ، وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية . وهو قشر بطريق

---

(١) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه الترمذى : وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وهو عند مالك من رواية على بن الحسين مرسلا وقد تقدم

الإضافة إلى المعرفة ، ولب بالإضافة إلى مافوقه . وما فوقه هو العلم باللغة والنحو . وفوق ذلك وهو القشر الأعلى، العلم بمخارج الحروف. والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل ، فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ماوراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل ، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ، ورجى عمره فى حمل النفس عليه ، وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات ، فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع ، وسائر العلوم خدم له ، ووسائل إليه ، وقشور له ، ومنازل بالإضافة إليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب ، سواء كان فى المنزل القريب أو فى المنزل البعيد

وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع، اغترّ بها أربابها . فأما علم الطب، والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع . لأن العلوم الشرعية مشتركة فى أنها محمودة ، كما يشارك القشر اللب فى كونه محمودا . ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى ، والثانى محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى : فمن اتخذ القشر مقصودا ، وعرج عليه ، فقد اغترّ به . وفرقة أخرى :عظم غرورهم فى فن الفقه، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه فى مجلس القضاء ، فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق ،وأساؤا تأويل الألفاظ المبهمة ، واغتروا بالظواهر وأخطؤا فيها . وهذا من قبيل الخطأ فى الفتوى والغرور فيه . والخطأ فى الفتاوى مما يكثر ، ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم ، فنشير إلى أمثلة . فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه و بين الله تعالى . وذلك خطأ . بل الزوج قد يسىء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق ، فتضطر إلى طلب الخلاص ، فتبرىء الزوج لتتخلص منه ، فهو إبراء لا عن طيبة نفس . وقد قال تعالى (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا [(١)])وطيبة النفس غير طيبة القلب . فقد يريد الإنسان بقلبه مالا تطيب به نفسه . فإنه يريد الحجامة بقلبه ، ولكن تكرهها نفسه . وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله ، حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما . فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه

(١) النساء : ٤

الباطن . نعم :القاضي في الدنيا لايطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر . والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء ، لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الإبراء

ولذلك لايحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه . فلو طلب من الإنسان مالا على ملأ من الناس ، فاستحيا من الناس أن لايعطيه ، وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لايعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس ، وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة . إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالصوت ، حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال ، فيختار أهون الألمين . والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط. ولافرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى ، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر . وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت ، لأنه لايمكنه الوقوف على مافي القلب

وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه ، أو لشر سعايته ، فهو حرام عليه

وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألاترى ماجاء في قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له : يارب ، كيف لي بخصمي فأمر بالاستحلال منه ، وكان ميتا ، فأمر بندائه في صخرة بيت المقدس ، فنادى ياأوريا ، فأجابه لبيك يانبي الله ، أخرجتني من الجنة ، فماذا تريد ؟ فقال إني أسأت إليك في أمر فهبه لي . قال قد فعلت ذلك يانبي الله . فانصرف وقد ركن إلى ذلك ، فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له مافعلت؟ قال لا قال فارجع فبين له . فرجع فناداه فقال : لبيك يانبي الله ، فقال إني أذنبت إليك ذنبا ، قال ألم أهبه لك ؟ قال ألا تسألني ماذلك الذنب ؟ قال ماهو يانبي الله ؟ قال كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة . فانقطع الجواب . فقال ياأوريا ، ألا تجيبني ؟قال يانبي الله ماهكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله . فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس ، حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة . فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لاتفيد ، وأن طيبة القلب لاتحصل إلا بالمعرفة . فكذلك طيبة القلب لاتكون في الإبراء والهبة وغيرهما ، إلا إذا خلي الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه ، لاأن تضطر بواعثه

إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول من زوجته واتهابه مالها ، لإسقاط الزكاة . فالفقيه يقول سقطت الزكاة . فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعى سقطت عنه ، فقد صدق . فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال . وإن ظن أنه يسلم فى القيامة، ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى البيع لا على هذا القصد، فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ! فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل ، فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ » وإنما صار شحه مطاعا بما فعله، وقبله لم يكن مطاعا ، فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه ،فإن الله مطلع على قلبه ، وحبه المال، وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل ، حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور . ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة . والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات، وبين الحاجات. بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة ، وهو محض الغرور . بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها فى العبادة ،وسلوك طريق الآخرة فكل ماتناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته. وماعدا ذلك، فهو فضوله وشهوته. ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء فى أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات. والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول

الصنف الثانى : أرباب العبادة والعمل . والمغرورون منهم فرق كثيرة . فمنهم من غروره فى الصلاة، ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن ،ومنهم فى الحج،ومنهم فى الغزو ،ومنهم فى الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل ماهم

فمنهم فرقة :أهملوا الفرائض ، واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ،كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ،ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ،وربما أكل الحرام المحض . ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام ، لكان أشبه بسيرة الصحابة : إذ توضأ عمر رضى الله عنه ماء فى جرة نصرانية ، مع ظهور احتمال النجاسة . وكان مع هذا يدع

---

(١) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث: تقدم غير مرة.

أبوابا من الحلال ، مخافة من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء ، وذلك منهى عنه (١) وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور ، لما فاته من فضيلة أوّل الوقت . وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء . وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنّى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة ، فيبعدهم عن الله بمثل ذلك

وفرقة أخرى : غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل ، يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ، ويخرج الصلاة عن الوقت . وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه . يفعلون ذلك فى أول الصلاة ، ثم يغفلون فى جميع الصلاة ، فلا يحضرون قلوبهم ، ويغترون بذلك ، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أوّل الصلاة ، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط ، فهم على خير عند ربهم.

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء ، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته ، لايهمه غيره ، ولا يتفكر فيما سواه ، ذاهلا عن معنى القرءان والاتعاظ به ، وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور . فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرءان من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ، ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى ، وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ، ويرد إلى دار المجانين ، ويحكم عليه بفقد العقل . وفرقة أخرى : اغتروا بقراءة القرءان فيهذونه هذّا ، وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجرى به ، وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر فى معانى القرءان لينزجر بزواجره ، ويتعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره

(١) حديث النهى عن الاسراف فى الوضوء : الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ــ الحديث : وتقدم فى عجائب القلب

ونواهيه ، ويعتبر بمواضع الإعتبار فيه ، إلى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرءان من مقاصد التلاوة. فهو مغرور ، يظن أن المقصود من إنزال القرءان الهمهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتابا ، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن إقتصر على حفظه ، فهو مستمر على خلاف ماأمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة . فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه ، فهو مغرور

نعم: تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى، بل لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به، ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وإنما هى لذته فى صوته . ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ، ذلك الإلتذاذ . فهو مغرور ، إذا لم يتفقد قلبه ، فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه ، أو بصوته . وفرقة أخرى . اغتروا بالصوم ، وربما صاموا الدهر ، أو صاموا الأيام الشريفة ، وهم فيها لايحفظون ألسنتهم عن الغيبة. وخواطرهم عن الرياء، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور

وفرقة أخرى: اغتروا بالحج ، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال . وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ، ويضيعون فى الطريق الصلاة والفرائض ، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون فى الطريق من الرفث والخصام . وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء فى الطريق ، وهو يطلب به السمعة والرياء ، فيعصى الله تعالى فى كسب الحرام أولا ، وفى إنفاقه بالرياء ثانيا . فلا هو أخذه من حله ، ولا هو وضعه فى حقه. ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق، وذميم الصفات ، لم يقدم تطهيره على حضوره ، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه ، فهو مغرور

وفرقة أخرى أخذت فى طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينكر على الناس ، ويأمرهم بالخير ، وينسى نفسه . وإذا أمرهم بالخير عنف ، وطلب الرياسة والعزة .

وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال : أنا المحتسب ، فكيف تنكر على ! وقد يجمع الناس إلى مسجده ، ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه ، وإنما غرضه الرياء والرياسة . ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه . بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ، ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة ، وقال لم آخذ حقى ، وزوحمت على مرتبتى . وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ، ويظن أنه على خير ، وإنما غرضه أن يقال إنه إمام المسجد ، فلو تقدم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه .

وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة ، واغتروا بمكة ، ولم يراقبوا قلوبهم ، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم ، فقلوبهم معلقة ببلادهم ، ملتفتة إلى قول من يعرفه إن فلانا مجاور بذلك وتراه يتحدث ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة . وإذا سمع أن ذلك قبيح ، ترك صريح التحدى ، وأحب أن يعرفه الناس بذلك . ثم إنه قد يجاور ، ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس ، وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه ، ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير ، فيظهر فيه الرياء ، والبخل ، والطمع ، وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة . ولكن حب المحمدة ، وأن يقال إنه من المجاورين ، ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل . فهو أيضا مغرور . وما من عمل من الأعمال ، وعبادة من العبادات ، إلا وفيها آفات . فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها ، فهو مغرور . ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور فى الصلاة من كتاب الصلاة ، وفى الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التى رتبناها فيها وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ماسبق فى الكتب . وفرقة أخرى : زهدت فى المال ، وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد . وهو مع ذلك راغب فى الرياسة والجاه ، إما بالعلم أو بالوعظ ، أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين ، وباء بأعظم المهلكين . فإن الجاه أعظم من المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب . فهذا مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا ، وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة ، وأن الراغب فيها لابد وأن يكون منافقا ، وحسودا ، ومتكبرا ، ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . نعم : وقد يترك

الرياسة ، ويؤثر الخلوة والعزلة ، وهو مع ذلك مغرور ، إذ يتطاول بذلك على الأغنياء ، ويخشن معهم الكلام ، وينظر إليهم بعين الاستحقار ، ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، ويعجب بعمله ، ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لايدرى . وربما يعطى المال فلايأخذه ، خيفة من أن يقال بطل زهده . ولو قيل له إنه حلال تأخذه فى الظاهر ورده فى الخفية ، لم تسمح به نفسه ، خوفا من ذم الناس . فهو راغب فى حمد الناس ، وهو من ألذ أبواب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا ، وهو مغرور . ومع ذلك فربما لايخلو من توقير الأغنياء ، وتقديمهم على الفقراء ، والميل إلى المريدين له ، والمثنين عليه ، والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد . وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان ، نعوذ بالله منه

وفى العباد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح ، حتى ربما يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ، ويختم القرآن ، وهو فى جميع ذلك لايخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء ، والكبر ، والعجب ، وسائر المهلكات ، فلا يدرى أن ذلك مهلك وإن علم ذلك فلايظن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر ، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة حسناته ، وهيهات . وذرة من ذى تقوى ، وخلق واحد من أخلاق الأكياس ، أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح . ثم لايخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس ؛ وخشونته ، وتلوث باطنه ، عن الرياء وحب الثناء . فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض ، وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور ، بذلك ، وصدق به ، وزاده ذلك غرورا ، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ، ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه

وفرقة أخرى : حرصت على النوافل ، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى ، وبصلاة الليل ، وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (١) « مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ » وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور . بل قد يتعين على الإنسان فرضان ، أحدهما يفوت والآخر لايفوت ،

---

(١) حديث ماتقرب المتقربون الى بمثل أداء ماافترضت عليهم : البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ ماتقرب الى عبدى

أو فضلان ، أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه، كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى . فإن المعصية ظاهرة ، والطاعة ظاهرة . وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات ، وتقديم فرض كفاية لاقائم به على ماقام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم مايفوت على مالا يفوت . وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فقيل له: من أبر يارسول الله؟ قال « أمَّكَ » قال ثم من ؟ قال « أمَّكَ » قال ثم من؟ قال « أمَّكَ » قال ثم من ؟ قال « أبَاكَ » قال ثم من ؟ قال « أدْنَاكَ فَأدْنَاكَ » فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب . فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع

وكذلك من لايفى ماله بنفقة الوالدين والحج ، فربما يحج وهو مغرور . بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج . وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة ، فالجمعة تفوت ، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية، وإن كان هو طاعة فى نفسه : وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة ، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك ، فالنجاسة محذورة ، وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لاتنحصر . ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور فى غاية الغموض ، لأن المغرور فيه فى طاعة ، إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية ، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها

ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه ، في حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بالجوارح ، والمتعلقة بالقلب ، لأن مقصود الفقه معرفة مايحتاج إليه غيره فى حوائجه ، فمعرفة مايحتاج هو إليه فى قلبه أولى به . إلا أن حب الرياسة

---

(١) حديث من أبر قال أمك ــ الحديث : الترمذى والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة

والجاه ، ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم ، يعمى عليه ، حتى يغتر به مع نفسه ، ويظن أنه مشغول بهم دينه

الصنف الثالث :المتصوفة . وما أغلب الغرور عليهم ! والمغترون منهم فرق كثيرة

ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلاّ من عصمه الله ، اغتروا بالزى والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم ، وفى ألفاظهم ، وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفى أحوالهم الظاهرة فى السماع ، والرقص ، والطهاره ، والصلاة ، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس ، وإدخاله فى الجيب كالمتفكر ، وفى تنفس الصعداء ، وفى خفض الصوت فى الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور ، وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة ، والرياضة ، ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف . ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم فى الصوفية . كيف ولم يحوموا قط حولها ، ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ، بل يتكالبون على الحرام ، والشبهات وأموال السلاطين ، ويتنافسون فى الرغيف والفلس ، والحبة ، ويتحاسدون على النقير والقطمير ، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شيء من غرضه ، وهؤلاء غرورهم ظاهر . ومثالهم مثال امرأة عجوز ، سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم فى الديوان ، ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفرا ، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها ، وتعلمت كيفية تبخترهم فى الميدان وكيف تحريكهم الأيدى ، وتلقفت جميع شمائلهم فى الزى ، والمنطق ، والحركات ، والسكنات ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان . فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض ، وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ماتحته ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ، ليعرف قدر عنائها فى الشجاعة . فلما جردت عن المغفر والدرع ، فإذا هى عجوزة ضعيفة زمنة ، لاتطيق حمل الدرع والمغفر ، فقيل لها : أجئت للاستهزاء بالملك ، وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم ؟ خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها . فألقيت

إلى الفيل . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة ، إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على القاضى الأكبر ، الذى لا ينظر إلى الزى والمرقع ، بل إلى سر القلب

وفرقة أخرى زادت على هؤلاء فى الغرور ، إذ شق عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب ، والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ، ولم تجد بدا من التزين بزيهم ، فتركوا الحرير والإبريسم ، وطلبوا المرقعات النفيسة ، والفوط الرقيقة ، والسجادات المصبغة ، ولبسوا من الثياب ماهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد . فأما تقطيع الفوط الرقيقه قطعة قطعة ، وخياطة المرقعات منها ، فمن أين يشبه مااعتادوه ؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ؛ ويأكلون أموال السلاطين ، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة ، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير . وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق ، إذ يهلك من يقتدى بهم ، ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ، ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه ، فيطول اللسان فى الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاوزة المقامات والأحوال ؛ والملازمة فى عين الشهود ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامى والألفاظ ، لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين ، وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته ، والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة ، فيرددها كأنه يتكلم عن الوحى ، ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول فى العباد إنهم أجراء متعبون ويقول فى العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق ، وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى

الجاهلين ، لم يحكم قط علما ، ولم يهذب خلقا ، ولم يرتب عملا ، ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه

وفرقة أخرى وقعت فى الإباحة ، وطووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام . فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملى ، فلم أتعب نفسى ؟ وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا ، وذلك محال ، فقد كلفوا مالا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنما كلفوا قلع مادتهما ، بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لاوزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله ، وواصلة إلى معرفة الله ، وإنما نخوض فى الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لاتصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم السلام ، إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة ، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية . وأصناف غرور أهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لاتحصى . وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم ، صالح للاقتداء به ، وإحصاء أصنافهم يطول . وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء ، واجتنبت الأعمال ، وطلبت الحلال ، واشتغلت بتفقد القلب ، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد ، والتوكل ، والرضا ، والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات ، وشروطها وعلاماتها ، وآفاتها . فنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ، ويزعم أنه واله بالله ، ولعله قد تخيل فى الله خيالات هى بدعة أو كفر ، فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لايخلو عن مقارفة مايكره الله عز وجل ، وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله ، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى ، وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب

وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل ، فيخوض البوادى من غير زاد ، ليصحح دعوى

التوكل ، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة ،وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد . وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب، واثق به . وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور ، وقد اغتر به قوم . وقد ذكرنا مداخل الآفات فى ربع المنجيات من الكتاب ، فلا يمكن إعادتها

وفرقة أخرى ضيقت على نفسها فى أمر القوت، حتى طلبت منه الحلال الخالص ،وأهملوا تفقد القلب والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة . ومنهم من أهمل الحلال فى مطعمه، وملبسه، ومسكنه ، وأخذ يتعمق فى غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصى . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور

وفرقة أخرى ادعوا حسن الخلق ، والتواضع ، والسماحة ، فتصدوا لخدمة الصوفيه ، فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال . وإنما غرضهم التكبر، وهم يظهرون الخدمة والتواضع .وغرضهم الارتفاع ،وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية . ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات، وينفقون عليهم ،لتكثر أتباعهم ، وينشر بالخدمة اسمهم . وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق فى طريق الحج على الصوفية، ويزعم أن غرضه البر والإنفاق. وباعث جميعهم الرياء والسمعة . وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا، ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه . ومثال من ينفق الحرام فى طريق الحج لإرادة الخير، كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ، ويزعم أن قصده العمارة

وفرقة أخرى اشتغلوا بالمجاهدة ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفس من عيوبها ، وصاروا يتعمقون فيها ، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة ،فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس ، واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون هذا فى النفس عيب ، والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والإلتفات إلى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات فى تلفيقها . ومن جعل طول عمره فى التفتيش

عن عيوب وتحرير علم علاجها ، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج ، فذلك لا يغنيه . وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة . وابتدؤا سلوك الطريق ، وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشمموا من مبادى المعرفة رائحة تعجبوا منها ، وفرحوا بها ، وأعجبتهم غرابتها ، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها ، والتفكر فيها وفى كيفية انفتاح بابها عليهم ، وانسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور ، لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية . فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها ، قصرت خطاه ، وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا ، فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار ، لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك

وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء ، ولم يلتفتوا إلى مايفيض عليهم من الأنوار فى الطريق ، ولا إلى ماتيسر لهم من العطايا الجزيلة ، ولم يعرجوا على الفرح بها ، والالتفات إليها ، جادين فى السير حتى قاربوا ، فوصلوا إلى حد القربة إلى لله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله ، فوقفوا وغلطوا ، فإن لله تعالى سبعين حجابا من نور ، لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب فى الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول ابراهيم عليه السلام ، إذ قال الله تعالى إخبارا عنه (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى [1]) وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة ، فإنه كان يراها فى الصغر ، ويعلم أنها ليست آلهة ، وهى كثيرة وليست واحدا . والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله . فمثل ابراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذى لا يغر السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التى هى من حجب الله عز وجل ، وهى على طريق السالكين . ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهى حجب من نور بعضها أكبر من بعض ، وأصغر النيرات الكوكب ، فاستعير له لفظه ، وأعظمها الشمس ، وبينهما رتبة القمر . فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات ، حيث قال تعالى (وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [2]) يصل إلى نور بعد نور ، ويتخيل إليه فى أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا ، فيترقى إليه ويقول قد وصلت ، فيكشف له ما وراءه

(١) الأنعام : ٧٦ (٢) الأنعام : ٧٥ .

حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذى لاوصول إلا بعده ، فقال هذا أكبر . فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص ، والانحطاط عن ذروة الكمال قال لاأحب الآفلين ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض

وسالك هذه الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يغتر بالحجاب الأول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه . فإنه أيضا أمر ربانى ، وهو نور من أنوار الله تعالى ، أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى أنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به ، وتتجلى فيه صورة الكل . وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما ، إذ يظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه ، وهو فى أول الأمر محجوب بمشكاة هى كالساتر له ، فإذا تجلى نوره ، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ، وربما التفت صاحب القلب إلى القلب ، فيرى من جماله الفائق مايدهشه ، وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول : أنا الحق . فإن لم يتضح له ماوراء ذلك اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس . فهو مغرور . وهذا محل الالتباس . إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون مايتراءى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس مافى الزجاج بالزجاج ، كما قيل

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح ، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه ؛ فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء ، فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء ، فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور

وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله تعالى لاتحصى فى مجلدات ، ولاتستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لارخصة فى ذكره . ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الأولى تركه ، إذ السالك لهذا الطريق لايحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذى لم يسلكه لا ينتفع بسماعه ، بل ربما يستضر به ، إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم . ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذى هو فيه . بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله

بذهنه المختصر ،وخياله القاصر، وجدله المزخرف ،ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله. ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن، كما يكذب بما سمعه من قبل

الصنف الرابع أرباب الأموال . والمغترون منهم فرق

ففرقة منهم يحرضون على بناء المساجد ،والمدارس،والرباطات،والقناطر،وما يظهر للناس كافة ، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ، ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم . وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما :أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم ، والنهب ،والرشا ، والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها ، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها ، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها . فإذاً قد عصوا الله بكسبها ، فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله ، وردها إلى ملاكها ، إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز . فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة ، فإن لم يبق للمظلوم وارث ، فالواجب صرفها إلى أهم المصالح ،وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك ، خيفة من أن يظهر ذلك للناس . فيبنون الأبنية بالآجر ، وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء ، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها ، لا لبقاء الخير

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ، ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه ، لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه ، كتب اسمه أو لم يكتب . ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك

وفرقة أخرى ربما اكتسبت المال من الحلال ، وأنفقت على المساجد . وهي أيضا مغرورة من وجهين . أحدهما : الرياء وطلب الثناء ، فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء ، وصرف المال إليهم أهم ، وأفضل،وأولى،من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس

والثاني أنه يصرف إلى [1] زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش ، التي هي منهي عنها ،

---

(١) حديث النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش : البخاري من قول عمر بن الخطاب أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر

وشاغلة قلوب المصلين، ومختطفة أبصارهم ، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين، ويحبط ثوابهم بذلك ، ووبال ذلك كله يرجع إليه ، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ،ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى، وهو يظن أنه مطيع له، وممتثل لأمره، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد ، وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ،فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ، ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته ، إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى .

قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله . فكتبه الملكان عند الله صديقا . فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد . وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى . وقال الحواريون للمسيح عليه السلام : أنظر إلى هذا المسجد ما أحسنه ! فقال أمتي أمتي ، بحق أقول لكم ، لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله . إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا . وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة ، بها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ » وقال الحسن : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] لما أراد أن يبنى مسجد المدينة ، أتاه جبريل عليه السلام ، فقال له ابنه سبعة أذرع طولا في السماء ، لا تزخرفه ولا تنقشه . فغرور هذا من حيث إنه رأى المنكر معروفا واتكل عليه

وفرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ، ويكرهون التصدق في السر

---

(٢) حديث اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم: ابن المبارك في الزهد وأبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفا على أبي الدرداء

(٣) حديث الحسن مرسلا لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولا في السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه : لم أجده

ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج ، فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلاسبب ، يهون عليهم السفر ، ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه

وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث ، وقال قد عزمت على الحج ، فتأمرني بشيء ؟ فقال له كم أعددت للنفقة ؟ فقال ألفي درهم . قال بشر : فأي شيء تبتغي بحجك ، تزهدا ، أو اشتياقا إلى البيت ، أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال ابتغاء مرضاة الله . قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك ، وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضات الله تعالى ، أتفعل ذلك؟ قال نعم . قال اذهب فأعطها عشرة أنفس . مديون يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه . وإن قوي قلبك تعطيها واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام . قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك . فقال يا أبا نصر ، سفري أقوى في قلبي . فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له . المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات ، اقتضت النفس أن تقضي به وطرا ، فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين

وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار ، وقيام الليل وختم القرءان ، وهم مغرورون . لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية ، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين! ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغني كثير الصوم والصلاة . فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره . وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وفرقة أخرى غلبهم البخل ، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط . ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء ، الذى يرغبون عنه ، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة ، أو من لهم فيه على الجملة غرض . أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه ، لينال بذلك عنده منزلة ، فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ، ومحبطات للعمل ، وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر ، إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى . وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور

وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا ، وهم مغرورون . لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير . فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل . فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها . وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له . وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكى ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلم ، أو نعوذ بالله ، أو سبحان الله ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله ، وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغيرا يغير أفعالك ، حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك . فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ، ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس ، إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات

فأقول الإنسان إذا فترت همته فى شيء أظهر اليأس منه ، واستعظم الأمر ، واستوعر الطريق . وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل ، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق

فى الوصول إلى الغرض ، حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق فى جو السماء مع بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه. وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه . وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة فى البرارى والصحارى اقتنصها . وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها . وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعى ويعبث بها أخذها ، واستخرج الدرياق من أجوافها . وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه . وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك، وهو مستقر على الأرض . وكل ذلك باستنباط الحيل، وإعداد الآلات . فسخر الفرس للركوب ، والكلب للصيد ، وسخر البازى لاقتناص الطيور ، وهيأ الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى . كل ذلك لأن همه أمر دنياه ، وذلك معين له على دنياه . فلو أهمه أمر آخرته ، فليس عليه إلا شغل واحد. وهو تقويم قلبه. فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ، ومن الذى يقدر عليه وليس وذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ، ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته، وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها

فإن قلت : قد قربتَ الأمر فيه ، مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور ، فبم ينجو العبد من الغرور ؟ . فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والعلم ، والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لابد منها . أما العقل ، فأعنى به الفطرة الغريزية ، والنور الأصلى الذى به يدرك الإنسان حقائق الأشياء . فالفطنة والكيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة . والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور. فصفاء العقل، وذكاء الفهم، لابد منه فى أصل الفطرة فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « تَبَارَكَ اللهُ الَّذِي قَسَمَ الْعَقْلَ بَيْنَ عِبَادِهِ

(١) حديث تبارك الذى قسم العقل بين عباده ـ الحديث . الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلا وفى أوله قصة واسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبى حميد وهو ضعيف أيضا

أَشْتَاتًا إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَسْتَوِي عَمَلُهُمَا وَبِرُّهُمَا وَصَوْمُهُمَا وَصَلاتُهُمَا وَلَكِنَّهُمَا يَتَفَاوَتَانِ فِي الْعَقْلِ كَالذَّرَّةِ فِي جَنْبِ أُحُدٍ وَمَا قَسَمَ اللهُ لِخَلْقِهِ حَظًّا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْيَقِينِ »

وعن أبي الدرداء ، أنه قيل يارسول الله[1] أرأيت الرجل يصوم النهار ، ويقوم الليل ويحج ، ويعتمر ، ويتصدق ، ويغزو في سبيل الله ، ويعود المريض ، ويشبع الجنائز ، ويعين الضعيف ، ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة .فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ » وقال أنس : أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « كَيْفَ عَقْلُهُ ؟ » قالوا يارسول الله تقول من عبادته وفضله وخلقه. فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ فَإِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »

وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ، فإذا قالوا حسن ، قال « أَرْجُوهُ » وإن قالوا غير ذلك قال « لَنْ يَبْلُغَ » وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ » ؟ قالوا ليس بشيء . قال « لَنْ يَبْلُغَ صَاحِبُكُمْ حَيْثُ تَظُنُّونَ » فالذكاء صحيح ، وغريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة ، . فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدرك لها

الثاني المعرفة : وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة . فيعرف نفسه بالعبودية والذل ، وبكونه غريبا في هذا العالم ، وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه ، ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة ، وفي كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب التفكر ، وكتاب الشكر ،

---

(١) حديث أبي الدرداء أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ـ الحديث : وفيه انما يجزى على قدر عقله الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء

(٢) حديث أنس أثنى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله ـ الحديث : داود بن المحبر في كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم في العلم

(٣) حديث أبي الدرداء كان اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ـ الحديث : الترمذي الحكيم في النوادر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه

إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ، وإلى وصف جلال الله . ويحصل به التنبه على الجملة،وكمال المعرفة وراءه،فإن هذامن علوم المكاشفة،ولم نطنب فى هذا الكتاب إلا فى علوم المعاملة

وأما معرفة الدنيا والآخرة ، فيستعين عليها بما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ،ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة . فإذا عرف نفسه وربه ، وعرف الدنيا والآخرة ، ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها . ويصير أهم أموره مايوصله إلى الله تعالى ، وينفعه فى الآخرة . وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه ، صحت نيته فى الأمور كلها . فإن أكل مثلا ، أو اشتغل بقضاء الحاجة، كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، وصحت نيته ،واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض ، والنزوع إلى الدنيا ، والجاه ، والمال ، فإن ذلك هو المفسد للنية . وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى: فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه ، الصادرة عن كمال عقله ، فيحتاج إلى المعنى الثالث :وهو العلم،أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله . وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها ، وآفاتها فيتقيها ، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه . ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله، فإن المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق ، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه . ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها . فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور .وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ، ويسقط حب الدنيا منه ، حتى تقوى به الإرادة ، وتصح به النية . ولايحصل ذلك إلا بالمعرفة التى ذكرناها

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك ، فما الذى يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه إلى نصح الخلق ، ونشر العلم ، ودعوة الناس إلى ماعرفه من دين الله .

فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه ، وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات ، واستوى على الصراط المستقيم ، وصغرت الدنيا فى عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد ، وهو الله تعالى ، والتلذذ بذكره ومناجاته ، والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه ، إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه ، فيأتيه من جهة الدين ، ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله ، والشفقة على دينهم ، والنصح لهم ، والدعاء إلى الله . فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى فى أمرهم ، سكارى فى دينهم ، صما عميا ، قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب ، وأشرفوا على العطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم ، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ، ويرشدهم إلى سعادتهم ، وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ، ومؤنة ، ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه . وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره ، لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يتحرك ، ولا يتصرف ، لشدة ضربان الألم ، فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ، ولا تعب ، ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرىء وصح ، فطاب نومه بالليل بعد طول سهره ، وهدأ بالنهار بعد شدة القلق ، وطاب عيشه بعد نهاية الكدر ، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها ، وقد طال سهرهم ، واشتد قلقهم ، وارتفع إلى السماء أنينهم ، فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ، ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون ، وفى أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ، ولم يجد فسحة من نفسه فى التراخى عن الاشتغال بعلاجهم

فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق ، وشفى من أمراض القلوب ، شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم ، وأعضل داؤهم ، وقرب هلاكهم وإشفاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم ، وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة . فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة ، فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الدبيب فى قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق ، بتحسين الألفاظ ، والنغمات ، والحركات ، والتصنع فى الزى والهيئة فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك ، إذ رأوه شافيا

لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع ، فصار أحب إليهم من آبائهم، وأمهاتهم وأقاربهم ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له خولا كالعبيد والخدم ، فخدموه وقدموه في المحافل ، وحكموه على الملوك والسلاطين . فعند ذلك انتشر الطبع ، وارتاحت النفس ، وذاقت لذة يالها من لذة ، أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة ، وامتدت إلى قلبه يده ، فهو يستعمله في كل مايحفظ عليه تلك اللذة

وأمارة انتشار الطبع ، وركون النفس إلى الشيطان ، أنه لو أخطأ فرُدّ عليه بين يدى الخلق غضب . فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب ، بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك غضب لله ، لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله . فوقع في الغرور . فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه ، فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في الكبر الذى هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه ، بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات . وكذلك إذا سبقه الضحك ، أوفتر عن بعض الأوراد، جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله ، فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك ، والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله، فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور . بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لاتجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله ، وزاد أثر كلامه، في القبول على كلامه ، شق ذلك عليه . ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة ، لكان يغتنم ذلك . إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر ، وتغطي رأس البئر بحجر كبير ، فعجزوا عن الرقى من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه. فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر ، فشق عليه ، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه ، أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة ، إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر . فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار ، فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه . أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم ، أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه

إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك فى نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب، وفواحش الجوارح، وأهلكه، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى، ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء

فإن قلت: فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس

فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى، وكان يود لو وجد من يعينه، أو لو اهتدوا بأنفسهم، وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم؛ فاستوى عنده حمدهم وذمهم، فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم، ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة. وأما إلى البهائم، فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة فى قلوبهم، فإنه لا يبالى كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع. بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية، ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فما لم ير سائر الناس كالماشية التى لا يلتفت إلى نظرها، ولا يبالى بها، لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم ربما: يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق فى نفسه

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب

فأقول: قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم، وبطلت المعايش، وهلكت القلوب والأبدان جميعا. إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك، وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين، لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح، وذكر ما فى حب الدنيا من الخطر، ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التى سلطها الله على عباده، ليسوقهم بها إلى جهنم، تصديقا لقوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٢) ﴾ فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة

---

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة: البيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم فى كتاب ذم الدنيا

---

(٢) السجدة: ١٣

لحب الرياسة ، ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ لحب الرياسة حرام . كما لا يدع الخلق الشرب ، والزنا ، والسرقة ، والرياء ، والظلم ، وسائر المعاصى ، بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام . فانظر لنفسك . وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ، ولولا دفع الله الناس ، بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ، ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا ، فلا يكون ذلك أبدا

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان ، فاشتغل بنفسه وترك النصح ؛ اونصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه ، فما الذى يخاف عليه ؟ وما الذى بقى بين يديه من الأخطار وحبائل الأغترار ؟ . فاعلم أنه بقى عليه أعظمه ، وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتنى ، وأفلت منى بذكائك وكمال عقلك ، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك : فما أصبرك ، وما أعظم عند الله قدرك ومحلك ، إذ قواك على قهرى ، ومكنك من التفطن لجميع مداخل غرورى . فيصغى إليه ويصدقه ، ويعجب بنفسه فى فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور ، وهو المهلك الأكبر ، فالعجب أعظم من كل ذنب . ولذلك قال الشيطان . يا ابن آدم ، إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت منى ، فبجهلك قد وقعت فى حبائلى

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه ؛ وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل ، فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى ، فما الذى يخاف عليه بعد نفى العجب

فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله ، والثقة بكرمه ، والأمن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ، ولا يخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط ، دون أن يقارنه الخوف من مكره . ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا

بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ، ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه ، من حب دنيا ، ورياء ، وسوء خلق ، والتفات إلى عز

وهو غافل عنه . ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين ، غير آمن من مكر الله ، ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لامحيص عنه ، وخوف لانجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزع ، وكان قد بقى له نفس ، فقال : أفلت منى يافلان ، فقال لابعد .ولذلك قيل.الناس كلهم هلكى إلا العالمون.والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون،والمخلصون على خطر عظيم

فإذاً المغرور هالك ، والمخلص الفار من الغرور على خطر .فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا،فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة،فإن الأمور بخواتيمها

تم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربع المهلكات

ويتلوه فى أول ربع المنجيات كتاب التوبة،والحمد لله أولا وآخرا،وصلى الله على من لا نبى بعده ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

كتاب التوبة

كتاب التوبة

وهو الأول من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب ، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب

أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب الآدمى واجترم فهى سنشنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر عمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات ، والوجود والعدم . ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ماسبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين . فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان

فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ،واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان. والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما ، لايخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار

وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع ، وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وثمرتها ، والآفات المانعة منها ،والأدوية الميسرة لها . ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان .

الركن الأول : فى نفس التوبة ، وبيان حدها ،وحقيقتها ، وأنها واجبة على الفور ،وعلى جميع الأشخاص ، وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة

الركن الثانى : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر ،وما يتعلق بالعباد ، ومايتعلق بحق الله تعالى ، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر

الركن الثالث : فى بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك مامضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة

الركن الرابع : فى السبب الباعث على التوبة ،وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل

الركن الأول فى نفس التوبة

بيان

حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل فالعلم الأوّل ، والحال الثانى ، والفعل الثالث . والأوّل موجب للثانى ، والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت

أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب . فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، بيقين غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب . فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما . فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال ، وبالماضى ، وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال، فبالترك للذنب الذى كان ملابسا. وأما بالاستقبال ، فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضى، فبتلافى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات، وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين. فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك

فالعلم والندم ، والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال ، والتلافى للماضى ، ثلاثة معان مرتبة فى الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار

قال عليه الصلاة والسلام [١] « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » إذ لايخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره،وعن عزم يتبعه ويتلوه. فيكون الندم محفوفا بطرفيه ، أعنى ثمرته ومثمره . وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا . فإن هذا يعرض لمجرد الألم . ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لاينشعب . وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت، وأكل الحلال . وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة

والأقاويل فى حدود التوبة لاتنحصر . وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة،وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ماقيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها . وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة

بيان

وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار [٢] والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة . فالسالك إما أعمى لايستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه ، فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر ، وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة ، وقطع عقبات متعبة . ويشرق فى قلبه نور القرءان ونور الإيمان . وهو لشدة نور باطنه

---

(١) حديث الندم توبة : ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح اسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة : مسلم من حديث الأغر المزنى ياأيها الناس توبوا الى الله الحديث : ولابن ماجه من حديث جابر ياأيها الناس توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ـ الحديث : وسنده ضعيف

يحتزىء بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسه نار · فإذا مسته نار فهو نور على نور، يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول فى كل واقعة

فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة، فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهى، ثم إلى الوجوب مامعناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة، فلا يشك فى ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد، والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشىء وتركه؛ لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى. وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض. فإن مالا غرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه، فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه. فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أن لاسعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لامحالة، محول بينه وبين مايشتهى، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات، والأنس بهذا العالم الفانى، والإكباب على حب مالابد من فراقه قطعا، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم، والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وعلم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله، واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته، سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى. فلا يشك فى أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب. وإنما يتم الانصراف بالعلم، والندم، والعزم فإنه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم، ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق العبد. وما لم يتوجع فلا يرجع. ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك فى أن المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول إلى المحبوب. وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففى التقليد والاتباع له مجال رحب، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ فيه قول الله، وقول رسوله، وقول السلف الصالحين. فقد قال الله تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [1]) وهذا أمر على العموم. وقال الله تعالى

(1) النور: ٣١

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا [(١)]) الآية ، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [(٢)]) . وقال عليه السلام [(١)] « التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَاشَاءَ اللهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ فَاللهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ » وفى بعض الألفاظ قال من شدة فرحه ، إذ أراد شكر الله ، أنا ربك وأنت عبدى .

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام، هنأته الملائكة، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام . فقالا يا آدم ، قرت عينك بتوبة الله عليك . فقال آدم عليه السلام : ياجبريل ، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه ياآدم ، ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة . فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه ، لأنى قريب مجيب ياآدم ، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب. والأخبار والآثار فى ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل

---

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له: ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثانى دون الأول وأما الشطر الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف ان الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب

(٢) حديث لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزول فى أرض فلاة دوية مهلكة ـ الحديث: متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم فى حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصرا

(١) التحريم : ٨ (٢) التحريم ٨

فى وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة. ولا خلاف فى وجوبها

ومن معانيها ترك المعاصى فى الحال، والعزم على تركها فى الاستقبال، وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال، وذلك لايشك فى وجوبه وأما التندم على ماسبق، والتحزن عليه، فواجب. وهو روح التوبة، وبه تمام التلافى. فكيف لايكون واجبا! بل هو نوع ألم يحصل لامحالة، عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع فى سخط الله

فإن قلت: تألم القلب أمر ضرورى لايدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟

فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب. وله سبيل إلى تحصيل سببه. وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب، لابمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه، فإن ذلك محال. بل العلم، والندم، والفعل، والإرادة، والقدرة، والقادر، الكل من خلق الله وفعله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١) هذا هو الحق عند ذوى البصائر. وما سوى هذا ضلال

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار فى الفعل والترك؟ قلنا نعم: وذلك لايناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى. بل الاختيار أيضا من خلق الله. والعبد مضطر فى الاختيار الذى له. فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام فى المعدة، وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لامانع، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول. فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة، وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا، ولابد من حصوله عند تمام أسبابه. فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها، تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة. إذ بعد تمام الإرادة والقدرة، يكون حصول الفعل ضروريا، فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضا من خلق الله. وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة، والعلم بعدم الموانع، وهما أيضا من خلق الله تعالى. ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة

(١) الصافات: ٩٦

مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ، ومالم يخلق فيها حياة ، وما لم يخلق إرادة مجزومة . ولا يخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا فى النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس ، إما فى الحال أو فى المآل . ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم . فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبدا تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل . والكل من اختراع الله تعالى . ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض . فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم . فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة ، لأن الحياة تتولد من الجسم . ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم ، لأن العلم يتولد من الحياة . ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ، ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة ، لأن العلم يولد الإرادة . ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم . ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير ، لأن تغييره محال . فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف ، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد . ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب ، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب . والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة ، وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير . وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها . وعنه العبارة بقوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [1]) وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [2]) وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر . ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب ، بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة

فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير ، سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل ، قد تحركت ، ورميت ، وكتبت . و نودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت

(١) القمر : ٤٩ (٢) القمر : ٥٠

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [١]) وما قتلت إذ قتلت ، ولكن (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ [٢]) وعند هذا تتحير عقول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة ، فمن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب . ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت ، لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم ، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ، ولم يحط علمه بجوانبه . وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لايظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء . ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ، ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب ، انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لاخالق إلا الله ، ولا مبدع سواه

فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر ، والاختراع ، والكسب ، أنه صادق من وجه ، وهو مع صدقه قاصر ، وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل ، وما كانوا قط شاهدوا صورته ، ولا سمعوا اسمه . فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذى نقدر عليه . فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه . فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ، ووقع يد بعضهم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلما انصرفوا سألهم بقية العميان ، فاختلف أجوبتهم . فقال الذى لمس الرجل : إن الفيل ما هو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذى لمس الناب : ليس كما يقول ، بل هو صلب لا لين فيه ، وأملس لاخشونة فيه ، وليس فى غلظ الأسطوانة أصلا ، بل هو مثل عمود : وقال الذى لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولكن قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ،

(١) الانفال : ١٧ — (٢) التوبة : ١٤

ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل . ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده

وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة ، العلم ، والندم ، والترك ، وأن الندم داخل فى الوجوب ، لكونه واقعا فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد ، وإرادته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

بيان

أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الايمان ، وهو واجب على الفور . والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثا عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان . وهو المراد بقوله عليه السلام[١] « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وما أراد به نفى الايمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة، كالعلم بالله، ووحدانيته ، وصفاته ، وكتبه ، ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى . وإنما أراد به نفى الايمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى . موجبا للمقت . كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا . فالعاصى بالضرورة ناقص الايمان . وليس الايمان بابا واحدا ، بل هو نيف وسبعون بابا ، أعلاها شهادة ان لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل .

---

(١) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن : متفق عليه من حديث أبى هريرة .

ليس الإنسان موجودا واحدا ، بل هو نيف وسبعون موجودا ، أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص الشارب ، مقلوم الأظفار ، نقى البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها ، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها

وهذا مثال مطابق : فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة ، لا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت ، فتزايله الروح الضعيفة ، المنفردة ، التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصر فى الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة ، المحركة للإيمان فى مقدمة قدوم ملك الموت وورده . فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ، ولم تنتشر فى الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت ، وخيف عليه سوء الخاتمة ، لا ما يسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات ، حتى رسخ وثبت . وقول العاصى للمطيع إنى مؤمن كما أنك مؤمن ، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة . وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الإسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك ، وتتناثر أوراقك ، وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة ، مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة . وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة ، التى لا يثبت عليها إلا الأقلون . فالعاصى إذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته ، كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته . وإن الموت غالبا لا يقع فجأة ، فيقال له . الصحيح يخاف المرض ، ثم إذا مرض خاف الموت . وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار فالمعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج ، فيمرض دفعة ، ثم يموت دفعة . فكذلك المعاصى

فإذاً كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم ، وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك . وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ، ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة ، على سبيل الفور والمبادرة ، تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فمتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ، مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية ، التى فيها النعيم المقيم ، والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم ، والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبتة . فالبدار البدار إلى التوبة ، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ، ولا ينفع بعده الإحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ، ووعظ الواعظين ، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [1]) ولا يغرنك لفظ الإيمان فتقول . المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا ، وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن . فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الإيمان الذى هو أصل . كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هي حروف وفروع ، سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع . فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل ، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع . وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها

---

(1) يس : ٨ ، ٩ ، ١٠

فإن هي لم تعمل عملها الذي ترادله ، قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ، ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم

بيان

أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا ، إذ قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [1]) فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله ، المقرب إلى الشيطان . ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة ، والغضب ، وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان ، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين . وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار ، والنور والظلمة . ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل ، فقد سبق جند الشيطان ، واستولى على المكان ، ووقع للقلب به أنس ، وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة . وغلب ذلك عليه ، ويعسر عليه النزوع عنه . ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ، ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدريج ، فإن لم يقو ولم يكمل ، سلمت مملكة القلب للشيطان ، وأنجز اللعين موعده حيث قال (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً [2]) وإن كمل العقل وقوي ، كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ، ومفارقة العادات ، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات . ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق ، دليله الشهوة ، وخفيره الشيطان ، إلى طريق الله تعالى . وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله ، وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق

---

(١) النور : ٣١ (٢) الاسراء : ٦٢

إليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل إنسان ، نبيا كان أو غبيا ، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام . وقد قيل .

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس ، لايمكن فرض خلافه مالم تتبدل السنة الإلهية التى لامطمع فى تبديلها . فإذاً كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره . فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه ، غافلا عن حقيقة إسلامه ، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لايغنى عنه إسلام أبويه شيئا مالم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف ، بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والإطلاق ، والانفكاك ، والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الأكثرون ، إذ عجزوا عنه . وكل هذا رجوع وتوبة .

فدل أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص ، لايتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر ، كما لم يستغن آدم . فخلقة الولد لاتتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا

وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفى كل حال ، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . إذ لم يخلو عنه الأنبياء ، كما ورد فى القرءان والأخبار من خطايا الأنبياء ، وتوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب . فإن خلا فى بعض الأحوال عن الهم ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله . فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكل ذلك نقص ، وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون فى المقادير . فأما الأصل فلابد منه . ولهذا قال عليه السلام [1] « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً »

---

(١) حديث انه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة : مسلم من حديث الأغر المزنى الا أنه قال فى اليوم مائة مرة وكذا عند أبى داود وللبخارى من حديث أبى هريرة انى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفى رواية البيهقى فى الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم فى الأذكار والدعوات

الحديث.ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ [١]) وإذا كان هذا حاله ، فكيف حال غيره ؟

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصورَ عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ،وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال،والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع .فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟

فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدإ خلقته من اتباع الشهوات أصلا . وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى . وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه ، كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة . فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا، كما قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٢]) فإذا تراكم الرين صار طبعا ، فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه ، غاص في جرم الحديد وأفسده،وصار لا يقبل الصقل بعده ، وصار كالمطبوع من الخبث . ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب . كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات ،فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات . فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام [١] « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »

فإذا لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه، بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات. هذا في قلب حصل أولا صفاؤه وجلاؤه، ثم أظلم بأسباب عارضة.

---

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس

---

(١) الفتح : ٢ (٢) التطفيف : ١٤

فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ، إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدإ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة . فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا . وكل ذلك يرجع إلى التوبة

فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجبا ، بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع ، ويشترك فيه كافة الخلق ، وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ، ورفضوا الدنيا بالكلية . ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة ، والحراثة ، والخبز ، يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار

والواجب الثاني :هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين . والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه . كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع ، أي لمن يريدها ، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها . فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع ، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها . كما يقال العين، والأذن ، واليد ، والرجل ، شرط في وجود الإنسان . يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ، ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا . فأما من قنع بأصل الحياة ، ورضي أن يكون كلحم على وضم ، وكخرقة مطروحة ،فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ، ويد ، ورجل . فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة . وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي الحياة ، يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة ، وفيه سعي الأنبياء ، والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال : أما كنت تركت الدنيا للآخرة ؟ فقال نعم وما الذي حدث ؟ فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا ، فلم لا تضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر، ووضع رأسه على الأرض . وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم . أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة ؟

أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم [(1)] ، لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه ، [(2)] وشغله شراك نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلق ، لم يعلم أن ذلك ليس واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده ؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه ؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ؟

أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن ، وعلم أنه على غير وجهه ، أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه ، حتى كاد يخرج معه روحه ، ما علم من الفقه هذا القدر ، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ، ولا يجب فى فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر فى صدره ، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ؛ وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ؛ وبمكر الله ، وبمكامن الغرور بالله . وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور . فهذه أسرار من استنشق مبادى روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى ، فى كل نفس من أنفاسه ، ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة . ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال : لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة ، لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات . فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة ؛ وضاعت منه بغير فائدة ، بكى عليها لا محالة . وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه ، كان بكاؤه منها أشد . وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة ، لا خلف لها ، ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد ، وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها فى الغفلة ، فقد خسرت خسرانا مبينا . وإن صرفتها إلى معصية ، فقد هلكت هلاكا فاحشا . فإن كنت لا تبكى على هذه المصيبة ، فذلك لجهلك . ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة ،

---

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الذى كان عليه فى الصلاة : تقدم فى الصلاة أيضا

(٢) حديث نزعه الشراك الجديد واعادة الشراك الخلق : تقدم فى الصلاة أيضا

لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة . فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك

قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد، أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين . فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها ؛ على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه ، فلا يجد إليه سبيلا . وهو أول مايظهر من معانى قوله تعالى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ [١]) وإليه الإشارة بقوله تعالى(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا [٢]) فقيل الأجل القريب الذى يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : ياملك الموت ، أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب، وأتزود صالحا لنفسى فيقول : فنيت الأيام فلا يوم . فيقول : فأخرنى ساعة . فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة ، فيتغرغر بروحه ، وتتردد أنفاسه فى شر أسفه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال . فإذا زهقت نفسه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنى ، خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة . ولمثل هذا يقال (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [٣]) وقوله (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ [٤]) ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » ولذلك قال لقمان لابنه : يابنى لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف ، كان بين خطرين عظيمين . أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينا وطبعا ،

---

(١) سبأ : ٥٤ (٢) المنافقون : ١٠ ، ١١ (٣) النساء : ١٨ (٤) النساء : ١٧

فلا يقبل المحو ، الثانى :أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد فى الخبر [١] « إِنَّ أَكْثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ » فما هلك من هلك إلا بالتسويف . فيكون تسويده القلب نقدا ، وجلاؤه بالطاعة نسيئة ، إلى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم . ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده ، والعمر أمانة الله عنده . وكذا سائر أسباب الطاعة . فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته ، فأمره مخطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام . أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدى ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا ، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر إلىّ كيف تلقانى . والثانى :عند خروج روحه يقول : عبدى ، ماذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد ، فألقاك على الوفاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ [١]) وبقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ [٢])

بيان

أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول ، لم تشك فى أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة. فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرءان ، علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها . وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون .

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسويف : لم أجد له أصلا

(١) البقرة : ٤٠ (٢) المؤمنون : ٨

وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه . فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره . وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب ، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة . فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ، ويطهره ، ويزكيه . وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول . فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذى لا مرد له . وهو المسمى فلاحا فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [١])

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر ، أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا ، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة ، كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور ، كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا ، لا يتصور الجمع بينهما . فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ، ولم يعلق به إلا أسماؤه ، وقلبه فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين ، بل عن حقيقة نفسه ، وصفات نفسه . ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل . وأعنى به قلبه . إذ بقلبه يعرف غير قلبه . فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه!

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل ، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول . إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم : قد يقول باللسان تبت ، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظف الثوب أصلا ، ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد ، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا ، المعرضين عن الله بالكلية . فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة . ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات ، والأخبار ، والآثار . فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به . وقد قال تعالى (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ [٢]) وقال تعالى (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ [٣]) إلى غير ذلك من الآيات

(١) الشمس : ٩ (٢) الشورى : ٢٥ (٣) غافر : ٣

وقال صلى الله عليه وسلم « لَلّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم (١) «إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَوْ عَمِلْتُمُ الْخَطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدِمْتُمْ لَتَابَ اللّهُ عَلَيْكُمْ » وقال أيضا (٣) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ » فقيل كيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يَكُونُ نَصْبَ عَيْنِهِ تَائِباً مِنْهُ فَارًّا حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ »

ويروى (٥) أن حبشيا قال يارسول الله ، إني كنت أعمل الفواحش ، فهل لي من توبة؟ قال نَعَم . فولّى ثم رجع فقال : يارسول الله ، أكان يراني وأنا أعملها ؟ قال نَعَم . فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه . ويروى (٦) أن الله عز وجل لما لعن ابليس ، سأله النظرة

---

(١) حديث ان الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ـ الحديث : مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ـ الحديث : وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار ـ الحديث :

(٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم : ابن ماجه من حديث أبي هريرة واسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم

(٣) حديث ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة ان العبد ليذنب الذنب فاذا ذكره أحزنه فاذا نظر الله اليه أنه أحزنه غفر له ـ الحديث : وفيه صالح المري وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة من حديث ابن عمر ان الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي

(٤) حديث كفارة الذنب الندامة : أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو ابن مالك اليشكري ضعيف

(٥) حديث ان حبشيا قال يارسول الله اني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٦) حديث ان الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد ان الشيطان قال وعزتك يارب لاأزال أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لاأزال أغفر لهم مااستغفروني أورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يعزه الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا

فأنظره إلى يوم القيامة . فقال : وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى . وعزتى وجلالى لاحجبت عنه التوبة مادام الروح فيه . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يُذْهِبُ الْمَاءُ الْوَسَخَ » والأخبار فى هذا لا تحصى

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى(فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا[1]) فى الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم · وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها قلبه ، محيت عنه فى أم الكتاب ويروى أن نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أذنب ، فأوحى الله تعالى إليه ، وعزتى لئن عدت لأعذبنك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم تعصمنى لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس · ليتنى لم أوقعه فى الذنب . وقال حبيب بن ثابت . تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إنى قد كنت مشفقا منه ، قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب ، كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم . تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر ، وقول الله تعالى (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ[2]) فقال إنى لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا . ولقد بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبى مرسل ، أو كتاب منزل . إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين ، سقط عنه أسرع من طرفة عين · وقال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة ·

---

(١) حديث ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريبا

(١) الاسراء : ٢٥ (٢) الانفال ٣٨

بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل ومتى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة . أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لامحالة

ويروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته ، فساءه ذلك ، فقال : إلهى أطعتك عشرين سنة ، ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا . أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك

وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندما وحزنا : فجنوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عىّ ولا بكم ، وأنهم هم البلغاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت : وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرؤا صحيفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم فى العلا ، حتى أناخوا فى رياض النعيم ، وخاضوا فى بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ، ومعدن العز والكرامة . فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة فمقبوله لا محالة

فإن قلت : أفتقول ماقالته المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله

فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا مايريده القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس فى شىء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى . ولكن ماسبقت به إرادته

الأزلية فواجب كونه لامحالة . فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه ، فلم يشك فيه

فأقول :شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذى يشك فى دواء شربه للإسهال فى أنه هل يسهل ، وذلك لشكه فى حصول شروط الإسهال فى الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة ، وموجب للشك فى قبولها لامحالة ، على ما سيأتى فى شروطها إن شاء الله تعالى

الركن الثانى

فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة ، كان مالا يتوصل إليها إلا به واجبا . فمعرفة الذنوب إذاً واجبة . والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، فى ترك أو فعل . وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا . ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته

بيان

أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة ، على ماعرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله . ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة ، فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثرا من الآثار ، كما يقتضى السكر والخل ، والزعفران ، فى السكنجبين آثارا مختلفة

فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية ، فمثل الكبر ، والفخر ، والجبرية ، وحب

المدح ، والثناء ، والعز ، والغنى ، وحب دوام البقاء ، وطلب الاستعلاء على الكافة ، حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى . وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب ، غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا ، وهى المهلكات العظيمة ، التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى ، كما استقصيناه فى ربع المهلكات

الثانية : هى الصفة الشيطانية ، التى منها يتشعب الحسد ، والبغى ، والحيلة ، والخداع والأمر بالفساد والمنكر · وفيه يدخل الغش ، والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلال

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشره ، والكلب ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . ومنه يتشعب الزنا ، واللواط ، والسرقة وأكل مال الأيتام ، وجمع الحطام لأجل الشهوات

الرابعة : الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم ، والقتل ، واستهلاك الأموال . ويتفرع عنها جمل من الذنوب .

وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة ، فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع ، والمكر ، والحيلة ، وهى الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية ، وهى الفخر ، والعز ، والعلو ، وطلب الكبرياء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

فهذه أمهات للذنوب ومنابعها . ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء للناس . وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح — قسمة ثانية : —

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة ، والصوم ، والواجبات الخاصة به . وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة ، وقتله النفس ، وغصبه الأموال ، وشتمه الأعراض . وكل متناول من حق الغير فإما نفس ، أو طرف ، أو مال ، أو عرض ، أو دين ، أو جاه . وتناول الدين بالإغواء ، والدعاء إلى البدعة ، والترغيب فى المعاصى ، وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف ، وما يتعلق بالعباد ، فالأمر فيه أغلظ

وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا ، فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر (١) « الدَّوَاوِينُ ثَلَاثَةٌ دِيوَانٌ يُغْفَرُ وَدِيوَانٌ لَا يُغْفَرُ وَدِيوَانٌ لَا يُتْرَكُ فَالدِّيوَانُ الَّذِي يُغْفَرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ ،فَالشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَمَظَالِمُ الْعِبَادِ »أي لابد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها. قسمة ثالثة :ـ

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر . وقد كثر اختلاف الناس فيها .فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف .إذ قال تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (١))وقال تعالى(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ (٢))وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ يُكَفِّرْنَ مَا بَيْنَهُنَّ إِنِ اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ »وفي لفظ آخر « كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه (٣) عبد الله بن عمرو بن العاص « الْكَبَائِرُ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ »

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر ، من أربع ، إلى سبع ، إلى تسع ، إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود . هن أربع : وقال ابن عمر : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو . هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها ، كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ (٣)) فكل ما نهى الله عنه

---

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر ـ الحديث : أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة ابن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني

(٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر : مسلم من حديث أبي هريرة

(٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس : رواه البخاري

---

(١) النساء : ٣١ (٢) النجم : ٣٢ (٣) النساء : ٣١

فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى . الكبائر سبع عشرة ، جمعتها من جملة الأخبار (١) . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر

---

(١) الأخبار الواردة فى الكبائر حكى المصنف عن أبى طالب المكى أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى وسأذكر ما ورد منها مرفوعا وقد تقدم أربعة منها فى حديث عبد الله بن عمرو وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وماهى قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس إنما هى أربع لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا وفى الاوسط للطبرانى من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس باسناد حسن ان رجلا قال يارسول الله ما الكبائر قال الشرك بالله والاياس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما وله من حديث أبى هريرة الكبائر أولهن الاشراك بالله وفيه والانتقال إلى الاعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمتى ضعيف وللطبرانى فى الكبير من حديث سهل بن أبى حثمة فى الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الاعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الاشعرى ضعفه الدارقطنى وللحاكم من حديث عبيد ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبرانى من حديث واثلة ان من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل وله أيضا من حديثه ان من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبى داود من حديث سعيد ابن زيد من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وانه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ـ الحديث : ولأحمد فى هذه القصة من حديث أبى بكرة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث : ولأبى داود والترمذى من حديث

وغيرهم ، أربعة فى القلب ، وهى الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع فى اللسان ، وهى شهادة الزور ، وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلا ولوسواكا من أراك ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار ، والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة

وثلاث فى البطن ، وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنتان فى الفرج ، وهما الزنا واللواط .

واثنتان فى اليدين ، وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسد ، وهى عقوق الوالدين ، قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما . وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما . وإن يسباه فيضربهما . ويجوعان فلا يطعمهما

هذا ماقاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه . فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهى جناية على الأموال

انس عرضت على ذنوب أمتى فلم أردنبا أعظم من سورة من القرءان أوآية أوتيها رجل ثم نسيها سكت عليه أبوداود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبى شيبة فى التوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع اصرار وفيه أبوشيبة الخراسانى والحديث منكر يعرف به (وأما الموقوفات) فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الاشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم وروى ابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الاصرار واسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون الا أن بعضها لايصح اسناده كما تقدم وانما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ماورد فى المرفوع وماورد فى الموقوف وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هى إلى السبعين أقرب وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة والله أعلم

ولم يذكر فى كبائر النفوس إلا القتل . فأما فقء العين ، وقطع اليدين ، وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب ، فلم يتعرض له . وضرب اليتيم وتعذيبه ، وقطع أطرافه لاشك فى أنه أكبر من أكل ماله . كيف وفى الخبر « مِنَ الْكَبَائِرِ [1] السُّبَّتَانِ بِالسُّبَّةِ وَمِنَ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ » وهذا زائد على قذف المحصن. وقال [2] أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة . إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر

وقالت طائفة كل عَمْد كبيرة ، وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة : وكشف الغطاء عن هذا: أن نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة أم لا ، لا يصح، مالم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها . كقول القائل : السرقة حرام أم لا ، لا مطمع فى تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة . فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ، ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع . وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى مافوقه . فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ماتوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة . ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة . وله أن يطلق على ماأوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ماعجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيما ، وله أن يطلق على ماورد فى نص الكتاب النهى عنه ، فيقول تخصيصه بالذكر فى القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالإضافة . إذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها

فهذه الإطلاقات لا حرج فيها . ومانقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ،

---

(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم: عزاه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق كما تقدم

(٢) حديث أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة انكم تعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبزار بسند صحيح وقال من الموبقات بدل الكبائر ورواه البخارى من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد

ولا يبعد تنزيلها على شىء من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (١)) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » فإن هذا إثبات حكم الكبائر

والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم أنها معدودة فى الصغائر ، وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه : فالطمع فى معرفة حد حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول إنى أردت بالكبائر عشرا ، أو خمسا ، ويفصلها . فإن لم يرد هذا ، بل ورد فى بعض الألفاظ [١] ثلاث من الكبائر ، وفى بعضها [٢] سبع من الكبائر . ثم ورد أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع فى عدد مالم يعده الشرع ! وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها . نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته

وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا ، أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقائه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٢)) أى ليكونوا عبيدا لى . ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية . ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء . ولكن لا يتم هذا إلا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام [٣] « الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ »

---

(١) حديث ثلاث من الكبائر : الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا ـ الحديث : وقد تقدم

(٢) حديث سبع من الكبائر : طب فى الاوسط من حديث أبى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله فى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ـ الحديث : ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات

(٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة : لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلى فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته ـ الحديث : واسناده ضعيف

---

(١) النساء : ٣١ (٢) الذاريات : ٥٦

فصــــار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين ، لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئآن: النفوس والأموال. فكل مايسدباب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر، ويليه مايسدباب حياة النفوس، ويليه مايسد باب المعايش التي بها حياة النفوس، فهذه ثلاث مراتب

فحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضروري في مقصود الشرائع كلها . وهذه ثلاثة أمور لايتصور أن تختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هـذا أن الكبائر على ثلاث مراتب

الأولى : مايمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وهو الكفر . فلا كبيرة فوق الكفر . إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل. والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله . ويتلو الجهل الذي يسمى كفرا ، الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمته . فإن هذا أيضا عين الجهل . فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ، ولا أن يكون آيسا . ويتلو هذه الرتبة البدع كلها ، المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله . وبعضها أشد من بعض . وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه ، وبأفعاله، وشرائعه ، وبأوامره ، ونواهيه ومراتب ذلك لاتنحصر وهي تنقسم إلى مايعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرءان وإلى مايعلم أنه لايدخل ، وإلى مايشك فيه . وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع

المرتبة الثانية : النفوس . إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة ، وتحصل المعرفة بالله . فقتل النفس لامحالة من الكبائر ، وإن كان دون الكفر . لأن ذلك يصدم عين المقصود، وهذا يصدم وسيلة المقصود . إذ حياة الدنيا لاتراد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى

ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف ، وكل مايفضي إلى الهلاك ، حتى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض . ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود. وأما الزنا فإنه لايفوت أصل الوجود ، ولكن يشوش الأنساب ، ويبطل التوارث والتناصر

وجملة من الأمور التى لاينتظم العيش إلا بها . بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ، ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح . وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا يمنع أصله ، ولكنه يفوت تميز الأنساب ويحرك من الأسباب مايكاد يفضى إلى التقاتل . وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرته

المرتبة الثالثة : الأموال . فإنها معايش الخلق ، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا ، حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما . بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس . إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها ، وإن أكلت أمكن تغريمها . فليس يعظم الأمر فيها نعم : إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له ؛ فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق

أحدها : الخفية ، وهى السرقة . فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك ؟

الثانى : أكل مال اليتيم . وهذا أيضا من الخفية . وأعنى به فى حق الولى والقيم . فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لايعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة ، فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

الثالث : تفويتها بشهادة الزور

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس . فإن هذه طرق لايمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها

وأما أكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من الكبائر ، فأكل الربا أكل برضا المالك ، ولكن

دون رضا الشرع . وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر. وذلك واقع فى مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى ، القذف ،والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن يكون من الكبائر . وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا . لأن العقل محظوظ ، كما أن النفس محظوظة بل لا خير في النفس دون العقل . فإزالة العقل من الكبائر . ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر ، فلا شك فى أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة ، وإنما هو شربُ ماء نجس . والقطرة وحدها فى محل الشك . وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فللتوقف فيه مجال

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال فى الرتبة . ولتناولها مراتب : وأعظمها التناول بالقذف ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذى نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى ، فله أن يشهد ، ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا فى مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات . فإذاً هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع . فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أوظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر

وأما السحر ، فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس ، أو مرض ، أو غيره

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شىء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بغصب أموالهم، وإخراجهم من مساكنهم و بلادهم وإجلائهم من أوطانهم، ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ماقيل فيه، فالتوقف فى هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر

فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعنى بالكبيرة مالا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ماعلم أنه لاتكفره قطعا ، وإلى ما ينبغي أن تكفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذاً لامطمع فيه ، فطلب رفع الشك فيه محال

فإن قلت: فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها. فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده

فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هى دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لاحكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرهما . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ [1]) ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة . كمن يتمكن من امرأة ، ومن مواقعتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع ، أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه . فهذا معنى تكفيره . فإن كان عنينا ، أولم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من لا يشتهى الخمر بطبعه ، ولو أبيح له ماشربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هى

(١) النساء : ٣١

من مقدماته ، كسماع الملاهى والأوتار . نعم: من يشتهى الخمر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ، ويطلقها فى السماع ، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع

فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك، وتكون من المتشابهات ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ، ولم يرد النص بعد ، ولا حد جامع، بل ورد بألفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ إِشْرَاكٌ بِاللهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكْثُ الصَّفْقَةِ » قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة، ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لا محالة مبهما

فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطا فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ، ويلبس الديباج ، ويتختم بخاتم الذهب، ويشرب فى أوانى الذهب والفضة ، لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعى رضى الله عنه: إذا شرب الحنفى النبيذ حددته ، ولم أرد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يرد به الشهادة. فدل على أن الشهادة نفيا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر . بل كل الذنوب تقدح فى العدالة، إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات ، كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام ، وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأمور الآخرة ، ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك . ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده ، وبطلت الأحكام .

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفة ـ الحديث : الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد

والشهادات . ولبس لبس الحرير ، وسماع الملاهى ، واللعب بالنرد ، ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب ؛ والخلوة بالأجنبيات ، وأمثال هذه الصغائر من هذاالقبيل .فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها ، لاإلى الكبيرة والصغيرة

ثم آحاد هذه الصغائر التى لاترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة . كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواظبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر

بيان

كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت . وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت.فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فإنا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت . ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ [1]) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » وما سيكون فى اليقظة لايتبين لك فى النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لايتبين فى نوم الدنيا إلافى كثرة الأمثال . وأعنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن تؤذن فى رمضان

---

(١) حديث الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا : لم أجده مرفوعا وانما يعزى الى على بن أبي طالب

(١) العنكبوت : ٤٣

قبل طلوع الفجر . قال صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها ، فإنها أمك سبيت فى صغرك ، لأن الزيتون أصل الزيت ، فهو يرد إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سبيت فى صغره . وقال له آخر : رأيت كأنى أقلد الدر فى أعناق الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقا . وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقا ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذى يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم فى النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » وهو من المثال الذى لا يعقله إلا العالمون . فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال ، لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة فى النوم تعبيرا ، فيثبت لله تعالى يدا وأصبعا ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا

وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا

ومن ههنا زل من زل فى صفات إلهية ، حتى فى الكلام ، وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول

وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد ، بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم (٣) « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحَ » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ، ويستدل به على كذب الأنبياء

---

(١) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن : تقدم

(٢) حديث ان الله خلق آدم على صورته : تقدم

(٣) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح : متفق عليه من حديث أبى سعيد

ويقول : ياسبحان الله ، الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ [1]) ولا يدري المسكين أن من قال : رأيت في منامي أنه جيء بكبش ، وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد ، وذبح ، فقال المعبر : صدقت ، والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذن المعبر صادق في تصديقه ، وهو صادق في رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ ، عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال ، فكان مثاله صادقا ، وكان معناه صحيحا

فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا ، وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفا بعباده ، وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبوت المعاني فيها بواسطتها . ولذلك عبر القرآن بقوله (كُنْ فَيَكُونُ [2]) عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم ، بقوله « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » عن سرعة التقليب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات، فلنرجع الآن إلى الغرض

فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، لا يمكن إلا بضرب المثال ، فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته ، فنقول :

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر ، كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها . ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا ألبتة ، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له ، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات ، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول :

الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين

---

(١) العنكبوت : ٤٣ (٢) يس : ٨٢

وفائزين . ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلا ، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ؛ معانداً له فى أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقبة ، أو تنكيلا بالمثلة ، بحسب درجاتهم فى المعاندة ، وتعذيب المعذبين فى الخفة ، والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها ، بحسب درجات تقصيرهم

فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر . فكذلك فافهم أن الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحل فى دار السلامة ، ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحلون فى جنات عدن ، أو جنات المأوى أو جنات الفردوس . والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا ؛ وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة [1] ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد فى الخبر . وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم . وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى ، فلنذكر كيفية توزعها عليها

الرتبة الأولى : وهى رتبة الهالكين . ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معانى المثال . وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه . فإن السعادة الأخروية فى القرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التى يعبر عنها بالإيمان والتصديق . والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برب العالمين ،

---

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة : الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة

وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لامحالة ، وكل محجوب عن محبوبه فحول بينه و بين مايشتهيه لامحالة ، فهو لامحالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق . ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحور العين ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط . وقالوا : من يعبدالله بعوض فهو لئيم ، كأن يعبده لطلب جنته ، أو لخوف ناره . بل العارف يعبده لذاته ، فلا يطلب إلا ذاته فقط . فأما الحور العين والفواكه ، فقد لايشتهيها . وأما النار ، فقد لايتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام . فإن نار الفراق نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة . ونار جهنم لاشغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل

وفى فؤاد المحب نار جوى　　أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا ، فقد رؤى من غلب عليه الوجد فغدا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لايحس به لفرط غلبة مافى قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال ، فتصيبه جراحات وهو لايشعر بها فى الحال ، لأن الغضب نار فى القلب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « اَلْغَضَبُ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهلاك من النار والسيف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الأجسام . فالذى يفرق بين القلب و بين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلاما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لايدرك من لاقلب له شدة هذا الألم ، ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبى لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان ، و بين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ، ولم يعد ذاك ألما ، وقال . العدو فى الميدان مع الصولجان ، أحب إلىّ من الفسرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثر الهريسة والحلواء

---

(١) حديث الغضب قطعة من النار : الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم

وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا . وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها إلى القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب . وكما لا يكون الذوق إلا فى اللسان، والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب . فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ، ليس له لذة الألحان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . ولوكان لما صح قوله تعالى (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ[1]) فجعل من لم يتذكر بالقرءان مفلسا من القلب . ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر ، وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعا . ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى[2]) هو الأمير والملك ، لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

وعند ذلك يشم العبد مبادى روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين فى طريق تأويله وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر . فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهي حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا

ولنعد إلى الغرض ، فقد أرخينا الطول وطولنا النفس ، فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نوردها.

---

(١) ق : ٣٧ (٢) الاسراء : ٨٥

الرتبة الثانية : رتبة المعذبين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قولك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ [1]) وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا [2]) ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف فى الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل ، وذلك قادح فى كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . فذلك يقتضى لا محالة نقصانا فى درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن . فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقلته

وإذ لا يخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [3]) ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون ، وشككنا فى النجاة . ولما روى الحسن الخبر الوارد [1] فيمن يخرج من النار بعد ألف عام ، وأنه ينادى ياحنان يامنان قال الحسن : ياليتنى كنت ذلك الرجل

واعلم أن فى الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد . وإن الاختلاف بالشدة لا نهاية

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان : أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

(1) الأنعام : ٩١ (2) فصلت : ٣٠ (3) مريم : ٧١ ، ٧٢

لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ؛ ثم يعفو .وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب

ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع . إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط ، كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحريم ، وتعذيب الأقارب ،والضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة ، دل عليها قواطع الشرع .وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقلتها ، وكثرة السيئات وقلتها

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرته فبكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرءان بنور الإيمان ، وهو المعنىّ بقوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [١]) وبقوله تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ [٢]) وبقوله تعالى (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [٣]) وبقوله تعالى(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٤]) إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال. وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم [١] « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » وقال تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [٥]) فإذاً هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا، ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار

فنقول كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض، أعنى الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط . فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته . إذ ورد فى الأخبار أن الصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كفارات لما بينهن . وكذلك اجتناب الكبائر

---

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي : مسلم من حديث أبي هريرة

(١) فصلت : ٤٦ (٢) غافر : ١٧ (٣) النجم : ٣٩ (٤) الزلزال : ٧ ، ٨ (٥) النساء : ٤٠

بحـــكم نص القرءان مكفر للصغائر . وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب . وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغى أن يكون بعد ظهور الرجحان فى الميزان ، وبعد الفراغ من الحساب ، فى عيشة راضية . نعم : إلتحاقه بأصحاب اليمين ، أو بالمقربين ، ونزوله فى جنات عدن ، أو فى الفردس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدى كإيمان العوام ، يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفى يحصل بانشراح الصدر بنور الله ، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ماهو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله . فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملإ الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ، ومنهم من دونهم . وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لاتنحصر ، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ماسبق لهم من الله تعالى فى الأزل . فالطريق إلى الله تعالى لانهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم

وأما المؤمن إيمانا تقليديا من أصحاب اليمين . ودرجته دون درجة المقربين . وهم أيضا على درجات : فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر . وأدى الفرائض كلها ، أعنى الأركان الخمسة ، التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج

فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر ، أو أهمل بعض أركان الاسلام . فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب . لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ أصلا

وإن مات قبل التوبة ، فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال . والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة . وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان ، إلا أن يعفو الله ، عذابا يزيد على عذاب المناقشة

فى الحساب . وتكون كثرة العقاب من حيث المدة ، بحسب كثرة مدة الإصرار . ومن حيث الشدة ، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع ، بحسب اختلاف أصناف السيئات . وعند انقضاء مدة العذاب ، ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين . ففى الخبر (١) « آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشَرَةَ أَضْعَافٍ » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين ، أو عشرة بعشرين ، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال. بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير ، فأعطاه مائة دينار . فإن لم يفهم من المثل إلا المثل فى الوزن والثقل ، فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان ، والجمل فى الكفة الأخرى ، عشر عشيره . بل هو موازنة معانى الأجسام وأرواحها ، دون أشخاصها وهيا كلها ، فإن الجمل لا يقصد لثقله ، وطوله وعرضه ، ومساحته ، ، بل لماليته . فروحه المالية ، وجسمه اللحم والدم ، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية ، لا بالموازنة الجسمانية . وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة . بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال ، وقيمتها مائة دينار ، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا . ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون . فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر ، بل بفطنة أخرى وراء البصر . فلذلك يكذب به الصبي ، بل القروى والبدوى ، ويقول ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال ، فقد كذب فى قوله إنى أعطيته عشرة أمثاله . والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق . والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم (٢) « الْجَنَّةُ فِي السَّمٰوَاتِ » كما ورد فى الأخبار ، والسموات من الدنيا ،

---

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف : متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث كون الجنة فى السموات : خ من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن .

فكيف يـــكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ! وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة . وكذلك تفهيم البدوى .

وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبله فى تفهيم هذه الموازنة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) «ارْحَمُوا ثَلَاثَةً عَالِماً بَيْنَ الْجُهَّالِ وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ وَعَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ » والأنبياء مرحومون بـين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم ، وامتحان ، وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى ، وهو المعنى بقوله عليه السلام (٢) « الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ »

فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام ، وهو الذى ينزل بالبدن، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ،إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال (٣) « رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » فإذاً لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين . ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء ، بالإخراج من البلاد ، والسعاية بهم إلى السلاطين ،والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين . وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين

فإذا عرفت هذه الدقائق ، فآمن بقوله عليه السلام إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط ، فتكون حمارا برجلين، لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس، وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهى،

---

(١) حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال ـ الحديث : ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس الا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحترى واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين

(٢) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الاولياء ثم الأمثل فالأمثل :الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبرانى من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ـ الحديث

(٣) حديث رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر :البخارى من حديث ابن مسعود

عرض على السموات، والأرض، والجبال، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس، لا يصادف إلا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم. فمن ذهل عن ذلك، وعطله وأهمله، وقنع بدرجة البهائم، ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها، ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم: فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله إذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس. وكل من نسى الله أنساه الله لامحالة نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقى إلا الأفق الأعلى، وخان فى الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرضا لنقمته. إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها: وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها، إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهره المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة، إذ المرجع والمصير للكل إليه، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين. ولذلك قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ[1]) فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه، ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال، والنزول إلى منازل الجهال

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر. ولا يخرج من النار إلا موحد. ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لاإله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة، فلا ينفع إلا فى عالم الملك، فيدفع السيف عن رقبته، وأيدى الغانمين عن ماله. ومدة الرقبة والمال مدة الحياة. فحيث لا تبقى رقبة ولا مال، لا ينفع القول باللسان. وإنما ينفع الصدق فى التوحيد. وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه، إذ لا يرى الوسائط، وإنما يرى

(١) السجده: ١٢

مسبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال (١) « أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ » وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود . وأكثر مايدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذى لا يترك . فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها . فنى الأثر أن العبد ليوقف بين يدى الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سب عرض هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : ياربنا هذا قد فنيت حسناته ، وبقى طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته ، وصكوا له صكا إلى النار

وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص ، فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به . وقد حكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لا أفعل ، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى ، أريد أن أزين بها صحيفتى

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب ، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال . ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء ، وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة

---

(١) حديث آخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم

لهما أسباب خفية ، ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا ، وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية ، التى لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب : وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [1]) ولا قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ [2]) وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ماسعى وسعيه هو الذى يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله مابهم ، تحقيقا لقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [3] .)

وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا ، والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [4])

الرتبة الثالثة : رتبة الناجين . وأعنى بالنجاة السلامة فقط ، دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، فلا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ،

---

(١) فصلت : ٤٦ (٢) النساء : ٤٠ (٣) الرعد : ١١ (٤) النجم : ١١

ومقام بين المقامين، عبر الشرع عنه بالأعراف [١] وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار، ومن أنوار الاعتبار . فأما الحكم على العين، كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة، ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء، والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة، حتى قالت عائشة رضى الله عنها [٢] لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « وَمَا يُدْرِيكِ ؟ » فإذاً الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين . وهم العارفون دون المقلدين . وهم المقربون السابقون . فإن

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف: البزار من حديث أبى سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف وقال هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار ـ الحديث : وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية أبى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف والحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة ـ الحديث : وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبى عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر ـ الحديث : هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين

(٢) حديث عائشة انها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال مايدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار فى حق الصبيان متعارضة * قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فابراهيم عليه السلام واما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبرانى من حديثه سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الأسود بن سريع كنا فى غزاة لنا ـ الحديث : فى قتل الذرية وفيه ألا ان خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ـ الحديث : واسناده صحيح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة ـ الحديث : وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد الاعلى هذه الملة ولأبى داود فى آخر الحديث فقالوا يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث ثابت بن الحارث الأنصارى كانت يهود اذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله فى بطن أمه الا أنه شقى أوسعيد ـ الحديث : وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموؤدة فى النار وله من حديث عائشة قلت يارسول الله ذرارى المؤمنين

المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة، فهو من أصحاب اليمين. وهؤلاء هم المقربون. وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان . والقدر الممكن ذكره ما فصله القرءان ، فليس بعد بيان الله بيان والذى لا يمكن التعبير عنه فى هذا العالم . فهو الذى أجمله قوله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [1]) وقوله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يتصور أن تخطر على قلب بشر فى هذا العالم . وأما الحور ، والقصور ، والفاكهة واللبن ، والعسل والخمر ، والحلى والأساور ، فإنهم لا يحرصون عليها ، ولو أعطوها لم يقنعوا بها . ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم ، فهى غاية السعادات ، ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء سواه ، حتى عن أنفسهم . ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه. ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره ، وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه ، لا نفسه ولا غير نفسه . وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه ، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ، ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته ، فالدنيا حجاب على التحقيق ، وبرفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون

فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلطفه

فقال مع آبائهم فقلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث خديجة قلت يارسول الله أين أطفالى منك قال فى الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالى قبلك قال فى النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين واسناده منقطع بين عبد الله ابن الحارث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى أولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم

(1) السجدة : ١٧

بيان

ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » والأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره فى إظلام القلب

إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات . وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة . فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة . ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ، ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره

ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه، وكراهيته له . وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الإلف به، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب. والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة. وقد جاء فى الخبر (٢) « الْمُؤْمِنُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَالْمُنَافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَأَطَارَهُ »

وقال بعضهم: الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصى به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . لا تنظر إلى قلة الهدية ؛ وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار

---

(١) حديث خير الاعمال أدومها وإن قل :متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم

(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ـ الحديث : البخارى من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا

قال بعض العارفين . لاصغيرة ، بل كل مخالفةفهى كبيرة ؛ وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين . وإنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم مالايعظم من الجاهل، ويتجاوزعن العامى فى أمور لايتجاوز فى أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه . كما يقول . أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر فى مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبنته فى ماله ؟ وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها ، وظفر الشيطان به فى الحمل عليها ،فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ،لايرجى شفاؤه

ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما . فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به .فيكون ذلك لأمنه من مكر الله ، وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى(وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [1])

ومنها أن يأتى الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه فى مشهد غيره . فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه ،وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه،أو أشهده

وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يتبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقى فى الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا

---

(١) المجادلة : ٨

فعله . فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ، فغلظت به . فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه ، وتهيئة الأسباب له ، صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر . وفى الخبر [1] «كُلُّ النَّاسِ مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر . فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لاتذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين. ولذلك قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ [1]) وقال بعض السلف: ماانتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه

ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم ، وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى الأعراض وتعديه باللسان فى المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة . فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة . فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفى الخبر [2] « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » قال تعالى (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ [2]) والآثار مايلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق . وقال بعضهم . مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفى الإسرائيليات أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل فى الإصلاح دهرا . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟ . فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر ، فعليهم وظيفتان إحداهما : ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب، فكذلك

---

(١) حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كل أمتى وقد تقدم

(٢) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ـ الحديث : مسلم من حديث جرير بن عبدالله وقد تقدم فى آداب الكسب

---

(١) التوبة : ٦٧ (٢) يس : ١٢

يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا، وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق ،فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام. فيكون له مثل ثوابهم . وإن مال إلى التجمل ، مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الحطام من الحرام . ويكون هو السبب في جميع ذلك . فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها، إما بالربح ، وإما بالخسران: وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا. وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه . ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام . ولتمامها علامة، ولدوامها شروط. فلا بد من بيانها، أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم : فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب. وعلامته طول الحسرة، والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر. فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته، طال عليه مصيبته وبكاؤه. وأي عزيز أعز عليه من نفسه، وأي عقوبة أشد من النار، وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا، أن مرض ولده المريض لا يبرأ، وأنه سيموت منه؛ لطال في الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى، والتعرض بها للنار. فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلامة صحة الندم رقة القلب، وغزارة الدمع. وفي الخبر[1] « جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً »

ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها ،فيستبدل بالميل كراهية ، وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد ، بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال : وعزتي وجلالي ، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ماقبلت توبته ،وحلاوة ذلك الذنب الذي

---

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة : لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم الى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمعة وأرق قلبا

تاب منه فى قلبه . فإن قلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها

فأقول: من تناول عسلا كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق، واستلذه، ثم مرض وطال مرضه وألمه، وتناثر شعره، وفلجت أعضاؤه، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم، وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا ، فهو جحد المشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا ، لشبهه به : فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل ، وعمله عمل السم. ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة ، والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى، متهاونا بالذنوب، مصرا عليها. فهذا شرط تمام الندم. وينبغى أن يدوم إلى الموت . وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد ، مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه . ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى ، وذلك جار فى كل ذنب

وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى، وهو تدارك مافرط. وبالمستقبل، وهو دوام الطاعة، ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهرا شهرا ، ويوما يوما ، ونفسا نفسا . وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ، وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها . فإن كان قد ترك صلاة ، أو صلاها فى ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية. فيقضيها عن آخرها. فإن شك فى عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ، ويقضى الباقى . وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد . وأما الصوم ، فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه ، أو أفطر عمدا ، أو نسى النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ، ويشتغل بقضائه . وأما الزكاة : فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فإن الزكاة واجبة فى مال الصبى : فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته . فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه، بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية ، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى، فيقضى

جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلا. وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج ، فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج، والآن قد أفلس فعليه الخروج . فإن لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد . فإن لم يكن له كسب ولا مال ، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا. قال عليه السلام (١) « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا » والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصى، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه، وبصره ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها. فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم، وقعود فى مسجد مع الجنابة ، ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة، وشرب خمر وسماع ملاهٍ، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها. فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم (٢) « اتَّقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » بل من قوله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (١)) فيكفر سماع الملاهى بسماع القرءان وبمجالس الذكر. ويكفر القعود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة. ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرءان منه، وكثرة تقبيله، وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا. ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال، وهو أطيب منه وأحب إليه. وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة . فإن المرض يعالج بضده. فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة. وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق

---

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا ـ الحديث : : تقدم فى الحج

(٢) حديث اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذى من حديث أبى ذر وصححه وتقدم أوله فى آداب الكسب وبعضه فى أوائل التوبة وتقدم فى رياضة النفس

---

(١) هود : ١٤١

المحو ، فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات، وإن كان ذلك أيضا مؤثرا فى المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها، والحنين إليها. فلاجرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم. قال صلى الله عليه وسلم[1] « مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهُمُومُ » وفى لفظ آخر « إِلَّا الْهَمُّ بِطَلَبِ الْمَعِيشَةِ » وفى حديث عائشة رضى الله عنها[2] « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ تُكَفِّرُهَا أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْهُمُومَ فَتَكُونُ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ » ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لا يعرفه، هو ظلمة الذنوب والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع : فإن قلت: هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه، وهو خطيئة، فكيف يكون كفارة؟

فاعلم أن الحب له خطيئة، والحرمان عنه كفارة. ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام، دخل على يوسف عليه السلام فى السجن، فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى، قال فما له عند الله؟ قال أجر مائة شهيد فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا . فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله فى المستقبل، والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها. فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله. ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء، إذ العبد مفقود لنفسه، موجود لسيده. والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه. فيقابل الإعدام بالإيجاد. وبهذا تعرف أن ماذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه، مالم يخرج عن مظالم العباد. ومظالم العباد إما فى النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو القلوب. أعنى به الإيذاء

---

(١) حديث من الذنوب ذنوب لايكفرها الاالهموم وفى لفظ آخر الاالهم فى طلب المعيشة : طس وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وتقدم فى النكاح

(٢) حديث اذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم :تقدم أيضا فى النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن

المحض . أما النفوس، فإن جرى عليه قتل خطأ. فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما أو من عاقلته. وهو في عهدة ذلك قبل الوصول: وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص. فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولى الدم، ويحكمه في روحه، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء قتله. ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء. وليس هذا كما لو زنى، أو شرب، أو سرق، أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب. فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين. فإن رفع أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد، وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ماروى (١) أن ماعز بن مالك، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. يارسول الله، إنى قد ظلمت نفسي وزنيت، وإنى أريد أن تطهرنى. فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يارسول الله إنى قد زنيت. فرده الثانية. فلما كان في الثالثة، أمر به فحفر له حفرة، ثم أمر به فرجم. فكان الناس فيه فريقين. فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته. وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ » (٢) وجاءت الغامدية فقالت يارسول الله، إنى قد زنيت فطهرنى. فردها. فلما كان من الغد قالت يارسول، لم تردنى؟ لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعزا. فوالله إنى لحبلى. فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَّا الآنَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَضَعِي » فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة. فقالت هذا قد ولدته. قال « اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز، فقالت يا نبي الله، قد فطمته. وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد ابن الوليد بحجر، فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجهه، فسبها. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال « مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وأما القصاص وحد القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان المتناول مالا تناوله

---

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة ـ الحديث: مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم لقد تابت توبة ـ الحديث : مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله

بغصب، أو خيانة، أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس، كترويج زائف، أو ستر عيب من المبيع، أو نقص أجرة أجير، أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه، بل من أول مدة وجوده. فإن ما يجب فى مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ، إن كان الولى قد قصر فيه . فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبي والبالغ. وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته. قبل أن يحاسب فى القيامة: وليناقش قبل أن يناقش. فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه. فإن حصل بمجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا، وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم، وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم. وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم. ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه . فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات، حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمّل من سيآت أرباب المظالم؛ فيهلك بسيآت غيره

فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم. وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم. فكيف ذلك مما لا يعرف، وربما يكون الأجل قريبا فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق، أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته . أما أمواله الحاضرة. فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا. وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به. فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام . وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم فى الغيبة. فيطلب كل من تعرض له بلسانه، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحدا واحدا منهم. ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضا فى القيامة. وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه، فذلك كفارته. وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له. فالاستحلال المبهم لا يكفى. وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال، وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته، أو يحمله من سيئاته. فإن كان فى جملة جناياته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته، كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه، يعظم أذاه مهما شوفه به، فقد انسد عليه طريق

الاستحلال،فليس له إلا أن يستحل منها ، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات، كما يجبر مظلمة الميت والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته، وعرفه المجني عليه،فلم تسمح نفسه بالاستحلال، بقيت المظلمة عليه،فإن هذا حقه. فعليه أن يتلطف به ،ويسعى في مهماته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه،فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة.فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه،سمحت نفسه بالإحلال بإ ..أبى إلا الإصرار،فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته .ولكن قدر سعيه في فرحه ،وسرور قلبه بتودده وتلطفه، كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر،أو زاد عليه.أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه .كمن أتلف في الدنيا مالا،فجاء بمثله،فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء،فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى.فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين،وأعدل المقسطين : وفي المتفق عليه من الصحيحين،عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال [1] « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَماً بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ » وفي رواية « فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا » وفي رواية « فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ »

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الارض ـ الحديث : هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد

فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة . فلا بد للتائب من تكثير الحسنات، هذا حكم القصد المتعلق بالماضى

وأما العزم المرتبط بالاستقبال ، فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا، ويعاهده بعهد وثيق ، أن لا يعود إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها . كالذى يعلم فى مرضه أن الفاكهة تضره مثلا . فيعزم عزما جزما أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه . فإن هذا العزم يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال . ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه فى الحال . ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره إلا بالعزلة، والصمت وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوت حلال . فإن كان له مال موروث حلال، أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية ، فليقتصر عليه . فإن رأس المعاصى أكل الحرام . فكيف يكون تائبا مع الإصرار عليه ! . ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات فى المأكولات والملبوسات . وقد قال بعضهم : من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار ، لم يبتل بها وقال آخر : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما ، أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل . وما يحرم عليه ، حتى يمكنه الاستقامة . وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا، وليست هذه توبة مطلقة . وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح . وقال قائلون : تصح . ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل . بل نقول لمن قال لا تصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا ، بل وجوده كعدمه . فما أعظم خطأك : فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب، وقلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل إلى النجاة أو الفوز ، فهذا أيضا خطأ . بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر . ولسنا نتكلم فى خفايا أسرار عفو الله

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح : إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم : وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية ، لا لكونها سرقة . ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية، فإن العلة شاملة لهما، إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن توجعه بفوات محبوبه، سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه ، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا، فكيف يتوجع على البعض دون البعض، فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية . فلا يتصور أن

يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا الجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر ، فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية فى الخمرين واحد، وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذاً معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ، ولا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول تقول إن العقد لا يصح، لم تترتب عليه الثمرة وهو أى الملك . وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه ، وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة ، بل الندم عليها. ولا يتصوّر الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى

وهو كلام مفهوم واقع ، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر ، فأمر ممكن. لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله، وأجلب لسخط الله ومقته. والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه . كالذى يجنى على أهل الملك وحرمه، ويجنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل ، مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده فى الشرع . فقد كثر التائبون فى الأعصار الخالية، ولم يكن أحد منهم معصوما . فلا تستدعى التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ، ويحذره السكر تحذيرا أخف منه، على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر . فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته، ندم على أكل العسل دون السكر ، الثانى : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن. لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله. كالذى يتوب عن القتل، والنهب، والظلم ومظالم العباد، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك ، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه. فهذا أيضا ممكن، كما فى تفاوت الكبائر والصغائر. لأن الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها. ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لا يدرى . فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف، يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى . الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر ، وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة .

كالذى يتوب عن الغيبة، او عن النظر إلى غير المحرم، أو ما يجرى مجراه، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه، و نادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا، ولـكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجودا، ولـكن لا يكون مليا بتحريك العزم، ولا قويا عليه. فإن سلم عن شهوة أقوى منه، بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف، قهر الخوف الشهوة وغلبها، وأوجب ذلك ترك المعصية. وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر، فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة مّا بالغيبة، وثلب الناس، والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية. فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك، بل يقول هذا الفاسق فى نفسه. إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى، فلا ينبغى أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية، بل أجاهده فى بعض المعاصى، فعسانى أغلبه، فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى. ولو لم يتصور هذا لما تُصور من الفاسق أن يصلى ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله، فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى، مالم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول. لله تعالى علىّ أمران، ولى على المخالفة فيها عقوبتان. وأنا ملىٌّ فى أحدهما بقهر الشيطان، عاجز عنه فى الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى. فكيف لا يتصور هذا، وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا. وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها. والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم، والندم يورث العزم. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » ولم يشترط الندم على كل ذنب. وقال « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ » ولم يقل التائب من الذنوب كلها

وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل: إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة، لأنها متماثلة فى حق الشهوة، وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ، لتفاوتهما فى اقتضاء السخط. ويتوب عن الكثير دون القليل، لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه، ويترك بعض شهوته لله تعالى. كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة، فإنه قد يتناول قليلها، ولـكن لا يستكثر منها. فقد يحصل من

هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لابد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقى عليه. إما في شدة المعصية وأما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب، تصور اختلاف حاله في الخوف والندم؛ فيتصور اختلاف حاله في الترك، فندمه على ذلك الذنب، ووفاؤه بعزمه على الترك، يلحقه بمن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهى . فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا. لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله· وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه. ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فإنى أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه، وماحيا عنه سيئته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة، ومات عقيب التوبة، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة. وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغا مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده . فإذاً لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه. فإن كل من لا يشتهى شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف. والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه. بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين: أحدهما حرقة الندم، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة. ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة، يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة. وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا . فإن قلت : إذا فرضنا تائبين، أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب ؛ والآخر بقى في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها. فأيهما أفضل؟

فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه. فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى: إن المجاهد أفضل، لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل، لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة. والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان

إحداهما : أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا. إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه، واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوة اليقين،

وعلى قوة الدين . وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا . وقول القائل إن هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب، فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل ، لأنه فى أمن من خطر الشهوة والصبى أفضل من البالغ، لأنه أسلم . والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه، لأن المفلس لا عدو له، والملك ربما يُغلب مرة وإن غلب مرات . وهذا كلام رجل سليم القلب، قاصر النظر على الظواهر، غير عالم بأن العز فى الأخطار، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل هو كقول القائل: الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب، أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه ، فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه . وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالما بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد

الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة . إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة، حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين . وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصودا لعينه . بل المقصود قطع ضراوة العدوّ ، حتى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين . فإذا قهرته وحصلت المقصود، فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة ، فأنت بعد فى طلب الظفر . ومثاله كمثال من قهر العدوّ واسترقه، بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال، ولا يدرى كيف يسلم . ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل فى هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه، فقال هذا محال، فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة، واسترسل فى اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس

من ربع المهلكات . فإن قلت: فما قولك فى تائبين،أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه ، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه، فأيهما أفضل؟

فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه. فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا حق ، ولكن بالإضافة إلى حالين. وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط، ولا يهمه حال غيره، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه، لا يهمه أمر غيره .إذ طريقه إلى الله نفسه، ومنازله أحواله .وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم. فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، مع الاشتراك فى أصل الهداية .فأقول : تصوّر الذنب وذكره والتفجع عليه، كمال فى حق المبتدىء .لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه، فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله .فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان. فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق. بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك. فإن ظهر له مبادى الوصول ، وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب ،استغرقه ذلك، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله ،وهو الكمال، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز، طال تعب المسافر فى عبوره مدة ،من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل .فلو جلس على شاطىء النهر بعد عبوره ،يبكى متأسفا على تخريبه الجسر ،كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل، بأن كان ليلا فتعذر السلوك ،أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يعبرها ،فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ، ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله . فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله ، فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه . وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق، والمقصد، والعائق، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه فى كتاب العلم، وفى ربع المهلكات . بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته . ولكن إن كان شابا ،فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور .فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ،فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغى أن

يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط . فذلك لا نظير له فى الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة . فالمبتدى أيضا قد يستضر به . فيكون النسيان أفضل له عند ذلك

ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود و نياحته عليه السلام فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس فى غاية الاعوجاج، لأنهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته ، و إن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم . فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة و تأديب النفس تسهيلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَمَا إِنِّى لَا أَنْسَى و لَكِنِّى أُنْسَى لِأَشْرَعَ » وفى لفظ « إِنَّمَا أَسْهُو لِأَسُنَّ » . ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم فى كنف شفقة الأنبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء، وكالمواشى فى كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبى ، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبى، كما قال صلى الله عليه وسلم [2] للحسن « كِخْ كِخْ » لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه . وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه التمرة فإنها حرام . ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ، ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته . بل الذى يعلّم شاة أو طائرا، يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر، تلطفا فى تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق ، فإنها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه و كرمه

---

(١) حديث أما إنى لا أنسى ولكن أنسى لأشرع : ذكره مالك بلاغا بغير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد فى الموطأ إلا مرسلا لا اسناد له وكذا قال حمزة الكنانى إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الانماطى وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للائمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا

(٢) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها فى فيه : البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى كتاب الحلال والحرام

كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الثانى عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى ـ القاهرة ت. ٢١٨١٠

بيان

أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره . فيتدارك مافرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لاينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة . فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة ، التى ترجع إلى ربها راضية مرضية . وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِفَافًا » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم.

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ، ففتر نزاعها ، ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لاينفك عن منازعة النفس ، ولكنه ملى بمجاهدتها وردها .

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته، يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ، ومن ممهل طال جهاده وصبره . وتمادت استقامته وكثرت حسناته ، وحال هذا أعلى وأفضل ، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة ،حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات ، مع صدق الشهوة ، ثم يصبر عنه ،ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى . واشتراط هذا بعيد ، وإن كان لاينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لاينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق ، فتهيج الشهوة ، وتحضر الأسباب حتى يتمكن ، ثم يطمع فى الانكفاف ، فإنه لايؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره ، فيقدم على المعصية ، وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له ، حتى

---

(١) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم

يسد طرقها على نفسه ،ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه،فبه تسلم توبته فى الابتداء

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات ،وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد وتجريد قصد ، ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله ، من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها . ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف ، وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هى النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ماتستهدف له من الأحوال الذميمة ، لاعن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد . وهذه أيضا رتبة عالية ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى . وهى أغلب أحوال التائبين . لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه . وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح كفة الحسنات . فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات ، فذلك فى غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى ، إذ قال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ [1])

فكل إلمام يقع بصغيرة ، لاعن توطين نفسه عليه ،فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ [2]) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عنه علىّ كرم الله وجهه [1] « خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ » وفى خبر آخر [2] « الْمُؤْمِنُ كَالسُّنْبُلَةِ يَفِيءُ أَحْيَانًا وَيَمِيلُ أَحْيَانًا » وفى الخبر [3] « لَابُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ » أى الحين بعد الحين

---

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب :البيهقى فى الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا وتميل أحيانا : أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا تقدم بدل تفيء . وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس

(٣) حديث لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبرانى : والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة

---

(١) النجم : ٣٢ (٢) آل عمران : ١٣٥

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين ، كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة ، عما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى، من غير مداومة واستمرار . وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء ، بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات ، بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات . قال النبى صلى الله عليه وسلم[1] « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءُونَ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ » وقال أيضا[2] « الْمُؤْمِنُ وَاهٍ رَاقِعٌ * فَخَيْرُهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَى رَقْعِهِ » أى واه بالذنوب، رافع بالتوبة والندم. وقال تعالى (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ[1]) فما وصفهم بعدم السيئة أصلا

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها ، وكفاه شرها. هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول . ليتنى لم أفعله ، وسأتوب عنه ، وأجاهد نفسى فى قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى ، ويوما بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا[2]) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث

---

(١) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون : الترمذى واستغربه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون * قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى

(١) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه : الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا فسعيد بدل فخيرهم

* راقع : أى يهى دينه بمعصيته ويرقعه بتوبته من رقعت الثوب إذا رقته

(١) القصص : ٥٤ (٢) التوبة : ١٠٢

تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره في المشيئة : فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة ، التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ماسبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء في حقه . وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل ، دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين .فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات؛ بحكم تقدير مسبب الأسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس ، الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا ، بترك الكسل ، والمواظبة على تفقيه النفس . فكما لا يصلح لمنصب الرياسة ، والقضاء ، والتقدم بالعلم ، إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ، ولا للقرب من رب العالمين ، إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [1]) فمهما وقع العبد في ذنب ، فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا »

فإذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ماقبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به ،فليراقب الأنفاس، وإلا وقع في المحذور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله . بل ينهمك انهماك

---

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

---

(١) الشمس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

الغافل فى اتباع شهواته . فهذا من جملة المصرين . وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير . ويخاف على هذا سوء الخاتمة ، وأمره فى مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده ، وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز فى المواضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من اتجر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له . فالناس كلهم محرومون إلا العالمون ، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون ، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

وكما أن من خرب بيته وضيع ماله ، وترك نفسه وعياله جياعا ، يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب ، يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنوب ، غير سالك سبيل المغفرة ، يعدّ عند أرباب القلوب من المتوهين

والعجب من عقل هذا المعتوه ، وترويجه حماقته فى صيغة حسنة ، إذ يقول . إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثلى ، ومعصيتى ليست تضره . ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك ، فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستجمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ، ويقول . ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل

لمافيهما جميعا . وأنه قدأخبر إذ قال (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّمَا سَعَى [١]) فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا . وكيف يقول . ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ، ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد فى الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الأمر فى الدنيا . وينسى قوله تعالى (وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [٢])

فنعوذ بالله من العمى والضلال. فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس ،وانغماس فى ظلمات الجهل : وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوارُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً [٣])أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى [٤]) فارجعنا نسعى.وعندذلك لا يمكن من الانقلاب ،ويحق عليه العذاب:فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب

بيان

ما ينبغى أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة ، والندم ، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده ، كما ذكرنا طريقه . فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى ، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها ،فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ،فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب ، وإما باللسان، وإما بالجوارح . ولتكن الحسنة فى محل السيئة ، وفيما يتعلق بأسبابها

فأما بالقلب ، فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ،ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد . وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين ، والعزم على الطاعات

(١،٤) النجم : ٣٩ (٢) الذاريات : ٢٢ (٣) السجدة : ١٢

وأما باللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول رب ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى ذنوبى . وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ، كما أوردناه فى كتاب الدعوات والأذكار

وأما بالجوارح ، فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات . وفى الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا . أربعة من أعمال القلوب ، وهى التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهى أن تصلى عقيب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله بعدهما سبعين مرة ، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما . وفى بعض الآثار [١] : تسبغ الوضوء ، وتدخل المسجد وتصلى ركعتين .

وفى بعض الأخبار [٢] : تصلى أربع ركعات . وفى الخبر [٣] « إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تُكَفِّرْهَا السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةُ بِالْعَلاَنِيَةِ » ولذلك قيل : صدقة السر تكفر ذنوب الليل ، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار .

وفى الخبر الصحيح ، [٤] أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنى عالجت امرأة

---

(١) أثران من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين: أصحاب السنن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالأثر لارادة الموقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابى

(٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات : ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ـ الحديث : وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفى النهار الآية وأسناده جيد

(٣) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها لسر بالسر والعلانية بالعلانية: البيهقى فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر ـ الحديث :

(٤) حديث أن رجلا قال يارسول الله إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شىء إلا المسيس ـ الحديث: فى نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أوما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبى أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم ـ الحديث :

فأصبت منها كل شيء إلا المسيس . فاقض عليّ بحكم الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم « أَوَ مَاصَلَّيْتَ مَعَنَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ » قال بلى . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة . إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلاَّ الْكَبَائِرَ »

فعلى الأحوال كلها ، ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ، ويجمع سيئاته ، ويجتهد فى دفعها بالحسنات.

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفى الخبر[1] « الْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِيءِ بِآيَاتِ اللهِ » وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولى أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير

فاعلم : أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، ذكرناها فى كتاب الأذكار والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[1]) فكان بعض الصحابة[2] يقول : كان لنا أمانان ، ذهب أحدهما. وهو كون الرسول فينا ، وبقى الاستغفار معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذى هو توبة الكذابين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون للقلب فيه شركة . كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة · أستغفر الله . وكما يقول إذا سمع صفة النار . نعوذ بالله منها . من غير أن يتأثر به قلبه . وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ، ولا جدوى له . فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وابتهاله فى سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة ، فهذه حسنة فى نفسها ، فتصلح

---

(١) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله : ابن أبى الدنيا فى التوبة من طريقه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزىء بربه وسنده ضعيف

(٢) حديث بعض الصحابة فى قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبى موسى الأشعرى ورفعه الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين ـ الحديث: وصححه وابن مردويه فى تفسيره من قول ابن عباس

---

(١) الانفال : ٣٣

لأن تدفع بها السيئة . وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار . حتى قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وأوائلها لاتخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لابد للعبد فى كل حال من مولاه . فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شيء : فإن عصى قال يارب استر عليّ . فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب عليّ . فإذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة . وإذا عمل قال يارب تقبل منى .

وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة . فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب . والتوبة إقباله على مولاه ، بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم الفكر ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ثم محادثة السر ، وهو الخلة . ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتوكل صاحبه . ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش

وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ » فقال . إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ماذكر فى قوله تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ [١]) الآية ـ وقال . الحبيب هو الذى لايدخل فيما يكرهه حبيبه

والمقصود أن للتوبة ثمرتين . إحداهما تكفير السيئات ، حتى يصير كمن لاذنب له والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتدارك بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات : فليس يخلو عن الفائدة أصلا . فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لاريب فيها ، أن قول الله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [٢]) صدق

---

(١) حديث ماأصر من استغفر ـ الحديث : تقدم فى الدعوات

---

[١] التوبة : ١١٢ [٢] الزلزلة : ٧

وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات . وذلك بالضرورة محال . بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المتوهمة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة

فإذاً التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا . بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة . إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم ، أو فضول كلام . بل هو خير من السكوت عنه . فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه . وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرءان وقلبى غافل، فقال: اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك فى الخير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق . فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع ، يدفع جملة من المعاصى . فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول، سبق لسانه إلى قول : ما أحمقك، وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة إذا حُدِّث بظهور مبادىء الشر من شرير ، قال بحكم سبق اللسان . نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنه الله . فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى . وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى (إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [1]) ومعانى قوله تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [2]) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات : وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون

---

(١) التوبة: ١٢٠ (٢) النساء: ٤٠

فإياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات ، فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات

أما السابق : فقال صدقت يا ملعون ، ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب . فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه

وأما الظالم المغرور ، فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب ، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر ، فأسعف الشيطان ، وتدلى بحبل غروره ، فتمت بينهما المشاركة والموافقة . كما قيل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه.

وأما المقتصد ، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل ، وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب. ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول، فاستمر عليه ، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير

فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا . والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا . والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياكة، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس. فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية. استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه . فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد

فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم ، وحمد ما يحمد ، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة . بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئا ، فلعل رضاه فيه .

وغضبه فى معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئا ، فلعل غضبه فيه . وخبأ ولايته فى عباده ، فلا تحقروا منهم أحدا ، فلعله ولىّ الله تعالى . وزاد وخبأ إجابته فى دعائه ، فلا تتركوا الدعاء ، فربما كانت الإجابة فيه

الركن الرابع

فى دواء التوبه ، وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان :

شاب لاصبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « تَعَجَّبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ »* وهذا عزيز نادر

والقسم الثانى : هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين . وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفعه ، وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده : ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ [1]) فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ، ومرارة الصبر . وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ، ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما ، فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء ، فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار .

فإذاً لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولا بد من بيانهما

فإن قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ . فاعلم أن العلوم

---

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة : أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

* ليست له صبوة : اى ميل إلى هوى

---

(١) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩

بجملتها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يخص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :

يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأوّل : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار ، على مارتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب . فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ، ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة ، وللشقاوة سببا هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الثاني : أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب ، حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يلبّس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان . ووزانه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف

الثالث : أنه لا بد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء . ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترابة ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر ، الذي هو الركن الآخر في العلاج

الرابع : أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ، ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، ومأكوله ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ، ولا ينفعه كل دواء . بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص . ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص ، أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم

بكيفية تكفير ما سبق منها . فهذه علوم يختص بها أطباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك . وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة ، أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم . ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يُسأل عنه . بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه . فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ، ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه ما لم يُعرِّفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا ، فلابد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلاطين قوّام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكف شره ، كما يُسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي ، أو الذي غلب عليه الجنون ، إلى القيّم ليقيده بالسلاسل والأغلال ، ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس . وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها : أن المريض به لا يدري أنه مريض

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطباع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد في هذا العالم ، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال

والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا

وقــد غلب هـذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق منه ، استنكافا من أن يقال لهم . فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ، فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا ، وإذ لم يُصلحوا لم يُفسدوا . وليتهم سكتوا ومانطقوا . فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا مايرغب العوام ، ويستميل قلوبهم . ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك ألذ في الأسماع ، وأخف على الطباع . فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ، ومزيد ثقة بفضل الله. ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواآن ، ولكن لشخصين متضادي العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه مالا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالكلية ، فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ، ليعود إلى الاعتدال .

وكذلك المصر على الذنوب ، المشتهي للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التي سبقت ، يعالج أيضا بأسباب الرجاء ، حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب

فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء . وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذاً فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لاتقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهي أربعة أنواع

الأول : أن يذكر مافي القرءان من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار . مثل قوله صلى الله عليه وسلم (١) « مَامِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا لَيْلَةٍ

---

(١) حديث مامن يوم طلع فجره ولاليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ـ الحديث : غريب لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ان لله ملكا ينادي في كل ليلة أبناء الاربعين زرع قددنا حصاده ـ الحديث : وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ـ الحديث :

غَابَ شفقها إِلَّا وَمَلَكَانِ يَتجاوَبان بأربعةِ أصواتٍ يَقُولُ أحدهما يا ليتَ هذا الخلقَ لَمْ يُخلَقوا وَيَقُولُ الآخرُ يا ليتهم إذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فيقولُ الآخرُ يا ليتهم إِذْ لَمْ يَعلَمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا » وفى بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذاكروا ماعلموا ويقولُ الآخرُ يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا »

وقال بعض السلف . إذا أذنب العبد ، أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات . فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه . وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف . مامن عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا . فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه . ولو خلقتماه لرحمتماه . ولعله يتوب إلىّ فأغفر له . ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات . فذلك معنى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ[1])

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه [1] « الطَّابِعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا انْتُهِكَتِ الْحُرُمَاتُ وَاسْتُحِلَّتِ الْمَحَارِمُ أَرْسَلَ اللَّهُ الطَّابِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا » وفى حديث مجاهد [2] « الْقَلْبُ مِثْلُ الْكَفِّ الْمَفْتُوحَةِ كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا انْقَبَضَتْ أُصْبُعٌ حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا فَيُسَدَّ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ » وقال الحسن . إن بين العبد وبين الله حدا من المعاصى معلوما ، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه ، فلم يوفقه بعدها لخير

والأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لاتحصى . فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] ، فإنه ماخلف دينارا ولا درهما ، إنما

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فاذا انتهكت الحرمات ـ الحديث : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر

(٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال المصنف وفى حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الايمان للبيهقى من قول حذيفة

(٣) حديث انه صلى الله عليه وسلم ماخلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة : البخارى من حديث عمرو بن الحارث قال ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ماترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا وفى حديث أبى الدرداء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم ـ الحديث : وقد تقدم فى العلم

(١) فاطر : ٤١

خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق . مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه ، وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه . ونودي من فوق العرش . اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصاني . قال فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل . وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه ، فسلب ملكه أربعين يوما ، فهرب تائها على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطعم . فإذا قال أطعموني فإني سليمان ابن داود شج ، وطرد ، وضرب ، وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت ، فلبسه بعد انقضاء الأربعين أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه . فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم في عذركم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروي في الإسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاهدها واستعصم . قال فنبأه الله ببركة تقواه ، فكان نبيا في بني اسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر عليه السلام . بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال بترك المعاصي لأجل الله تعالى

وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام ، فنظر إلى قميصه نظرة ، وكان جديدا ، فكأنه أعجبه . قال فوضعته الريح . فقال لمَ فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نطيعك إذا أطعت الله

وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك

يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال لأنك رجوتنى وقلت (عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً [1]) وبما قلت (اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا [2]) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ [3]) قال الله تعالى (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ [4]) وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يرد بها القرءان والأخبار ورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار ! نعم كانت سعادتهم فى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة . والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين ، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة

النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل مايصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته . فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة ، ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله . فينبغى أن يخوّف به . فإن الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر . كما حكي فى قصة داود وسليمان عليهما السلام . حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه . وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » وقال ابن مسعود . إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام (٢) « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا فى الوجه ، ونقصا فى المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله

---

(١) حديث ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده واللفظ له الا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان ،

(٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود اليه أبدا : تقدم

---

[1] يوسف : ٨٣ [2] يوسف : ٨٧ [3، 4] يوسف : ٤٢

او شر منه ، وهو كما قال . لان اللعنة هي الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير، ويسر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين . بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي فى الوحل جامعا ثيابه ، محترزا عن زلقة رجله ، حتى زلقت رجله وسقط . فقام وهو يمشي فى وسط الوحل ويبكى ويقول : هذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها، حتى يقع فى ذنب وذنبين، فعندها يخوض فى الذنوب خوضا . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ، فذنوبك ورّثتك ذلك . وقال بعضهم : إنى لأعرف عقوبة ذنبي فى سوء خلق حمارى . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتى . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه ، فوقفت أنظر إليه ، فمرّ بى ابن الجلاء الدمشقى ، فأخذ بيدى فاستحييت منه . فقلت ياأباعبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة المحكمة ، كيف خلقت للنار . فغمز يدى وقال : لتجدنّ عقوبتها بعد حين . قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة ، وقال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة . وقال : لايفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفى الخبر [1] « مَاأَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ فَبِمَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ » وفى الخبر [2] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّ أَدْنَى مَاأَصْنَعُ بِالعَبْدِ إِذَا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلَى طَاعَتِى أَنْ أَحْرِمَهُ لَذِيذَ مُنَاجَاتِى »

وحكي عن أبى عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها ، قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلى ، فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتى ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوقعت إلى الأرض ، واسود جسدى كله ، فاستترت فى البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعالج غسله فى الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا اسودادا ، حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد، وكان

---

(١) حديث ماأنكرتم من زمانكم فبماأنكرتم من أعمالكم : البيهقى فى الزهد من حديث أبى الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلى وهو عبد الله بن هانئ * قلت هو متهم بالكذب قال ابن أبى حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل .

(٢) حديث يقول الله ان أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أن أحرمه لذة مناجاتى : غريب لم أجده

قد وجه إلىّ فاشخصنى من الرقة . فلما أتيته قال لى : أما استحييت من الله تعالى ؟ كنت قائما بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى ؟ فلولا أنى دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر . وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا ، من الفقر، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب مابعده صفته . فإن ابتلى بشىء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاؤه . وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ،ويحرم جميل الشكر ،حتى يعاقب على كفرانه. وأما المطيع ،فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته،ويوفق لشكرها.وكل بلية كفارة لذنوبه،وزيادة فى درجاته

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ،والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبر ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه . بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولا بالنبض ، والسخنة ، ووجوه الحركات ، على العلل الباطنة . ويشتغل بعلاجها ، فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، [1] حيث قال له واحد : أوصنى يارسول الله ولا تكثر علىّ . قال « لَا تَغْضَبْ » [2] وقال له آخر : أوصنى يارسول الله ، فقال عليه السلام « عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِى أَيْدِى النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْغِنَى وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ وَصَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ » وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى . فقال: أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة . قال وكيف لى بذلك ؟ قال الزم الزهد فى الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ

---

(١) حديث قال رجل أوصنى ولا تكثر علي قال لا تغضب : تقدم

(٢) حديث قال له آخر أوصنى قال عليك باليأس ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وقد تقدم

أوصني . فقال : كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة
وقال رجل لإبراهيم بن أدهم . أوصني . فقال : إياك والناس ، وعليك بالناس ، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقى النسناس ، وما أراهم بالناس ، بل غمسوا فى ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة .وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل : وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضى الله عنها أن اكتبي لى كتابا توصيني فيه ولا تكثرى . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] « مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ سَخَطَ اللهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ » والسلام عليك ،فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها ، وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام

فإذاً على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية، وتوسم الأحوال اللائقة ، ليكون اشتغاله بالمهم . فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة . والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان

فإن قلت . فإن كان الواعظ يتكلم فى جمع ، أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه ، فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة إليه إما على العموم ، وإما على الأكثر . فإن فى علوم الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ماروي أن رجلا قال لأبى سعيد الخدرى . أوصنى . قال عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بالقرءان فإنه نور لك فى أهل الأرض ،وذكر لك فى أهل السماء . وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصنى . فقال . أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه . يابنى ، زاحم العلماء بركبتيك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ،

---

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ـ الحديث : الترمذى والحاكم وفى مسند الترمذى من لم يسم

وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا، وعلى أعناق الرجال كلاً، وصم صوما يكسر شهوتك، ولا تصم صوما يضر بصلاتك، فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه، ولا تخالط ذا الوجهين وقال أيضا لابنه. يابنى، لاتضحك من غير عجب، ولا تمش فى غير أرب، ولا تسأل عما لايعنيك، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ماقدمت ومال غيرك ماتركت يابنى، إن من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الشر يأثم ومن لايملك لسانه يندم. وقال رجل لأبى حازم أوصنى. فقال كل مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه. وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه، وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصنى. فقال: كن بسّاما ولا تكن غضّابا. وكن نفّاعا ولا تكن ضرّارا: وانزع عن اللجاجة، ولا تمش فى غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم، وابك على خطيئتك ياابن عمران. وقال رجل لمحمد بن كرام أوصنى. فقال: اجتهد فى رضا خالقك بقدر ماتجتهد فى رضا نفسك. وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى. فقال: اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات. قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا مالابد منه، وترك كثرة الكلام إلا فيما لابد منه، وترك مخالطة الناس إلا فيما لابد منه. وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى. أما بعد، فخف مما خوفك الله، واحذر مما حذرك الله، وخذ مما فى يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه، فكتب إليه أما بعد، فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب. واعلم أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر فى العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم. فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك. وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد، فإن الدنيا دار عقوبة، ولها يجمع من لاعقل له، وبها يغتر من لاعلم عنده. فكن فيها ياأمير المؤمنين كالمداوى جرحه، يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم . وأما أعداؤه فغرتهم .

وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لاتأتى إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم ، باقيا عليك . واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لايدرى خصوص واقعته . فهذه المواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ ، وغلبت المعاصى ، واستسرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا ، وينشدون أبياتا ، ويتكلفون ذكر ماليس فى سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارهم ، ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب . بل القائل متصلف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مُدْبِرٌ ومتخلف . فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله

الأصل الثانى : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله مايضره . وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته . فله سببان . فما ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس

وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذى يناله فى تركه ؛ فلابد على كل حال من مرارة الصبر . فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى . كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة ، فصار لايقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه فى السعي وراء شهوته . فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لايتم إلا بصبر ،

ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار ، أو عن سماع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكر فيه لتمام الفهم . وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر ، وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطي من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب ، وصدق بالحسنى ، فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسييسره الله للعسرى ، فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما لله الآخرة والأولى

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور . أحدها . أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر

الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال آخذة بالمخنق . وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والألف ، والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [1]) وقال عز وجل (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [2]) وقد عبّر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقوله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَحَفَّهَا

---

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر اليها ـ الحديث : أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

---

(١) القيامة : ٢٠ (٢) الاعلى : ١٦

بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فانظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ فقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا وَخَلَقَ الْجَنَّةَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ » . فإذاً كون الشهوة مرهقة فى الحال، وكون العقاب متأخراً إلى المآل، سببان ظاهران فى الاسترسال، مع حصول أصل الإيمان. فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذباً بأصل الطب ، ولا مكذباً بأن ذلك مضر فى حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيهون عليه الألم المنتظر .

الثالث : أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة، وتكفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجبره . إلا أن طول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير . فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيمان

الرابع : أنه مامن مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لاتوجب العقوبة إيجابا لايمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيمان . نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى أصل إيمانه ، وهو كونه شاكا فى صدق الرسل ، وهذا هو الكفر . كالذى يحذره الطبيب عن تناول مايضره فى المرض . فإن كان المحذر ممن لايعتقد فيه أنه عالم بالطب ، فيكذبه أو يشك فيه ، فلا يبالى به . فهذا هو الكفر

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه فى السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ماهو آت آت ، وأن غدا للناظرين قريب ، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله ، فما يدريه لعل الساعة قريب . والمتأخر إذا وقع صار ناجزا . ويذكر نفسه أنه أبدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال . إذ يركب البحار ، ويقاسى الأسفار ، لأجل الربح الذى يظن أنه قد يحتاج إليه فى ثانى الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف مابعده ، ومفارقته للدنيا لا بد منها . فكم نسبة وجوده فى الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا ؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبه ، فيقول . كيف يليق

بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندى ، دون قول نصرانى يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبّه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض ، وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا !

وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ، ويكلف نفسه تركها ، ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتى أيام العمر وهى أيام قلائل ، فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ! وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر ، فكيف أطيق ألم النار ! وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها ، فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ! . وأما تسويف التوبة فيما لجه بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المسوّف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعري هل عجز فى الحال إلا لغلبة الشهوة ؟ والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتياد . فليست الشهوة التى أكدها الإنسان بالعادة كالتى لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسوّفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ما سبق . وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده ، وترك ذخائر أمواله فى صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى دارى ، أو إذا انتهى إلى دارى مات على باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكي فى الأسمار أن مثل ذلك وقع ، فأنا أنتظر من فضل الله مثله . فمنتظر هذا منتظرُ أمرٍ ممكن ، ولكنه فى غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر . وعلاجه الأسباب التى تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول ، ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله

فيقال له : ماقاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن ؟ أو تقول أعلم أنه محال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة ؟ فإن قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه ، وكأنه لا وجود لمثل هذا فى العقلاء . وإن قال أنا شاك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول ، عند تركك طعامك فى البيت لحظة ، أنه ولغت فيه حية ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان ألذ الأطعمة ؟ فيقول أتركه لامحالة ، لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ماظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أصناف العقلاء ، ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجهول ، لعل له غرضا فيما يقول ! فليس فى العقلاء إلا من صدّق باليوم الآخر ؛ وأثبت ثوابا وعقابا ، وإن اختلفوا فى كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد . وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة : فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد . بل لو قدّرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقدّرنا طائرا يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها ، لفنيت الذرة ، ولم ينقص أبد الآباد شيئا . فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا ، لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ! ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لاتبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكا : إن صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا ، وإلا فقد تخلصتُ وهلكتَ . أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جلية ، ولكنها ليست تنال إلا بالفكر ، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته ، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر ، لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها ، وشدائدها ، وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم . وهذا فكر لدّاغ مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه ، ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة

والثانى: أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله فى كل حالة من أحواله، ونفس من أنفاسه، شهوة قد تسلطت عليه واسترقته. فصار عقله مسخرا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة ؟ والفكر يمنعه من ذلك . وأما علاج هذين المانعين ، فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت وما بعده ، تألما بذكره ، مع استحقار ألم مواقعته. فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع ، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ، ومتألم به !

وأما الثانى . وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم . فإنها لا آخر لها ، ولا كدورة فيها . ولذات الدنيا سريعة الدثور ، وهى مشوبة بالمكدرات . فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفى التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى ، واستراحة بمعرفته ، وطاعته ، وطول الأنس به ! ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة ، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا . فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ! نعم هذه اللذة لا تكون فى ابتداء التوبة ، ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة ، وقد صار الخير ديدنا ، كما كان الشر ديدنا . فالنفس قابلة ما عودتها تتعود ، والخير عادة ، والشر لجاجة

فإذاً هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات . ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ، وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل فى الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع ، فيميل القلب إليه . ويعبر عن السبب الذى أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق . إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة فى الآخرة . وقد روي فى حديث طويل ، أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبى طالب كرم الله وجهه : ياأمير المؤمنين ، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُنى فقال عليّ رضي الله عنه : بني على أربع دعائم . على الجفاء ، والعمى ، والغفلة ، والشك . فمن جفا احتقر الحق ، وجهر بالباطل . ومقت العلماء . ومن عمي نسي الذكر . ومن غفل حاد عن الرشد . ومن شك غرته الأماني: فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر . وهذا القدر فى التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة. فلابد من بيان الصبر ، فنذكره فى كتاب مفرد إن شاء الله تعالى

كتاب الصبر والشكر

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء ، والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى أصحابه سادة الأصفياء ، وعلى آله قادة البررة الأتقياء ، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء

أما بعد : فإن الإيمان نصفان . نصف صبر ونصف شكر ، كما وردت به الآثار ، وشهدت له الأخبار [1] . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى ، واسمان من أسمائه الحسنى ، إذ سمى نفسه صبورا وشكورا . فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن . ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان . وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ، ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان ، وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين فى كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى .

الشطر الأول

فى الصبر

وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان ، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهى سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى

(كتاب الصبر والشكر)

(١) حديث الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف

بيان

فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف ، وذكر الصبر فى القرءان فى نيف وسبعين موضعا . وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له . فقال عزّ من قائل (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا [١]) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا [٢]) وقال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٣]) وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [٤]) وقال تعالى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٥]) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر . ولأجل كون الصوم من الصبر ، وأنه نصف الصبر ، قال الله تعالى : الصوم لى وأنا أجزى به . فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات . ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [٦]) وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ [٧]) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم ، فقال تعالى (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [٨]) فالهدى ، والرحمة ، والصلوات ، مجموعة للصابرين . واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول .

وأما الأخبار . فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ » على ماسيأتى وجه كونه نصفا . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمُ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ وَلَأَنْ تَصْبِرُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِيَنِي كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ

---

(١) حديث الصبر نصف الايمان : أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم فى الصوم

(٢) حديث من أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ـ الحديث بطوله تقدم فى العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله

---

(١) السجدة : (٢) الأعراف : ١٢٧ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٥٤ (٥) الزمر : ١٠ (٦) الانفال ٤٦

(٧) آل عمران : ١٢٥ (٨) البقرة : ١٥٧

وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكِرُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَيُنْكِرُكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفِرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ » ثم قرأ قوله تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ [1]) الآية

وروى [1] جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ » وقال أيضا [2] « الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » [3] وسئل مرة ما الإيمان ؟ فقال « الصَّبْرُ » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الْحَجُّ عَرَفَةُ » معناه معظم الحج عرفة . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم [4] « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ »

وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، تخلق بأخلاقي ، وإن من أخلاقي أني أنا الصبور . [5] وفي حديث عطاء عن ابن عباس ، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال « أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ » فسكتوا . فقال عمر نعم يارسول . قال « وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ » قالوا نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم « مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [6] « فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [7] « لَوْ كَانَ الصَّبْرُ رَجُلاً لَكَانَ كَرِيماً وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » والأخبار في هذا لا تحصى

---

(١) حديث جابر سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة: الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد ابن عمير عن أبيه عن جده

(٢) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة :غريب لم أجده

(٣) حديث سئل مرة عن الايمان فقال الصبر :أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف

(٤) حديث الحج عرفة : تقدم في الحج

(٥) حديث أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس :لا أصل له مرفوعا وانما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس

(٦) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يارسول الله الحديث : الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء

(٧) حديث في الصبر على ما تكره خير كثير :الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٨) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما :الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي

---

(١) النحل : ٩٦

وأما الآثار ، فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى: عليك بالصبر . واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر. الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى .واعلم أن الصبر ملاك الإيمان ، وذلك بأن التقوى أفضل البر ، والتقوى بالصبر . وقال علىّ كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل . وقال أيضا : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لارأس له ، ولا إيمان لمن لاصبر له

وكان عمر رضى الله عنه يقول : نعم العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين . يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة مايحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى(وأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [١])

وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [٢]) بكى وقال : واعجباه ! أعطى وأثنى. أى هو المعطى للصبر وهو المثنى

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل . وأما من حيث النظر بعين الاعتبار ، فلا تفهم إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعنـــاه إذ معرفةُ الفضيلة والرتبة معرفةُ صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه ، وبالله التوفيق :

بيـــان

حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل السالكين . وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف هى الأصول ، وهى تورث الأحوال . والأحوال تثمر الأعمال . فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل ، كما ذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والإسلام فى كتاب قواعد العقائد . وكذلك الصبر ، لايتم إلا بمعرفة سابقة ، وبحالة قائمة

(١) البقرة : ١٥٧ (٢) ص : ٤٤

فالصبر على التحقيق عبارة عنها . والعمل هو كالثمرة يصدر عنها . ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة ، والإنس ، والبهائم ، فإن الصبر خاصية الإنس. ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة . أما في البهائم فلنقصانها ، وأما في الملائكة فلكمالها

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام . فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر ألبتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما ، لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم . ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم بني آدم ، ورفع درجتهم عن درجة البهائم ، فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ، أحدهما يهديه ، والآخر يقويه . فتميز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب . وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ، ولا هداية إلى مصلحة العواقب ، بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط . فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر . فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه . فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه . فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ، ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها . وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة . فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى . وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد . كما أن نور

الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لا ينحصر . فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا . ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى

وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة ، فقد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها ، التحق باتباع الشياطين . فإذاً تركُ الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر. وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ، ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى ، قوى ثبات باعث الدين . وإذا قوى ثباته ، تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة . فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما . وهما من الكرام الكاتبين . وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين الذى هو أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسامه له ، فهو إذاً صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال . وللعبد طوران فى الغفلة والفكر ، وفى الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه ، فيكتب إعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن، فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه ، فهو به مسىء إليه ، فيثبت عليه سيئة . وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما . فلذلك سميا كراما كاتبين . أما الكرام ، فلانتفاع العبد بكرمهما، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة. وأما الكاتبون ، فلإثباتهما الحسنات

والسيآت. وإنما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب، ومطوية عن سر القلب ، حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم ، فإنهما ، وكتبتهما ، وخطهما ، وصحائفهما ، وجملة ماتعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت ، لامن عالم الشهادة . وكل شىء من عالم الملكوت لاتدركه الأبصار فى هذا العالم . ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى . وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ » وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [1]) وفيها يقال (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [2]) أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق ، فلا يكون وحده . بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق . وفيها يساق المتقون إلى الجنة ، والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا . والهول الأول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض مثلا ، فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها . بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه ، لا بزلزلة مسكن غيره . فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب . وحظك الخاص من التراب بدنك فقط . فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التى أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان . وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه . وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه . إذ ليس يتزلزل به بدنك . فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك . فإذا انهدم بالموت أركان بدنك ، فقد زلزلت الأرض زلزالها . فإذا انفصلت

---

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته : ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف

---

(١) الانعام : ٩٣ (٢) الاسراء : ١٤

العظام من اللحوم ، فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فإذا رمت العظام ،فقد نسفت الجبال نسفا . فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا . فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدرت النجوم انكدارا ،فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا . فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا . فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك ، فقد عطلت العشار تعطيلا . فإذ فارقت الروح الجسد ، فقد حملت الأرض فمدت ، حتى ألقت مافيها وتخلت

ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال . ولكنى أقول : بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ؟ والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها، لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها . فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره . ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذ السماء عبارة عما يلى جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟

فهذه هى القيامة الصغرى، والخوف بعد أسفل، والهول بعد مؤخر. وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ،وارتفع الخصوص، وبطلت السموات والأرض، ونسفت الجبال، وتمت الأهوال

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا فى وصفها ،فإنا لم نذكر عشر عشير أوصافها . وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى . فإن للإنسان ولادتين : إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو فى الرحم فى قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله فى سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار ،من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى ، كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى . بل أعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين .

وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ [1])

فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، وموقن بالملك والملكوت : والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين . وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يامسكين ، وكلنا ذلك المسكين ، وبين يديك هذه الأهوال . فإن كنت لاتؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال ، أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ماسمعت قول سيد الأنبياء [1] « كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا » أوما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم [2] « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ » أوماتستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين ، الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون ؟ فياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن . أفيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ؟ أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون ؟ أم يحسبون أن الموت سافروا من عندهم فهم معدومون ؟ كلا . إن كل لما جميع لدينا محضرون . ولكن ماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، وذلك لأنا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لايبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ولنرجع إلى الغرض ، فإن هـذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين . ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الإقبال على الاستفادة منهما ، والسيئة فى الإعراض عنهما ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة ، فلا يتصور منهما إقبال وإعراض

---

(١) حديث كفى بالموت واعظا : البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد

(٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت : الترمذى وقال غريب والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعنى على سكرات الموت

---

(١) الواقعة : ٦١

وهما لا يكتسبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمرى إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس . ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا . فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا، ولا يعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ماينشر فى الآخرة . بل على القيم العدل ، والولي البر الشفيق ، إن كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل وليّ هذا سمته فى حق الصبي، فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها فى حق الصبي ، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة ، فيكون مع النبيين ، والمقربين ، والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

بيان

كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يخص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعا . وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها ، كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلافُ هذه الإطلاقات ذكرناه فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا ، فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر . والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى

---

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين : البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم

عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين . إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة . ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ أَلْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث إلى آخره

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف . وعند ذلك ينقسم جميع مايلاقيه العبد إلى ماينفعه فى الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى مايضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : الإيمان نصفان نصف صبر ، ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا . فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغى أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ، ونسبتها إلى الإيمان . والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان ، فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة

بيان

الأسامى التى تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع . ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج ، سمى عفة

وإن كان عن احتمال مكروه ، اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب وغيرها . وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ،ويضاده الجبن . وإنكان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر . وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره . فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال « هُوَ الصَّبْرُ » لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال [1] « الْحَجُّ عَرَفَةُ » وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ [1]) أى المصيبة ، (وَالضَّرَّاءِ [2]) أى الفقر ، (وَحِينَ الْبَأْسِ [3]) أى المحاربة (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [4])

فإذاً هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها . ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها ، من حيث رأى الأسامى مختلفة . والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله ، يلحظ المعانى أولا ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول ، والألفاظ هي التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابدوأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [5]) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

---

(١) حديث الحج عرفة : أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم فى الحج

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) البقره : ١٧٧ (٥) الملك : ٢٢

بيان

أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة . ويتوصل إليه بدوام الصبر . وعند هذا يقال . من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون . فلا جرم هم الصديقون المقربون ، الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادي المنادى ياأيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية

الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى ، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة . وهؤلاء هم الغافلون . وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم، فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى ، وأمر من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [1]) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ،فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [2]) وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني ، وهو غاية الحمق . كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليّ ، فلست أطمع فيها . أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ، ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم ، فلا حاجة به إلى توبتي . وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته . فقد صار

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه ـ الحديث : تقدم في ذم الغرور

---

(١) السجدة : ١٣ (٢) النجم : ٢٩

عقله فى يد شهواته كمسلم أسير فى أيدى الكفار، فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير، وحفظ الخمور وحملها ، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ، ويجعله أسيرا عندهم . لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه . وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين . وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فمهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة ، للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى ، كان كمن أرق مسلما لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعمَ عليه، فأخذ أعزّ أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه. فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته ، وَاستيجابه لنقمته ، لأن الهوى أبغض إلَهٍ عُبِدَ فى الأرض عند الله تعالى ، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها ، وتارة لها عليه . وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم . هذا باعتبار القوة والضعف

ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه . فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات ، أو لا يغلب شيئا منها ، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى (خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً [1]) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام ، بل هم أضل سبيلا . إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات . وهذا قد خلق ذلك له وعطله ، فهو الناقص حقا ، المدْبر يقينا . ولذلك قيل

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر . إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد ، وتعب شديد ، ويسمى ذلك تصبرا ، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ، ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى، وقوى

---

(١) التوبة : ١٠٢

التصديق بما فى العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر . ولذلك قال تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [1])ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره . فإن الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة ، بحيث لا يلقاه فى مصارعته إعياء ولا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد ، وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى . فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت ، وتسلط باعث الدين واستولى ، وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتى فى كتاب الرضا . فالرضا أعلى من الصبر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « اعْبُدِ اللهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة ، وهذه درجة التائبين : وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين . وسنبين فى كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا ؛ كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكأن هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص، وهو الصبر على المصائب والبلايا

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ، ونفل ،ومكروه،ومحرم.فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكاره نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور . كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا ، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة ، فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على مايجرى على أهله ، فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع . فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود . بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة

---

(١) حديث اعبدالله على الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير : الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(١) الليل : ٥

بيان

مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الأحوال

اعلم أن جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين :أحدهما:هو الذى يوافق هواه، والآخر : هو الذي لايوافقه بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما. وهو فى جميع الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين، أوعن كليهما. فهو إذاً لا يستغنى قط عن الصبر

النوع الأول : مايوافق الهوى، وهو الصحة ، والسلامة ،والمال ،والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار . وجميع ملاذ الدنيا ، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور .فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها ، والانهماك فى ملاذها المباحة منها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان . فإن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى . حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى لا يصبر عليها إلا صديق.

وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا . ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال ، والزوج ، والولد ، فقال تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ[1]) وقال عز وجل (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ[2]) وقال صلى الله عليه وسلم (1) « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ » (2) ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قميصه ، نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صَدَقَ اللهُ » ،(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ[3]) ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِي يَتَعَثَّرُ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ أَخَذْتُهُ » ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وعسى أن يسترجع على القرب . وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم ، واللذة ، واللهو ، واللعب . وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق

---

(١) حديث الولد مجبنة مبخلة محزنة : أبو يعلى الموصلى من حديث أبى سعيد وتقدم

(٢) حديث لما نظر الى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر ـ الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب

---

(١) المنافقين : ٩ (٢) التغابن ١٤ (٣) التغابن : ١٥

وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق . وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى . وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة . ومن العصمة أن لا تقدر . والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك ، أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك . والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها . فلهذا عظمت فتنة السراء

النوع الثانى : مالا يوافق الهوى والطبع . وذلك لايخلو إما أن يرتبط باختيار العبد ، كالطاعات والمعاصى ، أولا يرتبط باختياره ، كالمصائب والنوائب ، أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته ، كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه . فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يرتبط باختياره ، وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصيـــة . وهما ضربان .

الضرب الأول : الطاعة . والعبد يحتاج إلى الصبر عليها . فالصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية ، وتشتهى الربوبية . ولذلك قال بعض العارفين : مامن نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [1]) ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره ، إذ استخف قومه فأطاعوه . ومامن أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده ، وخادمه ، وأتباعه ، وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعا من إظهاره . فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته ، واستبعاده ذلك ، ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ، ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء ، فإذاً العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات مايكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها مايكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال .

الأولى . قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية ، والإخلاص ، وآفات الرياء ، ومكايد النفس وقد نبه عليه ، صلوات الله عليه إذ قال [2] « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَانَوَى » وقال تعالى

(١) حديث انما الاعمال بالنيات : متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

(١) النازعات : ٢٤

(وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [١]) ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [٢])

الحالة الثانية : حالة العمل ، كي لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير . فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ . وهذا أيضا من شدائد الصبر . ولعله المراد بقوله تعالى (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا [٣]) أى صبروا إلى تمام العمل

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء . والصبر عن النظر إليه بعين العجب ، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره . كما قال تعالى (وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ [٤]) وكما قال تعالى (لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى [٥]) فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل . وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى [٦]) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر

الضرب الثانى المعاصى ، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ [٧]) وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ » والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة . فإن العادة طبيعة خامسة . فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدين على قمعها . ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله ، كان الصبر عنه أثقل على النفس . كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، وأنواع المزح المؤذى للقلوب ، وضروب الكلمات التى

---

(١) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه : ابن ماجه بالشطر الأول والنسائى فى الكبرى بالشطر الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين وقد تقدما

---

(١) البينة : ٥ (٢) هود : ١١ (٣) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩ (٤) محمد : ٣٣ (٥) البقرة : ٢٦٤ (٦ ، ٧) النحل : ٩٠

يقصد بها الإزراء والاستحقار ، وذكر الموتى ،والقدح فيهم،وفى علومهم،وسيرهم،ومناصبهم فإن ذلك فى ظاهره غيبة ، وفى باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان . إحداهما نفى الغير ، والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التى هى فى طبعه ، وهى ضد ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين ، وتيسر تحريك اللسان، ومصير ذلك معتادا فى المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهى أكبر الموبقات ، حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها ، وعموم الأنس بها . فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا ، فيستبعد غاية الاستبعاد ، ويطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ، ولا يستنكر ذلك ، مع ماورد فى الخبر[1] من أن الغيبة أشد من الزنا . ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ،ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب عليه العزلة والانفراد ، فلا ينجيه غيره . فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة . وتختلف شدة الصبر فى آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعصية فى قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس . فلا جرم يبقى حديث النفس فى العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه أصلا ، إلا بأن يغلب على القلب همّ آخر فى الدين يستغرقه . كمن أصبح وهمومه همّ واحد،وإلا فإن لم يستعمل الفكر فى شىء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه

القسم الثانى :مالا يرتبط هجومه باختياره ، وله اختيار فى دفعه ،كما لو أوذى بفعل أوقول، وجنى عليه فى نفسه أوماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا ، وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم . ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ[1])

[2] وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين . هذه قسمة ما أريد به وجه الله . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فاحمرت وجنتاه ثم قال « يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » وقال تعالى (وَدَعْ أَذَاهُمْ

---

(١) حديث ان الغيبة أشد من الزنا : تقدم فى آفات اللسان

(٢) حديث قسمه مرة مالا وقول بعض الاعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

---

(١) ابراهيم : ١٢

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ [١]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً [٢]) وقال تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ [٣]) الآية، وقال تعالى (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ [٤]) أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره ، فقال تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ [٥])

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ورأيت فى الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام : لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف . وأنا أقول لكم . لاتقاوموا الشر بالشر . بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر . ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك . ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا

القسم الثالث : مالايدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره كالمصائب . مثل موت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما الصبر فى القرءان على ثلاثة أوجه . صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل ، على ما قبلها وهى من الفرائض ، لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] « أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيَّ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا » فهذا صبر مستنده حسن اليقين

---

(١) حديث صل من قطعك ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا : الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات

---

(١) الاحزاب : ٤٨ (٢) المزمل : ١٠ (٣) : الحجر ٩٧ (٤) آل عمران : ١٨٦ (٥) النحل : ١٢٦

وقال أبو سليمان . والله ما نصبر على ما نحب ، فكيف نصبر على ما نكره ! وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنْتِظَارُ الْفَرَجِ بِالصَّبْرِ عِبَادَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى » (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١)) « اللَّهُمَّ أْوجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ » . وقال أنس . حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) أن الله عز وجل قال . « يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سُلِبَتْ كَرِيمَتَيْهِ قَالَ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ تَعَالَى جَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتُهُ أَبْرَأْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي » .

---

(١) حديث قال الله اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث : ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة : القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد الماليني فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم فى الدعوات

(٣) حديث ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ الحديث : مسلم من حديث أم سلمة

(٤) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط من رواية أبى ظلال القسملى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ ان الله عز وجل قال اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة ورواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ اذا أخذت كريمتي عبدى لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يا رسول الله وان كانت واحدة قال وان كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف

(٥) حديث يقول الله اذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ـ الحديث : مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موقوفا على أبى هريرة

---

(١) البقرة : ١٥٦

وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته . ماأنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر ، إلا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه . وقرأ (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١))

وسئل فضيل عن الصبر فقال . هو الرضا بقضاء الله . قيل وكيف ذلك ؟ قال الراضي لايتمنى فوق منزلته . وقيل حُبس الشبلي رحمه الله في المارستان ، فدخل عليه جماعة فقال من أنتم ؟ قالوا أحباؤك جاؤك زائرين . فأخذ يرميهم بالحجارة . فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (٢))

ويقال إن امرأة فتح الموصلي عثرت ، فانقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ » . ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كمه صرة ، فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه . فقال بارك الله له فيها ، لعله أحوج إليها مني . وروي عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق . فقلت له أسقيك ماء ، فقال . جُرّني قليلا إلى العدو ، واجعل الماء في الترس ، فإني صائم ، فإن عشت إلى الليل شربته ، فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى . فإن قلت فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب ، وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لاتكون في نفسه كراهية المصيبة ، فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ،

(١) حديث من اجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك : لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لاتتحدث بمصيبتك ولابوجعك ولاتزكي نفسك

(١) الزمر : ١٠ (٢) الطور : ٤٨

وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة في الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس ، والمفرش ،والمطعم. وهذه الأمور داخلة تحت اختياره ، فينبغي أن يجتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاءالله تعالى ، ويبقى مستمراعلى عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، كما روي (١) عن الرميصاء أم سليم رحمهاالله أنهاقالت توفي ابن لي ، وزوجي أبو طلحة غائب . فقمت فسجّيته في ناحية البيت . فقدم أبو طلحة . فقمت فهيأت له إفطاره ، فجعل يأكل . فقال كيف الصبي؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنّه،فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة .ثم تصنعتُ له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك ، حتى أصاب مني حاجته . ثم قلت . ألا تعجب من جيراننا ؟ قال مالهم ؟ قلت أعيروا عارية ، فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ! فقال بئس ماصنعوا . فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى ، وإن الله قد قبضه إليه . فحمد الله واسترجع .ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال . « اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا فِي لَيْلَتِهِمَا » قال الراوي . فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة ، كلهم قد قرءوا القرءان ،وروى جابر أنه عليه السلام قال «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ »وقد قيل . الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره . ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ، ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت ، فإن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت .ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه ، فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال « إِنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا . فالمقدم على الحجامة والفصد راض به ، وهو متألم بسببه لا محالة ، وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه . وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى، وكتب ابن أبي نجيح يعزي بعض الخلفاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه ، من عظّم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له

واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك ، والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه . فإذاً مهما دفع الكراهة

---

(١) حديث الرميصاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت ـ الحديث: طب ومن طريقه ابو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف

بالتفكر فى نعمة الله تعالى عليه بالثواب ،نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض،والفقر، وسائر المصائب .وقدقيل .من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام فى جميع الأحوال والأفعال. فإن الذى كُفي الشهوات كلها ،واعتزل وحده ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثرجولان الخواطر إنما يكون فى فائت لاتدارك له ، أوفى مستقبل لا بد وأن يحصل منه ماهو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه ، و بضاعته عمره . فإذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله تعالى ، أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ، ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون . هذا إن كان فكره ووسواسه فى المباحات مقصوراعليه. ولا يكون ذلك غالبا . بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره ، أومن يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أوغرضه بظهور أمارة له منه . بل يقدر المخالفة من أخلص الناس فى حبه،حتى فى أهله وولده،ويتوهم مخالفتهم له ، ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وكيفية قهرهم ، وجوابهم ، عما يتعللون به فى مخالفته . ولا يزال فى شغل دائم ، فللشيطان جندان. جند يطير وجند يسير،والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار ، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار . والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون ، والنار طبيعتها الحركة. فلا يتصور نار مشتعلة لاتتحرك . بل لا تزال تتحرك بطبعها . وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ،ساجدا لما خلق الله من الطين ، فأبى واستكبر واستعصى ، وعبر عن سبب استعصائه بأن قال (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) فإذاً حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه ، فلا ينبغى أن يطمع فى سجوده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه ، وطيرانه وجولانه، فقد أظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالإذعان سجود منه . فهو روح السجود . وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه ، وعلامته الدالة عليه

بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح ، لتصور ذلك . كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة .

فلا ينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر ، وقالب الروح عن الروح ،وقشر اللب عن اللب ، فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب . وتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين ، إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ؛ فتشغل قلبك بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيك . فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين ، الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ . بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم. وسيلانه مثل الهواء فى القدح . فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره ، فقد طمعت فى غير مطمع . بل بقدر مايخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة . فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين، يخلو عن جولان الشيطان . وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو فى لحظة ، فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغَضُ الشَّابَّ الْفَارِغَ »وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه ، كان ظاهره فارغا ، ولم يبق قلبه فارغا . بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ . ثم تزدوج أفراخه أيضا ، وتبيض مرة أخرى وتفرخ . وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات ، لأن طبعه من النار . وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ، ولا تنقطع ألبتة . بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال . فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب ، فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة

فإذاً إذا تأملت ، علمت أن أعدى عدوك شهوتك ، وهى صفة نفسك . ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج، حين كان يصلب ، وقد سئل عن التصوف ما هو فقال : هي نفسك

---

(١) حديث إن الله يبغض الشاب الفارغ : لم أجده

(١) الزخرف : ٣٦

إن لم تشغلها شغلتك . فإذاً حقيقة الصبر وكماله الصبرُ عن كل حركة مذمومة .وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك .وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت،نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

بيان

دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء. فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعا ، فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الأخلاط التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها . ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر . وكما أن أقسام الصبر مختلفة ،فأقسام العلل المانعة منه مختلفة . وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج . إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك مما يطول ، ولكنا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة فنقول :

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا ، وقد غلبت عليه الشهوة ، بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه ، إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ،فنقول . قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى . وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر ، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر .فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الشهوة . فأما باعث الشهوة ، فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدها : أن ننظر إلى مادة قوتها ، وهى الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها . فلابد من قطعها بالصوم الدائم ، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ، ضعيف فى جنسه . فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة

الثانى : قطع أسبابه المهيجة فى الحال . فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة . إذ النظر يحرك القلب ، والقلب يحرك الشهوة . وهذا يحصل بالعزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، والفرار منها بالكلية ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ » وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلاّ تغميض الأجفان ، أو الهرب من صوب رميه . فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور . فإذا انقلبتَ عن صوب الصور لم يصبك سهمه

الثالث : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى تشتهيه . وذلك بالنكاح فإن كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات من جنسه مايغنى عن المحظورات منه . وهذا هو العلاج الأنفع فى حق الأكثر . فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يقمع الشهوة فى حق أكثر الرجال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) « عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ » ، فهذه ثلاثة أسباب. فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح ، وعن الكلب الضارى ، ليضعف فتسقط قوته. والثانى يضاهى تغييب اللحم عن الكلب ، وتغييب الشعير عن البهيمة ، حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها ، حتى يبقى معها من القوة ماتصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين ، فإنما تكون بطريقين :

أحدهما : إطماعه فى فوائد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره فى الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر ، وفى حسن عواقبه فى الدنيا والآخرة وفى الأثر أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته مالا يبقى معه إلا مدة الحياة ، وحصل له مايبقى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا فى نفيس ، فلا ينبغى أن يحزن لفوات الخسيس فى الحال. وهذا من باب المعارف ، وهو من الإيمان. فتارة يضعف ، وتارة يقوى . فإن قوي قوي باعث الدين ، وهيجه تهييجا شديدا . وإن ضعف ضعّفه ، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين ، وهو المحرك لعزيمة الصبر . وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر

والثانى : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا ، قليلا قليلا ، حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيستجرىء عليها ، وتقوى منّته فى مصارعتها. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال

---

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام ابليس : تقدم غير مرة

(٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم ـ الحديث : تقدم فى النكاح

الشاقة ، تؤكد القوى التى تصدر منها تلك الأعمال . ولذلك تزيد قوة الحمالين ، والفلاحين والمقاتلين . و بالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين ، والعطارين ، والفقهاء ، والصالحين . وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة

فالعلاج الأول يضاهى إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ، ووعده بأنواع الكرامة ، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال (وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [1]) والثانى يضاهى تعويد الصبي الذى يرادمنه المصارعة والمقاتلة ، بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ، ويستجرىء عليه ، وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين . ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت . ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد

فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر . ولا يمكن استيفاؤه . وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس . وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له ، بأن قمع الشهوات الظاهرة ، وآثر العزلة ، وجلس للمراقبة والذكر والفكر فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له ألبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا ، بالفرار عن الأهل ، والولد ، والمال ، والجاه ، والرفقاء ، والأصدقاء . ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت ، وبعد القناعة به . ثم كل ذلك لا يكفى مالم تصر الهموم هما واحدا ، وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفى ذلك مالم يكن له مجال فى الفكر ، وسير بالباطن فى ملكوت السموات والأرض ، وعجائب صنع الله تعالى ، وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه . وإن لم يكن له سير بالباطن ، فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة من القراءة ، والأذكار ، والصلوات . ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور . فإن الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة . ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد ، فتشغله عن الفكر والذكر من مرض ، وخوف ، وإيذاء من إنسان ، وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة ، فهذا أحد الأنواع الشاغلة

---

(1) الشعراء : ٤٢

وأما النوع الثاني : فهو ضروري أشد ضرورة من الأول ، وهو اشتغاله بالمطعم ، والملبس ، وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تحوج إلى شغل ، إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات ، إن لم تهجم به ملمة أو واقعة . وفي تلك الأوقات يصفو القلب ، ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى ، في ملكوت السموات والأرض ، ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل ، لو كان مشغول القلب بالعلائق . والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد

فأما مقادير ما ينكشف . ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال ، فذلك يجري مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويجل الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الحظ . والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ، فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا . فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها . فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية ، إذ قال الله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [1]) وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا ، فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق . فما علينا إلا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض ، وينقيها من الحشيش ، ويبث البذر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر . ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلي سنة عن مطر . فكذلك قلما تخلو سنة ، وشهر ، ويوم ، عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة . كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع ، وعند ظهور الغيم ، فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهمم

---

(١) الذاريات : ٢٢

وتساعد القلوب ، كما في يوم عرفة . ويوم الجمعة . وأيام رمضان . فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته ،حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت . أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء ، واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار . بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب ، فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من استرسال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا في القلب ،ومنسيا بالشغل عنه ، سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا فقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [١]) وقال تعالى (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ [٢]) وقال تعالى (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [٣]) فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل ، وهو آخر درجات الصبر . وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله . السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن ، وهجران الخلق في حب الحق شديد . والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ، ثم شدة هجران الخلق . وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه ،فإن لذة الرياسة ، والغلبة ، والاستعلاء ، والاستتباع ، أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء . وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ، والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب ، لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية . وعنه العبارة بقوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [٤])

وليس القلب مذموما على حبه ذلك ، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين ، المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالم الأمر ، فأضله وأغواه . وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ! فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه ، وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمالا لا نقصان فيه ، وهذه كلها من أوصاف الربوبية

(١) الحجر : ٩ (٢) ابراهيم : ٥٢ (٣) القمر : ١٧ (٤) الإسراء : ٨٥

وليس مذموما على طلب ذلك . بل حق كل عبد أن يطلب مُلكا عظيما لا آخر له : وطالب الملك طالب للعلوّ ، والعز ، والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام ، وملحوق بسرعة الانصرام ، ولكنه عاجل ، وهو فى الدنيا ، وملك مخلد دائم ، لا يشوبه كدر ولا ألم ، ولا يقطعه قاطع ، ولكنه آجل . وقد خلق الإنسان عجولا راغبا فى العاجلة . فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التى فى طبعه ، فاستغواه بالعاجلة ، وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحمق ، فوعده بالغرور فى الآخرة ، ومنّاه مع ملك الدنيا ملك الآخرة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيّ » فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره ، إذ علم مداخل مكره ، فأعرض عن العاجلة . فعبّر عن المخذولين بقوله تعالى (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [1]) وقال تعالى (إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً [2]) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [3])

ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق ، أرسل الله الملائكة إلى الرسل ، وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدوّ وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقى عن الملك المجازى ، الذى لا أصل له إن سلم ، ولا دوام له أصلا ، فنادوا فيهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ [4])

فالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وصحف موسى وإبراهيم ، وكل كتاب منزل ، ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد . والمراد منهم أن يكونوا ملوكا فى الدنيا ، ملوكا فى الآخرة . أما ملك الدنيا فالزهد فيها ، والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاءً لا فناء فيه ، وعزا لا ذل فيه ، وقرة عين أخفيت فى هذا العالم ، لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا ، لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به . إذ الدنيا والآخرة ضرتان . ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضا

---

(1) القيامة : ٢٠ (2) الدهر : ٢٧ (3) النجم : ٢٩، ٣٠ (4) التوبة

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا . ولكن ملك الدنيا لايخلو عن المنازعات والمكدرات ، وطول الهموم في التدبيرات . وكذا سائر أسباب الجاه. ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقضي العمر (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ [1]) فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ [2]) . والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا ، حسده الشيطان عليه ، فصده عنه . ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان . وهذا ملك بالاستحقاق . إذ به يصير صاحبه حرا . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة ، مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا . ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا ، منكوسا في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف اطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك ! فقال كيف ؟ قال من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك ؟ قال أنت عبد شهوتك ، وغضبك ، وفرجك ، وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدلي . فهذا إذا هو الملك في الدنيا . وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا . والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ، ومدخل الغلط في ذلك ، وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه ، يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته . إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة . ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه ، فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف ، بل لابد وأن يضيف إليه العمل . وعمله في ثلاثة أمور :

أحدها : أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه ، فيعسر عليه الصبر مع

(١) يونس : ٢٤ (٢) الكهف : ٤٥

الأسباب . كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض ، إذ قال تعالى .(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا[1])

الثاني : أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده . فيبدل التكلف بالتبذل ، وزي الحشمة بزي التواضع . وكذلك كل هيئة ، وحال ، وفعل ، في مسكن ، وملبس ، ومطعم ، وقيام ، وقعود كان يعتاده ، وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بنقائضها ، حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى المعالجة إلا المضادة

الثالث : أن يراعي في ذلك التلطف والتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض . ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية ، وهكذا يفعل شيئا فشيئا ، إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام (٢) « لَا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادُّهُ يَغْلِبْهُ »

فإذاً ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس ، وعن الشهوة ، وعن الجاه ، أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل . فإن تفصيل الآحاد يطول . ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه ، كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتنعكس أموره ، فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا ، وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق . وله نظير في العادات فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم ، انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم ،

---

(١) حديث ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ـ الحديث : أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الاوراد

(٢) حديث لاتشادوا هذا الدين فانه من شاده يغلبه : تقدم فيه

---

(1) النساء : ٩٧

والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ماحكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلى عن الصبر ،أيه أشد ؟ فقال : الصبر فى الله تعالى . فقال لا . فقال الصبر لله . فقال لا .فقال الصبر مع الله . فقال لا . فقال فإيش ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل فى معنى قوله تعالى(اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [1]) اصبروا فى الله وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل فى معناه

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

الشطر الثانى

من الكتاب فى الشكر وله ثلاثة أركان

الأول : فى فضيلة الشكر وحقيقته ، وأقسامه وأحكامه . الثانى : فى حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : فى بيان الأفضل من الشكر والصبر

الركن الأول

فى نفس الشكر

بيان

فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع أنه قال (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ [2]) فقال تعالى (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ [3]) وقال الله تعالى (مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ [4]) وقال تعالى (وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ [5])

(1) آل عمران : ٢٠٠ (2) العنكبوت : ٤٥ (3) البقرة : ١٥٢ (4) النساء : ١٤٧ (5) آل عمران : ١٤٥

وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١)) قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر ، طعن اللعين في الخلق فقال (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (٢)) وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (٣)) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٤)) واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة فقال تعالى (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ (٥)) وقال (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ (٦)) وقال (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٧)) وقال (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (٨)) وقال (وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ (٩)) وهو خلق من أخلاق الربوبية ، إذ قال تعالى (وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٠)) وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ (١١)) وقال (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢)) . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ »

وروي عن (٢) عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها ، فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجبا ؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي ، أو قالت في لحافي ، حتى مس جلدي جلده ، ثم قال « يَا ابْنَةَ أَبِي بَكْرٍ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي » قالت قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك . فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء ، فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى سالت

---

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنه وفي اسناده اختلاف

(٢) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجبا ـ الحديث : في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر ـ الحديث :

---

(١) الأعراف : ١٦ (٢) الأعراف : ١٧ (٣) سبأ : ١٣ (٤) ابراهيم : ٧ (٥) التوبة : ٢٨ (٦) الأنعام : ٤١
(٧) البقرة : ٢١٢ (٨) النساء : ٤٨ (٩) التوبة : ١٥ (١٠) التغابن : ١٧ (١١) الزمر : ٧٤ (١٢) يونس : ١٠

دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة . فقلت يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً وَلِمَ لاَأَفْعَلُ ذَلِكَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ » (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ[1]) الآية . وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لاينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ماروي أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير ، فتعجب منه . فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ[2]) فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيره من النار ، فأجاره ، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك .فقال لم تبكي الآن ؟ فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور . وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة .ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] « يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَقُمِ الْحَمَّادُونَ فَتَقُومُ زُمْرَةٌ فَيُنْصَبُ لَهُمْ لِوَاءٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » قيل ومن الحمادون ؟ قال « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ » وفي لفظ آخر « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « الْحَمْدُ رِدَاءُ الرَّحْمٰنِ » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ، في كلام طويل . وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين : إن دارهم دار السلام ، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر ، وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، بالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز مانزل قال عمر رضي الله عنه : أي المال نتخذ؟فقال عليه السلام[3] « لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَاناً ذَاكِراً وَقَلْباً شَاكِراً » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال. وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان

---

(١) حديث ينادي يوم القيامة ليقم الحامدون ـ الحديث: الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحامدون ـ الحديث : وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور

(٢) حديث الحمد رداء الرحمن : لم أجده أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة الكبرياء رداؤه ـ الحديث: وتقدم في العلم

(٣) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا ـ الحديث : تقدم في النكاح

---

(١) البقرة : ١٧٤ (٢) البقرة : ٢٤

بيان

حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين . وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل . فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال . والحال يورث العمل . فأما العلم ، فهو معرفة النعمة من المنعم . والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان .ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر . فإن كل ماقيل فى حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه

فالأصل الأول :العلم . وهو علم بثلاثة أمور . بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ، ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ، ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة . فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا فى حق غير الله تعالى. فأما فى حق الله تعالى، فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله ، وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته. وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس . إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى فى معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة ، فيعرف أنه لامقدس إلا واحد ، وما عداه غير مقدس ، وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل مافى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة ، إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [1] « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمَنْ قالَ لاَ إِلٰهَ إِلَّا اللهُ فَلَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ فَلَهُ ثَلاثُونَ حَسَنَةً » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ » وقال [3] « لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَذْكَارِ يُضَاعَفُ مَا يُضَاعَفُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ »

---

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات ـ الحديث : تقدم فى الدعوات

(٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله :الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر

(٣) حديث ليس شئ من الأذكار يضاعف مايضعف الحمد لله :لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن ابراهيم النخعى يقال ان الحمد أكثر الكلام تضعيفا

ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات، من غير حصول معانيها فى القلب. فسبحان الله كلمة تدل على التقديس. ولا إله إلا الله، كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التى هى من أبواب الإيمان واليقين

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال . فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشىء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك وإيصاله إليه ، فهو إشراك به فى النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه . بل منه بوجه ، ومن غيره بوجه : فيتوزع فرحه عليهما ، فلا يكون موحدا فى حق الملك . نعم لا ينقص من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه ، وبالكاغد الذى كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما ، بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الإيصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ، ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته ، لما سلم إليه شيئا . فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل ، كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من إضافة النعمة إلى الملك . وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله ، علم أن الشمس ، والقمر، والنجوم مسخرات بأمره ، كالقلم مثلا فى يد الكاتب . وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها . فإن الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل شاءت أم أبت. كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ، ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده . فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده ، فهو مضطر ، إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعى ، وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك : وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد ، لا يجد سبيلا إلى تركه . فهو إذاً إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك . ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك . ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك. فهو إذاً إنما يطلب نفع نفسه بنفعك ، فليس منعما عليك ، بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك ، وألقى فى قلبه من الاعتقادات والإرادات

ماصار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك ، فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا ، وقدرت على شكره . بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا . ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته : إلهى خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل . اعلم أن كل ذلك منى ، فكانت معرفته شكرا . فإذاً لاتشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه . فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده ، بل وبغيره . فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح ، وبنقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل

الأصل الثانى :الحال. المستمدة من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع . وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده ، كما أن المعرفة شكر . ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام . ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه ، فنضرب لك مثلا فنقول . الملك الذى يريد الخروج إلى سفر، فأنعم بفرس على إنسان ، يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه .

أحدها :أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس ، وأنه مال ينتفع به ، ومركوب يوافق غرضه ، وأنه جواد نفيس . وهذا فرح من لاحظ له فى الملك ، بل غرضه الفرس فقط . ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح

الوجه الثانى: أن يفرح به لا من حيث أنه فرس ، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به ، وشفقته عليه ، واهتمامه بجانبه - حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء ، أوأعطاه غير الملك ، لكان لا يفرح به أصلا ، لاستغنائه عن الفرس أصلا ، أواستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك . الوجه الثالث :أن يفرح به ليركبه ، ليخرج فى خدمة الملك ، ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه . وربما يرتقى إلى درجة الوزارة ، من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ، ويعتنى به هذا القدر من العناية . بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشىء من ماله على أحد إلا بواسطته ثم أنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا ، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة ، وبين الوزارة دون القرب ، لاختار القرب .

فهذه ثلاث درجات . فالأولى: لايدخل فيها معنى الشكر أصلا ، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ، ففرحه بالفرس لابالمعطى . وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه ، فهو بعيد عن معنى الشكر ٠ والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ، ولكن لامن حيث ذاته ، بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل . وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه، خوفا من عقابه ، ورجاءً لثوابه . وإنما الشكر التام فى الفرح الثالث : وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى ، والنزول فى جواره ، والنظر إلى وجهه على الدوام . فهذا هو الرتبة العليا . وأمارته أن لايفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ، ويعينه عليها . ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة ، كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج ، بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك ، حتى تدوم مشاهدته له ، وقربه منه . ولذلك قال الشبلى رحمه الله . الشكر رؤية المنعم لارؤية النعمة . وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب

وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن ، والفرج ، ومدركات الحواس من الألوان والأصوات ، وخلا عن لذة القلب . فإن القلب لا يلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى . ومعرفته ، ولقائه . وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات، كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين ، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة، ويستحلى الأشياء المرة، كما قيل

ومن يك ذافم مرّ مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فإذاً هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى . فإن لم تكن إبل فمعزى . فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب . فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ، ومن يريد الفرس للملك . وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه، وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه

الأصل الثالث :العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب ، وباللسان . وبالجوارح . أما بالقلب ، فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح ، فاستعمال نعم الله تعالى فى

طاعته ، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته . حتى أن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم . وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه . فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء . والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى ، وهو مأمور به . فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] لرجل « كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟» قال بخير . فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره . فقال صلى الله عليه وسلم « هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ »

وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ، ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا . وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق . وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر ، أو يشكو ، أو يسكت . فالشكر طاعة . والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين . وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ، وبيده كل شيء ، إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ! فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء ، وأفضى به الضعف إلى الشكوى ، أن تكون شكواه إلى الله تعالى . فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز . والشكوى إلى غيره ذل . وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ [1]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ [2]) فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روي أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر . الكبر الكبر . فقال يا أمير المؤمنين ، لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك . فقال تكلم . فقال . لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة . أما الرغبة ، فقد أوصلها إلينا فضلك . وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك . وإنما نحن وفد الشكر ، جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر ،

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك : الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله اليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح

(١) العنكبوت ١٧ . (٢) الاعراف : ١٩٤ .

المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال ، إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل : إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، جامع لأكثر معانى الشكر ، لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك فى الشكر طفيليا إشارة الى أن المعرفة من معانى الشكر فقط . وقول الجنيدى . الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة ، إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص . وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم . فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق . ثم قد يختلف جواب كل واحد فى حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم ، اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم . أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه . فلا ينبغى أن تظن أن ماذكرناه طعن عليهم ، وأنه لو عرض عليهم جميع المعانى التى شرحناها كانوا ينكرونها . بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا ، إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ ، فى أن إسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى ، أم يتناول بعضها مقصودا ، وبقية المعانى تكون من توابعه ولوازمه . ولسنا نقصد فى هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات ، فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شيء ، والله الموفق برحمته

بيان

طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر . فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم فى القلوب ، ويظهر كرمهم عند الناس ، فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم . أو بالمثول بين أيديهم فى صورة الخدم ، وذلك تكثير سوادهم ، وسبب لزيادة جاههم . فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك . وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين . أحدهما : أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين

يديه ركعا سجدا . فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه ، يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام فى بيوتنا ، أو نسجد أو نركع ، إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ، ولا حظ لله تعالى فى أفعالنا كلها . الوجه الثانى : أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا . إذ جوارحنا ، وقدرتنا ، وإرادتنا ، وداعيتنا ، وسائر الأمور التى هى أسباب حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته . فكيف نشكر نعمة بنعمة ! ولو أعطانا الملك مركوبا ، فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوبا آخر ، لم يكن الثانى شكرا للأول منا ، بل كان الثانى يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول . ثم لا يمكن شكرا لشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك فى الأمرين جميعا . والشرع قد ورد به . فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام ، فقال : يارب كيف أشكرك ؟ وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفى لفظ آخر . وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك . فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى . وفى خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا . فإن قلت : فقد فهمت السؤال ، وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحي إليهم ، فإنى أعلم استحالة الشكر لله تعالى . فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه . فإن هذا العلم أيضا نعمة منه . فكيف صار شكرا ؟ وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر . وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكرا للخلعة الأولى . والفهم قاصر عن درك السر فيه . فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه . فاعلم : أن هذا قرع باب من المعارف ، وهي أعلى من علوم المعاملة . ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول . ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض ، وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر ، وأنه المشكور ، وأنه المحب ، وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا . لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام . ومثل هذا الغير لا وجود له ، بل هو محال أن يوجد . إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه . وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود . بل هو قائم بغيره ، فهو موجود بغيره . فإن

اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره ، لم يكن له وجود ألبتة . وإنما الموجود هو القائم بنفسه . والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجودا . فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره ، فهو قيوم . ولا قيوم إلا واحد . ولا يتصور أن يكون غير ذلك فإذاً ليس في الوجود غير الحي القيوم ، وهو الواحد الصمد . فإذا نظرت من هذا المقام ، عرفت أن الكل منه مصدره ، وإليه مرجعه . فهو الشاكر ،وهو المشكور. وهو المحب وهو المحبوب . ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قال (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[(١)]) فقال . واعجبـاه ! أعطى وأثنى. إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى . فهو المثني وهو المثنى عليه . ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرىء بين يديه (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[(٢)]) فقال : لعمري يحبهم ، ودعه يحبهم ، فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه . أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب . وهذه رتبة عالية لاتفهمها إلا بمثال على حد عقلك . فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه ، فقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنعته ، فقد أحب نفسه . والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده ، فقد أحب نفسه . وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله وصنعته . فإن أحبه فما أحب إلا نفسه . وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب . وهذا كله نظر بعين التوحيد . وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس . أي فني عن نفسه وعن غير الله ، فلم ير إلا الله تعالى . فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول . كيف فني وطول ظله أربعة أذرع! ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز ؟ فيضحك عليهم الجهال ، لجهلهم بمعاني كلامهم وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين .وإليه الإشارة بقوله تعالى(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ[(٣)]) ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ[(٤)]) وكذلك أمة نوح عليه السلام ، كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة (قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ[(٥)])

---

(١) ص : ٤٤ (٢) المائدة : ٥٤ (٣ ، ٤) المطففين : ٢٩ ، ٣٥ (٥) هود : ٣٨

فهذا أحد النظرين. النظر الثانى: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه. وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم، وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد. وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين، لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا، وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت، وكل قائم فقائم به. ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم. ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لاثبات لهم، ولا وجود لهم. وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا. وفرق بين الموجود وبين الموجد. وليس فى الوجود إلا موجود واحد، وموجد. فالموجود حق، والموجد باطل من حيث هو هو. والموجود قائم وقيوم، والموجد هالك وفان. وإذا كان (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [1]) فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثانى: ليس بهم عمى، ولكن بهم عور. لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق، فلا ينكرونه. والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق. فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى. وهذا مشرك تحقيقا، كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا. فإن جاوز حد العمى إلى العمش، أدرك تفاوتا بين الموجودين، فأثبت عبدا وربا. فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر داخل فى حد التوحيد. ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه. وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى. فإن بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو، فينمحى عن رؤية ما سوى الله، فلا يرى إلا الله. فيكون قد بلغ كمال التوحيد. وحيث أدرك نقصا فى وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد. وبينهما درجات لا تحصى. فبهذا تتفاوت درجات الموحدين. وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذى به يحصل أنوار الأبصار. والأنبياء هم الكحالون. وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول لا إله إلا الله. ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق. والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون. والجاحدون والمشركون أيضا قليلون. وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد. إذ عبدة الأوثان قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [2]) فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا. والمتوسطون

(1) الرحمن: ٢٦ (2) الزمر: ٣

هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال،فتلوح له حقائق التوحيد،ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت،وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا،ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب ، فقيل له (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ [١]) قال في سجوده « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط . فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات ، فقال « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ » وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا في التوحيد ، فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفه ، ولكنه رأى نفسه فارا منه إليه ، ومستعيذا ومثنيا ، ففني عن مشاهدة نفسه ، إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « لاَ أُحْصِي » خبر عن فناء نفسه ، وخروج عن مشاهدتها . وقوله « أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » بيان أنه المثني والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وأن « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [٢] » فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين ، وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل . فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية . فكان يستغفر الله من الأولى . ويرى ذلك نقصا في سلوكه وتقصيرا في مقامه

---

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ـ الحديث .

---

(١) العلق : ١٩ (٢) القصص : ٨٨

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [١] «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» فكأن ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما ، بعضها فوق البعض ، أولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ، ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها . فكان استغفاره لذلك [٢] ولما قالت عائشة رضي الله عنها · أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء فى السجود ، وما هذا الجهد الشديد ؟ قال «أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً» معناه أفلا أكون طالبا للمزيد فى المقامات ، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [١]) . وإذا تغلغلنا فى بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى مايليق بعلوم المعاملة فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه . ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة ، وعقبات شديدة . وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة ، وقطع تلك العقبات. وعندذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر ، فيظهر فى ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر ، والشاكر ،والمشكور . ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول . يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوبا ، وملبوسا ، ونقدا ، لأجل زاده فى الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ، ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان . إحداهما : أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ، ويكون له عناية فى خدمته ، والثانية :أن لايكون للملك حظ فى العبد ، ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد فى ملكه ، لأنه لايقوى على القيام بخدمة تغنى فيه غناء . وغيبته لاتنقص من ملكه. فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد ، أن يحظى العبد بالقرب منه ، وينال سعادة حضرته لينتفع هو فى نفسه، لا لينتفع الملك به وبانتفاعه . فمنزل العباد من الله تعالى فى المنزلة الثانية لا فى المنزلة الأولى . فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال

(١) حديث انه ليغان على قلبي ـ الحديث : تقدم فى التوبة وقبله فى الدعوات

(٢) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فما هذا البكاء ـ الحديث :رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو فى الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة

(١) ابراهيم : ٧

ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكراً فى الحالة الأولى ، بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ، مالم يقم بخدمته التى أرادها الملك منه . وأما فى الحالة الثانية : فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا . ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكرا وكافرا . ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه اليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه . وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه ، بأن يعطله ، أو يستعمله فيما يزيد فى بعده منه ، فمهما لبس العبد الثوب ، وركب الفرس ، ولم ينفق الزاد إلا فى الطريق ، فقد شكره مولاه ، إذ استعمل نعمته فى محبته ، أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه . وإن ركبه واستدبر حضرته ، وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته ، أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه . وإن جلس ولم يركب ، لا فى طلب القرب ولا فى طلب البعد ، فقد كفر أيضا نعمته ، إذ أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون مالو بعد منه . فكذلك خلق الله سبحانه الخلق ، وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات ، لتكمل بها أبدانهم ، فيبعدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم فى القرب منه . فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا [1]) الآية

فإذاً نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة ، فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه ، وبين أن يستعملها فى معصيته ، فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له . فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية ، فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق فى الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ، ونيل القرب من الله تعالى ، فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله فى الأسباب التى استعملها فى الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال ، أو عاص استعملها فى طريق البعد ، فهو كافر جار فى غير محبة الله تعالى ، فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ، ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة ، بل رب مراد محبوب ، ورب مراد مكروه ، ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا

(١) التين : ٤ ، ٥ ، ٦

الإشكال الأول . وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر .

وبهذا أيضاً ينحل الثانى . فإنا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله . فإذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله ، فقد حصل المراد . وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منـه إليك . فهو الذى أعطى ، وهو الذى أثنى . وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى إلى جهة محبته . فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر ، بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه ، لا بمعنى أنك موجد له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم ، لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك . فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية إليك ، وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا . وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك . فأما باعتبار النظر إلى الذى جعل الأشياء أشياء ، فأنت شيء إذ جعلك شيئا . فإن قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقا . وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال [1] « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » لما قيل له : يارسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟

فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى . ومحل أفعاله ، وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اعْمَلُوا » وإن كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو فعل من أفعاله . وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى . والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة . وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى . وهو سبب لحركة الأعضاء ، وهى أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض . أى الأول شرط للثانى ، كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض ، إذ لا يخلق العرض قبله . وخلق الحياة شرط لخلق العلم . وخلق العلم شرط لخلق الإرادة . والكل من أفعال الله تعالى ، وبعضها سبب للبعض . أى هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ، ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ؛ ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم . فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى ، لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره ، بل ممهد شرط الحصول لغيره . وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه

---

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له : متفق عليه من حديث على وعمران بن حصين

فإن قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم ؟ وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا . والاعتقاد سبب لهيجان الخوف . وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور . وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها . فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب ، حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة . ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له . ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام العلماء ، فإذا لم يسمع لم يعلم . وإذا لم يعلم لم يخف . وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا . وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل . فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه . ومامن مخذول إلا وهو مقود إلى النار بسلاسل، وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه . فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا . ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ، ولا قادر إلا الملك الجبار . وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك ، سمعوا عند ذلك نداء المنادى (لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ)[1] ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم ، لا ذلك اليوم على الخصوص . ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم . فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال ، حيث لا ينفعهم الكشف . فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى ، فإنه أصل أسباب الهلاك

بيان

تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه . إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال

(١) غافر : ١٦

أو باستعمالها فى مكارهه . ولتمييز مايحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان . أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات والأخبار ، والثانى : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار . وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز . فلذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطريق على الخلق . ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد . فمن لا يطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا .

وأما الثانى : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه . إذ ماخلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية ، فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا ، والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار . فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل الحكم فيها . بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة . وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار ، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ، ومرعى للأنعام . وقد انطوى القرءان على جملة من الحكم الجلية التى تحتملها أفهام الخلق ، دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا[1]) الآية

وأما الحكمة فى سائر الكواكب ، السيارة منها والثوابت ، فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق . والقدر الذى يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء ، لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ[2]) . فجميع أجزاء العالم ، سماؤه وكواكبه ، ورياحه ، وبحاره ، وجباله ، ومعادنه ، ونباته ، وحيواناته ، وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة ، من حكمة واحدة ، إلى عشرة ، إلى ألف ، إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى مايعرف حكمتها ، كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش ، واليد للبطش لا للمشى ، والرجل للمشى لا للشم . فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء ، والمرارة والكبد ، والكلية ، وآحاد العروق ، والأعصاب ، والعضلات ، وما فيها من التجاويف ، والالتفاف ، والاشتباك ، والانحراف ، والدقة ، والغلظ ، وسائر الصفات ، فلا يعرف

---

(١) عبس : من ٢٥ إلى ٢٨ (٢) الصفات : ٦

الحكمة فيها سائر الناس . والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (١)) . فإذاً كل من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ، ولا على الوجه الذي أريد به ، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى . فمن ضرب غيره بيده ، فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه . لا ليهلك بها غيره . ومن نظر إلى وجه غير المحرم ، فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقي بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملهما في غير ما أريدتا به . وهذا لأن المراد من خلق الخلق ، وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا ، والتجافي عن غرور الدنيا . ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض ، والماء ، والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض ، وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا . فكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ (٢)) الآية

فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء ، حتى تعتبر بها ، وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول :

من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير . وبهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه ، وملبسه ، وسائر حاجاته . وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغني عنه ، كمن يملك الزعفران ، مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله . بكل مقدار من الزعفران . ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشتري دارا بثياب ، أو عبدا بخف ، أو دقيقا

(١) الأسراء : ٨٥ (٢) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧

بحمار ، فهـذه الأشياء لاتناسب فيها ، فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران ؛ فتتعذر المعاملات جدا . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها ، يحكم فيها بحكم عدل ، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته . حتى إذا تقررت المنازل ، وترتبت الرتب ، علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال هذا الجمل يسوى مائة دينار ، وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشىء واحد إذاً متساويان . وإنما أمكن التعديل بالنقدين ، إذ لاغرض فى أعيانهما . ولو كان فى أعيانهما غرض ، ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض فى حق صاحب الغرض ترجيحا ، ولم يقتض ذلك فى حق من لا غرض له ، فلا ينتظم الأمر . فإذاً خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدى ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل . ولحكمة أخرى ، وهى التوسل بهما إلى سائر الأشياء ، لأنهما عزيزان فى أنفسهما ، ولا غرض فى أعيانهما . ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنه ملك كل شىء لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، لأن غرضه فى دابة مثلا فاحتيج إلى شىء هو صورته كأنه ليس بشىء ، وهو معناه كأنه كل الأشياء . والشىء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات ، إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها . كالمرآة لا لون لها . وتحكى كل لون . فكذلك النقد لا غرض فيه ، وهو وسيلة إلى كل غرض . وكالحرف لا معنى له فى نفسه ؛ وتظهر به المعانى فى غيره . فهذه هي الحكمة الثانية . وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها . فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم ، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما . فإذاً من كنزهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ، ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ، إذ لا غرض للآحاد فى أعيانهما ، فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدى ، فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة معرفة للمقادير ، مقومة للمراتب . فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية ، المكتوبة على صفحات الموجودات

بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة، أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [1]) . وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة ، فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالا ممن كنز . لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة، والمكس، والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس : والحبس أهون منه . وذلك أن الخزف ، والرصاص ، والنحاس، تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد . وإنما الأواني لحفظ المائعات. ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود . فمن لم ينكشف له هذا ، انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له [1] «مَنْ شَرِبَ فِي آنِيَةٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَكَأَنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»

وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما . فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد ، فيتوصل به إلى مقصوده ، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما . وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون: إن الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره . وكموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد ، فلو جاز له أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله ، فيبقى النقد مقيدا عنده، وينزل منزلة المكنوز . وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم . فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار ، وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ؟ ولم جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد

---

(١) حديث من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة لم يصرح المصنف بكونه حديثا .

---

(١) التوبة : ٣٤

النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل . إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلا قليلا . ففي المنع منه مايشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز ، من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر ، فإنه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا نمنع مما لا تتشوق النفس إليه ، إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر . وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء ، فلا ينتظم العقد . وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده ، فلا جرم نمنعه منه ، ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه . ومالا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته . وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة ، حتى صارت مقصودة في أعيانها ، وحقها أن لا تقصد

وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة ، فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد للإحسان ، في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه ، لتبقى صورة المسامحة ، فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر . فهو أيضا ظلم ، لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعاوضة . وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها ، أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها . فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ، ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل . والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ، ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ؟ ولم يجعله بضاعة تجارة ؟ وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه . ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر ، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب

نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض ، وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ، ولكنه عابث ، فلا يحتاج إلى منع ، لأن النفوس لا تسمح به

إلا عند التفاوت فى الجودة ، ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات، والجيد يساوى الردىء فى أصل الفائدة ، ويخالفه فى وجوه التنعم، أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام

فهذه حكمة الشرع فى تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه ، فلنلحق هذا بفن الفقهيات ، فإنه أقوى من جميع ماأوردناه فى الخلافيات

وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله فى التخصيص بالأطعمة دون المكيلات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول . ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه ، إذ خصصه بالأقوات . ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن ينضبط بحد ، وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت ، وكان ممكنا بالمطعوم ، فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ماهو ضرورة البقاء . وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم . ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق فى اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص. فمبين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فيكون الحد ضروريا . فلذلك قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [(١)]) ولأن أصول هذه المعانى لا تختلف فيها الشرائع . وإنما تختلف فى وجوه التحديد ، كما يحد شرع عيسى بن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر ، لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل فى الحدود داخل فى التحريم بحكم الجنس ، كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية

فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين . فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال . فكل ماخلق لحكمة فلا ينبغى أن يصرف عنها . ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [(٢)]) ولكن لا تصادف جواهر الحكم فى قلوب هي مزابل الشهوات ، وملاعب الشياطين . بل لا يتذكر إلا أولوا الألباب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ

---

(١) حديث لولا ان الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء : تقدم فى الصوم

(١) الطلاق : ١ (٢) البقرة : ٢٦٩ .

بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ » . وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ، ونطقك وسكوتك . وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر . إذ لايتصور أن ينفك عنهما . وبعض ذلك نصفه فى لسان الفقه الذى تناطق به عوام الناس بالكراهة ، وبعضه بالحظر . وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين ، إذ خلق الله لك اليدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه فى الغالب التشريف والتفضيل. وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لايأمر إلابالعدل . ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة . فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزلت النجاسة باليمين ، فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ، فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل . وكذلك إذا بصقت مثلا فى جهة القبلة ، أو استقبلتها فى قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله تعالى فى خلق الجهات وخلق سعة العالم ، لأنه خلق الجهات لتكون متسعك فى حركتك ، وقسم الجهات إلى مالم يشرفها ، وإلى ماشرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه ، استمالة لقلبك إليه ، ليتقيد به قلبك ، فيتقيد بسببه بدنك فى تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك . وكذلك انقسمت أفعالك إلى ماهي شريفة كالطاعات ، وإلى ماهي خسيسة كقضاء الحاجة ، ورمي البصاق. فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها ، وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة، التى بوضعها كمال عبادتك . وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لأن الخف وقاية للرجل ؛ فللرجل فيه حظ ، والبداءة فى الحظوظ ينبغى أن تكون بالأشرف ، فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل . وهذا عند العارفين كبيرة ، وإن سماه الفقيه مكروها . حتى أن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الحنطة ، وكان يتصدّق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا ، فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لايقدر على تفخيم الأمر فى هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام ، وهم منغمسون فى ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها . فقبيح أن يقال الذى شرب الخمر ، وأخذ القدح

بيساره ، فقد تعدى من وجهين .أحدهما:الشرب ، والآخر:الأخذباليسار . ومن باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة ، فقبيح أن يقال خان من وجهين . أحدهما: بيع الخمر،والآخر:البيع في وقت النداء . ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة ، فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة ، من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه. فالمعاصي كلها ظلمات و بعضها فوق بعض ، فينمحق بعضها في جانب البعض. فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه . ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده ، لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم و نكاية في نفسه . فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب ، وتساهلنا فيه في الفقه مع العوام ، فسببه هذه الضرورة . وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل ، وكفران للنعمة ، و نقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب . نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذى هو مستقر الشياطين . وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار و خلق اليد . أما اليد ، فإنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالى ، وخلق له العروق ، وساق إليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ، ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده،فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده، مخالفة لمقصود الحكمة ،و عدول عن العدل.فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان فإنهما جميعا فانيان هالكان . فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا . وإليه الإشارة بقوله تعالى(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ[1]) . نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا. لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم، بل تفي بحاجة واحدة.ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر و وضعه في الأرض وساق إليه الماء ، وقام بالتعهد ، فهو أولى به من غيره ، فيرجح جانبه بذلك . فإن نبت ذلك

---

(1) الجاثية : ١٣

فى موات الأرض ، لابسعي آدمي اختص بغرسه أو بغرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر ، وهو السبق إلى أخذه . فللسابق خاصية السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به . وعبّر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض . إذ لامالك إلا لملك الملوك ، الذى له مافى السموات والأرض . وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه ! بل هو ملك غيره . نعم الخلق عباد الله ، والأرض مائدة الله . وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم . كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه ، فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده ، لم يمكن منه ، لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد ، فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ، ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لاتفى بحاجة كل العبيد، فالعدل فى التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفرد به العبد ، فمنع من لايدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته . فهكذا ينبغى أن تفهم أمر الله فى عباده . ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته ، وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج إليه ، فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله . وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا، إذ بها تندفع ضروراتهم ، وترتفع حاجاتهم . نعم لايدخل هذا فى حد فتاوى الفقه ؛ لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة . فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار ، والتؤدة ، والسكوت عن كل كلام غير مهم . وهو بحكم نقصانهم لايطيقونه . فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم ، لايدل على أن اللهو واللعب حق

فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال ، والاقتصار فى الإنفاق على قدر الزكاة، لضرورة ماجبلوا عليه من البخل ، لايدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا [1]) بل الحق الذى لا كدورة فيه ، والعدل الذى لاظلم فيه ، أن لايأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب . فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان ، إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه، ثم منعه عن راكب

(١) محمد : ٣٧

آخر محتاج إليه ، فهو ظالم تارك للعدل ، وخارج عن مقصود الحكمة ،وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرءان ، والرسول ، والعقل ، وسائر الأسباب التى بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة . فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات ، قدر على القيام بوظيفة الشكر . واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ، ثم لانفى إلا بالقليل . وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [1]) وفرح إبليس لعنة الله بقوله (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [2]) فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله ، وأمورا أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها . فأما تفسير الآية ومعنى لفظها ، فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة فى كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة ، وبلوغها غاية المراد منها ، وجعل بعض أفعالهم مانعا من تمام الحكمة . فكل فعل وافق مقتضى الحكمة ، حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر . وكل ماخالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران . وهذا كله مفهوم . ولكن الإشكال باق وهو أن فعل العبد المنقسم إلى مايتمم الحكمة ، وإلى مايرفعها ، هو أيضا من فعل الله تعالى . فأين العبد فى البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا أخرى ؟

فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها . ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها ، يفهمها من عرف منطق الطير ، ويجحدها من عجز عن الإيضاع فى السير ، فضلا عن أن يجول فى جو الملكوت جولان الطير . فنقول : إن لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع . وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة ، حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها ، وخصوص حقيقتها . فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها ، وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادى إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم ، كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور

(١) سبأ : ١٣ (٢) الاعراف : ١٧

الشمس ، لا لغموض فى نور الشمس ، ولكن لضعف فى أبصار الخفافيش . فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها ، إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جداً . فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق ، فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق والاختراع

ثم الخلق ينقسم فى الوجود إلى أقسام ، وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها ، صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت ، عبارة المشيئة . فهي توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات ، التى هي حروف وأصوات المتفاهمين بها . وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها ، كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذى هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية . وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التى بها تم القسمة والاختلافات . فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة : وقيل إنهما جميعا داخلان فى وصف المشيئة ، ولكن لكل واحد خاصية أخرى فى النسبة ، يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات . ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك قهرا فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم ، وإلى من سبقت لهم فى الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها فى بعض الأمور . فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة . فاستعير لنسبة المستعملين فى إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه فى الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال . وظهر على من ارتضاه فى الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر ، وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة فى الرضا والقبول والإقبال

فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبّح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ، ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تمم زينته قال يا جميل

ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ! فيكون بالحقيقة هو المجمّل ، وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة . فهكذا كانت الأمور فى الأزل ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب . ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث ، بل عن إرادة ، وحكمة ، وحكم حق ، وأمر جزم ،استعير له لفظ القضاء ،وقيل إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب . ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم ، بما سبق به التقدير ،فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى ، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادى إلى غير نهاية . وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر . فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل . وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر ، والاحتواء على مجامعه ، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع . وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والأرض،وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ،فمسته نار ،فاشتعل نورا على نور ،فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها ، فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه ، فقيل لهم : تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا ، (١) وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، فإن للحيطان آذانا ، وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش ، فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى ، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ، ليأنس بكم الضعفاء ، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل ،فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله ، وإن كان لا يحيا به حياة المترددين فى كمال نور الشمس ،وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شرابا طيبا عند طيب ... كذلك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ... وللأرض من كاس الكرام نصيب

---

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا : الطبرانى من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره . ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له. وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك . والأعمى ممكن أن يقاد، ولكن إلى حد ما . فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، قدر الطائر على أن يطير عليه ، ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى . وإذا دق المجال ، والطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه ،وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر . فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو مجال جماهير الخلق ،كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الارض. والسباحة يمكن أن تتعلم ، فأما المشي على الماءفلا يكتسب بالتعليم، بل ينال بقوة اليقين. ولذلك[1] قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن عيسى عليه السلام يقال أنه مشي على الماء. فقال صلى الله عليه وسلم « لَوِ ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشِيَ عَلَى الْهَوَاءِ »

فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة ، والرضا والغضب، والشكر والكفران لايليق بعلم المعاملة أكثر منها . وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم. ثم أخبر أن له عبدين ، يحب أحدهما واسمه جبريل ، وروح القدس ، والامين ، وهو عنده محبوب ،مطاع ، أمين ، مكين ، ويبغض الآخر واسمه ابليس ، وهو اللعين ، المنظر إلى يوم الدين . ثم أحال الإرشاد الى جبريل فقال تعالى (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ[1]) وقال تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ[2]) وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ[3]) والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة . فانظر كيف نسبه الى العبد الذى غضب عليه . والإرشاد سياقه لهم

(١) حديث قيل له يقال أن عيسى مشى على الماء قال لوازداد يقينا لمشى على الهواء هذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ماروراه ابن أبي الدنيا فى كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزنى قال فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا الى البحر إذا هو قد أقبل يمشى على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

(١) النحل : ١٠٢ (٢) غافر : ١٥ (٣) الزمر : ٨

إلى الغاية . فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه . وعندك في العادة له مثال . فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب ، وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات ، وكان له عبدان ، فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما ، وأكملهما ، وأحبهما إليه . ولا ينبغي أن تقول هذا فعلي ، ولم يكون فعله دون فعلي ، فإنك أخطأت ، إذ أضفت ذلك إلى نفسك . بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه ، والفعل المحبوب بالشخص المحبوب ، إتماما للعدل . فإن عدله تارة يتم بأمور لامدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك . فإنك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك ، وعلمك ، وعملك ، وسائر أسباب حركاتك ، في التعيين هو فعله ، الذي رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لاترى إلا نفسك ، فتظن أن مايظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك

وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ ، الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص ، وتزعق ، وتقوم ، وتقعد ، وهي مؤلفة من خرق لاتتحرك بأنفسها ، وإنما يحركها خيوط شعرية دقيقة لاتظهر في ظلام الليل ، ورؤوسها في يد المشعبذ ، وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون ، لظنهم أن تلك الخرق ترقص ، وتلعب وتقوم وتقعد . وأما العقلاء ، فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ، ولكنهم ربما لايعلمون كيف تفصيله . والذي يعلم بعض تفصيله لايعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده

فكذلك صبيان أهل الدنيا . والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء . ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة ، فيحيلون عليها . والعلماء يعلمون أنهم محركون ، إلا أنهم لايعرفون كيفية التحريك ، وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية ، بل أدق منها بكثير ، معلقة من السماء ، منشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض ، لاتدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها . وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات . وشاهدوا أيضا ملائكة السموات

مصروفة إلى حملة العرش ، ينتظرون منهم ماينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وعبّر عن هذه المشاهدات في القرآن فقيل (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [١]) وعبّر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل (خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا [٢]) وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبّر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق ، حيث قرأ قوله تعالى (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ [٣]) فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتوني وفي لفظ آخر لقلتم إنه كافر . ولنقتصر على هذا القدر ، فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار ، وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه ، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول

إذا رجع حقيقة الشكر إلى قول العبد مستعملا في إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكرُ العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه . وأقربهم إلى الله الملائكة ، ولهم أيضا ترتيب . ومامنهم إلا وله مقام معلوم . وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام . وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام . وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض . ويلي درجتهم درجة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم أخيار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق ، وتمم بهم حكمته . وأعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكمل الله به الدين . وختم به النبيين . ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره . ثم يليهم السلاطين بالعدل ، لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين ، والملك والسلطنة ، لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان أفضل من سائر الأنبياء . فإنهم أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم . ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء . ثم يلي العلماء والسلاطين ، الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم . ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع

(١) الذاريات : ٢٢ (٢-٣) الطلاق : ١٢ .

واعلم أن السلطان به قوام الدين ، فلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالما فاسقا ، قال عمرو ابن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِمْ أَكْثَرُ فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمُ الأَجْرُ وَعَلَيْكُمُ الشُّكْرُ وَإِنْ أَسَاءُوا فَعَلَيْهِمُ الْوِزْرُ وَعَلَيْكُمُ الصَّبْرُ » وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق . ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع . ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير ؟ فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان ! فقال مهلا ، إن لله تعالى كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول : الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصًّا يقصون.

الركن الثاني

من أركان الشكر ، ما عليه الشكر

وهو النعمة . فلنذكر فيه حقيقة النعمة ، وأقسامها . ودرجاتها ، وأصنافها ، ومجامعها فيما يخص ويعم . فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [1]) فنقدم أمورا كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدن وما يصلح الله بهم أكثر ـ الحديث : مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء فعرفون وتنكرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الاجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أوحاف أوظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ الا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله اصبروا فان جور امامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثا والامارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبراني في الكبير باسناد لا بأس به

(١) النحل : ١٨ .

بيان

حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة . ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية . وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط ، وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإن ذلك غلط محض . وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق . فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها ، إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق ، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة ، واللذات المسماة نعمة ، نشرحها بتقسيمات . القسمة الأولى أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا ، كالعلم وحسن الخلق ، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا ، كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل ، كالتلذذ باتباع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل ، كقمع الشهوات ومخالفة النفس

فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا . كالعلم وحسن الخلق . والضار فيهما من البلاء تحقيقا ، وهو ضدهما . والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر وتظنه الجهال نعمة . ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم ، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه . والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهال . ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه ، إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة . فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ، ويقربه منه ، ويهيء له أسبابه . ولذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة ، والأب يدعوه إليها ، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة ، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ، ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له . ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطنا في صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل .

وكل إنسان فإنه صديق نفسه ، ولكنه صديق جاهل . فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو . قسمة ثانية . اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة ، قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال ، والأهل ، والولد ، والأقارب ، والجاه ، وسائر الأسباب . ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره ، كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ما ضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص ، كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى مايكافىء ضرره نفعه . وهذه أمور تختلف بالأشخاص . فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر ، فينفقه فى سبيل الله ، ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه . ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا ، إذ لايزال مستصغرا له ، شاكيا من ربه ، طالبا الزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه

قسمة ثالثة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ماهو مؤثر لذاته لالغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول : مايؤثر لذاته لالغيره كلذة النظر إلى وجه الله تعالى ، وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التى لاانقضاء لها ، فإنها لاتطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها

الثانى : مايقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته ، كالدراهم والدنانير، فإن الحاجة لوكانت لاتنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة. ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات، سريعة الإيصال إليها ، صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها، حتى يجمعوها ويكنزوها ، ويتصارفوا عليها بالربا ، ويظنون أنها مقصودة . ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا . فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ، ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الأصل ، فيعرض عنه طول عمره ؟ ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده ، وهو غاية الجهل والضلال .

الثالث : مايقصد لذاته ولغيره ، كالصحة والسلامة ، فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا . وتقصد أيضا لذاتها ، فإن الإنسان وإن استغنى عن الشىء الذى تراد سلامة الرجل لأجله ، فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة . فإذاً المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما مالا يؤثر إلالغيره كالنقدين

فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ، ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عنده الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة ، فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة . قسمه رابعة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ، ولذيذ ، وجميل . فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المآل ؛ والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشرور أيضا تنقسم إلى ضار ، وقبيح ومؤلم . وكل واحد من القسمين ضربان . مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة ، أما في الخير فكالعلم والحكمة ، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة . وأما في الشر فكالجهل ، فإنه ضار وقبيح ومؤلم . وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ، ويرى نفسه جاهلا ، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنعه الحسد ، والكبر . والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان ، فيعظم ألمه . فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات ، أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة

والضرب الثاني : المقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض . فرب نافع مؤلم ، كقطع الأصبع المتآكلة ، والسلعة الخارجة من البدن . ورب نافع قبيح كالحمق ، فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له ، فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه . ورب نافع من وجه ضار من وجه ، كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال ، نافع للنفس في نجاتها

والنافع قسمان : ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل ، إذ لا يقوم مقامهما ألبتة غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء ، فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه

قسمة خامسة : اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ . واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض

الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلذة العلم والحكمة . إذ ليس يستلذها السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب ، لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل . وهذه أقل اللذات وجودا ، وهي أشرفها

أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم ، والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ودائمة لا تمل . فالطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل . ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد ، إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد ، فهو مصاب في عقله ، محروم لشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة ، بخلاف المال . إذ العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال . والعلم يزيد بالإنفاق ، والمال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق ، والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ، ولا أيدي السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدا ، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدا . ثم العلم نافع ، ولذيذ ، وجميل ، في كل حال أبدا والمال تارة يجذب إلى الهلاك ، وتارة يجذب إلى النجاة . ولذلك ذم الله تعالى المال في القرءان في مواضع ، وإن سماه خيرا في مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم ، فإما لعدم الذوق ، فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإما لفساد أمزجتهم ، ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ، ولا يستلذ إلا اللبن . وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة ، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء . فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة : إما من لم يحي باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات . وقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ[1]) إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا[2]) إشارة إلى من لم يحي

(1) البقرة : ١٠ (2) يس : ٧٠

حياة باطنة . وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى ، وإن كان عند الجهال من الأحياء . ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين، وإن كانوا موتى بالأبدان

الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات ، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة: مايشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا ، وهي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدها التصاقا ، بالمتغافلين . فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة ، فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب . وآخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون . وشهوة الرياسة لايقوى على كسرها إلا الصديقون . فأما قمها بالكلية حتى لايقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال ، فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لايقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لايدوم طول العمر ، بل تعتريه الفترات ، فتعود إليه الصفات البشرية، فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لاتقوى على حمل النفس على العدول عن العدل

وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام . قلب لايحب إلا الله تعالى ، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لايدرى مالذة المعرفة ، وما معنى الأنس بالله ، وإنما لذته بالجاه ، والرياسة . والمال ، وسائر الشهوات البدنية ، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه ، والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ، ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد .

وأما الثاني : فالدنيا طافحة به . وأما الثالث والرابع : فموجودان ، ولكن على غاية الندور . ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام . فلا يزال يزداد

العهد طولا ، وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادى ملك الآخرة ، والملك عزيز ، والملوك لا يكثرون ، فكما لا يكون الفائق فى الملك والجمال إلا نادرا ، وأكثر الناس من دونهم ، فكذا فى ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخر عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة ، والصورة فى المرآة وإن كانت هي الثانية فى رتبة الوجود ، فإنها أولى فى حق رؤيتك . فإنك لا ترى نفسك ، وترى صورتك فى المرآة أولا ، فتعرف بها صورتك التى هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة . فانقلب التابع فى الوجود متبوعا فى حق المعرفة ، وانقلب المتأخر متقدما . وهذا نوع من الانعكاس . ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم . فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت . فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار ، فلا ينظر فى شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ [1]) . ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر ، فاحتبس فى عالم الملك والشهادة ، وسينفتح إلى حبسه أبواب جهنم . وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفئدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجابا . فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك . وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق ، فقالوا . الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمي عين اليقين . وعين اليقين لا يكون إلا فى الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون فى الدنيا ، ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين . فلذلك قال الله تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ [2]) أي فى الدنيا (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [3]) أي فى الآخرة ، فإذاً قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة ، لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا . قسمة سادسة : حاوية لمجامع النعم . اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية . أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهى النعمة

(١) الحشر : ٢ (٢) التكاثر : ٥ (٣) التكاثر ٧

الحقيقية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا عَيْشَ إِلَا عَيْشُ الآخِرَةِ » وقال ذلك مرة فى الشدة تسلية للنفس ، وذلك فى وقت [1] حفر الخندق فى شدة الضر . وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ، وذلك ، عند إحداق الناس به [2] فى حجة الوداع . وقال رجل: [3] اللهم إنى أسألك تمام النعمه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ؟ » قال لا قال « تَمَامُ النِّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ »

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى مايليه فى القرب كفضائل البدن ، وهو الثانى ، وإلى مايليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن ، كالأسباب المطيفة بالبدن من المال ، والأهل والعشيرة وإلى مايجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية . فهي إذاً أربعة أنواع

النوع الأول : وهو الأخص . الفضائل النفسية . ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة ، وهو العلم بالله تعالى، وصفاته وملائكته ، ورسله ،وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب ، واسمه العفة ، ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لايمتنع أصلا ، ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى (أَنْ لَا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [1]) فمن خصى نفسه لتزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر ، فقد أخسر الميزان . ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج ، فقد طغى فى الميزان . وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران ،فتعتدل به كفتا الميزان

فإذاً الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة . علم مكاشفة ، وعلم معاملة ،

---

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لاعيش الاعيش الآخرة : متفق عليه من حديث أنس
(٢) حديث قوله فى حجة الوداع لاعيش الاعيش الآخرة :الشافعى مرسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم فى الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إنى أسألك تمام النعمة ـ الحديث الترمذى من حديث معاذ بسند حسن

---

(١) الرحمن : ٧ ، ٩

وعفة ، وعدالة ولا يتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى . وهو الفضائل البدنية ، وهى أربعة . الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث ، وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن ، وهى أربعة : المال ، والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة . ولا ينتفع بشىء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع ، وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة ، وهى أربعة : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . فمجموع هذه النعم ستة عشر ، إذ قسمناها إلى أربعة ، وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة . وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض ، إما حاجة ضرورية ، أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق ، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى ، وليس لأحد فى الآخرة إلا ما تزود من الدنيا . فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم ، وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى . وأما الحاجة النافعة على الجملة ، فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة ، مثل المال ، والعز ، والأهل فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال ، والأهل ، والجاه والعشيرة ؟ فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ ، والآلة المسهلة للمقصود . أما المال ، فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية ، كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْمَالُ » وكيف لا . ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب الأقوات ، وفى تهيئة اللباس ، والمسكن ، وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ، ولا تندفع إلا بسلاح المال .

---

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد

(٢) حديث نعم العون على تقوى الله المال : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا ومن طريقه رواه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا

ثم مع ذلك محروم عن فضيلة الحج ، والزكاة ، والصدقات ، وإفاضة الخيرات . وقال بعض الحكماء ؛ وقد قيل له ماالنعيم ؟ فقال الغنى ، فإني رأيت الفقير لاعيش له. قيل زدنا. قال الأمن فإني رأيت الخائف لاعيش له. قيل زدنا. قال العافية. فإني رأيت المريض لاعيش له. قيل زدنا. قال الشباب . فإني رأيت الهرم لاعيش له . وكأن ماذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ، ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة . لذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »

وأما الأهل والولد الصالح ، فلا يخفى وجه الحاجة إليهما . إذ قال صلى الله عليه وسلم [٢] « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد [٣] « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه ، كانوا له مثل الأعين والأيدي ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ، مالو انفرد به لطال شغله ، وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذاً نعمة

وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا يستغنى عنه مسلم ، فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يشوش عليه علمه ، وعمله ، وفراغه ، ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه . ولذلك قيل . الدين والسلطان توأمان. قال تعالى (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ[١]) ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم. ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه . فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه . وعلى هذا القصد كان

---

(١) حديث من أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه ـ الحديث : الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الانصاري وقد تقدم

(٢) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة :لم أجده اسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة

(٣) حديث إذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث: مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح

---

(١) البقرة : ٢٥١

الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة ، يراعون السلاطين ، ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين. لا على قصد التناول من خزائنهم، والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم. ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث نصره وأكمل دينه، وأظهره على جميع أعدائه ، ومكن في القلوب حبه ، حتى اتسع عزه وجاهه ، كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة .[1]

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم [3] من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمُ الأَكْفَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ » فقيل وما خضراء

---

(١) حديث ماناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة البخاري ومسلم من حديث عائشة انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل الحديث : وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد الاشيء يواريه ابط بلال قال الترمذي معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال وللبخاري عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه ـ الحديث وللبزار وأبي يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله واسناده صحيح على شرط مسلم

(٢) حديث الأئمة من قريش النسائي والحاكم من حديث أنس باسناد صحيح

(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وفي رواية الترمذي أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه أن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم وفي حديث ابن عباس مابال أقوام يبتذلون أصلي فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا

(٤) حديث تخيروا لنطفكم :ابن ماجه من حديث عائشة : وتقدم في النكاح

(٥) إياكم وخضراء الدمن : تقدم فيه أيضا

الدمن ؟ قال « الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ » فهذا أيضا من النعم . ولست أعنى به الانتساب إلى الظَّلَمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء ، وإلى الصالحين والأبرار ، المتوسمين بالعلم والعمل

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة ، وإلى طول العمر ، إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى » وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات . ولعمرى الجمال قليل الغناء ، ولكنه من الخيرات أيضا . أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها . وأما في الآخرة فمن وجهين . أحدهما أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة . وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح . وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس ، لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن ، فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم . ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس . وقيل ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال . الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن

وقد قال صلى الله عليه وسلم [٢] « اطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ صِبَاحِ الْوُجُوهِ » ، وقال عمر رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه ، حسن الاسم . وقال الفقهاء إذا تساوت

---

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله : غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث أبى بكرة أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح

(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه : أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد ابن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقى في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة

درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة . وقال تعالى ممتنا بذلك (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ [١]) ولسنا نعني بالجمال مايحرك الشهوة ، فإن ذلك أنوثة . وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناصف خلقة الوجه ، بحيث لاتنبو الطباع عن النظر إليه . فإن قلت فقد أدخلت المال ، والجاه ، والنسب والأهل ، والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] ، وكذا العلماء ، قال تعالى (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [٢]) وقال عز وجل (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [٣]) وقال علي كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء مايحسنون ، وقيمة كل امرىء مايحسنه . وقيل . المرء بنفسه لا بأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة ، والعمومات المخصصة ، كان الضلال عليه أغلب ، مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ماهي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها ، بالتأويل مرة ، وبالتخصيص أخرى . فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها . إلا أن فيها فتنا ومخاوف . فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع ، وسم ناقع . فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها ، وطريق استخراج ترياقها النافع ، كانت نعمة . وإن أصابها السوادي الغر ، فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلىء ، فمن ظفر بالبحر ، فإن كان عالما بالسباحة ، وطريق الغوص ، وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر ، فقد ظفر بنعمه . وإن خاضه جاهلا بذلك ، فقد هلك . فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا . ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى الْمَالُ » وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ منّ الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله ، وحببه في قلوب الخلق ، وهو المعنيّ بالجاه . ولكن المنقول في مدحها قليل ، والمنقول في ذم المال والجاه كثير . وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ، ومعنى الجاه ملك القلوب . وإنما كثر هذا وقل ذاك

(١) حديث ذم المال والجاه : الترمذي من حديث كعب بن مالك مادئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه : وقد تقدم في ذم المال والبخل

(١) البقرة : ٢٤٧ (٢) التغابن : ١٤ (٣) التغابن : ١٥

لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال، وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرهم، فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره. ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد، لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك، كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم، ولا أن ينضاف إليها الغنى، كما كان لسليمان عليه السلام.

فالناس كلهم صبيان، والأموال حيات، والأنبياء والعارفون معزمون. فقد يضر الصبي مالا يضر المعزم. نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه، وقد وجد حية، وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده، وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض في الترياق، وله غرض في حفظ الولد. فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد. فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق، ولا يستضر به ضررا كثيرا، ولو أخذها لأخذها الصبي، ويعظم ضرره بهلاكه، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها، ويشير على الصبي بالهرب، ويقبح صورتها في عينه، ويعرفه أن فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة. وكذلك الغواص، إذا علم أنه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك، فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر. فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل، فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي، ولا يقرب منه بين يديه. فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّكُمْ تَتَهَافَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك. وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت. وما فضل فلم يمسكوه، بل أنفقوه. فإن

---

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده : مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم

(٢) حديث إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلي ومثل الناس وقال مسلم ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي

الإنفاق فيه الترياق ، وفى الإمساك السم . ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه ، لمالوا إلى سم الإمساك ، ورغبوا عن ترياق الإنفاق . فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به تقبيح إمساكها ، والحرص عليها للاستكثار منها ، والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها . فأما أخذها بقدر الكفاية ، وصرف الفاضل إلى الخيرات ، فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده فى السفر ، إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام ، وتوسيع الزاد على الرفقاء ، فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه السلام [1] « لِيَكُنْ بَلَاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ » معناه لأنفسكم خاصة . وإلا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به ، من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد ، ويفرقها فى موضعه ، ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة ، [2] استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فى أن يخرج عن جميع ما يملكه ، فأذن له . فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، الحديث

فاذاً النعم الدنيوية مشوبة . قد امتزج دواؤها بدائها ، ومرجوّها بمخوفها ، ونفعها بضرها . فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته ، فله أن يقرب منها متقيا داءها ، ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها ، فالبعد البعد ، والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئا فى حق هؤلاء ، وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه

فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية ، والرشد ، والتأييد ، والتسديد ؟

فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد . وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره . وهذا يشمل الخير والشر ، وما هو سعادة وما هو شقاوة . ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره

---

(١) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب : ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الأسناد * قلت هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب

(٢) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مره أن يطعم المسكين ـ الحديث : الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الأسناد * قلت كلا فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا

كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق . ولذلك قيل

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الإنسان قدتكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ، ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا ، فمن أين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فلا فائدة فى الإرادة ، والقدرة ، والأسباب، إلا بعد الهداية . ولذلك قال تعالى (رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [١]) وقال تعالى (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ [٢]) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى » أى بهدايته فقيل ولا أنت يارسول الله ؟ قال « وَلاَ أَنَا » . وللهداية ثلاث منازل

الأولى : معرفة طريق الخير والشر ، المشار إليه بقوله تعالى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [٣]) وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده ، بعضه بالعقل ، وبعضه على لسان الرسل . ولذلك قال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [٤]) فأسباب الهدى هى الكتب ، والرسل وبصائر العقول . وهى مبذولة . ولا يمنع منها إلا الحسد ، والكبر ، وحب الدنيا ، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار . قال تعالى (فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ [٥]) . ومن جملة المعميات الإلف والعادة ، وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ [٦]) الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [٧]) وقوله تعالى (أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ [٨]) فهذه المعميات هي التى منعت الاهتداء والهداية

---

(١) حديث مامن أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله : متفق عليه من حديث أبى هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا لا أن يتغمدنى : الله بفضل منه ورحمة وفى رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة ـ الحديث : واتفقا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم

---

(١) طه : ٥٠ (٢) النور : ٢١ (٣) البلد ١٠ (٤) فصلت : ١٧ (٥) الحج : ٤٦ (٦) الزخرف : ٢٢ (٧) الزخرف ٣١ (٨) القمر : ٢٤

الثانية : وراء هذه الهداية العامة ، وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة ، حيث قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [1]) وهو المراد بقوله تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى [2]) . والهداية الثالثة وراء الثانية ، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيهتدى بها إلى مالا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم . وهو الهدى المطلق ، وماعداه حجاب له ومقدمات . وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه ، وإن كان الكل من جهته تعالى ، فقال تعالى (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى [3]) وهو المسمى حياة في قوله تعالى (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ [4]) والمعني بقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [5]) . وأما الرشد ، فنعنى به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده ، فتقويه على ما فيه صلاحه ، وتفتره عما فيه فساده . ويكون ذلك من الباطن ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [6]) فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ، محركة إليها . فالصبي إذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ، ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء ، لا يسمى رشيدا ، لا لعدم هدايته ، بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على مايعلم إنه يضره ، فقد أعطى الهداية ، وميزبها عن الجاهل الذي لايدرى أنه يضره ، ولكن ماأعطي الرشد : فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال ، وهي نعمة عظيمة .

وأما التسديد ، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب ، وتيسيرها عليه ، ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت . فإن الهداية بمجردها لا تكفي . بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد . والرشد لا يكفي ، بل لابد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد .

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) محمد : ١٧ (٣) البقرة : ١٢٠ (٤) الانعام : ١٢٢ (٥) الزمر : ٢٢ (٦) الأنبياء : ٥١

وأما التأييد ، فكأنه جامع للكل . وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج . وهو المراد بقوله عز وجل (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ [١]) وتقرب منه العصمة . وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن، يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس . وإياه عني بقوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ [٢])

فهذه هى مجامع النعم .ولن تنثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب ، والسمع الواعى ، والقلب البصير المتواضع المراعى ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على مايقصر عن المهمات بقلته ، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته . والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء . ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا ، إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين،وملجأ المضطرين ؛ وذلك رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها ، فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [٣]) وبالله التوفيق

بيان

وجه الأنموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم فى ستة عشر ضربا . وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة فى الرتبة المتأخرة . فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها . ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التى بها تتم نعمة الأكل ، فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة . ولا بد من إرادة للحركة، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له . ولا بد للآكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه . فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

(١) المائدة : ١١٠ (٢) يوسف : ٢٤ (٣) ابراهيم : ٣٤

الطرف الأول

فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات ، وهو أكمل وجودا من الحجر ، والمدر ، والحديد ، والنحاس، وسائر الجواهر التى لاتنمى ولا تغذى ، فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التى فى الأرض ، وهى له آلات فيها يجتذب الغذاء، وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تتشعب ، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط فى أجزاء الورقة ، حتى تغيب عن البصر ،إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ، ويماس أصله ، جف ويبس ، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر . فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب ، وبالانتقال إليه . والنبات عاجز عن ذلك . فمن نعمة الله تعالى عليك ، أن خلق لك آلات الإحساس، وآلة الحركة فى طلب الغذاء . فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس ، التى هى آلة الإدراك . فأولها : حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة ، أو سيف جارح ، تحس به فتهرب منه . وهذا أول حس يخلق للحيوان . ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إن لم يحس أصلا فليس بحيوان . وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه . فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة. وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التى فى الطين ، فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لاكالنبات . فإن النبات يقطع فلا ينقبض ، إذ لا يحس بالقطع . إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة ، لاتقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك . بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط . فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعُد عنك . فخلق لك الشم . إلا أنك تدرك به الرائحة ، ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية . فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب ، فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا . فخلق لك البصر، لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته ، فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا

لكنت ناقصا ، إذلاتدرك بهذا ماوراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك و بينه حجاب وتبصر عدوّا لاحجاب بينك و بينه . وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لاينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ ، فتعجز عن الهرب . فخلق لك السمع ، حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لاتدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا . وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات، تدرك بحس السمع . فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك أذنك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات . وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف ، فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها . ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر ، يسمى حسا مشتركا ، تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس ، وتجتمع فيه . ولولاه لطال الأمر عليك . فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا ، فوجدته مرا مخالفا لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ مضر مالم تذقه ثانيا ، لولا الحس المشترك . إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ؟ والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلابد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر ، فيمتنع عن تناوله ثانيا . وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات . إذ للشاة هذه الحواس كلها ، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا . فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ ، فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها ، وكيف تتخلص إذا قيدت . وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها . ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ، ويضرها فى ثانى الحال ، فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر . فأما إدراك العواقب فلا . فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هى أشرف من الكل ، وهو العقل . فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك ، وهو أخس فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه . بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة الحكمة فى عالمه . وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس

فى حقك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحى المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به . فواحدة منها بأخبار الألوان ، والأخرى بأخبار الأصوات ، والأخرى بأخبار الروائح ، والأخرى بأخبار الطعوم ، والأخرى بأخبار الحر ، والبرد ، والخشونة ، والملاسة ، واللين ، والصلابة ، وغيرها . وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها إلى الحس المشترك . والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك ، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم فيأخذها وهى مختومة ويسلمها ، إذ ليس له إلا أخذها ، وجمعها ، وحفظها . فأما معرفة حقائق ما فيها فلا . ولكن إذا صادف القلب العاقل ، الذى هو الأمير والملك ، سلم الأنهاآت إليه مختومة ، فيفتشها الملك ، ويطلع منها على أسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام . وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود ، وهى الأعضاء ، مرة فى الطلب ، ومرة فى الهرب ، ومرة فى إتمام التدبيرات التى تعن له . فهذه سياقة نعمة الله عليك فى الإدراكات . ولا تظنن أنا استوفيناها . فإن الحواس الظاهرة هى بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة ، بعضها رطوبات وبعضها أغشية . وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت ، وبعضها كالمشيمة . وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض ، وبعضها كأنه الجمد . ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وعرض ، وتدوير ، وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر ، أو صفة واحدة من صفات كل طبقة ، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم

فهذا فى حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس . بل لا يمكن أن تستوفى حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة ، مع أن جملته لا تزيد على جوزة صغيرة . فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثانى

فى أصناف النعم فى خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ، ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق إليه ، وشهوة له تستحثك على الحركة، لكان البصر معطلا . فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ،فيبقى البصر والإدراك معطلا فى حقه . فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى مايوافقك، يسمى شهوة ، ونفرة عما يخالفك ، تسمى كراهة ، لتطلب بالشهوة ، وتهرب بالكراهة . فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام ، وسلطها عليك ، ووكلها بك ، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى التناول ، حتى تتناول وتغتذى ، فتبقى بالغذاء . وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات

ثم هذه الشهوة لولم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة ، أسرفت وأهلكت نفسك . فخلق الله لك الكراهة عند الشبع ، لتترك الأكل بها ، لا كالزرع ، فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى أسفله حتى يفسد ،فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ،فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى . وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك ،خلق لك شهوة الجماع ، حتى تجامع فيبقى به نسلك . ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم ، وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض ، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق ، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور ؛ وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها فى أطوار خلقها مضغة وعلقة، ثم عظما ولحما ودما، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس، ويد، ورجل وبطن، وظهر ، وسائر الأعضاء، لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدأ خلقك كل العجب ،فضلا عما تراه الآن . ولكنا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى فى الاكل وحده كى لا يطول الكلام

فإذاً شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ،فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب . فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ،لبقيت عرضة للآفات ، ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء . فإن كل واحد يشتهى ما فى يديك ،فتحتاج

إلى داعية في دفعه ومقاتلته ، وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك
ثم هذا لا يكفيك ، إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال . وأما في المآل ، فلا تكفي فيه هذه الإرادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى ، مسخرة تحت إشارة العقل المعرف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة ، فتم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ، مالم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة . وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبني آدم ، كما أفردت بمعرفة العواقب . وقد سميناهذه الارادة باعثا دينيا ، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا

الطرف الثالث

في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب . وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب . فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه ، مدرك له ، ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده ، أو لفالج وخدر فيهما . فلابد من آلات للحركة ، وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا ، وبمقتضى الكراهية هربا . فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها . فمنها ماهو للطلب والهرب ، كالرجل للإنسان ، والجناح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ماهو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان . وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة ، فخلق له الجناح ليطير بسرعة . ومنها ما خلق له أربع قوائم . ومنها ماله رجلان . ومنها ما يدب . وذكر ذلك يطول . فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ، ليقاس عليها غيرها فنقول . رؤيتك الطعام من بعد ، وحركتك إليه لا تكفي ، مالم تتمكن من أن تأخذه . فافتقرت إلى آلة باطشة ، فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين ، وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ، ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات ، فتمتد وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة . ثم جعل رأس اليد عريضا

بخلق الكف . ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع . وجعلها فى صفين . بحيث يكون الإبهام فى جانب . ويدور على الأربعة الباقية . ولو كانت مجتمعة أو متراكة لم يحصل بها تمام غرضك . فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة ، وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض . ثم خلق لها أظفارا ، وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تتفتت ، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الاصابع فتأخذها برءوس أظفارك . ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين ، فمن أين يكفيك هذا ، مالم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن فلابد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها ، حتى يدخل الطعام منه . فجعل الفم منفذا إلى المعدة ، مع مافيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة ، فلا يتيسر ابتلاعه ، فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة إلى القطع . ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك . فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس . وإلى حادة قواطع كالرباعيات . وإلى مايصلح للكسر كالأنياب . ثم جعل مفصل اللحيين متخللا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر ، حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى . ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحى الأسفل متحركا حركة دورية واللحى الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب صنع الله تعالى ، فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذى صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى . فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام فى فناء الفم ، فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان ، أوكيف تستجره الأسنان إلى نفسها ، أوكيف يتصرف باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف فى جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى . هذا مع مافيه من فائدة الذوق ، وعجائب قوة النطق . والحكم التى لسنا نطنب بذكرها . ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته

وهو يابس ، فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها ، وينصب بقدر الحاجة ، حتى ينعجن به الطعام . فانظر كيف سخرها لهذا الأمر ، فإنك ترى الطعام من بعد ، فيثور الحنكان للخدمة ، وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك ، والطعام بعدُ بعيدٌ عنك. ثم هذا الطعام المطحون المنعجن ، من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ، ولا تقدر على أن تدفعه باليد ، ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام . فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ، ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه ، فيهوى إلى المعدة فى دهليز المرىء . فإذا ورد الطعام على المعدة ، وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة ، بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه . فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر ، فيقع فيها الطعام ، فتحتوى عليه ، وتغلق عليه الأبواب ، فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ، ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب ، فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب ، حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها، يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق . وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق ، وجعل لها فوهات كثيرة ، حتى ينصب الطعام فيها ، فينتهى إلى الكبد .

والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة فى أجزاء الكبد ، فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ، وينتشر فى أجزائها ، حتى تستولى عليه قوة الكبد ، فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ، ويحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء الأعضاء . إلا أن حرارة الكبد هي التى تنضج هذا الدم . فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ ، إحداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو الخلط السوداوى ، والأخرى شبيهة بالرغوة ، وهى الصفراء . ولو لم تفصل عنهما

الفضلتان فسد مزاج الأعضاء . فخلق الله تعالى المرارة والطحال ، وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد ، داخلا فى تجويفه . فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ، ويجذب الطحال العكر السوداوى . فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة ، لما فيه من المائية . ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ، ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين ، وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد ، بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد ، حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد . إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق . فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث ، نقيا من كل ما يفسد الغذاء . ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافى فيها ، ويصل إلى سائر الأعضاء ، حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار ، بحيث لا تدرك بالأبصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء . ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم ، وحصل منه الأمراض الصفراوية ، كاليرقان والبثور والحمرة . وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى ، حدثت الأمراض السوداوية ، كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها . وإن لم تندفع المائية نحو الكلا حدث منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم ، كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة ، أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها ، وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ، ليحصل له فى ثفل الطعام رطوبة مزلقة ، ويحدث فى الأمعاء لذع يحركها للدفع ، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق ، وتكون صفرته لذلك

وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها فى كل يوم شيئا إلى فم المعدة ، فيحرك الشهوة بحموضته ، وينبهها ويثيرها ، ويخرج الباقى مع الثفل

وأما الكلية فإنها تغتذى بما فى تلك المائية من دم ، وترسل الباقى إلى المثانة

ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الأسباب التى أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء

الرئيسة إلى صاحبه ، وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن ، وبواسطتها يصل الحس ، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركب الأعضاء ، وعدد عظامها ، وعضلاتها ، وعروقها وأوتارها ، ورباطاتها ، وغضاريفها ، ورطوباتها ، لطال الكلام . وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه . بل فى الآدمي آلاف من العضلات ، والعروق ، والأعصاب . مختلفة بالصغر ، والكبر ، والدقة والغلظ ، وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان ، أو ثلاث ، أو أربع ، إلى عشر وزيادة . وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك ، لو سكن من جملتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين . فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا ، لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ، ويتعب فينام ، ويشتهى فيجامع ، ويستنهض فينهض ويرمح . فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا مايعرفه الحمار ، فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك . وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط . فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل . وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى ، أقل من قطرة من بحر . إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا[1]) . ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء ، وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف ، يتصاعد من الأخلاط الأربعة ، ومستقره القلب ، ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله فى تلك الأجزاء مايحتاج إليه من قوة حس وإدراك ، وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذى يدار فى أطراف البيت ، فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت ، من خلق الله تعالى واختراعه ، ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته . وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ، ومحله القلب : ومثاله جرم نار السراج ، والقلب له كالمسرجة ، والدم الأسود

(١) النحل : ١٨

الذى فى باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح أيضا ينطفىء مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لاتقبل الزيت ، فينطفىء السراج مع كثرة الزيت ، فكذلك الدم الذى تشبثت به هذا البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب ، فينطفىء مع وجود الغذاء ، فإنه لا يقبل الغذاء الذى يبقى به الروح . كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به

وكما أن السراج تارة ينطفىء بسبب من داخل كما ذكرناه ، وتارة بسبب من خارج كريح عاصف ، فكذلك الروح تارة تنطفىء بسبب من داخل . وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت ، أو بفساد الفتيلة ، أو بريح عاصف ، أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة فى علم الله مرتبة ؛ ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده ، فيكون ذلك أجله الذى أجل له فى أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح ، وهي أنوار الإحساسات ، والقُدر ، والإرادات ، وسائر مايجمعها معنى لفظ الحياة

فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ، ليعلم أنه لو كان البحر مددا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا ، وسحقا لمن كفر نعمته سحقا

فإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم [1] سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) فلم يصفه لهم على هذا الوجه ، فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح . فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها . ونحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا . وقد عرفوا صفته

---

(١) حديث انه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربى : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى شرح عجائب القلب

---

(١) الاسراء : ٨٥

ووجوده ، وكيفية سريانه فى الأعضاء ، وكيفية حصول الإحساس والقوى فى الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجرى هذا الروح ، فلا يعالجون موضع الخدر ، بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ، ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ فى شباك العصب ، وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء ، وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل

وأما الروح التى هى الأصل ، وهى التى إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة فى وصفه إلا بأن يقال هو أمر ربانى ، كما قال تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها ، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق . وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتتزلزل فى ذكر مبادى وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شىء من وصفه ، بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال

وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا . فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها ، لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . وإنه لمقام شريف ، ومشرب عذب ، ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد . ولجناب الحق صدر ، وفى مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الأمر الربانى . فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ، ولا لحافظ العتبة مشاهدة ، استحال أن يصل الميدان . فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ! ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا فى خزانة الأطباء ! ومن أين للطبيب أن يلاحظه ! بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب ، بالإضافة إلى هذا الأمر الربانى ، كالكرة التى يحركها صولجان الملك . بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الربانى ، كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك ، فظن أنه رأى الملك . ولا يشك فى أن خطأه فاحش . وهذا الخطأ أفحش

(١) الاسراء : ٨٥

منه جداً . ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف، وبها تدرك مصالح الدنيا، عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر، لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، لكن ذكر نسبته وفعله ، ولم يذكر ذاته . أما نسبته ففي قوله تعالى (مِنْ أَمْرِ رَبِّي[1]) وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي[2])

ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل

الطرف الرابع

في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته

اعلم أن الأطعمة كثيرة ، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، وأسباب متوالية لا تتناهى . وذكر ذلك في كل طعام مما يطول . فإن الأطعمة إما أدوية ، وإما فواكه ، وإما أغذية . فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل ، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ، ولندع سائر الأغذية فنقول :

إذا وجدت حبة أو حبات ، فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا . فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها ، وتزيد وتتضاعف ، حتى تفي بتمام حاجتك . فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذي به كما خلق فيك . فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ، ولا يخالفك في الاغتذاء ، لأنه يتغذى بالماء ، ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق ، كما تغتذي أنت وتجتذب . ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لا يغذيك ، بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء ، بل تحتاج إلى شيء مخصوص . بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد ، لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، ومجرد الهواء لا يصلح

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الفجر : ٢٧ - ٢٩

لغذائها . ولو تركتها فى الماء لم تزد . ولو تركتها فى أرض لا ماء فيها لم تزد . بل لا بد من أرض فيها ماء ، يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا[1])

ثم لا يكفى الماء والتراب . إذ لو تركت فى أرض ندية ، صلبة متراكمة . لم تنبت لفقد الهواء . فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة ، يتغلغل الهواء إليها . ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[2]) وإنما إلقاحها فى إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان فى برد مفرط ، وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف . فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة . فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد . إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار ، والعيون ، والأنهار ، والسواقى . فانظر كيف خلق الله البحار ، وفجر العيون ، وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة ، والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض ، وهي سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة . وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه ، تتفجر منها العيون تدريجا . فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشى . ونعم الله فى الجبال ، والسحاب ، والبحار ، والأمطار ، لا يمكن إحصاؤها . وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض ، وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخر الشمس ، وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر . فهذه إحدى حكم الشمس . والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم . ولذلك لو كانت الأشجار فى ظل يمنع شروق

---

(١) عبس : ٢٤ - ٢٩ (٢) الحجر : ٢٢

الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها ، لكانت فاسدة ناقصة ، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة . وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل ، فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام . فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا . ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه ، بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب . فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها . ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ، ولم يصح قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً [١]) وقوله عز وجل (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [٢]) وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة ، فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك . وشرح ذلك يطول . ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع ، لما ورد فيه من [١] النهي عن تصديق المنجمين ، وعن علم النجوم . بل المنهي عنه في النجوم أمران :

أحدهما : أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها ، مستقلة بها ، وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها ، وهذا كفر . والثاني : تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل . فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ . فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض ، وفي النبات ، وفي الحيوان ليس قادحا في الدين . بل هو حق .

---

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم : أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان اذا ذكر النجوم فأمسكوا واسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يارسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث

---

(١) آل عمران : ١٩١ (٢) الدخان : ٣٨

ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين . ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه ، فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء ، لايلزمك تكذيبه ، ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغير وجه الإنسان ، فقال قرعتنى الشمس فى الطريق فاسود وجهى ، لم يلزمك تكذيبه بذلك . وقس بهذا سائر الآثار .

إلا أن الآثار بعضها معلوم ، وبعضها مجهول . فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر . فإذاً الكواكب ماخلقت عبثا ، بل فيها حكم كثيرة لاتحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء [1] وقرأ قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [1]) ثم قال صلى الله عليه وسلم « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ » ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب . وذلك مما تعرفه البهائم أيضا . فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته . فلله تعالى فى ملكوت السموات ، والآفاق ، والأنفس ، والحيوانات ، عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ، ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبّا له . فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم كله من تصنيفه ، بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنّفه بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته ، وتسديده ، وتعريفه . كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب ، فإنها خرق محركة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ

(١) حديث قرأ قوله تعالى ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ، أى ترك تأملها : الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناب يحيى بن أبى حية ضعيف

(١) آل عمران : ١٩١

المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار . فإذاً المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء ، والهواء ، والشمس ، والقمر ، والكواكب . ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها . ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها . ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات

الطرف الخامس

فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد فى كل مكان ، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض . والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ، ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى . فانظر كيف سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح ، مع أنهم لا يغنيهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون ، فإما أن تغرق بها السفن ، أو تنهبها قطاع الطريق ، أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم ، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح، ويركبوا الأخطار ، ويغرروا بالأرواح فى ركوب البحر ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك . وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن، وكيفية الركوب فيها . وانظر كيف خلق الحيوانات ، وسخرها للركوب والحمل فى البرارى . وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف امتدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش . وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج . وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها، وأدواتها ، وعلفها ، وما تحتاج إليه السفن ، فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة . وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن . ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز

الطرف السادس

فى إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذى ينبت فى الأرض من النبات ، وما يخلق من الحيوانات ، لايمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك . بل لابد فى كل واحد من إصلاح ، وطبخ ، وتركيب ، وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض ، إلى أمور أخر لاتحصى . واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول ، فلنعين رغيفا واحدا ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر فى الأرض . فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذى يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفرك والتنقية ، ثم الطحن ثم العجن ، ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الأفعال التى ذكرناها ومالم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التى يحتاج إليها من الحديد ، والخشب ، والحجر وغيره ، وانظر إلى أعمال الصناع فى إصلاح آلات الحراثة ، والطحن ، والخبز ، من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد ، والرصاص ، والنحاس ، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال ، والأحجار ، والمعادن ، وكيف جعل الأرض قطعا متجاورات مختلفة . فإن فتشت علمت أن رغيفا واحدا لايستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع . فابتدىء من الملك الذى يزجي السحاب لينزل الماء ، إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة ، حتى تنتهى النوبة إلى عمل الإنسان . فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع ، كل صانع أصل من أصول الصنائع التى بها تتم مصلحة الخلق . ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان فى تلك الآلات ، حتى أن الإبرة التى هى آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذى يمنع البرد عنك ، لاتكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبرى خمساً وعشرين مرة ، ويتعاطى فى كل مرة منها عملا . فلولم يجمع الله تعالى البلاد ، ولم يسخر العباد ، وافتقرت إلى عمل المنجل الذى تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذى خلقه من نطفة قذرة ، لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة

والصنائع الغريبة . فانظر إلى المقراض مثلا ، وهما جامان متطابقان، ينطبق أحدهما على الآخر، فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة. ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ، ثم إلى استخراج الحديد من الحجر، وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض ، وعمر الواحد منا عمر نوح ، وأوتى أكمل العقول، لقصر عمره عن استنباط الطريق فى إصلاح هذه الآلة وحدها ، فضلا عن غيرها : فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان ، وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا ، أو عن الحداد .أو عن الحجام الذى هو أخس العمال ،أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصناع ، ماذا يصيبك من الأذى ، وكيف تضطرب عليك أمورك كلها . فسبحان من سخر بعض العباد لبعض ، حتى نفذت به مشيئته ، وتمت به حكمته

ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا ، فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء

الطرف السابع

فى إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها ، لو تفرقت آراؤهم ،وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش ، لتبددوا وتباعدوا ،ولم ينتفع بعضهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش لايحويهم مكان واحد ، ولا يجمعهم غرض واحد .فانظر كيف ألف الله بين قلوبهم ،وسلط الأنس والمحبة عليهم (لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ[1]) فلأجل الألف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا ، وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه . ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ، ويتنافسون فيها . فى جبلة الإنسان الغيظ ، والحسد ، والمنافسة ، وذلك مما يؤدى إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين ، وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب، وألقى رعبهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها . وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد ، حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد ، تتعاون على غرض واحد ،ينتفع

(١) الأنفال : ٦٣

البعض منها بالبعض . فرتبوا الرؤساء ، والقضاة ، والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل ، وألزموهم التساعد والتعاون ، حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب ، والخباز ، وسائر أهل البلد ، وكلهم ينتفعون بالحداد . وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد ، بسبب ترتيبهم ، واجتماعهم ، وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه . كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض

وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا ، وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق ، وقوانين السياسة فى ضبطهم ، وكشفوا من أحكام الإمامة ، والسلطنة ، وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا ، فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين . وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة ، وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض ، إلى أن ينتهى إلى الملك المقرب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى

فالخباز يخبز العجين ، والطحان يصلح الحب بالطحن ، والحراث يصلحه بالحصاد ، والحداد يصلح آلات الحراثة ، والنجار يصلح آلات الحداد ، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة ، والسلطان يصلح الصناع ، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الأنبياء ، إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وكل ذلك نعم من رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [١]) لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى . ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه ، لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء . ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة ، فقال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا [٢]) فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا ، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا ، إذ لا معطى لما منع ، ولا مانع لما أعطى ، لأنا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [٣]) فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار ، وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) النحل : ١٨ (٣) غافر : ١٦

الطرف الثامن

فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله فى خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم، وتبليغ الوحي إليهم . ولا تظنن أنهم مقتصرون فى أفعالهم على ذلك القدر . بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية، والسماوية، وحملة العرش . فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذى ذكرناه، دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك، بل من أجزاء النبات . لا يغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة، إلى مائة إلى ما وراء ذلك . وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دما فى آخر الأمر، ثم يصير لحما وعظما . وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك . والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهى لا تتحرك بأنفسها، ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفى فى ترددها فى أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا، ثم عجينا، ثم خبزا مستديرا مخبوزا إلا بصناع . فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما، وعظما، وعروقا، وعصبا إلا بصناع . والصناع فى الباطن هم الملائكة . كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد . وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة فأقول : لابد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه، ولابد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره ولابد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولابد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم. ولابد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولابد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم، وما اكتسب صفة اللحم باللحم، حتى لا يكون منفصلا . ولابد من سابع يرعى المقادير فى الالصاق، فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته، وبالعريض ما لا يزيل عرضه، وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فإنه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه، وبطل تجويفه، وتشوهت صورته وخلقته . بل ينبغى

أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها ، وإلى الحدقة مع صفائها ، وإلى الافخاذ مع غلظها ، وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، وإلا بطلت الصورة وربا بعض المواضع ، وضعفت بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل فى القسمة والتقسيط . فساق إلى رأس الصبى وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا ، لبقيت تلك الرجل كما كانت فى حد الصغر ، وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا فى ضخامة رجل ، وله رجل واحدة كأنها رجل صبى ، فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فمراعاة هذه الهندسة فى هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدرى ما يقول . فهذه هى الملائكة الأرضية ، وقد شغلوا بك وأنت فى النوم تستريح ، وفى الغفله تتردد ، وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ، ولا خبر لك منهم ، وذلك فى كل جزء من أجزائك الذى لا يتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز . والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى . ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش . والمنعم على جملتهم بالتأييد ، والهداية والتسديد المهيمن القدوس ، المنفرد بالملك والملكوت ، والعزة والجبروت جبار السموات والأرض ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام (١) والأخبار الواردة فى الملائكة

---

(١) حديث الأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب انتهى ففى الصحيحين من حديث أبى ذر فى قصة الاسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح ـ الحديث : ولهما من حديث أبى هريرة ان لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام وفى الصحيحين من حديث عائشة فى قصة عرضه نفسه على عبدياليل فنادانى ملك الجبال ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ الحديث : ولهما من حديث أنس أن الله وكل بالرحم ملكا ـ الحديث : وروى أبو المنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث بريدة الإسلمى مامن نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد ـ الحديث : وفيه محمد بن صالح الطبرى وأبو عمر البكراوى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف وللطبرانى من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف ان الله ملائكة ينزلون فى كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة فى عنقها جرس وللترمذى وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهود ياأبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبى هريرة بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة ـ الحديث

الموكلين بالسموات والأرض ، وأجزاء النبات والحيوانات ، حتى كل قطرة من المطر ، وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب ، أكثر من أن تحصى ، فلذلك تركنا الاستشهاد به . فإن قلت : فهلا فوّضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ، ولم أفتقر إلى سبعة أملاك ؟ والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولا ، ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ، يستقل به ، فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس . وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [١]) فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس . فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ، ولا الشم يزاحمها ، ولا هما ينازعان الشم . وليس كاليد والرجل . فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا ، فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب . ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن ، والعجن ، والخبز ، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل ، سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس واحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل . ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى ، لاختلاف دواعيه وصفاته . وذلك غير ممكن في طباع الملائكة . بل هم مجبولون على الطاعة ، لا مجال للمعصية في حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ويسبحون الليل والنهار لا يفترون . والراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه .

وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم ، يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك . فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان ، لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف

(١) الصافات : ١٦٤

فى طاعتك مرة ، ومعصيتك أخرى . بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ، ينفتح ، وينطبق متصلا بإشارتك . فهذا يشبهه من وجه . لكن يخالفه من وجه إذ الجفن لاعلم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا ، والملائكة أحياء عالمون بما يعملون . فإذاً هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الأرضية والسماوية ، وحاجتك إليهما فى غرض الأكل فقط ، دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها ، فإنا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ، ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات !

فإذاً قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ [1]) فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد ، وسوء الظن ، والبدعة ، واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب ، هو الشكر للنعم الباطنة ، وتركُ الاثم الظاهر بالجوارح ، شكر للنعمة الظاهرة . بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر ، فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والأرض وما بينهما . فإن كل ماخلقه الله تعالى حتى الملائكة ، والسموات والأرض والحيوانات والنبات ، بجملته نعمة على كل واحد من العباد ، قد تم به انتفاعه ، وإن انتفع غيره ايضا به ، فإن لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ ، بها يتم انخفاض الجفن الأعلى ، وارتفاع الجفن الأسفل ، وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى فى سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء ، والسواد يجمعه ، ونعمة الله فى ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ، ومتشبثا للأقذاء التى تتناثر فى الهواء ، وله فى كل شعرة منهما نعمتان من حيث لين أصلها ، ومع اللين قوام نصبها ، وله فى اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ، وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ، ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب . فينظر من وراء شباك الشعر ، فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج ، وغير مانع من امتداد البصر من داخل .

---

(١) الأنعام : ١٢٠ .

ثم إن أصاب الحدقة غبار ، فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة ، كالمصقلة للمرآة ، فيطبقها مرة أومرتين ، وقدا نصقلت الحدقة من الغبار ، وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان . والذباب لما لم يكن لحدقته جفن ، خلق له يدين فتراه عَلَى الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار . وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق ، نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول :

من نظر إلى غير مَحرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الأجفان . ولاتقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالماء ، والأرض ، والهواء ، والمطر ، والغيم ، والشمس ، والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض . فإذا قد كفر كل نعمة فى الوجود،من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى،فلم يبق فلك؟ولا ملك،ولا حيوان،ولا نبات،ولا جماد إلا ويلعنه . ولذلك ورد فى الأخبار [1] أن البقعة التى يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم . وكذلك ورد [2] أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر [3] وأن الملائكة يلعنون العصاة ، فى ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها . وكل ذلك إشارة إلى أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع ما فى الملك والملكوت، وقد أهلك نفسه ، إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . يا أيوب ، ما من عبد لى من الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرنى على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فإنك أهل الحمد والشكر ، فكن من الشاكرين قريبا ، فكفى بالشاكرين علو رتبة عندى أنى أشكر شكرهم ، وملائكتى يدعون لهم ، والبقاع تحبهم ، والآثار تبكى عليهم .

---

(١) حديث أن البقعة التى اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم :لم أجد له أصلا

(٢) حديث ان العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر: تقدم فى العلم

(٣) حديث أن الملائكة يلعنون العصاة :مسلم من حديث أبى هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه

وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعما كثيرة ، فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولولم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ،ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك ، بل فى كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا

ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا[1]) قال . إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان ، أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها وكذا وردفى الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قل علمه ، وحضر عذابه ، وجميع ماذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب ، فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لاتقع عينه فى العالم على شىء ولايلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل ، فإنه طمع فى غير مطمع

بيان

السبب الصارف للخلق عن الشكر

إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة . فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولايتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها . ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه . الحمد لله ، الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها ، وهى طاعة الله عز وجل . فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب . وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لايعدون مايعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة . فلذلك لايشكرون على جملة ماذكرناه من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم . فلايرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به ، فلا يعده نعمة ، ولاتراهم يشكرون الله على روح

[1] النحل : ١٨

الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ؛ ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار ، أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ، ماتوا غما . فإن ابتلى واحد منهم بشىء من ذلك ثم نجا ، ربما قدّر ذلك نعمة ، وشكر الله عليها . وهذا غاية الجهل . إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال . والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تشكر فى بعضها . فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره ، وعده نعمة . ولما كانت رحمة الله واسعة ، عمم الخلق ، و بذل لهم فى جميع الأحوال ، فلم يعده الجاهل نعمة . وهذا الجاهل مثل العبد السوء ، حقه أن يضرب دائما ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة . فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر ، وترك الشكر : فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر ، وأظهر شدة اغتمامه به ، فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا .

وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرءان سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال لا . قال فسورة هود ؟ قال لا . قال فسورة يوسف ؟ قال لا . فعدد عليه سورا ثم قال . فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ! فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء و بيده كوز ماء يشربه . فقال له : عظنى . فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك ، وإلا بقيت عطشان ، فهل كنت تعطيه ؟ قال نعم . فقال لو لم تعط إلا بملكك كله ، فهل كنت تتركه ؟ قال نعم . قال . فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء . فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها . وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ؛ وقد ذكرنا النعم العامة ، فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول . مامن عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله ، رأي من الله

نعمة أو نعما كثيرة تخصه ، لا يشاركه فيها الناس كافة ، بل يشاركه عدد يسير من الناس ، وربما لا يشاركه فيها أحد . وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور : فى العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل . وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه ، كما يفرح به المتصف به . فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس ، فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه ، فمن وضع كنزا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ، ويبقى شكره ، لأنه فى حقه كالباقى . وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها ، وأخلاقا يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها . فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى ، إذ حسّن خلقه ، وابتلى غيره بالخلق السيء

وأما العلم ، فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه ، وخفايا أفكاره ماهو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح . فكيف لو اطلع الناس كافة ! فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله . فلمَ لا يشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجميل وستر القبيح ، وأخفى ذلك عن أعين الناس ، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد . فهذه ثلاثة من النعم خاصة ، يعترف بها كل عبد ، إما مطلقا ، وإما فى بعض الأمور . فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول . مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته ، أو شخصه أو أخلاقه ، أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه ، أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو عزه ، أو جاهه ، أو فى سائر محابه أمورا لو سلب ذلك منه ، وأعطى ماخصص به غيره لكان لا يرضى به . وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا ، وحيا لا جمادا ؛ وإنسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى ، وصحيحا لا مريضا ، وسليما لا معيبا ، فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا . فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها . بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا . وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق ، أو لا يبدله بما خص به الأكثر . فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره ، فإذاً حاله أحسن من حال

غيره . وإذا كان لايعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه ، إما على الجملة ، وإما في أمر خاص ، فإذاً لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه . وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض ، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه لامحالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه . فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لايسوي دنياه بدينه . أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها ، يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة ، فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ؟ فلم لايكون نظره في الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه ، وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق ، فكيف لايلزمه الشكر ! ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللهُ صَابِراً وَشَاكِراً وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ صَابِراً وَلَا شَاكِراً »

فإذاً كل من اعتبر حال نفسه ، وفتش عما خص به ، وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لاسيما من خص بالسنة ، والإيمان ، والعلم ، والقرءان ، ثم الفراغ ، والصحة ، والأمن وغير ذلك . ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِآيَاتِ اللهِ فَلاَ أَغْنَاهُ اللهُ » وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام (٣) « إِنَّ الْقُرْءَانَ هُوَ الْغِنَى الَّذِي لاَ غِنَى بَعْدَهُ وَلاَ فَقْرَ مَعَهُ » وقال عليه السلام (٤) « مَنْ آتَاهُ اللهُ الْقُرْءَانَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى مِنْهُ فَقَدِ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللهِ »

---

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا الحديث : الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف

(٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله : لم أجده بهذا اللفظ

(٣) حديث ان القرءان هو الغناء الذي لاغناء بعده ولا فقر معه : أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ أن القرءان غنى لافقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الاعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا وهو اشبه بالصواب

(٤) حديث من آتاه الله القرءان فظن ان أحدا اغنى منه فقد استهزأ بايات الله : البخاري في التاريخ من

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْءَانِ » وقال عليه السلام (٢) « كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى » . وقال بعض السلف . يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة إن عبدا أغنيته عن ثلاثة ، لقد أتممت عليه نعمتى ، عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه . وعبر الشاعر عن هذا فقال

إذا ماالقوت يأتيك كذا الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات ، كلام أفصح من نطق بالضاد ، حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال (٣) « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِى سِرْبِهِ مُعَافًى فِى بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » . ومهما تأملت الناس كلهم ، وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم ، ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الإيمان الذى به وصولهم إلى النعيم المقيم ، والملك العظيم . بل البصير ينبغى أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان . بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب ، من أموال وأتباع ، وأنصار ، وقيل له خذها عوضا عن علمك ، بل عن عشر عشير علمك ، لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى فى الآخرة . بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله ، فخذ هذه اللذات فى الدنيا ، بدلا عن التلذذ بالعلم فى الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وباقية لا تسرق ، ولا تغصب ، ولا ينافس فيها ، وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة ، مكدرة ، مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ، ولا لذتها بألمها ، ولا فرحها بغمها . هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا

حديث رجاء الغنوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن ان احدا أوتى افضل مما أوتى فقد صغر أعظم النعم وقد تقدم فى فضل القرءان ورجاء يختلف فى صحبته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة

(١) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرءان : تقدم فى آداب التلاوة

(٢) حديث كفى باليقين غنى : الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبى الدنيا فى القناعة موقوفا عليه وقد تقدم

(٣) حديث من اصبح آمنا فى سربه : الحديث تقدم غير مرة

تكون ما بقى الزمان ، إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها ، أبت عليها واستعصت . كالمرأة الجميل ظاهرها ، تتزين للشاب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه ، فلا يزال معها فى تعب قائم ، وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها فى لحظة . ولو عقل وغض البصر ، واستهان بتلك اللذة ، سلم جميع عمره . فهكذا وقعت أرباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها . ولا ينبغى أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها . فإن المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها ، وتحصيلها ، ودفع اللصوص عنها . وتألم المعرض يفضى إلى لذة فى الآخرة ، وتألم المقبل يفضى إلى الألم فى الآخرة . فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ [1]) ، فإذا إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة ، والخاصة والعامة

فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة ؟ حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر .

فأقول : أما القلوب البصيرة ، فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها ، أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى ، والمقابر ، والمواضع التى تقام فيها الحدود . فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ، ثم يتأمل فى صحته وسلامته ، فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ، ويشكر الله تعالى . ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ، ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ، ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله فليتدارك ، وأما من أطاع فليزد فى طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن . فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات ، فما أعظم غبنى إذ ضيعت بعض الأوقات فى المباحات . وأما العاصى فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر ، وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقى لهم من العمر ما بقى له ،

---

(1) النساء : ١٠٤

فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ، ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس . وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله ، وهو التزود من الدنيا للآخرة .

فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر . وقد كان الربيع ابن خيثم مع تمام استبصاره ، يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة . فكان قد حفر في داره قبراً ، فكان يضع غلا في عنقه ، وينام في لحده ثم يقول : (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا[1]) ثم يقوم ويقول : ياربيع ، قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم : وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفي الخبر[1] ماعظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ[2]) فهذا تمام هذا الركن

الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان

وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول ماذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا . فما معنى الصبر إذاً ؟ وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء ، فضلا عن الشكر على النعمة ،

---

(١) حديث ماعظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه ـ الحديث : ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ الاعظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث : ورواه ابن حيان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال انه موضوع على حجاج الأعور

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٢) الرعد : ١١

فكيف يتصور الشكر على البلاء ؟ وكيف يشكر على ما يصبر عليه ! والصبر على البلاء يستدعى ألما ، والشكر يستدعى فرحا ، وهما يتضادان ؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى فى كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ . فاعلم أن البلاء موجود ، كما أن النعمة موجودة ، والقول بإثبات النعمة ، يوجب القول بإثبات البلاء ، لأنهما متضادان . ففقد البلاء نعمة ، وفقد النعمة بلاء . ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه ، أما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول فى جوار الله تعالى ، وأما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليها ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه ، كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه . فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد

أما المطلق فى الآخرة ، فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا . وأما فى الدنيا ، فالكفر والمعصية ، وسوء الخلق ، وهى التى تفضى إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر ، والمرض ، والخوف ، وسائر أنواع البلاء التى لا تكون فى بلاء الدين بل فى الدنيا

فالشكر المطلق للنعمة المطلقة . وأما البلاء المطلق فى الدنيا ، فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ، ولا معنى للصبر عليه : وكذا المعصية . بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصى . نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر ، فيكون كمن به علة ، وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه ، والعاصى يعرف أنه عاص ، فعليه ترك المعصية . بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه . فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش ، حتى عظم تألمه ، فلا يؤمر بالصبر عليه ، بل يؤمر بإزالة الألم . وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته . فإذاً يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه . فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر . فإن الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الإنسان ، حتى يقصد بسبب ماله ، فيقتل وتقتل أولاده . والصحة أيضا كذلك . فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ، ولكن بالإضافة إليه . فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ، ولكن بالإضافة إلى حاله . فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ، ولو صح بدنه وكثر ماله

لبطر وبغى . قال الله تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ [١]) وقال تعالى (كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [٢]) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ » وكذلك الزوجة، والولد، والقريب

وكل ما ذكرناه فى الأقسام الستة عشر من النعم ، سوى الإيمان وحسن الخلق ، فإنها يتصور أن تكون بلاء فى حق بعض الناس ، فتكون أضدادها إذاً نعما فى حقهم ، إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة ، فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد فى بعض الأمور بلاء ، ويكون فقدها نعمة . مثاله جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه . إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش ، وطال بذلك غمه . وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه ، إذ لو رفع الستر واطلع عليه ، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام . وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه ، وكان ذلك وبالا عليه فى الدنيا والآخرة . بل جهله بالخصال المحمودة فى غيره قد يكون نعمة عليه ، فإنه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته ، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم ، فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف

ومنها إبهام الله تعالى أمر القيامة ، وإبهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإبهامه بعض الكبائر ، فكل ذلك نعمة ، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد .

فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل فكيف فى العلم . وحيث قلنا إن لله تعالى فى كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد فى حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التى يخلقها فى بعض الناس ، وهي أيضا قد تكون نعمه فى حق سالم بها فإن لم تكن نعمة فى حقه ، كالألم الحاصل من المعصية ، كقطعه يد نفسه ، ووشمه بشرته ، فإنه يتألم به وهو عاص به . وألم الكفار فى النار فهو أيضاً نعمة ، ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب ، وعذب به طائفة ، لما عرف المتنعمون قدر نعمه ، ولا كثر فرحهم بها . ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا

---

(١) حديث ان الله ليحمى عبده الدنيا ــ الحديث : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم

(١) الشورى : ٢٧ (٢) العلق : ٦

فى آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها ، من حيث إنها عامة مبذولة . ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء ، وهى أحسن من كل بستان لهم فى الأرض يجتهدون فى عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها : فإذاً قد صح ماذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة ، إما على جميع عباده ، أو على بعضهم . فإذاً فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غير المبتلى . فإذاً كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان ، الصبر والشكر جميعاً . فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم . ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ، ويفرح به من وجه آخر . فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفى كل فقر ، ومرض ، وخوف ، وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ، ينبغي أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها . أحدها : أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها . إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر . إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا .

الثاني : أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتي وأخذ متاعي . فقال : اشكر الله تعالى . لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه إذ قال . اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علىّ فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال اشكر الله . فجيء بمجوسى فحبس عنده ، وكان مبطونا ، فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله ، وحلقه فى رجل المجوسى : فأرسل إليه ، فقال اشكر الله . فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات ، وهو يحتاج أن يقوم معه ، ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال اشكر الله ، فقال إلى متى هذا ؟ وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال

لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ . فإذاً مامن إنسان قد أصيب ببلاء ، إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه ، لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط ، فاقتصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر . ومن استحق عليك أن يقطع يديك ، فترك إحداهما ، فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع ، فصب على رأسه طشت من رماد . فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له ماهذه السجدة ؟ فقال كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالاقتصار على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم . ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ؟ فقال أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجر .

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ، ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خبىء له ماهو أكثر . وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ، ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا [1]) .

وأما العاصى ، فمن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ؟ ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته ، أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح . ولذلك قال تعالى فى مثله (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ [2]) فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ؟ ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة ، وعجلت عقوبتك فى الدنيا . فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك ؟ وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر ، وهو أنه مامن عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة ، فيخف وقعها . ومصيبة الآخرة تدوم . وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين . ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَصَابَتْهُ شِدَّةٌ

(١) حديث ان العبد اذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا : الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب فى الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ـ الحديث : لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فعجل عقوبته فى الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ـ الحديث :

(١) آل عمران : ١٧٨ (٢) النور : ١٥

أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ ثَانِيًا »

الرابع : أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، وكان لا بد من وصولها إليه ، وقد وصلت ، ووقع الفراغ، واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة

الخامس : أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما: الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ، ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي . فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره . فكذلك المال ، والأهل ، والأقارب ، والأعضاء، حتى العين التي هي أعز الأشياء ، قد تكون سببا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال . بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه. فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى . فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية . فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ، ويقدر فيه الخيرة، ويشكره عليه. فإن حكمة الله واسعة ، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب . والبلاء من الله تعالى تأديب، وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روي[1] أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال « لَا تَتَّهِمِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ »[2] ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك، فسئل فقال «عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ قَضَى لَهُ بِالسَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ »

الوجه الثاني: أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا . ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب

---

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تتهم الله في شيء قضاه عليك أحمد: والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله وفي اسناده ابن لهيعة

(٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن ـ الحديث: مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحكه عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضاء الله للمؤمن ان أصابه خير حمد ربه وشكر ـ الحديث:

عن دار الغرور . ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها ، وأنسه بها ، حتى تصير كالجنة فى حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته : وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا، ولم يسكن إليها ، ولم يأنس بها ، وصارت سجنا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ورضى بها ، واطمأن إليها . والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا ، شديد الحنين إلى الخروج منها . والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى . وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى . بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب إلا الواحد الحق . فإذاً فى البلاء نعم من هذا الوجه ، فيجب الفرح به . وأما التألم فهو ضرورى . وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا . فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكره على سبب الفرح . فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال ، وينفع فى المآل . بل من دخل دار ملك للنضارة ، وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار ، كان ذلك وبالا وبلاء عليه ، لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه . ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه ، فأصابه ما يكرهه حتى نفره عن المقام ، كان ذلك نعمة عليه . والدنيا منزل ، وقد دخلها الناس من باب الرحم ، وهم خارجون عنها من باب اللحد ، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة . فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا . ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر ، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وحكي أن أعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال :

إصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباس

---

(١) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

فقال ابن عباس : ماعزاني أحد أحسن من تعزيته . والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة . قال رسول الله صلى الله عليه[1] وسلم «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ تَعَالَى إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال عليه السلام « مَامِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [1]) اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ تَعَالَى مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْهِ فَجَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي » . وروى[2] أن رجلا قال يارسول الله ، ذهب مالي وسقم جسمي . فقال صلى الله عليه وسلم « لاَخَيْرَ فِي عَبْدٍ لاَيَذْهَبُ مَالُهُ وَلاَ يَسْقَمُ جِسْمُهُ إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاَهُ وَإِذَا ابْتَلاَهُ صَبَّرَهُ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى لاَيَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ حَتَّى يُبْتَلَى بِبَلاَءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُهَا بِذَلِكَ » وعن[4] خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداءه في ظل الكعبة ، فشكونا إليه ، فقلنا يارسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمرًّا لونه ثم قال« إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه : البخاري من حديث أبي هريرة

(٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لاخير في عبد لايذهب ماله ولايسقم جسده ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري باسناد فيه لين

(٣) حديث ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك أبوداود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية اللؤلؤي ورواه أحمد وأبويعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه الا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عن خالد الا ابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فالله أعلم وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج هو غير خالد بن اللجلاج العامري ذاك المشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي اياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية ابراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم

(٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا اليه ـ الحديث : تقدم

(١) البقرة : ١٥٦ (٢) الزمر : ١٠

فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ حُفَيْرَةٌ وَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَايَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » . وعن عليّ كرم الله وجهه قال . أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد . وإن ضربه فمات فهو شهيد ، وقال عليه السلام « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ » وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه . تولدون للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرصون على مايفنى ، وتذرون مايبقى . ألا حبذا المكروهات الثلاث ، الفقر ، والمرض ، والموت ، . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءَ صَبًّا وَثَجَّهُ عَلَيْهِ ثَجًّا فَإِذَا دَعَاهُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانِيًا فَقَالَ يَارَبِّ قَالَ اللهُ تَعَالَى لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ لَا تَسْأَلُنِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ مَاهُوَ خَيْرٌ وَادَّخَرْتُ لَكَ عِنْدِي مَاهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جِيءَ بِأَهْلِ الْأَعْمَالِ فَوُفُّوا أَعْمَالَهُمْ بِالْمِيزَانِ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا كَمَا كَانَ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ صَبًّا فَيَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ مَايَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الثَّوَابِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [1]) » . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال . شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه ، فقال يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك ، تزوى عنه الدنيا ، وتعرض له البلاء . ويكون العبد الكافر لايطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك ، تزوى عنه البلاء ، وتبسط له الدنيا . فأوحى الله تعالى إليه ، إن العباد لى ، والبلاء لى ، وكل يسبح بحمدي . فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى

---

(١) حديث أنس اذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس اخصر منه دون قوله فاذا كان يوم القيامة الى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني فى الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف

---

(١) الزمر ١٠

عنه الدنيا ، وأعرض له البلاء ، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له الحسنات ، فأبسط له فى الرزق ، وأزوى عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته . وروى أنه [1] لما نزل قوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [1]) قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه . كيف الفرح بعد هذه الآية ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الْأَذَى أَلَسْتَ تَحْزَنُ فَهَذَا مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ » يعنى أن جميع مايصيبك يكون كفارة لذنوبك

وعن [2] عقبة بن عامر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللهُ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ » ثم قرأ قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ [2]) يعنى لما تركوا ما أمروا به ، فتحنا عليهم أبواب الخير ، (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا [3]) أى بما أعطوا من الخير (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً [4])

وعن [3] الحسن البصرى رحمه الله ، أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية . فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى ، فصدمه حائط فأثر فى وجهه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِى الدُّنْيَا » . وقال على كرم الله وجهه . ألا أخبركم بأرجى آية فى القرءان؟ قالوا بلى . فقرأ عليهم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

---

(١) حديث لما نزل قوله تعالى من يعمل سوءا يجز به : قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ـ الحديث : من رواية من لم يسم عن ابى بكر ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له اسناد صحيح وقال الدار قطنى وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شيء يثبت

(٢) حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث : أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن

(٣) حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط الحديث : وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا أحمد والطبرانى باسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مغفل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبرانى أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذى وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذى

---

[1] النساء : ١٢٣ (٢ ، ٣ ، ٤) الأنعام : ٤٤

وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (١))فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً ، و إن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة

وعن (١) أنس رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ رَدَّهَا بِحِلْمٍ وَجُرْعَةِ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا وَلَا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ قَطْرَةِ دَمْعٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلَا يَرَاهُ إِلَّا اللهُ وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطْوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ خَطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ وَخَطْوَةٍ إِلَى صِلَةِ الرَّحِمِ »

وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام ، فوجد عليه وجداً شديداً. فأتاه ملكان ، فجثيا بين يديه في زي الخصوم . فقال أحدهما . بذرت بذراً فلما استحصد مر به هذا فأفسده . فقال للآخر ما تقول؟ فقال . أخذت الجادة ، فأتيت على زرع ، فنظرت يميناً وشمالا فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق؟ أما علمت أن لا بد للناس من الطريق ؟ قال فلم تحزن على ولدك ؟ أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه ، ولم يجزع على ولده بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال: يا بني ، لأن تكون في ميزاني أحب إليّ من أن أكون في ميزانك . فقال يا أبت ، لأن يكون ما تحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي إليه ابنة له فاسترجع وقال : عورة سترها الله تعالى ، ومؤنة كفاها الله ، وأجر قد ساقه الله . ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى .قال تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ (٢))

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه مجوسي يعرفه فقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل

---

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ـ الحديث : أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر ـ الحديث : وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل ـ الحديث : وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث :

---

(١) الشورى : ٣٠ (٢) البقرة : ٤٥

اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . فقال ابن المبارك . اكتبوا عنه هذه

وقال بعض العلماء . إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء، حتى يمشي على الأرض وماله ذنب

وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير

وقال حاتم الأصم : إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس . على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ؛ وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى اسرائيل ، واختفى فى الشجرة ، فعرفوا ذلك ، فجئ بالمنشار ، فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأنّ منه أنّة ، فأوحى الله تعالى إليه ، يازكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة . فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين

وقال أبو مسعود البلخى : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا ، أوضرب صدرا ، فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه . يابنى ، إن الذهب يجرب بالنار ، والعبد الصالح يجرب بالبلاء . فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضرسى ، فقلت لعمى : مانمت البارحة من وجع الضرس ، حتى قلتها ثلاثا . فقال : لقد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة ، وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ماعلم بها أحد

وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام ، إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلقى ، واشك إلىّ ، كما لا أشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضائحك . نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة

بيان

فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول لا وجه لذلك ، لما روي عن رسول الله [1] صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يستعيذ

---

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا والآخرة : أحمد من حديث بشر بن

فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة [١] . وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) [٢] وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها [٣] . وقال عليّ كرم الله وجهه . اللهم إنى أسألك الصبر . فقال صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ الْبَلَاءَ فَاسْأَلْهُ الْعَافِيَةَ » وروى [٤] الصديق رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ إِلَّا الْيَقِينَ » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك . فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله . الخير الذى لا شر فيه ، العافية مع الشكر . فكم من منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله . لأن أعافى فأشكر أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم [٥] فى دعائه « وَعَافِيَتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ »

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد . وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما : بالإضافة إلى ما هو أكثر منه ، إما فى الدنيا أو فى الدين ، والآخر : بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب . فينبغى أن يسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ، ودفع ما فوقه من البلاء ،

أبى ارطاة بلفظ أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبى داود من حديث عائشة اللهم انى أعوذبك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالعنعنة

(١) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا فى الدنيا ـ الحديث . ولأبى داود والنسائى من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا اتنا ـ الحديث

(٢) حديث كان يستعيذ من شماتة الأعداء : تقدم فى الدعوات

(٣) حديث قال على رضى الله عنه اللهم انى أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فسله العافية : الترمذى من حديث معاذ فى أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وانما قال سمع رجلا وله وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث على كنت شاكيا فمر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول ـ الحديث . وفيه فان كان بلاء فصبرنى فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح

(٤) حديث أبى بكر الصديق سلوا الله العافية ـ الحديث . ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة باسناد جيد وقد تقدم

(٥) حديث وعافيتك أحب إلى : ذكره ابن اسحاق فى السيرة فى دعائه يوم خرج الى الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لى وكذا رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل

---

(٦) البقرة : ٢٠١

ويسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمة ، فإنه قادر على أن يعطى على الشكر مالا يعطيه على الصبر . فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسراً على النار يعبر عليَّ الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا فى النار ، وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء . فاعلم أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بُلِيَ بعد هذا البيت بعلة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان . ادعوا لعمكم الكذاب. وأما محبة الإنسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب ، حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك . فمن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع فى الكلام . ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها . فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ، ولا يعول عليه . كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فمنعته ، فقال ماالذى يمنعك عنى ؟ ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك . فسمعه سليمان عليه السلام ، فاستدعاه وعاتبه ، فقال ، يانبيّ الله ، كلام العشاق لايحكى . وهو كما قال . وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أنى أريد مالا يريد ، لأن من أراد الوصال ماأراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين. أحدهما : أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال ، فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا ، والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة . فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما في درهمين ، فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال .

الثانى : أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث أنه رضاه فقط ، ويكون له لذة فى استشعاره رضا محبوبه منه ، تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته . فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم ، أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا . فهؤلاء إذا قدروا رضاه فى البلاء

صار البلاء أحب إليهم من العافية . وهذه حالة لا يبعد وقوعها فى غلبات الحب ، ولكنها لا تثبت . وإن ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة ، أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه . وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء ، فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه ، العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، لنا ولجميع المسلمين

بيان

الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك . فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر ، وقال آخرون الشكر أفضل ، وقال آخرون هما سيان ، وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب ، بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول فى بيان ذلك مقامان . المقام الأول: البيان على سبيل التساهل . وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ، ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته . وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق ، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة . وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمده الوعاظ . إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم . والظئر المشفقة لا ينبغى أن تصلح الصبى الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات ، بل باللبن اللطيف . وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لها بقوته ، ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيته . فنقول هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل ، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر . فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر ، كانت فضائل الصبر أكثر . بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل ، كقوله صلى الله عليه وسلم (١) « مِنْ أَفْضَلِ مَا أُوتِيتُمْ أَلْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » وفى الخبر (٢) « يُؤْتَى بِأَشْكَرِ أَهْلِ الأَرْضِ

---

(١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم

(٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث : لم أجد له أصلا

فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » وقد قال الله تعالى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [1]) . وأما قوله [2] « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ » فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر ، إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته . ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر . لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر . وهو كقوله صلى الله عليه وسلم [3] « الْجُمُعَةُ حَجُّ الْمَسَاكِينِ وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ » وكقوله صلى الله عليه وسلم [4] « شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الْوَثَنِ » وأبداً المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » لايدل على أن الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » فإن كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا ، وإن كان بينهما تفاوت . كما يقال الإيمان هو العلم والعمل . فالعمل هو نصف الإيمان . فلايدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم [5] « آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الْجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ

---

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٢) حديث الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل : الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفى رواية ما جزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج .. الحديث . وفيه القاسم ابن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات

(٣) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الحارث بن أبى أسامة من حديث عبد الله بن عمرو وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبى هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى

(٤) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبدالرحمن ابن عوف لمكان غناه : الطبرانى فى الاوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل

---

(١) الزمر : ١٠

وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولًا الْجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِمَكَانِ غِنَاهُ ، وفى خبر آخر (١) « يَدْخُلُ سُلَيْمَانُ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » وفى الخبر (٢) « أَبْوَابُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا مِصْرَاعَانِ إِلَّا بَابَ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَمَامَهُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ »

وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ، لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى . فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ، ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم . والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثانى : هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور ، بطريق الكشف والإيضاح ، فنقول فيه . كل أمر بين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الأبهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما . وكل مكشوف يشتمل على أقسام ، لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة ، فلا يتبين حكمهما فى الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة ، علوم ، وأحوال ، وأعمال . والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك . وهذه الثلاثة . إذا وزن البعض منها بالبعض ، لاح للناظرين فى الظواهر أن العلوم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل . وأما أرباب البصائر ، فالأمر عندهم بالعكس من ذلك . فإن الأعمال

داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لم يروه إلا الشعيب بن خالد وهو كوفى ثقة وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف

(١) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا : تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس والحديث منكر

(٢) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فانه باب واحد ـ الحديث : لم أجد له أصلا ولا فى الأحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام

تراد للأحوال ، والأحوال تراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ، ثم الأحوال ، ثم الأعمال ، لأن كل مراد لغيره ، فذلك الغير لا محالة أفضل منه ، وأما آحاد هذه الثلاثة ، فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض . وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف . وأفضل المعارف علوم المكاشفة ، وهي أرفع من علوم المعاملة . بل علوم المعاملة دون المعاملة ، لأنها تراد للمعاملة ، ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد ، إذا كان علمه مما يعم نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر . فنقول . فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب . وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى فى ذاته ، وصفاته وأفعاله . فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التى تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها . بل هي عين السعادة . ولكن قد لا يشعر القلب فى الدنيا بأنها عين السعادة ، وإنما يشعر بها فى الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها ، فلا تتقيد بغيرها ، وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها ، ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها فى الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ، فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض ، إما بواسطة أو بوسائط كثيرة . فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل ، فهي أفضل " وأما الأحوال ، فنعني بها أحوال القلب فى تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق ، فإذاً فضائل الأحوال بقدر تأثيرها فى إصلاح القلب ، وتطهيره ، وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة . وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة ، بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب . فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود . وهكذا ترتيب الأعمال ، فإن تأثيرها فى تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه . وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة ، موجبة لظلمة القلب ، جاذبة إلى زخارف الدنيا . وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة ، موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه ، واسم الأول المعصية ، واسم الثانى الطاعة والمعاصي من حيث التأثير فى ظلمة القلب وقساوته متفاوتة . وكذا الطاعات فى تنوير

القلب وتصفيته . فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها ذلك يختلف باختلاف الأحوال . وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره . ولكن التحقيق فيه أن الغني الذى معه مال ، وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه ، فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليالٍ وصيام أيام ؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أومنعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع . فأما هذا المدبّر إذا لم تكن حاله هذه الحال ، فليس يستضر بشهوة بطنه ، ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه . فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره . وهو كالمريض الذى يشكو وجع البطن ، إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به . بل حقه أن ينظر فى المهلك الذى استولى عليه . والشح المطاع من جملة المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة ، وقيام ألف ليلة منه ذرة . بل لا يزيله إلا إخراج المال . فعليه أن يتصدق بما معه . وتفصيل هذا مما ذكرناه فى ربع المهلكات ، فليرجع إليه

فإذاً باعتبار هذه الأحوال يختلف . وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ . إذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء ، لم يكن فيه جواب حق ، إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل . فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب . فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان . وكذا إذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر ، لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا . نعم لو قيل لنا السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ، فنقول عدم الصفراء ، لأن السكنجبين مرادٌ له ، وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة . فإذاً فى بذل المال عمل ، وهو الإنفاق ، ويحصل به حال ، وهو زوال البخل ، وخروج حب الدنيا من القلب . ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه . فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل

فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال ، وبالغ فى ذكر فضلها . حتى طلب الصدقات بقوله (مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[1]) وقال تعالى (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ[2]) فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ . فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على

(١) البقرة : ٢٤٥ (٢) التوبة : ١٠٤

أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولـكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لايشعر به غالبا . فهو كبرص على وجه من لامرآة معه ، فإنه لايشعر به ، ولو ذكر له لايصدق به ، والسبيل معه المبالغة فى الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ، إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه ، فيزول مرضه . فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ، ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لاعيب فيه : ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرءان ، وأراد أن يثبت ذلك فى حفظه بحيث لايزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتـكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ، ولا حاجة بى إلى تـكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه فى الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد ، فأمر الولد بتعليم العبيد ، ووعده على ذلك بالجميل ، لتتوفر داعيته على كثرة التـكرار بالتعليم . فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرءان ، وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالى قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجلّ منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبى لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تـكليفى به ، وأعلم أنه لانقصان لأبى بفقد هؤلاء العبيد ، فضلا عن عدم علمهم بالقرءان . فربما يتكاسل هذا المسكين ، فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه ، وعلى كرمه فى العفو عنه ، فينسى العلم والقرءان ، ويبقى مدبرا محروما من حيث لايدرى .

وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة ، وسلـكوا طريق الإباحة . وقالوا إن الله تعالى غنيّ عن عبادتنا ، وعن أن يستقرض منا ، فأي معنى لقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا [1]) ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم ، فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الـكفار (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ [2]) وقالوا أيضا (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا [3]) فانظر كيف كانوا صادقين فى كلامهم ، وكيف هلـكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل . يضل به كثيرا ويهدى به كـثيرا فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المسـاكين والفقراء ، أو لأجل الله تعالى ، ثم قالوا

(١) البقرة ٢٤٥ (٢) يس ٤٧ (٣) الانعام : ١٤٨

لاحظ لنا فى المساكين ، ولاحظ لله فينا وفى أموالنا ، سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم فى نفسه ، وتأكده فى قلبه ، حتى يكون ذلك سبب سعادته فى الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به فى استجراره إلى مافيه سعادته . فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق . فإذاً المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك ، فهو كالحجام ، يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك . فالحجام خادم لك ، لا أنت خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادما ، بأن يكون له غرض فى أن يصنع شيئا بالدم . ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ، ومزكية لها عن خبائث الصفات ، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها ، وانتهى عنها[1] كما نهى عن كسب الحجام[2] وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها .

والمقصود أن الأعمال مؤثرات فى القلب كما سبق فى ربع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة . فهذا هو القول الكلى ، والقانون الأصلى الذى ينبغى أن يرجع إليه فى معرفة فضائل الأعمال ، والأحوال ، والمعارف . ولنرجع الآن إلى خصوص مانحن فيه من الصبر والشكر فنقول : فى كل واحد منهما معرفة وحال . وعمل . فلا يجوز أن تقابل المعرفة فى أحدهما بالحال أو العمل فى الآخر . بل يقابل كل واحد منها بنظيره ، حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل

ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ، ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ، ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان . هذا إن اعتبرتا فى البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة ، وعن المعصية . وفيهما يتحد الصبر والشكر . لأن الصبر

---

(١) حديث النهى عن كسب الحجام : تقدم

(٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها : مسلم من حديث عبدالمطلب بن ربيعة ان هذه الصدقة لا تحل لنا انما هى أوساخ القوم وانها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وفى رواية له أوساخ الناس

على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين . فثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة ، وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، فقد صرفه إلى مقصود الحكمة . فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه ! فإذاً مجارى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء . وقد ظهر حكمهما فى الطاعة والمعصية

وأما البلاء ، فهو عبارة عن فقد نعمة . والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا ، وإما أن تقع فى محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال . أما العينان ، فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ولا يترخص بسبب العمى فى بعض المعاصى . وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين . أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما فى الطاعة . وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها . والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكر النعمة العينين ، وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين ، فقد دخل الصبر فى شكره : وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة ، فلا بد أن يضاف فيه من صبر على الطاعة . ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر

ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا ، وقد كان ضريرا ، من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام ، وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا : ولكان الكمال فى أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ، ويترك كلحم على وضم ، وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة فى الدين ، يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين . وشكرها باستعمالها فيما هى آلة فيه من الدين . وذلك لا يكون إلا بصبر . وأما ما يقع فى محل الحاجة ، كالزيادة على الكفاية من المال ، فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة ، وهو محتاج إلى ما وراءه ، ففى الصبر عنه مجاهدة ، وهو جهاد الفقر . ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل فى المعصية .

فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف إلى الطاعة ، فالشكر أفضل . لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التنعم المباح . وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل . إذ لاتصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها .

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التنعم المباح ؛ فالصبر ههنا أفضل من الشكر . والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله ، الصارف إياه إلى المباحات ، لامن الغني الصارف ماله إلى الخيرات . لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى . وهذه الحالة تستدعى لامحالة قوة . والغني أتبع نهمته ، وأطاع شهوته ، ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لابد من قوة فى الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التى عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التى يصدر عنها الاقتصار فى التنعم على المباح . والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها . فإن الأعمال لاتراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة فى الإيمان فهو أفضل لامحالة

وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر فى الآيات والأخبار ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص . لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ، ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها إلى الطاعة . فإذاً الصبر أفضل من الشكر ، أى الصبر الذى تفهمه العامة ، أفضل من الشكر الذى تفهمه العامة . وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ، ولا مدح الفقير بالعدم ؛ وإنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما . فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها ، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها . فإذا كان الإثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما ، كان الذى آلم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها . والأمر على ماقاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر

فى القسم الآخير الذى ذكرناه . وهو لم يرد سواه . ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك وقال : الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر . فدعا عليه الجنيد ، فأصابه ماأصابه من البلاء من قتل أولاده ، وإتلاف أمواله ، وزوال عقله أربع عشرة سنة . فكان يقول دعوة الجنيد أصابتنى . ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر

ومهما لاحظت المعانى التى ذكرناها ، علمت أن لكل واحد من القولين وجها فى بعض الأحوال . فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر . وذلك هو الغني الذى يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، والباقى يصرفه إلى الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها . ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ، ولا لتقليد منة، بل أداء لحق الله تعالى فى تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر

فإن قلت :فهذا لا يثقل على النفس ، والفقير يثقل عليه الفقر ، لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر . فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته فى القدرة على الإنفاق

فاعلم أن الذى نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس ، أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به ، وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه ، بل لتأديبها . وذلك يضاهى ضرب كلب الصيد . والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب ، وإن كان صابرا على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة فى البداية ، ولا يحتاج إليهما فى النهاية . بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما فى حقه لذيذا عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا.وقد كان مؤلما له أولا ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين فى البداية ، بل قبل البداية بكثير ، كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذى يؤلم صفته أفضل . وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ،

فإذاً إذا كنت لا تفصل الجواب.وتطلقه لإرادة الأكثر ،فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر ، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام . فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا ، وهو مقام وراء الصبر ،

ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن مع الا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به . وكذلك الشكر درجات كثيرة ، ذكرنا أقصاها ، ويدخل في جملتها أمور دونها ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر . وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر، إذ قال عليه السلام [1] «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها ، وهي درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ، إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام، كما ورد في الأخبار والآثار :

وقد روي عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن ، فسألته عن حاله فقال : إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي، وهي كذلك كانت تهواني، فاتفق أنها زوّجت مني ، فليلة زفافها . قلت تعالى حتى نحيي هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصلينا طول الليل ، فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل. فإذاً لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفصيل كما سبق ، والله أعلم .

---

(١) حديث من لم يشكر الله: تقدم في الزكاة

كتاب الخوف والرجاء

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، المخوف مكره وعقابه ، الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه ، والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه ، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأ نقمته ، والتهدف لسخطه ونقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر . والعنف ، وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته ، وعلى آله وأصحابه وعترته . أما بعد : فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤد ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف . فلا بد إذاً من بيان حقيقتهما وفضيلتهما ، وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ، ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشتمل على شطرين : الشطر الأول فى الرجاء ، والشطر الثانى فى الخوف : أما الشطر الأول ، فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء ، وبيان دواء الرجاء ، والطريق الذى يجتلب به الرجاء .

بيان

حقيقة الرجاء

إعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين ، وأحوال الطالبين . وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال . وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل ، وإلى ما هو بينهما كصفرة

المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذى هو غير ثابت يسمى حالا ؛ لأنه يحول على القرب . وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب . وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضاً يتم من حال ، وعلم ، وعمل ، فالعلم سبب يثمر الحال ، والحال يقتضى العمل ، وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة . وبيانه أن كل مايلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال ، وإلى موجود فيما مضى ، وإلى منتظر فى الاستقبال . فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً . وإن كان ماخطر بقلبك موجوداً فى الحال سمي وجداً ، وذوقا ، وإدراكا ، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك . وإن كان قد خطر ببالك وجود شىء فى الاستقبال ، وغلب ذلك على قلبك ، سمي انتظاراً وتوقعاً . فإن كان المنتظر مكروها ، حصل منه ألم فى القلب سمي خوفا وإشفاقا . وإن كان محبوبا ، حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح ، سمي ذلك الارتياح رجاء . فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده .

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب . فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق . وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء . وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء ، فاسم التمنى أصدق على انتظاره ، لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أمّا ما يقطع به فلا . إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع ، وأخاف غروبها وقت الغروب . لأن ذلك مقطوع به نعم : يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها ، كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه . كما لا ينمو بذر فى أرض سبخة . فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع . فكل من طلب أرضا طيبة ، وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده

بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سمي انتظاره رجاء : وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة ، مرتفعة لا ينصب إليها الماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر فى أرض طيبة ، لكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً ، سمي انتظاره تمنيا لا رجاء .

فإذاً اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا ، محمودا فى نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى إتمام أسباب المغفرة إلى الموت . وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات . أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « الْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْجَنَّةَ » وقال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [(١)]) وقال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا [(٢)]) وذم الله تعالى صاحب البستان ، إذ دخل جنته وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا

فإذاً العبد المجتهد فى الطاعات ، المجتنب للمعاصى ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة ، وأما العاصى ، فإذا تاب وتدارك جميع مافرط منه

(كتاب الرجاء والخوف)

(١) حديث الأحمق من أتبع نفسه هواها ـ الحديث : تقدم غير مرة

(١) مريم : ٥٩ (٢) الأعراف : ١٦٩

من تقصير ، فحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية ، تسوءه السيئة ، وتسره الحسنة ، وهو يذم نفسه و يلومها و يشتهي التوبة ويشتاق إليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة ، يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ [1]) معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله . وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ، ولا يذم نفسه عليه ، ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق ، كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب ، مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عزوجل مع الإفراط .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته ، فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره ، وطابت أرضه ، وغزر ماؤه ، صدق رجاؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها ، وتنحية كل حشيش ينبت فيها . فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد . وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد . فمن عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء معوز ، وأن البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم ، وهو ضده ، لأنه صارف عن العمل . والخوف ليس بضد للرجاء ، بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة ، كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة . فإذاً حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى

(1) البقرة : ٢١٨

والتنعم بمناجاته ، والتلطف فى التملق له ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك . أوشخصا من الأشخاص ، فكيف لايظهر ذلك فى حق الله تعالى . فإن كان لايظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء ، والنزول فى حضيض الغرور والتمنى.

فهذا هو البيان لحال الرجاء ، ولما أثمره من العلم ، ولما استثمر منه من العمل . ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث [١] زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لايريد . فقال « كَيْفَ أَصْبَحْتَ » قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه ، وأيقنت بثوابه. وإذا فاتنى منه شيء حزنت عليه ، وحننت إليه فقال « هٰذِهِ عَلَامَةُ اللهِ فِيمَنْ يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكَ لِلْأُخْرَى هَيَّأَكَ لَهَا ثُمَّ لَا يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكْتَ » فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير . فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

بيان

فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف . لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفا من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه . ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظن رغائب ، لاسيما فى وقت الموت . قال تعالى (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ [١]) فحرم أصل اليأس . وفى أخبار يعقوب عليه السلام ، أن الله تعالى أوحى إليه . أتدري لمَ فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجني : ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لايريد ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه انه قال له أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبى حاتم سماه النبى صلى الله عليه وسلم الخير ليس يروى عنه حديث وذكره فى حديث يروى فقام زيد الخير فقال يارسول الله ـ الحديث : سمعت أبى يقول ذلك

(٢) حديث لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله : مسلم من حديث جابر

---

(١) الزمر : ٥٣

وقال صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (١) أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَاشَاءَ » (٢) ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » فقال أجدنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربى . فقال صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا رَجَا وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ » .

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان . من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال لأن الله عز وجل غيّر قوما فقال (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ (١)) وقال تعالى (وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (٢))

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ فَإِنْ لَقَّنَهُ اللهُ حُجَّتَهُ قَالَ رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى قَدْ غَفَرْتُهُ لَكَ » وفى الخبر الصحيح (٤) « أَنَّ رَجُلاً كَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيُسَامِحُ الْغَنِيَّ وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ فَلَقِيَ اللهَ وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنَّا » فعفا عنه لحسن ظنه ، ورجائه أن يعفو عنه ، مع إفلاسه عن الطاعات .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٣)) ولما قال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَوْ تَعْلَمُونَ

---

(١) حديث أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء : ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة دون قوله فليظن بى ماشاء

(٢) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال كيف تجدك ـ الحديث : الترمذى وقال غريب والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووى اسناده جيد

(٣) حديث ان الله يقول للعبد يوم القيامة مامنعك اذ رأيت المنكر أن تنكره ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد جيد وقد تقدم فى الأمر بالمعروف

(٤) حديث ان رجلا كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر ـ الحديث : مسلم من حديث أبى مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء الا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عزوجل نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبى هريرة بنحوه

(٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ـ الحديث بطوله وهبط جبريل ـ الحديث : ابن حبان

---

(١) فصلت : ٢٣ (٢) الفتح : ١٢ (٣) فاطر : ٢٩

مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَلْدِمُونَ صُدُورَكُمْ وَتَجْأَرُونَ إِلَى رَبِّكُمْ » فهبط جبريل عليه السلام فقال · إن ربك يقول لك لمَ تقنط عبادى؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم · وفى الخبر [1] « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : أحبنى ، وأحب من يحبنى ، وحببنى إلى خلقى . فقال : يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال اذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى وإحسانى ، وذكرهم ذلك ، فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل

ورؤي أبان بن أبى عياش فى النوم ، وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء ، فقال : أوقفنى الله تعالى بين يديه ، فقال ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت أردت أن أحببك إلى خلقك · فقال قد غفرت لك ، ورؤي يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفنى الله بين يديه ، وقال ياشيخ السوء ، فعلت وفعلت ، قال فأخذنى من الرعب ما يعلم الله . ثم قلت يارب ، ما هكذا حدثت عنك . فقال وما حدثت عنى ؟ فقلت حدثنى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أنس ، عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام ، أنك قلت أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما شاء . وكنت أظن بك أن لا تعذبنى . فقال الله عز وجل : صدق جبريل ، وصدق نبيى ، وصدق أنس ، وصدق الزهرى ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق ، وصدقت ، قال فألبست ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة ، فقلت يالها من فرحة · وفى الخبر [2] أن رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادى منها

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ رَجُلاً يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمْكُثُ فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِي يَاحَنَّانُ يَامَنَّانُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ اذْهَبْ فَأْتِنِي بِعَبْدِي قَالَ فَيَجِيءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ

فى صحيحه من حديث أبى هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة ولخرجتم إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم

(١) حديث ان الله تعالى أوحى الى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى ـ الحديث : لم أجد له اصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذى قبله

(٢) حديث ان رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ـ الحديث : رواه البيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعا

(٣) حديث ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى ياحنان يامنان ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث أنس

عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ ؟ فَيَقُولُ شَرَّ مَكَانٍ قَالَ فَيَقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ قَالَ فَيَمْشِي وَيَلْتَفِتُ إِلَى وَرَائِهِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَلْتَفِتُ ؟ فَيَقُولُ لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لَا تُعِيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ » فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان

دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف فى المواظبة على العبادة ، حتى أضر بنفسه وأهله . وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال . فأما العاصى المغرور المتمنى على الله ، مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصى ، فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة فى حقه ، وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة . بل المغرور لا يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف ، والأسباب المهيجة له . فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل ، معالجا لكل علة بما يضادها ، لا بما يزيد فيها . فإن المطلوب هو العدل والقصد فى الصفات والأخلاق كلها ، وخير الأمور أوساطها . فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين ، عولج بما يرده إلى الوسط ، لا بما يزيد فى ميله عن الوسط. وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة فى التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب . فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية . ولكنها لما كانت أخف على القلوب ، وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب ، واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا ، مالوا إلى الرجاء ، حتى ازداد الفساد فسادا ، وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا . قال علىّ كرم الله وجهه : إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ولا يؤمنهم من مكر الله

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل فى حق الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنهما مشتملان على الخوف

والرجاء جميعا ، لأنهما جامعان لأسباب الشفاء فى حق أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة ، استعمال الطبيب الحاذق ، لااستعمال الأخرق الذى يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان

وحال الرجاءيغلب بشيئين :أحدهما الاعتبار، والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه فى أصناف النعم من كتاب الشكر، حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا . وعجائب حكمه التى راعاها فى فطرة الإنسان حتى أعد له فى الدنيا كل ماهو ضروري له فى دوام الوجود . كآلات الغذاء . وماهو محتاج إليه كالأصابع والأظافر ، وما هو زينة له . كاستقواس الحاجبين ، واختلاف ألوان العينين ، وحمرة الشفتين، وغير ذلك مما كان لاينثلم بفقده غرض مقصود ، وإنما كان يفوت به مزية جمال

فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق ، حتي لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة ، كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا ، علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة فى الدنيا ، حتى أنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا، أو لا يحشر أصلا . فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لامحالة . وإنما الذى يتمنى الموت نادر . ثم لايتمناه إلا فى حال نادرة ، وواقعة هائجة غريبة

فإذاً كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة ، فسنة الله لاتجد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون ، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد ، وهو غفور رحيم ، لطيف بعباده ، متعطف عليهم . فهذا إذا تُؤُمّلَ حق التأمل قوي به أسباب الرجاء . ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسننها فى مصالح الدنيا ، ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقيل له وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ، ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط فى حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه !

الفن الثانى :استقراء الآيات والأخبار ، فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر

أما الآيات ، فقد قال تعالى (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١)) وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « وَلَا يُبَالِي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وقال تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ (٢)) وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوف بها أولياءه ، فقال (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ (٣)) وقال تعالى (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٤)) وقال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لَايَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٥)) وقال عز وجل (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ (٦))

ويقال (٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ (٧)) ؟ وفي تفسير قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٨)) قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار

وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ (٩)) الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (١٠)) . وأما الأخبار (٣) فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَاعَذَابَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَجَّلَ اللَّهُ عِقَابَهَا فِي الدُّنْيَا الزَّلَازِلَ وَالْفِتَنَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقِيلَ

---

(١) حديث قرا قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى : الترمذى من حديث اسماء بنت يزيد وقال حسن غريب

(٢) حديث ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له اما ترضى وقد أنزل عليك وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم : لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبى حاتم والثعلبى فى تفسيرهما من رواية على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحدا العيش ـ الحديث :

(٣) حديث أبى موسى أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها عجل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن . الحديث :

(١ ، ٩) الزمر : ٥٣ (٢) الشورى : ٥ (٣) الزمر : ١٦ (٤) آل عمران : ١٣١ (٥) الليل : ١٤ ، ١٥
(٦ ، ٧) الرعد : ٦ (٨ ، ١٠) الضحى : ٥

هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ » وفي لفظ آخر[1] « يَأْتِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ بِيَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِلَى جَهَنَّمَ فَيَقُولُ هَذَا فِدَائِي مِنَ النَّارِ فَيُلْقَى فِيهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ وَهِيَ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ » وروي في تفسير قوله تعالى (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ[(1)])[3] أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام «أني أجعل حساب أمتك إليك، قال لا يارب، أنت أرحم بهم مني: فقال إذاً لانخزيك فيهم . وروى عن[4] أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته ، فقال « يَارَبِّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَيَّ لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ غَيْرِي » فأوحي الله تعالى إليه ،هم أمتك ،وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك ،لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك . وقال صلى الله عليه وسلم « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ أَمَّا حَيَاتِي فَأَسُنُّ لَكُمُ السُّنَنَ وَأَشْرَعُ لَكُمُ الشَّرَائِعَ وَأَمَّا مَوْتِي فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَناً حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئاً اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى لَكُمْ »

أبي داود دون قوله فاذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه

(١) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم ـ الحديث : مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا

(٢) حديث الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار :أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه

(٣) حديث أن الله أوحي إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني ـ الحديث : في تفسير قوله تعالى يوم لا يخزي الله النبي ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله

(٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ـ الحديث :لم أقف له على أصل

(٥) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم ـ الحديث : البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود وأن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف

---

(١) التحريم : ٨

(١) وقال صلى الله عليه وسلم يوما « يَا كَرِيمَ الْعَفْوِ » فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته، بدلها حسنات بكرمه (٢) وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول: اللهم إنى أسألك تمام النعمة فقال « هَلْ تَدرِى مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ؟ » قال لا. قال « دُخُولُ الْجَنَّةِ » قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا ، إذ قال تعالى (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (١))

وفى الخبر (٣) « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا فَاسْتَغْفَرَ اللهَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ » . وفى الخبر (٤) « لَوْ أَذْنَبَ الْعَبْدُ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ غَفَرْتُهَا لَهُ مَا اسْتَغْفَرَنِي وَرَجَانِي » . وفى الخبر (٥) « لَوْ لَقِيَنِي عَبْدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذُنُوبًا لَقِيتُهُ بِقُرَابِ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً » . وفى الحديث (٦) « إِنَّ الْمَلَكَ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ عَنِ الْعَبْدِ إِذَا أَذْنَبَ سِتَّ سَاعَاتٍ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهُ عَلَيْهِ وَإِلَّا كَتَبَهَا سَيِّئَةً »

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم العفو ـ الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثنى بعض الزهاد فذكره

(٢) حديث سمع رجلا يقول اللهم انى أسألك تمام النعمة ـ الحديث تقدم

(٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ أن عبدا أصاب ذنبا فقال أى رب أذنبت ذنبا فاغفرلي ـ الحديث : وفى رواية أذنب عبد ذنبا فقال ـ الحديث :

(٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء ـ الحديث : الترمذى من حديث أنس يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك وقال حسن

(٥) حديث لو لقيني عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة : مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة والترمذى من حديث أنس الذى قبله يا ابن آدم لو لقيتنى ـ الحديث :

(٦) حديث أن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه ـ الحديث قال وفى لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر ـ الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضا أطول منه وفيه أن صاحب اليمين

---

(١) المائدة : ٣

وفي لفظ آخر « فَإِذَا كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَعَمِلَ حَسَنَةً قَالَ صَاحِبُ ٱلْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَيْهِ أَلْقِ هَذِهِ السَّيِّئَةَ حَتَّى أَلْقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً تَضْعِيفَ ٱلْعَشْرِ وَأَرْفَعَ لَهُ تِسْعَ حَسَنَاتٍ فَتُلْقَى عَنْهُ السَّيِّئَةُ » . وروى[1] أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال « إِذَا أَذْنَبَ ٱلْعَبْدُ ذَنْبًا كُتِبَ عَلَيْهِ » فقال أعرابي : وإن تاب عنه ؟ قال « مُحِيَ عَنْهُ » قال فإن عاد؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُكْتَبُ عَلَيْهِ » قال الأعرابي فإن تاب ؟ قال « مُحِيَ مِنْ صَحِيفَتِهِ » قال إلى متى ؟ قال « إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ مِنَ ٱلْمَغْفِرَةِ حَتَّى يَمَلَّ ٱلْعَبْدُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ فَإِذَا هَمَّ ٱلْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا صَاحِبُ ٱلْيَمِينِ حَسَنَةً قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعِفُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَإِذَا هَمَّ بِخَطِيئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ خَطِيئَةً وَاحِدَةً وَوَرَاءَهَا حُسْنُ عَفْوِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »[2] . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله ، إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالي صدقة ، ولا حج ، ولا تطوع ، أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نَعَمْ مَعِي إِذَا حَفِظْتَ قَلْبَكَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ

أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بالقاء السيئة حتي يلقي من حسناته واحدة ولم أجد لذلك أصلا

(١) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابي فان تاب عنه قال محي عنه قال فان عاد ـ الحديث وفيه أن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار ـ الحديث : البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل فقال يارسول الله اني أذنبت ذنبا قال استغفر ربك قال فأستغفر ثم أعود قال فاذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعا قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر ـ الحديث : وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر لأحدنا يذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قل فيعود ـ الحديث وفيه ولا يمل الله حتى تملوا وليس في الحديثين قوله في آخره فاذا هم العبد بحسنة ألخ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الي سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم في رواية أو محاها الله ولا يهلك على الله الاهالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث جاء رجل فقال يارسول الله أني لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ولا أصلي الا الخمس لا أزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع ـ الحديث : تقدم

الْغِلِّ وَالْحَسَدِ وَلِسَانَكَ مِنَ اثْنَتَيْنِ الْغِيبَةِ وَالْكَذِبِ وَعَيْنَيْكَ مِنَ اثْنَتَيْنِ النَّظَرِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللهُ وَأَنْ تَزْدَرِيَ بِهِمَا مُسْلِماً دَخَلْتَ مَعِيَ الْجَنَّةَ عَلَى رَاحَتَيَّ هَاتَيْنِ » . وفى الحديث الطويل لأنس[١] ، أن الأعرابى قال يارسول الله ، من يلى حساب الخلق؟ فقال « اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » قال هو بنفسه ؟ قال « نَعَمْ » فتبسم الأعرابى . فقال صلى الله عليه وسلم « مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَعْرَابِيُّ » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « صَدَقَ الْأَعْرَابِيُّ أَلَا لَا كَرِيمَ أَكْرَمُ مِنَ اللهِ تَعَالَى هُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ » ثم قال « فَقُهَ الْأَعْرَابِيُّ » وفيه أيضا « إِنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَّفَ الْكَعْبَةَ وَعَظَّمَهَا وَلَوْ أَنَّ عَبْداً هَدَمَهَا حَجَراً حَجَراً ثُمَّ أَحْرَقَهَا مَا بَلَغَ جُرْمَ مَنِ اسْتَخَفَّ بِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى » قال الأعرابى . ومن أولياء الله تعالى ؟ قال « الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ تَعَالَى أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ[١]) وفى بعض الأخبار[٢] « الْمُؤْمِنُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ » [٣] « وَالْمُؤْمِنُ طَيِّبٌ طَاهِرٌ » [٤] « وَالْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وفى الخبر[٥] « خَلَقَ اللهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ مِنْ فَضْلِ رَحْمَتِهِ سَوْطاً يَسُوقُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ » . وفى خبر آخر « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[٦] إِنَّمَا خَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَرْبَحُوا عَلَيَّ وَلَمْ أَخْلُقْهُمْ لِأَرْبَحَ

---

(١) حديث أنس الطويل قال أعرابى يارسول الله من يلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه ال نعم فتبسم الاعرابى .. الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث المؤمن أفضل من الكعبة : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به الاخيرا وشيخه نصر بن محمد ابن سليمان الحمصى ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن طيب طاهر : لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس

(٤) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة : ابن ماجه من رواية أبى المهزم يزيد بن سفيان عن أبى هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف

(٥) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده الى الجنة : لم أجده هكذا ويغنى عنه ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة فى السلاسل

(٦) حديث قال الله انما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لاربح عليهم : لم أقف له على أصل

---

(١) البقرة : ٥٧

عَلَيْهِمْ » . وفى حديث (١) أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَاخَلَقَ اللهُ تَعَالَى شَيْئاً إِلاَّ جَعَلَ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ وَجَعَلَ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ » وفى الخبر المشهور (٢) « إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » : وعن (٣) معاذ بن جبل ، وأنس بن مالك ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » (٤) « وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ » (٥) « وَمَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ » (٦) « وَلاَ يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » وفى خبر آخر (٧) « لَوْ عَلِمَ الْكَافِرُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللهِ مَا أَيِسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » (٨) ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى

---

(١) حديث أبى سعيد ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه : أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الميزان ليس بواه ولا بمجهول

(٢) حديث ان الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق أن رحمتى تغلب غضبى : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٣) حديث معاذ وأنس من قال لا إله الا الله دخل الجنة : الطبرانى فى الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو فى اليوم والليلة وللنسائى بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ ومن حديث أنس أيضا وتقدم فى الأذكار

(٤) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار : أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة

(٥) حديث من لقى الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار : الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله الا حرمه الله على النار وزاد البخارى صادقا من قلبه وفى رواية له من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جعله الله فى الجنة وللنسائى من حديث أبى عمرة الأنصارى فى أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما الا حجب عن النار يوم القيامة

(٦) حديث لا يدخلها من فى قلبه وزن ذرة من إيمان : أحمد من حديث سهل ابن بيضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان انى لأعلم كلمة ولا يقولها عبد حقا من قلبه الا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هى كلمة الاخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار واخراجهم بالشفاعة نعم لا يبقى فى النار من فى قلبه وزن ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبى سعيد وفيه فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فأخرجوه وقال مسلم من خير بدل من ايمان.

(٧) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٨) حديث لما تلا ـ ان زلزلة الساعة شىء عظيم ـ قال أتدرون أى يوم هذا ـ الحديث : الترمذى من حديث

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ[1]) قال « أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ هَذَا يَوْمٌ يُقَالُ لِآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ كَمْ؟ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ » قال فأبلس القوم، وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « مَالَكُمْ لَا تَعْمَلُونَ ؟ » فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ماحدثتنا بهذا ؟ فقال « كَمْ أَنْتُمْ فِي الْأُمَمِ أَيْنَ تَاوِيلُ وَتَارِيسُ وَمَنْسِكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَمٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي سَائِرِ الْأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَكَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ »

فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ، ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى ؛ إذ ساقهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس ، داواهم بدواء الرجاء ، وردهم إلى الاعتدال والقصد . والآخر لم يكن مناقضا للأول ؛ ولكن ذكر فى الأول ما رآه سببا للشفاء ، واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر : فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ ، فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة ، بعد ملاحظة العلل الباطنة ، وإن لم يراع ذلك كان مايفسد بوعظه أكثر مما يصلحه

وفى الخبر[1] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ » وفى لفظ آخر « لَذَهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وفى الخبر[2] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبِ » قيل وما هو ؟ قال « الْعُجْبُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[3] « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ

عمران بن حصين وقال حسن صحيح قلت هو من رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع منه وفى الصحيحين نحوه من حديث أبى سعيد

(١) حديث لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم وفى لفظ لذهب بكم - الحديث : مسلم من حديث أبى أيوب واللفظ الثانى من حديث أبى هريرة قريبا منه

(٢) حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شر من الذنوب قيل ماهو قال العجب : البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وتقدم فى ذم الكبر والعجب

(٣) حديث والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها : متفق عليه من حديث عمر بنحوه

---

(١) الحج : ١

مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا » وفي الخبر (١) « لَيَغْفِرَنَّ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً مَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ حَتَّى أَنَّ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ » وفى الخبر (٢) « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ ادَّخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِى الدُّنْيَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ فَتَحِنُّ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَتَعْطِفُ الْبَهِيمَةُ عَلَى وَلَدِهَا فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التِّسْعِ وَالتِّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَكُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ فَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا هَالِكٌ »

وفى الخبر (٣) « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ » قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَتِهِ » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام (٤) « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْجِهِ عَمَلُهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « إِنِّى اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِى لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِى أَتَرَوْنَهَا لِلْمُطِيعِينَ الْمُتَّقِينَ بَلْ هِىَ لِلْمُتَلَوِّثِينَ الْمُخَلِّطِينَ » وقال عليه الصلاة والسلام (٦) « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى (٧) « أُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَنَّ فِى دِينِنَا سَمَاحَةً » ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين فى قولهم (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

---

(١) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف

(٢) حديث ان لله تعالى مائة رحمة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٤) حديث اعملوا وابشروا واعلموا ان أحدا لن ينجيه عمله : تقدم أيضا

(٥) حديث انى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ـ الحديث : الشيخان من حديث أبى هريرة لكل نبى دعوة وانى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى ورواه مسلم من حديث أنس وللترمذى من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ولابن ماجه من حديث أبى موسى ولأحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لانها أعم وأكفى أترونها للمتقين ـ الحديث : وفيه من لم يسم

(٦) حديث بعثت بالحنفية السمحة السهلة : أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله وللطبرانى من حديث ابن عباس أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحاق ورواه بالعنعنة

(٧) حديث أحب ان يعلم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة : أبو عبيد فى غريب الحديث وأحمد

إِصْرًا [١]) وقال تعالى (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ [٢]) وروى [(١)] محمد بن الحنفية ، عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لما نزل قوله تعالى (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ [٣]) قال « يَا جِبْرِيلُ وَمَا الصَّفْحُ الْجَمِيلُ » قال عليه السلام . إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال « يَا جِبْرِيلُ فَاللهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَاتِبَ مَنْ عَفَا عَنْهُ » فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرئكما السلام ويقول . كيف أعاتب من عفوت عنه ؟ هذا مالا يشبه كرمى

والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه . من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا ، فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة . ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا ، فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة ، وقال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوى ، لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة ، كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن مصعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه ، فرفع يديه يدعو يقول يا ربي ، حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة . حتى إذا قال الرابعة يا ربي ، قال الله تعالى حتى متى تحجبون عني صوت عبدي ؟ قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيري . أشهدكم أني قد غفرت له

وقال ابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلا لي الطواف ليلة ، وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب ، فقلت يا ربي اعصمني حتى لا أعصيك أبدا . فهتف بي هاتف من البيت ، يا ابراهيم ، أنت تسألني العصمة ، وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك ، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ . وكان الحسن يقول . لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ، ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين .

ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له . إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال يا أبا يحيى ،

---

(١) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى ـ فاصفح الصفح الجميل ـ قال يا جبريل وما الصفح الجميل قال اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ـ الحديث : ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث : وفي اسناده نظر

---

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) الاعراف : ١٥٧ (٣) الحجر : ٨٥

إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح .

وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت . قال : لما مات أخي سجي بثوبه ، وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال : إني لقيت ربي عز وجل ، فحياني بروح وريحان ، وربي غير غضبان ، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون ، فلا تفتروا ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه ، فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه

وفي الحديث (١) « أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوَاخَيَا فِي اللهِ تَعَالَى فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ الآخَرُ عَابِداً وَكَانَ يَعِظُهُ وَيَزْجُرُهُ فَكَانَ يَقُولُ دَعْنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيباً حَتَّى رَآهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى كَبِيرَةٍ فَغَضِبَ فَقَالَ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْظُرَ رَحْمَتِي عَلَى عِبَادِي اذْهَبْ أَنْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ثُمَّ يَقُولُ لِلْعَابِدِ وَأَنْتَ فَقَدْ أَوْجَبْتُ لَكَ النَّارَ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَهْلَكَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ »

وروى أيضا أن لصا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة ، فمر عليه عيسى عليه السلام ، وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين . فقال اللص في نفسه : هذا نبي الله يمر ، وإلى جنبه حواريه ، لو نزلت فكنت معهما ثالثا . قال فنزل ، فجعل يريد أن يدنو من الحواري ، ويزدري نفسه تعظيما للحواري ، ويقول في نفسه مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد ! قال وأحس الحواري به ، فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي ! فضم نفسه ومشي إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فمشى بجنبه ، فبقي اللص خلفه . فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : قل لهما ليستأنفا العمل ، فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما . أما الحواري ، فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر ، فقد أحبطت سيآته بما ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك ، وضم اللص إليه في سياحته ، وجعله من حوارييه .

وروى عن مسروق ، أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا ، فوطىء عنقه بعض العصاة ، حتى

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا الحديث : أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد

ألزق الحصى بجبهته . قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا ، فقال اذهب فلن يغفر الله لك : فأوحى الله تعالى إليه : تتألى عليَّ فى عبادى ! إنى قد غفرت له .

ويقرب من هذا ما روى عن [1] ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ، ويلعنهم فى صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ [1]) الآية فترك الدعاء عليهم ، وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام .

وروى فى الأثر أن رجلين كانا من العابدين ، متساويين فى العبادة ، قال فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول يارب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر منى عبادة ، فرفعته عليّ فى عليين ؟ فيقول الله سبحانه . إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله . وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف . فكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه ، وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [2] « سَلُوا اللَّهَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فَإِنَّمَا تَسْأَلُونَ كَرِيمًا » وقال [3] « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَعْظِمُوا الرَّغْبَةَ وَاسْأَلُوا الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ » وقال بكر بن سليم الصوافَ . دخلنا على مالك بن أنس فى العشية

---

(١) حديث ابن عباس كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شىء فترك الدعاء عليهم ـ الحديث: البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد مايقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل ليس لك من الامر شىء إلى قوله فانهم ظالمون ورواه الترمذى وسماهم أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلموا فحسن اسلامهم وقال حسن غريب وفى رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للاسلام وقال حسن صحيح

(٢) حديث سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقدو ليس بالحافظ

(٣) حديث إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة وسألوا الفردوس الاعلى فان الله لايتعاظمه شيء: مسلم من حديث أبى هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لى ان شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فان الله عز وجل لايتعاظمه شيء أعطاه والبخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

---

(١) آل عمران : ١٢٨

التى قبض فيها ، فقلنا ياأباعبد الله ، كيف تجدك . قال لا أدرى ما أقول لكم ، إلا إنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم فى حساب . ثم ما برحنا حتى أغمضناه

وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته يكاد رجائى لك مع الذنوب، يغلب رجائى إياك مع الأعمال لأنى اعتمد فى الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف . وأجدنى فى الذنوب اعتمد على عفوك ، وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف ٠٠ وقيل إن مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فقال إن أسلمت أضفتك ، فمر المجوسى ، فأوحى الله تعالى إليه · يا إبراهيم ، لم تطعمه إلا بتغيير دينه ، ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؟ فمر ابراهيم يسعى خلف المجوسى ، فرده وأضافه ، فقال له المجوسى . ماالسبب فيما بدالك ؟ فذكر له . فقال له المجوسى . أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال اعرض علىّ الإسلام . فأسلم · ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام ، وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له كيف حالك . فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا، ورأى بعضهم أباسهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لاتوصف ، فقال له ياأستاذ بم نلت هذا ؟ فقال بحسن ظنى بربى · وحكي أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى ، رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول · أين العلماء ؟ قال فجاؤا . ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا يارب قصرنا وأسأنا . قال . فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه . فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم . ومات بعد ذلك بثلاث ليال ·

وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ، ودفع الى غلامه أربعة دارهم ، وأمره أن يشترى شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات · قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور . ما الذى تريد أن أدعو لك ؟ فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى ؟ فقال أن يخلف الله علىّ دارهمى ، فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم . فدعا منصور فرجع الغلام ، فقال له سيده : لمَ أبطأتَ ؟ فقص عليه القصة . قال وبم دعا ؟ فقال سألت

لنفسي العتق . فقال له اذهب فأنت حر . قال وإيش الثانى ؟ قال أن يخلف الله عليّ الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم . وإيش الثالث ؟ قال أن يتوب الله عليك . قال تبت إلى الله تعالى قال وإيش الرابع ؟ قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر . قال هذا الواحد ليس إليّ . فلما بات تلك الليلة ؛ رأى فى المنام كأن قائلا يقول له . أنت فعلت ما كان إليك ، أجمعين أنى لا أفعل ما إليّ ؟ قد غفرت لك ، وللغلام ، ولمنصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين أفترى

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال ، رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة ، وذهبنا إلى المقبرة ، وصلينا عليها ، ودفنا الميت . فقلت للمرأة من كان هـذا الميت منك ؟ قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى ولكن صغروا أمره . قلت وإيش كان هذا ؟ قالت مخنثا . قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا . قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض ، فجعل يتشكرنى . فقلت من أنت ؟ فقال: المخنث الذى دفنتمونى اليوم ، رحمنى ربى باحتقار الناس إياى . وقال ابراهيم الأطروش . كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق ، يضربون بالدف ويشربون ويلعبون . فقالوا لمعروف : أما تراهم يعصون الله مجاهرين ؟ ادع الله عليهم : فرفع يديه وقال إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة . فقال القوم ، إنما سألناك أن تدعو عليهم . فقال إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم . وكان بعض السلف يقول فى دعائه ، يارب ، وأى أهل دهر لم يعصوك ، ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ، ورزقك عليهم دارا . سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق ، حتى كأنك يا ربنا لا تغضب .

فهذه هى الأسباب التى بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين . فأما الحمقى المغرورون ، فلا ينبغى أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء ، والصبى العرم ، لا يستقيم إلا بالسوط والعصا ، وإظهار الخشونة فى الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا

كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الثالث عشر

دار الشعب
٩٥ شارع [illegible] القاهرة ٢١٨١

الشطر الثاني

من الكتاب في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق

بيان

حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه في الاستقبال . وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضاً : إذا ظهر الحق على السرائر ، لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف . وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق ، كان ذلك نقصاً في الشهود . وإنما دوام الشهود غاية المقامات . ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول :

حال الخوف ينتظم أيضاً من علم ، وحال ، وعمل . أما العلم ، فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه . وذلك كمن جنى على ملك ، ثم وقع في يده ، فيخاف القتل مثلا ، ويجوّز العفو والإفلات . ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وهو تفاحش جنايته . وكون الملك في نفسه حقوداً ، غضوباً ، منتقماً . وكونه محفوفاً بمن يحثه على الانتقام ، خالياً عمن يتشفع إليه في حقه . وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك . فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف ، وشدة تألم القلب . وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سبب

جناية قارفها الخائف ، بل عن صفة المخوف ، كالذي وقع في مخالب سبع ، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع ، وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالبا ، وإن كان افتراسه بالاختيار

وقد يكون من صفة جبلّية للمخوف منه ، كخوف من وقع في مجرى سيل ، أو جوار حريق ، فإن الماء يُخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق

فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه. وذلك الإحراق هو الخوف . فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعيوب نفسه ، ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، تكون قوة خوفه . فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَنَا أَخْوَفُكُمْ لِلّهِ » وكذلك قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) . ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات

أما في البدن فبالنحول ، والصفار ، والغشية ، والزعقه ، والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس

وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي ، وتقييدها بالطاعات ، تلافيا لما فرط ، واستعدادا للمستقبل. ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه. وقيل لذي النون : متى يكون العبد خائفا؟ قال إذا نزّل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام

وأما في الصفات ، فبأن يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما . فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول ، والخشوع ، والذلة ، والاستكانة ،

(١) حديث أنا أخوفكم : البخاري من حديث أنس والله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له وللشيخين من حديث عائشة والله اني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

(١) فاطر : ٢٨

ويفارقه الكبر، والحسد، والحقد: بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار، لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلك. فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه، لا متسع فيه لغيره. هذا حال من غلبه الخوف، واستولى عليه. وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين. وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه. وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال. وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع عن المحظورات. ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا. فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم، فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه. ويسمى ذلك تقوى. إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه. وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به، مخافة ما به بأس. وهو الصدق في التقوى. فإذا انضم إليه التجرد للخدمة، فصار لا يبني ما لا يسكنه، ولا يجمع ما لا يأكله، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه، فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا. ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة، فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة. فإذاً الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام، ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة. وأعلى منه الورع، فإنه أعم، لأنه كف عن كل محظور. وأعلى منه التقوى، فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا. ووراءه اسم الصديق والمقرب، وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم، فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل، كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي، والعربي إما قرشي أو غيره، والقرشي إما هاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره، والعلوي إما حسني أو حسيني. فإذا ذكرت أنه حسني مثلا، فقد وصفته بالجميع. وإن وصفته بأنه علوي، وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه. فكذلك إذا قلت صديق، فقد قلت إنه تقي، وورع، وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسامي تدل على معان كثيرة متباينة، فيختلط عليك كما اختلط

على من طلب المعانى من الألفاظ ، ولم يتبع الألفاظ المعانى

فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف ، وما يكتنفه من جانب العلو ، كالمعرفة الموجبة له ، ومن جانب السفل . كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما

بيان

درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد . وهو غلط : بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى . والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وكذا الصبى . ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة . وكذلك الخوف له قصور ، وله إفراط ، وله اعتدال . والمحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء ، يخطر بالبال عند سماع آية من القرءان ، فيورث البكاء ، وتفيض الدموع . وكذلك عند مشاهدة سبب هائل . فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع . وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية ، لا يؤلمها ألما مبرحا ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها . وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء . ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء ، والمتسمين بأسمائهم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف . بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده الآن ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت ، وإن قلت : نعم ، كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ، ويقيدها بالطاعات . وما لم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر ، لا يستحق أن يسمى خوفا

وأما المفرط . فإنه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال ، حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا ، لأنه يمنع من العمل . وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل . فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط ، وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان ، لأن منشأه الجهل والعجز . أما الجهل ،

فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ، ولو عرف لم يكن خائفا ، لأن الخوف هو الذي يتردد فيه .
وأما العجز ، فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فإذاً هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى .
وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به . وما لا يجوز
وصف الله به فليس بكمال فى ذاته ، وإنما يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون
احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت . فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم

وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل .
وقد يخرج إلى الموت . وكل ذلك مذموم ، وهو كالضرب الذى يقتل الصبى ، والسوط
الذى يهلك الدابة أو يمرضها ، أو يكسر عضوا من أعضائها . وإنما ذكر رسول الله صلى الله
عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط
أو أحد هذه الأمور . فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه .
وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم . وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة
والعبادة ، والفكر ، والذكر ، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى . وكل ذلك يستدعى
الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل . فكل ما يقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم

فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموما ؟

فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف ، كان لا ينالها لو مات
فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف . فهو بالإضافة إليه فضيلة . . فأما بالإضافة إلى تقدير
بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبله ، فليس بفضيلة . بل للسالك إلى الله تعالى بطريق
الفكر ، والمجاهدة ، والترقى فى درجات المعارف ، فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء . ولولا هذا
لكانت رتبة صبى يقتل ، أو مجنون يفترسه سبع ، أعلى من رتبة نبى أو ولى يموت حتف أنفه
وهو محال . فلا ينبغى أن يظن هذا . بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى
فكل ما أبطل العمر ، أو العقل ، أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها ، فهو خسران ونقصان
بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر ، كما كانت الشهادة
فضيلة بالإضافة إلى ما دونها ، لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصديقين

فإذاً : الخوف إن لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذى لا يزيد فى حركة

الدابة . وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره . فإن لم يحمل إلا على العفة ، وهى الكف عن مقتضى الشهوات ، فله درجة . فإذا أثمر الورع ،فهوأعلى. وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين ، وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى ، حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع . فهذ أقصى مايحمد منه . وذلك مع بقاء الصحة والعقل . فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة ، فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه . ولوكان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول . ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم ، فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل

بيان

أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه . والمكروه إما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار : وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه ، كما تكره المعاصى لأدائها إلى مكروه فى الآخرة ، كما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت . فلابد لكل خائف من أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره فى قلبه ، حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه . ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره ، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ،أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله مالم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء ، أو خوف مالا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا

أوخوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه ، أوخوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أوخوف السابقة التى سبقت له فى الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف .

فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة . والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا إلى بقية الأقسام

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر . وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة تتبع السابقة ، وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة . فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء فى أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة ، كرجلين وقّع الملك فى حقهما بتوقيع ، يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ، ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه . ولم يصل التوقيع إليهما بعد . فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره ، وأنه عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته ، وأنه ما الذى خطر له فى حال التوقيع من رحمة أو غضب . وهذا التفات إلى السبب ، فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع . فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذى جرى بتوقيعه القلم ، أعلى من الالتفات إلى ما يظهر فى الأبد .

وإليه أشار النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر ، فقبض كفه اليمنى ثم قال[1] « هَذَا كِتَابُ اللهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هَذَا كِتَابُ اللهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلَ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ السَّعَادَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفُوَاقِ* نَاقَةٍ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَخْرِجُهُمُ اللهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفُوَاقِ نَاقَةٍ السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللهِ وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللهِ وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ » . وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته وإلى من يخاف

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب

* الفواق : هو ما بين الحلبتين من الراحة ، وتضم فاؤه وتفتح

الله تعالى نفسه لصفته وجلاله، وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الغرور. والآمن إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى . وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية . بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ، ويسر له سبيلها ، ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد، ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات، ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى ، وكذا المطيع . فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ، ويضع أبا جهل فى أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده ، جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله . فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة ، وآتاه القدرة . وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة، يصير الفعل ضروريا . والذى عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة ، وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا . فليت شعرى ما الذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه ؟ وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة ، فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل . ووراء هذا المعنى سر القدر الذى لا يجوز إفشاؤه

ولا يمكن تفهم الخوف منه فى صفاته جل جلاله إلا بمثال ، ولولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة . فقد جاء فى الخبر [1] أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود ، خفنى كما تخاف السبع الضارى فهذ المثال يفهمك حاصل المعنى ، وإن كان لا يقف بك على سببه . فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله

---

(١) حديث ان الله تعالى أوحى الى داود يا داود خفنى كما تخاف السبع الضارى: لم أجد له أصلا ولعل المصنف قصد بايراده انه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء فى الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التى هى غير مرفوعة

والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك، بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالى. فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك، وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك، بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا. بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة، إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته، وما هو موصوف به من قدرته وسطوته. ولله المثل الأعلى. ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة، أنه صادق في قوله هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى. ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدى الله تعالى؛ والحياء من كشف الستر، والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم، وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى

وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها، فهى لا محالة مخوفة. وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين. وما قبل ذلك خوف العاملين، والصالحين، والزاهدين، وكافة العالمين. ومن لم تكمل معرفته، ولم تنفتح بصيرته، لم يشعر بلذة الوصال، ولا بألم البعد والفراق. وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار، وإنما يخاف الحجاب، وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم؛ لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين، بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم. فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره

فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

بيان

فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار

أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة. إذ لامقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه. فكل ماأعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته. وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته، والأنس به في الدنيا. ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة. ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر. ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر. ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها. ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات. ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف. فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر مايحرق من الشهوات، وبقدر مايكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق. وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة، والورع، والتقوى، والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار، فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان. قال الله تعالى (هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [1]) وقال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [2]) وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عز وجل (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [3]) . وكل مادل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم. ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه. فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء، لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم

(١) الأعراف : ١٥٤ (٢) فاطر : ٢٨ (٣) البينة : ٨

ولذلك [1] لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى ، كان يقول « أَسْأَلُكَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ماورد فى فضائلهما ، حتى أن العاقبة صارت موسومة بالتقوى ، مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى ، والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه ، فقال تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [1]) وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق . ولذلك قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [2]) ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى ، فقال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ [3]) وقال عز وجل (وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [4]) فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان. فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة التقوى [2] « إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا هُمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَقْصَاهُمْ كَمَا يُسْمِعُ أَدْنَاهُمْ فَيَقُولُ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أَنْصَتُّ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ الْيَوْمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُمْ نَسَبًا فَوَضَعْتُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُمْ نَسَبَكُمْ قُلْتُ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا فُلَانُ بْنُ

---

(١) حديث لما خير فى مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى : متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح انه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه فى حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره الى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فعلمت انه لا يختارنا وعرفت انه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح ـ الحديث:

(٢) حديث اذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه اقصاهم كما يسمعه ادناهم فيقول يا أيها الناس انى قد انصت اليكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فأنصتوا الى اليوم انما هى اعمالكم ترد عليكم أيها الناس انى جعلت نسبا ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف والثعلبى فى التفسير مقتصرا على آخره انى جعلت نسبا ـ الحديث : من حديث ابى هريرة

---

(١) الحج : ٣٧ (٢) الحجرات : ١٣ (٣) النساء : ١٣١ (٤) آل عمران : ١٧٥

ذلك [illegible] فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون ؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب »

وقال عليه الصلاة والسلام (١) « رأس الحكمة مخافة الله » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود (٢) « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي »

وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير وقال الشبلي رحمه الله : ماخفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وقال يحيي بن معاذ : مامن مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ، ورجاء العفو ، كثعلب بين أسدين

وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام : وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه ، إلا الورعين ، فإني استحي منهم ، وأجلهم أن أوقفهم للحساب . والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامي وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين . فقال (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى (١)) وقال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٢))

وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ وَعِزَّتِي (٣) لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلاَ أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنْ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ خَافَ اللهَ تَعَالَى خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللهِ خَوَّفَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ خَوْفاً لِلَّهِ تَعَالَى وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَراً »

---

(١) حديث رأس الحكمة مخافة الله : ابو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح ايضا

(٢) حديث ان اردت ان تلقاني فأكثر من الخوف بعدي قاله لابن مسعود : لم اقف له على اصل

(٣) حديث لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين : ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا

(٤) حديث من خاف الله خافه كل شيء ـ الحديث : أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي امامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم

(٥) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ـ الحديث : لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء

(١) الأعلى : ١٠ (٢) الرحمن : ٤٦

وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه : مسكين ابن آدم ، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذوالنون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه ، واشتد لله حبه ، وصح له لبه . وقال ذوالنون أيضا : ينبغى أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء ، فإذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ؛ لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإن انقطع زمامه هلك مع الهالكين

وقيل ليحيى بن معاذ : من آمنُ الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لاتجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير . فقال : والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : مافارق الخوف قلبا إلا خرب

وقالت (١) عائشة رضى الله عنها . قلت يارسول الله (الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ (١)) هو الرجل يسرق ويزنى؟ قال « لاَ بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُ » . والتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذى ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس . وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء ، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضادّ له . بل نقول كل ماورد فى فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف ، لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا محبوبا فلابد وأن يخاف فوته ، فإن كان لايخاف فوته فهو إذاً لايحبه فلا يكون بانتظاره راجيا

فالخوف والرجاء متلازمان ، يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر . نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف

---

(١) حديث عائشة قلت يارسول الله ـ الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ـ هو الرجل يسرق ويزنى قال لا ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد * قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبى حازم عن أبى هريرة

(١) المؤمنون ٦٠

فإذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة . فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف . والتقديزان يتقابلان لامحالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه . نعم أحد طرفى الشك قديترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ، ويسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر . فإذا غلب على الظن وجود المحبوب ، قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان . ولذلك قال تعالى (وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً [١]) وقال عز وجل (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً [٢]) ولذلك عبّر العرب عن الخوف بالرجاء . فقال تعالى (مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً [٣]) أى لاتخافون . وكثيرا ماورد فى القرءان الرجاء بمعنى الخوف ، وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه

بل أقول كل ماورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية . فقد قال تعالى (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً [٤]) وقال تعالى (يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً [٥]) وقال عز وجل (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ [٦])

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَامِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئاً مِنْ حَرِّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا اقْشَعَرَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « لاَ يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِى الضَّرْعِ »

---

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب ـ الحديث : الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٢) حديث اذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه ـ الحديث : الطبرانى والبيهقى فيه من حديث العباس بسند ضعيف

(٣) حديث لايلج النار عبد بكى من خشية الله ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة

---

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) السجدة : ١٦ (٣) نوح : ١٣ (٤) التوبة : ٨٣ (٥) الأسراء : ١٠٩ (٦) النجم : ٥٩ - ٦١

وقال عقبة بن عامر (١) : ماالنجاة يارسول الله ؟ قال « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » وقالت (٢) عائشة رضي الله عنها : قلت يارسول الله ، أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فَبَكَى »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَامِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةِ دَمْعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى أَوْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى »

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ تُشْفِيَانِ بِذُرُوفِ الدَّمْعِ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الدُّمُوعُ دَمًا وَالأَضْرَاسُ جَمْرًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من استطاع أن يبكي فليبك ، ومن لم يستطع فليتباك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لاتأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا ، فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه

(١) حديث قال عقبة بن عامر ماالنجاة يارسول الله قال أمسك عليك لسانك ـ الحديث : تقدم
(٢) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحدمن امتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى : لم أقف له على أصل
(٣) حديث مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن غريب وقدتقدم
(٤) حديث اللهم ارزقنى عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير وفى الدعاء وابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن ورواه الحسين المروزى فى زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر الله وذكر الدارقطنى فى العلل ان من قال فيه عن ابيه وهم وانما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا قال وسالم هذا يشبه ان يكون سالم بن عبد الله المحاربى وليس بابن عمر انتهى وماذكره من انه سالم المحاربى هو الذى يدل عليه كلام البخارى فى التاريخ ومسلم فى الكنى وابن أبى حاتم عن ابيه وابى احمد الحاكم فان الراوى له عن سالم عبد الله ابو سلمة وانما ذكروا له رواية عن سالم المحاربى والله اعلم نعم حكى ابن عساكر فى تاريخه الخلاف فى أن الذى يروى عن سالم المحاربى اوسالم بن عبد الله بن عمر
(٥) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقدتقدم

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ماتغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران . ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان : البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي ، أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار

وروي [١] عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوعظنا موعظة رقت لها القلوب ، وذرفت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلي ، فدنت مني المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا . ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت في نفسي قد نافقتُ حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة . فخرجت وجعلت أنادي نافق حنظلة. فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : كلا لم ينافق حنظلة . فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَلاَّ لَمْ يُنَافِقْ حَنْظَلَةُ » فقلت يارسول الله ، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا . فرجعت إلى أهلي ، فأخذنا في حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم « يَاحَنْظَلَةُ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَبَداً عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ فِي الطُّرُقِ وَعَلَى فِرَاشِكُمْ . وَلَكِنْ يَاحَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً »

فإذاً : كل ماورد في فضل الرجاء والبكاء ، وفضل التقوى والورع ، وفضل العلم ومذمة الأمن ، فهو دلالة على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به ، إما تعلق السبب ، أو تعلق المسبب

---

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا ـ الحديث : وفيه نافق حنظلة ـ الحديث : وفيه ولكن ياحنظلة ساعة وساعة مسلم مختصرا

بيان

أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت . وربما ينظر الناظر إليهما، فيعتريه شك فى أن الأفضل أيهما . وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد ، يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء . وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب ، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان : وهذا لأن كل مايراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه . والخوف والرجاء دوآن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود . فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به ، فالخوف أفضل . وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله ، فالرجاء أفضل . وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، فالخوف أفضل

ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل ، على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجبين مرض الصفراء . ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل . فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ، لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب

وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء ، فالرجاء أفضل، لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام، وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف ، فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل . فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقى الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وخفيه وجليه ، فالأصح أن يعتدل خوفه ورجاؤه . ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروي أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده:

يابني : خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلارجلا واحدا ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء، واعتدالهما على الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى . فثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوي خوفه ورجاؤه . فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثني من الذين أمروا بدخول النار ، كان ذلك دليلا على اغتراره

. فإن قلت :مثل عمر رضي الله عنه لاينبغى أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغى أن يغلب رجاؤه كما سبق فى أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغى أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح فى أرض نقية ، وواظب على تعهدها ، وجاء بشروط الزراعة جميعها ، غلب على قلبه رجاء الإدراك ، ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغى أن تكون أحوال المتقين

فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله . وذلك وإن أوردناه مثالا ، فليس يضاهى ما نحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاءها ، وصحة البذر ، وصحة الهواء ، وقلة الصواعق المهلكة فى تلك البقاع وغيرها . وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه ، وقد بث فى أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها ، وهى فى بلاد ليس يدرى أتكثر الصواعق فيها أم لا . فثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده ، وجاء بكل مقدوره ، فلا يغلب رجاؤه على خوفه . والبذر فى مسألتنا هو الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفى ، والنفاق ، والرياء ، وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هى الشهوات وزخارف الدنيا ، والتفات القلب إليها فى مستقبل الزمان وإن سلم فى الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب مالا يطاق مخالفته ، ولم يجرب مثله ، والصواعق هى أهوال سكرات الموت ، واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لا يجرب مثله . ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة ، وذلك لم يجرب

فمن عرف حقائق هذه الأمور ، فإن كان ضعيف القلب ، جبانا فى نفسه ، غلب خوفه على رجائه لامحالة ، كما سيحكى فى أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين . وإن كان قوي القلب ، ثابت الجأش ، تام المعرفة ، استوى خوفه ورجاؤه ، فأما أن يغلب رجاؤه فلا

ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ فى تفتيش قلبه ، حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] بعلم المنافقين . فمن ذا الذى يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي ؟ وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه ، وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟

وقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لاَ يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إلاَّ شِبْرٌ » وفى رواية « إلاَّ قَدْرُ فُوَاقِ نَاقَةٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ » وقدر فوق الناقة لايحتمل عملا بالجوارح ، إنما هو بمقدار خاطر يختلج فى القلب عند الموت ، فيقتضى خاتمة السوء . فكيف يؤمن ذلك ؟

فإذاً أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه . وغلبة الرجاء فى غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة . ولذلك جمع الله تعالى بينهما فى وصف من أثنى عليهم فقال تعالى (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً [1]) وقال عز وجل (وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً [2]) وأين مثل عمر رضي الله عنه ؟

فالخلق الموجودون فى هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لايخرجهم

---

(١) حديث ان حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين : مسلم من حديث حذيفة فى أصحابى اثنا عشر منافقا ثمانية لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ــ الحديث :

(٢) حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة الاشبر وفى رواية الاقدر فواق ناقة ــ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار والبزار والطبرانى فى الأوسط سبعين سنة واسناده حسن وللشيخين فى اثناء حديث لابن مسعود ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ــ الحديث : ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة

---

(١) السجدة : ١٦ (٢) الأنبياء : ٩٠

و[illegible] ، وقطع الطمع من المغفرة ، فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل ، وداعيا إلى الانهماك فى المعاصى ، فإن ذلك قنوط وليس بخوف . إنما الخوف هو الذى يحث على العمل ، ويكدر جميع الشهوات ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ، ويدعوه إلى التجافى عن دار الغرور ، فهو الخوف المحمود . دون حديث النفس الذى لا يؤثر فى الكف والحث ، ودون اليأس الموجب للقنوط

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق فى بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام فى محجة الادكار . وقال مكحول الدمشقى . من عبد الله بالخوف فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد

فإذاً لابد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت . أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقت العمل . فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ، ويعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاؤه

ولا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ، ليكون محبا للقاء الله تعالى . فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . والرجاء تقارنه المحبة . فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى ، حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه ، والقدوم بالموت عليه . ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل ، والولد ، والمال ، والمسكن والعقار ، والرفقاء . والأصحاب ، فهذا رجل محابه كلها فى الدنيا ، فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب . فموته خروج من الجنة ، وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه . ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه

فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى ، وسوى ذكره ، ومعرفته ، والفكر فيه ، والدنيا

وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا إذاً سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن .
ولا يخفى حال من أفلت من السجن ، وخلى بينه وبين محبوبه بلامانع ولا مكدر

فهذا أول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب، فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين ، مما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولاخطر على قلب بشر، وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، ورضوابها ، واطمأنوا إليها ، من الأنكال ، والسلاسل . والأغلال ، وضروب الخزي والنكال ، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ، ويلحقنا بالصالحين

ولا مطمع فى إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولاسبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب ، وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه، ومال، ووطن فالأولى أن ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم [1] « اَللّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ »

والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح ، لأنه أجلب للمحبة . وغلبة الخوف قبل الموت أصلح ، لأنه أحرق لنار الشهوات ، وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [2] « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ » وقال تعالى : أنا عند ظن عبدى بى . فليظن بى ماشاء . ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة ، قال لابنه :يابني، حدثنى بالرخص ، واذكر لى الرجاء ، حتى ألقى الله على حسن الظن به . وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة ، واشتد جزعه ، جمع العلماء حوله يرجّونه . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه لابنه عند الموت : اذكر لى الأخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن

والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ، أن حببنى إلى عبادى. فقال بماذا؟ قال بأن تذكرهم آلائى ونعمائى

فإذاً غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة ، وبإخراج حب الدنيا

---

(١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ـ الحديث: الترمذى من حديث معاذ وتقدم فى الاذكار والدعوات
(٢) حديث لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه: مسلم من حديث جابر وقد تقدم

من القلب ،حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أباسليمان الداراني في المنام وهو يطير ، فسأله ، فقال الآن أفلت . فلما أصبح سأل عن حاله ، فقيل له إنه مات البارحة

بيان

الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ماذكرناه في دواء الصبر ، وشرحناه في كتاب الصبر والشكر ،هوكاف في هذا الغرض . لأن الصبر لايمكن إلابعد حصول الخوف والرجاء .لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، والجنة ، والنار . وهذااليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار ، والرجاء للجنة . والرجاء والخوف يقويان على الصبر . فإن الجنة قد حفت بالمكاره ، فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ،والنار قدحفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف . ولذلك قال علي كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات . ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة ، والتجرد لذكر الله تعالى ، والفكر فيه على الدوام . ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة . ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ، ويتبعها مقام الرضا ، والتوكل ، وسائر المقامات . فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين . وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا . ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولامقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب ، والثقة بعنايته ، وهو التوكل .فإذاً فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية،ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول:

الخوف يحصل بطريقين مختلفين . أحدهما أعلى من الآخر . ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت ، فدخل عليه سبع أوحية،ربما كان لايخاف،وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها

ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل ، خاف من الحية وهرب منها . فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ، ويحتال في الهرب منها ، قام معه ، وغلب عليه الخوف ، ووافقه في الهرب . فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية ، وسمها ، وخاصيتها ، وسطوة السبع ، وبطشه ، وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمان بمجرد التقليد، لأنه يحسن الظن بأبيه، ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه. فيعلم أن السبع مخوف، ولا يعرف وجهه

وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين . أحدهما الخوف من عذابه ، والثاني الخوف منه . فأما الخوف منه ، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة ، والخوف، والحذر ، المطلعين على سر قوله تعالى(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ [1])وقوله عز وجل (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ [2])

وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول الغفلة بالتذكير ، والوعظ ، وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة، وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ، ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم . فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير .

وأما الثاني وهو الأعلى ، فأن يكون الله هو المخوف ، أعني أن يخاف البعد والحجاب عنه ، ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى ، خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي . وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [3]) ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد ، يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة ،فلاجرم يضعف ويزول على قرب . حتى أن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية ، فينظر إليه ويغتر به ، فيتجرأ على أخذها تقليدا له ، كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه . والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار

(١) آل عمران ٢٨ (٢) آل عمران : ١٠٢ (٣) فاطر : ٢٨

فإذاً من ارتقى إلى ذروة المعرفة ، وعرف الله تعالى ، خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف . كما أن من عرف السبع ، ورأى نفسه واقعا فى مخالبه ؛ لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام . خفنى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة فى جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ، ومعرفة الوقوع فى مخالبه ، فلا يحتاج إلى حيلة سواه . فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل مايشاء ولا يبالى ، ويحكم مايريد ولا يخاف، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة . بل صفته ماترجمه قوله تعالى . هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة، فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى، فإنه مهما خلق الغفلة، والشهوة، والقدرة على قضاء الشهوة، كان الفعل واقعا بها بالضرورة فإن كان أبعده لأنه عصاه، فلم حمله على المعصية. هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية ، أو يقف لامحالة على أول لا علة له من جهة العبد، بل قضى عليه فى الأزل

وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال (١) « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِى خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِى اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا قَالَ آدَمُ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى قَالَ نَعَمْ قَالَ أَفَتَلُومُنِى عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً » قال صلى الله عليه وسلم « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »

فمن عرف السبب فى هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية ، فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر . ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع، فهو من عموم

---

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بألفاظ أخر

المؤمنين . ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ، فإن كل عبد فهو واقع فى قبضة القدرة ، وقوع الصبي الضعيف فى مخالب السبع . والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفترسه ، وذلك بحسب مايتفق . ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لايعرفه سمي اتفاقا ، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا . والواقع فى مخالب السبع لوكلت معرفته لكان لايخاف السبع ، لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك . فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته . فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله

فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب ، وخلق لكل واحد أهلا ، يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاؤا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاؤا أم أبوا . فلا يرى أحد نفسه فى ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة . فهذه مخاوف العارفين بسر القدر . فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة ، والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم [1] فهو سيد الأولين والآخرين ، [2] وكان أشد الناس خوفا ، حتى روي [3] أنه كان يصلى على طفل ، ففي رواية أنه سمع فى دعائه يقول « اللَّهُمَّ قِهِ عَذَابَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ » وفى رواية ثانية [4] أنه سمع قائلا يقول : هنيئا لك

---

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين : مسلم من حديث أبى هريرة أنا سيد ولد آدم ولا فخر ـ الحديث :

(٢) حديث كان اشد الناس خوفا : تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله انى لأخشاكم لله وقوله والله انى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

(٣) حديث انه كان يصلى على طفل فسمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار : الطبرانى فى الأوسط من حديث انس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي او صبية وقال لو كان احد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبى واختلف فى اسناده فرواه فى الكبير من حديث ابى ايوب ان صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفلت احد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبى

(٤) حديث انه سمع قائلة تقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال مايدريك ـ الحديث :

عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « مَا يُدْرِيكَ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَاللهِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَمَا أَدْرِي مَا يُصْنَعُ بِي إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً لاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يَنْقُصُ مِنْهُمْ » وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة [1] عثمان بن مظعون ، وكان من المهاجرين الأولين ، لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة . فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكي أحدا بعد عثمان

وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكي أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي الذي ولدني . قال فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه .

وروي في حديث آخر ، عن [2] رجل من أهل الصفة استشهد ، فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ، هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتلت في سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ مَا لاَ يَضُرُّهُ » وفي حديث آخر ، أنه [3] دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل ، فسمع امرأة تقول : هنيئا لك الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَذِهِ الْمُتَأَلِّيَةُ عَلَى اللهِ تَعَالَى ؟ » فقال المريض : هي أمي يا رسول الله . فقال « وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّ فُلاَنًا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَعْنِيهِ وَيَبْخَلُ بِمَا لاَ يُغْنِيهِ »

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول [4] « شَيَّبَتْنِي هُودٌ

مسلم من حديث عائشة قالت توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة ـ الحديث : وليس فيه فغضب وقد تقدم

(١) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت ام سلمة هنيئا لك الجنة ـ الحديث : البخاري من حديث ام العلاء الانصارية وهي القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث : وورد ان التي قالت ذلك ام خارجة بن زيد ولم اجد فيه ذكر ام سلمة

(٢) حديث ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة ـ الحديث : أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ ان أمه قالت هنيئا لك يا بني الجنة ورواه البيهقي في الشعب الا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذي الا أنه قال ان رجلا قال له ابشر بالجنة وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف

(٣) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة ـ الحديث : تقدم أيضا

(٤) حديث شيبتني هود وأخواتها ـ الحديث : الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة وقد تقدم في كتاب السماع

وأخواتها سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون ، فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الإبعاد ، كقوله تعالى (ألا بعدا لعاد قوم هود [١]) (ألا بعدا لثمود [٢]) (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود [٣]) مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ماأشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها

وفى سورة الواقعة (ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة [٤]) أى جف القلم بما هو كائن ، وتمت السابقة ، حتى نزلت الواقعة ، إما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا

وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى (وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ماأحضرت [٥])

وفى عم يتساءلون (يوم ينظر المرء ماقدمت يداه [٦]) الآية ، وقوله تعالى (لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا [٧])

والقرءان من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر . ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى [٨]) لكان كافيا ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه قوله تعالى (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين [٩]) وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم [١٠]) وقوله تعالى (سنفرغ لكم أيه الثقلان [١١]) وقوله عز وجل (أفأمنوا مكر الله [١٢]) الآية وقوله (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد [١٣]) وقوله تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا [١٤]) الآيتين وقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها [١٥]) الآية وقوله (اعملوا ماشئتم [١٦]) الآية وقوله (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه [١٧]) الآية وقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره [١٨]) الآيتين وقوله تعالى (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل [١٩])

---

(١) هود : ٦٠ (٢) هود : ٦٨ (٣) هود : ٩٥ (٤) الواقعة : ٢ ، ٣ (٥) التكوير : ١٢ - ١٤
(٦) النبأ : ٤٠ (٧) النبأ : ٣٨ (٨) طه : ٨٢ (٩) القصص : ٦٧ (١٠) الأحزاب : ٨ (١١) الرحمن : ٣١
(١٢) الأعراف : ٩٩ (١٣) هود : ١٠٢ (١٤) مريم : ٨٥ (١٥) مريم : ٧١ (١٦) فصلت : ٤٠
(١٧) الشورى : ٢٠ (١٨) الزلزال : ٧ (١٩) الفرقان : ٢٣

الآية ،وكذلك قوله تعالى (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ [٢٠]) إلى آخر السورة ، فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران

وإنما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم ، لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، حتى روي [١] أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ! وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب، وأنه لاوقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ، ومكرا بهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر ، وما وفّيا بقولهما

كما أن ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق ، قال حسبي الله. وكانت هذه من الدعوات العظام ، فامتحن وعورض بجبريل في الهواء ، حتى قال ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله . فأخبر الله تعالى عنه فقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [١]) أي بموجب قوله حسبي الله

وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [٢]) ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة ؛ إذ لم يأمن مكر الله ،والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل (لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى [٣])

ولما ضعفت شوكة المسلمين [٢] يوم بدر ، قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ »فقال أبو بكر رضي الله عنه : دع عنك مناشدتك ربك ، فإنه واف لك بما وعدك . فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله ، وهو أتم

---

(١) حديث انه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله اليهما لم تبكيان ـ الحديث : ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر ورويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف

(٢) حديث قال يوم بدر اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك : البخاري من حديث ابن عباس بلفظ اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم ـ الحديث :

---

[١] العصر : ١ ، ٢ [٢] النجم : ٣٧ [٣] طه : ٤٥ ، ٤٦ [٤] طه : ٦٨

، لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض مايصدر عنها بالمكر . وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى .

ومن عرف حقيقة المعرفة ، وقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور ، عظم خوفه لامحالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [١]) وقال (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ [٢]) الآية ، فوض الأمر إلى المشيئة ، وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء ، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات ، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ، ولا حدس ؛ ولا حسبان ، فضلا عن التحقيق والاستيقان

وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لايبالى بك إن أهلكك ، فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ، ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [٣]) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ [٤]) الآية

فكيف لايخاف ماحق من القول فى الآزل ، ولا يطمع فى تداركه . ولو كان الأمر آنفا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه ، واستقراء خفي السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح . فمن يسرت له أسباب الشر ، وحيل بينه وبين أسباب الخير ، وأحكمت علاقته من الدنيا ، فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة . إذ كل ميسر لما خلق له . وإن كانت الخيرات كلها ميسرة ، والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا ، وبظاهره وباطنه على الله مقبلا ، كان هذا يقتضى تخفيف الخوف ، لو كان الدوام على ذلك موثوقا به . ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران

---
(١) المائدة : ١١٦ (٢) المائدة : ١١٨ (٣) السجدة : ١٣ (٤) هود : ١١٩

الخوف إشمالا ، ولا يمكنها من الانطفاء . وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها . وقد قال مقلب القلوب عز وجل (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (١))

فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن . ولولا أن الله لطف بعباده العارفين ، إذ روح قلوبهم بروح الرجاء ، لاحترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله ، وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس ، وتقطعت القلوب ، من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة ، فمات ، لم أقطع له بالتوحيد لأني لا أدري ماظهر له من التقلب . وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار ، والموت على الإسلام عند باب الحجرة ؛ لاخترت الموت على الإسلام ، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار

وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة ، وعند كل حركة . وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ (٢))

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء ، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك . فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتني الوفاة ، فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني مت على التوحيد ، فخذ جميع ما أملكه ، فاشترى به لوزا وسكرا ، وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت . وإن مت على غير التوحيد . فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ، ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة ، لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة . فرأى علامة التوحيد عند موته ، فاشترى السكر واللوز وفرقه

(١) المعارج : ٢٨ (٢) المؤمنون : ٦٠

وكان سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلي بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلي بالكفر وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد كأن في وسطي زنارا ، أخاف أن يذهب بي إلى البيعة ، وبيت النار ، حتى أدخل المسجد ، فينقطع عني الزنار ، فهذا لي في كل يوم خمس مرات

وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أنتم تخافون المعاصي ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروي في أخبار الأنبياء ، أن نبيا شكا إلى الله تعالى الجوع ، والقمل ، والعري سنين . وكان لباسه الصوف . فأوحى الله تعالى إليه : عبدي ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي ، حتى تسألني الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يارب ، فاعصمني من الكفر

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لايخافه الضعفاء !

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق ، حتى قال الحسن : لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس . وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيمان ، بل المراد به مايجتمع مع أصل الإيمان ، فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة . قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وفي لفظ آخر « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ »

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لايخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج . ومن الذي يخلو عن هذه المعاني ؟ بل صارت هذه الأمور مألوفة بين

---

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد

الناس معتادة ، ولسي كونها منكرا بالكلية . بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ؟ حتى قال (١) حذيفة رضي الله عنه . إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا ، إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات . وكان (٢) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر

وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله ، وأن تحب على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل : من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك

وقال (٣) رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروي أنه (٤) سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا ، أكنت تتكلم بما تكلمت به؟ قال لا . قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأشد من ذلك ما روي (٥) أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه . فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه . فقال تكلموا فيما كنتم تقولون . فسكتوا . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول إنه يأتي على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة ، ويأتي عليه ساعة

---

(١) حديث حذيفة ان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا الحديث : أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد

(٢) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر الحديث : البخاري من حديث أنس وأحمد والبزار من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح اسناده وتقدم في التوبة

(٣) حديث قال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون ـ الحديث : رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد

(٤) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا ـ الحديث : تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج

(٥) حديث ان نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث : لم أجد له أصلا

يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة

فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه ، منها البدع ، ومنها المعاصي ، ومنها النفاق . ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك ؟ وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق : وقال بعضهم لبعض العارفين . إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق . فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة ، خائفا منهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لاَ يَدْرِى مَا اللهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لاَ يَدْرِى مَا اللهُ قَاضٍ فِيهِ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلاَّ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ » والله المستعان

بيان

معنى سوء الخاتمة

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى الخاتمة

فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين ، إحداهما أعظم من الأخرى

فأما الرتبة العظيمة الهائلة ، فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك ، وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد

والثانية وهي دونها ، أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا ، وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه ، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فيتفق قبض روحه في تلك الحال ، فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا ، وصارفا وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب ، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه . فأما المؤمن السليم قلبه عن حب

---

(١) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى ـ الحديث : البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس

الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار: جُزْ يامؤمن، فإن نورك قد أطفأ لهبي

فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ماعاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه. إذ لاتصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح، وقد بطلت الجوارح بالموت، فبطلت الأعمال فلا مطمع في عمل، ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك. وعند ذلك تعظم الحسرة

إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة، وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة، فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت. فإن كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال، أخرجه من النار في زمان أقرب. وإن كان أقل من ذلك، طال مكثه في النار. ولو لم يكن إلا مثقال حبة، فلا بدوأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين

فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة، ويمهل طول هذه المدة

فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى، وعن نور القرآن ونور الإيمان. بل الصحيح عند ذوي الأبصار ماصحت به الأخبار، وهو أن [1] القبر إما حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة. [2] وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت به الأخبار، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة. وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات. فيكون [3] سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر، [4] والتعذيب بعده، ثم [5] المناقشة في الحساب، [6] والافتضاح

---

(١) حديث القبر اماحفرة من حفر النار أوروضة من رياض الجنة: الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب وتقدم في الاذكار

(٢) حديث انه يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم: لم أجد له أصلا

(٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر: تقدم في قواعد العقائد

(٤) حديث عذاب القبر: تقدم فيه

(٥) حديث المناقشة في الحساب: تقدم فيه

(٦) حديث الافتضاح على ملأ الأشهاد في القيامة: أحمد والطبراني من حديث ابن عمر باسناد جيد من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على رؤس الاشهاد وفي الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبراني والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهوحديث طويل منكر

على ملأ من الأشهاد في القيامة ، ثم بعد ذلك [1] خطر الصراط ، [2] وهوأن الزبانية إلى آخر ماوردت به الأخبار . فلا يزال الشقي مترددا في جميع أحواله بين أصناف العذاب ، وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته

ولا تظنن أن محل الإيمان يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فتجتمع الأجزاء المتفرقة ، وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة ، إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية

فإن قلت : فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها . أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين .

أحدهما : يتصور مع تمام الورع والزهد ، وتمام الصلاح في الأعمال ، كالمبتدع الزاهد ، فإن عاقبته مخطرة جدا ، وإن كانت أعماله صالحة . ولست أعني مذهبا فأقول إنه بدعة ، فإن بيان ذلك يطول القول فيه . بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله ، وصفاته ، وأفعاله خلاف الحق ، فيعتقده على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ، ومعقوله ، ونظره الذي به يجادل الخصم ، وعليه يعول ، وبه يغتر ، وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله . فإذا قرب الموت ، وظهرت له ناصية ملك الموت ، واضطرب القلب بما فيه ، ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ومبادىء سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور . فمهما بطل عنده ما كان اعتقده ، وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه ، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة ، لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد ، وعقله الناقص . بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة ، وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته ، أو لشكه فيها .

---

(١) حديث خطر الصراط : تقدم في قواعد العقائد

(٢) حديث هوان الزبانية : الطبراني من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع الى فسقة حملة القرآن منها الى عبدة الأوثان والنيران قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلا في خزنة جهنم ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب

فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة ، قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد ختم له بالسوء ، وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه. فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [١]) وبقوله عز وجل (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [٢]) . وكما أنه قد ينكشف في النوم ماسيكون في المستقبل ، وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب ، فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور . إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع مافي اللوح المحفوظ ، لتنكشف له الأمور على ماهي عليه . فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات

وكل من اعتقد في الله تعالى ، وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به ، إما تقليدا ، وإما نظرا بالرأي والمعقول ، فهو في هذا الخطر . والزهد والصلاح لايكفي لدفع هذا الخطر . بل لاينجي منه إلا الاعتقاد الحق . والبله بمعزل عن هذا الخطر ، أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا ، كالأعراب ، والسوادية ، وسائر العوام ، الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ، ولم يشرعوا في الكلام استقلالا ، ولاصغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ »

ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام ، والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا ، وبكل ماجاء من الظواهر ، مع اعتقاده نفي التشبيه : ومنعوهم عن الخوض في التأويل ، لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كؤودة ، ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقي إليها في مبدأ النشأة آلفة ، وبه متعلقة ، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر . ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة ، وعليها

---

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله : البزار من حديث أنس وقد تقدم

(١) الزمر : ٤٧ (٢) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

مقبلة ، وشهوات الدنيا بخنقها آخذة ، وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول ، مع تفاوت الناس في قرائحهم، واختلافهم في طبائعهم، وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ، انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم ، وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم ، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم . فكانت سلامة الخلق فى أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ، ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم

ولكن الآن قد استرخي العنان ، وفشا الهذيان . ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان ، وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ماوقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ، ولتعلمن نبأه بعد حين . وينبغى أن ينشد فى هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء مايأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه ، وخاض فى البحث فقد تعرض لهذا الخطر . ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الأمواج ، يرميه موج إلى موج ؛ فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب

وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم ، إما مع الأدلة التى حرروها فى تعصباتهم ، أو دون الأدلة ، فإنه إن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين ، وإن كان واثقا به فهو آمن من مكر الله . مغتر بعقله الناقص، وكل خائض فى البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المعقول ، إلى نور المكاشفة الذى هو مشرق فى عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وأنى يتيسر ! وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام، أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله ، فلم يخوضوا فى هذا الفضول . فهذا أحد الأسباب المخطرة فى سوء الخاتمة

وأما السبب الثانى فهو ضعف الإيمان فى الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوي حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبقى فى القلب

موضع لحب الله تعالى ، إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس ، والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويقسو ويسود ، وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه ، حتى يصير طبعا ورينا . فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ، أعنى حب الله ضعفا ، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا ، وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت ، وكراهة ذلك من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب . كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا ، إذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب إليه من ولده وأحرقها ، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا . فإن اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة ، فقد ختم له بالسوء ، وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بأسبابها ، مع ضعف الإيمان ، الموجب لضعف حب الله تعالى . فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا ، وإن كان يحب الدنيا أيضا ، فهو أبعد عن هذا الخطر

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق ، وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى . إذ لا يحبه إلا من عرفه . ولهذا قال تعالى (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ [1])

فإذاً كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله ، وظهور بغض فعل الله بقلبه ، فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال

وأما الذى يتوفى على الحب ، فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح

(١) التوبة : ٢٤

والسرور بمجرد القدوم ، فضلا عمـــا يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى ، وليست مقتضية للخلود في النار ، فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي . وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب ، بكثرة الإلف والعادة . وجميع ماألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات ، كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي ، غلب ذكرها على قلبه عند الموت ، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ، ومعصية من المعاصي ، فيتقيد بها قلبه ، ويصير محجوبا عن الله تعالى، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة ، فهو أبعد عن هذا الخطر . والذي لم يقارف ذنبا أصلا ، فهو بعيد جدا عن هذا الخطر . والذي غلبت عليه المعاصي ، وكانت أكثر من طاعاته ، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات ، فهذا الخطر عظيم في حقه جدا

ونعرف هذا بمثال . وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره ، حتى أنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ، وحتى أن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ، ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع . ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه ، يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة . والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف ،أو بسبب آخر من الأسباب

والموت شبيه النوم ، ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم ، فيقتضي ذلك تذكر المألوف،وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف . فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق . فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه ، فيكون ذلك سبب سوء خاتمته

وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها

وكما أن ما يخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى، نعرف بعضها ولا نعرف بعضها. كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة، وإما بالمضادة، وإما بالمقارنة، بأن يكون قد ورد على الحس منه

أما بالمشابهة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر

وأما بالمضادة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما

وأما بالمقارنة: فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان، فيتذكر ذلك الإنسان

وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء، ولا يدرى وجه مناسبته له. وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثانى، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة، وبين الثانى والأول مناسبة. فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت

فعلى هذا، والعلم عند الله، من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يومىء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها، ويبل أصبعه التى لها عادة بالكستبان، ويأخذ الإزار من فوقه، ويقدره ويشبره وكأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمدّ يده إلى المقراض

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصى والشهوات، فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر فى فطامه نفسه عنها؛ وفى قمع الشهوات عن القلب. فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار، ويكون طول المواظبة على الخير، وتخلية الفكر عن الشر، عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه

ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة، ستة، أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال إلفه له قبل الموت

وقال بعض العارفين من السلف. العرش جوهرة تتلألأ نورا، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله فى العرش على الصورة التى كان عليها، فإذا كان فى سكرات الموت كشف له صورته من العرش، فربما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم

القيامة، فيرى أحوال نفسه، فيأخذه من الحياء والخوف مايجل عن الوصف . وما ذكره صحيح

وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك . فإن النائم يدرك مايكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ ، وهي جزء من أجزاء النبوة

فإذاً رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ، ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا ،وإن كان لطول الإلف فيه تأثير . فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لايرى في المنام إلا أحوال الصالحين ، وأحوال الطاعات والعبادات ، عسر عليه ذلك،وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لاتدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة مايظهر في النوم لما غلب في اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه ، يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه ، وأن لايكون في قلبه إنكار لكل مايقوله ، ولا في لسانه مجادلة عليه ، فقال : حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناماً لي، وقلت رأيتك قلت لي كذا ، فقلت لم ذاك ؟ قال فهجرني شهرا ولم يكلمني وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة ، وإنكار ماأقوله لك ، لما جرى ذلك على لسانك في النوم . وهو كما قال . إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف مايغلب في اليقظة على قلبه . فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة

وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية . فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير ، فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ماغلب على العارفين ،حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ، ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك

وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدا ، ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول ، إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا .

ولذلك قال حامد اللفاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه ، وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا ؟ وكان الثوري يوما يبكي ، فقيل له علام تبكي ؟ فقال بكينا على الذنوب زمانا ، فالآن نبكي على الإسلام

وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك . وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة وأمواجُ الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر . وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا فُوَاقُ نَاقَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ بِمَا سَبَقَ بِهِ الْكِتَابُ » ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف

وقال سهل : رأيت كأني أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبي ، فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا ؟ قالوا سوء الخاتمة . ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها

أما الموت فجأة ، فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب ، والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة ، أو بنور المعرفة

وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى ، وخرج حب الدنيا ، والأهل ، والمال ، والولد ، وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت إلا حبا لله ، وطلبا لمرضاته ، وبائعا دنياه بآخرته ، وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به ، إذ قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [1]) والبائع راغب عن المبيع لا محالة ، ويخرج حبه عن القلب ، ويجرد حب العوض المطلوب في قلبه . ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصف القتال سبب لزهوق الروح

(١) حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة ـ الحديث . تقدم

(١) التوبة : ١١١

على مثل هذه الحالة . هذا (١) فيمن ليس يقصد الغلبة ،والغنيمة، وحسن الصيت بالشجاعة، فإن من هذا حاله وإن قتل فى المعركة ، فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها ، فاشتغل بالاستعداد لها ،فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصى ومشاهدة أهلها جهدك ، فإن ذلك أيضا يؤثر فى قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك

وإياك أن تسوّف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك . فراقب قلبك فى كل تطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة ، فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك. هذا مادمت فى يقظتك . وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك . لست أقول على لسانك ،فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه،وأنه لا يغلب فى النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك فى نومك .والموت والبعث شبيه النوم واليقظة . فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه فى يقظته، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه فى نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه . وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك ، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك . وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ، إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة

وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين ، فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك فى خطر عظيم ،فكيف إذا لم تفعل! والناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون

---

(١) حديث المقتول فى الحرب اذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى ان رجلا قال يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وفى رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء وفى رواية يقاتل غضبا

كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

واعلم أن ذلك لا يتيسر لك مالم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ، ومسكن ، والباقي كله فضول . والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ، ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك ، إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ؛ فهما ضرورتان في الجبلة . وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك ، فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك ، فقيمتك ما يخرج من بطنك

وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى ، كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور من مأكولك : في وقته ، وقدره ، وجنسه

أما الوقت : فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة مرة واحدة ، فيواظب على الصوم

وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن . وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق . فإن قدرت على هذه الثلاث ، وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات ، وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله ، فإن الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات

وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد ، وستر العورة . فكل ما دفع البرد عن رأسك ، ولو قلنسوة بدانق ، فطلبك غيره فضول منك ، يضيع فيه زمانك ، ويلزمك الشغل الدائم ، والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة ، والطمع أخرى ، من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك ، فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه ، لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب

وكذلك المسكن ، إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا . والأرض مستقرا . فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد . فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك ، وانصرف إليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك . ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان ، وتزين السقوف ، فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها

وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله ، وقدرت على التزود لآخرتك ، والاستعداد لخاتمتك . وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك، ولم يبال الله في أي وادأهلكك .فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك

واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير . فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أوغفلتك ، اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ، ولم تفارقك حسرتك وندامتك . فإن كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك ، إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك ، فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، وعملهم ومكانهم عند الله تعالى ، لم يكن دون عقلك ، وعملك ، ومكانك . فتأمل مع كلال بصيرتك، وعمش عين قلبك في أحوالهم ، لمَ أشتدّ بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق ، وبعضهم يدهش ، وبعضهم يسقط مغشيا عليه ، وبعضهم يخر ميتا إلى الأرض . ولاغرو إن كان ذلك لايؤثر في قلبك ، فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون

بيان

أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت[١] عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة ، يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج ، كل ذلك خوفا من عذاب الله[٢] وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق وقال تعالى (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا[١])

---

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه ـ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث قرأ في سورة الحاقة فصعق المعروف فيما يروى من هذه القصة اندقرى عنده إن لدنيا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما فصعق كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم

---

(١) الأعراف : ١٤٣

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق.

وروي أنه عليه السلام [2] كان إذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَاجَاءَنِي جِبْرِيلُ قَطُّ إِلاَّ وَهُوَ يَرْعَدُ فَرَقًا مِنَ الْجَبَّارِ »

وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا يارب ما نأمن مكرك . فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكري . وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت

وعن [4] أنس أنه عليه السلام سأل جبريل « مَالِي لاَ أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ ؟ » فقال جبريل . ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . ويقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار ، مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها

وقال [5] ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل. فقال « يَاابْنَ عُمَرَ مَالَكَ لاَ تَأْكُلُ؟ »

---

(١) حديث انه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق :البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه فى صورته فقال ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ فغشي عليه وفى الصحيحين عن عائشة رأى جبريل فى صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له ستمائة جناح

(٢) حديث كان إذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل :أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم فى كتاب السماع

(٣) حديث ماجاءنى جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائصه من الجبار :لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن ابن عباس قال ان جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله ـ الحديث : وفيه زميل بن سماك الحنفى يحتاج إلى معرفته

(٤) حديث أنس انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لا أرى ميكائيل يضحك فقال ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين فى السنة من حديث ثابت مرسلا وورد ذلك أيضا فى حق اسرافيل رواه البيهقى فى الشعب وفى حق جبريل رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين

(٥) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل ـ الحديث : ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقى هذا اسناد مجهول والجراح بن منهال ضعيف

فقلت يارسول الله لاأشتهيه . فقال « لَكِنِّي أَشْتَهِيهِ وَهَذَا صُبْحُ رَابِعَةٍ لَمْ أَذُقْ طَعَامًا وَلَمْ أَجِدْهُ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَعْطَانِي مُلْكَ قَيْصَرَ وَكِسْرَى فَكَيْفَ بِكَ يَاابْنَ عُمَرَ إِذَا بَقِيتَ فِي قَوْمٍ يُخَبِّئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ وَيَضْعُفُ الْيَقِينُ فِي قُلُوبِهِمْ » قال فوالله مابرحنا ولا قمنا حتى نزلت(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[1]) قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِكَنْزِ الْمَالِ وَلَا بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ مَنْ كَنَزَ دَنَانِيرَ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً فَانِيَةً فَإِنَّ الْحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ أَلَا وَإِنِّي لَا أَكْنِزُ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلَا أَخْبَأُ رِزْقًا لِغَدٍ »

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام فى الصلاة من مسيرة ميل ، خوفا من ربه

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لايرفع رأسه ،حتى نبت المرعى من دموعه ، وحتى غطى رأسه ، فنودي ياداود أجائع أنت فتطعم ، أم ظمآن فتسقى ، أم عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة . فقال يارب اجعل خطيئتى فى كفى . فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة . فكان لايبسط كفه لطعام ولا الشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته . قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ، فإذا تناوله أبصر خطيئته ، فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه

ويروى عنه عليه السلام أنه مارفع رأسه إلى السماء حتى مات ، حياء من الله عز وجل. وكان يقول فى مناجاته : إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت عليّ الأرض برحبها . وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليّ روحى . سبحانك إلهى أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى . فبؤسا للقانطين من رحمتك

وقال الفضيل : بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم ، فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع ، فقال ارجعوا لاأريدكم . إنما أريد كل بكاء على خطيئته ، فلا يستقبلنى إلا بالبكاء . ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان يعاتب

(١) العنكبوت : ٦٠

فى كثرة البكاء فيقول : دعونى أبكى قبل خروج يوم البكاء ، قبل تخريق العظام واشتعال الحشا ، وقبل أن يؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته . فقال إلهى بح صوتى فى صفاء أصوات الصديقين . وروي أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه ، واشتد غمه ، فقال يارب أما ترحم بكائى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ! فقال : إلهى وسيدى ، كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريه ، وسكن هبوب الريح ، وأظلنى الطير على رأسى ، وأنست الوحوش إلى محرابى ! إلهى وسيدى ، فما هذه الوحشة التى بينى وبينك ! فأوحى الله تعالى إليه ياداود ذلك أنس الطاعة ، وهذه وحشة المعصية . ياداود ، آدم خَلْقٌ من خلقى ، خلقته بيدى ، ونفخت فيه من روحى ، وأسجدت له ملائكتى ، وألبسته ثوب كرامتى ، وتوجته بتاج وقارى . وشكا لى الوحدة فزوجته حواء أمتى ، وأسكنته جنتى ، عصانى ، فطردته عن جوارى عريانا ذليلا . ياداود اسمع منى ، والحقَّ أقول ، أطعتنا فأطعناك ، وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك

وقال يحيى بن أبى كثير . بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يقرب النساء . فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية . فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض ، والآكام ، والجبال ، والبرارى ، والصوامع ، والبيع ، فينادى فيها . ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت . قال فتأتى الوحوش من البرارى والآكام ، وتأتى السباع من الغياض ، وتأتى الهوام من الجبال ، وتأتى الطير من الأوكار ، وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم . ويأتى داود حتى يرقى المنبر ، ويحيط به بنو إسرائيل ، وكل صنف على حدته محيطون به ، وسليمان عليه السلام قائم على رأسه . فيأخذ فى الثناء على ربه ، فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار ، فتموت الهوام ، وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ فى أهوال القيامة ، وفى النياحة على نفسه ، فيموت من كل نوع طائفة . فإذا رأى سليمان كثرة الموتى ، قال يا أبتاه . قد مزقت المستمعين كل ممزق ، وماتت

طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام . فيأخـذ في الدعاء . فبينما هو كذلك ، إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك ، قال فيخر داود مغشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ماأصابه ، أتى بسرير فحمله عليه ، ثم أمر مناديا ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله ، فإن الذين كانوا معه قدقتلهم ذكر الجنة والنار . فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يامن قتله ذكر النار يامن قتله خوف الله . ثم إذا أفاق داودقام ووضع يده على رأسه، ودخل بيت عبادته، وأغلق بابه ، ويقول ياإله داود ، أغضبان أنت على داود ؟ ولا يزال يناجي ربه . فيأتي سليمان ويقعد على الباب ، ويستأذن ، ثم يدخل ومعه قرص من شعير ، فيقول ياأبتاه تقوّ بهذا على ماتريد فيأكل من ذلك القرص ماشاء الله ، ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم

وقال يزيد الرقاشي : خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم . فخرج في أربعين ألفا ، فمات منهم ثلاثون ألفا ، وما رجع إلا في عشرة آلاف .قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب ، قعدتا على صدره وعلى رجليه ، مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبّادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل ، وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس . فهاله ذلك ، فرجع إلى أبويه . فمر بصبيان يلعبون ، فقالوا له يايحيى هلم بنا نلعب . فقال إني لم أخلق للّعب . قال فأتى أبويه ، فسألهما أن يدرعاه الشعر ، ففعلا . فرجع إلى بيت المقدس ، وكان يخدمه نهارا ، ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب . فخرج أبواه في طلبه ، فأدركاه على بحيرة الأردن ، قد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه ، وهو يقول . وعزتك وجلالك لاأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك . فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ، و يشرب من ذلك الماء ، ففعل وكفّر عن يمينه ، فمدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه ،

فلم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه ، وبدت أضراسه للناظرين . فقالت له أمه يابني لو أذنت لى أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين ؟ فأذن لهـا . فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خديه ، فكان إذا قام يصلى بكى ، فإذا استنقعت دموعه فى القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال . اللهم هذه دموعى ، وهذه أمى ، وأنا عبدك ، وأنت أرحم الراحمين . فقال له زكريا يوما : يابني ، إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقرعيناي بك . فقال يحيي . ياأبت . إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلى كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام . يابني فابك

وقال المسيح عليه السلام . معاشر الحواريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة : ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم ، إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل

وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له . ربك يقرئك السلام ويقول . هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول ياجبريل ، إنى إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى

فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام ، فدونك والتأمل فيها ، فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى كل عباد الله المقربين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

بيان

أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين فى شدة الخوف

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر . ليتنى مثلك ياطائر ولم أخلق بشرا

وقال أبو ذر رضي الله عنه وددت لو أنى شجرة تعضد . وكذلك قال طلحة

وقال عثمان رضي الله عنه . وددت أنى إذا مت لم أبعث . وقالت عائشة رضي الله عنها : وددت أنى كنت نسيا منسيا

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرءان مغشيا عليه ، فكان يعاد أياما ، وأخذ يوما تبنة من الأرض ؟ فقال . ياليتنى كنت هذه التبنة ،

ياليتني لم أك شيئا مذكورا ،ياليتني كنت نسيا منسيا ، ياليتني لم تلدني أمي . وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع مايريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون

ولما قرأ عمر رضي الله عنه (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ [١]) وانتهى إلى قوله تعالى (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ [٢]) خر مغشيا عليه . ومر يوما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة (وَالطُّورِ [٣]) فوقف يستمع ،فلما بلغ قوله تعالى(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ [٤]) نزل عن حماره، واستند إلى حائط ، ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ، ولا يدرون ما مرضه . وقال علي كرم الله وجهه ، وقد سلم من صلاة الفجر ، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئا يشبههم : لقد كانوا يصبحون شعثا ، صفرا ، غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله ، تمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم . والله فكأني بالقوم باتوا غافلين . ثم قام فما رؤي بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف .

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحني أهلي ، فيأكلون لحمي ، ويحسون مرقي . وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه . فيقول له أهله . ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول . أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم!

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا ، لما نرى من خوفه وجزعه . وقرأ مضر القارىء يوما (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ [٥]) الآية، فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لاعصيتك جهدي أبدا ،فأعني بتوفيقك على طاعتك : وكان المسور بن مخرمة لايقوى أن يسمع شيئا من القرءان لشدة خوفه . ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح صيحة فما يعقل أياما، حتى أتى عليه رجل من خثعم ،فقرأ عليه(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا [٦])

---

(١) التكوير : ١ (٢) التكوير : ١٠ (٣) الطور : ١ (٤) الطور : ٧ (٥) الجاثية : ٢٩ (٦) مريم : ٨٥ ، ٨٦

فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين أعد علي القول أيها القارىء. فأعادها عليه، فشهق شهقة فلحق بالآخرة، وقرئ عند يحيى البكاء (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ [1]) فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة

وقال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت، إذ أنا بجويرية متعبدة، متعلقة بأستار الكعبة، وهي تقول. يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها! يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار! وتبكي. فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر. قال مالك. فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول. ثكلت مالكا أمه

وروي أن الفضيل رؤي يوم عرفة والناس يدعون، وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب، قبض على لحيته، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال. واسوأتاه منك وإن غفرت. ثم انقلب مع الناس . وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال. قلوبهم بالخوف قرحة، وأعينهم باكية، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدى الله ربنا موقفنا

ومرّ الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه، وهو جالس مع قوم في مجلس، فقال له الحسن. يافتى، هل مررت بالصراط؟ قال لا. قال فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال لا. قال: فما هذا الضحك؟ قال فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه، فيقال له لو اطمأننت؟ فيقول: تلك جلسة الآمن، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى

وقال عمر بن عبد العزيز: إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة، كيلا يموتوا من خشية الله تعالى . وقال مالك بن دينار: لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني، ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده

وقال حاتم الأصم: لاتغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالقي. ولاتغتر بكثرة العبادة. فإن ابليس بعد طول تعبده لقي مالقي ولاتغتر بكثرة العلم، فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم، فانظر ماذا لقي، ولاتغتر برؤية الصالحين

(1) الأنعام: ٣٠

فلا شخص أكبر منزلة عندالله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه وقال السرى : إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات ، مخافة أن يكون قد اسود وجهي وقال أبو حفص : منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إليّ نظر السخط ، وأعمالي تدل على ذلك . وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال . اني اجترأت البارحة على الله ، سألته الجنة . وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها . يابني ،إني أعرفك صغيرا طيبا ، وكبيرا طيبا . وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع في ليلك ونهارك . فقال ياأماه ، مايؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع عليّ وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال وعزتي وجلالي لاغفرت لك ؟ . وقال الفضيل إني لاأغبط نبيا مرسلا ، ولا ملكا مقربا ، ولا عبدا صالحا ، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة ؟ إنما أغبط من لم يخلق

وروي [1] أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه واعتنقه ، فخرّ ميتا . فقال صلى الله عليه وسلم « جَهِّزُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّ الْفَرَقَ مِنَ النَّارِ فَتَّتَ كَبِدَهُ »

وروي عن ابن ميسرة ، أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول . ياليت أمي لم تلدني. فقالت له أمه ياميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام . قال أجل ، ولكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار ، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها . وقيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني اسرائيل . فقال . بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء ، لباسهن الصوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه ، فمتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلمي من الخائفين ، ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا ،إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له في مرضه . ألا تشتهي شيئا ؟ فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه مارفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة .وأنه رفع رأسه يوما ففزع ،فسقط فانفتق في بطنه فتق . وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ . وكان إذا أصابتهم ريح ، أو برق ، أوغلاء طعام قال هذا من أجلي يصيبهم. لومات عطاء لاستراح الناس

---

(١) حديث ان فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر

وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام ، وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء ، قد تورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم في رءوسهم ، ولصقت جلودهم على عظامهم ، وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين ، وكيف أهان العاصين . فبينما هم يمشون ، إذ مر أحدهم بمكان فخر مغشيا عليه : فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد ، وجبينه يرشح عرقا . فجاءوا بماء فمسحوا وجهه ، فأفاق ، وسألوه عن أمره فقال . إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان

وقال صالح المري . قرأت على رجل من المتعبدين (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ [١]) فصعق ثم أفاق فقال . زدني ياصالح ، فإني أجد غما .فقرأت (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا [٢]) فخر ميتا

وروي أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة ، فلما قرأ (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ [٣]) خر مغشيا عليه ، فحمل ميتا

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز ، فقال عظني يايزيد . فقال ياأمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت . فبكى ثم قال زدني . قال ياأمير المؤمنين ، ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت . فبكى . ثم قال زدني يايزيد . فقال ياأمير المؤمنين ، ليس بينك وبين الجنة والنار منزل . فخر مغشيا عليه

وقال [١] ميمون بن مهران . لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [٤]) صاح سلمان الفارسي ، ووضع يده على رأسه ، وخرج هاربا ثلاثة أيام لايقدرون عليه

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول . ياابناه ، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا . فصعق داود وسقط مكانه

وقيل مرض سفيان الثوري ، فعرض دليله على طبيب ذمي ، فقال هذا رجل قطع الخوف كبده . ثم جاء وجس عروقه . ثم قال . ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله

---

(١) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي : لم أقف له على أصل

(١) الاحزاب : ٦٦ (٢) الحج : ٢٢ (٣) المدثر : ٨ (٤) الحجر : ٤٣

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح عليّ بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلي ، فقلت يارب على قدر ما أطيق . فسكن قلبي

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه . وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً »

وقال العنبرى : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ، فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ، ولحيته ترجف . فقال عليكم بالقرءان ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء ، وتضرع واستكانة ، ودعاء كدعاء الغريق . إنما هذا زمان احفظ لسانك ، وأخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر . ورؤى الفضيل يوما وهو يمشى ، فقيل له إلى أين ؟ قال لا أدرى . وكان يمشى والهاً من الخوف . وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ؟ فقال يا بنى ، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة

وحكي أن قوما وقفوا بعابد وهو يبكى ، فقالوا ما الذى يبكيك يرحمك الله ؟ قال قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم . قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل

وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته ، قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فاعتقنى

وقال صالح المرى : قدم علينا ابن السماك مرة فقال . أرنى شيئا من بعض عجائب عبّادكم . فذهبت به إلى رجل فى بعض الأحياء فى خُصٍّ له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا . فقرأت عليه (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [(1)]) فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر ، فدخلنا عليه ، فقرأت هذه الآية ، فشهق شهقة وخر مغشيا عليه . فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا . فقرأت (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [(2)]) فشهق شهقة ، فبدا الدم من منخريه ، وجعل يتشحط فى دمه حتى يبس . فتركناه على حاله وخرجنا . فأدرته على ستة أنفس ، كل نخرج من عنده ونتركه

---

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : تقدم فى قواعد العقائد

(١) غافر : ٧١ (٢) ابراهيم : ١٤

مغشيا عليه. ثم أتيت به إلى السابع، فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا فدخلنا، فإذا شيخ فان جالس في مصلاه، فسلمنا عليه، فلم يشعر بسلامنا. فقلت بصوت عال. ألا إن للخلق غدا مقاما. فقال الشيخ. بين يدي مَن؟ ويحك! ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه، شاخصا بصره، يصيح بصوت له ضعيف، أوه أوه، حتى انقطع ذلك الصوت؛ فقالت امرأته. اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى، وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتا متحيرا، لا يؤدي فرضا، فلما كان بعد ثلاث عقل

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أنه لا يضحك أبداً، ولا ينام مضطجعا، ولا يأكل سمنا أبدا. فما رؤي ضاحكا، ولا مضطجعا، ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله. وقال الحجاج لسعيد بن جبير. بلغني أنك لم تضحك قط. فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت! . وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال بخير. قال كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي! ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بخشبة، على أي حال يكون؟ قال الرجل على حال شديدة. قال الحسن حالي أشد من حالهم

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه، فسلمت عليه، ثم قامت إلى مسجد في بيته، فصلت فيه ركعتين، وغلبتها عيناها فرقدت، فاستبكت في منامها ثم انتبهت، فقالت يا أمير المؤمنين، إني والله رأيت عجبا. قال وما ذلك؟ قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها، ثم جيء بالصراط فوضع على متنها. فقال هيه. قالت فجيء بعبد الملك بن مروان، فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم. فقال عمر هيه. قالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك، فحمل عليه. فما مضى إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه. قالت ثم جيء بسليمان بن عبد الملك، فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى كذلك. فقال عمر هيه قالت ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين، فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خر مغشيا عليه، فقامت إليه، فجعلت تنادي في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت، إني رأيتك والله قد نجوت. قال وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه

ويحكى أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس، ثم يقوم منطلقا، فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه. إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش، فيضطجع ويتقلى

كما تتقلى الحبة فى المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول. طيّر ذكرُ جهنم نوم الخائفين. وقال الحسن البصرى رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ياليتنى كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروي أنه ماضحك أربعين سنة. قال وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قدقدم لتضرب عنقه. وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها. فإذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه. وعوتب فى شدة حزنه وخوفه فقال: مايؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع فيّ على بعض مايكره، فمقتنى، فقال اذهب فلا غفرت لك، فأنا أعمل فى غير معتمل

وعن ابن السماك قال وعظت يوما فى مجلس، فقام شاب من القوم فقال. ياأبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالى أن لانسمع غيرها. قلت وماهي رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود، إمافى الجنة أو فى النار. ثم غاب عنى، ففقدته فى المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه، فأخبرت أنه مريض يعاد. فأتيته أعوده، فقلت ياأخى ماالذى أرى بك؟ فقال ياأبا العباس، ذلك من قولك. لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود إما فى الجنة أو فى النـــار. قال ثم مات رحمه الله، فرأيتـه فى المنام، فقلت ياأخى مافعل الله بك؟ قال غفر لى ورحمني وأدخلنى الجنة. قلت بماذا؟ قال بالكلمة. فهذه مخاوف الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم. لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، بل بصفاء القلوب، وكمال المعرفة وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا، وغلبت علينا شقوتنا، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا. فلا قرب الرحيل ينبهنـــا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا. فنسأل الله تعالى أن يتداركنا بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا

ومن العجـــائب أنا إذا أردنا المـال فى الدنيـا زرعنا، وغرسنا، واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا، ونجتهد فى طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنـا، ولانجلس فى بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا، ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا! والذى إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا، ينادينا ويقول (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)[1]

(١) النجم: ٣٩

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ[١]) وَ(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ[٢])
ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا . فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتدار كنابها ويجبرنا. فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا ، فنكون ممن يقول ولا يعمل، ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه ، فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل ، فيكفي ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني

ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني ، وكان من خيار العبّاد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ، ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء ، فقال عيسى . لما رأيته هالني منظره ، فقلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك فقال يا أخي بماذا أوصيك ؟ إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر ، يخاف أن يغفل فتفترسه السباع ، أو يسهو فتنهشه الهوام ، فهو مذعور القلب وجل ، فهو في المخافة ليله وإن أمن المغترون ، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون ثم ولى وتركني . فقلت لو زدتني شيئا عسى ينفعني؟ فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد صدق ، فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ

وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام ، فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير ، بل هو تحقيق. فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك ، لرأيته مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام ، مثل الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب والرياء وغيرها ، وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء، ووضعت في قبرك، عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك ، وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن، قد انكشف لك صورها، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك، فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام

---

(١) فاطر : ٥ (٢) الانفطار : ٦

كتاب الفقر والزهد

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تسبّح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتتدكدك من هيبته الجبال. خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له فى قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال. ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بعينيانه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادى إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال، وتمثل له ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت فى قالب النكال، وهي متلففة بجلبابها لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها فى مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لاتجتزىء معهم بالخلف فى مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال. فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال. والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أما بعد: فإن الدنيا عدوّة لله عزوجل، بغرورها ضلّ من ضلّ، وبمكرها زلّ من زلّ فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات وأسّ القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات. فلامطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا، وإما بانزواء العبد عنها

ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات، وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة
ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وشروطهما، وأحكامهما
ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب، والزهد فى شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول

الشطر الأول

من الكتاب فى الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقا، وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني، وبيان أدب الفقير فى فقره، وبيان أدبه فى قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه.

بيان

حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ماهو محتاج إليه. أما فقد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا. وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه، لم يكن المحتاج فقيرا. وإذا فهمت هذا لم تشك فى أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده. فإن كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا، فليس فى الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه، ليمدوا جودهم بالدوام. وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى (وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ[1]) هذا معنى الفقر مطلقا. ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق، بل الفقر من المال على الخصوص وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لاينحصر، لأن حاجاته لاحصر لها، ومن جملة حاجاته مايتوصل إليه بالمال، وهو الذى نريد الآن بيانه فقط، فنقول:

كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذى فقده ، إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه فى حقه . ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ، ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم ، لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها

الحالة الأولى : وهي العليا ، أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه ، مبغضا له ، ومحترزا من شره وشغله ، وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد

الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه ، لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب ، مع ما فيه من الرغبة الضعيفة

الرابعة : أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب . وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص

الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه ، كالجائع الفاقد للخبز ، والعارى الفاقد للثوب . ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا ، كيفما كانت رغبته فى الطلب إما ضعيفة وإما قوية . وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة

فهذه خمسة أحوال ، أعلاها الزهد . والاضطرار إن انضم إليه الزهد ، وتصور ذلك ، فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه . ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد ، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده . فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ . وإن فقده فكذلك . بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها ، إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء ، فأخذتها وفرقتها من يومها ، فقالت خادمتها : ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو ذكرتينى لفعلت

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى لا فى يد نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون فى يده أو فى يد غيره .

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعا

وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى، وعلى من كثر ماله من العباد. فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به؟ فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده، لا عن بقائه. فهو إذاً فقير من وجه. وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده، وعن بقائه في يده، وعن خروجه من يده أيضا، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه، وليس فاقدا له ليحتاج إلى الدخول في يده. فغناه إلى العموم أميل. فهو إلى الغني الذي هو وصف الله تعالى أقرب. وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات، لا بقرب المكان

ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيا، بل مستغنيا، ليبقى الغني اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودا أو عدما، فلم يستغن عن أشياء أخر سواه، ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق، والمستغني عنه حر، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق، فهو محتاج إلى دوام هذا العتق. والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن. فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار. وصاحب هذه الحالة من المقربين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين. وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها. والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره. وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك، فكذلك لا تزال محجوبا عنه. فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى. والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى. بل كل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب، وإلى بغضه

واستثقاله ، وكراهة حضوره ، فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه . ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المشوق ، ولم يلتفت إليه . فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ، ونقص فيه ، فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر : بل الكمال فى أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لا يجتمع فى القلب حبان فى حالة واحدة ، فلا يجتمع أيضا بغض وحب فى حالة واحدة

فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل ، وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل ، وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود ، فالكمال له مرتقب ، لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله

فالمحب والمبغض كرجلين فى طريق الحج ، مشغولين بركوب الناقة ، وعلفها ، وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة ، والآخر مستدبر لها . فهما سيان بالإضافة إلى الحال ، فى أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر ، إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف فى الكعبة ، الملازم لها ، الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة فى الوصول إليها

فلا ينبغى أن تظن أن بغض الدنيا مقصود فى عينه . بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : من زهد فى الدنيا واقتصر عليه ، فقد استعجل الراحة . بل ينبغى أن يشتغل بالآخرة . فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد ، كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج

فإذاً قد ظهر أن الزهد فى الدنيا إن أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها ، فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة فى عدمها ، فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى ، والقانع ، والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى . بل الكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء . وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر . ولا قلته تؤذلك إلا فى قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه ، كما أن الماء محتاج إليه . فلا يكون قلبك

مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ، ولا ببغض الماء الكثير . بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة ، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد

فهكذا ينبغى أن يكون المال ، لأن الخبز والماء واحد فى الحاجة ، وإنما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر . وإذا عرفت الله تعالى ، ووثقت بتدبيره الذى دبّر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لامحالة مادمت حيا ، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ماسيأتى بيانه فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى

قال أحمد بن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى : قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب إلى البيت ، فخذ الركوة * التى أهديتها لى ، فإن العدوّ يوسوس لى أن اللص قد أخذها . قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية ، قدزاده فى الدنيا ماعليه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة فى بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال و نفروا منه كل النفار

فأقول : كما هربوا من الماء ، على معنى أنهم ماشربوا أكثر من حاجتهم ، ففروا عما وراءه ،ولم يجمعوه فى القرب والراوايا يديرونه مع أنفسهم ، بل تركوه فى الأنهار والآبار والبرارى للمحتاجين إليه . لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت[1] خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإلى أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخذوها ووضعوها فى مواضعها ، وما هربوا منها . إذ كان يستوى عندهم المال ، والماء ، والذهب ، والحجر . وما نقل عنهم من امتناع ، فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال

(كتاب الفقر والزهد)

(١) حديث ان خزائن الارض حملت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبى بكر وعمر فأخذوها ووضعوها فى مواضعها : هذا معروف وقد تقدم فى آداب المعيشة من عند البخارى تعليقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة ولم يلتفت اليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه فقلما كان يرى أحدا الا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحيرى فى صحيحه من هذا الوجه وفى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدومه ـ الحديث: ولهما من حديث جابر لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت ان النبي صلى الله عليه وسلم وعدنى فحثالى ثلاثا

* الركوة ـ الزورق الصغير .

ويقيد قلبه ، فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ،فلاجرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال . وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ،وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ، ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ،ليقتدوا به في الترك ،إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ،ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون. والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء

فقد عرفت إذاً أن المراتب ست ، وأعلاها رتبة المستغنى ، ثم الزاهد ، ثم الراضى ، ثم القانع ، ثم الحريص . وأما المضطر فيتصور في حقه أيضا الزهد ، والرضا ، والقناعة ، ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال . واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى . بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر ، وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة ، وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها ، فإنه أحق باسم العبد من الغافلين ، وإن كان اسم العبد عاما للخلق ، فكذلك اسم الفقير عام . ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير . فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين

وإذا عرفت هذا الاشتراك ، فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ » وقوله عليه السلام[2] « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً » لايناقض قوله[3] « أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً » إذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة ، والذلة ، والافتقار إلى الله تعالى ، هو الذى سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

---

(١) حديث أعوذ بك من الفقر :تقدم في الاذكار والدعوات

(٢) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا :تقدم في ذم الحسد

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا:الترمذي من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم

بيان

فضيلة الفقر مطلقاً

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ[1]) الآية ، وقال تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ[2]) ساق الكلام فى معرض المدح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر

وأما الأخبار فى مدح الفقر فأكثر من أن تحصى . روى عبد الله[1] بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ » فقالوا موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله . فقال « نِعْمَ الرَّجُلُ هَذَا وَلَيْسَ بِهِ » قالوا فمن خير الناس يارسول الله ؟ قال « فَقِيرٌ يُعْطِي جُهْدَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] لبلال « الْقَ اللهَ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ » وفى الخبر المشهور[4] « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وفى حديث آخر[5] « بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » أى أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص . والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد

---

(١) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده : ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له

(٢) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا : الحاكم فى كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف

(٣) حديث ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال : ابن ماجه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام : الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم

(٥) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا : مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس

---

(١) الحشر : ٨ (٢) البقرة : ٢٧٣

على الغني الراغب . وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء في درجاتهم ، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة

ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق ، بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم [1] « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » فإنه تقدير تحقيق لا محالة . ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين . فأما بالتحقيق فلا . إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص

أحدها : أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته ، والملائكة ، والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره ، بل مخالفا له بكثرة المعلومات ، وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف

والثاني : أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات ، كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة ، وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى

والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم ، كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع : أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب ، إما في اليقظة أو في المنام ، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ ، فيرى ما فيه من الغيب

فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ، ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين ، وإلى خمسين ، وإلى ستين ، ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين ، بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها . ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين ، فلا ندري تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها ، وكذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير

---

(١) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة : البخاري من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء ـ الحديث ، وقد تقدم

فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لمَ كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد ، حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة ، واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام ، فليس فى قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ، ولا وثوق به . والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك . ولنرجع إلى نقل الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا [1] « خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ فُقَرَاؤُهَا وَأَسْرَعُهَا تَضَجُّعًا فِي الْجَنَّةِ ضُعَفَاؤُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ لِي حِرْفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَمَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي الْفَقْرَ وَالْجِهَادَ » . وروي [3] أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك أينما كنت ؟ فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال « يَاجِبْرِيلُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَامَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعَقْلَ لَهُ » فقال له جبريل : يا محمد ، ثبتك الله بالقول الثابت

وروي أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة ، فأيقظه وقال يانائم قم فاذكر الله تعالى . فقال ماتريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها . فقال له فنم إذاً ياحبيبي . ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب ، وتحت رأسه لبنة ، ووجهه ولحيته فى التراب ، وهو متزر بعباءة : فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه . ياموسى : أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها

وعن [4] أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ، فلم يجد عنده

---

(١) حديث خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ان لى حرفتين اثنتين ـ الحديث : وفيه الفقر والجهاد لم أجد له أصلا

(٣) حديث ان جبريل نزل فقال ان الله يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا ـ الحديث : وفيه ان الدنيا دار من لادار له ـ الحديث : هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث : وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لادار له . الحديث : وقد تقدم فى ذم الدنيا

(٤) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فأرسلني

ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر ، وقال « قُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلِفْنِي أَوْ بِعْنِي دَقِيقاً إِلَى هِلالِ رَجَبٍ » قال فأتيته ، فقال لا والله إلا برهن . فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال « أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ اذْهَبْ بِدِرْعِي هَذَا إِلَيْهِ فَارْهَنْهُ » فلما خرجت نزلت هذه الآية (ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [1]) الآية . وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « الْفَقْرُ أَزْيَنُ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْعِذَارِ الْحَسَنِ عَلَى خَدِّ الْفَرَسِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جِسْمِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »

وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام ، يا موسى ، إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين . وقال عطاء الخراساني · مرّ نبي من الأنبياء بساحل ، فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال بسم الله ، وألقى الشبكة . فلم يخرج فيها شيء . ثم مرّ بآخر ، فقال باسم الشيطان ، وألقى شبكته ، فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها · فقال النبي صلى الله عليه وسلم . يارب ، ما هذا ؟ وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة . اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما . فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ، ولذاك من الهوان ، قال رضيت يارب

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ » وفي لفظ آخر « فَقُلْتُ أَيْنَ الأَغْنِيَاءُ فَقِيلَ حَبَسَهُمُ الْجَدُّ » وفي حديث آخر [3] « فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ »

الى رجل من يهود خيبر ـ الحديث : في نزول قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم الطبراني بسند ضعيف

(١) حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس : الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف انه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدي في الكامل هكذا

(٢) حديث من أصبح منكم معافى في جسمه ـ الحديث : الترمذي وقد تقدم

(٣) حديث أطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث : تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره

---

(١) طه : ١٣١

فَقُلْتُ مَاشَأْنُهُنَّ فَقِيلَ شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ »

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الْفَقْرُ » وفى الخبر (٢) « آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الْجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولاً الْجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ لأَجْلِ غِنَاهُ » وفى حديث آخر (٣) « رَأَيْتُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ زَحْفاً » . وقال المسيح صلى الله عليه وسلم . بشدة يدخل الغني الجنة

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال (٤) « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ابْتَلاَهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبَّ الْبَالِغَ اقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه ؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلاَ مَالاً » . وفى الخبر (٥) « إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلاً فَقُلْ مَرْحَباً بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلاً فَقُلْ ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقُوبَتُهُ »

وقال موسى عليه السلام . يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال كل فقير فقير . فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء . وكان أحب الأسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين .

ولما (٦) قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا يوما ولهم يوم ،

---

(١) حديث تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر : رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا

(٢) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان ـ الحديث : تقدم وهو فى الأوسط للطبرانى باسناد فرد وفيه نكارة

(٣) حديث رأيته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا : تقدم وهو ضعيف

(٤) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى

(٥) حديث اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبى الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى فذكره بزيادة فى أوله ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع باسناد ضعيف

(٦) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه انه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم اذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان

يجيئون إليك ولا نجيء ونجيء إليك ولا يجيئون ، يعنون بذلك الفقراء ، مثل بلال ، وسلمان ، وصهيب ، وأبي ذر ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وأبي هريرة ، وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين : أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم ، وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء ، منهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى ، وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم . فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد ، فنزل عليه قوله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ [١]) يعنى الفقراء (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٢]) يعنى الأغنياء (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا [٣]) يعنى الأغنياء (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [٤]) الآية . [١] واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى [٥]) يعنى ابن أم مكتوم (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [٦]) يعنى هذا الشريف

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [٢] « يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْتَذِرُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي مَا زَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِهَوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيلَةِ أُخْرُجْ يَا عَبْدِي إِلَى هَذِهِ

(١) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى عبس وتولى : الترمذى من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على ـ الحديث : أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا منى أحبائى فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول أما انى لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك ان أضعف لكم كرامتى اليوم فتمنوا على ما شئتم اليوم ـ الحديث : دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم فى الحلية وسيأتى فى الحديث الذى بعده

(١ ، ٢ ، ٣) الكهف : ٢٨ [٤] الكهف : ٢٩ (٥ ، ٦) عبس : ١ ـ ٥

الصُّفُوفِ فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيَّ أَوْ كَسَاكَ فِيَّ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ » . وقال عليه السلام (١) « أَكْثِرُوا مَعْرِفَةَ الْفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الْأَيَادِيَ فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً » قالوا يا رسول الله وما دولتهم؟ قال « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهُمُ انْظُرُوا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِسْرَةً أَوْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْبًا فَخُذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ امْضُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةً أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلَالٌ وَنَظَرْتُ فِي أَعْلَاهَا فَإِذَا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلَادُهُمْ وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ فَقُلْتُ يَا رَبِّ مَا شَأْنُهُمْ قَالَ أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضَرَّ بِهِنَّ الْأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ فَاشْتَغَلُوا بِطُولِ الْحِسَابِ وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَمْ أَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ عَوْفٍ ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي فَقُلْتُ مَا خَلَّفَكَ عَنِّي قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ الْمُشِيبَاتِ وَظَنَنْتُ أَنِّي لَا أَرَاكَ فَقُلْتُ وَلِمَ؟ قَالَ كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمَالِي » فانظر إلى هذا ، وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من العشرة (٣) المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا » ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد

(٥) ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير ، فلم ير له شيئا . فقال « لَوْ قُسِّمَ

---

(١) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادى فان لهم دولة ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادى فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا الى الفقراء فيعتذر اليهم كما يعتذر أحدكم الى أخيه فى الدنيا

(٢) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت الى أعلاها فاذا فقراء أمتى وأولادهم الحديث : الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر

(٣) حديث ان عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بانهم من أهل الجنة : أصحاب السنن الاربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح

(٤) حديث الا من قال بالمال هكذا وهكذا : متفق عليه من حديث أبى ذر فى أسماء حديث تقدم

(٥) حديث دخل على رجل فقير ولم يرله شيئا فقال لو قسم نور هذا على اهل الارض لوسعهم : لم أجده

نُورُ هَذَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم[1] « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قالوا بلى يارسول الله . قال « كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »

[2] وقال عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه ، فقال « يَا عِمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهاً فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله . فقام وقمت معه ، حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارسول الله . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِي ؟ » قالت ومن معك يارسول الله ؟ قال « عِمْرَانُ » فقالت فاطمة والذى بعثك بالحق نبيا ماعليّ إلا عباءة . قال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده . فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة ، فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكِ » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا بُنَيَّتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ ؟ » قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أضر بى الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَجْزَعِي يَا بُنَيَّتَاهُ فَوَاللهِ مَا ذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثٍ وَإِنِّي لَأَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أَبْشِرِي فَوَاللهِ إِنَّكِ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قالت فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ؟ قال « آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَذًى فِيهَا وَلَا صَخَبَ وَلَا نَصَبَ » ثم قال لها « اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكِ فَوَاللهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّداً فِي الدُّنْيَا سَيِّداً فِي الْآخِرَةِ »

وروى عن عليّ كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[3] « إِذَا أَبْغَضَ

---

(١) حديث ألا أخبركم عن ملوك الجنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولا ملوك وقد تقدم ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث : دون قوله أغبر أشعث .

(٢) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث اذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث : أبو منصور الديلمى باسناد فيه جهالة وهو منكر

النَّاسُ فُقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكَالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُمُ اللهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْخِيَانَةِ مِنْ وُلَاةِ الْأَحْكَامِ وَالشَّوْكَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ »

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذو الدرهمين أشد حبسا ، أوقال أشد حسابا من ذى الدرهم . وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيدبن عامر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا ، فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال أشد من ذلك . ثم قال: أريني درعك الخلق. فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة ، ثم قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [1] « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ »

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد

وقيل جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله ، فقال له تخط ، لوكنت غنيا لما قربتك . وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء ، لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء

وقال المؤمل : ما رأيت الغني أذل منه فى مجلس الثورى ، ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله . وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم ، لوخاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا . ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا . ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا

وقال ابن عباس . ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر . وقال لقمان عليه السلام لابنه: لاتحتقرن أحدا لخلقان ثيابه ، فإن ربك وربه واحد

وقال يحي بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين . وفى الأخبار عن الكتب

---

(١) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام ـ الحديث : وفى أوله قصة أن عمر بعث الى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها وقدروى أحمد فى الزهد القصة الا انه قال لسبعين عاما وفى اسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفى رواية له بأربعين سنة واما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقتين

السالفة ، أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصب الدنيا عليك صبا

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد ، يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه ؟ وكانت صائمة ، فقالت لو ذكرتيني لفعلت . وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال[1] « إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِعَيْشِ الْفُقَرَاءِ وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزِعِي دِرْعَكِ حَتَّى تُرَقِّعِيهِ »

وجاء رجل إلى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها . فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم . أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل ذلك أبدا رضي الله عنه .

بيان

فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا » فالأول القانع ، وهذا الراضي . ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لاثواب له على فقره . ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتي تحقيقه . فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه . ورب راغب في المال لايخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله . فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر .

---

(١) حديث قال لعائشة ان أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ـ الحديث : الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم

(٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث :

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « إنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحاً وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ لِصَبْرِهِمْ هُمْ جُلَسَاءُ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وروي عن علي كرم الله وجهه . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) « أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الْفَقِيرُ الْقَانِعُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللهِ تَعَالَى » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً » وقال (٤) « مَا مِنْ أَحَدٍ غَنِيٍّ وَلاَ فَقِيرٍ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتاً فِي الدُّنْيَا »

وأوحى الله تعالى إلى اسماعيل عليه السلام . اطلبني عند المنكسرة قلوبهم . قال ومن هم قال الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لاَ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِياً » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ وَمَنْ هُمْ يَا رَبَّنَا فَيَقُولُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْقَانِعُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي أَدْخِلُوهُمُ الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ يَتَرَدَّدُونَ »

فهذا فى القانع والراضى ، واما الزاهد فسنذكر فضله فى الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة . ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه : إن الطمع فقر ، واليأس غنى ، . وإنه من يئس عما فى أيدى الناس وقنع ، استغنى عنهم، وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: مامن يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش : ياابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال أبو الدرداء

---

(١) حديث ان لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين ـ الحديث : الدارقطني في غرائب مالك وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر

(٢) حديث أحب العباد الى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله: لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه حديث ان الله يحب الفقير المتعفف

(٣) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا: مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم

(٤) حديث مامن أحد غني ولا فقير الاود يوم القيامة انه كان أوتي قوتا في الدنيا: ابن ماجه من حديث انس وقد تقدم

(٥) حديث لا أحد أفضل من الفقير اذا كان راضيا :لم أجده بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقي فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

رضي الله تعالى عنه . مامن أحد إلا وفى عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا ، والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك . ويح ابن آدم، ماينفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ وقيل لبعض الحكماء ماالغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك

وقيل كان ابراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر ، وفى يده رغيف يأكله . فلما أكل نام . فقال لبعض غلمانه إذا قام فجئنى به . فلما قام جاء به إليه . فقال إبراهيم . أيها الرجل ، أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبعت ؟ قال نعم . قال ثم نمت طيبا ؟ قال نعم . فقال ابراهيم فى نفسه . فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ؟ • ومرّ رجل بعامر بن عبدالقيس وهو يأكل ملحا وبقلا . فقال له . ياعبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال ألا أدلك على من رضي بشرّ من هذا ؟ قال بلى ، قال من رضي بالدنيا عوضا عن الآخرة

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا، فيبله بالماء، ويأكله بالملح، ويقول. من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد وقال الحسن رحمه الله . لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه. ثم قرأ (وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ[1]) الآية .وكان أبو ذر رضي الله تعالى عنه يوما جالسا فى الناس ، فأتته امرأته فقالت له . أتجلس بين هؤلاء ؟ والله مافى البيت هفة ولا سفة ، فقال ياهذه، إن بين أيدينا عقبة كؤدا، لاينجو منها إلا كل مخف . فرجعت وهي راضية . وقال ذو النون رحمه الله. أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لاصبر له . وقيل لبعض الحكماء. ما مالك ؟ فقال التجمل فى الظاهر، والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس . وروي أن الله عز وجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة. ياابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا محسن إليك وقد قيل فى القناعة

اضرع إلى الله لاتضرع إلى الناس ... واقنع بيأس فإن العز فى الياس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم ... إن الغني من استغنى عن الناس

[1] الزاريات : ٢٢ ، ٢٣

وقد قيل فى هذا المعنى أيضا

يا حاما مائما والدهر يرمقه مقدرا أى باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته أغاديا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا فقل لى هل جمعت له يا جامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه ما المال مالك إلا يوم تنفقه
إرفه ببال فتى يغدو على ثقة إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها لم يبق فى ظلها هما يؤرقه

بيان

فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا . فذهب الجنيد ، والخواص ، والأكثرون ، إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء : الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه فى هذا ، فأصابته محنة ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل . فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقا ، لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار فى تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل فنقول :

إنما يتصور الشك فى مقامين . أحدهما : فقير صابر ، ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض ، بالإضافة إلى غني منفق ماله فى الخيرات ، ليس حريصا على إمساك المال

والثانى : فقير حريص ، مع غني حريص . إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك ، وأن الغني المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص

أما الأول ، فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا فى ضعف الحرص على المال ، والغني متقرب بالصدقات والخيرات ، والفقير عاجز عنه . وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه . فأما الغني المتمتع بالمال ، وإن كان فى مباح ، فلا يتصور أن نفضل على

الفقير القانع . وقد يشهد له ماروي في الخبر ، الفقراء[1] شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات ، والصدقات ، والحج ،والجهاد ، فعلمهم كلمات في التسبيح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ماناله الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ! فقال عليه السلام « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » وقد استشهد به ابن عطاء أيضا لما سئل عن ذلك فقال : الغني أفضل لأنه وصف الحق

أما دليله الأول ففيه نظر ؛ لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك ، وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى[2] زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إني رسول الفقراء إليك ، فقال « مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أُحِبُّهُمْ » قال قالوا يارسول الله ، إن الأغنياء ذهبوا بالخير ، يحجون ولا نقدر عليه ، ويعتمرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بَلِّغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلْأَغْنِيَاءِ أَمَّا خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَبِيٌّ فَقِيرٌ أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ وَالثَّانِيَةُ يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ وَالثَّالِثَةُ إِذَا قَالَ الْغَنِيُّ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَقَالَ الْفَقِيرُ مِثْلَ ذَلِكَ لَمْ يَلْحَقِ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ وَلَوْ أَنْفَقَ

---

(١) حديث شكي الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات ـ الحديث ؛ وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه

(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بعث الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ان الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه ـ الحديث : وفيه بلغ عني الفقراء ان لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء ـ الحديث : لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا المعنى مارواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مافضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يامعشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام واسناده ضعيف

فِيهَا عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا » فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا . رضينا رضينا .

فهذا يدل على أن قوله « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم

وأما قوله : إن الغني وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال . أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض ؟ فانقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا . إن التكبر من صفات الحق ، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع . ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد ، كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها . ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم[1] « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ » وقال سهل . حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها ، لأنهما من صفات الرب تعالى

فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغني والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات ، وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها . إذ كما يناقض قول من فضّل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد . وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم . فكشف الغطاء عن هذا هو ماذكرناه في كتاب الصبر ، وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره ، فينبغي أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله . والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى . ولا الفقر مطلوبا لعينه ، لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى ، وعدم الشاغل عنه . وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام ، وعثمان ، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد . وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل ، كما أن الغنى قد يكون من الشواغل . وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب . والمحب للشيء مشغول به سواء كان

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري : تقدم في العلم وغيره

في فراقه أوفى وصاله . وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها

فإذاً إن فرضت فارغين عن حب المال ، بحيث صار المال في حقهما كالماء، استوى الفاقد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة . ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد ، إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا يقدر . ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم . بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا . ولما كان خطاب الشرع مع الكل ، لا مع ذلك النادر ، والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر ، زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام. لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا ، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان . وفي الخبر « إنَّ [1] لِكُلِّ أُمَّةٍ عِجْلاً وَعِجْلُ هَذِهِ الأُمَّةِ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا . واستواء المال والماء ، والذهب والحجر ، إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء. ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم [2] يقول للدنيا « إِلَيْكِ عَنِّي » إذ كانت تتمثل له بزينتها . وكان علي كرم الله وجهه يقول . يا صفراء غري غيري ويا بيضاء غري غيري . وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها . لولا أن رأى برهان ربه . وذلك هو الغنى المطلق . إذ قال عليه الصلاة والسلام [3] « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

وإذا كان ذلك بعيدا ، فإذاً الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا ، وتمتع بالقدرة عليها

---

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الامة الدينار والدرهم: أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة باسناد فيه جهالة

(٢) حديث كان يقول للدنيا اليك عني ـ الحديث : الحاكم مع اختلاف وقد تقدم

(٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

واستشعار راحة فى بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم . وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة . وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه . ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها . والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى ، وكان مؤمنا بالله ، انصرف لا محالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس فى الوجود إلا الله تعالى وغيره . فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ، ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر . ومثلهما مثل المشرق والمغرب ، فإنهما جهتان ، فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر . بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر . فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وأنسه بها

فإذاً فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط . فإن تساويا فيه تساوت درجتهما إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور . فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقده . فليجرب نفسه بتفريقه ، أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتا ، فليعلم أنه كان مغرورا . فكم من رجل باع سريته لظنه أنه منقطع القلب عنها . فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية ، اشتعلت من قلبه النار التى كانت مستكنة فيه ، فتحقق إذاً أنه كان مغرورا ، وأن العشق كان مستكنا فى الفؤاد استكنان النار تحت الرماد . وهذا حال كل الأغنياء ، إلا الأنبياء والأولياء

وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا ، فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف . وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته . فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها ، بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور . ولا يكون تأثيرها فى إثارة الأنس فى قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول . ولذلك قال بعض السلف . مثل من تعبّد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها ، أفضل من عبادة غني ألف عام . وعن الضحاك قال:

من تدخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لى ، فقد أضرّ بى العيال . فقال . إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز ، فادع الله لى فى ذلك الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائى . وكان يقول . مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة ،ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء

وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم إنى أسألك الذل عند النصف من نفسى ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه فى كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها ، فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده ؟ هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا ، وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ، ويطول انتظاره . ومن نوقش الحساب فقد عذب . ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة ، إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ماأحب أن لى حانوتا على باب المسجد ، ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر ، وأربح كل يوم خمسين دينارا ، وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى . قيل وما تكره ؟ قال سوء الحساب

ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء . اختار الفقراء راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب . واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب ، وشدة الحساب . وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق ، فهو بذلك أفضل ، فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا ، بأن يستوي عنده كلاهما . فأما إذا كان غنيا بوجوده ، ومفتقر إلى بقائه ، فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غني بذاته ، لا بما يتصور زواله . والمال يتصور زواله بأن يسرق . وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح فى ذم غني يريد بقاء المال . وما ذكر من أن صفات الحق لاتليق بالعبد غير صحيح . بل العلم من صفاته ، وهو أفضل شيء للعبد . بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى . وقد سمعت بعض المشايخ يقول

إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له . أي يكون له من كل واحد نصيب

وأما التكبر فلا يليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى . وأما التكبر على من يستحقه، كتكبر المؤمن على الكافر، وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي ، فيليق به . نعم قد يراد بالتكبر الزهو ، والصلف ، والإيذاء ، وليس ذلك من وصف الله تعالى . وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء ، وأنه يعلم أنه كذلك . والعبد مأمور بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه ، لا بالباطل والتلبيس . فعلى العبد ان يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع أكبر من العاصي ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها . فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها ، لكانت صفة التكبر حاصلة له ، ولائقة به ، وفضيلة في حقة . إلا أنه لاسبيل له إلى معرفته ، فإن ذلك موقوف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكون ، وكيف تتفق . فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفه العاقبة .

ولما تصور أن يعلم الشيء على ماهو به ، كان العلم كمالا في حقه ، لأنه في صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره ، صار ذلك العلم نقصانا في حقه . إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التي لاضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة ، وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء

فإذاً لو استوى عنده وجود المال وعدمه ، فهذا نوع من الغنى يضاهى بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه ، فهو فضيلة . أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا

فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثاني : في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص

ولنفرض هذا في شخص واحد ، هو طالب للمال ، وساع فيه ، وفاقد له ثم وجده ، فله حالة الفقد وحالة الوجود . فأي حالتيه أفضل ؟ فنقول . ننظر ، فإن كان مطلوبه مالا بد

منه فى المعيشة ، وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ، ويستعين به عليه ، فحال الوجود أفضل . لأن الفقر يشغله بالطلب . وطالب القوت لايقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل . والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » وقال « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه

وإن كان المطلوب فوق الحاجة ، أوكان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ، فحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنهما استويا فى الحرص وحب المال ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ، ولكن افترقا فى أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه فى قلبه ، ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا ، وتكون الدنيا عنده كالسجن الذى يبغى الخلاص منه . ومهما استوت الأمور كلها ، وخرج من الدنيا رجلان ، أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لا محالة ، إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ، ويستوحش من الآخرة ، بقدر تأكد أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد . فينبغى أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا . فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه . وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه فى فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به . وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها ، وإن كان حريصا عليها . فإذاً قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف ، والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا فى موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها ، يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ، إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم ، والثانى : الفقر عن مقدار الضرورة ، فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه ، إلا إذا كان وجوده يبقى حياته ، ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصى ، ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل ، فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا

---

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه : تقدم

فهذا تفصيل القول فى الغنى والفقر . ويبقى النظر فى فقير حريص متكالب على طلب المال ، ليس له هم سواه ، وفى غني دونه فى الحرص على حفظ المال .ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره ، فهذا فى محل النظر . والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال ، وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده ،والعلم عندالله تعالى فيه

بيان

آداب الفقير فى فقره

اعلم أن للفقير ادابا فى باطنه وظاهره ، ومخالطته وأفعاله ، ينبغي أن يراعيها . فأما أدب باطنه فأن لايكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر . أعنى أنه لايكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ، وإن كان كارها للفقر . كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ، ولا يكون كارها فعل الحجام، ولا كارها للحجام . بل ربما يتقلد منه منّة . فهذا أقل درجاته ، وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر .وهو معنى قوله عليه السلام « يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاء أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا »

وأرفع من هذا أن لايكون كارها للفقر ، بل يكون راضيا به

وأرفع منه أن يكون طالبا له ، وفرحا به ، لعلمه بغوائل الغنى ،ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى ، واثقا به فى قدر ضرورته أنه يأتيه لامحالة ، ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال علي كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ، ومثوبات بالفقر . فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة ، أن يحسّن عليه خُلُقه ،ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره . ومن علاماته إذا كان عقوبة ، أن يسوء عليه خلقه ، ويعصى ربه بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ، ويتسخط القضاء

وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود . بل الذى لايتسخط ويرضى ، أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته . إذ قيل ماأعطي عبد شيئا من الدنيا إلا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث : شغل ، وهم ، وطول حساب

وأما أدب ظاهره ، فأن يظهر التعفف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستره . في الحديث « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ » وقال تعالى (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ [1]) وقال سفيان . أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر

وأما في أعماله ، فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال علي كرم الله وجهه . ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل . فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم ، لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء . وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل

وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء ، وطمعا في العطاء

وأما أدبه في أفعاله فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . [1] روى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دِرْهَمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ » قيل وكيف ذلك يارسول الله؟ قال « أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرَضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَماً مِنْ دِرْهَمَيْنِ لاَ يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَصَارَ صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ الْمِائَةِ أَلْفٍ »

وينبغي أن لا يدخر مالا ، بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي . وفي الادخار ثلاث درجات

إحداها : أن لا يدخر إلا ليومه وليلته ، وهي درجة الصديقين

والثانية : أن يدخر لأربعين يوما ، فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل . وقد فهم العلماء

---

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يارسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف ـ الحديث : النسائي من حديث أبي هريرة متصلا وقد تقدم في الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا

---

(١) البقره : ٢٧٣

ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ، ففهم منه الرخصة في أمل أربعين يوما ، وهذه درجة المتقين

والثالثة : أن يدخر لسنته ، وهي أقصى المراتب ، وهي رتبة الصالحين

ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم ، خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته ، وغنى الخصوص في أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوما ، وبعضهن يوما وليلة ، وهو قسم عائشة وحفصة

بيان

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطي ، وغرضه في الأخذ .
أما نفس المال . فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها . فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه . وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابه وما يستحب • وأما غرض المعطي . فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته ، وهو الهدية ، أو الثواب ، وهو الصدقة والزكاة ، أو الذكر والرياء والسمعة ، إما على التجرد ، وإما ممزوجا ببقية الأغراض

أما الأول وهو (١) الهدية ، فلا بأس بقبولها ؛ فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها . فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض . فقد (٢) أهدي إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ان قبول الهدية سنة : تقدم انه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية
(٢) حديث أهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة وأهدت اليه كبشين وشيئا من سمن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر واسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه

سمن ، وأقط ، وكبش، فقبل السمن والأقط * ورد الكبش. [١] وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض النـاس ويرد على بعض. وقال [٢] « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لاَأَتَّهِبَ إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دُوسِيٍّ » وفعل هذا جماعة من التابعين

وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما · فقال حدثنا [٣] عطاء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّمَا يَرُدُّهُ عَلَى اللهِ » ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ، ورد سائرها . وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس مجلسي هذا ، وقبل من الناس مثل هذا ، لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه

وكان ابراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ، ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول اتركه عندك ، وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول ، فأخبرني حتى آخذه ؛ وإلا فلا . وأمارة هـذا أن يشق عليه الرد لو رده ، ويفرح بالقبول ويرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديته . فإن علم أنه يمازجه منّة ، فأخذه مباح ، ولكنه مكروه عند الفقراء الصـادقين

وقال بشر : ماسألت أحدا قط شيئا إلا السري السقطي ، لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا ، فهو يفرح بخروج الشيء من يده ، ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على مايحب . وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال ، وسأله أن يأكله ، فقال أفرقه على الفقراء . فقال ماأريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال ماأريد أن تنفقه في الخل والبقـل ، بل في الحلاوات

---

(١) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض : أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وايم الله لاأقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا ـ الحديث : فيه محمد بن اسحق ورواه بالعنعنة

(٢) حديث لقد هممت ان لاأتهب الا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات

(٣) حديث عطاء مرسلا من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فانما يرد على الله عز وجل : لم أجده مرسلا هكذا ولاحمد وأبي يعلى والطبراني باسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عز وجل اليه ولاحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ماأتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ـ الحديث :

* الأقط هو لبن مجفف يابس متحجر يطبخ به .

والطيبات فقبل ذلك منه . فقال الخراسانى : ماأجد فى بغداد أمنّ عليّ منك . فقال الجنيد: ولا ينبغى أن يقبل إلا من مثلك

الثانى : أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة . وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة ، وكان يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه . فإن كان مقارفاً لمعصية فى السر ، يعلم أن المعطى لوعلم ذلك لنفر طبعه ، ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه .. كما لو أعطاه لظنه أنه عالم . أو علوي ، ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولايقبله ، إذ يكون معيناله على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثورى يردما يعطى ويقول لوعلمت أنهم لايذكرون ذلك افتخارا به لأخذت . وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ، ونصحالهم، لأنهم يذكرون ذلك ، ويحبون أن يعلم به ، فتذهب أموالهم ، وتحبط أجورهم

وأما غرضه فى الأخذ فينبغى أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لابدله منه ، أو هو مستغن عنه . فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى، فالأفضل الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « مَا الْمُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الآخِذِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلاَ اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ » وفى لفظ آخر « فَلاَ يَرُدُّهُ »
وقال بعض العلماء من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يُعْطَ . وقد كان سري السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا ، فرده مرة ، فقال له السري ، ياأحمد ، احذر آفة الرد ، فإنها أشد من آفة الأخذ . فقال له أحمد . أعِدْ عليّ ما قلت . فأعاده ، فقال أحمد . ما رددت

---

(١) حديث ماالمعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ اذا كان محتاجا: الطبرانى من حديث ابن عمر وقد تقدم فى الزكاة
(٢) حديث من أتاه شىء من هذا المال من غير مسئلة ولااستشراف فانما هورزق ساقه الله اليه وفى لفظ آخر فلاترده :تقدما قبل هذا بحديث

عليك إلا لأن عندى قوت شهر ،فاحبسه لى عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلىّ وقد قال بعض العلماء : يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع ،أو دخول فى شبهة أو غيره

فأما إذا كان ماأتاه زائدا على حاجته ، فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه ، والتكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم،لمافى طبعه من الرفق والسخاء . فإن كان مشغولا بنفسه فلاوجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة،فإن ذلك محض اتباع الهوى. وكل عمل ليس لله فهو فى سبيل الشيطان ، أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم له مقامان أحدهما :أن يأخذ فى العلانية ويرد فى السر ، أو يأخذ فى العلانية ويفرق فى السر ، وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس ، لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة

والثانى . أن يترك ولا يأخذ ، ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه ، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما فى السر، أو كليهما فى العلانية،وقدذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه فى كتاب أسرار الزكاة ، مع جملة من أحكام الفقر. فليطلب من موضعه وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطى رحمهما الله ، فإنما كان لاستغنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ، ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره، فإن فى ذلك آفات وأخطارا .والورع يكون حذرا من مظان الآفات، إذلم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه

وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندى دراهم أعددتها للإنفاق فى سبيل الله ، فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي. أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى ؟ يامن يرى ولا يُرى . فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت فى نفسى . لاأجد لدراهمى موضعا أحسن من هذا . فحملتها إليه : فنظر إليها ، ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال أربعة ثمن مئزرين ،ودرهم أنفقه ثلاثا ، فلا حاجة بى إلى الباقى ، فرده . قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس فى نفسى منه شيء . فالتفت إليّ ، فأخذ بيدى ، فأطافنى معه أسبوعا ،كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين ، منها ذهب ، وفضة ، وياقوت،ولؤلؤ،وجوهر،ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه، وآخذ من أيدى الخلق ، لأن هذه أثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة

والمقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة ،لينظر الله إليك ماذا

تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [1]) وقد قال صلى الله عليه وسلم [(1)] « لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ »

فإذاً أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب

ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى، وكسراً لصفة النفس ، فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها ، فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد ، وعادت لعادتها ، ولا يمكن قهرها ، فرد ذلك مهم ، وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصديقون

وأما إذا كانت حالك السخاء ، والبذل ، والتكفل بحقوق الفقراء ، وتعهد جماعة من الصلحاء ، فخذ مازاد على حاجتك ، فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم، ولا تدخره ، فإن امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو في قلبك فتمسكه ، فيكون فتنة عليك .

وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة . إلى التوسع في المال، والتنعم في المطعم والمشرب ، ، وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به، فله أن يستقرض على حسن الظن بالله ، لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاه ، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه ، وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه ، فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد ، بل يكشف حاله عنده، ليقدم على إقراضه على بصيرة . ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ، ومن الزكاة . وقد قال تعالى (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ [2]) قيل معناه

---

(١) حديث لا حق لابن آدم الا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح

---

(1) الكهف : ٧ (2) الطلاق : ٧

يبيع أحدثوبيه، وقيل معناه فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم: إن لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء. فقيل من هؤلاء؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى. فإذاً مهما وجدت هذه الشروط فيه، وفى المال، وفى المعطى، فليأخذه وينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى، لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعى، والإرادات والإعتقادات

وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام. فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم، كان دونهم فى الدرجة. فقال صاحب المنزل لشقيق: ماقصدت بهذا؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى كلهم

وقال موسى عليه السلام. يارب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى اسرائيل، يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة! فأوحى الله تعالى إليه. هكذا أصنع بأوليائى، أجرى أرزاقهم على أيدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم. فلا ينبغى أن يرى المعطى إلا من حيث أنه مسخر مأجور من الله تعالى. نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه

بيان

تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات. وورد فيه أيضا مايدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم(١) «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ» ، وفى الحديث(٢) «رُدُّوا

(١) حديث للسائل حق وان جاء على فرس: أبو داود من حديث الحسين بن على ومن حديث على وفى الأول يعلى بن أبى يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفى الثانى شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح فى علوم الحديث انه بلغه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور فى الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق ـ الحديث: فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن على فى مسنده

(٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق: أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى واللفظ له من حديث أم بجيد وقال ابن عبد البر حديث مضطرب

السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعدى على عدوانه والإعطاء إعانة . فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام فى الأصل ، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة . فإن كان عنها بد فهو حرام . وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لاينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه ، وهو عين الشكوى . وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة

الثانى : أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى . وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه ، فإن فيه عزه . فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لضرورة . وفى السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤل

الثالث : أنه لاينفك عن إيذاء المسؤل غالبا ، لأنه ربما لاتسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع ، إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء . ففى البذل نقصان ماله ، وفى المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب فى الإيذاء ، والإيذاء حرام إلا بضرورة

ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم [1] « مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ ٱلْفَوَاحِشِ مَاأُحِلَّ مِنَ ٱلْفَوَاحِشِ غَيْرُهَا » فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة ، كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لايجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ سَأَلَ عَنْ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ »

---

(١) حديث مسئلة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها : لم أجد له أصلا

(٢) حديث من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ــ الحديث : أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرا على ما ذكر منه وتقدم فى الزكاة ولمسلم من حديث أبى هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثرا فانما يسأل جمرا ــ الحديث : وللبزار والطبرانى من حديث مسعود بن عمرو لايزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه وفى اسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر مايزال الرجل يسأل الناس حتي يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم واسناده جيد

(١) « وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ يَتَقَعْقَعُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ » وفى لفظ آخر « كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشاً وَكُدُوحاً فِي وَجْهِهِ » وهـذه الألفاظ صريحة فى التحريم والتشديد

وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام ، فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة « وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً »(٢) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال، ويقول(٣) « مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا» وقال صلى الله عليه وسلم(٤) « اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ » قالوا ومنك يارسول الله ؟ قال « وَمِنِّي »

وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال لواحد من قومه : عشّ الرجل فعشاه . ثم سمعه ثانيا يسأل ، فقال . ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشيته . فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوأة خبزا . فقال . لست سائلا ، ولكنك تاجر . ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة ، وضربه بالدرة ، وقال لاتعد . ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته

ولعل الفقيه الضعيف المنة ، الضيق الحوصلة ، يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تأديب ، وقد ورد الشرع بالتعزير . وأما أخذه ماله فهو مصادرة، والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال، فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور فى الفقه . فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واطلاعه على أسرار دين الله

---

(١) حديث من سأل وله مايغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه : أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم فى الزكاة

(٢) حديث بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الاشجعي

(٣) حديث من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب الينا : ابن أبى الدنيا فى القناعة والحارث ابن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات

(٤) حديث استغنوا عن الناس وماقل من السؤال فهو خير ـ الحديث : البزار والطبرانى من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك واسناده صحيح وله فى حديث يعدى الجذام فتعففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وماقل من السؤال الخ

ومصالح عباده . أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة ؟أوعلم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا فى معصية الله ؟ وحاشاه .أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله؟وهيهات فإن ذلك أيضا معصية .بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال ،وعلم أن من أعطاه شيئا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذبا ، فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه . إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى مالا لا مالك له فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح

ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا ، كأخذ العلوي بقوله إنى علوي وهو كاذب ، فإنه لا يملك ما يأخذه .وكأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه،وهو فى الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه . وقد ذكرنا فى مواضع أن ماأخذوه على هذا الوجه لا يملكونه ، وهو حرام عليهم ، ويجب عليهم الرد إلى مالكه . فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه فى مواضع . ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه ، أو محتاجا إليه حاجة مهمة ، أو حاجة خفيفة ، أو مستغنى عنه ،فهذه أربعة أحوال

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا ، وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسئول بكونه مباحا ، والمسئول منه بكونه راضيا فى الباطن ، وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته . وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله . فسؤاله حرام قطعا . وهذان طرفان واضحان

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف . وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء ، وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة . وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة . فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الإباحة ، لأنها أيضا حاجة محققة .ولكن الصبر عنه أولى

وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال : وقال ليس تحت جبتى قميص ، والبرد يؤذينى أذى أطيقه ، ولكن يشق عليّ . فإذا صدق فصدقُه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ؛ ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز . وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار . أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام . وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة ، من الشكوى ، والذل ، وإيذاء المسؤل فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات . وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة

فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟

فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ، ولا يسال سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ، ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى ، وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس . فيخرج به عن حد الشكوى

وأما الذل فبأن يسأل أباه ، أو قريبه ، أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك فى عينه ، ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخي الذى قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم ، فيفرح بوجود مثله ، ويتقلد منه منّة بقبوله ، فيسقط عنه الذل بذلك . فإن الذل لازم للمنّة لا محالة

وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه ، بل يلقى الكلام عرضا ، بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة . وإن كان فى القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويكون الأحب إليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح ، بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا إلى التغافل إن أراد . فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته ، وأنه غير متأذّ به . وينبغي أن يسأل من لا يستحي منه لو ردّه أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذى ، كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى

فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ، ولولاه لما ابتدأه به ، فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول ذلك حرام محض لاخلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لافرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب ، أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام . وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء . ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ » فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات ، إذ لايمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان ، مع أنه ترجمان كثير الكذب ، ولكن الضرورة دعت إليه . وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام ، فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة ، وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا .

فإذاً ماأخذه مع الكراهة لايملكه بينه وبين الله تعالى ، ويجب عليه رده إلى صاحبه . فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده ، فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ، ليتفصى عن عهدته . فإن لم يقبل هديته ، فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته . فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى ، وهو عاص بالتصرف فيه ، وبالسؤال الذي حصل به الأذى

فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟ فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا

فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا : فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلا . فكان بشر لايأخذ من أحد أصلا إلا من السري رحمة الله عليهما . وقال : لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده ، فأنا أعينه على مايحب . وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا . لأن الأذى إنما يحل بضرورة ، وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ،

(١) حديث انما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر : لم أجد له أصلا وكذا قال المزي لما سئل عنه

ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ، ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك ، كما يباح له أكل لحم الخنزير ، وأكل لحم الميتة . فكان الامتناع طريق الورعين . ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته فى الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض . ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه . ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكبش والسمن والأقط . وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة . ولكن قد تكون رغبته طمعاً فى جاه ، أو طلبا للرياء والسمعة ، فكانوا يحترزون من ذلك

فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأســـــا إلا فى موضعين :

أحدهما : الضرورة ، فقد سأل ثلاثة من الأنبياء فى موضع الضرورة . سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك فى أنهم ماسألوا إلا من علموا أنه يرغب فى إعطائهم

والثانى : السؤال من الأصدقاء والإخوان ، فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم . فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم فى اقتدار إخوانهم على مايريدونه ، وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال

وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسؤل بصفة لو علم مابك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا فى تعريف حاجتك . فأما فى تحريكه بالحياء ، وإثارة داعيته بالحيل فلا . ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها فى الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك فى الكراهة . ويعلم ذلك بقرينة الأحوال . فالأخذ فى الحالة الأولى حلال طلق ، وفى الثانية حرام سحت . ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها ، فليستفت قلبه فيها ، وليترك حزاز القلب ، فإنه الإثم . وليدع مايريبه إلى مالا يريبه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته ، وضعف حرصه وشهوته . فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له مايوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ أَطْيَبَ مَاأَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ » وقد أوتي جوامع الكلم

---

(١) حديث ان أطيب ماأكل الرجل من كسبه : تقدم

لأن من لا كسب له ، ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته ، فيأكل من أيدى الناس وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه . ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما . وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر فى السؤال على حد الضرورة ؟

فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك . فإذاً بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدى الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير

بيان

مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ » صريح فى التحريم . ولكن حد الغنى مشكل ، وتقديره عسير . وليس إلينا وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف

وقد ورد فى الحديث [1] « اسْتَغْنُوا بِغِنَى اللهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ » قالوا وما هو ؟ قال « غَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ » وفى حديث آخر [2] « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا » وورد فى لفظ آخر أربعون درهما . ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة . فإن الحق فى نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع . وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين فنقول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِى ثَلَاثٍ طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِى عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يَكُنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ » فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان أجناسها والنظر فى الأجناس والمقادير والأوقات

---

(١) حديث استغنوا بغنى الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة : تقدم فى الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قالوا ما يغنيه قال ما يغديه أو يعشيه ولاحمد من حديث على باسناد حسن قالوا وما ظهر غنى قال عشاء ليلة وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة

(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا وفى لفظ آخر أربعون درهما : تقدم فى الزكاة

فأما الأجناس فهي هذه الثلاث . ويلحق بها ما فى معناها . حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي ، وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات . ويلحق بنفسه عياله وولده ، وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا

وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين ، وهو ثوب واحد ، وقميص ، ومنديل وسراويل ، ومداس ؛ وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه . وليقس على هذا أثاث البيت جميعا . ولا ينبغى أن يطلب رقة الثياب ، وكون الأوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف ، فإن ذلك مستغنى عنه . فيقتصر من العدد على واحد ، ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدره فى اليوم مُدّ ، وهو ماقدره الشرع . ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير ، والأدم على الدوام فضلة ، وقطعه بالكلية إضرار ، ففى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجزىء من حيث المقدار ، وذلك من غير زينة . فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى

وأما بالإضافة إلى الأوقات ، فما يحتاج إليه فى الحال من طعام يوم وليلة ، وثوب يلبسه ومأوى يكنه ، فلا شك فيه . فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات

إحداها : ما يحتاج إليه فى غد . والثانية : ما يحتاج إليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما

والثالثة : ما يحتاج إليه فى السنة . ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله ، إن كان له عيال ، لسنة ، فسؤاله حرام . فإن ذلك غاية الغنى ، وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث . فإن خمسة دنانير تكفى المنفرد فى السنة إذا اقتصد . أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك . وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته . فلا يحل له السؤال ، لأنه مستغن فى الحال ، وربما لا يعيش إلى الغد ، فيكون قد سأل ما لا يحتاج ، فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذي ورد فى التقدير بهذا القدر .

وإن كان يفوته فرصة السؤال ، ولا يجد من يعطيه لو أخر ، فيباح له السؤال ، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد ، فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يغنيه

فإن كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا ، وكان ما لأجله السؤال خارجا عن محل الضرورة ، لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار

وخوف الفوت ، وتراخي المدة التي فيهـــا يحتـاج إلى السؤال

وكل ذلك لا يقبل الضبط ، وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتي فيه قلبه ، ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة . وكل من كان يقينه أقوى ، وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم ، وقناعته بقوت الوقت أظهر ، فدرجته عند الله تعالى أعلى. فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان . وقد قال تعالى (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [1]) وقال عز وجل (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا [2])

والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة . وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة ، أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة . وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ، ولكنهما صادران عن حب الدنيا ، وطول الأمل ، وعدم الثقة بفضل الله . وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان

أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ . فهذا مع الروحانيين في عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ . فهذا مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين : فإذاً قد اتفق كلهم على ذم السؤال ، وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا . وظن أنه لما وصفهم

(١) آل عمران : ١٧٥ (٢) البقرة : ٢٦٨

بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء . فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا . فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك ياأبا اسحق فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال صدقت ياأستاذ . فإذاً درجات أرباب الأحوال فى الرضا والصبر ، والشكر ، والسؤال كثيرة . فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ، ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين . وقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين . ومن لايميز بين السفل والعلو لايقدر على الرقي قطعا . وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لايقدر عليه

وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ، ولكن بالإضافة إلى حالهم . فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أباإسحق النورى رحمه الله يمديده ويسأل الناس فى بعض المواضع ، قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال . لا يعظم هذا عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لايضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم (١) « يَدُ الْمُعْطِي هِىَ الْعُلْيَا » فقال بعضهم يد المعطى هي يد الآخذ للمال ، لأنه يعطى الثواب والقدر له لالما يأخذه . ثم قال الجنيد . هات الميزان . فوزن مائة درهم ، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ، ثم قال احملها إليه . فقلت فى نفسى إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله . فذهبت بالصرة إلى النورى ، فقال هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال ردها عليه ، وقل له أنا لاأقبل منك أنت شيئا . وأخذ مازاد على المائة قال فزاد تعجبي ، فسألته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه ، وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل . فأخذت ماكان لله تبارك وتعالى ، ورددت ماجعله لنفسه . قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال . أخذ ماله ورد مالنا ، الله المستعان

---

(١) حديث يد المعطى هي العليا : مسلم من حديث أبي هريرة

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم ، وكيف خلصت لله أعمالهم ، حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال، وخلو القلب عن حب الدنيا، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة

فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل ، فأنكر ذلك لغيره ، كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعلة فى باطنه ، فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا . وهذا وإن كان فى الجهل دون الأول ، ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين . إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ماظهر لهم ، فهو صاحب الذوق والمعرفة ، وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق ، أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به ، فهو صاحب علم اليقين ، وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة ، وإن كان دون عين اليقين . ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ، ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين ، الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين ، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم القائلين آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب

الشطر الثانى

من الكتاب فى الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد فى المطعم ، والملبس ، والمسكن ، والأثاث ، وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد

بيان

حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال ، وعمل ، كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد ، وقول وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن . وإلا فليس القول

مرادا لعينه . وإن لم يكن صادرا عن حال سمي إسلاما ولم يسم إيمانا . والعلم هو السبب فى الحال ، يجرى مجرى المثمر ، والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة . فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فنعنى بها مايسمى زهدا . وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ماهو خير منه . فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة و بيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه . وإنما عدل إلى غيره لرغبته فى غيره ، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا

فإذاً يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ، ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه . فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمى زاهدا . إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا. وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير ، لأن التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة

وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه ، حتى تغلب هذه الرغبة . فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشترى عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا . ولذلك قال الله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ [1]) معناه باعوه . فقد يطلق الشراء بمعنى البيع . ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف ، فباعوه طمعا فى العوض . فإذاً كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا . وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة ، وإن كان هو للميل فى وضع اللسان

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال . والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى ، حتى الفراديس ، ولا يحب إلا الله تعالى ، فهو الزاهد المطلق . والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ، ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة ، بل طمع فى الحور ، والقصور ، والأنهار

---

(١) يوسف : ٢٠

والفوا كه فهو ايضا زاهد ، ولـكنه دون الأوّل والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذى يترك المال دون الجاه ، أو يترك التوسع فى الأكل ولا يترك التجمل فى الزينة ، فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا . ودرجتـه فى الزهاد درجـة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين . وهو زهد صحيح . كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة . فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض، كما لا يبعد ذلك فى المحظورات . والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً ، وإن كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات . فإذاً الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ،وهي الدرجة العليا . وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده ، فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإنّ ترك مالا يقدر عليه محال . وبالترك يتبين زوال الرغبة . ولذلك قيل لابن المبارك يازاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز ،إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيما ذا زهدت؟

وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال ، فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه . ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع . فـكذلك من عرف أن ماعند الله باق ، وأن الآخرة خير وأبقى أى لذاتها خير فى أنفسهـا وأبقى ، كما تـكون الجواهر خـيرا وأبقى من الثلج مثلا ، ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلئ . فهكذا مثال الدنيا والآخرة . فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذى لا فناء له

فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة، تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة حتى أن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعـالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [1]) ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ [2])

فليس يحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى . وقد

(١ ، ٢) التوبة : ١١١

يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه ، وكونه مقهورا فى يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم ، إلى أن يختطفه الموت ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت

وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ[1]) وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ[2]) فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه

ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه ، [1] قال رجل فى دعائه اللهم أرنى الدنيا كما تراها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لاَ تَقُلْ هَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة فى حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له . ولا يتصوّر أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا لأنه مستغنى عن الحشرات أصلا ، وليس مستغنيا عن الفرس . والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره . والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره

وأما العمل الصادر عن حال الزهد ، فهو ترك واحد ، لأنه بيع ، ومعاملة ، واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى . فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع ، وإخراجه من اليد ، وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية ، وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ، ومقدماتها ، وعلائقها ، فيخرج من القلب حبها ، ويدخل حب الطاعات ، ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات . وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن . فإذا وفى بشرط الجانبين فى الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به ، فإن الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد . فمن سلم حاضرا فى غائب ، وسلم الحاضر

---

(١) حديث قال رجل اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك : ذكره صاحب الفردوس مختصرا اللهم أرنى الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده

(١) النساء : ٧٧ (٢) القصص : ٨٠

وأخذ يسعى فى طلب الغائب ، سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه ، وقدرته ، ووفائه بالعهد . وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين ، وإن كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ، وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف ، حتى تشفع فيه أحدهم فترك . ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عند التسليم والبيع

فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ، ولست زاهدا مطلقا . وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا ، لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه . وربما يستهويك الشيطان بغروره ، ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها . فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله . فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها . فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات ، فإياك أن تثق بوعدها فى المباحات . والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة . فإذا وفت بما وعدت على الدوام ، مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا ، فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما . ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فإنها سريعة النقض للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع .

وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط ، وذلك عند القدرة قال ابن أبى ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتى فى مسألة إلا رد علينا ؟ يعنى أبا حنيفة . فقال ابن شبرمة : لا أدرى أهو ابن الحائك أم ما هو ؛ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها . وكذلك [1] قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ، ولو علمنا فى أي شيء محبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ [1])

---

(١) حديث قال المسلمون انا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم الآية لم أقف له على أصل

---

(١) النساء : ٦٦

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليـــــه وسلم « أَنْتَ مِنْهُمْ » يعنى من القايل . قال [١] وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ [١])

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة ، وعلى سبيل استمالة القلوب ، وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ، ولكن لامدخل لشيء منه فى العبادات . وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعامك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة . فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لايؤمن بالآخرة . فذلك قد يكون مروءة ، وفتوة ، وسخاء ، وحسن خلق . ولكن لايكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة ، وهي ألذوأهنأ من المال . وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا فى العوض ليس من الزهد ، فكذلك تركه طمعا فى الذكر ، والثناء ، والاشتهار بالفتوة والسخاء ، واستثقالا له لما فى حفظ المال من المشقة ، والعناء ، والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا . بل هو استعجال حظ آخر للنفس . بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة ، صفوا عفوا ، وهو قادر على التنعم بها ، من غير نقصان جاه وقبح اسم ، ولافوات حظ للنفس ، فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ، ومحبا لما سوى الله ، ويكون مشركا فى حب الله تعالى غيره ، أو تركها طمعا فى ثواب الله فى الأخرة ، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا فى أشربة الجنة وترك التمتع بالسرارى والنسوان طمعا فى الحور العين ، وترك التفرج فى البساتين طمعا فى بساتين الجنة واشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا فى زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعا فى فواكه الجنة ، وخوفا من أن يقال له (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا [٢]) فآثر فى جميع ذلك ماوعد به فى الجنة على ماتيسر له فى الدنيا عفوا صفوا ، لعلمه بأن مافى الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها فى الآخرة أصلا

---

(١) حديث ابن مسعود ماعرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا الآية : البيهقى فى دلائل النبوة باسناد حسن

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) الاحقاف : ٢٠

بيان

فضيلة الزهد

قال الله تعالى (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ [١]) إلى قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ [٢]) فنسب الزهد إلى العلماء ، ووصف أهله بالعلم ، وهو غاية الثناء . وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [٣]) وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا . وقال عز وجل (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [٤]) قيل معناه أيهم أزهد فيها . فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [٥]) وقال تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٦]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ [٧]) فوصف الكفار بذلك . فمفهومه أن المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه ، وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا

وأما الأخبار . فما ورد منها في ذم الدنيا كثير . وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، إذ حب الدنيا من المهلكات . ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات ، وهو المعنيّ بالزهد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللهُ لَهُ هَمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ وَقَدْ أُعْطِيَ صَمْتاً وَزُهْداً فِي الدُّنْيَا

---

(١) حديث من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ـ الحديث : ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذى من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

(٢) حديث اذا رأيتم العبد قد أوتى صمتا وزهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة : ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف

---

(١) القصص : ٧٩ (٢) القصص : ٨٠ (٣) القصص : ٥٤ (٤) الكهف : ٧ (٥) الشورى : ٢٠
(٦) طه : ١٣١ (٧) ابراهيم : ٣

فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ » وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا[(١)]) ولذلك قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه ، وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال : [(١)] قلنا يارسول الله أى الناس خير ؟ قال « كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ » قلنا يارسول الله وما مخموم القلب ؟ قال « التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لاَ غِلَّ فِيهِ وَلاَ غِشَّ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ حَسَدَ » قلنا يارسول الله فمن على أثره ؟ قال « الَّذِي يَشْنَأُ الدُّنْيَا وَيُحِبُّ الآخِرَةَ » ومفهوم هذا أن شر الناس الذى يحب الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللهُ فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا » فجعل الزهد سببا للمحبة . فمن أحبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات ، فينبغى أن يكون الزهد فى الدنيا من أفضل المقامات . ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى

وفى خبر من طريق أهل البيت [(٣)] « الزُّهْدُ وَالْوَرَعُ يَجُولاَنِ فِي الْقُلُوبِ كُلَّ لَيْلَةٍ فَإِنْ صَادَفَا قَلْبًا فِيهِ الإِيمَانُ وَالْحَيَاءُ أَقَامَا فِيهِ وَإِلاَّ ارْتَحَلاَ »

[(٤)] ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا ؟ قال « وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ » قال عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وذهبها . وكأنى بالجنة والنار ، وكأنى بعرش ربى بارزا . فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفْتَ فَالْزَمْ عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالإِيمَانِ » فانظر كيف بدأ فى إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا ، وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالإِيمَانِ »

ولما [(٥)] سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ

---

(١) حديث قلنا يارسول الله وما مخموم القلب قال التقى النقى ـ الحديث : ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يارسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الخرائطى فى مكارم الأخلاق

(٢) حديث ان أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم

(٣) حديث الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه والا ارتحلا : لم أجد له أصلا

(٤) حديث لما قال لحارثة أنا مؤمن حقا فقال وما حقيقة ايمانك ـ الحديث : البزار من حديث أنس والطبرانى من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف

(٥) حديث سئل عن قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه ـ الحديث : الحاكم وقد تقدم

---

(١) البقرة : ٢٦٩

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ (١)) وقيل له : ماهذا الشرح ؟ قال « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ » قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال « نَعَمْ. التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ » فانظر كيف جعل الزهد شرطا للإسلام ، وهو التجافي عن دار الغرور

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال « لَيْسَ كَذَلِكَ تَبْنُونَ مَالَا تَسْكُنُونَ وَتَجْمَعُونَ مَالَا تَأْكُلُونَ » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى . ولما قدم عليه بعض الوفود (٢) قالوا : إنا مؤمنون. قال « وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمواقع القضاء ، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . فقال عليه الصلاة والسلام « إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَجْمَعُوا مَالَا تَأْكُلُونَ وَلَا تَبْنُوا مَالَا تَسْكُنُونَ وَلَا تَنَافَسُوا فِيمَا عَنْهُ تَرْحَلُونَ » فجعل الزهد تكملة لإيمانهم . وقال (٣) جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا يَخْلِطُ بِهَا غَيْرَهَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، مالا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا ، فسره لنا . فقال « حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ عَمَلَ الْجَبَابِرَةِ فَمَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وفي الخبر (٤) « السَّخَاءُ مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ وَالْبُخْلُ مِنَ الشَّكِّ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ شَكَّ » وقال أيضا (٥) « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبَخِيلُ

---

(١) حديث استحيوا من الله حق الحياء ـ الحديث: الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف

(٢) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم ـ الحديث: الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر

(٣) حديث جابر من جاء بلا اله الا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة : لم أره من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف نحوه

(٤) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده

(٥) حديث السخي قريب من الله ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

(١) الأنعام : ١٢٥

بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ » والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد، والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة: وروي عن ابن المسيب، عن[1] أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَعَرَّفَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِماً إِلَى دَارِ السَّلَامِ ». وروي أنه صلى الله عليه وسلم[2] مر في أصحابه بعشار من النوق حفل، وهي الحوامل، وكانت من أحب أموالهم إليهم، وأنفسها عندهم، لأنها تجمع الظهر، واللحم، واللبن، والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ[1]) قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله، هذه أنفس أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال « قَدْ نَهَانِي اللهُ عَنْ ذَلِكَ » ثم تلا قوله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ[2]) الآية

وروى[3] مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع. فقال « يَا عَائِشَةُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجْرِيَ مَعِي جِبَالَ الدُّنْيَا ذَهَباً لَأَجْرَاهَا حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنِّي اخْتَرْتُ جُوعَ الدُّنْيَا عَلَى شِبَعِهَا وَفَقْرَ الدُّنْيَا عَلَى غِنَاهَا وَحُزْنَ الدُّنْيَا عَلَى فَرَحِهَا يَا عَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ لِأُولِي الْعَزْمِ

---

(١) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه ـ الحديث: لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضعيفة

(٢) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل ـ الحديث: وفيه ثم تلا قوله تعالى ـ ولا تمدن عينيك ـ الآية لم أجد له أصلا

(٣) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستطعم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث: وفيه يا عائشة ان الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر ـ الحديث: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا يا عائشة ان الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ومجالد مختلف في الاحتجاج به

(١) التكوير: ٤ (٢) طه: ١٣١

مِنَ الرُّسُلِ إِلاَّ الصَّبْرَ عَلَى مَكْرُوهِ الدُّنْيَا وَالصَّبْرَ عَنْ مَحْبُوبِهَا ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لِي إِلاَّ أَنْ يُكَلِّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ فَقَالَ (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [1]) وَاللهِ مَالِي بُدٌّ مِنْ طَاعَتِهِ وَإِنِّي وَاللهِ لأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا بِجُهْدِي وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ »

وروي [1] عن عمر رضي الله عنه ، أنه حين فتح عليه الفتوحات ، قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها . البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر. فقال عمر : ياحفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ، فقالت بلى . قال : ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوّة كذا وكذا سنة ، لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله ، حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّبتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع ، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر

---

(١) حديث ان عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس لين الثياب اذا قدمت عليك الوفود ـ الحديث: بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاها وبكى الخ : لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو بن عبد الله القدرى متروك ـ الحديث : وللترمذي من حديث عائشة قالت ماأشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت اذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ماشبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخاري من حديث أنس كان لا يأكل على خوان ـ الحديث: وتقدم في آداب الاكل وللترمذي في الشمائل من حديث حفصة أنها سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم مسح تثنيه ثنتين فينام عليه ـ الحديث : ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين ـ الحديث : وتقدما في آداب المعيشة وللبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ الا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحي القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد الغطريفي في جزئه المشهور فعقدها في عنقه ما عليه غيرها واسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة

---

(١) الاحقاف : ٣٥

بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله ؛ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية ، فثنيت له ليلة أربع طاقات ، فنام عليها ، فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة ، اثنوها باثنتين ؟ كما كنتم تثنونها؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة ، فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه ، فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين ، إزارا ورداء ، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر ، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ، ليس عليه غيره ، قد عقد طرفيه إلى عنقه ، فصلى كذلك ؟ فما زال يقول حتى أبكاها ، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب ، حتى ظننا أن نفسه ستخرج

وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر ، وهو أنه قال : كان لي صاحبان سلكا طريقا، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما . وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن[1] أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ فَلاَ يَلْبَسُ إِلاَّ الْعَبَاءَةَ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ الْقَمْلُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْكُمْ »

وعن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لَمَّا وَرَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهُزَالِ » فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله ، وهم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الفوز في الآخرة

وفي حديث[2] عمر رضي الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد الا العباءة ـ الحديث : باسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل

(٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ـ الآية قال تبا للدينار والدرهم الحديث : وفيه فأي شيء نذخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبا للدينار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وانما قال المصنف انه حديث عمر لان عمر هو الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى المال يتخذ كما في رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ [1] قال صلى الله عليه وسلم « تَبًّا لِلدُّنْيَا تَبًّا لِلدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ » فقلنا يارسول الله ، نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأيّ شيء ندخر فقال صلى الله عليه وسلم « لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ » وفى حديث [1] حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ابْتَلاَهُ اللهُ بِثَلاَثٍ هَمًّا لاَ يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لاَ يَسْتَغْنِي أَبَدًا وَحِرْصًا لاَيَشْبَعُ أَبَدًا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « لاَيَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لاَ يُعْرَفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ وَحَتَّى يَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ » وقال المسيح صلى الله عليه وسلم : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له. يانبي الله ، لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه ؟ قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ لاَ يَارَبِّ وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ وَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ »

وعن [3] ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه ، فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يَاجِبْرِيلُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَاأَمْسَى لآلِ مُحَمَّدٍ كَفُّ سَوِيقٍ وَلاَ سَفَّةُ دَقِيقٍ » فلم يكن كلامه

---

(١) حديث حذيفة من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث ـ الحديث : لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرب قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث شقاء لاينفد عناه وحرص لايبلغ غناه وأمل لايبلغ منتهاه وفي آخره زيادة

(٢) حديث لايستكمل عبد الايمان حتى يكون أن لايعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب اليه من كثرته : لم أجد له اسنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية على ابن طلحة مرسلا لايستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف فى ذات الله أحب اليه من ان يعرف فى غير ذات الله ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس وعلى بن أبى طلحة أخرج له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة فالحديث إذا معضل

(٣) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا ـ الحديث : فى نزول اسرافيل وقوله ان أحببت ان أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة ـ الحديث : تقدم مختصرا

---

(١) التوبة : ٣٤

بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمَرَ اللهُ الْقِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ ؟ » قال لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك . فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ماذكرت ، فبعثني بمفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك ، ، إن أحببت أن أسيّر معك جبال تهامة زمردًا ، وياقوتا ، وذهبًا وفضة ، فعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله . فقال « نَبِيًّا عَبْدًا » ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِي الآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم لرجل[2] « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ »

وقال صلوات الله عليه[3] « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم[4] « مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ تَرَكَ اللَّذَّاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ » . ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام[5] « أَرْبَعٌ لَا يُدْرَكْنَ إِلَّا بِتَعَبٍ الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَاضُعُ وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ وَقِلَّةُ الشَّيْءِ » . وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لايمكن فإن الأنبياء مابعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان

وأما الآثار : فقد جاء في الأثر لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل مالم يسألوا مانقص من دنياهم . وفي لفظ آخر : مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله ، قال الله تعالى ـ كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد فقهه في الدين واسناده ضعيف

(٢) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا : لم أجد له أصلا

(٤) حديث من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب

(٥) حديث أربع لايدركن الا بتعب الصمت وهو أول العبادة [illegible]

رضي الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زُهد فى الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خيرا منكم. قيل ولم ذلك ؟ قال كانوا أزهد فى الدنيا منكم .

وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد . وقال بلال بن سعد . كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها . وقال رجل لسفيان . أشتهى أن أرى عالما زاهدا . فقال ويحك ! تلك ضالة لا توجد . وقال وهب بن منبه . إن للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين فى الدنيا ، العاشقين للجنة . وقال يوسف بن أسباط رحمه الله. إنى لأشتهى من الله ثلاث خصال . أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ، ولا يكون عليّ دين ، ولا على عظمى لحم . فأعطى ذلك كله

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها . فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه ؟ فبكى الفضيل وقال : أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها . وكذلك أنتم أردتم ذبحى على كبر سنى . موتوا ياأهلى جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير . كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، وليس له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام . وقالت امرأة أبى حازم لأبى حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ، ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب . فقال لها أبو حازم . من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ، ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك . قال الأمر أعجل من ذلك .

وقال إبراهيم بن أدهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب . الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح . فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا . وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ » . فإذا فهم هذا علم أن النعمة فى المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها فى الإعطاء المؤدى إلى السقم

وكان الثوري يقول : الدنيا دار التــواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ، ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لا يخلص العمل للمتعبد حتى لا يفزع من أربعة أشياء : الجوع ، والعرى ، والفقر ، والذل

وقال الحسن البصرى : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت فى أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يطوله ثوب ، ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من فى بيته بصنعة طعام قط . فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم : كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه

بيان

درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ، وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد فى نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث

الدرجة الأولى : وهي السفلى منها ، أن يزهد فى الدنيا وهو لها مشتهٍ ، وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها . وهذا يسمى المتزهد . وهو مبدأ الزهد فى حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهد يذيب أولا نفسه ، ثم كيسه

---

(١) حديث ان الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا ـ الحديث : تقدم

والزاهد أولا يذيب كيسه ، ثم يذيب نفسه فى الطاعات، لا فى الصبر على مُفارقه .والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه. وتجذبه شهوته، فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير

الدرجة الثانية : الذى يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ماطمع فيه. كالذى يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لايشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل .ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده، ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه . فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده، ويظن فى نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه، وهذا أيضا نقصان

الدرجة الثالثة :وهي العليا ، أن يزهد طوعا ، ويزهد فى زهده ، فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا ، إذ عرف أن الدنيا لاشيء ، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا . والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة . فهذا هو الكمال فى الزهد . وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة فى البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبى موسى عبد الرحيم . فى أي شيء تتكلم ! قال فى الزهد . قال فى أي شيء ! قال فى الدنيا . فنفض يده وقال . ظننت أنه يتكلم فى شيء ، الدنيا لاشيء ، إيش يزهد فيها

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز ، فشغله بنفسه ، ودخل الباب ونال القرب عند الملك ، حتى نفذ أمره فى جميع مملكته . أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه ، فى مقابلة ماقد ناله ؟

فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ؛ إن أكلت فلذتها فى حال المضغ، وتنقضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها فى المعدة ،ثم تنتهى إلى النتن والقذر ،ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل . فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها !

ونسبة الدنيا كلها ، أعنى مايسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة ، بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا . إذ لا نسبة للمتناهى إلى مالانهاية له.

والدنيا متناهية على القرب. ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد . فكيف ومدة العمر قصيرة ، ولذات الدنيا مكدرة غير صافية ! فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد . فإذًا لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى مازهد فيه. ولا يلتفت إلى مازهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدًّا به ولا يراه شيئا معتدًّا به إلا لقصور معرفته . فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة

فهذا تفاوت درجات الزهد . وكل درجة من هذه أيضا لها درجات، إذ تصبُّر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة فى الصبر ، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده . وأما انقسام الزهد بالأضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى : أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام، كعذاب القبر ومناقشة الحساب ، وخطر الصراط وسائر مابين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار . إذ فيها [1] أن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء . فهذا هو زهد الخائفين ، وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا ،فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم

الدرجة الثانية : أن يزهد رغبة فى ثواب الله ونعيمه ، واللذات الموعودة فى جنته :من الحور ، والقصور ، وغيرها . وهذا زهد الراجين . فإن هؤلاء ماتركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له

الدرجة الثالثة :وهي العليا .أن لا يكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى . وهو الذى أصبح وهمومه همٌّ واحد . وهو الموحد الحقيقي الذى لا يطلب غير الله تعالى . لأن من طلب غير الله فقد عبده .وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه . وطلب غير الله من الشرك الخفي . وهذا زهد المحبين ، وهم العارفون ، لأنه لا يحب

---

(١) حديث ان الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء :أحمد من حديث ابن عباس التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير ـ الحديث : وفيه انى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ماوصلت اليك حتى سال منى العرق مالو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دويد غير منسوب يحتاج الى معرفته قال أحمد حديثه مثله

الله تعالى خاصة إلا من عرفه. وكما أن من عرف الدينار والدرهم، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما، لم يحب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله، وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة، وبين لذة التنعم بالحور العين: والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحبُّ إلا لذة النظر، ولا يؤثر غيره

ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به. والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور، التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك، لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل. ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول، فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل، حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل، فنقول:

المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل. ولتفصيله مراتب، بعضها أشرح لآحاد الأقسام، وبعضها أجمل للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه، حتى يزهد في نفسه أيضا . والإجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة. وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة، والغضب، والكبر، والرياسة، والمال، والجاه، وغيرها

وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس

وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم، والقدرة، والدينار، والدرهم، والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة. وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب. إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها

فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا، فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (١)) ثم رده فى آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ (٢)) ثم رده تعالى فى موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٣)) ثم رد الكل إلى واحد فى موضع آخر فقال (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤)) فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا . فينبغى أن يكون الزهد فيه

وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض ، وإنما يفارقه فى الشرح مرة ، والإجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها . ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا ، فقصر أمله لامحالة ، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ، فإن من أراد شيئا أراد دوامه . ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ماهو موجود أو ممكن فى هذه الحياة . فإذا رغب عنها لم يردها

ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا (رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ (٥)) فقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (٦)) أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا . فظهر عند ذلك الزاهدون ، وانكشف حال المنافقين

أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص ، وانتظروا إحدى الحسنيين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد ، حرصا على نصرة دين الله ، أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول . كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز . فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين فى الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين

وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت ، فقيل لهم (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ (٧)) فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذى

---

(١) آل عمران : ٤ (٢ ، ٣) الحديد : ٢٠ (٤) النازعات : ٤٠ (٥ ، ٦) النساء : ٧٧ (٧) الجمعة : ٨

هو مهين فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين

وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا ، أو ثلاثين سنة ، بتمتع الأبد ، استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه . وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون فى حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه. فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه، أو على من كان يخاطبه.

فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس وهذا إشارة إلى الزهد فى الجاه خاصة وقال قاسم الجوعى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف . فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد . وهذا إشارة إلى الزهد فى شهوة واحدة. ولعمرى هي أغلب الشهوات على الأكثر ، وهي المهيجة لأكثر الشهوات

وقال الفضيل : الزهد فى الدنيا هو القناعة . وهذا إشارة الى المال خاصة

وقال الثوري :الزهد هو قصر الأمل. وهو جامع لجميع الشهوات. فإن من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء ، فيطول أمله . ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها

وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه . وما قصد بهذا حد الزهد ، ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب للمضمون. وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث :الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة . وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا ، فهو صحيح . ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة ، أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات . فإن من العلوم ما لا فائدة فيه فى الآخرة، وقد طولوها حتى ينقضى عمر الإنسان فى الاشتغال بواحد منها . فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده . وقال الحسن . الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال هذا أفضل منى فذهب إلى أن الزهد هو التواضع. وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب، وهو بعض أقسام الزهد.

وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال . وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب ، كما قال أويس ، ولا شك فى أنه أراد به ترك طلب الحلال

وقد كان يوسف بن أسباط يقول . من صبر على الأذى ، وترك الشهوات ، وأكل الخبز من الحـــلال ، فقد أخذ بأصل الزهد

وفى الزهد أقاويل وراء مانقلناه ، فلم نر فى نقلها فائدة · فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة ، فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق فى نفسه ، وأدركه بمشاهدة من قلبه ، لا بتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق ، واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته . وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة ، لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف ، فلا جرم الكلمات تختلف

وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التى هي مقام العبد فى نفسه ، والأحوال تختلف . فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف

وأما الحق فى نفسه فلا يكون إلا واحدا ، ولا يتصور أن يختلف . وإنما الجامع من هذه الأقاويل ، الكامل فى نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ، ماقاله أبو سليمان الدارانى إذ قال : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل . وقد فصل مرة وقال . من تزوج ، أو سافر فى طلب المعيشة ، أو كتب الحديث ، فقد ركن إلى الدنيا . فجعل جميع ذلك ضدا للزهد . وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [١]) فقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى · وقال . إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة . فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه

فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ، ونفل ، وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض هو الزهد فى الحرام . والنفل هو الزهد فى الحلال . والسلامة هو الزهد فى الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام ، وذلك من الزهد ، إذ قيل لمالك بن أنس . ماالزهد ؟ قال التقوى . وأما بالإضافة إلى خفايا مايتركه . فلا نهاية للزهد فيه . إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس فى الخطرات ، واللحظات ، وسائر الحالات ، لا سيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء . بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تتناهى

---

(١) الشعراء : ٨٩

فمن أقصى درجات زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه ، فقال له الشيطان ، أما كنت تركت الدنيا ، فما الذي بدا لك؟ قال وما الذي تجدد؟ قال توسدك الحجر . أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ، فرمى الحجر وقال . خذه مع ما تركته لك

وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام ، أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس ، واستراحة حس اللمس . فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ، ففعل . فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت عليّ الدنيا . فبكى ونزع الصوف ، وعاد إلى ما كان عليه

وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العري أن جلس في قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان ، فأقامه صاحب الحائط ، فقال ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط

فإذاً درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها . وأقل درجاته الزهدُ في كل شبهة ومحظور وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور . فليس ذلك من درجاته في شيء . ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا ، فلا يتصوّر الزهد الآن

فإن قلت . مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله ، فكيف يتصور ذلك مع الأكل ، والشرب ، واللبس ، ومخالطة الناس ، ومكالمتهم ، وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى

فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا . ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء . ولا بقاء إلا بضروريات النفس . فمهما اقتصرتَ من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن ، وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله ، فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ، فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج . ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات ، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها ، حتى تسير بك إلى مقصدك . فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ، ولا تقصد التلذذ بل التقوّي على طاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد

وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ، فاعلم أن ذلك لايضرك . إذا لم يكن قصدك التلذذ . فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ، ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ، ولكن لايكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه . فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لايضره . ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لايصيبه فيه نسيم الأسحار ، خيفة من الاستراحة به ، وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ، ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله . ولذلك كان داود الطائي له حب مكشوف فيه ماؤه ، فكان لايرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا

فهذه مخاوف المحتاطين . والحزم في جميع ذلك الاحتياط . فإنه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة ، القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين

بيان

تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم : فالفضول كالخيل المسومة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها ، وهو قادر على المشي . والمهم كالأكل والشرب . ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول ، فإن ذلك لاينحصر . وإنما ينحصر المهم الضروري . والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره ، وجنسه ، وأوقاته . فلا بد من بيان وجه الزهد فيه . والمهمات ستة أمور . المطعم ، والملبس ، والمسكن وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه يطلب لأغراض . وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له ، وكيفية الاحتراز منه ، في كتاب الرياء من ربع المهلكات . ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة

الأول المطعم : ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه . ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن

من يملك طعام يومه فلا يقنع به . وأما عرضه ففي مقدار الطعام ، وجنسه ، ووقت تناوله

أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل . وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع ، عند شدة الجوع وخوف المرض . ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه ، وهذه هي الدرجة العليا

الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر ، أو أربعين يوما

الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط . وهذه رتبة ضعفاء الزهاد . ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال ، لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا ، فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب . ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي ، فإنه ورث عشرين دينارا ، فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة . فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد

وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار . وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مدّ واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به . ومن لم يقدر على الاقتصار على مدّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب

وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول . فإذا ميّز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله

وأما الأدم فأقله الملح ، أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان . وأعلاه اللحم أي لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين . فإن صار دائما ، أو أكثر من مرتين في الأسبوع ، خرج عن آخر أبواب الزهد ، فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا . وأما بالإضافة إلى الوقت ، فأقله في اليوم والليلة مرة ، وهو أن يكون صائما . وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب . وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام ، أو أسبوعا وما زاد عليه . وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات

ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية

زهدهم في المطاعم ، وتركهم الأدم . قالت [1] عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار . قيل لها فبم كنتم تعيشون ؟ قالت بالأسودين . التمر والماء . وهذا ترك اللحم، والمرقة والأدم

وقال [2] الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ، ويلعق أصابعه ، ويأكل على الأرض، ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ الْعَبِيدُ »

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فَخُبْزُ الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير

وقال الفضيل [3] . ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول . يابنى إسرائيل ، عليكم بالماء القراح، والبقل البرى وخبز الشعير وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره

وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده

[4] ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء ، أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال « أَمَا إِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُهُ وَلَكِنْ أَتْرُكُهُ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى »

وأتى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف ، فقال . اعزلوا عني حسابها

وقد قال يحيي بن معاذ الرازى : الزاهد الصادق قوته ماوجد ، ولباسه ماستر، ومسكنه حيث أدرك . الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرءان حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه . والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره

---

(١) حديث عائشة كانت تأتى أربعون ليلة ومايوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث : ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتى على آل محمد الشهر مايرى في بيت من بيوته دخان الحديث وفي رواية له مايوقد فيه بنار ولأحمد كان يمر بنا هلال وهلال مايوقد في بيت من بيوته نار وفي رواية له ثلاثة أهلة

(٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ـ الحديث : تقدم دون قوله انما أنا عبد فانه ليس من حديث الحسن انما هو من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر : تقدم

(٤) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ـ الحديث : تقدم

والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ،والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى

المهم الثانى : الملبس. وأقل درجته مايدفع الحر ، والبرد ، و يستر العورة . وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص ،وقلنسوة ، ونعلان . وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل : وماجاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد أن لايكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود فى البيت . فإذا صار صاحب قميصين ، وسراويلين، ومنديلين ،فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار

أما الجنس فأقله المسوح الخشنة ، وأوسطه الصوف الخشن ، وأعلاه القطن الغليظ

وأما من حيث الوقت فأقصاه مايستر سنة ، وأقله مايبقى يوما . حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر ، وإن كان يتسارع الجفاف إليه . وأوسطه مايتماسك عليه شهرا ومما يقاربه فطلب مايبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مضاد للزهد ، إلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به . فإن أمسكه لم يكن زاهدا . بل كان محبا للدنيا

ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس. قال أبو بردة[1]: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا ، وإزارا غليظا ،فقالت .قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . وقال صلى الله عليه وسلم[2] « إِنَّ اللّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُتَبَذِّلَ الَّذِى لاَ يُبَالِى مَالَبِسَ » . وقال عمرو بن الأسود العنسى . لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام بليل على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملأ جوفى من طعام أبدا . فقال[3] عمر : منْ سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود

---

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين: الشيخان وقد تقدم فى آداب المعيشة

(٢) حديث ان الله يحب المتبذل الذى لايبالى مالبس :لم أجدله أصلا

(٣) حديث عمر من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى هدى عمرو ابن الاسود رواه أحمد باسناد جيد

وفي الخبر (١) «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ حَبِيباً»

(٢) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم . (٣) وكانت قيمة ثوبيه عشرة . (٤) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا (٥) واشترى سراويل بثلاثة دراهم . (٦) وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف . وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد . وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفي الخبر (٧) كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات

(٨) ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس ، قيمته مائتا

---

(١) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبي ذر باسناد جيد دون قوله وان كان عنده حبيبا

(٢) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم : أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس الى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ـ الحديث : وإسناده ضعيف

(٣) حديث كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم : لم أجده

(٤) حديث كان ازاره أربعة أذرع ونصفا : أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلا كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع وعرضه ذراعان ونصف ـ الحديث : وفيه ابن لهيعة وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له ازار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر وفيه محمد بن عمر الواقدي

(٥) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم : المعروف انه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس الا انه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح

(٦) حديث كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ : تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة البرد والحبرة وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج الى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقل رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما ازار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب المعيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي وللبزار من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن ابراهيم لا يعرف قاله الذهبي

(٧) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات : الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات

(٨) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه ـ الحديث :

درهم . فكان أصحابه يلمسونه ويقولون : يارسول الله ، أنزل عليك هذا من الجنة؟ تعجبا . وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الاسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباج . وكأنه إنما لبسه أولا تأكيدا للتحريم كما [1] لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال [2] وكما قال لعائشة في شأن بريرة « اشْتَرِطِي لِأَهْلِهَا الْوَلَاءَ » فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه ، وكما [3] أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها ، لتأكيد أمر النكاح

وقد [4] صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم . فلما سلم قال « شَغَلَنِي النَّظَرُ إِلَى هَذِهِ اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ » يعني كساءه . فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شراك نعله قد أخلق ، فأبدل بسير جديد ، فصلى فيه ، فلما سلم قال « أَعِيدُوا الشِّرَاكَ الْخَلَقَ وَانْزِعُوا هَذَا الْجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ »

[5] ولبس خاتما من ذهب ، و نظر إليه على المنبر نظرة ، فرمى به ، فقال « شَغَلَنِي هَذَا عَنْكُمْ نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ »

وكان صلى الله عليه وسلم قد [6] احتذى مرة نعلين جديدين ، فأعجبه حسنهما . فخر ساجدا وقال « أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةَ أَنْ يَمْقُتَنِي » ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه

وعن [7] سنان بن سعد قال: حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء . فلما لبسها قال « انْظُرُوا مَا أَحْسَنَهَا مَا أَلْيَنَهَا » قال فقام إليه أعرابي فقال : يارسول الله هبها لي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به ، قال

---

(١) حديث لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه: متفق عليه وقد تقدم

(٢) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لأهلها ـ الحديث : متفق عليه من حديثها

(٣) حديث أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٤) حديث صلى في خميصة لها علم ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم في الصلاة

(٥) حديث لبس خاتما فنظر اليه على المنبر فرمي به وقال شغلني هذا عنكم ـ الحديث : تقدم

(٦) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما ـ الحديث : تقدم

(٧) حديث سنان بن سعد حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حبة صوف من صوف أنمار ـ الحديث : أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الاحياء سيار بن سعد وهو غلط

فدفعها إليه ، وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فمات صلى الله عليه وسلم وهي فى الحاكة

وعن[١] جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحا ، وعليها كساء من وبر الإبل ؛ فلما نظر إليها بكى وقال « يَا فَاطِمَةُ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الأَبَدِ » فأنزل عليه (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [(١)])

وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي الْمَلَأُ الأَعْلَى قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ مُؤْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الْخُلْقَانَ وَيَتْبَعُونَ الرُّهْبَانَ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَفْئِدَتُهُمْ عِنْدَ الْعَرْشِ »

فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الملابس ، وقد أوصى أمّته عامة باتّباعه إذ قال[٣] « مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي » وقال[٤] « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » وقال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [(٢)]) وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] عائشة رضي الله عنها خاصة وقال « إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزِعِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ »

وعدّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم

واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ، ولبسه وهو فى الخلافة ، وقطع كميه من الرسغين وقال : الحمد لله الذى كسانى هذا من رياشه

وقال الثوري وغيره : البس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء ، ولا يحقرك عند الجهال .

---

(١) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحا ـ الحديث : أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف

(٢) حديث ان من خيار أمتى فيما أنبأنى الملأ الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذابه ـ الحديث : تقدم وهو عند الحاكم والبيهقى فى الشعب وضعفه

(٣) حديث من أحبنى فليستن بسنتى : تقدم فى النكاح

(٤) حديث عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين ـ الحديث : أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية

(٥) حديث قال لعائشة ان أردت اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء : الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم

---

(١) الضحى : ٥ (٢) آل عمران : ٣١

وكان يقول : إن الفقير ليمر بى وأنا أصلى فأدعه يجوز ، ويمر بى واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز .

وقال بعضهم : قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شبرمة : خير ثيابى ماخدمنى ، وشرها ماخدمته .

وقال بعض السلف : البس من الثياب مايخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها مايشهرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الدارانى ، الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو مايستر العورة ، وثوب للنفس وهو مايطلب لينه ، وثوب للناس وهو مايطلب جوهره وحسنه

وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما . وكان الخواص لايلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه

وقال بعض السلف : أول النسك الزي . وفى الخبر . البذاذة من الإيمان . وفى الخبر ، من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى ، وابتغاء لوجهه ، كان حقا على الله أن يدخر له من عبقري الجنة فى تخات الياقوت

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . قل لأوليائى لايلبسوا ملابس أعدائى ، ولايدخلوا مداخل أعدائى ، فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال . انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ، وكان عليه ثياب رقاق . وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبى ذر فى بزته ، فجعل يتكلم فى الزهد ، فوضع أبو ذر راحته على فيه ، وجعل يضرط به .. فغضب ابن عامر ، فشكاه إلى عمر . فقال أنت صنعت بنفسك . تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزة !

وقال علي كرم الله وجهه . إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ، ليقتدى بهم الغني ، ولا يزرى بالفقير فقره . ولما عوتب فى خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع ، وأجدر أن يقتدى به المسلم .

(١) ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال « إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى عِبَاداً لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ »

---

(١) حديث نهى عن التنعم وقال ان لله عبادا ليسوا بالمتنعمين : أحمد من حديث معاذ وقد تقدم

وروي [1] فضالة بن عبيد وهو والي مصر ، أشعث حافيا ، فقيل له أنت الأمير وتفعل هذا ! فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه ، وأمرنا أن نحتفي أحيانا .

وقال علي لعمر رضي الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبيك فأرقع القميص ، ونكس الإزار ، واخصف النعل ، وكل دون الشبع

وقال عمر : اخشوشنوا ، وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر

وقال علي كرم الله وجهه : من تزيا بزي قوم فهو منهم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فَفِي النَّارِ وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا » . وقال [4] أبو سليمان الداراني . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَلْبَسُ الشَّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا مُرَاءٍ أَوْ أَحْمَقُ »

وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضر بدعة

ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، وعليه جبة صوف ، فقال له قتيبة . ما دعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت . فقال أكلك ولا تجيبني . فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أو فقرا فأشكو ربي . وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض . وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ، فإنه كان يتخذ سراويلين ، فإذا غسل أحدهما لبس الآخر ، حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه . مالك لا تلبس الجيد من الثياب ! فقال وما للعبد والثوب

---

(١) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا ان نحتفي أحيانا : أبو داود باسناد جيد

(٢) حديث ان من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ـ الحديث : وآخره أولئك شرار امتي وقد تقدم

(٣) حديث ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه ـ الحديث : مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ

(٤) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق : لم أجد له اسنادا

الحسن ، فإذا عتق فله والله ثيابي لا تبلى أبدا . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر ، يلبسهما من الليل إذا قام يصلى

وقال الحسن لفرقد السبخي: تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ؟ بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحي بن معين. رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ، ويغسلها ويلفقها ويلبسها . فقلت إنك تكسى خيرا من هذا . فقال : ماضرهم ماأصابهم فى الدنيا ، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة . فجعل يحي بن معين يحدث بها ويبكى

المهم الثالث المسكن : وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات :

أعلاها : أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه ، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة

وأوسطها :أن يطلب موضعا خاصا لنفسه ، مثل كوخ مبنى من سعف أوخص أو مايشبهه

وأدناها:أن يطلب حجرة مبنية . إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ، ولم يكن فيه زينة ، لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإن طلب التشييد ، والتجصيص ، والسعة ، وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع ، فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن

فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص ، أو القصب ، أو بالطين ، أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسعة والضيق . واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات، بأن يكون مملوكا، أو مستأجرا ، أو مستعارا . وللزهد مدخل فى جميع ذلك

وبالجملة كل مايراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الضرورة . وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته . وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين .والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ، ودفع الأعين والأذى . وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا . وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا

وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد ، يعنى بالتدريز كف دروز الثياب ،فإنها [1] كانت تشل شلا.والتشييد هو البنيان

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والحاكم ان عمر قطع مافضل عن الاصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء فى الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل

بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد. وقد جاء في الخبر. يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس[1] أن يهدم علية كان قد علا بها[2] ومر عليه السلام بجنبذة معلاة. فقال « لِمَنْ هذه ؟ » قالوا لفلان. فلما جاءه الرجل أعرض عنه، فلم يكن يقبل عليه كما كان. فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم. فأخبر، فذهب فهدمها. فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها، فأخبر بأنه هدمها، فدعا له بخير

وقال[3] الحسن. مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم[4] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ شَرًّا أَهْلَكَ مَالَهُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ ». وقال[5] عبد الله بن عمر. مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال « مَا هَذَا ؟ » قلنا خص لنا قد وهي. فقال « أَرَى الأَمْرَ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ »

واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب، فقيل له. لو بنيت ؟ فقال هذا كثير لمن يموت

وقال الحسن. دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له لو أصلحته ؟ فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله

وقال النبي صلى الله عليه وسلم[6] « مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ

قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة ـ الحديث : ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوكف المسجد

(١) حديث أمر العباس ان يهدم علية له كان قد علاها : الطبراني من رواية أبي العالية ان العباس بني غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها ـ الحديث : وهو منقطع

(٢) حديث مر بجنبذة معلاة فقال لمن هذه فقالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه ـ الحديث : أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة ـ الحديث : والجنبذة القبة

(٣) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث : ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلا والطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عني أوسره ان ينظر إلي فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث : واسناده ضعيف

(٤) حديث اذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين : أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد خضر له في الطين واللبن حتى يبني

(٥) حديث عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا قد وهى ـ الحديث : أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه

(٦) حديث من بني فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة ان يحمله : الطبراني من حديث ابن مسعود باسناد فيه لين وانقطاع

الْقِيَامَةِ » وفى الخبر [١] « كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ »

وفى قوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا [١]) أنه الرياسة والتطاول فى البنيان

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] للرجل الذى شكا إليه ضيق منزله « اتَّسِعْ فِي السَّمَاءِ » أى فى الجنة . ونظر عمر رضي الله عنه فى طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص وآجر، فكبر وقال . ما كنت أظن أن يكون فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ [٢]) يعنى به الآجر

ويقال إن فرعون هو أول من بُني له بالجص والآجر ، وأول من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة . وهذا هو الزخرف

ورأى بعض السلف جامعا فى بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ، ثم رأيته مبنيا من رهص ، ثم رأيته الآن مبنيا باللبن ، فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن

وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه ، وقصر أمله ، وزهده فى إحكام البنيان . وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده . وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله

---

(١) حديث كل نفقة العبد يؤجر عليها الا ما أنفقه فى الماء والطين : ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت باسناد جيد بلفظ الا فى التراب أو قال فى البناء

(٢) حديث كل بناء وبال على صاحبه الا ما أكن من حر أو برد : أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ الا ما لا يعنى ما لا بد منه

(٣) حديث قال الرجل الذى شكى اليه ضيق منزله اتسع فى السماء : قال المصنف اى فى الجنة أبو داود فى المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال شكى خالد بن الوليد فذكره وقد وصله الطبرانى فقال عن اليسع ابن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد الا انه قال ارفع الى السماء واسأل الله السعة وفى اسناده لين

---

(١) القصص : ٨٣ (٢) القصص : ٣٨

صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف وقال عمرو بن دينار . إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك . إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال . لولا نظر الناس لما شيدوا ، فالنظر إليه معين عليه

وقال الفضيل: إنى لا أعجب ممن بنى وترك ، ولكنى أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتى قوم يرفعون الطين ، ويضعون الدين ، ويستعملون البرازين ، يصلون إلى قبلتكم ، ويموتون على غير دينكم

المهم الرابع :أثاث البيت . وللزهد فيه أيضا درجات: أعلاها: حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه ، وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز ، فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه ؛ فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه ، فرمى بالكوز. وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد لمقصود . فإذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات ، وهو الخزف فى كل ما يكفى فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به

وأوسطها :أن يكون له أثاث بقدر الحاجة ،صحيح فى نفسه،ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ، ويشرب فيها ،ويحفظ المتاع فيها . وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف

وأعلاها :أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس. فإن زاد فى العدد أو فى نفاسة الجنس ، خرج عن جميع أبواب الزهد ، وركن إلى طلب الفضول

ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقد قالت [1] عائشة رضي الله عنها . كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم ، حشوها ليف .

وقال الفضيل [2] : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ، ووسادة من أدم ، حشوها ليف

---

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف أبوداود والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط فى جنبه عليه السلام . فدمعت عينا عمر . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « مَاالَّذِي أَبْكَاكَ يَاابْنَ الْخَطَّابِ » قال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله ، وصفيه ، ورسوله ، نائم على سرير مرمول بالشريط . فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَا تَرْضَى يَاعُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ ؟ » قال بلى يارسول الله . قال « فَذَلِكَ كَذَلِكَ »

ودخل رجل على أبي ذر ، فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال ياأبا ذر ، ماأرى فى بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا . فقال إنه لابد من متاع مادمت ههنا . فقال إن صاحب المنزل لايدعنا فيه

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له : مامعك من الدنيا؟ فقال معي عصاى أتوكأ عليها ، وأقتل بها حية إن لقيتها . ومعي جرابى أحمل فيه طعامى . ومعي قصعتى آكل فيها ، وأغسل فيها رأسي وثوبي . ومعي مطهرتى أحمل فيها شرابى وطهورى للصلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى . فقال عمر . صدقت رحمك الله

(٢) وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها ، فرأى على باب منزلها سترا : وفى يديها قلبين من فضة . فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي . فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله أبو رافع . فقال « مِنْ أَجْلِ

الترمذى فى الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة وقدتقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقدتقدم قبله بعض طرفه

(١) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه ـ الحديث : متفق عليه من حديثه وقدتقدم

(٢) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع ـ الحديث: لم أره مجموعا ولأبى داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد انه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتى الباب فرأى القرام قدضرب فى ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلى أتظر فأرجعه ـ الحديث : والنسائى من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم وفى يدها فتخ من ذهب ـ الحديث : وفيه انه وجد فى يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدها سلسلة من نار وانه خرج ولم يقعد فامرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار

السِّتْرِ والسِّوارَيْنِ » فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت . قد تصدقت بهما ، فضعهما حيث ترى . فقال « اذْهَبْ فبِعْهُ وادْفعْهُ إلَى أهْلِ الصُّفَّةِ » فباع القلبين بدرهمين ونصف ، وتصدق بهما عليهم . فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال « بأَبِي أنْتِ قدْ أحْسَنْتِ » . [1] ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه وقال « كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أَرْسِلِي بِهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ »

[2] وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا ، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية . فما زال يتقلب ليلته . فلما أصبح قال لها « أَعِيدِي الْعَبَاءَةَ الْخَلَقَةَ وَنَحِّي هَذَا الْفِرَاشَ عَنِّي قَدْ أَسْهَرَنِي اللَّيْلَةَ »

وكذلك [3] أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا ، فبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضي الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ، ثم قال ، « ماظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ »

وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه

المهم الخامس : المنكح . وقد قال قائلون . لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال . قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء ، فكيف نزهد فيهن !

---

(١) حديث رأى على باب عائشة سترا فهتكه ـ الحديث : الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديثها

(٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية ـ الحديث : ابن حبان فى كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت الي بفراش حشوه صوف فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذا ـ الحديث : وفيه فأمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه عباد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل

(٣) حديث أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله ـ الحديث : وفيه ماظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده : أحمد من حديث عائشة باسناد حسن انه قال فى مرضه الذى مات فيه ياعائشة ما فعلت بالذهب فجاء مابين الخمسة الى الثمانية الى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ماظن محمد ـ الحديث : وزاد أنفقها وفى رواية سبعة أو تسعة دنانير وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم الوجه قالت فحسبت ذلك من وجع فقلت يانبي الله مالك ساهم الوجه فقال من أجل الدنانير السبعة التى أتتنا أمس أمسينا وهى فى خصم الفراش وفى رواية أمسينا ولم ننفقها

ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشر سرية

والصحيح ماقاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال : كل ماشغلك عن الله من أهل .ومال، وولد ، فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله

وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح : فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ،ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن ، والأنس بهن ، بحيث يشتغل عن ذكر الله ؛ فترك ذلك من الزهد . فإن علم أن المرأة لاتشغله عن ذكر الله ،ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر ، والمضاجعة ، والمواقعة ، فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات . واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لاتضره ، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء ، لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله

فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته ، من غير خوف آفة أخرى وهذا ماعناه سهل لامحالة . ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) ، في أنه لا يشغله كثرة النسوة ، ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر . ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء ! فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان . فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله . وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن ، أو جمال المرأة ، فلينكح واحدة غير جميلة ، وليراع قلبه في ذلك. قال أبو سليمان . الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة ، على المرأة الجميلة والشريفة،

---

(١) حديث كان لايشغله كثرة النسوة ولااشتغال القلب بإصلاحهن والانفاق عليهن : تقدم في النكاح

وقال الجنيد رحمه الله . أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بثلاث ، وإلا تغير حاله. التكسب ، وطلب الحديث ، والتزوج . وقال : أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه . فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل ، فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه

أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ، ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال . وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته ، وافتقر إلى من يخدمه، افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته . وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه ، وهذا له أول قريب ، ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع ، أو لدفع ضر ، أو لخلاص من ظلم

فأما النفع فيغني عنه المال . فإن من يخدم بأجرة يخدم ، وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر . وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة

وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ، ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم ، أو محل له عند السلطان . وقدر الحاجة فيه لا ينضبط ، لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب . والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا . فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار ، فكيف بين المسلمين ؟ فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب ، فهي أوهام كاذبة . إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال . فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذاً طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا . واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر ، فليحترز من قليله وكثيره

وأما المال: فهو ضروري في المعيشة . أعني القليل منه . فإن كان كسوبا، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب . كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام،

هذا شرط الزهد . فإن جاوز ذلك إلى مايكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين فى التوكل ، فأمسك منها مقدار مايكفى ريعه لسنة واحدة ، فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد ، بشرط أن يتصدق بكل مايفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد . فإن شرط التوكل فى الزهد كما شرطه أويس القرنى رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نعنى به أن ماوعد للزاهدين فى الدار الآخرة من المقامات المحمودة لاينالهم . وإلا فاسم الزهد قد لايفارقه بالإضافة إلى مازهد فيه من الفضول والكثرة .

وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لاينبغى أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد ، بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا ، وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء ، معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ، ولا يلزمه كل ذلك فى عياله . نعم لاينبغى أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة

فإذاً مايضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور . بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع . وما بينهما درجات متشابهة : فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر . وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر . والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره . فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه . ومن استبرأ لدينه ، وترك مايريبه إلى مالا يريبه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة ، فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لا محالة

والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز أن ينسب إلى الدنيا : بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين ، لأنه شرط الدين ، والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ماروي أن ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة : فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا ، فلم يقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه . لو سألت خليلك لأعطاك . فقال يارب ؛ عرفت مقتك للدنيا ، فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله تعالى إليه . ليس الحاجة من الدنيا فإذاً قدر الحاجة من الدين . وما وراء ذلك وبال فى الآخرة ، وهو فى الدنيا أيضا كذلك

يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء، وما عليهم من المحنة فى كسب المال وجمعه وحفظه، واحتمال الذل فيه وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداءه، وقد يستعينون به على المعصية، فيكون هو معينا لهم عليها

ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز، لا يزال ينسج على نفسه حيا، ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا، فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه. وكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه، حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال، والجاه، والأهل، والولد، وشماتة الأعداء، ومراآة الأصدقاء، وسائر حظوظ الدنيا. فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه، فقصد الخروج من الدنيا، لم يقدر عليه، ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها. ولو ترك محبوبا من محابه باختياره، كاد أن يكون قاتلا لنفسه، وساعيا فى هلاكه، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها، فهى تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة. فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار، ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين. والذى ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه، ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره. فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب، مخصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره

فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين، وجوار رب العالمين. فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى. وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ [١]) فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب. وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار. فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه! فنسأل الله تعالى أن يقرر أسماعنا [١] ما نفث فى روع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قيل له. أحبب من أحببت فإنك مفارقه

وفى معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر

---

(١) حديث نفث فى روعه أحبب من أحببت فانك مفارقه : تقدم

(١) التطفيف : ١٥

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه ، إهلاك دود القز نفسه ، رفضوا الدنيا بالكلية . حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر . كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء ، لو رأيتموهم قلتم مجانين . ولو رأوا أخياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق . ولو رأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد علي قلبي

فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده . والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ[1]) وقال عز وجل (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا[2]) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ[3]) فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم . ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك . فقال أخرج مالك والحقني . فقال لا أستطيع . فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغني الجنة . أو قال : بشدة

وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ، ملكان بالمشرق ، وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم بالمشرق . يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر أقصر . ويقول الآخر . اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت ، وابنوا للخراب . ويقول الآخر . كلوا وتمتعوا لطول الحساب

بيان

علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد . وليس كذلك . فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد . فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ، ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ، ونظرهم إليه ، ومدحهم له . فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا ،

---

(١) يونس : ٧ (٢) الكهف : ٢٨ (٣) النجم : ٢٩ ، ٣٠

حتى يكمل الزهـــد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا . بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة : والثياب الرفيعة ، كما قال الخوّاص فى وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ، ولبسوا الفاخر من اللباس ، يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ، لئلا ينظر إليهم بالعين التى ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا ، فيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم ، وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق ، وألجؤا إلى المضايق . وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين ، لم يعنوا بتصفية أسرارهم ، ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم ، فغلبتهم ، فادعوها حالا لهم فهم مائلون إلى الدنيا ، متبعون للهوى : فهذا كله كلام الخواص رحمه الله

فإذاً معرفة الزهد أمر مشكل . بل حال الزهـد على الزهد مشـكل . وينبغى أن يعول فى باطنه على ثلاث علامات

العلامة الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود . كما قال تعالى (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ [1]) بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك ، وهو أن يحزن بوجود المال ، ويفرح بفقده

العلامة الثانية : أن يستوي عنده ذامّه ومادحه . فالأوّل علامـة الزهـد فى المال والثانى علامة الزهـد فى الجـاه

العلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة . إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة . إما محبة الدنيا . وإما محبة الله . وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ، ولا يجتمعان . وكل من أنس بالله اشتغل به ، ولم يشتغل بغيره. ولذلك قيل لبعضهم . إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال . إلى الأنس بالله فأما الأنس بالدنيـا وبالله فلا يجتمعـان . وقد قال أهل المعرفة . إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا ، وعمل لهما . وإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره ، أبغض الدنيا ، فلم ينظر إليها ، ولم يعمل لها . ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام . اللهم إنى أسألك

(١) الحديد : ٢٣

إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس ، وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقـام العارفين . والزاهد لابد وأن يكون فى أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم . ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا.

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبى سليمان. أكان داود الطائى زاهدا ؟ قال نعم. قلت قد بلغنى أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا ، فأنفقها فى عشرين سنة ، فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ! فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ! وأراد بالحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد فى جميعها . فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه ، خوفا على قلبه وعلى دينه ، فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه. وآخره أن يترك كل ماسوى الله ، حتى لا يتوسد حجرا ، كما فعله المسيح عليه السلام .

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل، فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع فى غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذونٌ فيه ، وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ، فلا بعد فى أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال.

فإذاً علامة الزهد استواء الفقر والغنى ، والعز والذل، والمدح والذم . وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة، مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها.

وقيـل فلامته أن يترك الدنيـا كما هي ، فلا يقول أبنى رباطا أو أعمر مسجـدا.

وقال يحي بن معاذ : علامة الزهد ، السخاء بالموجود

وقال ابن خفيف : علامته ، وجود الراحة فى الخروج من الملك.

وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيـا بلا تـكلف

وقال أبو سليمان : الصوف علَم من أعلام الزهد ، فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم ، وفى قلبه رغبـــــــة خمسة دراهم

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد، قصر الأمل

وقال سرى: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه

وقال النصراباذى : الزاهد غريب فى الدنيـا ، والعـارف غريب فى الآخرة

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث . عمل بلا علاقة ،وقول بلاطمع ، وعز بلارياسة

وقال أيضا : الزاهد لله يسعطك الخل والخردل ،والعارف يشمك المسك والعنبر

وقال له رجل . متى أدخل حانوت التوكل ،وألبس رداء الزهد ،وأقعد مع الزهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك . فأما مالم تبلغ هذه الدرجة ، فجلوسك على بساط الزاهدين جهل . ثم لا آمن عليك أن تفتضح

وقال أيضا : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها ،والزاهد فيها يسخم وجهها، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها . والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها

وقال السرى : مارست كل شيء من أمر الزهد ، فنلت منـه ماأريد إلا الزهـد فى الناس ، فإنى لم أبلغه ولم أطقه

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيـا . وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا

فهذا ماأردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . وإذا كان الزهـد لايتم إلا بالتوكل ، فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى

كتاب التوحيد والتوكل

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الرافع للسماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد ، الذي صرف أعين ذوى القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ماعداه ، والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه ، علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا ينتهى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة إلا على الله رزقها . فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن ، وبه كفيل ، توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . والصلاة على محمد قامع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين . بل هو من معالى درجات المقربين . وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل . ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع . والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانغماس فى غمرة الجهل . وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد ، والنقل ، والشرع ، فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء ، الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا

ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى

بيان

فضيلة التوكل

أما من الآيات فقد قال تعالى (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [١]) وقال عزوجل (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [٢]) وقال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [٣]) وقال سبحانه وتعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [٤]) وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه . فمن الله تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقدفاز الفوز العظيم . فإن المحبوب لايعذب ، ولا يبعد ولا يحجب

وقال تعالى (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [٥]) فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل ، وهو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا [٦])

وقال عز وجل (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٧]) أى عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه ، والتجأ إلى ذمامه وحماه . وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .. وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ [٨]) بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ [٩]) وقال عز وجل (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ [١٠]) وقال عزوجل (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ [١١])

وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه [١] ابن مسعود « أُرِيتُ الْأُمَمَ فِى

(كتاب التوحيد والتوكل)

(١) حديث ابن مسعود اريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملؤا السهل والجبل ـ الحديث : رواه ابن منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس

---

(١) المائدة : ٢٣ (٢) ابراهيم : ١٢ (٣) الطلاق : ٣ (٤) آل عمران : ١٥٩ (٥) الزمر : ٣٦ (٦) الدهر : ١
(٧) الانفال : ٤٩ (٨) الأعراف : ١٩٤ (٩) العنكبوت : ١٧ (١٠) المنافقون : ٧ (١١) يونس : ٣

الْمَوْسِمِ فَرَأَيْتُ أُمَّتِي قَدْ مَلَؤُا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْأَتُهُمْ فَقِيلَ لِي أَرَضِيتَ؟ قُلْتُ نَعَمْ قِيلَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » قيل من هم يارسول الله ؟ قال « الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة وقال . يارسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ » فقام آخر فقال . يارسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا »

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا عِنْدَ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ »

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه [4] كان إذا أصاب أهله خصاصة قال « قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ » ويقول « بِهَذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا [1]) الآية

---

(١) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ـ الحديث : الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر وقدتقدم

(٢) حديث من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ـ الحديث : الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه ابراهيم بن الاشعث تكلم فيه أبو حاتم

(٣) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه : الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٤) حديث كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي قال تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها : الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزه عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام انما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه

---

(١) طه : ١٣٢

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنِ اسْتَرْقَى وَاكْتَوَى »

وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام ، وقد رمي إلى النار بالمنجنيق . ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا . وفاءً بقوله . حسبي الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [1])

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . ياداود مامن عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض ، إلا جعلت له مخرجا

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن جبير : لدغتني عقرب ، فأقسمت عليّ أمي لتسترقين فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ

وقرأ الخوّاص قوله تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ [2]) إلى آخرها فقال: ماينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى

وقيل لبعض العلماء في منامه . من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته

وقال بعض العلماء : لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك

وقال يحيي بن معاذ : في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد . وقال إبراهيم بن أدهم . سألت بعض الرهبان من أين تأكل ؟ فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرني أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب ، قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة

وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب

---

(١) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى : الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى والطبرانى واللفظ له الا أنه قال أو من حديث المغيرة بن شعبة وقال الترمذى من اكتوى أواسترقى فقد برئ من التوكل وقال النسائى ماتوكل من اكتوى أواسترقى

---

(١) النجم : ٣٧ (٢) الفرقان : ٥٨

بيان

حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان . وجميع أبواب الإيمان لاتنتظم إلا بعلم ، وحال ، وعمل . والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل

فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل ، وهو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوي سمي يقينا . ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، والإيمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك . له الملك . والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك . وله الحمد ، فمن قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، تمّ له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه ، غالبا عليه

فأما التوحيد فهو الأصل . والقول فيه يطول . وهو من علم المكاشفة . ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها . فإذاً لا نتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة . وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له فنقول :

للتوحيد أربع مراتب : وهو ينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب

فالرتبة الأولى : من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لاإله إلا الله ، وقلبه غافل عنه ، أو منكر له ، كتوحيد المنافقين

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام

والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار

والرابعة : أن لايرى فى الوجود إلا واحدا ، وهي مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لايرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا . وإذا لم ير نفسه

لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق

فالأول : موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان

والثانى : موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه ؛ وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفي عليه ، ولم تضعف بالمعاصى عقدته . ولهذا العقد حيلٌ يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة . وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ،ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب ، وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما . وهو فى مقابلة المبتدع ، ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام .وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لا تنحل عقدته

والثالث :موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا ، إذا انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا . وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العامي فى الاعتقاد ، بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة

والرابع : موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير ، بل من حيث إنه واحد . وهذه هي الغاية القصوى فى التوحيد

فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ،

وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها ، بل إن أكل فهو مرّ المذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك فى البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ، ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر والباطن . لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق

القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة . وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده . وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ، ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه . إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ [١]) وبقوله عزوجل (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [٢])

وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالإضافة إلى القشر ، وكله المقصود ، ولكنه لايخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين ، لكنه لايخلو عن شوب ملاحظة الغير ، والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لايشاهد سوى الواحد الحق

فإن قلت : كيف يتصور أن لايشاهد إلا واحدا ، وهو يشاهد السماء ، والأرض ، وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لايجوز أن تسطر فى كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر . ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة . نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار . وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه ، وجسده ، وأطرافه وعروقه ، وعظامه ، وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه إنسان واحد . فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد . وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه ، وعروقه ، وأطرافه ، وتفصيل روحه ، وجسده ، وأعضائه . والفرق بينهما أنه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق ، وكأنه فى عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة فى تفرقة

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الزمر : ٢٢

فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة. فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير. وبعضها أشد كثرة من بعض. ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض، ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا

ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه، وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك. كما أنك إذا آمنت بالنبوة، وإن لم تكن نبيا، كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك

وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر. والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج، حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال. فيماذا أنت؟ فقال أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل، وقد كان من المتوكلين، فقال الحسين. قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال

فإن قلت: فلابد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول.

أما الرابع: فلا يجوز الخوض في بيانه. وليس التوكل أيضا مبنيا عليه. بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول: وهو النفاق فواضح.

وأما الثاني: وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه

وأما الثالث: فهو الذي ينبني عليه التوكل. إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب

وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق، ورزق، وعطاء، ومنع، وحياة، وموت، وغنى، وفقر، إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل، لا شريك له فيه. وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره،

بل كان منه خوفك ، وإليه رجاؤك ، وبه ثقتك ، وعليه اتكالك . فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وماسواه مسخرون لااستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض . وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر

وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما : الالتفات إلى اختيار الحيوانات ، والثانى : الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم ، وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها . وهذا كله شرك فى التوحيد ، وجهل بحقائق الأمور . ولذلك قال تعالى (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [1]) قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا

ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم أن الريح هو الهواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذى لا محرك له ، ولا هو متحرك فى نفسه عزوجل . فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتحز رقبته ، فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول : لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه ، وإنما هو مسخر فى يد الكاتب ، لم يلتفت إليه ، ولم يشكر إلا الكاتب . بل ربما يدهشه فرح النجاة ، وشكر الملك والكاتب ، من أن يخطر بباله القلم ، والحبر ، والدواة . والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والمطر ، والغيم ، والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة ، كتسخير القلم فى يد الكاتب . بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع . والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب ، لقوله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ [2])

فإذا انكشف لك أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة

(١) العنكبوت : ٦٥ (٢) الأنفال : ١٧

الثانية ، وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات فى الأفعال الاختيارية ، ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك، وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك ، إن شاء حزّ رقبتك ، وإن شاء عفا عنك ، فكيف لاتخافه ، وكيف لاترجوه ، وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ ويقول له أيضا : نعم إن كنت لاترى القلم لأنه مسخر ، فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ؟

وعند هذا زل أقدام الأكثرين ، إلا عباد الله المخلصين ، الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا . وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد، فترى رأس القلم يسود الكاغد ! ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد ، فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها

فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ، ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف فى الطريق على الكاتب وهو جهل محض • بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض ! بقدرته التى بها نطق كل شىء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت، لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون . ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لا يجاوز الأصوات ، فإن الحمار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ، ولا هو عربي ولا عجمي

فإن قلت . فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ؟

فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر . وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى . فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ[١]) الآية. ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار . وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوجي بخفاياه ، فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سرّ لنا لما قال صلى الله عليه وسلم[١] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون . ولما[٢] نهى عن إفشاء سر القدر ولما قال[٣] « إِذَا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا » ولما[٤] خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار

فإذاً عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان

أحدهما : استحالة إفشاء السر

والثاني : خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ولكنا في المثال الذي كنّا فيه ، وهي حركة القلم ، نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات ، وإن لم تكن هي حروفا وأصواتا ، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه اسود وجهه بالحبر . مابال وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكاغد. ما أنصفتني في هذه المقالة ، فإني ما سودت وجهي بنفسي ، ولكن سل الحبر ، فإنه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا . فقال صدقت

فسأل الحبر عن ذلك فقال. ما أنصفتني ، فإني كنت في المحبرة وادعا ساكنا ، عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى عليّ القلم بطمعه الفاسد ، واختطفني من وطني ، وأجلاني عن بلادي

---

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث النهي عن افشاء سر القدر : ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره لفظ أبي نعيم وقال ابن عدي لا تكلموا في القدر فانه سر الله ـ الحديث : وهو ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث اذا ذكر النجوم فأمسكوا واذا ذكر القدر فأمسكوا ـ الحديث : الطبراني وابن حبان في الضعفاء وتقدم في العلم

(٤) حديث انه خص حذيفة ببعض الاسرار : تقدم

---

(١) الكهف : ١٩٠

وفرق جمعي، وبددني كما ترى على ســـــاحة بيضـاء ، فالسؤال عليه لا عليّ. فقال صدقت

ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه ، وإخراج الحبر من أوطانه . فقال . سل اليد والأصابع ، فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين ، فنحت عنى قشرى ، ومزقت عنى ثيابى ، واقتلعتنى من أصلى ، وفصلت بين أنابيبى ، ثم برتنى وشقت رأسى ، ثم غمستنى فى سواد الحبر ومرارته ، وهي تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى ، ولقد نـثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتنح عنى وسل من قهرنى . فقـال صدقت

ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد . ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم ، أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنمـا أنا مركب مسخر ، ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التى ترددنى وتجول بى فى نواحى الأرض. أما ترى المـدر ، والحجر ، والشجر ، لا يتعدى شيء منهـا مكانه . ولا يتحرك بنفسه، إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر ؟ أما ترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ؟ فأنا أيضا من حيث أنا لا معـاملة بينى وبين القـلم ، فسل القدرة عن شأنى ، فإنى مركب أزعجنى من ركبنى. فقال صدقت

ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد ، وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت دع عنك لومى ومعاتبتى ، فكم من لائم مـلوم ، وكم من ملوم لا ذنب له . وكيف خفي عليك أمرى ، وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لهـا راكبة قبل التحريك ؛ وما كنت أحركها ولا أستسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدومة ، لأنى ما كنت أتحرك ولا أحرك ، حتى جاءنى موكل أزعجنى وأرهقنى إلى ما تراه منى فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته . وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزعجنى من غمرة النوم ، وأرهقنى إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأيى. فقال صدقت

ثم سأل الإرادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى صرفتها إلى التحريك ، وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ؟ فقالت الإرادة : لا تعجل عليّ

فلعل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن أنهضت . وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم . وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل ، بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطرار . فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدرى بأي جرم وقفت عليه ، وسخرت له ، وألزمت طاعته . لكني أدرى أني في دعة وسكون مالم يرد علي هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا ، وألزمت طاعته إلزاما ، بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة . لعمرى مادام هو في التردد مع نفسه ، والتحير في حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه . فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه . فسل العلم عن شأني ، ودع عني عتابك فإني كما قال القائل

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت

وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ، ومعاتبا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة . فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت . وقال العلم : أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انخططت بنفسي . فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني فسل القلم عني ، لأن الخط لا يكون إلا بالقلم

فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب . وقال : قد طال تعبي في هذا الطريق ، وكثرت منازلي ، ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكني كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد ، وعذرا ظاهرا في دفع السؤال . فأما قولك إني خط ونقش ، وإنما خطني قلم فلست أفهمه ، فإني لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر . ولا سراجا إلا من النار . وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح ، والسراج ، والخط ، والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا . أسمع جعجعة ولا أرى طحنا . فقال له العلم : إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت

إليها كثيرة . فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك فادرج عنه ، فكل ميسر لما خلق له

وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق إلى المقصد ، فألق سمعك وأنت شهيد ، واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد ، والحبر ، والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة

والثانى : عالم الملكوت ، وهو ورائى . فإذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله ، وفيه المهامه ، والفيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المغرقة ، ولا أدرى كيف تسلم فيها

والثالث : وهو عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت . ولقد قطعت منها ثلاث منازل فى أوائلها ، منزل القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التى هي فى الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي فى حد اضطراب الماء ، ولا هي فى حد سكون الأرض وثباتها . وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى فى عالم الجبروت . فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع

فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الأرض ، وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى . وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب ، وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء . أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام « لَوِ ازْدَادَ يَقِينًا لَمَشَىَ عَلَى الْهَوَاء » لما [1] قيل له إنه كان يمشى على الماء

فقال السالك السائل . قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامه التى وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة؟

قال نعم . إفتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك ، وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم

(١) حديث قيل له ان عيسى يمشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء: تقدم

الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت ، كوشف بالقلم . أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم فى أول أمره كوشف بالقلم ، إذ أنزل عليه (إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (١))

فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته ، فو الله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك . فقال العلم . لقد أبعدت النجعة : أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ؟ أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدى ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط ؟ وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت . فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ، ولا هو فى مكان ، بخلاف غيره . ولا يده لحم وعظم ودم ، بخلاف الأيدى . ولا قلمه من قصب . ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه ، وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف فى يده ، وقلمه ، ولوحه ، وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا . وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ، ومقدسا فحلا ، واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ، لعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ (٢))

فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه و التنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور . فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك ، لعلك تجد على النار هدى . ففتح بصره

(١) العلق : ٣ ، ٤ ، ٥ (٢) طه : ١٢

فانكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ، ماهو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلب البشر كلهم أصناف العلوم . كان له في كل قلب رأسا ولا رأس له . فقضي منه العجب وقال . نعم الرفيق العلم ، فجزاه الله تعالى عني خيرا ، إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم فإني أراه قلما لا كالأقلام

فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال : قد طال مقامي عندك ، ومرادتي لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، وأسأله عن شأنه . فسافر إليه ، وقال له : مابالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ماتبعث به الإرادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات؟ فقال أو قد نسيت مارأيت في عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته ، فأحالك على اليد ؟ قال لم أنس ذلك . قال فجوابي مثل جوابه . قال كيف وأنت لا تشبهه ؟ قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك ، فإني في قبضته ، وهو الذي يرددني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة . فقال فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى (وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [1]) قال نعم . قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه ، هو الذي يرددها . فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ، ورأى من عجائبه مايزيد على عجائب القلم ، لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه . والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدي ، وأصبع لا كالأصابع . فرأى القلم محركا في قبضته . فظهر له عذر القلم . فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال : جوابي مثل ماسمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهي الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها في نفسها ، وإنما محركها القدرة لا محالة .

فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ماقبله ، وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة ، فاسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات

وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ [2]) فغشيته هيبة

(1) الزمر : ٦٧ (2) الأنبياء : ٢٣

الحضرة، نخر صعقا يضطرب في غشيته. فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك، تبت إليك، وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك، الجبار، الواحد. القهار، فلا أخاف غيرك، ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، ومالي إلا أن أسألك وأتضرع إليك، وأبتهل بين يديك فأقول. اشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأثني عليك

فنودي من وراء الحجاب. إياك أن تطمع في الثناء، وتزيد على سيد الأنبياء. بل ارجع إليه، فما آتاك فخذه، وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله لك فقله. فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال « سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » [1].

فقال إلهي إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك، فهل للقلب مطمع في معرفتك؟ فنودي: إياك أن تتخطى رقاب الصديقين، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به، فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم. أما سمعته يقول: العجز عن درك الإدراك إدراك؟ فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا

فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته، وقال لليمين، والقلم، والعلم، والإرادة، والقدرة، وما بعدها. اقبلوا عذري، فإني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد، ولكل داخل دهشة، فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن قد صح عندي عذركم، وانكشف لي أن المنفرد بالملك والملكوت، والعزة والجبروت، والواحد القهار، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته، وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن

فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك، وقيل له: كيف يكون هو الأول والآخر، وهما وصفان متناقضان؟ وكيف يكون هو الظاهر والباطن؟ فالأول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن. فقال: هو الأول بالإضافة إلى الموجودات، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد. وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه، فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر

---

(١) حديث سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك: تقدم

فهو آخر فى المشاهدة، أول فى الوجود

وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة ، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة ، النافذة فى عالم الملكوت . فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل ، أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

فإن قلت : فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه ينبنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟

فأقول أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له . إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم ، لأنها لا تدرك بالحواس الخمس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس

فإن قال : وأنا منهم ، فإنى لا أهتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ، ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم قالوا . ما نراه لا نثق به ، فلعلنا نراه فى المنام

فإن قال : وأنا من جملتهم ، فإنى شاك أيضا فى المحسوسات ، فيقال هذا شخص فسد مزاجه ، وامتنع علاجه ، فيترك أياما قلائل . وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء . هذا حكم الجاحد . وأما الذى لا يجحد ، ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت . فإن وجدوها صحيحة فى الأصل ، وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية ، اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها ، كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه

فإن كان غير قابل للعلاج ، فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد ، كلموه بحرف وصوت ، وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه ، فإن فى عالم الشهادة أيضا توحيدا ، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأميرين . فيقال له على حد عقله . إله العالم واحد ، والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فيكون ذلك على ذوق ما رآه

فى عالم الشهادة ؛ فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله. وقد كلف الله أن يكلموا الناس على قدر عقولهم . ولذلك نزل القرءان بلسان العرب على حد عاداتهم فى المحاورة

فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه؟

فأقول نعم . فإن الاعتقاد إذا قوي عملَ عملُ الكشف فى إثارة الأحوال . إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا. ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه ، أو من أبويه ، أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا ، وإن كان يزداد وضوحا . كما أن الذى يرى إنسانا فى وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ، ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته . وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري ، فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر ، لطول مشاهدتهم وتجربتهم ، رأوا من موسى عليه السلام ماجاوز حدود السحر ، وانكشف لهم حقيقة الأمر ، فلم يكترثوا بقول فرعون (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ [١]) بل (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [٢]) فإن البيان والكشف يمنع التغيير

وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى عجل السامري ، وسمعوا خواره ، تغيروا ، وسمعوا قوله (هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى [٣]) ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لامحالة إذا نظر إلى عجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة . والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى ، فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا

فإن قلت : ماذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا فى حركات الإنسان ، فانه يتحرك إن شاء ، يسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟

---

(١) طه : ٧١ (٢) طه : ٧٢ (٣) طه : ٨٨

فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط . ولكن علم أنه يفعل مايشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ ، فليست المشيئة إليه . إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى ، وتسلسل إلى غير نهاية . وإذا لم تكن المشيئة إليه ، فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ، ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة . فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة ، والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب ، فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض ، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ،ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ، ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر فى الجميع

فإن قلت : فهذا جبر محض ، والجبر يناقض الاختيار ،وأنت لاتنكر الاختيار، فكيف يكون مجبورا مختارا ؟

فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه فى عين الاختيار مجبور . فهو إذاً مجبور على الاختيار، فكيف يفهم هذا من لايفهم الاختيار ؟ فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا، يليق بما ذكر متطفلا وتابعا ، فإن هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة ولكنى أقول :

لفظ الفعل فى الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الإنسان يكتب بالأصابع ، ويتنفس بالرئة والحنجرة ، ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه . فينسب إليه الخرق فى الماء، والتنفس ، والكتابة ،وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ،ولكنها تختلف وراء ذلك فى أمور ، فأعرب لك عنها بثلاث عبارات : فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا . ونسمى تنفسه فعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا

والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى ، لأنه مهما وقف على وجه الماء ، أو تخطى من السطح للهواء ، انخرق الهواء لامحالة ، فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا

والتنفس فى معناه ، فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس ، كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن . فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده . وليس الثقل إليه، وكذلك الإرادة ليست إليه . ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ،ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر، مع ان تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادي ، ولكنه إذا

تمثل صورة الإبرة فى مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها . ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه ، مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا

وأما الثالث: وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس ، كالكتابة والنطق ، وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة يشاء وتارة لايشاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى الاختيار ، فلنكشف عنه

وبيانه أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك . والأشياء تنقسم إلى ماتحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ماقد يتردد العقل فيه . فالذى تقطع به من غير تردد ، أن يقصد عينك مثلا بإبرة ، أو بدنك بسيف ، فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق . فلا جرم تنبعث الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ، ولكن من غير روية وفكرة . ويكون ذلك بالإرادة

ومن الأشياء مايتوقف التمييز والعقل فيه ، فلا يدرى أنه موافق أم لا ، فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك . فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير ، التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر ، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان . فإذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخير ، أى هو انبعاث إلى ماظهر للعقل أنه خير ، وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر فى انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه ، إلا أن الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية ، بل على البديهة ، وهذا افتقر إلى الروية

فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة ، وهي التى انبعثت بإشارة العقل فيما له فى إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين ، وشر الشرين . ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل ، أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه ، لا لعدم القدرة فى اليد، ولا لعدم السكين، ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة ، وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس

بكون الفعل موافقا ، وقتله نفسه ليس موافقا له ، فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان فى عقوبة مؤلمة لا تطاق ،فإن العقل هنا يتوقف فى الحكم و يتردد ،لأن تردده بين شر الشرين ، فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه .وإن حكم بأن القتل أقل شرا ، وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه ، انبعث الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذى يُتْبَعُ بالسيف للقتل ، فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا ، وإن كان مهلكا ، ولا يبالى ، ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه . فإن كان يتبع بضرب خفيف ، فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي ، فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ،ولا تنبعث له داعية ألبتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدرى ، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلا ولا

فإذاً معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا. وحدث الحكم أيضا جبرا ، فإذا هو مجبور على الاختيار. ففعل النار فى الإحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض . وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين،فإنه جبر على الاختيار، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة! لأنه لما كان فنّا ثالثا، واتبعوا فيه بكتاب الله تعالى ،فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار ، بل هو جامع بينهما عند من فهمه

وفعل الله تعالى يسمى اختيارا ،بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد،فإن ذلك فى حقه محال . وجميع الألفاظ المذكورة فى اللغات لا يمكن أن تستعمل فى حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ،وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ، ويطول القول فيه

فإن قلت :فهل تقول إن العلم ولد الإرادة .والإرادة ولدت القدرة ،والقدرة ولدت الحركة وإن كل متؤخر حدث من المتقدم ؟ فأن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى . وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض ؟

فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ،سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الأزلية .وهو الأصل الذى لم يقف

كافة الخلق عليه إلا الراسخون فى العلم ، فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا ، وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول . ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط ، فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ، ولا علم إلا بعد حياة ، ولا حياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة ، فكذلك فى سائر درجات الترتيب . ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة ، وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق . وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم وكذلك جميع أفعال الله تعالى . ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [1]) وقوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [2])

فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب ، وحق لازم ، لا يتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذى وجد . فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه ؛ والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لا يوصف بكونه مقدورا . فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم . وكل ذلك منهاج الواجب ، وترتيب الحق ، ليس فى شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتدبير

وتفهيم ذلك عسير ، ولكنا نضرب لتوقف المقدور ، مع وجود القدرة ، على وجود الشرط مثالا يقرب مبادىء الحق من الأفهام الضعيفة . وذلك بأن تقدر إنسانا محدثا قد انغمس فى الماء إلى رقبته ؛ فالحدث لا يرتفع عن أعضائه ، وإن كان الماء هو الرافع ، وهو ملاق له . فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور ، كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط ؟ وهو غسل الوجه . فإذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء ، عمل الماء فى سائر أعضائه ، وارتفع الحدث . فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه ، لأنه حدث عقيبه

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) الحجر : ٨٥ ، ٧٦

إذ يقول : كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا ، والماء لم يتغير عما كان ، فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل ! بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذاً غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين . وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة ، والإرادة بالعلم . وكل ذلك خطأ . بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها ، لا بغسل الوجه . والماء لم يتغير ، واليد لم تتغير ، ولم يحدث فيهما شيء . ولكن حدث وجود الشرط ، فظهر أثر العلة

فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية ، مع أن القدرة قديمة ، والمقدورات حادثة . وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ؛ فلنترك جميع ذلك ، فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد ، فهو المخوف والمرجو ، وعليه التوكل والاعتماد . ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد . واستيفاء ذلك في عمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه . وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم ، فكيف عند غيرهم

فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ، فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ، وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ، ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟

فأقول : نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد . وإن كان له معنيان ، ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض . كما يقال قتل الأمير فلانا ، ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر . فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر . فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة ؛ بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة ، وارتباط المخترع بالمخترع ،

وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدر قيسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا . لأن القتل ارتبط بقدرتهما ، ولكن على وجهين مختلفين . فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين

ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال فى القرءان مرة إلى الملائكة ، ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه . فقال تعالى فى الموت (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ [1]) ثم قال عز وجل (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا [2]) وقال تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ [3]) أضاف إلينا ثم قال تعالى (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا [4]) وقال عز وجل (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [5]) ثم قال تعالى (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا [6]) وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ [7]) قيل فى التفسير معناه إذ قرأه عليك جبريل . وقال تعالى (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ [8]) فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين القتل . بل صرح وقال تعالى (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ [9]) وقال تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى [10]) وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ، ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذى يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذى يكون العبد به راميا، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى (الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [11]) ثم قال (الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ [12]) وقال (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [13]) وقال (إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [14]) وقال (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ [15])

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى [1] وصف ملك الأرحام إنه « يَدْخُلُ الرَّحِم

---

(١) حديث وصف ملك الارحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا ـ الحديث: البزار وابن عدى من حديث عائشة ان الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا ـ الحديث : وفى آخره فما من شىء الا وهو يخلق معه فى الرحم وفى سنده جهالة وقال ابن عدى انه منكر وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه

---

(١) السجده : ١١ (٢) الزمر : ٤٢ (٣) الوقعة: ٦٣ (٤) عبس : ٢٥ ـ ٢٨ (٥) مريم : ١٧ (٦) التحريم: ١٢
(٧) القيامه: ١٨ (٨) التوبة: ١٤ (٩، ١٠) الأنفال. ١٧ (١١) العلق: ٤، ٥ (١٢، ١٣) الرحمن : ١، ٢
(١٤) القيامه : ١٩ (١٥) الواقعه : ٥٨ ، ٥٩

فَيَأْخُذُ النُّطْفَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ يُصَوِّرُهَا جَسَداً فَيَقُولُ يَارَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى أَسَوِيٌّ أَمْ مُعْوَجٌّ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاشَاءَ وَيَخْلُقُ الْمَلَكُ » وفي لفظ آخر « وَيُصَوِّرُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ »

وقد قال بعض السلف : إن الملك الذي يقال له الروح ، هو الذي يولج الأرواح في الأجساد وأنه يتنفس بوصفه ، فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ، ولذلك سمي روحا . وماذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق ، شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل، والحكم به دون النقل تخمين مجرد

وكذلك ذكر الله تعالى في القرءان من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [(١)]) وقال (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ [(٢)]) فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا. بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي : وهو معنى قوله تعالى (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [(٣)])

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين . ففي الخبر [(١)] « أَنَّ مَلَكَيِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ تَنَاظَرَا فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ أَنَا أُمِيتُ الْأَحْيَاءَ وَقَالَ مَلَكُ الْحَيَاةِ أَنَا أُحْيِي الْمَوْتَى فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمَا. كُونَا عَلَى عَمَلِكُمَا وَمَاسُخِّرْتُمَا لَهُ مِنَ الصُّنْعِ وَأَنَا الْمُمِيتُ وَالْمُحْيِي لَايُمِيتُ وَلَا يُحْيِي سِوَايَ »

فإذاً الفعل يستعمل على وجوه مختلفة ، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت . ولذلك [(٢)] قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة « خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ » أضاف الإتيان

---

(١) حديث ان ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا أحي الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لو لم تأتها لأتتك : ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح

(١ ، ٣) فصلت : ٥٣ (٢) آل عمران : ١٨

إليه وإلى الثمرة، ومعلوم أن الثمرة لاتأتى على الوجه الذى يأتى الإنسان إليها. وكذلك لما قال التائب[1] أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد. فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ »

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة. ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير فى كلامه . وللتجوّز وجه ، كما أن للحقيقة وجها . واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق ، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز ، مثل نسبة القتل إلى الأمير، فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد . فلما انكشف الحق لأهله ، عرفوا أن الأمر بالعكس ، وقالوا إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوي المخترع ، فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ، ولغيره بالمجاز ، أي تتجوّز به عما وضعه اللغوي له . ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً ، صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال[2] « أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ قَوْلُ لَبِيدٍ » : أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ

أي كل مالا قوام له بنفسه ، وإنما قوامه بغيره ، فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيّته وحقيقته بغيره لا بنفسه

فإذاً لا حق بالحقيقة إلا الحي القيوم، الذى ليس كمثله شيء، فإنه قائم بذاته، وكل ماسواه قائم بقدرته فهو الحق، وماسواه باطل. ولذلك قال سهل : يامسكين، كان ولم تكن ،ويكون ولا تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا ، كن الآن كما لم تكن ، فإنه اليوم كما كان

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الكل جبر ، فما معنى الثواب ، والعقاب ، والغضب ، والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه فى كتاب الشكر فلا نطول بإعادته . فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل . ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل ، وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل

---

(١) حديث انه قال للذى قال أتوب إلى الله ولا أتوب الى محمد عرف الحق لأهله : تقدم فى الزكاة

(٢) حديث أصدق بيت قاله العرب بيت لبيد : ألا كل شئ ماخلا الله باطل : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب.

وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان ؛ وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه ، وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ،أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ماتحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات ، حتى اطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم ؛ مع التعاون والتظاهر عليه، أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ، ولا أن يخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض ، أو عيب ، أو نقص ، أو فقر ، أو ضر عمن بلي به ، ولا أن يزال صحة ، أو كمال ، أو غنى ، أو نفع ، عمن أنعم الله به عليه ، بل كل ماخلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر ، وطولوا فيها النظر ، مارأوا فيها من تفاوت ولا فطور . . وكل ماقسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل : وسرور وحزن ، وعجز وقدرة ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ماينبغي ، وكما ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي : وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ، ولا أتم ، ولا أكمل . ولو كان ، وادخره مع القدرة ، ولم يتفضل بفعله . لكان بخلا يناقض الجود ، وظلما يناقض العدل، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية. بل كل فقر وضر في الدنيا، فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة . وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص ، فهو نعيم بالإضافة إلى غيره . إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة

وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم ، وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران ، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل. ومالم يخلق الناقص لا يعرف الكامل.

ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا

وكما أن قطع اليد إذا تآكلت إبقاء على الروح عدل ، لأنه فداء كامل بناقص ، فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لا جور فيه ، وحق لا لعب فيه . وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق ، واسع الأطراف ، مضطرب الأمواج ، قريب في السعة من بحر التوحيد ، فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضي به ، وقد كان ماقضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

الشطر الثاني

من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ماقاله الشيوخ في حد التوكل ، وبيان التوكل في الكسب المنفرد والمعيل ، وبيان التوكل بترك الادخار ، وبيان التوكل في دفع المضار ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره ، والله الموفق برحمته

بيان

حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله ، والعمل ثمرته . وقد أكثر الخائضون في بيان حد التوكل ، واختلفت عباراتهم . وتكلم كل واحد عن مقام نفسه ، وأخبر عن حده ، كما جرت عادة أهل التصوف به . ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف

الغطاء عنه ونقول : . التوكل مشتق من الوكالة . يقال وكل أمره إلى فلان ، أى فوضه إليه، واعتمد عليه فيه. ويسمى الموكول إليه وكيلا ، ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ، ومتوكلا عليه ، مهما اطمأنت إليه نفسه ، ووثق به ، ولم يتهمه فيه بتقصير، ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثلا فنقول:

من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس ، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس ، لم يكن متوكلا عليه ، ولا واثقا به ، ولا مطمئن النفس بتوكيله ، إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة

أما الهداية : فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلا

وأما القدرة والقوة : فليستجرىء على التصريح بالحق فلا يداهن ، ولا يخاف ، ولا يستحى ، ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف ، أو الجبن ، أو الحياء ، أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به

وأما الفصاحة: فهي أيضا من القدرة، إلا أنها قدرة فى اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه ، وأشار إليه ، فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس

وأما منتهى الشفقة ، فيكون باعثا له على بذل كل ما يقدر عليه فى حقه من المجهود ، فإن قدرته لا تغنى دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ، ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك . فإن كان شاكا فى هذه الأربعة ، أو فى واحدة منها ، أو جوز أن يكون خصمه فى هذه الأربعة أكمل منه ، لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزعج القلب ، مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله ، وسطوة خصمه. ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه . والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر ، إلى أن ينتهى إلى اليقين الذى لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل ؛ وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية . وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة

والتجربة ، وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا ، وأقواهم بيانا ، وأقدرهم على [illegible] ، بل على تصوير الحق بالباطل ، والباطل بالحق .

فإذا عرفت التوكل فى هذا المثال ، فقس عليه التوكل على الله تعالى . فإن ثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم ، أنه لافاعل إلا الله كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لامحالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله ، كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة

فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه . فإن القلب قد ينزعج تبعا للوهم ، وطاعة له ، عن غير نقصان فى اليقين . فإن من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ، ربما نفر طبعه ، وتعذر عليه تناوله . ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الميت فى قبر ، أو فراش ، أو بيت ، نفر طبعه عن ذلك ، وإن كان متيقنا بكونه ميتا ، وأنه جماد فى الحال ، وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لايحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرا عليه ، كما أنها مطردة بأن لايقلب القلم الذى فى يده حية ، ولا يقلب السنور أسدا وإن كان قادرا عليه . ومع أنه لايشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش ، أو الميت معه فى البيت ، ولا ينفر عن سائر الجمادات . وذلك جبن فى القلب ، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضا ، حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه

فإذاً لايتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . فالسكون فى القلب شيء ، واليقين شيء آخر . فكم من يقين لاطمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام (أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [1])

---

(1) البقرة ٢٦٠

فالنفس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت فى خياله ، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به . ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون فى البداية أصلا . وكم من مطمئن لا يقين له ، كسائر أرباب الملل والمذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهم أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه . فإذاً الجبن والجراءة غرائز ، ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب . وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى . وقد قيل مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته إنسان مثله . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنِ اسْتَعَزَّ بِالْعَبِيدِ أَذَلَّهُ اللهُ تَعَالَى »

وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلا ، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات : الدرجة الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى ; والثقة بكفالته وعنايته ، كحاله فى الثقة بالوكيل

الثانية : وهي أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه . فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها . فإذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها . وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه ، فإنها مفزعه . فإنه قد وثق بكفالتها ، وكفايتها ، وشفقتها ، ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذى له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ، ولا على إحضاره مفصلا فى ذهنه . ولكن كل ذلك وراء الإدراك . فمن كان باله إلى الله عز وجل ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلا حقا . فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد فني فى توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته

---

(١) حديث من اعتز بالعبيد أذله الله : العقيلي فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر أورده العقيلي فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخالف فى روايته

بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه .وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب ، وليس فانيا عن توكله ، لأن له التفاتا إلى توكله وشعوره به .وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ماأدناه؟ قال : ترك الأماني، قيل وأوسطه ؟ قال: ترك الاختيار .وهو إشارة إلى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال: لايعرفه إلا من بلغ أوسطه

الثالثة : وهي أعلاها ، أن يكون بين يدي الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، لايفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يدُ الغاسل الميت وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا ، فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ،ويفارق الصبي ، فإن الصبي يفزع إلى أمه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها . بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه ، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه. وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل . فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء، وبغير الاستحقاق، والمقام الثانى لايقتضى ترك الدعاء والسؤال منه ، وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها

فاعلم أن ذلك ليس بمحال ، ولكنه عزيز نادر . والمقام الثانى والثالث أعزها . والأول أقرب إلى الإمكان . ثم إذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لايكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجل . فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع ، وانقباضه عارض . كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع،وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن ، حتى تنمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة . فإن البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة، وذلك لايدوم .وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لايدوم . وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم ، فإنه قد يدوم يوما ويومين . والأول يشبه صفرة مريض

استحكم مرضه ، فلا يبعد أن يدوم ، ولا يبعد أن يزول . فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب فى هذه الأحوال ؟ . فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأسا مادامت الحالة باقية . بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثانى ينفى كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل فى التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لا ينفى أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفى بعض التدبيرات، كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به؛ أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته . فأما الذى يعرفه بإشارته بأن يقول له : لست أتكلم إلا فى حضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته فى إظهار الحجة ، ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له ، إذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له فى قوله لما حضر بقوله . وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلا عليه أن يكون معوّلا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها ، وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته

فإذاً لا يستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى إحضار السجل .ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصا فى توكله ، فكيف يكون فعله نقصا فيه ! نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته، وقعد ناظر إلى محاجته ،فقد ينتهى إلى المقام الثانى والثالث فى حضوره، حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته ، إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه إلى حوله وقوته فى الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته، فلم يبق إلا الطمأنينة النفس والثقة بالوكيل ، والانتظار لما يجرى . وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال فى التوكل ،وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل، وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضا مع التوكل ، بل هو على الانقسام ، وسيأتى تفصيله فى الأعمال

فإذاً فزعُ المتوكل إلى حوله وقوته فى الحضور والإحضار لا يناقض التوكل ، لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلا وتعبا محضا بلا جدوى . فإذاً لا يصير مفيدا من حيث إنه حوله وقوته ،بل من حيث أن الوكيل جعله معتمدا لمحاجته ،وعرّفه ذلك بإشارته

وسنته .فإذاً لاحول ولا قوة إلا بالوكيل . إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها فى حق الوكيل؛ لأنه ليس خالقا حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين فى أنفسهما، ولم يكونا مفيدين لولا فعله. وإنما يصدق ذلك فى حق الوكيل الحق ، وهو الله تعالى ، إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق فى التوحيد، وهو الذى جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد

فإذاً لاحول ولاقوة إلا بالله حقا وصدقا .فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذى وردت به الأخبار [١] فيمن يقول لاحول ولاقوة إلا بالله . وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان ،وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيهات ! فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التى ذكرناها فى التوحيد .ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى. إذ فى هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط ،وهما الحول والقوة .وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه. فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا.

وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات. وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد، كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح فى بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان فى بعض المواضع ، والمراد به المقيد بالعمل الصالح

فالملك لا ينال بالحديث ، وحركة اللسان حديث ،وعقد القلب أيضا حديث ، ولكنه حديث نفس . وإنما الصدق والإخلاص وراءهما . ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم فى الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهى إلى الملك . أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر فى سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ [١])

---

(١) أحاديث ثواب قول لاحول ولاقوة إلا بالله : تقدمت فى الدعوات

(٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة :الطبرانى من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(١) الواقعة : ١٥ ، ١٦

ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر الماء، والظل ، والفواكه ، والأشجار ، والحور العين وكل ذلك من لذات المنظور ، والمشروب ، والمأكول ، والمنكوح . ويتصور ذلك للبهائم على الدوام . وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ! ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ، ولما رفعت عليها درجة الملائكة

أفترى أن أحوال البهائم وهي مسيبة فى الرياض ، متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات ، متمتعة بالنزوان والسفاد ، أعلى وألذ وأشرف ؛ وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة فى سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين فى أعلى عليين ؟ هيهات هيهات ، ماأبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون فى درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام

وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه ، وأن النفس التى نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالأساكفة أشبه فى جوهره منه بالكتاب . وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة . وهؤلاء هم الذين يقال فيهم (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ[1]) وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس فى قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان ففى قوته ذلك ، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال

وإذ كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود ، فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ، ومعنى قول لاحول ولاقوة إلا بالله ، وأن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل . فإن قلت : ليس فى قولك لاحول ولاقوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله ؛ فلو قال قائل: السماء والأرض خلق الله ، فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟

فأقول: لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ، ولا مساواة بين الدرجتين . ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة ، إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا فليست الأمور بعظم الأشخاص . بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة

---

(١) الأعراف : ١٧٩

الآدميين ، بل هما من خلق الله تعالى . فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة، وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر فى الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره،فهي مهلكة مخطرة ، ومزلة عظيمة ، هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا ، وهو شرك فى التوحيد : وإثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إيّاه فقد علت رتبته ، وعظمت درجته . فهو الذى يصدق قول :لاحول ولا قوّة إلا بالله . وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد إلا عقبتان : إحداهما النظر إلى السماء والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والغيم ، والمطر ، وسائر الجمادات ، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات ، وهي أعظم العقبتين وأخطرهما ، وبقطعهما كمالُ سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة ، أعنى ثواب المشاهدة التى هذه الكلمة ترجمتها

فإذاً رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوّة ، والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى

بيان

ما قاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أن شيئا منها لايخرج عما ذكرنا ، ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى الديلى : قلت لأبى يزيد ماالتوكل ؟ فقال ماتقول أنت ؟ قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ، ماتحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد . نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ، وأهل النار فى النار يعذبون ، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل . فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجلّ أحوال التوكل ، وهو المقام الثالث . وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعزّ أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل ، وهو العلم بالحكمة ، وأن مافعله الله تعالى فعله بالواجب ، فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة . وهذا أغمض أنواع العلم،ووراءه سر القدر ،وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيّات شرطا فى المقام الأوّل من التوكل فقد احترز [1] أبو بكر

(١) حديث ان أبا بكر سد منافذ الحيات فى الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم: تقدم

رضي الله عنه في الغـــار إذ سد منافذ الحيات ، إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه . وللنظر في هذا مجال ولـكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لايناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيّات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيّـات ، إذ لاحول للحيّات ولا قوّة لها إلا بالله . فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوّته في الاحتراز ، بل على خالق الحول والقوّة والتدبير . وسئل ذو النون المصرى عن التوكل فقـال : خلع الأرباب ، وقطع الأسباب . فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال ، وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه . فقيل له زدنا . فقال . إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية . وهذا إشـارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم ، وعليك دانق دين ، لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك . ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء ، لاتيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك . وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن في المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقـال : التعلق بالله تعالى في كل حال . فقال السائل زدني . فقال . ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالأوّل عام للمقامات الثلاث ، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثـل توكل ابراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال أمّا إليك فلا . إذ كان سؤاله سببا يفضي إلى سبب ، وهو حفظ جبريل له . فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك . وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره . وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلاسكون ، وسكون بلا اضطراب . ولعله يشير إلى المقام الثاني . فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلاسكون إشارة إلى فزعه إليه . وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب

الطفل بيديه إلى أمه ، وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلّم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد . ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك . وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكرناه ، فلا نطول بها ، فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل . فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه

بيان

أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال ، والحال يثمر الأعمال . وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال . فإن ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ! بل نكشف الغطاء عنه ونقول :

إنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ؛ أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة ، وهو جلب النافع ، أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه . فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع . الفن الأول : فى جلب النافع فنقول فيه : الأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به . وذلك مثل الأسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف . كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك ، وأنت جائع محتاج ، ولكنك لست تمد إليه اليد وتقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه سعي وحركة ،

وكذلك مضغه بالأسنان، وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض، وليس من التوكل فى شيء . فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله تعالى . وكذلك لو لم تزرع الأرض، وطمعت فى أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام ، فكل ذلك جنون . وأمثال هذا ممايكثر ولا يمكن إحصاؤه . فليس التوكل فى هذا المقام بالعمل ، بل بالحال، والعلم

أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام ، واليد ، والأسنان ، وقوة الحركة ، وأنه هو الذى يطعمك ويسقيك . وأما الحال : فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام . وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وتفلج! وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك فى الحال ما يزيل عقلك ، ويبطل قوة حركتك وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه، أو يبعث حية تزعجك عن مكانك ، وتفرق بينك وبين طعامك ! وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى ،فبذلك فلتفرح ،وعليه فلتعول. فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متوكل

الدرجة الثانية : الأسباب التى ليست متيقنة، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا . كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التي لا يطرقها الناس إلا نادرا ، ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا فى التوكل . بل استصحاب الزاد فى البوادى سنة الأولين ،ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق . ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل، ولذلك كان يفعله الخواص . فإن قلت :فهذا سعي فى الهلاك وإلقاء النفس فى التهلكة

فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما :أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها ، وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر ،وتعذر فى ذكر الله تعالى . والثانى :أن يكون بحيث يقوى على التقوت الحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة . فبعد هذين الشرطين لا يخلو فى غالب الأمر

فى البوادى فى كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي، أو ينتهى إلى حلة، أو قرية، أو إلى حشيش يجتزى به، فيحيا به مجاهدا نفسه. والمجاهدة عماد التوكل. وعلى هذا كان يعول الخوّاص ونظراؤه من المتوكلين

والدليل عليه أن الخوّاص كان لا تفارقه الإبرة، والمقراض، والحبل، والركوة ويقول: هذا لا يقدح فى التوكل. وسببه أنه علم أن البوادى لا يكون الماء فيها على وجه الأرض. وماجرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو فى البوادى كما يغلب وجود الحشيش. والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات، ولعطشه فى كل يوم أو يومين مرة، فإن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام. وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة فى البوادى غالبا عند كل صلاة، ولا يقوم مقامهما فى الخياطة والقطع شيء مما يوجد فى البوادى. فكل ما فى معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية، لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به، لأنه يحتمل أن لا يتخرق الثوب، أو يعطيه إنسان ثوبا، أو يجد على رأس البئر من يسقيه. ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه. فبين الدرجتين فرقان، ولكن الثانى فى معنى الأول

ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش، ولا يطرقه طارق فيه، وجلس متوكلا، فهو آثم به، ساع فى هلاك نفسه. كما روي أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام فى سفح جبل سبعا وقال: لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتينى ربى برزق. فقعد سبعا، فكاد يموت ولم يأته رزق. فقال: يارب إن أحييتنى فائتنى برزقى الذى قسمت لى، وإلا فاقبضنى إليك. فأوحى الله جل ذكره إليه: وعزتى لا رزقتك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس. فدخل المصر وقعد، فجاءه هذا بطعام، وهذا بشراب، فأكل وشرب، وأوجس فى نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا. أما علمت أنى أن أرزق عبدى بأيدى عبادى أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتى. فإذاً التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة، وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل، كما ضربناه مثلا فى الوكيل بالخصومة من قبل. ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فإن قلت فما قولك فى القعود فى البلد

بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام . وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان مشغول القلب بالله ، غير مستشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله ، فهو أفضل . وهو من مقامات التوكل . وهو أن يشتغل بالله تعالى ، ولا يهتم برزقه ، فإن الرزق يأتيه لا محالة . وعند هذا يصح ماقاله بعض العلماء ، وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه ، كما لو هرب من الموت لأدركه . وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ، ولقال له ياجاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ! . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى .

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً وَلَزَالَتْ بِدُعَائِكُمُ الْجِبَالُ »

وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله تعالى يرزقها يوما بيوم . فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق

وقال أبو يعقوب السوسي . المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم، وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم . العبيد كلهم في رزق الله تعالى ، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، و بعضهم بتعب وانتظار كالتجار ، و بعضهم بامتهان كالصناع و بعضهم بعز كالصوفية ، يشهدون العزيز ، فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة

---

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله ـ الحديث : وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدما قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلا دون قوله لمشيتم على البحور وقال حماما منقطع

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه . وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم . أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح . فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب . فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل . وهذا مثل الأسباب التى نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضار ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ، ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ، ولا يأخذون من أحد شيئا ، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب . وأمثال هذه الأسباب التى يوثق بها فى المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها

وقال سهل فى التوكل : إنه ترك التدبير . وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإنما حجابهم بتدبيرهم . ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر ، فهي التى تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية . فإذاً قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل ، وإلى ما لا يخرج . وأن الذى يخرج ينقسم إلى مقطوع به ، وإلى مظنون . وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه ، وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا . والمتوكلون فى ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات

الأول : مقام الخوّاص ونظرائه ، وهو الذى يدور فى البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر أسبوعا ومافوقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك . فإن الذى يحمل الزاد قد يفقد زاده ، أو يضل بعيره ، ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد ، كما أنه يمكن مع فقده

المقام الثانى : أن يقعد فى بيته أو فى مسجد . ولكنه فى القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأوّل ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معوّل على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود فى الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة . إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره

إلى الذي يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم

المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعي لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته ، وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة . بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يري كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ، وإلى ماذا يميل ، وبم يحكم

ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله ، أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب ، وبقلبه عنه منقطع . فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته

والدليل على أن الكسب لا ينافى حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط، وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق ، أن الصديق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذ الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ، ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ! فقال لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع. حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم ، وتطييب قلوبهم ، واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى . ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل . فمن أولى بهذا المقام منه ! فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي ، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته ، والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب ، وبشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار ، وتفاخر ، وادخار ، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره . فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها. ولا يصح التوكل إلا مع الزهد فى الدنيا . نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد

وقال أبو جعفر الحداد : وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما ، وكان من المتوكلين . أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق . كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه

دانقاء ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته ، وكان يقول أستحي أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى . واعلم أن الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل . فإن لم يكن معلوم ووقف ، وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ، ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب . وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى فى توكلهم . لكنه بعد اشتهار القوم بذلك ، فقد صار لهم سوقا ، فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق

فإن قلت : فما الأفضل أن يقعد فى بيته أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر ، وذكر ، وإخلاص ، واستغراق وقت بالعبادة ، وكان الكسب يشوش عليه ذلك ، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا ، بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى ، فالقعود له أولى . وإن كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى ، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب ، وتركه أهم من ترك الكسب . وماكان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم ، كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه ، فرده فلما ولى قال له أحمد . الحقه وأعطه فإنه يقبل . فلحقه وأعطاه فأخذه . فسأل أحمد من ذلك فقال . كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ

وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد فى العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخوّاص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه فى أسفاره . رأيت الخضر ورضي بصحبتى ، ولكنى فارقته خيفة أن تسكن نفسى إليه فيكون نقصا فى توكلى . فإذاً المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فإن قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول : علامته أنه إن سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه فى السكون قبله وبعده واحدا . فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده . ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه . وكان بشر يعمل المغازل فتركها ، وذلك لأن البعادى كاتبه قال : بلغنى أنك

استعنت على رزقك بالمغازل ، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك ، الرزق على مَنْ ؟ فوقع ذلك فى قلبه، فأخرج آلة المغازل من يده وتركها . وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها. وقيل فعل ذلك لما مات عياله، كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها ، فلما مات عياله فرقها

فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها ، وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له ، فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه ، وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خير له فى الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك ، من غير تقصير من جهته فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها . ففى الخبر[1] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيَهُمُّ مِنَ ٱللَّيْلِ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ ٱلتِّجَارَةِ مِمَّا لَوْ فَعَلَهُ لَكَانَ فِيهِ هَلاَكُهُ فَيَنْظُرُ ٱللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ فَيَصْرِفُهُ عَنْهُ فَيُصْبِحُ كَئِيباً حَزِيناً يَتَطَيَّرُ بِجَارِهِ وَٱبْنِ عَمِّهِ مَنْ سَبَقَنِي مَنْ دَهَانِي وَمَا هِيَ إِلاَّ رَحْمَةُ رَحِمَهُ ٱللهُ بِهَا » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنى لا أدرى أيهما خير لى . ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى : لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك ، فإنى ما شممت منه رائحة . هذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة، ولكنه قال ما أدركته . ولعله أراد إدراك أقصاه

وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله . ولا رازق سواه ، وأن كل ما يقدره على العبد من فقر ،وغنى، وموت ، وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد ،لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق . وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة: التوكل مقام مفهوم، ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين .ولذلك قال سهل: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة . ومن طعن على

---

(١) حديث ان العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله اليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف جدا نحوه الا انه قال ان العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا ـ الحديث بنحوه

ترك التكسب فقد طمن على التوحيد . فإن قلت فهل من دواء ينتفع به فى صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة ، وحسن الظنّ بالله تعالى فى تيسير الأسباب الخفية ؟

فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظنّ تلقين الشيطان ، وحسن الظنّ تلقين الله تعالى قال الله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا[1]) فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع . وإذا انضم إليه الجبن ، وضعف القلب ، ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها ، غلب سوء الظنّ وبطل التوكل بالكلية . بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام لو اكتسبت لكان أفضل لك . فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال فى الرابعة يهودي فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين . فقال: إن كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك . فقال : ياهذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيراً لك ، إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق

وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال ياشيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع فى حسن الظنّ بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيه عجائب قهر الله تعالى فى إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشى ، وقد كان خدم ابراهيم بن أدهم ، فقيل له . ماأعجب مارأيت منه ؟ فقال . بقينا فى طريق مكة أياما لم نجد طعاما . ثم دخلنا الكوفة . فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إليّ إبراهيم وقال . ياحذيفة ، أرى بك الجوع . فقلت هو مارأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس ، فجئت به إليه فكتب . بسم الله الرحمن الرحيم . أنت المقصود إليه بكل حال ؛ والمشار إليه بكل معنى . وكتب شعرا

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر   أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هي ستة وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها ياباري

(1) البقرة : ٢٦٨

مدحى لغيرك لهب نار خضتها　　فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليّ الرقعة ، فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك . فخرجت ، فأول من لقيني كان رجلا على بغلة ، فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : مافعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت هو في المسجد الفلاني . فدفع إليّ صرة فيها ستمائة دينار . ثم لقيت رجلا آخر ، فسألته عن راكب البغلة ، فقال هذا نصراني . فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال لا تمسها فإنه يجيء الساعة . فلما كان بعد ساعة دخل النصراني ، وأكب على رأس إبراهيم يقبله ، وأسلم

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري . جعت مرة بالحرم عشرة أيام ، فوجدت ضعفا ، فحدثتني نفسي بالخروج . فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئا يسكن ضعفي . فرأيت سلجمة مطروحة ، فأخذتها ، فوجدت في قلبي منها وحشة ، وكأن قائلا يقول لي جعت عشرة أيام ، وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت . فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة ، وقال هذه لك . فقلت كيف خصصتني بها ؟ قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام ، وأشرفت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين . وأنت أول من لقيته . فقلت . افتحها . ففتحها فإذا فيها سميد مصري ، ولوز مقشور ، وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم وقد قبلتها ، ثم قلت في نفسي رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي

وقال ممشاد الدينوري . كان علي دين ، فاشتغل قلبي بسببه . فرأيت في النوم كأن قائلا يقول : يا بخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما

وحكي عن بنان الحمال قال : كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد ، فجاءتني امرأة وقالت لي يا بنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك ! قال فرميت بزادي . ثم أتى علي ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالا في الطريق ، فقلت

فى نفسى احمله حتى يجىء صاحبه ، فربما يعطينى شيئا فأرده عليه . فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى: أنت تاجر تقول عسى يجىء صاحبه فآخذ منه شيئا ! ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت. أنفقها . فاكتفيت بها إلى قريب من مكة

وحكي أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها ، وقالوا هوذا يجىء النفير فنشترى مايوافق . فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة ، وقالوا إنها تصلح له . فقالوا لصاحبها . بكم هذه ؟ فقال إنها ليست للبيع . فألحوا عليه ، فقال إنها لبنان الحمال ، أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة

وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص . فقال إن أكلته مت . فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكلـه فارزقه ، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره . فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله ، وبقى القرص عنده

وقال أبو سعيد الخراز . دخلت البادية بغير زاد ، فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأن وصلت . ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره ؛ وآليت أن لاأدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها . فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى . فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا . ياأهل المرحلة ، إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه . فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية

وروي أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه ، فإذا هو بقائل يقول . ياهذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القرءان فإنه سيغنيك عن باب عمر . فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة . فجاءه عمر فقال له . إنى قد اشتقت إليك ، فما الذى شغلك عنى ؟ فقال إنى قرأت القرءان فأغنانى عن عمر وآل عمر . فقال عمر : رحمك الله ، فما الذى وجـدت فيه ؟ فقال وجـدت فيه (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [1]) فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعـــد ذلك يأتيه ويجلس إليه

وقال أبو حمزة الخراسانى : حججت سنة من السنين ، فبينا أنا أمشي فى الطريق إذ وقعت

(١) الذاريات : ٢٢

فى بئر . فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث : فما استتممت هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر . تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد . فأتوا بقصب وبارية ، وطموا رأس البئر ، فهممت أن أصيح ، فقلت فى نفسى . إلى من أصيح ؟ هو أقرب منهما . وسكنت . فبينا أنا بعد ساعة ، إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله ، وكأنه يقول .تعلق بى ، فى همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجنى ، فإذا هو سبع ، فمر وهتف بى هاتف . يا أبا حمزة ، أليس هـذا أحسن ؟ نجيناك من التلف بالتلف . فمشيت وأنا أقول

نهانى حيائى منك أن أكشف الهوى ... وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهـدى ... إلى غائبى واللطف يـدرك باللطف
تراءيت لى بالغيـب حتى كأنما ... تبشرنى بالغيـب أنك فى الكف
أراك وبى من هيبتى لك .وحشـة ... فتؤنسنى باللطف منـك وبالعطف
وتحيي محبا أنت فى الحب حتفـه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر . وإذا قوي الإيمان به ، وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر ،وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فالموت خير له عند الله عزو جـل ،ولذلك حبسه عنه، تم التوكل بهذه الأحوال والمشـاهدات . وإلا فلا يتم أصـلا

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الرابع عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

بيان

توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد . لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين .

أحدهما : قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس

والآخر : أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأته رزقه ؛ علما بأن رزقه الموت والجوع ، وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك ، وأنه كذا قضى وقدر له ، فبهذا يتم التوكل للمنفرد

ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا . وكذا سائر أبواب الإيمان . فإذاً لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب، وهو المقام الثالث ، كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب

فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم ، فهذا حرام ، وقد يفضي إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة ، وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة ، فله أن يتوكل في حقهم . ونفسه أيضا عيال عنده ، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة . فإن كان لا يطيقه ، ويضطرب عليه قلبه ، وتتشوش عليه عبادته ، لم يجز له التوكل

ولذلك روي أن أبا تراب النخشبي نظر إلى صوفي مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : لا يصلح لك التصوف ، الزم السوق . أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري ؛ إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب :

فإذاً بدنه عياله ، وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله . وإنما يفارقهم في شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع ، وليس له ذلك في عياله

وقد انكشف لك من هـذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا ، وملازمة البلاد والأمصار ، أو ملازمة البوادي التي لاتخلو عن حشيش وما يجرى مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ، ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر . والتوكل فى الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل فى البوادي . وكل ذلك من الأسباب ، إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهرمنها ، فلم يعدّوا تلك أسبابا ،وذلك لضعف إيمانهم ،وشدة حرصهم ، وقلة صبرهم على الأذى فى الدنيا الأجل الآخرة،واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل

ومن نظر فى ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه . أما ترى الجنين فى بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهى إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرّة ، ولم يكن ذلك بحيلة الجنين. ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت ، اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل فى قلبها من نار الحب . ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذى لايحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لايحتمل الغذاء الكثيف، فأدرّ له اللبن اللطيف فى ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؟ فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ . فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجبنه بعد البلوغ جهل محض ، لأنه مانقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت ، فإنه إن لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته . ثم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب ، وكانت شفقته مفرطة جدا ، فكان يطعمه ويسقيه فى اليوم مرة أو مرتين، وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سلط الله الشفقة ، والمودة والرقة ، والرحمة على قلوب المسلمين ، بل أهل البلد كافة ، حتى أن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورقّ عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته . فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة ،وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه فى كفالة الأم والأب

وهو مشفق خاص ، فما رأوه محتاجا . ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين ، أو على جماعة ، حتى يأخذونه ويكفلونه . فما رؤي إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعا، مع أنه عاجز عن الاضطراب، وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده . فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا ، وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ؟ نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ، ولكنها واحدة ،وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ،وبترك التنعم، والاقتصار على قدر الضرورة. ولقد أحسن الشاعر حيث يقول

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ، ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه

فأقول . إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا ، فعليه الكسب ، ولا معنى للتوكل في حقه ، فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى . فما للبطال والتوكل ! وإن كان مشتغلا بالله ، ملازما لمسجد أو بيت ، وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ، ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه في قلوب الناس ، حتى يحملون إليه فوق كفايته . وإنما عليه أن لا يغلق الباب ، ولا يهرب إلى جبل من بين الناس . وما رؤي إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعا ، ولا يرى قط . بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه . فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له. ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس ، وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها . فقد دبّر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر ، واشتغل به ،وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب . نعم ما دبره تدبيرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان ،والثياب الرقيقة ، والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا

فى بعض الأحوال : لكن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لامحالة . والغالب أنه يصل أكثر منه ؛ بل يصل مايزيد على قدر الحاجة والكفاية . فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة ، وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة . وذلك قد لايحصل بغير اضطراب ، وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب ، وإنما يحصل نادرا . وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب ؛ فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته ؛ فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه ؛ بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن ، إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله فى حق المضطرب

فإذا انكشفت هذه الأمور ، وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس ، أثمر ماقاله الحسن البصرى رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة فى عيالى وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا ، والأرض رصاصا ، واهتممت برزقى ، لظننت أنى مشرك

فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم فى نفسه ، ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه . وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين ، الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما

فإذاً عليك بالقناعة بالنذر القليل ، والرضا بالقوت فإنه يأتيك لامحالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لاتحتسب . فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ [1]) الآية إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته . وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه . فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق . بل مداخل الرزق لاتحصى ، ومجاريه لايهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه فى السماء . قال الله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [2]) وأسرار السماء لايطلع عليها . ولهذا دخل جماعة على الجنيد ، فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق . فقال

(١) الطلاق : ١ ، ٢ (٢) الذاريات : ٢٢

إن علمتم أيّ موضع هو فاطلبوه. قالوا نسأل الله. قال إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه. فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون. فقال التوكل على التجربة شك. قالوا فما الحيلة؟ قال ترك الحيلة.

وقال أحمد بن عيسى الخراز: كنت في البادية فنالني جوع شديد، فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما، فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول

ويزعم أنه منـا قريب وأنا لانضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهدا كأنا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه، وقوي قلبه، ولم يضعف بالجبن باطنه، وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى، كان مطمئن النفس أبدا، واثقا بالله عز وجل. فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنا

فإذاً تمام التوكل بقناعة من جانب، ووفاء بالمضمون من جانب. والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق، فاقنع وجرّب تشاهد صدق الوعد تحقيقيا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك. ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب، بل لمسبب الأسباب، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب، بل لقلب الكاتب، فإنه أصل حركة القلم. والمحرك الأول واحد، فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه. وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد، أو يقعد في الأمصار وهو خامل

وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم، فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ، وثوب خشن يليق بأهل الدين، فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام. بل يأتيه أضعافه. فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب. فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين، وهو بالعلماء أقبح، لأن شرطهم القناعة، والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل، ولم يكن له سير بالباطن. فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن

فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ، لأنه تفرغ لله عز وجل . وإعانة للمعطى على نيل الثواب .

ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى ، علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب . ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق ، والعاقل المحروم ، فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه . إذ لو رزق كل عاقل ، وحرم كل أحمق ، لظن أن العقل رَزَقَ صاحبَه . فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ، ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم . قال الشاعر

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا   هلكن إذاً من جهلهن البهائم

بيان

أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك ، وهم محتاجون إلى الطعام . فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز ، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين ، وبعضهم رغيفا رغيفا ، ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه ، فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم . فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين ، فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به ، إلى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه . ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام ، وهو ساكن ، فإنى أختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر . ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ، ولا خلعة له . ومن أخطأه غلمانى فما أوصلوا إليه شيئا ، فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ، ولا قائلا ليته أوصل إلىّ رغيفا ، فإنى غداً أستوزره وأفوّض ملكى إليه . فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام ، قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ، وقالوا من اليوم إلى غد فرج ، ونحن الآن جائعون ، فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم فى الميعاد المذكور ، فندموا ولم ينفعهم الندم . وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ، ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع ، فسلموا من العقوبة ، وما فازوا بالخلعة

وقسم قالوا إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ، ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفا واحدا، و نقنع به. فلعلنا نفوز بالخلعة، ففازوا بالخلعة . وقسم رابع اختلفوا في زوايا الميدان، وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان، وقالوا إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد، وإن أخطئونا قاسينا شدة الجوع الليلة، فلعلنا نقوى على ترك التسخط، فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك ، فانفعهم ذلك ، إذ اتبعهم الغلمان في كل زاوية ، وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا

وجرى مثل ذلك أياما ، حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة في زاوية ، ولم تقع عليهم أبصار الغلمان، وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد . فقال اثنان منهم: ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا، فلسنا نطيق الصبر. وسكت الثالث إلى الصباح، فنال درجة القرب والوزارة . فهذا مثال الخلق. والميدان هو الحياة في الدنيا. وباب الميدان الموت . والميعاد المجهول يوم القيامة . والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة ، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . والمتعلق بالغلمان هو المعتدى في الأسباب. والغلمان المسخرون هم الأسباب. والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون . والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل ، والأسباب تتبعهم ، والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور. فإن مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى

وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون، وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم ، وساح في البوادي ثلاثة ، وتسخط منهم اثنان ، وفاز بالقرب واحد . ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة . وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف

الفن الثاني في التعرض لأسباب الادخار

فمن حصل له مال بإرث أو كسب، أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال

الأولى : أن يأخذ قدر حاجته في الوقت ، فيأكل إن كان جائعا ، ويلبس إن كان عاريا ، ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويفرق الباقي في الحال ، ولا يأخذه ولا يدخره

إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية . فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا ، وهي الدرجة العليا

الحالة الثانية: المقابلة لهذه ، المخرجة له عن حدود التوكل ، أن يدخر لسنة فما فوقها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلا .وقد قيل :لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة :الفأرة، والنملة، وابن آدم

الحالة الثالثة : أن يدخر لأربعين يوما فما دونها . فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه . فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخوّاص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ،ويخرج بما يزيد على الأربعين .وقال أبو طالب المكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار . نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل .فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له . وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية .ويسمى أصحاب النهايات السابقين،وأصحاب البدايات أصحاب اليمين .ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات .وكذلك السابقون .وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا . بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل.وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس،فإن ذلك كالممتنع وجوده. أما الناس فتفاوتون في طول الأمل وقصره .وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات. وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان . وبينهما درجات لا حصر لها . فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة .وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد ،فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ؟ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما ، لسر جرت به وبأمثاله سنّة الله تعالى في تدريج الأمور،كما قال عليه السلام « إنَّ اللهَ [1] خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً » لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر

فإذاً ما وراء السنَة لا يدخره إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب،فهو خارج

---

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا :أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جدا وهو باطل

عن مقام التوكل ، غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإن أسبابه الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا . ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله . ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ، ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة . ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يدخر أصلا وإن ضعف قلبه ، فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر . وقد روي في (١) الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه ، فغسلاه وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه « إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَوْلَا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبُعِثَ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ » قلنا وما هي يا رسول الله؟ قال « كَانَ صَوَّامًا قَوَّامًا كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لِصَيْفِهِ وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشِّتَاءِ لِشِتَائِهِ » ثم قال صلى الله عليه وسلم « بَلْ أَقَلُّ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث . وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف . وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ، ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق ، بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق . فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة ، والذكر ، والفكر ، فالادخار له أولى . بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته ، وكان لا يتفرغ قلبه إلا به ، فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ، ورب شخص يشغله عدمه . والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها . ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق ، وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما . بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله .

---

(١) حديث انه قال في حق الفقير الذي أمر عليا وأسامة فغسله وكفنه ببردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ـ الحديث : وفي آخره من أقل ما أتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجد له أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا

تعالى . وعمدة الاشتغال بالله تعالى عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار . وهذا كله حكم المنفرد

فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله ، جبرا لضعفهم ، وتسكينا لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل ، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين . فادخاره مايزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل . فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب ، مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة . وقد (١) ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة (٢) ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد . (٣) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْفِقْ بِلاَلاً وَلاَ تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلاَلاً » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِذَا سُئِلْتَ فَلاَ تَمْنَعْ وَإِذَا أُعْطِيتَ فَلاَ تَخْبَأْ » اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم

(٥) وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول « مَا يُدْرِينِي لَعَلِّي لاَ أَبْلُغُهُ »

وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله ، إذ كان لا يثق بما ادخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته ، فإن أقوياء أمته ، ضعفاء بالإضافة إلى قوته

وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته . بل أخبر (٦) أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، تطييبا لقلوب

---

(١) حديث ادخر لعياله قوت سنة : متفق عليه وتقدم في الزكاة

(٢) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد : تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها

(٣) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا : البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره

(٤) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ : الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو تتمة حديث الق الله فقيرا قد تقدم

(٥) حديث انه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الما ويقول مايدريني لعلي لا أبلغه ابن الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٦) حديث ان الله يحب ان تؤتى رخصه ـ الحديث : أحمد والطبراني والبيهقي من حديث ابن عمر وقد تقدم

الضعفاء ، حتى لاينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم

وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لايضر . ويدل عليه ماروى أبو[1] أمامة الباهلي : أن بعض أصحاب الصفّة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم « فَتِّشُوا ثَوْبَهُ » فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره . فقال صلى الله عليه وسلم « كَيَّتَانِ » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه . وهذا يحتمل وجهين ، لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى (تُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ[1]) وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه ، فهو نوع تلبيس . والثانى أن لايكون ذلك عن تلبيس ، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله ، كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين فى الوجه . وذلك لايكون عن تلبيس ، فإن كل مايخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة ، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة

وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروي عن بشر ، قال الحسين المغازلى من أصحابه : كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام إليه بشر ، قال ومارأيته قام لأحد غيره قال ودفع إليّ كفا من دراهم وقال : اشترى لنا من أطيب ماتقدر عليه من الطعام الطيب . وما قال لى قط مثل ذلك . قال فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه ، ومارأيته أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا . وبقى من الطعام شيء كثير ، فأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله معه وانصرف . فعجبت من ذلك وكرهته له . فقال لى بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن . فقال ذاك أخونا فتح الموصلى ، زارنا اليوم من الموصل ،

---

(١) حديث أبي أمامة توفى بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين فى داخلة ازاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه

---

(١) التوبة : ٣٥

فإذا أردت أن يعلم أن التوكل إذا صح لم يقدر معه الادخار

الفن الثالث : فى مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال ، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة ، أو فى مجارى السيل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهي عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة . وإلى موهومة . فترك الموهوم منها من شرط التوكل ، وهي التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية ، فإن الكي والرقية قد يقدّم به المحذور دفعا لما يتوقع . وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل ما فى معناها من الأسباب . نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر فى الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق فى الأسباب ، والتعويل عليها . فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة

ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى . فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ [1]) وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [2]) وقال عز وجل (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ [3]) وقال سبحانه وتعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [4]) وقال تعالى (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [5]) وهذا فى أذى الناس

وأما الصبر على أذى الحيّات والسباع والعقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل فى شيء إذ لا فائدة فيه . ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين . وترتيب الأسباب ههنا كترتيبها فى الكسب وجلب المنافع ، فلا نطول بالإعادة

وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند

---

(١) المزمل : ٩ ، ١٠ (٢) ابراهيم : ١٢ (٣) الأحزاب : ٤٨ (٤) الأحقاف : ٣٥ (٥) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩

الخروج ، ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله[١] « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » وقال تعالى (خُذُوا حِذْرَكُمْ[١]) وقال فى كيفية صلاة الخوف (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ[٢]) وقال سبحانه (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ[٣]) وقال تعالى لموسى عليه السلام (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً[٤]) والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب[٥] واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار احتفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر . وأخذ السلاح فى الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعا . ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه

فإن قلت . فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك ، فأقول وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه ، فلا ينبغى أن يغرك ذلك المقام فإنه وإن كان صحيحا فى نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع فى الكرامات ، وليس ذلك شرطا فى التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها

فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها

فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك فى إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال يعضك ويعض غيرك فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك ، وكان مسخرا لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذى هو ملك السباع . وكلب دارك أولى بأن يكون مسخرا لك من كلب البوادى ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك . فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع فى استسخار الكلب الظاهر

---

(١) حديث اعقلها وتوكل : الترمذى من حديث أنس قال يحي القطان منكر ورواه ابن خزيمة فى التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى باسناد جيد قيدها

(٢) حديث اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم فى قصة اختفائه فى الغار عند ارادة الهجرة

(١ ، ٢) النساء : ١٠٢ (٣) الانفال : ٦٠ (٤) الدخان : ٢٣

فإن قلت فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو ، وأغلق بابه حذرا من اللص، وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأي اعتبار يكون متوكلا فأقول يكون متوكلا بالعلم والحال

فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه . فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت ، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب . فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا ، بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة ، فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله ، بل على كفاية الوكيل وقوته

وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ، ويقول : اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك ، وأنا راض بحكمك ، فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها ، أو عارية ووديعة فتستردها ، ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب . فإذا كان هذا حاله ، وذلك الذي ذكرناه علمه ، لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير ، وأخذ السلاح ، وإغلاق الباب . ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت، فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى . وإن لم يجده بل وجده مسروقا نظر إلى قلبه ، فإن وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة ، فقد صح مقامه في التوكل ، وظهر له صدقه . وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر، فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل ، لأن التوكل مقام بعد الزهد ؛ ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي، بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل! نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ، ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس . وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه ، وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه ، فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات ، وكذبه في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ، ولا يتدلى بحبل غرورها ، فإنها خداعة، أمارة بالسوء، مدعية للخير

فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها ، وكوز يشرب منه ، وإناء يتوضأ منه ، وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه ، والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في المأكول ، وفي كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد، وماجرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع . والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل . ولذلك كان الخوّاص يأخذ في السفر الحبل ، والركوة ، والمقراض ، والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين • فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهيه فلمَ أمسكه ، وأغلق الباب عليه ؟ وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه ، فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟ . فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه ، إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع . ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه. فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل ، وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ، ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ، ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر . فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله، حسن الظن به . فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني. فبمثل هذا الظن يتصوّر أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا . وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه إليّ . وإن أخر عنه الغذاء بعد

ذلك أيضا فرح وقال: لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه. وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى مايعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا. ومن عرف الله تعالى، وعرف أفعاله، وعرف سنته في إصلاح عباده، لم يكن فرحه بالأسباب، فإنه لايدري أي الأسباب خير له، كما قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا، فإني لاأدري أيهما خير لي. فكذلك ينبغي أن لايبالي المتوكل يسرق متاعه، أو لايسرق، فإنه لايدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان، وكم من غني يبتلي بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا

بيان

آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه

الأول: أن يغلق الباب، ولا يستقصي في أسباب الحفظ. كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق، وكجمعه أغلاقا كثيرة. فقد كان مالك بن دينار لايغلق بابه، ولكن يشده بشريط ويقول. لولا الكلاب ماشددته أيضا

الثاني: أن لايترك في البيت متاعا يحرض عليه السراق، فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم. ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لاحاجة لي إليها. قال لم؟ قال يوسوس إليّ العدوّ أن اللص أخذها. فكأنه احترز من أن يعصى السارق، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها. ولذلك قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية. هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها!

الثالث: أن مايضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه، ويقول. ماياخذه السارق فهو منه في حل. أو هو في سبيل الله تعالى، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة. وإن لم يشترط الفقر فهو أولى. فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير، إحداهما: أن يكون ماله مانعا له من المعصية، فإنه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده، وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل،

والثانية: أن لا يظلم مسلما آخر، فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر. ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه، أو ينوي دفع المعصية عن السارق، أو تخفيفها عليه، فقد نصح للمسلمين، وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم (١) « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً » ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له . وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه . إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي، ولكن يتحقق بالزهد نيته، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم، لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع، وعاش، فقتل فى سبيل الله تعالى، وإن لم يولد له لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع . فأما الخلق، والحياة، والرزق، والبقاء فليس إليه . فلو خلق لكان ثوابه على فعله، وفعله لم ينعدم، فكذلك أمر السرقة

الرابع: أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن، بل يفرح إن أمكنه ويقول: لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى . ثم إن لم يكن قد جعله فى سبيل الله عز وجل فلا يبالغ فى طلبه، وفى إساءة الظن بالمسلمين . وإن كان قد جعله فى سبيل الله فيترك طلبه، فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة . فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله فى سبيل الله عز وجل . وإن قبله فهو فى ملكه فى ظاهر العلم، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية . ولكنه غير محبوب عند المتوكلين . وقد روي أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا، ثم قال: فى سبيل الله تعالى . فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناقتك فى مكان كذا . فلبس نعله وقام، ثم قال أستغفر الله وجلس، فقيل له ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال إني كنت قلت فى سبيل الله

وقال بعض الشيوخ: رأيت بعض إخواني فى النوم بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي وأدخلني الجنة، وعرض علي منازلي فيها فرأيتها . قال وهو مع ذلك كئيب حزين، فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين، فتنفس الصعداء ثم قال: نعم إني

---

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما: متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم
(٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام ـ الحديث : لم أجد له أصلا

لاأزال حزينا إلى يوم القيامة . قلت ولم ؟ قال إني لما رأيت منازلي في الجنة ، رفعت لي مقامات في عليين مارأيت مثلها فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها ، فليست هذه له ، إنما هي لمن أمضى السبيل . فقلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ، ثم ترجع فيه . فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك

وحكي عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه ، فاتهمه به ، فقال له كم كان في هميانك ؟ فذكر له . فحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه ، فجاء هو وأصحابه معه ، وردوا الذهب ، فأبى وقال : خذه حلالا طيبا ، فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنا له ، وجعل يصره صررا ويبعث بها إلى الفقراء ، حتى لم يبق منه شيء . فهكذا كانت أخلاق السلف . وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه ؛ كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه ، فيعطيه فقيرا آخر . وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات

الخامس : وهو أقل الدرجات ، أن لايدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فإن فعل بطل توكله ، ودل ذلك على كراهته وتأسفه على مافات ، وبطل زهده . ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيما أصيب به . ففي الخبر [1] « مَنْ دَعَا عَلَى ظَالِمِهِ فَقَدِ انْتَصَرَ »

وحكي أن الربيع بن خثيم سرق فرس له ، وكان قيمته عشرين ألفا ، وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ، ولم ينزعج لطلبه . فجاءه قوم يعزونه فقال . أما إني قد كنت رأيته وهو يحله . قيل وما منعك أن تزجره ؟ قال كنت فيما هو أحب إلي من ذلك ، يعني الصلاة فجعلوا يدعون عليه ، فقال لاتفعلوا وقولوا خيرا ، فإني قد جعلتها صدقة عليه

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ؟ قال ماأحب أن أكون عونا للشيطان عليه . قيل أرأيت لو رد عليك ؟ قال لا آخذه ولا أنظر إليه ، لأني كنت قد أحللته له

وقيل لآخر . ادع الله على ظالمك . فقال ماظلمني أحد . ثم قال إنما ظلم نفسه . ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا ! . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف

---

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر : تقدم

فى ظلامه ، فقال لاتغرق فى شتمه ، فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه ، كما ينتصف منه لمن أخذماله ودمه . وفى الخبر[١] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُظْلَمُ ٱلْمَظْلَمَةَ فَلاَ يَزَالُ يَشْتِمُ ظَالِمَهُ وَيَسُبُّهُ حَتَّى يَكُونَ بِمِقْدَارِ مَاظَلَمَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عَلَيْهِ مُطَالَبَةٌ بِمَازَادَعَلَيْهِ يُقْتَصُّ لَهُ مِنَ ٱلْمَظْلُومِ »

السادس : أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما ، وجعل ذلك نقصا فى دنياه لانقصا فى دينه . فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله ، فقال . إن لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين . وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال. أعلى الدنانير تبكي ؟ فقال لا والله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة . وقيل لبعضهم . ادع على من ظلمك ، فقال . إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه. فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين

الفن الرابع :فى السعي فى إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله

اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء المسهل ، وسائر أبواب الطب ، أعنى معالجة البرودة بالحرارة ، والحرارة بالبرودة ، وهي الأسباب الظاهرة فى الطب ، وإلى موهوم كالكي والرقية .

أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت

وأما الموهوم فشرط التوكل تركه ، إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكي ، ويليه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتماد عليها ، والاتكال إليها غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب . وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة ، كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ، ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس

---

(١) حديث ان العبد ليظلم المظلمة فلايزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة ـ الحديث : تقدم

محظوراً بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص ، فهى على درجة بين الدرجتين . ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ، وأمره به

أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَامِنْ دَاءٍ إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إِلَّا السَّامُ » يعنى الموت ؛ وقال عليه السلام (٢) « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ » (٣) وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ »

وفى الخبر المشهور (٤) « مَامَرَرْتُ بِمَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مُرْ أُمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ » وفى الحديث أنه أمر بها وقال (٥) « احْتَجِمُوا لِسَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ لَا يَتَبَيَّغْ بِكُمُ الدَّمُ فَيَقْتُلَكُمْ » فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت ، وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب ، وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها فى البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفى خبر مقطوع (٦) « مَنِ احْتَجَمَ يَوْمَ

---

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام : أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود دون قوله الا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه الى آخره واسناده حسن وللترمذى وصححه من حديث أسامة بن شريك الا الهرم وللطبرانى فى الأوسط والبزار من حديث أبى سعيد الخدرى والطبرانى فى الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخارى من حديث أبى هريرة ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء

(٢) حديث تداووا عباد الله : الترمذى وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك

(٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هى من قدر الله : الترمذى وابن ماجه من حديث أبى خزامة وقيل عن أبى خزامة عن أبيه قال الترمذى وهذا أصح .

(٤) حديث مامررت بملأ من الملائكة الا قالوا مر أمتك بالحجامة . الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف

(٥) حديث احتجموا لسبع عشرة وتسعة عشرة واحدى وعشرين ـ الحديث : البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذى بلفظ ان خير ماتحتجمون فيه سبع عشرة ـ الحديث : دون ذكر التبيغ وقال حسن غريب وقال البزار ان طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر ـ الحديث :

(٦) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء سنة : الطبرانى من حديث معقل

الثُّلَاثَاءِ لِسَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الشَّهْرِ كَانَ لَهُ دَوَاءٌ مِنْ دَاءِ سَنَةٍ »

وأما [١] أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالحمية [٢] وقطع لسعد بن معاذ عرقا أى فصده . [٣] وكوى سعد بن زرارة [٤] وقال لعلىّ رضي الله تعالى عنه وكان رمِدَ العين « لَا تَأْكُلْ مِنْ هَذَا » يعنى الرطب « وَكُلْ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ » يعني سلقا قد طبخ بدقيق شعير . [٥] وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تَأْكُلُ تَمْرًا وَأَنْتَ أَرْمَدُ » فقال إنى آكل من الجانب الآخر : فتبسم صلى الله عليه وسلم

وأما فعله عليه الصلاة والسلام ، فقد روي فى حديث [٦] من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ، ويحتجم كل شهر ، ويشرب الدواء كل سنة . قيل السنا المكى [٧] وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها . وروي أنه [٨] كان إذا نزل عليه الوحى

بن يسار وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس واسنادها واحد اختلف على راويه فى الصحابى وكلاها فيه زيد العمى وهو ضعيف

(١) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة : الترمذى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك انه قال للاعراب حين سألوه تداووا ـ الحديث : وسيأتى فى قصة على وصهيب فى الحمية بعده

(٢) حديث قطع عرقا لسعد بن معاذ : مسلم من حديث جابر قال رمى سعد فى أكحله فحسمه النبى صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص ـ الحديث :

(٣) حديث انه كوى أسعد بن زرارة : الطبرانى من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبى أسامة ابن سهل بن حنيف دون ذكر سهل

(٤) حديث قال لعلى وكان رمدا لا تأكل من هذا ـ الحديث : أبو داود والترمذى وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم المنذر

(٥) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وأنت رمد ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان

(٦) حديث من طريق أهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة : ابن عدى من حديث عائشة وقال انه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحى بن معين

(٧) حديث انه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها . الطبرانى باسناد حسن من حديث جبلة بن الازرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس ـ الحديث : وله فى الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ولأبى يعلى والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله ابن جعفر أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم وفيه جابر الجعفى ضعفه الجمهور

(٨) حديث كان اذا نزل عليه الوحى صدعه رأسه فيغلفه بالحناء : البزار وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة وقد اختلف فى اسناده على الاحوص بن حكيم كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذى وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذى غريب

صدع رأسه ، فكان يغلفه بالحناء . وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد[1] جعل على قرحة خرجت به ترابا

وما روي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر، وقد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته ، فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت . فقال لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء . فطالت علته . فقالوا له . إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، وإنا نتداوى به فنبرأ . فقال لا أتداوى . وأقامت علته ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك . فقال لهم : داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ . فأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردتَ أن تبطل حكمتي بتوكلك عليّ ، من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟

وروي في خبر آخر ، أن نبيًا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن ، فإن فيهما القوة . قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روي أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل ، فإنه يحسن الولد ، ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد . وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل، والنفساء الرطب . فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارا للحكمة . والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب . فكما أن الخبز دواء الجوع ، والماء دواء العطش . فالسكنجبين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال ، لا يفارقه إلا في أحد أمرين

أحدهما : أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جليّ واضح ، يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص . فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول

---

(١) حديث جعل على قرحة خرجت بيده ترابا : البخاري ومسلم من حديث عائشة كان اذا اشتكى الانسان الشيء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان ابن عيينة الراوي سبابته بالارض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا تشفى سقيمنا

والثاني : أن الدواء يسهل ، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن ، وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط ، فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ، ولكنه نادر

واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشيئين . وإلا فالمسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب . وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه ، بحكم حكمته وكمال قدرته . فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء؛ فقد روي عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ممن الداء والدواء ؟ فقال تعالى مني . قال فما يصنع الأطباء ؟ قال يأكلون أرزاقهم و يطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي . فإذاً معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر ، الجالبة للنفع . فأما ترك التداوي رأسا فليس شرطا فيه

فإن قلت : فالكي أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك . إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، وسقي المبردات للمحرور . وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه . وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد . وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب . فهذا من الأسباب الموهومة كالرقي ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه ، فإنه ما من وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق . فالإحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ، ولا يسد مسدهما غيرهما

ولذلك [1] نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى ، وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروي أن عمران بن الحصين اعتل ، فأشاروا عليه بالكي ، فامتنع . فلم يزالوا به ، وعزم عليه الأمير حتى اكتوى . فكان يقول . كنت أرى نورا ،

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرقى : البخاري من حديث ابن عباس وأنهى أمتي عن الكي وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذي حمة

وأسمع صوتا، وتسلم عليّ الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عني. وكان يقول: اكتوينا كيات، فو الله ماأفلحت ولا أنجحت. ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبد الله. ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى عليّ بعد أن كان أخبره بفقدها

فإذاً الكي وما يجرى مجراه هو الذى لايليق بالمتوكل، لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم. ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها، والله أعلم

بيان

أن ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداووا من السلف لاينحصرون. ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر. فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ لايكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله. وقدروي عن أبى بكر رضي الله عنه أنه قيل له. لو دعونا لك طبيبا؟ فقال. الطبيب قد نظر إليّ وقال إنى فعال لما أريد

وقيل لأبى الدرداء فى مرضه. ماتشتكي؟ قال ذنوبى. قيل فما تشتهى؟ قال مغفرة ربى قالوا. ألا ندعو لك طبيبا؟ قال الطبيب أمرضنى. وقيل لأبى ذر وقد رمدت عيناه. لو داويتهما؟ قال. إنى عنهما مشغول. فقيل له: لو سألت الله تعالى أن يعافيك؟ فقال: أسأله فيما هو أهم عليّ منهما. وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج، فقيل له. لو تداويت؟ فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرسّ، وقرونا بين ذلك كثيرا، وكان فيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوَى، ولم تغن الرقى شيئا. وكان أحمد بن حنبل يقول. أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره. وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله. وقيل لسهل. متى يصح للعبد التوكل؟ قال إذا دخل عليه الضرر فى جسمه، والنقص فى ماله، فلم يلتفت إليه شغلا بحاله، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه

فإذاً منهم من ترك التداوى ورآه، ومنهم من كرهه. ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوى

فنقول . إن لترك التداوى أسبابا

السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين ،وقد كوشف بأنه انتهى أجله ،وأنه الدواء لا ينفعه . ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق . ويشبه أن يكون ترك الصدّيق رضي الله عنه التداوى من هـذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعـائشة رضي الله عنها فى أمر الميراث . إنما هن أختاك ، وإنما كان لها أخت واحدة ،ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به

السبب الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله ، وبخوف عاقبته ، واطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض ، فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله . وعليه يدل كلام أبى ذر إذ قال . إنى عنهما مشغول ،وكلام أبى الدرداء إذ قال: إنما أشتكى ذنوبى . فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض . ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع . فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ، ولا طعنا فيمن أكل . ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ماالقوت ؟ فقال هو ذكر الحيّ القيوم . فقيل إنما سألناك عن القوام . فقال القوام هو العلم . قيل سألناك عن الغذاء . قال الغذاء هو الذكر. قيل سألناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد ! دع من تولاه أولاً يتولاه آخرا ، إذا دخل عليه علة فردَّهُ إلى صانعه . أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها

السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة ،والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع ، جار مجرى الكي والرقية ، فيتركه المتوكل . وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء ، فهلك المداوَى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك فى نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب ، وقلة تجربته له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا . ولا شك فى أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا

فى الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة .

وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم ، لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له ، وذلك صحيح فى بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح فى البعض . ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا ، فيرى التداوى تعمقا فى الأسباب كالكي والرقى ، فيتركه توكلا

السبب الرابع : أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض ، لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليجرب نفسه فى القدرة على الصبر . فقد ورد فى ثواب المرض ما يكثر ذكره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صَلْبَ الإِيمَانِ شُدِّدَ عَلَيْهِ الْبَلاَءُ وَإِنْ كَانَ فِى إِيمَانِهِ ضَعْفٌ خُفِّفَ عَنْهُ الْبَلاَءُ » وفى الخبر (٢) « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجَرِّبُ عَبْدَهُ بِالْبَلاَءِ كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الإِبْرِيزِ لاَ يَزِيدُ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ أَسْوَدَ مُحْتَرِقًا »

وفى حديث (٣) من طريق أهل البيت « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاَهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمُرِ الضَّالَّةِ لاَ تَمْرَضُونَ وَلاَ تَسْقَمُونَ » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تجد المؤمن أصح شيء قلبا ، وأمرضه جسما . وتجد المنافق أصح شيء جسما ، وأمرضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض

---

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد ابن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه . الحديث : الطبرانى من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٣) حديث من طريق أهل البيت ان الله إذا أحب عبدا ابتلاه ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده فى مسنده وللطبرانى من حديث أبي عنبة إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه واذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف

(٤) حديث تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون : ابن أبي عاصم فى الآحاد والمثانى وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة والبيهقى فى الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث ان الرجل ليكون له المنزلة عند الله ـ الحديث : وقد تقدم

والبلاء أحبّ قوم المرض واغتنموه ، لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ، ويقاسي العلة ، ويرضى بحكم الله تعالى ، ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه . وعلموا أن صلاتهم قعوداً مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى ، أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة . ففي الخبر [(١)] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ اكْتُبُوا لِعَبْدِي صَالِحَ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فَإِنَّهُ فِي وِثَاقٍ إِنْ أَطْلَقْتُهُ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ تَوَفَّيْتُهُ إِلَى رَحْمَتِي »

وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ » فقيل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [(١)]) . وكان سهل يقول : ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض ، أفضل من التداوي لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها . وكان يداوي الناس منها . وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ، ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات ، يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوة والصلاة قائما

وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف . ومن لم يدخل في شيء منه فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ، ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات ، لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر ، والرضا ، والتوكل ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا وقال سهل رحمه الله : علل الأجسام رحمة ، وعلل القلوب عقوبة

---

(١) حديث ان الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فانه في وثاق ـ الحديث : الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم

(٢) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس : تقدم ولم أجده مرفوعا

---

(١) البقرة : ٢١٦

السبب الخامس . أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها . عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا ، فيترك التداوي خوفا من أن يسرع زوال المرض . فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « لَا تَزَالُ الْحُمَّى وَالْمَلِيلَةُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ كَالْبَرَدَةِ مَا عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَا خَطِيئَةٌ » . وفى الخبر [٢] « حُمَّى يَوْمٍ كَفَّارَةُ سَنَةٍ » فقيل لأنها تهد قوة سنة ، وقيل للإنسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى فى جميعها ، ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم [٣] . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما . فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله . وسأل ذلك طائفة من الأنصار ، فكانت الحمى لا تزايلهم

ولما قال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ أَذْهَبَ اللهُ كَرِيمَتَيْهِ لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ » قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام . لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله ، لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه . ويروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال . يا رب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه ! أي به أكفر ذنوبه وأزيد فى درجاته

---

(١) حديث لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة: أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبراني فى الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفائها ولونها وأسانيده ضعيفة

(٢) حديث حمى يوم كفارة سنة: القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم

(٣) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموما ـ الحديث : وسأل ذلك طائفة من الانصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى باسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أرأيت هذه الامراض تصيبنا ما لنا فيها قال كفارات قال أبي وان قلت قال فان شوكة فما فوقها قال فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث : وللطبراني فى الأوسط من حديث أبي بن كعب انه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم انى أسألك حمى لا تمنعني خروجا فى سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا لمسجد نبيك ـ الحديث : والاسناد مجهول قاله على بن المديني

(٤) حديث من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة : تقدم المرفوع منه دون قوله فلقد كان فى الانصار من يتمنى العمى

السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوي خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة ، والبطر ، والطغيان أو طول الأمل ، والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى ، وتتحرك الشهوات ، وتدعو إلى المعاصي . وأقلها أن تدعو إلى التنعم في المباحات ، وهو تضييع للأوقات ، وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب . ولذلك قيل ، لا يخلو المؤمن من علة ، أو قلة ، أو زلة . وقد روي أن الله تعالى يقول . الفقر سجني ، والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي ، فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأي خير يزيد عليه ! ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه ، فالعافية في ترك المعاصي . فقد قال بعض العارفين لإنسان . كيف كنت بعدي ؟ قال في عافية . قال إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت في عافية ، وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية ! ما عوفي من عصى الله . وقال علي كرم الله وجهه ، لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد : ماهذا الذي أظهروه ؟ قالوا ياأمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى (مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَا تُحِبُّونَ [١]) قيل العوافي (إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ [٢]) وكذلك إذا استغنى بالعافية

وقال بعضهم إنما قال فرعون (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ [٣]) لطول العافية ، لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ، ولم يحم له جسم ، ولم يضرب عليه عرق ، فادعى الربوبية ، لعنه الله ، ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » وقيل . الحمى رائد الموت ، فهو مذكر له ، ودافع للتسويف . وقال تعالى (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ [٤]) قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ويقال . إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت . ياغافل ، جاءك مني

---

(١) حديث أكثروا ذكر هاذم اللذات : الترمذي وقال حسن غريب والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) العلق : ٦ (٣) النازعات : ٢٤ (٤) التوبة : ١٢٦

وسول بعد رسول فلم نجب . وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال . وقالوا . لايخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يروّع روعة ، أو يصاب ببلية ، حتى روي أن عمار بن ياسر تزوج امرأة ، فلم تكن تمرض ، فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم [1] عرض عليه امرأة ، فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل ، وإنها مامرضت قط . فقال « لَاحَاجَةَ لِي فِيهَا »

[2] وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع ، كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ؟ ماأعرفه . فقال صلى الله عليه وسلم « إِلَيْكَ عَنِّي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » وهذا لأنه ورد فى الخبر [3] « اَلْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ » . وفى حديث [4] أنس وعائشة رضي الله عنهما ، قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ عِشْرِينَ مَرَّةً » وفى لفظ آخر « الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فَتُحْزِنُهُ » ولا شك فى أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها ، إذ رأوا لأنفسهم مزيدا فيها ، لامن حيث رأوا التداوي نقصانا . وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

بيان

الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل . إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره ، وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال : ينبغى أن يكون من شرط التوكل

---

(١) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فإنها مامرضت قط فقال لاحاجة لى فيها : أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد

(٢) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ماأعرفه فقال إليك عنى ـ الحديث : أبوداود من حديث عامر الرام أخى الخضر بنحوه وفى إسناده من لم يسم

(٣) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار : البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبي أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان

(٤) حديث أنس وعائشة قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة : لم أقف له على إسناد

ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم . فإن قيل: إن ذلك أيضا شرط ، فليكن من شرطه أن تلدغه المقرب أو الحيـة فلا ينحيها عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن ، والعقرب تلدغ الظاهر ، فأي فرق بينهما . فإن قال . وذلك أيضا شرط التوكل ، فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ، ولدغ البرد بالجبة . وهـذا لا قائل به . ولا فرق بين هـذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى ، وأجرى بها سنته .

ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه ، وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين . فقال بعضهم لا ندخل على الوباء ، فنلقي بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت فنكون ، كمن قال الله تعالى فيهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ [١]) فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون في رأيه . أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال . أرأيتم لو كان لأحدكم غنم ، فهبط واديا له شعبتان إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ، وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر . الله أكبر : فقال عبد الرحمن (١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذا كيف اتفق الصحابة

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف اذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه ـ الحديث : وفي أوله قصة خروج عمر بالناس الى الجابية وانه بلغهم أن بالشام وباء ـ الحديث : رواه البخاري

---

(١) البقرة : ٢٤٣

كلهم على ترك التوكل ، وهو من أعلى المقامات ، إن كان أمثال هذا من شروط التوكل

فإن قلت: فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء، وسبب الوباء فى الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر ، فلم لم يرخص فيه ؟

اعلم أنه لا خلاف فى أن الفرار عن المضر غير منهي عنه ، إذ الحجامة والفصد فرار من المضر، وترك التوكل فى أمثال هـذا مباح وهذا لا يدل على المقصود . ولكن الذى ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى ، أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاق ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق له . فإنه إذا كان فيه عفونة ، ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق ، فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير فى الباطن. فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل . ولكن يتوهم الخلاص ، فيصير هـذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما . ولو تجرد هـذا المعنى لكان مناقضا للتوكل، ولم يكن منهيا عنه . ولكن صار منهيا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر، وهو أنه لو رخص للأصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون ، فانكسرت قلوبهم ، وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق فى البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام، وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم ، فيكون ذلك سعيا فى إهلاكهم تحقيقا . وخلاصهم منتظر، كما أن خلاص الأصحاء منتظر. فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ،ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص ، وهو قاطع فى إهلاك الباقين . والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا . والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه

فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهي . وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد ، فإنه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ، ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين ، وقدم عليهم قوم ، فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإعانة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا [1] شبه الفرار من الطاعون فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف لأن فيه

---

(١) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف :رواه أحمد من حديث عائشة باسناد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم

كسراً لقلوب بقية المسلمين ، وسعياً فى إصلاحهم . فهذه أمور دقيقة ، فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماسمعه . وغلطُ العبّادِ والزهاد فى مثل هذا كثير . وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك

فإن قلت : ففى ترك التداوى فضل كما ذكرت ، فلِمَ لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل . فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى مايذكره الموت لغلبة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ماأودع الله تعالى فى الأدوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى ، وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع . فإلى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى . وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ، ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها ، إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها . فإنه لم يكن له نظر فى الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب . كما أن الرغبة فى المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالا فهي أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر . وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده . وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم ، لا لخوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (١) . فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى ، وترخيصا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم ، مع أنه لا ضرر فيه . بخلاف إدخال الأموال ، فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء ، وهذا قد

---

(١) حديث أنه عرضت عليه خزائن الارض فأبى أن يقبلها : تقدم ولفظه عرضت مفاتيح خزائن السماء وكنوز الارض فردها

نهى عنه . ومن حيث إنه يقصد به الصحه ليستعان بها على المعاصى ، وذلك منهي عنه .
والمؤمن فى غالب الأمر لا يقصد ذلك . وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه ، بل
من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع ، كما لا يرى الماء مرويا ، ولا الخبز مشبعا . فحكم
التداوى فى مقصوده كحكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية
كان له حكمها . وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها
أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل فى بعض ،
وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال ، والأشخاص ، والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس
شرطا فى التوكل إلا ترك الموهومات كالكى والرقى ، فإن ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالمتوكلين

بيان

أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر ، وهو من أعلى المقامات ،
لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه و بين الله عز وجل ، فكتمانه أسلم عن الآفات
ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة

الأول : أن يكون غرضه التداوى . فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا فى معرض
الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن
المطبب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى فيّ

الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به ، وكان مكينا فى المعرفة
فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض ، بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى
أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا
حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه ، لم يكن ذلك شكوى

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة
والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روي أنه قيل لعليّ فى مرضه رضي الله عنه . كيف أنت ؟
قال بشرّ . فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك ، وظنوا أنه شكاية فقال . أتجلّد
على الله . فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة ، وتأدب فيه بأدب النبى

صلى الله عليه وسلم إياه، حيث (١) مرض علي كرم الله وجهه. فسمعه عليه السلام وهو يقول. اللهم صبرني على البلاء . فقال له صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ تَعَالَى الْبَلَاءَ فَسَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ »

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية، والشكوى من الله تعالى حرام ، كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة

ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى . فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ، ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربما يوهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوي توكلا فلا وجه في حقه للإظهار، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء . وقد قال بعضهم . من بث لم يصبر وقيل في معنى قوله (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ (١)) لا شكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام . ما الذي أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحزان . فأوحى الله تعالى إليه . تفرغت لشكواي إلى عبادي . فقال يارب أتوب إليك . وروي عن طاوس ومجاهد أنهما قالا . يكتب على المريض أنينه في مرضه . وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه. فجعل الأنين حظه منه وفي الخبر (٢) « إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَكَيْنِ انْظُرَا مَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى بِخَيْرٍ دَعَوَا لَهُ وَإِنْ شَكَا وَذَكَرَ شَرًّا قَالَا كَذَلِكَ تَكُونُ »

وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية . وخوف الزيادة في الكلام . فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه ، فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم . منهم فضيل ، ووهيب ، وبشر . وكان فضيل يقول أشتهي أن أمرض بلا عواد . وقال . لا أكره العلة إلا لأجل العواد . رضي الله عنه وعنهم أجمعين

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا . والله سبحانه وتعالى الموفق

---

(١) حديث مرض علي فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية : تقدم مع اختلاف

(٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا مايقول لعواده ـ الحديث : تقدم

---

(١) يوسف : ٨٣

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سُبُحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته. فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته. والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته وقادة الحق وأزمته، وسلم كثيرا

أما بعد: فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها. وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها، حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس، والشوق، ولذة المناجاة، وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر

ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى،

ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط فى الأنس ، ثم القول فى معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصى لا تناقضه ، وكذا الفرار من المعاصى ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة . فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

بيان

شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض . وكيف يفرض مالا وجود له ، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [1]) وقوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ [2]) وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الايمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال [1] أبو رزين العقيلى : يارسول الله ، ما الإيمان؟ قال « أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفى حديث آخر [2] « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفى حديث آخر [3] « لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وفى رواية « وَمِنْ نَفْسِهِ » كيف وقد قال تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ [3]) الآية . وإنما أجرى

﴿ كتاب المحبة والشوق والرضا ﴾

(١) حديث أبى رزين العقيلى انه قال يارسول الله ما الايمان قال أن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة فى أوله

(٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما : متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى أكون أحب اليه من أهله وماله وذكره بزيادة

(٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفى رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخارى من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنت أحب الى من كل شىء الا نفسى فقال لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب الى من نفسى فقال الآن يا عمر

(١) المائدة : ٥٤ (٢) البقرة : ١٦٥ (٣) التوبة : ٢٤

ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال [١] « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ إِيَّايَ »

ويروى [٢] أن رجلا قال يارسول الله إني أحبك . فقال صلى الله عليه وسلم « اسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ » فقال إني أحب الله تعالى . فقال « اسْتَعِدَّ لِلْبَلَاءِ » . وعن [٣] عمر رضي الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يَغْذُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ »

وفي الخبر المشهور [٤] أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ! فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه . فقال ياملك الموت الآن فاقبض وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه ، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه [٥] « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ » . وجاء [٦] أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله متى الساعة ؟ قال « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر

---

(١) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ـ الحديث : الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب

(٢) حديث ان رجلا قال يارسول اني أحبك فقال استعد للفقر ـ الحديث : الترمذي من حديث عبد الله ابن مغفل بلفظ فأعد للفقر تجفافا دون آخر ـ الحديث : وقال حسن غريب

(٣) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به الحديث : أبو نعيم في الحلية باسناد حسن

(٤) حديث ان ابراهيم قال لملك الموت اذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٥) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك ـ الحديث : تقدم

(٦) حديث قال أعرابي يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن، وقال أبو سليمان الداراني · إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه ؛ فكيف يشتغلون عنه بالدنيا

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر وقد نحلت أبدانهم ، وتغيرت ألوانهم، فقال لهم ماالذى بلغ بكم ما أرى ! فقالوا الخوف من النار. فقال حق على الله أن يؤمّن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذاهم أشد نحولا وتغيرا فقال . ماالذى بلغ بكم ما أرى ! قالوا الشوق إلى الجنة . فقال حق على الله أن يعطيكم ماترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذاهم أشد نحولا وتغيرا، كأن على وجوههم المرائى من النور ، فقال : ماالذى بلغ بكم ما أرى ! قالوا نحب الله عزوجل . فقال أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم فى الثلج ، فقلت أما تجد البرد؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد .وعن سرى السقطى قال :تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام، فيقال ياأمة موسى ، وياأمة عيسى ، وياأمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون ياأولياء الله ،هلموا إلى الله سبحانه ، فكاد قلوبهم تنخلع فرحا . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة

وقال يحيي بن معاذ :عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه !ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ! وحبه يدهش العقول فكيف وده ! ووده ينسي مادونه فكيف لطفه !

وفى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محبا

وقال يحيي بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب

وقال يحيي بن معاذ : إلهى أنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك صغيرا ، أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال سترا، وتوبة ، وزهدا ، وشوقا ، ورضا ، وحبا ، تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك ، ملازما لأمرك ، ومشغوفا بقولك ، ولما طر شاربى ولاح طائرى .فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا !فلى مابقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محب، وكل

محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار مالا يدخل فى حصر حاصر، وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض فى تحقيق معناه فلنشتغل به

بيان

حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لاينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة فى نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك فى تحقيق معناها فى حق الله تعالى

فأول ماينبغي أن يتحقق أنه لايتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا مايعرفه . ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد ، بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات فى انقسامها تنقسم إلى مايوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه ، وإلى ماينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى مالا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ . فكل مافى إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما فى إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك ، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة ولا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها . فإذاً كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن فى الطبع ميلا إليه . ومعنى كونه مبغوضا أن فى الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا ، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوي سمي مقتا . فهذا أصل فى حقيقة معنى الحب لا بد من معرفتــــه

الأصل الثانى : أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لامحالة بحسب انقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات . وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها ، فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين فى الإبصار ، وإدراك المبصرات الجميلة ، والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة . ولذة الشم فى الروائح الطيبة . ولذة الذوق فى الطعوم . ولذة اللمس فى اللين والنعومة . ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها . حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ

(١) حديث حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء ـ الحديث: النسائى من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم

دُنْيَا كُمْ ثَلَاثٌ الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فسمي الطيب محبوبا ، ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط . وسمي النساء محبوبات ، ولاحظ فيهن إلا للبصر واللمس ، دون الشم ، والذوق ، والسمع . وسمي الصلاة قرة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب، لايدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ،فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال إن الله تعالى لايدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب ، فإذاً قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل ، أو بالنور ، أو بالقلب ، أو بما شئت من العبارات ،فلامشاحة فيه وهيهات . فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر . والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لامحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى . ولا معنى للحب إلا الميل إلى مافي إدراكه لذة،كما سيأتي تفصيله ، فلا ينكر إذاً حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم ، فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا

الأصل الثالث : أن الإنسان لايخفى أنه يحب نفسه ، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه . وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لالأجل نفسه ؟ هذا مما قديشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لايتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ، مالم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها

وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته . ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ،وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ، وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ! فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت والقتل ، لالمجرد مايخافه بعد الموت ، ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم ، وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به ، وكان كارها لذلك . ولا يحب الموت والعدم المحض

إلا لمقاساة ألم الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فحبوبه زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم ، بل لأن فيه زوال البلاء ، فالهلاك والعدم ممقوت ، ودوام الوجود محبوب

وكما أن دوام الوجود محبوب . فكمال الوجود أيضا محبوب . لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود ، وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود ، كما أنه ممقوت في أصل الذات . ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً [١]) فإذاً المحبوب الأول للإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله ، وولده ، وعشيرته ، وأصدقاؤه . فالأعضاء محبوبة ، وسلامتها مطلوبة ، لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها . والمال محبوب ، لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله ، وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها ، بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها ، حتى أنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ ، بل يتحمل المشاق لأجله ، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه ، لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا . نعم لو خير بين قتله وقتل ولده ، وكان طبعه باقيا على اعتداله ، آثر بقاء نفسه على بقاء ولده . لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه ، وليس هو بقاءه المحقق . وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كثيرا بهم ، قويا بسببهم ، متجملا بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذاً المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ، ودوام ذلك كله . والمكروه عنده ضد ذلك . فهذا هو أول الأسباب

السبب الثاني . الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَدًا فَيُحِبَّهُ قَلْبِي » إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع

---

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيحبه قلبي : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ ابن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم

---

(١) الاحزاب : ٦٢

دفعه ، وهو جبلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها . و بهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذى لاقرابة بينه و بينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول؛ فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة ، وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود . وكمال الوجود ، وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده ، وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له ، كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة و بين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها ، والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سببٌ للصحة . وكذلك العلم محبوب . والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته ، والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب . و كذلك الطعام والشراب محبوب ، والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته ، والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام

فإذاً يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا ، بل أحب إحسانه ، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب ، مع بقاء ذاته تحقيقا . ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته ، لا لحظ ينال منه وراء ذاته ؛ بل تكون ذاته عين حظه . وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذى يوثق بدوامه ، وذلك كحب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال ، وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة ، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ ، فيجوز أن يكون محبوبا لذاته . وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب ، لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية . وقد (١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجارى . والطباع السليمة قاضية

---

(١) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجارى: أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر الى الخضرة والى الماء الجارى واسناده ضعيف

باستلذاذ النظر إلى الأنوار ، والأزهار ، والأطيار المليحة الألوان ، الحسنة النقوش ، المتناسبة الشكل ، حتى أن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها ، لا لطلب حظ وراء النظر .

فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع . فإن ثبت أن الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) «إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»

الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال

اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل ، وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة ، وامتداد القامة ، إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار ، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص ، فيظن أن ماليس مبصرا ، ولا متخيلا ، ولا متشكلا ، ولا متلونا مقدر ، فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة ، فلم يكن محبوبا . وهذا خطأ ظاهر . فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ، فإنا نقول هذا خط حسن ، وهذا صوت حسن ، وهذا فرس حسن . بل نقول هـذا ثوب حسن ، وهـذا إناء حسن . فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ! ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبـة ، وما من شيء من المدركات ، إلا وهو منقسم إلى حسن ، وقبيح ، فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه ، وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء ، وجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له

فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ، ولون ، وحسن عدْو ، وتيسر كرّ وفرّ عليه . والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط

---

(١) حديث ان الله جميل يحب الجمال : مسلم في أثناء حديث لابن مسعود

من تناسب الحروف ، وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء فى كماله الذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت . ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء

فإن قلت : فهذه الأشياء ، وإن لم تدرك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات ، والطعوم فإنها لاتنفك عن إدراك الحواس لها ،فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال المحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس

فاعلم أن الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات . إذ يقال هذا خلق حسن، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم ، والعقل ، والعفة ، والشجاعة ، والتقوى ، والكرم ، والمروءة ، وسائر خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لايدرك بالحواس الخمس ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة ، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن الأمر كذلك ، أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم ، وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، مع أنهم لم يشاهدوا ، بل على حب أرباب المذاهب ، مثل الشافعي وأبى حنيفة ، ومالك ، وغيرهم ، حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه ، والذبّ عنه ، ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أريق فى نصرة أرباب المذاهب ، وليت شعري من يحب الشافعي مثلا فلمَ يحبه ولم يشاهد قط صورته ،ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والأحاطة بمدارك الدين، وانتهاضه لإفادة علم الشرع ،ولنشره هذه الخيرات فى العالم

وهذه أمور جميلة ، لايدرك جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها، وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره، أو يحب عليا رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى

والشجاعة والكرم وغيره ، فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلا ، ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله ، إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقي ما كان الصدّيق به صديقا ، وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة ، فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات ، مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور ، وقدر على حمل نفسه عليها ، بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لايتجزأ ، فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لايتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله . فإذاً الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا ، فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة ، والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة ، وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى أن الصبي المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة ، فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ، ولم يقدر أن لايحبه ، فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وبغض أبي جهل ، وبغض ابليس لعنه الله ، إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لاتدرك بالحواس ، بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ، ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان ، وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ، ونأي الديار ، فإذاً ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لاينتهي قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لايدركها ولايلتذبها ولايحبها ولايميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال

صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب إذرب شخصين تتأكد المحبة بينهما لابسبب جمال أوحظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم (١) « فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه، لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب، فإذاً ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه، وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه، وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه، وحبه لكل ماهو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لامحالة ، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة ،حسن الخلق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى الخلق، ومحسن إلى الوالد، كان محبوبا لامحالة غاية الحب، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ،فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لامحالة في أعلى الدرجات ، فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى

بيان

أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لامن حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود ، لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ، ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلامحبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ، ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ، وهو

---

(١) حديث فما تعارف منها ائتلف: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصحبة

مجاز محض ، لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ماتخيله ضعفاء العقول والقلوب ، من استحالة حب الله تعالى تحقيقا ، وبان أن التحقيق يقتضى أن لاتحب أحدا غير الله تعالى . فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاؤه وكماله ، ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه ، وعدمه ، ونقصانه ، وقواطع كماله ، فهذه جبلّة كل حيّ ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى ، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لاوجود له من ذاته ، وإنما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكمال وجوده من الله ، وإلى الله ، وبالله ، فهو المخترع الموجد له ، وهو المبقى له ، وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال ، وخلق الأسباب الموصلة إليه ، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لاوجود له من ذاته ، بل هو محو محض ، وعدم صرف ، لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده ، لولا فضل الله عليه بالإبقاء . وهو ناقص بعد الوجود ، لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته

وبالجملة فليس فى الوجود شىء له بنفسه قوام ، إلا القيوم الحي الذى هو قائم بذاته ، وكل ماسواه قائم به ، فإن أحب العارف ذاته ، ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده ، والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ، ومخترعا مبقيا ، وقيوما بنفسه ، ومقوما لغيره ، فإن كان لايحبه فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة ، فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها ، وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه ، الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس ، لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل مافى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة إلى الشجر ، والنور بالاضافة إلى الشمس ، فإن الكل من آثار قدرته ، ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ، ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام ، إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس ، وفائض منها ، وموجود بها ، وهو خطأ محض ، إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار ، أن النور حاصل من قدرة الله تعالى ، اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس

والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم ، فلا يطلب فيها الحقائق ،فإذاً إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا ، فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا ، فى أصله وصفاته ، وظاهره وباطنه ، وجواهره وأعراضه أيضا ضروري أن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن هذا الحب ، فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ،وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به ،والاتساع فيه دون عالم الملكوت ، الذى لايطأ أرضه ، إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم

وأما السبب الثانى : وهو حبه من أحسن إليه ، فواساه بماله ولاطفه بكلامه ، وأمده بمعونته ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ،وقام بدفع شر الأشرار عنه ، وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه،وأولاده وأقاربه ، فإنه محبوب لامحالة عنده ، وهذا بعينه يقتضى أن لايحب إلا الله تعالى ، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها ، إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [1]) وقد أشرنا إلى طرف منه فى كتاب الشكر ، ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى ، ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه،ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط ،فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلقه ، وخلق ماله ، وخلق قدرته ، وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك ، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى الإحسان إليك ، ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ، ومهما سلط الله عليه الدواعى ، وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لايستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره ، وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل . وأما يده

(١) النحل : ١٨

فواسطة يصل بها إحسان الله إليك ، وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن ، لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له فى البذل ، إما آجل وهو الثواب ، وإما عاجل وهو المنّة والاستسخار ، أو الثناء والصيت ، والاشتهار بالسخاء والكرم ، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقى ماله فى البحر ، إذ لا غرض له فيه ، فلا يلقيه فى يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصودا ، بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب ، بسبب قبضك المال ، فقد استسخرك فى القبض للتوصل إلى غرض نفسه . فهو إذاً محسن إلى نفسه ، ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا ألبتة فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين

أحدهما : أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه ، فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير ، فإنه لا يُرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة ، والامتثال لما يرسمه ، ولا يقدر على مخالفته . ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك ، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله ، حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك

والثانى : أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب ، اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا ، بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان فى الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه ، فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ، ولأجلهم ، لا لحظ وغرض يرجع إليه ، فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع

الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والإحسان، والطول والامتنان، فإن كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى، إذ الإحسان من غيره محال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود فى الطباع، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الأرض بعيد عنك، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك، فإنك تجد فى قلبك تفرقة بينهما، إذ تجد فى القلب ميلا إلى الأول، وهو الحب ونفرة عن الثانى، وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول، وآمن من شر الثانى، لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بإيجادهم، وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هي من ضروراتهم، وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التى هي فى مظان حاجاتهم وإن لم تكن فى مظان الضرورة، ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هي فى مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم. ومثال الضروري من الأعضاء الرأس، والقلب، والكبد ومثال المحتاج إليه العين، واليد، والرجل، ومثال الزينة استقواس الحاجبين، وحمرة الشفتين، وتلوز العينين، إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة، ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء، ومثال الحاجة الدواء، واللحم، والفواكه، ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فإذاً هو المحسن، فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ! فإنه خالق الحسن، وخالق المحسن، وخالق الإحسان، وخالق أسباب الإحسان . فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال ، لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال : فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس ، وإلى جمال الصورة المدركة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثانى يختص بإدراكه أرباب القلوب ، ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال . فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب . ومثال هذا فى المشاهدة حب الأنبياء ، والعلماء ، وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء ، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة ، والحس لا يدركه . نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الصديق رضي الله تعالى عنه ، أو الشافعي رحمة الله عليه ، فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ، ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هي مصدر الأفعال ، إذ الأفعال آثار صادرة عنها ، ودالة عليها . فمن رأى حسن تصنيف المصنف ، وحسن شعر الشاعر ، بل حسن نقش النقاش ، وبناء البناء ، انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة . ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة ، كان العلم أشرف وأجمل . وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة ، كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به

فإذاً جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور

أحدها : علمهم بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وشرائع أنبيائه

والثانى : قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة

والثالث : تنزههم عن الرذائل ، والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير ، الجاذبة إلى طريق الشر . وبمثل هذا يحب الأنبياء ، والعلماء ، والخلفاء ، والملوك الذين هم أهل العدل والكرم . فانسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى

أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً [1]) بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه ، كما قال تعالى (خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [2]) فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا ، وكان هو فى نفسه زينة وكمالا الموصف به ، فلا ينبغى أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه . بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه ، استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم ، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما ، تتقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية ، يتصور فى الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لا نهاية لها ، ومعلومات الخلق متناهية

وأما صفة القدرة فهى أيضا كمال ، والعجز نقص ، فكل كمال ، وبهاء ، وعظمة ، ومجد ، واستيلاء ، فإنه محبوب ، وإدراكه لذيذ ، حتى أن الإنسان ليسمع فى الحكاية شجاعة على وخالد رضي الله تعالى عنهما ، وغيرهما من الشجعان ، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران ، فيصادف فى قلبه اهتزازا ، وفرحا ، وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ، ويورث ذلك حبا فى القلب ضروريا المتصف به ، فإنه نوع كمال . فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكا ، وأقواهم بطشا ، وأقهرهم للشهوات ، وأقمعهم لخبائث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، ما منتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض أشخاص الإنس فى بعض الأمور . وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، ولا ضرا ، ولا نفعا

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الرحمن : ٣ ، ٤

بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض . ولا يحتاج إلى عدّ مايعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات ، وأفلاكها ، وكواكبها ، والأرض وجبالها ، وبحارها ، ورياحها ، وصواعقها ،ومعادنها ، ونباتها ، وحيواناتها ،وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته ،وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك .ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه ، كما قال في أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال (إنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ [(١)]) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض ، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته ، وسياسته ، وتمكينه ، واستيلائه ، وكمال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو الجبار القاهر ، والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه ، والأرض وملكها وما عليها في قبضته ، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ، ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته ، فله الجمال والبهاء ،والعظمة والكبرياء ، والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص ، والتقدس عن الرذائل والخبائث ، فهو أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة . والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ، ذى الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا ، مخلوقا ، مسخرا ، مضطرا ، هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده

(١) الكهف : ٨٤

وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره ، قائما بغيره ، وذلك محال فى حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص ، المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص بطول ، وهو من أسرار علوم المكاشفات ، فلا نطول بذكره

فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا ، فلا تتم حقيقته إلا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الحمار ، وللإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس . وأصل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون فى درجات النقصان . فإذاً الجميل محبوب ، والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ندّ له ، الفرد الذى لا ضدّ له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغني الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذى لا أول لوجوده ، الأبدي الذى لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال ، والبهاء والجمال ، والقدرة والكمال ، الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، وتخرس فى وصفه الألسنة ، الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين[1] « لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك ، سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته

فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا ، أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ، ونعوت الكمال والمحاسن ، أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها ؟ أو ينكر كون الكمال والجمال ، والبهاء والعظمة ، محبوبا بالطبع عند من أدركه ؟

(١) حديث لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : تقدم

فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان ، لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . إن أود الأوداء إلىّ من عبدنى بغير نوال ، لكن ليعطى الربوبية حقها . وفى الزبور : مَن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار ، لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع ؟ ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة ، فقال لهم . مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبّاله وتعظيما لجلاله ، فقال . أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم .

وقال أبو حازم . إنى لأستحى أن أعبده للثواب والعقاب ، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفى الخبر [1] « لاَ يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالأَجِيرِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْرًا لَمْ يَعْمَلْ وَلاَ كَالْعَبْدِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ »

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لأن شبه الشيء منجذب إليه ، والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبي يألف الصبي ، والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه ، وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة ، وتشهد له الأخبار والآثار ، كما استقصيناه فى باب الأخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه

وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر ، كمناسبة الصبي الصبي فى معنى الصبا . وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه ، كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ، أو طمع فى مال أو غيره ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين .

---

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل : لم أجد له أصلا

وهذا السبب أيضا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال . بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب ، وبعضها لا يجوز أن يسطر . بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك . فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هي من صفات الإلهية ، من العلم ، والبر ، والإحسان ، واللطف ، وإفاضة الخير ، والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لا بمعنى طلب القرب بالمكان ، بل بالصفات

وأما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمي ، فهي التى يومئ إليها قوله تعالى (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [١]) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [٢]) ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ [٣]) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة . وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة [٢] بقوله تعالى لموسى عليه السلام : مرضت فلم تعدني فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده : وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى [٣] « لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ »

وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه ، فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى

(١) حديث ان الله خلق آدم على صورته : تقدم

(٢) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدنى فقال وكيف ذاك قال مرض فلان ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه ـ الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الحجر : ٣٠ (٣) ص : ٢٦

التشبيه الظاهر ، وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد ، وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم أنا الحق . وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله . وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت . وقال آخرون اتحد به وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل ، واستحالة الاتحاد والحلول ، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر ، فهم الأقلون ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذ غلبه الوجد فى قول القائل

لازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها ، وهو أعزها ، وأبعدها ، وأقلها وجودا

فهذه هي المعلومة من أسباب الحب . وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا . وفى أعلى الدرجات لا فى أدناها . فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط ، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط . ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته أياه فى السبب ، والشركة نقصان فى الحب ، وغض من كماله ، ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى ، فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ، ولا شريك له فى ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلا جرم لا يكون فى حبه شركة ، فلا يتطرق النقصان إلى حبه ، كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته ، فهو المستحق إذ الأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا

بيان

أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذي خلقت له ، فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام ، فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى

طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها . وكذلك لذة السمع ، والبصر ، والشم ، في الإبصار ، والاستماع ، والشم . فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز ، عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي ، لقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [1]) وقد تسمى العقل ، وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسامي . فإن الاصطلاحات مختلفة : والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعانى ، لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ ، وهو عكس الواجب

فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن ، بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كإدراكه خلق العالم ، أو افتقاره إلى خالق قديم ؛ مدبر حكيم ، موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا ؛ بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم ، وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ، فلا ينبغى أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ، فمقتضى طبعها المعرفة ، والعلم وهي لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها . وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة ، حتى أن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به . وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة ، فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم ، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية ، وهي منتهى الكمال

ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه ، فيعجب بنفسه ويلتذ به .

ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ، وملكوت السموات

---

(١) الزمر : ٢٢

والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى أن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة ، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ؟ وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد ، وحبه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم :

فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان فى المعلومات ماهو الأجل والأكمل ، والأشرف ، والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لامحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعرى هل فى الوجود شيء أجل ، وأعلى ، وأشرف وأكمل ، وأعظم ، من خالق الأشياء كلها ومكملها ، ومزينها ، ومبدئها ، ومعيدها ، ومدبرها ، ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك ، والكمال ، والجمال ، والبهاء ، والجلال ، أعظم من الحضرة الربانية التى لايحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟

فإن كنت لاتشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية ، والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات ، هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات ، وألذها ، وأطيبها ، وأشهاها ، وأحرى ماتستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر مايعظم به الفرح ، والارتياح ، والاستبشار

وبهذا تبين أن العلم لذيذ ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين . فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، أعنى لذة الشهوة والغضب ، ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة ، وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة ، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه فى الجمال . وإنما تعرف أقوى اللذات

بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها، وبين استنشاق روائح طيبة ، إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة . وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل ، واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات ، فنعود ونقول :

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس، وإلى باطنة كلذة الرياسة، والغلبة، والكرامة والعلم ، وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ، ولا للأنف ، ولا للأذن ، ولا للمس ، ولا للذوق . والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ، ميت القلب ، شديد النهمة ، اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان علىّ الهمّة ، كامل العقل ، اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة . نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي ، أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه ، لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة . وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته ، فلذة معرفة الله تعالى ، ومطالعة جمال حضرة الربوبية ، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وإنه أعد لهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل ، والتفرد ، والفكر ، والذكر ، وينغمس فى بحار المعرفة ، و يترك الرياسة ، ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته، وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ؛ فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ، ومطالعة صفاته وأفعاله

ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لاتضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع فى رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة . ثم هي أبدية سرمدية لايقطعها الموت ، إذ الموت لايهدم محل معرفة الله تعالى ، ومحلها الروح الذى هو أمر رباني سماوى ، وإنما الموت يغير أحوالها ، ويقطع شواغلها وعوائقها ، ويخليها من حبسها ، فأما أن يعدمها فلا . (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ [1]) الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة ، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفى الخبر [1] أن الشهيد يتمنى فى الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم مايراه من ثواب الشهادة ، وأن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء

فإذاً جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف ، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون فى سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله . ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم

فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة ، أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لاتكون لبهيمة ، ولا لصبي ، ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة

فأما معنى كون معرفة الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملكوت سمواته ؛ وأسرار ملكه

---

(١) حديث ان الشهيد يتمنى أن يرد فى الآخرة الى الدنيا ليقتل مرة أخرى ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء ـ الحديث

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

أعظم لذة من الرياسة ، فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لاقلب له ، لأن القلب معدن هذه القوّة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة . ولكن من سلم من آفة العنة ، وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف

ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية ، فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضا معارف وعلوم ، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية . فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه ، وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوّة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى

فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ! ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت. فقال ذكر الموت؟ فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ؟ فقال وأي شيء القبر؟ فقال خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال وأي شيء هذا؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا

وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى ، فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار ، وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فأنت ؟ قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب ، فأعطاني النظر إليه

وعن علي بن الموفق قال : رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة . فرأيت رجلا قاعدا على مائدة ، وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل . ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس ، فيدخل بعضا ويرد بعضا . قال : ثم جاوزتهما

إلى حظيرة القدس ، فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف . فقلت لرضوان : من هذا ؟ فقال معروف الكرخي ، عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبًّا له ، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ماحقيقة إيمانك ؟ قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبًّا له وشوقا إليه . وقالت فى معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهلا لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما . ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التى عبر عنها[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَالاَعَيْنٌ رَأَتْ وَلاَأُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَخَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية . ولذلك قال بعضهم : إنى أقول يارب ياالله ، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادى جليسه ! وقال : إذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة . أي يخرج كلامه عن حد عقولهم ، فيرون مايقوله جنونا أو كفرا

فقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قرة العين التى لا تعلم نفس ماأخفى لهم منها ، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها ، وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه ، و بلوغه الغاية

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت ـ الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة .

التي ليس فوقها غاية. وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى، وماله صورة ولا شكل ، وأي معنى لوعد الله تعالى به عباده ، وذكره أنه أعظم النعم ! بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قاله بعضهم

كانت لقلبي أهواء مفرّقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم

وهجره أعظم من نار ... ووصله أطيب من جنة

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح. فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط

ومثال أطوار الخلق في لذاتهم ماذكره ، وهو أن الصبي في أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء . ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذه اللعب . ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذة اللعب. ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء ، فيترك بها جميع ماقبلها في الوصول إليها . ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر ، وهي آخر لذات الدنيا ، وأعلاها ، وأقواها ، كما قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ[1]) الآية ، ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، فيستحقر معها جميع ماقبلها، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز ، وحب النساء والزينة في سن البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهي الغاية العليا . وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى ، والعارفون يقولون : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

(١) الحديد : ٢٠

بيان

السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى مايدخـل فى الخيال ، كالصور المتخيلة ، والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى مالايدخل فى الخيال ، كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم ، كالعلم ، والقدرة والإرادة وغـيرها . ومن رأى إنسانا ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر إليها . ولـكن إذا فتح العين وأبصر وأدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختـلاف بين الصورتين ، لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والـكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤيه أتم انـكشافا ووضوحا . وهو كشخص يرى فى وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ، ثم رؤى عند تمام الضوء ، فإنه لاتفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا فى مزيد الانكشاف

فإذاً الخيال أول الإدراك ، والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال ، وهو غاية الكشف وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف ، لالأنه فى العين . بل لو خلق الله هذا الإدراك الـكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية

وإذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم أن المعلومات التى لاتتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى ، والثانية استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والإيضاح مابين المتخيل والمرئى ، فيسمى الثانى أيضا بالإضافة إلى الأول مشاهدة ، ولقاء ، ورؤية . وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ، ويـكون حجابا بين البصر والمرئى ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، ومالم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات ، وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لاتنتهى إلى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال . بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول فى سبب كونها حجابا يطول ، ولا يليق بهذا

العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام (لَنْ تَرَانِي [1]) وقال تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [2]) أي في الدنيا . والصحيح [1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج

فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة . فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ ، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة ، [2] وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلت ولذلك قال الله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [3]) فكل نفس مستيقنة للورود على النار ، وغير مستيقنة للصدور عنها . فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ، ووافى استحقاق الجنة ، وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه ، فإنه واقع بعد القيامة ، ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات ، حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة ، لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تخيله . وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة ففي الصحيحين انها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب * ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور اني أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء الى اثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وحديث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكرا وقال ابن خزيمة في القلب من صحة اسناده شيء مع ان في رواية لاحمد في حديث أبي ذر رأيته نورا اني أراه ورجال اسنادها رجال الصحيح

(٢) حديث ان أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة : الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من حديث أبي هريرة انما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي ـ الحديث : وفيه وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت وذلك سبعة آلاف سنة واسناده ضعيف

---

(١) الأعراف : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٠٣ (٣) مريم : ٧١ ، ٧٢

فإذاً الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصوّر مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا، بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة فتراه فى الآخرة كذلك. بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هي التى تستكمل، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية. فإذا لم يكن فى معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة، فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة، لأنها هي بعينها لا تفترق منها إلا فى زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف، وإليه الإشارة بقوله تعالى (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [1]) إذ تمام النور لا يؤثر إلا فى زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة، والحب زرعا. ومن لا نواة فى أرضه كيف يحصل له نخل! ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع! فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة!

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة. فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر. إذ تختلف لا محالة بكثرتها، وقلتها، وحسنها، وقوتها، وضعفها. ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام [٤] « إِنَّ اللهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِي بَكْرٍ خَاصَّةً » فلا ينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره. ولما فضل الناس بسر

(٤) حديث ان الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصه: ابن عدى من حديث جابر وقال باطل بهذا الاسناد وفى الميزان للذهبى ان الدارقطنى رواه عن المحاملى عن على بن عبدة وقال الدارقطنى ان على بن عبدة كان يضع الحديث: ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى فى الموضوعات من حديث جابر وأبى بردة وعائشة

(١) الحديد : ٢٢

وقر فى صدره ،فضل لامحالة يتجلى انفرد به . وكما أنك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة ، وعلى المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب جميعا، فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ماوصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ماتقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار فبينت أنه ليس فى قلبها إلتفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة

وكل من لا يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة . وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ماعاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فإن ذلك منتهى لذته . وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها مايشتهى ، فمن لايشتهى إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره ، بل ربما يتأذى به

فإذاً نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة التى عبر الشرع عنها بالإيمان

فإن قلت ، فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة، فتضاعفها إلى حد قريب لاينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها

فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة . فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ، وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ، فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا

إلى لذه اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع . وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول :

لذة النظر إلى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب

أحدها : كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة فى النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة

والثانى : كمال قوة الحب ، والشهوة ، والعشق ، فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه

والثالث : كمال الإدراك ، فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة ، أو من وراء ستر رقيق ، أو من بعد ، كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر ، وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد

والرابع : اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ، فليس التذاذ الصحيح ، الفارغ ، المتجرد للنظر إلى المعشوق ، كالتذاذ الخائف المذعور ، أو المريض المتألم ، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات . فقدِّر عاشقا ضعيف العشق ، ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد ، بحيث يمنع انكشاف كنه صورته ، فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو فى هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجاءة حالة انهتك بها الستر ، وأشرق بها الضوء ، واندفع عنه المؤذيات وبقى سليما فارغا ، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها

فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع ، والعطش ، والغضب ، والغم ، والحزن ، وضعف الشهوة . والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى ، والتفاتها إلى أسفل السافلين ، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة ، والتفاته إلى اللعب بالعصفور

والعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات . ولا يتصور أن

يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة مايبهت العقل ، وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته . ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم . بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر مايشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت . وإنما الحياة الطيبة بعد الموت ، وإنما العيش عيش الآخرة (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [1]) . وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى ، فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة ، فإن المعرفة كالبذر ، وبحر المعرفة لاساحل له ، فالإحاطة بكنه جلال الله محال . فكلما كثرت المعرفة بالله ، و بصفاته وأفعاله ، وبأسرار مملكته وقويت ، كثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن . ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولا حصاد إلا فى الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب . ويستدعى ذلك زمانا لامحالة

فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة ، بالغا إلى منتهى مايسر له . ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ، ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر . فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة ، وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ، إن اتسعت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة

---

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله : ابراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادى عن المطلب عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف فى صحبته ولأحمد من حديث جابر ان من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الانابة والترمذى من حديث أبى بكرة ان رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم

---

(١) العنكبوت : ٦٤

فقد عرفت بماذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق، فإنه المحبة المفرطة القوية. ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان

فإن قلت: فهذه الرؤية محلها القلب أو العين فى الآخرة؟

فاعلم أن الناس قد اختلفوا فى ذلك. وأرباب البصائر لايلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهى رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق فى عينه أو فى جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له. والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة، فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا فى حكم الجواز. فأما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع، والحق ماظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق فى العين[1] ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة فى الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم

بيان

الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر، ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب. فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة. وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا

وأصل الحب لاينفك عنه مؤمن، لأنه لاينفك عن أصل المعرفة. وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذى يسمى عشقا، فذلك ينفك عنه الأكثرون. وإنما يحصل ذلك بسببين

(١) حديث رؤية الله فى الآخرة حقيقة: متفق عليه من حديث أبى هريرة ان الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ـ الحديث:

أحدهما ، قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذى لا يتسع للخل مثلا مالم يخرج منه الماء (مَاجَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ[1]) وكمال الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر مايشغل بغير الله ينقص منه حب الله . و بقدر مايبقى من الماء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ[2]) و بقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا[3]) بل هو معنى قولك لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود فإن العبد هو المقيد ، والمعبود هو المقيد به ، وكل محب فهو مقيد بما يحبه. ولذلك قال الله تعالى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ[4]) وقال صلى الله عليه وسلم « أَبْغَضُ إِلٰهٍ عُبِدَ فِي الْأَرْضِ الْهَوَى » ولذلك قال عليه السلام[1] « مَنْ قَالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله ، فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ، ومعبود قلبه ، ومقصود قلبه فقط

ومن هذا حاله فالدنيا سجنه ، لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه . وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب. فما حال من ليس له إلا محبوب واحد ، وقد طال إليه شوقه ، وتمادى عنه حبسه ، خلى من السجن ، ومكن من المحبوب ، وروح بالأمن أبد الآباد ؟

فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ، ومنه حب الأهل ، والمال ، والولد ، والأقارب ، والعقار ، والدواب ، والبساتين ، والمتنزهات ، حتى أن المتفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ، ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه . فبقدر ماأنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأة إلا ويضيق به قلب ضرتها . فالدنيا والآخرة ضرتان ، وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا

---

(١) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة : تقدم

(١) الاحزاب : ٤ (٢) الأنعام : ٩١ (٣) الاحقاف : ١٣ (٤) الفرقان : ٤٣

أوضح من الإبصار بالعين . وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء ؛ فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر ، والزهد ، والخوف ، والرجاء ، هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة ، وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا ، وفي المال والجاه ، وكل حظوظ الدنيا ، حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ، وهو أحد ركني المحبة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : [1] « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة

السبب الثاني : لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها ، واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش ، وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ [1]) وإليها الإشارة بقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [2]) أي المعرفة (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [3]) فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم ، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولا من الدنيا ، ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة . وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل . فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة ، وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ، ويتزين بعلم المعرفة ، وهو علم المكاشفة . ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم ، والجد البالغ في الطلب ، والنظر المستمر في الله تعالى

---

(١) حديث الطهور شطر الايمان : مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم

[1] ابراهيم : ٢٤ (٢ ، ٣) فاطر : ١٠

وفى صفاته ، وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ، ويكون أول معرفتهم لله تعالى، ثم به يعرفون غيره ، وإلى الضعفاء ، ويكون أول معرفتهم بالأفعال ، ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[1]) وبقوله تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ[2]) ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال: عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى . وإلى الثانى الإشارة بقوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ[3]) الآية وبقوله عز وجل (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[4]) وبقوله تعالى (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[5]) وبقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ[6]) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين ، وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرءان عند الأمر بالتدبر ، والتفكر ، والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل ، فأوضح لنا منهما مايستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة ، فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق ، فلا فائدة فى إيراده فى الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر ، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمانع من ذكر هذا إتساعه وكثرته ، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ، إذ مامن ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ، ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لايتناهى (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي[7]) فالخوض فيه انغماس فى بحار علوم

(١ ، ٤) فصلت : ٥٣ . (٢) آل عمران : ١٨ (٣) الأعراف : ١٨٥ (٥) يونس : ١٠١ (٦) الملك : ٣ ، ٤
(٧) الكهف : ١٠٩

المكاشفة . ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول .

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال ، فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى . ثم الأفعال الإلهية كثيرة ، فلنطلب أقلها . وأحقرها ، وأصغرها ، ولننظر في عجائبها . فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ، أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص ، فالشمس على ماترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه ، فإنه لا نسبة لها إليه ، وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى مافوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة ، والكرسي في العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « الْأَرْضُ فِي الْبَحْرِ كَالْإِسْطَبْلِ فِي الْأَرْضِ » ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة إلى كل الأرض

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر مانعرفه من الحيوانات البعوض والنحل ومايجرى مجراه ، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره ، وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطوما مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة ، فأنبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغاذية ، والجاذبة ، والدافعة ، والماسكة ، والهاضمة ، ماركب في سائر الحيوانات . هذا في شكله وصفاته . ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه ،

---

(١) حديث الارض في البحر كالاصطبل في الارض: لم أجد له أصلا

وعرّفه أن غذاءه دم الإنسان ، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وكيف هداه إلى مسامّ بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه فى واحد منها ، ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ، وكيف علمه المص والتجرع للدم ، وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهى إلى باطنه ، وينتشر فى سائر أجزائه ويغذيه ، ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته ، وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد يعود ، ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه ، وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب يدين ، فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه ، وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدها على الآخر ، وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين ، وتعين على الإبصار ، وتحسن صورة العين ، وتشبكها عند هيجان الغبار ، فينظر من وراء شباك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان ، وعلمها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج ، لأن بصرها ضعيف ، فهي تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه فى بيت مظلم ، وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ، ويرمى بنفسه إليه ، فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد ، فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق .

ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها . بل صورة الآدمى فى الإكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ، ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ، ويتقيد بها ، ويهلك هلاكا مؤبدا

فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش ، فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال، والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة . ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول [1] « إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَافَتُونَ فِيهَا تَهَافُتَ الْفَرَاشِ »

فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب مالو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ، ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته . فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره . فانظر إلى النحل وعجائبها ، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء، وجعل الآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها عن النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا ، وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك ، وفارغا من هم بطنك وفرجك، وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك، وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبني بيتا مستديرا ، ولا مربعا ، ولا مخمسا ، بل مسدسا ، لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقي فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس

---

(١) حديث اني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش : متفق عليه من حديث أبي هريرة مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي

وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه، ولطافة قده ، لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه. فسبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع لطفه وامتنانه

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه. بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى

فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم، فعساك تحظى منها بقدر يسير، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له

بيان

السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت سمعهم، فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً ، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقربون

وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ [1]) الآية . فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول .

أصحاب الشافعي مثلا يشتركون فى حب الشافعي رحمه الله ، الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ، ودينه ، وحسن سيرته ، ومحامد خصاله . ولكن العامى

---
(١) الواقعة : ٨٨ ، ٨٩ .

يعرف عامه مجملا ، والفقيه يعرفه مفصلا . فتكون معرفة الفقيه به أتم ، وإعجابه به وحبه له أشد . فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله ، أحبه لامحالة، ومال إليه قلبه . فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب ، تضاعف لامحالة حبه ، لأنه تضاعفت معرفته بعلمه . وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة ،وازداد له حبا . وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف ، وأنه حسن التصنيف ، ولكن لايدرى مافى التصنيف ، فيكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحسبه ميل مجمل . والبصير إذا فتش عن التصانيف ، واطلع على مافيها من العجائب ،تضاعف حبه لامحالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف . والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامى يعلم ذلك ويعتقده . وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه مايبنهر به عقله ، ويتحير فيه لبه ، ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه ،فيزداد له حبا. وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا ، استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا

وبحر هذه المعرفة ، أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى ، بحر لاساحل له ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لاحصر له

ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه ، منعما عليه ، ولم يحبه لذاته ، ضعفت محبته . إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته ، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لايتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه

فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة ، والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ، ولذلك قال تعالى (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً[1])

---

(١) الاسراء : ٢١

بيان

السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى . وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ؛ وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا ، كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته للخياطة ، أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته ، وغضبه ، وخلقه ، وصحته ، ومرضه ، وكل ذلك لا نعرفه . وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته . وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ، وكونه حيوانا ، فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما فى العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلي واضح

ووجود الله تعالى ، وقدرته وعلمه ، وسائر صفاته ، يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ، ومدر ، ونبات ، وشجر ، وحيوان ، وسماء ، وأرض ، وكوكب ، وبر ، وبحر ، ونار ، وهواء ، وجوهر ، وعرض ؛ بل أول شاهد عليه أنفسنا ، وأجسامنا ، وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا . وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة . وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد ، وشاهد واحد ، ودليل واحد . وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ، ومدبرها ، ومصرفها ، ومحركها ، ودالة على علمه ، وقدرته ، ولطفه ، وحكمته . والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا ، وليس يشهد لها إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسسنا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور فى الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها

إلا وهو شاهد عليه ، وعلى عظمته وجلاله ، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ، ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا ، وائتلاف عظامنا ، ولحومنا ، وأعصابنا ، ومنابت شعورنا ، وتشكل أطرافنا ، وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق فى الوجود شيء مدرك ، ومحسوس ، ومعقول ، وحاضر ، وغائب ، إلا وهو شاهد ومعرف ، عظم ظهوره ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه ، فإن ماتقصر عن فهمه عقولنا فله سببان :

أحدهما: خفاؤه فى نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله .

والآخر: مايتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهر نوره الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره

فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره . واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى أنه لاضد له عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس . فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لاغروب لها ، لكنا نظن أنه لاهيئة فى الأجسام إلا ألوانها ، وهي السواد والبياض وغيرهما ؛ فإنا لانشاهد فى الأسود إلا السواد ، وفى الأبيض إلا البياض . فأما الضوء فلا ندركه وحده . ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع ، أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء ، واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع

عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور
هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات

فما هو ظاهر فى نفسه وهو يظهر لغيره ، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده . فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به و بعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ، ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب فى قصور الأفهام

وأما من قويت بصيرته ، ولم تضعف منته ، فإنه فى حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس فى الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر فى شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء ، وأرض ، وحيوان ، وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق ، فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر فى شعر إنسان ، أو خطه أو تصنيفه ، ورأى فيها الشاعر والمصنف ، ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر ، وعفص ، وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف

وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله ، وأحبه من حيث إنه فعل الله ، لم يكن ناظرا إلا فى الله ، ولا عارفا إلا بالله ، ولا محبا إلا له وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه ، بل من حيث أنه عبد الله . فهذا الذى يقال فيه إنه فنى فى التوحيد وإنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كُنَّا بِنَا ، ففنينا عنا ، فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها ، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها و بيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم

فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها

التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس . ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا ، انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه ، وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها . ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ، ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء ، والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان ، دفعة واحدة على سبيل الفجأة ، لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة ، والسباحة في بحارها الواسعة ، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة ، فهذا سر هذا الأمر فليحقق ، ولذلك قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان

معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب . ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر ، وبطريق الأخبار والآثار

أما الاعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه في غيبته لا محالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه . فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر، والموجود لا يطلب . ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق إليه . وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه . وكمال الإدراك بالرؤية ،

فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق. ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات، فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه ، وبقي فى قلبه خياله ، فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحى عن قلبه ذكره ، وخياله ، ومعرفته حتى نسيه، لم يتصور أن يشتاق إليه . ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية . فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته ،فيشتاق إلى استكمال رؤيته . وتمام الانكشاف فى صورته بإشراق الضوء عليه

والثانى : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه ، فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ، ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ، ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ، ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية ، فيشتاق إلى أن ينكشف له مالم يره قط

والوجهان جميعا متصوران فى حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان فى غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق، فلا يكون متضحا غاية الاتضاح ،بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات، فإن الخيالات لا تفتر فى هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات. وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلى ، ولا يكون ذلك إلا فى الآخرة،وذلك بالضرورة يوجب الشوق،فإنه منتهى محبوب العارفين. فهذا أحد نوعي الشوق ، وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا مّا

الثانى : أن الأمور الإلهية لا نهاية لها ،وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ،وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة ،والعارف يعلم وجودها ،وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ماغاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر،فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التى لم يعرفها أصلا ، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة

والشوق الأول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ، ولقاء ، ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن فى الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات

يوم يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك ، فقد أضر بي القلق . قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال : ياإبراهيم ، أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك مايسكن به قلبك قبل لقائي ! وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ! فقلت يارب تهت في حبك فلم أدر ماأقول فاغفرلي وعلمني ماأقول فقال . قل اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك، فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة

وأما الشوق الثاني : فيشبه أن لايكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى ، وصفاته ، وحكمته ، وأفعاله ، ماهو معلوم لله تعالى ، وهو محال ، لأن ذلك لانهاية له ، ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال مالم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم . ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد ، وتكون لذة مايتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى مالم يحصل ، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا . فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ، ولكن يكون مستمرا على الدوام : وقوله سبحانه وتعالى (نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [1]) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور . ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير مااستنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا [2]) يدل على أن الأنوار لابد وأن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة إشراقا . فأما أن يتجدد نور فلا . والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد مايوثق به ، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا، ويرينا الحق حقا، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى . فما اشتهر من دعاء رسول الله

(١) التحريم : ٨ (٢) الحديد : ١٣

صلى الله عليه وسلم (١) أنه كان يقول « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاء، وَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ »

وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرنى عن أخص آية ، يعنى فى التوراة . فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا . قال ومكتوب إلى جانبها ، من طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى . فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا

وفى أخبار داود عليه السلام ، أن الله تعالى قال : ياداود ، أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى ، وجليس لمن جالسنى ، ومؤنس لمن أنس بذكرى ، وصاحب لمن صاحبنى ، ومختار لمن اختارنى ، ومطيع لمن أطاعنى . ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى ، وأحببته حبا لايتقدمه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا ياأهل الأرض ماأنتم عليه من غرورها ، وهلموا إلى كرامتى ، ومصاحبتى ، ومجالستى وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نجيى ، ومحمد صفيى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ، ونعمتها بجلالى

وروي عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين . إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم ، وينظرون إلي وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام وفرشت الفرش ، ونصبت الأسرة ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا إلي أقدامهم ، وافترشوا إلي وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلي بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى مايتحملون من أجلى ، وبسمعى مايشتكون من حبى . أول ماأعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما

---

(١) حديث انه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ـ الحديث : أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ماأريد أن أعطيه !

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ، ياداود ، إلى كم تذكر الجنة ولاتسألنى الشوق إلي ! قال يارب من المشتاقون إليك ؟ قال إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إلي خرقا ينظرون إلي ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم أدعو نجباء ملائكتى ، فإذا اجتمعوا سجدوا لى فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ، ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إليّ ، وأباهى بكم أهل الشوق إليّ ، فإن قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض ياداود ، إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ، ونعمتها بنور وجهى ، فاتخذتهم لنفسى محدثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلي يزدادون فى كل يوم شوقا . قال داود: يارب أرنى أهل محبتك . فقال ياداود ، ائت جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفسا ، فيهم شبان ، وفيهم شيوخ ، وفيهم كهول فإذا أتيتهم فاقرئهم منى السلام ، وقل لهم : إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ فإنكم أحبائى ، وأصفيائى ، وأوليائى ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام ، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عزوجل . فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه . فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم . فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض . فقال داود. إنى رسول الله إليكم ، يقرئكم السلام ،ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم ، فإنكم أحبائى ، وأصفيائى ، وأوليائى ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم ، وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . قال فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم . سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فاغفر لنا ماقطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا

وقال الآخر: سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك. نحن عبيدك وبنو عبيدك ،

أفنجترىء على الدعاء وقد علمتَ أنه لاحاجة لنا فى شيء من أمورنا ، فأدم لنا لزوم الطريق إليك ،وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر: نحن مقصرون فى طلب رضاك،فأعنا علينا بجودك

وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ، ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك ، أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك،متفكر فى جلالك ، وطلبتنا الدنوّ من نورك

وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ، وفرغتنا للاشتغال بك ،فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك

وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك

وقال الآخر : كيف يجترىء العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك ، فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات

وقال الآخر : ندعوك أن تقبل علينا ، وتديمه عندنا . وقال الآخر . نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا ، وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لاحاجة لنا فى شيء من خلقك ، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك

وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا واهلها ، وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر :قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم : قد سمعت كلامكم ، وأجبتكم إلى ماأحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه ، وليتخذ لنفسه سربا ، فإنى كاشف الحجاب فيما بينى و بينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال دواود : يارب بم نالوا هذامنك؟ قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها ، والخلوات بى ، ومناجاتهم لى ، وإن هذا منزل لاينا له إلا من رفض الدنيا وأهلها ، ولم يشتغل بشيء من ذكرها ، وفرغ قلبه لى ، واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه ، وأفرغ نفسه ، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء ، وأريه كرامتى فى كل ساعة ، وأقربه من نور وجهى . إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته ، وأذيقه طعم ذكرى

فإذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ، ولم أحببها إليه، لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم ، وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي ، لا يرى غيري ولا أرى غيره . فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ، ونحل جسمه، وتهشمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع بذكري ، أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي، يزداد خوفا وعبادة، وعزتي وجلالي ياداود لأقعدنه في الفردوس، ولأشفين صدره من النظر إليّ ، حتى يرضى وفوق الرضا

وفى أخبار داود أيضا : قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي ، ماضركم إذا احتجبت عن خلقي ، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم؟ وماضركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم ؟ وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي ؟

وفى أخبار داود أيضا ، أن الله تعالى أوحى إليه : تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبي وحبها لا يجتمعان فى قلب ياداود خالص حبيبي مخالصة ، وخالط أهل الدنيا مخالطة . ودينك فقلدنيه ، ولا تقلد دينك الرجال . أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه ، حقا عليّ أني أسارع إلى سياستك وتقويمك ، وأكون قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني ، وأعينك على الشدائد . وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته القاء كنفه بين يدي، وأنه لاغنى به عني . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك ، وأسكن الغنى قلبك ، فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبدلي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إليّ ، لا تضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصبحك ، ولا تجد لمعرفتي حدا، فليس لها غاية . ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ، ولا تجد للزيادة مني حدا . ثم أعلم بني اسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ضعني بين عينيك ، وانظر إليّ ببصر قلبك ، ولا تنظر بعينك التي فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني ، فامرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها ، فإني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل فى طاعتي للتجربة والتسويف. تواضع لمن تعلمه ، ولا تطاول على المريدين ، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضا يمشون عليها . ياداود ، لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك

عندى جهيدا ، ومن كتبته عندى جهيدا لاتكون عليه وحشة ولافاقة إلى المخلوقين . ياداود، تمسك بكلامى ، وخذ من نفسك لنفسك ، لاتؤتين منها فأحجب عنك محبتى ، لاتؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقى .مابال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتى .وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول ،أدنى مايصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى ،فإنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها ،ياداود،لاتجعل بينى وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين . استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار ، فإن محبتى للصوم إدمانه . ياداود ، تحبب إلىّ بمعاداة نفسك ، امنعها الشهوات أنظر إليك ، وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به،وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتى . وأوحى الله تعالى إلى داود.ياداود ، لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ،لماتوا شوقا إلىّ،وتقطعت أوصالهم من محبتى . ياداود، هذه إرادتى فى المدبرين عنى، فكيف إرادتى فى المقبلين على ؟ ياداود أحوج مايكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى، وأرحم ماأكون بعبدى إذا أدبر عنى،وأجل مايكون عندى إذا رجع إلي . فهذه الأخبار ونظائرها مما لايحصى تدل على إثبات المحبة والشوق ، والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق

بيان

محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرءان متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده ، فلابد من معرفة معنى ذلك . ولنقدم الشواهد على محبته . فقد قال الله تعالى(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [1])وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا [2]) وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [3])ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

(١) المائدة : ٥٤ (٢) الصف : ٤ (٣) البقرة : ٢٢٢

بِذُنُوبِكُمْ[١]) . وقد روى[١] أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْداً لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَاذَنْبَ لَهُ » ثم تلا (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ[٢]) ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لايضر الكفر الماضي بعد الإسلام

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ[٣]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَايُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ » وقال عليه السلام[٤] « قَالَ اللهُ تَعَالَى لَايَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ » الحديث

وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك

وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر ، وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر . فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ،

---

(١) حديث أنس اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لاذنب له : ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة

(٢) حديث ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ـ الحديث : الحاكم وصحح اسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود

(٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله : ابن ماجه من حديث أبي سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر الى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة

(٤) حديث قال الله تعالى لايزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

(١) المائدة : ١٨ (٢) البقرة : ٢٢٢ (٣) آل عمران : ٣١ .

بل الأسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا ، حتى أن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم ،نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ،إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر ، وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه . وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر ، كالعلم ، والإرادة، والقدرة وغيرها ، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق. وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامي أولا للخلق ، فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة ، والتجوز ، والنقل . والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم،وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها مايوافقها ، فتستفيد بنيله كمالا ، فتلتذ بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال ، وجمال ، وبهاء ،وجلال ممكن في حق الإلهية ، فهو حاضر وحاصل ، وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولا يتصور تجدده ولا زواله ،فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره ، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله . ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى ، لما قرئ عليه قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[1]) فقال : بحق يحبهم ، فإنه ليس يحب إلا نفسه ،على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره . فمن لا يحب إلا نفسه ، وأفعال نفسه ، وتصانيف نفسه ، فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته . فهو إذاً لا يحب إلا نفسه . وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ، ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إياه من القرب منه ، وإلى إرادته ذلك به في الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث

---

(١) المائدة : ٥٤

بحدوث السبب المقتضى له ، كما قال تعالى : لايزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله فى درجة القرب من ربه . فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به، فهو معنى حبه

ولا يفهم هذا إلا بمثال ، وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه، ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه ، لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته ،أو ليستريح بمشاهدته،أو ليستشيره فى رأيه ، أو ليهيء أسباب طعامه وشرابه . فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له . وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه،لا للانتفاع به،ولا للاستنجاد به،ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك ؛ وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا . فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه ، يقال قد أحبه . وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب ، يقال قد توصل وحبب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الأول وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب من الله فى البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التى هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا ، إذ صار قريبا بعد أن لم يكن ،وهو محال فى حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال بل لا يزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى أزل الآزال

ولا ينكشف هذا إلا بمثال فى القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا ، فيتحرك الآخر ، فيحصل القرب بتغير فى أحدهما من غير تغير فى الآخر . بل القرب فى الصفات أيضا كذلك ، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه فى كمال العلم وجماله ، والأستاذ واقف فى كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائبا فى التغير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير . فكذلك ينبغى أن

يفهم ترقى العبد فى درجات القرب ، فكلما صار أكمل صفة ، وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور ، وأثبت قوة فى قهر الشيطان وقمع الشهوات ،وأظهر نزاهةعن الرذائل، صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله ، وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ ، وعلى مساواته ، وعلى مجاوزته ، وذلك فى حق الله محال ، فإنه لانهاية لكماله ، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ، ولا ينتهى إلا إلى حد محدود ، فلا مطمع له فى المساواة

ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لانهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال

فإذاً محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه ، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه. وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه، فاقد له ، فلا جرم يشتاق إلى مافاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس ، فبم يعرف العبد أنه حبيب الله

فأقول: يستدل عليه بعلاماته .وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً أَبْتَلاَهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبَّ الْبَالِغَ اقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلاَ مَالاً » فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ، ويحول بينه وبين غيره ، قيل لعيسى عليه السلام . لم لاتشترى حمارا فتركبه ؟ فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر [٢] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً أَبْتَلاَهُ فَإِنْ صَبَرَ أَجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال بعض العلماء . إذا رأيتك تحبه ، ورأيته يبتليك ، فاعلم أنه يريد يصافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه . قد طولعت بشيء من المحبة . فقال يابني ، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟ قال لا . قال فلا تطمع فى المحبة ، فإنه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظاً مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِراً مِنْ قَلْبِهِ

---

(١) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبي عتبة الخولانى وقد تقدم

(٢) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث على ابن أبي طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده

(٣) حديث اذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ اذا أراد الله بعبد خيرا

يأمره وينهاه » وقد قال[1] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ » فأخص علاماته حبه لله : فإن ذلك يدل على حب الله

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا ، فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه ، سره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل همومه هما واحدا ، والمبغض للدنيا في قلبه ، والموحش له من غيره ، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته ، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فإنها أيضا علامات حب الله للعبـــد

القول

في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد ، وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ! فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ، مالم يمتحنها بالعلامات ، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمارها تظهر في القلب ، واللسان ، والجوارح ، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ، ودلالة الثمار على الأشجار ، وهي كثيرة

فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهـدة في دار السلام . فلا يتصوّر أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ، وإذا علم أنه لاوصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت ، فينبغي أن يكون محبا للموت غير فارّ منه ، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم[2] « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ » وقال حذيفة عنـد الموت . حبيب جاء على فاقة لاأفلح من ندم . وقال بعض السلف : مامن خصلة

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه باسناد ضعيف

(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه : متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة

أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله، حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا[1]) وقال عز وجل (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ[2]) وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل ، وهو مع ثقله مريء ، والباطل خفيف ، وهو مع خفته وبيء ، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه . ويروي عن [1] اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد . ألا ندعو الله ؟ فخلوا في ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش فقال . يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه ، شديدا حرده ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي ، وأذني ، ويبقر بطني ، فإذا لقيتك غدا قلت ياعبد الله من جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول فيك يارب وفي رسولك ، فتقول صدقت . قال سعد . فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط ، قال سعد بن المسيب أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله

وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان . لايكره الموت إلا مريب، لأن الحبيب على كل حال لايكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد . أتحب الموت ؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته ، وتلا قوله تعالى (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[3]) فقال الرجل . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ » فقال : إنما قاله لضر نزل به ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه

---

(١) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب اني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجدع أنفي وأذني ـ الحديث : الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية واسناده جيد

(٢) حديث لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

(١) الصف : ٤ (٢) التوبة : ١١١ (٣) البقرة : ٩٤

فإن قلت : فمن لايحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟

فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا ، والتأسف على فراق الأهل،والمال،والولد وهذا ينافى كمال حب الله تعالى ، لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب . ولكن لايبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن النـاس متفاوتون فى الحب ، ويدل على التفاوت ماروي أن [1] أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه ،عاتبته قريش فى ذلك وقالوا . أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ! فقال والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللهَ بِكُلِّ قَلْبِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ » فهذا يدل على أن من الناس من لايحب الله بكل قلبه ، فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقـاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها

وأما السبب الثانى للكراهة فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة ، وليس يكره الموت ، وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لايدل على ضعف الحب ، وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره، ويعد له أسبابه،فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل،خفيف الظهر عن العوائق .فالكراهة بهذا السبب لاتنافى كمال الحب أصلا .وعلامته الدؤب فى العمل ، واستغراق الهم فى الاستعداد

ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على مايحبه فى ظاهره وباطنه ، فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ،ومتقربا إليه بالنوافل ، وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه . وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال(يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً

---

(١) حديث أبى حذيفة بن عتبة انه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم:لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفى رواية له ان سالما شديد الحب لله عزوجل لو لم يخف الله عزوجل ماعصاه وفيه عبد الله بن لهيعة

مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (١)) ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه . كما قيل .

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ماأريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، كما روي أن زليخالما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام ، انفردت عنه وتخلت للعبادة ،وانقطعت إلى الله تعالى،فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار ، وقالت يايوسف ، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فأما إذا عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه ، وما أريد به بدلا . حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك ، وأخبرني أنه مخرج منك ولدين ، وجاعلهما نبيين ، فقالت أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك ، وجعلني طريقا إليه ، فطاعة لأمر الله تعالى . فعندها سكنت إليه

فإذاً من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا

وأترك ماأهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى . علامة الحب إيثاره على نفسك ، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى . وهو كما قال ،لأن محبته الله تعالى سبب محبة الله له، كما قال تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ (٢)) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته ، فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته . ولذلك قال تعالى (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٣))

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟

فأقول: إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها . فكم من إنسان يحب نفسه ، وهو مريض ويحب الصحة ، ويأكل مايضره ، مع العلم بأنه يضره ، وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه .

(١) الحشر : ٨ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) النساء ٤٥

ولكن المعرفة قد تضعف ، والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل عليه ماروي (١) أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها، إلى أن أتى به يوما فحده. فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم «لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة . نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب، وقد قال بعض العارفين. إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ ، وترك المعاصى وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل . إذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إن قلت لا كفرت ، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء . ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره ، وذكر ما يتعلق به ، فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرءان الذى هو كلامه ؛ وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحب كل من ينسب إليه . فإن من يحب إنسانا يحب كلب محلته ، فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة فى الحب ، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره ؛ بل هو دليل على كمال حبه . ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله ، لأنهم خلقه ؛ فكيف لا يحب القرءان ، والرسول ، وعباد الله الصالحين ! وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الأخوة والصحبة ، ولذلك قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (١)) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِلَّهِ تَعَالَى»

وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله. ومن أكرم من يكرم الله تعالى

---

(١) حديث أتى بنعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله : البخاري وقد تقدم

(٢) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ـ الحديث : تقدم

---

(١) آل عمران ٣١ :

فإنما يكرم الله تعالى . وحكي عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الإرادة ، فأدمنت قراءة القرءان ليلا ونهارا ، ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة . قال فسمعت قائلا يقول فى المنام : إن كنت تزعم أنك تحبنى فلمَ جفوت كتابى ؟ أما تدبرت مافيه من لطيف عتابى ! قال فانتبهت وقد أشرب فى قلبي محبة القرءان، فعاودت إلى حالى

وقال ابن مسعود : لاينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرءان . فإن كان يحب القرءان فهو يحب الله عز وجل ، وإن لم يكن يحب القرءان فليس يحب الله .

وقال سهل رحمة الله تعالى عليه: علامة حب الله حب القرءان، وعلامة حب الله وحب القرءان حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ، ويغتنم هدء الليل ، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق . وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته. فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله ، كيف تصح محبته ! قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وفى أخبار داود عليه السلام : لاتستأنس إلى أحد من خلقى ، فإنى إنما أقطع عنى رجلين. رجلا استبطأ ثوابى فانقطع ، ورجلا نسيني فرضي بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه ، وأن أدعه فى الدنيا حيران

ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ، ساقطا عن درجة محبته . وفى قصة برخ ، وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ، أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام . إن برخا نعم العبد هو لى ، إلا أن فيه عيبا . قال يارب وماعيبه ؟ قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ، ومن أحبنى لم يسكن إلى شيء

وروي أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا ، فنظر إلى طائر وقد عشش فى شجرة يأوي إليها ، ويصفر عندها ، فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة ، فكنت آنس

بصوت هذا الطائر . قال ففعل . فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان : قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا

فإذاً علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة به ، وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة ، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه . وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به . ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا مالم تكرر على سمعه مرارا ، مثل العاشق الولهان ، فإنه يكلم الناس بلسانه ، وأنسه في الباطن بذكر حبيبه

فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[1]) قال هشت إليه ، واستأنست به وقال الصديق رضي الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر : المحب لا يسأم من حديث حبيبه

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيي بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق ، والعبادة على خدمة الخلق

ومنها أن لا يتأسف على مايفوته مما سوى الله عز وجل ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب ، والتوبة . قال بعض العارفين . إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه ، فذهب عنهم التأسف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما ، وماشاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم

---

(١) الرعد : ٢٨

وحق المحب إذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه ، ويشتغل بالعتاب ، ويسأله ويقول . رب بأي ذنب قطعت برك عنى ، وأبعدتنى عن حضرتك ، وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب ، يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه

ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ، ولم ير شيئا إلا منه ، لم يتأسف ولم يَشْكُ ، واستقبل الكل بالرضا ، وعلم أن المحبوب لم يقدّر له إلا مافيه خيرته ، ويذكر قوله (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [1])

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ، ويسقط عنه تعبها ، كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وقال بعضهم : العمل على المحبة لايدخله الفتور . وقال بعض العلماء . والله مااشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل

فكل هذا وأمثاله موجود فى المشاهدات ، فإن العاشق لايستثقل السعي فى هوى معشوقه ، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة ، وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به . فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا قهر لامحالة ماهو دونه . فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته . وإن كان أحب إليه من المال ترك المال فى حبه . وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء . ما كان سبب حالك هذه فى المحبة ؟ فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول ، أناوالله أحبك بقلبي كله ، وأنت معرض عنى بوجهك كله . فقال له المحبوب : إن كنت تحبنى فإيش تنفق عليّ ؟ قال ياسيدى أملكك ماأملك ، ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك . فقلت هذا خلق لخلق ، وعبد لعبد ، فكيف بعبد لمعبود ! فكل هذا بسببه

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله ، رحيما بهم ، شديدا على جميع أعداء الله ، وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه ، كما قال الله تعالى (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [2])

---

(1) البقرة : ٢١٦ (2) الفتح : ٢٩

ولا تأخذه لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أولياءه إذ قال : الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ، ويأوون إلى ذكرى كما يأوي النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد ، فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا المثال ، فإن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا . وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه، فإن نام أخذه معه في ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به، ومهما فارقه بكى ، ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ، ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب ، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه

فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه ، فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه . ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين، كما قال تعالى في الأبرار (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [1]) ثم قال (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [2]) فإنما طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقربين . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [3]) ثم قال (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ [4]) فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون . وكما أن الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ، ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم في الآخرة (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [5]) (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ [6]) وكما قال تعالى (جَزَاءً وِفَاقًا [7]) أي وافق الجزاء أعمالهم . فقوبل الخالص بالصرف من الشراب ، وقوبل المشوب بالمشوب ، وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [8]) و (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [9]) و (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [10]) (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

(١) الانفطار : ١٣ (٢) المطففين : ٢٥ - ٢٨ (٣) المطففين : ١٨ (٤) المطففين : ٢١ (٥) لقمان : ٢٨
(٦) الأنبياء : ١٠٤ (٧) النبأ : ٢٦ (٨) الزلزلة : ٧ ، ٨ (٩) الرعد : ١١ (١٠) النساء : ٤٠

وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (١)) فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والحور العين والقصور ، مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء ، فيلعب مع الولدان ، ويتمتع بالنسوان ، فهناك تنتهى لذته فى الآخرة ، لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ماتشتهيه نفسه وتلذ عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ، ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق ، أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . فالأبرار يرتعون فى البساتين . ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان ، والمقربون ملازمون للحضرة ، عاكفون بطرفهم عليها ، يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها . فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِى الْأَلْبَابِ » . ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين ، عظم أمره فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (٢)) كما قال تعالى (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣))

ومنها أن يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم . وقد يظن أن الخوف يضاد الحب ، وليس كذلك. بل إدراك العظمة يوجب الهيبة ، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب . ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم . وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى (٢) شيب سيد المحبين ، إذ سمع قوله تعالى (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٤)) (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٥))

وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب فى القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها ، وحق العبد أن يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب : البزار من حديث أنس بسند ضعيف بقصرا على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى ولعله أدرج فيه

(٢) حديث شيبتنى هود أخرجه : الترمذى وقد تقدم غير مرة

---

(١) الأنبياء : ٤٧ (٢) المطففين ١٩ (٣) القارعة : ١ ، ٢ ، ٣ (٤ ، ٥) هود : ٦٨ ، ٩٥

(١) «مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ» وكذلك قال عليه السلام (٢) «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً» وإنما كان استغفاره من القدم الأول، فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثانى. ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق، والالتفات إلى غير المحبوب، كما روي أن الله تعالى يقول: إن أدنى ماأصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى، أن أسلبه لذيذ مناجاتى. فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى، والعجب، والركون إلى ماظهر من مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفى الذى لايقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة

ثم خوف فوت مالايدرك بعد فوته، سمع ابراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل:

كل شيء منك مغفو ... رسوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فا ... ت فهب مافات منا

فاضطرب وغشي عليه، فلم يفق يوما وليلة، وطرأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل: ياإبراهيم كن عبدا، فكنت عبدا واسترحت

ثم خوف السلو عنه، فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث، فلايفتر عن طلب المزيد، ولايتسلى إلا بلطف جديد. فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أوسبب رجعته، والسلو يدخل عليه من حيث لايشعر، كما قد يدخل عليه الحب من حيث لايشعر، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها. فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو، فيقف مع الرجاء، ويغتر بحسن النظر، أو بغلبة الغفلة، أوالهوى، أوالنسيان، فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغلب جنود الملائكة من العلم، والعقل، والذكر، والبيان وكما أن من أوصاف الله تعالى مايظهر فيقتضى

---

(١) حديث من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون: لاأعلم هذا الا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يارسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد

(٢) حديث انه ليغان على قلبي: متفق عليه من حديث الاغر وقد تقدم

هيجان الحب ، وهى أوصاف اللطف والرحمة ، والحكمة ، فمن أوصافه مايلوح فيورث السلو ، كأوصاف الجبرية، والعزة، والاستغناء، وذلك من مقدمات المكر، والشقاء، والحرمان

ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام ، والإعراض والحجاب مقدمة السلو ، وضيق الصدر بالبر ، وانقباضه عن دوام الذكر ، وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها ، وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت نعوذ بالله منه . وملازمة الخوف لهذه الأمور ، وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئا خاف لامحالة فقده ، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ، ومكنه ، وعلمه . فالمحب لا يخلو عن خوف ، والخائف لا يخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ، ولم يكن له من الخوف إلا يسير ، يقال هو فى مقام المحبة . ويعد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب ، واستولت المعرفة ، لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روي فى بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام فى الجبال وحار عقله ، ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ، ولا ينتفع به شيء . فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب أنقصه من الدرة بعضها . فأوحى الله تعالى إليه . إنما أعطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألونى شيئا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك . فقال سبحانك ياأحكم الحاكمين ، أنقصه مما أعطيته . فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقي معه عشر معشاره ، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف .

قريب الوجد ذو مرمى بعيد　　عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب　　كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت　　عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد فى الأوقات تجرى　　له فى كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد　　ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين ، وإن كان ذلك لايجوز إظهاره ، وهي هذه الأبيات

سرت بأناس فى الغيوب قلوبهم　　فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله فى ظل قدسه　　تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى　　ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته　　وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته　　وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به مايصونه　　وأبذل منه ماأرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم　　وأمنع منه ماأرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه　　إلى أهله فى السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لايجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له . بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا . فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا . بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعايش . بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ، ولوقفت الألسنة والأقدام عن كثير مما تنتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر فى الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له فى الخير أسرارا وحكما . ولا منتهى لحكمته ؛ كما لا غاية لقدرته

ومنهـا . كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له ، وهيبة منه ، وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ، ولأنه قد يدخل فى الدعوى مايتجاوز حد المعنى ويزيد عليه : فيكون ذلك من الافتراء

وتعظم العقوبة عليه في العقبى ، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه ، وتضطرب أحواله . فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تعمل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه ، فلا يطاق سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ماأنا صانع ... بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري
فمالي منه غير ذكر بخاطر ... يهيج نار الحب والشوق في صدري

والعاجز عنه يقول :

يخفي فيبدي الدمع أسراره ... ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ... ومن سره في جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به . كأنه أراد من يكثر التعريض به في كل شيء ، ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد ، فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة ، فرآه مبتلى ببلاء ، فقال لايحبه من وجد ألم ضره . فقال الرجل . لكني أقول لايحبه من لم يتنعم بضره . فقال ذو النون : ولكني أقول لايحبه من شهر نفسه بحبه . فقال الرجل . أستغفر الله وأتوب إليه . فإن قلت . المحبة منتهى المقامات ، وإظهارها إظهار للخير ، فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محمودة ، وظهورها محمود أيضا . وإنما المذموم التظاهر بها ، لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار . وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله ، دون أقواله وأفعاله . وينبغي أن يَظْهَرَ حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط . فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب ، وقادح فيه ، كما ورد في الإنجيل . إذا تصدقت فتصدق بحيث لاتعلم شمالك ماصنعت يمينك ، فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك ، لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم ، إلا إذا غلب

سكر الحب فانطلق اللسان ، واضطربت الأعضاء ، فلا يلام فيه صاحبه . حكي أن رجلا رأى من بعض المجانين ، مااستجهله فيه ، فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله ، فتبسم ثم قال . ياأخي ! له محبون صغار وكبار ، وعقلاء ومجانين ، فهذا الذي رأيته من مجانينهم

ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا ، وعرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم ، وشوقهم اللازم ، الذي به يسبحون الليل والنهار لايفترون ، ولا يعصون الله ماأمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه ، وعلم قطعا أنه من أخس المحبين في مملكته ، وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين . عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح ، على بذل المجهود واستفراغ الطاقة ، حتى ظننت أن لي عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها ، فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ماخلق الله من شيء ، فقلت من أنتم ؟ فقالوا نحن المحبون لله عز وجل ، نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ، ماخطر على قلوبنا قط سواه ، ولا ذكرنا غيره . قال فاستحييت من أعمالي ، فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم

فإذاً من عرف نفسه ، وعرف ربه ، واستحيا منه حق الحياء ، خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته ، وسكناته ، وإقدامه ، وإحجامه ، وترددانه ، كما حكي عن الجنيد أنه قال. مرض أستاذنا السري رحمه الله ، فلم نعرف لعلته دواء ، ولا عرفنا لها سببا. فوُصِفَ لنا طبيب حاذق ، فأخذنا قارورة مائه ، فنظر إليها الطبيب ، وجعل ينظر إليه مليا ، ثم قال لي . أراه بول عاشق . قال الجنيد . فصعقت وغشي علي ، ووقعت القارورة من يدي. ثم رجعت إلى السري فأخبرته ، فتبسم ثم قال. قاتله الله ماأبصره! قلت ياأستاذ ، وتبين المحبة في البول ؟ قال نعم . وقد قال السري مرة . لو شئت أقول ماأيبس جلدي على عظمي ، ولا سل جسمي إلا حبه . ثم غشي عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية. فهذه مجامع علامات الحب وثمراته

ومنها الأنس والرضا كما سيأتي . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله

لإحسانه إليه ، وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين . ولذلك قال الجنيد : الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص . فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا أن أرضوه ، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ، فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والتفرد بالملك ، ولما عرفوا صفاته الكاملة ، وأسماءه الحسنى ، لم يمتنعوا أن أحبوه ، إذ استحق عندهم المحبة بذلك ، لأنه أهل لها ، ولو أزال عنهم جميع النعم . نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله إبليس ، وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ، فيظن أنه محب لله عز وجل ، وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ، ورياء ، وسمعة ، وغرضه عاجل حظ الدنيا ، وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء ، وقراء السوء ، أولئك بغضاء الله فى أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال : يادوست ، أى ياحبيب ، فقيل له : قد لا يكون حبيبا ، فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا . لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا . فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس

وقد قال أبو تراب النخشبي فى علامات المحبة أبياتا :

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره فى كل ماهو فاعل
فالمنع منه عطيـــة مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا ... متحفظا من كل ماهو قائل

وقال يحيى بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمرا ... فى خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... بجوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان

معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس ، والخوف ، والشوق ، من آثار المحبة . إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه فى وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال ، انبعث القلب إلى الطلب ، وانزعج له ، وهاج إليه وتسمى هذه الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب

وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ، ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه ، فيسمى استبشاره أنسا

وإن كان نظره إلى صفات العز ، والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد ، تألم القلب بهذا الاستشعار ، فيسمى تألمه خوفا

وهذه الأحوال تابعة : لهذه الملاحظات . والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها . فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى أنه إذا غاب ، وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه ، وما يتطرق إليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته . ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا . إنما الشوق إلى غائب . فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله ، غير ملتفت إلى ما بقي فى الإمكان من مزايا الألطاف

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، كما حكي أن ابراهيم

ابن أدهم نزل من الجبل ، فقيل له : من اين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله . بل كل مايعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه ، مكث دهرا لايسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ، فيخرج من القلب عذوبة ماسواه ، ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه : يامن آنسني بذكره ، وأوحشني من خلقه . وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لي مشتاقا ، وبي مستأنسا ومن سواي مستوحشا . وقيل لرابعة . بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت بتركي مالا يعنيني ، وأنسي بمن لم يزل

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له . ياراهب . لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال ياهذا ، لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . الوحدة رأس العبادة قلت ياراهب : ماأقل ماتجده في الوحدة ؟ قال الراحة من مداراة الناس ، والسلامة من شرهم . قلت ياراهب : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال إذا صفا الود وخلصت المعاملة . قلت ومتى يصفو الود ؟ قال إذا اجتمع الهم فصار هما واحدا في الطاعة

وقال بعض الحكماء : عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ! عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك !

فإن قلت . فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق ، والتبرم بهم ، واستهتاره بعذوبة الذكر . فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ، ومجتمع في خلوة وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا مااستوعر المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله ، وهذه علامته ، وهذه شواهده

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب ، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ، ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل ، أنكر على الجنيد ، وعلى

أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكر بعضهم مقام الرضا وقال ليس إلا الصبر ، فأما الرضا فغير متصور . وهذا كله كلام ناقص قاصر ، لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور ، فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل مايدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ، ووراءه اللب المطلوب . فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة ، وهو معذور ولكن عذره غير مقبول . وقد قيل .

الأنس بالله لا يحويه بطال — وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب — وكلهم صفوة لله عمال

بيان

معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف التغير والحجاب ، فإنه يثمر نوعا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة. ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ومن لم يقم في ذلك المقام، ويتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك به وأشرف على الكفر

ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل ، بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم ، سرائرهم خبيثة ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ ، فقل له يخرج حتى أستجيب له . فسأل عنه موسى عليه السلام ، فلم يعرف . فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق ، إذا بعبد أسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من أثر السجود ، في شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل، فسلم عليه وقال له ما اسمك؟ فقال اسمي برخ . قال فأنت طلبتنا منذ حين ، اخرج فاستسق لنا. فخرج فقال في كلامه . ماهذا من فعالك ، ولا هذا من حلمك ، وما الذي بدا لك ؟ أنقصت عليك عيونك ! أم عاندت الرياح عن طاعتك! أم نفد ما عندك ! أم اشتد غضبك على المذنبين

ألست كنت غفارا ! قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة ، وأمرت بالعطف ، أم ترينا أنك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب : قال فرجع برخ ، فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى . فهم موسى عليه السلام به . فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات

وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة ، فبقي فى وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك ، فبعث إلى صاحب الخص . قال فأتى بشيخ فقال ياشيخ ، مابال خصك لم يحترق ؟ قال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقه . فقال أبو موسى رضي الله عنه : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] « يَكُونُ فِى أُمَّتِى قَوْمٌ شَعِثَةٌ رُؤُوسُهُمْ دَنِسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُمْ » قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص ، فجعل يتخطى النار : فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار فقال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقنى بالنار . قال فاعزم على النار أن تطفأ . قال فعزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشى ذات يوم ، فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حفص : ماأصابك ؟ فقال ضل حمارى ولاأملك غيره . قال فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لاأخطو خطوة مالم ترد عليه حماره . قال فظهر حماره فى الوقت ، ومر أبو حفص رحمه الله

فهذا وأمثاله يجرى لذوى الأنس ، وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون فى كلامهم ، ومناجاتهم فى خلواتهم ، أشياء هي كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعها العموم لكفروهم ، وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ، ويليق بهم . وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم   والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له   ياحسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما . ففى القرءان

---

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون فى أمتى قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لوأقسموا على الله لأبرهم ابن أبى الدنيا فى كتاب الاولياء وفيه انقطاع وجهالة

تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرءان تنبيهات لأولى البصائر والأبصار ، حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء

فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس ، أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ، ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة ، أما إبليس فأبلس عن رحمته ، وقيل إنه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيـــه (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [1]) وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الإعراض عن عبد والإقبال على عبد وهما فى العبودية سيان ، ولكن فى الحال مختلفان ، فقال (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى [2]) وقال فى الآخر (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [3]) وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ [4]) وأمره بالإعراض عن غيرهم فقال (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ [5]) حتى قال (فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [6]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ [7])

فكذا الانبساط والإدلال ، يحتمل من بعض العباد دون بعض . فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ [8]) وقوله فى التعلل والاعتذار ، لما قيل له اذهب إلى فرعون فقال (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ [9]) وقوله (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي [10]) وقوله (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى [11]) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب ، لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ، ونودي عليه إلى يوم القيـامة (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ [12]) قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهي نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، وقيل له (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ [13])

---

(١) طه : ٦٣ ، ٦٤ (٢) عبس : ٨ (٣) عبس : ٥ (٤ ، ٥ ، ٦) الأنعام : ٥٤ ، ٦٨ (٧) الكهف : ٢٨
(٨) الاعراف : ١٥٥ (٩) الشعراء : ١٤ (١٠) الشعراء ١٢ ، ١٣ (١١) طه : ٤٥ (١٢ ، ١٣) القلم : ٤٩ ، ٤٨

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات ، وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد وقد قال تعالى (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ [1]) وقال (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ [2]) فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ، ولإدلاله سلم على نفسه فقال (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا [3]) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس. وأما يحي بن زكريا عليه السلام ، فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه فقال (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ [4]) وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه بيوسف، وقد قال بعض العلماء : قدعددت من أول قوله تعالى(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا [5]) إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاوأربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض . وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، فغفرلهم وعفا عنهم ، ولم يحتمل العزيز فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر، حتى قيل محي من ديوان النبوة

وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء ، فأكل الدنيا بالدين ، فلم يحتمل له ذلك. وكان آصف من المسرفين ، وكانت معصيته فى الجوارح ، فعفا عنه . فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام .يارأس العابدين ،ويا ابن محجة الزاهدين ،إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف، وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة؟فوعزتي وجلالي، لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه ، لأتركنه مُثلة لمن معه ، ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام ، أخبره بما أوحى الله تعالى إليه ، فخرج حتى علا كثيبا من رمل، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء،وقال إلهي وسيدي، أنت أنت ، وأنا أنا ، فكيف أتوب إن لم تتب علي، وكيف أستعصم إن لم تعصمني لأعودن . فأوحى الله تعالى إليه . صدقت يا آصف ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أستقبل التوبة ، وقد تبت عليك ، وأنا التواب الرحيم . وهذا كلام مدل به عليه ، وهارب منه إليه ، وناظر به إليه

وفى الخبر أن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة . كم من ذنب واجهتني به غفرته لك ، قد أهلكت فى دونه أمة من الأمم

---

(١) الاسراء : ٥٥ (٢) البقرة : ٢٥٣ (٣ و ٤) مريم : ٣٣ ، ١٥ (٥) يوسف : ٨ .

فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل، والتقديم، والتأخير: على ماسبقت به المشيئة الأزلية. وهذه القصص وردت في القرءان لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرءان شيء إلا وهو هدى ونور، وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [1]) وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ [2]) وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوة، فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [3]) (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [4])

ولا يعدو القرءان هذه الأقسام الثلاثة، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس، وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرءان فقال [1] «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْءَانِ» لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور، لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (لَمْ يَلِدْ [5]) ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (وَلَمْ يُولَدْ [6]) ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله، ودل عليه قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [7]) ويجمع جميع ذلك قوله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [8]) وجملته تفصيل قول لا إله إلا الله

فهذه أسرار القرءان، ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرءان. ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: نوروا القرءان والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين، وهو كما قال. ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه، حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر، مليك قادر، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر. وأكثر أسرار القرءان معبأة في طي القصص والأخبار، فكن

---

(١) حديث من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرءان: أحمد من حديث أبي بن كعب باسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه

(١) الصمد (٢) الحشر: ٢٣ (٣) الفجر ٦، ٧ (٤) الفيل: ١ (٥، ٦، ٧، ٨) الصمد

حريصا على استنباطها، لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه

فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذى هو ثمرته ، وبيان تفاوت عباد الله فيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم

القول

فى معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد فى فضيلته

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة ، وهو من أعلى مقامات المقربين . وحقيقته غامضة على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلا لمن علّمه الله تعالى التأويل ، وفهمه وفقهه فى الدين . فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ، ثم قالوا . إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله ، فينبغى أن يرضى بالكفر والمعاصى . وانخدع بذلك قوم ، فرأوا الرضا بالفجور والفسوق ، وترك الاعتراض والإنكار ، من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع ، لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لابن عباس حيث قال « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ »

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم نذكر حقيقة الرضا، وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه، كترك الدعاء والسكوت على المعاصى

بيان

فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ (١)) وقد قال تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٢)) ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده ، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ (٣)) فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن ، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (٤)) فكما أن مشاهدة المذكور

---

(١) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل : متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ، ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم فى العلم

(١) البينه : ٨ (٢) الرحمن : ٦٠ (٣) التوبة : ٧٢ (٤) العنكبوت : ٤٥ .

في الصلاة أكبر من الصلاة ، فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة . بل هو غاية مطالب سكان الجنان

وفي الحديث [١] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ سَلُونِي فَيَقُولُونَ رِضَاكَ » فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل

وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته

وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه . ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه ، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر . فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه ، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب

وقال الله تعالى (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [١]) قال بعض المفسرين فيه : يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين . إحداها : هدية من عند الله تعالى ، ليس عندهم في الجنان مثلها . فذلك قوله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [٢]) والثانية السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلا ، وهو قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [٣]) والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض ، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم ، فذلك قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ [٤]) أي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى ، وهو ثمرة رضا العبد

وأما من الأخبار . فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم [٢] سأل طائفة من أصحابه « مَا أَنْتُمْ ؟ » فقالوا مؤمنون . فقال « مَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ » فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء . فقال « مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ »

---

(١) حديث ان الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك : البزار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل اكرامي فسلوني فيسألونه الرضا ـ الحديث : ورواه أبو يعلى بلفظ ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك ـ الحديث : ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة ايمانكم ـ الحديث : تقدم

---

[١] ق : ٣٥ [٢] السجدة : ١٧ [٣] يس : ٥٨ [٤] التوبة : ٧٢

وفي خبر آخر [(١)] أنه قال « حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ »

وفي الخبر . [(٢)] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإِسْلاَمِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا وَرَضِيَ بِهِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « مَنْ رَضِيَ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ » وقال أيضا « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْدًا ابْتَلاَهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ »

وقال أيضا [(٤)] « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنْبَتَ اللهُ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي أَجْنِحَةً فَيَطِيرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْجِنَانِ يَسْرَحُونَ فِيهَا وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا كَيْفَ شَاءُوا فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَلْ رَأَيْتُمُ الْحِسَابَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا حِسَابًا فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ جُزْتُمُ الصِّرَاطَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا صِرَاطًا فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا شَيْئًا فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ أُمَّةِ مَنْ أَنْتُمْ فَيَقُولُونَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ نَاشَدْنَاكُمُ اللهَ حَدِّثُونَا مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ خَصْلَتَانِ كَانَتَا فِينَا فَبَلَغْنَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ بِفَضْلِ رَحْمَةِ اللهِ فَيَقُولُونَ وَمَا هُمَا فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا خَلَوْنَا نَسْتَحِي أَنْ نَعْصِيَهُ وَنَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِمَّا قُسِمَ لَنَا فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ يَحِقُّ لَكُمْ هَذَا »

وقال صلى الله عليه وسلم « يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ [(٥)] أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلاَّ فَلاَ » . وفي أخبار موسى عليه السلام ، أن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ماقالوا . فقال ياموسى ؛ قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ماروي

---

(١) حديث أنه قال في حديث آخر حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء : تقدم أيضا

(٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضي به : الترمذي من حديث فضالة ابن عبيد بلفظ وقنع وقال صحيح وقد تقدم

(٣) حديث من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل : رويناه في أمالي المحاملي باسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق المحاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

(٤) حديث اذا كان يوم القيامه أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف وفيه حميد ابن علي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرءان وللاحاديث الصحيحة في الورود وغيره

(٥) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والافلا : تقدم

عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال(١) « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ مَالِلّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ »

وفى أخبار داود عليه السلام . مالأوليائى والهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم . ياداود إن محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون

وروي أن موسى عليه السلام قال . يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله . فأوحى الله تعالى إليه . إن رضاي فى كرهك ، وأنت لاتصبر على ماتكره . قال يارب دلنى عليه، قال فإن رضاىٔ فى رضاك بقضائى .

وفى مناجاة موسى عليه السلام . أي رب ، أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى . قال فأي خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روي ماهو أشد من ذلك ، وهو أن الله تعالى(٢) قال . أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، ولم يرض بقضائى ، فليتخذ ربا سوائى

ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال (٣) « قَالَ اللهُ تَعَالَى قَدَّرْتُ الْمَقَادِيرَ وَدَبَّرْتُ التَّدْبِيرَ وَأَحْكَمْتُ الصُّنْعَ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي »

وفى الخبر المشهور (٤) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِمَنْ قَالَ لِمَ وَكَيْفَ »

---

(١) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده ـ الحديث : الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ منزله ومنزلة الله

(٢) حديث قال الله أنا الله لا إله الا أنا من لم يصبر على بلائى ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سواى واسناده ضعيف

(٣) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا ـ الحديث : لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين ـ الحديث : واسناده ضعيف

(٤) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ـ الحديث : ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى أمامة باسناد ضعيف

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع ، والفقر ، والقمل ، عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد . ثم أوحى الله تعالى إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندي فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا . أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ، أم تريد أن أبدل ماقدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ؟ وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة .

وروي أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج ، فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك ، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه . فقال له بعض ولده . يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ؟ فقال يا بني ، إنى رأيت مالم تروا ، وعلمت مالم تعلموا ، إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبنى مالا أعلم

وقال [1] أنس بن مالك رضي الله عنه . خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ، ولا قال فى شيء كان ليته لم يكن ، ولا فى شيء لم يكن ليته كان . وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول (دَعُوهُ لَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ)

وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد

وأما الآثار . فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز . ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له ما تشتهى ؟ فقال ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل . إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك

وقال عبد العزيز بن أبى رواد . ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ، ولا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل

---

(١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

وقال عبد الله بن مسعود . لأن ألحس جمرة أحرقت ماأحرقت وأبقت ماأبقت، أحب إلي من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن ، أو لشيء لم يكن ليته كان

ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال . إني لأرحمك من هذه القرحة . فقال . إني لأشكرها منذ خرجت إذلم تخرج في عيني

وروي في الإسرائيليات أن عابدا عبدالله دهرا طويلا، فأرى في المنام: فلانة الراعية رفيقتك في الجنة . فسأل عنها إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثة لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ، ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال أمالك عمل غير مارأيت ؟ فقالت ماهو والله إلا مارأيت ، لاأعرف غيره . فلم يزل يقول تذكري حتى قالت : خصيلة واحدة هي في إن كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رخاء ، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة ، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل . فوضع العابد يده على رأسه وقال . أهذه خصيلة هذه ؟ والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد

وعن بعض السلف : أن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر

وقال عمر رضي الله عنه : ماأبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء

وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عنا : فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال أستغفر الله : فقال جعفر بن سليمان الضبعي : فتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة

وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى

وقال أحمد بن أبي الحواري : قال أبو سليمان الداراني . إن الله عز وجل من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم . قلت وكيف ذاك ؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه ؟ قلت نعم . قال فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه

وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ »

بيان

حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر، فأما الرضا فلا يتصور فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة. فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى، واستغراق الهم به، فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين.

أحدهما: أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها. ومثاله الرجل المحارب، فإنه في حال غضبه، أو في حال خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة. بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالّة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور، مستوفى به، لم يدرك ما عداه. فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه، قد يصيبه ما كان يتألم به، أو يغتم له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغلُ القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل. وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف، تصور في الألم العظيم بالحب العظيم. فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم. وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة: وجمالُ حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه، فلا يحس بما يجرى عليه. فقد روي أن

---

(١) حديث ان الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا – الحديث: الطبراني من حديث ابن مسعود إلا انه قال بقسطه وقد تقدم

امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه . فقيل له في ذلك ، فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يوجع

وأما الوجه الثاني : فهو أن يحس به ، ويدرك ألمه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا فيه ، مريدا له ، أعني بعقله ، وإن كان كارها بطبعه . كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به ، وراغب فيه ، ومتقلد من الفصاد به منّة بفعله . فهذا حال الراضي بما يجرى عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ، ولكن حبه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر ، وجعله راضيا بها . ومهما أصابه بلية من الله تعالى ، وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته ، رضي به ، ورغب فيه ، وأحبه ، وشكر الله عليه . هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه

ويجوز أن يغلب الحب ، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه ، لا لمعنى آخر وراءه . فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا . وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق ، وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر . فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم ، مشحون بالأقذار والأخباث ، بدايته من نطفة مذرة ، ونهايته جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك للجمال ، فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا ، فترى الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا ، والبعيد قريبا ، والقبيح جميلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي ، الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت ، بل تبقى بعد الموت حية عند الله ، فرحة برزق الله تعالى ، مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف !

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار. ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم . فقد قال شقيق البلخي : من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها

وقال الجنيد : سألت سريا السقطي ، هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال لا . قلت وإن ضرب بالسيف ؟ قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ، ضربة على ضربة

وقال بعضهم : أحببت كل شيء بحبه ، حتى لو أحب النار أحببت دخول النار

وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فتبعته ، فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لأنى عاشق . فقلت له : ولم سكت؟ قال لأن معشوقى كان بحذائى ينظر إلي . فقلت : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فزعق زعقة خرّ ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ، ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم . فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ، إذا لاحظت جلاله هابت ، وإذا لاحظت جماله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان فى بدايتى ، فإذا برجل أعمى ، مجذوم ، مجنون قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال : من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ؟ لو قطعنى إربا إربا ماازددت له إلا حبا . قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد و بين ربه فأنكرتها

وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام . كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل فى القرءان ماهو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ماأحسسن بذلك

وقال سعيد بن يحيى : رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مدية ، وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله ، وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول ... والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل ... لكن مهجتى التى تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا . فسألت عنه وعن أمره ، فقيل لى : إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا .

ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل : دلنى على أعبد أهل الأرض . فدلّه على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه ، وذهب ببصره ، فسمعه وهو يقول . إلهى متعتنى بهما ماشئت أنت ، وسلبتنى ماشئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل ، يابر ياوصول

ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن ، فاشتد وجده عليه، حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث . فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سروراً أبدا منه . فقيل له في ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به

وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب ، وحمار ، وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم ، والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له ، وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا . ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله ، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرا . ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : عسى أن يكون خيرا . ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم. قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب، والحمير، والديكة . فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذاً من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال . ويروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص ،مقعد مضروب الجنبين بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له عيسى : ياهذا ، أي شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال ياروح الله ، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ماجعل فى قلبي من معرفته . فقال له : صدقت ، هات يدك . فناوله يده ، فإذا هو أحسن الناس وجها ، وأفضلهم هيئة، وقد أذهب الله عنه ما كان به . فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه

وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ، ثم قال . الحمد لله الذى أخذ مني واحدة ، وأيمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت : ثم لم يدع ورده تلك الليلة . وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيتهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل

وقال أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا . فمالى منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة ، وأدخلني النار ، كنت بذلك راضيا

وقيل لعارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا

قدنلته . لوجعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق عليّ إلى الجنة ، ثم ملأ بي جهنم تحلة لقسمه ، وبدلا من خليقته ، لأحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه ، حتى منعه الإحساس بألم النار ، فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار ، واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه ، وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ، ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري : قلت لأبي عبد الله ابن الجلاء الدمشقي . قول فلان وددت أن جسدي قرض بالمقاريض ، وأن هذا الخلق أطاعوه ، ما معناه ؟ فقال ياهذا ، إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف ، وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف . قال ثم غشي عليه

وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه ، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ، قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء ، فجعل يبكي لما يراه من حاله . فقال لم تبكي ؟ قال لأني أراك على هذه الحالة العظيمة . قال لا تبك ، فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إليّ . ثم قال : أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به ، واكتم عليّ حتى أموت : إن الملائكة تزورني فآنس بها ، وتسلم عليّ فأسمع تسليمها ، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة . فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به

قال : ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده ، فرأينا ثوبا ملقى ، فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهلي فداؤك ، ما نطعمك ما نسقيك ، فقال طالت الضجعة ، ودبرت الحراقيف ، وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ، ولا أسيغ شرابا منذ كذا ، فذكر أياما وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كف بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ، وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام ، فتعرفت إليه فعرفني وقال : أنت قارىء أهل مكة ؟ قلت نعم . فذكر قصة قال في آخرها . فقلت له ياعم ، أنت تدعو للناس ، فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك

بصرك ؟ فتبسم وقال . يابني ، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري

وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر . فقيل له . لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال إعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي

وعن بعض العبّاد أنه قال . إني أذنبت ذنبا عظيما . فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة ، وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ، فقيل له وما هو ؟ قال :قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه

وقيل لعبد الواحد بن زيد . ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة . فقصده فقال له ياحبيبي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال لا . قال أنسيت به ؟ قال لا . قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم . قال لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعدّ في طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم

ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه ، وقد جمع بين يديه حجارة . فقال من أنتم ؟ فقالوا محبوك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة ، فتهاربوا فقال مابالكم ادعيتم محبتي ؟ إن صدقتم فاصبروا على بلائي

وللشبلي رحمه الله تعالى

إن المحبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام : كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه . وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ،ولو كان بها شلل ظل يواريها. يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به،والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه

وقيل إنه وقع الحريق في السوق ، فقيل للسري احترق السوق وما احترق دكانك . فقال الحمد لله . ثم قال . كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين ! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله.

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا ، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين

أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود ، كالرضا بالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء انتظارا للشفاء .

والثاني الرضا به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ، ونفوذ إرادته ، ولو في هلاك روحه كما قيل

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم . وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس ، فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى . أحسنت والله ياسيدتي ، أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت مت راشدا . قال فوضع رأسه على الوسادة ، وأطبق فمه ، وغمض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت

وقال الجنيد . رأيت رجلا متعلقا بكم صبي ، وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي ؟ فقال قد علم الله أني صادق فيما أورده ، حتى لو قلت لي مت لمت . فقال إن كنت صادقا فمت . قال: فتنحى الرجل وغمض عينيه ، فوجدميتا

وقال سمنون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه . قال : فدهش الرجل ، وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه . فقالت

الجارية : ماهذا ؟ قال هذا مكان قولك آه . وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادى قال : رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقدأشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا   لاخير فى عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض ، فحملوه ميتا . فهذا وأمثاله قديصدق به فى حب المخلوق ، والتصديق به فى حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ؟ وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال . بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال

نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذى فقد السمع ينكر لذة الألحان و النغمات الموزونة ، فالذى فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لامظنة لها سوى القلب

بيان

أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولايخرج صاحبه عن مقام الرضا . وكذلك كراهة المعاصى ، ومقت أهلها ، ومقت أسبابها ، والسعي فى إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه أيضا . وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين ، وزعم أن المعاصى ، والفجور ، والكفر ، من قضاء الله وقدره عزوجل ، فيجب الرضا به . وهذا جهل بالتأويل . وغفلة عن أسرار الشرع

فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، على مانقلناه فى كتاب الدعوات تدل عليه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلى المقامات من الرضا ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله (وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً [1])

وأما إنكار المعاصى وكراهتها ، وعدم الرضا بها ، فقد تعبد الله به عباده ، وذمهم على الرضا به فقال (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [2]) وقال تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [3]) وفى الخبر المشهور « مَنْ شَهِدَ مُنْكَراً فَرَضِيَ بِهِ فَكَأَنَّهُ قَدْ فَعَلَهُ » وفى الحديث [1] « الدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلِهِ »

---

(١) حديث الدال على الشر كفاعله : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس باسناد ضعيف جدا

---

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) يونس : ٧ (٣) التوبة : ٩٣

وعن ابن مسعود . إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه . قيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به . وفى الخبر [1] « لَوْ أَنَّ عَبْدًا قُتِلَ بِالْمَشْرِقِ وَرَضِيَ بِقَتْلِهِ آخَرُ بِالْمَغْرِبِ كَانَ شَرِيكًا فِى قَتْلِهِ » . وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور ، فقال تعالى (وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [1])

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « لَا حَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَبُثُّهَا فِى النَّاسِ وَيُعَلِّمُهَا وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ » وفى لفظ آخر « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ »

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم ، فما ورد فيه من شواهد القرءان والأخبار لايحصى ، مثل قوله تعالى (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ [2]) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [3]) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا [4])

وفى الخبر [3] « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُنَافِقٍ وَعَلَى كُلِّ مُنَافِقٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُؤْمِنٍ » وقال عليه السلام [4] « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال [5] « مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا وَوَالَاهُمْ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

---

(١) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر فى المغرب كان شريكا فى قتله : لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ولابن عدى من حديث أبى هريرة من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها وتقدم فى كتاب الأمر بالمعروف

(٢) حديث لا حسد إلا فى اثنتين ـ الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم

(٣) حديث ان الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٤) حديث المرء مع من أحب : تقدم

(٥) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم : الطبرانى من حديث أبى قرصافة وابن عدى من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر فى زمرتهم زاد ابن عدى يوم القيامة وفى طريقه اسماعيل ابن يحيى التيمى ضعيف

---

(١) المطففين : ٢٦ (٢) آل عمران : ٢٨ (٣) المائدة : ٥١ (٤) الأنعام : ١٢٩

وقال عليه السلام (١) « أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ »

وشواهد هذا قد ذكرناها فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفى كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار (٢) بالرضا بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى فهو محال ، وهو قادح فى التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه ؟ وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شيء واحد ؟

فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض . بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة ، على وجه واحد . فليس من التضاد فى شيء واحد أن يكره من وجه ، ويرضى به من وجه . إذ قد يموت عدوك الذى هو أيضا عدو بعض أعدائك ، وساع فى إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله ، واختياره ، وإرادته ، فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ، ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ، ووصفه ، وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه : إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى وأنصب فيه معيارا صادقا ، وميزانا ناطقا ، وهو أنى أقصد إلى فلان فأوذيه وأضربه ضربا

---

(١) حديث أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله : رواه أحمد وتقدم فى آداب الصحبة

(٢) الأخبار الواردة فى الرضا بقضاء الله : الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل ـ الحديث : وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث ان الله بقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا وتقدم فى حديث الاستخارة واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء ـ الحديث : وغير ذلك

يضطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدواً لى . فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوّى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبى . ثم فعل ذلك ، وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق فى محبته ، وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده ، وتعريضك إياه للبغض والعداوة ، فأنا محب له ، وراض به ، فإنه رأيك وتدبيرك ، وفعلك وإرادتك . وأما شتمه إياك ، فإنه عدوان من جهته ، إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه . فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك ، وتعويقا فى مرادك ، وأنا كاره لفوات مرادك . ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص ، وكسب له ، وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك ، إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ، ومن حيث هو وصف له ، لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ، ومحب له ، لأنه مرادك ، وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ، ولعدوه عدواً . وأما بغضه لك فإنى أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك ، وسلطت عليه دواعى البغض ، ولكنى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله ، وأمقته لذلك ، فهو ممقوت عندى لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه ، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي ،

وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضي ، ومن حيث إنه مرادك مكروه . وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده ، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه . ويشهد لذلك كل مايكره من وجه ، ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى

فإذاً تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه ، حتى يجره ذلك إلى حب المعصية ، ويجره الحب إلى فعل المعصية ، يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا . ليجره الضرب إلى الغضب ، والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه ، وإن كانت معصيته بتدبيره

يشبه بغض المشئوم لمن شتمه ، وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ، أعني تسليط دواعي المعصية عليه ، يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته ، فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ، ويمقت من مقته الله ، ويعادي من أبعده الله عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ، ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده

وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله ، والحب في الله ، والتشديد على الكفار ، والتغليظ عليهم ، والمبالغة في مقتهم ، مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لارخصة في إفشائه . وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضي به . فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل ، وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم(١) « أَلْقَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلاَ تُفْشُوهُ » وذلك يتعلق بعلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ، ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة ، والعصمة من المعاصي ، وسائر الأسباب المعينة على الدين ، غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر ، وخشوع القلب ، ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ، ومفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز ، وشرب الماء ، ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش . وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه

---

(١) حديث القدر سر الله فلاتفشوه : ابو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

مسبب الأسباب ، فكذلك الدعاء سبب رتّبه لله تعالى وأمر به ، وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل ، واستقصيناه فى كتاب التوكل ، فهو أيضا لا يناقض الرضا ، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ، ويتصل به .

نعم إظهار البلاء فى معرض الشكوى، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا. وإظهار البلاء على سبيل الشكر ، والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض. وقد قال بعض السلف: من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هـذا يوم حار . أي فى معرض الشكاية ، وذلك فى الصيف . فأما فى الشتاء فهو شكر . والشكوى تناقض الرضا بكل حال . وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى ، لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى وقول القائل . الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب، والاحتراف كدّ ومشقة ، كل ذلك قادح فى الرضا . بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره ، والمملكة لمالكها ، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنى لا أدرى أيهما خير لى

بيان

أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح فى الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن [1] أن نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون ، يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى ، وذلك محال : بل العلة فى النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون ؛ أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء ، وبقى فيه المرضى مهملين ، لا متعهد لهم ، فيهلكون هزالا وضرا . ولذلك [2] شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف . ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى الانصراف . وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل

وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لابدّ من الفرار منه . وكذلك مذمّة المواضع التى تدعو إلى المعاصى

---

(١) حديث النهى عن الخروج من بلد الطاعون : تقدم فى آداب السفر

(٢) حديث انه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف : تقدم فيه

والأسباب التي تدعو إليها ، لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة ، فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك ، حتى اتفق جماعة على ذم بغداد ، وإظهارهم ذلك ، وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك: قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد . قيل وكيف؟ قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله ، وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له . كيف رأيت بغداد؟ قال ما رأيت بها إلا شرطيا غضبان ، أو تاجرا لهفان ، أو قارئا حيران . ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة ، لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس

وكان يخرج إلى مكة ، وقد كان مقامه ببغداد ، يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينارا ، لكل يوم دينار كفارة لمقامه

وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال العراق . قال فما تصنع به ، بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قرينا من البلاء

وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر ، وفيه الداء العضال

وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام ، وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك

وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض ، فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه ، وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال بغداد . فأعرض عنه وقال : يأتينا أحدهم في زي الرهبان ، فإذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة

وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش . وكان يقول لا تقتدوا بي في المقام بها ، من أراد أن يخرج فليخرج

وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي . قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور

وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد : زاهدهم زاهد ، وشريرهم شرير

فهذا يدل على أن من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ، ويقل فيها الخير ، فلا عذر له في المقام بها

بل ينبغي أن يهاجر. قال الله تعالى (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا[1]) فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة ، فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله ، مطمئن النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها ، قائلا على الدوام (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا[2]) وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ، ودمر الجميع ، وشمل المطيعين . قال الله تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً[3])

فإذاً ليس في شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق ، إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى . فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث ، رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى . ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا

واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط . فقال الثوري : كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أني مت . فقال له يوسف : لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لكني لا أكره طول البقاء . فقال سفيان : لم ؟ قال لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا . فقيل لوهيب . أيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إلي أحبه إلى الله سبحانه وتعالى فقبله الثوري بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة

بيان

جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين . إنك محب . فقال : لست محبا ، إنما أنا محبوب ، والمحب متعوب وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة . فقال : أنا كل السبعة . وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا : قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قيل لأني رأيت أربعين بدلا ، وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له . بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام

(١) النساء : ٩٧ (٢) النساء : ٧٥ (٣) الأنفال : ٢٥

فتبسم وقال : ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه

وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال : ماحدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته ، إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه

وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة : حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى . فصاح ثم قال : ويلكم ، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك . قيل : فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال : وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم . دعوت نفسي إلى الله فجمحت علي ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ، ولا أذوق النوم سنة ، فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيي بن معاذ ، أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته ، من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزا على صدور قدميه ، رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بذقنه على صدره ، شاخصا بعينيه لا يطرف . قال ثم سجد عند السحر فأطاله ، ثم قعد فقال . اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء ، والمشي في الهواء ، فرضوا بذلك . وإني أعوذ بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض ، فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض ، فرضوا بذلك ، وإني أعوذ بك من ذلك . حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء . ثم التفت فرآني ، فقال يحيي ؟ قلت نعم ياسيدي . فقال مذ متى أنت ههنا ؟ قلت منذ حين . فسكت . فقلت ياسيدي حدثني بشيء . فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل ، فدورني في الملكوت السفلي ، وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي ، فطوف بي في السموات ، وأراني مافيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه . فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ، فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه . فقال أنت عبدي حقا ، تعبدني لأجلي صدقا ، لأفعلن بك ولأفعلن ، فذكر أشياء . قال يحيي : فهالني ذلك وامتلأت به ، وعجبت منه ، فقلت ياسيدي لم لا سألته المعرفة به ، وقد قال لك ملك الملوك سلني ماشئت ؟ قال فصاح بي صيحة ، وقال اسكت ويلك . غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه

وحكي أن أبا تراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين ، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته ، فقال له أبو تراب يوما : لو رأيت أبا يزيد ؟ فقال : إني عنه مشغول .

فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد ، هاج وجد المريد فقال : ويحك ، ما أصنع بأبي يزيد ؟ قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد . قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل ! لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة . قال : فبهت الفتى من قوله وأنكره ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك ، أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت ، فقال : احملني إليه . فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ، قال : فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره ، فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه . فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونا على دفنه . فقلت لأبي يزيد : ياسيدي نظره إليك قتله . قال لا : ولكن كان صاحبكم صادقا ، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه ، فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال ، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إن لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ، ولكن لا يفعلون . قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب . ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال : ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها

وهذه أمور ممكنة في أنفسها ، فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة ، والفضل عميم ، وعجائب الملك والملكوت كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول : إن أعطاك مناجاة موسى ، وروحانية عيسى ، وخلة إبراهيم ، فاطلب ما وراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم ، ومن هو في مثل حالهم ، لأنهم الأمثل فالأمثل به وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء ، رأيتهن يتساعين في الهواء ، عليهن ثياب من ذهب ، وفضة وجوهر ، يتخشخش ويتثنى معهن ، فنظرت إليهن نظرة ، فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال ، وقيل لي انظر إليهن ، قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن ، وقلت : أعوذ بك

مما سواك ، لاحاجة لى بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى

فأمثال هذه المكاشفات لاينبغى أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة ، وقلبه القاسى ، لضاق مجال الإيمان عليه . بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ، ونيل مقامات كثيرة، أدناها الإخلاص، وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال ، حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول . فهذه أوائل سلوكهم ، وأقل مقاماتهم، وهي أعز موجود فى الأتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين، وينكشف له مبادى الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة فى الحديدة إذا شكلت ، ونقيت ، وصقلت ، وصورت بصورة المرآة ، فنظر المنكر إلى ما فى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث ، وهو لايحكى صورة من الصور ، فأنكر إمكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء ، إذ لامستند له إلا قصوره عن ذلك، وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى . بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادى الطريق ، كما قيل لبشر . بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال. كنت أكاتم الله تعالى حالى . معناه أسأله أن يكتم علي ويخفى أمرى . وروي أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لى . فقال: يسر الله عليك طاعته ، قلت :زدنى قال: وسترها عليك . فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لاتلتفت أنت إليها

وعن بعضهم أنه قال : أقلقنى الشوق إلى الخضر عليه السلام ، فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء علي . قال: فرأيته ، فما غلب علي همى ولا همتى إلا أن قلت له : ياأبا العباس ، علمنى شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر ، ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة . فقال :قل اللهم أسبل علي كثيف سترك ، وحط علي سرادقات حجبك ، واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك . قال: ثم غاب فلم أره ، ولم أشتق إليه بعد ذلك . فما زلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم . فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن، حتى كان أهل الذمة يسخرون به، ويستسخرونه فى الطرق

يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم . وكان الصبيان يلعبون به ، فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله فى ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى . ففى أمثال هؤلاء ينبغى أن يطلبوا . والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة ، وفى المشهورين بين الخلق بالعلم ، والورع ، والرياسة . وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم ، كما قال تعالى: أوليائى تحت قبابى ، لا يعرفهم غيرى . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ »

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة ، المعجبة بأنفسها ، المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة ، المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه . فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا فى حقه ، بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات ، فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادى هذه الروائح . فإن فقدنا مثل هذا القلب ، وحرمنا مثل هذا الروح ، فلا ينبغى أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله . فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله ، مؤمنا بهم ، فعسى أن يحشر مع من أحب

ويشهد لهذا ما روي أن عيسى عليه السلام قال لبنى اسرائيل : أين ينبت الزرع ؟ قالوا فى التراب . فقال : بحق أقول لكم ، لا تنبت الحكمة إلا فى قلب مثل التراب

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روي أن ابن الكريبى وهو أستاذ الجنيد ، دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ، ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك ، حتى أدخله فى المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك . فقال : قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة ، حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد . ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبت

وعنه أيضا أنه قال : نزلت فى محلة ، فعرفت فيها بالصلاح ، فتشتت علي قلبي ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ، ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت ، وجعلت أمشى قليلا قليلا ، فلحقونى فنزعوا مرقعتى ، وأخذوا الثياب ، وصفعونى وأوجعونى

---

(١) حديث رب أشعث أغبر ذى طمرين : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

[illegible] بعد ذلك أعرفه باسمي الخاتم ، فسكنت نفسي

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ، ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى ، وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بُعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها ، وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكي أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما . أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر ، وأقوم الليل لا أنام ، ولا أجد في قلبي من هـذا العلم الذي تذكر شيئا ، وأنا أصدّق به وأحبه . فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلثمائة سنة ، وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك . قال فلهـذا دواء ؟ قال نعم . قال قل لي حتى أعمله . قال لا تقبله . قال فاذكره لي حتى أعمله . قال اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق في عنقك مخلاة مملوأة جوزا ، واجمع الصبيان حولك ، وقل كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة ، وادخل السوق ، وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل : سبحان الله ، تقول لي مثل هذا؟ فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا أفعله ، ولكن دلني على غيره فقال ابتدىء بهذا قبل كل شيء . فقال لا أطيقه . قال قد قلت لك إنك لا تقبل . فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه . ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله . فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض ، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا

وهذه أمور جلية في الشرع واضحة ، وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعدّ نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى تَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ وَحَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يَعْرِفَ أَحَبَّ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ » وقد قال

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلي ابن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلا

عليه السلام (١) « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ لَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ وَلَا يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ آثَرَ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا » وقال عليه السلام (٢) « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الْحَقِّ وَإِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي بَاطِلٍ وَإِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ » وفي حديث آخر (٣) « ثَلَاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ الْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ » . فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولي الإيمان ، فالعجب ممن يدعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ، ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الإيمان

وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه . إنما أتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري ولا يكون له هم غيري ، ولا يؤثر عليّ شيئا من خلقي ، وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا ، وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما

فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب ، والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له ، ولذلك قال عليه السلام (٤) للصديق رضي الله عنه « إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِي مِنْ أُمَّتِي وَأَعْطَانِي مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ » وفي حديث آخر (٥) « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلَثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » فقال أبو بكر . يا رسول الله ، هل فيّ منها خلق ؟ فقال « كُلُّهَا فِيكَ

---

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد

(٢) حديث لا يكمل ايمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ـ الحديث : الطبراني في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الايمان واسناده ضعيف

(٣) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب : غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم

(٤) حديث انه قال للصديق ان الله قد أعطاك مثل ايمان كل من آمن بي من أمتي ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف

(٥) حديث ان الله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ـ الحديث : الطبراني في الأوسط

يَاأَبَا بَكْرٍ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ السَّخَاءُ» . وقال عليه السلام[(١)] «رَأَيْتُ مِيزَانًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعْتُ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ بِهِمْ وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَجِيءَ بِأُمَّتِي فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره ، فقال[(٢)] «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى » يعني بنفسه

خاتمة الكتاب

بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان . المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره . دوام الذكر . وقال غيره . إيثار المحبوب . وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة ، فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه ، وتمتنع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد . حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض ، فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله إحذر أن تذل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله . صف لنا العارف والمحب فقال . العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكت هلك . وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم ... حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني ... أنت بما مر بي عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي ... وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقا ... فكم أحيا عليك وكم أموت

من حديث أنس مرفوعا عن الله خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الاسلام ثلثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان والبزار من حديث عثمان بن عفان ان لله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ـ الحديث : وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة

(١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم ـ الحديث : أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٢) حديث لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

شربت الحب كاسا بعد كاس فما نفذ الشراب وما رويت
فليت خياله نصب لعيني فإن قصرت فى نظرى عميت

وقالت : زابعة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام . إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة، ملأته من حبى، وتوليته بحفظى . وقيل: تكلم سمنون يوما فى المحبة ، فإذا بطائر نزل بين يديه ، فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات . وقال إبراهيم بن أدهم : إلهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة فى جنب ما أكرمتنى من محبتك ، وآنستنى بذكرك ، وفرغتنى للتفكر فى عظمتك . وقال السرى رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش

وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت والله إنى لأحبه حبا شديدا، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين . وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال، فقال الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة، إنما يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلى: الحب دهش فى لذة، وحيرة فى تعظيم ، وقيل: المحبة أن تمحو أثرك عنك، حتى لا يبقى فيك شىء راجع منك إليك . وقيل : المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الخواص: المحبة محو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات

وسئل سهل عن المحبة فقال : عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل: معاملة المحب على أربع منازل. على المحبة، والهيبة، والحياء ، والتعظيم. وأفضلها التعظيم والمحبة، لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة فى الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حيان: المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهى تحسره فى الدنيا، وتروحه فى الآخرة

وقال عبد الله بن محمد: سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهى باكية، والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه: قال : فقلت لها . فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت لا. ولكن لحبى إياه، وحسن ظنى به، أفتراه يعذبنى وأنا أحبه ؟ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام. لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم

ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقا إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي. ياداود هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي ! ياداود، أحوج مايكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأرحم ماأكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجل مايكون عندي إذا رجع إلي

وقال أبو خالد الصفار: لقي نبي من الأنبياء عابدا، فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء، ونحن نعمل على المحبة والشوق

وقال الشبلي رحمه الله: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداود، ذكرى للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم، من أحب حبيبا صدق قوله. ومن أنس بحبيبه رضي فعله، ومن اشتاق إليه جد في مسيره

وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول. واشوقاه لمن يراني ولا أراه

وقال الجنيد رحمه الله. بكى يونس عليه السلام حتى عمي، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد وقال. وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقا مني إليك

وعن [1] علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال «الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي وَالْحُبُّ أَسَاسِي وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسِي وَالثِّقَةُ كَنْزِي وَالْحُزْنُ رَفِيقِي وَالْعِلْمُ سِلَاحِي وَالصَّبْرُ رِدَائِي وَالرِّضَا غَنِيمَتِي وَالْعَجْزُ فَخْرِي وَالزُّهْدُ حِرْفَتِي وَالْيَقِينُ قُوَّتِي وَالصِّدْقُ شَفِيعِي وَالطَّاعَةُ حُبِّي وَالْجِهَادُ خُلُقِي وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» . وقال ذوالنون. سبحان من جعل الأرواح جنودا مجندة، فأرواح العارفين جلالية قدسية، فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية، فلذلك حنوا إلى الجنة، وأرواح الغافلين هوائية، فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ: رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون، ضعيف البدن، وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول:

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال: الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه، حتى يحرق بها مافي قلوبهم من الخواطر والإرادات، والعوارض والحاجات. فهذا القدر كاف في شرح المحبة، والأنس، والشوق والرضا، فلنقتصر عليه، والله الموفق للصواب

تم كتاب المحبة، والشوق، والرضا، والأنس، يتلوه كتاب النية والإخلاص، والصدق

---

(١) حديث علي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني الحديث: ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجد له إسنادا

كتاب النية والإخلاص والصّدق

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين . وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [١]) فما لله إلا الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين ، وعلى جميع النبيين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرءان أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء . وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً [٢])

وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه . فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص ، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص ، ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب .

الباب الأول : في حقيقة النية ومعناها

الباب الثاني : في الإخلاص وحقائقه

الباب الثالث : في الصدق وحقيقته

---

(١) البينة : ٥ (٢) الفرقان : ٢٣

الباب الأول

في النية

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيرا من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار

بيان

فضيلة النية

قال الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ[(١)]) والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « أَكْثَرُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الْفُرُشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ اللهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ ». وقال تعالى (إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا[(٢)]) فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية.

وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالًا حَسَنَةً فَتَصْعَدُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُحُفٍ مُخَتَّمَةٍ فَتُلْقَى بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ أَلْقُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِمَا فِيهَا وَجْهِي ثُمَّ يُنَادِي الْمَلَائِكَةَ اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّهُ نَوَاهُ ».

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات ـ الحديث: متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته: أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة.

(٣) حديث إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ـ الحديث: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعدبها الملائكة ـ الحديث: الدارقطني من حديث أنس باسناد حسن.

---

(١) الأنعام: ٥٢ (٢) النساء: ٣٥

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « النَّاسُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْماً وَمَالاً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِيَ اللهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يَتَخَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِيَ اللهُ مِثْلَ مَا آتَاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ » ألا ترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله ومساويه

وكذلك فى حديث أنس بن مالك . لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك [2] قال « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَاقَطَعْنَا وَادِياً وَلاَ وَطِئْنَا مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ أَنْفَقْنَا نَفَقَةً وَلاَ أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ إِلَّا شَرِكُونَا فِي ذَلِكَ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ » قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا قال « حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » فشركوا بحسن النية

وفى حديث [3] ابن مسعود « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً فَهُوَ لَهُ » فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس . وكذلك جاء فى الخبر [4] أن رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار ، لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره ، فقتل على ذلك ، فأضيف إلى نيته

وفى حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم [5] « مَنْ غَزَا وَهُوَ لاَ يَنْوِي إِلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى » وقال [6] أبيّ استعنت رجلا يغزو معى ، فقال لا حتى تجعل لى جعلا . فجعلت له . فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ إِلاَّ مَاجَعَلْتَ لَهُ »

---

(١) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبى كبشة الأنمارى بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذى بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح

(٢) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا ـ الحديث : البخارى مختصرا وأبو داود

(٣) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : الطبرانى باسناد جيد

(٤) حديث إن رجلا قتل فى سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار : لم أجد له أصلا فى الموصولات وإنما رواه أبو إسحق الفزارى فى السنن من وجه مرسل

(٥) حديث من غزا وهو لا ينوى الا عقالا فله مانوى : النسائى من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة

(٦) حديث أبى استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ما جعلت له : الطبرانى فى مسند الشاميين ولأبى داود من حديث يعلى بن أمية انه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما أجد له فى غزوته هذه فى الدنيا والآخرة الا دنانيره التى سمى

وروي في الاسرائيليات . أن رجلا مرّ بكثبان من رمل في مجاعة ، فقال في نفسه . لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له : إن الله تعالى قد قبل صدقتك ، وقد شكر حسن نيتك ، وأعطاك ثواب مالو كان طعاما فتصدقت به

وقد ورد في أخبار كثيرة [1] « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ »

وفي حديث [2] عبد الله بن عمرو « مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَهَا أَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِيهَا وَمَنْ تَكُنِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَهَا أَزْهَدَ مَا يَكُونُ فِيهَا »

وفي حديث [3] أم سلمة . أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يارسول الله : يكون فيهم المكره والأجير . فقال « يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ »

وقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [4] « إِنَّمَا يَقْتَتِلُ الْمُقْتَتِلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ » وقال عليه السلام [5] « إِذَا الْتَقَى الصَّفَّانِ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ تَكْتُبُ الْخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فُلَانٌ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا فُلَانٌ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً فُلَانٌ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً أَلَا فَلَا تَقُولُوا فُلَانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » . وعن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [6] « يُبْعَثُ

---

(١) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة : متفق عليه وقد تقدم

(٢) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه ـ الحديث : ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت باسناد جيد دون قوله وفارقها أرغب مايكون فيها ودون قوله وفارقها أزهد مايكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم : مسلم وأبو داود وقد تقدم

(٤) حديث إنما يقتتل المقتتلون على النيات : ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص والنية من حديث عمر باسناد ضعيف بلفظ انما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ انما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث أبي هريرة انما يبعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

(٥) حديث اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله

(٦) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه : رواه مسلم

كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَامَاتَ عَلَيْهِ » وفى حديث (١) الأحنف عن أبى بكرة « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قيل يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال « لِأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » . وفى حديث (٢) أبى هريرة « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لَايَنْوِى أَدَاءَهُ فَهُوَ زَانٍ وَمَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ لَا يَنْوِى قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ تَطَيَّبَ لِلهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ »

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ماافترض الله تعالى ، والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى

وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيز . اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائى : البرُّ همته التقوى ، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك

وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل ، ومادمت تنوى الخير فأنت بخير

وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول : من يدلنى على عمل لاأزال فيه عاملا لله تعالى ، فإنى لاأحب أن يأتى عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله . فقيل له : قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير مااستطعت ، فإذا فترت أو تركته فهُمّ بعمله فإن الهامّ بعمل الخير كعامله . وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها ، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين يغفر لكم مابين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية ،

---

(١) حديث الأحنف عن أبى بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار : متفق عليه

(٢) حديث أبى هريرة من تزوج امرأة على صداق وهولاينوى أداءه فهوزان : أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة الدين دون ذكر الصداق

(٣) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ـ الحديث : أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبى طلحة مرسلا

وانتبهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ [١]) يبكى ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بالنيات .

وقال أبو هريرة : مكتوب فى التوراة . ماأريد به وجهى فقليله كثير ، وما أريد به غيرى فكثيره قليل وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن ، فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر فى عمله ، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر فى ورعه . فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح مادون ذلك

فإذن عماد الأعمال النيات ، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية فى نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق

بيان

حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل ، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون ، اختيارى ، فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور علم ، وإرادة ، وقدرة ، لأنه لايريد الإنسان مالا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم . ولا يعمل مالم يرد ، فلا بد من إرادة ، ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض ، إما فى الحال أو فى المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور . فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المنافى عن نفسه . فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لايبصر الغذاء ولا يعرفه لايمكنه أن يتناوله ، ومن لايبصر النار لايمكنه الهرب منها . فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة ، وليس ذلك من غرضنا

(١) محمد : ٣١

ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له ، فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه ، وشهوة له باعثة عليه . إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ، ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، ولفقد الداعية المحركة إليه . فخلق الله تعالى له الميل ، والرغبة والإرادة ، وأعنى به نزوعا فى نفسه إليه ، وتوجها فى قلبه إليه

ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طعاما راغب فيه ، مريد تناوله ، عاجز عنه لكونه زمنا . فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول . والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة ، أو الظن والاعتقاد ، وهو أن يقوى فى نفسه كون الشيء موافقا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ، ولا بد وأن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، أنبعثت الإرادة ، وتحقق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء . فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ماهو موافق للغرض ، إما فى الحال وإما فى المآل

فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب ، وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام ، فلنذكر لكل واحد مثالا واسما

أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد ، كما إذا هجم على الإنسان سبع ، فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع ، فإنه رأى السبع وعرفه ضارا ، فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال نيته الفرار من السبع ، لا نية له فى القيام لغيره . وهذه النية تسمى خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خاص عن مشاركة غيره وممازجته

وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس

أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا فى الحمل لو انفرد ومثاله فى غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة، فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غنى فيرغب فى قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ، ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل، وكان الباعث الثانى رفيق الأول: فلنسم هذا مرافقة للبواعث

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي بمجموعهما على إنهاض القدرة . ومثاله فى المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به . ومثاله فى غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين، وهو القرابة والفقر . وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب فى التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب، ولنسم هذا الجنس مشاركة

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه ، والثانى لا يستقل ، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله فى المحسوس أن يعاون الضعيف الرجلَ القوي على الحمل ، ولو انفرد القوي لاستقل ، ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر فى تخفيفه . ومثاله فى غرضنا أن يكون للإنسان ورد فى الصلاة ، وعادة فى الصدقات ، فاتفق أن حضر فى وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى النية . ولنسم هذا الجنس المعاونة

فالباعث الثانى إما أن يكون رفيقا، أو شريكا، أو معينا وسنذكر حكمها فى باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل . إنما الأعمال بالنيات ، لأنها تابعة لا حكم لها فى نفسها ، وإنما الحكم للمتبوع

بيان

سر قوله صلى الله عليه وسلم[1] « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ »

أعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر ، ولعمل السر فضل ، وهذا صحيح . ولكن ليس هو المراد ، لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه ، أو يتفكر في مصالح المسلمين ، فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل ، والأعمال لا تدوم ، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك ، فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة ، والأعمال تدوم . والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية ، وهو كذلك ، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا ، والنية بمجردها خير . وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير

بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل ، وكانت النية من جملة الخيرات ، وكان العمل من جملة الخيرات ، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود ، وأثر النية أكثر من أثر العمل . فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته . والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل ، فهما عملان ، والنية من الجملة خيرهما . فهذا معناه

وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل ، فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد ، وقاس بعض الآثار بالبعض ، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فمن قال الخبز خير من الفاكهة فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد ، وقاس بعضها بالبعض . فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها ، وبقاؤها ، وسلامتها في الآخرة

---

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله : الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف

وسعادتها ، وتنعمها بلقاء الله تعالى . فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ، ولن يتنعم بلقاءالله إلا من مات محبا لله تعالى ، عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها ، حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له . وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة ، فإنما يقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة ، حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها ، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لايكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع . وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر ، وربما زال وانمحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره ، فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زَبْراً ودفعاً في وجهه ، حتى يضعف وينكسر بسببه ، وينقمع وينمحى .

وهكذا جميع الصفات ، والخيرات ، والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة ، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة ، حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته ، أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء ، وارتعدت الفرائص وتغير اللون . إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعي ، والجوارح كالخدم

والرعايا والأتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه . فالقلب هو المقصود ، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ » وقال عليه السلام [٢] « اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّةَ » وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [١]) وهي صفة القلب

فمن هذا الوجه يجب لامحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل ، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ، ويؤكد فيه الميل إليه ، ليفرغ من شهوات الدنيا ، ويكب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض ، لأنه متمكن من نفس المقصود . وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوي بأن يوضع الطلاء على الصدر ، وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر ، لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح . فلا تظنن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ، فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد في قلبه رقة على يتيم ، فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه . ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، أو ظان أنه يمسح ثوبا ، لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة . وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا . فيقال : العبادة بغير نية باطلة . وهذا معناه إذا فعل عن غفلة .

---

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم

(٢) حديث اللهم أصلح الراعي والراعية . تقدم ولم أجده

---

(١) الحج : ٣٧

فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر، لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شرا، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها، وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا

فهذا وجه كون النية خيرا من العمل . وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير، وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا ، وهي غاية الحسنات . وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا . فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم ، بل ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى . وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة ، وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم . والتقوى ههنا أعني القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ قَوْمًا بِالْمَدِينَةِ قَدْ شَرِكُونَا فِي جِهَادِنَا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير ، وبذل المال والنفس ، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى ، كقلوب الخارجين في الجهاد . وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب ، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات

وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النيـــة ، فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة

بيان

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل ، وقول ، وحركة ، وسكون ، وجلب ، ودفع ، وفكر ، وذكر ، وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه ، فهي ثلاثة أقسام : طاعات ، ومعاص ، ومباحات . القسم الأول: المعاصي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية . فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره ، أو يطعم فقيرا من مال غيره ، أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام ، وقصده الخير، فهذا كله جهل ، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما ، وعدوانا ، ومعصية. بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر . فإن عرفه فهو معاند للشرع ؛ وإن جهله

فهو عاص بجهله ، إذطلب العلم فريضة على كل مسلم . والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ! هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى ، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه ، واستمالة قلوب الناس ، وسائر حظوظ النفس ، توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل . ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ماعصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل . قيل ياأبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال نعم : الجهل بالجهل . وهو كما قال : لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم . فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ماأطيع الله تعالى به العلم ، ورأسُ العلم العلمُ بالعلم ، كما أن رأس الجهل الجهلُ بالجهل . فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل، ومنبع فساد العالم . والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور ، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ، ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه (فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [1]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (1) « لَا يُعْذَرُ الْجَاهِلُ عَلَى الْجَهْلِ وَلَا يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ وَلَا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ، المشغولين بالفسق والفجور ، القاصرين هممهم على مماراة العلماء ، ومباراة السفهاء ، واستمالة وجوه الناس ، وجمع حطام الدنيا ، وأخذ أموال السلاطين ، واليتامى ، والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله ، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال ، يتكالب على الدنيا ، ويتبع الهوى ، ويتباعد عن التقوى ، ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله . ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ، ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله - الحديث : الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم

(١) الأنبياء : ٧

وافعاله ، وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا ، وألفي سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . ثم العجب من جهله حيث يقول: إنما الأعمال بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني ، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرياسة ، والاستتباع ، والتفاخر بعلو العلم ، يحسن ذلك في قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه ، وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق ، وأعدله خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ، ويقول: إنما أردت البذل والسخاء ، والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله ، فإن إعداد الخيل ، والرباط ، والقوة للغزاة من أفضل القربات ، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام ، مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ لِلهِ تَعَالَى ثَلَثِمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ السَّخَاءُ » فليت شعري لم حرم هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم ؟ فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه ، لا أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله ، وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى . فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه ، ولهواه على آخرته ، وهو عاجز عنها لقلة فضله ، فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته

بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلو رأوا منه تقصيرا في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ، ونفوه عن مجالسهم ، وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه ، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة ، وما تعوذوا من الفاجر الجاهل

حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد ، وهجره وصار لا يكلمه ، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى

(١) حديث ان لله ثلثمائة خلق من تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها اليه السخاء : تقدم في كتاب المحبة والشوق

قال : بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع ، وقد أخذت قدر سمك الطين ، وهو أنملة ، من شارع المسلمين ، فلا تصلح لنقل العلم . فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم

وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان ، وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة ، وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها ، والترغيب في الآخرة والدعاء إليها ، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ، ويتوصل بها إلى جمع الحطام ، واستتباع الناس ، والتقدم على الأقران

فإذاً قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد . فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا . نعم للنية دخل فيها ، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها ، وعظم وبالها ، كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة

القسم الثاني : الطاعات . وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها ، وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة . [1] تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر : ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ؟ ويبلغ به درجات المقربين

أولها : أن يعتقد أنه بيت الله ، وأن داخله زائر الله ؛ فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [2] « مَنْ قَعَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ تَعَالَى وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ إِكْرَامُ زَائِرِهِ »

---

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشرة أمثالها : تقدم

(٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره : ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما في الصلاة

وثانيها : أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فيكون في جملة انتظاره في الصلاة ، وهو معنى قوله تعالى (وَرَابِطُوا [١])

وثالثها : الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فإن الاعتكاف كف ، وهو في معنى الصوم ، وهو نوع ترهب. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْقُعُودُ فِي الْمَسَاجِدِ »

ورابعها : عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد

وخامسها : التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره ، وللتذكر به ، كما روي في الخبر [٢] « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى أَوْ يُذَكِّرَ بِهِ كَانَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى »

وسادسها : أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته ، أو يتعاطى ما لا يحل له ، فيأمره بالمعروف ، ويرشده إلى الدين ، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه ، فتتضاعف خيراته

وسابعها : أن يستفيد أخا في الله ، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله

وثامنها : أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى ، وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة. وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أخا مستفادا في الله . أو رحمة مستنزلة . أو علما مستظرفا أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه عن ردىء . أو يترك الذنوب خشية أو حياء

(١) حديث رهبانية أمتي القعود في المساجد : لم أجد له أصلا.

(٢) حديث من غدا الى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى : هو معروف من قول كعب الاحبار رويناه في جزء بن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة من غدا الى المسجد لا يريد الا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجه واسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا الى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح

(١) آل عمران : ٢٠٥

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة ، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير ، وتشمره له ، وتفكره فيه ، فبهذا تزكو الأعمال ، وتتضاعف الحسنات

القسم الثالث : المباحات. وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ، وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ، ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة : ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات ، والخطوات ، واللحظات ، فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لمَ فعله ؟ وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ » وفي حديث [(٢)] معاذ بن جبل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأُصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ » وفي خبر آخر « مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ » فاستعمال الطيب مباح ، ولكن لا بد فيه من نية

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس ، وكيف يتطيب لله

فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة ، وفي سائر الأوقات ، يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولأمور أخر لا تحصى . وكل هذا يجعل التطيب معصية ، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة ، إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم ، فإن ذلك ليس بمعصية ، إلا أنه يسئل عنه . ومن نوقش الحساب عذب ، ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ، ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ، ويخسر زيادة نعيم لا يفنى

---

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب : تقدم

(٢) حديث معاذ ان العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه : لم أجد له اسنادا

وأما [1] النيات الحسنة ، فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوي بذلك أيضا تعظيم المسجد ، واحترام بيت الله ، فلا يرى أن يدخله زائر الله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة ، فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية ، كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا • أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ [1]) أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر . وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله : من طاب ريحه زاد عقله

فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات ، وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه ، فلا يكون معه منها إلا حديث النفس ، وليس ذلك من النية في شيء

والمباحات كثيرة ، ولا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس بهذا الواحد ماعداه . ولهذا قال بعض العارفين من السلف . إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ، وشربي ، ونومي ، ودخولي إلى الخلاء . وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ماهو سبب لبقاء البدن ، وفراغ القلب من مهمات البدن، فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه، وتطييب قلب أهله ، والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده ، فتكثر به أمة محمد صلى الله

---

(١) حديث ان لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة : أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب ان كان عنده ولبس أحسن ثيابه ـ الحديث : ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين ان عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة

---

(١) الأنعام : ١٠٨

عليه وسلم، كان مطيعا بأكله ونكاحه . وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع ، وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة . ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول : هو في سبيل الله، واذا بلغه إغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته ، ولينوى ذلك بسكوته عن الجواب ، ففي الخبر[1] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُحَاسَبُ فَتَبْطُلُ أَعْمَالُهُ لِدُخُولِ الآفَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ ثُمَّ يُنْشَرُ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْجَنَّةَ فَيَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ يَارَبِّ هَذِهِ أَعْمَالٌ مَا عَمِلْتُهَا قَطُّ فَيُقَالُ هَذِهِ أَعْمَالُ الَّذِينَ اغْتَابُوكَ وَآذَوْكَ وَظَلَمُوكَ »

وفي الخبر[2] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُوَافِي الْقِيَامَةَ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ لَوْ خَلَصَتْ لَهُ لَدَخَلَ الْجَنَّةَ فَيَأْتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا وَشَتَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْتَصُّ لِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ قَدْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ وَبَقِيَ طَالِبُونَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَلْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّآتِهِمْ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكًّا إِلَى النَّارِ

وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك ، فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب ، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لي ، فتحرجت، ثم قلت تراب وما تراب ؟ فتربته ، فهتف بي هاتف : سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الثوري ، فرآه مقلوب الثوب ، فعرّفه ، فمدّ يده ليصلحه ، ثم قبضها فلم يسوّه ، فسأله عن ذلك فقال : إني لبسته لله تعالى ، ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني و بينك الله، فيقول: والله ما أعرفك ،فيقول: بلى أنت أخذت لبنة من حائطي،وأخذت خيطا من ثوبي

---

(١) حديث ان العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الحسنة مايستوجب به الجنة ـ الحديث : وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصرا ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لاتشعر وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث ان العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا ـ الحديث: تقدم مع اختلاف

فهذا وأمثاله من الأخبار قاطع قلوب الخائفين . فإن كنت من أولي العزم والنهى، ولم تكن من المغترين ، فانظر لنفسك الآن ، ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك ، ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أولاً أنك لم تتحرك ؟ وماذا تقصد ؟ وما الذى تنال به من الدنيا ؟ وما الذى يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين نامض عزمك وماخطر ببالك ، وإلا فأمسك ، ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك ، فإن ترك الفعل فعل، ولا بد له من نية صحيحة ، فلا ينبغى أن يكون الداعى هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الأمور ، ومشهورات الخيرات ، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار ، فقد روي عن زكريا عليه السلام، أنه كان يعمل فى حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم ، فقدموا له رغيفه ، إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ، فدخل عليه قوم ، فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده ، وظنوا أن الخير فى طلب المساعدة فى الطعام ، فقال: إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إليّ الرغيف لأتقوّى به على عملهم ، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى ، وضعفت عن عملهم . فالبصير هكذا ينظر فى البواطن بنور الله، فإن ضعفه عن العمل نقص فى فرض ، وترك الدعوة إلى الطعام نقص فى فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض

وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل . فما كلمنى حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه، فإن أجابه فأكل فعليه وزران، وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق ، وبالثانى تعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه . فهكذا ينبغى أن يتفقد العبد نيته فى سائر الأعمال، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار

بيان

أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ماذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيقول فى نفسه عند تدريسه ، أو تجارته ، أو أكله : نويت أن أدرس لله ، أو أتجر لله ، أو آكل لله . ويظن ذلك نية . وهيهات ، فذلك حديث نفس ،

وحديث لسان وفكر ، أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها ، إما عاجلا ، وإما آجلا . والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه . أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي . فذلك محال . بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء ، وميله إليه ، وتوجهه نحوه ، إلا باكتساب أسبابه . وذلك مما قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس ، الملائم لها . ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه . وذلك لا يمكن في كل وقت . والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص ، وبالأحوال ، وبالأعمال . فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ، ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولا دنيا ، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد ، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث . ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد! وإذا لم يغلب على قلبه [1] أن إقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها ، لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة ، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية .

نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوي أولا إيمانه بالشرع ، ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن الولد من ثقل المؤنة ، وطول التعب ، وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب ، فتحركه تلك الرغبة ، وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد . فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب ، كان ناويا . فإن لم يكن كذلك ، فما يقدره في نفسه ، ويردده في قلبه من قصد الولد ، وسواس وهذيان

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات ، إذ لم تحضرهم النية . وكانوا يقولون . ليس تحضرنا فيه نية ، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال : ليس تحضرني نية . ونادى بعضهم امرأته ، وكان يسرح شعره ، أن هات المدرى . فقالت : أجيء

(١) حديث النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : تقدم في آداب النكاح

بالمرآة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم . فقيل له فى ذلك ، فقال : كان لى فى المدرى نية ، ولم تحضرنى فى المرآة نية ، فتوقفت حتى هيأها الله تعالى

ومات حماد بن سليمان ، وكان أحد علماء أهل الكوفة ، فقيل للثوري : ألا تشهد جنازته؟ فقال لو كان لى نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول : إن رزقنى الله تعالى نية فعلت

وكان طاوس لا يحدث إلا بنية . وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسئل فيبتدىء ، فقيل له فى ذلك ، قال : أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرتنى نية فعلت

وحكي أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل ، فطلبه منه ، فنظر فيه أحمد صفحا ورده ، فقال : مالك ؟ قال فيه أسانيد ضعاف . فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر ، إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت . قال أحمد : فرده على حتى أنظر فيه بالعين التى نظرت . فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال : جزاك الله خيرا ، فقد انتفعت به

وقيل لطاوس : ادع لنا . فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا فى طلب نية لعيادة رجل منـــــذ شهر فما صحت لى بعد

وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران ، فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ؟ قال ليس من نيتى : وهذا لأن النية تتبع النظر ، فإذا تغير النظر تغيرت النية . وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية ، لعلمهم بأن النية روح العمل ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب . وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت ، بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها

نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه ، لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ، ويحذر نفسه عقابها ، أو نعيم الجنة ، ويرغب نفسه فيها ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة ، فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، فلا تتيسر للراغب فى الدنيا ،

وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها

ونيات الناس فى الطاعات أقسام . إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف ، فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء ، وهو الرغبة فى الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة ، لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة ، وإن كان من جنس المألوفات فى الدنيا . وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن ، وموضع قضاء وطرهما الجنة . فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ، كالأجير السوء ، ودرجته درجة البله ، وإنه لينالها بعمله ، إذ أكثر أهل الجنة البله

وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه ، حبا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فى الجنة ، فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم . فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين ، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ، بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين ، أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين . بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم ، يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها ، وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهى عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلا ، ولا تلتفت إليه . ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن ، ولا يزالون مختلفين ، كل حزب بما لديهم فرحون ، ولذلك خلقهم

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل فى المنام ، فقال له : كل الناس يطلبون منى الجنة إلا أبا يزيد ، فإنه يطلبنى . ورأى أبو يزيد ربه فى المنام فقال : يارب ، كيف الطريق إليك ؟ فقال اترك نفسك وتعال إلىّ . وروُي الشبلى بعد موته فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك؟ فقال لم يطالبنى على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد ، قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة؟

فقال أي خسارة اعظم من خسران لقائي !

والغرض أن هـذه النيات متفاوتة الدرجات ، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإنا نقول : من حضرت له نية في مباح ، ولم تحضر في فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه ، وصارت الفضيلة في حقه نقيصة ، لأن الأعمال بالنيات ، وذلك مثل العفو ، فإنه أفضل من الانتصار في الظلم ، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو ، فيكون ذلك أفضل

ومثل أن يكون له نية في الأكل ، والشرب ، والنوم ، ليريح نفسه ، ويتقوى على العبادات في المستقبل ، وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم ، والصلاة ، فالأكل ، والنوم هو الأفضل له . بل لو ملّ العبادة لمواظبته عليها ، وسكن نشاطه ، وضعفت رغبته ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه ، فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عونا لي على الحق . وقال علي كرم الله وجهه . روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم . بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعده القاصر في الطب ، وإنما يبتغي به أن يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد . والحاذق في لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ، ليتوصل بذلك إلى الغلبة . والضعيف البصيرة قد يضحك به ، ويتعجب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ، ويوليه دبره ، حيلة منه ليستجره إلى مضيق ، فيكر عليه فيقهره

فكذلك سلوك طريق الله تعالى ، كله قتال مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكارا على ما يراه من شيخه ، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته ، وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما ، وينال درجتهما ، ومن الله حسن التوفيق

الباب الثانى

فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [1]) وقال (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ [2]) وقال تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ [3]) وقال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [4]) نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ » وعن (٢) مصعب بن سعد ، عن أبيه قال . ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضُعَفَائِهَا وَدَعْوَتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ »

وعن (٣) الحسن قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى الْإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي » وقال علي بن أبى طالب كرم

﴿ الباب الثانى فى الاخلاص ﴾

(١) حديث ثلاث لايغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله : الترمذى وصححه من حديث النعمان بن بشير

(٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن انه له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم

(٣) حديث الحسن مرسلا يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الاخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروكان وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث علي بن أبى طالب بسند ضعيف

---

(١) البينة : ٥ (٢) الزمر : ٣ (٣) النساء : ١٤٦ (٤) الكهف : ١١٠

الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقبول ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم [١] قال لمعاذ بن جبل « أَخْلِصِ الْعَمَلَ يُجْزِكَ مِنْهُ الْقَلِيلُ »

وقال عليه السلام [٢] « مَامِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ لِلَّهِ الْعَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ » وقال عليه السلام [٣] « أَوَّلُ مَنْ يُسْئَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاَثَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاصَنَعْتَ فِيمَا عَلِمْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ عَالِمٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ . فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ جَوَادٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلاَنٌ شُجَاعٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ » قال أبو هريرة . ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي وقال « يَاأَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فدخل راوي هذا الحديث على معاوية ، وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [١]) الآية

وفي الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا ، فجاءه قوم فقالوا : إن هٰهنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى . فغضب لذلك ، وأخذ فأسه على عاتقه ، وقصد الشجرة ليقطعها . فاستقبله إبليس في صورة شيخ ، فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة : قال وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك

---

(١) حديث انه قال لمعاذ أخلص العمل يجزك منه القليل : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع

(٢) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما : ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم

(٣) حديث اول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم . الحديث : وقد تقدم

---

(١) هود : ١٥

فقال: إن هذا من عبادتي . قال: فإني لا أتركك أن تقطعها . فقاتله ، فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض ، وقعد على صدره ، فقال له إبليس : أطلقني حتى أكلمك . فقام عنه ، فقال له إبليس: ياهذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ، وما تعبدها أنت ، وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء فى أقاليم الأرض ، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها ، وأمرهم بقطعها . فقال العابد : لابد لى من قطعها . فنابذه للقتال ، فغلبه العابد وصرعه ، وقعد على صدره ، فعجز إبليس ، فقال له : هل لك فى أمر فصل بيني و بينك ، وهو خير لك وأنفع ؟ قال وماهو؟ قال أطلقني حتى أقول لك . فأطلقه ، فقال إبليس . أنت رجل فقير لاشيء لك ، إنما أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك، وتواسى جيرانك، وتشبع وتستغنى عن الناس ، قال نعم . قال فارجع عن هذا الأمر ، ولك علي أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين ، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك ، وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التى يغرس مكانها ، ولايضرهم قطعها شيئا ، ولاينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها . فتفكر العابد فيما قال ، وقال صدق الشيخ ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ، ولا أمرنى الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة . فعاهده على الوفاء بذلك ، وحلف له . فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه ، فأخذهما ، وكذلك الغد ، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا ، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه، فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة . فقال كذبت والله ، ما أنت بقادر على ذلك ، ولاسبيل لك إليها . قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة ، فقال هيهات، فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجليه ، وقعد إبليس على صدره وقال . لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك . فنظر العابد ، فإذا لا طاقة له به . قال ياهذا غلبتنى فخل عنى ، وأخبرنى كيف غلبتك أولا وغلبتنى الآن . فقال لأنك غضبت أول مرة لله ، وكانت نيتك الآخرة ، فسخرنى الله لك . وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا ، فصرعتك

وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1]) إذ لا يتخلص

---

(1) ص : ٨٣

العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يانفس أخلصى تتخلصى . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ؟ وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس . وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السختياني : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صفى له ، ومن خلط خلط عليه

ورؤي بعضهم فى المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك؟ فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حبة رمان لقطتها من طريق ، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها فى كفة الحسنات . وكان فى قلنسوتى خيط من حرير فرأيته فى كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لى قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور فى كفة الحسنات ، وموت حمار ليس فيها ! فقيل لى إنه قد وجه حيث بعثت به ، فإنه لما قيل لك قد مات ، قلت : فى لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولو قلت : فى سبيل الله ، لوجدته فى حسناتك ، وفى رواية ، قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبنى نظرهم إلي ، فوجدت ذلك لا علي ولا لى ، قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه ؛ وقال يحي بن معاذ : الإخلاص يميز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من الفرث ، والدم ، وقيل : كان رجل يخرج فى زي النساء ، ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء ، من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه جمع للنساء ، فسرقت درة ، فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة ، حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص ، وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة ، فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة

وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التسترى وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فمر به بعض إخوانه من الأبدال ، فساره بشيء ، فقال أبو عبيد : لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عينى ، فقلت لأبى عبيد . ماقال لك ؟ فقال . سألنى أن أحج معه ، قلت . لا ، قلت ، فهلا فعلت ، قال ليس لى فى الحج نية ، وقد نويت

أن أتم هذه الأرض العشية فأخاف أن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأنى أدخل فى عمل الله شيئاً غيره ، فيكون ما أنا فيه أعظم عندى من سبعين حجة ، ويروى عن بعضهم ، قال . غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة ، فقلت . أشتريها فأنتفع بها فى غزوى فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها ، فاشتريتها ، فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه . اكتب الغزاة فأملى عليه . خرج فلان متنزها ، وفلان مرائيا ، وفلان تاجرا ، وفلان فى سبيل الله ، ثم نظر إلي ، وقال . اكتب فلان خرج تاجرا ، فقلت . الله الله فى أمرى ، ماخرجت أتجر ، وما معى تجارة أتجر فيها ، ما خرجت إلا للغزو ، فقال ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت ، وقلت . لاتكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه ، وقال . ماترى فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى

وقال سري السقطى رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين فى خلوة تخلصهما ، خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو ، وقال بعضهم : فى إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز ، ويقال : العلم بذر ، والعمل زرع ، وماؤه الإخلاص ، وقال بعضهم . إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ، ومنعه ثلاثا ، أعطاه صحبة الصالحين ، ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ، ومنعه الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ، ومنعه الصدق فيها ،

وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط ، وقال الجنيد . إن لله عبادا عقلوا ، فلما عقلوا عملوا ، فلما عملوا أخلصوا ، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع

وقال محمد بن سعيد المروزى . الأمر كله يرجع إلى أصلين ، فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى ما فعل ، وتخلص فيما تعمل ، فإذاً أنت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين

بيان

حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا ، قال الله تعالى (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا

سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ [1]) فإنما خلوص اللبن أن لايكون فيه شوب من الدم والفرث ، ومن كل مايمكن أن يمتزج به . والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية ، والشرك منه خفي ، ومنه جلي ، وكذا الإخلاص ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات ، وقد ذكرنا حقيقة النية ، وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا ، بالإضافة إلى المنوي ، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ، ولسنا نتكلم فيه ، إذ قد ذكرنا مايتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات ، وأقل أموره ماورد فى الخبر ، من [1] أن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام ، يامرائي ، يامخادع ، يامشرك ، ياكافر ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خُلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده ، أو ليهرب عن عدو له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه ، فأراد أن يستريح منه أياما ، أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها ، أو يصلي بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله ، أو رحله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب مايكفيه من المال ، أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث ، أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا فى الدنيا

---

(١) حديث ان المرائي يدعى يوم القيامة يامرائي يامخادع ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب السنة والاخلاص وقد تقدم

---

(١) النحل : ٦٦ .

أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه ، أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ ليتنظف ، أو يتبرد ، أو اغتسل لتطيب رائحته ، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد ، أو اعتكف فى المسجد ليخف كراء المسكن ، أو صام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام ، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها ، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه فى السؤال عن نفسه ، أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض ، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله ، أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه ، بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتتطرق إليه الشرك ، وقد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشركة

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل . من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذى لاباعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ، وهذه الحظوظ إن كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب ، إما أن تكون فى رتبة الموافقة ، أو فى رتبة المشاركة ، أو فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية

وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الدينى ، أو أقوى منه ، أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره ، وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها ، قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهى الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ،

ويتمنى أن لو كفي شر الجوع ، حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده ، لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته ، كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغيرهما إلا نادرا

فإذاً علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن الدنيا ، والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذلك يتيسر الإخلاص . وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغرورا ، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها ، كما حكي عن بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول ، لأني تأخرت يوما لعذر فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي ، وسبب استراحة قلبي ، من حيث لا أشعر ، وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا [1]) وبقوله تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [2]) وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع ، والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ، ويقول . غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ،

---

(١) الزمر : ٤٧ ، ٤٨ (٢) الكهف : ١٠٣

ووعظه السلاطين ، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ، وهو يدّعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا ، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك ، وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى ، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ، ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك ، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك ، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب ، واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق ، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا ، وأعود عليه في الآخرة من انفراده

وليت شعرى لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدى أبى بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما ، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه ، أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق ، مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ، وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان ، فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به . وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة ، والامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ، ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان ، والنفس ، وطال اشتغاله بامتحانها . فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق ، يغرق فيه الجميع ، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ ، وهو المستثنى في قوله تعالى (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1]) فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق ، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر

بيان

أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الاخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا

(1) ص : ٨٣

عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول ابراهيم بن أدهم. الإخلاص صدق النية مع الله تعالى، وقيل لسهل أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب، وقال رويم: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا، والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين، وهو الإخلاص المطلق، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار، فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ، وقال هذا من صفات الإلهية، وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمجرد المعرفة، والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه، وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة، وملازمة الشهود، للحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه، ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ، وطاعتهم لحظ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره

وقال أبو عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط، وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط، ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده، ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء، وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق، وهذا أجمع للمقاصد، وقال المحاسبي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب، وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء، وكذلك قول الخواص من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية، وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد، وهذا أيضا

تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص ، وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات ، وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما ، وقيل : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها

وهذا هو البيان الكامل ، والأقاويل في هذا كثيرة ، ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة ، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم ، (١) إذ سئل عن الإخلاص فقال « أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك ؛ وتستقيم في عبادته ؛ كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا

بيان

درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص ، بعضها جلي وبعضها خفي ، وبعضها ضعيف مع الجلاء ، وبعضها قوي مع الخفاء ، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال ، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء ، فلنذكر منه مثالا فنقول . الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا في صلاته ، ثم نظر إليه جماعة ، أو دخل عليه داخل ، فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ، ولا يزدريك ، ولا يغتابك ، فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ، وهذا هو الرياء الظاهر ، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين

الدرجة الثانية : يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره ، فصار لا يطيع الشيطان فيها ، ولا يلتفت إليه ، ويستمر في صلاته كما كان ، فيأتيه في معرض الخير ،

---

(١) حديث سئل عن الإخلاص فقال أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت : لم أره بهذا اللفظ للترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال قل ربي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ، ومنظور إليك ، وما تفعله يؤثر عنك ، ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت ، وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه ، فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة ، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ، ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه ، فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة . ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ، فهذا محض التلبيس ، بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه ، فانتشر نوره إلى غيره ، فيكون له ثواب عليه ، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس ، فمن اقتدى به أثيب عليه ، وأما هو فيطالب بتلبيسه ، ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به

الدرجة الثالثة : وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه فى ذلك، ويتنبه لكيد الشيطان؛ ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملأ ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته، فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملأ ، ويصلى فى الملأ أيضا كذلك، فهذا أيضا من الرياء الغامض، لأنه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملأ فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفاته فى الخلوة والملإ إلى الخلق ، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته. ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ، ثم يستحي من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته فى الخلاء والملأ ، وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات فى الخلاء والملأ جميعا ، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملأ والخلاء جميعا ، وهذا من المكايد الخفية للشيطان

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ، ومن أنت واقف بين يديه ، واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه ، وتخشع جوارحه ، ويظن أن ذلك عين الإخلاص ،

وهو عين المكر والخداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ، ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة ، كما يألفه فى الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر ، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً ، فما دام يفرق فى أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص ، مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا [1] الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره ، وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى ، لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات ، حتى فى كحل العين ، وقص الشارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثياب ، فإن هذه سنن فى أوقات مخصوصة ، وللنفس فيها حظ خفي ، لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ، ويقول هذه سنة لا ينبغى أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها ، لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حيز الإخلاص بسببه ، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع ، فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف

وقد يكون المحرك الخفي فى سره هو الأنس بحسن صورة المسجد ، واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك فى ميله إلى أحد المسجدين ، أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع ، وكدورات النفس ، ومبطل حقيقة الإخلاص ، لعمرى الغش الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة . فمنها ما يغلب ، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ، ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير ، وغش القلب ، ودغل الشيطان وخبث النفس ، أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال ، حتى يخلص عنها ، فإن الجاهل نظره

(١) حديث الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة الصماء : تقدم فى العلم وفى ذم الجاه والرياء

إلى ظاهر العبادة واغتراره بها، كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموه واستدارته، وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير، خير من دينار يرتضيه الغر الغبي

فهكذا يتفاوت أمر العبادات ، بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال ، لايمكن حصرها وإحصاؤها ، فلينتفع بما ذكرناه مثالا ، والفطن يغنيه القليل عن الكثير ، والبليد لايغنيه التطويل أيضا ، فلا فائدة في التفصيل

بيان

حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى ، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس ، فقد اختلف الناس في إن ذلك هل يقتضي ثوابا ، أم يقتضي عقابا ، أم لايقتضي شيئا أصلا ، فلا يكون له ولا عليه ، وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا ، وهو سبب المقت والعقاب ، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب ، وإنما النظر في المشوب وظاهر [1] الأخبار تدل على أنه لاثواب له ، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه ، والذي ينقدح لنا فيه ، والعلم عند الله ، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث ، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لاله ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع ، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب ، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ، ولم يمتزج به شائبة التقرب ، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر مافضل من قوة الباعث الديني ، وهذا لقوله تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1])

---

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على ان العمل المشوب لاثواب له قال وليس تخلو الاخبار عن تعارض : أبو داود من حديث أبي هريرة ان رجلا قال يارسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له ـ الحديث : وللنسائي من حديث أبي أمامة باسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الاجر والذكر ماله فقال لاشيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لاشيء له ثم قال ان الله لايقبل من العمل الا ما كان خالصا وابتغي به وجهه وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجران أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨

ولقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [1]) فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد

وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات ، وإنما قوتها بالعمل على وفقها ، فإذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب ، فقد قوّى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك ، والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما ، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ، ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ، ولا ينفك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله ، أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده ، فقد عاد إلى ما كان ، فلم يكن له ولا عليه . وإن كان الفعل مما يقربه شبرين ، والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » فإذا كان المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة

ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة ، صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة ، وتجارته غير موقوفة عليه ، فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ، ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي ، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع ، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب .

---

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها : تقدم فى رياضة النفس وفى التوبة

(١) النساء : ٥٠

وماعندي أن الغزاة لايدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم، وبين جهة لاغنيمة فيها. ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال : إذاكان الباعث الأصلي ، والمزعج القوى ، هو إعلاء كلمة الله تعالى ؛ وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية ، فلا يحبط به الثواب . نعم لايساوى ثوابه ثواب من لايلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا ، فإن هذا الالتفات نقصان لامحالة

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة ، والتجارة ، وسائر الحظوظ ، فقد روى [(١)] طاوس وغيره من التابعين ، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف ، أو قال: يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر ، فلم يدر مايقول له ، حتى نزلت (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً [(١)]) وقد قصد الأجر والحمد جميعا. وروى [(٢)] معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ » وقال [(٣)] أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ »

وروي عن عبادة ، أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة ، من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي . وروى [(٤)] أبو موسى أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ

---

(١) حديث طاوس وعدة من التابعين ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت فمن كان يرجوا لقاء ربه : ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء

(٢) حديث معاذ أدنى الرياء شرك : الطبراني والحاكم وتقدم فيه

(٣) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له : تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله

(٤) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله : تقدم فيه

---

(١) الكهف : ١١٠

هيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال عمر رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد ، ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا . وقال [١] ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ »

فنقول : هذه الأحاديث لاتناقض ماذكرناه . بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا ، كقوله « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا » وكان ذلك هو الأغلب على همه ، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان ، لا لأن طلب الدنيا حرام ، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام ، لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها . وأما لفظ الشركة حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ، ولم يكن له ولا عليه ، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب

ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا في خطر ، فإنه لايدرى أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [١]) أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط

ويجوز أن يقال أيضا : منصب الشهادة لاينال إلا بالإخلاص في الغزو ، وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة ، وقدر على غزو طائفتين من الكفار ، إحداهما غنية ، والأخرى فقيرة ، فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة ، لاثواب له على غزوه ألبتة : ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك . فإن هذا حرج في الدين ، ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لاينفك الإنسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب . فأما أن يكون في إحباطه فلا

نعم الإنسان فيه على خطر عظيم ، لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي ، وذلك مما يخفى غاية الخفاء ، فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص ، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه ، وإن بالغ في الاحتياط

فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول ، خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر

---

(١) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له : تقدم في الباب الذي قبله

(١) الكهف : ١١٠

وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة .ولذلك قال سفيان رحمه الله : لا أعتد بما ظهر من عملي . وقال عبدالعزيز بن أبي روّاد : جاورت هذا البيت ستين سنة ، وحججت ستين حجة، فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي ،فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لي ولا عليّ . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص. ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أباسعيد الخراز ويخف في أعماله ، فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوما يريد إخلاص الحركات ،فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص ، فتعذر عليه قضاء الحوائج ،واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره ، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها . فقال أبو سعيد : لا تفعل ،إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة ، فواظب على العمل، واجتهد في تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل ، وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء ، وفعله لأجل الخلق شرك

الباب الثالث

في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [1]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً »

ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه ، والله تعالى وصف الأنبياء في معرض

﴿ الباب الثالث في الصدق ﴾

(١) حديث ان الصدق يهدى الى البر ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

---

(١) الأحزاب : ٢٣

المدح والثناء فقال (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا [١]) وقال (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا [٢]) وقال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا [٣])

وقال ابن عباس : أربع من كنّ فيه فقد ربح ، الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر

وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس

وقال أبو عبد الله الرملي : رأيت منصورا الدينوري في المنام ، فقلت له : مافعل الله بك قال : غفر لي ، ورحمني ، وأعطاني مالم أؤمل . فقلت له : أحسن ماتوجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق . وأقبح ماتوجه به الكذب

وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : مارأيت صدقا فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد ابن علي الكتاني قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق ، والصدق ، والعدل . فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب ، والصدق على العقول

وقال الثوري في قوله تعالى (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ [٤]) قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود ، من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته

وصاح رجل في مجلس الشبلي ، ورمى نفسه في دجلة ، فقال الشبلي : إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام ، وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون

وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال ، أنها إذا صحت ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض . الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم

وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة . اثنين وعشرين حرفا ، كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها . لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ،

---

(١) مريم : ٤١ (٢) مريم : ٥٤ (٣) مريم : ٥٦ (٤) الزمر : ٦٠

ولاحسنة أعلى من الصبر ، ولاسيئة أخزى من الكبر ، ولادواء ألين من الرفق ، ولاداء أوجع من الخرق ، ولارسول أعدل من الحق ، ولادليل أنصح من الصدق ، ولافقر أذل من الطمع ، ولاغنى أشقى من الجمع ، ولاحياة أطيب من الصحة ، ولامعيشة أهنأ من العفة ، ولاعبادة أحسن من الخشوع ، ولازهد خير من القنوع ، ولاحارس أحفظ من الصمت ، ولاغائب أقرب من الموت ، . وقال محمد بن سعيد المروزى : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخره

وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى ، والرفق فيما بينك وبين الخلق

وقيل لذى النون . هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه ؟ فقال : الصدق ، والسخاء ، والشجاعة فقيل زدنا : فقال : التقى ، والحياء ، وطيب الغذاء

وعن [1] ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال «قَوْلُ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِالصِّدْقِ» . وعن الجنيد فى قوله تعالى (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ [1]) قال يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر

بيان

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها . فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق ؛ لأنه مبالغة فى الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه

---

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق : لم أجده بهذا اللفظ

---

(١) الاحزاب : ٨

الصدق الأول . صدق اللسان . وذلك لا يكون إلا فى الأخبار .أو فيما يتضمن الأخبار وينبه عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق

ولكن لهذا الصدق كمالان . أحدهما :الاحتراز عن المعاريض ، فقد قيل : فى المعاريض مندوحة عن الكذب . وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه فى نفسه . إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال ، وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم ، وفى الحذر عن الظلمة ، وفى قتال الأعداء ، والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه ،لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه

نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا [1] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره ، وذلك كي لا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شيء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « لَيْسَ بِكَذّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً أَوْ أَنْمَى خَيْراً » ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فمهما صح قصده ، وصدقت نيته .وتجردت للخير إرادته ، صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه

ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره ، فقال لزوجته . خطى بأصبعك دائرة ، وضعى الأصبع على الدائرة ، وقولى ليس

---

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره :متفق عليه من حديث كعب بن مالك

(٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس ـ الحديث : متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط وقد تقدم

هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ، ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدقا ،وأفهم الظالم أنه ليس فى الدار .

فالكمال الأول فى اللفظ : أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة

والكمال الثانى ، أن يراعي معنى الصدق فى ألفاظه التي يناجى بها ربه ، كقوله : وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض ، فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى ، مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته ، فهو كذب . وكقوله : إياك نعبد . وقوله : أنا عبد الله . فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية ، وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامه صدقا . ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله : أنا عبد الله ، لعجز عن تحقيقه ، فإنه إن كان عبدا لنفسه ، أو عبداً لدنيا أو عبدا لشهواته ، لم يكن صادقا فى قوله .

وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له . كما قال عيسى عليه السلام : ياعبيد الدنيا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم [1] « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحُلَّةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ » سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له . وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى ، فصار حرا مطلقا . فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا ، فخلت فيه العبودية لله ، فتشغله بالله ومحبته ، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته ، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية ، وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو ، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد ، فتفنى إرادته فى إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا ، وصار مفقودا لنفسه ، موجودا لسيده ومولاه ، إن حركه تحرك ، وإن سكنه سكن ، وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب ، والتماس ، واعتراض ، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى ، فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق العبوديه لله تعالى . وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا .

فهـــــــذا هو معنى الصدق فى القول

---

(١) حديث تعس عبد الدينار ـ الحديث : البخارى من حديث أبي هريرة وقد تقدم

الصدق الثاني : في النية والإرادة . ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا ، كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث[١] الثلاثة ، حين يسئل العالم ماعملت فيما علمت، فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم، فإنه لم يكذبه ،ولم يقل له لم تعمل ،ولكنه كذبه في إرادته ونيته .

وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد . وكذلك قول الله تعالى(وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ[١]) وقد قالوا إنك لرسول الله ، وهذا صدق ،ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان ، بل من حيث ضمير القلب ، وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر ،وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد مايقول ، فكذب في دلالته بقرينة الحال على مافي قلبه. فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به .فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا

الصدق الثالث :صدق العزم ، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل. فيقول في نفسه. إن رزقني الله مالا تصدقت بجميعه، أو بشطره ، أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت ،وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق

فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل، وتردد ، وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة ، كما يقال لفلان شهوة صادقة ، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة ،مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي ، أو كانت ضعيفة . فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات . وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل

---

(١) حدث الثلاثة حين سال العالم ماذا عملت فيما علمت ـ الحديث : تقدم .

(١) المنافقون : ١٠

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف ، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق .

الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم . فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال ، إذ لا مشقة في الوعد والعزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات انحلت العزيمة ، وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالعزم . وهذا يضاد الصدق فيه . ولذلك قال الله تعالى (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [1]) فقد روي [1] عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع . قال فشهد أحدا في العام القابل ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال واها لريح الجنة، إني أجد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ، ما بين رمية ، وضربة ، وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخي إلا بثيابه . فنزلت هذه الآية (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [2])

[2] ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير ، وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ [3]) . وقال [3] فضالة بن عبيد : سمعت

---

(١) حديث أنس ان عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : في قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول رجال صدقوا الآية الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصرا ان هذه الآية نزلت في أنس بن النضر

(٢) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية : أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا

(٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الايمان ـ الحديث : الترمذي وقال حسن

(١ ، ٢ ، ٣) الاحزاب : ٢٣

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا » ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوي . فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَرَجُلٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ أَتَاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَرَجُلٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ » . وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود ، فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدقن ، فبخلوا به ، فنزلت (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (١))

وقال بعضهم : إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به ، فقال (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٢)) فجعل العزم عهدا ، وجعل الخلف فيه كذبا ، والوفاء به صدقا

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن النفس قد تسخوا بالعزم ، ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ، ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال .. لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئا لا أجده الآن ، لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم

وقال أبو سعيد الخراز . رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي : ما الصدق؟ قلت الوفاء بالعهد . فقالا لي : صدقت . وعرجا إلى السماء

الصدق الخامس : في الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر . وهذا يخالف ماذكرناه من ترك الرياء ، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك ورب

(١ ، ٢) التوبة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ، ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى ، وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدي شهوة من شهواته . فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال . وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار ، وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار ؛ فهذا غير صادق فى عمله ، وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ، ولا مرائيا إياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ، ولبس ثياب الأشرار ، كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره ، فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن

فإذاً مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ، ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « اللَّهُمَّ اجْعَلْ سَرِيرَتِي خَيْرًا مِنْ عَلاَنِيَتِي وَاجْعَلْ عَلاَنِيَتِي صَالِحَةً » وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف . وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل . وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا .

إذا السر والإعلان فى المؤمن استوى ... فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار فى السوق نافق ... ومغشوشه المزدود لايقتضى المنا

وقال عطية بن عبد الغافر . إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة ، يقول : هذا عبدى حقا : وقال معاوية بن قرة : من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار ! وقال عبد الواحد ابن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ، ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى ، عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ، ويبكى . وقال أبو يعقوب النهرجورى : الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية ، فإذا مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها ، الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق

(١) حديث اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى ـ الحديث : تقدم ولم أجده

في الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ،والزهد ، والرضا، والتوكل ، والحب ،وسائر هذهالأمور فإن هذه الأمور لها مبـــادٍ ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها . وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته ، سمي صاحبه صادقا فيـه كما يقال . فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق . وهـذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [١]) إلى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [٢]) وقال تعالى(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [٣]) إلى قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا [٤]) [١] وسئل أبو ذرعن الإيمان ،فقرأ هذه الآية.فقيل له سألناك عن الإيمان . فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية

ولنضرب للخوف مثلا . فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ، ولكنه خوف غير صادق ، أي غير بالغ درجة الحقيقة . أما تراه إذا خاف سلطانا ، أو قاطع طريق في سفره ، كيف يصفر لونه ، وترتعد فرائصه.ويتنغص عليه عيشه ، ويتعذر عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده ؟ وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة ، والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المحذور . ثم إنه يخاف النار ، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عنـــد جريان معصية عليه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢]« لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلاَ مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا »

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولـكن لـكل عبد منه حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي . فإذا قوي سمي صادقا فيه

فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لهـا ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام [٣]« أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي هِيَ صُورَتُكَ » فقال لا تطيق ذلك

---

(١) حديث أبي ذر سألته عن الايمان فقرأ قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله أولئك الذين صدقوا رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له اسنادا

(٢) حديث لم أر مثل النار نام هاربها ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطيق ذلك ـ الحديث : تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين

(١ ، ٢) الحجرات : ١٥ (٣ ، ٤) البقرة : ١٧٧

قال « بَلْ أَرِنِي » فواعده البقيع في ليلة مقمرة ، فأتاه ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ هَكَذَا » قال وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع ، يعني كالعصفور الصغير . فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة ، فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَجِبْرِيلُ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى » يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير . وكذلك الصحابة كانوا خائفين ، وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله . وقال مطرف : ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه ، إلا أن بعض الحمق أهون من بعض . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالْأَبَاعِرِ فِي جَنْبِ اللهِ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِدَهَا أَحْقَرَ حَقِيرٍ »

فالصادق إذاً في جميع هذه المقامات عزيز ، ثم درجات الصدق لا نهاية لها . وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوي ، وفيما سواهن ضعيف : ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها . ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها . وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام . فهذا صدق

---

(١) حديث مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملا الاعلى كالحلس البالى من خشية الله ـ الحديث : محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير ابن عطارد وهذا مرسل

(٢) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر في جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير : لم أجد له أصلا في حديث مرفوع

فى هذه الأمور. وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة، واتبعوا الجنائز، ولم يبلغوا هذا المبلغ

فهذه هي درجات الصدق ومعانيه، والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعانى. نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة: صدق التوحيد، وصدق الطاعة، وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين. قال الله تعالى. (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ[1]) وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض. وكل هذا يدور على ما ذكرناه فى الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق، وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام

وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك، فقال تعالى (هُوَ اجْتَبَاكُمْ[2]). وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال، لأنظر كيف صدقه. فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا، وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى.

فإذاً من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا، وكراهة اطلاع الخلق عليها

تم كتاب الصدق والإخلاص، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

(١) الحديد: ١٩ (٢) الحج: ٧٨

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الخامس عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى القاهرة ت ٢١٨٤

كتاب المراقبة والمحاسبة

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت ، وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها المراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت . فسبحان من عمّت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء ، والجزاء ، والإبعاد ، والإدناء ، والإسعاد ، والإشقاء

والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله سادة الأصفياء ، وعلى أصحابه قادة الأتقياء

أما بعد : فقد قال الله تعالى (وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ[1]) وقال تعالى (وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا[2])

---

(1) الأنبياء : ٤٧ (2) الكهف : ٤٩

وقال تعالى (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[(١)]) وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ[(٢)]) وقال تعالى (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ[(٣)]) وقال تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ[(٤)]) وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ[(٥)]) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون فى الحساب . ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات . وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ، ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت فى عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا[(٦)]) فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة ، فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها ، وتفصيل الأعمال فيها ، وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق

المقام الأول من المرابطة

المشارطة

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات ، المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه . فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل

(١) المجادلة : ٦ (٢) الزلزلة : ٦ ، ٧ ، ٨ (٣) البقرة : ٢٨١ (٤) آل عمران : ٣٠ (٥) البقرة : ٢٣٥
(٦) آل عمران : ٢٠٠

هو التاجر فى طريق الآخرة ، وإنما مطلبه وربحه تزكيـة النفس ، لأن بذلك فلاحهـا . قال الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [1]) وإنما فلاحها بالأعمـال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة ، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله

وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح ، فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ، ويراقبه ثانيا ، ويحاسبه ثالثا ، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا ، فيوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال ، كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير فى خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ، ولذلك قيل :

أشد الغم عنـدى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقـالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها فى حركاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وحظواتهـا ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لهـا ، يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد . فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل

فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ، ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس ، كما أن التاجر عنـد تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس . مالى بضاعـة إلا العمر ، ومهما فنى فقد فنى رأس المـال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ،

---

(١) الشمس : ٩ ، ١٠

وهـذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ؛ وأنسأ في أجلي ، وأنعم عليّ به ، ولو توفاني لـكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً. فاحسبي أنك قد توفيت، ثم قد رُددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم ؛ فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة؛ وقد ورد في الخبر أنه [١] ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة ؛ فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ، مالو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار . ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ؛ يفوح نتنها ، ويغشاه ظلامها ، وهي الساعة التي عصى الله فيها ، فيناله من الهول والفزع مالو قسم على أهل الجنـة لتنغص عليهم نعيمها . ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها مايسره ولا ما يسوؤه ، وهي الساعة التي نام فيها ، أو غفل ، أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ؛ فيتحسر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ماينال القادر على الربح الـكثير والملك الـكبير، إذا أهمله وتساهل فيـه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبنا. وهـكذا تعرض عليـه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملـكك، ولا تميلي إلى الـكسل والدعة والاسـتراحة ، فيفوتك من درجات عليين مايدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لاتفارقك وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار

وقد قال بعضهم : هب أن المسيء قد عفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ أشار بها إلى الغبن والحسرة : وقال الله تعالى . ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ [١]﴾

فهذه وصيته لنفسه في أوقاته . ثم ليستأنف لهـا وصية في أعضائه السبعة : وهي العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل، وتسليمها إليها ؛ فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة ، وبها تتم أعمال هذه التجارة. وإن لجهنم سبعة أبواب ؛ لكل باب منهم جزء

﴿ كتاب المحاسبة والمراقبة ﴾

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسناته ـ الحديث : بطوله لم أجد له أصلا

(١) التغابن : ٩

مقسوم. وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها

أما العين ، فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه . فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر ، كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو ماخلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ،ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو ،لاسيما اللسان والبطن

أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ، ولا مؤنة عليه فى الحركة ، وجنايته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتزكية النفس ،ومذمة الخلق والأطعمة ،واللعن ، والدعاء على الأعداء والمماراة فى الكلام ، وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر ، والتذكير ، وتكرار العلم ، والتعليم ، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين،وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا فى الذكر ، فنطق المؤمن ذكر ،ونظره عبرة ،وصمته فكرة ،وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وأما البطن فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال ،واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ؛ ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها

وهكذا يشرط عليها فى جميع الأعضاء ،واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها . ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تتكرر عليه فى اليوم والليلة ، ثم فى النوافل التى يقدر عليها ، ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها ، وكيفيتها ، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها فى كل يوم ، ولكن إذا تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما ، وطاوعته نفسه فى الوفاء بجميعها ، استغنى عن المشارطة فيها . وإن أطاع فى بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه فى ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية ، أو تجارة ، أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم

عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها . فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق فى مجاريها ، ويحذّرها مغبة الإهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد ، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين

فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس، وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل، وتارة قبله للتحذير . قال الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ [1]) وهذا المستقبل . وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة . وقد قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا [2]) وقال تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا [3]) وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ [4]) ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه فى المستقبل . وروى [1] عبادة بن الصامت ، أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيًّا فَانْتَهِ عَنْهُ »

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة ، فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن النـــدامة

وروي شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [2] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » دان نفسه أي حاسبها . ويوم الدين يوم الحساب . وقوله (أَئِنَّا لَمَدِينُونَ [5]) أى لمحاسبون

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعرى : حاسب نفسك فى الرخاء قبل

---

(١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ الحديث : تقدم

(١) البقرة : ٢٣٥ (٢) النساء : ٩٤ (٣) الحجرات : ٦ (٤) ق : ١٦ (٥) الصافات : ٥٣

حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها فى كتاب الله ؟ قال ويل لديان الأرض من ديان السماء ، فعلاه بالدرة وقال : إلا من حاسب نفسه . فقال كعب : ياأمير المؤمنين، إنها إلى جنبها فى التوراة ، مابينهما حرف ، إلا من حاسب نفسه

وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل ، إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا ، وقدرها ، ونظر فيها ، وتدبرها ، ثم أقدم عليها فباشرها

المرابطة الثانية

المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ماذكرناه ، فلا يبقى إلا المراقبة لها عندالخوض فى الأعمال ، وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها

أما الفضيلة فقد [1] سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه . وقال عليه السلام [2] « اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وقد قال تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ [1]) وقال تعالى (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى [2]) وقال الله تعالى (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً [3]) وقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ [4])

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى . فسأله عن تفسيره ، فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبا عليّ فلا أبالى بغيره

وقال أبو عثمان المغربى : أفضل مايلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات

وقال الجريرى : أمرنا هذا مبني على أصلين . أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ، ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبو عثمان : قال لى أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظا

---

(١) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث اعبد الله كأنك تراه ـ الحديث : تقدم

---

(١) الرعد : ٣٣ (٢) العلق : ١٤ (٣) النساء : ١ (٤) المعارج : ٣٢ ، ٣٣

لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله رقيب على باطنك

وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب ، وكان يكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ! فدعا بعدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا ، وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد. ودفع إلى الشاب مثل ذلك ، وقال له كما قال لهم . فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ، ورجع الشاب والطائر حي في يده . فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد ، إذ الله مطلع عليّ في كل مكان . فاستحسنوا منه هذه المراقبة ، وقالوا حق لك أن تكرم

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام ، قامت فغطت وجه صنم كان لها ، فقال يوسف : مالك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار !

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت فأين مكوكبها ؟

وقال رجل للجنيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد . إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل

وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس ، وفيها حور خلقن من ورد الجنة . قيل له ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل . إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي . وعزتي وجلالي ، إني لأهم بعذاب أهل الأرض ، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب

وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى

وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة

ويروى أن الله تعالى قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر ، وأنا الرقيب على الباطن

وقال محمد بن علي الترمذي : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه

وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان

وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[1]) فقال : معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل ، وحاسب نفسه ، وتزود لمعاده

وسئل ذوالنون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال : بخمس استقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد ليس معه سهو ، ومراقبة الله تعالى فى السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ماتخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظنى فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم . ولئن كنت تظن أنه لايراك فلقد كفرت

وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لاتخفى عليه خافية ،وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة

وقال فرقد السنجي: إن المنافق ينظر، فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء ، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبدالله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة ، فعرسنا فى بعض الطريق ، فانحدر عليه راعٍ من الجبل فقال له : ياراعى ، بعنى شاة من هذه الغنم . فقال إنى مملوك . فقال قل لسيدك أكلها الذئب : قال فأين الله ؟ قال فبكى عمر رضي الله عنه ، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه ، وقال أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة

بيان

حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب، وانصراف الهم إليه . فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه . ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب

(١) البينة : ٨

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به ، والتفاته إليه ، وملاحظته إياه ، وانصرافه إليه

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت . وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا ، أعني أنها خلت عن الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته ، فرب علم لاشك فيه لايغلب على القلب ، كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب ، وصرفت همه إليه .

والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين ، وإلى أصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين :

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا . وهذه مراقبة لانطول النظر في تفصيل أعمالها ، فإنها مقصورة على القلب أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها ، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي ، والقلب هو الراعي ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف

وهذا هو الذي صار همه هما واحدا ، فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق ، حتى لايبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع مايقال له مع أنه لاصمم به . وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي فحركني

ولا تستبعد هذا ، فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى أن خدم الملك قد لايحسون بما يجرى عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم . بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا ، فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي ، فربما يجاوز الموضع الذي قصده ، وينسى الشغل الذي نهض له ، وقد قيل لعبد الواحد بن زيد :

هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال ماأعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة . فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت ياعتبة ؟ فقال : من موضع كذا ، وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقال : مارأيت أحــــــدا

ويروى عن يحيي بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة ، فدفعها فسقطت على وجهها، فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ماظننتها إلا جدارا

وحكي عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون ، وواحد جالس بعيدا منهم ، فتقدمت إليه ، فأردت أن أكلمه ، فقال : ذكرُ الله تعالى أشهى . فقلت أنت وحدك : فقال : معي ربى وملكاي . فقلت من سبق من هؤلاء ؟ فقال: من غفرالله له .فقلت أين الطريق؟فأشار نحو السماء ، وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى ، لايتكلم إلا منه ، ولا يسمع إلا فيه . فهذا لايحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لاتتحرك إلا بما هو فيه

ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف ، فوجده ساكنا حسن الاجتماع لايتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال من سنور كانت لنا ، فكانت إذاأرادت الصيد رابطت رأس الحجر لاتتحرك لها شعرة

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى علي الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد : إن فى صور شابا وكهلا قداجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما . فدخلت صور وأنا جائع عطشان ، وفى وسطى خرقة، وليس على كتفى شيء . فدخلت المسجد ، فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى . فسلمت ثانية وثالثة ، فلم أسمع الجواب. فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام . فرفع الشاب رأسه من مرقعته ، فنظر إليّ وقال : يابن خفيف ، الدنيا قليل ، ومابقى من القليل إلا القليل ، فخذ من القليل الكثير . يابن خفيف ، ماأقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان ، فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر ، فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت : عظنى

فرفع رأسه إليّ وقال : ياابن خفيف ، نحن أصحاب المصائب ، ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا . فلما كان اليوم الثالث قلت في سري : أحلفهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما . فرفع الشاب رأسه وقال لى : ياابن خفيف ، عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ؛ وتقع هيبته على قلبك ، يعظك بلسان فعله ، ولا يعظك بلسان قوله والسلام ، قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم ، فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال ، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال ، متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل مايفتضحون به فى القيامة ، فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ، فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالا ، فيحضرك صبي أو امرأة ، فتعلم أنه مطلع عليك ، فتستحيي منه ، فتحسن جلوسك ، وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتعظيم ، بل عن حياء . فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك ، أو كبير من الأكابر ، فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه

فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى . ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته ، وسكناته ، وخطراته ، ولحظاته ، وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران ، نظر قبل العمل ، ونظر فى العمل

أما قبل العمل فلينظر أن ماظهر له وتحرك بفعله خاطره ، أهو لله خاصة ؟ أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت ، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ؟ فإن كان لله تعالى أمضاه . وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ، ثم لام نفسه على رغبته فيه ،

وهمه به ؛ وميله إليه ، وعرفها سوء فعلها ، وسعيها في فضيحتها ، وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته. وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه ، فإن في الخبر أنه[1] ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول لم ؟ والثاني كيف ؟ والثالث لمن ؟ ومعنى لم أي لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني، فقيل له كيف فعلت هذا ؟ فإن لله في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ، ووقته ، وصفته إلا بعلم ، فيقال له كيف فعلت ، أبعلم محقق ، أم بجهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث ، وهو المطالبة بالإخلاص ، فيقال له : لمن عملت ؟ ألوجه الله خالصا وفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله ؟ أو لمراآة خلق مثلك ،فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك ، فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ، أم عملته بسهو وغفلة ، فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي ، إذ كنت عبدا لي ، تأكل رزقي ، وتترفه بنعمتي ، ثم تعمل لغيري . أما سمعتني أقول (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ[1]) (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ[2]) ويحك ، أما سمعتني أقول (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ[3]) .

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جوابا ، وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ[2] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْئَلُ عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتِّ الطِّينِ بِأُصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ » وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت ، فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه ؛ فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر

---

(١) حديث ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين الأول لم والثاني كيف والثالث لمن : لم أقف له على أصل

(٢) حديث قال لمعاذ إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه ـ الحديث : تقدم في الذي قبله

---

(١) الأعراف : ١٩٤ (٢) العنكبوت : ١٧ (٣) الزمر : ٣

وقال في حديث (١) سعد حين أوصاه سلمان : اتق الله عند همك إذا هممت . وقال محمد ابن علي : إن المؤمن وقاف متأن ، يقف عند همه ، ليس كحاطب ليل

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ، ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين ؛ والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال ، وأغوار النفس ، ومكايد الشيطان . فمتى لم يعرف نفسه ، وربه وعدوه إبليس ، ولم يعرف مايوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين مايحبه الله ويرضاه في نيته وهمته ، وفكرته ، وسكونه ، وحركته ، فلا يسلم في هذه المراقبة ، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر . هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور ، فيتقي ذلك . والجاهل لايعرفه ، فكيف يحترز منه ! فلا يزال الجاهل في تعب ، والشيطان منه في فرح وشماتة . فنعوذ بالله من الجهل والغفلة ، فهو رأس كل شقاوة ، وأساس كل خسران

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه ، أو هو لهوى النفس فيتقيه ، ويزجر القلب عن الفكر فيه ، وعن الهم به . فإن الخطرة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت . فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول ، وهو الخاطر ، فإن جميع ماوراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك ، وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له ، فيتفكر في ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى . فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان ، بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لاتسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على

(١) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك اذا هممت : أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم

عيادي . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا ، وشدة الشره ، والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية ، فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوّها ، وعشق بغيضها ومقيتها ، وهي شهوات الدنيا !

فلتكن همة المريد أوّلا في أحكام العلم ، أو في طلب عالم معرض عن الدنيا ، أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَالْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ » جمع بين الأمرين ، وهما متلازمان حقا . فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات . ولذلك قال عليه السلام[2] « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمي به ، حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب

ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار ، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم ، واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات، وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين. فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفي الخبر[3] « أَنْتُمُ الْيَوْمَ فِي زَمَانٍ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمُسَارِعُ وَسَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمُتَثَبِّتُ » ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام ، لما أشكل عليهم الأمر ، كسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم

فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه ، معجبا برأيه ، وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال[4] « فَإِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً وَهَوًى مُتَّبَعاً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ » وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى

---

(١) حديث ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ـ الحديث : أبو نعيم في الحلية من حديث عمران ابن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور

(٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا : تقدم ولم أجده

(٣) حديث أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت : لم أجده

(٤) حديث فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ـ الحديث : تقدم

(وَلاَ تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [(١)]) وقوله عليه السلام [(١)] « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وأراد به ظنا بغير دليل ، كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه : اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ، ولا تجعله متشابها علي فأتبع الهوى [(٢)] وقال عيسى عليه السلام : الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه . وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم [(٣)] « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم ، وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ، ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده (وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً [(٢)]) وأراد به العلم . وقال تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [(٣)]) وقال تعالى (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [(٤)]) وقال (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [(٥)]) وقال (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ [(٦)])

وقال علي كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفي الصدق السلامة . رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه . ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى . إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك ، واستدل على مالم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت مالم يكن ليدركه . فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا . وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا

---

(١) حديث اياكم والظن ــ الحديث : تقدم

(٢) حديث قال عيسى الامور ثلاثة ــ الحديث : الطبراني من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٣) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم : لم أجده

(١) الاسراء : ٣٦ (٢) النساء : ١١٣ (٣) النحل : ٤٣ (٤) الليل : ١٢ (٥) القيامة : ١٩ (٦) النحل : ٩

من نقل هذه الحكايات أوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة

فإذاً النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة ،أهي لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ لاَ يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ وَلاَ يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » وأكثر ماينكشف له فى حركاته أن يكون مباحا ، ولكن لايعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم [٢] « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ »

النظر الثانى : للمراقبة عند الشروع فى العمل ، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ، ويحسن النية فى إتمامه ، ويكمل صورته ، ويتعاطاه على أكمل مايمكنه وهذا ملازم له فى جميع أحواله، فإنه لايخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون . فإذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية ، وحسن الفعل ، ومراعاة الأدب . فإن كان قاعدا مثلا، فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة ،لقوله صلى الله عليه وسلم [٣] « خَيْرُ الْمَجَالِسِ مَااسْتُقْبِلَ بِهِ الْقِبْلَةُ » ولايجلس متربعا ، إذلايجالس الملوك كذلك ، وملك الملوك مطلع عليه . قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا ، فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا . وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، مع سائر الآداب التي ذكرناها فى مواضعها ، فكل ذلك داخل فى المراقبة . بل لوكان فى قضاء الحاجة فراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة . فإذاً لايخلو العبد إماأن يكون فى طاعة ، أومعصية ، أوفى مباح. فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص، والإكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات. وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة ،والندم ، والإقلاع ، والحياء ،والاشتغال بالتفكر. وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ، ثم بشهود المنعم فى النعمة ، وبالشكر عليها

ولايخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لابدله من الصبر عليها . ونعمة لابدله من الشكر عليها . وكل ذلك من المراقبة . بل لاينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه إمافعل

---

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لايخاف فى الله لومة لائم ـ الحديث : أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٢) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه : تقدم

(٣) حديث خير المجالس مااستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس : وقد تقدم

يلزمه مباشرته ، أو محظور يلزمه تركه ، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ، ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه ، وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [1])

فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة . فإذا كان فارغا من الفرائض، وقدر على الفضائل، فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها ، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته ، كما قال تعالى (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا [2])

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة ، فإن الساعات ثلاث . ساعة مضت لاتعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد ، لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدرى مايقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ، ويراقب فيها ربه . فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته ، كأنه في آخر أنفاسه ، فلعله آخر أنفاسه وهو لايدرى . وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لايكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على مارواه (١) أبو ذر رضي الله تعالى عنه ، من قوله عليه السلام « لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ ظَاعِناً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ » وما روي عنه أيضا في معناه (٢) « وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللهِ تَعَالَى وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِلْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ » فإن في هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ، ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول

---

(١) حديث أبي ذر لايكون المؤمن ظاعنا الا في ثلاث تزود لمعاد ـ الحديث : أحمد وابن حبان والحاكم وصححه انه صلى الله عليه وسلم قال انه في صحف موسى وقد تقدم

(٢) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه ـ الحديث : وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله

---

[1] الطلاق : ١ . [2] القصص : ٧٧

الجوارح بالمطعم والمشرب لاينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له ، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح

والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر ، وهــــذا مقام ذوى الألباب

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الاضطرار إليه ، ويودهم لو استغنوا عنه ، ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه ، مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين . وقوم يرون فى الصنعة الصانع ، ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه ، وكتابه ، وتصنيفه ، نسي الصنعة ، واشتغل قلبه بالصانع . وكل مايتردد العبد فيه صنع الله تعالى ، فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على مافاتهم منه ، ويفرحون بما حضرهم من جملته ، ويذمون منه مالا يوافق هواهم ، ويعيبونه ويذمون فاعله ، فيذمون الطبيخ والطباخ ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « لَاتَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ »

فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال . وشرح ذلك يطول ، وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول

---

(١) حديث لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر : مسلم من حديث أبي هريرة

المرابطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة فقد قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ [١]) وهذه إشارة إلى المحاسبة على مامضى من الأعمال . ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا . وفى الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يارسول الله أوصني . فقال « أَمُسْتَوْصٍ أَنْتَ » فقال نعم : قال « إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْداً فَامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيًّا فَانْتَهِ عَنْهُ »

وفى الخبر ، وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يحاسب فيها نفسه

وقال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [٢]) والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » وقال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [٣]) . وعن عمر رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدِّرة إذا جنّه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم ؟

وعن ميمون بن مهران أنه قال : لايكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه . والشريكان يتحاسبان بعد العمل

وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ماأحد من الناس أحب إليّ من عمر . ثم قال لها : كيف قلت ؟ فأعادت عليه ماقال ، فقال: لا أحد أعز عليّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة ، فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها . وحديث [٢] أبي طلحة حين شغله الطائر فى صلاته ، فتدبر ذلك ، فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته

---

(١) حديث انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة : تقدم غير مرة

(١) الحشر : ١٧ (٢) النور : ٣١ (٣) الاعراف : ٢٠١

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب ، فقيل له ياأبا يوسف ، قد كان فى بنيك وغلمانك مايكفونك هذا . فقال : أردت أن أجرب نفسى هل تنكره

وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله . وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبنى ، وإنك من حاجتى ، ولكن هيهات ، حيل بينى وبينك . وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : و يفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما ، وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعته يقول ، وبينى و بينه جدار وهو فى الحائط . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك

وقال الحسن فى قوله تعالى (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [1]) قال لايلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا . وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه

وقال ميمون بن مهران: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح

وقال ابراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها . ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها . فقلت لنفسى : يانفس ، أي شىء تريدين ، فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا . قلت : فأنت فى الأمنية فاعملى

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول . رحم الله أمرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه . فما زال يقول حتى أبكانى

---

(١) القيامة : ٢

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه . ياحنيف ، ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟ ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟

بيان

حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها مالو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل . فكيف لايحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال ، وفى الربح والخسران ، ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل . فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا ، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ، ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ، وتعذيبها ، ومعاتبتها ليستوفى منها مايتدارك به مافرط ، كما يصنع التاجر بشريكه

وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لايغبن فى شيء منها ، فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ماسيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره

وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته إنه لم سكت ، وعن سكونه لم سكن . فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له ، فيظهر له الباقي على نفسه ، فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان ، و بعضها برد عينه ، و بعضها بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه . فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء

ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما ، وساعة ساعة ، فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة بن الصمة ، وكان بالرقة ، وكان محاسبا لنفسه ، فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال . ياويلتى ، ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ! ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلا يقول . يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى !

فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة . ولو رمى العبد بكل معصية حجرا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى ، والملكان يحفظان عليه ذلك ، أحصاه الله ونسوه

المرابطة الرابعة

فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى ، فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . بل ينبغى أن يعاقبها . فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع . وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر . وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة

سالكي طريق الآخرة ، فقد روي عن منصور بن ابراهيم ، أن رجلا من العبّاد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست

وروي أنه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته ، فمكث كذلك زمانا طويلا ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وهمّ بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ماهذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه ، وعصمه الله تعالى ، فندم . فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي ! لايكون والله ذلك أبدا . فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل في بعض كتبه ذكره

ويحكي عن الجنيد قال : سمعت ابن الكربي يقول : أصابتني ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا ، فحدثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ، ولاأعنى على نفسي . فقلت واعجباه ! أنا أعامل الله في طول عمرى ، فيجب له عليّ حق ، فلا أجد فيّ المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه ، وآليت أن لا أنزعها ، ولا اعصرها ، ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأباموسى كانا في بعض مغازيهما ، فتكشفت جارية ، فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال : إنك للحّاظة إلى مايضرك

ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه أن لايشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لايعنيك ، لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر ، فقلنا إنه نائم . فقال أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ! ثم ولى منصرفا . فأتبعناه رسولا وقلنا . ألا نوقظه لك ؟ فجاء الرسول وقال . هو أشغل من أن يفهم عني شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول . أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . ومايدريك أن هذا ليس بوقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله علي عهدا لا أنقضه أبدا لاأوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل ، أو لعقل

زائل ، سوأة لك ، أما تستحين ؟ كم توبخين ؟ وعن غيك لاتنتهين ؟ قال وجعل يبكي وهو لايشعر بمكاني . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن تميم الداري أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع

وعن[1] طلحة رضي الله تعالى عنه قال . انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه . ذوقي ونار جهنم أشد حرا . أجيفة بالليل بطالة بالنهار ! فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة ، فأتاه فقال : غلبتني نفسي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِنَ الَّذِي صَنَعْتَ أَمَا لَقَدْ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللهُ بِكَ الْمَلَائِكَةَ » ثم قال لأصحابه « تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ » فجعل الرجل يقول له يافلان ادع لي ، يافلان ادع لي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عُمَّهُمْ » فقال . اللهم اجعل التقوى زادهم ، واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللَّهُمَّ سَدِّدْهُ » فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال ماعلى وجه الأرض نفس أبغض إليّ منها : فكيف أعطيها شهواتها !

ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب ، فقال ياداود ، سجنت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه ، أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة ، فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال . منك أتيت ، لوكان فيك خير لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال . ياابن آدم ، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت ، وقد قضى الله حاجتك

وقال عبد الله بن قيس : كنا في غزاة لنا ، فحضر العدو ، فصيح في الناس ، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول . أي نفسي ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ؟ ألم أشهد مشهد كذا

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حرا ـ الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية لبث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أومرسل ولاأدري من طلحة هذا

وكذا فعلت بى أهلك وعيالك فأطمتك ورجعت ؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم . ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات ، وهو ثابت يقاتل فو الله مازال ذاك دأبه حتى رأيته صريعا . فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وأن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول . ماذا عملت اليوم

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح ، فوقع بصره على امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه . ماحملك على أن صنعت يوم كذا كذا ؟

وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه . ويحك ، إنما أريد بك الخير

ورأى محمد بن بشر داود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ؟ فقال : إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحا مادام فى الدنيا

فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم . والعجب أنك تعاقب عبدك ، وأمتك ، وأهلك ، وولدك ، على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك ، وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة ، وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له . ونفسك هي التى تنغص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها

المرابطة الخامسة

المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ، فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت . وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد ،

فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها ، فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه ، وتداركا لما فرط ؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة . وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان ، فأعتق رقبتين . وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر . فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشيا ، أو التصدق بجميع ماله ، كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها

فإن قلت : إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد، فما سبيل معالجتها؟

فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين [1] ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة ، فتلاحظ أقواله وتقتدي به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع ، وإلى اجتهاده ، فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر ، إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم ، وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم ، وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم ، فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « رَحِمَ اللهُ أَقْوَامًا يَحْسَبُهُمُ النَّاسُ مَرْضَى

---

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين : أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة باسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته وللترمذي من حديث بلال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ـ الحديث: وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الاوراد مع غيره من الأخبار في ذلك

(٢) حديث رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وما هم بمرضى : لم أجد له أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على علي في كلام له قال فيه ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض

وَمَا هُمْ بِمَرْضَى » قال الحسن : أجهدتهم العبادة . قال الله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [1]) قال الحسن : يعملون ماعملوا من أعمال البر ، ويخافون أن لاينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » . ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته : مابال عبادى مجتهدين ، فيقولون إلهنا خوفتهم شيئا فخافوه ، وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه . فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا

وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤنه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ماطوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط . وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا فى شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها . وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . والله مازالوا كذلك وعلى ذلك ، ووالله ماسلموا من الذنوب ، ولا نجوا إلا بالمغفرة

ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم . فقال عمر له : يافتى ، ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، أسقام وأمراض . فقال سألتك بالله إلا صدقتنى . فقال ياأمير المؤمنين، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ماأنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه

وقال أبو نعيم : كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

---

(١) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله : الطبرانى من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذى من حديث أبى بكرة خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم

---

(١) المؤمنون : ٦٠

بين مضع الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن فى سقف بيتك جذعا مكسورا . فقال : ياابن أخى ، إن لى فى البيت منذ عشرين سنة مانظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام

وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر ، فما التفت يمنة ولا يسرة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى . فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة

وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة . وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ماأحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر .

وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ، ويصوم فى الحر ، حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ، ويصلى حتى يسقط . فدخل عليه أنس بن مالك والحسن ، فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا . فقال إنما أنا عبد مملوك ، لاأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه ، فكان يصلى جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ،

وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة ، فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى . وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤي مضطجعا إلا فى علة الموت .

وقال الحارث بن سعد : مر قوم براهب ، فرأوا مايصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند مايراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون ! قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم . فبكى القوم عن آخرهم

وعن أبي محمد المغازلي قال : جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة ، فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ، ولم يمد رجليه . فعبر عليه أبو بكر الكتاني ، فسلم عليه وقال له : ياأبا محمد ، بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال: علم صدق باطني فأعانني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلي ، فرأيته قد مدّ كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه . فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة . فقلت ولمَ بالله يافتح بكيت الدم ؟ فقال لولا أنك أحلفتني بالله ماأخبرتك . نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى . وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لي الدموع. قال :فرأيته بعد موته في المنام فقلت : ماصنع الله بك ؟ قال. غفرلي . فقلت له فماذا صنع في دموعك ؟فقال: قربني ربي عز وجل وقال لي : يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخلفي عن واجب حقك ، فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لاتصح لي . فقال لي : يافتح ماأردت بهذا كله ؟ وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك مافيها خطيئة

وقيل إن قوما أرادوا سفرا ، فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا ياراهب ، إنا قد أخطأنا الطريق ، فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء . فعلم القوم ماأراد . فقالوا ياراهب ، إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لايعود ، والطالب حثيث . فعجب القوم من كلامه فقالوا : ياراهب ، علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم . فقالوا :أوصنا . فقال :تزودوا على قدر سفركم ، فإن خير الزاد مابلّغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق ، وأدخل رأسه في صومعته

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين ، فناديته ياراهب فلم يجبني ، فناديته الثانية فلم يجبني، فناديته الثالثة فأشرف علي وقال : ياهذا ماأنا براهب ، إنما الراهب من رهب الله في سمائه ، وعظمه في كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضي بقضائه

وحمده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعظمته ، وذل لعزته ، واستسلم لقدرته ، وخضع لهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه ، فنهاره صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فكلب عقور ، حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم . فقلت ياراهب : فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال ياأخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها ، لأنها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه ، وتاب إلى الله تعالى من ذنبه ، وأقبل على مايقربه من ربه

وقيل لداود الطائى : لو سرحت لحيتك ؟ فقال إنى إذاً لفارغ

وكان أويس القرنى يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحيي الليل كله فى ركعة . وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود ، فيحيي الليل كله فى سجدة

وقيل لما تاب عتبة الغلام : كان لايتهنأ بالطعام والشراب ؟ فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك ؟ قال: الرفق أطلب ، دعينى أتعب قليلا وأتنعم طويلا

وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان الثوري : عند الصباح يحمد القوم السرى ، وعند الممات يحمد القوم التقى

وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه ، أي كان لاينام طول الليل . وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : قومى يامأوى كل شر . فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول : ذهب نصف عملى

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له : ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟ فيقول : يا ابنتاه ، إن أباك يخاف البيات

ولما رأت أم الربيع مايلق الربيع من البكاء والسهر ، نادته يابني : لعلك قتلت قتيلا؟ قال : نعم ياأماه ، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ، فو الله لو يعلمون ماأنت فيه لرحموك وعفوا عنك ؟ فيقول : ياأماه هي نفسى

وعن عمر ابن أخت بشر بن الحارث قال : سمعت خالى بشر بن الحارث يقول لأمى : ياأختى ، جوفى وخواصرى تضرب علي . فقالت له أمى : ياأخى ، تأذن لى حتى أصلح لك بقليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك ؟ فقال لها: ويحك ، أخاف أن يقول

من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى ايش أقول له . فبكت أمى ، وبكى معها ، وبكيت معهم قال عمر : ورأت أمى مابشر من شدة الجوع ، وجعل يتنفس نفسا ضعيفا ، فقالت له أمى : ياأخى ، ليت أمك لم تلدنى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك . فسمعته يقول لها : وأنا فليت أمى لم تلدنى ، وإذ ولدتنى لم يدرّ ثديها علي . قال عمر : وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ، ثم جلس فجلست ، فقلت لاأشغله عن التسبيح ، فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إنى أعوذ بك من عين نوّامة ، ومن بطن لاتشبع . فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت

ونظر رجل إلى أويس فقال : ياأبا عبد الله ، مالى أراك كأنك مريض ؟ فقال ومالأويس أن لايكون مريضا ؟ يُطْعَمُ المريض وأويس غير طاعم ، وينام المريض وأويس غير نائم وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه ، وأن النار تسعر تحته ، كيف ينام بينهما . وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء ، فقعدت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ، ثم رمى بنفسه ، فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوأ . فحاك ذلك فى صدرى ، فقلت له : رحمك الله ، قد نمت الليل كله مضطجعا ، ثم لم تجدد الوضوء ؟ فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا ، وفى أودية النار أحيانا ، فهل فى ذلك نوم

وقال ثابت البنانى : أدركت رجالا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبوا

وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لايضع جنبه على فراش ، ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لايعلم به أهله ، وقيل كان ورد سمنون فى كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبى بكر المطوعى قال : كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة ، أو أربعين ألف مرة ، شك الراوى

وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة ، منكسر الطرف ، منخفض الصوت ، رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع . ولقد قالت له أمه

ماهذا الذى تصنع بنفسك ؟ تبكى الليل عامته لا تسكت ! لعلك يابنى أصبت نفسا ، لعلك قتلت قتيلا . فيقول يا أمه ، أنا أعلم بما صنعت بنفسى

وقيل لعامر بن عبد الله : كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر ؟ فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار ، وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول : مارأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها .. وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يصبح . فإذا جاء النهار قال . أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال : من خاف أدلج . وعند الصباح يحمد القوم السرى

وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر ، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أرى اليوم شيئا يشبههم ، كانوا يصبحون شعثا ، غبرا ، صفرا ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح . وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين (يعنى من كان حوله

وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول لنفسه : قومى فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لامنى . فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتى . وكان يقول : أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا ؟ كلا والله ، لنزاحمهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام ، وبلغ من الاجتهاد مالو قيل له القيامة غدا ماوجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضر به البرد ، وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام . وإنه مات وهو ساجد ، وإنه كان يقول : اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى

وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها

أسلم عليها . فغدوت يوما إليها ، فإذا هي تصلى صلاة الضحى وهي تقرأ (فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ [1]) وتبكى وتدعو وتردد الآية . فقمت حتى مللت وهي كما هي ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ، ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهي كما هي ، تردد الآية وتبكى وتدعو

وقال محمد بن إسحق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه ، فقام يصلى على قدم واحدة ، حتى صلى الصبح بوضوء العشاء

وقال بعضهم : ماأخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ، وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين

وقيل للحسن : مابال المتهجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره . وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى ، وتميتنى ولا تعامنى ، وخلقت معى عدوا ، وجعلته يجرى منى مجرى الدم ، وجعلته يرانى ولا أراه ، ثم قلت لى استمسك ، إلهى كيف استمسك إن لم تمسكنى ؟ إلهى فى الدنيا الهموم والأحزان ، وفى الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان السحر صاح صيحة . قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى صياحه ، ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح

وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال : كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب ، وكان له أهل وبنات ، وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا ، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا قارىء ، ومن ههنا متوضىء . فإذا طلع الفجر نادى

(1) الطور : ٢٧

بأعلى صوته . عند الصباح يحمد القوم السرى

وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتا للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ، ومالا يمكن واصفا أن يصفه ، فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا ، وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لايبلغ إليها بالتكلف ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس ، إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال . فاتبعت الصوت ، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً [١]) إلى قوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ [٢]) قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيا عليه . فقلت وا أسفاه ، هذا لشقائى . ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فزعت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال : مالى وللدنيا ، وماللدنيا ولى . عليك يادنيا بأبناء جنسك ، وألاّف نعيمك ، إلى محبيك فاذهبي ، وإياهم فاخدعى . ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور السالفة ، فى التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون . فناديته ياعبد الله ، أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك . فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه.! أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ! ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها . ثم لها عنى ساعة وقرأ (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [٣]) ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخر مغشيا عليه ، فقلت قد خرجت روحه .

(١ ، ٢) آل عمران : ٣٠ (٣) الزمر : ٤٧

فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ماخاطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ؛ وجللنى بسترك ، واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك. فقلت له : بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتنى. فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه . إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى ، فلم يجد عوناً علي ليخرجنى مما أنا فيه غيرك . فإليك عنى يامخدوع ، فقد عطلت علي لسانى ، وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي . وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ، ويتفضل علي برحمته قال: فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هــذا . فانصرفت وتركته

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى مسير لى ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف علي فقال لى : ياهذا قم ، فإن الموت لم يمت ، ثم هـام على وجهه فاتبعته ، فسمعته وهو يقول (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [1]) اللهم بارك لى فى الموت . فقلت وفيما بعد الموت . فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ، ولم يكن له فى الدنيا مستقر . ثم قال : يامن لوجهه عنت الوجوه ، بيض وجهى بالنظر إليك ، واملأ قلبي من المحبة لك ، وأجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك ، فقد آن لى الحياء منك ، وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى . ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا المعنى

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته أغثنى ياعمادى
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا

ألذ من التلذذ بالغوانى ... إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان

---

(١) آل عمران : ١٨٥

ليخمل ذكره ويعيش فردا ويظهر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ماأراد وما تمنى من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرءان فى كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدت نفسك . فقال: كم عمر الدنيا؟فقيل : سبعة آلاف سنة فقال: كم مقدار يوم القيامة ؟فقيل: خمسون ألف سنة فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان ربحك كثيرا ، وكنت بالرغبة فيه جديرا . فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لاغاية لها

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عز الآن وجود مثلهم . ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب ، وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم ، وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر فى الدين ، وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك . ولا ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحمق ، وتقنع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يانفس لاتستنكفى أن تكونى أقل من امرأة ، فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات . فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت . إلهى قد غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك . ثم تقبل على صلاتها . فإذا طلع الفجر قالت : إلهى هذا الليل قد أدبر ،

وهذا النهار قدأسفر،فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ،أم رددتها عليّ فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ماأبقيتني . وعزتك لو انتهرتني عن بابك مابرحت لِما وقع في نفسي من جودك وكرمك. ويروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل، وكانت مكفوفة البصر؛فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون ،إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك ياإلهي أسألك لابغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين ، وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين،وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء ، وأكرم الكرماء يا كريم . ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ، ثم لاتزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيي بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة ، فكنت أرى ماتصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لي . لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ماتريدين ؟ قال فبكت ثم قالت : والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ، ثم أبكي دما حتى لاتبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي ، وأنى لي بالبكاء ، وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء ،حتى غشي عليها

وقال محمد بن معاذ : حدثتني امرأة من المتعبدات قالت : رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة ، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت ماشأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لي قائل . خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها . فقلت ومن هذه المرأة؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة . قالت فقلت أختي والله . قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء ، فلما رأيتها ناديت ياأختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك ، قالت فتبسمت إليّ وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين ، ألزمي الحزن قلبك ، وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت

وقال عبد الله بن الحسن : كانت لي جارية رومية ، وكنت بها معجبا ، فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي ، فانتبهت فالتمستها فلم أجدها ، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول . بحبكَ لي ألا ماغفرت لي ذنوبي . فقلت لها : لاتقولي بحبكَ لي،

ولـكن قولى بحبي لكَ ، فقالت: لا،يامولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام،وبحبه لى أيقظ عينى وكثيرٌ من خلقه نيام

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية ، فنزلت فى بعض ديارنا ، قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لى : أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع ، قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقتَ سرية ، ثم غـذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكلّ بلائك عنـدها جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعـد فلتة ، أتراها تظن أنك لاترى سوء فعالها وأنت عليم خبـير ، وأنت على كل شيء قدير .

وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان ، فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [1]) ويبكى . فلما قرب منى السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ، وبيدها ركوة ، فقالت لى : من أنت؟ غير فزعة منى . فقلت رجل غريب . فقالت ياهذا ،وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال فبكيت لقولها . فقالت لى : ماالذى أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قدقرح فأسرع فى نجاحه قالت . فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت . يرحمك الله والصادق لايبكى ؟. قالت : لا . قلت : ولم ذاك ؟قالت لأن البكاء راحة القلب فسكتّ متعجبا من قولها.

وقال أحمد بن عليّ: استأذنا على عفيرة فحجبتنا ، فلازمنا الباب ، فلما عامت ذلك قامت لتفتح الباب لنا ، فسمعتها وهي تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك . ثم فتحت الباب ودخلنا عليها ، فقلنا لها : ياأمة الله ادعي لنا ، فقالت ، جعل الله قراكم فى بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا . مكث عطاء السلمى أربعين سنة ، فكان لاينظر إلى السماء ، فحانت منه نظرة ، فخر مغشيا عليه ، فأصابه فتق فى بطنه . فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وياليتها إذا عصت لم تعد

وقال بعض الصالحين : خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتبستها

(١) الزمر : ٤٣

فى موضع بناحية السوق، وذهبت فى بعض حوائجى ، وقلت : لاتبرحى حتى انصرف إليك قال فانصرفت فلم أجدها فى الموضع . فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى ، فقالت يا ولاي لاتعجل عليّ ، إنك اجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى ، فخفت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها. وقلت لها : أنت حرة فقالت ساء ماصنعت، كنت أخدمك فيكون لى أجران، وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما

وقال ابن العلاء السعدى : كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة ، تعبّدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء . فقال بنو عمها . انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء . قال فدخلنا عليها ، فقلنا يابريرة ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت إن يكن لعينيّ عند الله خير فما يضرهما ماذهب منهما فى الدنيا . وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا . ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا ، فهي والله فى شيء غير مانحن فيه

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومى الذى أموت فيه . فما تَطعم حتى تمسى . فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها . فتصلى حتى تصبح

وقال أبو سليمان الدارانى : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محراب لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر . فلما كان السحر قلت : ماجزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا

وكانت شعوانة تقول فى دعائها : إلٰهى ماأشوقنى إلى لقائك ، وأعظم رجائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لايخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين . إلٰهى إن كان دنا أجلى ولم يقرّبنى منك عملى ، فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ؟ وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ! إلٰهى قدجرتُ على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها إن لم تسعدها . إلٰهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى ، فلاتقطع عنى برك بعد مماتى . ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى

بإحسانه ، أن يسعفني عند مماتي بغفرانه . إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ، ولم تولني إلا الجميل في حياتي . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني ، فإن محبتي لك قد أجارتني ، فتولّ من أمري ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ، ولو أردت فضيحتي لم تسترني ، فتمتعني بما له هديتني ، وأدم لي ما به سترتني . إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري . إلهي لولا ماقارفت من الذنوب ماخفت عقابك ، ولولا ماعرفت من كرمك مارجوت ثوابك

وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت ، وبكت حتى عميت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلي قاعدة . فسلمنا عليها ، ثم ذكرناها شيئا من العفو ليهون عليها الأمر ، قال فشهقت ثم قالت : علمي بنفسي قرّح فؤادي وكلم كبدي . والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئا مذكورا . ثم أقبلت على صلاتها

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ، لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك . وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا ، وسخروا بك ، فوافقهم فيما هم فيه وعليه ، فلا يجري عليك إلا مايجري عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم ، ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق ، فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم ، وتستجهلينهم في صنيعهم ، وتأخذين حذرك مما دهاك ! فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق ، وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف

لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ! ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ[1])

فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك ، وحملها على الاجتهاد فاستعصت ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتقريعها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها

المرابطة السادسة

فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك . وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير . وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها . فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك . وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتبة ، والعذل ، والملامة ، كانت نفسك هي النفس اللوامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية . فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك . أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يابن مريم ، عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى منى وقال تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ[2])

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق ، فتقول لها يا نفس ، ما أعظم جهلك ، تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ، فمالك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين أو غدا ! فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا . أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟

(١) الزخرف : ٢٣ (٢) الداريات : ٥٥

أماتعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتى فى شيء دون شيء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ، ولا فى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت ، فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب . أماتدبرين قوله تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ[1]) ويحك يانفس ، إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ، فما أعظم كفرك . وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك ، وأقل حياءك

ويحك يانفس ، لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ! أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ، جربى نفسك ، إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس ، أو فى بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ، فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك . فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ! وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم ، فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ، فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز ، أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ماسعى

ويحك يانفس ، ماأعجب نفاقك ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا[2]) وقال فى أمر الآخرة (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى[3]) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة

---

(١) الأنبياء : ١ ، ٢ ، ٣ (٢) هود : ٦ (٣) النجم : ٣٩

وصرفك عن السعي فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ،ووكل أمرالآخرة إلىسعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ماهذا من علامات الإيمان .لو كان الإيمانباللسان فلم كانالمنافقون فىالدرك الأسفل منالنار؟

ويحك يانفس ، كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذامت انفلت وتخلصت وهيهات ، أتحسبين أنك تتركين سدًى ، ألم تكونى نطفة من مني يمنى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك! أما تتفكرين أنه مماذا خلقك ، من نطفة خلقك فقدرك، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله ثم إذا شاءأنشرك ؟ فإن لمتكونى مكذبةفمالك لاتأخذين حذرك ؟ ولو أن يهوديًا أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنهوتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة ، أقل عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس ، وتخمين ، وظن ، مع نقصان عقل ، وقصور علم ؟ والعجب أنه لوأخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ،أفكان قول الأنبياء ،والعلماء ، والحكماء ، وكافةالأولياء أقل عندك من قولصبي من جملة الأغبياء ؟ أم صارحر جهنم ، وأغلالها ، وأنكالها، وزقومها ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ؟ ماهذه أفعال العقلاء . بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك . فإن كنت يانفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين العمل، والموت لك بالمرصاد، ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل . وهبك أنت وعدت بالإمهال مائة سنة ، أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك !أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة، فأقام فيها سنين متعطلا ، بطالا ، يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى ثم هب أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ،فلعل اليوم آخر عمرك

فلم لاتشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحي إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وماالباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لاتعسر فيه مخالفة الشهوات ،هذايوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلاتكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا محال وجوده أما تأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا ، فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوما كان له حكم الأمس ، لا بل تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبّد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا ! فما لايقدر عليه فى الشباب لايقدر عليه قط فى المشيب بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك

فإذا كنت أيتها النفس لاتفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدّعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين مايمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح اعتذارك ! إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولامطمع فى ذلك إلا فى الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ، فرب أكلة تمنع أكلات . ومافولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام لينعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار فى دركات جهنم

فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ! ماأراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي، أو لحمق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره ، واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لاتعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل . وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « اَلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ »

ويحك يانفس ، لاينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ، ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمي الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمعين له القوت ، والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ، ولبد ، وحطب وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا ، وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة . أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ؟ هيهات ، كما لايدفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ، ويسر لك أسبابه ، لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك ، وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك ، فطاعاتك

ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها ، وإنما هي طريقك إلى نجاتك . فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، والله غني عن العالمين

ويحك يانفس انزعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله تعالى لاتجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يانفس ماأراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك. أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لامحالة إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ، أماتعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ،ومالك فيها إلا مجاز، وكل مافيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم [1] « إنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَاعْمَلْ مَاشِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ وَعِشْ مَاشِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ »

ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا . ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لايدرى أوما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لايدركون ؟ يبنى كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض . فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا ؟أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا

---

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من احببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم فى العلم وغيره

واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء

يانفس ماأعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجبا لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يانفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ماتتفكرين أن الجاه لامعنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك؟ فا(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1]) فكيف تبيعين يانفس مايبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟ هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك ؟ فإن كنت يانفس لاتتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فمالك لاتتركينها ترفعا عن خسة شركائها ، وتنزها عن كثرة عنائها ، وتوقيا من سرعة فنائها ، أم مالك لاتزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، في جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل . فياحسرة عليك أن خسرت الدنيا والدين

فبادري ويحك يانفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير، فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

ويحك يانفس ، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ماضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يانفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك

---

(1) مريم : ٩٨

والتراب فراشك ،والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؟أما علمت يانفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يانفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك مافرط منهم ، وأنت فى أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة ؟

ويحك يانفس ، أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ،وتبارزين الله فى السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يانفس أن المذنب أنتن من العذرة ؟ وأن العذرة لا تطهر غيرها ؟ فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك ؟

ويحك يانفس،لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك

ويحك يانفس ، قد جعلت نفسك حمار الإبليس يقودك إلى حيث يريد ،ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات مالو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح فى يديك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ؟ وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة ؟ وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه

ويحك يانفس ، ماأغدرك ! ويحك يانفس ، ماأوقحك ، ويحك يانفس ، ماأجهلك وما أجرأك على المعاصى ! ويحك كم تعقدين فتنقضين ! ويحك كم تعهدين فتغدرين

ويحك يانفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا ؟ جمعوا كثيرا ، وبنوا مشيدا، وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا، وبنيانهم قبورا ، وأملهم غرورا .

ويحك يانفس أما لك بهم عبرة ؟أما لك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات هيهات ، ساء ماتتوهمين . ماأنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان

وكلح الوجوه ، وبشرى بالعذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البـــــكاء ؟

والعجب كل العجب منك يانفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنة. ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص

ويحك يانفس ، تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك . فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه . فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك ، وأقاربك ، وجيرانك ، فترين تحسرهم عند الموت ثم لاترجعين عن جهالتك . فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سره وعلانيته . فانظرى يانفس بأي بدن تقفين بين يدي الله ، وبأي لسان تجيبين ، وأعـدّي للسؤال جوابا ، وللجواب صوابا ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود . اعملى قبل أن لا تعملى ، اخرجى من الدنيا اختيـارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار . فليكن نظرك يانفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسعيك لها اضطرارا ، ورفضك لها اختيارا ، وطلبك للآخرة ابتدارا . ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يانفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف . ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر

فاتّعظى يانفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية . فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ،

فوطّني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له . فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ، فلاسبيل لك إلى القنوط ، ولاسبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء . فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فستقى الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقي فيك موضع للرجاء ، فواظبي على النياحة والبكاء ، واستغيثي بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وأدمني الاستغاثة ، ولاتملّي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قدعظمت ، وبليتك قدتفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقدانقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولامطلب ، ولامستغاث ولامهرب ، ولاملجأ ولامنجا إلاإلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر

وقدأصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجع فيك العظات ؛ ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسؤل جواد ، والمستغاث به بر رءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل . وقولي ياأرحم الراحمين ، يارحمن ، يارحيم ، ياحليم ، ياعظيم ، ياكريم ، أنا المذنب المصر ، أنا الجريء الذي لاأقلع ، أنا المتمادي الذي لاأستحي ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق فعجل إغاثتي وفرّجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذقني برد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عصمتك ياأرحم الراحمين ، اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ، فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لاترقأ له دمعة ، فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون ، كئيب ، كظيم ، منكس رأسه ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ، ماهذا الجهد الذي أرى بك ؟ قال يارب عظمت مصيبتي ، وأحاطت بي خطيئتي ، وأخرجت من ملكوت ربي ، فصرت في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة ، وفي دار النصب

بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، وفى دار الزوال بعد القرار ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكي على خطيئتي ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسي ، وأحللتك داري ، وخصصتك بكرامتي ، وحذرتك سخطي ، ألم أخلقك بيدي ، ونفخت فيك من روحي ، وأسجدت لك ملائكتي ، فعصيت أمري ، ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي ؟ فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك ، يعبدونني ، ويسبحونني ، ثم عصوني ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكي آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام

وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء ، يقول فى بكائه طول ليله : إلٰهي أنا الذى كلما طال عمري زادت ذنوبي : أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى . واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى . واعبيداه إن كانت النار لك مقيلا ومأوى . واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ : واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى

وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول : يارب وعزتك ماأردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سوّلت لى نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي ، وغرني سترك المرخي علي ، فعصيتك بجهلي ، وخالفتك بفعلي ، فمن عذابك الآن من يستنقذني ؟ أو بحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي ، كلما كبرت سني كثرت ذنوبي . ويلي ، كلما طال عمري كثرت معاصيّ ، فإلى متى أتوب وإلى متي أعود ؟ أما آن لى أن أستحيي من ربي ؟

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء . فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام

تم كتاب المحاسبة والمراقبة ، يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى ، والحمد لله وحده ، وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

كتاب التفكر

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ، ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجيلى فى ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدّرى له قدرا . وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا ، فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى ، وجدّدى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأمّلى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيّا ونشرا ، وإيمانا وكفرا وعرفانا ونكرا . فإن جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمْرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادى إشراقه ، وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا . والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخرا ، صلاة تبقى لنا فى عرصات القيامة عدّة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا ، ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فقد وردت السنة بأن (١) تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، وكثر الحث

﴿ كتاب التفكر ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة : ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة

فى كتاب الله تعالى على التدبّر والاعتبار ، والنظر والافتكار . ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ،وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والفهوم . وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته ، لكن جهلوا حقيقته وثمرته ؛ومصدره ومورده، ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته . ولم يعلم أنه كيف يتفكر ، وفيما ذا يتفكر ، ولماذا يتفكر ، وما الذى يطلب به ، أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه ، فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة ، أهي من العلوم ، أو من الأحوال ، أو منهما جميعا . وكشف جميع ذلك مهم . ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر ، ثم حقيقة التفكر وثمرته ، ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لاتحصى ، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً [1]) وقد قال[1] ابن عباس رضي الله عنهما : إن قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدُرُوا قَدْرَهُ »

وعن النبي صلى الله عليه وسلم[2] ، أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال « مَا لَكُمْ لاَ تَتَكَلَّمُونَ » فقالوا : نتفكر فى خلق الله عزوجل . قال « فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَإِنَّ بِهَذَا الْمَغْرِبِ أَرْضاً بَيْضَاءَ نُورُهَا بَيَاضُهَا وَبَيَاضُهَا نُورُهَا مَسِيرَةَ الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ يَوْماً بِهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْصُوا اللهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ » قالوا يارسول الله ، فأين الشيطان منهم ؟ قال « مَا يَدْرُونَ خُلِقَ الشَّيْطَانُ

(١) حديث ابن عباس ان قوما تفكروا فى الله عزوجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره : أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك

(٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لاتتكلمون فقالوا نتفكر فى خلق الله الحديث : رويناه فى جزء من حديث عبد الله بن سلام

(١) آل عمران ١٩١

أمْ لاَ » قالوا من ولد آدم ؟ قال « لاَ يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أمْ لاَ »

وعن[١] عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : ياعبيد ، مايمنعك منْ زيارتنا ؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا . أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال « ذَرِينِى أتَعَبَّدُ لِرَبِّى عَزَّ وَجَلَّ » فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلى ، فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح . فقال : يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ فقال « وَيْحَكَ يَا بِلاَلُ وَمَا يَمْنَعُنِى أنْ أبْكِيَ وَقَدْ أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ فِى هَذِهِ اللَّيْلَةِ » (إنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأولِى الألْبَابِ[١]) ثم قال « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » فقيل للأوزاعى : ماغاية التفكر فيهن ؟ قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع ، أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبى ذر ؛ فسألها عن عبادة أبى ذر، فقالت : كان نهاره أجمع فى ناحية البيت يتفكر

وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة

وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل

وكان سفيان بن عيينة كثيرا مايتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة ... ففى كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : ياروح الله ، هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة فإنه مثلى

---

(١) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير الى عائشة ـ الحديث : قال ابن عمير : فاخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : فى نزول إن فى خلق السموات والارض وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم فى الصبر والشكر وأنه فى صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء

---

(١) آل عمران : ١٩١

وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو

وفى قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [1]) قال أمنع قلوبهم التفكر فى أمرى

وعن [1] أبى سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ » فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة؟ قال « النَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ والاعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ »

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقد ادّخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم فى الدنيا عيش ، ولم تقرّ لهم فى الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمرّ به مولاه فيقول : يالقمان ، إنك تديم الجلوس وحدك ، فلو جلست مع الناس كان آنس لك. فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهمُ للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة

وقال وهب بن منبه: ماطالت فكرة امرىء قط إلا علم ، وما علم امرىء قط إلا عمل

وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة

وقال عبدالله بن المبارك يوما لسهل بن عليّ ، ورآه ساكتا متفكرا: أين بلغت؟ قال الصراط

وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله . ماعصوا الله عز وجل

وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب

وبينا أبو شريح يمشى ، إذ جلس فتقنع بكسائه ، فجعل يبكى ، فقيل له مايبكيك ؟ قال: تفكرت فى ذهاب عمرى ، وقلة عملى ، واقتراب أجلى

وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء ، وقلوبكم التفكر

وقال أبو سليمان . الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخره ، وعقوبة لأهل الولاية. والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ، ويحيي القلوب

---

(١) حديث أبي سعيد الخدرى أعطوا أعينكم حظها من العبادة ــ الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ بن حبان فى كتاب العظمة بإسناد ضعيف

(١) الأعراف : ١٤٦

وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ، ومن الذكر يزيد الحب ، ومن التفكر يزيد الخوف

وقال ابن عباس : التفكر في الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه

ويروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه : إنى لست أقبل كلام كل حكيم ، ولكن أنظر إلى همه وهواه . فإذا كان همه وهواه لى ، جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم

وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر ، حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة

وقال اسحاق بن خلف : كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة قمراء ، فتفكر فى ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكى ، حتى وقع فى دار جار له . قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف ، وظن أنه لص . فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال : من ذا الذى طرحك من السطح ! قال ماشعرت بذلك.

وقال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظن لله عز وجل . ثم قال : يالها من مجالس ماأجلها ! ومن شراب ماألذه ، طوبى لمن رزقه

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكر . وقال أيضا : صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور ، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة ، ففكّر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا : الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة ، والثانية العفة وقوامها فى الشهوة ، والثالثة القوة وقوامها فى الغضب ، والرابعة العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس

فهذه أقاويل العلماء فى الفكرة ، وماشرع أحد منهم فى ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

بيان

حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة ، وآثر الحياة الدنيا ، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار

من العاجلة فله طريقان . أحدهما : أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر ، فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله . وهذا يسمى تقليدا ، ولا يسمى معرفة

والطريق الثاني : أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار . ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين . فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا، واعتبارا ، وتذكرا ، ونظرا ، وتأملا، وتدبرا . أما التدبر ، والتأمل ، والتفكر ، فعبارات مترادفة على معنى واحد ، ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر ، والاعتبار ، والنظر ، فهي مختلفة المعاني ، وإن كان أصل المسمى واحدا . كما أن اسم الصارم ، والمهند ، والسيف ، يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة: فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه ، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد . فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة . وإن لم يقع العبور ، ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين ، فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار . وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة . فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا . فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب ، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر . والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفة أخرى . فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى ، حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتمادى النتاج ، ويتمادى العلوم ، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية . وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكر . وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال ، وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم . كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح . وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا .

فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ، ولكن ليس يحسن استعمالها ، وتأليفها ، وإيقاع الازدواج المفضى إلى النتاج فيها

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهى فى القلب يحصل بالفطرة ، كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وذلك عزيز جداً . وقد تكون بالتعلم والممارسة ، وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف ، وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الإيراد ، فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه ، مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين ، وهو أن الأبقى أولى بالإيثار ، وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار . فرجع حاصلُ حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة

وأما ثمرة الفكر فهي العلوم ، والأحوال ، والأعمال . ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر . فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها . وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكر ، وأنه خير من الذكر والتذكر . لأن الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير من عمل الجوارح . بل شرّف العمل لما فيه من الذكر . فإذاً التفكر أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة . وقيل هو الذى يحْدث مشاهدة وتقوى . ولذلك قال تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً[1] ﴾

وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر ، فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار . فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا . وهذا ما عنيناه بالحال إذا كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة ، والميل إليها ، والنفرة عن الآخرة ، وقلة الرغبة فيها ،

(1) طه : ١١٣

وبهذه المعرفة تغير حال القلب ، وتبدلت إرادته ورغبته ، ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في أطراح الدنيا ، والإقبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات :

أولاها : التذكر ، وهو إحضار المعرفتين في القلب

وثانيتها : التفكر ، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما

والثالثة : حصول المعرفة المطلوبة ، واستنارة القلب بها .

والرابعة : تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة

والخامسة : خدمة الجوارح للقلب ، بحسب مايتجدد له من الحال . فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع ، فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة ، وتنتهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر ، فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه . كما يتغير البصر بنور النار فيرى مالم يكن يراه ، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب ، كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر مالم يكن يبصره

فإذاً ثمرة الفكر العلوم والأحوال ، والعلوم لانهاية لها ، والأحوال التي تتصور أن تتقلب على القلب لايمكن حصرها . ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه ، وأنه فيما ذا يتفكر ، لم يقدر عليه ، لأن مجاري الفكر غير محصورة ، وثمراته غير متناهية . نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية ، وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جمليا ، فإن تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة ، فلنشر إلى ضبط المجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر

بيان

مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين ، وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين . وإنما غرضنا مايتعلق بالدين ، فلنترك القسم الآخر . ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى . فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، لايمكن أن يخرج عن هذين القسمين . ومايتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه . ولاحاجة إلى الفكر فى غير هذين القسمين . ومايتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته ، وجميع مافى السموات والأرض ومابينهما

وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى ، والمشتاقين إلى لقائه ، يضاهى حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا فنقول :

العاشق المستغرق الهم بعشقه لايعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه ، أو يتعلق بنفسه . فإن تفكر فى معشوقه فإما أن يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ، ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ، ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته . وإن تفكر فى نفسه فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها . فإن تفكر فى شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل مايستغرق العاشق ويستوفى القلب ، حتى لايترك فيه متسعا لغيره فحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك ، فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا

فلنبدأ بالقسم الأول : وهو تفكره فى صفات نفسه ، وأفعال نفسه ، ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر : فيتعلق بعلم المكاشفة . ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب

ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى ، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب ، وذكرنا تفصيلها فى ربع المهلكات والمنجيات ، والطاعات والمعاصى تنقسم إلى مايتعلق بالأعضاء السبعة ، وإلى ماينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين ، والسكون فى المسكن الحرام . ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور :

الأول : التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ؟ فرب شيء لا يظهر كونه مكروها ، بل يدرك بدقيق النظر . والثانى : التفكر فى أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه والثالث : أن هذا المكروه هل هو متصف به فى الحال ، فيتركه ، أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه ، أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه

وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات . فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر فى هذه الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما فى جميعها أو فى أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم فى أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصى ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلنذكر فى كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرها ، وينفتح له باب الفكر ، ويتسع عليه طريقه

النوع الأول : المعاصى ، ينبغى أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة ، هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ، أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها

فينظر فى اللسان ويقول : إنه متعرض للغيبة ، والكذب ، وتزكية النفس ، والاستهزاء بالغير ، والمماراة ، والممازحة ، والخوض فيما لا يعنى ، إلى غير ذلك من المكاره . فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ، ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر فى أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا فى فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له . فهكذا يكون الفكر فى حيلة الاحتراز

ويتفكر فى سمعه أنه يصغى به إلى الغيبة ، والكذب ، وفضول الكلام ، وإلى اللهو

والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر — فهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال ،فإن ذلك مكروه عند الله ، ومقوّ للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدوّ الله ، وإما بأكل الحرام أو الشبهة ، فينظر من أين مطعمه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومكسبه ، وما مكسبه ، ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به (١)

فهكذا يتفكر في أعضائه ، ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء ، فهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها

وأما النوع الثاني : وهو الطاعات فينظر أولا في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها ، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير ، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ، ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى ، فيقول مثلا: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرءان والسنة ، فلمَ لا أفعله ؟وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه ، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته ، فلمَ لا أفعله ؟

وكذلك يقول في سمعه : إني قادر على استماع كلام ملهوف ، أو استماع حكمة وعلم ، أو استماع قراءة وذكر ، فمالي أعطله وقد أنعم الله عليّ به وأودعنيه لأشكره ، فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم ، والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح ، وبالسؤال عن أحوال الفقراء ، وإدخال السرور على قلب

---

(١) حديث ان الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام :أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم

زيد الصالح ، وعمرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة

وكذلك يتفكر فى ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى ، فإنى مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقنى الله تعالى مثله ؛ وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج منى إلى ذلك المال . وهكذا يفتش عن جميع أعضائه ، وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر ، فيما يرغبه فى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر فى إخلاص النية فيها ، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله . وقس على هذا سائر الطاعات

وأما النوع الثالث : فهي الصفات المهلكة التى محلها القلب . فيعرفها مما ذكرناه فى ربع المهلكات ، وهي استيلاء الشهوة ، والغضب ، والبخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء والحسد ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور ، وغير ذلك . ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه ، والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبدا تعِدُ بالخير من نفسها وتخلف . فإذا ادّعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق ، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم . وإذا ادّعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ، ثم يجربها فى كظم الغيظ . وكذلك فى سائر الصفات

وهذا تفكر فى أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ، ولذلك علامات ذكرناها فى ربع المهلكات . فإذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الأسباب التى تقبح تلك الصفات عنده ، وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة ، وخبث الدّخلة . كما لو رأى فى نفسه عجبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عملى ببدنى وجارحتى ، وبقدرتى وإرادتى ، وكل ذلك ليس منى ولا إلىّ ، وإنما هو من خلق الله وفضله علىّ ، فهو الذى خلقنى ، وخلق جارحتى ، وخلق قدرتى وإرادتى ، وهو الذى حرك أعضائى بقدرته . وكذلك قدرتى وإرادتى ، فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ، ولا أقوم لنفسى بنفسى

فإذا أحس فى نفسه بالكبر ، قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير ، وذلك ينكشف بعد الموت . وكم من كافر فى الحال

يموت مقر باإلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة، فإذا عرف أن الكبر مهلك، وأن أصله الحماقة، فيتفكر فى علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين

وإذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه، تفكر فى أن هذه صفة البهائم، ولو كان فى شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة، كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه، وعن الملائكة المقربين أبعد. وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب، ثم يتفكر فى طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب، فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل مافى هذه الكتب

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات فهو التوبة، والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف والرجاء، والزهد فى الدنيا، والإخلاص والصدق فى الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه، والرضا بأفعاله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه فى هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكر العبد كل يوم فى قلبه ماالذى يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لايثمرها إلا علوم، وأن العلوم لايثمرها إلا أفكار

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولا، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها فى قلبه، ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم

وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى إحسان الله إليه، وأياديه عليه، وفى إرساله جميل ستره عليه على ماشرحنا بعضه فى كتاب الشكر، فليطالع ذلك

وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله، وعظمته، وكبريائه، وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه، كماسنشير إلى طرف منه فى القسم الثانى من الفكر

وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر فى الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير، وعذاب القبر، وحياته، وعقاربه، وديدانه،

ثم فى هول النداء عند نفخة الصور ، ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم فى المناقشة فى الحساب ، والمضايقة فى النقير والقطمير ، ثم فى الصراط ودقته وحدّته ، ثم فى خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار . ثم ليحضر بعد أهوال القيامة فى قلبه صورة جهنم ودركاتها ، ومقامعها وأهوالها ، وسلاسلها وأغلالها ، وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها ، وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وهلم جرا إلى جميع ماورد فى القرءان من شرحها

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها ، وأشجارها وأنهارها ، وحورها وولدانها ، ونعيمها المقيم ، وملكها الدائم

فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة ، أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر أما ذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرءان بالتفكر ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال ، وفيه شفاء للعالمين ، وفيه مايورث الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والمحبة ، والشوق ، وسائر الأحوال ، وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة . فينبغى أن يقرأه العبد ويردد الآية التى هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ، ولو مائة مرة ، فقراءةُ آية بتفكر وفهم خيرٌ من ختمة بغير تدبر وفهم . فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمة منها أسرارا لاتنحصر ، ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فإنه قد أوتي جوامع الكلم ، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول ، فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم: تقدم

(٢) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من احببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم غير مرة

فإنك مُفارقهُ وعِشْ ماشئتَ فإنك ميّتٌ واعملْ ماشئتَ فإنك مَجزيٌّ بِهِ ، فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين ، وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذاووقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ، و لحال ذلك بينهم و بين التلافت إلى الدنيا بالكلية . فهذا هوطريق الفكر فيعلوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أومكروهة . والمبتدىء ينبغي أن يكون مستغرق الوقت فيهذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة ، وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هوله غاية المطلب ، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين ، وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله ، واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أي ينسى نفسه ، وأحواله ، ومقاماته ، وصفاته ، فيكون مستغرق الهم بالمحبوب ، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب ، فإنه لايتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه ، وهو منتهى لذة العشاق

فأما ماذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيّع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخوّاص يدور في البوادي ، فلقيه الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل . فقال الحسين : أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ؟

فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ، ومنتهى نعيم الصديقين . وأماالتنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة في النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى مجرى تهيئة المرأة جهازها ؟ وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها ، لتصلح بذلك للقاء زوجها . فإن استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه ، كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة

وإن كنت كالعبد السوء لايتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة ، فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة . ولكن للمجالسة أقوام آخرون

وإذا عرفت مجال الفكر فى علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه ، فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى ، وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مريد فينبغى أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصى والطاعات ، ويعرض نفسه عليها كل يوم . ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ، وهي البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء والزهد فى الدنيا ، والإخلاص فى الأعمال ، وحسن الخُلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة ، عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة . فمهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها ، وتنزيه قلبه عنها . ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه . فيقبل على التسعة الباقية . وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع . وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها ، واشتغل بالباقى ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة ، والنميمة ، والمراء ، والثناء على النفس ، والإفراط فى معاداة الأعداء وموالاة الأولياء ، والمداهنة مع الخلق فى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعدّ نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه . وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية ؛ فينبغى أن يكون تفقدهم لها ، وتفكرهم فيها لا فى معاص هم بمعزل عنها . مثاله العالم الورع ، فإنه لا يخلو فى غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس

أو بالوعظ . ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة ؛ لاينجو منها إلا الصديقون . فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع فى القلوب ، لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء ، والتزين والتصنع وذلك من المهلكات . وإن ردّ كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره . وقد يلبّس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه ردّ الحق وأنكره . فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان . ثم مهما كان له ارتياح بالقبول ، وفرح بالثناء ، واستنكاف من الرد أو الإعراض ، لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء ، والله لايحب المتكلفين . والشيطان قد يلبّس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ، ويحسن موقعه فى القلب ، إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع . وإنما يدورون حول طلب الجاه ، وهو يظن أن مطلبه الدين . ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ، ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو فى موالاة غيره ، وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحـــــدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غـيره ، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ، ومستفيد منـــــــه فى دينه

وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة فى سر القلب ، التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها . وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات . ففتنة العالم عظيمة ، وهو إما مالك وإما هالك ، ولامطمع له فى سلامة الدوام . فمن أحس فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة ، والانفراد ، وطلب الخمول ، والمدافعة للفتاوى مهما سئل ، فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى ، وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس إذا قالوا لاتفعل هذا ، فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عن

فإنه قد كان معمورا قبلي ، وكذلك يكون بعدي . ولو مت لم تنهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عني . وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حبسوا في السجن ، وقيدوا بالقيود ، وتوعدوا بالنار على طلب العلم ، لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود ، وهدم حيطان الحصون ، والخروج منها ، والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة ، بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ »[2] « وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » . فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق . حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم ، فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم[3] « حُبُّ الْجَاهِ وَالْمَالِ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] « مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلاَ فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ إِفْسَاداً فِيهَا مِنْ حُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ »

ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس ، والهرب من مخالطتهم ، وترك كل مايزيد جاهه في قلوبهم . فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه ، وفي استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقي .

فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوي إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو رآنا السلف الصالحون : لقالوا قطعا إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ، فإن من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام ، وبترك المعاصي ، ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ، ونحن مقصرون في الفرائض منها ، فلم يحصل لنا

---

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : تقدم.
(٢) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : تقدم أيضا في العلم
(٣) حديث حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب ـ الحديث : تقدم
(٤) حديث ماذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم ـ الحديث : تقدم

من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا ، والتكالب عليها ،ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا ، فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا ، فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا ، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ، ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا ، إنه الكريم اللطيف بنا ، المنعم علينا

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة . فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم ، وارتقوا منها إلى التفكر فى جلال الله وعظمته،والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات ، والاتصاف بجميع المنجيات . وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا ، مكدرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ، ولكن تحت ثيابه حيّات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى ، فتنغص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له فى كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيّات من ثيابه : وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيّات ، وهي مؤذيات ومشوشات ، وفى القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيّات . فهذا القدر كاف فى التنبيه على مجارى فكر العبد فى صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى

القسم الثانى : الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان :

المقام الأعلى: الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه . وهذا مما منع منه حيث قيل: تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تتفكروا فى ذات الله . وذلك لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ، ثم لا يطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لا يطيقه ألبتة ، بل يختفى نهارا ، وإنما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان فى النظر إلى الشمس ، فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل . فالصواب إذاً أن لا يتعرض لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله

بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان .

ومنزه عن الأقطار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا ، إذ قيل لهم إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ، ورجل ، ويد ، وعين ، وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم ، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله ، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء ، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ، فلا يستعظم إلا نفسه . فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه . نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة ، جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة ، بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ، ولا يد ، ولا رجل ، ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالقي أنقص مني ! أفيكون مقصوص الجناح ، أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران ، أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري

وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ، ولكن أخبرهم عني بما يفهمون

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه ، اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه . لكنا نعدل إلى المقام الثاني ، وهو النظر في أفعاله ، ومجاري قدره ، وعجائب صنعه ، وبدائع أمره في خلقه ، فإنها تدل على جلاله وكبريائه ، وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته ، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته . فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته ، كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس ، ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما ، وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ، ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العدم ، ولا نور أظهر من الوجود ، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس ، إذ قوام وجود الأشياء

بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها . ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ، ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى »

بيان

كيفية التفكر فى خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه . وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته ، وجلاله وعظمته . وإحصاء ذلك غير ممكن ، لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ، ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول :

الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها ، وكم من الموجودات التى لا نعلمها كما قال الله تعالى (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [1]) (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ [2]) وقال (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ [3]) وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها . وهى منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر

أما الذى لا ندركه بالبصر فكالملائكة ، والجن ، والشياطين ، والعرش ، والكرسى ، وغير ذلك ، ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض ، فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهى المدركات بحس البصر ، وذلك هو السموات السبع ، والأرض ، وما بينهما . فالسموات مشاهدة بكواكبها ، وشمسها ، وقمرها ، وحركتها ، ودورانها فى طلوعها وغروبها . والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ، ومعادنها ، وأنهارها ، وبحارها ، وحيوانها ، ونباتها . وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها ، وأمطارها ، وثلوجها ، ورعدها ، وبرقها ،

---

(1) النحل : ٨ (2) يس : ٣٦ (3) الواقعه : ٦١

وصواعقها ، وشهبها ، وعواصف رياحها . فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض ومابينهما . وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف ، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر فلاتتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد، ولا نبات ،ولاحيوان، ولافلك، ولا كوكب ،إلاوالله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة ، أوحكمتان ، أوعشر ، أوألف حكمة ، كل ذلك شاهد لله تعالى بالواحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه

وقد ورد القرءان بالحث على التفكر فى هذه الآيات ، كما قال الله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ[1]) وكما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ [2]) من أول القرءان إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة . وأقرب شيء إليك نفسك ،وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره ، وأنت غافل عنه فيامَن هو غافل عن نفسه وجاهل بها ، كيف تطمع فى معرفة غيرك ! وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ [3]) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [4]) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [5]) وقال تعالى (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى [6]) وقال تعالى (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [7]) وقال (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [8]) وقال (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ [9]) ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ،والمضغة عظاما فقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

(١) آل عمران : ١٩٠ (٢) الروم : ٢٥ (٣) الذاريات : ٢١ (٤) عبس : ١٧ - ٢٢ (٥) الروم : ٢٠
(٦) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ (٧) المرسلات : ٢٠ - ٢٢ (٨) يس : ٧٧ (٩) الدهر : ٢

فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً [1]) الآية

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه . فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة ، لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة ، وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نماوربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام ، والأعصاب ، والعروق ، والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم ، والأعصاب ، والعروق الأعضاء الظاهرة ، فدوّر الرأس ، وشق السمع ، والبصر ، والأنف ، والفم وسائر المنافذ ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب ، والمعدة ، والكبد ، والطحال ، والرئة ، والرحم ، والمثانة ، والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار . فلو ذهبنا إلى أن نصف ما فى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا تقضى فيه الأعمار ، فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة ، فمنه صغير ، وكبير ، وطويل ، ومستدير ، ومجوف ، ومصمت ، وعريض ، ودقيق

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقرا للتردد فى حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا ، بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدّر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها ، وربط بعضها ببعض

(1) المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤

بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم ، وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه ، وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه . ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك . ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور ، فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه ، فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للحي الأعلى واثنان للحي الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع ، وهي الأنياب ، والأضراس ، والثنايا . ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ، وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ، ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ، ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر ، وعظام الكتف ، وعظام اليدين وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة . وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها ، وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص ، لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره . فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها . وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها . فشتان بين النظرين

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات ، فخلق في بدن

الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم ، وعصب ، ورباط وأغشية ، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها ، فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها ، لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص

وأمر الأعصاب ، والعروق ، والأوردة ، والشرايين ، وعددها ،ومنابتها ،وانشعاباتها أعجب من هذا كله ، وشرحه يطول ، فللفكر مجال فى آحاد هذه الأجزاء ، ثم فى آحاد هذه الأعضاء ، ثم فى جملة البدن

فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن . وعجائب المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم . فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، وإلى بدنه وصفاته ، فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب : وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة . فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء ، فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها ؟ وما حكمته فى أوضاعها ، وأشكالها ، ومقاديرها ، وأعدادها ، واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هى أحكم خلقا ، وأتقن صنعا ، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات .ولذلك قال تعالى : (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (١))

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا ، وماصارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا ، أو بصرا ، أو عقلا ، أو قدرة ، أو علما ، أو روحا أو يخلقوا فيها عظما ، أو عرقا ، أو عصبا ، أو جلدا ، أو شعرا ، هل يقدرون على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته ، وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه

فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان ، وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ، عظم تعجبك

(١) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

من صنعة النقاش وحذقه ، وخفة يده ، وتمام فطنته ، وعظم فى قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ ، والقلم ، واليد ، وبالحائط ، وبالقدرة ، وبالعلم ، وبالإرادة ، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه ، بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه ، وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة ، فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب . ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام فى أرجائها ، وحسن أشكال أعضائها ، وزين ظاهرها وباطنها ، ورتب عروقها وأعصابها ، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة ، بصيرة ، عالمة ، ناطقة ، وخلق لها الظهر أساسا لبدنها ، والبطن حاويا لآلات غذائها ، والرأس جامعا لحواسها

ففتح العينين ورتب طبقاتها ، وأحسن شكلها ولونها وهيآتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها ، وتحفظها ، وتصقلها ، وتدفع الأقذاء عنها ، ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها ، فهو ينظر إليها

ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ، ويدفع الهوام عنها ، وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ، ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ، ويطول طريقه ، فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة فى حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه ، وأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء ، غذاء لقلبه ، وترويحا لحرارة باطنه

وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب ، وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع ، فأحكم أصولها ، وحدد رؤسها ، وبيض لونها ، ورتب صفوفها ، متساوية الرءوس ، متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم

وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ، وليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت ، وخلق للسان قدرة للحركات

والتقطيعات ، لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ، ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، وصلابة الجوهر ورخاوته ، والطول ، والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة ،

ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل ، وزين العينين بالأهداب

ثم خلق الأعضاء الباطنة ، وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكِلْية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها ، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها ، والكِلية تخدمها بجذب المائية عنها ، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه فى طريق الإحليل ، والعروق تخدم الكبد فى إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن

ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرّض الكف ، وقسّم الأصابع الخمس ، وقسّم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع ، وتفاوت الأربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد ، وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ؛ ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل ؛ وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة . فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم . ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه ، وهو يتصرف فيه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته ، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر ، كيف هداه السبيل حتى تنكس ، وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق ، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ، ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح فى حلمة الثدي ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع

ثم أنظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه فى الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن ، فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة

ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه

ثم انظر كيف رزقه القدرة ، والتمييز ، والعقل ، والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، إما كفورا أو شكورا ، مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا ، تصديقا لقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [1]) فانظر إلى اللطف والكرم ، ثم إلى

(١) الدهر : ١ ، ٢ ، ٣

القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية

والعجب كل العجب ممن يرى خطًا حسنا، أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط، وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه، ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه، وما أكمل صنعته وأحسن قدرته. ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره، ثم يغفل عن صانعه ومصوره، فلا تدهشه عظمته، ولا يحيره جلاله وحكمته . فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك، وأجلى شاهد على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك، مشغول ببطنك وفرجك، لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها بمعرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم، فإنه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها، وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك، ثم في أنهارها، وبحارها، وجبالها، ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات

أما الأرض فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا، وسلك فيها سبلا فجاجا، وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [١]) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا [٢]) وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا [٣])

(١) الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ (٢) الملك : ١٥ (٣) البقرة : ٢٢

وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها . فظهرها مقر للأحياء، وبطنها مرقد للأموات قال تعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا [1])

فانظر إلى الأرض وهي ميتة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ، واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ الصم الصلاب ، وكيف أودع المياه تحتها ، ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا ، عذبا ، صافيا ، زلالا ، وجعل به كل شيء حي ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات ، من حب ، وعنب ، وقضب ، وزيتون ، ونخل ورمان ، وفواكه كثيرة لا تحصى ، مختلفة الأشكال ، والألوان ، والطعوم ، والصفات ، والأرايح ، يفضل بعضها على بعض في الأكل ، تسقى بماء واحد ، وتخرج من أرض واحدة

فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ، فتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ؟

ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها ، فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ألوانا مختلفة ، ونباتا متشابها وغير متشابه ، لكل واحد طعم ، وريح ، ولون ، وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها ، وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه ، وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ، فهذا النبات يغذى ، وهذا يقوى ، وهذا يحيي ، وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يقمع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفى الدم ، وهذا يستحيل دما ، وهذا يفرح ، وهذا ينوم ، وهذا يقوى ، وهذا يضعف ، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها ، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ، فالنخل تؤبر ، والكرم يكسح ، والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت يبث

(1) المرسلات : ٢٥

البذر فى الارض ، وبعضه بغرس الأغصان ، وبعضه يركب فى الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات ، وأنواعه ، ومنافعه ، وأحواله وعجائبه ، لانقضت الأيام فى وصف ذلك ، فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض ففى الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة ، والفيروزج ، واللعل وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والرصاص ، والحديد ، وبعضها لاينطبع كالفيروزج واللعل ، وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها ، واتخاذ الأوانى والآلات والنقود والحلي منها

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط ، والكبريت ، والقار ، وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ، فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بجوهرها ، بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لايمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك

وما من جماد ، ولاحيوان ، ولانبات ، إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ، ماخلق شيء منها عبثا ، ولالعبا ، ولاهزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغى ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [1])

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى مايطير وإلى مايمشى ، وانقسام مايمشى إلى مايمشى على رجلين ، وإلى مايمشى على أربع ، وعلى عشر وعلى مائة ، كما يشاهد فى بعض الحشرات ، ثم انقسامها فى المنافع ، والصور ، والأشكال ، والأخلاق ، والطباع ، فانظر إلى طيور الجو ، وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ، ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها ، وقدرة مقدرها ، وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ! بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة ، أو النملة ، أو النحلة ، أو العنكبوت ، وهي من صغار الحيوانات

---

(1) الدخان : ٣٨ ، ٣٩

فى بنائها بيتها ، وفى جمعها غذاءها ، وفى إلفها لزوجها ، وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها ، وفى ، هدايتها إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك

فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر ، فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فمادونه ، حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم يبتدىء ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا، ويجعل بُعد مابينهما متناسبا تناسبا هندسيا، حتى إذا أحكم معاقد القمط ، ورتّب الخيوط كالسّدى ، اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السّدى ويضيف بعضه إلى بعض ، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله ، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ، ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر ، وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ، ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب مالا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكوّن بنفسه ؟ أوكوّنه آدمي أو علمه ؟ أولا هادي له ولا معلم ؟ أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ، ضعيف ، عاجز ، بل الفيل ، العظيمُ شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه ، فكيف هـــذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله ، وصورته ، وحركته ، وهدايته ، وعجائب صنعته لفاطره الحكيم ، وخالقه القادر العليم ؟ فالبصير يرى فى هـذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر ، وجلاله ، وكمال قدرته وحكمته ماتتحيّر فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات

وهذا الباب أيضا لاحصر له فإن الحيوانات ، وأشكالها ، وأخلاقها ، وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهد . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه ، وقال : سبحان الله ما أعجبه ، والإنسان أعجب الحيوانات

وليس يتعجب من نفسه . بل لو نظر إلى الأنعام التى ألفها ، ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها ، وأصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، التى جعلها الله لباسا لخلقه ، وأكنانا لهم فى ظعنهم وإقامتهم ، وآنية لأشربتهم ، وأوعية لأغذيتهم ، وصوانا لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب ، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة . لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها ، سابق على خلقه إياها ، فسبحان مَن الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ، ومن غير تأمل وتدبر ، ومن غير استعانة بوزير أو مشير ، فهو العليم الخبير ، الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته ، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه . وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنّه ورأفته

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التى هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى أن جميع المكشوف من البوادى والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم ، وبقية الأرض مستورة بالماء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم «(١) الْأَرْضُ فِي الْبَحْرِ كَالْإِسْطَبْلِ فِي الْأَرْضِ » فانسب اصطبلا إلى جميع الأرض واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله . وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها ، فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض

ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل الركاب عليها ، فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس . أو طير ، أو بقر ، أو إنسان ، إلا وفى البحر أمثاله وأضعافه وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر ، وقد ذكرت أوصافها

---

(١) حديث الأرض فى البحر كالاسطبل فى الارض: تقدم ولم أجده

فى مجلدات ، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ وذوره فى صدفه تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر

ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه

ثم أنظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء ، وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ، ومهابها ومواقيتها

ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات . وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر ، وهو كيفية قطرة الماء ، وهو جسم رقيق ، لطيف ، سيال مشف ، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب ، سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف ، قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك . ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى إخراجها . فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ، ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها . فتأمل فى عجائب المياه والأنهار ، والآبار والبحار ، ففيها متسع للفكر ومجال : وكل ذلك شواهد متظاهرة ، وآيات متناصرة ، ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها ، قائلة لكل ذى لب أما ترانى وترى صورتى ، وتركيبى ، وصفاتى ، ومنافعى ، واختلاف حالاتى ، وكثرة فوائدى ؟ أتظن أنى كوّنت نفسي ! أو خلقنى أحد من جنسى؟ أوما تستحي أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم ، قادر ، مريد ، متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى ، بالقلم الإلهي الذى لاتدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه ؟

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب ، لا للذين هم عن السمع معزولون ، توهمنى فى ظلمة الأحشاء مغموسة فى دم الحيض ، فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى فينقش النقاش حدقتى ، وأجفانى وجبهتى ، وخدى ، وشفتى ، فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ، ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجه ، ولا خبر منها للأم ، ولا للأب ، ولا للنطفة ، ولا للرحم ، أفما هذا النقّاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة ، لو نظرت إليها مرة أو مرتين لعلمته ؟ فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة ، وباطنها ، وجميع أجزائها ، من غير ملامسة للنطفة ، ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ، ولا تفهم بها أن الذى صور ونقش وقدر لا نظير له ، ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ، فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين ، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك ، فإنه أعجب من كل عجب ، فإن الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ، ومنعك من التبيين مع هذا البيان ، جدير بأن تتعجب منه : فسبحان من هدى وأضل ، وأغوى وأرشد ، وأشقى وأسعد ، وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ؛ فله الخلق والأمر ، والامتنان والفضل ، واللطف والقهر ، لا رادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض ، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه : وجملته مثل البحر الواحد ، والطيور محلقة فى جو السماء ومستبقة ، سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر . فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابّة ، فإن شاء جعله بشرا بين يدي رحمته ، كما قال سبحانه (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [1]) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات ، فتستعد للنماء ، وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته ، كما قال تعالى

(١) الحجر : ٢٢

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (١)) ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء ، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه فى الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل مجوف فيه هواء لايغوص فى الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة ؛ فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف ، كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي فى البئر . فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص فى الماء . فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد ، وعقدة تشد

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم ، والرعود والبروق ، والأمطار ، والثلوج ، والشهب ، والصواعق ، فهي عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٢)) وهذا هو الذى بينهما ، وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى : (وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (٣)) وحيث تعرض للرعد ، والبرق ، والسحاب ، والمطر ؛ فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك ، وتسمع الرعد بأذنك ؛ فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة . فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى ، فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها

وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه ، إذ لامطمع فى استقصائه ، فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل ، وممسك له فى جو السماء ، إلى أن يأذن الله فى إرسال الماء ، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى ،

(١) القمر : ١٩ ، ٢٠ (٢) الدخان ، ٣٨ (٣) البقرة : ١٦٤

وعلى الشكل الذى شاءه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ، ويرسله قطرات متفاصلة لاتدرك قطرة منها قطرة ، ولاتتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذى رسم لها لاتعدل عنه ، فلا يتقدم المتأخر ، ولايتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة ، أو يعرفوا عدد ما ينزل منها فى بلدة واحدة ، أو قرية واحدة ، لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك . فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ، ولكل حيوان فيها من طير ، ووحش ، وجميع الحشرات ، والدواب ، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهى لايدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية ، التى فى ناحية الجبل الفلانى ، تصل إليها عند عطشها فى الوقت الفلانى . هذا مع مافى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لاتحصى

كل ذلك فضل من الجبار القادر ، وقهر من الخلاق القاهر ، مالأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ، ورجم الظنون بذكر سببه وعلته . فيقول الجاهل المغرور : إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه ، وإنما هذا سبب نزوله . ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ، ويفرح بها . ولو قيل له مامعنى الطبع ؟ وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر إلى أعالى الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق فى داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا ، بحيث لايرى ولايشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويجرى إليها فى تجاويف عروق شعرية صغار ، يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار ، فكأن الكبير نهر ، وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة ، فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ، ويزينها ، وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه .

فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل ، فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض ، وجبار الملك والملكوت ، فلم لا يحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل

ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا . فالأرض ، والبحار ، والهواء ، وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة فى بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه ، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع . وكم من قسم فى القرءان بها ، كقوله تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [١]) (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ [٢]) (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ [٣]) (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا [٤]) وكقوله تعالى (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [٥]) وكقوله تعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ [٦]) وقوله تعالى (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [٧]) (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [٨]) فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون ، وما أقسم الله بها ، فما ظنك بما أقسم الله تعالى به ، وأحال الأرزاق عليه ، وأضافها إليه ، فقال تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [٩]) وأثنى على المتفكرين فيه فقال (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [١٠])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ » أي تجاوزها من غير فكر . وذم المعرضين عنها فقال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ [١١])

فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء ، وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد ، محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله . ولذلك سماه الله تعالى محفوظا

---

(١) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى قوله تعالى ـ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ـ تقدم

---

(١) البروج : ١ (٢) الطارق : ١ (٣) الذاريات : ٧ (٤) الشمس : ٥ (٥) الشمس : ١ ، ٢
(٦) التكوير : ١٥ (٧) : النجم ١ (٨) الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ (٩) الذاريات : ٢٢ (١٠) آل عمران : ١٩١
(١١) الأنبياء : ٣٢

فقال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا [١]) وقال سبحانه (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا [٢]) وقال (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [٣]) .

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ، ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه ، فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها ، فإن البهائم تشاركك فى هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد ، فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [٤]) لا بل كل مايدرك بحاسة البصر ، فالقرءان يعبر عنه بالملك والشهادة . وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت . والله تعالى عالم الغيب والشهادة، وجبار الملك الملكوت، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول

فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت ، فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك رعما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى . وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التى هي مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض، ثم عجائب الجو وهو مابين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسى ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش ، والكرسى والسموات ، والأرض ، وما بينهما .فبينك و بين هذه المفاوز العظيمة ، والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك ، وتدعى معرفة ربك ، وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيما ذا أتفكر ؟ وإلى ماذا أتطلع ؟

فارفع الآن وأسك إلى السماء ، وانظر فيها وفى كواكبها ، وفى دورانها ، وطلوعها ، وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ، ودءوبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ، ومن غير تغير فى سيرها ، بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة

(١) النبأ : ١٣ (٢) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ (٣) الأنعام : ٧٥

بحساب مقدر ، لا يزيد ولا ينقص ، إلى أن يطويها الله تعالى طيّ السجل للكتاب . وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها ، فبعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللون الرصاصي . ثم انظر كيفية أشكالها ، فبعضها على صورة العقرب ، وبعضها على صورة الحمل ، والثور ، والأسد ، والإنسان وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هي تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ، ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولم تعرف المواقيت ، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا . والنوم سباتا ، والنهار معاشا . وانظر إلى إيلاجه الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف ، والشتاء ، والربيع ، والخريف ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا مطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر . واعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ، ثم فى مقداره ، ثم فى شكله ، ثم فى لونه ، ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده ، وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة . وأمر السماء أعظم بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء ، لا فى كبر جسم ، ولا فى كثرة معانيه . وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ،

وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة وفى الأخبار ما يدل على عظمها[1] . ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الأرض

(١) الحديث الدال على عظم الشمس : أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال فى نار الله الحامية لولا مازعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض وللطبراني فى الكبير من حديث أبى أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم

ثمانى مرات ، وأكبرها ينتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض ، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها، إذ للبعد صارت ترى صغارا . ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (١))[1] وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام

فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافا ، فانظر إلى كثرة الكواكب ، ثم انظرْ إلى السماء التى الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لاتحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لاتشك أنها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير ، وذلك الكوكب هو مثل الأرض بمائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة . وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه

وانظر كيف عبّر[2] جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هَلْ زَالَتِ الشَّمْسُ ؟ » فقال: لا نعم . فقال « كَيْفَ تَقُولُ لاَ نَعَمْ » فقال: من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام . فانظر إلى عظم شخصها ، ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها ، حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها

فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها ، بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ، ومن غير علاقة من فوقها ، وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه ، فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوّقا بالصبغ ، مموها بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ، وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه ، وإلى سقفه وإلى هوائه ، وإلى عجائب أمتعته ، وغرائب

لولا ذلك ماأتت على شىء الاأحرقته

(١) حديث بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام : الترمذى من رواية الحسن عن أبى هريرة وقال غريب قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبى هريرة ورواه أبو الشيخ فى العظمة من رواية أبى نصرة عن أبى ذر ورجاله ثقات الاأنه لايعرف لأبى نصرة سماع من أبى ذر

(٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانعم فقال كيف تقول لانعم فقال من حين قلت لاإلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام : لم أجد له أصلا

---

(١) النازعات : ٢٨

حيواناته ، وبدائع نقوشه ، ثم لا تتحدث فيه ، ولا تلتفت بقلبك إليه ، فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه ، بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التى هي أخس أجزاء هذا البيت ، ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلا أنه بيت ربك ، هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه ، وأنت قد نسيت نفسك ، وربك ، وبيت ربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك ، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة ، فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات ، وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أومائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور ، وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك ، وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك ، رفيع البنيان ، حصين الأركان ، مزين بالجوارى والغلمان ، وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ، ولقيت صاحبتها ؛ لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها ، وكيفية إدخارها ، فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره ، وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه ، وسقفه ، وحيطانه ، وسائر بنيانه ، وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى ، وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف عن عجائبه ما الخلق غافلون عنه ، ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء ؛ وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وجملة ما عرفوه قليل

بالإضافة إلى ماعرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما . ثم جميع علوم الملائكة ، والجن ، والإنس ، إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دهشا ، وحيرة ، وقصورا ، وعجزا أقرب ، فسبحان من عرف عباده ما عرف ، ثم خاطب جميعهم فقال(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [1]) . فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى ، وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لامحالة معرفة الخالق ،وعظمته، وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره، فتزداد به معرفة ، وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى أن كل كلمة من كلماته ، وكل بيت عجيب من أبيات شعره ، يزيده محلا من قلبك يستدعي التعظيم له فى نفسك

فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه ، والنظر والفكر فيه لايتناهي أبدا ، وإنما لكل عبد منهما بقدر مارزق ، فلنقتصر على ماذكرناه ، ولنضف إلى هذا ما فصلناه فى كتاب الشكر ، فإنا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو إحسان الينا ، وإنعام علينا ، وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعى ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة فى السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ، ويهدى بها من يشاء . فمن نظر فى هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، واهتدى به. ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض ، لامن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، فقد شقى وارتدى ، فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنّه ، وكرمه ، وفضله ، وجوده ، ورحمته

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات ، والحمد لله وحده ، وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

(١) الاسراء : ٨٥

كتاب ذكر الموت وما بعده

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات
وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء ، وموعدا فى حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء ، وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، أن لا يكون له فكر إلا فى الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور ؟

فإن كل ماهو آت قريب . والبعيد ماليس بآت . وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ » ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر في المنبهات عليه

ونحن نذكر من أمر الموت ، ومقدماته ولواحقه ، وأحوال الآخرة ، والقيامة ، والجنة ، والنار ، مالابدّ للعبد من تذكاره على التكرار ، وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد ، فقد قرب لما بعد الموت الرحيل ، فما بقي من العمر إلا القليل ، والخلق عنه غافلون (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)) ونحن نذكر مايتعلق بالموت في شطرين

الشطر الأول

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول : في فضل ذكر الموت والترغيب فيه

الباب الثاني : في ذكر طول الأمل وقصره

الباب الثالث : في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت

الباب الرابع : في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

الباب الخامس : في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

الباب السادس : في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

الباب السابع : في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

﴿ كتاب ذكر الموت ومابعده ﴾

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت : تقدم غير مرة

---

(١) الأنبياء : ١

الباب الأول

فى ذكر الموت والترغيب فى الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك فى الدنيا ، المكب على غرورها ، المحب لشهواتها ، يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذكّر به كرهه ونفر منه ، أولئك هم الذين قال الله فيهم (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [1]) ثم الناس إما منهمك ، وأما تائب مبتدىء ، أو عارف منته؛

أما المنهمك :فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيــذكره للتأسف على دنياه ،ويشتغل بمذمّته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً

وأما التائب :فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة ، وقبل إصلاح الزاد ،وهو معذور فى كراهة الموت . ولا يدخل هـذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره . وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه . فلا يعدّ كارها للقائه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لاشغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا

وأما العارف:فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقائه لحبيبه ،والمحب لاينسى قط موعد لقاء الحبيب . وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت ، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة ، لاأفلح من ندم . اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى ، والسقم أحب إليّ من الصحة ، والموت أحب إليّ من العيش ، فسهل عليّ الموت حتى ألقاك . فإذاً التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه

﴿ الباب الاول فى ذكر الموت والترغيب فيه ﴾

(١) حديث من كره لقاء الله كره الله لقاءه : متفق عليه من حديث أبى هريرة

---

(١) الجمعة : ٨

وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى ، فصار لايختار لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ، وهو الغاية والمنتهى .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا ، إذ ينغص عليه نعيمه ، ويكدر عليه صفو لذته ، وكل مايكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة

بيان

فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » معناه نغّصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها . فتقبلوا على الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَوْ تَعْلَمُ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيناً »

(٣) وقالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله ، هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نَعَم مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة . والغفلةُ عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن ، إذ لايزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ، ورياضة شهواته ، ومدافعة شيطانه

---

(١) حديث أكثروا من ذكر هاذم اللذات : الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث لو تعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا : البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم

(٣) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة : تقدم

(٤) حديث تحفة المؤمن الموت : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت ، والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو مرسلا بسند حسن

فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة فى حقه

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » وأراد بهذا المسلمَ حقا، المؤمن صدقا ، الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ، ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ، ولم يتدنس من المعاصى إلا باللمم والصغائر ،فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال [٢] عطاء الخراسانى : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال « شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَّاتِ » قالوا وما مكدر اللذات ؟ قال « الْمَوْتُ »

وقال [٣] أنس رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا » . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « كَفَى بِالْمَوْتِ مُفَرِّقًا » . وقال عليه السلام [٥] « كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا »

[٦] وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال « اذْكُرُوا الْمَوْتَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » . [٧] وذُكِر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ، فأحسنوا

---

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم : أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب والخطيب فى التاريخ من حديث أنس قال ابن العربى فى سراج المريدين انه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزى وقد جمعت طرقه فى جزء

(٢) حديث عطاء الخراسانى مر النبى صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا مرسلا ورويناه فى أمالى الخلال من حديث أنس ولا يصح

(٣) حديث أنس أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا : ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف جدا

(٤) حديث كفى بالموت مفرقا : الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى البر والصلة من رواية أبى عبد الرحمن الحبلى مرسلا

(٥) حديث كفى بالموت واعظا : الطبرانى ، والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد

(٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

(٧) حديث ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر

الثناء عليه ، فقال « كَيْفَ ذِكْرُ صَاحِبِكُمْ لِلْمَوْتِ ؟ » قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت . قال « فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَالِكَ » . وقال ابن [١] عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله ؟ فقال « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدُّهُمُ اسْتِعْدَادًا لَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ »

وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا

وقال الربيع بن خثيم : ماغائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بى أحدا ، وسلّونى إلى ربى سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : ياأخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة

وقال ابراهيم التيمى شيآن قطعاني لذة الدنيا ، ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله عز وجل

وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها

وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة .قطع ذكر الموت قلوب الخائفين ، فو الله ماتراهم إلا والهين

وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن ، فإنما هو النار ، وأمر الآخرة ، وذكر الموت

وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها ، فقالت أكثرى ذكر الموت يرقّ قلبك . ففعلت فرق قلبها . فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما

وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة

صاحبكم للموت ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك فى الزهد قال أنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه

(١) حديث ابن عمر أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث : ابن ماجه مختصرا وابن أبى الدنيا بكماله باسناد جيد

رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا، وعليه حزينا

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظني ، فقال : لستَ أول خليفة تموت . قال : زدني .قال. ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك. فبكى عمر لذلك : وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا في داره ، فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت ، وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نغّص على أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيما لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت ، فإن كنت واسع العيش ضيّقه عليك ، وإن كنت ضيق العيش وسّعه عليك

وقال أبو سليمان الداراني . قلت لأم هرون أتحبين الموت ؟ قالت : لا، قلت: لم ؟ قالت: لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه ، فكيف أحب لقاءه وقد عصيته !

بيان

الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلم أن الموت هائل ، وخطره عظيم ، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا ، فلا ينجع ذكر الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة . أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر إلا فيه . فإذا باشر ذكر الموت قلبه ، فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وينكسر قلبه

وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم ، وأيتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم . فمهما تذكر رجلا رجلا ، وفصل في قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة

والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع ، والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر : وهو غافل عما يراد به ، حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه ، فانكشف له صورة الملك ، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار . فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وستكون عاقبته كعاقبتهم . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل تضمونه في صدع من الأرض ، قد توسد التراب ، وخلف الأحباب ، وقطع الأسباب ؟

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى ، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب ، حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ، ويتجافى عن دار الغرور . وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه . ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد له من مفارقته . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ، ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

الباب الثاني

في طول الأمل ، وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر[1] « إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ

﴿ الباب الثاني في طول الأمل ﴾

(١) حديث قال لعبدالله بن عمر اذا أصبحت فلاتحدث نفسك بالمساء . الحديث :ابن حبان ورواه البخاري

وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ فَإِنَّكَ يَاعَبْدَ اللهِ لَاتَدْرِي مَا اسْمُكَ غَدًا »

وروى[١] علي كرم الله وجهه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ أَشَدَّ مَاأَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَإِنَّهُ الْحُبُّ لِلدُّنْيَا » ثم قال : « أَلَا إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيَبْغَضُ وَإِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ أَلَا إِنَّ لِلدِّينِ أَبْنَاءً وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءً فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ مُوَلِّيَةً أَلَا إِنَّ الْآخِرَةَ قَدِ ارْتَحَلَتْ مُقْبِلَةً أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي يَوْمِ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ أَلَا وَإِنَّكُمْ تُوشِكُونَ فِي يَوْمِ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ »

وقالت[٢] أم المنذر : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنَ اللهِ » قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « تَجْمَعُونَ مَالَا تَأْكُلُونَ وَتَأْمُلُونَ مَالَا تُدْرِكُونَ وَتَبْنُونَ مَالَا تَسْكُنُونَ »

وقال[٣] أبو سعيد الخدري : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِي إِلَى شَهْرٍ إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَاطَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ شَفْرَيَّ لَايَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللهُ رُوحِي وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أَنِّي وَاضِعُهُ حَتَّى أُقْبَضَ وَلَا لَقِمْتُ لُقْمَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي لَا أُسِيغُهَا حَتَّى أُغَصَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ » ثم قال : « يَابَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَاتُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

من قول ابن عمر فى آخر حديث كن فى الدنيا كأنك غريب

(١) حديث علي ان أشد ماأخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ـ الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف

(٢) حديث أم المنذر أيها الناس أماتستحيون من الله تعالى قالوا وماذاك يارسول قال تجمعون مالاتأكلون الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقدتقدم

(٣) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألاتعجبون من أسامة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى قصر الامل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف

وعن [1] ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب ، فأقول له يارسول الله إن الماء منك قريب . فيقول « مَايُدْرِينِي لَعَلِّي لاَأَبْلُغُهُ » . ويروي [2] أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ، فغرز عودا بين يديه والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده . فقال « هَلْ تَدْرُونَ مَاهَذَا ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال « هَذَا الإِنْسَانُ وَهَذَا الأَجَلُ وَذَاكَ الأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الأَجَلُ دُونَ الأَمَلِ » وقال عليه السلام [3] « مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إِنْ أَخْطَأَتْهُ الْمَنَايَا وَقَعَ فِي الْهَرَمِ » قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمرّ به أخذه ، فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم ، وهو ينتظر الأمل

قال عبد الله : [4] خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال « أَتَدْرُونَ مَاهَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « هَذَا الإِنْسَانُ » للخط الذى فى الوسط « وَهَذَا الأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ وَهَذِهِ الأَعْرَاضُ » للخطوط التى حوله تنهشه ، إن أخطأه هذا نهشه هذا . « وَذَاكَ الأَمَلُ » يعنى الخط الخارج . وقال [5] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ وَالأَمَلُ » وفى رواية « وَتَشُبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ »

---

(١) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول مايدريني لعلى لاأبلغه. ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والبزار بسند ضعيف

(٢) حديث انه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه ـ الحديث : أحمد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزى فى الأمثال من رواية أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى واسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا أيضا من رواية أبى المتوكل مرسلا

(٣) حديث مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله ابن الشخير وقال حسن

(٤) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا ـ الحديث : رواه البخارى

(٥) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان الحرص والأمل : وفى رواية ويشب معه اثنان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثانى وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل باللفظ الأول باسناد صحيح

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « نَجَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ وَيَهْلِكُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ »

وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس ، وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل . فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة . فقال عيسى : اللهم اردد إليه الأمل . فقام فجعل يعمل . فسأله عيسى عن ذلك فقال . بينما أنا أعمل إذ قالت لى نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فألقيت المسحاة واضطجعت . ثم قالت لى نفسى والله لابد لك من عيش ما بقيت . فقمت إلى مسحاتى

وقال [2] الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » قالوا : نعم يارسول الله ، قال « قَصِّرُوا مِنَ الْأَمَلِ وَثَبِّتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » [3] وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيَا تَمْنَعُ خَيْرَ الْآخِرَةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ الْمَمَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ »

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت . ولولا الغفلة ماتهنؤا بعيش ، ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولا هما مامشى المسلمون فى الطرق . وقال الثوري : بلغنى أن الإنسان خلق أحمق ، ولولا ذلك لم يهنأه العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسى رضي الله عنه : ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه

---

(١) حديث نجا اول هذه الامة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل : ابن أبى الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٢) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يارسول الله قال قصروا من الأمل ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا

(٣) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل : ابن أبى الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفى اسناده ضعف وجهالة ولاأدرى من حوشب

ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض . وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الله ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار. وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته فى المنام ، فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال التوكل وقصر الأمل. وقال الثورى: الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة. وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب . ثم دعا ربه فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، ألا تغسل قيصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم : أنا كرجل مادٌ عنقه والسيف عليه ، ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي : لوأملت أن أعيش شهرا لرأيتني قدأتيت عظيما . وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار

وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرمانى ، وفى طرف كسائه شيء مصرور ، فقال له أستاذه : إيش هذا معك ؟ فقال لوزات دفعها إليّ أخ لى وقال أحب أن تفطر عليها . فقال شقيق ، وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل ! لا كلمتك أبدا . قال : فأغلق فى وجهى الباب ودخل

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : إن لكل سفر زادا لامحالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ماأعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله مابسط أمل من لايدرى لعله لايصبح بعد مسائه ، ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا . وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا . وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن من أهوال القيامة . فأما من لا يداوي كلما إلاأصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي ، فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي ، وتبدو مسكنتي فى يوم

يبدو فيه الغنى والفقر ، والموازين فيه منصوبة . لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشققت . أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة : وأنكم صائرون إلى إحداهما

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ، فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام ، والسلام

وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل ، والموت من الإنسان قريب ، وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه دبيب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام قبل أن يخطىء أمله خلف ظهره ، وأجله بين عينيه . فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمله بين عينيه ، وأجله خلف ظهره

وقال عبد الله بن سميط : سمعت أبى يقول : أيها المغتر بطول صحته ، أما رأيت ميتا قط من غير سقم ؟ أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة ؟ إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ماقد تقدم من لذاتك . أبا لصحة تغترون ؟ أم بطول العافية تمرحون ؟ أم الموت تأمنون ؟ أم على ملك الموت تجترئون ؟ إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك . أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب ، وغصص ، وندامه على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت . وقال أبو زكريا التيمي . بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام ، إذا أتي بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ، فإذا فيه : ابن آدم ، إنك لو رأيت قرب مابقي من أجلك لزهدت فى طول أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك . وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وفارقك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة . فبكى سليمان بكاء شديدا

وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف : سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ،

فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك ، فإن يكن الله معك فلا بأس ، ولا وحشة ، ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع ، وضيق مضجع . ثم تبلغك صيحة الحشر ، ونفخ الصور ، وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق ، وخلاء الأرض من أهلها ، والسموات من سكانها ، فباحت الأسرار ، وأسعرت النار ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين . فكم من مفتضح ومستور ، وكم من هالك وناج ، وكم من معذب ومرحوم ، فياليت شعرى ما حالي وحالك يومئذ ؟ ففي هذا ما هدم اللذات ، وأسلى عن الشهوات ، وقصر عن الأمل ، وأيقظ النائمين ، وحذر الغافلين . أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام

وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى . وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم . فخاب وشقي غدا عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض . وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلف بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ؟ فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ وأيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي . ولكنها سنن من الله عادلة ، آمر فيها بطاعته ، وأنهى فيها عن معصيته ، واستغفر الله ، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته . وما عاد إلى مجلسه حتى مات . وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة ، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء

وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول : أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أتاني ما أمرته بشيء ، ولا نهيته عن شيء ، ولا لي على أحد شيء ، ولا لأحد عندي شيء

وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار !

وقال أبو محمد بن علي الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة، وخرج فيها داود الطائي ، فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن ، فجئت فقعدت قريبا منه ، فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد . ومن طال أمله ضعف عمله . وكل ما هو آت قريب

واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم ، وأعلم ان أهل الدنيا جميعا من أهل القبور ، إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون . فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون ، وفيه يتنافسون ، وعليه عند القضاة يختصمون

وروي أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة . قال محمد بن أبي توبة : فقال لي تقدم : فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصلي بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى ! نعوذ بالله من طول الأمل ، فإنه يمنع من خير العمل

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم . دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها . فكم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى إنما لدنيا كفيء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه . إن الدنيا لاتسر بقدر ما تضر . إنها تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يقول في خطبته أين الوضاءة الحسنة وجوههم ؟ المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا في ظلمات القبور . الوحا * الوحا ثم النجا النجا

بيان

السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم ان طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل ، والآخر حب الدنيا

أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها ، وبشهواتها ، ولذاتها ، وعلائقها ، ثقل على قلبه

* الوحا الوحا : السرعة السرعة

مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ، ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال ، وأهل ، ودار ، وأصدقاء ، ودواب ، وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر ، موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ، فلا يقدر قربه . فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له ،سوّف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد ، وجهازه ، وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك . فلا يزال يسوّف ويؤخر ، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ، ويفضى به شغل إلى شغل ، بل إلى أشغال ، إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته

وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف ، يقولون واحزناه من سوف . والمسوف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ، فما يفرغ منها إلا من أطرحها

فما قضى أحد منها لبانته   وما انتهى إرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا ، والأنس بها ، والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ »

وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد . وإن كان ذلك بعيد

---

(١) حديث أحبب من أحببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم غير مرة

فالمرض بجأة غير بعيد . وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا

ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب ، وشيب ، وكهولة ، ومن صيف ، وشتاء ، وخريف ، وربيع ، من ليل ونهار ، لعظم استشعاره ، واشتغل بالاستعداد له . ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل ، وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ، ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه . وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ، ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه ،وهو مشاهدة موت غيره .فأما موت نفسه فلم يألفه ،ولم يتصور أن يألفه ، فإنه لم يقع : وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر ، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ، ويدفن فى قبره . ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لايدرى ، فتسويفه جهل محض

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة

وأما حب الدنيا فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذى أعيا الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر ، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب . ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ؛ فإن حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها ، وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب . وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ! فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعداً فقد فاز فوزا عظيما . وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا

فلينظر الإنسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لامحالة ، وكيف تتفتت عظامها ، وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى ،

فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى . وكذلك يتفكر فيما سيورده من عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، ومن الحشر ، والنشر ، وأهوال القيامة ، وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه ، وتدعوه إلى الاستعداد له

بيان

مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون . فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ [1])

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه . وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « الشَّيْخُ شَابٌّ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنِ الْتَفَّتْ تَرْقُوَتَاهُ * مِنَ الْكِبَرِ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَقَلِيلٌ مَاهُمْ »

ومنهم من يأمل إلى سنة ، فلا يشتغل بتدبير ماوراءها ، فلا يقدر لنفسه وجودا في عام قابل . ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء ، وفي الشتاء للصيف . فإذا جمع مايكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ، ولا في الشتاء ثياب الصيف

ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره ، وأما للغد فلا . قال عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد ، فإن يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم

ومنهم من لايجاوز أمله ساعة ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « يَاعَبْدَ اللهِ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ

---

(١) حديث الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ماهم : لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال

---

(١) البقرة . ٩٦

---

* الترقوة : مقدم الحلق في اعلى الصدر حيثما يترقى فيه النفس

ومنهم من لايقدر البقاء أيضا ساعة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول « لعلّي لا أبلغه »

ومنهم من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به ، فهو ينتظره . وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع . وفيه ورد مانقل عن [1] معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه ، لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ، ماخطوت خطوة إلا ظننت أني لاأتبعها أخرى . وكما نقل عن الأسود وهو حبشي ، أنه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ماهذا ؟ قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني

فهذه مراتب الناس . ولكل درجات عند الله . وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، فإن الله لايظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل. وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، وإنما يظهر ذلك بأعماله ، فإنه يعتني بأسباب ربما لايحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لاينفل عنه ساعة . فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت . فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته ، وفرح بأنه لم يضيع نهاره ، بل استوفى منه حظه ، وادخره لنفسه . ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فمثل هذا إذا مات سعد وغنم ، وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة ، والحياة له مزيد

فليكن الموت على بالك يامسكين ، فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه

---

(١) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة ايمانه فقال ماخطوت خطوة الاظننت أني لاأتبعها أخرى : أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف

بيان

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما فى غد ، وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة ، فلا يستعد للذى يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذى ينتظر قدومه غدا . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ، ونسي ما وراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها ، لا ينقص منها اليوم الذى مضى . وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا ، فإنه أبدا يرى لنفسه متسعا فى تلك السنة، فيؤخر العمل، كما قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَا يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُقَيِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَالدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »

وقال (٢) ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » أي أنه لا يغتنمهما ، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) « جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاء

---

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا ـ الحديث : الترمذى من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون الا غناء ـ الحديث : وقال حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم

(٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه باسناد حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدى مرسلا

(٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ : البخارى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل : الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن

(٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ـ الحديث : الترمذى وحسنه من حديث أبي بن كعب

الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ »[١] : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أوغرة، نادى فيهم بصوت رفيع « أَتَتْكُمُ الْمَنِيَّةُ رَاتِبَةً لاَزِمَةً إِمَّا بِشَقَاوَةٍ وَإِمَّا بِسَعَادَةٍ »

وقال[٢] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا النَّذِيرُ وَالْمَوْتُ الْمُغِيرُ وَالسَّاعَةُ الْمَوْعِدُ » . وقال[٣] ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « مَابَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا فِي مِثْلِ مَامَضَى مِنْهُ » : وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ »

وقال[٥] جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته ، واحمرت وجنتاه ، كأنه منذر جيش يقول « صَبَّحَتْكُمْ وَمَسَّتْكُمْ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وقرن بين أصبعيه . [٦] وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ[١]) فقال « إِنَّ النُّورَ دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ » فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال « نَعَمْ ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ »

وقال السدى : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً[٢]) أى أيكم أكثر للموت ذكرا ، وأحسن له استعدادا ، وأشد منه خوفا وحذرا

---

(١) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أوغرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية . الحديث: ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل من حديث زيد السلمى مرسلا

(٢) حديث أبى هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد :ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل وأبو القاسم البغوى باسناد فيه لين

(٣) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال مابقى من الدنيا إلا مثل مابقى من يومنا هذا فى مثل مامضى منه :ابن أبى الدنيا فيه باسناد حسن وللترمذى نحوه من حديث أبى سعيد وحسنه

(٤) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره ـ الحديث: ابن أبى الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح

(٥) حديث جابر كان اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ـ الحديث: مسلم وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له

(٦) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل القلب انفسح ـ الحديث: ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والحاكم فى المستدرك وقد تقدم

---

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الملك : ٢

وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادى . أيها الناس ، الرحيل الرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى (إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ [1]) فى الموت . وقال سحيم مولى بنى تميم : جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلى ، فأوجز فى صلاته ثم أقبل عليّ فقال : أرحنى بحاجتك فإنى أبادر قلت وما تبادر؟ قال ملك الموت رحمك الله . قال فقمت عنه ، وقام إلى صلاته

ومرّ داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال : دعنى إنما أبادر خروج نفسى

قال عمر رضي الله عنه . التؤدة فى كل شيء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة

وقال المنذر . سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه . ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ، ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ، حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يرانى

وكان الحسن يقول فى موعظته : المبادرة المبادرة ، فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله امرأ نظر إلى نفسه ، وبكى على عدد ذنوبه . ثم قرأ هذه الآية (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا [2]) يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك فى قبرك

واجتهد أبو موسى الأشعرى قبل موته اجتهادا شديدا ، فقيل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها . والذى بقى من أجلى أقل من ذلك : قال فلم يزل على ذلك حتى مات ، وكان يقول لامرأته : شدى رحلك ، فليس على جهنم معبر

وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله ، اتقوا الله ما استطعتم ، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وترحلوا فقد جدّ بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة ، لجديرة بقصر المدة . وإن غائبا يحدبه الجديدان الليل والنهار لحريّ بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة . فالتقيّ عند ربه من ناصح نفسه ، وقدم توبته . وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له والشيطان موكل به ، يمنيه التوبة ليسوفها ، ويزين

---

(١) المدثر : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ (٢) مريم : ٣٤

إليه المعصية ليرتكبها ، حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها : وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به . فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وأن ترديه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ، ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء ، وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى (فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ [١]) قال بالشهوات واللذات (وَتَرَبَّصْتُمْ [٢]) قال بالتوبة (وَارْتَبْتُمْ [٣]) قال شككتم (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ [٤]) قال الموت (وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [٥]) قال الشيطان

وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة . [١] وقال أبو عبيدة الباجي دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه ، فقال : مرحبا بكم وأهلا ، حياكم الله بالسلام : وأحلنا وإياكم دار المقام : هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن ، وتخرجوه عن هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم فشمر إليه ، الوحا الوحا ، النجا النجا . علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا ، فأكل كسرة ، ولبس خلقا ، ولزق بالأرض ، واجتهد فى العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ، وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك

وقال عاصم الأحول . قال لى فضيل الرقاشى وأنا سائله : ياهذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك ، فإن الأمر يخلص إليك دونهم . ولا تقل أذهب ههنا وههنا ، فينقطع عنك النهار

---

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم . الحديث : ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل وابن حبان فى الثقات وأبو نعيم فى الحلية من هذا الوجه

(١) ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) الحديد : ١٤

فى لا شىء ، فإن الأمر محفوظ عليك ، ولم تر شيئا قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم

الباب الثالث

فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ، ولا هول ، ولا عذاب ، سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ، ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو فى كل نفس بصدده . كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك ، لا تدرى متى يغشاك

وقال لقمان لابنه : يابني ؛ أمر لا تدرى متى يلقاك ، استعد له قبل أن يفجأك

والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو : فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات ، لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه . وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو عنه غافل . فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور

واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها . ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التى أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذى يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم . فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح . فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح ، فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم . والمؤلم يتفرق على اللحم ، والدم ، وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم . فإن كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح ، فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة .

وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار ، فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار . فألم النزع يهجم على نفس الروح ، ويستغرق جميع أجزائه ، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة و بشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض . لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح . وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه . وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه ، وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل موضع منه ، فهد كل قوة ، وضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة . أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكمه . وأما الأطراف فقد ضعفها . ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لايقدر على ذلك . فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد ، حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله . فالألم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الانثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضر أنامله . فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه . ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ، لامن عرق واحد ، بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا ، فتبرد أولا قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة

ويحيط به الحسرة والندامة . [١] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَالَمْ يُغَرْغِرْ » وقال مجاهد فى قوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [١]) قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت ، فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [٢] « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ »

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به ، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية . ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت ، حتى قال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن علي هذه السكرة ، يعني الموت ، فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت

وروي أن نفرا من بني إسرائيل مروا بمقبرة ، فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ، فدعوا الله تعالى ، فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود ، قد خرج من قبر من القبور ، فقال ياقوم : ماأردتم مني ؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ماسكنت مرارة الموت من قلبي

وقالت عائشة رضي الله عنها : لاأغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروي أنه عليه السلام [٣] كان يقول « اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ الْعَصَبِ وَالْقَصَبِ وَالْأَنَامِلِ اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى الْمَوْتِ وَهَوِّنْهُ عَلَيَّ »

وعن الحسن [٤] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

﴿ الباب الثالث فى سكرات الموت ﴾

(١) حديث ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر: الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت: تقدم

(٣) حديث كان يقول اللهم انك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ـ الحديث: ابن أبي الدنيا فى كتاب الموت من حديث صعصة بن غيلان الجعفى وهو معضل سقط منه الصحابى والتابعى

(٤) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا ورجاله ثقات .

---

(١) النساء : ١٨

« هُوَ قَدْرُ ثَلثِمائَةِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ » . [١] وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال « إِنَّ أَهْوَنَ الْمَوْتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ فَهَلْ تَخْرُجُ الْحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إِلاَّ وَمَعَهَا صُوفٌ » . [٢] ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال « إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَلْقَى. مَامِنْهُ عِرْقٌ إِلاَّ وَيَأْلَمُ لِلْمَوْتِ عَلَى حِدَتِهِ »

وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا . والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت على فراش

وقال الأوزاعي : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره

وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن . وهو أشد من نشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلي فى القدور . ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ماانتفعوا بعيش ، ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة . وإذا كان للكافر معروف لم يجز به ، هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض. وكأن نفسى تخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَوْتُ الْفَجْأَةِ رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَسَفٌ عَلَى الْفَاجِرِ » . وروي عن [٤] مكحول ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ الْمَيِّتِ وُضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث سئل عن الموت وشدته فقال ان أهون الموت بمنزلة حسكة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا

(٢) حديث دخل على مريض فقال انى لأعلم مايلقى مامنه عرق الاويألم للموت على حدته :ابن أبي الدنيافيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه فى المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات

(٣) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر :احمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولابى داود من حديث خالد السلمى موت الفجأة أخذة أسف

(٤) حديث مكحول لوان شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والارض لماتوا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى الموت من رواية أبى ميسرة رفعه وفيه لوأن ألمشعرة وزادوان فى يوم القيامة لتسعين هولاأدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وابوميسرة هو عمرو ابن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد

لأن في كل شعرة الموت، ولا يقع الموت بشيء إلا مات.

ويروى (١) لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت

وروي أن ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت ياخليلي؟ قال كسفُّود جعل في صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هوّنا عليك

وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : ياموسى كيف وجدت الموت؟ قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلّى على المقلى، لايموت فيستريح ولا ينجو فيطير . وروي عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللهمَّ هوِّنْ عَليَّ سَكَرَاتِ الْموْتِ » (٣) وفاطمة رضي الله عنها تقول : وا كرباه لكربك ياأبتاه ! وهو يقول « لاَكَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ » : وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب، حدثنا عن الموت . فقال نعم ياأمير المؤمنين : إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل، وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ ما أخذ، وأبقى ما أبقى

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُعَالِجُ كَرْبَ الْموْتِ وَسَكَرَاتِ الْموْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » : فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه، فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي! وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي ! فإن دواهي الموت ثلاث

الأولى : شدة النزع كما ذكرناه

---

(١) حديث لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم أجد له أصلا: ولعل المصنف لم يورده حديثا فانه قال ويروى

(٢) حديث انه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون علي سكرات الموت :متفق عليه من حديث عائشة

(٣) حديث ان فاطمة قالت واكرباه لكربك يأبت ـ الحديث : البخاري من حديث أنس بلفظ واكرب أبتاه وفي رواية لابن خزيمة واكرباه

(٤) حديث ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض ـ الحديث :

الداهية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ، ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته ! التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقدروي عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر . قال لاتطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني . فأعرض عنه ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود ، قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان . فغشي على ابراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى . فقال ياملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلاصورة وجهك لكان حسبه . وروى [1] أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلاً غَيُوراً وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أَغْلَقَ الأَبْوَابَ فَأَغْلَقَ ذَاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ فَأَشْرَفَتِ امْرَأَتُهُ فَإِذَا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ مَنْ أَدْخَلَ هَذَا الرَّجُلَ لَئِنْ جَاءَ دَاوُدُ لَيَلْقَيَنَّ مِنْهُ عَنَاءً فَجَاءَ دَاوُدُ فَرَآهُ فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي لاَ أَهَابُ الْمُلُوكَ وَلاَ يَمْنَعُ مِنِّي الْحِجَابُ فَقَالَ فَأَنْتَ وَاللهِ إِذاً مَلَكُ الْمَوْتِ وَزَمَّلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مَكَانَهُ »

وروي أن عيسى عليه السلام مرّ بجمجمة فضربها برجله ، فقال : تكلمي بإذن الله . فقالت ياروح الله ، أناملك زمان كذا وكذا ، بينا أناجالس فى ملكي عليّ تاجي ، وحولى جنودى وحشمى ، على سرير ملكي ، إذبدالى ملك الموت ، فزال منى كل عضو على حياله ثم خرجت نفسى إليه ، فياليت ماكان من تلك الجموع كان فرقة ، وياليت ماكان من ذلك الأنس كان وحشة . فهذه داهية يلقاها العصاة ، ويكفاها المطيعون . فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع ، دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك . ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره ، فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال

وأما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها . فقد روى عكرمة عن ابن عباس ، أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا ، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج

ورويناه فى الأربعين لأبى هدبة ابراهيم بن هدبة عن أنس وأبوهدبة هالك

(١) حديث أبي هريرة ، ان داود كان رجلا غيورا ـ الحديث : أحمد باسناد جيد نحوه . وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه

أغلقه. فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت ، فقال من أدخلك دارى ؟ فقال أدخلنيها ربها . فقال أنا ربها . فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك . فقال من أنت من الملائكة ؟ قال أنا ملك الموت . قال هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن؟ قال نعم فأعرض عنى، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله . فإن كان مطيعا قالا له . جزاك الله عنا خيرا ، فرب مجلس صدق أجلستنا ، وعمل صالح أحضرتنا . وإن كان فاجرا قالا له لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا ، وعمل غير صالح أحضرتنا ، وكلام قبيح أسمعتنا ، فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شخوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبدا

الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار ، وخوفهم قبل المشاهدة. فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم ، واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين ، إما أبشر يا عدوّ الله بالنار ، أو أبشر يا ولىّ الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الألباب . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [(١)] « لَنْ يَخْرُجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » فقالوا . كلنا نكره الموت . قال « لَيْسَ ذَاكَ بِذَاكَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا فُرِجَ لَهُ عَمَّا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ »

وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل . قم فانظر

---

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار : ابن أبي الدنيا فى الموت من رواية رجل لم يسم عن على موقوفا لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره الى الجنة أم إلى النار وفى رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم من أهل النار وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك ان المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ـ الحديث :

(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت

أي ساعة هي . فقام ابن مسعود ، ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء . فقال حذيفة . أعوذ بالله من صباح إلى النار . ودخل مروان على أبي هريرة . فقال مروان . اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة . اللهم اشدد ، ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكي حزنا على الدنيا ، ولا جزعا من فراقكم ، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار

وروي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال « إِنَّ اللهَ إِذَا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ قَالَ يَامَلَكَ الْمَوْتِ اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ فَأْتِنِي بِرُوحِهِ لِأُرِيحَهُ حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أُحِبُّ فَيَنْزِلُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبَانُ الرَّيْحَانِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةٍ سِوَى بِشَارَةِ صَاحِبِهِ وَتَقُومُ الْمَلَائِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُرُوجِ رُوحِهِ مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ » قال « فَيَقُولُ لَهُ جُنُودُهُ مَا لَكَ يَاسَيِّدَنَا فَيَقُولُ أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هَذَا الْعَبْدُ مِنَ الْكَرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ هَذَا قَالُوا قَدْ جَهَدْنَا بِهِ فَكَانَ مَعْصُوماً »

وقال الحسن : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره ، وفرحه ، وأمنه ، وعزه ، وشرفه

وقيل لجابر بن زيد عند الموت . ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى الحسن . فلما دخل عليه الحسن قيل له . هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال . يا إخوانا ، الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة . وقال محمد بن واسع عند الموت : يا إخوانا ، عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله . وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب

فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين ، وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة ، وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء ، وهو لائق بهذا الموضع ، ولكنا لا نطول بذكره وإعادته

---

(١) حديث ان الله اذا رضى على عبده قال ياملك الموت اذهب الى فلان فأتنى بروحه لأريحه ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الدارى باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللنسائي من حديث أبي هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان . الحديث :

بيان

ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون : ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى

أما الصورة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « ارْقُبُوا الْمَيِّتَ عِنْدَ ثَلَاثٍ إِذَا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبِسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ وَإِذَا غَطَّ غَطِيطَ الْمَخْنُوقِ وَاحْمَرَّ لَوْنُهُ وَأَرْبَدَتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ »

وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » وفي رواية (٣) حذيفة « فَإِنَّهَا تَهْدِمُ مَاقَبْلَهَا مِنَ الْخَطَايَا » . وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » وقال عبيد الله « وَهُوَ يَشْهَدُ »

وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة

وقال عمر رضي الله عنه . احضروا موتاكم وذكروهم ، فإنهم يرون مالا ترون ، ولقنوهم لا إله إلا الله . وقال (٥) أبو هريرة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حَضَرَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَجُلًا يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَفَكَّ لَحْيَيْهِ فَوَجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لَاصِقًا بِحَنَكِهِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَغُفِرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ »

---

(١) حديث ارقبو الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه وذرفت عيناه ـ الحديث : الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من حديث سلمان ولا يصح

(٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله : تقدم

(٣) حديث حذيفة فإنها تهدم ماقبلها : تقدم

(٤) حديث من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة : تقدم

(٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب واسناده جيد الا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني اسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ، ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض ، فيشق عليه ذلك ، ويؤدي إلى استثقاله التلقين ، وكراهيته للكلمة ، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة . وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق ، كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه . وإن كان القلب مشغوفا بالدنيا ، ملتفتا إليها ، متأسفا على لذاتها ، وكانت الكلمة على رأس اللسان ، ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول

وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء ، وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله[1] دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ قال أغرقتني ذنوب لي ، وأشرفت على هلكة ، ولكني أرجو رحمة ربي فكبّر واثلة ، وكبّر أهل البيت بتكبيره ، وقال الله أكبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ »

[2] ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت ، فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ » قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ »

وقال ثابت البناني : كان شاب به حدّة ، وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له . يابني ، إن لك يوما فاذكر يومك . فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه ، وجعلت تقول له يابني ، قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما . فقال يا أمه ، إن لي ربا كثير المعروف ، وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه . قال ثابت . فرحمه الله بحسن ظنه بربه • وقال جابر بن وداعة . كان شاب به رهق فاحتضر ، فقالت له أمه يابني توصي بشيء ؟ قال نعم خاتمي لا تسلبينيه ، فإن فيه ذكر الله تعالى ، فلعل الله يرحمني . فلما دفن رؤي في المنام فقال . أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني ، وأن الله قد غفر لي

---

(١) حديث دخل واثلة بن الاسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا

(٢) حديث دخل علي شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي ـ الحديث : تقدم

ومرض أعرابي ، فقيل له إنك تموت . فقال أين يذهب بي ؟ قالوا إلى الله قال فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يُرى الخيرُ إلا منه

وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يامعتمر ، حدثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

بيان

الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل ابراهيم عليه السلام ملك الموت ، واسمه عزرائيل ، وله عينان ، عين في وجهه ، وعين في قفاه ، فقال ياملك الموت ، ماتصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان ، كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين . وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه ، يتناول منها مايشاء . قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام : مالي لا أراك تعدل بين الناس ، تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ماأنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ فيها أسماء . وقال وهب بن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها ، فلم تعجبه ، فطلب غيرها حتى لبس ماأعجبه بعد مرات . وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب ، فركب أحسنها . فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ، فملأه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول ، وهو لا ينظر إلى الناس كبرا . فجاءه رجل رث الهيئة ، فسلم فلم يرد عليه السلام . فأخذ بلجام دابته ، فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما . قال إن لي إليك حاجة . قال أصبر حتى أنزل . قال لا الآن . فقهره على لجام دابته . فقال اذكرها . قال هو سر . فأدنى له رأسه ، فساره وقال : أنا ملك الموت . فتغير لون الملك ، واضطرب لسانه ؛ ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي ، وأقضي حاجتي ، وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا . فقبض روحه ، فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقي

عبدا مؤمنا فى تلك الحال ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال إن لى إليك حاجة أذكرها فى أذنك . فقال هات . فساره وقال : أنا ملك الموت . فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته عليّ ، فو الله ما كان فى الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك . فقال ملك الموت : اقض حاجتك التي خرجت لها . فقال مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى ، قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك ، فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إنى أمرت بذلك ، قال فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ، ثم اقبض روحى وأنا ساجد . فقبض روحه وهو ساجد

وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى : جمع رجل من بنى إسرائيل مالا ، فلما أشرف على الموت قال لبنيه : أرونى أصناف أموالى . فأتى بشىء كثير من الخيل ، والإبل ، والرقيق ، وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه . فرآه ملك الموت وهو يبكى . فقال له ما يبكيك ؟ فو الذى خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك . قال فالمهلة حتى أفرقه . قال هيهات انقطعت عنك المهلة ، فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ! فقبض روحه

وروي أن رجلا جمع مالا فأوعى ، ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذه ، وابتنى قصرا ، وجعل عليه بابين وثيقين ، وجمع عليه حرسا من غلمانه ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما ، وقعد على سرير ، ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون . فلما فرغوا قال : يا نفس أنعمى لسنين ، فقد جمعت لك ما يكفيك . فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب ، وفى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين . فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه . فوثب إليه الغلمان وقالوا : ما شأنك ؟ فقال ادعو إليّ مولاكم . فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال نعم . فأخبروه بذلك . فقال هلا فعلتم به وفعلتم : فقرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس . فقال أخبروه أنى ملك الموت . فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ، ووقع على مولاهم الذل والتخشع . فقال قولوا له قولا لينا ، وقولوا هل تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال : اصنع فى مالك ما أنت صانع ، فأنى لست بخارج منها حتى أخرج روحك . فأمر بماله حتى وضع بين يديه ، فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتني عن عبادة ربى ، ومنعتني أن أتخلى لربى . فأنطق الله المال فقال : لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بى : ويرد المتقى عن بابهم؟

وكنت تنكح المتنعمات بى ، وتجلس مجالس الملوك بى ، وتنفقنى فى سبيل الشر فلا أمتنع منك ، ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب ، فنطاق بر ، ومنطاق بإثم . ثم قبض ملك الموت روحه فسقط

وقال وهب بن منبه : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ، ما فى الأرض مثله ، ثم عرج إلى السماء ، فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض ، فأتيتها وقد ولدت مولودا ، فرحمتها لغربتها ، ورحمت ولدها لصغره وكونه فى الفلاة لامتعهد له بها فقالت الملائكة : الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته . فقال ملك الموت : سبحان اللطيف لمن يشاء

قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان ، دفع إلى ملك الموت صحيفة ، فيقال اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة . قال فإن العبد ليغرس الغراس ، وينكح الأزواج ، ويبنى البنيان ، وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى

وقال الحسن : مامن يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات ، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه ، وانقضى أجله ، قبض روحه . فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بعضادتى الباب فيقول : والله ماأكلت له رزقا ، ولا أفنيت له عمرا ، ولا انتقصت له أجلا . وإن لى فيكم لعودة بعد عودة ، حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن : فوالله لو يرون مقامه ، ويسمعون كلامه ، لذهلوا عن ميتهم ، ولبكوا على أنفسهم

وقال يزيد الرقاشى : بينما جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته ، فثار إليه فزعا مغضبا ، فقال له من أنت ؟ ومن أدخلك على دارى ؟ فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها . وأما أنا فالذى لا يمنع منى الحجاب ، ولا أستأذن على الملوك ، ولا أخاف صولة المتسلطنين ، ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ، ولا شيطان مريد . قال فسقط فى يده الجبار ، وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له ، فقال له : أنت إذاً ملك الموت . قال أنا هو . قال فهل أنت ممهلى حتى أحدث عهدا ؟ قال هيهات انقطعت مدتك ، وانقضت أنفاسك ، ونفدت ساعاتك ،

فليس إلى تأخيرك سبيل . قال فإلى أين تذهب بى ؟ قال إلى عملك الذى قدمته ؛ وإلى بيتك الذى مهدته قال فإنى لم أقدم عملا صالحا . ولم أمهد بيتا حسنا . قال فإلى لظى نزاعة للشوى. ثم قبض روحه ، فسقط ميتا بين أهله . فمن بين صارخ وباك

قال يزيد الرقاشى : لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر

وعن الأعمش ، عن خيثمة قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من هذا ؟ قال هذا ملك الموت . قال لقد رأيته ينظر إلىّ كأنه يريدنى . قال فماذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند . ففعلت الريح ذلك . ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى ، قال نعم : كنت أتعجب منه ، لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة ، وكان عندك فعجبت من ذلك

الباب الرابع

فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة .. رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا ، وفعلا وقولا . وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ، ورسوله ، ونبيه . فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان . بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن . فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره . فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب

الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا ، وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيهات ، بل امتثل ما كان به مأمورا ، واتبع ماوجده فى اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود . وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض . فالعجب أنا لانعتبر به ، ولسنا على ثقة فيما نلقاه . بل نحن أسراء الشهوات ، وقرناء المعاصى والسيآت ، فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وحبيب رب العالمين ؟ لعلنا نظن أنا مخلدون ، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات هيهات ، بل نتيقن أنا جميعا على النار واردون ، ثم لاينجو منها إلا المتقون . فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون . لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين . وقد قال الله رب العالمين (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [1])

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين . فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ماوفقوا له من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين ، فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين ، وقائد المتقين . واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ، وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى . قال [1] ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال « مَرْحَبًا بِكُمْ حَيَّاكُمُ اللهُ آوَاكُمُ اللهُ نَصَرَكُمُ اللهُ وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَأُوصِى بِكُمُ اللهَ

﴿ الباب الرابع فى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث : رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الاصبهانى لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة * قلت وقد روى من غير ماوجه رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ورويناه فى مشيخة القاضى أبى بكر الانصارى من رواية الحسن العربى عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العربى إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط

(١) مريم : ٧١ ، ٧٢

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ فِي بِلَادِهِ وَعِبَادِهِ وَقَدْ دَنَا الْأَجَلُ وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَإِلَى الْكَأْسِ الْأَوْفَى فَاقْرَءُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى مَنْ دَخَلَ فِي دِينِكُمْ بَعْدِي مِنِّي السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللهِ »

وروي(١) أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته « مَنْ لِأُمَّتِي بَعْدِي ؟ » فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته وبشّره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته. فقال « الْآنَ قَرَّتْ عَيْنِي » . وقالت(٢) عائشة رضي الله عنها أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار. ففعلنا ذلك، فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس، واستغفر لأهل أحد. ودعا لهم، وأوصى بالأنصار فقال « أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الْأَنْصَارُ لَا تَزِيدُ عَلَى هَيْئَتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ وَإِنَّ الْأَنْصَارَ عَيْبَتِي* الَّتِي آوَيْتُ إِلَيْهَا فَأَكْرِمُوا كَرِيمَهُمْ » يعني محسنهم « وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ » ثم قال « إِنَّ عَبْداً خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللهِ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ » فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وظن أنه يريد نفسه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ سُدُّوا هَذِهِ الْأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَمْراً أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصُّحْبَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ » قالت(٣) عائشة رضي الله عنها فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل عليّ أخي عبد الرحمن وبيده سواك، فجعل ينظر إليه، فعرفت أنه يعجبه ذلك، فقلت له آخذه لك ؟ فأومأ برأسه أي نعم. فناولته إياه، فأدخله في فيه،

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتي بعدي فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته ـ الحديث : الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتي المصطفاة من بعدي قال أبشر يا حبيب الله فان الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الانبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسي واسناده ضعيف

(٢) حديث عائشة أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ـ الحديث : الدارمي في مسنده وفيه ابراهيم المختار مختلف فيه عن محمد ابن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة

(٣) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت الحديث : متفق عليه

* عيبتي : خاصتي وموضع سري

فاشتد عليه . فقلت أليّنه لك ؟ فأومأ برأسه أي نعم فلينته . وكان بين يديه ركوة ماء ، فجعل يدخل فيها يده ويقول « لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ » ثم نصب يده يقول « الرَّفِيقَ الْأَعْلَى الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » فقلت إذاً والله لايختارنا

وروى [1] سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا ، أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه ، على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم . ثم دخل عليه الفضل ، فأعلمه بمثل ذلك . ثم دخل عليه عليّ رضي الله عنه ، فأعلمه بمثله . فمد يده وقال ها فتناولوه . فقال « مَا تَقُولُونَ ؟ » قالوا نقول نخشى أن تموت . وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج متوكئا على عليّ والفضل ، والعباسُ أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه ، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ الْمَوْتَ كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارٌ مِنْكُمْ لِلْمَوْتِ وَمَا تُنْكِرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ أَلَمْ أَنْعَ إِلَيْكُمْ وَتُنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثَ فَأُخَلَّدَ فِيكُمْ أَلاَ إِنِّي لاَحِقٌ بِرَبِّي وَإِنَّكُمْ لاَحِقُونَ بِهِ وَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ خَيْرًا وَأُوصِي الْمُهَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا [1]) إلى آخرها « وَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي بِإِذْنِ اللهِ فَلاَ يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ أَمْرٍ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ وَمَنْ غَالَبَ اللهَ غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللهَ خَدَعَهُ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ وَأُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ

---

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم واشفاقهم فذكر الحديث فى خروجه متوكئا معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الازور تابعي روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى

(١) العصر : ١ ، ٢ ، ٣

مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تَحْسُنُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمُ الثِّمَارَ أَلَمْ يُوَسِّعُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيَارِ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الْخَصَاصَةُ أَلاَ فَمَنْ وُلِّيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ أَلاَ وَلاَ تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ أَلاَ وَإِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لاَحِقُونَ بِي أَلاَ وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ حَوْضِي أَعْرَضُ مِمَّا بَيْنَ بُصْرَى الشَّامِ وَصَنْعَاءَ الْيَمَنِ يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابُ الْكَوْثَرِ مَاءً أَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَلْيَنَ مِنَ الزُّبْدِ وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ وَبَطْحَاؤُهُ الْمِسْكُ مَنْ حُرِمَهُ فِي الْمَوْقِفِ غَداً حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ أَلاَ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَداً فَلْيَكْفُفْ لِسَانَهُ وَيَدَهُ إِلاَّ مِمَّا يَنْبَغِي » فقال العباس : يانبي الله ، أوص بقريش . فقال « إِنَّمَا أُوصِي بِهَذَا الأَمْرِ قُرَيْشاً وَالنَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ بَرُّهُمْ لِبَرِّهِمْ وَفَاجِرُهُمْ لِفَاجِرِهِمْ فَاسْتَوْصُوا آلَ قُرَيْشٍ بِالنَّاسِ خَيْراً يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النِّعَمَ وَتُبَدِّلُ الْقِسَمَ فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَإِذَا فَجَرَ النَّاسُ عَقُّوهُمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [1])

وروى [1] ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه « سَلْ يَاأَبَا بَكْرٍ » فقال يارسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قَدْ دَنَا الأَجَلُ وَتَدَلَّى » فقال ليهنك يانبي الله ماعند الله ، فليت شعري عن منقلبنا فقال « إِلَى اللهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَالْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَالْكَأْسِ الأَوْفَى وَالرَّفِيقِ الأَعْلَى وَالْحَظِّ وَالْعَيْشِ الْمُهَنَّأ » فقال يانبي الله ، من يلي غسلك ؟ قال « رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى » قال ففيم نكفنك ؟ فقال « فِي ثِيَابِي هَذِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَانِيَّةٍ وَفِي بَيَاضِ مِصْرَ » فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى . ثم قال « مَهْلاً غَفَرَ اللهُ لَكُمْ

---

(١) حديث ابن مسعود إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر سل ياأبا بكر فقال يارسول الله دنا الأجل فقال قددنا الاجل ـ الحديث : في سؤالهم له من يلي غسلك وفيم نكفنك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدي باسناد ضعيف الى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم

---

(١) الأنعام : ١٢٩

وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا إِذَا غَسَّلْتُمُونِي وَكَفَّنْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي هَذا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ [1]) ثُمَّ يَأْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَيَّ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَيُصَلِّي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيلُ ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ مَعَ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْمَعِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَنْتُمْ فَادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا زُمْرَةً زُمْرَةً وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَلَا تُؤْذُونِي بِتَزْكِيَةٍ وَلَا صَيْحَةٍ وَلَا رَنَّةٍ وَلْيَبْدَأْ مِنْكُمُ الْإِمَامُ وَأَهْلُ بَيْتِي الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى ثُمَّ زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصِّبْيَانِ » قال فمن يدخلك القبر ؟ قال « زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِيَ الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى مَعَ مَلَائِكَةٍ كَثِيرَةٍ لَا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَكُمْ . قُومُوا فَأَدُّوا عَنِّي إِلَى مَنْ بَعْدِي » . وقال [1] عبد الله بن زمعة . جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول، فأذن بالصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر . فقلت قم ياعمر فصل بالناس ، فقام عمر ، فلما كبّر وكان رجلا صيتا. سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير ، فقال « أَيْنَ أَبُو بَكْرٍ يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ » قالها ثلاث مرات « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » فقالت عائشة رضي الله عنها ، يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، إذا قام فى مقامك غلبه البكاء. فقال « إِنَّكُنَّ صُوَيْحِبَاتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر . فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك : ويحك ماذا صنعت بى؟ والله لولا أنى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبى صلى الله عليه وسلم مروا أبابكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب الاعمر فى رجال ليس فيهم أبوبكر الحديث : أبوداود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة انأبابكر رجل رقيق الى آخره ولم يقل فى أول ربيع الأول وقال مروا من يصلى بالناس وقال يأبى الله ذلك والمؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبى قحافة يقول ذلك مغضبا وأما مافى آخره من قول عائشة ففى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يارسول الله انأبابكر رجل رقيق اذاقام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فقال انكن صواحبات يوسف مروا أبابكر فليصل بالناس

(١) الأحزاب : ٤٣

أمرك مافعلت . فيقول عبد الله : إنى لم أر أحدا أولى بذلك منك . قالت عائشة رضي الله عنها : وماقلت ذاك ولاصرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لايكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حيّ أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون إليه ، ويتشاءمون به ؛ فإذًا الأمر أمر الله ؟ والقضاء قضاؤه ، وعصمه الله من كل ماتخوفت عليه من أمر الدنيا والدين

وقالت (١) عائشة رضي الله عنها : فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأوا منه خفة فى أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينا نحن على ذلك ، لم نكن على مثل حالنا

---

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوامنه خفة فى أول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجن عنى هذا الملك يستأذن على ـ الحديث: بطوله فى مجىء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجىء جبريل ثم مجىء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم :الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف فى حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الامر وأوحى الله الى ملك الموت أن اهبط الى حبيبى وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة وارفق به فى قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه فى قبضه فقال ياملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته فى سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن ياملك الموت فانته الى ماأمرت به ـ الحديث : وفيه فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك الى أن قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهوحديث طويل فى ورقتين كبار وهومنكر وفيه عبد المنعم بن ادريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه ادريس أيضا متروك قاله الدارقطنى ورواه الطبرانى ايضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء اسماعيل وان جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لماأمرت به وهومنكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب ـ الحديث : ورواه أيضا من حديث ابن عباس فى مجىء ملك الموت أولا واستئذانه وقوله ان ربك يقرئك السلام فقال أين جبريل فقال هوقريب منى الآن يأتى فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل ـ الحديث : وفيه المختار ابن نافع منكر الحديث قاله البخارى وابن حبان

فى الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَخْرِجْنَ عَنِّي هَذَا الْمَلَكُ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ » فخرج من فى البيت غيرى ، ورأسه فى حجرى ، فجلس وتنحيت فى جانب البيت ، فناجى الملك طويلا ، ثم إنه دعانى ، فأعاد رأسه فى حجرى ، وقال للنسوة « أُدْخُلْنَ » فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَجَلْ يَاعَائِشَةُ هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ جَاءَنِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِي وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنٍ فَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لِي أَرْجِعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِي دَخَلْتُ وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِي فَمَاذَا أَمْرُكَ فَقُلْتُ أَكْفُفْ عَنِّي حَتَّى يَأْتِيَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذِهِ سَاعَةُ جِبْرِيلَ »

فقالت عائشة رضي الله عنها . فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئا ، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا . قالت وجاء جبريل فى ساعته . فسلم فعرفت حسه ، وخرج أهل البيت ، فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك ؟ وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا ؛ وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق ، وأن تكون سنة فى أمتك . فقال « أَجِدُنِي وَجِعاً » فقال : أبشر ، فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك . فقال « يَاجِبْرِيلُ إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ » وأخبره الخبر فقال جبريل . يا محمد ، إن ربك إليك مشتاق ، ألم يعلمك الذى يريد بك؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ، ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متم شرفك ، وهو إليك مشتاق . قال « فَلَا تَبْرَحْ إِذاً حَتَّى يَجِيءَ » وأذن للنساء فقال « يَافَاطِمَةُ أُدْنِي » فأكبت عليه ، فناجاها ، فرفعت رأسها وعيناها تدمع ، وما تطيق الكلام ثم قال « أُدْنِي مِنِّي رَأْسَكِ » فأكبت عليه ، فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك ، وما تطيق الكلام . فكان الذى رأينا منها عجبا . فسألتها بعد ذلك فقالت : أخبرنى وقال « إِنِّي مَيِّتٌ الْيَوْمَ » فبكيت : ثم قال « إِنِّي دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُلْحِقَكِ بِي فِي أَوَّلِ أَهْلِي وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَعِي » فضحكت ، وأدنت ابنيها منه ، فشمهما ، قالت وجاء ملك الموت ، فسلم واستأذن ، فأذن له

فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال «أَلْحِقْنِي بِرَبِّي الْآنَ» فقال بلى من يومك هذا ، أما إنه ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد عن أحد تردده عنك ، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك . وخرج . قالت وجاء جبريل فقال : السلام عليك يارسول الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا ، طوي الوحي ، وطويت الدنيا ، وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك ، ومالى فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفى . لا و الذى بعث محمدا بالحق ، مافى البيت أحد يستطيع أن يحير إليه فى ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ، ووجدنا وإشفاقنا . قالت فقمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديي ، وأمسكت بصدره ، وجعل يغمى عليه حتى يغلب ، وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق ، وما وجدت رائحة شيء أطيب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق : بأبى أنت وأمى ، ونفسي وأهلى ما تلقى جبهتك من الرشح فقال « يَاعَائِشَةُ إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ بِالرَّشْحِ وَنَفْسَ الْكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقَيْهِ كَنَفْسِ الْحِمَارِ » فعند ذلك ارتعنا ، وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي ، بعثه إلي أبى ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد . وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمي عليه قال « بَلِ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » كأن الخيرة تعاد عليه . فإذا أطاق الكلام قال « الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ إِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ مُتَمَاسِكِينَ مَاصَلَّيْتُمْ جَمِيعاً الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ » كان يوصى بها حتى مات وهو يقول « الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ »

قالت (١) عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين . قالت فاطمة رضي الله عنها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ والله لاتزال الأمة تصاب فيه بعظيمة . وقالت أم كلثوم : يوم أصيب علي كرم الله وجهه بالكوفة مثلها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه قتل علي ، وفيه قتل أبى ، فما لقيت من يوم الإثنين ؟

---

(١) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر

وقالت عائشة [1] رضي الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة ، وسجّي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الملائكةُ بثوبه ، فاختلفوا فكذّب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذّب بموته ؛ وعلي فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت . إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى ، وهو آتيكم . وفي رواية أنه قال : ياأيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت . والله لاأسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا . وأما علي فإنه أقعد فلم يبرح في البيت وأما عثمان فجعل لايكلم أحدا ، يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به . ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس ، فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبي بكر ، حتى جاء العباس فقال : والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [1])

[2] وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج ، فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه ، ثم أكب عليه فقبّله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ،

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنه وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته واخرس بعضهم فماتكلم الا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعلي فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال ان رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يمت ـ الحديث : الى قوله عند ربكم تختصمون لم أجد له أصلا وهو منكر

(٢) حديث بلغ أبابكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبي انت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث : الى آخر قوله وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية الا يومئذ : البخاري ومسلم من حديث عائشة ان أبابكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه

(١) الزمر : ٣٠ ، ٣١

ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت . قال الله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ [1]) الآية . فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفى رواية [1] أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر ، دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعيناه تهملان . وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال ، فأكب عليه ، فكشف عن وجهه ، وقبّل جبينه وخديه ، ومسح وجهه ، وجعل يبكي ويقول : بأبى أنت وأمى ، ونفسى ، وأهلى ، طبت حيا وميتا ، انقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء . وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس . ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون : فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار محالفان لا يبرحان . اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة . اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا

وعن ابن عمر ، أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى ، عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى كلما ذكر شيئا ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم يا أهل البيت (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [2]) الآية [2] إن فى الله خلفا من كل أحد

ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبى وامي أنت والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التى كتبت عليك فقدمتها ولهما من حديث ابن عباس ان أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس ـ الحديث : وفيه والله لكأن الناس لم يعلموا ان الله انزل هذه الآية تلاها أبو بكر لفظ البخارى فيهما

(١) حديث ان أبابكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه ـ الحديث : الى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا فى كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء ابوبكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه ـ الحديث : إلى آخره

(٢) حديث ابن عمر فى سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم ان فى الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) العنكبوت : ٥٧

ودركا لكل رغبة ، ونجاة من كل مخافة ، فالله فارجوا ، وبه فثقوا . فاستمعوا له وأنكروه ، وقطعوا البكاء . فلما انقطع البكاء فقد صوته ، فاطّلع أحدهم فلم ير أحدا . ثم عادوا فبكوا ، فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته ، ياأهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل رغيبة ، فالله فأطيعوا ، وبأمره فاعملوا: فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبى بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر فى الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم ، بخطبة جُلّها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال . أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلله الحمد وحده . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . اللهم فصل على محمد عبدك ، ورسولك ، ونبيك ، وحبيبك ، وأمينك ، وخيرتك ، وصفوتك ، بأفضل ماصليت به على أحد من خلقك

من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا ثم سمعوا آخر بعده ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع: لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر فى التعزية فأنكر النووى وجوده فى كتب الحديث وقال انما ذكره الاصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم فى المستدرك فى حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين فى ازار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بعضادتى باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فالى الله تعالى فانيبوا ونظره اليكم فى البلاء فانظروا فان المصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبرانى فى الاوسط واسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبى الدنيا أيضا من حديث على بن أبى طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت فسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ان فى الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا واياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال على تدرون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعى فى الام وليس فيه ذكر الخضر

اللهم واجعل صلواتك ، ومعافاتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وإمام المتقين ، محمد قائد الخير ، وإمام الخير ، ورسول الرحمة . اللهم قرّب زلفته ، وعظم برهانه ، وكرم مقامه ، وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأوّلون والآخرون، وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة ، واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة ، وبلّغه الدرجة والوسيلة فى الجنة . اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد . أيها الناس،إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لم يمت . وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا،فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرّق بينهما أنكر (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ[1]) ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم،وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه،ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال : ياعمر ، أنت الذى بلغنى أنك تقول مامات نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أماترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا . كذا وكذا ،ويوم كذا. كذا وكذا ،وقال تعالى فى كتابه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ[2]) فقال : والله لكانى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا.أشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الحديث كما حدث ،وأن الله حي لايموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ،وصلوات الله على رسوله ، وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبى بكر

وقالت عائشة رضي الله عنها . لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ماندرى كيف نغسّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا ؟ أو نغسله فى ثيابه ؟ قالت فأرسل الله عليهم النوم ، حتى مابقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما . ثم قال قائل لايدرى من هو : غسّلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه : فانتبهوا ففعلوا ذلك . فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيصه ، حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال عليّ كرم الله وجهه : أردنا خلع قيصه فنودينا لاتخلعوا عن رسول الله

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) الزمر : ٣٠

صلى الله عليه وسلم ثيابه ، فافررناه ، فغسلناه فى قيصه كما نغسل موتانا مستلقيا ، مانشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ، ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون

فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك سبدا ولالبدا إلا دفن معه . قال (١) أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها فى أكفانه . فلم يترك بعد وفاته مالا ، ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ، ولا وضع قصبة على قصبة . ففى وفاته عبرة تامة ، وللمسلمين به أسوة حسنة

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، جاءت عائشة رضي الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا ، ولكن قولى (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١)) انظروا ثوبيّ هذين ، فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك ؟ قال قد نظر إليّ طبيبي ، وقال إنى فعال لما أريد

ودخل عليه سلمان الفارسى رضي الله تعالى عنه يعوده ، فقال ياأبا بكر ، أوصنا . فقال إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذن منها إلا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو

---

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بمفرشة وقطيفة وفيه . فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة اما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه مابنى فى حياته فتقدم أيضا

---

(١) ق : ١٩

فى ذمة الله ، فلا تحقرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضي الله عنه ، فقال الناس له . استخلفت علينا فظا غليظا ، فماذا تقول لربك ؟ فقال أقول : استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه ، فجاء فقال : إنى موصيك بوصية ، اعلم أن لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل ، وأن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم . فيقول القائل أنا دون هؤلاء ، ولا أبلغ مبلغ هؤلاء . فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ، ورد عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء . وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ، ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بد لك منه . وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بد لك منه ، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة ، فقالوا ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا ، فإنا نراك لما بك . فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات ، جعل الله روحه فى الأفق المبين . قالوا وما الأفق المبين ؟ قال قاع بين يدي العرش ، فيه رياض الله ، وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مائة رحمة . فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان . اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين ، فريقا للنعيم ، وفريقا للسعير . فاجعلنى للنعيم ، ولا تجعلنى للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا ، وميزتهم قبل أن تخلقهم ، فجعلت منهم شقيا وسعيدا ، وغويا ورشيدا ، فلا تشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ماتكسب كل نفس قبل أن تخلقها ، فلا محيص لها مما علمت

فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لايشاء حتى تشاء ؛ فاجعل مشيئتك أن أشاء مايقربني إليك . اللهم إنك قد قدّرت حركات العباد ، فلا يتحرك شيء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر ، وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلني من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار ، وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال ، وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور ، وجعلت مصيرها إليك ، فأحيني بعد الموت حياة طيبة ، وقربني إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أصيب عمر ، ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأي خللا قال استووا ، حتى إذا لم يرفيهم خللا تقدم فكبر . قال وربما قرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس . فما هو إلا أن كبر ، فسمعته يقول : قتلني أو أكلني الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة . وطار العلج بسكين ذات طرفين ، لايمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا . فمات منهم تسعة . وفي رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من من المسلمين طرح عليه بُرنسا . فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضي الله عنه عبدالرحمن بن عوف فقدّمه . فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت . وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر ، غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس ، انظر من قتلني قال فغاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبة . فقال عمر رضي الله عنه ، قاتله الله ، لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم . قد كنت

أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة . وكان العباس أكثرهم رقيقا . فقال ابن عباس: إن شئت فعلت . أى إن شئت قتلناهم . قال بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ، وحجوا حجكم ، فاحتمل إلى بيته ، فانطلقنا معه . قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . قال فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس .فأتي*بنبيذ فشرب منه ، فخرج من جوفه . ثم أتي بلبن فشرب منه ، فخرج من جوفه . فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا علي ولا لى . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال ردوا علي الغلام . فقال ياابن أخى ، ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك . ثم قال : ياعبد الله انظر ماعليّ من الدين . فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه . فقال إن وفى به مال آل عمر فأدّه من أموالهم ، وإلا فسل فى بنى عدي بن كعب ، فأن لم تف أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدهم إلى غيرهم وأدّ عنى هذا المال . انطلق إلى أم المؤمنين عائشة ، فقل عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين . فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرا . وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى . فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه اليوم على نفسى . فلما أقبل قيل هـذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه ، فقال مالديك ؟ قال الذى تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت . قال: الحمدلله ، ما كان شيء أهم إليّ من ذلك ، فإذا أنا قبضت فاحملونى ، ثم سلّم وقل :يستأذن عمر . فإن أذنت لى فأدخلونى ، وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة . واستأذن الرجال ، فولجت داخلا ، فسمعنا بكاءها من داخل . فقالوا أوص ياأمير المؤمنين واستخلف . فقال ماأرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . فسمى عليا ، وعثمان ، والزبير ،

* النبيذ : شراب من التمر غير مسكر

وطلحة ، وسعدا ، وعبد الرحمن . وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له . فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك ، وإلا فليستعن به أيكم أمّر ، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ، ويحفظ لهم حرمتهم . وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيرا ، فإنهم ردء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدوّ ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم. وأوصيه بالأعراب خيرا ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل لهم من ورائهم، ولا يكلفهم إلا طاقتهم

قال فلما قبض خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر وقال : يستأذن عمر بن الخطاب. فقالت أدخلوه . فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه الحديث

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال [1] «قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَبْكِ الْإِسْلَامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ » . وعن [2] ابن عباس قال: وضع عمر على سريره ، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع ، وأنا فيهم ، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي ، فالتفت فإذا هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال : ماخلفت أحدا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك . وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك ، وذلك أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ » فإني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما

---

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر :أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث ابي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكنفه الناس يدعون ويصلي فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر الحديث:متفق عليه

وفاة .. عثمان رضى الله عنه

الحديث فى قتله مشهور . وقد قال عبد الله بن سلام : أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة، وهي خوخة فى البيت فقال يا عثمان ، حصروك . قلت نعم . قال عطشوك ، قلت نعم . فأدلى إلي دلوا فيه ماء ، فشربت حتى رويت ، حتى أنى لأجد برده بين ثديى وبين كتفى ، وقال لى . إن شئت نصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا . فاخترت أن أفطر عنده . فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح ، ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا . قال والذى نفسى بيده ، لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة

وعن (١) ثمامة بن حزن القشيري قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه ، فقال ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم علي . قال فجيء بهما كأنما هما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال : أنشدكم بالله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ، فقال « مَنْ يَشْتَرِى رُومَةَ يَجْعَلْ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم . قال أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَشْتَرِى بُقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدُهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ، ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال « اسْكُنْ ثَبِيرُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » قالوا اللهم نعم . قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيرى شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ـ الحديث : الترمذى وقال حسن والنسائى

وروي عن شيخ من ضبّة : أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أستعديك عليهم ، واستعينك على جميع أموري ، وأسألك الصبر على ما ابتليتني

وفـاة .. علي كرم الله وجهه

قال الأصبغ الحنظلي : لما كانت الليلة التي أصيب فيها عليّ كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة ، وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة ؛ فقام عليّ يمشي وهو يقول :

أشدد حيا زيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير ، شد عليه ابن ملجم فضربه ، فخرجت أم كلثوم ابنة عليّ رضي الله عنـه ، فجعلت تقول : مالي ولصلاة الغداة ؟ قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة ، وقتل أبي صلاة الغداة. وعن شيخ من قريش؛ أن عليا كرم الله وجهه. لما ضربه ابن ملجم، قال فزتُ ورب الكعبة . وعن محمد بن علي ، أنه لما ضرب أوصى بنيه، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، دخل عليه الحسين رضي الله عنه ، فقال يا أخي لأي شيء تجزع ؟ تقدمُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى عليّ بن أبي طالب ؛ وهما أبواك ، وعلى خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر ، وهما عماك. قال يا أخي ، أقدم على أمر لم أقدم على مثله

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال : لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه ، وأيقن أنهم قاتلوه ، قام فى أصحابه خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون ، وإن الدنيا قد تغيرت ، وتنكرت ، وأدبر معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء . ألا خسيس من عيش كالمرعى الوبيل . ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه . ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا جرما

الباب الخامس

فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى . فأقعد ، فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ، ثم بكى وقال : تذكر ربك يامعاوية بعد الهرم والانحطاط ، ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ! وبكى حتى علا بكاؤه وقال : يارب ارحم الشيخ العاصى ، ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة ، واغفر الزلة ، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش ، أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه ، فرأوا فى جلده غضونا . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ماجربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا ، وباستلذاذنا بعيشنا ، فمالبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال ، وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا ، واستلأمت إلينا . أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار

ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس ، إنى من زرع قد استحصد ، وإنى قد وليتكم ، ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان من قبلى خيرا منى . ويايزيد ، إذا وفى أجلى فول غسلى رجلا لبيبا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير . ثم أعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقراضة من شعره وأظفاره ، فاستودع القراضة أنفى ، وفمى ، وأذنى ، وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى . ويايزيد ، احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ، ووضعتمونى فى حفرتى ، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين .

وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال : ياليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى ، وأنى لم أل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة ، نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئا . فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون مانحن فيه ، وإذا حضرنا

الموت لم تمن ماهم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه . كيف تجدك ياأمير المؤمنين ؟ قال أجدنى كما قال الله تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ [١]) الآية ، ومات

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، امرأة عمر بن عبد العزيز . كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتى ولوساعة من نهار . فلما كان اليوم الذى قبض فيه ، خرجت من عنده ، فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب ، وهو فى قبة له فسمعته يقول (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [٢]) ثم هدأ ، فجعلت لاأسمع له حركة ولا كلاما ، فقلت لوصيف له : انظر أنائم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت وقيل لما حضره الموت : أعهد ياأمير المؤمنين ؟ قال أحذركم مثل مصرعى هذا ، فإنه لابد لكم منه

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب ، فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم . ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره وقال . ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم . قال الطبيب : هل أحسست بذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال فتعالج ياأمير المؤمنين ، فإنى أخاف أن تذهب نفسك . قال ربى خير مذهوب إليه . والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذنى مارفعت يدى إلى أذنى فتناولته . اللهم خر لعمر فى لقائك . فلم يلبث إلا أياما حتى مات

وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ياأمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا ، وأظهر بك عدلا . فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لاتقوم بحجتها بين يدي الله ، إلا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات

ولما قرب وقت موته قال : أجلسونى . فأجلسوه فقال أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ؟ ثلاث مرات ولكن لاإله إلاالله . ثم رفع رأسه فأحد النظر ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى لأرى خضرة ماهم بإنس ولا جن . ثم قبض رحمه الله

---

(١) الانعام : ٩٤ (٢) القصص : ٨٣

وحكي عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [1]

وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه، وكان يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه

وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمري هكذا قصير مافعلت

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته ، فقيل له لا بأس عليك ياأمير المؤمنين . فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة، وقد نظر إلى صناديق لبنيه. من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لي ، فإن الناس يقولون إنك لاتغفر لي . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ، ويغبطه عليها . ولما حكي ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل نعم . قال عسى .

بيان

أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضر معاذا رضي الله عنه الوفاة قال . اللهم إني قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . ولما اشتد به النزع ، ونزع نزعا لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : رب ماأخنقني خنقك ، فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك

[1] ولما حضرت سلمان الوفاة بكى ، فقيل له مايبكيك ؟ قال ماأبكي جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب . فلما مات سلمان نظر في جميع ماترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما

---

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب : أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم

(١) الحاقة ٢٨ ، ٢٩

ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزناه . فقال : بل واطرباه ، غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه . وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ [1]) . ولما حضر ابراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له مايبكيك؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار

ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى ، فقيل له مايبكيك؟ فقال : والله ماأبكي لذنب أعلم أني أتيته ، ولكن أخاف أني أتيت شيئا حسبته هينا وهو عند الله عظيم

ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى، فقيل له مايبكيك؟ قال ماأبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا، ولكن أبكي على مايفوتني من ظمأ الهواجر، وعلى قيام الليل في الشتاء

ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه واقلة زاداه

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر فقال له مايبكيك ؟ قال ذكرت ماكنت فيه من النعيم ، وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت ، فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء ، وأن يميتني موت الفقراء . ثم قال له : لقني ، ولا تعد علي مالم أتكلم بكلام ثان

وقال عطاء بن يسار : تبدى ابليس لرجل عند الموت، فقال له نجوت فقال ما أمنك بعد

وبكى بعضهم عند الموت ، فقيل له مايبكيك ؟ قال آية في كتاب الله تعالى ، قوله عز وجل (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [2])

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال : إن امرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله

وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال نزعه ، وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرءان ، فختم فقلت له في هذه الحالة ياأبا القاسم ؟ فقال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي

وقال رويم : حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول :

(١) الصافات : ٦١ (٢) المائدة : ٢٧

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى الشكر
همو مُهمو جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد . إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت . فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا : وقيل لذى النون عند موته ما تشتهى ؟ قال أن أعرفه قبل موتى بلحظة

وقيل لبعضهم وهو فى النزع . قل الله . فقال إلى متى تقولون الله ، وأنا محترق بالله

وقال بعضهم . كنت عند ممشاد الدينورى ، فقدم فقير وقال . السلام عليكم ، هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال فأشاروا إليه بمكان ، وكان ثمّ عين ماء ، فجدد الفقير الوضوء ، وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ، ومدّ رجليه ، ومات

وكان أبو العباس الدينورى يتكلم فى مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا ، فقال لها موتى فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت . قد متّ . ووقعت ميتة

ويحكى عن فاطمة أخت أبى على الروزبارى قالت . لما قرب أجل أبى علي الروزبارى وكان رأسه فى حجرى ، فتح عينيه وقال . هذه أبواب السماء قد فتحت ، وهذه الجنان قد زينت ، وهذا قائل يقول . ياأبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى ، وإن لم تردها. ثم أنشأ يقول

وحقك لا نظرت إلى سواكا ... بعين مودّة حتى أراكا
أراك معذبى بفتور لحظ ... وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد قل لا إله إلا الله . فقال مانسيته فأذكره

وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ، ما الذى رأيت منه ؟ فقال : قال عليّ درهم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف ، فما على قلبي شغل أعظم منه . ثم قال : وضئنى للصلاة ، ففعلت ، فنسيت تخليل لحيته ، وقد أمسك على لسانه ، فقبض على يدى وأدخلها فى لحيته ، ثم مات . فبكى جعفر وقال : ما تقولون فى رجل لم يفته فى آخر عمره أدب من آداب الشريعة . وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر : وكان يشق عليه : كأنك

تحب الحياة ؟ فقال : القدوم على الله شديد

وقيل لصالح بن مسمار : ألا توصي بابنك وعيالك ؟ فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره . ولما احتضر أبو سليمان الداراني ، أتاه أصحابه فقالوا : أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم ؛ فقال لهم : ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير، ويعاقبك بالكبير . ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له : أوصنا . فقال احفظوا مراد الحق فيكم . واحتضر بعضهم ، فبكت امرأته ، فقال لها ما يبكيك؟ فقالت عليك أبكي فقال : . إن كنت باكية فابكي على نفسك ، فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة

وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته ، فقلت كيف تجدك؟ فأنشأ يقول

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروّحه فقال : كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق ! ثم أنشأ يقول

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب إن يك شيء فيه لي فرج فامنن عليّ به ما دام بي رمق

وحكي أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت ، فقالوا له : قل لا إله إلا الله . فأنشأ يقول

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكي أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال : اعذرني فإني كنت في وردي . ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات

وقيل للكتاني لما حضرته الوفاة ما كان عملك ؟ فقال لولم يقرب أجلي ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبي أربعين سنة ، فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه

وحكي عن المعتمر قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ، فذكرت محاسنه ، فأفاق فقال : من المتكلم ؟

فقلت أنا . فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لى : إنى بكل سخى رفيق ، ثم طفىء
ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة ، شهده حذيفة فوجده قلقا . فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال يا أبا عبد الله ، وكيف لا أقلق ولا أجزع وإنى لا أعلم أنى صدقت الله فى شيء من عملى ! فقال حذيفة : واعجباه لهذا الرجل الصالح ، يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله فى شيء من عمله

وعن المغازلى قال . دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفة وهو عليل ، وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد ، فارفق بى . ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له . فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء ، فضحك ثم قال . منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى

وقيل لرويم عند الموت . قل لا إله إلا الله . فقال لا أحسن غيره

ولما حضر الثوري الوفاة قيل له . قل لا إله إلا الله . فقال أليس ثم أمر

ودخل المزنى على الشافعي رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفي فيه ، فقال له . كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملى ملاقيا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها . ثم أنشأ يقول

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة ، سئل عن مسألة . فدمعت عيناه وقال يا بني ، باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة ، هو ذا يفتح الساعة لى ، لا أدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ، فأنى لى أوان الجواب . فهذه أقاويلهم . وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف ، وعلى بعضهم الرجاء ، وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم

الباب السادس

في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لاتزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولايحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون ،أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون ، ولايتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم ، وانقرض على القرب زمانهم . فلاينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها على القرب ، وكأن قد ، ولعله في غد أو بعد غد ؛ ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذارأى جنازة قال . امضوا فإنّا على الأثر

وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال . اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة ، يذهب الأوّل والآخرُ لاعقل له . وقال أسيد بن حضير . ماشهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ماهو مفعول به وما هو صائر إليه

ولما مات أخو مالك بن دينار . خرج مالك في جنازته يبكي ويقول : والله لاتقرّ عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولاأعلم مادمت حيا . وقال الأعمش . كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزّي لحزن الجميع

وقال ثابت البناني . كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا

فهكذا كان خوفهم من الموت ، والآن لاننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ماخلّفه ، ولا يتفكر واحد منهم إلا ماشاء الله في جنازة نفسه ، وفي حاله إذا حمل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليومَ الآخر ، والأهوال التي بين أيدينا ، فصرنا نلهو ، و نغفل ، ونشتغل بما لا يعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة ، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لاعلى الميت

نظر ابراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت ، فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة . وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق

وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء . جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعرا ، فأطلعت جنازة فأمسك وقال . شيبتني والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه ، والاستعداد ، والمشي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه

ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة مخطرة لاتدرى حقيقتها . ولذلك روي عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى فى قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله ياأبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفّرت وجهك بالسجود . وإن قالوا مذنب وذو خطايا ، فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا ؟ . ويحكى أن رجلا من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته ، إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه . فاستأجرت حمالين ، وحملتها إلى المصلى ، فما صلى عليه أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ، ثم قصد أن يصلى عليها . فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد ؛ فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه ، فقال قيل لى فى المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلّ عليه فإنه مغفور له . فزاد تعجب الناس ، فاستدعى الزاهد امرأته ، وسألها عن حاله ، وأنه كيف كانت سيرته . قالت كما عُرف ، كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر . فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت نعم ، ثلاثة أشياء . كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ، ويتوضأ ، ويصلى الصبح فى جماعة ، ثم يعود إلى الماخور ، ويشتغل بالفسق والثانى أنه كان أبدا لايخلو بيته من يتيم أو يتيمين ، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . والثالث أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل

فيبكي ويقول يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الشيث ؟ يعني نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره

وعن صلة بن أشيم ، وقد دفن أخ له ، فقال على قبره

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة   وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

بيان

حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال [1] الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال « مَنْ لَمْ يَنْسَ الْقَبْرَ وَالْبِلَى وَتَرَكَ فَضْلَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى وَلَمْ يَعُدَّ غَداً مِنْ أَيَّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ » . وقيل لعلي كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال إنى أجدهم خير جيران ، إنى أجدهم جيران صدق ، يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « مَارَأَيْتُ مَنْظَراً إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ »

وقال [3] عمر بن الخطاب رضي الله عنه . خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر ، فجلس إلى قبر ،وكنت أدنى القوم منه ،فبكى وبكيت وبكوا ،فقال « مَا يُبْكِيكُمْ ؟» قلنا بكينا لبكائك قال « هَذَا قَبْرُ أُمِّى آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّى فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَأَبَى عَلَيَّ فَأَدْرَكَنِي مَايُدْرِكُ الْوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ »

وكان [4] عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسئل

﴿ الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ﴾

(١) حديث الضحاك قال رجل يارسول الله من ازهد الناس قال من لم ينس القبور والبلى ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث مارايت منظرا الا والقبر افظع منه : تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة

(٣) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم الحديث : وفيه هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ـ الحديث : وتقدم فى آداب الصحبة ايضا ورواه ابن أبي الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه ايوب بن هانئ ضعفه ابن معين وقال ابوحاتم صالح

(٤) حديث عثمان كان اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه ان القبر أول منازل الآخرة : الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة

عن ذلك وقيل له . تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي إذا وقفت قبر ! فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ »

وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة ، فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه ! فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه ، فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد : أول مايكلم ابن آدم حفرته فتقول . أنا بيت الدود وبيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة . هذا ماأعددت لك ، فما أعددت لى ؟

وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى ؟ يوم أوضع فى قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك . فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى ، وإذا قمت لم يغتابونى

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول . يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لاتجيبونى ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى ، وكأنى بى أكون مثلهم . ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر ، وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه ! يافلان ، لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ، ويجرى فيه الصديد ، وتخترقه الديدان مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه . وكان يزيد الرقاشى يقول : أيها المقبور فى حفرته ، والمتخلى فى القبر بوحدته ، المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ، ليت شعرى بأي أعمالك استبشرت ، وبأى إخوانك اغتبطت . ثم يبكى حتي يبل عمامته ، ثم يقول . استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى . وكان إذا نظر إلى القبور خاركما يخور الثور

وقال حاتم الأصم . من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يدع لهم ، فقد خان نفسه وخانهم

وكان بكر العابد يقول : ياأماه ، ليتك كنت بى عقيما ، إن لابنك فى القبر حبسا طويلا ، ومن بعد ذلك منه رحيلا . وقال يحيي يابن معاذ : ابن آدم ، دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه . إن أجبته من دنياك ، واشتغلت بالرحلة إليه

دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ماأحسن ظواهرك ، إنما الدواهي في بواطنك

وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : ياأهل القبور ، متّم فواموتاه ، وعاينتم أعمالكم فوا عملاه . ثم يقول : غدا عطاء في القبور ، غدا عطاء في القبور . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح . وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجدَه روضة من رياض الجنة ؛ ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار

وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرا ، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ، ثم يقول (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ [1]) يرددها ، ثم يرد على نفسه ، ياربيع ، قد رجعتك فاعمل

وقال أحمد بن حرب . تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ، ويسوّى فراشه للنوم فتقول : ياابن آدم ، لم لا تذكر طول بلاك ومابيني وبينك شيء ؟

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل عليّ فقال : ياميمون ، هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلى ، وأصابت الهوام مقيلا في أبدانهم . ثم بكى وقال : والله ماأعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله . وقال ثابت البناني : دخلت المقابر ، فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : ياثابت ، لايغرنك صموت أهلها ، فكم من نفس مغمومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة ، فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا مافقدوا ؟

---

(1) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠

فيمموا من الجانب الآخر ، بل يئسوا فانقلبوا .

وقال أبو موسى التميمى : توفيت امرأة الفرزدق ، فخرج فى جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن . فقال له الحسن : ياأبا فراس ، ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافنى ... أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد ... عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا فى أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها ... مَن منكم المغمور فى ظلماتها
ومَن المكرّم منكم فى قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد ... لايستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة ... يفضى إلى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب ... فى حفرة يأوى إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... فى شدة التعذيب من لدغاتها

ومرّ داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها ... إذا كنت فى القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى ... وأنت بيمناك قد وسّدوكا

ثم قالت: ياابناه، ليت شعرى بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشيا عليه

وقال مالك بن دينار . مررت بالمقبرة فانشأتُ أقول :

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخر

قال . فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلي عن أناس مضوا ... أمالك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باكٍ

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر .

تناجيك أجداث وهن صموت ... وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغـــير بلاغه ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا

أيا غانم أما ذراك فواسع ... وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره ... إذا كان فيه جسمه يتهـــدم

وقال ابن السماك : مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب .

يمر أقاربي جنبات قبري ... كأن أقاربي لم يعـــرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالى ... وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا ... فيــالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوبا

إن الحبيب من الأحباب مختلس ... لايمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يامن يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت ياغافلا في النقص منغمسا ... وأنت دهرك في اللذات منغمس
لايرحم الموت ذا جهل لغرته ... ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لسانا مابه خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت ... قبورهم كأفراس الرهـــان
فلمــا أن بكيت وفاض دمعي ... رأت عينــاي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل　　قد صار لقمان إلى رمسه
فأين مايوصف من طبّه　　وحذقه فى الماء مع جسّه
هيهات لايدفع عن غيره　　من كان لايدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا

يا أيها الناس كان لى أمل　　قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق اللهَ ربه رجل　　أمكنه فى حياته العمل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى　　كل إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت ، والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم ، فيستعد للّحوق بهم ، ويعلم أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم . وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمال ، وانكشفت لهم حقائق الأمور . فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصّر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه ، فحسرتهم على ساعة من الحياة ، وأنت قادر على تلك الساعة ، وأملك تقدر على أمثالها ، ثم أنت مضيع لها . فوطّن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار ، إذلم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لى فى الله فيما يرى النائم ، فقلت يافلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال لأن أقدر على أن أقولها ، يعنى الحمد لله رب العالمين ، أحب إليّ من الدنيا ومافيها . ثم قال : ألم تر حيث كانوا يدفنوننى ، فإن فلانا قد قام فصلى ركعتين ، لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليّ من الدنيا ومافيها

بيان

أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه ، أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر ، فسبقه الولد إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه ، فإنه لايعظم عليه تأسفه

لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر. وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن، إلى أن يلحق المتأخر. وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه، لاسيما وقد ورد في موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَأَنْ أُقَدِّمَ سَقْطاً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخَلِّفَ مِائَةَ فَارِسٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ » وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب

وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام، فحزن عليه حزنا شديدا، فقيل له: ماكان عدله عندك؟ قال ملء الأرض ذهبا. قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَيَحْتَسِبُهُمْ إِلَّا كَانُوا لَهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ» فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان؟ قال « أَوِ اثْنَانِ »

وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت، فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة. ووقف محمد ابن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له، وأخافك عليه، فحقق رجائي وآمن خوفي. ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد غفرت له ماوجب لي عليه، فاغفر له ماوجب لك عليه، فإنك أجود وأكرم.

ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ماقصر فيه من بري، فهب له ماقصر فيه من طاعتك.

ولما مات ذر بن عمر بن ذر، قال أبوه عمر بن ذر بعد ماوضعه في لحده فقال: ياذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم قال: اللهم إن هذا ذر، متعتني به مامتعتني، ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه. اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس، ثم قال عند انصرافه: ماعلينا بعدك من خصاصة ياذر

---

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب الي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله: لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب الي من فارس اخلفه خلفي

(٢) حديث لايموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم ـ الحديث: تقدم في النكاح

وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ، ولو أقمنا ما نفعناك

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة ، وما ذاك إلا من قلة الحزن . فقالت يا عبد الله ، إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد . قال فكيف ؟ قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى ، وكان لي صبيان مليحان يلعبان ، فقال أكبرهما للآخر . أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة ؟ قال نعم . فأخذه وذبحه ، وما شعرنا به إلا متشحطا في دمه . فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل ، فرهقه ذئب فأكله ، وخرج أبوه يطلبه ، فمات عطشا من شدة الحر . قالت فأفردني الدهر كما ترى

فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها ، وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر

بيان

زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار . وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد : روي عن علي رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] أنه قال « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الآخِرَةَ غَيْرَ أَنْ لاَ تَقُولُوا هُجْرًا » [3] وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع ، فلم ير باكيا أكثر من يومئذ [4] وفي هذا اليوم قال « أُذِنَ لِي فِي الزِّيَارَةِ دُونَ الاسْتِغْفَارِ »

---

(١) حديث نهيه عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك : مسلم من حديث بريدة وقد تقدم

(٢) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا : رواه أحمد وابو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى غير ان لا تقولوا هجرا وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات

(٣) حديث زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ : ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه انه لم يؤذن له في الاستغفار لها

(٤) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار : تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة

كما أوردنا من قبل . وقال (١) ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر ، فقلت ياأم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن . فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها

ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن الهجر على رءوس المقابر ، فلا يفي خير زيارتهن بشرها ، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم ، والزيارة سنة ، فكيف يحتمل ذلك لأجلها ؟ نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها ، وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء ، وترك الحديث على رأس القبر . وقال (٢) أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرِ الْقُبُورَ تَذْكُرْ بِهَا الآخِرَةَ وَاغْسِلِ الْمَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ وَصَلِّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللهِ »

وقال ابن أبي مليكة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « زُورُوا مَوْتَاكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِبْرَةً »

وعن نافع ، أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ

ا هلم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي

(١) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت ياأم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها : ابن أبي الدنيا في القبور باسناد جيد

(٢) حديث أبي ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم باسناد جيد

(٣) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا واسناده حسن

(٤) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفرله وكتب برا : الطبراني في الصغير والاوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد

غُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بَرًّا » . وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالِدَاهُ وَهُوَ عَاقٌّ لَهُمَا فَيَدْعُو اللهَ لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا فَيَكْتُبُهُ اللهُ مِنَ الْبَارِّينَ » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ مُحْتَسِباً كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال كعب الأحبار . ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم ، فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه .

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة ، مستقبلا بوجهه الميت ، وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ، ولا يمسه ، ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى قال نافع : كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر ، يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي السلام على أبي بكر . السلام على أبي ، وينصرف

وعن أبي أمامة قال : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف ، فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف

وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] « مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إِلاَّ اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ »

وقال سليمان بن سحيم ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت يا رسول الله ، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك ، أتفقه سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم

ابن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك

(١) حديث ابن سيرين أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين : ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الاسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبة ابن أبي العيزار عن محمد بن حجادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن حجادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف

(٢) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي : تقدم في أسرار الحج

(٣) حديث من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة : تقدم فيه

(٤) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم : ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الاشبيلي

وقال أبو هريرة . إذا مرّ الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلّم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذامرّ بقبر لايعرفه وسلّم عليه ، رد عليه السلام

وقال رجل من آل عاصم الجحدرى : رأيت عاصماً فى منامى بعد موته بسنتين ، فقلت أليس قد متّ ؟ قال بلى . فقلت أين أنت ؟ فقال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى ، فنتلاقى أخباركم . قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم نعلم بها عشيّة الجمعة ، ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها . قال لفضل يوم الجمعة وعظمه

وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة ، فقيل له لو أخرت إلى يوم الإثنين . قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ، ويوما قبله ، ويوماً بعده

وقال الضحاك : من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته . قيل وكيف ذاك ، قال لمكان يوم الجمعة

وقال بشر بن منصور . لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال . آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل الله حسناتكم . لايزيد على هذه الكلمات . قال الرجل . فأمسيت ذات ليلة ، فانصرفت إلى أهلى ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم ، إذا بخلق كثير قد جاءونى ، فقلت ما أنتم ، وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر قلت ماجاء بكم ، قالوا : إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك . قلت وماهي؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعو لنا بها . قلت فإنى أعود لذلك . فما تركتها بعد ذلك

وقال بشار بن غالب النجرانى : رأيت رابعة العدوية العابدة فى منامى ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير قلت : وكيف ذاك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتي به الميت ، فقيل له هذه

هدية فلان إليك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] « مَا الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا كَالْغَرِيقِ الْمُتَغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ فَإِذَا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَإِنَّ هَدَايَا الْأَحْيَاءِ لِلْأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالاسْتِغْفَارُ »

وقال بعضهم : مات أخ لي ، فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟ قال أتاني آت بشهاب من نار ، فلولا أن داعيا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له . قال[٢] سعيد بن عبد الله الأزدي : شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع ، فقال ياسعيد ، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَسَوَّيْتُمْ عَلَيْهِ التُّرَابَ فَلْيَقُمْ أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ يَافُلَانُ ابْنُ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَلَا يُجِيبُ ثُمَّ لِيَقُلْ يَافُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ الثَّانِيَةَ فَإِنَّهُ يَسْتَوِي قَاعِدًا ثُمَّ لِيَقُلْ يَافُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ الثَّالِثَةَ فَإِنَّهُ يَقُولُ أَرْشِدْنَا يَرْحَمُكَ اللهُ وَلَكِنْ لَا تَسْمَعُونَ فَيَقُولُ لَهُ اذْكُرْ مَا خَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَأَنَّكَ رَضِيتَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا فَإِنَّ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا يَتَأَخَّرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَيَقُولُ انْطَلِقْ بِنَا مَا يُقْعِدُنَا عِنْدَ هَذَا وَقَدْ لُقِّنَ حُجَّتَهُ وَيَكُونُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَجِيجَهُ دُونَهُمَا » فقال رجل يارسول الله ، فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال فلينسبه إلى حواء

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روي عن علي بن موسى الحداد قال : كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ، ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل

---

(١) حديث ماالميت في قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعودة تلحقه من أبيه أومن أخيه أوصديق له الحديث : أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي ابن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل

(٢) حديث سعيد بن عبد الله الازدي قال شهدت أبا أمامة الباهلي ـ وهو في النزع فقال ياسعيد اذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال اذامات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة ـ الحديث : في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا بإسناد ضعيف

ضرير يقرأ عند القبر، فقال له أحمد: ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد: ياأبا عبد الله، ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي؟ قال ثقة. قال هل كتبت عنه شيئا؟ قال نعم. قال أخبرني مبشر بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج، عن أبيه، أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها. وقال: سمعت ابن عمر يوصى بذلك. فقال له أحمد. فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد بن أحمد المروزى. سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة، فنزلت الخندق، فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسى على قبر فنمت، ثم تنبهت، فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: لقد آذيتنى منذ الليلة، ثم قال: إنكم لاتعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل، ثم قال: للركعتان اللتان ركعتهما خيرٌ من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا، اقرئهم السلام، فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت، ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور فى قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه، وكيف يبعث من قبره، وأنه على القرب سيلحق به، كما روي عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال. كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة، فكان إذا جاء الليل تحزّمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور. فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة إتيانها المقابر فقالت: إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإنى لآتى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة، وإلى تلك الأجسام المتغيرة، وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس، وأشد تلفها للأبدان. بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز، حيث دخل عليه فقيه، فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة، فقال له يافلان، لو رأيتني

بعد ثلاث وقد أدخلت قبري ، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين ، وتقلصت الشفتان عن الاسنان ، وخرج الصديد من الفم ، وانفتح الفم ، ونتأ البطن فعلا الصدر ، وخرج الصلب من الدبر ، وخرج الدودو الصديد من المناخر ، لرأيت أعجب مما تراه الآن

ويستحب الثناء على الميت ، وألا يذكر إلا بالجميل . قالت عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلَا تَقَعُوا فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « لَا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَأْثَمُوا وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَحَسْبُهُمْ مَا هُمْ فِيهِ »

وقال (٤) أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأثنوا عليها شرا ، فقال عليه السلام « وَجَبَتْ » ومروا بأخرى ، فأثنوا عليها خيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَجَبَتْ » فسأله عمر عن ذلك فقال « إِنَّ هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ »

وقال (٥) أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَمُوتُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ الْقَوْمُ الثَّنَاءَ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عَبِيدِي عَلَى عَبْدِي وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عَبْدِي »

---

(١) حديث إذامات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه : أبوداود من حديث عائشة باسناد جيد

(٢) حديث لاتسبوا الأموات فانهم قدأفضوا الى ماقدموا : البخارى من حديث عائشة ايضا

(٣) حديث لاتذكروا موتاكم الابخير ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصرا على ماذكر منه هنا بلفظ هلكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى

(٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاثنوا عليها شرا فقال وجبت . الحديث : متفق عليه

(٥) حديث أبي هريرة ان العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك ـ الحديث : أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عزوجل مامن عبد مسلم يموت فيشهدله ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير الاقال الله عزوجل قدقبلت شهادة عبادي على ماعلموا وغفرت له ماأعلم

الباب السابع

في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان

حقيقة الموت

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطؤا فيها . فظن بعضهم أن الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأي الملحدين . وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر

وظن قوم أنه ينعدم بالموت ، ولا يتألم بعقاب ، ولا يتنعم بثواب مادام في القبر ، إلى أن يعاد في وقت الحشر

وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذي تشهد له طرق الاعتبار ، وتنطق به الآيات والأخبار ، أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى أنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن ، والغم ، والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده

وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ، وبشدة

تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة ، العاقلة ، المدركة ، باقية مستعملة لبعض الأعضاء ، وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات ، والروح هي المستعملة لهــا : وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم ، وآلام الغموم ، ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لايموت ، أي لاينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آله مستعملة . فالموت زمانة مطلقة فى الأعضاء كلها . وحقيقة الإنسان نفسه وروحه ، وهي باقية . نعم تغير حاله من جهتين .

إحداهما : أنه سلب منه عينه ، وأذنه ، ولسانه ، ويده ، ورجله ، وجميع أعضائه . وسلب منه أهله ، وولده ، وأقاربه ، وسائر معارفه : وسلب منه خيله ، ودوابه وغلمانه ، ودوره ، وعقاره ، وسائر أملاكه . ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان ، وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل ، وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال ، والألم واحد فى الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لايناسب هذا العالم . فإن كان له فى الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ، ويعتد بوجوده ، فيعظم تحسره عليه بعد الموت ، ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله ، وجاهه ، وعقاره ، حتى إلى قيص كان يلبسه مثلا ويفرح به . وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ، ولم يأنس إلا به ، عظم نعيمه ، وتمت سعادته ، إذ خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة

والثانى : أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ

مالم يكن مكشوفا فى النوم . والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا . فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [1]) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس ، وقبل الدفن ، وتشتعل فيه نيران الفراق ، أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية ، دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد ، إذ لم يكن يريد الزاد لعينه . وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة ، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده ، واستغنى عنه

وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة ، تهجم عليه قبل الدفن ، ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب ، وقد يعفى عنه . ويكون حال المتنعم بالدنيا ، المطمئن إليها ، كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره ، وملكه ، وحريمه ، اعتمادا على أن الملك يتساهل فى أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة ، وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة ، وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط ، وغيور على حرمه ، ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف ، والخجلة ، والحياء ، والتحسر ، والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا ، المطمئن إليها ، قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع ، وغيرها . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت ، شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين . وتشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة . نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت ، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة

(1) الاسراء : ١٤

حقيقة الروح فى نفسها، وإدراك ما هية ذاتها [1] ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول: الروح من أمر ربى، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة

أما الآيات: فما ورد فى الشهداء، إذ قال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ [1]) ولما [2] قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » فقيل يارسول الله أتناديهم وهم أموات! فقال صلى الله عليه وسلم « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَأَسْمَعُ لِهَذَا الْكَلَامِ مِنْكُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ » فهذا نص فى بقاء روح الشقي، وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء؛ ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « الْقَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله

وروى [4] أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الْمَوْتُ الْقِيَامَةُ فَمَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »

﴿ الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر ﴾

(١) حديث انه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ان يتكلم فى الروح: متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى ويسئلونك عن الروح وقد تقدم

(٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يافلان قد وجدت ماوعدنى ربى حقا ـ الحديث: مسلم من حديث عمر بن الخطاب

(٣) حديث القبر إماحفرة من حفر النار أوروضة من رياض الجنة: الترمذى من حديث أبى سعيد وتقدم فى الرجاء والخوف

(٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته: ابن أبى الدنيا فى الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم

---

(١) آل عمران: ١٦٩

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنَ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنَ النَّارِ وَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وليس يخفى ما فى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال

وعن أبى قيس قال كنا مع علقمة فى جنازة ، فقال : أما هذا فقد قامت قيامته

وقال علي كرم الله وجهه : حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار

وقال [2] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ غَرِيباً مَاتَ شَهِيدًا وَوُقِيَ فَتَّانَاتِ الْقَبْرِ وَغُدِيَ وَرِيحَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ »

وقال مسروق : ماغبطت أحدا ماغبطت مؤمنا فى اللحد ، قد استراح من نصب الدنيا ، وأمن عذاب الله

وقال يعلى بن الوليد : كنت أمشي يوما مع أبى الدرداء ، فقلت له . ما تحب لمن تحب ؟ قال الموت . قلت فإن لم يمت ! قال يقلّ ماله وولده . وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا ، والأنس بمن لابدّ من فراقه غاية الشقاء ، فكل ما سوى الله ،وذكره، والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لامحالة . ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات فى سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح فى الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرّم بها ، ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ، ومقاساة الشهوات تؤذيه ، فكان فى الموت خلاصه من جميع المؤذيات ، وانفراده بمحبوبه الذى كان به أنسه من غير عائق ولا دافع ، وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذّات

---

(١) حديث إذامات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ـ الحديث: متفق عليه من حديث ابن عمر

(٢) حديث أبى هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانى القبر ـ ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبى الدنيا فتان

وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله، لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلى لقاء الله. راضين بالقتل فى طلب مرضاته. فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة، والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع. وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه، وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه. وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق فى بعض الأحوال، ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير، والقتال سبب للموت، فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة

فلهذا عظم النعيم، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده. قال الله تعالى (وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ [1]) فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة

وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده، كما قال الله تعالى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ [2]) فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم

وهذا النعيم يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تأخير، وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين، وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى: فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « أَلاَ أُبَشِّرُكَ يَاجَابِرُ » وكان قد استشهد أبوه يوم أحد، فقال بلى بشرك الله بالخير. فقال « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحْيَا أَبَاكَ وَأَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ تَمَنَّ عَلَيَّ عَبْدِى مَا شِئْتَ أُعْطِيكَهُ فَقَالَ يَارَبِّ مَا عَبَدْتُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ أَتَمَنَّى عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ فَأُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّى أَنَّكَ إِلَيْهَا لاَ تَرْجِعُ » (1)

وقال كعب: يوجد رجل فى الجنة يبكى، فيقال له لم تبكى وأنت فى الجنة؟ قال أبكى لأنى لم أقتل فى الله إلا قتلة واحدة، فكنت أشتهى أن أرد فأقتل فيه قتلات

---

(١) حديث عائشة ألا أبشرك ياجابر ـ الحديث : وفيه ان الله أحيا أباك فأقعده بين يديه ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد فيه ضعف وللترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقى الله به أباك قال بلى يارسول الله ـ الحديث : وفيه فقال ياعبدى تمن على أعطك قال يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه انه سبق منى انهم لا يرجعون

---

[1] النحل : ٥٧ [2] سبأ : ٥٤

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ، ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف ، لا يبلغ طرْفه أقصاه ، فيه أنواع الأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والطيور ، فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم . وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا [١] فقال لرجل مات « أَصْبَحَ هَذَا مُرْتَحِلاً عَنِ الدُّنْيَا وَتَرَكَهَا لِأَهْلِهَا فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلاَ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا لاَ يَسُرُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ » فعرّفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا ، كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا بَكَى عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إِذَا رَأَى الضَّوْءَ وَوُضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَانِهِ » وكذلك المؤمن يجزع من الموت ، فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن فلانا قد مات . فقال [٣] « مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ » أشار بالمستريح إلى المؤمن ، وبالمستراح منه إلى الفاجر ، إذ يستريح أهل الدنيا منه

وقال أبو عمر صاحب السقيا مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان ، فنظر إلى قبر ، فإذا جمجمة بادية ، فأمر رجلا فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا ، وإنما الأرواح التى تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة

---

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضي فلايسره انيرجع الى الدنيا كمالايسر أحدكم أنيرجع الى بطن أمه : ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات

(٢) حديث إنمثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ووضع لم يحب أنيرجع الى مكانه : ابن أبى الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر ابن غانم السلفى عن سليم بن عامر الجنائزى مرسلا هكذا

(٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا قدمات فقال مستريح أومستراح منه : متفق عليه من حديث أبي قتادة بلفظ مرعليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبى الدنيا فى الموت باللفظ الذى أورده المصنف

وعن عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده ، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه ، وإنه لينظر إليهم

وقال مالك بن أنس : بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت

وقال[1] النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول « ألا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُورُ فِي جَوِّهَا فَاللَّهَ اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ »

وقال[2] أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ »

ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عند عبد الله ابن رواحة ، وكان قد مات ، وهو خاله

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : في حواصل طير بيض في ظل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة

وقال[3] أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ الْمَيِّتَ يَعْرِفُ مَنْ يُغَسِّلُهُ وَمَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُدَلِّيهِ فِي قَبْرِهِ »

وقال صالح المري : بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت ، فتقول أرواح الموتى للروح

---

(١) حديث النعمان بن بشير « ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فالله الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم » : ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكماله الازدي في الضعفاء وقال لا يصح اسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكماله في ترجمة أبي اسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه ان كلا منهما مجهول قال الازدي لا يصح اسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدى

(٢) حديث أبي هريرة « لا تفضحوا موتاكم بسيآت أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور » : ابن أبي الدنيا والمحاملي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع انسانا عن أنس « ان أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات » الحديث

(٣) حديث أبي سعيد الخدري « ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره » : رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسبه عبد الملك بن حسن

التي تخرج إليهم . كيف كان مأواك ؟ وفي أي الجسدين كنت ؟ في طيّب أو خبيث ؟

وقال عبيد بن عمير . أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا مافعل فلان فيقول ألم يأتكم أو ماقدم عليكم ؟ فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا

وعن جعفر بن سعيد قال: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب

وقال مجاهد . إن الرجل ليبشَّر بصلاح ولده في قبره

وروى (١) أبو أيوب الأنصاري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ إِذَا قُبِضَتْ تَلَقَّاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَمَا يُتَلَقَّى الْبَشِيرُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُونَ أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ وَمَاذَا فَعَلَتْ فُلَانَةٌ وَهَلْ تَزَوَّجَتْ فُلَانَةٌ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ قَبْلَهُ وَقَالَ مَاتَ قَبْلِي قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ »

بيان

كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال ، أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « يَقُولُ الْقَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوضَعُ فِيهِ وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا غَرَّكَ بِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي بَيْتُ الْفِتْنَةِ وَبَيْتُ

---

(١) حديث أبي ايوب ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا اخاكم حتى يستريح : ابن ابي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين باسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابي ايوب باسناد جيد ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث ابي هريرة باسناد جيد

(٢) حديث يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ماغرك بي ألم تعلم اني بيت الفتنة الحديث : ابن ابي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وابو احمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج الثملي باسناد ضعيف

الظُّلْمَةِ وَبَيْتُ الْوَحْدَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ مَاغَرَّكَ بِي إِذْ كُنْتَ تَمُرُّ بِي فَذَّاذًا فَإِنْ كَانَ مُصْلِحًا أَجَابَ عَنْهُ مُجِيبُ الْقَبْرِ فَيَقُولُ أَرَأَيْتَ أَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ الْقَبْرُ إِنِّي إِذًا أَتَحَوَّلُ عَلَيْهِ خَضِرًا وَيَعُودُ جَسَدُهُ نُورًا وَتَصْعَدُ رُوحُهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى » والفذّاذ هو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، هكذا فسره الراوى

وقال عبيد بن عمير الليثى : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التى يدفن فيها . أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فإن كنتَ فى حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة . أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا

وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره فعذب ، أو أصابه بعض مايكره ، ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه وجيرانه ، أما كان لك فينا معتبر ؟ أما كان لك فى متقدمنا إياك فكرة ؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهلة ؟ فهلا استدركت مافات إخوانك ! وتناديه بقاع الأرض . أيها المغتر بظاهر الدنيا ، هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ، ثم سبق به أجله إلى القبور ، وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته إلى المنزل الذى لابد له منه

وقال يزيد الرقاشى : بلغنى أن الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ؛ ثم أنطقها الله فقالت : أيها العبد المنفرد فى حفرته ، انقطع عنك الأخلاء والأهلون ، فلا أنيس لك اليوم عندنا

وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة ، الصلاة ، والصيام والحج ، والجهاد ، والصدقة ، قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه ، فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال بى القيام لله عليهما . فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه ، فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا ، فلا سبيل لكم عليه ، فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه

وحج وجاهد لله ، فلا سبيل لكم عليه ، قال فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كُفوا عن صاحبى ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه

قال فيقال له : هنيئا طبت حياً وطبت ميتا . قال وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرش له فراشا من الجنة : ودثارا من الجنة ، ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره

وقال [1] عبد الله بن عبيد بن عمير فى جنازة . بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ الْمَيِّتَ يَقْعُدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشَيِّعِيهِ فَلَا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إِلَّا قَبْرُهُ يَقُولُ وَيْحَكَ ابْنَ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حُذِّرْتَنِي وَحُذِّرْتَ ضِيقِي وَنَتْنِي وَهَوْلِي وَدُودِي فَمَا ذَا أَعْدَدْتَ لِي ؟ »

---

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم ـ الحديث : ابن ابى الدنيا فى القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك فى الزهد إلا أنه قال بلغنى ولم يرفعه.

كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء السادس عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت: ٢١٨١٠

بيان

عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال (١) البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ، ثم قال « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » ثلاثا ثم قال « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الآخِرَةِ بَعَثَ اللهُ مَلاَئِكَةً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ حَنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّ بَصَرِهِ فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلاَّ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُعِدَ بِرُوحِهِ قِيلَ أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فُلاَنٌ فَيَقُولُ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَاأَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ (١)) الآية . وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالَ يَاهَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ وَدِينِيَ الإِسْلاَمُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ فَيَنْتَهِرَانِهِ انْتِهَاراً شَدِيداً وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمَيِّتِ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ نَادَى مُنَادٍ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ (٢)) الآية ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ وَاللهِ مَاعَلِمْتُ أَنْ كُنْتَ لَسَرِيعاً إِلَى طَاعَةِ اللهِ بَطِيئاً عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا قَالَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنِ افْرِشُوا لَهُ مِنْ فَرْشِ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فَرْشِ الْجَنَّةِ وَيُفْتَحُ

---

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ـ الحديث : بطوله أبوداود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائى وابن ماجه مختصرا

---

(١) طه : ٥٥ (٢) ابراهيم : ٢٧

لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي قَالَ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا نَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ مَعَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ وَسَرَابِيلُ مِنْ قَطِرَانٍ فَيَحْتَوِشُونَهُ فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَكْرَهُ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُعِدَ بِرُوحِهِ نُبِذَ وَقِيلَ أَيُّ رَبٍّ عَبْدُكَ فُلَانٌ لَمْ تَقْبَلْهُ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ارْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَا أَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الشَّرِّ إِنِّي وَعَدْتُهُ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ[1]) الآيَة وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالَ لَهُ يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَمَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ قَبِيحُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَبِعَذَابٍ أَلِيمٍ مُقِيمٍ فَيَقُولُ بَشَّرَكَ اللَّهُ بِشَرٍّ مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ وَاللَّهِ إِنْ كُنْتَ لَسَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَصَمُّ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ عَلَى أَنْ يُقِلُّوهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ صَارَ تُرَابًا فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَابًا ثُمَّ تَعُودُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَضْرِبُهُ بِهَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَنْ عَلَى الْأَرَضِينَ لَيْسَ الثَّقَلَيْنِ قال ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنِ افْرِشُوا لَهُ لَوْحَيْنِ مِنْ نَارٍ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيُفْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ مِنْ نَارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ » . قال محمد بن علي : مامن ميت يموت إلا مثّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة . قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته

وقال[1] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِحَرِيرَةٍ فِيهَا مِسْكٌ وَضَبَائِرُ الرَّيْحَانِ فَتُسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ

---

(١) حديث أبي هريرة ان المؤمن اذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان . الحديث : ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف

---

(١) طه : ٥٥

الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ وَيُقَالُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رُوحِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْمِسْكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُوِيَتْ عَلَيْهَا الْحَرِيرَةُ وَبُعِثَ بِهَا إِلَى عِلِّيِّينَ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِمِسْحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ فَتُنْزَعُ رُوحُهُ انْتِزَاعًا شَدِيدًا وَيُقَالُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى هَوَانِ اللهِ وَعَذَابِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الْجَمْرَةِ وَإِنَّ لَهَا نَشِيشًا وَيُطْوَى عَلَيْهَا الْمِسْحُ وَيُذْهَبُ بِهَا إِلَى سِجِّينٍ »

وعن محمد بن كعب القرظي ، أنه كان يقرأ قوله تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ (١)) قال أي شيء تريد؟ في أي شيء ترغب ؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال ، وتغرس الغراس ، وتبني البنيان ، وتشقق الأنهار؟ قال لا لعلي أعمل صالحا فيما تركت . قال فيقول الجبار . كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، أي ليقولنها عند الموت . وقال (١) أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَيُرَحَّبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُضِيءُ حَتَّى يَكُونَ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ هَلْ تَدْرُونَ فِيمَا ذَا أُنْزِلَتْ (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (٢)) قالوا الله ورسوله أعلم قال « عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا هَلْ تَدْرُونَ مَا التِّنِّينُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَيَّةً لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُؤُسٍ يَخْدِشُونَهُ وَيَلْحَسُونَهُ وَيَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »

ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر ، والرياء ، والحسد ، والغل ، والحقد ، وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تنشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام ، وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات ، وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين ، والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، ومابينهما يؤذي إيذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها ، إلا أن مقدار

(١) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث : ورواه ابن حبان

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٢) طه : ١٢٤

عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة . فأمثال هـذه الأخبار لهـا ظواهر صحيحة ، وأسرار خفيّة ، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة . فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها . بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ، ولا نشاهد شيئا من ذلك ، فما وجه التصديق على خلاف المشاهـدة ؟

فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا :

أحدها : وهو الأظهر والأصح والأسلم ، أن تصدق بأنها موجودة ، وهي تلدغ الميت ، ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل مايتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ؟ فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك . وإن كنت آمنت به ، وجوّزت أن يشاهـد النبي مالا تشاهده الأمة ، فكيف لا تجوّز هذا في الميت ؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات ، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا ، بل هي جنس آخر ، وتدرك بحاسة أخرى

المقام الثاني : أن تتذكر أمر النائم ، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه ، وهو يتألم بذلك ، حتى تراه يصيح في نومه ، ويعرق جبينه ، وقد ينزعج من مكانه . كل ذلك يدركه من نفسه ، ويتأذى به كما يتأذى اليقظان ، وهو يشاهده ، وأنت ترى ظاهره ساكنا ، ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة في حقه ، والعذاب حاصل ، ولـكنه في حقك غير مشاهد . وإذا كان العذاب في ألم اللدغ ، فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد

المقام الثالث : أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم ، بل الذي يلقاك منها وهو السم . ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم . فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لـكان العذاب قد توفر ، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة . فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع ، لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه ، لتكون الإضافة للتعريف بالسبب ،

وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب : والسبب يراد لثمرته لا لذاته ، وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت ، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب مايتمنى معه أن لم يكن قدتنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه هوأحد أنواع ؛ عذاب الميت ، فإنه قدسلط العشق فى الدنيا على نفسه ، فصار يعشق ماله ، وعقاره ، وجاهه ، وولده ، وأقاربه ، ومعارفه ، ولوأخذ جميع ذلك فى حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ، ويشتد عذابه ، ويتمنى ويقول ليته لم يكن لى مال قط . ولا جاه قط ، فكنت لاأتأذى بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعه واحدة

ماحال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا ، فتؤخذ منه الدنيا وتسلّم إلى أعدائه ، ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسُّره على مافاته من نعيم الآخرة ، والحجاب عن الله عزوجل ، فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به ، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته ، وحسرته على مافاته من نعيم الآخرة أبد الآباد ، وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذى يعذّب به ، إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم ، كما قال تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمَ [1])

وأما من لم يأنس بالدنيا ، ولم يحب إلا الله ، وكان مشتاقا إلى لقاء الله ، فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاسات الشهوات فيها ، وقدم على محبوبه ، وانقطعت عنه العوائق والصوارف ، وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خيّر بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب ، آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذاً ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ، وحبه للفرس هو الذى يلدغه إذا أخذ منه فرسه ، فليستمد لهذه اللدغات ، فإن الموت يأخذ

(١) التطفيف : ١٥ ، ١٦

منه فرسه ، ومركبه ، وداره ، وعقاره ، وأهله ، وولده ، وأحبابه ، ومعارفه ، ويأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه ، وبصره ، وأعضاءه ، وييأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه ، وقد أخذ جميع ذلك منه ؛ فذلك أعظم عليه من العقارب والحيّات . وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه ، فكذلك إذا مات ، لأنا قد بيّنا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت ، بل عذابه بعد الموت أشد ، لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ، ويتسلى برجاء العود إليه ؛ ويتسلى برجاء العوض منه ، ولاسلوة بعد الموت ، إذ قد انسد عليه طرق التسلي ، وحصل اليأس ، فإذا كلّ قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ، ومعذبا به . فإن كان مخفا فى الدنيا سلم ، وهو المعني بقولهم نجا المخفون . وإن كان مثقلا عظم عذابه

وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير ، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين . وهو المعني بقوله صلى الله عليه وسلم[1] « صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَخَفُّ حِسَابًا مِنْ صَاحِبِ الدِّرْهَمَيْنِ » ومامن شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر ، وإن شئت فاستقلل . فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك . وإنما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وفرحوا بها ، واطمأنوا إليها

فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر وعقاربه ، وفى سائر أنواع عذابه

رأى أبو سعيد الخدرى ابنا له قد مات فى المنام ، فقال له يابني عظني . قال لاتخالف الله تعالى فيما يريد . قال يابني زدني قال ياأبت لاتطيق . قال قل ، قال لاتجعل بينك وبين الله قميصا . فمالبس قميصا ثلاثين سنة

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر مابعده . ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثانى . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان ، وأن من ينكر

---

(١) حديث صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين : لم أجد له أصلا

بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه ، وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة، والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره

هذا هو الحق فصدّق به تقليدا ، فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذى أوصيك به أن لا تكثر نظرك فى تفصيل ذلك ، ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان ، فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين ، أو بسيف ، أو بموسى ، وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه ، وهذا غاية الجهل . فقد عُلم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم ، أو نعيم مقيم ، فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

بيان

سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغط القبر وبقية القول فى عذاب القبر

قال [1] أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي النَّبِيِّ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً قَالَ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ فَيَقُولَانِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فِي سَبْعِينَ ذِرَاعاً وَيُنَوَّرُ لَهُ فِي قَبْرِهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ دَعُونِي أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرَهُمْ فَيُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَنَامُ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقاً قَالَ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ

(١) حديث أبى هريرة اذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث : الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف

شَيْئًا وَكُنْتُ أَقُولُهُ فَيَقُولَانِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ » . وعن[1] عطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « يَا عُمَرُ كَيْفَ بِكَ إِذَا أَنْتَ مُتَّ فَانْطَلَقَ بِكَ قَوْمُكَ فَقَاسُوا لَكَ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعٍ وَشِبْرٍ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْكَ فَغَسَّلُوكَ وَكَفَّنُوكَ وَحَنَّطُوكَ ثُمَّ احْتَمَلُوكَ حَتَّى يَضَعُوكَ فِيهِ ثُمَّ يُهِيلُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ وَيَدْفِنُوكَ فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْكَ أَتَاكَ فَتَّانَا الْقَبْرِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ يَجُرَّانِ أَشْعَارَهُمَا وَيَبْحَثَانِ الْقَبْرَ بِأَنْيَابِهِمَا فَتَلْتَلَاكَ وَتَرْتَرَاكَ كَيْفَ بِكَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ » فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الآن ؟ قال نعم . قال إذاً أكفيكهما

وهذا نص صريح فى أن العقل لايتغير بالموت ، إنما يتغير البدن والأعضاء ، فيكون الميت عاقلا ، مدركا ، عالما بالآلام واللذات كما كان ، لايتغير من عقله شيء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء ، بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض ، بل الذى لاينقسم فى نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ، ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لايتجزأ ولاينقسم ، لكان الإنسان العاقل بكماله قائما باقيا . وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لايحله الموت ، ولايطرأ عليه العدم

وقال محمد بن المنكدر : بلغنى أن الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء ، صماء ، فى يدها سوط من حديد ، فى رأسه مثل غرب الجمل ، تضربه به إلى يوم القيامة ، لاتراه فتتقيه ، ولاتسمع صوته فترحمه

وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه

---

(١) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ياعمر كيف بك اذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقى فى الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء ابن يسار مرسلا قلت ووصله ابن بطة فى الابانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقى فى الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الاسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبدالله ابن عمر فقال عمر أترد الينا عقولنا فقال نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بفيه الحجر

من قبل رأسه جاء قراءته القرءان ، وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطنى للصدقة والدعاء ، لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية ، فيقول . أما إنى لو رأيت خللا لكنت أناصاحبه . قال سفيان . تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه ، وأهله ، وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك فى مضجعك ، فنعم الأخلاء أخلاؤك ، ونعم الأصحاب أصحابك

وعن (١) حذيفة قال . كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فجلس على رأس القبر ، ثم جعل ينظر فيه ، ثم قال « يُضْغَطُ الْمُؤْمِنُ فِي هَذَا ضَغْطَةً تُرَدُّ مِنْهَا حَمَائِلُهُ »

وقالت (٢) عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ »

وعن أنس قال : (٣) توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله التمع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا يارسول الله رأينا منك شأنا فم ذلك ؟ قال « ذَكَرْتُ ضَغْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ فَأَتَيْتُ فَأُخْبِرْتُ أَنَّ اللهَ قَدْ خَفَّفَ عَنْهَا وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ »

الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن مناهج الاعتبار ، تعرفنا أحوال الموتى على الجملة ، وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء .

---

(١) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ـ الحديث: رواه أحمد بسند ضعيف

(٢) حديث عائشة ان للقبر ضغطة لوسلم أونجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ :رواه أحمد باسناد جيد

(٣) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ـ الحديث : وفيه لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين : ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية سليمان الاعمش عن أنس ولم يسمع منه

ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلا ، فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات ، وكيف ختم له . وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب ، وهو غامض يخفى على صاحب التقوى ، فكيف على غيره ، فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [(1)]) فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة مايجرى عليه . وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى ، خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية ، فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئا من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه . ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام ، فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى في عالم الملكوت ، فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك [(1)] رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ ، وفي حق زينب ابنته . وكذلك حال أبي جابر لما استشهد ، إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر

ومثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم • وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة ، إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية ، وأعنى بها المشاهدة في المنام ، وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(2)] « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ » وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق . ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان مايراه أضغاث أحلام ولذلك [(3)] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا ، وهو إشارة

﴿ الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة ﴾

(١) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد : تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله

(٢) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة : تقدم

(٣) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوأك للصلاة الحديث :

---

(١) المائدة : ٢٧

إلى طهارة الباطن أيضا ، فهو الأصل ، وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ماسيكون فى المستقبل ، كما (١) انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، حتى نزل قوله تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ (١)) وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة

والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع فطرة الآدمي ، وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم . والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة ، فلا يمكن ذكره ، علاوة على علم المعاملة ، ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ، وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ماقدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى ، يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين كما ورد فى القرءان . فجميع ماجرى فى العالم وماسيجرى مكتوب فيه ، ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين . ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب ، أو حديد ، أو عظم ، وأن الكتاب من كاغد أو رق ، بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرءان وحروفه فى دماغ حافظ القرءان وقلبه ، فإنه مسطور فيه ، حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزأ جزأ لم تشاهد من ذلك الخط حرفا ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر

فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ماقدره الله تعالى وقضاه ، واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه ، إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى

---

(١) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم : ابن أبى حاتم فى تفسيره من رواية مجاهد مرسلا .

---

(١) الفتح : ٢٧

حواسه حجاب مرسل بينه و بين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت . فإن هبت ريح حركت هـذا الحجاب ورفعته ، تلألأ فى مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقـد لايدوم وهو الغالب . وما دام متيقظا فهو مشغول بما توررده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت . ومعنى النوم أن تركد الحواس عليـه فلا تورده على القلب . فإذا تخلص منه ومن الخيال ، وكان صافيا فى جوهره ، ارتفع الحجاب بينه و بين اللوح المحفوظ ، فوقع فى قلبه شيء مما فى اللوح ، كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما . إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل ، وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه . فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتـكون المتخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها ، فيبقى الخيـال فى الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعـبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعانى ، فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى

وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير ، ويكفيك مثال واحد ، وهو أن رجلا قال لابن سيرين : رأيت كأن بيدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان . قال صدقت . فانظر أن روح الختم هو المنع ، ولأجله يراد الختم ، وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب، ولكن الخيال ألِف المنع عند الختم بالخاتم ، فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ، ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه ، وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب ، وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ماسيكون فى المستقبل . فما ذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ، ويكشف الغطاء بالكلية ، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازى والفضائح ، نعوذ بالله من ذلك ، وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [1]) ويقال (أَفَسِحْرٌ هَذَا

(١) ق : ٢٢

أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١]) وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [٢]) فأعلم العلماء، وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ، ولا اختلج به ضميره . فلولم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال ، أن الحجاب عماذا يرتفع ، وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ، لكان ذلك كافيا فى استغراق جميع العمر

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا ، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا ، وأهلينا ، وبأسبابنا ، وذريتنا ، بل بأعضائنا ، وسمعنا ، وبصرنا ، مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن [١] أين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ما قال لسيد النبيين : أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، وعش ماشئت فإنك ميت ، واعمل ماشئت فإنك مجزي به ؟ فلاجرم لماكان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل [٢] لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة [٣] ، ولم يخلف دينارا ولا درهما ، ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا . نعم قال [٤] « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ » فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه ، وأن حبه تمكن من حبة قلبه ، فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب . وقد قال لأمته (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ [٣]) فإنما أمته من أتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه مادعا إلا إلى الله واليوم الآخر ، وماصرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة . فبقدر ماأعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذى سلكه . وبقدر ماسلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر مااتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ماأقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته ،

---

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه : الحديث تقدم
(٢) حديث لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة : تقدم أيضا
(٣) حديث لم يخلف دينارا ولا درهما : تقدم أيضا
(٤) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن : تقدم أيضا

---

(١) الطور : ١٥ ، ١٦ (٢) الزمر : ٤٧ (٣) آل عمران : ٣١

والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى [١])

فلو خرجت من مكمن الغرور ، وأنصفت نفسك يارجل ، وكلنا ذلك الرجل ، لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ، ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! ما أبعد ظنك ، وما أبرد طمعك (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [٢])

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده . ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به ، إذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان

منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] وقد قال عليه السلام « مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فرأيته لا ينظر إليّ ، فقلت يارسول الله ما شأنى؟ فالتفت إليّ وقال : ألست المقبّل وأنت صائم؟ فقال والذى نفسي بيده لا أقبّل امرأة وأنا صائم أبدا

وقال العباس رضي الله عنه . كنت ودا لعمر ، فاشتهيت أن أراه فى المنام ، فما رأيته إلا عند رأس الحول ، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى ، إن كان عرشى ليهد لولا أنى لقيته رؤفا رحيما .

وقال الحسن بن على . قال لى علي رضي الله عنه . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنح لى الليلة فى منامى ، فقلت يارسول الله ، ما لقيت من أمتك ! قال ادع عليهم . فقلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم ، وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فضربه ابن ملجم

---

(١) حديث من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لا يتخيل بى : متفق عليه من حديث أبى هريرة

[١] النازعات : ٣٧ [٢] القلم : ٣٥ ، ٣٦

وقال بعض الشيوخ : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله استغفر لي ، فأعرض عني . فقلت يا رسول الله إن سفيان[1] بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله ، أنك لم تُسأل شيئا قط فقلت لا . فأقبل علي فقال غفر الله لك

وروي عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لهب ، مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر ، حزنت عليه ، وأهمني أمره . فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه في المنام . قال فرأيته يلتهب نارا ، فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار في العذاب ، لا يخفف عني ولا يروّح إلا ليلة الإثنين في كل الأيام والليالي ، قلت وكيف ذلك؟ قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ، ففرحت به ، وأعتقت وليدة لي فرحا به ، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجا ، فصحبني رجل كان لا يقوم ، ولا يقعد ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم . فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك . خرجت أول مرة إلى مكة ومعي أبي ، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل ، فبينا أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي : قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ، قال فقمت مذعورا ، فكشفت الثوب عن وجهه ، فإذا هو ميت أسود الوجه . فداخلني من ذلك رعب . فبينا أنا في ذلك الغم ، إذ غلبتني عيني فنمت ، فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد ، إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين ، فقال لهم تنحوا . فمسح وجهه بيده ، ثم أتاني فقال قم فقد بيض الله وجه أبيك . فقلت له من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقال أنا محمد . قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي ، فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده ، فسلّمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أُتي بعليّ ومعاوية ، فأدخلا بيتا ، وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج

---

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر ماسئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا : رواه مسلم وقد تقدم

علي رضي الله عنه وهو يقول : قضى لى ورب الكعبة . وما كان باسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لى ورب الكعبة

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله ، فأنكره أصحابه . فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم ، فقال ألا تعلم ماصنعت أمتى بعدى ؟ قتلوا ابنى الحسين ، وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه

ورؤي الصديق رضي الله عنه ، فقيل له إنك كنت تقول أبدا فى لسانك : هذا أوردنى الموارد ، فماذا فعل الله بك ؟ قال قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة

بيان
منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متمما الدورقى فى المنام ، فقلت ياسيدى مافعل الله بك ؟ فقال ديرنى فى الجنان ، فقيل لى يامتمم هل استحسنت فيها شيئا ؟ قلت لاياسيدى . فقال لواستحسنت منها شيئا لوكلتك إليه ، ولم أوصلك إليّ

ورؤي يوسف بن الحسين فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفرلى . قيل بماذا ؟ قال ماخلطت جدا بهزل

وعن منصور بن اسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار فى النوم ، فقلت مافعل الله بك ؟ قال أوقفنى بين يديه ، فغفرلى كل ذنب أقررت به إلاذنبا واحدا ، فإنى استحييت أن أقرّ به. فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى . فقلت ما كان ذلك الذنب ؟ قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته ، فاستحييت من الله أن أذكره

وقال أبو جعفر الصيدلانى : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء ، فنزل ملكان ، أحدهما بيده طشت ، وبيد الآخر إبريق . فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغسل يده ، ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يديّ ، فقال أحدهما للآخر : لاتصب على يده

فإنه ليس منهم . فقلت يارسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت المرء مع من أحب ؟ قال بلى : قلت يارسول الله فإنى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء . فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم

وقال الجنيد : رأيت فى المنام كأنى أتكلم على الناس ، فوقف علي ملك فقال : أقرب ماتقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت عمل خفي بميزان وفي . فولى الملك وهو يقول: كلام موفق والله . ورؤي مجمع في النوم ، فقيل له كيف رأيت الأمر ؟ فقال رأيت الزاهدين فى الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة

وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك فى النوم كأنك فى الجنة . فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه ، فأشخص رجلا يقتلنى

وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولاتغره

وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمى فى النوم فقلت له رحمك الله ، لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا . قال أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائما . فقلت فى أى الدرجات أنت؟ فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية

وسئل زرارة بن أبى أوفى فى المنام أي الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال: الرضا وقصر الأمل

وقال يزيد بن مذعور : رأيت الأوزاعى فى المنام ، فقلت : ياأباعمرو ، دلنى على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ، ثم درجة المحزونين . قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه

وقال ابن عيينة : رأيت أخى فى المنام ، فقلت ياأخى مافعل الله بك ؟ فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لى ، وما لم أستغفر منه لم يغفر لى

وقال علي الطلحى : رأيت فى المنام امرأة لاتشبه نساء الدنيا ؛ فقلت من أنت ؟ فقالت حوراء . فقلت زوجينى نفسك . قالت اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى . قلت وما مهرك ؟ قالت حبس نفسك عن آفاتها

وقال ابراهيم بن اسحاق الحربى : رأيت زبيدة فى المنام ، فقلت مافعل الله بك ؟ قالت غفر لى . فقلت لها بما أنفقت فى طريق مكة ؟ قالت أما النفقات التى أنفقتها رجعت

أجورهاالتى أربابها وغفر لى بذنبى

ولما مات سفيان الثورى رئى فى المنام، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال وضعت أول قدمى على الصراط ، والثانى فى الجنـــة

وقال أحمد بن أبى الحوارى : رأيت فيما يرى النائم جارية مارأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا ، فقلت لها مما ذا ضوء وجهك ؟ قالت تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فسحت به وجهى،فمن ثم ضوء وجهى،كما ترى

وقال الكتانى : رأيت الجنيد فى المنام ، فقلت له مافعل الله بك ؟ قال طاحت تلك الإشارات ، وذهبت تلك العبارات ، وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما فى الليل

ورئيت زبيدة فى المنام ، فقيل لها مافعل الله بك ، قالت غفر لى بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمرى . لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ،لا إله إلا الله ألقى بها ربى

ورئى بشر فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ، قال رحمنى ربى عز وجل وقال : يابشر أما استحييت منى ؟ كنت تخافنى كل ذلك الخوف ؟

ورؤي أبو سليمان فى النوم ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال رحمني ، وما كان شيء أضرّ علي من إشارات القوم إليّ

وقال أبو بكر الكتانى : رأيت فى النوم شابا لم أر أحسن منه ، فقلت له من أنت؟ قال التقوى. قلت فأين تسكن ؟ قال كل قلب حزين . ثم التفت وإذا امرأة سوداء فقلت من أنت ؟ قالت أنا السقم . قلت فأين تسكنين ، قالت كل قلب فرح مرح . قال فانتبهت وتعاهدت أن لاأضحك إلا غلبة

وقال أبو سعيد الخراز : رأيت فى المنام كأن إبليس وثب عليّ ، فأخذت العصالأضربه فلم يفزع منها ، فهتف بى هاتف: إن هذالايخاف من هذه ، وإنما يخاف من نور يكون فى القلب

وقال المسوحى : رأيت إبليس فى النوم يمشى عريانا ، فقلت ألا تستحيي من الناس ، فقال بالله هؤلاء ناس ؟ لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ،بل الناس قوم غيرهؤلاء قدأسقموا جسمى ، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية

وقال أبو سعيد الخراز : كنت فى دمشق، فرأيت فى المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، فجاء فوقف عليّ وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق فى صدرى ، فقال شر هذا أكثر من خيره .

وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة ، يطير من شجرة إلى شجرة ، يقول لمثل هذا فليعمل العاملون . فقلت له أوصنى . قال أقلل من معرفة الناس

وروي أبو حاتم الرازى ، عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثورى ، فقلت مافعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى ... هنيئا رضائى عنك ياابن سعيد

فقد كنت قوّاما إذا أظلم الدجى ... بعبرة مشتاق وقلب عميد

فدونك فاختر أى قصر أردته ... وزرنى فإنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال ناقشنى حتى أيست فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته .

ورؤي مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى وجعلنى حجة على المحبين .

ورؤي الثورى فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال رحمنى . فقيل له ماحال عبد الله ابن المبارك ؟ فقال هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين .

ورؤي بعضهم فسئل عن حاله ، فقال حاسبونا فدققوا ، ثم منوا فأعتقوا

ورؤي مالك بن أنس ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان ابن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة ، سبحان الحي الذى لايموت .

ورئ فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى ، كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادى : ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض

ورئ الجاحظ ، فقيل له مافعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غير شىء ... يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عريانا ، فقال ألا تستحيي من الناس ؟ فقال وهؤلاء ناس؟

الناس النوام لى مسجد الشونيزية ، قد أضنوا جسدى ؛ وأحرقوا كبدى . قال الجنيد . فلما انتبهت غدوت إلى المسجد ، فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأونى قالوا لايغرنك حديث الخبيث .

ورؤي النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ، ثم نوديت ياأبا القاسم ، أَبَعْدَ الاتصال انفصال ؟ فقلت لا ياذا الجلال فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربى .

ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة ، فقالت ياعتبة ، أنا لك عاشقة ، فانظر لاتعمل من الأعمال شيئا فيحال بينى وبينك . فقال عتبة : طلقت الدنيا ثلاثا ، لارجعة لى عليها حتى ألقاك .

وقيل رأى أيوب السختيانى جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها ، فرأى الميت بعضهم فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ، قال غفرلى وقال : قل لأيوب (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ [1])

وقال بعضهم : رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نورا ، وملائكة نزولا ، وملائكة صعودا . فقلت أى ليلة هذه ؟ فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه

وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام ، فقلت أيها الشيخ ، قال دع التشييخ . قلت تلك الأحوال التي شاهدتها ، فقال لم تغن عنا . فقلت مافعل الله بك . قال غفرلى بمسائل كان يسأل عنها العجز

وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسى المعلم فى النوم ، فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدب .

وكنا على أن لانحول عن الهوى فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له ، فقال كنت أزور قبره كل جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة

وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته ، فقلت أليس قدمت ؟ قال بلى

(1) الاسراء : ١٠٠

قلت فما صنع الله بك ؟ قال غفر لى مغفرة احاطت بكل ذنب . قلت فسفيان الثوري ، قال بخ بخ ، ذلك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية

وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام ، فقلت ياأبا عبد الله ، ماصنع الله بك ؟ قال أجلسنى على كرسي من ذهب ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب

ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن، كأن مناديا ينادى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ [1]) واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القارى الدقيق أرأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا ؟ قالوا أويس القرنى . فأتيته فقلت وصنى رحمك الله . فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله . فأقبل علي وقال :اتبع رحمة ربك عند محبته ،واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى

وقال أبو بكر بن أبى مريم . رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى ، فقلت مافعلت ياورقاء قال نجوت بعد كل جهد . قلت فأي الأعمال وجدتموها أفضل ، قال البكاء من خشية الله

وقال يزيد ابن نعامة : هلكت جارية فى الطاعون الجارف ، فرآها أبوها فى المنام فقال لها يابنية أخبرينى عن الآخرة . قالت ياأبت قدمنا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل ، وتعملون ولا تعلمـــــون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان ، أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلىّ من الدنيا وما فيها .

وقال بعض أصحاب عتبة الغلام : رأيت عتبة فى المنام . فقلت ماصنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك . قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى ، فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت : ياهادي المضلين ، وياراحم المذنبين ، ويامقيل عثرات العاثرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، آمين يارب العالمين

وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثورى فى الجنة ، يطير من نخلة إلى نخلة ،

[1] آل عمران : ٣٣

ومن شجرة إلى شجرة . فقلت ياأبا عبد الله ، بمَ نلت هذا ؟ قال بالورع . قلت فما بال علي بن عاصم ؟ قال ذاك لايكاد يرى إلا كما يرى الكوكب

ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام . فقال : يارسول الله عظني . قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان . ومن كان في نقصان فالموت خير له

وقال الشافعي رحمة الله عليه : دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ، ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي ، فقال لي يامحمد بن إدريس ، قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعا ، ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا . ولا أستطيع أن آخذ إلا ماأعطيتني ، ولا اتقي إلا ماوقيتني . اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية . فلما أصبحت أعدت ذلك ، فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي ، وسهل لي الخلاص مما كنت فيه ، فعليكم بهذه الدعوات لاتغفلوا عنها

فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى ، وعلى الأعمال المقربة إلى الله زلفى فلنذكر بعدها مابين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار ، إما في الجنة أو في النار ، والحمد لله حمد الشاكرين

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت ، في أحوال الميت من وقت نفخة الصور

إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار ، وتفصيل مابين يديه من الأهوال والأخطار

وفيه بيان نفخة الصور ، وصفة أهل المحشر وأهله ، وصفة عرق أهل المحشر ، وصفة طول يوم القيامة ، وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها ، وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط ، وصفة الشفاعة ، وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها ، وأنكالها ، وحيّاتها ، وعقاربها ، وصفة الجنة وأصناف نعيمها ، وعدد الجنان ، وأبوابها ، وغرفها ، وحيطانها ، وأنهارها ، وأشجارها ، ولباس أهلها ، وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم ، وصفة الحور العين والولدان ، وصفة النظر إلى وجه الله تعالى ، وباب في سعة رحمة الله تعالى ، وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى

صفة

نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت ، وخطره فى خوف العاقبة ، ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه ، من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبار ، والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم . ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء ، وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها ، مع ماتكتنفه من المصاعب والأهوال . بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ، ثم غفلت عنه قلوبهم . ومن أخبر بأن مابين يديه من الطعام مسموم ، فقال لصاحبه الذى أخبره صدقت ، ثم مد يده لتناوله ، كان مصدقا بلسانه ، ومكذبا بعمله ، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[1] « قَالَ اللهُ تَعَالَى شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي وَكَذَّبَنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَيَقُولُ إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي »

وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لأمثال تلك الأمور . ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات ، وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة

(الشطر الثانى من وقت نفخة الصور)

(١) حديث قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى وكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة

القــذرة مثل هــذا الآدمي المصور ، العاقل ، المتكلم ، المتصرف ، لاشتد نفور باطنه عن التصديق به . ولذلك قال الله تعالى (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ [١]) وقال تعالى (أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى [٢])

ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه ، واختلاف تركيب أعضائه ، أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته . فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته ! فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها . وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور ، من شدة نفخ الصور ، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى ، فيثورون دفعة واحدة ، فتوهم نفسك وقد ثبت متغيرا وجهك ، مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك ، مبهوتا من شدة الصعقة ، شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم ، وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم ، والغموم ، وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ [٣]) وقال تعالى (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [٤]) وقال تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [٥])

فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة ، لكان ذلك جديرا بأن يتقى ، فإنها

[١] يس : ٧٧ [٢] القيامة : ٣٦ إلى ٣٩ [٣] الزمر : ٦٨ [٤] المدثر : ٨ إلى ١٠ [٥] يس : ٤٨ إلى ٥٢

نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض ، يعنى يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى الْجَبْهَةَ وَأَصْغَى بِالْأُذُنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » قال مقاتل : الصور هو القرن . وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ، ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى . فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض ، أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل . ثم يأمر ملك الموت فيموت ، ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيي الله إسرافيل ، فيأمره أن ينفخ الثانية . فذلك قوله تعالى (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ[(1)]) على أرجلهم ينظرون إلى البعث

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « حِينَ بُعِثَ إِلَيَّ بُعِثَ إِلَى صَاحِبِ الصُّورِ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى فِيهِ وَقَدَّمَ رِجْلاً وَأَخَّرَ أُخْرَى يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ أَلاَ فَاتَّقُوا النَّفْخَةَ » فتفكر فى الخلائق وذلهم ، وانكسارهم ، واستكانتهم عند الانبعاث خوفا

---

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة ــ الحديث : الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ أن صاحبي القرن بأيديهما أو فى أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفى رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاه : مختلف فيه

(٢) حديث حين بعث إلي بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ــ الحديث : لم أجده هكذا بل قد ورد أن اسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة أن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر : قال البخارى ولم يصح وفى رواية لأبى الشيخ ماطرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان : وإسنادها جيد

---

(1) الزمر : ٦٨

من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أوشقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحير كتحيرهم بل إن كنت فى الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين ، فلوك الأرض فى ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع ، وأصغرهم ، وأحقرهم ، يوطؤن بالأقدام مثل الذر . وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال ، منكسة رءوسها ، مختلطة بالخلائق بعد توحشها ، ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها . ولكن حشرتهم شدة الصعقة ، وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم . وذلك قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ [1]) ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوّها ، وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى ، تصديقا لقوله تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا [2]) فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك

صفة

أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة ، عراة ، غرلا ، إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء ، قاع صفصف ، لاترى فيها عوجا ولاأمتا ، ولاترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولاوهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط ، لاتفاوت فيه ، يساقون إليه زمرا . فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض ، إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة . والراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ

(١) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد متفق

(١) التكوير : ٥ (٢) مريم : ٦٨

بَيْضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد » قال الراوى . والعفرة بياض ليس بالناصع ، والنقي هو النقي عن القشر والنخالة ، ومعلم أي لابناء يستر ، ولاتفاوت يرد البصر . ولاتظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا ، بل لاتساويها إلا فى الاسم ، قال تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ [1]) قال ابن عباس يزاد فيها وينقص ، وتذهب أشجارها ، وجبالها ، وأوديتها ، ومافيها ، وتمد مد الأديم العكاظى ، أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها ، وقمرها ، ونجومها

فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها ، فبينماهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم ، وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها ، فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ، وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ، ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة ، فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل ، وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث ، وهم حفاة ، عراة ، مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً * قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الآذَانِ » قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث : قلت يارسول الله واسوأتاه ! ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال شغل الناس عن ذلك بهم (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [2]) فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ، ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على

علية من حديث سهل ابن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه

(١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سوده رواية الحديث واسوأتاه ـ الحديث : الثعلبي والبغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأتاه : ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائلة واسوأتاه.

(١) ابراهيم : ٤٨ (٢) عبس : ٣٧

* غرلا : أى من غير اختتان .

بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال [١] أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ » فقال رجل يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال « الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ »

فى طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به . ولولم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشى على بطنها كالبرق الخاطف ، لأنكر تصوّر المشي على غير رجل . والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس مافى الدنيا ، فإنك لولم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكارا لها : فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا ، مكشوفا ، ذليلا ، مدحورا ، متحيرا ، مبهوتا ، منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة ، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة

صفة العرق

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع ، من ملك ، وجن ، وإنس ، وشيطان ، ووحش ، وسبع ، وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها ، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رءوس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكّن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش ، وبين مضح لحر الشمس ، قد صهرته بحرّها ، واشتد كربه وغمه من وهجها . ثم تدافعت الخلائق ، ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح ؛ والاختزاء عند العرض على

---

(١) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث ـ رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يانبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة

جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس ، وحر الأنفاس ، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ، ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه

قال [1] ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ » وقال [2] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ وَيَبْلُغُ آذَانَهُمْ » كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح

وفي حديث آخر [3] « قِيَامًا شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى السَّمَاءِ فَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ »

وقال [4] عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ » وأشار بيده فألجمها فاه « وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ الْعَرَقُ » وضرب بيده على رأسه هكذا

فتأمل يامسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادي فيقول :

---

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه : متفق عليه

(٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ـ الحديث : أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف

(٣) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب : ابن عدي من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني : ضعفه ابن معين وقال ابن عدي لاأظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه

(٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة

رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار . وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولاعقابا ، فإنك واحد منهم ، ولاتدرى إلى أين يبلغ بك العرق .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج ، وجهاد ، وصيام ، وقيام ، وتردد فى قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهي عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب . ولوسلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا ، وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويلة مدته

صفة

طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لايكلمون ولاينظر فى أمورهم يقفون ثلثمائة عام لايأكلون فيه أكلة ، ولايشربون فيه شربة ولايجدون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [1]) قال يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبد الله [1] بن عمرو : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا جَمَعَكُمُ اللهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الْكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لاَ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ »

وقال الحسن . ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة ، لايأكلون فيها أكلة ، ولايشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا ، واحترقت أجوافهم جوعا ، انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها ،

(١) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لاينظر إليكم قلت إنما هو عبدالله بن عمر : ورواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبى حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبدالرحمن ابن ميسرة الحضرمى أربعة هذا أحدهم مصرى والثلاثة الآخرون شاميون

(١) التطفيف : ٦

واشتد لفحها . فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به ، كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم ، فلم يتعلقوا بنبيّ إلا دفعهم وقال : دعونى نفسى نفسى ، شغلنى أمرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى ، وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا

فتأمل فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه ، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا الموت ، لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات ، فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيهَا فِى الدُّنْيَا »

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين ، فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك ، والاستعداد بيديك ، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا ، وتعبك يسيرا

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا : أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة باسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب : ورواه البيهقى فى الشعب الى أن قال أظنه رفعه بلفظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة

صفة

يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه . يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية

يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة

يوم ترج الأرض فيه رجا ، وتبس الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش

يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار

يوم تنسف فيه الجبال نسفا ، فتترك قاعاصفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا

يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولاجان

يوم يمنع فيه العاصى من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الإجرام ، بل يؤخذ بالنواصى والأقـــــدام

يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا

يوم تعلم فيه كل نفس ماأحضرت ، وتشهد ماقدمت وأخرت .

يوم تخرس فيه الألسن ، وتنطق الجوارح

يوم شيب ذكره سيد المرسلين ، إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه ، أراك قد شبت يارسول الله . قال[1] « شَيَّبَتْنِي هُودُ وَأَخَوَاتُهَا » وهي الواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت . فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تجمجم القرءان ، وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين . وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرءان ، فالقيامة أحد ماذكر فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها ، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرير الأسامى والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سرّ ، وفى كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها

ونحن الآن نجمع لك أساميها ، وهي يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الندامة ، ويوم المحاسبة ، ويوم المساءلة ، ويوم المسابقة ، ويوم المناقشة ، ويوم المنافسة ، ويوم الزلزلة ، ويوم الدمدمة ، ويوم الصاعقة . ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ، ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الغاشية ، ويوم الداهية ، ويوم الآزفة ، ويوم الحاقة ، ويوم الطامة ، ويوم الصاخة ، ويوم التلاق ، ويوم الفراق ، ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب ، ويوم المآب ،

---

(١) حديث شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم

ويوم العذاب ، ويوم الفرار ، ويوم القرار ، ويوم اللقاء ، ويوم البقاء ، ويوم القضاء ، ويوم الجزاء ، ويوم البلاء ، ويوم البكاء ، ويوم الحشر ، ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الوزن ، ويوم الحق ، ويوم الحكم ، ويوم الفصل ، ويوم الجمع ، ويوم البعث ، ويوم الفتح ، ويوم الخزي ، ويوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم الدين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ، ويوم المصير ، ويوم النفخة ، ويوم الصيحة ، ويوم الرجفة ، ويوم الرجة ، ويوم الزجرة ، ويوم السكرة ، ويوم الفزع ، ويوم الجزع ، ويوم المنتهى ، ويوم المأوى ، ويوم الميقات ، ويوم الميعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القلق ، ويوم العرق ، ويوم الافتقار ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتشار ، ويوم الانشقاق ، ويوم الوقوف ، ويوم الخروج ، ويوم الخلود ، ويوم التغابن ، ويوم عبوس ، ويوم معلوم ، ويوم موعود ، ويوم مشهود ، ويوم لاريب فيه . ويوم تبلى السرائر ، ويوم لايجزى نفس عن نفس شيئا ، ويوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ، ويوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ؛ ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ، ويوم تقلب وجوههم فى النار ، ويوم لايجزى والد عن ولده ، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، ويوم لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، يوم لامرد له من الله ، يوم هم بارزون ، يوم هم على النار يفتنون ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، يوم ترد فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر الضمائر ، وتكشف الأستار ، يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات ، وتظهر الخطيئات . يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ويشيب الصغير ، ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ، ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم ، وأغلي الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ، وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان

فيا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور

واستترت عن الخلائق ففارقت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين، يرسل الله لنا سيد المرسلين، وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرفنا غفلتنا، ويقول (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [1]) ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [2]) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا [3]) (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا [4]) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرءان عملا، فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه، ولا نستعد للتخلص من دواهيه، فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته

صفة المساءلة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان، فتسئل عن القليل والكثير، والنقير والقطمير. فبينا أنت فى كرب القيامة وعرقها، وشدة عظائمها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام، وأشخاص ضخام غلاظ شداد، أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا مَا بَيْنَ شَفْرَيْ عَيْنَيْهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ » فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض؟ وترام على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم، مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لايبقى نبي، ولاصديق، ولاصالح، إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من

---

(١) حديث ان لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام: لم أره بهذا اللفظ

(١) الأنبياء : ١ ، ٢ ، ٣ (٢) القمر : ١ (٣) المعارج : ٦ ، ٧ (٤) الأحزاب : ٦٣

أن يكونوا هم المأخوذين ، فهذا حال المقربين ، فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟

وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم ، وشدة هيبتهم . فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض ، وقالوا سبحان ربنا ماهو فينا ، ولكنه آت من بعد . وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم ، وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله [١](فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) وقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٢]) فيبدأ سبحانه بالأنبياء (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [٣]) . فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتنمحى علومهم من شدة الهيبة ، إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق ، وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة لاعلم لنا ، إنك أنت علام الغيوب . وهم فى ذلك الوقت صادقون ، إذ طارت منهم العقول ، وانمحت العلوم ، إلى أن يقويهم الله تعالى ،

فيدعى نوح عليه السلام ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ماأتانا من نذير . ويؤتى بعيسى عليه السلام ، فيقول الله تعالى له : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمي إلهين من دون الله ؟ فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال . ثم تقبل الملائكة ، فينادون واحدا واحدا ، يافلان بن فلانة ، هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ، ولاتعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولايكشف سترهم على ملأ الخلائق

(١) الأعراف : ٦ ، ٧ (٢) الحجر : ٩٢ (٣) المائدة : ١٠٩

. وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه مايراه أحد سواه ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه . فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : ياجبريل ائتنى بالنار . فيجيء لها جبريل ويقول : ياجهنم أجيبى خالقك ومليكك . فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت ، وفارت ، وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين . يوم ترى كل أمة جاثية ، وسقط بعضهم على الوجوه منكبين . وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف خوفهم ، وتخاذلت قواهم ، وظنوا أنهم مأخوذون . ثم زفرت الثالثة ، فتساقط الخلائق على وجوههم ، وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين ، فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين . وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال : ماذا أجبتم فإذا رأوا ماقد أقيم من السياسة على الأنبياء ، اشتد الفزع على العصاة ، ففر الوالد من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظرا لأمره

ثم يؤخذ واحد واحد ، فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره وعلانيته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه . قال أبو هريرة[1] : قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ » قالوا لا قال « فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ » قالوا لا قال « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَاتُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ فَيَلْقَى الْعَبْدَ

(١) حديث أبى هريرة هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب . الحديث : متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد بها مسلم

فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُكَرِّمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ * فَيَقُولُ الْعَبْدُ بَلَى فَيَقُولُ أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ فَأَنَا أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي »

فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ؟ ففيما ذا أبليته ؟ ألم أمهل لك فى العمر ؟ ففيما ذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال ، فمن أين اكتسبته ؟ وفيماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم ؟ فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك ، وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك (١) قال أنس رضي الله عنه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال « أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم . قال « مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَارَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ لِأَعْضَائِهِ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ »

فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء . إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ، ولا يطلع عليه غيره . (٢) سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ؟ فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ »

---

(١) حديث أنس أتدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه ـ الحديث رواه مسلم

(٢) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ـ الحديث رواه مسلم

---

* تربع : أى تأخذ ربع الغنيمة : يريد ألم أجعلك رئيسا مطاعا

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم ، واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ، ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ، ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة

وهب أنه قد ستره عن غيرك ، أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر ، وفرائصك مرتعدة ، وجوارحك مضطربة ، ولونك متغير ، والعالم عليك من شدة الهول مظلم . فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب ، وتخرق الصفوف ، وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة ، حتى أنتهى بك إلى عرش الرحمن ، فرموك من أيديهم ، وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن منى . فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ، وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن ، وكم لك من حصر وعجز ، فليت شعرى بأي قدم تقف بين يديه ، وبأي لسان تجيب ، وبأي قلب تعقل ماتقول

ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاها ، إذ يقول ياعبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح ، واستحييت من خلق فأظهرت لهم الجميل ؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادى ؟ استخففت بنظرى إليك فلم تكترث ، واستعظمت نظر غيرى . ألم أنعم عليك ؟ فماذا غرك بى ؟ أظننت أنى لاأراك وأنك لاتلقانى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللهُ رَبُّ

---

(١) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة : تقدم

(٢) حديث مامنكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبى حاتم بلفظ إلا سيكلمه ـ الحديث

الْعَالَمِينَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلاَ تُرْجُمَانٌ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُنْعِمْ عَلَيْكَ أَلَمْ أُوتِكَ مَالاً ؟ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً ؟ فَيَقُولُ بَلَى ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ فَلْيَتَّقِ أَحَدُكُمُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »

وقال ابن مسعود : مامنكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول ياابن آدم ، ماغرك بي ؟ ياابن آدم ماعملت فيما علمت ؟ ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ ياابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ؟ ألم أكن رقيبا على أذنيك ؟ وهكذا حتى عد سائر أعضائه

وقال مجاهد : لاتزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماعمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه

فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك ، فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ، ويغبطك الأولون والآخرون ، وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، وعند ذلك لوبكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك ، وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله ، وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك

صفة الميزان

ثم لاتغفل عن الفكر فى الميزان ، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة ، فيخرج من النار عنق

(١) حديث ليقفن أحدكم بين يدى الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان ـ الحديث : البخارى من حديث عدى بن حاتم

أسود فيلقطهم لقط الطير الحب ، وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار ، وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها . وقسم آخر لاسيئة لهم ، فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى ، وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها . ويبقى قسم ثالث ، وهم الأكثرون ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو ، وعدله عند العقاب ، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات ، وينصب الميزان ، وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال ، ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق

وروى (١) الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضي الله عنها ، فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها . فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتبه فقال « مَا يُبْكِيكِ يَا عَائِشَةُ » قالت ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فِي ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَذْكُرُ إِلَّا نَفْسَهُ إِذَا وُضِعَتِ الْمَوَازِينُ وَوُزِنَتِ الْأَعْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ ابْنُ آدَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ وَعِنْدَ الصُّحُفِ حَتَّى يَنْظُرَ أَبِيَمِينِهِ يَأْخُذُ كِتَابَهُ أَوْ بِشِمَالِهِ وَعِنْدَ الصِّرَاطِ »

وعن أنس قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة

---

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ـ الحديث وفيه فقال مايبكيك ياعائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ـ الحديث : أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال مايبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها وانه نعس واسناده جيد

لايشقى بعدها أبدا. وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا.

وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد، عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم القيامة « إِنَّهُ يَوْمٌ يُنَادِي اللهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [1] فَيَقُولُ لَهُ قُمْ يَا آدَمُ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ فَيَقُولُ وَكَمْ بَعْثُ النَّارِ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ » فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعند أصحابه قال « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » قالوا وما هما يارسول الله؟ قال« يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » قال فسرّى عن القوم فقال « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ »

صفة

الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره ، وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ [1]) واعلم أنه لاينجو من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله ، وخطراته ولحظاته ، كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن

---

(١) حديث يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم

(١) القارعة : ٦ الي ١١

توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ، ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ، ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم ، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولافريضة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب

وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلببه . هذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى ، وهذا يقول استهزأت بى ، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك ، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وماراعيتنى ، فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم ، وأحكموا فى تلابيبك أيديهم ، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ، حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم ، أو جالسته فى مجلس ، إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة ، أو خيانة ، أو نظر بعين استحقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله (اَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَاظُلْمَ الْيَوْمَ [1]) فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، وتوقن نفسك بالبوار ، وتتذكر ماأنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُؤُسِهِمْ لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ [2])

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس ، وتناولك أموالهم ، وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل ، وشوفهت بخطاب السياسة ، وأنت مفلس فقير ، عاجز مهين ، لاتقدر على أن ترد حقا ،

---

(١) غافر : ١٧ (٢) إبراهيم : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

أو تظهر عذرا ، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك ، وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال [1] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَلْ تَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ » قلنا المفلس فينا يارسول الله من لادرهم له ولادينار ولامتاع قال « الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَاعَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم ، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها . ولعلك لوحاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لاينقضي عنك يوم إلاويجرى على لسانك من غيبة المسلمين مايستوفي جميع حسناتك ، فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات ، والتقصير في الطاعات ، وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجمّاء من القرناء ، فقد روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال [2] « يَاأَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ ؟ » قلت لا . قال « وَلَكِنَّ اللهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ [1]) إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم ، والدواب ، والطير ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول كوني ترابا . فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت ترابا

---

(١) حديث أبي هريرة هل تدرون من المفلس قالوا المفلس يارسول الله من لادرهم له ولامتاع الحديث : تقدم

(٢) حديث ياأباذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لاقال ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما : أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر

---

(١) الأنعام : ٣٨

فكيف أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك ، فتقول أين حسناتي ؟ فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك . وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك ، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك ، فتقول يارب هذه سيئات ماقارفتها قط ، فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم ، وشتمتهم ، وقصدتهم بالسوء ، وظلمتهم في المبايعة ، والمجاورة ، والمخاطبة ، والمناظرة ، والمذاكرة ، والمدارسة ، وسائر أصناف المعاملة قال [1] ابن مسعود : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِالْمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ الْمُوبِقَاتُ فَاتَّقُوا الظُّلْمَ مَااسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهُنَّ سَيُنْجِينَهُ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ رَبِّ إِنَّ فُلَانًا ظَلَمَنِي بِمَظْلَمَةٍ فَيَقُولُ امْحُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ سَفْرٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَعْظَمُوا نَارَهُمْ وَصَنَعُوا مَاأَرَادُوا وَكَذَلِكَ الذُّنُوبُ »

[2] ولما نزل قوله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [1]) قال الزبير : يارسول الله ، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال « نَعَمْ لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إِلَى

---

(١) حديث ابن مسعود ان الشيطان قد أيس ان تعبد الاصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحقرات وهى الموبقات ـ الحديث : وفى آخره وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث : رواه أحمد والبيهقى فى الشعب مقتصرا على آخره اياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وأسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر أن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم

(٢) حديث لما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح

---

(١) الزمر : ٣٠ ، ٣١

كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ » قال الزبير : والله إن الأمر لشديد

فأعظم بشدة يوم لايسامح فيه بخطوة ، ولايتجاوز فيه عن لطمة ، ولاعن كلمة ، حتى ينتقم للمظلوم من الظالم . قال (١) أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ عُرَاةً غُبْرًا بُهْمًا » قال قلنا مابهما ؟ قال « لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَّهُ مِنْهُ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةِ » قلنا وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهما ؟ فقال « بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ »

ومظالم العباد بأخذ أموالهم ، والتعرض لأعراضهم ، وتضييق قلوبهم ، وإساءة الخلق في معاشرتهم ، فإن مابين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها ، وعسر عليه استحلال أرباب المظالم ، فليكثر من حسناته ليوم القصاص وَلْيُسِرَّ ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص ، بحيث لايطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى ، فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم ، كما روي عن (٢) أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر : مايضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَارَبِّ خُذْلِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللهُ تَعَالَى أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ

(١) حديث أنس يحشر العباد عراة غبرا بهما قلنا مابهما قال ليس معهم شيء الحديث: قلت ليس من حديث أنس وانما هو عبيد الله بن أنيس رواه أحمد باسناد حسن وقال غرلا مكان غبرا

(٢) حديث أنس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ماأضحكك يارسول الله بأبى وأمى قال رجلان من أمتى جثيا بين يدي رب العالمين الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله والحاكم فى المستدرك وقد تقدم

فَقَالَ يَارَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ كَيْفَ تَصْنَعُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ قَالَ يَارَبِّ يَتَحَمَّلُ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ » قال « فَقَالَ اللهُ لِلطَّالِبِ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ فِي الْجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ مُرْتَفِعَةً وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟ قَالَ لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ قَالَ يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثَمَنَهُ؟ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ قَالَ وَمَا هُوَ؟ قَالَ عَفْوُكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ يَارَبِّ إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ قَالَ اللهُ تَعَالَى خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك « اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.» وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله ، وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق

فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم ، أو تلطف لك حتى عفا عنك ، وأيقنت بسعادة الأبد ، كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء ، وقد خلع عليك خلعة الرضا ، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء ، وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء . وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا ، وابيض وجهك واستنار ، وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك ، خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ، ويغبطونك فى حُسنك وجمالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك ، وينادون على رءوس الأشهاد هذا فلان بن فلان ، رضي الله عنه وأرضاه ، وقد سعد سعادة لايشقى بعدها أبدا . أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ، ومداهنتك ، وتصنعك ، وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه

خير منه ، بل لانسبة له إليه ، فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى ، والنية الصادقة فى معاملتك مع الله ، فلن تدرك ذلك إلا به

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله ، بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة ، فمقتك لأجلها ، فقال عليك لعنتى ياعبد السوء ، لاأتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسودّ وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون . وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تتثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها ، فأقدمت عليك بفظاظتها ، وزعارتها ، وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق ، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك ، وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك لاتدعُ اليوم ثبورا واحدا وادعُ ثبورا كثيرا ، وتنادى الملائكة ويقولون ، هذا فلان بن فلان ، كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه ، فشقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا . وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله ، أوطلبا للمكانة فى قلوبهم ، أوخوفا من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ، ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم ، مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم ، والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم . فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا [1]) وفى قوله تعالى (فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ [2]) فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ، وهو جسر ممدود على متن النار ، أحد من السيف ، وأدق

(١) مريم : ٨٥ ، ٨٦ (٢) الصافات : ٢٣ ، ٢٤

من الشعر ، فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا ، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ، تعثّر فى أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلِفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك ، واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدّة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية ، والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف ينتكسون فتتسفل إلى جهة النار رءوسهم ، وتعلو أرجلهم ، فيالَه من منظر ماأفظعه ، ومرتقى ماأصعبه ، ومجاز ماأضيقه

فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه ، وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار ، والرسول عليه السلام يقول يارب سلّم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعرجهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لوزلت قدمك ، ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور ، وقلت هذا ماكنت أخافه ، فيا ليتنى قدمت لحياتى ، ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، ياليتنى كنت ترابا ، ياليتنى كنت نسيا منسيا ، ياليت أمى لم تلدنى . وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله ، وينادى المنادى اخسؤا فيها ولاتكلمون ، فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين ، والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ؛ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم . وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا ، وبالاستعداد له متهاونا ، فما أعظم خسرانك وطغيانك ، وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ؟ فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط ،

وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت ، فناهيك به هولا وفزعا ورعبا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ بِأُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ » قالوا نعم يارسول الله . قال « فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى تَخْتَطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو » وقال (٢) أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُمَرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكَلاَلِيبُ وَخَطَاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يَمِيناً وَشِمَالاً وَعَلَى جَنْبَتَيْهِ مَلاَئِكَةٌ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْبَرْقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْمُجْرِي وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى سَعْياً وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْياً وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُوا حَبْواً وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفاً فَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يَحْيَوْنَ وَأَمَّا نَاسٌ فَيُؤْخَذُونَ بِذُنُوبٍ وَخَطَايَا فَيَحْتَرِقُونَ فَيَكُونُونَ فَحْماً ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ » وذكر إلى آخر الحديث ، وعن (٣) ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَاماً أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ » وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال « ثُمَّ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ارْفَعُوا رُؤُسَكُمْ فَيَرْفَعُونَ رُؤُسَهُمْ فَيُعْطِيهِمْ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ

---

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز : متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل

(٢) حديث أبي سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف ـ الحديث : متفق عليه مع اختلاف ألفاظ

(٣) حديث ابن مسعود يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث الى ذكر سجود المؤمنين ـ الحديث : بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا

الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ فَيُضِيءُ مَرَّةً وَيَخْبُو مَرَّةً فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ فَمَشَى وَإِذَا أَظْلَمَ قَامَ » ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالسحاب ، ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ، ومنهم من يمر كشد الفرس ، ومنهم من يمر كشد الرجل ، حتى يمر الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، تجر منه يد ، وتعلق أخرى ، وتعلق رجل ، وتجر أخرى ، وتصيب جوانبه النار . قال « فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ فَإِذَا خَلَصَ وَقَفَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَداً إِذْ نَجَّانِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُهَا فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى غَدِيرٍ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ »

وقال (١) أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ أَوْ كَحَدِّ الشَّعْرَةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُنْجُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي وَإِنِّي لأَقُولُ يَارَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ فَالزَّالُّونَ وَالزَّالاَّتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ »

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطوّل فيه فكرك ، فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا ، فإن الله لايجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ، ويرق قلبك حال السماع ، ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فماذا من الخوف فى شيء . بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ، ويحثك على طاعته

---

(١) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة ـ الحديث : البيهقى فى الشعب وقال هذا اسناد ضعيف قال وروي عن زياد النميرى عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهى رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة

وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى ، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ، ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين ، وأستعين بشدة بنيانه ، وإحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه . فأنى يغنى ذلك عنه من السبع ! وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ، ومعنى صدقه أن لايكون له مقصود سوى الله تعالى ، ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق فى توحيده ، وأمره مخطر فى نفسه

فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حريصا على تعظيم سنته ، ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ، ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم ، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة

صفة الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين ، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين . وكل من له عند الله جاه وحسن معاملة ، فإن له شفاعة فى أهله ، وقرابته ، وأصدقائه . ومعارفه . فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لاتحقر آدميا أصلا ، فإن الله تعالى خبأ ولايته فى عباده ، فلعل الذى تزدريه عينك هو ولي الله ، ولا تستصغر معصية أصلا ، فإن الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه ، فلعل مقت الله فيه . ولا تستحقر أصلا طاعة ، فإن الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته ، فلعل رضاه فيه ، ولو الكلمة الطيبة ، أو اللقمة ، أو النية الحسنة ، أو مايجرى مجراه

وشواهد الشفاعة فى القرءان والأخبار كثيرة . قال الله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [1])

---

(١) الضحى : ٥

روى (١) عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)) وقول عيسى عليه السلام (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ (٢)) ثم رفع يديه وقال « أُمَّتِي أُمَّتِي » ثم بكى . فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد فسله مايبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال ياجبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرَابُهَا طَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكُلُّ نَبِيٍّ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

---

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاقول ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم وقول عيسى صلى الله عليه وسلم ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه ثم قال أمتى أمتى ثم بكى ـ الحديث : وفيه ياجبريل اذهب الى محمد فقل انا سنرضيك ولا نسوءك فى أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الاحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ

(٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ـ الحديث : وفيه وأعطيت الشفاعة متفق عليه من حديث جابر اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر : الترمذى وابن ماجه من حديث أبى بن كعب قال الترمذى حسن صحيح

(٣) حديث أناسيدولدآدم ولافخر ـ الحديث : الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث ابى سعيد الخدرى

(٤) حديث لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبئ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة : متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبى هريرة

---

(١) ابرهيم : ٣٦ (٢) المائدة : ١١٨

فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِيءَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وقال[1] ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنْصَبُ لِلْأَنْبِيَاءِ مَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا وَيَبْقَى مِنْبَرِي لَا أَجْلِسُ عَلَيْهِ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي مُنْتَصِبًا مَخَافَةَ أَنْ يَبْعَثَ بِي إِلَى الْجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمَّتِي بَعْدِي فَأَقُولُ يَارَبِّ أُمَّتِي فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَامُحَمَّدُ وَمَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَأَقُولُ يَارَبِّ عَجِّلْ حِسَابَهُمْ فَمَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطَى صِكَاكًا بِرِجَالٍ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَحَتَّى أَنَّ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ يَقُولُ يَامُحَمَّدُ مَاتَرَكْتَ النَّارَ لِغَضَبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ بَقِيَّةٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « إِنِّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرَ مِمَّا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ »

وقال[3] أبو هريرة : أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهش منها نهشة ثم قال « أَنَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَالَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَا تَرَوْنَ مَاقَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ

---

(١) حديث ابن عباس ينصب للانبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبرى لاأجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا ـ الحديث : الطبرانى فى الاوسط وفي اسناده محمد بن ثابت البنانى ضعيف

(٢) حديث انى لاشفع يوم القيامة لاكثر مما على وجه الارض من حجر ومدر : أحمد والطبرانى من حديث بريدة بسند حسن

(٣) حديث أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع اليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس ـ الحديث : بطوله فى الشفاعة قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا ابراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم

أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَاقَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ يَانُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ وَيَذْكُرُهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ يَامُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَاعِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ يَامُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لِي مِنْ

مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَامُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي أُمَّتِي يَارَبِّ فَيُقَالُ يَامُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَاحِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ » ثم قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »

وفى حديث آخر هذا السياق بعينه ، مع ذكر خطايا إبراهيم ، وهو قوله فى الكواكب هذا ربى ، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله إنى سقيم

فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « يُقَالُ لِلرَّجُلِ قُمْ يَافُلَانُ فَاشْفَعْ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ وَلِلرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ »

وقال [3] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُشْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيُنَادِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَقُولُ

---

(١) حديث يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر : رويناه فى جزء أبى عمرو بن السماك من حديث أبى امامة إلا انه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان واسناده حسن وللترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله ابن أبى الجدعا يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم قالوا سواك قال سواى قال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا

(٢) حديث يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله : الترمذى من حديث أبى سعيد ان من أمتى من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة الحديث : وقال حسن وللبزار من حديث أنس ان الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة

(٣) حديث أنس ان رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على اهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يافلان هل تعرفنى فيقول لا والله ماأعرفك من أنت فيقول أنا الذى مررت بى فى الدنيا يوما فاستسقيتنى شربة فسقيتك ـ الحديث : فى شفاعته فيه واخراجه من النار أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف

يافُلَانُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ لاَ وَاللهِ مَاأَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا الَّذِي مَرَرْتَ بِي فِي الدُّنْيَا فَاسْتَسْقَيْتَنِي شَرْبَةَ مَاءٍ فَسَقَيْتُكَ قَالَ قَدْ عَرَفْتُ قَالَ فَاشْفَعْ لِي بِهَا عِنْدَ رَبِّكَ فَيَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَيَقُولُ إِنِّي أَشْرَفْتُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَنَادَانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهَا فَقَالَ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَقُلْتُ لاَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي اسْتَسْقَيْتَنِي فِي الدُّنْيَا فَسَقَيْتُكَ فَاشْفَعْ لِي عِنْدَ رَبِّكَ فَشَفِّعْنِي فِيهِ فَيُشَفِّعُهُ اللهُ فِيهِ فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ »

وعن أنس [١] قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا يَئِسُوا لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلاَ فَخْرَ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنِّي أَقُومُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلاَئِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي »

وقال [٣] ابن عباس رضي الله عنهما: جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم فقال بعضهم: عجبا! إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا، اتخذ ابراهيم خليلا. وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما. وقال آخر. فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر آدم اصطفاه الله. فخرج لهم صلى الله عليه وسلم فسلّم وقال « قَدْ سَمِعْتُ كَلاَمَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَمُوسَى نَجِيُّ اللهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعِيسَي رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللهُ وَهُوَ كَذَلِكَ أَلا وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَلا فَخْرَ وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ

---

(١) حديث أنس أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا ـ الحديث: الترمذي وقال حسن غريب

(٢) حديث فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ـ الحديث: الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح

(٣) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا ـ الحديث: رواه الترمذي وقال غريب

وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللهُ لِي فَأَدْخُلُهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلاَ فَخْرَ »

صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه ، وفى الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا قال [1] أنس : أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغفاءة فرفع رأسه متبسما ، فقال له يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال « آيَةٌ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا » وقرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ [1]) حتى ختمها ثم قال « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ؟ قال « إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ »

وقال [2] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ قُلْتُ مَا هَذَا يَاجِبْرِيلُ ؟ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَضَرَبَ الْمَلَكُ بِيَدِهِ فَإِذَا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ »

وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [3] « مَا بَيْنَ لاَبَتَيْ حَوْضِي مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ أَوْ مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَعَمَّانَ »

---

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت فقال آية نزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر رواه مسلم

(٢) حديث أنس بينا أنا أسير فى الجنة اذا أنابنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح ورواة البخارى من قول أنس لما عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم الى السماء الحديث : وهو مرفوع وان لم يكن صرح به عن النبى صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث أنس مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء أومثل مابين المدينة وعمان : رواه مسلم

---

(١) الكوثر

وروى (٣) ابن عمر إنه لما نزل قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبُ رِيحاً مِنَ الْمِسْكِ يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ »

وقال (٢) ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَوْضِي مَا بَيْنَ عدن إِلَى عَمَّانِ الْبَلْقَاءِ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أبدًا أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » فقال عمر ابن الخطاب : ومن هم يارسول الله ؟ قال « هُمُ الشُّعْثُ رُؤُوساً الدُّنْسُ ثِيَاباً الَّذِينَ لاَ يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ وَلاَ تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السُّدَدِ » فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتنعمات : فاطمة بنت عبد الملك ، وفتحت لى أبواب السدد إلا أن يرحمني الله لاجرم لأدهن رأسي حتى يشعث ؛ ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ

(٣) وعن أبى ذر قال : قلت يارسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ آخِرُ مَا عَلَيْهِ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ وَأَيْلَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ »

---

(١) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى إنا أعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافاه من ذهب ــ الحديث : الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى فى مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف

(٢) حديث ثوبان ان حوضى مابين عدن الى عمان البلقا ــ الحديث : الترمذى وقال غريب وابن ماجه

(٣) حديث أبى ذر قلت يارسول الله ماآنية الحوض قال والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ــ الحديث : رواه مسلم

---

(١) الكوثر

وعن (١) سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً »

فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن أنه راج ، فإن الراجى للحصاد من بث البذر ، ونقى الأرض ، وسقاها الماء ، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد . فأما من ترك الحراثة أو الزراعة ، وتنقية الأرض وسقيها ، وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة ، فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين فى شيء . وهكذا رجاء أكثر الخلق ، وهو غرور الحمقى ، نعوذ بالله من الغرور والغفلة ، فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا . قال الله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١))

القول

فى صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يأيها الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر إلى موردك ، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٢)) فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة فى شك . فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد ، فعساك تستعد للنجاة منه . وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا ، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها ، وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت

---

(١) حديث سمرة ان لكل نبى حوضا وانهم ليتباهون أيهم أكثر واردة ـ الحديث : الترمذى وقال غريب قال وقد روى الاشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح

---

(١) فاطر : ٥ (٢) مريم : ٦٩ ، ٧٠

عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب ، وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه فى الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره فى سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ، ويقولون له (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ[1]) فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم . أمانيهم فيها الهلاك ، ومالهم منها فكاك . قد شدّت أقدامهم إلى النواصى ، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصى . ينادون من أكنافها ، ويصيحون فى نواحيها وأطرافها ، يامالكُ قد حق علينا الوعيد ، يامالك قد أثقلنا الحديد ، يامالك قد نضجت منا الجلود ، يامالك أخرجنا منها فإنا لانعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ، ولاخروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون ، وعلى مافرّطوا فى جنب الله يتأسفون . ولاينجيهم الندم ، ولايغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرق فى النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار . فهم بين مقطعات النيران ، وسرابيل القطران ، وضرب المقامع ، وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها . تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم ، يصهر به مافى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم ، فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود

---

(1) الدخان : ٤٩

أحداقهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها . وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها . قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب ، وهي تنش في لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون

فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواد من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطؤن حسك الحديد بأحداقهم . فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم

هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أهوالهم ، وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شِعْبٍ فِي كُلِّ شِعْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثُعْبَانٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ لاَ يَنْتَهِي الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ حَتَّى يُوَاقِعَ ذَلِكَ كُلَّهُ »

وقال [2] علي كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ أَوْ وَادِي الْحُزْنِ » قيل يارسول الله وما وادى أو جب الحزن؟ قال « وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ »

﴿القول في صفة جهنم﴾

(١) حديث ان في جهنم سبعين ألف واد في كل وادسبعون ألف شعب في كل شعب سبعون الف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله :لم أجده هكذا بجملته وسيأتي بعده ماورد في ذكر الحيات والعقارب

(٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن ـ الحديث : رواه ابن عدى بلفظ وادى الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء

فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها ، وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ، ثم سقر ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . فانظر الآن في عمق الهاوية ، فإنه لاحدّ لعمقها ، كما لاحد لعمق شهوات الدنيا . فكما لاينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه ، فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها . قال [1] أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَتَدْرُونَ مَاهَذَا؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « هَـذَا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ عَامًا الآنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا »

ثم انظر إلى تفاوت الدركات ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت ، فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناولُ النار لهم متفاوتٌ ، فإن الله لايظلم مثقال ذرة ، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه . إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ »

فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدّد عليه . ومهما تشككت في شدة عذاب النار ، فقرب أصبعك من النار ، وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت

(١) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ــ الحديث : وفيه هذا حجر أرسل في جهنم ــ الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث ان أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار ــ الحديث : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

في القياس ، فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار ، عرف عذاب جهنم بها . وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه ، وعن هذا عبر في الأخبار حيث قيل [1] إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا . بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال [2] « أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوقَدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَارَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً فَأَذِنَ لَهَا فِي نَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَاتَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا وَأَشَدُّ مَاتَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا »

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار ، فيقال اغمسوه في النار غمسة ، ثم يقال له هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا ، فيقال اغمسوه في الجنة غمسة . ثم يقال له هل رأيت ضرا قط ؟ فيقول : لا

وقال أبو هريرة لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ، ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا

وقد قال بعض العلماء في قوله (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ [1]) إنها لفحتهم لفحة واحدة ، فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه ،

---

(١) حديث ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قدضربت بماء البحر سبع مرات ولولاذلك ماانتفع بهاأحد وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف وماوصلت اليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتضيء عليكم

(٢) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث اشتكت النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فاذن لها بنفسين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

---

(١) المؤمنون : ١٠٤

وهو الغساق . قال(١) أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ دَلْواً مِنْ غَسَّاقِ جَهَنَّمَ أُلْقِيَ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلَ الْأَرْضِ » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم (مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ (١)) (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢))

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم ، كما قال الله تعالى (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٣)) وقال تعالى (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٤)) وقال تعالى (تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥)) وقال تعالى (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً (٦))

وقال (٢) ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا أَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ ذَلِكَ »

وقال (٣) أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارْغَبُوا فِيمَا رَغَّبَكُمُ اللهُ وَاحْذَرُوا وَخَافُوا مَا خَوَّفَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ فَإِنَّهُ لَوْ

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى لو أن دلوا من غساق ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض : الترمذى وقال انما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف

(٢) حديث ابن عباس لو ان قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا إفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٣) حديث انس ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث : لم أجد له اسنادا

---

(١) ابرهيم : ١٦ ، ١٧ (٢) الكهف : ٢٩ (٣) الواقعة : ٥١ - ٥٥ (٤) الصافات : ٦٤ - ٦٨ (٥) الغاشية : ٤ ، ٥
(٦) المزمل : ١٢ ، ١٣

كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا طَيَّبَتْهَا لَكُمْ وَلَوْ كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا خَبَّثَتْهَا عَلَيْكُمْ »

وقال (١) أبو الدرداء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ حَتَّى يَعْدِلَ مَاهُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْغُصَصَ فِي الدُّنْيَا بِشَرَابٍ فَيَسْتَغِيثُونَ بِشَرَابٍ فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَمِيمُ بِكَلَالِيبِ الْحَدِيدِ فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ فَإِذَا دَخَلَ الشَّرَابُ بُطُونَهُمْ قَطَّعَ مَا فِي بُطُونِهِمْ فَيَقُولُونَ ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ قَالَ فَيَدْعُونَ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ أَنِ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ فَيَقُولُونَ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ قَالَ فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكًا فَيَدْعُونَ فَيَقُولُونَ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ فَيُجِيبُهُمْ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » قال الأعمش أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام . قال « فَيَقُولُونَ ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلَا أَحَدَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَيَقُولُونَ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ فَيُجِيبُهُمْ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ قال فَعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا فِي الزَّفِيرِ وَالْحَسْرَةِ وَالْوَيْلِ »

وقال (٢) أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وَيُسْقَى

---

(١) حديث ابى الدرداء يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث : الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن ابى الدرداء قال الدارمى والناس لايعرفون هذا الحديث وانما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن ام الدرداء عن ابى الدرداء قوله

(٢) حديث أبى أمامة فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولايكاد يسيغه قال يقرب اليه ـ الحديث : الترمذى وقال غريب

مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ [١]) قال « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ فَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » يقول الله تعالى (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ [٢]) وقال تعالى (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ [٣])

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم . فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها ، وإلى شدة سمومها ، وعظم أشخاصها ، وفظاظة منظرها ، وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهي لاتفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة . قال [١] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهَازِمِهِ » يعني أشداقه « فَيَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ » ثم تلا قوله تعالى (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ [٤]) الآية

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ مِثْلَ أَعْنَاقِ الْبُخْتِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا وَإِنَّ فِيهَا لَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ الْمُوْكَفَةِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفاً »

وهذه الحيات والعقرب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل ، وسوء الخلق ، وإيذاء الناس . ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له

ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار ، فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ، ولدغ العقارب والحيات ، من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي . قال [٣] أبوهريرة

---

(١) حديث أبي هريرة من آتاه مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه

(٢) حديث ان في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة ـ الحديث : أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء

(٣) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد ـ الحديث رواه مسلم

---

(١) ابرهيم : ١٦ ، ١٧ (٢) محمد : ١٥ (٣) الكهف : ٢٩ (٤) آل عمران : ١٨٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضِرْسُ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالْعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهُ » وقال عليه السلام (٢) « إِنَّ الْكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ فِي سِجِّينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَاطَؤُهُ النَّاسُ » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات ، فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن فى قوله تعالى (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا (١)) قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا

ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ، ودعائهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ » وقال (٤) أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْبُكَاءُ فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يُرَى فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ »

وما دام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق ، والزفير ، والدعوة بالويل والثبور ، فلهم فيه مستروح . ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك . قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات ، يجيبهم الله عز وجل فى أربعة ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا : يقولون (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (٢)) فيقول الله تعالى مجيبا لهم (ذَلِكُمْ

---

(١) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه : الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب

(٢) حديث ان الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس : الترمذى من رواية أبى المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لايعرف

(٣) حديث يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ـ الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن مسعود

(٤) حديث أنس يرسل على اهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ـ الحديث : ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس والرقاشى ضعيف

---

(١) النساء : ٥٦ (٢) غافر : ١١

بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ [(١)]) ثم يقولون (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا [(٢)]) فيجيبهم الله تعالى (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ [(٣)]) فيقولون (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ [(٤)]) فيجيبهم الله تعالى (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَايَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [(٥)]) ثم يقولون (رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ [(٦)]) فيجيبهم الله تعالى (اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ [(٧)]) فلا يتكلمون بعدها أبدا ، وذلك غاية شدة العذاب

قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ [(٨)]) قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ، ثم صبروا مائة سنة ، ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيُقَالُ يَاأَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ وَيَاأَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ »

وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليتنى كنت ذلك الرجل

ورؤى الحسن رضي الله عنه جالسا فى زاوية وهو يبكى ، فقيل له لم تبكى ؟ فقال أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة . وتفصيل غمومها ، وآحزانها ، ومحنها وحسرتها ، لانهاية له . فأعظم الأمور عليهم مع مايلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة ، وفوت لقاء الله تعالى ، وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا

---

(١) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كانه كبش أملح فيذبح : البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم

---

(١) غافر : ١٢ (٢) السجدة : ١٢ (٣) ابرهيم : ٤٤ (٤ ، ٥) فاطر : ٣٧
(٦ ، ٧) المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ (٨) ابرهيم : ٢١

كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة ، وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منغصة ، فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه ! كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ، وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ، ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه ، وبقينا الآن فى جوار رب العالمين ، متنعمين بالرضا والرضوان ! فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم مافاتهم ، وبلوا بما بلوا به ، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها .

ثم إنهم لولم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم ، لكنها تعرض عليهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاسٍ مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَهَا وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا نُودُوا أَنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْهَا لَانَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَارَجَعَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِمِثْلِهَا فَيَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِيَنَا مَاأَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهَا لِأَوْلِيَائِكَ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى ذَاكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِى بِالْعَظَائِمِ وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُرَاءُونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطُونِى مِنْ قُلُوبِكُمْ هِبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِى وَأَجْلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِى وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِى فَالْيَوْمَ أُذِيقُكُمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ مَعَ مَاحَرَمْتُكُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْمُقِيمِ »

قال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ، ثم لا يؤثر الجنة على النار !

وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح غداً بين أطباق النار يصيح

وقال داود : إلهى لاصبر لى على حر شمسك ، فكيف صبرى على حر نارك !

---

(١) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا روائحها ـ الحديث : رويناه فى الأربعين لأبى هدبة عن أنس وأبو هدبة ابراهيم بن هدبة هالك

ولا صبر لى على صوت رحمتك ، فكيف على صوت عذابك !

فانظر يامسكين فى هذه الأهوال · واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لايزيدون ولاينقصون ، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه . قال الله تعالى (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ [1]) ولعمرى الإشارة به إلى يوم القيامة ؛ بل فى أزل الأزل ، ولكن أظهر يوم القيامة ماسبق به القضاء

فالعجب منك حيث تضحك وتلهو ، وتشتغل بمحقرات الدنيا ، ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك

فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى ؟ وإلى ماذا مآلى ومرجعى ؟ وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها ، وتصدّق رجاءك بسببها . وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كُلا ميسر لما خلق له . فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار · وإن كنت لاتقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ، ولاتقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك مقضي عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ، ودلالة الدخان على النار ، فقد قال الله تعالى (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [2]) فاعرض نفسك على الآيتين ، وقد عرفت مستقرك من الدارين ، والله أعلم

القول
فى صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها ، تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من أحدها استقر لامحالة فى الأخرى . فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم ، واستثر الرجاء بطول الفكر

---
(1) مريم : ٣٩ (2) الانفطار : ١٣ ، ١٤

فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف ، وقُدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم : وتسلم من العذاب الأليم

فتفكر فى أهل الجنة ، وفى وجوههم نضرة النعيم ، يُسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر ، فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر ، متكئين على أرائك ، منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ، يمشين فى درجات الجنان ، إذا اختالت إحداهنّ فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات ، غنجات ، عطرات ، آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات فى الخيام ، فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين . ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين ، فى جنات وعيون ، فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لايرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لايخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا ، فى أنهار أراضيها من فضة ، وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ، ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين ، على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأي أكواب ، بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء بجوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمي فيقصر فى تسوية صنعته ،

وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ؛ ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته ، وحسن أصداغه ، وملاحة أحداقه

فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لايموت أهلها ، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها ! والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت ، والجوع ، والعطش ، وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لايؤثر عليها ماالتصرّم والتنغّص من ضرورته . كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفى أنواع السرور ممتّعون ، لهم فيها كل مايشتهون ، وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله مالاينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون؛ وهم من زوالها آمنون!

قال [1] أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنَادِى مُنَادٍ يَاأَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [1])

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرءان ، فليس وراء بيان الله تعالى بيان . واقرأ من قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [2]) إلى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة ، وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها ، بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أوّلا :

﴿ القول فى صفة الجنة ﴾

(١) حديث أبي هريرة ينادى منادان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هرير وأبي سعيد

---

(١) الاعراف : ٤٣ (٢) الرحمن : ٤٦

عدد الجنان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [١]) قال [١] « جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ »

ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصى . قال [٢] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ » فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ماعلى أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ »

وعن عاصم بن ضمرة ، عن علي كرم الله وجهه ، أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لاأحفظه ، ثم قال (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا [٢]) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها ، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به ، فشربوا منها ، فأذهبت مافى بطونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا إلى الأخرى ، فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ، ولا تشعث رؤسهم ، كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة ، فقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . ثم تلقاهم الولدان ، يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا . قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض

---

(١) حديث جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى موسى

(٢) حديث أبى هريرة من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة ـ الحديث : متفق عليه

---

(١) الرحمن : ٤٦ (٢) الزمر : ٧٣

أزواجه من الحور العين ، فيقول قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا فتقول أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى . فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه ، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر ، وأخضر ، وأصفر ، من كل لون . ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه ، فإذا مثل البرق . ولولا أن الله تعالى قدره لألمّ أن يذهب بصره ، ثم يطأطىء رأسه ، فإذا أزواجه ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة . ثم اتكأ فقال : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدا ، وتصحون فلا تمرضون أبدا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « آتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لاَ أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » . ثم تأمل الآن فى غرف الجنة ، واختلاف درجات العلو فيها ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة ، والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا ، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر . فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى ، فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها ، فقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ [١]) وقال تعالى (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [٢]) .

والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم ، أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك ، وضاق به صدرك ، وتنغّص بسبب الحسد عيشك . وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة ، وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها . فقد قال [٢] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله

---

(١) حديث آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد ــ الحديث : مسلم من حديث أنس

(٢) حديث أبى سعيد ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تراءون الكواكب ــ الحديث :

---

(١) الحديد : ٢١ (٢) المطففين : ٢٦

صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » قالوا يارسول الله تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم . قال « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ »

وقال أيضا [(١)] « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعِمَا »

وقال [(٢)] جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِغُرَفِ الْجَنَّةِ » قال قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك ، بأبينا أنت وأمنا . قال « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا مِنْ أَصْنَافِ الْجَوْهَرِ كُلِّهِ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَفِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ مَالَاعَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قال قلت يارسول الله ، ولمن هذه الغرف ؟ قال « لِمَنْ أَفْشَى السَّلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » قال قلنا يارسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال « أُمَّتِي تُطِيقُ ذَلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى السَّلَامَ وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَمَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَصَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » يعنى اليهود والنصارى والمجوس

[(٣)] وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ

متفق عليه وقد تقدم

(١) حديث ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يراه النجم الطالع رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد

(٢) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يارسول الله بأبينا أنت وأمنا ان فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر ـ الحديث : أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر

(٣) حديث سئل عن قوله تعالى ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصور من لؤلؤ ـ الحديث : أبو الشيخ ابن حيان فى كتاب العظمة والآجرى فى كتاب النصيحة من رواية الحسن

عَدْنٍ [1] » قال « قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فِي كُلِّ قَصْرٍ سَبْعُونَ دَارًا مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتًا مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَرِيرٌ عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً وَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ » يعنى من القوة « مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعَ »

صفة

حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل فى صورة الجنة ، وتفكر فى غبطة سكانها ، وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها . فقد قال (١) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُهَا مِسْكٌ »
(٢) وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ »
وقال (٣) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْقِيَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَمْرَ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهَا فِي الدُّنْيَا وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ

ابن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين فى هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن ابى حاتم والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة على قول الجمهور

(١) حديث أبى هريرة ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذى بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس اسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث أبى سعيد باسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه باسناد صحيح

(٢) حديث سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص: مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره

(٣) حديث أبى هريرة من سره أن يسقيه الله الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه فى الدنيا : الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن وللنسائى باسناد صحيح من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة

---

(١) الصف : ١٢

اللهُ الحَرِيرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِي الدُّنيا»[1] أنهارُ الجنةِ تَتفجرُ من تحتِ تِلالٍ أَوْ تحتِ جِبَالِ المِسْكِ[2] وَلَوْ كانَ أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ حِلْيَةً عَدَلَتْ بِحِلْيَةِ أهْلِ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا لَكَانَ مَا يُحَلِّيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فِي الآخِرَةِ أفْضَلَ مِنْ حِلْيَةِ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا

وقال[3] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَيَقْطَعُهَا اقْرَؤُا إنْ شِئْتُمْ (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ[1])

وقال[4] أبو أمامة . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم . أقبل أعرابى فقال . يارسول الله قد ذكر الله فى القرءان شجرة مؤذية ، وما كنت أدرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هِيَ ؟» قال السدر ، فإن لها شوكا . فقال «قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ[2]) يَخْضُدُ اللهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً ثُمَّ تَنفَتِقُ الثَّمَرَةُ مِنْهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ مَا مِنْهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ »

وقال جرير بن عبد الله . نزلنا الصفاح ، فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فأظله . فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان ، فأتيته أسلم عليه . فقال . ياجرير ، تواضع لله ، فإن

---

(١) حديث أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك: العقيلى فى الضعفاء من حديث أبى هريرة

(٢) حديث لوكان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به فى الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها :الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة باسناد حسن

(٣) حديث ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث أبى أمامة أقبل أعرابى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرءان شجرة مؤذية قال ماهى قال السدر ـ الحديث : ابن المبارك فى الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبى امامة

---

(١) الوقعة : ٣٠ (٢) الواقعة : ٢٨

من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة . هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت لا أدرى . قال ظلم الناس بعضهم بعضا . ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال . ياجرير ، لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده . قلت ياأبا عبد الله ، فأين النخل والشجر ؟ قال أصولها اللؤلؤ والذهب ، وأعلاها الثمر

صفة

لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله تعالى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [1]) والآيات فى ذلك كثيرة . وإنما تفصيله فى الأخبار ، فقد روى [1] أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمْ لاَ يَبْأَسُ لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ فِي الْجَنَّةِ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

[2] وقال رجل . يارسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة ، أخلق تخلق ؟ أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مِمَّ تَضْحَكُونَ مِنْ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِماً ! » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلْ يَنْشَقُّ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ »

وقال [3] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا

---

(١) حديث أبى هريرة من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه ـ الحديث : رواه مسلم دون قوله فى الجنة مالاعين رأت الخ فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبى هريرة قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ـ الحديث :

(٢) حديث قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجا ـ الحديث : النسائى من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أبى هريرة أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ـ الحديث متفق عليه

---

(١) الحج : ٢٣

وَلاَ يَتَمَخَّطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لاَاخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللّهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » وفى رواية ، « عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم [١] فى قوله تعالى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ [١]) قال « إِنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجَانَ إِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ فِيهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لاَ يَرَاهُمُ الآخَرُونَ » رواه البخارى فى الصحيح . قال ابن عباس . الخيمة درة مجوفة ، فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب

وقال [٣] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ [٢]) قال « مَا بَيْنَ الْفِرَاشَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ »

صفة

طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرءان ، من الفواكه ، والطيور السمان ، والمنّ ، والسلوى ، والعسل ، واللبن ، وأصناف كثيرة لاتحصى . قال الله تعالى

---

(١) حديث فى قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب : الترمذى من حديث أبى سعيد دون ذكر الآية وقال لانعرفه الا من حديث رشد بن سعد

(٢) حديث الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا ـ الحديث : عزاه المصنف للبخارى وهو متفق عليه من حديث أبى موسى الاشعرى

(٣) حديث أبى سعيد فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال مابين الفراشين كما بين السماء والارض : الترمذى بلفظ ارتفاعها لكما بين السماء والارض خمسمائة سنة وقال غريب لانعرفه الا من حديث رشد بن سعد

---

(١) الحج : ٢٣ (٢) الواقعة : ٣٤

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا [١])

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة . وقد قال [١] ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه حبر من أحبار اليهود ، فذكر أسئلة إلى أن قال . فمن أوّل إجازة ؟ يعني على الصراط . فقال « فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » قال اليهودي . فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ » قال فما غداؤهم على أثرها ؟ قال « يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ فِي أَطْرَافِهَا » قال فما شرابهم عليه ؟ قال « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً » فقال صدقت

وقال [٢] زيدبن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ياأبا القاسم ، ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه . إن أقرّ لي بها خصمته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْجِمَاعِ » فقال اليهودي : فإن الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ الْمِسْكِ فَإِذَا الْبَطْنُ قَدْ ضَمَرَ »

وقال [٣] ابن مسعود . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا »

---

(١) حديث ثوبان جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعني على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد النون الحديث : رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره.

(٢) حديث زيدبن أرقم جاء رجل من اليهود فقال ياأبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ـ الحديث : وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك النسائى فى الكبرى باسناد صحيح

(٣) حديث ابن مسعود انك لتنظر الى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا: البزار باسناد فيه ضعيف

---

(١) البقرة : ٢٥

وقال [١] حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْرًا أَمْثَالَ الْبَخَاتِيِّ » قال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة يارسول الله . قال « أَنْعَمُ مِنْهَا مَنْ يَأْكُلُهَا وَأَنْتَ مِمَّنْ يَأْكُلُهَا يَاأَبَا بَكْرٍ »

وقال عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ [١]) قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب ، كل صحفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [٢]) قال : يمزج لأصحاب اليمين ، ويشربه المقربون صرفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ، فى قوله تعالى (خِتَامُهُ مِسْكٌ [٣]) قال : هو شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به آخر شرابهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها

صفة

الحور العين والولدان

قد تكرر فى القرآن وصفهم ، ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [٢] « غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمِهِ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا » يعنى الخمار

---

(١) حديث حذيفة ان فى الجنة طيرا أمثال البخاتى ـ الحديث : غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس باسناد صحيح ان طير الجنة كامثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله ان هذه الطير ناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وانى أرجو أن تكون ممن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر ان هذه لناعمة ـ الحديث وليس فيه ذكر لأبى بكر وقال حسن

(٢) حديث غدوة فى سبيل أو روحة خير من الدنيا ومافيها ـ الحديث : البخارى من حديث أنس

---

(١) الزخرف : ٧١ (٢) التطفيف : ٢٧ (٣) التطفيف : ٢٦

وقال (١) أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (١)) قال « يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا فِى خِدْرِهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ »

وقال (٢) أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أُسْرِيَ بِى دَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَوْضِعًا يُسَمَّى الْبَيْدَخَ عَلَيْهِ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ وَالزَّبَرْجَدِ الْأَخْضَرِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ فَقُلْنَ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا النِّدَاءُ ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الْمَقْصُورَاتُ فِى الْخِيَامِ اسْتَأْذَنَّ رَبَّهُنَّ فِى السَّلَامِ عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَهُنَّ فَطَفِقْنَ يَقُلْنَ نَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا وَنَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَظْعَنُ أَبَدًا » وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ (٢))

وقال مجاهد فى قوله تعالى (وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (٣)) قال : من الحيض ، والغائط ، والبول ، والبصاق ، والنخامة ، والمنى ، والولد

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى فى قوله تعالى كأنهن الياقوت والمرجان قال تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة ـ الحديث : أبو يعلى من رواية أبى الهيثم عن أبى سعيد باسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية أبى الهيثم عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا دون ذكر أبى سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود ان المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة ـ الحديث : ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم

(٢) حديث أنس لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ـ الحديث : وفيه ان جبريل قال هؤلاء المقصورات فى الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط : لم أجده هكذا بتمامه وللترمذى من حديث على ان فى الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولأبى الشيخ فى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى بسند ضعيف يجتمعن فى كل سبعة أيام فيقلن بأصوات ـ الحديث :

---

(١) الرحمن : ٥٨ (٢) الرحمن : ٧٢ (٣) آل عمران : ١٥

وقال الأوزاعي (فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [١]) قال : شغلهم افتضاض الأبكار

[١] وقال رجل : يارسول الله ، أيباضع أهل الجنة ؟ قال « يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ »

وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ خَمْسَمِائَةِ حَوْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلَافِ بِكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلَافِ ثَيِّبٍ يُعَانِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمُرِهِ فِي الدُّنْيَا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ سُوقًا مَا فِيهَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ إِلَّا الصُّوَرُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيهَا وَإِنَّ فِيهَا لَمُجْتَمَعَ الْحُورِ الْعِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعِ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا يَقُلْنَ نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ »

وقال [٤] أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْحُورَ فِي الْجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ نَحْنُ الْحُورُ الْحِسَانُ خُبِّئْنَا لِأَزْوَاجٍ كِرَامٍ »

---

(١) حديث قال رجل يارسول الله أيباضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم : الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل أو يطيق ذلك قال يعطى قوة مائة

(٢) حديث ان الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا : أبو الشيخ فى طبقات المحدثين وفى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى الا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن واسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث

(٣) حديث ان فى الجنة سوقا مافيها بيع ولا شراء الا الصور من الرجال والنساء ـ الحديث : الترمذى فرقه فى موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين

(٤) حديث أنس ان الحور فى الجنة يتغنين فيقلن نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام : الطبرانى فى الأوسط وفيه الحسن بن داود المنكدرى قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لابأس به

---

(١) يس : ٥٥

وقال يحي بن كثير في قوله تعالى (فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [1]) قال السماع في الجنة

وقال [1] أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَامِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُغَنِّيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَتَقْدِيسِهِ »

بيان

جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى [2] أسامة بن زيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ إِنَّ الْجَنَّةَ لَاخَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي حَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِي مُقَامٍ أَبَداً وَنَضْرَةٍ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ» قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله . قال « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى » ثم ذكر الجهاد وحض عليه

[3] وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل في الجنة خيل فإنها تعجبني ؟ قال « إِنْ أَحْبَبْتَ ذَلِكَ أُتِيتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ

---

(١) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة الاويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميدالله وتقديسه الطبراني باسناد حسن

(٢) حديث أسامة بن زيد ألاهل من مشمر للجنة ان الجنة لاخطر لها ـ الحديث : ابن ماجه وابن حبان

(٣) حديث جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فانها تعجبني ـ الحديث : الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبوموسى المديني عبدالرحمن بن سابط في ذيله على بن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة

---

(١) الروم : ١٥

فَتَطِيرُ بِكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ »

وقال له رجل إن الإبل تعجبنى ، فهل فى الجنة من إبل ؟ فقال « يَاعَبْدَ اللهِ إِنْ أُدْخِلْتَ الْجَنَّةَ فَلَكَ فِيهَا مَااشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنَاكَ »

وعن (١) أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الْوَلَدُ كَمَا يَشْتَهِي يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ وَشَبَابُهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ اشْتَاقَ الْإِخْوَانُ إِلَى الْإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُ هَذَا إِلَى سَرِيرِ هَذَا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّثَانِ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ يَاأَخِي تَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا فِي مَجْلِسِ كَذَا فَدَعَوْنَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنَا »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ بِيضٌ جِعَادٌ مُكَحَّلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ

---

(١) حديث أبى سعيد ان الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى ويكون حمله وفصاله ونشأته فى ساعة واحدة : ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم فى هذا فقال بعضهم فى الجنة جماع ولايكون ولد انتهى ولاحمد من حديث لأبى رزين يلذويلم مثل لذاتكم فى الدنيا ويلتذذن بكم غير أن لاتوالد

(٢) حديث إذا استقر أهل الجنة فى الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال لانعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم الابهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس

(٣) حديث أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين ـ الحديث : الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله بيض جعاد ودون قوله على خلق آدم الى آخره ورواه أيضا من حديث أبى هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كحل وقال غريب وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا

(٤) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى سعيد منقطعا من أوله الى قوله وأن عليهم التيجان ومن هنا باسناده أيضا وقال لانعرفه الامن حديث رشد بن سعد

وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ إِلَى صَنْعَاءَ وَإِنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجَانَ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ مِنْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « نَظَرْتُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِذَا الرُّمَّانَةُ مِنْ رُمَّانِهَا كَخَلْفِ الْبَعِيرِ الْمُقْتَبِ وَإِذَا طَيْرُهَا كَالْبُخْتِ وَإِذَا فِيهَا جَارِيَةٌ فَقُلْتُ يَاجَارِيَةُ لِمَنْ أَنْتِ فَقَالَتْ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَإِذَا فِي الْجَنَّةِ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ، ثم قال لها تكلمى فقالت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ[1])

فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا . وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، لاتسفه الأحلام ، ولا تصدع منها الرءوس ، وإن فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ملوك ناعمون ، أبناء ثلاث وثلاثين ، في سن واحد ، طولهم ستون ذراعا فى السماء ، كحل ، جرد ، مرد ، قد أمنوا العذاب ، واطمأنت بهم الدار . وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد ، وأن عروقها ، ونخلها ، وكرمها اللؤلؤ ، وثمارها لايعلم علمها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة ، رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت ، يتزاورون فيها ، وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها

---

(١) حديث نظرت الى الجنة فاذا الرمانه من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت ـ الحديث : رواه الثعلبى فى تفسيره من رواية أبى هرون العبدى عن أبى سعيد وأبو هرون اسمه عمارة ابن جوين ضعيف جدا وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يقول الله اعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر

---

(١) المؤمنون : ١

سبعين حلة ، فتلبسها ، فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة ، قد طهر الله الأخلاق من السوء ، والأجساد من الموت ، لايتمخطون فيها ، ولايبولون ، ولايتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك . لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا : أما أنه ليس ليل يكر ، الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو . وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له في بصره وملكه مسيرة مائة عام ، في قصور من الذهب والفضة ، وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له في بصره حتي ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ، ويراح عليهم بمثلها في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره ، كما يجد طعم أوله وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار ، في كل دار سبعون ألف بيت ، ليس فيها صدع ولا ثقب

وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وأرفعهم الذى ينظر إلى ربه بالغداة والعشي

وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة إسورة سوار من ذهب ، وسوار من لؤلؤ ، وسوار من فضة

وقال أبوهريرة رضي الله عنه . إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء ، إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة ، وهي تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟

وقال يحي بن معاذ : ترك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد . وترك الدنيا مهر الآخرة

وقال أيضا : في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس . فيا عجبا لمن يختار المذلة في طلب مايفنى ، ويترك العز في طلب مايبقى

صفة

الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ [1]) وهذه الزيادة هي النظر

(١) يونس : ٢٦

إلى وجه الله تعالى . وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ، وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة . وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة . قال [١] جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا [١]) وهو مخرج في الصحيحين

وروى مسلم في الصحيح ، عن [٢] صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [٢]) قال « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ قَالُوا مَا هَذَا الْمَوْعِدُ أَلَمْ يُثْقِلْ مَوَازِينَنَا وَبَيَّضَ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيُرْفَعُ الْحِجَابُ وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ »

وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة . وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى . وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى . وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء . وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا ، فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى

---

(١) حديث جرير كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم ـ الحديث : هو في الصحيحين كما ذكر المصنف .

(٢) حديث صهيب في قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة : رواه مسلم كما ذكر المصنف

---

(١) طه : ١٣٠ (٢) يونس : ٢٦

نختم الكتاب بباب فى

سعة

رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد [1] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل . وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة ؛ فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفاؤل . ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ [1]) وقال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [2]) وقال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا [3])

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم ، أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التى لاتوافقها أعمالنا ، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ؛ ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزيناً للناس فى كتاب سطرناه ، أو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه

﴿ باب فى سعة الرحمة ﴾

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل : متفق عليه من حديث أنس فى اثناء حديث ويعجبنى الفأل الصالح الكلمة الحسنة ولهما من حديث أبى هريرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم

(١) النساء : ٤٨ (٢) الزمر : ٥٣ (٣) النساء : ١١٠

أو استفدناه . ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه ، أو سمعه ، أن نكرم بالمغفرة ، والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا ، فإن الكرم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود على أصناف الخلائق فائض ، ونحن خلق من خلق الله عز وجل لاوسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

ويروى أنه[2] إذا كان يوم القيامة ، أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين . فيخرج من النار مِثلا أهل الجنة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « يَتَجَلَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَاحِكًا فَيَقُولُ أَبْشِرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم[4] « يُشَفَّعُ اللهُ تَعَالَى آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ فِي مِائَةِ أَلْفِ أَلْفٍ وَعَشَرَةِ آلَافِ أَلْفٍ »

---

(١) حديث ان لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان

(٢) حديث اذا كان يوم القيامه أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتي سبقت غضبي ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي لفظ البخاري وقال مسلم كتب فى كتابه على نفسه ان رحمتي تغلب غضبي

(٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فانه ليس منكم أحد الا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا : مسلم من حديث أبي موسى اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار ولأبي داود أمتي أمة مرحومة لاعذاب عليها فى الآخرة ـ الحديث : وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد بن جدعان

(٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف : الطبراني من حديث أنس باسناد ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ يَارَبَّنَا فَيَقُولُ لِمَ فَيَقُولُونَ رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ فَيَقُولُ قَدْ أَوْجَبْتُ لَكُمْ مَغْفِرَتِي »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ قَالُوا بَلَى فَيَقُولُونَ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا فَيَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَاقَالُوا فَيَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ مَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَيَخْرُجُونَ فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ الْكُفَّارُ قَالُوا يَالَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجَ كَمَا أُخْرِجُوا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ [١])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا »

وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذى يدخل

---

(١) حديث ان الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم ـ الحديث : أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف

(٢) حديث يقول الله عزوجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أوخافنى فى مقام: الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب

(٣) حديث اذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ماأغنى عنكم اسلامكم اذأنتم معنا فى النار ـ الحديث : فإخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه باسناد صحيح

(٤) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله قصة المرأة من السبي اذ وجدت صبيا فى السبي فأخذته فالصقته ببطنها فارضعته

(١) الحجر : ٢

الجنة بغير حساب . ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره

ويروى أن الله عزوجل قال لموسى عليه السلام : ياموسى ، استغاث بك قارون فلم تغثه . وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه

وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى . ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ، ويتلكأ الآخر ، فيؤمر بردهما ، ويسألهما عن فعلهما . فيقول الذى عدا إلى النار . قد حذرت من وبال المعصية ، فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية . ويقول الذى تلكأ : حسنُ ظنى بك كان يشعرنى أن لاتردنى إليها بعد ماأخرجتنى منها . فيأمربهما إلى الجنة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَاأُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَمَّا مَا كَانَ لِي قِبَلَكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ وَبَقِيَتِ التَّبِعَاتُ فَتَوَاهَبُوهَا وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي »

ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا (١)) فقال الأعرابي والله ماأنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها : فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه

وقال (٢) الصنابحى : دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت ، فبكيت ، فقال مهلا لم تبكى ؟ فوالله مامن حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أماما كان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى : رويناه فى سباعيات أبى الاسعد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة

(٢) حديث الصنابحى عن عبادة بن الصامت من شهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار : مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر

---

(١) آل عمران : ١٠٣

لكم فيه خير إلا حدثتكموه ، إلا حديثا واحد ، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ »

وقال [1] عبد الله بن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ لَا يَارَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَيُخْرِجُ بِطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَيَقُولُ يَارَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ قَالَ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط [2] « إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ » فكان أبو سعيد يقول :

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو ان الله يستخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة : ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب

(٢) حديث ان الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ـ الحديث : في اخراج الموحدين وقوله تعالى لاهل الجنة فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد

إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [١]) قال « فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ مِمَّا يَلِي الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ أُبَيْضُ » قالوا يارسول الله ، كأنك كنت ترعى بالبادية . قال « فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمْ فَهُوَ لَكُمْ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَارَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ؟ فَيَقُولُ رِضَائِي عَنْكُمْ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما

وروى البخارى أيضا عن (١) ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ يَمُرُّ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ لِي انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا فَقِيلَ لِي هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله

(١) حديث ابن عباس عرضت على الامم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث : الى قوله سبقك بها عكاشة رواه البخارى

(١) النساء : ٤٠

صلى الله عليه وسلم . فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا فى الشرك ، ولكن قد آمنا بالله ورسوله ، هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم يارسول الله . فقال « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ »

وعن [1] عمرو بن حزم الأنصارى قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع . فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدثَ حدثٌ . قال « لَمْ يَحْدُثْ إِلاَّ خَيْرٌ، إِنَّ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِى أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِى الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفًا لاَحِسَابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى فِى هَذِهِ الثَّلاَثَةِ أَيَّامٍ الْمَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّى مَاجِدًا وَاجِدًا كَرِيمًا فَأَعْطَانِى مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا سَبْعِينَ أَلْفًا قَالَ قُلْتُ يَارَبِّ وَتَبْلُغُ أُمَّتِى هَذَا قَالَ أُكَمِّلُ لَكَ الْعَدَدَ مِنَ الأَعْرَابِ »

وقال [2] أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عَرَضَ لِى جِبْرِيلُ فِى جَانِبِ الْحَرَّةِ فَقَالَ بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَيُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ فَقُلْتُ يَاجِبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ نَعَمْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى

---

(١) حديث عمرو بن حزم الانصارى تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج الا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه ان ربى وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم وفيه أعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البيهقى فى البعث والنشور ولاحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبرانى فى الأوسط من حديث عبدالرحمن بن أبى بكر فقال عمر فهلا استزدته فقال قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى هكذا وفرج عبدالله ابن أبى بكر بين يديه قال عبدالله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى بن عبيدة الربذى ضعيف

(٢) حديث أبى ذر عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال بشر أمتك بانه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ـ الحديث : متفق عليه بلفظ أتانى جبريل فبشرنى وفى رواية لهما أتانى آت من ربى

قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ »

وقال (١) أبو الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (١)) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٢)) فقلت وإن سرق وإن زنى ؟ فقال (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٣)) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال « وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ فَقِيلَ لَهُ هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ »

وروى مسلم فى الصحيح عن (٣) أبى بردة ، أنه حدث عمر بن عبد العزيز ؛ عن أبيه أبى موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاَ يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلف له.

وروى أنه (٤) وقف صبي فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة فى خباء القوم ، فأقبلت تشتد ، وأقبل

---

(١) حديث أبى الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان زنى وان سرق ـ الحديث : رواه أحمد باسناد صحيح

(٢) حديث اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار، رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه وقد تقدم

(٣) حديث أبى بردة انه حدث عمر بن عبد العزيز عن ابيه أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لايموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا : عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك

(٤) حديث وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة الحديث : وفيه الله أرحم بكم جميعا من هذه بابنها متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فاذا امرأة من السبي تسعى

(١ ، ٢ ، ٣) الرحمن

أصحابها خلفها ، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت ابنى ابنى . فبكى الناس وتركوا ماهم فيه . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أَعَجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هَذِهِ لِابْنِهَا » قالوا نعم . قال صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِكُمْ جَمِيعاً مِنْ هَذِهِ بِابْنِهَا » فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة

فهذه الأحاديث وما أوردناه فى كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى أن لايعاملنا بما نستحقه ، ويتفضل علينا بما هو أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته

اذ وجدت صبيا فى السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار قلنا لاوالله وهى تقدر على أن لاتطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخارى فاذا امرأة من السبى قدتحلب ثديها تسعى اذوجدت صبيا ـ الحديث ـ *

والحمد لله تعالى عودا على بدء، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد فى كل حركة وهدء ـ ويقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقى انى أكملت مسودة هذا التأليف فى سنة ٧٥١ وأكملت تبييض هذا المختصر منها فى يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الاول سنة ٧٩٠ انتهى

ـ * ـ

كتاب الإملاء

كتاب الإملاء

فى إشكالات الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماخصص وعمم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم ، سألت يسّرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرّب لك مقامات الولاية تحل معاليها عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وذعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا مُمليه إلى ضلال وإضلال ونبذوا قرّاءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة ، واختلال ، فإلى الله إنصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [١]) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [٢]) (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ [٣]) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ [٤]) ولكن الظالمون فى شقاق بعيد ، ولا عجب فقد توى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ،

---

(١) الزخرف ١٩ (٢) الشعراء : ٢٢٧ (٣) يونس : ٣٩ (٤) النساء : ٨٣

وتألفوا جميعا على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة ، والمكر ، إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى عامهم الفقراء فى طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لايفلحون ، ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لاتظهر عليهم مواريث الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد ، وفوائد الأقطاب ، وفى هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوّة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربع ، بالجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى : فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء (وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ[1]) (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[2]) فلا يغرنك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكأن قد جمع الخلائق فى صعيد (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ[3]) وتلى (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ[4]) فيالَه من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقيل ، ومتابعة الأباطيل ، (فَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[5]) ولا تطع كل أفاك أثيم (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ[6]) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً[7]) (وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[8]) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[9]) ولقد جئناك بحول الله وقوّته ، وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة مازعمت فيه من

(١) البروج : ٢٠ (٢) سبأ : ٤٧ (٣ ، ٤) ق : ٢١ ، ٢٢ (٥) الأعراف : ١٩٩ (٦) الأنعام : ٣٥
(٧) هود : ١١٨ (٨) يونس : ١٠٩ (٩) القصص : ٨٨

تخصيص الكلام بالمثل الذى ذكر فيه الأقلام إذ قد اتفق أن يكون أشهر مافى الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتي لقد صار المثل المذكور فى المجالس تحية الداخل وحديث الجالس ، فساعدتنا أمنيتك ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملائنا هذا بيانا غيره مما عدّوه مشكلا ، وصار لعقولهم الضعيفة مخبلا ومضللا ، ونحن نستعيذ بالله من الشيطان ، ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه فى المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان

ذكر ما سيم

الأسئلة فى المثل

ذكرت رزقك الله ذِكرَهُ وجعلك تعقل نهيه وأمره ، كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافى التقسيم فى المشهود كماينافى التكرير التعديد ، وإن صح انقسامه على وجه لايندفع ، فهل تصح تلك القسمة فيما يوجد ، أوفيما يقدر ورغبت مزيد البيان فى تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها ، إن كان يقع بينهم التفاوت ، وماوجه تمثيلها بالجوز فى القشور واللبوب ، ولم كان الأول لاينفع ، والآخر الذى هو الرابع لايحل إفشاؤه ؟ ومامعنى قول أهل هذا الشان : إفشاء سر الربوبية كفر أين أصل ماقالوه فى الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والتقريب والتبعيد ، والصديقية وسائر مقامات الولاية ، ودركات المخالفة إنما هي مآخذ شرعية ، وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ، ومخاطبة الجمادات للعقلاء ، وبماذا تسمع تلك المخاطبة أبحاسة الآذان ، أم بسمع القلب ؟ ومالفرق بين القلم المحسوس والقلم الالهـي ؟ ، وماحد عالم الملك وعالم الجبروت ، وحد عالم الملكوت ؟ ، وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ ، وما الفرق بين الصورة الظاهرة التى يكون معتقدها منزها مجللا ؟ ، وما معنى الطريق فى ، فإنك بالوادى المقدس طوى ، ولعله ببغداد أوأصفهان أونيسابور أوطبرستان فى غير الوادى الذى سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ؟ ، وما معنى

فلستمع بسرّ قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ، وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ، أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ؟ ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله ، وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجورة على أحد إلاعلى من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع فى النداء إذا سمع . أهَلْ أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين ، وما الذى أوصله إلى مقامهم وهو فى المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ، وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ، وإلى أين وجهته فى الانصراف وكيف صفة انصرافه ، وما الذى يمنعه من البقاء فى الموضع الذى وصل إليه وهو أرفع من الذى خلفه ، وأين هذا من قول أبى سليمان الدارانى المذكور فى غير الإحياء ، لو وصلوا مارجعوا ماوصل من رجع ، ومامعنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هـذا العالم ، ولاأحسن ترتيبا ، ولاأكمل صنعا ، ولوكان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود ، وعجزا يناقض القدرة الإلهية ، وماحكم هذه العلوم المكنونة ، هل طلبها فرض ومندوب إليه ، أوغير ذلك ، ولم كسبت المشكل من الألفاظ ، واللغز من العبارات ، وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبربه ويمتحن فمابال من ليس شارعا ، انتهى جملة مراسم الأسئلة فى المثل فأسأل الله تعالى أن يملى علينا ماهو الحق عنده فى ذلك ، وأن يجرى على السنتنا مايستضاء به فى ظلمات المسالك ، وأن يعم بنفعه أهل المبادى والمدارك ، ثم لابد أن أمهد مقدمة وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية

أما المقدمة : فالغرض بها تبيين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهـل القصور ، فنذكر مايغمض منها ، ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على مايكون من كلامنا مختصا بهذا الفن فى هذا ، وغيره ، فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ ،

وأما القاعدة : فنذكر فيها الاسم الذى يكون سلوكنا فى هذه العلوم عليه ، والسمت الذى ننوى بقصدنا إليه ، ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم

وأما الوصية : فنقصد فيها تعريف ما على من نظر فى كلام الناس وآخذ نفسه بالإطلاع على أغراضهم فيما ألفوه ، من تصانيفهم وكيف يكون نظره فيها واطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أؤكد عليه أن يتماسه من ظهورها ، فشردوا عنها ، وغلقت فى وجوههم الأبواب ، وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب ، وولجوا على الرضا بالحبيب ، لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1])

المقـــدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة ، منها ما يستعمله الجماهير والعموم ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ، والصنائع على ضربين ، علمية وعملية ، فالعملية كالمهن والحرف ، ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتعاطون أصول صناعتهم ، والعلمية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة ، بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لا يشاركهم فيها غيرهم ، إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما فى صورة اللفظ دون المعنى أو فى المعنى وصورة اللفظ جميعا ، وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور ، وأرباب الصنائع ، وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب فى التقسيم ، واختيار لفظ دون غيره ، وحد بطرفين ، مبدأ وغاية ، وما لم يكن كذلك فلا نسميه صناعة ، كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طرق من بعدهم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذى هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها ، لا نسميها عندهم صناعة ونسميها بذلك عند ضبطها ، بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسلمين بالسادة ، والملقبين بالصوفية ، والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين

(١) النور : ٤٦

بالرقة ، والمعزي إليهم ، والعلم والعمل ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها ، فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر مايغمض منها ، إذ قد يقع منا عند مانذكر شيئا من علومهم ، ونشير إلى غرض من أغراضهم ، فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولاحرج فى ذلك عقلا وشرعا ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير

فمن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح والطوالع ، والذهاب ، والنفس ، والسر والوصل والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتحلى والتخلى ، والتجلى ، والعلة والانزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة والحرية واللطيفة ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحلم ، والزوائد والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبه والرهبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد فنذكر شرح هذه على أوجز مايمكن ، بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم فى علومهم أكثر مما ذكرنا ، فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورا ، تتعلم به إذا طرأ عليك مالم نذكره لك ههنا ، إذلها مبحث وإليها سبيل فتطلبه بعد ذلك على وجهه

فأما السفر والطريق : فالمراد بهما سفر القلب بآلة الفكر فى طريق المعقولات وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر فى لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التى بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مماشاركه فيه البهائم والأنعام ، وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عزوجل معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والنهي ، وتعلق الغرض فيها ، والمراد بها ، ومنها فإذا خلفوا نواحيها ، وقطعوا معاطنها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه ، أعرض وأطول من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية ، النفس والعدو والدنيا ، فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها فى الانتساب ، وأعرض بغير حساب ، من ذلك سر القدر ، وكيف خفي بحكم فى الخلائق ، وقادم بلطف فى عنف ، وشدة فى لين ، وبقوة فى ضعف ،

وباختيار فى جبر ، إلى ماهو فى مجاريه لايخرج المخلفون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب ، مثل العلم الآلهي واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة ، وملائكة الله يطوفون حول العرش ، بالبيت المعمور وهم يسبحونه ، ويقدسونه وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطى منها إلى معرفة الخالق للكل ، والمالك للجميع ، والقادر على كل شيء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة ، فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحضرون حيث غاب أهل الدعوى ، ويبصرون ما عمى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى

والحال : منزلة العبد فى الحين فيصفوله فى الوقت حاله ووقته وقيل هو مايتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال ، وقال بعضهم ، الحال لايزول فإذا زال لم يكن حالا

والمقام : هو الذى يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فتى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ، حتى ينقل منه إلى غيره

والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد فى معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم

مكانك من قلبي هو القلب كله فليس لشيء فيه غيرك موضع

والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظا

والطوالع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ، فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب

والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها

والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطفىء شرها

والسر : ماخفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق ، وسر السر مالا يحس به السر

والسر: ثلاثة سر العلم، وسر الحال، وسر الحقيقة، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل، وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله؛ وسر الحقيقة ماوقعت به الإشارة

والوصل: إدراك الفائت

والفصل: فوت ماترجوه من محبوبك

والأدب: ثلاثة. أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة:

والثانى: أدب الخدمة وهو التشمر عن الملامات والتجرد عن الملاحظات

والثالث: أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة

والرياضة: اثنان. رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب وهو صحة المراد

والتحلى: التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال

والتخلي: اختيار الخلوة والإعراض عن كل مايشغل عن الحق

والتجلى: هو ماينكشف للقلوب من أنوار الغيوب

والعلة: تنبه عن الحق

والانزعاج: انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة

والمشاهدة: ثلاثة. مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ومشاهدة للحق وهي رؤية الحق فى الأشياء، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب

والمكاشفة: أتم من المشاهدة وهى ثلاثة، مكاشفة بالعلم: وهى تحقيق الإصابة بالفهم ومكاشفة بالحال: وهي تحقيق رؤية زيادة الحال، ومكاشفة بالتوحيد: وهى تحقيق صحة الإشارة

واللوائح: مايلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها، والارتقاء من درجة إلى ماهو أعلى منها.

والتلوين: تلوين العبد فى أحواله، وقالت طائفة: علامة الحقيقة. رفع التلوين بظهور الاستقامة، وقال آخرون: علامة الحقيقة. التلوين لأنه يظهر فيه قدرة

القادر ، فيكسب منه العبد الغيرة .

والغيرة : غيرة فى الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ، فالغيرة فى الحق برؤية الفواحش والمناهى ، والغيرة على الحق هي كتمان السرائر ، والغيرة من الحق ضنّه على أوليائه

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبدا وعند غيره حرا

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح فى الفهم ولا يسعها العبارة

والفتوح : ثلاثة . فتوح العبادة فى الظاهر : وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الحلاوة فى الباطن : وهو سبب جذب الحق بإعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والوسم والرسم : معنيان يجريان فى الأبد بما جريا فى الأزل

والبسط : عبارة عن حال الرجاء

والقبض : عبارة عن حال الخوف

والفناء : فناء المعاصى ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك

والبقاء : بقاء الطاعات ، ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء

والجمع : التسوية فى أصل الخلق ، وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق

والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، وإذا جمع بينهما فقد وجد

عين التحكم : إظهار غاية الخصوصيه بلسان الانبساط فى الدعاء

والزوائد : زيادات الإيمان بالغيب واليقين

والإرادات : ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى : وذلك موضع التمنى ، وإرادة الحظ منه : وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه : وذلك موضع الإخلاص

والمريد : هو الذى صح له الابتلاء ودخل فى جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم

والمراد : هو العارف الذى لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغيّر الأحوال والمقامات .

والهمة : ثلاثة . همة مُنية : وهي تحرك القلب للمنى ، وهمة إرادة : وهي أول صدق المريد ، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل . فإن الأمر إدّ والخطب جد ، والآخرة مقبلة ، والدنيا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد والزاد طفيف ، والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رَد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكدّ ، فأدلةُ الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ، فصار يرى المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، حتى ظل علم الدين مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمسا ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لاعلم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ، فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام

والغربة : ثلاثة . غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد ، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال ، وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة

والاصطلام : نعت ، وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها

والمكر : ثلاثة . مكر عموم : وهو الظاهر فى بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو فى سائر الأحوال ، ومكر خفي فى إظهار الآيات والكرامات

والرغبة : ثلاثة . رغبة النفس فى الثواب ، ورغبة القلب فى الحقيقة ، ورغبة السر فى الحق

والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق

والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده

والوجود : تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندهم ، وسئل بعضهم عن

الوجد والوجود فقال : الوجد ماتطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ماتجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين والوجود مع التمكين

والتواجد : استدعاء الوجد . والتشبه فى تكلفه بالصادقين من أهل الوجد

القاعدة : وأما القاعدة التى ينبنى عليها هذا الفن بأسره ، فذلك اجتذاب أرواح المعانى والإشارة إلى البعد فى القرب ، قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى ، قصدا ذاتيا لا على ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوّة والنظر إلى الملكوت من كوّة ، ومعرفة العلوم فى الانصراف ومصاحبة القدر بالمساعدة ، وبالمعروف ومعاطاة الوجودات الخمس ، الذاتى ، والحسى ، والخيالى ، والعقلى ، والشبهى حسبما فهم من الشرع ، وثبت معناه فى المحفوظ من الوحي ، وقلما أدرك شيء من العجز ، والعلم لا ينال براحة الجسم (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ [١]) (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [٢])

والوصية

أيها الطالب للعلوم ، والناظر فى التصانيف ، والمستشرف على كلام الناس ، وكتب الحكمة ، ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ، ولله ، وفى الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به ، وكّلك إلى نفسك ، أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره ، من فهم ، أو علم ، أو حفظ أو إمام متبع ، أو صحة ميز ، أو ما شاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ، ونكصت على عقبيك ، وخسرت فى الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [٣]) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبتّ معه غيره ، ولاحظت بالحقيقة سواه ، ورؤية غيره دونه تعمى القلب ، وتهتك الستر ، وتحجب اللبّ وإذا نظرت فى كلام أحد من الناس ، ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن

(١) الطلاق : ٤ ، ٥ (٢) الطلاق : ٣ (٣) الكهف : ١١٠

يستغنى عنه فى الظاهر ، وله إليه كثير حاجة فى الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه ، فالمعانى أوسع من العبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه ، واطمح بنظر قلبك فى كلامه إلى غاية مايحتمل ، فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصده ، ولا تقطع له بصحة ، ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه ، حتى يزول الإشكال عنك ، بما تتيقن من معانيه ، وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة ، واطلب المعاذير للسيئة ، ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ماتجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ، ولا تبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر ، فلكل عالم عورة ، وله فى بعض مايأتى به احتجاج ، وناهيك ماجرى بين وليّ الله تعالى الخضر وكليمه موسى ، على نبينا وعليهما السلام ، وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن فى الظاهر بمحال ، أو اختلال ، فخذ ماظهر لك علمه ، ودع مااعتاص عليك فهمه ، وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتى لك ، فاحفظها ، وتذكيرى إياك فلا تذهل عنه

اسمع وصيتى إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخلف

وأزيدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء ، لكي يُعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك فى ذلك أكبر منفعة ، ولى فى وصفهم أبلغ غرض ، قال علماؤنا : العلماء ثلاثة . حجة ، وحجاج ، ومحجوج ، فالحجة : عالم بالله وبأمره وبآياته ، مهتما بالخشية لله سبحانه ، والورع فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والإيثار لله عز وجل ، والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة ، وإطفاء نار البدعة ، قد أخرس المتكلمين ، وأفحم المتخرصين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ماينازع ، شواهده بينة ، ونجومه نيرة ، قد حمى صراط الله المستقيم ، والمحجوج : عالم بالله ، وبأمره ، وبآياته ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد فى الدنيا ، والرغبة والحرص ، وبعّده من بركات علمه محبةُ العلوّ والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعد علمه ، مغتر بعد معرفته ، مخذول بعد نصرته ، شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستحلاف

بالجهال من عباده ، وغرُّه بلقاء أميره ، وصلة سلطانه وطاعة القاضي والوزير والحاجب له ، قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه ، والاتباع له ، ومن يكون بعده قدوة به ، ومراده من الدنيا مثله في مثل هذا ضرب الله المثل حين قال (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (١)) فويل لمن صحب مثل هذا في دنياه ، وويل لمن تبعه في دينه ، وهذا هو الذي أكل بدينه ، غير منصف لله سبحانه في نفسه ، ولاناصح له في عباده ، تراه إن أعطي من الدنيا رضي بالمدحة لمن أعطاه ، وإن مُنع رش بالدم لمن منعه ، وقد نسي من قسّم الأرزاق ، وقدّر الأقدار ، وأجرى الأسباب ، وفرغ من الخلق كلهم ، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى ، وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذي نحن فيه ، فقصدي أن يعلم من ذهب من الناس ، ومن بقي ، ومن أبصر الحقائق ، ومن عمي ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ، ومن غوى ، فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا ، وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولامدرك بالملاحظة

غاب الذين إذا ماحدّثوا صدقوا   وظنهم كيقين إن هم حدسوا

وذلك لما سبق في القضاء من ظهور الفساد ، وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم . وعدم الصنف الثالث على غربته ، وأعز شيء على وجه الأرض وفي الغالب مايقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى ، وحماقة ، واجتراء ، وعجب بغير فضيلة ، ورياء ، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمّر الأرض وصيّروا أنفسهم أوتاد البلاد ، وأرسان العوام ، وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ، وأخدان لعوائد السوء ، وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين

---

(١) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

مثل البهائم جهـال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا
كلّ يروم على مقدار حيلتـه زوائر الأسد والنباحة القشا

(فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (١))(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢))أولئك كالأنعام بل هم أضـل أولئك هم الغافلون

أولوا النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولنأخذ فى جواب ماسألت عنه ، على نحو مارغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ البصيرة ، وحسن السريرة ، وغفران الجريرة ، وهو ربى ورب كل شيء وإليه المصير.

ابتداء الأجوبة

عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم فى الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيها لموافقة الغرض فى التمثيل به ، وذكرت أن المعترض وسوس ، أو بالخواطر هجس ، بأن لفظ التوحيد ينافى التقسيم ، إذ لايخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذى ليس بزائد عليه ، فذلك لاينقسم لابالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك ، وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ، فذلك أيضا لاينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل : وذلك لضيق المجال فيه ، ولهذا لايتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين ، أحدهما : الشرك ، والثانى : الإلباس ، وكلا الطرفين كفر والوسط إيمان محض وهو أحدّ من السيف ، وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين : بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين ، وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هي علومهم ، ومذهبهم فى ذلك معروف ، ونحن لانلم فى هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ، ومقابلة الأقوال بالأقوال ، بل بقصد إزالة غبر الإشكال ، وردّ ماطعن به أهل الضلال والإضلال

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه هٰهنا بشيء قدح به

(١) المنافقون : ٤ (٢) المنافقون : ٢

المعترض ، أو هجس به الخاطر ، وإنما المستعمل ههنا من أنحائه ماتتميز به بعض الأشخاص ، بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيدا ، على جهة تنفرد بها ، لايشاركها فيها غيرها ، فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحـدا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ماشرع فى الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه ، والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ، ولا برهان يربط به سمي أيضا موحدا ، على معنى أنه يعتقد التوحيد ، كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيا ، والحنبلي حنبليا ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنـده ، وسعى من أجله بشكوكه العارضة له ، فيسمى موحدا ، لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي وفقيه ، ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو .

وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملته حتى لايجد فيه فضلا لغيره ، إلا على طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه ، سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له ، لأجل اشتغاله بغيره كالعادة فى سائر العلوم ، فهذا يسمى موحدا ، ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه

فأما الصنف الأول : وهم أرباب النطق المفرد ، فلايضربون فى التوحيد بسهم ، ولا يفوزون منه بنصيب ، ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله فى الحياة إلا مادام الظن بهم ، ان قلب أحدهم موافق للسانه ، كما يفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عزوجل

وأما الصنف الثاني : وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ ؛ يخبر عن توحيد الله عز وجـل ، أو يأمر به ، ويلزم البشر قول لاإله إلا الله المنبيء عنه ، فقبلوا ذلك ، واعتقدوه على الجملة ، من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد ، وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذى هو منهم ، وبمنزلة من كثر سوادقوم فهو منهم

وأما الصنف الثالث والرابع : فهم أرباب البصائر السليمة ، الذين نظروا بها إلى أنفسهم ، ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها ، فرأوا ، على كل منها خطا منطبعا

فيها ، ليس بعربي ، ولا سرياني ، ولا عبراني ، ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءته من لم يستعجم عليه ، وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الخط الإلٰهى المكتوب على صفحة كل مخلوق ، المنطبع فيه من مركب ومفرد ، وصفة وموصوف ، وحي ، وجماد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، ومظلم ونيّر ، وهو الذى يسمى تارة بعلامة ، وتارة بسِمة ، وتارة بأثر القدرة ، وتارة بآية ، كما قال الشاعر : ولا أدرى عن سماع أو رؤية قلب

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلو قرؤا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه ، وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق فى ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ، فتركوا الكتابة والمكتوب ، وترقوا الى معرفة الكاتب ، الذى أحدث الأشياء وكونها ، ولا يخرج عن ملكه شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [1]) فخلصت لهم التفرقة والجمع ، وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره ، وعقلت أنها عقلت توحيده ، فسبحان من يسّرها لذلك ، وفتح عليها بما ليس فى وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير، لكن الصنف الثالث : لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موجدا لديه فيما لا يزال ، وهم المقربون ، والصنف الرابع : لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل ، وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم : فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ، فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان فى زمن الدعوة ، أو على قرب يمكن وصول علمها إليه ، أو فى فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا صنف مبعد عن مقام هذا الكلام ، وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا فى عقده ، أو عالما به ، والمقلدون هم العوام ، وهم أهل المرتبة الثانية فى الكتاب ،

---

(1) الشورى : ١١

فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التى أعدت لصنفه دون النبوّة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ . فالذى لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون، وهم أهل المرتبة الثالثة،والذين بلغوا الغاية التى أعدت لهم ، وهم الصديقون ، وهم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والإثبات ، ومحصور بين المبادى والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى فى شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ، ودعوى غير صافية ، ثم لابد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ، ومزيد شرح ، وبسط بيان ، تعرف منه باذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والامكان، بما يجريه الواحد الحق على القلب واللسان

بيان

مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف ، أحدهم : نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يعتقدوا معنى مانطقوا به ، لما لم يعلموه لايتصوّرن صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه . إما لبعد همتهم وقلة اكترائهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به ، أو يبدوا لهم مايلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك فإن التزموها فاتهم راحات أبدانهم العاجلة ، وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك ، وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة ، من خوف عقاب ترك ماعلموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب ، أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه ، على مايغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة ، والأشربة والأنكحة ، أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها ، أو يرتكبها على رقبه ، وخوف أن يصيبه صورة مايعلم ضرورة منها ، فيدع قراءة الطب رأسا ، سئل هذا الصنف عن معنى مانطقوا به ، وهل اعتقدوه ؟ فيقولون لانعلم فيه مايعتقد ، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير ، وانخراطا بإظهار القول فى الجمّ الغفير ، ولا نعرف

هل ماقلناه بالحقيقة من قبيل العرف والنكير ، ولا شك أن هذا الصنف الذى أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسألة الملكين ، أحدهم فى القبر إذ يقولان من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لادريت ولا تليت ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب

والصنف الثانى : نطق كما نطق الذين من قبلهم ، ولكنهم أضافوا إلى قولهم مالا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ماقالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء إن عليا هو الإله ، وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه ، وكانوا فى زمنه فحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ، ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الزَّنَادِقَةَ »

والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ، ولكنهم آثروا التكذيب ، واعتقدوا الرد ، واستنبطوا خلاف ماظهر منهم ، من الإقرار وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ، فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [1])

والصنف الرابع : قوم لم يعرفوا التوحيد ، وما نشؤا عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ، ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين ، والإقرار بهما ، فقالوا لانعلم مقتضى هذا اللفظ ، ولانعقل معنى المأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلامهلة فسكنوا إلى ما قيل لهم ، ونطقوا بالشهادتين ظاهرا ، وهم على الجهل بما يعتدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه ، من قبل أن يأتي منه استفهام أوتصور يمكن أن يكون له معه معتقد ، فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم

---

(1) البقرة : ١٤ ، ١٥

عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار. تحكم على غيب الله سبحانه، وربما كان من هذا الصنف فى الحكم عند الله عز وجل، قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا الى النطق، فيجيبوا مساعدة ومحاذاة، ثم يدعوا إلى تفهم المعنى بكل وجه، فلايتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه، كأنما تخاطب بهيمة، ومثل هذا أيضا فى الوجود كثير، ولاأحكم على أحد مثله بخلود فى النار، ولابعد أن هذا الصنف بأسره، أعنى المخترم قبل تحصيله العقد مع هـذا البليد البعيد بعض ماذكره النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة: الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته، حين يقول تعالى: فرغت شفاعة الملائكة والنبيين، وبقيت شفاعتى وهو أرحم الراحمين، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط، ويدخلون الجنة، ويكون فى أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل، والحديث يطول وهو صحيح، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى

وحكم الصنف الأول، والثانى، والثالث، أجمعين أن لايجب لهم حرمة، ولايكون لهم عصمة، ولاينسبون إلى إيمان ولاإسلام، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين، فإن عثر عليهم فى الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون: (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [1])

فصل

ولما كان اللفظ المنبيء عن التوحيد إذا انفرد عن العقد، وتجرد عنه، لم يقع به فى حكم الشرع منفعة، ولالصاحبه بسببه نجاة، إلامدة حياته عن السيف أن يراق دمه، واليدان تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله، حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى، فهو لايحتمل ولايرفع فى البيوت، ولايحضر فى المجالس، أي مجالس الطعام، ولا تشتهيه النفوس، إلامادام منطويا على مطعمه، صونا على لبّه، فإذا أزيل عنه

(١) المؤمنون: ١٠٤

بكسر أوعلم منه أنه منطو على فراغ ، أوسوس ، أوطمه فاسد ، لم يصلح لشيء ، ولم يبق فيه غرض لأحد ، وهذا لاخفاء فى صحته ، والغرض بالتمثيل تقريب ماغمض إلى نفس الطالب ، وتسهيل مااعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ، ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه

فصل

فإن قلت . فما الذى صدّ هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر ، والبحث ، حتى تعلموا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا ، من عذاب الله ، وهم فى الظاهر قادرون على ذلك ، وما المانع الخفي الذى منعهم وأبعدهم عنه ، وهم يعلمون أن ماعليهم كبير مؤنة ، ولا عظيم نفقة ؟

فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابًا عظيما ، ويهز قاعدة كبيرة ، يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ، ولكن لابد إذا وقع فى الأسماع ، ووعته قلوب الطالبين ، واشتاقت إلى سماع الجواب عنه ، أن نورد فى ذلك قدر مايقع به الكفاية ، وتقنع به النفوس بحول الله وقوته ، نعم ماسبق فى العلم القديم لاتجرى بخلافه المقادير ، فهم من ذلك بإرادة الله عز وجل ، جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية ، والشيم الذئابية ، والطباع السبعية ، وغلبتها عليهم والملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب ، كذلك قال عليه السلام ، والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده ، وأعدها لأن تكون خزائن علمه ، ومشارق مكنوناته ، ومهبط ملائكته ، ومغاشى أنوازه ، ومهابّ نفحاته ، ومجال مكاشفاته ، ومجارى رحمته ، وهيأها لتحصيل المعرفة به ، فتى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ، ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله ، إذ هى الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه ، وهم الوفود منه بالخيرات والموصلون إليه وعنه ، بالباقيات الصالحات ، ولولا تلك الأخلاق المذمومة ، التى حلت فيهم وهي التي ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها

وهي لاتخلو من خير تنزل به ، ويكون معها ، فحيثما حلت حل الخير فى ذلك القلب بحلولها ، وإنما هي لها حيثما وجدت قلبا خاليا ، ولو حينا من الدهر وزمنا نزلت عليه ، ودخلته ، وثبتت ماعندها من الخير عنده ، فإن لم يظهر على الملائكة مازجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة ، بواسطة الشياطين الذين هم فى مقابلة الملائكة ، ثبتت عنده ، وسكنت فيه ، ولم تبرح عنه ، وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير ، فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها ، واستعانت بغيرها ، حتى يمتلىء البيت من متاعها وجهازها ، وهو الإيمان بالله والصلاح ، وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ، ليسرق من ذلك الخير الذى هو متاع الملك ، ويثبت فيه خلقا مذموما لايوجد إلا فى الكلب ، وهو متاع الشيطان ، قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى ، من قبل النفس ولم يجد الملك نصره ، وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ، ونهب المتاع ، وخرب البيت بعد عمارته ، وأظلم نوره ، وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى ، وضل واهتدى

فإن قلت : فيزلى أصناف هذه الأخلاق المذمومة ، التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ، ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم ، بكشف معانى التوحيد ، ومنعهم من الحلول فيها ، حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها

فاعلم أن الأخلاق التى لايجتمع معها الملائكة فى قلب واحد كثيرة ، والتى فى قلوب هؤلاء منها معظمها ، وهي الطمع فى غير خطير ، والحرص على فانٍ حقير

أما الصنف الأول : فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة مايشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم مارغبوا فيه من راحاتهم ، وتكدر لديهم منال شهواتهم ، فأبقوا أمرهم على ماهم عليه

وأما الصنف الثانى والثالث : فصدهم أيضا خوف وجزع ، وحرص على ماألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ، ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ،

ومواساة إيلافهم أن تنقطع ، واستثقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفرارا من شرائطه ، وما يصحبه من الأعمال ، والوظائف ، إذ يمتثلوه ، والكلب ماذم لصورته ، وإنما ذم بهـذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس ، والجزع من الصبر على مايعده من الفضائل ، حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب

فإن قلت : فكيف آمن من كفر ، وأطاع من عصى ، واهتدى من ضل ، إذا كانت الشياطين لاتفارق قلب الكافر والعاصي والضال ، بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابحة ، وذئاب عادية ، وسباع ضارية ، وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لاتدخل موضعا يحل فيه شيء مما ذكرنا ، وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ، ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هـــــذا المفهوم .

فاعلم أن هذا يستدعي أصنافا من علم القلوب ،ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم ، والقول والمعنى في جواب ماسألت عنه ، أن للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات ، كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ، ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا، ولوزمنا مّا فرّ ودخل فيه ، وأراه ماعنده من الخير ، فإن صادف منه قبولا ، ولما عرض عليه من الخير تشوقا ونزوعا ، أورد عليه مايملأ ويستغرق لبه ، وإن صادف منه صحوا ، وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة وبالأخلاق الكلابية استعانة ،رحل عنه وتركه ، ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملك أو نزغة شيطان

فإن قلت : فأي بيت فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأي كلب أذهل بيت القلب ،كلب الخلق أو بيت اللبن ، وكلب الحيوان

فاعلم أن الحديث خارج على سبب . ومعناه وجملته أن المقصود بالأخبار هو بيت اللبن ، وكلب الحيوان معلوم ، ولا يبتك في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ماقلناه ويستنبط من مفهومه مانبهناك عليه ، ويتخطى منه إلى ماأشرنا لك نحوه ، ولا نكر في ذلك ، إذا دل عليه العلم ، وجملة الاستنباط ،ولم تمجه القلوب المستضاءة

ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحدا ، ولا بجزع من تشنيع جاهل ، ولا من نفور مقلد ، فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافي معناه ، ومشابه له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ وَحَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »

سؤال

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَدْخُلِ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ » وعلم السبب الذى جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدى عن سببه ويترق منه إلى مثل مارقى من الحديث الآخر ، فهذا كما قيل : الحديث شجون ، وأتبعنا هذا الباب مايقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه ، نعم . يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون هذا الحديث منبها عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة ، وعبدت من دون الله عز وجل . وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضي بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال مخبرا عن ابراهيم عليه السلام حيث قال (أَتَعْبُدُونَ مَاتَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَاتَعْمَلُونَ [١]) فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه أو ماحكي به ماهو على مثاله ، ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناه الله ليكون مهبطا للملائكة ، ومحلا للذكر ، ومعرفة عبادته وحده دون غيره ، فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقربه الملائكة أيضا

فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما ، وما ذكرته تعليلا ينبغي أن لايقتضى إلا منافرة ماعبد ، أو مانحت على مثاله

---

(١) الصافات : ٩٥ ، ٩٦ .

قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كلها فى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله ، وهو مضارعة ذى الأرواح ، ومانحت للعبادة إنما تصد به تشبيه ذى روح ، فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة

فإن قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب ، فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها وإنما المقصود الثوب الذى رقت فيه

فإن قيل . فما بال الثياب رخص فى محا كاتها بالتصوير ، وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة

فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما فى السنة فاخر ثيابها ، وحلي نسائها ، لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم ، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط ، حتى أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى ، كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعليّ رضي الله عنه ؛ ولم يعبدوا مانحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح ، فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أهله .

بيان
أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم ، وتوثيقه بالأدلة ، وشده بالبراهين فقد انقسموا فى الوجود إلى ثلاثة أصناف

أحدهم : صنف اعتقدوا مضمون ماأقروا به ، وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب ، أسروه فى أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على مااعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم ، واعتياص طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين

وتحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، والسلف الصالحين رضي الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ، ولا أوجب عليهم الخروج منه ، والمعروف عنه ، ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة ، وقراءة البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ماهم عليه ، وهؤلاء عندى معذورون يبعدهم ، ومقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه (لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا [١]) ولا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدي لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم ، وسلامة توحيدهم ، إن شاء الله عز وجل

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق ، واعتقدت مع ذلك أنواعا من المخاييل ، قام فى مخيلتها أنها أدلة ، وطآتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه ، فضلا عمن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقدح ، ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ، ولا أصغوا لما يأتى به ، ويترفعوا إلى أن يجاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم ؛ أو رداءة الاعتقاد ، وعندهم أن جميع تلك المخاييل فى باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر ، المطلع على العلوم ، ومنهم من يكون دليله خبرا له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أوحديث صحيح ، ولعمري أنهم ينبغى إذا صادفوا السنة باعتقادهم ، ولم يقعوا فى شيء من الضلال ، أن يتركوا على ماهم عليه ، ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ، لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة ، أو ترسخ فى نفوسهم بدعة يعسر انحلالها ، أو يقعوا فى تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة

واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس ، فمن رغب فى أكلتها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوي به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ماهو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابهة ممن جاء بعضرة بدعة ، وسموم

(١) البقرة : ٢٨٦

كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان ، وقلما بين الصنف الثانى والأول من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا ، غير أنهم أوثق رباطا من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا ، وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء فى الأغلب لاسبيل إلى انحلال عقودهم ، إذ لايرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا

والصنف الثالث . أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وندموا النظر أيضا ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ، ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ، مالو نظروا لعلموا ، ولو استدلوا لتحققوا ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ، ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه وقنعوا بالقعود فى حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم أشكال عند كثير من الناس فى البديهة ، ويتردد حالهم فى النظر ، وهل يسمون عصاة أوغير ذلك ، يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين فى العوام على الإطلاق ، من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم

ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور ، أن المحل لايخلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان ، حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة ، حكم عليه بالسكون ؛ وكذلك الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ماله من الصفات ،

قلنا : فلئن صح ذلك فى الصفات التى هى أعراض ، فقد لايصح فى الأوصاف التى هي أحكام الإيمان ، والكفر والهداية والضلال والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الأعراض ، وإنما ذكرت لك هذا فى معرض الشك ، فى شعوب ماتورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ، ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم ، وعجزهم عن العبادة ، ووجوب العبادة فى الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ، لأن أولئك سلبوا الإيمان عمن لم يصدر اعتقاده

عن دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة فى صحة الإيمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة ، فشذوا عن الجمهور بهـذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألمّوا بقول من جعل المعارف كلهـا ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما عجزت العامة عن سرد الدليل ، وتعظم العبارة عنه ، وأنه لاتجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ماقرب من الألفاظ ، واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ، ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد ، لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ، ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك

واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية ، هكذا يقول : إنما افتقر الناس إلى النسبية ، ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم فى تفهيمها بالزوال إلى ماألفوه من العبارات ، وجـدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه ، وسارعوا إلى الفيئة ، ومثال هذا كمن نسي شيئـا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه . وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعـد ذلك فذكر ، فإنه يقـال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه ، لـكنه ناس له أو غافل عنه ، ولولا عرفانه به ماوجد عدم الإنـكار وسرعة الألفة عنه . وطائفة من المتـكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ، ليس من غرضنا فى هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ماأشاعه فى الإحيـاء أهل الغلول والإغلال ، فلا يفتح مثل هذا البـاب وقد أبدينا من وجه ذلك فى مراقى الزلف ، مايغنى فيها بإذن الله عز وجل

فصـــل

فى بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى ، هو من تتمة ماجرى ، فلتعلم أن مامنهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال ، لايستبد أحـدهم من أحـدها بحـكم الاعتقاد الضرورى ،

فاصفى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التفاوت كما سبق

الحالة الثانية . أن لايعتقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف ، إذا نقر ولم تنصب إليه فى اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حي لاغير ، وأمثال هذه التقديرات، ويخلو عن اعتقاد باقى الصفات ، خلوا كاملا لايخطر بباله ، ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذى يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره

الحالة الثالثة : أن يعتقد الوجود كماقلنا ، والوحدانية والحياة ،ويكون فيما يعتقد فى باقى الصفات ، على مالا يوافق الحق ما هو عليه مماهو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذى يدل عليه العلم ، ويستنبط من ظواهر الشرع ، أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ، ومسلك خلاص ، ووصف إيمان ، أو إسلام ، وسواء فى ذلك الصنف الأول والثانى من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه

وأما أهل الحالة الثانية : وهي الاقتصار على الوجود المفرد ، أو الوجود ووصف آخر معه ، مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال وأركانهما ، فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم فى صورة المسألة مايخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام ، والمتأخرون مختلفون ، فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الإسلام ولايبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان ، وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه ، لوسئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أو بقاء أوكلام أو ما شاكل ذلك ، وهل له صفات معنوية ليست هي هو ، ولاهي غيره ، وربما وجدوا يجهلون هذا ولا يعقلون وجه مايخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة ، من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم

قد وقع القتال والقتل ، وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام ، لمن قال «لاإله إلا الله» واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لاتقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة فى الظاهر ، وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا عمن قالها فى صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيآت الأعمال البدنية ، والكف عن أذى المسلم ، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولاهل الله تعالى عالم بعلم ، أوعالم بنفسه ، وهو باق ببقاء ، أوباق بنفسه ، وأشباه هذه المعارف ، ولايدفع ظهور هذا إلا معاند ، أوجاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب فى الشرع ، أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه ، وأبى أن يذعن لتعلم مازاد على ماعنده ، لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه ، والحكم عليه بالخلود فى النار عسر جدا ، أو خطر عظيم ، مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله ، دخل الجنة ، ولعلك تقول : قد قال فى مواطن أخرى إلا بحقها ، ثم تقول اعتقاد باقى الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكماله من حقها ، نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها ، وسمع بها أن يعتقدها ، وأمامن خلا من اعتقادها ولم يقو له أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر ، وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ ، وفى مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول فى الآخرة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الإيمان ، إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط ، فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع فى الإيمان لافى الأعمال

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ، ولم يقصدها دليل ، فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها

قلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ، ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه ، وأنهم أرباب تعسف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول فى ذلك ، لبدا له أنه تسبب إلى مايظهر له من تصوره عن معرفة ، شرطها فى إيمان غيره ، ولآثر من حسه الركون إلى مارأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب ، ولعدل عن مذهبه ثم بعد ذلك تراهم

حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم، لم يبقوا اسم الكفر عليهم ، ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه ، ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق، فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ماقالوه ، ونقص ماقالوا إليه ، فلنرجع إلى مانحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل

أما أرباب الحالة الثالثة : وهي اعتقاد البدعة فى الصفات أو بعضها ، فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا ، وإسلامهم ، حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر ، لأن هؤلاء قد حصل لهم فى العقد ماهو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم ، وأصيبوا فيما وراء ذلك ، فإن أمكن ردهم فى الدنيا ، وزجرهم عنه ، إن أظهروا المنع عن الإقلاع ، والرجوع بالعقوبة المؤلمة ، دون قتل كان ذلك ، وإن فاتوا بالموت لم نقصرهم فى اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم ، والله أعلم بالناجى والهالك من خلقه ، والمطيع والعاصى من عباده هكذا ينبغى أن يكون مذهب من نظر فى خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ، ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده ، فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين ، وفهم معنى قوله عز وجل (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [1]).

فإن قلت : وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم فى القدرية « إِنَّهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ » وقوله صلى الله عليه وسلم « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » وقال عن قوم يخرجون على حين فرقة من الناس « يَقُولُونَ بِقَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه ، مما توجب فى الظاهر تكفيرهم بالإطلاق

فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء ، فقد أبقى عليهم دينهم ، وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم فى مقابلة من خالفه ، فليقع التحاكم عند العالم الأكبر

(١) الاسراء : ٣٦

المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم . فهو عليه الصلاة والسلام حين قال مجوس هذه الأمة أضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق ، وحين أخبر عن الفرق أنهم فى النار ، ثم أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فقد قال متصلا بهذا القول ، وتتمارى فى الفرق ، وما موضع هذا التمارى من المثل الذى ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمالى أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى ، وتذكر شيئاوتذهل عن غيره ، عليك بالعدل تكن من أهله ، واستعمل التفطن تشاهد العجائب المعجبة ، وتفهم قول الله (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [1])

فصل

ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا ، وتجرده عن المعرفة قريبا ممن رآه ألقى عليه شبه القشر الثانى من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ماهو عليه صونا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما للمحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجملة فهو لمن لاشيء معه خير من فقده ، وكذلك اعتقاد التوحيد ، وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفا فهو فى الدنيا والآخرة ، وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ومتى ركب أحد هذا فقد وقع فى أعظم الحرج والمنكر

بيان

أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام فى هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود

أحدها : أن يتكلم فى الأسباب التى توصل إليه ، والمسالك التى يعبر عليها نحوه ، والأحوال التى يتخذها بحصوله كما قدره العزيز العليم ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم .

---

(1) البقرة : ١٤٣

والحد الثانى : أن يكون الكلام فى عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه ، وانكشافه له بالمشاهدة

والحد الثالث فى ثمرات ذلك التوحيد وما يليق أهله به ، ويطلعون عليه بسببه ، ويكرمون به من أجله ، ويتحققون من فوائد المزيد من جهته

أما الحد الأول : فالكلام عليه، والبيان له ، والكشف لدقائقه ، وتذلله للصغير والكبير مأمور به ، مشدد فى أمره ، متوعد بالنار على كتمه ، فيه بعث الأنبياء ، ومن أجله أرسل الرسل ، وبيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب وليقع التفقه فى القلوب بتحقيقه وتصديقه ، أيدت الرسل بالمعجزات ، والأولياء والأنبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وفيه أنزل الله (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [١]) وإياه عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » وجميع ذلك محصور فى اثنتين العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على آيتين الحرص الشديد ، والنية الخالصة ، والسر فى تحصيلهما اثنان ، نظافة الباطن ، وسلامة الجوارح ، ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة

وأما الحد الثانى : فالكلام فيه أكثر مايكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيها بالرمز تارة ، وبالتصريح أخرى ، ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ، ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود ، وينكشف له جُل مايشار إليه إذا كان سالما من شرك التعصب ، بعيدا من هوة الهوى ، نظيفا من دنس التقليد

وأما الحد الثالث : فلا سبيل إلى ذكر شيء منه ، إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار ، لا على التعليم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ماوصفناه ،

---

(١) المائدة : ٦٧

لأن الحد الأوّل فيه محض النصح للخلق ، واستنقاذهم من غمرة الجهل ، والتنكيب بهم من مهاوى العطب ، وقودهم إلى معرفة هذا المقام ، وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر ، وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان ، وأقيم عليه واضح البرهان ، وهو يومئذ الطريق ، وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان عن غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول ، إن الله لايضيع أجر من أحسن عملا ، ومن وصل شاهد ، ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ، ونهاية المرغوب والمحبوب ، ومن قعد حرم الوصول وما بعده ، (فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (١)) ومن غاب لم تنفعه الأخبار : ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضا فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثانى على وجهه لو كشف للخلق كافة ، وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب ، كان فيه زيادة محنة ، وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لغرابة العلم ، وكثرة غموضه ودقة معناه ، وعلوه فى منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل ، من جميع ماعهد فى عالم الملك والشهادة ، وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل مانشئوا عليه ، ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لايدرك شيء من ذلك بقياس ، ولا يتصوّر بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل ، كما قال عز وجل (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّاأُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ (٢)) وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف شيء له من علمها وحقائقها فى الدنيا ، وأيضا فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ، ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتبعيد ، فلهذا أمروا بالكتم إشفاقا على من حجب من العلم ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لاَتُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَاحَدَّثَ

(١) النساء : ٩٥ (٢) السجدة : ١٧

أَحَدُكُمْ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً » وعلى هذا يخرّج قول المشايخ : إفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير ، إنه وليّ كل صالح ، وإذا علمت أن الحد الأوّل قد تقرر علمه فى كتب الرواية والدراية ، وملئت منه الطروس ، وكثرت به فى المحافل الدروس ، وهو غير محجوب عن طالب ، ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجهال به أن يتعلموه ، والعلماء أن يبذلوه ويعلموه ، فلا نعيد فيه ههنا قولا ، ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة ، وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعدّ إلى محدودات الشرع فلنثن العنان إلى الكلام بالذى يليق بهذا الحال والمقام ، فنقول :

أرباب المقام الثالث فى التوحيد ، وهم المقربون ، على ثلاثة أصناف ، وعلى الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة ، وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة ، وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بخفي أسرارهم ، وهم مع ذلك فى درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم فى اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، وانقسامهم فى تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرءان مثلا ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر ، أو كثيرا منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه ، متوقف على الانبهار فى قراءته ، ومن حافظ فى تلاوته غير متوقف فى شيء منه ، وكلهم ينسب إليه ويعد فى المشهد والمغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات ، أوكثير منها ، وربما كان فيما يقرأ من الصفحات مايغم عليه ، ومن قارىء لجميعها متفهم لها ، لكن بنوع تعب ، ولزوم فكرة ، ومداومة عبرة ، ومن ماهر فى قراءتها مستخرج لرموزها ، ناقد البصيرة فى رؤية حقيقتها ، مفتوح السمع ، تناطقه الأشياء فى فراغه وشغله ، وبحسب ذلك اختلف أحوالهم ، فى الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء والبقاء ولا مزيد على هذا المثال ، فهو أصلح لذوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال ،

وعلمت لم سمي أهل هـذه المرتبة مقربين ؟ فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ، ولا أقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد هٰهنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز فى لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لهما فى هذا الفن أحد الحالتين ، عماء البصيرة ، وانطماس القلب ، والخلوّ عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعد مأخوذ من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب ، وموضع العمارة والأنس ، والانقطاع فى مهامه القفر وأمكنة الخوف ، ومظان الانفراد والوحشة

والحالة الثانية : عبارة عن اتّقاد الباطن ، واشتعال القلب ، وانفساح الصدر ، بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ماغاب عنه أهل الغفلة واللهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل

لعلك تقول أرى بعض أئمة الكلام عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولاسهم ، وأراهم عند الجمهور فى الظاهر . وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى ، وقادة الخلق إلى مراشدهم ، ويجاهدون أرباب النحل المردية . والملل الضالة المهلكة ، وقـد سبق فى الإحياء أنهم مع العوام فى الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم

فاعلم أن مارأيت فى الإحياء صحيح ، ولكن بقى فى كشفه أمر لايخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين ، إذا كانوا منصفين ، وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط ، لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام ، والجدل علم لفظي ، وأكثره احتيال وهمي ، وهو عمل النفس ، وتخليق الفهم ، وليس بثمرة المشاهـدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والغث ، وشاع فى حال النضال إيراد القطعى وما هو حكمه من غلبة الظن ، وإبداء الصحيح ، وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه ، إنما هو علم التوحيد ، وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام ، والعلم المضارع للضرورى ، بأن لاإله إلا الله ، إذ لافاعل غيره ، ولا حاكم فى الدارين سواه ، ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ، ومن أين للنازل طي المنازل ، ومالعلم الكلام مثل هذا المقام

بل هو من خدام الشرع ، وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ، ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ، ومدارك الاستبصار والمدار فى أوقات الضرورات والاختيار ، وبين مايراد لوقت حاجته إن دعت وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذى ضلالة بما ينغص على ذوى اليقين العيش ، ويشغل الذهن ، ويكدر النفس ، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع علمه فيما مضى من الزمان إليهم ، لانقول فى أكثرهم إنهم لايحسنون غيره ، ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ماذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم فى الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس ، والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم فى وقتهم من البدع ، وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق ، وتجرأ العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم ، والمنازعة لهم ، والسعي فى اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها وإهلاك ذوى الكيد فى احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات ، وكشف أحوال أرباب المقامات ، ووصف فقه الأرواح والنفوس ، وتفهم كل ناطق وجامد ، فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص ، وهم مكفيون المؤنة ، والعامة أحق بالحفظ ، وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد ، والتصدق على ذى بلغة من العيش ، فكيف إن كان عن غناء ، وأيضا فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ ، لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ مع أهل العناد ، والتمادى على الغي وسبيل الفساد ، فكما لايقال السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لايقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لايقال فى الصدر الأول فقهاء الأمصار ، ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم فى الغالب إلا علوم أخر ، كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ماحفظ عنهم ، وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات ، وانقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين ، بغير طريق علم الكلام

والجدل ، يتحلون بالمقامات المذكورة ، وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ماأخذه عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، لما خافوا دروس الإسلام ، وأن يضعف ويقل أهله ، ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم ، والمبعوث لدعوة الحق عليه السلام ، رأوا أن الجهاد والرباط فى ثغر العدو والغزو فى سبيل الله ، وضرب وجوه الكفر بالسيف ، وإدخال الناس فى دين الله ، أولى بهم من سائر الأعمال ، وأحق من تدريس العلوم كلها ، ظاهرا وباطنا ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل ، وهم فى حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ، ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم ، ذائدا لهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مراشدهم وصلاحهم ، كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لايكون من بعد ذلك أن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولايظهر لهم نور ، ولايقدرون على شيء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بعامة ، ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد ، واللطف بهم فى تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر فى الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فيما يمنعه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته ، حين علم من أكثرهم الضعف ، ولم يكره لهم وفيه زيادة الأجر ، وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ، ولكن خاف عليهم أن يقعوا فى تضييع الفرض ، فيكون عليهم كفل من الوزر ، ألا ترى كيف نهى الخاق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان رضي الله عنه يقومه فلم ينهه ، ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه ، حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه ، وقال لعائشة رضي الله عنها « لَوْلاَ حِدْثَانُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ » وقال للأنصار « أَمَا تَرْوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ فَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ » ومع ذلك فالذى حفظ عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة

من بعده ، وفقهاء الأمصار ، وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم المذكورة كثير لايحصى ، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم ، وتفقه مثلهم فاقصد تجد ، واقصد لاقتباس الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توفق (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (١))

بيان

المرتبة الرابعة

وهو توحيد الصديقين : وأما أهل المرتبة الرابعة ، فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا فى الدارين غيره ، ولااطلعوا فى الوجود على سواه ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة فى هجيراهم ، فكان هجير أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه لاإله إلا الله ، وكان هجير عمر رضى الله عنه الله أكبر ، وكان هجير عثمان رضى الله عنه سبحان الله ، وكان هجير عليّ رضي الله عنه الحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد فى الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصدّيق وسمي به كما علمت ، وكان يقول : لاإله إلا الله ، وكان عمر يرى مادون الله صغيرا مع الله فى جنب عظمته ، فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لايرى التنزيه إلا لله تعالى ، إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول ، فكان يقول : سبحان الله ، وعليّ لايرى نعمة فى الدفع والرفع والعطاء والمنع ، فى المكروه والمحبوب ، إلا من الله سبحانه ، فكان يقول : الحمد لله ، وأهل هذه الرتبة على الجملة فى حال خصوصهم فيها صنفان ، مريدون ومرادون ، فالمريدون فى الغالب لابد لهم من أن يحلوا فى المرتبة الثالثة ، وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ، ويتمكنون فيها ، ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة ، يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم

فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحادث والقديم ، والمألوه والإله ،

(١) البقره : ٢٦٩

ثم معلوم أن الإله واحد ، والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا ، أذلك على طريق قلب الأعيان ، فتعود الحوادث قديمة ، ثم تتحد بالواحد فترجع هي هو ، وفى هذا من الاستحاله والمروق عن مصدر العقل مايغنى عن إطالة القول فيه ، وإن كان على طريق التخييل للولي لما لاحقيقة له فكيف يحتج به ، أو كيف يعدّ حالا لولي أو فضيلة لبشر

الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ، ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعترى الولي تخييل فتخيّل مالا حقيقة له ، وإنما هو ولي مجتبى ، وصديق مرتضى ، خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين ، والكشف التام ، وكشف لقلبه مالو رآه ببصره عيانا ماازداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه ، فما أطمّ مصيبتك وما أعظم العزاء فيك ، حين فتشت الخلق بعيارك ، وكلتهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لاسبب لإنكارك إن صح ، إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحدا مالم ترزق ، أو يخص من المعرفة مالم تخص فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لايخرج منه ، وما اطلع عليه لا يغيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا فى حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء ، وثبت فى قلبه حاله إنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده فى شغله ونومه كما لايفقده فى يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي المتمكن فى رتبة الصدّيقين مخلوقا كان حيا أو جمادا صغيرا أو كبيرا ، لم يره من حيث هو هو ، وإنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة ، وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ، ثم أدام القهر عليه فى الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهورة آثارها فى المخلوقات ليست لغير الموصوف الذى هو الله عز وجل له ألهت الولي عن غيره ، وصار لم ير سواه ومعنى ذلك أنه لايتميز بالذكر فى سر القلب وخير المعرفة ولا بالإدراك فى ظاهر الحس ، دون ما كان موجودا به وصار عنه فانيا ، فبعد هذا على من أصحبه أن لايحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلي العظيم

فصـــل

وأما معنى إفشاء سر الربوبية كفر فيخرج على وجهين

أحدها . أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشي وتعظيما لما ارتكبه

ويعترض هذا بأن يقال لايصح أن يسمى هذا كفرا ، لأنه ضد الكفر ، إذ الكفر الذى سمى على معناه ساتر ، وهذا المفشي للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ، والإعلان من الكتم ، واندفاع هذا هين بأن يقال ، ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر ، وارتكاب النهي ، فمن رد إحسان محسن ، أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين

إحداهما : من جهة الاشتقاق ، ويكون إذ ذاك اسما ينبىء عن وصف

والثانية : من جهة الشرع ، ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر المنعم ، فافهم ولاتذهب مع الألفاظ ، ولايغرنك العبارات ، ولاتحجبك التسميات ، وتفطن لخداعها ، واحترس من استدراجها ، فإذاً من أظهر ماأمر بكتمه كان كمن كتم ماأمر بنشره ، وفى مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع ، قوله صلى الله عليه وسلم « لاَتُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ » وفى ارتكاب النهي عصيان ، ويسمى فى باب القياس على المذكور كفران البدن ،

وقسمة أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ماعلم من أجزائه بالاستقراء فرأس الإنسان تشابه سماء العالم ، من حيث إن كل ماعلا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم ، من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد من نور الشمس فتضيء بها ، والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمد من الروح ، فيضيء مسلك المدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ، ونور نباته ، وحركة ضواربه ، وحيوانه

وحياته ، فيها تظاهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل فى الظاهر نمو أجزاء بدنه ، ونبات شعره ، وحلول حياته ؛ وجعلت الشمس وسط العالم ، وهي تطلع بالنهار ، وتغرب بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان ، وهي تغيب بالنوم ، وتطلع باليقظة ونفس الإنسان تشابه القمر ، من حيث إن القمر يستمد من الشمس ، ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس ، والروح خالف النفس ، والقمر آية ممحوة ، والنفس مثلها ، ومحو القمر فى آن لايكون ضياؤه منه ، ومحو النفس فى آن ليس عقلها منها ، ويعترى الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعتري النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول ، وفى العالم نبات ومياه ورياح وجبال ، وحيوان ، وفى الإنسان نبات ، وهو الشعر ، ومياه وهي العروق ، والدموع والريق والدم ، وفيه جبال ، وهي العظام ، وحيوان وهي هوام الجسم ، فحصلت المشابهة على كل حال ، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ، ومنها ماهي لنا غير معروفة ، ولا معلومة ، كان فى استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه مايحصل به لذوي العقول تشبيه وتمثيل

فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف فى ذلك

فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على مايعلم لا على مايجهل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان

فإن قلت : فقد سبق فى الإحياء أنهما شيء واحد ، وقلت فى هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح ، فالذى سبق فى الإحياء ورأيت فى هـذه الإجابة ، وهو شيء واحد لايتناقض مع ماقلناه الآن ، وذلك أن لهما معنى يسمى بالروح تارة ، وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ، ثم لايبعد أن يكون لها معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ، ولا يسمي بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام فى أحد وجهي الإضافة التى فى ضمير صورته ، والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصص به ، فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر ، سميع بصير ، عالم مريد ، متكلم ، فاعل ، وخلق آدم عليه السلام ، حيا ، قادرا ، ، عالما ، سميعا ، بصيرا ، مريدا ، متكلما ، فاعلا ، وكانت لآدم عليه

السلام صورة محسوسة ، مكنونة مخلوقة ، مقدرة بالفعل ، وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا فى الأسماء التى هي عبارة تلفظ فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا فى الأسماء الملفوظ بها لا غير ، وفرارا أن نثبت صورة لله تعالى ، ويطلق عليها حالة الوجود ، فافهم هذا ، فإنه من أدق مايقرع سمعك ، ويلج قلبك ، ويظهر لعقلك ، ولهذا قيل لك ، فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى فى الوجود ، تكن مشبها مطلقا ومعناه تتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين ، على نفسك بالتشبيه معتقدا ، ولا تنكر كما قيل : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة ، أى تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنتسب اليهم ، أى لا تقرأ التوراة ولا تعمل بها ، وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة ، منزها مجللا ومقدسا مخلصا ، أى ليس تعتقد من الإضافة فى الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعانى ، فتلك المعانى المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال ، وقد حفظ عن الشبلي رحمة الله عليه ، فى معنى ماذكرناه من هـــذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث ، فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات ، لا على الذات .

فإن قلت ، فكذا قال ابن قتيبة فى كتابه المعروف بتناقض الحديث ، حين قال هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه فى ذلك ، وأقيمت عليه الشناعة به ، وأطرح قوله ، ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق .

فاعلم أن الذى ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه ، وأبلغ فى الإنكار عليه . وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذي ألمنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهلت عن تعقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ماقاله ابن قتيبة ، ألم أخبرك أنا أثبتنا الصورة فى التسميات ، وهو أثبتها حالة للذات ، فأين من لب الجوز ، قشور تفرقع ، والذى يغلب على الظن فى ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التى أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود ، بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف وعلاه الدهش ، فتوقف بين ظاهر الحديث الذى هو

موجب عند ذوى القصور تشبيها ، وبين التأويل الذى ينفيه ، فأثبت المنى المرغوب عنه ، وأراد نفي ما خاف من الوقوع فيه : فلم يتأت له اجتماع ما رام ، ولا نظام ما اقترف فيا هو صورة لا كالصورة ، ولكن ساقطة لاقطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه

فصل

ومعنى قاطع الطريق فإنك بالواد المقدس طوى : أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد ، والوادى المقدس عبارة عن مقام الكليم موسي عليه السلام ، مع الله تعالى فى الوادى وإنما تقدس الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، وأقيم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه لحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه و إلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ المواضع لا تأثير لها وإنما هى ظروف

فصل

ومعنى فاستمع أى سر بقلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودي به موسى ، إنى أنا ربك ، أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد ، وحوادث الصدق ، وثمار المعارف ، وارتياح سلوك الطريق ، وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب ، كما يقول أدن الرأس ، ووسع الآذان ، ومايوحى أي مايرد من الله تعالى بواسطة ملك ، أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة تحقيقية ، أو ضرب مثل مع العلم بتأويله ، ومعنى لعلك حرف ترويح ، ومعنى ان لم تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال ، أو إضافة دعوى إلى النفس أوقنوع بما وصلت إليه ، واستبداد به عن غيره ، وسرادقات المجد ، هي حجب الملكوت ، وما نودي به موسى ، هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له ياموسي إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، والمنادى باسمه أزلا وأبدا ، هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أزل الأزل ، قبل أن يخلق موسى لا إلى أول ، وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما لا يتغير هو ، إذ ليست صفاته المنوية لغيره ، وهو الذي لا يحول ولا يزول ، وقد ذل قوم عظم افتراحهم وهو انهم ، حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة

وعياذ بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما ، وحباه حباء خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو يأمره بما يمتثل من أمره ، ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى ، لم يشارك المولى المخلوع عليه ، والمفوض إليه فى شيء مما ولي وأعطى ، ولم تجب له بسماعه ومشاهدته أكثر من حظوة القربة ، وشرف الحضور ، ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية ، والمفوض إليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل فى طريقه ذلك ، بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ، فلا يمتنع أن يسمع مايوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام ، وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام مااستحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودا بذلك ، بحلوله فى هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط ، بل قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضعافا ، فجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون فى أطرافه لأن هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة ، ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مباديها أقرب منه إلى غايتها ، فمن لم يفهم درجات المقام ، وخصائص النبوة ، وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها ، والطعن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بظنه ويقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، محلصا منه يقظاته وغفلاته فا (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [١])

فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ، ونداء كلامه ، والله تعالى يقول (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ [٢]) فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة فى التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ليس بنبي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد

---

(١) ق : ١٨ (٢) البقرة : ٢٥٣

بادر الشك العارض فى مسالك الحقائق فنقول : ليس فى الآية مايرد ماقلنا ، ولا يكسره لأنا ماأوجبنا أنه كلمه قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدا

وانما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه أليس من يسمع كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمه وقد حكي أن طائفة من بنى إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذى خاطب به موسى حين كلمه ثم اذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة فى نبوته ورسالته على أنا نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى ، يمكن الاختلاف فيه فيكون النبي المرسل يسمع كلام الله تعالى عز وجل الذاتى القديم ، بلا حجاب في السمع ، ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة ، مما يلقى فى روعه ، ومما ينادى به فى سمعه أو سره ، وأشباه ذلك كما ذكر أن قوم موسى عليه السلام ، حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتا كالشبور وهو القرءان ، فاذا صح ذلك فبتباين المقامات أختلف وروداالخطاب ، فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذى هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ، ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضا ، سمعوا صوتا مخلوقا جعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضرورى ، وسمى ذلك الذى سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهي الحروف المتلو بها القرءان كلام الله تعالى إذ هي دلالة عليه

فان قلت : فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه ، وفهم مراده وحكمه ، يلحقه العلم الضروري فما أرى بأنه الشيء المرسل ، إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دونه ، ولو كان عوضا منه أخر عنه ومقامه مقامه

فاعلم أن الذى أوجب عثورك ودوام زللك ، واعتراضك على الملوم بالجهل ، وعلى الحقائق بالمخايل ، أنك بعيد عن غور المطالب ، قعيد فى شرك المعاطب ، قعيد صوب الصوت ، عتيد صخب السحاب ، إن الذى استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر ، وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به ، وبين من لا يستحق أكثر من

سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف وورود الخطاب إليهما ، مما يوجب نفورا ، وتباين ما بينهما ، فإن فهمت الآن وإلا فقد عني لاندر بمحال .

فإن قيل : ألم يقل الله تعالى (فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ (١)) وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب ، وعلم ما في الملكوت ومشاهدة الملائكة ، وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ، فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟

قلنا : في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق ، والمشاهدة الصورية ، أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ، ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة أو عمل بما جاء به ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه ، وقال « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُحَدَّثُونَ فَعُمَرُ » أو كما قال « الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » وفي القرءان العزيز (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (٢)) فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قدر عليه ، ولم يكن نبيا ولا رسولا ، وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية ، وصدقه فيه حين قال (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٣)) وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور في الآية ، وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر ، وما أنبأ الله سبحانه ، وأظهر عليه من العلوم الغيبية ، وهو بعد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ (٤)) فدل على أن في الآية حذف مضاف معناه ما تقدم

وانظر الى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه ، أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهي من غيب الله ، وشواهد الشرع كثيرة جدا ، يعجز

(١) الجن : ٢٦ (٢) النمل : ٤٠ (٣) الكهف : ٩٨ (٤) الجن : ٢٦

المتأول ويلهو المعاند ، هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة و يحتمل أن يكون المراد فى الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي ، الذي بواسطته تنجلي العلوم وتنكشف الغيوب ، فمتى لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة أو إلقاء معنى فى روع ، أو ضرب مثل فى يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده فى يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا ، ويكون فائدة الإخبار بهذا فى الآية ، الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لاتصل إليها نفسه ، ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى ، حين أرسل إليه الملك بذلك ، وبعثه الله حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق على أنه لا يرد عليه شيء من علم ، أو معرفة ، أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ، ويحتمل وجه آخر ، وهو أن يكون معناه والله أعلم ، فلايظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى ، يريد من سائر خلقه ، وأصناف عباده ، ويكون معنى من رسول أي عن يد رسول من الملائكة

فصل

ومعنى ولا يتخطى رقاب الصديقين إن قلت : ماالذى أوصله إلى مقامهم ، أو جاوز به ذلك ، وهو فى المرتبة الثالثة حال المقربين ماوصل حيث ظننت ، فكيف يجاوزه ؟ وإنما خاصية من هو فى رتبة الصديقين عدم السؤال ، لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو فى رتبة القرب كثرة السؤال ، طمعا فى بلوغ الآمال ، ومثالها فيما أشير اليه مثال إنسانين دخلا فى بستان ، أحدهما : يعرف جميع أنواع نبات البستان ، ويتحقق أنواع تلك الثمار ، ويعلم أسماءها ومنافعها ، فهو لا يسأل عن شيء مما رآه ، ولايحتاج إلى أن يخبر به ، والثانى لايعرف مما رأى شيئا ، أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقى ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ماهو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما فى ذلك الوقت أو الأبد

وتلك العلوم التي كانت لاتنال بالكسب ، وإنما تنال بالمنح ، فقيل له لاتتخط رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لايخطر به ، وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم فارجع إلى الصديق الأكبر، فاقتد به في حاله وسيرته ، فمسالك ترزق مقامه ، فإن لم يكن فتبقي على حالة القرب وهي تتلو الصدّيقية ، فهذا معناه

فصـــل

ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى ، إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه مالاق به من الأحوال ليحكم ما بقي عليه من الأعمال ، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم للذى سأله أن يعلمه غرائب العلم ، « إذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَاكَ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُعَلِّمُكَ غَرَائِبَ الْعِلْمِ » وأما صفة انصرافه فإنه نهض بالبحث ورجع بالتذكر وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام في ذلك الموضع بعد وصوله إليه فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ، ومسكنه عالم الملك، ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لايمكن في العادة ، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا : وقد سبق في علمه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ومعنى قول أبي سليمان الداراني لو وصلوا ما رجعوا مارجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص والذى طمع الناظر في الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه إذا لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله

فصـــل

ومعنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيبا ، ولا أكمل صنعا ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا ، يناقض الكرم الإلهي ، وإن لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجزا ، يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختيارا ، وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ماقيل فيما ذكرنا ، وما الفرق بينهما ، وذلك لأن تأخيره بالعالم

قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل فإذا فعل فليس فى الإمكان أن يفعل إلا نهاية ماتقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ، ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم مجارى أفعاله ، ومصادر أموره ، وأن تتحقق أن كل مااقتضاه ويقضيه من خلقه ، بعلمه ، وإرادته ، وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ، ونهاية الاتقان ، ومبلغ جودة الصنع ، ليجعل كمال ماخلق دليلا قاطعاً ، وبرهانا على كماله فى صفات جلاله الموجبة لإجلاله فلو كان ماخلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ماقدر على خلقه ، ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود من خلقه ، كما يظهر على ماخلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ماصنع من النقصان قطعا ، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظنا ، إذ خلق للخلق عقولا وجعل لهم فهو ما ، وعرفهم ماأكن ، وكشف لهم ماحجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه ، فتعالى الله رب العالمين ، الملك الحق المبين .

وأيضا فلا يعترض هنا ويتزر به ، إلا من لايعرف مخلوقاته ، ولم يصرف الكلام الصحيح فى مشابه ذلك أصلا فى العلم ، أو كان نسخا له ومعنى نقيس عليه غيره ، وأما انكشافه بخير ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق المخبر ، إذ أفشاه لغير أهله ، وأهداه لمن لايستحقه ، كما روي عن عيسى على نبينا وعليه السلام ، لاتعلقوا الدر فى عناق الخنازير ، وإنما أراد قطاع العلم غير أهله ، وقد جاء لاتمنعوا الحكمة أهلها ، فتظلموهم ، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها .

وأما سر العلم الذى يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة بطلت الأحكام ، فى حقها لمن يطلع عليه فى ذلك السر من معرفة مآل الأشياء ، وعواقب الخلق ، وكشف أسرار العباد ، وما يظن من مقدور ، فمن عرف نفسه مثلا أنه من أهل الجنة لم يصل ، ولم يصم ، ولم يتعب نفسه فى خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار ، كمل انهما كه فلا يحتاج إلى تعب زائد ، ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه ، وإن كان كشفها من مخبر

استروح الضعيف إلى مايسمع من ذلك ، فيتعطل وينخرم حاله ، وينحل قيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على مايقدر لاعلى مايوجد ، ولذلك جعله مقرونا بحرف لو ، الدال على امتناع الشيء ، لامتناع غيره ، كما يقال : لو كان للإنسان جناحان لطار، ولوكان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان البشر ملكا لفقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل فى ظاهر العلم .

فصل

وأما خطاب العقلاء للجمادات فغير مستنكر فقديماً ندب الناس الديار ، وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار وقد جاء فى أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير وفى حديث النبي صلى الله عليه وسلم « أُسْكُنْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها ، وفجر بحارها ، وفتق أهواءها ، ورتق أجواءها وأرسى جبالها ، إن لم تجبك أجابتك اعتباراً ، وإنما الذى يتوقف على الأذهان ويتحير فى قوله السامعون ، وتتعجب منه العقول ، هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات ، ففى هذا وقع الإنكار ، إذ اضطرب النظار ، وكذب فى تصحيح وجوده والسمع من الاعتبار ، ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للعقلاء ، ممن لم يعقل عنه فى المشهود يكون على جهات ، من ذلك سماع الكلام الذاتي ، كما تلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر مايكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم فى بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حجر يسلم عليه فى طريقه قبل مبعثه

ومنها تلقى الكلام فى حسن السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعترى هذا سائر الحواس ، كمثل مايسمع النائم فى منامه ، من مثال شخص من غير مثال والمثال المرئى للنائم ليس له وجود فى سمعه ، وأما مايجده غير النائم فى اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر فى زمن عيسى ينادي المسلم يامسلم خلفى يهودي فاقتله ، وان لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ، ويذهب عنه معنى الحجرية ؛ أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستتر عن الأبصار فى العادة من الملائكة والجن ، أو يكون كلام يخلقه الله

عز وجل فى أذن السامع ، ليفيده العلم باختفاء اليهودي ، حتى يقتله وكما يقال فى العرض الأكبر يوم القيامة ، إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص ، وفى الخلائق مثل اسم المنادى به كثير ، وقد قالت العلماء : انه لايسمع النداء فى ذلك الجمع إلا من نودى ، فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق المنادى فى حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه فى اسمه ، ولا يكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة فى الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقنع .

ومنها تلقى الكلام فى العقل ، وهو المستفاد بالمعرفة ، المسموع بالقلب ، المفهوم بالتقدير على اللفظ المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوادد حين رأيته وكبر للرحمن حيث رآنى
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك فى عيش وخفض زمان
فقال مضوا واستودعونى بلادهم ومن الذى يبقى على الحدثان

وفى أمثال العوام قال الحائط للوتد لم تشقنى ؟ فقال الوتد للحائط سل من يدقنى ، فلو كانت العبارة تتأتى منها ماعبرت إلا بما قد استعير لها ، وعلى هـذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [1]) وفى قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً [2]) ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطْوَانِيَّتَانِ يُلَبِّي وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ وَاللهُ يَقُولُ لَبَّيْكَ يَا يُونُسُ » فقوله كأنى يدل على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها فى الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات ، وتلك الحالة منه سلفت ، وفى هـذا الحديث منه إخبار عن الوجود الخيالي فى البصر ، والوجود الخيالي فى السمع .

ومنها تلقى الكلام بالشبه ، وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر ، فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام فى صوت أبى موسى

(1) فصلت : ١١ (2) الأحزاب : ٧٢

الأشعرى ، إذ سمعه يترنم بالقرءان « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت ، وإنما شبه صوته بها ، وكما إذا سمع المريد صوت مزمار ، أو عود فجأة على غير قصد ، يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها ، بما فجأ صوته من ذلك

فهذه مراتب الوجود ، فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ، ولم يعترك غلط فى بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالحبر ؛ فقال له ما بال وجهك وقد كان أبيض أشقر موتقا ، والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سوّدت وجهك ؟ فقال : سل الحبر فإنه كان مجموعا فى المحبرة التى هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهى ظلماً وعدوانا ، فقال : صدقت ، ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات اعمل الفكر ، وجدد النظر ، وحل الكلام إلى أجزائه التى ينتظم منها جملة ما بلغك ، فسأل عن معنى الناظر ، ومعني المشكاة ومعني نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ، و بأي لسان خاطب الكاغد ، وكيف مخاطبة الكاغد ، وهو ليس من أهل النطق ، وفيما صدق الناطق الكاغد ، ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ، فيبدوا لك هٰهنا من الناظر هو ناظر القلب ، فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاجة ، التى أعمرت بسراج النار إلى خير المعرفة الملقب بسر القلب ، شبيها بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى شعلها بنوره ، ونوره المذكور هٰهنا عبارة عن صفاء الباطن ، واشتعال السر بطلوع نيران كواكب المعارف الذاهبة بإذن الله تعالى ، ظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والحبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه ، وأول سلوكه ، إذ هما فى عالم الملك والشهادة الذى محل جولة الناظر فى حال نظره ، وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب فلأجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعى ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الالهى ، الذى هو أبين وأدل على الفهم منه ، وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو جماد ، فسبق الكلام على مثله ، ومراجعة الكاغد له ، فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا فيلتى الكلام فى الحس

بما ينبئه عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء فى الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة ، والعقل ، وتصديق الناظر للكاشف فى عذره وإحالته على الخبر ، لم يكن لمجرد قوله بل بشهادة أولى الرضا والعدل ، وهو البحث ، والتجربة لم تكن ، وشهادة النفس وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها ، سئل عن أجزاء عالم الملك

وأما ماسمعته فى حد عالم الجبروت ، فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل . والعلم ، الموجودين فى الإنسان المستقرة فى القوة الوهمية المدركة جميع مالايستدعى وجوده جسما ولكن قد يعرض له أنه فى جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب ، وعطف أمها ، فتتبع العطف وتنفر من العداوة .

وأما ماسمعته فى حد عالم الملكوت ، وذلك من العلم الالهي إلى ماوراء ذلك مما هو داخل فيه ، ومعدود منه فسر القلب الذى يأخذ به عن الملائكة ، ويسمع به مابعد مكانه ورق معناه ، وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أي شيء حقائق هذه المذكورات ، وما كنه كل واحد منها ، على نحو معرفتك لا جزاء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا ينتفع بسماعه مع عدم المشاهدة . والله قد عرفك باسمائها ، فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة ، لعلمك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات، إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات ، ومن كفر فإن الله غني حميد

فصـــل

والفرق بين العلم المحسوس فى عالم الملك وبين العلم الالهي فى عالم الملكوت ، أن العلم كما اعتقدته مجسما ، بطيء الحركة بالفعل سريع الإنتقال بالهلاك ، مخلفا عن مثله فى الظاهر مجمولا تحت قهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل فى أكثر أوقاته : متصرف بين أحوال متنافية كالعلم ، والجهل : والعدل ، والظلم ، والشك ، والصدق ، والإفك ، فالعلم الالهي عبارة عن خلق الله فى عالم الملكوت مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة فى عالم الملك : يرى من أوصاف ماسمي به العلم المحسوس كليا ، مصرفا يتميز الخالق بحكم

إرادته على ماسبق به علمه فى أزل الأزل ، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ماسمي به ، غير أنه لايكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين يمين الآدمي ويمين الله عز وجل ، أن يمين الآدمى كما علمت مركبة من عصب استعصى بشؤها ، وعضل تعضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ، ولحم ممتد ، وجلد غير جلد ، موصولة كلها فى الضعف والانفعال ، ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال ، ويمين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل ، عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرة وليست بجارحة ولا جسم ، وعند آخرين إنها عبارة عن خلق لله واسطة بين القلم الالهى النافش العلوم ، المحدثة وغيرها ، وبين قدرته التى هى صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهى المثبوت على صفحات المخلوقات الذى ليس بعربي ولا عجمي ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم ولم يشارك يمين الآدمي إلا فى بعض الأسماء ، لأجل الشبه اللطيف الذى بينهما بالفعل ، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم عساه يعقل ماأنزل على رسل الله تعالى من الذكر

فصل

وحد عالم الملك ماظهر للحواس : ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض ، وصحة التعبير : وحد عالم الملكوت ماأوجده سبحانه بالأمر الازلى بلا تدريج ، وبقي على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولانقصان منه ، وحد عالم الجبروت : هو مابين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك ، فخيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت

فصل

ومعنى إن الله خلق آدم على صورته ، فذلك على ماجاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : وللعلماء فيه وجهان

فمنهم من يرى للحديث سببا ، وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » وتأولوا عود الضمير على المضروب

على هذا لايكون للحديث مدخل فى هذا الموضع لم يرده مورد آخر فى غير هذا الموطن ويكون الايمان به إلى غير هذا المعنى المذكور فى السبب الحادث ،واثباته فى غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر ، فليبق المسبب على حاله ولينظر فى وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ويحسن الاحتجاج به فى هذا الموطن

والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذى فى صورته عائدا إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث ، أن الله خلق آدم على صورته ، هي إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فاذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ، ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة ، وعلى أي جهة يحمل فى الاعتقاد العلمي على الله سبحانه ففيها وجهان

أحدهما : أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة ، واليمين على أحد الأوجه .

والوجه الآخر :أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلاشك متشابهتان ،فالذى نظر فى تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة ، وقسم آدم عليه السلام ، كذلك فوجد كل نحوين منهما شبيهين ، فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين، أحد القسمين: ظاهر محسوس كعالم الملك،والثانى باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس ، كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى باطن ، كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك

وقسم آخر: وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك : وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت : وهو الباطن فى العقول ، وإلى عالم الجبروت : وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منها ، والإنسان كذلك انقسم

إلى ماشابه هذه القسمة ، فالمشابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة ، وقد علمنا والمشابهة لعالم الملكوت ، فمثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشباه ذلك ، والمشابه لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس ، والقوى الموجودة بأجزائه .

والوجه الثانى : أن يكون معناه كفرا للسامع لا للمخبر، بخلاف الوجه الأول، ويكون هذا مطابقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ » فمن حدّث أحدا بما لم يصله عقله ، ربما سارع إلى التكذيب ، وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها ، فقد كفر ولو لم يقصد الكفر ، فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ماقصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها ، وهي كفار بلا ريب ، وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى ماما إليه بعض من لايعرف وجوه التأويل ، ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين فى العلم ، حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذى هو نقيض الإيمان والإسلام بتعلق مخبره وتلحق قائله وهذا لايخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء ، الذين يكفرون بالمعاصي وأهل السنن لا يرضون بذلك ، وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر ، وعبد الله بالقول الذى ينزه به ، والعمل الذى يقصد به المتعبد لوجهه ، الذى يستزيد به إيمانا ومعرفة له سبحانه ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفؤاد المزيد ، وينيله ماشرف من المنح ، ويريه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لايخرج عنه إلا بنبذه وإطراحه وتركه ، واعتقاد مالا يتم الإيمان معه ، ولا يحصل بمقارنته وليس فى إفشاء سر الولي مايحصل به تناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يريد بإفشائه وقوع الكفر من السامع له ، فهذا عات متمرد وليس بولي ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لامحالة كافر ، وعلى هذا يخرج قوله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [1] ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى مايجد له من العداوة والبغضاء ، قيل له أخطأت وأثمت من غير تكفير ، وإنه أيما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع

(١) الانعام : ١٠٨

سؤال

فإن قيل : فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى : ونسب إليه للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام ، وجاء فى الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة فى حق الضعفاء ، فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لايتناقض ، والكامل من لايطفىء نور معرفته نور ورعه ، وهـذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق بها بما فرع من الـكلام فيها آنفا ، وناظر إليه إذا ماأدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم كفر

فالجواب إن الذى قاله رحمه الله وإن كان مستعجما فى الظاهر ، فهو قريب المسلك بادٍ للمتأمل الذى يعرف مصادر أغراضهم ، ومسالك أفوالهم الإلهية ، ومن وصل إليه اليقين الذى لولاه لم يكن نبيا ، لايخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس ، التى هي غائبة عنها ، بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه مايبهر المقول ، ويفقد الحس ، ويقطع عن الدنيا وما فيها ، وذلك لضعفه ، ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة فى حقه أن يعرفها ، أو يعقل ماجاء من قبلها إذ قد شغله عنها ماهو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل مايطرأ عليـه ، كما حكي أن شابا من سالـكى طريق الآخرة ، عرض عليـه أبو يزيد ، ولم يره من قبل ، فلما رآه انكشف له ذلك ، وكان فى مقام الضعفاء من المريدين ، فلم يطق حمله فمـات به ، وإما أن يكون انـكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه فتبطل النبوة فى حق المخبر ، حين نهى أن لايفشى فأفشى ، أو أمر أن لايتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلهذا قيل فى ذلك بطلت النبوة فى حقه

فإن قيل : فلم لا تـكفروه على هذا الوجه ، إذا بطلت النبوة فى حقه بإخباره

قلنا : ما بطلت فى حقه جميعا ، وإنما بطل فى حقه منهـا ما خالف الأمر الثابت من قبلها ، ويعدّ هذا من الـكلام على تغليظ حق الإفشاء ، وقد سبق الـكلام عليه فى معنى إفشاء سر الربوبية كفر ، وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها ، أو رزق معرفتها

على الجملة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبي ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع المحنة له ، بالأمر المتوجه عليه بطلبه ، والبحث عنه ، والتفكر فيه ، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء لو وقعت له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ، ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك ، أو ضرب مثل ، يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ ، أو إلقاء في روع ، فيمود مخترعاته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ، ولا تنزه في عجائبها ، ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه ، ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم ، وأن النار أقصى العذاب الأليم ، وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات ، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذى هو نفي محض إلى الوجود الذى هو إثبات صحيح ، وقدره منازل وجعله لميقات ، فمن حي وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل ، وشقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجليل وحقير ، وغني وفقير ، ومأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاحد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسماء ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والكل قائم به موجود بقدرته ، وباق بعلمه ، ومنته إلى أجله ، ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكمل جهل من لا يجدبه إلا قدماه ، ولا من يصرفه إلا استبداده ، ولا ملكه إلا ملكه فيعود المحدث قديما ، والمربوب ربا ، والمملوك مالكا ، فيعود الخلق من خلق الله كهو ، تعالى الله عن جهل الجاهلين ، وتخييل المتوهين ، وزيغ الزائغين

فصل

وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ، ورقي هذه الدرجات ، واستفهام هذه المخاطبات ، أهي من قبيل الواجبات أو المندوبات أو المباحات

فاعلم أن المسئول عنه على ضربين ، أحدهما : ماهو في حكم المبادى ، والثانى : في حكم الغايات ، فأما الذى هو في حكم المبادى فطلبه فرض على كل أحد ، بقدر بذل المجهود وإفراغ الوسع ، وجميع مايقدر عليه من العبادة ، وذلك ماتضمنه أصول علم المعاملة ، مثل

إخلاص التوحيد ، والصدق فى العمل ، وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء ، والتزين بالصبر والشكر ، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهي واجبة ، قال الله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [1]) وقد سبق التنبيه عليه ، وأما الذى هو فى حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات ، والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات ، والتوكل بالتجريد ، وحقيقة علم معانى التوحيد وسير معانى التقرير ، وأوصاف أهل أبيات اليقين ، فهو درجات ومقامات ، ومنازل ومراتب ، ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده ، من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم ، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ، ارجع لا تتخطى رقاب الصديقين ، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته ، وولايته ، وهي مراتب الصدق فى العلم ، وبركات الإخلاص فى العمل ، فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه ، فطلبه والعمل به شتان من هذه المعانى ، فليس فى شيء من الحقيقة ، وإن كان حقا غير أن حاله مملول ، إما مفتون بدنياه ، أو محجوب بهواه ، وربك على كل شيء قدير .

فصل

وأما لأي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات ، وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كلف ، ويتلو من بعيد ، ولكن للعلم رجال مخصوصون فما بال من لم يجعل شارعا ، ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ، ويحل فيه كمحله ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه ، فما عرف فيه الحكم من فصل الموروث عنه امتثله ، وما لم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهاده ، فإن أخطأ كان له أجر ، وإن أصاب كان له أجران

(١) التغابن : ١٦

ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار مما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصيص ، كما قال الله عز وجل (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) فلم يكن للوارث تعدّ عن حكم الموورث ، كما حكي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين

أحدهما : هو الذى بثثته فيكم ، وأما الثانى ، فلو بثثته لحززتم السكين على هذا البلعوم وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء ، ففى القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفى اتباعه الفوز بحب الله ، ويد الله مع الجماعة ، وفوق كل ذى علم عليم ، وقد أفدناك من طرائف ماعندنا ، وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ، وإلى الله يرد العلم مما دق وجل ، وكثر وقل ، وعظم وصغر ، وظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله تعالى ، وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ، فاستنزل ماعنـــد ربك وخالقك من خير ، واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر ، بقراءة السبع المثانى والقرءان العظيم التى أمرت بقراءتها فى كل صلاة ، وكذا عليك أن تعيدها فى كل ركعة ، وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، أن ليس فى التوراة ، ولا فى الإنجيل ، ولا فى الفرقان مثلها ، وفى هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد ، وخصت به من الذخائر والعوائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له واعرف ما أعدّ لك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراده ، وهادى من جاهد فى سبيله وكافيه من توكل عليه ، وهو الغنى الكريم

انتهى الجواب عما سألت عنه ، وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله تعالى المباعد بين حيلات قلوب البشر أن يصرف عنا حجب الــــكدرات والأهواء ، ومراتب الغين ، فبيده مجارى المقدورات ، وهو إله من ظهر وغبر ، واليه يرجع من آمن وكفر ، ومجازى الخلائق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر ، وكافى الضرر وعلى آله السادات الغرر ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين ؟

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

للأستاذ الفاضل العلامة

الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس

باعلوى قدس الله سره

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وفق لنشر المحاسن وطيها فى أحسن كتاب ؛ وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب ، وذخيرة ليوم المآب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ماأشرقت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازمى مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشان ، المسمى بإحياء علوم الدين ، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المشايخ العارفين المنسوب إلى الإمام الغزالى رضي الله عنه ، عالم العلماء ، وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذى باهى به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء ، ورضي عن الغزالى وعن سائر العلماء المجتهدين .

لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير فى بابه ، ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة ، والطريقة والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية ، مبينا للأسرار الدقيقة . رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة ، على صبابة صبابة ، من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ، ورتبته على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .

فالمقدمة فى عنوان الكتاب ، والمقصد فى فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه ، والخاتمة فى ترجمة المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

المقـدمة

في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى . تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان : معاملة بين العبـد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق . والباطنة أيضا قسمان : مايجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، ومايجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة ، وقد بنى الإمام الغزالي رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين على هذه الأربعة أقسام ، فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع . ربع العبادات وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب . كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام كتاب أسرار الحج ، كتاب تلاوة القرءان ، كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب الصحبة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كتاب أخلاق النبوة

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، كتاب رياضة النفس ، كتاب آفة الشهوتين البطن والفرج ، كتاب آفة اللسان ، كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهد ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والرضا ، كتاب النية والصدق والإخلاص ، كتاب المراقبة والمحاسبة ،

كتاب التفكر ، كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربع العبادات .فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ،مايضطر العالم العامل إليها ، بل لايكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل فى الفقهيات .

وأما ربع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وهي مما لايستغنى المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات :فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرءان بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر فى كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذى منه يتولد ، ثم الآفات التى عليها يترتب ، ثم المعاملات التى بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التى منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات: فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التى يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذى به تجتلب ، وثمرتها التى منها تستفاد ، وعلامتها التى بها تعرف وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد

فى فضل الكتاب المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه

والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لاتحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لاتستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفردها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه فى بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعانى ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال فى بساتين العلوم ، فاجتنى ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعانى فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجلبت عليه عرائس أسرار المعانى ،

فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضي الله عنه فأوعى ، وسعى في إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسعى ، فلله دره ، من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل ، محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه ، من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه ، وأملى بيد أنه في العلوم صاحب القدح المعلّى ، إذ كان رضي الله عنه ، من أسرار العلوم بمحل لايدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيهات لايأتى الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرته في فوارة العلم ، والعمل والعلا ، والفهم ، والذكا أصلها ، وفروعها في السماء ، مع كونه رضي الله عنه ، ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية

ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه ، أن الفقيه العلامة ، قطب اليمن اسماعيل بن محمد الحضرمي ، ثم اليمني ، سئل عن تصانيف الغزالي فقال : من جملة جوابه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، سيد الأنبياء ، ومحمد بن ادريس سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي ، سيد المصنفين ، وذكر اليافعي أيضا ، أن الشيخ الإمام الكبير ، أبا الحسن علي بن حرزهم ، الفقيه المشهور المغربي ، كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين ، وكان مطاعا ، مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ماظفر به ، من نسخ الإحياء ، وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أقبل ابن حرزهم ، قال الغزالي هذا خصمي يارسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله ، وإن كان شيئا حصل لي من بركتك ، واتباع سنتك ، فخذلي حقي من خصمي ، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء . فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ، ورقة ورقة ، من أوله إلى آخره ، ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصدّيق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال نعم والذى بعثك

بالحق إنه لشيء حسن ،ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصدّيق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه عليّ بن حرزهم عن القميص ، وأن يضرب ويحد ، حد المفترى ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصدّيق رضي الله عنه ،وقال يارسول الله لعله ظن خلاف سنتك فأخطأ فى ظنه ،فرضي الإمام الغزالى وقبل شفاعة الصدّيق ، ثم استيقظ ابن حرزهم ،وأثر السياط فى ظهره، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله ،عن إنكاره على الإمام الغزالى واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألما من أثر السياط ،وهو يتضرع إلى الله تعالى، ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره ، فعوفي وشفي بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ، ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ،وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله تعالى .

قال اليافعي : روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرنى بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير ، القطب شهاب الدين أحمد ابن الميلق الشاذلى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، العارف بالله ياقوت الشاذلى ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبى العباس المرسى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، شيخ الشيوخ أبى الحسن الشاذلى ، قدس الله ارواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزهم . قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات ، وأثر السياط على ظهره ، وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله : وكان أدرك الإمام الغزالى واجتمع به ، قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفى سعد بن علي بن أبى هريرة الاسفرايني يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد ، زين القراء جمال الحرم ، أبا الفتح الشاوى بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوما ، فطرأ علي حال وأخذني عن نفسى فلم أقدر أن أقف ولاأجلس لشدة مابى ، فوقعت على جنبي الأيمن ، تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسى النوم ، فأخذتنى سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى أكمل صورة ،وأحسن زي من القميص والعمامة، ورأيت الأئمة ، الشافعي، ومالكا ،وأبا حنيفة، وأحمد، رحمهم الله، يعرضون

عليه مذاهبهم واحدا بعد واحد وهو ، صلى الله عليه وسلم يقررهم عليها . ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بطرده ، وإهانته فتقدمت أنا وقلت يارسول الله هكذا الكتاب، أعنى إحياء علوم الدين معتقدى، ومعتقد أهل السنة والجماعة . فلو أذنت لى حتى أقرأه عليك ، فأذن لى ، فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد : بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة، حتى انتهيت إلى قول الغزالى، وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم إلي كافة العرب والعجم، والجن والإنس ، فرأيت البشاشة فى وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت وقال : أين الغزالى وإذا بالغزالى واقف بين يديه فقال : هاأنا ذا يارسول الله وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالى يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، أشد سروراً بقراءة أحد عليه ، مثل ما كان بقراءتى عليه الإحياء ، ثم انتهيت والدمع يجري من عينى من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة واستبشاره بعقيدة الغزالى وتقريرها ، نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين

فصل

أثنى على الإحياء ، عالم من علماء الإسلام، وغير واحد من عارفى الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد . فقال فيه الحافظ : الإمام الفقيه أبو الفضل العراقى فى تخريجه ، أنه من أجل كتب الإسلام ، فى معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الوجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتديا بقول علي كرم الله وجهه ، خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى ، إلى آخر ماذكره ، مما الأولى بنا فى هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر

محاسن الإحياء ، فيظهر للمحب والمبغض رشده وغيه

وقال عبد الغافر الفارسى : فى مثال الإحياء أنه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق إليها . وقال فيه النووى : كاد الإحياء أن يكون قرءانا ، وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وقال بعض علماء المالكية : الناس فى فضل علوم الغزالى ، أي والإحياء جماعها ، كما سيأتى أنه البحر المحيط ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلا. وروي عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء، كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره ، فيظهر لى منه فى كل يوم، علوم وأسرار عظيمة ،ومفهومات غزيرة غير التى قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد ، أثنى على كتاب الإحياء ،بما أثنى عليه، ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ، ومن كلامه رضيَ الله عنه عليكم ياإخوانى بمتابعة الكتاب والسنة ،أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية،خصوصا كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس ،

ومن كلامه :عليكم بالكتاب، والسنة أولا وآخرا ،وظاهراً وباطنا وفكرا واعتبارا واعتقادا ،وشرح الكتاب والسنة مستوفى فى كتاب إحياء علوم الدين،للإمام حجة الإسلام الغزالى رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين، وبقية المجتهدين، حجة الإسلام الغزالى،فى كتابه العظيم الشأن ، الملقب أعجوبة الزمان إحياء علوم الدين ،الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه ، فقد استوجب محبة الله،ومحبة رسول الله،ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة ، والطريقة، والحقيقة ، فى الدنيا والآخرة وصار عالما فى الملك والملكوت .

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما فى الإحياء

ومن كلامه :اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل فى لحظة ، كحضور سواد

الحبر بوقوع الزاج في المفص والمياه، وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن
ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لاشيء أنفع للقلب ،وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ، ومحبة كتبه ، فإن كتب الإمام الغزالي ، لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ماأقول .

ومن كلامه : أنا أشهد سراً وعلانية، أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين ، فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله ، أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، خصوصا إحياء علوم الدين ، فهو البحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، وخصوصا البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان . ومن كلامه: نطق معاني ممنوى القرءان ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية ، مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات ، وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورون ، أن لاشيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب ، كتابعة الغزالي ومحبة كتبه ، وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ اسرافيل في الصور ، وفي يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ماأقول (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [1])

ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين ، فيه جميع الأسرار ، وكتاب بداية الهداية ، فيه التقوى ، وكتاب الأربعين ، الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين ، فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة في الفقه ، فيه النور . ومن كلامه: السر كله في اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين ، المسمى أعجوبة الزمان .

---

(١) آل عمران : ١٨٥

ومن كلامه : بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين ، أو كتبه ، أو سمعه .

وكلامه رضى الله عنه، فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالى وكتبه والحث على العمل بها ، خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي ووالدى الشيخ العارف بالله تعالى ، شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله ، فى الغزالى وسميته الجوهر المتلالى ، خصوصا من كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى ، فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقنى الله لذلك تحقيقا لرجائه ،ورجاء أن يتناولنى دعاء الشيخ عبد الله رضي الله عنه ،فإنه قال :غفر الله لمن يكتب كلامى فى الغزالى ، وناهيك ببشارة فى هذه العبارة ،التي برزت من ولي عارف ،وقطب مكاشف ، لايجازف فى مقال ، ولاينطق إلا عن حال ، وفى هذا من الشرف للغزالى وكتبه مالا يحتاج معه إلى مزيد (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[1]) فإن العظيم لايعظم فى عينه إلا عظيم ،ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ، ووصف الشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء فى زمانه بسببه نسخ عديدة، حتى أن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ عليا قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ عليا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فختمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة ،وكان ولده سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن ، التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لايزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لاأترك تحصيل الإحياء أبدا ماعشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ .

قلت : وكذلك كان سيدى الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه ، مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ،وأمرني بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل فى ختمه ضيافة عامة ، فلازمته ميراث عيدروسى ، وتوفيق قدوسى . فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا ،

---

(1) ق : ٣٧ .

وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف لو قلّب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس قلت : وهو صحيح فإني مع خسيس قصدى وقساوة قلبي أجد عند مطالعتى له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالامزيد عليه ، ثم يفتر برجوعى إلى ما أنا فيه ، ومخالطة أهل الكثافات ، ولاأجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وماذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل لعيوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق أي فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره ، وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ اذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ، ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم علية ، وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرءان أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير فى القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل ، وبعد ذلك ينتفع به كثير ، لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله ، لأنه دونه فى منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمرا ظاهرا معهودا . وشيئا مجربا موجودا ، فانظر إلى نفع الناس ، بكتاب الخلاف فى مذهب مالك رحمه الله تعالى والتنبيه فى مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجمل فى العربية والإرشاد فى علم الكلام ، وانتشارها مع أن ماحوت من العلم فى فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء فى هذه الفنون فى مثل أجرام هذه الكتب أضعاف مافيها ، مع تحقيق تحرير العبارات وتشقيق المعانى ، وتلخيص الحدود بعد هذا ، فالنفع بهذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ، لأن العلم بمزيد التقوى ، وقوة سر الإيمان ، لابكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الروايه ، إنما العلم نور يضعه

الله في القلب قلت ومما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه، انفسة فيه قوله :

أخي انتبه والزم سلوك الطرائق ... وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة ... وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق ... وشرب حميا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعاني ضواحكا ... يباهج حسن جاذب للخلائق
عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذى اللب منهل ... وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله ... ولا بعده مثل له في الطرائق
فكم في بديع اللفظ يجلى عرائسا ... وكم من شموس في حماه شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعا ... على در لفظ للمعاني مطابق
وكم من عزيزات زهت في قبابها ... محجبة من غير كفؤ مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة ... حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان ورض لطائف ... وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارا تعافى جنانها ... يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذا كى جناها فواكها ... بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى حتى علا فوق من علا ... بشامخ مجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن فجربن ... وأقبل على تلك المعاني وعانق
وارجع طرفا في بديع جمالها ... وطف في حماها منشدا كل سابق
ترى في بدور الحي أقمار قد بدت ... بحالى جمال مدهش لب عاشق
فكم أنهلت صبا وكم قشمت عمى ... وكم قد سعت في غربها والمشارق
فيضحى براح الحب سكران مغرما ... أصم عن العذال غير موافق
ويمسى يناديها طريحا ببابها ... منعم عيش في الربوع الغوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا ... محمد المختار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا ... وعترته وراث علم الحقائق

فصل

وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفى التحقيق لا إشكال أو أخبار وآثار تكلم فى سندها . فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف نفسه فى كتابه المسمى بالأجوبة ، وأسوق لك نبذة من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ، عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء ، مما أشكل على من حجب وقصر فهمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام : وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بالهوى ، مجردا على غير بصيرة ، بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال . ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [1]) ثم ذكر آيات أخرى فى المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين ، بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك فى الآخر حيث قال : حجبوا عن الحقيقة بأربعة ، الجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، ثم بين ماورثوه عن الأربعة المذكورة ، فالجهل أورثهم السخف ، إلى آخر ماذكره وأما مااعترض به من تضمينه أخباراً وآثارا موضوعة أو ضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع فى الموضوع ، وحاصل ماأجيب به عن الغزالى ومن المجيبين الحافظ العراقى أن أكثر ماذكره الغزالى ليس بموضوع كما برهن عليه فى التخريج ، وغير الأكثر وهو فى غاية القلة ، رواه عن غيره أو اتبع فيه غيره متبرئا منه بنحو صيغة روي . وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط لما تقرر أن يعمل به فى الفضائل ، وكتابه فى الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ فى اشتمال كتبهم علي الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه

(١) الزخرف : ١٩

تارة والمسكوت عنه أخرى، وهذه كتب الفقه للمتقدمين، وهي كتب الأحكام لا الفضائل توردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتى جاء النووى رحمه الله فى المتأخرين ونبه على ضعف الحديث ، وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقى . قال عبد الغافر الفارسى سبط القشيرى ، ظهرت تصانيف الغزالى وفشت ، ولم يبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لما آثره إلى آخر ماذكره ، ومما يدلك على جلالة كتب الغزالى ، مانقل ابن السمعانى من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم ، كأن الشمس طلعت من مغربها ، مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث ، فحدثت فى جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه ، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب ، أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها ، لتوهمه اشتمالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره فى مملكته منا كير ، ووثب عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد ، فى عكس ونكد ، بعد أن كان عادلا .

خاتمة

فى الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه وعنا به ونفعنا بعلومه وأسراره وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه : فهو الإمام زين الدين ، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الشافعي الأشعري الذى انتشر فضله فى الآفاق وفاق ، ورزق الحظ الأوفر فى حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأكبر فى جزالة العبارة وسهولتها ، وحسن الإشارة ، وكشف المعضلات ، والتبحر فى أصناف العلوم ، فروعها ، وأصولها ، ورسوخ القدم فى منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ماخصه الله به من الكرامة ، وحسن السيرة والاستقامة ، والزهد والعزوف عن زهرة الدنيا ، والإعراض عن الجهات الفانية ، وإطراح الحشمة والتكلف ، قال الحافظ العلامة ابن عساكر : والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى ، والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الإسنوى رحمهم الله تعالى ، ولد الإمام الغزالى بطوس سنة خمسين وأربعمائة وابتدأ بها فى صباه بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين وجد

واجتهد ، حتى تخرج فى مدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة فى أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محلا عظيما ، اعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطا لرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالى فيها اتفاقات حسنة ، من مناظرة الفحول فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد ، للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته فى بغداد ، على الأمراء ، والوزراء ، والأكابر ، وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلا بأسباب التقوى ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين وغيره ، التى من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم سار إلى القدس ، مقبلا على مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس ؛ لازما بيته ، مقبلا على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، ودعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة ، مرشد الضالين ، ويفيد الطالبين ، دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه فى التفسير والحديث والتصوف حتي انتقل إلى رحمة الله تعالى ، يوم الإثنين الرابع عشر من جمادي الأولى سنة خمس وخمسمائة ، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة فى أخراه ، كما خصه بها فى دنياه .

قيل وكانت مدة القطبية للغزالى ثلاثة أيام على ما حكي فى كرامات الشيخ سعيد العمودى نفع الله به ، وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى رحمه الله تعالى بإسناده الثابت ، إلى الشيخ الكبير القطب الربانى ، شهاب الدين أحمد الصياد اليمني الزبيدى ، وكان معاصرا للغزالى ، نفع الله بهما ،

قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ، إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة ، وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ، ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر

من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع ، وخرق بعدها ستين حجابا ، ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى .

ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسي وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفي أمتكما حبر هكذا ؟ قالا : لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم : منهم الشيخ الإمام الحافظ بن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه .

وروي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعني عمر ابن عبد العزيز والشافعي ، ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته ، البسيط ، والوسيط ، والوجيز والخلاصة في الفقه ؛ وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله في أصول الفقه المستصفى ، والمنخول والمنتحل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد والمضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس في الوحدة ، وكتاب القربة إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرءان ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم

وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة وكتاب مبادى الغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تلبيس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل فى القياس والتعليل وكتاب المقاصد ، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة اللدنية ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل فى الرد على من غيّر الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الأمالى وكتاب فى علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء فى الرد على المنكرين فى بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشى المحدث الصوفى صاحب كتاب النجم والكواكب .

أبا حامد أنت المخصص بالمجد   وأنت الذى علمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء يحيى نفوسنا   وتنقذنا من طاعة النازع المردى
فربع عبادات وعاداته التى   يعاقبها كالدر نظم فى العقد
وثالثها فى المهلكات وإنه   لمنج من الهلك المبرح والبعد
ورابعها فى المنجيات وإنه   ليسرح بالأرواح فى جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر   ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله فى كتابه المنقذ من الضلال ماصورته ،

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ فى الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ماقاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الإستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام ، وما احتويته من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق أهل التفلسف

وما ارتضيته آخرا من طرق أهل التصوف ، وما تنحل لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة . فابتدرت لإجابتك إلى طلبتك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوفقا منه ، وملتجئا إليه

« اعلموا أحسن الله إرشادكم ،وألان إلى قبول الحق انقيادكم . أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (١))

ولم أزل فى عنفوان شبابى مذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى أن أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأغمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل محق ومبطل ، ومستن ومبتدع ، لاأغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولافلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ولامتكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولامتعبدا إلا وأريد مايرجع إليه حاصل عبادته ، ولازنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جراءته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة من الله ، وفطرة وضعها الله فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليـــد ، وانكسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد منى بالصبا ، فإذا رأيت صبيان النصارى لايكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لايكون لهم نشوء إلا على التهود ، وصبيان الإسلام لايكون لهم نشوء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبى

---

(١) الروم: ٣٢

صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » فتحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين ، والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى أولا : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ماهي ، فظهر لى أن العلم اليقين هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ، ينبغى أن يكون مقارنا للنقص ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا ، من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإمكانا ، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد ، لو قال لى قائل ، الواحد أكثر من العشرة ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك فى معرفتى لكذبه ، ولم يحصل معى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته ، فلا ثم علمته ، أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين ، فهو علم لاثقة به ، وكل علم لاأمان معه ، ليس بعلم يقيني ، ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا ، عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا فى الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس ، لامطمع فى اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولا : لأتبين أن يقينى بالمحسوسات ، وأمانى من الغلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات ، أو من جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، وهو أمان محقق ، لاتجوّز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكننى أشكك نفسى فيها ، فانتهى بعد طول التشكك بى إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم إلى ابتدأت لعلم الكلام ، فحصلته وعلقته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ماأردت أن أصنفه ، فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمى على الخروج عن بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم

يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة ، إلا حمل عليها جند الشهوة جملة ، فيفيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى ، بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ماأنت فيه من العمل رياء وتخييل ؛ وإن لم تستعد الآن للآخرة فتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فتى تقطعها ؛ فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض . والشأن المظيم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر السالم الخالى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تتيسر لك المعاودة ،

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي ، قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفة إلىّ ، فكان لاينطق لسانى بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوّة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لاتنساغ لى شربة ولاتنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلاسبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم ، ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لاحيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن المال والجاه ، والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على غرضى فى المقام بالشام ؛ فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم أن لا أعاودها أبدا ، واستهزأ بى أئمة العراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس

فى الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم فى التماق بى والإنكار علي، واعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هـذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم ، ففارقت بغداد ، وفارقت ما كان معي من مالى ، ولم أدخر من ذلك إلا قدار الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر فى العالم ما يأخذ العالم لعيال أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريبا من سنتين ، لاشغل إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحرك بى داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، وثم سرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن وعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت العزلة ، حرصا على الخلوة : وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفولى الحال ، إلا فى أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع طمعى عنها ، فيدفعنى عنها العوائق ، وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره ، لينتفع به ، أنى علمت يقينا ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، واخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم ، واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وبطانهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به

وبالجملة : ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم في الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . إنتهى

قال العراقى. فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته : وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتاقت إلى الأخرى ، فأطرحها ؛ وسعى فى طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز :إن لى نفسا تواقة لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة ، قال بعض العلماء: رأيت الغزالى رضى الله عنه فى البرية وعليه مرقعة وبيده عكازه وركوة ، فقلت له ياإمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلي شذرا وقال : لما بزغ بدر السعادة فى فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

إنتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه .

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠